



Biblioteca Aleandrina



0022790









المؤلفاتُ الكاملة  
المجلد الأول



نجيب محفوظ

الحائز على جائزة نوبل للآداب - ١٩٨٨

# المؤلفات الكاملة

همسُ الجنون      كفاحُ طبيبة  
عبثُ الأقدار      القاهرة الجديدة  
رادوبيس      خان الخليلي  
زقاق المدق

مكتبة البَنّات

مَكْتَبَةُ لِبْنَانٍ  
سَاحَةُ رِيَّاضِ الصَّلَح - بَيْرُوتَ  
وَكَلَاءَ وَمُوزَّعُونَ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ  
جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ ١٩٩٠  
الطَبْعَةُ الْأُولَى ١٩٩٠  
رقم الكتاب 01 R 160109  
طُبِعَ فِي لِبْنَانٍ







# المحتويات

ص ٣	المؤلف .....
ص ١	نموذج بخط المؤلف .....
ص ٣	همس الجنون .....
ص ١٤١	عبث الأقدار .....
ص ٢٢٧	رادوييس .....
ص ٣١٩	كفاح طيبة .....
ص ٤٢٩	القاهرة الجديدة .....
ص ٥٢١	خان الخليلي .....
ص ٦٣٩	زقاق المدق .....



## نجيب محفوظ

١٩١١ \* وُلِدَ نجيب محفوظ في ١١ ديسمبر في بيت القاضي بحيّ الجمالية، وقد سُمّي عند ولادته باسم أشهر طبيب توليد في مصر، وهو الدكتور نجيب محفوظ الذي أشرف على ولادته. ونجيب محفوظ اسم مُركَّب، أمّا والده فهو عبد العزيز إبراهيم. ونجيب محفوظ أصغر أبناء أسرته، وله من الإخوة والأخوات ستة توفاهم الله جميعاً. نشأ في عائلة مُتديّنة مُحافظة، وكان أبوه وطناً مُتحمساً للزعّماء المصريين الوطنيين، أمّا أمّه فكثيراً ما صحبته في طفولته إلى متحف الآثار المصريّة.

كان نجيب محفوظ شديد التعلّق بالسينما في مرحلة مُبكرة جداً من طفولته، فكان وهو في الخامسة من عُمره يتردّد على سينما «الكلوب المصري» - في شارع خان جعفر بين بيت القاضي والحسين - لمشاهدة أفلام رعاة البقر وشارلي شابلن؛ كما كان في شبابه لاعب كرة قدم ممتازاً.

١٩١٥ \* التحق نجيب محفوظ بكتاب الشيخ بحيري، ثُمَّ تَلَقّى دروسه الأولى في مدرسة الحسينيّة الابتدائيّة، وانتقل في المرحلة الثانويّة إلى مدرسة فؤاد الأوّل، وحصل على شهادة البكالوريا.

١٩٢٤ \* انتقلت أسرته من حيّ الجمالية إلى حيّ العبّاسيّة حيث قضى فترتي طفولته وشبابه بها في المنزل رقم ٩ بشارع رضوان شكري؛ ولم يُغادر نجيب محفوظ هذا المكان إلّا بعدّ زواجه في الخمسينات.

وقد بدأت قراءات نجيب محفوظ بمُطالعة الروايات البوليسيّة مثل «سنكلير» و«جونسون» و«ميلتون توب» وغيرها من الروايات التي كان يُترجمها حافظ نجيب بتصرّف. ولم تكن في أيّامه كتب خاصّة بالأطفال، لذلك كانت هذه الروايات هي بداية قراءاته في أواخر المرحلة الابتدائيّة وأوائل المرحلة الثانويّة.

وقرأ نجيب محفوظ للمنفلوطي، ومترجمات الأهرام، وهي روايات تاريخية في الأغلب لـ «بول كين» و«تشارلز جارفيس» وغيرهما.

وقرأ فيما بعد في مرحلة اليقظة لطف حسين وسلامة موسى والملازني وهيكل، وانضم إليهم بعد فترة تيمور وتوفيق الحكيم ويحيى حقي. وقرأ أيضاً «البيان والتبيين» للجاحظ، و«الأمالي» لأبي علي الفارابي، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه، واتجه بعد ذلك لقراءة الشعر وبخاصة أشعار أبي العلاء المعري والمتنبي وابن الرومي.

١٩٢٥ - ١٩٢٦ \* بدأ نجيب محفوظ كتاباته بتأليف الشعر؛ وكتب في بادئ الأمر شِعراً موزوناً، وإن كانت به بعض الأبيات المكسورة، وحينما وجد أن الأبيات المكسورة كثيرة، أطلق الشعر وحرره من الوزن.

١٩٢٨ \* اتجه إلى كتابة القصة القصيرة وهو طالب في مدرسة فؤاد الأول الثانوية. ١٩٣٠ \* اتجه إلى كتابة المقال، ونشرت أولى مقالاته «احتضار معتقدات وتولد معتقدات» في أكتوبر في «المجلة الجديدة» التي كان يصدرها سلامة موسى.

١٩٣٢ \* اتجه إلى الترجمة، ونشر له سلامة موسى في مطبعة المجلة الجديدة أول كتاب مترجم عن «مصر القديمة» لجيمس بيلي. وقد نشرت له أول قصة قصيرة بمجلة السياسة في ٢٢ يوليو وكانت بعنوان «فترة الشباب». وعن هذه الفترة يقول نجيب محفوظ: «كانت المقالة أسبق في الظهور من الأقصوصة والرواية، فما أكثر الأقاصيص التي رُفِضَ نشرها، وكانت أيام عذاب ومحنة تتكرر مع كل أقصوصة أو مقال يرد. على أن المقال كان أسرع في القبول من الأقصوصة، ولذلك فقد انصرفت بعض الوقت إلى كتابة المقالات..»

١٩٣٣ \* التحق نجيب محفوظ بمعهد الموسيقى العربية، واختار آلة القانون وانتظم في حضور الدروس، وتعلم النوتة الموسيقية، وحفظ عدة بشارف أثناء دراسته بالسنة الثالثة بقسم الفلسفة في كلية الآداب جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن).

١٩٣٤ \* عُيِّنَ في جامعة القاهرة وكان ترتيبه الثاني على الدفعة. أما عن سبب اختياره لقسم الفلسفة بالذات فإنه يرجع إلى أن الأدباء الذين أثروا فيه - وهو في أواخر المرحلة الثانوية - كانوا يُثَلِّون ثورة فكرية أكثر منها أدبية، فقد قَدَّمَ كُلٌّ من طه حسين، وسلامة موسى، والعقاد لجيلهم أفكاراً ومناهج فكرية أكثر مما قَدَّموا لهم من النماذج الأدبية، كما يغلب الطابع الفكري أيضاً على الأدباء

والشُعراء الذين وَجَّهوهم إلى الاهتمام بهم كابي العلاء المَعْرِي، والمُتَنَبِّي، وابن الرومي.

وسُجِّلَ اسم نجيب محفوظ عَقِبَ تخرُّجه في الجامعة للحصول على درجة الماجستير في موضوع «مفهوم الجمال في الفلسفة الإسلامية» بإشراف الشيخ مصطفى عبد الرزاق، وظلَّ يجمع مادة البحث لَمُدَّة سنتين، ولم يَتمكَّن من إتمامه، ففَطَّعَ العمل وهو في منتصف الرسالة، إذ أَحَسَّ أَنَّ كُلَّ تَقَدُّمٍ فيها يَزِيد من حَتَّة التمزُّق المُؤَلِّم في نَفْسِه، فقد كان الأدب والفلسفة يصطرعان داخله. وقد عَبَّرَ عن ذلك بقوله:

«كنت أمسك بيد كتابًا في الفلسفة، وفي اليد الأخرى قصَّة طويلة من قصص توفيق الحكيم أو يحيى حقي أو طه حسين، وكانت المذاهب الفلسفية تقتحم ذهني في نفس اللحظة التي كان يَدخل فيها أبطال القصص من الجانب الآخر، وَوَجَدْتُ نَفْسِي في صراع رهيب بين الأدب والفلسفة.. صراع لا يُمكن أن يَتصوَّره إلَّا من عاش فيه.. وكان عَلَيَّ أن أَقرِّر شيئًا أو أَجْز.. ومرة واحدة قامت في ذهني مُظَاهرة من أبطال «أهل الكهف» الذين صَوَّروهم توفيق الحكيم، والبوسطجي الذي رسمه يحيى حقي، والفلاح الصغير الذي لا يعرف الدتيا أبعد من حدود عيدان الغاب المُتَصِيبَة على حافة الثَّرعة في رواية الأيام لطله حسين، وأشخاص كثيرون من أبطال قصص محمود تيمور كُلَّهم كانوا يسرون في مُظَاهرة واحدة، قَرَّرت أن أهجر الفلسفة وأن أسير معهم...»

١٩٣٦ \* اتَّسَعَتْ مُطالعات نجيب محفوظ في الآداب الأوربية الحديثة كأدب انساني واحد، فقرأ الأدب الحديث الواقعي والطبيعي والقصَّة التحليلية والمغامرات الأدبية الحديثة كالتعبيرية عند «كافكا» والواقعية النفسية عند «جويس» وإلغاء الزمن في القصَّة عند «بروست». ومن الأدباء الذين قرأ لهم: تشيكوف، وتورجنيف، ودوستوفسكي وتولستوي ومكسيم جوركي من الأدباء الروس؛ وأناتول وإيسن وفلوبير وبروست ومالرو وموريك وسارتر وكامي من الأدباء الفرنسيين؛ وشكسبير وويلز وشو وجويس وألدوس هاكسلي ولورانس من الأدباء الإنجليز؛ وتوماس مان وجوته وكافكا من الأدباء الألمان؛ وهيمنجواي وفوكنر ودوس باسوس وأونيل وتينيسي وليامز وأرثر ميلر من الأدباء

- الأمريكيين؛ وإيسن وسترنديرج من الشمال.
- \* عُيِّن نجيب محفوظ مُوظَّفًا بإدارة جامعة فؤاد الأول.
- ١٩٣٨ \* نُشِرت له أوَّل مجموعة قصصية بعنوان «مس الجنون».
- ١٩٣٩ \* نُشِر أوَّل رواية وهي: عبث الأقدار، ويذكر كاتبنا الكبير أنه كتب قبلها ثلاث روايات فنصحه سلامة موسى بأن يُزفِّها، فاستجاب له، وعندما كتب روايته الرابعة وكانت بعنوان «حكمة خوفو» نشرها سلامة موسى بعدما طلب تغيير عنوانها إلى «عبث الأقدار».
- وكان نجيب محفوظ في رواياته الثلاث الأولى يصدر عن تأثره العميق بالسير والترسكوت في أعماله التاريخية، وتأثره الأعمق بالرحلة الفرعونية في الثقافة المصرية من خلال «عبث الأقدار» و«كفاح طيبة» و«رادويس». وعُيِّن في نفس العام سكرتيرًا برلمانيًا لوزير الأوقاف حتى عام ١٩٥٠.
- ١٩٤٣ \* نال جائزة قوت القلوب الدمرداشية عن روايته «رادويس».
- ١٩٤٤ \* نال جائزة من وزارة المعارف عن رواية «كفاح طيبة».
- ١٩٤٦ \* نال جائزة من مجمع اللغة العربية عن رواية «خان الخليلي».
- ١٩٥٢-١٩٥٧ \* تَوَقَّف نجيب محفوظ عن الكتابة حين رأى المُجتمَع القديم الذي ينقله يزول، ثم عاد إلى كتابة الرواية، فكتب «أولاد حارتنا» سلسلة في الأهرام. وقد أثارت سخط وغضب مشايخ الأزهر وقتها، غير أن مُحَمَّد حسنين هيكَل أصرَّ على استكمالها رغم اعتراض الأزهر. ولكن نجيب محفوظ لم يُفَرِّ نشرها في مصر بعد ذلك احترامًا للأزهر وتبجيلًا لشيخه.
- ١٩٥٣ \* عُيِّن رقيبًا على الأفلام بمصلحة الفنون.
- ومن الجدير بالذكر أن أعمال نجيب محفوظ لم تجد استجابة ولا رواجًا إلى ما قَبْلَ سدور روايته الشهيرة «زقاق المدق» في الكتاب الذهبي عام ١٩٥٣، فقد ظلَّ نجيب محفوظ أكثر من خمسة عشر عامًا يكتب وينشر مدفوعًا بتلك الحالة النفسية التي وصفها بأنها أقرب إلى عناد الثيران، فلا يشغله التفات النقد أو تجاهله بقدر ما يشغله التعبير عن قضايا مجتمعه وتطوير فنه في الوقت نفسه بدءًا من فبولة تمزيق ثلاث روايات وكتابة أخرى لأن سلامة موسى نصحه بذلك.
- ١٩٥٤ \* عُيِّن مديرًا للرقابة الفنية. وتزوَّج في العام نفسه السيِّدة/ عطية الله، وله منها أم كلثوم وفاطمة.

- ١٩٥٧ \* نال جائزة الدولة في الأدب وقَدَرها ألف جنيه عن رواية «قصر الشوق».
- ١٩٦٠ \* عُيِّنَ رئيسًا لمجلس إدارة مُؤَسَّسة السينما، فمستشارًا فنيًا لها.
- ١٩٦٢ \* مُنِحَ وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى، وقد رُشِّحه العَقَّاد في العام نفسه لينال جائزة نوبل حين حَصَلَ عليها جون شتاينبك، حيث قال: «الآن يَحِقُّ لنا أن نقول إذا كانت المسألة مسألة بحث بعد مجهود، فلماذا يقف هذا البحث دون البلاد العربيَّة من أمم العالمين، فلا تهتدي اللجنة، ولا تريد أن تهتدي إلى واحد منهم.. وهم على هذه الطبقة غير قليلين.. إنني أذكر منهم أربعة من كُتَّاب القصص الطوال والمسرحيات.. وهي مجال شتاينبك الفائز بجائزة نوبل في ذلك العام.. يَفْضَلُونه في بعض مزاياه، ولا يُفْصِرُون عنه في واحدة من مزاياه، وهم: توفيق الحكيم، محمود تيمور، نجيب محفوظ، ميخائيل نعيمة. ونجيب محفوظ يُضَارِعُه وقد يَفُوقُه في تصوير شخصيَّاته من أولاد البلد والسُدُج والبدائيين العصريين».
- ١٩٦٣ \* عُيِّنَ رئيسًا للجنة القراءة بالمؤَسَّسة العامة للسينما والتلفزيون.
- ١٩٦٥ \* صَدَرَ قرار جمهوريٌّ بتعيينه عضوًا بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.
- ١٩٦٨ \* عُيِّنَ مستشارًا لوزير الثقافة د. ثروت عكاشة، وهو آخر منصب شغله حتى الستين.
- ١٩٧٠ \* حَصَلَ على جائزة الدولة التقديرية.
- ١٩٧١ \* أحيل إلى المعاش وانضمَّ إلى هيئة تحرير الأهرام.
- ١٩٧٢ \* نال وسام الجمهورية من الدرجة الأولى.
- ١٩٨٥ \* مَنَحَتْه رابطة التضامن الفرنسية - العربيَّة جائزتها عن الثلاثية.
- ١٩٨٨ \* حَصَلَ على جائزة نوبل للآداب، وكان مُرَشَّحًا معه لهذه الجائزة ثلاثة من أعلام الأدب العالمين هم: ألبرتو مورافيا من إيطاليا، وجراهام جرين من بريطانيا، وميخائيل نعيمة من لبنان.
- وفي ٧ نوفمبر من العام تُفَسِّه منحه الرئيس حسني مُبارك قلادة النيل العظمى، وهي أرفع وسام في جمهورية مصر العربيَّة.
- ١٩٨٩ \* مَنَحَتْه جامعة القاهرة درجة الدكتوراه الفخرية في الآداب.





انك في تبلى  
 وليس هناك من يعرفك  
 ولا يدري من صلاته نظر نحوي باسم فضفت  
 لصرى دافع العينية . سألني  
 - كيف تيسر لك ان تجث يا بنتر؟  
 فقلت بصوت متدبج  
 - سمح لي يا ابنه انجص مولاي قبل الرحيل  
 فقال في صده  
 - اني في خير حال يا بنتر  
 فقلت يا سي  
 - جميع الودفاء الكرماء الى الذهاب  
 فقال باسم  
 - اعيذك من ذهب باختياره ومن ذهب  
 على راحته  
 ما تحببت حتى لثمن يده وانا اقول  
 - يعز علي انه يتقر ويدك  
 فقال بهدوء  
 - لست راحدا يا صديق الاعمى

نموذج بخط المؤلف من قصة العائش في الحقيقة



فهم و الجنون



## همس الجنون

ما الجنون؟؟

ويلبث ساعات متتابعات جامداً صامتاً، يشاهد الرائحين والغادين بطرف ناعس وجفنين ثقلين، لا يمل ولا يتعب ولا يجزع، فعل كرسية من الطوار كانت حياته ولذته. ولكن وراء ذلك المظهر البليد الساكن حرارة أو حركة في قرارة النفس أو الخيال، كان هدوءه شامل الظاهر والباطن، الجسم والعقل، الحواس والخيال، كان تمثالاً من لحم ودم يلوح كأنما يشاهد الناس، وهو بمعزل عن الحياة جميعاً.

ثم ماذا ١٩

حدث في الماء الأسن حركة غريبة فجائية كأنما ألقى فيه بحجر.

كيف؟ ١٩

رأى يوماً- إذ هو مطمئن إلى كرسية على الطوار- عمالاً يملئون الطريق، يرشون رملًا أصفر فاقعًا يسر الناظرين، بين يدي موكب خطير. ولأول مرة في حياته يستثير دهشته شيء فيتساءل لماذا يرشون الرمل؟ ثم قال لنفسه إنه يثور فيملاً الحياشيم ويؤذي الناس، وهم أنفسهم يرجعون سراعاً فيكنسونه ويلمونه، فلماذا يرشونه إذا؟ وربما كان الأمر أنفه من أن يوجب التساؤل أو الحيرة، ولكن تساؤله بدا له كأخطر حقيقة في حياته وقتذاك، فخال أنه بصدد مسألة من مسائل الكون الكبرى، ووجد في عملية الرش أولاً والكنس أخيراً والأذى فيما بين هذا وذاك حيرة أي حيرة، بل أحسن ميلاً إلى الضحك، ونادراً ما كان يفعل، فضحك ضحكاً متواصلًا حتى دمعت عيناه. ولم يكن ضحكه هذا محض انفعال طارئ، فالواقع أنه كان نذير تغيير شامل، خرج به من صمته الرهيب إلى حال جديدة، ومضى يومه حائرًا أو ضاحكًا، يحدث نفسه

إنه فيما يبدو حالة غامضة كالحياة والموت، تستطيع أن تعرف الشيء الكثير عنها إذا أنت نظرت إليها من الخارج، أما الباطن، أما الجوهر، فسر مغلق. وصاحبنا يعرف الآن أنه نزل ضيفاً بعض الوقت بالخانكة، ويذكر- الآن أيضًا- ماضي حياته كما يذكره العقلاء جميعاً، وكما يعرف حاضره، أما تلك الفترة القصيرة- قصيرة كانت والحمد لله- فيقف وعيه حيال ذكرياتها ذاهلاً حائرًا لا يدري من أمرها شيئاً تطمئن إليه النفس. كانت رحلة إلى عالم أثري عجيب، مليء بالضباب، تتخيل لعينه منه وجوه لا تتضح ملامعها، كلما حاول أن يسلط عليها بصيصاً من نور الذاكرة، ولت هاربة فابتلعها الظلمة. ويحيي أذنيه منه أحياناً ما يشبه المهمة. وما إن يرهف السمع ليعيّر مواقعها حتى تفر متراجعة تاركة صمتاً وحيرة. ضاعت تلك الفترة السحرية بما حفلت من لذة وألم، حتى الذين عاصروا عهدها العجيب قد أسدلوا عليها ستاراً كثيفاً من الصمت والتجاهل لحكمة لا تخفى، فاندثرت دون أن يتاح لها مؤرخ أمين يحدث بأعاجيبها. ترى كيف حدثت؟ متى وقعت؟ كيف درك الناس أن هذا العقل غدا شيئاً غير العقل؟ وأن صاحبه أمسى فرداً شاذاً يجب عزله بعيداً عن الناس كأنه الحيوان المفترس؟ ١٩

كان إنساناً هادئاً أخص ما يوصف به الهدوء المطلق. ولعله ذاك ما حبب إليه الجمود والكسل، وزهده في الناس والنشاط. ولذلك عدل عن مرحلة التعليم في وقت باكراً، وأبى أن يعمل مكتفياً بدخل لا بأس به. وكانت لذته الكبرى أن يطمئن إلى مجلس منعزل على طوار القهوة فيشرب راحته على ركبته،

فيقول كالذاهل: يرشون فيؤذون ثم يكتسون ... ها ها ها.

وفي صباح اليوم الثاني لم يكن أفاق من حيرته بعد. ووقف أمام المرأة يهيم من شأنه، فوقعت عيناه على ربطة رقبته وسرعان ما أدركته حيرة جديدة، فتساءل لماذا يربط رقبته على هذا النحو؟ ما فائدة هذه الربطة؟ لماذا نشق على أنفسنا في اختيار لونها وانتقاء مادتها؟ وما يدري إلا وهو يضحك كما ضحك بالأمس، وجعل يرنو إلى ربطة الرقبة بحيرة ودهشة، ومضى يقلب عينيه في أجزاء من ملابسه جيئاً بإنكار وغرابة. ما حكمة تكفين أنفسنا على هذا الحال المضحك؟ لماذا لا نخلع هذه الثياب ونطرحها أرضاً؟ لماذا لا نبدو كما سوانا الله؟. بيد أنه لم يتوقف عن ارتداء ملابسه حتى انتهى منها، وغادر البيت كعادته.

ولم يعد يذوق هدوءه الكثيف الذي عاش في إهابه دهرًا طويلًا قانعًا مطمئنًا. كيف له بالهدوء وهذه الثياب الثقيلة تأخذ بخناقها على رغبته؟ أجل على رغبته. وقد اجتاحتها موجة غضب وهو يبحث خطاه، وكبر عليه أن يرضى بقيد على رغبته. ليس الإنسان حرًا؟ وتفكر مليًا ثم أجاب بحماس: بلى أنا حر. وملاه بغتة الشعور بالحرية، وأضاء نور الحرية جوانب روحه حتى استخفه الطرب. أجل هو حر. نزلت عليه الحرية كالوحي فملأه يقينًا لا سبيل إلى الشك فيه، أنه حر يفعل ما يشاء كيف شاء حين يشاء، غير مدعٍ لِقوة أو خاضع لعلّة لسبب خارجي أو باعث باطني. حلّ مسألة الإرادة في ثانية واحدة، وأنقذها بحماس فائق من وطأة العلل، وداخله شعور بالسعادة والتفوق عجيب، فالتقى نظرة ازدراء على الخلق الذين يضربون في جوانب السبل مسيرين مصفدين لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، إذا ساروا لم يملكوا أن يقفوا، وإذا وقفوا لم يملكوا أن يسيروا، أما هو فيسير إذا أراد ويقف حين يريد، مزدريًا كل قوة أو قانون أو غريزة. وأهاب به شعوره الباهر أن يجرب قوته الخارقة فلم يستطع أن يعرض عن نداء الحرية. توقف عن مسيره بغتة وهو يقول لنفسه: «هأنذا أقف لغير ما سبب».

ونظر فيها حوله في ثوانٍ ثم تساءل أيستطيع أن يرفع يديه إلى رأسه؟ أجل يستطيع، وما هو ذا يرفع يديه غير مكترث لأحد من الناس. ثم تساءل مرة أخرى هل تؤاتيه الشجاعة على أن يقف على قدم واحدة؟ وقال لنفسه: فلم لا أستطيع وما عسى أن يعتاق حرّتي؟! وراح يرفع يسراه كأنه يقوم بحركة رياضية في أناته وعدم مبالاة كأنه وحده في الطريق بلا رقيب. وغمرت فؤاده طمأنينة سعيدة وملأته ثقة بالنفس لا حد لها، فمضى يتأسف على ما فاتته - طوال عمره - من فرص كانت حريّة بأن تمتعه بحرّيته وتسعده، واستأنف مسيره وكأنه يستقبل الحياة من جديد.

ومرّ في طريقه إلى القهوة بمطعم كان يتناول به عشاءه في بعض الأحيان، فرأى على طواره مائدة ملأى بما لذّ وطاب. يجلس إليها رجل وامرأة متقابلين يأكلان مريئًا ويشربان هنيئًا، وعلى بُعد يسير جلس جماعة من غلمان السبل، عرايا إلا من أسهال بالية، تغشى وجوههم وبشرتهم طبقة غليظة من غبار وقذارة، فلم يرتج لما بين المنظرين من تنافر، وشاركته حرّيته عدم ارتياحه فأبت عليه أن يمرّ بالمطعم مرّ الكرام. ولكنّ ما عسى أن يصنع؟ قال له فؤاده بعزم ويقين: «ينبغي أن يأكل الغلمان مع الآخرين». ولكنّ الأكلين لا يتنازلان عن شيء من هذه الدجاجة أمامهما بسلام، هذا حق لا ريب فيه، أما إذا رمى بها إلى الأرض فتلوّث بالتراب فما من قوة تستطيع أن تحرمها الغلمان، فهل ثمة مانع يمنعه من تحقيق رغبته؟.. هيهات، وربما كان التردد ممكنًا في زمن مضى، أما الآن... واقترب من المائدة بهدوء، ومدّ يده إلى الطبق فتناول الدجاجة، ثم رمى بها عند أقدام العرايا، وتحول عن المائدة وسار إلى حال سبيله كأنما لم يأت أمرًا نكرًا، غير عابئ بالزئير الذي يلاحقه مفعماً بأقذع السباب والشتائم، بل غلبه الضحك على أمره، فاسترسل ضاحكًا حتى دمعت عيناه. وتنهّد بارتياح من الأعياق، وعاوده شعوره العميق بالطمأنينة والثقة والسعادة.

وبلغ القهوة فمضى إلى كرسيه واطمأن إليه كعادته، بيد أنه لم يستطع هذه المرة أن يشبك راحتيه حول

ركبته ويستسلم لسكوته المعهود، لم تطاوعه نفسه، فقد فقدت قدرتها على الجمود، أو برئت من عجزها عن الحركة فنيا به مجلسه، حتّى همّ بالتهوض، إلّا أنّه رأى - في تلك اللحظة - شخصاً غير غريب عن ناظره وإن لم تصله به أسباب التعارف. كان من رواد المقهى مثله. وكان جسماً ضخماً وأوداجاً متفخّة، يسير مرفوع الرأس في خيّلاء، ملقياً على ما حوله نظرة ترفع وازدراء، تنطق كلّ حركة من حركاته وكلّ سكتة من سكنته بالزهو كأنّما يثير الخلق في نفسه ما تثيره الديدان في نفس رقيقة مرهقة الحسّ، وكأنّه يراه لأوّل مرّة. بدا له قبحه وشذوذه عارياً، فغالبته هذه الضحكة الغريبة التي ما انفكت هذين اليومين تعابه، ولم تفارقه عيناه، وثبتت خاصّة على قفاه يبرز من البنيّة عريضاً ممتلئاً مغنياً. وتساءل أيتركه يمرّ بسلام؟؟ معاذ الله، لقد ألف داعي الحرّيّة، وعاهده آلا يخالف له أمراً، وهزّ منكيه استهانة واقترّب من الرجل فكاد يلاصقه، ورفع يده، وهوى بكفّه على القفا بكلّ ما أوتي من قوّة، فرئت الصفحة رنيناً عاليّاً، ولم يتمالك نفسه فأغرب ضاحكاً، ولكن لم تنته هذه التجربة بسلام كأختها السابقة، فالتفت الرجل نحوه في غضب جنونيّ، وأمسك بتلابيبه وانهال عليه ضرباً وركلاً حتّى خلّص بينهما بعض الجلوس. وفارق القهوة لاهثاً، ومن عجب أنّه لم يستشعر الغضب ولا الندم، وعلى العكس من ذلك ألّت بحواسّه لذّة عجيبة لا عهد له بها من قبل، وافتّر ثغره عن ابتسامة لا تزايله، وفاضت نفسه بحيويّة وسرور يغشيان أيّ ألم، ولم يعد يكثرث لشيء غير حرّيّته التي فاز بها في لحظة من الزمان وأبى أن يغيب عنها ثانية واحدة من حياته، ومن ثمّ ألقي بنفسه في تيّار زاخر من التجارب الخطيرة بإرادة لا تنثني وقوّة لا تقهر. صفع أفقية وبصق على وجوهه وركل بطوناً وظهوراً، ولم ينج في كلّ حال من

اللكمات والسباب، فحطّمت نظارته ومزّق زرّ طربوشه وتفتّك قميصه، ونغضت ثنيتاه، ولكّنه لا ارتدع ولا ازدجر ولا انثنى عن سبيله المحفوف بالمخاطر، ولا فارق الابتسام شفّيته، ولا تخدت نشوة فؤاده الثمل، ولو اعترض الموت طريقه لاقتحمه غير هيّاب. ولما أذنت الشمس بالمغيب عثرت عيناه المتجولتان بحسناة مقبلة متأبّطة ذراع رجل أنيق المنظر، ترفل في ثوب رقيق شفاف، تكاد حلمة ثديها تثقب أعلى فستانها الحريريّ، وجذب صدرها الناهد عينيه فزادت أنساً ودهشة، وهاله المنظر، وكانت تقترّب خطوة فخطوة حتّى باتت على قيد ذراع.

وكان عقله - أو جنونه - يفكر بسرعة خياليّة، فخطر له أن يغمز هذه الحلمة الشاردة!، إن رجلاً ما فعل ذلك على أيّة حال، فليكن هذا الرجل، واعترض سبيلهما، ومدّ يده بسرعة البرق، وقرص! آه لقد انهالت عليه اللطمات واللكمات، وأحاط به كثيرون. ولكتّم في النهاية تركوه! لعلّ ضحكته الجنونيّة أخافتهم، ولعلّ نظرة عينيه المحملقتين أفزعهم. تركوه على أيّة حال. ونجا ولم تكّد تزداد حالته سوءاً! وكان لا يزال به طموح إلى مزيد من المغامرات، ولكن لاحت منه نظرة إلى ملابسه فهاله ما يرى من تمرّقها وتهتكها. وبدلاً من أن يأمى على نفسه راح يذكر ما دار بخلده صباح اليوم أمام المرأة، فلاحت في عينيه نظرة غائبة، وعاد يتساءل لماذا يدع نفسه سجيناً في هذه اللغائف تشدّ على صدره وبطنه وساقه؟! وناء بثقلها، وشعر لوطاتها باختناق، فغلبت مراجله، ولم يستطع معها صبراً، وأخذت يدها تنزعانها قطعة قطعة، بلا تمهل ولا إبطاء، حتّى تخلّص منها جميعاً، فبدا عارياً كما خلقه الله، وعابته ضحكته الغريبة، فقهقه ضاحكاً، واندفع في سبيله..

## السّيف

الأنوثة، يزيّن وجهها العاجي حسن تركي تمصّر، ويدلّ على طبقتها العالية ثوبها الأبيض ونظرتها الرفيعة وحليها الثمينة، وقد بُهر الرجل أمام روعة الحسن وانحنى باحترام وهو يقول في إشفاق: «وأسفاه ستعلم السيّدة بالخطأ وسرعان ما تنتهي المقابلة!» ولكنّ خاب ظنّه لأنّ السيّدة ابتسمت إليه تحيّة كأنّه هو المعنيّ، وقالت برقة تعرّفه بنفسها:

- أرجوك ألاّ يسوءك إقلاقي لراحتك.. أنا أرملة المغفور له عليّ باشا عاصم!

يسوءه! ينبغي أن يعدّ نفسه من المحظوظين في هذه الدنيا لأنّ سيّدة كتلك السيّدة تقول له مثل ذلك الكلام بتلك اللهجة الرقيقة! ترى لماذا دعت لبنوارها؟ فهو لا يذكر أنّه رآها من قبل وإن كان يعلم علم اليقين أنّه قرأ اسمها في بعض الأخبار الخاصّة بالجمعيات النسائيّة، وخیّل إليه غروره أنّها ربّما رآته من حيث لم يرها وأنّها ربّما وقع في نفسها منه - كما حدث لغيرها وإن كنّ لسن من نوعها - ما علّقها به، فإذا صدق حدسه - والدلائل تجمع على صدقه - فهي تدعوه كما دعت قديماً امرأة العزيز فتأها!!

وأحسن بنشوة فرح وزهو وقال للمرأة بكلّ رقة وهو ينظر إليها كما ينظر الإنسان إلى شيء ثمين يملكه:

- العفو يا صاحبة السعادة.. خادمك..

وهمّ أن يقدّم لها شخصه العزيز، واستدلت السيّدة من لهجته على ذلك فأشارت إليه بيدها البضة وقالت بسرعة وهي تبسم عن درّ نصيد:

- وهل أنت في حاجة إلى تعريف يا أستاذ... تفضّل.

وجلس كما أرادت. ولكنّ عبارتها الأخيرة قلبت ما

كان التياترو مكتظاً بالنظارة، حيث كانت تمثّل رواية البخيل لموليير، وكان جمهوره كالمعتاد خليطاً من طلاب التسليّة ومحبي الظهور ومدّعي الفنّ وعشاق الخيال، وكان عليّ أفندي جبر المترجم بوزارة الزراعة بين الجالسين في الصفوف الأماميّة، وكان يتتبع التمثيل بين اللفظة والنوم، واضعاً خنّه على يده، ومسنّداً مرفقه إلى مسند المقعد، وكان قد طالع في بعض المجلّات عن الرواية ما جعله يظنّها آية من آيات الكوميديّ فجاء التياترو بنفس توقّعة إلى الضحك والسرور، وسرعان ما خاب رجاؤه وفترت حماسه وكاد يستسلم للنعاس، ولكنّ الأقدار أرادت أن تسرع بتعويضه عن خيبته؛ ففي أثناء الاستراحة دنا منه النادل وانحنى على أذنه وقال باحترام وتأنّب:

- هل للبك أن تفضّل بالذهاب إلى البنوار رقم واحد؟

ثمّ ذهب إلى حال سبيله. ونظر عليّ أفندي إلى البنوار رقم واحد فرأى الستار الأبيض مسدّلاً عليه فأدرك أنّ به «حريماً»، وقام من توه وغادر الصالة وقصد إلى البنوار وهو يضرب آماساً في أسداس، وطرق الباب مستأذناً فسمع صوتاً رخيماً لا يعرفه يقول:

- تفضّل.

فتردّد لحظة سريعة لأنّه أدرك - لدى سماعه الصوت الغريب - أنّ في الأمر خطأ، ولكنّه كان من الرجال الذين تغلبهم على نفوسهم في محض النساء جسارة غير محدودة وحبّ للمجازفات وثقة بالنفس وطيدة، فاقتحم الباب غير هيّاب وصار وجهاً لوجه أمام السيّدة الجالسة. وكانت في الأربعين ممتلئة الجسم ناضجة



فتوزدت وجنتا المرأة ورنّت إليه بعينين ناعستين،  
وقرات في عينيه ما حملها على تحبّ حديث العواطف  
وإن كانت تضرع الرجوع إليه في المستقبل! فقالت:

- هل أعجبتك الرواية؟

الرواية التي صدعت رأسه وفرّ منها إلى النعاس!!  
إنّه كان حكيمًا فلم يسارع إلى مصارحتها برأيه، ولم  
تنتظر السيّدة جوابه فقالت بثقة:

- لا شك أنك تعجب بها أيّما إعجاب، لأنّها من  
تلك الفكاهة العالية التي كتبت عنها فصلًا رائعًا في  
كتابك الخالد «فلسفة الجمال» وقد كان هذا الفصل  
سبيلي إلى تذوّق مولير وتوين وشو.

فحمد الله أن لم يذكر رأيه الحقيقيّ، وهزّ رأسه  
باسمًا وقال باطمئنان عجيب:

- البخيل آية فنيّة رائعة، وهي من الآيات التي لا  
تمنح كنوزها مرّة واحدة، ولقد قرأتها مرّة وأخرى،  
وهأنذا أشاهدها للمرّة الثالثة، وفي كلّ مرّة أفوز  
بحسن جديد.

فابتسمت السيّدة وقالت:

- إذا أصاب ظنيّ!

فقال عليّ أفندي:

- إنك يا سيّدي آية في الذكاء.

ولم يأذن الوقت بالاسترسال في الأحاديث إذ دقّ  
الجرس معلنًا انتهاء الاستراحة، فاضطرّ عليّ أفندي أن  
يستأذن في طلب الانصراف، وقالت السيّدة وهي  
تودّعه:

- أرجو أن تشرف قصري بزيارتك.

فقال وهو ينحني على يدها:

- لي عظيم الشرف يا سيّدي.

- يوم الأربعاء الساعة السابعة مساء.. شارع

خاروية رقم ١٠ بالزمالك..

وتنهّدت المرأة ارتياحًا وظنّت أنّها نالت أمنيّة من أعزّ  
أمانيتها، وكانت مخلوقة سعيدة الحظّ كأنّ الأقدار  
تتوخّى راحتها، تزوّجت من رجل من رجال مصر  
القانونيّين المعدودين. فتمتّع برجولته وكفأها الموت  
شرّ شيخوخته، وترك لها مالاً وجاهًا واسمًا عظيمًا،

بنفسه رأسًا على عقب، فعلاه الوجوم، وأطفأ الكدر  
نور السرور في عينيه، لأنّه من المحتمل أن يكون فاتنًا  
محبوبًا من النساء، وأن تقع في غرامه حرم عاصم  
باشا، ولكنّ ممّا لا ريب فيه أنّه في حاجة إلى تعريف  
ككلّ إنسان وأنّه لم يكن أبدًا في غنى عن التعريف،  
فماذا تعني السيّدة الجميلة بقولها هذا؟ إنّه يكاد يهتدي  
إلى وجه الحقّ، وقد ساعده على ذلك قولها له «يا  
أستاذ» فهل تظنّ السيّدة أنّه شاعر مصر الأكبر بل  
شاعر الشرق العربيّ جميعًا الأستاذ محمّد نور الدين؟

والحقّ أنّ المشابهة التي بينه وبين سيّد الشعراء  
معروفة مشهورة، يعلم بها جميع أصحابه، وطالما  
جعلوا منها موضوعًا للتكثيف والفش، فكلاهما له هذا  
الوجه المستطيل الذي يحّد من أعلى ببجبة عالية ومن  
أسفل بذقن عريضة، وكلاهما له هذا الأنف الرومانيّ  
العظيم والشارب الشرسيّ الغزير ولا اختلاف بينهما  
إلا أنّه أطول من الشاعر وأعظم امتلاء، وهذا يدلّ  
على أنّ السيّدة - فيما لو صدق ظنّه - لم تر الشاعر إلا في  
إحدى صوره التي تظهر أحيانًا في المجلّات والصحف.  
وأسفاه، ذاق حلاوة الفوز ومرارة الهزيمة في لحظة  
واحدة، فهل يتراجع ويرضى بالغنيمة بالإياب؟ ولكنّ  
مثل هذا التردّد لم يكن ليخالجه إلا لحظات قصيرة  
العمر، لأنّه - كما قلنا - يفقد رشاده في حضرة النساء،  
ولا يفكر إلا في انتهاب اللذة واقتناص الفرصة،  
فجلس مبتسمًا على ما به من خيبة مريرة مطمئنًا كما  
ينبغي لشاعر مصر العظيم.

وقالت السيّدة:

- سيّدي الأستاذ، إنّ معرفتي بك قديمة جدًّا لا كما  
تظنّ، وإنّ أفضالك على روحي لا تقدّر بثمن ولا  
يحصيها عدّ، وطالما متّيت نفسي بالتحدّث إليك، وكم  
كان فرحي عظيمًا حين عثر بصري بك فلم أتردّد عن  
دعوتك، وإنّي أرجو يا سيّدي أن تغفر لي تطفلي..

فقال عليّ أفندي وقلبه يلحن الشاعر:

- ما أسعدني بعطفي يا سيّدي! إنّنا معشر الشعراء  
لنحرق أرواحنا في سبيل الخلود والشهرة، ومثل  
إعجابك يا سيّدي أئمن لديّ من الخلود والشهرة!

أما عليّ أفندي جبر فقد رجع إلى مقعده وهو يلقي على الحاضرين نظرة فاحصة خشية أن يكون الشاعر الأصليّ بين النظارة! وقد ساءل نفسه: «ألا يجدر بي أن أفر؟» ولكنّه لم يكن جاداً في سؤاله، لأنّه لم يعتد الفرار من ميدان النساء.

ولم يألُ جهداً في التآبب والاستعداد ليتقن تمثيل شخصيّة الجديدة، فطبع بطاقات باسم محمّد نور الدين، ورأى عن حكمة أن يلقي نظرة سطحيّة على مؤلّفات الشاعر فذهب إلى مكتبة وطلب مؤلّقاته، فسأله الكتيبيّ:

- كلّها؟

فقال:

نعم.

فقال الرجل:

- الطلب غير ممكن الآن يا أستاذ لأنّ بعضها نفذ والبعض غير موجود في المكتبة. فإذا انتظرت إلى الغد...

ولكنّه قاطعه متسائلاً:

- ما الحاضر بين يديك؟

فقال الرجل:

- دواوينه الأربعة: النور والظلام، والجحيم، والرحلة الروحيّة، والسهاء السابعة، وكتاب فلسفة الجمال، والرحلة الشرقيّة، والجزء الثاني من كتاب الغد!

وهاله الأمر وأسقط في يده، ولم ير بداً من ابتاعها جميعاً، وكانت المرّة الأولى في حياته التي يشتري فيها ديوان شعر؛ لأنّه بطبعه لا يحبّ الشعر ولا يهضمه، ولا يجد مسوّغاً مطلقاً للقوافي التي يضمّنها معانيه، فلماذا لا يرسل الكلام على سجيّته؟ وإنّه لينفث في اذان النساء غزلاً يعتقد أنّه أرقّ الكلام وأمتع، ومع هذا لم يشعر بالحاجة إلى تنسيقه في بيت من الشعر، ولم يقرأ من الشعر طوال حياته سوى المحفوظات المدرسيّة وهو كاره، فما كان يخطر له على بال أن يشتري ديواناً من الشعر فضلاً عن أربعة دواوين كاملة، ولكنّ قدر فكان!

ولكنّ ضايقتها ظهور منافسة خطيرة لها هي أرملة الدكتور إبراهيم باشا رشدي، يجري ذكر جمالها - مثلها - على الألسن، وتحدّث بثرائها المجتمعات، وقد وضعتهم المصادفات في حيّ واحد وأغرّت بينهما العداوة والبغضاء، فكلتاهما تتمتع بأنوثة ناضجة وجمال فتان وثروة طائلة، وتملك قصرًا فخماً يتيه على قصور الأمراء، وكانت كلّ منهما تعزّز بنفسها وتودّ لو يغلب نورها نور الأخرى فتنافستا في اقتناء السيّارات الثمينة والتحف النادرة والنياب الأنيقة، وتسابقتا في ميدان الظهور تعرضان حسنها وتثران حديثهما، واتخذت كلّ منهما بطانة من كرائم الأسر والأنسات المثقّقات. وقد علمت حرم عاصم باشا يوماً أنّ منافستها دعت إلى تأليف جمعيّة المرأة الحديثة فلم يرتح لها جانب حتّى كوّنّت جمعيّة تعليم الأميّات، وسمعت يوماً بأنّ الأخرى تبرّعت بمبلغ كبير من المال مساهمة في إنشاء مدرسة كبيرة وأنّ الصحف أثنت عليها جميل الثناء، فأمرت بتشديد جامع كبير في عزبتها ودعت لالتقاط صورة مصوّر أكبر مجلة في مصر، وطلبت إليه أن يثني على ورعها وتقواها!..

وكان آخر ما غمى إلى مسامعها من أخبار منافستها ما لاکته الألسن من أنّ الموسيقار المعروف الأستاذ الشربيني قد شغف بها حبّاً، وأنّه لا يفتأ يتردّد على قصرها، وأنّ الدور الذائع الصيت «حيّيت با قلبي» الذي يتغنّى به المصريون جيماً وتهفو إليه نفوسهم لحن بوحى جمالها! وما علمت بهذه الأخبار حتّى التهبّت نفسها التهاّباً واحترق قلبها احترقاً: وتلفّت بمنة ويسرة تبحث عن عاشق «شهير» تصير بحبه حديثاً ممتعاً وتغدو له وحياً ملهياً، فذكرت شاعر مصر محمّد نور الدين، فهو المصريّ الوحيد الذي له ما للشربيني من الشهرة والمكانة، وهو أجدر الناس بتخليدها في قصيدة كما خلّد الشربيني منافستها في أسطوانة، وفي تلك الأثناء رأت الشاعر مصادفة في التياترو وكانت تفكر في وسيلة تصل بها إليه، فهل كنّا مغالين إذ قلنا إنّها نالت أمنيّة من أغزّ أمانيتها!..

فاحتدم الغيظ في قلبه ولعن الشعر والشاعر، وتذكّر قراءته لبعض المعاني «الخالدة» التي لم يفقه لها معنى وعجب كيف تؤثرها هذه السيدة العجيبة على عبارته البسيطة التي طالما نصبت الشراك وغزت الحصون، وأراد أن يلتمس لعجزه عن خلق المعاني «الخالدة» عذراً فلسفياً فقال:

- معذرة يا سيّدي، إنّ إذا غشي لآلاء الحسن السامي تركت نفسي على فطرتها، وهجرت إلى حين المعاني التي يبدعها التفكير والتكلّف.

فاتسّعت عينا السيّد الجميلتان وقالت بإنكار:  
- يا عجباً! ألسن القائل يا أستاذ في مقدّمة ديوانك إنّ شعرك شعر الفطرة والطبع؟ أو لست الأخذ على شعراء المدرسة القديمة تكلفهم؟!

فأسقط في يده ووجد أنّ الحذر لم ينفعه، وخشي أن يفقد ثقته بنفسه فقال بلهجة العالم الذي يعني ما يقول:

- إنّ الشعر يا سيّدي مزيج من الفطرة والتفكير، والتفكير غير التكلّف، وما أردت قوله هو أنّ الشاعر في حضرة الحسن يستبدّ به الشعور الخالص.

وأشفق من أن تسأله مثلاً عن الفرق بين التفكير والتكلّف أو معنى الشعور الخالص ولكنّ السيّد قالت بإعجاب:

- صدقت يا أستاذ، ولعلّ هذا يفسّر قولك إنّ الشعر لا يعبر عن عاطفة إلّا بعد أن تسكت ثورتها ويهدأ انفعالها.

فهزّ رأسه مبتسماً وهو يتنهد ارتياحاً:  
- وهو الحقّ المين ياسيّدتي، أرى أنّ رأسك متوجّج بتاجي الحسن والأدب!

فتورّد خذاها وقالت بحماس:  
- إنّ واحدة من قرّائك المعجبين... وقد قرأت مؤلّفاتك بإمعان وشغف.

فقال:  
- أين لي قرّاء مثلك يا سيّدي العزيزة؟.. إنّ البلد لا يقدر الكاتبتين.

- هذا حقّ وأأسفاه على وجه العموم، ولكنّ يقال

وقال لنفسه متبرّماً وهو يحملها إلى بيته: «أعقل أن يكلفني الحبّ مألّاً أو مطاردة خطيرة أو صبراً طويلاً أو شجاراً عنيفاً أمّا الذي لا أعقله أن يتقاضاني قراءة هذه الكتب؟ فهل أنا عاشق أم تلميذ؟».

وأخذ يقلّب صفحات الكتب فغصّ بالشعر كما توقّع ولم يفقه له معنى؛ ولو كان يسيراً مثل «إذا نام غرّ في دجى الليل فأسهر» لكان الأمر، ولكنّه كان من نوع عجيب سهل الألفاظ مغلق المعاني!! وهذا غزل نور الدين فما بالك لو تطاول إلى الأغراض الأخرى التي يجفل قلبه من مجرّد تلاوة عنواناتها! والأدهى من ذلك وذاك أنّ نثره ليس بخير من شعره، فقد قرأ صفحات من كتاب فلسفة الجمال ما كان يظنّ أنّ إنساناً عاقلاً ينشرها على الملأ، وضاق صدره بنور الدين وشعره ونثره فرمى بالكتب جميعاً ولكنّه قال بإصرار وعناد: «سأذهب يوم الأربعاء».

وفي الموعد المسمّى ذهب إلى قصر السيّد الجليّة بشارع خاروية، وكان بادي الوجاهة والأناقة، وأرسل بطاقة إلى ربّة القصر، فقاده الخادم إلى صالون رائع لم ير أجل منه على كثرة ما غشي من الصالونات الفخمة، ولكنّه لم يدهش لأنّ منظر الحديقة والقصر الخارجي سلبه كلّ دهشة، وكان يكره الانتظار لأنّ أمثاله من المغامرين تؤاتتهم النجدة بداهة وارتجافاً، وتشحذ أسلحتهم في أثناء المعمعة، مثله في ذلك مثل الخطيب المطبوع الذي يلهمه الجمهور المعاني فيتدفّق، ولذلك أحسّ بارتياح عجيب حين رآها تشرق عليه من باب الصالون في فستان أبيض غير كتوم، يعلن عن جمال كلّ ثنية من ثنيات جسمها اللدن، ويبين خاصّة عن الخصر الدقيق الذي يتعلّق به كفلاها الثقيلان، فطرد بقوة إرادته بقية قلق كانت عالقة بنفسه وانحنى باحترام، فأعطته يدها فضغط عليها بحنو، ثمّ قال وهما يجلسان:

- لقد حسبت الأيام ساعة فساعة!  
فابتسمت السيّد وقالت بلهجة لم تخل من عتاب:  
- هذا معنى مبتذل لا قرابة بينه وبين معانيك الشعرية الخالدة.

وخشي إن تردّد أن يخسر كلّ شيء بعد أن أوفى على الفوز، فقال بقوة:

- اعفني يا سيدي!

فسأله دهشة:

- ولم؟ هل يرم الشاعر بشعره أحياناً؟

- ليس الأمر كذلك، ولكن قد يسمو الشاعر حيناً على شعره فيخاله بعض مظاهر العالم الماديّ!، وإنّي الآن في نشوة روحية من تلك النشوات التي تخلق الشعر فكيف أنزل إلى الشرح والتفسير؟..

فغمرتها موجة فرح وسعادة وسألت نفسها: «ترى هل أكون غداً بطلة قصيدة رائعة خالدة؟» سألته في لهفة:

- أحقّ ما تقول يا سيدي؟

- كيف يداخلك شكّ في هذا؟ تالله إذا لم تخلق هذه الساعة شعراً فلا خلق الشعر أبداً!!

فاتملاً قلب المرأة فرحاً ومثّت نفسها بأسعد الأمانى.

وفي تلك اللحظة دخلت خادم تعلن قدوم زائرات، ولم تفاجأ السيّدة - كما فوجئ الأستاذ - بقدومهنّ كأنّها كانت على موعد معهنّ، وأمرت الخادمة بإدخالهنّ، وبعد لحظة قصيرة دخل ثلاث آنسات حسان يختار ماء الشباب في وجوههنّ وتلقتهنّ بترحاب وقدمت إليهنّ الشاعر بلهجة فخار قائلة:

- الأستاذ محمّد نور الدين سيّد شعراء الشرق!

وقدّمتهنّ إليه واحدة واحدة قائلة إنهنّ من عضوات جمعية تعليم الأمّيات التي تشرف برئاستها، ثمّ قالت: - إنهنّ أدبيات مثقّفات، ولكنّ والاسفاه فإنّ ثقافتهنّ قاصرة على الأدب الفرنسيّ الذي يتعشّقنّه إلى درجة أن جعلن الفرنسيّة لغة حوارهنّ، وإنّي أرجو أن يكون تعرّفك بهنّ يا سيدي سبباً لتوجيهنّ إلى الثقافة العصرية.

فعجب عليّ أفندي وتساءل دهشاً: ترى هل يعلمن الفلّاحات الأمّيات مبادئ اللغة الفرنسيّة؟!

استطردت السيّدة تقول للآنسات:

- ستجدن في صديقي الشاعر محدثاً جليلاً، ولكنّي

إنّ لك جمهوراً تحسد عليه يا سيدي الأستاذ.

فأشار بيده إشارة تدلّ على الأسف وقال:

- لو أتيح لي أن أكتب باللغة الإنجليزيّة مثلاً.

فسأله السيّدة بقلق:

- أو ليس لك الجمهور الذي تحسد عليه؟

فقال باطمئنان:

- جمهور قرّائي يربو على ضعفي جمهور أيّ كاتب آخر في الشرق الإسلاميّ!

- يا لها من مكانة سامية!

فهزّ رأسه أسفاً وقال:

- لقد دفعت شبابي وقوّي ثمنًا لها!

- آسف أنت على هذا؟

- لا أدري.

- لقد خلّدت شبابك في آثارك الباقية.

- أيّها أفضل أن يخلّد شبابي كي يتمتّع به غيري أم يفتنّ وأتمتّع به وحدي؟

- لا تناقض بين الاثنين، فإنّك تستطيع أن تستهلكه في متعتك ثمّ تخلّده في شعرك، أتسألني وأنت أستاذي؟!

- هذه سعادة لا تتاح لغير المجدودين.

- وإنّك لمن المجدودين!

فنظر إليها نظرة لو تحوّلت إلى كلمة لوقع قائلها تحت طائلة قانون العقوبات، وكان يجيد هذه اللغة ثمّ قال بخبث:

- إنّك يا سيدي تتحدّثين عن حظّي كما لو كان مصيره بين يديك.

فتخضّب خدّها باحمرار طبيعيّ غلب أحمرهما الصناعيّ الخفيف، وما كانت تكره أن يكون مصير سعادته بين يديها، ولكنّها أدّخرت هذا الحديث إلى وقت آخر فغيّرت مجراه وقالت فجأة:

- ينبغي أن أنتهز فرصة وجودك معي لأسألك عن معنى بعض الأبيات الشعرية التي استغلّقت عليّ.

فحفق قلبه خفقة شديدة أيقظته من غيبوبة الغرام، ودعر دعرًا شديدًا، إذ كيف له بشرح معاني شعر نور الدين المغلفة وهو الذي لا يفهم أيسر الشعر وأسلسه؟

مشبعة بالماء والساقين المكورين والبشرة العجيبة ذات الرائحة الزكية، ذكر ذلك الحسن الذي رمى به الحظ بين يديه قضاء وقدرًا. أي ليلة جميلة كأنها حلم لذيذ، لا يجود بمثلها عالم الحقائق، وكأنه أراد أن يتأكد أنه حقيقة لا حلم فأخرج مذكرته وقرأ فيها الموعد المنتظر الذي كتبه بيدها الرخصة. !

وكانما المصادفة لم تقنع بما أتت من عجب عجاب، فإنه لفي تأمله وتذكره إذ أحسَّ بيد توضع على كتفه، فالتفت إلى وراءه فرأى صاحبه الجميلة واقفة بين جماعة من السيدات الأرستقراطيات، واستولت عليه الدهشة وعلاه الارتباك، أما السيدة فقد التفتت إلى صواحبها وقالت بته:

- ائذن لي أن أقدم اليك صديقي الأستاذ محمد نور الدين سيد شعراء الشرق!

فابتسمن إليه بترحيب إلا واحدة ردّت النظر بينه وبين الأرملة، وقالت ضاحكة:

- يا لها من نكتة بارعة يا سيدتي!

فسألته السيدة:

- أي نكتة تعنين يا سيدتي؟

فلم تحفل السيدة بإنكار الأرملة الجميلة، وقالت وهي تمحج عليّ أفندي بنظرة استغراب:

- رحماك يا ربّي.. الآن صدقت قول القائل: يخلق من الشبه أربعين!

فاحتدمت الأرملة غيظًا وقالت:

- إني لا أفقه لما تقولين معني..

- بل تفقهين كلّ المعنى وتريدين أن تضاحكينا، والحق أن الشبه الذي بين شاعرنا المجيد وحضرة البك شبه عجيب..

فاشتد الغيظ بالأرملة والتفتت إلى عليّ أفندي وقالت:

- تكلم يا أستاذ لتعلم عصمتها أي لا أهزل!

وكان عليّ أفندي في حالة يرثى لها، وقد خائنه جسارته تلقاء نظرات السيدة الجريئة التي لا شك تعرف الشاعر الأصلي تمام المعرفة، فلم يجد مناصًا من الهرب، فتظاهر بالدهشة، وابتسم إلى الأرملة البائسة وقال:

ما لهذا دعوتك الليلة، فقد حجزت البنوار الأول في تياترو رمسيس لمشاهد معًا رواية البخيل، ولا بأس أن يشاهدها الأستاذ للمرة الرابعة إكرامًا لي!

والحقيقة أن السيدة ما قصدت بدعوتهنّ إلا أن تدبّع بينهنّ نبأ صداقتها للشاعر لكي يدعنها بدورهنّ في الصالونات الراقية فيتصل خبرها حتّى بعلم منافستها الخطيرة، وما ذهبا بهنّ إلى تياترو رمسيس إلا لهذا الغرض نفسه.

وقد تضايق عليّ أفندي من حضور الزائرات، وتضايق أكثر من دعوته إلى التياترو، وكان يرجو أن تطول خلوته بها ولكنّه كان يبالغ في التشاؤم ولا يدري بالسعادة التي تحببها له الأقدار، ففي الاستراحة انتهزت السيدة فرصة خروج الأنسات من البنوار وقالت له في خفر:

- ستعود معي إلى القصر.

ولم يكن للدعوة إلا معني واحد، فتساءل عليّ أفندي ترى كيف يتخلّص من الأنسات؟ ولكنّ السيدة لم تعمل لذلك حسابًا، فعند انتهاء التمثيل عادت السيارة بهم جميعًا، وودّعها الفتيات عند مبدأ شارع خماروية ثمّ سارت بهما السيارة وحدهما إلى القصر السعيد، فأيقن أنّه رغم طول تجاربه جاهل بالنساء وأنّه لم يعرف قبل الآن امرأة مغرمة بالفضائح! وكانت ليلة..

\*\*\*

وبعد يومين ذهب عليّ أفندي جبر إلى زيارة المعرض الرابع عشر للفنون الجميلة، ولم يكن من الهواة ولكنّه كان من محبي الظهور والادّعاء وكان حبه للنساء يدفعه إلى ارتياد الأماكن التي يحتمل وجودهنّ بها، فمضى يسير في الحجرات الأنيقة وينظر بعينين فاترتين إلى اللوحات، حتّى استرعت انتباهه من بينها صورة فلاحه عارية تستحمّ في النيل، وقد أجادت الريشة تصوير قذها النحيف وتدييها الناهدين وأضفت على سمرة بشرتها سحرًا شهويًا عجيبًا، فوقف أمامها طويلًا لغير وجه الفنّ، وذكر - لرؤيتها - ذلك الجسد البضّ المكتنز والردفين المكورين كأنهما إسفنجة هائلة

- إني أعجب كيف يخدعك بصرك إلى هذا الحد،  
 ألا ترين أنني فطنت إلى الحقيقة من النظرة الأولى!  
 فقالت الأرملة الذاهلة تداري خجلها:  
 - ما أعجب الشبه بينهما!!  
 فقالت الأخرى:  
 - ولكن شتان ما بين قامتيهما.  
 وقالت أخرى ساخرة:  
 - سيغضب «صديقك» الشاعر حين يعلم بهذا  
 الخطأ الغريب.

وغادر علي أفندي المعرض مضطرباً: ولما تنسم  
 الهواء الطلق انفجر ضاحكاً حتى دمعت عيناه، على أن  
 الموقف لم يكن يخلو من دواعي الأسف ما دام قد خسر  
 الموعد المنتظر وكان يمضي نفسه بأكثر من ليلة واحدة..

- معذرة يا سيدي.. يخلق من الشبه أربعين!  
 وكان يتكلم بلهجة جدية لا تترك أثراً للشك في  
 نفس السامع، فجحظت عينا السيدة دهشة وانزعاجاً.  
 وعلا ضحك صاحباتها، وتأملنه بإمعان وهي تكاد تحن  
 من الدهشة، وسألته:  
 - ألسنت أنت الشاعر؟  
 فأجاب بهدوء:  
 - كلاً يا سيدي.. أنا موظف بوزارة الزراعة.  
 - ألم تقابلني قبل الآن؟  
 - لم يحصل لي هذا الشرف يا سيدي.  
 قال علي أفندي ذلك وأحنى رأسه تحية وذهب تاركاً  
 السيدة لصديقاتها الضاحكات، وقالت السيدة  
 الأخرى:

## الشَّريفة

فنظرت إليها بغرابة وقلت لها:

- من هي؟ ..

- زينب هانم زوج اليوزباشي محمد راضي جارنا.

فاستولت عليّ الدهشة وقلت:

- لكتها ما زالت عروسا في شهر العسل.. أليس

كذلك؟

- هو ذلك يا بنيّ، والظاهر أنّها نعمة الحظّ لأنّها

اضطّرت إلى هجر بيتها والالتجاء إليّ في الصباح

الباكر، وزوجها ولا شكّ رجل غليظ فظ لا تسهل

معاشرته، ولأ ما تركها تميم على وجهها وهو يعلم أن

لا أقارب لها في القاهرة.

وكانت والدتي شديدة التأثر فقلت:

- مسكينة..

فقالَت بانفعال:

- كانت أمّ هذه الشابة صديقة صباي، وإنّ أرجو

صديقة أن تعيش بيننا سعيدة..

ثمّ أردفت بلهجة ذات مغزى:

- وأن تكون لها يا حسّونة أخا كريما..

وبادرت قائلاً:

- طبعاً.. طبعاً.. يا أمّاه.

وذهبت إلى المدرسة وأنا أتذكّر كلمة والدتي الأخيرة

واللهجة التي قالتها بها، وأحسست بمزيج من الحجل

والغضب. ترى هل تشفق والدتي من سلوكي على

ضيفتنا؟ ثمّ خطر لي أن أتساءل: «هل هي جميلة إلى

حدّ تبرير مخاوف والدتي؟».. حامت أفكارني حول

ذلك طول الطريق من مصر الجديدة إلى الجيزة. والحقّ

أنّ كلمة والدتي البريئة أوجدت في نفسي منذ البداية

الاستعداد الذي كانت تشفق منه أيّما إشفاق.

الغالب على أحداث الشبان في هذه الأيام أن تتجه

نحو غرضين: النساء والسياسة، وحول هذين

الموضوعين دار الحديث في مجتمع من الأصدقاء كان

من حظّي المشاركة فيه محدثاً ومنصتاً. وقد بدأ الحديث

فاتراً مبتدلاً فلم يستطع أن يجذب إلّا بعض انتباهي،

حتّى تكلم ذلك الصديق البارِع وتدفّقت الذكريات

على لسانه الذّرب فالقيت إليه بانتباهي كلّهُ، لأنّ

حديثه كان قصّة مستوفاة العناصر، ومثل هذا الحديث

يستبدّ بمشاعري استبداد المال بقلب اليهوديّ

الشحيح، وإليك ما قصّه صاحبي - قال:

لا يكاد يخلو تاريخ شاب من امرأة، ولكنّه قد يخلو

من المرأة المؤثرة التي ترك وراءها شاهداً عميقاً لا ينال

منه طمس السنين كالوشم في اليد أو الصدر. وقد

عرفت نساء كثيرات لا أذكر منهنّ إلّا أثرًا ذاهبًا من

اللذة أو الألم، أو أطيافاً في الظلام والنسيان، إلّا

امرأة، بدت في فترة من حياتي كالكوكب الدريّ ينير

أبدًا ويضيء ما حوله فلا أنا أنساها ولا يغمر النسيان

حياتي التي غمرتها بروحها الرقيق.. لماذا.. ألاّ أنّها

كانت أجمل من عرفت؟.. أو أحبّ إليّ قلبي؟.. لا

أعتقد هذا ولكنّ ربّما لأنّها كانت أتعسهنّ جميعاً ولأنّ

تعاستها هذه كانت السبب الخفيّ في سعادتي بها زمناً

طيّباً لن يعود أبداً.

ويرجع عهد معرفتي بها إلى يوم من أيام عام ١٩٢٠

وكنّت آنشد طالبا في السنة الأولى بمدرسة الزراعة

العليا، استيقظت ذلك اليوم في الصباح المبكر كعادتي،

فجاءتني والدتي وقالت لي:

- حسّونة.. أرى أن أخبرك أنّ ضيفه نزلت ببيتنا،

وأنّها ربّما أقامت بيننا إلى أجل غير مسمّى..

عليّ بالسؤال لأنّ تلوّث نفسي أفقدني صراحة الأبرياء، وظننت السؤال فاضحي، ولم تدعني والدتي فريسة العذاب فقالت لي:

- شكراً لله فقد جاء جارنا الضابط واعتذر لزوجي وعاد بها لأنّه نقل إلى أسبوط، وقد كلّفتني أن أهدي إليك تحيّاتها.

وأحسست في الحال إحساس الطالب الذي يمّنى بالسقوط في الامتحان وهو يعلم باختيار الوظيفة اللاتقة به. وضاق صدري ذلك اليوم بالبيت فقررت إلى الخارج لأخلو إلى نفسي بعيداً عن عيني والدتي. على أنّ الصبا دائماً قادر على جرف الأحزان والهموم فاستطعت أن أبرأ في مدّة وجيزة ونسيت في غمرة الحياة والأمال تلك الحسرة التي عصرت قلبي آيأماً فكانت مثل «الزكام» الذي يُفقد الإنسان طعم الحياة حينها يزول سريعاً فكأنّه لم يكن..

ودارت الأيام وانتهيت من الدراسة وحصلت على الدبلوم، ووظّفت في وزارة الزراعة سنة ١٩٢٥. ثمّ انتقلت إلى تفتيش الإسكندرية بعد ذلك بخمس سنوات. وفي الأيام الأولى لهبوطي إلى الإسكندرية آثرت أن أنزل بفندق لأستريح من وعشاء السفر وأبحث في هدوء عن مسكن مناسب، ووقع اختياري على فندق «ريش» لحسن موقعه من البحر لأنّنا كنّا في سبتمبر، وهو من الشهور المحبوبة في الإسكندرية يطيب فيه الجوّ وهذا البحر ويعصفو؛ فحملت حقبي ونزلت في حجرة من حجرات الطابق الثاني، وأذكر أنّه لم يكد يتركني الخادم ويفلق وراءه الباب حتّى سمعت طرّقاً فدلّفت إلى الباب وفتحته، ورأيت لدهشتي صديقنا الدكتور أحمد شليبي واستقبلته بشوق وأجلسه إلى جانبي وكان يقول لي:

- أحقاً هو أنت؟..

ثمّ أردف:

- كنت تاركاً باب حجرتي مفتوحاً فلمحتك وأنت تتبع الخادم وعرفتك في الحال..

- هذه فرصة سعيدة.

- يا حظّك.

كان جوّ بيتنا غاية في الهدوء، فوالدي كان حينذاك قاضياً بمحكمة طنطا الأهلية، وكان يقيم نصف الأسبوع في القاهرة ونصفه الثاني في محلّ عمله، وكان أخي عليّ في المدرسة الحربية، وأخي عادل في بعثة مدرسة الطبّ بالنمسا. وفي ذلك الجوّ المغمور بالهدوء والسكينة عرفتُ زينب هانم العروس التمتعة.. وقد خيل إليّ وأنا ألقى عليها النظرة الأولى أنّي أرى صبيّة صغيرة. نعم كانت بضّة ممتلئة بادية الأنوثة، ولكنّي قرأت في عينيها العسلتين نظرة براءة وسذاجة، بل طفولة كاملة لولا ما يلوح فيها بين الحين والحين من الحزن العميق الذي لا تعرفه الطفولة الحقّة..

وكان الشباب في ذلك العهد غيرهم الآن، كانوا أعظم استقامة وأذن إلى العفة والطهر، وأرعى عهداً للتقاليد، وكانت المرأة المصونة تبدو دائماً وكأنّها محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة، وكان الحبّ بعيداً نسبياً عن التهنّك والابتذال اللذين صرعاه أخيراً وأورداه الإباحيّة والجنون، فكانت العواطف تزدهر في القلب وتنبت الأمال والأمانى، وتنصهر في العقل وتخلق الأخيلاء والأحلام، وتكتسي بحليّ نادرة من ضنع الأوهام والأطياف..

فكان يقنعني من زينب نظرة اختلسها من وجهها الحسن أو جسمها البضّ، لتكون زادي في النهار والليل وفي اليقظة والنوم، وأصبحت وأمست في عالم أثريّ جميل بثّ في وجداني حياة ناضرة كالحياة التي ينشرها الربيع في الحقول والبساتين. على أنّ الأمر لم يقتصر على ذلك فجرى الحديث بيننا مرّات، ولعبنا الورق مرّة والنرد أخرى. وغالبتي عواطفني فوسوست إلى نفسي أن أنشجع وتساءلت بعبث لماذا لا أجرب حظّي. لماذا لا ألس أناملها في أثناء اللعب مثلاً؟ أو أهدي إليها مجلدولين فتكون فاتحة حديث لا يعلم ختامه إلّا الله.. ولكنّي لقيت من التردد الشيء الكثير، ولم تسعفني الجرأة التي تعلّمتها فيها بعد، وضاع الوقت هباء حتّى رجعت يوماً إلى البيت، فوجدت والدتي وحدها.. وكنت تعودت أن أراها إلى جانبها، وأحسست بوحشة وضيق، وكتمت رغبة تلحّ



إلى يميني، فتذكرت ما قال صديقي الدكتور، وأدمنت النظر إليها باهتمام وشغف؛ ولكنني استرددت نظري بسرعة لأنني سمعت صرير بابها وهو يفتح، ونظرت أمامي، ولحظت بروز شخص، وخيل إلي أنه امرأة، وتأكد ظني عندما عطست، وحافظت على جمودي وتظاهرت بعدم الاكتراث.. وغالبًا ما يفيد البرود وهو إن لم يفد يعزّي عن الحية..

ولكنني لم أثبت طويلاً، ونزاعني شغف إلى النظر فالتفت ببصري إلى جاري. ورأيت امرأة أول ما رايني منها شعور بعدم الغرابة سرعان ما تحول إلى يقين بأنني رأيته من قبل وأنا أتمتع بذاكرة لا تخيب قط في حفظ الصور فلم ألبث أن ذكرت.. ذكرت جارتنا القديمة.. التي عاشت معي في بيت واحد بضعة أيام كانت كافية لإنضاج وجداني.. وتملكتني الدهشة والاهتمام.

ولاحت منها نظرة إلي فالتقت عينانا وتوقعت بقلب خافق أن أطلع في وجهها آية التذكر، وتحفزت للسلام ولكن خاب رجائي، لأن نظرتها كانت جامدة لا حياة فيها، ولم تلبث أن ولّتي ظهرها وعادت من حيث أتت. وأسفاه نسييتي بغير شك.. وما من شك في أنها هي جارتنا القديمة وهي ما تزال تحافظ على جمالها وأنوثتها، ولكن ما لها تعيش وحدها في هذا الفندق.. وما الذي يحملها على هذه الوحدة الغريبة.. وأين زوجها يا ترى؟

وطال تفكيري في شأنها حتى قمت لارتداء ثيابي وغادرت حجرتي، وشاءت المصادفات أن يفتح باب حجرتها على أثر خروجي مباشرة، فتباطأت في خطاي حتى حاذتني وهبطنا الأدراج معاً، ووجدت في نفسي رغبة شديدة في محادثتها ولم أكن أحجم في مثل ذلك الموقف فقلت لها بهدوء غريب:

- سعيدة يا هانم.. لعلك تذكريني..

فحدجتي بنظرة إنكار، ولعلها ظنّت أنني أتدّرع بالحيلة لاستدراجها إلى محادثتي، وأسرع الخطأ فلحقت بها عند باب الفندق وقلت لها:

- أهكذا تنسين جيرانك بسرعة.. ألا تذكرين حرم

- أيّ حظّ تعني.. أنت تعلم أنّ موظفي الزراعة لاحظّ لهم يُحسدون عليه.

فقال ضاحكاً:

- أنا لا أتكلّم عن الكادر.. ولكن عن فوزك بهذه الحجرة.. فيا حظك..

- وما الداعي إلى هذا الحسد.. هي حجرة دون حجرات الصفّ المقابل التي تطلّ نوافلها على البحر..

- هذا حقّ، ولكن شرفها تمسّ شرفة الحجرة رقم ٢٤ التي إلى يمينك وحسبك هذا..

- وما شأن الحجرة رقم ٢٤؟

فقال وهو يتنهد:

- تقيم بها امرأة حسناء وحيدة.

- وحيدة..!

- نعم.. وإلى هذا يعود السبب في أنّ حجرات هذا الطابق مأهولة كلّها.

- لعلها ممثلة أو راقصة.

- هو ما يظنّه الرقم ٢٧.

فقلت مستفهماً:

- الرقم ٢٧؟

- أعني زميلي الدكتور الصوّاف المقيم في الحجرة رقم ٢٧، ولكنني لم أواقفه على ظنّه، لأنّي خبير بالصلات والمراقص جميعاً، والأعجب من هذا أنها تبدو محترمة ولا ينقصها إلّا زوج لتكون من المصنونات حقاً.

فابتسمت وقلت:

- عند الامتحان يُكرم المرء أو يهان.

- أوه.. كلّ الأرقام تطاردها مطاردة عنيفة.

- ألم يفز أيّ رقم بطائل؟

- في الظاهر لا، والله أعلم بالسرائر.

- وجالسن صديقي ربع ساعة، تحدّث فيها ما شاء

له الحديث، ثم ودّعني وانصرف إلى حجّره، وكنت

تعباً منهوك القوى فتمت ساعة نوماً عميقاً واستيقظت

عند العصر، وفتحت شرفتي وجلست فيها أستروح

هواء البحر المنعش، ولاحت منّي نظرة إلى الشرفة التي

حسن بك همّام القاضي؟ ..

فألقت عليّ نظرة غريبة ولاحت في عينيها الأحلام  
وسمعتها تتمتم:

- عدالات هانم .. شارع الزقازيق ..

فقلت بفرح:

- نعم، هذه هي والدتي .. وهذا شارعنا ..

فهشّت لي وسارت إلى جانبي وهي تقول:

- أأنت ابنتها؟ .. تذكرت .. كيف حال عدالات

هانم؟ ..

فقلت بسرور وقد أيقظ صوتها وجدي القديم بها:

- والدتي بخير .. كيف حالك أنت يا هانم؟

- عال، ولكن أين عدالات هانم؟ .. هل أنت

وحدك؟ ..

- نعم، الأسرة في رأس البر لأنّ والدي يجيها  
ويفضّلها على الإسكندرية، وأنا هنا بحكم عملي.

- نسيت اسمك.

- حسونة ..

وكنت نسيت اسمها كذلك ولكنّي نفرت بطبعي من  
سؤالها عنه، فمشيت إلى جانبها صامتاً وكان وجداني  
في يقظة قويّة وأصارحكم القول بأنّي من الذين لا  
يلكون عواطفهم إذا خلوا إلى امرأة أيّاً كان جمالها،  
وأنّ رغبتني في النساء عامّة لا تعرف التخصّص، وقد  
كنت قبل نحو عشرين عاماً ذا استعداد للحبّ، ولكنّي  
فقدت بمرور الزمن وأطراد التجارب وكثرة الأهواء  
تلك الموهبة الجميلة ودنوت كثيراً من الحيوانات  
الراقية، وكنت في ذلك الوقت خاطباً، وكنت اخترت  
خطيبتني من بين عشرات الفتيات ولكنّ ذلك لم يمنع  
قلبي - ذلك اليوم، من التعلّق السريع بتلك المرأة  
ومعاناة الرغبة والطمع، قلت لها:

- أأنت وحدك هنا؟

فقلت بلا اكتراث:

- نعم!

- وزوجك؟ ..

- في السلوم.

- ولماذا تعيشين وحدك؟ ..

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت:

- لا ينقصك إلا أن تفتح محضراً للتحقيق وتطالبني  
بالشهود.

- فحجّلت من فضولي، وضحكت أداري خجلي،

ولم تكن عواطفني تكفّ عن الطغيان فقلت:

- ألا يحسن بنا أن نبحث عن مكان صالح

للجلوس ..

فهزّت رأسها وقالت بعناد ظريف:

- كلاً أنا أفضل المشي لأنّي أريد أن أنحف.

فنظرت إلى جسمها البصر الممتلئ نظرة معذب

ووجدت في كلامها فرصة ذهبيّة لا ينبغي أن تغفل ممّي

فقلت بإعجاب:

- وما جدوى هذا التعب .. إنّ جسمك كامل

الفتنة ..؟

فألقت عليّ نظرة جمعت بين الانتقاد والدلال وقالت

وهي تشير إلى جسمها:

- هذه موضوعة قديمة.

فقلت بحماس:

- هذا جميل وكفى .. وما عدا ذلك فلا وزن له

عندي.

- وعند الناس ..؟

- نعم وعند الناس ..

كدت أنسى هذا، إذ خيل إليّ الوهم الساحر أنّي

صاحب الشأن الأوحد، وعلى أنّها قالت ما قالت وهي

تبسم إليّ بإغراء. فاستخفني الوهم مرّة أخرى واشتدّ

بي الطمع فقلت:

- أنت لم تتغيّري في هذه الفترة الطويلة وكأنّ التي

أراها الآن هي السيّدة الجميلة التي أشرقت بغتة في

بيتنا بمصر الجديدة منذ عشرة أعوام، وغربت بغتة

كذلك فتركتني أحلم بها أيّاماً وشهوراً.

فنظرت إليّ بخبث وقالت:

- يا لك من مكر ..

فقلت ضاحكاً:

- ما وجه الغرابة في ذلك .. من يرى هذا الحسن

ولا يتمنّاه؟

- الظاهر أنّي سأجد من الواجب أن أفارقك لأنجو من أمانيك. .

- حاشا أن تفعل.. بل حاشاي أن أتركك تفعلين. إنّ فوزي بلفائك بعد هذا الغياب الطويل نعمة من البطر الشّير الكفر بها. . .

- إنك تحذّني كما لو كنّا عاشقين افترقا ثمّ تلاقيا. . .

- هذا شعورك. . .

- هو أدنى إلى الوهم.

- أمّا من ناحيتي فلا. . .

- وأما من ناحيتي فنعم. . .

ولكنّها قالت ذلك بدلال ورقة، وهي تبسم ابتسامة عذبة تسيل إغراء، ولم أدهش لما تبدي من استسلام لأنّ حالتها في الواقع كانت تدعو إلى الرية، وتذكّرت ما قال صديقي الدكتور شلي فقلت:

- إنّي أعجب لماذا تقيمين وحدك في هذا الفندق؟

- أراك تعود إلى التحقيق. . .

- كلاً لا داعي للتحقيق.. ولكنّي علمت أنّ

القيمين بالطابق الثاني يضايقونك. . .

- أبداً لعلهم يضايقونك أنت. . .

فتنهّدت وتعمّدت أن أسمعها تنهّدي ثمّ قلت:

- فليكن. . . ألا ترين من الحكمة أن (نترك) فندق

ريش. . .؟

- نترك. . .

- نعم. . . أنا أعني ما أقول، وأعرف فندقاً هادئاً

في لوران، فما رأيك؟

ولم تجبني، ولازمت الصمت حيناً، وبدأ على وجهها الاهتمام والتفكير فحفق قلبي وساورني الخوف والقلق؛ ولكنّي أحسست فجأة بذرعاها تلتفّ بذراعي وسرنا مشتبكين كالعشاق أو الأزواج؛ فأتلج صدري وغمرني الفرح والفوز، وقعت بذلك جواباً. . .

وفي مساء ذلك اليوم افتتحنا معاً مأدبة الحب، فعدنا إلى ريش وأخذنا حقائبنا ورحلنا إلى لوران ونزلنا في فندق أكس لاشابل، وهو فندق هادئ منمزل يقوم على شاطئ البحر كزاهد عازف يولي ظهره ضجيج

الحياة ويستقبل أفق الأبدية والأحلام.

وعشت أياماً أذكرها دائماً كما يذكر السقيم عهد الصّحة والعافية؛ كان الحبّ فيها الحاكم القاهر المستبدّ الطاعني الذي لا يترك لشيء مكاناً من عقولنا أو نفوسنا، وكنت أعلم أنّها أيام وإن طالّت قصار، وإن صفت فيلى انتهاء سريع؛ فأقبلت عليها بنهم وجشع أملأ من حسننها قلبي وحواسي؛ كيلا أدع زيادة المستزيد، غير مؤجل متعة إلى غد أو مَبَق على لذة إلى حين، أو تارك ثمرة بلا قطف والتهام. . . وكانت شريكتي سعيدة راضية يسكرها الحبّ وتستخفّها آيات العطف، فتستزيد منها كما يستزيد منها الثمل من الطرب.

وتبيّن لي بغير كبير عناء أنّ أماننا متباينة، فكنت لا أفكر إلّا في حاضري، وأودّ لو امتصّ ما فيه من حلوة في رشفة واحدة. . . أمّا هي فكانت تنظر إلى بعيد ولا تفنّ تذكر المستقبل وترغب رغبة صادقة في أن تطمئنّ إلى دوام السعادة والحبّ. وقد عجبت لذلك وعلمت أنّي لم أفهم بعد تلك المرأة؛ وقد ظننتها حيناً امرأة مستهترّة متقلّبة الأهواء، تحبّ البلاد بعيداً عن زوجها طلباً للحبّ الأثم وانتهاءً للذات. . . ولكنّي وجدتها هادئة الطبع، عظيمة المودة، لا تسيطر عليها النزوات العمياء التي تورّد أصحابها مهالك الفتن. . .

وكانت أيامنا الأولى أيام حبّ خالص، فلم يكدر صفوي مكدر، إلّا أنّ إفراطي الشديد ردّني إلى شيء من اليقظة والانتباه فاستطاع فكري أن يتناول أموراً غير الحبّ. . .

فكّرت في أنّي اعتدي لأوّل مرّة على حرمة الزوجية، ولم يكن سبق لي أن اقترفت هذا الإثم المنكر فوخزني شكّة الألم وأحسست بخوف غامض، وزاد من ألمي أنّي كنت على عتبة الحياة الزوجية، وساءلت نفسي في رعب: ألا يجوز أن يقتصّ الله مني ويصيبني يوماً في المقتل الذي طعنت فيه الآخرين.

وهنا قاطعه أحد المستمعين قائلاً:

- وهل صدقت مخاوفك فيما بعد. ؟

وضحك البعض ونظر محدثنا إلى مقاطعه شزراً ثمّ

استأنف حديثه قائلاً:

- ثم فكرت في أمر آخر لا يقلّ عن سابقه خطورة. فكرت في أمر الزوج الغريب الذي يترك لزوجته الحبلى على الغارب. ما الذي عساه يفرّق بينهما؟ وكيف يرضى عن هذه الحياة الغريبة؟.. وألا يمكن أن يظهر بغتة في أفقنا المهادئ فتكون الطامة التي لا تدفع.

وكانت هذه الأفكار تساورني خارج الفندق بعيداً عن ظلّها الخفيف ولكّني وجدت نفسي مسوّقاً إلى مفاصلها بهذا الحديث وقد فعلت، فسألته يوماً:

- أما من أخبار عن زوجك...؟

فاكفهر وجهها وأظلمت عيناها وقالت:

- دع هذا الحديث جانباً... .

فاضطرت ساعته إلى السكوت، وفي نيتي أن أعيد الكرة مهما كلّفتني ذلك. وكانت تتحاشى هذا الحديث وتتهرب منه، ولكّني قلت لها يوماً بإخلاص وحزم:

- ينبغي أن تعلمي أنّه ليس الفضول الذي يدفعني إلى معاودة السؤال، ولكنّه اهتمام بشخص أعزّه وأحبّه وأرجو دائماً أن يفتح لي صدره وقلبه... .

كم فرحت لكلامي هذا... . لقد التصقت بي بوجد وحنان وتنهّدت بسعادة وقالت:

- يا للسعادة... . طالما ضرعت إلى الله أن يبيني قلباً حنوناً محبباً... .

فدأبت خصلة من شعرها الأسود بيدي وقلت:

- إذا هيّا وصارحيني بكلّ شيء.

- ولكنّه حديث مؤلم كريحه.

فقلت:

- أنا لا أدري شيئاً، لأنك لم تريدني أن تطلعيني على شيء. ولكّني كنت أرجح دائماً أنّ حياتك الزوجية غير سليمة، ومهما يكن من أمر فينبغي أن أعلم كيف يتركك زوجك هكذا... .

فهزّت منكبيها باستهانة وقالت:

- إنّهُ لا يعرف مقرّي على وجه التحقيق... .

- ما أعجب هذا!.. أستطيع أن أفهم أنكما غير متحابين، ولكنّ الذي لا أستطيع فهمه هو أن تبقي

زوجين بعد ذلك.

- إنّهُ لا يطلّقي لأنهُ لا يستطيع الاستغناء عن مالي... . وسوى ذلك فلم يكن زوجاً قطّ وهو لا يطيق أن يكون زوجاً في يوم من الأيام... . على أنّي في الواقع لا أرغب في الطلاق.

فحدّثت في وجهها دهشاً وقلت:

- هذا أعجب!

- لا تعجب لشيء. ألا ترى أنّي هكذا مالكة لحُرّيتي؟ ولو كنت مطلّقة ما استطعت أن أذهب إلى حيث أشاء. ولو كان لي من يهّمه أمري ويحنو عليّ بصلق لتغيّر مصيري من بادئ الأمر، ولكّني وحيدة، وحيدة في هذه الدنيا الواسعة، أنت لا تدري ما الوحدة... . أمّا أنا فقد تحرّعت مذاقها طوال هذه السنين... . مات أبواي والتحق أخي الأوحد بوظيفة في قنصلية اليونان، ونبذني زوجي... . فليس لي مكان آوي إليه أو قلب يعطف عليّ. أنا منبوذة في هذه الدنيا... .

فوجت صامتاً وغلبني التأثر الشديد، ورأيت وجهها الجميل محتمّاً كقطعة من الجمر ولحت دموع حبيسة في عينيها فقلت:

- إنّك جميلة وغنيّة، فإذا كان يريد هذا الأحمق؟

- إنّهُ وحش ضارٍ وقاسٍ جحود، لم أستطع أن أعاشره كزوجة إلّا آيأماً معدودات ثمّ اضطرّرتني إلى حياة التشردّ والهيمان... . ولو وهبني الله طفلاً لاستعنت به على الصبر والرضا، ولكّني حرمت حتّى من هذا العزاء.

وكانت تتكلّم بتأثر شديد فخيّل إليّ أنّي سأبتعها إلى البكاء، وثرث في نفسي على الحظّ التعس الذي ضيّق عليها الخناق، وخطرت لي فكرة فقلت لها:

- ألم يكن في وسعك إصلاح ما أفسد الحظّ؟

فضحكت ضحكة مريرة وقالت:

- الحظّ التعس لا يصلحه شيء وأنا ما قصّرت قطّ، وأصارحك القول بأنّي كنت أحبّه وما وافقت على الزواج منه إلّا لأنّي أحببته يوماً، ولكنّه مضى بعد الأسبوع الأوّل من زواجنا يقضي الليل خارج البيت

تفاصيلها... وقد كانت فاصله في حياتي بين  
عهدين...

إني أذكر تلك الأيام بلا ريب... ولكن كم كنت  
أجهل ما تخفي من التعاسة والبؤس...

واحترمت فترة الصمت التي تلت ذلك ثم سألتها:

- كيف عدت إليه بعد ذلك؟..

فهزت رأسها باشمزاز وقالت:

- في تلك الليلة انتهت حياتي الزوجية في الواقع،

ولكني كنت بلا مأوى وبلا معين، فإذا أصنع؟...

عرض عليّ اتفاقية فقبلتها، وهي أن أعطيه من مالي

على أن يعطيني حرّتي. وقد كان... وغدوت حرّة

أقيم حيث أشاء وأفعل ما أشاء لا أسأل عما أفعل...

وهالني الأمر فقلت:

- وهل عشت سعيدة؟...

فتنهّدت وقالت:

- ليت ذلك كان ممكنًا... ما تمّنت على الله من

شيء مثلما تمّنت أن يسلبني حرّتي هذه في لقاء أن

أحظى بالسعادة التي أحلم بها والعطف الذي أتمنّى

إليه، وأنا مستعدة دائمًا أن أنازل عن حرّتي بآنية لمن

يهيئ قلبه وإخلاصه... كم تعبت وكم بحثت... وكم

ضقت بحرّتي...

الآن علمت كلّ شيء... لقد صرفت هذه المرأة

التعسة عشرة أعوام في البحث عن العبودية السعيدة،

فهل يا ترى وقّفت إلى ما تريد؟... كلّاً. هي لم توفّق

ولا ريب ولو أنّها وقّفت إلى الحبيب الصادق ما ارتمت

بين أحضاني أنا بهذه السهولة. لقد انصرفت السنوات

العشر في خيبة مريرة وخدع أليمة. وما من شك في أنّ

الكثيرين تلقّفوها بشراة وجشع كما أفعل الآن، ثمّ

ردّوها قهراً بعد شبع إلى حرّيتها البغيضة. وهكذا

فالحرّية نفسها تهون وترخص أحياناً وتعي في طلب

المستبدّ الغاصب.

ولما انتهت من سرد قصّتها نظرت إليّ بطمأنينة

واستسلام، ثمّ ألصقت جبهتها بجبهتي وسمعتها

تهمس في أذني قائلة:

- وأخيراً...

ولا يعود إلّا قبيل الفجر، وكنت إذا انبرت لإصلاحه  
ومدافعة الشقاء الذي يهدّني به سخر منّي وهزأ  
بمحاولاتي، ولماً ضاق بي، ترك السخريّة والهزء وعمد  
إلى الخشونة والفظاظة...

وسكنت عن الحديث دقائق وهي مستسلمة إلى

الشعور الأليم الذي أحدثته الذكريات. ثمّ أردفت

بصوت أعمق ووجه أشدّ اكفهرًا:

- وأدركني اليأس منه، ولماً أنتم شهرًا كاملًا في بيتي

الجديد، وكان ذلك الحادثة همجية لا يمكن أن تمحي

من ذاكرتي أباستني من الخير ودمّرت كلّ فضيلة في

نفسي؛ ففي ليلة من ليالي شهر العسل كنت مستغرقة

في النوم بعد سهاد حزين، وإذا بهزة عنيفة توقظني من

نومي، فاستيقظت فزعة صارخة ونظرت بعينين

مرتعبتين فرأيت جالسًا إلى حافة الفراش، وهممت

بتعنيفه، ولكنّ لساني لم يتحرّك في فمي لأنّه كان في

حالة سكر شديد كما تبينّت ذلك من نظراته الذاهلة

ووجهه المحترق والرائحة التي تنبعث من فمه، وكان

هناك ما هو أدهى من ذلك، كانت تقف قريبة منه

امرأة غريبة في مثل حالته من السكر الشديد، كانت

تتنظر بلا ريب أن أوسع لها مكاني من فراش العرس،

ولم يمهلي حتّى أفيق من فزعني ودهشتي، فقال لي

بلسانه الثقيل الملتوي: (تفضّلي خارجًا) ولم تنتظر

صاحته، فدنّت من الفراش وارتمت إلى جانبي، ولم

أتمالك نفسي ففزعت من مكاني إلى أرض الغرفة

وفقدت رشدي، فانفجرت غاضبة وانهلت عليه سبًا

ولعنًا؛ ولكنّه هزّ كتفيه استهانة واستلقى إلى جانبها

فغادرت الحجرة في حالة جنونية، وأحسست برغبة لا

تقاوم في هجر البيت، وكانت ثيابي في الدولاب داخل

الحجرة، فأخذت غطاء المائدة القطيفة وتلفّعت به

وفتحت الباب وولّيت خارجًا، والديوك تصيح معلنة

طلوع الفجر، وهرولت في الطريق الموحش لا ألوي

على شيء حتّى انتهت قدامي إلى البيت الوحيد الذي

تعوّدنا الذهاب إليه... بيت والدتك... ولعلّك تذكر

الأيام القلائل التي قضيتها عندكم... إني لا أنسى

تلك الليلة أبدًا... ولا تزال قائمة في نفسي بجميع

حياتي دون أن تترك وراءها أثراً لحزن أو ألم أو تأنيب ضمير. وانقلبت حياتنا تمثيلاً ثقيلاً، وكان كل منا يعلم بما يشعر به صاحبه نحوه، ولكننا كنا نتجاهل كل شيء... لماذا لم تصارحني بشعورها؟... لماذا لم تهب للدفاع عن سعادتها الموهومة؟ لم يحدث شيء من هذا. وقد عدت ظهر يوم من عملي بالتفتيش فوجدت حجرتنا خالية، وبحث عيناى عن آثارها اللطيفة التي تعودت رؤيتها كالفساتين التي كانت تعلقها على المشجب أو الحقيبة التي كانت تضعها على المائدة فلم أر لها أثراً، وأسرعت إلى الدولاب وفتحته على مصراعيه فلم أجد سوى ثيابي، وناديت الخادم وسألته عنها؟ فأخبرني أن المانم تركت الفندق الساعة العاشرة صباحاً وأنه أحضر لها بنفسه التاكسي.

وبحثت هنا وهناك عن خطاب أو ورقة لآتي كنت أتوقع أن تترك لي كلمة، ولكني لم أعر على شيء. لقد تركتني دون كلمة، وانتهى كل شيء!

وجلست صامتاً واجماً تتنازعني العواطف، ولم أشعر براحة للخلاص الذي جاءني بدون مشقة وأحسست بخجل وألم ووحشة ثقيلة، ولم أجد رغبة في الطعام فقممت من فوري أبحث عن مسكن جديد، لأنه كان يتعذر علي أن أبيت ليلتي في تلك الحجرة المهجورة.

وسكت الراوي لحظة ثم أردف:

- ومضت سنوات لم أرها فيها، ثم رأيتها منذ عهد قريب تسير شاباً أنيقاً في ميدان المحطة؛ ولكني لا أدري إن كانت ما تزال تبحث عن الحب والعطف أم أنها استسلمت إلى القنوط؟!

وفهمت مدلول تلك الكلمة وعلمت أنني ألعب في روايتها البائسة دور الأمل الأخير، فلما أن أقوم به كما تتمنى أحلامها ولما أن أشفي بها على اليأس القاتل. وأحسست بثقل تبعي ورأى على صدري همّ عظيم وتساءلت حيران ترى ما هي أحلامها؟... أن تدوم هذه العشرة... وكيف لي بدوامها وأنا على قاب قوسين أو أدنى من الزواج؟... ومضى تأثري الشديد لتعاستها بهذا نوعاً، وأخذت أفكر في نفسي وأنظر إلى علاقتي بها بعين متشائمة، وأتساءل في قسوة وأسف عن طريقة للخلاص... وكانت تأتي علي أوقات أعجب فيها من أناثيتي وأتساءل في اشمزاز- إذن كيف كان شأن من لم يشعر نحوها بغير الشهوة والطمع؟ الحق أن علمنا الإنسانيّ عالم شديد القسوة، وما أضيع الفلسفة التي تعب أصحابها في الدعوة إلى القسوة وتحقيق تنازع البقاء، فهي في الحقّ تحصيل حاصل وجهد ما كان أخرى باذليه بالضنّ به.

على أن الذي أزعجني هو أن زينب فطنت لمشاعري الخفية من غير أن أصارحها بها. وبدا لي ذلك في وجومها وبرودها وقنوطها. ولم أدهش فإني من الذين لا يدرون كيف يخفون ما بنفوسهم، وتفضحهم أعينهم وإغواءاتهم. ولم أكن بئس قط نية مصارحتها بعاطفة مما يعتلج في صدري أو بفكر مما يحترق في رأسي، وقد كنت أفكر في حالتها بعطف ومودة، ولكنّ العطف شيء والحب شيء.

وكنّت أتوقع في خوف وإشفاق أن تفانحني بما يقوم في نفسها من الوساوس، وكان ذلك بضاعف الآمي النفسية، ورجوت أن تنقش تلك السحابة من سماء

## خِيَانَةٌ فِي رَسَائِلِ

- من تَوَاتِيهِ فرص التعبير فيخفف من مراجل عاطفته .

وهنا ظلَّت وجهه سحابة كدر، وسألها بعد تردّد:

- هل لك أبناء عمّ؟ ..

فابتسمت ابتسامة دلّت على أنّها سرّت للقلق الذي

بعثه هذا السؤال وأجابته :

- نعم لي .. ولكنّهم لم يجاوزوا عهد الطفولة، ولو

كان الأمر كما تنوّه ما أوجب أدنى خوف أنّها الرعديد

الغيور .. والآن هاتِ فمكِ أودّعكِ .. وهيا نقول معاً

هذه الكلمة المروعة التي تنزع لها القلوب :

«أستودعك الله ..» .

من الغد يصبح لنا في قنا حبيبان عزيزان: حبيبة

القلب عاقلة، وصديق الصبا وزميل عهد الدراسة

الأستاذ أحمد مرزوق المدرّس بمدرسة قنا، ولكنّه بينما

يتّصل بصديقه بالكتابة فهو محروم بحكم الظروف من

تمام هذا الاتّصال الروحيّ بحبيته، لأنّ حبهما ما يزال

سرّاً خفياً كما يَدْرُ بأمره الأهل ..

وانقضت أربعة أيّام على سفر عاقلة، ثمّ وصله منها

كتاب جاء فيه :

حبيبي حسني :

«أعجب لهذه الوحشة كيف تمخّض على صدري وأنت

معي .. نعم أنت معي لم تفارقي لحظة سواء في

ضجيج النهار أو في سكون الليل؛ معي وأنا أرسل

الطرف من نافذة القطار أشاهد الحقول الممتدة وأشجار

النخيل البعثة؛ معي وأنا بين أهل عمّي أتلقّى

الأحاديث وأردّ عليها، وأضحك هذا وأسمع لذلك؛

معي في كلّ مكان وكلّ حين، فلا عجب لنفسي بعد

ذلك أن هرّها الحنين إليك أو استشعرت وحشة وضيّقاً

- هذه أوّل أزمة تصيب حبّنا! نعم طالما آلني الفراق

الهيّن، وأجهدني الشوق إلى اللقاء: وعذبني الدلال؛

أما الوداع . أما الرجيل إلى قنا فذا أمر جديد، يدفع

إلى نفسي شعوراً بالحنن لا عهد لها به فهلاً عدلت عن

السفر ..؟

- لو كان الأمر إلّيّ ما رغبت نفسي أدنى رغبة في

السفر، فما أحفل بقضاء الشتاء في أعالي الصعيد

بعض احتفالي بالقرب منك كيما أواصل هذا اللقاء

السعيد! ولكن ما حيلتي وهذا ما يريد أبي ويفعله منذ

أحيل إلى المعاش . ولقد اعتاد أن يمضي شهراً أو

شهرين من الشتاء في قنا عند عمّي الدكتور ..

- يستطيع عقلي أن يتصوّر المعجزات، ولكن لا

أستطيع أن أتصوّر ما عسى أن تكون عليه حياتي في

هذين الشهرين، فهذا الحبّ غدا حياة لشعوري،

وهذا اللقاء أمسى ألفة لنفسي، أجد فيها راحة بعد

تعب، وعزاء عن شوق دائم، فما عسى أن أصنع؟ بل

ما يكون زادي وسلوقي؟

فوضعت يداً خمرية ناعمة على كتفه، وداعبت

بأطراف أناملها خدّه، وهمست في أذنه :

- هذا شعوري وهذا حزني، ولولا كراهيتي للعزاء

لنصحت لك بالتعزّي والتلهّي فليس أمامنا سوى

الصبر الجميل حتّى ينطوي دهر الفراق ويتّصل جبل

اللقاء .. ومع هذا فما أسعدك وما أباسني ..!

- كيف ..؟

- لن أسعد بقراءة كلمة طوال مدّة غيابي، لأنك لا

تستطيع أن تكتب إلّيّ، أما أنت فتستطيع أن تطلع على

همسات روحي كلّما مكّنتني الفرص من اختلاس

الكتابة إليك .. فأينما أسعد حظاً؟ ..

حينذاك لحسبته حديقة غناء في مصر الجديدة أو قصر النيل.

إنها شابة جميلة تحمل في طياتها عطر القاهرة المعبى، فليهنأ قفر قنا بهذا العطر العذب...

فحق قلبه لدى مطالعة الكتاب ولم يداخله أدنى شك في معرفة صاحبة الشخصية الجميلة التي أثارت لوعة الشباب في قنا.

يا له من كلام يحمل فرحاً وألماً، والألم فيه أكثر! أيوز أن تسعد قنا ومن فيها بحبيته ويبقى هو في القاهرة تسيل نفسه حشرات عليها؟

وهم أن يكتب لصديقه كتاباً يعلنه فيه بأن الفتاة التي هرز مقدمها قنا هي حبيته اليوم، ثم خطيبته غداً، ولكنه جفل من هذا الإعلان ووجد رغبة خفية أن يكتبه إياه وأن يطلب منه أن يوافيه بأخبارها التي تستحق الرواية والحديث.

لقد تردّد لحظة وطرح على نفسه هذا السؤال: ألا يُعدّ هذا تجسّساً منه على حبيته؟

وهل يجوز هذا في شرع المحيّن؟ أو ليس الأفضل أن يربأ بنفسه عن أن يضع صاحبه موضع الاتهام والظنة!

ولكن عاطفة الندم هذه لم تستطع أن تقهر عواطف قلبه الجياشة السوداء فطردها من نفسه وكتب إلى صديقه بما أملت عليه شكوكه من بادئ الأمر. وبعد حين وصله كتاب ثانٍ من صديقه جاء فيه عن عائدة ما يلي:

«تغيّر كلّ شيء في قنا وكلّ شيء في حياتي. ولم تعد قنا قبراً موحشاً فاغراً فاه مكشّراً عن أنيابه، ولم تعد حياتي سائماً ثقيلاً متّصلاً. كيف لا يكون هذا وأنا مطمئن إلى أنّي ساحظي أصيل كلّ يوم برؤية ذلك الوجه السافر المتبسّم الذي يجي موات النفوس، ويبيع مصفرّ الأمل... ما أجملها، وما أعذبها!

علمت الآن أنّها ابنة أخي مفتش الصحة، أو هذا ما علمته قنا عامّة وعلمه شبابها خاصّة. إنّ جميع العيون تلتهمها التهام الجوع، فلعلّ هذه الضجة تثير الغيرة في نفوس الأبناء الموظّفين، فتشجّعهم على

في البعد عنك، أو ألهبها الشوق عذاباً وجوى». وأرجو ألاّ تتهمني بالكسّاسل عن الكتابة إليك، فبيت عمّي عامر بالأطفال وهم لا يتركوني لحظة أخلو إلى أنفسي؛ وقد انبعثت كلمات هذا الكتاب من شعوري وامتلا بها عقلي وتمثّلت في حواشي وحفظتها عن ظهر قلب قبل أن تواتيني الفرص فأسطرها لك خلصة على ضوء القمر المتسلّل من نافذة حجرتي والعيون قد أغمضها عني المنام... فاعذروني إن تأخّرت عنك رسائلي وأرجع إن شئت إلى قلبك فاعتقادي أنّه يملّي عليك عن لساني ما أحبّ أن أقوله لك دائماً.

أمّا عن قنا؛ فجوها دافئ جميل، وخلا ذلك فنحن في منقّى، ولولا ما يربحه أبي فيها من صحّة وعافية ما تركته يسكن إليها لحظة من الزمان.

فأخذ من الكتاب كلّ ما استطاع أن يمنحه من العزاء والسولة والسعادة.

وكان صديقه مرزوق لا ينقطع عن مراسلته وإن خلت كتابته من الطرافة والجدّة، فهي التحيّات المحفوظة وبتّ الأشواق والتلهّف على إدبار العام الدراسي وإقبال العطلة الصيفية إلّا أنّه أضاف إلى هذه المحفوظات في آخر خطاب ما نصّه:

«طلما قلت لك إنّّي أعيش في قنا كما عاش أبونا آدم قبل أن يخلق الله منه أمّنا حواء. لا يقع بصري على وجه امرأة قطّ، وإن كنت أرى أحياناً بعض الأصدقاء يشيرون إلى كتلة من الثياب السوداء الملفوفة تسير كعمود من الدخان الكثيف وأسمعهم يقولون: انظر إلى هذه المرأة...

ولكن وقع بالأمس ما يعدّ حدثاً تاريخيّاً في حياة قنا؛ إذ حضر الدكتور سامي حسني مفتش الصحة إلى البستان العموميّ وفي صحبته غادة جميلة سافرة الوجه فهزّ البلد وزلزل كيانه. إنّهُ رجل جسر لا يعبأ بآراء المتزمتين، وتجده دائماً على استعداد للردّ على تطعّل المتطعّلين بما يجعله مثلاً وعبرة، ولم يلبث أن شاع الخبر وملا الأسباع فهرع الموظّفون من مدرّسين ومهندسين وكتبة إلى البستان وهم يسوّون أربطة الرقبة ويحكمون أوضاع الطربوش على رؤوسهم، فلو رأيت البستان



استجابات خفية لرسائل الصامته الملتزمة، وأستشفت أحياناً على فمها ابتسامة خفيفة، ولعلها تخاطب عمها أو أحد أبنائه الصغار بصوت مسموع وهي تعني. لا تدهش لأقوالها فإني أطاردها في اصرار، وأتبعها في عناء، وأخاطبها بصوت مكتوم تنني به عنه شفتاي المتحركتان، وأبعث إليها بإشارات الشكوى والرجاء، وقد اقترت مني مرة وهي تلاعب طفلاً من أبناء عمها وسمعتها تقول له أو لي إن شئت: «دائماً في أعقابها، فماذا تصنع لو رجعت إلى مصر؟...» فقلت لها بصوت مسموع «لعلك لا تعودين...»، إنها كلمة ذات مغزى خاص إذا قالها شاب أعزب موظف مثلي. وقد كان لها الأثر الجميل. والآن أفتني فإنك خير طبيب عالم بأحوالي، هل أقدم أم حسي ما دقت من لذة بريئة وأولي ظهري ودأ لن ينتهي بالتنام... إن ثمرة الحب ناضجة دانية تنتظر من يقطفها. ما رأيك؟...»

يا للظلام... يا للآلم الساخر... عبثاً يحاول دفع هذه الآيات بالشك والتكذيب، فعائدة بلا رب هي التي لا تستطيع مغالبة الشوق بالتستر وعدم الاكتراث المفتعل، وهي التي تحدث الغير وتعني المجدود من الرجال، هي التي تجيب عنها الإجابات الخفية... وهي تسكرها بغير الزواج...

فيا للظلام ويا للخيبة القاتلة... والأدهى أنه يريد منه أن يكون مستشاراً في مأساة قلبه... لعله يرجو أن يشير بما يقطع خيط العنكبوت الذي يمسك بكفه أحلامه وسعادته... فيا للسخرية! من المستطاع أن يحاول إنقاذ سعادته فيعلن صديقه بالحقيقة السافرة ويضع آماله بين يدي شهادته وما يمهّد فيه من الإخلاص والمروءة، ولكن كبرياءه تأبى عليه أن يكون في حبه من المسترحمين السائلين، وهو يندفع برغبة جنونية نحو جحيم العذاب كأنما يستطيع النار المؤقّلة؛ وأبى إلا أن يعرض حبه لأقصى امتحان. فلما إلى نعيم الطمأنينة، وإنما إلى أهوال العذاب، وعليه فقد تمالك وكتب إلى صديقه:

«إذا كانت ثمرة الحب ناضجة فاقطفها بلا تردد،

الاستهتار بتقاليد الصعيد وأهليه، وإبراز بناتهم للعيان، ومهما يكن من الأمر فنحن الراحون.

لا تخش على أخيك من قهر، فهو بطل صنديد، وشخصية لا يشق لها غبار، وإن عني لتتفذان من بين العيون جميعاً وتجذبان عينيها إليّ، فصبراً ولتعلمن بعد حين في أيّ غيباً من غيباً القدر كانت تنتظره هذه المفاجآت!.

ما هذا الذي يقوله مرزوق من أن عيني تجذبان إليه عينيها؟. إن لعيني مرزوق أن تجذباً كيف تشاءن... أما عينا صاحبه فما بالهما تجذبان وتستجيبان؟.. هلاً يكون ذلك مجرد نظر بريء فسرّه صديقه على ما يهوى غروره ويحب؟.. إنه لا يشك أبداً في إخلاص عائلته، ولكن ينبغي ألا ينسى أن لصاحبه عيني جيلتين يحس الناظر إليهما سخونة في أعصابه ولذعة في قلبه، وهو- إلى ذلك- مدرّس محترم من حملة الدبلوماسية العالية، ومن ذوي المستقبل السعيد. أما هو فلم يزد على أن يكون موظفاً صغيراً، كلّ مؤهلاته شهادة البكالوريا، ومستقبله مظلم محدود، أفلا يكون لكل هذه الفوارق أثر في الحب؟..

إنه يشعر بحزن عميق يجثم على نفسه فيجعلها من الكآبة كنفس هرم متشائم، ويحسّ بسم الغيرة ينطلق من قلبه ويلوث دمه... أواه... إن أحلامه وآماله تتأرجح على كف رجيم...

وفي ذلك الوقت أتاه كتاب من عائدة، فانكب عليه بلهفة، وتلاه مرة بعد أخرى، ولم يكن يخرج في معناه عن رسالتها الأولى، فتزعزت شكوكه، وعادته الثقة، وذاق بعض الطمأنينة والشفاء، وحلّ غرور صديقه إثم ما جنى عليه كتابه من الشك والعذاب، ولكنه تسلم رسالة من صديقه بعد ذلك بأسبوع، جاء فيها:

«كن على يقين من أن العاطفة النامية لم تعد قاصرة على جانب واحد، فعينا الفتاة- واسمها عائدة- تفتحان الحاضرين من الشبان وتستقران عليّ أنا. إنّي أطلع في وجهها عند حضوري سيمي الشوق والتطلع تحاول أن تخفيها بعدم اكتراث مفتعل، وأقرأ في عينيها

وقد كتب إليه في إحداها:

«أنا - باختصار - سعيد جداً، فحياتي مليئة بالبهجة والمسرة، وعائدة خير عزاء عن الوحدة والوحشة في هذا المنفى السحيق، وإني كلما أذكر أنني سأحرم هذه المتعة بعد شهر يشيب شعري من الهول، وأضمتها إلى صدري بشغف، وألتهم منها قبلاات ملتجة كآني أختزن منها ما أعود إليه عند الفراق. أما هي فتعتقد أنني لن تعود إلى القاهرة أو أنني تعود لكي ترجع إلى الأبد، فمن يديرها أن لي خطيبة تنتظري في القاهرة من سنوات طويلة...»

وبهذه المناسبة أقول لك إن عائلة من اللاتي وهبهن الله دلالاً وفتنة ولكنتها على قدر غير هيّ من الاستهتار والزلق؛ أما خطيبي فشابة حسيّة هادئة الطبع وعلى خلق عظيم، وإني أدخرها للزواج وأنا سعيد.

وكتب إليه في رسالة أخرى:

«معذرة أنني الصديق عن تأخير غير مقصود؛ والحق ماذا أقول لك؟ فالحياة الجميلة هي... لقاء فأحاديث، فمداعبات فتقيل وعناق فوداع ولقاء. إنها غدت مجنونة بي، وكلما مرّت ساعة اشتدّ بها الجزع وتكاد تنطق جوارحها: أن أذهب إلى والدي وخاطبه في حبنا لأكون لك طول العمر.

إنها أمنية طبيعيّة ولكن ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه...»

ثم كتب إليه بعد حين.

«قومت الألفة تلعنم الحياء وصيرت التلميح تصريحاً وأمسّت عائدة تلحّ على أن أكلم أباهاً لتتخذ علاقتنا الصيغة الشرعيّة المقدّسة، وكانت حياتي تكون السعادة نفسها لولا هذه المنعصتات.

والحقّ أنني أجد بين يديها سعادة صافية جعلتني شديد العطف عليها، وبعثت في الضمير ألماً مبرّحاً. وإنّه ليسوعي ما أبيت لها من نيّة الغدر والهجر لأنني في الحقيقة لم أر فيها أكثر من ملهامة متمعة أسكن إليها في هذا المنفى القصي. وما أشبه غرامي هذا بغرام الرحالة الجوّاب تتعدّد وعوده تعدّد ما يجوبه من البلدان. وما يثير النفس يا صديقي أنني أول أمس على

فإنّ حكمة الدنيا لتذوب حسرة على ثمرة حبّ ناضجة يزهد فيها الإنسان، أقدم ولا تُبالٍ بالتأثّر البعيدة، وتمتّع بالحبّ في منفى قنا ولا تحمّلن نفسك هموم التفكير في الغد، ولا تغفل عن تزويدي بكلّ جديد فأني أصبحت من تتبّع حبّك على حبّ شديد».

وانتظر ردّ صاحبه بصبر نافذ وجزع لحوح، حتّى وافاه منه كتاب جاء فيه ما يلي:

«بوركت من حكيم سديد الرأي! لقد أتبع نصحك أنني الأخ، وضربت لها موعداً همساً، ووافيت إليه صباح اليوم الثاني وأنا حائر بين الشكّ واليقين، بين اليأس والأمل، ولكن لشدّ ما كان فرحي عندما رأيته قادمة، والحقيقة أنني كانت مترددة مذعورة على رغم خلوّ المكان الذي يوحى بالطمأنينة في خفية عن أعين الرقباء، وبلغ بها الذعر أنني مرّت بي غير ملتفتة إلى يدي الممتدة كأنها جاءت لغير موعدي. فتتبعتها وحيّتها وطمأننتها حتّى قالت لي مضطربة:

- لا أدري كيف جئت... كيف أطعك... إنني مضطربة...»

فهذأت من خاطرها وسكنت اضطرابها ولاطفنها بما أوتيت من بيان ومران وحساس حتّى أفرخ روعها واطمأنت.

لقد تحدّثنا طويلاً، بل طويلاً جداً، ولو أردت أن أسطر لك ما دار بيننا ما انتهيت وما وسعتني الأسطر؛ فحسبك أن تعلم أنني فتاة جميلة رشيقّة حلوة المعشر، مهذّبة الطبع، وإن كانت تغلب عليها حدّة الإحساس وتوقّد العاطفة والذهاب مع الخيال. وقد حامت بمهارة حول موضوع الزواج فجارتها بخفة ولباقة لا تهويان بها إلى قرار اليأس ولا تعلوان بها إلى عهد الميثاق، وعند الافتراق تناولت منها قبلة خلّت لحلاوة جدتها أنني أول قبلة تناولها شفتائي...»

انتهى الأمر، وتبدّدت الأحلام وخابت الآمال وقضت على قلبه الذي انتهى طويلاً بأفراح الحبّ أن يتجرّع آلام اليأس والحجية.

وانقطعت عنه رسائلها ولكنته كان على علم متصل بأحوالها من رسائل صديقه التي جاءتته ترى.

موضعا ينبغي أن يتقرر فيه المصير، فإنما إلى يمين وإما إلى شمال، وما كان ينبغي لي أن أختار من جديد، وما أحببت ذلك قط فإن خطيبي تنتظر أوبتي بفارغ الصبر وهي أكرم على نفسي من هذه الفتاة التافهة الثرثرة التي لم يميّزها الله إلا بمظاهر الجمال المتبدل لا يلبث أن يتبحر أثره في الهواء. ومهما يكن من أمر فلن ينقضي أسبوع حتى تكون الأنسة عائدة في طريقها إلى حيث ألفت.

\*\*\*

قرأ جميع هذه الرسائل - رسائل صديقه وقاتله - بإمعان شديد.

وكانت تتسلط على نفسه في ذلك الوقت عاطفتان: عاطفة حزن عميق وشعور حاد بالخيانة والغيرة وانهار الأمل جعلته لا يذوق لذة في اليقظة ولا راحة في السهاد، وعاطفة تشف وانتقام أن تنتهي بها الخيانة إلى مثل ما انتهت به الحال من خيبة أمل وانهار صرح سعادة...

ولم يفرط في واحدة من هذه الرسائل التي سجلت تاريخ أكبر هزة عنيفة امتحن بها شبابه فجعلها في رزمة وحفظها في حق عاجي جميل ووضعها في مكان أمين وانتظر...

جاءته رسالة مقتضبة من عائدة نفسها تعلنه بقدمها وترجو أن يذهب للقائها في موعدهما المعهود عند العصر...

وفكر في أمره طويلاً، تفكير من تسيطر عليه عاطفة مسمومة ونفس جريحة حتى انتهى من أمره إلى تدبير، فذهب إلى الموعد في الساعة المعهودة، ولم ينتظر هذه المرة لأنه وجدها في انتظاره، واستقبلته بيدين مفتوحتين وابتسامة مشرقة، فضمها بين ذراعيه ولثم شفيتها وهو يبتسم ابتسامة كلفته غالباً من الجهد وضبط النفس.

وجلسا إلى نفسيهما كما كانا يفعلان في الأيام الخوالي السعيدة، وسمعها تقول بفرح فائض: - وأخيراً.

فردد قولها: «وأخيراً». ثم نظر إليها بعينين

أثر عودتي من لقائهما - جلست إلى مكتبي شاردًا أقلب بعض الكتب فما راعني إلا ديوان شوقي تنشق صفحاته عن صورة حفظتها فيه وكدت أنساها، هي صورة خطيبي بوجهها الصبيح الجميل وقد سطر على ظهرها بخط جميل «تذكار الوفاء» فكأنه سوط عذاب ألهني نازاً، ألا فليغفر الله ما تقدّم من ذنبي وما تأخر أيتها الحبيبة! والحق لقد اضطرب فؤادي وألقيت على الصورة نظرة دعر سريعة ثم أخفيت عن عيني أو أخفيت عيني عنها لأنه وقع في نفسي أنها تعلم بخيبي وأنها تصوب نحوي نظرة لا تعيش أمامها الخيانة.

وكتب إليه في رسالة أخرى يقول:

«لست فتى عصرياً كما كنت أعتقد، ولو أنني كنت كذلك لما هالني الغدر ولأكبرت على نفسي الخيانة ولسهل علي اصطناع الوداد للفتيات اصطناع تحيات الصباح والمساء، ولهذا تجدني معذباً موزع القلب فلا أنا بالراضي على نفسي لأنني نكثت ميثاق خطيبي ولا أنا بالسعيد بما ألقى من حب عائدة الذي رمانى تفانيها في هاوية من الندم.

ولا يخفى عليك أن الملل عرف طريقه إلى نفسي وأني بت منه في سقام وقد كان ذلك مقدوراً ولكن ما الذي عجل به!... لعله ذكرى خطيبي أو لعله أنني أقبلت على عائدة إقبال منهموم جائع فامتصت حلاوتها أو ربما كان ذلك لأن جامها طلاء لا يخفى من ورائه شخصية ذات بهاء وجلال».

ثم كتب:

«أمسى اللقاء غير ذي متعة، لأنني من ناحية بت أعاني من السأم وإرهاق الضمير، ومن ناحية أخرى فالفتاة تصر على مخاطبي في شأن الزواج ولا تكاد تصبر عن هذا الموضوع فرمت بي في الحرج والحيرة، وينتهي موعد اللقاء ونحن لم نفرغ من الجدل العقيم والتضييق السقيم والاعتذار والتهرب المفضوحين».

وأخيراً كتب إليه يقول:

«لأول مرة أخلف الميعاد، وإنني لأعذر نفسي وأغبطها، وأرجو أن تفهم الفتاة أن هذا مني إعلان بالقطيعة، ولم يكن من هذا بد بعد أن بلغنا في علاقتنا

مبتهجتين تخفيان دهشة وقال لنفسه: يا عجباً! ما أقدركن أيها النساء على إخفاء مشاعركن وتكلف ما ليس بكن!

وانطلقت هي تقول:

- أستطيع أن أخبرك كم ثانية غبتها عني طوال هذه المدة الثقيلة لا أرجعها الله.

- الذي يبدو لي أن استغراقك في حساب الزمن شغلك عن الكتابة إلي.

- أتسخر مني؟.. آه لو تعلم كم كانت تكلفني الرسالة التي أكتبها إليك! كنت أتسلل إلى مكان قصي بالبيت كي أخفي نفسي عن أعين أبناء عمي... فيجدون في أثري ويسدون عزلي ويفزعون أخيلي المنسجمة وعواظي الحارة، فإذا انتهيت منها احترت كيف أسلمها إلى صندوق البريد.

- ألم يكن الخروج هيئاً عليك..

- أحياناً مع عمي.

- لم تم تخرجي في الصباح وعمك في عمله والجو خال!

- لو فعلت لكان أمراً مثيراً... والشبان هناك جائعون أرذال عديمو الشرف.

- يا سلام...!

- نعم يا عزيزي..

- أرى عذرههم بيتاً... فمن يطالع هذا الوجه الجميل ولا يقهر على الحب قلبه؟ ولكن ماذا صنعوا معك حتى استحقوا عندك هذا الحكم القاسي؟

فصمت لحظة ثم قالت:

- إنها صغائر مألوفة لا يني عنها الشبان... ولكنها ليست بذات بال... فلندع هذا الآن... فاعتقادي

أنه لدينا ما يلد لنا حديثه أكثر من هذا..

- طبعاً... طبعاً... ولكن وأسفاه قد قُدر علي أن أحرِم هذه اللذة الليلة... لأن أمي مريضة وينبغي أن أكون إلى جانبها سريعاً، فلنؤجل هذا الحديث الممتع إلى المرة القادمة.

فنظرت إليه قلقة وسألت:

- ما لك؟ لست كمهدي بك! تقول إن أمك مريضة؟ لا بأس عليها... أمضطر أنت إلى الذهاب إليها حالاً؟

إنه يحس برغبة شديدة تدفعه إلى الانفجار لينفَس عن صدره بعض غليانه المكتوم وحقله المدفون، ويودّ لو يمجبه هذا الرباء بما يمزق قناعه ويتك ستره ويفضح شناعته، ولو فعل ما جنى على الرحمة والعدالة، فمن حقّه أن يصبّ جام غضبه ويثار لآلام قلبه ويمحق الحياة والمكر السيء.

ولكنه كان قد انتهى من أمره إلى مرفأ لا يريم عنه، وكان بطبعه هادئاً رزيناً كنوماً يبدّ فيه العقل الهوى وتتغلب لديه الحكمة على الثورة، فغالب دواعي الغضب في نفسه حتى أسكنها وقال بهدوء غريب:

- إني تعب مهموم مكدود الذهن، ولولا شدة شوقي لرؤيتك، ما هان علي أن أغادر أمي، وهي طريحة الفراش... فلنفرغ من هذا اللقاء ولو على مضض... والآن اسمحي لي أن أقدم إليك هدية جميلة. هذا الخنق العاجي... ورجائي ألا تمسيه إلا حين خلوتك إلى نفسك في غرفتك لتحظي بالمفاجأة السعيدة في غيبة عن أعين الرقباء... وإلى اللقاء القريب أيتها الحبيبة...

## من مُذكرات شاب

٢ يونيو:

ذهبت إلى حديقة صولت لمقابلة صديق من السعداء (أي الموظّفين) فجلّسنا نتحدّث في السياسة والرياضة والزواج - وصديقي من المتزوجين أيضًا - ثمّ لفت ناظرِي إلى مائدة غير بعيدة جلس إليها كهل وفتاة في مقتبل العمر ثمّ قال لي إنّ الرجل هو: ح. و. بك من كبار موظّفي المعارف وأنّ الفتاة كريمة، ثمّ قال لي ميسّرًا: «هذه الفتاة تعدّ بحقّ جسرًا عمهّدًا لوظيفة محترمة» وأنّجه بصري مرّة أخرى إلى البك وإلى الفتاة خاصّة. لم تكن تمنّ حبيهنّ الطبيعة بنعمة الجمال ولكنها رشيقة معتدلة القوام.. لم أشعر بنفور منها ولا ميل إليها.. ليست جميلة ولكنّها ليست قبيحة.. وهناك الروح والعقل والتربية والأصل الطيّب.. وهناك الوظيفة..

عدت إلى منزلي وأنا أفكر..

٢٥ يوليو:

جذبتني حديقة صولت فألتذت منها مجلسًا مختارًا كلّ مساء، وغالبًا ما أقضي سهرة طويلة منفردًا. من التّجاوز أن أقول منفردًا فعن يميني أو يساري أو أمامي يجلس البك وكريمته، والحقّ أنّي لم اخترع هذا المجلس مدفوعًا برأي رأيت ولكنّ بمشاعر غامضة، لم تتمخّض بعد عن فكرة واضحة، تاركًا توضيحها لمعترك التجربة نفسه، فلم يُخفّ أمري عن عيني الفتاة وإنّ بدا والدها كأنه لم يبصرني قطّ، والتقت أعيننا مرارًا، وللأعين لغة معجمها الغرائز والأحاسيس، فباتت هذه المفاصلة الصامتة عادة جميلة، وإخاها أمت مشغولة بي، أما أنا فأحسّ نشوة ظفر واهتمامًا مشوّيًا بحبّ الاستطلاع.. ترى هل يمكن أن أحبّ هذه الفتاة؟.. لا أجد جوابًا، فالحبّ كما يعرف أحيانًا من أوّل نظرة

هذا يوم طيّب، حصلت على البكالوريوس وتوّج كفاحي الأوّل بالنجاح فتنفّست الصعداء، لأنّه من الحقّ أن أقول إنّ حياتي المدرسيّة كانت شاقّة غير مأمونة العنار، وإنّي تحمّلتها على مضض متعوّدًا بالصبر وقليل من أقراني من يصدّق أنّ رئيس فرقة كرة القدم بالخدويّة ويطل السباحة والغلام الشاطر نال البكالوريا فضلًا عن البكالوريوس.

٥ يوليو:

عدنا اليوم - أنا والدي - من الإسكندريّة بعد قضاء شهر في ضيافة عمّي، وانتقل بي الفكر إلى قريبي سعادة ش. ع. بك ففي جاهه وفي منصبه سحر يفتح لي أبواب الحكومة.

٦ يوليو:

زرت قريبي في قصره..

هتّاني وتحدّث معي مليًا ثمّ بغتني بهذا السؤال: وما هو بكالوريوس اللغة الإنجليزيّة هذا؟ وأجبتّه عمّا يسأل عنه متذكّرًا قول القائل: إنّ أصعب التعريفات ما خصّ المسائل البسيطة. على أنّه هزّ رأسه استهانةً وقال لي: «كان أوّل بك أن تدرس علمًا من العلوم فعصرنا عصر علم وعمل، إنّّي لأتساءل كيف يمكنني مساعدتك؟»

وقلت وأنا لا أدري: «أيّ وظيفة يا سعادة البك» فضحك الرجل وقال: «لو كنت مهندسًا مثلاً ما وجدت مشقّة في وضعك في المكان اللائق بك. ولكن ماذا تفعل الحكومة بالأدب والتاريخ؟»

٢١ يوليو:

هل يصيح هذا اليوم من الأيام التي أوّرخ بها؟

قد لا يعرف ولا يكتسب إلا بطول العشرة .  
٢٨ يوليو:

بتنا صديقين صامتين. وقد حرثت الأرض  
وسمّدتا. فما إن تلقى المودة حتى تبت شجرة الحب  
المورقة. وامتلات نفسي ثقة فصحت عزمي على السير  
في الطريق حتى نهايته، أي حتى أخطبها إلى والدها .  
ولكن ينبغي أن أظفر بقلبها حتى إذا لم أرق في عيني  
البك وجدت في عاطفتها عوناً لا ينبذ له إرادة .  
ولكن هل يعدّ عملي هذا نذالة؟ . هل . من الحسنة  
أن أخطب فتاة لأجد وظيفة؟ . ما وجه الاختلاف  
بين هذا وبين أن أخطبها لأقضي وطراً أو أنجب  
ذرية؟ . فهذه الغايات جميعها وسائل في ذاتها لإرضاء  
غرائز ثابتة، تشبع الوظيفة واحدة منها ليست بأخطأها  
على الإطلاق . ترى هل يقوم تفكيري على أساس  
صحيح من الحق أم إن عاطفتي تستخدم العقل  
والمنطق في تبرير همتها؟ .

٦ أغسطس:

ذهبت اليوم لمقابلة حضرة صاحب العزة ح. و.  
بك فأدخلني خادم نوبي إلى فراندا تشرف على حديقة  
الفيلا الغناء.

وجاء البك بعد دقائق في ثوب حريري فاخر فسلم  
عليّ سلاماً حاراً أذهب عني الارتباك وردّ إليّ جناني.  
وقدّم لي سيجارة. ثم تفحصني بنظرة ثاقبة: وأخذنا في  
الحديث فسألني عن مؤهلاتي وعمّا أنتويه لمستقبلي؟  
فقلت له: إنّي أروم الاشتغال بالتدريس، فسألني عمّا  
إذا كنت حاصلاً على دبلوم التربية؟ فأجبت بالنفي .  
ولكنّي أكّدت له أنّ كثيرين من أقراني اشتغلوا  
بالتدريس بغير هذا الدبلوم ولكن بالوصايات التي لا  
تردّ، فهزّ رأسه هزّة لها معناها وقال: «إنّي أرجو لك  
كلّ خير» ثمّ أرسل في طلب ابنته، فلم أتمالك أن  
خفقت قلبي وشعرت بحرارة الاضطراب تلفح وجهي.  
وجاءت الشابة، مرتدية ثوباً أبيض يكشف عن  
ذراعيها ناشرة في الجوّ رائحة طيبة مخدّرة فراعني جمال  
جسمها وحيويته. وقدمها إليّ قائلاً: «آنسة سعاد .  
ابنتي» وقدمني إليها وأخبرني أنّها متخرّجة من الجامعة

الأمريكية وأنها أستاذة في الأدب الإنجليزي مثلي، وأنّ  
أمّها مترقاة، ثمّ اقترح صاحكاً أن يكون حديثنا  
بالإنجليزية - وهو من خريجي جامعة إكسترا - فتحدّثنا  
طويلاً، حديثاً قريب التناول ولكنّه لذيد تمتع. والواقع  
أنّ سحر النساء يتجلّى فيما ينفثن في الحديث النافه من  
لذة . وقد طببت نفسي.

١٠ أغسطس:

عدت إلى مقابلة البك مرة أخرى فقال لي بلهجة  
دلّت على الأسف: «لا توجد وظائف خالية لتدريس  
اللغة الإنجليزية» وترثّ قليلاً ثمّ استدرك: «ولكن  
توجد وظيفة مدرّس لغة فرنسيّة . هل تحب اللغة  
الفرنسيّة؟» والواقع أنّ معلوماتي في الفرنسيّة تعادل  
معلومات طالب البكالوريا أو هي كانت كذلك قبل  
أربع سنوات. ولكنّي وجدت نفسي حيال وظيفة محترمة  
درجة سادسة وربّما بعثة أيضاً، فأجبت بجسارتي  
الطبيعيّة: «إنّي أجيد الفرنسيّة يا سيّدي»، فقال الرجل  
بسرور. «انتهينا يا بطل».

١٤ أغسطس:

يوم جميل اصطحبت «سعاد» للنزهة فتمشّينا في  
جزيرة الروضة جنباً إلى جنب. وهذه أوّل مرّة أخذ  
فيها حذري في محادثة فتاة، فلا يخفى أنّها مثقّفة ذكيّة  
ذات تجارب، كثرة الاختلاط بأفاضل الرجال من  
أصدقاء والدها. فقلت لنفسي إنّه يحسن ألاّ أتملّقها  
تملّقاً رخيصاً مبتدلاً. وجرى الحديث بيننا فقلت لها إنّي  
سعيد بمعرفتها معجب بثقافتها وذكائها. ثمّ شعرت  
بأنّي لم أقل كلّ ما ينبغي أن يقال وألحّ عليّ شعوري  
فقلت إنّ لها حسناً يروقي. ولكنّها حذجتني بنظرة  
ذات معنى وقالت لي مبتسمة: «كلّاً لست جميلة ألبنّة»  
فقلت لها مستعينة بالجدل على مداراة عواطفني:  
«سنظّل نختلف في الجمال كما اختلف الذين من  
قبلنا . ولكن حسبي ما تقول النظرية الذاتية، فجبال  
امرأة هو ما يطيب لي منها . وأهمّ الأشياء جميعاً أن  
تلقى حياتنا المشتركة قناعة وسعادة». فضحكت  
ضحكة رقيقة وسألتي كالمتهكّمة: «أقصيد غزل أم  
رثاء!» فقلت بلهجة دلّت على الإخلاص والصدق:

الحياة.. وما يخفى شيء عن عيني زوجي فهي تعلم  
بمتاعبي جميعاً. وقد أفنعتها بضرورة سفري في بعثة  
فاقتنعت ووعدت بدورها بإقناع والدها فكلانا لا يمكن  
أن يتذوق طعم الحياة الحلو إذا استغرقني ذاك التيار  
العنيف من العمل والقلق وعدم الثقة بالنفس.. ومع  
هذا فلشد ما يحسدني أناس على زيجتي وعلى الدرجة  
السادسة!

٧ نوفمبر:

حضر درسي اليوم مسيو روبير مفتش اللغة  
الفرنسية..

وكنت أتوقع حضوره بين يوم وآخر أستفز حنانة  
القلق، لقد أمكنني أن ألزم التلميذ طاهر- ابن  
الفرنسية- حد الصمت ولكن كيف أنجو من مغالب  
هذا المفتش.. وجاء الرجل واختار موقفه في نهاية  
الفصل وجعلت أشرح الدرس بعناية فائقة غتلسا-  
بين حين وآخر- النظرات من وجهه المتعصم بلحيته  
السوداء المجللة بالشيب، فلم أستطع أن أنفذ من  
عينيه الجامدتين إلى حقيقة مشاعره، ورايته يتحرك  
متمهلاً ويفحص بعض الكراسات فمضى قلبي يروح  
معه ويحيي ثم نظر نحوي وقال بصوت مرتفع «مسيو»  
فأسكت وأتجه نظري نحوه وقد تملكني الارتباك،  
فطلب إلي أن أوجه إلى التلاميذ أسئلة عن الموضوع  
فصدعت بالأمر حامداً الله على أنه لم يدعني إلى محادثته  
علانية، ثم وجهت عدة أسئلة في لهجة مضطربة،  
خصصت التلميذ طاهر بأكثرها.

وفي نهاية الدرس خلا الرجل بي، وحدجني بنظرة  
ناقية ثم سألني عن مؤهلاتي، فأهاج سؤاله دمي وأجبت  
بالحقيقة، فلم يخف دهشته، واعتذرت عن الواقع بأنني  
لا ينقصني إلا التمرين على الكلام فقال لي بلهجة  
باردة. «ولكن يا سيدي ليس المدرس إلا معلّم كلام»  
فغصصت بقوله وسكت.

وفي هذه الساعة التي أكتب فيها تجلس زوجي إلى  
أبيها تلج عليه في وجوب سفري بالبعثة.

١٥ يونيو:

أما هذا فيوم عصيب سأذكره ما حييت، ففي

«لا استحققت الرثاء أبداً! ثم صارحتها بما زعمت أنه  
رأيي في الحب والزواج وأسهب في ذلك إسهاباً  
وتعمدت أن تدل لهجتي على البساطة والإخلاص..  
وأصغت إلي بكل جوارحها، ولم تواصل الصمت  
فاشتركت في الحديث، وكأنا تعبنا بعد ذلك فسرنا  
صامتين وكلانا مغرق في أفكاره، وعلى حين غرة  
ضغطت على يدها وقلت لها همساً بالإنجليزية «أحبك»  
فتورّد وجهها واضطرب جفناها.

والآن- وأنا منفرد في حجرتي- أذكر حذري  
بسخرية واستهزاء.

١٥ أكتوبر:

نزلت الميدان ولا سلاح لي إلا جرأتي والثقة  
المكتسبة من نفوذ صهري وقد داخلني شيء من  
الطمأنينة حين أيقنت أنني سأدرس مبادئ بسيطة  
سهلة. أما العقبة الحقيقية ففي النطق والكتابة ولا  
أدري شيئاً عما يجتبه المستقبل لي من الصعوبات..  
بدأت الدرس بتوجيهات عملية كما هو مقرر في برنامج  
الدراسة فجعلت أقول لهم بعض العبارات التي  
حفظتها عن ظهر قلب مستعيناً بتفهميها بالإشارة مثل:  
قوموا، اجلسوا، افتحوا الشباك، أغلقوا الشباك، وقد  
لاحظت أن تلميذاً- من الجالسين في الصف الأول-  
يحسن الفهم، فأنيت عليه فما راعني إلا أن وقف وقال  
لي جملة بالفرنسية في وضوح وسرعة، فلم أفهم شيئاً  
وبهت، ولكن لا أظن أنه بدا على وجهي شيء مما يقوم  
في نفسي، وتطوّع تلميذ ساء ما نال قرينه من الظفر  
بإخباري بأن أمه فرنسية، وسأني الخبر، وأسفت له في  
نفسي وأردت أن أتقي شره فنهزته قائلاً: إنه لا يجوز  
أن يتكلم قبل أن يؤذن له.

هذا رقيب لم أكن أتوقعه يذكّرني وجوده بالمثل  
القائل «في كل خرابة لنا عفريت».

٢٧ أكتوبر:

الحياة شاقّة لا لذة فيها. إنني أدرس وأنا قلق،  
وأصطح مئات الكراسات، ثم أذاكر كأنني تلميذ من  
التلاميذ، فمن يصلق بعد هذا أنني أوشك أن أختم  
شهر العسل. وكيف أطمع في أن تطيب لي

بلطف وابتسمت إليه ما وسعني اللطف والتودد، ولم يداخلني شك في عجزتي عن لعب هذا الدور الجديد فראيت أن أظفر بوسائل أخرى. . جالست الشاب وقدمت له سيجارة فاخرة، وطالعتة بنظرة منكسرة حزينة، فسألني عما بي فأخبرته بأنني متعب مريض. وهكذا فعلت كما يفعل التلاميذ الكسالى استدرازا لرحمة المتحجين وتساهلهم. ولما بدأ الامتحان قدمت له سيجارة أخرى وطلبت إليه أن يعفني من امتحان المناقشات رحمة براسي مكتفيا بأن أمتحن التلاميذ في المطالعة، وقيل الشاب بسرور، وأخرجت علبة السجائر الفاخرة، ووضعتها على حافة القمطر مفتوحة ثم دعوت فرأشا وطلبت القهوة.

ولا أدري كيف انتهى هذا اليوم العصيب، وبه أختتم أشق عام في حياتي. . .

١٥ يوليو:

علمت أنني اخترت بين أعضاء البعثة وعمًا قليل تعلن أسماؤنا في الصحف بالشكر والحمد لله وسأعود من فرنسا بعد عامين مستردًا ثقتي بنفسي فلا يضطرب قلبي للقاء مفتش أو امتحان شفوي، وحسبت أول وهلة أنني مسافر وحدي ولكن صهري أخبرني بأن زوجي ستسافر معي.

فليكن، لست على آية حال شقيًا، وهبني تزوجت من أجمل فتاة في مصر فهل كان جمالها بقادر على أن يحتفظ بسحره وأساره أبد الدهر. . إن للعادة سلطانًا لا يقاوم فهي تجعل من الغريب الذي ينقرا شذوذه شيئًا مألوفًا وربما محبوبًا، كما تهبط بالجمال من عرشه وتفقده جدته وفتوته، السعيد السعيد من راض نفسه على الواقع والتمس أسباب الرضا والقناعة حيثما كان! .

صباحه كان امتحان الإملاء للغة الفرنسية وفي مساءه كان الامتحان الشفوي وكان علي أن أقف على منصّة أنا ونفر من المدرسين الفرنسيين لنملي على المتحجين، فأنحذت مكاني مضطرب النفس خافق القلب لا أدري كيف يعلو صوتي بنطق كلمات لا أحسن نطقها على مسمع من المدرسين الفرنسيين والمراقبين ورئيس اللجنة. وشعرت بحرارة تلفح وجهي ورأسي وأوشكت جسارتي أن تحوطني، وكان ترتيبني في الإلقاء الثاني، بعد مسيو بوابيه مباشرة، فقتت المسافة التي تفصل بيننا بعيني وأرهفت سمعي وألقيت به إليه لألتقط حركاته الصوتية التقاطًا دقيقًا. وبدأت الإملاء فاستجمعت انتباهي في أدنى اليمين متناسيًا ما حولي، وأملى الرجل عبارته الأولى فحاكيتة نحرًا نحرًا، ولكن الظاهر أن صوتي لم يرتفع للدرجة المطلوبة ولم يتضح كما ينبغي لأني سمعت ضجة من حولي وأصواتًا تهتف بي: «مرة ثانية من فضلك». فتميزت من الغيظ والحنق لأنه لم يبق في رأسي من النطق الصحيح إلا أصداء واضطرتت إلى الاعادة مخاطرًا.

وتكرر الاملاء فالإصغاء فالترديد فالعذاب وما لبثت أن أدركت أن أنظار بعض المراقبين متجهة صوبي فتضاعف اضطرابي وحرجي، ولمحت واحدًا منهم يتسم ابتسامة تدل على الهزء والسخرية، فغلا دمي، وتركت المنصة أخيرًا في حالة إعياء وألم شديدين.

ولم يمض على عذابي هذا بضع ساعات حتى عدت مرة أخرى إلى المدرسة لأمتحن الشفوي، وكان المتحجون مقسمين إلى لجان، تتكون كل لجنة من مدرسين. وعرفت أنني في لجنة (ج) ووجدت زميلي ينتظرني بها وهو شاب فرنسي في مقتبل العمر، فحييته



## الهذيان

كان سَيِّءَ الحظِّ، فما كاد يستدير عام ويستقبل طفلة حتَّى أصيبت زوجه بحمى النفاس فزلزل بيته الهادئ المطمئنَّ وارتجَّت حياته السعيدة. وقد عرف منذ اليوم الأوَّل للمرض ما الخوف وما الإشفاق وما الجزع، واندفع إلى استدعاء أعظم الأخصائيين من الأطباء من حملة الباشوية والبيكوية غير مُبَيَّنِّي على مال أو ضامن بشمين، حتَّى اضطرَّ إلى بيع الراديو وساعته الذهبية، ولو طلب إليه أن ينقل دمه إليها لآذاه إلى آخر قطرة... وبالع في ذلك، فطلب من مصلحته إجازة كيلا يفارق المريضة. وكان يرقب أعين الفاحصين من الأطباء ويسألهم، ويطالع وجه زوجه ساعة بعد ساعة ويسأل العرافين، ويزور أضرحة الأولياء ويفسر الأحلام، ملتصقًا الطمأنينة في مظانها جميعًا.

وهل ينسى الليالي التي قضاها مسهدًا قلقًا لا يغمض له جفن ينظر بصبر حائر إلى الوجه الشاحب على ضوء المصباح الأحمر الخافت؟... وكانت هي مسكينة تستحقُّ الرثاء، تضطرب بين النوم والقلق والبقطة الحائرة، وبين النزاع والهذيان، وما هذا الهذيان!... إنَّه ظاهرة عجيبة تدلُّ على أنَّ الإنسان قد يخون نفسه كما يخون الآخرين. كان يصغي إليها وهي تذكر بلسان متقطع أسماء أناس وأماكن وحوادث كثيرة، وكان شاركها شهود بعضها، فجرى الابتسام على فيه، وترطب التهاب عينيه المحمرتين بنظرة حنان. وفي ذات ليلة سمعها تناديه بصوت واضح قائلة: «صابر» فهرع إليها متسائلًا: «نعمة... هل تحتاجين إلى شيء؟» ولكنَّه أدرك أنَّه خدع لأنَّها كانت مغمضة العينين يابسة الفم كما يبدو من ازدراد ريقها بصعوبة، فعلم أنَّها ماضية في هذيانها الذي لا يتتهي،

أوشك الفجر أن يطلع، وتصايحت الديكة إيدانًا بطلائع النور، فأخلدت الحجره إلى السكون والصمت، كأنَّها أسلمها أنين المرض الموجع وتأوّه الإشفاق الأليم إلى الهمود. كانت ترقد على الفراش امرأة شابة يبدو من اصفرار وجهها وذبول خديها وشفتيها وتضعض كيانها أنَّها تعاني وبال مرض يمتصر شبابها. وعلى فراش قريب رقد شاب في مقتبل العمر يتقل جفنيه السهاد. وبأبى القلق أن تلتقي أهداها، يطالع وجه المريضة في حزن ثمَّ يعطف رأسه إلى مهد جديد فيجري الخنان في عينيه الذابلتين ويتمتم في رجاء صادق: «اللَّهمَّ صن حياة الأمَّ المسكينة... وطفلتنا البريئة».

وكان الشاب من ذوي القلوب الرقيقة والنفوس الندية بالرحمة والعطف. وكان على عهد صباه يلدُّ لرفاقه أن يدعوهم «رجل البيت»، لما طُبِعَ عليه من النفور من المجتمعات والأندية، والاشتراك في المظاهرات التي تستهوي أقرانه، والانجذاب نحو البيت بسبب وبغير سبب: فكان يقضي نهاره في الحديقة يسقي أشجار البرتقال والليمون، أو في السطح بين الدجاج والحمام؛ فإذا كان الخميس أعطى ذراعه لشقيقته ومضيا معًا إلى السينما. ولذلك أخذ يفكر في الزواج تفكيرًا جدًّا منذ اليوم الذي عبَّ فيه مهندسًا بمصلحة الأشغال العسكرية. وراح يقتصد من مرتبه ما يقوم بنفقات الزواج من مهر وشبكة وهدايا وفرح، كما كان يفعل شباب الجيل الماضي. فلم يكد يمضي عليه عامان خارج المدرسة حتَّى تزوج، ولم يدَّهش أحد أن تنعطف هكذا سريعًا إلى الزواج هذه النفس المطمئنة إلى الحياة البيئية منذ نعومة الصبا ولكنَّه

صدره بحالة عصبية كأنما يضرب إلى شيء مجهول أن يمنع كارتة على وشك الوقوع، وذهل بصره من طول الجمود على وجهها، فغاب عنه ما حوله، وكبر الوجه في وهمه حتى ملأ الفراغ الذي أمامه فثقل عليه وسمع، ودوى صدى صوتها في أذنيه، فصار كطين لا ينقطع، وثقل تنفسه وبس حلقه... ما هذا الذي تتكلم عنه؟! وما هذه الخيانة التي أطلق الهذيان عقدة كتبها فانطلقت خبيثة منكرة أنكى من الحمى؟! هل يكذب الهذيان؟ كيف يكذب الهذيان!! ولكن كيف يصدق أذنيه وما بذل زوج لزوجته عشر ما بذل من الرقة والمودة، وما بذلت زوجة لزوجها عشر ما كانت تبذله من الصفاء والإخلاص! فكيف انطوى هذا على أقدر ما تبلى به الضيائر والنفوس؟ رباه... إنها تقول أن الخيانة شيء قذر، وإنها لكذلك، ولكن لا يفزع في هذيانه من قذارتها إلا من انغمس في بؤرتها. رباه... لقد ظن أن ما ابتلى به من مرض زوجه أقصى ما ابتلى به إنسان، فإذا به بلاء هين عابر، لا يقاس بما هتك الهذيان أستاره. وأحسن اليأس يحبس أنفاسه، وكان صابر دمث الأخلاق، لين الجانب، رقيق الحاشية، لا يدفعه الغضب إلى الانفعال الشديد والعدوان ولكنّه يشلّ حركته، ويعطف اندفاع أعصابه إلى صميم نفسه. فيجعله كسيارة يدفعها محركها، وتقيد الفرملة عجلاتها، ولكنّه بالرغم من هذا، تحوّل رأسه بحركة عصبية إلى سرير الطفلة، وبرح فراشه في سكون، ودنا منه وأزاح ستاره، وألقى نظرة غريبة على الوجه الصغير المدّجّ القسيمات وأدام إليه النظر، والشكّ والألم يأكلان قلبه بقسوة، ثم تحوّل عنه إلى وجه زوجه كأنه يسألها ويستوضحها، ودنا من فراشها كالسائر في نومه حتى التصق به وكانت مغمضة العينين بادية الاصفرار والخور تقلّب رأسها ذات اليمين وذات الشمال، فألقى عليها نظرة جامدة، جرى فيها بريق القسوة جريان البرق في السحاب الداكن وكان قبل لحظات إذا وقف موقفه هذا اضطرب جسمه من الحنان والرحمة، ودمعت عيناه، ولكنّ قلبه تحجّر هذه المرة فمال عليها حتى نسمت عليها أنفاسه وسألها:

فعاد إلى سريره، وما كاد يرقد مرة أخرى حتى سمعها تقول وكأنتا تحادثه: «صابر... أنا متألّة خجلة» فهزّ رأسه المثقل المتعب وقال لنفسه: «أنت متألّة بغير شكّ، أعانك الله على ما أنت فيه، ولكن ممّ تخجلين؟ إن هذا الابتلاء لا يُججل أحداً وإن كان يجزنا جميعاً» وظنّ أنها متألّة لما يتكلّفه من حولها من العناء والسهرة، فرمقها بنظرة حنان ورجا أن يكون هذا الشعور من أيّ اليقظة والشفاء، واستدركت المرأة تقول:

«زوجي أحسن الأزواج؛ أمّا أنا فشقّية.. لست أهلاً لوفائه».

فتنهّد الشابّ حزناً وتمتم قائلاً بصوت غير مسموع: «أنتِ أهل لكلّ خير». وأراد أن يناديها لعلّه يتشلها من تيار أفكارها المحمومة، ولكنها حرّكت رأسها بعنف على الوسادة وقالت بحنق: «راشد... كفى وابتعد عني... ابتعد ودعني...» وكان همّ بمناداتها فاحتبس الكلام في فيه. وحملت عيناه المسهّدتان، وبدأ على وجهه الذهول والإنكار وجلس في فراشه وهو يتساءل: «راشد! من راشد هذا؟» وكان يشعر شعوراً باطنياً بأنّه لا يسمع هذا الاسم لأول مرة، وكأنما سبق أن أذى مشاعره. وأسند جبينه إلى كفّه وأغمض عينيه، وكان صاحب هذا الاسم يعيش في الظلام، فقد رآه وعرفه، وأحسن لذلك رجفة تسري في مفاصله... راشد أمين أو أمين راشد- لا يذكر- شابّ نافسه في طلب يدها على عهد خطبته لها، ولولا أنّ والدها فضله هو واختاره لكان قد تزوّج منها. وقد تذكر أنّه رآه مرة وإن كان لا يحفظ من صورته أيّ أثر؛ ورفع رأسه مرة أخرى ونظر إليها بعينين مرتابتين لا تصدّقان؛ ورغب ورغبة حارة في أن يستزيدها ويستوضحها. ولكنّه لم يدّر كيف يحثّها على الكلام، ورأى شفيتها تتحرّكان في ضعف؛ فدنا من حافة سريرها وأرهف السمع وكنم أنفاسه وهو يعاني جزعاً مجنوناً فسمع صوتها يقول فيها يشبه الأنين:

«من يقول هذا.. أف.. والخيانة.. راشد.. صابر.. الخيانة شيء قذر..» فشبك كفّيه وشدهما على

ظهور جذتها؟ الحقيقة آني ضعيف.. ضعيف.. دائماً  
يندى قلبي بالحنان والعطف، فما كان أجدر بي أن  
أكون ممرضة.. أما رجلاً فلا.. لست رجلاً ولست  
زوجاً.. فأمثالي نساء كاملات، أو رجال مغفلون..  
ومع هذا هل أنا في حاجة إلى دليل جديد؟ دمّرت  
حياتي وانتهى كل شيء».

وقضى النهار ضالاً لا يقرّ، يتردد الألم في صدره مع  
أنفاسه، وعاد مع الأصيل إلى البيت فوجدها أسوأ  
حالاً وأشدّ هزالاً. وأقبلت عليه حماته تسأله أين كان،  
وتقصّ عليه ما قاله الطبيب. فلم ينفذ شيء من قولها  
إلى صدره وعاف الرّد عليها بتأتاً، بل لذّ له أن تقول  
إنّ الحالة سيّئة، فلتألم كما يتألم، ولكن كيف يفهمها  
أنّه يعلم كل شيء؟ كيف يجادلها في هذا الموضوع  
الخطير وأمّا لا ترضى بمفارقتها في مثل تلك الحال  
الخطيرة؟. واشتدّ به الحنق، فاعتزم أن يمنع عنها الدواء  
ليعاودها الهذيان سريعاً فيسمع منه ما امتنع منه سبّاعه  
في اليقظة؟ وملاً الفئجان ماء خالصاً ووضعه على فم  
المريضة فازدردته بامتعاض.. وعاد إلى فراشه يرقب  
الفرصة، ولكنّ زوجه لم تنم في تلك الليلة ولم تهذ  
واشتدّ عليها الألم فباتت تننّ وتشكو وتضطرب.  
واستدعى الطبيب عند الليل فعابها ولكنّه لم ينصح  
بشيء، وهمس في أذنه بأنّ الحالة جدّ خطيرة.. وبعد  
هذا التصريح بنصف ساعة احتضرت المريضة وفاضت  
روحها.

وخلا إلى نفسه، وكان الذهول مطبقاً على حواسّه  
جميعاً؛ لأنّ الموت والخيانة الزوجيّة انتظما تجاربه  
الشخصيّة ممّا في ساعة واحدة دون عهد سابق بهما.  
وماتت نعيمة ولم يحزن لموتها، ولكنّ حادثة الموت  
أذهلت نفسه الرقيقة المرحفة؛ على أنّ الحقيقة لم تغب  
عنه فقال: لم تمت كما يظنون.. أنا قتلتها.. قتلتها  
لأنّي منعت عنها الدواء ليلتين متواليتين هما أشدّ ليالي  
المرض.. «فأنا قتلتها..» وجعل يرتدّد. «أنا قتلتها».  
فكان يشعر لها بوقع غريب في نفسه يمتزج فيه الخوف  
بالارتياح.

ثمّ قال مرّة أخرى. «وقتلني هي حيّاً، والصقت

«نعيمة.. نعيمة.. ماذا فعل راشد؟» فلم تنتبه إليه  
ولم تضحّ، فرفع صوته وناداه وهو لا يدري: «نعيمة»  
فبلغ صوته مسمعيّ أمّها في الحجرة القريبة وقامت  
المرأة من فراشها مضطربة وهي تظنّ الظنون وهرعت  
إليه متسائلة: ما لها.. هل أعطيتها الدواء؟ ولم يكن  
أعطاها شيئاً وكان يريد استبقاء حالة الهذيان التي  
تعانيتها ليستنطقها ما يريد فكذب عليها قائلاً في  
استهانة وقسوة: «نعم هي بخير والحمد لله» وعاد إلى  
فراشه وأسند رأسه المتخنّ بالجراح إلى الوسادة  
ليتخلّص منها، ولبث حماته قليلاً: وفي أثناء ذلك  
أخلدت المريضة إلى الهدوء والسكينة كأنما راحت في  
نوم عميق فبرحت المرأة الغرفة وكان يتشوّق إلى  
إيقاظها ولكنّه خشي التي في الخارج فمضى بقيّة الليل  
مفتوح العينين محوم الرأس بالأخيلة الشيطانيّة وعينه  
زائغتان ما بين فراش المريضة ومهد الطفلة.

وحين سفور الصباح عاودت اليقظة المريضة وبدا  
عليها أنّها لا تحسّ شيئاً حتّى اهتدت عيناها إليه فدبّت  
فيها حياة ضعيفة وقالت بصوت غدا من وهنه كالصغير  
«ما الذي أيقظك؟ لماذا ترهق نفسك هكذا؟» فردّ  
عليها بنظرة جامدة وكانت تبدو ذاك الصباح أشدّ  
هزالاً وشحوباً، ولاحت في عينيها نظرة الوداع  
المخيفة، وكان يشغل باله شيء واحد أسهده الليل ولم  
يجعل أنّ إثارته خطر يهدّد بالقضاء عليها، ولكنّه لم  
يحسّ سواه ولم يُبالِ غيره. وكان يشعر نحوها ساعته  
بحنق وكراهية ورغبة في الانتقام فقال بلهجة جافّة:  
«تكلّمت الليلة الماضية كثيراً، فشرّقت وغرّبت،  
وأجرى الهذيان على لسانك كلاماً يحتاج إلى إيضاح»  
فلم تفهم شيئاً ونظرت إليه بعينين لا تعتران عن شيء  
سوى الذهول المطلق، وأراد أن يسترسل ولكنّه منعه  
عن الاسترسال صراخ الطفلة فجأة، فما لبث أن  
هرعت إلى الحجرة حماته والمريضة فنكص على عقبيه  
مغضباً وهو يقول لنفسه: «الطفلة الملعونة تداري  
فضيحة أمّها وأبيها» وغادر البيت يهيم على وجهه  
ومضى يحدث نفسه: كان ينبغي أن أعلم كل شيء وقد  
أتيح لي فرص، لماذا أفرّ من صراخ الطفلة؟ أو من

اسمي قسرًا بطفلة إنسان سواي . . ولكنّي قاتل فلست  
إذن مغفلاً .  
وأسند رأسه إلى يده وراح في تأمل طويل وقد سرى  
في جسده قشعريرة البرد والخوف .

\*\*\*

كيف انقضت تلك الأيام التي أعقبت الوفاة؟ . .  
انقضت في ألم وقلق وخاوف لا يمكن أن تتمثل لعقل  
إنسان، ثم أعلن عن رغبته فجأة في السفر إلى لبنان  
انتجاعاً للصحة والراحة، وكان في الحق يفرّ من أفكاره

وطفلته . ومضى إلى الإسكندرية واستقلّ سفينة،  
والظاهر أنّ نفسه الرقيقة تعرّضت في البحر لأزمة  
عنيفة هدّت كيانه وأتلفت أعصابه، فاستشعر اليأس  
من الدنيا جميعاً وألقى بنفسه في اليمّ خلاصاً من عذابه  
وآلامه، محتفظاً بأسراره لقلبه ولبطون الأسماك .

وكان يترحم عليه المترحمون فيقولون: «ما رأينا  
إنساناً يحبّ زوجه كالمرحوم صابر، فلا هو صبر على  
فقدانها ولا احتمل الدنيا بعدها، فقضى على نفسه بعد  
موتها بأيام . . رحمهما الله» .

## يَقْظَةُ المومياء

تحية العبقريّة الحديثة إلى ذكرى عبقرية الفراعين الخالدة تحت أطلال الوادي، يتوهج نورها خلل ظلمات السنين مثل سنا النجوم المتألقة في السماء، الساري في تضاعيف الليل البهيم..

وكان المغفور له من أغنى أغنياء المصريين وأوسعهم ثقافة وأسماهم خلقاً وقد قال عنه مرة صديقنا الأستاذ لامبير: إنه ثلاث شخصيات تقمصت رجلاً، فهو تركي الجنس مصري الوطن فرنسي القلب والعقل، فأدّى تعريفه أتم أداء. والحق أنه كان أكبر صديق لفرنسا في الشرق، وكان يعدّها وطنه الثاني، وكان أسعد أيامه تلك التي قضاها تحت سباتها، واتخذ أصدقاءه جميعاً من أبنائها سواء منهم من يعيش على ضفاف النيل أو في جنات السين. وكنت أخال نفسي وأنا في (صالونه) أنني انتقلت فجأة إلى باريس؛ فالأناث فرنسيّ والجالسون فرنسيون ولغة الكلام فرنسيّة والطعام فرنسيّ. وإن كثيراً من الفرنسيين المثقفين لا يعرفونه إلاّ كهواة فنون الجميلة أو كشاعر يقرض الشعر الوجدانيّ الجميل بالفرنسيّة، أما أنا فقد عرفته - إلى هذا - محباً لفرنسا متعصباً لثقافتها وداعية لسياستها..

أخذت مجلسي في ذلك اليوم إلى جانب الباشا وكان الميسو سارو يقول وهو يتأمل بعينه الواسعتين الجاحظتين تمثالاً نصفيّاً برنزيّاً لأنستين: - إن قصرك يا صاحب السعادة يحتاج إلى تغيير طفيف لكي يصير متحفاً كاملاً.

وقال الدكتور مؤمناً على كلامه وهو يتخلّل لحيته بأنامله:

- صدقت فهو معرض دائم لجميع العبقريّات

أجد حرباً كبيراً في رواية هذه القصّة، لأنّ بعض حوادثها يخرق قوانين العقل والطبيعة جميعاً؛ ولو كان مردّها إلى الخيال ما تحرّجت، ولكنّها وقعت في عالم الحقيقة وكان ضحيّتها رجل من رجال مصر الأفاذا المعروفين في الأوساط السياسيّة والأرستقراطيّة. وراويتها الذي أنقل عنه أستاذ كبير بالجامعة، لا يجوز أن يرتقي الشكّ إلى عقله وخلقه، ولم يعرف عنه قطّ ميل إلى الأوهام والخرافات، ولكنّي - والحقّ يقال - لا أدري كيف أصدّقها فضلاً عن أن أحمل الآخرين على تصديقها؛ وليس ذلك لندرة المعجزات في عصرنا، فمما لا جدال فيه أنّ عصرنا عصر المعجزات والخرافات، ولكنّ العقلاء في أيامنا هذه لا يقبلون أمراً بغير تعليل، كما أنه لا يستعصي شيء على إيمانهم مع التعليل المعقول. وإنّي حيال قصّة عجيبة لها من دواعي التصديق رواية حكيم وشواهد ملموسة، ولكنّ التعليل العلميّ ما يزال يتأبى عليها، فهلاًّ أعذر عليّ شعوري بالخرج في تقديمها؟

ومها يكن من أمر فإليك ما رواه جناب البروفسير دريان «أستاذ الآثار المصريّة القديمة» بجامعة فؤاد الأول، قال: في ذلك اليوم الأسيف الذي خفق فيه قلب مصر خفقة الحزن والألم ذهبت إلى زيارة المغفور له محمود باشا الأرنؤوطي في قصره العظيم بصعيد مصر، وأذكر أنني وجدت عنده جماعة من الأصدقاء الذين كانوا يترددون عليه كلّما أسعدتهم الظروف، منهم الميسو سارو ناظر مدرسة الفنون الجميلة العليا. والدكتور بيير طبيب الأمراض العقليّة. واحتوانا جميعاً (صالونه) الأنيق البديع الحافل بآيات الفنّ الجميل من لوحات وتمائيل كأنّها احتشدت في تلك البقعة لتؤدّي

والمدارس على السواء مع ميل ظاهر للفنانين الفرنسيين.

فقال الباشا:

- الفضل في ذلك يرجع إلى ذوقي المعتدل الذي يساوي بين النزعات المختلفة ويعدل بين أهواء المدارس، وهو يذوق الجمال سواء أكان بديعه براكستليس أو رفائيل أو سيزان. مع استثناء البدع الحديثة المتطرقة.

فقلت ناظرًا بطرف خفي إلى المسيو سارو وكان يحلو لي دائمًا أن أداعبه:

- لو استطاعت وزارة المعارف أن تنقل هذا الصالون إلى مدرسة الفنون الجميلة العليا لاستغنت عن إرسال بعثات إلى فرنسا وإيطاليا.

فضحك المسيو سارو وقال موجهاً الخطاب إلي:

- بل لعلها تستغني عن ناظر المدرسة الفرنسي أيضًا.

ولكن الباشا قال جادًا:

- اطمئن يا عزيزي سارو، فإنه إذا قدر على هذا المتحف أن يترك الصعيد فيستخذ طريقه رأسًا إلى باريس.

ف نظرنا إليه نظرة استفهام ودهشة وكأننا لا نصدق أذناننا.

فالواقع أن مجموعة الباشا الفنية كانت تقدر بمئات الألوف من الجنيهات، وقد تسربت جميعها إلى جيوب الفرنسيين، فكان غريبًا أن يفكر في إهدائها إلى فرنسا، وكان يحق لنا أن نفرح ونبتهج ولكني لم أتمالك أن أسأله متعجبًا:

- أحقًا ما تقول يا إكسلنس؟

فقال الباشا بهدوء:

- نعم يا صديقي دوريان.. ولم لا؟

فقال المسيو سارو:

- يا له من حظ سعيد حقيق باغتيالنا نحن الفرنسيين، ولكني أقول لسعادتك مخلصًا إني أخشى أن يسبب لك متاعب كثيرة..

وأمنت على رأي المسيو سارو.

وردد الرجل عينيه الزرقاوين بيننا وقد لاحت فيها نظرة ساخرة وسألنا متجاهلًا:

- وله؟..

فقلت بلا تردد:

- ستجد الصحافة في ذلك موضوعًا أيّ موضوع!

وقال الدكتور بير:

- وما من شك في أن الصحافة الوطنية عدو لك قديم... وهل نسيت يا صاحب المعالي حملاتها المغرضة عليك واتهاماتها إياك بأنك تبثر أموال الفلاح في فرنسا بلا حساب؟!

فصاح الباشا بإنكار:

- أموال الفلاح!

فبادر الدكتور يقول معتذرًا:

- معذرة يا باشا... هذا قولهم!

فهز سعادته منكبيه استهانة وزم شفثيه احتقارًا وقال وهو يثبت نظارته الذهبية على عينيه:

- أنا لا أبه لهذه الأصوات المنكرة الوضيعة، وما دام ضميري الفني لا يرتاح لبقاء مثل هذه الآيات وسط هذا الشعب الحيواني، فلن تقبر هنا أبدًا.

وكنت أعرف رأي صديقي الباشا عن المصريين واحتقاره لهم؛ وما يحكى في هذا الصدد أنه تقدم له منذ عام طبيب مصري نابغة حاصل على رتبة البكوية طالبًا يد ابنته، فطرده شرّ طرد لأنه فلاح ابن فلاح. على أيّ - مع موافقتي على كثير من التهم التي يكيلها الباشا لبني وطنه - لم أكن أتبعه رأيه إلى النهاية، ولما قلت له:

- سعادتك شديد النقد.

فقهقه الباشا ضاحكًا وقال:

- أنت يا عزيزي دريان رجل وهبت حياتك الثمينة للماضي البعيد، وربما لاحت لك في غياهبه لمع عبقرية خلفها القدماء لا تفتأ توقظ عطفك وحنينك على أحفادهم. ولكن شتان بين الفراعين والفلاحين، لا يجوز أن تنسى يا صديقي أن المصريين شعب فول... فضحكت وقلت له:

- عفواً يا صاحب السعادة، ألا تعلم أن السير

أدري كيف رضخت وأذعنت؛ ولكن لا داعي للأسف  
فقليل من الخرافة يريح العقل الكلف بالحقائق  
والعلوم. ومجمل الحكاية أنه جاء قصري منذ يومين  
رجل معروف في هذا البلد يدعى الشيخ جاد الله،  
يحترمه العامة ويقَدِّسونه، وكم ذا بمصر من المقدسين،  
والعج في طلبي وأذنت له وأنا أعجب لشأنه، وحياتي  
الرجل على طريقته، وبشرني بأنه استدل بعلمه  
الروحاني وكتبه القديمة عن وجود كنز ثمين في باطن  
حديقتي، وطلب إليّ بتوسّل أن أذن له في الكشف عنه  
تحت إشرافي، ومتّاني بالذهب واللآلئ في مقابل أن  
أعده بالحلوان. وضقت به وهممت بطرده ولكنّه ضرع  
إليّ وتوسّل حتّى استعبر وقال لي: لا تنهزأ بعلم الله ولا  
تستهن بعبادته المقدسين. فضحكت طويلاً، ثمّ خطر لي  
خاطر سريع فقلت لنفسي لماذا لا أجاري الرجل في  
وهمه وأسأله على اعتقاده؟! لن أخسر شيئاً وسأفوز  
حتماً بنوع من التسليّة، وقد فعلت يا أصدقائي،  
وأذنت للرجل، وأنا أتناظره بالجدّ، وها هو ذا يحفر في  
حديقتي ويعاونه في عمله الشاقّ اثنان من خدمي  
المؤمنين، فما رأيكم؟

قال الباشا ذلك وضحك عالياً، فضحك الجميع،  
أما أنا فكُرت بي الذاكرة إلى الماضي إلى حادثة مشابهة  
فقلت:

- طبعي أنكم لا تؤمنون بعلم الشيخ جاد الله،  
ولا أنا أستطيع أن أؤمن به وأسفاه، ولكني لا أستطيع  
كذلك أن أنسى أنّي اكتشفت قبر الكاهن «قمنا» بفضل  
خرافة كهذه!

فبدت الدهشة على وجوه الحاضرين وسألني الباشا:  
- أحقّ ما تقول يا سيّدي الأستاذ؟  
فقلت:

- نعم يا باشا، لقد دلّني يوماً شيخ مثل الشيخ جاد  
الله على بقعة من الأرض في وادي الملوك وقال لي: إنّه  
استدلّ بكتبه وعلمه على وجود كنز فيها، فضربنا فيها  
بمعاولنا ولم نلبث أيّاماً حتّى اكتشفنا مقبرة «قمنا»...  
وهذا بلا شكّ من عبقریات المصادفات.  
فضحك الدكتور بيير وقال متهكّماً:

ماكزري أستاذ آداب اللغة الإنجليزيّة بكلّيّة الآداب  
صرّح أخيراً بأنّه أصبح يفضّل الفول على البودنج؟  
فضحك الباشا، وضحك الحاضرون جميعاً وقال  
سعادته:

- أنت تفهم ما أعني ولكنك تحبّ المزاح، المصريون  
حيوانات أليفة طبعها الذلّ، وخلقها التذلّل، وقد  
عاشوا عبيداً على فئات موائد الحكّامين منذ آلاف  
السنين، ومثل هؤلاء لا يحقّ لهم أن يأسفوا على إهداء  
هذا المتحف إلى باريس...  
فقال المسيو سارو:

- نحن لا نتكلّم عمّا يحقّ أو لا يحقّ، ولكن عن  
الواقع والواقع أنّهم سيأسفون (ثمّ قال بلهجة ذات  
مغزى) وستأسف معهم صحافتهم...

ولكن لم يبد على الباشا أدنى اكتراث، وكان بطبعه  
يتعالى على ضجيج الجماهير وصرخات الصحف  
الفتعلة، وربّما كان لأصله التركيّ دخل كبير في تشبّته  
بآرائه وعناده واحتقاره للمصريين. ولم يرد أن نسترسل  
في ذاك الحديث فأغلق بلباقته النادرة بابّه، وانشغلنا  
ساعة باحتساء القهوة الفرنسيّة اللذيذة التي لم أذق  
مثلاً في مصر، ثمّ نظر الباشا إليّ باهتمام وقال:

- ألم تعلم يا مسيو دريان أنّي بدأت أنافسك في  
اكتشاف الكنوز؟

فنظرت إليه مستفهياً وسألته:

- ماذا تعني يا إكسلنس؟

فضحك الباشا وقال وهو يشير إلى حديقة القصر  
من نافذة الصالون:

- على بُعد أذرع منّا تجري عمليّة حفر جليّة الشان  
في حديقة قصري.

فبدا علينا الاهتمام جميعاً، وتوقّعت سماع خبر مثير،  
وكان لكلمة حفر تأثير خاصّ في نفسي، لأنّ قضيت  
شطراً كبيراً من عمري - قبل أن أشتغل في الجامعة -  
أحفر وأنقب في أرض مصر الغنيّة الساحرة.

وقال الباشا وهو ما يزال يبتسم:

- أرجو ألاّ تسخروا منّي يا سادة فقد فعلت ما كان  
يفعله الملوك الأقدمون مع السحرة والمشعوذين ولا

- ولماذا تعلل ذلك بالمصادفات فتجحد العلم القديم؟... ألا يجوز أن الفراغة يورثون أحفادهم أسرارهم الخفية كما يورثونهم سحتهم وكثيراً من تقاليدهم؟

ومضينا نتفكّه بأمثال هذا الحديث وطرقنا غيره أحاديث كثيرة ومضى الوقت لذيذاً ممتعاً، وعند الأصل استأذن الضيوف في الانصراف، وأما أنا فأعلنت عن رغبتى في مشاهدة عملية الحفر التي يجريها الشيخ جاد الله، وغادرنا جميعاً الصالون إلى الحديقة وسرنا إلى الباب الخارجى لتوديع الأصدقاء، ولم نكد نقطع خطوات حتى وصلت إلى مسامعنا ضجة عظيمة واعتزضت طريقنا جماعة من الخدم رأيناهم يسكون بتلابيب صعيدى ويوسعون ضرباً ولكياً، ثم ساقوه بشدة إلى سعادة الباشا وقال له أحدهم:

- يا صاحب السعادة ضبطنا هذا اللص وهو يسرق طعام بيميش.

وكنت أعرف بيميش حق المعرفة، فهو كلب الباشا العزيز وأثر مخلوقات الله بقلبه بعد زوجه وأولاده، وهو يعيش في قصر الباشا متعماً مكرماً، يقوم على خدمته خدم وحشم، ويكشف عليه طبيب بيطري مرة كل شهر، ويقدم له كل يوم لحم وعظام ولبن وثريد، ولم تكن هذه أول مرة يسطو فيها الصعايدة على غذاء بيميش... وكان السارق صعيدياً قحاً، يتميز بالسحنة المصرية العتيقة، ويبدو على هيئته البؤس والفقر. وقد حدج الباشا بنظرة قاسية وقال له بعنف:

- كيف سؤلت لك نفسك انتهاك حرمة بيتي؟

فقال الرجل بتوسل وهو يلهث من أثر الجهد الذي بذله في مقاومة الخدم:

- كنت جائعاً يا صاحب السعادة ورأيت اللحم المسلوق مبعثراً على الحشائش فخانتني قوتى ولم أكن ذقت اللحم منذ عيد الأضحى!

فالتفت الباشا إلي وقال هارثاً:

- أرايت الفرق بين بائسنا وبائسكم؟.. إن بائسكم دفعه الجوع إلى سرقة ورغيف، أما بائسنا فالرغيف ليس عسيراً عليه، ولكنه لا يرضى إلا

باللحم المسلوق...

ثم التفت مرة أخرى إلى السارق ورفع عصاه وضربه على كتفه بشدة، وشده وصاح بالخدم: خذوه إلى الخفىر.

وضحك الدكتور بير وهو يسلم وقال للباشا: - ماذا تفعل غداً إذا شتم الصعايدة رائحة الذهب المكس في كنز الشيخ جاد الله؟ فقال الباشا فوراً:

- سأحيطه بسياج من الحفراء كخط ماجينو. وغداً - أنا والباشا - وتبعته صامتا إلى حيث يشتغل الشيخ جاد الله الذي يوشك أن يصير أثرياً عظيماً، وكان الرجل منهمكاً في عمله هو ومعاوناه. يضربون الأرض بفؤوسهم ويرفعون الأتربة في المقاطف ويلقونها جانباً، وكان الشيخ جاد الله، تلمع عيناه ببريق حاد يدل على العزم والأمل، وتنبعث في ساعديه التحيلتين قوة غير طبيعية، كان يدنو حقاً من هدفه الذي هداه إلى سبيله عمله الإنمى، فتمثل لي في شخصه العجيب الإنسان بنشاطه، وإيمانه وأوهامه، والحق أننا نخلق لأنفسنا آلهة وأوهاماً ولكننا نؤمن بها إيماناً عجيباً، فيخلق لنا إيماننا عوالم غاية في البداعة والجمال، ألم يخلق أجداد الشيخ جاد الله - الذي يذكّرني وجهه بتمثال الكاتب المعروف - الحضارة الأولى للإنسان؟.. ألم يبدعوا الجمال على سطح الأرض وفي بطنها على السواء؟.. أو لم يستوحوا في عملهم وتفكيرهم أوزوريس وأمون؟ وما أوزوريس وأمون؟ لا شيء في الغالب. أما حضارتهم فكانت شيئاً أي شيء... بل هي حضارتنا الراهنة...

وقفنا نشاهد الشيخ المؤمن، أما الباشا فيبتسم ابتسامة ساخرة، وأما أنا فأستغرق في أحلامي، وكلانا لا يدري بما يجتبه له القدر تحت آكام ذلك التراب، وكان العمل يبدو عقيماً فتملعل الباشا واقترح على أن نجلس في الفراندة فاتبعته صامتاً، ولكننا لم نكد نصعد السلام الأولى حتى لحق بنا الشيخ جاد الله غداً وصاح بفمه المثرم:

- مولاي... مولاي... تعال انظر..



- فتح الكنز عمل يسير، فهذا الباب لا يطيع ويرضخ إلا بقراءة طويلة أبدأها الآن وأستغرق حتى مطلع الفجر... هل أنتم مطهرون؟  
وتأثر بأقواله الخادمان ونظروا إلى مولاهما بارتباك لأنهما اعتقدا أنها على وشك الموت في حضرة القوة الخفية، ولم يكن في الوقت متسع للتطهر والقراءة فقلت للشيخ يحزم:

- إننا لم نبلغ هذا الباب بقراءة فينبغي أن نفتحه بمثل ما اقتحمنا الذي قبله.

وهم الشيخ أن يعترض ولكن لم يجده اعتراضه وانتهره الباشا فصمت وهو يرمقني شزراً، واستأنفوا العمل من جديد، وتيقظت غريزتي فعملت معهم، حتى أزحت العقبة الكؤود، ووجدنا أماناً متقدماً إلى مشى حور الأبدية...

وكنت خبيراً بتلك الأعمال، فأمرتهم أن يترثوا في أماكنهم وقتاً قصيراً ريثما يتجدد الهواء، وكانت ساعة انتظار شديدة الوقع علينا جميعاً. وكان الباشا صامتاً ذاهلاً كمن هو في حلم عجيب، وكان الخادمان ينظران بعينين ساهمتين إلى الرجل الذي يؤمنان به، وكان الشيخ يحملي تبعاً ما قد يحدث لاستهائني برأيه، أما أنا فكانت أحلم بما عسى أن يقع عليه بصري. وسألت نفسي ترى هل من المستطاع أن أفوز بتحفة أثرية أزين بها عقد متحفنا الخالد في باريس...؟

ثم دخلت، ودخل خلفي الأرنؤووطي باشا ثم الشيخ جاد الله وأثر الخادمان أن يلبثا في الدهليز الخارجي. فلما اختفى عنهما نور المصباح وأظلم المكان اندفعا إلى الداخل وانكمشا في ركن، وكانت حجرة تابوت كما يدل مظهرها، وقد شاهدت أمثالها مرات عديدة، وكان التابوت موضوعاً في مكانه وعلى غطائه صورة ذهبية لصاحبه، وإلى جانبه تقوم ثلاثة تماثيل بالحجم الطبيعي أحدها لرجل - من المرجح أنه حور نفسه - والآخر امرأة يستدل من وضعها إلى جانبه أنها زوجته، وأمامها تمثال صغير لغلام، وفي الناحية المقابلة وضعت صناديق مغلقة وآنية ملونة ومقاعد ومناضد وعدد حربية، وكانت الجدران ملأى بالرسوم والنقوش

فالتفتنا إليه بحركة أتوماتيكية، وكان قلبي يخفق خفقاناً غريباً على أثر نداء الشيخ وذكرني بشيئه له قديم كان يفصل في حياتي بين الفشل والنجاح واليأس والأمل وهبطنا السلم دون إبطاء لأن الرجل كان قد عاد أدراجه، وتبعناه وكلانا يغالב رغبة في العدو... ووجدنا الرجال الثلاثة يزحزون صخرة كبيرة، مساحتها متر مربع على وجه التقريب، فدنونا منهم فرأينا الصخرة تكشف عن فوهة في مثل أنساعها، فنظرت إلى الباشا، ونظر إليّ بعينين تنطقان بالدهشة والذهول، ثم نظرنا إلى داخل الفوهة فرأينا سلماً صغيراً ينتهي إلى دهليز يتجه إلى الداخل موازياً لسطح الأرض، وكانت الشمس تؤذن بالغيب فقلت للباشا «إلينا بمصباح» فأرسل الباشا أحد الخادمين لإحضار مصباح، وعاد الرجل بالمصباح فأمرته أن يتقدمنا، ولكنّه تردد وانكمش فهمت بأخذه منه، ولكن كان الشيخ جاد الله أسرع متي إليه فأمسك به بيده ومضى يتلو من القرآن وتعاوذك غريبة ثم نزل بقدمين ثابتين فبعته وتبعني الخادمان المضطربان...

ووجدنا أنفسنا في دهليز مستطيل لا يتجاوز طوله عشرة أمتار، ويعلو سقفه عن هامتنا بعلة أشبار، وكانت أرضه مترية أما جدرانها فمن الجرانيت، وتقذفنا جميعاً في خطوات بطيئة حتى اعترض سبيلنا باب حجري يأخذ على المقتحمين طريقهم، ولم يكن منظره غريباً عليّ ولا الرموز المحفورة في وسطه، فجرى بصري عليها، ثم التفت إلى الباشا وقلت بصوت متهدج:

- لقد اكتشفت يا صاحب السعادة مقبرة أثرية...  
فها هنا يرقد القائد حور من عظام الأسرة الثامنة عشرة.

ولكنّ الشيخ جاد الله قال بعنف وغضب:  
- بل وراء هذا الباب كنز... هكذا يقول الكتاب الذي لا يكذب.

- فهزرت كتفي قائلاً:  
- سمّه كيف شئت، المهم أن نفتحه...  
فعاد الشيخ يقول:

والرموز.

شاهدتها في حالة غريبة من الرعب، التصق كل منها بصاحبه، واتسعت عيناهما وجحظتا وأرسلتا نظرة صلبة جامدة ميتة إلى ناحية التابوت، وتصلب الشيخ جاد الله في وقفته ويده قابضة على المصباح وعينه لا تتحولان عن الهدف نفسه. فنظرت إلى التابوت وقد نسيت غضبي. فرأيت غطاءه مرفوعًا والمومياء عمدة أمامنا في لغائفها..؟

ما هذا.. كيف فُتح التابوت؟.. هل أثرت في إقامتي الطويلة في الشرق فغدت عيني تتأثر إلى هذا الحد المضحك بأوهامه وسحره؟.. ولكن أي سحر هناك!.. إني أرى المومياء أمامي، ولست الوحيد الذي يراها، فهذا الباشا قد تحول إلى تمثال، وها هم الرجال الثلاثة يكادون يموتون من فرط الملح والذعر.. فأني وهم هذا؟ والحق أنني أحسن بالجلجل كلما اضطرتني الظروف إلى سرد ما حدث بعد ذلك، لأنني أحدث في العادة أناسًا عقلاء مثقفين درسوا تيلور وليفي برول ودركيم ولكن ما حيلتي؟.. إن ديكارث نفسه لو كان في مكاني تلك الساعة ما أته الشجاعة على الهزء بحواسه..

ماذا رأيت؟

رأيت المومياء تتحرك وتقعّد في التابوت في حركة خفيفة لا يقدر عليها المخمور أو المثقل بالنوم فضلًا عن المبعوث من عالم الأموات، ثم قفزت قفزة غاية في الرشاقة انتصبت قبالتنا أمام التابوت..

وكنت موليًا ظهري الخادمين والشيخ جاد الله فلم أر ما حلّ بهم ولكن ارتعاش النور الذي يضيء الحجرة دلّ على كهربية اليد التي تمسك به، وكنت في حالة يتعذّر وصفها. وأعترف أنّ مفاصلي تفكّكت من الرعب الذي لا يوصف، وذعرت ذعرًا لم أحسن بمثله في حياتي على الإطلاق ولا تكاد تذكر إلى جانبه أهوال الآيام الشديدة التي قضيتها في الجبهة الشرقية ومعركة المارن..

يا للعجب!.. ألم يكن حيال مومياء؟.. أو حيال جثة رُدت إليها الحياة بطريقة خفية؟.. أو أمام قائد مصري كان يرتجف هولًا وخشوعًا إذا اجتاز عتبة

ألقيت نظرة سريعة مفعمة بالروعة على ذلك العالم المبعوث، ولكنّ الباشا لم يدعني لتأملاتي فقال لي ولم أكن أعلم أنّها آخر أقواله في هذه الدنيا: - الأوفى يا أستاذ دريان أن نبليخ الأمر إلى الحكومة في الحال... .

فأحسست بخيبة أمل وقلت:

- انتظر قليلًا يا باشا ريثما ألقى نظرة عجل... .

ودنوت من الصناديق والأثاث والباشا إلى يميني ومضيت أفحصها بعين خبيرة مشوقة، ونفسي تحدّثني بفتحها ومشاهدة ما بداخلها، وكنت أوّمن بأنّها تحوي طعامًا وثيابًا وحليًا ولكنّ أنّي لمثلّي أن يملك إرادته حيال تلك المخلفات الجليلة التي تستحوذ على منبض التأثير من قلبي ووجداني.. ثم لا تنس التابوت والتماثيل والمومياء.. يا لها من مفاتن!..

وقطع عليّ تأملاتي أن سمعت صوت الشيخ جاد القبيح وهو يهتف «هش» فالتفت إليه منزعًا مغضبًا لأنّ آية همسة آتتد تثير أعصابي، ولكنّ الشيخ قال ببلاهة «عصفورا».

فانتهرته قائلاً:

- أيّ عصفور هذا يا شيخ.. أهذا وقت هزل؟

فقال الرجل:

- رأيت عصفورًا يرفّ بجناحيه فوق التابوت.

فالتفتنا إلى التابوت ولكنّا لم نر شيئًا، وكان من العبد أن نسأل الخادمين فقلت للشيخ:

- دعنا من أوهامك يا شيخ جاد الله.

ثم ضحككت وقلت للباشا بالفرنسية:

- عسى أن يكون العصفور روح الميت (كا) جاء

لزيارته معنا... .

ثم عدت إلى مطالعة الصناديق والجدران التي تحدث قلبي بلغة صامتة لا يعيها سواي. ولكنّي لم أستطع التأمّل بتاتًا لأنّا سمعنا الخادمين يصيحان بذعر:

- يا سعادة الباشا!

فالتفتنا إليها بسرعة وقد امتلأت غيظًا وحنقًا ولكنّي

سعت إليّ بقدملك.. وإني لأعجب كيف سوّلت لك نفسك هذا الفعل الأحمق.. أبلغ بك البطر الجنون..؟ ألا تحمد الآلهة أن حالت بيني وبينك بالموت..؟ ماذا جئت تفعل أيّها العبد.. ألم يقنعك أن تنهب أبنائي فأتيت تنهب قري..؟ نكلم أيّها العبد.. ولكن أتى للمسكين أن يتكلم.. إنّه لا يفقه شيئاً.. ولا يبدي حراكاً.. لقد دبّت الحياة في المومياء.. وفارقت قلب الباشا الحي.

أما المومياء فعادت تقول:

- ما لك لا تتكلم..؟ ألسنت حور..؟ ألسنت عبدي شتق..؟ ألا تذكر أنني جئت بك من الشمال في إحدى الغزوات الظافرة..؟ أنتجاهلني أيّها العبد..؟ إن جلدك الأبيض الذي يرمز إلى العبوديّة يفضحك مهما تنكرت.. ما هذه الملابس المضحكة التي ترتديها..؟ وما هذه الأبهة الكاذبة التي تخفي وراءها..؟

وظنّ حور أنّ الباشا لا يريد أن يتكلم فانتفخت أوداجه وتقطّب جبينه وصاح غاضباً:

- ما الذي دهاك؟ ما الذي دهم الأرض فجعل أعزتها أدلة وأذلّتها أعزّة، وخفض السادة عبيداً ورفع العبيد سادة؟ كيف غلبك أيّها العبد هذا القصر ويعمل أبنائي فيه خدماً؟ أين التقاليد المتوارثة؟ والقوانين المقدّسة؟ ما هذا العبث؟

واشتدّ الغضب بحور فاستحالت عيناه جمرتين يتطاير منهما الشر وصاح بصوت كالرعد:

- كيف تتجاسر على ابني أيّها العبد؟ لقد سمته الذلّ بقساوة دلّت على العبوديّة التي تنضح بها نفسك، ضربته بعصاك لأنّه جائع ودفعت لإخوته إلى ضربه، أيجوع في مصر أبنائنا؟ الريل لك أيّها العبد..

ولم يكن يتمّ كلامه حتّى تقدّم نحو الباشا مزججراً كأسد هصور يهمّ بفرسته.

ولكنّ الباشا التمس لم ينتظره، لأنّه كان قد فقد قوّة الاحتمال، فسقط على الأرض لا حراك به، وكانّ تهديد حور قد أشاع في الحجرة رعباً جديداً أتى على البقيّة الباقية من التأسك في النفوس، فما لبث الشيخ

القصر الفرعوني..؟ ولكن هل كان من الممكن أن يخالج نفسي في تلك الساعة فكر من هذه الأفكار..؟ بل هبّ أنّه خالجهما فهل كان يستطيع أن يهدئ من رعبها شيئاً..؟ فزعت فزعاً قاتلاً.. على أنّ عينيّ استطاعتا أن تريا كما استطاعت ذاكرتي أن تحفظ ما رأت عيناى..

ولم أجد أمامي مومياء بل رجلاً حيّاً كامل الرجولة والحياة، وكانت هيئته تذكّر بتلك الصور التي تُرى بكثرة على جدران المعابد، فكان يرتدي توباً أبيض ووزرة قصيرة ويغطي رأسه الكبير بقلنسوة أنيقة، ويحلي صدره العريض بنيشين كثيرة زاهية، وكان مهيباً رهيباً متعالياً، ولكنّي بالرغم من جلاله خيل إليّ أنّي رأيته من قبل، وذكّرت بالفعل الصعيديّ الذي ساقه الخدم إلى الباشا وأتموه بسرقة غذاء الكلب بيميش، كان شبهها غريباً ولكنّه اقتصر على الطول واللون والقسمات دون الروح والحياة، ولولا ما كان يبدي المائل أمامي من النبيل والتعالي لربّما خالجتني شكوك..

وكان يمدج الباشا بنظرة قاسية لا يحولها عنه كآته لا يرى سواه..

ماذا أقول يا سادة..؟ لقد سمعته يتكلم.. أي والله لقد نكلم حور بعد أن صمت ثلاثة آلاف من السنين، وتكلم بتلك اللغة القديمة التي طواها الموت منذ آلاف السنين. وسوف أنسى كلّ شيء في دنياي قبل أن أنسى كلمة واحدة ممّا نطق به لسانه..

قال لصديقي الباشا السيّ الحظ بصوت لم أسمع مثله جلالاً لأنّي لم أتشرف بعد بمخاطبة الملوك.

- ألا تعرفني أيّها العبد..؟ لماذا لا تحيى ساجداً بين يدي..؟

ولم أسمع للباشا صوتاً ولا استطاع بصري أن يتحوّل إليه، ولكنّي سمعت العظيم ذا الصوت العظيم يقول مرّة أخرى:

- لم أشعر يقهر أسر الموت إلّا حين شاهدت روعي هذه العجائب التي تحدث في الدنيا وأنا مقيد بأصفاد الأبدية لا أستطيع حراكاً، ولم أقدر أن أذهب إليك لأنّ حياتي انتهت كما قضى أوزوريس.. ولكنك

رأيت أم كان وهماً؟ . . وربما ملئتُ أحياناً إلى تكذيب نفسي، ولكن كلما أميل إلى الشك تصدمني حقائق لا قبل لي بها. . . فما قولكم مثلاً في شهادة الشيخ جاد الله وهو حي يرزق ويستطيع أن يعيد لكم ما حكيت. . . وما قولكم في جنون الخادمين التبعيين. . . ومقبرة حور. . . والقصر المهجور؟ . . بل ما قولكم في حادثة موت المغفور له محمود باشا الأرنؤوطي التي ما يزال يذكرها جميع قراء الصحف ويعجبون لها أشد العجب. . ؟

جاد الله أن سقط على وجهه وسقط معه المصباح فانطفأ نوره وساد الظلام. وانكملت بغتة كأني أتقي ضربة قاتلة لا أدري من أين تقع على رأسي، وملت في الظلام وأنا أنتفض فرقاً وذعراً، ثم خارت قواي، وشاء حظي الحسن أن أفقد شعوري وأغيب عن العالمين. .

\* \* \*

سادتي. . إنه لتأتي علي أوقات يصيبني فيها ذهول وتخامرني شكوك فأسائل نفسي مرتاباً: هل كان حقاً ما

## كَيْدُهُ ٣

تَسْنَمُ ذُرْوَةَ الْكَهُولَةِ؟

ووجد نفسه يفكر في مسألة الزواج تفكير شاب يهدف للثلاثين، ويكاد الزواج أن يكون كالموت نهاية كل رجل، ولأ فلمن يترك هذه الثروة الطائلة التي يمتلكها؟ ومن يؤنس وحشته إذا احتجزه البيت يوماً؟ ومن يعينه على متاعب الشيخوخة وأهوال الكبر إذا تألّبت عليه عوامل الفناء؟

ولكنّه لم يغفل عن أنّه مغامر عشاق، ومثله يستطيع أن يقرأ قلب المرأة كما يقرأ الكتاب المفتوح، ويعرف طبيعتها معرفته لبدهيّات الحساب، لذلك رأى أنّ الحكمة تملي عليه ألاّ يختار زوجة شابة تفصل بينها وبينه عشرات الأعوام، وصحّت عزمته على الزواج من أرمل أو مطلّقة في الثلاثين على أدنى تقدير، حذراً من أن يُقضى عليه بما قضى به على ضحاياه الكثيرين..

ولكنّه شاء غير ما شاءت الأقدار، وما حيلته في ذلك؟ لم يكن هو الذي يبرم الأقدار حين دُعي يوماً إلى حفل زفاف فراح مالكاً لفؤاده وعاد مسلوب الفؤاد والإرادة، ولم يكن هو الذي يخلق الأعمار إذ كانت التي سلّبت فؤاده في العشرين من عمرها، ربّما قلت إنّّه ينبغي له أن يغلب الحكمة والعقل على الهوى، ولكن والأسفاه فإنّ هذا القول وأمثاله لا يجدي فيمن تسيطر عليهم الشهوات، فجميعهم - أيّاً كانت الشهوة التي تتحكّم فيهم - لا يرون في العقل سوى وسيلة لتحقيق شهواتهم، يستوي في ذلك منهم من يعبد الله أو يعبد المال أو يعبد النساء، فلم يتردّد جمال بك عن سلوك سبيله المحتوم وخطب الأنسة حياة إلى والدها الأستاذ محمّد عويس الخبير بالمجلس الحسبيّ وتمّت الزيجة

هل يتمنّى الإنسان على الله أكثر من أن يهبه زوجة حسناء وثروة طائلة، ويمتعه بصحّة سابعة وبنين، ويؤنّته مركزاً اجتماعياً فذاً؟ وقد فاز حضرة صاحب العزّة جمال بك ذهني بأولئك جميعاً؛ كانت له زوجة شابة حسناء يعزّي وجهها الحسن عن أحزان الدنيا جميعاً، ووهبه الله أربعة من الأبناء كالورود صحّة وجمالاً، وترقى في مراتب الدولة حتّى ولي كرسيّ الاستشارة في أكبر هيئة قضائيّة، وورث عن والديه ثروة طائلة ما بين عقار ومزارع، ومع ذلك فمن كان يطلع على وجهه ذلك اليوم إذ هو جالس في شرفة قصره المطلّة على شارع السرايات يأخذ العجب لهذا الاكتفهار الذي يظنّه وتلك النظرة القلقة التي تحار في عينيه منذرة بالشقاء!

ولا سبيل إلى إبطال هذا العجب ما لم نلّم بماضيه لأنّ حاضر الإنسان يقع غالباً من ماضيه موقع النتيجة من المقدمات، وإن كانت لا تدعم العلاقة بينهما في الحياة بما تدعم به في المنطق من الضرورة والأحكام، ومهما يكن من الأمر فقد كان ماضي صاحب العزّة حافلاً بالشباب المرح السعيد والعقل النزيه والذكاء الوقاد والمغامرات التي تجعل من الشباب ديوان شعر غنياً بالذكريات العذبة، لأنّه كان من الرجال القليلين الذين يصادفهم أجمل التوفيق وأسعد له في دنيا النساء، فعشق عدداً وافراً من الممثلات والراقصات وربّات القصور المصنونات غير متردّد ولا حرج، ورشف من كؤوس الهوى خمرًا صافية، أعمته نشوتها عن طيّ الأعوام، فما يدري يوماً إلّا وهو يصحو على عادل يقول: «أتبلغ الخامسة والأربعين ولمّا تتزوّج؟» الخامسة والأربعون.. أحقّ ذهب الشباب الناضر وولّى؟ أحقّ

شاب إلى مثل زوجه الحسناء نظرة بريئة لا يشوبها طمع.

وضاق بصمته المرهق فأشار يوماً إلى شرفة الضابط وسألها:

- من يقيم في هذه الفيلا؟

فقالت:

- جار جديد، أظنه مفتشاً في الداخلية.

فسألها بلا اكتراث في الظاهر:

- ومن الضابط الذي يظهر أحياناً كثيرة في هذه الشرفة؟

- أيّ ضابط؟ .. لا أدري لعلّه ابن المفتش.

فوقع تجاهلها من نفسه موقفاً أليفاً؛ واشتد غضبه اشتداداً لا يستند إلى أسباب معقولة فقال:

- لا أشك في أنه ضابط أحق وقح.

فبدت الدهشة على وجهها وسألته:

- ما الذي يغضبك عليه؟

فقال بحدة:

- رأيته مراراً ينظر إليك نظرات وقحة سافلة، جعلتني أفكر جذياً في نقل حجرة النوم إلى الجهة الأخرى.

فقالت بلهجة استياء:

- ولكنه تعب لا مبرر له، وأرى أنه يتضمن إهانة قاسية لي يا بك.

- كلاً يا هانم، ما أردت هذا قط ولكني أحب أن تتمتع بحريتك بعيداً عن تطفل العيون.

فهزت منكبيها استهانة وقالت:

- افعل ما بدا لك.

وتحققت مشيئته، ولكن ألمته استهانتها واعتقد أنه تسرع تسرعاً معيياً ورطه فيه الغضب، وأحس من تصرفه بخزي أليم وكبر عليه أن يمتلئ رعباً من نظرة يرسلها هذا الشاب المغرور، وما عسى أن يفيدته نقل حجرة من مكان إلى مكان؟ وهل يعني هذا زحزحة الحب من موضعه إذا كان أنشبت أظافره في لحم قلبها الطري؟ .. هيهات. .

ولم تهادنه شكوكه وخوافه. وقد ثقلت عليه وطأتها

وأثمرت على الأيام أربعة من الأبناء أكبرهم في المدرسة الثانوية وأصغرهم في الروضة. . .

ولكنّ للزمن حكمه الصارم كذلك، فقد أحيل المستشار في هذا الأسبوع إلى المعاش وأذن النذير بمجيء الخامسة والستين بكوارثها الموهودة من نضوب الأعصاب وبرودة الاضمحلال وتنگر معالم الدنيا وتألّب أمراضها، وما كان به من ظمأ ولا جوع فقد ارتوت نفسه من لذائذ الدنيا وأخذ نصيبه كاملاً من متاعها الغرور، ولكن دبّ بقلبه ديب القلق الذي تعود بواعثه إلى تلك الزوجة الحسناء التي يعطيها الزمن - الأخذ منه - نصيباً وكاملاً ويزيدها كلّ يوم حسناً على حسن، وما كانت مخاوفه أوهاماً ولا محض حذر تملّيه مغامراته الماضية، ولكنه شاهد هذا الصباح في شرفة الفيلا التي تواجه قصره ضابط بوليس شاباً، يتألّق جماله في بذلته الرسمية المزدانة بالنجوم الدهيئة، وتنفخ صدره قوة الشباب وغروره، وتعيث أنامله بشاربه الأنيق الصغير، فانقبض صدره لمرآه وتوجّس منه خيفة لغير سبب يبيّن. عجب كيف أنه لم يره قبل اليوم، وهل يقيم في هذه الفيلا يا ترى منذ زمن بعيد؟ وهل هو متزوج أو أعزب؟ وكان يستطيع أن يسأل زوجه عما يجترّه ولكنه نفر من هذا نفوراً عجيماً وآثر عليه الجهل والحيرة.

وكان قلقه غريباً للدرجة أنه ودّ لو يستطيع أن يحمل زوجه على نقل حجرة النوم إلى الجهة الأخرى من القصر المطلّة على شارع الفشلاق وإحلال المكتبة محلّها، ولكنه لم يذّر كيف يعلل طلبه وأبت كبرياؤه عليه أن يفتحها بشأنه.

ووجد في حياة الفراغ الجديدة فرصة طيبة لمراقبة «غريمه» في صمت وحذر، فلاحظ أنه يتناول الشاي كلّ صباح في شرفته، وأنه يعود فيجلس بها عند الأصيل ساعة أو نحو ذلك، وفي تلك الأثناء يصادف أن تدخل زوجه إلى الشرفة فيديم الشاب النظر إليها، وخيل إليه أنّ بصرها يتّجه أحياناً إلى شرفته، نعم يحتمل ألا يكون وراء هذه النظرات أيّ معنى سوء. ولكن يتعذر عليه أن يتصوّر أنه من الممكن أن ينظر

الغدر؟.. وما يضريك ظهوري بكل مكان إذا انطوى قلبي على الإخلاص والأمانة؟  
فقال بذهول:

- الإخلاص.. الأمانة.. ما عدت أفقه معنى لهذه الكلمات لأنّ عقلي تسمّم فينبغي أن تفهمي ذلك جيّدًا، قد يكون المرض لعلّة وقد يكون لغير العلة إلّا الوهم، فاعلمي على إعادة الطمأنينة إلى نفسي، ودعي الوعيد جانبًا.. فانا رجل لا يمكن أن تتغفله امرأة مهما أوتيت من المكر والدهاء.

- أهكذا تتغيّر بعد العشرة الطويلة وتنقلب إنسانًا غير الإنسان لأنك رأيت شابًا ينظر إليّ من بعيد؟  
وأيّ امرأة لا تلتهمها العيون كلّها بدت للناظرين؟  
نظرة من بعيد.. كلّ ليس الأمر كذلك، إنّها تكذب وتحدّ في الكذب وهي تعلم بما يعذّبه ويشقيه، إنّها تتجاهل الحقيقة وليس لتجاهلها إلّا معنى واحد، إنّها تتغفله ولكتّها لن تفوز بباطل..  
- أصغي إليّ يا هانم لا بدّ من وضع حدّ لكلّ هذا.

فنظرت إليه بارتياح وقالت:  
- يا له من قول خطير.

فقال:

- لا خطورة هنالك، إنّني أقرّ بأنّي أخطأت فيما صنعت من تغيير ترتيب بيتنا، وأقرّ بأنّه ليس لي الحقّ في الحجر عليك لأنّه ينبغي أن أكون أرفع من العوامّ، فاذهي إلى حيث تشاءين وتنقّلي كما تشتهين ولكني لن أفارقك وأظنّ أنّ هذا من حقّي أيضًا.

فلم تتمالك نفسها من الضحك وسألته:  
- أبدًا؟

فقال بهدوء:

- سألازمك كظلك.

- يا له من أسر مرهق.

- لك؟

- كلًّا.. فإنّه يسعدني ولا شكّ أن يظلّ زوجي إلى جانبي، ولكن كيف لك أنت بالصبر على هجر لونابارك وسنت جيمس؟

يومًا وكان يجلس في قهوة لونابارك مع محام كبير فاستأذن بغتة وقام إلى سيّارته التي انطلقت به إلى قصره وبلغت شارع السرايات وكان الوقت أصيلًا ونظر خلل زجاج النافذة فرأى زوجته في شرفة المكتبة ونظر الناحية الأخرى فرأى الشيطان..  
وكان يعهد في زوجه البرود والزمانة والسيطرة على الأعصاب وكانت كعنده بها فلم تفاجأ بحضوره وسألته بإنكار:

- خير.. ما الذي أتى بك قبل ميعادك؟

فانفجر غاضبًا وسألها بغيط وحنق:

- قولي لي أنت ما الذي أتى بك إلى هذه الشرفة؟  
فقالت بغضب وإباء:

- إنّك تهينني يا بك إهانة لا تحتمل.

فاشتدّ به الغيط وقال بعنف:

- أنت تحاولين تضليلي باصطناع هذا الإباء الكاذب.

- عهدي بك أعظم أدبًا من هذا.

- ما شاء الله وددت لو يستمع إليك أبنائنا إذ تعلّمين أباهم الأدب.

- أمّا أنا فلا أودّ أن يستمعوا إلى أبيهم وهو يكيل التهم لشرف أمهم.

فنظر إليها نظرة عميقة وهو يضرع إلى الله أن يطلعه على خبيثة نفسها وجعل يتساءل في حيرة: ترى هل هي صادقة في غضبها؟ هل هي حقًا بريئة تمامًا ماها به، وتهدّ حزينا شقيا وقال وكأنه يجادل نفسه:

- حقًا إنّ الشكّ مسّ من الجنون.

فقالت باستياء:

- ألا ترى أنّك تعترف بأنك شككت في؟

فعاوده الغضب وقال لها بمرارة:

- لماذا تعودين إلى الظهور بهذه الشرفة؟ وفي هذه الساعة المعهودة؟ أصغي إليّ يا هانم، أنا لا أسمع لامرأة بأن تتغفلي أبدًا.

- هذا كلام لا يليق برجل له مكانتك وأخلاقك، ويجدر بك أن تنادي عقلك الذي غرّب به الغضب، فإذا ينفعك إغلاق الأبواب والنوافذ إذا أنا بيّت

- هذا شأن يعينني وحدي .

فلم ترد على أن قالت :

- افعل ما فيه راحتك .

ومضى البك بحقق وعيده دون إمهال، فخلع ثيابه وارتدى البيجاما والروب دي شامبر وجلس إلى جانبها، وتسلسلت الأيام على منوال واحد، فكانا يقطعان النهار معًا يتحادثان حينًا ويطالعان حينًا آخر، فإذا سئمت من جلستها وقامت إلى الشرفة أخذ مقعدًا إلى جانبها، أو نزلت إلى حديقة القصر تترىض في ممشيها رافقها حتى إذا ولى النهار وجاء الليل وحانت ساعة النوم أوبا معًا إلى مخدعها فنام ملء جفنيه . . .

وكانا يخرجان كثيرًا لزيارة الأصدقاء والأقارب ويغشيان الملاعب والملاهي والسينمات فلا يفترقان دقيقة: وثابر على حياته الجديدة مشابة الصابرين ولازمها حقًا كظللها، وحافظ على كلمته أن يتركها تفعل ما تشاء على أن تتركه يفعل ما يشاء كذلك، ولم تظهر السيّد أيّ تنمر وقضت أيامها مرحلة ضاحكة كأنها أسعد الأزواج حقًا. وفي يوم من الأيام اقترحت عليه أن يذهب إلى شيكورييل لشراء حاجاتها وحاجات الأولاد، فذهب معًا ودخلا المحلّ الشهير، ودارت به على الأقسام المختلفة تشاهد البضائع وتسال البائعين، وصعدا إلى الطابق الثاني وجالا هنا وهناك، وهو يتبعها صامتًا يقف حيث تقف ويسير حيث تسير، فمرّ على نحوهما ساعتان أو يزيد لم يسترح الشيخ فيهما دقيقة واحدة حتى هت من شدّة التعب، وعلا صدره وانخفض، وسال عرقه باردًا، واشترت ذلك اليوم شريطًا من الدانتلا!

ثمّ عادا إلى السيّارة فارتقى الرجل على مقعده منهوك القوي وقال لها:

- لم تشتري شيئًا ذا بال .

فقالت:

- ينبغي التريث في الشراء، سنعود غدًا .

وعادا في الغد ودارت به كما فعلت بالأمس ولكنّه لم يحتمل المشي والوقوف ولحقه الإعياء فقال لها:

- سأنتظرك في السيّارة .

وانتظرها ساعة أو يزيد، ثمّ حضرت يتبعها غلام

يحمل المشتريات فسألها البك:

- هل انتهيت والحمد لله؟

فقالت بهدوء:

- هذه كسوة حسني .

فقال الرجل دهشًا:

- حسني فقط؟ . . وإخوته . . وأنت؟

فقالت:

- لِسّه يا بك . . لِسّه . . أرجو ألا تنكر عليّ تباطئي

فهذه طريقي في الشراء وإن كنت تطلّع عليها لأول مرة .

وجاء معًا في اليوم التالي ودخلت الزوجة إلى المحلّ وانتظر البك في السيّارة وفات على دخولها ساعة ثمّ ساعة أخرى فتمللم البك في جلسته وأحسّ برغبته في الحركة فغادر السيّارة ودخل إلى المحلّ، ويحث عن زوجته بعينيه، ومضى يسير هنا وهناك ولكنّ الظاهر أنّها كانت بالطابق العلويّ فصعد الأدراج على مهل وقطع المكان ذهابًا وإيابًا ولكنّه لم يعثر لها على أثر، فعاد أدراجه وهمّ بالبحث مرّة أخرى في الطابق الأول ولكنّه رآها مقبلة من أقصى المحلّ والغلام يتبعها يحمل المشتريات فلم يرد أن يظهر لها نفسه وسبقها إلى السيّارة . . وتساءل في صمته كيف لم يعثر بها مع أنّ المحلّ لم يكن مزدحمًا؟ هل لأنّه لم يحسن البحث يا ترى؟ . . ولذعه الشكّ . . هل من الممكن . . ولكن هذا بعيد عن التصرّور .

وجاءت معه في غداة اليوم التالي ودخلت المحلّ ولبث هو في السيّارة كما فعل بالأمس ولكنّه لم يمهلهما إلاّ دقيقة واحدة ثمّ تبعها على الأثر ورآها تسرع الخطا منعطفة إلى يمين الداخل فظنّ أنّها قاصدة إلى المصعد ولكنّها واصلت السير إلى باب المحلّ الجانبيّ وخرجت منه، فحفق قلبه بشدّة وتبعها بخطى سريعة، وبلغ الباب، ثمّ نظر إلى الطريق فرآها تدخل «لاكلي» المواجهة لباب المحلّ وشاهدها تدخل إلى المصعد ثمّ صعد بها، فاجتاز الطريق ودخل العارة وانتظر هبوط المصعد وسأل البواب عن الطابق الذي صعد إليه



- جمال ذهني.

صاحت بصوت عالٍ لدرجة مزعجة:

- مدام جمال ذهني.

ولكن سيّدة من الموجودات لم تلبّ النداء، فقالت:

- المدام غير موجودة بلا شك.

قالت ذلك بلهجة من ترى وجوب انتهاء المقابلة عند هذا الحدّ، فلم يربّداً من الخروج، وأغلق الباب خلفه، ولكنّه لم يتحرّك من مكانه ولبث يرمق الباب بعين متّقدة، ترى هل أخطأ البوّاب حسابه؟ أم إنّ الشيطانة موجودة بداخل شقّة الخياطة؟؟ ولماذا صرخت الفتاة الملعونة بهذا الصوت المزعج وهي تنادي مدام جمال ذهني! ألا يجوز أنّها فعلت ذلك لتحذّر الغافلين؟ وهل يجوز أن يبقى في مكانه لا يحرك ساكناً وزوجه في داخل الشقّة في خلوة غرامية؟ فما عسى أن يفعل وكيف يضبط الآثمة متلبّسة بجريمتها؟...

وعند ذاك فتح الباب، فتقهقر خطوتين، وخرجت سيّدة، وأوصلتها الفتاة الإفرنجيّة وقد رأته ولكنها لم تبأله، وأغلقت الباب مرّة أخرى.

فمضى يروح ويحيء في حيرة شديدة. من المؤكّد أنّها في هذه العمارة فقد رآها وهي تدخل ورآها وهي تندسّ في المصعد، وأكّد البوّاب أنّها صعدت إلى الطابق الرابع وها هو ذا الطابق الرابع، ولا مكان يصحّ افتراض دخولها إليه إلّا شقّة الخياطة، فالشيطانة لا شكّ في الداخل، ولكن ما عسى أن يفعل؟ هل يظلّ يروح ويحيء؟ أم ينتظر إلى ما شاء الله؟ وبما يزيد ارتباكاً أنّ وقوفه هكذا قد يريب الصاعدين والهابطين ويأرهم لا ينقطع. ومَرّت عليه ساعة كاملة كانت أقسى ساعات حياته جميعاً. ونال منه التعب والقهر كلّ منال. فاضطرّ إلى مغادرة مكانه وفي نيّته أن ينتظرها لدى الباب الخارجيّ، ولكن خطر له خاطر أزعجه فسأل البوّاب:

- هل للعمارة مدخل آخر؟

فأجابه الرجل بلهجته البربريّة بأنّ للعمارة ثلاثة أبواب فأحسّ باليأس وذاق مرارة الخيبة وعصّ شفّته من الحنق والغضب، وكبر عليه أن تتغلّله الشيطانة وتمثّل

فرفع الرجل بصره وقال: «الطابق الرابع» فدخل المصعد وضغط الزرّ رقم ٤ وخرج منه فوجد نفسه في ردهة تواجهه ثلاثة أبواب فألقى عليها نظرة هائلة وهو يقول: ترى في أيّها دخلت، واقترب من أولها فقرأ عليه المسيو فالديمير كراوس المحامي بالمحكمة المختلطة، وقرأ على الباب الثاني اسم هـ. ليفي متعهد راديو تلفنكس، وكتب على الثالث «مدموازيل فلورا خياطة للسيدات»، ووقف أمام الباب الأخير لا يريم، وقد انحصر فيه ارتياحه، وضغط على الجرس ففتح الباب، ودخل قبل أن يؤذّن له بالدخول فتراجعت أمامه التي فتحت الباب دهشة مستاءة، وألقى نفسه في ردهة متوسطة الحجم تحيط بها حجرات أربع، منها ثلاث مغلقة الأبواب وواحدة مفتوح بابها على مصراعيه ويرى بداخلها بعض السيّدات والأوانس منهنّ من تطمئنّ إلى مقعدها ومنهنّ من تقف أمام المرأة لتلقي النظرة الأولى على فستانها الجديد. وانبه إلى الفتاة الواقفة أمامه يبدو على وجهها الإنكار وسمعتها تسأله:

- هل المدام مع البك؟

فالتفت إلى مغزى السؤال وتحير كيف يجيب أو كيف يعتذر عن وجوده، لأنّه اندفع تحت تأثير الغضب والحنق اندفاعاً لم يتدبّر أمره، وألقى على الأبواب المغلقة نظرة ارتياح وقهر، وودّ لو يستطيع أن يقتحمها ليرى ما بداخلها. ولكنّه لم يفعل شيئاً لأنّه لم يكن فقد عقله. ولأنّه هو رجل القانون - لم تكن تخفى عليه مغبة عمله فيما لو أخطأ تقديره وحسابه: وكأنّه أراد أن يقامر بما تبقى لديه فسألها:

- أليست هذه شقّة مدموازيل فلورا؟

فقالت الخبيثة:

- بلى، ألم تقرأ اللافتة يا مسيو؟

فقال:

- إنّ زوجتي سبقتني إلى هنا

فسألته.

- ما اسمك يا سيّدي؟

فقال:

تركها أو هي اضطرت إلى ذلك، ولكن لم يخطر له على بال أن تتخذ من زيارتها لشيكوريل سبيلاً إلى مقابلة عشيقها.

واستسلم للتفكير الحزين، وذكر طريقة عامة الشعب في الانتقام من الخائنات فوجد نفسه - في محنته - يقرّها، وهل تستحقّ الأفعى إلا تمهيشم رأسها... أما هو البك الوجيه المثقف فيجلس إلى جانب معذّبه يعاني آلامه في صبر، ويشيخ كبرياءه إلى القبر وهو كظيم. وكيف يفعل غير ذلك وهو القاضي الذي قضى حياته في خدمة القانون؟

ولاحت منه التفاتة إلى الطريق فرأى بعض المارة يحدجون السيارة بنظراتهم المتطفلة، فسأل نفسه ترى هل ينفسون عليه السيارة الفخمة والزوجة الحسنة؟ حقاً إنه يستحقّ الرثاء، وسيكون أحقّ بالرثاء في مستقبله حين يخلي يده منها - وهو ما صدقت نيته عليه - فكيف تكون حياته بلا زوجة؟ وكيف تكون حياة أبنائه بلا أم؟

وهل تزوج يوم تزوج إلا إشفاقاً من أن يلحقه الكبير وهو وحيد فيعاني مرارة الشيخوخة ووحشة الوحدة..

به هذا التمثيل المزري، وكان ما عاناه عقله وجسمه فوق ما يجتمله شيخ في سنّه، فعاد خائر القوى إلى سيارته، وكم كانت دهشته عظيمة حين همّ بالدخول فرأى زوجه جالسة آمنة مطمئنة تنتظر أوبته منذ زمن غير يسير وقد نظرت إليه بإنكار وسأله:

- أين كنت يا بك؟

فأنعم في وجهها النظر فرأها تبسم ابتسامتها المألوفة، ولكن لم يخف على عينه الثاقبة شحوب لونها ونظرتها الدالة على الإثم بقدر دلالتها على الطهارة المصطنعة، فهي شيطانة بلا ريب ولكنها لم تتعود الإجرام بعد.

وجلس إلى جانبها صامتاً وانطلقت بهما السيارة. وكان مقهوراً مغلوباً على أمره، يعاني مرارة الهزيمة ويمحس كأنّ يدًا تخنق كبرياءه خنقاً. وكان يسوؤه أن يجلس هكذا إلى جانب المرأة التي تغفلته وهزأت بكرامته ولوّثت عرضه.. ولم يرتب قطّ أنّها تعلم بأمر مطاردته الفاشلة لها. ومن يعلم؟ فلعلّها تضحك في سرّها الآن من خيبته وهزيمته. يا له من تصوّر لا يحتمل!

لقد أندرّها بأنّه لن يتركها لحظة، ثم اضطّر إلى

## روض الفرج

قامتهم ويبدو الطربوش غريباً على رؤوسهم. أما الأسطى فقد وقف أمام المرأة في دَلّ وتبه وارتدى قفطانه الزاهي وجبته البنية الأنيقة، وأمال الطربوش حتى مسّ حاجبه الأيمن، وأمسك بعصاه المذهبة اليد، وتقدّم قريبه يخطال في مشيته كالطاووس.

والأسطى شلبي هذا بدأ حياته كصبي حلاق بسيط ثم استقلّ بصالون جميل أتاه منه رزقه رغداً، ثم اشتغل بالسمرسة وصادفه فيها توفيق كبير فمنت أرباحه واستطاع أن ينفق عن سعة على عشيقاته العديداً من نجوم روض الفرج.

أما عبد المعز فهو ابن أحد أقرباء الأسطى شلبي المدعو الشيخ طه، شيخ كتاب وواعظ بالعريش؛ وقد جاء فتح مدرسة العريش الابتدائية متأخراً مما دعا ولاية الأمور إلى التجاوز عن شروط سنّ القبول فالتحق بها عبد المعز وهو ابن ثلاثة عشر عاماً، وبعد انتهائه من تعليمه الابتدائي أرسله أبوه إلى قريبه شلبي ليتمّ تعليمه الثانوي، مؤثراً بُعد القاهرة، مع الاطمئنان عليه في بيت قريبه، على قرب الزقازيق مع إقامته وحده.

على أنّ الأسطى شلبي لم يكن عند حسن ظنّ الشيخ طه فكان يدعو أحياناً عبد المعز إلى المقهى، واقترح عليه مرة أن يعلمه النرد ليستعينا به على تزجية أوقات الفراغ. وكان الشاب حكيماً مجتهداً فلم يستسلم لإغراء قريبه، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يسلمه فيها زمامه فذهب معه إلى روض الفرج ودخلا كازينو السفور لمشاهدة رواية «اشمعى». وبدا الشاب بطيئاً في فهم النكت و«الفشات» وأخذ يقلّب عينيه بين الضاحكين في استغراب وحيرة، ولكن

اعتدل الأسطى شلبي في جلسته وجعل يفتل شاربه الغزير ويرفع حاجبيه الكثيفين ويقول للشابّ الجالس إلى يمينه على الكنبه:

- وما الداعي إلى التعجيل بالسفر؟

فقال له صاحبه وهو شابّ في الثالثة عشرة من عمره تدلّ قوة بنيته وسداجة نظراته على ريفيته الفحة:

- وما الداعي إلى البقاء وقد انتهيت من أداء امتحاني؟

فقال الأسطى شلبي يتفلسف:

- وهل الغاية من الدنيا تنتهي بانتهاء امتحان النقل من السنة الأولى إلى السنة الثانية الثانوية؟ ينبغي أن تروّج عن نفسك قليلاً فما العيشة التي أنت ذاهب إليها إلا قطعة من البادية القاسية لا أثر فيها للهو والمرح..

فقال الشاب:

- أخشى أن يقلق والدي لتأخري.

- وماذا يضيره لو تأخرت يوماً آخر وقد غبت عنه عاماً مدرسياً كاملاً؟ تعال نذهب معاً هذا المساء إلى روض الفرج والعشاق لمشاهدة رواية «اشمعى» وهي كوميديا في غاية الإضحاك والبهجة.. ما رأيك؟

وضحك الأسطى شلبي وهو ينظر إلى عبد المعز بإغراء فابتسم الشاب وقال بتسليم:

- فليكن.. سأؤجل السفر إلى غد.

فابتسم الأسطى مسروراً وقال له بخلاء:

- نعم الرأي، وسترى بعد قليل عشيقتي تقوم بتمثيل الدور الأول في رواية «اشمعى».

وارتدى عبد المعز ثيابه وكانت تبدو عليه هيئة الطلبة الريفيين الذين يندر أن تسجم (البدلة) مع

فأحسّ نحوها بانجذاب عجيب، والظاهر أنّ المرأة لم تهمله لأنّها عادت تداعبه فسألته:

- كم عشقت من النساء يا غلام؟

وكان عبد المعزّ يشعر بميل إلى التحدّث إليها فأغضى من سخريتها وسألها بدوره:

- وهل يحبك أن تعرفي ذلك؟

- كيف لا؟

- وله؟

- الأسباب كثيرة أقلّها أن أعرف عمرك.

- وما علاقة العمر بالعشق؟

فغمزت بعينها وقالت:

- نحن معشر أهل الهوى نقدرّ الأعمار بحساب الحبّ، مثلنا مثل العرافة التي تهتدي إلى معرفة الأعمار بالرمل والنجوم.

فضحك الأسطى شليي وقال:

- إذا فبعد المعزّ لم يولد بعد على تقديرك.

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت بإنكار:

- ربّاه.. ولم تحرم نفسك من الحبّ يا بنيّ؟.. ألا ترى الأسطى شليي لا يفيق من الهوى وإن ردّ إلى أردل العمر؟

فتغاضب شليي وقال محتجّاً:

- أيقال عنيّ أنا مثل هذا الكلام (وقتل شاربه واستمرّ قائلاً) أهذا شارب رجل ردّ إلى أردل العمر؟

فعبثت أناملها المخضبة بالحنّاء بشاربه وقالت:

- أقسم أنّك سرقت هذا الشارب من زبون شارد الفكر!

ولم يكن لدى الممثلة متسع من الوقت لتسترسل في مداعباتها، فشربت كأسها وحيّت الأسطى وقرصت عبد المعزّ مرّة أخرى وسارت ترقص على نغم موسيقاها الباطنة.

واختم التمثيل عند منتصف الليل، وانتظر الأسطى شليي السيّد نور الحياة حتّى انتهت من تغيير ملابسها وعادت إليه، وركب ثلاثتهم تاكسي انطلق بهم صوب المدينة. وفي أثناء الطريق كان عبد المعزّ يختلس من الوجه الممتلئ الجميل نظرات جائعة،

جذب عينيه إلى المسرح ظهور ممثلة قابلها الجمهور بعاصفة من التصفيق والتهليل، وكانت امرأة فارعة طولاً وعرضاً مزججة الحاجبين مكحلة العينين محمّرة الخدين والشفّتين، تنوء بحمل ردفين ثقلين ولا ريب يرهقانها ثقلاً، بل ما أحرهما أن يميدا بها لولا أن وازنتها العناية بثديين كبطيختين وإن كانا - بقدرة قادر - ناهضين، وكانت تتنّى وتسميل وتتخنّت في كلامها وتكسرّ وكأنّها تتأوه وتتوجّع والنظارة لا يكفون عن إبداء الإعجاب يرقونها من أعين الحساد. وقتل الأسطى شليي شاربيه بقوة وزهو ومال على أذن صاحبه وهمس قائلاً:

- هذه عشيقتي نور الحياة.. انظرا!

وكان عبد المعزّ ينظر بعينين جشعتين فزاد ذلك مسرّة الرجل فعاد يقول:

- إنّ بعض الظرفاء ممّن يعرفون أنّي المالك لقلب هذه المرأة يقولون لي: «حقّاً إنّك لمن كبار ذوي الأملاك».

وقهقه الرجل ضاحكاً تيّاهاً فخوراً.

وفي أثناء فترة الاستراحة رأى عبد المعزّ الممثلة الحسناء آتية صوب الركن المتزل الذي يجلسان فيه، تتبختر كأنّها ترقص، وتوزّع النظرات الناعسة بلا عدل ولا رحمة؛ ثمّ رآها تسلم على الأسطى شليي وتقول له ضاحكة:

- كيف حالك يا رجل؟

وسمع قريبه يخيّنها قائلاً:

- وما جدوى سؤالك عن حالي ما دمت تلتهمين مالي وصحّتي بلا رافة؟

فضحكت ضحكة مثيرة وجلست تشارب الرجل كأساً من الويسكي، وكبر على عبد المعزّ أنّها لم تباه؛ ورأت المرأة ارتباكها، فمدّت يدها المكتنزة وقرصته في خدّه وهي تقول:

- وكيف حالك يا نونو؟

فأحمرّ وجه عبد المعزّ استحياء، وأحسّ باستياء، وشغل بشعوره عمّا حوله فلم يتبّه إلى ما دار بين المرأة وقريبه، وجعل يختلس النظرات إلى وجهها الممتلئ

حقاً أم نور الحياة؟ على أنه لم يبال هيامه واعتقد أنه عبث طفولة لا يقابل بغير الهزء والسخرية. فاصطحبه معه إلى روض الفرج. وكان تعلّق الغلام بنور الحياة بيتاً لا يحتاج إلى دليل، أما الذي لم يدر بخلد إنسان أبداً ولا كان محلّ احتمال قطّ فهو أن تعلق المرأة بالغلام، ولو أنه من المسلم به دائماً أنّ عالم الحبّ حافل بالمفاجآت غنيّ بالغرائب والعجائب.

وكانت الظواهر تجمع على حبّ تلك المرأة الهائلة لذلك الغلام الغريب فكانت تأنس به وتخفّ إلى محضره وتعاطيه نظرات حنان وعطف ومودة، وكان لسان حالها ينطق بالرغبة الحارّة في الانفراد به، وكانا يطلبان غفلة من الأسطى شلبي ليتناجيا بغمزة عين أو يتفّسا عن صدرهما بلمسة يد، وفي أثناء ذلك لا تكفّ ركبته عن تحسّس فخذها المكتنز.

وحاول الأسطى شلبي أن يهزأ به في حضرتها أكثر من مرّة، فكانت تغضب وتنهره حتى ضاق صدره وجعل يقتل شاربه بعنف ويقول لنفسه بغيط: «أُغلب هذا الشارب الذي يقف عليه الصقر؟ هيهات ثم هيهات».

وفي أثناء ذلك استبطأ الشيخ حضور ابنه فأرسل إليه خطاباً يحثّه فيه على العودة بلا إبطاء؛ وانتهز الأسطى الفرصة الذهبية فنصح الشاب بإطاعة والده، ولكنّه أجاب - أو قلبه أجاب - «لا أستطيع». وانفجر حقد الأسطى شلبي في كتاب حرّره للشيخ طه كاشفه فيه بتدهور ابنه إلى الخسيف والفساد وصارحه بهيامه بإحدى غايات روض الفرج، وأهاب به أن يدركه أو يترقى في الهاوية إلى الأبد.

وجنّ جنون الشيخ الواعظ فشذّ رحاله إلى القاهرة فبلغها عصراً، واستقبله الأسطى شلبي استقبلاً يدلّ على الإخلاص والمحبة، ولم يتردّد فمضى به إلى روض الفرج وكان يوسوس في صدره بما يزيد مخاوفه ويبيح بلابله، وانتهيا إلى كازينو البوسفور وكان الستار مرفوعاً فسار إلى مكان يطلعان منه على الركن الأيمن الذي يجلس به عبد المعزّ يشاهد التمثيل في الظاهر ويتنظر نور الحياة في الحقيقة، ومال الأسطى على أذن

وكانت المرأة بعينين نصف مفتوحتين لا تخفى عليها خافية، وقد وجدت لذة غريبة في مشاهدة قلقه وتحمّره، وأرادت أن تغضي عنه استهانة فلم يطاوعها وجدانها، وأخيراً أحسّت نحوه بعطف غريب لم تحاول إخفاءه. وبلغ التاكسي ميدان المحطة فأمر الأسطى السائق بالتوقّف ريثما يودّعها عبد المعزّ الذي قدّر له أن يعود إلى البيت وحده تلك الليلة. وأرادت نور الحياة أن تحسن توديعه فقالت:

- يا عيني.. أعود إلى البيت وحلك.. خذ هذه القبلة لتؤنس وحشتك.

ومالت نحوه بسرعة وقبّلت فمه قبلة فاضحة ذات رنين عجيب.

ووقف الشاب ينظر إلى التاكسي الذي ابتعد بهما في جوف الليل إلى حيث لا يعلم، وكان ذاهلاً محمّوماً يتصاعد الدم إلى رأسه كما يتصاعد الزئبق إلى الترمومتر، ويحسّ بالقبلة على شفتيه ويدوي رنينها في أذنيه ويشمّ رائحة الفم المعطر بالقرنفل، واحتاجت أعصابه تلك الليلة الفريدة في حياته فجعلت تخلّق له الأحلام وتدني إليه الأماني، وأنامت بين ذراعيه نور الحياة بشحمها ولحمها لتروي اشتهاه بفنون الحبّ جميعاً.

ولدى ضحى اليوم الثاني رجع الأسطى شلبي إلى بيته، وقد أدهشه أن يرى عبد المعزّ ما يزال قابلاً به لم يسافر ولا تبدو عليه هيئة المسافرين، فقال له:

- ظننت أنك سافرت إلى العريش.

فسأله الشاب بقلق:

- أيضاً يذكّر أن أبقي مدة أخرى؟

- كلاً وألف مرّة كلاً.. على الرحب والسعة دائماً.. ولكن قل لي بالله ما الذي حملك على تغيير رأيك؟

فقال الشاب مبتسماً مرتبكاً وهو ينظر بعينه إلى الأرض:

- روض الفرج دون غيره: ليتني أستطيع أن أشبع من ملاهيه!

وقال الأسطى شلبي لنفسه: ترى هو روض الفرج

الشيخ وقال هامساً:

- ستوافيه إلى هذه المائدة بعد قليل.

فضرب الرجل حجره بيده في حالة عصبية وقال بتأثر:

- ألا يكفيك أن يغشى هذه البؤرة الفاسدة؟

فقال الأسطى شلي بلهجة دلت على الحزن والأسف:

- إن ما ينظر له القلب حقاً أن عبد المعز كان شاباً طاهر الخلق.

فتند الرجل بحسرة وقال كالداهش:

- ولكن من أين له المال الذي ينفقه على ممثلة؟

- أظن أن العلاقة بينهما لم تجاوز خطى التعارف الأولى، ولهذا أحببت بك أن تدركه ولماً يتو.

فقال الشيخ بلوم وحزن:

- لقد سكّت عنه يا شيخ شلي أكثر مما ينبغي، كان يجب أن تحذرنى من بادئ الأمر...

فقال الأسطى بيقين:

- أقسم بالله آني ما علمت بسقطته حتى بادرت إلى الكتابة إليك.

وعند ذلك نزل الستار فوجه الرجلان انتباههما إلى الشاب الموليها ظهروه. وما لبثا أن رأيا نور الحياة تسير إليه في مشية الأوزة العصرية وتجلس قبالة، ونظر الأسطى شلي إلى الشيخ طه فرآه ينظر إلى المرأة نظرة فاحصة، وسمعه يصرخ صرخة مكتومة ويهتف بصوت مبحوح مرتجف:

- يا رحمة الله!

ورآه يقف مرتعش الأوصال زائغ البصر، فأشفق من عاقبة التهور وقال له بتوسل:

- هذئ من روعك يا شيخ طه.

ولكن الشيخ طه لم يستطع أن يهتئ روعه، وسار كالترنح حتى وقف خلف ابنه الذي لا يحس به وألقى على الممثلة نظرات وحش مفترس، وألقت عليه نور الحياة نظرة احتقار عاجلة من النظرات التي تدخرها للمتطفلين، ولكنها علقت بوجهه ولم تبرح، وعبتاً حاولت أن تحول عينيها عنه كالمستهوي، وعجب

الأسطى شلي لما رآها تتلبسها حالة دهشة وفزع كتلك التي تلبست الشيخ طه حين وقوع نظره عليها، فحار لأمرها وقال لنفسه بقلق «ليست هذه مسألة عبد المعز».

وفي تلك الأثناء التفت عبد المعز إلى الوراء فوجعت عيناه على أبيه فجمد في مكانه كالصنم، ولكن أباه لم يباله كما توقع واكتفى أن أمسك يده بقسوة ووضعها في يد شلي وقال بشدة لا تحتمل المراجعة:

- اسبقاني إلى البيت.

فمضى الأسطى شلي مع الشاب المرتعب وهو يتمتم:

«خلصنا من الابن طلع لنا الأب».

ولما خلا الشيخ والممثلة قال الرجل باحتقار:

- السلام عليك أيتها الفاجرة التي ما كنت أظن أن

الله سيبتليني برؤيتها مرة أخرى.

ولم تردّ عليه المرأة الهائلة بل استكانت وبدا عليها الذهول والقلق، وتعلق عقلها بالشاب الذي ذهب فعاد الرجل يقول باللهجة نفسها:

- حقاً هذه البؤرة التي أعدت لأمثالك، لقد كنت

يوماً ريفيّة بسيطة ولكن نفسك كانت ملوثة تبرا منها نفوس الريفيات جميعاً. كنت فاجرة بالطبيعة والفطرة فكان من المحتّم أن يتهي بك المطاف إلى روض الفرج أو إلى هاوية أشدّ وعورة، أيتها الفاجرة.

وكانت نور الحياة تفكر في أمور أخرى اهتتها عن الإصغاء إليه، فسألته بخوف وإشفاق وهي تشير إلى الناحية التي ذهب إليها الأسطى شلي وعبد المعز:

- هل هو...؟

ولم تقوَ على إتمام سؤالها فقال الرجل بوحشية:

- نعم.. نعم.. هو ابني.. بل هو الطفل الذي

تركته في القماط وفررت مع ذلك القصاب المنحوس غير آبهة بالأمومة ولا بالزوجية.. هو ابنك أيتها الفاجرة فقولي ماذا صنعت به...

وابيض وجه المرأة وعلاه الكركم وزاغ بصرها فقال الرجل بقسوة:

- هل وقعت الجريمة النكراء! هل حدث الإنم

مستدير حلو الابتسامة جَمَّ المحبَّة والحنان يراه في النور والظلام ويراه حين ينظر وحين يغمض جفنيه فهو لا يبرح تخيلته ولا يدع له فرصة للراحة أو الاطمئنان، ولم يفكر قط في النسيان أو التعزِّي ولكنَّه كان يبتغي الوسيلة إلى الفرار إلى القاهرة معها كلَّه الأمر.

ولاحت الفرصة المطلوبة بعد أسبوع من وصوله إلى العريش حين اضطرَّ أبوه إلى سفر يقتضيه التغيب بضعة أيام، ولم يدع الفرصة تغفل لأنَّه كان عازماً عزماً أكيداً أمات ضميره وهزم نوازع الخير في نفسه، ففتح صوان والده وبعثر ما فيه من الثياب فعثر - كما قدَّر - على خمسة جنيهاً دسَّها في جيبه وفرَّ من البيت.

وبلغ القاهرة ظهراً، وكان مضطرباً متعباً فاستراح في مقهى حتَّى العصر، ثم ركب إلى روض الفرج فلإلى كازينو البوسفور وقصد إلى الركن المعهود، ولكنَّه لمح عن بعد الأسطى شلبي جالساً إلى المائدة في اطمئنان ودعة ينتظر الحبيبة، فغل الدم في عروقه، وودَّ لو يخسف به الأرض، وحار لحظة قصيرة ثم لم يتردد، فقصد رأساً إلى حجرات المثلثات وبحث عن حجرة نور الحياة ولم يصبر حتَّى يؤذن له فاقتحم بابها.

وكانت مفاجأة غير متوقَّعة، فقامت نور الحياة واقفة تاركة أدوات المكياج والتواليت تسقط من يديها، وبدو على أسارير وجهها فرح قهريّ وكادت تفتح له ذراعيها وتضمَّه إلى صدرها الخفاق وتعاطيه قبل الحنان والأمومة. ولكنَّها تنبَّهت إلى نفسها فتصلَّبت في وفقتها وجهدت أسارير وجهها وبدت عليها الحيرة والذهول، ولم يكن لديها متسع للتفكير والتقدير، ولكنَّها أحسَّت بأنَّ الطريق التي تدفعها عواطفها إليه ليس الطريق الذي ينبغي لها سلوكه.

ولم ترد عيناه أن ترى في وجهها سوى الفرح الذي كساه لأوَّل وهلة، فاقبل عليها مفتوح الذراعين ولكنَّها أغضت عنه وسائله بلهجة غريبة:

- عد المعزّ.. ما الذي أتى بك إلى هنا؟

فقال بلهجة المستغيث وهو يشفق من تغيرها إشفاقاً:

الأكبر؟ هل سفلت يا فاجرة إلى مرتبة الحشرات والكلاب؟ والله ما كنت أحبُّ أن يشارك ابني في هذه الجرعة الشنعاء ولكنَّه الانتقام الإلهي الصارم أعمى بصرك وطبع على بصيرتك ليذيقك علقم الندامة ويضرب عليك المذلة والهوان إلى أبد الأبد.

وكانت المرأة في حالة ذهول شديد حجب من حواسِّها إدراك العالم المحيط بها ومنه الشيخ طه، فغلغت هواجس ضميرها صوت الرجل المرغي المزيّد وجعلت تتحدّث نفسها.

- ابني.. ربّاه.. أهذا إذا سرَّ حيّ له وعطفي عليه؟.. ابني.. لكأنَّه حلم بعيد التحقيق.

فقال الرجل الغاضب:

- فلتموتى كمذا جزاء إثمك الشنيع.

فأشارت المرأة إليه بيدها إشارة غضب واحتقار وقالت:

- كفى هذيئاً، فإنَّه لم يقع بيني وبين ابني ما ينجعل منه أحدنا أو كلانا.

فاشتدَّ غضب الرجل للهجتها وصاح بصوت انفجاريّ:

- إياك وأن تقولي ابنك. لقد ماتت أمه حين ولادته. أفأهمة أنت؟

ودوى صوته فالتفت النظّارة إلى ناحيتهما من كلّ صوب، وكادت تفقد المثلة صوابها، ولم تر بداً من الانسحاب السريع، وغادر الشيخ مكانه ورجع إلى بيت الأسطى شلبي، ولم يطمئنَّ به المكان فأخذ ابنه ومضيا إلى محطّة مصر، وفي أثناء الطريق قال له:

- لن ترى القاهرة مرّة أخرى إن شاء الله..

وسأحوّلك إلى مدرسة الزقازيق والله المستعان.

وضمت عبد المعزّ فلم تنفجر شفاته عن كلمة، وظلَّ جامداً كالتمثال حتَّى أوى إلى حجرته وكان في قرارة نفسه غاضباً على أبيه، ولعلَّه لو رأى الشيخ وهو يختم صلاته ذاك المساء فيسقط يديه، ويدعو ويتوسَّل ويذرف الدموع الساخنة لرَبَّما سكت عنه الغضب وأجبرته حناياه على الذهاب إليه ليستغفره ويسترحمه ولكنَّه كان لا يرى من الدنيا جيئاً سوى وجه ممثليّ

- أنت تعلمين بما أتى بي؛ فكيف تتجاهليني!

ونفذت لهجته التوسلية إلى سويداء قلبها فحقق بشدة وكاد يطير من بين يديها، ولكنها ضغطت عليه بقسوة لم تعهدها في نفسها من قبل، وسكتت هنيهة لتضبط عواطفها كي لا يظهر اضطراب وجدانها في نبرات صوتها ثم قالت:

- لا أفقه لما تقول معنى.

فتنهّد الشاب بحرقه وترك ذراعيه تسقطان إلى جانبه وقال:

- أتيت لأني لا أحتمل البعد عنك، وليس بي من قوة أستطيع بها التصبر أو التعزّي، فعبثًا حاولت أن أقيم لرجاء والدي وزناً، وعبثًا حاولت أن أصرف نفسي عن التفكير فيك، وانتهزت فرصة سفر والدي لالوذ بالفرار، ولم أحسن التدبير إذ كانت ظروف في غاية القسوة فأخذت نقود أبي.

واسكنه عن إتمام حديثه صرخة فزّت من فم المرأة الخائفة المشفقة، وسمعتها تسأله بالـ:

- هل سرت؟

فلم يحسن فهم الباعث لها على سؤالها وقال بتأثر شديد:

- نعم سرت ولست أسفًا على ما فعلت لأنه كان سبيلي الوحيد إليك، ولن أتردد عن أيّ تضحية في سبيل أن أحظى بقربك؛ وما هي ذني نقودي فافعلي بها ما تشاءين.

ولكنها أشارت إليه بيدها فأسكتته، وسأله بجفاء يعلم الله كم كلّفها من جهد وعذاب.

- هل يعود أبوك من سفره سريعًا؟

- بعد يومين أو ثلاثة.

فتنهّدت المرأة ارتياحًا وقالت:

- ينبغي أن ترجع في الحال إلى بلدك لتردّ النقود إلى مكانها فلا يعلم أبوك بجريمتك.

ولكنه قال بجزع وخوف:

- هذا مستحيل. أنا لا أستطيع مفارقتك أبدًا.

- هذا كلام فارغ وعبث طائش والحب سريع

الزوال، أمّا اثر الجريمة فلا يزول.

فقال بإصرار:

- لن أفارقك أبدًا.

وخشيت إن هي لانت له وطاوعت قلبها أن تقضي عليه فقالت بصرامة:

- ينبغي يا هذا أن تذهب سريعًا ولّا وجهت إليّ تهمة تحريضك على السرقة.

فبغت الشاب وأحسّ بخيبة مريرة وسألها:

- أهذا كلّ ما يملك من أمر عودتي؟

- طبعًا.

- أتجدين في القول؟

- وهل هذا وقت هزل؟!

- وفيّ كانت مودتك لي؟

- وأي مودة هذه التي تهون على النفس ما تهدّني به جريمتك؟

فقال الشاب بانفعال شديد:

- ولكنّي ارتكبت هذه الجريمة من أجلك أنت!

- لقد جئت أمرًا نكرًا، وإنّ عشّاقى الكثيرين ليتودّدون إليّ بغير ارتكاب الجرائم.

فتنهّد عبد المعزّ تنهّد اللئس المغيظ وقال:

- وإذا كنت تكذّبين؟

فقالت وكانت في حالة من الإعياء شديدة:

- أنت الذي أخطأت فهمي... نعم إنّي لا أنكر أنّي ذكرت في حديثي معك الحبّ ولكنّه كان حبًّا بريئًا كحبّ أمك مثلاً.

وكان دم عبد المعزّ يغلي في عروقه غليانًا، وكان الغضب يقور في قلبه وينفث أمام عينيه سحائب من دخان كثيف فصاح بصوت مرتعش النبرات:

- لا تشبّهي نفسك الائمة بأمي الطاهرة فتقلقي رقدتها الآمنة أيّتها العاهرة...

ولم يشف الكلام غليله فلطمها على وجهها - في غيوبة الغضب - وبصق عليها...

ثمّ ولّى الأدبار فلم يقدر له أن يرى بشاعة الألم الذي قلّص أسارىرها ولا الحزن الذي طفر بالشيخوخة على وجهها، ولا رآها تمسح بصقته بيدها ودعمها ينهمل...



وفتها، أم لأتيا أشفقت على نفسها من عواقب جرمي! فهذا ما ينتظر من أيّ إنسان مهما كان أدبه وكان تهذيبه. وربما كان من الطبيعي أن أغضب بعد أن منيت بالحياة وذهبت تضحيي هباء، ولكن لم يكن طبيعياً قط أن أصبّ عليها جام غضبي، وماذا فعلت هي تلقاء ذلك؟ لا شيء، لقد لطمتها وبصقت عليها، فماذا فعلت وهي القادرة على «البهولة»؟

ومضت الأيام تلو الأيام وانتظر على رجاء أن يحو الزمن من نفسه تلك الذكرى المؤلمة. وكان يجد في أعماقه عاطفة غريبة لم يعترف بها قط وطالما غالط نفسه فيها، ولكن ربّما غلبته على أمره أحياناً فيتهدّ حزناً ويقول لنفسه آسفاً محسوراً: «ليتني لم أمدد لها يدي بسوء»!

ومضى في طريقه لا يلوي على شيء، هائجاً، نائراً كالزوبعة، وركب الترام ونزل منه واستقلّ القطار وهو يحدث نفسه ويتهدّد ويتوعّد ويتجرّع غصص الندم والأسف.

وأراد الله ستره فأعاد النقود إلى مكانها ومحا أثر الجريمة بيديه ونجا من شرّ عظيم.

وقد ظنّ أنّ الدرس القاسي الذي تعلّمه كفيل بأن يجتثّ من نفسه كلّ ما كان من ميل أو عاطفة نحو نور الحياة وأمثالها جميعاً، ولكنّه حين عاودته طمانيته وسكونه وجد عقله ينزع به إلى روض الفرج، وقد غالط نفسه وقاوم نزوعه ولكنّه وجد عقله مجبراً على التفكير والتذكّر. فسأل نفسه ماذا فعلت نور الحياة مما استحقّ من غضبي؟ ألاّتها تودّدت إليّ؟ فهذه صناعتها

## هَذَا الْقَرْنُ

- انتصف الليل، وخيم السكون، وشمل الصمت الدور والطرق، وانتشرت أنوار المصابيح الباهتة كأنها تؤنس وحشة الأشجار المغروسة في الأفاريز.
- وقد مزق السكون الآمن بوق سيارة أتت بسرعة من مبتدأ شارع العباس، ثم وقفت أمام الباب الحديدي المغلق لفيلاً آية في الأناقة والجمال. ونفخ السائق في البوق مرّات، فخرج البوّاب من كوخه الخشبيّ وفتح الباب، واندفعت السيارة إلى داخل الحديقة التي لا يبدو منها إلا أشباح الأشجار، ودارت دورة غير كاملة، وصعدت منحدرًا ثم وقفت أمام الباب الداخلي للقصر، ونزل السائق مسرعاً وضغط على مفتاح كهربائيّ على كنب من الباب فأضاء مصباحاً وأرسل نوراً أزرق هادئاً، ثم فتح باب السيارة ووقف كالتمثال..
- وانتظر لحظات وثواني ودقائق، ثم أخذه العجب فأرسل نظريه إلى داخل السيارة، فرأى الباشا وزوجه مستغرقين في نوم ثقيل، وكانت السيّدة ملقاة برأسها إلى اليمين، وجسمها الضخم الهائل ممدوداً، يبدو في الفستان اللامع الملتصق به، كقمرس البحر، وكان الباشا مسنداً رأسه إلى كتفها يحسبه من رآه لضالة جسمه ونحافته وقصر قامته.. غلاماً صغيراً. لولا شاربه الغليظ الطويل الذي يرسم مع جسمه الدقيق صورة صليب متساوي الأطراف على وجه التقريب..
- ولم ير السائق بدءاً من إيقاظ سيّده فقال بصوت خافت:
- سعادة الباشا.. سعادة الباشا..
- فلم يبعث نداؤه فيها أيّ أثر للحياة، فرفع الرجل صوته قائلاً:
- سعادة الباشا..
- واستطاع نداؤه في هذه المرّة أن يوقظه فتحرك رأسه، واضطرب شاربه كأنه جناحاً نسر يخفقان، قال بلسان ثقيل متلعثم:
- من..؟
- وصلنا يا صاحب السعادة..
- وماذا تريد؟
- عفوا يا صاحب السعادة.. تفضّل بالنزول لتصعد إلى مخدعك.
- ففتح الباشا عينيه المحمّرتين وكأنّ النور اللطيف الذي ينير المكان أذاهما، فأعمضهما بسرعة وتحسّس بيده ذراع زوجه العاري كأنه قرينة مملوءة بالمياه وقال بصوته الثقيل:
- يا هانم.. زينب هانم..
- فشهقت المرأة شهقة قويّة لو أصاب تيارها الباشا لابتلعته، وقالت بتبرّم وسخط:
- من..؟
- وصلنا..
- وماذا تريد يا باشا؟
- تفضّل لتصعد إلى مخدعنا.
- أصدع؟!.. أنا لا أستطيع أن أتحرّك فكيف لي بالصعود!
- ما العمل.. هل نقضي الليل في السيارة؟
- ولم لا؟.. المقعد وثير ليّن كالفرش، وهالك ضجّة مريحة فما معنى التعب؟
- فقال الباشا للسائق وهو ما يزال مغمض الجفنين:
- يا حسن.. اذهب أنت.. سننام هنا.
- فارتبك السائق وقال بتحرّج:

- كيف ذلك؟ ... هذا مستحيل.  
 - مستحيل! ألا تذكر ساعة خروجنا من البوفيه؟ ... كنت تسير ورائي فنظرت إلينا عبدلة هانم تلك المرأة الوقحة وقالت: «كان الله في عون إبراهيم باشا فهو زوج ومروّض» وضحك جميع المدعوّين وضحكت أنت أيضًا!  
 - أنا لا أذكر هذا.  
 - طبعًا لأنك لم تكن في وعيك، ومع ذلك فأنت تزعم أنك تستطيع أن تشرب حانة في ليلة واحدة...  
 أليس كذلك؟ ولكنّي انتقمّت منك فضحكت منك مع الضاحكين بعد ذلك مباشرة.  
 - وكيف كان ذلك؟  
 - كان جماعة من الحاضرين يتعجبون لنحافة فذكّ فاعتذر الأمير الاي فتحني بك عن صغر حجمك بقوله: «إنّ شاربك الثقيل يعوق جسمك عن النمو» فضحكت مع الضاحكات والضاحكين... وواحدة بواحدة.  
 - يا له من ضابط وقح!  
 - أنت المسئول عن جعلنا أضحوكة في كلّ مكان...  
 لماذا لا تقصّ شاربك؟  
 - أقصّ شاربى هل جنتت يا هانم؟  
 - وما وجه الجنون في هذا؟... إنّه حمل ثقيل على جسمك الرقيق.  
 - أياكون الرجل رجلًا بجسمه!  
 - أياكون رجلًا بشاربه؟  
 - معلوم، انظري إلى مثلك، فأنت امرأة ولك جسم فيل... ولكن هل توجد امرأة بشارب؟  
 - الحق أقول لك إنّى هممت مرّة بقصّ شاربك في أثناء نومك... لولا الخوف!  
 - وما الذي أخافك؟  
 - أشفقت من أن يصبح زواجنا لاغيًا.  
 - وله؟ هل أنت زوجي أم زوج شاربى؟  
 - الحقيقة أنك بغير هذا الشارب، تغدو غلامًا لم يبلغ السنّ القانونيّة للزواج!  
 - هذا هذر سكارى، والأولى بك أن تنحفي

- العفو يا صاحب السعادة... هذا غير طبيعيّ.  
 وسيرى البوّاب في الصباح ويرى الخدم...  
 فأنثى إلى زوجه قائلاً:  
 - يا هانم هذا غير طبيعيّ وسيرى البوّاب في الصباح ويرى الخدم!  
 - ومن الذي يكلمك؟  
 - السائق.  
 - أف... لا تضايقني... ماذا يهّمنا من البوّاب أو الخدم أو السائق.  
 فقال الباشا للسائق بنفس اللهجة:  
 - أف... لا تضايقني... ماذا يهّمنا من البوّاب أو الخدم أو السائق.  
 فسكت الرجل ولكن لم تطاوعه نفسه على الذهاب فوقف ينتظر، أمّا الباشا فأخرج منديله وجفّف عرقه، وقال وهو يفكّ ربطه عنقه:  
 - الدنيا شديدة الحرارة...  
 فاعتدلت المرأة في جلستها، ولم تلبث أن صاحت:  
 - يا لطيف!  
 - مالك...؟  
 - المقعد يمدّ بي كائي في أرجوحة!  
 وأرادت أن تمسك بشيء، فوقعت يدها المتخبطة على شارب الباشا فتألّم الرجل ونزع شاربه من كفّها وهو يقول ضاحكًا:  
 - دعي شاربى... وهل تحسبينه حبل الأرجوحة؟  
 - أنا في غاية التعب.  
 - شربت كثيرًا يا زينب هانم... شربت أكثر ممّا ينبغي لك!  
 - وماذا كنت أستطيع أن أفعل سوى ذلك؟ الكلّ كان يشرب رجالًا ونساء... أنت نفسك شربت كثيرًا يا باشا.  
 - أنا متعوّد على الشرب يا هانم... أنا أستطيع أن أشرب حانة كاملة في ليلة واحدة!  
 - ومع ذلك لم تسالك أعصابك الليلة... وعلا صوتك بالضحك على غير عادتك، بل وضحكت منّي أنا يا ناقص!

- يا ابن الملعون! ألحسب البلد بلا حكومة؟  
وكان المقبوض عليه أفنديًا، أنيق اللبس، كشف  
نور المصباح الخافت في وجهه عن ملامح وديعة ونظرة  
أدنى إلى الرقة والجبن منها إلى الشر أو التحدي،  
ففحصه الشرطي بنظرة شديدة وهو يتحسس جيوبه  
وقال له متهمًا:

- أخالك لم تسرق سوى هذه البذلة!  
فقال الشاب وهو يلث من الاضطراب والخوف.  
- أتركني يا حضرة الشاويش أنا لست لصًا كما  
تتوهم.

- عفارم عليك.. فمن تكون يا مولانا؟  
- أقسم بالله العظيم أنني لست لصًا.. ولم أسرق في  
حياتي قطّ وهاك جيوب فتشها كما تشاء.  
- آه... هل كنت في القصر زائرًا إذًا؟  
- أنا.. من أهل القصر؟

- فهمت يا سيدي فهمت.. أنت ابن الباشا بلا  
شكّ، وما قفزك من السور إلّا رياضة بدنية كنت تقوم  
بها في هذه الساعة المتأخرة من الليل!  
- بل أردت أن أخرج بسرعة.  
- وما الذي يدعوك إلى الخروج بعد منتصف الليل؟  
- سفر لا يقبل التأجيل.  
- أو ليس للقصر باب؟  
- لم أجد وقتًا لإيقاظ البواب.

- يا مغيث.. هذا حقًا عصر السرعة.. وليس  
ببعيد أن أرى غداً من يقفز من نافذة الطابق الثالث أو  
الرابع لأنه ليس لديه متسع من الوقت يهبط فيه  
السلم.. عوفيت يا سيدي عوفيت..

- أراك لا تصدّقي يا حضرة الشاويش.. أوكد لك  
أنّي من أهل القصر.. غير أنني استسهلت أن أقفز على  
هذا السور الصغير.

- معلوم.. معلوم.. وليس الذنب ذنبك.. ولكن  
ذنب من يحتم تعليم الألعاب الرياضية والتدريب  
العسكري.. على أنني أجد نفسي مضطّرًا إلى تأخيرك  
يومًا أو عدّة أيام وربما عدّة أشهر.

قال ذلك ودفعه أمامه.. ولكنّ الشاب ألصق

جسمك الهائل، فضخامته الشاذة هي المدعاة الحقيقية  
إلى السخرية.. ألم ترى صديقاتك الليلة؟.. كلهنّ  
نحيفات اللّهمّ إلّا راضية هانم وهي على كلّ حال لا  
تزن نصف وزنك.  
- أنت المستول عن وزني.

- أنا!

- نعم.. لأنك كنت دائمًا تؤكد لي أنك تحبّ  
اللحم العجائي والبقرى.. وأنتك تحتقر الوزن  
(الهاف)!.. وما أنت ذا تتملّص من تبعاتك كما  
كنت تفعل وأنت وزير!

- ما شاء الله.. هذا قول أعدائي السياسيين،  
وأرى أنني أجد في بقي كما جحدت من قبل في ميدان  
السياسة الملعون وأني خسرت الدنيا جميعًا.  
- بل ربحت شيئًا مؤكّدًا..  
- وما هو؟

- أنك صاحب مقام رفيع!  
- يا هانم أنت في سرك كالحشاشين، والحق أنك  
تستاهلين رتبة.. ولكن لا أدري أيّ رتبة تناسبك..  
فلأنكر قليلًا.. ما رأيك في لقب الصدر الأعظم؟!  
.. وهنا قطع حديث الزوجين طرق عفيف على  
باب القصر الخارجي، وشنق الصمت المخيم صوت  
منكر يصيح:  
- يا بواب.. يا عمّ محمّد..

فسكت الزوجان دهشة واعتدلا قليلًا في جلستهما  
وأرهنا السمع، وحنق السائق مسرعًا إلى الباب ليرى  
ما هناك..

\*\*\*

كان الشرطي المكلف بالحراسة الليلة يسير الهوينى  
في شارع العباس، ولمّا بلغ قصر الباشا سار بحذائه  
وعرج ملازمًا للسور إلى شارع الإلهامي وانتبه من  
سهوه إلى حركة في أعلى السور فنظر إلى مصدرها فرأى  
رجلًا يقفز من الحائط ويسقط على بعد ذراع منه، وقد  
تولّاه الذعر لظهور الشرطي المفاجئ فتسمرت قدماه  
بالأرض.. وأسرع الحارس إليه وقبض على ذراعه  
بقسوة وهو يصيح به:

الأبيض الشفاف، أشرقت في الظلّاء كالشمس ناشرة  
في الجو عطراً يفعل في الأعصاب فعل الموسيقى  
العذبة، فصاح الوالدان:

- الحمد لله.. هل أنت بخير يا لولو؟  
فأجابت بصوت له في الأذن وقع العطر في الأنف:  
- نعم يا ماما ماذا حدث؟  
فقال الباشا:

- قبضوا على لصّ يقفز من سور القصر.  
فحقق قلب الفتاة وقالت بصوت متهدّج:  
- لصّ!  
- ألم تسمعي حركة؟  
- كلاً..  
- الحمد لله..

وسار الباشا إلى حيث يوجد اللصّ والشرطي  
والسائق والبواب وتبعته زوجته ولولو، ورأت الفتاة  
وجه المقبوض عليه على ضوء المصباح الهادي فاشتدّ  
خفقان قلبها، وزاغت عيناها، وخفضت بصرها ذاهلة  
مضطربة.

وقال الشرطي:  
- يدعي هذا المجرم أنّه من أهل البيت يا صاحب  
السعادة.

فأنعمت زينب هانم النظر في وجه الشابّ بعينين  
أطفأت الخمر نورهما وقالت:  
- كذب.. هذا لصّ جريء.

ولكن ساورها الشكّ في صحّة بصرها فالت إلى  
زوجها وسألته بصوت خافت:  
- أليس كذلك يا باشا؟  
فنظر الباشا إلى الشابّ بعينين ذاهلتين كعيني زوجته  
وقال:

- بلى.. بلى.. هذا لصّ ولا شكّ.  
ثمّ مال على أذن لولو وسألها:  
- أليس كذلك يا لولو؟  
ولم تجب الفتاة أو على الأصحّ لم تسمع السؤال.  
فسأل الباشا السائق:

- هل تعرف هذا الشابّ يا حسن.. هل هو من

قدميه بالأرض وقال يتوسّل:

- لست لصّاً.. لست لصّاً والله.. أنا من أهل  
القصر.

- إذا كان ما تقوله حقّاً فما عليك إلّا أن تدخل  
القصر مرّة ثانية فأصدّقك.

- حسن اترك ذراعي وسترى..  
- أدخل البيت من بابه.. تعال.  
وساقه إلى باب القصر وطرقه. وهو ينادي  
البواب..

وأق السائق على صوته مسرعاً وأيقظ البواب فقام  
الرجل ساخطاً وفتح الباب، وأحدث ظهور الشرطيّ  
والمقبوض عليه دهشتهم، ونظرا إليهما متسائلين، فقال  
الشرطيّ:

- قبضت على هذا الشابّ وهو يقفز من سور  
القصر، فادّعى أنّه من أهل الدار فهل تعرفانه؟  
فأضاء البواب المصباح الكهربائيّ، ونظر السائق  
إلى وجه الشابّ الشاحب وقال مسرعاً:

- هذه هي المرّة الأولى التي تقع عليه عيناى.

وسأل البواب الشرطيّ:

- هل وجدت معه شيئاً؟

- سيفتّش في القسم.

وفي تلك اللحظة سمع صوت الباشا الثمل يصيح  
في سكون الليل:

- يا حسن، من عندك؟

فهرع السائق إلى الباشا، وطمع الشرطيّ في سماع  
كلمة ثناء من صاحب السعادة فساق الشابّ أمامه  
وتبع السائق، وقال حسن لسيّده:

- قبضوا يا صاحب السعادة على لصّ يقفز من سور  
القصر.

فقام الباشا واقفاً وغادر السيّارة، وهو يقول:

- كيف؟ دي لولو كانت في البيت وحدها.

وهرع نحو الباب الداخليّ وتبعته زوجته في تعرّ  
ظاهر وكان الباشا يصيح:

- لولو.. لولو!

وفتح الباب وظهرت غادة جميلة في لباس النوم

أهلنا؟!

وكان السائق يختلس من لولو نظرات ملتبهة ويراقيها بارتياح، فقال بانفعال:

- هَذَا لَصٌّ عَجْرَمٍ يَا صَاحِبَ السَّعَادَةِ.

فقال الباشا للشاب بلسان متلعثم ثقيل:

- كَيْفَ تَسْأَلُ لَكَ نَفْسَكَ ادَّعَاءَ قَرَابَتِي!

- لَسْتُ لَصًّا يَا صَاحِبَ السَّعَادَةِ.

- فَمَا كُنْتَ تَفْعَلُ هُنَا؟

- لَا أُدْرِي يَا صَاحِبَ السَّعَادَةِ.

- مَا شَاءَ اللَّهُ.. هَلْ سَقَطْتَ مِنْ طَائِرَةٍ فِي حَدِيقَتِي؟

- كَلَّا يَا سَعَادَةَ الْبَاشَا.. وَلَكِنِّي وَجَدْتُ نَفْسِي بَغْتَةً

فِي الْحَدِيقَةِ.. لَا أُدْرِي كَيْفَ سَاقَتْنِي قَدَمَايَ إِلَى هُنَا!!

فقال الشرطي:

- سَتَجِدُ نَفْسَكَ فِي السَّجَنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وغضب الباشا لمقاطعة الشرطي وقال له بعنف:

- يَا عَسْكَرِيَّ.. لَا تَقْطَعْ عَلَيَّ التَّحْقِيقَ..

فقال الشرطي بسرعة:

- حَاضِرٌ يَا أَفْنَدَمَ.

وسأل الباشا الشاب:

- مَا الَّذِي جَاءَ بِكَ إِلَى هُنَا؟

- أَنَا آسَفٌ يَا صَاحِبَ السَّعَادَةِ، كُنْتُ سَكْرَانًا

وَقَادَتْنِي قَدَمَايَ إِلَى هُنَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَانِي أَحَدٌ، وَنَمْتُ

عَلَى الْحَشَائِشِ بَضْعَ سَاعَاتٍ، تَمَّ اسْتِيقَظْتُ فِي حَالَةٍ

أَدْنَى إِلَى الْوَعْيِ وَالْإِتْبَاهِ، فَأَدْرَكَتْ خَطْئِي، وَحَاولْتُ

إِصْلَاحَهُ بِالْمَهْرُوبِ فَوَقَعْتُ فِي يَدَيِ الشَّرْطِيِّ.. لَسْتُ

لَصًّا.. فَتَشُونِي فَلَنْ تَعْتَرَوْا عَلَى تَبِيءٍ.

- وَمَاذَا شَرِبْتَ؟

وكان السائق في حالة سيئة من الغيظ والحنق فقال:

- هَذَا لَصٌّ كَذَّابٌ يَا صَاحِبَ السَّعَادَةِ وَيَنْبَغِي أَنْ

نُسَوِّقَهُ إِلَى الْقِسْمِ.

ولكن الباشا انتهره قائلاً:

- لَا تَقْاطِعِ التَّحْقِيقَ.

وسأل الباشا وهو يهز رأسه بدهاء:

- مَاذَا شَرِبْتَ؟

- وَيَسْكِي يَا صَاحِبَ السَّعَادَةِ.

فسأله زينب هانم:

- بِالصُّودَا؟

- نَعَمْ.

فالت المرأة على زوجها وهمست:

- أَنْظُرْ إِلَى فَعْلِ الْوَيْسَكِيِّ بِالصُّودَا.

فرد عليها بصوت خافت:

- نَعَمْ.. الْوَيْسَكِيُّ بِالصُّودَا شَرَابٌ مَلْعُونٌ.

ثم دنا من الشاب وهو يقول:

- دَعْنَا نَفْتَشِكَ أَوَّلًا..

فاستسلم الشاب إليه، ودس الباشا يديه في جيوبه

ولم يجد سوى حافظته فأراد تفتيشها، ولكن الشاب لم

يملكه منها، وأثارت مقاومته شكوك الحاضرين، فقبض

الشرطي على يديه بقسوة وأخذ الباشا الحافظة، وكانت

لحقت به زوجته وابنته، وأخرج محتوياتها وكان بها ورقة

من ذات الجنينه، وعدة بطاقات وصور صغيرة،

ولاحظ منه نظرة عارضة إلى الصور، فأيقظت انتباهه

وشحذت بصره فنظر إليها بإمعان فرأى صورة لولو،

ولولو بذاتها، هل يصدق عينيه؟.. أم إنها الخمر؟..

ونظر إلى زوجته يستعين بعينها فرأى بها دهشة

وإنكارًا، والتفت إلى لولو فرأها تنسحب بخفة وتعود

إلى القصر تسير بخطوات متثقلة غير مبالية بشيء..

وسمع الشرطي يسأل بصوته الغليظ:

- هَلْ وَجَدْتَ بِهَا مَسْرُوقَاتٍ يَا صَاحِبَ السَّعَادَةِ؟

فرد محتويات الحافظة إلى موضعها وأعادها إلى

صاحبها وهو يقول بلسانه المتلعثم:

- كَلَّا مَا بِهَا يَخْصُهُ دُونَ غَيْرِهِ..

وكان السائق على بعد قريب من مولاه فاستطاعت

عيناه الحادثتان أن تريا، فارتد إلى حالة جنونية من

الغضب والغيظ وقال لسيد بصوت متهدج:

- إِنَّ عَدَمَ الْعَثُورِ عَلَى شَيْءٍ مَعَهُ لَا يَبْرُكُهُ بِحَالٍ وَهُوَ

وَلَا شَكَّ قَدْ حَاولَ السَّرَقَةَ فَلَمْ يَفْلَحَ.

فقال الباشا:

- سَأَتَحْقُقُ نَمَّا إِذَا كَانَ سَكْرَانًا..

ومال على فم الشاب يشمه ثم قال:

- الْآنَ حَصْحَصُ الْحَقِّ.. هَذَا الشَّابُّ سَكْرَانٌ بَغِيرِ

- شك . .  
- بكاد السائق يحزن وقال بغضب:  
- العفو يا صاحب السعادة، العادة أن الإنسان إذا  
كان شارباً لا يشتم الخمر في أفواه الآخرين!  
فانتفخ الباشا غضباً، وقتل شاربه بغطسة وصاح  
بالسائق:  
- أنا شارب يا كلب!  
- العفو يا صاحب السعادة . . أنا أعني . .  
- لا أقبل منك كلاماً يا سفيه، لقد قضت سفاهتك  
على أسباب رزقك في هذا البيت. يا عسكريّ دع هذا  
الشابّ لي الآن وخذ هذا الوقح خارجاً .  
وصدع الشرطيّ بما أمر، وخلا المكان إلّا من الباشا  
وزوجته والشابّ.  
قال الباشا للشابّ بلهجة تنم عن التهديد  
والوعيد:  
- ألا تعرف من أنا؟  
- أعرف طبعاً يا صاحب السعادة . .  
- فكيف إذا تسوّل لك نفسك انتهاك حرمة بيتي؟  
- أنا غايبي شريفة يا صاحب السعادة . .  
- وهل يوجد شرف بعد منتصف الليل؟  
وسأله السيّد:  
- ما صناعتك؟  
- موظّف . .  
- هذا يعني أنّك صعلوك.  
- صعلوك!  
- نعم . . إنّ الكاتب الحقير الذي لا يجد له وظيفة  
تشرّفه يطبع على بطاقته كلمة موظّف، وهي لا تعني في  
الواقع إلّا أنّه كاتب حقير . . أليس كذلك! . .  
- . . . ؟  
- في أيّ وزارة؟  
- المساحة . .  
- ما شاء الله؟ . . وما هي مؤهلاتك!  
- . . . !  
- ما هي مؤهلاتك؟ أجيني؟  
- البكالوريا . .

- بس يا خير أسود . . وماهيّتك؟ .  
- . . . !  
- وماهيّتك . . أتوسّل إليك أن تحبيني؟  
- ستّة جنهات !  
- عال . . ولماذا تحبّ ابنة الباشا؟  
- سيّدي . .  
- لماذا لم تحبّ ابنة كلب من طبقتك؟  
وتنهّد الباشا من قلب مكلوم وقال للشابّ:  
- تفضّل مع السلامة . .  
وصعد الزوجان إلى غدعهما وقد نال التعب منها  
كلّ منال فارغى الباشا على «الشيزلنج» واستلقت  
السيّدة على الفراش وكانا واجمين حزينين . .  
وتنهّد الباشا وقال لها:  
- أيعجبك هذا؟  
- أنت دائماً تلقي عليّ تبعة كلّ شيء . .  
- أنا رجل ينوء بعبء ثقیل سواء في الوزارة أو  
مجلس الشيوخ أو الشركات، فأنت وحدك المسئولة عن  
فساد أخلاق بناتك!  
- لا تتكلّم يا سيّدي عن بناتي بهذه اللهجة التي لا  
أقبلها بحال . . إنّي أعلم أنّهنّ أشرف النساء جميعاً!  
- إذا أنت ترضين عن هذه الأفعال الشائنة؟ . .  
ألا ترين أنّ مأساة الأخت الكبرى تتكرّر؟ تلك  
الفتاة البائسة التي أردت أن أزوجه من طبيب كبير  
فوقعت في غرام صعلوك متشرّد ممّن يسمّونهم  
بالموسقيّين؟  
- لا تتكلّم عن صهرك بمثل هذه الألفاظ فليس هو  
الآن بالصعلوك ولا المتشرّد، ولكنّه مفتش موسيقى  
محترم بوزارة المعارف!  
- أنا الذي عيّنته في هذه الوظيفة التي هو غير أهل  
لها بحال . . أنا الذي خلّفته . .  
- اخلق هذا أيضاً من أجل لولو .  
- ولكنّه غير قابل للخلق . . لقد كان الأوّل مغنياً  
فاستطعت أن أصنع منه مفتشاً للموسيقى وإن كان لا  
يفقه شيئاً في الموسيقى، ولكن ما عسى أن أصنع بهذا  
وكلّ مؤهلاته البكالوريا؟ الأوفق أن نظرده!

شك . .  
بكاد السائق يحزن وقال بغضب:  
العفو يا صاحب السعادة، العادة أن الإنسان إذا  
كان شارباً لا يشتم الخمر في أفواه الآخرين!  
فانتفخ الباشا غضباً، وقتل شاربه بغطسة وصاح  
بالسائق:  
أنا شارب يا كلب!  
العفو يا صاحب السعادة . . أنا أعني . .  
لا أقبل منك كلاماً يا سفيه، لقد قضت سفاهتك  
على أسباب رزقك في هذا البيت. يا عسكريّ دع هذا  
الشابّ لي الآن وخذ هذا الوقح خارجاً .  
وصدع الشرطيّ بما أمر، وخلا المكان إلّا من الباشا  
وزوجته والشابّ.  
قال الباشا للشابّ بلهجة تنم عن التهديد  
والوعيد:  
ألا تعرف من أنا؟  
أعرف طبعاً يا صاحب السعادة . .  
فكيف إذا تسوّل لك نفسك انتهاك حرمة بيتي؟  
أنا غايبي شريفة يا صاحب السعادة . .  
وهل يوجد شرف بعد منتصف الليل؟  
وسأله السيّد:  
ما صناعتك؟  
موظّف . .  
هذا يعني أنّك صعلوك.  
صعلوك!  
نعم . . إنّ الكاتب الحقير الذي لا يجد له وظيفة  
تشرّفه يطبع على بطاقته كلمة موظّف، وهي لا تعني في  
الواقع إلّا أنّه كاتب حقير . . أليس كذلك! . .  
- . . . ؟  
في أيّ وزارة؟  
المساحة . .  
ما شاء الله؟ . . وما هي مؤهلاتك!  
- . . . !  
ما هي مؤهلاتك؟ أجيني؟  
البكالوريا . .

- أرجو أن تذكر أنك كنت موظفًا بائسًا حين تزوّجتك وأنه لولا المغفور له والدي ..  
- إنّ أباك لم يخلقني ولكنّه أتاح الظروف المناسبة لعظمتي الكامنة!  
- صه .. لولا أبي لكنت الآن موظفًا بالدرجة السابعة على أكثر تقدير.

- أهذا الكلام تدافعين عن ذوق بناتك القذر؟  
- مغلّش يا باشا، إنّهن ورثن عنيّ ذلك الذوق الذي حلني فيما مضى على الزواج منك.

\*\*\*

وكان السائق هائجًا غاضبًا، يلعن ويتوعّد، والشرطيّ يهتئ روعه ويعزّيه عن «قطع عيشه» بكلمات لا تفني، وقد قال له:  
- أنت مخطئ يا حسن .. لماذا تدخل فيما لا يعنيك؟

فقال محتدًا:

- أهذا رجل؟

- وما الذي يغضبك أنت؟ .. إنّها ابنته لا ابنتك!  
ثم غمز بعينه وتساءل:  
- أم هناك سبب آخر لهذا الغضب؟ .. أهو غضب أم غيرة يا شيطان؟!.

فلما لم يردّ عليه الجواب قال له وهو يودّعه:

- مغلّش يا حسن. فالحقّ أن الباشا لم يعرف يربّي غير شنبه.

- ليت ذلك ممكن! .. ولكنك تعلم أنّ لولو عنيّة صلبة الإرادة، فلنوار سواتنا ونصنع منه شيئًا ..  
- مهما فعلت فلن يكون أكثر من كاتب.  
- حنانيك يا باشا، هل شحّ الزمان حتّى تتزوّج ابنة واحد باشا مثلك ووزير سابق (ووزير لاحق إن شاء الله) من كاتب؟! ..  
- وما ذنب الزمان إذا كانت ابنة الباشا مجنونة مثل لولو؟

- دع أحاديث الغضب جانبًا، وقل لي ألا يمكن إلحاقه بأيّ وظيفة في مفوضيّة أو قنصلية؟

- مفوضيّة أو قنصلية؟ .. أهذا كلام يقال على واحد كلّ مؤهلاته البكالوريا؟

- أف. .. أنا أعلم جيّدًا أنك متعب، ومهما يكن من أمر فينبغي ألا تكون درجته أقلّ من السادسة وألا تقلّ ماهيّته عن خمسة عشر جنيهاً. وأمامك أصدقاؤك الوزراء فليختره أيّ واحد منهم سكرتيرًا له.

- ليس الأمر سهلًا يا هانم كما يبدو لك، فالصحف تقف بالمرصاد للمحسوبيّات والاستثناءات.

- وهل يرضي الصحف أن تتزوّج ابنة واحد باشا من كاتب بستّة جنيهاً؟

- إنّ للصحافة همومًا لا تدع لها وقتًا للتفكير في مسألة زواج لولو!

- وإنّ مستقبل لولو لفوق الصحافة وهمومها، فينبغي أن تخلق لهذا الشاب من جديد.

- هل كتب عليّ أن أخلق كلّ يوم شابًا من جديد؟



## الجوع

جنونية وأدركه في اللحظة الفاصلة، فأمسك بيسراه وجذبه إلى الخلف بشدة فسقط على الإفريز عوضاً عن أن يسقط في النهر، وبلغ منه الانفعال وتدافعت أنفاسه وتفرس وجه الرجل الذي هانت عليه الحياة فرآه يحده بنظرة جامدة ووجه مكفهر، وقد لاح لعينيه هزاله وراثته وشدة اصفرار وجهه، فصاح به:

- ماذا كنت فاعلاً بنفسك؟

فلم ينبس بكلمة وظلّ على جموده واكفهراره، ومالك الوجيه عواطفه فعجب لما يدفع مثل ذلك الرجل إلى الانتحار وهو لا يعلو على الحيوان - والحيوان في العادة لا يتحرر - فسأله:

- هل كنت حقاً تروم الانتحار؟ لماذا؟ .. دعي أشمّ فمك، هل أنت ثمل أم مجنون؟ .. تكلم يا حيوان.

فقال الرجل بصوت مبجوح دَلّ على الحقد والاستهانة:

- أنا جائع.

فنظر إليه كالمرتاب وقال:

- كذبت. .. إن الكلاب الضالة تجرد قوتها. .. ولن أصدق أن إنساناً يموت جوعاً في هذا البلد. .. ولكن هل تدمن الحشيش أو المتزول؟ فقال بنفس اللهجة:

- لك عذر. .. فإنك لم تعرف الجوع. .. هل ذقت الجوع؟ .. هل بت ليلة بعد ليلة تتلوى من عض أنيابه؟ هل ثقب أذنك عويل أطفالك من نهشة أمعتهم؟ .. هل رأيت صغارك يوماً يمضغون عيدان الحصى ويأكلون طين الأرض! .. تكلم يا إنسان. .. وإذا لم يكن لديك ما تقوله فلماذا تحول بينهم وبين

انتصف الليل ولما يصادف حظ الوجيه عمّد عبد القويّ غير العبوس، وما انفكت خسارته تنمو وتتضاعف حتى بلغت ثقيلاً وأربعين جنيهاً في أقلّ من ثلاث ساعات، وكان هذا دأبه في أكثر لياليه، فلم تعد الخسارة تهزّ أعصابه أو تكرب نفسه. كان يتعاطاها بغير مبالاة بين رشف الكؤوس وقذف الدعابات. ثم ينساها بمجرد الانفصال عن المائدة الخضراء. ولكنّه كَفَتْ تلك الليلة عن اللعب بغير إرادته لخسار دار برأسه، فرغب في تنسّم هواء الخريف الرطيب في الخارج ومراودة نشاطه بالمشي والحركة، فنهض معتزلاً، وغادر النادي، وكان الطريق كالمقفر والجوّ لطيفاً منعشاً، فسرت منه إلى رأسه الساخن الدائر قوّة وسكينة، فجذّ في السير مصقراً صغيراً خافئاً وأحياناً مترنماً، لغير غاية، وانحرف إلى الطريق المؤتني إلى قنطرة قصر النيل، وبصر بها في نهايته فانشرح صدره وحثّ خطاه، فلما بلغها مضى يسير الهوينا التماساً لمزيد من الراحة والانتعاش، ولم يكن يقطعها في تلك الساعة إلا السيارات المنطلقة في فترات متقطعة، إلا أنّه حين بلغ ثلثها الأخير لاحت منه التفاتة إلى الجانب الأيسر منها فرأى رجلاً رثّ الهيئة في جلباب قذر ينحني متقوساً على سور القنطرة ملقياً برأسه إلى النهر فلم يلق إليه بالاً، ومضى إلى نهاية القنطرة، ولم يجد رغبة للتوغّل فيها وراها فتحول إلى الجانب الأيسر ليعود من حيث أتى، وكان الرجل ما زال في تقوسه واستغراقه إن لم تكن أسكرته نسائم الهواء الرطيب فتسلّل النوم إلى جنبيه. .. ولما صار منه عل بعد قريب رآه يقفز بحركة مباغتة إلى أعلى السور ثم توثّب كأنما ليلقي بنفسه إلى النيل، فاندفع نحوه بسرعة

الخلاص من غائلة الجوع؟

فامتعضت نفسه وسأله بلهجة لم تخل من شك:

- أتعني حقاً أنّ لك زوجاً وأطفالاً؟

ففسطن الرجل إلى بواعث شكّه وعبس وجهه امتعاضاً وقال:

- كنت يوماً قادراً على الزواج والإنفاق.. كنت

عاملاً بمصانع عبد القويّ شاكراً.

وأحدث الاسم في نفس الوجهية هزة عنيفة لأنّه اسم والده، وكان يوشك أن يسأم ويضجر فاسترجع اهتمامه وسأل الرجل:

- هل حقاً كنت عاملاً مرتزقاً؟!

- نعم.. وبلغت يوميّتي سنة قروش.. وكنت

محرّماً ومحبوباً. وكفّلت الحياة لزوجي وأمي وأطفالي السنة. بل كنت أعظم جلداً من البك صاحب المصانع العظيمة لأنّي تعودت الرضا والقناعة حيث جعل يتذمّر ويشكو سوء الحال ويعتّل بالعلل لقطع رزق البعض والتقتير على البعض الآخر.. لم تكن الحياة رغداً ولا يسراً.. ولكنّها كانت مشقة بالرجاء والأمل.

وأمسك الرجل عن الكلام كأنّ استرجاع الذكريات الحلوة استفدت البقية الباقية من حيويته وقواه فجزع الوجهية وقال له:

- هيه.. وكيف انقلب بك الحال إلى هذا المصير؟

فرفع يمينه إلى أعلى فتدلّى كم الجلباب الممزّق كأنّه لا يوجد فيه ما يمسك به، وبرز من أحد خروقه بقية عضده كأنّه رجل أريكة تداعت وأكلها التقادم، وأشار إليها بيسراه وقال:

- أرايت إلى هذا.. لقد هوت الآلة الجبّارة على

ذراعي وأنا منشغل عنها بما بين يديّ فلم تبق منه إلّا على ما ترى وأطاحت بالجزء النافع الذي أكسب به قوتي فجعلتني في ثانية شيئاً تافهاً عن الحاجة.. ولما تماثلت للشفاء مضيت إلى البك صاحب المصنع منكسر الفؤاد مفعم النفس بالقنوط فتلقّاني أسفاً وأعلن أنّي قطعت ذراعي من جراء إهمالي، فقلت له إنّهُ القضاء الذي لا يردّ فهرّ رأسه أسفاً وتصدّق عليّ بمبلغ يسير.

فقلت له إنّ هذا المبلغ لا بدّ نافذ عاجلاً أو آجلاً، وإنّي وأسرّي سئموت جوعاً إذا لم تتركنا رحمته... فوعدني أن يتصدّق عليّ بثلاثين قرشاً كلّ شهر... وكان هذا أقصى ما ظفرت به منه. وأدركت أنّ حياتي دمّرت تدميراً، وأنّي وأمي وزوجي وأطفالي الستّة قد ألقي بنا إلى الفقر والجوع.. ولشدّ ما وجدت الحياة قاسية لا رحمة فيها.. فتجرّعت مرارتها قطرة فقطرة وهمت على وجهي في الطرقات أسائل السابلة مستندراً رحمتهم بعرض بقية عضدي على أنظارهم، متلهّفاً على الملاليم وكسر الحيز، وعلم الله أنّي كنت ذا حياة وأنفة وأنّ إماتة هذه العاطفة النبيلة كلّفني ما لا أطيع من الألم والحجل، واشتدّت وطأة العيش فبعت الضروري من أثاث حجرتنا بثمن بخس. وتمزّقت ثيابنا وتعرّى الأطفال.. وتهاكنا من الجوع.. وكان أسمى ما في حياتنا صراخ الأطفال وعويلهم وشكواهم، فجوع دهر طويل أخفّ على نفسي من قول طفلي وهو يتطلّع إليّ كالمتغيث ودموعه منهمة «أبي.. أنا جائع». ولاحتقني هذه الآلام فجعلت صدري جحياً وبغضت لي الدنيا وولدت في قلبي شعور المقت والحقد. وتضاعف إحساسي بعجزتي وهواني حتّى قال صاحب تمنّ جمعنا الجوع في ميدان واحد: «ما لك تكلف نفسك ما لا تطيق من الهمّ كأنك امرأة مترفة تاكل كلّ يوم رطل لحمه.. سيتحجّر قلبك ويصبح الجوع مستملاً فتجيب ابنك إذا شكّا اليك الجوع كما أجيب ابني.. بلطمة تنسيه الجوع».

وسكت الرجل وقد بلغ منه الإعياء والتأثر، وبدأ الوجهية يضجر مرة أخرى ويفكر في حلّ للعقبة التي اعترضت سبيله ليتخلّص منها على وجه مُرضٍ فسأل الرجل:

- أهذا ما دفعك إلى محاولة الانتحار؟

فقال الرجل وهو يهزّ رأسه كأنّه يقول له بل أكثر وأكثر:

- في مساء هذا اليوم رجعت إلى الفناء الذي ناوي إليه صفر اليدين عجزاً وإعياء. فلقيت الأطفال نائمين هادئين فاستولت عليّ الدهشة كيف نزلت عليهم

فكرة الموت واستبدت بي. وتفكرت في عجزى وضعفي وجوعي. وفي عذاب أطفالى وشقائهم. فحمدت الله على أني لم أطع غضبي وأقتل زوجي. وقلت لنفسي إنني إذا اختفيت من حياتها فلن يعيها إطعام الأطفال. ليكن عمّ سليمان أو غيره أما أنا فلا. وما عليّ إلا أن أوجه غضبي إلى نفسي فتكون الضحية. وألقيت بناظري إلى النهر طويلاً واستسلمت لل لباس. ثم توثبت لالقي بنفسي. ولكنك حلت بيني وبين ما أريد. هذا كلّ ما هنالك. فهل أدركت الآن أيّ شرّ فعلت؟

وكان الوجه يصغي إلى الرجل مصطبراً ويعمل فكره فسأله:

- هل إذا تركت الآن تعود؟

فقال الرجل بهدوء وتصميم:

- إن شاء الله.

فضحك الوجه وكان قد بتّ في المسألة برأي قاطع، وبحث في جيوبه عن نقود فضيّة فعثر بقطعة ذات عشرة قروش فلدسها في يد الرجل وقال:

- استعن بهذه على إصلاح أمرك، وإذا طلع عليك صباح الغد فتوجه من فورك إلى المصنع الذي كنت تعمل فيه وستجدني هنالك في انتظارك، وهاك بطاقة تقدّمها لمن يعترض سبيلك.

وأعطاه البطاقة ودفعه عن السور وهو يقول:

- أجل عزمتك فما يزال لديك متسع من الأمل وسأجد لك عملاً كبوّاب أو خادماً أو ما شاكل ذلك. . . تقدّم وعد إلى رشدك. . . ولكن خبرني قبل أن أنسى ما اسمك؟.

وجعل الرجل ينظر إليه بعينين ذاهلتين كأنه لا يصدّق أذنيه، ولما سأله عن اسمه قال بصوت غريب «إبراهيم حنفي» فدفعه الشاب مرّة أخرى:

- افعَل ما أمرتك به يا إبراهيم. . . سلام عليك.

وتحوّل عنه ومضى في طريقه متفكّراً. . . يعجب كيف أنّه أن في الوقت المناسب ليعفي أباه من وزر ثقيل: وكان ينطوي في قرارة نفسه على سذاجة فائقن أنّ ما ساقه إلى الرجل في الوقت المناسب شيء أكبر من

السكينة؟ هل تعودوا الجوع فما عاد يقرصهم؟! . . وكانت زوجي وأمي نائمتين أيضاً. فأيقظت أكبر الأطفال. . . وأدنيه مَنّي، وما إن أفاق من زهول النوم حتّى اندفع يقول لي فرحاً: «أكلنا عيشاً ساخناً». فسألته: «من أتى به؟» فقال: «عمّ سليمان الفران» فنفذ الاسم إلى صدري المتهالك كالرصاصة، وشدت قبضة يدي على ساعده وسألته وقد طالعت في وجهه أثر ما لاح في وجهي من التغير «وهل الرجل دعا أمك إلى الفران أم أتى بنفسه إلى هنا؟» فقال: «أرسلها مع غلامه» فلم أرتج إلى جوابه على الرغم أنّه لم يحقّق شكوكي ودفعته ساخطاً غاضباً، واستقرّ بصري على وجه زوجي وقد تملّكتني الحنق وتخابلت لعيّ أشباح خيفة. لقد امتلأت عينها بالنوم بعد أن امتلأ بطنها. . . بعد أن ملأها الوجد الذي خطب ودّها فيها مضى وراجعه هواه فسمعي بحلق إلى استغلال ما تعاني من الشقاء والجوع. أتى أدرك كلّ شيء. وأدركه بشاعري التي نشأت عليها ولم يظفر الجوع بإماتتها بعد. . . إنّها ما تزال حيّة في صدري تبعث في نفسي الغيرة وفي قلبي الغضب. . . وتشبعت أفكارى بروح الجريمة والعدوان. . . هل أنقضّ على المرأة النائمة فأكتم أنفاسها؟ كانت رغبتي في الفتك عظيمة جبّارة. ولكن لاحت مَنّي التفاتة إلى الأطفال فتردّدت. من لهم بعد أمهم وأبيهم؟. وتحاذلت وتداعت إرادتي. . . ونفست عن غضبي فركلتها بعنف وغادرت الفناء وصراخها الفزع يلاحقني. ثمّ همت على وجهي في الطرق التي أتسوّل فيها. . . وجعلت أتحبّط على غير هدى. . . وعاودتني أفكار العدوان. . . هل أرجع إلى الفران وأتبّ على عمّ سليمان وثبة الهلاك؟ أم أرصد عبد القويّ بك وأطعنه طعنة قاتلة؟. . . ولكن ما أعجزني. . . فقدت يميني ودبّ الإعياء في جسمي وأطرافي وتضعضت حواشي. ثمّ بلغت بي قدماي هذا المكان ورأيت النهر الجاري في وحشة الليل فانجابت عني الوسواس: وأدركت للحال كيف ينبغي أن أنهي الحياة وخلت أنّ النيل ضالّتي المنشودة. وكأنّ قضاء إلهياً هداني إليه ليدلّني على سبيل الخلاص والراحة. واستولت عليّ

المصادفة، فأتلج صدره وشعر بارتياح وطمأنينة. «تري كم أسرة من الأمر التي يشقى بها أمثال  
ولكن فكرة خطرت له بباله فقطب جبينه وتساءل إبراهيم حنفي يمكن أن تسعدها النقود التي أخسرها  
كالخالم وهو يجذ في السير. كل ليلة في النادي؟» .

## بذلة الأسير

وتمناه. . على أن آماله لم تقطعه عن مهته، فتابر على كده قانعاً من آلامه بالأحلام. وقصد في ذلك الأصيل إلى محطة الزقازيق يحمل صندوقه وينظر القادم. ونظر إلى الأفق فرأى القطار قادماً من بُعد كأنه سحابة دخان، وما زال يدنو ويقرب وتتميز أجزاؤه ويتصاعد ضجيجها حتى وقف على إفريز المحطة. وهرع «جحشة» إلى العربات المتراصة، فرأى - لدهشته - على الأبواب حراساً مسلحين وجوهاً غريبة تطل من النوافذ بأعين ذاهلة منكسرة. وتساءل الخلق: فقيل لهم بأن هؤلاء أسرى الإيطاليين الذي تساقطوا بين أيدي عدوهم بغير حساب، وأنهم يساقون الآن إلى المعتقلات.

فوقف «جحشة» متحيراً يقلب عينيه في الوجوه المغيرة؛ ثم أدركته الكتابة لأنه أيقن أن تلك الوجوه الشاحبة الغارقة في البؤس والفقر لن يكون في وسعها إشباع نهمها من سجنائهم. . ووجدتهم يلتهمون صندوقه بشراسة وجوع؛ فألقى عليهم نظرة سخط واحتقار، وهم أن يوليهم ظهروهم ويعود من حيث أتى. ولكنه سمع صوتاً يصيح به بالعربية بلهجة إفرنجية قائلاً:

- سجناء.

فحده بنظرة دهشة وريبة ثم فرك سبّابته بإبهامه: أي نقود. ففهم الجندي وأوماً برأسه، فاقرب محاذراً ووقف على بُعد لا تبلغه يد الجندي. فخلع الجندي جاكته بهدوء وقال له وهو يلوح بها:

- هذه نقودي.

فتعجب «جحشة» وتفرّس في الجاكته الرمادية ذات الأزرار الصفراء بين الدهشة والطمع. ووجب قلبه،

كان «جحشة» بائع السجائر أول السابقين إلى محطة الزقازيق حين اقترب ميعاد قدوم القطار. وكان يعدّ المحطة بحثاً سوقه النافقة، فيمضي على الإفريز في نشاط منقطع النظر يتصيد الزبائن بعينه الصغيرتين الحبيرتين. ولعلّ «جحشة» لو سئل عن مهته للعنا شرّ لعنة، لأنه كغالبية الناس برّم بحياته، ساخط على حظّه. ولعلّه لو ملك حرّية الاختيار لآثر أن يكون سائق سيارة أحد الأغنياء فيرتدي لباس الأفندية ويأكل من طعام البك، ويرافقه إلى الأماكن المختارة في الصيف والشتاء مؤثراً من أعمال الكفاح في سبيل القوت ما هو أدنى إلى التسلية والملهة. على أنه كانت له أسبابه الخاصة ودواعيه الخفية لإيثار هذا العمل وتمنيه من يوم أن رأى «الغر» - سائق أحد الأعيان يتعرّض للفتاة نبوية خادمة للمأمور في الطريق ويغازلها بجسارة وثقة. بل سمعه مرّة يقول لها وهو يفرك يديه جبوراً: «سأني قريباً ومعني الخاتم» ورأى الفتاة تبتسم في دلال وترفع طرف الملاءة عن رأسها كأنها تسوّها، والحقيقة أنها أرادت أن تبدي عن شعرها الفاحم المدهون بالزيت. . رأى ذلك فالتهب قلبه وأحسّ الغيرة تنهشه نهشاً موجعاً: وكان به من عينيها السوداوين أوجاع وأمراض. وكان يتبعها عن كثب ويقطع عليها السبيل في الذهاب والإياب، حتى إذا خلاها في عطفة أعاد على أذنيها ما قال لها الغر: «سأني قريباً ومعني الخاتم»، ولكنّها لوت عنه رأسها وقطّبت جبينها وقالت باحتقار: «هات لك قبّاب أحسن». فنظر إلى قدميه الغليظتين كأنهما بُطّنا بخُفّي جمل، وجلبابه القذر، وطائفته المعقّرة وقال: «هذا سبب شقائي وأفول نجمي». ونفس على «الغر» عمله

البطالون؟ وفكر ملياً. وألقى على رءوس الأسرى المظلة من نوافذ القطار نظرة ذات معنى. ولعب الطمع بقلبه من جديد فاضطربت نفسه بعد أن أوشكت أن تستقر. ودلف إلى القطار ونادى بجرأة:

- سجاثر. سجاثر. العلبة بمنطلون لمن ليس معه نقود. . العلبة بمنطلون.

وأعاد نداءه مثنى وثلاثاً، وخشي أن يغيب عن الأفهام مقصده فمضى يومئ إلى الجاكتة التي يرتديها ويلوح بعلبة سجاثر. وأحدثت إيماءته الأثر المرجو، فلم يتردد جندي أن يهّم بخلع جاكته ولكنه سارع نحوه وأوماً إليه أن يتمهل، ثم أشار إلى بنطلونه يعني أن ذلك بغيته، وهزّ الجندي منكبيه باستهانة وخلع البنطلون وتمّ التبادل. وقبضت يد «جحشة» على البنطلون بقوة يكاد يطير من الفرح، وتقهرق إلى مكانه الأول وأخذ يرتدي البنطلون. وانتهى في أقل من دقيقة فصار جندياً إيطالياً كاملاً. . ترى هل ينقصه شيء؟. . المؤسف حقاً أن هؤلاء الأسرى لا يغطون رءوسهم بالطرايش. . ولكنهم يضعون أقدامهم في أحذية. ولا غنى عن حذاء ليتساوى بالغرّ الذي يكرب حياته. وحمل صندوقه وهرع إلى القطار وهو يصرخ:

- سجاثر. . العلبة بحذاء. . العلبة بحذاء.

واسنعان على التفاهم بالإشارة كما فعل في المرة الأولى. ولكنه قبل أن يظفر بزبون جديد أذنت صفارة القطار بالمسير فتمخضت عن موجة نشاط شملت الحراس جميعاً. وكانت سحائب الظلام تغطي جوانب المحطة، وطائر الليل يحلّق في الفضاء، فتوقّف جحشة وفي نفسه لوعة. وفي عينيه حسرة وغيط. ولما أخذ القطار يتحرّك لمح حارس في عربة أمامية فبدأ على وجهه الغضب وصاح بالإنجليزية ثم بالإيطالية:

- إصعد بسرعة. إصعد أيها الأسير.

فلم يفهم «جحشة» ما يقول وأراد أن ينقّس عن صدره فجعل يقلّده في حركاته مستهزئاً مطمئناً إلى بعده عن تناول يده. فصاح به الحارس مرّة أخرى والقطار يتعد رويداً رويداً:

- اصعد. . إني أحذرك. . اصعد.

ولكنه لم يكن ساذجاً أو مغفلاً فأخفى ما قام بنفسه أن يقع فريسة جشع الإيطالي، وأبرز في هدوء ظاهري علبة سجاثر، ومدّ يده ليأخذ الجاكتة. فقطب الجندي جبينه وصاح به:

- علبة واحدة بجاكتة؟. هات عشرًا

فذر جحشة وتراجع إلى الورا وقد غاض طمعه، وأوشك أن يأخذ في غير السبيل. فصاح به الجندي:

- أعطني عدداً مناسباً. . تسعاً. . أو ثمانية.

فهزّ الشاب رأسه بعناد. فقال الجندي:

- إذا سبعاً.

ولكنه هزّ رأسه كما فعل في الأولى، وتظاهر بأنّه يعترم المسير ففتح الجندي بست ثم هبط إلى خمس؛ فلوح جحشة بيده متظاهراً باليأس، وتراجع إلى المقعد وجلس فصاح به الجندي المجنون:

- تعال. رضيت بأربع.

فلم يلتق إليه بالآ، وليلّده على عدم اكتراته أشعل سيجارة ومضى يدخن في تلذذ وهدوء. فثارت ثائرة الجندي وأهاجه الغضب، وبدا وكأنه ليس له غاية في الوجود سوى الاستيلاء على سجاثر، فهبط بطلبه إلى ثلاث ثم إلى اثنتين ولبت «جحشة» جالساً يغالب اضطرام عواطفه وأوجاع طمعه ولما نزل الجندي إلى اثنتين أبدى حركة بغير إرادة رآها الجندي فقال له وهو يمدّ يده بالجاكتة:

- هات.

فلم يزد من النهوض ودنا من القطار حتّى أخذ الجاكتة، وأعطى الجندي العلبتين. وتفرّس الجاكتة بعين جذلة راضية، وقد لاحت على شفّته ابتسامة ظفر. ووضع الصندوق على المقعد وارتدى الجاكتة، وزرّرها، فبدت فضفاضة ولكنه لم يعن بذلك وتاه عجباً وسروراً واستردّ صندوقه، وأخذ يقطع الإفريز فخوراً طروباً. وارتسمت لعينيه صورة نبوية في ملاءتها اللفت فقال متمتاً: لو تراني الآن! نعم لن تتجافاني بعد اليوم ولن تلوي وجهها عني احتقاراً، ولن يجد «الغرّ» ما يفخر به علي. ولكنه ذكر أن الغرّ يرتدي بذلة كاملة لا جاكّة مفردة فكيف السبيل إلى

فزَمَّ جحشة شفّتيه احتقارًا وولّاه ظهره وهمّ بالمسير  
فكوّر الحارم قبضة يسراه مهلّذا وصوّب بندقيّته نحو  
الشابّ الغافل... وأطلق النار. ودوى عزيف  
الرصاصة يصمّ الأذان وأعقبها صرخة ألم وفزع.  
وتصلّب جسم «جحشة» في مكانه فسقط الصندوق من  
يده، وتناثرت علب السجائر والكبريت. تمّ انقلب  
على وجهه جيئة هاملة.

## نَحْنُ رُجَالٌ

كان في الحقيقة عائدًا من السجن، وليس عليه في ذلك من بأس فما من فتى من فتيان عطفة شنكل إلا وقد زار السجن مرّة أو أكثر ولكنّ جمعة وحده الذي شقّ سبيله إلى الجاه والثروة، فإذا كانت شنكل قد أنجبت شطّارًا وفتوات عديدين فلم تنجب في الواقع إلا غنيًا واحدًا هو جمعة.

كان قبل الحرب بائع بطاطة يسوق عربته الصغيرة حاسرًا جلابيته الزرقاء إلى ما فوق ركبته، ولم يكن يملك من حطام الدنيا شيئًا حتّى عربته كان يكتسبها بقرش في اليوم، فلمّا كانت الحرب وجد له عملًا في المعسكر البريطانيّ بالعباسية، وسرعان ما خلع جلابيته وارتنى قميصًا وينطلونًا كاكيتين وحذاء أسود أنيقًا واستطاع في مدّة وجيزة أن يتقن السباب باللغة الإنجليزيّة وباللهجة الإسكتلنديّة.. وتنقّل في عمله بين معسكرات عديدة حتّى رمت به النوى إلى التلّ الكبير، وهناك ابتسم له الحظّ فترامت الاخبار بأنّه يتاجر في المهنّ والأغذية. بل قيل إنّّه تعهّد بالغسل في المعسكر جميعه، وتناثرت عنه حكايات كالأساطير مؤّداها أنّه أثرى ثراء فاحشًا، وأنّه أمسى يلعب بالجنيه لعب عابث مقتدر.. ثمّ قال الرواة يومًا إنّّه ضبط متلبّسًا بالانتجار في أغذية الجيش، وقضي عليه بالسجن عامًا ولكنّه على آية حال دخل السجن من المثرين وكذلك فارقه. وقد زفّ شقيقه إلى الأهل والأحباب خبر الإفراج عنه وأقام الزينات وأتى بالزمار والمنشدين وأقسم ليجعلنّ من يوم أخيه يومًا مشهورًا. وهكذا عاد جمعة إلى عطفته كالعمرسان واستقبل بالزغاريد والدفوف والمزامير، ومضوا به إلى منظره بالفناء حيث كان يبيت وعربة البطاطا قبل أربعة أعوام - فرشت

كانت عطفة شنكل من زيتنها في حلّة باهرة، فسماؤها أعلام خضراء وثرثرات حمراء وبيضاء، وأرضها رمال صفراء وعلى مدخلها أقيم قوس من سعف النخل والورد والرياحين، وقد راحت جماعات الغلمان الحفاة تعدو لاهية عابثة بين قوس الاستقبال وباب آخر بيت في العطفة أسبغت الزينات على جدرانه الباهتة المتداعية بهاء وجلّة، فدلّ الحال على أنّ القوم يحتفلون بعمرس أو ختان أو عودة حاج. وقيل الغروب بلدت عند منعطف الطريق طلائع موكب مكوّن من عربات ثلاث عقدت على مقدّم أولاهها هالات الورود والأزهار وطوقت أعناق جيادها بأهلة من الرياحين، واقترب الموكب يتهادى حاملة عرباته الرجال الأشداء ذوي العائم البيض والجلابيب الفضفاضة والعصيّ الغليظة حتّى وقف أمام العطفة، وكان يتوسّط القعود في العربة الأولى شابّ في مقتبل العمر غزير الشارب يرتدي جلابية حريريّة بيضاء ويعصب رأسه بلاسة وقطائم، فنهض في خيلاء وغادر العربة معتمدًا على عصا عجواء فأقبل نحوه المنتظرون محتفين يسلمون عليه ويقولون بلسان واحد:

- مبارك يا معلّم جمعة.. ربّنا يزيد ويبارك يا معلّم.

وانطلق الغلمان يهتفون منشدين: «يا ابن عطفتنا يا جمعة..» وقد تعالت الزغاريد من أبواب البيوت المتداعية ومن وراء خصاص النوافذ وتلقّى القادم التحيّات بابتسام وزهو وسار في شبه دائرة من الصحاب متبخترًا مرحًا لا تسعه الدنيا من السرور والغبطة.

لم يكن المعلّم جمعة عريسًا ولا مختونًا ولا حاجًا،



ورفع الكوب إلى فمه فأفرغه دفعة واحدة، والتفت إلى الزمار وأوماً له برأسه فتفخ الرجل في مزماره ونقروا على الدفوف وبقدرة عجبية انتقل الإيقاع من المزمار والدف إلى وسط جعدة ورقبته وسيقانه وعصاه فحال إلى موجة مترنحة تذهب وتجيء وتجيء وتذهب، والإخوان يرجعون النقر بأكفهم هاتفين مع الإيقاع «يعيش الوفاء.. يعيش الوفاء». وشعر جعدة وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال بأنه ينبعث من جوفه لسان لهب ثم ينطلق في عروقه نافخاً ناراً وطرباً وجنوناً وما زال في رقص وخيلاء حتى اكتفى، فلوح بعصاه للزمار فأمسك. ووقف جعدة لاهثاً حتى غمأ أنفاسه ثم مَدَّ يده إلى شقيقه فأعطاه كوباً آخر، وقلب وجهه في القعود، كما فعل أوّل مرّة، ثم استدرك قائلاً:

- نحن رجال، والبيوت للنسوان، القابض خاسر والجسور فائز، انطلق يا جعدة، إلى العباسية يا جعدة، إلى الأهرام يا جعدة، إلى حلوان يا جعدة، إلى التلّ الكبير يا جعدة، اشتغل يا جعدة، الحذق والشطارة يا جعدة، عاد القرش يا جعدة.. يعيش القرش يا جعدة.

وأفرغ الكوب في فيه كسائل الجحيم وغمز للزمار بعينه فدقت الطبول وأسلم نفسه لشيطان الرقص يذرع به الدائرة في رشاقة القيان، والإخوان يهتفون مع الدفوف «يعيش القرش.. يعيش القرش» وقد تصاعدت أبخرة الخمر إلى رأسه فخال في رقصه أنه يسبح في عباب مصطفق أو يطير على جناحي ريح مجنونة، وما زال يرقص ويرقص حتى أعياه الرقص فتوقّف وقد احترت عيناه وتشتت شاربه، ولبت برهة يستريح ثم مَدَّ يده ناحية شقيقه وتناول الكوب الثالث بعنف وشره وصاح بإخوانه:

- نحن رجال.. هل توجد جسارة بغير ثمن؟ هل الزناني سليم؟ هل عتير سلم؟ زلت بنا القدم وما يقع إلا الشاطر، ودفعونا إلى السجن.. السجن للرجال.. ما عيب إلا العيب، يعيش السجن للرجال.

وصبّ الكوب في جوفه وقد فقد إحساس الذوق

بالخمر ورصّت إلى جوانبها أرائك، فجلس في الصدر يحيط به الإخوان الأقربون، ومدّت المقاعد في الفناء وتصدّر المكان الزمار وأعوانه، وزمّرت المزامير وأشدّ المنشدون واستبق الفتيان إلى الرقص ودارت أكواب الشربات والجوزة والبوري، وشمل الفرحة البيت والناس جميعاً، أما في المنظرة فقد جيء بزجاجات الكونياك حيث جمع الصفاء بين الأحباب فأترعت الأكواب ودارت على الأفواه النعمة المشتاقة، وجرى اسم جعدة على الألسنة وتعالى له الدعاء، ومال الشاب على أذن شقيقه وقد ألحت عليه شهوة الظهور والإعلان عن النعمة وقال له: أبسط يدك حتى تروي العطاش وتشبع الجياع وتسّر القلوب: هذا يوم أخيك.

ومضى يشارب الجالسين ويضاحكهم تمتلئ النفس ثقة وطمأنينة وسعادة، وكان بين ساعة وأخرى يبرز حافظته الكبيرة ويستخرج منها ورقة ويرمي بها إلى حجر أخيه قائلاً: «هات الشيء الفلاني.. هات الشيء الفلاني.. أنا خادم الإخوان.. لا بد أن ينسبط الإخوان».

ومضت ساعات الليل الأولى في رقص وزمر وأكل وشرب، وقد شرب جعدة حتى سكر وانبعثت النشوة في دمه فاهتزّ طرباً وقهقه ضاحكاً وداخلته رقة فملأت نسائم الأريحية فؤاده، ولم يلبث أن نازعه شوقه القديم إلى الرقص وكان في زمانه الأوّل يهوى الرقص ويحبّه وربما تقدم الزقة شارعاً بعد شارع بشغف لا يعرف التعب والملل. فلم يعص شوقه ونهض بجسمه الفارع ودعا الزمار فجاءه الرجل وتبعه رفاقه وأقاموا على عتبة المنظرة متأهين، ووقف جعدة وسط الحجرة قابضاً على عصاه يميناه ومدّ يسه إلى شقيقه فأعطاه كوباً ممتلئاً إلى نصفه ولكنّه صاح به في خيلاء وقد سرت بأطرافه حمية الخمر «املاه حتى آخره».. وأخذ الكوب المترع وهو يكفي أربعة أشخاص ثم ردّد عينيه في الجمع المحيط به وأنشأ يقول:

- نحن رجال، نحن إخوان، نذلّ من يتنكر لإخوانه، نذلّ من ينسى أصله، يعيش الوفاء.

وأفرغه حتّى الثمالة ورمى به إلى الأرض فتخطّم  
عند قدميه، ونظر في وجوه السكارى بعينين لا تريان  
شيئاً وقال بلسان ثقيل ملتبس لا يكاد يبين:

- نحن .. رجال .. افرحوا ابتسمت لكم الدنيا ..  
مالي وما أملك لكم .. حظّي حظكم .. لن أنسى  
الإخوان .. يعيش الحظّ.

ونقروا على الدفوف وأنشدوا مهلّلين: «يعيش  
الحظّ .. يعيش الحظّ» وأراد أن يرقص، أن يخطو إلى  
الأمام، ولكنّه كان قد فقد كلّ قوّة يمكّ بها نفسه  
فاندفع مترنّحاً وسقط على وجهه فاصطدم رأسه  
بالأرض في عنف وشدّة. وأمسك المنشدون ونهض  
القوم فزعين ورفعوه بأيديهم وحملوه إلى الأريكة التي  
كان يجلس عليها، ومال عنقه على مسند الأريكة  
وانحلت مفاصله جميعاً، وجاء قوم ونضحوه على  
وجهه، ورفع جفنيه الثقيلين لحظات ولما رأى الأعين  
المحدّقة به همس بصوت ثقيل متعتر:

- دعوني ... نحن رجال .. افرحوا. الحظّ!  
ثمّ شعر في رأسه بدويّ هائل وكأنّ مائة مطرقة تدقّ  
نحّه، وفقد الحركة والإرادة والكلام.

وكان المعلّم بيومي في الحاضرين. كان إذا سكر  
حمله أصحابه إلى بيته وطرحوه على لحافه فيروح في نوم  
عميق لا يفيق منه إلّا ضحى اليوم الثاني. فقال للقوم  
ناصحاً:

- دعوه ينم، فالنوم دواؤه وسوف يصحو غداً  
صحيحاً معافى، وبادروا إلى حمله وأرقدوه على فراش  
أخيه وتركوه في سلام .. وعاد القوم إلى لهوهم يشربون  
ويسمرون.

وراح جعدة في نوم عميق كما قدّر المعلّم بيومي،  
ولكن حدث ما لم يقدر أحد من السكارى ولا دار لهم  
بخلد، انفجر شريان ونزف دمه وتسوّلت الحياة من  
جسمه نقطة فنقطة حتّى تركته جثة هامدة، فنام نوماً  
عميقاً ثقيلاً لا يقظة بعده ولا إفاقة، وكان ذلك قبيل  
انبثاق الفجر وقد تصايحت الديكة، فاختلط صياحها  
بهتاف الهاتفين وإنشاد المنشدين ..

وانقلب وحشاً لو أفرغوا فيه حانة لابتلعها، وزمّر  
الزامر، وصفقت الأيدي وتعالى الإنشاد: «يعيش  
السجن للرجال» واندفع يرقص بغير وعي وكأنّ نبض  
قلبه يرسل موجات كهربائية إلى أطرافه، وتركّزت في  
رأسه أوهام غريبة بثّت في نفسه خيلاء الخالفين، وطال  
به المظال حتّى أمسك الزمّار رحمة به فكفّ مترنّحاً  
ثملاً، وجعل يتسم ابتسامة بلهاء وينظر ببصر زائف،  
وعلى حين غرة طالعت عينيه من عالم الذاكرة صورة  
ذات حسن وبهاء فأهاجت قلبه كوحش رأى فريسة  
شهية، ونحال أنّه يسمع فرقة قباقها وتمطقها باللبان  
فدغدغت قلبه لساعات الهيام، ومدّ يده نحو أخيه في  
ثورة فائرة، ولكنّ الرجل اقترب منه مشفقاً ومال على  
أذنه وهمس له: «أسرفت يا معلّم» فتولّاه الغضب  
وصاح به «نحن رجال هات» وأخذ الكوب المترع وقال  
بلسان ملتبس وقد عاودته الصورة الجميلة:

- نحن رجال .. الرجل بغير زواج ناقص ..  
الزواج فرض وسنة، شلية المصونة بنت عمّ طلبة  
جارنا وعمنا .. يا عمّ طلبة اقرأ الفاتحة ..

وأنشد الرجال «يعيش الحبّ .. يعيش الحبّ»  
واشترك معهم عمّ طلبة نفسه وقد لعبت الخمر.  
وشرب جعدة الكوب فاستولى عليه السكر والذهول  
وما عاد يدري أقائقاً أم قاعداً، راقصاً أم واقفاً، في  
البيت أم في الخلاء، وصار رقصه أشبه بالترنّج وثقلت  
جفونه واحتقن الدم في وجهه. وأمر أخوه الزمّار أن  
يكفّ فحمد جعدة في مكانه معتمداً على عصاه،  
وتحوّل نحو أخيه ومدّ إليه يسراه كعادته ولكنّه لم  
يستطع أن يحمل ذراعه هذه المرّة فردّت إلى جنبه وقال  
له شقيقه:

- أسرفت على نفسك يا معلّم .. هلمّ معي إلى  
الخارج تششق الهواء الرطيب.

ولكنّه هزّ رأسه غاضباً، وسار مترنّحاً إلى المائدة  
وملاً الكوب حتّى فاض منه الكحول وسال، ورفع  
إلى فيه بيد مرتعشة وهو يتمتم بلسان ثقيل:

- نحن رجال ..

## الشَّرُّ المَعْبُود

السادة والنبلاء، ويكلم الخدم والعيبد، ويترك خلفه أثراً عميقاً قوياً يهيج في النفوس ثورة جاعحة يشتد من حولها الجدل والخصام.

وأثارت حياة الغريب مخاوف «رام» حارس الأمن فاتبعه كالظلّ وراقبه عن كذب وارتاب في أمره فقبض عليه وقدمه إلى القاضي لينظر في شأنه العجيب. وكان القاضي سومر رجلاً طاعناً في السنّ عظيم التجارب؛ قضى أربعين عاماً من حياته الجليلة يجهاد الأبطال تحت راية العدل والحقيقة. فأنفذ القضاء في حيوات المئين من المتمردين، وملأ السجون بالآلاف من الأشرار والمجرمين، وكان يعمل صادقاً مخلصاً على تطهير المقاطعة من أعداء السلام والطمأنينة.

ولمّا مثل بين يديه الرجل الغريب أخذه العجب واستولت عليه الحيرة، وسأل نفسه عمّا يرتكبه هذا الشيخ الفاني. ثمّ سأله بصوته المتزن وهو يلقي عليه نظرة فاحصة:

- ما اسمك أيها الشيخ؟

فصمت الرجل ولم يجب، وهزّ رأسه كأنه لا يريد أن يتكلّم أو لا يدري ما يقول.

واستاء القاضي من لياذه بالصمت بغير سبب معقول وسأله بلهجة خشنة:

- لماذا لا تجيب؟ .. قل ما اسمك؟

فقال الرجل بصوت خافت وعلى فمه ابتسامة خفيفة غامضة:

- لا أدري يا سيدي ..

فتضاعف استياء القاضي وقال منتهزاً:

- ألا تدري ما اسمك حقاً؟

- بلى يا سيدي .. نسيته.

قبل أن يستولي أوّل ملك على عرش مصر، كان الوادي مقاطعات مستقلة لكلّ واحدة إله ودين وحاكم، وقد اشتهرت من بينها مقاطعة (خنوم) لما توفّر لها من خصوبة الأرض واعتدال الجوّ وكثرة السكّان، ولكنها كانت تدفع نصيبها كاملاً من ضريبة الشقاء والأحزان، ففسق بها المترفون وتصور الفلاحون جوعاً وعات الأشرار في الأرض فساداً، وفتكت الأمراض والأوبئة بالضعاف والبائسين، وشمر للإصلاح رجال المقاطعة المسئولون وعلى رأسهم القاضي «سومر» وحارس الأمن «رام» والطبيب «تجب» وكافحوا الجريمة والعيوب مكافحة شديدة صارت مضرب الأمثال على الجهاد والصدق والعزم.

وفي أحد الأجيال التي مرّت على تلك المقاطعة ظهر بها رجل غريب، كان شبيحاً طاعناً في السنّ حليق الرأس والذقن كمعادة الكهنة المصريين؛ وطويل القامة نحيل الجسم، تلوح في عينيه نظرة حادة تهزّ من فعل السنين يشعّ منها نور الفطنة والحكمة. وكان رجلاً غريباً حقاً، فما لمست قدماه بلداً حتّى تساءل أهله عجباً.. من الرجل؟.. وأيّ بلد قذفه؟ وما الذي يريد؟. وكيف يضرب في الأرض حين ينبغي أن يخلد إلى السكينة والراحة في انتظار الانتقال إلى عالم أوزوريس؟.

ولم يقف به شذوذه عند حدّ. كان يثير وراءه عواصف الضجيج وزوابع الفتنة أينما حلّ وحشياً يتّجه. فكان يغشي الأسواق ويزور المعابد ويدعو نفسه إلى الحفلات على غير معرفة بأصحابها، ويضع نفسه فيما لا يعنيه. فكان يحدث الأزواج عن زوجاتهم والزوجات عن أزواجهن، والآباء عن أبنائهم ويبادل

الأمراض ويضمّدون الجراح . . أما أنا فسيبلي أن أقضي على الداء . إنَّ الداء كمين في غيبه آمنًا؛ وهم لا يكتثرون إلَّا لآثاره . وقد أنعمت النظر فوجدت أنَّ المعدة أصلًا بلاء هذه المقاطعة . وجدت كثيرين لا يستطيعون أن يملأوا منها فراغًا فيعيوا جوعًا، وآخرين لا يتركون بها فراغًا قطَّ فيهلكوا نهجًا، ومن التجاذب والتنافر بين هاتين المحدثين يحدث السلب والنهب والقتل . فالدواء بيّن والدواء بيّن .

فقال القاضي:

- على العكس ممَّا ترى هذا داء لا دواء له!  
- هذا قولهم يا سيّدي . وما يقولونه إلَّا لأنَّه ينقصهم شيء متعني الربّ به : هو الإيمان بالخير . إنَّهم لا يؤمنون بالخير حتَّى الإيمان، ويجهلون في سبيله جهاد الآلات الصمّاء التي لا تحسّ، ويعملون بالأجر وللجاه والمجد . . فإذا خلوا إلى أنفسهم تهاكوا على ما يجاهرون بمقتنه من الإثم . هذا شأنهم يا سيّدي، أما أنا فمؤمن حقًّا بالخير، فدعني أعمل على طريقي وأمهلي رويدًا . . !

وأهاج كلام الرجل الغضب في نفس حارس الأمن، إذ حسبه يلمّزه من قريب، ولكنَّ القاضي كان أوسع صدرًا وألين قلبًا، فأغضى عن قول الرجل . ولمَّا لم يجد في عمله ما يستحقّ عقوبة أطلق سراحه بعد أن أسدى إليه النصّح . .

وغادر الرجل المحكمة وهو يحسّ بنشوة الظفر، وكان على وجه اليقين مؤيّدًا بروح سامٍ لأنَّه كان يسير في الأرض بقوة مارد، ويتدفّق في الحديث بحماسة شابّ، ويفيض عليه قلبه بتقاؤل نبيّ، وكان لسانه ينثج سحرًا حللًا وحجّة تلزم المتكبرين، فاستطاع في مدّة وجيزة أن يستأثر بأذان القوم ويسحر قلوبهم ويبيج عاطفة الخير في نفوسهم ويوجّههم إلى حيث يريد، فاتّبعه الفقير وخضع له الغنيّ وذلك له المتمرد العاصي . وكان أساس دعوته الجمال والاعتدال اللذان يعيش في ظلّهما الفقير بالقناعة والغنيّ بما فيه الكفاية . ووجد فيه ذاك المجتمع المريض طبيبًا صادقًا بارعًا فتعلّق بمثله واعتنق مبادئه . وجاءت النتائج باهرة يخطف نورها

- أنقول أنّك نسيت اسمك . . بم يدعوك الناس؟  
- لا أحد يدعوني، لقد مات أهلي وذويّ، ولبثت في الدنيا دهرًا طويلًا لا يدعوني أحد، ولا يناديني إنسان، وكان رأسي مغميًا بالأفكار والأحلام فنسيت اسمي .

وانهم القاضي الشيخ بالبله والخرف، وتحوّل عنه يائسًا إلى حارس الأمن وسأله:

- ما الذي حملك على سوّوق هذا الرجل إلى المحكمة؟

فقال «رام»:

- إنَّه يا سيّدي رجل لا يستريح ولا يريح، يتطفّل على الناس ويمادهم في الخير والشرّ، ولا يدعهم إلَّا وقد فرّقت بينهم الفتنة والشقاق .

فالتفت إليه القاضي وسأله:

- ما الذي تريده من وراء ذلك؟

فحدّجه الشيخ بنظرة حادة، وقال بصوت قويّ النبرات يهزّ بالسنين التي عاشها في هذه الدنيا:  
- أريد أن أصلح هذه الدنيا البشعة يا سيدي .

فابتسم القاضي وسأله:

- أليس يوجد من يجب حياته لهذا العمل النبيل وهو قادر عليه؟ ماذا يفعل القاضي وحارس الأمن والطبيب؟ اطمننّ أيّها الشيخ وأرج نفسك ولا تحمّل شيخوختك ما لا طاقة لها به من بلوغ هذا المطلب العسير، وغبرك عليه أقدر .

فهزّ الرجل رأسه بعناد وقال:

- جميع من ذكرت قد وجدوا منذ الأزل . ولكنّهم لم يقدرُوا بعد على تغيير هذه البشاعة التي تشوّه وجه الدنيا . ولا نزال نرى في كل بقعة من الأرض نذر الشر وآثار الجريمة .

- وهل تنجح أنت إذا أخفقت جميع هذه القوى المؤتلفة؟

- نعم يا سيّدي . . أمهلي وسوف ترى . .

فابتسم القاضي في استخفاف وسأله:

- وماذا تدّخر من الوسائل ممَّا ليس لديهم؟

- إنَّهم يا سيّدي يطاردون الأشرار ويعالجون

وكأنه بقلبه لهذا رفع صمًا عن رجل يغلي ففاض كلُّ بما في قلبه، فقال واحد منهم :  
- هذه حال لا يمكن السكوت عليها.  
وقال آخر وهو يبرِّز قبضة يده :  
- لقد أفسد الشيخ الحرفُ المقاطعة.  
وقال ثالث :

- إنه يحطم القوى الإنسانية العالية بهذه الدعوة الفاسدة التي تعمق التقدُّم وتقتل الهمم .  
وسرت النجوى من لسان إلى لسان، وأبان كلُّ عمَّا بنفسه إلا القاضي فإنه لزم الصمت، وسها إلى الأفق البعيد كأنه لا يسمع ممَّا يدور حوله شيئًا، وكاد مظهره يجلب اليأس إلى قلوب الكثيرين من أعوانه إلا أنَّ رام همس لهم خارجًا :  
- لا تحشوا القاضي فقلبه معنا، ولكنَّ لسانه الذي مرن على الكلام عن العدالة لا يطاوعه على ما نحن بسبيله.

واتفقت كلمتهم ..  
وأشرقت الشمس ذات صباح فإذا بالرجل الغريب قد اختفى، ويحث عنه مريدوه في كلِّ مكان وقتشوا عنه في كلِّ بقعة من الإقليم فلم يعثروا له على أثر .  
وأحدث اختفاؤه دهشة وانزعاجًا، وأثار أقاويل متباينة، فمن قائل إنه هجر المقاطعة إلى غيرها بعد أن اطمأنَّ إلى ثبات عقيدته؛ ومن قائل إنه صعد إلى السماء بعد أن أدَّى رسالته. وشمل الحزن المقاطعة كلها ووجفت القلوب جميعًا ..  
وتنفس السادة الصعداء وانتظروا على أمل سعيد وكلهم يحلم بالمجد الآفل والنعيم الذاهب ويمتني نفسه ويستنظرها ..  
ولكنَّ النفس يلحقها الجزع كلما دنت من الأمل المرتقب، فباتت أعصاب القوم ثائرة وقلوبهم حائرة، وكان يقض مضاجعهم أن يروا عامة الناس ما تزال متمسكة بالدعوة، غلصة لذكرى الشيخ الغريب.

واهتاج الغضب حارس الأمن فصاح :  
- ينبغي ألا تدوم هذه الحال .  
ونظرت إليه أعين أحيائها الطمع، وأضناها الأمل،

الأبصار ويذهل عقول العقلاء، فسحقت الجريمة وهزم الشرَّ وأدبرت الأمراض، وأظلت السعادة بجناحيها المقاطعة، فهلَّل الحُكَّام وكبروا وأمنوا بالرجل الذي كانوا فيه يمترون. وسعدوا جميعًا لبلوغ الغاية النبيلة التي أنفقوا أعمارهم عبثًا في سبيل بلوغها.

وتقدَّم الزمان بخطأ هادئة في جوِّ صافٍ وطريق معبد، وتحولت الأمور إلى غير ما عهد الناس .  
وكان الحُكَّام أول من أحسَّ بالعهد الجديد، والحقَّ أنهم وجدوا أنفسهم عاطلين، والراحة لذَّة لا يذوقها إلا العاملون، فثقل الفراغ على ظهورهم، وشاهدوا بأعين جزعة مجدهم ينهار ويرجهم تذهب ونورهم ينقلب ظلامًا.

كان حارس الأمن قوَّة ترهب أينما يحلُّ، فردَّ إلى شيء تفتححه العيون وتستعين به القلوب، وأضحى تمرُّ به العامة وكأنها تمرُّ بصنم محطَّم.

وكان القاضي قوَّة قدسيَّة ومهابة إلهيَّة، فأصبح يقلب كفيه أسفًا حزينا لا يسمع تحية ولا رجاء، ولا يساق إلى رحابه من يبابه. فأحسَّ بعزلة ووحشة، وبات كمعبد مهجور في الصحراء. وأنَّ الطبيب بشكوى مكتومة، وحس نفسه في داره لا يزوره إنسان ولا يزور إنسانًا، وكان يكتز المال في القدور فأصبح ينفق ممَّا جمع وقلبه واجف.

اطمأنَّ الإقليم جميعًا إلى الخير إلا أولئك الذين وهبوا أنفسهم «صناعة الخير». كانوا حيارى يائسين يتلفتون يمينًا وشمالًا فلا يجدون لأنفسهم مخرجًا ممَّا هم فيه، وكان حارس الأمن أشدهم عذابًا، لأنَّه كان أعظمهم جراءة، ولكنَّه كان يخشى أن يقدم على التصريح بمخاوفه فيجد آذانًا صماء وقلوبًا مطمئنَّة إلى الخير. ولمَّا نفذ صبره انتهز فرصة اجتاعه بإخوانه وأقرانه وقال بشيء من التهيب متسائلًا :

- ماذا نفعل لو استغنى الحاكم عن خدماتنا غدًا؟

فاصفرَّت الوجوه وسأله سائل بلسان ملعثم :

- أمن المحتمل أن يستغني عمَّا حقًا؟

فقال رام وهو يبرِّز كفيه استهانة :

- وماذا نفعل حتَّى نستحقَّ البقاء؟

فاستدرك قائلاً همساً:

- أعرف في مقاطعة «بتاح» راقصة فاتنة أولتها الآلهة حسناً لا يقاوم. فلماذا لا نستعيرها أشهراً؟ ولأي أعلم أن حاكم الإقليم راغب في نفيها لما يهيج جمالها من الفتنة والملاحاة. فليكن إقليم خنوم منفاها إلى حين؛ وهي بغير شك حقيقة بأن تفرق ما بين الأخ وأخيه والزوج وزوجه، وبأن تغري الأغنياء بالانقضاء على السلاسل التي وضعوها في أعناقهم طائعين.. انتظروا خيراً قريباً..

وحقق ذلك العبقري فكرته الخطيرة.

وشاهدوا جميعاً بأعين مشرقة بنور الفرع ذلك النظام يتقوّض بنيانه ويتهاوى حجراً على حجر، وردّت المدة إلى عرشها تتحكّم في الرقاب والعقول، وعادت الحياة الشيطانية تملأ جو «خنوم» الهادئ، وتعصف بالسلام المخيم على ربوعه. واستأنفت عصبة الحكم جهادها، ووجدت نفسها مرة أخرى تكافح وتناضل عن الخير والعدالة والسلام..

## الورقة المهلكة

الحسبان منذ أمد قريب. وما دفعه إليها تلك المرة إلا الملل الراكد على نفسه التي شبت من أهواء الدنيا وعانت من الفراغ مرّ العناء. وتركته يتخبط حائرًا ما بين الميادين والأزقة لا يهتدي إلى مستقر. وما عاد به إليها هذه المرة إلا ما طالع خياله من أطيايف الذكريات الحلوة. .

وجلس يلقي على المكان نظرة تذكّر وحنين، ولم يكن يرى منظرًا غريبًا، فإنه يذكر ولا شك تلك الأبنية العالية التي يتصاعد الدخان من أعاليها ويدوي قرع الآلات في داخلها، وهذه الصحراء المترامية التي تنتهي شطآنها البعيدة إلى مآذن القاهرة المعزية، ولكن ما له يلتفت بمنة ويسرة، هل يفقد منظرًا يذكره ولا يجده؟ .

نعم إن الصورة التي انتزعها رأسه من المكان في تلك الليلة القمراء ناقصة. . ولا تنقص شيئًا تافهًا، بل تنقص مدينة كاملة. . مدينة الصفائح الغريبة. . كانت تقع أمام القهوة مباشرة على بعد عشرة أمتار من مدخلها، وكانت مبانيها أكواخًا من الصفائح التي علاها الصدا، تأوي رجالاً ونساء وأطفالاً، وترعى في عرصاتها المعز والكلاب. . أين يا ترى هذه المدينة، أم تراه اشتبه عليه الأمر؟ .

ولكي يقطع الشك باليقين نادى النادل وسأله وهو يشير بيده إلى الموضع الخلاء الذي أحدث ارتياحه:

- ألم تكن توجد هنا أكواخ من الصفائح؟

فهز الغلام رأسه علامة الإيجاب وقال:

- بلى، يا بك.

- فأين ذهبت؟

- هدمتها الحكومة.

انتهى المطاف بالشمس إلى الأفق الغربي، وقد شملها الهدوء والوجوم والأسى بعد أن ولّى عنها تيه الفتوة وزهو الشباب، ومضى شعاعها الشاحب يوغل شرقًا مودعًا رمال الصحراء المتاخمة للعباسية موسعًا وراءه للسمر الزاحفة.

ولم يكن في الطريق الذي يخترق الصحراء - في تلك الساعة - سوى سيارة بيضاء صغيرة تسير على مهل، كأنه لا غاية لها سوى المسير؛ ويسوقها شاب تدلّ نظرة عينيه المظلمتين على الملل وعدم الاكتراث.

وتقدّمت السيارة في الطريق حتى حاذت أبنية المصانع الجديدة التي تشغل مساحة واسعة من فضاء تلك الصحراء، تمّ وقفت أمام بناء صغير كتب على لوحة في أعلى واجهته «مطعم وقهوة الزملاء» وكان البناء مكوّنًا من قسمين: واحد مسقّف رصّت به مواقد الطعام الخشبية التي يتناول عليها الطعام عمّال المصانع القريبة، والآخر مكشوف معشوشب الأرض، وضعت به الكراسي حول نافورة من ماء آسن، أقيمت حولها عمد خشبية علقت برءوسها الكلبهات.

ألقي الشاب نظرة على البناء وقد لاحت في عينيه الأحلام وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفثيه الممتلئين، وغادر السيارة فندت قامته الرشيقه وبذلته الأنيقة، ودخل إلى القهوة واختار ركنًا قصيًّا، وكان المكان خاليًا ساكنًا، لأنه لا تدبّ فيه الحياة عادة إلا بعد انصراف العمّال في المساء فجلس يحتسي فنجانًا من القهوة والنادل على بعد منه يرمقه بنظرة ملؤها الإنكار والدهشة.

ولم تكن هذه أول مرة يهبط فيها إلى هذه القهوة التائهة في الصحراء فقد زارها زيارة سعيدة لم تكن في

قَطَّب الشاب جيئته وسأله:

- متى... ولأي سبب؟

- منذ ثلاثة أشهر، بعد أن تأكَّد البوليس من أن ساكنيها من اللصوص والقتلة.

لم يكن في الخبر ما يشير الدهشة، ولكنَّه ذكر شخصية عزيزة فقال:

- كان يوجد هنا رجل مغنٍّ يدعى أبو لبة... أو أبو رنة لا أذكر... ألا تعلم أين هو؟

فتفكَّر الغلام دقيقة ثم قال:

- لعلَّه أبو سنة يا بك.

- أظنَّه هو، كان يغني غناء جميلًا وينشد إنشادًا ساحرًا... .

- نعم هو يا بك. ولكنَّه شتى وأسفاه!

وانزعج الشاب وسأله:

- أتقول إنَّه شتى؟

- نعم شتى بغير شك.

- ولماذا شتى؟

- لسبب تافه جدًا.

فاستولت الدهشة على الشاب وسأله:

- كيف يشقى لسبب تافه... ماذا فعل؟

فقال الغلام بهدوء:

- قتل... .

فابتسم الشاب بالرغم من انزعاجه وقال:

- ولكن ليس هذا بالسبب التافه.

- قتل بغيًا... .

ولم يستطع الغلام أن يتم حديثه، لأنَّه قطعه عليه دخول جماعة من العمَّال ونداء المعلِّم له فحيَّا الشاب وانصرف إلى عمله... .

لقد وقعت أحداث غريبة منذ زيارته الأولى لهذه القهوة... .

دمرت مدينة، وتشتت أهلها، وشتى رجل كانت حنجرتَه تفت سحرًا وبهجة، فما أتعس مجيئه هذه الليلة! جاء يطلب لهُواً ومسرَّة فوجد خرابًا وموتًا!

ولبث كئيبيًا، وراح يفكِّر في زيارته الأولى تلك الليلة القمراء السعيدة... .

كان في مساء تلك الليلة جالسًا في سانت جيمس يشارب جماعة من صحبه كما هي عادته كلَّ مساء، وقد تركوا الحانة في الساعة العاشرة، ورأى بعضهم أن يمضوا الليل في صالة رقص أو غناء أو نساء، ولكنَّه لم يجد من حواسه ميلًا إلى تلك المتع.

كان ضيق الصدر من طول ما فعل به الملل والفراغ، وكان يعاني شبعًا ثقيلًا صرف هواه عن الدنيا جميعًا، فأمسى الرقص والغناء والنساء ألفاظًا لا معنى لها، وانقلب جسد الأهواء القاتن في عينيه جنة هامدة، فودَّع صحبه وتركهم يذهبون.

وتلقت يمنة ويسرة في حيرة... إلى أين يذهب؟ ولم ينقله من حيرته إغراء... فترك الملل ووحدته وسكره.

ثم استقلَّ سيَّارته الصغيرة وانطلق بها على غير هدئ، وساقه التخطيط إلى العيَّاسية، ودفعته العباسية إلى صحرائها الشرقية، ولقتت ناظره - في الطريق الصحراويِّ المتوي - أنوار خافتة تنبعث من القهوة المنعزلة، فهذه من سرعة السيَّارة ونظر صوبها فسرَّه منظر الجالسين يتسامرون ويلعبون النرد والورق، وحمل الهواء إلى أنفه رائحة «التمباك المعسل» فتسرَّبت إلى حنَّه وأطربت أعصاب رأسه، فانقشع عنه كابوس السقم، وأدار السيَّارة إلى أمام مدينة الصفائح ووقف، وحسب أنَّ جلسة في هذه القهوة ونفسًا من هذه «الجوزة» يساويان نعم الدنيا الذي أنك قواه وأضى قلبه.

ولفت شخصه الغريب أنظار الجالسين، ولكنَّه لم يجد حرجًا ولم يستشعر خجلًا، إذ أخفت الخمر عن عينيه نظرات الآخرين، وقصد إلى ركن خالٍ واطمأنَّ إلى كرسيِّ، وطلب جوزة... وكان القمر بدرًا والسماء صافية، كأنَّها تعرَّتْ تستحم في نوره البهيِّ، فبهره سحر النور وجمال الليل وفتنة الصحراء القائمة وكأنَّه يرى القمر لأوَّل مرَّة، بل لعلَّه كان يراه لأوَّل مرة حقًا، لأنَّه كان في العادة يمرُّ على محاسن الكون ومفاته بعينيِّ أعمى وأذنيِّ أصم. أمَّا تلك الليلة - والخمر في رأسه و«الجوزة» في فمه - فقد نظر، وقَلَّب وجهه الداهل في أقطار السماء والفضاء. وخال الأنوار الهادئة



متوالية يسلك حنجرتة، ثم أسند رأسه إلى كفه ومضى يغني «ليالي» في صوت جميل ظنّ دأنش في نشوته أنه أجمل من أصوات الحور في الجنان، ثم أنشد:

بكره ويعده وبعد الي وراه بعده

وإن غاب حبيك ما لكش في البلد بعده

وكان رأسه يترّ وجسمه يتهايل، وكان جميعه في حركة وجدانية تمثيلية غريبة. وكان صوته يتهدج ويتوجع، يعلو تارة حتى يملأ الفضاء، ويخفت أخرى حتى ينفذ إلى أعماق القلب، وما إن انتهى من إنشاده حتى صعدت آهات الإعجاب من كلّ فم، وكان الشاب أول المعجبين، وغلبته النشوة والطرب فطلب لكل واحد من الجالسين «جوزة» وصاح بالمغني:

- لا أسكت الله لك صوتاً.. أسمعنا موالاً آخر..

فهز الرجل رأسه مختالاً فخوراً ووضع يسراه على أذنه، ويمناه على الجوزة، وأنشد:

بيي وبين الحباب جبل عال وتلّ حشيش

ويحر خمرة ونفسي في النيز ولا فيش

ولما انتهى المغني من إنشاده بلغ الفرح بنفس دأنش مبلغاً ظنّ أنه لن يذوق الملل بعده أبداً، وأحسن بالرضى والغبطة، وأفعم قلبه بعاطفة سعادة وخير. فودّ لو يستطيع أن يغمر كلّ محزون بفيض من سعادته، ومال بقوة قاهرة إلى مكافأة الرجل الذي مسّ روحه بنفثة من سحر صوته، فمسّ يده إلى محفظته ووجد بها بضعة قروش وورقة من ذات العشرة جنيهاً، فأعطى القروش إلى صاحب القهوة، ثم نظر إلى المغني ملياً ووضع الورقة في يده وهو يقول:

- هذه لك..

لم يداخله التردد مطلقاً، وما كانت ثمة قوّة في الوجود تستطيع أن تمنعه من المنح والعطاء تلك الساعة، أما الرجل فسهم ووجم وأدنى الورقة من نور المصباح وتأملها بإنكار، ولمح الورقة في يده أحد الجالسين فاقترّب منه ونظر إليها لحظة ثم قال بلهجة خبير:

- ورقة قديمة من ذات العشرة قروش، كانت متداولة أيام السلطان.

ترقص طرباً والقمر الساطع ينشد نشيداً ترتله السموات والأرض، وأحسن كأنه متعلّق بأطراف النور الفضّي كمن يتقلّب على بركة من الزئبق. أيّ حسن.. وأيّ شعور.. في تلك الساعة السعيدة نسي مرضه العضال وحزنه الثقيل والملل الجاثم على صدره، وذهب عنه شيعه المزمّن، وأحسن بجذّة ويعث ومتعة وحبّ. فأنشد الصامت في أذنيه، وابتسم العايس لعينيه، ولولا الحياء لاندفع يرقص ويغني وينشد طرباً وفرحاً. وبالف صاحب القهوة في إكرامه والترحيب به، وأحضر له «الجوزة» بنفسه وهو يقول بتودّد:

- آنست وشرفت.

وكان شيخاً في الستين، قصير القامة، بطيئاً، ضخّم الوجه والرقبة، فلم يسع دأنش - اسم الشاب - إلا أن يشكره.

وأراد الرجل أن يبالغ في إكرامه فقال:

- اتحبّ يا بك أن تسمع غناء بلدياً؟

فسرّ دأنش وقال لنفسه: ليلة قمراء وخر وجوزة وغناء بلدي! يا لها من ليلة سعيدة حقاً.. وقال بحماس للرجل:

- نعم.. نعم.. أين المغني؟

فنادى الرجل:

- أبا سنة.. تعال.

وتقدّم من بين صفوف الجالسين شابّ طويل القامة عريض المنكبين، لم يجل نور القمر الشاحب قسماً وجهه، وأسدل ظلاً على أسنانه البالية.

دنا من صاحب القهوة وقال:

- نعم؟

فقال له الرجل:

- أقعد يا عمّ.. يريد البك أن يسمع غناءك.

وقال دأنش:

- نعم.. أسمعنا.. أسمعنا.

ثمّ التفت إلى صاحب القهوة وقال:

- يا معلّم.. هات «للأستاذ» جوزة.

وانبسطت أسارير الشابّ فرفع يده إلى رأسه تحيّة وترنّع جالساً على الأرض أمام البك، وسعل مرّات

يقرأ فيها الدهشة والترحاب، ولكنّه وجدها جامدة ثقيلة .

- ألا تذكر يا معلّم؟ .  
- فهزّ الرجل رأسه وقال:  
- بل أذكر يا بك.  
- سمعت خبراً عجباً مزعجاً . هل حقاً شقّ أبو سنة؟

- نعم شقّ الرجل التمس.  
- وكيف شقّ؟  
- أحبّ أن تعرف يا بك؟  
- طبعاً يا معلّم.  
فقال الرجل بصوت غليظ:  
- ألا تذكر الثروة التي رميته بها في تلك الليلة؟  
فهزّ الشاب رأسه بالإيجاب وقد داخله قلق للهجة الرجل، أمّا المعلم فاستطرد قائلاً:

- في تلك الليلة شاهدت وشاهد جميع الزبائن منظرًا عجيبًا، فعلى أثر ذهابك انتبذ أبو سنة مكانًا خاليًا وجلس ويده تمسك بالورقة الثمينة، ولم تكن عاداته أن يجلس صامتًا فهو إمّا أن يضاحك القوم أو يغتشم وينشدهم. أمّا في تلك الساعة الرهيبة فقد انكمش مضطربًا وجعل يختلس من الجالسين نظرات الريبة والقلق، ويمعن في الورقة نظرًا يتنازع الشكّ واليقين والذعر والأمل ودنوت منه وطلبت إليه أن يطلعي على الورقة، فأطلعتني عليها وهو قابض على طرفها، فعرفتُها، وأنتت على قولك له دهشًا متعجبًا، وقلت له: لقد أنتك ثروة واسعة. وكان محطّ الأنظار ومثار الاهتمام والمهمس، وكنت أتوقّع أن يغادر المكان سريعًا ولكنّه ظلّ ذاهلاً يتناوب على عينيه نور فرح خفيف والتماع ذعر مريب؛ ولعلّه كان في حيرة من أمره لا يدري أين يذهب، فهو آمن وسط الجميع ولكن آتى له الأمان إذا انفرد في الطريق أو آوى إلى كوخه في مدينة الصفائح؟ ومدينة الصفائح لا يعرف أهلها من العملة سوى الملايم ولا يغمض لها جفن إذا علمت أنّ بين حدودها ورقة من ذات العشرة جنيهات، فما العمل؟ بات خائفًا مذعورًا وأمسى الجميع أعداءه .

فتضاحك دانث وقال للرجل بصوت سمعه كثيرون تمّن حوله:

- جزاك الله على ما أسعدتني خيرًا . هذه ورقة من ذات العشرة جنيهات قد تراها بين يديك ثروة عظيمة وأراها أنا شيئًا تافهًا إلى ما أحسست به من سعادة . السلام عليكم يا سادة .

على أنه رأى منظرًا عجيبًا - زاد من مسرته - قبل أن يغادر القهوة: رأى أبا سنة يهبط واقفًا فزعًا، وسمع همسًا تتناقله الشفاه، ثمّ علا ضجيج، ثمّ ساد صمت ثقيل، وقد كُفّت كلّ يد عن اللعب وكلّ فم عن التدخين والتقت الأبصار جميعًا عند المغني السعيد.

ولبس طربوشه وسار إلى سيّارته وقلبه يكاد يطير من الفرح بعد أن نفّض عنه راكد السقم والملل، وعاد إلى المدينة، ثمّ ألته الحياة عن الصحراء وقهوة الصحراء وأبي سنة حتّى وجد نفسه فيها هذا المساء.

فما أشدّ ما نزل بالدنيا من تغيرًا اندثرت مدينة الصفائح العامرة . وفتك الحبل بعنق أبي سنة الجميل وحنجرتة الذهبية . يا للعجب! كان أبو سنة مطربًا فكيف صار قائلًا؟ ووجد رغبة صادقة في السؤال والتحرّي عنه، وكان صاحب القهوة جالسًا بمكانه المهدود عند مدخل المطعم. فأشار إليه وناداه قائلاً:  
«يا معلّم» وحدّق الرجل في مصدر الصوت وهو يضيق عينيه، ثمّ سار إليه، فلمّا دنا من صاحبه ورأى هيئته المميّزة ابتسمت أساريره وارتفعت يده إلى جبينه بالسلام. ولكن لم يبد عليه أنّه عرفه أو تذكّره، وطلب إليه دانث أن يجلس ثمّ قال له:

- أراك لا تذكرني يا معلّم.

فحدّجه الرجل بنظرة إمعان وارتباك وتمتم وعلى فمه العريض ابتسامة حائرة:

- أهلاً وسهلاً .

فأردف دانث:

- ألا تذكر تلك الليلة القمراء! . والمغني أبا سنة؟ . . وموآل بكره وبعده! كم مضى على تلك الليلة؟ . . ثمانية أشهر أو يزيد ألا تذكر؟

ونظر الرجل إليه نظرة غريبة، كان الشاب يتوقّع أن

بلدية بالأحياء الموبوءة، وأخذ الكثيرون يتحدثون عنه بلغة الأساطير والخرافات، فقالوا: إن الدنيا تبسم له، وإنها في إقبال عليه يترأى يوماً بعد يوم، فالأموال تتقاطر عليه من كل يد والنساء يتهافتن عليه من كل باب، وإنه بطر وطغى وفرض السطوة وجبى الأتاوة ونشر الرعب..

وكانت أخباراً غريبة يعزّ تصديقها، ولكنّها فتنت شباب مدينة الصفائح وأثارت الطمع في قلوبهم، فلحق به نفر منهم إلى مهاوي الفجور، ومدّوا إليه يد الأخوة، وقاسموه الخير والشر، فكانوا سواعده إلى الإثم والفجور والإرهاب.

ولبث تلك الحياة ما لبثت، ثم انقطعت على أسوأ حال، وقيل في ذلك إن الرجل رجع يوماً إلى مخدع عشيقه له على غير موعد، فوجدها بين يدي أحد أتباعه، فكبر عليه الأمر وأعياه الغضب فاستلّ خنجره وقتل به الاثنين، وقبض عليه وعلى عصابته، وامتدت يد القانون إلى مدينة الصفائح منبت ذلك الشر، وانتهى الأمر فشق أبو سنة، وسجن أتباعه، وهدمت المدينة المظلومة.. وسبحان من له الدوام يا بك..! كان دانش يصغي إلى محدّثه في ذهول، وسمعه يختم حديثه بلهجة مريّة ساخطة، فمرت في جسمه هزة عنيفة، ولم تعد أعصابه تحتمل الجلوس فقام منزعجاً، وغادر القهوة دون أن يلقي عليها نظرة وداع..

كان كثيلاً منقبض الصدر.

وكان يتذكّر تلك الليلة السعيدة حين غلبته نشوة الفرح فغمر بفيضه بعض القلوب، ويتعجب! كان ليلتها سعيداً فرحاً ينشد السعادة للجميع، فكيف انقلب غرضه عليه؟.. كيف خانته الهدف فدمّر مدينة وشرّد أهلها؟ وأسفاه!.

وسكت الرجل دقيقة ثم رمق الشاب بعينين أحرق الاحمرار أشفارهما واستطرد:

- وأغلب الظن أن القلق أثار أعصابه وحرّضه على الاستهتار، فما كان منه إلا أن قام بغتة، وقال بصوت مبحوح: «السلام عليكم يا إخوان» وغادر القهوة على عجل، ولكنه بدلاً من أن يسير إلى مدينة الصفائح حيث زوجه وأسرته انحرف إلى اليمين وأوسع الخطى حتّى ابتلعتة الظلمة. وأحدث انحرافه دهشة فتبعه أحد الرفاق وغاب زمناً يسيراً ثم كرّ راجعاً وهو يصيح ضاحكاً: «ألا تعلمون.. إن الرجل المعتوه يعدو بقوة كأنما يطارده مطارّد عنيف» وأحدثت عبارة الرجل عاصفة من الضحك والسحر واللحن، وهكذا غادرنا أبو سنة..

وذاع الخبر حتّى بلغ مدينة الصفائح، فجاءت أسرة المغنيّ على عجل، وتبعها قوم كثيرون ممن يشتغلون بجمع الأعقاب ولم الورق القذر وسألوا عن جلية الأمر. فلما أن صحّ بينهم الخبر انعقدت ألسنتهم من الدهشة، وظنّوا أن المغنيّ ذهب ليدفن كنزه في مكان أمين ففقدوا ينتظرون، وطال بهم الانتظار على غير جدوى، فجزع الأكثرون وتفرّقوا ولم يبق إلا أفراد أسرته، ولبثوا طويلاً يترقبون ولكنّ أبا سنة لم يعد.

وهنا غلب السعال على «المعلّم» فمنعه عن إتمام حديثه، وانتظر دانش حتّى ردّ إليه النفس واستحثّه بنظرة عينيه القلقتين فاستطرد الرجل:

- كلّاً لم يعد أبو سنة.. وما كان ليعود.. لقد هجر أسرته ومدينته وصحبه إلى الأبد. باعهم جميعاً بتلك الورقة السحرية، ولما طالت غيبته رثى بعض إخوانه لحال أسرته، فخرج في طلبه والبحث عنه. ومن ذلك اليوم ترامت إلينا أخبار عجيبة، فقليل إن المغنيّ التائه قادته قدماء إلى الأربكية، وإن بغياً وقعت في هواه وأوقعت في شركها، ثم قيل إنه اشتغل بالغناء في قهوة

## شَمَن السَّعَادَةِ

والسبب. وأصغى المدرّس إلى تلميذه بغير اهتمام ظاهر، وواساه بكلمة نافهة، ثم تناول الكُرَاسَة وبدأ عمله، ولم يطرُق الحديث مرّة أخرى ولا عادا إليه فيها أعقب ذلك من الأيام، حتّى كانت ساعة درس فافتحمت عليها الغرفة بغير استئذان شابّة حسناء في ريعان الشباب فوضع الأستاذ الكتاب على المكتب وقام واقفاً في تأدّب واحترام. وألقى على الزائرة نظرة حيّة، فزاعه ما رأى. لا من حسنها وشبابها فحسب. ولكن من انطلاقها على سجيّتها وعدم تكلفها، الأمر الذي أخرجها. بغير قصد طبعاً. عن الاحتشام، فكانت ترتدي (روب دي شامبر) من نسج حرير رقيق يكشف عن ذراعيها ونصفيّ ساقها وأعلى الصدر، وكان الأستاذ يظنّ أنّه لا يجوز لشابّة أن تبدو هكذا لعيني رجل غريب ولذلك غلبه الارتباك والاستحياء، وحسّ أنّها إحدى أخوات تلميذه المتزوجات، وتأكد حدسه حين رآها تمخّدها في رفق إلى ذقن توتو تداعبه، ثمّ جلست باطمئنان تجاه المدرّس وهي تخاطبه قائلة:

- تفضّل بالجلوس... هل يعجبك عمل توتو؟

فجلس أنيس وهو يقول:

- توتو مجتهد، وقد تقدّم في هذين الأسبوعين في الأجرومية والمطالعة، ولا ينقصه إلّا المثابرة على حفظ الكلمات.

فابتسمت ابتسامة حلوة وطلبت إليه أن يستمرّ في عمله، فعلم أنّها ترغب في أن تشهد درسه، فلم ير بداً من متابعة الدرس مثلعلّماً برّماً، واختلس منها نظرة فوجدها تنظر إليه بإمعان، فاعتقد أنّها تتابع كلامه. فرجّه انتباهه إلى ما يقول ليخرج صحيحاً عذّباً، ومرة

دخل الأستاذ الحجرة التي قاده إليها الخادم فلم يلق تلميذه الصغير في انتظاره كمألوف عادته، فجلس على كرسيّه يقلّب عينيه في الصور المعلّقة على حيطان الحجرة، وكانت المرّة الأولى التي ينتظر فيها تلميذه منذ جيء به له لعشرة أيّام خلّت، وأوشك أن يدعو الخادم حين سمع وقع أقدام خفيفة، ورأى الغلام مقبلاً عليه يتأبط كتبه وكُرَاسَتَه، فحدّجه بنظرة تعنيف ولكن راعه أن يرى عينيه محمّرتين من البكاء وذقنه الصغير يرتعش من التأثّر، فسأله باهتمام:

- مالك؟

وكأنّ السؤال أثار مكظوم شجون الغلام فاندفعت الدموع إلى مآقيه قال وهو يتحبّ:

- تيزة... ضربتني. وتشاجرت مع بابا وما زالا يتشاجران.

فسأله باقتضاب:

- من تيزة هذه؟

- امرأة بابا.

فدلّته هاتان الكلمتان على معانٍ كثيرة بغير حاجة إلى مزيد من السؤال، على أنّ الغلام تطوّل من نفسه فسرّد قصّته الصنيعة الحزينة على مدرّسه، قال: إنّ والدته ماتت لعهد ولادته، وإنّ أباه تزوّج من تيزة بعد ذلك بعام أو عامين، وإنّه يعيش بمفرده تحت رعايتها بعد أن تزوّج أخواته الأربع في الأعوام الثمانية التي أعقبت وفاة الأم، وإنّ أسباب الخلاف لا تنتهي بين تيزة وأبيه، فلن يزالا يصطدّمان ويشتجران، وأقسم أنّ الحق دائماً مع أبيه، وإنّه لا يشتبك معها حتّى يضطرّ إلى ذلك اضطراراً، ثمّ لا يلبث أن يكفّ عنها يائساً قانطاً، فلا تسكت هي عن الغضب والحق

أحسبني إلّا مجنونًا أو مسحورًا.

وفيما أعقب ذلك من أيام كان يذهب إلى بيت رضوان بك شغفًا بها قبل كل شيء، وأحسن أن تفضلها بحضور درسه هو السعادة الحقيقية التي تبذلها له الدنيا جميعًا، فاستلذها واستطابها وجنّ بها جنونًا. وجعلت الشابة الفاتنة تتوّد إليه، وتعرض لعينه المشغوفتين محاسنها العارية، وتداعبه بنظرات من عينها حلوة فاتنة، أو لفتات من لحظها قاتلة فاتكة. . والشاب يذهل عما حوله بسرعة جنونية. وذهب يومًا إلى بيت الحكمدار فوجد الشابة في الحجرة دون الغلام، فسأل عنه لا يحفل به في باطنه. فقالت له المرأة: «ذهب مع والده إلى شقيقته في الزمالك لأنها مريضة» فأحسن خيبة وحنقًا لأنه سيضطر إلى مغادرة البيت وقام واقفًا كثيرًا فسألت: «إلى أين؟» فأشار إلى الباب وقال: «سأعود من حيث أتيت» فصوّبت إلى عينيه نظرة ملتهبة وتمتمت بجرأة وهي تمزّ رأسها الصغير «كلّا..» ففحق قلبه وتدافعت أنفاسه ووقف حيالها كالسحور المذهول، ثم تبعها على الأثر لا يلوي على شيء.

وتخلّفت بعد ذلك عن حضور دروسه، ولكنّها سمّت له الأيام التي يستطيع أن يلقاها فيها في أمن من الرقباء. فاندفع في سبيله كميّاه الشلال الجارفة في فورة عاطفة مشبوبة تصمّ الأذان وتعمي البصر وتغرق هواجس النفس، مستكينًا لنوازع شهوته وجنونه. وإنّه ليغادر بيتها ذات أصيل من أصائل الحبّ إذ لاحت منه التفاتة بغير قصد إلى شرفة البيت المطلّة على الطريق، فرأى مشهدًا تجمّد له الدم في عروقه، وتصلّب شعر رأسه من الهول، فتعزّز وأوشك أن يقع على وجهه، وهرع إلى الإفريز تحت الشرفة كأنّما يداري نفسه؛ وتقدّم في خطى مضطربة لاهثًا حتّى بلغ منعطف الطريق وأراد أن يستوثق ممّا رأى فصوّب بصره في خوف وإشفاق نحو الشرفة، فرأى عند مدخلها رضوان بك برأسه الأصلع المستدير يجلس مطمئنًا إلى كرسيه في جلباب فضفاض يطالع جريدة ويهشّ الذباب عن وجهه بمذبة. . فأيس من تكذيب عينيه،

أخرى وقع نظره على جيب الروب وقد انفرج عن أعلى الصدر فزاغ بصره وارتدّ في اضطراب وذعر.

ولم تمكث الشابة طويلاً فحيته وانصرفت، فشيّعها بنظرة غريبة وقال لتوتو مستهفًا:

- أهى أحتك؟؟

فهزّ الغلام رأسه سلبيًا وقال بجفاء:

- تيزة.

فتمكّكت الشابّ الدهشة وتساءل متعجبًا:

- تيزة؟؟

فنظر الغلام إليه بإنكار وقال:

- نعم.

فنبالك أعصابه ولم ينبس بكلمة، ولكنّه لبث مشغولًا دائم التفكير، وفي أثناء عودته إلى مسكنه بشارع ماهر بالجيزة استدعى صورة والد توتو- كما رآه يوم قدّم إليه- بيدنه الترهّل وكرشه الكبير ورأسه الصغير المستدير الأصلع قد علا المشيب قذاله وقلق المنظار على أنفه الغليظ المجذور. ثمّ تمتم قائلًا: «الآن فهمت كل شيء... فرضوان بك حكمدار في المعاش جاوز السّتين وزوجته لا تعدو الرابعة والعشرين، وتوتو غلام بائس تضافرت عليه أسباب التنغيص الظاهرة والخفية. . ولكن لماذا تلتفتت بالغلام أمامي؟؟» ولم يعتور أفكاره سوء، لأنّ أنيس كان طالبًا- وإن كان أستاذًا لتوتو- طاهر النفس، على أنّه تأثر بحسنها وشبابها وخلاعتها غاية التأثير.

وفي الدرس التالي لم يكذب يطمئنّ إلى مقعده أمام تلميذه حتّى كانت (تيزة) ثالثتهما، وكانت كما رآها أوّل مرّة، جميلة خليعة مبتذلة في ثوبها ولم تلازم مكانها طول الوقت، فكانت تخرج لبعض الشؤون ثمّ تعود إلى جلستها. وفي مرّة عادت فجلست إلى جانبه دون أن يبدو عليها أنّها تعمّدت ذلك، فخال أنيس أنّ ساقها- لدنوها- تلامس ساقه. وعند انصرافه سلّمت عليه باليد، فراح يضوع من كفّه أريج معطر، ومضى مبلبل الفكر تضطرم في وجدانه يقظة عاطفية حارّة، وما زال مشغول البال يحاول أن يتفهّم محاضراته عبثًا حتّى ضرب مكتبه بقبضة يده وصاح جزعًا مكرويًا: «لا

ولفت قائلاً بفزع لا يوصف «رباه إنه هو هو.. نعم في جلاب البيت فكيف كان ذلك..؟ هل عاد إلى البيت أثناء وجوده مع زوجته؟ فكيف لم يشعر به؟ ولماذا لم يقصد إلى حجرة نومه ليبدل ثيابه؟ أم إنه كان في البيت قبل ذهابه هو إليه؟ فكيف استقبلته المرأة باطمئنان؟ وكيف لا تعلم بوجود زوجها في البيت؟ بل كيف لم يشعر به رب البيت مع أنه غادر المخدع في خطي مطمئنة غير عاذر؟.. لقد نجا من شر فادح.. وداخله إحساس الذي يستيقظ بغتة فيجد أنه قد اجتاز سوراً شاق العلو في نومه.. وتحايلت لعينه أشباح الإثم والجريمة والسجن، فعزم على أن يضرب بغرامه عرض الحائط متعظاً بالهاوية التي أوشك أن يتردى فيها. ولكنه لبث يذهب لإعطاء دروسه للغلام تونو، وكان يعاني آلام قلبه وجروح عواطفه ولكن المرأة لم تمهله حتى يتناسى ويتعزى، فعادت إلى اقتحام حجرة الدرس عليه وسألته بعينها في عتاب وكدر.. وحين انتهاء الدرس تبعته إلى الباب الخارجي وسألته بحدة: «لماذا لا تأتي؟» فقص عليها همسا ما رأيته عيناه آخر مرة، ونظر في وجهها ليمتحن أثر كلامه، فهاله ألا يرى الانزعاج الذي كان يتوقع. وسمعتها تقول بلهجتها الغاضبة: «كذبتك عينك..» فأكد لها أن ما رآه حتى بغير ريب، فاستهانت بتأكيديه وقالت له: إنها ستنتظره وترى ما هو فاعل.. فأبدى لها مخاوفه.. فقالت وقد نفذ صبرها: «أنت مخطئ واهم، فتعال ولا تتعب نفسك بالنظر إلى الشرفة.. تعال ولا تخف» فوعدها بالعودة لكي يتخلص من إلحاحها، ثم انطلق على نية ألا يعاود ذلك البيت إلى الأبد..

ولبت على ذلك أسبوعاً كاملاً. وفي مساء يوم الجمعة، وكان في الشقة - التي كان يشاركه فيها بعض الأقران - بمفرده، سمع طرقة على الباب، فمضى إليه وفتح، فرأى أمامه رضوان بك بجسمه المترهل متوكئاً على عصاه ذات المقبض العاجي. فسرت في جسده رعدة شديدة زلزلت قلبه زلزلاً عتيقاً، وثب إلى ذهنه خاطر سريع: إن المرأة ربما وشت به كذباً عند زوجها لتكيد له، وإنه جاء للتأديب والانتقام.. فاستولى عليه

اليأس والقنوط وصعد في وجه الرجل نظرة ارتباع ليقرأ ما تدل عليه أمارات وجهه وما ينذر به حضوره، فراه هادئاً مبتسماً كأنه جاء لسلام لا لقتال. ومد يده بالسلام، فمد الشاب يده، ولما يقف من دهبته.. ثم تنحى عن الباب وهو يقول مزدرداً ريقه: تفضل بالدخول يا سيدي.. فدخل البك وهو يتحدث قائلاً: إنه لا داعي للجلوس لأنه على عجل، وأنه جاء ليسأل عن صحته وعماً اعتاقه عن متابعة دروسه.. واعتذر أنيس بأن موعد امتحانه اقترب وأنه في حاجة إلى كل دقيقة من وقته.. ولكن البك لم يقتنع بحجته ورفض أن يقبل عذره، وطلب إليه برقة ألا يحرم تونو من دروسه. فعاود الشاب الاعتذار، وكثر الرجل إلى الإلحاح، ثم أدنى رأسه من أنيس وقال له: لا بد من حضورك، فهذا ضروري جداً لتونو.. تعال حينما تشاء وكيفما تشاء.. لا بد من حضورك، فهذا ضروري جداً.. وكان لا يحول بصره عن الشاب، فوجد في نظراته وتبرأت صوته ما أثار فضوله ودهشته.. أما الشيخ، فصمت لحظة متردداً، ثم استدرك قائلاً: هذا ضروري لتونو ولسعادتني ولسعادة الأسرة.. بل لسعادتنا جميعاً.. فأصغى لي، لا بد من حضورك..»

واحتقن وجهه بالدم، وارتعشت شفته السفلى وذقنه كالطفل إذا أوشك أن يفحم بالبكاء، ثم تحول عنه.. ومضى دون أن ينتظر موافقة الشاب، ولبت في مكانه متفكراً مذهولاً تتجاذبه شتى العواطف..

وكان الأسبوع الذي أعقب هذه الزيارة معترك أزمة نفسية عنيفة أخذت بتلابيب أنيس، فتقاذفته الغرائز والشهوات، وتجاذبه نوازع اللذة ومغريات السلامة والطمأنينة، وكان ذا عزيمة وسريرة طاهرة وقلب نقي، فأثر السلامة. فلما استدار الأسبوع أحسن قواه تناسك وتشتد، فأطرى إرادته وجعل يتناسى بيت رضوان بك السيئ الحظ وزوجته الحسنة القلقة الغضوب، ويودع ذاك العهد زاوية من زوايا الذكريات الغريبة المنسية.. وانتصف مايو، فقصص أنيس يوماً إلى الكلية ليسأل عن موعد ظهور نتيجة الامتحان، ولما بلغت

بالبؤساء، فأنت تجهل الدور الذي تعلّمه لك الأقدار غداً. واذكر أنّ أغرب تصرّفات الإنسان لا تعوزها أسباب تبرّرها: فصن لسانك عن الأذى وحاول ما استطعت أن تتعظ بما يصادفك من العبر- كتب الله لك حظّاً سعيداً. .  
ورفع يده بالسلام وسار في طريقه منتصب القامة يدلّ مظهره على أنّه رجل عسكريّ بغير جدال.

قدماه باب مقهى المثلث شعر بإنسان يعترض سبيله بعصاه كالمداعب، ورفع رأسه إليه، فرأى رضوان بك يغادر المقهى يسبقه أحد أصدقائه إلى سيارة تنتظر عن كسب، فارتبك ورفع يده بالتحية، وابتسم البك ثمّ سأله عن حاله، وتحدّث معه قليلاً دون أن يعرّج إلى الذكريات القديمة. وحين همّ بمفارقه غير لهجته وقال بصوت دلّ على الضراعة والمضض:  
- أيّها الشاب. . إياك والسخرية من الناس أو الهزء

## حلم ساعة

أفكاره وتأملاته في لثة ويسر، وصادف بلوغه مدخل المكتبة الفرنسية بروز فتاة منها تندفع فيها يشبه العدو، فتوقّف بحذر ووجل وتراجع خطوة على عجل وتوقّفت مثله وتراجعت، والتفت نحوها فرأها ترمقه بنظرة ارتباك واعتذار، ثم مضت في سبيلها حتى إذا ما حاذته عطفت رأسها إليه بغتة وقد بدا على وجهها التساؤل والخيبة، وكأنّها تحاول تذكّره ولا تدري كيف، ثم أدركت بأنّ نظرها إليه هكذا من الغرابة فأدارت رأسها عنه وما روت غلّة، وقصّدت إلى سيّارة تنتظر إلى جانب الإفريز، فأدرك من وهلة أنّ صورته اشتبهت عليها، وعلت لذلك فمه ابتسامة. وأراد أن يستوثق من رأيه فالقى بنظرة إلى السيّارة - وكان جاوزها بأمتار - فرأها تتابعه بنظرة تعلو وجهها أي الخيرة والغرابة، فغمزته موجة انفعال مضطرب لذيذ، وتعرّ بأذيال الارتباك والخيبة، ثم تحرّكت السيّارة مندفعة في الأنحاء الذي يسير فيه وما تزال صاحبتها ترنو إليه خلل زجاج النافذة بنظرة تحيّر بماذا يصفها.. ودّيّة؟.. حنونة؟.. حتى باعدت بينها المسافة..

وعجب الأستاذ أيّما عجب، على أنّ عجيبة كان شيئاً يسيراً إلى ما أحسّ به ساعتئذٍ من ثورة الوجدان، وكانت الفتاة شابة حسناء مدججة الخلق، مرتوية الساقين، فاتنة القسائم، يزيّن وجهها عينا زرقاوان لنظرتها وقع السحر في الحواسّ والقلب والأعصاب. فانبعث في قلبه خفقان واضطراب، وشعر بنشوة رائعة. ثمّ لسعته حسرة اليمّة، حسرة محروم طال عهده بالحرمان. وكانت حياته في الواقع خالية من الحبّ مثل كهف رطب لا تزوره الشمس لأنّ تقانيه في طلب العلم لم يدعّ له وقتاً لشيء سواه، ولعيبين

من عجب الأمور أنّا قد نجيا حياة سعيدة نخالها طويلة في حلم قصير الأجل، وما نعتّم أن تطرق اليقظة مغلق الأجفان فيستقل النائم من عالم الأحلام المخدّرة إلى دنيا حقائق شديدة الجفاء، وما يجد يده قابضة إلّا على هواء. على هذا المثال مضى ذلك اليوم من حياته، كان يوماً أو بضع يوم ولكنّ قلبه ذاق فيه سعادة وغبطة وحلّق في آفاق بعيدة من أحلام المني وخفق خفقة فرح سهاويّ جاوز به عالم الزمان والمكان، ثمّ أدركته يقظة منكرة اغتصبته من عالمه الحنون السعيد على نحو بالغ في القسوة والوحشة.. كيف كان ذلك؟..

كان اليوم السعيد الخميس، وكان الأستاذ بهاء الدين علماً عائداً من سماع محاضرة علميّة في الجمعية الجغرافيّة الملكيّة عن الغدد الصّماء، وكان يسير في ميدان الإسماعيليّة متفكّراً في تلك الأدوات الإنسانيّة العجيبة، المسيطرة على الفرد أيّما تسيطر، وكيف يزعم العلماء أنّهم بالتحكّم في إفرازاتها يستطيعون أن يحوّلوا الطّيب إلى شرّير والشرّير إلى طيّب، والشاعر إلى رياضيّ والرياضيّ إلى شاعر. وكيف يفسّرون أخيلة جيّة وأحلام شيلي بعصاراتها المتدفّقة في الدم!.. وكان رأسه لا يكاد يخلو من أمثال هذه الأفكار فهي مائة عمله ومائة حياته معاً، وفي الواقع ينذر أن نجد بين شباب المعידين بكليّة العلوم من يناظر الأستاذ بهاء الدين في حبّه العلم وحرصه على تحصيله.

وكأنّما أرقه القعود والسكون - في أثناء إلقاء المحاضرة - فاحسّ بارتياح إلى المشي، واعتزم السير على الأقدام إلى شارع فؤاد الأوّل، وانجّه إلى شارع قصر النيل في خطى وثيلة يدخّن لفاقة من التبغ ويمتدّ



السينا، وفتح بابها ونزلت منها سيّدة بدينة بادية النعمة والثراء تبعتها على الأثر فتاة حسناء انخلع لرؤيتها قلبه في صدره، وأحسن بفرح عجيب تمازجه دهشة فلم تتحوّل عنها عيناه، وفاته في ذهوله أن يرى ضابط بوليس شابًا يبرز من الباب الثاني للسيّارة ويدور بسرعة ويلحق بالسيّدة والفتاة، وانعطف رأس الفتاة إليه، وكانت فتاته دون سواها كأنما جذبتها قوّة بصره المشوق، والتقت عيناهما، ولاح على عيّاها الجميل الاهتمام والدهشة، ورقت نظرتها بالحنان الذي حيّره وفته منذ حين، فتبعهم في خطى مضطربة مليًا نداء قوّة عاتية، وصعدت الفتاة مع الصاعدين إلى الطابق الثاني، فوقف في الردهة يتابعها بعينه، ورأها قبل أن يعيها عن ناظره منعطف السلم تلقي عليه نظرة أخرى.. يا لها من نظرة!.. فاستخفه طرب جنونيّ عذب لا يتأتّى لغير الموسيقى وصفه. واندفع إلى الداخل لا يلوي على شيء، فلما اطمأنّ به مقعده مضى يصعد نظره في الألواح والبنابر باحثًا عن الوجه الحبيب ذي النظرة الفاتنة الحنون، حتّى وجد ضالّته في البنوار رقم ٣، وكانت تتقدّم السيّدة بقامتها الهيفاء، والتقت نظرتها بوجهه هذه المرّة أيضًا، وكأنّها تتوقّع أن تجده مجّدًا في العثور عليها فارتسمت على شفّتها القرمزيّتين شبه ابتسامة أضواء لها وجهها بنور بهي، وجلست وهي ترنو إليه بعينها فبدت وهي تنحني قليلًا وكأنّها تحنو عليه، وأنقذه من سعادته التي لا تحتمل انطفاء الأنوار وانهاك الشاشة في عرض أخبار الدنيا..

كان قلّقًا مجنونًا إلى غير حدّ، فرحًا سعيدًا بغير حساب، يشعر برغبة عنيفة لا يدري ما كنهها إلى القتال أو الرقص أو الصياح أو البكاء، وتندّت أهدابه بدمعة أحسن بتفجّرهما من أضلعه. كان بمعنى آخر عاشقًا يتلقّى قلبه لأول مرّة أمواج الحبّ الكهربائيّة الغامضة غموض الأثير، وأغمض عينيه في الظلام وهو يتنهد في ارتياح وغبطة مستسلمًا للذة الأحلام، وتساءل في استسلامه السعيد ترى ما الذي ساقه هذا المساء إلى السينا ولم يكن أعدّ نفسه لذلك؟!.. إنّ كلّ شيء

طبيعيّين كبرا في وهمه واشتدّا على نفسه، إذ كان يترامى إلى أذنيه أنّه «ثقل الدم»، وكان إلى هذا عيًّا حصورًا لا يكاد يبين، فلم يكن في وسعه قطّ أن يحسن خطاب فتاة فضلًا عن أن يغازلها، ودعاه هذا وذاك إلى النفور من الحسان وإلى ما يشبه الخوف منه، وحزّ لذلك الألم في نفسه، وسكب في قلبه امتعاضًا ومرارة، فتبدّى عليه الجفاء والوحشة، واضطرب عهدًا طويلًا بالأسا بين الرغبة في الحبّ والخوف من المرأة، والتشوّق إلى النساء والحقد عليهنّ، فكانت تلك النظرة الحلوة أول نسمة تهبّ عليه من دنيا الوجدان فترتوي بها نفسه الظلمة ويندى بها قلبه الجافّ، ولكّنه ارتواء كالظما وندى أشدّ حرقة من الجفاف، فتحيّر وتعجّب وتساءل وهو يقلب كفيه ترى ما خطب هذه الفتاة؟!.. وما معنى هذه النظرة الفاتنة التي أذابت الوجد والهيام والحنوّ المتجمّد في قرارة نفسه؟!.. إنّها لا يعرفها على وجه اليقين ولا يذكر أنّه رآها من قبل، وهي بغير رب لا تعرفه أيضًا فلا هي قريبة ولا جارة ولا طالبة بكلّيّة العلوم. لعلّه التبس عليها شبهه، ولكن كيف طال بها الشكّ تلك المدة السعيدة التي أدامت فيها النظر إليه؟!.. ومضى يتفكّر تنقله الحيرة من فرض إلى فرض وقد انشغل عن الغدد والكيمياء جميعًا.

وكان في عزمه أول الأمر أن يعود إلى بيته، فيستمع إلى المذياع ساعة ويطلع ساعة قبل النوم، ولكن عافت نفسه ذلك. ومضى يضرب في الأرض على غير هدئ تاركًا محرّك خياله للخواطر السعيدة والأحلام اللذيذة والأوهام المخدّرة حتّى أعباه التعب وتعبناه المشي، وكان سرى عنه بعض الشيء وأخذ يفيق من أثر النظر فأنجّه إلى قهوة روجينا. وجالس بعض صحبه حتّى شارفت الساعة التاسعة، ثمّ خطر له أن يقضي سهرة المساء في سينا رويال - وكان قليلًا ما يجذبه مزاجه إلى ذلك - فسار بلا تردّد إلى السينا وقطع التذكرة، وكان يكره الانتظار جالسًا فدخل إلى الصور المعلقة بالردهة الخارجية ولقّب فيها عينيه، ثمّ أدارها ظهره ملائًا وأرسل بناظره إلى مدخل السينا يشاهد جهور الداخلين، فرأى سيّارة فخمة تقف أمام مدخل

لماذا تدلّ أمّها عليه؟! .. على أنّ عجيبة ازداد إلى غير حدٍّ لأنّه رآها تعطف رأسها إلى الوراء وتحدث شخصاً لا يرى سوى أعلى طربوشه. ومال هذا الشخص إلى الأمام ونظر صوبه وكان ضابط البوليس.

فلم يستطع أن يديم النظر إلى أعلى وأدار رأسه إلى الأمام، ولكنّه تذكّر هذا الضابط وذكر أنّه كان من زملاء فرقته في الحديويّة وأنّه يدعى عليّ سالم وأنّه كان مبرّزاً في الألعاب الرياضيّة. وظنّ أنّه أخو الفتاة ولكنّه تحيّر في فهم الدواعي التي بعثتها إلى توجيه الانتباه إليه بكلّ جسارة وفيما عسى أن حلّلتها به عنه! .. وغلبه الشوق وحبّ الاستطلاع فرفع بصره إلى البنوار مرّة أخرى فرأى الوجوه الثلاثة محدّقة فيه. وخيّل إليه أنّ زميله القديم يحبّيه فلم يصدّق بصره وظلّ جامداً ولا يتحرّك، فأعاد الضابط تحيّته برفع يده إلى رأسه وردّ عليه الأستاذ التحيّة مرتبكاً، وشاهده يدعو أن يصعد إليه فخفق قلبه خفقة عنيفة، وقام واقفاً وقد لفته الدهشة والارتباك وغادر المكان في زهول شديد. وصعد السلم والتقى بصاحبه عند مدخل البنوار واستقبله هذا استقبلاً ودّيّاً وشدّ على يده بحرارة. ولعلّه فعل ذلك ليطرد عنه الدهشة والارتباك. ثمّ أوسع له وهو يقول هامساً:

- تعال أقدمك إلى أهلي.

ووجد نفسه في البنوار أمام السيّد والفتاة الجميلة، وقال هو يقدّمها له وهو يشير بيده:

- حرم الأمير الای محمد بك جبر، الأنسة زينب كريمته وخطيبتي!

ثمّ التفت إليه وقدمه لها مكتفياً بذكر اسمه وزمالاته القديمة لأنّه كان يجهل حاضره، ودوّت كلمة «خطيبتي» في أذنيه دويّاً مزعجاً أطفأ نشوة الفرح في حواسّه جميعاً وسكب مكانها خيبة مرّة، فجلس كما طلب إليه ذاهلاً مرتبكاً قانطاً عاجزاً العجز كلّه عن حصر انتباهه فيما حوله، وكانت السيّد ترحّب به وتشارك الضابط في التودّد إليه ومجاملته، ولكنّه لم يدر ممّا قال شيئاً، واكتفى قهراً بانتراع ابتسامة مغتصبة من شفثيه يرّد بها عليها ردّاً صامتاً كثيراً، وكان يتخبط في حيرة عمياء لا

يبدو وكأنّه يؤكّد أنّ القدر يرسم خطّة رائعة بدأها في شارع قصر النيل وما زال ينسج فصولها في سينما رويال، نعم إنّه لم يرها عبثاً، ولم تلتق عيناهما مصادفة كلاً ولم يأت إلى السينما اتّفاقاً، ولكنّ الحبّ يخلق الحوادث والظروف، وآلاً فيما معنى هذه الحلقة المتقنة؟ وما معنى هذه النظرة الخنونة العذبة الذي دلّ تكرارها على أنّها مغرضة، أليس هذا الذي يسمّونه الحبّ من أوّل نظرة؟! .. بلى هو هو.. ويشهد عليه قلبه ومشاعره ونظرتها الفاتنة النافذة التي لن ينمحي أثرها من نفسه. كيف حدث هذا؟! .. هل كان القدر في قسوته عليه وازوراره عنه يدخّر له هذه المفاجأة السعيدة وهو لا يدري؟! .. وهل وجدت أخيراً من لا تستثقل دمه كما يستثقله كثير من الناس؟! .. ومن تعرّف نفسه بالنظرة المهمة لا بتغريب الألفاظ وسحر البيان؟! .. كم سخط على الدنيا ظلماً، وكم أدان القدر جهلاً.. والساعة الساعة ينتهي الجفاء وتبتدّد الوحشة، ويندى قلبه المحروم ويرطب حلقة اليباس، وفكّر الأستاذ بهاء الدين إلى هذا في أمور غاية في الأهميّة والجدّ. تناولت حاضره ومستقبله، ولم يفته أن يحسب حساب الوسيلة إلى التعرّف والخطبة، ولا فاته. في تلك الساعة - أن يقدّر المهر ويحدّد تاريخاً للزواج السعيد؟! ..

ولم يحسّ بالوقت كالسعداء. وجعل يتأمّل بعين خيّلته الوجه النضير والنظرة المضلّة للقلوب، مستسلماً للأحلام استسلام الحزّان إلى برد النسيم، حتّى ظنّ أنّ أشهى الأمانى دانيّاً لا يكلفه جنيتها أن يمدّ يده فيقطفها في سرّ واطمئنان.

وانتهت الشاشة من عرض فصولها الأولى وأضيئت الأنوار، ففتح عينيه وكأنّه يصحو من نوم سعيد، وصعد رأسه إلى البنوار رقم ٣ فرأى فتاة في أجمل صورة ترشقه بنظراتها الفاتنة كأنما كانت تنتظر انقشاع الظلمة مثله، وراها تميل برأسها نحو السيّد البدينة - التي تدلّ الظواهر على أنّها أمّها - وتهمس في أذنها، ثمّ شاهد السيّد تنظر إلى أسفل باحثة بعينها عن ضالّة حتّى استقرّتا عليه! .. فارتبك وتعجّب وتساءل ترى

صاحبه وكان يدرك ما يقوم بنفسه من الدهشة والانزعاج فقال له وهو يشدّ على يده مودّعًا:

- أنا أسف جدًا على ما أحدثته دعوتي لك من الارتباك والإزعاج، وحقيقة المسألة أنّك تشبه شبهاً عجيباً ابناً شاباً كان، فقدته الأسرة منذ عامين، ولعلّ هذا يفسّر لك كلّ شيء أيّها الصديق...

وهبط السلم في خطى بطيئة جدًا، وكان يتوقّف كلّ درجتين ويتأمل فيما أمامه بعينين لا تريان شيئاً، وعلت شفّته الشاحبتين ابتسامة هازئة مريّة، وقد بدا له كلّ شيء كريهاً كثيباً تعافه النفس...

يدري لماذا دلّت الفتاة عليه، ولا كيف دعاها زميله، ولا لأيّ سبب عرفه بها وعرفها به... ولاحث منه نظرة إلى الفتاة فوجدها تبسم إليه ابتسامة حزينة فشعر بامتعاض، ووجّه عينيه إلى أمّها كأنّها يفرّ منها فراراً فرأى المرأة ترنو إليه بعينين مغرورتين بالدموع، فازدادت دهشته وبدأ عليه الانزعاج والتفت إلى صاحبه متسائلاً متحيراً، ودقّ الجرس في تلك اللحظة منذراً بإطفاء الأنوار فقام الشاب واقفاً وأحنى رأسه تحيةً، ودعته السيّدة إلى زيارة البيت فوعدها قائلاً:

- إن شاء الله.

وهو لا يعني ما يقول. وغادر البنوار، ولحق به

## الشَّـمَن

الحسناء . سارت رأسًا إلى صدارة المتجر الأنيق، وأقبل نحوها البائع بترحيب، فطلبت إليه حاجتها، وساعدها البضة تشير إلى الرف البلوري رصت عليه الزجاجات الفاخرة، فأدركتها ووقفت إلى جانبها ومضت تقلب عينيها في الرفوف اللالاءة، وأتى البائع بزجاجة زرقاء بديعة الصورة فتناولتها الحسناء ورنّت إليه بعينين متسائلتين، فقال الرجل بأدب وإجلال «عشرون جنيهاً يا هانم» فأومأت برأسها دلالة على الارتياح والموافقة، فاستردّ الرجل الزجاجة، وكتب لها قائمة بثمنها وقدمها لها، فأخذتها ومضت بها إلى صندوق الدفع . وخفق قلب الأخرى بعنف لسهاج الرقم، فكانت كمن يسمع اسمًا قديمًا رهيبًا يشير في النفس كوامن الشجن ويستدعي ذكرى قائمة موجعة الصدى . . رباه! . . أيّ دور لعبه في حياتها هذا الرقم المشؤوم الذي لا تعرف الحسناء عنه إلّا أنّه ثمن زجاجة رائحة عطريّة فريدة! . . لو وجد يومًا في يدها لكان الحال غير الحال والحياة غير الحياة وكلفاها شراً فظيماً، وهو ليس بالطلب العزيز يشتري بالمهج، ألم تر كيف يُبذل عن طيب خاطر ثمنًا لرائحة زكية يتبخّر معها من ثنايا المناديل ومفارق الشعور؟! . . ومع ذلك فآه لو وجدته قبل عشرة أعوام؟! . . ولكّنه لم يوجد ونخاب مسعاها وردّت راحتها الممدودة، سدّت في وجهها السبل وضيق عليها الخناق، فتجرّعت غصص القنوط ثمّ هوت وقذّفت بها إلى دنيا أخرى منكّرة . وهكذا الدنيا قاسية لا قلب لها، والناس لا يرحون، والحياة أشدّ وحشية من البحر الهائج والنار المضرمّة، فقد لا يعلم الإنسان إذا أشرف على الغرق أن يسبح وراءه السابحون، أو إذا اشتعلت النار في أطرافه أن يهرع

أخذت زيتنها وسارت على غير هدئ، كيفما ساقتها قدماها وغيرها من النساء لا يتصدّين للمرأة حتّى يفرغن من المهامّ والواجبات، وغيرها من البشر لا يسير على غير هدئ عادة إلّا إذا ركنّ إلى اللهو والعبث واستقبل الراحة والفراغ.

هي بخلاف هؤلاء وأولئك، إذا توثّبت للعمل وانبرت للواجب أخذت زيتنها وسارت على غير هدئ! . . وقريباً من الطوار الذي تسير عليه رأت بمؤخر عينها سيّارة تدنو ثمّ تقف على بعد أذرع إلى الأمام، سيّارة كبيرة بحجم الحجرة التي تنام فيها إذا رقدت بمفردها، وقد غادرها سائق زنجيّ مارد وفتح الباب ووقف جانباً كالتمثال، فبرزت حسناء هي الجمال وهي الجلال، فما يمنع من الاندفاع نحوها إلّا أنّ نورها يغشي العيون، كلسان من لهب بهيّ المقاتن ساحر الألوان ولكن هيهات أن يمرّ إنسان على لمسه، فخطفت بصرها، وسرعان ما دبّت اليقظة في عينيها الساهمتين ولاحت فيها نظرة تفحص واهتمام، وفي لمح البصر أقرّت لها قهراً بالتفوّق المطلق وغلبها الإعجاب على أمرها، ثمّ تحفّزت للنقد بغلّ فما عثمت أن باءت بمرارة الحية والسخط. وتهادت الحسناء إلى المحلّ الذي وقفت تجاهه السيّارة فخطر لها أن تتبعها، ولم تر في ذلك من بأس، فسيّان أن تمضي إلى الأمام أو أن تعرج إلى اليسار، فوجدت نفسها في محلّ رائع أنيق تطلّعها من جوانبه وأركانها زجاجات الروائح العطريّة مختلفة ألوانها وأشكالها، فسارت على مهل في جراءة وثبات فمئذ أمد بعيد تناسّت أنّ في الدنيا شيئاً يخاف غير الشرطيّ، وتظاهرت بأنّها تتفحص المعروضات النفيسة في أقسام المحلّ، وتبعّت في الحقيقة الفاتنة

جاءها الخاطر مبالغاً بغير إصرار سابق ولا نية مبيتة، فسرعان ما تملكها بقوة شيطانية واستولى على عقلها وإرادتها، فكأنها ما تبعت المرأة إلا لتحقيقه معها كلفها ذلك من ثمن، ولم تدر لذلك سبباً واضحاً ولا هدفت إلى غاية ظاهرة ولكنّها كانت كثيراً ما تأتي بأفعال صيانية وأحياناً جنونية بغير مقاومة ولا فطنة لبواعثها، وكان الاستهتار من سجايها الراسخة التي اكتسبتها في أعوامها العشرة الأخيرة، فلم يكن شيء يوقفها عند حدّ أو يعطف بها عن شهوة، فاندفعت إلى جانب السيّد المتجهة نحو الباب كأنما تريد أن تسبقها إليه واحتكت بها وهي تلوح بذراعتها فصدمت يد الأخرى فأفلتت اللقطة الثمينة وسقطت على الأرض. ولم تلتفت الحسنة إليها ولكنّها انحنت على عجل نحو الزجاجاة، والأخرى تنظر إليها متسائلة هل نالت المرام؟! وجاءها الجواب سريعاً، أو جاء أنفها على الأصح، قبل أن تلمس أنامل الحسنة حملها النفيس، فتصاعد شذاً طيب، جماله لا يوصف، عطر الجوّ، ونفذ إلى الحواس والروح، فانتشت ثملة، كأنه بثّ فيها غراماً ووفاءً وسحرَ هوّياً. واعتدلت السيّد وقد تضرّج وجهها بالاحمرار وصوّت نحو الأخرى نظرة ثابتة، ولبثت هذه في مكانها جامدة الملامح ولكنّها راضية النفس مستسلمة كأنها تقول بأفصح لسان «افعلوا بي ما شئتم»، وانتظرت السيّد أن ترتبك الأخرى أو تعتذر، ولكنّها ثابتة على جهودها وصمتها ورنّت إليها بعينين هادئتين مستسلمتين، ومّرت لحظة دقيقة فتساءلت ترى هل تساق إلى القسم؟.. هل تشبّك في شجار مع السيّد أو سائق سيّارتها أو باعة المتجر؟.. ولكنّ شيئاً من ذلك لم يحدث، فقد تغبّر وجه الحسنة، فانبسطت أساريرها، ثم أغرقت في الضحك.. إنّ أفدح المواقف أدعاها للضحك، فقد أضحكها أن تحسر الزجاجاة النفيسة في غمضة عين، وأن ترى تلك المرأة البلهاء وقد أذهلتها جريعتها ورباطة جاشها، وكان صاحب المتجر يهرول نحوها يلوح في وجهه الاهتمام، فهزّت منكبيها استهانة وتحوّلت عن البلهاء وعادت القهقري إلى صدارة المحل

إليه ذوو النجدة، أمّا في معترك الحياة فالضحايا لا عداد لهم، تعركهم الرحي وإخوانهم سكارى بأطباعهم ومشاعلهم، فلکم استصرخت بغير طائل، بل كانت ملهاة للنظارة، ثم بعد ذلك متعة للمتمتّعين، والدنيا تضيق بمن يشهدون صيدهم بين الضحايا البائسة شردها الجوع والحرمان والأمراض. فوجدت نفسها في دنيا الشذوذ والعناد حيث تقتل الضحايا من كلّ نوع، ضحايا الطموح الكاذب والشهوات البهيمية والفقر المذلّ للأعناق، عالم البؤس حيث لا عودة لمن مضى إليه ولا إفاقة لمن نهل من سمّه، قدراته لا تمحي فليس على القدر إلا المزيد من القذارة والتمرّغ في التراب. وكيف صارت بعد ذلك؟!.. وارحمتا.. فؤاداً قاسياً وقلباً كافراً ولساناً دنساً ونفساً تنضج بالخبث واللؤم والكراهية، على وجهها الطلاء وفي جسمها المرض وملء روحها الشرّ ومن مراتعها السجون..

مرّت صور الذكريات بمخيلتها مرّاً سريعاً مضطرباً. لم يستغرق زمناً يذكر، فاختلط في وعيها أشتاتاً من ذكريات متناثرة ومشاعر مهوّشة أسبغت على خيالها لوناً أسود، فشعرت بامتعاظ وانكسار. وكانت عيناها لا تزالان عالقتين بالحسنة فأجمعت نحوها في خطى متناقلة غير ملقبة بالأل إلى البائع وقد وقف قبالتها ينتظر أوامرها!.. اندفعت نحوها برغبة قويّة وجعلت تحدّث نفسها كالهاذية وعشرون جنبها.. كم كان مقداراً جسيماً.. وكما علمت فيما بعد أنّه شيء زهيد في تناول يدي، وما أنا ذا أراه ولا قيمة له. أمّا هي فامرأة حسنة.. ولكن لا يجوز أن توردها نفسها المهالك؟.. كما أوردتني نفسي أنا وقطيع البائسات؟.. هذا جائز.. ولكن ما هو سمّ لئناس قد يكون غذاء لآخرين، وما يوجب علينا الشقاء قد يتيح ألواناً من اللذات والسعادة؟.. وأوشكت أن تلاصقها، وتحوّلت الحسنة إلى شبّاك التسليم فتأثرت، وأعطاها الرجل الزجاجاة ملفوفة، ورأت الأخرى اللقطة فثارت ثائرتها وخطر لها أن ترمي بها إلى الأرض مهشمة.

مقطبة الجبين زائغة البصر، إلا أنها لم تدم على ذلك طويلاً فما لبثت أن عادت إلى رشدها، خافت أن تبدو في هيئة قبيحة تنقر الأعين، فطاردت همومها الطارئة، وألقت نظرة على ما حولها، ثم أخذت تسير الهوينى متبينة الأعطاف وقد ابتسمت أساريرها . . .

دون أن تنبس بكلمة، واندفعت المرأة نحو الباب كأنما تفرّ من المكان، ولما بلغت الطريق نظرت وراءها فرأت الأخرى بمكانها الذي أدركتها فيه حين تبعنها أول مرة، فتساءلت ذاهلة «رباه هل تتابع زجاجة أخرى؟!» ولكنها لم تقف بل أسلمت قيادها لقدميها، وكانت فريسة انفعال طاغٍ تولّاها بغتة، فمضت

## نكت الأمومة

والأصيل ثمّ المساء . . واه . .  
فتتهد الشاب تنهدة هادئة لا كتتهبتها الحارة وقال :  
- سنعود إلى أسوان في الشتاء القادم . أمّا الغد فإلى  
عش غرامنا المعهود في شارع سليمان باشا .  
- هيهات أن تعوّضنا هذه الساعات التي نتهبها  
انتهاّباً من ذلك الشهر السعيد الذي كنّا فيه جسماً  
واحدًا وروحًا واحدة .  
وحاول أن يجيئها بمثل حماسها، ولكن خذلته نفسه  
الهادئة الملولة فقعن بقوله :  
- صدقت يا عزيزي .  
ثمّ قام إلى النافذة الأخرى ففتحها، وكان الفطار  
قد بلغ المحطة وأخذ يرسل صفيره المدوي في جوفها  
العظيم، فأرسل بناظرهما إلى إفريز الاستقبال . وكان  
مزدهجًا بالجمهور . وسمعت الأستاذ يقول :  
- ها هم أولاء . . زوجك وحياة ومدحت .  
فقلقت عينها بين الرءوس المشرّبة حتّى اطمأنتا إلى  
رأس حياة الذهبيّ فرق قلبها حنانًا وتحولت عن النافذة  
وانطلقت تعدو خارجة والأستاذ في أثرها، وعلى  
الإفريز هرع إليها مدحت وحياة وهما يصيحان : «ماما»  
فتعانقا عناقًا حارًّا، ولما تخلّصت منها رأت زوجها  
الشيخ وهو في عبائه الفاخرة، وطربوشه مائل إلى  
الخلف ييدي عن شعره الخفيف، فجمدت عينها  
وتقدّمت إليه ومدّت يدها فسلم عليها واجمًا ووضع يده  
أيضًا في يد الأستاذ عاصم . . وساروا جميعًا إلى  
الخارج، الزوج في المقدّمة وخلفه الزوجة بين مدحت  
وحياة ومن وراء الجميع الأستاذ . . واستقلّوا السيارة  
التي انطلقت بهم في طريق الزمالك . .  
وجلس الزوج وزوجه وحياة في ناحية وجلس في

عندما دخل قطار الصعيد يهْدئ من سرعته كان نور  
الفجر الأزرق الحالم قد اكتسى بحلّة فضيّة من ضوء  
الصباح المنير، وقد فتحت السيّدة روحية هانم عينها  
مع بزوغ أوّل شعاع من أشعة الشمس، وليّت لحظة  
مستسلمة لتراخي النوم، ثمّ اعتدلت في جلستها في  
الصالون وأدارت عينها الزرقاوين الفاتنتين في أنحاء  
الصالون حتّى استقرّتا على وجه الأستاذ عاصم الذي  
كان يغطّ في نوم عميق، فلاححت فيهما نظرة حبّ  
وحنان، وكان من الضروريّ إيقاظه لدنو القطار من  
محطة مصر إلّا أنّها لم توقظه قبل أن تقوم إلى المرأة  
الصغيرة الموضوعة بين صورة الكرنك وأجا ممنون،  
فتسوّي شعر رأسها وتمسح خدّتها وجيدها بالبودرة  
المعطرة . وتنبّه النائم على لمس أناملها ذات الأضافر  
الأهرامية الحمراء . . وكان أوّل ما مسّ إحساسه في  
عالم اليقظة رائحة أنفاسها الذكيّة وهي تطبيع على  
شفتيه قبلة شهية . . وفتحت النافذة وأطلّت منها  
برأسها الذهبيّ كأنّها شمس تشرق من الأرض فرأت  
بناء المحطة يدنو من بُعد فالتفتت إلى الأستاذ وقالت  
وهي تتنهد :

- وأسفاه انتهت سفرتنا .

فقال لها وهو يتمطى :

- هذه نهاية كلّ رحلة . أمّا الحبّ فلا نهاية له .

فقال بصوت جعله الشوق والوجد كلحن من  
الموسيقى الخافتة :

- أين أسوان أين؟ . . أين خلوة الصحراء تحتوينا  
معًا؟ أين جدران المعابد تستر علينا؟ أين زورق النيل  
يجري بنا على سطح الماء؟ أين أنا وأنت لا نفرق  
ونشهد معًا وجوه اليوم من الفجر والصباح فالضحى

الحاضرين، وانتهت السيّارة إلى الفيلا ودخلوا جميعاً ومعهم الأستاذ عاصم.

ولكنّه استأذن بعد قليل وانصرف إلى بيته القريب. كان السيّد محمّد بك طلبية من كبار تجّار الشاي المعروفين بمصر وقد ربح من تجارته ثروة عظيمة تقدّر بمئات الألوف من الجنيهات؛ وكان في أخلاقه صورة من رجال طائفته الناجحين في حسن التدبير وعلو الهمة والحرص؛ وبالرغم ممّا تحفل به حياته من التجارب والمخاطر، وبالرغم ممّا صادفه فيها من ويلات المحن وفرص النجاح، فإنّه ما يزال يعدّ زواجه أخطر حادث في حياته، وهذا هو اعتقاده الدفين وإن لم يصرّح به؛ وقد وقع هذا الحادث الخطير منذ عشرين عاماً - وهو في الخامسة والأربعين - إذ كان يقوم بإحدى رحلاته التجارية بسوريا، وقد التقى هناك بأسرة زوجه وتعرّف إلى والديها، وكان الأب سورياً والأم أمريكية. ورأى ابنتها الشابة الفاتنة ساعة فوقع في حبّها وجنّ جنوباً وتحركت في أعماق غريزته التجارية غريزة الامتلاك فخطبها إلى والديها، ولم يستدر ذلك الشهر حتّى تمّ زواجه منها، وعاد إلى مصر «بأعظم ربح وأجل امرأة في الوجود» كما قال لنفسه حينذاك.

وبدأت الحياة الزوجية بنجاح لا بأس به. وأثمرت على مرّ الأيام طفلين جميلين مدحت وحياء. فبشر مقدمهما الأسرة بدوام السعادة والعشرة... ودارت السنون دورة سريعة فوجد البك أنّه أخذ يجتاز الحلقة السابعة، ويقنع من الدنيا بمشاهدة مدحت وحياء، ويكتفي من الحبّ بتذكّر أحلامه المنطوية... وأمّا المرأة فألفت نفسها في مكتمل الأنوثة ونضوج الشباب، فلم تحمل نفسها القناعة من الدنيا بالأبناء والأحلام، إذ كان شبابها عنيذاً جبّاراً دائب الثورة على الزمن... فتصدّع ائتلاف الزوجين، وعجزت شيخوخة الرجل عن كبح هذه الحيويّة النائرة فانكششت أمام سيلها العارم، وخلّت لها المنحدر وانزوت مطعونة باليأس مدعنة بالتسليم.

وأتفق أن كان الأستاذ عاصم المحامي - صديق الزوج وجاره - السبب المباشر في انفجار هذه الثورة

الناحية الأخرى المقابلة الأستاذ ومدحت، واستطاع عاصم أن يرى حياة عن كثب لأول مرّة، إذ إنّها تقابله في زيارته المتكررة لوالديها، يا للعجب للشبه العظيم الذي بين الأمّ وابنتها فلم يكن يفارق بينهما إلّا ما يفارق بين نضارة الشباب الأولى ونضوج الأنوثة الكاملة فكانت الفتاة كالياسمينّة العبقّة في الغصن، وأمّا الأمّ فكانت الورد الناضرة في الزهرية..

وظلّوا جميعاً حتّى قال الزوج:

- كيف كانت الرحلة؟ لعلّ صحتك تحسّنت يا هانم؟

فأخنت المرأة رأسها وتمتّت «الحمد لله» وقال الأستاذ:

- قل أن تغيب الشمس في أسوان، وهي أنجع دواء للهانم...

فابتسم الرجل عن أسنان ذهبية صناعية وقال:

- يسرّني أن أسمع هذا، وعسى أن تسرّاً بدوركما لأنبأنا، فتهنئا حياة بخطوبتها القريّة.

واحمرّ وجه الفتاة وخفضت عينيها حياء، والتمعت عينا الأمّ وبدأ عليها الاهتمام، وردّدت نظرها بين حياة وزوجها وسألت بلهفة ودهشة:

- وهل تمّت الخطوبة؟

فقال الرجل:

- لا يجوز أن تتّم خطوبة فتاة في غياب أمّها...

ولكنّها ستتمّ قريباً بإذن الله...

ونظر الأستاذ إلى الفتاة وقال مبتسماً، «مبروك». أمّا الأمّ فسألت:

- من هو؟

وأجابها الرجل:

- طلعت، ابن شريك.

وسأل المحامي:

- هل هو موظّف؟

فقال الرجل بزهو:

- نعم وكيل نيابة!

وأطبقت رويّة هانم شفيتها فلم تفه بكلمة أخرى، واستسلمت لأفكار غامضة فغابت عن



بلغت السادسة عشرة من عمرها وهي تخطو إلى  
النضوج بخطى سريعة تدلّ عليها معاني العينين  
ونفوس الثديين، وأما مدحت فتعذبه لها أشدّ إذ إنّ  
هذا الشاب - الذي لم يجاوز الثامنة عشرة ينمو نموّاً  
خطيراً، فهو فارغ الطول جاهر الفتوة عريض المنكبين  
والأدهى من هذا كلّ غرامه بشاربه ومطوعة الشارب  
له، فالشاب يحبّ الرجولة ويستزيد منها حبّ أمّه  
للشباب واستزادتها منه. . وقد كانت حريصة على  
استصحابه كلّما خرجت حتّى قالت لها مرّة امرأة من  
صاحباتها: «ما أحرى الذي يراكما بأن يقول ما  
أسعدهما زوجين!» ولم تدر ما إذا كانت المرأة تنني على  
شبابها أو تغمزه، وعلى كلّ حال لم تستصحب فتاها  
بعد ذلك أبداً. .

على أنّه لاح في أفقها الآن ما يستخفّ بجميع  
همومها السابقة إذ ما مدحت وما شاربه إلى زواج حياة  
المنتظر؟

لقد بعثها الخبر، وكانت البغته من الشدة بحيث لم  
تدع لها فرصة للتدبير ولا التفكير ولا حتّى للتظاهر  
بالفرح أمام ابنتها إذ هم بالسيارة. . فلما ذهبوا إلى  
الفيلا خلت إلى نفسها بحجرتها معتذرة بتعب السفر،  
وفي عزلتها عاودت التفكير في هدوء وإمعان فتوالى  
عليها الفروض والتصورات، فهي لا تشكّ في أنّه لولا  
الحياء لغت حياة فرحاً وسروراً، وأيّ فتاة لا تفرح  
للزواج؟ وخاصّة إذا كان الشاب في عصفوان شبابه  
وجيهاً في بحبوحة من الغنى والجلاء سيّداً في وظيفة تنيه  
على جميع الوظائف، فلعلّها باتت تغرّد في قلبها أطيّار  
الحبّ وتحلّق في جوّها الطاهر أحلامه العذبة، فهي جدّ  
سعيدة بحاضرها، جدّ آملّة في مستقبلها، ولا شكّ  
أتمت تنتظر الآن أن تستعيد أمّها راحتها من عناء السفر  
وأن تذهب إليها لتطبع على خدّها الورديّ قبله التهتة  
فتعلن رضاها وموافقتها فتمّ الخطوبة وتكمل السعادة.  
ولكنّها إذا فعلت فستغدو الابنة زوجة وتمسي أما

فتسمع عن قريب من يناديها بقوله «جديّ، جديّ!»  
لقد نطقت بهذه الكلمة الشنعاء فدوّت في أذنيها دويّ  
التصويت والنواح فارتجّ لها جسمها البضّ وخفق فؤوها

الحويّة العنيفة، وقد تحيرت (صالونات) الزمالك في  
تحديد علاقته بروحيّة هانم، فمن قائلة إنّ هذا  
المحامي الجميل ليس إلّا صديقاً للأسرة، ومن هامية  
بأنّه عشيق الزوجة ومتغفّل الزوج، ومن مؤكّدة أنّه  
عشيق الزوجة على علم وتسليم أو - على الأقلّ -  
تغاض من الزوج، وظلّ كلّ فريق على رأيه حتّى ذاع  
خبر تلك الرحلة الشتوية إلى أسوان التي قيل في  
تعليقها إنّ الأطباء نصحو للهانم بانتجاع الصحة في  
مصر العليا، وإنّ الزوج - الذي تمنعه أعماله في مثل  
هذا الوقت من السفر - عهد بالزوجة إلى صديقه  
المخلص المحامي الذي يسافر عادة في يناير كلّ عام  
إلى أسوان. . هنالك قطع الشكّ باليقين وارتفعت  
الآراء. .

وكانت رويّة هانم لا تهتمّ بشيء اهتمامها بشبابها،  
فكانت لا تني عن العناية به والتفكير فيه حتى غدا ذلك  
وسواساً ومرضاً ينقصان حياتها بالمخاوف والأوهام،  
وكانت كلّما تقدّم بها العمر يوماً تزايدت مخاوفها، ذلك  
أنّها كانت تحسّ في أعماقها ببلوغ قمة الشباب التي لا  
يعقبها إلّا الانحدار، وكانت تعلم أنّ شبابها هو  
سعادتها لأنّها بدونها لا تستطيع أن تجذب إليها الرجل  
الذي تحبّه والذي تعلم - مع الألم الشديد - أنّها تكبره  
بما لا يقلّ عن عشرة أعوام. .

ولطالما تذكر ما قالت مرّة امرأة - تعلن لها الودّ  
وتكتم العداوة - في مجلس لأخرى وهي تعنيها بالذات  
من أنّ النساء اللاتي يحافظن على شبابهنّ بعد فوات  
عهده يهرمن مرّة واحدة بلا تدريج. . . وإها. . . كم  
سخرت من رأي هذه المرأة وكم أرجعته إلى الحسد  
الذي تحمله لها، ولكن لا سخريتها ولا تظاهرها  
بالاستهانة أفاد شيئاً في مغالبة الذعر الذي استولى  
عليها والرجفة التي استحوذت على أعصابها. . فغدت  
كالمجنونة يخفق قلبها جزعاً وإشفاقاً كلّما طرقت أذنيها  
دقات الساعة.

وجعلها ذلك في حيرة بين حبّها لمدحت وحياة وبين  
الخوف منها، فهي بلا شكّ لكّة الأمومة التي تخفق في  
صدرها ولكنّها آيتان على كذب شبابها، أمّا حياة فقد

- لقد تزوّجت يا هانم في مثل سنّها ومع هذا فإنّ كلّ من يراك يشهد لك بالصّحة والنضارة . . .  
 فضربت الأرض بقدميها وقالت عنقة مغیظة:  
 - أنا دائماً أشكو من أعصابي . . .  
 فضیّق عينيه ورفع حاجبيه وقال في تهكم:  
 - ربّما كان ذلك لعلّة غير الزواج . . .  
 فغلّبا الغضب واشتدّ بها الانفعال وقالت بصوت متهدّج:

- باختصار لن تتمّ هذه الخطوبة . . .  
 ولكّنّ الزوج صرّ على أسنانه الصناعيّة وقال:  
 - لقد أطلّقت لك الحبل على غاربه وملكتك حرّيتك الكاملة وقلت لك منذ عامين وأنت وشأنك . . . ولكيّ لم أتنازل عن حقوقي كوالد ولا أفكر في التنازل عنها، وإني لأشفق من أن تضیع على ابنتي مثل هذه الفرصة الذهيّة، ولذا فإنّي أعلمك -  
 وإني أعني ما أقول - بأنّي سأعقد هذه الخطوبة . . .  
 فقالت غاضبة وأشارت إليه بيد مرّجفة وصاحت:  
 - وأنا أوّكد لك بأنّها لن تتمّ . . .  
 فهزّ الرجل كتفيه استهانة وغادر المكان وهو يقول:  
 - سنرى.

وصبرت الهانم حتّى عاودها شيء من هدوئها ثمّ دعت إليها ابنتها، وحذّتها حديثاً طويلاً عن حبّها لها وحديها عليها وتوحيها ما ينفعها وإشفاقها ممّا يضرّها، ثمّ خلصت إلى ما دعتها - في الحقيقة - من أجله، فأعلّنتها بأنّها لا توافق على زواجها وأنّها ترغب في تأجيله بضع سنين خوفاً على صحتّها، ورجتها رجاء حارّاً أن ترفض يد ذلك الشابّ ولا تدعن لإرادة والدها . . .

وصمت الفتاة صمتاً بليغاً، ولادّت به من الرفض أو القبول، وعبثاً حاولت المرأة أن تخرجها من صمتها ولكنّها فهمت منه، ومما طالعت في وجهها من الحزن والاستياء ما أشقى بها على اليأس والقنوط . . .  
 ولبّثت الفتاة في حضرتها ما لبّثت ثمّ غادرت الغرفة ولم تنفرج شفتاها عن غير التحيّين . . . تحيّة اللقاء التي نطقت بها في مسرّة وفرح، وتحية الوداع التي قالتها

قلبيها العاشق . . . وأحسّت ببرودة الخوف تسري في أعصابها سريان الحفاف في الغصن الرطيب . . . وخيّل إليها ألهم أنّها تجلس إلى مقعد وثير وإلى جانبها ابنتها وعلى حجرها غلام كأنّها تسمعه بأذنيها يهتف بها: «يا جدّتي» ورأت نفسها وقد ذوى جمالها وتغصّن جبينها وغارت عيناها ورقّ خدّها وابيضّ شعرها فاننفضت واقفة وكنمت صرخة رعب كادت تفلت من شفتيها، وهزّت رأسها بعنف لتطرد عن خيالها الأطياف المربعة، حتّى إذا عاودها اطمئنانها صاحت «أبداً . . . أبداً . . . لن يكون هذا» ولبّثت ملازمة لحجرتها غير عابئة بما عسى أن يجده غيابه في نفس ابنتها العزيزة، حتّى ثقل الأمر على البك فاستأذّن عليها ودخل، وجلس قبالتها وجعل يرمقها بعينيه الحاذتين وهو يرجو أن تفاعمه بالحديث، ولمّا لم يدع له إصرارها أملاً قال:

- أرجو أن تكون أسوان قد شفت أعصابك.  
 وأغضبها قوله. وظنّت أنّه يتهكّم عليها فنظرت إليه نظرة حمراء، ولمّا شاهدت عينيه الحاذتين وقرّ في نفسها أنّه هو الذي سعى إلى هذه الخطوبة وأنّه سعى إليها تأديباً لها وانتقاماً منها، فهو أعرف الناس بها وأعرفهم على وجه الخصوص - بما يسرّها وما يسوؤها، واشتدّ بها - عند ذاك - الغضب، فعضّت على شفتها السفلى، وأملت الردّ عليه، فقال كالداهش:

- ما لك؟ لست كمادتك . . . والأعجب من هذا أنّك لم تفرحي لما بشرتك به؟

فاحتاجها الغيظ وقالت عنقة غاضبة:

- لن تتمّ هذه الخطوبة . . .

فبدا على وجه البك الانزعاج وقال:

- ما تقولين يا هانم؟

وأجابته بصوت صارم:

- أقول إنّّه لن تتمّ هذه الخطوبة . . .

- كيف؟ . . . وله؟ . . .

- إنّ (حياة) ما زالت صغيرة السنّ.

- ولكنّها بلغت سنّ الزواج القانونيّة.

- ماذا يفيد القانون إذا كان الزواج المبكر يؤذي

صحتّها؟

لا شك تقدر رأيك حتى قدره وتنزله من نفسها منزلة سامية .

فتورد وجه الشاب وذكر وجه الفتاة الجميل الذي سعد برؤيته ساعة في السيارة صباح العودة من أسوان، فلم يستطع أن يرفض ولكنه قال متسائلاً :  
- فكيف لي بمقابلتها على انفراد لأحادثها في هذا الشأن الخطير؟ وإذا قابلتها فكيف أفتحها به؟ .

فتنهت المرأة ارتباحتاً وقالت:

- لقد دبرت كل شيء، سأصحبها يوم الأحد القادم لشراء بعض الحاجات، وعليك أن تقابلنا - مصادفة طبعاً - في شارع سليمان باشا الساعة الخامسة مساءً، وتقترب علينا التنزه قليلاً على جسر قصر النيل فأتريها معك وأعدك بأن ألتق بكما بعد دقائق، وتنتظري ساعة على الأكثر فإن لم أعد تاتي بها إلى شيكوريل حيث تجداني، وفي أثناء ذلك تستطيع أن تطرق الموضوع بلباقة المحامي وتقضي إليها برأيك في الزواج المبكر.. ما رأيك الآن؟ .

وقبل الشاب بسرور خفي، فكرته المرأة وذهبت إلى الفيلاً على عجل وأغلقت على نفسها حجرتها وأحضرت ورقة وقلماً وكتبت ما يلي بيد مضطربة ويخطّ جهدت أن تخرج به عن مالوف خطها:  
«سيدي الأستاذ..

أنت شارع في الزواج من كريمة محمد بك طلبة ولكن ينبغي قبل ذلك أن تذهب بنفسك كل يوم إلى جسر قصر النيل الساعة الخامسة مساءً وخصوصاً أيام الأحاد» .

ثم كتبت على الغلاف عنوان الخطيب ووضعت الخطاب فيه، وترددت لحظة رهيبية ثم نادى خادماً وأمرته بوضع الخطاب في صندوق البريد..

وجاء يوم الأحد وخرجت الأم وابنتها وحدثت المقابلة مع الأستاذ، وتم لها ما أرادت من تركها معه، وذهبت بمفردها إلى شيكوريل وابتاعت حاجاتها ولبست تنتظر حتى حضر الأستاذ وحياة وقد اعتذرت إليهما قائلة:

- أوه.. لقد تأخرت عليكما لأنّ المحلّ مزدحم كما

في صوت خافت بارد... وجنّ جنون الأم وازدادت تشبثاً وعناداً، ووقفت من الزواج موقف المقاطعة والتحدي.. فلما جاء الشاب الخطيب لزيارتها أبت أن تقابله كما رفضت مقابلة أهله من بعد. واضطرّ البك إلى انتحال الأعذار الكاذبة لها، وبذل الرجل ما في وسعه لإقناعها بالتحوّل عن عنادها وتوسّل إليها باسم ابنتها، ولكنّها ركبت رأسها وأبت أن تصغي إليه حتى انفجر رجل الرجل وأقدم على الإفشاء بالحقيقة إلى شريكه - والد الخطيب - وشكا إليه قسوة امرأته التي تضخّي بسعادة ابنتها في سبيل شبابها الكاذب.. وطلب إليه أن يعاونه على إتمام الزواج - رغم إرادة الأم - إنقاذاً للفتاة من أنانية أمها المتوحشة..

وذاعت هذه الكلمة التي قيلت سراً في جميع الأوساط الراقية. وتحدثت بها (الصالونات) حتى بلغت أذني الأستاذ عاصم المحامي الذي بلغها بدوره إلى روحية هانم نفسها، ولكن لم يكن هذا - ولا ما أصبح يديه مدحت وحياة من الاستياء والنفور إلا ليزيدها عناداً وإصراراً... ووجدت المرأة أنّ كل ما قيل وذاع لم يغن شيئاً في عرقلة الساعين إلى إتمام الزواج، وكانت ترى في نجاح مساعهم القضاء الأخير على سعادتها وشبابها وغرامها، فانبرت للدفاع عن نفسها دفاع اليائس المستميت واهتدت - في قنوطها - إلى فكرة جهنمية شريرة لا تخطر على قلب أم أبداً، وسارعت إلى تنفيذها بقلب أعماه الخوف والجنون عن البصر بالعواقب، فقصدت يوماً إلى عشيقها وطلبت إليه أن يقنع ابنتها بالعدول عن الزواج، وقد دهش الرجل وحقّ له أن يدهش وقال لها:

- وما أنا ولهذا؟... ثم إنه لم تسبق لي معرفة وثيقة بالأنسة حياة فلا أدري والحالة هذه كيف يجوز لي أن أحادثها فيما هو من صميم حياتها الخاصة؟...

ولكنّ المرأة استهانت باعتراضاته وكذبت عليه فقالت:

- حقيقة أنّك لم تسبق لك بها معرفة وثيقة كما تقول ولكنّها تعلم أنّك صديق والديها، وقد سمعت في بعض المجالس ثناء كثيراً على نبوغك في المحاماة فهي

تريان. لا بأس، أظنّ أنّه ينبغي أن نذهب الآن، نستودعك الله يا أستاذ..

وفي الطريق لازمت المرأة الصمت وقد انتظرت طويلاً أن تفتحها الفتاة بالكلام، ولكنّها ظلت واجبة كأنّها تجهل اللغة التي تتكلّمها أمّها واختلست المرأة منها نظرة فالفنتها جامدة باردة لا تعبر وجودها أدنى اهتمام فانقبض صدرها وتذكرت - أسفة حزينة - كيف كانت في حضرتها لا تمثّل الحديث والضحك والمداعبة، وضاق صدرها بصمت الفتاة فحالت تحملها على الكلام:

- كيف كان التنزّه.. ؟ وماذا قال لك الأستاذ؟

فأجابتها بإيجاز قائلة:

- تحدّثنا أحاديث عامّة تافهة لا تستحقّ الإعادة.

- وما رأيك فيه؟

- هو جنتلمان.

وكانت ترجو أن تعرف من إجابة الفتاة الأثر الذي تركه حديث الأستاذ في نفسها، ولكنّها لم تستطع أن تدرك شيئاً..

ولما خلّت إلى نفسها ذلك المساء تنهدت وقالت:  
«إنّ (حياة) لا تحاول إخفاء نفورها مني».

نفورها! وما النفور إلى جانب ما صنعت هي؟ أيّ فعلة شنعاء! أيّ منكر! إنّها تعرف نفسها أكثر ممّا يعرف الناس، وهي تعلم أنّها سيّئة التصرف، كثيرة الأخطاء متسرّعة هوجاء، ولكن لم يسبق لها أن أخطأت خطأ منكراً كهذا الخطأ، وما لها تسمّيه خطأ؟ ولماذا لا تسمّيه باسمه الحقيقي فتقول إنّها وجريمة؟ فهو جريمة شنعاء لأنّه ليس أقلّ من محاولة تلويث شرف ابنتها والقضاء على مستقبلها في سبيل شهواتها هي، يا للفظاعة! لو أمكن فقط أن يبقى هذا سرّاً مكتوماً، ولكنّه لن يبقى كذلك لأنّها في الحقيقة وإن كانت فُكرت تفكير شيطان إلّا أنّها دبّرت تدبير أطفال؛ فالرسالة التي كتبت قد تكفل لها فسخ الخطوبة، ولكن من يضمن لها ألاّ يتصل خبرها بزوجها؟ ومن يضمن لها ألاّ يسأل الرجل ابنته عمّا جاء فيها وإذا صارحت الفتاة أباهاً بآثامها هي - أي أمّها - التي تركتها مع

المحامي ذلك اليوم، فما عسى أن يحدث الرجل؟ أواه! قد لا تكثرث لغضب زوجها ولكنّها على وشك أن تفقد محبة ابنتها إلى الأبد، بل ابنتها ممّا لأنّه لا مدح ولا أيّ ابن في الوجود يستطيع أن يبرّ بمثل هذه الأمومة المتوحّشة، وأحسّت عند ذلك بقشعريرة تسري في جسدها واستولى عليها ذعر لم تشعر بمثله من قبل وباتت فريسة الآلام والمخاوف..

ولأوّل مرّة منذ أن سمعت نبأ خطوبة حياة أنّها تفكيرها نحو الخير فودّعت لو تستطيع أن تكفّر عن خطيئتها ببذل التضحية الغالية، وظلّت تفكر صادقة مغلصة حتّى قطعت عليها تفكيرها الحوادث. فعند أصيل يوم من الأيام رأت المرأة ابنتها ترتدي معطفها وتأهب للخروج، فسألها برقة:

- إلى أين؟

وأجابت الفتاة قائلة:

- إلى السينما.

فسألها بتعجّب:

- بمفردك؟

فأجابتها ببرود قائلة:

- مع الأستاذ عاصم.

وأصاب الجواب منها مقتلاً فاستولى عليها ذهول شديد، وقالت دهشة:

- ولكنك لم تستأذني أحدًا؟

فقالت الفتاة بشيء من الجفاء:

- استأذنت بابا وأذن لي.

- وهل طلب الأستاذ إليك أن تذهبي معه إلى السينما؟

- نعم.

- متى.. وأين؟

- على جسر قصر النيل ذلك اليوم...

وغشيت عينيها سحابة ظلماء فجمدت في مكانها لا ترى شيئاً. ولما أفاقت كانت حياة قد غادرت البيت. وتيقّظت غريزتها مرّة أخرى، فطغت على عواطف الخير التي تحرّكت في قلبها منذ حين قليل، وخنقتها كما يخنق الماء الأجاج الورد اللين، فذهبت توارى إلى زوجها

وقالت له غاضبة:

- لم أذنت لحياة بالذهاب مع الأستاذ؟

فقال الرجل بلهجة تهكمية:

- ولم لا؟ أليس هو الصديق الصدوق لأمها وأبيها؟

فامتاحتها الغضب لتهكمه وقالت وهي تنظر إلى وجهه نظرة غيظ وكراهية:

- إني أعجب من تصرفك هذا، أيجوز أن تأذن لها

باصطحاب الأستاذ وأنت تسعى إلى تزويجها من رجل آخر؟

فهز الرجل كتفيه وقال:

- فسح الرجل الآخر خطوبته.

فخفق قلبها واصفر وجهها وتساءلت: ترى هل علم شيئاً عن الرسالة؟

واستطرد الرجل قائلاً:

- عليك تقع تبعة ذلك يا هانم، فرفضك - وما ذاع عنه - زهد الشاب في الفتاة.

ترى هل اكتفى الشاب بالانسحاب دون أن يطلع زوجها على الخطاب؟ ليت ذلك يكون!!

وعاد زوجها يقول بقسوة لم يستطع إخفاءها:

- وقد أخبرني حياة بأنك تركتها مع الأستاذ عاصم ساعة في قصر النيل فظننت أنك تفضلينه على الشاب الآخر، فلما استأذنتني في الذهاب معه أذنت لها وقلت لنفسي لا عليّ من هذا فعاصم شاب جميل ونابغ في فنه.

عند ذلك لم تستطع صبراً فولت مدبرة تترنح في مشيتها كالمصاب في مقتل..

وتذكرت المثل القائل: «على الباغي تدور الدوائر» فقد فعلت ما فعلت وارتكبت ما ارتكبت وفقدت ما فقدت لتحافظ على حب الرجل وها هي ذي توشك أن تفقد - بسماها هي دون غيرها - الرجل وحبّه.

يا له من ألم ساخر! ليها أبت على الخطيب الأول أو ليها تستطيع أن تسترده بأيّ ثمن.

ولم تنم من ليلتها ساعة واحدة. وعند الصباح حدثت المحامي بالتليفون وقالت كما تعودت أن تقول دائماً:

- مساء اليوم في عشنا.. هه.

فأجابها بغير ما تعودت أن يجيبها به قال:

- آسف جداً يا عزيزتي.. أنا مشغول جداً هذه الأيام.

وقد صدمها اعتذاره صدمة شديدة وخيب آمالها،

ولم يفتها مغزى قوله «هذه الأيام» ولكنها لم ترض

بالمزمنة فقالت بسخرية مريرة:

- ومع هذا فأعمالك الكثيرة لا تمنعك من الذهاب

إلى السينما؟

ماذا يستطيع أن يقول؟ قال إنه بالأمس فقط كان

لديه متسع من الوقت أما الآن فلا..

ورأت أنه لا يكلف نفسه حتى الاعتذار المقبول.

ولم يكلف نفسه؟ إنما يهتم بانتحال الأعذار من يحمه

شخص المعتذر.. وقد غدت عنده شيئاً رخيصاً أو لا

شيء مطلقاً. أواه! أهكذا تتقلب القلوب؟ أهكذا

ينسى الإنسان؟ أمين الممكن أن يضحي حب كحبهما

ذكرى وحلماً في لحظة سريعة؟ ألا ين تدرج؟ ألا ين

رحمة؟

ولم تنقطع منذ ذلك اليوم المقابلات بين حياة

والأستاذ عاصم، وشاهدتهما معاً متنزهات القاهرة

وخلواتها وملاهيها حتى توقعت الأيام يوماً بعد يوم أن

يتقدم الشاب لطلب يد الفتاة، ولكنّه كان أحزم من

أن يرتكب مثل هذه الهفوة لأنه كان خبيراً بأخلاق

روحية هانم علياً بطباعها وعنادها وغرامها به، فرسم

في عقله خطة محكمة وعزم على تنفيذها بإرادة لا يشنيه

عنها شيء: ولبثت روحية هانم في حيرة من أمرها

تعاني أشد الآلام النفسية والقلبية، وتأسى بكرهية

ابنتها لها وتحذرها لعواطفها وتتمزق إرادتها نهب الأمومة

المحتضرة والأهواء العنيفة، حتى كان مساء لا يُنسى إذ

دخل عليها زوجها هزّ خطاباً في يده ثم يرميه في

حجرها وهو يقول في لهجة الغاضب:

- أقرأي وانظري.. أي جراءة؟..

فتناولت الكتاب بقلب مذعور متطير. وقلقت

عيناها بين الأسطر الآتية:

سيدي المبحّل:

يصلك هذا الكتاب ونحن نستقل القطار الذاهب  
إلى بور سعيد حيث نبحر إلى أوروبا أنا وعرومي -  
كريمكم - لقضاء شهر العسل، وإني أقرّ أسفاً بأنه لم  
نجر العادة بأن تعقد الزيجات على هذا المثل الغريب،  
ولكن الظروف الدقيقة التي لا تجهلونها لم تدع لي  
فرصة للاختيار، وإني كبير الأمل أن تقدروا سلوكي  
تقديرًا عادلاً، ولست أقلّ أملاً في نيل عفوكم  
القريب.

ودمت للمخلص  
عاصم عادل

زاغت عيناها وحجبت غاشية الغضب الكلمات عن  
بصرها فظلت منكسة الرأس لا ترى شيئاً ولا تعي  
شيئاً والقنوط يتسرب إلى قلبها كالغاز السام، ولم تحاول  
قط أن تقاوم نفسها المنهارة أمام زوجها كأنها نسيت  
وجوده نسياً تاماً، وكان الشيخ يحدها بنظرة قاسية  
متشقة، فلما وجدها تنهدم وتضمحل ولأها ظهره  
وذهب.

ولبت في غيبوبة حيناً طويلاً ثم رفعت رأسها المثلث  
فوقع بصرها على صورتها في المرآة فارتاعت وجفلت،  
لأنه خيل إليها أنها ترى جمالها يذوي وينضب وتغشاهما  
سيما الهرم .

## حياة للغير

الصبيح وقدّها المشوق براءة الصبا وأنوثة الشباب .  
وأشار إلى كلبها وسألها :  
- كيف هو اليوم ؟  
- تمّ شفاؤه .. الحمد لله ..  
فضحك قائلاً :  
- لعلّ هواء الإسكندرية لم يوافق مزاجه !  
- على العكس كان يعدو على الشاطئ والدينا لا  
تسعه من الفرح .. فنظر إلى وجهها الذي كسا  
الشاطئ بياضه حمرة كأنه غمسه في الشفق وقال بركة :  
- لقد اكتسبت بشرة جديدة يا سيارا !  
فاستضحكت، وعدا الكلب في تلك اللحظة فوكته  
ظهرها وعدت وراءه ..

وبدا عليه تغتير ظاهر، فغاضت من عينيه نظرة الجدّ  
والرزانة وخلفتها نظرة حنان وأحلام . وطاب له أن  
يختلس منها نظرات طويلة سعيدة، فشاهدها وهي  
تجلس على الكرسيّ، وتحنّي لتلاعب كلبها الصغير .  
وجعلت أناملها تتخلّل شعره الأبيض الطويل، ومضى  
الكلب يلحق يدها مسروراً ويثب على ركبتيها وذنبه  
يرقص طرباً، وفي أثناء ذلك تدلّت خصلات شعرها  
الحريريّ وحامت حول عنقها وخديها، وكان في  
مشاهدته سعيداً مبهتجاً، ولكن انقبض صدره فجأة،  
فلوى رأسه ونظر إلى الأمام بعينين لا تريان شيئاً، لأنّه  
تذكّر أنّ سلوكها نحوه لم يتغيّر منذ كانت تدرج في  
الطفولة والصبا، وأنها ما تزال تناديه بقولها «عمّي» كما  
كانت تفعل وهي صغيرة تلعب بالعرائس، وكان فيها  
مضى يفرح بهذا النداء ويعده آية على ما له في نفسها  
ونفس أبيها من المودة والصدقة، أمّا الآن فهو يضيق  
به ويتأذى منه ولا يكاد يسمعه حتّى ينقبض صدره

ساعة الأصيل هي الساعة المختارة التي يهبط فيها  
عبد الرخن أفندي إلى حديقة البيت الصغير، وهي  
عادته التي يلازمها أو التي تلازمه أغلب شهور السنة،  
لأنّه من القلّة النادرة التي لا ترتاح إلى ترك البيت إلّا  
لعمل أو ضرورة . وقد نزل إلى الحديقة ذلك اليوم من  
أيّام سبتمبر المعتدلة، وألقى عليها النظرة المعهودة،  
وتمشّى بين طرقاتها الملتوية يسرّح بصره بين شجرات  
الورد وأصص الزهور، ثمّ جلس على أريكة على كثر  
من السور المقام من الأسلاك الشائكة الذي يفصل بين  
حديقة بيته وحديقة البيت المجاور، وبسط جريدة من  
جرائد المساء كانت مطوية تحت إبطه ومضى يطالع .  
وكان في مشيته كما كان في جلسته آية للرزانة، فمن  
كان يراه لا يشكّ لحظة في أنّه بإزاء ربّ بيت وعاهل  
أسرة، فحركاته وإيماءاته تقرن دائماً بالهدوء والاثتران،  
ونظرة عينيه تلوح فيها الرزانة والرجولة والمسئولية،  
ورأسه الكبير وشاربه الغزير يدلّان على أنّه ابن أربعين  
وإن كان في الحقيقة لم يجاوز الخامسة والثلاثين إلّا  
بشهور قلائل . وكان مستغرقاً في مطالعته حين استيقظ  
فجأة على صوت رفيق يهتف به قائلاً :  
- سعيدة يا عمّي ..

فأزاح الجريدة عن وجهه ونظر إلى حديقة البيت  
المجاور نظرة التمتع فيها الابتهاج، فرأى وجهاً مشرقاً  
يرنو بعينين سوداوين صافيتين يطالعانه بالبراءة،  
فاحسّ إحساس الحرّان هبّ عليه نسيم بارد معطر  
بالياسمين، وردّ تحيتها قائلاً :  
- أهلاً بالآنسة سيارا .

فابتسمت إليه ووقفت لتلاعب كلبها الأبيض  
الصغير . كانت في السادسة عشرة . يتجاذب وجهها

وتتولى عنه المسرة.

وانجبه بصره إليها مرة أخرى وتساءل - ولم يكن يفعل ذلك للمرة الأولى - أمن المستحيل أن تصير سارا زوجي يوماً من الأيام؟

وهز رأسه في إنكار واستغراب كأنَّ الغرض من المستحيلات حقاً، ولكنه لم يسلم بلا جدال فتساءل مرة أخرى: ما وجه الاستحالة؟ .. العمر. .. فهو ابن ستة وثلاثين وهي بنت ستة عشر، فعشرون عاماً تفصل بينهما وهو عمر طويل يبرر «عمومته» لها فكيف يتأتى للعم أن يصير زوجاً وحييماً؟! حقاً إنَّ الكثيرين لا يعترفون بعقبة العمر، ولا ينزلون عند حكمها ويدللونها بغير مبالاة، ولكن كلَّ توضيح من هذا القبيل بثمن، فما عسى أن يكون الثمن الذي يبذله لكل هذه التوضيح الغالية؟ هو في الواقع ليس إلاً موظفاً منسياً في وزارة الداخلية لا يتجاوز مرتبه الخمسة عشر جنيهاً فلا مكانة له يعتد بها، ولا مال له يسدل به على نقائصه سترًا من الرواء والجلال! ومع ذلك فهو يحبها ويبدو له أن لم يكن من حبها بد، وكيف كانت تناح له النجاة منه وقد كانت تنمو تحت بصره يوماً بعد يوم ستة عشر عاماً؟ .. وكانت إلى ذلك الإنسانية الوحيدة من الجنس الثاني التي رمتها بها الأقدار في عزلتها القاسية. .. فتسرب الحب إلى قلبه خفية، في أناة وهدوء، وبلا قصد أو حذر، تسرب الكرى إلى أجفان حالم مستسلم إلى هبات النسيم اللطيفة في جلسة طويلة هادئة على شاطئ النيل. ..

وكان في أول عهده بها يتمتع بطفولتها السعيدة ويجد فيها منفذاً لحنان صدره المكتوم، فلما أن انقلب عاشقاً أنشبت فيه الحيرة أظافرها، وحرمت القناعة السعيدة وصار يعدّبه كلَّ شيء حتى عطفها عليه وحديثها، لأنها كانت تقبل عليه ببراعة، ولم تشعر حياله شعور امرأة بلإزاء رجل، وقد حدجها مرّات بنظرات نفذ منها لبيب الهوى قهراً فلم تستجب له ولم تحس به وأصرّت على أنّه «عمها العزيز» لا أقل ولا أكثر. ما عسى أن يكون ردّها لو طلب يدها؟ .. كيف يكون شعورها؟ .. وكيف تكون دهشتها؟ ..

وماذا تقول لأبيها؟ .. وماذا تقول لنفسها؟ .. وهل يمكن أن يراها بعد ذلك كما يراها الآن في حديثها وأن يتمتع برؤيتها مقبلة مدبرة محدثة مداعبة أم ينقطع عهدها إلى الأبد؟

وهب أنّه وجد من نفسه الشجاعة الكافية لأن يفتح أباها - صديقه العزيز - في هذا الشأن الخطير؛ فما عسى أن يقول له؟ يا له من قول عسير! .. وفكر طويلاً، ثم أغمض عينيه وحذث نفسه وكأنّه يحدث صديقه: «صديقي العزيز لقد جئت أحدثك في أمر خطير لم تكن تتوقع أن أحدثك فيه أبداً، وربما لم أكن أتوقع ذلك أنا أيضاً، ولست واثقاً من موافقتك ولا من أهليتي للطلب الذي أتقدم به، ولكني لم أرد أن أضيع فرصة ذهنية لمجرد توهمي الإخفاق. .. سيدي. .. وصديقي. ..»

ولم يتم حديثه لأنَّ صوتاً عذباً أيقظه من حلمه قائلاً:

- أناثم أنت؟

فانتبه خافق القلب وقد تولّاه ما يشبه الرعب، وقال:

- كلاً. ..

- معذرة. .. رأيتك مغمض العينين. ..

- كنت أفكر. ؟

- وفيّ تفكّر. ؟

حدّق في وجهها بعينين حائرتين وتساءل بماذا يجب؟ .. يقول لها فيك أنت؟ .. ولكنّها مجازفة سابقة لأوانها، فلازم الصمت، وأحسن رغم ارتباكها بلذعة سخرية لاضطرابه أمام هذه الطفلة، وكان ينعم النظر في عينيها السوداوين، ومرّت دقيقة على جموده، فشرع بريان تخدير لذيد، ولم يعد يرى إلاً سواداً جليلاً، ثم لاحظ تغيراً فجائياً يطرأ عليها، فرأى وجنتها تتوردان وشفتيها تفلقان، وعينيها تتحولان إلى هدف وراءه. .. وشاهدها تفرّ نائرة إلى داخل البيت، ونظر خلفه دهشاً فرأى أخاه نور يقف مبتسماً ويمدّ له يده للسلام. وأحسن بكآبة لم يدر ما سببها، وخفق قلبه خفقان الخوف والحيرة، ولكنه سلّم عليه مبتسماً وقال له:



يمكن أن يحب هذه الصبيّة الجميلة .  
 وكان الدكتور الشاب يفكر في تلك اللحظة من حياته السعيدة في أمور هامة فقال لأخيه :  
 - لديّ أمور هامة أريد أن أفصي إليك بها .  
 ولم يدعه قلبه القلق يرتاح إلى هذه الرغبة فقال :  
 - اخلع ملابسك أولاً وارتح قليلاً . . .  
 ولكنّ الشاب قال بإصرار :  
 - استمع لي أولاً يا أخي فإنّ حياتي في مفترق الطرق . . . فسكت الرجل وأردف الشاب :  
 - سنتهي بعد أشهر مدّة تمريني كطبيب امتياز في القصر، وقد أخبرني أستاذي الدكتور براون بأنّ النية متّجهة إلى اختياري عضواً في بعثة كلىّة الطبّ .  
 فأحسن الرجل بارتياح غير متّظر وقال بفرح :  
 - مبارك . مبارك . أنت أهل لذلك بغير شكّ .  
 والظاهر أنّه كان لدى الشاب ما يقوله غير ذلك لأنّه قال بارتباك بصوت خافت :  
 - ولكنّي . . أعني . . أريد أن أقول . . إنّني إذا سافرت فلن أسافر منفرداً .  
 - لا أفهم شيئاً . .  
 في الواقع إنّّه يفهم كثيراً، أو يفهم على الأقلّ ما جعل قلبه يرتدّ إلى الجفول، وكان الشاب قد تغلّب على ارتبائه فقال :  
 - سأسافر زوجاً إن شاء الله .  
 - يا لها من مفاجأة! . . إنّّه لم يسبق لك التحدّث إلى أحد في هذا الموضوع . . أليس كذلك؟  
 - كلّاً .  
 - هل نبت في رأسك على حين غرة؟  
 - كلّاً ولكنّي أوثر الصمت حتّى أخرجني عنه السفر المتّظراً  
 وسكت الأخ لحظة يغالب عواطفه ثمّ قال :  
 - هل أفهم من ذلك أنّك وقّفت إلى الاختيار؟  
 فأحنى الشاب رأسه وأشار بذقته إلى بيت الجار وقال :  
 - سمارا . .  
 وساد الصمت، وقلق الشاب لسكوت أخيه، فسأله

- أهلاً كيف حالك يا دكتور؟  
 فضحك الشاب وقال بصراحة :  
 - كم أنت سعيد يا أخي!  
 وأدرك ما يعني من أنّها بصره ولهجته، وآله ذلك غاية الألم، ولكنّه تجاهل الأمر وقال بإنكار :  
 - سعيد؟!  
 - طبّعا، من يحدث سمارا ينبغي أن يكون سعيداً .  
 فابتسم ابتسامة صفراء وقال لنفسه : إمّا أنّ هذا الشاب خبيث ماهر وإمّا أنّه غيّ لا يفقه لما يقول معني . ليس السعيد حقّاً من تحدّثه سمارا ولكنّه من تحجّل من محادثته ومن يتورّد وجهها حين رؤيته فلا تملك إلّا أن تفرّ هاربة . . هذا هو السعيد حقّاً . .  
 أفلا يفهم ذلك هذا الشاب أم أنّه يتغاي ويمكر؟!  
 على أنّه كان يحرص على ألا يبدو عليه شيء ممّا في نفسه . فقال يغيّر مجرى الحديث :  
 - كيف كانت ليلتك بالأمس؟  
 فجلس الشاب إلى جانبه وقال :  
 - كان قصر العيني أمس حافلاً بالحوادث المزعجة ومضيت أغلب الليل أستقبل صرعى القضاء والقدر .  
 وكان عبد الرحمن يرمق شقيقه وهو يتكلّم بعينين ساهمتين وعقله دائب على التفكير . . كان ذا قلب كبير يفيض حنانه، فهو يحبّ شقيقه وقد أمّده هذا الحبّ الأخرى بالعون والصبر فربّاه ورعاه كما ربّى أخوين له من قبل، ولكن يداخله أحياناً من ناحيته خوف وجفول وربّما أكثر من ذلك . نعم هي الحقيقة فهو يكرهه أحياناً، وهو أشدّ ما يكون كراهية له إذا جرى ذكر سمارا على لسانه، فيمجرد نطقه لذلك الاسم الحبيب يؤذيه ويعدّبه؛ وتستحيل هذه الكراهية المؤقتة مقبلاً إذا وقعت عينا الفتى عليها أو عيناها عليه كما حدث منذ حين قليل . . على أنّ هذا لا يعني أنّ هذه الكراهية عاطفة ثابتة فهي مجرد انفعال عنيف، وغير ذلك فهو يحبّه، وينظر إلى مستقبله كشيء جميل من صنع قلبه وكده، فأيّ حيرة وأيّ عذاب . . ترى هل يظنّ الشاب إلى ما يحدثه في نفس شقيقه الأكبر من الشقاء . . كلّاً . . هو بلا شكّ لا يتصوّر أنّ مثله

بلهمة:

- ما رأيك يا أخي؟ .. ألا تعجبك؟

فقال الآخر بسرعة:

- نعم الاختيار.. نعم الاختيار..

فابتهج الشاب وقال:

- أشكرك يا أخي.. وأرجو ألا نتوان، فعندي أن نذهب غذا إلى مقابلة والدها ولعلّي لا أصدم هناك بما يجيب أملي.

- حسن.. ولكن ما الداعي إلى هذه السرعة؟

- لا بد من السرعة، فليس أمامي سوى شهر أو قلائل ينبغي أن يتم في أثنائها الاتفاق، والاستعداد للسفر إلى إنجلترا.

ثم ضحك الشاب وقال وهو يهيم بالوقوف:

- ألا ترى أنّي سأضفي شهر العسل خارج القطر كالوجهاء؟ فابتسم الرجل، وحيّاه الشاب وذهب إلى داخل البيت..

وتبعته عيناه حتّى غيَّبه الباب ثم عادتا تنظران إلى الدنيا المحيطة نظرة ذاهلة لا تعي التفاصيل، فأحس إحساسًا غامضًا بالسمة التي أخذت تشوب الكون والسكون الساري في مفاصله، وضاق بجلسته فقام يتمشّى في الحديقة الصغيرة بائسًا محزونًا مختنقًا، ودار دورتين ثم رجع إلى الأريكة وارتقى عليها بشيء من العنف كأنه يسلم إليها حظه التمس لا جسمه المنهوك.

ووجد في تلك اللحظة رغبة خفية قاهرة في الفرار إلى الماضي.. فطار خياله في الزمان عشرين عامًا في غمضة عين، إلى تلك الفترة من العمر التي تبدو فيها الحياة كقطعة من العجين في يد الخيال يعبث بها كما يشاء ويصنع منها ما يملّي عليه هواه بعيدًا عن قساوة الواقع. في ذلك الوقت البعيد كان هذا الرجل الممتلئ رءانة وهما وحزنًا صبيًا مرحًا مدللًا يفيض قلبه بالأفراح والآمال؛ وقد ميّزته الطبيعة منذ رأى النور، فكان أول من خلق له قلب والديه بالأبوة والأمومة من الأبناء.

ثم كان من بعد ذلك غلاشًا مجتهدًا تضيء حياته المدرسية استعدادات عالية ومواهب نامية تبشّر بالنمو والتفوق والمستقبل البسام، ولكن الحقيقة أنّ ما خفي

من فضائله كان أعظم، وأنّه كان ينتظر الفرصة فقط للظهور في أبهى الخلل، وقد جاءت هذه الفرصة ولكنّها لم تكن وأسفاه سوى وفاة والده..

ترك الوالد المتوفّى أسرة بائسة مكوّنة من أرملة وأربعة أبناء أكبرهم - عبد الرحمن - في مستهلّ الشباب، وأربعة جنيهاً معاشًا، وهكذا تصدّت الحياة للشاب السعيد الواسع الآمال بوجه عبوس، استأدته الواجبات، وحتّمت عليه أن يخلع رداء الطفولة ليحمل على عاتقه اللدن أثقل التبعات.. وكان عليه قبل كلّ شيء أن يتناسى أطماعه، ويُدْرَج في الأكفان آماله، ويقرّ مواهبه لكي يهيئ للأسرة حياة سعيدة، ويوليها بعض العناية التي كان يوليها إياها الأب الراحل، ورضي كارهاً بوظيفة بائسة لم يتصوّر قطّ أن تنتهي إليها آماله..

كانت تلك الأيام في بدئها مؤلمة شديدة المראה تبعث في النفس الأسمى والحسرة واليأس؛ ولكنّها لم تبلغ به قطّ حدّ الثورة أو الغضب الهائل. لماذا؟ كان قلبه كبيرًا ينضج بالحنان والأخوة. فوهبه أمّه وإخوته، وهانت لذلك تعاسته، وخفت الأيام من وقع الخيبة في نفسه، وتحدّدت في قلبه آمال أخرى لا تتعلّق بمستقبله هو، ولكن بسعادة إخوته ومستقبلهم، وذاق سعادة جديدة: هي السعادة التي يُجِدُّها بذلّ النفس والعمل من أجل سعادة الغير، وبذلك شغل الشاب مكان أبيه، ودخل في طور الرجولة الحقّ قبل الأوان..

وذكر هنا كيف أنّه كان يشعر بالفراغ الأليم رغم امتلاء حياته بالآمال والأعمال، ولكنّه كان ينجح دائمًا في إبعاد فكرة الزواج عن قلبه حبًا في أسرته وإيثارًا لإخوته، واستوصى بالصبر، ولكن أثبت له الأيام أنّ إخوته أقلّ صبرًا وأعنى بنفوسهم منه، وربما كان للزمن في ذلك شأن وأيّ شأن، فما كاد أكبرهم يتخرّج ضابطًا في مدرسة البوليس حتّى تزوّج وترك العبء له وحده. وتبعه بعد قليل أخوه الثاني المهندس فاضطرّ إلى البقاء أعزب حتّى هذه السنّ..

ثمّ ذكر كيف أنّه كاد يختار أخيرًا ما يكمل به حياته، وكيف جاء الاختيار بعيدًا عن التوفيق. وكيف

أنته الطعنه النجلاء من يد طالما آثرها بالحَب  
والعطف، وقد طعنه وهو يضحك ضحكة مشرقة  
بالأمل والسعادة كأنه ذاك الحكيم الذي يترنم بأنشودة  
السلام وقدمه تقتل عشرات الأحياء التي لا تراها  
العين..

وفيا هو في أحلامه إذ سمع صوتًا ينادي قائلاً:

- عبده لماذا تبقى في الظلام؟

هذا صنوت أمه الحبيب.. رباه.. لقد لقه الليل  
وهو لا يدري.

وقام من جلسته متثاقلاً، وسار ببطء إلى الداخل  
وبادرت أمه قائلة:

- هل حدثك أنور؟

فقال:

- نعم..

- ما رأيك؟

- اختيار جميل يا أماه، سأذهب غداً لمقابلة جارنا  
وطلب يد ابنته الجميلة لابنتنا النابه!

فقالت بحنان:

- لم يبق إلا أنت!

ولازم الصمت هذه المرة..

من يعلم؟.. ليس الذي يلقي الآن بأشد قساوة مما  
لقي في ماضيه، وما هذه بأول كارثة يمتحن بها قلبه  
الكبير، وقد علّمت الحياة فضيلة الصبر كما علّمته  
حقيقةً أجّل: هي أنه يستطيع أن يسعد وهو يحقق  
السعادة للآخرين..

## مُفْتَرَقُ الطَّرِيقِ

ولبت على حاله لا يطمع في رجاء حتى تولى وزارة المعارف معالي حامد بك شامل، فطرق أذنيه اسم الوزير الجديد، وجذبت عينيه صورته المنشورة في الصحف، فومض في أفقه المظلم بارق أمل جديد، وانتعشت نفسه برجاء لا عهد له به، وقال لنفسه: «ينبغي أن أقابله.. وأن أشكر إليه.. هل يرفض رجائي؟.. لا أظن»، وقصد يومًا إلى سكرتير الوزير وكتب حاجته على ورقة ليوصلها إليه، فمضى الشاب بها وتركه في حالة من القلق والإشفاق لا توصف. وعاد مسرعًا يقول لجلال أفندي:

- معالي الباشا مشغول جدًا اليوم فلتفضل بالمجيء ضحى الغد. فعاد إلى حجرته مسرعًا واجدًا متألمًا، وكان ألف طول مدة خدمته خيلاء الرؤساء وانتهاز المديرين، ولكن انشغال الوزير آله أكثر من أي شيء، وجعل يتساءل ترى هل يذكرني؟.. ولم يكن شيء ليصده عن هذا الباب، فذهب ضحى الغد كما قال له السكرتير وانتظر طويلًا حتى قال له الشاب:

- تفضل.

فقام مسرعًا خافق الفؤاد، وفتح له الباب المحروس فاجتازه إلى الحجرة ذات السجاجيد والزخارف، ونظر إلى صدر المكان فرأى معالي الباشا كما يدعونه يطالع في شيء بين يديه، فلما أن شعر بوجوده رفع إليه عينيه ومد له يده وعلى فمه شبه ابتسامة وقال:

- أهوانت!.. لقد أشبهت عليّ الاسم.. أو ما تزال حيًّا؟

فسرّ جلال للمداعبة الأخيرة واطمأنت نفسه وقال بخضوع وإجلال:

- نعم يا صاحب المعالي ما أزال أكابد حظي في

زماننا عائر الحظّ أو نحن به عاثرو الحظّ، فأينما تُولّ وجهك تسمع تنهّد شكوى أو ترّ تحمّم كدر. ولن تعدم قائلًا إنّ هذا الزمان أضيق رزقًا وأنضب حياء وأفسد خلقًا وأقلّ سعادة وأنسا من الزمان الماضي، ويجوز أن نكون لزماننا ظالمين، وأننا نتحامل عليه لا لعب اختصّ به دون غيره من الأزمنة، ولكن تبرّمًا بقساوة الحياة وفراغًا من جفاف الواقع وليأذا بظلام الماضي الذي يشبه ظلام المستقبل: بعث أمل وطبّ آلام. ومهما يكن من هذا السخط فإما من شكّ في أنّ جلال أفندي رغب كان على حقّ في شكواه التي يرددها بغير انقطاع. كان مراجع حسابات في وزارة المعارف وفي السادسة والأربعين من عمره، وقد وسّع الله في إحدى زينتي الحياة الدنيا وقترّ عليه في الأخرى. فرزق ستة أبناء يسعون ما بين حجر الأمّ والسنة الرابعة الثانوية. وأمّا مرتبه فسبعة عشر جنيهاً، فناءً بأثقال العيش ومتاعب الحياة. وقصمت ظهره المصاريف المدرسيّة. وكان كثيرًا ما يقول متبرّمًا حانقًا كلّما أن موعد قسط أو اقترب موسم من المواسم «رجل مثلي - أب لستّة ذكور، اثنين في المدرسة الثانويّة، واثنين في المدرسة الابتدائيّة، وواحد في المدرسة الأوليّة، وواحد في البيت، غير زوجة وأمّ، ولا تراه الوزارة حقيقةً بإعفاء واحد من أبنائه من المصاريف، فمتى إذا تجوز المجانيّة!.. ولن تجوز؟». وكان كغالبية أهل هذا البلد يائسًا من العدالة قانطًا من الخير، يعتقد اعتقادًا كالإيمان الراسخ أنّها لا يصيبان إلّا المجدودين من ذوي القربى والأصهار والأصدقاء فرأى أن ليس أمامه سوى الكفاح الشاقّ، ومعاناة الشتّة عامًا بعد عام، والتصبر على مرارة الحياة.

فارق جوهرى.. وكان التلميذ «حامد شامل» يلفت الأنظار إليه ببياض بشرته واحمرار وجهه. ويلزمه عبد متهدم طويل يرتدي بذلة سوداء في الطريق إلى المدرسة وفي طريق العودة، يتبعه كالظل إذا مشى. ويطمئن إلى مكانه إلى جانب حوزي العربة إذا ركب ولذلك كان يحلو لرفاقه أن يداعبوه فدعوه «حامد آغا»، على أنه عجب غاية العجب كيف كانت المنافسة تحتدم بينه وبين وزير اليوم وتلميذ الأمس كأنهما أخوا حظاً واحداً.. والأعجب من هذا أنها جريا معاً وراء تلك العاطفة - التي تهيج الجذ والنشاط ولا تتسامى عن المرارة والألم - منذ أول عهد تجاورهما! وكانا في كفاحهما كأنهما يعيشان منفردين في فصل واحد، فكانت الغاية التي يهدف إليها كل منهما أن يتفوق على قرينه بغير مبالاة الآخرين، وعلى الرغم من استعانة حامد بالدروس الخصوصية يتلقاها على أنبه مدرسي المدرسة، فقد كانت الغلبة بينهما سجالاً، وكانت كفة جلال الراجحة.. وكانا في ملعب كرة القدم مثلهما في الفصل لا يريحان ولا يستريحان. وكان كلاهما يزعم أنه أحق من صاحبه بقلب الدفاع، فكان مدرّس الألعاب يعاقب بينهما فيه، حتى بدا تفوق جلال للجميع فاستأثر به، فكان آخر عهد الآخر بلعب الكرة.. يا لله!.. كانا يستبقان كأنما الدنيا تضيق عنهما معاً، وكأنما كان مستقبلهما ينذر بحرب مستمرة تشمل ميادينها الجذ واللعب والإدارة والوزارة. فكيف شالت كفته بعد ذلك؟؟ كيف سقط من عيون الغربال وضاع في الخثالة؟.. كيف صار رفيقاً المقعد الواحد أحدهما وزيراً والآخر مراجعاً للحسابات ينوء صدره بالأم الحاضر ووساوس المستقبل.

ثم تتم قائلًا وهو يطفى سيجارته ويرمي بالعقب إلى المنفضة: تالله ما يستحق أن يكون وزيراً ولا وكيل وزارة ولا شيئاً من هذا، وخشي أن يكون متجنّباً عليه أو مائلاً مع عواطفه القديمة فتساءل باهتمام وجدّ كأنما يزعم كتابة ترجمة له كيف اعتلى كرسي الوزارة؟.. لقد انفصلا في نهاية الدراسة الثانوية فاضطرّ هو لأسباب إذا ذكرها جرت المرارة في فمه إلى الانقطاع عن

الدنيا.

فنظر إليه نظرة استفهام، ومال إلى الوراء قليلاً وهو يتمتم:

- أفندم.

فقال جلال:

- يا معالي الباشا قصدت إلى معاليك لأشكو إليك ما أشكوه من عنت الدهر وشقاء الأيام. لي أسرة كبيرة وأبناء كثيرون ومرتبتي صغير، ولست طامعاً في علاوة أو درجة، ولكني أضرع إلى معاليكم أن تعفي ابنين لي في مدرسة شبرا الثانوية من المصروفات.

- الاثنين معاً؟!

- نعم يا معالي الوزير إن آمالي مشرقة بمعاليكم، لقد جاورت معاليكم عهداً طويلاً من سني الدراسة، وينبغي لمن حظي بذاك الجوار أن يربو حفظه على حظوظ الناس جميعاً، خاصة إذا علمتم أنّ لي غيرهما أربعة آخرين.

فقال الوزير باقتضاب:

- قدّم لي مذكرة.

وكان الرجل محتاطاً لذلك، فأخرج من جيبه التماساً أعدّه لهذه الساعة وقدّمه إلى الوزير، فجرت عليه عيناه بسرعة، ثم أمسك قلمه ووقع عليه بكلمة وقال للرجل:

- اطمئن..

فانحنى جلال أفندي تحية، فنكّز الآخر بمدّ يده له، ثم غادر الحجرة مغتبطاً مثلج الصدر. ولكنّه ما كاد يعود إلى مكتبه بالوزارة، حتى قال لنفسه متعجباً: لم يتغيّر «حامد شامل» البتّة، ولا تقدّم به العمر، وكأنّه في ريعان الشباب... هل يصلّق إنسان أنّ كلينا ابن خمس وأربعين؟... تالله إنّي لأبدولعين الناظر في سنّ والده!... وقضى وقته يفكر في الوزير، في حاضره وماضيه، وفي صلته القديمة به... ثم اضطجع بعد غدائه في بيته، وأشعل سيجارة، واستسلم إلى أحلام الذكريات... فألوت به إلى عهود الماضي المنطوي.. إلى الوقت الذي كان يجلس فيه إلى يسار التلميذ «حامد شامل» على مقعد واحد، لا يكاد يفرّق بينهما

المُدَّخِر؛ ورنّا إلى الصورة بعينين حلتين فهامت روحه في آفاق الماضي حتّى شعر بأنّ روح الطفولة تحلّ فيه مرّة أخرى، وأنّ شعيرات قدّاله البيضاء تسودّ، وتجاوّد جبينه وما حول فمه تلين، ونظرة عينيه تصفو وترقّ، ويمسح على ما فيها من همّ وبلبال.. أحسنّ قلبه يخفق مرّة أخرى بالأمل والطمأنينة، وجرى بصره على الوجوه الصغيرة وهو يتساءل: ترى كيف صار هؤلاء جميعاً؟.. وعين أوّل صورة في الصفّ الأخير فعرف صاحبها بوضوح غريب، وذكر اسمه (عبد الملك حنّا)، وذكر كيف كانت تتباه نوبات الصرع في الفصل حتى انقطع عن المدرسة.. أمّا بقية الصفّ فتذكّر وجوههم وغابت عنه أسماؤهم ومصائرهم، وعرف في الصفّ الثاني وجّها كأنّما تركه بالأمس. كان ابناً لأحد كبار المستشارين، فكان يتمنّع لذلك بنفوذ وصوّلته فيحييه الناظر إذا بصر به، ويلاطفه المدرّسون، وقد علم فيما بعد أنّه عيّن وكيلًا للنيابة وترقى قاضياً، ولعلّه يتأثر الآن خطي أبيه الكبير. أمّا من يليه من الصغار فجّلهم من الغمورين وبعضهم معه في المعارف وهو يعرفهم حتّى المعرفة. وأمّا آخر هذا الصفّ - الذي ينظر إلى المصوّر بتحدّ غريب ويشبك ذراعيه على صدره - فكان من أشقياء التلاميذ المولعين بالشجار والتصادم، وقد طرد من المدرسة لاعتدائه على أحد المدرّسين. ومن العجيب أنّه احترّف فيما بعد «البلطجة». وطاف بالسجن مرّات.

وألقي نظرة أخيرة على الوجوه الأخرى فلم يعرف عنها شيئاً إلّا الدكتور المعروف (حنّا عبد السيّد)، وإلّا هذا الذي يتوسّط الصفّ الأوّل، كان من أنبغ التلاميذ جميعاً، وكان أوّل الابتدائية ثمّ أوّل البكالوريا والتحق بمدرسة الحقوق كبير المهّمة سخيّ المواهب، ولكنّه أصيب أوّل عهده بها بداء الصدر فاضطرّ إلى ترك المدرسة والكفّ عن التحصيل، واشتغل بعد ذلك بعامين كاتباً في الصّحة.. فلا يقلّ حظّه شذوذاً عن حظّ الوزير نفسه.

نال كلّ منهم نصيبه وخضع لحكم حظّه وسعيه. كانت تجمع بينهم جذران واحدة، لا يكاد يتميّز

الدراسة، والتحق صاحبه بمدرسة الحقوق، ثمّ حصل على الليسانس، وكان أبوه محمّد باشا شامل وزيراً للحقانيّة فعينه سكرتيراً له في الدرجة الخامسة فكانت القفزة الموفّقة الأولى. وقرأ بعد ذلك في الصحف أنّه اختير لبعثة في فرنسا لا يعلم كم أمضى بها وما حصل عليه فيها من الإجازات، ولكنّ كثيرين يعلمون بزواجه بعد ذلك بسنوات من كريمة المرحوم حامد باشا حامد الذي تولّى الوزارة مرّات فارتقى فجأة إلى الدرجة الثالثة مديراً لإدارة التشريع، وانقطعت عنه أخباره فترة وجيزة حتّى علم بتوليته مديرية أسوان، ثمّ بترقيته محافظاً للقنال بعد ذلك بقليل، ثمّ باختياره وزيراً للمعارف، ومضى على توليته الوزارة أسابيع والمجلّات لا تكفّ عن الإشادة بمواهبه القانونيّة ومقدرته الإداريّة ومشروعاته عن إصلاح التعليم، وكاد جلال أفندي أن يصدّق ما يقال لولا أنّه قرأ مقالاً عن تفوّق الوزير في عهد الدراسة - في العلم والرياضة البدنيّة معاً - وكيف أنّ مفتشاً من مفتشي الوزارة تنبأ على أثر مناقشته بأنّه سيكون يوماً وزيراً، فأغرق الرجل في الضحك وقال ساخراً: «الآن فهمت سرّ المواهب القانونيّة والإداريّة!».

وتنهّد جلال أفندي رغيب وتمتم قائلاً: «دنيا!» وأراد أن يريح نفسه من أفكاره فتناول مجلّة يقلّب صفحاتها المصوّرة، والظاهر أنّ ذكريات الوزير كانت تأتي أن تفارقه فرأى صفحة من المجلّة مخصّصة للوزير تنوسطها صورة كبيرة، ما إن بصر بها حتى صاح في دهشة وغرابة: ربّاه هذه صورة فصلنا القديم».

وألقي عليها نظرة سريعة فثبت بصره على صورته وكان يقف في الصفّ الأوّل وراء المدرّسين مباشرة إلى يمين الوزير ينظر إلى عدسة المصوّر في ابتسام وثقة؛ وكان الوزير كالعباس وعلى حاجبه الأيمن ذبابة، فضحك جلال طويلاً وذكر قصّة الذبابة، وكانت في الأصل من نصيبه هو وتنبّه لها والمصوّر يهّم بالتقاط الصورة فهشّها بسرعة فطارت عنه إلى حاجب قرينه وحطّت عليه؛ وقد أحسنّ أسفاً لذبّة الذبابة فلعلّها كانت ذبابة الحظّ السعيد سكنت إلى وجه الوزير

وأَنَّهُم عَمَّا قَلِيلٍ يَمْلَأُونَ الْبَيْتَ حَيَاةً وَقَلْبَهُ نُورًا، فَرَمَى  
الْمَجْلَّةَ بَعِيدًا وَطَرَدَ مِنْ عَقْلِهِ الْوَسْوَاسَ لِيَسْتَقْبِلَهُمْ أَجْمَلُ  
اسْتِقْبَالٍ، وَقَالَ لِنَفْسِهِ مَتَعَزِّيًا:

- مِنْ الْخَطَا أَنْ يَفَكِّرَ الْإِنْسَانُ فِي شَتَّى النَّاسِ مَا  
دَامَ هَذَا لَا يَوْرَثُ إِلَّا الضَّيْقَ، وَحَسْبِيَ أَنَّ مَعَالِيَهُ قَالَ  
لِي: «اطْمَئِنَّ».

وراءها إنسان إلّا بجَدّه وخلقه، ففَرَّقَتْ بَيْنَهُم الْحَيَاةُ،  
فَرَفَعَتْ وَخَفَضَتْ، وَأَحَبَّتْ وَأَمَاتَتْ، وَأَذَاقَتْ الْفَقْرَ،  
وَمَتَّعَتْ بِكَرْسِيِّ الْوِزَارَةِ، وَكَلَّ بِمَا قَسَمَ لَهُ غَيْرُ رَاضٍ  
وَلَا قَانِعٍ.

ونظر جلال أفندي عند ذاك في الساعة فوجدَهَا  
تدور في الرابعة، فعلم أَنَّ مَوْعِدَ الصِّغَارِ آنَ وَاقْتَرَبَ،

## إصلاح القبور

وعلاه البلى فهذه «شاهده» وتشقق بنيانه.. وأسفاه كان المرحوم في نضرة الشباب فلم يعن يوماً بهذا القبر الذي لم تمد له يد بإصلاح ما يقرب من نصف قرن من الزمان، حتى توارى بين ركامه شبيبة ناضرة في حفرة شائخة.. فكانت إذا رأت الفناء المعفر و«الشاهده» المهتم راحته زائغة البصر مكلمة الفؤاد، وأفحمت في البكاء. ووجدها التري يوماً تندب القبر المهتم وتبكي بكاء مرّاً فانتظر حتى رآها تهتم بالانصراف فدنا منها وقال لها بركة ولباقة:

- ألا ترين يا سيدتي أنّ هذا الفناء مترامي الأطراف!.. فهلاً بعث نصفه أو بعته كله وجذدت بماله القبر وأصلحت حجراته؟..

واستهواها قوله فأصغت إليه برغبة ولهفة وقد تفتحت لها سبل الأمل، ولكنها ذكرت أنّ مكافأة زوجها لم تصرف بعد فما الداعي إلى التصريط في الفناء؟.. كلاً لتبق المقبرة على ما هي عليه، وحين تأخذ المكافأة - ولو بعد ستة أشهر كما قيل لها - تجدد القبر وتصلح الفناء وتغرس في أرضه شجيرات يانعة تستدرّ الرحمة وتطرد الوحشة، وعادت يومئذ وقد تخايل لعينها في الأفق حلم من أحلام العزاء. فغداً عندما يجدد القبر وتطل الجدران ويفوح المكان بشذا الريحان يتنسم قلبها المحزون نسايم العزاء البارد وتجدي في الأنس بالوفاء سلوى عن وحشة الوجود.

ومضى يوم ويوم وأسبوع فأسبوع وشهر ثم شهر والقبر غايتها وسلوتها وأجل موعد يتيح لها الزمان، إلا أنّها كانت تتغير - بطبيعة الحال - ككل شيء في الحياة في بادئ الأمر كانت تبكي ليلاً ونهاراً، ثم مضت تبكي سحابة النهار وتهدأ بالليل، ثم صارت تبكي كلما

قضى من بيده القضاء أن يكون ليل ١٦ أغسطس تاريخاً فاصلاً تنهز له جوانحها ويتصدع به فؤادها، فلم بعد مجرد وحدة من الزمان الذي لا ينتهي ولكن شيئاً من ذكريات سود يجمع بينها غشاء من الحزن واللوعة، وشاهد ذاك الليل صدرها ضيقاً يعلو وينخفض ورأس صاحبه مستنداً إلى صدرها، وسمع حشرجة ما يزال صداها يمزق مسمعيها، وفي لحظة رهبة كأنما جفت فيها ينابيع الرحمة في السماوات والأرض صارت أرملة في نضارة الصبا وشرخ الشباب، فأغمضت عينان ألفت أن تطلعن في نظرتها الحنان والموتة، وسكت لسان جعل يناغيها عاماً ويضع عام المناغة الحلوة السعيدة، ويدلّها فيناديها نغومة مرة ونعمات أخرى، وجد الساعدان اللذان كانا يضمّانها إلى مرتع الوداد والهوى. انتهى تاريخ وبدأ تاريخ على عجز منها ورغم؛ لأنه كان قد قدر لها أن تلقى نصيبها الكثيف من الحزن والبكاء والحسرة، وأن تجلّ شبابها النضير بسواد الحداد أو سواد اليأس. ثم هجرت البيت الذي كانت سيّده ورثته فأخلت لها حجرة وعاشت عيشة لا تجد فيها أسباب الترحيب إلا ما تقضي به تقاليد المجاملة الظاهرية..

استوحشت دنيا الأحياء ولاحت لها معالمها غارقة في ظلال الكآبة والقنوط، فأغلقت دونها نفسها، وولّت عنها بقلب يأبى حبّه أن يستسلم للموت. ورمّت بناظرها بعيداً إلى حيث ترقد القبور في سكون الأبدية ووحشة الفناء، فعند ذاك القبر سحت عينها دمعاً غزيراً ساخناً فروت جفاف قلبها ورطبت حرارته. ولكن أيّ قبر كان ذلك القبر؟..

قبراً قديماً انتبذ ركناً من فناء واسع موحش خال،



وكانت توعدت وجوده بما شاءت من السخط  
المكتسوم.. فلما لم تجده لم تر بداً من الارتساح  
والسرور.. لكتها تساءلت ترى هل اختفى لأن شاعلاً  
قطعه عن رؤيتها أم إنه عدل عن سيرته الأولى؟!

وجاءها شقيقها وزوجه يوماً، وكان مضى على  
تاريخ الوفاة - ١٦ أغسطس - خمسة أشهر، وقال لها  
الرجل برقة:

- أرى أنه ينبغي أن ينتهي هذا الحزن بمشيئة الله!  
فنظرت إليه بعينيها الصافيتين متسائلة حيرى، فقال  
لها الرجل باقتضاب مقيد:

- جاءك رجل يطلب يدك!  
وذكرت لتوها رجل الفيلا، ودق قلبها بعنف  
ولاحت في عينيها نظرة ارتياح فهتفت به منكراً:

- يا خبر!.. كيف تقامني بهذا يا أخي؟!  
فقال الرجل بهدوء ووقار وحزم:  
- ولم لا.. أصغي إلي.. أين أبونا وأين أمنا؟  
الحزن إذا زاد عن حده صار معصية لإرادة الله،  
فلينظر الأحياء إلى حياتهم، أما الأموات فلهم رحمة الله  
عوض عن الدنيا وما فيها. فليس هو في حاجة إلى  
حزنك. كلاً ولن يغني عنه وفاؤك فتدبري أمرك بعين  
الحكمة.

وضمت زوج شقيقها صوتها إلى صوته وتكلمت  
بمثل حماسه وأكثر فقالت نعيمة لنفسها: لقد تحالفا  
معاً، ولعلهما يرتحبان بالرجل كي يريحهما منها فما من  
شك في أنها عالة ثقيلة عليهما وأنها ضيقت عليهما  
البيت، فاستمسكت بهذا الخاطر وإدارته في نفسها حتى  
ملأها، وكانت في الحقيقة اقتنعت بكل ما قاله أخوها  
من أنها لن تقيم على الحزن إلى الأبد، وأن حياتها أولى  
بالرعاية من موت الآخرين، ولكنها أبت أن تفكر في  
غير هذا الخاطر الذي توهمته توهمًا أو فرضته فرضًا  
وأمنت به بعناد، بل جعلت - فيما بينها وبين نفسها -  
تلوم أخاها على برمه بها، الأمر الذي ربما أجبرها على  
اختيار ما لا تود، أما شقيقها فاستدرك يقول:

- ولا تخشي لومة لائم فالرجل على استعداد تام  
لتأجيل الزواج حتى ينتهي العام.

خطرت ذكراه على فؤادها الحزين، ثم انشغلت بالحياة  
طوال الأسبوع واستأثر بها الحزن كل صباح جمعة.  
وكانت أول عهدها تمضي إلى المقبرة لا تلوي على شيء  
فلا ترى من الدنيا شيئاً، أما بعد الأشهر الأولى فلم  
يمنعها الحزن من أن تسير بكيفية الخلق بعينين  
مفتوحتين، وفي ذاك الهدوء النسبي استطاعت أن  
ترى - في ذهابها إلى المقبرة وعودتها منها - رجلاً يجلس  
عادة كل صباح جمعة أمام الفيلا التي تشرف على مبدأ  
الطريق الصاعد إلى المقابر يرتدي جلباباً ومعطفاً،  
ويقطع الوقت بقراءة الجريدة وتدخين غليون، كانت  
تراه دائماً بمجلسه هذا، فإذا مرت به صعد إليها عيني  
ثاقتين وحدها بنظرة يلوح فيها الاهتمام الشديد.  
هكذا يستقبلها وهكذا يودعها ولعله كان يطاردها  
بنظراته منذ أول عهدها بهذا الطريق الموحش، وعلى  
آية حال لم يغير من عادته ولا هنت مثابرتة، وبرمت  
بعينيه، وكرهت تفحصه لها.. لماذا ينظر إليها  
هكذا؟!.. وهل هو يتابع كل زائرة لهذا الطريق بهذا  
النظر العنيد؟!.. أيتسلى الرجل بهذا النظر الوقح إلى  
الثالكات والأرامل؟!.. إلا أنها وجدت نفسها - بمضي  
الأيام - كلما شارفت مبدأ الطريق مضطرة إلى تذكره  
وغثل نظراته العابرة التي سيلقاها بها.. بل جعلت  
تذكره بعد ذلك صباح كل جمعة وهي تتلقع بسوادها  
وتأخذ أهبتها لمغادرة البيت فقد صار هذا الرجل العنيد  
وكأنه جزء لا يتجزأ من طريق القبر، ولم ينفعها  
الغضب ولا أغنى عنها السخط ولا وجدت عن سبيله  
حولاً، ويوماً رأته مرتدياً بذلته فحسبت أنه مزعج المسير  
إلى بعض شأنه، وأملت ألا تجده عند إياها، ولكنّه  
كان بمجلسه حين عودتها كأنه ينتظر في صبر وأناة، وما  
كادت تجاوزه بخطوات حتى نهض قائماً وتبعها  
منمهاً!.. وحسبت أنها أخطأت الظن ولكنّه انعطف  
وراءها إلى شارع البراد.. ثم إلى شارع الجميل..  
ودخلت البيت مضطربة لاهته فمر به في خطاه الوثيدة  
وألقي عليه نظرة جامعة!.. تبأ له؟.. ماذا ينبغي من  
وقاحته هذه؟!.. أما يحترم السواد الحزين الذي يجلل  
وجهها، وفي الزيارة التالية لم تجده بمكانه المعهود!

انشغالها عجز أخيها عن مساعدتها المساعدة الجديّة التي تريدها فناءت بحمل ثَقِيل رفعت المكافأة عن كاهلها بعضه لا كلّ. حتّى ذكرت يوماً فناء المقبرة الذي اقترح الدافن عليها مرّة أن تبيعه أو تبيع نصفه.

... وغلبها الوجوم للذكرى العابسة إلا أن الوجوم ذهب لحال سبيله، ولبثت تفكّر في ذلك الاقتراح القديم، وتمتّ لو تستطيع أن تسرق خطاها إلى الدافن وتحذّثه بأمره!.. ولكنّه كان تفكيراً عقيماً لأنّ المدفن لم يعد ملكاً لها فلا تستطيع التصرف في قرش من ثمنه.. ولعلّ هذا ما ملأ نفسها أسفاً إلا أنّها التمسّت أسباباً أخرى لهذا الأسف فجعلت تلوم نفسها على قسوة أفكارها وتلعن الحياة التي تقضي سنّتها بأن يكون موت الوفاء عين الحكمة أحياناً!

وقبل أن ينتهي العام بأربعة أشهر قال لها الرجل الصبور وقد اطمأنّ إلى ظفّره بقلبها:

- ما جدوى الانتظار هذه الأشهر الأربعة؟! ألا ترين أنّنا في أواسط الصيف وأنّه يحسن بنا أن نمضي شهر العسل في رأس البر؟

فخفضت عينيها كي لا يقرأ فيها ما أرادت كتّانها، وصمتت لحظات كأنّها مغرقة في تفكير عميق ثمّ غمّمت بصوت خافت:

- ليكن ما تشاء!

وتركها بلباقة إلى أفكارها ثمّ كرّ عليها مرّة أخرى صباح اليوم الثاني وسألها عمّا ترى؟.. ورأت نعيمة أن تلوذ بالصمت فطاب أخوها نفساً وأدرك أنّها وافقت، وسارت الأمور في مجراها الطبيعي. ولمّا جاء أوّل يوم جمعة بعد الخطوبة ذكرت القبر والزيارة المعتادة وتساءلت حيرى: هل يجوز أن يراها في الطريق الذي نعوّد أن يراها فيه؟!.. أليس الوفاء للقبر خيانة له؟!.. لشدّ ما يشقّ على الإنسان قطع عادة عزيزة ولكن ما جدوى الزيارة الآن؟.. لقد رضيت باستقبال حياة جديدة فأؤلّ لها أن تأخذ نفسها بالرضاء والقبول، نعم حسبت يوماً أنّ ذاك القبر سيكون قبلتها إلى الأبد ولكّتها لم تعمل حساباً للزمن. الزمن الذي يذيب الصخور ويفتّت الصروح ويغيّر وجه البسيطة، أليس يقادر أن يمسخ عن قلبها شجونها؟ وقرأت هذه المرّة الفاتحة على البعد وقالت لنفسها إنّ البعد لن يمنع رحمة الله من أن تؤنس الثاوي في قبره، ومضت الحياة في سر فانتصف العام وتوجّه قلبها وجهة جديدة فاطّرح الحزن وأشرق بنور أمل جديد وتطلّع للغد بعين ملؤها الرجاء والحبّ. وجاءتها المكافأة وهي على تلك الحال فلم تفكّر في تجديد القبر المهذّم ولا في غرس الفناء المعفّر ولا عاتبتها نفسها على إهمالها. والحقّ أنّها كانت عن ذلك في شغل من أمر جهازها الجديد وإعداد ثياب الحياة الزوجيّة الجديدة، وزاد من

## المرض المتبادل

الطبيب قائلًا:

- وأسفاه، إنَّ الشهوات تعمي الرجال حتَّى المتزوجين منهم! ومهما يكن من شيء فالواجب يحتم عليك أن تجاهي زوجك بالحقيقة وقد كان الواجب عليه أن يصونك من عواقب مغامراته. أمّا وقد وقع المحذور فلا محيد من تنبيهه واصطحابه إلَيَّ وإلّا ذهبت محاولة علاجك سدى.

ولكن خرجت من المرأة صرخة مبجوحة وقالت بسرعة وهي تلهث:

- كلاً.. كلاً.. لا يمكن أن يكون ذلك.. بادر إلى علاجي ودع أمر زوجي.

- ولكن...

- بالله لا تجادلني.. لا ينبغي أن يعلم زوجي من الأمر شيئاً.. أدّ واجبك وسينتهي الأمر إلى خير إن شاء الله..

فاستولت الدهشة على الطبيب وأنعم النظر في الوجه الفلق الذي طغت آلام نفسه على الآم جوارحه. فطالع فيه الألم والرعب والإثم.. يا للهول! أيمن أن يكون ما لم يقع له في حسابان أبداً.. أيمن أن تكون هي الجانية على نفسها، وربّما على زوجها أيضاً..؟

وما من شك في أنّ الزوج مهتدّ بخطر عظيم، إن لم يكن أدركه بالفعل فهو على وشك أن يدركه، وربّما وقع في متناول الأذى أطفال أبرياء يحبون.. فما العمل؟ وكيف يتأتّى له أن ينقذ هذه النفوس ممّا يوشك أن يحرق بها من غير أن يبتك ستر هذه المرأة الآثمة الهلعة المتألّمة..؟

وأحاط به همّ التبلبل والحيرة حتّى ضاق صدره

فرغ الطبيب من الكشف على الزائر الخامس في صباح ذلك اليوم، ولبت ينتظر المريض السادس، فدخلت سيّدة مقنّعة رشيقة القامة وسفرت عن وجه غاب جماله البهيّ خلف تجعّادات الألم كوردة بيضاء سفا عليها عجاج الخمسين، وقد بادرت هاتفة:

- الغوث أيّها الطبيب!

فلدنا منها وعلى وجهه ابتسامة تبعث الطمأنينة وسألها:

- ما بك يا سيّدي؟..

فارتمت على مقعد بين يديه وراحت تروي له قصّة ذلك المرض الويل الذي فاجأها لدى الصباح فاضطرّها إلى أن تقصد إليه دون أن تترتّب لحين أوبة زوجها من الوزارة. واستمع الطبيب إليها في دهشة وحيرة وهو يحاول عبثاً أن يوفّق بين ما يروى له، وبين هيئة السيّدة المتزوّجة التي تنطق بالحشمة والصبون.

ثم أدّى واجبه الدقيق بعناية فثبت لديه ما كان منه في ريب واكفّهز وجهه وهو يقول:

- سيّدي.. إنّهُ لأمر مؤثّر.. لقد أصبت بمرض خبيث.. بمرض سريّ..

فانقبضت المرأة قائمة وجحظت عيناها من الهلع والذعر، وقد ضاع ألمها المبرّح في تيّار الخوف الجديد وصاحت به:

- مرض؟..

- نعم يا سيّدي.. إني أعني ما أقول، ولكن هدّئي من روعك واملكي زمام نفسك حتّى لا تجرّ هذه الكارثة وراءها كوارث أخرى أشدّ إبلاماً. أقلت إنك متزوّجة؟

فاحت رأسها أن نعم وهي لا تدري، فاستطرد

فبدأ على وجهها الرعب وسألت:

- ولم هذا؟

فقال يطمئنها:

- لا تخافي ولا تحزني.. إنها تقاليد متبعة.. انظري

إلى هذا الدفتر تجديه مزدحمًا بأساء المرضى  
وعناوينهم.. لا تخشني شيئًا واذكري أنني طبيب لا أكثر  
ولا أقل..

فقالت وهي تتنهد:

- حرم محمد عباس أفندي موظف بوزارة الأشغال.

\* \* \*

وفي صباح اليوم الثاني جاءت السيدة وقد قالت  
للطبيب إن ما يبدو على وجه زوجها من الهدوء  
والصحة ينعش الأمل المحتضر في صدرها.

فلما أن كان المساء دخل على الطبيب زائر جديد في  
الثلاثين، ملجئ القسيات طويل القامة، تسم وجهه  
آيات الذكاء والجرأة، فحيا الطبيب قائلاً:

- مساء الخير.

- مساء الخير.

فضحك ضحكة جهد نفسه أن تكون مرحلة  
طبيعية، ولكنها لم تستطع أن تخفي القلق المساور لنفسه  
وقال:

- أصبت يا دكتور.

- بئح..؟

- بالذي يصاب به من يقصدونك.

- وأسفاه.

- أناسف حقًا يا دكتور.. أيرضيك أن يزدجر

الناس عن الهوى وأن تحسر جمهور المترددين عليك..؟

- لا أظنك قد جئت إلى هنا لتتفلسف.. اتبعني إلى

هذه الحجرة.. ولكن انتظر لحظة، أرجو أن تملي عليّ

الاسم الكريم.

- محمد عباس.. أنا جارك يا دكتور. وإن شئت أن

تعرف صناعتي فانا مهندس بوزارة الأشغال.

يا للمفاجأة! كادت تفلت من بين شفثيه آهة دهشة

وانزعاج، وهم أن يرفع رأسه عن الدفتر بحالة عصبية

فحدث نفسه: لماذا أزعج نفسي في شئون الناس  
وآلامهم..؟ إني طبيب وما ينبغي لي أن أجاوز حدود  
مهنتي.. وبين يدي امرأة ملوثة فلاشع في معالجتها  
والأمر من بعد ذلك لله.

واطمأنت نفسه إلى هذا الرأي وهم مباشرة عمله،  
ولكن سرعان ما عاودته أفكاره وقسرتة نفسه على  
مراجعة التفكير في أمر هذه الأسرة المهتدة فرأى أن  
يتخذ طريقًا وسطًا فقال:

- سيدي. ينبغي أن تعلمي أن زوجك في خطر  
عظيم.. وأن إخفاءك الأمر حيا لن يمنع الحقيقة من  
الظهور.

فاختلجت عنها كالزئبق المترجرج وقالت:

- كم يقتضي العلاج من الزمن..؟

- أسبوعين على أقل تقدير ومع أكبر عناية.

- أواه.. إنه الدمار.

- فإصابة زوجك محتومة..

- من الميسور أن أدعي توقعك المزاج هذه الفترة وأن  
أبعد ما بيني وبينه حتى أبرأ.

- فإن كان قد سبق السيف العذل..؟

- أواه يا سيدي.. لا يمكن أن أنتحر مختارة، ثم إن  
زوجي رجل مستقيم يصعب عليّ صكحه بالحقيقة  
المروعة.. فدع الأمور تجري على مشيئة الله فلعل الله  
حفظه من الأذى، وعسى أن يجعل من بعد عسر  
يسرًا.

وساد سكون عميق مؤلم.. وكأن المرأة تذكرت شيئًا  
فجأة فنظرت إلى الطبيب جزعة وسألته:

- سيدي. هل يبقى هذا سرًا مكتومًا..؟

- طبعًا.. طبعًا.. اطمئني إليّ كل الاطمئنان،

فصدر الطبيب مقبرة للأسرار لا تنبش أبدًا.

فتنهدت من قلب مقروح وقالت:

- إذن فلنبدا من الساعة.. وسأوالي الحضور إلى

هنا كل صباح إلا يوم الجمعة.. ولانتظر ما قدر لي.

ولما انتهى من عمله وهمت بالخروج استمهلها لحظة

وجلس إلى مكتبه وسألها:

- ما اسم السيدة..!

خير العواقب. فحاول أن تصحبها إليّ من غير أن تثير شكوكها.

فبدت على وجه الرجل الحيرة وقال وهو ذاهل عن نفسه:

- أحاول.

وحدث الطبيب نفسه بعد أن غاب المهندس عن ناظره: إنّ الله يريد الخير لهذه المرأة.. وكأنّ الأمور تسير وفق مشيئتها، فسيأتي بها إليّ، وأكشف عليها وأعلنه بإصابتها. فيوفن في نفسه أنّها صحبته دون سواه، ويرآن على يدي ويعود الرجل بزوجته رافعاً يديه حمداً لله وطلباً لغفرانه. وهو يجهل أنّ زوجته قرطت في حقّه أضعاف ما قرط في حقّها.. فيا لرحمة الله..

ولكنّ ليس من الظلم أن يغشى الله بستره خبيثة هذه المرأة الآثمة؟  
فيا لحكمة الله.

\*\*\*

وحان موعد مجيء المرأة ولم تحضر، فترجّع لدى الطبيب مجيئها مع زوجها عند المساء، ولكنّ المهندس أتى وحده وكان بادي التغير، منكفئ الوجه، مصفرّ اللون، منطفئ البصر كأنّه تقدّم في الكبر أعواماً، فتوقّع الطبيب مفاجأة وبلاء وسأله:

- ما بك..؟

فهزّ رأسه بحزن وقال:

- ماذا تحدثس...

- لعلّك راودتها على المجيء فأبت وعصت...

- كان يهون..

- آه.. إذا قد انفضح أمرك ولم تتقن تمثيل دورك... ونلت جزاءك على يديها.

فسها الرجل لحظة ثمّ قال بصوت تقطعه حشرجة اليأس:

- يا يؤس هذه الدنيا...

فهزّ الطبيب كتفيه استهانة وقال:

- كثيراً ما أسمع هجاء مريراً يصبّ على رأس الدنيا، ولكنّي أعتقد أنّ الإنسان هو الخالق الأوّل لهذه

تنمّ عمّا يضطرب في صدره، ولكنّه ذكر تخرّج الموقف واشتتاله على ما يهدّد بالويل، فصرّ بأسنانه وأحنى رأسه حتّى كاد يلمس الصفحة المبسوطة أمامه ليخفي معالم وجهه عن القاعد تجاهه.

إذن هذا هو الزوج المنكوب، وقد أصيب بما كانت تشفق زوجته عليه وعليها منه.. ترى كيف كان وقع البلاء على نفسيهما.. كيف اكتشف المرض وكيف تحسّس مصدره..؟ وماذا جرّ ذلك على حياتهما الزوجية؟ وأين يا ترى المرأة الآن..؟ وكيف قرعتها الفضيحة وكيف تتجرّع عواقبها. ليتّه يعرف كلّ شيء...

أمّا الآن فما عليه إلّا أن يؤدّي واجبه. وخطا بالفعل نحو الحجرة الداخلية ولكنّه سمع المهندس يقول له بلهجة حزينة:

- إني أخشى يا دكتور أن تعقب هذا المرض مأساة اليمة.

فسأله وهو ما يزال شارد اللب.

- وله؟

- لأني زوج.. وربّ أسرة.

فقطّب الطبيب جبينه وبدت عليه آيات الدهشة، وفهم الرجل دهشته على غير حقيقتها فقال:

- هكذا ترى أنّه ليس العزّاب فقط هم الذين يأثمون...

- أتعني أنّ زوجك مهتدة؟

- طبعي يا دكتور.. إنّ موقعي غاية في الحرج.. والذي يضاعف لي الآلام أنّها سيّدة طيئة لا تستحقّ أن تجزى هذا الجزاء السيّء... فما العمل؟...

يا عجباً!.. لقد وضّح وبرّح الحفاء: كلا الزوجين آثم، وكلّ منهما ينحى باللائمة على نفسه. وكاد يستسلم لتيّار أفكاره لولا أن سمع الرجل يلحّ عليه في السؤال ويكرّر قائلاً:

- ما العمل يا سيّدي الطبيب؟

فقال له:

- بالحكمة تستطيع أن تصرف الأمور المعقّدة إلى

بكل شيء: يجب أن تصغي إليّ.. تعالي معي إلى الطبيب لأنّي مصاب وأريد أن أعرف..) ولم أتم كلامي لأنها انتفضت قائمة متصلة كالأفعى المتوتبة للاقتراس وجحظت عيناها ولم تتالك نفسها فسرت في جسدها رعشة شديدة فأدهشني ذلك وسألت نفسي: ما لها..؟ وهممت أن أعاود الكلام في ملاطفة مصطنعة ولكنّها قطعت عليّ الطريق بهزة عصبية ما زالت تكررّها بعنف جنونيّ حتّى تلبّست صورتها هيئة غريبة تنذر بالويل، فازدادت بي الحيرة وسألتها: (ما الذي يربك؟ لم تحشين الطبيب؟) فصاحت بصوت ملتبس لا تكاد تميّز نبراته: (الرحمة.. الرحمة) ولكن عاودني الغضب بحالة لم تأذن للرحمة أن تأوي إلى مستقرّها في قلبي: فخطوت نحوها أهدر غاضباً ساخطاً فصرخت: (عمد.. الرحمة.. الرحمة.. لقد كشف الله خبيتي.. أنا الجانية على نفسي وعليك.. أنا أعرف أنّك تعلم ذلك ولكنّي استحلّفتك الله بالآ تمسّني... طلقني ولا تمسّني) ثم ارتعت بين قدمي مغمى عليها.

ما معنى هذا..؟ لقد تسابقت الظنون إلى قلبي.. وانصبّت الشكوك في عقلي، واكتظّ بها رأسي فأنصهر من الحرارة والالتهاب، وخلت أن شعر رأسي يقف ويتصلّب كشعر القنفذ.

إنّ المرأة لتبهظ الرجل وتثقل كاهله وهي تؤمن بأنّها لم تجاوز بعض حقوقها، أمّا إذا اعترفت بأنّها جانية وسألت الرحمة ووقعت مغشياً عليها فلن يكون ذلك إلا لأمر واحد.

يا عجباً... فقد ذهبت جانباً أنّها فإذا بي مجنى عليه. رحت أكفر عن ذنبي فإذا بي ضحية تسمّة! ماذا يمكن أن يفعل رجل في مكاني؟..

نعم لقد قارفت من الذنب ما قارفت، وسقطت في الهاوية التي ابتلعتها فهل من المستطاع أن أسدل ستاراً كثيفاً على تاريخ الإثم كلّ! وأن أحمل عقاب الله الصارم في صبر، وأروّض نفسي على العفو والصفاء؟..

الآلام التي يتملّص من تبعثها ويلقيها على عاتق الدنيا...

- كما تشاء... اعلم يا سيدي الطبيب أنّي في الفترة القصيرة التي تغيّبت عنها أحدثت في حياتي حدثاً هائلاً، فقد فصل الطلاق بيني وبين زوجي، وحرمني نور أطفالي حيناً ساخاله دهرًا مديدًا...

يا للهول... ترى ما الذي حدث؟ وكيف حدث؟.. فإنّ قلبه يهمس له بفحواه، ولكنّه لا يدري تفاصيله ولا يستطيع أن يرجم بما قلب منطق الحوادث وجعل عاليها سافلها...

واستولت عليه الدهشة وباتت عيناه تلحان بالسؤال بأفصح ممّا يبين اللسان... فقال المهندس:

- إليك قصتي بكلّ إيجاز: غادرتك ليلة الأمس وقد صدقت نيتي على دعوة زوجي إلى زيارتك كي يطمئن قلبي، ولكنّي كنت مضطرباً لا أدري كيف أبدا باقتراح الأمر عليها ولا علم لي إن أنا اقترحت بما أبرره به، فأنخّذت مكاني على مقربة منها بادي الهمّ والفكر. وللحال لاحظت طوارئ الهمّ والاضطراب تزحف عليها زحفاً، فظننته صدى لاضطرابي وهمي واستجابة لها. وتلبّثت أنتظر أن تبدأ بسؤال عني يساورني فلم تفعل، فضقت بالأمر ضيقاً استفزني إلى طرح هذا السؤال: «ألا تشكين من شيء..؟ ألا تحسّين بأنّ ما..؟» فحملت في وجهي بعينين هالعتين وقالت باضطراب: (كلّاً.. كلّاً.. والحمد لله) فتهاكت نفسي وقلت كاذباً: (ألاحظ عليك هذه الأيام بعض الاصفرار والتغير، وقد رأيت أن أترح عليك زيارة طبيب.. فما رأيك؟) فردّت بحدة وبلهجة من يتحمّس لدفع خطر مروع: (كلّاً.. كلّاً.. أنت واهم ولا لزوم لذلك ألبيّة.. إني أكره الأطباء وسيجّ وساوسي الاستعاضة لنصائحهم).

فطال طلاي وطال رفضها، فألححت عليها فأصرت، فرجوت وتوسّلت فعندت وازدادت تشبّثاً، وعبثاً حاولت أن أثنيتها على رأيها حتّى دهشت لإصرارها وضقت صدرًا بها، وبنفسي، فاهتاجني المرض والغضب وصحت بها بجنون جعلني أستهر

بالطلاق على رابطة الزوجية: فخرّب بيتي وانتزعت  
الحضانة منّي أطفالاً أعزّة، كانوا نور حياتي المشرق،  
فسبحان الله أحكم الحاكمين.

إنّه حلّ روائيّ قد يستحسنه غيري ويعطف عليه  
نفر قليل من الناس، أمّا أنا فقد انسقت مع طبعي  
' وأصخت إلى صوت الغضب في قلبي، فهويت

## حياة مُهرَج

الضحك حتّى دمت أعينهم . ولم يقنع بهذا الفوز فتقدّمهم في الحارة وتبعوه وهم يصفّقون تصفيقاً توقيعيّاً وهو يرقص ويقفز ثملاً بخمر الفوز والفرح .

كان يستلهم ألامه غريزة حيّة توحى إليه . وكان قلبه الصغير لا يذوق السعادة إلّا حين يضحك ويهيج ضحك الآخرين ولو من نفسه بل إنّ نفسه ليجود بها في سبيل الضحك .

هكذا تفتّحت موهبته الخارقة في حارة جعيصة . ثم لم تقف من بعد ذلك عند حدّ . فمن آياته في ذلك العهد البعيد أيضاً أنّه كان يحاكي بمهارة فائقة أصوات الكلاب والقطط والبقر والحمر واليوم والغربان . وأنّه حفظ على حداثة سنّة أغلب القفشات والنكات البلدية التي تلقى جزافاً في القهاوي والغرّز ؛ بل كان إذا أعوزه سبب لإثارة الضحك يمدّ قفاه للرفاق فيصفعونه ويضحكون .

وكان يندفع في سبيله بقوة غريزة مستحكمة قهّارة كأنّه فتان صادق أمين . ولم يقصد قطّ أن يتقاضى عن فنه أجراً . ولكنّ المجد أتاه طوعاً مجرّ أذباله . وإذا به يشغل مكاناً عاليّاً بين الرفاق الصغار . وإذا به قطب يهدفون إليه ويطفون به ويلبسون في سبيل مرضاته الدوم وأبو النوم وغزل البنات .

ولكنّ للطفولة نهاية ككلّ شيء في هذه الدنيا . وقد ودّع عهدها الجميل واستقبل عهد الشباب واشتغل في حانوت والده في أوّل شارع الحرنفش يبيع الخردوات . وأراد أبوه أن يزوّجه فتزوّج وكانت زيجة سعيدة وصلت ما بين آل شلّضم الكرام وآل الأعمش معلّم العربات الكارو الشهير وسيّد موقف النحاسين . وعمرت بيت شلّضم الفتاة المهذّبة حميدة ربيبة

توفّي بالأمس السيّد حسن شلّضم بمنزله الكائن في حارة جعيصة بالحرنفش وانتقل من مقرّه الدنيويّ إلى مثواه الأبديّ في جناز متواضع اقتصر على أبنائه الثلاثة وشرذمة من الأصحاب عدا عربة كارو حملت بناته الثلاث وأمهّن وامرأتين أو ثلاث أخريات .

لم يكن السيّد المتوفّي إلّا مهرّجاً . أو كان أشهر المهزّجين الذين جمعت حياتهم بين الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأوّل من القرن العشرين . ومن حسن الحظّ أنّ الفنّ لا يأخذ بمقاييس المجتمع في تاريخ الرجال ولأ ما كان للمتوفّي حظّ من الذكر . وما أجل الفنّ في شموله هذا ، فقد كانت حياة السيّد حسن ينبوعاً دافقاً من ينابيع اللذات والشهوات ، كان قطب حياة كاملة من الأفراح والمسرات ، ومعيناً قيّماً للضحك والبهجة والحيور ، وعزاء لنفوس لا عداد لها .

ولد في عام ١٨٧٩ واستقبل الشعاع الأوّل في الحياة في حارة جعيصة ثمّ في فناء بيت آل شلّضم وأخيراً في كتاب الشيخ هريدي .

كان منذ صغره ميّلاً إلى المزاح نزاعاً إلى العبث ولكنّ توجد حادثة في تاريخه يصحّ أن نعتبرها مبدأ لحياته التي عُرف بها فيما بعد : إذ كان يمرّ في طريقه إلى الكتاب بقهوة خضراء الباب والنوافذ فراقه لونها وجذبه إليه وما يدري إلّا وهو يمسك بحاشية جلبابه ويبلّها بقليل من الماء ويمسح بها رقعة من باب القهوة حتّى امتصّت لونها . ثمّ لطخ به وجهه ورقبته وقفاه . وبيده الصغيرتان ترتجفان من الفرح . ثمّ هرع إلى رفاقه الصغار لا يلوي على شيء وصاح بهم : «إلى . . إلى . . انظروا» والتفّوا حوله دهشين وأغرقوا في



بالميدانين الصالحين لعبرتيته الفذة، وأنه ينبغي أن يهاجر إلى شارع الأنس والطرب ومجمع العشاق وأهل الهوى. وأصاخ الشاب إلى إغراء الهمس وأسلم قياده لكن دله على الطريق وهناك اطلع لأول مرة على ذلك العالم الفائر الذي تتجارب فيه الأنوار ما بين المصاييح والكؤوس وتمترج به آهات الدلال وآهات المواويل وتتصل حركات البطون بقفزات السكارى وتلويح العصي. ولم يعدم في تلك الدنيا العامة صديقاً لأنها كانت مبيت عدد عديد من أثرياء الجمالية، فنلقوه بترحاب وأوسعوا له حول مواعدهم. وإلى هنا اختتم الشاب حياة واستقبل حياة. اختتم حياة ساذجة طاهرة قوامها الفن واستقبل حياة ترف وعريضة أساسها الاحتراف. وقد أكرمه أهل الهوى فتزوعوا عنه الجلباب والعمامة والمركوب وخلعوا عليه جبة وقطاناً وحذاء أصفر لامعاً وطربوشاً أبيضاً. وأكل مما يأكلون لحماً مشوياً وعصافير محمرة ونقلاً لذيقاً وشرب مما يشربون خمرًا معتقة ونيبذاً أحر وأبيض. وفي مقابل ذلك كان يقطع لياليهم الهائلة بالنكات الممتعة والملح النادرة والفكشات البارعة. وتقل من حانة إلى حانة ومن ملهى إلى ملهى وهو يكتسب في كل مكان أصدقاء ومعجبين ومريدين. وامتدت شهرته من ذاك الشارع المنير إلى جميع حلقات الغناء والسمر والطرب في القاهرة الخالدة الحاملة وعلا نجمه وشع نوراً بهيجاً، وطغت عبرتيته واستحكم ظرفه حتى أصبح حبيباً إلى كل نفس عزيزاً على كل قلب. تشتهيه الأنفس، وتلهف عليه المهج، كان لكل داء دواء طارداً للهم. كاشقاً للكرب، أو كان روح كل مجلس أنيس، ينقلب إذا غاب عنه كثيلاً واجماً.

كانت غاية حياته أن يضحك ويضحك الآخرين ولو من نفسه، ولم تكن هذه الغاية فلسفة حياة ولكنها طبع وغيرة يندفع في سبيلها كالأعمى وكأنتها صادرة من أعماقه لا يمكن أن يوقفها شيء. وكان ظاهر حياته يدل على أنه يريح من وراء هذه الموهبة جأماً عريضاً وسعادة متصلة وطعاماً وشراباً. ولكنه كان في الحق يدفع الثمن غالياً وبذله من كرامته وكبريائه، لأن همه

الحجرات المغلقة، التي لم تقع على وجهها عين غريب أو لم تر نور الدنيا إلا خلل خمار كثيف ألقى على وجهها ساعة انتقالها في الزفة من العطوف إلى حارة جعيصة. وقد وجد فيها حسن أول شخص يحترمه ويهابه على ظهر البسيطة. كانت تدعوه «سيدي» ولا تقعد في حضرته إلا إذا أذن لها، فإذا أذن جلست عند قدميه على شلثة واستلقى هو على الكنية في كبرياء. ولكن مع الأيام بعد أن صارت أمًا لحسونة ومتولي وأبو سريع وزينب وخديجة ونبوة طمعت في مجالسته في طمأنينة وثقة.

صار السيد حسن شاباً عاملاً وزوجاً. ولكنه لم يقلع عن لوه وعبه. كان يقضي نهاره في الحانوت، أما ليله فكان يلاحق أصحابه في قهاوي الخرنفش ومرجوش والغورية ويساهروهم الليل يشربون الزنجبيل والقرفة ويدخنون الجوزة ويتسامرون ويتضحكون. كان يجلس على أريكة مرتباً ويضع إلى جانبه مركوبه وعلى المركوب عيمته ويقذف بنكاته وقفشاته ذات اليمين وذات الشمال غير ممتي على إنسان، والجمع من حوله يضحك ويقهقه ويسعل. وشهدت تلك الفترة من شبابه أبداع وأكبر مجموعة من النكات البلدية التي سارت مع الزمن سير الأمثال وصارت من محفوظات أهل البلد وآدابهم التقليدية يلوذون بها في مناظراتهم اللطيفة ويستعيرون منها في معاركهم الهزلية ويستشهدون بها كلما لج بهم الشوق إلى الفكاهة والمرح. فكان فتاناً إلى درجة ما. وكان من الفنانين المغمورين. ولكن من حسن الحظ أنه لم يكن يفهم من معاني الخمول ما يمكن أن تذهب نفسه معه حشرات على خمولة النسبي. والحق أن آيات السيد حسن شلضم التي ألفها في تلك الفترة البعيدة لا تزال جارية على اللسن وستظل محتفظة بفكاهتها إلى أن تتغير العقلية البلدية أو أن يضعها مكتب الآداب في قائمة المحرمات.

ولبت الشاب يحبي السهرات الساذجة في ذاك الحى بضع سنين، ثم ولّى وجهه وجهة أخرى. كان كثير من رفاقه لا يفتأ يذكره بأن المرجوش والخرنفش ليسا

المزاح كالسيد حسن ولكن على طريقته الخاصة الجديدة، فما كان يفحش في القول ولا يقذف بالسباب والمهجر، ولا يحاكي الأصوات والأشكال ولكنه كان يفتن ويفتق في إرسال النكتة الخاصة الأدبية والملاحظة الساخرة والتهكم اللاذع.

وكان يصف نكاته فيقول إنها ملح أدبية وفكاهة عالية، ويغمز السيد حسن فيقول عن الفكاهة القديمة إنها سباب وفحش، ويحمل على «قافية أهل البلدة» فيقول إنها أقوال مكررة مبتذلة ونوادير محفوظة وجناس سخيف لا روح فيه. . وكان السيد حسن يصني إلى هذه الأقوال في عدم اكتراث وهزه وربما نال من قائلها على طريقته باستهانة، ثم لم يلبث أن حقد عليه وكرهه لأنه كان إذا قال نكتة بطريقة بادر الشاب إلى تعكير الصفو بسعال أو حممة أو بطرحه فجأة سؤالاً جدياً عسى أن يهيج اهتمام القوم ويلهيه عن أثر النكتة. ورأى فيه عدواً حقيقياً فشمر للكفاح والمنافسة في ميدان المزاح واللهو، وانتقض على الزنفل وانقض الزنفل عليه واشتبكا في معارك حامية واستعمل كل ما وهبه الله من الذكاء والبداهة والفكاهة وصنع المستحيل ليربح الأنصار والمعجبين والمصفقين.

فإذا صاححت الديكة مذكرة اللاهين بأن الفجر انبثق انفض القوم فرحين وعاد العدوان مهمومين مفكرين يحصي كل منها ما أثاره من ضحك وما أهاج من مسرة وما ابتدع من فكاهة ويذكر أسفاً حزناً ما ظفر به عدوه من أي النصر والتفوق ومن ضحك له من الرفاق. وظل كبار التجار وأهل البلد على ولائهم القديم للسيد حسن شلضم أما الزنفل فقد اكتسب الكثيرين من الأفندية والبكوات. وكان لذلك وقع شديد في نفس السيد حسن فقد كانت الدنيا جميعاً له يرح فيها كيف شاء ففتح مضطراً مقهوراً بنصفها.

ولكن علام الأسف والحزن؟ إن هذا العالم الجديد لا يستحق أسفاً ولا حزناً. أين السادة الكرام الأجلاء؟ مات أكثرهم وانزوى من بقي منهم على قيد الحياة، إما لمرض أو فقر. . أين السيد جلال الشابوري رحمه الله الذي كان ينقله جنبها ذهباً للنكتة

الأول كان في التجبب إلى الناس وإدخال السرور على قلوبهم، وقد علم بغريزته أنه ينبغي لذلك أن يكون خفيفاً لطيفاً فلا يجوز أن يعارض رأياً ولو خالفه بقلبه. ولا أن يغضب ولو مُسَّت كرامته، ولا أن يقاوم وإن هوجم وضيق الخناق عليه، فالأمر ما يشتهي من الحب وفق ما يشتهي ولكنه خسر الاحترام إلى الأبد.

ومهما يكن من أمر فقد تسنم السيد حسن شلضم ذروة المجد للحب. ويسلط سوط الإرهاب على رءوس آله جميعاً ولا يتكلم إلا أمراً أو منتهراً أو ساباً، وكانت حميدة ترتجف رعباً في محضره، وكان أبنائه إذا سمعوا صوته فرّوا إلى ركن قصي وانكمشوا فيه.

ومهما يكن من أمر فقد تسنم السيد حسين شلضم ذروة المجد ونال من الشهرة قسطاً لم ينله أحد ممن سبقوه ولن يتأتى لمحدث أو مهرج بعده أن يناله، ومضت لياليه سعيدة هائلة راضية، يحياها أكلاً شارباً ضاحكاً.

واضطدم وجه الأرض بأحداث مروعة فوقعت الحرب وتوالت النكبات على الدنيا ثم قامت الثورة في مصر. وطففت بين من طفت بهم إلى السطح بالزنفل أفندي الذي ظهر في أفق السيد حسن وإخوانه بعد عهد الانقلاب فأضافه السيد حسن إلى أعاجيب الثورة كيداً وحقداً، وقد أتى به ذات مساء أحمد بك فائق وقدمه إلى جماعة السيد حسن قائلاً: إنه شاب مثقف ومن أطرف الظرفاء، وما كان يسوء السيد حسن أن تزيد جماعته واحداً، فما كاد يطمئن به المجلس حتى جرت النكت على لسانه كالسيل، ومضى يعلق على آراء القوم وأحاديثهم بما تخرعه نفسه الذكيّة من الصور الساخرة والنوادير الأخاذة فتبعته تعليقاته وراءها عواصف من الضحك والقهقهة. ولبت السيد حسن صامتاً لا يتكلم يرمق صاحبه بعين فاحصة ويقول لنفسه: ترى هل هو زائر عابر أم قضي عليّ أن ينافسني طفل على آخر الزمن.

والظاهر أنه قضى عليه حقاً أن ينافس الأطفال في النهاية؛ لأن الزنفل لم يكن زائراً عابراً، لكنه أصبح بسرعة عجيبة عضواً لا يبر من الجماعة، وكان يمتن

مكانة خاصة في جماعات الهوى فقد ابتذلت صناعته  
وبات كل يهرج لحسابه الخاص.

وفي ذات مساء، وكان السيد حسن يجتسي كأساً  
من الكونياك في حانة بسوق الخضار سقط بغتة فاقد  
النطق.

ورقد أخيراً على الفراش، مسلماً جسمه الهائل إلى  
قبضة المرض الجبار، وقد تمردت أعضاؤه جميعاً على  
إرادته وبات عاجزاً عن تحريكها إلا عينيه يقلبها ذاهلاً  
في سقف الحجرة ذي العمدة الخشبية العتيقة يبرز من  
شقوقها ذيل البرص أو رأسه ويغشي ما بينها نسيج  
العنكبوت.

إن تلك الحياة العامرة بالوان اللذات والسرور  
والأفراح قد اختتمت بهذا الرقاد الأليم. وإن النور  
والغبطة والرفقاء قد تفتانوا في هذه الظلمة الموحشة.  
وانتهى كل شيء كما ينتهي الحلم الحلو وانتهى في  
لحظة قصيرة كأنه لم يدم سنين وسنين، وجاءت الساعة  
الرهيبية التي يتساءل فيها الإنسان في حسرة مريرة..  
أحقاً كان هذا الجسم سليماً؟.. أحقاً كان هذا القلب  
حيّاً؟.. أحقاً كانت الدنيا حلوة سعيدة لذينة  
الطعم؟.. أحقاً ذهب كل هذا إلى غير رجعة؟

وقاوم جسمه المرض بضعة أشهر. قضائها في وحدة  
ووحشة وقنوط. لم يزرها فيها سوى أبنائه وبناته، ذلك  
الرجل الذي كان يوماً قلب القاهرة السعيد وثرعها  
الضاحك، حتى وافاه الأجل بالأمس القريب في ذلك  
البيت العتيق بحارة جعيسة الذي شاهد مولده وعرسه  
ومجده وأخيراً.. مماته.

الحلوة؟ أين الشيخ طلعت الإسلامبولي الذي كان  
يهديه كل ثلاثة شهور جبة وقفطاناً لا يقدّران بثمن؟.  
هذا إلى الفواكه المختلفة في إبان نضوجها؟ ذهب  
الجميع، ذهبت دنياهم الحلوة وبقيت هذه الدنيا  
العجيبة التي يخطب فيها النساء في المحافل العامة  
ويهدّد التلاميذ معلّمهم بالإهانة والضرب. ويغنيها  
عبد الوهاب بعد عبده الحامولي ومحمد عثمان، ويبيع  
فيها قنطار القطن بريالين، فهل هذه دنيا يأسف السيد  
حسن شلضم على أنه ليس فارس ميدانها؟

وكان يداعبه بعض معارفه أحياناً فيقولون له  
«راحت عليك يا سيد شلضم». فكانت تقع من نفسه  
موقع السمّ الزعاف وكان يصّر على أسنانه المثرمة  
ويتصنّع الاستهانة ويقول:

- ساحك الله يا غلام، ألحسب أنّ شلضم من  
الهوان بحيث يرضى أن يهرج في هذا الزمان البائس  
المأزوم؟ أو أن يمازح هذا الجيل الذي لا يتذوق  
النكتة! فشر وألف فشر! إن مثلي ومثل الزنفلى  
فكالحمولي في الزمن القديم، وهؤلاء المغنّين النائحين  
الذين يتسترون على عيوب حناجرهم بالإكثار من  
الآلات والموسيقين.

والحقيقة أنّ ظلّه أخذ يتقلّص بسرعة ومضى الموت  
يقتنص رفاقه أو المعجبين به واحداً بعد واحد، وتزايد  
على الأيام شعوره بالوحشة والغربة.

تغيّر كل شيء. حتى موطن اللهو القديم الذي كان  
ملهى الكبراء والأثرياء أصبح مباعة السوء وسوق  
الأوباش واللصوص والبلطجية، ولم يعد للمهرج

## عَبَثُ ارِسْتُقْرَاطِي

الوجه نور الدين فكان يتوسط حلقة أخرى يروي فيها ما اتفق من قصص مغامراته الغرامية في العواصم العالمية ذوات الشهرة في الحب والجمال؛ وفي ركن منعزل امتاز بوفرة من حوى من الشابات والشبان أقيمت مسابقة سرّية لاختيار أقبح امرأة بين المدعوّات. وأتمّحت أبصار المحكّمت والمحكّمين إلى امرأة اتخذت مكانها تحت صورة الفنانة وابنتها «لفيجيه لوبرين» وكانت عجزاً إلا أنّها تتصاّب وتستعير من ألوان الجبال ما تظنّ أنّه يغني عما استرّده الدهر من حياة شبابها. فبدت تحت طلاء الأصباغ في هيئة مضحكة، وكانت تتجنّب الناس وتقعّ بالجلوس منفردة حتّى تعود إلى مجالستها ربّة الدار أنجي هانم كلّما تاقت نفسها إلى الراحة. أمّا اسمها فدوّلت هانم، وقد راضت نفسها على العزوبة بعد تجربة أربع زيجات غير موفّقة، وكادت تياس من الرجال والحبّ، وقنعت من متاع الدنيا بمضغ الأعراض والخوض فيما تعلم وما لا تعلم من أسرار الناس، فصارت معجّبة لتواريخ السوء. وكانت في تلك اللحظة التي اختيرت فيها سرّاً ملكة للقبح.. تجالس أنجي هانم، وكانت تلوذ بالصمت قسراً بعد أن لم تبقّ على أحد من الحاضرات والحاضرين، حتّى أتاحت لها فرصة جديدة للكلام بحضور الوجه الأستاذ محمّد جلال المحامي وزوجه الحسناء صفيّة هانم جلال. وكانا يلتفتان الأنظار حيثما سارا لثراء الزوج المالك لأربعة آلاف فدّان في الصعيد، وجمال الزوجة ورشاققتها، وقد استقبلتهما أنجي هانم بمودة ظاهرة وباطنة، ولما عادت إلى جوار دوّلت هانم مالت هذه على أذنها وقالت بصوتها الخافت المبحوح:

في ذلك المساء من شهر مارس أزين قصر الوجه حامد بك عرفان بحلّة للألاء من الأنوار المتوجّعة ذات الألوان. مدّت أسلاكها الكهربائية على سور الحديقة فتعانقت مع الياسمين والبنفسج. وتعلّقت بأفرع الأشجار والنخيل، وتوجّعت بها شجيرات الورود المنتثرة على هيئة أهلة ونجوم. وكان أعجب ما في القصر هو ذاك البهو المتسع الأنيق الذي فرش بفاخر الأثاث وحلّيت جدران وأركانه برائع الفنّ من صور ونحف، وترك في وسطه مكان رحب للراقصات والراقصين، أمّا في صدر المكان فقد امتدّت ردهة إلى منتصف مقصف حافل، وإلى يمينها فيما يلي الشرفة المطلّة على الحديقة احتلّت فرقة الموسيقى الإيطالية مكاناً جميلاً.. وانتشر فيما بين البهو والشرفة والمقصف والحديقة المدعوّات والمدعوّون الذين لبّوا الدعوة للاحتفال بعيد ميلاد كوكو الصغيرة ابنة الوجه عرفان بك وزوجه أنجي هانم عرفان... وكانوا يجلسون أزواجاً وجماعات يتجاذبون أطراف الأحاديث حيناً بالعربية وأحياناً بالفرنسيّة ويتضاحكون بأصوات عالية رقيقة وخشنة. وإذا دعت الأنغام قاموا للرقص والعناق. وقد شاع في الجو عطر وأنس وحرارة كأنّها أنفاس المودة نفتتها الأعين والشفاه والصدور والأمانى الهامسة.

وكانت الأحاديث متنوّعة، ولكنّها تدور في الغالب حول موضوع واحد يتجاذبها كما يتجاذب النور الفراشة، وهو المرأة، ولا يستثنى من ذلك الجماعة التي كان محدّثها الأوّل الأستاذ عليّ الجميل الصحافيّ المعروف والنائب المحترم، فما خرج الحديث فيها عن الزواج واختيار المرأة الصالحة وكان النقاش يحتدم بين المتجادلين من الجنسين بصورة عنيفة مضحكة، أمّا

وفيه جلست كوكو متكئة على يديها الصغيرتين في قميص أبيض كآنها ورده بيضاء يانعة، وكانت ترمق الناظرين بعينين دهشتين صغيرتين ينعكس النور على زرقتهما الصافية! فصقّ الجميع تصفيقاً رقيقاً وهتفوا باسمها، وقبّل الأنسات يدها الصغيرة، ثم قدّمت الهدايا النفيسة حول مهدها الجميل، وشمل القوم سرور عظيم فاستأنفوا لهوهم بإرادة أشدّ نزوعاً للصبا والمسرّة. على أنّ فترة الظلام القصيرة لم تمرّ بسلام كما توهم الجميع. فقُبِّلها بدقائق كان الأستاذ عمّد جلال يجالس هدى هانم في المقصف وقد دلّ عبثها المرح على أنّها ثملان، فلمّا أطفئت الأنوار لم يتردّد الشاب فدنا برأسه منها حتّى كادت تمسّ شفّته أذنها وهمس قائلاً: «هدى» وارتجفت المرأة كاللذعورة ولم تردّ عليه، فقال لها همساً وهي تحسّ بلمس شفّته لأذنيها: «هذه فرصة طيّبة. قومي واتبعيني».

وكان بوّدها لو تباله كما يقضي الدلال ولكنّها خشيت أن يضاء النور بسرعة، فقالت همساً:

- إلى أين؟

- إلى حجرة التدخين في الطابق العلوي؟

- قد يفتقدوننا.

- وماذا يسمّ؟ .. سيظنّون أنّنا في الشرفة أو في الحديقة أو في المقصف أو هنا أو هناك وسعود من طريقين متباعدين ..

وأمسك بكفّها وقام واقفاً فقامت بدورها، وأنجبه نحو السلم وهي تتبعه وارتقياه بسرعة، فوجدا نفسيهما في ردهة مضاءة بنور بنفسجي هادئ تطلّ عليها أبواب متباعدة، فسارا إلى هدفهما ودخلا معاً، ثم ردا الباب في سكون، وكان الجوّ مظليّاً شديد الظلمة، ولكنّه كان يعرف المكان فانعطفوا إلى اليمين وتقدّما خطوات حتّى عثرت يده بكنبة كبيرة وثيرة، فجلس وجلس، وتنهّد من أعياق صدره وقبض على كفها فوجدها ترتعش كاللقروزة، فسرت رعشتها إلى قلبه ووجد به غمزاً لم يبرأ منه حتّى ضمّها إلى صدره بعنف وانهاه على وجهها يقبله بشغف وجنون، كم لبثا منفردين إنّ لا يدري، ولكنّ المحقّق أنّ تلك الخلوة السعيدة لم تخلّ ممّا

- يا لها من زوجين سعيدين جميلين!

فقالت السيّدة بحماس:

- الأستاذ جلال شابّ يندر أن يوجد نظيره بين الشباب الناجح الثري .. ألا تعلمين أنّه مرشّح لكرسيّ النيابة؟ .. وأما صفيّة فهي آية للجمال والصفاء.

فابتسمت المرأة ابتسامة باهتة وقالت:

- نعم، نعم، .. لا شيء يعيبه إلّا أنّه يقال إنّّه قد يتبارز من أجل راقصة، أمّا إذا استثيرت غيرته الزوجيّة فقد يغضي ..

وضاقت أنجي هانم ذرعاً بحديث صاحبها، فلم تسألها إيضاحاً وتشاغلّت عنها بمشاهدة بعض الراقصين، ثمّ استأذنت لاستقبال بعض صواحبها.

وسلم الأستاذ محمّد جلال وزوجه على عدد عديد من الأصدقاء والصديقات، ثمّ اختاروا أن يجلسا إلى زوجين جميلين مثلها هما الوجيه طه بك العارف وزوجه الحسنة هدى هانم العارف، وكان الأستاذ جلال يبدي إعجاباً خاصّاً نحو السيّدة هدى. فلمّا عزفت الموسيقى دعاها إلى الرقص معه، وقبلت بسرور ورقصت وزوجه مع طه بك ..

وطرب الجميع طويلاً وشرّبوا كثيراً، فدارت رءوس وثرثرت ألسنة كتومة، وفاضت الأحاديث، وامتأّ الجوّ برنين الضحكات وميض الابتسامات وإيماءات الغزل، والتفت أعين وتماست أنامل وارتعشت شفاه. حتّى جاءت تلك الساعة المختارة من الليل فتوسّط المدعوّين السيّدة أنجي هانم، وقالت بصوتها الرخيم:

- اسمحوا لي سيداتي سادتي أن أقدم إليكم مفاجأة العيد السعيد.

تطلّعت الوجوه إليها من كلّ صوب، وتجمّع حولها المبعثرون ما بين الشرفة والمقصف ينتظرون فرحين. وبغتة أطفئت الأنوار بغير نذير وساد المكان ظلام دامس دام خمس دقائق ما كان يسمع خلالها سوى همس خافت أو ضحكات مكتومة، ثمّ أضيئت الأنوار مرّة أخرى فرأى القوم منظراً بديعاً: مهذا على قوائم أربع طويلة، مسقّفاً بستر من حرير على هيئة هرميّة،

زوجه بين يديه هو أيضًا.

وانتظر دقائق كالأجيال؛ وشعر أخيرًا بحركة استدَلَّ بها على قيام الرجل وسمعه يقبَلُ زوجته بحرّيّة ويقول لها:

- لو تعدل الدنيا.. زوجك الغيبي ليس أهلاً لك وزوجتي ليست أهلاً لي، ولكن، ولكن، ما العمل؟! ثمّ تسلّلا خارجين كما أتيا..

وكان الغضب قد أفسد على جلال بك مزاجه فقام هائجاً، ويحث عن سترته حتّى عثر عليها وأخذ بيد صاحبتة وخرجاً في حذر ثمّ افترقا في الردهة.

ولبت ضيق الصدر شديد الكدر ساعة طويلة، يلعن طه بك ويلعن زوجته المستهترّة، ولم تكن هذه أولى خياناتها، ولكنّها وقعت على كذب منه بحال بشعة لا يمكن أن تمحى من الذاكرة.. فسحقاً لهما!.. وقام يتمشّى في الحديقة فأراً بوجهه المتقنع من الأعين جيئاً. ولفحه هواء الليل البارد فوطب جبينه الساخن وأنعش فؤاده المضطرب، وصحّ عزمه في تلك اللحظة على أن يسلم قيادة لمغامرات الغرام الجنونيّة غير مُبَيَّنّي على شيء، ولو أدّى الجنون إلى الظهور مع هدى في المجتمعات العامّة وميادين السباق. وتعلّفته هذه الخواطر فأحسّ بارتياح ومضى يفيق من همومه ويتنبّه إلى نفسه. فاستطاع عند ذلك أن يشعر بتغيّر غريب.

فعجب لشأنه وتناسى انشغاله، ويحث عن أسباب هذا التغيّر فوجد يديه تجسّان السترة وكأنّها أوسع ممّا كانت.. ماذا حدث لها! يا للعجب.. إنّها أوسع ممّا يتصوّر. وخطر له خاطر غريب اضطرب له فؤاده، ولكي يتحقّق من وساوسه وضع يده في جيب السترة وأخرج حافظة، لم تكن حافظته، ووجد بها بطاقة مكتوباً عليها «طه بك العارف».

ووضح الأمر، وعواده القلق والحنق، ولم يكن ثمة خوف من الفضيحة فسترات بدل السهرة متشابهة، لكنّه كان يشعر بحيرة شديدة ويسائل نفسه: «كيف يمكن أن تُتبادل السترتان؟!»

ينصّصها فقد خيل إليهما أنّ أقدامًا خفيفة كاللحاذرة تدنو من باب الحجرّة، فتباعدا واقفين وأرهفا السمع وانجهمت أعينهما في الظلام ناحية الباب، وخالا أكثر من هذا بأنّ يدًا تعالج الباب بلطف.. ترى أحقّ هو أم وهم؟! ولكنّ الباب تحرّك ونفذ إلى الحجرّة شعاع هادئ كروح محتضرة فاشتدّ بهما الرعب وودّا لو تبتلعهما الأرض. وما لبث أن تسلّل شبح في حذر وتبعه آخر، ثمّ ردّ الباب إلى ما كان عليه فساد الظلام مرّة أخرى، وكان الداخلان شديدي الحذر فلم يبديا حركة ولم يصدرا أصواتاً وكأنّها ذابا في الظلمة الجاثمة.. فسكن ذعر الآخرين وأحسّا بشيء من الارتياح بل والطمأنينة، وخطرت لهما فكرة معاً هي أنّ الضيفين الجديدين مثلها وأنّ لا خطر عليهما منها، وتأكد هذا الظن حين شعرا بهزّة تصيب الكنبه فعلمّا أنّ صاحبيهما اختارا كنبتهما مقعداً لهما أيضاً، وترتّباً في قلق صار بعد حين ضيقاً وكدرًا لأنّهما لم يستطيعا أن يأتيا حركة خشية أن يتنبّه الآخرين فيفزعا وربّما حدث ما لا تحمد عقباه! أمّا الجديدان فكانتا يظنان نفسيهما في أمان وخلوة فلم يحاذرا إلا بمقدار، واستطاع العاشقان أن يسمعا همساً وهمهمة وأن يسمعا الرجل يعانق صاحبتة وهي تعانقه، ولم يكفيا بذلك بل قال بصوت استطاع الآخرين أن يميزاه:

- حبيتي... صقيّة.

وارتجف عمّد بك جلال كأنّما قطعة من الثلج ألقيت على ظهره؛ وأحسّ بارتجاف يد صاحبتة في يده.. كان الصوت صوت طه بك العارف. ومن ههنا؟ أليست زوجته هو؟.. أيّ كارثة تجمّعت في هذه الحجرّة المظلمة! ودقّ قلبه بعنف وغلّ دمه غلياناً كاد يفجّر الشرايين في دماغه، ولكنّه لبث ساكناً صامتاً وزوجه على قيد ذواع منه في أحضان خليلها! ولم يكن يأسف على عجزه عن تحطيم رأس الرجل - فمثل هذا العمل يثير فضيحة حرّيّة بالأساء على مستقبله السياسيّ ومعركة الانتخابات على الأبواب - ولكنّه كان مغنيظاً محقّقاً لأنّ غريمه لا يدرك في تلك اللحظة أنّ

## مَرَضُ طَبِيبٍ

بسيارة فخمة فحقق قلبه مرة أخرى، وتربث حتى فتح الرجل الباب وقال له: - تفضل.

وجلسا جنباً إلى جنب وانطلقت بهما السيارة، وحافظ على هدوئه ورزاقته وصرّ بأسنانه ليترد ابتسامة خفيفة تحاول أن تعطي شفتيه؛ وكأنه أراد أن يداري عواطفه فسأل الرجل عن مريضه وتكلم الرجل في إسهاب فقال إن المريض ابنه وأنه لم يجاوز العشرين من عمره، وأنه أحسن منذ أيام بتوعك وخور ورغبة عن تناول الطعام، ثم ارتفعت حرارته واستسلم للرقاد؛ فسأله:

- هل حقن بالمصل الواقى؟

فأجاب الرجل بالنفي، وأعلن عن رجائه الحارّ ألا يكون الشاب أصيب بالحمى الخبيثة، فصمت الطبيب ملياً يفكر في هذه الأعراض ويزنها بميزان اختباراته وعلمه، وكانت السيارة في أثناء ذلك تخرق الطريق الزراعيّ بسرعة البرق حتى بلغت العامرية وانعطفت إلى حاراتها الضيقة ثم وقفت أمام دار كبيرة، فدخلوا معاً واستقبلتهما أوجه كثيرة بأعين يقتل بها الخوف والأمل، فساوره القلق وتلبسه شعوره حين تعرّض لأول مريض بدأ به حياته التمريضية في قصر العيني منذ ثلاثة أعوام، فاستصرخ قوة إرادته ليضبط بها وجدانه ويمتاز هذه التجربة الجديدة بالنجاح، وأغضى عمن حوله وسدّد انتباهه إلى الشاب الرائد بين يديه، وكشف عليه بعناية فائقة وفحصه فحصاً دقيقاً فترجّح لديه أنه مصاب بالتيفود، وأبدى رأيه في تحقّق ذلك إنّه ينبغي أن يفحص المريض في اليوم التالي ليستوثق من رأيه، فلا آمنهم من خوف ولا أفقدهم الأمل، وظنّ

قبل عامين تفشّى وباء التيفود في مديرية الغربية تفشياً خفياً فتك بنفوس الكثيرين، وصادف ذلك انقضاء بضعة أشهر على تعيين الدكتور زكي أنيس طبيباً بمستشفى طنطا وفتح عيادته الخاصة، وكان في تلك الأيام يلاقي الشدائد المفضي على كلّ مبتدىء في فنّه أن يلقاها أول عهده بالحياة العملية؛ فكان ينتظر طويلاً وعبثاً توارد الزوّار والمريض مستوصياً بالصبر والتجلّد حتى كاد يلحقه الجزع. فلما تفشّى ذلك الوباء الخبيث تضاعف عمله بالمستشفى وشحذ نشاطه ومضى يراقب حركة السيارات التي تطوف بالبيوت وتعود محمّلة بالضحايا بعينين كئيبتين وعزيمة متوثّبة، وأحسن بالرغم من كلّ شيء بسرور خفيّ وأحيا قلبه الأمل في أن يدعى يوماً لعلاج مصاب من الذين تثقل بهم جيوبهم عن الانتقال إلى المستشفيات العامة، ولم يئسه تقاطر الناس على كبير الأطباء وبعض الأطباء القدماء بالمدينة وأصغى إلى هاتف تفاؤل ما انفكّ يهمس لقلبه بأنّ دوره لا محالة آتٍ.

وصلق أمله، وإنّه ليجلس إلى مكتبه يوماً يقلّب صفحات كتاب وتجرى عيناه على أسطره جريان الشرود والملل إذ طرق باب كهل يدلّ منظره الوجيه وزيّه الريفيّ الثمين على أنّه من الأعيان؛ ولعلّه قصده بعد أن يش من العثور على سواه، فطلب إليه بلهجة تنمّ على القلق أن يصحبه إلى العامرية على مسير ريع ساعة بالسيارة. وكان الشاب يعدّ العدة لمثل هذا اللقاء فلم يبد على وجهه أثر مما اضطرب في صدره من الفرح والظفر فألقى على القادم نظرة رزينة وقام من فورهِ فخلع معطفه الأبيض وارتدى الجاكّة والطربوش وأخذ حقيقته وتقدّمه إلى الطريق. والتقى أمام الباب

دمه؟! ولَفَّ الذعر، وكان في الحقيقة جباناً رعديدًا شديد الهواجس سرعان ما يستسلم للتشاؤم ويقع فريسة سهلة للمخاوف، فعاد يحسّ خذّيه وجبينه فوجد لها ساخنة وأحسّ بجسمه يكاد يلتهب التهابًا فاستولى عليه الفزع وارتعدت فرائصه وقال بذهول ويا للويل... لقد أصبت وانتهيت...».

وقطعت السيّارة مرحلتها وانتهت إلى عيادة الطبيب الشاب - وكانت عيادته ومنامه في شقّة واحدة - فتركها على عجل وصعد إلى حجرة نومه واستدعى التمرجي وقال له: «نادِ الدكتور سامي بهجت بسرعة وقل له إنّي أصبت بالتيفود» فجرى الرجل مرتعبًا وأخذ الدكتور يخلع ثيابه بيدين مضطربتين وارتندي البيجامة وارتمى على الفراش في حالة يأس ورعب وعَمّ شديد وقد خيل إليه أنّ شرايينه ستنفجر من الحرارة وكان يستحضر في ذاكرته أعراض المرض فلم يعد لديه ثمة شكّ في أنّه مريض؛ وثبت في وهمه بقوة أنّ هذا المرض سيختم حياته، وكان شديد الجبن متهاافت الأعصاب فلم يستطع أن يأمل قطّ في النجاة وبات في يأس عظيم، وظلّ يعدّ الدقائق الثقيلة المرهقة ويصيح غاضبًا: «هيئات أن يجد الدكتور في عيادته. وسأجنّ هنا وحدي...».

وفي أثناء الانتظار فزعت أفكاره المجنونة إلى القاهرة، إلى أمّه، ووجد حاجة شديدة إليها، وإلى وجودها إلى جانبه لتسهر عليه، وفكّر فعلاً في أن يبعث إليها ببرقيّة، ولكنّه لم يقبل هذه الفكرة بسهولة، وأشفق من إرهاقها وإزعاج حياة والده وإخوته الصغار وربّما عرّضها للخطر أيضًا - وكان هذا أوّل شعور طيّب يخالط قلبه منذ قديمٍ طُنطا - فصدقت نيّته على أن يطلب إلى الدكتور بهجت نقله إلى المستشفى. وربّما تمكّن من رؤيتها هناك لبودّعها إذا اشتدّ عليه الحال. وقد حنّ إليها في تلك الساعة حينئذٍ موجعًا... وأغمض جفنيه هنيهة يلتمس الجفام ويتردد عن قلبه الوسواس والهواجس، ولكنّ وجدانه الثائر أبى أن يدعه في راحة أو طمأنينة، أو أن يصرفه عن الانشغال الأليم بمرضه؛ ولم يكن دار له بخلد أنّ الطبيب بآمن

أنّه ضمن لنفسه أن يتردّد على المريض حتّى يبلغ به الشفاء بفته أو يودعه القبر بأمر الله. ثمّ أخذ حقيقته وأنجّه نحو الباب بخطى وثيدة كأنّه يريد شيئًا، فلاحق به والد المريض وهمس في أذنه قائلاً: - تفضّل.

فخفق قلبه لثالث مرّة ذاك اليوم ومدّ يده وهو يقول: - شكرًا.

فأحسّ بثلاث قطع من ذات العشرة القروش توضع بها، ثمّ جلس في السيّارة منفردًا هذه المرّة، وانطلقت به في طريق العودة، وكانت هذه أوّل مرّة يدعى فيها إلى زيارة مريض في بيته، فاغتبط ورضي وأشعل غليونه وراح يدخن بحالة من السرور ولم تخل من اضطراب عصبيّ فأخذ «أنفاسًا» سريعة فتوهّج التبغ وسخن الغليون، ولم يستمرّ في التدخين طويلاً فوضعه في جيب الجاكّة الأعلى وأرسل بناظريه خلل زجاج النافذة يشاهد الحقول الممتدة على جانب الطريق الغارقة في الأفق البعيد، وكانت تنتهي عند الطريق الزراعيّ بجداول من الماء ينساب صافيًا تستحمّ فيه أشعة الشمس المائلة للغروب وتغشاها بنور لآلاء بهيج يخطف الأبصار؛ فاستسلم لسحر الرؤية، وشعر بتخدير لذيد حتّى انتبه إلى تغير غريب يسري في صدره وجسمه فتحوّلت أفكاره من الخارج إلى الداخل فأحسّ بسخونة تنتشر في أعضائه جميعًا كأنّ حرارته ارتفعت بغتة، فتململ في جلسته وحرك رقبته بعنف، ثمّ لم يحتمل شدّتها فخلع طربوشه وفكّ أزرار الجاكّة وأخرج منديلًا يروّج به على وجهه وهو يعجب أشدّ العجب لأنّ الجوّ كان معتدلًا لطيفًا، واشتدّت وطأة السخونة والتهب جسمه بالحرارة، فحسّ خذّيه وجبينه وشعر بثقل في جفنيه ورأسه وضيق في التنفّس، وتساءل في حيرة عمّا أصابه، وخطر له خاطر غيف: هل يكون مريضًا؟! وذكر لتوّه الحصى الشيطانيّة التي تفتك بأهل المديرية فتكًا جهنميًا.

وكان قد حقن نفسه بالمصل الراقى، فكيف انتقلت إليه العدوى؟!.. هل سبقت الميكروبات المصل إلى



كجعل القديم، حتى سقط هو أخيراً قرباناً له، فأي حياة هذه؟.. وذكر أيضاً في هذيانه وتشاؤمه قروياً بسيطاً عرض له في العيادة الخارجية بالقصر العيني، وكان يريد أن يكشف على حلقه، فأمره أن يفتح فمه... وكان كلما أدنى منه المجهر يرتجف الرجل الساذج ويغلق فمه، وتكرر ذلك منه حتى اشتد به الضيق، وكان مرهق الأعصاب من كثرة العمل، فضرب جين القروي بالمجهر، فشجّه وأسأل دمه... وقد أسف لذلك حقاً ولكن أسفه لم يخف عن الرجل شيئاً... وذكرته هذه الحادثة بما يقع خلف جدران القصر العيني من أعمال القسوة التي تفرز من هولها النفوس البشرية، فلذكر أنه تكاسل مرة عن إجراء عملية لمريض، لأنه كان أجرى هذه العملية مرات عديدة بنجاح، فلم يشعر بحاجة إلى تمرين جديد، واسودت الدنيا في عينيه، وعافت نفسه كل شيء في تلك الساعة الخبيثة.

ثم سمع وقع أقدام في الردهة وصوت التمرجي يحدث الدكتور، فتمشّت في أعصابه موجة نشاط ونسي وساوسه، وفزع إلى القادم بأمل جديد، ودعا ربه بصوت متهتج قائلاً:

«أه يا رب. خذ بيدي! هبني حياتي مرة ثانية، أهب الناس أشرف ما في نفسي حتى الموت».

وما انتهى من دعائه حتى برز الدكتور بهجت من باب الحجرة وهو يقول بصوت مرتفع:

- مساء الخير يا دكتور. مالك؟

فقال الشاب بهدوء وإن كان في الحق يستغيث:

- أصبت.

ففحصه الدكتور بعينين نافذتين وأصابه تفتح الحقيقة ثم قال:

- لعلها الإنفلونزا.

فقال بياس:

- كلاً... لا أشكو زكاماً ولا صداعاً...

- ولكنك لم تشك تعباً أو فقدان شهية في هذه الأيام

اليس كذلك؟!

وتفكر الشاب قليلاً متحيراً ثم تمم قائلاً:

من الأمراض، ومع ذلك أحسّ بمرارة وسخط وحنق وساءه أن يفتضح مرضه الغادر في أثناء عودته من زورة مريض. أما كان الأجل أن يجزى غير هذا الجزاء!... وقرّ في نفسه أن العدوى انتقلت إليه في أثناء قيامه بواجبه في المستشفى بالرغم من حذره ويقظته فتضاعف سخطه وحنقه، وأسى على حياته التي لم يتح له التمتع بها وكان يدفع إلى فكرة الموت دفعاً عنيفاً؟ ويقسر على الاستغراق فيها بقوة شيطانية... وحذّته قلبه الرعيد بأنّ نهايته ممّت، فعطف رأسه إلى المرأة وأدام النظر إلى وجهه. فخيّل إليه أنه محقق بالدم الفاسد؛ ولكن كان ما يزال محتفظاً بنضارة الحياة وأثر الصحة الآخذة في الانحلال، فألقى عليه نظرة أسيفة حزينة، كأنما يودّع آخر صورة للحياة والصحة عالقة به... ثم أدار رأسه قانطاً، وأسلمه القنوط إلى الاستسلام، وأسلمه الاستسلام إلى الاستهانة، ولأذ بها من مخاوفه، وقال لنفسه علام الخوف والذعر؟ الموت أت لا ريب فيه، إن لم يكن اليوم فغداً... هو النهاية المحتومة على آية حال المهزلة الحياة... وماذا يضيره أن يقصر دوره في هذه المهزلة؟ فلعلّ في قصره اختزالاً لآلام مروعة. على أن تعزّيه لم يدم طويلاً... وألحت على قلبه الآلام مرة أخرى... فذكر آماله وأطماعه في المجد والثروة وارتسمت على شفثيه لهذه الذكري ابتسامة مريّة ساخرة... وشعر بامتعااض يفوق الوصف... وذكر الثلاثين قرشاً التي طرب لها فرحاً قبل حين قصير: فازداد امتعااضه، ولعن رزقه الذي يناله من أيدٍ شحيحة. لا تفرط فيه حتى يهزها المرض، فتراخي عن الضنّ به ولعلّ النظام الذي يجعل سعادة القوم منوطة ببؤساء آخرين... يا لها من مهنة مخيفة، يستمدّ رجالها حياتهم من النفوس المريضة كالجراثيم سواء بسواء... وسخر في دعره وتشاؤمه من الإنسانية والتضحية والرحمة، تلك الألفاظ الصماء التي حفظها عن ظهر قلب ولم تختلج له في شعور قط... فهو لم يشمر أبداً لغير المجد والثروة، ولم يتصور ساعة أنه يبلغها بغير معونة المرض... فعبدته وهو لا يدري، ونصبه إلهاً يقدم له القرايين البشرية

- حرارتي فظيعة... إني أشعر بالمرض شعورًا مخيفًا...

- هل قست الحرارة؟!

فعجب كيف فاته ذلك، وهزّ رأسه نفيًا ولاذ بالصمت؛ فابتسم الدكتور بهجت ابتسامة ساخرة، ودنا منه والترمومتر في يده. ثمّ وضعه في فمه وانتظر هنيهة، أخذه ثانية ورفعته إلى مستوى عينيه، ونظر إلى وجه الشاب رافعًا حاجبيه وقال ببساطة:

- حرارتك طبيعية.. انظر!

وقرأ الشاب الترمومتر وهو لا يصدّق عينيه، وجسّ خذّه ثمّ قال:

- هذا عجيب! خذّي ما زال ملتهبًا. كيف هبطت الحرارة؟

وأتى الدكتور بسّاعة وطلب إليه أن يفكّ أزرار الجاكّة ففعل.

وقع بصر الرجل على الفانلّا فبدت على وجهه الدهشة وصاح بسرعة وهو يشير إليها:

- انظر!

فأحنى الشابّ رأسه ناظرًا إلى الفانلّا فرأى فوق القلب دائرة مسوّدة من أثر احتراق خفيف، فاستولت عليه الدهشة وجلس في فراشه وهو يتساءل:

- ما الذي صنع بي هذا!

فضحك الدكتور بصوت عال وقال:

- ها أنت ذا تكتشف حمّى جديدة يا دكتور!

وخطر للشابّ فكرة فالتفت إلى المشجب وقفز من

الفراش وأتمّج نحوها ووضع يده في جيب الجاكّة الأعلى متناولًا غليونه، وفحص الجيب بعينه فرأى آثار التبغ الذي أكل البطانة وحرّق القميص وأثر هذا التأثير في الفانلّا، ووقف مرتبكا ينظر إلى الدكتور بعينين تسألان الصّبح، وقد أحسّ بحرارة جديدة هي حرارة الخجل والارتباك.

وبعد دقائق وجد الشابّ نفسه وحيدًا مرّة أخرى، وكان ما تزال تعلو شفّتيه ابتسامة الارتباك والخجل، ولكنّه كان يحسّ بغبطة وسلام، وكان قلبه يشكر الله الذي وهبه حياته مرّة أخرى.

وبزّ الشابّ بوعده واعتزم أن يكون إنسانًا قبل كلّ شيء. وعاد إلى عمله تنبض في قلبه أشرف العواطف وأنبهها، وكان يظنّ أنّه سيصمد للتجارب لا ينكص على عقبيه مهما امتدّ به الزمن، ولكنّ وأسفاه إنّ انقضاء الليل والنهار يُنسي، ومن ينغمّر في الدنيا يذهل على نفسه، وللحياة جلبة تبتلع همسات الضمير. فقد أخذ يتناسى محتته ودعائه ووعدته حتّى نسي ولم يعد يذكر إلّا عمله ومستقبله وآماله وأطباعه، ثمّ ارتدّ إلى ما كان عليه، وكانت تلك الأيام القلائل في حياته كهدهو البحر الذي يصفو ويرقّ حتّى يشفّ عن باطنه ثمّ لا يلبث أن تهيج الرياح والعواصف فيرغي ويزبد وتعلو أمواجه كالجبال. ولعلّه لا يذكر هذه الحادثة الآن إلّا كدعابة يتنذّر بها ويقصّها على صحبه إذا دعى داعي الحديث أو السمر!

## فلفل

بعضهم القباقيب. فإذا اجتمع شملهم وفرغوا من احتساء الشاي والزنجبيل قرأ أحدهم جريدة من جرائد المساء وأنصت له الآخرون ثم يندفعون إلى المناقشة والتعليق فيحتدم الجدل وتستمر المناقشة.

وجاء مساء فاستطاع أن يفهم ما يقولون لأول مرة، بل سر به سرورًا لا مزيد عليه، في ذلك المساء قرأ قارئهم - فيما يقرأ - خبر قضية رشوة موظف كبير ثم أخذ الصحاب كعادتهم في النقاش والتعليق فقال واحد منهم متحمسًا:

- هذا واحد أمكن يد العدالة أن تصل إليه مصادقة، ويوجد غيره كثيرون لا ينأى بهم عن غيابات السجون، إلا أن العدالة ما تزال ضالة عنهم.

وقال آخر أشد تطرفًا وأبعد عن وزن كلامه:

- ليس الداء قاصرًا على الموظفين، فغيرهم - وأنتم تعلمون من أعني - أظع وأصل سيلاً. هذا بلد لو أقيم به ميزان العدالة كما ينبغي لامتلات السجون وخلت القصور!

واستيق الناقدون وتناولوا أساء كثيرة فمزقوها إربًا ولوثوها بكل منكر بأصوات مرتفعة لا تبالي شيئًا فقال بعضهم:

- أضرب لكم مثلاً بفلان... أتدرون كيف جمع

ثروته الطائلة؟!

ثم جعل يعدد وسائل الإجرام التي ابتز بها أموال الناس كأنه كان كاتم سره أو مرجع رأيه، ثم تتابع النقاد والمشرّحون واختار كل شخصيّة من الشخصيات الكبيرة يروي تاريخها كما يشاء ويكشف عن مثالبها مفتتحًا كلامه بهذه العبارة المثيرة: «وفلان هل تدرون كيف جمع ثروته الطائلة؟!» وما زالوا في حملتهم حتى

في قهوة السعادة أشياء كثيرة تستثير الاهتمام. منها فلفل وهو غلام في الثانية عشرة أو جاوزها بقليل اسمه الحقيقي طه سنقر ولكنّه اشتهر بفلفل، وهو يسعى بجمرات النار إلى مدخني النارجيلة والجوزة من طلوع الصباح حتى انتصاف الليل. على أن الاصطلاحات لا تخلق اعتبارًا فللغلام من اسمه الجديد نصيب. كان خفيف الحركة متحفّز النشاط فما إن يدعى حتى يندفع نحو داعيه كالنحلة ويقطع النهار كله ونصف الليل لا يقر له قرار أو يسكت له صوت وقد اشتغل في القهوة منذ عام نظير قرش في اليوم غير جوزة وفنجان شاي يقدمان له في الصباح ومثلها بعد الغداء وكان بذلك جد سعيد، يتيه فخارًا كلما ذكر أنه صار قوامًا على نفسه وصاحب قرش وأخا «كيف ومزاج». وفوق ذلك لم تكن حياته منحصرة في الحاضر، كان يرمق بعين الطموح ذلك اليوم حين يأذن له «المعلم» بتقديم النارجيلة والجوزة أسوة بالنار والماء فينتقل من درجة غلام إلى درجة صبي ومن يعلم بعد ذلك أين يقف به الترقّي؟! وهو في سبيل طموحه لا يكف عن تمرين حنجرته بالهتاف والنداء على الطلبات لأن أهمية الخنجرة في القهوة البلدي تضاهي أهميتها في نادي الموسيقى...

ومن أعجب ما رأى فلفل في قهوة السعادة جماعة من طلاب العلم، تجذبهم القهوة في أماسي العطل والإجازات فيأوون إلى ركن منها يسمرون ويلعبون النرد ويحتسون الشاي والزنجبيل، وكانوا بقيقة رواد القهوة من جمهور الشعب الفقير، ولكن المدرسة سمت بهم إلى طبقة معنوية عالية، فانتبلت الكبرياء بهم ركنًا منعزلًا وإن كانوا يرتدون عادة الجلابيب بل ويتنعل

صاح أحدهم غاضباً:

- هذا بلد السرقة فيه حلال!

فهم فلفل هذا الحديث فلم يعقه عن فهمه لفظ غريب أو تعبير معقد، وكان بما يتقن من أنواع القذف والسباب أشبه؛ فطرب آتياً طرب ووافق منه هوياً دفيناً؛ فما أجمل أن يقال إنَّ هذا بلد لصوص! ما أجمل أن يقال إنَّ السرقة في هذا البلد حلال! فهو لص بحكم نشأته تربى بين أحضان السرقة فعرفها في المهد: فأمه - وهي بائعة دوم - تنفق أوقات الفراغ في اصطلياد الدجاج الضالّ، أمّا أبوه عمّ سنقر بائع الفول السودانيّ فمولع باختلاس القمصان والسرائيل من أسطح البيوت وله في ذلك حيل يخطئها الحصر ولكن ماذا أفادت أسرته من جهادها؟

وانتهت تلك الليلة بغير ما يحبّ فلفل، فحين عودته إلى بيته، أو إلى الحجرة التي يبيت بها أبواه وأخواته، وجد أمه لا تزال مستيقظة يعلوها الوجوم والانكسار، وأخواته من حولها باكيات، فانزعج الغلام

وتولاه الخوف ورأته أمه فقالت له قبل أن يسألها «أخذ الشرطيّ أباك» فأدرك الغلام ما هنالك وتحول إلى أخته الكبرى فقالت له إنهم اتهموه بسرقة بعض الثياب وساقوه إلى القسم، ثمّ استدركت بعد لحظة سكوت قائلة: إنهم لن يردّوه قبل أشهر أو أعوام؛ وكان فلفل في العادة لا يلتقي بأبيه إلّا نادراً؛ لأنّه كان ينام قبل أن يرجع من تجواله، ويخرج إلى القهوة صباحاً قبل أن يصحو. ولكنّه على رغم ذلك تأثّر بالجوّ الحزين فداخله الحزن ويكى، ثمّ ذكر ما سمعه في المساء فجعل يقول لأمّه إن البلد كلّ لصوص وإن السرقة فيه حلال، وقصّ عليها نحواً ممّا بلغ مسمعه. فلم ترتج المرأة إلى ثرثرته وأعرضت عنه ونهرته أن يسكت. ثمّ لطمته على وجهه.. في صباح اليوم الثاني استيقظ فلفل وقد نسي أمس كلّ، وكأنّه ولد من جديد فانطلق إلى القهوة بخطاه الواسعة لا يحمل بين جنبيه همّاً، والواقع أنّها لم تكن أوّل مرّة يُساق فيها أبوه إلى السجن..

## صوت من العالم الآخر

- ١ -

الجنوبيّ حيث يقوم بيتي الجميل.  
يا آمون المعبود، ما هذا الألم في العظام والمفاصل؟  
ليس ما بي أثر من جهد العمل، فلطالما واصلت  
العمل بلا انقطاع، ولطالما تابرت وصبرت فغلبت  
الإعياء بالقوة والعزم. أما هذا الألم المضي، أما هذه  
الرعدة المزلزلة، فطارئ جديد، امتلأت منه رعباً.  
أبكون ذلك الخبيث الذي لا ينزل بجسم حتى يورده  
التهلكة؟ انطوي يا طريق القرية بحسبك فما في جوارحي  
قوة تقبس من جمالك. واغرب يا طير السماء فما في  
صدر توتي المسكين حنان يناديك. وأخذت في الطريق  
قلقاً متأوفاً. وعند عتبة البيت طالعني وجه زوجي  
رفيقه شبابي وأم ابنائي. فهتفت بي: «توتي أيتها  
المسكين. مالك تنتفض. ما لعينيك مظلمتين.. ١٩»  
فقلت لها محزوناً مكتئباً «يا أختاه.. وقع المحذور..  
وحلّ الخبيث بجسم زوجك. هبتي الفراش ودثرتني.  
ونادي الحكيم والأبناء والأحباب. قولي لهم إن توتي  
على فراشه يضرع إلى ربّه. فاضرعوا معه. واسألوا له  
الشفاء!» وحملتني التي تهواني على صدرها، وجاء  
الحكيم يجرّعني الدواء وأشار بإصبعه إلى السماء وقال  
لي: «توتي.. أيتها الكاتب الكبير! ياخادم الأمير  
الجليل! أنت في حاجة لرحمة الربّ، فادعه من أعماق  
فلبك». ورددت لا حول لي ولا قوة. يا آمون المعبود  
جلّت حكمتك! ألم أصحب سيدي الأمير إلى الشمال  
في جيوش فرعون؟ ألم أشهد القتال في صحارى  
زاهي؟ ألم أحضر قادش مع الغزاة البراسل؟ بلى أيتها  
الربّ ونجوت من الرمة والعجلات والمعارك. فكيف  
يتهدني الموت في قريتي المحبوبة الأمنة بين أحضان  
زوجي وأمّي وأبنائي؟ وغرقت في أبخرة الحمى،

يا إلهي ماذا يعوز هذا القبر من طيبات الحياة  
الفانية؟ إنه قطعة من صميم الحياة حافلة بما لذّ  
وطاب. لقد حليت جدرانها بصور الجوّاري والخدم،  
وفرش بأفخر الأثاث، وأجلّ الرياش. وبه ما أشاء من  
أدوات الزينة والعطور والحلى؛ وفيه مخزن مفعم  
بالحبوب والبقول والفاكهة، وها هي ذبي مكتبي حملت  
إليه بمجلداتها الحكيمية، وما يحتاجه الكاتب من  
الأوراق والأقلام. هي الدنيا كما عهدتها. ولكن هل  
ثمة طعم للدنيا في حوائتي الآن؟ أبي حاجة إلى متعة  
من متعتها؟ جهد ضائع ذلك الذي بذله الذين هيأوا  
هذه المقبرة. بيد أنّي لا أستطيع أن أنكر أمراً غريباً هو  
أنّه ما فتئت نفسي تنازعني إلى القلم. يا عجبا! ما لهذه  
الأوراق تناديني بسحرها المحبوب؟ ألا يزال بي موضع  
لم يمح منه الموت منازع الضعف والهوى؟ أقضي علينا -  
معشر الكتاب - أن تشقى بضاعتنا في الحياتين؟ على  
أية حال لا يزال أمامي فترة انتظار أبداً بعدها رحلتي  
الأبدية. فلاشغل هذا الفراغ بالقلم. فلطالما زان  
القلم الفراغ الجميل.

رباه! ألا زلت أذكر ذلك اليوم الذي فصل بين  
الحياة والموت من عمري؟ بلى. في ذلك اليوم غادرت  
قصر الأمير قبل الغروب، بعد عمل شاقّ، تعتاني فيه  
الجهد، حتى قال لي الأمير: «توتي... كفّ عن  
العمل ولا تشقّ على نفسك». وكانت الشمس قد  
مالت نحو الأفق الغربيّ في سياحتها الأبدية إلى عالم  
الظلام، ولأوّلى من أشعتها المودعة تنتفض انتفاضة  
الاحتضار على صفحة النيل المعبود. فأخذت في  
طريقي المعهود متمسّماً شجرة الجَمِيز في طرف القرية

أستطع جوابًا. لاشك أن أمرًا استثار جزعها. ترى ماذا يكون؟ هل لاح في وجهي النذير؟ وتحولت عيناى على غير إرادة مني نحو مدخل الحجر. كان الباب مغلقًا بيد أن الرسول دخل. دخل دون حاجة إلى فتح الباب. فعرفته دون سابق معرفة فهو رسول الفناء دون سواه. واقترب مني في خطي غير مسموعة. كان مهيبًا صامتًا مبتسمًا ذا جمال لا يقاوم سحره فلم تتحول عنه عيناى، ولم أعد أرى من شيء سواه. وأردت أن أضرع إليه ولكن لم يطاوعني اللسان. وكأني به قد أدرك نيتي الخفية. فازدادت ابتسامته اتساعًا. فأنست منه رفقًا. ولم أعد أبالي شيئًا. انجابت عني وساوس الليل وأحزانه وحسراته. وغفلت عن دموع من حولي، ووجدت نفسي في حال من الاستهانة والطمأنينة لم أعهدا من قبل. سلمت في محبة لا نهائية وتركت جسمي في المعركة وحيدًا! رأيت - دون مبالاة البتة - دمي يقاوم في عروقي. وقلبي يدق ما وسعه الجهد، وعضلاتي تنقبض وتنبسط وأنفاسي تتردد من الأعناق، وصدرى يعلو وينخفض. وشعرت بالأيدي الجنون تسند ظهري وتحيط بي. رأيت ظاهري وباطني رؤية العين بغير مبالاة ولا اكتراث. وقد تحول الرسول عني إلى جسمي وأخذ في مباشرة مهمته في ثقة وطمأنينة والابتسامة لا تفارق شفتيه الجميلتين. وشاهدت نسمة الحياة المقدسة تدعن لمشيته فتفارق القدمين والساقين والفخذين والبطن والصدر، والدم من ورائها يجمد والأعضاء تهمد والقلب يسكت، حتى غادرت الغم المقخور في زفرة عميقة. سكن جسمي وصمت إلى الأبد وذهب الرسول كما جاء دون أن يشعر به أحد. وغمرني شعور عجيب يأتي فارت الحياة، وأني لم أعد من أهل الدنيا.

- ٢ -

غمرني شعور عجيب يأتي فارت الحياة، وأني لم أعد من أهل الدنيا، ماذا حدث؟! وما الذي تغير في؟! ما زلت في الحجر، والحجرة كما كانت؛ فأني وزوجي تحنوا على جسمي، ولكن حدث شيء بلا ريب، بل أخطر الأشياء جميعًا، لم أؤخذ على غرة. ولو

واشتد الدور برأسي، وسال بلساني الهذيان، وشعرت بيد الموت ترتاد قلبي. وما أقساك أيها الموت! أراك تتقدم إلى هدفك بقدمين ثابتتين وقلب صخري، لا تتعب ولا تسأم ولا ترحم، لا تهزك الدموع، ولا تستعطفك الآمال. تدوس حبات القلوب، وتتخطى الأماني والأحلام. ثم لا تبدل سبتك ولو كان الفريسة في ربيع العمر الزاهر. توي في السادسة والعشرين ذو بنين وبنات، ألا تسمع؟ ماذا يضريك لو تركت أنفاسي تتردد في صدري؟ دعني ريشًا أشبع من هذه الحياة الجميلة المحبوبة. إنها لم تسوءني قط ولم أزهد فيها أبدًا. أحببتها من أعماق الفؤاد ولا أزال على العهد. كانت الصحة طيبة والمال موفورًا والآمال كبارًا. ألم تحط بكل أولئك خبرًا؟ ومن حولي قلوب محبة ونفوس وألهة، أفلا تنظر إلى العين الدامعة؟ كأني لم أعش ساعة واحدة في هذه الحياة الجميلة المحبوبة. ماذا رأيت من مشاهدتها؟ ماذا سمعت من أصواتها؟ ماذا أدركت من معارفها؟ ماذا ذقت من فتونها؟ ماذا جربت من ألوانها؟ أي فرص ستضيع غدًا؟ أي نشوات ستخمد؟ أي عواطف ستهمد؟ أي السررات ستبطل؟ ذكرت ذلك جميعه. ودارت بخلدي أشياء أخرى لا حصر لها ولا حد، ما بين مفاتن الماضي وسحر الحاضر وأمانى المستقبل. وجرت أمام حواسي الورود والحقول والمياه والسحاب والمأكول والمشرب والألحان والأفكار والحب والأبناء وقصر الأمير وحفلات فرعون والرتب والنياشين والألقاب والفخر والجاه. وتساءلت: أيمضي كل هذا إلى الفناء؟ وانقبض صدري أيما انقباض، وامتلأت حزنًا وكمدًا وهتفت كل جارحة بي: «لا أريد أن أموت». وتتابعت جحافل الليل. فغلب النوم الصغار. ولبثت زوجي عند رأسي وأمي عند قدمي، وانتصف الليل ونحن على حالنا ثم استدار وأوغل في الرحيل، ثم بهت ذوائبه بزرقة الفجر. هنالك داخلني شعور غريب بالرهبة وتولاني إحساس بالخوف. وأطبق السكون وأنذر بشي خطير، ثم شعرت بيد أمي تدلك قدمي وتقول بصوت متهذج: «بني.. بني!» وهتفت زوجي المحبوب: «توتي.. ماذا تجدد؟» ولكني لم

وأسفاه، إن بقيّة من حرّيتي لم تزل عزيزة عليّ، أسيرة إلى حين فلاأخذ نفسي بالصبر وإن شق عليّ. وجاءت أمي بملاءة وسجّت الجثّة ثم أخرجت العيال والخدم. وأخذت زوجي من يدها، وغادرتا الحجرة وأغلقتنا الباب. لم يغيبا عن ناظري لأنّ الجدران لم تعد حائلًا يحجب شيئًا عن بصري، فرأيتهما وهما تغيران ملابسهما وترتديان السواد، ثم اتجهتا نحو فناء الدار وهما تحلان ضفائرهما وتحتوان التراب على رأسيهما، وخلعتا النعال وهرعتا إلى باب الدار، وانطلقتا تصوّتان وتلدمان، ومضت أمي تصرخ «وابنائه» فتصرخ زوجي «وازوجاه» ثم تهتفان معًا: «يا رحمتا لك يا توتي المسكين! خطفك الموت ولم يرحم شبابك» وتركنا الدار على تلك الحال من العويل والنواح، وأخذنا في طريقهما، حتّى إذا مرّتا بأول دار تليهما برزت لهما ربّة الدار في ارتياح وصاحت بهما: «ما لكم يا أختي!» فأجابت المرأتان: «خربت الدار، تيّم الصغار، وثكلت الأم، وترملت الزوج، يا رحمة لك يا توتي..» فضوّت المرأة من أعناق صدرها وصاحت: «واحرّ قلباه.. يا خسارة الشباب.. يا ضيعة الآمال..» وتبعَت المرأتين وهي تحشو التراب على رأسها وتلطم خديها، وكلّما مررنّ بدار برزت ربّتها وانضمت إليهنّ، حتّى انتظم الحشد نساء القرية جميعًا، وتقدّمتن امرأة دربة بالنياحة، فجعلت تردّد اسمي وتعدّد فضائلي، وذهبن يقطعن طرقات القرية باعثات الحزن والأسى في كلّ مكان. هذا اسمي تردّده النائحات، ما له لا يحرّكي؟!

أجل، لقد صار الاسم غريبًا غريبة هذه الجثّة المسجّة، وبّت أتساءل متى ينتهي هذا كلّ؟ متى ينتهي هذا كلّ؟ وعندما أتى المساء جاء الرجال وحملوا الجثّة إلى بيت التحنيط والصراخ يطبق علينا، ووضعوها على السرير بالحجرة المقدّسة، وكانت الحجرة مستطيلة ذات اتّساع كبير، وليس بها من نافذة إلّا كوّة تتوسّط السقف، وفي الصدر قام السرير وعلى الجانبين رفعت رفوف رصّت عليها أدوات الكيمياء، وفي الوسط - تحت الكوّة - حوض كبير ملئ بالسائل

كان بي قدرة على الكلام لأجبت زوجي - حين سألتني: «توتي ماذا تجد؟» بأنّي أموت. ولكنّي فقدت قدرتي على الكلام وغيره فلم أأخذ على غرة كما قلت، وشعرت بزورة الموت كما يشعر المضطجع بدبيب الكرى وتخدير النعاس ثم رأيتة جهرة. والذي لا شكّ فيه أنّ الموت ليس مؤلمًا ولا مفزعًا كما يتوهم البشر، ولو عرف حقيقته الحيّ لنشده كما ينشد الخمر المعتقة، وفضلاً عن هذا وذاك فلا يخامر المحتضر أسف ولا حزن بل الحياة تبدو شيئًا تافهًا حقيرًا إذا ما تخايل في الأفق ذاك النور الإلهيّ البهيج. كنت مكبلًا بالأغلال فانفكت أغلالِي. كنت حييًّا في قمقم فانطلق سراحي. كنت ثقيلاً مشدودًا إلى الأرض فخلصت من ثقلي وأرسلت وثاقي. كنت محدودًا فصرت بغير حدود. كنت حواسّ قصيرة المدى فانقلبت حسًّا شاملًا كلّه بصر وكلّهُ سمع وكلّهُ عقل، فاستطعت أن أدرك في وقت واحد ما فوقّي وما تحتي وما يحيط بي، كأنما هجرت الجسم الراقد أمامي لأتخذ من الكون جميعًا جسمًا جديدًا. حدث هذا التغير الشامل الذي يجلّ عن الوصف في لحظة من الزمان، بيد أنّي ما برحت أشعر بأنّي لم أغادر الحجرة التي شهدت أسعد أيام حياتي السابقة. كأنّ العناية وكلّتي بجسمي القديم حتّى ينتهي إلى مستقرّه الأخير، فجعلت أتأمل ما حولي في سكون وعدم اكتراث. وقد غشي جوّ الحجرة حزن وكآبة، وأخذت أمي وزوجي تتعاونان على إنامة جسمي - صاحبي القديم - بملاءحه المعهودة راقدا لا حراك به، وقد ابيضّ لونه وشابته زرقة وتراخت أعضاؤه وأطبق جفناه، ونادتا أبنائي والخدم.. وراحوا جميعًا يعولون ويتعجبون. ومضى الحاضرون يسكبون عليه الدمع الغزير يكادون يهلكون كمدًا وحزنًا وغمًا. ومضيت أنظر إليهم بعدم اكتراث غريب كأنّهُ لم تربطني بهم يومًا أصرة قويّة! ما هذا الجسم الميت؟ لماذا تصرخ هذه المخلوقات؟ ما هذا الأسى الذي جعل من سحنهم دمامة شوهاء! كلّاً لم أعد من أهل هذه الدنيا، ولم يردّني إليها صراخ أو بكاء، ووددت لو تنقطع أسبابي بها لأخلق في عالمي الجديد. ولكنّ

وأجزاء ملتتهبة دامية من أثر ذلك الطمع العنيف الذي بعثني للكفاح بلا رحمة حتى ضمنت إلى أرض أسرتي قطعة أرض تجاورها نازعني عليها جار بضع سنين. رأيت فيه جلّ حياتي وما عانيت من الأهواء، أما الرجل فمضى في عمله يحذوه الهدوء، والمران، فأتى بكلاّب دقيق وأولجه في أنفي باحتراس حتى تمكّن من هدفه، ثم وجهه بدراية وعنف وجذبه بسرعة، فسال غي الكبير من منخريّ مائة رخوة تذرو في الهواء ما تجمع فيها من لوامع الفكر ولآلي الأسال ودخان الأحلام. هذه أفكارني منقوشة أمام عينيّ، فإذا قارنتها بنور الحقّ الذي يتخايل لروحي بدت تافهة مشوّهة، لقد قاتلها المثلّ الذي أوت إليه: رأسيّ وغيّ. ها أنذا أقرأ القصيدة التي صغتها في وصف قادش! وما هي ذي الخطب التي ألقيتها بين يدي الأسير في المناسبات المختلفة، وهذه آرائني في آداب السلوك، وهذه الحكم التي حفظتها عن حقائق النجوم كما جاءت في كتب قاقمنا! كلّ أولئك أزاحه الرجل مع فئات الملحّ فاستقرّ بين الأمعاء والمعدة في الطست الدامي، غير ما تنائر على الأرض فداسته الأقدام. قال الحكيم وهو يعيد الكلاّب إلى موضعه: «الآن صارت الجئنة نظيفة!» فقال صاحبه ضاحكاً: «ليتك تجد بعد موتك يداً ماهرة كيدك!» وحمل الحكيمان ما تبقي من جسمي إلى الخوض الكبير، وأناماه فيه، فامتلاً بالوسائل الساحر وغرق فيه، ثم غسلا أيديهما وغادرا المكان، وقد أدركت أنّ الحجر لن يعاد فتحها قبل كرور سبعة يوماً - مدة التحنيط - فمسيّ الجزع. وقع في نفسي خاطر أن أنطلق بروحي إلى العالم لألقي عليه نظرة الوداع..

- ٣ -

استرق إلى نفسي خاطر أن أنطلق بروحي إلى العالم فانطلقت، لم تحدث حركة في الواقع. وإنّما كان يكفي أن يتجه فكري إلى شيء حتى أجده ماثلاً أمامي، بل الواقع أعظم من ذلك؛ فقد صار بصري شيئاً عجيبيّاً، لا يعصي أمره شيء، صار قوّة خارقة تشقّ الحجب

العجيب، وخرج الرجال فلم يبق إلاّ رجلان، وكان الرجلان حكيمين من المشهود لهما في فنّها فأخذوا في عملها دون إبطاء، وقد جاء أحدهما بطست، ووضعه على كئيب من السرير، وتعاونوا معاً على تجريد الجئنة من ملابسها حتى بدت عارية لا يحجبها شيء. فعلاً ذلك في هدوء وعدم اكتراث، ثم قال الذي جاء بالطست وهو يغمز عضلات صدري وذراعي: «كان رجلاً قوياً.. انظروا!» فقال الآخر: «كان توتي من رجال الأمير، يؤاكله ويشاربه، وفضلاً عن ذلك، فقد خاض غمار الحروب!» فقال الذي جاء بالطست متحسراً: «لو أنّ الأجسام تُعارى؛ فأجابه الآخر ضاحكاً: «أيتها العجوز، ما جدوى جسد ميت؟!» فقال وهو يهزّ رأسه: «وكان قوياً حقّاً».

فقال الآخر ضاحكاً وهو يتناول خنجرًا طويلاً حاداً من أحد الرفوف: «فلنتخبر قوّته!» وطعن الجانب الأيسر فيما يلي الصدر بخنجره. حتى غاب نصله، وشقّه حتى أعلى الفخذ، وأعمل في الداخل يده بمهارة ودربة، ثم استخرج الأمعاء والمعدة، وأودعها الطست، وقفاهما بالكبد والقلب، فسرعان ما رأيت باطني جميعاً، ولم يستغرق ذلك إلاّ دقائق معدودة، فالرجل من مهرة المحنّطين الذين اتقنوا عملهم آتياً إتقان، ورحت أنظر إلى باطني بعناية، وبخاصّة إلى معدتي التي عرفت بقوّتها ونشاطها، ولم تحلّ غلافها دون رؤية ما بداخلها بفضل تلك القوّة السحرية التي اكتسبها بصري، فرأيت فيها مضغ الأورّة والتين وبقايا النبيذ التي تناولتها على مائدة الأمير مساء أمس، وذكرت قوله حين عزم عليّ بالطعام: «كلّ يا توتي واشرب، وتمتّع بالحياة أيتها الرجل الأمين!».. رأيت وذكرت دون أن يعروني أيّ أثر أو انفعال، ودون أن يزايلني عدم الاكتراث العجيب، ثم حوّلت بصري إلى قلبي فرأيت علماً حافلاً بالعجائب، رأيت بشغافه آثار الحبّ والحزن والسرور والغضب، وصور الأحبة والرفاق والأعداء، وقد ترك الهيام بالمجد به فجوة عمّقتها ما خضت من معارك في بلاد زاهي والنوبة، ولاحت على رقعة مشاهد مروّعة لميادين القتال،



العرش العظيم الملك والرسول والكهنة والنبلاء والقواد. هؤلاء هم سادة الدنيا قد جمعهم مكان واحد. وهذا فرعون المظفر يحدث رسول الحيشيين الجبابرة في جوف الموتة عامر. أما صدر الملك فقد امتلأ احتقاراً، وترددت بأعماقه هذه العبارة: «لا بدّ مما ليس منه بدّ» وأما صدر الرسول فقد بضّ كراهية، وتحيرت به هذه الفكرة: «صبراً حتى يموت هذا الملك القوي». ونشطت عيناها، قرأت الوجوه والملابس والقلوب والعقول والبطون. رأت عالمي الظاهر والباطن بغير حجاب. وتسليت زمناً بتفحص ما في البطون من طعام فاخر وشراب معتق، حتى عثرت بمعدة كاهن على بصل وثوم! وهما محرمان على الكهنة. وتساءلت: ترى كيف غافل هذا الرجل الورع أفرانه ودس هذا الطعام في جوفه؟! ولمحت في ناحية من معدة أحد النبلاء ديبب المرض الذي أودى بحياتي، وكان الرجل يحاور قائداً في سرور وانشراح فقلت له في نفسي: «على الرجب والسعة». ثم وقع بصري على الحاكم تتي الذي اشتهر بالقسوة والبطش حتى ليوالي فرعون النصيح له بالاعتدال مع رعايا إقليمه، فنظرت إليه بلمعان ومرعان ما تكشف لي عن جسم مهزول، مريض الأعضاء، لا يفتأ يشكو من الشكوى أسنانه ومفاصله. وكلما ألح عليه الألم تمّنى لو يستطيع بتر الفاسد من جسمه. ولذلك تملكته فكرة البتر بقسوة فلا يتردد عن بتر المعوج من رعاياه بعنف لا يعرف الرحمة. وإلى جانب تتي شاهدت الوزير مينا، ذلك الرجل العنيد الذي حارب فكرة الصلح بكلّ قواه، وطالما حرّض على القتال، وتساءلت: ترى ما سرّ عناد هذا الوزير الخطير؟! رأيت عقله نيراً ولكن أمعاءه ضعيفة فستبقى فضلات الطعام طويلاً فتلوث دمه في دورته فيذهب إلى عقله فاسداً ويغشى نور أفكاره، حتى إذا خرجت من فمه كانت ذات شر كبير! والرجل مقتنع برأيه يراه واضحاً مستقيماً كما أرى تحه مسوداً ملوثاً! ثم دار بصري بالصدور يستقرها خفاياها الكامنة وراء بساط الثغور. هذا صدر ثقل عليه الملل فهمس صاحبه: «متى العودة إلى القصر حيث السماع

وتتخطى السدود، وتنفذ إلى الضمائر والأعماق. بيد أنّي - وقد حمّ الوداع - نازعتي الفكر إلى أهلي فوجدت نفسي في داري. أما الصغار فقد راحوا في نوم عميق لا يزعجه مكدر. وأما زوجي وأمي فقد افترشنا الأرض، ولاح في وجهيهما الهم والغم. لشدّ ما أعيهما الحزن والبكاء! وغداً يتضاعف حزنهما عند تشييع التابوت إلى مشواه الأبدى. وقد تغلغل روعي في فؤاديهما فتحرك رأساها وتمثلت لهما في الأحلام، ورأيت القليلين المحزونين يخفقان في كمد وألم، فيم كان كلّ هذا الكدر؟! بيد أنّ شيئاً استرعى بصري! رأيت في سويداء القليلين نقطة بيضاء. فعرفتُها - فما عاد يخفى عليّ علم شيء - فهي بذرة النسيان! آه... ستكبر هذه النقطة وتنتشر حتى تشمل القلب كله. أجل أدركت هذا حق الإدراك، ولكن بغير مبالاة فلم أعد أكثرث لشيء، وتساءلت مسوفاً بلذّة المعرفة متى يمكن أن يحدث هذا؟ فأرتني عيناها العجيبتان صورة من المستقبل: رأيت أُمّي تمسك غلاماً يمينها وتشق طريقها وسط زحام شديد ملوثة بزهرة اللوتس. فعلمت أنّها خرجت - أو أنّها ستخرج - للمشاركة في أسعد أعياد قريتنا، عيد الإلهة إيزيس، كان وجهها متهللاً وكان ابني يهتف ضاحكاً. ورأيت زوجي تهنئ مائدة - والطعام خير ما تصنع في دنياها - وتدعو إليها رجلاً أعرفه، فهو ابن خالها ساو، ونعم الزوج هو. ولو أنّ ميتاً يُسرّ لسررت لها، لأنّ ساو رجل فاضل، وهو خير من يسعد زوجي ويرعى أبنائي. وانصرفت روعي عن داري، فمرت في سبيلها بقصر أميري المحبوب، فشاهدت عقل الأمير ووجدته متأسفاً لفقدني وهو الذي قدّرتني أجمل التقدير وجازاني خير الجزاء. ووجدته مشغولاً باختيار خلف لي، فقرأت في ذاكرته اسم المرشح الجديد «آب رع» وكان من مرؤسي النابهين وإن لم تتصل بيننا أسباب الموتة.

كلّ هذا جميل. ولكن إلّا أبقى في قريتي واليوم يستقبل فرعون رسول الحيشيين لتوقيع معاهدة الصلح والسلام. رأيت منف - في لمح البصر - تعجّ بجمهورها الخاشد، والقصر في أروع منظر. وقد اجتمع في بهو

الفوارق. فصاروا كتلة واحدة. ساكنة صامتة. لا حياة فيها ولا حركة. رحت ألقى البصر في دهشة وحيرة حتى ألفت المنظر. فتكشّف لي عن جانب جديد كان من قبل خافياً.

رأيت ذاك الظلام الساكن يشعّ نوراً شاملاً؛ فإنّ الأنوار الخافتة التهافتة التي تخفق في كلّ مخّ - على حدة - ضعيفة خافية، اتّصلت في المجموع الملتحم المتمايك ولاحت نوراً قوياً باهراً. رأيت في لمعتها حقاً باهراً وخيراً صافياً وجمالاً متألّفاً فازدادت دهشة وحيرة. ربّاه لشدّ ما تعاني الروح وتتعبّد ولكنّها تبعد وتخلق على رغم كلّ شيء. ربّاه لقد رأى توتّي أموراً جلييلة وليرين أموراً أجلاً وأخطر. وأيقنت أنّ ذلك النور الذي بهرني إنّ هو إلّا نقطة من الساء التي ساعرج إليها. وغضضت البصر وولّيت الدنيا ظهري فوجدت نفسي في حجرة التحنيط المقدّسة، وقد ملأ روحي سرور الهني لا يوصف..

وانتهت أيام التحنيط السبعون. فجاء الرجال مرّة أخرى، واستخرجوا الجثّة من الحوض وأدجوها في الأكفان، وأتوا بالتابوت وقد زانوا غطاءه بصورة جميلة لتوتّي الشابّ ووضعوا فيه الجثّة، ثمّ رفعوه إلى أعناقهم وساروا به إلى الخارج، فتلّقاه المشيخون من الأهل والجيران بالعويل واللطم، وعاد النواح كأفزع ممّا كان يوم النعي، وذهبوا إلى شاطئ النيل وهبطوا إلى سفينة كبيرة أقفلت بهم صوب مدينة الأبدية على الشاطئ الغربيّ، والتّقوا بالتابوت يصوّتون وينوحون: قالت أمّي: «لا جفّ لي دمع، ولا اطمأنّ لي قلب من بعدك يا توتّي!». وصاحت زوجي: «لماذا قضي عليّ بأن أعيش بعدك يا زوجي!».

وقال حاجب الأمير: «توتّي أيّها الكاتب المجيد. لقد تركت مكانك شاغراً».

ولبت أنظر بهاتين العينين اللتين تنكّرتا لماضيها، وكأنّ سبباً لم يصلني بهذه الدنيا، ولا بهؤلاء الناس، ورسّ السفينة إلى الشاطئ فرفعوا التابوت مرّة أخرى، ومضوا به إلى المقبرة التي أنفقت في تشييدها

والقيان؟ وهذا صدر يتوجّع قائلاً: «لو مات الرجل بمرضه لكنك الآن قائداً على فرقة الرماح!» وذلك صدر يقول في جزع متسائلاً: «متى يقوم الأحق برحلته التفتيشية فأهرع إلى زوجه الحسنة المحبوبة... آه..». وقال صدر لصاحبه من الأعماق: «لا يدري إنسان متى يمين الأجل. فلا يجوز بعد اليوم أن أوخّر بناء مقبرتي. أو فما فائدة المال إذن؟!». وتولّت الحيرة صدرًا كبيراً فجعل يقول لصاحبه: «قال أختاتون إنّ الربّ هو آتون. وقال حار محبّ إنه آمون. وهناك قوم يعبدون رع فلماذا يتركنا الربّ في شقاق؟» ولم أوصل الاستطلاع طويلاً في هذا الحفل الفرعونيّ الجليل إذ سرعان ما أدركني الملل. فتحولت عنه ووجدت نفسي مرّة أخرى في الدنيا الواسعة.

ومرّت أمام ناظريّ مشاهد كثيرة من الأرض والساء، لمست حقائقها جهرة، ونفذت إلى صميمها. حتّى وقع البصر على جنين يتكوّن في رحم، فرأيت يكتسي لحماً وعظماً. وشهدت مولده. وجرى البصر معه في المستقبل فرآه طفلاً وصبيّاً وغلماً وشابّاً وكهلاً وشيخاً وميتاً. وشاهد ما اعتوره من حادثات وحالات سرور وحزن ورضا وغضب وأمل وبأس وصحة ومرض وحبّ وملل. رأيت ذلك جميعه في دقيقة من الزمان. حتّى يختلط في أذنيّ بكاء الميلاد وشهقة الموت! وغلبتني على أمرى رغبة جامحة في اللعب فسأيرت حيوات أفراد كثيرين من الميلاد إلى المات. واستلذذت كثيراً وتوع الحالات المتنافرة لا يكاد يفصل بينها زمن! فهذا وجه يضحك ويقطب ثمّ يضحك ويقطب عشرات المرات في جزء من الثانية! وهذه امرأة تنيه حسناً وتعشق وتزوّج وتحبل وتلد وتهرم وتقبح وتسمح في لحظة من الزمان! ووفاء وخيانة لا يفصل بينهما زمن. هذا وغيره ممّا لا يحيط به حصر جعل الحياة مهزلة. فلو أنّ ميتاً يضحك لأغرقت في الضحك، وبدا لي كأنّه لا حقيقة في العالم إلّا التغيّر! رغبت نفسي عن مطالعة الأفراد وحيواتهم المجنونة فغابوا عن بصري. ورنوت إليهم من بعيد جمعاً غفيراً لا يحده شيء. تضاءلت الحجوم وطمست المعالم وانعدمت

ملاحظة: هنا انقطعت الكتابة في المخطوط  
الميروغليفي، ولعلّ فترة الانتظار التي أشار إليها  
الكاتب في أوّل كتابته كانت قد انتهت. ولعلّ رحلته  
الأبدية كانت قد بدأت، فشغل بها عن قلمه  
المحوب، وعن كلّ شيء.

جلّ ثروتي، وأحلّوه موضعه من الحجرة. وفي أثناء  
ذلك كان جماعة من الكهنة يتلون بعض الآيات من  
كتاب الموتى يلقّنوني التعاليم الهادية من أقوم سبيل؟  
ثمّ جعلوا ينسحبون تباعاً حتّى خلا القبر، ولم يعد  
يسمع من شيء إلّا العويل الآتي من بعيد. وأغلقت  
الأبواب وهملت عليها الرمال، فانقطعت كلّ صلة بين  
العالم الذي ودّعت، والدنيا التي أستقبل..

\* \* \*



عَبْدُ الْقُدْرِ



## - ١ -

الحديث بالهرم الذي شاء خوفو أن يقيمه مثوى لخلده ومستقرًا لجشانه. وكان ميرابو، المعيار النابغة الذي تستمت به مصر ذروة المجد الفني، يتولى شرح عمله المجيد لمولاه الملك فأسهب في تبيان دلائل العظمة المرجوة لذيك العمل الخالد الذي يشرف على بنائه وابتكار خططه. ومضى الملك يستمع إلى صديقه الفنان، ثم ذكر السنوات العشر التي تقضت على البدء في العمل فلم يخف غملمه، وقال للفنان:

- أيّ ميرابو العزيز، إني مؤمن بنبوغك، ولكن حَتّامَ تستنظرنني؟ إنك لا تفتأ تحدّثني عن عظمة الهرم الذي لم أر من بنيانه مدرجًا واحدًا، وقد مضت على بدء العمل عشرة أعوام طوال حشدت لك فيها الملايين من الرجال الأشداء وعبأت لك خير الكفايات الفتيّة من شعبي العظيم، ومع ذلك فلا أرى لذاك الهرم الموعود أثرًا على ظهر الأرض، وكأني بهاتيك المصاطب التي تحفظ أجساد أصحابها، ولم تكلفهم عشر معشار ما تكلف أنفسنا، تسخر من جهدنا الضائع وعملنا العاثر.

فبدأ الجزع على وجه ميرابو الأسمر الأقم، وارتسمت تجاعيد الارتباك على جبهته العريضة، وقال بصوته الرفيع الناعم:

- مولاي! حاشى أن أصرف الوقت عبثًا أو أضيع الجهد لعبًا، فإني لمقدّر التبعة التي تحمّلها حين أخذت على نفسي موثقًا أن أشيّد لفرعون مثوى خلده، وأن أجعله آية للناس تنسيهم ما تقدّم من آيات مصر وعجائبها. ونحن لم نُضِع الأعوام العشرة عبثًا بل صنعنا فيها ما تعجز عن صنعه الجبابرة والشياطين، فشققنا في الصخر الجلمود مجرى ماء يصل ما بين النيل وهضبة الهرم، وقطعنا من الجبل صخورًا شاهقة

جلس صاحب العظمة الإلهيّة والهيبة الربانيّة «خوفو بن خنوم» على أريكته الذهبية، بشرفة مخدعه التي تطلّ على حديقة قصره المترامية الغناء - جنة منف الخالدة ذات الأسوار البيضاء - بين رهط من أبنائه وخاصّته المقرّبين، وكانت عباةته الحريرية تلمع حاشيتها الذهبية تحت أشعة الشمس التي بدأت برحلتها نحو الغرب، وكانت جلسته هادئة وديعة، فكان يسلم ظهره إلى وسادة مخشوة بريش النعام، ويتكىء عرقفه على مُرْفَقَة ذات غطاء من الحرير المنمنم بالذهب، وقد تجلّت أي عظمته في جبهته العالية ونظرتة الرفيعة، ونبذت قوّته الخارقة في صدره الواسع وساعديه المفتولين وأنفه الأشمّ، فأحاطت به مهابة من سنّ الأربعين، وهالة من مجد الفراعنة.

وكان يقلّب عينيه الثابتين بين أبنائه وصحابته، ويرسل بناظريه إلى الأمام حيث يغيب الأفق خلف رءوس النّخيل والأشجار، أو ينحرف بها ذات اليمين فيشهد عن بعد تلك الهضبة الخالدة التي يرقب مشرقها أسو الهول العظيم، ويسكن جوفها رفات الآباء والأجداد، ويملاً سطحها مئات الألوف من الخلق يزيلون كثبانها ويشقّون صخورها، ويحفرون الأساس الهائل لهرم فرعون، الذي أراد أن يجعله آية للناس على كَرّ الأيام وتوالي الأزمان.

وكان فرعون يحبّ تلك الجلسات العائليّة التي تعفيه من أثقال الرسميّات، وترفع عن كاهله أعباء التقاليد، فيغدو فيها أبًا رفيقًا وصديقًا ودودًا، ويخلص وصحه إلى النجوى والحديث، ويطلقون تافه المواضيع وهامّها، فتلوك ألسنتهم الفكاهات وترم الأمور وتقرّر المصائر. . في ذلك اليوم المدرج في طوايا الزمان - الذي أرادت الآلهة أن تجعله مبدأ لقصّتنا - بدأ

فضحك فرعون وسأله:

- هذا ما يقول قاقمنا وزير الملك حوتي.. فما عسى أن يقول خوميني وزير الملك خوفو؟  
فبدا التفكير على وجه الوزير الخطير وتأهب للكلام. ولكن الأمير رعخعوف لم يمهل حتى يتكلم، وقال بحماس أمير في العشرين من عمره:

- مولاي إن الصبر فضيلة كما قال الفيلسوف قاقمنا، ولكنه فضيلة لا تليق بالملك، لأن الصبر تحمّل للأرزاء وإذعان للشدائد، وعظمة الملوك في التغلب لا في التصبر، وقد عوّضتهم الآلهة عن الصبر فضيلة القوة.

فاعتدل فرعون في جلسته، ولعلت عيناه لمعاناً خاطئاً لولا الابتسامة المرسومة على شفتيه لكان قضاء مبرماً، ومضى يتذكر ماضي حياته على ضوء هذه الفضيلة ملياً، ثم قال بصوت حماسي كَرَّ به من الأربعين إلى ذروة العشرين:

- ما أجمل قولك يابني، وما أسعدني بك! حقاً إن القوة فضيلة الملوك بل فضيلة الناس كافة لو يعلمون.. لقد كنت أمير ولاية صغيرة ثم خلقت ملكاً من ملوك مصر، وما سمي بي من الإمارة إلى العرش إلا القوة، وكان الطامعون والتمردون والحاقدون لا يفتأون يتربصون بي الدوائر ويتحذرون للقضاء عليّ، فما أشلّ ألسنتهم وقطع أيديهم وأذهب ريحهم إلا القوة. وهم النوبيون مرّة بشق عصا الطاعة، وزين لهم الجهل التمرد والعصيان، فهل كسر شوكتهم وألزمهم الطاعة إلا القوة؟ بل ما الذي رفعتني إلى مرتبة القداسة فجعل كلمتي قانوناً نافذاً ورأيي حكمة إلهية وطاعتي عبادة؟ أليست هي القوة؟

هنا بادر الفنان ميرابو يقول كأنه يكمل حديث الملك.

- والألوهية يامولاي؟

فهزّ فرعون رأسه استهانة وسأله:

- وما الألوهية ياميرابو؟ إن هي إلا قوة.

قال المعمار بثقة وطمأنينة:

- ورحمة ومحبة يامولاي.

كالتلال وسوّيناهما فكانت في أيدينا أطوع من العجين.. ونقلناها من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، فانظر يامولاي إلى السفن كيف تمخر النهر حاملة أكوام الصخور كأنها جبال عالية تسيرها تعاويد ساحر جبار.. وانظر إلى العمال المتهمكين كيف يكون على أرض الهضبة كأنّ ظاهرها انشقّ عمّن يحتويهم منذ آلاف السنين!

فابتسم الملك وقال متهكئاً:

- يا عجباً.. أمرناك أن تشيد لنا هرمًا فشقت نهرًا. فهل تظنّ مولاك ملكًا على الأسماك؟

وضحك الملك وابتسم الصحابة، إلّا الأمير رعخعوف وليّ العهد، فقد جدّ في الأمر، وكان على حدائقة سنّه جبارًا صارمًا شديد القسوة ورث عن أبيه جبروته دون رفته، فقال يسأل الفنان:

- الحقّ آتي أعجب لتلك السنين التي ذهبت في التمهيد والتحضير، وقد علمت أنّ هرم المقدسة روحه الملك ستفرو بلغ كماله في أقلّ من هذا العهد الطويل..

فوضع ميرابو يده على جبهته وقال بأدب جمّ:

- ها هنا يا صاحب السمو الملكي يسكن عقل عجيب دائب على الثورة، نزاع إلى الكمال، خلاق للمثل العليا، وقد أبدع لي بعد جهد جهيد خيالاً جباراً أنا باذل روحي لتجسيمه وتحقيقه، فصبراً يا صاحب الجلالة.. وصبراً يا صاحب السمو!

وساد الصمت لحظة لهما شاع في الجو نغم موسيقا الحرس الفرعوني، التي كانت تتقدّم فريقاً من الحرس إلى أماكن حراستهم وتعود بإخوانهم إلى الثكنات، وكان فرعون يفكر في كلام ميرابو، فلمّا خفت أصوات الموسيقى نظر إلى وزيره خوميني كاهن المعبود بتاح ربّ منف، وسأله والابتسامة الجلييلة لا تفارق شفتيه:

- هل الصبر من شيم الملوك يا خوميني؟

. فتخلّل الرجل لحيته بأنامله وقال بصوته الهادئ:

- مولاي، يقول فيلسوفنا الخالد قاقمنا وزير الملك حوتي: إنّ الصبر ملاذ الإنسان من القنوط ودرعه ضدّ الشدائد.



ومشهدهم الرائع . أيّ مجد وأيّ جلال! أيّ عذاب وأيّ جهاد في سبيله هو! هل ينبغي أن تشقى ملايين النفوس الشريفة من أجل مجده! هل ينبغي أن يولي ذلك الشعب النبيل وجهه قبله واحدة هي سعادته هو؟ كان ذلك الوسواس هو القلق الوحيد الذي يضطرب أحياناً في ذلك الصدر المليء بالقوة والإيمان، مثله كمثل قطعة من السحاب التائه في سماء زرقاء صافية، وكان يعذبه - إذا اضطرب - فيضيق به صدره وينقص عليه صفوه وسعادته . وقد اشتدّ به العذاب فولى الهضبة ظهره وطالع صحابته بوجه غاضب دهشوا له، وطرح عليهم هذا السؤال:

- من الذي ينبغي أن تبذل حياته لصاحبه؟  
الشعب لفرعون أم فرعون للشعب؟!

فوجوا جيئاً واستولى عليهم الارتباك، وكان القائد أربو أربطهم جأشاً، فقال بصوته القويّ الثبرات:  
- إننا جيئاً - شعباً وقادة وكهنة، فداء لفرعون!  
وقال الأمير حرسادف أحد أبناء الملك بحماس شديد:  
- والأمراء أيضاً .

فابتسم الملك في غموض ولبث القلق واضحاً على وجهه الجليل، فقال وزيره خوميني .  
- مولاي صاحب الجلالة الربّانية! لماذا تفرّقون بين ذاتكم العالية وبين شعب مصر وأنتم منه كالرأس من القلب والروح من الجسد؟ إنكم يامولاي عنوان مجده وأي فخاره وحصن عزّته ووحى قوّته، ولئن وهبكم حياته فإنما يهبها لمجده وعزّته وسعادته، وما في هذه المحبة ذلّ أو عبوديّة، إنّ هي إلّا وفاء جميل وحبّ عتيق ووطنية سامية .

فابتسم الملك ارتباحتاً، وعاد بخطى واسعة إلى الأريكة الذهبية وجلس فجلس القوم، ولم يكن الأمير رعخوف وليّ العهد بمرتاح إلى وسواس والده فقال له:

- لماذا تكذّرون صفوفكم يامولاي بأمثال هذه الوسواس؟ لقد وليت الحكم بمشيئة الالهة لا بإرادة

فقال الملك وهو يشير بسبّابه إلى الفنّان:

- هكذا أنتم أيّها الفنّانون! تروّضون الصخور العائيات وقلوبكم أندى من نسيم الصباح . وما أحبّ أن أجادلَك، ولكيّ ألقى عليك سؤالاً ستجد في الجواب عليه فصل الخطاب: إنك ياميرابو تخالط - منذ عشرة أعوام - جيوش هؤلاء العمّال الأشداء، وإنك لذلك حقيق بأن تطلع على خبايا ضلوعهم وما تختلج به نفوسهم في السرّ والتجوّى . . فما الذي تظنّ أنّه يلزمهم طاعتي ويصبرهم على أهوال العمل؟ قل الحقّ صراحة ياميرابو . .

فصمت العمّار ساعة يُعمل فكره ويدعو الذكريات . وقد انجّبت إليه الأنظار في اهتمام شديد، ثم قال بتؤدة بلهجته الطيعيّة المفعمة حماساً وقيئاً:

- العمّال يامولاي طائفتان: طائفة الأسرى والمستوطنين، وهؤلاء لا يدرون ماذا يفعلون، ويروحون ويغدون بلا شعور سامٍ كما يدور الثور حول الساقية، ولولا قسوة العصا ويقظة الجند ما وقفنا لهم على أثر . أما طائفة المصريين، وأغليّتهم من مصر العليا، فهم أناس ذوو عزّة وكبرياء وجَلد وإيمان، تحمّلهم للعذاب عجيب وصبرهم على الشدائد صارم، وهم يعلمون ماذا يفعلون، وتؤمن قلوبهم بأنّ العمل الشاقّ الذي يهبونه حياتهم واجب دينيّ جليل وزلفى للرّبّ المعبود، وطاعة لعنوان مجدهم الجالس على العرش، فمنحتهم عبادة، وعذابهم لذّة، وتضحياتهم الجبّارة فرض لإرادة الإنسان السامي على الزمان الخالد . . تراهم يامولاي في وهج الظهيرة وتحت نيران الشمس المحرقة يضربون الصخر بسواعد كالصواعق وعزائم كالأقدار، وهم ينشدون الأغاني ويترنّون بالأشعار .

فانبسطت أسارير السامعين وسرت في دمائهم نشوة الفرح والفخار، وتبدّى الرضا على قسّات فرعون البارزة القويّة، وقام عن أريكته - وقد بعث قيامه الجالسين قياماً - وسار في الشرفة الواسعة على مهل وأتران حتّى بلغ حافتها الجنوبيّة، وألقى النظر بعيداً إلى تلك الهضبة الخالدة التي ترسم على رقعتها المقدّسة خطوط العمّال الطويلة، وتأمل منظرها الجليل

إنسان، ولك أن تحكم الناس كيف تشاء لا تُسأل عما تفعل وهم يُسألون!

فقال خوفو:

- أيتها الأمير، إن أباك إذا تفاخرت الملوك يقول «أنا فرعون مصر».

ثم تنهد بصوت مسموع وقال وكأنه يحدث نفسه:  
- إن كلام رعخوفو حريّ بأن يوجّه إلى حاكم ضعيف لا إلى خوفو الجبار. . خوفو فرعون مصر. . وما مصر إلا عمل عظيم لا تقام لبناته إلا على تضحيات الأفراد، وما قيمة حياة الفرد؟ إنها لا تساوي دمعة جافة لمن ينظر إلى المستقبل البعيد والعمل المجيد. . لهذا أقسو دون تردد، وأضرب بيد من حديد، وأسوق مئات الألوف إلى الشدائد لا لبلادة طبع أو تحكّم أثره، وكأنّ عينيّ تنفذان خلل سحيف الأفق فتطلّعان على مجد هذا الوطن المنتظر. لقد اتهمتي الملكة مرة بالقسوة والظلم. كلاً، ما خوفو إلا حكيم بعيد النظر، يرتدي جلد غر مفترس ويخفق في صدره قلب ملاك كريم.

وساد صمت طويل. وكان الصحابة يمتّون أنفسهم بسمر طريف ينسيهم أنقال تبعاتهم الجسام، وكانوا جميعاً يرجون أن يقترح عليهم الملك رياضة جميلة أو يدعّوهم إلى مجلس شراب وغناء بعد أن شبعوا من أحاديث الأعمال والمهام، ولكنّ الملك كان في تلك الأيام يشكو من ملل أوقات الفراغ على قصرها وتندرتها، فلمّا علم أنّه قد آن له أن يستريح وأن يلهو ران على قلبه السأم، ونظر إلى صحبه في حيرة، وقد قال له خوميبي:

- هل أملاً لمولاي كأساً من الشراب؟

فهزّ فرعون رأسه وقال:

- شربت اليوم وشربت بالأمس. .

فقال أربو:

- هل ندعو العازفات يامولاي؟

فقال بلبل:

- إنّي أستمع إلى موسيقاهنّ صباح مساء.

فقال ميرابو:

- ما رأي مولاي في الخروج إلى الصيد؟

فقال الملك بنفس اللهجة:

- شبت من صيد البر والبحر.

- إذا فهل من سيّر بين الأشجار والأزهار؟

فقال:

- وهل في الوادي مشهد جميل لم أره؟

وساءت شكوى الملك خلصائه وتكدّرت نفوسهم، إلا الأمير هورداديف فإنّه كان يدّخر لوالده مفاجأة سارة لا عهد له بها، فقال:

- أبي الملك، إنّي أستطيع أن أقدم بين يديك لو تشاء ساحراً عجيباً يعلم الغيب ويميت ويحيي، ويقول للشيء كن فيكون.

فصمت فرعون ولم يسارع هذه المرة إلى الرفض والتلمل، ونظر إلى ابنه باهتمام. وكان الملك يسمع كثيراً عن أخبار السحرة ومعجزاتهم، ويتسلّى بما يروى عن نوادرهم، فسره أن يوعده برؤية واحد منهم محضراً بين يديه، وسأل ابنه:

- ومن هو هذا الساحر أيتها الأمير هورداديف؟

فقال الأمير:

- هو الساحر ديدى يامولاي، وقد بلغ من العمر مائة عام وعشرة ولا يزال محتفظاً بقوة الشباب وفتوة الصبا، وله قدرة عجيبة يتسلّط بها على الإنسان والحيوان، وبصيرة نافذة تهتك حجب الغيب.

فازداد اهتمام الملك وسرى عنه الضيق والملل وقال:

- هل تستطيع أن تأتي به الآن؟

فقال الأمير بفرح:

- أمهلني دقائق يامولاي.

ثمّ قام واقفاً وحياً والده بانحناء طويلة، وذهب ليحضّر الساحر العجيب. .

- ٢ -

وبعد حين قليل رجع الأمير هورداديف يسير بين يدي رجل طويل القامة عريض المنكبين، حادّ البصر نافذ النظرات، يكلّل رأسه شعر أبيض هشّ وتغطّي

صدره لحية كثة، وقد تُلَفَّعَ بعباءة فضفاضة وتونًا على عصا طويلة غليظة، وانحنى الأمير وقال:

- مولاي! أقدم بين يديك عبدك القانت الساحر ديدي.

فسجد الساحر بين يدي الملك وقبَّل الأرض بين

قدميه، ثم قال بصوت ذي نبرات مؤثرة خفقت لوقعه القلوب:

- مولاي ابن خنوم، نور الشمس المشرقة ورب

العالمين، دام له المجد وحلَّت به السعادة!

فرعاه الملك بالعطف وأجلسه على كرسي قريب

منه، وقال له:

- كيف لم أرك من قبل وقد سبقتني إلى نور هذه

الدنيا بسبعين عامًا؟

فاجابه الساحر المعمر بامتنان قائلاً:

- وهبك الرب الحياة والصحة والقوة، إن مثلي لا

يحظى بالثول بين يديك إلا إذا دعوته.

فابتسم الملك، ثم نظر إليه باهتمام وسأله:

- أحقَّ أنَّ لك معجزات يا ديدي؟ أحقَّ أنَّك

تستطيع أن تدعن لإرادتك الإنسان والحيوان، وأن

تجلو عن وجه الزمان غشاوة الغيب؟

فأحنى الرجل رأسه حتَّى انثنت لحيته على صدره،

وقال:

- هذا حقَّ وصدق يا مولاي.

فقال الملك:

- أريد أن أشهد بعض هذه المعجزات يا ديدي.

وجاءت الساعة الرهيبة، فأتسعت العيون وبدا

الاهتمام على الوجوه، ولم يبادر ديدي إلى عمله ولكَّته

جهد مليًا كأنما تحوَّل إلى تمثال، ثم ابتسم عن أنياب

حادَّة وألقى نظرة سريعة على الوجوه.

وقال للملك:

- عن يميني ينفق قلب لا يؤمن بي.

فدهش الصحابة وتبادلوا نظرات الحيرة، وسرَّ

الملك لفراصة الساحر وسأل رجاله قائلاً:

- هل من بينكم من ينكر على ديدي معجزاته؟

ولحظ القائد أربو الساحر بعين متعالية، وأراد أن

يؤيِّ عنه وجهه باحتقار، ولكَّته أحسَّ بقوة تجذبه من

عينيه إلى الرجل. ولفحه الغضب وشدَّ بقوة على

رقبته، وحاول أن ينتزع عينيه من القوَّة الهائلة التي

وهزَّ القائد أربو منكبيه استهانة، وتقدَّم بين يدي

الملك وقال:

- مولاي، إنِّي لا أومن بالأعيب السحر. وأرى أنَّها

نوع من المهارة يحذقه المتفرغون له.

فقال الملك:

- ما جدوى الكلام وأمامنا الرجل؟ هاتوا له أسدًا

مفترسًا نطلقه عليه، ولنر كيف يروِّضه بسحره ويدعنه

لإرادته.

ولكنَّ القائد لم يقنع وقال لمولاه:

- عفواً يا مولاي لا شأن لي بالأسود، وهأنذا واقف

بين يديه فليجرَّب في سحره وفنِّه، وله إن شاء - وشاء

أن يجعلني أومن به - أن يخضعني لإرادته ويتسلَّط على

قوتي..

وساد صمت ثقيل، واعتلى الوجوم وجوهاً، وتبدَّت

الغبطة وحبَّ الاستطلاع على وجوه أخرى. ونظر كلا

الفريقين إلى الساحر لبروا ما فعل به تحدِّي القائد

العنيد، فألقوه هادئًا ساكنًا لا تفارق ابتسامة الثقة

شفتيه الرقيقتين الحادثتين.

وضحك الملك ضحكة عالية وقال لأربو بلهجة لم

تخل من السخرية:

- أهانت عليك نفسك يا أربو؟

فقال القائد بثبات عجيب:

- إنَّ نفسي يا مولاي عزيزة على عزَّة عقلي الذي

يهزأ بالأعيب السحر.

وتجلَّى الغضب على وجه الأمير هورداديغ، فوجَّه

كلامه للقائد قائلاً بلهجة حادَّة:

- فليكن ما تريد. وليتفضَّل مولاي الملك ويأذن

لديدي بالردَّ على هذا التحدِّي.

ونظر الملك لابنه الغاضب، ثمَّ إلى الساحر وقال:

- هيا أرينا كيف يقاوم سحرك جبروت صديقنا

أربو.

ولحظ القائد أربو الساحر بعين متعالية، وأراد أن

يؤيِّ عنه وجهه باحتقار، ولكَّته أحسَّ بقوة تجذبه من

عينيه إلى الرجل. ولفحه الغضب وشدَّ بقوة على

رقبته، وحاول أن ينتزع عينيه من القوَّة الهائلة التي

فقال الرجل بثقة واطمئنان:

- نعم يا مولاي.

وفكر الملك ملياً، وساءل نفسه عما عسى يطرح عليه من الأسئلة، وأضاء وجهه بنور الهدى فقال للساحر:

- تستطيع أن تقول لي حَتَّامٌ يجلس على عرش مصر ملوك من ذَرَّتِي؟

وبدا على الرجل القلق والتهيب، ففطن فرعون إلى ما يختلج في صدره فقال:

- إني أطلق لك حَرِيَّةَ القول، وأمنك من عاقبة ما تقول.

فألقي الرجل بنظرة عميقة على وجه مولاه، ثم صعد رأسه إلى السماء واستغرق في صلاة حارة ولبت ساعة لا يتحرك ولا يتكلم، فلما أن عاد بوجهه إلى الملك وصحابته كان شاحب اللون ممتنع الشفتين حائر النظرة، فجفلت قلوب القوم وأحسوا بدنس شرٍ مستطير، ونقد صبر الأمير رعخعوف فقال له:

- ما لك لا تتكلم وقد أمنتك فرعون؟

فكتم الرجل أنفاسه اللاهثة وقال للملك:

- مولاي، لن يجلس على عرش مصر من بعدك أحد من ذَرَّتِكَ!

وأحدث قوله في النفوس اضطراباً كأنه هبة ريح مباغته أصابت دوحاً ساكناً، فحدجوه بنظرات قاسية كأنها عيون حمئة يتطاير منها الشهب، وقطب فرعون جبينه واربده وجهه فحاكى وجهه أسد ضارٍ أجته الغضب، واصفر وجه الأمير رعخعوف وأطبق شفثيه القاسيتين فأندرت هيئته بالويل والملاك.

وكأن الساحر أراد أن يخفف من وقع نبوءته فقال:

- سوف تحكم يا مولاي آمناً مطمئناً حتى نهاية عمرك الطويل السعيد.

فهز فرعون كتفيه استهانة وقال بصوت رهيب:

- إن من يعمل لنفسه فكأنما يعمل للفناء، فدع عنك تعزيتي وتخبرني: هل تعرف من تدخره الآلهة ليخلفها على عرش مصر؟

تجذبهما فأب بالحية والعجز، وثبتت عيناه على عيني ديدي الجاحظتين البرأتين اللتين كانتا تلتمعان وتلتهبان كبلورتين تعكسان أشعة الشمس.

كسف نورهما عيني أربو فأظلمتا وغاب عنهما نور الدنيا، وخارت قوى الرجل الجبار فألقي السلم والإذعان.

ولما اطمأن ديدي إلى فعل قوته الخارقة، قام واقفاً وأشار إلى مقعده وصاح بالقائد بلهجة أمرة شديدة «اجلس». . . وصدع القائد بالأمر في خنوع فسار يترنح كالتمل وارتمى على الكرسي في استسلام المشفي على المهلاك. فصدرت من أفواه الناظرين آهة دهشة، وابتسم الأمير هوردايف ابتسامة ارتياح وتشف، أما ديدي فقد نظر إلى فرعون باحترام وقال بأدب جم:

- مولاي أستطيع أن أمره بما أشاء ولن يخالف لي أمراً، ولكنني أشفق من أن أمثل بقائد من قواد الوطن العظام وحواري من حواري فرعون، فهل يقنع مولاي بما رأى؟

وهز فرعون رأسه دلالة الموافقة.

فبادر الساحر إلى القائد المذهول وجرى على جبهته بأصابعه الخفيفة، وقرأ بصوت خافت تعويذة غريبة، فأخذ الرجل يفيق رويداً رويداً، ومضت الحياة تدب في حواسه حتى استعاد وعيه، ولبت زمناً كالخائر ينظر فيما حوله وكأنه لا يدرك مما يرى شيئاً، ثم استقرت عيناه على وجه ديدي فتذكر والتهب جبينه وخذه بالاحمرار، وتحاشى النظر إلى الرجل الرهيب، وقام إلى مقعده يرسم على أرض الشرفة خطى الارتباك والفهر المتعثرة.

وابتسم الملك إليه وقال برقة:

- ما صاحبك بكاذب!

فأحنى القائد رأسه وقال بصوت خافت:

- جلّت قدرة الآلهة، وتعاليت معجزاتها في

السيارات والأرض!

ثم قال الملك للساحر:

- أحسنت أيها الرجل القادر. ولكن هل لك على

الغيب سلطان كالذي لك على الخلق؟

وما كان خوميني جباناً ولا مداهناً، ولكنّه كان  
مخلصاً للملك ووليّ عهده ويشفق من إيلامهما، فلمّا لم  
ير بدأ من القول قال بصوت خافت:

- مولاي! لقد اتّفتت كلمة الحكمة المصرية التي  
لقّيتها الأرباب للسلف وأذاعها فاقمنا على الخلف، بأنّ  
الحذر لا يغني عن القدر.

فنظر خوفاً إلى وليّ عهده وسأله:

- وأنت أيّها الأمير ما رأيك في القدر؟

فنظر الأمير إلى والده بعينين متقدتين كأسد في  
شرك، فابتسم فرعون وقال:

- أيّها السادة، لو كان القدر كما تقولون، لسخف  
معنى الخلق، واندثرت حكمة الحياة، وهانت كرامة  
الإنسان، وسأوى الاجتهاد الاقتداء، والعمل الكسل،  
واليقظة النوم، والقوّة الضعف، والثورة الخنوع. كلّ  
أيّها السادة، إنّ القدر اعتقاد فاسد لا يخلق بالأقوياء  
التسليم به..

فاشتعل الحساس بقلب القائد أربو وصاح:

- تعالت حكمتك يا مولاي..

فابتسم فرعون وقال باطمئنان:

- أماناً لطفل رضيع على بعد منّا يسير، فيا أيّها  
القائد أربو أعدّ حملة من العربات الحربية سأقودها إلى  
أون، لأشهد بنفسي مخلوق الأقدار الصغير..

فقال خوميني دهشاً:

- هل يذهب فرعون بذاته؟

فضحك الملك وقال:

- إذا لم أذهب للدفاع عن عرشي فمحق بحقّي في  
الذهاب؟.. هيّا أيّها السادة.. إني أدعوكم إلى ركابي  
لتشهدوا معركة هائلة بين خوفاً والأقدار..

- ٣ -

وخرجت الحملة الفرعونية في مائة عربية حربية،  
عليها مائتا فارس من فرسان الحرس الفرعونيّ  
الأشداء، يتقدّم صفوفهم الملك وسط هالة من الأمراء  
والصحابة، وإلى يمينه الأمير رعخعوف وإلى يساره  
القائد أربو.

فقال الساحر:

- نعم يا مولاي، هو طفل حديث العهد بالوجود،  
لم ير نور الدنيا إلّا صباح اليوم.

- فمن أبواه؟

- أمّا أبوه فهو «من رع» الكاهن الأكبر لرع معبود  
أون، وأمّا أمّه فالسيّدة الشابة رده ديديت التي تزوّجها  
الكاهن على كبر لتلد له هذا الطفل الذي كُتب في  
سجلّ الأقدار من الحاكمين.

فقام فرعون هائجاً كالأسد المتوّب وقام لقيامه  
القاعدون، ودنا من الساحر خطوتين فراغ بصر الرجل  
وكتمت أنفاسه، وقال له:

- أواثق أنت بما تقول يا ديدتي؟

فردّ الساحر قائلاً بصوت مبحوح:

- لقد كاشفتك يا مولاي بما طالعتني به صفحة  
الغيب!

فقال له الملك:

- لا تخفّ ولا تحزن، فلقد بلغت رسالتك وستنال

ما تستحقّ من الجزاء الحسن.

ونودي على حاجب من حجاب القصر، وأمر أن  
يكرّم الساحر ديدتي ويعطيه خسين قطعة من الذهب،  
فاصطحبه الرجل ومضيا معاً..

وكان الأمير رعخعوف في حالة من البلاء شديدة،  
وقد طفحت عيناه بقسوة قلبه وبدا وجهه الحديديّ  
كرسول للموت. وأمّا فرعون فلم تتبدّد غضبته  
انفعالات وزئيراً، ولكنّها كُتمت وصُبت في دفين إرادته  
فتحوّلت إلى وثبة عزيمة تدكّ الجبال دكّاً وتحركّ  
الأهوال، وقد تحوّل إلى وزيره خوميني وسأله بصوت  
عظيم:

- ما رأيك أيّها الحكيم خوميني، هل يغني الحذر

عن القدر؟

فرفع خوميني حاجبيه في تأمل ولكنّ شفّيته  
المنطبتين لم تنفرجا حيرة وحزناً، فقال الملك معاتباً:

- أرى أنّك تخشى في قولة الحقّ وتهمّ بإنكار  
الحكمة لترضيّني، كلّاً يا خوميني، إنّ مولاك أجلّ من  
أن يضيّق بقول الحقّ..

وكان الركب الفرعوني قد اضطّر إلى تهدئة عدوه تفادياً للمصدام، ولم يحفل فرعون ولا أحد من رجاله بالمطاردين والمطاردة، وظنّوا أنّهم شرطة يؤدّون واجباً من واجباتهم، وكادوا يمزّون بهم مرّ الكرام لولا أنّ صاحبت بهم المرأة قائلة:

- الغوث أيّها الجنود.. الغوث! إنّ هؤلاء يقطعون عليّ الطريق إلى فرعون..

هنا توقّف فرعون فتوقّفت العربات من ورائه، ونظر إلى الرجال المحيطين بالمرأة وصاح بهم بصوته الأمر:

- دعوا هذه المرأة.

ولكنّهم لم يصدعوا بالأمر الذي جهلوا أمره، وتقدّم فارس منهم برتبة ضابط إليه وقال بخشونة:

- نحن قوّة من حرس أون جئنا ننقذ أمر كاهنها الأعظم فمن أيّ مدينة أنتم، وماذا تريدون؟

وتبدّى الغضب على الوجوه لحاقة الضابط، وهمّ أربو بانتهازه وتحذيره، ولكنّ فرعون أشار إليه إشارة خفيفة فسكت وهو كظيم، وصرف ذكر كاهن رع فرعون عن الغضب إلى التفكير والتأمّل، وأراد أن يستدرج الضابط إلى الكلام فسأله قائلاً:

- ولماذا تطاردون هذه المرأة؟

فقال الضابط بصلف:

- أنا لا أوّدي حساباً عن مهمّتي إلّا أمام رئيسي.

فصاح فرعون غاضباً بصوت كالرعد:

- أطلقوا سراح هذه المرأة.

وذعر الجنود وأيقنوا أنّهم أمام رئيس خطير، فتركوا التي هرولت إلى عربة الملك وارتعت تحتها في خوف ووجل وهي تصيح:

- الغوث.. يا سيّدي الغوث..

وترجّل القائد أربو عن عربته وتقدّم من ضابط القوّة، فلمّا رأى هذا علامة النسر والشارة الفرعونية على كتفه تولّاه الرعب، ووقف وقفة نظاميّة وسلّ سيفه وأدّى عليه التحية العسكرية، وصاح بجنده:

- حيّوا قائد الحرس الفرعوني.

فسلّ الجنود سيوفهم ووقفوا كالتماثيل.

وقد انطلقت تعدو شمالاً شرقيّ فرع النيل الأيمن صوب مدينة أون، تهب الأرض نهباً وتزلزل الوادي زلزلاً، وتبعث من صلصلة عجالاتها ما يشبه الرعد، وتثير من خلفها جبلاً من الغبار تحجب عن عيني منف الجميلة العربات المنطلقة والجياد المطهّمة والراكبين الجبابرة الذين يتصبّون كالتماثيل متقلّدين سيوفهم، مدجّجين بقسيّهم ونبالهم، مدزّعين بتروسهم، يذكّرون نائم الأرض بجنود مينا الذين أثاروا غبارها منذ مئتين من السنين، حاملين إلى الشمال نصراً مبيّناً ووحدة عزيزة وتاريخاً مجيداً.

ساروا بقضّهم وقضيضهم يقودهم الجبار الذي تخشع القلوب لذكر اسمه وتنكس الأبصار، لا لغزو بلد ولا لقتال جيش، ولكنّ لحصار طفل رضيع ما يزال طاهراً قياطه، وتحفل عيناه من رؤية نور الدنيا، وقد غدا بكلمة ساحر يهدّد أكبر عروش الدنيا ويزلزل أشدّ قلوب الخليقة..

وكانوا يقطعون أرض الوادي بسرعة جيّارة، ويمزّون بالقرى والداكر، مرّ السهم الخاطف، ويرسلون بأبصارهم إلى الأفق الزهيب المنطبق على الطفل الرضيع الذي اصطنعته الأقدار لتمثيل دور خطير..

وتبدّى لهم في الأفق البعيد غبار ثائر لم تستطع أعينهم رؤية ما يظله من الخلائق، ومضت المسافة بينه وبينهم تقصر رويداً رويداً فاستطاعوا أن يروا شزيمة من الفرسان تعدو في أنماهم فلم يشكّوا في أنّها فرقة من مقاطعة رع.

وازدادوا منهم قريباً، فوضح لأعينهم أنّهم فوارس يعدون خلف واحد منهم، إمّا أنّه يتقدّمهم وإمّا أنّهم يطاردونه. فلمّا أن دنا من هدفهم صحّص لهم ما كانوا منه في شكّ مريب، فإذا بالمتقدّم امرأة على ظهر جواد عارٍ، وقد انحلت ضفائرها وبعثرت وطارت خلفها مع الهواء كأنّها أعلام في رأس شراع، وقد أنهكها التعب فخارت قواها، ولحق بها العادون خلفها وأحاطوا بها من كلّ جانب..

وتصادف حدوث ذلك مع وصول فرعون وجنوده،

- لقد أمرنا صاحب القداسة بالقبض على امرأة  
فأزة على ظهر جواد في طريق منف، فصدعنا بما أمرنا  
دون أن نعلم من أمره ولا أمرها شيئاً.

فقال أربو لسرجا:

- إنك تكادين أن تتهمي كاهن رع بالخيانة!  
فقالت المرأة:

- دعني يا سيدي أصل إلى أعتاب فرعون كي  
أبوح له بما يضيق عنه صدري.

ونفذ صبر فرعون وأشفق من ضياع الوقت الثمين،  
فقال للمرأة فوراً:

- هل رزق الكاهن بطفل هذا الصباح؟

فتحوّلت إليه المرأة مدهوشة ذاهلة وتمتت:

- ومن أدراكم بهذا يا سيدي وقد تكتّموا الخبر؟  
حقاً إن هذا عجب!

وبدا الاهتمام على حاشية الملك وتبادلوا النظر في  
صمت، أمّا الملك فسألها بصوته المهيب:

- هل هذا هو السرّ الذي تريدان إبلاغه لفرعون؟  
فهزّت المرأة رأسها قائلة ولم يفارقها ذهولها:

- نعم يا سيدي، ولكن ليس هذا جميع ما أريد  
قوله.

فقال لها فرعون بحلّة وبلهجة أمرة شديدة الوقع لا  
تبقي على التردد:

- فما الذي ينبغي أن يقال؟ تكلمي.

فاندفعت المرأة إلى الكلام بخوف قائلة:

- لقد أحسّت مولاتي السيّدة رده ديديت بدبيب  
آلام الوضع منذ الفجر، وكنت ضمن الوصيفات  
اللائي أحطن بفراشها يخفّفن عنها العذاب بالحدّث  
تارة وبالعقاقير أخرى، وقبيل الوضع بزمن يسير دخل  
علينا الكاهن الأكبر، وبارك سيّدي وصلى للربّ رع  
صلاة حارّة، وكأنّه أراد أن يشرح صدر سيّدي المعبّد  
ويخفّف عنها ويلات الساعة، فبشّرها بأنّها ستلد طفلاً  
ذكراً، وأنّه سوف يرث عرش مصر المكيين، ويحكم  
وادي النيل خليفة للإله رع أتم.

وقال لها وهو لا يملك نفسه من الفرح حتّى لكأنّه  
نسي وجودي، أنا التي لا تحظى مثلي غيرها بثقته، إنّ

ولمّا سمعت المرأة قول الضابط علمت أنّها أمام  
رئيس حرس فرعون، فقامت إليه وقالت له بتوسّل:

- سيّدي.. أأنت حقّاً رئيس حرس مولانا الملك؟  
بحقّ الأرباب ألا قدتني إليه، لقد فررت يا سيّدي  
مولية وجهي نحو القصر الفرعوني.. إلى أعتاب  
فرعون التي لا يعجز عطفه شفتي أيّ مصريّ أو  
مصريّة لثمها - فسألها أربو:

- ألك حاجة يا سيّدي تريدان قضاءها؟

فقالت المرأة وهي تلهث:

- نعم يا سيّدي، في صدري سرّ خطير أريد أن  
أبوح به لذاته المعبودة.

فأرهف فرعون السمع، وسألها أربو:

- وما هذا السرّ الخطير يا سيّدي؟

فقالت بتوسّل:

- سأبوح به إلى ذاته المقدّسة.

- إني خادمة المخلص الأمين على سرّه.

فتردّدت المرأة وقلق بصرها بين الحاضرين، وكانت  
شاحبة اللون زائغة العينين مضطربة الصدر، فرأى  
القائد أن يستدرجها بالتّي هي أحسن فسألها:

- ما اسمك؟ وأين تقيمين؟

- أدعى سرجا يا سيّدي، وكنت إلى صباح اليوم  
خادمة في قصر كاهن رع الأكبر.

- ولماذا كانوا يطاردونك؟ هل وجّه مولاك لك  
إحدى التهم؟

- إني امرأة شريفة يا سيّدي، ولكن كان سيّدي  
يسيء معاملتي..

- وهل هربت فرازاً من معاملته لك؟ هل تلتصّبين  
رفع شكواك إلى فرعون؟

- كلّاً يا سيّدي، إنّ الأمر لأعظم خطورة ممّا تظنّ،  
لقد وقفت على سرّ خطير فيه ما ينذر مولاي الملك  
بالخطر، فهربت لأحذر ذاته المعبودة كما يقضي الواجب  
عليّ، فأرسل سيّدي هؤلاء الجنود ورائي ليقبضوا عليّ  
ويحولوا بيني وبين واجبي المقدّس!

فارتعدت فرائص الضابط وقال بسرعة يدفع عن  
نفسه التهمة:

والوجود بَعْدُ ماءً جارٍ في فضاء يحيط يحتم عليه ظلام ثقيل، فخلقت أيها الربّ بقدرتك كونًا جليلاً جليلاً، شملته بنظام فائن يسري حكمه الواحد على الأفلاك الدائرة في السماوات، وعلى ذرات الثرى المنتثرة على وجه البسيطة، وجعلت من الماء كلّ شيء حيّ: فالطير يخلّق في السماء، والسماك يسبح في الماء، والإنسان يضرب في الأرض، والنخل ينبت في جوف الصحراء القاحلة، ويشت في الظلمات نورًا بهيّا يتجلّى فيه وجهك ذو الجلال والإكرام، يبعث الدفء وينشر الحياة. أيها الربّ الخالق أثبت إليك همّي وحزني، وأضرع إليك أن تكشف عني الضرّ والبلى، أنا عبدك المؤمن خادمك الأمين. اللهمّ إني ضعيف فهبي من لدنك قوّة، اللهمّ إني خائف على الطمأنينة والسلام، اللهمّ إني مهتد بشرّ عظيم فاشملي برعايتك ورحمتك. اللهمّ إنك وهبتي على الكبر طفلاً باركته وكتبته له في سجلّ الأقدار ملكًا وحكيماً، فادفع عنه السوء وقه شرّ العدا.

نطق من رع بهذا الدعاء بصوت متهلّج، وقد سحّت عيناه دمعًا ساخناً انحدر على خديّه الناحلين وبّلّ لحيته البيضاء، ثمّ رفع رأسه الكبير ونظر بعطف إلى وجه زوجه النفساء الشاحب اللون، ثمّ نظر إلى الطفل الصغير وكان ساكناً هادئاً يرفع جفنيه عن عينين صغيرتين سوداوين، ويسبلهما جفولاً من ذلك العالم الغريب.

ولمّا أحسّت زوجه رده ديدت بفراغه من الصلاة قالت له بصوت ضعيف خافت:  
- أما من خبر عن سرجا؟  
فتنهّد الرجل وقال:  
- سيلحق بها الجنود بأمر الربّ.

فقال بقلق:

- آواه يا مولاي! أتعلّق خيط حياة طفلنا باحتيال

قد يصيب وقد ينجب؟

- كيف تقولين هذا يا رده ديدت؟ إني لم أنفكّ -

مذ هربت سرجا- أفكر في وسيلة تقيكما السوء، وقد

تمثال الربّ المقدّس زفّ إليه هذه البشرى بصوته الربّانيّ. ولمّا وقع بصر سيّدي عليّ انقبض صدره وارتسم القلق على وجهه، ولكي يأمن شرّ الوساموس قبض عليّ وحسني في مخزن الحبوب، ولكني تمكّنت من الفرار، وامتطيت جوادًا وانطلقت به في الطريق إلى منف لأبلغ الملك ما سمعت. والظاهر أنّ سيّدي أحسّ بفراري، فأرسل في طلبي هؤلاء الجنود الذين لولاكم لقادوني إلى حتفي.

وكان الملك وصحابته يستمعون إلى قصّة سرجا بانتباه وإمعان ودهشة، فتحقّقت لديهم نبوءة الساحر ديدتي العجيبة، وكان الأمير رغخعوف شديد الجزع فقال لفرعون:

- لن يذهب تخذيرنا سدى!

فقال فرعون:

- نعم يا بنيّ.. ولكن ينبغي ألاّ نضيّع الوقت.

والتفت إلى المرأة وقال لها:

- سوف يجزيك فرعون عن إخلاصك خير الجزاء،

وما عليك الآن إلّا أن تقولي لنا عن الوجهة التي تولينها؟

فقال سرجا:

- أرجو يا سيّدي أن أذهب آمنة إلى قرية قونا

حيث يقيم والدي.

فقال فرعون للضابط:

- أنت مسئول عن حياة هذه المرأة حتّى تبلغ

دارها.

فأحى الضابط هامته طاعةً، وأشار فرعون إلى القائد أربو فصعد إلى عربته، ثمّ أمر الملك قائد عربته بالسير فانطلقت كالقضاء ومن ورائها العربات إلى أون، التي بدا للعين سورها المحيط ورعوس أعمدة معبدها الكبير: معبد رع أتوم.

- ٤ -

كان كاهن رع في تلك الأثناء يجثو إلى جانب سرير

زوجه ويصليّ صلاة حارّة، ويقول:

- رع، أيها الربّ الخالق الموجود منذ الأزل،



فقالَت الخادِمة بإخلاص:

- إني فداء لمولاتي وطفليها المبارك.

وطلب منها الكاهن أن تعينه على حمل سيّدتها إلى مخزن الحبوب، ودهشت الخادِمة لذلك الطلب، ولكنّها صدعت بما أمرت، ووضع الرجل زوجته على اللحاف الوثير، ووضع يده تحت منكبّيها ورأسها، ورفعها زايًا من تحت ظهرها وفخذها، وسارا بها إلى البهو الخارجي، وهبط الدرج إلى الفناء ودخلا إلى المخزن وأرقداها في المكان الذي أعدّه لها الرجل في العربة، ثمّ صعد الكاهن وأتى بطفله وكان يعول ويصرخ، فقبّله قبله حارّةً ووضع في حضن أمّه، وأطلّ عليها هنيئة من جدار العربة، ورأى رده ديديت تتنحب وتضطرب فقال لها وقلبه يتقطع:

- ثبّتي قلبك من أجل طفلنا العزيز ولا تدعي للخوف إلى نفسك سيلاً.

فقالَت المرأة وهي تبكي:

- إنك لم تسمّه بعد.

فقال وهو يبتسم:

- ادعه باسم أبي الراقد إلى جوار أوزوريس..

ددف.. ددف رع.. ددف بن من رع، اللهم اجعل اسمه مباركاً وادفع عنه كيد الكائدين.

وأتى الرجل بالصوان ووضع على العزيرين، وأقعد زايًا مقعد السائق ووضع زمام الثورين بين يديها، وقال لها: سيرى على بركة الربّ الحافظ.

وما إن تحرّكت العربة حركتها البطيئة حتّى فاضت عيناه بالدمع الغزير، وجعل يرقبها خلال دموعه وهي تقطع أرض الفناء حتّى غيّبها الباب عن ناظره، وهرب إلى السلم وصعد بقوة شاب، وذهب إلى النافذة التي تطلّ على الطريق وراقب العربة التي تحمل قلبه ووجدانه..

ويغته باغت تخيف لم يكن يتوقّع حدوثه بمثل السرعة التي حدث بها، فلمّا أن نفذ قضاؤه ملأه رعباً يعجز البيان والتعبير، فنسي حزن الفراق وجوى الوداع وحنين الأبوة، واحترق رعباً وخوفاً حتّى فقد الشعور والإدراك، فشبك كفّيه وجعل يضرب بها صدره وهو

هداني الربّ إلى حيلة، ولكنّي أخشى عليك وأنت نفسك لا تحتملين الشدّة.

فمدّت إليه يداً ضارعة وقالت بتوسّل:

- افعل يا زوجي ما فيه نجاة طفلنا، ولا يهولتك ضعفي فلنّني أستمّد من أموميّ قوّة دونها قوّة الأصحاء..

فقال الكاهن المتألّم:

- اعلمي يا رده ديديت أنّي أعددت عربة وملأتها بالحنطة، وجعلت لك في ركن منها مكاناً ترقدن فيه مع الطفل، وجّهزت صواناً من الخشب ونزعت قعره، فإذا وضع عليكما أخفاكما عن الأنظار، وستسير بها وصيفتك الأمانة كاتا إلى عمك في قرية سنكا.

- نادِ الخادِمة زايًا لأنّ كاتا نفسها كسيّدتها، وقد ولدت طفلاً ضحى اليوم..

فدهش الرجل وقال:

- أولدت كاتا؟ وعلى كلّ حال فزايًا لا تقلّ

إخلاصاً عن كاتا..

- وأنت يا زوجي؟! هب أنّ الحظّ عثر وباء، وأنّ سرّ طفلنا بلغ فرعون فأرسل إليك بجنده، فيمّ تحييمهم لو سألوك عن الطفل وأمّه؟

ولم يكن الكاهن قد أعدّ العدة لنفسه فيما لو وقع المحذور، ولكنّه لم يقدّر لذلك وزناً لأنّ همّه كان محصوراً في إنقاذ الطفل وأمّه. ولذلك كذب على زوجته قائلاً:

- اطمئني يا رده ديديت فلن تفلت سرجاً من رسلي، وما تهريبي لك خفية إلّا حذرًا وحيلة، ومهما يكن من أمر فلن تباغتني الطوارئ ولنسوف تصلك أخباري عمّا قريب.

وخشي أن تزداد مخاوفها فأراد أن يصرفها عن التفكير، فقام واقفاً ونادى بصوته الجهوريّ على زايًا، فأتت الخادِمة سريعاً وانحنّت له في احترام، فقال لها:

- ساعده لك بسيّدتك والطفل المولود لتسيرى بها إلى قرية سنكا.. وعليك بالحذر فانت تعلمين بالخطر الذي يتهدّهما.

وسكت الكاهن فجأة، واتسعت عيناه وصاح ولكن  
بفرح شديد في هذه المرة:  
- الحمد لرع.. إيتهم يتقدمون والعربة تسير في  
طريقها آمنة من غير سوء.. باسم رع مسيرها  
وخطها.. الحمد لك أيتها الرب الرحيم..

- ٥ -

تنفس الكاهن الصعداء وأحسن - لفرحه - بحنين  
إلى البكاء لولا أن تذكر ما ينتظره من الأهوال  
والشدائد، فلم ينعم بالطمأنينة إلا لحظات سريعة،  
ودلف إلى منضدة عليها إبريق من الفضة صب منه من  
الماء الفراح ما روى به غلته.  
وما لبث أن صكت أذنيه جلجلة القوة التي صارت  
بفناء قصره، والتي جاءت خصيصاً للقضاء على المولود  
الذي كان خطر الموت منه قاب قوسين أو أدنى.  
وجاءه خادم يسعى مضطرباً خائفاً، وأخبره بأن قوة  
من حرس الملك تحتل القصر وترقب منافذه، وجاء  
آخر يبلغه أن رئيس القوة أرسله في طلبه سريعاً،  
فنظاير الكاهن بالثبات ورباطة الجأش، ووضع العبادة  
المقدسة على منكيه والقلنسوة الكهنوتية على رأسه، ثم  
غادر حجرته في خطوات وثيدة تحف به المهابة والجلال  
الحقيقان بشخصية أون الدينية الكبرى. ولم يهاون  
الكاهن في حق هيئته فوقف على عتبة جهو الاستقبال  
ووجهه إلى الفناء، وألقى نظرة سطحية على جنود القوة  
الواقفين في أماكنهم لا يبدون حراكاً كأنهم تماثيل  
منصوبة من العهد القديم، ثم رفع يده تحية وقال  
بصوته الجليل دون أن يقر نظره على وجه بذاته:

- يا بني.. حللتم أهلاً وسهلاً. وليبارككم رع  
المعبود باري الكون وخالق الحياة.  
فسمع صوتاً مهيباً يرد عليه قائلاً:  
- الشكر لك يا كاهن رع المعبود.

فانتفض جسمه لدى سماعه كما ينتفض الحمل لزئير  
الأسد، وذهبت عيناه زائغتين تبحثان عن صاحب  
الصوت العظيم حتى استقرتا على قلب القوة، فتولاه  
العجب والرعب أن يأتي فرعون بذاته إلى بيته. ولم

يقول بذهول: «أيتها الرب رع. أيتها الرب رع»  
ويكررها بلا وعي وعيناه تنظران إلى كتيبة العربات  
الفرعونية التي ظهرت فجأة من منعرج طريق المعبد،  
وتقدمت إلى قصره وهي تقوم بحركة حصار بديعة في  
سرعة ونظام دقيقين، حالا بين العربة وبين التقدم  
خطوة أخرى.

يا رب السماء، لقد جاءت جنود فرعون بأسرع مما  
دار له بخلد، ينهى مجيئها عن توفيق سرجا في مهمتها  
وهربها من جنوده، وإلا ما استطاعت أن ترسل رسل  
الموت الزوام بمثل هذه السرعة.

وجاء جند فرعون كالمردة الجابرة تصهل جياهم  
وتصلصل عجالاتهم وتتوهج خسوفاتهم في شعاع  
الشمس المائل. ماذا جاءوا يفعلون؟ جاءوا ليقتلوا  
الطفل البريء والابن الحبيب الذي شرح الرب به  
صدره على الكبر والياس.

وكان من رع ما يزال يضرب صدره بكفيه  
المشتبكين وهز رأسه هزات الدهول والبله، ويقول  
بلهجة الثكلي التي تندب ولدها: «أيتها الرب.. إن  
جماعة منهم تحيط بالعربة، وواحد منهم يطرح الأسئلة  
الصارمة على زايا البائسة. ترى عم يسألها وبم تحييه؟  
وما عسى أن تكون عقي هذا التحقيق؟ وإن حياة  
طفلي وزوجي لرهن بكلمة واحدة تنطق بها زايا.  
رباه! يا رع المعبود.. ثبت قلبها وطمئن نفسها وأجر  
على لسانها كلمة الحياة لا الموت، وأنقذ طفلك الحبيب  
لتقضي قضاءك الذي قضيت به وبشرت..»

وجن جنونه من الجزع، وخيل إليه أن ساعات  
طويلة تمر ثقيلة متباطئة على هذا الجندي وهو لا يفئا  
يسأل زايا ويسد عليها المنافذ. أواه لو يحرك واحد منهم  
الصوان أو يداخله شك فيما يشتمل عليه؟ بل أواه لو  
يعلو صوت الطفل بأهة أو صراخ.

- صه يا بني.. اللهم ألهم أمه أن تضع ثديها في  
فمه.. صه يا بني.. إن آهة تخرج من فمك كفيلة  
بالقضاء عليك.. رباه إن قلبي يتفتت وروحي تصعد  
في السماء..

وأجاب من رع بشجاعة فائقة :

- إنَّ ما ينبغي لفرعون نحو عرشه هو ما ينبغي للإنسان الأمين نحو وديعة الآلهة المكرمين بين يديه، أن يقوم بواجباته ويؤدِّي له حقوقه ويحافظ عليه محافظته على شرفه.

فهزَّ فرعون رأسه راضيًا وقال :

- أحسنت أيُّها الكاهن الفاضل، والآن خبِّرنِي، ماذا ينبغي أن يفعل فرعون لو هدَّد عرشه مهدَّد؟

فخفق قلب الكاهن الشجاع وأيقن أنه يحكم على نفسه بجوابه، ولكنَّه - وهو رجل الدين والتقوى والعزَّة - أبى إلَّا أن يقول الحقَّ، فقال :

- ينبغي لجلالته أن يبيد الطامعين.

فابتسم فرعون والتمعت عينا الأمير رعخعوف ببريق قاس، وقال للملك :

- أحسنت.. أحسنت.. لأنَّه إن لم يفعل، خان عهد الربِّ وفرط في وديعته الإلهية وأضاع حقوق العباد.

ثمَّ تصلَّب وجه الملك وبدأ عليه عزم يبيد الجبال، وقال بصوت رهيب :

- أيُّها الكاهن، لقد وُجد الذي يهدِّد العرش.

فتكسَّ الكاهن عينيه وغلبه الصمت، فاستطرد فرعون :

- وهزأت الأقدار كعادتها فجعلته طفلًا.

فتساءل الكاهن بصوت خافت :

- طفلًا يامولاي؟

فطفر الغضب من عيني فرعون شررًا وصاح :

- كيف تتجاهل أيُّها الكاهن؟ لقد حرصت على الصراحة والصدق في حديثك فلم تترك الكذب يتسلَّل إلى قلبك في حضرة مولاك؟ وإنَّك لتعلم علم اليقين أنَّك أبو الطفل ونبيِّه!

فتدفَّق الدم إلى وجه الكاهن وعصر الألم قلبه الكبير، وقال بتسليم وحزن :

- ابني رضيع لم يجاوز عمره بضع ساعات.

يتردَّد عن أداء واجبه، فهرع إلى سدَّته لا يلوي على شيء، فلمَّا بلغ عربته سجد بين يديه وقال بصوت متهدِّج :

- مولاي فرعون ابن الربِّ خنوم، نور الشمس المشرقة وواهب الحياة والقوَّة، إنِّي يامولاي أضرع إلى الربِّ أن يوحى إلى قلبك الكبير بالإغضاء عن سهوي وجهي، كي أفوز بعفوك ورضاك.

فقال له الملك :

- إنِّي أعفو عن هفوات الصادقين.

فخفق قلب الكاهن وقال :

- أمَّا وقد تفضَّل مولاي بزيارة قصري الوضع فليتفضَّل ويحلَّ أشرفه.

فابتسم فرعون وترجَّل عن عربته، وتبعه الأمير رعخعوف وإخوته الأمراء وخوميئي وأربو وميرابو، وسار الكاهن بظهره يتبعه الملك ويتبعه الأمراء والصحبة حتَّى حلُّوا بهو الاستقبال وجلس الملك في الصدر وحوله حاشيته، واستأذن من رع في الذهاب لإعداد ما يجب إكرامًا لهم، ولكنَّ فرعون قال له :

- نحن نعفيك من واجب ضيافتنا لأنَّا جئنا في أمر خطير لا يحتمل الأناة.

فانحنى الرجل وقال :

- إنِّي رهن إشارة مولاي.

اعتدل الملك في جلسته وسأل الكاهن بصوته النفاذ المهيِّب :

- أنت رجل من صفوة رجال المملكة ومقدَّم عليهم بالعلم والحكمة، فهل تستطيع أن تقول لي لماذا تويَّي الآلهة الفراعنة على عرش مصر؟

فقال الرجل بثبات وإيمان :

- إنَّها تختارهم من بين أبنائها وتبعث فيهم روحها الإلهي ليصلحوا البلاد ويسعدوا العباد.

- أحسنت أيُّها الكاهن، فكلَّ مصريٍّ يسعى في الحياة لنفسه أو لأسرته، أمَّا فرعون فينهض بحمل أعباء الملايين ويسأل عنها جميعًا أمام الربِّ، فهل تستطيع أن تقول لي عمَّا ينبغي لفرعون نحو عرشه؟

فقال فرعون:

- لكّنه آله في يد الأقدار، والأقدار إذا أرادت أن تفعل استوى لديها الطفل والرشيد..

وساد الصمت والسكون هنيهة، وتولّى الجميع رهبة غريبة فكتموا الأنفاس في انتظار الكلمة التي ستطلق سهم الموت إلى الطفل البائس. ونفد صبر الأمير رعخعوف فقطّب جبينه وازدادت قساوة وجهه الطبيعية شدة وصلابة..

ثم قال فرعون:

- أيها الكاهن، لقد أقررت منذ لحظة بأنه ينبغي لفرعون أن يهلك من يهدّد عرشه، أليس كذلك؟

فقال الكاهن بقنوط:

- بلى يامولاي.

- ولا شك أنّ الآلهة قست عليك بخلقها هذا الطفل. ولكنّ القسوة عليك أخفّ من القسوة على مصر وعرشها.

فقال الكاهن:

- هذا حقّ يامولاي.

فقال فرعون:

- إذا فأذّ واجبك أيها الكاهن!

فوجم من رع وأرتج عليه القول، أمّا فرعون فقد استطرّد:

- إنّ لنا - معشر الفراعنة - تقاليد موروثه في احترام الكهنوت ورعايته. لا أحبّ أن تضطرّني إلى خرقتها.

ياعجباً! ماذا يريد فرعون بقوله هذا؟ أيريد أن يفهم الكاهن أنّه يحترمه ولا يجب أن يقتل ابنه، وأنّه لذلك ينبغي أن يقوم هو بالمهمة التي يجبها منها الملك؟ وكيف يتأتّى له أن يذبح طفله بيده؟ حقّاً إنّ الإخلاص الذي يكتّنه لفرعون يقضي عليه بتحقيق رغبته الربّانية دون أدنى تردّد، وإنّه ليعلم علم اليقين أنّ أيّ فرد من شعب مصر لا يتوانى عن إزهاق روحه لو أحسّ بأنّ موته يلقي رضا فرعونياً سامياً، فهل يلحق بطفله العزيز ويغمد خنجره في قلبه؟

ولكن من الذي قضى أن يكون ابنه خليفة خوفو على عرش مصر؟ أليس هو الربّ رع؟ أو ليس يعدّ

سعيه لقتل الابن البريء تحدّيّاً لإرادة الربّ الخالق؟ ومن إذن يجب أن يؤثر بطاعته خوفو أم رع؟ لا يحتاج الجواب إلى روية. ولكنّ ما عسى أن يفعل وفرعون وزملاؤه ينتظرون كلمته؟ ماذا ينبغي أن يفعل وقد بداوا يتململون ويغضبون؟

وتراءى له خاطر سريع وسط لجة الحيرة والارتباك كما يلتمع البرق في السحاب المظلم المكفهر، تذكرّ كاتا وطفله الذي ولدته في الصباح!! وتذكرّ أنّها نائمة في الغرفة التي تواجه غرفة سيّدها على كنب منه، حقّاً إنّها فكرة جهنّية شيطانية يبرأ منها قلب كاهن مثله، ولكنّ القلب لا يتيقّظ إذا تسلّط عليه ما يتسلّط على قلبه من الانفعالات والاضطرابات، وهيهات أن يصحو ضمير أمام رهبة فرعون ورجاله، كلّ لا يستطيع أن يتردّد.

وأخى الكاهن رأسه المثقل احتراماً، وذهب ليرتكب أشنع جريمة، فتبعه فرعون، وتبع فرعون الأمراء والكبراء، وصعدوا خلفه إلى الطابق الأعلى، ولكنّهم حين رأوا الكاهن يهّج بولوح باب الحجرة وقفوا في الردهة وهم سكوت، وتردّد من رع لحظة ثمّ النفث إلى مولاه وقال:

- مولاي، ليس لي سلاح أقاتل به. فأعزني خنجرًا..

ونظر إليه فرعون دون أن ييدي حراكًا..

وضاق صدر الأمير رعخعوف، فاستلّ خنجره وأعطاه الكاهن بعنف، فأخذه الرجل بيد مرتجفة وأخفاه في عباءته ودخل الحجرة لاتكاد تحمله قدماء.. وانتبهت إليه كاتا فابتسمت ابتسامة امتنان وشكران، واعتقدت أنّ سيّدها جاءها يباركها، فكشفت عن وجه الطفل البريء، وقالت له بصوت ضعيف:

- اشكّر الربّ بقلبك الصغير، الذي عوضك عن موت أهلك حناناً مقدّساً..

فجفل الكاهن مدعوراً وخذلته نفسه فانقلب مدحوراً، وفاضت عواطف قلبه فيجرف سيلها زبد الإثم.. ولكن أين المفرّ؟ وكيف الخلاص؟ إنّ فرعون واقف بالباب وليس لديه مهلة للتفكير والروية،

فتركوها تسير بسلام، وآه لو أنتم علموا بما تحمل عربتها!

وإنها لتذكر أنهم جنود أشداء، ولن تنسى ما حييت عظمة ذلك الرجل الذي يتقدمهم ولا هيئته ولا جلاله، حتى لكأنه تمثال إله ودبت فيه حياة إنسانية.

ولكن يا للعجب! لقد أتى ذلك الرجل الجليل لقتال طفل لم ير نور الدنيا إلا هذا الصباح!

وهناك نظرت إلى الورا ل ترى سيدها، ولكنها وجدتها كما أنامها سيدها الكاهن تحت الصوان. . يا لها من امرأة بانسة لم يدر بخلد إنسان أن تنام هذه النومة الشنعا وهي نفسها! وما كان زوجها العظيم يحلم بتلك المتاعب التي ساقنتها الأقدار بين يدي طفله، ولو تكتشف له الغيب ما تمقى الأبوة، ولا تزوج من السيده رده ديديت التي تصغره بعشرين عامًا!

ولكنها أحست بحسرة وحزن، وتهدت قائلة: ليت الرب يهب لي غلاماً ولو يحمل إليّ مولده يؤس الدنيا جميعاً!

كانت زايا زوجاً عاقراً تذهب نفسها حشرات على طفل تتمناه على الآلهة، كما يتمنى الأعمى رؤية النور، وكم استشارت من أطباء وكم سألت من سحرة، وكم لجأت إلى الحشائش والعقاقير دون جدوى أو أمل، وكانت إلى ذلك تشفق من بأس زوجها كاردا، الذي يحزنه أشد الحزن أن يرى العمر يتقدم به عامًا بعد عام دون أن يوهب غلاماً يجو في داره ويدفئ صدره بالأمل والخلود، وقد ودعها أحر مرة وهو يشد الرحال إلى منف حيث يشتغل في بناء الأهرام - وهو ينذرها بالزواج مرة أخرى إذا هي لم تلد. وانقضى على سفره شهر وشهران وعشرة أشهر وهي ترقب نفسها وتتحسس آيات الحمل ساعة بعد ساعة ويومًا بعد يوم دون جدوى وبلا أدنى أمل، رباه! لماذا تحرمها الآلهة من الأمومة! ما حكمة خلقها امرأة إذا؟ إذا ما امرأة بلا أمومة؟ إن امرأة بلا أمومة كخمر بلا نشوة، أو وردة بلا رائحة، أو عبادة بلا إيمان فواياساه!.

وعند ذاك سمعت صوتًا ضعيفًا ينادي «زايا» فأسرعت إلى الصوان ورفعته ووضعتة جانبًا، ورأت

واشتدت به الحيرة حتى أذهلته عن وعيه، فزار زئيرًا خفيًا، ونفس عن صدره بتهدئة عميقة، واستل الخنجر يائسًا قنوطًا وطعن به نفسه فاستقر في قلبه، وانتفض جسمه انتفاضة هائلة، وسقط على أرض الحجر جثة هامدة. .

ودخل الملك الحجره غاضبًا وتبعه رجاله، وجعلوا ينظرون إلى جثة الكاهن والنساء المرتعبة بعيون من زجاج. . إلا الأمير رعخعوف فلم يلهه شيء عن هدفه، وأشفق من ضياع الفرصة السانحة فاستل سيفه من غمده ورفع بقوة في الهواء، وهوى به على الطفل. . إلا أن الأم أدركت بغريزتها غرضه. فألقت بسرعة البرق نفسها على طفلها. . ولكنها لم تمنع القضاء، فأطاح السيف رأسها ورأس الطفل بضربة جبارة واحدة. .

ونظر الأب إلى ابنه ونظر الابن إلى أبيه، وغلبها وجوم شديد، لم ينقذهما منه إلا الوزير خوميني إذ قال:

- فليتمنّى مولاي بمغادرة هذا المكان الدامي.

خرجوا جميعًا وهم سكوت.

واقترح الوزير على موله أن يشتدوا الرحال إلى منف ليلبغوها قبل جنوم الليل، ولكن الملك قال:

- إني لا أفر كالمجرمين، ولكن سأدعو كهنة رع وأقص عليهم قصّة الأقدار التي ختمت بفاجعة رئيسهم البائس، ولن أعود قبل ذلك إلى منف.

## - ٦ -

سارت العربة على خطى الثورين البطيئة تقودها زايا، فقطعت طريق أون في ساعة من الزمان، ثم اجتازت باب المدينة الشرقي وانحرفت إلى الطريق الصحراوي الذي يؤدي إلى قرية سنكا، حيث يقيم أصهار سيدها الكاهن.

وما كانت زايا تستطيع أن تنسى تلك الساعة الرهبة التي أحاط بها الجند فيها يسألونها ويمعنون النظر في وجهها، ولكنها تشعر - فخورًا - بأنها حافظت على رباطة جأشها رغم هول الموقف، وأنها أقنعتهم بثباتها

الأيمن، وأمسكت زمام الثورين بيد ووضعت رأسها على الأخرى واسترسلت في عالم الأحلام، وجرت - في غفلة منها - أنامل النوم على عينيها بخفة ورشاقة فحجبت عنها نور اليقظة، كما أخذ أفق الغرب يحجب نور الشمس عن الدنيا . .

ولمّا عادت زايا إلى عالم الشعور ظنّت أنّها نائمة على سريرها بقصر سيّدها كاهن رع تستقبل الصباح، ومدّت يدها لتسحب اللحاف عليها لأنّها أحست بتيّار هواء بارد، فانغrust يدها فيها يشبه الرمل، ففتحت عينيها دهشة فرأت كونًا مظلمًا وساء مزدانة بالنجوم. وأحسّت بجسمها يهتز اهتزازًا غريبًا . . فتذكرت العربة والسيدة رده ديدت وطفلها الصغير الهارب وجميع الذكريات التي انتزعها منها سلطان النوم القاهر . .

ولكن أين هنّ؟ وفي آية ساعة من الليل؟ ونظرت فيما حولها فرأت فضاء مظلمًا محيطًا يطبق عليها من ثلاث نواح، وتراءى في الناحية الرابعة نور خافت عن بعد سحيق لم تشكّ في أنّه يشعّ من القرى المنشورة على شاطئ النيل . . وسوى ذلك فليس بالمكان الذي ضلّ فيه الثوران ما يدلّ على حياة . .

وتسرّبت وحشة الكون إلى نفسها ونفذت ظلمته إلى قلبها، فانكمشت مرتجفة مذعورة، واصططكت أسنانها من الخوف وجعلت تنظر إلى الظلام بعينين تتوقّعان المخاوف فتخلقها خلقًا مزعجًا.

وقد خيّل إليها أنّها ترى في أفق الظلام أشباح قافلة من البدو، وكانت تذكر اشتاتًا ممّا يروى عن قبائل سيناء وسطوهم على القرى وخطفهم للتائهين والضالّين وقطعهم الطريق على القوافل . وكانت لا تشكّ في أنّ العربة التي تقودها على غير هدى تعدّ غنيمة ثمينة بما فيها من حنطة . وبالثورين اللذين تشدّ إليهما، وبالمرأتين اللتين يحقّ للعاب رئيس القبيلة أن يسيل عليهما. فاشتدّ بها الخوف وجنّ جنونها، فقفزت على رمل الصحراء، وأنجذ نظرها إلى المرأة النائمة وطفلها وكانت ترى وجهيهما على ضوء النجوم الخافت، فمدّت يديها بلا وعي ولا تدبّر إلى الطفل ورفعته بخفة، وأحكمت لفّ القماط حوله، وأطلقت ساقها

سيّدها والطفل في حضنها نائمًا، وكانت متعبة مجهدة والاصفرار يعلو وجهها الأسمر الجميل فسألتها: «كيف حالك يا سيّدي؟ فأجابتها بصوتها الضعيف:

- بخير بفضل الأرباب . . أما من خطر يتهدّدنا الآن يا زايا؟

فقالَت الخادمة:

- اطمئنّي يامولاي لقد يعد الخطر عنك وعن مولاي الصغير.

فتنهّدت المرأة تنهّدًا عميقًا وسألتها:

- هل يبقى أمامنا سفر طويل؟

فقالَت زايا برقة:

- يبقى أمامنا مسير ساعة على أقلّ تقدير . .

والأولى لك ياسيّدي أن تنامي في حمى الربّ رع.

فتنهّدت المرأة والتفتت إلى الطفل النائم وقد اكتسى وجهها الشاحب الفتان بالمحبّة والحنان، ثمّ أغمضت عينيها طلبًا للنوم. ومضت زايا تنتظر إليها وإلى الطفل، تنظر إلى صورة الأمومة الحلوة السعيدة رغم الآلام والمخاوف . . ما أجل منظرهما! ألا ليتها تذوق الأمومة ولو مرّة واحدة ولو تدفع حياتها ثمنًا لها!

ربّاه! لا الربّ يرحم ولا الطبّ بنفع ولا كاردا يعذر . . ولعلّه لا يفوت وقت طويل قبل أن تضحي مطلقة شريدة تعاني آلام الوحده وعذاب العزوبة!

وحولّت زايا نظرها عن الأمّ السعيدة إلى الثورين وتنهّدت قائلة:

- لو كان لي مثل هذا الطفل؟ لو أخذ هذا الطفل وأصطنعه ابنًا بعد أن أبت عليّ الآلهة ابنًا طبيعيًا! ولم تكن تضمّر بقولها سوءًا ولكنّها تمثّت، والنفس تتمنّى المستحيل، وتتمنّى ما تمتنع عن فعله خوفًا أو رهبة أو إشفاقًا.

وقد تمثّت زايا وحلّقت في سهاوات السعادة بجناحي الأحلام، ورات نفسها تسير بهذا الطفل الجميل إلى كاردا وتقول له: «لقد ولدت لك هذا الطفل الجميل»، ورأت زوجها يتهلّل ويظهر من الفرح ويقبل عليها وعلى ددف الصغير يحتضنها ويقبلها معًا! وانتشت بنشوة السعادة الخياليّة فتمدّدت على جنبها

فسألها صاحب الصوت الأول:

- وإلى أين تقصدين؟

فقال زايا وقد بدأت تطمئن إلى أنها في حضرة جنود مصريين.

- أقصد ياسيدي إلى منف.

فضحك الرجل وقال متعجباً:

- إلى منف ياسيدة؟! ألا تعلمين أن الركب يقطع هذا الطريق في ساعتين؟

فقال زايا بذلة ويؤس:

- إني أسير ياسيدي منذ العصر، وقد اضطررتني أسباب انقطاع الزاد إلى الهجرة، فتوهمت أني أستطيع أن أبلغ منف قبل جثوم الليل..

- ومن لك في منف؟

- زوجي كاردا الذي يشتغل في بناء هرم مولانا فرعون.

ومال الرجل إلى رجل في العربة التي إلى يساره وأسَرَ إليه بكلمات، فقال الرجل:

- الأوفى أن يعود بها جندي إلى بلدها.

فقال الأول:

- كلاً ياخوميني فلن تلقى في بلدها إلا الجوع والمهانة. فلنحملها معنا إلى منف.

وصدع خوميني بأمر مولاه، فترجل عن عربته وذهب إلى السيدة وعاونها على القيام، وسار إلى أقرب عربة وأركبها وطفله ووضى عليها جندي العربة.

أمّا فرعون فقد التفت إلى المعمار ميرابو وقال له:

- لقد شقّ على قلبك الرقيق ياميرابو أن ترى طفلاً بريئاً وأمه يذبحان بلا ذنب ولا جريرة، فإياك أن تتهم مولاك بالقسوة. انظر إليّ كيف أرضى أن أحمل امرأة جائعة وطفله الرضيع لأقيهما شرّ البرد والجوع، وأبلغ بهما بلداً ما كانا بالغيه إلا بشقّ الأنفس، ففرعون رحيم بعباده. ولم أك أقلّ رحمة حين خرجت للقضاء على ذلك الطفل السيء الحظّ، ذلك أن فعال الملوك كفعال الآلهة قد تلبس رداء الوحشية، ولكنها في جوهرها حكمة سامية.

للريح صوب أنوار المدينة، وخيل إليها وهي تعدو أنها سمعت صوتاً ينادي عليها بفزع، فظنت أن البدو أحاطوا بسيدتها، فازداد بها الرعب وضاعفت سرعة عدوها، لا يعوقها الرمل المكّس ولا الحمل العزيز ولا التعب الشديد، فكانت كالتردي في هاوية يهوي بحكم ثقله دون أن يستطيع لنفسه إمساكاً. ولعلّها لم تكن قد توغّلت في الصحراء توغلاً بعيداً، أو لعلّها قطعت بعدها شوطاً يجاوز تقدير المقدّرين وتصور المتصورين، لأنها أحسّت تحت قدميها بأرض ممهدة كأرض الطريق الصحراوي، ونظرت خلفها فلم تر إلا ظلاماً، وكانت عند ذلك قد استهلكت قوتها الجنوبية فهدأت من سرعتها وثقلت خطاها، ثم ارتمت على ركبتيها وهي تلهث بعنف وشدة تخيفين، وكانت ما تزال مذعورة مجنونة ولكنها لم تستطع حراكاً، مثل فريسة الكابوس الذي تطارده الأخطار ولا تطيعه قدماه، فجعلت تتلقت بمنة ويسرة لا تدري عن أيّ طريق يأتي الفرج، ولا في أية ناحية يحتم الهلاك.

وخيل إليها أنها تسمع وقع عجلات وصهيل خيل! ترى هي عجلات عربات وخيل فرسان أم نبض الدم بأذنيها ورأسها؟ ولكن الأصوات وضحت فتأكدت وبدت في الظلمة أشباح الراكبين العادين الآتين من الشمال، ولم تدر إن كانوا يحملون لها سلاماً أم هلاكاً، ولم تستطع اختفاء لأنّ ددف علا صوته بالصراخ والعويل، ولم تكن تأمن في ركعتها وسط الطريق أن تلتهمها عجلات العربات المندفعة فرفعت عقيرتها صائحة: «أيها الراكبون».

واندفعت تكررهما بصوت المستغيث وقد أسلمت نفسها للمقادير، وأتى الركب سريعاً ووقف على بعد منها قريب، وسمعت صوتاً يسأل عن الصارخ، خيل إليها أنه ليس غريباً عنها. فشدت يديها على الطفل وتبته بها الحذر، فقالت بلهجة ريفية قحة غيرت بها نبرات صوتها:

- أنا امرأة هلكى، قصّر بي الجهد عن متابعة الطريق وغشيني الظلام، وهذا طفلي، يكاد يقتله هواء الليل الرطيب.

وقال الأمير رعخعوف:

- الأولى لك أيها المعيار ميرابو أن تعجب بقوة الإرادة الهائلة التي هزمت الأقدار، وقضت على قضاء القضاء.

وعاد خوميني إلى العربية، وأمر الملك قائد عربته بالسير، فانطلق الركب صوب منف يشق أمواج الظلماء.

- ٧ -

وصلت زايا إلى منف قبيل منتصف الليل بزمن قليل مع الركب الفرعوني، وقد نفحها الملك بقطعتين من الذهب فسجلت بين يديه شاكرة ممتة، وقد اعتقدت أنه قائد من القواد العظام وودعته في ظلمة الليل دون أن ترى وجهه أو يرى وجهها.

وكانت زايا في حالة بائسة من الحور الجسائي والفرع النفسي، فناقت نفسها إلى حجرة تخلو فيها إلى نفسها، واستدلّت بشرطي على فندق متواضع تبيت فيه بقية ليلها. ولما وجدت نفسها والطفل لا ثالث لها تهدّت تهدّة عميقة وارتعت على السرير.

وكأنما أطلقت - باستلقائها - العنان لآلم جسمها وخاوف قلبها، ولكنّ خواف القلب طغى على آلام الجسم واستبدّت بشعورها. كانت ذاهبة الفؤاد مذعورة النفس لا تبحر تخيلاتها صورة سيّدتها النفساء التي خطفت طفلها وتركتها على عربة ضالّة وسط الصحراء، تغشاها الظلمات وتحيط بها الوحشة ويطبق عليها رجال سلب ونهب لا تعرف قلوبهم الرحمة ولا الشفقة، ولعلّها الآن أسيرة بين أيديهم يسومونها سوء العذاب ويفرضون عليها الرقّ والعبودية، وهي تبتّ الآلهة شجوها وذمّا وتشكو إليها ما لاقت من غدر ويأس وما تلقى من عذاب.

وازدادت زايا عذابًا وخوفًا ومضت تتقلب على فراشها ذات اليمين وذات الشمال، وأشباح فعلتها النكراء تطاردها مطاردة عنيفة وتنهال عليها بالوخز والالام والرعب، واستصرخت النوم العزيز لينقذها من ويل ليلتها الويل ولكنها تقلبت كثيرًا وسهدت طويلًا،

وذاقت مرّ العذاب والخوف قبل أن يرق النوم بجفניה وينزعها من الجحيم الذي أصلاها نار العذاب، فنامت متعبة منهوكة القوّة مقلقلة النفس.

واستيقظت على عويل الطفل، وكانت أشعة الشمس تنفذ من كوة الحجرة وتفرش أرضها بساطًا من الأنوار، فحنت على الطفل وهزته بلطف وقبلت فمه بخنان، وكان النوم قد شفى أسقامها وطمأن نفسها وإن لم يخل قلبها من قلق ونفسها من عذاب. ولكنّ الطفل استطاع أن يحول شعورها إليه فأنقذها من عذاب الليل وويله، وحاولت ملاطفته لكنّه زاد في العويل وواجهت مشكلة تغذيته وتحيرت من أمرها، ولكنّها فطنت إلى الحلّ الواحد، فقامت إلى باب حجرتها وصفقت يديها فجاءتها امرأة عجوز تسألها عما تريد، فطلبت منها نصف رطل من لبن الماعز.

وحملت ددف بين ذراعيها وذرعت به الحجرة ذهابًا وجيئة، ووضعت حلمة ثديها في فمه تلهيه وتصبّره، ثمّ نظرت إلى وجهه الجميل وصاحت بنشوة فرح مفاجيء كأنّه تسلّل إلى قلبها خلصة في غفلة عن الهجوم: تبسم يا ددف.. تبسم عينًا فستري والدك بعد حين قليل.

وسرعان ما تهدّت وقالت لنفسها بخوف: ترى هل أفوز به رغم كلّ شيء؟

لقد انتهى أمر أمّه الحقيقيّة وكذا أمر أبيه! أمّا أمّه فقد أخذها البدو أسيرة وما كانت تستطيع هي - أي زايا - أن تفعل شيئًا لإنقاذها. ولو تردّدت لحظة أخرى عن الحرب لوقعت معها غنيمة باردة في أيدي البدو المعتدين، فلا يجوز أن تحمل نفسها وزر جريمة لم ترتكبها ولم تُعين على ارتكابها. وأمّا أبوه فلا شكّ أن قتله جنود فرعون انتقامًا منه لتهريبه زوجته وطفله.

وارتاحت إلى تفكيرها هذا فعاودته مرّة أخرى لترضي نفسها وضميرها وتقضي على أشباح الخوف ونحس الآلام، فرجعت تحدّث نفسها بأنّها أحسنت صنعًا بالمهروب وخطف الطفل، ولو أنّها لبثت إلى جانب سيّدتها ما استطاعت أن تدفع عنها شرّ العدا



تلقاه وعل يديها أجمل ما حملت الأمهات؟! ولا ريب  
أنه سينظر إليها كالذاهل فتلين عضلات وجهه الصلبة  
وتغلي عيناه البرأقتان بنظرة حنان تذيب رقة وعطفًا،  
وهتف بها وهو لا يمتلك نفسه من الفرح: «وأخيرًا  
ولدت يا زايا! أحقًا هذا طفلي؟ تعالي إليّ.. تعالي  
إليّ..» فتقول له وهي ترفع رأسها بكبرياء وأنفة:  
«خذ طفلك يا كاردا وقبل قدمه الصغيرة.. واسجد  
شكرًا للرب رع.. إنه ذكر وقد سمّيته ددف».

وأقسمت لتحملن زوجها على العودة إلى طيبة  
مسقط رأسه. لأن قلبها بات يوجس خيفة - لا تدري  
ما كنهها - من الشمال وأهلها، وفي طيبة الجميلة وتحب  
رعاية الرب آمون تربي ابنها وتحب زوجها، وتعيش  
الحياة التي حُرمتها دهرًا طويلًا.

وأيقظتها من أحلامها جلبة أصوات وضجيج حياة،  
فنظرت إلى الطريق ورأت العربة تصعد طريقًا ملتويًا  
والرجل يلهب الخيل بسوطه، ولم تستطع في جلستها  
أن ترى ما على سطح الهضبة، ولكن طرقت أذنيها  
أصوات أحياء ودوي آلات وأناشيد العمال، وعرفت  
من بينها نشيدًا كان كاردا يترنم به في أوقات الصفاء  
وهو:

نحن رجال الجنوب نأتي مع مياه النيل،  
من تلك الأرض التي اختارتها الآلهة سكنا  
والفراعين،

نسوق بين أيدينا الخصب العميم والعمران.  
انظر إلى المدن العامرة والمعابد ذات العمدان،  
كانت - قبلنا - خرائب تأوي إليها الأوابد  
والغربان،

إنّ الصخر لنا يلين ويذعن، وكذا الماء الجبّار.  
سلّ عن بأسنا قبائل التوبة وطور سيناء.  
سلّ عن جهادنا زوجات ينتظرن في وحدة وعفاف.  
وسمعت المثن يرددونها بقوة وحنان معًا، فهفت  
نفسها إليهم كما يفو الحمام إلى صغير صاحبه، وأنشد  
قلبها مع المنشدين.

وبلغت العربة سطح الهضبة بعد أن اجتازت  
الطريق المسمى وادي الموت، ونزلت منها زايا وسارت

ولهكت معها، وما كان في مقدورها أن تحملها وتدب  
بها. ولم يكن من الرحمة أن تترك الطفل بين أحضانها  
حتى يقتله رجال سيناء. فقد أحسنت صنعًا بالهروب  
وأحسنت صنعًا بخطف ددف ولا خوف عليها ولا  
ينبغي أن تحزن!

ما أعذب هذا التفكير، بل ما أجمل أن ينتهي بها  
إلى أنها أم ددف دون شريك!

هي أمه دون شريك وكاردا أبوه، وكأنما أرادت أن  
تطمئن إلى هذه الحقيقة فجعلت تناديه نداء منغومًا  
قائلة: «ددف رع ابن كاردا.. ددف رع بن زايا».

وجاءت العجوز بلبن الماعز، وبدأت الأم الصناعية  
ترضع الطفل رضاعًا صناعيًا.. حتى ظنّت أنه شبع،  
ولم يبق أمامها إلا أن تتأهب للخروج إلى كاردا..  
فاستحمت ومشطت شعرها ووضعت خمارها على  
منكبيها، وحملت ددف بين يديها وغادرت الفندق.

وكانت شوارع منف مزدهرة كعادتها بالمازين،  
راجلين وراكبين، ذكورًا وإناثًا، من وطنيين  
ومستوطنين وأجانب. ولم تكن زايا تعرف الطريق إلى  
الهضبة المقدسة، فسالت شرطيًا، فأجابها بأنّ الهضبة  
«جنوب شرقيّ سور منف يقطعها الراجل في ساعتين  
أو يزيد، والراكب في نصف ساعة»، وكانت يداها  
مملوءتين بالقطع القصيّة فاكرت عربة ذات جوادين،  
وجلست باطمئنان وسعادة.

وسرعان ما انتزعها أحلامها من الدنيا وحلقت بها  
في سماء السعادة والغبطة، فسبق خيالها العربة إلى  
كاردا زوجها الحبيب المقتول الذراعين الأسمر الوجه،  
فما أجمله في وزرته القصيرة التي تكشف عن ساقيه  
الحديديتين، وما أحب وجهه المستطيل بجبهته الضيقة  
 وأنفه الكبير وعينه الواسعتين وصوته الخشن العريض  
ذي اللهجة الطيبة القحة. وكم ذا تشّاق إلى ضمّ  
ساعديه وتقيل فمه وسماح صوته.

وكان في أمثال هذه المقابلات التي يسبقها غياب  
طويل يقبل عليها بشوق ويقول لها مداعبًا: «تعالي يا  
امراة.. كأتّي بك أرض صخرية تشرب الماء ولا تنبت  
شيئًا». أمّا هذه المرّة فلن يقولها، وكيف يقولها وهي

وأثمن أثاثًا، وكان يجلس في ركن منها - خلف مكتب فخم - رجل ربعة القوام بدين الجسم، يميّزه رأس كبير وأنف ضخمة قصير في وجه ممتلئ، عظيم الشدقين، متنفخ الخدين كقربتين صغيرتين، وكانت عيناه جاحظتين وجفناه ثقيلين، وقد جلس جلسة كبرياء وعظمة، وانكبّ على ما بين يديه في تبه وسلطان. وقد أحسّ بالداخل ولكّته لم يرفع عينيه ولم يتبدّد عليه اهتمام حتّى فرغ مما بين يديه، فنظر إلى زايا نظرة شوس وتيه وسألها بصوت تيّاه فخور:

- ماذا تريدان يا امرأة؟

فاستولى الارتباك والخوف على زايا وقالت بصوت مضطرب ضعيف:

- جئت أبحث عن زوجي يا سيدي.

فسألها بنفس اللهجة:

- ومن زوجك؟

- عامل يا سيدي.

فضرب المكتب بقبضة يده وقال بلهجة حادة وبصوت كأنه يرثى في قبه:

- وما الداعي إلى تعطيله عن عمله وإقلاقنا؟

فدعرت زايا وتفرّق منطقتها شعاعًا ولم تُجِر جوابًا. فادام إليها النظر وشاهد وجهها الخمرى المستدير وعينيها العسليتين الساختين وشبابها الغضّ، فعزّ عليه أن يجثم الخوف على مثل ذلك الوجه الصبيح، ولم يكن له من السلطان إلّا ظاهر وزهو. أمّا قلبه فطيب، وأمّا عواطفه فرفيقة، فعطف على المرأة وقال بصوته الأجوف ولكن بلهجة رقيقة ما استطاع:

- لماذا تبحثين عن زوجك يا سيّدة؟

فتنهّدت زايا ارتياحًا وزال عنها الرعب وقالت بامتنان:

- إني آتية من أون بعد أن ضاقت بي سبل العيش، وأرجو يا سيدي أن يعلم بوجودي.

فنظر المقتش إلى الطفل الذي تحمله على ذراعيها وقال كالمرتاب:

- أمن أجل هذا جئت حقًا. أم جئت تبشّره

بهذا المولود؟

صوب الخلق المحشود المنتشر على رقعة الهضبة كأنه جيش عارم في ميدان. ومزّت في طريقها بمعبّد أوزوريس وتمثال أبي الهول ومصاطب الآباء والأجداد الذين أهلتهم أعمالهم في الدنيا للرقاد في بطن تلك الأرض الطاهرة، وشاهدت النهر الطويل الذي شكّه العمّال ليصل الهضبة بالنيل. وكانت تحتازه المراكب الضخمة تباغًا حمّلة بالصخور الجبّارة حيث ينتظرها عند المرسى جماهير العمّال بالعربات الزاحفة. ورات عن بعد أساس الهرم الذي لا يحيط بحدوده بصر والعمّال على سطحه كالنجوم المنتثرة في رقعة السماء. وكانت تختلط أصوات الأناشيد بصياح الرؤساء وأوامر الحرس وطققة الآلات، فوفقت زايا خيري وطفلها على يديها تتلّقت يمنة ويسرة لا تدري أين المستقرّ، وترى عبث النداء في ذاك المحيط اللّجّي، وقد تعبت عينها قلقلًا وترددًا بين الوجوه.

ومرّ بها أحد الحراس فاستغرب وقفها، ودنا منها وسألها بصوت أجش:

- ماذا جئت تفعلين هنا يا سيّدة؟

فقال له بسداجة:

- أبحث يا سيدي عن زوجي كاردا.

فسألها الجندي وهو يقطب جبينه متذكرًا:

- كاردا؟ هل هو معمار أم حارس؟

فقال في استحياء:

- هو عامل يا سيدي.

فضحك الرجل ساخرًا وقال لها وهو يشير إلى بناية على بعد قريب:

- أسألي عنه في مكتب المفتش.

فسارت زايا إلى هدفها، وكانت البناية متوسطة الحجم، جميلة المشهد، ويقف على بابها حارس من الجنّد، وقد اعترض طريق زايا، ولكّتها أخبرته بما جاءت من أجله فأوسع لها، فدخلت حجرة واسعة تصطفّ في جوانبها المكاتب ويجلس خلفها الموظفون، وكانت جذرائها ملأى بالفوف المكدّسة بأوراق البردي، وفي أنجاه الداخل يرى باب موارب دلّم الجندي عليه بعصاه، فاجتازته إلى حجرة أصغر حجماً وأجل منظراً

فانطفأ نور الأمل الخافت وأجهشت زايا في البكاء،  
فطلب المفتش لها كرسيًا ومضى يقول لها:

- تشجعي يا سيّدة .. تشجعي .. هذه إرادة  
الآلهة.

ولكنّ زايا كان يلوح لها الأمل كما يلوح السراب  
للظنّان في المغاوز، فسألته:

- ألا يجوز يا سيّدي أن يكون الميت واحدًا غريبًا  
يحمل اسم زوجي؟

فقال لها المفتش بلهجة اليقين:

- كاردا بن عن هو العامل الوحيد الذي استشهد  
من عمّال أون.

فصاحت المرأة بذلّ وألم:

- يا لسوء حظّي يا سيّدي .. ألم تجد الأقدار هدفًا  
لسهمها غير صدري الضعيف؟  
- هدّئي روعك ..

- ليس لي رجل سواه يا سيّدي.

وكانّ المفتش طيّب القلب أراد أن يطمئنها، فقال  
لها:

- إنّ فرعون لا ينسى عباده المخلصين، وتوسع  
رحمته الضحايا والمستشعدين جميعًا .. أصغر إليّ: لقد  
أمر مولانا الملك ببناء بيوت لأسر العمّال الذين قضوا  
في أثناء العمل، وقد شيدت البيوت عند سفح الهضبة  
وأوى إليها العشرات من النساء والأطفال، وقد أجرى  
عليهم الملك إعانات شهرية، كما اقتضت إرادته اختيار  
الرجل من ذوي قرباهم للمعاونة في الحراسة .. فهل  
لك قريب تريدن تعيينه مراقبًا للعمّال؟

فقالت زايا وهي تتحب:

- ليس لي في الدنيا غير هذا الطفل.

فقال الرجل:

- ستأويان إلى حجرة نظيفة ولن تعرفا ذلّ السؤال.  
وهكذا غادرت زايا مكتب مفتش الهرم أرملة  
بائسة، تندب زوجها السيّئ الحظّ وطالعتها المنكودة.

وكانت البيوت التي أمر فرعون بإقامتها لأسر العمّال

فتورّد خدّا زايا وعلا الحياء وجهها، ونظر إليها  
الرجل هنيهة ملتدًا ثمّ سأها:

- حسن .. من أيّ بلد زوجك؟

- من أون يا سيّدي ومسقط رأسه طيبة.

- وما اسمه يا سيّدة؟

- كاردا بن عن يا مولاي.

فنادى المفتش كاتبًا وقال له بلهجة الأمر والخيلاء،  
التي تنازل عنها من أجل عيني زايا:

- كاردا بن عن من أون.

فذهب الكاتب ويبحث بين الدفاتر واستخرج  
واحدًا منها وقلّب في أوراقه باحثًا عن حرف الكاف  
وعن اسم كاردا، ثمّ عاد إلى رئيسه ومال على أذنه  
وهمس بصوت خافت ورجع إلى عمله.

وأجدّ المفتش في مظهره ونظر إلى وجه المرأة طويلًا،  
ثمّ قال بصوت هادئ خافت:

- آسف يا سيّدي أن أنعي إليك زوجك، فقد

مات في ميدان العمل والواجب!

وصكّت كلمة الموت أذني المرأة فقزّت من صدرها  
صرخة رعب وفزع، ولبّث لحظة كالذاهلة، ثمّ سألت  
المفتش بتوسّل أليم:

- أحمقًا مات زوجي كاردا بن عن؟

فأجابها بوجوم:

- نعم يا سيّدي .. استوصي بالصبر.

- ولكن .. كيف عرفت ذلك يا سيّدي؟

- لهذا ما أنبأني به الكاتب بعد أن فحص أسماء  
عمّال أون.

- ومن أدراك يا سيّدي فقد مجدع البصر وتتشابه  
الأسماء.

وطلب المفتش الدفتر إلى مكتبه ونظر فيه بنفسه ثمّ  
هزّ رأسه أسفًا، ونظر إلى وجه المرأة الذي لوّن الرعب  
صفحته بصفرة الموت، ورسم الأمل في عينيه نظرة  
تضرّع وتوسّل ورجاء، وقال:

- استوصي بالصبر يا سيّدي، وأذعني لإرادة

الآلهة.

يزيد، ولكنه طيب القلب عظيم المودة..! وكانت تلحظ بعين نافذة خفية أنه إذا وقع بصره على جسمها اللدن اضطرب جفناه الثقيلان وانفجرت شفاه الغليظتان. وحلّ الهوان في طلعته محلّ الخلاء والكبرياء فتعاطيه تنبّهاً رقيقاً يسمره في مكانه ثواني كأنه خنزير محاصر. وتولّدت المطامع في قلب زايا فسلبت سلاحها للاستيلاء على المفتش العظيم، وقد انتهزت مرّة فرصة حضوره فشكت إليه سوء ما تلقى من الوحشة والكآبة في مقامها البائس، وقالت له:

- لعلّي أكون ذات نفع يا سيدي في غير هذا المكان، فإنّي خدمت طويلاً في قصر أحد سراة أون، ولي خبرة عظيمة بأعمال الوصيفات.

فارتجّ جفنا الرجل الغليظان، ونظر إلى الأرملة الحسنة بعين طامعة وقال:

- فهمت يا زايا، فليس ما تشكين هو العطلة أو الخمول، ولكنّ نفسك ألفت نعيم القصور فلا يتأتّى لها الصبر على مثل هذه الحياة البائسة.

فابتسمت الماكرة في رقة ودلال، وكشفت عن وجه ددف الجميل وقالت:

- هل يليق هذا المكان بمثل هذا الوجه الحسن؟ فقال المفتش:

- كلاً.. ولا بك يا زايا.

فاحمرّ وجهها وأسبلت جفניה حتى مسّت أهدابها فترى خديها، فقال الرجل:

- إنّ لي ذلك القصر الذي تريدان، ولعلّه يريدك أيضاً.

- إني رهينة إشارة مولاي.

- لقد ماتت زوجتي تاركة لي ابنين، وعندي من الجوارى أربع، فهل تكونين الخامسة يا زايا؟

ومنذ ذلك اليوم انتقلت زايا وطفلها ددف من حيّ البائسات إلى حريم مفتش الهرم بشارو بقصره الجميل الذي تمتدّ حديثه حتى تبلغ بحرى النيل المقدّس، وانتقلت إليه كجارية ذات حظوة ليست لغيرها. ووجدت الجوّ خالياً لمكرها وسحرها، لأنّ القصر كان بدون ربة مهيمنة، ولأنّ ابني المفتش كانا حبيبين

المستشهدين تقع خارج أسوار منف البيضاء شرقيّ الهضبة المقدّسة، كانت بيوتاً متوسطة الحجم يتكوّن كلّ منها من طابقين، وكلّ طابق من أربع حجرات متّسعة، وقد أقامت زايا في حجرة هي وطفلها، وألفت نفسها تعيش بين أولئك الخلق من الأرامل والشكليات والأطفال، منهم من لا تفنّ تندب قتلها ومنهم من اندمل جرحها وعفا الزمان على أحزانها. وكانوا جماعة من ذوي همّة ونشاط، فاشتغل الصبيان بتوزيع الماء على العمّال، وانجبرت النسوة بالأطعمة والجمعة، وتحوّل الحيّ البائس إلى سوق ناشئة رخيصة دبّت بها حركة العمران والعمل، وبشّرت بأن تكون جنين قرية يافعة..

وقد أمضت زايا أيامها الأولى بسكنها الجديد في حزن متّصل وبكاء أليم على الزوج الفقيد، وعذّبتها الحزن عذاباً لم يخفّف بلواه عنها ما تلقى من توفّر الرزق وما تنعم به من عطف بشارو مفتش الهرم العامّ، ولكن وأسفاه! فلو ذكر المصابون في قلوبهم أنّ الموت فناء يطمس الذكرى ويذهب الأحزان في قلب الحيّ بنفس السرعة التي يفتى بها وجود الميت، لو فروا على أنفسهم جهداً ضائماً وعذاباً مريئاً، فقد تعزّت وأنستّها متاعب الحياة مرارة الموت، لأنّها أحسّت بتأفّف في مقامها الجديد وضافت به ولتأتمنّ به سوى شهور قلائل، واقتنعت بأنّه ليس المكان اللائق بها ولا بابنها، ولكنها لم ترّ عن الصبر عجيذاً فسكتت على الحزن والضيق.

وفي أثناء تلك الشهور زارها المفتش بشارو عدّة مرّات، لأنّه كان يميّزها كلّما ذهب للتفتيش على المساكن وتفقّد أحوالها، حقيقة أنّه كان يزور كثيرات من الأرامل ولكنّ زيارته لزايا امتازت برحمة ومودة، وما من شكّ في أنّ الآخرين لم يكن أقلّ بؤساً من زايا ومنهم من يفقنها شقاء، ولكن لم يكن لواحدة منهم عينان عسلتان ساختان كعيني زايا، ولا جسم ممشوق لدن كجسمها. وقالت زايا لنفسها وهي مستغرقة في لجج التأمل والتفكير: ما أطيبه من رجل، إنّه بدين قصير، غليظ القسّات، في الأربعين من عمره أو

صغيرين، فعملت على أسر لب سِيدها. ونجحت في مسعاها حتى حملته على الزواج منها، وسرعان ما صارت زوج المفتش بشارو وربّة قصره والمشرقة على تنشئة ابنه خنى وناقفا، ولم تكن زايا يخونها المكر أبداً، فمئذ تَسَنّت مكانتها العالية أقسمت فيها بينها وبين نفسها لتحسّنَ معاملة الصبيّين، وتكوننَ لهما نعم أمّ الحنون.

وهكذا ابتسم الحظّ لزايا بعد تقطيب، وأقبلت عليها الدنيا بعد إدبار.

### - ٩ -

ذلك هو القصر الذي قضت الأقدار بأن يكون مرتع طفولة ددف رع. وقد تمتّع الطفل بطفولة خالصة ثلاث سنوات كاملة - كما جرت العادة بمصر على أيّامه - لم يفارق فيها حضن أمّه إلّا حين النوم، وقد ترك - في تلك السنوات الثلاث - أثراً على صدر زايا لم يمح منه طيلة العمر، فعلاه أمومة ورضع منه حناناً ومحبةً، ولا نستطيع أن نحذث عن طفولة ددف الأولى بأكثر من مسّ ظواهرها، لأنّها - ككلّ طفولة - سرّ مغلق وسعادة في قمقم لا يعرف كتبها إلّا الآلهة التي تحوطه بالعناية وتلهمه النجوى، وقصارى ما يقال إنّهُ كان ينمو سريعاً كما تنمو أشجار مصر تحت أشعة شمسها المشرقة. وإنّ نفسه كانت تتفتح كاشفة عن حسنّها كما تتفتح الوردّة إذا سرى في عودها دفاً الحياة وانبعث فيها روح الجلال. وإنّه كان سعادة زايا ونور عينها كما كان لعبة نافا وخنّي الثمينة المفضّلة، يتخاطفانه ويقبلانه ويعلمانه الأسماء والنطق والمشي. وإنّه ختم طفولته الأولى بعلم لا يستهان به فتعلّم كيف يقول لزايا «أمّاه»، وعلمته المرأة أن يقول لبشارو «أبتاه» وكان الرجل يتقبلها منه بجور، وكان يتفادى بوجهه الصبيح الجميل الذي يكتسب رونقه من بهاء اللوتس. وما زالت أمّه به حتى تعلّم كيف ينطق رع، وكانت تطلب إليه النطق بها قبيل النوم وعقب الاستيقاظ لتستدرّ عطف الربّ على ابنه الحبيب.

وحين بلوغ الثالثة هجر حضن زايا ومضى يحبو في

وعلى ذلك العهد ولد جاموركا من أبوين عريقين من سلالة أرمنت، وقد استقبله ددف رع استقبالاً حقياً، ووهبه حجره يأوى إليه، وتوثقت عرا المودة بينهما منذ ذلك العهد المبكر. وقد قضت محبة ددف لصديقه أن ينشأ هذا نشأته الأولى في حضنه وأن يتبعه في أثناء نموه كظله. وأن يلقن اسمه «جاموركا» بلسانه الحلوى، وأن يكون أوّل نباحه نداء عليه، وأوّل تحريك ذيله القصير حفاوة به، ولكن والأسفاه لم تخل طفولة جاموركا من عذاب، فكان التمساح الفاغر فاه واقفاً له بالمرصاد ينغص عليه سعادته ويكدر صفوه، وكان إذا رآه نبح ويرقت عيناه وتصلّب جسمه وكّر وفرّ، ولا يهدأ حتى يخفي ددف تمساحه المخيف.

وكان لا يكادان يفتقران، فإذا أوى ددف إلى سريريه رقد جاموركا إلى جانبه، وإذا قعد ساكناً. وقليلاً ما يفعل - جلس قبائله ووسط ذراعيه، أو مضى يلحق خبّيه ويديه كيف شاء حنانه واقتضت مودته، وكان يتبعه إلى عماشى الحديقة ويركب معه القارب إذا حملتها زايا إليه للترتّض في بركة القصر، فكانا يطلّان برأسيهما من حافة القارب وينظران إلى صورتيهما في

إلى أن بلغ الخامسة من عمره وبدأت الحياة تكشف له عن بعض خبيثتها.

وفي ذلك الوقت بلغ خنى الحادية عشرة ونافا العاشرة واختبأ تعليمهما الأولي، واختار خنى أن يلتحق بجامعة بتاح ليرقى مدارج علمها المتتابعة ويتفقه في الدين والأخلاق والعلوم والسياسة، إذ كان الغلام ميلاً للعلم شغوفاً بالحكمة وكان يرغب في شغل وظيفة دينية أو قضائية، أما نانا فلم يتردد في الالتحاق بمعهد خوفو للفنون الجميلة، لأنه كان يهوى الرسم والتصوير.

وجاء الدور على ددف ليلتحق بالمدرسة الأولية، وليقضى عليه بهجر زايا وجاموركا وعالم الأحلام كل يوم أربع ساعات كاملة، يصرفها مع الأطفال والأغراب في تعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والهندسة والدين والأخلاق والتربية الوطنية.

وكان أول ما قيل له ولهم في اليوم الأول: «عليكم بالإصغاء التام، ومن ياب ذلك منكم فاعلموا أن أدني الطفل فوق خديه وهو يهدف السمع كلما ضرب».

ولأول مرة في حياة ددف اشتركت العصا في التفاهم معه. على أنه أبدى استعداداً طيباً للتعلم، وأقبل بشوق عظيم على درس اللغة المهيروغليفيّة الجميلة، وبرع في فهم مسائل الجمع والطرح.

وكان للمدرس الأخلاق أثر عظيم في نفسه، لأنه كان ذا شخصية قوية محبوبة، وكان يتسم ابتساماً حلوة تبث في أنفس التلاميذ المودة والاطمئنان، وزاد من حب ددف له أن وجد شبيهاً بينه وبين أبيه بشارو في بدانة الجسم وانتفاخ الشدقين وجهارة الصوت وغلظه، فكان يصني إليه بمجامع وجدانه وهو يقول: «انظروا ماذا يقول حكيمنا قاقمنا، إنه يقول - تقدست روحه في السماوات -: «احذر أن تكون عنيذاً في الخصام فتستوجب عقاب الرب، ويقول: إن قلّة الأدب بلادة وملمة، ويقول أيضاً: إذا دعيت إلى وليمة وقدم لك من أطايب الطعام ما تشتهي فلا تبادر إلى تناوله لئلا يحسبك الناس شرماً. فإن جرعة ماء تروي الظمأ، ولقمة خبز تغذي الجسم». ثم يأخذ

الماء، أما جاموركا فلا يسكت عن النباح، وأما ددف فيعجب لذلك الصغير الجميل الذي يشبهه ويعيش في باطن البركة.

وكانوا إذا أتى الربيع وصدحت السماوات بأناشيد الطير، وانشقت أودية الشتاء الكثيفة عن نور الشمس البهيج، واحتفى الكون بعيد الشباب، فلبست الأشجار حللاً من سندس، وأزّينت الشجيرات بألوان الورود والرياحين، وتدفق الحب في القلوب، كانوا يكترون من رياضة الزورق على سطح الماء، وكانوا يتركون الأطفال عرايا إلا ممّا يستر، فكان خنى ونافا يقفزان إلى الماء ويسبحان ويتقاذفان بالكرة. ويقف ددف إلى جانب جاموركا يشاهدهما بسرور وغيره، وربما طلب إلى أمه أن يفعل مثلها فترفعه من تحت إبطيه وتنطسه في الماء إلى الوسط فيلعب بقدميه ويصيح فرحاً مسروراً.

فإذا ارتوت نفوسهم لهواً ولعباً عادوا جميعاً إلى حجرة الحديقة الصيفية. وجلست زايا على الديوان وجلس بين يديها ددف وخنى ونافا وأمامهم جاموركا باسطاً ذراعيه، فتقص عليهم قصة البحار الذي تحطمت سفينته وقذفت به الأمواج على لوح من الخشب إلى جزيرة مهجورة، وتروي لهم كيف ظهر له الثعبان الهائل صاحب الجزيرة وكيف كاد يفتك به. لولا أنه علم أنه رجل مؤمن بمحمود السيرة وأنه من رعاية فرعون، فطمأنه ووهب له سفينة من عنده محملة بالنفيس من الكنوز عاد بها سالماً أمناً إلى وطنه.

وما كان ددف يسمع بأذنيه ولكنه كان يرى بعينه السوداوين الجميلتين.

كان سعيداً محبوباً، ومثلاً الذي كان يستطيع ألا يحب ددف ذا العينين السوداوين الدعجاوين والأنف الطويل المستقيم والروح الخفيف الضاحك؟ كان يحب إذا تكلم وإذا سكت، يحب إذا لعب وإذا سكن، يحب إذا رضي وإذا غضب. وقد تمتع بنعمة الحب واللهو في حياة قوامها الحب واللهو والخيال، يعيش كالحالدين دون أن يسأل عن غد.

وانتهت المرحلة السعيدة الممتعة: وأوفى منها ددف على الغاية وأكثر، بل فاق عقله عمره: فكان مثله مثل شجرة الورد التي تثبت الزهر الجميل ولم تُعَلَّ عن الأرض أشبارًا.

### - ١٠ -

واها! إنَّ الزمان يتقدّم غير ملتفت إلى الوراء، ويُنزَل - كلّما تقدّم - قضاءه بالخلّاق، ويُنفذ فيها مشيئته التي تهوى التغير والتبدّل، لأنّه ملهاته الوحيدة التي يستعين بها على ملل الخلود، فمنها ما يبلى ومنها ما يتجدّد، ومنها ما يموت ومنها ما يحيا، ومنها ما يتسم شبابه، ومنها ما يرد إلى أرذل العمر، ومنها ما يتف للجمال والعرفان، ومنها ما يتأوّه لديب اليأس والفناء. وقد فعل الزمان فعله بأسرة بشارو.

فقد بلغ الرجل الخمسين من عمره، ودبّ الترهّل في بدانته، وخطّ المشيب رأسه، وأخذ يودّع شيئًا فشيئًا القوّة والشباب والفتوّة، وازداد جهازه العصبيّ حسّاسيّة فكثّر صياحه وصخبه وانتهاره الحراس وزجره الكتبة، ولكنه كان كالثور المصريّ عظيم الخوار عديم الأذى، لأنّ طبيعته تمسكت بصفتين لا تتنازل عنها ولا تخضع فيها لحكم زمان: فخاره وطيبه قلبه، فهو مفتش عامّ هرم خوف وويل لمن يخاطبه فلا يقرن باسمه وظيفته وألقابه، وهو لا يملّ الحديث عن نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ولا يسره حديث كحديث الملوك والإطراء.

وكان إذا دعي إلى المثلوث بين يدي فرعون بحكم وظيفته، نشر الخبر في كلّ مكان تصل إليه دعايته، فيعلم به أهل بيته صغيرًا وكبيرًا وأصحابه ومرءوسوه، ولا يكتفي بذلك فيقول لنافا وخنى وددف: «هلموا أذيعوا النباّ المجيد بين إخوانكم، وتنافسوا أيّها الصغار لتبلغوا اللروة التي تسنمها أبوكم بالإخلاص والعمل والمواهب العالية»، ولكنه ظلّ كما كان الرجل الطيّب الذي ينفر قلبه من الأذى ولا يجاوز غضبه طرف اللسان.

وقد بلغت زايا الأربعين ولم تنل منها السنون إلّا

بعد ذلك في التفسير وضرب الأمثال وقصّ القصص، وكان كثيرًا ما يقول لهم: «يجدر بالطفل منكم ألا ينسى ما تكلفته أمّه من المتاعب من أجل راحته، فقد حملته في بطنها تسعة أشهر، وحضنته ثلاث سنوات وغذّته بلبنها. احذر أن تغضبها، فالربّ يستمع إلى شكواها ويستجيب دعاءها».

كان ددف يصغي إلى مدرّسه بوعيه الكامل، ويتلذذ بأمثاله وقصصه ويتأثر بقوله غاية التأثر. وأمضى في تعليمه الأوّل سبع سنوات أتمّ فيها مبادئ العلوم وأتقن الكتابة والقراءة.

وفي أثناء تلك الفترة توفّقت أواصر الودّ بينه وبين أخيه نافا، فكان يجلس إلى جانبه وهو يرسم أو يصوّر، يتتبع بعينه الفاتنتين هاتيك الخطوط التي يخلق تلاحمها أجمل الأشكال وأبدع المعاني. على أنّ نافا كان يملك قلبه بضحكه الذي لا يتقطع، وبروحه المرحّة وبنكاته اللطيفة.

وكان لخنى أثر بيّن في عقله، جعل علمه الناشئ يجاوز المبادئ ويتصل بالإلهيات والعلوم العالية في تلك السنّ المبكّرة، وذلك أنّ خنى كان يعجبه خطّ ددف، فكان يملّي عليه مذكراته ومحاضراته فأضاء عقله الصغير قبس من نور قاقمنا ووحى من كتاب الموق ونقثات من أشعار تايا، وكانت تنساب إلى عقله في لطف، ولكن في هالات من الغموض والإبهام أيقظته من سباته وبثّت فيه القلق والحيرة والحياة.

وقد أحبّ خنى أيضًا - رغم رزائنه وتجهّمه - وكان إذا شبع جريًا ولعبًا هو وجاموركا أوى إلى حجرته ليكتب له محاضراته أو ليقلّب في الكتب المحلّاة بالصوّر، فتأمل من صغره صورة بتاح ربّ منف وصورلجانه ذي العلامات الثلاث الدالّة على القوّة والحياة والخلود، وصورة العجل أبيس المقدّس الذي تحلّ به روح بتاح المعبود، وكان يحطر خنى بالأسئلة فيجيبه الشاب عنها بصبر، ويروي له الأساطير وما أعظم ما كانت تستولي عليه!.. كان يجلس القرفصاء مصغيًا إلى أخيه وجاموركا أمامه يوليه وجهه، ويولي الأستاذ وأساطيره الدينيّة ظهره!

جاموركا من فعل الزمن فنا وضخم وقصر شعره الأسود الذي كان مسبلاً، وتبدت على وجهه آي القوة والشدة، وعلى أنيابه بينات القسوة والويل، وأجشّ صوته واخشوشن، فكان إذا نبج دوى نباحه دويًا وبعث الرعب في أفئدة القسوط والثعالب والذئاب، وأعلن للملأ أنّ حارس قصر المفتش ساهر، وكان على صلابته وشدته أرقّ من النسيم على صاحبه وحبيبه ددف، الذي زادت الأيام ما بينها توقُّفاً ومودةً، فكان إذا ناداه لبي وإذا أمره أطاع وإذا انتهزه ذلّ وسكن، بل إنَّها استغنيا بنجوى السرائر عن لغة الظاهر، فكان جاموركا يحسّ بمجيء ددف إلى البيت إحساساً خفياً، فيهرع إلى لقائه ولما يره. وكان يتعارف على باطنه بقدرة عجيبة قد تحوّن أقرب الناس إليه، فكان يعرف حالات رضاه فيقبل عليه ملاعباً ويقفز واضعاً يديه على منطقة وزرته، كما كان يحسّ بحالات تعب أو ضيقه فيسكن بين قدميه مكتفياً بتحريك ذنبه.

أما ددف فقد بلغ الاثني عشر عاماً من عمره، وجاء الوقت الذي ينبغي أن يختار فيه وجهته التي يولبها في الحياة. والحقّ أنّه إلى ما قبل ذلك بقليل لم يحجر تفكيره في تلك المسألة الخطيرة، وكان الغلام يبدي نشاطاً عائشاً محموداً، وقد خدع خنى بتشوّقه إلى الفلسفة حتّى حسبه كاهناً وحسب الكهنوت مستقبله دون غيره. ولكنّ نافا - وكان بحكم فته أنفذ بصراً - كان يشاهده وهو يسبح وهو يجري وهو يرقص، وكان يرى جسمه النامي وقدّه المشوق فيقول لنفسه وهو يكسوه بخياله اللباس الحربي: «يا له من جندي!» وكان نافا عظيم التأثير في ددف للحبّ المتبادل بينهما، فوجهه ذاك التوجيه الذي باركته زايا وتحمّست له، ومنذ ذاك اليوم ولا شيء يجذب عيني زايا في الأعياد مثلما يجذبها منظر الجنود والفرسان وفصائل الجيش.

ولم يكن بشارو ليحفل بما يختار ددف من فنون الحياة فهو لم يتدخل مطلقاً في اختيار خنى أو نافا لمستقبلها، ولكنّه وجد ميلاً إلى التأمل فقال لددف - وكانوا جميعاً جلوساً في الحجرة الصيفية - وهو يُربّت بلطف على كرشه العظيم:

قليلاً، فاحتفظت بمعالم جمالها وكمال نضجها، وصارت السيادة والكرامة من طباعها الثابتة. فمن يرها تقوم على قصر بشارو لا يجرّ لها على بال أنّها تلك التي كانت زوجاً للعامل كاردا وخادماً للسيدة رده ديديت. بل هي نفسها أدرجت ذكريات الماضي في أكفان النسيان، ومنعت الذاكرة من التسلّل إلى زوايا التاريخ المنطوي، لتتمتّع بمعادتها الأولى - أمومتها لددف - متعة خالصة، والحقّ أنّ حناياها كانت تهفو إليه كأنّه سكنها تسعة أشهر، كما أنّ أعزّ آمالها أن تراه رجلاً مجيداً سعيداً.

وفي ذلك الوقت كان خنى قد قطع مرحلة طويلة في تعليمه العالي، ولم يبق أمامه سوى ثلاث سنوات للتخصّص، ولما كان الشاب بطبعه ميلاً إلى الدراسة والتعمّق في أسرار الكون فقد اختار اللاهوت وأثر الانخراط في سلك الكهنوت، ولم يكن الأمر متوقّفاً على محض اختياره، لأنّ الكهنوت علم عزيز لا يلج أبوابه إلّا من يجتاز - بعد إتمامه الدراسة العالية بما فيها التخصّص - اختبارات نظريّة وعلميّة شاقّة عدّة سنوات في أحد المعابد، ولكن قبول طلب خنى بالعطف لما أبداه في أثناء حياته الدارسية من الذكاء والفطنة والأخلاق النبيلة، وكأنّه لم يرث من والده إلّا صوته الأجشّ الأجوف، وفيما عدا ذلك كان نحيفاً دقيق القسبات هادئ الملامح، تُذكر صورته بصورة أمّه التي اتّصفت بالورع والتدين.

وكان في ذلك على النقيض من شقيقه نافا الذي ورث عن والده جسمه البدين ووجهه الممتلئ والكثير من أعماق روحه، فكان طبيّاً مرحاً، وكان من حسن حظّه أن خرجت قسباته أدقّ من قسبات والده الغليظة الثقيلة، وقد حاز الشاب أعلى شهادة في فنّ الرسم والتصوير، واكترى بمعونة والده - بيتاً صغيراً في شارع سنفرو - وهو أهمّ شوارع منف التجارة - وجعله محلاً لعمله ومقاماً لعرض آياته الفنيّة، وكتب على لافتة بالخطّ الهيروغليفيّ الجميل: «نافا بن بشارو. إجازة معهد خوفو للفنون الجميلة»، ومضى يعمل ويحلم ويتنظر صابراً جمهور الطالبين والمعجبين. ولم يتجّع



وهزّ بشارو منكبيه استهانة وقال:

- سواء لديّ اخترت الجندیّة أم الكهنوت، وعلى كلّ حال أمامك عدّة أشهر فيها متّسع للتفكير والرويّة.. إيه لكم أيّها الأبناء! يجنّ إلى أنّه لن يخلف أحدكم أباه، وأنّ واحدًا منكم لن يعيد تمثيل الدور الخطير الذي قمت به في الحياة.

وفاتت الشهور دون أن تغیر من رأي ددف، فقرّر رأي الأسرة على إلحاقه بالمدرسة الحرّیّة.

وفي تلك الأثناء واجهت بشارو أزمة فکریّة مرّة، هیأت أسبابها أبوّته المزعومة لددف، وقد تساءل الرجل في حيرة: هل ينبغي أن يحافظ على ادّعاء هذه الأبوة، أم أنّه آن الأوان لإعلان حقیقتها وفصم عراها؟ وكان خنّی ونافا يعرفان حقیقة المسألة، ولكنّها لم یشرّا إليها بتاتًا لا في السّرّ ولا في العلانیة حبّا في الغلام وضنّا به.

وكان بشارو یقدّر وقع الصدمة على نفس الغلام البریة السعیلة فیقشعرّ بدنه، ويذكر زایا وما یحتمل من غضبها وسخطها فیحجم إشفاقًا، وهو ما فکّر في ذلك عن سوء قصد أو عن زهد في ددف ولكنّه كان یعتقد أنّ هذه الحقیقة ستعلن عن نفسها إذا لم تجد لسانًا یعلن عنها، وأنّ الخیر كلّ الخیر أن تكشف له الآن لیخلص من محتها لا أن تدّخر له حتّى یکبر فیضاعف له عذابها، وتردّد الرجل الطیّب فلم ینته إلى عزم، ولمّا كان ينبغي أن ینتهي إلى رأي قبل إلحاق ددف بالمدرسة الحرّیّة، فقد أسرّ الرجل بذات نفسه إلى ابنه خنّی، ولكنّ الشابّ هاله الأمر وقال لأبيه بألم وحزن عمیقین:

- إنّ ددف أخونا، بل إنّ ما یربطنا به من الحبّ لأقوى من الأخوة الطبیعیّة. وما الذي یضربك يا أبتي لو أنّك تركت الأمور على ما هي عليه ولم تفاجيء الغلام العزیز بضربة الذلّ والمسکنة؟

وكان الشان الوحيد الذي یعمل له حساب في أبوّته هو المیراث، ولكنّ بشارو لم یکن له من حطام الدنيا سوى راتب كبير وقصر ضخم فلن تؤذّي أبوّته لددف

- ددف، ددف الذي كان یجبر بالأمس القریب!، ددف أضحى یجهد رأسه الصغیر في التفكير في اختیار سبیل له في الحياة ینهجه كرجل مشلول! لقد دار الزمان دورة غادرة، حتاك أيّا الزمان ببشارو أو رفقا به حتّى یكملّ بناء الهرم فإنّك لن تجد له خلفًا صالحًا. وقالت زایا تعلن رغبتها:

- لا داعي لكثرة الأسئلة، فإنّ من ینظر إلى وجه ددف الجمیل وقامته الفارعة وقوامه المعتدل لا یرتاب لحظة في أنّه یرى ضابطًا من ضبّاط العجلات الفرعونیّة.

وابتسم ددف إلى أمّه التي وافق حديثها هواه، وذكر فرقة العجلات التي رآها تشقّ طرق منف - يوم عید بتاح - في صفوف متحاذیة منتظمة لا تشدّ عنها یمنًا أو شمالًا ولا إلى الأمام ولا إلى الخلف، والفرسان على العربات منتصبون لا یميلون ولا یضطربون كأنّهم مسلّات مشیة، ترمقهم الأبصار وترنو إليهم عیون الحسان.

ولكن خنّی لم یرض عن اختیار زایا وقال بصوته الغلیظ الذي یشبه صوت أبيه:

- كلّ يا أمّه إنّ ددف كاهن بالفطرة، وطلما وضع لي استعدادة للتعلّم وميله للعلم والمعرفة، وطلما ألحت عليّ أسئلته الكثيرة الدالّة على الفطنة والذكاء، فمكانه المختار جامعة بتاح لا المدرسة الحرّیّة. ما رأيك یاددف؟

وكان ددف شجاعًا صریحًا لا یرتدّد عن إبداء رأيه فقال:

- یوسفني أن أخیب رجاءك هذه المرّة أيّا الأخ، ولكنّ الحقّ أنّی راغب في الجندیّة.

فوجم خنّی، أمّا نافا فقد ضحك ضحكة عالیة وقال لددف:

- أحسنت الاختیار یاددف. فما صورتك إلّا صورة جندیّ، هكذا أقنعتني خیالي.. ولو أنّك اخترت في الحياة فنّا آخر لذقت مرّ الخیة وتزعزعت ثقتي بنفسي.

إليها مهللاً وجرى نحوها كطائر يستقبل نور الصباح وتعلقت بعنقها ورفع إليها فمه، فقبلته بحنان، وقبلت خديه ورفعته بين ذراعيها فقبلت ساقيه، ثم حملته إلى الخارج وهي تقول:

- تعال ودّع أباك.

ووجد بشارو ما يزال يغط في نومه ويصعد أنفاساً ناشزة من شخيرته ونخيره، فهزته بيدها فانتفض مرتعياً وصاح: من؟ .. من؟ .. زايا!

فضحكت وصاحت به:

- ألا تريد أن تودّع دد؟

فجلس في فراشه وفرك عينيه ثم نظر إلى الغلام على ضوء المصباح الخافت، وقال:

- دد.. أذهب أنت؟ تعال أقبلك.. والآن اذهب محوفاً برعاية بتاح!

وقبله بشفتيه الغليظتين مرة أخرى واستطرد:

- أنت الآن طفل يادد ولكنك ستغدو جندياً ماهراً.. إني أتنبأ بهذا، ونبوءة بشارو خادم فرعون لا تخيب.. اذهب يا بنيّ آمناً وسأصلي من أجلك في المحراب..

وقبل دد يدي والده وخرج مع والدته، وفي الردة الخارجة لقا خنّ ونافا متأهين، وضحك نافا وقال:

- هيا أيها الجنديّ الباسل، إنّ العربية في الانتظار. وحنّت عليه زايا بوجه غيّر التائر، فرفع إليها وجهها يطفح بالفرح والحب.

وأما.. لقد مرّت الشهور سراعاً وحثت ساعة السوداع، فلا الحصن يشفي ولا القبلّة تعزّي ولا الدموع تخفّف البلوى. لقد هبط دد في السلم بين أخويه واطمأنّ إلى مكانه من العربية جانبها، وابتعدت العربية بالحمل العزيز وهي ترنو إليها من خلل دموعها، حتّى بلغت زرقه الفجر.

- ١٢ -

وبلغت العربية «مرعى أبس» أجمل ضواحي منف حيث تقع المدرسة الحربية ولما تشرق الشمس، ولكنهم

أحدًا، ولذلك أشفق الرجل من لهجة خنّ الغاضبة وقال يدفع عن نفسه:

- كلّاً يا بنيّ لن تقع ضربة الذلّ أبداً، لقد دعوته يا بنيّ وسأطلّ أدعوه بها، وسوف يكتب اسمه بين طلبة المدرسة الحربية: دد بن بشارو.

ثم ضحك الرجل كعادته وقال وهو يفرك يديه:

- ربحت ابناً جندياً.

فقال خنّ وهو يمسح دموعه سألت على خنّه:

- بل ربحت رضا الربّ وغفرانه.

- ١١ -

أوشك شهر توت على الفوات، ولم يبق منه إلّا عدة أيام هي كلّ ما تبقى لدد من الزمان في بيت بشارو ثم يغادره بعدها إلى المدرسة الحربية. وكانت تلك الأيام أشدّ أيام زايا العصبية، غلب عليها فيها الشرود والذهول والتفكير بمرارة في الشهرين الطويلين اللذين سيحتجبهما دد داخل المدرسة.. والأعوام الطويلة التي لن تتاح لها رؤيته فيها سوى مرة كلّ شهر، فتحرم من رؤية وجهه الجميل وسماع صوته الحبيب، ويغيب عن قلبها الاطمئنان الذي يقرّ فيه لقربه والهناء الذي يشملها لوجوده.. فما أقسى الحياة! وقد غشّى الحزن قلبها قبل حدوث أسبابه، وظلّلت حياتها غشاوات من الألم مثل هاتيك السحاب المتثرة ساقتها الرياح بين يدي غيم هاتور وكبهك الداكن المكفهر.

وحين صاحت الديكة عند الفجر معلنة قدوم اليوم الأوّل من بابه، استيقظت زايا على صياحها وقعدت في سريرها مضطربة حزينة، وتنهّدت تنهدة حارة كانت أوّل ما استقبل اليوم من عالم الأحزان، ثم تركت فراشها وسارت في خفة إلى مخدع دد لتوقظه وتودّعه. ودخلت الحجرة على أطراف أصابعها كيلا تزعجه فاستقبلها جاموركا وهو يتمطى، وخاب ظنّها لأنّها وجدت الغلام قد استيقظ دون مساعدة، وكان يغني بصوت خافت نشيد «نحن أبناء مصر انحدرونا من سلالة الآلهة». استيقظ الغلام وحده يلقي أوّل نداء للجنديّة، وقد نادته من قلبها «دد». فانتبه

لواحد عليهم بها غير متعصب لإحداها.. وهيئات أن يوجد هذا القاضي.

ولم يطل الانتظار بددف فسمع المنادي يصيح: «ددف ابن بشاروه فحقق قلبه، وسمع نافا يقول له: - ودعنا ياددف فلا احتال لعودتك معنا اليوم.

فعانق الغلام أخويه وسار إلى الباب الرهيب، ثم أدخل إلى حجرة على عيمن الداخل حيث تلقاه جندي فأمره بأن يخلع ملابسه، فخلع الغلام ثيابه وتقدم إلى طبيب مسنّ ذي لحية بيضاء فحصره عضواً عضواً وألقى على هيئته نظرة عاتمة، ثم قال للجندي «مقبول»، فارتدى الغلام ثيابه فرحاً مسروراً، وقاده الجندي إلى فناء المدرسة وتركه يلحق بمن سبقه من المقبولين.

وكان الفناء عظيم الاتساع تربو مساحته على قرية كبيرة، ومحوط من ثلاث جهات بسور ضخّم مزخرف بالنقوش الحربية ومحلّ بصور الجنود والمواقع والأسرى، وفي الجهة الرابعة تقام الثكنات ومخازن الذخيرة والأسلحة ومكاتب القوّاد والضباط وإصطبلات الخيل وحظائر العربات، فهو أشبه بحصن منيع.

وقد ألقى الغلام على المكان نظرة دهشة، وسار إلى حيث لحق بزملاته المتجمّعين، ووجدهم يتفاحرون بالأنساب ويتنافرون بالآباء والأجداد، وقد سأل أحدهم ددف قائلاً:

- هل أبوك من رجال الحرب؟

فتضايق الغلام وهزّ رأسه سلّياً، ولكنّه قال بلهجة ملئت كبرياء:

- أبي بشارو مفتش هرم الملك.

ولكنّه لم يبد على وجهه محدث أنّه اقتنع بعظمة المفتش وقال:

- أبي ساكا قائد فرقة الصقر من حامي الرماح.

فامتعضت نفس ددف ولم يشترك في أحاديثهم، وتوغّدتهم نفسه الفتية بالظفر والتفوق، واستمرت عملية الكشف والاختبار ثلاث ساعات متوالية، وظلّ الناجحون ينتظرون حتّى أتاهم ضابط من ناحية الثكنات ألقى عليهم نظرة صارمة وصاح بهم:

وجدوا الميدان الممتد أمام المدرسة مزدحماً بالراغبين في الالتحاق بها وفي صحبة كلّ منهم واحد أو أكثر من أقربائه، وكان كلّ منهم ينتظر دوره في النداء عليه والذهاب للكشف، وبعدها إمّا يبقى داخل المدرسة أو يعود من حيث أتى.

وكأنّ الميدان - ذلك الصباح - كان مفرّضاً للجياد المطهّمة والعربات الفخمة، لأنّه لم يكن يتقدّم إلى المدرسة الحربية إلّا أبناء الطبقة الحربية والصفوة من أبناء الأثرياء، وتلقّت ددف بمنّة ويسرة فرأى وجوهاً ليست غريبة عليه لأنّه زاملها أعواماً في المدرسة الأولى، فانتعشت نفسه وملئت مسرّة وشجاعة.

وكان صوت المنادي لا ينقطع عن النداء وسيل التلاميذ لا يتوقّف عن الدخول من باب المدرسة الكبير، منهم من يبقى في الداخل ومنهم من يخرج مرّة أخرى بوجه كاسف ونفس أسيفة.

وكان خنّي ينظر إلى هاتيك الجموع بوجه جامد، فلم يرتج ددف إلى مظهره وسأله بقلق:

- أواجد عليّ يا أخي؟

فربت الشاب على منكبيه وقال:

- معاذ الربّ ياعزيزي ددف، إنّ الجنديّة حياة سامية على شرط أن تكون واجباً عامّاً يؤدّي كلّ قسطه منه إلى حين، ثمّ يعود بعده إلى حياته الإنسانية، فلا يهمل موهبة من مواهبه السامية ويصون روحه عن التلف، وإني مطمئنّ ياددف إلى أنّك لن تطمس التشوّف الذي أنار روحك في حجرتي. أمّا الانغمار في الجنديّة والتفرّغ لها فمعناه النزول عن الإنسانية وتدمير الحياة العقلية والرجوع القهقري إلى مراتب الحيوان. فضحك نافا كعادته وقال:

- الحقّ أنّك يا أخي تشدّد الحياة الطاهرة الحكيمة حياة الكهنوت، أمّا أمثالي فينشدون الجمال والمتعة، ويوجد غيرنا آخرون - هم هؤلاء الجنود - يمتعضون من التأمل ويعبدون القوّة. وحدّاً للأّم إيزيس فلنأبها وهبتني عقلاً يستطيع أن يرى جمالاً لكلّ لون من ألوان هاته الحيوات، ولكنّي لا أملك إلّا أن أوثر في النهاية حياتي. والحقّ أنّ الفصل بين هذه الحيوات لا يتأتّى إلّا

آلهة احفظي ابنك المعبود، وملكه السعيد، من منبع النيل إلى مصبه». وامتلأ جوّ الفناء الواسع بأصوات العصفير، تغني في حماس دافق وجمال رائع، وتجمع بين الأرياب وفرعون ومصر في نغمة واحدة.

وفي ذلك المساء حين رقد ددف لأول مرة على فراش غريب في جوّ جديد، منه السهاد وجثمت على قلبه الوحشة، فتنهد من أعماق نفسه، ونادت مخيلته إلى ظلمة العنبر أطباقاً سعيدة من بيت بشارو، فكأنه رأى زايا وهي تمنحو عليه ونافا وهو يضحك ضحكته المرحمة وخني وهو يتحدث حديثه المنطقي المتدفق... وخال جاموركا العزيز يلعق خذّه ويحييه بذنبه، ولما ارتوت نفسه من الأحلام زنت النوم بجفنيه فنام نوماً عميقاً لم يستيقظ منه إلا على النفير عند مطلع الفجر، فقعد في سريره دون تريت، ونظر فيما حوله دهشاً، فرأى أقرانه يستيقظون ويغالون سلطان النوم بصعوبة، وعلت في المكان أصوات التناوب والتذمر واختلط بها الضحك أيضاً..

لا راحة بعد اليوم، فقد بدأت حياة النشاط والجلاد.

### - ١٣ -

وفي ذلك الوقت طلب المعمار ميرابو الخطوة بالمثلون بين يدي فرعون، واستقبله الملك في بهو الاستقبال الرسمي. وقد جلس جلالته على عرش مصر الذي ترتع عليه خمسة وعشرين عامّاً حافلة بجلال الأعمال، وكان مهيباً قوياً صارماً يرتدّ البصر عن جلاله وهو كليل، كما ارتدتّ خمسون عامّاً تنفّس فيها الحياة، عن أن تؤثر في صلابة بنيانه أو تدفق حيويته، فأبقت على حدة بصره وسواد شعره وحكمة عقله.

وقد سجد ميرابو بين يديه وقبل حاشية ثوبه الملكي، فقال الملك بعطف:  
- السلام عليك يا ميرابو، قم وتكلّم فيما جئت من أجله.

فوقف المعمار أمام ربّ العرش وكان وجهه يتلألا بأنوار الفرح، ثم قال:

- منذ هذه الساعة ينبغي لكلّ منكم أن يؤدّع الفوضى وداعاً أبدياً ويروض نفسه على النظام والطاعة، كلّ شيء من الآن فصاعداً يخضع للنظام الصارم ولا أستثني الأكل والشرب والنوم.

ورتبهم الضابط صفّاً واحداً وسار بهم صوب الثكنات، وأمروا بالدخول واحداً فواحداً، وكان كلّ منهم يمرّ على كوة مخزن كبير فيعطى صندلاً ووزرة وحلّة يضاوين ثم يتفرّقون إلى عنابر كلّ عنبر يحوي عشرين سريراً في صفّين متقابلين، وخلف كلّ سرير صوان متوسط الحجم على سقفه لوح من الورق في إطار خشبيّ، طلب إلى كلّ منهم أن يكتب اسمه عليه بالخطّ المقدّس.

وأحسوا جميعاً بجوّ غريب يخضع للنظام الصارم وتبت فيه روح الصرامة والخشونة، فقد لحق بهم الضابط وأمرهم بأن يخلعوا ملابسهم المعتادة ويرتدوا الملابس الحربيّة، ونبه عليهم بأن يخرجوا إلى الفناء إذا سمعوا صوت النفير.. فصدعوا جميعاً بالأمر، ودبت في العنابر حركة سريعة كانت أوّل ما أبدى أولئك الصغار من النشاط العسكري.. وقد فرحوا باللباس الحربيّ الأبيض وهلّلوا له، وحين نفخ في النفير هرعوا خفاً إلى الفناء حيث رتب الضباط جمعهم في صفّين مستقيمين.

وحضر على الأثر مدير المدرسة، وهو ضابط كبير برتبة قائد، في لباسه الرسميّ المحلّ بالنياشين والأوسمة، يحيط به كبار ضباط المدرسة، واستعرضهم بعناية ثم وقف أمامهم وخطب فيهم قائلاً:

- كتتم إلى أمس أطفالاً أحراراً، وأنتم اليوم تبدءون حياة الرجولة الحقّة الممثّلة في الجهاد العسكري، وكانت أنفسكم ملجأ لكم ولآبائكم وأمهاتكم، أمّا اليوم فهي ملك الوطن وفرعون. واعلموا أنّ حياة الجنديّة هي القوّة والتضحية، فعليكم بالنظام والطاعة لتقوموا بواجبكم المقدّس نحو مصر وفرعون.

ثم هتف المدير باسم خوفو فرعون مصر وردّد الجنود الصغار هتافه، ثم أمرهم أن ينشدوا نشيد: «يا

وكان المعيار يحني الرأس وينصت إلى ثناء فرعون  
كأنما ينصت إلى لحن ألهي.

واحتفل فرعون بالهرم احتفالاً رسمياً شعبياً مهيباً،  
شهدت فيه الهضبة المقدسة من الخلق أضعاف ما  
شهدت من جميع العمال الأشداء، ولكثهم لم يحملوا  
إليها هذه المرة الفئوس والمُدد، ولكن حملوا الأعلام  
وأغصان الزيتون وسعف النخل والرياحين، وتغنوا  
بالأنشيد المقدسة الطاهرة. وصنع الجند بين تلك  
الجموع طريقاً عظيماً يمتد من وادي الأبدية، ويميل  
شرقاً ثم يدور حول الهرم، ويعرج غرباً حتى يصب في  
وادي الأبدية مرة أخرى. وفي ذلك الطريق سارت  
الهيئات الرسمية للطواف بالبناء الكبير، تتقدمها جموع  
الكهنة بطبقاتهم المختلفة والنبل والسراة، ثم اخترقت  
الطريق فرق الجيش المُعسكر في مف من ركبان  
ومشاة، ثم بدا للعيان موكب فرعون والأمراء، فولى  
العباد وجوههم شطره، وهتفوا له من أعماق القلوب.  
وانحنوا انحناء واحدة كأنهم في صلاة هو قبلتها.

وحياً فرعون الهرم بكلمة موجزة، وباركه الرئيس  
خوميني. ثم عاد الركب الفرعوني وانفضت الهيئات  
الرسمية، أما جموع الشعب فجعلت تطوف بالبناء  
الكبير مهللة مكبرة هاتفة منشدة، ولم تفرق جموعها إلا  
حين سكب الفجر بهاءه وبث روحه الهادئ السحري  
في أرض الوادي الزبرجدية.

وفي ذلك المساء دعا فرعون الأمراء والصحابة  
المقربين إلى جناحه الخاص، وكان الجوّ ميلاً إلى  
البرودة فاستقبلهم في بهو استقباله العظيم، حيث  
جلسوا على مقاعد من الذهب الخالص.

وكان فرعون على صلابته ومثانة بنيانه يبدو على  
نظرة عينية شعوره بالتبعات العظيمة الملقاة على عاتقه.  
وكان ظاهر الملك لم يتغير حقاً، أما باطنه فقد طرأ عليه  
من طوارئ الزمان ما لم يخف عن أعين المقربين أمثال  
رعخوف وخوميني وميرابو وأربو، فلاحظوا مثلاً أن  
الملك يزهد قليلاً قليلاً في الرياضة غير مستثنٍ ما كان  
منها أحبها إلى قلبه كالصيد والطرْد، وأنه يميل إلى  
التشاؤم والتفكير والقراءة، فكان ربّما طلع عليه الفجر

- مولاي واهب الحياة ومنع النور؟ اليوم أشبع  
إخلاصي لذاتكم العليا بالعمل المجيد، وأتوج حياتي  
في خدمتكم بالأثر الخالد، فأنال في ساعة سعيدة  
واحدة ما يتمناه المخلص من إخلاصه والفنان من فنه.  
فلقد شاءت الآلهة التي يتعلّق كلّ خلق بمشيئتها أن  
أزف اليوم إلى ذاتكم المعبودة بشرى الانتهاء من أعظم  
أثر أقيم على أرض النيل منذ عصر الآلهة، وأكبر بناء  
أشرق عليه شمس مصر منذ أشرقت على الوادي.  
ويقيني يا مولاي أنه سيظلّ باقياً على الأجيال مقروناً  
باسمكم المقدس، منسوباً لعهدكم المجيد، حافظاً  
لروحكم الإلهية، معلناً عن جهاد الملايين من أيدي  
مصر العاملة وعبقريّة العشرات من رعوها النابهة،  
إنه اليوم لأعمل مجيد لا نظير له، وغداً هو المثوى لأجل  
روح حكمت أرض مصر، وبعد غد وإلى أبد الأبد  
هو المعبد الذي تأتلف في ساحته قلوب الملايين من  
عبادك، يسعون إليه من الجنوب ومن الشمال.

وسكت الفنان الخالد لحظة ريثما شجّعته ابتسامة  
الملك، ثم استطرد:

- لقد شيد اليوم يا مولاي شعار مصر الخالد  
وعنوانها الصادق، فهو ابن القوّة التي تربط شياها  
بجنوبها، وهو وليد الصبر الذي يغمر صدور بنيها  
جميعاً من الضارب الأرض بفأسه إلى الكاتب على  
الطرس بقلمه، وهو وحي الدين الذي تحفّق به قلوب  
أهلها، وهو مثال العبقرية التي جعلت من وطننا سيّداً  
على الأرض التي تسبح الشمس حولها في السفينة  
المقدسة، وسيظلّ أبداً الوحي الخالد الذي يهبط على  
قلوب المصريين فيؤيدها بالقوّة، ويلهمها الصبر،  
ويجئها على الدين ويدفعها إلى الإبداع.

وكان الملك يصغي إلى الفنان وعلى فمه ابتسامة  
رضى، ويرنو بعينه النافذتين إلى وجهه المكتسي ببهاء  
الحماس والفرح. فلما انتهى قال له:

- إنّي أهنئك أيّها المعمار على نبوغك المنعدم النظير،  
وأشكرك على العمل المجيد الذي شيدت للكل  
وطنك ممّا يوجب لك التقدير والحمد، ولسوف أحتفل  
بآياتك الكبرى احتفالاً مهيباً يليق بعظمتها وخلودها.

عملك المجيد من معاني الخلد، ولكنّ الخلد موت  
لحياتنا القانية العزيزة.

فقال خوميني برزانة وتأمّل وإيمان:

- مولاي، إنّ اللحد عتبة الحياة الأبدية..

فقال الملك:

- صدقت يا خوميني، ولكنّ المقلب على سفّر كثير  
التدبّر، وهذا أخرى بمن يولي وجهه تلك الرحلة  
الأبدية. وإياك أن تظنّ أنّ فرعون خائف أو آسف..  
كلّا.. كلّا.. كلّاً، إنّّي أتعجّب فقط لتلك الرحي  
التي تدور وتدور وتطحن كلّ يوم ملوكاً وسُوقاً..

وتضايق الأمير رعخعوف من تفلسف الملك وقال:

- إنّ مولاي الملك يكثر من التأمل.

وكان فرعون يفهم ذات ابنه فقال:

- لعلّ هذا لا يرضيك أيّها الأمير.

فقال الأمير:

- العفو يا مولاي، ولكنّ الحق أنّ التأمل وظيفة  
الحكماء، أمّا الذين عهدت الآلهة إليهم بتبعات  
الحكم، فما أخرى أن يتفرّغوا لشئونهم الصعاب.

فسأله فرعون بسخرية:

- أفترى أيّها الأمير أنّي أتردّي في هاوية العجز؟

فارتاع الأصدقاء، وكان الأمير أعظمهم ارتياحاً  
فقال:

- معاذ الربّ يا أبي!

فقال الملك ساخراً، ولكنّ بلهجة قويّة:

- لا تقلق يا رعخعوف، واعلم أنّ أباك لن يزال  
قابضاً على السلطان بيد من حديد.

فقال الأمير:

- يحقّ لي يا مولاي أن أهتق نفسي ولو أنّي لم أسمع  
جديداً.

- أم أنّك ترى أنّ الملك لا يكون ملكاً إلا إذا  
أعلن حرباً؟

وكان الأمير رعخعوف يشير على أبيه دائماً بأن يجرّد  
جيشاً لتأديب قبائل سيناء، ففطن إلى تلمييح الملك  
فصمت وهلة يفكر، وفي أثناء ذلك قال خوميني:

وهو جالس في مخدعه يقرأ كتب اللاهوت وفلسفة  
قائمتنا، وتطوّرت فكاهته الأولى إلى سخرية لا تخلو من  
سوء الظنّ والريبة.

كان أعجب ما في ذلك المساء - وهو ما أعجز  
الحسبان - أن يبدو على الملك أي من الهمّ والقلق،  
ذاك المساء الذي احتفل فيه بأعظم عمل في التاريخ.  
وكان أشدّ الناس قلقاً لذلك المعمار ميرابو، ولم يتمالك  
أن سأل مولاه:

- ما بال مولاي بادي الانتشغال؟

فنظر إليه الملك بشيء من السخرية وقال له  
متسائلاً:

- وهل عرف التاريخ ملكاً خالي البال؟

ولم يتعرّز الفتان بجواب الملك فقال:

- ولكن ينبغي لمولاي أن يفرح هذا المساء فرحاً  
خالصاً.

- ولماذا ينبغي لمولاي أن يفرح؟

فوجم الفتان، وكاد ينسبه تساؤل الملك الساخر  
جميل ثنائه وعظيم احتضاله، ولكنّ الأمير رعخعوف  
الذي لم يرض عن تطوّر الملك النفسي قال:

- لأنّ مولانا احتفل اليوم بتبريك أعظم آية فنيّة في  
تاريخ مصر الطويل.

فضحك الملك وقال:

- أتعني قبري أيّها الأمير؟ وهل ينبغي للإنسان أن  
يفرح لبناء قبره؟

فقال الأمير:

- أطال الربّ بقاء الملك، إنّ العمل المجيد حقيق  
بالفرح والتكريم.

- نعم. نعم. ولكن إذا ذكر بالموت ألا يوجب  
شيئاً من التأني؟

فقال ميرابو بحماس:

- إنه يذكر بالخلود يا مولاي.

فابتسم فرعون وقال:

- لا تنسى أنّي معجب بفنك يا ميرابو، ولكنّ نذير  
الموت يملأ النفس شجناً، نعم لا أذكر ما يوحي به

والإنصاف، وإتّهم ليؤذون كثيرين وإن حرصوا على النفع والخير، وما من عمل سوى عمل الخير الخالد يكفّر عن السيئات ويمحو المفوات؛ وقد هداني الألم إلى عمل نافع عظيم.

ونظر إليه الملاً متسائلين، فقال:

- إني أفكر أيّها السادة في تأليف كتاب عظيم أضمنه تجارب الحكمة وأسرار الطبّ الذي ولعت به منذ صباي، فأتارك من بعدي إرثاً عظيماً لشعب مصر يهدي أرواحهم ويصون أجسامهم.

فصاح ميرابو بفرح عظيم:

- يا له من عمل مجيد يا مولاي مستحکم به شعب مصر إلى الأبد.

فابتسم فرعون إلى المعيار، وقال هذا مرّة أخرى:

- ستزيد كتبنا المقدّسة كتاباً جديداً.

وكان الأمير رعخعوف يزن ما ينوي الملك صنعه في عقله فقال:

- ولكنّه يا مولاي عمل يقتضي أعواماً طويلة.

وقال القائد أربو:

- لقد كتب قاقمنا كتابه في عشرين عاماً!

ولكنّ الملك هزّ منكبيه العريضين وقال:

- سأهبه ما تبقى من حياتي.

صمت الملك لحظة ثم قال:

- أتعلّمون أيّها السادة أين هو المكان الذي اخترته

لأنشي فيه كتابي ليلة بعد ليلة؟

ونظر فرعون إلى الوجوه المتسائلة وقال:

- حجرة التابوت بالهرم الذي احتفلنا به اليوم.

وبدت على الوجوه الدهشة والإنكار، فقال

فرعون:

- إنّ قصور الدنيا تغلب عليها جلبة الحياة الفانية،

فلا تصلح لإنتاج عمل خالد!

وانتهى الاجتماع عند ذلك، لأنّ الملك لم يكن يحبّ

المناقشة فيما بتّ فيه برأي نهائي، فانصرف الأصدقاء،

وحين ركب وليّ العهد عربته مال على رئيس حجابيه

وقال بامتعاض شديد:

- إنّ فرعون يؤثر الشّعْر على الحُكْم!

- إنّ السّلم أشدّ حاجة من الحرب إلى الملك القويّ الصالح.

فقال الأمير بلهجة قويّة حاكت ما ارتسم على وجهه من الصلابة والقسوة:

- ولكن ينبغي ألاّ تعوق سياسة السلم الملك عن خوض غمار الحرب إذا جدّ الجدّ!

فقال الملك:

- أراك تحوم حول موضوع قديم.

- نعم يا مولاي، ولن أكفّ عنه حتّى تذهب بواعثه، فإنّ قبائل سينا تفسد في الأرض وتهذّ هبة الحكومة.

- قبائل سينا!.. قبائل سينا!.. إنّ قوّات الشرطة تكفي الآن لتأديب شرّادهم، أمّا تجريد جيش لغزو حصونهم فنيّة في صدري لم تهيأ الظروف بعد لتحقيقها، نظراً لأنّ الوطن ينوء بالجهد الجهد الذي بذله عن طيب خاطر من أجل تشييد هرم ميرابو الخالد.. وسيأتي يوم قريب أقضي فيه على شرّهم وأكفي الوطن عدوانهم.

وساد صمت مقدار دقائق، ثمّ ردّد الملك بصره الحادّ بين الحاضرين وقال:

- أيّها السادة إني دعوتكم هذه الليلة لأكشفكم برغبة عظيمة تخفق في صدري.

فنظر إليه الملاً باهتمام، فقال:

- ساءلت نفسي صباح اليوم: ماذا صنعت من أجل مصر، وماذا صنعت مصر من أجلي؟ ولا أكتمكم الحقّ أيّها الأصدقاء، فقد وجدت أنّ ما صنعه الشعب لي أضعاف ما صنّعه له، فأحسست بشيء من الألم - وكثيراً ما أتألم هذه الأيام - وذكرت المولى المعبود مينا الذي وهب الوطن وحدته المقدّسة فلم يعبه الوطن بعض ما وهبني، فاستصغرت نفسي وأقسمت لأجزين شعبي إحساناً بإحسان وجميلاً بجميل.

فقال القائد أربو بحماس:

- لقد قسا جلالة الملك على نفسه في الحساب.

فقال خوفو دون أن يعبر حديث قائده اهتماماً:

- إنّ الملوك ليظلمون كثيرين وإن توخّوا العدل

جانب، واستقبله المفتش استقبالا عاطفيا وقبل خده، ونظر إليه مليا بعينه البارزتين اللتين تدعيان الفراسة وقال:

- تغيرت يابني في هذين الشهرين وبدت عليك الرحولة حقًا. وقد فاتك الاحتفال بالهرم العظيم، ولكن لا تأسف على هذا فساخذك لمشاهدته بنفسي. فإني ما زلت ولن أزال مفتشًا على منطقته حتى أحال على المعاش. ولكن لماذا أنت متعب يابني؟

فضحك ددف وقال ويده تعبت برأس جاموركا:  
- الحياة العسكرية شديدة قاسية.. وسحابة النهار في المدرسة غمضي عادة بين الجري والسباحة وركوب الخيل.. وإني الآن فارس ماهر!

فقال الأم:

- فلتحفظك الآلهة يابني.

وسأله نافا:

- وهل ترمي الرمح وتطلق السهام؟

فقال ددف يشرح لأخيه نظام المدرسة بإسهاب التلميذ المفتون:

- كلاً.. إننا نتدرب في السنة الأولى على الألعاب وركوب الخيل والسباحة، وفي السنة الثانية نتعلم المبارزة بالسيف والخنجر والمزاريق، وفي السنة الثالثة نتمرّن بالرمح وتلقى علينا دروس نظرية، والسنة الرابعة للمضي والعلوم التاريخية، والسنة الخامسة للتدريب على العجلات الحربية، أما العام السادس فللعلوم الحربية وزيارة القلاع والحصون.

فقال نافا:

- إن قلبي يحدّثني بأنّي سأراك قائداً كبيراً ياددف..  
إنّ وجهك يثير في النفس الحماس، لا ريب في هذا فإنّ صناعتي استيحاء السجاي من ملامح الوجه..  
وكأنّ ددف تذكّر أمراً هاماً فتساءل باهتمام:

- أين خفي؟

فقال بشارو:

- ألا تعلم أنّه انخرط في سلك الكهنوت؟ وأنّهم يحتفظون به الآن خلف جدران معبد بتاح، ويلقّنونه العلوم الدينية ويفقّهونه في الأخلاق والفلسفة في عزلة

أما الملك فقد ذهب إلى قصر الملكة ميرتيتفس، ووجدها في غدعها مع الأميرة الصغيرة مري سي عنخ، شقيقة رعخوف التي لم تتجاوز العاشرة، وقد جرت الأميرة إليه كالجمامة، والفرح يلمع في عينيها السوداوين الجميلتين..

مري سي عنخ ذات الوجه البدريّ واللون الحمريّ والعينين اللتين تشفيان بصفتيهما من السقام. ولم يتمالك فرعون من أن يتسم إستماعة الحبّ، ويزيح عن صدره الهموم والأحزان، ويتلقاها بذراعيين مفتوحتين.

#### - ١٤ -

هبت نسمة من الفرح على قصر بشارو ذلك اليوم، تبدّت آثارها في وجه زايا الضاحك ونافا والمفتش نفسه، وكانّ جاموركا قد استبشّر خيراً وأحسّ إحساساً باطمناً بأنّه ينبغي له أن يفرح، فتمطى ونبج وعدا في ممزات الحديقة كالسهم الطائش..

وكانوا جميعاً ينتظرون، فسمعوا جلية في الحديقة وعلا صوت خادم يقول بفرح: «سيدي الصغير»، فهبت زايا واقفة وجرت نحو السلم وهبطت الأدراج لا تلوي على شيء، وفي نهاية الردهة رأت ددف، في بذلته البيضاء وقلنسوته الفرعونية، بهياً كشعاع الشمس: ففتحت ذراعها، إلّا أنّ جاموركا كان أسرع إليه منها، فهجم على سيده بعنف واحتضنه بيديه وعلا نباحه يشكو إليه ما لقي من عذاب الشوق وآلام الحنين، فأزاحت الكلب جانباً وضمت الابن العزيز إلى قلبها وأشبعته لثماً وتقبيلاً وهي تقول له:

- ردّت الروح إليّ يابني.. كم أوحشتني عيناك وكم هزّني الشوق إلى اجتلاء وجهك الجميل.. عزيزي، أنت أنحف كثيراً ممّا كنت وقد لفحت الشمس وجهك، وأنت متعب ياددف!

وأق نافا مع جلبته وضحكه، وقال يحمّي أخاه:

- أهلاً بالضابط العظيم.

فابتسم ددف وسار بين أمّه وأخيه، وجاموركا يرقص أمامه طرباً ويقطع عليه الطريق من كلّ



والجمود، ولعلّه لم يحسّ بوحشة لغياب خفي لما عرف به من الرزاة والجفاء، ولكنّه أنكر على نفسه خاؤها وقال: إنّ ددف ما يزال حديث عهد بالحياة العسكرية. وإنّه لذلك لن يتمّ له هضمها في وقت قصير، فلن تزال بنفسه جفوة منها والم حتّى يالفها ويتطّيع بطباعها، حينذاك تنجاب عن قلبه الوحشة وترتدّ إليه طبيعة المرح والسرور. وظنّ أنّه لو صحبه إلى معرض فنّه، قريباً استطاع أن يعيد إليه انشراحه، فقال له:

- أيّها الضابط، ما رأيك في زيارة معرض صوري؟  
ولكنّ زايا قالت بغيظ:

- لا تفتأ تحاول سلبه منّي! كلّاً ياسيدي لن يبرح اليوم البيت.

فتتدّ نافا وسكت، وخطرت له فكرة، فاحضر لوحة وقلماً وقال لأخيه:

- سأرسم صورتك في هذا الرداء الأبيض الجميل، وسأحتفظ بالصورة ذكرى جميلة تنظر إليها بعيني الخنان والشوق حين تزيّن منكيبك بوشاح القيادة!

وباشر عمله بهمة ونشاط. وقضت الأسرة يوماً سعيداً في سمر وأحاديث.

وكانت أمثال تلك الزيارة تقع كلّ شهر مرّة وتغوت كلمح البصر، وقد انجابت وساوس نافا، وفارق الجفاء ددف ورجع سريعاً إلى طبيعته المرحّة الجسور، استعاد جسمه القوّة والقوّة وسار قدماً في طريق النمو والقوّة والجمال..

وكان الصيف - حين تغلق المدرسة أبوابها - أسعد أيام زايا وجاموركا، وكانت تعاود البيت فيه جلبة الحياة ومرح النشاط اللذان سكنا به منذ تفرّق شمل الأخوة كلّ إلى حال سبيله، وكانت الأسرة كثيراً ما ترحل إلى الريف أو شمال الدلتا للصيد والقنص، فكانوا يشغلون قاربهم ويمخرون به عباب البحيرات التي تظللها نباتات البردي وأشجار اللوتس، ويقف بشارو بين ابنيّه نافا وددف وكلّ ممسك بعضا الصيد المعقوفة، حتّى إذا حلّقت بطّة لا تدري بما يجتبه لها

بعيدة عن جلبة الدنيا وضوضائها. إنّه ليتدرب على حياة هي أقرب الحيوانات شبهاً بحياة الجنديّة، فهو يغتسل في النهار مرّتين وفي الليل مرّتين، ويخلق شعر رأسه ويدنه، ويلبس الصوف ويصرف عن أكل السمك ولحم الخنزير والبصل والثوم.. إنّه يابنيّ يجوز أشدّ الامتحانات قسوة ويُلَقِّن أسرار العلم المحرّمة على غيره من البشر، فلنُدّع له جميعاً أن تُثبّت الآلهة قدمه لتخلق منه خادماً مخلصاً لها ولعبادها المؤمنين.

فقالوا جميعاً في نفس واحد:

- آمين!

وسأل ددف:

- ومتى يسعدني الحظّ برويته؟

فقال نافا بلهجة أسيفة:

- لن تراه قبل أربع سنوات وهي سنوّ التجربة العظيمة.

فاكفهر وجه ددف حزناً وشوقاً إلى معلّمه الأوّل، أمّا زايا فسألته:

- وكيف نراك بعد ذلك؟

- في أوّل كلّ شهر.

فقطبت جبينها ولكنّ نافا ضحك وقال:

- لا تستحقّي الحزن يا أمّاه.. ولننظر كيف نقضي

يومنا هذا.. ما رأيكم في نزهة نيليّة؟

فصاحت زايا منكراً:

- في كيهك؟!

فقال نافا ساخراً:

- وهل يهاب الجنديّ قساوة الأنواء؟

فقالت زايا بحدّة:

- ولكنّي لا أقدر على جوّ كيهك ولا على مفارقة

ددف دقيقة واحدة هذا اليوم. فلنبق جميعاً في البيت..

وإني مذنّرة له حديثاً طويلاً لا قبّل لي بحفظه في صداري بعد الآن.

ولاحظوا جميعاً أنّ ددف فتر مرحه ونذر حديثه وغشيت حالة جديدة من الرزاة والجمود، وقد نظر إليه نافا قللاً بطرف خفيّ وساءل نفسه: ترى هل يتشبّه ددف بطبيعته الجديدة أبداً؟ إنّه ينفر من الرزاة

بشارو في طريقها المقدر: الأب إلى الشيخوخة، والأم إلى الكهولة، وخنى إلى التفقه في الدين، ونافا إلى إتقان فنّه الجميل.

وأوسع ددف خطاه نحو التفوق والنبوغ وإتقان الفنون الحربيّة، فاكسب شهرة في المدرسة الحربيّة لم يفز بها تلميذ من قبل.

### - ١٥ -

سار ددف في شارع سنفرو الذي لا ينقطع تيار المارين به يلفت الأنظار ببذله الحربيّة البيضاء وجسمه الفارع وجماله الجاهر. حتّى انتهى به المسير إلى مدخل بيت «نافا بن بشارو» - إجازة معهد خوفو للرسم والتصوير - وقرأ اللافتة باهتمام كأنّها يراها للمرّة الأولى وقد ارتسمت على فمه الجميل ابتسامة حلوة مشرقة، ثمّ اجتاز الباب، وفي الداخل رأى أخاه مكبّاً على عمله غير شاعر بما حوله، فصاح به ضاحكاً:

- السلام عليك أيّها المصور العظيم.

فالتفت إليه نافا بوجهه الحالم الدهش، فلما عرف القادم، قام واقفاً وأقبل عليه مرحّباً وهو يقول:

- ددف!.. يا للحظّ السعيد. كيف حالك يا رجل؟ هل زرت البيت؟

وتعانق الأخوان مليّاً، وقال ددف وهو يجلس إلى كرسيّ قدّمه إليه الفنّان:

- نعم زرتّه ثمّ أتيت إليك رأساً، فأنت تعلم أنّ بيتك هذا جتّي المختارة!

فضحك نافا بصوته العالي وطفح وجهه بالسرور، وقال:

- ما أسعدني بك يا ددف! وإن كنت أعجب كيف تهوى نفس ضابط مثلك إلى هذا الرسم الهادئ الحالم الجميل! أين هو يا ددف من ميدان القتال وقلاع بوسيروس وبرمس!

فقال ددف:

- لا تعجب يا نافا فأنا جنديّ حقّاً، ولكن حبّ إليّ الفنّ الجميل كما بثّ في خنى الحكمة والمعرفة.

القدر أحكم كلّ منهم تسليد الهدف وقذف بها بما يستطيع من القوّة والمهارة.

وكان بشارو صياداً ماهراً.. وكان صيده أضعاف صيد ابنه معاً، وكان يمدج ددف بنظرة متعالية ويقول بصوته الأجنس، ألا ترى أيّها الجنديّ كيف يُحكّم أبوك الرماية؟ لا تعجب، فقد كان والدك ضابطاً في جيش الملك سنفرو، وكانت قوّته كافية لتشتيت قبيلة من الهمج بغير قتال.

وكانت رحلات الصيد تنطوي في متعة وفرح ورياضة لا نظير لها في الأيام الأخرى، ولكن لم يهدأ بال بشارو حتّى اصطحبه معه إلى زيارة الأهرام، وكان غرضه الأوّل من الزيارة أن يطلعه على نفوذه وسلطانه ويريه استقبال الجنّد والموظفين له.

ودعاه نافا لزيارة معرضه وأطلعه على صوره ذات الألوان ورسوماته الجميلة وكان الشابّ ما يزال يعمل جاهداً بلا طائل على رجاء أن يدعى يوماً للاشتراك في عمل فنيّ له قيمته في أحد قصور الأغنياء أو الهواة أو أن يشتري أحد الزوّار بعض معروضاته.. وكان ددف يحبّ نافا، فأحبّ آثاره وأعجب خاصّة بالصورة التي رسمها له في بذله الحربيّة البيضاء. فجاءت آية على ملاحه ونظرة عينيه.

وكان نافا في ذلك الوقت يرسم صورة للمعمار الخالد ميرابو الذي صنع أكبر معجزة فنيّة في الوجود. وقد قال لددف وهو يريه الرسم التخطيطيّ للصورة:

- لم أبذل من قبل في صورة نصف ما بذلت في هذه، ذلك أنّ بطلها ينزل من نفسي منزلة الآلهة. فسأله ددف:

- هل ترسمها من الذاكرة يا أخي؟

فقال:

- نعم يا ددف، لأنّي لا أرى الفنّان الأعظم إلّا في الأعياد والحفلات الرسميّة التي يظهر فيها ركاب فرعون، ولكنّها تكفي لحفر صورته في قلبي وعقلي!

واستدار العام وذهب ددف مرّة أخرى إلى المدرسة، ودارت عجلة الزمان.. وتقدّمت حياة أسرة

التيء الذي يجعل منه ومن بقية المخلوقات وحدة ذات انسجام . .

فضحك ددف وقال :

- أتنظن أنك بتفلسفك هذا قادر على إقناعي بأنك رجل؟

فحدجه نافا بنظرة تحدّ وقال :

- أما تزال محتاجًا إلى دليل؟. إذا فاعلم أيّ سأنزّوج.

فبدت الدهشة على وجه ددف وسأله :

- أحقّ ما تقول؟

فأغرق في الضحك وقال :

- أبلغ بك إنكار الزواج عليّ؟

- كلّ يا نافا . . ولكنّي أذكر أنك أغضبت والدنا

عليك لزهك في الزواج .

فوضع نافا يده على قلبه وقد تبدّت على وجهه آيات الجذّ وقال :

- أحببت يا ددف . . أحببت بغتة!

فتجمّع وجدان ددف في انتباه واحد وسأله في لهفة :

- بغتة؟!

- نعم، كنت كالطائر الذي يملّق في السماء آمنًا وما يشعر إلّا وسهم يستقرّ في قلبه فيهوي!

- متى وأين؟

- ددف، إذا قيل حبّ فلا تسل عن الزمان والمكان!

- من هي؟

فقال بإجلال كأنه ينطق باسم إيزيس :

- ماتا ابنة كامادي بوزارة المالّة.

- وماذا أنت فاعل؟

- سأنزّوج منها.

فقال ددف بصوت الحالم :

أهكذا تتغيّر الأمور؟

- وبأسرع من هذا، سهم وأصاب، فإذا يصنع الطائر؟

حقًا إنّ الحبّ شيء عظيم، عرف ددف الفنّ والحكمة والسيف. أما الحبّ فهذا لغز جديد. وكيف

فرغ نافا حاجبيه إعجابًا وقال :

- لكأنك وليّ عهد المملكة! ألا ترى أنّهم يهينونه للعرش بتعليمه الحكمة والفنّ والحرب؟ وإنّنا لسياسة سامية جعلت من ملوك مصر آلهة، وستجعل منك قائدًا عديم النظير . .

فتصاعد الدم إلى وجه ددف وقال مبتسّمًا :

- أنت يا نافا - كأمي - لا تراني حتّى تنعتني بسجايا الخير جميعًا.

فضحك نافا ضحكًا عاليًا متواصلًا، واسترسل في الضحك حتّى أشفى على التهلكة وأثار دهشة ددف. فسأله :

- ما لك؟ ما الذي يضحكك هكذا؟

فردّ عليه الشابّ وهو ما يزال يضحك :

- إنّني أضحك يا ددف، لأنّك شبّهتني بأمك.

- وماذا يضحك في هذا؟. إنّني أعني . .

- لا تكلف نفسك مشقة الشرح أو الاعتذار فإنّي أعلم بما تعني، ولكنّ المسألة أنّ هذه هي المرّة الثالثة التي أشبّه فيها اليوم بامرأة. فقال لي والذي صباح اليوم واجدًا: «أنت كالفتاة سريع التقلّب». وقال لي الكاهن شلبا منذ ساعة، وكان يحدثني في شأن صورة له: «أنت يا سيّد نافا يتقلّب عليك الوجدان كالنساء». وها أنت ذا تقول إنّني كأملك! فهل يا ترى رجل أنا أم امرأة؟؟.

فضحك ددف بدوره وقال :

- أنت رجل يا نافا، ولكنّك رقيق النفس حسّاس الوجدان، ألا تذكر أنّ خني قال مرّة: إنّ الفنّانين جنس بين الرجال والنساء؟

فقال نافا :

- إنّ خني يعتقد أنّ الفنّ يقتضي إعاره من الأنوثة، ولكنّي أعتقد أنّ وجدانيّة المرأة تناقض وجدانيّة الفنّان في الغاية، لأنّ المرأة بطبعها نفعيّة تتوخّى ما يحقق غايتها الحيويّة على أكمل الوجوه، أمّا الفنّان فلا غاية له إلّا استكناه ذوات الأشياء.

وهذا هو الجمال، لأنّ الجمال هو استجلاء ذات

- إنَّها حياة يا نافا. إنِّي أكاد أسمع غمغمتها..  
كيف تعيش معها يا نافا تحت سقف واحد؟  
ففرّك يديه جبراً وقال:

- رفضت في سبيلها عشر قطع من الذهب  
الخالص.

- لن تباع هذه الصورة أبداً.

- وله؟

- هي صورتي ولو دفعت لها حياتي!

فضحك نافا وقال:

- واه يا سنّ السابعة عشرة! إنَّك نار تضطرم..  
ولهب يندلع. إنَّك تبثّن الحياة والأنوثة في الأحجار  
والمياه والألوان. إنَّك لتعشقين الأوهام والأخيلة وتخالين  
الأحلام حقائق واقعة.. وتصلين ابنك عذاب  
الجحيم!..

فالتهب وجه الشاب دماً وسكت عن الكلام،  
فأشفق نافا من إغضابه فقال:

- لبيك أيتها الجندى.

فقال ددف بتضرّع:

- لا تفرط في هذه الصورة يا نافا.

فقام نافا إلى الصورة ورفعها من مكانها وقدمها إلى  
أخيه وهو يقول:

- هي لك يا ددف العزيز.

فوضعتها ددف بين يديه برفق كأنه يمسك بقلبه،  
وقال بصوت الممتنّ الشكور:

- شكراً لك يا نافا!

وجلس نافا راضياً، وأمّا ددف فلازم وقفته لا  
يريم.. واستغرق في تأمل الفلاحة الإلهية ثم قال:

- كم يفتن الخيال المبتدع!

فقال نافا بهدوء:

- ليست من خلق الخيال.

فزلزل قلب الشاب وسأل برجاء:

- تعني أنّ صاحبها من الأحياء؟

- نعم..

- وهل.. وهل هي كصورتها؟

- ربّما فاقتها حسناً..

لا يكون لغزاً وقد فعل في ساعة ما عجز عنه بشارو في  
سنين! وأحسّ بوجوده يفور وروحه تهيم في وديان  
بعيدة الآفاق.

أمّا نافا فقد استطرد يقول:

- ويشاء الحظّ السعيد أن أوفّق في حياتي الفنيّة،  
فقد دعاني السيد فاني إلى زخرفة بهو استقباله، وغدوت  
تشمّن بعض صوري بعشر قطع من الذهب فأبى أن  
أبيعها. انظر إلى هذه الصورة الصغيرة!

فحوّل ددف وجهه الهائم إلى حيث يشير أخوه،  
فرأى صورة صغيرة تمثّل فلاحة صبيّة على شاطئ النيل  
عند الغروب وقد خضّب الشفق أفق السماء، وكأنّه  
ارتاع لجمال الصورة التي جذبته من وديان الأحلام  
فدلف إليها حتّى صار منها على بعد ذراع، وشاهد نافا  
إعجابه فسّر سروراً لا مزيد عليه، وقال:

- ألا ترى أنّها صورة غنيّة بالألوان والظلال؟ انظر  
إلى النيل والأفق!

فقال ددف بصوت الحالم:

- بل دعني أنظر إلى الفلاحة.

وكان نافا يتأمّل صورته فقال:

- إنّ الريشة تتخلّد مشية النيل ذات الإجلال.

فقال ددف بلا اكتراث لما يقول الفتان:

- يا للأرباب.. إنّهُ جسم لدن.. له استقامة  
الريح.

- انظر إلى الحقول وإلى الزرع المائل، علام يدلّ  
ميله؟

فقال ددف وكأنّه لا يسمع ما يقول صاحبه:

- ما أجمل الوجه الحمريّ البديّ!

- إنّهُ يدلّ على ريح الجنوب.

- ما أجمل العينين السوداوين.. إنّ لهما نظرة  
إلهيّة.

- ليست الفلاحة كلّ شيء في الصورة، انظر إلى  
الشفق فالألوه وحدها تعلم كم أجهدني في تصويره  
وتلوينه.

فنظر ددف إليه وقال بحماس جنونيّ:

- ١٦ -

كان اليوم يحمل طابع الأحلام، فلدى عصره وضع  
دفع الصورة على صدره، وذهب إلى شاطئ النيل  
واكترى قارباً أنجبه به صوب الشبال .

ولم يكن يعي ما يفعل ولا يقدر عاقبة تصرفه، وكل  
ما يمكن قوله إنه منه سحر الافتتان فأطاع وحيه  
وأصاح إلى ندائه، فانطلق يعدو إلى غايته المجهولة  
مدفوعاً بعاطفة قهارة لا تقاوم، فقد أصابه مس من  
الافتتان، واستقرّ الافتتان في قلب شجاع لا يهاب  
الموت، جسور لا يلوي على المخاطر، فكان من  
الطبيعي أن ينطلق لأنه ليس من عادته أن ينكمش،  
وليكن ما يكون.

وراح القارب يشقّ الماء مدفوعاً بقوة التيار وشدة  
الساعدين الفتيين، وجعل دفع يرسل بناظره إلى  
الشاطئ يبحثان عن ضالته، فما رآنا أول الأمر إلا  
حداائق قصور أغنياء منف التي تهبط إلى سطح النيل  
بدرجات رخامية. وسار فراسخ لا يرى سوى الحقول  
المنبسطة حتى لمح عن بعد حديقة القصر الفرعوني،  
فقال بقاربه إلى وسط النهر يتعد عن منطقة الحرس  
النيلي، ثم عرج مرة أخرى إلى الشاطئ عند معبد  
أبيس، ثم أوغل شملاً محاذياً للبقعة التي لا ترى  
الناس إلا في المواسم والأعياد. وكاد يشفي على اليأس  
والقنوط لولا أن رأى على بعد قريب قطيعاً من  
الفلاحات يجلسن على الشاطئ تاركات سيقانهن في  
الماء الجاري، فحقق قلبه خفقة شديدة طردت القنوط  
طرذاً، والتمعت عيناه بنور الأمل البهيج، فاشتد  
ساعده وحول القارب إلى الشاطئ، وكان كلما قطع  
ذراعاً التفت إليهن وأمعن النظر، فلما أن دنا منهن  
واستطاع أن يرى وجوههن فرّت من فمه صيحة  
خافتة، كصيحة الأعمى الذي تردّ إليه نعمة الإبصار  
على حين فجأة. وذاق غبطة الغريق الذي صادفت  
قدماء صخرة ناتئة وقد أشفى على الغرق، فقد رأى  
الفلاحة المنشودة، صاحبة الصورة التي على قلبه،  
جالسة على الشاطئ وسط هالة من أنوارها، وكان كل  
شيء - كما قلنا - موسوماً بروح الأحلام، فرسا القارب

- نافا!

فابتسم الفتان، وسأله الشاب المقتون:

- أتعرفها؟

- رأيتها مرّات على شاطئ النيل.

- أين؟

- شبال منف.

- هل تذهب دائماً إلى هناك؟

- كانت تذهب كلّ أصيل هي وأخوات لها  
فيجلسن ويلعبن ويخفن مع اختفاء الشمس. . . وكنت  
أخذ مكاني خفية خلف شجرة الجميز وانتظر حضورهن  
بفارغ الصبر!

- وهل يواظبن على حضورهن؟

- لا أدري، فقد انتهت متابعتي لهنّ بانتهائي من  
الصورة.

فنظر إليه بارتياح وسأله بخوف:

- وكيف استطعت؟

فابتسم نافا وقال:

- هذا جمال أعبدته ولكتّي لا أحبه.

فلم يعبا دفع بكلامه وسأله:

- في أيّ بقعة كانت ترى؟

- شبال معبد أبيس.

- ترى هل ما تزال تذهب إلى هناك؟

- وما الداعي إلى تساؤلك أيها الضابط؟

فتحيرت في عينيّ دفع نظرة ملتبهة، فقال نافا:

- هل قضي أن يصيب السهم الأخوين في أسبوع

واحد؟

فقطب دفع جبينه وعاد إلى تأمل الصورة فقال

نافا:

- لا تنس أنّها فلاحه.

فتمتم دفع قائلاً:

- بل ريّة جميلة.

فقال نافا ضاحكاً:

- وإها يا دفع العزيز، لقد أصابني السهم فترديت

في قصر كامادي، وأخشى إن كان أصابك أن تقع على

كوخ متهتم . .

قريباً منهم، ووقف فيه ددف بقامته الفارعة وبرّته البيضاء الأنيقة، يتبه بجسم كائنه تمثال القوة المعبودة، وجمال فائن كائنه إله النيل انحسرت عنه أمواجه القدسيّة، وجعل يرنو إلى ذات الوجه الملائكيّ بوجه شفّه الهيام والافتتان، فتولّت الحيرة الفلاحة ومضت تقلّب عينيها في وجوه صويحياتها. ومضين يقلّبن أعينهنّ في وجهها المشرق، وكنّ يظنّنه عابراً، فلما رأينه واقفاً سحبن سيفاننّ من النيل وارثنين صنادلهنّ وتولّاهنّ الإنكار.

فففز ددف من القارب فصار على بعد ذراع منهنّ، وقال للفلاحة بصوت رقيق:

- طيّب الربّ مساءك أيّها الفلاحة الجميلة.

فرمقته بنظرة إنكار وكبرياء، وقال له أكثر من صوت من أصوات العصافير المحيطة بها:

- ماذا تريد منا يا سيّدي؟! .. مير في حال

سبيلك! فوجّه إليها نظرة عتاب وقال:

- ألا ترتين تحيّي؟

فولّت عنه برأسها المتوجّج بتاج الليل غضباً، وصاحت به الكثيرات:

- سر في سبيلك أيّها الشاب، نحن لا نكلّم من لا نعرفه!

فقال ددف:

- ترى هل عادة البلد الطيّب الذي أتيتكّن أن

يلقى الغريب بمثل هذا الجفاء؟

فقالت واحدة بحدّة:

- الذي يبدو على وجهك الاستهتار لا الغربية!

- كم تقسينّ عليّ!

- إن كنت غريباً حقاً، فليس هذا المكان بغاية

الغرباء، عد جنوباً إلى منف أو مير شمالاً إلى حيث

شئت ودعنا في سلام، فنحن لا نكلّم من لا نعرفه!

فهزّ ددف كفيه استهانة وقال وهو يشير إلى الفلاحة الجميلة:

- إنّ مولاتي تعرفني حقّ المعرفة.

فتولّاهنّ الإنكار ونظرن إلى الفتاة الجميلة فالفينها غاضبة، وسمعنها تقول له:

- أنفكري عليّ كذباً!!

فقال الشاب:

- أبداً وحقّ الربّ، قد عرفتك منذ زمن طويل وما جددت في طلبك إلّا بعد أن خانني الصبر ولجّ بي الشوق.

فقال الجميلة العاضبة:

- كيف تزعم هذا وما رأيتك عيناى قبل الآن؟

قالت إحدى صويحياتها:

- ولا تحبّ أن تراك بعد الآن؟

وقالت أخرى بلهجة مرّة:

- ما أقبح أن يهاجم الجنود الفتيات!

ولكنّه لم يبالهنّ، وقال للنّي لا تتحوّل عن وجهها عيناى:

- طالما رأيتك وطالما امتلأت بك نفسي.

- كاذب.. عديم الحياء.

- حاشاي أن أكذب، ولكنّي أحتمل كلامك

القاسي يشغف إكراماً للهم الجميل الذي ينثّر.

- بل أنت كاذب مدّع يبغي طريقة عوجاء!

- قلت حاشاي أن أكذب. وإليك الدليل.

قال ذلك ودسّ يده في صدره وأخرج الصورة وواجهها بها وهو يقول:

- هل أستطيع أن أرسّم هذه الصورة دون أن تمتلئ عيناى بسناك؟

ونظرت الصبيّة إلى الصورة، فلم تتألّك أن تصيح بإنكار وسخط وخوف، وامتلأت نفوس البنات سخطاً، وهجمت عليه إحداهنّ بغتة تريد أن تنتزعها منه، ولكنّه رفع بها ذراعه بسرعة البرق وابتسم ظافراً وقال:

- أرايت كيف أنك ملء خيالي ونفسي؟

فقالت بغضب شديد:

- هذه خسة ونذالة.

- ولم؟ ألاّئه راقني حسن فصوّرتة؟

فقال بحدّة لم تخلّ من توسّل:

- ردّ إليّ هذه الصورة.

فقال وعلى فمه ابتسامة حلوة:

- لن أفرط فيها ما حيت.

- أرى أنك من جنود المدرسة الحربية، فاعلم أن سوء أدبك هذا يعرضك إلى أقسى العقوبات.

قال بهدوء:

- إني أعرض نفسي بالنظر إليك إلى ما هو أشد قسوة.

- يا عجباً لقد ابتليت بك ابتلاء.

- وابتليت أنا ابتلاء أحق بالرحمة.

- ماذا أردت بهذه الصورة؟ وماذا تريد مني الآن؟

- أردت بالصورة أن تشفيني مما فعلته بي عينك، وأريد منك الآن أن تشفيني مما فعلته بي الصورة.

- لم أكن أحلم قط أن يتعرض لي إنسان بمثل سفاهتك.

- وهل كنت أحلم أن أسلب عقلي وقلبي في لحظة عابرة؟

وهنا صاحبت به فلاحه أخرى:

- هل سعيت إلينا لتغص علينا سعادتنا؟

وصاحبت به أخرى وقالت:

- يا لك من شأب وقح سفيه، إني أندرك بأني إذا لم تذهب سريعاً استصرخت بالناس.

فنظر باطمئنان إلى الفضاء المحيط وقال بهدوء:

- لم أعتد أن أطلب شيئاً فيعز علي.

فصاحبت به الفلاحة الجميلة:

- هل تريد إرغامي على الاستماع إليك؟

- كلاً ولكي. ولكنني أطمع أن يلين قلبك

فيهوى إلى الاستماع إلي!

- وإذا وجدت قلبي كالصخر لا يلين؟

- وهل يشتمل هذا الصدر الرقيق على صخر؟

- إنه يتحول إلى صخر حبال سفاهة السفهاء.

- وحيال شكوى المحبين؟

فضربت الأرض بقدمها وقالت بعنف:

- يصير أشد قساوة.

- إن قلب أقسى الفتيات كقطعة الثلج، إذا مسها

نفس حار ذابت وتدفقت ماء غميراً.

فقالت بسخرية:

- إن هذا الكلام الذي تظنه رقيقاً دليل على أنك

جندي فاسد، يخفي جسم فتاة خلف رداء الجنديّة..

ولعلك سرقت هذا الرداء العسكري كما سرقت

صورتي من قبل..

فاحتقن الدم بوجه ددف الجميل وقال:

- ساحك الرب.. أنا جندي صادق الجنديّة،

وسيحالفني النصر على قلبك كما حالفني في جميع

الميادين!

فقالت بلهجة أشد سخرية:

- أي ميادين هذه التي تتكلم عنها؟ إن الوطن

يتمتع بالسلام من قبل أن تشرف بك الجنديّة، فيا

لك من جندي يعقد له النصر في ميادين السلام

والطمأنينة.

فاعتلاه الارتباك وقال:

- ألا تعلمين يا جميلة أن حياة التلميذ في المدرسة

الحربية كحياة الجندي في الميدان؟ ولكن لا عليك من

هذا سيغفر قلبي لك سخرتك مني..

فقالت بغضب:

- حقاً إني أستحق اللوم، لأنني صبرت على

سفاهتك.

وهمت بالمسير، ولكنّه حال بينها وبينه وقال مبتسماً:

- لا أدري كيف أكتسب مودتك؟ أنا سئ

الحظ.. هل لك في نزهة نيلية في القارب؟

وارتاع البنات لتعرضه لصاحبتهن وأحظن بها.

وصاحبت به إحداهن:

- دعنا نذهب فقد لحقنا المغيّب.

ولكنّه لم يدعهن يذهبن، وكانت واحدة منهن

تطلب منه غفلة، فلمّا لاحت فرصة انفضت عليه

كاللّبوة وارتمت على ساقه وتعلقت بها وعظمت في

فخله، وارتمت عليه الفتيات جميعاً منهن من تعلقت

بساقه الأخرى ومنهن من احتضنته بقوة، وجعل

يقاومهن بالصبر دون المدافعة، ولكنّه عجز عن الحركة

ورأى - وهو يكاد يجم - الفلاحة الجميلة مجري ناحية

الحقول كالغزال النافر، فنادها وتوسّل إليها وقد اختلّ

تري من هي تلك الجبارة الفاتنة؟ فلاحه صغيرة؟ هذا عجيب، وأين أعين الفلاحات من عينيها النيرتين الساحرتين، وأين بساطة الفلاحات من كبرياتها وعنادها؟ وأين سذاجة الفلاحات من سخريتها المريرة وتهكمها المتعالي؟ لو أنه باغت فلاحه بما باغتها به لربما فرت هاربة أو استسلمت راضية ولكن هيهات! وهل يستطيع أن ينسى جلستها وسط صوحيحاتها كالأميرة بين أفراد حاشيتها ووصيفاتها؟ وهل ينسى كيف دافعت عنها مدافعة المستميت؟ وهل ينسى كيف لبث بين يديه - بعد فرارها - لا يرحن حذرًا أن يتبعهم إليها، صابرات على البرد والظلمة؟ فهل يفعلن كل هذا من أجل فلاحه مثلهن؟! كلاً وكلاً، ولعلها ريفية نبيلة بل عسى أن تكون كذلك حتى لا يقول نفا مرة أخرى إنه وقع على كوخ متهدم؟ ولكن هل وفق معها لكي يقول ذلك لنفا مرة أخرى؟ وأسفاه. !!

ومهما يكن فقد انتهى الشهر الذي خاله لا ينتهي أبداً، وغادر المدرسة كمن يغادر سجنًا رهيبًا، وذهب إلى البيت بشوق مذكر لغير أهله، وقابلهم بفرح ليس هم الباعث عليه، وجلس بينهم بقلب غائب، فلم يلاحظ ما طرأ على جاموركا من الجمود والفتور، وانتظر بصبر فارغ، ذلك العصر الذي عدّ الدقائق إليه شهرًا كاملاً، ثم انطلق إلى بقعة أبيس الطاهرة تنشد عيناه الوجه الحبيب. !

وكان الشهر برمودة والجو معتدلاً رطباً، آخذًا من البرد بقبضة تنعش، وآخذًا من الدفء بنفس حي يغري باللهو والهوى، وكانت السماء بيضاء، رقيقة البياض، يشقّ بياضها الرقيق عن زرقة باهتة.

وألقي على المكان العزيز نظرة ملؤها الحنو، وساءل نفسه المشوّقة: أين الفلاحه ذات العينين الفاتنتين؟ ترى هل تذكره؟ أم هل لا تزال تجدّ عليه؟ وهل ما يزال رجاؤه لديها عسيرًا؟ أيستحيل أن يلقي حبه صدئ في قلبها؟ ولكن أين هي؟

إنّ البقعة خلاء لا تحجب، صمّاء لا تلتقي نداء، فما من معين على البلوى أو صارخ على الشكوى، والقلب

توازنه فسقط على الحشائش الخضراء، وما زلن يتشبّث به ولم يتركه حتى اطمأنن إلى اختفاء صاحبتهم. وقام مهتاجًا غاضبًا وجرى في الطريق الذي ذهبت فيه ولكنه لم يرى إلا فضاء، فعاد قانطًا وقد رجا أن يبتدي إليها بواسطة صاحباتها، ولكنهن كنّ دهاة فقعدن هادئات لا يرحن أماكنهن.

وقالت له واحدة بسخرية:

- ابق الآن أو اذهب كما تشاء.

وقالت أخرى بخبث:

- عسى أن تكون هذه أول مرة تهزم فيها أيتها الجندي.

فقال بغضب شديد:

- لم تنته المعركة بعد. . . وسأتبعكن ولو رحلتن إلى طيبة!

فقال التي عضته:

- سنبيت ليلنا هنا. .

#### - ١٧ -

وكان الشهر الذي قضاه في المدرسة بعد ذاك المساء الجميل أطول الشهور وأشدّها قسوة، وكان في أول الأمر كثير التألم لكرامته وكبرياته يسائل نفسه مغيظًا محققًا: كيف أخيب هذه الخيبة وما ينقصني الجمال ولا الشباب ولا القوة ولا الغنى؟! وكان يديم النظر إلى المرأة ويحدث نفسه ما الذي يعيبه؟ ما الذي ينقص الحسن منه؟ لماذا أصبلته إهانة تلو إهانة وسخرية بعد سخرية! لماذا فرت منه كما يفرّ السليم من الأجر؟ ثم يجد رغبة شديدة إلى معاودتها وملاحقتها، ولكنه يذكر الشهر الطويل الذي تججزه فيه المدرسة بين جدرانها فتذهب نفسه حشرات وتسيل جوى ولوعة، فقد يستطيع لو ثابر على مغازلتها يومًا بعد يوم أن يكبح جماحها ويلين عريكتها ويكتسب مودتها، وأي فتاة تقسو إلى الأبد؟ ولكن أتى له هذا وهو حبيس هذه الجدران الضخمة التي ترتدّ عنها القسي والنبال!

وبالرغم من كل شيء ظلّ مفتونًا بها، لا تفارق صورتها صدره، كي يخلو إليها كلما خلا إلى نفسه،



والصبيان، وأخذ يعلو الحديث والفتاف وما وجد  
لضالته أثرًا، فتحاشى أهل القرية وغادرها سريعًا،  
وأسرع الخطى نحو النيل في ظلمة من النفس وظلمة  
من الكون.

كان حزينًا، يائسًا، تحرق اللوعة صدره، وتمزق  
الحسرة قلبه، وقد ذكّرت حاله بمأساة الرثة إيزيس حين  
ذهبت تبحث عن أشلاء زوجها أوزوريس التي نثرها  
ست في تضاعيف الرياح، وقد كانت الأم إيزيس  
أسعد حطًا منه، أما هو فلو كانت حبيبته طيفًا من  
أطياف الأحلام، لكان الأمل في العثور عليه أدنى إلى  
قلبه.

أحبّ ددف الجميل، ولكنّه كان حبًّا غريبًا، بلا  
حبيبة، حبًّا ليس عذابه الصدّ أو الخيانة أو ويلات  
الزمن وكيد الناس، لكنّ عذابه أنّه بلا حبيبة. كانت  
حبيبته كنسمة هائمة حملتها ريح هوجاء وذهبت بها إلى  
حيث لا يعلم إنسان. فقلبه ضائع لا يعرف له  
مستقرًا، لا يدري إن كان قريبًا أم بعيدًا، لا يدري إن  
كان بمنف أم في أقصى بلاد النوبة. فيا لها من أقدار  
قاسية تلك التي حوّلت عينيه إلى تلك الصورة التي  
يحفظ بها على قلبه، كانت أقدارًا قاسية تعرفها الأرواح  
الشريرة التي يطيب لها عذاب البشر.

\*\*\*

وعاد إلى البيت والتقى بأخيه نافا في الحديقة، فقال  
الفنان:

- أين كنت يا ددف؟ لقد طال غيبتك. ألم تعلم  
أنّ خني في حجرته؟

فقال ددف بدهشة:

- خني!.. أحقّ ما تقول؟ ولكنّي لم أجده حين  
مجيئي.

فقال نافا:

- جاء منذ ساعتين وهو ينتظرك.

فهرع إلى حجرة الكاهن الذي لم تقع عليه عيناه  
منذ سنوات، ورآه جالسًا كما تعود أن يراه في الآيام  
الخوالي والكتاب في يده، فلمّا رآه قام إليه وهو يقول  
بفرح:

يستشعر وحشة ويمسّ بدبيب الخيبة ويمجثم عليه روح  
تشاؤم وقنوط.

والوقت - إذا غره الأمل لا يزال أمامه متسع  
لمجيئها - يمرّ ثقيلًا بطيئًا، وإذا خيل إليه القنوط أنّ  
موعدًا انقضى أحسّ بالزمن ينطلق انطلاق السهم،  
وكأنّ الشمس تركب عربة سريعة تعدو بها إلى الأفق  
الغربي.

ومضى يحومّ حول المكان الذي رآها فيه أوّل مرّة،  
وجعل ينظر إلى الحشائش الخضراء طمعًا أن يرى أثرًا  
لصندلها أو سحب ذيلها، ولكنّ الحشائش لم تحفظ من  
جسمها اللدن أكثر ممّا حفظ الماء من ساقها!

ترى هل تواظب على زيارة هذا المكان كما كانت  
تفعل من قبل أم أنّها زهدت في نزهتها هذا في رؤيته؟  
أين هي؟ وكيف السبيل إليها؟ هل ينادي بغير اسم؟  
هل يصرخ في الفضاء؟ وجعل يدور حول المكان  
الحبيب حائرًا، نافذ الصبر، يتقاذفه القنوط والأمل..

ولاحت منه التفاتة إلى السماء فرأى الشمس تميل إلى  
الأفق، ورأى توهجها يخفت فتقدر العين على النظر  
إليه كأنّها جبار مارد أذنته الشيوخوخة وأطمعت فيه  
الضعفاء، فذوى أمله وغرق في لجّة اليأس، واعتلاه  
حزن شديد، وولّى وجهه شطر الحقول فرأى هيكل  
قرية، فشحخص إليها وما يدري ما يفعل، وفي منتصف  
الطريق التقى بفلاح آتب بعد جهد النهار الواصب،  
فسأله عن القرية؟ فقال الرجل وهو ينظر إلى بذلته  
باحترام: «هي قرية آشر يا سيدي». فكاد من اليأس  
أن يريه الصورة الساكنة على صدره ويسأله عن  
صاحبها.

واستأنف رحلته ولم تكن له غاية محدودة، ولكنّه  
وجد في السير راحة لم يجدها في الوقوف والدوران،  
وكأنّ الأمل الخلب الذي غرّر به ساعة على شاطئ  
النيل طار إلى ربوع تلك القرية فاتّبع أثره.. وكان  
مساء لا يُنسى، فقد اخترق طرقات القرية يقرأ الوجوه  
ويسائل الديار، فأثار منظره الفضول ولفت جماله  
الأنظار، وانجذبت إليه العيون من كلّ صوب، وما لبث  
أن وجد نفسه يسير وسط أمة من الفتيات والغلمان

لي بأنه لن تمضي عشر سنوات حتى أنتخب قاضيًا من  
قضاة منف العشرة.

فقال ددف بحماس:

- إني أومن بأن نبوءة قداسته ستتحقق قبل ذلك..

أنت رجل عظيم يا خني.

فابتسم خني ابتسامته المادئة وقال:

- اشكرك يا عزيزي ددف، والآن قل لي هل تقرأ

شيئًا مفيدًا؟

فضحك ددف قائلاً:

- إذا حسبت خطط القتال وتاريخ الجيش المصري

قراءة مفيدة فانا أقرأ أشياء مفيدة!

فسأله بإشفاق:

- والحكمة يا ددف؟!.. لقد كنت تصني إلى

أقوال الحكماء بشغف وشوق في هذا المكان قبل عشر

سنوات!

- الحق أنك زرعت حب الحكمة في قلبي، ولكن

حياتي العسكرية لا تترك لي فراغًا للمطالعة التي

أهواها، ومهما يكن فقد قصرت الشقة بيني وبين

الحرية.

فقال خني بامتعاض:

- إن العقل الفاضل لا يستغني عن الحكمة يوماً،

كما إن المعدة السليمة لا تزهد في الطعام بعض يوم.

ينبغي أن تعوِّض ما فاتك يا ددف، لا تنس هذا

مطلقاً، إن فضيلة علم الحرب أنه يؤهل الجندي لخدمة

وطنه ومولاه بالقوة، ولكن الروح لا تفيد منه شيئاً،

والجندي الذي يجهل الحكمة، كالحیوان الأمين ليس

إلا، وقد يتفجع بوحى غيره، فإذا ترك لنفسه عجز عن

إفادة نفسه فضلاً عن الآخرين، وقد ميزتنا الآلهة عن

الحيوان بالروح، وإذا لم تتغذى الروح بالحكمة هوت

إلى حضيض الحيوانية. لا تغفل عن هذا يا ددف،

لأني أشعر من أعماق قلبي بأن روحك سامية، وأقرأ

على جبينك الجميل أسطرًا باهرة من المجد والجلال،

باركك الرب في روحاتك وغدواتك..

وتسلل الحديث بينها عذباً شهياً لقلبيها، وكان آخر

ما تحدثا به زواج نافا، وعلم به خني من ددف لأول

- ددف! كيف أنت أيها الضابط المهام؟

وتعانقا طويلاً، وقبله خني في خديهِ وباركه باسم

الرب بتاح وقال له:

- كم تمر الأعوام سريعاً يا ددف! إن وجهك هو

هو الوجه الجميل.. ولكنك تنمو نمواً عظيماً، وكأني

أرى فيك صورة جنديّ باسل من الجنود الذين

يباركهم الملك عقب المواقع الكبرى وتخلد بطولاتهم

جدران المعابد.. يا عزيزي ددف، كم أنا سعيد

برؤيتك بعد هذه الأعوام الطوال!

فقال ددف والفرح يغمره:

- وأنا سعيد جداً يا أخي العزيز، تالله لقد غدوت

صورة صادقة من رجال الكهنوت في نحافة جسمك

وهيبة محضرك ونفاذ عينيك، هل انتهيت من الدراسة

أيها الأخ العزيز؟

فابتسم خني وهو يجلس ويفسح له مكاناً إلى

جانبه:

- إن الكاهن لا ينتهي من العلم أبداً، لأنه لا

نهاية للعلم. وقد قال قاقمتا: إن العالم يطلب العلم

من المهد إلى اللحد ويموت جاهلاً. ولكني أتممت

الدراسات التعليمية الأولى.

- وكيف كانت حياتك في المعبد؟

فنظر إليه الشاب بعينين حالمتين وقال:

- وإها لك أيها الزمان، كأني أستمع إليك قبل

عشر سنوات وأنت تطرح عليّ السؤال تلو السؤال،

أتذكر يا عزيزي ددف؟.. لا داعي للعجب فحياة

الكاهن تمضي بين سؤال وجواب أو سؤال ومحاولة

الجواب، إن السؤال خلاصة الحياة الروحية. معذرة يا

ددف، ما الذي يَمَكُّ من حياة المعابد؟ ليس كل ما

يعرف يقال، وحسبك أن تعلم أنها حياة الجهاد

والطهر، إنهم يعدوننا أن نجعل الجسم طاهراً مطيعاً

لإرادتنا ثم يلقوننا العلم الإلهي، وهل ينثر الحب

الطيب إلا في أرض طيبة؟

- وماذا أنت فاعل أيها الأخ؟

- سأعمل قريباً خادماً لقرابين الرب بتاح تعالى

اسمه المبارك، ولقد حزت عطف الكاهن الأكبر، وتنبأ

- كيف حدث هذا؟ لقد لاقاني في الصباح كعادته.

- لم يكن كعادته يا عزيزي. إلا إذا كان فرحه بك عجاآلامه ساعته، لقد طعن في العمر يا ددف وبدا عليه في الأيام الأخيرة وهن الوداع.

فاشتدّ الألم بددف ونحوّل إلى الصديق الأمين وهمس في أذنه بحزن عميق:

- جاموركا. ألا تسمعي؟ جاموركا!

فرغ الكلب الأمين رأسه بصعوبة، ونظر إلى مولاه بعينين لا تريان شيئاً كأنه يودّعه الوداع الأخير، ثم عاد إلى نومه الثقيل. وجعل يثنّ بصوت مبجوح، فناداه مرة بعد أخرى ولكنّ نداءه لم يحرك به ساكناً، وخيل إليه أنّ وطأة الموت تشتدّ على الصديق الأمين. وراه يلهث ويفتح فاه ويغلقه. ثمّ رآه ينتفض انتفاضة ضعيفة ويسكن إلى الأبد. وناداه من أعماق قلبه قائلاً «جاموركا» فضاع النداء سدى.. ولأول مرة في حياته العسكرية ذرفت الدموع من عينيه، وانتحب باكياً يودّع رفيق الطفولة وحيب الصبا وصديق الشباب.. واحتضنته أمّه بين يديها وجفّفت دموعه بشفثيها، وأجلسته إلى جانبها على فراشها وعزّته بكلمات رقيقة، ولكنّه لم يسمع إليها ولم تنفرج شفثاه في تلك الليلة إلا عن قوله: أمّاه أريد أن يحتنط ويحفظ في تابوت في الحديقة في البقعة التي كنّا نلعب فيها معاً، حتّى ينقل إلى قبري حين يدعوني الربّ. وهكذا اختتم ذلك اليوم الحزين.

## - ١٨ -

مضى العام السادس والأخير للدف في المدرسة الحربية.

وأقامت المدرسة حفلتها التقليدية السنوية التي يتبارى فيها المتخرجون قبل توزيعهم على فرق الجيش المختلفة. وأشرقت حياة الفرع - ذلك اليوم - على المدرسة العظيمة وأزينت أسوارها بأعلام الفرق الحربية، وصدح جوّها بأنغام الموسيقى الحفاسية. وفتحت أبوابها تستقبل المدعوين نساءً ورجالاً الذين

مرة، فبارك الزوج والزوجة، وهنا خطر للدف خاطر فسأله:

- ألا تتزوّج يا أخي؟

فقال الكاهن للشاب:

- كيف لا يا ددف؟ إنّ الكاهن لا يستطيع أن يخلد إلى طمأنينة الحكمة ما لم يتزوّج، وهل يستطيع المرء أن يتطلّع إلى السماء وفي النفس نزوع إلى الأرض. إنّ فضيلة الزواج أنّه يخلّص من الشهوات ويظهر الجسد.

\*\*\*

وغادر ددف حجرة أخيه عند منتصف الليل، وآوى إلى حجرته وأخذ يخلع ثيابه ويستعيد حديث الكاهن، ثمّ أخذت تعاوده أحزانه ويتذكّر عذاب يومه وخيبته فيه، وقبل أن يضطجع على فراشه سمع طرقاً خفيفاً، فأذن للطارق بالدخول، فدخلت زايا يبدو على هيئتها الوجوم وسألته:

- هل أيقظتك؟

فقال وقلبه يتوجّس خيفة:

- كلّاً يا أمّاه لم أنم بعد، خيراً؟

وتردّدت المرأة وهمت بالكلام فلم يطاوعها لسانها، فأشارت إليه أن يتبعها، فتبعها قلقاً حتّى انتهيا إلى مخدعها، وأشارت إلى الأرض، فنظر فرأى جاموركا ممّداً كأنه أصيب بسهم قاتل، فلم يتالك نفسه أن صاح بذعر:

- جاموركا.. جاموركا.. ما له يا أمّاه؟!

فقال المرأة بصوت مختنق:

- تشجّع يا ددف.. تشجّع يا عزيزي.

فانخلع قلبه في صدره وركع إلى جانب الكلب العزيز الذي لم يلقه كعادته بالقفز والفرح، وربّت على جسمه فلم يبد حراكاً، فنظر إلى أمّه بعينين كئيبتين وسألها:

- ما له يا أمّاه؟

فقال المرأة:

- تشجّع يا ددف إنّه محتضر!

فارتاع الشاب لتلك الكلمة المرعبة وقال محتجاً:

صاروا بإزاء العرش الجالس عليه صاحب السمور، سلّوا سيوفهم ومدّوا بها أذرعهم وهي عمودية أذبتها إلى السماء، فردّ التحية واقفاً.

وابتدأت بعد ذلك المباراة العظيمة بسباق الخيل، فامتطى الضباط الجياد المطهّمة ووقفوا صفّاً، ثمّ نفخ في الصور فاندفعوا كالسهم المنطلقة عن أقواس مرّدة، وزلزلت أرجل الخيل الأرض زلزلاً شديداً، وكادت لشدة عدوها تغيب عن الأبصار، وثبت البواسل عليها كأنهم سَمَرُوا في ظهورها تسميراً. وكانوا صفّاً، ثمّ فرق بينهم العدو الشديد، ثمّ شدّ عنهم فارس كان لسرعته كأنما يركب ريحاً مجنونة. وكان أسبقهم في العودة إلى المبتدأ.. وقد أذاع المدرب اسم الفارس الفائز «دفع بن بشارو» فاستقبل بهتاف شقّ عنان السماء، ولو أتيح للشاب أن يسمع أباه وهو يهتف «لابن بشارو» بصوت كالرعد لما تمالك نفسه من الضحك!

وبعد مدّة وجيزة بدأ سباق العربات، فركب الضباط وانتظروا صفّاً، ثمّ نفخ في الصور فانطلقوا كالعالمقة يبعثون بين أيديهم رهبة ويتركون خلفهم دوياً كشقّ الصخور وانهار الجبال. وكانوا على ظهور العربات يتهايلون ولا يتزحزون، كأنهم سيقان نخل راسخة هبّت عليها ريح عاصفة تريد اقتلاعها فارتدّت عنها خائبة مولولة.. ثمّ انطلق من بين صفوف العادين راكب سبقهم بقوة مارد فبدا وبدوا كأنه عادٍ وهم وقوف، وتوجّه الفوز حتّى النهاية، وأعلن المدرب اسم الفائز «دفع بن بشارو» وتعالى باسمه الهتاف واشتدّ له التصفيق..

ثمّ أعلن النادي عن سباق القفز على الحواجز، فامتطى الضباط جيادهم، وأقيم في وسط الفناء الطويل المصاطب من الخشب يزداد مع التقدّم ارتفاعها رويداً رويداً، ونفخ في الصور فعدت الخيل بعنف وطارت فوق الحاجز الأوّل كأنها نسور منقضة، وقفزت على الثاني كأنها أمواج الشلال الكاسرة، وتقدّموا يكلّل هاماتهم النصر المين، ولكن خان الحظّ البعض فعجزت الجياد غير صائخة إلى صراخ فرسانها

يتكوّن جمهورهم من أسر الضباط والقوّاد والمتخرّجين وكبار الموظفين.

وبعد أن انتصف النهار، حضر كبار رجال الدولة يتقدّمهم الكهنة والوزراء وعلى رأسهم صاحب القداسة خوميني. وقوّاد الجيش العظام وعلى رأسهم القائد أربو، وكثير غيرهم من خاصّة الموظفين والكتّاب والفنانين ليكونوا جميعاً في استقبال حضرة صاحب السمور الفرعونيّ الأمير رعخوف وليّ عهد المملكة، الذي أنابه صاحب الجلالة الملك عن ذاته في ترؤّس الحفلة.

ولمّا أُرِفَ موعد الأمير هرع كبار رجال الدولة إلى مدخل المدرسة ووقفوا ينتظرون بين صفوف من الجنود، وما لبث أن ظهر في الميدان الفسيح المنبسط أمام المدرسة موكب وليّ العهد تتقدّمه كوكبة من عربات الحرس الفرعونيّ، فصدحت الموسيقى بالتحية، ووقف الجمهور إجلالاً وتعالى هتافه لفرعون ووليّ العهد.

ووصل موكب الأمير إلى مدخل المدرسة، فتقدّم مديرها حاملاً بين يديه ثمرة من الحرير المحشوّ بريش النعام ترجّل عليها صاحب السمور الفرعونيّ، وكان في صحبة الأمير شقيقته صاحبة السمور الأميرة مري سي عنخ، وإخوته الأمراء رعباوف وحردف وحرسادف وكاعب وسددف وخوفو خفف وهتا ومراب..

وانحنى الكبراء بين يدي الأمير، وسار سموه بقامته الربعة ووجهه الصلب الذي زادته الكهولة صلابة وصلفاً، وسارت إلى يمينه الأميرة مري سي عنخ، واتخذ مجلسه في الوسط، وجلست إلى يمينه الأميرة والأمراء، وإلى يساره خوميني والوزراء والقوّاد وكبار الموظفين. وبعد وصول الأمير سكت الهتاف وجلس المدعوّون، وابتدأت الحفلة، ونفخ في الصور فصدحت الموسيقى وظهرت فرقة الضباط المتخرّجين من ناحية الثكنات تسير أربعة أربعة، يتقدّمها قائد المدرّبين حاملاً غلّم المدرسة، وقد ارتدوا للمرّة الأولى ملابس الضباط ذات السوزرة الخضراء والقميص الأخضر والسترة المصنوعة من جلد النمر، فلما أن

الذهول أشدته عما حوله، لا يرجع تفسيرها إلى نشوة الفوز ولكنّه إلى أمر أعظم رهبة في نفسه وأمعن أثرًا. إذ كان يسمع مع زملائه إلى خطاب الأمير، وتحركت عيناه إلى الخطيب فعثرتا في طريقهما بوجه الأميرة مري سي عنخ، فرأى منظرًا عجبًا انخلع له قلبه في صدره. وكاد لقوة المباغتة أن يصعق صعقًا ويخرّ على وجهه خنًا. يا آلهة السموات ما هذا الذي يرى! إنّه وجه الفلاحة التي يحمل صورها على قلبه! وودّ لو يستطيع أن يديم النظر إليه ولكنّه خشي أن يفتضح أمره، فنظر إلى الأمام لا يلوي على شيء. وانتهت الحفلة ولمّا يفق من وقع المفاجأة والدهشة. فعاد إلى الثكنات كمن به مَسّ.

ترى هل يمكن أن تكون فلاحته الجميلة هي صاحبة السمو الأميرة مري سي عنخ؟ يا له من أمر بعيد عن التصديق، عسير على تصوّر الخيال!

ومع هذا هل من الميسور أن يصدّق بوجود وجهين بهذا الجمال الفتان؟ هل ينسب ما لاقته به صاحبة الصورة من كبرياء، لم يكن قطّ من أخلاق الفلاحات؟ ولكنّ جميع هذا لا يسوغ له قبول هذا الفرض الغريب، فليته استطاع أن يتحقّق من قسّات وجهها!

أما لو كانت هي الأميرة! فقد أتى أمرًا كبيرًا لا يستطيع أن يتنبّأ بعواقبه، لم يتالك عند ذلك من أن يضحك ضحكة ساخرة مريرة ويقول لنفسه يا للغرابة! إنّ ددف بن بشارو يجب الأميرة مري سي عنخ! ثمّ نظر إلى الصورة طويلًا بعينين حزيتين، وتنهّد قائلاً:

- هل حقًا أنت الأميرة الجليلة! كوني فلاحّة بسيطة، فربّ فلاحّة مفقودة أقرب إلى القلب من أميرة موجودة!

### - ١٩ -

وتأهب ددف لمغادرة قصر بشارو- لأوّل مرّة- كرجل مستقلّ، تاركًا في النفوس حزنًا ممزوجًا هذه المرّة- بالفخر والإعجاب- وقد قبلته زايا حتّى بلّلت خدّه بدمعها، وباركه حتّى ودعا له- وكان يأخذ أمهته أيضًا لترك البيت إلى المعبد، وشدّ نافا على يده بحرارة

البواسل، وسقط آخرون بين أصوات الإشفاق، إلّا فارسًا قفز الحواجز جميعًا كأنه قدر محتوم أو فوز مجسم، وأعلن النادي اسمه «ددف بن بشارو» بين التهليل والتكبير.

وحالفه الفوز في جميع المباريات فكان المبرز في إصابة الأهداف بالرمح والقوس، وكان المتصر في المبارزة بالسيف والضرب بالمزاريق، وأنته آلهة نصرًا مبيّنًا جعله بطل اليوم دون شريك، ونابغة المدرسة العديم النظير، وأحلّه مكانة الإعجاب والتقدير في كلّ قلب.

وكان على الفائزين أن يذهبوا إلى وليّ العهد ليهنّئهم على نبوغهم، فذهب ددف- ذلك اليوم- وحده، وأدّى للأمير التحية العسكرية، فوضع الأمير يده في يده وقال له:

- إنّي أهتسك أيّها الضابط الباسل: أوّلًا على تفوّقك. وثانيًا على اختياري لك ضابطًا في حرسى الخاصّ.

فطفح وجه الشاب بالفرح، وأدّى التحية للأمير وعاد مثلج الصدر سعيدًا، وسمع في أثناء مسيره النادي يعلن للحاضرين تهنئة الأمير واختياره له في حرسه، فخفق قلبه وذكر بالفرح أسرته: بشارو وزايا وخنّ ونافا الذين يسمعون خطاب النادي ويفرحون له الفرح الذي يجلّ عن الوصف.

وسارت بعد ذلك فرقة الضباط الجدد إلى عرش الأمير ليخطب فيهم، وقام الأمير وخطب فيهم قائلاً بصوته الشديد النبرات:

أيّها الضباط البواسل:

إنّي أعلن على الملأ إعجابي العظيم بشجاعتكم ومهارتكم وحماستكم وتميّزكم بسجايا الجنديّة الجليلة، ورجائي أن تظلّوا كمن سبقكم من إخوانكم عنوان مجد للوطن ولفرعون ربّ العالمين.

وهتف الضباط للوطن ولفرعون، وبذلك أعلن انتهاء الحفلة، وغادر الأمير المدرسة وعاد موكبه الرسميّ إلى القصر الفرعونيّ، وانصرف المدعوّون.

وكان ددف في تلك الأثناء في حالة غريبة من

وقال له: «إنَّ نبوءتي تحقّقها الأيام يا ددف». وودّعه كذلك عضو جديد في أسرة بشارو هي مانا ابنة كامادي زوج نافا. أمّا بشارو العجوز فقد وضع كفه الغليظة على كتفه وقال له بخيلاء: «إني سعيد يا ددف لأنك تخطو الخطوات الأولى في طريق والدك العظيم». ولم ينس ددف أن يضع زهرة لوتس على تابوت جاموركا قبل أن يودّع بيته في طريقه إلى قصر صاحب السموّ الفرعونيّ الأمير رعخوف..

ومن المصادفات السعيدة أنّه وجد أنّ زميله بمخدعه بشكنات قصر الأمير صديق قديم ترجع صداقتها إلى زمالة الصبا، وكان شابًا ودودًا مخلص القلب، صريحًا ثرثارًا، ففرح بقدوم صديقه القديم واستقبله استقبالًا ودّيًا، وقال له ضاحكًا:

- أدائمًا في أثري؟

فابتسم ددف وقال:

- ما دمت في طريق المجد.

- المجد لك يا ددف، لقد كنت الفائز في سباق العربات، أمّا أنت فجنديّ لم يسبق بمثله، إني أهتلك من صميم قلبي.

فشكره ددف، وفي المساء أحضر سنفر من صوان ثيابه زجاجة من خمر مربوط وكأسين من الفضة، وقال:

- اعتدت أن أشرب كأسًا من خمر مربوط العذبة قبل النوم، هي عادة مفيدة.. ألا تشرب؟

- إني أشرب الجعة، ولكنّي لم أذق الخمر؟

فقال سنفر مقهقهًا:

- اشرب.. إنّ الخمر داء الجنود.

وعلى حين فجأة قال له بلهجة جدّية:

- أيّها الأخ ددف، إنك مقبل على حياة صارمة.

فابتسم ددف بشيء من الاستهانة وقال:

- لقد ألقت نفسي حياة الجنديّة.

فقال سنفر:

- جميعنا يألف حياة الجنديّة، ولكنّ صاحب السموّ شيء آخر.

فبدت الدهشة على وجه ددف وسأله:

- ماذا تعني؟

- إني أنصحك أيّها الأخ بدافع الأخوة لتكون على بينة من الأمر ولتأخذ حذرک، فإنّ خدمة الأمير شدة لا مثيل لها.

- كيف؟

- إنّ سموّه شديد القسوة، له قلب كالحجر أو أشدّ صلابة، المفوعة عنده خطأ مبین، والخطأ جريمة لا تغتفر. وستجد فيه مصر حاكمًا صارمًا لا يداوي الجرح بالبلسم كما يفعل جلالة والده أحيانًا. ولكنّه لا يتوان عن بتر العضو لأهون خلل يعتوره!

- إنّ الملك الحازم يحتاج إلى شيء من القسوة.

- شيء من القسوة.. لا القسوة كلّها، سترى كلّ شيء في حينه، فلا يكاد يفوت يوم لا يصدر فيه عقوبات عدّة يصيب بعضها الخدم وبعضها الجنود وبعضها الوكلاء وربما انصبّت على الضباط، وإنّ الأيام لتزيده صلفاً وخشونة!

فقال ددف:

- العادة أن تلين عريكة الرجل بتقدّم العمر، هكذا يقول قاقمنا.

فضحك سنفر ضحكًا عاليًا وقال:

- لا يجمل بالجنديّ أن يستشهد في كلامه بقول حكيم. هكذا يقول صاحب السموّ! وإنّ حياة سموّه لتشدّ عن رأي قاقمنا، لماذا؟ إنّه في الأربعين.. وليّ عهد في الأربعين من عمره!، تأمل!

فنظر إليه الشابّ بعينين متسائلتين، فاستطرد سنفر بصوت خافت:

- يودّ أولياء العهد لو يحكمون شبّانًا، فإذا قست عليهم الأقدار انقلبوا قساة!

- أليس سموّه متزوجًا؟

- وله بنون وبنات.

- فالعرش مضمون لنسله.

- هذا لا يغني عن الأسف شيئًا.. وليس هذا ما يخشاه الأمير.

فبدت الدهشة على وجه ددف وسأله:

- ماذا تعني؟

- إني أنصحك أيّها الأخ بدافع الأخوة لتكون على بينة من الأمر ولتأخذ حذرک، فإنّ خدمة الأمير شدة لا مثيل لها.

- كيف؟

- إنّ سموّه شديد القسوة، له قلب كالحجر أو أشدّ صلابة، المفوعة عنده خطأ مبین، والخطأ جريمة لا تغتفر. وستجد فيه مصر حاكمًا صارمًا لا يداوي الجرح بالبلسم كما يفعل جلالة والده أحيانًا. ولكنّه لا يتوان عن بتر العضو لأهون خلل يعتوره!

- إنّ الملك الحازم يحتاج إلى شيء من القسوة.

- شيء من القسوة.. لا القسوة كلّها، سترى كلّ شيء في حينه، فلا يكاد يفوت يوم لا يصدر فيه عقوبات عدّة يصيب بعضها الخدم وبعضها الجنود وبعضها الوكلاء وربما انصبّت على الضباط، وإنّ الأيام لتزيده صلفاً وخشونة!

فقال ددف:

- العادة أن تلين عريكة الرجل بتقدّم العمر، هكذا يقول قاقمنا.

فضحك سنفر ضحكًا عاليًا وقال:

- لا يجمل بالجنديّ أن يستشهد في كلامه بقول حكيم. هكذا يقول صاحب السموّ! وإنّ حياة سموّه لتشدّ عن رأي قاقمنا، لماذا؟ إنّه في الأربعين.. وليّ عهد في الأربعين من عمره!، تأمل!

فنظر إليه الشابّ بعينين متسائلتين، فاستطرد سنفر بصوت خافت:

- يودّ أولياء العهد لو يحكمون شبّانًا، فإذا قست عليهم الأقدار انقلبوا قساة!

- أليس سموّه متزوجًا؟

- وله بنون وبنات.

- فالعرش مضمون لنسله.

- هذا لا يغني عن الأسف شيئًا.. وليس هذا ما يخشاه الأمير.

ورأى صورة إلهية تتخفى في ثياب الأميرات تنزل من السفينة وتصعد أدراج السلم في عظمة فرعونية ورشاقة خيالية، كأن ثقلها يجذب إلى أعلى لا إلى أسفل. رأى صاحبة السمو الأميرة مري سي عنخ! واستل سيفه الطويل وأدى عليه التحية العسكرية، ومرت به الأميرة كالخلم الجميل، وسرعان ما غيبتها متعرجات الحديقة.

كيف لا تكون هي هي ؟

إن البصر يخدع، والسمع يخدع، أما القلب فلا يخدع أبداً. ولو لم تكن هي ذاتها ما خفق هذه الخفقة الشديدة التي كاد لها ينخلم، ولما تركه من النشوة كالسكران المترنح. ولكن ما بالها لا تحس به ولا تذكره، وقد جرى بينهما من الأمر ما يستحق التذكّر؟ هل يمكن أن تنسى هكذا سريعاً تلك المواجهة الغربية؟ أم أنها تناساها ترفعاً عن ذكرها؟

وما الفائدة من أن تذكره أو لا تذكره؟ وما الفرق بين أن تكون الأميرة هي صاحبة الصورة أو تكون أخرى تشابهها؟ فالقلب ما خفق بالحُبّ إلا لهذه الصورة البهية، وسيظلّ يخفق لها سواء أحلتّ بجسم أميرة من البيت الفرعونيّ أم بجسم فلانة من قرى منف، وسيظلّ على يأس منها في الحالتين، فلما من الحبّ بدّ، وما من اليأس بدّ.

وألقي بنظرة إلى الأشجار المتفرعة، وشاهد الأطيّار تتجاذبها أغصانها وهي لا تكفّ عن التغريد وينبئ مظهرها الفرح عن الهيام والوداد، فأحسّ نحوها بعاطفة لم تزر قلبه من قبل. أحسّ نحوها بالحسد أن تلهو بغير حساب وأن تعشق بلا عذاب وأن تسمو بفطرتها عن الأوهام والشكوك، ثمّ نظر إلى حسامه وإلى بذلته ذات الألوان وإلى قلنسوته ذات الكبرياء، فأحسّ بصغار ووجد رغبة إلى الضحك المرير والهزء الأليم.

لقد أتقن الرماية وبرع في ركوب الخيل وتفوق في المبارزة ونال كلّ ما يتمناه شاب طموح، ولكن ما أعجزه عن إسعاد قلبه! وقد كان نافا أسعد حظاً فتزوج من مانا ذات الجيد الطويل والعينين العسلتين،

- فما الذي يحشاه؟ إنّ إخوته مخلصون لقوانين المملكة.

- ما في هذا شك، ولعلهم لا يطعمون في شيء، لأنّ أمهاتهم من الحريم، وجلالة الملكة لم تلد سوى وليّ العهد وشقيقته مري سي عنخ، فالعرش من حقّ هذين الاثنين قبل أيّ إنسان، ولكنّ الذي يقلق له الأمير هو.. قوة بنية جلالته!

- إنّ فرعون معبود مصر جميعاً.

فنظر الضابط إليه وقال:

- بلا جدال.. إنّني يحيل إلى أنّي أستشفّ أمانى النفوس التي تعيش في الأعماق دون أن يسمح لها الضمير الحيّ بأن تطفو، معاذ الربّ أن يوجد خائن في مصر.. كلّاً أنّها الأخ، والآن قل ما رأيك في خمر مربوط؟.. إنّني طيبٌ ولكنّي غير متعصّب.

فقال ددف:

- هي خير ما قدّمت ياسنفر.

واكتفى سنفر بهذا المقدار من الحديث وقام للنوم، أمّا ددف فلم يذق جفنه المنام، لأنّ ذكر مري سي عنخ على لسان صاحبه أثار شجونه ولواعجه كما يثير الطعم الملقى على سطح الماء خافي السمك، فاهتاجت نفسه وتبلبل فكره وقضى سواد الليل يناجي قلبه المحزون.

- ٢٠ -

وكان في قصر وليّ العهد يحسّ من الأعماق بأنّه قريب من ذلك السرّ الغامض، وأنّه يعيش في الأفق الذي يشرق فيه، وأنّ لابدّ أن يشعّ عليه شعاع من أشعته الوهاجة، وكان ينتظر على أمل وخوف ولذّة. وإنّه ليتجولّ في مروج القصر المطلّة على النيل، والوقت يسير بين العصر والأصيل، وشمس هاتور تنسكب أنواراً بهيجة تردّ الزمان الهرم إلى عصفوان الشباب وبهاء الفتوة، وإذا به يرى سفينة ملكيّة ترسو إلى سلّم الحديقة ولم يكن في استقبالها أحد من الحجاب، فأسرع - كما يقضي واجبه - إلى استقبال الرسول الكريم، ووقف تلقاء السفينة كالتمثال الجميل.

كبريائها - الدهشة، ولكنّها سرعان ما عمّالكت نفسها ومَدّت يدها البَضّة وأخذت الصورة.  
سارت في طريقها إلى السفينة يحوطها الجلال والعظمة.

### - ٢١ -

وظَلَّت حياة دد في قصر الأمير لا يشرق في أفقها جديد، حتّى كان يوم عرف فيه قلبه مشرباً للآلم جديداً.

وفي ذلك اليوم خرج صاحب السموّ الأمير رعخوف في بذلة التشريفة الكبرى، تتقدّمه كوكبة من الحرس كان بين ضبّاطها صديقه سنفر، وعاد الأمير لدى المساء، ورجع سنفر إلى مخدعه في الوقت الذي رجع فيه دد إليه بعد قيامه بواجب الحراسة وتفقد الحراس، وكان من الطبيعي أن يسأل صاحبه عن دواعي خروج الأمير بتلك الحال التي لا تأتي إلّا في الأعياد، ولكنّه كان يعلم بطبعه الذي لا يستطيع السكوت على سرّ، وفي الواقع ما استراح سنفر قليلاً حتّى قال وهو يرتدي منامته:

- أتعلم إلى أين ذهبنا اليوم؟

فقال دد بهدوء:

- كلّاً.

فقال سنفر باهتمام:

- حضر اليوم إلى منف صاحب السموّ الأمير أبور حاكم مقاطعة أرسينة، وكان وليّ العهد في استقباله! فسأله دد:

- أليس سموّه ابن خال جلاله الملك؟

- بلى؟ ويقال إنّ سموّه جاء بمجلّ تقريراً عن قبائل سيناء التي تعدّدت حوادثها في ربوع الدلتا الشرقية.

- إذا فسموّه رسول حرب؟

- نعم يا دد، والذي علمته يدلّ على أنّ وليّ العهد كان يميل منذ زمن طويل إلى تأديب قبائل سيناء، وأنّ القائد أربو كان يؤيّد في رأيه، ولكنّ الملك كان يفضل التريث ريثما تستعيد البلاد قواها بعد الجهد الجهيد الذي بذله في أوجه العمران وأخصّها

وسوف يتزوّج خنّ في هدوء وبساطة لأنّه يرى الزواج واجباً دينياً، أمّا هو فليبت حاملاً بين أضلعه حبّاً يائساً مكتوماً، يذوي به قلبه كما تذوي الشجرة الفارعة إذا منعت نور الشمس وماء النيل.

وظلّ ملازماً لموقفه يعلّل النفس برؤيتها مرّة أخرى، ولم يكن يشكّ في أنّ الزيارة غير رسمية وإلّا لعلم بها كلّ من في القصر، ولاستقبلت الأميرة استقبالاً يليق بمكانها في الأسرة الملكية وعلى هذا لا يبعد مطلقاً أن تعود إلى السفينة بمفردها. وصلق بعض ظنّه، فعادت الأميرة بعد أن ودّعها صاحب السموّ الملكيّ عند مدخل القصر.

وكان دد بمكانه عند سلّم الحديقة فوقف مستعدّاً، حتّى إذا صارت بإزائه سلّ سيفه وأدّى التحية، وعلى حين فجأة توقّفت الأميرة والتفتت إليه في نبل وكبرياء، وقالت بلهجة ساخرة:

- هل تعرف واجباتك أيّها الضابط؟

فقال دد وقد زلزلت نفسه:

- نعم يا صاحبة السموّ.

فسألته بلهجة مرّة:

- هل من الواجب أن تخطف الفتيات في غير زمن الحرب؟

فاستولى الارتباك عليه، وتلبّثت لحظة تحدّجه بنظرة قاسية ثمّ قالت:

- وهل من واجب الجنديّ أن يغدر؟

فلم تختمل نفسه الألم وقال:

- يا مولاي.. إنّ الجنديّ الشجاع لا يغدر!

فسألته بسخرية:

- فما قولك فيمن يتربّص بالآمنات خلف الشجر ويصوّرهن خلسة؟

وغيّرت لهجتها فقالت بصلف:

- يجدر بك أن تعلم أنّي أريد تلك الصورة.

وأطاع دد كما تعود أن يطيع، فدرّس يده في صدره وأخرج الصورة من مخبئها الدفين وقدمها إلى الأميرة.

ولم تكن تتوقّع هذا، فبدت على وجهها بالرغم من



فقال ددف بحلّة أملتها عليه أحزان قلبه :

- أنت واهم يا سنفر!

- أواهم أنا! أشباب وجمال وقوّة وجفاف!؟

مستحيل!

- هو الحقّ يا سنفر!

- كما تشاء يا ددف فلن ألحف عليك بالسؤال،

وعنّاسية حديث الغرام هذا أقول إنّي سمعت همساً في

أروقة القصر الفرعونيّ، يدور حول ذكر أسباب أخرى

لمجيء الأمير أبوور غير سبب الحرب الذي حدّثتك عنه.

- ماذا تعني؟

- يقولون إنّه ستتاح للأمير فرصة مشاهدة صغرى

الأميرات عن كثب، وهي تمّن يضرب بجمالهنّ المثل،

فربّما زفّ إلى الشعب المصريّ قريباً بشرى خطبة الأمير

أبوور للأميرة مري سي عنخ.

وكان هذه المرّة شديد الخور، فتهاكسك وكنم عواطفه

وتلقّى الضربة بصبر عجيب، ولم يعلن وجهه عن شيء

مما يعترّك في قلبه، وأمن خطر عيني صاحبه النافذتين

ولسانه الثرثار الأليم، وحاذر أن يعلّق على كلام

صاحبه بكلمة أو أن يستريده من الإيضاح خشية أن

تفضحه نبرات صوته، فصمت صمتاً ثقيلاً رهيباً كأنّه

جبل شامخ أقيم على فوهة بركان.

ولم يكن يدري سنفر ما بصاحبه، فاستلقى على

فراشه وقال وهو يتأهب:

- إنّ الأميرة مري سي عنخ على جمال عظيم. ألم

نراها؟. إنّها أجمل الأميرات، وهي كشقيقتها وليّ العهد

شديدة الكبرياء ذات إرادة من حديد، يقولون إنّها

تتمتّع بحبّ لا نظير له في قلب فرعون، فثمن جمالها

سيكون عالياً بلا ريب.. حقاً إنّ الجبال يذلل أعناق

الرجال.

وتشابه سنفر مرّة أخرى وأغمض عينيه، وكان

ددف يرمقه على ضوء المصباح الخافت بعينين كدرهما

الحزن والأسى فلما أن اطمأنّ إلى استسلامه للنوم أطلق

لنفسه عنان التألم والحزن، ونبا به الفراش وأحسن

بضيق شديد يزهق النفوس، فترك الفراش على أطراف

بناء هرم الملك. ولما مضت فترة الاستجمام استنجز

الأمير فرعون ما وعد، ولكن يقال إنّ جلالة الملك

منهمك هذه الأيام في تأليف كتاب عظيم يرجو أن

يجعل منه للمصريّين أكبر مرشد للدين والدنيا، فلم

يُبدّ جلالته استعداداً للتفكير جدّياً في مسألة الحرب،

فاستعان الأمير رعخعوف بقرّيه الأمير أبوور، واتّفق

معه على أن يحضر بنفسه ليطلع الملك على حقيقة عبث

القبائل واستهتارها بهيبة الحكومة، وما يخشى من تماديا

إذا طال السكوت عليها، فلا يبعد وقد أتى الأمير أن

تسير فرقة من الجيش إلى الشمال الشرقيّ في القريب

العاجل.

وساد الصمت فترة وجيزة، ثمّ قال سنفر بدافع من

حبّ الكلام:

- وقد أومّ جلالة الملك وليمة عشاء للأمير حضرها

جميع أعضاء البيت الفرعونيّ، وعلى رأسهم جلالة

الملك والأميرات.

فخفق قلب ددف لدى ذكر الأميرات، وذكر الأميرة

الفاتنة ذات البهاء والكبرياء، فتنهّد وهو لا يدري تنهّداً

جذب إليه سمع سنفر، فنظر الشاب إليه منكراً

وصاح:

- وحقّ بتاح إنك لا تصني لما أقول!

فانزعج ددف وقال:

- كيف تقسم على هذا؟!

- لأنك تتنهّد تنهّد من أعجزه فكره وفرّ إلى حبيبه.

فاشتدّ خفقان قلبه وحاول أن يقول شيئاً ولكنّ

سنفر لم يمكّنه من غايته فضحك عالياً وقال باهتمام:

- من هي؟.. من هي يا ددف؟.. آه.. إنك

تنظر إليّ نظرة إنكار؟! لن ألحّ عليك الآن فسأعرفها

يوماً وهي أمّ أبنائك، يا للذكرى! أتدري يا ددف؟..

لقد تنهّدت في هذا المخذع منذ عامين كنتهّدك هذا،

وبتّ ليلى أناجي أطياب الأحلام، وفي العام الثاني

صارت زوجي المحبوبة وهي الآن أمّ ابني فانا. فيا لها

من حجرة موبوءة بالغرام!.. ولكن ألا تقول لي من

هي؟

فضاء وأفقا رحيباً يعزّ بلوغه على الإنسان مها طال به المسير، كأنه ظلّه الممدود أمامه يتقدّمه كلّما تقدّم. وكان صباحاً ندياً. وكانت الشمس طالعة يفرش سناها أرض الصحراء ببساط من أنوار، ولكن جعلها النسيم البارد الساري في تضاعيف الهواء برداً وسلاماً عليهم، فكانوا تحت أشعتها كأشبال بين أنياب اللبؤة.

وتقدّمت القافلة في طريقها تتبع المرشدين.. وكان ددف إذا أرسل الطّرف يرى عن بُعد الأميرة الصغيرة، التي استبدّت بقلبه وأصلّته جوّى ألياً، تمتطي سهوة جوادها المطهّم وتهايل على متنه كالغصن الرطيب، وكان يبدو على سبيلها الجلال والكبرياء، إلا أنّها كانت تنظر إلى شقيقها أحياناً تحادثه أو تستمع إليه فيلوح نصف رأسها الأيسر كصورة الآتم إيزيس على جدران المعابد، وشاهد الشاب الأمير أبوور يميل بقامته المتينة البنيان ويحادثها ويتسم، وشاهدها تحادثه وتبتسم، وكانت المرّة الأولى التي يرى فيها ذاك الكبرياء والبهاء يجود بابتسامة كأنها سماء مصر صفاء وحسناً وجمالاً وندرة غيث.

ودبّت الغيرة السامة في قلبه الطاهر النبيل، وأرسل إلى الأمير السعيد نظرة ملتفة، ذلك الأمير المجدود الذي جاء رسولاً للحرب فالتقى في طريقه برسول السلام والحبّ.. وعانى قلبه انفعالات مريرة لم تعهدها نفسه الصافية من قبل، ومضى يحدث نفسه حديثاً ثائراً غاضباً..

أيجوز أن يهوى قلبه ويدوب بهواه في برودة القنوط ويخسر الدنيا جميعاً؟.. أيعقل أن يصلّي نار الحبّ وعذابه ومن يهوى يسير على بعد قفزة جواد منه؟ فما قيمة الحياة؟ وما قيمة الآمال التي تمدّ نفسه بالقوّة والجلاد؟ بل ما أشبه حياته بحياة وردة غضة لم تنشق عنها أكمامها، عاجلتها ربح صيف عاصف فاقتلعها من غصنها الخنون ودفنتها في رمال الصحراء الملتهمية.. من ذاك العبد الذي يسمّونه بالطاعة؟ ومن ذلك الظالم العاتي الذي يدعونه بالواجب؟ ما الإمارة وما العبوديّة: كيف تهصر هذه الأساء قلبه وترمي به في

أصابعه وانسلّ إلى خارج الحجر وكان الجوّ رطباً والنسيم بارداً والليل حالك الجلباب، تلوح أشجار النخيل في ظلمته كأشباح نائمة أو أرواح تعسة أضناها الخلود.

## - ٢٢ -

وبعد انقضاء بضعة أيام علم كلّ من في القصر أنّ سموّ وليّ العهد دعا الأمير أبوور، وصاحبة السموّ الأميرة مري سي عنخ، وشيتتا من الأمراء والأصدقاء، إلى رحلة صيد بالصحراء الشرقية.

وفي صباح اليوم الموعود جاءت الأميرة مري سي عنخ، وكان وجهها كهالة من بهاء ونور يشرق سناء على القلوب فيغمرها بحياة الأفراح، وجاء على أثرها سموّ الأمير أبوور مصحوباً بالحاشية، وكان في الخامسة والثلاثين قويّ البنيان مهيب الطلعة يدلّ مظهره على النبل والشرف والبسالة.

وكان كبير حجّاب القصر يشرف بنفسه على إعداد قافلة الصيد وتزويدها بما يلزمها من الماء والزاد والسلاح والشباك. واختار رئيس الحرس لمرافقتها مائة جنديّ من جنود الحرس جعل على قيادتها عشرة ضباط من بينهم ددف، وهؤلاء غير الخدم ومساعدي الصائدين. ولدى نزول وليّ العهد إلى حديقة القصر تحرّكت القافلة العظيمة، وكانت تتقدّمها كوكبة من الفرسان الجيبرين بطريق الصيد، وسار خلفهم صاحب السموّ الفرعونيّ الأمير رعخعوف، وإلى يمينه الأميرة الفاتنة مري سي عنخ، وإلى يساره الأمير أبوور، تحيط بهم هالة من الأمراء والنبلاء، وتبعت ذاك الموكب الجليل عربة تحمل قُرب المياه، وأخرى تحمل الزاد وأدوات الطهي والخيام، تليها ثلاثة ورابعة وخامسة تحمل أدوات الصيد والقسيّ والسهام، تسير جميعاً بين صفّين من الفرسان، وتتبع العربات القوّة الباقية من فرسان الحرس المرافق للرحلة يتقدّمها ضباطها الذين كان منهم ددف. وسارت القافلة صوب الشرق تاركة خلفها المدينة العامرة والنيل المعبود تويّ وجهها شطر الصحراء، لا ترى حيثما تلقى الطّرف إلا

ونشاط، فما هي إلا دقائق حتى تبيّ معسكر كامل من خيام ومرابط للخيّل ومطبخ ميدان، وأخذ الحرس أماكنهم وأوى الأمراء إلى الخيمة الكبرى المرفوعة على عمد من الخشب المكّفت بالذهب الخالص.. واستراح الأمراء ساعة فاستعادوا نشاطهم وقوتهم، ثم قاموا للصيد.

ونصب الخدم شبكة صيد عظيمة عند مقرب التلّين، وتفرّق الجند على أضلاع المثلث الذي يرسمه جبل ست والتلّان اللتقيان بالشبكة العظيمة، وعدا آخرون إلى سفح الجبل ليثيروا الحيوانات المطمئنة، في حين امتطى الأمراء جيادهم، وتفقدوا أسلحتهم، وتوزّعوا في الميدان الفسيح وكلّ على أهبة الاستعداد.

وامتطت الأميرة مري سي عنخ جوادها الكريم، ووقفت به أمام الخيمة الكبرى تشاهد الصراع المرتقب حيناً بعد حين بين الإنسان والحيوان.. وكانت ترقب حركات الأمراء بعينين عظيمتي الاهتمام، والظاهر أنها استبطأت الصيد والطرء، فسالت بصوت مسموع الضباط الذين يقفون وراءها دون أن تلتفت إليهم:

- مالي لا أرى صيداً ؟

فأجابها صوت تعرفه حقّ المعرفة:

- ذهب الجنود يفترونها، وعمّا قليل ترينها يا صاحبة السموّ إذ تنهب من سفح الجبل وهي تعوي وتخور وترأر.

وامتدّ نظرها إلى سفح جبل ست. وصدق الضابط في قوله فما لبثت أن رأت فصائل من الغزلان والأرانب والأيل تنحدر في مشياتها المختلفة جاهلة بما تحبّته لها المقادير. وتحفّر الأمراء على ظهور الجياد، ثم انطلق كلّ إلى هدفه وابتدأت المعركة، وكانت همّة الصائدين موجّهة إلى مطاردة الوحوش وتوجيهها إلى مضيق التلّين، حيث تنتظرها الشبكة فاعرة فاهاً.

وكان الأمير رعنخوف أمهر الصائدين قاطبة. وقد تبدّت للعيان خفّته ورشاقتها، وكامل تسلّطه على جواده وحسن توجيهه له، وبراعته في محاوره الوحش وحصاره وسوقه أمامه إلى غايته المنشودة.. فلم يكن يفشل

هزّة اليأس الأليم؟ لماذا لا يسأل حسامه ويهجم بجواده البرق على تلك المتعالية القاسية ويحملها قوّة واقتداراً ويغيب بها في بطن الصحراء، ويقول لها بصوت جهير: انظري إليّ، ها أنا رجل جبار وأنت امرأة ضعيفة، ابسطي هذه النقطة التي رسمتها على جبينك تقاليد القصر الفرعوني، ونكسي هذا الذقن الذي رفعت عادات الإمارة والسّيادة، وتطهري من هذه النظرة العالية التي تعودت أن تلقىها من علّ على الرُّكع السّجود، وتعلّلي جائية بين يديّ، فإن شئت حبّاً رويتك بالحبّ، وإن أبيت إلا استكباراً..

يا له من هذيان كغليان الرجل المكتوم! ويا لها من غضبة مختلفة عديدة الأثر! وها هي القافلة تسير، وها هو الهوى يلعب بالقلوب فتمايل لسحره القدود وتفرّ الشفاء، وها هي الصحراء الواسعة تشهد في صمتها الأبدّي.. يا لها من صحراء! وقد تأمل الخلاء ملياً فانتشلته الرهبة من لجة أحلامه وآلامه، وأفرغت في قلبه الإعجاب والإجلال، وكأنّ القافلة في ذلك المحيط الجليل قبضة من مياه في بحر خضمّ لا ترى له شيطان، وما أحرى الحدأة المحلّقة أن تراها كتلة من الكتاكيت.. واهما ما حبّه؟ وما آلامه! من يحسّ بها في ذلك الفضاء الفسيح؟ كم يضيّع النداء في ذلك الكون اللانهائي: فما ددف وما حبّه؟!

وانتبه بغتة على سهيل جواده إلى ما حوله، وكانت القافلة تتقدّم تقدّماً مطرداً حتى بلغت مقدّمتها بقعة الرّيان وأناخت عندها، وكانت بقعة الرّيان من أصلح نواحي الصحراء للصيد. وكان يمتدّ بها جبل ست من الشمال إلى الجنوب، وهي مأوى للحيوانات المختلفة التي يغرم الهاوون بصيدها، ويمتدّ من سفح جبلها إلى ما يليه شرقاً تلّان عظيمان يحصران بينهما رقعة واسعة من الصحراء ثم يضيّقان كلّاً امتدّاً شرقاً حتى لا يفصل بينهما إلا عشرون ذراعاً في مكان نادر المثال، أعدته الطبيعة للصيد والقتل والطرء.

وكان السادة يحسّون ببعض التعب، فسارع الخدم والجنود إلى نصب الخيام، وعني آخرون بتهيئة أدوات الطهي وأوقدوا النيران، وكان العمل يسير بهمة

طراده ولا ينجيب تصويبه، فأنك كلابه تعباً في طلاب ضحاياه العديدة.

وأظهر الأمير أبوور كذلك مهارة نادرة المثال، فأنار الإعجاب بسرعة انقضاضه ودقة إصابته الأهداف وخفة حركاته، وكان فارساً لا يشق له غبار.

ومضى الأمراء في طوهم العنيف والوقت ينطوي خلسة ساعة بعد ساعة، وكاد الصيد ينتهي في سرور لا مزيد عليه، لولا وقوع حادث كدر الصفر وأفزع القلوب. . إذ كان الأمير رعمخوف يطارد غزالاً نافراً تحت سفح الجبل، وإنه ليمرّ - في عدوه - بربوة عالية، إذ اعترض سبيله وراءها أسد هائل الهيكل كاشر الأنياب، فصرخ جند كثيرون يحدّون مولاهم، ولم يكن الأمير متأهباً لمثل هذا اللقاء الخطر المفاجئ.

ولكنه كان ثابت القلب صلب العزيمة فوضع يده على رعجه يريد أن يستله من قرابه، ولكنّ الأسد لم يمهله فوثب وثبة عظيمة وضرب الجواد بيده الجبارة على وجهه، وكان يريد فارس الجواد بنفسه فلم يبلغ إليه، وسرعان ما ثقلت أقدام الجواد وخارت قواه وترنّج كالنمل وأوشك على السقوط. وكان الأسد ينكمش استعداداً لوثبة أشدّ من الأولى. . وتتابع الحوادث سراعاً فتمكّن الأمير من إشهار رعجه وصوّبه نحوه الأسد المتوثّب وقذفه بقوة، وفي تلك اللحظة سقط الجواد فاقد الحياة من أثر ضربة الأسد، فأخطأ الرمح مرماه ونجا منه الأسد، ووقع الأمير الجليل على ظهره فغدا تحت رحمة الأسد الكاسر، أعزل من كلّ سلاح.

وفي تلك الأثناء كان الأمراء والجند والضباط يطلقون لجيادهم العنان نحو الأمير المهذّب، كلّ يؤدّ لو يفتديه بروحه، وكان ددف يطير بجواده في الهواء طيراً، فكان يطوي المسافة التي تفصله عن الأمير طياً سريعاً، وقد سبق الجميع إليه، وصادف وصوله وثوب الأسد وثبته القاضية، فلم يضع لّبه، وسلّ رعجه الطويل وأمسكه بيديه، ووثب من ظهر جواده المنطلق كالسهم شاهراً رعجه، فسقط كشهاب نارٍ على الأسد الغاضب، وانفرد رعجه في فم الوحش ونفذ منه إلى الأرض الرملية، وصاحبه معلّق به لا تدعه يداه.

ولحق به الأمراء والجند وأحاطوا بالأمير، وأطلقوا سهامهم على الأسد المحترق ففضوا عليه. وحضرت الأميرة مري سي عنخ على ظهر جوادها، وكانت مرتاعة مذعورة يكسو وجهها الجميل لباس الخوف والرعب، فلما رأت شقيقها واقفاً معافى سليماً ترجّلت عن جوادها وهرعت إليه وعانقته، وهي تقول بامتنان صادر من أعماق قلبها:

- حمداً للربّ الرحيم بتاح.

وأقبل الأمراء على وليّ العهد يمشونه بالنجاة، وصلّوا جميعاً للربّ بتاح شكراً وامتناناً.

وكان الأمير رعمخوف ينظر إلى جواده القتل بأسف ظاهر، وسار إلى جثّة الأسد الذي كاد يورده حتفه فرأى والسهام تغشاها كشمع القنفذ، ثمّ نظر إلى الفارس الواقف إلى جانبها كالتمثال الجميل، وسرعان ما تذكّره وعرف فيه البطل الذي اختاره بنفسه ليكون بين ضباط حرسه الخاصّ. فكانت الألهة اختارته بيده لهذه الساعة العصبية. وأحسّ الأمير نحوه بإعجاب وامتنان، فاقترّب منه ووضع يده على كتفه وقال:

- أيّها الضابط الباسل، لقد أنقذت حياتي من الموت المحقّق، وسأجزيك عن بطولتك العديدة المثال بما أنت أهله من الخير.

وتقدّم الأمير أبوور من ددف، وكانت تهزّ نفسه النبيلة أعمال البسالة، فشدّ على يده بحرارة وقال:

- أيّها الجنديّ الشجاع، لقد أدّيت للوطن والملك خدمة فوق منال التقدير.

ثمّ عادوا جميعاً إلى المعسكر، يخيّم عليهم صمت ثقيل، ويشتّت نفوسهم الدهول الذي يعقب النجاة من خطر داهم، وفي أثناء الطريق قال أحد رجال حاشية الأمير أبوور له:

- لم ترضّ الألهة أن تفجع قلب الملك الكبير الذي يحبس ذاته العالية في حجرة التابوت الموحشة، يكتب للشعب الذي يحبه رسالة النجاة من الشرّ والأمراض.

وهل جزاء الإحسان إلّا الإحسان؟!

واستراح السادة الأجلّاء. ثمّ قدّمت لهم مائدة الطعام ودارت عليهم كتوس مترعة بخمر مريوط.

صرفها عن حدة الفتوة والجبروت إلى تأمل الحكمة والعرقان.

وقبل الأمير يد والده العظيم وقال:

- هو ذا يامولاي الضابط الشجاع ددف بن بشارو الذي أنقذ بشجاعته الفائقة حياتي من بين براثن الموت المحقق، يمثل بين يدي جلالتك كما اقتضت مشيئكم المقدسة.

فتعطف الملك ومدّ إليه يده، فقبلها الشاب جاثياً باحترام ديني عميق، وقال له الملك:

- لقد استأهلت أيها الضابط بشجاعتك رضائي عنك.

فقال ددف بصوت متهّج:

- مولاي صاحب الجلالة، إني كجندي من جنود الملك لا أعرف لنفسي غاية أسمى من أن أبذل حياتي في سبيل العرش والوطن.

وهنا قال الأمير رعخعوف:

- إني ألتبس من مولاي الملك الموافقة على تعيين هذا الضابط رئيساً لحرس.

وأتستع عينا الشاب الذي لم يكن يتوقع هذه المفاجأة، وكان جواب الملك أن سأل:

- ما عمرك أيها الضابط؟

فقال ددف:

- عشرون عاماً يا صاحب الجلالة.

فقطن الأمير إلى مغزى سؤال الملك وقال:

- إن العمر الطويل والحكمة والعرقان فضائل تؤهل للكهنوت يامولاي. أما الجندي الباسل فتخطي به شجاعته عوائق السن.

فابتسم فرعون وقال:

- لك ما تشاء يارعخعوف.. أنت وليّ عهدي ورغبتك عندي لا تُرد.

فسجد ددف عند أقدام العرش وقبل الصولجان، فقال له الملك:

- إني أهنتك بثقة صاحب السمو الفرعوني الأمير رعخعوف أيها القائد ددف بن بشارو.

وأقسم ددف بيمين الإخلاص للملك، وانتهت عند

وامر الأمير الخدم أن يوزعوا على الجند كنوساً من خمر مربوط ابتهاجاً بنجاته، فشرّب الجند وصلّوا للرب صلاة الشكر، ثم أنشدوا جميعاً نشيد فرعون بأصوات كهزيم الرعد دوت في فضاء الصحراء، ولبثوا ما لبثوا ثم تأهبوا للرحيل، فرفعت الخيام والأنقال وغنائم الصيد، وسارت القافلة على نفس الترتيب الذي أتت به. إلا أن الأمير أمر الضابط ددف أن يسير في معيته فأعان بذلك عن نيته في جعله من الخاصة المقربين.

فخفق قلب الشاب الشجاع بنشوة المجد والفرح، لأنه لا يحظى بهذا الشرف العظيم إلا الأمراء ورجال الدولة المبرزين، وأحسّ بسعادة لا توصف إذ يسير في جناح هالة تتوسطها الأميرة مري سي عنخ، وخالها تسمع دقات قلبه العنيفة الخافقة بالحب والهام. وما يستطيع أن يعطف رأسه إليها، ولكنّه كان يرى وجهها الجميل رؤية العين، يراه في الفضاء الممتد أمامه، ويشاهد سناه بالرغم من السمرة التي شابّت الأفق إيذاناً بالمغيب.

لو أنّها جادت عليه بكلمة شكر مع الشاكرين، لكانت حسّبه من المجد ومن الدنيا جميعاً!

## - ٢٣ -

وكان وليّ العهد جاداً فيما نوى من مكافأة ددف بما هو أهله، كأثماً الأقدار اختارته من بين الخلق ليمهد للشاب السعيد طريق المجد. فلم تخضر أيام قلائل على حادث الصيد حتّى استقبل فرعون مصر وليّ عهده وفي معيته الضابط ددف بن بشارو، وكانت مفاجأة سارة للشاب أكثر ممّا تهدف له أحلامه وآماله، ولكنّه سار خلف الأمير رعخعوف بقلب تثبته شجاعة فائقة. واجتازا معاً الردهات الطويلة ذات الأعمدة الشاهقة والحراس الجبابرة، إلى أن مثلا بين يدي من يحجب جلاله وجهه عن الأبصار.

وكان الملك رابضاً على العرش، لا يدلّ على السنين التي بلغها سوى شعيرات بيضاء تتلألأ تحت تاج مصر المزدوج وذبول خفيف في خديّه، وتغيّر في نظرة عينيه

ذاك المقابلة، وغادر ددف القصر الفرعوني قائداً من قواد الجيش المصري.

وكان يوم فرح عظيم في بيت بشارو لا نظير له في الأيام. وقد قال نافا للقائد الشاب:

- إن نبوتي تتحقق أيها القائد، دعني أصورك في رداء القيادة.

ولكن بشارو صاح بصوته الأجنس الذي زاده غرابية ضياع أربع أسنان من فمه:

- ليست نبوءتك التي خلقت ددف أيها المصور، ولكنّه حزم والده، إذ قضت الالهة أن يكون الابن كأيّيه من المقرّين إلى فرعون.

ولم تعرف زايا يوماً من الأيام ضحكت فيه وبكت مثل ذلك اليوم السعيد، وقد كثر بها الفكر إلى غياهب الماضي البعيد المنطوي منذ عشرين عامًا، وذكّرت الطفل الصغير الذي أحدث مولده تنبؤات خطيرة، وأثار حرباً صغيرة ذهب والده طعمة لها.. فيا للذكرى!..

ولما خلا ددف إلى نفسه ذاك المساء ارتدّ إلى حالة غريبة من الحزن والوجوم، كأنها ردّ فعل للفرح العظيم الذي غمره طوال يومه، ولكن كانت لها أسباب أخرى ما تفتأ تأكل قلبه كما تأكل النار الهشيم. وقد رنا إلى نجوم السماء من خلل نافذته وقال وهو يتنهد:

- أنت وحدك أيتها النجوم التي تعلمين أنّ قلب ددف القائد السعيد، أشدّ حلقة من الظلام الذي تعيشين في لجّته الخالدة.

#### - ٢٤ -

وفي اليوم الثاني تقلّد ددف بن بشارو منصبه الجليل رئيساً لحرس وليّ العهد، وقد أحسن الأمير صنعا فنقل كبار ضباط حرسه إلى فرق الجيش المختلفة وأحلّ محلهم غيرهم. واستقبل الضباط الرئيس الجديد بالترحيب والاحترام والإعجاب، ولم يكذب يطمئنّ به كرسيّ القيادة بحجّته الجديدة حتّى استأذن الضابط سنفر في الدخول فأذن له، ودخل الضابط يطفح وجهه

بشراً فأدّى التحية العسكرية وقال:

- أيها القائد الرئيس، لم يقنع قلبي بالتهنئة الرسمية فسعيت إليك لأصرّح لك على انفراد بما يكنّه قلبي لك من الإعجاب والمحبة.

فابتسم ددف ابتسامة مودة وقال بلطف:

- إنّي أقدر هذا الشعور النبيل حقّ قدره يا سنفر، ولا أجد نفسي في حاجة إلى شكرك عليه. فقال سنفر بتأثر:

- لعلّ هذا ما يعزّيني عن خسارتي في زوال صحبتك الجميلة.

فقال له القائد الشاب مبتسماً:

- لن تزول صحبتنا ياسنفر، لأنّي انتويت من اللحظة الأولى اختيارك أميناً لي. ففرح سنفر وقال:

- لن أبرح جانبك أيها القائد في السراء والضراء.

وبعد بضعة أيام دعي ددف إلى مقابلة وليّ العهد - لأول مرة - كقائد حرسه، وكانت المرة الأولى كذلك التي ينفرد به فيها الأمير، فطالع عن قرب جدّة أساريه وقسوة ملامحه، وكان من عادة الأمير أن يخلص إلى غرضه رأساً فقال باهتمام:

- أعلنك أيها القائد بأنك مدعو مع قواد الجيش وحكام الأقاليم إلى الاجتماع بصاحب الجلالة الملك للتشاور في مسألة طور سيناء، وتلقّي الأمر بقتال القبائل. إذ توطّد العزم على خوض غمار الحرب بعد طول التردد، وستشهدن مصر مرة أخرى أبناءها يمشدون لا لبناء هرم آخر، ولكن للانقضاض على بدو الصحراء الذين يهدّدون أمن الوادي السعيد.

وقال ددف بحماس:

- اسمح لي يا صاحب السمو أن أرفع إلى مقامكم العالي التهنئة لنجاح سياستكم.

فابتسمت الأساور الحديدية وقال:

- إنّي أثق في بسالتك يا ددف ثقة كبرى، وإنّي أدخر لك مفاجأة سارة أبشرك بها بعد إعلان الحرب. وعاد ددف من مقابلة الأمير سعيداً متبسطاً، وكان

وتأديب المتمردين، لدفع شرهم عن الشعب الآمن، وإعلاء كلمة الحكومة الفرعونية.

وكان القوم يتصتون إلى مولاهم في صمت رهيب وانتباه شديد، فوضح الاهتمام على وجوههم، وتبدى التحفز على انضمام شفاههم ويريق أعينهم، والتفت الملك إلى القائد أربو وسأله:

- أيها القائد، هل الجيش على استعداد للقيام بواجبه؟

فقام القائد الخطير واقفاً وقال:

- صاحب الجلالة ملك مصر العليا والسفلى ومنيع القوة والحياة، إن مائة ألف جندي بين الجنوب والشمال على كامل الأهبة للقتال، تشد أزروهم عدد حرية لا تعد ولا تحصى ويسدد خطاهم قواد مدرزيون، ومن الميسور تجنيد أضعاف هذا العدد في زمن قصير.

فاعتدل فرعون على عرشه وقال:

- نحن فرعون مصر العليا والسفلى: خوفو بن الرب خنوم، حامي النيل وسيد بلاد النوبة، نعلن الحرب على قبائل طور سيناء، ونأمر بهدم حصونها وتأديب رجالها وسيبي نساها، وإني أأمركم أيها الحكام أن تعودوا إلى مقاطعاتكم، وأن يرسل كل حاكم فرقة من حامية إقليمه.

وأشار فرعون إلى القائد أربو، فاقترب القائد من مولا، وقال له الملك:

- أعلم أنني لا أريد أن يزيد عدد الجيش المقاتل على عشرين ألفاً.

وقام فرعون على الأثر، فقام الجميع وهتفوا باسمه بحماس عظيم وانتهى بذلك الاجتماع الخطير.

وعاد ددف في ركاب ولي العهد، وكان الأمير مسروراً مبتهجاً على غير عادته، فلم يشك الشاب في أنه يفرح لنجاح سياسته ويفوز بالغاية التي طال ترصده بها، وتذكر ما وعده فحفق قلبه خفقان الحيرة والفرح وودّ لو يستطيع استنجاهه وعده، على أن الأمير لم يمدّ له حبل القلق والحيرة فقال له وهو يدخل إلى القصر:

- وعدتك بمفاجأة سارة، فاعلم أنني نلت موافقة

يسائل نفسه عما عسى أن تكون المفاجأة السارة التي يعده بها الأمير. والحق لقد رفعه الأمير في غمضة عين من ضابط صغير إلى قائد عظيم، فما الذي يجتبه له من بشریات المجد والسعادة؟ فهل يذخر له حظ السعيد أسباباً جديدة للعلا والأفراح؟

وجاء يوم الاجتماع العظيم، وأتى القواد والحكام من مصر العليا والسفلى، وشهد البهو الفرعوني رعوس مصر مجتمعة في صعيد واحد كحبات العقد الفريد، عن يمين العرش المكين وعن يساره، فجلس الحكام صفّاً وجلس القواد صفّاً، واتخذ الأمراء والوزراء أماكنهم خلف العرش، وكان ولي العهد يتوسط الأمراء، وكان الكاهن خوميني يتوسط الوزراء، وجلس على رأس الحكام سمو الأمير أبور، وجلس في مقابلة على رعوس القواد القائد العام أربو الذي كلل المشيب هامته.

وأعلن كبير حجاب القصر قدوم صاحب الجلالة الملك، فقام الجمع المحتشد واقفاً، وأدى القواد التحية العسكرية، وأحنى الحكام والوزراء الهامات إجلالاً، وجلس الملك وأذن للملاه فجلسوا، وكان الملك واضعاً على منكبيه وشاحاً من جلد الأسد، فعلم من لم يكن يعلم أن فرعون دعاهم من أجل الحرب.

واستغرق الاجتماع زمناً طويلاً، ولكنه كان على قصره رهيباً حاسماً، وبدا الملك فيه قوياً نشيطاً، واستعادت عيناه بريقهما المعروف، وقد قال لكبراء مملكته بصوته العظيم الذي يملأ القلوب إجلالاً وإكباراً:

- أيها الحكام والقواد، لقد دعوتكم لأمر جليل تتعلق به سلامة الوطن وطمأنينة شعبنا الأمين، فقد أبلغني صاحب السمو الأمير أبور حاكم أرسينه أن قبائل طور سيناء لا تفكّ عن السطو على القرى النائية وتهديد قوافل التجارة، وقد دلت التجارب على أن قوات الشرطة لا تستطيع القضاء عليها قضاء يكفي البلاد شرهاً، وأنها لا تملك الوسيلة لغزو الحصون التي يتمتع بها رجالها، وقد آن الأوان لذلك هذه الحصون

والذي الملك على اختيارك قائدًا للحملة الموجهة إلى سيناء .

### - ٢٥ -

وشملت مصر من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال حركة نشاط عظيم واسعة النطاق، وكان الجند يُحشدون في كل مكان، وكانت السفن الكبيرة تمخر عباب النيل آتية من الشمال والجنوب محملة بالجند والأسلحة والمؤن قاصدة إلى منف العظيمة ذات الأسوار البيضاء، فازدحمت بهم ثكنات العاصمة وأسواقها، وضج جرهاً بصلصلة أسلحتهم الثقيلة وأنغام أناشيدهم الحماسية، فعلم القاصي والداني بأن حرباً على الأبواب، وأن أبناء النيل ينشطون للدود عن سلامة وطنهم .

وفي فترة الاستعداد سافر الأمير أبوور إلى مقاطعته لأمر تتعلق بالحرب والاستعداد لها، وتلقى القائد ددف خبر سفره بقلب لم تنسه هموم الواجب أشجانه وهواجسه، فسأل نفسه ترى هل فاز الأمير السعيد بأمانيه الخاصة فوزه في مهمته السياسية العامة، وهل عاد إلى مقاطعته سعيداً بإعلان الحرب وإبرام ميثاق الهوى؟ ترى ما الذي حدث بينه وبين الأميرة الجميلة ذات الدل والكبرياء؟ ماذا شهدت خاتل حديقة القصر الفرعوني من مناظر الهوى؟ وماذا سمعت أطيانه من مناجاة الحب وهمساته؟ هل رأت الأميرة المتكبرة إذ تدل للناموس الذي لا يعرف الرحمة ولا يترق بالكبرياء؟ وهل سمعتها إذ تبوح بأنات الجوى باللسان الذي تعود الأمر والنهي؟

ولكن صبراً فغداً يذهب للقتال، وإنه ليذهب بقلب لا يهاب الموت ونفس تهوى المخاطر وروح تتوق إلى المغامرات والأهوال، ليته يحقق النصر لوطنه ويدفع حياته ثمناً للنصر والمجد، فيقوم بواجبه كجندي ويخلد إلى الراحة التي ينشدها قلبه المعذب. يا له من خاطر جميل حري بأن تنزع إليه النفس الباسلة إذ غررت بها أماني الحب الغرور، ولكن كيف يودع الوطن وداعاً لا رجعة منه دون أن يحظى منها بنظرة أخيرة؟ وهل كان

حبه هوًا ولعبًا؟ إن قلبه ليشتاق إلى رؤية قلبها اشتياقاً ألياً وإن نظرة من وجهها لأعزّ عنده من نور البصر ونعمة السمع وطيب الحياة، وهل أحسن بأفراح الدنيا وبهجة الحياة إلّا على ضوء وجهها الحبيب؟ فلا بدّ من رؤيتها ومعادنتها، وهو طلب يعزّ على الأحياء جميعاً ولكن ما أيسره على طالب الموت . .

ولم يدر القائد الشاب كيف يحقق أمنيته المنشودة، ومرت أيام الاستعداد القلائل سراعاً حتى جاء اليوم الذي تقرر أن يسير الجيش غداة غده، وأرادت الآلهة أن تبه بعد عسره يسراً، وأن تدني إليه ما أرقه طلبه ياساً، فجاءت الأميرة تزور شقيقها زيارة من زيارات المفاجأة، وكان الأمير قد ذهب لفتيش الثكنات الحربية. وعلم رئيس الحرس بمقدم الأميرة فخفت طائراً إلى انتظارها، ولم تغب الأميرة طويلاً داخل القصر فظهرت بوجهها الفتان وكان في توديعها كبير الحجاب، وأقبل عليها الشاب بجساسة لم تؤاته في محضرها إلّا مرة واحدة على شاطئ النيل، وأدّى لها التحية العسكرية، ثم سار في معيتها بمفرده بعد أن تخلف كبير الحجاب عند مدخل القصر، وكان يتأخر عنها مقدار خطوتين، فاستطاع أن يلمّ عينيه من حسن قامتها ورشاقة قدّها وفتنة حركاتها، والتهب صدره عطفًا ووجدًا، وتمنّى لو يفرش لها قلبه تطاه بقدميها، ليحسّ في سويدائه بوقع خطاها ولس أناملها وتردد أنفاسها. يا عجباً! إن حكمة الطبيعة لا تخلو من فكاهة ممتعة. انظر إليها كيف توطئ الفوز لهذا الفارس على جميع القوى الجبّارة، وانظر إليها كيف تدلّ عنقه لهذا المخلوق الدقيق البديع الذي لم يخلق لقطعان!

وكانا يقطعان المشى الطويل - المزدان جانباه بالورود والرياحين والتأثيل والمسلات - بخطى وثيدة. وكانت السفينة الفرعونية ترى عن بعد راسية إلى أدراج الحديقة، فتولّى الجرع قلب الشاب وكبر عليه أن تذهب من بين يديه دون كلمة وداع، وكان قلبه يضيق بكلمة يودّ أن يلقيها إلى مسمعيها المحبوبين، ولكنّ جمودها لم يدع له فرصة للكلام ورأى المسافة



الشجاعة على البوح بها لسموك لولا قوتها المخارقة في نفسي.. عفوًا يا صاحبة السمو.

- ألهذا ما تسميه كلمة واحدة؟ ومع هذا فما كان أغناك عن قولها، لأنني سمعتها يومًا قهرًا على شاطئ النيل.

فاحتاجته الذكرى وهزته قولتها «شاطئ النيل» فقال:

- لا أمل قولها دقيقة من حياتي يا مولاتي. فهي أجل ما نطق به لساني، وأجمل ما سمعت أذناي.

وكانا قد بلغا الأدرج الرخامية فتولاه الجزع وقال بتومل:

- أما من كلمة وداع؟

فالتفتت إليه وقالت:

- أستودعك الآلهة أيها القائد، سادعو بتاح العظيم أن يحقق على يديك النصر لوطنا المحبوب..

ثم هبطت أدرج السلم إلى السفينة في تودة ومهابة.

وتركت ددف يرنو إليها بعينين حزيتين، ويشهد بقلب خفاق السفينة إذ تبتعد عن الشاطئ رويدًا رويدًا.. وليثت الأميرة على سطحها لا تدخل مقصورتها فعلقت بها عيناه، وما زال يرسل ناظره حتى غيىها عنه منعطف الماء..

وسار بخطى ثقيلة مهبط الجناح تتجمع في صدره ثورة جامحة وغضبة كاسرة، على أنه كان لددف فضيلة لا تخونه في الملأ، وهي أنه لا يخضع لانفعال خصومًا يضلل به الصواب ويتكذب به عن السداد، وعلمه أخوه خنى كيف يراجع نفسه ويلزمها الحق والإنصاف، فانتحل للأميرة العذر عن قسوتها وجودها، قائلاً إنها إذا لم تصغ جوارحها إلى شكاته، فما ذلك إلا لأنها لا تحبه، ليست هي ملزمة بحبه، ولا تقع على عاتقها خيبته المريرة، بل ما أحراه أن يقر لها باللطف والرحمة، ألم يقل لها ما لا يقال لأميرة من البيت الفرعوني؟ فإذا صنعت هي؟ لا شيء إلا أن أصغت إليه وعفت العفو الجميل، ولو شاءت لقصت عليه بالهوان وردته أسفل سافلين! فصرفت مراجعته

تقصر والسفينة تقترب، فاشتد به الجزع وطغت عليه موجة من الاستهتار حلت عقدة لسانه، فقال لها بصوت متهلج:

- كم أنا سعيد يا صاحبة السمو لأنني رأيتك قبل الرحيل غدًا.

فبدا عليها كأنها بوغت بقوله، وحذجته بنظرة استغراب قاسية وقالت:

- لقد بلغت أيها القائد مكانة رفيعة.. فما لي أراك تقامر بمجدك ومستقبلك!

فقال باستهانة:

- المجد والمستقبل يا صاحبة السمو؟! إن الموت يردهما إلى الهوان.

فالتت باحتقار:

- أرى أن والدي جعل على رأس جيشه قائدًا يستحوذ على روحه قنوط الموت لا النصر والظفر!

فاندفع الدم إلى وجهه الجميل وقال بإباء:

- إنني أعرف واجبي يا صاحبة السمو وسأقوم به كما ينبغي لقائد مصري شرفته الآلهة بنيل ثقة مولاه، وسأبذل حياتي ثمنًا له.

فهزت منكبها وقالت:

- إن الرجل الشجاع لا ينسى ماضيه ولا يخرق تقاليده لراؤًا بالموت.

وكانت روح الاستهتار تستأثر به في تلك اللحظة فقال:

- هذا حتى يا صاحبة السمو، ولكن ما حياتي إذا كانت هذه التقاليد تعقل لساني عن البوح بما يضطرم في فؤادي؟ أنا ذاهب غدًا، وقد تمتيت على الآلهة أن أراك قبل ذهابي.. فأدنت إلي أمنيقي، وما كان ينبغي لي أن أجد العطف الإلهي بالصمت والجبين.

- يحسن بك أن تتعلم فضيلة الصمت!

- بعد أن أقول كلمة واحدة.

- ماذا تريد أن تقول؟

فتبدى على وجهه الجميل الهيام وقال:

- إنني أحبك يا مولاتي. قد أحبيتك حين وقع نظري عليك، وهي حقيقة رهية ما كانت تؤاتيني

لظاها في الحاضرين سواء، وكان نافا أمتعهم في الجهل  
والسداجة، فقد دنا من ددف وممس في أذنه:

- أبشر خيرًا أيها القائد، بالأمس ظفرت في الحب  
وستظفر غداً في الحرب.

فاستولى الدهول على ددف وقال:

- ما معنى قولك هذا؟

فابتسم المصور ابتسامة مأكرة وقال:

- أتظنّ أنّ نسيبت صورة الفلاحة الجميلة؟ .. آه  
ما أجل فلاحات النيل .. إنّ الواحدة منهنّ لتتميّ أن  
ترقد بين يدي ضابط جميل على الحشائش الخضراء التي  
تكسو شاطئ النيل .. فما بالك لو كان هذا الضابط  
ددف الجميل الفاتن؟!

فقال له بامتناء:

- صه يا نافا .. أنت لا تدري شيئاً.

واهتاجه حديث نافا كما اهتاجه غناء مانا وأحسن  
برغبة في الفرار، وهمّ بتنفيذ رغبته لولا تذكّر أمه،  
ولاحث منه التفاتة إليها فراها تديم النظر إليه، فخشي  
أن تقرأ صفحة قلبه بعينها المهمتين فيصيبها من ذلك  
حزن كبير، فابتسم إليها، وأقبل نحوها يجتال في حبور  
وفرّج.

- ٢٦ -

وانبثق نور فجر الغد.

وكان القائد ددف جالساً في خيمته وسط معسكر  
الجيش خارج أسوار منف، يطلع على خريطة شبه  
جزيرة سيناء وسورها الكبير والطرق الصحراوية المؤدية  
إليها، وكانت تشمل المعسكر حركة حياة صاخبة،  
فالخيل تصهل والعجلات تصلصل والجند تذهب  
وتجي، ويغشى الجميع نور الفجر الأزرق الهادئ .

وقد دخل الضابط سنفر على القائد وحيّاه باحترام  
وقال:

- أتى رسول من لدن صاحب السموّ الفرعونيّ  
الأمير رعخعوف، ويطلب الإذن بالدخول على  
سعادتكم.

لنفسه الثورة عن قلبه ولكنتها لم تعزّه عن خيئته شيئاً،  
فانطوى على ألم حزين صامت .

\*\*\*

وأضى مساء ذلك اليوم في بيت بشارو ليودّع  
أهله، وحاول ما استطاع أن يظهر بمظهر الفرح والمرح  
الذي عهدوه فيه، واجتمعوا جميعاً حول مائدة العشاء:  
بشارو وزايا وخنخي ونافا وزوجه مانا، وتوسّط المائدة  
القائد الشاب، وتناولوا طعاماً شهياً وشربوا الجعة.  
ومضى بشارو يتحدث في أثناء الأكل بلا انقطاع، غير  
مبال بالفتنات الذي يتطاير من فمه الأهتم، وقصّ  
عليهم كثيراً من قصص الحروب وخاصة الحروب التي  
خاض غمارها في شبابه. وكأنما أراد أن يطمئن زايا التي  
دلّ شحوب لونها على ما يعتلج في صدرها من  
المخاوف، فقال:

- إنّ أوزار الحرب تلقى في الأغلب على عاتق  
الجنود، وأما القواد فيحتلون مكاناً آمناً يفكّرون  
ويرسمون الخطط.

وفطن ددف إلى مرماه، فقال:

- صدقت يا والدي. ولكن ترى هل أبليت بلاءك  
الحسن في حرب النوبة ضابطاً صغيراً أم قائداً كبيراً؟  
فاستقام جسم الشيخ فخاراً وقال:

- كنت حينذاك ضابطاً صغيراً في فرقة الرماح .

وكانت سيرتي في الحرب إحدى المزايا التي رشّحتني فيما  
بعد لمنصب مفتش عامّ الهرم الفرعونيّ.

ولم تنقطع ثروة بشارو، وكان ددف ينصت إليه  
حيناً ويشرد أحياناً، وربّما غلبه الألم فتبدو في عينيه  
نظرة حزينة، وكأنّ زايا كانت تلهم أحزانه إلهاماً لأنّها  
كانت صامته ثقيلة القلب، فلم تتناول طعاماً وقنعت  
من الوليمة بكوب من الجعة.

وأحبّ نافا أن تحتتم تلك الليلة ختاماً سعيداً،  
فدعا زوجه مانا إلى العزف على القيثارة وإنشاد الأغنية  
الجميلة: «ظفرت في الحبّ والحرب» وكانت مانا ذات  
صوت رخيم، وكانت عازفة ماهرة، فملأت جوّ  
الغرفة نغمًا فاتناً وصوتاً عذباً .

واضطربت في قلب الشاب نار موقدة لم يصل.

فبدأ الاهتمام على وجه ددف وقال:

- دعه يدخل.

فغاب سنفر لحظة ثم عاد يتقدم الرسول ثم غادر الخيمة، وكان الرسول يرتدي ثياب الكهنوت الفضفاضة التي تغطي الجسم من المنكبين إلى رسغي القدمين، ويضع على رأسه قلنسوة سوداء، ويرسل لحيته الكتفة إلى ثغرة صدره، فعجب ددف لمراه، لأنه كان يتوقع أن يلقي وجهها مألوفاً لديه من الوجوه التي يراها عادةً في قصر ولي العهد، وسمع صوتاً - خيل إليه رغم خفوته أنه لا يسمعه لأول مرة - يقول:

- جئت يا صاحب السعادة في أمر خطير، فأرجو أن تأمر بإسداد الستار على الباب ويمنع الدخول إلى الخيمة بغير إذن.

فنظر ددف إلى الرسول نظرة فاحصة وكان يخالجه التردد، ولكنه هز منكبیه العريضين استخفافاً واستهانة، ونادى سنفر وأمره بإسداد الستار على مدخل الخيمة ويعدم السلاح للإنسان بالدنو منها، وصعد سنفر بما أمر، وحين خلا المكان نظر ددف إلى الرسول وقال له:

- هات ما عندك.

ولما اطمأن الرسول إلى خلوة الخيمة رفع عن رأسه قلنسوته السوداء، فبدأ شعر أسود غزير هفت خصلاته فسقطت على المنكبين في ترنح ورسمت هالة حول رأس بديع، ثم امتدت يد الرسول إلى لحية فأزالها برشاقة، وفتح عينيه اللتين كان يضيّقهما بمشيته، فسطع وجه مشرق تلالاً نوراً في جو الخيمة مع أول شعاع أرسلته الشمس في فضاء الصحراء.

وطار قلب ددف في صدره، وهتف بصوت متهدج:

- مولاتي مري سي عنخ!

خفت إليها كالطير المذعور، وجثا عند قدميها ولثم أهداب ثوبها الفضفاض. وكانت الأميرة ترسل بناظريها إلى الأمام في خفر واستحياء، ويتفحص جسمها اللدن كلما أحسّت بأنفاس الشاب الحارة تتسلل من نسج سروالها وتهبّ على ساقها المعطرة. ثم لمست رأسه بأناملها ومست بصوت خافت: «قَم». فقام الشاب

تلمع عيناه بنور فرح بهيج لم يسلس قط لبيان، وجعل يقول:

- أحقاً هذا يامولاتي؟ أحقاً ما أسمع؟ وما أرى؟ فرنت إليه بنظرة استسلام كأنها تقول له: «غلبت على أمري فجئت إليك» فقال الشاب:

- إن آلهة الأفراح جميعاً تشدو في قلبي هذه الساعة، وقد أنساني شذوها عذاب الشهور وتسهيد الليالي، ورخصت أنغامها قلبي من مرارة القنوط وظلمات اليأس، رباه! من يقول إنّي أنا الذي هانت عليه الحياة بالأمس؟!

فبدأ على وجهها التأثر وقالت بصوت خافت كتفريد الياام:

- أهانت عليك الحياة حقاً؟

فقال وعيناه تلتهمان الشفتين اللتين تنثران الحديث: - نعم هانت وتميّت الموت صادقاً، والموت تشتهيه النفس التي خسرت آمالها، ولم أكن جباناً قط يامولاتي فلبثت أؤدّي واجبي، ولكن كان يعدّبي إحساس بتفاهة الغاية وعبث الجهد. وكانت تثقل عليّ وحشة تحشم على صدري وتغشى عيني بالظلمات.

فتهدّت وقالت:

- وكنت أنا أكافح كبريائي وأجاهد نفسي وألقى منها عذاباً واصيباً.

- كم كنت قاسية عليّ!

- وكنت على نفسي أشدّ قسوة، أتذكر ذلك اليوم على شاطئ النيل، لقد عدت يومها يدبّ في أعماق قلبي قلق غريب، وعلمت فيها بعد أنه قدر لقلبي أن يستيقظ على صوتك من سباته العميق، واكتشفت هذه الحقيقة تتقاسمني لذّة المجازفة والخوف من المجهول، ثم ذكرت فخارك واعتدادك بنفسك فثرت وتمردت، وكنت كلما وقع نظري عليك فسوت على نفسي وقسوت عليك.

فتهدّت وقال بلهفة أسيفة:

- كم عدّبي غروري! أتذكرين ثاني لقاء لنا في قصر صاحب السمو؟ لقد انتهرتني في شدّة وعنفني تعنيفاً قاسياً، وبالأمس لم تسمعي لشكائي وتركتني دون

فنظرت إليه بعينين يلتصق فيها نور الحب والأمل،  
ولكن خيل إليها أن وجهه يكفهـر وصدره ينقبض  
وتظلل جبينه سحابة مظلمة، فساورها القلق وسألته:

- فيم تفكر؟

فقال باقتضاب:

- الأمير أبور!

فضحكت قائلة:

- هل بلغك ما تناقلته الألسن حيناً من الزمن؟ يا  
عجباً. لا يخفى شيء في مصر وإن كان من أسرار  
القصر الفرعوني، ولكنك علمت شيئاً وغابت عنك  
أشياء، فالأمير إنسان نبيل سامي الخلق، وقد حادثني  
يوماً - ونحن منفردان - في الموضوع الذي أذيع،  
فاعتررت وقلت له: إنني أؤثر أن أبقي صديقه، ولا  
أشك أنه أحسن بخيبة، ولكنه ابتسم ابتسامة نبيلة  
وقال لي: إنني أحب الصدق والحزنة، وتكره نفسي أن  
تستذل نفساً نبيلة..

فقال ددف بفرح:

- ياله من إنسان نبيل!

- نعم، إنه كريم..

- ألا يوجد في أفقنا ما يدعو إلى التشاؤم؟ أعني..

أخشى فرعون!!

فخفضت عينها خفراً وقالت:

- لن يكون أبي أول فرعون يصاهر أحد أفراد

شعبه المقربين!

فأطربه جوابها وأسكره خفراها، وحنّت ضلوعه إليها  
حينئذ موجعاً، وامتدت يده إلى يدها - وكانت تهم  
بلصق اللحية بوجهها - إشفافاً من مغيب هذا الوجه  
الحسن المشرق، فأسلمت يدها إلى يده، وكان  
استسلامها عذباً ساحراً، فجثا الشاب أمامها ولثم  
يدها هيئاً مفتوناً، وقالت له:

- أستودعك الآلهة جميعاً.

ثم ألصقت اللحية المستعارة بوجهها، وضغطت  
على القلنسوة حتى مسّت حافتها حاجبيها، فردّت إلى  
هيئة رسول الأمير وليّ العهد، وقبل أن توليه ظهرها  
وضعت يدها في صدرها وأخرجت الصورة الصغيرة

كلمة وداع، فهل تعلمين كم تعذبت وكم تألّمت؟  
هيهات.. فليتي أطلعت على الغيب! كانت أشدّ  
أوقاتي عبوساً أحققها بالسعادة. وكنت أشكو إلى الآلهة  
عذابي فتضحك من جهلي!

فابتسمت وقالت:

- وكانت تشهد الآلهة كبريائي فتضحك من  
هواني، فهل رأيت مثلاً العوبة من قبل؟

- ولما نزل العوبة تستحقّ الرثاء، فإنني كلّما أذكر ما  
أضعننا من وقت ثمين!

وتنهّد أسفاً حزينا، فقالت:

- على رأسي يقع وزر ذلك.

فنظر إليها بخنوّ وقال:

- فدتك نفسي من كلّ شرّ.

فابتسمت ابتسامة حلوة وقالت:

- أظنّ أنّ الوقت يقسو علينا هذه المرة.

فتنهّد أسفاً ونظر إليها بعينين مكتئبتين، فقالت تبثّ  
فيه روح الأمل:

- أمامنا مستقبل طويل مشرق بالأمل.. فتمنّ

الحياة كما تمثّيت الموت.

فقال بسعادة وابتهاج:

- لن يقدر الموت على قلبي..

فوضعت إصبعها على فمه وقالت:

- لا تقل هذا.

ولكنه قال بحماس جنوني:

- ماذا يصنع الموت بقلب جعله الحبّ من  
الخالدين؟

فقالت:

- سألبث بالقصر، لا أبرحه، حتى أسمع الأبواق  
تزفّ بشرى النصر والعودة!

- فلندعّ الأرباب أن تقصّر فراقنا.

- نعم ساصلّي إلى بتاح، ولكن في القصر لا هنا  
لأنه ليس لدينا متّسع من الوقت.

ووضعت القلنسوة على رأسها، فتالم لاختفاء الشعر  
الأسود الخالك عن عينيه وقال:

- أهون عليّ أن أفارق عضواً عزيزاً من جسمي!

وقد طلعت عليهم شمس الضحى ولفحهم وهج الظهيرة. وهب عليهم نسيم المغيب وهم يضربون في الأرض كالمردة، تكاد الأرض تشكو من حمل أنقاطهم ولا يشكون من شيء.

### - ٢٧ -

ورؤيت عربية استكشاف تنهب الأرض صوبهم، فتطلّعوإ إليها باهتمام شديد، وتقدّم قائدها من القائد وأخبره بأنّ عيونهم عثرت على جماعات من البدو متشرّين حول تلّ الدوما، وكان من رأي الضباط أن يسيروا إليها فرقة من الجيش لقتالهم، وبسط ددف خريطة الصحراء أمامه ويبحث باهتمام عن تلّ الدوما، ثمّ قال:

- إنّ تلّ الدوما يقع جنوب طريقنا، والمعروف عن أولئك البدو أنّهم يسيرون جماعات صغيرة للنهب والفرار، وأنّهم لا يخطر لهم على بال مهاجمة جيش جرّار كجيشنا، فلا خلاف علينا من مواجهة حركة التفاف. فقال له أحد الضباط:

- أظنّ يا صاحب السعادة أنّه ليس من الحكمة تركهم...

ولكنّ الشاب قال:

- لا شك أنّنا سنصادف في طريقنا كثيرًا من أمثال هذه الجماعات، فلو أنّنا سیرنا إلى كلّ جماعة منها كوكبة من جنودنا لنشئت قوتنا، فلنضع نصب أعيننا الهدف الأوّل، وهو اختراق سورهم الحصين وضربهم في عقر دارهم والقبض على زعيمهم خانو..

ولكنّه رأى عن حكمة أن يعزّز القوة التي تحرس عربات المؤن والأسلحة.

وتقدّم الجيش في طريقه، ولم يروا في أثناء سيرهم أثرًا لرجال القبائل، وأنتهم الأخبار بأنّ كلّ من يضرب في الصحراء منهم ولّى الأدبار، حين سمع بأخبار الجيش الزاحف صوب شبه الجزيرة، فشقّوا طريقًا آمنًا خاليًا حتّى بلغوا أرسينته، فآلقوا عصا الترحال ليأخذوا قسطهم من الراحة وحاجتهم من المؤن، وبادر الأمير

العزيزة التي اتخذتها الطبيعة علةً لهذا الغرام الجميل، وأعطته إيّاها بغير كلام، فأخذها بحنوّ وهيام ولثمها بفمه ثمّ دفنها في صدره في مكانها الأوّل المعهود وألقت عليه ابتسامة وداع، وكأنّما أرادت أن تضاحكه، فأذت له التحية العسكرية، وسارت في مشية الجنود إلى الخارج.

ولم يكن الفتى الذي تركته ذاهلاً من الفرح مشرق الوجه بنور الأمل هو الذي رآته حين مقدمها كاسف البال شارد الخاطر متهافت النفس، فقد بعث الحبّ في نفسه بعثًا جديدًا وأحياها بعد موات، وزارت مخيلته - في تلك اللحظة السعيدة، أطراف من ماضي قلبه، من معرض نافا الجميل، وشاطئ النيل الأخضر الفسيح، وقطيع الفتيات الحسان، ثمّ ذكر حزنه ويأسه وتلف نفسه الجلدة الصبور، ثمّ ذكر الأمل المشرق الذي أدركه في غمرات القنوط والأحزان، فتتمثّلت له حقيقة الحبّ والحياة كنهر يسقي بستانًا ناضرًا تتألّق أزهاره وتغرّد أطياره ما جرى ماؤها عذبًا، فإذا نصب معينه خوى البستان على عروشه وذوى حسنه وتجرد كفلاة مهجورة.

وأعادته إلى اليقظة دخول سنفر، وأخبره الضابط بأنّ كلّ شيء على قدم الاستعداد، فأمره بالنفخ في الصور إيدانًا بالرحيل، فانبثّت على الأثر في المعسكر حركة هائلة، وعزفت الموسيقى، وتحركت طليعة الجيش. وركب ددف عربية القيادة التي يتولّى قيادتها سنفر، وركب كبار الضباط وسارت جماعتهم إلى قلب فرقة العجلات، ثمّ نفخ في الصور مرّة أخرى، فتحرّكت عربية ددف في الطليعة بين جناحين من عربات الضباط العظام، وتبعته في صفوف متوازية فرقة العربات المكوّنة من ثلاثة آلاف عربية حربيّة مثقلة بالأسلحة، وسارت خلفها فرق المشاة، تحمل كلّ علمها، تتقدّمها فرقة القسيّ وتليها فرقة الرماح ثمّ فرقة السيوف، وتبع الجيش عربات المهيّات الكبيرة محمّلة بالأسلحة والمؤن والعقاقير الطبيّة، تحيط بها قوّة من الفرسان.

اخترق ذلك الجيش الصحراء، يهدف إلى السور المنيع الذي اتخذته القبائل وكرا آمنًا.

الفريقين، وكانت السهام تنطلق جماعات كثيفة كسحب الجراد، ولكن كان أكثرها يضيع هباءً بعد المسافة.

وكان ددف يرقب المعركة باهتمام شديد، ويشاهد يكبار مهارة الجنود المصرية في الرماية التي أكسبتهم شهرة تقليدية لا مثيل لها، ورأى فيها رأى باب السور الكبير، فقال لسنفر:

- يا له من باب عظيم كأنه باب معبد بتاح!

فقال له الضابط المتحمس:

- عسى أن يتسع لعرباتنا التي ستخترقه بعد حين!

ولم تذهب المناوشة سدى، فقد لاحظ ددف أن رجال القبائل لم يبنوا على السور أبراجًا تقي رماتهم سهام المهاجمين، فلا يستطيعون أن يرموا عن قسيهم إلا إذا تعرّضوا لخطر القتال، فوضحت له فائدة الهجوم بالدروع الكبيرة المعروفة بالقباب. . وكان الدرع من هذه الدروع أشبه ما يكون بالمحارب المجوف في حيطان المعابد، وهو لكبر حجمه يمكن أن يخفي الجندي من الرأس إلى القدم، ولسمك جسمه يستطيع أن يردّ السهام، فلا تنفذ منه إلا إذا أصابت منافذ صغيرة في أعلاه يصوب منها حامله.

وقد أصدر ددف أمره بأن يتقدّم بضع مئات بهذه الدروع لقتال حرس السور، فاصطفوا جميعًا خلف دروعهم في شبه نصف دائرة واسعة، ثم تقدّموا نحو السور لا يبالون وإبل السهام المتساقط عليهم، ثم وضعوا القباب على الأرض وراشوا سهامهم، وبدأت بينهم وبين عدوّهم معركة عنيفة دموية تطايرت فيها رسل الموت من الجانبين، وكان رجال القبائل يتساقطون بكثرة، ولكنهم أبدوا جلدًا غريبًا وشجاعة نادرة المثال، فكانوا كلما سقطت منهم طائفة حلتّ محلّها أخرى، وكانوا رغم امتناع المصريين بدروعهم الغريبة يصيبونهم خلال المنافذ الصغيرة، فسقط من المصريين قتل وجرحي كثيرين.

وما زالوا في قتال عنيف حتى تخضب الأفق الغربي بدم الشفق، وصدرت الأوامر إلى المصريين بالتقهقر فرجعوا القهقري وقد نال منهم التعب كلّ مثال.

أبوور إلى زيارتهم. واستقبل استقبالًا رسميًا يليق بمكانته السامية، وتقدّم الأمير وحدات الجيش، ومكث مع القائد وكبار معاونيه يتحدث إليهم في شؤون الحملة، وقد اقترح عليهم أن يوجّدوا حلقة اتصال بينهم وبين أرسينة ليطّلع على أخبارهم، وليمدّهم أولًا بأول بما يحتاجون إليه، وقال لهم في ذلك:

- واعلموا أن جميع قوّات أرسينة مشمّرة للقتال، وأن قوّات عظيمة من سرايوم وذقعة ومنسدس في طريقها إلى أرسينة.

فقال ددف:

- ندعو الآلهة يا صاحب السموّ ألا نحتاج إلى قوّات جديدة، احترامًا لرغبة صاحب الجلالة الذي يحرص على أرواح العباد.

ونام الجيش تلك الليلة نومًا عميقًا هادئًا، ثم استيقظ على نفخ الأبواق عند صراخ الديكة.

واستأنف مسيره شرق أرسينة في جلبة وعظمة، وما زالوا في حلّ وترحال حتى لاح لهم عن بعد السور الكبير الذي يبتدئ جنوبًا من خليج هيروبوليس. وينعطف شرقًا راسمًا قوسًا عظيمًا، فانعطف الجيش ناحية الشمال، ومال قليلًا نحو الشرق، ثم ألقي أثقاله وعسكر في موضع لا تصل إليه سهام المحاصرين.

واستطاعوا - من معسكرهم - أن يشاهدوا متانة بنيان السور، وأن يروا الخراس الذين يعتلونهم والقسي في أيديهم، استعدادًا للذود عن حياضهم ضدّ الجيش المغير.

وأتفق رأي ددف والقبّاط على أن الانتظار لا يجدي في حالتهم كما قد يجدي في حصار مدينة بتجويج سكّانها، واجتمعت كلمتهم على وجوب البدء بمناوشات خفيفة ليختبروا بها قوّة عدوّهم.

وكان من الخطر أن تهجم العربات في أوّل المعركة خشية أن يحسروا جيادهم المظّهمة، فتقدّم بضع مئات من الجنود المدرّعين حاملي القسي في شبه نصف دائرة، يفرّق بين الواحد ورفيقه عشرات الأذرع من الخلاء، حتى إذا بلغوا موضعًا ظنّ العدو أنّه صائبهم فيه أطلق عليهم سهامه فقابلوه بمثلها، وابتدأت أوّل معركة بين

الملك، حتى قال لها مرةً بلهجة الغضب:  
- إنَّ والدنا يهرم سريعاً.

فنظرت إليه نظرة إنكار، فاستطرد يقول:  
- حقاً إنَّه ما يزال يحافظ على سلامة بنيته ووحدة  
ذهنه، ولكن قلبه يشيخ ويهرم. ألا ترين أنَّه يولي  
ظهيره سياسة الحكم ويميل بقلبه وعقله إلى التأمل  
والرحمة، ويصرف وقته الثمين في الكتابة؟  
أين هذا من واجب الحاكم القوي؟

فقالت له الأميرة بامتعاض:  
- الرحمة كالقوة من فضائل الحاكم الكامل.

فقال بسخرية:

- لم يلهمني والذي هذه الحكمة يا مري سي عنخ،  
ولكنه ضرب لي الأمثال الخالدة بأثار القوة الخلاقة  
لجلائل الأعمال، فسخر أمة لبناء الهرم وزحزحة الجبال  
وترويض الصخور العاتية، وكان يزأر كالأسد المحصور  
فتختر القلوب فرقاً ورعباً وتأتي النفوس طوعاً أو كرهاً.  
فيقتل من يشاء ويغفر لمن يشاء، ذلك هو والذي الذي  
أفتقده ولا أجده، ولا أرى سوى ذلك الشيخ الذي  
يمضي الليل إلّا قليله في حجرة التابوت يفكر ويملي،  
ذلك الشيخ الذي ينفر من الحرب ويشفق على الجنود  
كأنهم خلقوا لغير القتال.

فقالت مري سي عنخ:

- لا تتكلم عن فرعون بهذه اللهجة أيها الأمير،  
لقد خدم والدنا الوطن يوماً بقوته، وسيخدمه أضعافاً  
بحكمته.

على أنَّ زيارتها لقصر الأمير لم تكن تقطع جميعاً  
بأمثال هذا الحديث المضي، ففي يوم من الأيام  
المعدودة في العمر- وكان قد مضى على رحيل الجيش  
المصريّ عشرون يوماً- وجدت الأمير مغتبطاً راضياً،  
ورأت وجهه الصلب يلين عن ابتسامة قليلاً ما تُرى  
عليه، ففحق قلبها وطار خاطرها إلى الحبيب البعيد.

فسألت شقيقها:

- ما وراءك يا صاحب السموم؟

وكانت منف تنتظر أنباء القتال في هدوء المطمئن،  
للثقة العظيمة التي توليها جيشها والاستهانة البالغة  
التي تشعر بها نحو قبائل البدو الناهبة، ولكن قلوباً  
كبيرة كانت تحفّق خفقان المشفق، ويخلق لها الحنان  
والأوهام ويصوّر لها المخاوف، منها قلب عاهل النيل  
العظيم الذي تحوّل على الكبر إلى الحكمة ومضى يكتب  
بمداد قلبه رسالته الخالدة إلى شعبه الحبيب، ومنها قلب  
زايا الذي أضناه الألم وعذّبه الخوف وأزقه السهاد،  
وقلب آخر لم يعرف من قبل معنى الألم ولا ذاق طعم  
الخوف، وهو قلب الأميرة مري سي عنخ التي وهبتها  
الآلهة أبهى ما لديها من حسن وهيأت على الأرض لها  
أمتع ما فيها من الترف والنعيم، وسخرت لحيّتها أعظم  
قلوب البشر طراً، وأزلّت لها قوى الطبيعة فلا  
يفرصها برد الشتاء ولا يلفحها حرّ الصيف ولا تهبّ  
عليها ريح الجنوب ولا ينفذ إليها مطر الشمال، فما  
زالت تمرح وتلعب حتى مس قلبها الحب كما تمس  
أنامل الطفل الطليق ألسنة اللهب، فاكثرت بناره  
وفتحت صدرها لعذابه وهوانه..

ولم تخف حالتها على وصيفاتها، وعلى وصيفتها ناي  
على وجه الخصوص، وقد قالت لها يوماً وهي ترقبها  
بعين الريبة والإشفاق:

- أنتنّه مولاتي؟ فما يفعل من لا تحنو عليه الآلهة  
والفراعين؟ أمّحين ضارعة متوسّلة؟ فمن الذي نتوسّل  
به ونضرع إليه؟ أمّخفضين عينيك يا مولاتي؟ فلمن  
خلقت الكبرياء؟

ولكن حلم الأميرة لم يتسع لمداعبات وصيفتها،  
فكانت تؤثر في تلك الأيام الشديدة الخلوة إلى نفسها،  
وكانت تودّ لو تستطيع أن تحافظ على قولها لحبيها: إنّا  
لن تغادر القصر حتى نسمع أبواق العودة الطافرة،  
ولكنّها وجدت حينئذٍ إلى زيارة قصر شقيقها وليّ العهد  
لتلقي تحيةً قلبيةً على المكان الذي كان يلقاها فيه كلّما  
ذهبت لزيارة أخيها.

وكان وليّ العهد يستقبلها ويتحدّث إليها، ولم يخف  
عنها عاطفة كانت تجهلها فيه وهي تلمله من سياسة

فقال:

- بلغتني أنباء سارة تقول إن جيشنا حاز انتصارات باهرة، وإنه عما قليل يقتحم حصن العدو.  
فصاحت به:

- زدني من هذا النبأ السعيد!

- يقول الرسول إن جنودنا تتقدم مدرعة بالقباب حتى صارت على قيد أذرع من السور، واستحال على رجال القبائل الظهور على السور، ومن تحدّثه نفسه منهم بالمجازفة ترديه نبالنا قتيلاً.

وكان هذا النبأ أسعد ما سمعت من شقيقها في حياتها. وقد تركت قصر الأمير قاصدة إلى معبد بتاح، وصلت إلى السرب العظيم ودعت للجيش بالنصر ولحبيها بالسلامة، واستغرقت في صلاتها استغرافاً عميقاً لا يعرفه إلا المحبون، وعادت إلى القصر الفرعوني يدب في قلبها الجزع، الذي يقل صبره كلما دنا من غايته.

#### - ٢٩ -

وكانت الجنود المصرية قد دنت من السور الحصين واستطاعت أن تمسه بأسنة رماحها، وأحاط به الرماة من كل جانب مسددين قسيهم كلما ظهر رجل أودوه قتيلاً، ولم يجد العدو من حيلة إلا أن يلقي عليهم الأحجار، وأن يسد نباله ليصيد بها من يعتلي السور منهم، وظلوا على تلك الحال زمناً يسيراً وكل فريق يترقب لغريمه، وفي فجر اليوم الخامس والعشرين للحصار أصدر ددف أمره للرماة بالهجوم العام، فانقسموا طائفتين: واحدة لمراقبة السور وأخرى تقدّمت مستظلة بحايها يحمل رجالها السلام الخشبية والدروع الطويلة والقسيّ والسهام، وأسندوا السلام إلى السور وصعدوا أدرجها ناشرين أمامهم الدروع كأنها الأعلام، ثم أثبتوا الدروع على السور فبدا كحائط الحصون المصرية المدرع بالقباب، وتلقوا بها آلاف السهام التي ترامت عليهم من كل حذب وصوب، وتساقط منهم عدد غير يسير، وأجابوا عدوهم بسهام لا تطيش ملأت الجو أزيزاً خفيفاً. وعلا

الصياح يشقّ عنان السماء، واختلط هتاف الفوز بأنات الألم وصراخ الرعب، وفي أثناء القتال المستعر هجم فريق من المشاة يحملون جذوع النخل صوب الباب الكبير، وصكّوه صكاً شديداً دوى دويّاً مرعباً..

وكان ددف يقف على ظهر عربته الحربية يرقب القتال بعينين قلقتين وقلب متحفّز للقتال وكان يقلّب وجهه بين الجنود المعتلية للسور والمتوثبة لاعتلائه وبين المهاجمين على الباب الضخم الذي بدأت تنزع أركانه ويضطرب بنيانه.

وبعد زمن ليس باليسير رأى الرماة يقفزون داخل السور، ورأى المشاة من حاملي الرماح يصعدون السلام ورماحهم مجرّدة ودروعهم مشهّرة فعلم أن العدو أخذ يخيل مواقعه خلف السور ويتقهقر داخل شبه الجزيرة.

ومرّت ساعة على قتال عنيف وانتظار جزوع، وكانت فرقة العربات - وعلى رأسها القائد الشاب - تنتظر صفوفاً، ولم يلبث أن فتح الباب على مصراعيه بعد أن رفع الجنود المصريون بداخل السور مزلاجهم، وأمر ددف سنفر بالهجوم، فترك للجوادين العنان، وانطلقت خلفه العربات تجلجل جلجلة الجبل المنهار، وتثير خلفها ريحاً من التلع والرمال، واجتازت الباب عربة عربية، وكانت تعطف واحدة إلى اليمين والأخرى إلى اليسار، فرسمت جناحين مديدين يلتقيان في عربة القائد، وهاجمت العدو كقبضة يد هائلة تنصر عصفوراً هزياً، وفي أثناء ذلك احتلّ الرماة الأماكن الحصينة والتلال العالية، وتقدّمت فرقة الرماح لتحمي مؤخرة العربات، وتقاتل من يلتف للإحداق بها.

وكان سنفر يقود عربة القائد ببسالة وثبات، وكان ددف يطلق سهامه التي لا تحجب فتعرف مستقرها في الرقاب والقلوب، وقد ولّى العدو الأدبار، ومن تحلّف منهم انقضّ عليه الجنود الزاحفون برماحهم، فلم ينج من الموت إلا هارب أو أسير أو جريح.

وانتهت المعركة الفاصلة في ساعات قلائل، وباتت قرى القبائل تحت رحمة الجنود المحتلة، وامتلأ الميدان بجثث القتلى أو الجرحى من الفريقين، وانتشر الجند



- سوف تهمل مناجم فقط - التي تشكو قحطاً في عيالها فرحاً بهؤلاء الرجال الأشداء .

انتقل ومن معه إلى منطقة صاخبة هي منطقة السبايا اللاتي لم يستطعن هروباً، وكانت أطفالهن تصرخ وتعول، وكُنَّ يلطمن وجوههن ويندبن حظهن ورجالهن القتل أو الجرحى أو الأسرى أو المشردين، ولم يكن ددف يعلم بلغتهن فألقى عليهن نظرة غريبة لم تخل من إشفاق، ووقع بصره على طائفة منهن تبدو عليها أي النعيم، فسأل الضابط الذي يشرف على حراستهن:

- من هؤلاء النسوة؟

فقال الضابط:

- هن حريم زعيم القبائل .

وتأملهن القائد وعلى فمه ابتسامة، وكُنَّ ينظرن إليه بأعين جامدة لا شك تخفي خلفها ناراً مضطربة يؤذذن لو تسلطنها على القائد الظافر الذي أسر سيدهن واستلذهن وسامهن من بعد عزة هواناً .

شدت واحدة منهن عن نطاق أترابها وأرادت أن تتقدم من القائد، فحال بينها وبين بغيتها جندي وأشار إليها مهذباً منذراً، ولكنها صاحت بالقائد باللغة المصرية المبينة:

- أيها القائد دعني أقرب منك وليباركك الرب رع .

فدهش ددف ودهش من معه جميعاً لطلاقة لسانها وحسن نطقها المصري كأحد الناطقين بها، وأمر القائد الجندي أن يتركها تتقدم منه، فتقدمت بخطى وثيدة حتى دنت من الشاب وانحنى أمامه في احترام وإجلال، وكانت امرأة في الخمسين من عمرها وقور الطلعة في وجهها أثر لحسن قديم عفا عليه الزمان والشقاء، وفي قسبتها شبه عجيب من بنات النيل، فقال لها ددف:

- أراك تعرفين لغتنا أيها السيدة .

فتأثرت السيدة تأثراً شديداً حتى اغرورقت عيناها بالدموع، وقالت:

هنا وهناك بغير نظام، وأقبل الجنود المصريون يبحثون بين الجثث عن إخوانهم الأبطال الذين سقطوا في ميدان القتال، ومضوا يجمعونهم إلى المعسكر خارج السور، وأخذ غيرهم يجمعون جثث العدو ليحضرها عدداً، وجعل آخرون يقيدون الأسرى بالحبال ويستولون على أسلحتهم ويجمعونهم صفوفًا صفوفًا. ثم أخليت القرى الصغيرة من النساء والأطفال وأحضرن جماعات جماعات وهن يصرخن ويعولن إلى جانب الأسرى، وأحاط الحرس بالجميع من كل جانب، ثم عاد الجنود كل طائفة إلى حيث نشر علم فرقته، ووقفوا صفوفًا كل فرقة على رأسها ضباطها الذين نجوا من شر القتال .

وأتى القائد يتبعه قواد الفرق، فاستعرض الجيش المنتصر الذي أدى له التحية بحماس عظيم، وسلم على الضباط البواسل وهتأهم بالفوز والنجاة، وحيًا ذكرى من سقط منهم شهيداً، ثم سار مع أركان حربه إلى البقعة التي ألفت فيها جثث الأعداء، وكانت الجثث ممددة بعضها إلى جانب البعض وقد سالت دماؤها أنهاراً، ووجد على حراستها ثلة من الجنود على رأسها ضابط، فسأله ددف:

- كم عدد القتلى والجرحى؟

فأجاب الرجل:

- قتل من العدو ثلاثة آلاف رجل وجرح خمسة آلاف .

فسأله:

- وكم عدد ضحايانا؟

فقال:

- قتل منا ألف وجرح ثلاثة آلاف .

فاكفهر وجه الشاب وقال:

- كلفتنا فبائل البدو غالباً . .

وسار القائد إلى حيث يوجد الأسرى، وكانوا جميعاً غفيراً تنتظمه الحبال الطويلة جماعات، وتقيد أذرعهم إلى الخلف، وقد نگست رءوسهم حتى مسّت لحاهم صدورهم، وألقى ددف نظرة عليهم وقال لمن حوله:

وأراد أن يُدخل الطمأنينة على نفسها المغتربة،  
فأرسلها إلى المعسكر معززة مكرمة.

وعندما أتى مساء ذلك اليوم كان الجيش قد انتهى  
من دفن قتلاه وتضميد جراح جرحاه، وأوت الجند إلى  
الخيام تأخذ قسطها من الراحة بعد نصب اليوم  
المرهق، وجلس ددف أمام مدخل خيمته يصطلي نارًا  
ويتأمل ما حوله بعينين حالمتين، وكان أعظم ما يستولي  
على مشاعره على الأرض تلك الأعلام المصرية الخفاقة  
المنشورة على السور الحصين، وفي السماء هاتيك  
الحجوم التي كأنها عيون تتألق أبدًا إعجابًا بقدره الخالق  
وجمال المخلوق.. وكانت تخلق بساء خياله أطياف  
جميلة - مثل النجوم - تمثل لقلبه ذكريات منف السعيدة  
وأحلامها وأمالها، ولم ينس في أحلامه تلك الساعة  
الرهبة المقل عليها حين يقف بين يدي فرعون،  
ويطلب إليه قلب أعزّ مخلوق إلى نفسه في مصر. يالها  
من ساعة رهبة!! ولكن ما أجل الحياة إذا اطردت من  
نصر إلى نصر، وتنتقلت من سعادة إلى سعادة! ليتها  
تسير كذلك أبدًا، وليت الأقدار ترحم الإنسان! ولكن  
الظاهر أن السعادة نادرة الوجود في هذه الدنيا، وهل  
يستطيع أن ينسى صورة تلك المرأة البائسة التي  
اختطفها البدو من بين يدي سعادتها واهتصروا شبابها  
وساموها الذلّ عشرين عامًا! ياللمسكينة!

نعم لم يستطع ددف أن ينسى في سعادته وفوزه بؤس  
تلك المرأة..

- ٣٠ -

وأشرقت الشمس على منف ذات الأسوار البيضاء  
وكأنها تستقبل عيدًا من أعياد الربّ بتاح، فالأعلام  
ترفرف على أسطح البيوت والقصور، والطرق والميادين  
تموج بجموع الشعب كأنها عباب النيل إبان الفيضان،  
والجوّ يضيح بالأناشيد تحية لفرعون والجيش الظافر  
والجنود البواسل.

وسعف النخل وأغصان الزيتون تلوح في الفضاء  
كأنها أجنحة طير أليف تداعب هامات كلّها الظفر  
وأطربها الفرح، وبين تلك النفوس السعيدة المغتربة

- كيف لا أعرفها وقد نشأت لا أعرف لغة سواها؟  
أنا مصرية يامولاي!

فزاد العجب بالشاب وأحسّ نحوها بعطف شديد،  
وسألها:

- أحقّ أنت مصرية ياسيدي؟

فأقلت له بيقين وحزن:

- نعم يامولاي، مصرية بنت مصريين.

- وما الذي جاء بك إلى هنا؟

- جاء بي حظي التمس إذ خطفني على أيام شبابي  
هؤلاء الرجال الغلاظ الأكباد الذين نالوا جزاءهم على  
أيديكم الباسلة، وساموني سوء العذاب حتّى أنقذني  
زعيمهم من شرهم ليبتليني بشره، فضمّني إلى حريمه  
حيث عانيت ذلّ الأسر وحسرتة عشرين عامًا..

فاشتدّ تأثر ددف، وقال للمرأة البائسة:

- اليوم ينتهي أسرك أيتها السيّدة التي تربطني بها  
أخوة الجنس والوطن، فقري عينا.

فتنهّدت المرأة التي قسا عليها الدهر عشرين عامًا  
طويلة، وأرادت أن تمجّو عند قدمي القائد، ولكنّه  
أمسك بيدها برقة وقال لها:

- هدّئي من روعك ياسيدي.. من أيّ البلاد  
أنت؟

- من أون يامولاي، مقرّ الربّ رع.

- لا تخزني لقد ابتلاك الربّ بشرّ عظيم لحكمة  
يعلمها هو، ولكنّه لم يتسكّ. ولسوف أقضّ على  
مولاي الملك قصّتك وأضرع إليه أن يفكّ رقبتك  
فتعودي إلى مسقط رأسك راضية سعيدة..

فساور المرأة القلق، وقالت للقائد بتوسّل:

- أضرع إليك يامولاي أن ترسلني إلى بلدي توثا،  
عسى أن تمّن عليّ الآلهة بالعثور على أهلي.  
ولكنّ الشاب هزّ رأسه وقال:

- ليس قبل أن أرفع أمرك إلى فرعون، لأنك  
الآن - شأنك شأن جميع هؤلاء الأسرى - ملك للملك  
ولابدّ من تسليم الوديعة إلى صاحبها، ولكن اطمئني  
ولا تخشي شيئًا، فرعون ربّ المصريين لا أسرهم ولا  
مذلّهم.

دفع من الشرفة الملكية جرد سيفه ومدّ يده تحية ولفت وجهه إلى الملكين، وكانت الأميرات حنوتس ونفر حتيس وحتب حرس ومري سي عنخ واقفات خلف الملك والمملكة، فانجذبت عيناه إلى عينيْن فانتسبن لهما عليه سلطان ليس لشيء في الوجود، وتبادلت الأعين رسالة نارية خفق لها القلبان، حملت شوقاً مضى وجوى، فلو أنّها مسّت في سبيلها حاشية علم من الأعلام لأشعلت نارا موقدة.

\*\*\*

ودّعي القائد ددف للمشول بين يدي فرعون، فذهب بقلب ثابت ونفس مطمئنة، ومثل في الحضرة الجليلة مرة أخرى، وقد تعطف الملك وقدم له الصولجان، فلشمه ساجداً، ثم وضع على أعتاب العرش مزلاج باب السور الحصين الذي اقتحمه جيشه ظافراً ثم قال:

- مولاي صاحب الجلالة فرعون مصر العليا والسفلى، سيد الصحراء الشرقية والصحراء الغربية وصاحب بلاد النوبة، مولاي! لقد أيدتنا الآلهة على عمل عظيم وفتح مين، فضمت إلى ملككم السعيد ملكاً جديداً، وأدخلت في طاعتكم أفواجا كانوا إلى أمس عصاة طاغين، وطوت تحت جناحي ربوبيتكم قلوباً خاشعة أقسمت في ذلّ الأسر يمين الإخلاص لعرشكم العتيد.

فقال له فرعون الذي كلّل هامته المشيب:

- إنّ فرعون يهشك أيّما القائد الظافر على إخلاصك ويسألك، ويرجو أن تمدّ الآلهة في عمرك ليتفع الوطن بمواهبك.

وتعطف فرعون ومدّ يده إلى القائد الشاب الذي لشمها باحترام عميق وقلبه يدقّ دقاً عنيفاً، وسأله الملك:

- ما عدد جنودي الذين استشهدوا في سبيل الوطن

وفرعون؟

فقال ددف بصوت خافت:

- استشهد من الأبطال ألف يا مولاي.

- وما عدد الجرحى؟

شقت مواكب الأمراء والوزراء والكهنة طريقها إلى باب المدينة الشمالي، لاستقبال الجيش المظفر وقائده الباسل.

وفي الموعد الموعد حمل النسيم أنغام موسيقى الجيش الظافر، وبدت طلّاعه في الأفق ترفرف عليها الأعلام، فتعالى الهتاف ودوى التصفيق ولوّحت الأيدي بالأغصان، وغمر القوم موجة من الحماس الدافق جعلتها كالبحر الخضمّ المتعارك الأمواج.

وتقدّم الجيش بنظامه المعهود تتقدّمه جموع الأسرى مكتوفة الأذرع منكسة الذقون، تتبعها عربات كبيرة تحمل السبي من النساء والأطفال والمغانم، ثمّ بدت فرقة العربات يتقدّمها القائد الشاب يحيط به السادة المستقبلون من كبار رجال المملكة، وتتبعه صفوف العربات الحربية المهية يشملها نظام دقيق رائع، وتأتي على الأثر فرق الجيش من الرماة وحاملي الرماح إلى حاملي الأسلحة الخفيفة، تتقدّم صفوفًا تسير كلّ على أنغام موسيقاها، وقد تركت أماكن من سقطوا في المعركة الظافرة شاغرة تحية لذكراهم وذكرى لاستشهادهم النبيل في سبيل الوطن وفرعون.

وكان ددف سعيداً فخوراً ينظر إلى جموع الشعب التحمّس بعينين لامعتين. وبردّ التحيات الحارة بالتلويح بسيفه العظيم، وقد فتشت عيناه في الجموع عن الوجوه الحبيبة التي لم يداخله ارتياب في أنّها تراه وتهتف باسمه، حتّى خال هنيهة أنّه يسمع صوت أمّه زايا وخوار والده بشارو المختال الفخور، ثمّ خفق قلبه خفقة شديدة اهتزّت لها حناياه وتساءل ترى هل تشاهده الآن هاتان العينان السوداوان اللتان ألهمتا الحبّ كما ألهمت الشمس البازغة قلوب المصريين عبادة الله؟ هل تراه في مجده؟ وتسمع اسمه تهتف به الألوف المحتشدة؟ هل ترى وجهه الذي أضناه الشوق والبعاد؟

وتقدّم الجيش في مسيره إلى القصر الفرعوني، وبرز الملك والمملكة إلى الشرفة المطلّة على الفناء الواسع المعروف بساحة الشعب، ومرّت أمامهما جموع الأسرى وأثقال المغانم والسبايا وفصائل الجيش، ولدى اقتراب

- ثلاثة آلاف يا مولاي .

فصمت قليلاً ثم قال :

- إن الحياة العظيمة توجب تضحيات عظيمة ، فسبحان الرب الذي يخلق الحياة من الموت .

ونظر الملك إلى ددف طويلاً ثم قال :

- لقد أدت لي خدمتين جليلتين ، فأنقذت بالأولى حياة وليّ عهدي ، وأنقذت بالثانية طمأنينة شعبي ، فماذا تطلب ؟

رباه ! جاءت الساعة الرهيبة التي طالما متى نفسه بها وطالما صوّرت لقلبه في الأحلام السعيدة ، وكان ددف شجاعاً لا يفقد جنانه في المواقف العظيمة فقال :

- مولاي ، ما فعلت في الاثنتين إلا ما يفرضه الواجب على الجندي فلا أطلب لقاءهما ثمناً ، ولكن لي أمنية أتقدم بها أقدم الطامع في رحمة مولاه .

فقال الملك :

- وما هي أميتك أيها القائد ؟

فقال ددف :

- إن الآلهة يا مولاي لحكمة تعلمها سمعت بقلبي البشري إلى سموات مولاي الملك ، فتعلق بأقدام مولاي الأميرة مري سي عنخ .

فنظر إليه فرعون نظرة غريبة وسأله :

- لكن ماذا صنعت الآلهة بقلب الأميرة ؟

فارتبك ددف وخيم عليه صمت ثقل ، فابتسم فرعون وقال :

- يقولون إنه لا يدخل إلى قدس الرب عبداً إلا كان مطمئناً إلى رضاه ، وسنرى ما إذا كان هذا حقاً . !

وكان فرعون راضياً ، وكأنما أراد أن يلهو قليلاً ، فأرسل في طلب الأميرة مري سي عنخ ، ولبت الأميرة نداء والدها وجاءت تسعى في جلال الحسن ، ولما رأت المائل بين يديه خفق قلبها وتولّاه الحياء والارتباك ، وتردّدت كغزال رأى رجلاً . فنظر إليها فرعون بحنان وقال بلهجة رقيقة لم تحل من سحرية :

- آيتها الأميرة ! يزعم هذا القائد أنه غزا حصنين :

سور سيناء وقلبك !

فقال ددف بتوسّل :

- مولاي . . ؟ !

وأعياه الكلام فسكت مقهوراً مرتبكاً ، ورأى فرعون قائده وقد خائنه شجاعته ، ورأى ابنه وقد تولّى عنها الكبرياء وأضناها الحياء والارتباك ، فهوى قلبه إليها ، وناداهما إلى جانبه ، ثم نادى ددف ، فاقترب الشاب في تهيّب شديد ، ووضع الملك يد الأميرة على يده في تؤدة ، وقال بصوته الجليل الذي تقشعر له القلوب :

- إني أبارككما باسم الآلهة جميعاً .

- ٣١ -

واستقبل ددف على أثر انتهاء المقابلة الفرعونية السعيدة فترة من الزمن مقدارها اثنتا عشرة ساعة . توالى فيها الحوادث الجسام الغريبة التي تنزلزل النفوس وتحطم العقول ، فكانت في عمره السعيد الهادئ مثل مسقط الشلال في مجرى النيل الرزين الجليل . .

ماذا فعل ددف في تلك الفترة القصيرة الحافلة بالعجائب ؟

خرج من الحضرة الفرعونية فطلب مقابلة الوزير خوميني ، وعرض عليه موضوع مظلمة المرأة المصرية الأسيرة التي لا تكاد تغيب عن خاطره ، وأخلى الوزير سبيلها وأحضرها إلى القائد :

وقال لها ددف :

- أهنتك يا سيدتي باستردادك لحريّتك بعد طول الأسر . ولما كان الوقت متأخراً فستزلين ضيفة عليّ إلى الغد ، ثم تولّين وجهك شطر أون مصحوبة برعاية الآلهة .

فكان جوابها أن أمسكت بيده ولثمها بامتنان عظيم ، ولما رفعت وجهها ، انحدر دمعها على خديها وعنقها ، واصطحب السيّدته معه إلى عربته ورأى سنفر ينتظره على مقربة منها فأدّى التحية له وقال :

- كلّفني صاحب السموّ الفرعونيّ الأمير رعخعوف أن أبلغ القائد رغبته في محادثته في الحال .

عصيان يهتد الأمن، وكلّ مصري يتخذ وجهته الطبيعية تحت رعاية فرعون وحكومته، فما وجه الحاجة إلى الجيش؟

وعاد قلّقا إلى العربة التي انطلقت به والسيدة التي تصحبه، وكان كلّما اقتربت به العربة من بيت بشارو تخفّ حيرته وتذهب وساوسه ويتحوّل عقله إلى أهله الذين يتظرونه على الجوى بعد أن طال الشوق به وبهم، ووصلت العربة إلى البيت فأدخل السيدة حجرة الضيوف، وصعد إلى الأعزّة المشوقين، فتلقتّه أمّه زايا بذراعين مفتوحتين، وانهالت عليه بالقبل وضمتّه إلى صدرها بشدة ولم تتركه إلّا حين انتزعته من يديها بشارو وهو يقول:

- أهلاً بالابن الظافر، والقائد الباسل!  
وقبله في خدّه وجبهته. ثمّ عانق ددف أخويه خني ونافا، وسلّم على زوج الأخير وكانت تحمل على ذراعها طفلاً رضيعاً، فقدمته إليه وهي تقول:  
- انظر إلى سميّك ددف الصغير!.. سمّيته باسمك عسى أن توفقه الآلهة للمجد كعمّه العظيم.  
فنظر ددف إلى نافا وحمل الصغير بين ذراعيه وقبل شفّتيه الرقيقتين، وقال لأخيه:  
- يا له من صورة جميلة!  
فابتسم نافا الذي كان سعيداً بابنه سعادته بقتّه، وأخذ الطفل بين يديه.  
ووجد ددف الفرصة سانحة لإعلان خطبته السعيدة، فقال نافا:

- لن نكون أباً وحكاً يا نافا.  
فانتبه الجميع إلى قوله، وصاح نافا بفرح:  
- هل اخترت شريكك أيّها القائد؟  
فأحنى ددف رأسه قائلاً:  
- نعم.  
فنظرت أمّه إليه بعينين يتألّق فيها الفرح وقالت:  
- أحقّاً يا بنيّ ما تقول؟  
فقال بهدوء:  
- نعم يا أمّاه.

فسأله ددف:

- أين يوجد سموّه الآن؟  
- في قصره.

فاستقلّ العربة وركب معه الضابط والسيدة، وحلهم إلى قصر وليّ العهد، وطلب إلى السيدة أن تنتظره في مكانها، ودخل القصر يتبعه الضابط. وطلب مقابلة الأمير، فدعي إلى حجرته، ووجده الشاب على غير عادته مضطرباً وإن حاول أن يمسك زمام نفسه، ولم يعن هذه المرّة بردّ تحيته وابتدره قائلاً:  
- أيّها القائد ددف، إنّني أذكر دائماً إخلاصك الذي أنقذ حياتي من موت محقّق، وأرجو أن تذكر نعمتي عليك إذ كنت جندياً صغيراً فجعلتك قائداً كبيراً، وكلّلت هامتك بالمجد والخلود.

فقال ددف بحماس:

- إنّني أذكر هذا ولا أنساه، وهيهات أن أنسى آلاء مولاي الأمير.  
فقال الأمير:

- إنّني أحتاج إلى إخلاصك هذه الساعة، فاصدع بما تؤمّر واتبع وصاياي بعناية لا تدع للتردّد سبيلاً إلى قلبك. أيّها القائد، لا تسرّح جيشك، بل استبقه حيث هو معسكراً خارج أسوار منف، وانتظر أوامري التي تأتيك عند مطلع الفجر، وإني أن تردّد عن تنفيذها مهما كانت غريبة، واذكر دائماً أنّ الجنديّ الباسل ينطلق كالسهم إلى هدفه دون أن يسأل مطلقه.

فقال ددف:

- سمعاً وطاعة يا صاحب السموّ.  
- انتظر رسلي في المعسكر عند الفجر ولا تغفل عن ذكر وصاياي.

قال الأمير ذاك ثمّ وقف معلناً انتهاء المقابلة، فأنحنى ددف لسموّه وغادر الحجرة متعجباً شارد الخاطر متحيراً من أمره، يقول لنفسه: ترى ما هي الأسباب التي دعت الأمير إلى أمره بإبقاء الجيش في معسكره؟ وما عسى أن تكون الأوامر الغريبة التي ستأتيه بها الرسل عند الفجر؟ ما من عدوّ يهتد الوطن، وما من

فصاحت به :

- من هي ؟

وسألت مانا باهتمام شديد :

- من هي ؟

وقال نافا ضاحكًا :

- أنت قادم من ميدان القتال، فهل عشقت إحدى

السيبايا ؟

فقال الشاب بهدوء وفخار :

- هي صاحبة السمّ مري سي عنخ .

فصاح الجميع :

- مري سي عنخ !.. ابنة فرعون !!

فقال :

- هي دون غيرها .

وملكت الجميع دهشة عظيمة، واهتزّت قلوبهم بسعادة طاغية جعلت الكلام عسيرًا، وقصّر عليهم ددف قصّته وذكر نعمة فرعون عليه ودموع الفرح تشرق بعينيّه الجميلتين، ولم تتمالك زايا نفسها فبكت، وكانت تصليّ للربّ بتاح الواهب النان، واهتزّ بشارو طربًا فجعل يروح ويحيي بجسمه المتنفخ المتهذّل، أمّا نافا فقد قبل الشاب السعيد واسترسل يضحك ضحك الفرح والابتهاج، وباركه خنى وأكد له أنّ الآلهة لا تقضي بهذه الأمور الجليلة إلّا وهي ترسم له غاية مجيدة لم يفز بها إنسان من قبل ! ومضى كلّ منهم يعبر عبّا يختلج في ضميره من الفرح والسعادة .

وذكر ددف السيّد التي تركها في حجرة الضيوف،

فقام من فوره وذكر لهم بسرعة قصّتها، وقال لأمّه :

- أرجو أن تكرمي مثواها يا أمّاه حتّى ترك بيتنا .

فقالت أمّه :

- سأنزل يا بنيّ للترحيب بها .

وصحب ددف أمّه ودخلا إلى حجرة الضيوف معًا،

وهي تقول :

- أهلاً بك ياسيّدتي . . لقد حللت في بيتك . .

وهضت السيّد من جلستها وأحنت قامتها المثقلة بهوان السنين وذللّ الأيّام، ثمّ مدّت يدها إلى مضيفتها الكريمة، فالتقت عينا المرأتين لأوّل مرّة، وبسرعة البرق

نسيّتا ما كانتا فيه من تبادل التحايا، ونظرتا كلّ منهما إلى الأخرى بغرابة وكأنّما تجهد نفسها لاختراق الحجب الكثيفة التي وضعها الزمان على وجه الماضي البعيد، واتّسعت عينا المرأة الغريبة وصاحت في دهشة جنونيّة :

- زايا . . !

فتولّى الذعر زايا وجعلت تنظر إليها بذهول شديد، وجعل ددف يقبّل وجهه بينها في حيرة وهو يعجب للمرأة التي عرفت أمّه مع أنّها قضت عشرين عامًا من حياتها في منفاها، وسألها دهشًا :

- كيف عرفت أمّي ياسيّدتي ؟

ولكنّ المرأة لم تأبه لقوله، ولعلّها لم تسمعه قطّ : لأنّها كانت متبهة إلى زايا بكلّ وجدانها، وقد ضاقت بخرسها فصاحت بها :

- زايا . . ! زايا . . ! ألسّت زايا . . ما لك لا تتكلّمين ؟ . . تكلمي . . آيتها الخادمة الخائنة . . تكلمي . . وقولي ماذا فعلت بابني ! . . أين ابني آيتها المرأة ؟ . .

ولم تتكلّم زايا ولا تحوّلت عيناها عن المرأة الغاضبة، ولكن أعيابها الاضطراب ومزّقها الخوف فجعلت ترتجف وحاكى وجهها وجوه الموتى، فأمسك ددف بيدها الباردة وأجلسها إلى أقرب مقعد، ثمّ تحوّل إلى المرأة في غضب وقال بجفاء :

- كيف تؤاتيك الجرأة على توجيه مثل هذا الكلام إلى أمّي آيتها السيّد التي أكرمتها وأنقذتها من عذاب الأسر ؟

وكانت المرأة تلهث بشدّة كالمحتضر، فتأثّرت لكلام القائد الذي أنقذها . وأرادت أن تتكلّم، فأعيابها الحصر، فما استطاعت إلّا أن تشير إلى أمّه كأنّما تقول له : سلّها هي .

فانحنى الشاب إلى أمّه بحنوّ وسألها برقة :

- أمّاه . . هل تعرفين هذه المرأة ؟

فلم تقل زايا شيئًا، ولم تطق المرأة سكوتها فقالت وقد عاودها غضبها :

- سلّها : هل تعرفين رده ديديت زوج رع ؟ .

سلّها : هل تذكر المرأة التي هربت معها حاملّة طفلها

كادت تستوي حتّى انهارت إلى الحضيض مخلفة قلبي خرابًا تنعق فيه الغربان.

واشتد التأثر بالشاب وتحول غاضبًا إلى المرأة، ولكن هذه لم تلن وما انفكت تسال زايا قائلة:

- قولي لي أين ابني؟ أين ابني؟

وبهت زايا هنيهة، ثم وقفت بحالة عصبية وصاحت بالمرأة:

- أتظنين أنّي غادرة يا رده ديديت؟ كلاً لم أك غادرة قط. لقد سهرت عليك ذلك اليوم العصيب، ولكن هاجنا البدو فلم أر مناصاً من الحرب، وأشفقت على طفلك من أذاهم فحملته على ذراعي وعدوت به كالمنجونة، فكان فراري ضرورة طبيعية، وكان وقوعك بين أيديهم قضاءً محتوماً. ثم عنيت بطفلك ووهبت حياتي، ونفقه حيّ فنشأ رجلاً تفخر به الأمم، وما هو ذا يقف أمامك، فهل رأيت مثله إنساناً من قبل؟

وتحوّلت رده ديديت إلى ابنها وأرادت أن تتكلم، فلم يطاوعها لسانها، ولم تستطع إلا أن فتحت ذراعيها وهرعت إليه وشبكها حول عنقه وشفتها ترتعشان بهذه الكلمة. «ابني.. ابني». وكان الشاب ذاهلاً كأنه يرى حلماً عجيّباً، فبقي ساكناً ينظر تارة إلى زايا التي غدا وجهها بمحاكي وجوه الموتى، وأخرى إلى المرأة المتعلّقة به التي تعاطيه قبل الأمومة وتحتويه بصدرها الخفاق، ورأت زايا استسلامه، وشاهدت في عينيه نظرة حنوٍ وعطف، فأنت يائسة وولتها ظهرها، ثم فرت من الحجرة كاللدجاجة المذبوحة.

وأتى ددف حركة، ولكن ازداد تعلّق المرأة به وتوسّلت إليه قائلة:

- ابني.. ابني.. هل ترك أمك؟

فجمد الشاب في مكانه وألقى على وجهها نظرة طويلة، فرأى الوجه الذي حرّك قلبه من النظرة الأولى، ورآه هذه المرأة أعظم طهرًا وجمالًا وبؤسًا، فخفق قلبه وفاضت نفسه حنانًا، ومال رأسه نحوها بغير شعور حتّى ضغطت شفثاه على خدّها. وتنهّدت المرأة بارتياح واغرورت عيناها بالدموع، ثم انتجبت باكية، فأخذ يهدئ من روعها، وأجلسها على ديوان

الصغير من عشرين عامًا فراّزا من الطغاة؟.. تكلمي يا زايا، قولي له كيف فررت تحت جناح الظلام، وكيف خطفت ابني الرضيع، وكيف تركتني في مجاهل الصحراء نساء يائسة لا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا، حتّى عثر بي الوحوش وأخذوني أسيرة وساموني سوء العذاب وذللّ الأسر عشرين عامًا.. تكلمي يا زايا.. وقولي ماذا فعلت بطفلي؟.. تكلمي..

فاشتدّت الحيرة بددف وهمس في أذن أمّه متألمًا:

- أمّاه.. سامعيني، أنا الذي أحدثت لك هذا العذاب، أنا الذي جئت بهذه المرأة التي أفقدها الحزن رشادها، سامعيني يا أمّاه.. سأطرد هذه المرأة.

ولكنها أمسكت بيده تمنعه، فسألها بتوسّل:

- لماذا لا تتكلمين يا أمّاه؟.. هل تعرفين هذه المرأة؟

فأنت زايا أنيئًا مؤلمًا، وقالت لأول مرة بعد أن غشيها الدهول:

- لا فائدة.. تحطمت حياتي..

فصاح الشاب بصوت كزثير الأساد:

- أمّاه لا تقولي هذا. فدتك نفسي يا أمّاه!

فتنهّدت بحرقة وقالت:

- أوه يا ددف العزيز، بالله لم أقترف سوءًا ولم أتعمد شرًا، ولكن كان القدر يقضي بما ليس في مقدور إنسان دفعه ربّه! كيف تنهار حياتي دفعة واحدة!

فكاد الشاب يجنّ من الألم وقال:

- أمّاه! لا تنسيّ أنّي إلى جانبك أدفع عنك كلّ

سوء، ما الذي يؤلمك؟ ما الذي يحزنك؟ سواء لديّ ما يطويه ماضيك من خير أو شرّ، وما يهمني أن أعلم شيئًا إلا أنّك أمّي وأبني الذي ينصرك ظالمة ومظلومة، شريرة وخيرة. أتوسّل إليك ألا تبكي وأنا إلى جانبك.

- هيهات أن تستطيع معونتي!

- محض أوهام يا أمّاه!.. أيّ خطب هذا؟

- لن تستطيع معونتي ياددف العزيز.. ربّه! كم

بنيت من الآمال ولكنيّ أقمته على شفا جرف هاو، فما

- بشاروا. أيها الشيخ البائس. إنَّ الآلهة تبتليك  
بمحنة شديدة.

وأيّ محنة!

دفع الجميل العزيز الذي احتضنه طفلاً رضيعاً  
فأنقذه من الجوع والفقر، ورعاه بعين الأبوة الرحيمة  
حائباً وصبيّاً وغلاماً يافعاً، ورباه تربية أبناء النبلاء  
ومَهَّد له سبيل النجاح فكان رجلاً يزن أمة من  
الرجال، ومنحه عطف الأب وقلبه. وتقبَّل منه محبة  
الابن وبرّه. دفع العزيز الجميل تظهره الأقدار على  
حقيقته فإذا به عدوٌّ لفرعون! إذا به الوسيلة التي  
ادّخرها الربُّ رع لقلقلة العرش المكين وطعن ربّه  
الجليل وسلب حقَّ وليّ عهده النبيل، وتآبى الأقدار إلّا  
أن تطلعه - وهو خادم فرعون الأمين - على هذه  
الحقائق الماثلة في ساعة من ساعات القضاء التي  
يدبرها من وراء الغيب ويلبسها هيئة المصادفات. فأَيّ  
محنة، وأيّ ابتلاء!

وصاح بشارو مرة أخرى يحدث نفسه قائلاً:

- بشاروا! أيها الشيخ البائس.. إنَّ الآلهة تبتليك

بمحنة شديدة.

واشتدَّ الكرب بالرجل وثقل على صدره القلق،  
فمضى يحدث نفسه بحزن وألم قائلاً:

- دفع أيها العزيز، لتكون ابن العامل الشهيد أو  
وريث كاهن رع الأعظم، فَلَحقَ آتِي أحبك حيّ خفي  
ونافا، وأنت لم تعرف أباً سواي..

ولهذا منحتك اسمي رحمة ومحبة. والله إنَّك لشاب  
يفيض الإخلاص من طبعه فيض الشعاع من  
الشمس، ولكن يا أسفاً لقد ادّخرتك الآلهة وأنت  
الأمين لأكبر خيانة عرفها التاريخ، خيانة ربّ العرش  
المكين، خيانة عهد خوفو مولانا العظيم، خوفو الذي  
نعلم أبناءنا التسبيح باسمه قبل أن نلقنهم حروف  
الهجاء. وها أيها الأقدار! لماذا تلتذّن بتعذيبنا؟ لماذا  
ترميننا بالمحن والويلات في أوقات سعودنا؟ وماذا كان  
يضيرك لو ختمت حياتي كما بدأت هنيئة سعيدة  
راضية؟!

وازدادت حالته سوءاً وأحسَّ بدنو أجله، فدلف إلى

وجلس إلى جانبها، وكفكت دموعها، وكان لا يزال  
مورّعاً بين الدهول وبين هذا الحب الجديد.

ونظرت إليه المرأة وقالت:

- قل لي: يا أمّاه.

فقال لها بصوت خافت:

- أمّاه..

ثم قال بحيرة:

- ولكنّي لا أكاد أفهم شيئاً..

فقال له:

- ستعلم كلّ شيء يابني..

قالت ذلك ثم سردت عليه قصتها الطويلة،  
وحديثه عن ولادته وما أحاطه بها من التنبؤات الخطيرة  
وما أعقبها من الحوادث الجسام، حتّى الساعة السعيدة  
التي ردت روحها إلى صدرها برويته حيّاً سعيداً  
جليلاً.

## - ٣٢ -

وساقت الأقدار بشارو إلى سماع قصّة رده ديدت  
عن غير قصد، فإنّه أراد أن يبالغ في إكرام ضيفة دد  
فنزل لاستقبالها بنفسه، وصادف وصوله خروج زوجة  
زايا جرياً كالمجنونة، فأخذ العجب واستولت عليه  
الحيرة ودنا من باب الحجرة في حذر فوصل إلى  
مسمعيه صوت رده ديدت التي كانت تفيض بالحديث  
في حالة عصبية أنستها أن تخفت من صوتها، فاسترق  
السمع، وأنصت مع دد إلى قصّة المرأة من مبتدأها  
إلى منتهاها!

ثم انسحب من مكانه في خفة وحذر وقصد إلى  
حجرتة لا يلوي على شيء، وقد اكسى وجهه بهيئة جدّ  
ورزانة واهتمام ندر أن عرفها وجهه إلّا في الملمات، ونبا  
به مقعده فجعل يروح ويحيي مضطرب النفس مشّتت  
البال مهتاج الخاطر، وكان يفكر فيما سمع ويديره في  
عقله المبلبل ويقبّله على وجوهه المختلفة، حتّى أضنى  
التفكير المحموم رأسه وجعله كقطعة الحديد المنصهرة  
وقال لنفسه بصوت مسموع كأنه يحدث شخصاً غريباً:



- عرفت الواجب ذا مشقة ولذة، وها أنا أنجزه  
مرا لا لذة فيه كالسّم الزعاف.

- ٣٣ -

قصّت رده ديديت قصّتها الحزينة وعيناها لا تكفّان  
عن البكاء، وكان ددف يجلس إلى جانبها يستمع إلى  
صوتها المتهدّج ويحسّ بأنفاسها الحارة تتردّد على وجهه،  
ويديم النظر إلى عينيها الدامعتين الحبيبتين وقلبه أخذ  
في الخفقان يكاد يمزّق من الألم والحنان والإشفاق.

وحين انتهت من سرد مأساتها سألت ابنها:

- من كاهن رع يا بني؟

- شودا رع!

فقال:

- يا أسفاً قضى أبوك ضحيّة لا ريب في هذا.

فقال ددف بصوت الداهش الذاهل:

- إنّ الدهشة تذهلني عن نفسي يا أمّاه! .. بالأمس  
القريب كنت ددف بن بشارو وأنا اليوم شخص جديد  
يحفل ماضيه بالفواجع، ولد الساعة من أب قتل وأمّ  
بائسة عانت ذلّ الأسر عشرين عاماً! يا للعجب..  
كان مولدي شؤماً، فمعدّرة يا أمّاه!

- لا تقل هذا يا بنيّ الحبيب ولا تحمّل نفسك  
الطاهرة وزر الشيطان الرجيم.

- يا للتعاسة! أيقّتل أبي وتلاقين العذاب عشرين  
عاماً؟

- فلترحمنا الآلهة يا بنيّ.. إنس أحزانك وفكر في  
الخلاص.. إنّ قلبي لا يطمئنّ.

- ماذا تعنين يا أمّاه؟

- الخطر ما يزال محدّقاً بنا يا بنيّ. ويهدّدك اليوم من  
أنعم عليك بالأمس.

- يا للعجب! أليكون ددف عدواً لفرعون؟. أليكون  
فرعون الذي عيني كلّ يوم من نعمائه ويضفي عليّ من  
أفضاله قاتل أبي ومعدّب أمي؟.

- هيهات أن يسكت العجب عن يراقب الناس  
والدنيا.. فهيا يا بنيّ إلى الخلاص، لأنّي لا أريد أن  
أفقدك اليوم وما وجدتك إلّا بعد عذاب السنين.

المرأة وألقى نظرة على وجهه الحزين الأسيف، وقال  
يخاطب صورته:

- بشاروا.. أيها الرجل الذي لم يؤذ إنساناً في  
حياته، هل يكون ددف العزيز أوّل ضحيّة تمتدّ لها  
يدك بالأذى؟. يا للعجب! ولماذا كلّ هذا العذاب؟.

لماذا لا تطبق شفّتيك وكأنّك لم تسمع شيئاً؟. ربّاه. إنّ  
الجواب حاضر. إنّ قلبك لا يستريح لأنّه قلب بشارو  
مفتش الأهرام وخادم الملك، بشارو الذي يعبد  
واجبه عبادة. هنا الداء. أنت تؤمن بالواجب. حقّاً  
أنت لم تؤذ إنساناً ولكنك لم تحذ عن الواجب قطّ..

والآن أيها ترى أوّل بالاتباع؟. الواجب أم تحبّ  
الأذى؟. يستطيع أيّ تلميذ في مدرسة منف الأوليّة أن  
يشده الجواب ابتداءً. إنّ بشارو لن يختم حياته  
بالخيانة، كلّاً لن يبيع مولاه.. فرعون أوّلاً.. وددف  
ثانيّاً.. وتهدّد من قلب محزون أليم، ونفس طعنتها  
الحسرة بخنجر مسموم.. وأبعد عن غيّلته أطياف  
ددف وزايا وأخذ يرتدي ثيابه الرسميّة بعزم ثابت.

ثمّ غادر حجرته بخطوات ثقيلة وهبط إلى حديقة  
البيت، ومَرّ في طريقه بحجرة الضيوف، ورأى ددف  
واقفاً بياها يدلّ مظهره على التأمل العميق والاهتمام،  
فخفق قلبه لرؤياه خفقاناً غريباً، واضطرب كلّ شيء  
فيه، اضطربت نفسه وصدره وجفناه، وتحاشى النظر  
إلى عينيّه وأشفق من أن يحادثه فتنمّ لهجته على ثورة  
قلبه، ونظر الشاب إلى ثياب أبيه الرسميّة نظرة غريبة،  
وسأله بصوت ضعيف:

- إلى أين أنت ذاهب الآن يا.. أبي؟

فقال بشارو وهو يسرع في خطاه:

- إلى واجب لا يؤجّل يا بنيّ.

ثمّ ركب عربته وقال للسائق:

- إلى القصر الفرعونيّ..

وانطلقت العربة في طريقها، وكانت جيوش الليل  
تتجمّع في الأفاق للانقضاض على النهار المحتضر الذي  
غاب عنه حارسه فتأمل بشارو الجوّ بعينين حزيتين  
ونفس منقبضة وقلب مظلم كالليل الزاحف، وقال  
لنفسه وهو يتهدّد أسفاً محزوناً:

- إلى أين يا أمّاه؟

- بلاد الربّ واسعة.

- كيف أفرّ فرار الجنّة وما اقترفت ذنبًا؟

- وهل كان اقتراف والدك ذنبًا؟

- إنّ طبعي يأبى عليّ الفرار.

- أشفق على قلبي الذي يمزّقه الخوف.

- لا تخافي يا أمّاه، إنّ إخلاصي وخدماتي للعرش

يشفعان لي عند الملك.

- لن يشفع لك شيء إذا علم أنّك غريمه القديم

الذي خلّفته الآلهة ليرث عرشه.

فأتسعت عينا الشاب دهشة وقال:

- أرت عرشه؟! يا لها من نبوءة ضالّة.

- أضرع إليك يا بنيّ أن تطمئنّ ليطمئنّ قلبي.

فأخذها بين يديه وضغط عليها بحنو وقال:

- عشت عشرين عامًا لا يعلم أحد بسرّي، ولا أنا

نفسي. قد طواه النسيان ولن يُبعث مرّة أخرى.

- لا أدري يا بنيّ لماذا أفرق وأنطير. - لربّما زايا.

- زايا! لقد دعوتها أمّي عشرين عامًا طويلة، وإذا

كانت الأمومة رحمة وعجبة وبذل نفس فهي أمّي أيضًا يا

أمّاه، لن تشي بنا زايا أبدًا. - إنّها امرأة بائسة كملكة

خلصة فقدت عرشها على حين فجأة. -

وقبل أن تفتح فاهها دخل خادم مسرعًا وأخبر القائد

بأنّ أمينه سافر يرجو لقاءه في الحال وبدون أدنى

إبطاء، فعجب الشاب لأنّ سافر كان معه منذ زمن

قصير، وهذا روع أمّه واستأذن منها وخرج لمقابلة سافر

في الحديقة، ووجد الضابط قلقًا نافذ الصبر مضطربًا،

وحين رآه سافر أقبل عليه مسرعًا وقال له بسرعة دون

تحية أو سلام:

- سيّدي القائد. - لقد أطلعتني المصادفات على

حقائق خطيرة الشأن تنذر بشرّ مستطير!

فخفق قلب ددف والتفت دون إرادة إلى حجرة

الضيوف وهو يسأل نفسه: ترى ما الذي تحبّه الأقدار

من الحدّثان الجديدة؟

ثمّ التفت إلى أمينه وسأله:

- ماذا ورايك يا سافر؟

فقال الضابط بلهجة مضطربة:

- دخلت أصيل اليوم إلى مخزن الخمر لأنّني

زجاجة نبيذ جيّد، وفيما أنا أفشّ عن ضالّتي. - وكنت

واقفًا إلى جانب الكوة المطلّة على الحديقة. - إذ وصل

إلى مسمعي صوت رئيس حجاب وليّ العهد يحدث

شخصًا غريبًا هامسًا فلم أتبنّ حديثه، ولكنّي سمعت

جيدًا ما ختمه به من الدعاء للأمير رعخعوف الذي

سيصبح فرعون مصر عند الفجر! فانتفض جسمي

هولًا ورعبًا، وأيقنت أنّ جلالة الملك انتقل إلى جوار

أوزوريس، ونسيت ما أنا فيه من التفتيش وهرعت

خارجًا إلى ثكنات الجند، فوجدت الضباط يقصفون

ويتسامرون كعادتهم حين الراحة، فظننت أنّ الخبر

المشوم لم يبلغهم بعد. ولم أحبّ لنفسي أن أكون نذير

الشّرّ فانسلت إلى الخارج واستقلت عربتي وتوجّهت

بها إلى القصر الفرعونيّ فلعلّي أقف على حقيقة الخبر،

فوجدت القصر هادئًا، وأنواره تتلألأ كالكواكب

الزاهرة، والحراس يروحون ويحيثون في طمأنينة ودعة،

فلم أرتب في أنّ ربّ القصر يتمتّع بالحياة والصحة.

فعجبت لما سمعت بأذنيّ في مخزن الخمر، وفكرت فيه

طويلاً فساورتني المخاوف وتوزّعتني الهواجس، ولاح

لخاطري شخصك مصادفة فكان لي ما تكون المنارة

لسفينة ضالّة تكالبت عليها الأمواج الهوج والرياح

العاصفة والظلمات المحيطة فولّيت وجهي نحوك وجئت

على عجل أروم عندك حسن التدبير.

فسأله ددف باضطراب وقد نسي همومه الشخصية

وما صادفه في يومه من العجائب:

- أوائق أنت من أنّ أذنك لم تحذعك؟

- ثقني بوجودي أمامك الآن.

- أكنت ثملًا؟

- لم أذقها في يومي هذا.

فنظر إليه الشاب نظرة جامدة وسأله بصوت خيّل

إليه أنّه صوت غريب:

- وما الذي فهمته من هذا؟

فصمت الضابط صمتًا رهيبًا كأنّه يتحامى بصمته

الجواب ويدعه للقائد نفسه، وفهم ددف صمته على

- ولو كانوا من الأمراء؟  
 - ولو كان بينهم وليّ العهد نفسه!  
 - سيّدي القائد، ينبغي ألاّ نعتمد على حرس وليّ العهد.  
 - نطقنا بالحكمة يا سنفر، ولا حاجة بنا إليه،  
 فلديّ جيش باسل لا يتردّد جنديّ من جنودي عن  
 بذل حياته في سبيل مولاه.  
 فأضاء وجه الضابط وقال:  
 - فلندعُ الجيش بلا إبطاء.  
 ولكنّ القائد الشاب وضع يده على كتف أمينه  
 المتحمّس وقال:  
 - الجيش لا يدعى إلّا لقتال جيش مثله، وعدونا -  
 إذا صدقت ظنوننا - نفر قليل يلوذ بالظلام ويدبّر غدره  
 ليلاً، فينبغي أن نرتبّص له ونضربه الضربة القاضية  
 قبل أن يسدّد إلينا ضربته.  
 - ألا يرى سيّدي القائد أنّه يحسن بنا أن نحذّر  
 فرعون؟  
 - بئس الرأي يا سنفر، إنّنا لا نملك دليلاً على هذه  
 الخيانة المروّعة سوى شكوكنا، وقد تكون محض أوهام  
 فلا نستطيع أن نقيم العذر لفرعون عن اتّهامنا الخطير  
 لوليّ عهده.  
 - فما العمل يا سيّدي القائد؟  
 - العمل الحكيم أن اختار بضع عشرات من  
 الضباط الذين أثق في شجاعتهم، وستكون من بينهم  
 يا سنفر، ثمّ نقصد فرادى خفية إلى وادي الموت،  
 ونوزّع أنفسنا على جانبيه في حذر وعناية وننتظر.  
 فينبغي ألاّ نضيع الوقت سدى إذ يجب أن نسبق عدونا  
 إلى كمينه فنراه ولا يرانا.  
 ولم يضع الشابّ وقتاً، ولكنّه لم يستطع بالرغم ممّا  
 هو بسببه من أمر خطير أن ينسى أنّه، فذهب بها إلى  
 جناح نافا وعهد بها إلى زوجة مانا، وعاد إلى سنفر  
 وركب معه عربته وانطلقا بها إلى معسكر الجند خارج  
 أسوار منف، وكان يحدث نفسه قائلاً: فهمت الآن  
 لماذا أمرني الأمير أن أنتظر أوامره عند الفجر فهو يدبّر  
 حيلة لقتل والده، وفي نيّته إذا تحقّقت غايته أن يأمرني

حقيقته فحقيق قلبه وسها إليه، وذكر في تلك اللحظة  
 وصايا الأمير رعخعوف الغريبة وأمره إتياء بعدم تسريح  
 الجيش وانتظاره أوامره عند الفجر واتباعها مهما كانت  
 غريبة، ورجعت به الذاكرة القهقريّ فذكر ما حدّثه به  
 سنفر هذا الواقف أمامه يوم التقائهما الأوّل في حرس  
 الأمير عن أخلاق وليّ العهد ونفاذ صبره وتبرّمه. ذكر  
 هذا كلّه بسرعة وإرتياح. ربّاه! ماذا وراءك أيّها  
 الغيب؟ هل فرعون في خطر؟ هل هنالك  
 خيانة؟!

وسمع سنفر يقول بحجاسة:

- نحن جنود رعخعوف ولكنّا أقسمنا بمين  
 الإخلاص للملك. والجنود جميعاً جنود فرعون إلّا  
 خائناً.  
 فعلم أنّ وساوس سنفر تلتقي بوساوسه، فقال:  
 - أخشى أن يكون الملك في خطر!  
 - أنا لا أرتاب في ذلك، وينبغي أن نفعل شيئاً أيّها  
 القائد.

- إنّ الملك يلبث عادة أغلب ليله في جوف الهرم  
 مع وزيره خوميني يملّي عليه كتابه العظيم، فينبغي أن  
 يوجّه انتباهنا إلى الهرم. أخشى أن يغدروا به في حجرة  
 التابوت.

- دون هذا والمستحيل، ففتح باب الهرم سرّاً  
 يعلمه إلّا ثلاثة: الملك وخوميني وميرابو، والفضبة  
 المحيطة بالهرم عامرة ليل نهار بالحراس وكهنة المعبود  
 أوزوريس.

- هل يسير في ركاب الملك أحد من حرسه؟  
 - كلّاً، إنّ العاهل الكبير الذي وهب حياته مصر  
 لا يشعر بحاجة إلى حرس في وطنه وبين رعاياه،  
 واعتقادي يا سنفر - إذا صدقت شكوكنا - أنّ الخطر  
 يحتم في وادي الموت، فهو طريق طويل خالٍ من  
 الأدمين تغري وحشته الغادر بالترتّبص لفريسته.

فسأل سنفر وهو يلهث:

- وما الذي ينبغي عمله؟

- إنّ مهمّتنا مزدوجة يا سنفر: أن ندرأ الخطر عن  
 الملك ونقبض على الخائنين.

أبواب منف، وكانت الظلمة ما تزال حالكة والسماء ملأى بالنجوم يخالها المتأمل لشدة توهجها هابطة إلى فلك أدنى، وقد شملها جلال ساحر تحببت له القلوب وتفتن الأفئدة.

وتوسّطت العربية وادي الأبدية، وكان الملك ووزيره يجلسان هادئين متأملين، وسمعا بغتة أحد الجوادين يصهل بشدة ويقفز عاليًا ثم يسقط على الأرض، وأعاق سقوطه العربية عن المسير فتوقّف الجواد الثاني، وعجب الرجلان وهم الوزير بالنزول ليرى ما أصاب الجواد، ولكنه قبل أن يتحرّك صرخ بألم وصاح:

- الحذار يا مولاي.. لقد أصبت.

فأدرك فرعون أنّ مخلوقًا أصاب الجواد وأردف بوزيره، وظلّه من قطاع الطرق فصاح بصوت شديد:

- إلى الوراها أيها الجبان، من يريد أن يغتال فرعون؟

ولكنّه سمع صوتًا كالوعد يصيح: «إليّ يا سفر». فنظر إلى مصدره - وهو يسند خميني إلى صدره - فرأى شبحًا قادمًا من جانب الوادي الأمين كالسهم المنطلق، وسمعه يصيح مرّة أخرى:

- اختبئ يا مولاي خلف سور العربية.

ثمّ رآه يقف في طريق شبح آخر أتت من الجهة اليسرى، واشتبك الاثنان في قتال عنيف، وتبادلا طعنات قاتلة بسيفيهما، ثمّ صاح أحدهما وسقط على الأرض قتيلًا بغير شك.. ترى من الذي سقط: الصديق أم العدو؟ ولم تطل الحيرة بالملك لأنّه سمع صوت المنقذ يقول:

- هل مولاي بخير؟

فأجابه:

- نعم أيها الشجاع، ولكن أصيب وزيرى.

سمع الملك مرّة أخرى صلصلة سلاح وراء العربية، فالتفت بسرعة فرأى ثلّة من الجنود تلتحم في قتال عنيف، ورأى الرجل الشجاع الذي قتل عدوّه ينضمّ إليهم وينصر فريقًا على فريق، فوقف الملك الأعزل يشاهد المعركة وهو كظيم.

ورجحت كفّه رجال الملك وتساقط أعداؤهم واحدًا

بالزحف بالجيش على العاصمة للقضاء على قوّة الحرس الفرعونيّ ورجال الملك المخلصين أمثال خوميني وميرابو وأربو وغيرهم من بطانة الملك، فيخلو له الجوّ يعلن نفسه الجزوع ملكًا على مصر.. يا للخيانة السافلة!

لا شك أنّ صبر الأمير نقد، ولكنّ طمعه سيقضي على آماله وهي قاب قوسين أو أدنى.. فهل تصدق شكوكنا يا ترى أم أنّنا نتخيّل في ضلال الأوهام!

#### - ٣٤ -

وطلع الفجر فدبّت الحياة مرّة أخرى في هضبة الهرم المقدّسة، ونجاوبت في السماء نداءات الحراس ونفخ الأبواق وترتيلات الكهنة، وعند ذاك فتح باب الهرم وخرج منه شبحان ثمّ أغلق مرّة أخرى، وكان كلّ منهما يتلفّح بدثار سميك أشبه بعباءة الكهنة التي يرتدونها في حفلات القربان، قال أقصر الرجلين قامة:

- إنك يا مولاي تجهد ذاتك العلية إجهادًا قاسيًا.

فقال الملك:

- الظاهر يا خوميني أنّنا كلّما تقدّم بنا العمر نردّ إلى الطفولة مرّة أخرى، فما أشبه ولعي بهذا العمل المجيد بانكبابي في زمن مضى على القنص وركوب الخيل. ينبغي أن أضاعف مجهودي يا خوميني، فما تبقي من العمر إلّا أقصره..

فقال الوزير الأمير ويداه مبسوطتان:

- أطالت الأرباب بقاء الملك.

- فلتستجب الآلهة دعائك حتّى أتمّ رسالتى.

- لست متاعًا للخير ولكن أتمنى أن يخلد مولاي إلى

الراحة والدعة.

- كلًّا يا خوميني. لقد شيدت لي مصر مشوى

روحي وما أهبها إلّا حياتي الفانية!

وكفّ الرجلان عن الحديث، وصعد الملك إلى العربية الملكية، وركب بعده الوزير وقبض على اللجام وسارت الجياد خبيًا، وكانت العربية كلّما مرّت بجماعة من الكهنة أو الجنود سجدوا تحية واحترامًا، وما برحت الجياد تجرّ في السير حتّى قطعت أرض الهضبة واجتازت حدودها إلى وادي الموت الذي يؤدّي إلى

أنينا ألياً، فاضطرب الملك لسياح أنينه وسارع إليه وأماله على ظهره وألقى نظرة قلقة، ولمّا تبين وجهه صرخ بقوة:

- رعخعوف.. ابني.. ا

ونسي فرعون جلاله ونظر فيمن حوله كأنه يستغيث بهم على دفع بلاء لا مردّ له، وأمعن النظر ثانية في وجهه الملقى تحت قدميه، وقال بحزن وفزع:

- أأنت الذي حاولت الفتك بي؟

ولكنّ الأمير كان يعاني ألم النزاع الأخير وبتيه في غيبوبة الاحتضار، فلم ينتبه إلى العيون المرتاعة المحذقة به، وجعل يثنّ أنيناً موجعاً وصدره يعلو وينخفض بشدّة، فتملّك ددف الرعب والألم وكأنّ تلك الفاجعة تبغته بغير نذير، وساد الجميع وجوم ثقيل نسي فيه خوميني آلام فزاعه وجعل يختلس نظرات الإشفاق من وجه الملك وهو يدعو الربّ أن يكفيه شرّ تلك الساعة: وكان فرعون ينحني على ابنه المحتضر وينظر إليه بعينين جامدتين جعلهما الحزن كبجيرتين راكبتين.. وكانت نفسه جيّاشة مضطربة تعترك فيها العواطف المتناقضة والأفكار المتنافرة، وهو بين هذه وتلك مستسلم للجمود. ولبت يديم النظر إلى وجه ابنه المعذب الذي ذهب عنه الجلال وسكنت حركة جسمه إلى الأبد.

وظلّ الملك ملازمًا لجموده الغريب زمناً ليس بالقصير، ثمّ استعاد جلاله وثباته، فاعتدلت قامته، والتفت إلى ددف وسأله بصوت غريب:

- أخبرني أيّها القائد بما تعلم من تفاصيل هذه المأساة.

وأخبر ددف مولاه بصوت متهدّج حزين بما قصّه عليه الضابط سنفر، وصارحه بالشكوك التي وسوست في صدره وما دبّرا من حيلة لإنقاذ مولاها..

يا للآلهة!

كان يروح ويحيي مطمئناً ففاجأه الغدر من حيث لم يحتسب، من ولده الأعزّ ووليّ عهده، وأنقذته الآلهة من الشرّ العظيم، ولكن اقتضت مشيئتها لذلك ثمناً غالياً هو الروح التي صعدت الآن ملوّنة بأشنع إثم

فواحدًا، وألقى الرعب في قلوبهم أن شاهدوا عن بعد كوكبة من الفرسان قادمة تعدو من ناحية الهضبة المقدّسة حاملة المشاعل هاتفة باسم الملك الجليل، فزلزلوا زلزالاً شديداً وركنوا إلى الفرار. ولكن كان الذين يقاتلونهم أشدّاء جبابرة فأمعنوا فيهم قتلاً ولم يبقوا منهم على أحد.

وأحاط الفرسان بعربة الملك، وألقت مشاعلهم ضوءاً على الوادي فظهرت جثث القتلى، وبدت وجوه الرجال الذين دافعوا عن الملك وقد سالت الدماء الزكية من جباههم وأعناقهم.

وتقدّم رئيس الفرسان من عربة الملك، ولمّا شاهد مولاه واقفاً حمد الربّ وقال وهو يجثو راكعاً:

- كيف حال مولانا الملك؟

فترجّل فرعون وهو يسند وزيره وقال:

- فرعون بخير بفضل الأرباب وشجاعة هؤلاء الرجال.. ولكن كيف أنت يا خوميني؟

فقال الرجل بصوت ضعيف:

- بخير يا مولاي.. إصابتي في ساعدي وليست بذات خطر.. فلنصلّ جميعاً شكراً لبتاح الذي أنقذ حياة الملك..

ونظر الملك فيما حوله فرأى القائد ددف، فقال له:

- أهنا أنت أيّها القائد ددف؟ كأنك تأبى إلّا أن

تدين الأسرة الفرعونية جميعاً؟

فانحني الشاب في احترام عظيم وقال:

- حياتنا جميعاً فداء لمولاي.

فسأل الملك:

- ولكن كيف حدث هذا؟.. يبدو لي أنّ ما وقع لم

يكن حادثاً تافهاً وليد المصادفات، وأكاد ألمح في الظلام خيانة أحببت بإخلاصكم وشجاعتكم.. ولكن دعونا نرى وجوه القتلى أولاً. وليبدأ بهذا الذي سدد إلينا سهمًا طائشاً..

وسار في اتجاه العربة وددف وسنفر ورئيس الفرسان يسرون بين يديه بالمشاعل وخوميني يتبعه في خطوات بطيئة، فعثروا بالجثة على بعد قريب، وكان صاحبها منبطحاً على وجهه والسهم القاتل في جنبه الأيسر ويثنّ

فهزّ رأسه هزّات عنيفة جنونيّة وقال:  
- أراك تترخّمين عليه!  
- يحقّ لنا أن نبكيه يا مولاي. ألم يخسر الدنيا والأبدية؟

فأمسك الملك رأسه وقال بذهول:

- ربّاه.. ما هذا الجنون الذي يدور في رأسي؟  
ما هذه الضربات التي تتوالى على رأس فرعون؟ كيف لهذا الرأس بحمل تاج المصريين بعد الآن وهو ينوء بالشعيرات البيضاء التي أبقاها الدهر له. أيّتها الملكة، إنّ فرعون يعاني عهدًا جديدًا بالحياة ولن ينفعك توجّعك، فليّئ بأبنائي وبناتي.. إليّ بأصدقائي جميعًا.. نادي خوميني وميرابو وأريو وددف. هيا.. وغادرت الملكة التبعة مخدع فرعون وأرسلت في طلب الأمراء والأميرات والأصدقاء، ودعت من نفسها طبيب الملك الخاصّ كاري.

ولّى الجميع النداء وحضروا سرعًا واجمين، ينوءون بصمت مرهق كأنهم يقصدون إلى مأتم رهيب، ودخلوا مخدع الملك فلم يلبث فراشه أن صار بين صقّين من آل بيته وأصدقائه المقربين، وكان الملك ما يزال مهتاجًا عنيفًا زانغ البصر فنظر إلى طبيبه كاري وقال بعنف:

- لماذا أتيت أيّها الطبيب ولم أدعك؟ لقد لازمتني أربعين عامًا طوالاً لم أشكّ إليك في أثنائها مرّة، وأحرّ بمن يستغني عن الطبيب في حياته أن يستغني عنه في مماته.

فاضطربت النفوس لذكرى الموت، وهالها ما ترى من هياج الملك واختلاط أعصابه. أمّا الطبيب كاري فقد ابتسم برقة وقال:

- مولاي يحتاج لجرعة..

وقاطعه الملك صائحًا:

- دع مولاك واغرب عن وجهي.

فبانّ الحزن على وجه الطبيب وقال بصوت خافت:  
- مولاي، قد لا يمثل الطبيب لأمر مولاة أحيانًا. فاشتدّ الغضب بالملك وقلّب عينيه الزائغتين في وجوه الواقفين الواجبن، وصاح بهم:

حمل وزره إنسان.. فنجا من الهلاك ولكنّه لم يهنا بالفرح، وقتل وليّ عهده ولم يدر كيف يحزن.. وطالعه الدنيا بأنكد وجوها وهو في نهاية الطريق..!

### - ٣٥ -

وعاد الملك وصحبه إلى القصر الفرعونيّ، وكان الصباح قد زان الكون بشمس مشرقة، وأحسن العاهل الكبير بتعب وخور فأوى إلى مخدعه سريعًا واستلقى على فراشه، وانتشر الخبر الأسيف في رحاب القصر فحفقت له القلوب خفقان الأسى والحزن والهلح، وزلزل له فؤاد الملكة ميريتفس واضطربت فيه نار موقدة لا تقوى مياه النيل بأسرها على إطفاء جذوة منها، ولحقت المرأة بزوجها العظيم تستغيث بقربه من ويل هذا الشرّ وتطلب في محضره العزاء والطمأنينة. فوجدته نائمًا أو كالنائم، فلمست بأناملها الباردة جبينه ووجدته ساخنًا كأنه كتلة من النار يتصاعد منها حم، فهمست بصوت خافت:

- مولاي!

وانتبه الملك إلى صوتها وفتح عينيه بحالة هياج مستعر، وجلس في فراشه بعنف غريب. ونظر إليها بعينين يتطاير منها الشرر، وقال بصوت جنونيّ لم تعهد سماعه من قبل:

- أتبكين أيّتها الملكة القاتل الأثيم؟

فقالّت بذلّة ودموعها ذوارف:

- إنّي أبكي حظّي النعس يا مولاي.

فصاح بها بغضب جنونيّ:

- لقد ولدت لي مجرمًا أيّتها المرأة.

- مولاي.

- واقتضت الحكمة الإلهية أن تورده حتفه لأنّ

العرش لم يخلق ليجلس عليه المجرمون!

فصاحت المرأة مولولة:

- الرحمة يا مولاي! رحمة بقلبي وقلبك! لا تحدّثني

بهذه اللهجة التي ترعيني. إنّي بحاجة إلى العزاء، فهلّا تناسبت تلك الذكرى الأليمة، كان ابننا وما أحقه بالراء الآن!

فقال الجميع برجاء:

- أطل الله بقاء الملك.

فرفع الملك يده فساد سكوت وعاد يقول:

- أيها السادة لقد حُتَّت النهاية، وقد دعوتكم

لتسمعوا كلمتي الأخيرة، فهل أنتم مستعدون؟

فأشرق خوميني بالدمع وقال:

- مولاي.. لا تذكر الموت.. ستكشف هذه

العفة وتعيش طويلاً لمصر ولنا.

فابتسم فرعون وقال:

- لا تحزن أيها الصديق خوميني، فلو كان الموت

شراً يُدفع لحلّد مينا على عرش مصر، ولذلك فخوفو

لا يميز للموت ولا يخشاه، وإنّ الموت لأهون من

شور كثيرة تشوّ وجه الحياة. لكن أريد أن أطمئن

على تركتي العظيمة..

ثمّ التفت إلى أبنائه ينظر إليهم واحداً فواحداً كأنه

حاول أن يقرأ ما يُظهرون وما يُبطنون، ثمّ قال:

- أراكم تكاثمون قللاً حقياً ولهفة مستترة، ويرمق

الواحد منكم أخاه بعين الريّة والحق. كيف لا وقد

مات وليّ العهد، واحتضر الملك وكلّكم طامع في

العرش راغب فيه، وما أنكر أنكم فتية نبلاء وعلى

خلق عظيم ولكن أريد أن أطمئن على تركتي وعلى

إخوتكم..

فقال الأمير رعباوف وكان أكبر الأمراء سناً:

- أبني ومولاي، مهما فرقت قلوبنا الأهواء فهي

تألف على طاعتك، وإنّ مشيئتك لدينا هي الشريعة

المقدسة التي تلزمنّا طاعتها بغير قسَم.

فابتسم الملك ابتسامة حزينة، وسها إليهم بعينيه

اللتين جرى بمحجريها الذبول وقال:

- أحسنت القول يا رعباوف، والحق أقول لكم إنّي

في هذه الساعة الرهية أجد من نفسي قوّة عظيمة على

السموّ على العواطف البشريّة، وأحسّ بأبوتي للعباد

تغلب على أبوتي للأبناء، فأعينوني على قول الحقّ

وفعله.

وعاد إلى تفرّس وجوههم ثمّ استطرد:

- يظهر لي أنّ كلامي لا يقع منكم موقوع

- ألا تسمعون ما يقول هذا الرجل؟. ألا تحركون

ساكناً؟. يا للعجب! هل لوّثت الخيانة القلوب

جميعاً؟! هل هان فرعون على جميع أبنائه

وأصدقائه؟. أيها الوزير خوميني قل ما جزءا من يعصي

فرعون؟

فتقدّم خوميني في إعياء ظاهر من الطبيب وهمس في

أذنه فانهض الرجل لمولاه وتقهقر إلى الوراء حتّى غادر

المخدع، ودنا خوميني من فراش مولاه وقال:

- هدّئ روعك يا مولاي، فما يريد الرجل إلّا

الخبر، أريد مولاي أن أحضر له كأساً من الماء؟

وخرج الوزير من الحجرة قبل أن يؤذّن له، وأعطاه

الطبيب كاري كأساً ذهبيّة من الماء المذاب فيه دواء

مسكّن، فحملة الوزير إلى مولاه. وتقبّله الملك من يد

وزيره وشربه حتّى الثمالة، وجاء أثره سريعاً فهدأت

حركات الملك العنيفة وعادت عينيّه نظراتها المألوفة،

وردّ إلى وجهه المحتقن لونه الطبيعي، ولكن بدا عليه

هزال وخوّر بالغان.

وتنهّد الملك تنهّداً عميقاً وقال:

- ويل للإنسان من الشيخوخة والضعف!.. إنهما

يهزّان بأشدّ الجبايرة!

ونظر إلى الجمع الملتفّ بفراشه وقال:

- أيها السادة.. لقد كنت حاكماً جباراً، أشهر في

يمناي الفاصل بين الحياة والموت، وأنطق بالقوانين

والشرائع، وألهم الطاعة والعبادة. ولم أغفل في حياتي

لحظة عن توخّي الخير والإصلاح، وأردت ألاّ ينتهي

انتفاع العباد بي بانتهاء حياتي على الأرض فكتبت

رسالة مطوّلة في الطبّ والحكمة سيدوم الانتفاع بها ما

دامت الأمراض لا ترحم الإنسان وما دام الإنسان لا

يرحم نفسه.. وامتدّ بي العمر كما ترون. وأرادت

الآله أن تبليني ببلاء شديد لحكمة أجهلها، واختارت

ابني آلة لها وجردت جيوش الشرّ في قلبه فانقلب عدوّاً

لي وتربّص بي في الظلام يريد اغتيالِي، ولكن كتبت لي

النجاة ودفع الابن التعس حياته ثمناً لبضع ساعات

يمتدّها عمري..

وسجد بين يدي فرعون، وأمره الملك بالقيام وأذن له بالكلام.

فقال الرجل بصوت خافت:

- مولاي، أردت المثل بين يدي جلالتك ليلة أمس لأمر هام، ولكن أتى بجيئي بعد ذهاب مولاي إلى الهرم، فاضطرت إلى الانتظار على جنزح حتى الصباح.

فسأل فرعون:

- وماذا وراءك يا أبا ددف الباسل؟

فقال الرجل بصوت أشد خفوتاً وهو ينظر إلى الأرض:

- مولاي لست أباً لددف ولا ددف ابناً لي.

فعجب فرعون لإنكار بشارو، وقال بتهكم:

- بالأمس أنكرك ابن أباه واليوم ينكر أب ابنه!

فقال بشارو بتألم وحزن:

- مولاي! تعلم الآلهة جميعاً أنّي أحبّ هذا الشاب محبة الأب لابنه، وما كنت أقول هذه الكلمة لولا أنّ إخلاصي للعرش أكبر في نفسي من شتى العواطف الإنسانية.

فزاد عجب الملك وبدأ الاهتمام على وجوه الحاضرين جميعاً، وخاصة الأمراء الذين غمّوا للشابّ شراً ينقذهم من قضاء الملك، وردّد الجميع أنظاره بين المفتش بشارو وبين ددف الذي امتقع لونه وجمد بصره.

وسأل الملك مفتش أهرامه:

- ماذا تعني أنّها المفتش؟

فقال بشارو وعيناه إلى أرض الحجر:

- مولاي.. إنّ ددف هذا ابن كاهن رع السابق «من رع».

فنظر إليه فرعون نظرة غريبة تلوح فيها الأحلام. وازداد اهتمام الجمع المنصت، وقلقت أعين خوميني وميرابو وأربو، أمّا فرعون فتمتم بدهول وروحه تسبح في ظلمات الماضي البعيد وهو يتحدث نفسه:

- رع! .. من رع كاهن رع! ..

الإعجاب، والحقّ أنّي لا أجحد أبوتّي لكم ولكني أجحد بين يديّ من هو أحقّ بالعرش منكم ومن تولّيه للملك خريّ بأن يصون لكم أخوتكم طاهرة. هو شابّ علت به همته إلى القيادة قبل الأوان، وحققت له شجاعته نصراً عزيزاً للوطن، وأنقذت بطولته حياة الملك من الخيانة، وإياكم أن تقولوا كيف يتولّى العرش من ليس يجري في عروقه دم الفراعين، فهو زوج الأميرة مري سي عنخ التي يجري في عروقتها دم الملك والملكة معاً.

فبدت الدهشة على وجه ددف وتبادل ومري سي عنخ نظرات الدهول، وبوغت الأمراء ورجال الدولة مباغته ألجمت ألسنتهم وحيرت أعينهم. واتجهوا جميعاً بأنظارهم إلى ددف.

وكان الأمير رعاوف أوّل من خاطر بتمزيق هذا السكون فقال:

- مولاي إنّ إنقاذ حياة الملك واجب على كلّ إنسان، وليس هو بالعمل الذي يتردّد عنه مخلوق، فكيف يكون جزاؤه العرش؟ فقال الملك بلهجة صارمة:

- أراك تقدح شرر العصيان بعد أن تغنّيت بأناشيد الطاعة منذ حين، أيّها الأبناء إنكم أمراء المملكة وسادتها، وسيكون لكم الجاه والنفوذ والثراء، وسيكون العرش لددف. هذه وصية فرعون يلقبها على أبنائه بحق ما له عليهم من واجب الطاعة، فليستمع إليها الوزير ليتعهدوا بسلطانه وكلمته، وليستمع إليها القائد ليسهر على تنفيذها بقوة جيشه، هذه وصية خوفو الأخيرة يتركها بين يديّ من أحبهم وأحبوه وعاشروهم بالحسنى فعاشروه بالمحبة والاخلاص.

وساد صمت رهيب لم يجرؤ أحد على تمكيده، وخلا كلّ إلى أفكاره، حتى دخل رئيس الحجاب وسجد للملك ثمّ قال:

- مولاي، إنّ مفتش الأهرام بشارو يضرع إلى جلالتك أن تسمحوا له بالمثل بين يديكم، فقال الملك:

- دعه يدخل فهو منذ الساعة من آل بيتي. ودخل بشارو بقماته القصيرة وجسمه المتهلّل



وَألقى الأمير رعباوف على ددف نظرة نارئة وقال  
بتشف:

- الآن حصحص الحق!

وَلَكِنَّ فرعون لم ينتبه إلى قول ابنه واستطرد يقول  
بصوت حالم خافت:

- حدث منذ ثيف وعشرين عامًا أن أعلنت عليّ  
الأقدار حربًا شعواء تحدت بها إرادة الآلهة، فجردت  
جيشًا صغيرًا سرت على رأسه بنفسي لقتال طفل  
رضيع، وكان كل شيء يبدو لي كأنه يسير وفق مشيئتي  
فلم يزعجني داع من دواعي الشك قط، وظننت أنني  
نقذت إرادتي وأعليت كلمتي، وإذا بالحقيقة اليوم تهزأ  
بطمانيتي، وإذا بالرب يصفع كبريائي، وها أنتم أولاء  
ترون كيف أنني أجزي طفل رع على قتله وليّ عهدي  
باختياره خلقًا لي على عرش مصر. فما أعجب هذا أيها  
الناس!

وأخى فرعون رأسه حتى استند ذقنه على أعلى  
صدره وراح في تأمل عميق. وعلم الجميع أنّ الملك  
يرم قضاء لن يردّ فساد صمت رهيب، وانتظر الأمراء  
على جزع، والخوف والأمل يصطرعان في قلوبهم  
اصطراعًا عنيفًا، ورنّت الأميرة مري سي عنخ إلى  
والدها بعينين محمقتين أطلّ منها ملاك حسن يتضرّع  
ويتوسّل، وتردّدت الأعين اللامعة ببريق الاهتمام بين  
رأس الملك المنكس وبين الشاب الباسل الذي وقف في  
ثبات عظيم مستسلمًا للأقدار. ونفد صبر الأمير  
رعباوف فقال لوالده بقلق:

- مولاي، إنك تستطيع بكلمة واحدة أن تحقّق  
قضاءك وتنصر إرادتك!

فرع فرعون رأسه كمن يستيقظ من نوم ثقيل ونظر  
إلى ابنه طويلًا، وأدار عينيه في وجوه الحاضرين ثم قال  
بهذوء:

- أيها السادة، إنّ فرعون تربة صالحة كأرض  
ملكته يزدهر فيها العلم النافع، ولولا جهل الفتوة  
وعماية الشباب ما قتلت نفوسًا بريئة بغير ذنب.

وساد الصمت مرّة أخرى، ومينت نفوس بالخيبة  
المريرة وطعنت بخنجر اليأس المسموم. أمّا الأميرة

وكان المعيار ميرابو أشدّ ذكرًا لذاك اليوم الهائل  
الذي حفرت حوادثه في وجدانه، فقال بغرابة:

- ابن من رع! هذا بعيد عن التصديق  
يامولاي، لقد مات من رع وقتل طفله في ساعة  
واحدة.

وأنت الذكرى فرعون في هالة من النيران، فارتجف  
قلبه الضعيف المتهالك وقال:

- نعم، لقد ذبح ابن من رع على فراش ولادته،  
فما هذا الذي تقوله أيها الرجل؟  
فقال بشارو:

- مولاي، لا علم لي بالطفل الذي ذبح، كلّ ما  
أعلمه تاريخ قديم. . . أناخي خبره مصادفة أو عن حكمة  
يعلمها الربّ، فكان ابتلاء لقلبي الذي يتعلّق بهذا  
الشابّ أيما تعلّق، ولكنّ إخلاصي للعرش يهيّب بي إلى  
روايته. .

ثمّ قصّ بشارو على مولاه - وعيناه تذرفان الدمع  
الغزير - قصّته مع زايا وطفلهما الرضيع من مبتدأها إلى  
الساعة الرهيبة التي وقف يسترق فيها السمع إلى قصّة  
رده ديديت الغريبة. . . ولما انتهى الرجل الحزين أخى  
رأسه على صدره ولازم الصمت.

واستولت الدهشة على الحاضرين، ولعت أعين  
الأمراء ببريق أمل خاطف، أمّا الأميرة مري سي عنخ  
فقد اتسعت عيناها هلأًا ورعبًا واصطرع في قلبها  
الخوف والأمل والألم. . . وركزت بصرها على وجه  
أبيها. . . أو على فمه كأنها تريد أن تمنع بروحها كلمة  
قد يكون فيها القضاء على سعادتها وآمالها. .

والثفت الملك بوجهه الشاحب إلى ددف وسأله:

- أضحج ما يقول هذا الرجل أيها القائد؟

فقال ددف بشجاعته المعهودة:

- مولاي! إنّ ما قاله السيّد بشارو حقّ لا ريب  
فيه.

فنظر فرعون إلى خوميني ثمّ إلى أربو ثمّ إلى ميرابو  
يستغيث بهم من هول هذه العجائب، ثمّ قال:

- ما أعجب هذا!

- تَمَّت رسالة خوفو إلى شعبه الحبيب .

ومضى فرعون يتنهد تنهدًا عميقًا ثقيلًا، ولكنه قبل أن يستسلم إلى الراحة نظر إلى ددف وأشار إليه، فاقترب الشاب من فراش الملك ووقف كالتمثال، فأخذ فرعون يده ووضعها على يد مري سي عنخ ووضع يده النحيلة على يديهما ونظر إلى القوم وقال: - أيها الأمراء والوزراء والأصدقاء، حيّوا جميعًا مَلِكِي الغد .

فلم يتردد إنسان، وانجهموا جميعًا بأنظارهم إلى مري سي عنخ وددف وأحنوا الهامات .

ونظر فرعون إلى سماء الحجرة وسها إليها لا يجرّك ساكنًا. فقلقت الملكة ومالت عليه قليلاً فرأت وجهه وقد اكتسى بنور سهاويّ كأنما يرى بعين بصيرته وجه أوزوريس العظيم يرنو إليه من العلا .

الجميلة مري سي عنخ فتنهت، تنهت من أعماق صدرها بصوت مسموع وصل إلى أذن الملك فعرف مصدره، ونظر إليها بعطف وحنان، وأشار لها بيده فهرعت إليه كحماة تتعلّم الطيران، وانكبّت على يده. ونظر الملك إلى وزيره خوميتي وقال:

- إليّ أيها الوزير بأوراق البرديّ لأختم حكمتي بأبلغ عظة تعلّمتها في حياتي. أسرع فما بقي من العمر إلّا لحظات . .

وأحضر الوزير ملفّات البرديّ فوضعها فرعون على حجره، وأمسك بالقلم ومضى يكتب حكمته الأخيرة، وكانت مري سي عنخ جاثية إلى جانب فراشه وإلى جانبها الملكة الحزينة، وكنمت الأنفاس، فما كان يسمع إلّا صرير القلم .

وانتهى فرعون فرمى القلم في إعياء شديد، وقال وهو يسلم رأسه إلى الوسادة:

رَأْفَتِي



## عِيدُ النَّيْلِ

والسرسيم. ونشرت فيه الكروم والمراعي، والجنان تجري من تحتها الأنهار، وترعاها القطعان، يطير في سبائها الحمام والطير، ويتضوّع نسيمها بشذا العطر والأزهار، وتتجاوب في جَوْها أغاريد البلابل والأطيّار.

فما هي إلا أيام معدودات، حتّى ضاقت أبو وجزيرتاها: بيجة وبيلاق، بالنازحين، فامتلات البيوت بالنازلين، وازدحمت الميادين بالحيام، وغصّت الطرق بالغادين والرائحين، وانتشرت حلقات اللاعين والمغتّين والراقصين، وزخرت الأسواق بالعارضين والبائعين، وازدانت واجهات البيوت بالأعلام وأغصان الزيتون، وبهرت الأنظار جماعات من حرس جزيرة بيلاق بشبابها المزركشة وسيوفها الطويلة، وهرعت جموع القانتين المؤمنين إلى معبدي سوتيس والنيل، يوفون بالنذر، ويقدمون القرابين، واختلط غناء المنشدين بصياح السكارى الثملين.. وشاع في جَوْ أبو الرزين فرح راقص، وطرب حارّ بهيج..

وجاء يوم العيد الموعود، وقصدت هاتيك الخلائق جميعاً إلى هدف واحد، هو الطريق الطويل الممتدّ ما بين القصر الفرعونيّ والهضبة القائم عليها معبد النيل، فسخن الهواء بأنفساهم الحارّة، وناءت الأرض بحملهم، ويش قوم لا عداد لهم من الأرض، فهبطوا إلى السفن، وأطلقوا الشرع، وطاقفوا بهضبة المعبد ينشدون أغاني النيل على أنغام المزمار والقيثار، ويرقصون على توقيع الدفوف..

ووقف الجنود صفّين على جانبي الطريق العظيم شاهري الرماح، وقد نصبت على مسافات متباعدة تماثيل بالحجم الطبيعي للملك الأسرة السادسة، آباء فرعون وأجداده، فرأى الأقربون تماثيل الفراعين، أسر

لاحت في الأفق الشرقيّ تبشير ذلك اليوم من شهر بشنس، المنطوي في أثناء الزمان منذ أربعة آلاف سنة. وكان الكاهن الأكبر لمعبد الربّ سوتيس يتطلّع إلى صفحة السماء بعينين ذابلتين، أضناها التعب طوال الليل.

وإنّه لفي تطلّعه إذ عثر بصره بالشعريّ اليبائيّة، يتألّق نورها في كبد السماء، فتهلّل وجهه بالبشر، وخفق قلبه بالفرح، وسجد على أرض المعبد الطاهرة شكراً وزلفى، وصاح بأعلى صوته أن قد بدت صورة الربّ سوتيس في أفق السماء، تحمل إلى الوادي بشرى فيضان النيل المعبود، وتسير بين يدي رحمنه. وأيقظ صوته الجميل النّيام. فهبّوا من نومهم فرحين، وقلّبوا وجوههم في السماء، حتّى قرّرت أعينهم على النجم المعبود، فردّدوا ترتيلة الكاهن، وأفعمت قلوبهم غبطةً وامتناناً، ثم تركوا ديارهم مهطعين صوب شاطئ النيل، يشهدون أول موجة حاملة للخير والبركة. وردّد جَوْ مصر الهادئ صوت كاهن الربّ سوتيس، وأذاع البشرى السعيدة في الآفاق، فعلم الناس أن قد آن أوان الهجرة إلى الجنوب، للاحتفال بعيد النيل المقدّس. فحزموا أمتعتهم، ونشطوا خفّافاً وثقالاً من طيبة ومنف وهرمونت وسوت وخونو، يولّون وجوههم شطر أبو العاصمة، فنهبت العجلات الوادي، ومخرت السفن عباب الماء..

كانت أبو عاصمة مصر، يقوم بنيانها الشامخ على دعائم من الصوّان، تؤلّف بينها الكتبان الرملية، وقد غشاها النيل بطبقات من طميه الساحر، بثّت فيها الحصب والخير العميم، وأنبّت أرضها السنط والتوت والنخيل والدوم، وكست سطحها البقول والخضروات

كري، وتتي الأول، ويبي الأول، ومحتماوف الأول، ويبي الثاني..

وكان الجوّ يضيّج بأصوات القوم المختلفة، فيضج تمييزها كما تضيغ الأمواج في المحيط المصطخب، ولا يبقى منها إلّا دويّ هائل شامل. ولكن كانت تعلو أحيانًا أصوات جهيرة، تحترق الضوضاء، وتبلغ الأذان، يهتف بعضها قائلاً: «مجدوا الربّ سوتيس الذي بشرنا بالخير». ويصبح صوت آخر: «مجدوا النيل الربّ المقدّس الذي يجلب إلى أرضنا الحياة والخصب». وبين هذا وذاك، ترتفع أصوات منادية على خمر مربوط، وأنبذة أبو، داعية إلى السرور والنسيان..

وكان جماعة من المشاهدين يتجاورون ويخلصون نجياً، تبدو على وجوههم أيّ النيل والنعيم، فقال أحدهم وهو يرفع حاجبيه متأثلاً متعجباً.

«كم من فرعون أطلع على هذه الجموع الحاشدة، وشاهد هذا اليوم العظيم!.. ثم ذهبوا جميعاً كأنهم لم يكونوا ملء الصدور، ملء الأبصار والأفتدة!»

فقال آخر:

«نعم ذهبوا ليحكموا علماً أجلاً من هذا العالم، كما سذهب جميعاً.. انظر إلى هذا المكان الذي أشغل.. كم من البشر سوف يشغله في الأجيال المقبلة، ويمجد الآمال والأفراح التي تحقّق في صدورنا الآن.. ترى هل يذكروننا كما نذكرهم؟

«إنّا أكثر من أن يذكرونا مذكر.. ألا ليت الموت لم يكن..»

«وهل كان يمكن أن يسمع الوادي تلك الأجيال التي ذهبت؟ إنّ الموت طبيعيّ كالحيّة.. وما قيمة الخلود ما دمتنا نشبع بعد الجوع، ونشيخ بعد الشباب، ونسأم بعد المسرة؟..»

«فكيف يعيشون في عالم أوزوريس؟..»

«انتظر ستعلم ذلك بعد حين..»

وقال آخر باهتمام:

«هذه أوّل مرّة يسعدني الربّ برؤية فرعون.

فقال له صاحبه:

«أمّا أنا فقد رأيته يوم التويج العظيم منذ أشهر في نفس المكان.

«انظر إلى تماثيل أجداده الأماجد.

«سترى أنّه قريب الشبه بجده محتماوف الأول..»

«ما أجل هذا!

«أجل.. أجل.. إنّ فرعون شابّ جميل، لا نظير له في طوله الفارع، وحسنه الجاهر..»

وتساءل أحد المتحدّثين قائلاً:

«تري ماذا يخلف حكمه؟.. أمسلات ومعابد، أم ذكريات غزو في الشمال والجنوب؟

«إن صدق حدسي فهي الثانية..»

«وله؟

«إنّه شابّ عظيم البأس.

فهزّ الآخر رأسه بحذر وقال:

«يقال إنّ شبابه من نوع جامع، وإنّ جلالته ذو أهواء عنيفة، يغم بالحبّ، ويهوى الإسراف والبذخ، ويندفع في سبيله كالريح العاصفة..»

فضحك المستمع ضحكة خافتة، وهمس قائلاً:

«وهل في ذاك ما يدعو إلى العجب؟.. ما أكثر المصريين الذين يغمون بالحبّ ويهونون الإسراف والبذخ.. فما بالك بفرعون.

«صه.. صه.. أنت لا تدري من الأمر شيئاً،

ألم تعلم بأنّه اصطدم برجال الكهنوت منذ اليوم الأوّل لتوليته العرش؟.. إنّّه يريد المال لينفقه في تشييد القصور، وغرس البساتين، والكهنة يطالبون بتصيب الآلهة والمعابد كاملاً. لقد منحهم آباء الملك نفوذًا وثراءً، والملك الشابّ ينظر إلى هذا بعين الطمع.

«حقاً إنّّه لأمر محزن أن يبدأ الملك حكمه بالاصطدام.

«أجل.. ولا تنس أنّ خنوم حتب، رئيس الوزراء

والكاهن الأكبر، رجل حديدّي الإرادة، شديد المراس. وهناك أيضًا كاهن منف، تلك المدينة المجيدة

التي لحقها الأقول على عهد هذه الأسرة الجليلة.

- رادوبيس.. رادوبيس الفاتنة، ملكة النفوس والأهواء جميعًا.

وأشار الرجل بيده نحو جزيرة بيجة، واستدرك:

- وهي تقيم هناك في قصرها الأبيض الساحر..

هدف العشاق والمعجبين، حيث يستبقون إلى نيل عطفها، واستدرا رحمتها.. وعسى أن يسعفكم الحظ برويتها، صانت الأرباب قليكما عن التلف..

وانجهت أنظار الرجلين وسواهما من الواقفين إلى السفينة مرة أخرى، وقد بدا على الوجوه الاهتمام الشديد. وكانت السفينة تدنو من الشاطئ، رويدًا رويدًا، والزوارق توسع لها طريقها على عجل، وكلما عبرت ذراعًا اختفت شيئًا فشيئًا وراء الهضبة المقام عليها معبد النيل، ومضى يغيب عن الأبصار مقدمها، ثم مقصورتها، فلما أن اطمأنت إلى المرفأ لم يكن يرى منها سوى أعلى صاربها وقمة شراعها المتموج، كأنه علم الحب يظل القلوب والنفوس..

ومضت فترة وجيزة، ثم رُئي أربعة من النوبيين قادمين من الشاطئ يوسعون في البحر المتلاطم طريقًا، يسير في أثرهم أربعة آخرون يحملون على الأكتاف هودجًا جميلًا فاخرًا، لا يجوزه إلا الأمراء والنبلاء، جلست فيه غادة حسناء، تستند في طرأة إلى وسادة، وتكئ على مُمرِّقَه، يساعد بقر، وتمسك في يَمَناها بمروحة من ريش النعام، تلوح في عينيها الجميلتين نظرة ناعسة حاملة، تصوِّبها إلى الأفق البعيد في كبرياء سامية، تقتحم الخلق أجمعين.

وكان الركب الصغير يسير على مهل، ترمقه العيون من كل صوب، حتى بلغ الصف الأول من المشاهدين، وهناك مالت المرأة إلى الأمام قليلًا بجيد كالغزال، ونثرت من فمها الوردى كلمات ناقت نفوس إلى سماعها: فتوقَّف العبيد عن السير، ولزموا أماكنهم كأثم تماثيل من البرنز، وارتدَّت المرأة إلى جلستها الأولى، واستغرقت فيما كانت فيه من الأحلام، ولبثت تنتظر الموكب الفرعوني الذي لا شك جاءت لمشاهدته. وكان ما يرى منها نصفها الأعلى. فاستطاع المجردون أن يشاهدوا شعرها الأسود الخالك السواد،

فارتاع الرجل لهذه الأخبار التي تصكَّ أذنيه لأول مرة، وقال:

- إذا فلندعُ الأرباب جميعًا أن تلهم الرجال الحكمة والأناة والرأي السديد.

فقال الآخرون بإخلاص صادر من الأعماق:

- آمين.. آمين.

ولاحث من أحد الواقفين التفاتة إلى النيل، فلكز صاحبه بمرفقه قائلاً:

- انظر أيها الصديق إلى النهر.. لمن يا ترى هذه السفينة الجميلة الآتية من جزيرة بيجة، كأنها الشمس صاعدة من الأفق الشرقي؟..

فعطف صاحبه رأسه نحو النهر، فرأى سفينة عجيبة، لا بالكبيرة ولا بالصغيرة، خضراء اللون كأنها جزيرة معشوشبة تطفو على سطح الماء، تبدو مقصورتها على البعد متعالية، وإن قصرت العين عن رؤية ما بداخلها، ولاح في أعلى صاربها شراع متموج عظيم، وانتظمت جانبيها حركة مجاديف بدیعة تنبعث من مئات الأيدي.. فاستولت الحيرة على الرجل، وقال:

- عسى أن تكون لموسر من أهل بيجة..

وأصغى إلى حوارهما رجل قريب، فحدهجها بنظرة إنكار، وقال لهما:

- أراهن أيها السيِّدان أنكما ضيفان.

فضحك الرجلان معًا. وقال ثانيهما:

- صدقت يا سيدي المحترم، فنحن من طيبة، واثنان من الآلاف التي ناداها العيد المجيد فلَّت هارعة إلى العاصمة من جميع البلدان.. هل تكون هذه السفينة الجميلة لكبير من رجالكم البارزين؟

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة، وقال وهو يشير لهما بأصبعه محذراً:

- طبَّتها نفساً أيها السيِّدان الكريمان، ليست هذه السفينة لرجل من رجالنا، ولكَّتها امرأة.. أجل هي سفينة غانية حسناء يعرفها حق المعرفة جميع أهل أبو، وجزيرتيها بيجة وبيلاق..

- ومن عسى أن تكون هذه الحسناء؟..

- نعم، وأهدى تحفه الثمينة القائد طاهو، رئيس الحرس الفرعويّ.

- إذا كان جميع هؤلاء يتنافسون في حبّها فمن السعيد الذي تستخلصه لنفسها؟.

- سل عن السعيد في هذه المدينة الشقيّة..

- لا أظنّ أنّ هذه المرأة تعشق أبدًا.

- من أدراك؟.. عسى أن تعشق عبدًا أو حيوانًا.

- كلًّا.. إنّ جمالها هو القوّة الجبّارة.. وما حاجة

القوّة إلى الحبّ؟.

- انظر إلى نظرة عينيها الرفيعة القاسية.. إنّها لم

تذق الحبّ بعد.

وكانت امرأة تصغي إلى هذا الحديث، فضاق صدرها. وقالت بجفاء:

- ما هي إلّا راقصة.. تربّت في بؤر الفساد

والمجون، ووهبت نفسها منذ الطفولة للخلاعة

والغواية، وأجادت فنّ المساحيق، فتبدّت في هذا

المظهر الخلّاب الكاذب.

فكبر هذا الكلام على أحد الرجال المفتونين فقال:

- معاذ الربّ يا سيّدتي، ألم تعلمي بعد أنّ جمالها

الرائع ليس كلّ ما وهبتها الآلهة من ثراء؟.. وأنّ توت

لم تبخل عليها بنور الحكمة والعرفان؟.

- يخ.. يخ.. من أين لها بالحكمة والعرفان،

وهي تنفق عمرها في إغواء الرجال؟.

- قصرها يستقبل كلّ مساء جماعة ممتازة من الساسة

والحكّماء والفنّانين، فلا عجب أن تكون كما يشاع عنها

من أعمق الناس فهمًا للحكمة، وأدراهم بالسياسة

وأذوقهم للفنّ.

وسأل سائل:

- كم عمرها؟..

- يقولون إنّها بنت ثلاثين.

- لا يمكن أن تجاوز الخامسة والعشرين.

- ليكن عمرها ما تشاء، فهذا الحسن يانع قاهر،

يقسم أن لن يلحقه الذبول أبدًا..

وعاد السائل يسأل باهتمام:

- ما منشؤها، وما أصلها؟.

ينتظم على رأسها الصغير في أسلاك من الحرير اللامع، ويهبط على كتفيها في حالة من الليل كأنه تاج إلهي، ينبج في وسطه وجه مشرق مستدير، عانقت فيه أشعة حدّين كالورد الياّنع، وفيّا رقيقًا مفعّرًا كأنه زهرة من الياّسين في الشمس في خاتم من القرنفل، وعينين دعجاوين صافيتين ناعستين، تلوح فيهما نظرة يعرفها الحبّ معرفة المخلوق لخالفه، فما رثي وجه قبل هذا اختاره الجمال سكناً ومستقرًا.

وقد فتن الناس منظرها كافّة، وحركّ قلوب الشيوخ الفانية، فصوّبت إليها من جميع الجهات نظرات نارية، لو عثرت في طريقها بصوّان لأذاخته. ورمقتها أعين النساء شزراً ومقتاً، وسرى الهمس بين المحيطين بها، وانتقل الحوار من فم إلى فم.

- يا لها من امرأة فاتنة..

- رادوبيس.. يسمونها ربّة الجزيرة!.

- هذا جمال قهار، لا يمكن أن يعصاه قلب.

- هو اليأس لمن يرى.

- صدقت، فما وقعت عليها عيناى حتّى قامت في نفسي ثورة جاعحة، ونوّت بأعباء ظلم فادح، وأحسست بتمرد شيطانيّ، وصدّت نفسي عمّا بين يديّ، وغلبني على أمرى الخذلان والحزى الأبديّ.

- هذا أمر محزن.. لكأنّي بها صورة للسعادة حقيقة بالعبادة.

- هي شرّ وبيل!.

- نحن أضعف من أن نحتمل مثل هذا الحسن القاهر.

- ألا رحمة للعاشقين..

- ألا تعلم أنّ عشاقها هم صفوة رجال المملكة؟.

- حقًا؟..

- إنّ حبّها فرض على عليّة القوم، كأنه واجب وطنيّ.

- لقد شيّد المعمار النابغة هني قصرها الأبيض.

- وأثنى بآيات منف وطيبة أيّ حاكم جزيرة بيّجة.

- مرحى.. مرحى..

- وصنع تمثّيله، ونحت جدرانه، المثال النابغة هنفر.



فتوقّفت بإزائه، وصاحت تحدّث صاحبه وهي تبسم ابتسامة كريمة:

- آيتها السيّدة المحروسة بالعناية! هل أقرأ لك الطالع؟.

ولم يبد على الغاية أنّها سمعت صوت الساحرة، فصرخت المعجوز:

- مولاتي!

وانتهبت إليها رادوبيس فيما يشبه الذعر، ثمّ عطف عنها رأسها سريعاً وقد لمسها الغضب، وقالت لها المعجوز:

- صدّقيني ما من إنسان في هذا الجمع الخاشد يحتاج إلى اليوم حاجتك!.

فتقدّم منها أحد العبيد، وحال بينها وبين الهودج وكاد الحادث على تفاهته يثير اهتمام القريبين، ولكنّ سُمع صوت بوق شديد يخترق الفضاء، ووضع على أثره الجند المصطفّون على جانبي الطريق الأبواق في أفواههم، ونفخوا فيها نفخاً طويلاً متّصلاً، فعلم الناس جيئاً أنّ الركب الفرعونيّ بدأ تحرّكه، وأنّه عمّا قليل يغادر فرعون القصر في طريقه إلى معبد النيل، فنسي الجميع ما كانوا فيه وشخصوا إلى الطريق بأعناق مشرّبة، وحواسّ مرهقة.

ومضت دقائق طويلة ثمّ بدأت طلائع الجيش تسير صفوفًا متراصة على أنغام الموسيقى الحريّة تتقدّمها حامية يبلّاق بَعْدُها المتنوّعة، تسير وراء علمها المتّوجّ بصورة الباز، فكانت الجنود تقابل في كلّ مكان بالهتاف والتصفيق..

وقفنتها بعد حين قليل فرقة المشاة حامي الرماح والتروس، تتأثّر موسيقاها، وعلمها المزدان بصورة الربّ حورس، وقد استقامت الرماح في صورة هندسيّة دقيقة، فرسمت في الهواء خطوطاً متوازية طولاً وعرضاً.

وجاءت فرقة الرماة الكبرى حامي القسيّ والسهام. واستغرق مسيرها فترة طويلة من الزمن، يتقدّمها علمها الموسوم بصولجان العرش.

ثمّ سمع من بعيد دويّ وصلصلة وصهيل خيل،

- علم هذا عند الأرباب.. وكأنيّ بها وُجدت منذ الأزل في قصرها الأبيض بجزيرة بيجة!.

\*\*\*

وشقّت الصفوف المتراصة بغتة امرأة غريبة، كانت منحنية الظهر كالقوس، تتوكأ على عصا غليظة، منقوشة الشعر بيضاء، طويلة الأنياب صفراء، مقوّسة الأنف، حادّة البصر، يشعّ من عينيها نور خفيف يرسل من تحت حاجبين كثيفين أشبيين، وكانت ترتدي جلباباً واسعاً طويلاً، يضيق عند وسطها بمنطقة من الكتّان.. وصاح الذين رأوها:

- ضام.. الساحرة ضام..

فلم تباهم، وسارت بقدميها الهزيلتين. كانت تدّعي الاطلاع على الغيب، وكشّف الستار عن المستقبل، وكانت تسخر قوّتها الخارقة لقاء قطعة من الفضّة، وكان المحيطون بها بين خائف منها ومتهمّك بها. والتقت الساحرة في طريقها بشابّ حدث، ففرضت عليه أن يقرأ له صفحة الغيب، ولم يمانع الشابّ، وكان في الحقيقة ثملًا يترنّح في سيره، لا تكاد تحمله ساقاه، فدفع لها بقطعة من الفضّة، وهو يرنو إليها بعينين نصف نائمتين، وسألته بصوتها الأجشّ:

- كم عمرك يا غلام؟.

فأجابها، وهو لا يعي ما يقول:

- اثنا عشرة كأسًا..

وعلا ضحك الساخرين، فاهتاجت المرأة غضبًا، ورمته بالقطعة التي نفحها بها، واستأنفت مسيرها الذي لا ينتهي. واعترض سبيلها شابّ ساخر وسألها بقحة:

- ماذا ينتظرن من الحادثات يا امرأة؟.

فنظرت إليه مليًا، وهي مغيظة محنّة، ثمّ قالت له:

- أبشر.. ستخونك امرأتك للمرّة الثالثة.

وضحك الناس وصفّقوا لها، وانزوى الشابّ خجلًا، وقد رُدّ السهم إلى صدره. وسارت الساحرة حتّى بلغت هودج الغانية، وطمعت في سخائها

من فرعون الشاب، والجماعة التي ناصرت هذا التحدي العجيب!..

ولم يترك الهتاف أثرًا ظاهرًا، ولم يبدُ على أحد من حاشية الملك أدنى تأثر، وتابع الموكب سيره حتى بلغ هضبة المعبد، فتوقفت العجلات جميعًا، وتقدم إلى عجلة فرعون أميران يحملان وسادة من ريش النعام مكللة بغطاء من نسيج ذهبي، فترجل الملك عليها. ونفخ في الصور، فأدى الجند التحية العسكرية، وصدحت موسيقى الحرس بنشيد النيل المعبود، وصعد فرعون درجات الهضبة في تودة وجلال، يتبعه وجوه مملكته من الأمراء والوزراء والحكام. ولدى باب المعبد العظيم وجد الكهنة في استقباله سجداً. ولما أعلن كبير الحجاب سوفخاتب وصول الملك، وقف رئيس كهنة المعبد وأحنى ظهره، وأخفى عينيه بيديه، وقال في صوت خافت:

- يتشرف خادم الرب المعبود النيل، بإزجاء تحية العبودية والإخلاص إلى مولاي سيّد القطرين، ابن رع وربّ المشرقين.

فأعطاه فرعون العصا المعقوفة، فقبلها الكاهن في إجلال عميق، وقام الكهنة واصطفوا صفين موسعين لفرعون، فسار تتبعه حاشيته إلى ساحة المذبح المحاطة بالأعمدة الشاهقة من كل جانب، وطافوا بالمذبح، وكان الكهنة يحرقون البخور، فينتشر أريجهم في جو المعبد، وتتنفس الرعوس المنعكسة إجلالاً وقنوتاً. وأحضر بعض الحجاب ثوراً ذبيحاً، ووضعوه على المذبح قرباناً وزلفى، ثم تلا فرعون هذه الكلمات التقليدية:

مثلت في رحابك أيها الإله المقدس بعد أن ظهرت نفسي. وقدمت القربان زلفى إليك، فامنن بالخير على أرض هذا الوادي الطيب، وأهله الأمنين.

ورددت الكهنة الدعاء في صوت عال مؤثر، يفيض بالإيمان والتقوى، رافعين رعوسهم إلى السماء، باسطين أيديهم في الهواء. وردد الحاضرون جميعاً الدعاء، وسرى الصوت إلى خارج المعبد، فسارع الناس في ترديده، وما هي إلا هنيهة حتى لم يبق لسان لم يلهج

ولاحت للأنظار فرقة العجلات تنطلق عشرة عشرة في صفوف متوازية دقيقة كأنما رسمت بالقلم، يجر العجلة جوادان مطهّان، ويقوم على ظهرها فارسان، سائق مزود بالسيف والمزراق، ورام مدرع يمسك قوسه بيد ويحمل جعبته بيد، فذكر المشاهدون لمراها غزور النوبة وطور سيناء، وخالوا أنهم يرونها تنتشر في السهول والوديان كالنسور المتفضّة، والعدوّ يتشتت أمامها، وقد أذهله الرعب، واحاط به الهلاك، فاشتعل الحساس في عروقهم ناراً، وشق هتافهم السماوات.

وبدا للناظرين الموكب الفرعونيّ المهيب، تتقدمه العجلة الفرعونية، وتتبعها مباشرة أهلة من العجلات خماسي خماسي، تحمل الأمراء والوزراء وكبار رجال الكهنوت والقضاة الثلاثين وقواد الجيش وحكام الأقاليم، واختتم الموكب بذيل من الحرس الفرعونيّ على رأسه القائد طاهو..

ووقف فرعون في عجلته متصب القامة، مهيب الطلعة كأنه تمثال من الجرانيت لا يميل يمين ولا يسرة، ويصوب بصره إلى الأفق البعيد غير ملتفت إلى الخلق جميعاً، ولا إلى هتافهم الصاعد من أعماق القلوب.

وكان يضع على رأسه تاج مصر المزدوج، ويقبض بيد على السوط الملكي، وبالأخرى على العصا المعقوفة، وقد ارتدى فوق لباسه الملكي كساء من جلد النمر احتفالاً بالعيد الدينيّ.

وأفعمت القلوب حماسة وسعادة، فتعالى الهتاف، فكاد لشدة أن يفرغ الطير المحلق في السماء. وأثار الحساس رادوبيس نفسها فدبت بها حياة فجائية، وأضاء وجهها بنور بهيج، وصفت يداها الرخصتان..

وأقلت من بين الأصوات الهائلة صوت يصيح على عجل: «ليحيى صاحب القداسة خنوم حتب»، فردد هتافه عشرات الأصوات، وأحدث هتافه انزعاجاً وأهاج ضجة شديدة، وتلفت الناس يبحثون عن الجسور الذي هتف باسم رئيس الوزراء على مسمع

والسلام عليك أيها النيل، يا من يعمّ فيضه الوادي مبشراً بالحياة والسعادة. إنك لتسكن الغياهب أشهراً، فإذا أصبحت إلى توملات عبادك، ولأن قلبك الكبير رحمة بهم، خرجت من الظلمات إلى النور، وانسبت في بطن الوادي زاخرًا، فتبعث في الأرض الحياة، وسرعان ما تهرّ النباتات طربًا، وتفصّ الصحراء تحت بساط سندميّ، وتزدهر البساتين، وتغني المغارس، وتصيح الطير، وتهف القلوب بنشوة الفرح، فيكسي العاري، ويطعم الجائع، ويروي الصديان، ويتزوج الأعزب، وتتلفّع أرض مصر بالسعادة والمجد. . . تعاليت والمجد لك. . . تعاليت والمجد لك. . .

ورتل كهنة المعبد أنشودة النيل على نغم القيشارة والمزمار والناي، وعلى توقيع الدفوف في ألحان عذبة وأنغام شجيّة.

ولمّا أن ضاعت الأنعام في تضاعيف الفضاء، تقدّم الأمير ناي من فرعون وأسلم إليه قرطاسًا غتومًا من البرديّ، يشتمل على دعاء النيل المعبود، فأخذته الملك ورفعته إلى جبينه، ثم تركه يهوي إلى النيل فحملته أمواجه المتدافعة في صخب صوب الشمال. . .

وهبط فرعون أدراج الهضبة، وركب عجلته، ورجع الموكب كما أتى تحفّ به العظمة ويموطه المجد، وتهفّ له قلوب الملايين من الرعايا المخلصين، وقد أهاجهم الحماس، وأسكرتهم نشوة الطرب.

## الصنَدَل

عاد الموكب الملكيّ إلى السراي الفرعونيّة، وظلّ الملك يحافظ على جلاله وهدوئه، إلى أن خلا إلى نفسه، فتبدّى الغضب على وجهه الجميل بصورة وحشيّة، وجبت لها قلوب الجوّاري اللائيّ يخلعن ثيابه، فانتفخت أوداجه وتصلّبت عضلات جسمه، وكان سريع الانفعال شديد الغضب، لا تطمئنّ نفسه حتّى تنزل العقاب الصارم بمن أثارها، وكان يدوّي في أذنيه الهتاف الأخرق، فيظنّه إنذارًا جريئًا موجهًا إلى رغبته، فيشتدّ به الغضب وينذر بالويل والثبور. . .

بدعاء النيل المقدّس. ثمّ سار الملك وفي معيته كاهن المعبد، ويتبعهما رجال المملكة إلى بهو الأعمدة ذي الصحن الثلاثة المتوازية، ووقفوا صفّين بينهما الملك وخادم الربّ، ثمّ رتلوا نشيد النيل المعبود بأصوات متهذّجة، تخرج بخفقات القلوب، فيرنّ صداها في جوّ المكان القاتم المهيّب.

وصعد الكاهن الدرجات المؤدّية إلى البهو الخالد، واقترّب من باب قدس الأقداس، وأبرز المفتاح المقدّس. وفتح الباب العظيم وانحنى جانبًا، وركع ساجدًا يصليّ. وتبعه الملك ودخل الحجرة المقدّسة حيث يرقّد تمثال النيل في السفينة الإلهيّة، وأغلق الباب، وكان المكان واسعًا: شامق السقف، شديد الظلمة، قويّ الأثر، وعلى مقربة من الستار المسدل على تمثال الآلهة أقيدت الشموع على مناضد من الذهب الوهاج. ونفذت هيئة المكان إلى قلب الملك الكبير، فوهنت حواسّه، وتقدّم في إجلال إلى الستار المقدّس وأزاحه بيده، وأحنى ظهره الذي لا ينحني أبدًا، وسجد على ركبته اليمنى ولثم قدم التمثال. وكان ما يزال مهيبًا، ولكن غابت عن وجهه أي مجد الدنيا وكبريائها، واكتست صفحته بلون باهت من الخشوع والتقوى. . . وصلى فرعون صلاة طويلة، واستغرق في العبادة ناسيًا مجده التالد وعظمته الدنيويّة.

ولمّا بلغ النهاية لثم القدم المقدّسة مرّة أخرى، وقام واقفًا وأسدل الستار الكريم، وانسحب إلى الباب ووجهه إلى الربّ، حتّى تنفّس هواء البهو الخارجيّ ثمّ أغلق الباب.

وحياّ القوم فرعون بالدعاء، وساروا وراءه إلى بهو المذبح، وتبعوه إلى خارج المعبد، وعزّجوا جميعًا إلى حافة الهضبة المطلّة على النيل. ورآهم الأهليون المتجمّعون فوق أسطح السفن، فتعالت أصواتهم بالهتاف، ولوّحوا بالأعلام والغصون.

ودعى رئيس الكهنة إلى إلقاء الخطبة التقليديّة، فنشر بين يديه ورقة طويلة من أوراق البرديّ، وتلا بصوت قويّ الثبرات:

كانت منحا تنازل عنها أجدادنا ولكنها اكتسبت صفة الحقوق الكاملة، وأنت تريد يا مولاي أن تستردها، فمن الطبيعي أن يقلقوا..

قال الملك الشاب بحدة:

- أريد أن أشيد قصورًا ومقابر، وأن أتمتع بحياة سعيدة عالية، ولا يقف في سبيل رغباتي إلا أن نصف أراضي المملكة في أيدي أولئك الكهنة.. أيجوز أن تعذبني رغباتي كالفقراء؟ ألا سحقًا لهذه الحكمة الفارغة، أو تعلمين ماذا حدث اليوم؟.. لقد هتف نفر منهم في أثناء سير الموكب باسم ذلك الرجل خنوم حتب.. رأيت أيتها الملكة؟.. إنهم يتحدثون فرعون عينًا لعين!

فاستولت الدهشة على الملكة، واصفر وجهها الوديع، وتمتمت بكلمات غير مسموعة، فقال الملك بلهجة ساخرة مريرة:

- ماذا دهالك أيتها الملكة؟

أحسّت بلا شك بانزعاج واستياء، ولولا أن الملك غاضب إلى حد الثورة لما حاولت أن تخفي غضبها، ولكنها تسلّطت على انفعالاتها بإرادة من حديد، وقالت بهدوء:

- دع هذا الحديث إلى وقت آخر، فإنك على وشك استقبال رجال مملكتك وعلى رأسهم خنوم حتب، وينبغي أن تقابلهم بالمقابلة الرسمية الكاملة.. فنظر فرعون إليها نظرة غامضة، وقال بسكينة خفيفة:

- إنّي أعرف ما أريد، وما ينبغي أن أفعل.

وفي الوقت المحدد، استقبل الملك رجال مملكته في البهو الرسمي العظيم، واستمع إلى خطب الكهنة، وآراء حكام الأقاليم، ولاحظ كثيرون أن الملك لم يكن راضيًا، وحين تفرّق الجمع استبقى الملك رئيس وزرائه وحده واختلّى به زمنا غير يسير، وملكت الحيرة النفوس، ولكن لم يجرؤ أحد على التساؤل، ثم ظهر رئيس الوزراء، وحاول كثيرون أن يقرءوا صفحة وجهه، لعلمهم يعثرون على بيّنة، ولكن وجهه كان جامدا كالصخر لا يبين.

وكان عليه أن ينتظر ساعة كاملة، قبل أن يستقبل رجال مملكته الرسميين، الذين جاءوا من أقصى البلاد للاشتراك في عيد النيل، ولكنه لم يستطع صبرا، فهرع كالرياح الهوج إلى جناح الملكة، واقتحم بابها بعنف. وكانت الملكة نيتوقريس جالسة بين وصيفاتها، تلوح في عينيها الصافيتين أي السلام والطمانينة، فلما رأى الوصيفات الملك، وشاهدن الغضب يصرخ في وجهه، وقفن مرتبكات مضطربات، وانحنين له وللملكة، وانسجبن مسرعات لا يلوين على شيء.. وليت الملكة جالسة هنيئة، ترمقه بعينين هادئتين، ثم قامت في جلال، ودنت منه، ثم شبت على أطراف قدميها وقبّلت كتفه وقالت:

- أغاضب أيضًا يا مولاي؟

كان يحسّ بالحاجة القصوى إلى إنسان يطلعه على النار الموقدة في دماغه، فارتاح إلى سؤالها وقال بشدة:

- كما ترين يا نيتوقريس!

وكانت الملكة تشعر شعورًا قويًا بعد درايتها بأخلاقه، بأن واجبها الأول هو أن تذهب عنه حدة الغضب إذا أهاجه، فقالت بهدوء وهي تتبسم إليه:

- الحلم أحرى بالملك.

ولكنه هز كتفيه العريضين استخفافًا وقال:

- أتوصيني بالحلم أيتها الملكة؟ إنه لثوب زائف يتفّتح به الضعفاء.

فقالت الملكة في تألم ظاهر..

- مولاي.. لماذا تضيق بالفضائل ذرعًا؟

- أحقّ أنا فرعون؟.. وهل حقًا أتمتع بشبابي وقوّتي؟.. فكيف إذا أريد، ولا أستطيع نيل ما أريد؟.. كيف تنظر عيناى إلى أراضي مملكتي فيتصدى لي عبد ويقول: لن يكون هذا لك؟.

فوضعت يدها على ذراعها، وأرادت أن تجذبه إلى الديوان، ولكنه تخلّص منها، ومضى يلذع الحجرة جيئة وذهابًا، غاضبًا ساخطًا، فقالت بلهجة تنم على الأسف العميق:

- لا تصوّر الأمور لنفسك على هذا النحو.. واذكر دائمًا أن الكهنة رعاياك المخلصون، وأن أراضي المعابد

وقال طاهو بقوة:

- لا يجوز أن يألم مولاي وفي المملكة سلاح لا ينثلم، ورجال يفتدونه بالأرواح، حقاً إن هؤلاء الكهنة على علمهم وخبرتهم، يتنكبون سبيل الرشاد، ويركبون رءوسهم، ويعرضون أنفسهم إلى تهلكة لا قبل لهم بها..

فأحنى الملك رأسه ناظرًا إلى ما تحت قدميه، وقال:  
- إني أتساءل، هل قول أحد من آبائي وأجدادي طوال عهد حكمه يمثل ما قولت به اليوم من هتاف، وما مضى على جلوسي سوى بضعة أشهر؟..

فالتمعت عينا طاهو بنور خاطف خفيف، وقال بيقين:

- القوة يا مولاي.. القوة يا مولاي.. كان أجدادك المقدسون أقوياء، يحققون إرادتهم بعزيمة كالجبال، وسيف كالقضاء، كن مثلهم يا مولاي، لا تردد ولا تركز إلى الحلم، واضرب إذا ضربت ضربة شديدة لا تعرف الرحمة، تذهل الجبار عن نفسه، وتحقق في صدره أوهى الأمل.

ولم يرق هذا الكلام في عيني الشيخ الحكيم سوفخاتب، وذعر من حماس قائله، وأشفق من عواقبه، فقال:

- مولاي.. إن الكهنة منبثون في أقطار المملكة كالدم في الجسم، منهم: الولاة والقضاة والكتّاب والمرّبون، وسلطانهم على القلوب مبارك بيد الأرباب منذ القدم، وليس لدينا من قوة حرية سوى الحرس الفرعوني وحامية بلاق، فالضربة القاسية قد تأتي بعواقب غير محمودة..

ولم يكن طاهو يؤمن بغير القوة، فقال:

- وما عسى أن تفعل أيها المشير الحكيم؟.. أنتوصي بالصبر حتى يقتحمنا عدونا، ونرد في عينيه إلى الهوان؟

- ليس الكهنة بأعداء لفرعون، ومعاذ الرب أن يوجد لفرعون من شعبه عدو، فالكهنة طائفة مغلصة أمينة، وما نأخذ عليهم إلا أن امتيازاتهم أكثر مما يقتضي الحال، وأقسم أي ما يشئت يومًا من إيجاد الحل

وأمر الملك مستشاريه المقربين، سوفخاتب كبير الحجاب وطاهو رئيس الحرس، أن يسبقاه إلى موضع سمرهم على شاطئ بركة الحديقة، ودار في الممرات المعشوشبة، يبدو على وجهه الأسمر ارتياح، كأنه أرضى الغضب العنيف الذي طالبه بالثار منذ حين قليل، فمشى الهوينى يستروح الشذا الطيب الذي تبعث إليه به الأشجار تحيةً وسلامًا، وينقل نظريه بين الأزهار والثمار، ثم اتخذ سبيله إلى البركة الغناء، فوجد رجليه في انتظاره: سوفخاتب بجسمه النحيل الطويل، ورأسه الأشيب، وطاهو بجسمه القويّ القولاذي الذي تربى على متون الخيل والمجالات.

وحاول كلا الرجلين أن يقرأ صفحة وجه الملك بإمعان ليستكنيه باطنه ويطمئن على السياسة التي يشير باتباعها نحو الكهنة، وكانا سمعا الهتاف الجريء الذي عدّ في جميع الدوائر تحديًا لسلطة فرعون، وكانا يتوقّعان له رجماً شديداً في نفس الملك الشاب، وعلما بعد ذلك باستبقاء فرعون لرئيس وزرائه بعد انتهاء التشريعات، فحقق قلباهما، وأشفق سوفخاتب من عواقب غصبة الملك، لأنه كان ينصح دائماً بالتزودة والأناة والصبر، ومعالجة مشكلة الأراضي بمتهى الاعتدال، أما طاهو فكان يرجو أن يدفع غضب الملك إلى الانضمام إلى رأيه، فيصدر أمره بنزع أملاك المعابد وينذر الكهنة إنذاراً نهائياً..

وجعل الرجلان المخلصان ينظران إلى وجه مولاهما، يرجوان، ويكابدان قلقاً أليماً، ولكن فرعون كنم عوطفه، وطالعهما بوجه كأبي الهول. وكان يعلم بما تضطرم به نفساهما، وكأنه رغب في أن يمدّ لها حبل الوسائوس، فجلس على أريكة في هدوء، وأمرهما بالجلوس، وسرعان ما عاودت وجهه هيئة الجدّ والاهتمام، فقال:

- يحق لي اليوم أن أغضب وأن أتألم.

وفهم الرجلان ما يعني، وردّ في أذنيهما الهتاف الجريء مرة أخرى. فرفع سوفخاتب يديه تألماً وإشفاقاً، وقال بصوت متهدج:

- تعال مولاي عن دواعي الألم والغضب!

في الغالب إلى الشعب والفقراء، وينفق في وجوه التعليم والترية الخلقية، وحاول أن يفيض، ولكني أوقفته بإشارة من يدي، وقلت له: إن هذه هي إرادتي، وإن عليه تنفيذها دون إبطاء، وأذنته بانتهاء المقابلة.

فلم يتالك طاهو أن صاح فرحاً:  
- باركتك الأرباب جميعاً يا مولاي!

فابتسم الملك ارتياحاً، ولاحظ منه نظرة إلى وجه سوفخاتب في ساعة خذلانه، فأحسن نحوه بعطف وقال:

- أنت رجل مخلص يا سوفخاتب، ومشير نصوح.. فلا يحزنك أن خولف رأيك.

فقال الراجل:

- لست يا مولاي من قوم مغرورين، يغضبون أشد الغضب إذا خولفت نصيحتهم، لا خوفاً من العواقب، ولكن ذوداً عن كرامتهم، حتى ليلبغ الغرور بأحدهم أن يتمنى لو يقع شرّ كان أنذر به، ليعرف من لا يعرف قدره.. أعوذ بالربّ من شرّ الغرور، فما يدفعني إلى محض النصيحة سوى الإخلاص وما يجزني حين مخالفتها سوى الإشفاق من صدق حدسي، وما أتمنى على الربّ من شيء إلا أن يكذب رأيي، ليطمئن قلبي..

وكانَ فرعون أراد أن يطمئنه، فقال:

- لقد نلت بغيتي، ولن ينالوا شيئاً مني، فمصر تعبد فرعون، ولا ترضى عنه بدلاً..

فأمن الرجلان على قول مولاهما بإخلاص، ولكن كان سوفخاتب مضطرباً، يحاول عبثاً أن يقلل من خطورة الأمر الذي أصدره فرعون، ويذكر في ضيق صدر أن الكهنة سيتلقون الأمر الشديد وهم مجتمعون في أبو، فيتسع لهم المقام لتبادل الرأي، وتبث الشكوى، فيعودون إلى ولاياتهم وقد أطبقت أفواههم على التذمر والحزن، وإنه ليعلم علم اليقين من هم الكهنة وما هو نفوذهم على القلوب والعقول.. ولكنه لم يبين عن آرائه، لأنه وجد الملك فرحاً راضياً ضاحك

الموفق الذي يحقق رغبة مولاي، ويحفظ للكهنة حقوقهم.

وكان الملك يستمع إليهما في هدوء، وعلى فمه العريض ابتسامة غامضة، فلما أتم سوفخاتب كلامه، قال بهدوء وهو يرمقها بعينين ساخرتين:  
- أرحبا نفسيكما أيها الرجلان المخلصان، فقد أطلقت سهمي.

واستولت الدهشة على الرجلين، ونظرا إلى الملك في إشفاق وأمل وخوف. وكان طاهو أدنى إلى الأمل، أما سوفخاتب فامتقع وجهه وعرض على شفتيه، وانتظر صامتاً سماع الكلمة الفاصلة. وقال الملك بلهجة ثمت عن الزهو والتشفي:

- تعلمان أنني استبقيت الرجل بعد انصراف الناس جميعاً، ولما أن خلا المكان ابتدرته قائلاً: إنَّ الارتفاع باسمه تحت سمعي وبصري عمل حقير خثون، وأكدت له أنني لا أعدم الهاتفين من شعبي النبيل الأمين، فرأيتهم يضطرب ويبهت، ويحني رأسه الكبير على صدره الضيق، وفتح فمه ليتكلم، ولعله كان يريد أن يعتذر بصوته الهادئ البارد..

وقطب الملك جبينه، وصمت لحظة، ثم استطرد قائلاً بعنف:

- ولم أتركه يعتذر فقطعت عليه بإشارة من يدي، وصارحته بكلام صارم، مؤكداً له أنه من تفاهة العقل أن يظن مثل ذاك الارتفاع يردني عن رأيي اعترفته، ثم أخبرته بأن نيتي انتهت إلى ضمّ أملاك المعابد إلى أراضي التاج، وأنه لن يترك للمعابد منذ اليوم إلا ما يقوم بحاجتها من الأراضي والنذور..

وكان الرجلان يصغيان بكل حواسهما إلى حديث الملك، أما سوفخاتب فكان متمتع اللون، منكفي الوجه، يعاني مرارة الحمية؛ وأما طاهو فكان متهللاً فرحاً، كأنه يستمع إلى لحن جميل، يتغنى بمجده وعظمته، واستدرك الملك قائلاً:

- لا شك أن قراري أذهل خنوم حتب، وأخرجه عن طوره، فبدا عليه الجزع، وتوسل إليّ قائلاً: إنَّ أراضي المعابد هي أراضي الأرباب، وأنَّ خيراتها تعود

فابتسم الملك قائلاً:

- لا يوجد في حديقتي شجر يتساقط منه نبت طيب كهذا.

وقال سوفخاتب:

- يعتقد العامة يا مولاي أنَّ النسر يتعشَّق الحسان، وأنه يُخطف من العذارى من تهوى إليها نفسه، ويطير بها إلى قمم الجبال، فلعلَّ هذا النسر عاشق هبط منف وابتاع الصندل لحبيبتة، ثمَّ خانته الحظَّ فأفلت من بين مخالبه، وسقط عند قدمي مولاي.

وجعل الملك يتأمَّل مسروراً متفعلاً، ويقول:

- ترى كيف خطفته؟.. أخشى أن يكون لإحدى ساكنات السماء..

فعاد سوفخاتب يقول باهتمام:

- أو لإحدى ساكنات الأرض يا مولاي، خلعتة مع ثيابها على شاطئ بركة، وتعرَّت تستحمَّ، فجاء النسر وخطفه.

- ورمى به إلى حجري.. يا للعجب، لكأنَّ به يعلم مجيَّي للحسان!..

فابتسم سوفخاتب ابتسامة ذات معنى، وقال:

- أسعدت الآلهة أيَّامك يا مولاي.

وتبدَّلت الأحلام في عيني الملك، وابتسمت أساريه، ولان جبينه، وتورَّدت وجنتاه، وكان ينظر إلى الصندل لا تفارقه عيناه، ويسائل نفسه ترى من صاحبتة؟ وما صورتها؟ وهل هي جميلة كصندلها؟ وكيف لا تدري أنَّ صندلها سقط في حجر الملك وما شأن الأقدار التي نصبتة هدفاً له؟ وعثر بصره بصورة منقوشة على باطنه، فقال وهو يشير إليها:

- ما أجمل هذه الصورة.. إنَّه فارس وسيم، يقدِّم قلبه هدية على يده المسوطة.

ووقعت هذه العبارة من قلب الرجلين موقع الانتباه الشديد فالتمعت أعينها بنور خاطف، وتطلَّعا إلى الصندل باهتمام عظيم، وقال سوفخاتب:

- هل يتنازل مولاي عن الصندل لحظة؟

فأعطاه، ونظر إليه كبير الحجاب، كما نظر إليه طاهو، ثمَّ رده الرجل إلى الملك وهو يقول:

الثغر، فأشفق من تكبير صفوه، وبسط صفحة وجهه، ورسم على شفثيه ابتسامة راضية.

وقال الملك بسرور:

- لم أشعر بمثل نشوة الظفر هذه منذ اليوم الذي انتصرت فيه على قبائل المعصايو جنوب النوبة في حياة أبي، فلنشرب نخب هذا الفوز السعيد.

وجاءت الجوارى بإبريق من خمر مريوط وكثوس ذهبية، وصبين الخمر، وقدمن كثوساً مترعات إلى الملك والرجلين المخلصين، فشربوا في صفاء وهناء، وعلَّوا في نشوة، وجعل سوفخاتب يلذَّب عن قلبه الخواطر المقلقة، ليركِّز حواسه في رحيق مريوط، ويشترك الملك والقائد سعادتهما، وكانوا جلوساً صامتين تتبادل أعينهم الموقَّة والصفاء، والبركة من تحتهم يستحمُّ في مائها الطرب شعاع الشمس المائل، والأشجار من حولهم ترقص أغصانها على شدو الأغاريد، وتنبثق الأزهار من بين أوراقها انبثاق الخواطر السعيدة من غيايات النفوس.. واستسلموا إلى يقظة ناعسة زمناً غير يسير حتَّى انتبهوا على حادثة غريبة انزعجتهم من أحلامهم بعنف، إذ سقط شيء في حجر الملك من عل، فانتفض واقفاً، وتبعه الرجلان، فسقط الشيء عند قدميه، وإذا به صندل ذهبي، ونظروا إلى أعلى دهشين، فأروا نسرًا هائلاً يحلِّق في سماء الحديقة فوق رعوسهم ويبعث في الفضاء صرصرة غخيفة، ويصلهم نظرات ملتفة من عينين متقدتين، ثمَّ ضرب بجناحيه الهواء ضربة عنيفة حلَّق بها في آفاق بعيدة..

وعادوا بالنظر إلى الصندل، والتقطه الملك بيده. وجلس يتأمَّل بعينين مبتسمتين تلوح فيهما أي الدهشة. ونظر الرجلان إلى الصندل بغرابة، وتبادلا نظرات الإنكار والدهشة والارتياب.

ومضى الملك في تأمَّله، ثمَّ غمغم قائلاً:

- هذا صندل امرأة بلا ريب، ما أجمله وما أئمنه!

وتساءل طاهو وعيناه تلتهمان الصندل:

- ترى هل خطفه النسر؟

- صدق حلمي يا مولاي.. هذا صندل رادويس  
غانية بيجة الشهيرة.

فتساءل الملك قائلاً:

- رادويس.. يا له من اسم جميل.. من عسى أن  
تكون صاحبتة؟!..

وساور القلق قلب طاهو واختلجت عيناه فقال:

- هي راقصة يا مولاي يعرفها أهل الجنوب جميعاً.

فابتسم فرعون وقال:

- ألسنا من أهل الجنوب؟. حقاً إنَّ الملوك قد

تخترق أعينها سجف الأفق القصي، وتعمى عما يقع  
عليه ظلّها.

واشدَّ القلق بطاهو، فقال وقد امتقع لونه:

- إنَّها امرأة يامولاي قد طرق بابها رجال أبو  
وبيجة وبلاق.

وكان سوفخاتب يعلم بما يساور قلب صاحبه من

المخاوف، فقال وهو يبتسم ابتسامة غامضة مأكرة:

- على آية حال هي صورة أنثوية يا مولاي،

جعلتها الالهة آية على قدرتها وإعجازها.

فردَّ الملك ناظره بين الرجلين وقال مبتسماً:

- وحقَّ الربِّ سوتيس إنَّكما لأخبر أهل الجنوب بها.

فقال سوفخاتب بهدوء:

- إنَّ هُوَ استقبأها يا مولاي ملتقى أهل الرأي

والفنِّ والسياسة.

- حقاً إنَّ الجمال عالم ساحر، يطالعنا كلَّ يوم

بالمعجزات، هل هي أجمل من رأيت؟

فقال سوفخاتب باطمئنان:

- هي الجمال عينه يا مولاي، هي فتنة قهّارة،

وعاطفة لا تقاوم. لقد صدق الفيلسوف هوف وهو من

أصدقائها المقرّين إذ قال يوماً: إنَّه من أخطر الأمور في

حياة الرجل أن تقع عيناه على وجه رادويس.

وتنهّد طاهو يائساً، وحجج كبير الحجاب بنظرة

خاطفة فهم معناها، ثم قال:

- إنَّ جمالها يا مولاي جمال شيطانيّ رخيص، لا

تضنّ به على طالب!

فضحك الملك بصوت عال، وقال:

- كلاكما يخبرني وصفه.

فقال سوفخاتب:

- ألا فلتروك سماء مصر بأجل ما تظنّ من السعادة

يا مولاي.

ونزع خيال الملك به إلى النسر، فتولّاه عجب

ساحر، أضفى عليه ما سمعه نسيجاً رقيقاً من الفتنة

والأحلام. فتساءل وكأنّه يحادث نفسه:

- ترى أحسن النسر في اختيارنا هدفاً له أم أساء؟

واختلس طاهو نظرة عاجلة من وجه مولاه المكبّ

على ما بين يديه، وقال في حيرة:

- ما هي إلا مصادفة يا مولاي. وما يؤسفني إلا أن

أرى هذا الصندل الملوّث بين يدي مولاي المعبودتين.

ولحظ سوفخاتب صاحبه بنظرة ساخرة متشفية،

وقال بهدوء:

- مصادفة؟.. إنَّ هذه الكلمة يا مولاي مهضومة

الحقّ، يظنّ بها التخبّط والعمى، ومع هذا فهي

المرجع الوحيد لأغلب السعادات وأجلّ الكوارث، فلم

يبق للآلهة إلا القليل النادر من حادثات المنطق، كلاً

يا مولاي، إنَّ كلّ حادثة في هذا العالم لا شك موكلة

بإرادة ربّ من الأرباب، ولا يجوز أن تخلق الآلهة

الحادثات - جلّت أو تفهت - عبثاً أو لهواً.

فجنّ جنون طاهو، وكظم بقوة تيار غضب جنونيّ

كساد أن يحرف هدوءه في حضرة الملك، وقال

لسوفخاتب بلهجة تنمّ على اللوم والتعنيف:

- أتريد أيّها المعظم سوفخاتب أن تشغل بال

مولاي، في هذه الساعة الجليّة، بأمثال هذه الأوهام؟

فقال سوفخاتب بهدوء:

- إنَّ الحياة جدّ لهو، كما إنَّ اليوم نهار وليل،

والرجل الحكيم من لا يذكر في أوقات جدّه أسباب

لهو، ولا يعكّر صفو لهوّه بأمر جدّه. فمن أدراك أيّها

القائد، فلعلّ الآلهة لسابق علمها بحبّ مولانا الجمال،

أرسلت إليه هذا الصندل على يد النسر العجيب.

وقبّل الملك عينيه في وجهيهما واستضحك قائلاً:

- أدائنا على اختلاف أيّها الرجلان؟ كما تشاءان.



- أما كان يجمل بك ألا تفتن خيال مولانا بحسنا  
إكراماً لي ؟  
فبدت الدهشة على سوفخاتب، وقال باهتمام  
وأسف صادق:  
- أحقاً أنك تجد في الأمر جدّاً؟ .. أم أنك ضقت  
بدعابتي ذرعاً؟ ..  
فقال طاهو بسرعة:  
- لا هذا ولا ذاك أيها المعظم، ولكن يسوءني فقط  
أن تختلف دائماً.  
فابتسم كبير الحجاب، وقال بهدوئه الطبيعي:  
- لن يزال يجمعنا رباط وثيق هو الإخلاص  
لصاحب العرش !

## قَصْر بِيَجَة

غاب الموكب الفرعوني عن الأنظار، ورفعت تماثيل  
ملوك الأسرة السادسة، فاندفع الناس من جانبي  
الطريق، فتلطمتم أمواجهم، واختلطت أنفاسهم،  
كأنهم بحر موسى الذي انشق له طوعاً، وانقضَّ على  
أعدائه كاسراً. فأمرت رادوبيس عبيدها بالعودة إلى  
السفينة. وكانت نشوة الحواس التي انبعثت في قلبها  
لدى ظهور فرعون ما تزال تلتهب في قلبها ناراً وتندفع  
إلى أطرافها دماً حاراً. وكانت صورته لا تفارق تخيلتها.  
لشبابه الغض، ونظراته المتعالية، وقده الرشيق،  
وعضلاته المقتولة.

وكانت رآته قبل ذلك في يوم التتويج العظيم منذ  
شهور قلائل، وكان يقف في عجلته كما وقف اليوم  
فارع الطول جاهر الجمال، مرسلًا بناظره إلى الأفق  
البعيد، وقد تمتت يوم ذاك كما تمتت اليوم لو عطف  
إليها عينيه.

فرى لماذا؟ .. ألا تها تطمع في أن يفوز جمالها بما هو  
أهله من التكريم؟ أم لأنها تود في أفعالها لو تراه في  
هيئة البشر بعد أن رآته في قداسة الأرباب المعبودة؟  
كيف السبيل إلى فهم هذا التمني؟ .. على أنه مهمل

ولكن كان ينبغي أن أجد في طاهو الرجل مغرباً  
بالمهوى، وفي سوفخاتب الشيخ زاجراً عنه، وعلى أية  
حال لا مندوحة لي من الميل مع رأي سوفخاتب في  
الحب، كما ملت إلى رأي طاهو في السياسة.

وقام الملك واقفاً، فقام الرجلان، وألقى نظرة  
على الحديقة الواسعة وهي تودع الشمس المائلة نحو  
الأفق الغربي، وقال وهو يهيم بالمسير:  
- أمامنا ليلة عمل شاقة. فإلى الغد، ولسوف نرى.

وذهب فرعون والصندل في يده، فانحنى الرجلان  
في إجلال.

ووجدا نفسيهما منفردين مرة أخرى فوق كل منها  
بإزاء صاحبه: طاهو بجسمه الطويل وصدره العريض  
وعضلاته الفولاذية، وسوفخاتب بجسمه الدقيق  
النحيل وعينه الصافيتين العميقتين وابتسامته الجميلة  
العظيمة.

وكان كل منهما يحس بما اختلج في صدر صاحبه،  
فيتسم سوفخاتب، ويقطب طاهو جبينه. ولم يستطع  
القائد أن يودع الحاجب بغير قول ينفس به عن صدره  
الكظيم، فقال:

- غدرت بي أيها الصديق سوفخاتب، بعد أن لم  
تطق منازلتي وجهاً لوجه ..

فرفع سوفخاتب حاجبيه إنكاراً، وقال:  
- يا له من كلام بعيد عن الحق أيها القائد، مالي أنا  
والحب؟ ألم تعلم بأنني شيخ فاني، وأن حفيدي سنب  
طالب في جامعة أون؟

- ما أسهل تزوير الكلام عليك أيها الصديق،  
ولكن الحقيقة تهزأ بلسانك اللبق الحكيم .. ألم يمل  
قلبك الفتى يوماً إلى رادوبيس؟ ألم يسؤك أن تبني  
عطفاً لم تظهر به أنت؟

فرفع الشيخ يديه يستعذ من كلام القائد، وقال:  
- إن خيالك لا يقل عن عضلات ساعدك الأيمن،  
والحق أنه إذا كان قلبي مال إلى هذه الغانية يوماً،  
فعلى طريقة الحكماء المبراة من الطمع !

كانت حقيقته، فقد تَمَّتْ صداقة، وتَمَّتْ مخلصه مشوقة.

لبثت الغانية مستغرقة في غمرات أحلامها، فلم تعن بالالتفات إلى الطريق المزدحم الذي يجتازه ركبها الصغير بشقّ الأنفس، ولم تلق أدنى انتباه إلى الآلاف من الخلق الذين يكادون أن يلهثموها، بنهم وشراهة. وصعد بها إلى السفينة ونزلت من الهودج في المقصورة، واطمأنت إلى عرشها الصغير، وهي في شبه غيبوبة تسمع ولا تعي، وتنتظر ولا ترى. . وانسابت بها تشقّ وجه النيل الرزين، حتّى رست إلى سلّم حديقة قصرها الأبيض، عروس جزيرة بيجة. وكان القصر يُرى عن بعد في نهاية الحديقة الياقة التي تنتهي معارجها إلى سيف النيل، تحوط به أشجار الجُمَيز، ويحنو عليه النخيل، كأنه زهرة بيضاء نبتت في أحضان تلك الجنة الوارفة. فهبطت أدراج السفينة، ووضعت قدمها على أولى درجات الحديقة، وصعدت سلّمًا من الممر المصقول، يمتدّ بين سورَين من الجرانيت تنتصب على الجانبين مسلّات عالية نقشت عليها أشعار رقيقة لرامون حتب، إلى أن بلغت أرض الحديقة السندسية.

واجتازت بوابة من الحجر الجيري نقش اسمها على واجهتها باللغة المقدّسة، وقام في وسطها تمثال لها بالحجم الطبيعي، نحته هنفر، وأفنى فيه دهرًا جليلًا من أسعد أيام حياته، يُثَلِّها جالسة على عرشها الجميل الذي تستقبل عليه المقرّين، ويكشف في روعة فنيّة رائعة عن جمال الوجه، وتكتّب الثديين، ورشاقة القدمين. ثمّ خلصت إلى ممَر وسيط اصطفت على جانبيه الأشجار تعانقت أعالي أغصانها، فظللت عليه سقفاً من الأزهار والأوراق الخضراء، وفرشت أرضه بالحشائش والأعشاب، وكانت توازيه عرضًا من اليمين والشمال ممرات جانبية قدت على نفس الصورة، تنتهي ذات اليمين إلى سور الحديقة الجنوبيّ، وذات الشمال إلى سورها الشماليّ. وكان هذا الممرّ ينتهي إلى الكرمة المتفرّعة المتسلّقة على أعراس من عمد رخامية، تنبسط إلى يمينها غابة من الجُمَيز، وتمتدّ إلى يسارها غابة من

النخيل أقيمت فيها هنا وهناك بيوت القردة والغزال، وانتشرت في جنباتها المترامية التبايل والمسلات.

وانتهت بها قدمها إلى بركة واسعة من ماء غير آسن، ينطلق على شطآنها نبات اللوتس، ويسبح على سطحها الأورّ والبَطّ وتغني في جوّها الأطيّار، وقد انتشر شذى العطر وأريج الزهر وغرّدت البلابل. ودارت حول البركة نصف دورة كاملة، فصارت أمام الحجر الصيفيّة، ووجدت في استقبالها جماعة من الجوّاري انحنين لها إجلالًا، ثمّ وقفن ينتظرن أوامرهما، وأسلمت الغانية نفسها إلى أريكة مظلمة تستريح. . ولم يطل بها المقام فانقضت واقفة، وقالت لجوّارها:

- كم ضايقتني أنفاس القوم الحارّة. . وكم أرهقني الحرّ. . اخلعن ثيابي، فقد تفت إلى مياه البركة الباردة.

فدنت الجارية الأولى من سيّدتها، ورفعت بخفة خمارها الموشّى بالذهب نسج منف الخالدة. ثمّ تقدّمت اثنتان فخلعتا العباءة الحريرية، فكشفتا عن قميص شفاف انحسر عمّا فوق التهدين وما تحت الركبتين، ثمّ تبعتهما جارتان فسحبنا بيدين رقيقتين القميص السعيد، وروّعا الدنيا بجسد طليق، خلفته الآلهة جميعًا، وأدّعا كلّ لقدرته وقته!

واقتربت جارية أخرى وحلّت عقدة شعرها الفاحم، فانساب على جسدها، وغشاه من الجيد إلى الرسغين، وانحنت على قدميها وخلعت صندلها الذهبيّ ووضعت على حافة البركة. ومشت الغانية تهادى، وهبطت درجات البركة المرمرية على مهل، ومضى الماء يغمر القدمين، فالساقين، فالفخذين، ثمّ ألقت بجسمها في الماء الهادئ يأخذ منه عطراً ويعطيه بردًا وسلامًا. واستسلمت لداعبة الماء في رخاوة، ولعبت فيه ما شاء لها الهوى والمرح، وسبحت طويلاً تارة على بطنها، وتارة على ظهرها، وثالثة على أحد جانبيها.

وما كانت لتعير شيئًا اهتمامًا لولا أن صكّ أذنيها صراخ فزع يرسله جوارها، فتوقّفت عن السباحة،

سنّ الفيل، وقاعدته من الذهب الخالص المحلّ بالزمرّد والياقوت، وقد أهداه إياها حاكم جزيرة بيجة.

ولم يطل انتظار الغانية، فدخل عبد من عبيدها، وأعلن قدوم السيّد عانن تاجر سنّ الفيل. ودخل الرجل على الأثر يهرول في ثيابه الفضفاضة، ويزهو بشعره المستعار، يتبعه عبد يحمل صندوقاً من العاج المطعم بالذهب، وضعه على كتف من كرميّ الغانية، ورجع من حيث أتى. وانحنى التاجر على يد رادوبيس، ولثم أناملها، فابتسمت له، وقالت بصوتها الخلو:

- أهلاً بك أيّها السيّد عانن. كيف حالك؟  
أهكذا لا نراك إلّا كلّ دهر طويل!

فضحك الرجل سعيّداً مسروراً، وقال:  
- ماذا أصنع يا مولاي!.. هي حياتي التي اخترتها أو التي فرضتها الأقدار عليّ، أن أكون أخا سفر، جوّاب أرض، تتقاذفي البلدان، فأقصي نصف عامي في بلاد النوبة، ونصفه الثاني ما بين الجنوب والشمال، أشتري وأبيع، وأبيع وأشتري، لا أعرف لحياتي مستقراً!!

فنظرت إلى الصندوق العاجي وهي لا تزال تبتسم وسألته:  
- وما هذا الصندوق الجميل؟ أخال أنّه هديّة من هداياك النفيسة!

- ليس الصندوق بالذات، ولكن ما فيه.. هو سنّ فيل مفترس، أقسم التاجر النوبيّ الذي ابتعته منه أنّ صيده كلّفه أربعة من رجاله الأشداء، فحفظته في مكان أمين، ولم أعرضه على الطالين. ولما ألقيت عصا الترحال في تيس، دفعت به إلى أيدي صانعيها المهرة، فبطّنه بقشرة من خالص الذهب، وظلوه من الخارج، فصار كأساً لا يشرب منها إلّا الملوك.. وقلت لنفسى: أحرى بتلك الكأس التي كلّفت نفوساً غالية، أن تهدي إلى من تبذل في مسيلها النفوس العزيزة رخيصة، وهي راضية.

والفتت إلهنّ، فراعها أن رأت نسرًا هائلًا يحلّق من علّو قريب من شاطئ البركة، ويرفّ بجناحيه، ففرّت من بين شفتيها صرخة فرع، وغاصت في الماء تنتفض فرعًا ورعًا، وتصبّرت بجهد جهيد، وجبست أنفاسها طويلًا حتّى أحسّت بالاختناق، ونفدت قدرتها فرفعت رأسها في خوف وحذر، ونظرت فيما حولها وهي تخشى، فلم تر شيئًا. فنظرت إلى السماء فوجدت النسر يولي بعيدًا يوشك أن يلج باب الأفق، فسبحت إلى الشاطئ على عجل، وصعدت الأدراج بسرعة مضطربة، ووضعت قدمها في إحدى زوجي صندلها، ولكنّها لم تجد الأخرى، وبحث عنها طويلًا ثمّ سألت:-  
- أين الأخرى؟

فاجابها الجوّاري في قلق:  
- خطفها النسر!

وتبدّى الأسف على وجهها، ولكنّها لم تجد متسعًا من الوقت لإعلان سخطها، فدلقت إلى الحجرة الصيفيّة، والجوّاري من حولها وبين يديها يجفّفن جسدها الغضّ، تنحدر عليه نقط الماء كأنّها لؤلؤ يتشّر على أديم عاج.

\*\*\*

ولدى الغروب تأهّبت لاستقبال الضيوف، وما أكثرهم في أيّام العيد التي تجذب الناس إلى الجنوب من كلّ صوب، فارتدت أجمل ثيابها، وأزيّنت بأفخر حليّها، ثمّ تركت المرأة إلى هو الاستقبال، تنتظر القادمين وقد آن موعدهم.

وكان البهو آية من آيات الفنّ والعمارة، بناه المعمار هني، وجعل صورته على هيئة بيضاوية، وشيّد جدرانها من الجرانيت كيبوت الأرباب، وكساه بطبقة من الصوّان ذات ألوان تسرّ الناظرين، وكان سقفه مقبّبًا تزينه الصور والتهاويل، وتدلّى منه المصابيح المكنّفة بالذهب والفضّة.

وزخرف الجدران المثل هنقر، وتنافس العشاق في تأنيثه بإهداء المقاعد الوثيرة والدواوين الفاخرة، والرياش الجميلة. وكان عرش الغانية أبدع هذه التحف جميعًا، فهو من العاج الثمين على قوائم من

مريضة، وقد بعثت إليّ رسولا يبلغني رغبتها في رؤيتي، فلم أرَ بدءاً من السفر.  
- خفقت الأرباب عنها وعنك.

فشكرها هنفر وقال:

- لا تظنيّ أنّي نسيت الحجرة الصيفية، ففي الغد يأتيك أنبغ تلاميذي بنامون بن بسار، ويقوم بزخرفتها على أكمل الوجوه، إنّني أثق به ثقّي بنفسي، ولعلّك ترخين به وتشجعيه.

فشكرته على عنايته بها، ووعدته خيراً.

واطرّد تيّار القادمين، فجاء المعمار هني، وقفاه أنّي حاكم الجزيرة، وتبعهما بعد حين قليل الشاعر رامون حتب. وكان آخر من أتى الفيلسوف هوف، الذي كان في يوم من الأيام أستاذ جامعة أون الأكبر. وقد عاد أخيراً إلى أبو مسقط رأسه، بعد أن ثيف على السبعين من عمره، وكانت رادوييس لا تفتأ تداعبه، فقالت له وهي تستقبله:

- ما لي إذا رأيتك أشتي أن أقبلك؟

فقال الرجل يهدوء:

- لعلّك يا مولاتي من هواة التحف القديمة.

\*\*\*

ودخلت جماعة من الجوّاري يحملن أواني من الفضة ملئت طيباً، وياقات من أزهار اللوتس، فدهنّ رءوس الحاضرين وأيديهم وصدورهم بالطيب، وأهدين إلى كلّ منهم زهرة من اللوتس.

وقالت رادوييس بصوت عالٍ:

- ألم تعلموا بما حدث لي اليوم؟

فتطلّع إليها الجميع بانتباه، وساد الصمت، فقالت باسمّة:

- نزلت أستحمّ ظهر اليوم في البركة، فهبط نسر بفتة وخطف فرده صندلي الذهبي، وطار بها.

فبدت الدهشة والابتسامة على الوجوه، وقال الشاعر رامون حتب:

- إنّ رؤيتك في الماء عارية تهبّج الطيور الكاسرة!

فضحكت رادوييس ضحكة رقيقة، وقالت:

- شكراً لك أيّها السيّد عانن.. إنّ هديّتك على نفاستها لا تعدل بجبال حديثك!

فطرب أيّما طرب، ورنّا إليها بعين ناطقة بالإعجاب والتوسّل، وقال بصوت خافت:

- ما أجملك!.. ما أفنك!.. كلّما عدت من سفر طويل أجلك أجل وأفتن ممّا تركتك، وكأنيّ بالزمان ولا عمل له إلّا السموّ بحسبك الفاتن.

وكانت تصغي إلى إطرأ حسنها، كمن يصغي إلى نغمة معادة، فطاب لها أن تهكّم به فسألته:

- كيف حال أبنائك؟!.

فاحسّ بشيء من الخيبة، وصمت لحظة، ثمّ انحنى على الصندوق ورفع غطاءه، فبدا الكأس نائثاً على جانبه، ثمّ قال وهو يرفع رأسه إليها:

- ما ألذع سخرتلك يا سيديّ! ومع هذا فلن تجدي شعرة بيضاء برأسي، وهل يستطيع من تقع عيناه على وجهك أن يحتفظ في قلبه بأذى حرارة لامرأة سواك!.

فلم تجبه، وما تزال تبسم، ثمّ دعت للجلوس فجلس قريباً منها. واستقبلت على أثر ذلك جماعة من التجّار وكبار المزارعين، منهم من يتردّد على قصرها كلّ مساء، ومنهم من لا تراه إلّا في الأعياد والمناسبات، فرحبت بهم بابتسامتها الفاتنة، ثمّ رأت المثال هنفر يلج باب الهو بقامته الرشيق، وحنجرتة النائثة، وشعره المفلّفل، وأنفه الأفطس، وكان من الرجال الذين تستخفّ ظلّهم، فأعطته يدها، ولثمها الرجل في حبّ عميق. وقالت تداعبه:

- أيّها الفتان الكسول.

ولم يرض هنفر عن هذا الوصف فقال:

- لقد انتهيت من عملي في زمن قصير.

- والحجرة الصيفية؟

- هي الباقية بلا زخرف، وإنّه ليؤسفني أن أقول لك بأنّي لن أزخرفها بنفسي.

فبدا التساؤل على وجه رادوييس، فقال الرجل:

- سأرتحل بعد غد إلى بلاد النوبة، لأنّ أمي

فأَمَنَ الرجل على قوله، وتَبَّهَ عند ذاك الحاكم أَنى إلى وجود السَّيِّد عانن، وكان يعرفه، ويعلم بأنَّه كان في رحلة في الجنوب، فقال له:  
- عود سعيد يا عانن، كيف كانت سفرتك هذه المرة؟

فأَحْنَى الرجل رأسه احترامًا، وقال:  
- حفظتك الآلهة من كلِّ سوء أَيْها الحاكم الجليل، لم أَتَوَعَّلْ هذه المرَّةَ فيما وراء إقْلِيم الواوايو، وكانت رحلة موفِّقة موفورة الخيرات مأمونة العواقب.  
- وكيف حال صاحب السموِّ كارفرنو حاكم الجنوب؟

- الحقُّ أنَّ سموه يلقى متاعب جَمَّةَ بسبب تمزُّد قبائل المعصايو، فهم يضمرون الكراهية للمصريَّين، ويترَبِّصون لهم، فإذا وقعوا على قافلة هاجموا بلا رحمة، وقتلوا رجالها، ونهبوا تجارتها، ولاذوا بالفرار قبل أن تبلغهم القوَّات المصريَّة.

فبدا الاستياء على وجه الحاكم، وسأل التاجر باهتمام:

- ولماذا لا يسير سموه إليهم بقوَّة تأديبيَّة؟  
- إنَّ سموه لا ينفك يرسل قوَّاته في أعقابهم، ولكنَّهم لا يواجهون القوَّات الحربيَّة، ويفرون في الصحارى والغابات. فتضطرَّ القوَّات إلى العودة بعد نفاد المؤن. ويستأنف العصاة غاراتهم على طرق القوافل.

وكان الفيلسوف هوف يصغي بانتباه إلى كلام عانن، وكانت له خبرة ببلاد النوبة، وكان على علم وافي بقضيَّة المعصايو، فسأل التاجر قائلاً:

- لماذا يصرَّ المعصايو دائئًا على العصيان!... إنَّ البلاد المشمولة بحكم مصر تتمتع في ظلِّه بالطمأنينة والرفاهية، ونحن لا نتعرَّض لعقائد غيرنا، فلماذا يناصبونا العداوة؟

ولم يكن عانن يعنى بمعرفة الأسباب، وظنَّ أنَّ نفاسة التجارة هي التي تغري القوم بالانقضاض عليها، ولكنَّ الحاكم أَنى كان متبحِّرًا في هذه المسائل، فقال للفيلسوف:

وقال عانن بحماس:  
- أقسم بالربِّ سوتيس على أنَّ النسر كان يتمنَّى لو يخطف صاحبة الصندل.  
فقال رادوبيس آسفة:  
- كم كان عزيزًا لديّ.  
فقال هنفر المثل:

- من المحزن حقًّا أن يضع شيء تتمتع بلمسك أَيْامًا وأسابيع، وما مصيره في النهاية إلَّا السقوط، وقد يسقط في حقل ناء فتطوِّه قدم رفيقة بسيطة!  
فقال رادوبيس بحزن:

- مهما يكن مصيره، فلن يعود إليّ...  
وكان الفيلسوف هوف يعجب لحزن رادوبيس على صندل تافه، فقال يعزِّها:  
- على آيَّة حال إنَّ خطف النسر لصندلك فآل حسن، فلا تحزني.  
فسأله أحد الأعيان المبرِّزين:

- وماذا ينقص رادوبيس من السعادة، وجميع هذه الوجوه من عشاقها؟  
فردَّ عليه الفيلسوف قائلاً، وهو يحدجه بنظرة ساخرة:

- ينقصها أن تتخلَّص من بعضهم!  
ودخلت جماعة أخرى من الجوارى يحملن أباريق الخمر وكؤوس الشراب الذهبيَّة، ودرنَّ بها على الحاضرين كلِّها لاح العطش على واحد منهم روينه بكأس مترعة، تطفي الظمأ في الفم، وتوقد النار في القلوب. وقامت رادوبيس على مهل، وسارت إلى الصندوق العاجي، ورفعت الكأس العجيبة، ومدَّت بها يديها إلى الساقية وهي تقول:  
- لنشرب نخب السَّيِّد عانن لهديَّته الجميلة، وعودته السَّالمة.

فشربوا جميعًا هنيئًا، وشرب عانن كأسه حتَّى الثَّالَةِ، وأرسل إلى الغانية نظرة امتنان وشكران، ثمَّ التفت إلى صاحب له وقال:  
- أليس من كبريات النعم أن يجري ذكر اسمي على لسان رادوبيس؟

وتناول المعيار هني جرة من كأسه، وقال وهو ينظر إلى وجه رادويس الجميل:

- إنّه هتاف جريء لم يسمع بمثله من قبل في وادي النيل.

فقال هنفر:

- نعم ولا شك في أنّه كان مفاجأة محزنة لفرعون الشاب في أوّل عهده بالحكم.

وقال هوف يهدوء:

- لم تجر العادة قط بأن يهتف باسم إنسان ما مهما كانت مكانته، في حضرة فرعون!

فقالت رادويس بلهجة دلّت نبراتها على الغضب:

- ولكنّهم خرقوا هذه العادة بمنتهى الوقاحة.. لماذا أقدموا على ذلك أيّها السيّد آني؟

فرفع الرجل حاجبيه الكثيفين، وقال:

- أراك تسألين عيّا يتحدث عنه الناس في الطرقات.. فكثير من العامة يعلم الآن أنّ فرعون يرغب في أن يضمّ كثيرًا من أملاك المعابد إلى أملاك التاج، وأن يستردّ المنح الواسعة التي أسبغها آباؤه وأجداده على رجال الكهنوت.

وقال الشاعر رامون حتب بلهجة لم تخل من عنف:

- كان الكهنة دائميًا موضع عطف الفراعنة،

يقطعونهم الأراضي، ويهونهم الأموال، حتّى صاروا يملكون ثلث الأراضي المزروعة، وتغلغل نفوذهم في الأقاليم، ويسطو على الرقاب، ولا شك أنّ هناك وجوهًا من المنافع أحقّ بالمال من المعابد..

فقال هوف:

- يزعم الكهنة أنّهم يصرفون ربع الأراضي على أعمال الإحسان والبرّ، ويصرّحون دائميًا بأنّهم يتنازلون عن املاكهم عن طيب خاطر إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- وما هذه الضرورة؟

- أن تشتبك المملكة في حرب مثلاً تحتاج للإنفاق الكثير.

نفكرت الغانية قليلاً، ثمّ قالت:

- لا يجوز على أيّ حال أن يناهضوا رغبة الملك.

- الحقّ يا سيّدي الأستاذ أنّ المعصايو لا يرجع إلى أسباب سياسيّة أو دينيّة. وحقيقة المسألة أنّ القوم قبائل رحّالة، يعيشون في أرض جدياء، ويهدّدهم الجوع في كلّ حين، وبين أيديهم كنوز من الذهب والفضّة لا تغني ولا تشبع من جوع. فإذا انبرى المصريون لاستثمارها، هاجموهم ونهبوا قوافلهم.

فقال هوف:

- إذا كان الأمر كذلك، فالحملات التاديبيّة عديدة الجدوى، وإني أذكر يا سيّدي الحاكم أنّ الوزير أوتا- تقدّست روحه في عالم أوزوريس- متى نفسه يومًا بعقد معاهدة معهم على أساس المنفعة المتبادلة، فيمدّهم بالغذاء في مقابل أن يؤمّنوا له طرق القوافل.. هي فكرة ناقبة ليس كذلك؟

فهزّ الحاكم رأسه دلالة على الموافقة، وقال:

- لقد أحيا رئيس الوزراء خنوم حتب مشروع الوزير أوتا، وعقد المعاهدة قبل عيد النيل بأيّام، ولن نعرف نتيجة سياسته قبل زمن طويل، والمتفائلون كثيرون..

وكان الحاضرون ملّوا سريعًا حديث السياسة، فانقسموا حلقات، ومنهم عانن، وشتمهم شجون الحديث، وحاولت كلّ حلقة أن تجذب رادويس إليها، ولكنّ الغانية جذبها اسم خنوم حتب، وذكر الهتاف الذي دوى باسمه في أثناء سير الركب الفرعونيّ، فعاودها استياء غمرها وقتذاك وأحسّت بلفحة غضب، فدلقت إلى حيث يجلس آني، وهوف، وهنفر، وهني، ورامون حتب، وقالت بصوت خافت:

- ألم تسمعوا ذلك الهتاف العجيب؟

وكان زوّار القصر الأبيض أخوة، لا تقوم بينهم كلفة، ولا يعقل ألسنتهم خوف، وكانت أحاديثهم تتناول كلّ شيء في حرّية مطلقة، وطمأنينة كاملة. وقد سُمع هوف مرّات ينتقد سياسة الوزراء، كما سُمع رامون حتب وهو يبيدي شكوكه وخوافه من تعاليم اللاهوت، ويعلن عن إيمانه باللّذة ويدعو إلى متاع الدنيا.

أن يكسو بلاده حلّة من البهاء، ولن يأتي ذلك إلّا بالاستعانة بجانب من موارد الكهنة.

فتساءل رامون حتب في حيرة شديدة:  
- فَمَنْ المخطئ إذا؟!

فقال هوف:

- عسى أن يختلف اثنان وكلاهما على حق!

ولكنّ رادوبيس لم ترتج إلى تفسير الفيلسوف، ولم ترضَ عن الموازنة التي يجريها بين فرعون ووزيره، كأنّهما نذّان. وكانت تؤمن بحقيقة ثابتة، وهي أنّ فرعون سيّد البلاد دون منازع، وأنّه لا تجوز مخالفته بأيّ حال ولأيّ سبب، ونفر قلبها من كلّ رأي يخالف عقيدتها هذه، وصرّحت برأيها لأصحابها، وختمت كلامها بقولها:

- إنّي أعجب متى آمنت بهذا الرأي؟!

فقال رامون حتب مداعباً:

- حين وقعت عينك على فرعون لأوّل مرّة.. لا تطرّبي في العجب فالجمال مقنع كالخقّ سواء بسواء. وضاق صدر المثال هنفر فصاح بصوت مسموع:

- أدِرّن الكئوس آيتها الجوّاري.. وهلمّي آيتها الغانية رادوبيس أسمعينا لحناً شجياً، أو متّعني أعيننا بحركة من الرقص الرشيق، فإنّ نفوسنا التي أسكرتها خمر مريوط، وهيّاها العيد للفرح والمسرّة، لتتوق إلى نشوة الطرب ولذعة المجون.

فضربت عنه صفحاً، وأرادت أن تسترسل في حديثها، ولكن لاحت منها التفاتة إلى التاجر عانن، فرأته كالنائم، وكان منفرداً بعيداً عن الجماعات فتذكّرت أنّها أطالت المكث في حلقة آني، فانسحبت من بينهم وسارت إلى التاجر، وصرخت في وجهه: «اصحّ» فانتبه الرجل فرغاً، ولكن سرعان ما أشرق وجهه لرؤيتها، فجلست إلى جانبه وسألته:

- أكنت نائماً؟

- بل كنت أحلم.

- أه.. فيمن؟

- في ليالي بيجة السعيدة، وكنت أسائل نفسي

فقال الحاكم آني:

- لقد تورّطوا في خطأ بالغ، وفوق ذلك فهم يبتّون دعائهم في الأقاليم، ويدخلون في روع الفلاحين أنّهم يدافعون عن أملاك الأرباب المعبودة..

فتساءلت رادوبيس دهشة:

- كيف تؤاتيتهم شجاعتهم؟!

فقال آني:

- البلاد في سلام، والحرس الفرعونيّ هو القوّة المسلّحة الوحيدة التي يعتدّ بها، والكهنة تؤاتيتهم شجاعتهم إذا أيقنوا أنّ قوّة فرعون غير كافية! فتضايقت رادوبيس وقالت بحق:

- يا لهم من أوغاد!

فابتسم الفيلسوف هوف، ولم يكن يرضى أن يجبس رأياً فقال:

- إذا أردت الحقّ فالكهنة طائفة مطهّرة، تسهر على دين هذه الأمة وآدابها وتقاليدها الخالدة، أمّا الطمع في السلطان فداء قديم.

فحدّجه الشاعر رامون حتب بنظرة تحدّ، وكان مغرماً بإثارة الزواجع، وسأله في اقتضاب:

- وخنوم حتب؟!

فهزّ هوف كتفيه استهانة وقال بهدوئه الغريب:

- هو كاهن كما ينبغي، وسياسيّ نافع، وليس من ينكر عليه قوّة الإرادة، ونفاذ البصيرة.

وتلملم الحاكم آني. وهزّ رأسه بشيء من العنف، وقال:

- لم يثبت إلى الآن إخلاصه للعرش!

فقالت رادوبيس بحدّة:

- بل أعلن غير ذلك!

ولم يكن الفيلسوف يوافقها، فقال:

- أنا أعرف خنوم حتب جيّداً، وهو بلا شكّ مخلص لمولاه ولوطنه.

فقال آني بغرابة:

- لم يبق إلّا أن تصرّح بأنّ فرعون مخطئ..

- كلا.. إنّ فرعون شابّ سامي الآمال، يرغب في

حقد طال حفظه أو لمجرد الثثرة والإعلان عن النفس، فقال أحد الكبار يدعى رام:

- من الذي يحكم ويسوس الناس؟ .. من الذي يفتح البلدان ويغزو المعازل؟ .. من الذي يجلب الثروة والخيرات؟ .. أناس غير الفنانين بلا ريب ..

وقال عانن وكان سريع التلبية للخمر:

- إن الرجال يهيمون بحب النساء، ويهذون بذكرهن في خلواتهن، أما الشعراء فيسبون هذيانهم في كلام موزون، وإلى هنا لا يجد العاقل ما يؤاخذهم عليه إلا أنهم يضيّعون وقتهم فيما لا طائل تحته، ولكن السخافة والحماقة أن يطلبوا لهذيانهم ثمنًا من المجد والخلود.

وقال شامة مرة أخرى:

- ويكذب آخرون كذبًا طويلًا منظرًا، ويهيمون في وديان بعيدة ويستوحون الأشباح والأوهام، يزعمون أنهم رسل وحي كريم .. والأطفال تكذب كذبهم، وكثير من العامة، ولكنهم لا يزعمون شيئًا.

فضحكت رادوييس طويلًا، وانتقلت من مجلسها إلى قريب من هنفر، وقالت هازئة:

- ويحك أيها الرجل .. لماذا إذا تسير غتلاً فخورًا كأنك بلغت الجبال طولًا؟

فابتسم المثال ابتسامة صفراء، ولكنه لازم الصمت كصاحبه تعاليًا منهم عن الرد على المتهكمين بغير علم، وإن انطوى كل منهم على غضب شديد، وكرهت رادوييس أن تنتهي المعركة عند ذاك، فالتفتت إلى الفيلسوف هوف ووجهت إليه هذا السؤال:

- وما رأيك أنت أيها الفيلسوف في الفن والفنانين؟

- الفن هو ولعب، والفنانون لاعبون مهرة.

ولم يستطع الفنانون أن يخفوا غضبهم، فلم يملك الحاكم آني نفسه من الضحك. وتصابيح التجار والملاك فرحين.

وصاح رامون حتب بغضب:

- أتريد أيها الفيلسوف أن تكون الحياة جدًا خالصًا؟

فهز الشيخ رأسه في هدوء، وقال والابتسامة لا تفارق شفثيه:

حيران ترى- هل أفوز اليوم بإحدى هاتيك الليالي الخالدات؟! يمكن أن أظفر الآن بمجرد وعد!

فهزت رأسها أن لا، فجزع، وسألها بخوف وإشفاق:

- له؟

- قد تطلبك نفسي، وقد تطلب غيرك، فلم أقدها بوعد خائن؟! وتركته إلى جماعة أخرى كانت منهمكة في

الحديث والشراب، فرحبوا بها فيها يتبته الصباح، وأحاطوا بها من كل جانب، وقال واحد منهم يدعى شامة:

- ألا تشتركين معنا في الحديث؟

- وفيهم تتحدثون؟

- يتساءل بعضها عما إذا كان الفنانون أهلًا للتكريم الذي يجوبهم به القراعة والوزراء.

- وهل أجمعتم على رأيي؟

- نعم يا مولاتي. على أنهم لا يستحقون شيئًا.

وكان شامة يتكلم بصوت مرتفع لا يبالي شيئًا، فنظرت رادوييس إلى حيث يجلس الفنانون: رامون حتب، وهنفر، وهني، وضحكت ضحكة ساخرة ذات جرس فاتن ساحر، وقالت بصوت يبلغ آذان الفنانين:

- ينبغي أن يكون هذا الحديث عامًا، ألا تسمعون أيها السادة ما يقال عنكم .. يقال هنا إن الفن عرض تافه، وإن الفنانين غير أهل للتكريم .. فما رأيكم؟! وعلت فم الفيلسوف الشيخ ابتسامة ساخرة، أما

الفنانون فقد نظروا إلى الجماعة التي تستهين بهم نظرة متعالية، وابتسم هنفر ابتسامة هزء، أما رامون حتب فاصفر وجهه غضبًا، لأنه كان شديد التأثر، وكان شامة معجبًا بما يقول لأصحابه فأعاد قوله بصوت عالٍ قائلاً:

- إني رجل عمل وجدّ، أضرب الأرض بيد من حديد، فتذلّ وتبدّل لي خيراتي من الأنعم السابغة، فأفيد ويفيد معي الآلاف من المحتاجين، كل هذا دون حاجة إلى قول موزون أولون براق ..

وأدلى كل من الرجال بدلوه، إمّا للتنفيس عن



وطرب هنفر لقول رفيقه، وأخذته نشوة حماس،  
فهاك برأسه ناحية أذن الغانية، وقال:

- صدق وحقّ جمالك يا رادوبيس، إنّ الحياة تمضي  
كحلم سريع الزوال، فأنا أذكر مثلاً أنّي حزنت لموت  
أبي حزناً بالغاً وبكيتته مرّ البكاء، ولكنّي الآن إذا  
عاودتني ذكره أسائل نفسي: أحقّ عاش ذلك الإنسان  
على الأرض؟ أم أنّه وهم خادع يتراءى لي في غيش  
الظلام؟! هكذا الحياة. فهاذا أفاد الأقوياء بما أحدثوا  
فيها من قوّة؟ وماذا نال العاملون ممّا أنتجوا من مال  
و ثراء؟ وماذا اكتسب الحاكمون بما حكموا. وما  
ساسوا؟! هباء في هباء.. قد تكون القوّة حاققة،  
والحكمة خطأ، والثروة غروراً. أمّا اللذة فهي لذّة،  
ولا يمكن أن تكون غير ذلك. فكلّ ما خلا الجمال  
باطل!

فبدا الجدلّ على وجه رادوبيس الفاتن، وقالت له وقد  
لاحت في عينها الأحلام:

- ومن يدريك يا هنفر، فلعلّ الجمال واللذة من  
الأباطيل أيضاً؟ ألا ترائي أمضي العمر في دعة  
وانتهاب لذّة، ونمليّ الحسن والجمال؟ ومع هذا فكّم  
يطاردني الملل والسأم!..

ووجدت رادوبيس أنّ رامون حتب في حالة سيّئة،  
وطالعت الاستياء في وجه هنفر، وصمت هي،  
فأشفقت من إيلاهم، وعدّت نفسها مسئولة عمّا  
أصابهم، فقالت تغبّر مجرى الحديث:

- حسبكم أيّها السادة.. فمهما قلتم فلن تنفكوا  
تطلبون الفنّ والفنانين، كم تحبّون يا هؤلاء الخصام.  
إنكم لتجعلون السعادة نفسها موضوعاً للجدل  
والخصام!..

ضاق الحاكم آني بالحديث ذرعاً، فقال لها بتوسّل:

- اطردي الخصام بلحن من أغانيك السعيدة.  
وكان الجميع يتوقون للسمع والطرب، فضمّوا  
توسّلاتهم إلى الحاكم، ووافقت رادوبيس، وكانت  
شبتت من الكلام، واستولى عليها قلق غريب ترّد  
عليها مرّات في يومها، وظنّت أنّ الغناء أو الرقص  
يزيله، فقامت إلى عرشها وأمرت بالعازفات فجئن

- كلّاً، ما إلى هذا قصدت، فاللعب ضرورة،  
ولكن ينبغي أن تذكر أنّه لعب.

فسأله هنفر بتحدّ:

- هل الإبداع الملهم لعب؟

فقال الفيلسوف باستهانة:

- أنت تسمّيه الإلهام والإبداع، أمّا أنا فأعلم أنّه  
لعب الخيال.

ونظرت رادوبيس إلى المعمار هني تحمّته على خوض  
المعركة، وتحاول أن تخرجه عن صمته الطبيعي. ولكنّ  
الرجل لم يلبّ إغراءها، لا استهانة منه بالموضوع  
الذي يثير النقاش، ولكن اعتقاداً منه - إن حقّاً كان أو  
وهماً - أنّ هوف لا يعني ما يقول وأنّه يداعب هنفر  
ورامون حتب - على الأخصّ - بأسلوبه القاسي. أمّا  
الشاعر فاشتدّ به الغضب، ونسي أنّه في قصر بيعة،  
وسأل الفيلسوف بلهجة حاكمة:

- إذا كان الفنّ لعب خيال، فلماذا يكلف أهله ما  
لا طاقة لهم به؟

- لأنّه يتقاضاهم إغفال ما تعودوا عليه من الفكر  
والمنطق، واللياذ بعالم الطفولة والخيال!

فهزّ الشاعر كتفيه استهانة، وقال:

- إنّ هذا الكلام لا يستحقّ الردّ عليه..

وأتمنّى على قوله هنفر، وابتسم هني موافقاً، ولكن  
رامون حتب لم يستطع صبراً، ولم يطق غضبه  
السكوت، فجال بناظريه في الوجوه الساخرة، وقال  
بحدّة:

- أليس يخلق الفنّ لكم لذّة وجمالاً؟

فقال له عانن، وهو لا يكاد يدري ما يقول لأنّ  
الخمر كانت لعبت برأسه:

- ما أنفه هذا.

فاحتدّ الشاعر، وترك زهرة اللوتس تقع من يده  
وقال في عنف:

- ما بال هؤلاء الناس لا يفقهون لما يقولون معي.

أيجوز أن أذكر اللذة والجمال، فيقال لي إنّها شيء  
تافه.. وهل توجد غاية في الدنيا وراء الجمال  
واللذة؟!..

ثم هرعَت إلى حيث يجلس هوف، وجلست إلى جانبه، ولم يكن ذاق خمرًا، فحدجته بنظرة فاتنة، فضحك الرجل، وقال متهكمًا:

- يا سوء ما اخترت جليسا.

- ألا تحبني كهؤلاء؟

- ليتني أستطيع.. ولكني أجد فيك ما يجده المرقور في المدفأة.

- إذا انصحني ماذا أصنع بحياتي لأني اليوم أشكو؟

- أتشكين حقًا. . أنعيم وثرأ وشكوى؟

- كيف غاب عنك هذا أيها الحكيم؟

- الجميع يشكو يا رادوبيس، طالما استمعت إلى شكاة الفقراء والباثسين الذين يتلهفون على كسرة خبز، وطالما استمعت إلى شكاة السادة وهم يثنون تحت عبء التبعات الجسم، وطالما استمعت إلى شكاة الأغنياء السادرين وقد برموا بالدعة والسعادة فالجميع يشكو، وما من فائدة ترجى من التغيير، فاقنعي بما قسم لك.

- وهل يشكو الناس في عالم أوزوريس؟

فابتسم الشيخ وقال:

- آه.. إن صاحك رامون حتب يهزأ بهذا العالم

الخطير. أما الكهنة العالمون فيقولون إنه عالم الأبدية، فصبرا أيها الحسناء، إنك ما زلت قليلة التجارب.

فعاودتها صوجة المجون والسخرية، وأرادت أن تداعب الفيلسوف، فقالت بلهجة جذبة متصنعة:

- أحقًا أني قليلة التجارب.. إنك لم تر نما رأيت شيئا؟

- وماذا رأيت نما لم أَر؟

فأشارت بينانها إلى القوم اللاهين وقالت ضاحكة:

- رأيت هؤلاء الرجال المبرزين، وصفوة مصر سيّدة الدنيا، يسجدون عند قدمي، وقد ردّوا إلى الوحشية، ونسوا حكمتهم ووقارهم، كأثمهم كلاب أو كأثمهم قرده!

ثم ضحكت ضحكة رقيقة، وجرت في خفة الغزلان إلى وسط البهو، وأشارت إلى العازفات فلعبت أناملهن بالأوتار، ورقصت الغانية رقصة من رقصاتها

بالدفوف والقيثارة والناي والونج والصفارة ووقفن وراءها صفًا.

ثم أشارت بيدها العاجية، فأخذن جميعًا في التوقيع الجميل والنقر الرشيق، يمين لصوتها الرخيم جوا فانتًا من الموسيقى والطرب. ثم مضت تخفت أنغام آلاتهن حتى صارت كهمس العاشقين الداهلين، وأنشأت رادوبيس تغني قصيدة رامون حتب:

يا من تسمعون إلى وعظ الحكماء، أعبروني آذانكم لقد شهدت الدنيا منذ الأزل زوال أسلافكم الذين عبروا ساحتها عبور الخواطر في رأس الحالم وقد شبت ضحكًا من وعدهم ووعيدهم، فأين الفراعنة، أين الساسة، أين الغزاة، هل حقًا القبر عتبة الخلود، ولكن لم يأت من القبر رسول يطمئن قلوبنا، فلا يفوتكم طرب، ولا تفوتكم لذة. لأصوت الساقى أبلغ حكمة من صراخ الواعظ. أنشدت الغانية اللحن بصوت إلهي حنون، أطلق الأرواح من قيود الأجسام، فهامت في سہاوات الجمال والسعادة، وذهلت عن متاعب الأرض وهموم الدنيا، وشاركت في التجلي الأعلى، وظلّ القوم بعد إمساكها نشاوى يتنهّدون فرحًا وحرنا ولذة وآلًا.

وطرد الحب من صدورهم كل عاطفة إله، فاستبقوا إلى الشراب، وهدفوا بأعينهم إلى الغانية تنتقل بين الجالسين، وتداعبهم، وتماجنهم، وتشاربهم، ولما دنت من آني همس في أذنها:

- أسعدتكم الأرباب يا رادوبيس.. جئتكم شبعًا مثقلًا بالتبعات وأخال نفسي الآن طيرًا يحلّق في السماء.

فابتسمت إليه وانتقلت إلى جانب رامون حتب، وأهدته زهرة لوتس عوضًا عما فقد، فقال لها:

- يقول هذا الشيخ إن الفن لعب خيال، ألا سحقًا لرأيه.. إنه مضى إلهية تشع من عينيك، وتدور مع وجيب قلبي، ثم تأتي بالأعاجيب..

فقال له ضاحكة:

- أخرج مني شيء يأتي بالأعاجيب، وأنا أعجز من الرضيع؟

في الفرار والافراد. وضجرت من الصراخ، فأشارت لهم بيدها فكفوا وهم بين الأمل والخوف، فقالت: - لا تتعبوا أنفسكم أيها السادة، فلن أكون الليلة لإنسان!

وجهدت أفواههم ونظروا إليها منكبين، لا يصدقون آذانهم، ثم لم يلبثوا أن ضجوا بالاحتجاج، وجأروا بالشكوى. فوجدت ألا فائدة ترجى من توجيه الكلام إليهم، فقامت واقفة، وقد بدا على وجهها التصميم والعزم وقالت:

- إني تعب.. دعوني أستريح!..

ولتحت لهم بيدها البضة وولتهم ظهرها، وغادرت المكان على عجل..

وصعدت إلى مخدعها مسرورة لما فعلت، سعيدة بخلاصها تلك الليلة، وما تزال تطنّ بأذنيها تأوهات القوم الحارة.. وشخصت إلى النافذة رأساً وأزاحت عنها الستارة، ونظرت إلى الطريق المظلم، فرأت على البعد أشباح عجلات وهوداج تحمل النشاوى البائين بالحسرة والخذلان، فلذّ لها منظرهم وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة قاسية.

كيف فعلت ما فعلت؟.. لا تدري! ولكنّها تشعر باضطراب وقلق..

واها.. ماذا وراء هذه الحياة الراتية؟ لقد حارها الجواب، ولم يرو غلتها الحكيم هوف نفسه، ثم استلقت على سريرها الوثير، واستسلمت للأحلام، فمرت بصفحة خيالها حوادث اليوم العجيبة واحدة في أثر الأخرى: فرأت جموع المصريين المحتشدة.. ورأت عيني الساحرة المتقديتين اللتين جذبتها إليها بقرة قاهرة، وسمعت صوتها البشع الذي يبعث الرعدة في المفاصل.. ثم شاهدت فرعون الشاب في حالة المجد والجمال، ثم ذلك النسر المصور الذي انقضّ على فردة صندلها وطار بها إلى السماء. حقاً كان يوماً حافلاً. ولعلّ هذا أيقظ عواطفها، وشرّد خيالها، وورّع نفسها أشتاتاً، ممّا ذهب ضحية له العشاق البائسون، إن قلبها يخفق خفقاناً شديداً، ونفسها تضطرب بلهيب غامض، وخيالها يتيه بها في وديان غريبة. وكأنّها تؤدّ أن تنتقل

المختارة التي يدع فيها جسمها اللدن، ويأتي بالمعجز من الخفة والتثني، وغلب الطرب القوم على أنفسهم، فاشتركوا بكفهم مع الدفوف، واتقّدت في الأعين أنوار خاطفة، وختمت رقصتها، ثم طارت كالحمالة إلى عرشها، وجالت بعينها في أوجه القوم الجشعة، فرأت ما أضحكها قهراً، وقالت:

- لكأني بين الذئاب.

وأعجب عائن التمل بالتشبيه، وتمنّى لو كان ذئباً ليقتنص الشاة الجميلة، وحققت له الخمر ما تمنّى، وظنّ نفسه ذئباً حقاً، فعوى بصوت عالٍ ضجّ له السادة ضحكاً، ولكنّه ثابر على العواء، وانكبّ على أربع وزحف صوب الغانية بين ضحك القوم العاصف، حتّى صار منها على قيد شبر، ثم قال لها:

- اجعلي هذه الليلة من نصيبي..

ولكنّها لم تردّ عليه، والتفتت إلى الحاكم آني، وقد جاء يحيطها تحية الوداع، فأعطته يدها، ثم تلاه الفيلسوف هوف، وقد سأله ضاحكة:

- ألا ترغب في أن أجعل هذه الليلة من نصيبك؟ فهزّ رأسه ضاحكاً وقال:

- أيسر عليّ أن أسخّر مع الأسرى في مناجم فقط!.. ورجا كلّ أن تكون الليلة له، وألحف في الرجاء، وتنافسوا في ذلك تنافساً شديداً حتّى خرج الأمر. وانبرى هنفر لإيجاد حلّ له فقال:

- ليكتب كلّ منكم اسمه في ورقة، ولنضع الأسماء جميعاً في صندوق عائن العاجي، ثمّ تمّد رادوبيس يدها فتأخذ اسم السعيد الحظّ..

واضطرّ الجميع إلى الموافقة وبادروا إلى كتابة أسمائهم، إلا عائن خشي أن تغفل الليلة من بين يديه فقال بتضرّع:

- مولاتي.. أنا رجل سفر، اليوم بين يديك، وغداً في بلد بعيد لا أبلغه إلا بشقّ الأنفس، وإن فاتتني الليلة فقد أخسرها إلى الأبد..

ولكن أثار دفاعه ثائرة القوم، وردّوا عليه هازئين، وكانت رادوبيس صامتة. تشاهد عشاقها بعينين جامدتين، وقد عاودها القلق الغريب، فأحسّت برغبة

غامضة مجهولة. فكيف تجد الراحة والقناعة؟ إنها تحلم بحالة تبطل فيها الشكوى، ولكنها جزعة برمة بكل شيء.

ولم تُترك لأفكارها وأحلامها، إذ سمعت طرقًا خفيًا على باب نخدعها، فأرهفت أذنيها دهشة، ونادت قائلة وهي ترفع رأسها:

- من؟

فأجاب صوت تعرفه حق المعرفة:

- أنا يا مولاتي.. أسمحين لي بالدخول؟

فقالت:

- تعالي يا شيث..

ودخلت الجارية على أطراف أصابعها، ودهشت لوقوف سيدها، وأن سريرها لم يمس، وعاجلتها الغانية قائلة:

- ماذا وراءك يا شيث؟

- ورائي رجل ينتظر الإذن بالدخول.

فقطبت جبينها، وقالت بصوت ينطوي على الغضب:

- أي رجل!.. اطرديه دون تردد.

- كيف يا مولاتي.. إنه رجل لا يغلق دونه باب هذا القصر.

- طاهو.

- هو بعينه.

- وما الذي جاء به في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

فلاحت في عيني الجارية نظرة ماكرة، وقالت:

- هذا ما سوف تعلمينه بعد حين يا مولاتي.

فأشارت لها بيدها أن تدعوه، وغابت الجارية لحظات، ثم لم يلبث أن ملأ فراغ الباب جسم القائد ذو الطول والعرض. وحيّاها بانحناءة من رأسه ووقف أمامها ينظر إلى وجهها بارتباك. ولم يخف عليها شحوب لونه، وتحدّ جبينه، وظلمة عينيه، فأنكرته، وسارت إلى الديوان، وجلست عليه وسألته:

- أراك متعبًا.. هل أجهدك العمل؟

من حال إلى حال، ولكن أي حال هذه؟! إنها ختري لا تدري شيئًا، فهل يكون ما بها نغمة سحر أصابتها بها تلك الساحرة الملعونة؟!

إن ما بها لسحرًا مبيّنًا، فإن لم يكن سحر ساحر، فهو سحر الأقدار المسيطرة على المصائر.

## طاهو

كانت قلقة مبلبلّة موزّعة النفس، فيست من النوم. وغادرت السرير مرّة أخرى، ودلفت إلى نافذة تطلّ على الحديقة، وفتحتها على مصراعيها ووقفت وراءها كالتمثال، ثم حلّت عقدة شعرها، فانساب في خصلات مرتعشة على عنقها ومنكبيها، ولفح جلبابها الأبيض بسواد عميق، وملأت رثيها بهواء الليل الرطب، ثم وضعت مرفقيها على حافة النافذة، وأسندت ذقنها إلى كفيها. وتاهت عيناها في الفضاء الشامل للحديقة. والنيل الجاري وراءها. كانت ليلة ظلماء معتدلة الجو، يهب نسيمها متقطعًا خفيًا ضعيفًا فيراقص الغصون والأوراق رقصًا رحيًا رقيقًا، وكان النيل يرى عن بعد كقطعة من الظلماء. أما السماء فمزداقة بالنجوم اللوامع، ترسل شعاعًا باهتًا ما إن يقترب من الأرض حتّى يفرق في بحار الظلمة.

هل يستطيع الليل المظلم والسكون المطبق أن يلقي على رأسها القلق ظلًا من السكينة والطمأنينة؟ هيهات.. وبلغ بها اليأس من الطمأنينة متناه، فأتت بوسادة ووضعتها على حافة النافذة، وأسلمت إليها خدّها الأيمن، وأغمضت عينيها.

وطرقت ذاكرتها بغتة عبارة الفيلسوف هوف: «فالجميع يشكو، وما من فائدة ترجى من التغيير، فاقبعي بما قسم لك». وتنهّدت من أعياق قلبها، وتساءلت في حزن.. أما من فائدة ترجى من التغيير حقًا؟.. أحق أن الشكوى تلاحق الإنسان أبدًا؟.. ولكن كيف تستطيع أن تؤمن بهذا إيمانًا صادقًا بصرف قلبها عن طلب التغيير؟ إن ما بقلبها ثورة جاعّة، توّد لو تدمر بها حاضرها وماضيها، وتفرّ خالصة إلى آفاق

- أجئت في هذه الساعة من الليل يا طاهو لتعيد على أذنيّ هذا الحديث؟

- كلاً لم أجيّ من أجل هذا الحديث.. ولكنني جئت من أجل أمر خطير.. إن لم يسمعني الحب فيه، فلتسعني حرّيتك التي تحرصين عليها.

ف نظرت إليه في اهتمام شديد، وانتظرت أن يتكلّم، وبلغ به الضيق أشدّه، فعزم على أن يخلص إلى غرضه بلا لفّ ولا دوران، فقال لها بهدوء وحزم وهو يصوّب عينيه إلى عينيها:

- ينبغي أن تهجري قصر ببيجة، وأن تفرّبي من الجزيرة فراراً في أقرب وقت.. قبل أن يبلج الصباح. فارتاعت المرأة لقوله، ونظرت إليه بعينين لا تصدّقانه وسألته:

- ما هذا الذي تقوله يا طاهو؟

- أقول إنّ ينبغي أن تختفي.. أو تفقدي حرّيتك.

- وماذا يهدّد حرّيتي في ببيجة؟

فأصرّ على أسنانه، وسألها بدوره:

- ألم تفقدي شيئاً ثميناً؟

فألت داهشة:

- بلى. فقدت فردة صندلي الذهبيّ الذي أهديتني.

- كيف؟

- خطفه النسر وأنا أستحمّ في بركة الحديقة..

ولكنّي لا أدري أيّ علاقة توجد بين حرّيتي المهدّدة وصندلي المفقود؟

- مهلاً يا رادوبيس.. لقد خطفه النسر حقاً،

ولكن ألا تدرين أين سقط؟

وجدته يتكلّم بلهجة العارف، فاستولى عليها العجب وتمتّت قائلة:

- من أين لي بهذا يا طاهو؟

فتنهّد قائلاً:

- سقط في حجر فرعون.

وقرعت هذه الكلمة أذنيها في حالة من دويّ هائل، ملأ حواسّها جميعاً، وأذهلها عن كلّ شيء. فنظرت إلى طاهو بعينين حائرتين، ولم تستطع أن تخرج عن صمتها، وكان القائد يتفرّس بعينين قلقتين مرتابتين،

فهزّ رأسه بالنفي، وقال باقتضاب:

- كلا.

- لست كمهدي بك.

- حقاً!

- لا شك أنّك تعلم هذا.. ماذا بك؟

هو يعلم كلّ شيء بلا ريب، وستعلمه بعد حين سواء أذاه إليها بنفسه أم لم يؤدّه. وهو يشفق من الإقدام على الكلام لأنّه يغامر بسعادته، ويخشى أن تفلت من يده إلى الأبد. ولو أنّه كان يستطيع أن يتسلّط على إرادتها لكان كلّ شيء، ولكنّه يكاد أن يئأس من هذا، فاستولى عليه ألم ممض وقال لها:

- آه يا رادوبيس! لو كنت تبادليني الحبّ لأمكن أن أتوسّل إليك باسم حبّنا.

تري ما حاجته إلى التوسّل؟.. عهددا به رجلاً عنيفاً يكره التوسّل والرجاء، وطالما قنع بفتنة جسمها، فما الذي أفزعها؟! وخفضت عينيها وقالت:

- هذا حديث قديم مُعاد.

فأغضبه قولها على صدقه، واحتدّ قائلاً:

- أعلم ذلك.. ولكنّي أعيده للدواع حاضرة.. آه.. لكأنّ قلبك غار أجوف في قاع نهر بارد.. كانت ألقت أمثال هذا المقال، ولكنّها قالت متململة:

- هل منعك شيئاً تشتهي؟

- كلاً يا رادوبيس. لقد وهبتي جسمك الفاتن الذي خلق عذاباً للبشر. ولكن طالما طمعت في قلبك. يا له من قلب يا رادوبيس.. إنّ يقف وسط زوابع الشهوات جامداً كأنّه ليس منك، ولطالما ساءلت نفسي متحيّراً مغيظاً، ماذا يعينني؟. ألسنت رجلاً بل أنا رجولة كاملة. والحقيقة أنّك بدون قلب..

وازداد إنكارها له، ليست هذه المرّة الأولى التي تسمع فيها هذا الكلام؛ ولكنّه كان يقوله ساخراً أو غاضباً غضباً خفيفاً.. أمّا في هذه الساعة المتأخّرة من الليل، فإنّه يتكلّم بصوت مهتدج ويتميّز غيظاً وحنقاً. فما الذي أهاجه؟ وكأنّها أرادت أن تستحثّه فسألته:

عواطف مضطربة، وجثم الكابوس على صدر الرجل، واشتدَّ به الحنق لصمتها، ولأنَّها لم تفزع ولم ترتعب، فقال لها بنغيظ:

- ألا ترين أنَّ حَرَّتِكَ مهْدَّة بالأسر؟ حَرَّتِكَ يا رادوبيس التي تحرصين عليها، ولا تفرطين فيها. حَرَّتِكَ التي دَعَرَتْ قلوبًا وأهلكت نفوسًا، وجعلت اللوعة والحسرة والياس أوبئة تفتك بأهل بيعة جميعًا، لماذا لا تفزعين إلى الفرار بها؟

واستاءت لوصفه هذا لحرَّتِها، وقالت له بسخط:  
- أتقذفني بهذا الوصف الذي تقشعر منه الأبدان، وكلَّ ذنبي آتِي لم أستبح نفسي للرياء، وأقول لإنسان كذبًا إِنِّي أحبه؟

- ولماذا لا تحيَّين يا رادوبيس؟ لقد أحبَّ طاهو الجندِيَّ الجَبَّار الذي خاض غمار الحرب في الجنوب والشمال، وتربَّى على ظهور العجلات. فلماذا لا تحيَّين أنت..؟!

فابتسمت ابتسامة غامضة، وتساءلت:

- ترى هل أملك جوابًا على سؤالك؟  
- لست أبالي هذا الآن، فما لهذا جثت.. أسألك ماذا أنت فاعلة؟

فقالته هدوء واستسلام عجيب:

- لست أدري.

فاضطربت عيناه كجمرتين، والتهمتها بحنق، وأحسَّ برغبة جنونية في تحطيم رأسها. وحدث أن نظرت إليه فتنفَّس تنفَّسًا عميقًا، وقال:

- حسبتك أشدَّ حماسًا لحرَّتِكَ.

- وما عسى أن أفعل؟

فضرب بدا بيد، وقال:

- تقرِّبن يا رادوبيس! تقرِّين قبل أن تحملي إلى قصر الحاكم جارية من الجواري، وتودعين حجرة من حجراته التي لا عداد لها، ثمَّ تعيشين هنالك في وحدة وعبودية، تنتظرين نوبتك مرَّة كل عام، تعيشين ما بقي من حياتك في جنبه حزينه يطوف بها سجن كئيب.. هل خلفت رادوبيس لمثل هذه الحياة؟!  
وئارت نائرتها غضبًا لكرامتها وكبريائها. ترى من

ويتساءل: ترى ما وقع الخبر في نفسها؟ وما الإحساس الذي يعتلج في صدرها؟ وضاق ذرعًا. فسأها بصوت خافت:

- ألم أكن محقًا في طلبي؟

ولكنَّها لم تردَّ عليه، ولم يبد عليها أنَّها كانت تصغي إليه. كانت غارقة في لجج تلتطم في قلبها الحائر، فهاله جودها، وكبرت عليه حيرتها، ورأى في ذلك آية نفر منها قلبه، فذهب صبره، واستنفره الغضب، فغشَّى بصره، وصاح بها بصوت أجشَّ شديد:

- في أيِّ واد تتيهين يا هذه؟.. ألم يفزعك هذا الخبر الهائل؟

فارتجف جسمها من شدَّة صوته.. والتهب الغضب بقلبها، وحدجته بنظرة قد شدَّية، ولكنَّها كظمت ما بنفسها لتحصل منه على ما تريد، وسألته ببرود:

- أترى أنَّه كذلك؟

- أرى أنَّك تتغايين يا رادوبيس.

- كم إنَّك ظالم.. هَبْ أنَّ الصندل سقط في حجر فرعون، فهل تراه قاتلًا لذلك؟

- كلاً، ولكنَّه قلب الصندل بين يديه، وتساءل عمَّن عسى أن تكون صاحبتة؟

فخفَّق قلب الغانية بشدَّة وسألته:

- وهل وجد الجواب؟

فاظلمت عيناه، وقال بصوت متهدج:

- كان هناك إنسان يتربَّص بي، جعلته الأقدار صديقًا عدوًّا وعدوًّا صديقًا، فانتهاز الفرصة السانحة، وطمعني طعنة نجلاء، فذكرك عند فرعون ذكرًا جميلًا مغربًا، قدح الرغبة في قلبه، وأهاج الشهوة في صدره. - سوفخاتب؟!

- هو بعينه ذاك الصديق العدو، وقد عبث الإغراء بقلب الملك الشاب.

- وماذا يريد؟

فغقد طاهو ذراعيه على صدره، وقال بشدَّة:

- ليس فرعون بالإنسان الذي يرغب في شيء، ويعزُّ عليه، وهو إذا هوى شيئًا يعرف كيف يستأثر به. وساد الصمت مرَّة أخرى، ووقعت المرأة فريسة

فقلت، وعلى فمها ابتسامة:

- لن تذوق رادويس الذلّ أبداً.

فاستشاط غضباً، وقال:

- آه لقد فهمت. تحرّك شيطانك القديم، شيطان  
الغرور والكبر والقوّة، ذلك الشيطان يحتمي ببرودة  
قلبك الأبديّة، ويلتذّ بمشاهدة عذاب الآخرين  
والتحكّم في المصائر، لقد لاح له اسم فرعون فتمردّ،  
وأراد أن يجرب قوّته وسطوته، ويمتحن سلطان هذا  
الجهال اللعين، غير عابٍ بما يدوس في سبيله الشيطانيّ  
من أشلاء القلوب، وذوب النفوس، وأنقاض  
الآمال.. آه.. لماذا لا أقضي على هذا الشرّ بطعنة من  
هذا الخنجر؟

فنظرت إليه بعين مطمئنة، وقالت:

- لم أمنحك شيئاً، وطالما حدّرتك من الإغراء!

- إنّ هذا الخنجر كليل بهدنة نفسي.. كم تكون  
نهاية طبيعيّة لرادويس؟

فقلت بهدوء:

- وكم تكون نهاية أسيفة للقائد الوطنيّ طاهراً!

فنظر إليها طويلاً بعينين جامدتين، وكان يشعر في  
تلك اللحظة الفاصلة بيأس عميت وقنوط خائق، ولكنّ  
غضبه لم ينفجر، وقال بلهفة باردة قاسية:

- ما أتبحك يا رادويس!.. أنت صورة بشعة  
مشوّهة، ومن يحسبك جميلة أعمى لا يبصر. إنّ  
صورتك قبيحة لأنّها صورة مميتة، ولا جمال بلا حياة،  
لم تنبض الحياة بصدرك قطّ، ولم تدقّ قلبك أبداً..  
أنت جتّة وسيمة القسّات، ولكنّها جتّة. لم يبد الخنان  
في عينيك، ولا انفرجت شفتاك عن ألم، ولا خفق  
قلبك بالعطف. نظرتك جامدة وقلبك قدّ من حجر..  
أنت جتّة ملعونة، وينبغي أن أكرهك، وأن أكرهك ما  
حييت.. وأنا أعلم أنّك ستطغين كيف شاء لك  
شيطانك، ولكنّك ستصرعين يوماً محطّمة النفس،  
وهذه نهاية كلّ شرّ.. لماذا أقتلك إذا.. لماذا أحمل تبعه  
قتل جتّة ميتة؟

نطق طاهو بهذه الكلمات ثمّ ذهب.

الممكن أن يكون حظّها ونصيبها مثل هذه الحياة  
البائسة؟

أيقدر لها في النهاية - هي التي يستبق إلى رضاها  
صفوة الرجال - أن تقاسم الجوّاري قلب فرعون  
الشابّ، وأن تقنع من الدنيا بحجرة في الحريم  
الفرعونيّ؟ أتهدّي إلى الظلمات بعد النور، وتتلّفّع  
بالهوان بعد العزّة، وتقنع بالعبوديّة بعد السيادة الجبّارة  
الكاملة؟.. آواه.. ما أبشع التصوّر وأغرب  
الخيال.. ولكن هل تفرّ كما يريد طاهو؟.. أترضى  
بالفرار؟ رادويس المعبودة التي لم يحظ بحسنها وجه،  
ولم يشحن بسحرها جسم، تفرّ من العبوديّة؟.. فمن  
إذا التي تطمع في السيادة والاستئثار بالقلوب؟!

ودنا منها خطوة، وقال لها بتوسّل:

- رادويس.. ماذا تقولين؟

فعاودها الغضب، وقالت بسخرية:

- ألا يسوءك أيّها القائد أن تغرّبي بالهرب من وجه  
مولاك؟

وأصابته سخريتها في صميم قلبه، فترنّح من هول  
الصدمة، وقال بسرعة، وقد أحسّ بمرارة في فمه:

- لم يرك مولاي بعد يا رادويس. أمّا أنا فمسلوب  
القلب منذ أمد بعيد. أنا أسير لهوىّ جامع لا يعرف  
الرحمة، يوردي موارد الهلاك، ويطلّوني بقدم الذلّ  
والعذاب، إنّ صدري آتّون من عذاب ملتهب، وقد  
اشتدّ لحيه اندلاّعاً حين أشفق من فقدك إلى الأبد.  
فأنا إن أغريتك بالهرب أدافع عن حيي، ولا أخون  
مولاي المعبود قطّ.

لم تلق بالآ إلى شكواه، ولا إلى دفاعه عن إخلاصه  
لمولاه، كانت ما تزال تثور لكبرياتها، ولذلك حين  
سأله الرجل عمّا تنوي عمله، هزّت رأسها بعنف كأنّها  
تريد أن تنفض عنها الوسائس الحقيرة وقالت بصوت  
بارد مليء بالثقة:

- لن أفرّ يا طاهو.

وسهم الرجل في ذهول ويأس، وسألها:

- هل رضيت بالهوان وأسلمت للذلّ؟

تمّ ذكرت ما قال طاهو عن فرعون الشاب من أنّه  
يرغب في رؤية صاحبة الصندل، وأنّه سيدعوها حتّى  
إلى حريمه العامر.. آه.. إنّ فرعون شابّ ملتهب  
الدماء، جنونيّ الشباب. كما قيل لها، فليس عجيباً أن  
يقول طاهو ما قال، ولا مستحيلاً أن تصدق أقواله،  
ولكن عسى أن تأخذ الحوادث مجرىً جديداً، إنّ نفقتها  
بنفسها لا حدّ لها.

وسمعت طرّقاً على الباب، فقالت بصوت  
متكاسل:

- شيت.. ادخلي.

وفتحت الجارية الباب، ودخلت تسير في خفّتها  
المعهودة وهي تقول:

- حمداً للربّ الذي يسّر لك النوم بعد طول  
السهاد. وارحمته لك يا مولاتي، لا بدّ أنّ الجوع نال  
منك كلّ منال.

وفتحت النافذة، فانبعث منها نور مكملّ بسمرة،  
وقالت ضاحكة:

- غابت شمس اليوم دون أن تراك، فباءت من  
زيارتها للأرض بالخرسان.

وسألته رادوبيس وهي تتمطى وتشاءب:

.. أأني المساء؟

- نعم يا مولاتي، والآن هل تذهين إلى الماء المعطر  
أم تتناولين الطعام؟.. وأسفاه أنا أعلم بما سهد  
جفنيك بالأمس!

فسألته باهتمام:

- ما هو يا شيت؟

- أنك لم تدفّقي الفراش برجل.

- خست يا مكرة.

فقالت الجارية وهي تغمز بعينيها:

- الرجال عادة مستبّدة يا مولاتي، ولولا هذا ما

احتملت غرورهم.

- حسبك ثروة يا شيت.

وشكت من ثقل رأسها، فقالت لها الجارية:

- هلمي بنا إلى الحمام.. فالعشاق يتقاطرون على

بهو الاستقبال، ويؤلّهم أن يروه خاليًا منك.

ولبت رادوبيس تنصت إلى وقع قدميه الثقيلتين،  
حتّى غمرها سكون الليل..

ثمّ رجعت إلى النافذة. كان الظلام شاملاً،  
والنجوم ساهرة في مادبتها الأبدية، والسكون غيّباً  
رهيباً، فخالّت أنّها تستطيع أن تسمع خلجات قلبها  
الدفينة.

كان ما بها قويّاً عنيّاً بالحرارة والقلق، يقسم أن  
جسمها جسم نابض بالحياة، لا جثة هامدة..

## فرعون

وفتحت عينيها فرأت ظلمة. ترى أما يزال الليل  
جائئاً، وكم ساعة استطاعت أن تخلد فيها إلى السكينة  
والنوم؟. ولبت دقائق لا تعي شيئاً مطلقاً ولا تذكر  
شيئاً، كأنّها جهلت الماضي كما تجهل المستقبل، وكأنّها  
ابتلعت شخصيّتها ظلمة الليل الحالكة. وأحسّت  
هنيئة بذهول وضيق، ثمّ ألقت عيناها الظلمة فبهتت  
وخفّت وطأته، واستطاعت أن ترى ضوءاً خفيفاً يشعّ  
من خصائص النوافذ فتبيّنت أثاث المخدع، ورأت  
المصباح المدلّى المكفّت بالذهب، وولج الشعور  
حواسها، فذكرت أنّها ظلمت يقظة لا يذوق جفنيها نوم  
حتّى غمرها الفجر بموجه الأزرق الهادئ، وأنّها ارتمت  
عند ذلك على السرير، فاختلسها النوم من عواطفها  
وأفكارها، وعلى ذلك تكون في نهار اليوم الثاني، أو في  
مسائه.

وذكرت حوادث الليلة الماضية، وعادت إلى غيّلتها  
صورة طاهو وهو يرغي ويزبد، ويثّر من اليأس  
ويتوغّد بالملت، يا له من رجل عنيف! إنّهُ لرجل جبار  
شديد الغضب، وحنئيّ الغرام، ولا عيب فيه إلّا أنّ  
حبّه عنيد مثابر، شديد التغلغل. وتمنّت صادقة لو  
ينساها أو يمقتها، إنّها لا تحبي من الحبّ سوى المشقة.  
الكلّ يتلهّف على قلبها، وقلبي زاهد نافر، كحيوان  
غير أليف. وكم اضطرت إلى خوض مواقف مؤثّرة  
ومآسي أليمة، وهي كارهة. ولكنّ المآسي كانت تتبعها  
كظّلها، ونحوم حولها كخواطرها، فلوّثت حياتها  
بالقسوة والآلام.



بعنف ومزّقه إرباء، وخشيت الجارية أن تثير غضب مولاتها عليها، فذهبت تتعزّز في الارتباك. وغادرت رادوبيس الحثام إلى مخدعها في أجل صورة وأكمل هيئة، وتناولت الطعام وشربت كأساً مترعة من خمر مريوط. ولم تكد تطمئن إلى الديوان حتّى دخلت عليها شيث مهرولة بلا استئذان، فتلقّتها بنظرة تحذير ووعيد، وقالت الجارية في خوف:

- في البهوجيل غريب يلحّ في مقابلتك.  
فاستولى الغضب على الغانية، وصاحت بها:  
- هل أصابك مسّ من الجنون يا شيث؟ أمخالفين أولئك القوم المزعجين عليّ؟! .

فقال الجارية وهي تلهث:  
- صبراً يا مولاتي.. لقد دفعت الزوّار جميعاً، أمّا هذا الرجل فغريب لم تره عينيّ من قبل.. التقيت به بغتة في الردهة المؤدّية إلى البهو، ولا أدري من أين أتى.. وحاولت أن أعترض سبيله، ولكنّه سار بغير مبالاة، وأمرني أن أبلغك رجاءه.  
فسهمت الغانية إلى الجارية هنيهة، وسألتها باهتمام:

- هل هو من ضباط الحرس الفرعونيّ؟  
- كلاً يا سيّدي.. إنّه لا يرتدي زيّ الضباط.. وقد سألته أن يعلن لي عن شخصيّته، فهزّ منكبيه باستخفاف، فأكدت له أنّك لا تقابلين أحداً اليوم.. ولكنّه استهان بكلامي، وأمرني أن أذنك بانتظاره..  
آواه يا مولاتي.. إني أحرص على رضاك، ولكنّي لم أجد وسيلة إلى دفع هذا الثقل الجريء.

وتساءلت أليكون هو رسول الملك؟ وخفق قلبها لهذه الفكرة خفقة شديدة ارتجّ لها صدرها.. وجرت إلى المرأة، وألقت على صورتها نظرة فاحصة، ثمّ دارت دورة كاملة على أطراف أصابعها ووجهها ثابت في المرأة، وسألت الجارية:

- ماذا ترين يا شيث؟  
فقال الجارية، وهي تدهس لتبدّل حال مولاتها:  
- أرى رادوبيس يا مولاتي!

وغادرت الغانية المخدع، تاركة جاريته في دهشتها

- هل جاءوا حقاً؟  
- وهل خلا بهو استقبالك منهم قطّ في هذه الساعة؟  
- لن أرى منهم أحداً.  
فبهت شيث، ونظرت إلى سيّدها بارتياح، وقالت:

- خيّبت بالأمس أمالهم.. فماذا تقولين اليوم؟..  
آه. لو تعلمين يا مولاتي كم جزعوا لتأخّر حضورك.  
- أذنيهم بأنّي تعبّة.  
وتردّدت الجارية، وهمت بالاعتراض، ولكنّها صاحت بها بعنف:

- اصدعي بما أمرت.  
فغادرت المرأة المخدع مرتبكة لا تدري بما غيّر مولاتها.

وارتاحت الغانية لما فعلت، وقالت إنّ هذا ليس وقتهم، فهي لا تستطيع أن تجمع شتيت أفكارها لتصغي إلى إنسان، ولا أن تحصر خواطرها في حديث فضلاً عن أن ترقص أو تغني.. فليذهبوا جميعاً..  
وخشيت أن تعود شيث بتوسّلات القوم، فقامت من السرير وهولت إلى الحثام..

وتساءلت في وحدتها: ترى هل يرسل فرعون في طلبها هذا المساء؟ آه أهي لهذا تضطرب وتقلق؟  
أهي تخشى؟.. كلاً.. إنّ هذا الحسن الذي لم تحظ بمثله امرأة من قبل حقيق بأن يملأها ثقة بنفسها لا حدّ لها، وإنّها لكذلك.. ولن يقاوم جلالها إنسان، ولن يذلّ حسنها لمخلوق، ولو كان فرعون نفسه، ولكن لماذا إذاً هي مضطربة قلقة! لقد عاودها ذاك الشعور الغريب الذي تلبّسها مساء الأمس، والذي نبض بقلبها أوّل ما نبض حين وقع بصرها على الملك الشابّ الواقف على ظهر عجلته كالتمثال. يا عجباً.. أتراها حائرة لأنّها حيال لغز غامض! واسم جيّار هائل! وربّ معبود! أترى أنّها تودّ لو تراه في نشوة البشر بعد أن رآته في جلال الآلهة؟! أتراها قلقة لأنّها تريد أن تطمئنّ إلى قوّتها بإزاء هذا الحصن المنيع!

وطرقت شيث باب الحثام، وقالت إنّ السيّد عانن أرسل معها كتاباً إلى مولاتها، فغضبت الغانية، وقالت

وحيرتها، وانتقلت كالحمامة من حجرة إلى حجرة، ثم هبطت أدراج السلم المفروشة بفأخر السجاد، وترثت قليلاً عند مدخل البهو. رأت رجلاً يوليها ظهره، ووجهه إلى جدار البهو يطالع شعراً لرامون حنبل. ترى من هو؟ كان في مثل طول طاهو ولكنه أميل إلى النحافة والدقة، عريض المنكبين، جميل الساقين، على ظهره وشاح مرصع بالجواهر يصل ما بين منكميه ومنطقة وزرته، وعلى رأسه قلنسوة جميلة ذات شكل هرمي لا تشبه قلنسوات الكهنة، ترى من يكون؟. إنه لا يشعر بها لأنها تتقدم بخفة على سجاد غليظ. ولما صارت منه على قيد خطوات قالت بصوت خفيض:

- مندي

فالتفت الرجل الغريب إليها. رباه! وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام فرعون. فرعون نفسه بعزته وجلاله، مرنع الثاني دون غيره من الخلق!

رباه لقد زعزت المفاجأة كيانه، فأخذت قهراً، وغلبت على أمرها. ترى أمي في حلم من الأحلام! ولكنها تعرف حق المعرفة هذا الوجه الأسمر، والأنف الأشم الطويل. إنها لا يمكن أن تنساه أبداً، لقد رآته مرتين، فنغذ إلى ذاكرتها بقوة، وحفر صفحاتها حفراً عميقاً لا يزول. ولكنها لم تحسب حساب هذا اللقاء، ولا أخذت أهبته له، لم ترسم له خطة من خططها الباردة. وهل كانت رادوبيس تلقى فرعون لقاء ارتجالياً، وهي التي تعد العدة للقاء تجار النوبة؟! أخذت على غرة، فقهرت قهراً! ومنيت بالهزيمة الساحقة، وبادرت تحني لأول مرة في حياتها، وتقول بصوت متهدج: «مولاي».

وكانت عيناه ترسلان نظرة عميقة، فتستقر على وجهها الجميل، وكان يلاحظ ارتباكها واضطرابها بلذة غريبة، ويشاهد السحر الذي تنفثه قسماها بنشوة فاتنة، فلما حيته قال لها بصوته ذي النبرات الواضحة واللهجة العالية:

- أنعرفيني؟

فقالت بصوتها العذب الموسيقي:

- نعم يا مولاي.. هكذا شاء حظي السعيد أمس. وكان لا يشيع من النظر إلى وجهها. وأخذ يحس بتخدير عام يعتور حواسه وعقله، فلم يعد يأبه لإرادته، واندفع قائلاً:

- إن الملوك قوامون على الناس، يسهرون على أرواحهم، وعلى أموالهم، ولهذا جئت إليك لأرد لك أمانة ثمينة.

ولم يبال الملك أن يدس يده تحت وشاحه، فيخرج فردة الصندل ويقدمها لها وهو يقول:

- أليس هذا صندلك؟

وتبعت عينها يد فرعون، وشاهدت فردة الصندل تبرز من تحت وشاحه بعينين مرتاعيتين لا تكادان تصدقان مما تريان شيئاً، وتمت بانفعال شديد:

- صندلي!

فضحك الملك ضحكة عذبة، وقال وعيناه لا تتحولان عنها:

- بعينه يا رادوبيس، أليس هذا اسمك؟

فأحنت رأسها، وتمت قائلة «نعم يا مولاي» وكانت مضطربة فلم تزد، أما الملك فاستدرك:

- إنه لصندل جميل، وأعجب ما فيه هذه الصورة المنقوشة على باطنه، وكنت أحسبها زخرفاً جميلاً حتى وقعت عليك عيناى، فعلمت أنها حقيقة رهيبة، وعلمت حقيقة أجل، وهي أن الجمال كالقضاء يباغت الإنسان بما لا يقع له في حسابان.

فشبكت كفها، وقالت:

- مولاي.. ما كنت أحلم قط أن تشرف قصري بذلك، أما أن تحمل صندلي.. رباه ماذا أقول؟.. لقد فقدت جناني. غفرانك يا مولاي! وبجي نسيت نفسي يا مولاي، وتركتك واقفاً.

وهرعت إلى عرشها وأشارت إليه، ثم انحنت باحترام. ولكنه اختار ديواناً وثيراً، وجلس عليه، وقال لها:

- ادني مني يا رادوبيس. اجلسي ها هنا..

فدننت الغانية حتى صارت على بعد قريب، ووقفت

على النسر ألا أعرفك وأنت على قيد ذراع مني، فرماني بالصنديل لأنتبه من غفلي.

فقال كالداهشة:

- هل رمى النسر بالصنديل بين يديك يا مولاي؟

- نعم يا رادوبيس.. هذه هي القصة الغاتنة.

- يا لها من مصادفة كالسحر!

- أتقولين مصادفة يا رادوبيس.. وما المصادفة؟..

إنها قضاء مقنع!

فتنهّدت وقالت:

- صدقت يا مولاي.. إنها كالعقل المتغابي.

- سأعلن رغبتني على الملأ ألا يعرض إنسان من

شعبي للنسر بسوء!

فابتسمت ابتسامة سعيدة فاتنة، ومضت في ثغرها

كتعويذة سحرية. وأحسن الملك بهيام يملك قلبه، ولم

يكن من عادته أن يقاوم عاطفة فاستسلم في وجد بين،

وقال وهو يتنهّد:

- إنه هو المخلوق الوحيد الذي أدين له بأئمن ما في

حياتي.. رادوبيس! كم أنت جميلة! هذا حسن يزري

بأحلامي جميعاً.

وسرت المرأة لقوله، كأنها تسمعه لأول مرة في

حياتها، فرنت إليه بنظرة صافية حلوة زادت هياماً،

فقال وكأنه يضرع ويشكو:

- كأن سوطاً تشتعل به النيران يلهب قلبي.

ثم أذن وجهه من وجهها المشرق، وهمس:

- رادوبيس.. أريد أن أنغمر في أنفاسك.

فبسطت له وجهها، وأسبلت جفنيها. وجعل يهوي

بوجهه حتى مس أنفه أنفها الرقيق، وداعب أهدابها

الطويلة بأنامله، وسها إلى عينيها السوداوين حتى

صارت الدنيا ظلاماً، وأذهله الهوى، فاستولى عليه

تخدير ساحر، حتى تنبه على تنهّدها العميق، فاعتدل

قليلاً، وهمس في أذنها قائلاً:

- رادوبيس! إنني أقرأ أحياناً مصري، سيكون

الجنون منذ الساعة شعاري.

وأسندت رأسها إلى كفها إعياء، وكان قلبها يخفق،

فجلسا ساعة صامتتين يسعد كلاهما بحديث نفسه، وما

تغالب اضطرابها وذهولها. فأجلسها بيده، وأمسك

بمعصمها.. وكانت أول لمسة.. وأجلسها إلى جانبه..

وكان قلبها يخفق بشدة، فوضعت الصنديل جانباً،

وخفضت عينيها، ونسيت أنها رادوبيس المعبودة، التي

تعبت بالقلوب والرجال كيف شاء لها العبت. غلبتها

المفاجأة، وهزّ نفسها الشخص المعبود، كأنه ضوء

متوهج سلط على عينيها بغتة، فانكششت كعذراء

تتصدى لرجلها أول مرة.. إلا أن جمالها الرائع خاض

المعركة.. بغير علم منها.. ثابت الجنان، عظيم الثقة،

وسلط شعاعه السحري على عيني الملك الداهشتين كما

تسلط الشمس شعاعها الفضي على نائم النبت،

فيصحو ويرق رقيقاً فاتناً. كان جمال رادوبيس قاهرًا

نفاذاً، يحرق من يدنو منه، ويبعث في نفسه الجنون،

ويملاً صدره برغبة لا تروى ولا تشبع..

كانا في تلك الليلة الخالدة.. رادوبيس المتعثرة في

ارتباكها والملك التائه في الحسن.. أحوج بشرين إلى

رحمة الآلهة.

وأحبّ الملك أن يسمع صوتها فسألها:

- كيف لا تسأليني عن وقوع صنديك بين يدي؟

فساورها القلق، وقالت:

- نسيت أموراً أجّل يا مولاي.

فابتسم وسألها:

- كيف ضاع منك؟

وهذأت رقة صوته من انفعالها، فقالت:

- خطفه النسر، وأنا أستحم.

وتنهّد الملك ورفع رأسه كأنه ينظر إلى تهاويل

السقف، وأغمض عينيه يتخيّل ذلك المنظر الفاتن، إذ

رادوبيس تلعب في الماء بجسمها العاري، والنسر

يهوي من عل فيخطف صندلها. وسمعت الغانية

رفيف أنفاسه، وأحسّت بها تلفح خدّها، وعاد إلى

النظر إلى وجهها، وقال بوجود:

- خطفه النسر وطار به إليّ. يا للقصة الغاتنة!

ولكنّي أنساء منكراً: أكنت أحرم من رؤيتك لو لم

يقبض إليّ الربّ هذا النسر الكريم؟.. يا له من

فرض محزن! ومع هذا فإنّي أحسن في أعماقي بأنّه كبر

## الحب

ارتدّ بصرها عن الباب الذي غيَّبه، فقالت وهي تتنهد: «ذهب..»، ولكنّه في الحقيقة لم يذهب، لو كان ذهب حقًا لما استولى عليها ذاك التخدير الغريب الذي جعلها بين النوم واليقظة، تذكر وتعلم، والصور تمرّ أمام مخيلتها في تزاخم وتسابق وجنون.

حقّ لها أن تسعد، لأنّها بلغت منتهى المجد، وتستمت ذروة البهاء وتدوّقت من آي العظمة ما لم تحلم به امرأة على الأرض. زارها فرعون بذاته المعبودة وسحرته بأنفاسها الزكيّة، وصاح بين يديها أنّ سوطًا من اللهب يلهب قلبه الفتيّ، فتوجّت بهيام ملكة على عرشي المجد والجمال. وحقّ لها أن تسعد.. على أنّها كانت تسعد سعادة المجد!. ومال رأسها قليلًا، فوقع بصرها على فردة الصندل فحقق قلبها وأدنت رأسها حتّى مسّت شفتها فارسه..

ولم تنفرد بأحلامها طويلاً إذ دخلت شيث. وقالت: - مولاي.. أتتوّن أن تنامي هنا؟  
ولم تردّ عليها.. وحلت الصندل، وقامت في كسل وسارت تنهادى صوب مخدعها. وتشجّعت شيث بسكوته، فقالت بلهجة حزينة:

- وأسفاه يا مولاي.. إنّ هذا البهو الجميل الذي ألف الطرب واللهو، يقفر الليلة لأوّل مرّة من السّار والعشّاق.. ولعلّه يتحير مثلي سائلاً: «أين الغناء؟ أين الرقص؟ أين الحبّ.. هي مشيتك يا مولاي..»  
ولم تبالها الغانية، وصعدت أدراج السّلم في صمت وسكون، فظنّت شيث أنّ حديثها ظفر باهتمام سيّدتها، فقالت بحماس:

- لشدّ ما وجوا وأسفوا لما أذنتهم باعتذارك.. وتبادلوا نظرات الحسرة والحزن العميق، وتراجعوا في ثقل يسحبون وراءهم ذيول الياس.  
ولازمت المرأة الصمت، ودخلت إلى مخدعها الجميل، وهرعت إلى مرآتها وألقت نظرة على صورتها، ثمّ ابتسمت بارتياح وغبطة وقالت لنفسها: «إذا كان ما حدث الليلة معجزة، فهذه الصورة معجزة أيضاً» وغمرتها نشوة سعادة، فالتفتت إلى شيث وسألته:

يحدث - وهو لا يدري - إلا صاحبه، وعلى حين فجأة قامت رادوبيس واقفة، وقالت له:

- هلّا أتبعني يا مولاي لتشاهد قصري؟

كانت دعوة سعيّة.. ولكنّها ذكّرتّه بأمور كاد أن ينساها، فوجد نفسه مضطراً إلى الاعتذار.. وما يضيره لو أجّل اللقاء ساعة. والقصر وما فيه ملك يمينه.. فقال بأسف:

- ليس الليلة يا رادوبيس.

ونظرت إليه بإنكار، وسألته:

- ولم يا مولاي؟

- هناك قوم ينتظرونني منذ ساعات في القصر.

- أيّ قوم يا مولاي؟

فضحك الملك، وقال باستهانة:

- كان ينبغي أن أكون مجتمعاً برئيس الوزراء الآن، والحقّ يا رادوبيس أنّي منذ حادثة النسر فريسة للعمل الشاقّ، وكنت أبيت نيّة زيارة قصرك، ولكن لا أجد فرصة مؤاتية، ولما رأيت هذا المساء يكاد يلحق بالذي سبقه، أجملت اجتماعاً هاماً ريثما أشاهد صاحبة الصندل الذهبيّ.

واستولت الدهشة على رادوبيس، وتمتت قائلة «مولاي». وكانت تعجب من استهتاره الذي دفعه إلى تأجيل اجتماع هامّ من الاجتماعات التي تبرم فيها مصائر المملكة، لكي يشاهد امرأة شغل قلبه بها ساعة.. ووجدت عمله جميلاً ساحراً لا نظير له بين أعمال العشّاق ولا شعر الشعراء.

أمّا الملك فقام بدوره وقال لها:

- أنا ذاهب الآن يا رادوبيس.. وأهّا.. إنّ القصر خائن.. إنّهُ سجن مسوّر بالتقاليد، ولكنّي أمرق منها مروق السهم.. سأترك الآن وجهاً حبيباً لآلقى وجهها بغضب، فهل رأيت أغرب من هذا؟.. إلى الغد يا رادوبيس الحبيبة.. بل إلى الأبد.

نطق بهذه الكلمات ثمّ ذهب بروعته، وشبابه، وجنونه.

أَتَهَا سَلَمَتْ لِإِنْسَانٍ بِدَاعِي قَلْبِهَا سِوَاهُ، وَشَهِدَتْ  
شَوَاطِيْ بِيْجَةً مُّشْهِدًا لَمْ تَسْعِدْ بِمِثْلِهِ فِي الْأَرْضِ. وَدَعَاها  
إِلَى سَفِينَةٍ فَلَبَّتْ دَعَاءَهُ، وَحَمَلَتْهَا الْأَمْوَاجُ مِنْ بِيْجَةٍ إِلَى  
أَقْصَى الْجَنُوبِ، وَانْقَطَعَتْ مِنْ يَوْمِهَا صَلَاتُهَا بِالرِّيفِ  
وَأَهْلِهَا جَمِيعًا. وَاخْتَفَى النَّوَى مِنْ حَيَاتِهَا فَجَاءَتْ، وَلَمْ تَدْر  
إِنْ كَانَ ضَلَّ، أَوْ فَرَّ، أَوْ مَاتَ، وَوَجَدَتْ نَفْسَهَا  
وَحِيدَةً. كَلَّا لَمْ تُكُنْ وَحِيدَةً، كَانَ مَعَهَا جَمَاهَا فَلَمْ  
تَتَشَرَّدْ، وَالتَّقَطُّهَا كَهْلُ ذُو لَحْيَةٍ طَوِيلَةٍ، وَقَلْبٌ ضَعِيفٌ.  
وَطَابَتْ لَهَا الْحَيَاةُ وَأَثَرَتْ بِمَوْتِهِ، وَتَوَهَّجَ نُورُهَا فَخُطِفَ  
الْأَبْصَارُ، فَانْجَذَبُوا إِلَيْهَا كَالْفَرَاشِ الْمَجْنُونِ، وَأَلْقَوْا  
تَحْتَ قَدَمَيْهَا الصَّغِيرَتَيْنِ قُلُوبًا فَتِيَّةً، وَأَمْوَالًا لَا تَعْدُ،  
وَيَايَمُوهَا مُلْكَةً لِلْقُلُوبِ فِي قَصْرِ بِيْجَةٍ، فَكَانَتْ  
رَادُوبِيْسُ.. يَا لِلذِّكْرِيَّاتِ!

كَيْفَ مَاتَ قَلْبُهَا بَعْدَ ذَلِكَ؟.. هَلْ أَمَاتَهُ الْحَزَنُ،  
أَمْ الْغُرُورُ، أَمْ الْمَجْدُ؟.. كَانَتْ تَصْغِي إِلَى حَدِيثِ  
الْحَبِّ بِأَذْنِ صَبَاءٍ، وَقَلْبٌ مَغْلَقٌ، فَكَانَ مُنْتَهَى مَا يَطْمَعُ  
فِيهِ عَاشِقٌ مِثْلَهُ مِثْلَ طَاهُو أَنْ تَبِيَهُ جَسَدُهَا الْبَارِدُ.  
اسْتَسَلَمَتْ لِلذِّكْرِيَّاتِ طَوِيلًا، وَكَأَنَّمَا اسْتَدْعَتْهَا  
لِتَرْبِطَهَا بِأَعْجَبِ أَيَّامِ حَيَاتِهَا، وَأَسْعَدَ أَيَّامَهَا!

وَمَضَى الْوَقْتُ وَهِيَ لَا تَحْسُ بِهَ إِنْ كَانَتْ سَاعَاتُ أَمْ  
دَقَائِقُ، حَتَّى انْتَبَهَتْ عَلَى وَقْعِ أَقْدَامٍ، فَالْتَفَتَتْ  
مَنْزَعَجَةً، فَرَأَتْ بَابَهَا يَفْتَحُ، وَدَخَلَتْ شَيْثُ لَاهِئَةً  
وَقَالَتْ:

- مولاتي.. إِنَّهُ يَتِمَعْنِي.. هَا هُوَذَا.  
وَرَأَتْهُ يَدْخُلُ مُطْمَئِنًّا كَأَنَّهُ يَدْخُلُ مَخْدَعَهُ الْخَاصَّ،  
فَغَمَرَتْهَا دَهْشَةٌ مَمْزُوجَةٌ بِفَرْحٍ وَصَاحَتْ:  
- مولاي..

وَانْسَلَّتْ شَيْثُ خَارِجًا، وَأَغْلَقَتْ الْبَابَ، وَأَلْقَى  
الْمَلِكُ نَظْرَةً عَلَى الْمَخْدَعِ الْجَمِيلِ، وَقَالَ ضَاحِكًا:  
- هَلْ أَطْلَبُ الْمَغْفِرَةَ لَتَهْجَمِي هَذَا؟  
فَابْتَسَمَتْ ابْتِسَامَةً سَعِيدَةً، وَقَالَتْ:  
- الْمَخْدَعُ وَصَاحِبَتُهُ لَكَ يَا مُوَلَايَ.

فَضَحِكَ ضَحْكَةً الْفَاتِنَةِ. كَانَتْ ضَحْكَةً رَنَائَةً فَتِيَّةً  
تَنْبِضُ بِالْحَيَاةِ الدَّافِقَةِ، وَأَمْسَكَ بِمَرْفَقِهَا، وَسَارَ بِهَا إِلَى  
الدِّيْوَانِ وَأَجْلَسَهَا، وَجَلَسَ إِلَى جَانِبِهَا، وَقَالَ:

- مِنْ حَسَبِ الرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ لِمُقَابِلَتِي؟.

- مِنْ هُوَ يَا مُوَلَاتِي؟. إِنِّي لَمْ أَرَهُ قَبْلَ الْيَوْمِ. هُوَ  
شَابٌّ غَرِيبٌ، وَلَكِنْ لَا جِدَالَ أَنَّهُ مِنَ النَّبَلَاءِ، مَلِيحٌ  
رَهِيْبٌ جَسُورٌ، يَنْدَفِعُ كَالرِّيحِ مَجْلَجَلًا، وَلَقَدْ مِهُ وَقَعَ  
شَدِيدٌ، وَلِصَوْتِهِ لَهْجَةُ الْأَمْرِ، وَلَوْلَا خَوْفِي لَقُلْتُ: إِنَّهُ  
لَا يَخْلُو مِنْ..

- مِنْ مَاذَا؟.

- مِنْ جَنُودٍ..

- حَذَارٍ..

- مُوَلَاتِي.. مَهْمَا يَكُنْ ثَرَاؤُهُ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَرْجَحَ  
الْعَشَاقُ جَمِيعًا الَّذِينَ طَرَدْتَهُمُ الْيَوْمَ.

- حَازِرِي أَنْ تَتَدَمَّى حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ.

فَقَالَتْ شَيْثُ دَاهِشَةً:

- هَلْ يَفُوقُ غَنَاءَ الْقَائِدِ طَاهُو أَوْ الْحَاكِمِ آتِي؟

فَقَالَتْ بِزَهْوٍ:

- إِنَّهُ فِرْعَوْنُ يَا حَمَقَاءَ..

وَحَمَلَتْ الْمَرْأَةَ فِي وَجْهِ مُوَلَاتِهَا. وَتَدَلَّتْ شَفَتُهَا  
السُّفْلَى، وَلَمْ تَنْطِقْ.

فَقَالَتْ الْغَانِيَةُ ضَاحِكَةً:

- هُوَ فِرْعَوْنُ يَا شَيْثُ.. فِرْعَوْنُ، فِرْعَوْنُ بِذَاتِهِ دُونَ  
سِوَاهُ، إِيَّاكَ وَالتَّرْثَرَةَ.. أَذْهَبِي الْآنَ، اِغْرِبِي عَنْ  
وَجْهِِي، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَخْلُوَ بِنَفْسِي..

وَأَغْلَقَتْ الْبَابَ وَدَلَفَتْ إِلَى النَّافِذَةِ الْمُطَلَّةِ عَلَى  
الْحَدِيقَةِ، وَكَانَ اللَّيْلُ جُشْمٌ فِي جَنْمِهِ وَأَرْخَى عَلَى الْكُوفِ  
جَنَاحِيهِ، وَبَدَتْ طَلَائِعُ النُّجُومِ فِي كِبَدِ السَّمَاءِ، وَأَنْوَارُ  
الْمَصَابِيحِ الْمَعْلُوقَةِ بِأَغْصَانِ الْأَشْجَارِ فِي الْحَدِيقَةِ، وَتَبَدَّى  
اللَّيْلُ فَاتِنًا، فَتَذَوَّقَتْ جَمَالَهَا وَأَحْسَسَتْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ أَنَّ  
انْفِرَادَهَا فِيهِ عَذَابٌ بَلْ أَعَذَابٌ مِنْ اجْتِمَاعِهَا بِالْعَشَاقِ  
جَمِيعًا.. وَأَصْغَتْ فِي سَكُونِهِ إِلَى ذَاتِ نَفْسِهَا وَهَمْسَاتِ  
قَلْبِهَا.. وَبَعَثَتْ الذِّكْرِيَّاتِ الذِّكْرِيَّاتِ، فَارْجَعَ خِيَالُهَا  
إِلَى عَهْدٍ مَنْظُورٍ بَعِيدٍ، خَفَقَ فِيهِ قَلْبُهَا خَفَقَةً طَائِشَةً،  
قَبْلَ أَنْ تَتَوَجَّعَ مُلْكَةً لِلْقُلُوبِ عَلَى عَرْشِ بِيْجَةٍ، وَتَعْدُو  
لِلْأَنْفَسِ قَضَاءَ لَا يَرُدُّ. كَانَتْ رِيفِيَّةً حَسَنَاءَ، بَرَزَتْ مِنْ  
بَيْنِ أَوْرَاقِ الرِّيفِ الْمُخْضَلَّةِ، كَمَا تَبْرُزُ الْوَرْدَةُ الْيَانِعَةُ،  
وَكَانَ نَوْتِيًّا عَذَابُ الصَّوْتِ نَحَاسِي السَّاقِينَ، وَلَا تَذْكُرُ

- كنت أخشى أن يسبقني النوم إليك.

- النوم.. النوم لا يهتدي إلى أمثال هذه الليلة، يحسبها من فرط نور السعادة نهارًا.

فتبدى الجد على وجهه وقال:

- إذا احترقنا معًا..

لم تحس بهذه السعادة من قبل، ولم تعهد قلبها في مثل هذه اليقظة والحياة، ولم تشعر بلذة الاستسلام إلا أمام هذا الإنسان البديع، فقد صدق، إنها تحترق، ولكنها لم تقل شيئًا، وقنعت بأن رفعت إليه عينين ناطقتين يجري فيها الصفاء والمودة.. ثم قالت:

- لم بدر بخلدي أنك تعود هذه الليلة..

- ولا دار لي بخلد، ولكنني رأيت الاجتماع ثقيلًا مرهقًا، وأعياني تركيز فكري، واستخفني الجزع، وعرض عليّ الرجل مراسيم كثيرة، فأمضيت عددًا يسيرًا، وأصغيت إليه بعقل مشتب، ثم ضقت بكل شيء ذرعًا، فقلت له إلى الغد، ولم أكن أفكر في العودة، ولكنني رغبت في أن أخلو بنفسني للحديث والمناجاة.. فلما خلوت إلى نفسي وجدت الوحدة ثقيلة، والليل موحشًا لا يحتمل. هنالك لمت نفسي قائلاً: لماذا أصبر إلى الغد؟.. وليس من عادتي أن أقاوم عاطفة، فما عثمت أن وجدتيها هنا بين يديك..

يا لها من عادة سعيدة.. إنها تحبني أشهى ثمارها، وتحس جوارها بفرح عجيب، وكان يضطرب حياة ونشوة، فقال:

- رادوبيس.. ما أجمل هذا الاسم، فإن له وقع الموسيقى في أذني ومعنى الحب في قلبي. وهذا الحب شيء عجب، كيف يصرع رجلًا تعمير ليلاليه الحسان من كل لون وطعم؟.. إنه حقًا عجيب، ترى ما هو هذا الحب؟ إنه قلتي معذب يسكن في قلبي، وأنشودة إلهية ترتل في أسمى مكان من روحي. إنه حين موجد، إنه أنت. أنت حالة في كل آية من آيات الدنيا والنفس، انظري إلى هيكل هذا الشديد، إنه يشعر بالحاجة إليك شعور الغريق بالحاجة إلى التنفس والهواء..

إنها تبادل هذا الشعور، وتحس بصدقه، فقد تكلم ليصف قلبًا، فوصف قلبين، إنها تسمع مثله الأنشودة الإلهية، وتشاهد صورته في آيات الدنيا والنفس، وكان جفناها يفتلان بالأحلام والنشوة، فما عثم أن تماسست أهدابها، فسألها برقة:

- لماذا لا تتكلمين يا رادوبيس؟

وفتحت عينها الجميلتين، ونظرت إليه بوجود وحنان، وقالت:

- ما حاجتي إلى الكلام يا مولاي؟. فطلما كان الكلام يتدفق على لساني، وقلبي ميت، أما الآن، فقلبي يبعث حيًا، ويمتص كلامك كما تمتص الأرض حرارة الشمس، ونحيا بها.

فابتسم إليها سعيدًا، وقال:

- اختطفني هذا الحب من وسط دنيا عامرة بالنساء.

فقال وهي تبادل الابتسام:

- واختطفني من وسط دنيا عامرة بالرجال.

- كنت أتمسك في دنياي كالحائر، وأنت متي على بعد ذراع، وأسفاه.. كان ينبغي أن أعرفك من أعوام.

- كان كلانا ينتظر النسر ليسفر بيننا.

فشد على قبضة يده بحماس، وقال:

- نعم يا رادوبيس، كانت الأقدار تنتظر ظهور النسر بأفقتنا لتسطر في لوحها أجمل قصة حب، وما أشك في أنه كبر على النسر أن يؤخر حبنا لأجل بعيد، وما ينبغي لنا بعد اليوم أن نفرق. فأجمل ما في الدنيا أن نرى معًا.

فتهدت من أعماق قلبها، وقالت:

- نعم يا مولاي، فلا ينبغي أن نفرق بعد اليوم، وهالك صدري حقلاً ناصراً ارتع فيه أتى شئت.

فبسط كفها بين يديه، وضغط عليها بحنو، وقال:

- تعالي إليّ يا رادوبيس، ليخلق هذا القصر على الماضي الغادر، فإني أحس بأن كل يوم ضاع من حياتي قبل أن أعرفك طعنة غادرة صوّت إلى سعادي.

كانت كالخمورة، ولكن ساورها القلق، فسألته:

- أيريدني مولاي على أن أنتقل إلى حريمه؟

وطبع على شفيتها قبله رطبت شفتيه برحيق عذب،  
وقال لها:

- رادوبيس.. أيتها الحب الممزج بروحي.. لن  
يغلق هذا القصر أبوابه ولن تظلم حجراته، سيبقى ما  
بقينا مهذا للحب، وجنة للهوى، وحديقة ناضرة  
تغرس فيها بذور الذكريات، سأجعل منه محراباً  
للحب، وأصير أرضه وجدرائه ذهباً مصفى.

فأشرق وجهها بابتسامة سعيدة، وقالت تناجيه:

- لتكن مشيتك يا مولاي، وإني أقسم بحياتي  
لأذهبن الغداة إلى معبد الرب سوتيس، وأغسل  
جسدي بالزيت المقدس، لأرخض نفسي من الماضي  
الشقي، وأعود إلى المحراب بقلب طاهر جديد، بزهرة  
تشق الأكمام وتتصدى لشعاع الشمس.

فوضع يدها على قلبه، ونظر إلى عينيها وقال:

- رادوبيس أنا اليوم سعيد، وأشهد الدنيا والآلهة  
على سعادتي، حياتي وحسي بها من حياة.. انظري  
إلي، فسواد عينيك أشهى قلبي من نور الدنيا..  
في تلك الليلة نامت جزيرة بيجة، وسهر الحب  
بقصرها الأبيض، حتى انحسر في ظلمة الليل الخالكة  
عن زرقعة الفجر الخالدة..

## ظلل الحب

استيقظت في الضحى، وكان الجو حاراً، والشمس  
ترسل أشعتها المتوهجة، فتبث في الدنيا نوراً ونازاً،  
وكان قميصها الرقيق يلتصق بجسدها اللدن، وشعرها  
مبعثراً، منه خصلات نائمة على صدرها، وخصلات  
ملقاة على الوسادة.

طوى لبقطة تبيج في القلب أجل الذكريات.. كان  
قلبها مرتعاً للغبطة، والجو من حولها معطراً بأريج  
الأزهار، والدنيا تبسم عن السعادة والأفراح، فأحسّت  
لتجدد مشاعرها كأنما تكشف عالماً جديداً جميلاً، أو  
كأنما تبعث خلقاً جديداً..

ومالت في نومتها إلى جانبها، ولاحت منها نظرة إلى  
الوسادة، فرأت آثار رأسه عليها واضحاً، فاستلّت من

فهز رأسه قائلاً:

- ستنزلين بأعز مكان به..

فخففت عينيها ووجت، ولم تدر ما تقول فأنكر  
سكوتها، ووضع أنامل يمينه تحت ذقنها الصغير، ورفع  
وجهها إليه وسألها:

- ما لك؟

فسأله بعد تردد:

- أأمر هو يا مولاي؟

فانقبض صدره لذكر الأمر، وقال:

- أمر؟.. كلاً يا رادوبيس، إن لغة الأمر لا تجدي  
مع الحب، وإني ما تميت قبل اليوم لو أجرد من  
شخصيتي!.. وأعود واحداً من البشر يشق طريقه بلا  
عون، ويلقى حظّه بغير عناية، انسي فرعون ملياً،  
وأخبريني ألا ترغبين في اللحاق بي؟

وخشيت أن يسيء فهم وجومها وترددها، فقالت  
بلهجة صادقة:

- أرغب فيك يا مولاي رغبت في الحياة، بل  
الحقيقة أجل من هذا. الحقيقة أنني لم أحب الحياة حباً  
صادقاً إلا منذ أحببتك، وأن قيمتها في نظري أنها  
تشعرنني بحبك، وتسعد حواسي بوجودك، أليس  
للمحبت غريزة تصدقهم القول؟.. سلها عن قلب  
رادوبيس يا مولاي تُعيد على أذنك ما جرى على  
لساني، ولكني أسألك حياً: لماذا أهدر هذا القصر،  
ولماذا أغلق أبوابه إلى الأبد؟.. إنّه أنا بالذات يا  
مولاي، فنبغي أن تحبه كما تحبني. لا يوجد فيه موضع  
يخلو من أثر لي، إمّا صورتي أو اسمي أو تمثال لي..  
كيف لي بهجره وقد هبط فيه النسر الذي طار إليك  
برسالة الحب الخالدة؟.. كيف لي بهجره وقد خفق  
قلبي فيه بالحب لأول مرة؟.. كيف لي بهجره يا  
مولاي وقد زرتني فيه بذاتك العالية؟.. حريّ بأيّ  
مكان تطؤه قدماك أن يصير.. قلبي.. لك وحدك، ولا  
يغلق أبوابه أبداً.

كان يصغي إليها بحواسه المرفهة، وقلبه المشبوب  
الجامح، فتؤمن نفسه بكل كلمة من كلماتها. ثم لمس  
بحنو جدائل شعرها الفاحم، واحتواها بين ذراعيه،

وقاسوا ارتفاع النوافذ والجدران تمهيداً لصنع أثاث جديد.  
- حقاً..

- نعم يا مولاتي، وسيغدو هذا القصر عتياً قليل أعجوبة الزمان، فيا لها من صفقة رابحة!..  
وتحيرت رادوبيس فيما تعنيه المرأة، ثم خطر لها خاطر، فقطبت جبينها وسألته:  
- أي صفقة تعنين يا شيت؟

فغمزت المرأة بعينها، وقالت:  
- صفقة الغرام الجديد، وحق الأرباب أن مولاي ليزن أمة من الأغنياء، ولن آسف بعد اليوم على ضياع تجار منف وقواد الجنوب..

وغضبت رادوبيس حتى تحقّب وجهها بالاحمرار، وصاحت بها:

- خسنت يا امرأة.. أنا لا أتحجر الآن..  
- ويل لي.. لو كانت لدي شجاعة يا مولاتي لسألتك عما تفعلين إذا؟

فتنهّدت رادوبيس وقالت:  
- أمسكي عن هذرك، ألا ترين أنني أجد في الأمر جدّاً؟.

فحملت الجارية في وجه مولاتها الجميل، وصمتت دقيقة ثم قالت:  
- باركتك الآلهة يا مولاتي.. إنني حائرة وأسائل نفسي: لماذا تجدّ مولاتي جدّاً؟..

فتنهّدت رادوبيس مرة أخرى، واستلقت على الديوان الوثير، وقالت بصوت خافت:  
- أحببت يا شيت..

فضربت الجارية على صدرها بيدها، وقالت بفزع ودهشة:  
- أحببت يا مولاتي!..

- نعم أحببت، ما لك تدهشين؟  
- معذرة يا مولاتي، هذا زائر جديد لم أسمع باسمه يجري لك على لسان من قبل.. فكيف جاء؟

عينها منتهى العطف والحنان، وأدنت رأسها منه ولثمته، وقد تمتعت بفرح: ما أجل كلّ شيء.. وما أسعدني بكلّ شيء..

ثم جلست في فراشها هنيهة وغادرته - كما كانت تغادره كلّ صباح - نشطة مرحة كملحة بارعة في نفس عامرة بالفكاهة، واستحمت بالماء البارد، وتغطرت بماء الزهر، وارتدت ثيابها المبخرة ثم عادت إلى مائدة الطعام، وتناولت إفطارها المكوّن من بيض وفطير، وشربت كوباً من اللبن الحليب، وكأساً من الجعة..

واستقلّت سفيتها إلى أبو، وقصدت إلى معبد الربّ سوتيس، وولجت بابه العظيم بقلب خاشع، ونفس مفعمة بالرجاء والأمل، وطافت بأرجائه، وتبركت بجدرانه وعمده ذات النقوش المقدّسة، وأودعت صندوق النذور ما جادت به يداها، وزارت حجرة الكاهنة الكبرى، وسألته أن تغسلها بالزيت المقدّس لتطهرها من شوائب الحياة وأحزانها، وتزخّض قلبها من الغي والعمى. وقد أحسّت، وهي بين يدي الكاهنات المطهرات، أنها تودع، بلا رحمة، قبر الفناء جسده رادوبيس الغانية للعب، التي كانت تعبت بالرجال وتهلك النفوس، وترقص على أشلاء الضحايا، وذوب القلوب، وأنّ دماً جديداً يجري في عروقها، فينبض في قلبها وحواسها الطمأنينة، والسعادة، والطهر، ثم صلّت صلاة حارة، جاثية على ركبتيها مغرورة العينين، وضرعت في الختام إلى الربّ أن يبارك حبّها وحياتها الجديدة. وعادت إلى قصرها من فرط سعادتها كأنّها طائر يرفّ بجناحيه في سماء صافية، واستقبلتها شيت فرحة متهلّلة، تكاد تطير من الفرح، وقالت:

- مبارك هذا اليوم السعيد يا مولاتي. ألا تعلمين من أتى قصرك في غيبتك؟  
نفخق قلبها باضطراب فرح، وصاحت:  
- من؟..

فقال الجارية:  
- أتى رجال من أمهر الصنّاع بمصر مبعوثين من قبل فرعون، فشاهدوا الحجرات والأرواق والردهات،



به من الحب، إنَّ الحبَّ كالجوع، والرجل كالطعام..  
وإني أحبُّ من الرجال قدر ما أحبُّ من الأطعمة دون  
حيرة.. وحسي هذا..

فضحكت رادوبيس ضحكة رقيقة كرنين الوتر، ثمَّ  
قامت واقفة، وذهبت إلى شرفة تطلُّ على الحديقة،  
وأمرت شيث أن تأتي لها بقيثارة، فأحسَّت برغبة إلى  
اللعب بالأوتار والغناء، كيف لا والدنيا جميعًا تنشد  
لحنًا هيبجًا..

وغابت شيث برهة، ثمَّ عادت حاملة القيثارة،  
وأسلمتها بين يدي مولاتها، وهي تقول:  
- هل يزعجك أن توجَّلي اللهو إلى حين ؟  
فسألته ببساطة، وهي تتناول القيثارة:  
- وله؟..

طلب إليَّ أحد العبيد أن أخبرك بأنَّ إنسانًا يطلب  
الإذن بمقابلتك.

فلاح الاستياء على وجهها، وسألته بجفاء:  
- ألا يعرف من هو؟..

- يقول إنَّه.. يزعم أنَّه مرسل من قبل الرِّسام  
هتفر.

وتذكَّرت ما قاله لها الرِّسام هتفر أوَّل أمس عن  
تلميذ أنابه عن نفسه لزخرفة الحجر الصَّفيَّة، فقالت  
لشيث:

- إيتي به إليَّ..  
وأحسَّت بمضايقة واستياء، وأمسكت القيثارة  
بحدَّة، ولعبت أناملها بالأوتار في خفَّة وغضب، لعبًا  
لا وحده بين أجزائه.

وعادت شيث يسير على أثرها شابَّ حديث العمر،  
وقد أحنى رأسه في إجلال، وقال بصوت رقيق:  
- أسعد الربَّ يومك يا سيديّ..

فوضعت القيثارة جانبًا ونظرت إليه من خلال  
أهدابها الطويلة؛ كان غلامًا معشقل القامة، نحيف  
القدِّ، أسمر الوجه، حسن القسائم، واسع العينين  
إلى درجة تلفت النظر، تلوح فيهما أي الصفاء  
والسذاجة. فأخذتها حدادة سنَّه، وصفاء عينيه،  
وتساءلت متعجِّبة: هل يستطيع حقًا أن يتمَّ عمل

فابتسمت رادوبيس وقالت كالحللة:

- ما الداعي إلى العجب؟ امرأة تحبُّ، يا لها من  
حقيقة مبتذلة.

فأشارت المرأة إلى قلب مولاتها، وقالت:

- أما هنا فلا، عهدي به حصنًا منيعًا، فكيف  
أأخذ؟.. ألا بالله قولي لي..

وبدت في عينيها الأحلام، وبعثت الذكري في  
نفسها شعورًا فياضًا، فقالت بصوت كالهمس:

- أحببت يا شيث، والحبُّ شيء عجيب، في أيِّ  
دقيقة من الزمان طرق الحبُّ قلبي؟ كيف تسلَّل إلى  
أعماق نفسي؟ لا علم لي بذلك، وإنَّه ليحيرني حيرة  
شديدة، ولكنِّي عرفت الحقيقة بقلبي، لقد خفق بشدَّة  
وعنف، خفق لرؤية وجهه، وخفق لسماع صوته، وما  
كان عهدي به أن يخفق لشيء من هذا، فوسوس لي  
صوت خفيَّ بأنَّ هذا الرجل صاحب هذا القلب دون  
منازع، فغمرني إحساس قويَّ عنيف عذب أليم،  
وشعرت شعورًا وثأبًا بأنَّه ينبغي أن يكون لي كقلبي،  
وأن أكون له كنفسه، ولم أعد أتصوَّر أن تطيب حياة،  
ويلدَّ وجود بغير هذا الامتزاج..

فقالت شيث لاهثة:

- يا للحيرة يا مولاتي..

- نعم يا شيث؟ طالما تمتَّعت بالحرِّيَّة المطلقة، كنت  
أأخذ مجلسي على ربوة عالية وأسرح ناظرني في عالم  
واسع غريب، وأسامر عشرات الرجال، وأتذوَّق متع  
الأحاديث، وأتملِّ آيات الفنِّ، وأهو بالمجون والغناء،  
ولكن كان يرين على صدري سأم لا شفاء له، وتغشى  
نفسي وحشة لا طمأنينة معها. الآن يا شيث ضاقت  
آمالي، وانحصرت في رجل واحد هو مولاي، وهو  
دنياي. ولكن دبت حياة دافقة طردت من طريق حياتي  
السأم والوحشة، وأفاضت عليه نورًا وبهجة، فقدت  
نفسي في الدنيا الواسعة، ووجدتها في رجلي الحبيب..

أرايت ما هو الحبُّ يا شيث؟

فهزَّت الجارية رأسها في حيرة، وقالت:

- يا له من أمر عجيب كما تقولين يا مولاتي.. ولعلَّه  
أعذب من الحياة نفسها! وإني أسائل نفسي عمَّا أحسَّ

المثال العظيم هنفر؟ وقد أحسّت بارتياح إلى رؤيته،  
أذهب عنها موجة الاستياء التي اجتاحتها، وسألته:  
- أنت تلميذ المثال هنفر الذي اختارك للزخرفة  
الحجرة الصيفية؟

- فقال الشاب بارتياك ظاهر، وكان بصره يتردد بين  
وجه رادوييس وأرض الشرفة:

- نعم يا سيدي.

- حسن، وما اسمك؟..

- بنامون.. بنامون بن بسار.

- بنامون.. كم تبلغ من العمر يا بنامون، فلأي أراك  
صغيراً؟

فتورّد خذاه وقال:

- أبلغ الثامنة عشرة في مسرى القادم.

- أراك تبالغ في التقدير.

فقال الشاب بإخلاص:

- كلّا يا سيدي إنّ ما أقول هو الحق.

- يا لك من طفل يا بنامون..

واختلجت عيناه الواسعتان العسلتان قللاً، وكأنه  
خشى أن تعرض عنه لحداثة سنّه. وقرأت مخاوفه،  
فقال مبتسمة:

- لا تقلق فلأي أعلم أنّ هبة المثال في يده لا في  
عمره.

فقال بحماس:

- لقد شهد لي أستاذي الفنان الكبير هنفر.

- هل سبق أن فمت بعمل هام؟

- نعم يا سيدي، زخرفت جانباً من الحجرة الصيفية  
بقصر السيّد آني حاكم بيجة.

فقال:

- أنت طفل نابغ يا بنامون.

فتورّد خذاه، ولمعت عيناه بنور الفرح، وغمرته  
سعادة دافقة، ونادت رادوييس شيث، وأمرتها أن  
تذهب به إلى الحجرة الصيفية.. وتردّد الشاب قليلاً  
قبل أن يتبع الجارية، وقال:

- ينبغي أن تغري لي كلّ يوم.. في أيّ وقت  
تشائين.

فقال:

- لقد ألقت نفسي أمثال هذه الواجبات.. هل  
تنتح لي صورة كاملة؟

- أو نصفية، وربما اكتفيت بتصوير الوجه، وعلى  
آية حال هذا يتبع الصورة العامة للزخرف.

قال ذلك، وأحنى رأسه، وسار على أثر شيث،  
وذكرت المرأة المثال هنفر، وقالت لنفسها في سخرية:  
هل كان يدور له بخلد، أنّ القصر الذي سألها أن  
تفتحه لتلميذه سيحرم عليه هو دخوله؟..

وأحسّت بارتياح إلى الأثر الذي تركه الشاب  
الساذج في نفسها، ولعلّه أثار في قلبها عاطفة جديدة لم  
تدبّ بها الحياة من قبل، هي عاطفة الأمومة..  
وسرعان ما أشفقت عليه من عينها وسحرهما الذي لم  
ينج منه إنسان، ودعت الربّ مخلصاً أن يحفظ له  
طمأنينته وصفاءه، ويجعله بمنجاة من دواعي الألم  
والياس..

## بنامون

وبراً بوعدها قصدت لدى ضحي اليوم الثاني إلى  
الحجرة الصيفية بالحديقة، ووجدت بنامون جالساً إلى  
منضدة، باسطاً على سطحها ورقة من البردي، يرسم  
عليها أشكالاً مختلفة ويبدو عليه آي الانهك والتفكير.  
ولمّا أحسّ بوجودها، وضع قلمه وقام واقفاً وأحنى  
رأسه لها، فحيّته بابتسامة وقالت:

- سأجعل لك هذه الساعة من الصباح، فهي التي  
أملكها من يومي الطويل..

فقال الشاب بصوته الخافت الخجول:

- شكراً يا سيدي، ولكننا لن نبدأ اليوم، لأنني ما  
أزال أضع الفكرة العامة للزخرف.

فقال:

- آه لقد غرّرت بي يا غلام..

- حاشاي يا سيدي.. بل عنت لي فكرة رائعة.

فنظرت إلى عينيه الواسعتين الصافيتين بسخرية،  
وقالت:

فقال الشاب بلهجة حزينة:

- كان يستعملها كأدوية ناجعة، ويأخذها الأطباء عنه، ولكنّها وأأسفاه كانت السبب في القضاء على حياته.

فسألته باهتمام شديد:

- كيف كان ذلك يا بنامون؟

- أذكر يا سيّدي أنّ والدي ركب سبّا عجيبًا، وكان يفاخر دائئًا بقوله: «إنّه أفنك السموم جميعًا، وإنّه يقضي على ضحيّته في ثوانٍ معدودة» وسبّه لذلك السّم السعيد. وفي ليلة أسيفة قضى الليل كلّ في معمله يشتغل بلا انقطاع، وفي الصباح وجد عمّدًا على مقعده فاقد الروح، وإلى جانبه قارورة سمّ من ذاك السّم الفاتك مفضوضة السداد.

- يا للغرابة.. هل انتحَرَ؟

- من المحقّق أنّه تناول جرعة من السّم الفاتك، ولكن ما الذي دفعه إلى الهلاك؟.. لقد دفن سرّه معه، واعتقدنا جميعًا أنّ روحًا شيطانيًا تلبّسه، فاضلّته الحكمة فأثّر فعلته في حالة إعياء وذهول وفجع أسرنا جميعًا..

واكتسى وجهه بحزن عميق وانحنى رأسه على صدره. فأسفت رادوبيس على إثارتها هذا الموضوع الأليم وسألته:

- وهل أمك على قيد الحياة؟

- نعم يا سيّدي، وهي تعيش بقصرنا في أمبوس؛ أمّا معمل والدي فلم يلج بابّه إنسان منذ تلك الليلة..

وعادت المرأة، وهي تفكّر في موت الطبيب بسار الغريب وفي سموه المودعة العمل المغلق..

وكان بنامون الإنسان الوحيد الغريب الذي يلوح في أفقها الهادئ المنظوي على الحبّ والطمأنينة؛ وكان الوحيد كذلك الذي ينتهب من وقتها الموهوب للحبّ ساعة كلّ صباح. على أنّه لم يضايقها قطّ لأنّه كان أرقّ من الطيف. ومضت الأيام وهي مفرقة في الهوى وهو منكبّ على عمله، وحياة الفنّ العالية تدبّ في جدران الحجرة الصيفية.

- ترى هل يستطيع حقًا هذا الرأس الصغير، أن يبدع فكرة رائعة؟..

فتخضّب وجهه بالاحمرار، وقال بارتباك وهو يشير إلى الجدار الأيمن:

- سأملاً هذا الفراغ بصورة وجهك وعنقك.

- يا للهول.. أخشى أن يأتي بشعًا خيفًا..

- سيبدو جميلًا كما هو.

نطق الشاب بهذه العبارة ببساطة وسذاجة، فحدجته بنظرة فاحصة، فسارع الارتباك إليه، وتحرّرت عيناه الصافيتان، وأشفقت عليه فنظرت إلى الأمام حتّى استقرّ بصرها على الركبة خلل الباب الشرقيّ للحجرة.. يا له من شابّ رقيق كالعدراء الساذجة، إنّه يهيج في صدرها حنانًا غريبًا، ويوقظ الأمومة النائمة في سرايب نفسها، والتفتت إليه، فرأته منكبًا على عمله، ولكنّه لم يكن متفرّغًا له، وآية ذلك أنّه كان ظاهر الارتباك مورّد الخدّين، أليس ينبغي أن تتركه وتذهب إلى حال سبيلها؟، ولكنّها أحسّت برغبة في التحدّث معه، فطاعت رغبته وسألته:

- أمن أهل الجنوب أنت؟

فرفع الشابّ رأسه، وقد اكتسى وجهه بنور فرح بهيج، وقال:

- أنا من أمبوس يا سيّدي.

- أمبوس؟.. أنت من شبال الجنوب إذًا، ولكن ما الذي جمع بينك وبين المثال هنفر، وهو من أهل بلاق؟

- كان والدي من أصدقاء المثال هنفر، ولمّا رأى تعلّقني بالفنّ أرسلني إليه ووصّاه بي.

- وهل والدك من طائفة الفنّانين؟

فصمت الشابّ هنيهة، ثمّ قال:

- كلًّا.. كان والدي كبير أطباء أمبوس، وكان نابغة في الكيمياء والتحنيط، وقد تعدّدت اكتشافاته في طرائق التحنيط وتركيبات السموم..

ففهمت المرأة من سياق حديثه أنّ والده مات، ولكنّها عجبت لاكتشافه تركيبات السموم، وسألت الشابّ:

- ولماذا كان يصنع السموم؟..

وكانت تظنه ينهمك في عمله كعادته، ولكنها وجدته يجثو على ركبتيه، ويداه مثبتتان على صدره، ورأسه متجه إلى أعلى كأنه مستغرق في صلاة، إلا أن رأسه كان متجهًا إلى ما تمّ نحت من رأسها وجبينها..

ودفعت غريزتها إلى الاختفاء وراء فرع شجرة ومضت تراقبه خلسة دهشة مدعورة، ورأته يقوم واقفاً كأنه ينفتل من صلاته، ورأته يمسح عينيه بطرف كفه الواسع. فخفق قلبها، وليث برهة لا تبدي حراكًا، والسكون مطبق من حولها. لا يسمع بين آونة وأخرى سوى رفرفة البط السابح على سطح الماء أو طنينه، ثم التفتت إلى الوراء وانحدرت مسرعة في طريقها إلى القصر..

وقع ما طالما أشفقت من وقوعه رحمةً به، وكانت تطالع معناه في عينيه الصافيتين كأنها رنا بها إليها، وما كانت تستطيع دفع الشر، فهل تباعد بينه وبينها؟.. هل تغلق باب القصر في وجهه بأية علة تعتل بها عليه.. لكتها أشفقت من تعذيب نفسه الرفيعة وبانت في حيرة من أمرها.

على أن حيرتها لم تطل بها، ولم يكن شيء في الوجود يقادر على أن يستبد بوجودها أكثر من ساعة عابرة، لأن عواطفها وإحساساتها جميعًا كانت نهب الحب، وملك يدي حبيب طموح لا يقنع من الحب بشيء.. كان يطير إلى قصرها الحالم هاجرًا قصره ودنياه، غير آسف ولا متردد، فكانا يقرآن معًا من الوجود ويلوذان بنفسيهما العامرتين بالحب، ويستسلمان لسحر الهوى وفتونه، ويصليان ناره، ويشهدان الحجرات والحديقة والأطيار على روعته وجبروته. وكان أقصى ما يلقيان من أسباب الموم في أيامها تلك أن تكتشف رادوبيس في الضحى بعد توديعه لها، أنها لم تسأله أعينها يؤثر بالشوق أم شفيتها، أو أن يذكر وهو في طريقه إلى قصره أنه لم يقبل ساقها اليمنى مثلما فعل قبل اليسرى، وربما حمله أسفه على أن يكرّر راجعًا لينفي عن حياته أنفه أسباب الموم.

كانت آيما لا نظير لها في الأيام.

وكان يسرها أن ترقب يده وهي تبث في الحجرة روحًا من جمالها الرائع. وقد اقتنعت بمقدرته الفائقة، ووقر في نفسها أنه سيخلف المثال هتفر في مستقبل قريب. وقد سأله يومًا وهي تهتم بمغادرة الغرفة بعد جلسة ساعة:

- ألا يلحقك التعب أو السأم؟

فابتسم الغلام بفخار وقال:

- هيهات..

- كأنك تندفع بقوة شيطان..

فأشرق وجهه الأسمر بابتسامة وامضة، وقال بهدوء وسذاجة:

- بل بقوة الحب..

وارتحف قلبها لوقع هذه الكلمة التي توقظ في قلبها أشهى الذكريات، وتنادى إلى مخيلتها صورة حبيبة محاطة بالبهاء والجلال، ولم يكن يدرك شيئًا مما يقوم في نفسها فاستدرك قائلاً:

- ألا تعلمين يا سيدتي أن الفن هو؟

- حقًا؟!

فأشار إلى أعلى جبينها الذي وضع رسمه على الجدران، وقال:

- هاك نفسي خالصة..

وكانت قد ملكت عواطفها، فقالت بسخرية:

- يا لها من حجر أصم.

- كانت حجرًا قبل أن تلمسها يداي، أما اليوم فهي نفسي.

فضحكت قائلة:

- يا لك من مغرق في حب نفسه..

هكذا قالت وهي توليه ظهرها: ولكن وضع على أثر ذاك اليرم أن نفسه ليست الشيء الوحيد الذي يحبه، وكانت تسير في الحديقة على غير هدئ كخاطر حائر في دماغ حالم سعيد، فأشرفت بغتة على الحجرة الصيفية، وساقها ميل إلى التسلية إلى اعتلاء ربوة عالية في غابة الجميز، وإرسال النظر خلل نافذة الحجرة وكان وجهها الآخذ في الاستواء والاكتمال يواجهها على الجدار المقابل، ورأت الفتان الشاب في أسفل الجدار،

## خنوم حتب

وكان الزمن الذي يمنح قومًا الصفاء والسعادة، يتجهّم لوجه رئيس الوزراء وكبير الكهنة خنوم حتب. كان الرجل يقبع في دار الحكومة يرقب الأمور بعينين متشائميتين، ويستمع إلى ما يقال بأذان مرهفة وقلب حزين، ثمّ يستوصي بالصبر ما أمكن الصبر. وكان الأمر الذي أصدره الملك بنزع أراضي المعابد ينقص عليه صفو حياته، ويضع في سبيل حكمه عراقيل من الأزمات النفسية، لأنّ جمهور الكهنة قابلوه بفسزع وألم، ونشط أكثرهم إلى كتابة العرائض والالتماسات وتوجيهها إلى رئيس الوزراء وكبير الحجاب.

ولاحظ الرئيس أنّ الملك لا يمنحه من وقته عشر معشار ما كان يمنحه من قبل، وأتته نادراً ما يحظى بمقابلته والتحدّث إليه في أمور المملكة. وذاع على أثر ذلك أنّ فرعون يهوى غانية القصر الأبيض ببيجة، وأتته بيت ليلاليه في قصرها. ثمّ شوهد الصنّاع يساقون إلى قصرها جماعات جماعات، ورثيت زرافات العبيد حاملة فاخر الأثاث وثمانين الجواهر. وتهاشم الكبراء بأنّ قصر رادوبيس يتحوّل إلى مشوى من الذهب والفضّة والمرجان، وأنّ أركانه تشهد هوى جامعاً يتقاضى مصر أموالاً لا تعدّ ولا تحصى..

وكان خنوم حتب رأساً كبيراً وعينين عميقتين، وقد نفد صبره، وضاق بجموده، ففكّر في الأمر طويلاً، وعزم على أن يبذل ما في وسعه ليحوّل الأمور عن السبيل التي تندفع فيه؛ فأرسل رسولاً من قبله برسالة إلى كبير الحجاب سوفخاتب رجاء فيها إلى موافاته بدار الحكومة. ومسارح كبير الحجاب إلى مقابلته، وصافحه الوزير، وقال له:

- إني أشكرك أيّها المبجل سوفخاتب على تلييتك لرجائي.

فأخى كبير الحجاب رأسه وقال:

- إني لا أتوانى عن القيام بواجبي المقدّس في خدمة مولاي.

وجلس الرجلان وجهًا لوجه، وكان خنوم حتب

صلب الإرادة حديديّ الأعصاب، فظلّ وجهه هادئاً رغم ما يجيش ب صدره من الأحزان. وقد استمع إلى قول كبير الحجاب في سكون، ثمّ قال:

- أيّها المبجل سوفخاتب، كلنا نخدم فرعون ومصر بإخلاص.

- هذا حقّ يا صاحب القداسة.

ورأى خنوم حتب أن يطرق موضوعه الخطير، فقال:

- ولكنّ ضميري لا يرتاح إلى سير الأمور في هذه الآيام، وبتّ أتعزّ بالمثاعب والمشكلات. وقد رأيت - وأحسبني في رأيي من الصادقين - أنّ مقابلة بيني وبينك لا شكّ تأتي بخير كثير.

فقال سوفخاتب:

- إنّه ليسعدني وحقّ الأرباب أن تصدق في فراستك يا صاحب القداسة.

فهزّ الرجل رأسه الكبير دلالةً على الرضا، وقال بلهجة تنمّ على الحكمة:

- يجدر بنا أن نستوصي بالصراحة؛ فالصراحة كما يقول فيلسوفنا قاقمنا آية الصدق والإخلاص.

فأمّن سوفخاتب على قوله قائلاً:

- صدق فيلسوفنا قاقمنا.

فصمت خنوم حتب دقيقة يجمع أفكاره. ثمّ قال بصوت ينمّ على الحزن:

- ينذر أن أحظى بمقابلة جلالة الملك في هذه الآيام.

وانتظر الوزير أن يعقّب الرجل على كلامه، ولكنّه لازم الصمت، فاستطرد قائلاً:

- وأنت تعلم أيّها المبجل أنّي كثيرًا ما أطلب تحديد وقت لمقابلته، فيقال لي إنّ ذاته المعبودة خارج القصر.

فبادره سوفخاتب قائلاً:

- ليس لإنسان أن يحسب على فرعون حركاته وسكناته.

فقال الوزير:

- ما قصدت إلى هذا أيّها المبجل، ولكنّي أعتقد أنّ

فقال سوفخاتب:

- تفضّل يا صاحب القداسة.

- إنّي أرجو أن ترفع إلى مسامع صاحبة الجلالة

الملكة، رجائي بالتشرف بين يديها اليوم.

وأخذ سوفخاتب، ونظر إلى محدّثه نظرة دالّة على

الدهشة، لأنّه وإن كان الوزير لم يجاوز حدوده بهذا

الرجاء إلّا أنّه لم يكن متوقّعه، فاستولى الارتباك على

الحاجب، أمّا خنوم حتب فقال بلهجة دلّت على

العزم:

- إنّي أقدم هذا الرجاء بصفتي رئيس وزراء المملكة

المصريّة.

فقال سوفخاتب بقلق:

- ألا انتظرت إلى الغد لأحيط الملك علماً برغبتك؟

- كلّ أيّها المبجل، إنّي أرجو أن أستعين بجلالة

الملكة على تذليل العقبات التي تعترض سبيلي، فلا

تضيق فرصة ذهبيّة، عسى أن أخدم بها مليكي

ووطني.

فلم يسع سوفخاتب إلّا أن يقول:

- سأرفع رجاءك إلى جلالته في الحال.

وقال خنوم حتب، وهو يمدّ له يده للمصافحة:

- سأنتظر رسوئك.

فقال الحاجب الأكبر وهو يودّعه:

- كما تشاء يا صاحب القداسة.

ولمّا خلا خنوم حتب بنفسه قطب جبينه، وأصرّ على

أسنانه بشدّة، فبدأ ذقنه العريض كقبضة من

الجرانيت، ومضى يذرع الحجرة ويُعمل فكره. وكان لا

يشكّ في إخلاص سوفخاتب، ولكنّه كان قليل الثقة

في شجاعته وعزمته. وقد دعاه وهو يائس منه، ولكنّه

لم يرد أن يترك وسيلة بلا تجربة، ثمّ تساءل قلقلًا: هل

تقبل الملكة رجاءه وتدعوه لمقابلتها! وما عساه يصنع لو

رفضت مقابلته؟. إنّ الملكة لا يستهان بها، وعسى أن

تحلّ العقدة المستحكمة بذكائها، فتقذ ما بين الملك

والكهنة من الانهيار والتفكك. ولا شكّ أنّ الملكة

تدرك سوء تصرّف الملك الشاب، وتأمّل له أشدّ الألم،

فهي ملكة مشهود لها بالفطنة، وهي زوجة تشارك

حقّي كوزير يخوّل لي المثل بين يدي جلالته بين آونة

وأخرى، لأقوم بواجباتي على الوجه الكامل.

- معذرة يا صاحب القداسة، ولكنك تحظى بالمثل

بين يدي فرعون.

- نادرًا ما تتاح لي الفرصة. وتجدني لا أدري ما

الحيلة لأعرض على ذاته العليا التماسات تزدهم بها

حجرات الحكومة.

فحدّجه الحاجب بنظرة فاحصة، وقال:

- لعلّها تمسّ موضوع أراضى المعابد.

فالتصمت عينا الوزير بنور خاطف، وقال:

- هو ذلك يا سيّدي.

فقال سوفخاتب بسرعة:

- إنّ فرعون لا يريد أن يسمع جديدًا حول هذا

الموضوع. لأنّ جلالته قال فيه كلمته الأخيرة.

- إنّ السياسة لا تعرف كلمة أخيرة.

قال سوفخاتب بلهجة لم تحلّ من حدة:

- هذا رأيك يا صاحب القداسة وعسى ألا أشاركك

فيه.

- أليست أملاك المعابد تراثًا تقليديًا؟

واستاء سوفخاتب لأنّه شعر بأنّ الوزير يستدرجه

إلى حديث يأباه، بعد أن أعلن له إياه، فقال بلهجة

لا تدع له أيّ احتمال للشكّ:

- سأقف عند كلمة مولاي لا أنعدّها.

- إنّ أخلص الناس مولاه من يصدقه النصيحة.

واشتدّ استياء الحاجب الأكبر لجهل القول، وثارت

كرامته ثورة مكتومة، فقال بشدّة:

- إنّي أعرف واجبي يا صاحب القداسة، ولكنّي لا

أسأل عنه إلّا أمام ضميري.

فتنهّد خنوم حتب يائسًا، ثمّ قال في هدوء وتسليم:

- إنّ ضميرك فوق الشبهات أيّها المبجل، وما

داخلني شكّ قطّ في إخلاصك أو حكمتك، ولعلّ هذا

ما دعاني إلى الاسترشاد برأيك. أمّا وأنت ترى أنّ هذا

لا يتفق وإخلاصك فلا يسعني إلّا العدول عنك أسفًا،

وليس لديّ الآن إلّا رجاء واحد.

واستقامت قامة الوزير، وإن ظلَّ رأسه منكسًا،  
وقال بخشوع:

- إنَّ عبدك المطيع يعجز لسانه عن أداء الشكر  
لذاتك العالية، على تفضُّلك الكريم باستقباله.

فقالت الملكة بصوتها المتَّرن النبرات:

- إني أعتقد أنَّك لا ترجو مقابلي إلا لأمر خطير؛  
فلم أتوانَ عن استقبالك.

- تعالت حكمة مولاتي، فالأمر جدَّ خطير، وما هو  
إلا صميم السياسة العليا.

وانتظرت الملكة صامته، فاستجمع الرجل قواه  
الذاتية، وقال:

- إني يا صاحبة الجلالة اصطدم بعقبات شديدة،  
حتى بَتَّ أخشى ألا أقوم بواجبي بما يرضي ضميري  
ومولاي فرعون.

وسكت لحظة، واختطف من وجه الملكة الهادئ  
نظرة سريعة كأنه يمتحن أثر كلامه فيها، أو ينتظر كلمة  
تشجعه على الاسترسال، وأدركت الملكة معنى تردده  
فقالت:

- تكلم أيها الوزير فإني مصغية إليك.

فقال خنوم حتب:

- اصطدمت بهذه العقبات على أثر صدور الأمر  
الملكيّ بنزع أكثر أملاك المعابد، فقد اضطرب الكهنة  
وفزعوا إلى الالتباسات يرفعونها إلى أعتاب فرعون،  
فهم يعلمون أنَّ أراضى المعابد منح وهبتها الفراعنة  
عطفًا، فأشفقوا من أن يكون استردادها سخطًا.

ولاذ الوزير بالصمت هنيئة، ثم استدرك قائلاً:

- الكهنة يا مولاتي جنود الملك في وقت السلم،  
والسلم ينشد رجالاً أصلب عودًا من رجال الحرب،  
فمنهم المعلّمون والحكماء والوعاظ، ومنهم حُكّام  
ووزراء. وما كانوا ليتوانوا عن التنازل عن أملاكهم  
حبًا لودعت إلى ذلك شدة حرب أو قحط، ولكنهم..

وتردّد الرجل عن الكلام لحظة، ثم استطرد بصوت  
أشدَّ خفوتًا:

- ولكن يجزئهم أن يروا هذه الأموال تنفق في غير  
هذه الوجوه..

الزوجات أفراحهنَّ وأحزانهنَّ. أليس من المحزن أن  
تُنزع أملاك المعابد ليُبدل ريعها رخيصةً تحت أقدام  
راقصة؟

إنَّ الذهب يتدفّق إلى قصر بيعة من أبوابه  
ونوافذه، ومهرة الصنّاع يتقاطرون عليه ويعملون ليل  
نهار في صنع أثائه وحليّ ربته وأثوابها. وأين.. أين  
فرعون.. هجر زوجه وحرّبه ووزرائه وقنع من الدنيا  
بقصر الراقصة الساحرة!

وتنهّد الرجل في حزن عميق، وتتمّ قائلاً:

- ما ينبغي لمن يجلس على عرش مصر أن يلهو..

وراح في تفكيره العميق، ولكن لم يطل به  
الانتظار، إذ دخل عليه حاجبه، واستأذن لرسول أت  
من القصر فأذن. وانتظر الرجل في لهفة، وقد  
اضطربت شفثاه في تلك اللحظة الفاصلة على قوة  
إرادته وصلابة أعصابه، ودخل الرسول، وأخفى رأسه  
محييًا، وقال باقتضاب:

- إنَّ حضرة صاحبة الجلالة تنتظركم يا صاحب  
القداسة.

وحمل من فوره إضمامة الالتباسات، وذهب إلى  
عجلته التي طارت به إلى القصر، وما دار له بخلد أن  
يأتيه الرسول بهذه السرعة، فلا شكَّ أنَّ الملكة تكابد  
حزنًا وقلقًا، وتعاني من الآلام في وحدتها الموحشة، ولا  
شكَّ أنَّها تتصبّر على الإهانة والحرمان قابعة في سجاج  
قاسٍ من الكبرياء والصمت، إنَّه يحسُّ أنَّها من رأيه،  
وأنَّها ترى الأمور بالعين التي يراها الكهنة والعقلاء  
جميعًا. وعلى آية حال فسيؤدّي واجبه، ولتقضِ الآلهة  
أمرًا كان مفعولًا.

وبلغ القصر: وقصد ثوًا إلى جناح الملكة، ولم يلبث  
أن دعي إلى مقابلة جلالته في بهو استقبالها الرسمي.  
وأدخل البهو فأتجه نحو العرش، وأخفى هامته حتى  
مست جبهته حاشية ثوبها الملكيّ، وقال بإجلال  
عميق:

- السلام على مولاتي نور الشمس وبهاء القمر.

فقالت الملكة بصوت هادئ:

- السلام عليك أيها الرئيس خنوم حتب.

الحزينة سجيناً خلف الستائر. وهكذا خسرت المعركة، وخرجت منها مهينة الجناح، وما رمت عن قوسها سهماً واحداً.

وكان الذي يدعو إلى السخرية، أنّها ما زالتا يعدّان عروسين. على أنّ تلك الفترة القصيرة كانت كافية لإظهار ما انطوت عليه نفسه من الجموح العنيف والهوى الطائش، فما عثم أن ملأ الحريم بعدد لا يحصى من الجواري والمحظيات من مصر والنوبة وبلاد الشال. ولم تكن تأبه لهنّ، لأنهنّ جميعاً لم يصرفنه عنها، ولبثت ملكته وملكة فؤاده. إلى أن ظهرت في أفقه هذه المرأة الساحرة فجذبته إليها بعنف، وملك عواطفه وعقله جميعاً، واستأثرت به دون زوجه وحرمة ورجاله المخلصين، ولعب بها الأمل الخادع حيناً، ثم أسلمها إلى اليأس، يأس مكفّن بكبرياء فأحسّت بقلبها يتجرّع سكرات الموت.

وكانت تأتي عليها أحيان يثب الجنون في دماغها، وتشعّ عينها نوراً خاطئاً، فتهمّ بالوثب والبطش والمنافحة عن قلبها الكسير، ثم سرعان ما تقول لنفسها باحتقار شديد: كيف يصحّ لنيتوقريس أن تنازل امرأة تباع جسدها بقطع الذهب؟ فبدر دماؤها، ويتجمّد الحزن في قلبها كالسّم الفاتك في المعدة.

ولكن ثبت لها اليوم أنّ هناك قلوباً غير قلبها تعاني الآلام بسبب تهوّر الملك، وما هوذا خنوم حتب يشكو إليها بثّه ويقول لها بعبارة بيّنة: إنّه لا يجوز أن تنزع أملاك المعابد لتلهو بها رادوبيس الراقصة، ويؤمن بقولها المثلون من صفوة الحكماء. أفلا ينبغي أن تخرج عن صمتها؟ وإذا لم تتكلّم الآن فمتى ينبغي لها أن تعالج جنونه بحكمتها. وقد آلهها أن يرتقي همس إلى العرش المكين، وأحسّت بأنّ واجبها يقضي عليها بإزالة الهواجس وإعادة الطمأنينة، وهان عليها أن تدوس على كبريائها، وتوطّد العزم على أن تتقدّم بخطى ثابتة في سبيلها السويّ مستعينة بالأرباب.

وارتاحت الملكة لتفكيرها الذي أملته عليها الحكمة والدواعي الباطنة، انهار عنادها الأول بعد أن شابر

ولم يُرد أن يجاوز هذا الحدّ من التلميح، ولم يداخله شكّ في أنّها تفهم كلّ شيء وتعلم كلّ شيء. ولكنّها لم تعقّب على كلامه بكلمة. فلم يرَ بداً من أن يتقدّم إليها بالالتباسات، ثم قال:

- هذه الالتباسات يا صاحبة الجلالة تعبر عن إحساس رؤساء المعابد، وقد رفض مولاي الملك أن ينظر فيها، فهل لمولاي أن تطلع عليها، فالشاكون طائفة من شعبكم المخلص تستحقّ الرعاية..

وقبلت الملكة الالتباسات، فوضعها الوزير على منضدة كبيرة، ووقف في سكون منكس الرأس. ولم تعد الملكة بشيء، وما طمع في هذا قطع، ولكنّه تفاعل خيراً بقبول الالتباسات. ثمّ أذنت له بالانصراف، فراجع ويداه على عينيه.

وفي طريق العودة حادث الوزير نفسه: إنّ الملكة شديدة الحزن، وعسى أن ينفع حزنها قضيتنا العادلة.

## نيتوقريس

غيب الباب الوزير، ووجدت الملكة نفسها وحيدة في البهو الكبير، فاستندت رأسها المتوجّج إلى ظهر العرش، وأغلقت جفניה، وتنهّدت تنهّداً عميقاً، صعد أنفاساً حارّة مكتوبة بصورة الحزن والألم، فلشدّ ما تنصّب وتتجلّد، حتّى إنّ أدنى الناس إليها لا يدري بألسنة اللهب التي تحترق بها أحشاؤها بغير رحمة.. وقد ظلّت تظالع الناس بوجه هادئ يكتنفه الصمت كأبي الهول.

وما كانت تجهل من الأمر شيئاً، فقد شاهدت المأساة من بدء فصولها، ورأت الملك يتردّى في الهاوية، ويذهب فريسة لهواه الجامح، وهرع إلى تلك المرأة - التي شاد بحسنها كلّ لسان - لا يلوي على شيء. وأصابتها سهم سامّ في عزة نفسها وسويداء عواطفها، ولكنّها لم تُبد حراكاً، ونشب في صدرها صراع عنيف بين المرأة ذات القلب، والملكة ذات التاج، وأثبتت التجربة أنّها كأبيها قويّة الشكيمة، فصهر التاج القلب، وخنقت الكبرياء الحبّ، فانطوت على نفسها



وكان أرق المس يهبه، ويرته من حال إلى حال،  
فعض على شفته وقال:

- آيتها الأخت، إن الإنسان هدف لأهواء طاغية.  
وقد يهوي لإحداها فريسة.

وطعنها اعترافه بقسوة في كبريائها وعواطفها،  
فنسيت حلمها وقالت بصراحة:

- يحزنني وحق الرب، وأنت فرعون أن تشكو  
الأهواء الطاغية.

وأحس الملك الغضوب بوخز كلامها، فأهاجه  
الغضب، واندفع الدم إلى رأسه، فانتفض واقفاً ينذر  
وجهه بالشر. وخشيت الملكة أن يفسد غضبه عليها  
الغضب الذي جاءت من أجله، فندمت على قولها،  
وقالت له برجاء:

- أنت الذي سقتني إلى هذا الحديث أيها الأخ، وما  
لهذا جئت، وعسى أن يفرخ غضبك، أن تعلم أنني  
قصدت إليك لأحدثك في شئون هامة تمس سياسة  
المملكة التي نجلس على عرشها سوياً.

فكظم حنقه، وسأها بلهجة كالمادة:  
- ما حديثك آيتها الملكة؟

وأسفت الملكة على أن مساق الحديث لم يؤد إلى جو  
صالح لغرضها ولكنها لم تر بداً من الكلام، فقالت  
باقتضاب:  
- أراضي المعابد.

فعبس وجه الملك. وقال بامتناع شديد:  
- أتقولين أراضي المعابد؟ .. إني أسميها أراضي  
الكهنة!

- لتكن مشيتك يا مولاي. فإن تغيير الاسم لا يغير  
من الأمر شيئاً.

- ألا تعلمين أنني أكره أن يعاد علي هذا الاسم؟  
- إني أحاول ما لا يستطيعه غيري، وهدفي الخير  
والإصلاح.

فهز الملك منكبيه بامتناع وقال:  
- وما الذي تريدن قوله آيتها الملكة؟

منابرة المستميت، وصدقت عزيمتها على مواجهة الملك  
بقوة وإخلاص.

وغادرت البهو إلى مخدعها الملكي، وقطعت بقية  
نهارها في التفكير والتأمل، ونامت ليلاً نوماً متقطعاً  
شديد العذاب، وانتظرت الضحى على لفقة، وهو  
الوقت الذي يصحو فيه الملك بعد سهر الليل.. ولم  
يدخلها التردد، فانتقلت بخطى ثابتة إلى جناح  
الملك، وقد أحدث انتقالها الغريب حركة بين  
الحراس، فأدوا لها التحية، وسألت واحداً منهم قائلة:  
- أين جلالة الملك؟

فأجابها الرجل بإجلال قائلاً:

- في منواه الخاص يا صاحبة الجلالة.

وسارت بتؤدة إلى حجرة الملك التي يخلو فيها  
بنفسه، واجتازت بابها الكبير. وكان فرعون يجلس في  
الصدر يفصله عن الباب أربعون ذراعاً، حلت من  
آي البلهنية والفر ما لا تصدقه العيون. ولم يكن الملك  
يتوقع رؤيتها، وكانت مضت أيام عديدة على آخر  
لقاء، فقام واقفاً دهشاً، واستقبلها بابتسامة دلت على  
الارتباك، وقال وهو يشير إليها بالجلوس:

- أسعدتك الآلهة يا نيتوقريس.. لو علمت  
برغبتي في مقابلتي لبادرت إليك!

فجلست الملكة في هدوء وهي تخاطب نفسها  
قائلة..

من أدراه أنني لم أرغب في لقائه طوال هذه الفترة!  
ثم وجهت إليه الخطاب قائلة:

- لا داعي لإزعاجك أيها الأخ، فلنني لا أجد  
غضاضة في الانتقال إليك ما دام الذي يحركني  
واجب.

ولم يلق الملك إلى كلامها بالاً، لأنه كان يحس  
بحرج شديد، وقد تأثر لمجيئها وهمود وجهها، فقال:  
- إني خجل يا نيتوقريس.

وعجبت لطرقه هذا الموضوع، وكان آلهة آلهة خفياً  
أن تراه في منتهى السعادة والصحة، كالزهرة الناضرة،  
فقالت بانفعال رغم ضبط عواطفها:

- يهون لدي كل شيء إلا أن تخجل!

فقالته بهدوء:

- لقد دعوت خنوم حتب إلى مقابلتي إجابة لرجائه واستمعت ..

ولكنه لم يدعها تتم حديثها، وقال بغضب:

- أمكذا فعل الرجل؟

فقالته بارتياح:

- نعم .. هل تجد في سلوكه ما يستأهل غضبك؟

فقال وكأنه يزار:

- بغير شك .. بغير شك .. إنه رجل عنيد، ويأبى أن ينزل عند إرادتي، وأنا أعلم أنه نفذ أمري كارهاً، وأنه يترقب بي لعله ينجح في إلغائه مستعيناً تارة بالرجاء، وقد رفضت أن أصغي إليه، وتارة بدفع الكهنة إلى تقديم الالتماسات كما دفعهم من قبل إلى الهتاف باسمه الحقير .. إن الرجل الماكر يندفع كالأعمى في طريق خصامي.

فهاها ظنه وقالت:

- أنت تسيء الظن بالرجل، أما أنا فأعتقد أنه من أعظم الرجال إخلاصاً للعرش، وأنه حكيم يتوخى اللوام .. أليس من الطبيعي أن يحزن الرجل لفقدان امتيازات كسبتها طائفته في ظل عطف أجدادنا؟

واحتدم الغيظ في قلب الملك، لأنه لم يكن يجد عزراً لإنسان ألا يصدع بأمره في السر والعلانية، ولا يحتمل بأية حال أن يرى إنسان غير ما يرى.

فقال متمعضاً بلهجة تشف عن السخرية المريرة:

- أرى أن هذا الداهية استطاع أن يغير رأيك أيتها الملكة.

فقالته باستياء:

- لم يتجه رأيي قط إلى نزع أملاك المعابد، ولا أجد ضرورة لذلك.

فاعاد الغضب الملك وقال لها بعنف:

- أيسيتك أن تزداد ثروتنا؟

كيف يقول هذا، وهو يعلم أين تنفق هذه الأموال؟

- يسيء كل عاقل أن تنزع أراضي قوم حكما لينفق ريعها في اللهو العايب.

فاشتد هياج الملك. وقال وهو يشير بيده مهدداً:

- ويل للرجل الماكر .. إنه يغري بالشقاق بيننا؟ فقلت بتألم وحزن:

- إنك تصوّرني لنفسك كطفلة غريرة.

- ويل له .. لقد طلب مقابلة الملكة ليحدث المرأة المستورة في ثوبها الملكي.

فصاحت به حزينة متألة قائلة:

- مولاي!

ولكنه استطرد يقول مدفوعاً بغضبه الشيطاني:

- لقد جئت يا نيتوقريس مسوقة بالغيرة لا بالرغبة في اللوام.

وأحست بطعنة نجلاء تصيب كبرياتها. فأظلمت عيناها، ودوى النبض في أذنيها، وارتجفت أطرافها. ولبثت هنيهة لا تستطيع قولاً. ثم قالت:

- أيتها الملك! لا يعرف خنوم حتب عنك شيئاً أجعله فيسعى به إليّ، وما دمت تظنّ هذا، فاعلم بأنّي، أعلم، كما يعلم الجميع، أنك غارق في أحضان راقصة بجزيرة بيجة منذ أشهر. فهل رأيتني طوال هذه الفترة طاردتك، أو ضيقت عليك، أو توسّلت إليك؟ .. واعلم أنّ الذي يريد أن يخاطب في المرأة يرتدّ خائباً، ولا يلقي أمامه سوى الملكة نيتوقريس .. فاحتد قائلاً بعناد:

- ما تزالين تقذفين بحمم الغيرة.

فضربت الملكة بقدمها الصغيرة، وقامت واقفة يائسة، وقالت بحق شديد:

- أيتها الملك .. ليس ممّا تُعبّر به ملكة أن تغار على زوجها، ولكن ممّا يعبر به ملك حقاً أن يبذل ذهب بلاده تحت قدمي راقصة، ويعرّض عرشه الطاهر لخصوض الخائضين.

قالت الملكة ذلك، وذهبت لا تلوي على شيء.

\*\*\*

واستبد الغضب بالملك، وأخرجه عن طوره وكان يعدّ خنوم حتب مسئولاً عن جميع متاعبه، فاستدعى

وأثار قوله غيظها الدفين وحنقها المختنق، فانتفضت غضباً وتغلّبت عليها مشاعرها فقلت بانفعال:

سوفخاتب وأمره دون أن يجهله بأن يبلغ رئيس الوزراء بأنه ينتظره. وخرج الحاجب الأكبر ينفذ أمر مولاه حائراً. وجاء الوزير الأكبر موزع النفس بين اليأس والامل. وأدخل على الملك الغاضب الحانق، ونطق الرجل بالتحية - التقليدية، ولكنّ فرعون لم يكن يصغي إليه، وقد قاطعه بصوت خشن شديد قائلاً:  
- ألم أمرك أيها الوزير بالآ تعود إلى مناقشة مسألة أراضي المعابد؟  
وأخذ الرجل باللهجة الشديدة التي يسمعها لأول مرة، وأحسّ بآماله تنهار دفعة واحدة، فقال يائساً:  
- مولاي.. رأيت من واجبي أن أرفع إلى مسامعكم العالية شكاوي طائفة من شعبكم الأمين.  
فقال الملك بلهجة قاسية:  
- بل أحببت أن تشير غباراً بيني وبين الملكة، لتصيب تحت ستاره غرضك.  
فرفع الرجل يديه بتوسّل، وأراد أن يتكلّم فارتج عليه القول سوى هاتين الكلمتين:  
- مولاي.. مولاي.  
فقال الملك الغاضب المهتاج:  
- يا خنوم حتب.. أنت تأبي الانصياع لأمرى، فلن امنحك ثقتي بعد اليوم.  
ووجم الكاهن، واستولى عليه الجمود، ثمّ مال رأسه على صدره في حزن، وقال باستسلام:  
- مولاي، يحزنني وحقّ الأرباب جميعاً أن انسحب من ميدان خدمتكم المجيد، وسأعود كما كنت من قبل عبداً صغيراً من عبيدكم المخلصين..

\* \* \*

وأحسّ الملك بارتياح بعد أن أرضى غضبه الكاسر، وأرسل في طلب سوفخاتب وطاهو، وجاء الرجلان على عجل يتساءلان، فقال لهما الملك في هدوء:  
- انتهيت من خنوم حتب.  
وساد السكون العميق، وبدت الدهشة على وجه سوفخاتب، أمّا طاهو فبقي جامداً.. وكان الملك يقلّب ناظره في وجهيهما فسألها:  
- ما لكما لا تتكلّمان؟

## الرئيس الجديد

وأحسّ فرعون في العهد الجديد بطمأنينة، فسكن غضبه، وترك الأمور بين يدي الرجل الذي يثق به، وولّى وجهه نحو المرأة التي استولت على نفسه وقلبه وحواسه، ففي جوارها كان يشعر بطيب الحياة وبهجة الدنيا وأفراح النفس.  
أمّا سوفخاتب فكان ينوء بالتبعة على عاتقه، ويعلم علم اليقين أنّ مصر تستقبل توليته بحذر وتجهّم، وسخط مكتوم. وقد أحسّ بالوحشة منذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها قدماه دار الحكومة، فالملك

فرعون إعادة النظر في مسألة أراضي المعابد. فكان إجماعاً خطير الشأن، زاد من متاعب سوفخاتب. وفي يوم من الأيام دعا سوفخاتب طاهو إلى دار الحكومة، وجاءه القائد يسعي، فأشار الوزير إلى كرسي الوزارة، وهو يتنهد، وقال:

- يكاد هذا الكرسي أن يميد بي.

فقال طاهو:

- إن رأسك أكبر من أن يميد به هذا الكرسي.

فتنهد الرجل حزناً، وقال:

- أغرقوني بسيل من الالتباسات.

فسأله القائد باهتمام:

- هل عرضتها على فرعون؟

- كلاً أتيا القائد، إن فرعون لا يأذن لإنسان بمناقحته في هذا الموضوع، وأنا لا أحظى بالثول بين يديه إلا في فترات متباعدة جداً. . . إني أشعر بالارتباك والوحدة.

وصمت الرجلان برهة، فخلا كل منهما إلى أفكاره، ثم هز سوفخاتب رأسه متعجباً، وقال وكأنه يحدث نفسه:

- إنه للسحر بعينه.

ونظر طاهو إلى الوزير نظرة غريبة، وبغته المعنى الذي يقصده الرجل، فسرت في جسده شعيرية وامتقع لونه، ولكنه كبح جماح نفسه، وكان تعود ذلك في المدة الجافة الأخيرة من حياته، وسأله ببساطة كلفته جهذاً جهيداً:

- أي سحر تعني يا صاحب القداسة؟

فقال سوفخاتب:

- رادوبيس، أليست تنفت في فرعون سحراً، بلى وحق الأرباب، إن ما بجلالته لسحراً مبيتاً. .

واهترت نفس طاهو لذكر هذا الاسم، وخال أنه يسمع شيئاً عجيباً يلمس بوقعه السحري جميع الحواس والعواطف، وكان يزيل الصهام الذي أحكمه بقسوة على فوهة وجدانه، فأصر على أسنانه بشدة وقال:

- يقول الناس إن الحب سحر، والسحرة يقولون إن السحر حب.

يرضى من الدنيا بالحب، ويولي كشحه المموم والواجبات جميعاً، وحكام الأقاليم يوالونه بوجوههم، وقلوبهم تتبع كهنتهم في كل مكان. وتلفت الوزير حوله، فلم يجد سوى القائد طاهو عوناً ومشيراً، وهما رجلان مختلفان في أمور كثيرة. ولكنهما يأتلفان على حب فرعون والإخلاص له. فلتى القائد نداءه، ومد يده إليه، وشاركه في وحشته وجل متاعبه، وكافحا معاً لإنقاذ سفينة يطوف بها موج صاخب، وتتجمع في أفقها السحب والزوايع. على أن سوفخاتب كانت تنقصه مزايا القبطان المحنك، كان مخلصاً ينضح قلبه بالأمانة والوفاء، حكيمًا تنجلي له حقائق الأمور، ولكن كانت تعوزه صفات الشجاعة والحزم، فرأى الخطأ منذ البدء، ولكنه لم يحاول إصلاحه بقدر ما مضى في مداراته وتهوين عقابه خشية غضب مولاه أو إيلاسه، وهكذا أظردت الأمور في السيل السذي شقه الغضب. .

وجاءت عيون طاهو الساهرة بخبر هام. قالوا إن خنوم حنبر ارتحل بغتة إلى منف، العاصمة الدينية، فأحدث الخبر دهشة لدى الوزير والقائد. واحتارا في السبب الذي من أجله رضي الرجل بمشقة الانتقال من الجنوب إلى الشمال، وتوقع سوفخاتب شراً، ولم يشك في أن خنوم حنبر سيتصل بكبار رجال الكهنوت، وجميعهم ساخطون لما حل بهم من ضنك. ولعلمهم بأن الأموال التي ضن بها عليهم تبعثر تحت قدمي راقصة بيجة بغير حساب، فما من أحد منهم يجهل هذه الحقيقة الآن، ومن يجهلها سيعلم بها بغير ريب، وسيلقى الكاهن فيهم تربة صالحة لبذر تعاليمه وترديد شكواه. .

وظهرت النذر الأولى لسخط الكهنة، فقد عاد الرسل الذين أذاعوا نبأ اختيار سوفخاتب وزيراً في أنحاء القطر، بالتهاني الرسمية من الأقاليم، أما الكهنة فقد انطوا على صمت رهيب، حتى قال طاهو: «لقد بدأونا بالتحدي».

ثم حملت الرسائل تترى من جميع المعابد، وعليها توقيع جميع الكهنة من جميع الطبقات تلتمس من

فتشّوه مسعاي لدى فرعون.. كلاً يا صاحب القداسة..

وتنّيب سوفخاتب مواجهة فرعون بالحقيقة.  
ولم يستطع طاهو ملازمة مكانه لأنّ أعصابه ثارت،  
وزعزعت أركان نفسه عاطفة هوجاء شديدة الاغترار،  
فاستأذن من الوزير وانطلق لا يلوي على شيء، تاركاً  
وراءه سوفخاتب غارقاً في لجّة عميقة من الأفكار  
والأحزان.

## الملكات

ولم يكن سوفخاتب وحده الذي تنقل رأسه المموم.  
كانت الملكة تقبع في جناحها، تنطوي على حزن  
دفين، وألم بارح، ويأس محروم من الشكوى، تراجع  
مأساة حياتها بقلب كسير، وتشاهد الأمور التي تقع في  
الوادي بعينين حزيتين، ولم تكن سوى امرأة خسرت  
قلبها، أو ملكة يتقلقل بها عرشها، وقد انتهت  
العلائق بينها وبين الملك إلى انقطاع لا يرجي له  
اتّصال، ما دام الملك ينرق في هواه، وما دامت هي  
تلوذ بصمت الكبرياء.

وساءها أن تعلم أنّ الملك يزهد في النظر في واجباته  
العليا، وأنّ الحبّ أنساه كلّ شيء حتّى تركّزت السلطة  
في يد سوفخاتب. ولم يكن يداخلها شكّ في إخلاص  
الوزير للعرش، ولكنّها غضبت من استهتار الملك  
وذهو له، وصدقت عزيمتها على العمل مهما كلفها  
الأمر، ولم تتردّد عن غايتها، فدعت يوماً سوفخاتب  
وطلبت إليه أن يرجع إليها في الشئون التي تحتاج إلى  
رأي الملك. وقد أرضت بذلك غضبها بعض الشيء،  
وأرضت معه الوزير وهي لا تدري، الذي تنفّس  
الصعداء، وأحسّ بأنّ حملاً ثقيلاً رفع عن صدره  
الضعيف.

وعلى أثر اتّصال الوزير بها، علمت بالالتباسات  
التي بعثت بها الكهنة من جميع أنحاء الوادي، وقرأتها  
بصبر وجلّد، فقرأت الكلمة التي أجمع عليها رأي  
الصفوة من افاض المملكة، وأحسّت بالخطورة المسترة

فقال الوزير الحزين:  
- بتّ اعتقد أنّ جمال رادوبيس سحر ملعون.  
فحدّجه طاهو بنظرة قاسية وقال:  
- ألم تتلّ الرقية التي مكّنت لهذا السحر؟  
فأحسّ الرجل بلوم القائد وامتقع لونه، وقال  
بسرعة كأنّما يدفع تهمة:  
- لم تكن أوّل امرأة..  
- ولكنّها كانت رادوبيس!  
- رجوت لمولاي سعادة.  
- فقدّمت له سحرًا وأسفاه!  
- نعم أيّها القائد، إنّني أشعر بأنّي أخطأت خطأ بليغًا  
.. ولكن ينبغي عمل شيء.

فقال طاهو وكان لا يزال يحسّ بمرارة:  
- هذا واجبك يا صاحب القداسة.  
- إنّني أطلب مشورتك.  
- إنّ الإخلاص يبلغ غايته في النصيحة الصادقة.  
- إنّ فرعون لا يقبل أن يطرق إنسان بين يديه  
مسألة الكهنة.

- ألا تفضي برايك إلى جلالة الملكة ؟  
- هذا سبيل أودى بخنوم حتب إلى التعرّض إلى  
غضب جلالة الملك.  
فلم يجذّ طاهو ما يقوله، وخطر لسوفخاتب خاطر  
فقال بصوت خافت:  
- ألا يمكن أن ترجى فائدة من تدبير اجتماع بينك  
وبين رادوبيس ؟

فسرت القشعريرة إلى جسده مرّة أخرى، وانخلع  
قلبه في صدره، وكادت العواطف التي يبالغ في كتبائها  
تنفجر، وقال لنفسه: إنّ الشيخ لا يدري ماذا يقول،  
ويظنّ أنّ مولاه هو المسحور وحده.. ثمّ قال له:  
- لماذا لا تجتمع بها أنت ؟

فقال سوفخاتب:  
- لعلّك أقدر منّي على التفاهم معها.  
فقال طاهو ببرود:  
- أخشى أن تجحد عليّ رادوبيس، وتسيء بي الظنّ

فلو سَدَّت هذه الفوهة التي تبتلع أموال الملك، لربّما هان عليه أن يفكر في ردّ أراضي المعابد إلى الكهنة. ولم تكن تطمح في صرف الملك عن غانية بيعة، ولا فُكِّرت في ذلك، ولكنّها كانت ترجو لإسرافه حدًّا. وتنهَّدت عند ذلك وقالت لنفسها: الآن وضح غرضي، فينبغي أن نجد وسيلة لإقناع الملك، بالتحوّل عن الإسراف الشديد، ثمّ نقنعه بعد ذلك بردّ الأراضي إلى أصحابها، ولكن كيف نقنع الملك؟.. لقد أسقطته من حسابها. ولكنّها تجده وراء كلّ حساب.. لقد فشلت في إقناعه، ولن يكون سوفخاتب ولا طاهو بأسعد منها حظًّا، فالملك يحكمه الهوى ولا سبيل إليه، وقد أفلت منها هذا السؤال: «من القادر على إقناع الملك؟» فسرت في جسدها قشعريرة أليمة، إذ حضرها الجواب سريعًا، ولكنّه كان مروّعًا أليًّا، ولم تكن تحمله. ولكنّه كان من الحقائق التي يتجدّد الألم بها كلّما عاودتها الذاكرة، فقد قضت الأقدار أن يكون هذا الإنسان المتحكّم في الملك، المسير له، غريمها راقصة بيعة، التي حكمت عليها بالعزلة إلى الأبد.. هذه هي الحقيقة المؤلمة التي تسام التسليم بها كما يسلم الإنسان بحقائق الموت والشيخوخة والمرض العضال..

وكانت الملكة امرأة حزينة، ولكنّها كانت ملكة عظيمة بعيدة الآفاق. وكانت تتناسى أنّها امرأة، وإن لم تستطع أن تنسى ذلك، فظلّ قلبها يحوم حول زوجها الملك، والمرأة التي خطفتها من بين يديها. ولكنّها لم تتناس قطّ أنّها الملكة، ولم تغفل لحظة عن واجباتها، وصدقت عزيمتها على إنقاذ العرش والاحتفاظ به في مرتقاه فوق منال الهمس والتذمّر، ترى هل انتهت إلى هذا العزم بدافع واجبها فحسب..؟ أم كانت هنالك دوافع أخرى؟.. إنّ أفكارنا مسوقة دائميًا للطواف بمن نحبّ ومن نكره، فنجذب إليهم بقوة خفية كما تجذب الفراشة إلى نور المصباح. ولقد أحسّت من بادئ الأمر برغبة في رؤية رادوبيس التي ترامت إليها أخبارها، ولكن ما معنى هذا؟.. أتذهب إليها لتحديثها في شئون مصر؟. أتذهب الملكة نيتوقريس إلى الراقصة التي

خلف أسطرها المتزّنة الحازمة.. وتساءلت في حيرة وألم، ما عسى أن يكون الحال لو أيقن الكهنة أنّ فرعون يضرب برجواتهم عرض الحائط؟.. فالكهنة قوة عظيمة، وهم يتسلّطون على عقول الشعب وقلوبه، وهو يستمع إليهم في المعابد والمدارس والجامعات، ويطمئنّ إلى أخلاقهم وتعاليمهم إطمئنانه إلى مثله العليا.. فكيف تطرد الأمور إذا يش هؤلاء القوم من عطف فرعون؟.. وقنطوا من إصلاح الأمور التي لم يروها قطّ تسير في طريقها التي تسير فيه في أيّ عهد من العهود المجيدة الفخور التي طواها الماضي الخالد؟.

وما من شكّ في أنّ الأمور تتعقّد تعقّدًا خطيرًا، ويندفع نهر الشقاق، فيفترق بين الملك النائم الحالم بجزيرة بيعة، وبين شعبه المخلص الأمين، ويقف سوفخاتب منه موقف الحائر لا يغني عنه إخلاصه ولا حكمته شيئًا..

وأحسّت الملكة بأنّه ينبغي عمل شيء، وأنّ ترك الأمور تسير إلى غايتها ينذر بمناعب، فينبغي أن تمحو عن وجه مصر الهادئ الجميل التقلّص الذي يعتوره، وأن تعيد إليه هدوءه وجماله.. فما عسى أن تصنع؟.. كانت بالأمس ترجو أن تفوز بإقناع زوجها بالحقّ، ولكنّها اليوم لا يعاودها إليه أمل، ولم تنس بعد ما وُجّه إلى كبريائها من طعنة نجلاء، فنقضت على الأثر منه يديها يائسة حزينة. وفشتت عن سبيل جديد تصل منه إلى غرضها. لكن ما غرضها؟.. لقد فُكِّرت في ذلك مليًّا، ثمّ قالت لنفسها: «غاية ما أمل أن أفوز به، أن يرّد فرعون إلى الكهنة الأراضي التي انتزعها منهم..» ولكن ما السبيل إلى ذلك؟.. إنّ الملك غضوب ذو كبرياء عنيف، ولا يمكن أن يتقهقر أمام إنسان، ولقد أمر بنزع الأراضي في ساعة غضب خطير، ولكن ما من شكّ في أنّ أشياء غير الغضب تدعوه إلى الاحتفاظ بالأراضي في حوزته، ومن يعرف قصر بيعة وما يتفق الملك عليه من ذهب يدرك ماهيّة هذه الأشياء، لقد سمّوه بحقّ قصر بيعة الذهبي، لكثرة ما به من التحف الذهبية والأثاث المصنوع من خالص الذهب،

رادوبيس. كانت رادوبيس بغير ريب. وقد أحسّت بلذعة ألم ويأس، ونسيت لحظة هومها وما جاءت من أجله أمام الحسن المملوك. وبغت رادوبيس نفسها أمام جمال الملكة الرزين وجلالها المجيد.

وسلّمتا باليد وجلست رادوبيس إلى جانب ضيفتها الجليلة المجهولة، ولما وجدت تلوذ بالصمت قالت بصوتها الموسيقي:

- نزلت قصر ك.

فردّت الضيفة بصوت بالغ في جلاله قائلة باقتضاب:

- شكرًا.

فابتسمت الغانية وقالت:

- ليت ضيفتنا تؤذنا بشخصها الجليل.

وكان السؤال طبعياً ولكنّ الملكة ضاقت به كأنّها لم تكن تتوقّعه. ولم تجد بداً من إعلان نفسها، وقالت بهدوء:

- أنا الملكة.

ونظرت إلى المرأة لترى تأثير تصريحها في نفسها، فشاهدت ابتسامة تغيض، وعينها تلمعان دهشة، وصدرها يمتلئ ويتصلّب كالأفعى إذا هوجمت. ولم تكن الملكة هادئة كما تبدو، فقد تغيّر قلبها لدى رؤية غريميتها، وأحسّت بدمائها تلتهب وتحرق عروقها جميعاً، وشعرت بالكراهية والبغضاء، وتواجهتا كغريمتين تتحفزان للقتال. واستولت عليها حالة مريرة ملوّنة بالغضب والحقد. ونسيت الملكة إلى حين كلّ شيء إلا أنّها بإزاء المرأة التي سلبتها سعادتها، ونسيت رادوبيس كلّ شيء إلا أنّها أمام المرأة التي تقاسم حبيبها اسمه وعرشه.

وتبادل الحديث بينهما بادئ الأمر في ذلك الجو المشبع بالغضب والحقد فجري مجرى عنيفاً محزناً، وكانت الملكة مستاءة لعدم اكتراث غريميتها، فقالت باستياء:

- ألا تدرين أنّها السيّدة كيف تحيّن الملكة؟..

فجمدت رادوبيس في مكانها ولفحت قلبها هبة من انفعال شديد، وكادت تنفجر لتنفس عن صدرها

تعرض نفسها في سوق الهوى، وتخطبها باسم حبّها المزعوم للملك، أن تردّه عن الإسراف وتعيده إلى واجبه؟.. يا لها من صورة بشعة!..

وكانت الملكة ضاقت بانزواتها، وضغطت عليها عواطفها الخفية وواجبها المبين، لتخرج من صمتها وسجنها الطويل. فلم تعد تستطيع صبراً، وأقنعت نفسها بأنّ واجبها يدعوها إلى عمل شيء ما، وإلى بذل محاولة أخرى. وتساءلت في حيرتها: «أأذهب حقاً إلى هذه المرأة، وألفتها إلى واجبها، وأطلب إليها أن تنقذ الملك من الهاوية التي يندفع إليها..» وأسلمها تساؤلها هذا إلى حيرة طويلة، وارتابك محزن، هوى بها إلى الهوس والهذيان، ولكنّها لم ترجع عن فكرتها. وما كانت تزداد إلا تصميمًا، كانت كسّيل يندفع في منحدر لا يستطيع عنه حولاً. ولكنّه يندفع مضطرباً مزبداً كاسراً.. فقالت في نهاية المعركة الناشبة: «سأذهب...».

\*\*\*

وفي صباح اليوم الثاني لبثت تنتظر عودة الملك. واستقبلت الضحى في سفينة ملكيّة، أبحرت بها قاصدة إلى قصر بيعة، الأبيض الذهبي. وكانت تشملها حالة ذهول محزن، ولم تكن ارتدت ثوباً ملكياً، فأحسّت لذلك بسخط واستياء، ورست السفينة على سلّم القصر، فهبطت إليه واستقبلها عبد من الرقيق، فقالت له: إنّها زائرة تطلب مقابلة ربّة القصر، فتقدّمها إلى هو الاستقبال، وكان الجو بارداً، وريح الشتاء ترسل هبات قارسة خلل أغصان تعرّت كأذرع مخنّطة. وجلست في البهو تنظر وحدها. وكانت تشعر بغربة وحيرة، وتحاول تعزية نفسها بقولها إنّهُ يصحّ أن تحفض الملكة من كبرياتها في سبيل واجبها الأسمى، ولكنّها أحسّت بالانتظار يطول وتساءلت قلقة: «هل تدعها تنتظر طويلاً كما تفعل مع الرجال». ولحقها جزع مؤلم، وندمت على تسرّعها بالحضور إلى قصر غريميتها.

وفاتت دقائق قبلما سمعت خفيف ثوب، فرفعت رأسها المثقل، فوقعت عيناها لأوّل مرّة على وجه

وأمانت عواطفها جيئًا، ودفتتها في أعماق نفسها،  
وارتدّت سريعًا إلى طبيعتها المتعالية، وجرى في عروقه  
مكان الغضب والحقد دم أزرق لا يدين بغير الكبرياء.  
فذكرت الغرض الذي جاءت من أجله، وصدقت  
عزميتها على أن تكفر عما بدر منها.  
وطالعت المرأة بوجه هادئ ظاهرًا وباطنًا، وقالت  
لها:

- أيتها السيّدة، إنك لم تحسني لقاء الملكة، ولعلك  
أسأت فهم الغرض من زيارتي فثرت وغضبت، ولكن  
اعلمي علم اليقين أنني ما قصدت إلى قصرك لشأن  
يخصني أنا..  
فسكنت رادوييس وحدجتها بنظرة مليئة بالارتباب.  
ولم يسكت عنها الحقد أو الغضب. وتناست  
الملكة، وقالت في هدوء:  
- لقد جئتك أيتها السيّدة من أجل أمور أجل،  
أمور تتعلق بالعرش المجيد، والسلام الذي ينبغي أن  
يسود العلاقات بين صاحب العرش ورعاياه.

فقال رادوييس بانفعال وسخرية:  
- يا للأمور الجلييلة! وماذا أستطيع حيالها يا  
مولاتي؟.. ما أنا إلا امرأة يلدّ الحب أن يجعلها شغلة  
الشاغل..

فتنهّدت الملكة، وأغضت عن لهجتها، وقالت:  
- أنت تنظرين إلى أسفل، وأنا أنظر إلى أعلى..  
لقد حسبت أنك تغارين على مجد مولاك وسعاداته،  
وإذا صدق حسابي، فينبغي أن تهديه سواء السبيل.  
إنه يفني في قصرك تلالاً من الذهب، وينزع من  
صفوة رجاله أراضيمهم حتى ضجّ الناس بالآلم، وجأروا  
بالشكوى، وقالوا إن مولانا يخل علينا بما يبعثه على  
امرأة يحبها بغير حساب. فواجبك إن كنت تغارين على  
مجده حقًا، بيّن كالشمس في يوم صافٍ.. أن تصديه  
عن الإسراف، وتقنعيه بردّ المال إلى أصحابه..

ولكن رادوييس لم يدعها الغضب تفهم ما تقوله  
الملكة حقّ الفهم، وكان وجدانها شائرًا وحقدًا  
شديدًا، فقالت بقسوة:

الكظيم، ولكنّها ملكة أعصابها، وكانت تعرف طريقة  
أخرى للانتقام فرسمت ابتسامة على وجهها وأحنت  
رأسها وهي جالسة، وقد أسندت رأسها إلى المقعد في  
تراخ واستهانة، وقالت بلهجة لم تخل من سخرية:  
- إنه ليوم عظيم يا صاحبة الجلالة سيذكر لقصري  
في التاريخ..

والتهب وجه الملكة غضبًا، فقالت بانفعال:  
- لم تعدّي الحقيقة، فيذكر قصرك هذه المرة ذكرًا  
جيدًا لا كما تعود أن يذكره الناس.  
فنظرت إليها بسخرية تستر غيظًا وحنقًا، وقالت:  
- ألا سحقًا للناس.. أذكرون بالسوء قصرًا يجعله  
مولاهم مرتعًا لقلبه وهواه!!..  
وتلقت الملكة هذه الطعنة بجلد، ونظرت إلى  
الغانية نظرة ذات معنى، وقالت:  
- ليست الملكات كغيرهنّ من النساء يشغلن قلوبهنّ  
بالحب..  
- أحقًا يا مولاتي.. كنت أحسب الملكة امرأة بعد  
كلّ شيء..

فقال الملكة بلهجة مغيظة:  
- هذا لأنك لم تكوني ملكة في يوم من الأيام..  
فامتلاً صدر المرأة وتصلّب، وقالت:  
- عفواً يا مولاتي، إني ملكة حقًا.  
فحدجتها بنظرة غريبة، وقالت بسخرية:  
- يا للعجب، وعلى أيّ مملكة..!  
فقال بزهو كبير:  
- على أوسع الممالك طرًا.. قلب فرعون..

وأحست الملكة بوهن وآلم، وخجل، وأيقنت أنّها  
انحدرت إلى مساجلة الراقصة في القتال، وأنّها خلعت  
ثوب الجلال والوقار، وتبدّت عارية في جلد المرأة  
الغيور التي تنافح لاسترداد رجلها، وتمسك بتلابيب  
غريميتها وتكيد لها كيدًا. ونظرت لموقفها وموقف  
غريميتها، وهي تجلس منها جلسة متعجرفة، وتردّ  
سهمها إلى نحرها، وتتيه عليها بحبّ زوجها  
وسلطانه، فشعرت بغرابة وذ هول وحيرة، وتمتّت لو  
تكون في حلم ثقيل سخيف.



بأضلعتها تحنو على حبيبها وتدّر عطفًا وحبًا، وذكرت في غمرات حزنها الطارئ ما قال آني يومًا من أنّ الحرس الفرعونيّ هو القوّة الوحيدة التي يعتدّ بها الملك، فتساءلت في هلع: لماذا لا تجنّد الجنود؟ لماذا لا يعيّن معبودها جيشًا عرمرمًا؟..

وقضت سحابة نهارها في غدعها كثية، ولم تذهب كعادتها إلى الحجرة الصقيّة لتجلس أمام المثلث بنامون، لأنها لم تكن تطيق الاجتماع بإنسان. ولا القعود بلا حراك أمام عيني الشابّ المهومتين.. فلبثت وحدها حتّى الأصيل، ولم تذق للراحة طعمًا حتّى رأت حبيبها المعبود يلج باب غدعها، يرفل في ثيابه الفضفاضة فتنهّدت من أعياق قلبها، وفتحت له ذراعيها وضّمتها إلى صدره العريض كما يفعل كلّ مرّة، وطبع على وجهها قبلة اللقاء السعيد، ثمّ جلس إلى جانبها على الديوان الوثير، وكانت نفسه تفيض بذكريات جميلة أثارها في قلبه مشهد النيل الذي حمل سفينته منذ حين قليل، فقال لها:

- أين الصيف الجميل؟.. أين لياليه الساحرة، إذ تشقّ بنا السفينة جبهته المتجمّدة الدكناء، وإذ نسلم في المقصورة أنفسنا للنسيم والهوى، ونستمع لعزف العازفات. ونشاهد بأعين حاملة رقص الراقصات؟ ولم تكن تستطيع أن تجاريه في تذكّره، ولكنّها لم ترض أن يحسّ بالعزلة في عاطفة أو فكر، فقالت:

- مهلاً يا حبيبي، ليس الجمال في الصيف ولا في الشتاء، ولكنّه في حبّنا، وستجد الشتاء دفئًا حنونًا ما دام وقوده.

فضحك ضحكته العظيمة التي يضطرب لها وجهه وجسمه، وقال:

- ما أجمل حديثك.. إنّه أشهى إلى قلبي من مجد الدنيا جميعًا.. ولكن ماذا تقولين في الصيد والقنص؟.. سنذهب مع الغد إلى سفح الجبل، ونعدو في أعقاب الغزلان، ونلهو حتّى نشبع نفوسنا المنهومة..

فقالت وقد غلبها الشroud:

- لكن مشيتك يا حبيبي..

- إنّ الذي يحزنك حقًا هو أنّك ترين الذهب يتحوّل مع عطف فرعون إلى قصري.

فانفضّ جسمها، وسرت فيه قشعريرة، وصاحت بها:

- يا للبشاعة..

فقالت رادوبيس بغضب وخيلاء:

- لن يفرّق شيء بيني وبين مولاي.

فغلب الصمت لسان الملكة، وأحسّت بيأس شديد وجرح عميق في كبريائها، ولم تطمع في فائدة من الانتظار، فقامت واقفة وولّت المرأة ظهرها، وسارت في طريقها متألمة حزينة غاضبة، لا تكاد ترى طريقها من شدّة الغضب.

وصعدت رادوبيس أنفاسًا مضطربة، وأسندت رأسها الساخن إلى كفّها، وراحت في تفكير قلق حزين..

## قَبَسٌ مِنْ نُور

وتنهّدت رادوبيس من قلب مقروح، وقالت لنفسها: «وأسفاه إنّي أتنامى العالم، ولكنّه يأبى أن ينساني أو أن يدعني في طمأنينة بعد أن تطهّرت من الماضي وأوشابه.. ربّاه.. أحقًا أنّ الكهنة يتهمون قصرها بابتلاع أموالهم المغتصبة.. أحقًا أنّهم يسلقون حبّها بالسنة من لهب؟. لقد انكمشت في قصرها راضية، وانقطعت صلاتها بالناس جميعًا. وغاب عنها وجه الدنيا، فلم يدّر لها بحسبان أن يجري اسمها بالسخط على السنة قوم أشدّاء، وأن يتخلّوا منها سلّمًا يرتقون عليه إلى لمز حبيبها المعبود، وهي ما تظنّ أنّ الملكة تبالغ، وإن تنوّعت الدوافع التي تسوقها إلى الكلام، فقد ترامى إليها في زمن مضى أنّ الكهنة يشفقون من استرداد فرعون لأراضيهم، وقد سمعت بأذنيها في عيد النيل قومًا من أولئك المشفقين يبتغون باسم خنوم حتب. فلا شكّ أنّ وراء العالم الهادئ الجميل الذي تعيش فيه عالمًا صاخبًا تغلي أراحله بالأحزان والأحقاد.. وتكذّرت نفسها بعد صفاء دام أشهرًا طويلاً لم تذق مثلها في حياتها جميعًا، وأحسّت

فأحاطت يده بكفّهما، وضغطت عليها بحنوّ، ونظرت إليه بعينين ضارعتين، وقالت:  
- أنا قلقة حزينة، ويؤلمني أن أكون سبباً لشكوى قوم منك.. وكأني أحسّ بخوف غامض لا أدري ما كنهه.. والمحّب يا مولاي شديد المخاوف.  
فقال باستياء وغضب:  
- كيف تخافين، وأنت بين يدي؟  
فقالت بتوسّل:

- مولاي.. إنهم يرمقون حثبنا بعين الحسد، وينفسون على هذا القصر والحبّ والطمانينة والنعيم، ولقد قلت لنفسي في حزني وقلقي: ما للحبّ وهذا الذهب الذي ينثره مولاي عليّ؟ ولا أنكر عليك أيّ كرهت الذهب الذي يؤلّب قوماً علينا. ألا ترى أنّ هذا القصر سيظلّ جثتنا ولو تعرّث أرضه ومسخت حوائطه؟.. إذا كان بريق الذهب يا مولاي يخطف أبصارهم فاملاً به أيديهم يعموا ويزدردوا الستهم..  
- وأسفاه يا رادوييس، إنك تذكريني بحديث أكره سماعه.

فقالت بتوسّل:  
- مولاي إنّه غشاوة في سماء سعادتنا، فامحها بكلمة..  
- وما الكلمة هذه؟

فقالت بفرح، وقد ظنّت أنّه يلين ويرضخ:  
- أن تردّ إليهم أراضيتهم.  
فهزّ رأسه بعنف، وقال بلهجة شديدة:  
- أنت لا تدرين من الأمر شيئاً يا رادوييس، لقد قلت كلمتي فلم تحترمي، ونفّذت على كره، ولم يسكتوا عن الاحتجاج، وما انفكوا يتحدّونني، فالتسليم لهم هزيمة لا أرضاها، وأتمنّى دونها الموت، أنت لا تدرين معنى الهزيمة في نفسي، إنّه الموت، ولو فازوا عليّ بنيل بغيتهم لوجدتني رجلاً غريباً حزيناً أسيفاً لا قدرة له على الحياة ولا الحبّ.

ونفذت كلماته إلى قلبها، فشددت على يديه بقوة، وأحسّت برجفة تسرى في أوصالها. وقد هان عليها كلّ شيء، إلا أن يصبح لا قدرة له على الحياة والحبّ.

فحدجها بنظرة فاحصة، وأدرك لتوّه أنّ لسانها يجادته وقلبها يتيه بعيداً، فقال:  
- رادوييس.. أقسم لك بالنسر الذي ألف بين قلبينا أنّ فكرًا يسلبني اليوم عقلك..  
فنظرت إليه بعينين حزيتين وأعيها القول، فقال وقد بدا عليه الاهتمام:  
- صدق حدسي فعينك لا تكذبانني، ولكن ماذا تمسكين عني؟

فتنهّدت من أعماق قلبها، وعبّثت يناها بعباءته وهي لا تدري، ثمّ قالت بصوت خافت:  
- إنّي أعجب لحياتنا، فلشدّ ما ننسى ما حولنا كأننا نعيش في عالم قفر غير معمور.  
- نغمّ ما نصنع يا حبيبتي، فماذا أفدنا من العالم غير الضجيج الفارغ والمجد الكاذب، وليتنا ضالّين حتّى هدانا الحبّ، فإلك تتذمّرين؟  
فتنهّدت مرّة أخرى وقالت بحزن:  
- ماذا ينفعنا النوم إذا كان من حولنا أيقاظاً لا يغمض لهم جفن؟

وقطبّ جبينه، والتمعت عيناه بنور خاطف، وأدرك بقلبه وسواسها، فسألها بقلق:  
- ما الذي يحزنك يا رادوييس؟.. صارحيني بأفكارك. فحسبنا ما أضعنا في غير حديث الحبّ.  
فقالت:

- لست اليوم كأمس، فقد نقل إليّ بعض عبيدي الذين يمشون في الأسواق حديث قوم غاضبين يحزّ في نفوسهم أنّ مولاهم حرّمهم من أراضيتهم، ويضاعف من آلامهم أنّ أموالهم تنفق على قصري هذا..

فتبدّى الغضب على وجه فرعون، ولاح له شبح خنوم حثب يطلّ على جثته المطمئنة، فيكدر صفوها، ويزعج أمنها. واشتدّ به الغضب فصيح وجهه بلون النيل في إبان فيضانه، وقال لها بصوت متهدّج:

- أهذا الذي يحزنك يا رادوييس؟.. الويل لأولئك المتمرّدين لا يمسكون عن غيهم؛ ولكن لا تكذّري صفونا. ولا تبالي بباكيهم.. دعيمهم لشأنهم، وافرغي لي..

- إنهم يضلّون الأفكار، ويشعرون بغضبي عليهم. فإذا أمرت بالتجنيد لحقهم الذعر. وربما هبوا يائسين للدفاع عن أنفسهم..  
ففكرت ملياً، ثم قالت بصوت حالم، وكأنها تحدث نفسها:

- اخلق العلل واذع الجنود.

- إن العلل تخلق نفسها بنفسها.

فأحسّت بياس، وأحنت رأسها الحزين، وأغمضت عينيها. ولم تكن ترجو أملاً، ولكن لاح لها في الظلام الدامس خاطر سعيد كلمح البصر، فبهتت وذهلت، وفتحت عينيها، فإذا الفرح يتألق فيهما. ودهش الملك، ولكنّها لم تُبالِه، وقالت وهي لا تملك عواطفها:

- وجدت سيّئاً!

فنظر إليها متسائلاً، فاستطردت:

- قبائل المعصايو.

فأدرك قصدها، وهزّ رأسه يائساً، وتمتم قائلاً:

- لقد عقد رئيسهم معنا معاهدة سلام.

ولكنّها لم تياس، وقالت:

- من يدري بما يجري وراء الحدود؟ إنّ لنا هنالك أميراً حاكماً من رجالنا. فلنبعث إليه برسالة سرّية مع رسول أمين يزعم وجود ثورة وقتال، ويرسل في طلب النجدة، فسمع صوته المأل، وتدعو الجنود فتأتيك من الشمال والجنوب، حتّى إذا اجتمع لواؤها إليك، وصلت بها جناحك، وأشهرتها سيفاً في يدك تعلي به كلمتك وتفرض طاعتك.

واستمع لها فرعون في ذهول ودهشة، وقد عجب أيضاً لأنّها لم تخطر له ببال. على أنّه لم يكن يفكر كثيراً في تكوين جيش قويّ لا تدعو إليه الحالة الحربيّة، واعتقد - وما زال يعتقد - أنّ تدمير الكهنة لا يمكن أن يبلغ من الخطورة حدّاً يستدعي معه جيشاً كبيراً لقمعه. ولكنّه بات يعتقد أنّ عدم وجود هذا الجيش هو ما يطمع القوم فيه ويغريهم برفع الانتهاسات وإعلان الشكوى، ووجد فكرة رادوبيس السهلة فرصة سعيدة، ومال إليها بجامع قلبه. وكان إذا مال إلى

ونبذت رغبتها، وأسفت على توسّلاتها، وصاحت بصوت متهدّج:

لن تذلّ أبداً.. لن تذلّ أبداً.

فابتسم إليها بحنوّ، وقال:

- نعم لن أزلّ.. ولن تكوني القضاء الذي يسومني الذلّ أبداً..

فقال وهي تلهث، وقد ارتعش جفناها فوق دمعة حارة:

- لن تذلّ.. ولن تهزم.

وأسندت رأسها إلى صدره، واستنامت إلى خفقان قلبه. وأحسّت في غيوبيتها بأنامله تعبت بخصلات شعرها وخديها، ولكنّها لم تطمئنّ طويلاً، فقد ازعجها خاطر من الخواطر التي كدّرت يومها، فرفعت إليه رأسها، ونظرت إليه بعينين قلقتين، فقال لها:

- مالك؟

فألمت بعد تردّد:

- يقولون إنهم فئة قويّة، ذات سلطان على قلوب الناس وعقولهم.

فابتسم قائلاً:

- ولكنّي الأقوى..

فتردّدت هنيهة ثمّ قالت:

- لماذا لا تعيّن جيشاً قوياً يأمر بأمرك؟

فابتسم الملك، وسألها:

- أرى الوسواس تعاودك.

فتنهّدت في غيظ، وقالت:

- ألم يبلغ أذنيّ أنّ الناس همس فيما بينها بأنّ فرعون يأخذ أموال الآلهة وينفقها على راقصة؟ همس الناس إذا تجمّع صار صراخاً.. إنّ كالشرّ يندلع لهيباً.

- يا لك من متطرّبة متشائمة..

فعادت تسأله بإلحاف:

- لماذا لا تدعو الجنود؟

فنظر إليها نظرة طويلة، وقد بدا عليه التفكير، ثمّ قال:

- إنّ الجنود لا تُدعى بغير سبب.

وبدا على وجهه الغضب، فاستدرك:

وقلب عذراء طاهرة، ويخلص لي إخلاصًا لا مزيد عليه. ومزيتة الظاهرة أنه لا يثير الشبهات ولا علم له بشيء، وأنه خير لنا أن يحمل رسالتنا من لا يدري بأمرها الشديد الخطر.. فلو جهلنا الخوف لاقترحمنا المهالك آمين.

فهزَّ الملك رأسه راضيًا. وكان يكره أن يقول لها لا. وظنَّت رادوبيس أنَّ السحابة انقشعت وإذا كان انقشاعها على وجه غير الوجه الذي قصدت إليه بادئ الأمر، ففرحت وأطلقت لفرحها العنان، وأيقنت أنها تستطيع عمًا قريب أن تذهل عن الدنيا في قصر الحبِّ هذا، تاركة أمر حمايتها لجيش عرمرم لا يهاض له جناح.

وأحنت رأسها بالأحلام، فراق الملك جمال شعرها، وكان يحبه، فعبث بأنامله في عقدته فانحلت وسال على كففيها، فتشققه وجمعه بين يديه، وغمر به رأسه ووجهه في دعابة حتى لم يبد منها شيء.

## الرَّسُول

وأشرق صباح اليوم الثاني، وكان الجو باردًا والسماء متلفعة بأودية السحب، تبيض وتوهج فوق منبع الشمس كوجه بريء يعلن ظاهره عن باطنه، وتظلم الآفاق البعيدة كأنها ذبول ليل نسيها وراءه بعد إداره..

وكان ينتظرها عمل عظيم لا يرتاح إليه قلبها، ولا يرضى عنه تطهرها يوم تطهرت في المعبد، وأقسمت ليزول الماضي بشوائبه. كان الذي ينتظرها أن تخدع بنامون، وتعبث بعواطفه ليخدم حبها ويحقق غرضها. على أنها لم تتردد قط لأنه كان ينبغي أن تسبق الزمن، وكانت تحنو على حبها حنوًا كبيرًا فلم تبال أن تقسو في سبيلها قساوة مرة.. وغادرت خدعها إلى الحجرة الصيفية عظيمة الثقة لأنَّ التفرير بنامون كان أمرًا سهلًا لا يكلف مكرًا..

وسارت على أطراف أصابعها، فوجدت الشاب

شيء تعلقه، وانشغل به واندفع في سبيله برغبة جنونية لا يلوي على شيء. لهذا نظر إلى عيني رادوبيس بفرح وابتهاج، وصاح بصوت قوي:

- نَعَمْ الفكرة يا رادوبيس! نَعَمْ الفكرة!

فقال بفرح غريب:

- هذا ما يحدثني به قلبي.. وإنَّها سهلة التحقيق سهولة تناولي هذه القبة من فيك الحبيب.. وما علينا إلاَّ الكتان.

- نَعَمْ يا حبيبي.. ألا ترين أنَّ عقلك كقلبك كثر ثمين؟. وحقًا ما علينا إلاَّ الكتان، واختيار رسول أمين، فدعي هذا لي.

سألته:

- من عسى أن يكون رسولك إلى الأمير كارفرو؟ فأجابها ببساطة:

- سأختار حاجبًا من رجالي المخلصين.

وكانت لا تطمئن إلى قصره العظيم، لغير ما سبب معقول، ولكن بدافع من نقور قلبها من مكان تقيم فيه الملكة. ولم تستطع قط أن تعبر عن هواجسها، وتحيرت فيمن عسى أن يكون الرسول إذا لم يكن من رجال القصر.. وزاد من حيرتها أنها أدركت أنَّ افتضاح السرِّ معناه شديد الخطر، حتى ليكبر ذكره على الخاطر. وهمت في لحظة يأس بالعدول عن مشروع حرج شديد الخطورة كهذا، ولكنَّها ذكرت بغتة الشابَّ الطفل ذا العينين الصافيتين الذي يعمل بالحجرة الصيفية، وأحسَّت إلى ذكره بطمأنينة غريبة، فهو الصفاء وهو السداجة والطهارة، وقلبه معبد تقدَّم لها فيه طقوس العبادة صباح مساء.. فهو رسوها.. وهو الأمين. ولم تتردد فقالت له بثقة:

- دعني أختار الرسول بنفسي.

فاستضحك الملك وقال:

- يا لك من رعديد اليوم.. لست كعهدي بك..

ومن عسى أن تختاري يا ترى؟.

فقال بخشوع:

- مولاي.. المحبِّ شديد المخاوف، ورسولي فتان يزخر الحجرة الصيفية، له سنَّ الشباب ونفس طفل

أَنْ قلبي لا يشعر كهذا الحجر، أليس كذلك؟ لا تهم بالفرار فهذا هو اعتقادك. ولكن لماذا يا بنامون؟

ولم يدر ما يقول، فغلبه الصمت، وكانت توجي إليه بأفكارها، فيصدقها وينساق إليها ويشتد ارتبائه، واستدركت المرأة:

لماذا يا بنامون تحسبني قاسية؟. إنك تؤمن بالظواهر، لأنك لا تقدر بطبعك على إخفاء ما يضطرب به صدرك، وقد قرأت وجهك كصفحة من كتاب مفتوح. أما نحن فلنا طبيعة أخرى، والصرخة تضيّع علينا لذّة الفوز، وتفسد أجل ما خلقت الآلهة لنا.

وساءل الشاب نفسه حائرًا: ماذا تعني يا ترى، وهل يستطيع أن يفهم من حديثها ما تدلّ عليه كلماتها. أما كانت تجلس أمامه نائبة القلب والعينين، لا تحسّ بالنار الملتهبة في كيانه، فما الذي غيّرهما؟ لماذا تحدّثه هذا الحديث الخلو؟ لماذا تلج إلى الأسرار الحلوة التي تحرق قلبه؟! هل تعني حقًا ما تقول! وهل تعني حقًا ما أفهمه؟!

وخطت المرأة خطوة أخرى فقالت:

- آه يا بنامون إنك تقسو عليّ بدورك، وآية ذلك الصمت الذي تردّ به عليّ.

فحدجها بنظرة والهة، وكاد من الفرح تفرّ الدموع من عينيه، وقد أيقن صدق ظنونه، فقال بصوت متهدّج:

- الدنيا لا تسعني كلامًا.

فتنهّد ارتياحًا أن حلّت عقدة لسانه، وقالت بصوت حالم:

- وما حاجتك إلى الكلام؟. فلن تقول شيئًا أجهله. آتيتها الحجرة لقد شاهدتنا أشهرًا، وتركتنا في جسمك أثرًا من قلوبنا خالداً. نعم ها هنا عرفت سرّاً رهيّباً.

وتفرّست في وجهه زمناً قصيراً، ثم قالت:

- ألا تعرف يا بنامون كيف عرفت سرّ قلبي؟. على حين بغتة عجيبة كانت لديّ رسالة خاصّة أريد أن أبعث بها إلى إنسان في مكان قصي، وأن أبعث بها مع

يتطلّع إلى صورتها، ويترنّم مغنّيًا أغنية كانت تغنيها في الأماسي الخوالي مطلعها:

إذا كان حسنك بصنع المعجزات  
فلماذا لا يقدر على شفائي  
وأخذت بغنائه، ولكنها انتهزت الفرصة، وغنّت تنمّ أغنيته:

هل أعبت بما لا علم لي به  
والأفق مستر خلف محاب  
وعسى أن تكون المدّخر لقلبي  
فتحوّل الشاب إليها فرغًا مسحورًا، فتلقّته بضحكة عذبة، وقالت له:

- إنّ لك صوتًا عذبًا، فكيف أخفيته عني طوال هذه الأيام؟

فصاعد الدم إلى وجنتيه قانيًا، وارتجفت شفتاه ارتياكًا، وقابل تلفظها بدهشة.

وأدركت المرأة ما يدور بخلده، فقالت تستدرجه:

- أراك تلهو بالغناء، وترك العمل..

فبدا عليه الإنكار، وأشار إلى صورتها المحفورة. وتمتم: «انظري».

وكانت الصورة قد استوت وجهًا جميلًا لا تنقصه الحياة، فقالت بإعجاب:

- إنك لقادر يا بنامون.

فتنهّد الشاب ارتياحًا، وقال لها بامتنان:

- شكرًا لك يا سيّدي.

- فقالت تعطف الحديث إلى غايتها:

- ولكنك قسوت عليّ يا بنامون.

- أنا.. كيف يا مولاتي؟

فقالت:

- خلقت لي نظرة جيّارة، وأنا أشتهي أن أكون كالحيامة.

فلزّمه الصمت ولم يبن، ففسّرت صمته على هواها، وقالت:

- ألم أقل إنك تقسو عليّ.. فكيف تراني يا بنامون.. أجّارة قاسية جميلة كهذه الصورة؟ يا لها من صورة! إني أعجب كيف ينطق الحجر. ولكنك تحسب

- لن يشقَّ عليّ منه إلّا أني لا أراك كلّ صباح .  
- فليكن غيابًا إلى حين . سأعطيك رسالة تودعها صدرك، وتذهب إلى حاكم الجزيرة بكلمة مني، فيدلك على الطريق، ويدلّل لك الصعاب . وستسافر مع قافلة لا ينبغي لأحد منها أن يطلع على ما في صدرك حتّى تبلغ حاكم النوبة، فتسلمها له يدًا بيد، ثمّ تعود إليّ.

وأحسّ بنامون بسعادة جديدة يمازجها شعور بالنعوة والخيلاء، وكانت يدها على كُتب منه، فهو يفهم عليها ولثمها بشوق ووجد، ورأته يرتجف بقوة حين لمست شفتاه يدها .

وفي طريق العودة عاودها إحساس حزين، حتّى قالت لنفسها: أما كان أدنى إلى الرحمة أن أترك مولاي يختار رسوله، من أن أعيب بقلب هذا الشاب؟ . على أنّه كان سعيدًا، أسعدته كلمة كاذبة، بل كان في حالة يحسد عليها السعداء حقًا، وليس لها أن تحزن ما دام لا يعرف الحقيقة، حتّى تياأس من لياذها بالكذب!! .

## الرسالة

وفي مساء اليوم نفسه جاء فرعون يهرّ في يده رسالة مطوية، يشرق وجهه بنور السعادة، فحدهجتها بنظرة غريبة وتساءلت: ترى هل يُكتب لفكرتها بالنجاح والتوفيق، وتسير الأمور وفق أحلامها! ويسط الملك الرسالة، وقرأتها بعينين مبتهجتين، وكانت موجهة إلى الأمير كارفرو حاكم النوبة من ابن عمّه فرعون مصر . وقد صارحه فيها بمتاعبه، وبرغبته في تعبئة جيش جرّار دون أن يثير غواف الكهنة أو يوقظ حذرهم، وطلب إليه أن يبعث إلى مصر برسالة استغاثة مع رسول أمين ذي صفة رسمية، يطلب فيها نجدة سريعة للدفاع عن حدود الأملاك الجنوبية، ولقمع ثورة وهمية يزعم أنّ قبائل المعصايو أشعلت نيرانها، واجتاحت بها البلدان والقرى.

وطوتها رادوبيس مرّة أخرى، ثمّ قالت:  
- إنّ الرسول على أهبة الاستعداد.

رسول ترتاح إليه نفسي، ويثق فيه قلبي . وكنت جالسة وحدي استعرض أمام ناظري أقوامًا من الرجال والنساء، ومن العبيد والأحرار، وما أحسّ في كلّ مرّة إلّا بالجفاء والقلق . ثمّ لا أدري إلّا وخيالي يتسلّل إلى هذه الحجرة، ووجدتني فجأة أذكرك يا بنامون، فترتاح نفسي ويطمئن قلبي، بل أحسست بما هو أعمق من هذا، وهكذا عرفت سرّ قلبي .

فغمر الفرح وجه الشاب، وأحسّ بالسعادة إلى حدّ الدهول، فجثا على ركبتيه أمامها، وهتف من أعماق قلبه:

- مولاتي!

فوضعت كفّها على رأسه، وقالت بحنان:

- هكذا عرفت سرّ قلبي، وإني لأعجب كيف لم أعرف هذا منذ أجل طويل .

فقال بنامون، وكان يتيه في غمرات الدهول:

- مولاتي، أقسم لقد شهدني الليل وأنا ذوب عذاب، وهاك الصبح يلقيني نسمة من سعادة معطرة . لقد أخرجتني كلمة نطقت بها من الظلمات إلى النور، ونقلتني من دياجير اليأس إلى سحر السعادة . لقد أحببت نفسي بعد أن أشفيت على الفناء . . أنت سعادتي وحلمي وأمل.

وكانت تصغي إليه في صمت حزين، وقد شعرت بأنّه يصلي صلاة حارة، وأنّه يهيم في جهالة الأحلام الساذجة المقدسة، فوجت وعاودها شيء من الألم والندم . ولكنّها لم تستسلم طويلًا لعواطفها التي أثارها في قلبها بهيامه فقالت في دهاء:

- إني أعجب كيف لم أعرف قلبي منذ أجل طويل، بل إني أعجب للمصادفات التي توفّقني إلى سرّه إلّا حين حاجتي إلى إرسالك إلى مهمّة بعيدة، فكأنتها دلّتي عليك، وحرمتني منك في لحظة واحدة .

فقال الشاب بلهجة العبادة:

- سأفعل ما تريدون بروحي وقلبي .

فسالته بعد تردّد:

- وإن كان ما أريد سفرًا إلى بلد لا تبلغه إلّا بشقّ

الأنفس؟!

فقال الملك مبتسمًا:

- والرسل جاهزة.

وبدا على وجهها التأمل والأحلام، ثم سألت:

- ترى كيف يقابلون رسالة كارفرو؟

فقال الملك بلهجة اليقين:

- ستَهزُّ القلوب جميعًا، وقلوب الكهنة أنفسهم، وسوف يدعو الحكام إلى تجنيد الرجال من جميع أطراف البلاد، فلا يلبث الجيش الذي يناط به أملنا أن يأتينا بَعْدَهُ وعُدَّهُ.

واستخفَّها الفرح وسألته بلهفة:

- وهل نتظر طويلًا؟

- أماننا شهر انتظار يقطعه الرسول في الذهاب والإياب.

ففكرت هنيهةً، ثم عدت على أصابعها، وقالت:

- إذا صدق حدسك تصادف عودته عيد النيل.

فضحك الملك وقال:

هذا فال حسن يا رادوبيس، فعيد النيل هو عيد

حبنا، وسيكون عيد الفوز والطمأنينة.

وتفاءلت هي خيرًا وكانت تؤمن بأنه لا يمكن أن تفقد أملًا عزيزًا في ذاك اليوم الذي تعدّه بحق مولدًا لسعادتها وحبها. وأيقنت أن اقتران عودة الرسول به ليس محض مصادفة، ولكنه تدبير حكيم من يد آلهة تبارك حبها وتعطف على آمالها.

ورمقها الملك بنظرة إعجاب وإكبار، ثم قبل رأسها وقال:

- لله هذا الرأس الثمين.. لشد ما أعجب به سوفخاتب، ولشد ما أعجب بالفكرة التي أبدعها، فلم يملك نفسه أن قال لي: يا له من حل يسير لمشكل عسير، كأنه زهرة موفقة تخرج من ساق ملتوية، وأغصان شديدة التعقيد.

وكانت تظن أنه كتم الخبر ولم يبع لإنسان، حتى ذلك الوزير المخلص سوفخاتب، فسألته:

- هل علم الوزير بسرنا؟

فقال ببساطة:

- نعم: إن سوفخاتب وطاهو بمثابة عقلي وقلبي، فلا أكتهمها شيئًا.

ودوى اسم طاهو في أذنيها دويًا شديدًا، فتجهم وجهها، وبدا القلق في عينيها، وسألته:

- وهل علم به الآخر؟

فقال الملك ضاحكًا:

- لشد ما تحاذرين يا رادوبيس، ولكن اعلمي أنني لا آمن نفسي على شيء لا أمنها عليه.

فقالت:

- إن حذري يا مولاي لا يرتقي لإنسان تثق فيه هذه الثقة.

ولكنها ذكرت بالرغم منها طاهو في ساعة وداعه الأخير، ودوى في أذنيها صوته الأجش، وهو يهذر غاضبًا حانقًا يائسًا، وتساءلت ترى هل ما يزال يعلق بنفسه شيء؟

ولكن الوسواس لم تجد فرصة للعبث بقلبيها، لأنها كانت تنسى نفسها بين يدي حبيبها.

\*\*\*

وجاء في الصباح الرسول بنامون بن بسار متلفعًا بعباءته، غارقًا في القلنسوة حتى الأذنين، وكان خذاه متوردين، وعيناه لامعتين بنور فرح سيوي.. فسجد بين يديها في صمت وخشوع، وقبل حاشية ثوبها في عبادة، فداعبت رأسه بأناملها، وقالت له بحنو:

- لن أنسى يا بنامون أنك لأجلي هجرت الراحة والسكينة.

فرفع إليها وجهه الجميل البريء، وقال بصوت متهدج:

- في سبيلك يهون كل شاق، فلتعني الآلهة على تحمل ألم الفراق.

فقالت له مبتسمة:

- ستعود سعيدًا ناضرًا، وستنسى في أفراس المستقبل أحزان الماضي جميعًا.

فتنهد قائلاً:

- طوبى لمن يحمل في قلبه حليماً سعيداً يؤنس وحدته، ويرطب جفاف طريقه.  
فابتسمت له ابتسامة مشرقة، وأمسكت بيدها الرسالة المطوية وسلمتها إليه وقالت:  
- لا أوصيك بالخذل. أين تودعها؟  
فقال:

- على قلبي يا مولاي تحت منطقتي.

فسلمت إليه رسالة أخرى صغيرة، وهي تقول:

- هاك رسالة أخرى ادفع بها إلى الحاكم آني يهد لك السبيل، ويدلك على أول قافلة تقوم.

ثم حمّ الدواع، فازدرد ريقه واضطرب، وبدأ عليه الارتباك والهيام، فمدّت له يدها، فتردد لحظة، ثم وضعها بين يديه، وكفاه يرتعشان كأنما يلمس ناراً موقدة، ثم ضمّها إلى صدره حتى سرت إليها حرارته وخفقاته. ثم مضى راجعاً فغّيبه الباب، وقد شيعته بنظرة حائرة، ولسان يلهج بالدعاء الحار.

كيف لا، وقد ربط على قلبه أملاً تتعلق به حياتها.

## طاهو يهذي

وكان الانتظار مرّاً من أول عهدها به، لأنه كان لا يفتأ يهتف بها هاتف رجاء يقول بحسرة: ليت الملك لم يفش سرّ الرسالة لإنسان. كانت تمنّى هذا بحرقة لم يخفّف من لوعتها ما أبدى الملك من ثقة عظيمة برجليه المقربين. ولم تكن وسامها ربة صريحة، ولكنّ ثمة قلق دفعها إلى التساؤل: ترى ماذا يحدث لو سعى ساعٍ بفحوى الرسالة إلى رجال الكهنوت؟ هل يتردّدون في الدفاع عن أنفسهم إزاء هذا الشرّ المبيت. ربّاه. إنّ إفشاء سرّ الرسالة أمر خطير. لا يجرؤ على إدراك كنه خطورته عقل وطني. وأحسّت بقشعريرة تسري في جسمها الرقيق، وهزّت رأسها بعنف تطرد عن مخيلتها أوهام الوساسوس، وهمست لضميرها تسكته قائلة: إنّ كلّ شيء يسير وفق اللحظة التي رسمناها، وليس من داع إلى إثارة هذه المخاوف؛

وما هذه الأوهام المرتعة إلّا وساسوس قلب مغرم لا يهدأ ولا ينام.

على أنّها كانت لا تكاد تطمئنّ حتّى يحوم خيالها مرّة أخرى حول هاتيك المخاوف، وتخال أنّها ترى وجه طاهو الغاضب المتقلّص من الألم، وأنّها تسمع صوته الأجنّ ذا النبرات المتألّة المجروحة. وقد عانت من مخاوفها الآلام، ولكنّها لم تجسر على تفسيرها أو إزالة الغموض الذي يكتنفها.

ترى هل يحقّ لها أن تخشى طاهو أو أن تسيء به الظنّ؟. إنّ كلّ الدلائل تدلّ على أنّه نسي. ولكن هل كان بوسعه أن يفعل شيئاً وامتنع عنه طواعية؟. فما كان يستطيع أن يطرق بابها بعد أن أصبح حرماً محرّماً، وما كان بوسعه إلّا الإذعان والتسليم، ولا يعني هذا أنّه نسي أو برا.

ترى هل يبقى شيء من زوايا الماضي عالقاً بقلبه؟. إنّ طاهو جبار عنيد، وقد يستحيل الحبّ في قلبه حقّاً مورّياً، فيتحمّز عند سنوح الفرصة للانتقام. على أنّها لم تنس في أحزانها أن تنصف طاهو، وأن تذكر له إخلاصه وتفانيه في حبّ مولاه، وأنّه رجل الواجب الذي لا يجيد به عن سبيله نزوع ولا مطمع.

كان كلّ شيء يدعو إلى الطمأنينة، ولكنّ وساموسها لم تدعها في طمأنينتها قطّ، وكان الرسول برح قصرها منذ ساعات قلائل فقط، فكيف لها بالانتظار شهراً أو يزيداً؟. لقد لحقها الفزع، وخطر لها خاطر غريب أن تدعو طاهو إلى مقابلتها. وكان خاطراً لا يخطر لها على بالٍ قبل يوم، أمّا اليوم فقد وجدت به راحة وإليه رغبة. وكان يدفعها إليه ما يدفع الإنسان إلى احتضان خطر يتقيه ولا يجد سبيلاً إلى دفعه أو الإفلات منه، وفكرت في ذلك تفكيراً مضطرباً، وقالت لنفسها: فلأدعّه ولأحادثه لاستبطن ذاته، وعسى أن أفوز بدفع شرّه. إن كان هناك شرّ يدفع - فأنقذه من نفسه، وأنقذ مولاي من شرّه، وما لبثت رغبتي أن تحوّلت إلى عزيمة لا تقبل التردّد، فاستمسكت بها بكلّ ما أوتيت من قوّة وقلق. ودعت من فورها شيث وأمرتها



وتفكر الرجل لحظة، ثم تذكر فقال:  
- لعلك يا سيدي تعين الفكرة النيرة التي أوحى بها عقلك الراجح؟.

فهزت رأسها أن نعم، فاستطرد:  
- إنها فكرة رائعة، جديرة بذكائك اللامع.  
فقلت وهي لا تبدي السرور:  
- إن تحقيقها يكفل لمولانا القوة والسيادة، وللوطن السلام والطمأنينة.

فقال القائد:  
- هذا حق لا ريب فيه، وهو ما جعلنا نهمل لها ونكبر.

ف نظرت إليه نظرة عميقة وقالت:  
- سيأتي يوم قريب محتاج فكري إلى قوتك لتحقيقها، وتوجيهها بالنجاح والفوز.  
فأحنى الرجل رأسه وقال:  
- شكراً لك على ثقتك الغالية.

وصمتت المرأة قليلاً. كان طاهو وقوراً رزيناً جاداً، لا كما عهدته قديماً، ولم تكن تنتظر منه غير ذلك واستشعرت نحوه بطمأنينة وثقة. وكانت تلحّ عليها رغبة قوية في أن تفاعمه في الموضوع القديم، وأن تسأله العفو والنسيان، ولكن خانها البيان ولم تدبر ما تقول، وغلبتها الحيرة فأشفقت من الزلل، وتركت هذا الحديث كارهة حائرة، ورأت في اللحظة الأخيرة أن تعلن له عواطفها الطيبة بطريقة أخرى، فمدت له يدها وقالت وهي تبسم إليه:

- أيها القائد الجليل، إني أمد لك يد التقدير والصدقة.

فوضع الرجل يده الغليظة في يدها الرخصة الرقيقة، وبدا عليه التأثر فلم يجر جواباً، وانتهت عند ذلك المقابلة القصيرة الفاصلة.

وفي طريق العودة إلى السفينة تساءل عموماً: «لماذا دعنتي هذه المرأة؟». ترك العنان لعواطفه التي كبح جماحها في حضرتهما فاختل توازنه، وانكفأ لونه، وارتجفت أوصاله، ومضى يفقد عقله ورشده بسرعة فائقة. وضربت المجاديف جانب الماء وهو يترنح

بالذهاب إلى قصر القائد طاهو واستدعائه. وذهبت شيث وانتظرت هي في هو استقبلها على قلق؛ ولم يكن يداخلها ريب في تلبية لدعوتها. وذكرت في انتظارها: اضطرابها، وقرنت به ما كانت عليه من القوة والبرود في الأيام الخوالي. فأدركت أنها منذ الساعة التي نزل فيها الحب بقلبها، انقلبت امرأة ضعيفة قلقة، يطرد النوم عن عينيها وهم ساخر، أو قلق كاذب. وجاء طاهو كما توقعت، وكان مرتدياً لباسه الرسمي، فوجدت في ذلك معنى مطمئناً، فكأنه يقول لها إنه نسي رادوبيس غانية القصر الأبيض، وإنه يحظى الآن بمقابلة صديقة مولاه فرعون.

وأحنى القائد رأسه باحترام وإجلال، وقال بهدوء وبلا أدنى تأثر:

- أسعد الرب أيامك أيتها السيّدة الجليلة.  
فقال وهي تنفرس في وجهه:  
- وأيامك أيها القائد الجليل، وإني أشكرك على قبول دعوتي.

فقال طاهو وهو يحني رأسه:  
- إني رهن إشارتك يا سيدي.  
رأته كما كان قوياً متين الأسر، دموياً البشرة، ولكن لم يخف عن عينيها الفاحصتين أن ترى تغيراً طارئاً لا يمكن لغير عينيها أن تراه. وجدت حول وجهه هالة من ذبول أفقدت نظرة العينين بريقها، وأطفأت روحاً شاملاً كان يشع من وجه الرجل. وأشفقت من أن يكون ذلك بسبب ما حدث في تلك الليلة الغريبة التي فصلت بينهما منذ قريب من عام. وأسفاه كان طاهو كجوّ عاصف، فأمسى كجوّ راكد. وقالت له:  
- إني دعوتك أيها القائد لأهنتك على الثقة العظيمة التي يوليكن إياها الملك.

فبدت الغرابة على وجه القائد وقال:  
- شكراً لك يا سيدي، هذه نعمة قديمة منّت بها عليّ الأرباب.

فابتسمت ابتسامة متكلفة وقالت بهدوء:  
- ولأشكرك على ما أسديت إلى فكري من جميل الشناء.

كالتمل، كأنه عائد من معركة خاسرة أفقدته حكمته وشرفه. وخال النخيل المنطلق على الشاطئ يرقص رقصاً جنونياً، والجو يعفّر غبار ثائر خائق. وكان الدم يتدفق في عروقه ساخناً هائجاً مجنوناً مسموماً، ووجد إبريقاً من الخمر على خوان المقصورة، فصبّه في فمه حتى أتى عليه في استهتار جنوني، وارتمى على الديوان في حالة يأس قاتل.

وفي الحقيقة لم يكن نسيها، ولكنها كانت تكمن في سرداب خفي من نفسه ما فئى يسدّه بالعزاء والصبر وشعوره القويّ بالواجب، فلما وقع نظره عليها بعد غياب عام، انفجر المستودع المخفي في نفسه، وتساعد لهيبه حتى حرق روحه جميعاً، وأحسنّ بالعذاب والمهوان واليأس والكبرياء الذبيح، فذاق الهزيمة والعذاب مرتين في معركة واحدة منتهية. وأحسنّ بدوار في رأسه المختل، وجعل يحدث نفسه في غضب كاسر، إنه يعلم لماذا عنيت باستدعائه. دعت له لتستوثق من إخلاصه، ليطمئن قلبها على سيدها ومولاها الحبيب، وفي سبيل ذلك تكلفت مودته وتملقه، يا للغرابة إن رادوبيس العابثة القاسية تجذّ وتحنو وتتعلّم ما الحب وما مخاوفه وآلامه، وتشفق من خيانة طاهو، الذي كان يوماً يلتصق بنعلها كالتراب، ثم نفضته في حالة تقزّر وملل، الويل للسماء والأرض، والويل للعالم جميعاً. إنه يشعر باليأس الميت والغضب القاتل، ويغيط خائق يطحن نفسه الجبّارة. إنه يغضب غضباً جنونياً جارفاً، ويشعل دمه ناراً موقدة، يضغط على سمعه فلا يكاد يسمع شيئاً، ويغضب عينيه فيرى الدنيا شعلة حمراء.

وما إن رست السفينة إلى سلم القصر الفرعوني، حتى غادرها مسرعاً، وسار يترنّج في الحديقة لا يلتفت إلى تمحيّات الجنود، متّجهاً إلى حجرة قائد الحرس بالثكنات، وفي أثناء سيره اعترض طريقه رئيس الوزراء سوفخاتب. وكان عائدًا من جناح الملك. وقابله الوزير بابتسامة تحية، ولكنّه وقف حياله جامداً كأنه لا يعرفه. وعجب سوفخاتب لجموده، وقال له: - كيف حالك أيها القائد طاهو؟

فقال طاهو بسرعة غريبة: - أنا.. كأسد واقع في شرك.. أو كسلحفاة راقدة على ظهر فرن موقدة! فبدأ الإنكار على وجه سوفخاتب وقال: - ما هذا الكلام؟.. أيّ شبه بين الأسد والسلحفاة، أو بين الشراك والفرن؟ فقال طاهو في ذهوله:

- أما السلحفاة فتعمر طويلاً، وتتحرك في بطء وتواء بحمل ثقيل، وأما الأسد فينكمش ويزار ويثب في عنف فيقضي على فريسته.

فتفرّس الرجل في وجهه دهشاً وقال: - أغاضب أنت؟. لست كمهدي بك! - أنا غاضب.. كيف تنكرني أيها الجليل، أنا طاهو ربيب الحرب والقتال.. أه كيف يصبر العالم على هذا السلام الثقيل.. إن آلهة الموت عطشى ولا بدّ يوماً أن أروي غلتها.

فهزّ سوفخاتب رأسه متوقفاً أنه عرف ما هنالك، ثم قال: - آه.. الآن فهمت أيها القائد، إنها خمر مريوط المعنّة.

فقال طاهو بحدّة: - كلاً.. كلاً.. الحقّ أيّ شربت كأساً من الدم. ثم تبين أنه دم إنسان شرير، فسمّم دمي، وزاد الأمر خطورة أيّ صادفت في طريقي إلى هنا ربّ الخير نائماً في المرح، فأغمدت سيفي في قلبه.. هيا إلى القتال.. فالدم شراب الجنديّ الباسل.

فقال سوفخاتب ذاهلاً: - إنها الخمر ولا شك، ويحسن بك أن تعود إلى قصرك في الحال.

ولكنّ طاهو هزّ رأسه استهانة وقال: - الحذر الحذر أيها الرئيس، إليك والد المفسد، فهو السمّ بعينه، لقد انتهى صبر السلحفاة وسينقضّ الأسد.

قال ذلك ثم سار في طريقه لا يلوي على شيء، تاركاً سوفخاتب في ذهول وغرابة.

## فَترَةُ الانتظار

وكان القصر الفرعوني، وقصر بيحة، ودار الحكومة تنتظر أوبة الرسول بفارغ الصبر، ولكن في طمأنينة وثقة بالمستقبل، وكان كل يوم يدنو يديها من الفوز، ويدفئ صدرها بحرارة الأمل. وما كان لينقطع هذا الشعور الطيب الجميل، لولا أن وصلت إلى رئيس الوزراء رسالة خطيرة من رجال الكهنوت، وكان سوفخاتب يهمل أمثال هذه الرسالة، أو يقنع مضطراً بعرضها على الملكة، ولكنّه وجد فيها معنى جديداً خطيراً، لم يشأ أن يتحمل تبعه إخفاؤه عن مولاه، ولو لاقى في سبيل ذلك بعض غضبه، فقابل فرعون وتلا عليه الرسالة، وكانت التماساً خطيراً موثقاً عليه من جميع رجال الكهنوت، وعلى رأسهم كهنة رع وآمون وبتاح وأبيس، يرجون مولاهم أن يرّد أراضى المعابد إلى أصحابها الآلهة المعبودة التي توليه عنايتهم، ويؤكدون أنّهم ما كانوا يتقدمون بالتنازل لو وجدوا من الأسباب ما يدعو إلى وجوب نزع الأراضي.

كان الخطاب قوياً حازماً، فغضب الملك، ومزقه إرباً، ورمى به على أرض الحجر وصاح:

- سوف أجيبهم بعد حين قليل.

فقال سوفخاتب:

- إنهم يلتمسون جماعة، وكانوا يلتمسون فرادى.

فقال الملك الغاضب:

- وسأضربهم جميعاً، فليحتجوا كيف شاء لهم الجهل.

على أنّ الحوادث جاوزت هذا الحدّ، فقد أرسل حاكم طيبة إلى رئيس الوزراء يقول إنّ خنوم حتب زار مقاطعته، وإنّه استقبل استقبالاً شعبياً رائعاً اشترك فيه كهنة آمون وكاهناته وجموع غفيرة من الأهالي، وإنّ الهتافات تصاعدت باسمه، وهتف القوم أيضاً لحقوق الآلهة التي ينبغي أن تصان وتخدم، وجاوز هذا القدر قوم، فصاحوا باكين: «وأحسرتاه! إنّ أموال آمون تنفق على راقصة».

ووجم الرئيس أسفاً وحزناً، وغلب إخلاصه تردّه هذه المرّة أيضاً، فأحاط مولاه بهذه الأخبار بلباقة، وغضب الملك كعادته وقال أسفاً:

- إنّ حاكم طيبة يسمع ويرى ولا يستطيع شيئاً.

فقال سوفخاتب بحزن:

- ليس لديه يا مولاي إلا قوّة الشرطة، وهي لا تجدي في مقاومة جموع غفيرة.

فقال الملك بغضب:

- وليس لديّ إلا الانتظار على مضض، لقد أدميت وحقّ الربّ كبريائي!

وخيمت سحابة من الحزن على أبو المجيدة، شملت قصورها الشاخة ودور الحكم فيها. وكانت الملكة نيتوقريس تقبع في جناحها رهينة حبس ووحشة، تعاني آلام قلبها المنفطر وكبرائها الجريح، وترقب الحادثات بعينين حزبتين أسيفتين. وكان سوفخاتب يتلقّى الأخبار بقلب حزين، ويقول أسفاً لطاهو الصامت الكتيب: «هل شهدت مصر قبل اليوم مثل هذا الغضب المتمرد؟! واحزنناه!».

واستحالت سعادة الملك غضباً وغيطاً، وكان لا يذوق الراحة إلا حين يرتقي بين يدي المرأة التي أسلمها نفسه، وكانت تدرك ما به، فكانت تداعبه وتحنو عليه وتهمس في أذنه: «صبراً» فيتنهّد ويقول حانقاً «نعم.. حتى أقبض على ناصية القوّة».

ولكن اشتدّ الحرج، فتعددت زيارات خنوم حتب للمقاطعات، واستقبل بالمظاهرات في كلّ مكان، وتعالى الهتاف باسمه في البلدان. وضاق بذلك كثير من الحكّام، ورأوا فيه معنى لم يرتح إليه إخلاصهم لفرعون. فاجتمع حكّام أمبوس، وفرمونتس، ولانولس، وطيبة، وتشاوروا فيما بينهم، وقرّ رأيهم على مقابلة الملك. وقصدوا إلى أبو وطلبوا المقابلة، فاستقبلهم فرعون استقبالاً رسمياً حضره سوفخاتب، وتقدّم حاكم طيبة بين يديه وحيّاه تحية العبوديّة والإخلاص ثمّ قال:

- مولاي، الإخلاص الحقّ لا ينفع بأن يكون عاطفة في القلب، ولا بدّ أن يقرن بإسداء النصح والعمل

الحال، وانتهت بذلك أوّل مقابلة من نوعها تشهدها  
قصور الفراعنة.

واجتمع الملك على الأثر بوزيره وقائد حرسه في  
جناحه الخاص، وكان غاضباً مهتاجاً يتهدّد ويتوعّد،  
وقد قال للرجلين:

- إنّ هؤلاء الحكّام مخلصون أمناء، ولكنهم  
ضعاف، ولو أخذت بنصائحهم لعرضت عرشي  
للهوان.

وسرعان ما أمّن طاهو على رأي مولاه وقال:

- إنّ التراجع هزيمة يا مولاي!

كان سوفخاتب يفكر في احتمالات أخرى فقال:

- ينبغي أن نحسب حساب عيد النيل، وهو لا  
يفصل بيننا وبينه سوى أيام معدودات، والحقّ أنّ قلبي  
لا يرتاح إلى حشد الآلاف من الشعب الغاضب في  
آب.

فبادر طاهو قائلاً:

- إنّنا نسيطر على آبو.

- لا ريب في هذا، ولكن لا يجوز أن ننسى أنّه في  
العيد الماضي تصاعدت بضعة هتافات خائنة، ولم يكن  
مولانا الملك قد حقّق إرادته، ف ينبغي أن نتوقّع هتافات  
أخرى أشدّ صراخاً.

فقال الملك:

- إنّ الأمل معقود بعودة الرسول قبل العيد.

ولكن لم ينفكّ سوفخاتب يزن الأمور من وجهة  
نظره، فقال وكان يؤمن في قلبه باقتراح الحكّام:

- سيأتي الرسول في القريب، وسيتلو رسالته على  
الملأ، ولا شكّ أنّ الكهنة الحائزين على عطف  
مولاهم، المتمّعين بما يعتقدون أنّه حقّهم، يكونون

أعظم اطمئنناً إلى التعبئة وأشدّ حماسة، حتّى إذا قبض  
مولاي على ناصية القوّة، أمل إرادته، ولا رادّ لمشيئته.

وضاق الملك ذرعاً برأي سوفخاتب، وأحسّ بوحشة  
في جناحه الخاص، فهرع إلى قصر بيجة الذي لا  
تلاحقه الوحشة إليه قط. وكانت رادوبيس تجهل ما  
دار في الاجتماع الأخير، فكانت أدنى إلى الطمأنينة  
منه، ولكنها لم تلقَ صعوبة في قراءة صفحة وجهه

الصالح والافتداء إذا حزب الأمر، ونحن حيال أمر قد  
يعرّضنا الصديق فيه إلى موجدة، ولكنّا لا نأمن مع  
السكوت عليه من وخز ضائرتنا، فلا بدّ من قولة  
الحقّ.

فصمت فرعون هنيهة ثمّ قال للحاكم:

- تكلم أيّها الحاكم فإنّي مصغٍ إليك.

فقال الرجل بشجاعة:

- مولاي. الكهنة غاضبون، وقد انتقلت عدوى  
غضبهم إلى نفوس الشعب المنصت إلى حديثهم في  
الصباح والمساء، وكان من جرّاء ذلك أن اتّفقت كلمة  
الجميع على وجوب ردّ الأراضي إلى أصحابها.

فبدأ الغضب على وجه الملك وقال بحق:

- هل يصحّ أن يذعن فرعون لإرادة الناس؟

- فقال الرجل بصراحة وجسارة:

- مولاي. إنّ سعادة الشعب أمانة عهدت بها الآلهة  
إلى ذات فرعون، فلا إذعان، لكن تعطف من مولى  
قادر على عبادة.

فضرب الملك الأرض بصولجانه وقال:

- لا أرى في التراجع سوى الخنوع.

فقال الرجل:

- معاذ الربّ أن أشير إلى مولاي بالخنوع، ولكنّ  
السياسة بحر جيّ، والحاكم كالربّان يتفادى الريح  
العاصفة، ويتنزه الفرصة السعيدة.

ولكنّ الملك لم يعجبه قوله، وهزّ رأسه باحتقار  
وعناد، واستأذن سوفخاتب طالباً الكلام، وسأل حاكم  
طيبة قائلاً:

- هل لديك دليل على أنّ الشعب يشاطر الكهنة  
عواطفهم؟

فقال الحاكم بثبات ويقين:

- نعم يا صاحب القداسة، لقد بثت عيوني في  
الأقاليم، فشهدوا غضب الشعب عن كذب، وسمعوه  
يخوض فيما لا يجوز الخوض فيه.

وقال حاكم فرمونتس:

- وهذا ما فعلته فجاءتني أنباء مؤسفة.

وأدلى كلّ حاكم بدلوه، ودلّت أقوالهم على خطورة

فبدأ التأثر في عينيها السوداوين، وقالت في حزن عميق:

- فداؤك نفسي يا حبيبي، لن تذبل قطّ وصدري يرويك حباً صافياً.

- سأعيش منتصباً في كلّ لحظة في حياتي، ولن أمكنّ خنوم حتب من أن يقول يوماً إنّه أذلّني ساعة!

فابتسمت إليه ابتسامة حزينة وتساءلت:

- أتريد أن تسوس شعباً بغير التجاء إلى الحيلة أحياناً؟

- التسليم حيلة العاجز، سأظلّ ما حييت مستقيماً كالسيف تحطّم على أسنانه قوى الخائنين.

فتنهّدت حزينةً أسفةً ولم تحاول معاودته، ورضيت بالهزيمة أمام غضبه وكبريائه، ومنذ تلك اللحظة وهي تتساءل جزعة متى يعود الرسول؟.. متى يعود الرسول؟.. متى يعود الرسول؟..

ما أشقّ الانتظار.. لو يعلم المتمنّون ما عذاب الانتظار لأثروا الزهد في الدنيا.. كم عدّت الدقائق والساعات وترقّبت شروق الشمس وانتظرت مغيبها، وذابت عيناها من طول النظر إلى مجرى النيل الآتي من الجنوب. وكم حسبت الزمن بتردد أنفاسها وخفقان قلبها، وكم صاحت وقد نال منها القلق كلّ منال: أين أنت يا بنامون؟ حتى الحبّ نفسه ذاقته فوق الشارد الحالم، فلا طمأنينة ولا سلام حتى يعود الرسول برسالته!

وتقصّص الأيام تجرّ ثقلها جرّاً بطيئاً، حتى كان يوم تجلس فيه مستغرقة في أفكارها، وإذا بشيث تدخل عليها مهرولة، فرفعت رأسها وسألتها:

- ما وراءك يا شيث؟

فقالته الجارية بلهفة تلهت:

- مولاتي، جاء بنامون.

وغمرها الفرح، فانتفضت واقفة كطير فزع، وهي تصيح:

- بنامون!

الحسّاس، والشعور بما يضطرم في قلبه من الغضب والسخط، واعتورها القلق ونظرت إليه متسائلة والكلام يضطرب خلف شفّتها مشفقاً من الظهور، فقال متدّمراً:

- أما علمت يا رادوبيس؟ إنّ الحكّام والوزراء يشيرون عليّ برّد الأراضى إلى الكهنة، والرضاء بالهزيمة؟

فتساءلت بانزعاج:

- ما الذي حثّم على إبداء هذه المشورة؟

فروى الملك ما قال الحكّام، وما نصحوه به، وكانت تردد انزعاجاً وحزناً، وما تمالكت نفسها أن قالت:

- إنّ الجوّ يغبرّ ويظلم وما حمل الحكّام على المكاشفة بأرائهم إلّا خطر فادح.

فقال الملك بازدراء:

- إنّ شعبي غاضب.

- مولاي، إنّ الناس كالسفينة الضالّة بلا سكّان، تحملها الرياح كيفما تشاء.

فقال بوعيد مخيف:

- سأذهب ريحهم.

وعاودتها المخاوف والشكوك، وخانها صبرها في تلك اللحظة فقالت:

- ينبغي أن نستوصي بالحكمة، وأن نتراجع زمناً قصيراً مختارين، وإنّ يوم النصر لقريب.

فنظر إليها بغرابة وقال:

- أتشرين عليّ بالخضوع يا رادوبيس؟

فضمّته إلى صدرها وقد آلتها لهجته، ثمّ قالت وقد فاضت عيناها بدمع سخين:

- أحرى بمن يتحقّر للوثبة الكبرى أن ينكمش أقداماً، والنصر رهين بالنهاية.

فتأوّه الملك قائلاً:

- أه يا رادوبيس.. إذا كنت أنت تتجاهلين نفسي، فممنذا الذي يمكن أن يعرفها؟ أنا من إذا نزل مرغماً على إرادة إنسان ذبل كمداً كوردة سَفَتْها الرياح.

فقالت الجارية:

- نعم يا مولائي، إنه ينتظر في البهو، وطلب إليّ أن أؤذّنك بقدومه. كم لَوْحَه السفر!

وجرت تتخطى أدراج السَلَم إلى البهو، فألفته واقفًا ينتظر مقدمها وفي عينيه شوق صارخ، وكانت تبدو كشعلة من الفرح والأمل، فوفر في نفسه أنّ فرحها به، وله، فغمرته سعادة إلهية وارتمى على قدميها كالعابد، ولَفَّ ذراعيه حول ساقها بحنان ووجد، وهوى بضمه إلى قدميها.. وقال:

- معبودتي، حلمت مائة مرّة أنّي أقبل هاتين القدمين، وهأنذا أحقّق أحلامي.

فداعبت شعره بأناملها وقالت برقة:

- بنامون العزيز.. بنامون.. أحقًا عدت إليّ؟

فلمعت عيناه بنور الحياة، ودسّ يده في صدره فأخرج حُفًا من العاج صغيرًا وفتحه، وإذا ما فيه تراب.. ثم قال:

- هذا تراب مما كانت تطأ قدمك في الحديقة، جمعته بيدي واحتفظت به في هذا الحق، وحملته معي في سفري، وكنت أقبله كلّ مساء قبل استسلامي للكرى، ثم أحفظه على قلبي..

وأصغت إليه على جزع وتلمل، وكان شعورها منصرفًا عن حديثه، ونقد صبرها، فسألته برقة تداري بها جزعها:

- ألا تحمل شيئًا!

فدسّ يده في صدره مرّة أخرى، وأخرج كتابًا مطويًا ومدّ لها يده به، فتسلّمته بيد مرعجة وقد غمرها شعور سعيد، وأحسّت بتخدير في أعصابها وخور في قواها، وألقت عل الرسالة نظرة طويلة، وشدّت عليها بيدها، وكادت تنسى بنامون ووجهه لولا أن وقع عليه بصرها فتذكرت أمرًا هامًا وسألته:

- ألم يأت معك رسول من قبل الأمير كارفترو؟

فقال الشاب:

- بلى يا مولائي، وهو الذي حمل الرسالة في أثناء العودة. وإنه لينتظر الآن في الحجرة الصيفية.

ولم تستطع أن تبقى في مكانها طويلًا، لأنّ الفرح

الذي غمر حواسها عدوّ للسكون والجمود فقالت:

- أستودعك الربّ إلى حين، وإنّ حجرة الصيف تنتظرك وستصفو لنا الأيام.

وجرت حاملة الرسالة، وكان قلبها ينادي حبیبها ومولاها من أعماقها، ولولا التحرّج، لطارت إليه في قصره كما فعل النسر من قبل، تزفّ إليه البشري السعيدة..

## الاجتماع

وجاء يوم عيد النيل، واستقبلت أبو المحتفلين من أقاصي الجنوب والشمال، وتعالّت في جوّها الأناشيد، وأزيّنت دورها بالأعلام والأزهار وأغصان الزيتون، واستقبل الرجال من الكهنة والحكّام شروق الشمس في طريقهم إلى القصر الفرعوني، لينتظموا في الموكب الملكي العظيم الذي يغادر القصر حين الضحى.

وبينا كان السادة ينتظرون نزول الملك في إحدى الحجرات دخل عليهم أحد الحجاب، وحيّاهم باسم الملك، وقال بصوت جهوري:

- أيّها السادة الأجلّاء، إنّ فرعون يريد أن يجتمع بكم في الحال، فتنفضّلوا بالذهاب إلى البهو الفرعوني. وتلقّى الجميع تصريح الحاجب بدهشة غير خافية، لأنّ العادة جرت بأن يستقبل الملك رجال مملكته بعد الاحتفال بالعيد لا قبل ذلك، فبدت الحيرة على الوجوه وتساءل القوم: ترى أيّ أمر خطير دعا إلى هذا الاجتماع الخارق للتقاليد؟!

ولكنّهم لبّوا الدعوة طائعين، وذهبوا إلى بهو الاستقبال ذي الجلال والروعة. واحتلّ الكهنة مقاعد الجانب الأيمن، وجلس الحكّام قبالتهم، وكان يتصدّر المكان العرش الفرعوني، وسط جناحين من الكراسي أعدت للأمرء والوزراء.

وما لبثوا قليلًا حتّى دخل الوزراء يتقدّمهم سوفخاتب، وتبعهم بعد حين أمراء البيت المالِك، فجلسوا إلى يمين العرش وهم يردّون تحيّاات الرجال الذين وقفوا تحيّة لهم.

سيناء، وسيّد الصحراء الشرقية، والصحراء الغربية. مولاي.. يؤسفني أن أرفع إلى مسامح ذاتكم المقدّسة أنباء محزنة، عن حوادث غدر شائنة، وقعت في أملاك التاج المتاخمة لحدود النوبة الجنوبية، وكنت يا مولاي - اطمئنأنا متى إلى المعاهدة التي عقدت بين مصر وقبائل المعصايو، وما أعقب عقدها مباشرة من شمول الطمأنينة وتوطيد الأمن - كنت أمرت بسحب كثير من الحاميات الموزعة في الصحراء إلى قواعدها الأصلية. وجاءني اليوم ضابط من رجال الحاميات وأخبرني بأنّ زعماء القبائل شقّوا عصا الطاعة وحثّوا يمينهم، وانقضّوا خلسة بليل على ثكنات الحاميات، وأعملوا فيها التقتيل الوحشي. وقد قاوم الجنود مقاومة اليأس، قوّات تفوقهم مائة مرّة أو يزيد، حتّى سقطوا عن آخرهم في ميدان الاستبسال. واجتاحت القبائل البلاد جميعاً، وانجّحت نحو الشمال إلى بلاد النوبة، فرأيت من الحكمة ألاّ أفرط فيها لئلاّ لديّ من قوّات محدودة، وأن أوجّه همّي إلى تحصين الاستحكامات والقلاع، للتمكّن من صدّ العدو الزاحف، ولن تصل مولاي رسالي حتّى تكون جنودنا قد اشتبكت مع طلائع المهاجرين، وإنّي في انتظار أمر مولاي سأظل على رأس جنودي أقاتل في سبيل مولاي فرعون، ووطني مصر».

وانتهى الرسول من تلاوة الرسالة، وظلّ صوته يدويّ في كثير من القلوب، أمّا الحُكّام فقد اتّقدت أعينهم، وتطايّر منها الشرر، وسرت في صفوفهم حركة اضطراب عنيف، وأمّا الكهنة فقد تقسّبت جباههم وجمدت نظراتهم، وانقلبوا كتهائل جامدة في معبد صامت.

وصمت فرعون هنيهة حتّى بلغ التأثير أشدّه، ثمّ قال:

- هذه هي الرسالة التي دعوتكم للمشاركة فيها. وكان حاكم طيبة على رأس المتحمّسين، فقام واقفاً وأخنى رأسه تحية، وقال:

- مولاي.. إنّها رسالة خطيرة حقّاً، والجواب الواحد عليها هو الدعوة إلى التعبئة.

وساد الصمت وبدأ الجذّ والاهتمام على الوجوه، وخلا كلّ إلى أفكاره يسائلها عن الأسباب التي دعت إلى هذا الاجتماع الهامّ، حتّى قطع عليهم أفكارهم دخول حامل الأختام، فتطلّعوا إليه في انتباه شامل، وقد صاح الرجل بصوت جهوري يعلن مجيء الملك:

- فرعون مصر نور الشمس، وظلّ رع على الأرض، صاحب الجلالة مرزوع الثاني..

فهبط الجميع وقوفاً وأحنوا الهامات، حتّى كادت تمسّ الأرض الجباه، وجاء الملك يسير في جلال ومهابة، يتبعه على الأثر قائد الحرس طاهو، وحامل الأختام، وكبير حجاب الأمير كارفرنو حاكم النوبة، وجلس على العرش، ثمّ قال بصوت مهيب:

- أحييكم أيّها الكهنة والحُكّام وأذن لكم بالجلوس.

فاتعدلت القامات المنحنية في رفق، وجلس الرجال وسط صمت شامل عميق يجعل من التنفّس مجازفة خطيرة، وانجّحت الأنظار إلى صاحب العرش توافقة إلى استماع كلمته. واعتدل الملك في جلسته، ثمّ قال وهو يقلّب عينيه في وجوه القوم دون أن تستقرّ على أحد:

- أيّها الأمراء والوزراء والكهنة والحُكّام، من صفوة رجال مصر العليا والسفلى، لقد دعوتكم لأشاوركم في أمر خطير يتعلّق بسلامة المملكة ومجد الآباء والأجداد. أيّها السادة: لقد جاء رسول من الجنوب هو هامانا كبير حجاب الأمير كارفرنو يحمل رسالة خطيرة من مولاه، فرأيت أنّ واجبي يقضي عليّ بأن أدعوكم دون إمهال، للاطلاع عليها، والمشاورة في محتوياتها الخطيرة. والتفت فرعون إلى الرسول وأشار إليه بصولجانه، فتقدّم الرجل خطوتين فصار في حذاء العرش، وقال له فرعون:

- «اتّل عليهم الرسالة».

فبسط الرجل رسالة مطوية بين يديه، وقرأ بصوت جهوريّ مؤثّر:

- «من الأمير كارفرنو حاكم بلاد النوبة إلى حضرة صاحب الجلالة فرعون مصر نور الشمس المشرقة، وظلّ الربّ رع، حامي النيل، وصاحب النوبة، وطور

ولاقت كلمته ارتياحاً في نفوس الحكّام، فقام حاكم أمبوس وقال:

- نَعْمُ الرَّأيُ يا مولاي، فالجواب الأوحَد هو التَّعبئة السريعة، كيف لا ووراء الحدود الجنوبيّة إخوان لنا بوسائل أوقعهم العدوّ في ضيق... وإتّهم لثابتون، فلا ينبغي أن نخذلهم، أو نبطئ عليهم..

وكان آبي يفكّر في العواقب التي تمسّ واجباته، فقال:

- إذا اجتاحت أولئك الهمج بلاد النوبة هدّدوا الحدود بلا شكّ.

وكان حاكم طيبة على رأس المتحمّسين، وقد ذكر رأيًا قديمًا له طالما عمّي تحقيقه يومًا، فقال:

- كان رأيي دائمًا يا مولاي أن تحتفظ المملكة بجيش دائم كبير، يكفل لفرعون القيام بتبعاته في الدفاع عن سلامة الوطن ويمتلكاته فيما وراء الحدود.

واشتدّ الحماس في جناح جميع القوّاد، ونادى كثير منهم بالتعبئة، وهتف آخرون للأمير كارفرو ولحامية بلاد النوبة. واشتدّ التأثير ببعض الحكّام، فقالوا للملك:

- مولانا.. لن يطيب لنا الاحتفال بالعيد، ووراءنا إخوان بوسائل يتهذّبهم الموت. إيذّن لنا في الرحيل لنحشد الجنود.

وكان فرعون ملازمًا الصمت ليسمع ما عسى أن يقول الكهنة، وكان هؤلاء لائذين بالصمت ريثما تهدأ النفوس، فلمّا أن سكّت الحكّام.. قام كاهن بتاح الأكبر وقال بهدوء غريب:

- هل يأذن لي مولاي في أن أوجّه إلى رسول سمّو الأمير كارفرو سؤالًا.

فقال الملك بغرابة:

- لك ما تريد أيّها الكاهن الأكبر.

فالتفت كاهن بتاح إلى الرسول وقال:

- متى غادرت بلاد النوبة؟

فقال الرجل:

- منذ أسبوعين.

- ومتى بلغت أبو؟

- مساء أمس.

فأتّجه الكاهن نحو فرعون وقال:

- أيّها الملك المعبود، إنّ الأمر يدعو إلى الحيرة الشديدة، فبالأمس جاء هذا الرسول المبجل من الجنوب بأنباء تمرد زعماء المعصايو، وبالأمس نفسه جاء وفد من زعماء المعصايو من أقصى الجنوب ليقدّموا فروض الطاعة لمولاهم فرعون، ويرفعون إلى أعتابه المقدّسة أيّ الشكر على ما أولاهم من نعمة وسلام، فما أشدّ حاجتنا إلى من يميّط اللثام عن هذه المعميات. فكان تصرّيحًا غريبًا لم يتوقّعه إنسان، فأحدث دهشة كبرى وعجبًا، فشملت الرعوس حركة عنيفة، وتبادل الحكّام والكهنة نظرات التساؤل والحيرة، وتهاوس الأمراء. أمّا سوفخاتب فقد انخلع صدره ونظر إلى مولاه في ارتياح، فرآه يقبض بيده على الصولجان بشدّة، وتشدّد عليه بقسوة حتّى انتفخت عروق ساعده وانكفأ لونه، فخشي الرجل من تسلّط الغضب على الملك، فسأل الكاهن قائلاً:

- ومن أنباك بهذا يا صاحب القداسة؟

فقال الرجل بهدوء:

- رأيتهم بعيني رأسي يا سيّدي الرئيس، فقد زرت أمس معبد سوتيس، وقدم كاهنه إليّ وقدًا من السود قالوا إنّهم من زعماء المعصايو، وإنّهم جاءوا يقدّمون فروض الطاعة لفرعون، وقد باتوا ليلتهم ضيوفاً على رئيسه.

فقال سوفخاتب:

- ألا يصحّ أن يكونوا من النوبة؟

ولكنّ الرجل قال بيقين:

- قالوا إنّهم من المعصايو، وعلى آية حال فها هنا

رجل - هو القائد طاهو - اشتبك مع المعصايو في حروب كثيرة، وعرف جميع زعمائهم، فهل يتفضّل جلالة الملك ويأمر بدعوة هؤلاء الزعماء إلى ساحته المقدّسة، وعسى أن تزيل أقوالهم عن أعيننا غشاوة الحيرة؟

وكان الملك في حالة شديدة من القهر والغضب، ولكنّه لم يدر كيف يمكن أن يرفض ما يقترحه الكاهن،



الوسط، وعلى رؤوسهم هالات من أوراق الشجر، وقد سجدوا جميعاً على الأرض، وتقدّموا زحفاً حتى بلغوا عتبة العرش، فقبلوا الأرض بين يدي فرعون، ومدّ لهم الملك صولجانه فلثموه في خشوع، وأذن لهم بالوقوف فوققوا في تهيّب، وقال رئيسهم باللهجة المصرية:

- أيّها الربّ المعبود، فرعون مصر، سيّد الوادي، ومعبود القبائل، جئنا إلى رحابك لتقدّم لك أي الخضوع والذلّ والحمد على ما أوليتنا من آلاء ونعم. ففضل رحمتك تناولنا الطعام شهياً، وشربنا الماء حلواً سائفاً.

فباركهم الملك برفع يده.  
وكانت الوجوه متّجهة إليه كأنّها تضرع إليه أن يسألمهم عمّا يقال عن بلادهم، فقال الملك المقهور:  
- من أيّ العشائر أنتم؟  
فقال الرجل:

- أيّها البهاء المعبود، نحن زعماء قبائل المعصايو الداعية لبهائك بالمجد.

وصمت الملك قليلاً، وأبى أن يسألمهم عن أتباعهم شيئاً، وضاق بالمكان وعين فيه، فقال:  
- إنّ فرعون يشكركم أيّها العبيد المخلصون ويبارككم.

وقدّم صولجانه فلثموه مرّة أخرى، وكروا راجعين، تكاد تمسّ الأرض جباههم.

والتهب الغضب في قلب الملك، وأحسّ إحساساً باطنياً أليماً بأنّ الكهنة المائلين أمامه، وجّهوا إليه ضربة قاتلة في معركة خفية، لا يعلم بها سواه وسواهم؛ فاشتدّ عليه الحنق. وفاض به الغيظ، وثار على هزيمة وقال بصوت شديد النبرات:

- لديّ رسالة لا يرتقي الشكّ إليها، وسواء أكانت القبائل الثائرة تتبع هؤلاء الزعماء أم لا تتبعهم، فالأمر الذي لا شكّ فيه هو أنّه توجد ثورة ويوجد متمردون، وأنّ جنودنا الآن محاصرون!

فعاودت الحماسة الحكّام، وقال حاكم طيبة:  
- مولاي.. لقد جرت الحكمة الإلهية على لسانك،

وأحسّ الوجوه تتطلّع إليه في لهفة ورغبة ورجاء، فقال لأحد الحجاب!

- اذهب إلى معبد سوتيس، وادعُ زعماء السود.  
وصدع الحجاب بالأمر، ولبت الجميع ينتظرون وكأنّ على رؤوسهم الطير. وكان الدهول بادياً على وجوه الجميع. وكانوا يكظمون ما بنفوسهم وإن ودّ كلّ منهم أن يسأل رفيقه ويستمع إليه. ولبت سوفخاتب قلقاً مهموماً دائم التفكير يختلس من مولاه نظرات حائرة مشفقاً عليه من هول الساعة، ومزّت عليهم الدقائق ثقيلة ومؤلة، كأنّها تنزع من جلودهم، والملك على عرشه يشاهد الحكّام القلقين والكهنة المطرقين، لا تكاد تخفي عيناه ما يعتريه في نفسه من العواطف. ثمّ خال الجميع أنّهم يسمعون ضوضاء يحملها الهواء من بعيد، فخلصوا من نفوسهم، وأرهفوا السمع، فإذا بالضوضاء تقترب من ميدان القصر، وإذا بها أصوات تنصاعد بالهتاف، ومضت بالقرب تشتدّ وتقوى شيئاً فشيئاً حتى طبقت الآفاق. وكانت مختلطة غير متمايزة، ويفصل بينها وبين المجتمعين فناء القصر الطويل، فأمر الملك حاجباً بالذهاب إلى الشرفة ليرى ما هناك، فغاب الرجل برهة ثمّ عاد مسرعاً، ومال على أذن فرعون وقال:

- إنّ جموع الشعب تملأ الميدان، تحيط بالعربات التي تحمل زعماء السود.

وما هتافهم؟

- يهتفون لأصدقاء الجنوب المخلصين، ومعاهدة السلام.

ثمّ تردّد الرجل لحظة واستدرك هامساً:

- يهتفون يا مولاي لصاحب المعاهدة خنوم حتب! واصفرّ وجه الملك من الغضب، وأحسّ بالحقد والقهر، وتساءل كيف يدعو الشعب الذي يحبّي زعماء المعصايو ويهتف للسلام إلى عاربة المعصايو! ولبت ينتظر القادمين غاضباً حزيناً كثيباً.

وأعلن ضابط من الحرس قدوم الزعماء، وفتح الباب على مصراعيه، ودخل الوفد يتقدّمه رئيسه وكانوا عشرة، ضخام الأجسام، عرايا إلّا من وزرة تستر

عمداً ليقولوا سلاماً إذا ما قلت أنا حرباً، وهكذا وجه  
إليّ عدوي ضربة شديدة، وهو مائل بين يديّ يعلن  
الولاء..

قامتق وجه طاهو ولاح في وجهه الحزن، ولم يكابر  
سوفخاتب فأطرق يائساً وكأنه يحدث نفسه:

- إذا كانت خيانة فمن الخائن؟

فقال الملك وهو يلوح بقبضته في الهواء:

- نعم.. من الخائن؟ هل هنالك معضلة لا  
تحلّ؟.. كلاً.. أنا لا أخون نفسي، ولا يخون عهدي  
سوفخاتب ولا طاهو، ولا تخونني رادوبيس، فلم يبق  
إلا هذا الرسول الشقي.. وا أسفاه لقد خُذعت  
رادوبيس.

فبرقت عينا طاهو وقال:

- سأسوقه إلى هنا وأنتزع من فمه كلمة الحق.

فهزّ الملك رأسه وقال:

- رويدك يا طاهو رويدك.. إنّ المجرم لا ينتظر  
حتىّ تذهب للقبض عليه، ولعله الآن ينعم بثمن  
خيانته في مكان آمن لا يعلم به إلا الكهنة. كيف تمّت  
المكيدة؟ لا أدري كيف، ولكنّي أستطيع أن أقسم  
بالربّ سوتيس أنّهم علموا بالرسالة قبل تحرك الرسول  
فلم يتوانوا، وبعثوا برسول من لدنهم فجاء رسولي  
بالرسالة، وجاء رسولهم بالوفد.. خيانة.. نذالة، إنيّ  
أعيش وسط شعبي كالأسير.. ألا لعنة الآلهة على  
الدنيا وعلى الناس.

ولاذ الرجلان بالصمت، حزناً وإشفاقاً، وكان  
طاهو يجلس من موله نظرات حزينة، وأراد أن يحاول  
إعادة الأمل إلى ذلك الجوّ القاتم فقال:

- ليكن عزاؤنا أننا سنضرب بالضربة القاضية.

فاحتدّ الملك قائلاً:

- كيف لنا بتسديد هذه الضربة؟!

- إنّ الحُكّام في طريقهم إلى الأقاليم لحشد الجنود.

- وهل نظنّ أنّ الكهنة يقفون مكتوفي الأيدي بإزاء

الجيش الذي علموا أنّه يحشد لسحقهم؟!

وكان سوفخاتب ينوء بهمّ ثقيل كان يؤمن بما يقول

إنّ إخواننا ينتظرون النجدة. فلا يجوز أن نضيع الوقت  
في مناقشات، والحقّ أبلج واضح.

فقال الملك بعنف:

- أيّها الحُكّام، إنيّ أعفيكم من الاشتراك اليوم في  
الاحتفال بعيد النيل، فامامكم واجب أسمى. ارجعوا  
إلى أقاليمكم واحشدوا الجنود، فربّ دقيقة تضيع  
تكلّفنا غالياً.

قال الملك ذلك ثمّ قام واقفاً، معلّناً انتهاء  
الاجتماع، فقام القوم من فورهم وأحنوا الهامات  
إجلالاً.

## الهتاف

وقصد فرعون إلى جناحه الخاصّ، ودعا إليه رجله  
المخلصين سوفخاتب وطاهو. فلبّى الرجلان دعوته  
سريعاً، وكانا شديدي التأثير، يقدران حرج الموقف  
حقّ قدره. ووجدوا الملك كما توقّعا مهتاجاً غاضباً،  
يذرّع حجرته من جانب إلى جانب، ويهدر بوحشية  
جنونية، فلما انتبه إليهما حدجها بنظرة زائغة، وقال  
والشرر يتطاير من عينيه:

- خيانة.. إنيّ أشمّ رائحة خيانة خبيثة في هذا الجوّ  
الخافت.

فانكفأ طاهو وقال:

- مولاي. لا أنفي عن نفسي التشاؤم وسوء الظنّ،  
ولكن لا يذهب بي الحسد إلى هذا الفرض الكبير.

فضرب الملك الأرض بقدمه وقال وهو يتمييز من  
الغيظ والحنق:

- لماذا جاء هذا الوفد اللعين؟.. بل كيف جاء

اليوم؟.. واليوم بالذات؟.

فقال سوفخاتب، وكان غارقاً في التفكير والأحزان:

- ترى هل هي مصادفة حزينة غريبة؟

فقال الملك في دهشة مروعة:

- مصادفة.. كلاً.. كلاً. هي الخيانة اللثيمة،

أكاد ألمح وجهها يستتر بالإطراق والدهاء. كلاً أيّها  
الوزير لم ينجح القوم مصادفةً لكنهم دُفعوا إلى هنا

هنية، ورجع لابساً جلد النمر شارة الكهنوت والتاج المزدوج. وتأقّبوا جميعاً للخروج، ولكن سبقهم بالدخول حاجب من حجاب القصر حيّاً مولاه وقال: - السيد طام رئيس شرطة أبو يستاذن في المثول بين يدي مولاه.

فأذن له الملك ومشيراه لما شاهدوه على وجهه من آي الاضطراب. وحياً الشرطي الكبير مولاه، وقال مبادراً بعجلة واضطراب:

- مولاي! لقد جئت الآن لأضرع إلى ذاتكم المقدسة أن تعدلوا عن الذهاب إلى معبد النيل! فحق قلب الرجلين، وسأل الملك منزعجاً: - وما الذي حملك على هذا؟

فقال الرجل وهو يلهث: - قبضت في هذه الساعة على كثيرين كانوا يوجهون هتافات شريرة إلى شخصية نبيلة يكرمها مولاي وأخشى أن تكرر هذه الهتافات في أثناء الموكب.

فحق قلب الملك وغلت مراجل الغضب في دمه، وسأله بصوت متهجج: - ماذا قالوا؟

فابتلع الرجل ريقه، وقال باضطراب وارتباك: - قالوا لتسقط العاهرة! لتسقط ناهية المعابد!! فاشتد الغضب بالملك، وصاح بصوت كالرعد: - يا للويل.. لا بد أن أضرب ضربة تنفّس عن صدري أو يفجر بنياني.

واستطرد الرجل مذعوراً: - وقد قاوم المجرمون رجالي، ف وقعت معارك بيننا وبينهم، وساد الاضطراب والهرج برهة، وفي أثناء ذلك تعالت هتافات أكبر شراً وأوغل غياً.

فسأل الملك قائلاً وهو يصرّ على أسنانه غضباً ومقتاً:

- وماذا قالوا أيضاً؟  
فأحنى الرجل رأسه، وقال بصوت خافت: - تجاسر المجرمون على ما هو أجل.  
فقال الملك في صوت ذاهل: - أنا..؟!

الملك، ولكن أراد أن ينفس عن صدره، فقال وكأنه يتمنى:

- عسى أن يكون ربنا وهماً، ويكون ما نظّته خيانة محض مصادفة، فتتشع هذه السحابة الدكناء بأهون الأسباب.

ولكن فرعون ثار على العزاء وقال: - لا أزال أذكر صورة أولئك الكهنة المطرقين، كانوا بلا شك ينطوون على سر رهيب، ولما قام رئيسهم ليتكلّم، تحدّى حماس الحكّام باطمئنان، وألقى كلمته بثقة لا حد لها، ولعله الآن يتكلّم بعشرة السنة، آه.. الويل للخيانة.. لن يعيش مرنرع الثاني تحت رحمة الكهنة.

وغضب طاهو لحزن مولاه فقال: - مولاي.. تحت إمرتك حرس قويّ يزن الرجل منه ألف رجل من رجالهم، ويجود بنفسه في سبيل مولاه عن طيب خاطر.

فأعرض فرعون عنه، وارتقى على مقعد وثير مستسلماً لأفكار رأسه الساخن، ترى هل يمكن أن يتحقّق أمله بالرغم من هذه الأحزان؟ أم يفشل مشروعه إلى الأبد؟ يا لها من ساعة فاصلة في حياته.. هي مفترق الطرق بين المجد والهوان، والقوة والانهيار، والحبّ والشقاء. لقد رفض مرة أن يتنازل عن الأراضي حيلة، فهل يجد نفسه يوماً مضطراً إلى التنازل عنها محافظة على عرشه؟ آه.. لن يأتي هذا اليوم، وإن أتى فلن يسام الخسف أبداً. وسيبقى إلى آخر لحظة من حياته كريماً جيّداً عزيزاً. وتنهّد بالرغم منه حسرة، وقال لنفسه أسفاً.. آه لو لم يعثر حظي بالخيانة. وقطع عليه صوت سوفخاتب وهو يقول:

- مولاي دنا موعد الحفل.  
فنظر إليه كمن يصحو من نوم عميق، وتتمم «حقاً» ثم قام واقفاً وذهب إلى الشرفة وكانت تطلّ على فناء القصر العظيم - وقوة العجالات مترابطة به في الانتظار - وتراءى الميدان عن بعد تتلاطم فيه أمواج القوم المحتفلين، فألقى على تلك الدنيا الحافلة نظرة باهتة وعاد إلى مكانه، ثم دخل إلى مخدعه وغاب

- سأذهب إلى معبد النيل خلال الجموع الساخطة،  
وسنرى ما يكون.. عد يا طام إلى واجبك.

## الأمم والسم

وكانت رادوبيس في صباح ذلك اليوم مستسلمة إلى  
الديوان الوثير تحلم، كان يومًا يتيه على الزمان بما  
ينبض فيه من أفراح العيد وبما يدخر لها من فوز  
عظيم. فأني سعادة وأي فرح. كان صدرها في ذلك  
اليوم كبركة من ماء مصفى معطر، تثبت على حفافها  
الأزهار وتغني في جوها البلبل شادية نشوى.. فيها  
لدينا الأفراح؛ ومتى تتلقى نبأ الفوز؟.. حين  
الأصيل، حين تبدأ الشمس رحلتها إلى العالم الثاني  
ويشرع قلبها في رحلته إلى دنيا السعادة واستقبال  
الحبيب، فيا لساعة الأصيل! ساعة الأصيل هي ساعة  
الحبيب، حين يقبل عليها بقوامه الفارع وشبابه  
الغض، فيلف ذراعيه المفتولتين حول خصرها الدقيق،  
يناجي اسمها العذب، يبشرها بالفوز فيقول انتهت  
الآلام، وتفرق الحكام ليحشدوا الجنود، فهنئًا لحبنا.  
آه ما أجمل الأصيل!..

ولكن كيف تصدق أن هذا النهار يتقضي؟.. لقد  
انتظرت عودة الرسول شهرًا انطوى ثقبًا مرهفًا،  
ولكنها تحال هذه الساعات العدودات أشد وطأة وأكبر  
كلفة، على أنه قلبي يخالط طمأنينة، وخوف يمازج  
سعادة.. وكأنما أرادت أن تناسي الانتظار لتتفعل  
الزمن، فعطفت أفكارها إلى هنا وإلى هناك حتى عثرت  
في شرودها بالعاشق الجاني في معبده.. في الحجرة  
الصيفية، بنامون بن بسار، ما أرقه وأخف ظله،  
كانت تساءلت مرة خيرة كيف تجزيه على ما أدى لها  
من خدمة جليلة، وقد طار على جناحي حمالة إلى  
أقصى الجنوب، وعاد بأسرع مما ذهب يحمله الشوق  
فيعبر به مشاق الطريق.. بل همست مرة في ارتباك  
كيف تستطيع أن تتخلص منه؟. ولكنك علمها بقناعتها  
أن من الحب حبًا عجيبًا لا يعرف الأثرة ولا التملك  
ولا الطمع، ويرضى بالأحلام والأوهام. فيا له من

فلاذ الرجل بالصمت وقد امتنع وجهه، ولم يتالك  
سوفخاتب نفسه فصاح:

- كيف يمكن أن أصتق أذني؟

وصاح طاهو بغضب:

- هذا جنون لا يعقل.

وضحك فرعون ضحكة عصبية، وقال بسخرية  
مريرة:

- كيف ذكرني شعبي يا طام؟. تكلم إني أمرك.

فقال الرجل:

- قال الأوغاد.. «ملكننا يلهو».. «نريد ملكًا  
جاذبًا».

فضحك الملك ضحكة كالأولى، وقال متهكمًا:

- وأأسفاه.. ما عاد مرنسرع يصلح لعرش

الكهنة!.. وماذا قالوا أيضًا يا طام؟..

فقال الرجل بصوت خافت لا يكاد يسمع:

- وهتفوا يا مولاي طويلًا بحياة حضرة صاحبة  
الجلالة الملكة نيتوقريس!.

فلاح بریق خاطف بعيني الملك، وردد اسم  
نيتوقريس بين شفثيه بصوت خافت كأنما يذكر شيئًا  
قديمًا طال به عهد النسيان، وتبادل المشيران نظرة  
الدهشة، وأحس فرعون بدهشة الرجلين وتخرج رئيس  
الشرطة، فلم يرض أن يجعل من الملكة حديثًا مريًا،  
وإن سأل نفسه حيرة: ترى ما عسى أن يكون شعور  
الملكة حيال هذه المفات. واشتد الضيق بصدرة،  
وأحس بموجة عنيفة من الغضب والتمرد والاستهتار،  
فوجه كلامه إلى سوفخاتب قائلاً بخشونة:

- هل حان موعد الذهاب؟

فقال طام بذهول:

- ألن يعدل مولاي عن الذهاب؟

فقال الملك بعنف:

- ألا تسمعي أيها الوزير؟

فاضطرب سوفخاتب وقال بخشوع:

- بعد برهة قصيرة يا مولاي.. حسبت مولاي

سيعدل عن الذهاب؟

فقال الملك يهدوء كالذي يسبق العاصفة:

إلى موطن همها فتساءلت: ترى ماذا حدث في الاجتماع الخطير الذي قال مولاها إنه سيدعو إليه ليقرا عليه الرسالة.. هل التأم ولتى النداء وأدناهما إلى أملها الفاتن؟. آواه.. متى يأتي الأصل..

وملت الجلسة، فقامت تتمشي، ودلفت إلى النافذة المطلة على الحديقة تسرح الطرف في آفاقها المنفسحة. ولبت ما لبثت حتى سمعت يدا مضطربة تطرق الباب، فالتفت متضايقة برمة، فرأت جاريتها شيت تقتحم الباب مهرولة لاهثة زائغة البصر يعلو صدرها وينخفض، وكان وجهها شاحبا كأنما تقوم ساعتها من فراش مريض طويل، فوجب قلبها، وطالعتها نذير شوم، وسألته في إشفاق:

- ما لك يا شيت؟

وهمت الجارية أن تتكلم، فغلبها البكاء، فجلت على ركبتيها أمام مولاتها، وشبكت يديها على صدرها، وأفحمت في البكاء بحالة عصبية شديدة، فاستول الانزعاج على رادويس وصاحت بها:

- ما لك يا شيت؟.. بالله تكلمي، ولا تتركيني فريسة الحيرة، فإن لي آمالا أخاف عليها الوسواس.

فتنهدت المرأة تنهدا عميقا، وشهقت شهقة عنيفة، ثم قالت بصوت باك:

- مولاتي.. مولاتي.. إنهم هائجون ثائرون!

- من الهائجون الثائرون؟

- الناس يا مولاتي.. إنهم يصرخون في غضب جنوني، مزقت الأرباب ألسنتهم.

فخفق قلبها مغزوعا وقالت بصوت متهدج:

- ماذا يقولون يا شيت؟

- آه يا مولاتي.. إنهم قوم مجانين تهذي ألسنتهم المسمومة هذيانا خفيفا.

فكادت المرأة تحن فزعًا، وصاحت بحدة:

- لا تعذبيني يا شيت! صارحيني بما قالوا.. رباه.

- مولاتي إنهم يذكرونك ذكرا غير جميل.. ماذا

فعلت يا مولاتي حتى تستحق غضبهم؟

فضمت رادويس يدها إلى صدرها، وقد اتسعت

عينها دعرًا، وقالت بصوت متقطع:

شاب حالم بعيد عن الدنيا. ولو أنه طمع في قبلة مثلاً لما عرفت كيف تتحاماها، دون أن تمد له فمها، ولكنه لا يطمع في شيء، وكأنه يخشى لو لمسها أن يحترق بلهب غامض. أو لعله لا يصدق أنها شيء يلمس ويُقبل. إنه لا يرمقها بعين إنسان فلا يستطيع أن يراها من بين الإنسان، ويقنع بأن يحيا على بهائها كما يحيا نبات الأرض بالشمس السابحة في السموات.

وتنهدت وقالت: حقًا إن الحب عالم عجيب، أما حبها فينبع متدفقا من صميم الحياة، فالقوة التي تجذبها إلى مولاها هي قوة الحياة الكاملة الرهيبية، وأما حب بنامون فيكاد أن ينقطع له عن أسباب الحياة، ويضل في آفاق سامية، لا يعلن عن أثر محسوس إلا في يده الماهرة، وأحيانا في لسانه الملثم الحار. فيا له من حب يرق من ناحية فيصير طيقا من الأحلام، ويقوى من ناحية أخرى فيبث في الصخر الأصم حياة.. فكيف تفكر في التخلص منه وهو لا يكلفها شيئا، فلتكره في معبده آمنا، يصور في جدران الصامته أجمل التهاويل التي تكتنف وجهها الجميل.

وعادت تهتف من أعماق صدرها: متى الأصل؟

... حقًا لشيت لو لبثت إلى جانبها لسلتها بثرثرتها وخبثها، ولكنها أبت إلا أن تذهب إلى أبو لمشاهدة عيد النيل..

يا ما أجل الذكريات! ذكرت العيد الماضي، يوم اعتلت هودجها الفاخر وشقت به الحشد الكبير لترى فرعون الشاب، ولما وقعت عينها عليه خفق قلبها وهي لا تدري، وأحست بدبيب الحب غريبا لطول عهدها بالجفاء، فحسبته قلعا غاصبا أو نفثة ساحر، ذاك اليوم الخالد حين خطف النسر صندلها، ولم يكد يبدأ اليوم الثاني حتى زارها فرعون، ومن ثم زار قلبها الحب وتغيرت حياتها وتغيرت الدنيا جميعا.

أما العام الثاني فما هي تقبع في قصرها، والدنيا تقصف وتلهو في الخارج، ولن يتاح لها الظهور إلا بحساب فلم تب رادويس الغانية الراقصة، ولكنها منذ عام وإلى الأبد قلب فرعون الخافق، وكانت أفكارها تضل هنا وهناك فلا تلبث أن تنجذب بعنف

أغرقت آمالها الصارخة بنير رحمة. وجعلت تسائل نفسها المحزونة: ترى ماذا حدث في أبوي؟ وكيف وقعت هذه الحوادث الخطيرة، وما الذي أثار الشعب وأخرجه عن وعيه، وهل يقدر للرسالة الفشل ويُقضى على أملها بالموت؟ الجوم مغبر كالحج، تتطاير فيه نذر شر مستطير، ولن يتذوق قلبها الطمأنينة، إنَّ الخوف القاتل يحشم عليه كقطعة من الزمهرير، وقد قالت بصوت كالبكاء:

- العون آيتها الأرباب.. هل يظهر مولاي لهذا الشعب الهائج؟  
فكانت شيت تطمئنها:

- كلاً يا مولاي.. لن يترك قصره قبل أن يُنزل عقابه بالثاثرين.

- رباه.. أنت لا تعرفين من هو يا شيت.. إنَّ سيدي غضوب لا يتقهقر أبداً، ولشد ما يخاف قلبي يا شيت. لا بد أن أراه الآن.

فارتجفت الجارية رعباً وقالت:  
- هذا مستحيل.. فالسفن الغاصّة بالمائجين تغطي سطح الماء، وحرس الجزيرة متجمّع على الشاطئ.

فشدّت على رأسها وصاحت:  
- ما بال الدنيا تضيق في وجهي، والأبواب تسد عليّ؟ إني أنردّي في بشر ضيقة من اليأس، أه يا حبيبي.. كيف أنت الآن وكيف السبيل إليك؟  
فكانت شيت تحفّف عنها:

- صبراً يا مولاي، ستتشع هذه السحابة الفاتمة.  
- يمزّق قلبي إرباً أن أشعر بأنّه يتألم. أه يا سيدي

وحبيبي! ترى ماذا يقع الآن من الحادثات في أبوا؟ وقهرتها الأحزان فانصهرت آلام قلبها وسالت دموعها ساخنة، وشدهت شيت لدى هذا المنظر الغريب إذ رأت رادوبيس ربيبة الحبّ والنعيم والترف تذرف الدمع وتأتوه من الألم واليأس، وفكرت في غيبوبة الحزن التي غشيها فيما آلت إليه آمالها التي كانت مشرقة منذ قليل، وأحسّ قلبها ببرود اليأس، وتساءلت خائفة مذعورة: هل يمكن أن يرغبوا مولاهم فيفقدوه سعادته وكبرياه أو أن يجعلوا قصرها هدفاً

- أنا.. أياغضب الناس عليّ أنا.. ألم يجدوا في هذا اليوم المقدّس ما يشغلهم عني.. رباه.. ماذا قالوا يا شيت.. أصدقيني رحمة بي.

فكانت المرأة وهي تبكي بكاءً مرّاً:  
- تصايح المجانين يا مولاي بأنك تنهين مال الأرباب.

فتنهّدت من صدر مكلم، وتمتمت بحزن:  
- أوّاه.. إنَّ قلبي ينخلع ويتوجّس خيفة، وأخوف ما أخاف أن يضيع الفوز المرتقب وسط الصراخ وصيحات الغضب. أما كان الأجدر بهم أن يتغاضوا عني إكراماً لمولاهم؟

فصكّت الجارية صدرها بيدها، ولولت قائلة:  
- إنَّ مولانا نفسه لم يسلم من أذى ألسنتهم. وفزّت صرخة فزع من فم المرأة الفزعة، وأحسّت برجفة تزلزل نفسها، وقالت:

- ماذا تقولين؟.. هل تجاسروا على مسّ فرعون؟  
فكانت المرأة الباكية:  
- نعم يا مولاي وأسفاه.. قالوا فرعون يلهو. نريد ملكاً جاداً.

فرفعت رادوبيس يديها إلى رأسها كأنّها تستغيث، وتلوّى جسمها من شدّة الألم، وارتعت بيأس على الديوان، وهي تقول:  
- رباه.. أيّ هول هذا.. كيف لا تزلزل الأرض. وتندكّ الجبال! كيف لا تصبّ الشمس نيرانها على الدنيا!

فكانت الجارية:  
- إنها تزلزل يا مولاي زلزالاً شديداً. فالقوم مشتبكون في قتال عنيف مع الشرطة، والدماء تسيل وتنفجر..

وكادت تطوئي الأقدام، فصررت لا ألوي على شيء، وانحدرت في قارب إلى الجزيرة، وما كان أشدّ انزعاجي إذ وجدت النيل يموج بالسفن، والناس على ظهرها يهتفون كما يهتف الآخرون، وكأنّهم جميعاً على ميعاد.

وغشيها خور، وطلعت عليها موجة يأس خانق،

فقال الشاب بسرور، وكان يسعده أن تطلب إليه ما تشاء:

- ستكون محضرة بين يديك بعد ساعات قلائل.  
- كيف؟ ألا ينبغي أن ترحل إلى أمبوس لإحضارها؟

- كلا.. لديّ قارورة في مسكني بأبو.  
فأثار تصريحه اهتمامها بالرغم من أحزانها، ورمقته بنظرة دهشة، فخفض عينيه وقد تحضّب وجهه احمراراً وقال بصوت خافت:

- أحضرتها في تلك الأيام الأليمة، حين كدت أشفي من حبي على اليأس، ولولا ما أبدت نحوي بعد ذلك من عطف لكنت الآن إلى جوار أوزوريس! وذهب بنامون ليحضر لها القارورة؛ أما هي فهزّت كتفها استهانة وقالت وهي تمتم بالسير:  
- قد ألوذ بها بما هو شرّ منها!!

## سَهْمُ الشَّعْبِ

صدع طاهو بأمر مولاه، فأدّى التحيّة وذهب يعلو وجهه الارتباك والخوف، وظلّ الرجلان واقفين متمتعين الوجه حتّى خرج سوفخاتب عن صمته، فقال بتوسّل:  
- أضرع إليك يا مولاي أن تعدل عن الذهاب اليوم إلى المعبد.

ولكنّ فرعون لم يتسع صدره لهذه النصيحة، فقطّب جبينه غضباً وقال:

- أأفرّ لدى أوّل هتاف؟

فقال الوزير:

- مولاي إنّ القوم هائجون غاضبون، فينبغي التروّي.

- يحدّثني قلبي بأنّ خططنا سائرة إلى الفشل المحتوم، فإذا تراجعت اليوم خسرت هيبتي إلى الأبد.

- وغضب الشعب يا مولاي؟

- سيهدأ ويسكن إذا رأي أشقّ صفوفه على عجلتي كالسلّة للشاخّة، واقتحام الأهوال ولا التسليم والخنوع.

لغضبهم ومقتهم؟ إنّ الحياة لا تطاق مع تحقيق أيّ من هذه الوسوس، ولخير لها أن تفارق الحياة إذا فرغت من مجدها وسعادتها، فليّما أن تعيش رادوبيس التي حالفها الحبّ والمجد وإمّا أن تموت. وفكرت في أمرها طويلاً حتّى أحضرت لها ذاكرة الأحزان ما كانت أدرجته طوايا النسيان، فاستولى عليها اهتمام شديد، وقامت من فوريتها وغسلت وجهها بماء بارد لتمحو أثر البكاء من عينيها، وقالت لثيث: إنّها ستحدّث إلى بنامون في بعض الشئون. وكان الشابّ منهمكاً في عمله كعادته، غافلاً عنيّ يكدر صفو الدنيا من خطير الحدّثان. ولما أحسّ بها أقبل نحوها فرحاً، ولكنّه سرعان ما وجم وقال:

- وحقّ هذا الحسن الإلهيّ إنّك حزينة اليوم.

فقالت وهي تخفض ناظرها:

- بل تعب فقط أو كالمریضة.

- الجوّ شديد الحرارة، لماذا لا تجلسين ساعة إلى شاطئ البركة؟

فقالت باقتضاب:

- جئتك برجاء يا بنامون.

فعمد ذراعيه إلى صدره كأنما يقول لها هأنذا طوع بئناك.

فقالت:

- أتذكر يا بنامون أنّك حدّثني يوماً عن السموم العجيبة التي ركبها أبوك؟

فقال الشابّ وقد بدت على وجهه الدهشة:

- نعم أذكر ذلك بغير ريب!

- بنامون، أريد قارورة من هذا السّم العجيب، الذي أطلق عليه أبوك السّم السعيد.

فازداد الشابّ دهشة وتمتم متسائلاً:

ولمّ؟

فقالت بلهجة هادئة ما استطاعت:

- لقد حدّث أحد الأطباء فأبدى اهتماماً بشأنه،

وطلب إليّ أن أوافيه بقارورة منه، عسى أن ينقذ بها

حياة أحد مرضاه، فوعدهت يا بنامون، فهل تعدني

بدورك أن تحضرها لي في أقرب وقت؟

وما هم أولاء يعلنون العداوة ويبدأوننا بالهجوم!  
ووقع الكلام من الأذان موقعاً غريباً لا يصدق،  
وبدا على الوجوه كأنما تتساءل في دهشة وإنكار: أحقَّ  
أنَّ هذا فرعون؟ وهذا شعب مصر؟ . . ولم يطق طاهو  
صبراً. فقال لمولاه:

- مولاي! هذا يوم كتيب كأنما دسَّ الشيطان خفية  
في دورة الزمان وكانت بدايته سفك دماء، والربّ  
أعلم كيف يكون منتهاه، فمرني أن أقوم بواجبي.  
فسأله فرعون:

وماذا أنت فاعل يا طاهو؟

- سأوزع الجنود على أماكن الدفاع الحصينة، وأقود  
فرقة العجلات لللاقاة الثائرين، قبل أن يتغلبوا على  
الشرطة ويتحتموا الميدان إلى القصر.  
فابتسم فرعون ابتسامة غامضة وصمت ملياً، ثمّ  
قال بصوت رهيب:

- سأقودها بنفسي.

فانخلع قلب سوفخاتب في صدره، وصاح بالرغم  
منه.

- مولاي!

فضرب الملك صدره بيديه بعنف، وقال:  
- ما زال هذا القصر حصناً ومعبدًا منذ آلاف  
السنين، ولن يصير على عهدي هدفاً رخيصاً لكلّ  
متمرد.

خلع الملك جلد النمر ورماه بازدياء، وأسرع إلى  
خدعه ليرتدي لباسه الحربي. وفقد سوفخاتب أثرانه،  
وتوجّس خيفة وشرّاً، فالتفت إلى طاهو، وقال بلهجة  
الأمر:

- أيّها القائد لا وقت لدينا نصيّعه، فاذهب وأعدّ  
الدفاع عن القصر، وانتظر ما يأتيك من الأوامر.  
وخرج القائد يتبعه الشرطي، ولبت الوزير ينتظر  
الملك.

ولكنّ الحادثات لم تنتظر، فقد حملت الريح ضوضاء  
صاخبة، ما زالت تعلو وتشدّ حتى طبّقت على الآفاق،  
فهرول سوفخاتب إلى الشرفة المطلّة على فناء القصر  
وألقى بناظره إلى الميدان، فرأى جموع الشعب تعدو

ومضى فرعون يذرع الحجرة جيئةً وذهاباً ساخطاً  
شديد التأثير، فسكت سوفخاتب وهو كظيم، وعطف  
ناظره إلى طاهو وكأنّه يستغيث به. ولكنّ القائد كان  
غارقاً في الهموم كما بدا من امتقاع وجهه، وشرود  
نظرته، وثقل أجفانه. فشملهم صمت عميق، ولم  
يكن يسمع إلّا وقع أقدام الملك.

وقطع عليهم سكونهم أحد الحجاب، وكان متسرّعاً  
مضطرباً، فانحنى للملك، وقال:  
- ضابط من الشرطة يستأذن يا مولاي في المثول بين  
يديك.

فأذن له الملك، وحذج رجله بنظرة يفحص بها أثر  
قول الحاجب في نفسه. فوجدهما قلقين مضطربين.  
فعلت فمه ابتسامة ساخرة، وهزّ كتفيه العريضتين  
استهانةً. ودخل الضابط وكان يلهث من الجهد  
والاضطراب، وكانت ثيابه معقّرة وقلنسوته مضمضعة  
تنذر بالشرّ، فأدّى التحية، وقال قبل أن يؤذن له في  
الكلام:

- مولاي! إنّ الشعب مشتبك مع رجال الشرطة  
في قتال عنيف، وقد قُتل من الجانبين رجال كثيرون،  
ولكن سيقترحنا القوم إذا لم تصلنا نجدات قويّة من  
الحرس الفرعونيّ.

وارتاع سوفخاتب وطاهو ارتياحاً، ونظرا إلى فرعون  
فوجداه مرتعش الشفتين من الغضب، وقد صاح  
بصوت أجشّ:

- وحقّ الأرباب جميعاً ما أتى هذا الشعب للاحتفال  
بالعيد.

فاستدرك الضابط قائلاً:

- وقد أذنتنا العيون يا مولاي أنّ الكهنة يخطبون  
الناس في أطراف المدينة زاعمين لهم أنّ فرعون يتدّرع  
بوجود حرب وهميّة في الجنوب ليحشد جيشاً يذلّ به  
الشعب، والناس تصدّقهم ويشتدّ بهم الغضب، ولولا  
وقوف الشرطة في وجههم لاقتحموا السبل إلى القصر  
المقدّس.

فصاح فرعون كالرعد:

- قطع الشكّ باليقين، وافتضحت الخيانة اللثيمة



يُخَدُّ على جدران المعابد.. مرحى مرحى يا شعب مصر.

وكان الحراس يقاتلون بشدة وبسالة، ويطلقون السهام كالطر، فإذا سقط منهم قتيل حلّ مكانه غيره مستهينًا بالموت، والقوّاد على متون الجياد يطوفون بالأسوار ويديرون القتال.

وإنّه ليشاهد هذه المناظر الأليمة، إذ سمع صوتًا يعرفه حقّ المعرفة يقول:

- مولاي.

فالتفت إلى الورا مدهوشًا، فرأى الذي يناديه على قيد خطوتين، فقال بعجب:

- نيتوقريس!

فقالت الملكة بصوت حزين:

- نعم يا مولاي، لقد صدّك أذني صراخ بشع لم يسمع من قبل في هذا الوادي، فجت ساعية إليك لأعلن ولائي، وأشاطرك المصير.

قالت ذلك، ثم ركعت على ركبتيها وأحنت رأسها، فتقهقر سوفخاتب إلى الخارج. وبادر الملك إلى معصمها ورفعها من ركبعتها، ونظر إليها بعينين مرتبتكين. ولم يكن رآها من اليوم الذي جاءت فيه إلى جناحه وردّها أسوأ ردّ، فاشتدّ به الحرج والألم، على أنّ صياح القوم وصراخ المتقاتلين ردّاه إلى ما كان عليه، فقال لها:

- شكرًا لك أيتها الأخت، تعالي انظري إلى شعبي، إنه يجيئي في يوم العيد.

فخفضت عينيها، وقالت في حزن عميق:

- كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

واستحال تهكّم الملك غضبًا وسخطًا وازدراء، وقال بلهجة تنطوي على الاشمئزاز:

- بلد مجنون، جوّ خائف، قلوب ملوّنة.. خيانة.. خيانة.. خيانة..

فارتعدت فرائص الملكة لذكر كلمة الخيانة، وجمدت عيناها من الذعر، وأحسّت بأنفاسها تحبّس في صدرها.

ترى هل حمل هتاف القوم لها على بعض الظنّ؟..

قادمة من بعيد هاتفة ملوّحة بالسيوف والخناجر والعصي. كأنّها أمواج فيضان هائل جارف لا ترى العين منها إلّا رؤوسًا عارية وسلّاحًا لامعًا. فأحسّ الوزير بالفزع ونظر إلى أسفل، فرأى العبيد في حركة سريعة يثبّتون المتاريس خلف الباب العظيم، وجرى المشاة كالنصور وارتقوا الأبراج المقامة على السور المحيط في الأمام على الجانبين الشمالي والجنوبي، واندفعت قوّات عظيمة منهم إلى عمّ الأعمدة الموصل إلى الحديقة يحملون الرماح والقسي، أما العجلات، فقد ارتدّت إلى الورا، واصططت صفّين طويلين تحت الشرفة استعدادًا للانطلاق في الفناء إذا اقتحم الباب الخارجي.

وسمع سوفخاتب وقع قدمين خلفه، فالتفت إلى الورا، فرأى فرعون واقفًا على عتبة الشرفة في ثياب القيادة العليا، على رأسه تاج مصر المزدوج، وكانت عيناه ترسلان شررًا متطايرًا، والغضب مرتسبًا على وجهه كلسان من اللهب، ويقول حانقًا مغيطًا:

- حوصرنا قبل أن نبدي حراكًا!

فقال سوفخاتب:

- القصر يا مولاي قلعة لا تؤخذ، يدافع عنها جنود جبابة، وسيرتدّ الكهنة مهزومين.

وجمد الملك في مكانه، وتراجع الوزير وراءه، وجعلًا ينظران في صمت محزن إلى الجموع التي لا يحصيها العدّ، وهي تهدر كالوحوش، وتلوح مهتدة بسلاحها، وتهتف بأصوات كالرعد: «العرش لنيثوقريس»، «ليسقط الملك العايب». وكانت جنود الحرس تطلق السهام من خلف الأبراج، فتستقرّ في المقاتل، وردّ الثائرون بسيل عارم من الأحجار والأخشاب والسهام.

وهزّ فرعون رأسه، وقال:

- مرحى.. مرحى.. أيتها الشعب الكاسر الذي جاء لخلع الملك العايب، ما هذا الغضب، ما هذه الثورة، لماذا تهتّد بهذا السلاح، أتريد حقًا أن تغمدته في قلبي؟.. مرحى.. مرحى.. إنه لمنظر حقيق بأن

- لعلك وجدت في حياتي ما أخجلك، ولكنك لن  
تجبل من موتي أبدًا!

والفتت إلى الملكة، وقال لها:

- هل تغفرين إساءتي يا نيتوقريس؟

وكان التأثير قد بلغ منها مبلغًا عظيمًا، فاغرورت  
عينها بالدموع، وقالت:  
- لقد نسيت همومي في هذه الساعة.

فقال بانفعال شديد:

- طالما أسأت إليك يا نيتوقريس، لقد تناولت على  
كبريائك، وظلمتك وجعلت حماقتي من سيرتك  
أسطورة حزينة تلقى بالإنكار والغربة. كيف حدث  
هذا؟.. وهل كنت أستطيع أن أغتير المجري الذي  
تنصّب فيه حياتي... لقد غمرتني الحياة وتولّاني جنون  
عجيب، ولا أستطيع حتّى في هذه الساعة أن أعلن  
ندمي، وأسفاه إنّ العقل يستطيع أن يعرفنا بسخفنا  
وتفاهتنا، ولكن يبدو لي أنّه لا يقدر على تلافئها. هل  
رأيت أقدم من هذه المأساة التي أرادها؟.. ومع هذا  
قلن يفيد الناس منها إلّا بلاغة كلاميّة، وسيقى  
الجنون ما بقيت حياة الناس. بل لو بدأت حياتي من  
جديد لما تجنّبت الوقوع مرّة أخرى، أيّتها الأخت..  
لقد ضاقت نفسي بكلّ شيء، وما من فائدة ترجى.  
فالخير أن أستحقّ النهاية.

وبدا على وجهه العزم والاستهتار، فسألته حائرة  
قلقة:

- أيّ نهاية يا مولاي؟

فقال بحدّة:

- لست نذلًا لثيًّا، وأستطيع أن أذكر واجبي من  
بعد طول النسيان. ما جدوى القتال؟.. سيُصرع  
جميع رجالي المخلصين أمام عدوّ لا يحصى له عدد،  
وسياتي دوري حتّى بعد إزهاق آلاف من الأرواح من  
جنودي وشعبي، ولست جبانًا رعديًا يلوذ بأهداب  
الحياة قابضًا على خيط وإٍ من الأمل، فلاحقن الدماء  
وأواجه الناس بنفسي.

وهل يكون جزاؤها الاتهام بعد أن طوت فؤادها على  
أسقامه، وجاءت طوعًا إلى من أهانها وأشقاه؟..  
وهاها الأمر، فقالت:

- وأسفاه يا مولاي، ليس في وسعي إلّا أن  
أشاطرك المصير، ولكنّي أعجب من الخائن، وكيف  
كانت الخيانة؟!

- الخائن رسول ائتمته على رسالة، فسلمها إلى  
عدوّي؟!

فقالت الملكة بلهجة استغراب:

- لا علم لي بالرسالة، ولا بالرسول، ولا أظنّ أنّ  
الوقت يتسع لإنباثي، وما أتمنّى عليك من شيء إلّا أن  
أظهر إلى جانبك أمام الشعب الذي يهتف لي ليعلم أنّي  
أواليك، وأنّي أعادي من يعاديك.  
- شكرًا لك يا أختاه، ليس من حيلة، وما عليّ إلّا  
أن أستعدّ لموت شريف.

ثمّ أمسك بذراعها، وسار بها صوب حجرة  
اعتكافه، وأزاح الستار المسدل على بابها ودخلا معًا  
إلى الحجرة الفاخرة، وكان يطالع الداخل محراب  
منحوت في الجدار يقوم بداخله تمثالان للملك والملكة  
السابقين، فأنّجه الملكان إلى تمثالي والديهما، ووقفا  
أمامهما خاشعين صامتين ينظران بعينين حزيتين  
كثيبتين، وقال الملك بصوت ثقيل، وهو ينظر إلى تمثالي  
والديه:

- ترى ما رأيكما في؟!

وسكت لحظة كأنّه ينتظر أن يتلقّى الجواب، وعاوده  
انفعاله فغضب على نفسه، ثمّ ثبت عينيه على وجه  
أبيه، وقال:

- لقد أورثني ملكًا عظيمًا ومجدًا أثيلًا، فإذا صنعت  
بها؟ لم يكد يمضي عام على توليتي حتّى شارفت الدمار،  
وأسفاه لقد أذلت عرشي موطئًا للنعال، وجعلت  
اسمي مضغة للأفواه، واكتسبت لنفسي اسمًا جديدًا لم  
يطلق على فرعون من قبل، هو الملك العابت.  
وانحنى رأس الملك الشابّ مثقلًا حزينًا، ولبث  
ينظر إلى الأرض بعينين مظلمتين، ثمّ رفعهما إلى تمثال  
والده، وتمتم:

- سيئتَ ظهور مولاي روح الحماس في قلوبهم  
الباسلة.

فلم يحبه الملك. وهبطا الأدراج معًا إلى عمر  
الأعمدة الطويل الذي يصل ما بين الحديقة والفناء،  
وأرسل في طلب طاهو، وانتظر صامتًا. وفي تلك  
اللحظة نزعته نفسه إلى الناحية الجنوبية الشرقية، إلى  
بيجة. . وتنهّد من أعماق قلبه، لقد ودّع كلّ شيء إلّا  
أحبّ الأشياء إليه، فهل تحمّ النهاية قبل أن يلقي نظرة  
على وجه رادوبيس ويسمع صوتها لآخر مرّة؟ .  
وأحسّ قلبه بحنين أليم وحزن شديد، وصحا من  
غفوة همومه على صوت طاهو يحثّه، فاندفع بقوة  
لا تقهر إلى سؤاله عن طريق بيجة قائلاً:  
- هل النيل آمن؟.

فأجابه القائد قائلاً، وكان ممتنع الوجه شديد  
الشحوب:

- كلّا يامولاي. ولقد حاولوا أن يهاجمونا من الخلف  
بالقوارب المسلّحة، ولكنّ أسطولنا الصغير ردّهم بغير  
عناء، ولن يؤخذ القصر من هذه الناحية أبداً.  
ولم يكن القصر الذي يهّم الملك، لذلك أحنى  
رأسه، وقد أظلمت عيناه. سيموت قبل أن يلقي نظرة  
وداع على الوجه الذي باع الدنيا ومجدها من أجله.  
ترى ماذا تفعل رادوبيس في هذه الساعة المفجعة. .  
هل بلغها ما أصاب آمالها من الانهيار، أم إنّها ما تزال  
تتبه في وديان السعادة، وتنتظر عودته بفارغ الصبر؟  
ولم يكن الوقت يسمح له بالاستسلام إلى أحزانه،  
فطوى آلامه في صدره، وقال لطاهو أمراً:  
- مرّ جنودك أن تخلي الأسوار، وتكفّ عن القتال،  
وتعود إلى ثكناتها.

فاستولت الدهشة على طاهو، ولم يصلّق سوفخاتب  
أذنيه فقال بانزعاج:

- ولكنّ الشعب يقتحم الباب تواتاً!

ولبت طاهو واقفاً لا يبدى حراكاً، فصاح الملك  
بصوت كالرعد دوى دويّاً خفيفاً في مرّ الأعمدة:  
- اصدع بما أمرت.

وذهب طاهو ذاهلاً يتنقّد أمر مولاه، وتقدّم فرعون

فارتاعت الملكة وقالت:

- مولاي. . أتحمّل ضمير رجالك وزر التخلي عن  
الدفاع عنك؟ . .

- بل لا أريد أن أضحيّ بهم عبثاً، وسألقي عدويّ  
وحيداً لنصفيّ حسابنا معاً.

فأحسّت بامتعاض شديد، وكانت تعرف عناده،  
فيست من إقناعه، وقالت بهدوء وحزم:

- سأكون إلى جانبك.

ولكنّه هلع، وأمسك بذراعيها، وقال بتوسّل:

- نيتوقريس، إنّ الشعب يريدك، وحسناً أراد.  
فأنت جديدة بحكمه فابقي له. إياك وأن تظهري إلى  
جانبي فيقولوا إنّ الملك يحتمي بزوجه أمام شعبه  
الغاضب.

- وكيف أتخلّى عنك؟

- افعلي هذا من أجلي، ولا تُقدمي على عمل  
يفقدني شرفي إلى الأبد.

فأحسّت المرأة بالحيرة والارتباك والضيق الشديد،  
فصاحت يائسة:

- يا للساعة الرهيبة!

فقال الملك:

- هذه رغبتني نقّذها إكراماً لي، لا تقاومي وحقّ  
والدينا، فإنّ كلّ دقيقة تمرّ يسقط جنود بواسل بغير  
ثمن. الوداع آتيتها الأخت الكريمة، أنا ذاهب موقناً  
بأنّك لن تلتخيني بالعار في ساعتني الأخيرة، إنّ من  
يتمنّع بالسلطان الكامل لا يستطيع أن يقنع بالأسر في  
قصر. فالوداع آتيتها الدنيا، الوداع آتيتها اللذات  
والآلام. . الوداع آتيا المجد الكاذب والمظاهر الجوفاء.  
لقد مجّت نفسي كلّ شيء، فالوداع الوداع. .

وهوى بفمه فقبل رأسها، والتفت إلى تمثالي والديه،  
وانحنى لهما، ثمّ ذهب.

ووجد سوفخاتب ينتظر في الردهة الخارجيّة،  
جامداً كتمثال أخنى عليه القَدَم؛ فلَمّا رأى مولاه دبّت  
فيه الحياة وتبعه في سكون، وفسر خروجه على هواه،  
فقال:

وسكت فرعون، ولم يقل شيئاً. وفي أثناء ذلك كانت توجه إلى باب القصر الكبير ضربات شديدة قاصمة، ولم يتجاسر أحد على اعتلاء الأسوار كأنهم توجسوا خيفة من انسحاب الحرس المفاجئ، وتوهموا أنه ينصب لهم شركاً قاتلاً، فوجهوا كل قوتهم إلى الباب، ولم يحمل الباب ضغطهم زمناً طويلاً فترعزت المتاريس وارتج بنيانه وهوى بقوة عنيفة رجّت الأرض رجاً، واندفعت الجموع متدفقة صاخبة، وانتشروا في الفناء كغبار ريح الصيف. وكانوا يتدافعون بعنف، وكأنهم يتقاتلون، ويتباطأ المتقدمون منهم ما استطاعوا خشية خطر غير منظور. وما زالوا في تقدّمهم حتى شارفوا القصر الفرعوني، ولحت أعينهم الواقف عند مدخل الممر، وعلى رأسه تاج مصر المزدوج فعرفوه، وأخذوا بمنظره ووقته وحيداً لهم. وتشبّثت أقدام الذين على الرؤوس بالأرض، ونشروا أذرعهم يوقفون التيسار الجارف المنصب وراءهم، وصاحوا في الجموع:

- مهلاً.. مهلاً.

ولعب أمل ضعيف بقلب سوفخاتب حين رأى الذهول يستولي على قادة الثائرين فيشلّ أعضاءهم، ويزيغ أبصارهم، وتوقع قلبه التهالك معجزة تخلف ظنه الأسود. ولكن كان يوجد بين الثائرين دهشة يشفقون ممّا يرجو قلب سوفخاتب، وخشوا أن ينقلب فوزهم هزيمة، ويخسروا قضيتهم إلى الأبد، فامتدت يد إلى قوسها، ووضعت سهماً في كبده، وسدّته إلى فرعون وأطلقته، فانطلق السهم من وسط الجموع واستقرّ في أعلى صدر الملك دون أن تمنعه قوة أو رجاء، وصرخ سوفخاتب كأنما هو الذي أصيب، ومدّ يديه يسند الملك فالتفتا مع يدي طاهو الباردتين. وأطبق الملك شفّته فلم يخرج منها أنين، ولا آهة، وتماسك بما بقي فيه من قوة ليحفظ توازنه وقد تقطّب جبينه، وارتسم عليه الألم، وأحسن سريعاً بخور وضعف، وأظلمت عيناه فترك نفسه لا يدي رجله المخلصين.

وساد الصفوف الأمامية سكون رهيب، وعقد

بخطى ثابتة نحو فناء القصر، فالتقى عند نهاية الممر بفرقة العجلات المصطفة، وقد رآه الضباط والجنود، فسألوا أسياهم وأدوا التحية، فنادى الملك قائد الفرقة وقال له:

- عد بفرقتك إلى الثكنات ولا تبرحها حتى تأتيك أوامر أخرى.

فأدى القائد التحية وجرى نحو فرقته، ونادى في الجند بصوت شديد فتحركت العجلات بسرعة وانتظام إلى ثكناتها في الجناح الجنوبي من القصر. وكان سوفخاتب ترتعد أوصاله، ولا تكاد تحمله قدماء الضعيفان، وقد أدرك ما يريده مولاه، ولكنّه لم يستطع أن ينطق بكلمة.

ومضت الجند تخلي مواقعها الحصينة منفذة الأمر الرهيب، وتنزل عن الأسوار والأبراج وتنطوي في نظام إلى ألويتها، ثم تعدو بسرعة إلى الثكنات يتقدّمها ضباطها. وما لبثت أن خلت الأسوار، وخلا الفناء والممرات حتى من قوات الحرس العادي المنوط بها واجب الحراسة في أوقات السلام.

وظلّ الملك واقفاً عند مدخل الممر وإلى يمينه سوفخاتب. وعاد طاهو لاهثاً، ووقف إلى يساره، وقد بدا وجهه كالشيخ المخيف. وكان كلا الرجلين يرغب في التوسّل إلى الملك برغبة حارة، ولكن ما بدا على وجهه من الجمود والصلابة والشدة، بدّد شجاعتهما، فلازما الصمت مرغمين. والتفت الملك إليهما، وقال بهدوء:

- لماذا تنتظران معي؟

فارتعب الرجلان أيما ارتعاب، ولم يستطع طاهو إلا أن ينطق بهذه الكلمة بتوسّل وإشفاق:

- مولاي.

أما سوفخاتب فقال بهدوء غير عادي:

- إذا أمرني مولاي بالتخلي عنه سأصعد بأمره لا محالة، ولكنّي سأزحق نفسي في الحال.

فتنهّد طاهو ارتياحاً كأنه ظفر بالحلّ الذي أعياه طلبه، وتمتم قاتلاً:

- أحسنت أيها الرئيس.

وأراد الطبيب أن ينتزع السهم، ولكنَّ الملك قال له:

- دعه لا فائدة ترجى من هذا العذاب.  
واشتدَّ التأثّر بسوفخاتب، فقال لطاهو بانفعال شديد غير نبرات صوته تغيّرًا تامًّا:  
- ادعُ جندك، وانتقم لمولاك من المجرمين.  
ويدت على الملك المضايقة، فرفع يده بصعوبة، وقال:

- لا تتحرّك يا طاهو، هل هانت عليك أوامري يا سوفخاتب في رقادي هذا!! لا قتال بعد الآن، قولوا للكهنة إنَّهم بلغوا غايتهم، وإنَّ مرئير الثاني على فراش الموت، فليرجعوا بسلام.  
وسرت رعدة في جسم الملكة فمالت على أذنه، وقالت همسًا:

- مولاي! لا أحبّ أن أبكي أمام قاتليك، ولكن ليطمئنَّ قلبك، فوحقَّ أبويننا، وحقَّ الدم الزكيّ لأنتقمنَّ من عدوك انتقامًا تتحدّث به الأزمان جيلاً بعد جيل.

فابتسم إليها ابتسامة خفيفة يعبرُ بها عن شكره ومودّته، وغسل الطبيب الجرح وسقاه جرعة من دواء مسكّن، ووضع بعض الأعشاب حول السهم، واستسلم الملك إلى يديه ولكنّه كان يشعر بدنوّ أجله وباقتراب الساعة الفاصلة، ولم ينس في رقاده الوجه الحبيب الذي تمّنى لو يودّعه قبل النهاية المحتومة فلاحت في عينيه نظرات حنين، وقال بصوت خافت بغير وعي منه إلى ما حوله:

- رادوبيس.. رادوبيس.  
وكان وجه الملكة قريبًا من وجهه فسمعتة، وأحسّت بطعنة نجلاء تخترق شغاف قلبها، فرفعت رأسها وقد أحسّت بدوار شديد. ولم يلقِ بالألّا إلى شعور الآخرين، فأومأ إلى طاهو، فبادر الرجل إليه. فقال له برجاء:

- رادوبيس.  
فقال القائد:  
- هل آتي بها يا مولاي؟

الأسنة صمت ثقيل: وهلعت الأعين، وأرسلت نظرات زائغة إلى الرجل العظيم الذي يعتمد على رجله تتحسّس يده موضع السهم في صدره فيلطحها الدم الساخن المتدفّق بغزارة، وكأنّهم لا يصدّقون أعينهم، أو كأنّهم هاجوا القصر لغير هذه الغاية.  
ومزّق السكون صوت من المؤخّرة يسأل:  
- ماذا هنالك؟

فقال آخر بصوت خافت:  
قُتل الملك!!  
وتناقلتها الأسنة بسرعة جنونيّة، وتصايح بها الناس، وهم يتبادلون نظرات الحيرة والارتياح.

ونادى طاهو عبداً وأمره أن يحضر هودجاً، فجرى الرجل إلى داخل القصر، وعاد يحمل هودجاً هو وجماعة من العبيد، فوضعه على الأرض ورفعوا جميعاً فرعون وأناموه في رفق. وانتشر الخبر داخل القصر، فجاء طبيب الملك مسرعاً، وظهرت خلفه الملكة، وكانت تسرع الخطى في اضطراب بادٍ، ولما وقعت عينها على الهودج وعلى النائم جرت إليه فزعة، وجثت على ركبتيها إلى جانب الطبيب، وهي تقول بصوت متهلّج:

- يا للويل.. قد أصابوك يا مولاي كمشيئتك!  
وشاهد القوم الملكة، فصاح واحد منهم:  
- جلالة الملكة.

وانحنّت هامات الشعب الواجم كأنّه في صلاة جامعة. وأخذ الملك يفيق من أثر الصدمة الأولى، ففتح عينيه المغمضتين، ومضى يقبلُهما فيمن حوله في هدوء وضعف. وكان سوفخاتب يملق في وجهه في ذمول وصمت، وكان طاهو جامداً ووجهه كوجوه الموتى، وكان الطبيب يفحص الجرح، يكشف عنه قميص الزرد. أمّا الملكة فقد اكتسى وجهها بالجزع والألم، وقالت للطبيب:

- أليس بخير؟ قل لي إنّه بخير!  
فأدرك الملك ما تقول، وقال ببساطة:  
- كلّاً يا نتيوقريس. إنّه سهم قاتل.

فقال بصوته الخافت:

- كلاً. . احلني إليها، في قلبي بقية حياة أريد أن تنفذ في بيعة.

ووجه طاهو نظرة إلى الملكة في ارتباك شديد، فقامت الملكة واقفة وقالت بهدوء:

- نفذ مشيئة مولاي.

وسمع الملك صوتها، وأدرك قولها، فقال لها:

- آيتها الأخت، طالما غفرت لي الذنوب، فاغفري لي هذه أيضاً. . إنها رغبة ميت.

فابتسمت الملكة ابتسامة حزينة. وانحنى على جبينه ولثمته، ثم أوسعت للعبيد.

## الوداع

انحدرت السفينة في هدوء متجهة صوب جزيرة بيعة، والهودج في مقصورتها بحمله الثمين، يقف الطبيب عند رأسه، وطاهو وسوفخاتب عند قدميه. . وكانت هذه أول مرة يجتمع فيها الحزن على السفينة، فتحمل مولاهما نائثاً مستسلمًا، يغطي وجهه ظل الموت. وكان الرجلان يلازمان الصمت وعيناهما الحزبتان لا تفارقان وجه الملك الشاحب، وكان يرفع جفنيه الثقيلتين، وينظر إليهما نظرة ذابلة، ثم يعود فيغمضهما في تراخ. ومضت السفينة تدنو من الجزيرة رويدًا، رويدًا، حتى رست إلى سلم حديقة القصر الذهبي. ومال طاهو على أذن سوفخاتب، وهمس قائلاً:

- أرى أن يسبق أحدنا الهودج حتى لا تؤخذ المرأة بغتة.

ولم يكن سوفخاتب في تلك الساعة الرهيبية يبالي شعور إنسان، فقال باقتضاب:

- افعل ما بدا لك.

ولكن طاهو لم يبرح مكانه، ولبسته حيرة التردد، فقال:

- يا له من نبالا يدري الإنسان كيف يؤذيه إليها.

فقال سوفخاتب بحدة:

- ماذا تخشى أيها القائد؟ إن من يتلي بمثل ما ابتلينا به لا يعمل حسابًا لمحدور.

قال سوفخاتب ذلك، وغادر المقصورة مسرعًا، وصعد درجات السلم إلى الحديقة، واخترق المشى مهرولاً حتى انتهى إلى البركة، فاعترضت سبيله الجارية شيث، وقد دهشت الجارية لمراه، وكانت تعرفه من تلك الأيام الخوالي. وفتحت فاهًا لتكلمه، ولكنّه قطع عليها السبيل قائلاً بسرعة:

- أين سيدتك؟

فقال شيث:

- مسكنة سيدي لا تعرف اليوم لنفسها مستقرًا. وما

زالت تدور بالحجرات، وتطوف بالحديقة حتى. . .

وفرح صبر الرجل فقاطعها قائلاً بحدة:

- أين سيدتك؟

فقال مستاءة:

- في الحجرة الصيفية يا سيدي.

وأسرع الرجل إلى الحجرة. ودخل متنحنًا، وكانت رادوبيس جالسة على كرسيّ مسندةً رأسها إلى يدها، فلما أحسّت بالداخل التفتت إليه، وسرعان ما عرفته، فقامت واقفة وكأنّها تغفر قفراً، وقالت باهتمام وقلق:

- الرئيس سوفخاتب. . أين مولاي؟

فقال الرجل الغارق في حزنه بذهول:

- سيأتي عما قليل. .

فضمت يديها إلى صدرها فرحًا، وقالت بصوت

بحج:

- لشّد ما عذبتني المخاوف على سيدي، لقد بلغني أنباء العصيان المحزنة، ثم انقطع عني كلّ شيء، فتركت وحدي إلى وساوس قلبي. . متى يأتي سيدي؟

وذكرت بسرعة خاطفة أنّه لم يتعوّد أن يرسل رسولاً بين يديها فاعتورها القلق وقالت بسرعة قبل أن يبدأ سوفخاتب كلامه:

- ولكن لماذا بعثك إليّ؟

- كيف تركوه في صدرك؟! هل أستدعي الطبيب؟!

فاستجمع قواه الخائرة المشتتة، وقال بصوت ضعيف:

- لا فائدة.

فلاححت في عينها نظرة جنونية، وقالت بصوت العتاب:

- لا فائدة يا حبيبي.. كيف تقول هذا؟.. هل هانت عليك حياتنا!.. فمدّ يده في ضعف شديد حتى مسّت كفّها الباردة، وهمس قائلاً:

- هي الحقيقة يا رادوبيس، لقد جئت لأموت بين يديك في المكان الذي أحببته أكثر من أي مكان في الدنيا.. فلا تندي حظنا، وامنحني صفاء.

- مولاي، أتدعي إليّ نفسك؟! يا لساعة الأصيل هذه، كنت أنتظرها يا حبيبي بنفس أضناها الشوق وغرّرت بها الأمل، وكنت أرجو أن تحيي حاملاً إليّ بشرى الفوز، فجئت حاملاً إليّ هذا السهم.. كيف لي بالصفاء؟!

فازدرد ريقه بصعوبة، وقال بتوسّل وبصوت كالأنين:

- رادوبيس تنامي هذا الألم وادني منّي، أريد أن أنظر إلى عينيك الصافيتين.

إنّه يريد أن يرى الوجه الصبيح المتألق بالغبطة والسعادة ليختم بصورته الفاتنة حياته، أمّا هي فكانت تعاني آلاماً لا قيل لإنسان بها، وكانت تودّ لو تنفّس عن صدرها المضطرب بالصراخ والعويل والهذيان، أو تلتمس الشفاء في الجنون العنيف واصطلاء نيران الجحيم، فكيف تصفو وتهدأ وتطالعه بالوجه الذي أحبه وسكن إليه دون العالمين.. وكان يتابع النظر إليه برجاء، فقال بحزن:

- ليست هاتان العينان عينيك يا رادوبيس.

فقالت بأسى وحزن:

- هما عيني يا مولاي، ولكن جفّ ما يمدّهما بالنور والحياة.

فقال الوزير بجمود:

- صبراً يا سيّدي، فلم يرسلني أحد، والحقيقة الأسيفة أنّ مولاي أصيب.

ووقعت هذه الكلمة الأخيرة من أذنيها موقعاً غريباً دامياً، فحملت في وجه الوزير الكتيب فزعة، وصدرت عن صدرها آهة زفرة حرّى مرتعشة، فقال سوفخاتب الذي أفقده الحزن شعوره:

- صبراً صبراً.. سيصل مولاي محمولاً على هودجه كمشيته. لقد أصيب بسهم في هذا اليوم المنكود الذي غدا عيداً وأضحى مأتماً مروّعاً.

ولم تحمل المكوث في الحجرة، فجرت إلى الحديقة كالفرخة الذبيح، ولكنّها لم تكند تجاوز العتبة حتى سمّرت قدميها في الأرض، وثبتت عينها على الهودج يحمله العبيد متجهين صوب الحجرة، فأفسحت لهم الطريق، وهي تضع يديها على رأسها المضطرب من هول المنظر، ثمّ تبعتهن على الأثر. وقد وضعوا الهودج في حرص شديد وسط الحجرة وانسحبوا خارجاً، وخرج في ذيلهم سوفخاتب، وخلا المكان لها وله.. واندفعت إلى الركوع إلى جانبه، وشبكت أصابع يديها وشدّت عليها بقسوة وبحالة عصيّة عنيفة، ونظرت إلى عينيه الساهمتين الذابلتين، وقد انقطعت منها الأنفاس، وجرى بصرها الزائغ على صدره المضطرب، فرأت بقع الدم والسهم النافذ، فاقشعرّ بدنّها بحالة ألم جنوني، وصاحت بصوت متقطع من العذاب والفرع:

- أصابوك.. يا للهول!

وكان نائماً في تراخٍ وهمود، وقد أتت الرحلة الصغيرة على بقية قواه الآخذة في الانحلال السريع، ولكنه حين سمع صوتها ورأى وجهها الحبيب دبّت فيه نسمات حياة رقيقة، ولاح في عينيه المظلمتين ظلّ ابتسامة خفيفة.

ولم تكن تراه إلّا هائجاً مفعماً بالحياة كالعاصفة، فكادت تحنّ، وهي تشاهده كمن شاخ وذوى منذ دهر طويل، وألقت نظرة نارية على السهم الذي أحدث كلّ هذا، وقالت بتألم:

انقطع صوتها كأنما مُزّقت مسالكه، وتصلّب لسانها،  
والتحم فُكّاها بشدّة، وحملت في وجه الذي كان  
إنساناً بعينين جامدتين، ثم لم تبد حراكاً.

وأذاعت صرختها الخبر الاليم، فهرع الرجال  
الثلاثة إلى الحجرة دون أن تحسّ بهم ووقفوا أمام  
الهودج، وألقى طاهو على وجه الملك نظرة ذاهلة،  
وعلت وجهه صفرة الموت ولم ينبس بكلمة، وتقدّم  
سوفخاتب من الجثّة، وانحنى في إجلال عظيم وقد  
أخفاها عنه دمع جرى على خديّه وتساقط على  
الأرض، وقال بصوت متهدّج مُزّقت نبراته الباكية  
الصمت المخيم:

- سيّدي ومولاي، وابن سيّدي ومولاي،  
نستودعك الآلهة العلية التي اقتضت مشيئتها أن يكون  
اليوم بدء رحلتك إلى عالم الأبدية. وددت لو أفندي  
شبابك الغضّ بشيخوختي الفانية، ولكّنها إرادة الربّ  
التي لا تُردّ. فالوداع يا مولاي الكريم.

ومدّ سوفخاتب يده الهزيلة إلى الغطاء، وسجّى  
الجثّة في أناة، وانحنى مرّة أخرى، وعاد إلى مكانه  
بقدمين ثقيلتين.

وظلّت رادوبيس جاثية، في غفوة من الدهول لا  
تفريق ولا تتحوّل عينها عن الجثّة، وقد سرى في  
جسمها جمود غريب كالموت، فلم تُبدّ حراكاً، ولا  
بكت، ولا صرخت، وظلّ الرجال في وقفهم منكمّهي  
الراءوس.. إلى أن دخل أحد العبيد الذين حملوا  
الهودج، وقال:

- وصيفة جلالة الملكة.

والفتّ الرجال إلى الباب، فأروا الوصيفة تدخل  
يبدو على وجهها أثر الحزن الشديد، فأنحنوا لها تحيّة،  
فردّت التحيّة بإيماء من رأسها، وألفت نظرة على الجثّة  
المسجاة، ثم ردتّ ناظرها إلى سوفخاتب، فقال  
الرجل بصوت حزين:

- انتهى الأمر أيّتها السيّدة الجليلة.

فصمتت المرأة برهة كالذاهلة، ثم قالت:

- ينبغي إذاً أن تحمل الجثّة الكريمة إلى القصر  
الفرعوني، هذه إرادة جلالة الملكة أيّها الوزير.

- آواه يا رادوبيس، ألا تريدان أن تنسي آلامك  
هذه الساعة إكراماً لي.. أريد أن أرى وجه رادوبيس  
حبيبي، وأن أستمع إلى صوتها العذب.

ونفذ رجاؤه إلى قلبها، فكبر عليها أن تحرمه من  
شيء يريده في تلك الساعة السوداء، وقست على  
نفسها قسوة شديدة، فبسطت صفحة وجهها  
واغتصبت من شفيتها المرتعشتين ابتسامة وحتت عليه  
في سكون واطمئنان كأنما تحنو عليه، وهو يرقد رقاد  
غرام، فتبدّى على وجهه الشاحب الذابل الرضا،  
وانفرجت شفاته الباهتتان عن ابتسامة.

ولو أنّها تركت لعواطفها لما وسعتها الدنيا هذياناً  
وجنوناً، ولكّنها نزلت على إرادته العزيزة، وملأت  
عينها من وجهه، وهي لا تصدّق أنّ هذا الوجه  
سيغيب عنها بعد لحظات قصيرة إلى الأبد، وأنّها لن  
تراه في هذه الدنيا مهما تألّت أو تأوّهت أو سكبت  
الدمع الحزين، وأنّ صورته وحياته وحبّه ستغدو  
ذكريات ماضٍ غريب، هيهات أن يصدّق قلبها  
المكلم أنّه كان يوماً حاضراً واستقبالها. كلّ هذا لأنّ  
سهماً مجنوناً استقرّ في هذا الموضع من صدره.. كيف  
يستطيع هذا السهم الحفير أن يقضي على آمال ضاقت  
عنها الدنيا بأسرها!.. وتنهّدت المرأة تنهّداً حارّاً صعد  
فئات قلبها، وكان الملك يستفرغ بقيّة الحياة القلقة في  
صدره، المضطربة في أنفاسه، وقد خارت قواه ووهنت  
أعضاؤه، وماتت حواسّه، وأظلمت عيناه، ولم يبق منه  
إلا صدر يضطرب اضطراباً عنيفاً، ويقتل به الموت  
والحياة اقتتال القهر واليأس. وتجلّى بغتة على وجهه الألم  
وفتح فاه كأنما يريد أن يصرخ أو يستغيث، وأمسك  
بيدها التي امتدّت إليه في فزع لا يوصف، وصاح  
بقوّة:

- رادوبيس أسندي رأسي.. أسندي رأسي.

وأحاطت رأسه بيديها المرتجفتين وهمت أن تجلسه،  
ولكنّه شفق شهقة قويّة، وأسقطت يده إلى جانبه،  
وانتهت عند ذلك المعركة الناشبة بين الحياة والموت.  
وأعادت رأسه إلى وضعه الأوّل بسرعة، وصرخت  
صرخة فزع شديدة عالية، ولكّنها كانت قصيرة، ثمّ



أن تخلّص ذراعها، ولكنّه لم يمتكنّها من غايتها، فقالت له بعنف:

- دعني أذهب..

فهزّ رأسه بمنّة وبسرة ببطء كأنّه يقول لها: كلّاً كلّاً.. وكان وجهه رهيباً مخيفاً ونظرة عينيه جنونيّة، وتمتم قائلاً:

- إنهم ذاهبون إلى مكان لا يجوز أن تلحقهم إليه.

- دعني أذهب لقد خطفوا سيدي.

فأربّد وجهه، وقال لها بلهجة عنيفة كأنّه يلقي أمراً عسكرياً:

- لا تقاومي رغبة الملكة الحاكمة.

فسكت عنها الغضب في خوف وكفّت عن المقاومة. واستسلمت استسلاماً غريباً، وقطّبت جبينها، ثم هزّت رأسها في حيرة كأنّها تحاول أن تستجمع قوى إدراكها المشتّت الذاهل، وحدجته بنظرة غرابية وإنكار وقالت:

- ألا ترى أنّهم قتلوا مولاي.. قتلوا الملك!

وكانت عبارة «قتلوا الملك» تقع من أذنيه موقّعة غريباً مروّعاً فسكن هياجه، وقال:

- نعم يا رادوبيس، قتلوا الملك، وما كنت أحسب قبل اليوم أنّ سها يمكن أن يقضي على حياة فرعون.

فقالت ببساطة البله:

- فكيف تدعمهم يخطفونه منّي بعد ذلك؟!.

فانفجر ضاحكاً ضحكة جنونيّة مخيفة، وقال:

- أتريد أن تتبني أثرهم؟.. يا لك من مجنونة يا رادوبيس، إنك تعمين عن العواقب، فقد أذهلك الحزن، اصحي أيتها الفاتنة، فالجالسة على عرش مصر الآن امرأة قضيت عليها بالهوان، وانتزعت زوجها من بين يديها، وأهويت بها من ساق المجد والسعادة إلى زوايا النسيان والشقاء.. إنّها سرعان ما تبعث إليك من يسوقك إليها مكبّلة بالسلاسل، ثم تدفع بك إلى أيدي جلاّدين لا يعرفون الرحمة يخلقون شعرك الحريري، ويسلمون عينيك السوداوين، ويمجدون أنفك الدقيق، ويصلمون أذنك الرقيقتين، ثم يحملونك على ظهر عربة قطعة من البشاعة المشوّهة

وانجّبت الوصيفة نحو الباب، وأومأت إلى العبيد، فهرعوا إليها مسرعين، فأمرتهم أن يرفعوا الهودج. وقصد العبيد إلى الهودج ومالوا إلى قوائمه ليرفعوه، فانتهبت رادوبيس مذعورة ولم تكن تحسّ بشيء ممّا يدور حولها، وتساءلت بصوت مبحوح غريب:

- إلى أين.. إلى أين؟.

وارتمت على الهودج، فتقدّم منها سوفخاتب وقال:

- إنّ القصر يريد أن يؤدّي واجبه نحو الجثّة المقدّسة.

فقالت المرأة الذاهلة:

- لا تأخذوه منّي.. انتظروا.. ساموت على

صدره. وكانت الوصيفة تتعالى بناظرها عن رادوبيس، فلمّا سمعت قولها قالت بخشونة:

- إنّ صدر الملك لم يخلق لكي يكون لحذاً لإنسان.

وانحنى سوفخاتب على المرأة، وقبض على معصمها برقة ورفعها بهدوء، وحمل العبيد الهودج، فنزعت رادوبيس يدها من بين يديه، وأدارت رأسها بعنف فيما

حولها فلم يبد على وجهها التائه أنّها عرفت أحداً من الحاضرين، وصاحت بصوت متقطع كالخشرجة:

- لماذا تأخذونه؟. هذا قصره.. وهذه حجرته..

كيف تسوموني القهر أمامه.. إنّ مولاي لا يرضى عمّن يسيء إليّ.. أيتها القسا.. أيتها القسا.

ولم تبألها الوصيفة، فشكّت طريقها إلى الحديقة، وتبعها العبيد يحملون الهودج. وغادر الرجال الحجرة في خشوع وصمت. وكادت المرأة تحنّ. وجمدت في مكانها لحظة قصيرة، وهمت باندفاع وراءهم، ولكنّ يدًا غليظة أمسكت بذراعها، فحاولت التخلّص منها، ولكن ضاعت محاولتها هباء.

فالتفتت إلى الوراء بعنف وغیظ، فوجدت نفسها وجهًا لوجه أمام طاهاو..

## نهاية طاهاو

وسهمت إليه بنظرة غريبة كأنّها لا تعرفه، وحاولت

وكان ينصت إليها في صمت، وعلى فمه ابتسامة شيطانية ساخرة، فلما انتهت ضحك ضحكته الجنونية المخيفة، ثم قال:

- أخطأت يا رادوبيس، ليست الملكة خائنة ولا قاتلة.

وحلق في وجهها ودنا منها خطوة، وكانت تنظر إليه بدهشة وإنكار، ثم قال بصوت رهيب:

- إن كان يَمَك أن تعرفي الخائن، فما هو ذا يقف أمامك.. أنا الخائن يا رادوبيس.. أنا..

ولم يمتها قوله كما كان يتوقع، ولا بدت عليها اليقظة. ولكنها هزت رأسها هزات خفيفة كأنما تريد أن تنفض عن نفسها الخمول والإعياء. فاستولى عليه الغضب، وأمسك بكتفها بغلظة، وهزها بعنف شديد، وصاح بها:

- اصحي، ألا تسمعين ما أقول.. أنا الخائن.. طاهر الخائن.. أنا علة الكوارث جميعًا..

وارتعد جسمها بعنف، وانتفضت انتفاضًا شديدًا خلصت به من يديه وتقهرت خطوات، وهي تنظر إلى وجه الفزع بخوف وجنون، فسكت غضبه وهياجه، وأحس بتخاذل جسمه ورأسه فأظلمت عيناه، وقال بهدوء وبلهجة حزينة:

- إني أنطق بكلمات هائلة بكل بساطة، لآتي أشعر شعورًا صادقًا آني لست من أهل الدنيا. لقد انقطع ما بيني وبين العالم جميعًا، ولا شك فيما أحدثه اعترافي لك من الفزع، ولكنها الحقيقة يا رادوبيس، لقد تحطم قلبي بقسوة شنيعة، ومزق نفسي الألم البالغ في تلك الليلة الجنونية التي فقدتك فيها إلى الأبد.

وسكت القائد ريثما تهدأ أنفاسه المضطربة، ثم استطرد قائلاً:

- وانطويت على الألم، واستوصيت بالصبر والتجلد، واعتزمت صادقًا أن أؤدي واجبي إلى النهاية، حتى كان ذلك اليوم الذي دعوتني فيه إلى قصرك لتستوثقي من إخلاصي. في ذلك اليوم جن جنوني، واشتعلت النار في دمائي، فهذيت هذيانًا غريبًا، واستأقني الجنون إلى عدو متربص، فأفضيت له

يعرضونك على أنظار الساخطين الشامتين ويسير بين يديك منادٍ يصيح بأعلى صوته أن انظروا إلى العاهرة المشنومة التي أثلقت على الملك نفسه، ثم أثلفته على شعبه.

وكان طاهو يتكلم بلهجة تشق عن غل وعيناه تبرقان بنور خفيف؛ ولكنها لم تتأثر بكلامه كأنما حيل بينه وبين حواسها، وسهمت إلى شيء غير منظور في هدوء غريب، ثم هزت منكبيها في استهانة وبساطة. فاحتدم في قلبه الغيظ والحق لبرودها وذهولها، واندفع الغضب من قلبه إلى قبضة يده فشد عليها، وشعر برغبة في أن يوجه إلى وجهها ضربة هائلة جنوبية فيحطمه تحطيمًا، ويمتد ناظره بتشوّه، وتفجر الدم من مسامه ومناذله، ولبت دقيقة يتفرس في وجهها الهادئ الذاهل، ويماور رغبته الشيطانية، ولكنها رفعت عينها إليه دون أن يلوح فيها معنى من معاني الحياة، فاضطرب وتخاذل وبدا عليه رعب من يضبط متلبسًا بجريمة، فتراحت أصابعه، وتهدت تنهدًا عميقًا ثقيلًا، ثم قال:

- أراك لا تكثرين لشيء.

وكانت لا تلقي إلى ما يقول بالأ، ولكن تصادف أن قالت وكأنها تحدث نفسها:

- كان ينبغي أن نتبعهم.

فقال طاهو بغضب:

- كلاً.. كلاً.. ما عاد كلانا يصلح للدنيا.. ولن يفقدنا بعد اليوم أحد.

فقلت ببساطة وهدوء:

- أخذته مئي.. أخذته مئي.

فعلم أنها تعني الملكة. وهزت منكبيه قائلاً:

- لقد استوليت عليه حيًا، واستردته ميتًا.

فحدجته بنظرة غريبة، وقالت له:

- يا أحق يا جاهل ألا تعلم.. لقد قتله الخائنة لتستردّه.

- من الخائنة؟

- الملكة، هي التي أفشت سرنا وأثارت الشعب.

هي التي قتلت مولاي.

يحمل بنامون بن بسار إلى سلّم الحديقة. وكان الشاب منهوك القوى شاحب اللون معقّر الثياب، قد هدم أعصابه ما رأى من اضطراب المدينة وهياج الناس وثورة النفوس. وكان بلغ مسكنه بشقّ الأنفس ولاقى في طريق العودة ما هوّن عليه ما صادفه في الذهاب، وتنقّص الصعداء حين وجد نفسه يسير في عمّرات حديقة قصر بيجة الأبيض، والحجرة الصيفية تعترض سبيله عن بعد قريب، وانتهى به المسير إلى الحجرة، فاجتاز عتبتها، وهو يظنّ أنّها خالية. ولكنّه ما لبث أن أدرك خطأه. ورأى رادوييس جالسة في استرخاء على ديوان تحت صورة وجهها الرائعة، وشيث مرتبّة عند قدميها يشملهما سكون غريب فترّد هنيهة، وأحسّت شيث بمقدمه، والتفتت إليه رادوييس، ثمّ قامت الجارية وانحنت له تحيّة وغادرت الحجرة، وتقدّم الشاب من المرأة، وقد لقّه الفرح، فلما أن تبيّن وجهها عن كذب ركبت حركة نفسه، وأصابه الوجوم والغمّ، ولم يشكّ في أنّ أخبار الخارج المحزنة قد بلغت آذان معبودته، وأنّ أنباء الآلام التي تطحن الناس انعكست على وجهها الجميل، فالبسته هذا الرداء الغليظ المغرّ من الكدر. وركع بين يديها، ثمّ مال على حاشية ثوبها فقبّلها بحنان، ونظر إليها بعينه الصافيتين نظرة إشفاق كأنّه يقول لها:

«فداؤك نفسي»، ولم يغب عنه ما بدا على وجهها لدى رؤيته من الارتياح، فخفق قلبه خفقة السعادة، وتخصّب وجهه بالاحرار، وقالت له رادوييس بصوت ضعيف:

- غبت طويلاً يا بنامون.

فقال الشاب:

- لقد شققت طريقي وسط بحر متلاطم من الخلق الغاضبين: إنّ أبو اليوم تغلي وتفور وتنثر الشظايا المحرقة، فتملأ الجوّ حمماً.

ثمّ دسّ الشاب يده في جيبه وأبرز لها قارورة صغيرة، فتناولتها بيدها وعقدت عليها كفّها، وأحسّت ببرودتها تسري في جسمها وتستقرّ في قلبها. وسمعتة يقول لها:

بسرّنا، وهكذا انقلب القائد الأمين خائناً غادراً يطعن من وراء الظهر.

وأهاجته الذكرى فتقلّص وجهه ألماً وخزناً، ونظر إلى وجهها الفزع بقسوة، فعاوده الغضب والحنق، وصاح:

- آيتها المرأة المهلكة المدمّرة. لقد كان جمالك لعنة على كلّ من رآه. لقد عذبّ قلوباً بريئة، وخرب قصراً عامراً، وزلزل عرشاً مكيناً، وأثار شعباً أميناً، ولوث قلباً شريفاً. إنّهُ لشؤم ولعنة.

وسكت طاهو، وما زال الغضب يغلي في شرايينه، ورأها كصورة للعذاب والخوف، فأحسّ ارتياحاً ولذة، وثمّ قائلاً:

- ذوقني العذاب والهوان، وانظري الموت فما ينبغي لأحدنا أن يحيا، وقد متّ منذ زمن بعيد، ولم يبق لي من طاهو إلّا ثيابه المزركشة المجيدة، أما طاهو الذي اشترك في غزو النوبة، وأبلى بلاءً حسناً استحقّ به ثناء بيبي الثاني، طاهو قائد حرس مرزق الثاني، وصفّيته، ومشيرته، فلا وجود له.

والقى الرجل نظرة سريعة على ما حوله. وبدا على وجهه الضيق والجزع الشديد، ولم يعد يحتمل السكون المطبق، ولا رؤية رادوييس التي استحالت تمثّلاً جامداً. فنفخ في الهواء بقوة وسخط واشمئزاز، وقال:

- ينبغي أن ينتهي كلّ شيء، ولكنّي لن أحرّم نفسي من العقاب الصارم، سأذهب إلى القصر، وأدعو كلّ من يحسن بي الظنّ، ثمّ أعلن جرمي للملأ، وأمزق الستار عن الخائن الذي طعن مولاه وهو يساره، وأنزع النياشين التي تحلّي صدري الآثم، وأرمي بسيفي، ثمّ أظعن قلبي بهذا الخنجر. فالوداع يا رادوييس، والوداع آيتها الحياة التي تستأدينا فوق ما تستحقّ.

نطق طاهو بهذه الكلمات، ثمّ ذهب.

## النهاية

ولم يكد طاهو ينادر القصر حتّى رسا القارب الذي

- أرى أنك تحمّلين نفسك فوق ما تحتمل.

فقال له :

- إن الأحزان تنتقل بالعدوى.

- ولكن رفقا بنفسك، فما ينبغي لك أن تستسلمي  
كل الاستسلام إلى الحزن.. ليتك يا مولاتي تهجرين  
إلى أمبوس ربحاً من الزمن ريشاً يعود الهدوء إلى هذه  
البقاع.

وكانت تسمع إليه في اهتمام خادع، وتنظر إليه  
بغربة، نظرتها إلى آخر حيّ من أهل هذه الدنيا تقع  
عليه عينها لآخر مرة، وكانت فكرة الموت قد استولت  
عليها استيلاء جعلها تشعر كأنها غريبة عن هذه  
الدنيا. واختفت عواطفها اختناقاً لم تحسّ معه بأيّ  
رحمة نحو الشاب الراكع أمامها، الهائم في عالم الآمال  
بعينين مغمضتين عن المصير الذي ينتظره عن كذب..  
وظنّ بنامون أنها تدير فكرته في نفسها فلعب بقلبه  
الآمل واستفزّ الطمع، فقال بحماس:

- أمبوس يا مولاتي بلد السكينة والجمال، لا ترى  
العين فيها إلّا سماء صافية، وطيراً لاهياً، وبطاً  
سابعاً، وأخضر ناضرًا.. وسيمحو جوّها المشرق  
السعيد الآلام التي أثارها في نفسك الرقيقة أبو الحزينة  
الغاضية.

وسرعان ما سئمت حديثه، وانجذبت أفكارها إلى  
القارورة العجيبة، وأحسّت بشرق إلى النهاية. فبحثت  
عينها الموضع الذي شغله الهودج منذ حين، وصرخ  
قلبا أن هاهنا ينبغي أن تحتم حياتها، واعتزمت أن  
تتخلّص من بنامون، فقالت له:

- إن ما تعرضه عليّ جميل يا بنامون، فدعني أفكر  
وحدّي رويداً..

فأضاء وجه الشاب بالفرح والأمل، وسألها:

- هل يطول انتظاري ؟

فقال:

- لن يطول انتظارك يا بنامون.

فلثم الشاب يدها، وقام واقفاً، وغادر الحجرة.

ودخلت شيث على الأثر، وكانت رادوبيس تهمّ

بترك مجلسها، فلما رأت الجارية ابتدتها قائلة لتتخلّص  
منها:

- إليّ بإبريق من الجعة.

فذهبت الجارية إلى القصر، وكان بنامون قد انجّه إلى  
البركة واطمأنّ إلى مقعد على حافتها، وكان في تلك  
الساعة يشعر بالسعادة والغبطة، ويدني إليه الأمل  
غايتة في أن يذهب بمعبودته إلى أمبوس بعيداً عن  
الشقاء المخيم على أبو فتخلص له، ويسكن إليها،  
ودعا الآلهة أن تهبط إليها في وحدتها وتلهمها الرأي  
السديد والحلّ السعيد..

ولم يطق الجلوس طويلاً، فقام يسير الهويني حول  
البركة، ولما أتمّ دورته رأى شيث تحمل إبريقاً، وتجه  
بسرعة إلى الحجرة، فتبعها بعينيه حتّى غيبت الباب،  
وأراد أن يعاود الجلوس مرة أخرى، ولكنّه لم يكد  
يفعل حتّى سمع صرخة مدوية آتية من داخل الحجرة  
فانتفض واقفاً، وقد انخلع قلبه في صدره، واندفع  
جرباً إلى مصدرها، فرأى في وسط الحجرة رادوبيس  
ملقاة على الأرض، والجارية تمخّشو على ركبتيها إلى  
جانبا وتكبّ عليها تناديا، وتمخّس خديها وكفيها..  
فهرع إليها بساقين مرتجفتين، وقد اتسعت عيناه ولاح  
فيها الهلع والفرع، وجثا إلى جانب شيث وأمسك  
بكفّ رادوبيس بين كفيّه، فشعر ببرودتها، وكانت  
كالنائمة، إلّا أنّ وجهها شاحب تمازجه زرقة خفيفة،  
وقد انفرجت شفتاها الباهتان وبعثرت خصلات شعرها  
الأسود على صدرها ومنكبيها، وانسابت صفائر منه  
على البساط، فأحسّ بجفاف حلقه واختناق أنفاسه،  
وسأل الجارية بصوت مبجوح:

- ماذا بها يا شيث.. لماذا لا تحيى؟

فأجابت المرأة بصوت كالعويل:

- لا أدري يا سيّدي، فلقد وجدتُها عند دخولي

الحجرة كما تراها الآن، فناديتها فلم تجب، وأسرت  
إليها أهرها فلم تتب، ولم تبد عليها اليقظة، أوّاه  
يا مولاتي.. ما لك ما الذي اعتورك فحوّلك إلى ما  
أرى؟

ولم ينبس بنامون بكلمة، وجعل يطيل النظر إلى

رادوبيس الساكن سكون الأبدية، وكان يعجب في ذهوله كيف يلحق العدم بمثل هذا الجمال الذي لم تشرق الشمس على مثله من قبل، وكيف تسكن الحيوية الفائضة الملتهية، وتكتسي بهذا الإهاب الشاحب الذابل الذي تهم به عوامل الخراب؟ ثمّ لو أن يراها لحظة خاطفة وقد ردت إليها نسمة الحياة، فأبدت عن تثنيها الرقيق، وأشرقت بوجهها ذي البهاء ابتسامة السعادة، وانبعثت من عينيها نظرة الحب والفتون، ثمّ يموت فتكون آخر عهده بالدنيا .

وأزعجه نحيب شيث أيما إزعاج، فانتهرها قائلاً:

- أمسكي عن هذا .

وأشار إلى قلبه، ثمّ استدرك:

- هنا حزن جليل، أجل من البكاء والنحيب .

وبقي في نفس الجارية أمل ضعيف يخفق، فنظرت

إلى الشاب خلل دموعها، وقالت بتوسّل:

- ألا يوجد رجاء ياسيدي؟ عسى أن يكون ما بها

غيبوبة شديدة!

ولكنّه قال بصوته الحزين:

- ما من رجاء ولا أمل، ماتت رادوبيس، ومات

الحب، وتبدّدت الأوهام.. كم عبثت بي الأحلام

والأوهام.. أما الآن فقد انتهى كلّ شيء، وأيقظني

من غفوتي الموت الرهيب..

وانقصف آخر شعاع للشمس، وانغمس وجهها

القاني في عين حثة، فزحفت الظلمة تغشى الكون في

ثوب حداد. ولم تنس شيث في حزنها واجبها نحو جثة

مولاتها، وأدركت أنّها لن تستطيع أن توفّيها حقّها من

الإجلال والصون في بيعة المحاطة بأعدائها والمترصّين

للاتنقام منها وأفضت بمخاوفها إلى الشاب الحزين

الذي تحترق نفسه على كذب منها، وطلبت إليه أن

يحملا الجثة إلى بلدة أمبوس، وهنالك يدفعان بها إلى

أيدي المحنطين، ويودعانها مقبرة أسرة بسار، ووافق

بنامون على رأيها بقلبه ولسانه، فنادت شيث بعض

الجواري، وأتين بهودج، ووضع الجثة عليه

وسجّنها.. ورفع العبيد الهودج إلى السفينة الخضراء

التي انحدرت به نحو الشمال.

المرأة الملقاة في سكون رهيب، وإنّ عينيه لتدوران فيما حولها إذ عثرتا تحت مرفقها الأيمن بالقارورة الجهنمية منزوعة السدادة، فشقق شهقة عنيفة، والتقطتها بأصابعه المرتعدة، فلم يجد بها إلا أناراً لاصقة بباطنها، وردّد بصره بين القارورة ووجه المرأة فتبيّن له الحق، وسرت في جسمه النحيل رجفة مرّقت جوارحه، فأثّر أنيناً موجعاً لفت إليه الجارية، وقال بصوت فزع:

- يا للهول.. يا للرب! فصوّت إليه الجارية عينيها، وسألته بلهفة وذعر:

- ماذا يهولك ويرعبك؟.. تكلم فإنّي أكاد أجنّ من

الخبرة!!

ولكنّه لم يابه لها، وقال يحدث رادوبيس، وكأنتا

تسمعه وتبصره:

- لماذا انتحرت.. لماذا انتحرت يا مولاتي؟

فصرخت شيث ودقّت صدرها بيديها، وقالت:

- ماذا تقول، كيف علمت أنّها انتحرت يا هذا؟

فرمى القارورة بعنف، فاصطدمت بالحائط

وتحطّمت، ثمّ قال بذهول وحيرة:

- لماذا أزهقت نفسك بهذا السّم؟.. ألم تعديني بأن

تفكرني جذياً في اصطحابي إلى أمبوس بعيداً عن

أحزان الجنوب.. أكنت تحذريني ريثما تزهرقين

روحك؟

فنظرت الجارية إلى حطام القارورة، وقالت

بدهشة:

- من أين لمولاتي بالسّم؟

فهزّ منكبيه يأساً، وقال:

- أتيت لها به بنفسي.

فتولّاه الغيظ، وصاحت به:

- كيف تأتي به يا شقي؟!

- لم أكن أدري أنّها تريده لتزهق به نفسها، لقد

خدعتني كما فعلت بي الآن.

فتحوّلت عنه يائسة، وأفحمت في البكاء، وانكبّت

على قدمي مولاتها تقبلها وتغسلها بدموعها، وغشي

الشابّ ذهول، فتفجّرت عيناه، وثبت على وجه

وجلس الشاب عند رأس الجثة على مقربة من  
 شيث، وقد شمل المقصورة سكون عميق. . في تلك  
 الليلة الحزينة، والسفينة تنساب مع المياه المصطخبة  
 صوب الشمال، تاة بنامون في وديان قصية من  
 الأحلام، ومرّت حياته أمام ناظريه في صور متعاقبة،

عرضت آماله وأحلامه وما كابد من ألم ورجاء، وما  
 ظنّ يومًا أنّه نصيبه من السعادة والهناء والعيش  
 النضير. ثمّ تنهّد من أعماق قلبه المكلوم، وثبت عينيه  
 على الجثة المسجاة التي ارتطمت عليها آماله وأحلامه،  
 فتحطمت وتناثرت، كأوهام بددتها اليقظة.

كفّار طيبة





## سيكنزع

- ١ -

- لتكن حرب أيتها الحاجب الأكبر، ما دام هذا الرجل الذي ارتضاه مولانا حاكمًا على الجنوب يأبى إلا أن يضع على رأسه تاجًا كالمملوك ويبني القصور كالفرعاعين، ويسير في طيبة مرحًا لا يبالي شيئًا.

فجعل الحاجب يصرف بأنياه، وعبث بعصاه فيها بين قدميه بحركة تدلّ على الحق والغيط وقال:

.. لا يوجد حاكم مصريّ سوى حاكم إقليم طيبة هذا، فإذا تخلّصنا منه خلص لنا حكم مصر إلى الأبد، وبات مولانا الملك على طمأنينة لا يخشى تمرد أحد عليه.

قال ثاني الرجلين بحماس، وكان لا يئس أبدًا من أن يصير يومًا حاكمًا لمدينة عظيمة:

- إن هؤلاء المصريين يكرهوننا ..

فأتم الحاجب الأكبر على رأيه وقال بلهجة عنيفة:  
- نعم .. نعم .. وأهل منف أنفسهم عاصمة مملكة مولانا الملك يُظهرون الطاعة ويضمرون الكراهية ..  
لقد نفدت الحيل ولا حيلة الآن سوى السوط والسيف ..

فابتسم الرجلان أول مرة، وقال ثانيهما أيضًا:  
- بورك رأيك أيتها الحاجب الحكيم، فإن السوط وسيلة التفاهم التي لا تجدي سواها مع المصريين ..

ولاذ الرجال الثلاثة بالصمت برهة، فما يُسمع إلا وقع المجاديف على سطح الماء، ثم لاح من أحدهم التفاتة إلى زورق صيد يقف في وسطه فتى مفتول الساعدين، عاري الجسد إلا من وزرة تغطي وسطه، وقد لفحت الشمس بشرته، فقال بتعجب:

- كأن هؤلاء الجنوبيين مشتقون من صميم أرضهم ..

كانت السفينة تصعد في النهر المقدس، ويشقّ مقدّمها المتوجّ بصورة اللوتس الأمواج الهادئة الجليلة، يحثّ بعضها بعضًا منذ القدم كأنها حادثات الدهر في قافلة الزمان، بين شاطئين انتثرت على أديمها القرى، وانطلق النخل جماعات ووحدانًا، وترامت الخضرة شرقًا وغربًا، وكانت الشمس تعطي كبد السماء ترسل أسلاكًا من النور إذا غمر النبات رفّ رقيقًا، وإذا مسّ الماء تلالًا لالاء، وقد خلا سطح الماء إلا من بعض زوارق صيد جعل أصحابها يوسعون للسفينة الكبيرة وهم يرمقون صورة اللوتس - رمز الشمال - بعين التساؤل والإنكار.

وكان يتصدّر المقصورة رجل بدين قصير القامة، مستدير الوجه، طويل اللحية، أبيض البشرة، يرتدي معطفًا فضفاضًا ويقبض يمينه على عصا غليظة ذات مقبض ذهبيّ، جلس بين يديه رجلان في مثل بدائته وزيّته، تداني بينهما روح واحدة، وكان السيد يطيل النظر إلى الجنوب بعينين مظلمتين أضناهما الملل والتعب ويلقي على من يصادفه من الصيادين نظرة شذراء، وكأنه يرّم بالصمت فتحول إلى رجله وتساءل قائلاً:

- ترى هل ينفخ غداً في الصور فيتبدّد هذا السلام الثقيل المخيم على ربوع الجنوب، وتفزع هذه الدور المطمئنة، ويحلّق نسر الحرب في هذا الجوّ الآمن؟ .. آه .. ليت هؤلاء الرجال يعلمون أيّ نذير تحمل هذه السفينة لهم ولسيدهم ..

فهزّ الرجلان رأسيهما موافقة على كلام السيد وقال أحدهما:

فقال الحاجب بسخرية:

- لا تعجب فإن من شعرائهم من يتغنى بسمرة اللون..

- حقًا.. إن لونهم ولوننا كالطين والشعاع السني..

قال الحاجب:

- حدثني بعض رجالنا عن هؤلاء الجنوبيين فقال: إنهم على لونهم وعريهم ذوو صلف وكبرياء، وإنهم يزعمون أنهم منحدرون من أصلاب الآلهة، وأن بلادهم منبت الفراعنة الحقيقيين.. رباه.. إني أعرف الدواء لكل هذا.. لا ينقص إلا أن تمتد ذراعنا إلى حدود بلادهم.

وما انتهى الحاجب من كلامه حتى سمع أحد رجليه يقول، وهو يشير بأصبعه إلى الشرق:

- انظر.. أترى طيبة؟ هذه طيبة!..

فنظروا جميعًا إلى حيث يشير الرجل، فأوا مدينة كبيرة يحيط بها سور عظيم، بدت خلفه رعوس المسلات عالية كأنها عمد ترفع القبة السايوية، ورثيت في ناحيتها الشالية جدران معبد آمون الشاهقة، رب الجنود المعبود. فما وقعت العين فيها إلا على مارد عظيم يتعالى إلى السماء، فأخذ الرجال، وقطب الحاجب الأكبر وتمتم قائلًا:

- نعم.. هذه طيبة.. وقد أتحت لي رؤيتها من قبل. وما أزداد على الأيام إلا رغبة في أن تعنو الهام لمولانا الملك، وأن أرى موكبه الظافر يشق شوارعها. فقال أحد الرجلين:

- وأن يُعبد بها ربنا ست المعبود..

وخفقت السفينة من سرعتها، ومضت تدنو من الشاطئ رويدًا رويدًا مجتازة الحدائق الغن، التي تنحدر مدرجاتها المعشوشبة حتى تسقى من النهر المقدس. وقد لاحت وراءها قصور طيبة الشم، وأما غربي الشاطئ الآخر، فتجثم مدينة الأبدية، حيث يرقد الخالدون في الأهرام والمصاطب والمقابر، تغشاهم جميعًا وحشة الموت..

وتوجهت السفينة إلى ميناء طيبة، تشق سبيلها بين

زوارق الصيد والسفن التجارية، وتجذب نحوها الأنظار لضخامتها وجمالها، وصورة اللوتس التي تزين مقدمها، حتى حاذت الرصيف، فألقت كلابها الضخم، وقصد إليها بعض الحراس، وانتقل إليها ضابط يرتدي فوق وزرته سترة من الكتان الأبيض. وسأل أحد رجالها قائلًا:

- من أين انحدرت هذه السفينة؟.. وهل تحملون تجارة؟..

فحياه الرجل، وقال «اتبني» واصطحبه إلى المقصورة، حيث أدرك الضابط أنه مائل بين يدي حاجب كبير من حجاب قصر الشمال، قصر ملك الرعاة كما يدعونه في الجنوب، فانحنى احترامًا وأدى التحية العسكرية. ورفع الحاجب يده ليرد التحية في صلف ظاهر وقال بلهجة متعالية:

- أنا رسول فرعون، ملك الشمال والجنوب، ابن الرب ست، مولانا أبوفيس، إلى حاكم طيبة الأمير سيكتنرع، فأرجو أن تبلغ سيدك أنني أنتظر دعوتي إلى مقابلته لأؤتي إليه ما حملته من البلاغ. وأصغى الضابط إلى الرسول في انتباه ثم أدى التحية مرة أخرى ومضى.

- ٢ -

ومضت ساعة من الزمان، ثم جاء السفينة رجل وقور، يميل إلى القصر، بادي النحافة، بارز الجبهة، فانحنى انحناء وقور الرسول، وقال بصوت هادئ التبرات:

- إن الذي يتشرف باستقبالك حور رئيس حجاب قصر الجنوب.

فحنى الرجل رأسه الضخم وقال بصوته الغليظ:

- وأنا خيان كبير حجاب القصر الفرعوني.

فقال حور:

- يسر مولاي أن يستقبلك في الحال.

فأبدى الرسول حركة وقال: «هلم بنا». وتقدمه الحاجب حور وثبعه الرجل يسير في خطأ وييدة، متوكئًا بجسمه البدين على عصاه وقد انحنى له الرجلان

بشيد التحية، وفيما كان المركب يقطع أرض الفناء كان خيان يسائل نفسه قائلاً: هل يستقبلي سيكتنر وعلى رأسه التاج الأبيض؟. إنه يعيش عيشة الملوك ويتبع سلوكهم، ويتخذ لنفسه حكومة كحكوماتهم، فهل يلبس تاج الجنوب أمامي؟. هل يفعل ما أحجم عنه أجداده وما أحجم عنه أبوه نفسه سيكتنر؟. . . وترجل الرسول عند مدخل ممر الأعمدة الطويل، ووجد في استقباله حجاب القصر ورئيس الحرس الفرعوني وكبار الضباط، فأدوا له التحية جميعاً، وساروا بين يديه إلى بهو الاستقبال الفرعوني، وكانت الردهة المؤدية إلى باب البهو مزينة بالجنايين بشماثيل أبي الهول، وفي أركانها يقف ضباط عمالقة من رجال هابو الأشداء. وانحنى الرجال للرسول وأوسعوا له، فتقدمه الحاجب حور إلى داخل البهو وتبعه الرجل، ورأى في صدر المكان على مسافة غير قريبة من المدخل عرشاً فرعونيًا يجلس عليه رجل متوج بتاج الجنوب ويده الصولجان والعصا المعقوفة، وإلى يمين عرشه يجلس رجلان وإلى شماله رجلان. وبلغ حور العرش يتبعه الرسول فانحنى لمولاه بإجلال، وقال بصوته الرقيق:

- مولاي، أقدم لذاتكم العالية الحاجب الأكبر خيان رسول الملك أبوفيس.

وانحنى عند ذاك الرسول تحية، فرد الملك تحيته وأشار إليه فجلس على كرسي أمام العرش، أما حور فقد وقف إلى يمين العرش. وأراد الملك أن يقدم إلى الرسول رجال مملكته فأومأ بصولجانه إلى الرجل الذي يلي يمينه وقال: «أوسر آمون رئيس الوزراء» ثم أشار إلى الذي يليه وقال: «نوفر آمون الكاهن الأكبر لآمون» ثم تحول إلى شماله وأومأ إلى من يليه قائلاً: «كاف قائد الأسطول» وأشار إلى من يليه قائلاً: «بيبي قائد الجيش». ولما تم التعارف وجّه الملك بصره إلى الرسول وقال بصوت تدل نبراته على السمو والرفعة الطبيعيين:

- نزلت منزلاً يرحب بشخصك وعن أولاك ثقتي.

فقال الرسول:

- حفظك الرب أيها الحاكم الجليل، وإني سعيد

إجلالاً، وشعر خيان بغضاضة وساءل نفسه بحق: «أما كان ينبغي لسيكتنر أن يحضر نفسه لاستقبال رسول أبوفيس...؟» وضايقه جدّ المضايقة أن يسلك الرجل في استقباله سلوك الملوك. وغادرا السفينة بين صقّين من الجند والضباط، ورأى خيان على الشاطئ ركباً ملكياً في انتظاره تتقدمه عجلات حربية وتتأخر عنه عجلات أخرى، وأدّى له الجند التحية، فردّها بكبرياء، وركب عجلته وركب إلى جانبه حور، ثم تحرك المركب الصغير في طريقه إلى قصر حاكم الجنوب، وتحركت عينا خيان في محجريها ذات اليمين وذات الشمال تشاهدان المعابد والمسلات والتماثيل والسبل والقصور والأسواق وتيارات القوم التي لا تقطع من جميع الطبقات: فالعامّة بأجسامهم شبه العارية، والضباط بمعاطفهم الأنيقة، والكهنة بأثوابهم الطويلة، والسراة بعباءاتهم الفضفاضة، والنساء بأزيائهن الجميلة، فكان كل شيء يشهد لعظمة المدينة، وأنها تنافس منف نفسها عاصمة أبوفيس.

وأدرك الرسول أول وهلة أنّ موكله يلفت الأنظار بقوة وأنّ الناس تتجمع على جوانب الطريق لمشاهدته ولكن في برود وجمود، وجعلت أعينهم السود تفحص وجهه الأبيض ولحيته الطويلة بغرابة وإنكار وامتعاض، فشر بثورة باطنية وغضب شديد لذاك الاستقبال البارد الذي مني به أبوفيس العظيم في شخص رسوله، وساء أن يبدو غريباً في طيبة بعد انقضاء مائتي عام على هبوط قومه أرض مصر وترجعهم على عرش ملكها. . . وغاظه وأحنقه أن يحكم قومه مائتي عام يحتفظ الجنوب خلالها بشخصيته وطابعه واستقلاله فلا يبقى به رجل واحد من الهكسوس.

ثم بلغ المركب ميدان القصر، وكان ميداناً فسيحاً مترامي الأركان، تقام على جوانبه دور الحكومة والوزارات ومقر القيادة العليا للجيش، ويبدو في مكانه الوسيط القصر الجليل يبهّر الأنظار مشهده الرائع؛ كان قصرًا عظيمًا كقصر منف نفسه، وكان جنود الحرس يعتلون أسواره، ويصطفون صقّين لدى بابه الكبير، فلما اجتازه مركب الرسول صدحت الموسيقى

ينس مولاي فرغ إلى نبيّ معبد ست، فأدرك الحكيم داءه، وقال له: إنّ مبعث آلامه جميعاً أنّ خوار أفراس البحر الحبيسة بالجنوب يتسرّب إلى قلبه، وأكّد له ألاّ شفاء له إلاّ بقتلها.

وكان الرسول يعلم أنّ الأفراس الحبيسة في بركة طيبة مقدّسة، فاختلس نظرة إلى وجه الحاكم ليلو أثر كلامه، ولكنّه وجده جامداً صلباً وإنّ تضرّج بالاحمرار، وانتظر أن يعلّق الرجل على كلامه، ولكنّه لم ينس بكلمة وبدا عليه الإصغاء والانتظار، فقال الرسول:

- وفي أثناء مرض مولاي رأى فيها يرى النائم ربّنا المعبود ست يزوره بجلاله ونورانيته، وعتب عليه قائلاً: أيجوز أن يخلو الجنوب كلّ من معبد يذكر فيه اسمي؟ فأقسم مولاي أن يطلب إلى صديقه حاكم الجنوب أن يشيد في طيبة معبداً لست إلى جانب معبد آمون..

وسكت الرسول ولكن سيكتنزع ثابر على الصمت وبدا عليه هذه المرّة أنّه على غرّة، وأنّه فوجئ بما لم يدّر له في خلد، ولم يكن خيان ليعنيه كدر الملك ولعلّه كان مدفوعاً برغبة في إثارته، وأدرك الحاجب حور خطر المطالب، فانحنى على أذن مولاه وهمس قائلاً: «الأفضل ألاّ يناقش مولاي الرسول الآن». فهزّ الملك رأسه دلالة الموافقة وقد أدرك ما يرمي إليه حاجبه، وظنّ خيان أنّ الحاجب يفضي إلى مولاه بما يقوله فانتظر قليلاً، ولكنّ الملك قال:

- أعندك بلاغ آخر تفضي به؟

فقال خيان:

- أيّها الحاكم الجليل، لقد بلغ مولاي أنّك تتوجّ رأسك بتاج مصر الأبيض، فراع ذلك، ورأى أنّه لا يتفق وما يربط الأسرة الفرعونية بأسرتك التليدة من أسباب المودة والصداقة التقليدية.

فقال سيكتنزع بدهشة:

- ولكنّ التاج الأبيض غطاء الرأس لحكّام الجنوب.

باختياري لمهمّة السفارة في بلادكم الجميلة ذات الشهرة التاريخية..

ولم يغب عن سمع الملك قوله: «الحاكم الجليل» ولا فاته مغزاها، ولكن لم يبد على وجهه أيّ أثر لما اضطرب في نفسه، وكان خيان في تلك اللحظة يلقي عليه نظرة سريعة فاحصة من عينيه الجاحظتين فرأى الحاكم المصري رجلاً مهيباً حقاً، طويل القامة، مستطيل الوجه جميله، شديد السمرة، يميّز ملامحه بروز في أسنانه العليا، وقد قدّر له الحلقة الرابعة عمرًا. وكان الملك يظنّ أنّ رسول أبوفيس جاء لما كانت تحيى به بعثات الشبال من أجله، أي طلب الأحجار والحبوب، وهو ما كان يعتبره ملوك الرعاة جزية، ورآه ملوك طيبة رشوة يكفّون بها شرّ الغزاة، فقال الملك بهدوئه وجلاله:

- يسرّني أن أستمع إليك يا رسول أبوفيس العظيم.

فاعتدل الرسول في جلسته كأنّما يتوتّب للنضال وقال بصوته الغليظ:

- منذ مائتي عام لا تنقطع رسل الشبال عن ارتياد الجنوب، وفي كلّ مرّة تعود راضية.

فقال الملك:

- أرجو أن تدوم هذه السنة الجميلة.

فقال خيان:

- أيّها الحاكم إنّني أحمل إليك ثلاث رغبات فرعونية: تتعلّق الأولى بشخص مولاي فرعون، والثانية برّب المعبود ست، والثالثة بروابط المودة بين الشبال والجنوب.

فألقي إليه الملك بانتباهه وقد بدا على وجهه الاهتمام، فاستدرك الرجل قائلاً:

- شكّا مولاي الملك في الآيام الأخيرة آلاماً مروّعة تهزّ أعصابه في الليل، وأصواتاً منكسة تصكّ أذنيه الكريمتين ممّا أوقعه فريسة للسهاد والضنى، وقد دعا إليه أطباءه وقصّ عليهم ما يلقي بليله فتفحصوه بعناية، ولكنهم عادوا جميعاً من فحصه بالحيرة والجهل، وكان الملك في رأيهم جميعاً سليماً معافاً. ولما

بدا على محيائه الحسن الذي يشبه أباه في لون بشرته وقساياه وبروز أسنانه العليا، ثم أدار الملك عينيه في الحاضرين، وقال:

- فما أنتم أولاء أيها السادة ترون أنه لكي نرضي أبوفيس ينبغي أن نخلع هذا التاج، ونذبح أفراس البحر المقدسة، ونشيد معبداً لست يعبد فيه إلى جانب معبد آمون، فأشيروا عليّ بما يجب عمله.

وكان الاستياء البادي على وجوههم جميعاً يدلّ على ما يعتلج في صدورهم من الهم، وكان الحاجب حور أوّل المتكلّمين، فقال:

- مولاي، إنّ الذي أنكره أكثر من هذه الرغبات نفسها هو الروح الذي أملاها، فهو روح سيّد يلي على عبده، وملك يتجنّى على شعبه، وما أراها إلّا صورة متجذّدة لذاك النزاع القديم بين طيبة ومنف، هذه تسعى لاستعباد تلك، وتلك تشبّث باستقلالها ما وسعتها الحيلة، وما من شكّ في أنه يسوء الرعاة وملكهم أن تظلّ مملكة طيبة مغلقة الأبواب دون حكامهم، ولعلّهم لا يقنعون بما يدعون من أنّ هذه المملكة ولاية مستقلة تابعة لتاجهم، فأرادوا أن يبطلوا مظاهر استقلالها، ويتحكّموا في عقيدتها، فيسهل عليهم بعد ذلك تدميرها.

وكان حور في إلقائه قوياً صريحاً، فذكر الملك تاريخ تحرّش ملوك الرعاة بحكّام طيبة، وكيف كان هؤلاء يدفعون شرّهم بالردّ الجميل والهدايا والتظاهر بالخضوع لكي يحفظوا الجنوب من توغّلهم وشرّهم، وكان لأسرته في هذا السبيل فضل وأيّ فضل، حتّى استطاع والده سينكتنزع أن يدرّب قوّات عظيمة سرّاً ليصون بها استقلال مملكته، إذا لم تنفع الحيلة والتظاهر بالولاء في صونه... ثمّ قال القائد كاف:

- مولاي... أرى أنه لا يجوز التسليم بأيّ مطلب من هذه المطالب... كيف نرضى بأن يخلع مولانا تاجه من على رأسه؟... كيف نقتل الأفراس المقدسة إرضاء لعدوّ أذلّ قومنا!... وكيف نشيد معبداً لرّب الشرّ الذي يعبد أولئك الرعاة؟.

فقال الرسول يقيّن وإصرار:

- بل كان تاج الملوك منهم، ولذلك لم يفكر والدك المجيد في لبسه، لأنّه يعلم أنّه لا يوجد سوى ملك واحد في هذا الوادي يحقّ له التسويج، وأرجو أيّها الحاكم الجليل ألاّ يغيب عنك ما تدلّ عليه ملاحظة مولاي من رغبة صادقة في توثيق الأواصر الطيبة بين أسرتي منف وطيبة...

وسكت خيان، فساد الصمت مرّة أخرى، وكان سينكتنزع غارقاً في تأملات حزينة ينوء صدره بمطالب ملك الرعاة القاسية التي تهاجم مواطن الإيمان من قلبه وموضع العزّة من نفسه، وبدا أثر ذلك في امتقاعه وما ظهر من جمود على وجوه من حوله من رجال مملكته. وكان يقدر نصيحة حور فلم يرمحل جواباً وقال بصوت احتفظ بالرغم من كلّ شيء بهدوئه:

- أيّها الرسول إنّ رسالتك تنطوي على خطب خطير بمسّ عقيدتنا وتقاليدينا، لذلك أرى أن أكاشفك برأيي فيها غداً.

فقال خيان:

- خير الرأي ما سبقته المشورة.

فالتفت سينكتنزع إلى الحاجب حور وقال:

- تقدّم الرسول إلى الجناح المعدّ له.

فقام الرسول بجسمه القصير الضخم، وانحنى تحيّة، ثمّ ذهب يسير في خيلاء وعظمة.

### - ٣ -

وأرسل الملك في طلب وليّ عهده الأمير كاموس، وجاء الأمير على عجل دلّ على رغبته في معرفة رسالة حاجب أبوفيس. وحياّ الملك في إجلال واتّخذ مكانه إلى يمينه، والتفت إليه الملك وقال:

- لقد أرسلت في طلبك أيّها الأمير لأطلعك على بلاغ رسول الشمال، لترى فيه معنا رأيك، وإنّ الأمر لجذّ خطير فأصغ إليّ...

ثمّ روى الملك لوليّ عهده ما قاله الرسول خيان بالتفصيل المبيّن، وأصغى الأمير لوالده باهتمام شديد

وقال الكاهن الأكبر نوفر آمون:

- مولاي... إنَّ الربَّ آمون لا يرضى أن يشيّد إلى جانب معبده معبد لإله الشرّ ست، ولا أن ترتوي أرضه الطاهرة بدماء الأفراس المقدّسة، ولا أن ينزل حامي مملكته عن تاجه وهو أوّل حاكم للجنوب توجّ به رأسه بأمرة... كلّاً يا مولاي إنَّ آمون لا يرضى بذلك أبداً، وإنّه لينتظر من يخرج على رأس جيش من أبنائه لتحرير الشمال، وتحقيق وحدة الوطن، فيعود كما كان في عهود الملوك السالفين..

فجرى الحماس في عروق القائد ببني مجرى الدماء، ووقف بقامته الفارعة ومنكيه العريضين، ثمّ قال بصوته الجمهوري:

- مولاي؛ صدق رجالنا العظام فيما قالوا، وإنّي لعلّى يقين من أنّه لا يراد بهذه المطالب سوى عجم عودنا وترويضنا على الذلّ والخضوع. وهل من دليل وراء أن يطالب ذلك الهمجيّ الهابط وادينا من أقاصي الصحارى الماحلة إلى ملكنا أن يخلع تاجه ويعبد ربّ الشرّ ويذبح الأفراس المقدّسة؟.. لقد كان الرعاة فيما مضى يطلبون أموالاً فلم نبخل عليهم بأموالنا. أمّا الآن فإنّهم يطعمون في حرّتنا وشرفنا، ودون ذلك يهون علينا الموت ويطيّب، إنّ قومنا في الشمال عبيد يحرثون الأرض ويمترقون باللسنة السياط، ونحن نرجو أن نخلّصهم يوماً ممّا يعانون من عذاب لا أن نمضي بإرادتنا إلى مثل مصيرهم التاعس.

لازم الملك الصمت، وكان يصغي باهتمام ويكتم عواطفه بالنظر إلى أسفل. وقد حاول الأمير كاموس استطلاع وجهه فلم يتمكّن، وكانت ميوّله مع القائد ببني فقال بعنف:

- مولاي... إنّ أبوفيس ينظر بجشع إلى عزّتنا القومية، ويأبى إلّا أن يذلّ الجنوب كما أذلّ الشمال، ولكنّ الجنوب الذي لم يرض المذلّة وعدوّه في أوج قوّته لن يرضاهم الآن... فمن يقول إنّنا نفرط فيما اشتدّ أسلافنا في صونه ورعايته؟..

وكان أوسر آمون رئيس الوزراء أدنى القوم إلى الاعتدال، وكانت سياسته موجّهة دائماً إلى تفادي

غضب الرعاة أو التعرّض لقوّاتهم الهمجيّة لكي يتفرّغ إلى إغناء ثروة الجنوب واستثمار موارد النوبة والصحراء الشرقية وتدريب جيش قويّ لا يُغلب، وقد خشي مغبة اندفاع وليّ العهد وقائد الجيش، فقال موجّهاً كلامه إلى رجال المملكة:

- اذكروا يا سادة أنّ الرعاة قوم غيب وسلب. ولئن حكموا مصر مائتي عام فهم لا يزالون يخطف أبصارهم الذهب، ويستذلّ نفوسهم ويشغل همهم عن شريف المقاصد.

فهزّ القائد ببني رأسه ذا الخوذة اللامعة وقال:  
- يا صاحب العظمة، لقد عاصرنا القوم عهداً كافياً لنعرف نفوسهم، فهم أناس إذا رغبوا في شيء طلبوه بلسان صريح دون التوسّط إليه بالحليلة والمدايرة وقد كانوا يطلبون الذهب فيحمل إليهم، أمّا اليوم فهم يطلبون حرّتنا...

فقال الوزير:

- ينبغي التريث الآن حتّى يكمل جيشنا.

فقال القائد:

- إنّ جيشنا بحالته الراهنة قادر على صدّ العدو.

ونظر الأمير كاموس إلى أبيه فوجده ما يزال يطرق إلى أسفل فقال بحماس:

- ما جدوى الكلام؟... قد يعوز جيشنا بعض الرجال وبعض المعدّات، ولكنّ أبوفيس لا ينتظر حتّى تستكمل عدّتنا، وهو يعرض علينا مطالب لو ارتضيناها حكمنا على أنفسنا بالانهيار والزوال، وليس في الجنوب رجل واحد يفضّل التسليم على الموت، فلنرفض هذه المطالب بإباء ونرفع رءوسنا أمام أولئك الرعاة ذوي اللحى المسترسلة والبشرة البيضاء التي لم تطهرها الشمس..

وتأثّر القوم بحماس الأمير الشاب، وبدأ على وجوههم التحفّز والغضب وكأنّما سئموا الكلام ورغبوا في اتّخاذ قرار حاسم، ورفع الملك رأسه ورنّا إلى وليّ عهده، وسأل بلهجته الجليلة السامية قائلاً:

- أترى أن نرفض مطالب أبوفيس أيّها الأمير؟

سأرفض مطالب أبوفيس المهينة، وأنتظر ما يردّ به علينا إن سلّمًا فسلم وإن حربًا فحرب . .  
وقام الملك واقفًا، فقام الرجال قومة واحدة وانحنوا إجلالاً، ثمّ غادر البهو على مهل يتبعه الأمير كاموس والحاجب الأكبر .

- ٤ -

وتوجّه الملك إلى جناح الملكة أحويتي، وأدركت المرأة حين رآته يقبل عليها في لباسه الرسمي أنّ رسول الشمال جاء بأمر جليل، فارتسم الاهتمام على وجهها الأسمر الجميل وقامت واقفة تلقاه بقامتها الطويلة الرشيقة، ورفعت إليه عينين متسائلتين فقال لها بهدوء:  
- أحويتي . . يبدو لي أنّ الحرب تطبق علينا مع الأفق . .

فقلقت عيناها السوداوان وتمتمت قائلة بدهشة:  
- أتقول الحرب يا مولاي؟  
فحنى رأسه دلالة الإيجاب، وقصّ عليها ما قال الرسول خيان، ورأي رجاله فيه، وما استقرّ عليه عزمه، وكان يحدثها وعيناه لا تتحوّلان عن وجهها فقرأ في صفحته ما اضطرم في نفسها من الإشفاق والأمل والاستسلام.  
وقالت له:  
- لقد اخترت السبيل التي ينبغي لمثلك أن يختارها.  
فابتسم وربّت كفها، ثمّ قال لها:  
- هيّا بنا إلى أمّنا المقدّسة .

ثمّ سارا معًا جنبًا إلى جنب إلى جناح الملكة الوالدة توتيشيري زوج الملك السابق سينكنرع، وكانت في حجرة خلوتها تطالع كعادتها . .

كانت الملكة توتيشيري في السّتين من عمرها تبدو على محيّاها آي النبل والمجد والمهابة، وكانت «حيويّتها» دقّاقة فغلب نشاطها الكبر، ولم يعترها من آثاره سوى شعيرات بيض تكّلت فوديهما، وذبول خفيف يعلو خديّها، وظلّت عيناها على صفاتها وجسمها على فتنته ورشاقتها، وشاركت جميع أفراد أسرة طيبة في بروز

فقال كاموس بثقة وعنف:

- بكلّ حزم وإباء يا مولاي .

- وإذا جرّ الرّفص إلى الحرب؟

فقال كاموس:

- نحارب يا مولاي . .

وقال القائد بيبي بحماس لا يقلّ عن حماس الأمير:

- نحارب حتّى نصدّ العدو عن حدودنا، وإذا شاء

مولانا حاربنا حتّى نحزّر الشمال ونجلي عن أرض النيل آخر رجل من الرعاة البيض ذوي اللحى الطويلة القدرة .

فالتفت الملك إلى الكاهن الأكبر نوفر آمون وسأله:

- وأنت يا صاحب القداسة ماذا ترى؟

فقال الشيخ الوقور:

- أرى يا مولاي أنّ من يحاول إطفاء هذه الجذوة

المقدّسة كافر . .

فابتسم الملك سينكنرع راضيًا وتحوّل إلى وزيره

أوسر آمون قائلاً:

- ولم يبق إلّا أنت أيّها الوزير .

فبادر الرجل يقول:

- مولاي، لم أنصح بالتريث كراهية في الحرب أو خوفًا منها، ولكنّ لنستكمل الجيش الذي أرجو أن يحقّق غاية أسرة مولاي المجيدة، وهي تحرير وادي النيل من قبضة الرعاة الحديدية، وأمّا إذا كان أبوفيس يطمع حقًا في حرّيتنا فانا أوّل من يدعو إلى الحرب .

فنظر سينكنرع في وجوه رجاله، وقال بصوت دلّ

على العزم والقوّة:

- يا رجال الجنوب إنّّي أشرككم في عواطفكم،

وأعتقد أنّ أبوفيس يتحرّش بنا ويطمع في أن يحكمنا

بالخوف أو بالحرب، ونحن قوم لا ندعن للخوف

ونرهب بالحرب . إنّ الشمال فريسة الرعاة منذ مائتي

عام، امتصّوا خير أرضه وأذلّوا رجاله . أمّا الجنوب

فإنّه يكافح منذ مائتي عام غير غافل عن غايته العليا

وهي تحرير الوادي جميعه، فهل ينكص على عقبيه

لأوّل تهديد، ويفرط في حقّه، ويلقي بحرّيته وديعة بين

يدي الطامع النهم؟ . . كلًّا يا رجال الجنوب،

لها ذراعيها التحيلتين فقبلاً يديها، وجلس الملك إلى يمينها والملكة إلى شمالكها، فسألت ابنها وهي تبسم ابتسامة رقيقة:

- ماذا يريد أبوفيس ؟ . . .

فقال بلهجة تنطوي على الخنق:

- يريد يا أمّاه طيبة وما عليها جميعاً. بل ما هو أجلّ من هذا، إنّه يساومنا هذه المرّة على شرفنا.

فردّت رأسها بين الملكين وقد روّعت وقالت بصوت احتفظ بهدوئه على الرغم من كلّ شيء:

- كان أسلافه على جشعهم يقنعون بالجرانيت والذهب.

فقالت الملكة أحويتي:

- أمّا هو يا أمّاه فإنّه يريد منا أن نقتل أفراس البحر التي يقلق صوتها رقادها، وأن نشيد معبداً لرّبّه ست إلى جانب معبد آمون، وأن يخلع مولانا التاج الأبيض. ووافق سيكتنرع على قول أحويتي، وقصّ على أمّه نبأ الرسول ورسالته.

فبدأ الإنكار على وجهها الجليل، ودلّ التواء شفيتها على الامتعاض والسخط وسألت الملك قائلة:

- وماذا أجبت يا بني؟ . .

- لم أبلغه جوابي بعد . .

- وهل انتهيت إلى رأي؟ . .

- نعم . . أن أبذل مطالبه جميعاً . .

- إنّ من يطلب هذه المطالب لا يسكت على رفضها!

- ومن يقدر على رفضها جميعاً لا يخشى عواقب رفضه . .

- فإذا شهر عليك حرباً؟

- شنت عليه حرباً بحرب . .

ورنّت الحرب في أذنيها رنيناً عجيباً أيقظ بقلبها ذكريات قديمة، وذكرت أياماً مثل هذه حين كان زوجها يضيق صدره ويشكو إليها بئّه وهمّه ويتمنّى لو كان يملك جيشاً قوياً يدفع به طمع عدوّه، أمّا ابنها فيتكلّم عن الحرب بشجاعة وعزيمة وثقة، فقد تغيّر الزمن وتجدّد الأمل، واختلست من وجه الملكة نظرة

أسنانها العليا، ذلك البروز الذي افتتن به أهل الجنوب وعبدوه كافّة، وقد تخلّت الملكة على أثر وفاة زوجها عن الحكم كما يقضي القانون، تاركة مقاليد طيبة لابنها وزوجه، ولكنّها ظلّت الرأي الذي يرجع إليه في الملّات، والقلب الذي يلهم الأمل والكفاح، وقد أقبلت في فراغها على القراءة، وكانت تديم المطالعة في كتب خوفو وقاقنا وكتب الموت وتاريخ العهود المجيدة التي خلّدها أمثال مينا وخوفو وأمنحيت، وكان للملكة الوالدة شهرة عظيمة في الجنوب جميعه، فما من رجل أو امرأة إلّا يعرفها ويحبّها ويقسم باسمها المحبوب، وذلك أنّها بثّت فيمن حولها وعلى رأسهم ابنها الملك سيكتنرع وحفيدها كاموس حبّ مصر جنوبها وشمالكها وكراهية الرعاة المختصين الذين ختموا العهود الجلييلة أسوا ختام، ولقّنت الجميع أنّ غايتهم السامية التي يجب أن يعدّوا أنفسهم لتحقيقها تحرير وادي النيل من قبضة الرعاة المستبدّين، وأوصت الكهنة على اختلاف طبقاتهم من رجال المعابد ومدّرسي المدارس أن يذكّروا الناس دائماً بالشمال المغتصب والعدوّ الغاصب، وما ارتكبه من آثام أدلّ بها القوم واستعبدتهم وانتهب أرضهم واستأثر بخيراتهما وهبط بهم إلى مستوى البهائم التي تعمل في الحقول، فإذا كان في الجنوب جذوة نار مقدّسة تلهب القلوب وتحمي الأمال فالفضل في إذكائها لوطنيّتها وحكمتها، ولذلك قدّسها الجنوب جميعها ودعاها الناس الأمّ المقدّسة توتيشيري، كما يدعو المؤمنون الرّبة إيزيس، وعادوا باسمها من شرّ الياس والمزيمّة.

هذه هي الأمّ قصدها سيكتنرع وأحويتي، وكانت هي تتوقّع تلك الزيارة بعد أن علمت بقدوم رسول ملك الرعاة، وذكرت الرسل الذين كان يبعث بهم ملوك الرعاة إلى زوجها الراحل في طلب الذهب والغلال والأحجار وكانوا يطلبونها جزية يدفعها التابع للمتبع . . وكان زوجها يبعث بالسفن محمّلة ليتّقي قوّة القوم الهمجيّة، ويضاعف نشاطه الخفيّ في تكوين الجيش الذي كان أعزّ ما أورثه سيكتنرع ابنه وخلفه. ذكرت ذلك وهي تنتظر الملك فلما جاء وزوجه بسطت



فوجدته شاحباً، فأدركت أنها تكابد حيرة وأن أمل الملكة وإشفاق الزوجة يتقاذفانها بغير رحمة. . وهي نفسها ملكة وأم ولكنها لا تستطيع أن تقول إلا ما ينبغي لمعلمة القوم وأُمهم المقدسة أن تقوله. وقد سألته:

- وهل تقدر على الحرب يا مولاي؟

فقال بثبات:

- نعم يا أمّاه. . لديّ جيش باسل.

- هل يستطيع هذا الجيش أن يخلص مصر من الأغلال؟

- هل يستطيع على الأقل أن يصدّ عن مملكة الجنوب عدوان الرعاة. .

ثم هزّ منكبيه استهانة وقال بحق وغيظ:

- أمّاه طالما دارينا أولئك الرعاة عامّاً بعد عام فلم تفلح المدارة في إسكات جشعهم، وما برحوا يرمقون مملكتنا بعين الطمع والجشع، وقد حمّ القضاء وأرى أن الشجاعة أولى بنا من المطاولة والمدارة. سأخطو هذه الخطوة وأنظر ما بعدها.

فابتسمت توتيشيري وقالت بفخار:

- فليبارك آمون هذه النفس الأبية العالية.

- فماذا تقولين يا أمّاه؟

- أقول يا بني: سِرّ في طريقك يرعاك الربّ وتباركك دعواتي، هذه غايتنا وهذا ما ينبغي للفتى الذي اختاره آمون ليحقّق آمال طيبة الخالدة.

وابتهج سيكتنرع وتألّق بالنور وجهه، وهوى على رأس توتيشيري يقبل جبينها، وقبلت خدّه الأيسر، وقبلت خدّ أحويتي الأيمن وباركتها معاً، فعادا من لَدُنْها سعيدين مغتبطين. .

فأخذ واستولى عليه الذهول، ونظر إلى سيكتنرع باستغراب وإنكار وقد صار وجهه كالجئان، واستدرك الملك قائلاً:

- لقد وجدت هذه المطالب تمسّ عقيدتنا وشرفنا، ونحن لا نسمح لأيّ إنسان أن يمسّ العقيدة والشرف منّا.

وأفاق خيان من دهشته فقال بهدوء وكبرياء وكأنّه لم يسمع ما قال الملك:

- إذا سألتني مولاي: لماذا يرفض حاكم الجنوب أن يشيد معبداً لست، فماذا أقول له؟

- قل له إنّ أهل الجنوب يعبدون آمون وحده. .

- وإذا سألتني، لماذا لا يقتلون أفراس البحر التي تقصّ مضجعي. .؟

- قل له إنّ أهل الجنوب يقدّسونها.

وأعلن الرسول خيان أنّ سيكتنرع سيستقبله غداً غد، وفي الموعد المحدّد ذهب الملك إلى هو الاستقبال يتبعه كبير حجّابه، وهناك وجد في انتظاره حول عرشه رئيس الوزراء والكاهن الأكبر وقائدي الجيش

- كما تشاء أيها الحاكم وما عليّ إلا البلاغ،  
وستحمل تبعه أقوالك.  
فحنى الملك رأسه ولم يتكلّم. ثم قام واقفاً مؤذناً  
بانتهاى المجلس، فوقف الجميع إجلالاً حتى غيبه  
الباب عن أنظارهم..

#### - ٦ -

وكان الملك يقدّر خطر الحال، فأراد أن يزور معبد  
آمون، ليدعو الربّ المعبود ويعلن الكفاح في الفناء  
المقدس، وأعلن إرادته لوزيريه ورجاله، فقصدت  
جموعهم من وزراء وقواد وحجّاب وكبار موظّفين إلى  
معبد آمون لتكون في استقبال الملك. وتنبّهت طيبة  
الغافلة إلى ما يدور وراء جدران قصورها الشّم،  
وتهاشم كثيرون بأنّ رسول الشمال جاء متعالياً وآب  
غاضباً. وذاع بين الطيّبين أنّ سيكتنزع سيزور معبد  
آمون ليستلهمه الرأي ويسأله المعونة، فذهبت جموع  
غفيرة من الرجال والنساء إلى المعبد، وانضمّ إليهم  
خلق كثيرون أحاطوا بالمعبد، وتدافعوا إلى السبل  
المؤدية إليه، وكان يبدو على وجوههم الجذّ والاهتمام  
والتطلّع، فدار بينهم التساؤل وجرى على ألسنتهم  
الحديث كلّ يفسّر الأمر على ما يرى، وجاء الركب  
الفرعونيّ تتقدّمه كوكبة من الحرس تتبعها عجلة الملك  
وعربات أخرى تحمل الملكة والأمراء والأميرات من  
البيت الملكيّ، فسرت في نفوس القوم موجة من  
الحماس والفرح، ولوّحوا للميكهم بأيديهم وهلّلوا له  
وكتّروا، فابتسم سيكتنزع إليهم ولوّح لهم بصولجانه،  
ولم يغب عن أحد أنّ الملك يرتدي لباس الحرب ذا  
الدرع اللامعة، فاشتدّ تشوّق الناس إلى سماع  
الأخبار، ودخل الملك فناء المعبد يسير وراءه آله نساء  
ورجالاً، فاستقبلهم كهنة المعبد والوزراء والقواد  
بالسجود، وهتف نوفر آمون بصوت مرتفع قائلاً:  
«أدام الربّ حياة الملك وحفظ ملكة طيبة»، وردّد  
القوم هتافه بحماس وأعادوا ترديده، فحيّاه الملك برفع  
يده إلى رأسه وابتسامة من فمه العريض، ثمّ تقدّم  
الجمع بأسره إلى هو المذبح، وقدم الجنود ثوراً ذبيحاً

- يا عجبا.. أليس فرعون أعظم قداسة من أفراس  
البحر؟..  
فأطرق سيكتنزع ملياً كأنه يفكر في الجواب، ثمّ قال  
بلهجة حازمة:  
- إنّ أبوفيس مقدّس لديكم، وهذه الأفراس  
مقدّسة لدينا.

وسرت موجة ارتياح في نفوس رجال الملك لهذا  
الجواب العنيف، أمّا خيان فقد اشتدّ به الغضب ولكّنه  
لم يستسلم لسلطانه، وكبح جاح نفسه وقال بهدوء:  
- أيها الحاكم الجليل، كان أبوك حاكماً على الجنوب  
ولم يكن يلبس هذا التاج، فهل ترى لنفسك حقاً غير  
ما كان يرى أبوك لنفسه؟  
- لقد ورثت عنه الجنوب وهذا تاجه منذ القدم،  
ومن حقّي أن أتوجّ به رأسي.  
- ولكن في منف رجل آخر يتوجّ رأسه بتاج مصر  
المزدوج، ويسمّي نفسه فرعون مصر، فماذا ترى فيما  
يدّعيه لنفسه؟..

- أرى أنّه اغتصب وأسلّفه المملكة..

ونفذ صبر خيان فقال بحنق واحتقار:

- أيها الحاكم، لا تظنّ أنّ لبسك التاج يرفعك إلى  
مصاف الملوك، فالملك من بعد ومن قبل قوّة وسلطان،  
ولست أرى في أقوالك إلاّ استهانة بالوشائج الطيبة  
التي ربطت آباءك وأجدادك بملوكنا، ونزوعاً إلى  
التحدّي لا تؤمن عواقبه.

فتبدّى الغضب على وجه الخاشية، ولكنّ الملك  
حافظ على هدوئه وقال مسترسلاً:

- أيها الرسول نحن لا نعيّج بالشرّ، ولكن إذا  
تحرّش بشرفنا متحرّش؛ لا نكص على أعقابنا ولا نوثر  
السلامة، ومن فضائلنا ألاّ نغالي في تقدير قوّتنا فلا  
نتنظر أن تسمع منّي مباهاة وفخراً. ولكن اعلم أنّ  
آبائي وأجدادي حافظوا ما وسعهم الجهد على استقلال  
هذه المملكة. ولن أفرط أنا فيما عاهدوا الربّ والناس  
على المحافظة عليه..

فعلت شفتي خيان الحادّتين ابتسامة ساخرة تخفي  
حقداً مُراً. وقال بلهجة ذات مغزى:

صَلَّيتَ لِلرَّبِّ وَسَلَّيْتَهُ العون، وليس الرب بناسِ وطنه وأبنائه . .

فصاح الجميع بصوت اهتزت له جدران المعبد: «أَيُّدُ الرَّبِّ مَلِكُنَا سَيَكْنُرُنَا . .» وهَمَّ الملك بالمسير فدنا منه كاهن آمون وقال:

- هل لمولاي أن ينتظر قليلاً لأقدم إليه هدية مقدسة . . ؟

فقال الملك مبتسماً:

- كما تشاء يا صاحب القداسة . .

وأشار الكاهن إلى كاهنين إشارة خاصة؛ فمضيا إلى حجرة المخلفات، وعادا يحملان صندوقاً صغيراً من الذهب تطلعت إليه الأبصار جميعاً، واقترب منها نوفر آمون وفتح الصندوق في أناة ورفق، فرأت الأعين بداخله تاجاً فرعونيّاً، تاج مصر المزدوج، فانتسعت الأعين دهشة وتبدلت النظرات، وحتى نوفر آمون هامته لمولاه وقال بصوت متهذج:

- مولاي هذا تاج الملك تيبايوس . . .

فتصايح قوم قائلين: «تاج الملك تيبايوس . . .» فقال نوفر آمون بحماس وقوة:

- نعم يا مولاي، هذا تاج تيبايوس آخر فرعون حكم مصر المتحدة وبلاد النوبة قبل غزو الرعاة لوطنا. وقد شاعت حكمة الرب أن تحل نغمته ببلادنا في عهده، فسقط هذا التاج الكريم عن رأسه بعد أن أبلى في الدفاع أشدّ البلاء، ففقد العرش وصاحبه واحتفظ بشرفه، لذلك رفعه أسلافنا إلى هذا المعبد ليأخذ مكانة بين المخلفات المقدسة، ولقد مات صاحبه بطلاً شهيداً فهو جدير برأسك الكبير: وإني أتوجك به أيها الملك سيكنرع، يا ابن توتيشيري الأم المقدسة، وأنادي بك ملكاً على مصر العليا والسفلى وبلاد النوبة، وأدعوك باسم الرب آمون وذكرى تيبايوس وأهل الجنوب أن تنفر إلى قتال عدوك وتحريم وادي النيل الطاهر المحبوب . .

ودنا الكاهن الأكبر من الملك وخلع عن رأسه تاج مصر الأبيض وسلّمه إلى أحد رجال الكهنوت، ثم رفع تاج مصر المزدوج بين التهليل والتكبير ووضع

للرب، ثم طافوا جميعاً بالمذبح وهو الأعمدة، وهناك وقفوا صقّين، وأعطى الملك صولجانه لوليّ عهده الأمير كاموس وسار إلى السلم المقدس فارتقاه إلى قدس الأقداس، واجتاز العتبة المقدسة بخطى خاشعة، وأغلق وراءه الباب فكأنما أدركه الغسق، وحتى رأسه وخلع تاجه إجلالاً للمكان المطهر، وتقدّم نحو المحراب الثاوي فيه الربّ المعبود بساقين متخاليتين من الهيبة، ثم سجد عند قدميه ولثمهما وسكن لحظة ريثما تهدأ أنفاسه المضطربة وقال بصوت خافت كأنه النجوى:

- أيها الربّ المعبود، ربّ طيبة المجيدة، وربّ أرباب النيل، هبني من لدنك رحمة وقوة، فلنّي اليوم أنعرض لتبعة خطيرة إن لم تشدّ فيها أزري عييت دونها. هي الدفاع عن طيبة وقتال عدوك وعدونا الذي سقط علينا من صحراء الشمال في جموع همجية خرّبت ديارنا وأذلت أعناق قومنا وأغلقت أبواب معابدك واغتصبت عرشنا، هبني معونتك أصدّ جيوشهم وأطارد فلولهم وأطهر الوادي من قوتهم الغاشمة فلا يحكمه إلّا أبناؤك السمر ولا يذكر فيه إلّا اسمك.

وسكت الملك، وانتظر برهة، ثم استغرق مرّة أخرى في صلاة طويلة حارة مسنداً جبينه إلى قدمي التمثال، ثم رفع رأسه في وجل حتى بصر بالوجه النبيل المعبود يكتنفه الجلال والصمت كأنه ستار الغد يخفي وراءه أحداث القضاء.

★ ★ ★

وطلع الملك على قومه وقد وضع التاج الأبيض على جبينه المتفصّد بالعرق فسجدوا له جميعاً، وتقدّم منه الأمير كاموس بصولجانه فأخذه يميناه وقال بصوت جهوري:

- يا رجال طيبة المجيدة، لعلّ عدونا في هذه الساعة التي أحدثكم فيها يحشد جيشه على حدود مملكتنا ليقتحم علينا ديارنا، فهلّموا جميعاً إلى الكفاح، وليكن شعار كلّ واحد منكم أن يبذل قصارى جهده في عمله، كي يقوى جيشنا على الثبات والقتال، ولقد

على رأسه المجتد، ثم صاح هاتفاً: «ليحيى سيكنترع  
فرعون مصر». فردد القوم هتافه، وهرع كاهن إلى  
خارج المعبد وهدف لفرعون مصر سيكنترع، فردد  
الطبييون الهتاف في حماسة مستعرة. ثم هتف بقتال  
الرعاة وأجابه القوم بأصوات كالرعد، وقد أيقنوا بما  
كانوا منه في شك...  
وحياً فرعون الكهنة، ثم أنجبه نحو باب المعبد تتبعه  
أسرته ورجال قصره ووجوه المملكة الجنوبية...

#### - ٧ -

وعلى أثر وصول فرعون إلى قصره دعا إلى الاجتماع  
به رئيس وزرائه وكبير الكهنة ورئيس حجاب القصر  
وقائذي الجيش والأسطول وقال لهم:  
- إن سفينة خيان تسبح به نحو الشمال سريعاً،  
وستعرض للغزو على أثر اجتيازه حدود الجنوب،  
فينبغي ألا نضيع ساعة من وقتنا.  
والنفت إلى قائد الأسطول كاف وقال:  
- أرجو أن نجد مهمتك يسيرة على سطح الماء،  
فالرعاة تلاميذنا في القتال في السفن، هيئ سفنك  
للحرب وأبحر بها نحو الشمال...  
فأدى القائد كاف التحية لمولاه وفارق المكان على  
عجل. وتمول الملك إلى القائد بيبي وقال:  
- أيها القائد بيبي، إن قوة جيشنا الأساسية معسكرة  
في طيبة، فيرّ بها إلى الشمال، وسألتق بك على رأس  
قوة من حرسى الأشداء، وإني أدعو الرب أن يثبت  
جنودي أنهم جديرون بالمهمة الملقاة على عاتقهم، ولا  
تنس أيها القائد أن تبعث برسول إلى بانوبوليس على  
حدودنا الشمالية لينبّه الحامية إلى الخطر المحدق بها حتى  
لا تؤخذ على غرة.

فأدى القائد التحية لمولاه ومضى، وجعل الملك  
يقلب وجهه في وجوه رئيس الوزراء وكبير الكهنة  
ورئيس الحجاب ثم قال لهم:

- سيليقي على كواهلكم أيها السادة واجب الدفاع  
عن مؤخرة جيشنا، فليقم كل منكم بواجبه بما أعهد  
فيكم من الكفاية والإخلاص.

فقالوا في صوت واحد:  
- كلنا فداء للملك ولطيبة.

فقال سيكنترع:

- يا نوفر آمون ابعث رجالك إلى القرى والبلدان  
يحثون قومي على الجهاد، وأنت يا أوسر آمون ادع  
حكام الأقاليم وأوصهم أن يجندوا الأشداء والقادرين  
من شعبي، أما أنت يا حور فإنني أعهد إليك بآل بيبي  
ولتكن لابني كاموس كما كنت لي.

وحياً الملك رجاله وغادر المكان قاصداً إلى جناحه  
الخاص ليودع أسرته قبل الرحيل، وأرسل في طلبهم  
جميعاً فجاءت الملكة أحويتي والملكة توتيشيري والأمير  
كاموس وزوجه الأميرة ستكيموس وابنها الصغير أحسن  
وابنتهما الصغيرة الأميرة نفرتاري، فاستقبلهم استقبالاً  
ودياً وأجلسهم حوله وقد شعر بالحنان يتدفق من بين  
أضلعه، ومضى يقلب عينيه في أحب الوجوه إلى قلبه  
وكأنه يرى وجهاً واحداً يتكرر لا يفرق بينها سوى  
العمر، فتوتيشيري في الستين، وأحويتي مثل زوجها في  
الأربعين، أما كاموس وستكيموس ففي الخامسة  
والعشرين، وأما أحسن فلم يجاوز العاشرة، وأخته  
نيفرتاري دون ذلك بعامين، ولكن ما من وجه فيهم  
إلا وتألّق فيه هاتان العينان السوداءوان وذلك الفم  
الذي يميل إلى البروز أعلاه، وتلك السمرة الخمرية  
التي تضي عليه صفةً وحسناً، وارتسمت على فم  
الملك العريض ابتسامة وقال:

- تعالوا نجلس معاً ساعة قبيل الرحيل...

فقالت توتيشيري:

- إني أدعو الرب يا بني أن يكون ذهاباً إلى النصر  
المبين.

فقال سيكنترع:

- إني كبير الأمل في النصر يا أمّاه...

ورأى الملك ولي العهد في لباس الحرب فأدرك أنه  
يظن نفسه خارجاً معه فسأله متجاهلاً:

- لماذا ترتدي هذا اللباس؟..

فبدت الدهشة على وجه الشاب كأنه لم يكن يتوقع  
هذا السؤال، وقال باستغراب:

سيكتنزع وقال بلهجة لم تخلُ من عتاب:  
- أتبيكين يا أحتوبي.. انظري إلى شجاعة أمنا  
توتيشيري.

ثم نظر إلى أحس وكان يكلف به كلفاً عظيماً،  
وكان الغلام صورة صادقة من جدّه، فجذبه إليه  
وسأله مبتسماً:

- من العدو الذي يجب أن نحذره يا أحس؟

فقال الغلام وهو لا يفقه معنى ما يقول:

- اليأس...

فتضحك الملك وقبّله مرّة أخرى. ثم قام واقفاً  
وقال برقة:

- هلمّوا نتعانق...

ثم عانقهم جميعاً مبتدئاً بتوتيشيري وزوجه أحتوبي  
وستكيموس زوج ابنه ثم أحس ونيفرتاري: ثم  
انعطف نحو كاموس، وكان واقفاً في جود واستسلام،  
فمدّ له يده فشدّ عليها بقوة، ثم انحنى عليها فقبلها  
وقال بصوت خافت:

- فلتصحبك السلامة يا أبتاه..

ولوح لهم الملك بيده ويرح المكان بقدمين ثابتتين  
وقد تجلّى على وجهه العزم والبأس...

\*\*\*

وخرج الملك في رأس قوّة من حرسه والتقى في  
ميدان القصر بجموع شعب طيبة المتحمّس، فخال  
أهل طيبة جميعاً رجالاً ونساء وأطفالاً قد انتقلوا إلى  
ميدان القصر يحيطون بملكهم ويهتفون لمن خرج باغياً  
تحرير الوادي، وشقّ سيكتنزع طريقه بين موجهم  
المتلاطم قاصداً باب طيبة الشمالي، وهناك وجد الكهنة  
والوزراء والحجّاب والأعيان وكبار الموظّفين في توديعه،  
فسجدوا لموكبه وهتفوا باسمه طويلاً، وكان آخر صوت  
سمعه الملك صوت نوفر وهو يقول له:

- سأستقبلك يا مولاي بعد حين ورأسك مكمل  
بالغار.. اللّهمّ استجب.

واجتاز الملك باب طيبة العظيم في طريقه إلى  
الشمال تاركاً وراءه أسوار المدينة العظيمة، وكان عظيم  
التأثر لما رأى ولما سمع، وقد شعر بخطر العمل الكبير

- للسبب الذي من أجله ترتديه أنت يا مولاي.

- هل جاءك أمري بذلك؟

- ظننت المسألة لا تحتاج إلى أمر يا مولاي.

- أخطأت يا كاموس.

فبدا الفزع على وجه الشاب وقال:

- هل أحرم شرف خوض معركة طيبة يا مولاي؟

- إنّ ميادين القتال لا تستأثر بالشرف دون الميادين

الأخرى، وستبقى على عرشي يا كاموس لتسهر على

سعادة مملكتنا وتمدّد جيشنا بالرجال والمثوثة.

فامتقع وجه الشاب، وحتى رأسه كأنما أثقله أمر

الملك، وأرادت توتيشيري أن تحفّف عنه فقالت برقة:

- كاموس... إنّ القيام بأعباء الحكم ليس بالعمل

المهين الذي يجزي إنساناً وهو عمل جدير بمثلك.

وهنا وضع الملك يده على منكب وليّ عهده وقال:

- اصغ إليّ يا كاموس إنّنا مقبلون على حرب

ضروس نرجو أن نفوز فيها بعون الربّ، ونحرّر بلادنا

المحبوبة تما تقيّد به من الأغلال، على أنّه من الحكمة

أن نقدر جميع العواقب، وقد قال حكيمنا قاقمنا: ولا

تضع كلّ أسهمك في جعبة واحدة.

وسكت الملك عن الكلام، فساد الصمت ولم ينبس

أحد بكلمة حتّى استأنف الملك قائلاً:

- فإذا شاءت حكمة الربّ أن يبيء جهادنا بخذلان

فما ينبغي أن ينقطع جهادنا قطّ... أصغوا إليّ جميعاً،

إذا سقط سيكتنزع فلا تيشسوا فسيخلف كاموس أباه،

وإذا سقط كاموس خلفه أحس الصغير، وإذا فني

جيشنا هذا فمصر ملأى بالرجال، وإن تسقط

بطليمائس فلتحارب كبتوس، وإن تفتحم طيبة فلتشب

أمبوس وسين وييجة، أو يقع الجنوب في أيدي الرعاة

فهناك النوبة لنا فيها رجال أشداء مخلصون، وستوّلّي

توتيشيري الأبناء بما تولّت به الآباء والأجداد، فلا

أحذركم إلّا من عدوّ واحد هو اليأس..

وكان لكلام الملك وقع شديد في نفوس الجميع

حتّى أحس الصغير ونيفرتاري وجما وعلاهما الارتباك،

وعجبا كيف يحدثها جدّها بهذه اللهجة الجدّية أوّل

مرّة، واغرورقت عينا الملكة أحتوبي بالدموع، فتكدّر

فاوماً يرأسه دلالة على الموافقة وقال:  
- ينبغي أن نبلغ بانوبوليس ونعسكر في واديه قبل  
أن يعود خيان إلى منف...  
ثم دعا الملك قواده إلى الاجتماع به.

- ٨ -

وتحرك الجيش قبيل الفجر يسبقه إلى أهدافه قوة  
الكشاف، وتتقدمه فرقة العجلات المكونة من مائتي  
عجلة على رأسها فرعون، وتبعتها فرقة الرماح، ثم  
فرقة القسي والنبال، ثم فرقة الأسلحة الصغيرة،  
وعربات المؤن والسلاح والخيام. وأبحر الأسطول في  
الوقت نفسه إلى الشمال، وكان الظلام شديداً لا يخفف  
من سواده سوى شعاع النجوم الساهرة وأضواء  
المشاعل، فبلغوا مدينة قسي فهبت جميعاً لاستقبال  
فرعون وجيشه، وهرع الفلاحون من أقصى الحقول  
يحملون سعف النخل والرياحين ودنان الجعة، وساروا  
مع الجيش يهتفون له ويهدون إلى الجنود الأزهار  
وأكواب الجعة الشهية، ولم يتركوه حتى أوغل في  
المسير، وبهت ظلمة الليل وانسكب في الأفق الشرقي  
نور الفجر الأزرق الهادي يتقدم بشائر النور، ثم أسفر  
الصبح وغمر الضوء الدنيا والجيش يجد في السير حتى  
بلغ كسوت قبيل العصر، فاستراح فيها وقتاً بين  
المستقبلين من أهلها المتحمسين. ورأى الملك أن يكون  
مبيت الجيوش في تنثرا فأصدر أمره باستئناف المسير،  
وجد الجيش حتى بلغ تنثرا عند سدول الظلام وهناك  
استسلم للنوم العميق..

وكان يستيقظ قبل الفجر ويضرب في الأرض حتى  
حلول الظلام يوماً بعد يوم حتى عسكر في أبيدوس،  
وكانت الكشاف تجول شمال المدينة فرأى ضابط من  
رجالها عن بعد سحق أقواماً تضرب في الأرض، فعدا  
على رأس ثلثة من رجاله نحو القادمين، وكان كلما هبط  
الوادي تبين له الأمر فرأى خطوطاً متعرجة من  
الفلاحين يسرون جماعات يحملون ما خفف من  
متاعهم، ومنهم من يسوق غنماً أو ثيراناً يدلّ منظرهم  
على البؤس والتشرّد، فعجب الرجل واعترض سبيل

المقبل عليه، وكيف أنّه ينطوي على إسعاد شعبه أو  
إشقائه إلى أمد طويل، لقد وضع مصير القوم في قبضة  
يده وواجه المخاطر المروعة التي وقف منها أبوه موقف  
التمهل التريث، ولم يكن سيكتنر من الحكّام المترفين  
ولكن كان خلقه ينطوي على الصلابة والبسالة  
والتقشف والتدين، وكان عظيم الأمل قوي الثقة  
بقومه. وقد لحق جيشه بالمعسكر في بلدة سنهور شمال  
طيبة قبل المساء واستقبله القائد بيبي على رأس قواد  
الفرق، وكان مضطرب الخواص لما أصابه من إرهاق  
ووصب، ولم تغب حالته عن عيني الملك فقال له:  
- أراك متعباً أيها القائد.

فسر القائد بملاحظة مولاه وقال:

- استطعنا يا مولاي أن نجتمع هنا حاميات  
هرمنسيس وهابو وطيبة، فكوت جيشاً يربو عدده على  
عشرين ألف مقاتل.

وسار الملك بعجلته بين خيام الجنود فسرت في  
نفوسهم موجة فرح وحماس، وتردّد المتأف له في  
المعسكر شمال بلدة سنهور، ثم كرّ راجعاً إلى الخيمة  
الملكية وفي صحبته القائد بيبي، وكان الملك مطمئناً  
إلى جيشه الذي بذل أجل عهود شبابه في تدريبه  
فقال:

- جيشنا باسل... فكيف ترى شعور القواد؟

- كلّهم متفائلون يا مولاي ومتحمسون للحرب،  
وما من واحد منهم إلّا يييدي عظيم إعجابه بفرقة  
القسي ذات الشهرة التاريخية.

فقال الملك:

- إني أشارككم هذا الإعجاب، والآن أصغ إليّ،  
لا يجوز أن نضيع من الوقت إلّا ما تستلزمه ضرورة  
إراحة هذا العدد من الجنود، فإنّه ينبغي أن نلقى  
عدونا - إذا هاجمنا حقاً - في الوادي المنحدر ما بين  
بانوبوليس وبطلوس، فهو وادٍ شديد الوعورة ضيق  
المسالك، والميزة الحربية فيه لمن يسيطر على عاليه،  
ومجرى النيل فيه ضيق فيمكن أن نساعد أسطولنا في  
أثناء اشتباكه مع العدو.

- سنشرع في المسير يا مولاي قبيل الفجر.

- نعم وأسفاه يا مولاي، ولا يجدي في الدفاع عنها  
بسالة حاميتنا قليلة العدد.

فهزَّ الملك رأسه أسفًا وقال:

- خسرنا أوفق ميدان قتال لنا.

- لن يؤثر هذا في شجاعة جنودنا الفائقة..

وفكر الملك مليًا ثم قال لقائده جيوشه:

- ينبغي أن نخلي أبيدوس وتنشيرا إخلاء تامًا.

فبدأ التساؤل على وجه بيبي فقال الملك:

- لن ندافع عن هذه المدن.

فأدرك بيبي ما يعنيه مولاه.

- أريد مولاي أن يلقي العدو في وادي كبتوس؟

- هذا ما أريده، فهناك تمكن مهاجمة العدو من  
عدّة جهات. وتوجد في أنحاء الوادي حصون طبيعية،  
وسأترك له في المدن التي نخليها عصابات تكوّن عليه  
دون أن تشبك معه في قتال فتعطل تقدّمه حتّى نقوّي  
مراكزنا، هيّا يا بيبي ابعث برسلك إلى المدن ليخلوها،  
ومرّ القوّد بالتقهقر في الحال: ولا تضع وقتًا فإنّ حبل  
الأرجوحة التي يترجّح فيها مصير قومنا أمسى أحد  
طرفيه في يد أبوفيس.

## - ٩ -

وصاح المنادي في أهالي أبيدوس وبرفا وتنشيرا أن  
احملوا متاعكم وأموالكم وسيروا إلى الجنوب، فقد  
أمست دياركم ميدان قتال لا يعرف الرحمة، وكان  
القوم يعرفون من الرعاة وما أفعالهم، فتولّاهم الخوف  
ويادروا إلى أموالهم وأمتعتهم يكذّسون بها العربات  
تجرّها الشيران، وإلى البقر والأغنام يسوقونها سوق  
المتعجّل، ولمّا شعّتهم وهرعوا نحو الجنوب تاركين  
أراضيهم وديارهم وكأنّما تقطّع أوصالهم من الحزن  
والأسف، وكان كلّما تقدّم بهم المسير القوا بأبصارهم  
المظلمة إلى وراء تنازعهم قلوبهم إلى أوطانهم، ثمّ  
تفرّغهم المخاوف فيجذّون سراعًا إلى المجاهل التي  
تنتظرهم، ومروا في طريقهم ببعض فرق الجيش  
فخفقت قلوبهم في صدورهم وداعب أحلامهم الأليمة  
أمل، وافترّت ثغورهم عن ابتسامة فرح التمتع في جوّ

المتقدّمين منهم وهم بسؤالهم، ولكنّ رجلاً منهم صاح  
به:

- الغوث أيّها الجنديّ... أدركونا فقد هلكنا..

فصاح الضابط منزعًا:

- تطلبون الغوث؟.. ماذا يفزعكم؟

فأجاب كثيرون منهم في نفس واحد:

- الرعاة... الرعاة..

وقال الرجل الأوّل:

- نحن أهالي بانوبوليس وبطلمايس، جاءنا جنديّ

من جنود الحدود وقال لنا: إنّ جيش الرعاة يهاجم

الحدود بقوّة عظيمة لن تلبث أن تتدفّق إلى بلدتنا

ونصحنا بالهجرة إلى الشمال، فساد الفزع البلد

والحقول وهرعنا جميعًا إلى ديارنا ننادي النساء

والاطفال ونحمل ما نحفّ حمله، ثمّ تركنا البلاد وراءنا

فأزّين، فما ذقنا الراحة منذ صباح أمس..

وكان يبدو على وجوههم الإعياء والخور فقال لهم

الضابط:

- استريحوا قليلًا ثمّ جدّوا في السير، فعما قليل

ينقلب هذا الوادي الساكن ميدانًا للقتال.

ولوى الرجل عنان فرسه وانطلق به إلى خيمة القائد

في أبيدوس، وأبلغه الخبر، وقام بيبي من فوره إلى

الملك وقصّ عليه الخبر، فتلقّاه بدهشة وانزعاج

وصاح:

- كيف وقع هذا.. هل بلغ خيان منف في هذا

الزمن اليسير؟..

فقال بيبي بحقنق:

- لا شك يا مولاي في أنّ عدونا حشد جيشه على

حدودنا قبل أن يبعث إلينا برسوله، فهو كان يتربّص

بنا، وما عرض علينا مطالبه إلّا وهو يرجو أن

ترفضها، فلمّا اجتاز خيان حدودنا عائداً أصدر أمره

للجيوش المحتشدة بالهجوم، هذا هو التفسير المعقول

لذلك الهجوم السريع العنيف..

فاصفرّ وجه الملك سيكتنزع غضبًا وحنقًا وقال:

- إذن سقطت بانوبوليس وبطلمايس.

- حقاً إنه المؤلم.. ولكن هل تنفع القسي في مقاومة سيل من العجلات؟  
إن جنودنا يا مولاي لا يخطئون أهدافهم، وسيبقى أبوفيس غداً أن الغلبة لسواعدهم على كثرة عجلاته..

وفي ذلك المساء خلا فرعون إلى نفسه وكان يشعر بضيق وانقباض، وصلى للرب صلاة حارة طويلة ضارعاً إليه أن يشرح صدره، ويثبت قلبه، ويكتب له ولجيشه النصر.

وأحسن الجميع دنو العدو؛ فضاعفوا من يقظتهم، وناموا ليلتهم جزعين يرجون أن يطلع الصبح ليلقوا بأنفسهم في معركة الموت.

#### - ١٠ -

واستيقظ الجيش قبل بزوغ الفجر بزمن غير يسير، وأخذ الرجال الأشداء من حملة القسي أماكنهم الحصينة في الميدان يؤيد كل جماعة منهم قوة صغيرة من العجلات، ووقف سيكنترع أمام خيمته مع قائده بيبي وسط هالة من رجال حرسه الأشداء، وكان يقول لهم: وليس من الحكمة أن نقذف بفرقة العجلات لمواجهة قوات لا قبل لها بها. ولكن هذه العجلات المبعثرة ستعاون رمانتنا المحصنين على إصابة فرسان العدو وجياده، وليس من شك في أن أبوفيس سيبدأ هجومه بالعجلات، لأن فرق الجيش الأخرى لا تلتقي حتى يفصل في معركة العجلات، فليكن هنأ موجهاً إلى إصابة عجلات الرعاة بالعجز، حتى نمكن لفرق جيشنا التي لا تقاوم بخوض المعركة والقضاء على عدونا.

وكانت فكرة القضاء على عجلات العدو حلمه الذي يهيم به، وكان يدعو ربه آمون في صدق ورجاء قائلاً: أيها الرب المعبود، اقض لنا بالغلبة على هذه العقبة.. وانصر أبناءك المؤمنين، فلئن تخذلهم اليوم لن يذكر اسمك في مشواك المكرم، وتغلق أبواب معبدك المظهر..

وركب الملك عجلته، وفعل القائد بيبي مثله،

أحزانهم كما تضيء أشعة الشمس خلل ثغرة بين السحب انقشعت عنها لحظة في يوم أذكن السماء، ولوحوا بأيديهم وصاح الكثيرون: «أراضينا وديعة مسلوقة... ردوها إلينا أيها البواسل...».

كان فرعون في تلك الأثناء يشرف على توزيع قواته في وادي كبتوس ويرمق بعينين أسيفتين جموع المهاجرين الذين لا ينقطع تيارهم المتدفق، وكان يشاركهم الالم كما أنه واحد منهم، ويضاعف في آله ما يحمله الهواء إلى أذنيه من هتافهم باسمه ودعائهم له. وكان القائد بيبي على اتصال دائم برجال الكشافة فيتلقى الأخبار منهم ثم يرفعها إلى مولاه، فبلغه هجوم العدو على أبيدوس ومقاومة حاميتها الصغيرة مقاومة عنيدة أثت على آخر رجل منهم. وغداة اليوم التالي حمل الرسول نبأ هجوم المكسوس على مدينة برفا وما احتال به الرجال المدافعون عنها من فتون الدفاع والمشاكسة لكي يعطلوا زحف العدو ما وسعتهم الحيلة، أما تنثيراً فقد ثبتت حاميتها العدو الزاحف ساعات طوياً حتى اضطر أن يهاجمها بقوات كثيرة كأثما يهاجم جيشاً كامل العدد والعدة، ثم قرر الكشافة وبعض الضباط الذين نجوا من حاميات المدن المغزوة أن قوات العدو يترجح عددها بين خمسين ألفاً وسبعين، أما فرقة العجلات فلا تقل عن ألف عجلة، وقد تلقى الملك النبأ الأخير بغربة وجزع؛ لأنه لم يكن هو - ولا أحد من جيشه - يتوقع أن يملك جيش أبوفيس هذا العدد الضخم من العجلات، وقال لقائده: - كيف تقاوم فرقة عجلاتنا هذا العدد الهائل من العجلات؟..

وكان بيبي في حيرة من أمره، وكان يلقي على نفسه هذا السؤال فقال لمولاه:

- ستهض فرقة القسي بواجبها يا مولاي.

فهز الملك رأسه دهشة وقال:

- لم تكن العجلات من آلات الحرب لدى الرعاة، فكيف يكون لجيشهم أضعاف ما لجيشنا منها؟..

- والمؤلم يا مولاي أن تكون الأيدي التي صنعتها مصرية..



وتنقض على ما يعترض لها من العجلات المصرية، وكان القتل يسقطون من الجانبين سراعاً في استبسال وشجاعة، وبدت قوة الرماة وشدة بأسهم، فكانوا يثبتون للهاجمين ويصيّدون فرسانهم ويجادهم ويفتكون بهم فتكاً ذريعاً، حتّى صاح يببي قائلاً:

- لودام القتال على هذا النحو، فستفوق على فرقة العجلات في أيام قلائل.

على أنّ قوات الرعاة كانت تهجم وتقاتل، ثمّ ترتدّ إلى معسكرها وتنقضّ غيرها كي لا تنهك قواها، على حين كان المصريّون يدافعون دون سكون أو راحة وهم ثابتون في مراكزهم، وكان سيكتنزع كلّما رأى فارساً من فرسانه يسقط أو عجلة من عجلاته تتعطل، يصيح غاضباً: وأأسفاه، ويدرك أتم إدراك ما ينزل بجيشه من الخسارة، وأخذ عدد الوحدات التي يهجم بها الرعاة يتضاعف، كانوا يهجمون ثلاثاً ثلاثاً، ثمّ هجموا ستّاً ستّاً، ثمّ عشرًا عشرًا. واشتدّ القتال وحمي وطيسه، وأطرد عدد عجلات الهكسوس في الزيادة، حتّى ساور سيكتنزع القلق، وقال لببي:

- لا بدّ من مواجهة زيادة قوات العدو بما يعيد إلى الميدان أثرانه.

- ولكن يا مولاي ينبغي الاحتفاظ بعجلاتنا الاحتياطية حتّى آخر الموقعة.

- ألا ترى أنّ العدو يكرّ علينا كلّ فترة يسيرة بقوّات جديدة متحفّزة للقتال؟..

- إي أدرك الخطّة يا مولاي، ولكنّا لا يمكن أن نجاريه فيها لوفرة عجلاته الاحتياطية وقلة عجلتنا..

فصرّ الملك بأسنانه وقال:

- لم نكن نتوقّع قطّ أن تكون له هذه الغلبة في العجلات، ومهما يكن فلا يمكنني أن أترك الرماة بلا نجدة، فليس في جيّشي رماة سواهم..

وأمر الملك بهجوم عشرين عجلة في خمس وحدات، فانقضّت كالنسور الكواسر، وبعثت في الميدان حياة جديدة، ولكنّ أبوفيس راد أن يرّد على حملة سيكتنزع الجديدة ردّاً قاسياً، فأرسل إلى الميدان عشرين وحدة قوام كلّ وحدة خمس عجلات، فزلزلت

وأحاط بهما الحرس الفرعونيّ، ووقف خلفهما مائة عجلة حربية، ثمّ تقدّمت فرقة الرماح ورصّت صفوفها إلى يمين الملك وإلى شماله، وكان الجميع ينتظر أن يدعى إلى القتال بعد أن تقوم قوّات الرماة والعجلات التي تؤيّدنها بواجبها الأوّل.

وحين أخذت تبدو بشائر النور، جاء رجل من الكشافة وأبلغ الملك أنّ الأسطول المصريّ اشتبك مع أسطول الرعاة في معركة حامية شمال كبّسوس، فقال الملك لقائده جيشه:

- إنّ أبوفيس يدرك ولا شكّ أنّه سيلقى مقاومة عنيفة، ولذلك أمر أسطوله بالهجوم ليتمكّن من إنزال جنود وراء مواقعنا.

فقال القائد يببي:

- إنّ الرعاة يا مولاي لا يتقنون فنّ القتال على سطوح السفن، وسيبلغ النيل المقدّس جثث جنودهم، ويطلع أمل أبوفيس في حصارنا.

كانت ثقة سيكتنزع في رجال أسطول طيبة عظيمة، ولكنّه أوصى قائد الكشافة أن يكون على اتصال دائم بميدان المعركة البحرية وجعل الظلام ينقشع والصبح يسفر. والميدان يتجلّى للآعين الفاحصة؛ فرأى سيكتنزع جنوده الرماة والقسيّ في أيديهم، والعجلات المدوّدة تتحفّز إلى جانبهم للقتال، ورأى في الناحية الأخرى جيش الرعاة ينتشر انتشار الغبار الثائر. وكان العدو ينتظر سفور الصبح، فما عثمت أن تحرّكت قوّات العجلات استعداداً للمعركة، ثمّ انقضّت قوّات منها على بعض الأماكن المحصّنة الأمامية فتطايرت السهام وصهلت الخيل وصرخ المتقاتلون، وتدافعت قوّات أخرى فاشتبكت مع الرماة المصريّين وبعض العجلات المصرية في قتال عنيف، فصاح سيكتنزع:

- الآن تبدأ معركة طيبة.

فقال يببي بصوت قويّ الثبرات:

- نعم يا مولاي، وقد بدأ جنودنا بدءاً حسناً.

وصوّبت الأبصار جيّماً إلى الميدان تشاهد سير المعركة، فأروا عجلات الرعاة تهاجم صفّاً ثمّ تتفرّق جماعات شتّى، وتهجم على الرماة بعنف وسرعة،

ساعة كأنه ربّ الموت يختار له من يشاء من عدوّه . واستمرّت المعركة حتّى الأصيل وهناك بدت الغلبة في صفّ الرعاة، فتحفّزوا ليضربوا الضربة القاضية، وهجمت عجلة كبيرة تحرسها قوّة عظيمة يقودها فارس شديد البأس طويل اللحية ناصع البياض، على عجلة سيكننرع، وشقّت إليه الصفوف ببسالة خارقة. وأدرك الملك غرض الفارس الجسور، فهرع نحوه حتّى تواجهها، ثمّ تبادلّا ضربتين هائلتين برمحيهما، فتلقى كلّ منهما الضربة الموجهة إليه بترسه وتحفّز للقتال. ورأى سيكننرع غريمه يسلّ سيفه، فعلم أنّه لم يقنع بتجربة حظّه، فسلّ سيفه واندفع نحوه، وفي تلك اللحظة الرهيبة استقرّ سهم في ساعده، فارتعشت يده وسقط منها السيف. . وصاح كثير من حرس الملك: «حذار يا مولاي. . حذار» ولكنّ الغريم كان أسرع إليه من الحذر، فوجّه إلى عنقه ضربة هائلة بأقصى قوّته، فأصابت هدفها، وارتمى على الوجه الأسمر أبلغ الألم، وتوقّف مقهوراً عن المقاومة. فقبض عدوّه بيمنه على رمح ورشقه بقوّة، فاستقرّ في جانب الملك الأيسر، وترنّج على أثره ذاهلاً وسقط على الأرض. . وتعالى الصياح من كلّ جانب، فقال المصريون: «ربّه. . لقد سقط الملك. . دافعوا عن ملككم. .» وصاح قائد العدوّ وهو يتسم ابتسامة الظافر: «أجهزوا على المتمرّد العاصي، ولا تبقوا على أحد من رجاله». فاشتدّ القتال حول جسد الملك الملقى، وانقضّ عليه فارس حقود. ورفع بلطة حادة، وهوى بها على رأسه فأطاح عنه تاج مصر المزدوج، وتفتّج منه الدم كالينبوع، وثني بضربة أخرى فوق العين اليمنى، فحطّمت العظام وتناثر المخّ في حالة بشعة، وأراد كثيرون أن يصيبوا من تلك المأدبة الدميّة ما يشفون به غلّهم، فتكالبوا على الجثّة ووجّهوا إليها طعنات مجنونة قاسية، أصابت العينين والفم والأنف والخدّين والصدر، فمزّقت الجثّة وأغرقتها في بحر من الدماء. . وكان يبيى يقاتل على رأس من بقي من جنوده، مدافعاً قوّة العدوّ المتدفّقة على البقعة التي سقط فيها مولاه. واستيأس القوم في القتال، وهانت عليهم

الأرض بصلصلتها، وملأت الفراغ بجبال من غبار ثائر، واستطارت المعركة وجرت الدماء كالنهر. . وتقدّم الوقت وهي لا تهدأ أو تخفّ وطأتها حتّى توسّطت الشمس كبد الساء. وجاء بعد ذلك رجال الكشافة وأذنوا الملك بارتداد أسطول الرعاة بعد أن فقد في الأسر سفيّتين، وغرقت له سفينة أخرى، فجاء نيا النصر في وقته ليشدّ من عزيمة المصريين ويثبّت قلوبهم، وأذاعه الضباط في الفرق المقاتلة والتي تنتظر أن يجيء دورها في الكفاح، فكان له صدى فرح في الصدور، وفورة حماس في القلوب، ولكن صكّ ذلك الخبر آذان أبوفيس كذلك فاستولى عليه الغضب، وغير خطّته البطيئة في الحال، وأصدر أمره إلى قوّة العجلات بالهجوم والانتقام. . ورأى سيكننرع سيلاً عرمرماً من العجلات ينقضّ على رماته البواسل من كلّ مكان، وينشب فيهم أظافره الحادة. وارتاع الملك أيّما ارتياح، وصاح قائلاً بغضب شديد:

«إنّ قوّاتنا التي نهكها النضال الدائم، لا يمكن أن تثبت وحدها لهذا السيل من العجلات. .

ثمّ التفت إلى قائد جيشه، وقال بعزم وإصرار: - سنخوض معركة فاصلة بالقوّة التي بين أيدينا، فمُرّ ضباطنا البواسل بالهجوم بفرقهم، وبلغهم رجائي أن يقوم كلّ بواجبه جندياً من جنود طيبة الخالدة.

وكان سيكننرع يدرك الهول الذي ينتظره وجيشه، ولكنّه كان رجلاً بأسلاً عظيم الإيمان، فلم يتردّد لحظة ونظر إلى الساء وقال بصوت صافي النبرات: «أتها الربّ آمون لا تنس أبناءك المخلصين». ثمّ أصدر أمره إلى قوّة العجلات المحيطة به بالهجوم، واندفع أمامها ليلقى عدوّه. .

وبدأت معركة من أشدّ المعارك هولاً، علا فيها الصراخ والصهيل وتطايرت الخوذ، وتساقطت الرؤوس. وجرت الدماء ولكن لم تُجْد بسالة المصريين شيئاً في مقاومة العجلات السريعة المدرّعة، ففتكت بهم فتكاً ذريعاً، وحصدتهم حصداً كالهشيم، وقاتل سيكننرع قتلاً مجيداً غير يائس ولا متخاذل، وبدا

سمع صوتًا يصبح قائلًا: «أيها الرفاق تعالوا.. هاكم جثة مولانا». فجرى صويه والمشعل في يده. فزعت عيناه من الهول الذي ستره، ولما بلغ مكان الجثة فرت من فمه صرخة مدوية، امتزج فيها الألم بالغضب. رأى ملك طيبة كتلة مشوهة من لحم ممزق وعظام بارزة ودم مسفوح والتاج ملقى إلى جانبه، فصاح غاضبًا: «يا للغربان الدنية.. لقد فعلوا ما قد تفعل الذئاب

بجثة الأسد المصور، ولن يضريك أن يمزقوا جسدك الطاهر، فقد حيت كما ينبغي للملك من ملوك طيبة أن يحيا، ومث ميتة البطل الباسل..». وصاح فيمن حوله تمن أذهلهم الحزن: «أحضروا الهودج الملكي.. هيا يا نيام» وأتى بعض الضباط بالهودج، واشتركوا جميعًا في رفع الجثة ووضعوها عليه، ورفع بيبي تاج مصر المزودج ووضعه إلى جانب رأس الملك، ثم سبى الجثة، وحملوا الهودج في صمت أليم، وساروا به نحو المعسكر المهيض الجناح، ووضعوه في الخيمة التي فقدت حاميتها وسيدها إلى الأبد.. وكان جميع القواد والضباط الذين نجوا من الموت يقفون حول الهودج منكسي الأذقان، ترهقهم كآبة، ويغشى أبصارهم حزن عميق. فالتفت إليهم بيبي بصوت قوي النبرات:

- أفيقوا أيها الرفاق ولا تستسلموا للحزن، فليس الحزن بمعبد سيكتنزع إلينا، ولعله ينسينا واجبنا نحو جثته ونحو أسرته ونحو وطننا الذي قُتل من أجله، لقد وقعت الواقعة، ولكن المأساة لم تتم فصولها، فينبغي أن نثبت في مراكزنا حتى نؤذي واجبنا كاملاً. فرفع الرجال رؤوسهم، وأصرّوا بأسنانهم صرير العزم والقوة، ونظروا إلى قائدهم نظرة كأنما يعاهدونه بها على الموت، فقال بيبي:

- إن الشجاع الحق من لا تنسيه الكوارث واجبه، وقد يكون من الحق أن نقر بأننا خسرنا موقعة طيبة، ولكن واجبنا لم ينته بعد، وعلينا أن نثبت أننا أهل للميتة الشريفة، كما كنا للحياة الشريفة.

فصاحوا جميعًا قائلين:

- لقد ضرب لنا ملكنا المثل الأعلى، وسوف نتبع أثره.

الحياة، وعزموا جميعًا على الاستشهاد في المكان الذي ارتوى بدماء مليكهم الباسل، فما زالوا يسقطون رجالًا إثر رجل حتى أدركهم المساء، وليس الكون الحداد، فكف الفريقان عن القتال، وقد نهكهم التعب واختتم الجراح..

## - ١١ -

وخرج الجنود بالمشاعل يبحثون عن قتلاهم وجرحاهم، وكان القائد بيبي واقفًا إلى جوار عجلته بعد أن نال الإعياء منه كل منال، يتجه قلبه إلى الجثة التي خضبت دماؤها الزكية الميدان، فسمع صوت قائد يقول:

- يا للعجب.. كيف انتهت الموقعة العظيمة بمثل هذه السرعة.. من يصدق أننا فقدنا جلّ قوّاتنا في نهار واحد.. كيف أمكن التغلب على جنود طيبة الأشداء..؟!

فقال له صوت آخر كان من الإعياء كالخشجرة:

- إنها العجلات التي لا تقاوم.. لقد حطمت آمال طيبة جميعًا..

فناداهم القائد بيبي قائلًا:

- أيها الجنود... هل أدبتم ما عليكم نحو جثة سيكتنزع؟... هلموا نبحث عنها بين الجثث..

فسرت قشعريرة في نفوسهم المتهالكة، وأخذ كل منهم مشعلًا وتبعوا بيبي صامتين يعقد ألسنتهم حزن عميق، وتفرّقوا في البقعة التي سقط فيها الملك، تصكّ آذانهم أنات الجرحى وهذيان المحمومين، وكان بيبي لا يكاد يرى ما بين يديه من الحزن والألم، ولا يكاد يصدق أنه يبحث حقًا عن جثة سيكتنزع، ويكبر عليه أن يسلم بأن موقعة طيبة قد انتهت هذه النهاية الأسيفة، وكان يقول والدموع تطفّر من عينيه: «أشهدي يا أرض كبتوس واعجبي.. إننا نبحث عن جثة سيكتنزع بين كثبانك.. ألا رفقًا بها، ولتكوني فراشا وثيرا لأضلعها المصابة، ألم تسقط فدائ لك ولأرض طيبة!.. وإها يا سيدي.. من لطيفة بعدك؟.. من لنا غيرك؟.. وظلّ في حيرته قليلاً ثم

فتَهَلَّل وجه بيبي وقال بسرور:

فقال بيبي بلهجة دلَّت على الجزع:  
- ستعلم كلَّ شيء في حينه أيُّها الحاجب الأكبر،  
والآن استأذن لي في المثل بين يدي وليَّ العهد...  
فغادر الحاجب الحجرة غير مرتاح البال، ثم عاد  
بعد زمن قصير وهو يقول: «إنَّ صاحب السموَّ ينتظرُك  
في جناحه الخاصِّ». فمضى القائد إلى جناح وليَّ العهد  
وأدخل عليه في بهو الاستقبال. ومجد بين يديه، وقد  
أدهشت الزيارة غير المتوقَّعة الأمير. فلَمَّا رفع بيبي رأسه  
ورأى الأمير وجهه الشاحب، وعينه الذابلتين، وشفتيه  
المتفتحتين، ساوره القلق، وسأل كما سأل حاجبه من  
قبل قائلاً:

- ماذا وراءك أيُّها القائد بيبي؟... فلا بدَّ من أمر  
جلل دعاك إلى مفارقة الميدان في هذا الوقت؟..  
فقال القائد بصوت دلَّت لهجته على الحزن والكآبة:  
- مولاي، ما تزال الآلهة - لأمر تخفي عليَّ حكمته -  
غاضبة على مصر وأهلها!..  
فوقع هذا الكلام من نفس الأمير موقع اليد القابضة  
من العنق، وأدرك ما يدلُّ عليه من الأخبار المحزنة  
فتساءل في قلق وجزع:  
- هل أصيب جيشنا بكارثة؟... هل يطلب  
والدي مدداً؟.

فأطرق بيبي وقال بصوت خافت:  
- وأسفاه يا مولاي، لقد فقدت مصر راعيها مساء  
هذا اليوم الكئيب.

ففزع الأمير كاموس قائماً، وصاح به:  
- هل أصيب والدي حقاً؟.

فقال بيبي بصوته الثقيل الحزين:

- سقط ملكنا سيكننرع وهو يقاتل على رأس جنوده  
قتال الأبطال الجبارة. وانطوت تلك الصفحة النبيلة  
الخالدة من سجلِّ أسرتكم العظيمة.  
فقال كاموس وهو يرفع رأسه:  
- ربَّاه... كيف تمكَّن لعدوك من ابنك  
المخلص... ربَّاه ما هذه الكارثة التي تنزل بمصر.  
ولكن ما جدوى التشكي؟ ليس هذا وقت البكاء. لقد  
سقط والدي فينبغي أن أحلَّ علَّه... صبراً أيُّها

- حيثم من جنود بواسل، والآن أصغوا إليَّ؛ لم  
يبقَ من جيشنا إلَّا أقلُّه، ولكننا سنخوض المعركة غداً  
على رؤوسهم حتَّى آخر رجل، وسيكون من جرَّاء قتالنا  
أن نعوق تقدُّم أبسوفيس حتَّى تنهتاً فرص النجاة لأسرة  
سيكننرع، فما دام أفراد هذه الأسرة على قيد الحياة،  
فال حرب بيننا وبين الرعاة لن تنتهي، وإن سكنت في  
الميادين إلى حين. سأفارقكم بعض يوم لأؤدِّي واجبي  
نحو هذه الجلَّة ونحو ذرَّيتها الباسلة، ثمَّ أعود إليكم  
قبل مطلع الفجر، لنموت ممَّا في ميدان القتال.  
طلب منهم أن يصلُّوا جميعاً أمام جثَّة سيكننرع،  
فجثوا وجثا واستغرقوا في صلاة حارَّة، وختم بيبي  
صلاته قائلاً:

- أيُّها الربُّ الرحيم، تغمَّد ملكنا الباسل برحمتك  
في جوار أوزوريس، واكتب لنا ميتة سعيدة كميته.  
كي نلقاه في العالم الغربيِّ بوجوه لا يخزيها لقاءه.  
ثمَّ نادى بعض الجنود وأمرهم بحمل الهودج إلى  
السفينة الفرعونية، والتفت نحو رفاقه وقال:  
- أستودعكم الربُّ وإلى اللقاء القريب.  
سار خلف الهودج حتَّى وضعوه في المقصورة، ثمَّ  
قال لهم:

- حين تبلغ بكم السفينة طيبة، سيروا به إلى معبد  
أمون، وضعوه في البهو المقدَّس، ولا تحيِّسوا من  
يسألکم عنه حتَّى أوافيكم.  
وعاد القائد إلى عجلته، وأمر السائق بالمسير إلى  
طيبة، فانطلقت بهما تهب الأرض نهباً..

\*\*\*

وكانت طيبة تسلم جفونها للنوم، تحت ستار الظلام  
الذي يغشى معابدها ومسلماتها وقصورها، في غفلة عمَّا  
يقع خارج أسوارها من الأحداث الجسام، فاتَّخذ سبيله  
رأساً إلى القصر الفرعونيِّ، وأعلن الحرس حضوره،  
فجاء رئيس الحجاب على عجل، وردَّ تحيته، وسأله  
بقلق:

- ماذا وراءك أيُّها القائد؟

القائد بيبي حتّى أعود إليك في لباسي الحربيّ.

ولكنّ القائد بيبي قال بسرعة:

- لم أجنّ إلى هنا يا مولاي لأدعوك إلى القتال، لقد قضى الأمر والأسفاه..

فحدّجه بنظرة حادة قاسية، وسأله:  
- ماذا تعني؟

- لا فائدة ترجى من القتال...

- هل قضى على جيشنا الباسل؟..

فأطرق بيبي وقال بحزن شديد:

- خسرنا المعركة الفاصلة التي كنّا نرجو أن نحزّر بها مصر، وتحطّمت قوّة جيشنا الأساسيّة، ولن ترجى فائدة حقّة من القتال، ولن نقاتل إلّا لكي نفسح لأسرة ملكينا الشهيد وقتًا للنجاة..

- أتريد أن تقاتل حتّى نفرّ فرار الجبناء، تاركين جنودنا وبلادنا فريسة للعدو؟..

- بل فرار الحكماء الذين يقدّرون العواقب وينظرون إلى المستقبل البعيد، ويسلمون بالهزيمة إذا وقعت، ثمّ ينسحبون من الميدان إلى حين، ثمّ لا يلبثون أن يجمعوا قواهم المبعثرة ويحملوا على عدوّهم عودًا على بدء... مولاي تفضّل وادعُ ملكات مصر، وليكن الأمر شورى...

ودعا الأمير كاموس حاجبًا، وأرسله في طلب الملكات، ومضى يمتسّى جيئةً وذهابًا يتناوبه الحزن والغضب، والقائد واقف بين يديه لا ينس بكلمة، وجاءت الملكات: توتيشيري وأחותي فستكيوموس مسرعات، وحين وقعت أبصارهنّ على القائد بيبي وقد انحنى لهنّ تحيّة، ورأين الكدر مرتسبًا على وجه كاموس بالرغم من تظاهره بالهدوء، شعرن بخوف واضطراب، وزاغت أبصارهنّ، وكان كاموس جزعًا فدعاهنّ إلى الجلوس، وقال:

- سيّداتي.. دعوتكنّ لأقصّ عليكم أنباء أسيفة..

وترثّ لحظة كي لا يفاجهنّ، ولكنّهنّ فزعن، وقالت توتيشيري بقلق:

- ماذا وراءك أيّها القائد بيبي؟.. كيف حال مولانا

سيكتنزع؟..

فقال كاموس بصوت متهدّج:

- جدّناه... إنّ قلبك لذكيّ الشعور، صادق الحدس... فليثبّ الله قلوبكنّ، ويعنكنّ على تحمّل الخبر الفاجع... لقد قتل أبي سيكتنزع في الميدان، وخسرنا المعركة...

وعطف رأسه عتهنّ حتّى لا يرى آلامهنّ، وقال وكأنّه يحدث نفسه المكلومة:

- قتل أبي وهزمت جيوشنا، وقضى على قومنا أن يعانون الآلام جميعًا، من أدنى الجنوب إلى أقصى الشمال...

ولم تتمالك توتيشيري فزفرت زفرة حرّى كأنّها تجت بها فتات كبدها، ووضعت يدها على قلبها وهي تقول:

- ما أشدّ جرح هذا القلب العجوز...

أمّا أחותي وستكيوموس فقد ثقل رأساهما، ووكفت أعينها دمعًا ساخنًا، ولولا وجود القائد بينهما لانتحبتا انتحابًا عاليًا.

ووقف بيبي وسط ذاك الحزن الشامل صامتًا، مجروح الصدر، مضطّعب الحواسّ جميعًا، وكان يحزنه أن يضيع الوقت سدى، وخشي أن تغفل من أسرة مولاه فرصة الحرب فقال:

- يا ملكات أسرة مولاي كاموس، تجلّدن وتصبّرن، فإنّه وإن كان الخطب أكبر من العزاء، فإنّ الساعة أولى بالحكمة وعدم الاستسلام للحزن، استحلفكنّ بذكرى مولاي الشهيد أن تكفكنّ دموعكنّ، بالصبر، وتحزمن أمتعنكنّ، فليست طيبة بالمشوى الأمين غدًا...

فسألته توتيشيري قائلة:

- وجئته سيكتنزع؟

- فلتطمئنّ نفسك يا مولاي، سأؤدّي واجبي نحوها

كاملاً...

فسألته مرّة أخرى:

- وإلى أين تريد أن تذهب؟

- مولاي، ستقع مملكة طيبة بين يد الغزاة إلى حين، ولكنّ لنا وطن آخر أمين في بلاد النوبة، ولن

فأحسَّ القائد البائس بندى الأمل، وانتعش فؤاده بالفرح، ووجم كاموس ولم ينس بكلمة، فقال بيبي وكان يكذب أول مرة في حياته:

- أما أنا يا مولاي فسألتكم بكم بعد حين.. فإمامي واجبان مقدَّسان: أن أعنى بجثة مولاي، وأن أشرف على تحصين أسوار طيبة، لعلها بالمقاومة الناجحة تسام على التسليم بأحسن الشروط. ولم تتمالك الملكات فأجهشن بالبكاء، وغلب التأثير بيبي فقال:

- ينبغي أن نواجه محتنتنا بشجاعة، وليكن لنا في سيكتنرج أسوة حسنة، ولتذكر دائماً يا مولاي أنَّ العجلات الحربية هي سبب هزيمتنا، فإذا كررت يوماً على العدو، فلتكن العجلات عتادك. والآن سأذهب لأدعو العبيد إلى حمل الثمين الغالي من ذهب القصر وسلاحه، غماً لا غنى عنه..

نطق القائد بيبي بهذه الكلمات، ثم ذهب..

#### - ١٢ -

وانبعثت في القصر حركة نشاط شاملة، وأضيئت حجراته جميعاً، ومضى العبيد يحملون الثياب والسلاح وصناديق الذهب والفضة، ويذهبون بها إلى السفينة الفرعونية في سكون محزن، تحت رقابة رئيس الحجاب، وكانت الأسرة الفرعونية في أثناء ذلك تنتظر في حجرة الملك كاموس، تشملها الكآبة والصمت، ينكس أفرادها النبلاء رؤوسهم، مظلمة أعينهم من اليأس والحزن، ولبثوا على حالهم ما لبثوا، حتى دخل عليهم الحاجب حور، وقال بصوت خافت:

- انتهى كل شيء يا مولاي.

ووقعت كلمة الحاجب من آذانهم موقع السهم من العنق، فخفقت قلوبهم، ورفعوا وجوههم ذاهلين، وتبادلوا نظرات القنوط والكمدم. أحقاً انتهى كل شيء.. وهل أزقت ساعة الوداع؟.. ألهذا آخر العهد بالقصر الفرعوني، وطيبة المجيدة، ومصر الخالدة؟.. وهل يحرم عليهم غداً أن يروا مسألة أمنمحت، ومعبد آمون، والسور ذا الأبواب المائة؟.. أتضيق بهم

يطمع الرعاة في النوبة لأن الحياة فيها جهاد يشق على نفوسهم المترفة، فلتكن لكم مهجراً آمناً، لكم فيه أنصار من قومنا وأتباع من جيراننا، وهنالك يعاودكم التفكير في هدوء، فترعون أمل المستقبل الجديد، وتتعهدونه بالصبر والبسالة، حتى يأذن الرب فيشق سنا النور البهيج ظلمات هذا الليل الدامس..

وكان كاموس يصغي إليه في هدوء وسكينة، فقال له:

- فلتهاجر الأسرة إلى بلاد النوبة، أما أنا فأوتر أن أسير على رأس جيوشي أقاسمه حفظه في الحياة أو الموت. فساور القلق القائد، ونظر إلى مولاه بعين رجاء وتوسل، وقال:

- مولاي، لن أستطيع أن أثبتك عن إرادة تريدها، فلأجل الأمر إلى حكمتك، ولا أسألك إلا أن تصغي إلي قليلاً..

مولاي، إنَّ القتال اليوم عبث ضائع، ومعناه الهلاك المين، ومصر لن تنتفع بموتك، ولا موتك بمخفف عنها بعض آلامها، ولكنها بغير شك تحسر بفقدان حياتك خسارة لا تعوض.. إنَّ كل أمل في النجاة منوط بحياتك، فلا تحرم مصر الأمل بعد أن حرمت السعادة.. فاجعلوا «بنات» هذقكم، وشدوا إليها الرجال، وهناك يتسع لكم المجال للتفكير والتدبير وإعداد وسائل الدفاع والكفاح. لن تنتهي هذه الحرب كما يتمنى أبوفيس. فلا يتمنى لشعب كشعبنا عاش سيّداً كريماً، أن يطرَق على الدّل طويلاً. ولسوف تحرّر طيبة يا مولاي في تاريخ قريب: ولن تقف بك الحماسة عند حدّ، فتطارد الرعاة القذرين حتى تطردهم من وطنك.. إنَّ سنا ذاك اليوم الأغر يتخايل لعيني في ظلمات الحاضر الكئيب، فلا تتردد واعزم عزيمة الحكمة. والآن وقد بينت لك نهج الحق، فاقض بما أنت قاض..

وكفَّ بيبي عن الكلام، وما كفّت عيناه عن التوسل والرجاء، وتحولت توتيشيري إلى كاموس، وقالت بصوت خافت:

- لقد نطق القائد بالحق فاتبع قوله.

احتوي، ثم الملكة ستكىموس، ويتبع الجميع الحاجب حور. وهبطوا الأدراج إلى ممر الأعمدة، وانتهوا إلى الحديقة، فسأيرهم على الجانبين عبيد يحملون المشاعل ويضيئون لهم السبيل، فبلغوا السفينة، وانتقلوا إليها واحدًا إثر واحد حتى شملتهم جميعًا. وحَمَّ الفراق، فآلقوا نظرة الوداع، تاهت أعينهم في الظلام المخيم على طيبة كأنه يلقها في ثوب حداد، فتقطعت قلوبهم، وتصدعت صدورهم وعصر ألم الحنين قلوبهم الكسيرة وشملهم الصمت فكأنهم ذابوا في الظلام ووقف بيبي بين أيديهم لا ينس بكلمة، ولا يجرؤ على خرق هذا الصمت الحزين، حتى تنبأ الملك لوجوده، فتنبه وقال له:

- أذفت ساعة الوداع.

فقال بيبي بصوت متهدج حزين، وهو يغالب عواطفه مغالبةً شديدة:

- مولاي، وددت لو أدركني الموت قبل أن أقف موقفى هذا، فليكن عزائي أنكم تسرون في سبيل الرب آمون وطيبة المجيدة، وأرى أن ساعة الوداع قد أذفت حقًا كما تقول يا مولاي، فسبروا يحفظكم الرب برحمته، ويكلأكم بعين رعايته، وإني أرجو أن تمتد بي العمر حتى أشهد يوم عودتكم كما شهدت يوم هجرتكم، كي يسعد قلبي برؤية طيبة العزيزة مرة أخرى.. الوداع يا مولاي.. الوداع يا مولاي..

- بل قل إلى الملتقى..

- نعم إلى الملتقى يا مولاي..

واقترب من مولاه وقبل يده، وكان ما يزال يغالب عواطفه كي لا يبيل بدأ كريمة بدمعه. وقبل يد توتيشيري، والملكة أحتوي، والملكة ستكىموس، وولي العهد أحس، وشقيقته الأميرة نيفرتاري، ثم شد على يد الحاجب حور بمودة، وحتى رأسه للجميع، وغادر السفينة في سكون وذهول..

وعلى الأدراج الحديقة وقف يشاهد بدء تحركها وقد ضربت المجاديف في الماء، وأخذت تبعد عن الشاطئ على مهل وتؤدة كأنها تحس وطأة حزن من عليها، وقد تجمعوا على حائطها، تودع أرواحهم الخافقة طيبة..

طيبة اليوم، وتفتح أبوابها غداً لأبوفيس يعتلي عرشها ويتحكم في الرقاب؟! كيف يغدو الهداة ضالين، والسادة فارين، وأصحاب الدار مهاجرين؟

ورأهم كاموس لا يتحركون، فقام في ثققل وتمتم قائلاً بصوت خافت: «هلموا نودع حجرة أبي». فقاموا قومه، وسارت الأسرة في خطى ثقيلة متخاذلة إلى حجرة الملك الراحل، ووقفوا أمام بابها المغلق متهيين لا يدرون كيف يقتحمونه دون إذن، ولا كيف يلقونها مهجورة. وتقدم حور خطوة وفتح الباب، فدخلوا تسبقهم أنفاسهم المترددة وزفراتهم الحارة، وعلقت أبصارهم في رفق وحنان بالديوان العظيم، والمقاعد الوثيرة، والمناضد الأنيقة، وهامت أرواحهم حول مصلى الملك، والمحراب الجميل الطاهر وقد نحتت عليه صورته جاثياً أمام الرب آمون، فخالوه جميعاً جالساً على ديوانه، متكئاً على وسادته، يتسم إليهم ابتسامته الحلوة، ويدعوهم إلى الجلوس، وأحسوا جميعاً روحه تغمرهم وتطوف بهم، فحلقت أرواحهم الخزينة في سماء الذكريات، ذكريات الأمومة والزوجة والبنوة، اختلطت آثارها بتهدم العميق ودمعهم المسيل..

ثم تنبأ كاموس إلى القلوب المنصهرة من حوله، فدنا من صورة أبيه وانحنى لها بإجلال، ولثم جبينها، وتنحى جانباً، فتقدمت توتيشيري ومالت على الصورة الحبيبة، وقبلتها قبله أودعتها آلام قلبها الشاكل المحزون، وودعت الأسرة جميعاً صورة ربها المفقود، ثم مضوا إلى الخارج في صمت حزين كما دخلوا..

ورأى كاموس الحاجب حور في انتظارهم، فسأله قائلاً:

- وأنت يا حور؟..

- إن واجبي يا مولاي أن أتبعكم كالكلب الأمين..

فوضع الملك يده على كتفه شاكرًا، وتقدموا جميعاً في الردهات ذات الأعمدة، يسير بين أيديهم القائد بيبي، ويمشي كاموس في طليعة أسرته، يتبعه الأميران الصغيران أحس ونيفرتاري، فتوتيشيري، فالملكة

كبيرة. وتقدمهم القائد إلى معبد آمون، وهناك حلوا العرش مرة أخرى، وساروا وراء قائدهم تسبقهم بعض الكهنة إلى البهو المقدس. وفي المثلث المقدس، قريباً من قدس الأقداس، رأوا الهودج الفرعوني محاطاً بالجنود والكهنة، فوضعوا العرش إلى جانبه، وقد علت الدهشة وجوه الكهنة الذين لم يعرفوا من الأمر شيئاً. وأمر بيبي الجنود بالانصراف، وطلب حضور الكاهن الأكبر، وغاب الكاهن زمناً يسيراً، ثم عاد يتبع كاهن آمون الذي قدّر خطر الزيارة الليلية فأقصرعاً ومدّ يده للقائد وهو يقول بصوته الهادئ:

- طاب مساؤك أيها القائد.

فقال بيبي بلهجة دلّت على الاهتمام والجزع:

- وطابت لياليك يا صاحب القداسة.. هل تأذن لي بالانفراد بقداستك؟ وسمع الكهنة قوله فانسحبوا سريعاً على تطلّعهم وقلقهم حتّى خلا المكان. وتنبّه الكاهن الأكبر للهودج والعربة، فبدأ الانزعاج على وجهه، وقال للقائد:

- ما الذي أتى بالعربة إلى هنا؟.. وما هذا الهودج؟.. وكيف تركت الميدان في هذه الساعة من الليل؟..

فقال بيبي:

- أصغ إليّ يا صاحب القداسة، فما من فائدة ترجى من التأتّي، أو من تهوين شأن ما نحن فيه، ولكن ينبغي الإصغاء إليّ حتّى النهاية لأفضي إلى قداستكم بما عندي، وأمضي إلى واجبي:

لقد وقعت واقعة ستذكر إلى الأبد، مصحوبة بالألم والفخار معاً، ولا عجب فقد خسرتنا موقعة مصر، وقتل ملكنا وهو يدافع عن وطنه، ومزّقت الأيدي الغادرة جسّته الطاهرة، واضطّرت أسرنا الملكية إلى هجر طيبة، وسيصحو أهل طيبة فلا يجدون أثراً للملكهم ولا لمجدهم..

مهلاً يا صاحب القداسة مهلاً.. لقد انتصف الليل أو كاد، وواجبي يهيب بي أن أعجل. إنّ هذا الهودج يحمل جسّته ملكنا سيكتسرع وتاجه، وإليك عرشه. هذا تراثنا القومي أعهد به إليك يا كاهن

وألفت منه زمام نفسه فبكى.. واستسلم للبكاء حتّى انقضّ جسمه. وما زال يتبع السفينة العزيزة وهي تغوص في الظلمة حتّى ابتلعها الليل.. ثمّ تنهّد من أعماق صدره، وليث على حاله لا يدري كيف يبرح الشاطئ، وقد أحسّ وحشة كآته هوى حيّاً إلى قبر عميق. ثمّ تحوّل عن موقفه ببطء وعاد إلى القصر بخطى بطيئة متناقلة، وكان يتمتم قائلاً: مولاي.. مولاي.. أين أنت؟ أين أنتم يا سادتي؟ يا أهل طيبة، كيف تهجعون والموت يحلّق فوق رقابكم؟.. هبوا.. لقد قتل سيكتسرع وهاجرت أسرته إلى أقصى الأرض وأنتم نيام.. هبوا.. لقد خلا القصر من سادته.. وودّع طيبة ملوكها.. وسيعتلي عرشكم غداً عدوّ لكم. كيف تنامون؟ هبوا.. إنّ الذلّ وراء الأسوار..

ثمّ أخذ القائد مشعلاً، وسار في ردهات القصر حزيناّ واجماً يتنقل من جناح إلى جناح، فوجد نفسه أمام بهو العرش، وأنجّه نحوه واجتاز عتبه وهو يقول: ومعدّرة يا مولاي عن دخولي دون إذن، وتقدّم بخطى متخاذلة على ضوء مشعله بين صفّي المقاعد التي كانت تعقد عليها الأمور وتبرم، إلى أن انتهى إلى عرش طيبة، وجثا على ركبته، ثمّ سجد وقبّل الأرض بين يديه، ثمّ وقف أمامه حزيناّ، وضوء المشعل ينعكس على وجهه أحمر مرتعشاً، وقال بصوت جهير:

- حقاً لقد انطوت صفحة جميلة خالدة، وستكون نحن الموقّ غداً أسعد أهل هذا الوادي الذي لم يعرف الليل أبداً، أيها العرش.. يحزنني أن أبلغك أنّ صاحبك لن يعود إليك، وأنّ وريثك مضى إلى بلد بعيد، وأما أنا فلن أسمح بأن تكون منزل وحي الكلمات التي تشقي مصر غداً، فلن يجلس عليك أبوفيس، ولتطو كما انطوى سيّدك..

وكان بيبي قد اعترّم أن يدعو جنوداً من حرس القصر، ليحملوا العرش إلى حيث يريد.



وقع من أحداث، وما صار إليه الجيش ومليكه. وأخبرها بهجرة الأسرة المالكة إلى مكان مجهول - ولم يذكر النوية لحكمة يريد بها - ونصح لها أن تجمع ما تستطيع من ماله، وتفرّ وابنها ومن يتبعها من الأهل والجيران إلى خارج طيبة، أو إلى الأحياء الفقيرة، حيث يختلطون بعامة الشعب ويشاركونهم مصائرهم. ثم باركها وبارك ابنه، وختم كتابه بقوله: «سنلتقي حتماً يا أبانا هنا أو في العالم السفلي» وأعطى الكتاب سائقه، وكلفه أن يذهب به إلى قصره الريفي ويسلمه إلى زوجته، ثم قفز إلى عجلته وألقى نظرة أخيرة على معبد آمون والمدينة الهاجعة الغارقة في الظلام، وهتف من صميم قلبه: «ربّاه.. احفظ بلدك.. السوداع يا طيبة..».

ثم أرخى العنان لجواديه، فانطلقا به يعدوان في طريق الشمال.

#### - ١٤ -

وبلغ القائد المعسكر بعد منتصف الليل، وكان الجيش الجريح نائماً، فمضى إلى خيمته وارتقى على سريره في إعياء وهو يقول: «فلنستجم قليلاً لنموت ميتة تليق بقائد قوّات سيكتنرع». وأغضض جفنيه. ولكنّ بعض أخيلة قامت غشاء كثيفاً بين رأسه وبين النوم، فتخايلت له أشباح الأحوال التي ابتلي بها في نهاره وليله، فرأى الرماة وهم يلقون العجلات المنصّبة عليهم كالسيل، ومولاه سيكتنرع يسقط صريعاً والرمح في جانبه، وكاموس يثور غاضباً، ثمّ يسلم محزوناً، وتوتيشيري تتنّ من جرح قلبها العجوز، ووداع أبانا وأحمس الصغير، وتلك السحب المتلبّدة التي تتجمّع في أفق الجنوب.. ثمّ اختلطت الأخيلة فيما يشبه الموج، ورفقت وتهافتت بغير شعور منه، فانساب النوم إلى جفونه.

واستيقظ حين الفجر على صوت النفير، فقام يحسّ نشاطاً غريباً لا يتفق وما لاقاه من إرهاق ونصب ونوم خفيف، ويرج خيمته إلى الخارج، فسمع في سكّون الفجر حركة تتفّض في أنحاء المعسكر، ورأى أشباح

آمون. لكي تحفظ الجثة وتودعها مكاناً أميناً، وتحفظ هذه المخلفات في مستقرّ حريز... والآن أستودعك الربّ يا كاهن طيبة، التي لن تموت وإن أنختها الجراح.

وكان الكاهن قد همّ أن يقاطع القائد من فرط انزعاجه، ولكنّ القائد لم يمكنه، فصمت صمتاً ثقيلاً، وجد جهوداً مطلقاً، فكأنّه فقد حواسّه جميعاً. وأدرك بيبي ما يعانيه الرجل من الذهول والألم، فقال:

- إني أستودعك الربّ يا صاحب القداسة، مطمئناً إلى أنّك ستقوم بواجبك كاملاً نحو المخلفات العزيزة المقدّسة..

وتحوّل القائد عنه إلى الهودج. وانحنى إجلالاً حتّى لشم غطاءه، وأدّى له التحيّة العسكريّة، ثمّ تفهقر إلى الورا وقد حجبت مدامعه الهودج عن عينيه، حتّى بلغ السكّم المؤدّي إلى بهو الأعمدة، فأدار ظهره وسار مسرعاً لا يلوي على شيء إلى خارج المعبد، وشعر بأنّه قد آن له أن يلحق بضباطه وجنوده، ليهجم معهم الهجوم الأخير كما عاهدهم.

على أنّ استغراقه في واجباته لم ينسه أمراً ما تخايل لذاكرته حتّى أحسّ له غمراً على قلبه لا يسكن، ذكر أسرته، أبانا وزوجه وابنه الصغير أحسن، وأهله جميعاً الذين تضمّمهم مزرعته في ضواحي طيبة. ما أطول السفر.. إنّّه لا يستطيع قطع الطريق إلى مزرعته في الليل، ولو فعل ما استطاع أن يفي بعهده لجنوده ولظنّوه هارباً. فسيلقى حتفه دون أن يلقي نظرة وداع على وجه أبانا وأحمس.. وكان هنالك ما هو أثقل على قلبه من هذا، وكان يتساءل محزوناً: هل يترك الرعاة صاحب أرض في أرضه، أو صاحب مال لماله؟، سيشرّد السادة غداً أو يقتلون في ديارهم، وستغدو أبانا وأحمس بلا نصير.. وضاق الرجل، ونازعه قلبه طويلاً إلى بيته وآله، ولكنّ قلبه كان في سبيل، وإرادته الحديديّة في سبيل سواه.. وتنهّد أسفاً وهو يقول: «فلاكتب لها كتاباً..» وبسط على عجلته ورقة وكتب إلى السيّدة أبانا يقرئها السلام ويستودعها الربّ، ويدعو لابنه بالخلاص والسعادة، ثمّ قصّ عليها ما

عدوه، فثبت على قلبه حيث يرفرف علم الهكسوس على أبوفيس وكبار قواده - وبينهم قاتل سيكنترع بغير شك - فجعله هدفه، وأمر حرسه أن يتبعه ليدافع عن ظهره. ثم أمر سائقه بالاندفاع، وكانت حركة مفاجئة لم يتوقعها العدو الحذر نفسه، وتفادت عجلته مما تعرض لها من عجلات، وأرسلت سهامها إلى قلوب الرماة، ومضت تدنو من أبوفيس حتى فطن الأكثرون إلى غرضها، فتصايحوا غضباً وخوفاً، وقاتل بيبي ومن معه قتال من جنّ بحبّ الموت، فتدلل عليهم الموت طويلاً حتى شقوا الصفوف إلى جبهة أبوفيس وقواده، وهنالك وجد بيبي نفسه محاطاً بفرسان العدو من كل جانب، ورأى مئات من الرجال يحولون بين عجلته وبين الملك، فقاتل قتالاً عنيفاً والدماء تسيل من وجهه وعنقه وساقيه، حتى ظنّ عدوه أنه شيء لا يموت، وتكالت عليه السهام والرماح، والسيوف والخنجر، فسقط كما سقط سيكنترع لاحقاً بحرسه البواسل، وقد ضجّ الجيش من هجمته الهائلة. وكان القتال - في الميدان - في نهايته، والمصريون يلفظون آخر أنفاسهم. فأمر أبوفيس بالابتعاد عن جثة الرجل الذي انقضّ عليه خلال صفوفه المتراصة! ونزل من عجلته وترجل دانيًا منه، حتى وقف على رأس الجثة، وجعل يتأمل السهام المنخرسة في كل قطعة منه كشعر القنفذ؛ ثم هز رأسه الكبير ضاحكاً؛ وقال لمن حوله:

- لقد مات ميتة جديدة بأشجع رجالنا ..

- ١٥ -

واستيقظت هبة كعادتها لا تدري عما سطر لها في لوح الأقدار شيئاً، وإذا بالقرويين يحملون الجرحى آتين من الميدان، فتجمّع الناس حولهم، وتكاثروا بالأسئلة عليهم، وروى لهم هؤلاء الأنباء على حقيقتها فقالوا لهم إن الجيش هُزم وفرعون قُتل، وهاجرت أسرته إلى مكان مجهول، وذهل الناس وتبادلوا نظرات الإنكار والانزعاج، وذاع الخبر في المدينة فأشاع فيها الاضطراب والتقلقل، ففارق الناس ديارهم، وهرعوا إلى الطرق والأسواق، وتجمّعوا في دور الحكومة ومعبد

رجال تقبل نحوه عرف من أصواتهم ضباطه البواسل المخلصين، فاستقبلهم استقبالا حاراً، وكانوا قد قاموا في أثناء غيبته بعمل عظيم، فقال رجل منهم:

- أرسلنا الجرحى في قوارب إلى طيبة، وكذلك المصابين إصابات خفيفة، لكي ينضموا إلى قوات الدفاع عن أسوار طيبة. وما من شك في أن طيبة ستحسن الدفاع عن نفسها حتى تنال أحسن الشروط.

وقال له ضابط آخر شديد الحماسة:

- إننا - معشر أهل الجنوب - نهون علينا الحياة في أوقات المحن، فما من رجل منا إلا نفذ صبره في انتظار المعركة الأخيرة.

وقال ثالث:

- ما أشهى الاستشهاد إلى نفوسنا في هذه البقعة المقدسة، التي ارتوت بدماء ملكنا الزكية ..

فأثنى بيبي عليهم جميل الثناء، وقصّ عليهم ما وقع في طيبة من هجرة الأسرة الفرعونية، ولكنّه لم يذكر لأحد المكان الذي قصدت إليه. وقد بلغ التأثير بالضباط مبلغاً عظيماً، وهتفوا لكاموس الملك، وأحسّ وليّ عهده، والأمّ المقدسة توتيشيري ..

ولّت ظلال الظلام، وانعكس الضياء الوضاح على سماء الأفق، فانتظمت صفوف الجنود تأهباً للمعركة الموت، وكان ملك الرعاة يدرك ما حلّ بجيش المصريين بعد مقتل ملكيهم، فأراد أن يصعقهم بقوات تشلّ فيهم كلّ مقاومة فتأهب على رأس قواته من العجلات والرماة، ليقضي بضربة واحدة على الجيش الصغير الذي يعترض سبيله ..

وحين تراءى الجمعان، بدأ القتال واتصل البحر المتلاطم بالجدول الصافي، وأطبق جيش أبوفيس على الجيش المصري، ودارت عجلة الموت، وبذل المصريون كلّ ما في طاقة البشريّة من بسالة وبطولة، لكنهم تساقطوا سريعاً بطلاً في إثر بطل، وداستهم أرجل الخيل بقساوة، وبدا لعيني بيبي أن المعركة تنتهي سريعاً، ولا سيبا لما شاهده من مصارع كثير من القوّاد والضباط، ورأى جناحه الأيمن يفنى فناء عاجلاً، والعدو يوشك أن يحيط بهم، فأراد أن يختم حياته أكرم الختام، وجال بنظره في جيش

على كلِّ أمل في إطالة المقاومة، وهَدَدَت المدينة العظيمة بالمجاعة والظمأ؛ فلم يرَ الزعماء بدءًا من التسليم تفاديًا من الكارثة العظمى، وأوفدوا ضابطًا يعلن وقف القتال، ويستأذن في قدوم رسول عن المدينة للتحدّث في شروط التسليم النهائية. وعاد الضابط بالموافقة، فوقف القتال في جميع الأسوار، واختار الزعماء نوفر آمون كاهن آمون الأكبر ليكون رسولاً.

وقبل الكاهن على غضاضة، وركب عربته فسارت به نحو معسكر الرعاة مثقل الرأس كسير الفؤاد، ومَرَّ في طريقه بالفرق المختلفة مترأصة الصفوف في قوّة وصلف وزهو، تحقّق عليها الأعلام من كلِّ لون. ثمّ وقفت العربة فترجّل في سكون، ووجد في استقباله بعض الضباط يتقدّمهم رجل قصير القامة بدين كثيف اللحية، عرفه من النظرة الأولى، فهو الرسول خيان نذير الشؤم الذي حلّ بحلوله الدمار بمملكة طيبة، ولم يغب عنه ما في استقباله من الشهادة المقصودة. وبدا الرجل صلفاً متعجرفاً مزهوًا، فنظر إلى نوفر آمون بمؤخّر عينه، وقال دون تحيّة:

- أرايت أيّها الكاهن إلى أيّ مصير انتهى بكم رأي أميركم؟... إنكم تتحمّسون كثيرًا وتحسنون الكلام، ولكن لا قبل لكم بالقتال... ولقد قضى على مملكتكم بالزوال إلى الأبد...

ولم ينتظر الحاجب كلامًا فسار أمامه نحو خيمة الملك، ورأى نوفر آمون الخيمة كالسراق مسدلة عليها الستائر، يقف أمامها الحراس البيض الغلاظ ذوو اللحي الطويلة... ثمّ أذن له فدخل، ورأى في الصدر الملك أبوفيس في زيّ الفراعين وعلى رأسه تاج مصر المزدوج، وكان مهيب الطلعة حاذّ البصر أبيض مُشربًا بحمرة، مسترسل اللحية جميلها، وسط هالة من قوّاده وحجّابه ومستشاريه، فانحنى له الكاهن في إجلال، ووقف صامتًا ينتظر أمره، فقال الملك بلهجة ساخرة: - أهلاً بكاهن آمون الذي لن يعبد بعد اليوم بأرض مصر.

آمون ليأنسوا بالجماعة ويستمعوا إلى زعمائهم. أمّا أصحاب الضياع والقصور من النبلاء والأغنياء فقد هجروا ضياعهم وقصورهم مذعورين. وفرّوا جماعات إلى الجنوب أو اختفوا في ثنايا الأحياء الفقيرة..

وجاءت أخبار أسيفة أخرى عن سقوط قسي وشنهور، وأن جيوش الرعاة تقدّم نحو طيبة لضرب الحصار حولها، وإجبارها على التسليم. فاجتمع الوزراء والكهنة والقضاة الثلاثون في بهو الأعمدة بمعبد آمون، وتشاوروا في الأمر، وكانوا جميعًا يدركون خطر الحال ويحسّون دنو النهاية وعبث المقاومة. ولكنهم لم يميلوا إلى التسليم دون شرط أو قيد، ورأوا أن يقوموا بخلف أسوارهم النسيعة، حتّى ينالوا وعدًا بحقن دماء الأهالي، إلّا أوسر آمون فكان شديد الحساسية فائز الغضب، فقال لهم:

- لا تسلّموا طيبة أبدًا، ولنقاوم حتّى نموت كمليكنا سيكنترع، إنّ أسوار طيبة لا تقتحم، وإذا هُدِدَتْ حقًا فلنخرب المدينة ونشعل فيها النيران، ولا نترك لأبوفيس شيئاً منها ينتفع به.

وكان أوسر آمون يهدير غاضبًا، ويلوح بيديه كأنه يخطب، ولكنّ الرجال لم يتحمّسوا لفكرته، وقال نوفر آمون:

- نحن مسئولون عن حياة أهل طيبة، وتدميرها يعرّض الآلاف منهم للتشرّد والجوع والبؤس، فليكن هدفنا وقد خسرنا الموقعة أن نخفّف الآلام ونحصر الدمار..

وفي أثناء ذلك كان الرعاة يهاجمون السور الشماليّ بغير هوادة، والحراس يقاتلون عنه بثبات وبسالة، والقتل تسقط من الجانبين. وتفقد الوزراء الأسوار فاطمأنوا إلى المقاومة، ولكنّ أسطول العدو هجم على الأسطول المصريّ بعد أن جاءه مدد جديد، ودارت معركة حامية انتهت بتحطيم الأسطول المصريّ. وحاصر أسطول الرعاة غرب طيبة، وأنزل جنودًا كثيرين في جنوبها، ف ضرب حصاره الكامل حول المدينة، وهجم عليها من الشمال والجنوب والشرق هجوميًا عنيفًا، وجاءت هزيمة الأسطول ضربة قاضية

فأغضى الكاهن ولم ينبس بكلمة، فضحك الملك ضحكة عالية وماله بتهكم:  
- أجيئت تملي علينا شروطًا؟

فقال نوفر آمون:

- بل جئت أيتها الملك لأستمع إلى شروطك، كما ينبغي لزعيم قوم خسروا معركتهم وفقدوا مليكهم، وليس لي سوى رجاء واحد أن تحقنوا دماء شعب ما شهر سلاحه إلا ذودًا عن كيانه..

فهزّ الملك رأسه الكبير وقال:

- يحسن بك أيتها الكاهن أن تصغي إليّ، إنَّ قانون الهكسوس لا يتغير على مدى الأيام والأجيال، وهو سنة الحرب والقوة إلى الأبد. نحن بيض وأنتم سمر، ونحن سادة وأنتم فلاحون، فالعرش والحكومة والإمارة لنا، فقل لقومك: من يعمل في أرضنا عبدًا فله أجره، ومن تأب عليه نفسه فليول نفسه وجهة يرضاها في غير هذه الأرض، وقل لهم: إنّي أهدر دم

بلد كامل إذا امتدّت يد بسوء إلى أحد من رجالي. وإذا أردت أن أحقن دماء الناس - فيما عدا أسرة سيكتنزع - فليأت إليّ سادتكم بمفاتيح طيبة سُجّدًا..  
أما أنتم أيتها الكهنة فعودوا إلى معبدكم وأغلقوا عليكم أبوابه إلى الأبد..

ولم يرد أبوفيس أن تمتدّ المقابلة إلى أكثر من هذا، فقام واقفًا إزدانًا بانتهائها، فانحنى الكاهن مرّة أخرى وفارق المكان.

وشربت طيبة الكأس حتّى ثباتها، فحمل الوزراء والقضاة مفاتيحها وذهبوا إلى أبوفيس وسجدوا له..  
وفتحت طيبة أبوابها ودخلها أبوفيس على رأس جيوشه الغازية الظافرة..

وفي ذلك اليوم أهدر الملك دماء أسرة حاكم طيبة، وأمر بإغلاق الحدود بين مصر والنوبة، ثم احتفل بالنصر احتفالاً عظيمًا اشتركت فيه الجيوش جميعًا، وقسم الأرض والأموال بين رجاله. فصار الجنوب ملك يده أرضًا ورجلًا.

## بَعْدَ عَشْرَةِ أَعْوَامٍ

- ١ -

رسولاً إلى الحدود، يتغني لنفسه سبيلاً يمهده بقطع الذهب..

- إنَّ اعتيادنا كلَّه على ما عرف به القوم من طاعة الرشوة وتلبية نداء الذهب.. أمّا لو خاب ظنُّنا.. وسكت الشاب عن الكلام وقد لاح في عينيه القلق، فقال الشيخ:

- ما دام الظنُّ سوءاً فإنَّه لا يجيب مع هؤلاء القوم..

وعدلت السفينة إلى الشاطئ، فتبعها القافلة وألقت مراسيها. واختار الشاب أن يكون هو مبعوث القافلة إلى الحدود، وكان عظيم الحساسة قوي التصميم، فلم يعترض الشيخ سبيله؛ وانتقل إلى قارب وجذف بساعديه المفتولتين مفارقاً القافلة نحو الحدود، وتبعه الشيخ بعينه وهو يقول برجاء مؤثر: «أيها الربِّ المعبود آمون.. هذا ابنك الصغير يسعى إلى وطنه وراء غرض نبيل؛ أن يعزَّ سلطانك، ويرفع ذكرك، ويمرِّر أبناءك، فأيسده يا ربِّ وانصره واحفظه..»

ومضى الشاب يجذف في قوَّة، وظهره إلى هدفه، يستدير لينظر وراءه كلَّ هنيهة وقد اضطرم صدره بالحنين، وأحسَّ لهواء الوطن وهو يدنو من جوه لذة جديدة، خفق لها قلبه أيّما خفقان، ثم رأى في إحدى التفاتاته سفينة حربيَّة صغيرة تصعد نحوه معترضة سبيله، فأيقن أنَّ حراس الحدود تنبَّهوا له، وجاءوا يتحقّقون من أمره. ودنا بقاربه من السفينة حتّى سمع صوت الضابط الواقف في مقدّمة يصيح به: «كيف تدنو يا هذا من المنطقة الحرام؟»

انقشعت سحب الظلام عن زرقة الفجر الناعسة، فنبذت صفحة النيل تتنفس نسائم الغسق، تنحدر عليها قافلة من السفن تولي وجهها شطر حدود مصر شمالاً. كان بخارتها نوبيّين، أمّا قائداها - اللذان جلسا بمقصورة السفينة المتقدّمة - فكانا مصريّين كما يدلُّ لون بشرتهما الأسمر، وقسماتهما الواضحة. وكان أولهما شابّاً لا يكاد يبلغ العشرين من عمره، حبته الطبيعة طويلاً فارغاً، وقدّأ نحيلاً دقيقاً، وصدراً عريضاً متيناً، ينطق وجهه المستطيل بالنضارة والجمال الفائق، وعينه السوداوان بالصفاء والحسن، وأنفه المستقيم الأشم بالقوَّة والتناسق، فهو من الوجوه التي أودعتها الطبيعة جلالها وجمالها معاً، يرتدي لباس التجار الأثرياء، ويلفّ جسمه الرشيق في عباءة ثمينة، قدّت على صورة جسمه. وكان صاحبه شيخاً في السّتين، يميل إلى النحافة والقصر، بارز الجبهة في استواء وارتفاع، تدلّ جلسته على الهدوء الذي يلازم الشيخوخة غالباً، وأمّا نظرة عينيه فتتفدّ إلى الأعماق.. وكان يبدو أنَّ همّه منصرف إلى العناية بالشاب، أكثر ممّا هو منصرف إلى التجارة التي تحملها السفن، فلمّا دنت القافلة من منطقة الحدود، برحا المقصورة ومضيا إلى مقدّمة السفينة، يتطلّعان بعينين مشوّقتين جرى فيهما الحنين، ثمّ سأل الشاب بحماس وجزع:

- هل ترى تطلّ أقدامنا أرض مصر؟ قل ماذا نحن فاعلون الآن؟..

فقال الشيخ:

- نرسي القافلة على هذا الشاطئ، ونبعث في قارب

سهاوي، فحقق قلبه خفقاناً شديداً متواليًا، وجعل من شدة اضطرام عواطفه يذهل سريعًا. إنه في أرض مصر. مصر التي يحفظ لها أجل الذكريات، وأفن الصور وأبهج الآثار. إنه يودّ لو يُترك وحيداً فيملاً صدره من نسيمها العليل، ويمرغ خديه بثرها. إنه في أرض مصر.

واستيقظ من حلمه على صوت الضابط الغريب وهو يقول له ثالث مرّة «اتبعني». فنظر فرأى قصرًا جليلاً يقف أمامه رجال مسلّحون، فأدرك أنّه أمام قصر حاكم الجزيرة. ودخل الضابط، فتبعه غير مبال لنظرات القوم الحادة التي تصوّب نحوه من كلّ جانب.

## - ٢ -

وأذن له بالدخول إلى بهو الاستقبال بعد أن سبقه الضابط إليه، كان الحاكم يستقبل فيه من لا يحتاج النظر في مظالمهم لغير الذهب، وألقى الشاب نظرة على الحاكم وهو يمضي، فلقت نظره لحيته الطويلة الكثة، وعينه اللوزيتان الحادتان، وأنفه البارز الأفي كأنه شراع قارب. وكان الرجل يرمق الداخل بعين فاحصة، ونظرة تدلّ على الحذر والريبة، فانحنى الشاب بين يديه بإجلال عظيم، وقال بأدب بالغ:

- نذّي الربّ صباحك أيّها الحاكم الجليل.

وكان الضابط حدّثه عن القادم الغريب الذي يرمي في غير مبالاة بحافظة ملأى بقطع الذهب الوهاج، ويسوق قافلة محمّلة بالهدايا ليتقرّب بها من سادة مصر، فردّ تحيته بإشارة من يده، وسأله بصوت غليظ أجوف:

- من أنت ومن أيّ البلاد؟

- أدعى يا مولاي اسفينيس، من بلدة نباتا من بلاد النوبة.

فهزّ الرجل رأسه بارتياح، وقال:

- ولكنّي أرى أنّك لست نوبيًا، وإن صدق نظري فأنت فلاح..

فحقق قلب اسفينيس لهذا الوصف الذي نطق به الحاكم بلهجة لم تخل من الاحتقار، وقال:

فصمت الشاب حتّى شارف القارب السفينة، ثمّ حيّا الضابط ذا اللحية تحيّة إجلال وتعظيم، وقال متبهاً:

- باركك الربّ ست أيّها الضابط الباسل، إنّي قاصد وطنكم المجيد بتجارة ثمينة.

فقطّب الضابط جبينه وقال بفظاظة:

- خست أيّها الأحمق، ألا تدري أنّ هذا الطريق مغلق منذ عشرة أعوام؟..

فأبدى الشاب الجميل دهشة، وقال:

- وماذا يصنع إنسان مثلي جمع متاعاً ثميناً ليتقرّب به من فرعون مصر المعبود ورجال مملكته؟... هلّا أذنت لي بمقابلة حاكم جزيرة يبيجة النيل؟.

فقال الضابط بوحشية:

- بل ستعود من حيث أتيت حيًّا، إن لم ترغب في أن تدفن حيث تثرثر..

فأخرج الشاب من صدره حافظة من الجلد ملأى بقطع الذهب، ورمى بها تحت قدمي الضابط قائلاً:

- نحن في بلادنا نحیی آلهتنا بتقديم الهدايا، فأقبل تحيّي ورجائي.

فتناول الضابط الحافظة وفتحها، وعبث أنامله بقطع الذهب، فاختلجت أجفانه، وردّد بصره بينها وبين الشاب بذهول. ثمّ هزّ رأسه كأنه لا يخفي حنقه على الفتى الذي ثناه عن رأيه قسراً، وقال بصوت هادئ:

- إنّ دخول مصر ممنوع، ولكن قد تستحقّ رغبتك الشريفة استثناءك من أمر المنع، فاتبعني إلى حاكم الجزيرة.

وابتهج الشاب، واتّخذ مجلسه مرّة أخرى في القارب، وشدّ على المجداف بقوة ونشاط، وانحدر متتبّعاً السفينة صوب شاطئ يبيجة: ورست السفينة ثمّ القارب، ووضع الشاب قدميه على الأرض في حذر وإشفاق، كأنما يدوس شيئاً طاهراً مقدّساً. وقال له الضابط مرّة أخرى: «اتبعني». فتبعه على الأثر. وبالرغم من تشدّده في التسلّط على أعصابه، أفلت زمامه وتمشّت في حواسّه نشوة، وعصر قلبه حنين

وأهدى إليه اسفينيس صولجاناً من العاج ذا رأس من خالص الذهب المحلى بالزمرّد والياقوت فتقبّله بلا كلمة شكر، وأخذ بنفسه أساور وخواتيم وأقراطاً ثمينة، وأنشأ يقول لنفسه: لماذا لا أسمح لهذا التاجر بالدخول إلى مصر؟.. ليست هذه تجارة، ولكنّها هدايا تسي العقول، وسيرحبّ بها فرعون بغير جدال، فإن حقّق لصاحبها أمنيته نال ما تمنى؛ أو رفض مطلبه فلا شأن لي به.. وأمامي فرصة سانحة ينبغي أن أنتهزها، إنّ خنزير حاكم الجنوب مغرم بكلّ نفيس، فلأبعث بالتاجر إليه فيذكر لي صنيعي على ما أهديت إليه من كنز، وما أتحثّ له من فرصة يزداد بها قرباً إلى مولاه.. فإذا أراد يوماً أن يختار لولاية من الولايات الكبرى حاكماً ذكرني بلا ريب:

وتحوّل نحو اسفينيس وقال:  
- سأعطيك فرصة لتجرّب حظّك، فيرّثوا إلى طيبة، وهاك كتاباً إلى حاكم الجنوب تذهب به إليه لتعرض نفائسك، وتسأله الشفاعة في رجائك.. واستخفت الفرع اسفينيس، فأنحنى للحاكم شكراً وارتبّحاً.

### - ٣ -

وكان أوّل كلمة نطق بها اسفينيس على أثر مبارحة الحاكم لسفينته، أن قال للشيخ الذي يلازمه:  
- منذ هذه الساعة لا أحس هناك ولا حور، ولكن اسفينيس التاجر ووكيله لاتو..

فابتسم الشيخ وقال:  
- نطقت بالحكمة أيّما التاجر اسفينيس.. ونشرت القافلة شراعيها، وتحركت مجاديفها، فأنحدرت مع الموج صوب حدود مصر واجتازتها في أمان وسلام. وكان اسفينيس ولاتو يقفان عند مقدّم السفينة يكابدان شوقاً واحداً. تكاد عيناهما تشرقان بالدمع. قال اسفينيس:  
- بدء حسن.

- صدقت فراسة مولاي، فأنا حقاً.. فلاح. من أسرة مصرية هاجرت إلى بلاد النوبة منذ أجيال، واشتغلت بالتجارة عهداً طويلاً حتّى أغلقت الحدود بين مصر والنوبة، فانقطع رزقها.  
- وماذا تريد؟..

- لديّ قافلة محمّلة بخيرات البلاد التي قدمت منها، أرجو بها التقرب والزلفى من سادة مصر.. فعبث الحاكم بلحيته، وحدهه بنظراته المرتابة، وقال:

- أتعني أنّك تجسّمت مشاقّ السفر، لمحض التقرب والزلفى من سادة مصر..

- سيدي الحاكم الجليل، نحن نعيش في بلاد ملأى بالوحوش والكنوز، الحياة فيها جدّ قاسية، والجوع والجذب ينشبان أظفارهما في الرقاب، نجيد صياغة الذهب، ونضئ في الحصول على قلدح من الحبوب، فإذا تقبّل سادتي هداياي، وأذنوا لي بالمسير بالتجارة بين الجنوب والشمال، ملأت أسواقكم بالنفيس من الجواهر والحيوان، وبذلت بؤس قومي أنعماً..

فضحك الحاكم ضحكة عالية، وقال:  
- أرى الأحلام تطيح برأسك.. أو لست تبدأ بالسؤال والتضرّع؟ ولكنك ترجو أن يكمل مسعاك بإصدار أوامر فرعونية لمصلحتك.. حسناً.. الحمقى كثيرون.. ولكن ماذا تحمل قافلتك من النفائس يا هذا؟..

فحنى اسفينيس رأسه إجلالاً، وقال بإغراز التاجر الأريب:

- هلاً تفضّل مولاي بزورة قافلتني ليطلع بنفسه على نفائسها، ويختار ما يعجبه من كرائم جواهرها؟ وتحركت لواعج النهم والجشع في نفس الحاكم، فاستطاب الفكرة، فقال لاسفينيس وهو يهيم بالقيام للذهاب معه:  
- سامنحك هذا الشرف.

وتقدّمه إلى السفينة الحربيّة، ثمّ إلى القافلة، وعرضت لناظره الخليّ والجواهر والحيوان العجيب، فشهد النفائس بعين يلتمع فيها نور الجشع الخاطف.

فقال لاتو:

- نعم فلنصلِّ للربِّ آمون شكرًا، ونسأله أن يسدَّ خطانا ويكَلِّل مسعانا بالفوز المين.

وجثوا على سطح السفينة وصلبًا معًا، ثم عادا إلى وقفتهما. وقال اسفينيس:

- إذا ظفرنا بإعادة الروابط مع النوبة إلى سابق عهدها، فقد ظفرنا بنصف النجاح، فنعطيههم ذهبًا ونأخذ رجالًا..

- اطمئن فهم لا قبل لهم بمقاومة إغراء الذهب. ألم يفتح لنا الحدود المغلقة منذ عشرة أعوام؟.. إنَّ الرجل من الرعاة عظيم العنجهية والصلف شديد البأس؛ ولكنّه كسلان يستخدم غيره، ويتعالى على التجارة، ولا يحتمل الحياة في النوبة؛ فلا سبيل إلى ذهبها إلَّا بمن يتطوَّع مثل التاجر اسفينيس بحمله إليه..

ومضيا معًا يلقيان بصرهما إلى مجاهل الأفق البعيد الغارق في مجرى النيل، يقلبان الطرف في خضرة ناضرة تكتنف القرى والداكر، تحلق فوقها الأطيار، وترعاها الثيران والبقر نشاوى؛ والفلاحون يعملون هنا وهناك عراة لا يرفعون رؤوسهم عن الأرض، فأنار منظرهم في صدر الشاب الحب والغضب، واستعر قلبه حنانًا وحنقًا، فقال:

- انظر إلى جنود أمنحيت، كيف يعملون عبيدًا للبيض الحمقى المتعرجين ذوي اللحي القذرة..

وتقدَّم المسير بالقافلة، فمرَّت بأمبوس وسلسليس وجنا ونخب وترت، فلم يبق دون طيبة سوى ساعة، وتساءل اسفينيس:

- أين ينبغي أن ترسو السفينة؟

فقال لاتو مبتسًا:

- في الجنوب من طيبة حيث توجد أحياء الفقراء والصيادين، وجميعهم مصريون خلَّص.

فأمَّن الشاب على قوله، ولاحث منه نظرة إلى الامام فرأى على البعد سفينة تسير نحوهم فعلق بصره بها وهي تدنو رويدًا رويدًا، حتَّى استطاع أن يتنَوَّرها؛ فرأى سفينة فخمة جميلة التركيب بادية الأناقة، تعلو وسطها مقصورة حسناء يتألَّق في جوانبها الفنَّ الجميل،

فخال أنّه رأى مثلها من قبل. ولكنز لاتو في ذراعه متمنِّيًا:

- انظر.

فنظر الرجل وقال بسرعة:

- ربّاه! هذه سفينة فرعونية، (ثم استدرك) إنّها تسير بغير حرس، فلعلَّ راكبها أحد رجال القصر، أو أمير يطلب الخلوة..

ودنت السفينة فكادت تلتقي بالقافلة: وأثار منظر القافلة الغريب تطلَّع أصحابها، فبرزت من المقصورة امرأة يتبعها سرب من الجوّاري، تقدّمتهم في أناة كأنّها شعاع من النور الساطع يغشى العيون، شقراء يعث النسيم بحاشية ثوبها الأبيض، ويراقص ذؤاباتها الرقيقة الذهبية، فأيقنا أنّ صاحبها أميرة من قصر طيبة تتجع النسيم..

ورأياها تشير بأغلقتها إلى سفينة متأخرة وقد فغرت من الدهشة فاهًا، وارتسم العجب كذلك على وجوه الجوّاري الحسان. فالتفت اسفينيس إلى الوراء، فرأى قزمًا من الأقزام التي أتى بها يسير على ظهر السفينة، فأدرك سرَّ دهشة الأميرة الجميلة. ونظر إلى لاتو مبتسًا أن لاقت إحدى الهدايا ما تستحقّ من التقدير. ولكنّ لاتو كان يرمق المرأة بعينين جامدتين ووجه مكتئب. ونادى النسوة نوثيًا، فتقدَّم من حافة السفينة، وصاح موجِّهاً خطابه إلى لاتو بلهجة أمر لا يردّ:

- قف أيّها النوبيّ وألِّقِ مرساتك..

وأذعن اسفينيس للأمر، وأصدر أمره إلى القافلة بالتوقّف، ودنت السفينة الفرعونية من السفينة التي ظهر بسطحها القزم، وسأل النوبيّ اسفينيس:

- ما هذه القافلة؟..

- قافلة تجارة يا سيدي.

فأشار بيده إلى القزم، وكان يفرّ إلى باطن السفينة، وقال:

- هل يؤذي هذا المخلوق؟

- كلًّا يا سيدي..

- إنّ صاحبة السموّ الفرعونيّ ترغب في مشاهدة هذا المخلوق عن كثب.



فهمس لاثو قائلاً:

- لهذا لقب ابنة فرعون..

أما اسفينيس فخفض رأسه باحترام وقال:

- حياً وكرامة..

- أحيوان هو أم إنسان؟

- هو إنسان يا صاحبة السمّ.

- ولماذا لا نعدّه حيواناً؟

- له لغته ودينه.

- يا عجباً، وهل يوجد مثله كثيرون؟

- نعم يا مولاتي، إنّه ينتمي إلى شعب وافر العدد،

فيهم نساء ورجال وأطفال ولهم ملك وسهام مسمومة

يسدّدونها نحو الحيوان المفترس والإنسان المغير؛ ولكنّ

قوم زولو يأمنون إلى الناس سريعاً ويخلصون المودّة لمن

يصادقهم، ويتبعونه كالكلب الأمين.

فهزّت رأسها المكّمل بخصلات الذهب عجباً،

وافترّ ثغرها عن درّ نضيد، وتساءلت:

- وأين يعيش قوم زولو؟

- في أقاصي غابات النوبة، حيث يرقد النيل

المعبود..

- دعه يجثني إن استطعت.

- إنّه لا يستطيع أن يتكلّم لغتنا، وقصارى جهده

أن يفهم بعض الأوامر، ولكنّه سيحيي مولاته بلغته.

وقال اسفينيس للقزم:

- ادعُ لمولاتك دعاءً طيباً.

فاهترّ رأس القزم الكبير كآته يرعش، ثمّ نطق

بكلّيات غريبة بصوت أدنى إلى الخوار، فلم تملك

الأميرة إلّا أن تضحك ضحكة عذبة، ثمّ قالت:

- حقّاً إنّه غريب، ولكنّه قبيح لا يسرّني أن

أقنتيه..

فبدا الأسف على وجه الشاب، وقال بلباقة التاجر

المكرر:

- ليس زولو يا صاحبة السمّ خير ما في قافلتني..

إليك درّاً تفتن النفوس وتسلب الألباب.

فتحوّلت في استهانة عن زولو إلى المتباهي بنفائسه،

وألقت عليه نظرة فاحصة لأوّل مرّة، فهاهنا طوله

الفارع ونضارة شبابه، وعجبت أن يكون هذا المظهر

لتاجر من عامّة الشعب، وسألته:

- هل لديك حقّاً حلّي تستحقّ الإعجاب؟..

- نعم يا مولاتي..

وسارع إلى مفارقة السفينة إلى قارب سار به إلى

السفينة الأخرى، وصعد إلى سطحها ليكون في

استقبال الأميرة، وكانت الأميرة وحاشيتها يقترن

بقاربين من السفينة حتّى بلغتها، فصعدن إلى السطح

تتقدّمهنّ الأميرة، فانحنى الشابّ بين يديها في إجلال

ظاهر، وكان يقاوم شعوره بالاستهانة، ويتظاهر

بالارتباك والاضطراب، فقال بتلعثم:

- لقد أوليت قافلتني شرفاً رفيحاً يا صاحبة السمّ.

ثمّ رفع رأسه فشاهدها عن كثب بعين خاطفة،

رأى وجهها تجسّم فيه الحسن والكبرياء، ففيه من

دواعي الفتنة بقدر ما فيه من نوازع الهيبة، ورأى

عينين زرقاوين يتجلّى في صفائهما التعالي والإقدام.

فلم تلقى إلى تحيّة بالآ، ودارت بعينيها في المكان تبحث

دون ريب عن القزم، وسألته بصوت رخيم يبعث

الطرب في آذان سامعيه:

- أين ذهب المخلوق العجيب الذي كان هنا؟

فقال الشابّ:

- سيكون بين يديك..

وذهب إلى كوة تطلّ على باطن السفينة، ونادى

قائلاً:

- زولو.

وما لبث أن ظهر رأس القزم من الكوة، وتبعه

جسمه، ثمّ أقبل على صاحبه، فأخذته من يده إلى

حيث تقف الأميرة وجواربها وكان يسير ملقياً بصدّره

إلى الأسام في خيلاء مضحكة، وبرأسه الكبير إلى

الوراء، ولا يزيد طوله على أربعة أشبار؛ أمّا لونه

فشديد السواد، وأمّا ساقاه فمقوّستان. قال له

اسفينيس:

- حيّ مولاتك يا زولو.

فانحنى القزم حتّى مسّ شعره المفلفل الأرض،

فاطمأنت الأميرة وسألت وعيناها لا تفارقان القزم:

- إذا أرنى عيّنة .. أمثلة مما عندك.

وصفّق اسفينيس، فجاءه عبد فآلقى إليه كلمات بصوت خافت، فغاب الرجل هنيهة، ثم عاد يحمل صندوقاً من العاج بمعاونة رجل آخر، فوضعه أمام الأميرة وفتحاه، وتنحّيا جانباً. ونظرت الأميرة في داخل الصندوق، وشاربت أعناق الجوارى، فرأت ما يسرّ القلب من لآلئ لامعة، وأقراط وأساور. وتفحصتها بعين واعية، ثم مدّت يدها البضة الرخصة إلى عقد آية في السداجة والكيال، قلب من الزمرد في سلسلة من خالص الذهب، وأمسكت القلب بأناملها وتمتمت:

- من أين لك بهذا الحجر النفيس؟ .. ليس في مصر نظيره؟

فقال الشاب بابتهاج:

- إنه درة كنوز النوبة.

فتمتمت قائلة:

- النوبة .. بلاد زولو .. ما أجمله!

فابتسم اسفينيس وهو يتعم النظر إلى أناملها، وقال:

- أما وقد حاز إعجاب سموك، فلا يجوز أن يرد إلى صندوقه.

فقال في سهولة:

- نعم .. ولكن ليس لديّ ثمنه .. هل أنت ذاهب إلى طيبة؟ ..

فقال:

- نعم يا مولائي.

فقالت:

- ما عليك إلا أن تقصد القصر فتقبض ثمنه.

فانحنى الشاب إجلالاً، وألقت الأميرة نظرة وداع على زولو، ثم تحولت ماضية بقوامها اللدن الرشيق، يتبعها الجوارى. وتعلّقت بها عينا الشاب حتّى غيّاها عنه حائط السفينة، ثمّ تنبّه إلى نفسه، فعاد إلى سفينته حيث كان لاتو ينتظره على جزع، وقد بادره:

- ما وراءك؟ ..

فأجّل له أقوال الأميرة، وتساءل ضاحكاً:

- ترى هل هي حقاً ابنة أبوفيس؟

فقال لاتو بامتعاض:

- هي الشيطانة ابنة الشيطان.

وأيقظته لهجة لاتو الخشنة ونظراته الغاضبة من سباته، وأدرك أنّ التي أثارت إعجابه ابنة مذلّ شعبه وقتل جدّه، وأنّه لم يشعر في محضرها بما هي أهل له من المقت والكراهية. وتضايق وخشي أن تكون لهجته وهو يروي قولها نمت عن إعجاب ساء الشيخ الأمين، وقال لنفسه: ينبغي أن أكون أهلاً للواجب الذي جئت هنا من أجله. ولذلك لم يلتفت إلى سفينة الأميرة وأطال النظر إلى الأفق، وحاول أن يحقد على الأميرة، وأحسّ أنّها قوة حقيقة بكلّ مقاومة .. لقد ذهبت من سبيله إلى الأبد، ولكن .. ربّاه .. إنّها جمال يجري في أعطافه السحر، ولا يسع من يتلي برويته إلا أن يغمض جفنيه من قوة نوره ..

وذكر في تلك اللحظة زوجه الصغيرة نيفرتاري، بقوامها المعتدل، ووجهها الأسمر الخمرى، وعينها السوداوين الساحرتين، فلم يزد على أن تتمم قائلاً: «يا لها من صورتين متناقضتين جميلتين ..».

#### - ٤ -

وبدا سور طيبة الجنوبيّ وأبوابها الرائعات تتصاعد من ورائه الهياكل والمسلات، فبدأ الجلال مجسّماً يروح الناظرين. ورنا الرجلان إلى المدينة بعينين لاح فيهما الحنين والحزن، وقال لاتو:

- حيّاك الربّ يا طيبة المجيدة ..

وقال اسفينيس:

- وأخيراً يا طيبة .. بعد أعوام طوال في المنفى ..

وانعطفت السفينة نحو الشاطئ، تتبعها على الأثر سفن القافلة، وقد ضمّت الشرع ورفعت المجاديف، فشقت طريقها بين عدد وافر من زوارق الصيد ملأى بالسماك، منه ما تزال تدبّ فيه الحياة، ويقف في أوساطها الصيادون بأجسادهم العارية النحاسية وعضلاتهم المقتولة؛ فانبعث في نفس اسفينيس نشوة طرب لرؤيتهم، وقال لرفيقه:

- انظر يا لاتو إلى هذا الشاب، ألم يخلق ليكون فارساً في فرقة العجلات لولا أن خانه زمانه؟

واقترب الشاب منهما، فرغب في الحديث إليه، وحيّاه بيده وقال:

- حيّاك الرب أيها الشاب.. هل تدلّنا على مكان نستريح فيه ولك الشكر؟

فوقف الشاب عن السير وهمّ بالردّ عليه، ولكنّه حين وقعت عيناه عليهما أغلق فمه، وألقى عليهما نظرة غريبة تفصح عن الغضب والاحتقار، ولأما ظهره ومضى. فتبادل الرجلان نظرة دهشة وإنكار، وتبعه اسفينيس على الأثر واعترض سبيله قائلاً:

- أيها الأخ، ما الذي جعلك تزهّد الرّد علينا وتولينا ظهورك غاضباً؟

فصاح الشاب مزججاً:

- إليك عني يا عبد الرعاة.

وابتعد غاضباً وهو يوسع الخطى، تاركاً الشاب في ذهول وحيرة. ولحقه لاتو وهو يقول:

- إنه لمجنون بلا ريب.

- ليس مجنوناً يا لاتو... ولكن لماذا يدعوني عبد

الرعاة؟

- إنه لدعاء يثير الضحك.

- نعم... نعم... ولكن هبنا صنائع الرعاة، فكيف تواتيه شجاعته فيتحداًنا؟... إنه لشابّ جسور حقاً يا لاتو، ويدلّ سلوكه معنا على أنّ عشرة أعوام من حكم الرعاة الخائض لم تستطع أن تتناصل الغضب من النفوس الكريمة.

واستأنفا السير حتّى جذب انتباههما ضجيج عالٍ، فنظرا يميناً فرأيا بناء كبيراً ذا مدخل صغير في أعلى حائطه كوّات ضيّقة، يدخل إليه جماعات ويخرج منه جماعات، فسأل الشاب صاحبه:

- ما هذا البناء؟

فقال لاتو:

- هذه حانة.

- هلّمّ نشاهدها.

- عجلّ بنا، فيفسي مشوّقة إلى محادثة أيّ من المصريين..

وكان الجوّ معتدلاً لطيفاً، والسماء صافية الزرقة، والشمس مشرقة تغمر أشعتها النيل والشطّان والحقول والمدن، فنزلا إلى الشاطئ يلتقّان في عباءتيهما، ويضعان على رأسيهما قلنسوتين مصريتين ككبار التجار. وتقدّما خطوات نحو حيّ الصيادين، وكانت جماعات منهم تقف على الشاطئ، وأيديها آخذة بحبال الشباك التي ترميها الزوارق في جثة النيل، يغنون وينشدون. وكان غيرهم يملأ العربات بالسمك، ويلهبون ظهور الثيران المشدودة إليها صوب الأسواق. وعلى مسير دقائق من الشاطئ أقيمت أكواخ صغيرة أو متوسطة الحجم من الآجر، مسقوفة بجذوع النخيل، يدلّ مظهرها على السذاجة والفقر..

وكان اسفينيس يتنقل من مكان إلى مكان، مرهف الحواس، مفتوح العينين، يتفحص الصيادين ويتتبع حركاتهم ويصغي إلى أناشيدهم، وكان يشعر نحوهم بالحنان والحزن المقروّنين بالإعجاب والإكبار. وخالط قلبه وهو يشقّ جموعهم إحساس ألفة وطمانينة ومحبة، فتمنّى لو يستطيع أن يعترض سبيلهم ويضمّمهم إلى صدره ويقبل وجوههم السمر المعناة بالكفاح والفقر. وذكر ما حدّثه به عنهم توتيشيري؛ فقال لصاحبه:

- يا لهم من رجال أشداء صابرين..

فقال لاتو، وكان يشارك الشابّ جلّ عواطفه:

- أحسب هؤلاء الصيادين أسعد حالاً من الفلاحين. لأنّ الرعاة يترفعون عن النزول إلى حيّهم، فيعفونهم من غير قصد من صلف أخلاقهم وسوء صنيعهم.

وقطب الشابّ غضباً وتألّماً ولم يتكلّم، وجدّا في السير يلفتان الأنظار بوجاهة منظرهما وفخامة لباسهما. ورأى اسفينيس عن كذب شاباً يافعا يتّجه نحوهما يحمل سلّة، وكان يرتدي وزرة قصيرة في خاصرته، أمّا بقية جسمه فعارٍ، وقد بدا طويلاً رشيّقاً ووجهه حسّناً، فقال اسفينيس:

فابتسم لاثو وقال:

- هلم.

- ٥ -

ودخلا الحانة معاً، فوجدا نفسيهما في مكان متسع حوائطه عالية، يتدلى من سقفه مصباح يعلوه الغبار، وفي وسطه وضعت الدنان، يحيط بها سور طوله ذراعان وعرضه ذراع، اصطفت عليه أكواب الفخار وأحاط به الشاربون. ويقف في دائرته صاحب الحانة فيملاً الأقداح للمتقين به، أو يرسلها مع ساقٍ يافع إلى الجلوس في الأركان على أرض الحان. وكان لا يكاد يرفع رأسه عن دنانه فإذا آذاه أحد الشاربين بنكتة أو دعاية انتهره بخشونة وسب وقذف. فجال الرجلان ببصرهما في المكان، وأراد اسفينيس أن يزحم الوقوف حول الساقى، فأخذ صاحبه من يده، وشق بمنكيه طريقاً إلى السور حتى ارتقاه وسط الأعين المحذقة فيها دهشة وإنكاراً. وكان أحسن شيئاً من التعب، فقال للختار مسترسلاً:

- أيها الرجل العليّ هل نجد عندك مقعدين؟

فازداد إنكار من حوله للهجته وغرابة طلبه، أما الختار فردّ عليه دون أن يعيره التفاتاً:

- عفواً أيها الأمير. إن رواد حانتي ممن يقنعون باقتعاد الغبراء.

وضحك منه ومن صاحبه قوم السكرارى، ودنا منها رجل قصير القامة غليظ الوجه والرقبة عظيم الكرش، فأنحنى لهما في هزة، وقال بتلعثم الثمل:

- أيها السيدان، إنني أنزل لكما عن كرشي تقاعدانه.

وأدرك اسفينيس خطاه الذي أساء به إلى نفسه وإلى صاحبه، فقال يصلح منه:

- إننا نتقبل هديتك شاكرين، ولكن كيف يمكن أن تشرب خمرك المعتقة بغير هذا الكرش؟

وسرّ السكرارى بسؤال الشاب، وصاح بعضهم بالرجل الأكرش:

- أجب يا طونا.. أجب.. كيف تشرب أقداحك

إذا نزلت للسّيدان عن كرشك؟

وقطب الرجل مفكراً، وهرش رأسه متحيراً وقد تدلّت شفته السفلى كقطعة كبد دامية، ثم أضاءت عيناه المحمرتان كأنما وجد الحلّ السعيد، وقال:

- أشرب خمرًا مهضومة..

فضحك الرجال، وسرّ اسفينيس لإجابته، وقال له متلطفًا:

- إنني أعفيتك من النزول عن هذا الكرّش العظيم، الذي خلق ليكون زقّ خمر لا مقعد جلوس..

ثم نظر اسفينيس إلى الختار وقال له:

- أيها الرجل الطيّب املأ ثلاثة أقداح لنا وللزّريف طونا..

وملأ الرجل الأقداح وقدمها إلى اسفينيس، فخطف طونا قدحه وأفرغه في فمه دفعة واحدة وهو لا يصدق، ثم مسح فمه بكفه، وقال لاسفينيس:

- أنت غنيّ بلا شك أيها السيّد الكريم.

فقال اسفينيس مبتسمًا:

- حمدًا للربّ على نعمائه.

فقال طونا:

- ولكنكما كما أرى من مشابه وجهيكما مصريّان؟

- صدقت فراستك، وهل من تناقض بين أن نكون

مصريّين وغنيّين؟

- نعم، إلّا أن تكونا من المقرّبين إلى الحاكمين..

وهنا قال رجل آخر:

- وهؤلاء يقلّدون سادتهم فلا ينزلون إلى غالطتنا.

فتجهم وجه اسفينيس، وعادته صورة الشاب الذي صاح به غاضبًا منذ حين قائلاً: ويا عبد الرعاة. ثم قال:

- نحن من مصريّ النوبة، وجئنا مصر حديثاً..

وساد الصمت، ودوت كلمة النوبة في الأذان دويًا غريبًا، ولكن كان القوم سكارى لا يملك هذيان الخمر ناصية عقولهم، فلا يقدرّون على جمع شتات أفكارهم، فنظر أحد الرجال إلى كاسيّ الرجلين اللذين لم يقرباهما، وقال بلسان ثقيل:

- لماذا لا تشربان، سقاكم الربّ أطيب خمر الجنان؟

السرقه، فهو يعاشرنا كأحدنا، ويمارس فته في أطراف طيبة، حيث المال موفور، والسعادة وارقة الظلال.. .  
وكان اللص نفسه ثملاً، فقال بلهجة الاعتذار:

- لست لئماً يا سيدي، ولكنني سائح يضرب الأرض ويشرق ويغرب كما تسوقه قدماءه، فإذا عثرت في سبيلي بأوزة ضالة أو دجاجة تائهة، هديتها إلى ماوى، وهو كوخى في الغالب.. .

- وهل تأكلها؟

- معاذ الرب يا سيدي، إن الطعام الحسن يسمم بطني، ولكنني أبيعها لمن يشتري.

- ألا تحشى الخفراء؟

- أخشاهم أكبر خشية يا سيدي، لأنه غير مسموح بالسرقة في هذا البلد لغير الأغنياء والحكام.. .

فأمن طونا على قول اللص قائلاً:

- القاعدة المتبعة في مصر أن يسرق الأغنياء الفقراء، ولكن لا يجوز أن يسرق الفقراء الأغنياء.

وكان يتكلم وعينه تحدقان في القدحين المترعين بنهم وجشع، فغير مجرى الحديث وقال باستياء:

- لماذا تركان قديكما فتنة للشاربين؟

فابتسم اسفينيس وقال مسترسلاً:

- هما لك يا طونا.

فتحلب ريقه وقبض على القدحين بيديه الغليظتين، مرسلًا لمن حوله نظرات وعيد، ثم أفرغها في جوفه قدحًا إثر قدح، وتنهّد بارتياح. وأدرك اسفينيس معنى الوعيد الذي يهدد به، فطلب للقريبين منه جعةً ونبئًا

نمًا يشتهون، فشرب الجميع وضجوا فرحين، وانطلقوا في الأحاديث والغناء والضحك. وكان الشقاء والفقير يرتسان على وجوههم جميعًا، ولكنهم بدوا في تلك

الساعة سعداء ضاحكين لا يحسبون حسابًا للغد واندمج اسفينيس في جوهم جذلاً مسرورًا، تعتاده

الكتابة بين الحين والحين. وقضى بينهم زمناً ليس بالقصير، حتى دخل الحانة رجل تدلّ هيئته على أنه

منهم، فحيّاهم بإيماءة وطلب قدحاً من الجعة، ثم قال لمن حوله بلهجة لا تدلّ على شيء:

- قبضوا على السيدة أبانا وساقوها إلى المحكمة.. .

فقال لاثو:

- قليلاً ما نشرب، وإذا ما شربنا فعلى مهل.. .

فقال طونا:

- نعم ما تفعلان، فلما جدوى الفرار من حياة سعيدة؟ أما أنا فشقائي بمهنتي جلل، وشقائي بأسرتي وأولادي أجّل، وشقائي بنفسى أفدح ومناي ألا أرفع القدح عن شفتي.

فصقّ ثمل مسروراً بقول طونا، وقال وهو يهزّ رأسه طرباً:

- هذه الحانة مهجر البائسين، مهجر من يقدمون موائد الطعام الشهية وهم جياع، ومن ينسجون فاخر

اللباس وهم عراة، ومن يهرجون في أفراح السادة وهم جرحى قلوب، صرعى نفوس.. .

فقال رجل غير هذين:

- اسمع يا رجلى التوبة، لن تطيب الحياة لشارب حتى تخذله ساقاه، فهو يفاقد الوعي، ولأضرب لكما

مثلاً بنفسى، فما من ليلة أعود إلى كوخى إلا محملاً.. . وانتفض اسفينيس، وأدرك أنه بين جماعة من

مبتسئى البشر، وسألهم:

- هل أنتم صيادون؟

فقال طونا:

- جلنا صيادون.

وهزّ صاحب الحانة كتفيه استهانة، وقال دون أن يحول رأسه عن عمله:

- أما أنا فختار يا سيدي.

فقهقه طونا، ثم أشار بأصبع غليظة إلى رجل قصير القامة، نحيف القد، دقيق الأطراف، واسع العينين

براقها، ثم قال:

- وإن أردت التدقيق فهذا الرجل لص.. .

فنظر اسفينيس إلى الرجل بغرابة، فارتبك، وأراد أن يطمئنه فقال:

- لا يساورك القلق يا سيدي، فأنا لا أسرق في هذا الحين جميعه.

وعلق طونا على قول الرجل بقوله:

- يعني أنه لما كان لا يوجد في حيننا ما يستحق مشقة

ولم يعرفه الاكثرون الضفائاً لما اذهل الشراب من عقولهم، وسأله آخرون:  
- وله؟

- يقال إن ضابطاً كبيراً من الرعاة اعترض سبيلها على شاطئ النيل، ورغب في أن يضمها إلى نسائه، فقاومته ودفعته عنها.

فزجر الكثيرون، وسأله اسفينيس:

- وما عسى أن تصنع بها المحكمة؟

فحدج الرجل بنظرة إنكار، وقال:

- ستحكم عليها بدفع غرامة لا قبل لها بها حتى تعجزها، فتأمر بجلدها بالسياط، والزج بها في السجن.

فتجهم وجه اسفينيس وامتنع، وقال للرجل:

- هل لك أن تدلنا على طريق المحكمة؟

فقال له طونا بتلثم:

- الشراب أولى بذهبك، لأن من يدفع عن هذه المرأة يغضب الضابط الكبير، ويعرض نفسه لعاقبة غير مأمونة.

وسأله الرجل الذي أذاع الخبر:

- هل أنت غريب يا سيدي؟

فقال اسفينيس:

- نعم، وأرغب في حضور هذه المحاكمة.

- أكون دليلك إلى المحكمة إذا شئت.

وفي أثناء مفارقتهم للحانة مال لاتو على أذنه، وقال هامساً:

- إياك والتورط في أمر يفسد علينا مهمتنا الخطيرة.

فلم يجب اسفينيس، واقتفى من فوره أثر الرجل.

## - ٦ -

كانت المحكمة مكتظة بذوي الحاجات وأصحاب القضايا والشهود، وامتلات مقاعد القاعة بالحاضرين من جميع الطبقات، وفي الصدر جلس القضاة ذوو اللحي المرسلة والوجوه البيض، وقد تدلى على صدر رئيسهم تمثال صغير لربة العدالة ثمي. فالتخذ الرفيقان مقعدين متقاربين، وقال لاتو لاسفينيس همساً:

- إنهم يقلدون أنظمتنا في ظاهرها.

وتفرساً في الوجوه، فأدركا أن أغلب الحاضرين من الهكسوس. وكان القضاة يستدعون المتهمين ويستجوبونهم على عجل، ويصدرون الأحكام بسرعة وبلا رحمة، وأصوات الشكوى والعيول تتصاعد من العراة ذوي الأجسام النحاسية والوجوه السمرة. وجاء دور السيدة المنشودة، فنادى النادي قائلاً:

- السيدة أبانا.

وتطلع الرجلان في لهفة، فرأيا سيدة تقترب من المنصة في خطى مترنة، يدلل مظهرها على الوقار والحزن، وتتجلى قسايتها عن حسن بالرغم من بلوغها الأربعين. وتبعها رجل من الهكسوس يرتدي لباساً فخماً، فانهجى للقاضي باحترام وقال:

- سيدي القاضي الجليل، أنا وكيل القائد رخ- الذي اعتدت عليه هذه المرأة- وأدعى خم، وسأنوب عن عظمتها أمام القضاء.

فهز القاضي رأسه موافقاً، عما أثار دهشة لاتو واسفينيس، ثم قال:

- بماذا يتهم مولاك هذه المرأة؟

فقال الرجل بإنكار وامتناع:

- يقول مولاي إنه التقى بهذه المرأة صباح اليوم، فرغب في أن يضمها إلى جواربه، فقابلت صنيعة بالإنكار والجحود، ودفعته بوقاحة عدها اعتداء على شرفه العسكري.

فأثار حديث الرجل ضجة بين الحاضرين واستياء، وتقاربت الرؤوس في همس واستنكار. وأشار القاضي للقوم بصولجانه، فساد السكون، ثم وجه سؤاله إلى المرأة قائلاً:

- ما قولك يا امرأة؟

وكانت المرأة محافظة على هدونها، كان اليأس من الإنصاف أكسبها أمناً من الخوف، فقالت بهدوء:

- إن قول هذا الرجل لا ينطبق على الحقيقة.

فغضب القاضي، وقال متهزاً إياها:

- حاذري أن تقولي قولاً ينال من مقام المشتكي العظيم فتضاعف جرميتك، قصي ودعي الحكم لنا.

- أيتها المرأة، لقد أراد بك القائد خيرًا فجازيته  
أسوأ الجزاء، والمحكمة تحيّر بين دفع خمسين قطعة من  
الذهب، أو السجن ثلاثة أعوام والجلد..

وأصغى الحاضرون إلى الحكم فبدا الرضى على  
الوجوه جميعًا، إلّا واحدًا صاح بصوت نائر كأنما أفلت  
منه الزمام:

- سيدي القاضي.. هذه السيدة مظلومة بريئة..  
فأطلق سراحها.. اعف عنها إنّها مظلومة..

ولكنّ القاضي استولى عليه الغضب، وحذج  
الصارخ بنظرة أسكته، وتوجّهت إليه الأنظار من كلّ  
صوب فعرّفه اسفينيس، وقال لصاحبه دهشًا:

- إنّ الشاب الذي أغضبه حديثًا معه، واتّهمنا  
بأننا عبيد الرعاة..

وكان اسفينيس مغضبًا متألّيًا، فاستدرك يقول:  
- لن أدع هذا القاضي الأحق يزجّ بهذه السيدة في  
السجن.

فقال لآتو بقلق:

- إنّ مهمّتنا أكبر من نصرة امرأة مظلومة، فاحذر  
أن يتقلب علينا عملك..

ولكنّه لم يصغ إلى صاحبه، وتريث حتّى سمع  
القاضي يسأل المرأة قائلًا:

- هل تدفعين ما يطلب إليك دفعه؟

فقام واقفًا، وقال بصوت جميل عذب الثبرات:

- نعم يا سيدي القاضي..

وانعطفت نحوه الرؤوس تنفضّص الكريم الجسور  
الذي تقدّم لإنقاذ المرأة في آخر لحظة، ونظرت إليه  
المرأة في ذهول، وكذلك الشاب الذي دافع عنها  
بالبكاء والاستعطاف. أمّا وكيل القائد فصوّب نحوه  
نظرة نارية برق فيها الوعيد، ولكنّ الشاب لم يبال.  
أحدًا وسار نحو منصّة القضاء بقامته الطويلة الرشيقة،  
وعجّاه الجميل الفاتن، وأدّى الغرم المطلوب إلى  
المحكمة..

وتفجّر القاضي مرتبّكًا، وهو يسائل نفسه من أين  
لهذا الفلاح بالذهب؟ ومن أين له هذه الشجاعة؟..  
ولم يجد بدءًا ممّا ليس منه، فأقبل على المرأة قائلًا:

فاحرّ وجه المرأة ارتبأكًا، وقالت وهي ما تزال  
تحافظ على هدوئها:

- كنت أسير في طريقي إلى حيّ الصيادين، فإذا  
عربة تعترض سبيلي وينزل منها ضابط فيدعوني إلى  
الركوب دون إمهال ولا سابق معرفة. فارتعت وأردت  
أن أتحاماه، ولكنّه أمسك بيدي وقال لي إنّهُ يشرفني  
بضمّي إلى نسائه فقلت له إنّى أرفض ما يعرضه عليّ.  
ولكنّه سخر منّي، وقال لي إنّ رفض المرأة الظاهريّ  
عين القبول..

وأشار إليها القاضي إشارة أسكتها، وكأنّما ساءه أن  
تأتي على تفاصيل تخرج مقام الضابط، فسألها:

- أجبني هل اعتديت عليه؟

- كلًّا يا سيدي، لقد أصررت على رفضي،  
وحاولت التملّص من يده، ولكنّي لم اعتدِ عليه لا  
بيدي ولا بلساني، ويشهد على قولي هذا جمع غفير من  
أهل الحيّ.

- أتعتين الصيادين؟

- نعم يا سيدي.

- هؤلاء لا تقبل شهادتهم في هذا المكان المقدّس.  
فسكتت المرأة، ولاحت في عينيها نظرة حيرة  
وارتبك، فسألها القاضي:

- أليس لديك ما تقولينه غير ذلك؟

- كلًّا يا سيدي، وأقسم أنّي ما آذيته بقول أو  
فعل..

- إنّ المدّعي عليك شخص كبير، وقائد من قوّد  
الحرس الفرعونيّ، وقوله حقّ حتّى تقيمي الدليل على  
نقضه.

- وكيف لي بنقضه، وقد رفضت المحكمة الإصغاء  
إلى شهودي؟

فقال القاضي بغضب:

- إنّ الصيادين لا يدخلون هذا المكان، إلّا إذا  
سيقوا إليه متّهمين..

وأعرض الرجل عنها، وعدل إلى رفاقه القضاة  
وتبادل معهم الرأي حيّث، ثمّ اعتدل في جلسته وقال  
موجّهًا كلامه إلى السيدة أبانا:

- يا امرأة.. اذهبي طليقة.. وليكن لك ثَمًا كدت  
تترددين فيه موعظة ودرسًا.

## - ٧ -

وغادروا المحكمة جميعًا، لاتو واسفينيس والسيدة  
أبانا والشاب الغريب، وفي الطريق نظرت المرأة إلى  
اسفينيس، وقالت بصوت لا يكاد يسمع:

- سيدي، لقد أنقذتني مروءتك من ظلمات  
السجون، فملكك عنقي بجميل صنيعك، وحملتني  
دينًا لا أستطيع الوفاء به.

وخطف الشاب الغريب يده فقبلها وعيناه  
مغرورتان بالدمع، وقال بصوت متهدج:

- فليعفِ الربِّ عما سلف من سوء ظني، وليجزك  
أجل الجزاء على ما أوليتنا بإنقاذك أمي من غيابات  
السجن وآلام الجلد.

فغلب التأثر اسفينيس وقال برقة:

- لا عليكما من هذا، لقد ابتليت آيتها السيدة  
بظلم قبيح، والظلم وإن وقع على نفس بعينها يسيء  
إلى النفوس العادلة جميعًا، وما فعلت إلا أن غضبت  
نفست عن غضبي، فلا دين هناك ولا وفاء..

ولم يُنقِ هذا القول السيدة أبانا، فظلت على تأثرها  
تتعثر في ارتباكها وتقول:

- يا له من عمل نبيل.. يا له من عمل يحلُّ عن  
الوصف ويعلو على المديح.

وأما ابنها فكان لا يقلُّ عنها تأثرًا، ورأى اسفينيس  
ينظر إليه فقال كالمعتذر:

- ظننت حين التقينا أنكما من صنائع الرعاة، لما  
يبدو عليكما من مظاهر الثراء، فإذا بكما مصريان  
كريمين لا أدري من أين جئتما. وقد أقسمت ألا  
أفارقكما حتى تتفضلا بزورة كوختنا الصغير، لنشرب  
معًا قديمًا من الجعة احتفالًا بتشرُّفنا بمعرفتكما، فهاذا  
تقولان؟..

وراحت الدعوة اسفينيس الذي كان يرغب في  
الاختلاط ببني جلدته، وكانت شهامة الشاب وجهاله  
يجذبانه إليه، فقال:

- إننا نقبل هذه الدعوة بالبلغ السرور.  
وابتهج الشاب كما ابتهجت أمه، ولكنها قالت:  
- أرجو المَعذرة لأنكما لن تجدوا كوختنا يليق بمقامكما  
الرفيع.

فقال لاتو بلباقة:

- إن في صاحبي الكوخ غنى عن كل شيء، ومع  
هذا فنحن تجار متعودون شطف العيش ووعشاء  
الطريق.

ثم ساروا جميعًا يشملهم شعور واحد بالموءة، كأنهم  
أصدقاء من عهد قديم. وفي أثناء الطريق قال  
اسفينيس لابن أبانا:

- كيف ندعوك يا صاحبي؟. أما أنا فاسفينيس،  
وأما صاحبي فيدعى لاتو.

فحنى الشاب رأسه إكرامًا، مبتسمًا وقال:

- ادعوني أحس.

فخيل إلى اسفينيس كأن أحدًا يناديه، ونظر إلى  
الشاب نظرة غريبة..

وبلغوا الكوخ بعد مسير نصف ساعة، وكان ساذجًا  
كأكواخ الصيادين، يتكوّن من ردهة خارجية وحجرتين  
صغيرتين متداخلتين، ولكنه كان على سذاجة أاثمه  
وفقره الواضح نظيفًا حسن الترتيب. فجلس أحس  
وضيفاه في الردهة، وفتح الباب على مصراعيه  
ليخلص لهم نسيم النيل ومنظره؛ على حين ذهبت أبانا  
لتعدّ الشراب، ولبشوا هنيئة صامتتين يتبادلون  
النظرات، ثم قال أحس بعد تردد:

- إنّه من العجب أن يجد الإنسان مصريين في مثل  
مظهركما الرجيه، فكيف ترككما الرعاة ثريان ولستما  
من صنائعهم؟

فقال اسفينيس:

- نحن من مصريي النوبة، ودخلنا طيبة اليوم..  
فصقّ الشاب يديه دهشة وسرورًا، وقال:  
- النوبة.. لقد قرّ إليها كثيرون في أثناء غزو الرعاة  
لبلادنا، فهل أنتما من المهاجرين؟..

وكان لاتو بطبعه شديد الحذر، فقال بسرعة قبل أن  
يجيب اسفينيس:



للبيض ذوي اللحي القذرة، والمصريون عبيد في الأراضي التي كانوا بالأمس أصحابها..

وكان اسفينيس يرمق أحس في أثناء تدفقه بالكلام بعينين يلوح فيها الإعجاب والعطف، عل حين ظل لاتو خافضاً عينيه ليخفي تأثره، وسأله اسفينيس:

- وهل يوجد كثيرون يغضبون لهذه المظالم؟

- نعم، ولكننا جميعاً نكظم الغضب ونحتمل الإساءة، شأن الضعيف الذي لا حيلة له. وإني لاتساءل أما لهذا الليل من آخر؟ فقد انقضت عشرة أعوام منذ رضي الرب الغاضب علينا أن يسقط التاج عن رأس مليكنا سيكتزع..

وخفق قلب الرجلان خفقة عنيفة، وامتنع اسفينيس. ونظر لاتو إلى الشاب دهشاً ثم سأله:

- كيف تعرف هذا التاريخ على حدائث سنك؟

- تحفظ ذاكرتي صوراً قليلة قائمة، ولكنّها واضحة لا تزول، لأيام الشقاء الأولى. ولكنّي أدين لأمي بمعرفة تاريخ قصّة طيبة الأسيقة التي لا تفتأ تردّها على مسمعي...

فنظر لاتو إلى أبانا نظرة غريبة اضطربت لها المرأة، فأراد أن يسرّي عنها فقال لها:

- أنت سيّدة فاضلة وابنتك شابّ نبيل..

وقال لاتو لنفسه إنّ السيّدة ما تزال تحاذر بالرغم من كلّ شيء، وكان في نيّته أن يسأل عن بعض أمور تهّمه، فعدل عن هذا إلى المستقبل. وغير الشيخ مجرى الحديث بلباقة وصرفه إلى وجوه تافهة، فأعاد الطمأنينة إلى النفوس، وشملهم الصفاء وتبادلوا جميعاً شعور المودة الخالصة، وحين همّ التاجران بمبارحة الدار قال أحس لاسفينيس:

- متى تذهب يا سيّدي إلى حاكم الجنوب؟

فقال اسفينيس وهو يعجب للسؤال:

- ربّما ذهبت غداً.

- لي رجاء.

- ما هو؟

- أن أصحبك إلى ضيعته.

- بل نحن من الذين هاجروا قبل ذلك للتجارة...

- وكيف استطعتم الدخول إلى مصر، وقد أغلق الرعاة الحدود؟

فأدرك الرجلان أنّ أحس على حدائث سنّه يعرف أشياء كثيرة، وكان اسفينيس يشعر نحوه بمودة واطمئنان، فقصّ عليه قصّة دخوله مصر، وفي أثناء حديثه عادت أبانا تحمل أقذاح الجعة، وسمكاً مشويّاً، فوضعت الشراب والطعام أمامهم، وجلست تصغي إلى قصّة اسفينيس حتّى ختمها بقوله: «إنّ الذهب يذهل القوم عن نفوسهم ويحلب ألبابهم، وسوف غضي إلى حاكم الجنوب ونعرض عليه نفائس ما نحمل، وأملنا أن يوافق أو ينال لنا الموافقة على تبادل التجارة بين مصر والنوبة، لنعود إلى سابق عملنا وتجارتنا». فقصدت لها أقذاح الجعة والسمك، وقالت:

- إذا وقفتنا إلى غرضكما فستقومان بأعباء عملكما منفردين، فلا الرعاة يرضون بالعمل في التجارة، ولا المصريون في حالهم الراحة من الفقر والبؤس بقادرين على المشاركة فيها..

وكان لدى التاجرّين ما يقولان في ذلك، ولكنّها أثرا السكوت عليه. وأقبل على السمك يأكلان وعلى الجعة ينهلان، وأثنيا على السيّدة أجمل الثناء، وأطريا مائدتها الساذجة، فتورد وجهها، ولهج لسانها بشكر الشاب على جميل صنيعه. وبلغ منها التأثير مبلغاً عظيماً فقالت:

- لقد مددت إليّ يدك الكريمة في الوقت المناسب، وكم من مصريّين بائسين تطحنهم رحي الظلم في الصباح والمساء دون أن يظفروا بمعين..

وبدا أحس سريع التأثر. فما كاد يسمع أمّه تقول هذا القول حتّى تضرّج وجهه باحمرار الغضب، وقال بحدّة:

- المصريون عبيد، يُلقي إليهم بالفتات ويُضربون بالسياط. أمّا الملك والوزراء والقوّاد والقضاة والموظفون والمالّك جميعاً فمن الرعاة. السلطان اليوم

فسر اسفينيس لذلك، وقال للشاب:

- أتعرف الطريق إليها؟

- حق المعرفة.

وحاولت أبانا الاعتراض على ابنها، ولكنه أسكتها بإشارة عصبية من يده، فابتسم اسفينيس وقال:  
- إذا لم يكن عندك مانع، فستكون الدليل إليها..

#### - ٨ -

وانقضى النصف الأول من اليوم الثاني في الإعداد لزورة الحاكم، وكان اسفينيس يقدر قيمة هذه الزورة حق قدرها، ويعلم أن حياة أماله جميعاً رهينة ببعض عواقبها، وكذلك آمال من خلفهم وراءه في نباتا يعتك في نفوسهم الكبيرة اليأس والأمل. فشحن سفينة بصناديق التحف والآلات، وأقفاص الحيوان الغريب والقزم زولو، وعدد كبير من العبيد. وقيل الأصيل وافاها أحسن، فحيّاهما بفرح وقال:  
- أنا منذ الساعة من عبيدكما..

فتأبط اسفينيس ذراعه، ومضوا ثلاثتهم إلى المقصورة. ثم أبحرت السفينة صوب الشمال في جو رائق وريح مؤاتية، وقد صمت من في المقصورة، واستغرق كل منهم في تأملاته، مرسلاً بناظره إلى شاطئ طيبة. وعبرت السفينة أحياء الفقراء، وأقبلت على القصور الشامخة الغارقة بين أدواح النخيل وأشجار الجميز، تهفو عليها الأطياف من كل نوع ولون، وتفصل بينها وتترامى وراءها الحقول ذات الخضرة النضرة، تشقها الجداول الفضية والوديان والنخيل والكروم، وترعاها الثيران والبقر، ويعكف عليها الفلاحون العراة الصابرون. وعلى الشاطئ أقيمت المنازل تغرف من النيل على أنغام الأناشيد الرقيقة. وكانت النسائم تعابت الأشجار حاملة في حناياها هيس النبات وزقزقة العصافير وخوار الثيران، وشذا الأزهار والرياحين، فأحس اسفينيس أن أنامل الذكريات تداعب جبينه المحترق، وذكر أيام الربيع حين كان يخرج إلى الحقول محملاً على هودجه الملكي، يسير بين يديه العبيد والحرس والفلاحون يحيمونه فرحين بطفولته

الطاهرة، نائرين الورد في طريقه السعيد.

وأيقظه صوت أحسن وهو يقول:

- ها هوذا قصر الحاكم.

فتهد اسفينيس ونظر إلى حيث يشير الشاب، ونظر معها لآتو وقد لاحت في عيني الشيخ نظرة دهشة وإنكار.

وعرجت السفينة نحو القصر وقد سكنت مجاديفها، فاعترض سيلها زورق حربي غاص بالجنود، وصاح بهم ضابط في عنف وعجرفة:

- ابتعد بسفينةك القدرة أيها الفلاح.

فقفز اسفينيس من المقصورة، ودنا من حائط السفينة وحيّ الضابط باحترام وقال:

- معي رسالة خاصة إلى صاحب العظمة حاكم الجنوب.

فحدجه الضابط بنظرة حادة وحشية، وقال:

- أعطنيها وانتظر.

فأخرج الشاب الكتاب من جيب عبائه وأعطاه للضابط. وتفحصه هذا بأناء، ثم أمر رجاله فوجهوا الزورق نحو درج الحديقة، ونادى حارساً فناولته الرسالة. فأخذها الحارس ومضى ناحية القصر، وغاب زمناً يسيراً وعاد مسرعاً إلى الضابط وأسر إليه كلمات، فأشار الضابط إلى اسفينيس أن يدنو بسفينة، فأمر الشاب ملأحبه بالجذف حتى رست السفينة في مرفأ القصر، وقال له الضابط:

- إن صاحب العظمة يتظرك، فاحمل إليه بضاعتك..

وأصدر الشاب أمره إلى النوبيين، فحملوا الصناديق وبينهم أحسن، ورفع آخرون أقفاص الحيوان وهودج زولو. وقال لآتو للشاب وهو يودعه:  
- فليكتب الرب لك التوفيق.

ولحق اسفينيس بالقافلة، يقطعون جميعاً أرض الحديقة المعشوشبة في سكون شامل.

#### - ٩ -

مضى التاجر لمقابلة الحاكم، فقاده خادم إلى بهو

الأحجار الكريمة في أقاصي أدغال النوبة، حيث تأوي الوحوش الضارية وتنتشر الأوبئة الفتاكة .

ثمّ عرض على الحاكم صندوقاً من الزمرد، وثانيًا من المرجان، وثالثًا من الذهب، ورابعًا من اللؤلؤ. وتفحصها الرجل على مهل مبهوّرًا حتى بدا في النهاية كالشمع المنصهر، وعرض عليه بعد ذلك أقفاص الغزلان والزرافات والقرود وهو يقول:

- ما أجل هذا الحيوان في حديقة القصر!

فابتسم الحاكم وهو يقول لنفسه: «يا له من شاب كالشيطان لا يقاوم...» وبلغت دهشة الحاكم نهايتها حين رفع الستار عن المودج، وبدأ زولو بخلقه الغريب، فلم يتمالك الحاكم أن قام واقفًا، ودنا من المودج ودار حوله وهو يتساءل:

- يا للعجب... أحيوان هو أم إنسان؟

فقال اسفينيس مبتسمًا:

- بل إنسان يا مولاي من شعب جمّ العدد.

- هذا أعجب ما رأيت وما سمعت...

ونادى الرجل عبدًا وقال له:

- ادعُ الأميرة أمنيريس وزوجي وأخي.

- ١٠ -

وجاء الذين دعاهم الحاكم، ورأى اسفينيس أن يخفض بصره تأدبًا، ولكنه سمع صوتًا رخيًا زلزلت له نفسه زلزالًا شديدًا يقول:

- لماذا أزعجت مجلسنا أيها الحاكم؟..

فاختلس نظرة إلى الداخلين. فرأى في مقدّمهم الأميرة التي زارت بالأمس قافلته وانتقت القلب الزمردّي، وكان منظرها كما عهدته يغشى العيون، ويفعل بها ما يفعله الوهج الشديد، فأيقن الشاب أنّ الحاكم خنزير وزوجه من الأسرة الفرعونية لا محالة.

على أنّه رأى وجهًا آخر ليس بالجديد عليه، وهو وجه الرجل الذي تبع الأميرة وزوج الحاكم، فقد كان القاضي الذي حكم على أبانا بالأمس، وقد وضع له ما بينه وبين الحاكم من شبه قريب وما من شك في أنّ

الاستقبال وتبعه عبيده بأنفاسهم. ووجد الشاب نفسه في بهو فائق الترف عظيم الأناقة، يتجلى الفنّ في أرضه وحوائطه وسقفه، وفي الصدر منه جلس الحاكم على متكأ وثير، في جلباب فضفاض كأنه كتلة من بنيان متين. وكانت ملامح وجهه الكبير قويّة واضحة، أمّا نظرة عينيه الحاذتين فتدلّ على الشجاعة والبسالة والصفاء. فأشار اسفينيس إلى رجاله فوضعوا الصناديق والأقفاص أمامهم، واقترب من وسط البهو خطوات، ثمّ انحنى إجلالًا للحاكم وقال:

- حيّاك الربّ المعبود ست أيها الحاكم الأجلّ.

فألقي عليه الحاكم نظرة من نظراته القويّة النافذة، فراقه منظره النحيل وطوله الفارع، وبدأ على وجهه الارتياح لرؤيته، وسأله:

- أقدم أنت حقًا من بلاد النوبة؟

- نعم يا مولاي.

- وماذا تبغي من وراء رحلتك هذه؟

- أطمع أن أهدي إلى سادة مصر تحفًا مما يوجد في بلاد النوبة، أملًا أن تروقه فيطلبوا المزيد منها.

- وماذا تطلب أنت لقاء ذلك؟

- بعض ما يفيض عن حاجة مصر من الغلال.

فهزّ الحاكم رأسه الكبير، وقد لاحت في عينيه نظرة ساخرة، وقال بصراحة:

- أراك حديث السنّ ولكنّك جسر مغامر، ومن حسن طالعك أنّي أحبّ المغامرين... والآن أرني ما تحمل من التحف...

ودعا اسفينيس أحسن فاقترّب الشاب من الحاكم ووضع عند موضع قدميه صندوقه، وفتح التاجر فدا ما بداخله من الياقوت صيغ حلّيًا مختلفة أشكالها، فتفحصها الحاكم بعينين لاح فيهما الجشع والطمع والإعجاب، ومضى يقلّبها بين يديه، ثمّ سأل الشاب قائلاً:

- هل يوجد من هذه الحليّ كثير في النوبة؟

فأجاب اسفينيس بلباقة، وكان أعدّ الجواب من قبل أن يدخل مصر:

- إنّهُ لمن أعجب الأمور يا مولاي أن توجد هذه

رجل قتال لأقاتله، فقد صدئ سيفي من طول انزوائه في غمده .

فقالت الأميرة أمتريدس بلهجتها الساخرة:

- كيف لا تأخذك به الرحمة أيها القاضي سنموت وهو يدينني؟  
- أتقولين يديك يا صاحبة السموم؟ .. يا لها من كلمة ..

وضحكت من دهشة الحاكم، وقصّت عليه كيف رأت القافلة، وكيف جذبها زولو إلى السفينة حيث انتقت العقد الجميل، وكانت تروي قصتها بلهجة دلّت على ما تتمتع به من حرية وجسارة، وميل إلى السخرية والفكاهة، فزالت دهشة الحاكم خنزراً، وقال لها مداعباً:

- لماذا اخترت قلباً أخضر يا صاحبة السموم؟ .. فإننا نعلم معنى القلب الأبيض والقلب الأسود، ولكن ما معنى القلب الأخضر؟  
فقالت الأميرة ضاحكة:

- وجه سؤالك إلى بائع القلب.  
وكان اسفينيس صامتاً منصتاً تملوه الكتابة؛ فقال:  
- القلب الأخضر يا صاحبة العظمة رمز الخصب والحنان ..  
فقالت الأميرة:

- ما أشدّ حاجتي إلى هذا القلب، لأني أحسّ أحياناً أنني قاسية حتى ليلدّ لي أن أقسو على نفسي ..  
وكان القاضي سنموت يطيل النظر في تلك الأثناء إلى زولو، وحاول أن يحوّل انتباه زوج شقيقه إليه، ولكنها أبت أن تتحوّل عن صناديق الأحجار الكريمة، فقال القاضي وقد تأفّف من منظر القزم:

- يا له من مخلوق قبيح.  
فقال اسفينيس:  
- إنه من شعب من الأقزام، لا تروقهم صورتنا، ويعتقدون أنّ الخالق شوّه ملامحها وقبح أطرافها ..  
فضحك الحاكم خنزراً ضحكة عظيمة، وقال:  
- إنّ قولك هذا أعجب من زولو نفسه، ومن كلّ ما تحمل من غريب الحيوان والنفائس.

الأميرة والقاضي عرفاه كذلك، لأنها ألقيت عليه نظرة ذات معنى. وكان الحاكم يجهل ما يحدث حوله من التعارف الصامت، فانحنى للأميرة وقال:

- تعالي يا صاحبة السموم انظري إلى أنفك ما حوت بطون الأرض وأغرب ما حمل سطحها. ودار على الصناديق المحملة بالأحجار الكريمة وأقفاص الحيوان وهودج زولو، فأقبلوا عليها في شغف ودهشة وإعجاب. ونال القزم قسطه من الإنكار والغرابة، وكانت زوج الحاكم أكبرهم دهشة وإعجاباً، وكانت مفرمة بالجواهر غراماً يُضرب به المثل، فأقبلت على صناديق العاج أيما إقبال. أما القاضي فتحوّل إلى اسفينيس وقال له:

- كنت بالأمس أسائل نفسي عن مصدر ثروتك، وقد عرفت اليوم كلّ شيء ..

فقلب الحاكم وجهه فيها، وقال لشقيقه:  
- ماذا تعني أيها القاضي سنموت؟ .. هل عرفت هذا الشاب قبل الآن؟

- نعم يا سيدي الحاكم، رأيته بالأمس في المحكمة، والظاهر أنّه عظيم الاعتداد بنفسه وبثروته، فقد تبرّع بخمسين قطعة من الذهب لينتقد فلّاحة متهمّة بإهانة القائد رخ من السّجن والجلد، فترى يا سيدي أنّ القائد أصيب في يوم واحد بفّلاحة تتطاول عليه وبفلّاح يتحدّى غضبه ..

فضحكت الأميرة أمتريدس ضحكة رقيقة ساخرة، وقالت وهي تلقي نظرة على وجه الشاب:

- وما وجه العجب في ذلك أيها القاضي سنموت؟ .. ليس من الطبيعي أن يشمر فلّاح للدفاع عن فلّاحة؟ ..

- الحقّ يا مولائي أنّ الفلاحين لا يقوون على شيء، ولكنّه الذهب وسحره. وقد صدق من قال إنّك إذا رغبت في أن تنتفع بالفلاح فأفقره ثمّ اضربه بالسوط. أما الحاكم فكان بطبعه عظيم الإعجاب بأعمال الجسارة والبسالة، فقال:

- إنّ التاجر شابّ جسور، وما اقتحامه حدود بلادنا إلا آية من آي شجاعته. مرحى .. مرحى .. لبيته كان

- سيأتيك رسولي في يوم قريب .  
وانحنى الشاب في إجلال عظيم، وبرح المكان  
يتبعه عبيده . وكانت الأميرة تنظر في وجهه وهو يحدث  
الحاكم عن آماله ويصغي إليه، وتبعته بنظرها وهو  
يرح المكان، فعجبت لأي النبل والحسن البادية على  
وجهه وقامته، وأسفت أن يكون حفظه من الدنيا  
التجارة وحل الأقسام . أواه . . كم تمت أن تجد هذه  
القامة في جسم واحد من قومها الميالين إلى البدانة  
والقصر، ولكنّها وجدتها في جسم مصريّ أسمر يتجر  
في الأقسام . . وأحسّت أنّ صورة هذا الفتى الجميل  
تحرك عاطفة في نفسها . . فبدت كالغاضبة، وولّت  
الحاكم وآله ظهرها وفارقت البهو .

#### - ١١ -

وعاد اسفينيس والعبيد في أثر مرشدتهم إلى  
الحديقة، فتشم نسمة من ريح طيبة هدأت من  
وجدانه الثائر، وتنفس تنفساً عميقة امتلأ بها صدره،  
وكان يعدّ نتيجة رحلته هذه توفيقاً عظيماً . ولكنّه كان  
يفكر في الأميرة أمنريدس ويتمثل وجهها النوراني  
وشعرها الذهبيّ وشفتيها القرمزيّتين، والقلب الزمردّي  
المدلّي على صدرها الناهد . . ربّاه! . . ينبغي أن  
يتعاضد عن المطالبة بثمنه ليظلّ قلبه وقلوبها معاً . . وقال  
لنفسه: إنّها ربيبة النعيم والحبّ، تظنّ من غير شكّ  
أنّ الدنيا وما فيها رهن إشارة من أصبعها، جسوراً  
ضحوكاً: ولكنّه ضحك مترف لا يخلو من القسوة،  
تضاحك الحاكم وتترأّ بتاجر غريب ولما تبلغ الثامنة  
عشرة، ولو رأيتها غداً على متن جواد تريش سهماً ما  
حقّ لي العجب . .

ثمّ نصح نفسه ألاّ يستسلم للتفكير فيها، ولكي  
يعمل بنصيحته عاود التفكير في توقيفه فأثنى على  
الحاكم خنزر . إنّ حاكم جبّار قويّ عظيم الشجاعة،  
ولكنّه طيب القلب، وربما كان عظيم الغباوة أيضاً .  
وإنّ نزوعه إلى الذهب عظيم كعامة قومه، وقد  
هضمت معدته الهدايا الكثيرة من الذهب واللؤلؤ  
والزمرد والياقوت والحيوان والمساكين زولو بغير كلمة

وقال سموت وهو يحدج اسفينيس بنظرة ارتياب:  
- أرى هذا الشاب يدع أفكارنا تضطرب بأخيلته،  
فمن المؤكّد أنّ أولئك الأقسام لا يمكن أن يدركوا معني  
للحسن أو القبيح . .  
ورنت الأميرة أمنريدس إلى القزم كالمعتذرة،  
وقالت:

- هل تستقيح النظر إلى وجهي يا زولو؟  
فعاد خنزر إلى قهقهته، واختلج قلب اسفينيس لما  
راه من روعة حسنها وفتنة دلالها، وقد تمّ في تلك  
اللحظة أن يديم إليها النظر . وساد الصمت بعد  
ذلك، فأدرك الشاب أنّه قد آن وقت الانصراف وخشي  
أن يصرفه الحاكم دون أن يطرق الموضوع الذي يهّمه،  
فقال للحاكم:

- هل من الممكن أيها الحاكم الجليل أن أطمع في  
تحقيق آمالي في ظلّ رعايتك الكريمة؟  
ففكر الحاكم وعيث يده بلحيته الغزيرة السوداء،  
ثمّ قال:

- لقد ملّ قومنا الحرب والغزو ومالوا إلى الترف  
والنعيم، وإنّهم ليرتفعون بطبعهم عن التجارة، فلا  
سبيل إلى هذه الدرر الثمينة إلّا بالمغامرين من أمثالك .  
ولكنّي لا أحبّ أن أعطيك كلمتي الآن، فينبغي أن  
أحدث قبل ذلك مولاي الملك . وسارفع إلى ذاته العليا  
أجل هذه النفائس عسى أن يوافقني على رأيي .

فانشرح صدر اسفينيس وقال:  
- سيدي الحاكم، إنّني أحتفظ لمولانا فرعون بهديّة  
نفيسة صنعت خاصة لذاته العليا .

فتفرّس الحاكم في وجهه ملياً، وخطرت له فكرة  
يتقرّب بها إلى مولاه فقال:

- في ختام هذا الشهر يحفل فرعون بعيد النصر  
كعادته منذ عشرة أعوام ومن الممكن أن أجعل منك  
ومن أقزامك مفاجأة سارة للمليك، فتقدّم إليه هديّتك  
التي لا شكّ أنّها لاثقة بالمقام الأعلى . . فأخبرني عن  
اسمك ومقامك . .

- أدعى يا مولاي اسفينيس، وأقيم حيث ترسو  
قافلتني على شاطئ حيّ الصيادين جنوب طيبة .

- آه يا سيدي اسفينيس، إن هذا القصر الذي دخلته خادماً من خدمك هو قصر والدي..

فبدت الدهشة على وجه اسفينيس، وتفرس لاتو في وجهه باهتمام شديد، أما الشاب فاستدرك قائلاً وهو في غيبوبة الحزن الشديد:

- هذا القصر الذي اغتصبه الحاكم خنزور هو مهد طفولتي ومرتع صباي، وبين جدرانها العالية قضت أمتي البائسة عهد الشباب والنعيم في كنف والدي قبل أن تقع القارعة في أرض مصر، وتطأ أرض طيبة المقدسة أقدام الغزاة.

- ومن كان أبوك يا أحس؟

- كان أبي قائد جيش مليكنا الشهيد سيكنترع.

فقال لاتو:

- القائد بيبي؟.. يا إلهي.. حقاً هذا قصر القائد الباسل.

فنظر أحس إلى لاتو بدهشة وسأله:

- هل كنت تعرف أبي أيها السيد لاتو؟

- وهل وجد في جيلنا من يجله؟

- إن قلبي يحدّثني بأنك من السادة الذين شردهم الغزو..

فسكت لاتو رغبة عن أن يكذب على ابن القائد

بيبي وسأله:

- وكيف انتهت حياة القائد الباسل؟

- استشهد يا سيدي في الدفاع الأخير عن طيبة، أما والدتي فعملت بوصيته وفرت بي في جمع من السادة إلى حيّ الفقراء حيث تعيش الآن، لقد تشبّت سادة طيبة الأقدمون. وتحفّ قوم منهم في أسبال بالية وهاجروا إلى حيّ الصيادين، وركبت أسرة مليكنا البحر إلى مكان مجهول، وأغلق معبد آمون أبوابه على كهنته فانقطع ما بينهم وبين العالم، وخلا الجوّ للبيض الغرباء ذوي اللحى يمشون في الأرض مرخاً، ويملكون كلّ شيء. وكان خنزور أسعد القوم حظاً فزوَّجه الملك أخته، ووهبه ضيعة أبي وقصره، ونصّبه حاكماً على الجنوب جزاء ما اقترفت يده الأثيمتان..

شكر.. ولكنّ هذا الجشع هو الذي فتح له أبواب مصر، وبلغ به قصر الحاكم، وسينتهي به قريباً إلى قصر فرعون. وكان أحس يسير على مقربة منه، فسمعه يمس بصوت لا يكاد يسمع قائلاً: «شارف» فظنّه يخاطبه. فالتفت إليه فوجده ينظر إلى شيخ هرم يحمل سلّة أزهار ويضرب في الحديقة بخطى واهنة، وسمع الشيخ الصوت الذي يناديه، فتلفت فيما حوله يبحث ببصره الضعيف عنّ يناديه.. ولكنّ أحس تحاماه وولّاه قفاه، فدهش اسفينيس وألقى عليه نظرة متسائلة، ولكنّ الفتى خفض نظره ولم ينبس بكلمة.

وبلغوا السفينة وصعدوا إليها فوجدوا لاتو في انتظارهم، يلوح على وجهه الذابل الاهتمام الشديد. فابتسم اسفينيس وقال له:

- وفقنا بفضل الربّ آمون.

ثم رفعت المرساة وتحركت المجاديف، فأقبل الشاب عليه يحدّثه حديث المراقبة، حتّى قطع عليهما الحديث صوت بكاء. فالتفتا إلى مصدره فرأيا أحس متكئاً على حائط السفينة يتحبّ كالأطفال، فراعهما منظره، وتذكّر اسفينيس ما غمض عليه من سلوكه في الحديقة، فدنا منه يتبعه لاتو، ووضع يده على منكبه وقال له:

- أحس ما الذي يبكيك؟

ولكنّ الفتى لم يجبه ولم يجرّ ممّا قال شيئاً، واستسلم للبكاء في حزن عميق غلبه على أمره وأفقده وعيه فانزعج الرجلان وأحاطا به، وأخذاه إلى المقصورة وأجلساه بينهما، وأحضر اسفينيس له قدحاً من الماء وقال له:

- ما الذي يبكيك يا أحس؟.. هل تعرف ذاك

الشيخ الهرم الذي دعوته شارف؟

فقال أحس وهو يرتجف من حرارة البكاء:

- كيف لا أعرفه؟. كيف لا أعرفه؟.

فسأله في غرابة:

- من هو؟. ولماذا تبكي هذا البكاء؟.

وأخرجه الحزن عن صمته، فبالح بما في صدره قائلاً:

بمؤلاه من أنبل السبل، وإلى ابنه الشاب المتحمس  
أحمس..

فقلت أبانا:

- وإني لجذ سعيدة أن تلقى إليّ المصادفات السعيدة  
رجلين كريمين من رجال العهد القديم، فتتذكر معاً  
أيامنا الخوالي. ونشعر بحاضرنا شعوراً واحداً. أما  
أحمس فهو شاب عظيم الحماسة جدير باسمه، وقد  
دعاه به أبوه تيمناً باسم أحمس حفيد ملكنا سيكنرع  
وابن ملكنا كاموس. وقد ولدا في يوم واحد. طيب  
الربّ مساهه حيثما كان..

ويسط لاتو كفيه مؤمناً على قولها، وقال بصديق  
وإخلاص:

- ليحفظ الربّ صديقنا أحمس، وليحفظ سميّه  
العظيم حيثما كان...

## - ١٢ -

وتوطدت المودة بين التاجرين وأسرّة أبانا، فعاشوا  
جميعاً أسرة واحدة لا يفترقون إلا في الثلث الأول من  
الليل، وعلم الرجلان أنّ حيّ الصيادين مكتظّ بالسادة  
المتخفين من تجّار طيبة وأصحاب ضياعها ومزارعها  
السابقين، فسروا لذلك الرجلان، وأرادا أن يتعرّفا إلى  
بعض البارزين منهم، وأفضيا برغبتها إلى أحمس بعد  
أن استوثقا من إخلاص القوم، ورحب الفقي برغبتها،  
واختار أربعة من أقرب المقرّبين إلى والدته هم: سنب  
وهام وكوم وديب، وأسروا إليهم بحقيقة التاجرين،  
ودعاهم يوماً إلى داره حيث وافاهم لاتو واسفينيس.  
وكان الرجال يرتدون لباس الفقراء، وزرة وسترة من  
الكثان البالية، فرحبوا جميعاً بالتاجرين وتبادلوا التحيّات  
بحرارة دلّت على الصلوق والمودة. قال أحمس:

- إنّ من ترون مثلكما من سادة مصر الأقدمين،  
وجميعهم يعيشون عيشة الصيادين المنبوذة البائسة، على  
حين يستأثر بأرضهم الرعاة الملعونون..

وسأل هام التاجرين:

- هل أنتما من طيبة أيّما السيّدان؟

فسأله لاتو:

- وأيّ ذنب اقترفه الحاكم؟

وكان أحمس سكت عن البكاء، فقال بلهجة  
تنطوي على الغضب الشديد:

- يده الأثيمة التي أردت ملكنا سيكنرع.

وانتفض اسفينيس كمن مسّه نار حامية، ولم يطق  
قعوداً فانتصب واقفاً متوجّداً وقد ارتسم الغضب على  
وجهه بصورة مروّعة تبعث الرعب في الأفتلة، في حين  
أغضى لاتو الطرف ممّتع الوجه لاهث الأنفاس، وردّد  
أحمس بصره بينهما فوجد أخيراً من يشاركه عواطفه  
المضطربة، فرفع رأسه إلى السماء وتمتم قائلاً:

- ألا فليبارك الربّ هذا الغضب القنسي..

وبلغت السفينة مرفأها، وكانت الشمس تنغمس في  
النيل والشفق يخضب الأفق، فقصدوا إلى بيت أبانا،  
ووجدوا السيّدات تشعل مصباحها. فلما شعرت بمقدمهم  
تحولت إليهم وعلى فمها ابتسامة ترحيب، فتقدّم منها  
لاتو واسفينيس وانحنيا لها في إجلال، وقال الشيخ في  
صوت رزين:

- طيب الربّ مساء أرملة قائدنا العظيم بيبي..

ففاضت الابتسامة من شفيتها، واتسعت حلقها  
دهشة وانزعاجاً، وحلجت ابنها بنظرة لوم وتأنيب،  
وأرادت الكلام فامتنع عليها، فاغرورت عيناها  
بالدموع فدنا منها أحمس ووضع يدها بين راحتيه،  
وقال لها بحنان:

- أمّاه لا تخافي ولا تحزني، وقد علمت ما أولاني  
هذان السيّدان من الجميل، واعلمي إلى هذا أنّهما كما  
ظننت من سادة طيبة الأقدمين الذين شرّدهم  
الطغيان، نازعها الشوق إلى اجتلاء وجه الوطن مرّة  
أخرى..

فسكنت نفس المرأة ومدّت لها يدها فطالعاها  
بوجهين ينطقان بالصفاء والإخلاص، وجلسوا جميعاً  
مقاربين، وقال اسفينيس:

- إنّ فخرنا العظيم بالجلوس إلى أرملة قائدنا  
الباسل بيبي، الذي قضى في الدفاع عن طيبة ولحق

فقال لاتو:

- كلاً يا سيدي. ولكننا كنا يوماً من ممالك أمبوس..

فقال سنّب:

- وهل هاجر إلى النوبة كثيرون مثلكما؟..

فقال لاتو:

- نعم يا سيدي، وفي نباتا خاصة يوجد مثات من المصريين، ومن أمبوس وسين وهابو ومن طيبة نفسها..

فتبادل الرجال النظرات، ولم يكن يرتاب منهم أحد في التاجرين بعدما قصّ عليهم أحسن ما صنع اسفينيس لأمه في المحكمة، فتساءل هام:

- وكيف تعيشون في نباتا أيها السيد لاتو؟

- عيشة الضنك كالنوبيين أنفسهم، ففي النوبة تجود الأرض بالذهب وتشجّ بالغلal..

- ولكنكم سعداء ما دتم لا تمتدّ إليكم أيدي الرعاة.

- دون شك، ولذلك لا نفتأ نذكر مصر وأهلها الأسرى المستعبدين.

- ألا يوجد لنا في الجنوب قوّة حربيّة؟

- بل، ولكنّها قوّة صغيرة يستعين بها رؤوم حاكم الجنوب المصري على حفظ الأمن في البلاد.

- وما عسى أن يكون شعور النوبيين نحونا بعد الغزو؟

- إنّ النوبيين يحبّوننا ويرضون بحكمنا طائعين، ولذلك لا يلقي رؤوم أيّة مشقة في حكم البلاد بقوّة صغيرة لا يعتدّ بها، ولو شقّوا عصا الطاعة ما وجدوا قوّة تؤدّبهم..

فلاحت الأحلام في أعين الرجال، وكان أحسن قد قصّ عليهم كيف تمكّن التاجران من اجتياز الحدود وزيارة الحاكم، وكيف أنّ اسفينيس سيقدم إلى أبوفيس هديّة يوم الاحتفال بعيد النصر، فتساءل هام بامتعاظ:

- وما تبغي من وراء تقديم هديّتك إلى أبوفيس؟

فقال اسفينيس:

- أن أثير جشعه، فيأذن لي بالانحجار بين النوبة ومصر وتبادل الذهب بالحبوب..

فسكت الرجال، وسكت اسفينيس ساعة يفكر، وبدأ له أن يخطو خطوة جديدة في سبيل مشروعه، فقال باهتمام:

- اصغوا إليّ أيها السادة، ليس هدفنا الذي نرمي إليه التجارة، وما ينبغي أن تكون التجارة هدف قوم قدموا إليكم في بيت أرملة قائدنا العظيم ببني، ولكننا نأمل أن تصل قافلتنا مصر بالنوبة، وأن نستعين بقوم منكم كمثال في الظاهر فنحملكم إلى إخواننا في الجنوب. سنحمل الذهب إلى مصر ونعود بالحبوب والرجال، وربّما كررنا يوماً بالرجال فقط..

فاستمع الجميع في دهشة مزوجة بفرح، وأشعّت أعينهم نوراً خاطفاً، وصاحت أبانا قائلة:

- ربّاه! ما هذا الصوت الجميل الذي ينجي في أنفسنا همد الأمل!

وصاح هام قائلاً:

- يا إلهي... إنّ الحياة تدبّ في مقبرة طيبة.

وهتف كوم:

- أيها الشاب الذي يبعث صوته القلوب الميتة، لقد كنّا نعيش حتّى الساعة بلا أمل ولا مستقبل، يشودنا شقاء حاضرنّا فلا نجد منه مهرباً إلّا في تذكّر الماضي المجيد والتحقّر عليه، وما أنت ذا تزيج الستار عن مستقبل باهر..

فانشرح صدر اسفينيس وأفعم قلبه أملاً، وقال بصوته الجميل المثير:

- لا ينفع البكاء يا أيها السادة، فإنّ الماضي يوغل في القدم والفناء ما دتم تقنعون بالتحسّر عليه، وما يلبث مجده أن يصبح قريباً إذا توثّبتم للعمل له. فلا يحزنكم أن تكونوا اليوم تجاراً، فإنّكم في القريب تصيرون جنوداً تضيق بهم الأرض وتذلّ لهم الحصون، ولكن أصدقوني هل تثقون بإخوانكم جميعاً؟

فقالوا في نفس واحد:

- نثقنا بأنفسنا..

- ألا نخشون العيون؟



إلى مصر، وقد وقف أبوه كاموس قريباً منه يوصيه بصوته الجمهوري المؤثر، وذكر أمه الملكة ستكيموس وهي تلثم جبينه، وزوجه نيفرتاري وهي تلقي عليه نظرة الوداع من خلال أهدابها المبتلة.. فلاح في عينيه نظرة حنان كنور القمر في صفائه وحيائه.. ونفذت قطرات من الحسن المنبت ما بين السماء وماء النيل إلى قلبه. فانتعش وانتشى بخمر الهية. ولكن طرقت غميلة خلصة صورة من النور والبهاء، فاقشعر بدنه، وأغمض جفنيه كأنما يفر منها فراراً، وهمس لنفسه بامتعاض: «يا إلهي.. إني أذكرها أكثر مما ينبغي.. وما ينبغي لي أن أذكرها بتاتاً..».

### - ١٣ -

وجاء يوم العيد، فلبث اسفينيس في السفينة نهار اليوم؛ وعند المساء لبس أجمل ما عنده من الثياب، وزَجَلَّ جُمَّته ومسَّ طيباً، وبرز السفينة يتبعه عبيده يحملون صندوقاً من العلاج، وهودجاً مسدل الساتر، وساروا في طريق القصر. وكانت طيبة ساهرة تضج أجواؤها بنقر الدفوف وسجع الأغاني، وينير القمر منها سبلاً اكتظت بجاعات الجنود السكارى المشددين، وعربات الأعيان والنبلاء تقطع الطريق صوب القصر الفرعوني يتقدمها الخدم حاملين المشاعل، فتولت الشاب كآبة ثقيلة، وقال لنفسه حزوناً: «قضي عليّ أن أشارك القوم عيدهم الذي يحيون به ذكرى سقوط طيبة ومقتل سيكنرع». وصوب نحو الجنود المتهاوتين نظرة مغضبة، وذكر قول الحكيم قاقمنا: «الجنود إذا تعودوا الشراب، وهنت سواعدهم وعافوا القتال».

ثم تابع تيار الساترين حتى شارف ميدان القصر، ولاحت لعينه أسواره ونوافذه نوراً فوق نور، فشقت عليه الرؤية وخفق قلبه بعنف، ونسّمت على رأسه المحموم ريح عقة عاطرة من ذكريات الصبا، وجدت قلبه حزناً ونفسه والهة. ومضى تزداد شجونه كلما أدناه المسير من مهد الطفولة ومرتع الصبا.

واقترب الشاب من أحد الحجاب وأبرز له كتاب خنزr. فنظر فيه بإمعان، ثم نادى أحد الحراس وأمره

- إن الرعاة جابرة بغير عقول، وقد اطمأنوا بقوتهم إلى استعبادنا عشر سنين فهم لا يحاذرون.

فصق أسفينيس يديه فرحاً وقال:

- اذهبوا إلى إخوانكم المخلصين وبشّروا بالأمل الجديد، واجمعوا بيننا وبينهم في كل حين لتبادل الرأي والشورى ولبلاغهم رسالة الجنوب، وإذا كان مصريو نباتا الآمنون غاضبين، فأولى بكم الغضب.

فأمن الرجال على قوله متحمسين، وقال نايب:

- نحن غاضبون أيها الشاب النبيل، سيثبت لك كفاحنا أننا أشد غضباً من إخوان نباتا..

وحيا التجارين ومضوا وقد داخلتهم ثورة غضب وتحفز لا تهدأ ولا تسكن، وسمع الرجلان أبانا تتنهد وتقول:

- ربّاه!.. من يدلنا على أسرة مليكننا الشهيد؟..

وفي أي ركن من الأرض هو؟..

ومضت أسابيع وكان اسفينيس وزميله الشيخ لا يذوقان طعم الراحة. كانا يجتمعان برجال طيبة المتخفين في بيت أبانا، وكانا يكشفانهم بأمال المصريين المهاجرين فينبأ في نفوسهم الأمل والحياة، ويصبان في عزائمهم القوة والجلاد، حتى بات حي الصيادين جميعه ينتظر على لهفة وجزع الساعة التي يدعى فيها اسفينيس إلى القصر الفرعوني.

وتوالت الأيام حتى كان يوم جاء حي الصيادين أحد حجاب حاكم الجنوب يسأل عن قافلة المدعو اسفينيس، ثم سلّمه كتاباً من الحاكم يميز له دخول القصر الفرعوني في ساعة سهاها من يوم العيد، ورأى كثيرون الرسول فابتهجوا وشملهم السرور، وأشرق في نفوسهم الأمل..

وفي ذلك المساء نامت القافلة، ولبت اسفينيس منفرداً على ظهر السفينة في هدأة وجلال الليل السكون، يغمره نور القمر ويسيل على وجهه النيل درراً ولؤلؤاً لامعاً متوهجاً، فدخلته رقة، وأثلج صدره الرضا، وطاب لحياله أن يتردد بين الماضي القريب والحاضر الغريب. فتمثل ساعة الوداع في نباتا، وجدته توتيشيري تبشّره بأن روح آمون أوحى إليها أن ترسله

عنها بالسمر الرقيق ومطالعة الأشعار وأكل الفاكهة الناضجة. جلس اسفينيس فترة غير قصيرة من الليل يطالع ذكرياته على صفحات الحديقة والممرات والأروقة، فلم يتململ ولم يجزع، حتى جاءه الرسول وسأله:

- هل أنت مستعد؟..

فقام واقفاً وهو يقول:

- على تمام الاستعداد يا سيدي.

فقال وهو يهيم بالعودة:

- اتبعني.

فتبعه ورجاله على الأثر، وارتقوا أدراج السلم، وقطعوا الرواق الفرعوني حتى شارفوا باب البهو الملكي، فلبثوا ينتظرون أن يؤذن لهم بالدخول، وبلغ سمعهم أصوات ضحك عالية، ووقع الأقدام الراقصة، وسجع الموسيقى العنيف، وشاهد زرافات السقا يحملون الأباريق والأقداح والأزهار، فأدرك أن القوم لا يتحرجون في لهوهم ولا يعتدلون في أعيادهم، وأن الملك يعفيهم من الوقار والتأدب ليعودوا إلى فطرتهم الوحشية الأولى. ثم نادى باسمه أحد العبيد، وتقدم بخطى متتلة، ورأى وسط البهو خالفاً، والقوم جلوساً حوله في ثيابهم الرسمية الفاخرة يتطلعون إليه باهتمام، فدخله شيء من الارتباك، وأيقن أن الحاكم عرف كيف يثير اهتمام القوم بما حدثهم عنه وعن هذائاه لتعظم مآثره في عين الملك، واستبشر بذلك خيراً. وكما جاوز منتصف البهو أمر أتباعه بالوقوف، ودنا وحده من العرش وحني هامته إجلالاً، وقال بصوت الخضوع والعبودية:

- مولاي الرب المعبود، سيد النيل، فرعون مصر العليا والسفلى وأمير المشرقين.

فقال له الملك بصوت جهوري قوي النبرات:

- إني أمنحك السلام أيها العبد.

واعتدلت قامة اسفينيس، واستطاع أن يختلس نظرة سريعة إلى الرجل المترتع على عرش آبائه وأجداده، فعرف فيه صاحب تمثال الحديقة بلا شك.

ولكنه أدرك من شدة احمرار وجهه ونظرة عينيه

أن يقود التاجر وقافلته إلى مكان الانتظار بالحديقة. فتبعه الشاب وعرج وراه إلى أحد ممرات الفناء الجانبية لازدحام الممر الوسيط بالمدعوين والحجاب والحراس. وكان اسفينيس يذكر المكان جيد الذكرى، وكأنما فارقه أمس آخر مرة. وحين بلغوا ممر الأعمدة الكبير المؤدي إلى الحديقة، اشتد وجيب قلبه وعرض على شفته السفلى من شدة التأثر، وذكر كيف كان يلعب في هذا الممر مع نيفرتاري، فيشد على عينيه حتى تخفي نفسها وراء أحد الأعمدة الهائلة، ثم يحل المصاصة ويجد في البحث عنها حتى يظفر بها. وخال في اللحظة أنه يسمع وقع قدميها الصغيرتين، ويسمع رجع ضحكاتها الخولة. وكانا يحفران اسميهما على بعض العمود، ترى هل تحتفظ بأثار اسميهما حتى الآن؟.. وقد ودّ لو يغافل حارسه ويعاين أثر الماضي الجميل، ولكن الرجل كان يوسع الخطى غير شاعر بالقلب المنصهر على قيد ذراع منه.. فبلغوا الحديقة، وأشار الحارس إلى أريكة وقال للشاب:

- انتظر ها هنا حتى يأتيك الرسول.

وكانت الحديقة مضاءة بالمصابيح الوهاجة، والنسيم يهب من أنحائها بشذى الريحان ورياً الزهور، فبحث عيناه عن الموضع الذي كان يقوم فيه تمثال سيكنترع عند نهاية الممر المعشب الذي يشق الحديقة نصفين، فوجد مكانه تمثالاً جديداً لا روح فيه؛ يمثل شخصاً ربعة ضخمة الهيكل كبير الرأس مقوس الأنف ذا لحية طويلة وعينين واسعتين جاحظتين، فلم يشك في أنه أمام أبوفيس ملك الرعاة. فأدام إليه النظر شزراً، ثم ألقي على الحراس نظرة قاسية يستعر فيها الغضب والحق، وكان كل شيء من القصر والحديقة كعهده به. ولاحت لعينه الحجرة الصيفية على هضبة عالية، تحنو عليها أدواح النخيل بقاماتها الرشيقة الطويلة، فذكر أيامها السعيدة، حين كانت تهرع إليها الأسرة جميعاً في فصلي الصيف والربيع، فينهمك جلّه وأبوه في لعب الشطرنج، وتجلس نيفرتاري بين الملكة ستكيموس وجدها الملكة آحتوبي، أما هو فيقعده في حجر توتيشيري، ثم تمضي الساعات وهم في شغل

خطى ثابتة وثيدة، وسجدوا بين يدي فرعون ثلاثاً، ووقفوا ساكنين لا تين وجوههم عن شيء. وهتف الملك قائلاً:

- أيها التاجر، ما عسى أن تكون هذه المخلوقات؟  
- هي أناس يا مولاي تعيش قبائلها في أقاصي النوبة الجنوبية، ولا يصدّقون أنّ العالم يشتمل على أقوام سواهم. فإذا رأوا واحداً منّا عقدت الدهشة الستهم وتنادوا متعجّبين. وقد ربّيت هؤلاء الثلاثة فأحسنت تربيتهم، وسيجدهم مولاي مثلاً للطاعة والعبودية، ونوعاً من التسلية والتلهية.

فهزّ الملك رأسه الكبير، وضحك ضحكته العظيمة ثم قال:

- جهل من يدّعي العلم كلّ، أما أنت أيها الشاب فقد أدخلت السرور على قلوبنا، وإني أمنحك رضاي..

وحنى اسفينيس هامته، ثم ارتدّ بظهره راجعاً. وعند منتصف البهو اعترض سبيله إنسان ما، فقبض على ذراعه. والتفت اسفينيس إلى صاحب اليد الغليظة، فرأى رجلاً في الثياب العسكرية الفخمة، جميل العثون غليظ الشاربين متفخ الأوداج. دلّ احتقان الدم بوجهه وبريق الجنون في نظرة عينيه على شدّة سكره، وقد حيّا مولاه وقال:

- إنه ليس مولاي من غير شك أن يشاهد فنون القتال الباسل في الحفلات القومية، كما تقضي به تقاليدنا المقدّسة. وإني أدّخر لذات مولاي المقدّسة مبارزة دمويّة تسرّ الناظرين.

فقال الملك وهو يرفع كأسه إلى شفّته الغليظتين:  
- ما أجل أن تراق دماء الفرسان على أرض هذا البهو لتنفّض عن النفوس ما ران عليها من سأم، ولكن من السعيد الذي شرّفته بعداوتك أيها القائد رخ؟

فأشار القائد الثمل إلى اسفينيس وقال:

- هذا غريمي يا مولاي.

فعجب الملك وعجب كثيرون من النبلاء، ومأله الملك:

وكأس الخمر الموضوعة أمامه أنّه ثمل. وكانت الملكة تجلس إلى يمينه، والأميرة أمرنيدس إلى شماله، وقد لحظها الشاب فرأها في لباسها الملكي كالكوكب المتألّق، وكانت تنظر إليه في هدوء وكبرياء..

والقى الملك عليه نظرة فاحصة فراقه منظره وابتسم قائلاً بصوته الغليظ:

- وحقّ الربّ إنّ هذا الوجه لجدير بأحد رجالنا النبلاء..

فأحنى اسفينيس رأسه وقال:

- شاء الربّ أن يجعل لمولى من موالى فرعون.

فقهقه الملك ضاحكاً وقال:

- أراك تحسن القول، وبالقول الحسن يستجلب قومك عطفنا ونقودنا. وهي حكمة ست أن يعطى السيف للسيد القوي، وحسن البيان للعبد الضعيف. ولكن لا عليك من هذا فقد قال لي صديقنا خنزّر إنك تحمل لنا هديّة من بلاد النوبة.. أرنا هديّتك.

فحنى الشاب رأسه وانتحى جانباً، ثم أشار إلى رجاله فتقدّم اثنان منهم بالصندوق العاجي ووضعاه أمام العرش، ودنا الشاب منه وفتحه واستخرج منه تاجاً فرعونياً مزدوجاً من الذهب الخالص مرصّعاً بالياقوت والزمرد واللؤلؤ والمرجان، ورفع بين يديه فخطف الأبصار، وانبهر له القوم جميعاً وضجّوا بالدهشة والاستحسان، وأما أبوفيس فقد حملق فيه بعينين جاحظتين جشعتين، وخلع تاجه دون شعور منه، وتناول التاج الجديد بين يديه الكبيرتين ووضعاه على رأسه الأصلع، فبتدّى صورة جديدة من الجلال. واغبط الملك ولاح في وجهه الرضا، فقال للشاب:

- أيها التاجر، إنّ هديّتك حازت القبول.

فأحنى اسفينيس إجلالاً، والتفت إلى رجاله وأشار إليهم إشارة خاصّة فأزاحوا الستار المسدل على المودج، ورثي الأقزام الثلاثة جالسين متلاصقين. وقد أثار ظهورهم دهشة عظيمة في نفوس القوم جميعاً، فقام أكثرهم واقفين، واشترّبت الأعناق، وصاح بهم التاجر الشاب أن حيّوا مولاكم فرعون، فقفز الأقزام الثلاثة ففزة واحدة فصاروا صفّاً، ثم اقتربوا من العرش في

ولكن يظفر بغرضه الأسمى . وهنا سمع القائد يقول له :

- لقد تحدّثني أيّها الفلاح، فهل تستطيع مواجهتي؟ فسكت اسفينيس شاعرًا بانبيار وتحاذل، وسمع صوتًا يقول: «دعوا الشابّ إنّهُ لا يعرف القتال». وقال صوت آخر: «دعوا الشابّ فإنّ الفارس يقاتل بنفسه لا بجسمه...» فدخله الحنق، وأحسّ يذًا توضع على كتفه وصوتًا يقول له: «لست فارسًا ولا عار عليك إذا اعتذرت». فنظر فرأى خنزِر. فشعر بقشعريرة تسري في أعضائه من لمس اليد التي فتكت بجذّده. ولاحت منه نظرة في تلك اللحظة الراهبة نحو العرش فرأى الأميرة أمّريدس تنظر نحوه باهتمام، فغلبه الغضب وفقد وعيه، فقال بصوت مسموع:

- إنّني أشكر القائد على نزوله لمبارزتي، وأقبل اليد التي يمدّها لي.

وسرى الفرح في النفوس، وضحك الملك وشرب كأسًا أخرى، وتطلّعت الرءوس من كلّ حدب وصوب للغريمين. وبدأ الارتياح على وجه القائد وابتسم ابتسامة التشفّي والانتقام، ثمّ سأل اسفينيس:

- هل تضارب بالسيف؟

فحنى رأسه أن نعم، فأعطاه سيفًا. ثمّ خلع اسفينيس عباءته عن سترته وسرواله فبدا جسمه الطويل القويّ يجذب الأبصار برشاقتها واعتدال قامته وجمال وجهه. وأعطى ترسًا، فقبض على السيف بيمنه، ووضع الترس على يساره، ووقف على بعد أذرع من القائد. كأحد التماثيل التي أغلقت عليها أبواب المعابد..

وأذن الملك بالقتال، فشهر كلّ منهما سيفه. وبدأ القائد الغاضب المهجوم فسدّد نحو خصمه ضربة قاتلة ظلّتها القاضية، ولكنّ الشابّ تفادى منها بخفة عجيبة فضاعت في الهواء، ولم يجهل القائد فوجّه إلى رأسه ضربة أشدّ من الأولى بسرعة البرق، فتلقّاهما الشابّ بترسه بحركة خاطفة، فتعلّلت أصوات الإعجاب من أنحاء البهو جميعًا، وأدرك القائد أنّه يقاتل رجلًا يجيد الطعان، فأخذ حذره، وعاود القتال متبمًا خطة

- كيف استجلب غضبك هذا التاجر النوبي؟

- أنقذ امرأة فلاحًا - تجاسرت على توجيه الإهانة إلى شخصي - من العقاب، بدفعه خمسين قطعة من الذهب بدلًا منها.

فضحك الملك ضحكته العظيمة المجدجلة، وسأل القائد:

- ولكن أترضى أن يكون غريمك فلاحًا؟

- أراه يا مولاي متين البنيان مفتول العضلات، فإذا لم يكن قلبه من قلوب الطير فإنّي أغضي عن وضاعة جنسه، مرضاة لمولاي ومشاركة في سرور العيد.

ولكنّ الحاكم خنزِر لم يرض عن المبارزة، وقد رمى شقيقه القاضي سنموت بنظرة لوم، لأنّه أدرك أنّه هو الذي دلّ القائد على اسفينيس دون تقدير منه للموقف، وأشفق من أن يضيق سيف رخ عليه كنوز النوبة الثمينة، فدنا من القائد رخ وقال له بحزم:

- لا يجوز أن تخدش أوسمتك بمنازلة تاجر فلاح أيّها القائد.

فقال رخ يقطع على الحاكم سبيله:

- إذا كان من العيب أن أقاتل فلاحًا، فمن العار أن أترك عبدًا يتحدّاني دون أن أنزل به العقاب الذي يستحقّه.. ولما رأيت فرعون يمنح هذا التاجر عطفه، أثرت أن أنصفه وأن أتيح له فرصة للدفاع عن نفسه..

وظنّ من سمع قول القائد أنّه حقّ وعدل، وتمنّوا صادقين أن يقبل التاجر النزال ليشهدوا المبارزة وليتمّوا سرورهم بالعيد. وكان اسفينيس يكابد حيرة شديدة لا يجد لنفسه منها مخرجًا، وكان يشعر بتلهّف القوم على استماع كلمته، ويحسّ نظرة التحدي والاحتقار التي يصوّبها نحوه القائد الثمل العنيد، فيغلي الدم في عروقه. ثمّ يذكر نصائح توتيشيري ولاتو، وكيف أنّ قتله هذا القائد اللفظ قد يضيّع من يديه الثمرة الدانية القطوف، ويفوّت على أسرته الفرصة السانحة، فيبرد دمه وتحذله عزيمته. ربّاه.. لا يحيد عن التkovص، ولا يحيص عن الهرب، سيتهكّم به القائد، وترمقه الأعين بالاحتقار، ويفارق المكان منكس الذقن كسير الفؤاد،

على قافلته إذا لم يعرف كيف يدافع عن نفسه ورفاقه . .

فقال الملك :

- يا لها من بلاد . . وقد كُنا مقاتلين أشداء رجالاً ونساءً حين كُنا نجوب أطراف الصحراء الشالية الباردة، فلما أن احتوتنا القصور وتقلبنا في ظلال الترف والنعيم، وشربنا بدل الماء الخمر، طاب لنا السلام، ورأيت واحداً من قواد جيشي ينهزم في قتاله مع تاجر من الفلاحين . .

وكان الملك يتكلم مهتلل الوجه ضاحك الغم، فدنا من عرشه الحاكم خنزر وانحنى له تحية وقال :

- مولاي هذا الشاب باسل وحقيق بالأمان .

فهزّ فرعون رأسه الثمل وقال :

- صدقت يا خنزر، كان القتال عادلاً شريفاً، وإني أمنحه الأمان .

فوجد الحاكم الفرصة سانحة فقال :

- مولاي . . إن هذا الشاب لعل استعداد أن يؤدي للعرش أجلاً للخدمات، بأن يعمل إليه الثمين المعجب من كنوز النوبة لقاء ما يعود به من حبوب مصر .

فنظر الملك إلى الحاكم ملياً. وذكر التاج الذي يتوج رأسه، فقال بلا تردد :

- قد أذنّا له في ذلك .

فانحنى خنزر شاكراً، وسجد اسفينيس بين يدي فرعون، ومدّ يده فلم حاشية ثوبه الملكي . ثم وقف في خشوع وهو يقاوم رغبة في النظر إلى شلال العرش، ورجع القهقري حتى غيّه باب البهو الكبير. وكان مسروراً مبتهجا، ولكنه كان يسائل نفسه : « ترى ماذا يقول لاتو إذا علم بقصة المباراة؟ » . .

وبلغ اسفينيس والعبيد السفينة بعد منتصف الليل، فوجدوا لاتو ساهراً يترقب، فأقبل على الشاب قلقاً متشوقاً إلى سماع أخباره، فقصّ عليه اسفينيس ما صادفه في القصر من النجاح والمتاعب، فقال لاتو :

- لنحمد الرب آمون على ما أولانا من نجاح، ولكني أخون واجبي إذا لم أصارحك بأنك اقترفت خطأ كبيراً باستسلامك للغضب والكبرياء، وما كان

جديدة، فتصاولوا، واشتبكا وانفصلا، وكراً وفرّاً، القائد في غضب وعنف، والشاب في هدوء عجيب .

وكان يصدّ هجمات عدوّه بسهولة ويسر وثقة، وكان كلما أطاش ضربة بمهارته الرائعة زاد غضب عدوّه اهتياجاً وجنوناً. وأدرك الجميع أنّ اسفينيس يكتفي بالدفاع ولا يكاد يهجم إلّا إذا أراد بهجومه إفساد خطة أو تفويت ضربة، فتجلّى فنه، وبرع على خصمه في الخفة والمهارة بدرجة أشعلت حماسة القوم الذين تسبهم لذّة القتال فوارق الأجناس. فجثّ جنون رخ، ووالى هجماته عليه بشدة وعنف لا يني ولا يتوانى، وصوب نحوه الضربة تلو الضربة، فصدّ بترسه ما صدّ، وتفادى بفنه ما تفادى منه، ولبت سليماً مطمئناً ذا ثقة لا حد لها، لا يغضب ولا يؤخذ، وكأنه حصن منيع . فأخذ اليأس يستولي على القائد الخائق، وشعر بدقّة موقفه وشدة حرجه، وحته اليأس على المغامرة، فرفع ذراعه بالسيف، وجمع كلّ ما أعطي من قوّة وعزم ليضرب ضربة الموت الزوأم، وكان مطمئناً إلى خطة عدوّه المقصورة على الدفاع . فما هو إلّا أن وجهه إلى قبضة سيفه ضربة رائعة فجرح سنان السيف كفه، وارتمفت يده، فضرب الشاب السيف ضربة أخرى أطاحت به بعيداً، فسقط قريباً من عرش فرعون. ولبت رخ أعزل والدم يقطر من يده، لا يكف عن حنقه . فضجّ القوم مسرورين متعجّبين من بسالة التاجر وجميل عفوه، ثم صاح به القائد :

- لماذا تبطئ في الإجهاز عليّ أيّها الفلاح؟

فقال اسفينيس بهدوء :

- ليس لديّ من الأسباب ما يحملني على ذلك . . فصرّ القائد بنواجله وانحنى للملك تحية، ثم دار على عقبيه وبرز البهو، وعلت ضحكة الملك طويلاً حتى اضطرب لها جسمه، ثم أشار إلى اسفينيس فأعطى الشاب سيفه وترسه إلى أحد الحجاب، واقترب من العرش وانحنى للملك، فقال له :

- إنّ قتالك لا يقلّ غرابة عن أقزامك . . كيف تعلّمت القتال؟

- أيّها الملك المعبود، في بلاد النوبة لا يأمن التاجر

أن يشغل من أسطحها وبطونها. ثم واجهت اسفينيس مشكلة عسيرة وهي إرحال النساء والأطفال، وشغلهن أماكن أحق بها الرجال والشبان، أو تركهن وحدهن على ما في هذا من إيلام لهن ولذويهن. ورأى الشاب أن يثير المسألة فشاور فيها أصدقاءه الأقربين، وطال الأخذ والرد، حتى انبرى أحسن بن أبانا فقال:

- أيها السيد اسفينيس، نحن في حاجة إلى جيش عرمرم من الرجال، فلا يجوز أن يؤخر النساء تجهيز هذا الجيش العظيم، وما يضرهن أن يكتن في طيبة حتى نعود إليهن عودة الظافرين، وأنه لأدعى إلى حماسنا أن نقاتل وفي البلاد نساؤنا، من أن نخلفهن وراءنا في النوبة، وإذا كان في هذا الرأي ألم لنا، فليؤد كل منا نصيبه من ضريبة الألم والتفدية في سبيل غرضنا الأسمى.

وبلغ التأثير بأبانا مبلغًا عظيمًا فقالت:

- نعم الرأي الحكيم... إن مكاننا هنا، وسنقاسم أهل طيبة حفظهم: إن موت فموت، وإن حياة فحياة...

ولم يتردد أحد عن القبول، ورضي النساء بفراق الأزواج والأبناء، وكان جنوب طيبة يذوب من حرارة الوداع وذرف الدموع واضطرام الدعاء والآمال..

وكان اسفينيس لا يذوق الراحة في تلك الأيام القلائل الحافلة بجلال الأعمال والتفديات الصامتة، كان يستقبل الرجال ويزور الأسر وينظم الراحلين. وكان إلى هذا يعمل نفسه بالآمال، ويذكر الحاضر والمستقبل، ويعالج بالصبر فورة الغضب والرغبة في الانتقام. وكان إلى هذا وذاك يكتن أشواقًا تضطرم في فؤاده. ويغالب لواعج الوجدان التي باتت تأكل صدره وكبد، ويضئ بما يعتريه في نفسه من أسباب البغضاء وقوي المحبة.. فلشد ما جاهد وتحمل في الأيام القلائل، ولشد ما تجلّد وتصبر..

ينبغي لك أن تعرّض آمالنا الكبار لخطر الانهيار من أجل ثورة غضب. أفما كان من الجائز أن يظفر القائد بك؟.. أو ما كان من المتوقع أن يبطش الملك بك؟.. ينبغي أن تذكر دائمًا أننا هنا عبيد وهم سادة، وأنتنا طلاب فضل هم أصحابه وذووه، فليكن رائدك أن تتظاهر بالشكر والإخلاص لهم، وعلى رأسهم ذلك الحاكم الذي وجه إلى جدك العظيم والي مصر جميعًا الضربة القاضية. افعل هذا من أجل مصر، ومن أجل من تركناهم وراءنا في نباتا يخشون ويرجون.

ولم يتمالك الرجل فاجهش في البكاء، ثم مضى إلى مخدعه فصلى صلاة حارة..

وفي صباح اليوم التالي قصدا إلى كوخ السيدة أبانا كما وعدا أصحابهما من قبل، فاستقبلتهما السيدة وابنها أحسن وبعض الأصدقاء، بينهم سنوب وهام وديب وكوم، وكانوا جميعًا قلقين متلهقين على سماع الأخبار، فقال لها هام:

- إن قلوبنا قلقة بعدّها الخوف ويليها الأمل. وقد تركنا وراءنا في الأكواخ القرية المئات من الأصدقاء ممن لم يغمض لهم جفن طوال الليلة الماضية.

فابتسم اسفينيس ابتسامة حلوة، وقال:

- أبشروا يا أصدقاء، لقد أذن لنا الملك في الاتجار بين مصر والنوبة.

فلاح البشر في وجوههم، وتألقت أعينهم بنور الرجاء، وقال لآتو بحزم:

- جاء وقت العمل فلا تضيّعوا الوقت هباء، واعلموا أن الطريق طويل فينبغي أن نحمل أكثر ما نستطيع من الرجال. لا تتوانوا عن إغراء العامة بالاشتراك في رحلتنا، ومثوهم بالريح الوفير دون أن تصارحهم بالحقيقة، حتى تبلغ هدفنا فيما وراء الحدود. وسنجدهم بغير شك من المخلصين كعهدنا برجال طيبة ومصر جميعًا.. هلموا جميعًا فاحزموا أمتعتكم..

وانتشرت في الخفاء حركة واسعة النطاق يضطرم في جوانبها الحماسة والإيمان، وهرع الرجال المتخفون في ثياب الصيادين إلى السفن، وشغلوا كل مكان يمكن

فنظر الشابان إلى الورا فرأيا قافلة من خمس سفن تشقّ عباب الماء بسرعة، ولم تستطع العين رؤية من فيها ولكنها أخذت تدنو بسرعة وتستبين أجزاؤها فعاين اسفينيس رجلاً يقف في مقدّمة القافلة فعرّفه، وقال بقلق:

- هذا القائد رخ...

فامتقع وجه لاتو، وقال وقد تزايد اضطرابه:

- ترى هل ينبغي للحاق بنا؟

فلم يدر الآخر كيف يجيبه، وراقبوا القافلة باهتمام وحذر، وساور لاتو بعض المخاوف فقال بحنق:

- هل يجيء هذا الأحمق ليعوق مسيرنا؟

وأدرك اسفينيس أنّه لم يخلص بعد من عواقب خطئه، وأنّ الخطر يوشك أن يحمق بقافلته وقد شارفت برّ الأمان والسلامة. وصوّب بصره نحو قافلة رخ فرأها تقترب بسرعة حتّى جاوزت بعض سفن قافلته. وإذا بها خمس سفن حربيّة يقف على أسطحها فصائل من جند الحرس، ولم تحيّ لخير بلا شك. ثمّ انجّمت سفينة القيادة نحو سفينته فحاذتها، ورأى القائد يحدّجه بنظرة قاسية، وسمعه يصيح به بصوته الغليظ:

- قف وألق مراسيك.

وغيّرت السفن اتجاهها لتحصّر القافلة، فأمر اسفينيس بحارته أن يكفّوا عن التجديف وأن يلقوا المراسي، فأذعنوا لما أمروا، وقد تولّاهم الخوف لما رأوا سفن الرعاة تحمل الجنود الشاكي السلاح كأنهم يتأهبون لمعركة حربيّة. واشتدّ القلق باسفينيس، وأشفق من أن ينكّل القائد الحقود بقافلته فيشدّ أمل قومه جيّماً، وقال لرفيقه:

- إذا كان هذا الرجل يريد رأسي فلا بأس أن أكون أوّل صرعى الكفاح الجديد، وما عليك يا لاتو إذا قضيت إلّا أن تستأنف المسير، دون أن تمكّن للغضب من نفسك فتقضي على آمالنا جيّماً...

فشدّ الشيخ على يده وقد اسودّت الدنيا في عينيه، واستدرك اسفينيس قائلاً بحزم:

- إنّي أوصيك يا لاتو بما أوصيتني به بالأمس من تجنّب الغضب غير الحكيم. دعني أدفع ثمن خطئي.

وأعطاه جوازاً لعبور الحدود في أيّ وقت يشاء. فرفعت القافلة مراسيها وأبحرت مع الفجر الرطيب، وكان اسفينيس ولاتو وأحمس بن أبانا يأخذون مجالسهم في مقصورة السفينة الأولى وفي قلوبهم شوق وحنين، وفي عيني أحمس دموع هي آخر ما ودّع به أمّه. وكان اسفينيس يغرق في أحلامه، فذكر طيبة وأهل طيبة، طيبة أعظم مدن الأرض، المدينة ذات الأبواب المائة، والمسلات التي تناطح الجوزاء، والمعابد الهائلة والقصور الشّم، والسبل الطويلة والميادين العظيمة، والأسواق التي لا تهدأ ولا تسكن أثناء الليل وأطراف النهار، طيبة المجيدة، طيبة آمون الذي قضي أن تغلق أبوابه دون عباده عشرة أعوام من الأسر، طيبة التي حكمها الهمج أخيراً وجلسوا منها مجلس الوزراء والقضاة والقوادر والنبل واستعبدوا أهلها فالدهر يمرّ وجوههم في ثرى من كان بالأمس لهم عبداً. وتنهّد الشاب من قلب مكلوم، ثمّ ذكر الرجال الجائمين في بطون سفنه يحذوهم أمل واحد، ويدفعهم إلى الأهوال حبّ لمصر مكين توارثوه جيلاً بعد جيل. كم يعانون من ألم الفراق لمن خلّفوا وراءهم بين أيدي أعدائهم من زوجات وبنات وأطفال، وكأنّهم جيّماً هذا الفتى الباسل أحمس الذي يكظم شواقه ويكتم حنينه ويبدو على وجهه العزم والقوّة. ثمّ طافت بذهنه في حشد الذكريات صورة ذات بهاء، فأطرق ليخفي عينيه عن لاتو الثاقب البصر، ولو علم الرجل فيما يفكر لغضب مرة أخرى، ولكن عليه أن يشغل قلبه بآبنة الشيطان كما دعاها أوّل مرة. وعجب لنفسه كيف تحوم حول صورتها، وكيف لا تنفك تنزع إليها. وتساءل متحيراً: هل يمكن أن يجتمع الحب والكراهية لشيء واحد؟. ولاحت في عينيه نظرة حزينة، وقال لنفسه: مهما يكن أمري فلن تقع عيناى عليها مرة أخرى فلا داعي للقلق، وهل وجد في الدنيا شيء يعزّ على النسيان؟. وقطع عليه أحلامه لاتو وهو يقول بلهجة دلّت على القلق:

- انظر إلى الشال... أرى قافلة قادمة على عجل...

ولكن تعدّ غدًا إلى أبي فتعزّيه عن موتي وتمنّيه بمن حملت إليه من جنود مصر، لخبر من أن تعود بي إليه وقد خسرنا أملنا إلى الأبد...

وسمع القائد رخ يصيح به قائلاً:

- اخرج إلى وسط السفينة أيها الفلاح.

فشدّ الشاب على يد لاثو ومضى بقدمين ثابتين، فقال له القائد وكان يقف على سطح سفينته:

- لقد أطحت بسيفي أيها العبد المقتون وأنا ثمل أتربّح. وهأنذا أنتظرك وقلبي ثابت وساعدي غير مرتعش.

فأدرك أنّ القائد ذو طبيعة انتقاميّة، وأنّه يريد أن ينازله ليغسل العار الذي لحقه منه، فقال له بهدوء وقد دخله شيء من الطمأنينة على قافلته:

- هل ترغب في أن تعيد الكرة أيها القائد؟

فقال بقحة:

- نعم أيها العبد، وسأقتلك بيدي هذه المرّة شرّ قتلة.

فسأله اسفينيس في هدوء:

- وأنا لا أخشى نزالك، ولكن هل تعدّ بالألّا تمسّ

قافلتي بسوء مهما تكن عاقبة المباراة؟...

فقال القائد باحتقار:

- سأترك القافلة احتراماً لمشيتة مولاي فتسير دون

جثثك.

- وأين تريد القتال؟

- على ظهر سفيني.

فلم ينبس الشاب بكلمة، وقفز إلى قارب وجذّف

بساعديه القويّين حتّى بلغ سفينة القائد، ثمّ ارتقى

السلم إلى سطحها ووقف أمام عدوّه وجهاً لوجه.

فألقي عليه القائد نظرة قاسية وقد أغضبه ما يبدو على

وجهه الجميل من الهدوء والثبات والاستهانة، وأشار

إلى جنديّ من الجنود فأعطى الشاب سيفاً وترساً،

وقال له القائد وهو يتحفّر للقتال:

- لا رحمة اليوم فدافع عن نفسك.

ثمّ هجم عليه كالوحش الضاري فاشتبكاً في قتال

عنيف وسط دائرة واسعة من الجنود المدجّجين

بالسلاح؛ وعلى مقدّمة السفينة الأخرى وقف لاثو

وأحسّ يشاهدان المعركة ببصر زائغ... وتنايحت

ضربات القائد فصّدها اسفينيس بمهارته الفائقة. ثمّ

وتّجه إلى خصمه ضربة شديدة سقطت على ترسه

فصكّته بعنف بدا عليه أثره، فانتهاز الشاب الفرصة

وبدأ هجومه عليه بشدّة وحذق، فاضطرّ القائد إلى

التقهقر، وجعل يدفع عن نفسه الضربات التي

يسدّدها له خصمه المقتدر الذي لم يمتّع له فرصة

يستريح فيها أو يعاود الهجوم، وتبدّى الخنق على وجه

الرجل وصرّ بنواجهه بغضب جنونيّ، فارتمى على

خصمه يائساً. ولكنّ الشابّ تصادى منه ووجّه إليه

ضربة رشيقة أصابت عنقه، فتخالّلت يده، وكفّ عن

القتال، وترنّج كالثلث ثم سقط على وجهه يتخبط في

دمه. فصرخ الجنود صرخة غاضبة، وسلّوا سيوفهم

الطويلة وتحفّزوا للاتقصاص على الشابّ لدى أوّل

إشارة تصدر من الضابط الذي على رءوسهم. فأيقن

اسفينيس بالهلاك وأدرك عبث المقاومة ولاسيّما أنّ

كثيرين كانوا يسدّدون نحو قلبه قسيّهم، فلبث يترقّب

مذاق الموت مستسلماً وعيناه لا تفارقان القائد الطريح

أمامه. وفي تلك اللحظة المزعجة الراهنة سمع صوتاً

قريباً يصيح بغضب:

- أيّها الضابط مر جنودك أن يغمّدوا سيوفهم...

وتخيّل إليه أنّه يعرف الصوت فانخلع قلبه في

صدره، والتفت إلى مصدر الصوت فرأى سفينة

فرعونية تكاد تلتصق بسفينة الموت وعلى حائطها تتكئ

الأميرة أمّريدس، تلوح على وجهها الجميل أي

الغضب.

★ ★ ★

وأغمّد الجنود سيوفهم وأدّوا التحية، فحنى

اسفينيس هامته إجلالاً قبل أن يفيق من دهشته

ويصلّق حقاً أنّه نجا من الموت، وسألت الأميرة

الضابط قائلة:

- هل قتل القائد رخ؟

فاقترب الضابط من القائد ووضع يده على قلبه

وتفحّص عنقه، ثمّ وقف قائلاً:



هذا فلست تَمَن يأخذهم الرياء بتصنع الكذب والتواضع، فلقد علمت صباح اليوم أنَّ القائد أبحر بأسطول صغير ليتعرّض لقافلتك، فلحقت به في السفينة وشهدت جانباً من قتالكما، ثمّ تدخلت في الوقت المناسب لإنقاذ حياتك..

فوقع هذا المَن من قلبه موضع الماء من الصادي، ووجد في نظرة عينيه الناعستين وما أعلنت من رغبتها في إنقاذ حياته، ما جعله يبتشي بخمر السعادة، وسألها:

- هل أطمع في أن تصارحني مولاتي، بما أعهد فيها من كراهية للرياء والتصنع، بالسبب الذي جعلها تحبّ نفسها تعب إنقاذ حياتي؟..

فقال في استرسال وكأنها تسخر ممّا ظنّ أنّه أخرجها به:

- أن أجعلك تدين لي بحياتك..

- هو دين يسعدني ولا يفقرني..

فرفعت له عينيه الزرقاوين حتّى أحسّ أنّه على وشك أن يترنّح ويقع على قدميها، وقالت:

- يا لك من مراء كذوب.. أهدأ كلام يقوله مدين

لدائه وهو يوليه ظهره لسفرة لا رجعة منها؟..

- كلّاً يا مولاتي بل لسفرة لها معاد قريب..

فقال وكأنّها تحدّث نفسها:

- إني أسألك نفسي عمّا عسى أن يكون انتفاعي بهذا الدين؟..

ووجب قلبه، ونظر إلى زرقة عينيه فرأى نظرة استسلام وحنوّ أعذب من الحياة التي وهبته إيّاها، وأحسّ أنّ ما بينها من هواء ينتفض بحرارة عميقة يسحر يجذب إليه روحيهما ليلتقيا ويمتزجا، ففقد لَبّه وهوى على قدميها..

ثمّ سأله وقد هفت ذوابات من شعرها الذهبي على جبينها الأغرّ وأذنيها:

- هل تغيب طويلاً؟

فقال وهو يتنهد:

- شهراً يا مولاتي.

فلاحت في عينيه نظرة حزن وقالت:

- أرى جرحه شديد الخطر يا صاحبة السموّ، ولكن به نفس يتردّد.

فسألته ببرود:

- وهل كان القتال عادلاً؟

- نعم يا صاحبة السموّ.

فقالت الأميرة بغضب:

- كيف إذن سوّلت لكم نفوسكم الهَمّ بقتل رجل أعطاه الملك الأمان؟..

ولاح الارتباك في وجه الضابط ولم ينبس بكلمة، فقامت الأميرة بلهجة أمّرة:

- أطلقوا سراح هذا التاجر وعودوا بالقائد الجريح إلى أطباء القصر..

وأذعن الضابط لما أمر فترك اسفينيس حرّاً، فهبط الشاب إلى قاربه ووجهه إلى السفينة الفرعونية، وهو يقول لنفسه بارتياح: «كيف جاءت الأميرة في الوقت المناسب؟..». ثمّ صعد إلى سطحها فلم يمنعه أحد من الحراس، وصادف الأميرة قد عادت إلى مقصورتها فمضى إليها بقدمين ثابتتين، وطلب من جارية أن تستأذن له في الدخول.. فغابت في الداخل لحظة ثمّ جاءت بإذن، فدخل خافق القلب، ورأى الأميرة تجلس إلى متكأ وثير مسندة ظهرها في رخاوة إلى تمزّقة محشوة بالقزّ ووجهها يشعّ نوراً سيّئاً، فانحنى بين يديها في إجلال صادق، ورأى وهو يعتدل واقفاً عقده ذا القلب الزمرديّ حول عنقها، فتورّد وجهه. ولم يغيب عنها شيء ممّا ينطق به وجهه وعيناه، فقالت بصوت رخيم عذب وهي تشير بأصبعها إلى العقد:

- أجئت تسألني ثمن هذا العقد؟

فاطمأنّ الشاب إلى لهجتها العذبة، وسرّ بدعابتها وقال بإخلاص:

- بل جئت يا صاحبة السموّ لأشكر سموّك مخلصاً على ما أوليتني من نعمة الحياة، التي سأظلّ مديناً لك بها ما حييت..

فابتسمت ابتسامة مشرقة لاحت في ثغرها كومضة البرق، وقالت:

- نعم أنت مدين لي بحياتك. ولا تعجب إذ أقول

- أيتها الإخوان، دعوني أصارحكم بسر أخفيته عنكم لحكمة لن تخفى عليكم؛ ألا فاعلموا أننا رسولا أسرة مليكنا الشهيد سيكنشع إلكم، وأن مليككم كاموس ينتظر مقدمكم الآن في نباتا...  
فلاحت الدهشة في وجوه الرجال، وسأل البعض وهم لا يملكون أنفسهم من الفرح:  
- أحق أيتها السيد لاتو أن أسرتنا الفرعونية في نباتا؟  
فحنى رأسه بالإيجاب مبتسماً، فسأله آخرون:  
- هل توجد هناك أمنا المقدسة توتيشيري؟  
- نعم... وستبارككم في الغد القريب.  
- ومليكننا كاموس بن سيكنشع؟  
- نعم وسوف ترونه بأعينكم، وتسمعون إليه بأذانكم.  
- وولي العهد أمس؟..

فابتسم لاتو وأشار إلى اسفينيس، ثم حنى هامته قائلاً:  
- إلكم أيتها السادة ولي عهد المملكة المصرية،  
حضرة صاحب السمو الفرعوني الأمير أمس.  
وتصايح كثيرون:

- التاجر اسفينيس ولي عهد مصر الأمير أمس؟..  
أما أمس أبانا فقد سجد بين يدي الأمير وهو ييكى، فسجد الجميع وراءه، منهم من ييكى ومنهم من ييتف فيتصاعد الهتاف من أعماق قلبه..

واستأنفت القافلة رحلتها والفرح يشمل وحداتها جميعاً، يودّ رجالها لو تطير بهم طيراً إلى نباتا حيث ينتظرهم مليكهم المعبود كاموس وأمهم المقدسة توتيشيري... ومضت أيام وليالي، ثم لاحت في الأفق نباتا بأكوأخها الساذجة ومبانيها المتواضعة، وما زالت تقترب وتلدنو وتظهر معالمها حتى رست القافلة إلى مرقثها. وشعر بالقافلة بعض الجنود فقصدوا إلى قصر الحاكم، وتجمع حشد التوبيين على الشاطئ ليشاهدوا السفن والقادمين عليها. ونزل المصريون إلى الشاطئ يتقدمهم الأمير أمس والحاجب حور، ثم جاءت عربة مسرعة ونزل منها حاكم الجنوب رؤوم، فحنى الأمير والقادمين معه، وأبلغهم تحية الملك وأسرته، وأخبرهم

- ولكنك تزمع العودة.. أليس كذلك؟  
- نعم يا مولائي وحقّ حياتي التي هي لك... وحقّ هذه المقصورة المقدسة..  
فمدّت إليه يدها وقالت:  
- إلى الملتقى..  
فلثم يدها وقال:  
- إلى الملتقى..  
- إلى الملتقى..

★ ★ ★

واستقبله لاتو بذراعين مفتوحتين وعينين دامعتين وضّمّه إلى صدره، وتعلّق أحس بعنقه ولثم جبينه، ورفعت القافلة مراسيها وأطلقت لنفسها العنان، ووقفوا يودّعون سفينة الأميرة بأبصارهم وهي توغل في الشمال وهم يوغلون في الجنوب، حتى ارتدّت عنها الأبصار وهي كليلّة.  
وعادوا إلى المقصورة وأخذوا مجالسهم وكان شيئاً لم يقع.  
وجعل اسفينيس يعلّل نفسه بمشاهدة القرى ورجالها الأشداء ذوي الأجسام النحاسية، ولكن قلبه كان يتزع به إلى المقصورة، هل يداخل لاتو شك؟..  
إنّ لاتو رجل كريم شاخ قلبه وزهد كلّ شيء إلا حب مصر، وهو نفسه لا يخلو من هم يساوره ولا يدري الخطأ أم أصاب، ولكن من بني الإنسان يستطيع أن يبلغ هدفه كما قدر له من قبل دون حساب لما يجد من الأمور؟.. فلربّ قاصد إلى جبل يجد نفسه منحدراً في واد عميق، ولربّ مزعم صيد أراش له نبلاً يلقى الصيد منقضّاً عليه ومطارده.

- ١٥ -

واجتازت القافلة حدود مصر في سلام، فصلّى رجالها للربّ آمون صلاة جامعة حارة، وشكروا ربهم على ما هيّا لهم من سبل النجاة، ودعوه أن يلني إليهم آمالهم ويحفظ نساءهم من كلّ سوء. وصعدت القافلة في النهر أياماً وليالي حتى رست عند جزيرة صغيرة للراحة والاستجمام، فدعا لاتو الرجال إلى النزول إلى أرض الجزيرة، ووقف بينهم واسفينيس إلى يمينه ثم قال لهم:

وأتى بكم، فمرحباً بكم جنود مصر وجنود كاموس، وسيأتي غداً آخرون؛ فلنستوص بالصبر ولنعد إلى العمل؛ وليكن شعارنا الكفاح، وأملنا مصر، وإيماننا آمون..

فصاحوا جميعاً كرجل واحد: «الكفاح ومصر وآمون..»

ثم قامت توتيشيري واقفة وتقدمت خطوات متوكة على صولجائها، ثم قالت للرجال بصوت قوي سليم النبرات:

- يا أبناء طيبة المجيدة الحزينة، تقبلوا تحيات أمكم الكبيرة، ودعوني أقدم لكم هدية صنعتها بيدي لكم لنعمل جميعاً تحت ظلها.

وأشارت إلى أحد الجنود بصولجائها، فاقترب من الرجال وقدم إليهم علماً كبيراً عليه صورة معبد آمون يحيط به سور طيبة ذو الأبواب المائة، فتلقفته الأيدي بحماسة، ودعوا لأهمهم دعاءً حاراً وهتفوا لها ولطيبة المجيدة، فابتسمت توتيشيري وأضاء وجهها نور بهيج، وقالت:

- يا أبنائي الأعزاء، أصارحكم بأنني لم أستسلم إلى اليأس أبداً، وقد أوصانا سيكتنزع يوم الوداع بأن نحذر اليأس. وما زلت أدعو الرب أن يمد في أعلي حتى أرى طيبة مرة أخرى ترفرف على قصرها أعلامنا، ويجلس على عرشها كاموس فرعون مصر العليا والسفلى، وقد أصبحت اليوم أدنى إلى أملي بعد أن ضمت إلي سواعدكم الفتية.

فتعالى هتاف القوم مرة أخرى، وجعل الملك يسأل عن رجالات مصر وكاهن آمون ومعبد الرب، والحاجب يبيحه بما عرف، ثم قدم الأمير أحسن إلى أبيه أحسن أبانا ابن القائد يبي، فرحب به الملك وقال له:

- أرجو أن تكون لي كما كان أبوك لأبي قائداً باسلاً، فعاش لواجهه ومات في سبيله..

ثم دعا الملك القادمين إلى وليمة غداء، فأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً، ثم مضوا جميعاً يفكرون في الغد القريب والغد البعيد، ويات نباتاً لأول مرة منذ عشرة أعوام فرحة مستبشرة يعمر قلبها الأمل..

أن جلالته ينتظرهم في القصر. وهتف الرجال للملك طويلاً، ثم ساروا في جموع غفيرة وراء أميرهم يتبعهم جمع غفير من النوبيين..

وكانت الأسرة الفرعونية تجلس تحت مظلة كبيرة في فناء قصر الحاكم، وقد غيّرت تلك السنوات العشر منها ما غيّرت، فترك الجدّ والصرامة والحزن في نفوسهم جميعاً آثاراً لا تمحى أبد الدهر، وكان أكبرهم تأثراً بالدهر، الملكتان توتيشيري وأحوتي، فجفّ عود الأم المقدسة ومالت قامتها إلى الانحناء قليلاً، وحفرت الآلام في جبينها الوضاء تجعداتا، ولم يبق من توتيشيري القديمة سوى يريق عينيها ونظراتها الدالة على الحكمة والصبر، وأما أحوتي فقد جلل رأسها المشيب، وارتسمت على وجهها الحسن مسحة حزن ووجرم.

ولما رأى الشعب مليكه، سجد له، ثم تقدم أحسن من أبيه وقبل يد والدته الملكة ستكىموس وجدته أحوتي وتوتيشيري، وقبل جبين زوجته الأميرة نيفرتاري، ثم وجه خطابه إلى الملك قائلاً:

- مولاي لقد تعهد آمون عملنا بالنجاح، فإلى جلالتك أقدم أول كتاب جيش الخلاص..

فلاح السرور في وجه الملك، وقام واقفاً ورفع الصولجان تحية لقومه، فهتفوا له طويلاً، ثم أقبلوا عليه يقبلون يده رجلاً رجلاً، ثم قال لهم كاموس:

- حيّاكم الرب أيها الطيبون الشجعان الذين فرق البغي بيننا وبينهم، ففضى عليهم أن يساموا الحسف، كما قضى علينا أن ندوق مرارة الغربة عشرة أعوام كاملة. ولكن أراكم رجالاً تابون الضيم وتؤثرون مشقة الاغتراب وتعب الكفاح عن الرضى بالسلامة في ظلّ الذلّ، كما عهدتكم دائماً وكما عهدكم أبي من قبل، فنجسم نصيرون جناحي بعد أن تمزّق أو كاد، وتنبئون قلبي وقد أروعته جفاء الدهر، وكان من رحمة الرب آمون أن جاء أطهرنا قلباً وأعظمنا أملاً الأم توتيشيري في المنام، وأمرها أن تبعث بابني أحسن إلى أرض الآباء والأجداد ليأتي بالجنود الذين يخلصون مصر من عدوها ومذلها، فبعثت بابني كما أمر الرب

## كفاح أحسن

- ١ -

نواة الفرق المختلفة ويختار الصالحين للأسطول، يعاونه وليّ العهد أحسن، وأبت الملكات الثلاث والأميرة الصغيرة إلا أن يعملن مع العاملين، فكنّ يثقن السهام ويرشنها، أو يشتغلن بحياكة الثياب الحريرية، وكنّ لا يفتأن يختطن بالجنود والصنّاع ويؤاكلهم ويشاربنهم ليشجّعهم ويشتتن قلوبهم. وما كان أروع منظر الأمّ توتيشيري وهي مكبة على عملها بهمة لا تعرف الملل، أو سائرة بين الجنود تشاهد تدريبهم وتلقي عليهم كلمات الحساسة والرجاء، وكان الرجال يرونها فينسبون أنفسهم ويتفضضون حماسة وإقبالاً، فتبسم المرأة استبشاراً، وتقول لمن حولها:

- إنّ السفن والعجلات تنقلب مقابر لمن عليها إذا لم تدفعها قلوب أشدّ صلابة من حديدتها... انظروا إلى رجال طيبة كيف يعملون؟ سوف ينقضّ الواحد منهم على عشرة من الرعاة ذوي اللحي القذرة والبشرة البيضاء، فيطير أفئدتهم... والحقّ قد انقلب الرجال بقوة الحساسة والحبّ والبغضاء وحوشاً ضواري..

وانصرف الحاجب حور إلى إعداد القافلة الثانية، فضاعف لها السفن، وملأها بالذهب والفضّة والأقزام وغريب الحيوان، وارثات الأمّ توتيشيري أن يحمل معه جماعات من النوبيين المخلصين ليهديهم إلى سادة طيبة ليكونوا عبيداً في الظاهر وأعواناً في الباطن، يطعنون العدو من الخلف إذا اشتغل يوماً باشتباك معهم، وقد راقت الفكرة الملك كما راقت الحاجب حور، وعمل على تحقيقها بغير تردّد..

وانتهى حور من الإعداد لقافلته واستأذن في السفن، وكان الأمير أحسن ينتظر تلك الساعة بقلب

لم تكن حياة الأسرة الفرعونية في المهجر حياة دعة وخمول، ولكنها كانت حياة عمل وإعداد للمستقبل البعيد، ومدارها جميعاً قلب توتيشيري الذي لا يعرف اليأس أو الراحة. فطلبت منذ بدء قدومها إلى رؤوم حاكم الجنوب أن يدعو إلى نباتا مهرة الصنّاع النوبيين والفنّين المصريين المقيمين بالنوبة، فبعث الرجل برسله إلى أرقو وأطلال وغيرهما من بلاد النوبة، وجاءوه بالصنّاع والعمّال. وأوجبت الملكة الكبيرة على ابنها أن يعهد إليهم بصنع السلاح والخوذات والثياب الحريرية، وبناء السفن وعجلات القتال، وقالت له تشجّعه: «ستعمد يوماً إلى الهجوم على العدو الذي اغتصب عرشك وامتلك بلادك، فينبغي إذا جاء هذا اليوم أن تهجم بأسطول كبير، وقوة عجلات لا تقهر كما فعل العدو مع أبيك».

وتحوّلت نباتا في أثناء السنوات العشر إلى مصنع كبير لصناعة السفن والعجلات والآلات الحريرية بأنواعها جميعاً، ونمت ثمارها على مرّ الأيام فكانت دعائم الأمل الجديد. ولما جاء الرجال مع القافلة الأولى، وجدوا ما يحتاجون إليه من السلاح والعتاد راهناً موفوراً، فأقبلوا على التدريب بقلوب تملؤها الحساسة والأمل الصادق، فانخرطوا جميعاً غداة وصوبهم إلى نباتا في سلك الجنديّة، وتدربوا على فنون القتال واستعمال الأسلحة المتنوعة تحت إشراف ضباط الحامية المصرية، فلم تأخذهم في التدريب هوادة، فكانوا يعملون من مطلع الفجر حتّى غروب الشمس. كانوا يعملون جميعاً لا فرق بين كبير وصغير، فكان الملك كاموس يشرف بنفسه على تدريب الجند وتكوين

انقطاع، فإذا نسّمت عليهم ريح طيبة وهزّم الشوق إلى من خلّفوهم وراء أسوارها، تنهّدوا حينًا ثمّ انكبوا على ما بين أيديهم بهمة أعظم وعزيمة أشدّ، ومرّت بهم الأيام لا يصدّقون أنّ في الدنيا شيئًا غير العمل، أو أنّ في الغد شيئًا سوى الأمل... ثمّ عادت القافلة برجال جدد يهتفون كما هتفوا يوم مجيئهم ويصيحون متلهّفين مثلهم: أين ملكنا كاموس، وأين أمّنا توتيشيري، وأين أميرنا أحس؟... ثمّ ينضمّون إلى المعسكر يعملون ويتدرّبون.

وجاء الحاجب حور الأمير أحسّ وحيّاه، ثمّ مدّ له يده برسالة وقال:

- عهد إليّ أن أحلّ إلى سموّك هذه الرسالة..

فسأله أحسّ وهو يتناولها دهشًا:

- من مرسلها؟

ولكنّ حور لازم الصمت في وجوم، فخطر للأمير خاطر فحفق قلبه، وفصّ الرسالة وقرأ الإمضاء فارتعدت مفاصله واشتدّ وجيب قلبه، وجرت عيناه على الأسطر فإذا هي ما يأتي:

أيّها التاجر اسفينيس:

يجزني أن أخبرك بأنّي اخترت قرمًا من أقزامك ليعيش معي في جناحي الخاصّ، وأتيّ عنيت به وأطعمته ألذّ الطعام وكسوته أجمل الكساء وعاملته أحسن المعاملة، حتّى أنس بي وأنست به، ثمّ افقدته يومًا فلم أجده فأمرت الجوّاري أن يبحثن عنه فوجدته قد هرب إلى أخويه في الحديقة، فألّمني غدره وصدّدت عنه، فهل لك أن تبعث إليّ بقزم جديد يعرف الوفاء؟..

أمريديس

وأحسّ أحسّ لدى انتهائه من قراءة الرسالة طعنة نجلاء تصيب قلبه، وأنّ الأرض تيمدّ تحت قدميه، ولاحت منه نظرة إلى حور فرأه ينعم النظر كأنّه يحاول أن يعرف الرسالة بمطالعة وجهه.

فتحوّل عنه وسار في سبيله محزونًا كسير الفؤاد، يقول لنفسه هيهات أن تدري بما يمنعه من العودة

أضناه الشوق وعناه الجوى، فاستأذن في الرحيل على رأس القافلة، ولكنّ الملك وقد علم بما وقع له من الأحداث وما تعرّض له من الأخطار، أبى أن يجازف بسفره مرّة أخرى بغير داعٍ، فقال له:

- أيّها الأمير، إنّ واجبك الآن يدعوك إلى البقاء في نباتا..

نبغت الأمير بقول أبيه الذي ألقي على الأمل المضطرم في صدره كما يلقي الماء البارد على الجمرة المستعرة، وقال له برجاء صادق:

- إنّ رؤية مصر والاختلاط بأهلها شفاء من أدواء ابتلى بها قلبي..

فقال الملك:

- ستجد الشفاء التامّ يوم تدخلها غازيًا على رأس جيش الخلاص...

فعاود الشابّ الرجاء قائلاً:

- أبي، طالما علّلت نفسي برؤية طيبة قريبًا.

فقال الملك بحزم:

- لن يطول انتظارنا، فاصبر حتّى تأذن ساعة الكفاح.

وأدرك الشابّ من لهجة الملك أنّه قال كلمته الأخيرة، فاشفق من إغضابه إذا عاوده الرجاء، وحنى رأسه دلالة على التسليم والقبول وقد أحسّ الألم يقطع قلبه ويكتم أنفاسه، ولكنّه تماسك وتجلّد ومضى إلى المعسكر حيث يتدرّب الرجال والقلب حزين كئيب، وكان نهاره ينقضي في العمل الشاقّ فلم يظفر من يومه إلّا بساعة قصيرة قبيل النوم فينادي في خلوته حلّوا الذكريات، ويحوم بخياله حول المقصورة الجميلة في السفينة الفرعونية التي شاهدت ساعة الوداع أبدع الحسن والطف الهوى، فيخال أنّه يسمع الصوت الرخيم يتمتم قائلاً: «إلى الملتقى». ثمّ يتنهّد من أعماق قلبه ويقول أسيفًا محزونًا: أين الملتقى؟... إنّ الوداع الذي لا لقاء بعده.

على أنّ نباتا في تلك الأيام كانت حقيقة بأنّ تنسي الرجل نفسه وهمّه، وتقصره على الاشتغال بما هو أجلّ وأخطر، وكان الرجال يعملون جادّين يكافحون بغير

أعناق مصر جميعاً. ولكن شعاركم جميعاً أن نحيا حياة  
أمنمحييت أو تموتوا ميتة سيكنترع. وليبارككم الرب  
آمون وليثبت قلوبكم..

فقبل الرجال يدها النحيلة، وقال لها الملك كاموس  
وهو يودّعها:

- سيكون شعارنا جميعاً حياة أمنمحييت أو ميتة  
سيكنترع، وسيموت من يموت ممناً أشرف ميتة، ويحيا  
من يبقى ممناً أعزّ حياة.

وخرجت نباتا وعلى رأسها الأسرة الفرعونية والحاكم  
رؤوم تودّع الجيش اللجب. ودقّت الطبول وعزفت  
الموسيقى وتحرك الجيش متبّعاً نظامه التقليدي. فتقدّمت  
قوة الكشفافة تحمل الأعلام، وسار الملك كاموس في  
طليعة الجيش وسط هالة من الحاشية والحجاب والقواد  
يتبعها الحرس الفرعوني في عجلاته الأنيقة، ثم تقدّمت  
فرقة العجلات الجبارة تسير صفوفاً صفوفاً لا يحدها  
البصر، تبعث عجلاتها في الجوّ صلصلة تصمّ الأذان  
وتسهال جيادها كزفرقة الرياح، وتليها فرقة القسيّ  
الثقيلة بقسيّها ودروعها وجعبات السهام، تتأثرها فرقة  
الرماح المدزّية برماحها وتروسها، ثم فرقة الأسلحة  
الخفيفة، تتبعها عربات السلاح والمؤن والخيام تحرسها  
الفرسان. وأبحر كذلك الأسطول بسفنه الجبارة وقد  
تميّت الجنود عليه بكامل معدّاتهم من القسيّ والرماح  
والسيوف...

وتقدّمت هذه القوّات على أنغام الموسيقى تستعر  
الحاسة في قلوبها الفتية الغاضبة، ويلقي منظرها  
الراهب الرعب في الأفئدة والنفوس، تقطع النهار  
ضاربة في الأرض وتهجع إذا ما خيم الظلام لا تكلّ  
ولا يصيبها الإعياء، مستعينة على مشاقّ الطريق وطول  
الرحلة بعزائم تزحزح الجبال، فمروا في سبيلهم  
بسمنة ويون وأبسغليس وفتترس ونافس، وما زالوا  
يضرّبون في الأرض حتّى بلغوا دابسود آخر بلدان  
النوبة، ونسّمت على وجوههم ريح مصر الطيبة،  
فسكروا وأقاموا الخيام ليستريحوا من وعشاء السفر  
ويأخذوا أهميتهم للنضال..

ودبّر الملك ورجاله خطة الغزو الأولى فأحكموا

إليها، وهيئات أن يستطيع يوماً أن يثبها شجوه  
وعواطفه، وسترى فيه دائماً القزم فاقد الوفاء.

وانطوى على آلامه لا يحسّ ما يستعر في فؤاده سوى  
أقرب الأفئدة إليه: نيفرتاري، وقد تحيّرت من أمره  
وعجبت لما يكمن وراء ذعوله وشروده، ونظرة الحزن  
التي تلوح في عينيه الجميلتين كلّما أرسل النظر غير  
قاصد شيئاً.

فقال له ذات مساء:

- لست كمهدي بك يا أحس.

فاضطرب للملاحظتها، وداعب صفائرها بأنامله وقال  
مبتسماً:

- إنّه التعب يا حبيبي، ألا ترين ما نحن فيه من  
كفاح يهدّ الجبال الرواسي؟...  
فهزّت رأسها ولم تقل شيئاً، وغدا الشاب أشدّ  
حذرًا...

على أنّ نباتا لم تكن لتترك إنساناً يغرق في حزنه،  
لأنّ العمل قاهر الأحزان وقد شهدت من معجزاته ما  
لم تشهد من قبل ولا من بعد. فكانت تدرب الرجال،  
وتصنع السفن والعجلات والسلاح، وترسل القوافل  
عملة بالذهب فتعود عملة بالرجال، ثم تردّها فترتدّ  
إليها. ومضت الأيام والشهور الطوال إلى أن جاء اليوم  
السعيد المرتقب، فقصّد الملك كاموس إلى جدّته  
توتيشيري وهو لا يتمالك من الفرح، ولثم جبينها وقال  
بصوت متهلّج:

- أبشري يا أمّاه، لقد تمّ إعداد جيش  
الخلاص...

## - ٢ -

ودقّت طبول الرحيل فانتظم الجيش فرقاً ورفع  
الأسطول مراسيه، ودعت توتيشيري إليها الملك ووليّ  
العهد وكبار القواد والضباط وقالت لهم:

- هذا يوم من الأيام السعيدة التي طال انتظار  
لها، فأبلغوا جنودكم البواسل أنّ توتيشيري تضرع  
إليهم أن يفكّوا أسرها، ويحطّموا الأغلال التي تغلّ

حامية بيجة إلى التقهقر إلى قلب الجزيرة بعيداً من مرمى سهام الأسطول التي انهالت عليها من جميع الجهات.

وما هي إلا أن دخلت طلائع الجيش الحدود وانهالت على الجانب الشرقي، تتبعها الفرق ذات اللجب، فأدرك المحاصرون في بيجة أنَّ القادمين غزاة لا قراصنة كما توهموا أول الأمر. ثم أصدر قائد الأسطول كمكاف أمره بالهجوم على الجزيرة، فانقضت عليها السفن من جميع الجهات، وأنزلت الجنود المدججين بالسلاح تحت حماية القسي، وزحف الجنود من جميع النواحي نحو الحامية المحاصرة في الوسط، وكان جنودها - إلى وقوعهم في مركز دقيق - قد رأوا تدفق القوات المصرية في البر والنيل فخذلتهم سواعدهم وخانتهم شجاعته، وألقوا السلاح وسلموا أنفسهم وأخذوا أسرى. وكان أحس أبانا على رأس المهاجمين، فدخل قصر الحاكم دخول المتصر، ورفع عليه الأعلام المصرية، وأمر بالقبض على الموظفين الرعاة والأعيان أسوة بالجنود.

ورأى أهل الجزيرة من الفلاحين والعمال والخدم الجنود المصريين فلم يصدّقوا أعينهم، وهرعوا نساء ورجالاً إلى قصر الحاكم الجديد وتجمّعوا أمامه ليروا ما الخبر، تصطرع في نفوسهم الآمال والمخاوف، فخرج إليهم أحس أبانا، وقد تطلّعوا إليه صامتين، فقال لهم:

- حيّاكم الربّ آمون حامي المصريين وقاهر الرعاة. فوقعت كلمة آمون من أذانهم موقعاً جيلاً ساحراً، وقد حرموا سماعها عشرة أعوام، وأضاء وجوههم الابتهاج فتساءل بعضهم:

- هل أتيتم حقاً لإنقاذنا؟

فقال أحس أبانا بصوت مهتج:

- لقد جئنا لإنقاذكم وإنقاذ مصر المستعبدة فأبشروا، ألا ترون هذه القوات المائلة؟ إنها جيش الخلاص، جيش مولانا الملك كاموس ابن مليكنا الشهيد سيكتنر، الذي جاء لتحرير شعبه واستعادة عرشه.

التدبير. وعهد إلى أحس أبانا - وكان أمهر رجال الأسطول كافة - بقيادة جزء من الأسطول ليسير به إلى حدود مصر، باعتباره قافلة تمّا ألف الحراس اجتيازها للحدود في العهد الأخير. وعند فجر اليوم الرابع لوصول الجيش إلى دابود أبحر الأسطول الصغير فبلغ الحدود المصرية عند إسفار الصباح. وكان أحس أبانا يقف على ظهر السفينة في ثياب التجار الفضفاضة، فأبرز جواز الدخول للحراس ودخل بأسطوله في سلام، وكان الضابط يعلم أنَّ حرس الحدود مكوّن من سفن قلائل وحامية صغيرة، فكانت خطته ترمي إلى مفاجأة السفن الآمنة والاستيلاء عليها، ثم ضرب الحصار حول جزيرة بيجة حتّى يدخل الجيش والأسطول أرض مصر، فيسهل عليه ضرب سين ولما تأخذ أهبتها. وتقدّمت القافلة في خطّ أفقيّ، فلما دنت من شاطئ بيجة الجنوبيّ حيث ترسو سفن الرعاة ظهر الجنود على سطحها وبأيديهم القسيّ، وخلع أحس عباءة التجار فبدا في ثياب الضباط، وأمر بإطلاق السهام على حرس السفن، واقترب الأسطول من السفن الراسية بسرعة، وانقضّ عليها قبل أن يأتيتها مدد من البرّ، وألقى عليها شباكه وقفز الجنود إلى سطحها ليستولوا عليها، فاشتبكوا مع من وجد فيها من الحراس القليلين، في معركة صغيرة فأبادوهم في زمن يسير. وفي أثناء هذه الحركة كانت سفينة أحس تطلق سهامها على حرس الشاطئ وتمنع الجنود من معاونة زملائهم في السفن، فتمّ الاستيلاء على السفن بسرعة دون أن يكلف المهاجمين ثمناً غالياً، وضرب الأسطول الحصار حول الجزيرة ليمنع الاتصال بالمدن الشبالية، وتنبّط حامية بيجة إلى الحركة الحافظة فجرت إلى الشاطئ، ولكنّها وجدت نفسها حبيسة محصورة، وأنّ أسطولها الصغير أسير. . .

ولم يمض إلا قليل وقت على انتهاء المعركة حتّى بدت وحدات الأسطول المصريّ في الأفق تمخر عباب الماء متّجهة صوب الحدود. ثمّ اجتازتها دون أن تجد مقاومة، وانضمّت إلى أسطول أحس أبانا، فصارت الجزيرة وسط دائرة من السفن الضخمة، تمّا اضطّر

الظلماء والنجوم ساهرة يقظى تراقبه بأعين لامة، والغضب يتأجج في الصدور فتتلهى على الانتقام والقتال. واقربوا من سين وقد اختلطت ظلمة آخر الليل بنور الصباح الأزرق الخجول، وشف الأفق الشرقي عن طلائع الشمس، وأصدر كاموس أمره إلى قوّات العجلات بأن تزحف على المدينة من الجنوب والشرق تؤيدها قوّات من فرقتي القسي والرماح، وأمر أسطوله بضرب الحصار على الساحل الغربي للمدينة، وهجمت القوّات على المدينة من ثلاث جهات في وقت واحد، وكان يقود العجلات ضباط قدماء يعرفون المدينة ومواقعها، فوجهوا العجلات نحو الثكنات ومراكز الشرطة. تبعها قوّات المشاة شاكية السلاح فأوقعوا بالعدو مذبحه سالت فيها الدماء أنهاراً. واستطاع الرعاة أن يقاتلوا في بعض المواقع فدافعوا عن أنفسهم دفاع اليائس، وتساقطوا كأوراق الخريف اليابسة هبت عليها ريح عاصفة. أما الأسطول فلم يلقى مقاومة ولم يلتق في طريقه بسفن حربية فاستولى على الشاطئ وأنزل قوّات من جنوده فهجموا على القصور المشرفة على النيل وقبضوا على أصحابها، وكان بينهم حاكم المدينة وقضاها وكبار الأعيان، ثم اخترقت القوّات الحقول صوب المدينة. . .

وكانت المفاجأة عاملاً فاصلاً في المعركة قصر مذبته وكثر صرعاها من الرعاة، فما ارتفعت الشمس في الأفق وأرسلت نورها إلى المدينة حتى رثت جموع الغزاة وهي تحتل الثكنات والقصور وتسوق الأسرى، وشوهدت الجثث ملقاة في السبل وأفنية الثكنات وقد سالت دماؤها، وذاع في أرجاء المدينة والحقول القريبة أنّ كاموس ابن سيكتنر اقتحم سين بجيش جرار واستولى عليها، فاستعرت على الأثر ثورة دموية، وهاجم الأهليون بيوت الرعاة وقتلوه في مخادعهم، ومثلوا بهم وضربهم بالسياط ضرباً مبرحاً، فهم كثيرون على وجوههم فزعين كما فعل المصريون حين زحف أبوفيس على الجنوب بعجلاته ورجاله. . . ثم هدأت النفوس وقبض الجيش على ناصية الحال ودخل الملك كاموس على رأس جيشه تحقّق على رأسه الأعلام

فطلق القوم باسم كاموس كالذاهلين، ثم غمرهم الفرح والخلاصة فهتفوا له طويلاً، وجثا كثيرون يصلّون للربّ آمون المعبود، وسأل بعض الرجال أحسن أبانا قائلين:

- هل انتهت عبوديتنا حقاً؟ وهل نردّ اليوم أحراراً كما كنّا من قبل سنوات عشر؟.. هل مضى زمن السوط والعصا وتعبيرنا بأننا فلاحون؟.. فاهتاج أحسن أبانا غضباً وقال بحق:

- لنفوا أنّ عهد الظلم والعبودية والسوط قد مضى إلى غير رجعة، وأنكم ستعيشون منذ الساعة سادة أحراراً في كنف ملكنا كاموس فرعون مصر الشرعي، وستردّ إليكم أرضكم وبيوتكم ويلقى بمن اغتصبوها هذا الدهر في غيابات السجون.

فشمل الفرح النفوس المعبّدة، وانتظمتهم صلاة جامعة تصاعد فيها الدعاء إلى آمون في السماء، وكاموس في الأرض. . .

### - ٣ -

وفي رونق الضحى نزل الملك كاموس ووليّ عهده أحسن والحاجب حور وأفراد الحاشية جميعاً إلى أرض الجزيرة فاستقبله الأهليون استقبلاً حماسياً، وخرّوا سجداً يقبلون الأرض بين يديه، وتعالى هتافهم لذكر سيكتنر ولتوتيشيري وللملك وللأمير أحسن، فحيّاهم كاموس بيديه، وتحدّث إلى جمع غفير من رجالهم ونسائهم وأطفالهم، وأكل ما قدّمه له من الدوم والفاكهة، وشرب وحاشيته وقواده أقداً مترعة بنيذ مربوط، ذهبوا جميعاً إلى قصر الحاكم، وأصدر الملك أمره بتعيين أحد رجاله المخلصين المدعو سمار حاكماً على الجزيرة وعهد إليه في نشر العدالة وتطبيق القوانين المصرية. وفي ذلك الاجتماع أجمع القوّاد على وجوب مفاجأة سين عند الفجر، لتضرب الضربة القاضية قبل أن تفيق من ذهولها. .

ونام الجيش مبكراً واستيقظ قبيل الفجر. ثم زحف نحو الشبال ومعه الأسطول يسد منافذ النيل، فشقّ



- لا أظنّ يا مولاي أنّ قوّة أمبوس تعدو بضعة آلاف . . .

فقال الملك كاموس:

- إئتوني بكلّ ضابط أو جنديّ من أمبوس . . .

وفطن الحاجب حور إلى ما يريد الملك فقال:

- عقوّا يا مولاي، لقد تغيّر وجه أمبوس في عشرة الأعوام المنقضية، فأنشئت بها ثكنات لم تكن من قبل، رأيتها بعينيّ في بعض رحلاتي التجارية، ومن المرجّح أنّ الرعاة جعلوا منها مركزاً للدفاع عن البلاد المتاخمة للحدود . . .

فقال القائد محب:

- على أيّ حال يا مولاي أرى أن نهجم بقوّات خفيفة، حتّى لا نتكبّد خسارة فادحة . . .

ولم يستحسن الأمير أحسن هذا الرأي، فقال لأبيه: - مولاي أرى خلاف هذا الرأي، أرى أن نهجم بقوّات كثيفة لا تقاوم، وأن نقذف جملّ قوّاتنا في المعركة لنضرب العدوّ الضربة القاضية في أقصر وقت، فنذهل القوّات التي تحشد في طيبة الآن لقتالنا، ونقاتل من الغد رجالاً يرون الموت مثلاً في قتالنا. ولا خوف علينا من المخاطرة بجنودنا، فسيضعف جيشنا بما ينضمّ إليه من المتطوّعين في كلّ بلد نغزوه، ولن يجد عدوّنا لخسارته عوضاً . .

وراق هذا الرأي الملك فقال:

- إنّ رجالي يجودون بأنفسهم عن طيب خاطر في سبيل طيبة . . .

وكان الملك يعلم بما لانتصار الأسطول من أثر حاسم في كسب الموقعة، للدور الخطير الذي يلعبه في ضرب الحصار على شواطئ المدن الغنيّة أو إنزال جنود في مؤخّرة العدوّ، فأصدر أمره إلى القائد قمكاف بالهجوم على سفن الرعاة الراسية غرب أمبوس . . .

وغدا الجيشان لا يفصل بينهما سوى ميدان فسيح، وكان الرعاة رجال حرب وجلاد، ذوي بأس ومقدرة، وكانوا يستهينون بالمصريّين استهانة متأصّلة، فبدعاهم بالهجوم وهم يجهلون قوّتهم، وأرسلوا عليهم فرقة العجلات المكوّنة من مائة عجلة حربيّة. وأصدر

المصريّة وتسير بين يديه قوّات الحرس بموسيقاها، فهبّ الأهليون يستقبلونه، وكان يوماً مجيداً . . .

ونقل الضباط للملك أنّ عدداً غفيراً من الشبان - ومنهم من كانوا جنوداً في الجيش القديم - يقبلون على التطوّع في الجيش بحماسة فائقة، فسّر كاموس وولّى على المدينة أحد رجاله المدعوّ شاو، وأمره بأن ينظّم المتطوّعين ويديّرهم لينضمّوا إلى الجيش جنوداً متابعين، وأحصى القوّد للملك ما غنموه من العجلات والجياد، فإذا هو شيء عظيم.

واقترح الحاجب حور على الملك أن يتقدّموا دون توائٍ حتّى لا يدعوا للعدوّ مهلة للتأهب وحشد الجيوش، وقال:

- سنخوض أوّل معركة حقيقيّة في أمبوس . .

فقال كاموس:

- نعم يا حور، ولا يبعد أن يكون قد طرق أبواب أمبوس الآن عشرات الفارزين، فلا مجال للمفاجأة بعد الآن، وسنلقى عدوّنا مستعدّاً، وربّما استطاع أبوفيس أن يلقانا بقوّاته الغاشمة في هيراكونبوليس . . فهيا إلى المسير . .

وزحفت القوّات المصريّة - البريّة والنيليّة - صوب الشمال في طريق أمبوس، ودخلت في قرى كثيرة فلم تلق مقاومة البتّة، ولم تعثر برجل واحد من الرعاة، وعلم الملك أنّ رجال العدوّ يعملون متاعهم ويسوقون حيوانهم فارزين إلى أمبوس، وخرج الفلاحون يستقبلون جيش الخلاص ويحيّون مليكهم المظفر ويدعون له من قلوب أنعشها الفرح والأمل. وجدّ الجيش في المسير حتّى شارف أمبوس، وهناك جاءت طلّات الكشافة تقرّر أنّ العدوّ معسكر جنوب المدينة متأهباً للقتال، وأنّ أسطولاً متوسط العدد يرسو غرب أمبوس، فعلم كاموس أنّ أوّل معركة مهمّة باتت على الأبواب. ورغب الملك في أن يعرف عدد جنود عدوّه، ولكن تعذّر ذلك على جنود الكشف لأنّ العدوّ كان يعسكر في سهل منبسط لا تسهل مراقبته، فقال قائد شابّ يدعى محب:

انبجست الدماء منها فحُصِّبَ جلدها الأبيض ومزقتها  
السهام والرماح، ثم قال:

- لا تظنّوا هذه الدماء دماء أعدائنا، بل هي دماء  
قومنا التي امتصّوها وتركوهم يتصوّرون جوعًا.

وامتقع وجه كاموس واكتسى بلون قاتم من الحزن،  
فرفع رأسه إلى السماء وتمتم قائلًا:

- لتنعم روحك يا أبت بالسلام والغبطة..

ثم نظر إلى من حوله وقال بصوت دلّت نبراته على  
القوّة والبأس:

- ستمتحن قوتنا في معركتين شديديتين في طيبة  
وهواريس، فإذا آرزنا النصر فيها طهرنا الوطن من  
الرعاة إلى الأبد، ورددنا مصر إلى عهد أمنمحيث  
المجيد، فمضى نقف موقفنا هذا على جثث المدافعين عن  
هواريس؟..

وتحوّل الملك ليرجع إلى عجلته، وفي تلك اللحظة  
انتصبت جثة من بين الجثث واقفة بسرعة البرق  
وسدّت قوسًا نحو الملك وأطلقت... ولم يكن في  
الوسع منع القضاء ولا ضرب القاتل قبل أن يطلق،  
فأصاب السهم صدر الملك، وقد صرخ الرجال  
صرخة الفزع وأطلقوا السهام على الهكسوسيّ، وهرعوا  
إلى الملك بأفئدة يملؤها الرعب والإشفاق، وصعدت  
من صدر كاموس آمة عميقة، ثم ترنّج كالثلج وسقط  
بين يدي وليّ عهده، وصاح الأمير:

- أحضروا هودجًا وادعوا الطبيب.

ومال برأسه على أبيه وقال بصوت متهلّج:

- أبتاه.. أبتاه ألا تستطيع أن تكلمنا..

وجاء الطبيب على عجل ومعه الهودج، فحملوا  
الملك وأناموه عليه في عناية فائقة. وركع الطبيب إلى  
جانبه، ومضى يخلع درع الملك وسترته ليكشف عن  
صدره، وأحاطت الخاشية بالهودج في سكون، يردّدون  
أعينهم بين وجه الملك الشاحب وبدي الطبيب. وذاع  
الخبر في الميدان ففشّت الضوضاء، ثم ساد صمت  
ثقيل كأنما لحق الفناء بذاك الجيش العرمرم..

نزح الطبيب السهم وكان الدم يتدفّق من الجرح  
'بغزارة، فتقلّص وجه الملك من الألم، فاظلمت عينا

كاموس أمره بالهجوم، فاندفعت قوّات من العجلات  
تزيد على ثلاثمائة، وأطبقت على قوّة العدو فتار النقع  
وصهلت الخيل وعزفت القسيّ. ودار قتال عنيف،  
وعزم الأمير أحسن على أن يقضي على العدو القضاء  
المبرم فاندفع بمائتي عجلة جديدة على قوّات المشاة التي  
تنتظر نتيجة معركة العجلات أمام أبواب أمبوس،  
وتبعته قوّات من فرقة القسيّ وأخرى من حلة الرماح.  
وانقضّت العجلات على المشاة فاخترقت صفوفهم  
وألقت فيها الاضطراب والفزع، وانهالت عليهم  
بالسهم كالطر فشتّت شملهم بين جريح وقتيل  
وهارب فتلقّتهم قوّة المشاة المهاجمة في كثرة لا تقاوم  
وقضت عليهم القضاء الأخير. وذهل العدو الذي لم  
يكن يتوقّع أن يلاقي قوّات بهذا العدد، وانهارت قوّاته  
سريعًا، وتساقط فرسانه وحطمت عجلاته. وسيطر  
المصريّون على الميدان في زمن يسير لا يصلّق، بعد أن  
قاتلوا بغضب وحقن، وضربوا بسواعد يشدّ أعصابها  
حقد مؤرث ومخيمة مستعرة..

وافتحمت قوّات مسلّحة أبواب أمبوس ودخلتها  
عنوة لتحتلّ الثكنات وتطهرها من بقايا جنود العدو،  
ومضى الضباط في الميدان ينظّمون فرقهم ومحملون  
الجرحى والقتلى. ووقف الملك كاموس في وسط الميدان  
على عجلته يحيط به القوّاد وإلى يمينه الأمير أحسن وإلى  
يساره الحاجب حور، وكانت الأنباء جاءت به بأن أسطوله  
كّر على سفن العدو وهجم عليها بشدّة، وأنها تهقرت  
أمامه دون انتظام... فسّر الملك وقال لمن حوله  
مبتسمًا:

- بدء موفق..

فقال الأمير أحسن، وكان معقّر الثياب مغرّب الوجه  
متصبّب الجبين عرقًا:

- إنّي أتوق لحوض معارك أشدّ هولًا..

فقال كاموس وهو يلقي على وجهه الجميل نظرة  
إعجاب:

- لن يطول انتظارك..

ثم نزل الملك عن عجلته وتبعه رجاله، وسار خطى  
حتى صار وسط جثث الرعاة، وألقى عليها نظرة وقد

وفي سبيل مصر كما استشهد أبوه من قبل، وانتقل إلى جوار أوزوريس منتزعاً من صميم نفوسنا، بعد أن أوصانا بالآ نكف عن الكفاح حتى تسقط هواريس ويجلو العدو عن ديارنا. وإني بوصفي حاجب هذه الأسرة الكريمة أعزيكم في مصابنا الجلل، وأذنكم بتولية مليكنا الجديد وقائدنا المجيد أحسن بن كاموس بن سيكنرع حفظه الرب وأيده بالنصر المين..

فحباً القواد جنة كاموس وانحنوا لأحسن الملك الجديد، وأذن لهم الحاجب بالعودة إلى جنودهم لإعلان الوفاة والتولية..

وأمر حور الجنود أن يرفعوا المودج الملكي على الأعتاق وقد غلبه الحزن، فقال وهو يحقف عينيه: - لتنعم نفسك العالية بالغبطة والسلام في جوار أوزوريس، كنت على وشك أن تدخل أمبوس على رأس جيشك المظفر، ولكن قضى الرب أن تدخلها محمولاً على نعشك، وإلك لأكرمنا على الحالين...

ودخل الجيش أمبوس في نظامه التقليدي يتقدمه نعش الملك كاموس. وكان الخبر الفاجع قد شمل المدينة كلها، فجرعت لثة النصر ولوعة الحزن في شربة واحدة. وجاءت الجموع الغفيرة من كل مكان تستقبل جيش الخلاص وتودع مليكها الراحل بقلوب تحيرت بين الفرح والحزن. ولما رأى الناس الملك الجديد أحسن سجدوا في سكون وخشوع، ولم يتعال في ذلك اليوم هتاف قط.. وتسلم كهنة أمبوس الجثان العظيم، وخلأ أحسن إلى نفسه فكتب رسالة إلى توتيشيري كما أوصاه أبوه، وبعث بها مع رسول..

وجاءت رسل الاستطلاع بأخبار مازة ومؤسفة عن الأسطول، قالوا: إن الأسطول المصري هزم أسطول الرعاة وأسر بعض وحداته، ولكن القائد كمكاف سقط قتيلاً، وإن الضابط أحسن أدار دقة المعركة بعد سقوط القائد، وحاز النصر النهائي، وقتل قائد الرعاة بيده في معركة عنيفة. وأراد الملك أن يكافئ أحسن أبانا، فأصدر أمره بتوليته قيادة الأسطول..

واتبع سياسة أبيه الحكيمة فولى صديقه هام حكم

الأمير أحسن من الحزن، وتمتم حور قائلاً: - رباه.. إن الملك يتألم..

وغسل الرجل الجرح ووضع عليه الحشائش، ولكن الملك لم يبد عليه أي تحسن، وارتعشت أطرافه بصورة جليلة، ثم تنهد تنهد عميقة، وفتح عينيه فلاحته فيها نظرة قائمة لا تدل على الحياة، فازداد صدر أحسن انقباضاً، وقال لنفسه شاكياً: ولشد ما تغيرت يا والدي.. وحرك الملك عينيه حتى استقرتا على وجه أحسن، فلاحته فيها ابتسامة، وقال بصوت ضعيف لا يكاد يسمع:

- ظننت قبل حين آني بالغ هواريس، ولكن الرب يريد أن تنتهي رحلي على أبواب أمبوس..

فصاح أحسن بصوته الحزين:

- فدتك نفسي يا أبتاه..

فقال الملك بصوته الضعيف:

- كلاً صن نفسك فما أكبر الحاجة إليها.. وكن أشد حذراً مني، واذكر دائماً أنه لا يجوز أن تكف عن الكفاح حتى تسقط هواريس حصن الرعاة الأخير، ويجلو القوم عن ديارنا جميعاً..

وخشي الطبيب على الملك من الجهد الذي يبذله في الكلام وأشار عليه بالسكوت، ولكن الملك كان يندمج في إحساس علوي هو الفاصل بين الفناء والخلود، فقال بصوت تغيرت نبراته وبدا غريب الوقع: - قل لتوتيشيري إني لحقت بأبي بأسلاً مثله.

ومد يده لابنه، فجثا الأمير على ركبتيه وضمها إلى صدره، وقبض الملك على منكبه حيثما يودعه، ثم تراخت أصابعه وأسلم الروح..

#### - ٤ -

وسجى الطبيب الجثة، وسجد الرجال حولها وصلوا صلاة الوداع؛ ثم قاموا وكأثم من الحزن سكارى، واستدعى الحاجب حور قواد الفرق وكبار الضباط، فلما مثلوا بين يديه خاطبهم قائلاً:

- أيها الرفاق، يؤسفني وحق الرب أن أنعي إليكم مليكنا الباسل كاموس، فقد استشهد في ميدان الكفاح

- ألسنا سائرين الآن إلى هيراكونبوليس؟  
فقال الحاجب:

- بلى يا مولاي، وهي مركز الدفاع الأمامي عن طيبة نفسها، وستنشب في واديهَا أول معركة شديدة بين قوتين متعادلتين.

وحين الضحى جاءت أنباء كشفية بأن الأسطول المصري اشتبك مع أسطول للرعاة يظنّ لضخامته وكثرة وحداته أنه الأسطول الكامل للعدوّ، وأنّ المعركة تدور بقوة وعنف. فعطف الملك رأسه نحو الغرب وبدا على وجهه الجميل الرجاء والأمل، وقال حور:  
- إنّ الرعاة يا مولاي حديثو عهد بحرب الأساطيل...

فصمت الملك ولم يجب، ومضت الشمس ترتفع إلى كبد السماء والجيش يتقدّم بفرقة ومعذاته، فاستسلم أحسن للتأمل والتفكير، وتمثّلت له أسرته وهي تتلقّى نبأ مقتل كاموس، وكيف تفزع أمّه ستكيموس وتنفجع جدّه أحويتي وتثنّ الأمّ الصابرة توتيشيري وتبكي زوجه نيفرتاري التي أصبحت ملكة مصر... ربّاه... لقد سقط كاموس غدرًا وخسر جيشه بسالته ودرايته وأورثه تركة مثقلة بجلال الراجبات. ثمّ سرى خياله إلى الامام، إلى طيبة حيث يملك أبوفيس ويعاني الشعب ألوان العذاب والذلّ، وذكر خنزير الحاكم المائل الباسل الذي لن تهدأ نفسه حتّى ينتقم لجلده الشهيد منه ويرديه قتيلاً، ثمّ لاحت لحاظه الأميرة أميريدس وذكر المقصورة التي أصلاهما الهوى فيها نازًا مقدّسة، وتساءل: أما تزال تتعلّق بالتاجر الجميل اسفينيس وتأمل أن يبرّها بوعده؟

وهنا سعل حور فذكره بأنّه لا ينبغي له أن يتشوّق إلى أميريدس وهو على رأس الجيش الزاحف لتطهير مصر من قومها، فأراد أن يطرد الفكر: فألقى ببصره على جيشه العرمم الذي ينطبق الأفق على الأرض دون مؤخرته، فسرى عنه وعاد إلى التفكير في المعركة الدائرة في النيل... وعند منتصف النهار جاءت رسل الاستطلاع يقولون: إنّ الأسطولين مشتبكان في قتال عنيف، وإنّ القتلى تسقط بكثرة من الجانبين، وإنّ

أمبوس، وعهد إليه بتنظيمها وتجنيد القادرين من أهلها، وقال الملك لحور:

- ستقدّم بقوّاتنا سريعًا، لأنّه إذا كان الرعاة يمدّبون قومنا في وقت السلام فلأنّهم سيضاعفون لهم العذاب في وقت الحرب، فينبغي أن نقصّر عهد العذاب ما وسعنا الجهد...

واستدعى الملك الحاكم هام، وقال له أمام حاشيته وقوّاده:

- اعلم أنّي آليت على نفسي منذ اليوم الذي سمعت فيه إلى أرض مصر في ثياب التجار أن أجعل مصر للمصريّين؛ فليكن هذا شعارك في حكم هذا البلد؛ وليكن رائك أن تطهّره من البيض، فلن يحكم بعد اليوم إلّا مصريّ، ولن يملك إلّا مصريّ، والأرض أرض فرعون والفلاحون نوابه في استثمارها، لهم ما يكفيهم ويكفل لهم حياة رغدة، وله ما يفيض عن حاجتهم ينفقه في الصالح العام، والمصريّون متساوون أمام القانون، لا يرفع الأخ منهم إلّا فضله، ولا عبد في هذا البلد إلّا الرعاة... وأوصيك أخيرًا بجثة أبي فأدّ إليها واجبها المقدّس...

## - ٥ -

وغادر الجيش أمبوس عند الفجر، وأبحر الأسطول، ومضت الطلائع تدخل القرى، فتستقبل فيها أحرّ استقبال وأجمله حتّى شارفوا أبولتوبوليس مجنا، فتأهّبوا لخوض معركة جديدة. ولكنّ الطلائع لم تلق آية مقاومة ودخلت المدينة بسلام. وكانت وحدات الأسطول تنحدر مع مياه النيل في ريح مؤاتية فلا تجد أثرًا لسفن العدوّ. فأشار حور الحذر بطبعه على الملك أن يرسل بعض قوّاته الكشفية إلى الحقول الشرقية خشية أن يقعوا في كمين. وبات الجيش والأسطول في أبولتوبوليس مجنا، وفارقاها مع الفجر، وكان الملك وحرسه يسرون في مقدّمة الجيش وراء القوّات الاستطلاعية، وإلى يمين الملك عجلة الحاجب حور يحيط بها رجال الحاشية الخبراء بطبيعة البلاد، وسأل الملك حور:

تنظيمها، وأنّ القتال مستمرّ على أشده. فساور القلق الشاب وأشفق من ضياع أسطوله العظيم، ولم يجد مهلة للتفكير إذ أخبر أنّ جيش العدو بدأ هجومه. فحيا حور والحاشية وتقدّم بحرسه وأمر فرقة العجلات بالهجوم؛ فهجم الجيش في قلب وجناحين اندفعوا صفوفًا مترابطة في سرعة وجلبة زلزلت الأرض زلزالًا. وما لبثوا أن رؤوا جيش الرعاة يتقدّم منقضًا كالريح العاصفة في جموع كثيفة من العجلات، فعلموا أنّ عدوهم يلقاهم بقوّاته الوحشية التي طالما سامتهم الخسف، فثار الغضب في نفوسهم وصاحوا بصوت كهزيم الرعد: «حياة أمنمحيث أو مية سيكنرع». وألقوا بأنفسهم في المعركة بقلوب تتعطش إلى القتال والانتقام، فقاتل الفريقان بقوّة وقسوة ووحشية. وخضبت الأرض بالدماء. واختلط صياح الجنود بصهيل الخيل وعزيف القسي. واستمرّ القتال قاسيًا عنيقًا حتّى مالت الشمس نحو الأفق وذابت في بحيرة من دماء. وحلّقت في الفضاء أشباح الظلام، فكفّ الجيشان ورجع كلّ إلى معسكره، وكان أحس يسير وسط دائرة من حرسه الذي دافع عنه في أثناء كرهه وفرّه، واستقبله رجاله وعلى رأسهم حور فقال لهم:

- كان قتالًا عنيقًا كلّفنا أبطالاً بواسل...

ثمّ تساءل الملك:

- ألم تحدّ أخبار عن معركة النيل؟

فقال الحاجب:

- ما يزال الأسطولان يعتركان...

- أما من جديد عن أسطولنا؟

فقال حور:

- قاتل في أثناء النهار وهو يرتدّ، ثمّ التحمت أكثرية السفن مع وحدات العدو بالسلام فلم تستطع انفصالاً حين خيم الظلام، والقتال ما يزال مستمرًا وإنّا لفي انتظار ما يجدّ من الأخبار.

فنهجم وجه الملك التعب، وقال لمن حوله:

- لندعُ الربّ جميعًا أن ينصر إخواننا الذين يقاتلون على متن النيل...

القوّتين ما تزالان متعادلتين بحيث يستحيل التكهّن بنتيجة المعركة. فلاح العيوس في وجه الملك ولم يخفّ قلبه، فقال حور:

- لا داعي للقلق يا مولاي فأسطول الرعاة قوّة لا يستهان بها، وأسطولنا يخوض الآن المعركة الفاصلة في النيل.

فقال أحس:

- إذا خسرتها خسرنا نصف الحرب.

فقال حور بيقين:

- وإذا كسبناها يا مولاي كما أتوقّع كسبنا الحرب كلّها.

وأمرى الجيش على مسير بضع ساعات من هيراكونبوليس فوجب التوقّف للراحة والاستعداد، على أنّه ما كاد يمكث وقتًا قصيرًا حتّى جاءت الأخبار بأنّ الطلائع تقاتل قوّات متفرقة من جيش العدو، فقال أحس:

- إنّ الرعاة مستريحون، ولا شكّ أنّهم يرحّبون بالاشتباك معنا الآن.

وأمر الملك بإرسال قوّة من العجلات لتؤيّد قوّات الاستطلاع إذا هاجمتها قوّات تفوقها عددًا، واستدعى قوّاده وأمرهم بالاستعداد لخوض المعركة في أيّ وقت كان...

وكان أحس يحسّ التبعة الخطيرة التي يتحمّلها بقيادته الجيش لأوّل مرّة في حياته، وشعر بأنّه حامي هذا الجيش العظيم والمسئول عن مصير مصر إلى الأبد، فقال لحور:

- ينبغي أن نوجّه قوّتنا لتحطيم عجلات الرعاة.

فقال الحاجب:

- هذا ما سيحاوله كلا الجيشين. وإذا حطّمنا عجلات العدو وسيطرنّا على الميدان، أصبح جيشه تحت رحمة قسّينا...

وفي تلك الساعة وأحس يتأهب لخوض غمار المعركة، جاء رسول من ناحية النيل وأخبر الملك أنّ الأسطول المصريّ تلقّى ضربات شديدة، فرأى أحس أبانا أن يتقهقر بوحداته الأساسية ليعيد

## - ٦ -

وقاتل قتال الأبطال البواسل وحرصه يردّ عنه هجمات العدو، فلم يلق فارساً من القوم إلّا جندله في غمضة عين، حتّى هابوا نزاله ويشسوا من التغلب عليه. وطال أمد القتال، واندفعت إلى الميدان قوّات جديدة من الجانبين، فاستمرّ القتال على عنفه وشدّته حتّى أوشك النهار أن يزول. وفي تلك الساعة وقد نهكت قوى الطرفين انقضّت قوّة من عجلات الرعاة على جناح المصريين الأيسر بقيادة رجل شديد البأس، وضغطته ضغطاً شديداً لم تغد معه المقاومة المنهكة القوى، ومضت تصنع لنفسها ثغرة تندفع منها لتطويق القوّة المحاربة أو للهجوم على المشاة؛ فأدرك أحس أن ذاك القائد ذا البأس تحيّن في تعبهم فرصة مناسبة، وأنّه أدخر قوّته ليضرب ضربة قاضية. وخشي أن يظفر الرجل بغرضه فيوقع الاضطراب في صفوف جيشه المترامصة، أو يوقع مذبحه في مشاته؛ فرأى أن يقتحم قلب العدو بقوّته ليضيق عليه، فيجد القائد الداهية نفسه شبه محاصر. ولم يتردّد لأنّ الموقف كان خطيراً دقيقاً، فأمر جنوده بالهجوم وهجم على القلب بحركة فجائية قويّة، واشتدّ القتال إلى درجة مروّعة مفزعة، واضطرّ العدو أن يتقهقر تحت الضغط الشديد. وحينذاك أرسل أحس قوّة من العجلات لتطويق القوّة التي تشتدّ على جناحه الأيسر، ولكنّ القائد كان داهية بارعاً؛ فعذّل خطّته بعد أن كاد يحدث الثغرة المطلوبة ورمى بقوّة صغيرة من عجلاته تهجم على العدو، وتقهقر هو وبقيّة القوّة بسرعة إلى جيشه. وفي أثناء هذه العمليّة الدقيقة استطاع أحس أن يرى القائد الجسور وأن يعرف فيه خنزير حاكم الجنوب الجبّار ببنائه المتين وعضلاته الفولاذيّة، وقد كلّفت هجمته الجبّارة المصريين صرعى كثيرين من زهرة فرسان العجلات. وانتهى القتال بعد ذلك بقليل فعاد الملك وجيشه إلى معسكرهم، وكان أحس يقول متوجّداً غاضباً: «لا بدّ أن نلتقي يا خنزير وجهاً لوجه...» واستقبله رجاله بالدعاء. ووجد بينهم شخصاً جديداً هو أحس أبانا، فتفاهل من وجوده في المعسكر وسأله: - ماذا وراءك أيّها القائد؟

واستيقظ الجيش مع طلوع الفجر وأخذ في الاستعداد والتأهب، وجاءت العيون بأنباء مهمّة فقالوا: إنّ الحركة لم تسكن طوال الليل في معسكر العدو. وقرّر بعض من جازفوا بالتوغّل في الحقول المحيطة بميدان القتال أنّ قوّات جديدة من الرجال والعجلات جعلت تتدفّق على هيراكونبوليس طوال الليل وأنّ تدفّقها إلى ما قبيل طلوع الفجر. وتفكّر حور ملياً ثمّ قال:

- إنّ العدو يا مولاي يجمع لنا جلّ قوّاته هنا ليلقانا بجيشه كاملاً، ولا أعجب لذلك لأننا إذا اقتحمنا أبواب هيراكونبوليس فلن يعوق تقدّمنا سوى أسوار طيبة المجيدة... .

وجاءت أخبار سارة من جانب النيل، فعلم الملك أنّ أسطوله قاتل قتال المستيش فلم يتمكّن منه عدوّه كما انتهى، وأنّه على العكس طرد جنوده من كثير من سفنه بعد أن وطّتها أقدامهم فاضطرّ أسطول الرعاة أن يفصل عنه وقد خسر ثلث قوّته. وكفّ الأسطولان عن القتال ساعات ثمّ اشتبكا في عراك جديد بعيد مطلع الفجر، وكان أسطول أحس أبانا البادئ بالهجوم، فانشرح صدر الملك وتوسّب للقتال بقلب جذل... .

وحيث سفور الصبح تقدّم الجيشان للقتال، وبرزت صفوف العجلات وصاح المصريون صيحتهم المعروفة: حياة أمنمحيث أو مية سيكنرع. ثمّ قلدوا بأنفسهم في معترك الموت لا يلوون على شيء، فالتقوا بالعدوّ في صدمات قاتلة واشتدوا عليه كما اشتدّ عليهم، وقاتلوا بالقسيّ والرماح والسيوف. ولاحظ الملك أحس بالرغم من اشتداد القتال أنّ قلب جيش العدو يدير المعركة بمهارة فائقة ويرسل القوّات هنا وهناك بانتظام ودقّة، فعابن القائد البارع فإذا به غير حاكم هيراكونبوليس، وإذا به الملك أبوفيس نفسه الذي أهدى إليه التاج المرصّع بالجواهر في قصر طيبة بجسمه البدين ولحيته الطويلة وبصره الحادّ فتحفّز أحس لهجمات شديدة،

يديّ فرصة أواجه بها قاتل سيكتنزع، فدعني أقاتله حتى أقتله لأوفي دينًا في عني نحو روح كريم يراقبني من العالم الغربي: ولتنزل لعنة الربّ بالمرتدّين الخائرين...

وأرسل الملك ضابطًا ليعرض على خصمه رغبته، فتوسّط الرجل الميدان وصاح:

- أيها العدو، إنّ فرعون مصر يرغب في مبارزة القائد خنزر لتسوية حساب قديم.

فبرز له رجل من كتيبة خنزر:

- قل لمن تدعوه فرعون: إنّ القائد لا يحرم عدوًا شرف الموت بسيفه...

فامتطى أحسن صهوة جواد كريم، ووضع السيف في حاملته والرمح في قرابه، ونخسه فعدا به إلى الميدان. ورأى عدوه ينطلق نحوه على جواد أشهب تيّاهًا فخورًا يبدو جسمه كأنه كتلة جبّارة من الجرانيت، فتدانيا رويدًا رويدًا حتى كاد رأسا جواديهما أن يتماسا، وعاین كلّ منهما خصمه فلم يتمالك خنزر أن بدت على وجهه الدهشة وصاح بغرابة:

- ربّاه.. من أرى أمامي... أليس اسفينيس تاجر الأقزام واللائي؟ يا لها من دعابة، أين تجارئك أيّها التاجر اسفينيس؟

وكان أحسن ينظر إليه في هدوء وسكينة فقال له:  
- انتهى اسفينيس أيّها القائد خنزر، وليس لي من تجارة الآن سوى هذا...

وأشار إلى سيفه. فملك خنزر عواطفه وسأله:

- فمن تكون إذًا؟

فقال أحسن ببساطة وهدوء:

- أحسن فرعون مصر.

فضحك خنزر ضحكة عالية دوّت في الميدان، وقال ساخرًا:

- ومن الذي ولّاك مصر وهذا ملكها يحمل التاج المزدوج الذي أهديته إليه ساجدًا؟...

فقال أحسن:

- ولّاني الذي ولّى آبائي وأجدادي من قبل، فاعلم أيّها القائد أنّ الذي سيقاثلك هو حفيد سيكتنزع...

فقال أحسن أبانا:

- النصر يا مولاي، لقد أوقعنا بأسطول الرعاة الهزيمة وأسرنا أربع سفن كبيرة من وحداته وأغرقنا نصفه، وفزّت سفن لا تغني ولا تعين.

فتهلّل وجه الملك، ووضع يده على منكب القائد وقال:

- لقد كسبت لمصر بهذا النصر نصف الحرب، وإنّني بك جدّ فخور.

فتورّد وجه أحسن أبانا وقال بسرور:

- ما من شكّ يا مولاي في أنّنا دفعنا ثمن النصر غاليًا، ولكن أصبحت لنا السيادة المطلقة على النيل.

فقال الملك بلهجة رزينة:

- كبّدنا العدو خسارة كبيرة أخشى ألا نجد عوضًا منها، والفوز في هذه الحرب لمن يقضي على فرسان عدوه.

وسكت الملك هنيهة ثم استدرك:

- إنّ حكامنا في الجنوب يدربون الجند ويبنون السفن والعجلات ولكنّ تدريب فرسان العجلات يتطلّب زمنًا طويلًا، فلن ينفعنا في المعركة التي نخوض غمارها إلّا استبسالنا حتى لا تواجه مشاتنا عجلات العدو مرّة أخرى...

## - ٧ -

استيقظ الجيش مرّة أخرى عند مطلع الفجر وأخذ في التأهب والاستعداد، وارتدى الملك لباسه الحربيّ واستقبل في خيمته رجاله وقال لهم:

- لقد صحّ عزمي على مبارزة خنزر...

فارتاع حور لهذا القول وقال برجاء عظيم:

- مولاي، ينبغي ألاّ تشلّ ضربة طائشة عملنا المجيد.

وتوسّل كلّ قائد إلى الملك أن يأذن له في قتال حاكم الجنوب، ولكنّ أحسن شكرهم وقال لحور:

- لن يشلّ عملنا خطب وإنّ جلّ، ولن يعوقه

مصرعي إذا صرعت، فلا يفتقر جيشي إلى القوّاد ولا تعوز بلادي الرجال، وما كان لي أن أصيغ من بين

فبدا الجذّ على وجه الحاكم وقال بهدوء:

- سيكتنزع... إني أذكر ذلك الرجل الذي قضى سوء حظّه يوماً أن يرغم على منازلتي، وإني أكاد أدرك كلّ شيء فاعذرني على بطء فهمي. فإننا معشر الهكسوس أبطال ميدان لا نحسن المكر ولا نعرف غير لغة السيف، أمّا أنتم معشر مدّعي الملك من المصريين فتتخفّون طويلاً في ثياب التجار قبل أن تؤايبكم شجاعتكم على ارتداء لباس الملوك... فليكن ما تريد، ولكن هل ترغب في مبارزتي يا اسفينيس؟

فقال أحس بحنة:

- فلترتد من الثياب ما نشاء فهي ثيابنا، أمّا أنتم فما تعلّمتم ارتداء الثياب حتّى آوتكم مصر. ولا تدّعي اسفينيس ما دمت تعرف أنّي أحس بن كاموس بن سيكتنزع، أسرة عريقة في النبل والقدم انحدرت من صلب طيبة المجيدة، فلم تعرف التشرّد في الصحارى ولا رعي القطعان، وإني لأرغب حقّاً في مبارزتك وإنّه لشرف تكتسبه كي أؤدّي ديناً في عنقي نحو أجلّ إنسان عرفته طيبة...

فصاح خنزور قائلاً:

- أرى الغرور يعميك عن معرفة قدر نفسك، فظننت أنّ انتصارك على القائد رخ مسوّغاً للوقوف أمامي... فوارحتك لك أيّها الشابّ الغرير... ماذا تختار أن يكون سلاحك؟

فقال أحس وقد ارتسعت على فمه ابتسامة ساخرة:

- السيف إذا شئت...

فقال خنزور وهو يهزّ منكبيه العريضين:

- هو أعزّ الأصدقاء.

ونزل خنزور عن ظهر جواده وأسلم قياده إلى تابعه، ثمّ سلّ سيفه وأمسك بترسه، ففعل أحس مثله ووقف صامتين يفصل بينهما مقدار ذراعين، ثمّ تساءل أحس:

- هل نبدأ؟

فقال خنزور ضاحكاً:

- ما أجمل هذه المواقف التي تتكاشف فيها الحياة والموت، هلّم يا فتى...

فتوتّب الملك وهاجم خصمه الضخم بشجاعة ووجّه إليه ضربة شديدة تلقّاها الحاكم على ترسه. ثمّ ردّ عليه الهجوم وهو يتكلّم قائلاً:

- يا لها من ضربة صادقة يا اسفينيس، وما أظنّ إلا أنّ رنين سيفك على ترسي ينشد لحن الموت... مرحى... مرحى أنّ صدري يرحّب برُسل الموت، فطالما طمع الموت، وأنا العب بين غخابه، ثمّ يرتدّ عني خائباً وقد أدرك آخر الأمر أنّه إنّما حضر لغيري.

وكان الرجل يقاتل دون أن يكفّ عن الكلام كأنّه راقص ماهر يغني وهو يرقص، فادرك أحس أنّ خصمه عنيد شديد البأس، فولاذيّ العضلات، واسع الحيلة، خفيف الحركة، جبار في الكرّ والفرّ؛ فبدل كلّ ما لديه من قوّة ودراية، وتنفّاد من الضربات الموجهة إليه وهو يعلم أنّها ضربات قاتلة لا نجاة منها إذا أصابت هدفها. ولكنّه تلقى ضربة بترسه أحسن ثقلها، ورأى خصمه يبتسم في ثقة وطمأنينة فاهتاجه الغضب والحق ووجّه إليه ضربة هائلة تلقّاها الرجل بدوره على ترسه وكان يسيطر على أعصابه وإرادته، فسأل أحس:

- أين صنع هذا السيف المتين؟

فقال له أحس وقد غمّلك نفسه كذلك:

- في نباتا في أقصى الجنوب.

فقال الرّجل وهو يتفادى من ضربة شديدة وُجّهت إليه بمهارة فائقة:

- أمّا سيفي فقد صنع في متف بأيدي صنّاع مصريين... وما كان صانعه يعلم أنّه يقدر لي ما أقضي به على مليكه الذي تاجرّ وقاتل في سبيله:

فقال أحس:

- ما أسعده غداً إذا علم أنّه كان شؤماً على عدوّ بلاده...

وكان أحس يتحيّن الفرصة لهجوم عنيف، فما كاد يتمّ كلامه حتّى وجّه إلى خصمه الجبار ثلاث ضربات متوالية بسرعة خاطفة، فتحامها خنزور بدرعه وسيفه ولكنّه اضطرّ إلى أن يتقهقر خطوات، فقفر عليه الملك وهاجمه هجوماً قاسياً ووجّه الضربة تلو الضربة إلى



أبدًا أن يضيع صبر الأعوام وجهاد الأجيال في تخاذل ساعة واحدة...

ثم حمل وحملوا ودار القتال عنيفًا حتى مغيب الشمس.

وامتدَّ القتال على هذا النحو عشرة أيام كاملة.

## - ٨ -

وفي مساء اليوم العاشر من أيام القتال عاد الملك أحس من الميدان متعبًا منهوك القوى، فاجتمع بحاشيته وقواده، وكان سقوط خنزور قد ألحق بجيش الرعاة خسارة لا تموض، ولكن فرقة عجلاتهم لبثت تقاوم وتصد هجمات المصريين وتوقع بهم الخسائر الفادحة. فساور الملك القلق، وخشي أن تحطم فرقة العجلات الجبارة يومًا بعد يوم، وكان في ذاك المساء غاضبًا حزينًا لكثرة من سقط من فرسانه البواسل الذين يتصدون للموت بغير مبالاة، فقال وكأنه يحدث نفسه:

- هيراكوبوليس... هيراكوبوليس... ترى هل يقرن اسمك بانتصارنا أم بهزيمتنا؟

وكان المجتمعون لا يقلون عن الملك حزنًا أو غضبًا، ولكن راعهم ما يبدو على وجهه الجميل من التعب والانفعال، فقال الحاجب حور:

- مولاي... إن فرساننا يقاتلون فرقة عجلات الرعاة بكامل عددها وعددها فلا تهولنا خسائرننا، وغدا إذا ظهرنا على العدو وحطمتنا عجلاته فلن يكون لمشاته قبيل بنا، وسيلوذون بأسوار الحصون فرارًا من انقضاء عجلتنا عليهم.

فقال الملك:

- كانت غاييتي الكبرى أن أقضي على عجلات العدو مع الاحتفاظ بقوة عظيمة من عجلتنا لتسيطر على الميدان دائمًا، كما فعل الرعاة في هجومهم في طيبة. ولكني بت أخشى أن يقضي على قوتينا الراكبتين معًا، فتعرض لحرب طويلة الأمد لا تبقي على مدننا ولا نذر...

مقاتله. وأدرك خنزور خطر المصير، فكف عن مداعبة خصمه وأطبق فمه، وزال عنه الابتسام فقطب جبينه ودافع هجمات عدوه بقوة جبارة وبسالة هائلة، وأبدى من ضروب المهارة والشجاعة ما يفوق كل تصور. وأصاب ذباب سيفه خوذة أحس، فظن الرعاة أنه قضى على عدوهم العنيد فتعالى هتافهم حتى تساءل أحس هنيهة: «ترى هل أصبت؟» ولكنه لم يحس تخاذلًا ولا وهنًا، فاستجمع وضرب عدوه ضربة قوية عنيفة عرض لها ترسه فصكته بقسوة فتركه يسقط من يده متضعضًا وقد ارتج ساعده. وتعالى الهتاف من الجانبين بين فرح وغضب، وتوقف أحس عن القتال ونظر إلى خصمه مبتسمًا ابتسامة الظفر، وكان الآخر يشهر سيفه ويتأهب للقتال بغير ترس، فما كان من أحس إلا أن خلع ترسه ورمى به جانبًا، فبلدت الدهشة على وجه خنزور ونظر إليه نظرة غريبة وهو يقول:

- يا له من نبيل حقيق بأخلاق الملوك...

واستأنف القتال في سكون فتبادلا ضربتين شديديتين، ولكن ضربة أحس كانت أسرع إلى رقة خصمه الجبار فسرت فيه رجة هائلة، وتراخت يده عن مقبض سيفه ثم سقط على الأرض كأنه بنيان تهدم، ودنا الملك منه في خطى بطيئة، ونظر إلى وجهه بعين ملؤها الاحترام وقال له:

- يا لك من جبار باسل أيها الحاكم خنزور...

فقال الرجل وهو يصعد أنفاس الحياة الأخيرة:

- بالحق نطقت أيها الملك... ولن يعترض سبيلك من بعدي مقاتل.

وتناول أحس سيف خنزور ووضعه إلى جانب جسده، ثم امتطى جواده وعاد إلى معسكره، وكان يعلم أن الرعاة سيحاربون بحق ورجبة في الانتقام، فأقبل على فرسانه وصاح بهم:

- أيها الجنود، ردوا شعارنا الخالد: «حياة أمتنا أو ميتة سيكنزع». واذكروا أن مصيرنا إلى الأبد معلق بنتيجة هذه المعركة الدائرة، فلا تعرضوا

أما أحس أبانا فقال بحساسة الذي لا يعرف اليأس:

- حسبنا شعارنا الذي لَقَّنْتَهُ الأُم المقدسة توتيشيري: «حياة أمنمحيث أو ميتة سيكتنزع»، وأن فرساننا لا يغبون، وأن مشاتنا ليتحرّقون شوقاً إلى القتال، ولنذكر دائماً أن الرب الذي أرسلك إلى أرض مصر لم يرسلك عبثاً.

وأمن الرجال على قول القائد الشاب وابتنسم الملك ابتسامة مشرقة، ويات الجيش ليلته واستيقظ مع الفجر كعادته وتأهب للقتال. وعند سفور الصباح تقدّمت فرقة العجلات وفي قلبها الملك وحرسه، ونظر إلى الميدان فرأه خالياً فعجب غاية العجب، ثم أمعن في النظر فرأى على البعد أسوار هيراكونبوليس لا يعترض سبيله إليها رجل من الرعاة. ولم تطل الدهشة بالملك فجاءه بعض رجال الاستطلاع وقرّروا بين يديه أن جيش أبوفيس انسحب من الميدان بجموعه الجرزارة وترك هيراكونبوليس في الليل وجدّ في السير نحو الشمال، ولم يتمالك القائد محب أن قال:

- الآن حصحص الحق... وما من شك في أن قوة عجلات الرعاة تحطّمت، وأن أبوفيس أثر أن يقرّ إلى حصونه على أن يواجه فرساننا بمشاته... وقال القائد ديب فرحاً:

- مولاي.. لقد كسبنا موقعة هيراكونبوليس الماثلة...

وكان الملك أحس يتساءل: ترى هل انكشفت الغمة؟.. ترى هل حقاً زالت المخاوف؟ ثم التفت إلى ديب وقال:

- بل قل إننا حطّمنا عجلات الرعاة وكفى...

وسرت الأخبار إلى الجيش فشاع الفرح في النفوس، وهرع رجال الحاشية يتقدّمهم حور إلى الملك وهنأوه بالنصر المين الذي فتح الرب به عليه. ودخل أحس مدينة هيراكونبوليس على رأس جيشه، وهرع معه الأهالي إليها من الحقول، فرّوا إليها خوفاً من انتقام الرعاة، واستقبلوا ملكهم استقبلاً حاراً وهتفوا لجيش الخلاص هتافاً يشقّ عنان السماء...

وطلب الملك أن يطّلع على الإحصاء الأخير للخسائر، وجاء ضابط به فإذا فرقة العجلات المصرية قد خسرت ثلثي قوّتها من العجلات والفرسان.

فامتقع أحس ونظر في وجوه رجاله، فإذا بالرجوم يعلوها جميعاً. ثم قال:

- لم يبق لدينا سوى ألفي فارس... فكيف تقدّرون خسائر العدو؟

فقال القائد ديب؟

- لا أتصوّر يا مولاي أنها تقلّ عن خسارتنا.. وأرجّح أنها تزيد عليها..

فحنى الملك رأسه ولبث يفكر ملياً، ثم نظر إلى رجاله وقال:

- سيعلم كلّ شيء غداً، فغداً يوم الفصل دون شك، ولعلّ عدوّنا يعاني من الحيرة والقلق ما نعانى وأكثر، وعلى كلّ حال لن يلوّنا أحد ولن نلوم أحداً، والرب يعلم أننا نقاتل بقلوب كارهة للحياة..

فقال ديب متسائلاً:

- إن أسطولنا لا يحارب الآن، فلماذا لا ينزل جنوداً وراء جيش العدو فيما بين هيراكونبوليس ونخب؟

فقال أحس أبانا:

- إن أسطولنا يسيطر الآن على النيل سيطرة كاملة، ولكنّا لا نستطيع أن نجازف بإنزال جنود وراء العدو إلّا إذا كان جيشه جميعاً مشتبكاً في القتال. والواقع أن القتال مقصود حتّى الآن على فرقتي العجلات، أما جيش العدو فإرض وراء الميدان مستريحاً يقظاً...

وسأل أحد كهنة أمبوس قائلاً:

- أليس لنا يا مولاي قوة احتياطية من الفرسان؟

فقال أحس:

- لقد جئنا مصر بستّة آلاف فارس هم ثمرة جهاد شاقّ وصبر طويل، فخسرنا منهم أربعة آلاف رجل في اثني عشر يوماً من أيام الجحيم...

فقال حور:

- مولاي... إن سين وأمبوس وأبولينيوليس مجنا تبني العجلات وتلدّب الفرسان بلا توان.

منطقة طيبة. وكان الوادي ينحدر نحو جنوبها انحدارًا فجائيًا شديدًا، فذهبت الطلائع إلى المدينة ولكنّها كانت كسابقاتها من المدن بغير حُرّاس، فدخلها الجيش في سلام. هزّ دخول هابو قلوب الجنود جميعًا لأنّها وطيبة كانتا كأعضاء الجسم الواحد، ولأنّ كثيرًا من جنود الجيش كانوا من بنينا البواسل، فتعانقت في ساحاتها القلوب والأنفس وهتفت الضائير بأناشيد الشوق والحنين. ثمّ تقدّم الجيش شمالًا بقلوب متحفّزة وأنفس متوتّبة، وهو يعلم أنّه مقبل على العمل الفاصل في تاريخه والمعركة الخطيرة التي تقرّر مصير طيبة. وانحدر في الوادي العظيم الذي يطلق عليه الطيبون «طريق آمون» وكان يتّسع كلّما أوغلوا فيه حتّى بدا لهم السور العظيم ذو الأبواب المتعدّدة يقطع الطريق عليهم ويمتدّ شرقًا وغربًا، تنطلق من خلفه المسلات وجدران المعابد والأبنية الشاهقة يتمثّل فيها جميعًا المجد والخلود وتطوف بها الذكريات العظيمة، فسرت منها إلى النفوس عاصفة من الحماسة والحنين زلزلت القلوب والضائير، فتصايحت جنبات الوادي هاتفة: «طيبة... طيبة...». وجرى اسمها على كلّ لسان ولهجت به الأفئدة المضطربة، وما زالوا يهتفون حتّى جرف الدمع كبرياءهم فبكوا وبكى حور الشيخ...

وعسكر الجيش العظيم، ووقف أحس في قلبه يرفرف على رأسه علم طيبة الذي حاكته توتيشيري بيديها، يرسل ناظره إلى المدينة وقد لاحت فيهما الأحلام ويقول:

- طيبة... طيبة... يا أرض المجد... ومثوى الآباء والأجداد، أبشري فغداً يطلع عليك صبح جديد...

- ١٠ -

واستدعى الملك القائد أحس أبانا وقال له:  
- سأكل إليك أيّها القائد ساحل طيبة الغربيّ فهاجه أو حاصره كما يترأى لك، مستلهبًا خططك من الملابس المحيطة بك.

وكان أوّل شيء فعله الملك أن صلّى للرّب آمون الذي مدّ له يد المعونة بعد أن كاد يشفي على اليأس...

- ٩ -

واستراح الجيش في هيراكونبوليس بضعة أيّام بعد قتال عنيف دام اثني عشر يومًا، وأشرف أحس بنفسه على تنظيم المدينة وإعادة مصرّيّها الأولى إلى حكومتها ومزارعها وأسواقها ومعابدها. وواسى الأهالي لما تعرّضوا له من ألوان الاضطهاد وما تعرّضت له مدينتهم في أثناء تقهقر الرعاة من النهب والسلب والتخريب.

ثمّ زحف الجيش نحو الشمال وأبحر معه الأسطول ودخل مدينة نخب في عصر اليوم نفسه دون مقاومة، وبات فيها حتّى فجر اليوم الثاني. ثمّ استأنف مسيره دون أن يلتقي بأيّة قوّات للعدوّ فاحتلّ القرى ورفع عليها الأعلام المصريّة. وشارف وادي لاتوبوليس بعد ثلاثة أيّام، وكان الملك ورجاله يظنّون أنّ العدوّ سيدافع عنها فأرسل أحس طلائع جيشه إليها وحاصر أحس أبانا شطّانها الغربيّة ولكنّ الطلائع دخلت المدينة دون مقاومة فدخلها الجيش آمنًا. وقصّ عليهم الأهالي كيف مرّ بهم جيش أبوفيس يحمل جرحاه، وكيف حمل أصحاب الدور والمزارع من الرعاة أثاثهم وأموالهم ولحقوا بجيش ملكهم في حالة شديدة من الفرع والفوضى...

وتقدّم الجيش بقوّاته المهروبة يدخل القرى والمدن دون أدنى مقاومة حتّى بلغ ترت، ثمّ بعدها هزمتيس، وكانوا يتوقون جميعًا إلى ملاقات عدوّهم ليشفوا غلّ صدورهم. ولكن كان السرور يتألّق في وجوههم كلّما رفعوا العلم على بلدة أو قرية وشعروا أنّهم حرّروا قطعة من الوطن الأثير. وكان خبر الهزيمة التي لحقت بفرقة عجلات الرعاة ينعش نفوس الجنود ويذكّي في قلوبهم الأمل والحماسة، فمضوا ينشدون الأغاني الحماسيّة، ويضربون في أرض الوادي بسيقاتهم النحاسيّة، حتّى طالعهم أسوار مدينة هابو المتوغّلة في

تهاب الموت فدفعوا ثمن جرأتهم غالياً. وانتهى النهار بمذبحة هائلة، وقد رَوَّع الملك بمنظر القتل والجرحى فصاح غاضباً:

- إن جنودي لا يبالون الموت، والموت يحصدهم حصداً.

فقال حور وهو يلقي على الميدان بصراً زائغاً:

- يا لها من معركة يا مولاي... أرى الجثث تملأ الميدان..

وكان القائد يحب متجهم الوجه معقر الثياب فقال:

- ألسنا نهاجم الموت سافراً؟

فقال أحس:

- لن أدفع بجيشي إلى الهلاك المحقق، ويحسن بي أن أرسل عدداً محدوداً من الرجال وراء القباب الواقية، حتى يملأ الموت على العدو منافذ سوره.

ولبت الملك مهتاج النفس، ولم يخف عنه ما حملته الرسل من أن الأسطول المصري استولى على بقية أسطول الرعاة وأصبح سيد النيل دون منازع... وفي ذاك المساء عاد الرسول الذي كان بعثه إلى أسرته في نباتا يحمل رسالة من توتيشيري، فبسط أحس الرسالة بين يديه وقرأ ما يأتي:

«من توتيشيري إلى حفيدي ومولاي فرعون مصر أحس ابن كاموس، من أدعو الرب الكريم أن يصون حياته الغالية، ويوفق رأيه للسداد، وقلبه للإيمان، ويده إلى مقتل عدوه... جاءني رسولك ينعي إلينا فقيدنا الباسل كاموس وبلغني كلمته الأخيرة الموجهة إلي، ويحسن بي - وأنت تقاتل عدونا - أن أضرب صفحاً عن ذكر ما تحقق به قلوبنا جميعاً، فقد قضى على قلبي أن يذوق الموت مرتين في حياة قصيرة واحدة؛ ولكن لا يعزّ العزاء على من يعيش في آتون معركة هائلة تبدل فيها النفوس رخيصة ويستبق الشجعان إلى الموت، ولا أكتمك - على ألي وحزني - أن رسولا يسعى إلي بموت كاموس ونصر جيشنا، أحب إلي من أن يبعثني كاموس نبأ الهزيمة... فيز في سبيلك تراك عناية الرب الرحيم، ويحفظك دعاء قلبي والقلوب الرقيقة المجتمعة حولي، يتنازعها الحزن والتصبّر

وأنشأ الرجال يفكرون في طريقة الهجوم على طيبة، فقال القائد محب:

- إن أسوار طيبة منيعة شديدة البأس تكلف المهاجمين أرواحاً غالية، ولكن ما من مهاجمة بد، فأبوابها الجنوبية هي السبل الوحيد إليها.

وقال القائد ديب:

- إن محاصرة المدن الحصينة وتجويعها أجدى على المهاجمين من مهاجمتها، ولكننا لا نستطيع أن نفكر لحظة واحدة في تجويع طيبة، فلم يبق لدينا سوى مهاجمة أسوارها. ونحن لا تعوزنا وسائل الهجوم على الأسوار من السلام والقباب الواقية؛ ولكنها ليست كافية كذلك، ونرجو أن تصلنا منها كميات وافرة. وعلى أية حال إذا كان ثمن طيبة غالياً فسنذله عن طيب خاطر.

فقال أحس:

- هذا هو الرأي، فينبغي ألا نضيع وقتنا لأن قومنا محصورون داخل أسوار المدينة، ويحتمل أن يتعرضوا للانتقام عدونا الوحشي.

وفي ذلك اليوم تقدّم الأسطول المصري نحو شاطئ طيبة الغربي والتقى أمامه بأسطول للرعاة جمعه من السفن الفارة من هيراكونبوليس فأطبق عليه واشتبك الأسطولان في معركة عنيفة، ولكن كان تغلب المصريين في عدد الرجال والسفن كبيراً، فضيقوا الخناق على عدوهم وأصلوه نازراً حامية.

وأرسل أحس طلائع من فرق القسي والرمح لاختبار القوات المدافعة، فأطلقوا قسيهم على نقط متباعدة من السور العظيم، فإذا بالرعاة قد ملأوا السور بالحراس الأشداء وبأسلحة لا تنفذ. وكان القواد المصريون ينظمون قواتهم، فلما صدر إليهم أمر الهجوم أرسلوا كتائب متتالية من رجالهم في أرجاء الوادي لتهاجم السور في نقط متباعدة، محتمية بدروعها الطويلة، فانالت عليهم سهام العدو كالسيل. وصوبوا قسيهم نحو منافذ السور المنيع، ودار القتال بلا رحمة، وكان العسكر لا يفتأ يرسل جماعات الجنود المتحفزين للقتال، وكانوا يقاتلون بجسارة لا

- ينبغي ألا نعطي العدو مهلة يستعيد فيها نظامه ويعيد بناء قوة جديدة من عجلاته.

ثم شدّ أحس على مقبض سيفه وقال:

- سأمر باستئاف الهجوم العنيف. وإذا لم يكن من بذل النفوس بدّ فلنقدّم أنفسنا كما ينبغي لرجال أقسموا أن يحرّروا مصر من نير عدوها الثقيل. وسأوجه رسلي إلى حكام الجنوب ليحثّوهم على صنع دروع الحصار والقباب الواقية...

وأصدر الملك أمره بالهجوم. وأشرف بنفسه على توزيع فرق القسي والرماح في الميدان الفسيح على هيئة قلب وجناحين، وجعل القائد محب على اليمين، والقائد ديب على اليسرة. ومضى المصريون يتقدّمون في موجات واسعة النطاق، لا تلحق الموجة بسابقتها حتى تكون هذه قد أخذت مكانها وطفقت تناجز العدو المحتمي بالسور المرهوب. فلما تقدّم النهار بالمقاتلة كان الميدان يزخر بالجنود الضاغطين سور طيبة، واستطاع المصريون أن يلحقوا بعدوهم خسارة فادحة كما خسروا عددًا كبيرًا من رجالهم؛ ولكنّ خسارتهم على أيّ حال كانت دون خسارة اليوم الأوّل ودار القتال على هذا بضعة أيام أخرى، وكثر عدد القتلى من الجانبين، واشتدّ ضغط جناح المصريين الأيمن للعدوّ حتى استطاع مرّة أن يسكت نقطة من نقط الدفاع المتعدّدة، وأن يهلك كلّ من يتصدّى لإطلاق السهام من منافذها. وانتهز بعض الضباط البواسل هذه الفرصة فهاجموا تلك الجهة بجنودهم، وأقاموا سلّم هجم وصعدوا عليه مع قوة بأسلة، وسهام إخوانهم تغشاهم كالسحاب. وقد انتبه الرعاة إلى الناحية المهذّدة فتكاثروا عليها وأصلوا المهاجمين نازًا حامية حتى أبادوهم، وسرّ الملك لهذا الهجوم الذي ضرب مثلاً رائعًا لجيشه، وقال لمن حوله:

- لأوّل مرّة من بدء الحصار يقتل نفر من جنودي على سور طيبة.

والحقّ كان لهذه الخطوة مغزى عظيم، فقد تكرّرت في اليوم الثاني، ثم وقعت في غداته في نقطتين من السور. ومضى يزيّد ضغط المصريين للعدوّ حتى بات

والرجاء، واعلم يا مولاي أنّنا نشدّ الرجال إلى بلدة دابور على مقربة من حدود بلادنا، لنكون أدنى إلى رسلك، والسلام».

قرأ أحس الكتاب فاستشفّ ما يكمن وراء سطوره من ألم ممض ورجاء حارّ، وتمثّلت له الوجوه التي ودّعها في نباتا؛ توتيشيري بوجهها الناحل المكلّل بالمشيب، وجدّته أحوثي بجلالها وحزنها وأمه ستكيموس بوداعتها، وزوجه نيفرتاري بعينيها الواسعتين وقدّها الرشيّق، وتمتم قائلاً: «ربّاه! إنّ توتيشيري تتلقّى طعنات الألم القاتل بالعزاء والأمل، ولا ينسيها حزنها أملنا المنشود فلاذكر دائماً حكمتها ولأتبعها بعقلي وقلبي»...

## - ١١ -

وقام الأسطول بواجبه بعد أن أسر أسطول الرعاة؛ ف ضرب الحصار حول شاطئ المدينة الغربي، وبثّ الرعب في أنفس أصحاب القصور المطلّة على النيل، وتبادل إطلاق السهام مع حصون الشاطئ. ولكنّه لم يحاول مهاجمة هذه الحصون لمناعتها ولا ارتفاعها بسبب انخفاض النيل في فصل الحصاد، فاكفّى بمناوشتها وضرب الحصار حولها. وكان أحس أبانا تنازعه نفسه إلى شاطئ البلد الجنوبيّ حيث يقيم الصيادون، ويحقق بحبّه قلب حنون، وظنّ أنّ هذا المكان قد يكون منفذه إلى طيبة. ولكنّ الرعاة كانوا أكبر حذرًا ممّا ظنّ فأخذوا الشاطئ من المصريين، وشغلوا مساحته الممتدّة بالحراس المدرّعين..

أمّا الملك أحس فقد عدل عن الهجوم بجياعات كثيفة، وقدّم للميدان نخبة من رجاله المدرّبين وراء الدروع الطويلة، فاستبقوا مع المدافعين عن السور العظيم في حرب قوامها الفنّ ودقّة التصويب، ولم يتوانوا عن إظهار مهارتهم التقليدية وكفاءتهم العالية. واستمرت الحرب على هذا النحو بضعة أيام دون أن تبشّر بأيّ نتيجة أو تنبئ بأيّة نهاية، فتملّمل الملك وقال:

- يا للوحشية الممجيّة.. إنّ الجناء يحتمون بأجساد النساء والأطفال...

وساد الصمت والوجوم حاشية الملك وقواده فلم ينبس أحدهم بكلمة. ووضح نور الصباح فأروا على البعد سور طيبة تحمية أجساد النساء والأطفال، فاقشعرت أبدانهم هولاً، واصفرت وجوههم غضباً، وارتعشت أطرافهم، وحامت أرواحهم حول الأسرى المعذبين وأهليهم البواسل الذين وقفوا في الميدان أمامهم مكتوفي الأيدي، يعانون العذاب ويضيقون بالعجز، وصاح حور بصوت متهذج:

- يا للبائسات، سيقتلن توالي الليل والنهار إذا لم تمزق قلوبهنّ السهام...

ولقت الحيرة الملك، وجعل ينظر إلى الأسرى اللاتي يحمين بأجسادهنّ وأطفالهنّ عدوهنّ بعينين ذاهلتين كئيبتين. ما عسى أن يفعل؟.. إنّ كفاح أشهر طوال ينذر بالضيق، وآمال عشرة أعوام تهدد بالخيبة واليأس. فما عسى أن يصنع؟.. هل جاء خلاص شعبه أم للتنكيل به؟... وهل أرسل رحمة أم عذاباً؟. وجعل يتمتم في حزنه: «أمون... أمون... ربي المعبود... إنّ هذا الكفاح لوجهك وللمؤمنين بك، فألمني الصواب على أن أجعل لنفسي مخرجاً... وتنبّه من صلاته على صلصلة عجلة قادمة من ناحية النيل، عاين ومن حوله راكبها فإذا به قائد الأسطول أحسن أبناء، وترجل القائد وأدى للملك التحية ثمّ تسأل قائلاً:

- مولاي... لماذا لا يهجم جيشنا على الرعاة المتداعين؟.. أما كان ينبغي أن تكون جنودنا على سور طيبة الآن؟...

فقال الملك بصوت حزين ثقيل النبرات وهو يشير إلى ناحية السور:

- انظر لترى نفسك أيها القائد... ولكنّ أحسن أبناء لم ينظر كما كانوا يتوقعون بهدوء: - آذنتني عيوني بالعمل الدنيء الوحشي، ولكن كيف نرضى أن نساق إلى أشراك أبوفيس ونحن به عالمون؟...

الغزو أملاً مرجواً قريباً. وفي تلك الأثناء جاء رسول من شاو حاكم سين على رأس قوّة من الجنود المدججين بالسلاح الذين تمّ تدريبهم أخيراً، ومعهم سفينة محمّلة بدروع الحصار وسلاله وعدد من القباب الواقية. فاستقبل الملك الجنود بسرور، وقد تضاعف أمله في النصر، وأمر بتسييرهم في الميدان أمام معسكره لتحييتهم الجنود ويزدادوا بهم أملاً وقوّة...

ودار القتال مع الغداة مروّعا هائلاً، وتوالى هجمات المصريين الصادقة، ولاقوا الموت بقلوب لا تهابه، وأنزلوا بعدوهم خسائر جمة حتّى بدا عليه الإعياء واليأس، واعتور سواعده التّضّعب، فاستطاع القائد محب أن يقول لمولاه وهو عائد من الميدان:

- مولاي... سنتحم السور غداً... واجتمع رأي القواد جميعاً على هذا، فبعث أحسن برّسول إلى أسرته يدعوها إلى هابو التي يرفرف عليها العلم المصري، ليدخلوا جميعاً طيبة في الغد القريب... وبات الملك ليلته شديدة الإيمان كبير الأمل...

## - ١٢ -

وطلع فجر اليوم الموعود، فاستيقظ المصريون نشاوى يتوّبّون، توقّع قلوبهم الخافقة لحن الحرب والنصر. ثمّ تقلّمت جموعهم إلى أماكنها وراء الدروع والقباب، ونظروا إلى أهدافهم غاضبين، فأروا منظراً عجباً لم يتوقّعوا رؤيته، فضجّوا بالدهشة والانزعاج، وتبادلوا نظرات الحيرة والذهول. رأوا على السور المحيط أجساداً عارية قيّدت إليه، رأوا نساء مصريّات وأطفالهنّ الصغار اتّخذ الرعاة منهم دروعاً تحميهم شرّ نباهم وقدائفهم. ووقفوا خلفهنّ ضاحكين شامتين. وكان منظر النساء العاريات وقد حلّت شعورهنّ وهتكت أعراضهنّ، والأطفال الصغار وثقت أيديهم وأرجلهم يفتّت الأكباد جميعاً، فضلاً عن أكباد من هم أزواجهنّ وأبنائهنّ. فأسقط في أيدي الرجال وشلّت سواعدهم، وسرى الانزعاج في النفوس حتّى بلغ الملك فتلقاه كأنه صاعقة من السماء، وصاح غاضباً:

سيكتنزع». وبدأت في الحال أبشع معركة خاض غمارها الإنسان، وأطلق الرعاة السهام فرداً عليهم المصريون، وانطلقت نبالهم تشق صدور تسائهم وتزق قلوب أطفالهم وتسيل الدماء غزيرة. ولوحت النسوة برءوسهنّ للجنود وصحن بأصوات رفيعة مبحوحة:

- اضربونا ينصركم الربّ وانتقموا لنا. . .

فجنّ جنون المصريين وهجموا هجمة وحوش كواسر قست قلوبها وتعطّشت إلى الدماء، ودوى صراخهم في جنبات الوادي كعزيف الرعد وزئير الأسود، واندفعوا لا يبالون الموت المنصبّ عليهم كأنما فقدوا الشعور والإدراك وانقلبوا آلات جهنّمة. وحي وطيس القتال واشتدّ الطعان، وسالت الدماء كأنها ينابيع تتفجّر في الصدور والأعناق، وأحسّ كلّ هاجم أنّ في قلبه غمراً جنونياً لا يسكن حتّى يدفن رحمه في قلب واحد من الرعاة. وتمكّن الخناخ الأيمن قبل أن ينتصف النهار من أن يُسكت عدّة مواضع دفاعية، فبادر رجال إلى إقامة أدراج الحصار وصعدوا عليها بقلوب لا تحشى الموت، فنقلوا القتال من الميدان إلى أعلى السور الحصين، وقفز بعضهم إلى سطح السور الداخلي واشتبكوا مع العدو بالرمح والسيوف وتوالى الهجمات بعنف وبسالة، وكان الملك يرقب القتال بأعين يقظى، ويرسل النجديات إلى المواقع التي يشتدّ عليها العدو. وقد شاهد جنوده تصعد إلى السور في مكان الوسط ومكانين في الميسرة وقد أخذت الشمس تتوسّط في كبد السماء، فقال:

- إنّ جنودي يبذلون جهد الجابرة، ولكيّ أخشى أن يلحقنا الظلام قبل أن نستولي على السور جميعه، فنستأنف غداً من جديد. .

وأصدر الملك أوامره إلى فيالق جديدة بالهجوم، فاشتدّ ضغط رجاله للمدافعين عن السور المنيع، وصنعوا لأنفسهم طرائق جديدة إلى أعلاه. والظاهر أنّ اليأس أخذ يستولي على الرعاة بعد أن أنزل المصريون بهم خسائر فادحة، وبعد أن راوا سيلهم لا ينقطع وهم يصعدون أدراج الحصار كجاعات النمل الزاحفة على سيقان الأشجار، فانهارت مواضع دفاعية بسرعة

هل يجوز أن نكتف عن الكفاح في سبيل طيبة ومصر إشفافاً من أن تؤذي نبالنا بعض النساء والأطفال من قومنا! . . .

فقال الملك أحسن بمرارة:

- أترى أن أمر بتمزيق أجساد هؤلاء النسوة البائسات وأطفالهنّ؟ . .

فقال القائد بحماس وثقة:

- نعم يا مولاي، إنّهنّ قربان الكفاح، مثلهنّ مثل جنودنا البواسل الذين يتساقطون في كلّ حين، بل مثلهنّ مثل مليكننا الشهيد سيكتنزع وفقيدننا الباسل كاموس. فلماذا نشفق من ذهابهنّ هذا الإشفاق المعطل لكفاحنا؟ . . .

مولاي . . . إنّ قلبي يحذّني بأنّ أمي أبانا بين هؤلاء الأسيرات البائسات. فإذا صدق شعوري فلا أشكّ في أنّها تدعو الربّ الآن أن يجعل حبّك طيبة فوق رحمتك بها وبأخواتها البائسات. ولست الجريح وحدي في جنودنا. فليضع كلّ منا حول قلبه درعاً من إيمانه وعزمته ولنهجم. . .

ونظر الملك إلى قائد أسطوله طويلاً، ثمّ قلب وجهه في حاشيته وقواده، فقال الحاجب حور بهدوء وكان متجهماً ممتقاً:

- صدق أحسن أبانا العظيم.

وتفّس الرجال من الأعماق وصاحوا جميعاً في نفس واحد:

- نعم . . . نعم . . . صدق قائد الأسطول ولنهجم. . .

فالتفت الملك إلى القوّاد وقال بعزم:

- أيّها القوّاد، اذهبوا إلى جنودكم وقولوا لهم إنّ

مليكنهم الذي فقد في سبيل مصر جثّه وأباه، ومن لا يتردّد عن الجود بنفسه في سبيلها، يأمرهم بالهجوم على سور طيبة المدرّع بأكبادنا والاستيلاء عليه مهما كلّفنا ذلك من بذل. . .

وذهب القوّاد سراعاً ونفخ في الأبواق، فتقدّمت صفوف الجند شاكبي السلاح مكفهريّ الوجوه. وصاح الضبّاط بأصوات مدوّية: «حياة أمنمحيث أو ميتة

فقال حور بصوت متهدج من الفرح:  
- نعم يا مولاي، وعمّا قريب تفتح لك طيبة المجيدة أبوابها..

- ولكنّ أبوفيس فرّ بجيشه.  
- لن نكفّ عن الكفاح حتّى تسقط هواريس ويحلبو  
عن مصر آخر رجل من الرعاة.

وعاد الملك إلى مراقبة القتال فرأى جنوده تقاتل على  
أدراج الحصار وفي أعلى السور وتضغط على الرعاة  
المتقهقرين أمامها. وصعدت فيالق الجند من حملة  
الرماح والسيوف بكثرة وعلت السور من كلّ جانب  
وأحاطت بالرعاة وأعملت فيهم القتل والذبح. وما  
ليث أن رأى جنوده تمرّق علم الهكسوس وترفع علم  
طيبة الخفاق، ثمّ شاهد أبواب طيبة العظيمة تفتح  
على مصراعيها وجنوده تندفع إلى داخلها هائفة باسمه،  
فتمتم قائلاً بصوت خافت: «طيبة.. يا منبع دمي..  
ومنبت جسدي.. ومرتع روحي.. افتحي ذراعيك  
وضمّي إلى صدرك الخنون أبناءك البررة البواسل». ثمّ  
حتى رأسه ليخفي دعة منترعة من ضلوعه، وكان  
حور إلى يمينه يصليّ ويحفظ عينيه وقد تندّى خداه  
النحيلان..

### - ١٣ -

ومضت ساعات أخرى وأخذت الشمس تميل نحو  
المغرب، وأقبل الملك والقائدان محب وديب، ثمّ تبعهما  
على الأثر أحس أبانا فانحنوا لأحس في إجلال وهناؤه  
بالنصر، فقال أحس:

- ينبغي قبل أن يبتئ بعضنا بعضاً أن نوذّي الواجب  
نحو جثث الأبطال والجنود والنساء والأطفال الذين  
استشهدوا في سبيل طيبة فائتوني بها جميعاً..  
وكانت الجثث ملقاة في جنبات الميدان وعلى سطح  
السور وخلف الأبواب، وقد عقرتها الأثرية وخضبتها  
الدماء، وسقطت من رموسها الخوذ الحديدية، وشملها  
سكون الموت الرهيب. فرفعها الجنود باحترام وساروا  
بها إلى جانب من المعسكر وأرقدوها جنباً إلى جنب،

لم يكن يتوقّعها أحد، واحتلّ جنود أحس نقطاً كاملة  
من السور، وبدا سقوط السور أمراً محققاً لا يحتاج إلّا  
لوقت. وكان أحس لا ينفكّ عن إرسال الإمدادات  
القويّة، وجاءه في المعسكر ضابط من قوّة الاستطلاع  
المتوغّلة في الحقول المحيطة بطيبة يطفر البشر من  
وجهه، فانحنى للملك وقال:

- أخبار جلييلة يا مولاي.. إنّ أبوفيس وجيشه  
يفادرون أبواب طيبة الشمالّة كالغازين.  
فمجبب الملك وسأل الضابط قائلاً:  
- أوائق أنت ممّا تقول؟

فقال الرجل بثقة وإيمان:  
- رأيت بعينيّ ركب ملك الرعاة وحرسه يتبعهم  
جموع الجيش المدجّجة بالسلاح.  
فقال أحس أبانا:

- لقد أدرك أبوفيس عبث الدفاع عن سور طيبة  
بعد ما رأى من هجمات جنودنا وجيشه في المدينة لا  
يحسن الدفاع عن نفسه، فقرّ هارباً.  
فقال حور:

- والآن أدرك على غير شكّ أنّ الاحتما بنساء  
المحاربين وأطفالهم شرّ وويل.  
وما كاد حور يتمّ كلامه حتّى جاء رسول جديد من  
الأسطول فحيّا الملك وقال:

- مولاي... لقد شبّت نيران الثورة في طيبة،  
وشاهدنا من الأسطول عراكاً عتيقاً يقع بين الفلاحين  
والنوبيّين من ناحية، وأصحاب القصور وحرس  
الشاطئ من الناحية الأخرى.

فبدا القلق على أحس أبانا وسأل الضابط:  
- وهل قام الأسطول بواجبه؟

- نعم يا سيدي، لقد دنت سفننا من الشاطئ  
وأطلقت السهام بكثرة على الحراس حتّى لا تمكّنهم من  
التفرّغ لقتال الثائرين..

فلاح الارتياح في وجه القائد، واستأذن الملك في  
العودة إلى أسطوله ليهاجم على الشاطئ، فأذن له الملك  
وقال لحور مغتبطاً:

- لن يفلت أصحاب الضياع هذه المرّة بأموالهم.



فقال الرجل:

- كلاً يا مولاي.

فبسط أحس الرسالة وكانت موجهة من توتيشيري  
وقرأ:

«مولاي المؤيد بروح آمون وبركته، أسأل الرب أن  
يلفك كتابي هذا وقد فتحت طيبة لك أبوابها فدخلتها  
على رأس جيش الخلاص لتضمد جراحها، وتسعد  
روحي سيكتزع وكاموس. أما نحن فلن نبرح دابور،  
وقد فُكّرت في الأمر طويلاً فوجدت أنّ خير وسيلة  
نشارك بها شعبنا المعذب وآلامه، أن نبقي في منفانا  
حيث نحن الآن نعاي آلام الوحشة والغربة، حتى  
نحطم أغلاله وترفع عنه النعمة، فندخل مصر آمين  
ونقاسمه السعادة والسلام. فسّر في طريقك مؤيداً  
بالعناية الربانية تحرّر البلدان وتقهّر الحصون. وطهر  
أرض مصر من عدوها ولا تجعل له في أقطارها موضع  
قدم، ثم ادعنا نأت آمين».

ورفع أحس رأسه وطوى الرسالة وهو يقول بتبرم:  
- تقول توتيشيري إنّها لا تدخل مصر حتى نجلي  
عنها آخر رجل من الرعاة..

فقال حور:

- إنّ أمنا المقدسة تريد ألا نكفّ عن القتال حتى  
نحرّر مصر.

فهزّ الملك رأسه بالموافقة، فتساءل حور:

- ألا يدخل مولاي طيبة هذا المساء؟

فقال أحس:

- كلاً يا حور، سيدخلها جيشي وحده، أما أنا  
فسأدخلها مع أسرتي بعد طرد الرعاة. ندخلها جميعاً  
كما فارقناها جميعاً منذ عشرة أعوام مضت.

- سيمنى أهلها بخيبة أمل...

- قل لمن يسأل عني إنّّي أتعبّ الرعاة لأقذف بهم  
خارج حدودنا المقدسة، وليتبعني من يجيئ.

- ١٤ -

ورجع الملك إلى الخيمة الفرعونية، وكان في نيّته أن  
يصدر أمره إلى قوّاده بأن يدخلوا المدينة في نظامهم

وأتوا بالنساء والأطفال اللاتي مرّقتهنّ سهام جنودهم  
ووضعوهنّ في مكان منعزل. وتوجّه الملك إلى مرقد  
الشهداء يتبعه الحاجب حور والقوّاد الثلاثة والحاشية.  
ولما دنا من الجثث المترصة انحنى في إجلال صامت  
حزين ففعل رجاله مثله. ثم سار في خطى بطيئة مأزاً  
بها كأنما يستعرضها في حفل رسمي مشهود، ثم عدل  
إلى حيث يرقد النسوة والأطفال وقد سجّوا أجسادهنّ  
العارية بأغطية من الكتّان، فأظلمت وجه الملك سحابة  
حزن وأظلمت عيناه، وتنبّه من كملده على صوت  
القائد أحس أبانا وهو يصيح بالرغم منه بصوت  
مرتعش النبرات قائلاً:

- أمّاه..

فالتفت الملك وراءه فرأى قائده يجثو متألماً متفجعاً  
أمام إحدى الجثث، فألقى عليها الملك نظرة فاحصة  
فعرف السيّد أبانا وقد ارتسم على محياها شبح الفناء  
المرّوع. فوقف الملك إلى جانب قائده الجاثي خاشعاً  
حزين القوّاد، وكان يكفّ للسيّد احتراماً عظيماً ويعرف  
لها وطنيتها وشجاعتها وفضلها في تربية أحس خير  
قوّاده بلا نزاع. ورفع الملك رأسه إلى السماء وقال  
بصوت متهدّج:

- أيّها الربّ المعبود آمون، خالق الكون، وواهب  
الحياة ومنظّم كلّ شيء بسنّته العالية، هذه ودائعك تردّ  
إليك تبعاً لمشيئتك، وقد كانوا في عالمنا يعيشون لغيرهم  
وكذلك ماتوا. إنهم قطع عريضة تناثرت من قلبي،  
فتغمّدهم برحمتك، وعوّضهم عمّا فقدوا من حياة فانية  
حياة سعيدة أبدية باقية.

والتفت الملك إلى الحاجب حور وقال:

- أيّها الحاجب، أريد أن تحفظ هذه الجثث جميعاً  
وتودع مقابر طيبة الغربية، ولعمري أنّ أحقّ الناس  
بأرض طيبة من استشهدوا في سبيلها..

وعاد في تلك الأثناء الرسول الذي كان أرسله  
الملك إلى أسرته في دابور وقدّم إلى مولاه رسالة،  
فعجب الملك وسأله:

- هل عادت أسرتي إلى هابو؟

فسجد الرجال دون أن ينبس أحدهم بكلمة، فقال الرجل:

- مولاي.. هؤلاء الرعاة من نفر الذين ملكوا الضياع بغير الحق، كأنما توارثوها عن آبائهم خلقاً عن خلف، واستذلّوا المصريين وساموهم الخسف واستأدوهم أشقّ الأعمال بأزهد الأجور، وجعلوهم فريسة للفقر والجوع والمرض والجهل. ثم كانوا إذا دعوهم قالوا باحتقار فلأحون، ومنّوا عليهم أن تركوهم أحياء.. هؤلاء طغاة الأمس وأسرى اليوم سقناهم إلى ذاتكم العلية عبيداً من أذلّ عبيدك... فابتسم الملك وقال:

- أشكر لكم يا قومي هديتكم، وأهنتكم على استرداد سيادتكم وحرّيتكم..

وسجد الرجال للملك مرة أخرى وغادروا الخيمة، وساق الجنود الرعاة إلى معتقل الأسرى. ثم دخلت الجماعة الثانية يسير بين يديها رجل ضخم الهيكل ناصع البياض ممزّق الثياب، تركت السياط أثاراً واضحة بظهره وذراعيه، فسقط إعياء عند قدمي الملك دون أن يحفل به معذّبوه، وسجدوا للملك طويلاً وقال رجل منهم:

- مولانا فرعون مصر ابن الربّ آمون، هذا الشرير المؤرّر بلباس الدّلّ كان كبير شرطة طيبة، وكان يلهب ظهورنا بسوطه القاسي لاتفه الأسباب، فمكّنتا الربّ منه فألهبنا ظهره بسياطنا حتّى مرّق جلده، وأتينا به إلى معسكر الملك ليضمّ إلى عبيده..

فأمر الملك بالرجل فأخذه الجنّد، وشكر لقومه صنيعهم.

وأذن الملك للجماعة الثالثة فأقبلت عليه تسوق رجلاً ما إن وقع عليه بصر الملك حتّى عرفه، فهو سنموت قاضي طيبة وشقيق خنزّر، فالقى عليه الملك نظرة هادئة، ونظر سنموت إليه نظرة ذاهلة من عينيّن قلقتين دهشتين لا تكادان تصدّقان، وحيّا الرجال الملك وقال لسانهم:

- إليك يا فرعون نسوق من كان بالأمس قاضي طيبة، كان يقسم بالعدالة ويقضي بالظلم في كلّ حين،

التقليديّ على أنغام الموسيقى الحربيّة، ولكن جاء أحد ضباط الجيش وقال:

- مولاي كلّني قوم من قادة الثورة أن أستأذن لهم في المثل بين يديك، ليقدموا لذاتك العلية هدايا ممّا غنموا في ثورتهم.

فابتسم أحسّ وسأل الضابط:

- أقدم أنت من المدينة؟

- نعم يا مولاي.

- هل فتحت أبواب معبد آمون؟

- فتحتها الثوّار يا مولاي.

- ولماذا لم يأت الكاهن الأكبر لتحيّتنا؟

- يقولون يا مولاي إنّهُ أقسم ألاّ يبرح خلوته وفي

مصر رجل من الرعاة إلاّ عبداً أو أسيراً.

فابتسم الملك وقال:

- حسناً.. ادعُ قومي..

وبرح الرجل الخيمة ومضى إلى المدينة، وعاد يتبعه قوم كثيرون يسرون جماعات جماعات، تسوق كلّ جماعة هديتها. واستأذن للجماعة الأولى فدخل نفر من المصريين عراة إلاّ من أزر على أوساطهم، تنطق وجوههم بالؤس والفقر، ويدفعون بين أيديهم رجالاً من الرعاة تعرّت رؤوسهم وتلبّدت لحاهم وتعفّرت جباههم. ثمّ سجدوا للملك حتّى مسّت الأرض جباههم، ولما رفعوا وجوههم إليه رأى أعينهم فائضة بالدمع من الفرح والسرور، وقال كبير القوم:

- مولانا أحسّ بن كاموس بن سيكتنرع بن فرعون مصر وعزّرها وحاميها، والغصن السامق من تلك الدوحة الباسقة التي استشهدت أصولها في سبيل طيبة المجيلة، ومن كان مجيئه رحمة لنا وتكفيراً عن إساءة الأيام إلينا..

فقال أحسّ مبتسماً:

- أهلاً بقومي الأعزّة، من آمالهم كآمالِي، وآلامهم من منبع آلامي، ولون بشرتهم كلون بشرتي..

فأضاءت وجوه القوم بنور بهيج، ووجّه كبيرهم الخطاب إلى الرعاة قائلاً:

- اسجدوا لفرعون يا أحقر عبيده.

فقال رجل من القوم موتور:  
- يا حامي المصريين، إنَّ شفاء صدورنا في إرسال  
رأس هذه المرأة إلى أبوفيس.

فقال أحس:

- هل تحنّون مليكم على أن يكون كأبوفيس  
سفك دماء وقتل نساء؟.. كلوا الأمر لي وانصرفوا  
بسلام.

فسجد القوم لفرعون وانصرفوا. ونادى الملك أحد  
ضباط حرسه وأمره بصوت خافت أن يمضي بالأميرة إلى  
سفينة الفرعونية، وأن يحوطها بالعناية.

وكان الملك يكابد ثورة في القلب والنفس فلم  
يحتمل القعود، فأصدر أمره إلى قوّاده بدخول طيبة على  
رأس الجيش دخول الظفر والنصر. ولما تحوّل إلى حور  
وجده يرمقه بعينين قلقتين حائرتين مشفقتين...

- ١٥ -

وخلا الميدان، فأعجبه الملك نحو النيل يتبعه حرسه،  
وكان يحثّ سائقي عجلته على السرعة ويغرق في  
الأحلام والأفكار، أيّ صدمة تعرّض لها قلبه  
اليوم!.. أيّ مفاجأة كابدها وعاناه؟.. ولم يكن  
يدور بخلده أنّه سيلقى أمرئيدس مرّة أخرى فمعي  
باليأس منها، وتمثّلت له كحلم أضاء ليله ساعة ثمّ  
ابتلعتة الظلماء. ولكنّه رآها مرّة أخرى على غير انتظار  
أو حساب، ألقت بها المقادير إلى رحمة فغدّت بغتة في  
ملكه الخاص، لشدّ ما اضطرب صدره وخفق قلبه،  
لشدّ ما تيقّظت في نفسه عواطف حارّة أحييت من  
جديد ذكرياته الحلوة: فانغمر في تيّارها الحنون ناسياً  
كلّ شيء.

ولكن هي، هل عرفته يا ترى؟.. وإذا لم تكن  
عرفته، فهل ما تزال تذكر التاجر السعيد  
اسفيئيس؟.. الذي أنقذت حياته من الموت المحقّق،  
ومن قالت له والقلب خافق والدموع ذوارف «إلى  
اللقاء؟ ومن حنّت إليه في منغاه فبعثت إليه برسالة  
كمن الحبّ في سطورها كمن النار في الحجر؟.. أما  
يزال قلبها يخفق خفقته الأولى في مقصورة السفينة

فأورد مشرب الظلم ليزوق ما كان يسقي الأبرياء.  
فقال أحس موجّها خطابه للقاضي:

- يا سمنوت، لقد كنت حياتك تحكم على  
المصريين، فَرَضْ نَفْسَك هذه المرّة أن يحكموا عليك.  
ودفع به إلى جنوده، وشكر رجاله المخلصين.

وجاءت الجماعة الأخيرة وكانت شديدة الحماسة تقور  
بالغضب، وتحيط بشخص لفته في ستار من الكتّان  
من ذوابته إلى نعليه، فحيّوا الملك هاتفين، وقال  
قائلهم:

- يا فرعون مصر وحامي المصريين والمتقم لهم،  
نحن بعض من أخذ الرعاة نساءهم وأطفالهم وأدعوا  
بهنّ في موقعه طيبة. وأراد الربّ أن ينتقم لنا من  
أبوفيس الظالم فهجمنا على حريمه في أثناء انسحابه،  
وخطفنا دون علمه من هي أعزّ عليه من نفسه، وجئنا  
بها إليك لتتقم لئسائنا منها..

ودنا الرجل من الشخص المتخفي في دثار الكتّان  
وأزاح عنه الستار، فبدت امرأة عارية إلّا من غلالة  
على وسطها، بيضاء صافية كالنور، يهفو حول هامتها  
شعر كأسلاك الذهب، ويلوح في وجهها الفاتن الخنق  
والغضب والكبرياء، فهت أحس، ونظر إليها ونظرت  
إليه فبدا الانزعاج على وجهه، وبدت على وجهها  
دهشة تحت ما كان يلوح فيها من الغضب والخنق  
والكبرياء وتمتم بصوت غير مسموع وهو لا يفيق:  
«الأميرة أمرئيدس...»

وخلع حور عباءته ودنا من المرأة وألقاها عليها،  
وصاح أحس برجاله:

- لماذا تمثّلون بهذه المرأة؟..

فقال زعيم القوم:

- إنّها ابنة كبير السّفاكين أبوفيس.

وأدرك أحس حرج موقفه بين القوم الغاضبين  
المتعطّشين للانتقام، فقال:

- لا تمكّنوا للغضب من أنفسكم أن يفسد عليكم  
آدابكم المقدّسة، فالفاضل حقّاً من يستمسك بفضيلته  
حين ثورة الوجدان ونزوة الغضب، وأنتم قوم يحترمون  
النساء ولا يقتلون الأسرى.

حيرة فخلع خوذته ووضعها على خوان وهو يقول  
لنفسه إنها لا تستطيع أن تصلّق عينها. وراها تنظر  
إلى شعره المجعد بغرابة، فقال كالدهش:

- ما لك تنظرين إليّ هكذا كأنك تعرفين لي شيئاً؟  
فلم تدر ما تقول ولم تحر جواباً، واشتاق إلى سماع  
صوتها والتباس حنانها فقال لها:

- هبي أنّي أجبتك أنّي أدعى اسفينيس، فهل  
تردّين عليّ؟

وما كادت تسمع اسم اسفينيس حتّى قامت واقفة  
وصاحت به:

- إذن أنت اسفينيس!

فدنا منها خطوة وحدها بنظرة حنان، وأمسك  
بمعصمها وهو يقول:

- أنا اسفينيس أينما الأميرة أمرت.

فجذبت معصمها بشدّة وقالت:

- إنّني لا أفهم شيئاً.

فابتسم أحسن وقال برقة:

- ماذا تعني الأسماء؟.. كنت بالأمس أدعى  
اسفينيس وأدعى اليوم أحسن، ولكّني شخص واحد  
وقلب واحد...

- يا للغرابة... كيف تقول أنت شخص  
واحد؟.. كنت تاجرًا تباع الخيل والأقزام، وأنت اليوم  
تقاتل وترتدي ثياب الملوك.

- ولم لا؟.. كنت بالأمس أجوس خلال طيبة  
متخفياً، وأنا اليوم أقود قومي لتحرير بلدي واسترداد  
عرشي المسلوب...

فنظرت إليه نظرة طويلة تحير في إدراك كنهها.  
وحاول أن يدنو منها مرّة أخرى، ولكّنها صدّته بإشارة  
من يدها وجمدت قسما وجهها وتبدّت القساوة  
والكبرياء في عينيها، فأحصّ خيبة أمل وبرودة تشتمل  
آماله وتقتل بلابل الرجاء المغرّدة في صدره، وسمعها  
تقول بشدّة:

- ابتعد عني.

فقال لها برجاء:

- ألا تذكرين...

الفرعونيّة؟.. رباه.. ما له يحسّ أنّه مقبل على سعادة  
لا حدّ لها؟.. هل يصدق قلبه أم يخدعه؟ وتمثّل  
للملك منظرها البائس حين دفع بها الثائرون إليه،  
فانتفض جسمه القويّ وسرت فيه قشعريرة، وتساءل  
حزناً والقوم الغاضبون من حولها ييصقون عليها  
ويسبّونها ويلعنون أباهما؟.. وإنّه ليذكر ما كان يلوح  
في وجهها من الغضب والحنق والكبرياء، فهل يسكت  
غضبها إذا علمت أنّها أسيرة اسفينيس، وأحصّ قلّقا لم  
يساوره في أخرج المواقف، وكان ركبه بلغ الشاطئ  
فهبط إلى السفينة الفرعونيّة، ودعا إليه الضابط الذي  
عهد إليه بالأميرة وسأله:

- كيف حال الأميرة؟

- وضعت يا مولاي في مخدع خاصّ وجيء لها  
بثياب جديدة وقدم لها الطعام، ولكّنها رفضت أن  
تمسه، وعاملت الجنود معاملة تنطوي على الاحتقار  
ودعتهم بالعبيد. ولكّنها عوملت أحسن معاملة كأمر  
جلالة الملك..

فبدأ على الملك عدم الارتياح، وسار بخطوات  
هادئة إلى المخدع، ففتح الباب أحد الحراس ورتّه بعد  
دخول الملك. وكان المخدع صغيراً أنيقاً يضيئه مصباح  
كبير يتدلّى من سقفه، وإلى يمين المدخل جلست الأميرة  
على أريكة وثيرة في ثوب بسيط من الكتّان وقد مشطت  
شعرها الذي بعثره الثائرون وأرسلته ضفيرة كبيرة.  
فنظر إليها مبتسماً فراها تنظر إليه في دهشة وغرابة وهي  
لا تصلّق عينيها، ويدت له كأنما هي في حيرة وشكّ،  
فحيّاها قائلاً:

- طاب مساؤك أينما الأميرة.

فلم تحبه، ولكّنها ازدادت بسام صوت حيرة وشكّا،  
وكان الشاب يطيل النظر إليها في شغف وافتان، فسألها:

- هل يعوزك شيء؟

فتفرّست في وجهه، ثمّ صعدت بصرها إلى خوذته  
وخفضته إلى درعه وسأله:

- من أنت؟

- أدعى أحسن فرعون مصر.

فلاخ الإنكار في نظرة عينيها. وأراد أن يزيدها

- من العبيد ومن السادة؟ .. إنك لا تدركين شيئاً  
أيتها الفتاة المغرورة؛ لأنك ولدت بين أحضان هذا  
الوادي الذي يوحى بالمجد والعزة، ولو تأثر مولدك  
قرناً من الزمان لولدت في أقصى صحارى الشمال  
الباردة، ولما سمعت من يقول لك أميرة أو يدعو أباك  
ملكاً. من تلك الصحارى جاء قومك فاغتصبوا سيادة  
واديها وجعلوا أعزته أذلة، ثم قالوا جهلاً وغروراً إنهم  
أمراء وإننا فلاحون عبيد، وإنهم بيض وإننا سمر،  
اليوم يأخذ العدل مجراه فيرد إلى السيد سيادته،  
وينقلب العبد إلى عبوديته، ويصير البياض سمة  
الضاربين في الصحارى الباردة، والسمر شعار سادة  
مصر المطهرين بنور الشمس.

هذا الحق الذي لا مراة فيه...

فاحتدم الغيظ في قلب الأميرة واندفع الدم إلى  
وجهها، وقالت باحتقار:

- أنا أعلم أن أجدادي هبطوا مصر من الصحراء  
الشمالية، ولكن كيف غاب عنك أنهم كانوا سادة  
الصحراء قبل أن يصيروا بقوتهم سادة هذا الوادي؟ ..  
كانوا وما يزالون سادة ذوي كبرياء ونخوة، لا يعرفون  
سوى السيف سبيلاً إلى هدفهم، لا يتخفون في ثياب  
التجارة كي يطعنوا اليوم من سجلوا له بالأمس  
القريب...

فحدها بنظرة قاسية متفحصة، فراها ذات كبرياء  
وخيلاء وقسوة لا تلين ولا تخاف، وتمثل فيها صفات  
قومها الفظة المتعالية، فاشتد به الحق، وأحس رغبة  
حارة إلى إخضاعها وإذلالها ولاسيما بعد أن أذلت  
عواطفه بكبرياءها وصلفها، فقال بصوت هادئ  
متعال:

- لا أرى سبباً يدعوني إلى الاستمرار في مجادلتك،  
ولا يجوز أن أنسى أنني ملك وأنت أسيرة.

- أسيرة كما تشاء، ولكنني لن أذل أبداً.

- بل إنك تحتمين برحمتي فتزائيك هذه الشجاعة.

- لم تفرقتي شجاعتي قط... سل رجالك الذين  
خطفوني غداً يبتشرونك عن شجاعتي واحتقاري لهم في  
أحرج الأوقات وأشدّها خطراً عليّ.

ولكنها قاطعته قبل أن يتم كلامه قائلة وقد استولى  
عليها الغضب الذي اشتهر به قومها:

- أذكر وسأذكر دائماً أنك جاسوس وضع...

فأحس صدمة مروعة جعلته يقطب، وقال بغضب:

- أيتها الأميرة... ألا تدركين أنك تخاطبين ملكاً؟

- أي ملك يا هذا؟

فاستولى عليه الغضب وقال بشدة:

- فرعون مصر.

فقالت بتهكم:

- وأبي أكون أحد ولاتك؟!

فاشتد الغضب بالملك وغلب كبرياؤه عواطفه

جميعاً، فقال:

- ليس أبوك أهلاً لأن يكون والياً من ولايتي، ولكنّه

مغتصب على عرش بلادي، وقد هزمته شرّ هزيمة

وجعلته يفرّ من أبواب طيبة الشمالية تاركاً ابنته تقع

أسيرة بين أيدي القوم الذي ظلمهم، وسوف أتبعه

بجيوشي حتى يلوذ بالصحارى التي قذفته إلى

واديها... ألا تدركين هذا؟... أما أنا فملك هذا

الوادي الشرعيّ لأنّي من سلالة فراعنة طيبة المجيدة،

ولأنّي قائد مظفر أسترّد بلادتي عنوة واقتداراً.

فقالت ببرود وسخرية:

- طبت من ملك يبرع قومه في مقاتلة النساء...

- يا للعجب ألا تعلمين أنك مدينة لقومي هؤلاء

بحياتك؟. لقد كنت تحت رحمتهم ولو أنهم قتلوك ما

خالفوا السنة التي استتبها أبوك في تعريض النساء

والأطفال لنبال المقاتلين...

- وهل تضعني على قدم المساواة مع أولئك النسوة؟

- ولم لا؟...

- معذرة أيتها الملك... فإنه كبر عليّ أن أتصور أنني

مثل إحدى نسائك أو أن أحداً من قومي مثل أحد من

قومكم إلا أن يتساوى السادة والعبيد... ألا تعلم أن

جيشنا غادر طيبة لا يحسّ ذلّ المغلوب، وكانوا يقولون

باستهانة ثار عبيدنا وسنكرّ عليهم...

وجنّ جنون الملك وغلبه الغضب على أمره، فصاح

بها:

من نوافذه وحديقته، فعلم أن حور يشرف على تهيئته وتطهيره، وأنه عاد حقًا إلى أداء وظيفته الأولى في قصر سيكتنرغ وشاهد أحسن ميناء حديقة القصر فعاودته الذكرى الأليمة، ليلة حملت السفينة الفرعونية أسرته إلى أقاصي الجنوب والدماء تتفجر من ورائها...  
وعاود الملك السير جيئةً وذهابًا على مقدم السفينة، وأنجبه بصره مرّات إلى غدغ الأمانة المغلق ثم تساءل متبرّماً ساخطاً: لماذا جاءوني بها؟... لماذا جاءوني بها؟...

### - ١٦ -

وفي صباح اليوم الثاني بجر حور والقواد والمستشارون إلى زيارة الملك في سفينة الراسية شمال طيبة، فاستقبلهم الملك في المقصورة وسجدوا بين يديه وقال حور بصوته الهادئ:

- أسعد الرب صباحك أيها الملك المظفر، لقد خلّفنا وراءنا أبواب طيبة يخفق قلبها بالأفراح، ويهزّها الشوق إلى اجتلاء نور جبين غلّصها ومحرّرها.

فقال أحس:

- لتفرح طيبة، أما اللقاء فحين يقضي الرب بالنصر.

فقال حور:

- وذاع بين الأهلى أن ملكهم في طريق الشمال وأنه يرحب بمن يلحق به من القادرين، ولا تسل يا مولاي عن الحماسة التي فاضت بقلوب الشباب، ولا عن تهاوتهم على الضباط ليضمّوهم إلى جيش أحسن المعبود.

فابتسم الملك وسأل رجاله:

- وهل زرتم معبد آمون؟

فقال حور:

- نعم يا مولاي زرناه جميعاً، وهرع إليه الجنود يتمسّحون بأركانه ويمرغون وجوههم في ترابه ويعانقون كهنته. وقد فاض المديح بالقران وأنشد الكهنة نشيد الرب المعبود وتردّت صلاتهم في جنبات المعبد،

فهزّ كتفيه العريضتين استهانة، وتحوّل إلى الخوان فأخذ خوذته ووضعها على رأسه، وقبل أن يخطو خطوة أخرى سمعها تقول:

- لقد قلت حقاً إنّي أسيرة، وليست سفيتك المكان الذي يصلح للأسرى، فألحقني بأسرى قومي...

فنظر إليها مغيطاً مخنفاً وقال يغيطها ويخيفها:

- ليس الأمر كما تتصوّرين، فالعادة أن الأسرى الرجال يسخّرون عبيداً، أما النساء فيلحقن بحريم الملك الظافر...

فقال وقد اتسعت حدقتها:

- ولكني أميرة...

- كنت أميرة... ولست الآن سوى أسيرة.

- كلّما ذكرت أنّي أنقذت حياتك يوماً يحزن جنوني...

فقال يهدوء:

- فلتحني هذه الذكرى... فبفضلها أنقذت حياتك من أيدي اللاترين الذين يتمنون أن يرسلوا رأسك إلى أبوفيس.

وأدار لها ظهره وغادر المخدع غاضباً حانقاً، وحيّاه الحراس فأمرهم بالإبحار إلى شمال طيبة، وسار إلى مقدّمة السفينة بخطى ثقيلة متباطئة مألثاً صدره بهواء الليل الرطيب، وما لبثت السفينة أن انحدرت مع تيار النيل المتدفّق منذ الأزل تشقّ الظلماء إلى شمال طيبة. فأرسل الملك بناظره إلى المدينة فأرّأ إليها من هموم نفسه، وكان النور يشعّ من سفن الأسطول الراسية إلى شاطئ المدينة، أما القصور الشاهقة فكانت غارقة في الظلمة بعد أن هجرها أصحابها الفارّون، ولاحت على البعد من بين القصور والحدائق أضواء المشاعل التي يحملها السامرون الفرحون، وحمل النسيم صدى أصواتهم المتصاعدة بالهتاف والأناشيد، فجرت على فمه العريض ابتسامة، وأدرك أن طيبة تستقبل جيش الخلاص كما تعودت أن تستقبل جيوشها المظفّرة وأعيادها الخالدة...

ومضت السفينة تدنو من القصر الفرعوني حتّى حاذته في مسيرها، ورأى الملك القصر مضاءً يشعّ النور

عنها. فقال له الرجل: إنها باتت ليلتها دون أن تذوق طعاماً. وكان يفكر في وضعها في سفينة أخرى ويعهد بها إلى حراس أمناء، ولكنه لم يته من تفكيره إلى عزم قاطع، ولم يشك في أن حور غير راض عن وجودها في سفينته، وأيقن أن الحاجب يكبر عليه أن تنال ابنة أبوفيس هذه الخطوة لديه، وكان يعرفه حق المعرفة، ويعلم أنه لا يشغل قلبه سوى كفاح طيبة. أما هو فكانت عواطفه متعطشة فائرة، وكان يعيا عن كف نفسه عن الحوم حول المخدع وصاحبه، أو في صرفها عن الولوع بها على ما به من سخط وغضب، فإن الغضب لا يقتل الحب ولكنه يجبه حيناً من الزمن كما يكثر الضباب وجه المرأة المصفولة إلى حين، ثم ينقشع عنها فيعود إليها الصفاء. ولذلك لم يسلم للباس، وجعل يقول لنفسه متعزياً: لعل ما بها من آثار الكبرياء المغلوب على أمره والصلف الواقع في الأسر، ولعل غضبها أن يسكت فتجد أن ما تظهر من البغض دون ما تبطن من الحب فتلين وتذعن وتؤدي للحب حقه كما أدت للغضب حقوقه، أليست هي صاحبة المقصورة التي أنقذت حياته ومنحته العطف والمودة؟... أليست هي التي ألقها غيابه فكتبت إليه رسالة عذل تضر أنين الحب المكتوم؟... فكيف تذوي عواطفها هذه من أجل ثورة كبرياء وغضب؟... وانتظر الأصيل ثم هز كتفيه العريضين استهانة وذهب إلى المخدع، وحيّاه الحرس وأوسعوا له فدخل كبير الرجاء. ورأما تجلس في جود وهدهد تلوح في عينيها الزرقاوين الكأبة والملل! فألمته كآبتها وقال لنفسه: كانت طيبة على رحابتها تضيق بها، فكيف وقد حبست في هذا المخدع الصغير؟... ووقف أمامها جامداً فاستوت في جلستها ورفعت إليه عينيْن باردتين، فقال لها برقة:

- كيف كانت ليلتك؟

فلم تجب وخفضت رأسها تنظر إلى الأرض، فألقى على رأسها ومنكبها وصدرها نظرة مشوقة، وأعاد سؤاله قائلاً وقد ظن أن أمه قريب:

- كيف كانت ليلتك؟

فصهر الحنين القلوب وانتظم الطبييون جميعاً في صلاة جامعة، أما نوفر آمون فلم يرح عزله...

فابتسم الملك، ولاحت منه التفاتة فرأى القائد أحس أبانا صامتاً مكتئباً فأشار إليه أن يقترب، فاقترب القائد من مولاه، ووضع الملك يده على منكبه وقال له:

- تحمّل نصيبك من الأذى يا أحس، واذكر أن شعار أسرتك الشجاعة والبذل.

فحنى القائد رأسه شاكراً وقد دخلته رقة من عطف الملك عليه، ونظر أحس إلى رجاله وقال:

- أشيروا عليّ فيمن أختاره حاكماً لطيبة، وأعهد إليه بمهمة تنظيمها الشاقة...

فقال القائد عجب:

- إن خير من يصلح لهذا المنصب الخطير الرجل المخلص الحكيم حور...

ولكن حور بادر يقول:

- إن واجبي في السهر على خدمة مولاي لا في التخلف عنه.

فقال أحس:

- صدقت... وأنا لا أستغني عنك.

فقال حور:

- يوجد رجل فاضل عظيم الدراية والخبرة معروف بالحكمة وأصالة الرأي هو توتي آمون وكيل معبد آمون، فإذا شاء مولاي فليعهد إليه بشئون طيبة.

فقال أحس:

- قد وليناه طيبة.

ثم دعا الملك رجاله إلى تناول الفطور على مائدته.

- ١٧ -

ومضت ساعات النهار والجيش يضمّد جراحه ويأخذ قسطه من الراحة واللهو والغناء والشراب، استبق الجنود الطبييون إلى منازل أهلهم فتعانقت القلوب وامتزجت النفوس، وصارت طيبة من المودة والعطف كأنها قلب الدنيا الخافق. أما أحس فلم يرح سفينته، ودعا الضابط المكلف بحراسة الأميرة وسأله

فوجدتها تتحدّاه بعينيها القاسيتين لا تفضيها،  
والغضب يسارع إليها إسرّاعه إلى بني قومها جميعاً،  
وقالت بحدّة:

- نحن قوم لا يعرف الخوف إلى قلوبنا سيلاً، ولا  
يدلّ كبرياؤنا حتّى تطوي السماوات أيدي البشر.

وتساءل في غضبه هل يجرّب إذلالها؟.. لماذا لا  
يذلّها ويدوس كبرياءها بقدمه؟. أليست هي أسيرته  
ويستطيع أن يجعلها جارية من جواريه؟.. ولكنه لم  
يرتح إلى هذا الهوى. كان يطمع فيها هو أعذب  
وأجل. فلما أدركته الحية ثار كبرياؤه واحتدّ غضبه  
فزهد في استدلالها، على أنّه أظهر غير ما يبطن فقال  
بلهجة كلهجتها كبرياء:

- إنّ مشيئتي لا تقتضي تعذيبك فلن تعذّبي  
لذلك... وإنّك لمن أعجب الأمور أن يفكر إنسان في  
تعذيب جارية حسناء مثلك.

- بل أميرة ذات كبرياء.  
- كان هذا قبل أن تقعي أسيرة في يدي..  
أما أنا فأوشى أن أضمّك إلى حرّمي على أن  
أعذبك: ومشيتي هي النافذة...

- ستعلم أنّ مشيتك نافذة على نفسك وعلى قومك  
لا عليّ، وأنّك لن تمسّني حيّة..  
فهزّ كتفيه استهانة، ولكنها استدركت قائلة:  
- من عاداتنا المتوارثة أنّه إذا وقع فرد منّا في أشرار  
ذلّ ولم يستطع النجاة، امتنع عن الأكل حتّى يقضي  
كريماً...

فقال متهكّماً:  
- حقّاً؟... ولكنّي رأيت قضاة طيبة يساقون إلىّ  
فيسجدون صاغرين سائلة أعينهم العفو والمغفرة...

فامتقع وجهها ولذت بالصمت، وضاق الملك  
بحديثها ذرعاً وكان يعاني مرارة الحية فلم يطق البقاء،  
وقال وهو يهّم بمغادرة المخدع:

- لن تجدي حاجة إلى الامتناع عن الطعام..  
وغادر المخدع مغضباً ساخطاً وقد بيّت نيّته على أن  
ينقلها إلى سفينة أخرى، ولكن ما كاد غضبه يسكت

وبدا عليها كأنّها لا تريد أن تخرج عن الصمت،  
ولكنّها رفعت رأسها بحدّة وقالت:

- كانت أسوأ ليالي...  
فأغضى عن لهجتها وسألها:  
- لماذا؟.. هل يعوزك شيء؟..

فقال دون أن تغرّ لهجتها:  
- يعوزني كلّ شيء.  
- كيف؟.. لقد أمرت الضابط المكلف

بحراستك...  
فقاطعت بهتّرم قائلة:

- لا تتعب نفسك في ذكر هذا.. فإنّه يعوزني كلّ  
شيء أحبه، يعوزني أبي وقومي وحرّيتي. ولكنّ لديّ  
كلّ ما أكرهه... هذه الثياب وهذا الطعام وهذا  
المخدع وهؤلاء الحراس...

فمضى بالحية مرّة ثانية وأحسّ انهيار آماله وذهاب  
رجائه، فجمدت أساريره وقال لها:

- أتريد أن أفكّ أسرك وأرسلك إلى أبيك؟  
فهزّت رأسها بعنف وقالت بشدّة:  
- كلّ...

فنظر إليها متعجباً متحيراً، ولكنها استدركت بمثل  
هذه اللهجة قائلة:

- كيلا يقال إنّ ابنة أبوفيس ضرعت إلى عدوّ أبيها  
العظيم أو أنّها استحقّت الرثاء يوماً..  
فهاجته الغضب وحقّ على صلفها وكبريائها وقال  
لها:

- إنك لا تتحرّجين في إظهار صلفك اطمئنّنا منك  
إلى رحمتي...  
- كذبت...

فامتقع وجهه وحدها بنظرة قاسية وقال:  
- يا لك من سادرة لا تعرفين ما الحزن وما الألم،  
هل تعلمين ما تستوجبه إهانة الملك من عقاب؟ هل  
رأيت امرأة تجلّد قبل اليرم؟.. أنا لو شئت لجعلتك  
تجشّين عند قدّمي أصغر جنودي سائلة الصفح  
والتوبة...

أدام إليها النظر ليرى أثر تهديده في نفسها،



فقال الزعيم:

- أيها القائد، خطف الفلاحون يوم الانسحاب من طيبة صاحبة السموّ الفرعونيّ الأميرة أمرئدس كريمة مولانا الملك أبوفيس فرعون مصر وابن الربّ ست. ومولانا يريد أن يعلم هل ابنته على قيد الحياة أو قتلها الفلاحون؟

- هل يذكر مولاك ما فعل بنسائنا وأطفالنا في حصار طيبة؟... ألم يذكر كيف عرّضهنّ لسهام ابنائهنّ وأزواجهنّ تمزّقهنّ شرمزّق، وجنودكم الجبناء مدرّعون بهنّ؟..

فقال الرجل بحدّة:

- إنّ مولاي لا يتنصّل من تبعة عمله، والحرب كفاح للموت والهزيمة فلا يستعان عليها بالرحمة...

فهزّ أحسّ رأسه بنفور وقال:

- بل الحرب تزال بين الرجال، يفصل فيه الأقوياء ويعتو له الضعفاء، وهي عندنا صراع لا ينبغي أن يطغى على ما بنفوسنا من المروءة والدين... على أنّي أعجب كيف يسأل الملك عن ابنته وذاك علمه وهذا رأيه في الحرب؟..

فقال الرسول بإيابة:

- إنّ مولاي يستفهم لغاية في نفسه، فلا هو يسترحم ولا هو يشفق...

وتفكّر أحسّ ملياً، ولم يغب عنه الباعث الذي حدا بعدوّه إلى السؤال عن ابنته. ولذلك قال بوضوح وبلمهجة نمت عن الاحتقار:

- عد إلى مولاك وقل له إنّ الفلاحين قوم شرفاء لا يفتالون النساء، وإنّ الجنود المصريين يترفعون عن قتل أسراهم، وإنّ ابنته أسيرة تتمتع بنبل أسريها..

فبدا على الرجل الارتياح وقال:

- لقد أنقذت كلمتك هذه أرواح الآلاف من قومك نساء ورجالاً بمن أسرههم الملك، وجعل حياتهم رهينة بحياة سموّ الأميرة.

فقال له أحسّ:

- وحياة الأميرة رهينة بحياتهم.

حين خلا إلى نفسه في المقصورة حتّى عدل عن نيّته فلم يصدر أمره...

- ١٨ -

ومثل الحاجب حور بين يدي الملك في مقصورته وقال:

- مولاي، جاء رسل من قبل أبوفيس يستأذنون في المثل بين يديك.

فعبج أحسّ وسأله:

- ماذا يريدون؟

فقال الحاجب:

- قالوا إنهم يحملون رسالة لذاتك العليا...

فقال أحسّ:

- ادعهم على عجل...

فغادر الحاجب المقصورة وبعث بضابط إلى الرسل، وعاد إلى مولاه ينتظران. ولم يلبث أن جاء الرسل مع شرمدة من ضباط الحرس، وكانوا ثلاثة يتقدّم كبيرهم ويتبعه اثنان يحملان صندوقاً من العاج، وكانوا كما يبدو من ثيابهم القفضفاضة من الحجاب، بيض الوجوه، طوال اللحي، وقد رفعوا أيديهم بالتحيّة دون انحناء، ووقفوا في غطرسة ظاهرة، فردّ أحسّ تحيتهم في كبرياء وسألهم:

- ماذا تريدون؟

فقال زعيمهم بلهجة أعجميّة متغطرسة:

- أيها القائد...

ولكنّ حور لم يكتفه من إتمام عبارته، فقال له بهدوئه الطبيعيّ:

- إنّك تحدّث فرعون مصر يا رسول أبوفيس...

فقال الزعيم:

- الحرب ما تزال مستعرة لم يفصل فيها بعد، وما دام لنا رجال وفي أيدينا سلاح، فأبوفيس فرعون مصر لا شريك له...

فاوياً أحسّ إلى حاجبه بالسكوت وقال للرسول:

- تكلم فيما جئت من أجله...

بأنه عما قريب تصله قوة من العجلات والفرسان  
 المدرّين. وانضمّ إلى الجيش رجال من طيبة وهابو  
 فاعتاض جيش أحسّ عما فقدّه من الرجال وأرى عدده  
 على اليوم الذي اخترق الحدود غازياً. ولم يرَ الملك  
 داعياً إلى البقاء في طيبة أكثر ممّا بقي؛ فأمر قوّاده  
 بالاستعداد للزحف شمالاً فجر الغد، وتودّع الجنود  
 من طيبة وأهلها، وتحولوا عن اللهو والدعة لاستقبال  
 الكفاح والجلاد. وعند مطلع الفجر نفخ الجنود في  
 الأبواق فتحرك الجيش العرمرم صفوفًا كأموج البحر،  
 تقدّمه الطلائع ويسير في مقدّمته الملك وحرسه، وفرقة  
 العجلات تتبعها الفرق الأخرى. وأقلع الأسطول  
 بقيادة أحسّ أبانا يشقّ مياه النيل بوحدياته القويّة.  
 توائبوا جميعًا للقتال، وشحذ النصر إرادتهم فجعلها  
 كالخديد أو أشدّ صلابة. واستقبل الجيش في القرى  
 بحماسة دافقة، وهرع الفلاحون إلى طريقه هاتفين  
 يلوّحون بالأعلام وسعف النخل. واجتاز سبيله آمنًا  
 فأضحى في شهور ودخلها بغير مقاومة، ثمّ أمسى في  
 قسي ففتحت له أبوابها وباتوا جميعًا في قسي واستأنفوا  
 المسير مع الفجر، وجدّوا في سيرهم حتّى شارفوا ميدان  
 كبتوس ولاح لهم الوادي الذي ينتهي بالمدينة، وهنا  
 شمل الجيش صمت حزين وطافت الذكريات  
 بالرءوس، وذكر أحسّ الهزيمة التي حلّت بجيش طيبة  
 في هذا الوادي لعشرة أعوام خلت أو يزيد، وذكر  
 مصرع جدّه الباسل سيكتنرع الذي ارتوت هذه  
 الأرض بدمه، وحار بصره في جنبات الميدان وهو  
 يتساءل: ترى في أيّ مكان سقط، ولاحت منه التفاتة  
 نحو حور، فرأى وجهه عميقًا وعينيّه مغرورقتين  
 بالدموع، فاشتدّ به التأثير وقال له:  
 - يا للذكرى المؤلمة...

فقال حور بصوت مهذّب وأنفاس لاهثة:

- كآني أستمع إلى أرواح الشهداء التي يعمر بها جوّ  
 هذا المكان المقدّس...

فقال القائد محب:

- لشدّ ما ارتوت هذه الأرض من دماء آبائنا.

فصمت الرجل مليًا ثمّ قال:  
 - وقد أمرت ألا أعود حتّى أراها بنفسى.  
 وبدا الإنكار على وجه حور، ولكنّ أحسّ بادر  
 الرسول قائلاً:  
 - سترأها بنفسك.  
 فأشار الزعيم إلى الصندوق العاجي الذي يحمله  
 تابعه وقال:  
 - وهذا الصندوق يحوي بعض ثيابها، فهل تأذن لنا  
 في تركه في حجرتها؟  
 فسكت الملك هنيهة ثمّ قال:  
 - لك هذا.  
 ولكنّ حور مال إلى مولاه وهمس قائلاً:  
 - ينبغي أن نفحص الثياب أولًا.  
 فوافق الملك على رأي حاجبه، وأمر الحاجب بوضع  
 الصندوق بين يدي الملك، ثمّ فتحه بيديه وأخرج ما  
 به من الثياب ثوبًا ثوبًا، وعثر بحقّ صغير فأمسك به  
 وفتحه فإذا ما به عقد ذو قلب زمردنيّ.  
 وارعد قلب الملك لمراه: وذكر كيف انتقت الأميرة  
 من بين لآله يوم كان يدعى اسفينيس ويبيع اللآلي  
 فتورّد وجهه، أمّا حور فقال:  
 - هل السجن مكان صالح للزينة؟  
 فقال الرسول:  
 - هذا العقد حلية الأميرة المفضّلة لديها، فإن شاء  
 القائد أبقيناه، وإلا أخذناه معنا.  
 فقال أحسّ:  
 - لا بأس بإبقائه.  
 ثمّ التفت الملك إلى الضباط وأمرهم باصطحاب  
 الرسل إلى مخدع الأميرة، ومضت الرسل ومضى  
 الضباط في أثرهم...

وفي ذات المساء لحقت بالجيش قوّات آتية من  
 الجنوب من مدرّي أبولينوبوليس وهيراكونبوليس،  
 وورست في ميناء طيبة سفن صغيرة محمّلة بالأسلحة  
 وقباب الحصار موجهة من أمبوس، وبشّر ربّانها الملك

وكانت جالسة جلستها المهدودة على الأريكة ملتفة في ثوب من أثواب منف الرقيقة. وكأنها عرفت وقع خطاه فلم ترفع إليه رأسها وظلّت تنظر إلى ما بين قدميها. وجرى بصره المشغوف على مفرق شعرها وجبينها وجفنيها المسبلتين فأحسّ رعدة تصدع صدره، ونازعته الرغبة في أن يرمي عليها ويضغطها بين ذراعيه بكلّ ما أوتي من قوّة وعزم، ولكنّها رفعت رأسها بغتة وحدجته بنظرة باردة، قلبت حيث هو جامداً، ثمّ سالها:

- هل زارك الرسل؟

فقالت بلهجة لا تتمّ عن عاطفة:

- نعم.

فجال ببصره في الحجرة حتّى استقرّ على الصندوق العاجي وقال:

- لقد أذنت لهم أن يوصلوا إليك هذا الصندوق!

فقالت باقتضاب وبصوت لا يخلو من جفاء:

- شكراً لك..

فارتاح فؤاده وقال:

- وكان بالصندوق العقد ذو القلب الزمردّي..

فاضطربت شفتاها وأرادت أن تتكلّم، ولكنّها عدلت فجأة وأطبقت فمها بحالة تدلّ على الحيرة، فقال أحس برقة:

- قال الرسل إنّ هذا العقد عزيز لديك..

فهزّت رأسها بعنف وكأنّها تنفي عن نفسها تهمة وقالت:

- كنت أكثر من لبسه حقاً لأنّ ساحرة القصر جعلته تعويذة تقي الضرّ والسوء..

فطن إلى تهريبها، ولكنّه لم يئأس وقال:

- ظننت أنّ ذلك لأسباب أخرى تشهد بها مقصورة السفينة الفرعونية.

فتصرّج وجهها بالاحمرار وقالت بغضب:

- لا أذكر اليوم نزوة الأمس، ويجمل بك أن تحدّثني كما ينبغي لعدوّ أن يحدّث أسيرة.

ورأى وجهها قاسياً جامداً فتجرّع الحليّة مرّة أخرى، ولكنّه أراد أن يكتم عواطفه فقال:

وجفّف حور دمه وقال للملك:

- فلنصلّ جميعاً يا مولاي على روح مليكتنا الشهيد سيكنترع وجنوده البواسل.

وترجّل أحس وقّاده وحاشيته وصلّوا جميعاً صلاة حارة..

## - ٢٠ -

ودخل الجيش مدينة كبتوس وخفق على سورها علم مصر، فهتف الجنود لذكرى سيكنترع طويلاً. ثمّ زحف الجيش إلى تنسيرا دون أن يجد أدنى مقاومة. وكذلك استردّ ديوس بوليس برفا. ثمّ سار في طريق أبيدوس وهو يتوقّع أن يلقي الرعاة في واديها، ولكنّه لم يعثر برجل من العدو، فعجب أحس وتساءل قائلاً:

- أين أبوفيس وأين جيوشه الجرزارة؟

فقال حور:

- لعلّه لا يريد أن يلقي عجلتنا بمشاته.

- وختمّ تدور هذه المطاردة؟

- من يعلم يا مولاي؟.. لعلّها تدوم حتّى نواجه أسوار هواريس، حصن الرعاة الحصين الذي شيّدوا أسواره في قرن من الزمان، وسوف يدمي قلب مصر قبل أن تخترقه جنودنا.

وفتحت أبيدوس أبوابها لجيش الخلاص، فدخلها دخول الجيش المظفر، واستراح بها يومه..

وكان أحس يتعطّش للحرب لعلّه يلقي عدوّه في موقعة فاصلة، ولأنّه كان يتوق إلى أن ينغمر في القتال لينسي نوازع نفسه ويطمس أحزانه فؤاده، ولكنّ أبوفيس أبى عليه هذه الراحة، فوجد أفكاره تجوم حول الأسيرة العنيدة، وقلبه يئازع إليها على ما به من موجدة عليها. وذكر أحلامه حين ظنّ أن أسعد الأقدار هي التي دفعته إلى أسرهِ وحين طمع أن يجعل سفينة الأسر جنة من جنات الحبّ. ثمّ ذكر ما فعل به إياؤها وغضبها، وكيف صيّره مريضاً عروماً من أشهى الثمار وهي ناضجة دانية، وكانت رغبته إلى الحبّ قويّة لا تقاوم فجرفت بتيّارها اللدافق عوائق التردّد والكبرياء، فذهب إلى السفينة وقصد إلى المخدع المسحور ودخل،

وبرج الرجل السفينة ضيق الصدر مكفهز الوجه،  
وعاد في عجلته إلى المعسكر..

- ٢١ -

وضاق الملك بالسكون فأمر قواده بالتأهب. وفي فجر اليوم الثاني زحف الجيش بجموعه الجيزة وأقلع الأسطول فبلغ بطلمايس في يومين، ولم يظهر حوله أثر للعدو فدخلتها الطلائع في سلام وتبعها الجيش على الأثر. وأوغلت الطلائع شمالاً حتى بانوبوليس آخر بلدان طيبة الشالية ودخلتها بلا مقاومة وزفت البشرى إلى الملك أحس أن بانوبوليس في أيدي مصرية، فصاح أحس:

- لقد أجلي الرعاة من مملكة طيبة.

فقال حور:

- وسيجلون عن مصر قريباً.

وتقدم الجيش نحو بانوبوليس ودخلها مزهواً ظافراً على أنغام الموسيقى الحماسية، ونفخ في الأبواق إعلاناً للنصر، ورفعت الأعلام المصرية على سور المدينة، وانتشر الجنود في الأسواق واختلطوا بالأهلين يهتفون وينشدون. وشمل المدينة فرح جنوبي خفق في كل صدر وتردد مع كل نفس وأولم الملك لقواد الجيش والأسطول والحاشية وليمة فاخرة قدمت في ختامها كؤوس مترعة بأنبذة مريوط المعتقة مع أزهار اللوتس وقضب الرمان، وقال الملك لرجاله:

- غداً نخترق حدود المملكة الشالية وترفع على أسوارها أعلام مصر لأول مرة منذ ثيف ومائة عام.

فدعا الرجال له وهتفوا باسمه طويلاً..

ولكن في أصيل ذلك اليوم رأى الحراس كوكبة من العجلات تعدو نحو المدينة من الشمال رافعة راية بيضاء، فاحاط بها الجند وسألوا عن مقصدها، فقال أحد رجالها إنهم رسل الملك أبوفيس إلى أحس، فمضى بهم الجنود إلى المدينة، وعلم أحس بأمر الرسل فذهب إلى قصر حاكم المدينة، ودعا إليه حور وقائد الأسطول والقائدين محب وديب، وجلس على كرسي الحاكم يحيط به قواده ومن حولهم الحرس في ثيابهم

- ألم تعلمي بأننا نضم نساء أعدائنا إلى حريم قصورنا؟

فقالت بحدّة:

- ألا مثلي..

- هل تعودين إلى التهديد بالصوم؟

- لا حاجة لي به بعد الآن..

فتفحصها بنظرة مريبة وسألها متهمكاً:

- فكيف تدافعين عن نفسك؟

فأرته في كفها سلاحاً صغيراً لا يزيد طوله عن ظفر، وقالت باطمئنان:

- انظر! هذا خنجر مسموم، إذا خدشت به جلدي

سرى سمّه في دمي فقضى عليّ في لحظات، دسه إليّ الرسول في غفلة من رقبائك، فعلمت أن أبي يضع بين يديّ ما أقضي به على نفسي إذا متني الضيم أو تحرّش بي إنسان.

فغضب أحس وعبس وجهه وقال:

- أهذا هو سرّ الصندوق؟.. سحقاً لمن يطمئن إلى

كلمة خنزير من الرعاة ذوي اللحي القدرة. إنّ الخيانة تسري في عروقكم مسرى الدم، ولكن أراك تحطّئين فهم رسالة أبيك، فقد دسّ إليك هذا الخنجر لتقضي به عليّ..

فهزت رأسها كالساخرة وقالت:

- أنت لا تفهم أبوفيس، إنه يأبى إلا أن أعيش

كريمة أو أموت كريمة، أمّا عدوّه فسيقضي عليه بنفسه كما تعود أن يقضي على أعدائه.

فضرب أحس الأرض بقدمه وقال بحق شديد:

- لماذا كلّ هذا العناء؟.. فما أزهدي في جارية

مثلك أعماها الغرور والكبرياء والطبع الفاسد، لقد توهمتك فيها مضى شيئاً ليس فيه من حقيقتك شيء، فسحقاً للأوهام جميعاً..

وتحوّل الملك عنها وغادر المخدع، وفي الخارج دعا

كبير حراسها وقال له:

- لتنقل الأسيرة إلى سفينة أخرى تحت الحراسة

الشديدة..

العبودية. أن تعلمون لماذا؟ لأنكم غلبتم على أمركم. فأنتم يا هؤلاء وحوش ضوار إذا غلبتم، وشاء إذا غلبتم، أتسألوني لماذا أصرّ على الحرب؟.. فإليكم جوابي: إني ما أعلتها عليكم لاستردّ طيبة، ولكني عاهدت ربّي وقومي على أن أحرّر مصر جميعاً من نير الظلم والاستبداد، وأن أعيد لها حرّيتها ومجدها؛ فإذا أراد الذي بعثكم السلام حقاً، فليترك مصر لأهلها وليرجع بقومه إلى صحارى الشمال.

فسأله الرسول بصوت غليظ:

- هذه هي الكلمة الأخيرة؟

فقال أحس بثقة وقوة:

- هي ما افتتحنا به الكفاح، وآخر ما نختمه به.

فقام الرسل واقفين، وقال رئيسهم:

- ما دمت تريد الحرب فستكون حرباً ضرورياً بيننا وبينكم حتى يقضي الربّ فيها بمشيئته.

وانحنى الرجال للملك مرّة أخرى وغادروا المكان في خطى ثقيلة.

## - ٢٢ -

ولبت أحس في بانوبوليس يومين كاملين، ثم أرسل السلاّح لاختراق حدود دولة أبوفيس، فتقدّمت جماعات قويّة شمال المدينة، والتحمت بقوّات صغيرة للعدوّ فمزّقت شملها، ومهدت السبيل للجيش المعسكر في بانوبوليس، فزحف أحس على رأس جيش لم تشهد مصر له مثيلاً من قبل من عدده أو عدده، وأقلع أسطول أحس أبانا الجبار بسفنه المظفّرة. وفي طريق الزحف أبلغت العيون الملك أنّ جيش الرعاة معسكر في جنوب أفروديتوبوليس في جموع لا يحيط بها الحصر. ولم يكن يهّم الملك عدد الرعاة، ولكنّه سأل الحاجب حور قائلاً:

- ترى هل ما يزال لدى أبوفيس قوّة من العجلات

يلقانا بها؟

فقال حور:

- ما من شكّ يا مولاي في أنّ أبوفيس قد فقد

الفخمة. وأذن للرسل بالدخول، وكان المصريون لا يدرون ما يحملهم الرسل هذه المرّة فانتظروا مشوّقين. وجاء رسل ملك الرعاة وكانوا خليطاً من القوّاد والحجّاب في الثياب العسكرية والمدنيّة تسبقهم لحاهم المسترسلة، ولم يكن يبدو على وجوههم أيّ التحذّي والغلظة كما توقّع أحس، ولكنهم اقتربوا من مجلس الملك وانحنوا جميعاً في إجلال واحترام حتّى كاد الملك أن يعلن دهشته، وقال كبيرهم:

- حيّاك الربّ يا ملك طيبة، نحن رسل فرعون مصر السفلى والوسطى إليك.

فألقي أحس عليهم نظرة لا تدلّ على شيء ممّا يثور في نفسه، وقال بهدوء:

- حيّاكم الربّ يا رسل أبوفيس، ماذا تريدون؟

وبدا على الرسل الاستياء لإغفال الملك ألقاب مليكهم، ولكنّ زعيمهم قال:

- أيّها الملك نحن رجال حرب، في ميدانها نشأنا وعلى ستنها نعيش، شجعان بوسائل كما بلوتمونا، نعجب بالبطل وإن كان لنا عدوّاً، وننزل عند حكم السيف وإن كان علينا. ولقد انتصرت أيّها الملك واسترددت عرش مملكتك فحقّ لك ملكها كما حقّ علينا تسليمها، فهي مملكتك وأنت مليكها. وإنّ فرعون يقرّئك السلام، ويعرض عليك حقن الدماء وصلحاً شريفاً يحترم الحقوق ويوصل ما انقطع من علاقات المودة بين مملكة الجنوب ومملكة الشمال.

وأصغى الملك إلى الرسل في هدوء ظاهر ودهشة باطنة، ثمّ نظر إلى لسان القوم وسأله متعجباً:

- أجتتم حقاً تشدون سلاماً؟

فقال الرجل:

- نعم أيّها الملك.

فقال أحس بصوت يدلّ على العزم والحزم:

- إني أرفض هذا السلام.

- ولماذا تصرّ على الحرب أيّها الملك؟

فقال أحس:

- يا قوم أبوفيس.. لأوّل مرّة تخاطبون مصرياً باحترام، ولأوّل مرّة تنزلون مقهورين عن نعتة بصفات

الأخرى. وانقضت العجلات على مواقع الرعاة تملأ الجوّ أمامها سهامًا طائرة، فاخترقت الصفوف في مواضع كثيرة والرماة وراها يحمون ظهورها ويطاردون من يتفرّق من العدو فيقتلون ويأسرون. وقاتل الرعاة بما عرف عنهم من الشجاعة ولكنهم كانوا يتساقطون سقوط الأوراق الجافة تعرّضت لرياح الخريف العاتية. وسيطر المصريون على الميدان، وخشي أحسن أن يفلت أبوفيس من يده؛ فهاجم أفروديتوبوليس كما هاجم الأسطول شطآنها، ولكنه لم يجد أثرًا للرعاة داخل أسوارها ولا عثر بعدوه اللدود. ثم وافته العيون بأنّ أبوفيس فارق المدينة مع قوّات من جيشه بعد جثوم ليلة الأسس، وأنه ترك من ترك من رجاله ليعوقوا زحف المصريين، وقال حور للملك:

- لن تجدي المقاومة فتيلاً بعد اليوم، ولعلّ أبوفيس يجذّ الآن في طلب هواريس ليحتمي بأسوارها المنيعه. ولم يأسف أحسن طويلاً، وكان سروره بفتح بلداً من بلاد مصر التي حرم دخولها على قومه مائتي عام لا يعادله سرور، فاشتغل بتفقد أحوالها وأهلها عن كلّ شيء..

### - ٢٣ -

وتقدّم الجيش في زحفه العظيم لا يجد مقاومة ولا أثراً للعدوّ، يستقبله أهل القرى والبلدان ذاهلين من الفرح لا يصدّقون أنّ الآلهة رفعت عنهم غضبها بعد ذلّ قرنين من الزمان، وأنّ الذي يفتح بلدانهم ويطرد عنها عدوّهم ملك منهم يبعث يجد الفراعين من جديد. ووجد أحسن أنّ الرعاة قد فرّوا عن المدن تاركين قصورهم وضياعهم، حاملين ما وسعهم حمله من متاعهم وأموالهم؛ وسمع في كلّ مكان طرّقه أنّ أبوفيس نجّذ في الحرب بجيشه وقومه إلى الشمال، وهكذا استردّ الملك في شهر من الزمان: هبسيل، وليكوبوليس، وكوسي، ثم بلغ أخيراً هرموبوليس، وكان لدخولهم فيها وقع عظيم في نفس أحسن وجنوده، لأنّ هرموبوليس مسقط رأس الأمّ المقدّسة توتيشيري، وكانت ولادتها قبل عهد الاحتلال في بيتها

العدد الأكبر من فرسانه، ولو كان لديه قوّة منهم تستطيع أن تفصل في هذا العراك ما طلب الصلح ولا سعى إلى السلام، على أنّ الرعاة قد فقدوا ما هو أثمن من الفرسان والعجلات، فقدوا الثقة والأمل..

واستمرّ تقدّم الجيش حتّى دنا من معسكر عدوّه، ولاحت نذر المعركة في الأفق، وتأنّبت فرقة العجلات لخوض غمار المعركة بقيادة الملك. وصاح أحسن في القوادر قائلاً:

- سنقاتل على أرض حرم علينا وطؤها مائة عام وثيف؛ فلنضرب ضربة هائلة تضع حدّاً لآلام الملايين من إخواننا المستعبدين، ولنقدّم بقلوب شديدة البأس. فقد حيانا الربّ بالعدد والأمل، وخذل عدونا بالانقراض واليأس. وإني لعلّ رأسكم كما كان سيكنزع، وكما كان كاموس.

وأمر الملك طلائعه بالهجوم؛ فانقضت كالنصور الكاسرة، وتحفّز للهجوم وهو يراقبها ليرى كيف يلقاها العدو، فشهد قوّة من العجلات تقدّر بمائتي عجلة تردّ عليها الهجوم محاولة الإحداق بها. وكان الملك شديد الرغبة في القضاء على عجلات العدو فهاجم على رأس فرقة العجلات وانقضّ على العدو من جميع الجهات، وأدرك الهكسوس أنّ فرسانهم لا يمكن أن يثبتوا لقوّات تفوقهم أضغافاً؛ فكدف أبوفيس بكتائب من الرماة وحلة الرماح لتؤيّد عجلاته المحدودة. ودارت معركة شديدة، ولكنّ الرعاة لم تنفعهم شجاعتهم وقضي على قوّتهم الراكبة..

وبات الجيش ليكته.. وكان أحسن لا يدري أيلقاه أبوفيس بمشاته مستيئساً أم يفرّ بجيشه مؤثراً السلامة كما فعل في هيراكوبوليس. ووضح الأمر في الصباح حين رأى الملك جموع الرعاة تتقدّم لاحتلال مواقعها والقسيّ والرماح في أيديها، ورأهم حور فقال:

- الآن تدور الدائرة عليهم يا مولاي، ويتعرّض أبوفيس بمشاته لباس عجلاتنا كما تعرّض له مليكنا سيكنزع في جنوب كبتوس من لدن عشرة أعوام.

فانشرح صدر الملك، وتبيّن للهجوم بفرقة العجلات تؤيّدتها قوّات ختارة من الرماة وفرق الأسلحة

ذات الذكريات المجيدة وأخذت تلوح له أسوارها البيض السامقة؛ فظن أحس أن الرعاة سيدافعون عن عاصمة ملكهم دفاع المستميت. ولكن أخطأ ظنه ودخلت طلائعه المدينة في سلام، وعلم أن أبوفيس تقهر بجيشه نحو الشمال الشرقي؛ فدخل أحس طيبة الشمال في حفل شعبي لم يشهد له مثيلاً من قبل، واستقبله الأهليون استقبلاً حماسياً مهيباً، وسجدوا له ودعوه ابن مفتاح. ومكث الملك في منف عدة أيام زار ربوعها وشاهد أسواقها وأحياءها الصناعية، وطاف بالأهرام الثلاثة، وصلى في معبد أبي الهول، وقدم القرابين. فلم يكن سرور يعادل سرورهم بفتح منف إلا استرداد طيبة، وكان أحس يعجب كيف لا يدافع الرعاة عن منف، فقال له القائد محب:

- لن يتعرضوا مختارين لبأس عجلتنا بعد ما بلوها في هيراكونبوليس وأفروديتوبوليس.

وقال الحاجب حور بثقة:

- إن السفن لا تفتأ تأتي إلينا محملة بالعجلات والخياد من مقاطعات الجنوب، وليس أمام أبوفيس إلا الاهتمام بأسوار هواريس.

وتشاوروا جميعاً في الوجهة التي يولونها بعد أن انسطت رقعة الغزو أمامهم، فقال القائد ديب:

- لا شك أن العدو جلا عن الشمال كله وانحصر في الشرق وراء أسوار هواريس، فينبغي أن نقصد إليه بقواتنا كاملة.

على أن أحس كان شديد الحذر؛ فأرسل جيشاً صغيراً إلى الغرب عن طريق لنوبوليس، وسير آخر شمالاً في اتجاه أتريس، وسار بقواته الرئيسية وأسطوله العظيم شرقاً في طريق أون. وانطوت الأيام وهم يضربون في الأرض تدفعهم الحاسة والأمل أن يضربوا الضربة الأخيرة بحاسة، ويكثلوا كفاحهم الطويل بالنصر الحاسم، ودخلوا أون مدينة رع الخالدة ثم فاكوسة ثم فريبتص وضربوا في الطريق المؤدي إلى هواريس وكانت أخبار أبوفيس تترامى إليهم فعلموا أن الرعاة ارتدوا من جميع الجهات إلى هواريس يسوقون آلافاً من البائسين. وقد أحدثت هذه الأخبار في نفس

العتيد، فاحتفل أحس بتحريرها، واشترك في الاحتفال العظيم رجال الحاشية وقواد البر والبحر والجنود جميعاً، ثم كتب الملك إلى جده رسالة يهنئها باستقلال وطنها الأول هرموبوليس، ويضمها عواطفه وعواطف جنده وشعبه، وقد أمضاها الملك والقواد والحاشية وكبار الضباط.

ثم تقدم الجيش في زحفه المظفر؛ فدخل تنوى وسينوبولس وهبن ثم أرسنوى، وانحدر بين الأهرام في طريق منف العظيمة غير عابئ بمشاق السفر وطول الطريق. وكان أحس في أثناء ذلك يحطم الأغلال التي يرسف فيها شعبه البائس، وينفخ فيه من روحه الكبيرة حياة جديدة، حتى قال له حور يوماً:

- إن عظمتك الحرية يا مولاي لا يضارعها شيء في الوجود سوى مقدرتك السياسية وحنكك الإدارية، لقد غيرت معالم البلدان فمحوت أنظمة وأنشأت أنظمة، ورسمت السبل التي ينبغي انتهاجها والسنن التي يجب اتباعها، ولّيت الحكام الوطنيين، فدبت الحياة مرة أخرى في شرايين الوادي، وشاهد الناس أول مرة منذ عهد غابر حكاماً مصريين وقضاة مصريين، فارتفعت الرؤوس المنكسة، ولم يعد الرجل يعيا بسمرة ويعير بها. بل صارت موثله ومفخرته. . . ألا فليحفظك الرب آمون يا حفيد سيكنرع.

كان الملك يعمل مخلصاً مجاهدًا لا يعرف اليأس ولا التعب، وكانت غايته التي لا يتحول عنها أن يرد إلى قومه الذين اختصرهم الذل والجوع والفقر والجهل، العزة والشيع والرغد والعلم.

على أن قلبه لم ينج على كده وانهاكه من همومه الخاصة، فعناه الهوى وأعيته الكبرياء، وكان كثيراً ما يضرب الأرض بقدمه ويقول لنفسه: ولقد خدعت. . . وما هي إلا امرأة بلا قلب. وكان يرجو من العمل أن يغمره بالنسيان والعزاء ولكنّه وجد روحه تسري بالرغم منه إلى تلك السفينة التي يعابثها الموج في مؤخرة أسطوله. . .

والانتظار في غير أمل، وأهوال الجؤ وتقلباته. وفيما كان يجول حول الحصن خطر له خاطر فدعا رجاله إلى خيمته ليشاورهم في الأمر. وقال لهم:

- أشيروا عليّ، فإنّي أرى الحصار ضياعًا للعمير وتبديدًا للقوى، وأرى الهجوم ضربًا من العبث وانتحارًا صريحًا، ولعلّ العدو يتمنى أن نكرّ عليه ليصيد رجالنا البواسل أو يوقعهم في خناده. . فما الرأي؟

فقال القائد ديب:

- الرأي يا مولاي أن نحاصر الحصن بجزء من قوّاتنا، ونعتبر الحرب متهمية عند ذاك؛ ثمّ تعلن استقلال الوادي وتباشر واجبك كفرعون مصر المتّحدة.

ولكنّ حور اعترض على الفكرة قائلاً:

- وكيف تترك أبوفيس آمنًا يدرّب رجاله ويمجّد عجلاته ليكرّ علينا فيما بعد؟

فقال القائد محب بحماسة:

- لقد دفعنا ثمن طيبة غاليًا، والكفاح بدل وفداء، فلماذا لا نؤدّي ثمن هواريس ونهجم كما هجمنا على حصون طيبة؟

فقال القائد ديب:

- نحن لا نضنّ بنفوسنا، ولكنّ الهجوم على أربعة أسوار ضخمة تفصل بينها خنادق ملأى بالماء، تهلكة لجنودنا بلا ثمن. . .

وكان الملك صامتًا متفكّرًا، فقال وهو يشير إلى النهر الجاري تحت سور المدينة الغربي:

- إنّ هواريس حصينة لا تؤخذ ولا تهجم، ولكنّها قد تظلم. . .

فنظر الرجال إلى النهر وبدت على وجوههم الدهشة، وقال حور بذهول:

- كيف تظلم هواريس يا مولاي؟

فقال أحس بهدوء:

- بأن نحول عنها مياه النيل. . .

فنظر الرجال مرّة أخرى إلى النيل وهم لا يصدّقون

الملك حزنًا شديدًا، ورقّ لحال أولئك الأسرى المستنّلين الذين سقطوا في قبضة الرعاة القاسية.

وأخيرًا لاحت في الأفق أسوار هواريس الهائلة كالجبال الصخرية، فصاح أحس:

- هذا آخر حصن للراعة في مصر.

فقال له حور وهو ينظر إلى الحصن بعينه الضعيفتين:

- حطّم أبوابه يا مولاي يخلص لك وجه مصر الجميل. .

## - ٢٥ -

وكانت هواريس تقع شرق فرع النيل، ويمتدّ سورها شرقًا مسافة ينقطع دونها البصر. وكان كثير من الأهليين يعرفون المدينة المحصّنة ومنهم من عملوا داخلها أو في أسوارها، فقالوا للملكهم: إنّهُ يحيط بالمدينة أربعة أسوار ضخمة غليظة دائرية، يليها خندق محيط يجري فيه ماء النيل، وإنّ بالمدينة حقولًا شاسعة تكفي حاجة أهلها جميعًا، وجلّهم جنود ما عدا المزارعين المصريين، وتسقي المدينة جداول تأخذ من فروع النيل تحت السور الغربي وفي حمايته، وتتّجه شرقًا نحو المدينة.

وقد وقف أحس ورجاله جنوب الحصن الهائل يقبّلون وجوههم حيارى في الأسوار العظيمة المترامية، بدت الجنود في ذراها كالأقزام. وضرب الجيش خيامه، وامتدّت صفوف الجند بحذاء السور الجنوبي، وتقدّم الأسطول في النهر غربيّ السور الغربيّ بعيدًا عن مرمى سهامه للمراقبة والحصار، وكان أحس يستمع إلى أقوال الأهليين عن الحصن، ويفحص الأرض المحيطة به والنهر الجاري غربه وعقله لا يفي عن التفكير. وفي أثناء ذلك سير قوّات راكبة ومشاة إلى القرى المحيطة بالمدينة، فاستولت عليها دون عناء، وأضحى حصاره للحصن كاملاً في زمن يسير؛ ولكنّه كان ورجاله يعلمون أنّ الحصار عقيم، وأنّ المدينة مستغنية بنفسها عمّا عداها، وأنّ الحصار لو امتدّ أعوامًا لن يؤثّر فيها شيئًا؛ وسيبقى هو وجيشه يعانيان الملل



«مولاي ابن آمون. فرعون مصر العليا والسفلى،  
حفظه الرب وأيده بالنصر والفوز. إنَّ دابور الصغيرة  
اليوم جئة من جنات السعادة والأفراح بفضل ما حمله  
إليها رسلك من أنباء النصر المبين الذي فتح به الرب  
عليك، وإنَّ انتظارنا اليوم في دابور غير انتظارنا  
بالأمس؛ لأنه محفوف بالعزاء وأدنى إلى الرجاء والأمل،  
وما أسعدنا جميعاً أن نعلم أنَّ مصر حررت من الهوان  
والعبودية، وأنَّ عدوها ومُذَمِّها حبس نفسه بين جدران  
حصنه، ينتظر خائفاً القضاء الذي تقضي به عليه..  
وقد شاء الربّ القدير أن يجيئك - أنت الذي أذلت  
عدوه، وأعليت كلمته - بعطفه ورحمته، فرزقك بغلام  
نوراً لعينيك وولياً لعهدك، دعوته أمنتك تبركاً بالربّ  
المعبود، وقد تلقّيته بيدي كما تلقّيت أباه وجده وجدَّ  
أبيه من قبل، وقلبي يحدّثني بأنّه سيكون وليّ عهد  
مملكة عظيمة متعدّدة الأجناس واللغات والأديان،  
يرعاها أبوه الحبيب..».

وخفق قلب أحس خفقان الأبوة ودرّت أضلعه  
الحنان، وفرح فرحاً عظيماً أنساه بعض ما يعاني من  
آلام الهوى المكبوت، وأذن رجاله بمولد وليّ عهده  
أمنتك فكان يوماً مشهوداً.

#### - ٢٧ -

ومضت الأيام بطيئة ثقيلة ولكنّها حافلة بجلائل  
الأعمال التي اشتركت في إنجازها أكبر العقول وأشدّ  
السواعد وأعلى الهمم؛ وكانوا جميعاً لا يبالون مشقة  
العمل ولا انقضاء الزمن ما دام يدنيههم إلى أملمهم  
الأسمى وهدفهم الأعلى، ولكن حدث ذات يوم وكان  
مضى على الحصار عدّة أشهر أن رأى الحراس عجلة  
قادمة ناحية الحصن وعلى مقدّمها يخفق علم أبيض،  
فاستقبلها بعض الحراس ووجدوا بها ثلاثة رجال من  
الحجاب؛ فسألهم عن وجهتهم فقال كبيرهم: إنهم  
رسل الملك أبوفيس إلى الملك أحس. وطير الحراس  
النبأ إلى الملك؛ فعقد الملك مجلساً من حاشيته وقّاده  
في سرادقه، وأمر بإدخال الرسل إليه. وجيء بالرجال

أنّه يمكن تحويل هذا النهر العظيم من مجراه، وتساءل  
حور:

- هل يمكن القيام بهذا العمل الجبار؟

فقال أحس:

- لا يعوزنا المهندسون ولا العمال..

- وكم يقتضينا من الوقت يا مولاي؟

- عاماً أو عامين أو ثلاثة أعوام.. ماذا يهمّ الزمن ما

دامت هذه هي الوسيلة الوحيدة. ينبغي أن يتحوّل  
النيل شمال فربتس إلى مجرى جديد يتجه غرباً نحو  
مندس، كي يختار أبوفيس بين الموت جوعاً وظمأً أو  
الخروج لقتالنا. وسيفغر لي شعبي أنّي عرضت من في  
هواريس من المصريين للخطر والهلاك. كما غفر لي أنّي  
فعلت ذلك ببعض نساء طيبة..

#### - ٢٦ -

وتيمناً أحس للعمل العظيم فاستدعى مهندسي طيبة  
المشهورين، وعرض عليهم فكرته فتوقروا على دراستها  
باهتمام وشغف، ثم قالوا للملك: إن فكرته ممكن  
تنفيذها على شرط أن يفسح لهم من الزمن ويمدّهم  
بآلاف العمال. وعلم أحس أنّ مشروعه لن يتحقّق  
قبل مضيّ عامين فلم يركن إلى اليأس، ولكنّه بعث  
بالرسل إلى البلدان يحثّون على التطوّع في العمل  
العظيم المنوط تحرير الوطن وطرد عدوه بتحقيقه. وجاء  
العمال جماعات من جميع الأنحاء حتّى اجتمع منهم عدد  
يكفي للبدء في العمل، وافتتح الملك المشروع العظيم  
فأمسك فأساً وضربه في الأرض معلناً ابتداء العمل.  
فتبعته السواعد المقتولة التي تكذّ على سجع الأناشيد  
والأغاني.

ولم يكن أمام الملك وجيشه سوى الانتظار الطويل،  
وكان الجنود يقومون بتدريهم اليوميّ تحت إشراف  
الضباط والقوّاد، أمّا الملك فكان يزجي فراغه بالخروج  
إلى الصحراء الشرقية طلباً للصيد والطراد والسباق،  
وفراراً من نوازع قلبه ونزوات هواه، وفي فترة الانتظار  
هذه حمل إليه رسول رسالة من الأمّ المقدّسة توتيشيري  
قالت فيها:

يكن الجواب حاضرًا ولا تَمَّا تسعف فيه البداة، فقال للرسول:

- هَلَّا انتظرت حتى نقطع برأيي؟ ..

فقال الرسول:

- كما تشاء أيها الملك، فقد أمهلني مولاي نهار اليوم.

- ٢٨ -

واجتمع الملك برجاله في مقصورة السفينة الفرعونية وقال لهم:

- أشيروا عليّ برأيكم ..

وكانوا جميعًا على رأي بغير تشاور ولا اتفاق. فقال حور:

- مولاي لقد انتصرت على الرعاة في مواقع كثيرة وأقروا لك بالنصر ولأنفسهم بالهزيمة، فمحوت بذلك آثار الهزائم التي ابتلينا بها في ماضينا الأسيف، وقتلت منهم خلقًا كثيرين فانتقمتم لقتل قومك البائسين. فلا تثريب علينا الآن أن نشترى حياة ثلاثين ألفًا من رجالنا، ونوفر على أنفسنا بدلًا للنفوس لا يدعو واجب إليه، ما دام عدونا سيجلو عن بلادنا مغلوبًا على أمره، وسيحزّر وطننا إلى الأبد.

وقلب الملك عينيه في وجوه قومه فوجد منهم حماسة إجماعية لقبول الفكرة. وقال القائد ديب: لقد أدى كلّ جنديّ من جنودنا واجبه كاملاً، وإن ارتداد أبوفيس إلى الصحراء هو أشدّ نكالاً من ذوق الموت. . .

وقال القائد محب:

- إن هدفنا الأسمى تحرير الوطن من حكم الرعاة وإجلاؤهم عن ربوعه؛ وقد يسّر لنا الربّ ذلك فلا يجوز أن نطيل عهد الذلّ باختيارنا.

وقال أحس أبانا:

- إننا نشترى حياة ثلاثين ألفًا من الأسرى بالأميرة الأسيرة وشرذمة من الرعاة.

واستمع الملك من رجاله باهتمام شديد وقال:

- نَعَمْ الرأي، ولكنّي أرى أن ينتظر رسول أبوفيس

يسرون في تواضع وانكسار وقد ذهبت عنهم الخيلاء والكبر وبدوا كأنهم من غير قوم أبوفيس، وانحنوا بين يدي الملك وحيّاه كبيرهم قائلاً:

- حيّاك الربّ أيها الملك.

فردّ عليه أحس قائلاً:

- وحيّاكم يا رسل أبوفيس. . . ماذا يريد ملككم؟

فقال الرسول:

- أيها الملك، إنّ رجل السيف مغامر ينشد النصر ولكن قد يدركه الموت، ونحن رجال حرب وقد مكنتنا الحرب من وطنكم فحكمناه قرنين أو يزيد كنّا فيها السادة المعبودين، ثمّ قضى علينا بالهزيمة فغلبنّا على أمرنا وأجبرنا على الاعتصام بقلعتنا، ونحن أيها الملك رجال أشداء نقدر على تحمّل الهزيمة كما قدرنا على جني نهار النصر. . .

فقال أحس غاضباً:

- أرى أنّكم أدركتم ما يعنيه هذا المجرى الجديد الذي يحفره قومي فجشتم تستعطفون.

فهزّ الرجل رأسه الضخم وقال:

- كلّ أيها الملك، نحن لا نستعطف أحداً ولكنّا نفرّ بالهزيمة، وقد أرسلني مولاي لأعرض عليك أمرين تختار منهما ما تشاء: فإنما الحرب إلى النهاية، وفي هذا الحال لن ننتظر وراء الأسوار حتى نموت جوعاً وعطشاً، ولكنّا سنقتل الأسرى من قومك وهم يزيدون على ثلاثين ألفاً، ثمّ نقتل نساءنا وأطفالنا بأيدينا ونحمل على جيشك في ثلاثمائة ألف مقاتل ما منهم إلّا كاره للحياة متعطش للانتقام.

وسكت الرجل ريثما يجمع أنفاسه ثمّ استدرك قائلاً:

- وإما أن تردّوا لنا الأميرة أمنريدس والأسرى من قومنا وتؤمّنونا على أرواحنا وأموالنا ومتاعنا، فنردّ لكم رجالكم ونخلي هواريس، ونولي وجوهنا شطر الصحراء التي جثنا منها، تاركين لكم بلادكم كما تشاءون؛ وبذلك ينتهي الصراع الذي استمرّ قرنين من الزمان.

وسكت الرجل، فعلم الملك أنّه ينتظر جوابه، ولم

- أحقّ ما تقول؟ .. أحقّ ما نقول؟  
 - إنّ ما أقول حقّ واقع.  
 فأضاء وجهها وتورد خدّاه، ثمّ تردّدت هنيهة وتساءلت:  
 - ولكن كيف كان ذلك؟  
 - آه إنّني أقرأ في عينيك آمالك الطموح، ألسنتي تتمنّين أن يكون انتصار أبيك هو الذي ردّ إليك حرّيتك؟ .. إنّني أقرأ هذا، ولكنّها هزيمته والأسفاه التي أنهت عبوديتك.  
 فعقلت لسانها ولم تنبس بكلمة. فأخبرها باقتضاب بما عرض عليه رسول أبيها وما تمّ الاتفاق عليه، ثمّ قال: وعيّا قليل ثمّحمّلين إلى أبيك. وترحلين معه إلى حيث يرحل، فمبارك عليك هذا اليوم.  
 فاكتنفت وجهها ظلال الحزن وجمدت أساريرها وغضّت طرفها، فسألها أحسن:  
 - أتمجدين حزنك للهزيمة أكبر من فرحك لحرّيتك؟  
 فقالت:  
 - يجدر بك ألاّ تشمت بي، فستغادر بلادكم كرامًا كما عشنا فيها كرامًا.  
 فقال أحسن بجزع ظاهر:  
 - لست أشمت بك أيّتها الأميرة، فقد ذقنا مرارة الهزيمة من قبل وعلمتّا الحروب الطويلة أن نشهد لكم بالشجاعة والبالسة.  
 فقالت بارتياح:  
 - شكرًا لك أيّها الملك. . .  
 وسمعها لأوّل مرّة تتكلّم بلهجة خالية من الغضب والكبرياء، فتأثّر وقال لها وهو يتسم ابتسامة حزينة:  
 - أراك تدعيني ملكًا أيّتها الأميرة؟  
 فقالت وهي تغضّ بصرها:  
 - لأنّك ملك هذا الوادي دون شريك، أمّا أنا فلن أدعي أميرة بعد اليوم.  
 فازداد تأثّر الملك ولم يكن يتوقّع أن تلين شكيمتها على هذا النحو. . . ظنّ أنّها تزداد بالهزيمة صلفًا، فقال بحزن:  
 - أيّتها الأميرة، إنّ ذكريات الدنيا سجلّ اللذة بلهفة: .

فترة أخرى حتّى لا يظنّ إسراعنا إلى موافقته على الرأي السلميّ لضعف أو ملل الكفاح.  
 وغادر الرجال السفينة وخلا الملك إلى نفسه، وكان على توافر دواعي الابتهاج له كثيًّا ضيق الصدر. لقد كلّل كفاحه بالفوز المين وجثا له عدوّه الجبار، ومن الغد يحمل أبوفيس متاعه ويفرّ إلى الصحراء التي جاء منها قومه خاضعًا لإرادة القضاء الذي لا يردّ. فما باله لا يفرح ولا يبتهج؟ أو ما بال فرحه ليس صافيًا وابتهاجه ليس كاملاً؟ . . لقد حمت الساعة الخطيرة، ساعة الوداع إلى الأبد. كان قبل تلك الساعة الخطيرة يائسًا حقًا، ولكنّها كانت هناك في السفينة الصغيرة. فإذا يفعل غدا إذا رجع إلى قصر طيبة ومُحلت هي إلى بطن الصحراء المجهولة؟ أتركها تذهب دون أن يتزوّد منها بنظرة وداع؟ . . وأجاب قلبه أن لا. وحطّم أغلال التجلّد والكبرياء، وقام واقفًا وفارق المقصورة، وأخذ زورقًا إلى سفينة الأميرة الأسيرة وهو يقول لنفسه: «مهما يكن من استقباليها فسأجد ما أقوله». وصعد إلى السفينة ومضى إلى المخدع فحيّاه الحراس وفتحوا له. واجتاز الباب خافق الفؤاد، وألقى نظرة على المخدع الصغير البسيط فرأى الأسيرة جالسة في الصدر على ديوان، والظاهر أنّها لم تكن تتوقّع عودته فبدت على عيّاها الجميل الدهشة والإنكار. وتفحصها أحسن بنظرة عميقة فوجدها جميلة كعهد بها، ورأى ملاحها كيوم حفرّت في قلبه على ظهر السفينة الفرعونيّة، فعضّ شفته وقال لها:  
 - أنعمي صبايحًا أيّتها الأميرة.  
 فرفعت إليه عينين لم تذهب منها الدهشة وكأنّها لا تدري بماذا تجيب. ولم يطل انتظار الملك فقال بصوت هادئ وبلهجة لا تدلّ على شيء:  
 - أنت منذ اليوم طليقة أيّتها الأميرة.  
 فلاح في وجهها أنّها لا تفهم شيئًا، فعاد يقول:  
 - ألا تسمعين ما أقول؟ أنت منذ هذه الساعة طليقة حرة. انتهى أسرك أيّتها الأميرة وأصبحت الحرّة حقًا لك.  
 فازدادت دهشتها ولاح الرجاء في عينيها. فقالت بلهفة: .

والألم، وقد بلوتم الحياة حلوها ومرّها ولا يزال أمامكم غد.

فقال بطمأنينة عجيبة:

- نعم أمامنا غد وراء سراب الصحراء المجهولة،  
وسنلقى حظنا ببسالة...

وساد الصمت، والتقت عيناها، فقرأ في عينيها الصفاء والرقّة، فذكر صاحبة المقصورة التي أنقذت حياته من الموت وسقته رحيق المرقّة والحنان، وكأنّه يراها لأول مرّة بعد ذاك العهد الطويل، فزلزل فؤاده وقال بجذّ وجزع:

- عمّا قليل يفرّق بيننا الين ولن تبالي ذلك، ولكنّي سأذكر دائماً أنّك كنت معي فظة غليظة...

فلاح في عينيها الحزن وافتّر ثغرها عن ابتسامة خفيفة وقالت:

- أيّها الملك إنّك لا تعرف عمّا إلّا القليل.. نحن قوم الموت أروح لنفوسهم من الهوان.  
- لم أرد بك الهوان قط.. ولكن غرّني الأمل إدلالاً بمنزلة كنت أظنّها لي عندك.

فقال بصوت خافت:

- أليس من الهوان أن أفتح ذراعيّ لآسري وعدوّ أبي؟..

فقال بمروءة:

- إنّ الحبّ لا يعرف هذا المنطق...

فلاذت بالصمت، وكأنّها أمنت على قوله فتمتعت بصوت خافت لم يسمعه: «لا ألومنّ إلّا نفسي». ورنّت بعينيها رنوّاً نائهاً، وبحركة فجائية مدّت يدها إلى وسادة فراشها وأخرجت من تحتها العقد ذا القلب الزمرديّ ووضعت حول عنقها بهدوء واستسلام. وتتبعها بعينين لا تصدّقان، ثمّ ارتقى إلى جانبها غير متمالك، وأحاط عنقها بذراعه وضمّها إلى صدره بجنون وعنف، ولم تقاومه ألبةً، ولكنّها قالت بحزن:

- حذار.. لقد فات الأوان.

فاشتدّ ضغط ذراعيه حولها وقال بصوت متهلّج:

- أمرئيدس.. كيف هان عليك أن تقولي هذا؟..

بل كيف لا أكتشف سعادتي إلّا حين وشك زوالها؟..  
كلّا لن أدعك تذهين.

فرنت إليه بعطف وإشفاق وقالت له:

- وماذا أنت فاعل؟

- سابقيك إلى جانبي..

- ألا تدري بما يقتضيه بقائي إلى جانبك؟.. هل تجود من أجلي بثلاثين ألف أسير من قومك وبأضعافهم من جنودك؟

فعبس وجهه وأظلمت عيناه وتمتم قائلاً وكأنّه يحدث نفسه:

- لقد استشهد أبي وجدي في سبيل قومي ووهبتهم حياتي، فهل يضنّون على قلبي بالسعادة؟  
فهزّت رأسها أسفاً وقالت برقة:

- أصغ إلى يا اسفينيس، ودعني أدعك بهذا الاسم العزيز لأنّه أوّل اسم أحبّه في دنياي، ما من الفراق بدّ.. سنفترق.. سنفترق.. فأنت لا ترضى بالجود بثلاثين ألف أسير من قومك الذين تحبّهم، ولا أنا أَرْضى بتقتيل أبي وقومي. فليتحمل كلّ منّا نصيبه من الألم.

فنظر إليها بذهول وكأنّه يابى أن يكون كلّ نصيبه من الحبّ أن يرضى بالفراق وتحمل الألم، وقال لها برجاء:

- أمرئيدس، لا تتعجّلي اليأس وأشفقي من ذكر الفراق. فإنّ جريه على لسانك في يسر يبعث الجنون في دمي.. أمرئيدس.. دعيني أطرق جميع الأبواب حتّى باب أبيك، فما يكون لو طلبت إليه يدك؟  
فابتسمت ابتسامة حزينة وقالت وهي تمسّ يده برفق:

- وأسفاه يا اسفينيس أنت لا تعي ما تقول، هل تظنّ أبي يقبل أن يزوّج ابنته من الملك المظفر الذي قهره وقضى عليه بالنفي من البلاد التي ولد فيها وترنّع على عرشها؟.. أنا أعرف بأبي منك فليس ثمة فائدة ترجى، وما من وسيلة سوى الصبر..

وأصغى إليها ذاهلاً وكان يتساءل: «أحقّ أنّ التي تتكلّم بهذا الصوت الخافت المنكسر الحزين هي الأميرة

تبقى لي من حيي؟». وكانت سلسلة العقد الزمردى هي التي تبقت له من حبه، أهدتها إليه الأميرة تذكاً واحتفظت بالقلب لنفسها. وركب الملك عجلته ومضى إلى معسكر جيشه، واستقبله رجاله وعلى رأسهم الحاجب حور وكان يخلط من موله نظرات قلقة مشفقة، وقصد الملك إلى السراق ودعا برسول أبوفيس وقال له:

- أيها الرسول لقد درسنا بإمعان ما عرضته علينا. ولما كانت غايي أن أحرر وطني من سيطرتكم وهو ما رضيت به، فقد اخترت الحل السلمي حقاً للدماء. ومستبادل الأسرى في الحال، ولكنني لن أمر بالكف عن العمل حتى يغادر آخر رجل منكم هواريس، بذلك تطوى هذه الصفحة السوداء في تاريخ بلادي.

فأحنى الرسول رأسه وقال:

- نعم الرأي الذي رأيت أيها الملك، فإن الحرب إذا لم تكن لغاية تستوجبها صارت تقتيلاً وتذبيحاً. فقال أحس:

- الآن سأترككم لتبحثوا معاً في تفاصيل التبادل والإجلاء.

وقام الملك فقام الجميع وقوفاً وانحنوا له إجلالاً، فحيّاهم بيده وغادر المكان.

- ٣٠ -

وفي مساء ذلك اليوم تم تبادل الأسرى؛ ففتح باب من أبواب هواريس وخرجت منه جماعات الأسرى نساء ورجالاً، وكانوا يهتفون للميكم مسرورين ويلوحون بأيديهم، وذهب الأسرى الرعاية وعلى رأسهم الأميرة أمريدس إلى المدينة في سكوت ووجوم. وفي غداة اليوم الثاني بكر أحس وحاشيته إلى هضبة قريية تشرف على أبواب هواريس الشرقية ليشهدوا خروج الرعاية من آخر مدينة مصرية، وكانوا لا يخفون جذهم، وتتألف وجوههم بنور الفرح والابتهاج، وكان القائد محب يقول:

- عاً قليل يأتي حيتاب أبوفيس بمفاتيح هواريس ليسلموها إلى جلالة الملك، كما سلمت مفاتيح طيبة إلى أبوفيس قبل أحد عشر عاماً.

أمريدس التي لم تكن الدنيا تسعها جنوناً واستهتاراً وكبراً؟. وبدا لعينه كل شيء غريباً منكراً، فقال بغضب:

- إن أصغر جندي من جنودي لا يهمل قلبه ولا يسمح لإنسان بأن يفرق بينه وبين من يحب..

- أنت ملك يا مولاي، والملوك أعظم الناس متعة وأقلهم واجباً، كالشجرة الباسقة أوفى من الحشائش نصيباً من شعاع الشمس ونسائم الهواء، وأكثر تعرضاً لثورة الريح واقتلاع الزوابع. فإن أحس قائلاً:

- آه ما أشقائي.. لقد أحبيتك منذ أول لقاء في سفيني..

فخفضت عينها وقالت ببساطة وصدق:

- وطرق الحب قلبي في ذلك اليوم عنه، ولكني لم أكتشفه إلا فيما بعد. وتيقظت عواظمي ليلة أجبرك القائد رخ على مبارزته فدلني إشفافي على دائي، وبت ليلى حائرة مضطربة لا أدري ماذا أصنع بهذا المولود الجديد.. حتى غمرني السحر بعد ذلك بأيام ففقدت وعيي..

- في المقصورة؟. أليس كذلك؟

- نعم.

- أواه.. كيف تكون حياتي بدونك.

- تكون كحياتي بدونك يا إسفينيس.

فضمها إلى صدره وألصق خده بخدها كأنه يخال أن التصاقها ييش منها شبح الفراق المائل أمامها. وكان يكبر عليه أن يكتشف حبه ويودعه الوداع الأخير في ساعة واحدة. وطرق كل سبيل من الفكر يبغى حلاً فاعترضه اليأس والقهر، وكانت غاية سعيه أن يشد حولها ذراعيه. وأحس كل منها أنه أن أن يفصلاً، ولكن لم يترك أحدهما ساكناً فلبثا كشيء واحد.

- ٢٩ -

وغادر أحس سفينة الأسيرة لا تكاد تحمله قدماء، وكان ينظر إلى شيء في كفه ويتمتم قائلاً: وأهذا كل ما

وجاء الحجاب كما قال القائد محب، وقدموا إلى أحسن صندوقاً من خشب الأبنوس رصّت به مفاتيح هواريس، فستلمه الملك وأعطاه حاجبه الأكبر، وردّ تحية الرجال الذين عادوا من حيث أتوا في سكون وصمت.

ثمّ فتحت الأبواب الشرقية على مصاريعها فدوى صريرها في جنبات الوادي، فتطلّع أصحاب الهضبة صامتين. وبرزت أولى جماعات الخارجين، وكانت من الفرسان المدججين بالسلاح قدمها أبوفيس لاستطلاع الطريق المجهول، وتبعها جماعات النساء والأطفال يمتطين منون البغال والحمير وبعضهنّ يحملن في الهودج، وقد استغرق خروجهنّ ساعات طويلة. ثمّ بدا ركب عظيم تحيط به الفرسان من رجال الحرس تتبعه عربات كثيرة تجرّها الثيران، فعلم الناظرون أنّه أبوفيس وآل بيته، وقد خفق فؤاد أحسن لمراه وقاوم دمة حريّ أحسن انتزاعها من حناياه، وتساءل: ترى في أيّ مكان هي؟ وهل تجدّ في البحث عنه كما يجيّد في البحث عنها؟.. وهل تذكره بمثل ما يذكرها به؟.. وهل تكتم دمعها كما يكتم دمعها؟ وتابع الركب بناظره لا يلتفت إلى الجنود المتدفقة على أثره من جميع الأبواب، وما زال يتبعهم ببصره وفؤاده ويحوم حولهم بروحه حتى غيّبهم الأفق وابتلعهم الغيب...

واستيقظ الملك على صوت حور وهو يقول:

- في هذه الساعة الخالدة تسعد روح ملكنا سيكنترع وبطلنا المجيد كاموس، ويكلّل كفاح طيبة التي لا تعرف اليأس بالفوز المين.

ودخل جيش الخلاص هواريس الجبارة واحتلّ أسوارها المنيعه، وبات فيها حتى فجر الغداة، وزحف أحسن بفرقة العجلات شرقاً تتقدّمه طلائعه فدخل تنيس ودفي، وهناك جاءته العيون وهنّاته بجلاء آخر رجل من الرعاة عن أرض مصر. فعاد الملك إلى هواريس، وأمر أن يصليّ الجيش صلاة جامعة للربّ آمون؛ وانتظمت الفرق المختلفة وعلى رأس كلّ فرقة ضباطها وقائدها، وعلى رأس الجميع الملك وحاشيته، ثمّ جثوا جميعاً في خشوع وصلّوا للربّ صلاة حازة.

وختم أحسن صلاته بأن دعا ربّه قائلاً:

- أحمدك وأشكر لك أيّها الربّ المعبود، فقد وصلت جناحي وثبتّ قلبي، وأكرمتني ببلوغ الغاية التي استشهد في سبيلها جدي وأبي، فاللّهمّ ألهمني الصواب وأيدني بالعزم والأمل لأضمّد جراح شعبي، وأجعله خير عابد لخير معبود...

ثمّ دعا أحسن رجاله إلى الاجتماع به فلبّوا سراعاً، فقال لهم:

- اليوم تنتهي الحرب فيجب أن نغمد سيوفنا، ولكنّ الكفاح لم ينته أبداً. وصدّقوني إنّ السلام أكبر من الحرب حاجةً إلى يقظة النفوس وتوثّب العزائم، فأعيروني قلوبكم لنبحث مصر بحثاً جديداً.

ونظر الملك في وجوه رجاله قليلاً ثمّ استطرد:

- وقد رأيت أن أبداً كفاح السلام باختيار أعواني المخلصين؛ لذلك أعهد إلى حور بالوزارة.

وقام حور إلى مولاه وجثا أمامه وقبل يده، فقال الملك:

- وأرى أنّ سنب خير خلف لحور في قصري. أمّا ديب فهو رئيس الحرس الفرعوني.

ونظر الملك إلى عب وقال:

- وأنت يا عب قائد جيشي العام.

ثمّ التفت إلى أحسن أبانا وقال:

- وأمّا أنت فقائد الأسطول، وستردّ إليك ضياع أيبك القائد الباسل ببني.

ووجّه الملك كلامه إلى الجميع قائلاً:

- والآن عودوا إلى طيبة عاصمة ملكنا ليؤدّي كلّ واجبه.

وتساءل حور قلماً:

- ألا يعود فرعون على رأس جيشه إلى طيبة؟

فقال أحسن وهو يهيمّ قائماً:

- بل ستقلع بي سفيتي إلى دابور لأزف بشري النصر إلى أسرتي ثمّ أعود معها إلى طيبة، فندخلها جميعاً كما تركناها جميعاً...

فتهلّل وجه توتيشيري وومضت عينها الكليلتان  
وقالت بفرح:

- اليوم يفكّ أسرنا ونعود إلى طيبة فأجدها كعهدي  
بها مدينة المجد والسيادة، وأجد حفيدي على عرش  
سيكتنزع يصل ما انقطع من حياة أمنمحيث المجيدة.  
وجاءت وصيفة الملكة السيّدة راي تحمل وليّ العهد  
بين ذراعيها، فانحنى للملك وقالت:

- مولاي قبل طفلك الصغير ووليّ عهدك  
أمنحتب..

فلانت نظرة عينيه ودوّت حناياه حنافاً دفاًفاً، وأخذ  
الصغير بين ذراعيه وأدناه من فمه حتّى التصقت به  
شفاه المشوكتان، وابتسم أمنحتب إلى أبيه وعابه يديه  
الصغيرتين...

ثمّ دخلت الأسرة الفرعونية الدار تشملها السعادة  
والطمأنينة، فخلصوا إلى أنفسهم يتسامرون  
ويتذكرون أيامهم...

### - ٣٢ -

وحمل الجنود متاع الأسرة إلى السفينة الفرعونية، ثمّ  
انتقل الملك وآله إليها وخرج لوداعهم الحاكم رؤوم  
وأعضاء حكومته وأهالي دابور جميعاً. وقبل أن ترفع  
السفينة مراسيها، دعا أحسن رؤوم وقال له على مسمع  
من رجاله:

- أمّا الحاكم الأمين؛ أوصيك خيراً بالنوبة وأهل  
النوبة، فالنوبة كانت مهجرنا حين ضاقت بنا الدنيا،  
ووطننا إذ لا وطن لنا، ومأوانا حين عزّ النصير ومات  
الصدّيق، ومذخر عتادنا وجنودنا كما دعا الداعي إلى  
الكفاح. فلا تنسّ صنيعها، ولتكن منذ اليوم مصر  
الجنوب لا نحرماً شيئاً نتمناه لنفسنا ونذود عنها ما  
نكره لها..

ثمّ أقلعت السفينة وأقلعت وراءها سفن الحراسة  
تشقّ طريقها نحو الشمال تحمل قوماً تهفو نفوسهم إلى  
مصر وأهلها.. وبلغت السفينة حدود مصر بعد رحلة  
قصيرة، فاستقبلت استقبالاً رائعاً، وخرج إليها رجال  
الجنوب في سفينة الحاكم شاو، وأحاطت بها زوارق

### - ٣١ -

وأقلعت السفينة الفرعونية في حراسة ثلاث سفن  
حربية، وكان أحسن ملازمًا المقصورة ينظر إلى الأفق  
البعيد بوجه جامد وعينين غارقتين في الحزن  
والأسى... واستغرقت الرحلة أياماً ثمّ لاحت دابور  
الصغيرة بأكواخها المتناثرة، ورسا الأسطول على  
شاطئها عند الأصيل، وغادره الملك وحرسه في ثيابهم  
الجميلة فجدبوا الأنظار وهرع إليهم جمع من النوبيين،  
وساروا بين أيديهم إلى بيت الحاكم رؤوم. وذاع في  
المدينة أنّ رسولاً فرعونياً كبيراً جاء يزور أسرة  
سيكتنزع، وسبق الخبر الملك إلى بيت الحاكم، فلما  
شارفه رأى الحاكم والأسرة الفرعونية في فناء القصر  
ينتظرون. وطلع الملك عليهم، فعقدت الدهشة  
والفرح ألسنتهم؛ وجثا رؤوم على ركبتيه، وصاح  
الجميع صيحة الفرح والسرور وهرعوا إليه. وكانت  
أسبقهم الملكة الصغيرة نيفرتاري؛ فقبل خديها  
وجيئها، ونظر فرأى أمّه الملكة متكيموس مائة  
ذراعيها، فضمّها إلى صدره وأسلم لها خديها تقبلها  
بحنان وكانت جدّته الملكة أحتوبي تنتظر دورها، فدنا  
منها وقبل يديها وجيئها. وأخيراً رأى توتيشيري...  
أخيرة القوم وأعزّهم، توتيشيري التي كلّلها المشيب  
وأذبل خديها الكبير، فحفق قلبه وأحاطها بذراعيه وهو  
يقول:

- أمّاه وأمّ الجميع...

فلثمته بشفتيها النحيلتين وقالت وهي ترفع إليه  
عينها:

- دعني أنظر إلى صورة سيكتنزع الحية.

فقال أحسن:

- اخترت يا أمّاه أن أكون الرسول الذي يشرّك  
بالفوز العظيم، فاعلمي يا أمّاه أنّ جيئنا الباسل فال  
النصر المبين وهزم أبوفيس وقومه وطردهم إلى  
الصحراء التي جاءوا منها وحرّر مصر جميعاً من  
عبوديتهم، فحقّ وعد آمون وطابت نفس سيكتنزع  
وكاموس....

الأهالي يهتفون ويغنّون. وصعد إلى سطحها شاو وكهنة  
بيجة وبلاق وسبين وعمد القرى وشيوخ البلاد  
فسجدوا للملك واستمعوا إلى نصائحه. ثم انحدرت  
السفينة نحو الشمال يستقبلها الأهليون على الشطآن  
وتطوف بها القوارب ويصعد إلى سطحها عند كلّ بلدة  
الحكام والقضاة والعمد والأعيان. وما زالت السفينة  
تجذّ في السير حتّى انقضت ظلمة الفجر ذات صباح في  
الأفق البعيد عن أسوار طيبة العالية وأبوابها الضخمة  
وجلالها الخالد، وهرعت الأسرة من المخادع إلى مقدّم  
السفينة عالقة أبصارهم بالأفق، ويتجلّى في نظراتهم  
الحنين والوجد، وتفيض أعينهم بدمع الشكران،  
وتغمغم شفاههم في صوت خافت: «طيبة.. طيبة».  
وقالت الملكة أحويتي بصوت متهلّج:

- ربّاه... ما كنت أتصوّر أن يقع بصري مرّة  
أخرى على هذه الأسوار..

وجعلت السفينة تقترب من جنوب طيبة في ربح  
مؤاتية حتّى استطاعوا أن يروا جموعاً من الجنود وكبار  
القوم على الشاطئ ينتظرون، فعلم أحس أن طيبة  
تزجي أولى تحيّاتها لمخلّصها، فعاد إلى المقصورة تتبّع  
أسرته وجلس على العرش وجلسن حوله. وأدّى الجنود  
التحيّة العسكريّة للسفينة الفرعونيّة، وصعد إلى  
سطحها رجال طيبة، وعلى رأسهم رئيس الوزراء  
حور، والقائدان محب وأحمس أباناء، ورئيس الحرس  
الفرعونيّ ديب، وكبير الحجاب سنب، وحاكم طيبة  
توتي آمون. ثمّ كاهن طاعن في السنّ محترق الشعر  
شيئاً يتوكّأ على صولجانه ويسير بخطى وثيلة منحني  
القامة. وسجد الرجال جميعاً لفرعون وقال له حور:

- مولاي حرّز مصر وغلّص طيبة وقاهر الرعاة،  
فرعون مصر وسيّد الجنوب والشمال، إنّ طيبة جميعاً في  
الأسواق تنتظر على شوق ولهفة مقدّم أحس بن كاموس  
بن سيكننرع وأسرته المجيدة لتقرئهم جميعاً آخر ما  
جمعت عليه صدرها من التحيّة والسلام...

فابتسم أحس وقال:

- حيّاكم الربّ أيّها الرجال المخلصون، وحيّا طيبة  
المجيدة مبدئي وغايي...

وأوما حور إلى الكاهن الجليل وقال:  
- مولاي... ائذن لي أن أقدم إلى جلالتك نوفر  
آمون الكاهن الأكبر لمعبّد آمون.  
فنظر إليه أحس باهتمام، ومدّ له يده مبتسماً وقال  
برقة:

- يسرّني أن أراك أيّها الكاهن الأكبر..

فلثم الكاهن يده وقال:

- مولاي فرعون مصر وابن آمون، مجدّد حياة مصر  
ومحيي سير الأعظمين من ملوكها. لقد كنت يا مولاي  
آليت على نفسي ألا أبرح حجرتي مادام في مصر رجل  
من الرعاة الأشائم الذين أذلّوا طيبة وقتلوا سيّدتها  
المجيد، وأهملت نفسي فغزر شعر رأسي وجسدي،  
وقنعت من الدنيا بلقيات أتبلّغ بها وجرعات من الماء  
القراح كي أشارك قومنا فيما ابتلوا به من القذارة  
والجوع، ومازلت حتّى قيّض الله لمصر ابنه أحس،  
فحمل على عدوّنا حملة صادقة ومزّق شمله وطرده من  
بلادنا، ففوت عن نفسي وأطلقت سراحني، لاستقبل  
الملك المجيد وأدعو له..

فابتسم الملك إليه، واستأذن الكاهن في السلام على  
الأسرة فأذن له، فقصّد إلى توتيشيري وسلّم عليها،  
وعدل إلى الملكة أحويتي وكان من المقرّبين إليها على  
عهد سيكننرع، ثمّ قبل ستكيموس ونيفرتاري، ثمّ قال  
حور لمولاه:

- مولاي، إنّ طيبة تنتظر مولاهما، والجيش مصطفّ  
في الطرق، ولكنّ لكاهن آمون الأكبر رجاء.

فسأل أحس قائلاً:

- وما رجاء كاهننا الأكبر؟

فقال الكاهن باحترام:

- أن يتفضّل مولاي بزيارة معبد آمون قبل أن  
يلهب إلى القصر الفرعونيّ.

فقال أحس مبتسماً:

- يا له من رجاء في تحقيقه الغنم والسعادة.



مملكته، فاستقبله ضباط وجنود ممن جاهدوا معه منذ اليوم الأول، فردّ الملك تحيتهم. وصعد إلى هودج فرعونيّ جميل، واعتلت الملكات هودجهنّ، ورفعت الهودج وتقدّمتها فرقة من الحرس الملكيّ، وسارت وراءها عجلات الحاشية تتبعها فرقة أخرى من الحرس الملكيّ، وتقدّم الموكب الملكيّ نحو باب طيبة الجنوبيّ الوسيط، وكان مزينا بالأعلام والأزهار، يصطفّ على جانبيه الجنود الأشداء الذين اقتحموه بالأمس القريب. اجتازت الهودج الفرعونية باب المدينة بين صفين من الرماح الشاكية، وقد نفخ في الأبواق حرس الأسوار، وتساقطت على الداخلين الأزهار والرياحين. ونظر أحس فيها حوله فرأى منظراً عجيباً يذهل النفوس الرصينة، رأى أهل مصر جميعاً في نظرة واحدة، رأى أجساداً تحجب السبل والجدران والمنازل، بل رأى أرواحاً خالصة من العبادة والحبّ والحساسة. وضجّ الجوّ بالهتاف المتصاعد من القلوب، وفتن الناس لرؤية الأمّ المقدّسة في مهابة الشيخوخة وجلال الكبر، وحفيدها الباسل في عصفوان القوّة والشباب. وشقّ الركب طريقه كأنما يخوض بحرّاً لجّياً عباباً، تتعلّقه الأنفوس والأبصار، فقطع السبيل إلى معبد آمون في ساعات. . .

وعلى باب المعبد استقبل الملك وأسرته كهنة آمون، ودعوا له طويلاً وساروا بين يديه إلى بهو الأعملة، حيث قدّمت القرايين على المذبح. وأنشد الكهنة نشيد الربّ بأصوات رخيمة عذبة لبثت تتردّد في القلوب فترة طويلة، ثمّ قال الكاهن الأكبر للملك:

مولاى ائذن لي في الذهاب إلى قدس الأقداس لإحضار أشياء ثمينة تهّم جلالتك. فأذن له الملك، ومضى الرجل ومعه نفر من الكهنة وغابوا زمناً يسيراً، ثمّ ظهر الكاهن مرّة أخرى يتبعه الكهنة يحملون تابوتاً وعرشاً وصندوقاً من الذهب، فوضعوها جميعاً أمام الأسرة الفرعونية باحترام وإجلال، وتقدّم نوفر آمون حتّى وقف أمام أحس، وقال بصوت ساحر نقّاذ:

مولاى، إنّ ما أعرض على أنظاركم لى أنفوس مملكته، فاستقبله ضباط وجنود ممن جاهدوا معه منذ اليوم الأول، فردّ الملك تحيتهم. وصعد إلى هودج فرعونيّ جميل، واعتلت الملكات هودجهنّ، ورفعت الهودج وتقدّمتها فرقة من الحرس الملكيّ، وسارت وراءها عجلات الحاشية تتبعها فرقة أخرى من الحرس الملكيّ، وتقدّم الموكب الملكيّ نحو باب طيبة الجنوبيّ الوسيط، وكان مزينا بالأعلام والأزهار، يصطفّ على جانبيه الجنود الأشداء الذين اقتحموه بالأمس القريب. اجتازت الهودج الفرعونية باب المدينة بين صفين من الرماح الشاكية، وقد نفخ في الأبواق حرس الأسوار، وتساقطت على الداخلين الأزهار والرياحين. ونظر أحس فيها حوله فرأى منظراً عجيباً يذهل النفوس الرصينة، رأى أهل مصر جميعاً في نظرة واحدة، رأى أجساداً تحجب السبل والجدران والمنازل، بل رأى أرواحاً خالصة من العبادة والحبّ والحساسة. وضجّ الجوّ بالهتاف المتصاعد من القلوب، وفتن الناس لرؤية الأمّ المقدّسة في مهابة الشيخوخة وجلال الكبر، وحفيدها الباسل في عصفوان القوّة والشباب. وشقّ الركب طريقه كأنما يخوض بحرّاً لجّياً عباباً، تتعلّقه الأنفوس والأبصار، فقطع السبيل إلى معبد آمون في ساعات. . .

وتحوّلت أبصار الجميع إلى التابوت الفرعونيّ، ثمّ سجدوا جميعاً وفي مقدّمتهم الأسرة الفرعونية وصلّوا خاشعين. . . ودنا الملك وأسرته من التابوت وأحاطوا به، وكان الصمت يشملهم جميعاً ولكنّ خاطبت التابوت قلوبهم وسرائرهم، وأحسّت توتيشيري لأول مرّة تحاذلاً وخوّاً، فاستندت إلى ذراع الملك وقد حجبت مدامعها عن ناظرها التابوت المحبوب، وعزم حور على أن يرقأ دمع الأمّ المقدّسة ويسكنّ آلام قلبها، فقال لنوفر آمون:

أتيا الكاهن الأكبر، احتفظ بهذا التابوت في قدس الأقداس حتّى يودع في مقبرته باحتفال مهيب يليق بمقام صاحبه. . .

فاستأذن الكاهن مولاى وأمر رجاله برفع التابوت إلى مشوى الربّ المعبود، وفتح الكاهن الصندوق واستخرج منه تاج مصر المزودج، ودنا من أحس في إجلال وتوجّ به رأسه المجعّد، ورأى القوم ما فعل الكاهن فهتفوا جميعاً: «يعيش فرعون مصر» . . .

ودعا نوفر آمون الملك والملكات إلى زيارة المشوى

مملكته، فاستقبله ضباط وجنود ممن جاهدوا معه منذ اليوم الأول، فردّ الملك تحيتهم. وصعد إلى هودج فرعونيّ جميل، واعتلت الملكات هودجهنّ، ورفعت الهودج وتقدّمتها فرقة من الحرس الملكيّ، وسارت وراءها عجلات الحاشية تتبعها فرقة أخرى من الحرس الملكيّ، وتقدّم الموكب الملكيّ نحو باب طيبة الجنوبيّ الوسيط، وكان مزينا بالأعلام والأزهار، يصطفّ على جانبيه الجنود الأشداء الذين اقتحموه بالأمس القريب. اجتازت الهودج الفرعونية باب المدينة بين صفين من الرماح الشاكية، وقد نفخ في الأبواق حرس الأسوار، وتساقطت على الداخلين الأزهار والرياحين. ونظر أحس فيها حوله فرأى منظراً عجيباً يذهل النفوس الرصينة، رأى أهل مصر جميعاً في نظرة واحدة، رأى أجساداً تحجب السبل والجدران والمنازل، بل رأى أرواحاً خالصة من العبادة والحبّ والحساسة. وضجّ الجوّ بالهتاف المتصاعد من القلوب، وفتن الناس لرؤية الأمّ المقدّسة في مهابة الشيخوخة وجلال الكبر، وحفيدها الباسل في عصفوان القوّة والشباب. وشقّ الركب طريقه كأنما يخوض بحرّاً لجّياً عباباً، تتعلّقه الأنفوس والأبصار، فقطع السبيل إلى معبد آمون في ساعات. . .

وعلى باب المعبد استقبل الملك وأسرته كهنة آمون، ودعوا له طويلاً وساروا بين يديه إلى بهو الأعملة، حيث قدّمت القرايين على المذبح. وأنشد الكهنة نشيد الربّ بأصوات رخيمة عذبة لبثت تتردّد في القلوب فترة طويلة، ثمّ قال الكاهن الأكبر للملك:

مولاى ائذن لي في الذهاب إلى قدس الأقداس لإحضار أشياء ثمينة تهّم جلالتك. فأذن له الملك، ومضى الرجل ومعه نفر من الكهنة وغابوا زمناً يسيراً، ثمّ ظهر الكاهن مرّة أخرى يتبعه الكهنة يحملون تابوتاً وعرشاً وصندوقاً من الذهب، فوضعوها جميعاً أمام الأسرة الفرعونية باحترام وإجلال، وتقدّم نوفر آمون حتّى وقف أمام أحس، وقال بصوت ساحر نقّاذ:

مولاى، إنّ ما أعرض على أنظاركم لى أنفوس مملكته، فاستقبله ضباط وجنود ممن جاهدوا معه منذ اليوم الأول، فردّ الملك تحيتهم. وصعد إلى هودج فرعونيّ جميل، واعتلت الملكات هودجهنّ، ورفعت الهودج وتقدّمتها فرقة من الحرس الملكيّ، وسارت وراءها عجلات الحاشية تتبعها فرقة أخرى من الحرس الملكيّ، وتقدّم الموكب الملكيّ نحو باب طيبة الجنوبيّ الوسيط، وكان مزينا بالأعلام والأزهار، يصطفّ على جانبيه الجنود الأشداء الذين اقتحموه بالأمس القريب. اجتازت الهودج الفرعونية باب المدينة بين صفين من الرماح الشاكية، وقد نفخ في الأبواق حرس الأسوار، وتساقطت على الداخلين الأزهار والرياحين. ونظر أحس فيها حوله فرأى منظراً عجيباً يذهل النفوس الرصينة، رأى أهل مصر جميعاً في نظرة واحدة، رأى أجساداً تحجب السبل والجدران والمنازل، بل رأى أرواحاً خالصة من العبادة والحبّ والحساسة. وضجّ الجوّ بالهتاف المتصاعد من القلوب، وفتن الناس لرؤية الأمّ المقدّسة في مهابة الشيخوخة وجلال الكبر، وحفيدها الباسل في عصفوان القوّة والشباب. وشقّ الركب طريقه كأنما يخوض بحرّاً لجّياً عباباً، تتعلّقه الأنفوس والأبصار، فقطع السبيل إلى معبد آمون في ساعات. . .

وتحوّلت أبصار الجميع إلى التابوت الفرعونيّ، ثمّ سجدوا جميعاً وفي مقدّمتهم الأسرة الفرعونية وصلّوا خاشعين. . . ودنا الملك وأسرته من التابوت وأحاطوا به، وكان الصمت يشملهم جميعاً ولكنّ خاطبت التابوت قلوبهم وسرائرهم، وأحسّت توتيشيري لأول مرّة تحاذلاً وخوّاً، فاستندت إلى ذراع الملك وقد حجبت مدامعها عن ناظرها التابوت المحبوب، وعزم حور على أن يرقأ دمع الأمّ المقدّسة ويسكنّ آلام قلبها، فقال لنوفر آمون:

أتيا الكاهن الأكبر، احتفظ بهذا التابوت في قدس الأقداس حتّى يودع في مقبرته باحتفال مهيب يليق بمقام صاحبه. . .

فاستأذن الكاهن مولاى وأمر رجاله برفع التابوت إلى مشوى الربّ المعبود، وفتح الكاهن الصندوق واستخرج منه تاج مصر المزودج، ودنا من أحس في إجلال وتوجّ به رأسه المجعّد، ورأى القوم ما فعل الكاهن فهتفوا جميعاً: «يعيش فرعون مصر» . . .

ودعا نوفر آمون الملك والملكات إلى زيارة المشوى

منشرحة الصدر، وانعطف الملك إليها مبتسماً فوقع  
بصرها على السلسلة في كفه فتناولتها بدهشة وقالت:

- أهذا عقد؟ .. ما أجمل! ... ولكنّه مبتور.

فقال وهو يجمع أشات أفكاره:

- نعم .. فقد قلبه.

- وأسفاه .. وأين فقد؟

فقال:

- لا أدري إلا أنّه ضاع على غير إرادتي ..

ف نظرت إليه بمودة وسألته:

- أكنت تنوي أن تهديه إليّ؟

فقال:

- إني أدخر لك ما هو أثمن منه وأجمل.

ف قالت:

- فكيف تأسف عليه إذن؟

فقال وهو يجهد أن يخرج صوته طبيعياً هادئاً:

- إنّه يذكّرني بأيّام الكفاح الأولى، حين خرجت

أطلب طيبة متخفياً في ثياب التجار داعياً نفسي

اسقنيس، فكان فيما أعرض على الناس للشراء ..

فيا للذكرى الجميلة .. نيفرتاري، أودّ أن تدعوني

اسقنيس، فهو اسم أحبه وأحبّ عهده وأحبّ من

يحبّه ..

وأدار الملك وجهه ليخفي ما ارتسم عليه من التأثير

والخين، فابتسمت الملكة بسرور، ولاحظت منها نظرة

إلى الأمام فرأت على البعد ضوء مشعل يتحرّك في

بطء، فقالت وهي تشير بيدها:

- انظر إلى هذا المشعل ..

فألقي أحس بصره إلى حيث تشير، ثم قال:

- هذا مشعل في قارب يسبح قريباً من الحديقة ..

وكأنّ صاحب القارب تعتمد أن يدنو من حديقة

القصر لسمع أهله القادمين جمال صوته، فيحييهم

وحده بعد أن حيّتهم طيبة جميعاً، فرغ عقيرته متغنياً

في سكون الليل يردّد سحجه مزمراً:

«كم رقدت في غرفتي منذ سنين»

«أعاني ألم داء وجيع»

«فعادني الأهل والجيران»

المقدّس فساروا جميعاً، وكانت توتيشيري ما تزال تتوتّكاً  
على ذراع أحس، واجتازوا العتبة المقدّسة التي تفصل  
بين الدنيا والآخرة، وسجدوا للرّب المقدّس ولثموا  
الستائر المسدلة على تمثاله، وصلّوا صلاة الشكر والحمد  
أن هيّا لهم الفوز وردّهم إلى وطنهم ظافرين ...

وغادر الملك المعبد إلى هودجه وكذلك الملكات،  
وحمل العرش على عربة كبيرة، واستأنف الموكب سيره  
إلى القصر بين الجموع الهائفة الداعية، المهلّلة المكبرة،  
الملوّحة بالأغصان النائرة الزهور، قبلخوا القصر القديم  
عند الأصيل، وكان التأثير قد بلغ من نفس توتيشيري  
مبلغاً كبيراً فاشتدّ خفقان قلبها واضطربت أنفاسها،  
فحملت في هودجها إلى جناحها الملكي، ولحقت بها  
الملكات والملك، وجلسوا بين يديها قلقين، ولكنّها  
استعادت هدوءها وعادت بقوّة إرادتها وإيمانها فاستوت  
جالسة ونظرت في الوجوه الحبيبة بحنان وقالت بصوت  
ضعيف:

- معذرة يا أبنائي، لقد خانني قلبي لأول مرّة،  
ولشدّ ما تحمّل هذا القلب ولشدّ ما صبر، فدعوني  
أقبلكم جميعاً، ففي مثل سنيّ يعجّل بلوغ الأمل  
بالنهاية ...

### - ٣٤ -

وجاء المساء وخيم الليل وطيبة لا يعرف النوم إلى  
أجفانها سيلاً، فلبثت ساهرة تلوح المشاعل في طرقاتها  
وضواحيها، ويجتمع الناس في ميادينها ينشدون  
ويهتفون، وتسجع ديارها بالأغاني والألحان. في تلك  
الليلة لم ينم أحس على ما به من تعب ونصب. ونبا به  
الفراش فخرج إلى الشرفة المطلّة على حديقة القصر  
الفيحاء، وجلس على أريكة وثيرة في ضوء مصباح  
خافت، وساحت روحه في الظلام الجاثم، وكانت  
أنامله تعبث بسلسلة ذهبيّة بحتو وإشفاق، ينظر إليها  
بين الفينة والفينة كأنّها يستمدّ منها أفكاره وأحلامه ...

ولحقت به على غير انتظار الملكة الشابة نيفرتاري  
وكان الفرح ينفي الكرى عن عينيها، فطلّت أنّ  
زوجها في مثل سرورها، فجلست إلى جانبه جدلة

#### كفاح طيبة ٤٢٧

«لأنك أنت تعرف سرّ دائي»  
وكان صوته جميلاً يأخذ بالسمع، فأنصت أحسن  
ونيفرتاري، وكانت الملكة ترنو إلى ضوء المشعل بعطف  
وحنان، وكان الملك ينظر إلى ما بين قدميه بعينين شبه  
مغمضتين، تنوح في قلبه الذكريات...

«وزارني العرّافون والأطباء»  
«فأعيا الداء أطبائي وجيراني»  
«حتى جئت أنت يا حبيبي»  
«فبرع سحرك الطبّ والرقى»



الفتاة حمزة الحديدة



## - ١ -

مالت الشمس عن كبد السماء قليلاً، ولاح قرصها من بعيد فوق القبة الجامعية المائلة، كأنه منبثق منها إلى السماء؛ أو عائد إليها بعد طواف، يغمر رعوس الأشجار والأرض المخضرة وجدران الأبنية الفضية والطريق الكبير الذي يشق حداثق الأورمان بأشعة لطيفة: امتصت برودة بناير لظاهها، وبنت في حناياها وداعة ورحمة. وقد قامت القبة على رأس صقن من الأشجار الباسقة امتدت مع الطريق، فلاحت كإله يجنو بين يديه كهتته العابدون ساعة العصر والسماء متجلية في صفاء، مطرزة بعض نواحيها المترامية بسحائب رقاق: والهواء يتخبط بين الأشجار بارداً فترجع أوراها أنينه ونحييه.

في السماء دارت حدآت حيارى: وعلى الأرض انطلقت جماعات الطلبة. كانوا يغادرون الفناء الجامعي إلى الطريق مشتبكين في أحاديث شتى، ثم لاحت بينهم جماعة من الطالبات لا يتجاوزن الخمس، يسرن في خفر ويخلصن نجياً. وكان ظهور الفتيات في الجامعة لا يزال حدثاً طريفاً يستثير الاهتمام والفضول، خاصة للطلبة المبتدئين؛ فجعل هؤلاء يتبادلون النظرات ويتهامسون، وربما علت أصواتهم فبلغت أذان زملائهم. قال طالب:

- لا يوجد وجه واحد بينهم يوحد الله؟

فأجاب طالب آخر بلهجة لم تخل من تهكم:

- إثنين سفيرات العلم لا الهوى..

فقال ثالث بحمية انتقادية، وهو يتفحص ظهور

الفتيات المهزولات:

- ولكن الله خلقهن ليكن سفيرات الهوى! فقهقه الأول ضاحكاً وقال مدفوعاً بروح الاستهتار والادعاء:

- اذكر أننا في الجامعة، وأن الجامعة مكان لا يجوز أن يذكر فيه لا الله ولا الهوى؟

- منطقي جداً ألا يذكر الله، أما الهوى.؟ فقال أحدهم بلهجة تقريرية تنم عن أستاذية ليس وراءها مطمع لعالم:

- الجامعة عدو لله لا للطبيعة..

- نطقت بالحق. ولا يؤسستكم قبح هؤلاء الفتيات. فهن دفعة أولى للجنس اللطيف وسيبعهن أخريات. الجامعة موضة حديثة لا تلبث أن تنتشر، وإن غداً لناظره قريب..

- أتحسب أن فتيتنا يقبلن على الجامعة كما أقبلن على السينما مثلاً؟

- وأكثر. وسترى هنا فتيات على غير هذا المثال السيئ.

- وسيزعم الشباب بلا رحمة.

- الرحمة هنا رذيلة.

- ولن يكلفن أنفسهن مشاق الحشمة، فالقوي لا يحتشم!

- وربما استعرت بين الجنسين ناراً!

- ما أجل هذا..!

- وانظر إلى الأشجار والخيائل! إن الحب يتولد فيها من تلقاء نفسه كما تتولد الديدان في قدور المش.

- رباه! هل ندرك ذلك العصر السعيد؟!

- بيدك أن تنتظره إذا شئت..؟

فقال الشاب:

- المرأة شريك الرجل في حياته كما يقولون، ولكنّها  
شركة دعامتها - في نظري - ينبغي أن تكون المساواة  
المطلقة في الحقوق والواجبات.

فالتفت أحمد بدير إلى محبوب عبد الدائم وسأله  
ضاحكًا:

- ورأي شيطاننا العزيز؟

فقال محبوب عبد الدائم باهتمام مسرحي:

- المرأة.. صيham الأمن في خزان البخار..

فضحكوا كما تعودوا أن يضحكوا عقب سماع  
آرائه. ثم سألوا أحمد بدير:

- وأنت ما رأيك؟

فقال الشاب باستهانة:

- على الصحافي أن يسمع لا أن يتكلّم، خاصة في  
عهدنا الحاضر.

- ٢ -

وانعطفوا مع أول طريق مقاطع لطريق الجامعة،  
وساروا في أنجاء المديرية. كان مأمون رضوان أطولهم  
قامة، ومحبوب عبد الدائم في مثل طوله تقريبًا. أمّا  
عليّ طه فربعة متين البنيان، وأمّا أحمد بدير فقصير جدًا  
كبير الرأس جدًا. وكان مأمون رضوان يريد أن يختم  
ساعات العمل أجمل ختام قبل أن يستقبل يوم اللهو  
فقال بصوته المتهدج الصاعد من قلبه:

- أنسانا حديث المرأة ما نحن بصدد، فما تعليقكم

النهائي على المناظرة التي شهدناها..؟

دارت المناظرة حول «المبادئ» وهل هي ضرورية  
للإنسان أو الأولى أن يتحرّر منها؟

فقال عليّ طه مخاطبًا مأمون رضوان:

- نحن متفقان على ضرورة المبادئ للإنسان، هي

البوصلة التي تهتدي بها السفينة وسط المحيط..

فقال محبوب عبد الدائم بهدوء ورزانة:

- طط..

ولكن عليّ طه لم يلق إليه بالًا واستدرك مخاطبًا  
مأمون:

- نحن في بدء الطريق والمستقبل باهر.

وانتهوا من الحديث العامّ: وتناولوا الفتيات - فتاة  
فتاة - بالتهكم المرير، والسخرية اللاذعة..

\*\*\*

وكان أربعة يسرون معًا على مهل، يتحدثون أيضًا  
وربما أصغوا بانتباه إلى ما يبلغ آذانهم من هذر  
الشباب. كانوا من طلبة الليسانس، يشارفون الرابعة  
والعشرين: وتلوح في وجوههم عزة التضجج  
والعلم.. ولم تكن تخفي عليهم خطورة شأنهم، أو  
بالحرى كانوا يشعرون بها أكثر ممّا ينبغي. قال مأمون  
رضوان بلهجة انتقادية:

- لا حديث للفتيان إلا الفتيات!

فقال عليّ طه معقبًا على انتقاد زميله:

- وماذا عليهم من ذلك؟ إنهما نصفان يطلب  
أحدهما الآخر منذ الأزل..

وقال محبوب عبد الدائم:

- اعذرهم يا أستاذ مأمون، فالיום الخميس،  
والخميس عند الطلبة يوم المرأة بلا منازع.

فابتسم أحمد بدير ابتسامة خفيفة - وهو طالب  
وصحافي معًا - وقال بنبرات خطابية:

- ادعوكم أيها الإخوان إلى إعلان آرائكم في المرأة،  
على ألا يزيد البيان عن كلمات معدودات. ماذا تقول  
يا أستاذ مأمون رضوان؟!

فارتبك الشاب، ثم ابتسم قائلاً:

- أتريد أن تحملني على حديث أنتقد الغير على  
خوضه..؟

- لا تحاول الحرب، هلمّ، كلمات معدودات، أنا  
صحافي والصحافي لا يأس من حديث أبداً..

وكان مأمون رضوان يعلم أنّ مراوغة أحمد بدير أمر  
عسير فاستسلم قائلاً:

- أقول ما قال ربي، فإن رغبت في معرفة أسلوب  
الخاص، فالمرأة طمأنينة الدنيا، وسبيل وطية لطمأنينة  
الآخرة.

وتحوّل أحمد بدير إلى عليّ طه ودعاه للكلام بإيماءة  
من رأسه.



فقال محجوب يهدوئه المصطنع:  
 - هي المثل الأعلى..  
 والتفت مأمون رضوان إلى عليّ طه وقال، وجلّ منه  
 أن يذكر رأيه لا أن يجذب أحدًا إلى عقيدته:  
 - الله في السماء، والإسلام على الأرض، هاكم  
 مبادئي..  
 فابتسم عليّ طه وقال بدوره كما قال محجوب عبد  
 الدائم من قبل:  
 - لشدّ ما يدهشني أن يؤمن إنسان مثلك  
 بالأساطير..  
 ففهمه محجوب قائلًا:  
 - طظ..  
 وألقى عليهم نظرة سريعة وهم آخذون في مسيرهم  
 وقال:  
 - يا عجبًا! كيف تجمعنا دار واحدة؟.. أنا رأسي  
 هواء، والأستاذ مأمون قمقم مغلق على أساطير قديمة،  
 وعليّ طه معرض أساطير حديثة.  
 ولم يلقيا بالآ إلى قوله، لأنه طالما أغيتهما معرفة الحدّ  
 بين جدّه وهزله ولأنّ مناقشته متعبة فهو يروغ من  
 التطويق بالتهريج.  
 وكانوا شارفوا دار الطلبة على ناصية شارع رشاد  
 باشا، فودّعهم أحمد بدير وذهب إلى الجريدة التي  
 يعمل بها مساء، ومضوا ثلاثتهم إلى الدار، ليأخذوا  
 أهبتهم لسهرة الخميس.

- ٣ -

تقع دار الطلبة على ناصية شارع رشاد باشا.  
 هي قلعة هائلة ذات فناء مستدير واسع، يقوم بنيانها  
 على محيطه في شكل دائرة، مكوّنة من طباق ثلاثة،  
 يتركّب كلّ واحد منها من سلسلة دائريّة من الغرف  
 المتلاصقة، تفتح أبوابها على ردهة ضيّقة تطلّ على  
 الفناء. كان الأصدقاء الثلاثة يسكنون ثلاث حجرات  
 متجاورة في الطابق الثاني. وقد صعد مأمون رضوان  
 إلى حجرتة الصغيرة، وأخذ في تغيير ملابسه، وكانت  
 الحجرة مؤثّنة بفراش صغير، يقابله صوان، يتوسّطهما

- يتدّ أننا مختلفان في ماهيّة المبادئ..  
 فقال أحمد بدير وهو يهزّ كتفيه:  
 - كالعادة دائمًا!..  
 فقال مأمون وقد تألّقت عيناه بنور خاطف شأنه عند  
 الاهتمام:  
 - حسبنا المبادئ التي أنشأها الله عزّ وجلّ.  
 فقال محجوب عبد الدائم كالمتعجّب:  
 - لشدّ ما يدهشني أن يؤمن إنسان مثلك  
 بالأساطير..  
 فاستطرد عليّ طه قائلًا:  
 - أومن بالمجتمع، الخليّة الحيّة للإنسانيّة، فلترعّ  
 مبادئه، على شرط ألاّ نقدّسها لأنّه ينبغي أن تتجدّد  
 جيلاً بعد جيل، بالعلماء والمرّين.  
 فسأله أحمد بدير:  
 - ماذا يحتاج جيلنا من مبادئ؟  
 فقال عليّ بحماس:  
 - الإيمان بالعلم بدل الغيب، والمجتمع بدل الجنّة،  
 والاشتراكيّة بدل المنافسة..  
 فعلق محجوب عبد الدائم على كلامه قائلًا:  
 - طظ.. طظ.. طظ..  
 فسأله أحمد بدير:  
 - وأنت يا أستاذ محجوب ما رأيك في المناظرة؟  
 فأجابه يهدوء:  
 - طظ..  
 - هل المبادئ ضروريّة؟  
 - طظ..  
 - غير ضروريّة إذا؟  
 - طظ..  
 - الدين أم العلم؟؟  
 - طظ..  
 - في أيّهما؟  
 - طظ..  
 - أليس لك رأي ما؟  
 - طظ..  
 - وهل طظ هذه رأي يُرى؟

حياته أثراً قوياً. ذلك أنه أصيب بمرض أعقده عن اللحاق بالمدارس حتى الرابعة عشرة، فذاق مرارة العزلة، وعرف الألم، وانصهر في أتون تجربة قاسية، ولكنه استطاع أن يدرس الدين على والده فتفقه فيه غلاماً يافعاً. ولما دخل المدرسة الابتدائية دخلها فقي مراهقاً وقلباً كبيراً وروحاً حياً وذكاءً وقادراً. على أنه لم يخلُ من تعصب وحدة، بل كانت تعتريه لحظات قسوة جنونية، تنضب فيها خصوبة نفسه، فينطلق كلسان من لُحْب يلقف ما يلقاه ويلتهم ما يتصدى له فيضعف العمل إن كان يعمل، أو يستغرق في العبادة إن كان يعبد، أو يحتد في النقاش إن كان يناقش، أو تعلوه الكآبة والانقباض إن كان يعتزل، وفي تلك الحياة البسيطة لم يجد الفتى سبيلاً إلى تحقيق ذاته إلا في العمل، فبرز الأقران جميعاً. وكان في قدرته أن يتعبد ساعات متتابعات لا يسكت لسانه عن ذكر الله، وكان يذاكر في الأيام الأخيرة من العام الدراسي عشرين ساعة في اليوم، فكان أول الناجحين في البكالوريا، كما ينتظر أن يكون أولهم في الليسانس، فصار التفوق من أحلامه العليا كالإسلام والعروبة والفضيلة، ولم يسمح لمخلوق أن يدانيه في تفوقه، ولكن لم ترسب للمنافسة في صدره أبخرة خبيثة، بفضل قوته الخارقة، وثقته الكبيرة بنفسه، وإيمانه الراسخ بالله. فسما بإنسانيته إلى أعلى المراتب، ولذلك لم يجعل من إيمانه سبيلاً إلى الزهد العاجز أو الفناء في الغير، فكان يقول: إن الإيمان امتلاء بالقوة الربانية لتحقيق مثل الله العليا على الأرض. فكان شاباً عظيماً، وإن أخفق أن يكون محبوباً، لأن تفوقه مثار لحسد الحاسدين، وسلوكه احتقار صامت لحياة الآخرين، ثم إنه لم ينبُج من ميل للوحدة تأصل في طبعه منذ عهد مرضه العصبي الطويل، هذا إلى جهل بأصول اللباقة الاجتماعية، ونكران لروح الفكاهة، وولع بالصراحة جعلت من حديثه أحياناً سوط عذاب، فسماه منتقدوه تارة بالجامعي الرفي، وتارة بالمهدي غير المنتظر. وقال عنه طالب مرة: «الأستاذ مأمون رضوان إمام الإسلام في عصرنا هذا، وقديماً أدخل عمرو بن العاص

وراء النافذة الصغيرة مكتب متوسط وضعت عليه الكتب والمراجع. وكان الشاب ممن يحبون الكتب حباً بالغاً، فما إن وقعت عيناه على معجم «لaland» حتى لاحظت على شفثيه ابتسامة خفيفة وشت بحبه وولعه. بيد أنه لم يضع وقتاً، فتوضاً وصل العصر، ثم ارتدى «ملابس العطل» وغادر الحجرة إلى الطريق، ومضى يرسم جسمه الرشيق هيئة عسكرية جذابة في مسيره، وكان ذا قوام مشقوق، نحيفاً في غير هزال، أبيض الوجه مشرباً بحمرة، أجمل ما فيه عينان سوداوان نجلوان. تلوح فيها نظرة لامعة، تذكى ضياءً وجمالاً وذكاء. وكان يتقدم في مسيره لا يلوي على شيء، لقدميه وقع شديد، ولعينييه هدف لا تحيدان عنه، كان هدفه ذلك اليوم بيت خطيبته بمصر الجديدة. وكان مأمون يعالج أمور قلبه بنفس النزاهة والاستقامة اللتين يعالج بهما جميع أمور حياته. . . خطب الفتاة. وهي كريمة قريب له من ضباط الجيش العظام. بعد مشورة أبيه، وتم الاتفاق على أن يعقد عليها عقب الانتهاء من دراسته، وصار يتردد على بيتها كل خميس، فيجالس الأسرة مجتمعة، ويمضي بضع ساعات في سمر لذيذ. ولم يخطر له على بال قط أن يدعو فتاته إلى السينما، أو أن يدبر حيلة للانفراد بها، ذلك أنه كان من الكافرين بالبدع الحديثة. على حد تعبيره - الثائرين عليها، فلقي سلوكه من أسرة الفتاة - أسرة حافظت على تمسكها بالتقاليد القديمة - كل إعجاب وتقدير. بيد أن ذلك لم يمنع قلبه من الحفقتان وهو آخذ في طريقه المعهود، فبلغ طريق الجيزة بعد دقائق واستقل الترام. وبدا في جلسته المعتادة، ونظرته الصافية، وقامته العالية، شخصية غنية بعناصر الجمال والجلال. فلو أراد أن يكون عمر بن أبي ربيعة لكان، ولكنه كان ذا عفة واستقامة وطهر لم يجتمع مثلها لشاب. كان ضميراً نقياً، ومريرة صافية، كان قلباً مخلصاً ينشد الدين الحق والإيمان الراسخ والمخلوق القويم، وقد نشأ في طنطا، وكان والده مدرّساً بالمعاهد الدينية - رجل ذو دين وخلق - فشب في بيئة أقرب إلى البداوة بساطة ودينًا وخلقًا وقوة، وعرض له في صباه عارض ترك في

بين زملائه مؤمنين صادقين، فلم يشعر في إيمانه بعزلة، ولكنه لم يظفر بواحد يشاركه حماسه في الدعوة إلى الإسلام والعروة، فقد استغرقت الأذهان أموراً أخرى في ذلك الوقت كالقضية المصرية ودستور سنة ١٩٢٣ ومقاطعة البضائع الأجنبية، ولكنّ الفتى لم ييأس في وحدته، ولا كان من الممكن أن يخالط اليأس قلباً كقلبه.

عاش مشغولاً بالأمال الكبار، إلا أنّ قلبه استطاع أيضاً أن يتنسّم الحياة، وأن يخفّ مسروراً إلى استقبالها... بل جعل ينظر من نافذة الترام إلى الخارج في شبه جزع، يودّ لو يطوي الترام في غمضة عين الطرق إلى مصر الجديدة...

#### - ٤ -

ولبت علىّ ظه في حجرته حتّى مالت الشمس إلى الغيب، وكان يجلس إلى النافذة وعيناه إلى شرفة دار صغيرة قديمة، تقع عند مدخلها دكان سجاثر، تقوم على ناصية شارع العزبة - امتداد شارع رشاد باشا من ناحية عزبة الدقي - فيما يواجه دار الطلبة. كان مرتدياً ملابساً إلاّ طربوشه، متأثّقاً كعادته، بحسب الناظر إلى منكيه العريضين أنّه من هواة الرياضة البدنية، وكان فتى جيلاً ذا عيين خضراوين، وشعر ضارب لصفرة ذهبية، ودلالة واضحة على النبل، لبت ينظر إلى شرفة الدار الصغيرة القديمة بعينين تتحرّج فيهما نظرة انتظار ولهفة حتّى دبّت فيها حياة ويقظة بدخول فتاة إلى الشرفة، فهض ملوّحاً بيديه، فابتسمت إليه وأوامت إلى الطريق، فلبس طربوشه وغادر الحجرة ثمّ الدار، وانطلق إلى شارع رشاد باشا، ومضى يتمتّع متمهلاً في الشارع الكبير قامت على جانبيه الأشجار الباسقة تقبع وراءها القصور والفيلات، وجعل يرسل الطرّف فيما وراءه بين لحظة وأخرى، حتّى رأى - على ضوء الغروب الهادئ - صاحبة الشرفة قادمة تخطو فدار على عقبه خافق الفؤاد من السرور، وأنجّه نحوها موزد الوجه، حتّى التقت أيديهما، فاشتبكت اليمنى في اليسرى، واليسرى في اليمنى وغمغم الفتى:

الإسلام في مصر بدعائه، وغداً يخرج منه مأمون رضوان بثقل دمه. وظلّ الشاب على ولائه للتفوق وإن خافه ومقته في أحيان كثيرة، أجل كان يخاف ذلك الشعور بالتعالي والتفوق ويستعيز بالله من شرّه، ولكنه عجز عن قهره، ولذلك لم يرمق عظيمًا بعين الإعجاب الحقّ، وأعلن في صراحته يوم افتتح الملك الجامعة استهانتة برجال الدولة الذين حضروا الاحتفال، ولذلك أيضاً جعل يهزّ منكيه استهانة كلّما رأى الطلبة يتحمّسون لمن يدعونهم بالزعما، وكان ينكر الأحزاب جميعاً، وبأبى الاعتراف «بالقضية المصرية» ويقول بحماسة المعهود: إنّ هناك قضية واحدة هي قضية الإسلام عامّة والعروة خاصّة. ومن عجب حقاً أنّه لم يتأثّر بموضة الإلحاد التي كانت ذائعة بين طلبة الجامعة على عهده بها وإنّما مرّد ذلك إلى أنّه التحق بالجامعة في الثالثة والعشرين وقد آمن إيماناً راسخاً بثلاثة أشياء لم ينكرها بعد ذلك طوال حياته: الله، الفضيلة، قضية الإسلام. فلم يُزغ بصره حيال نور الجامعة الجديد، ولبت صخرة إيمانه القائمة تتكسر عليها أمواج السيكلوجي والسيولوجي والميتافيزيقا. تحدّى بإيمانه العلم والفلسفة جميعاً وجعلها من ذرائعه ومقوماته، وسرّه أيّما سرور أن يجد أعلام الفلاسفة في ظلّ الله دائماً: أفلاطون وديكارت وبسكال وبرجسون. كما رحّب قلبه المخلص بالوفاق الذي بشر به القرن العشرون بين العلم والدين والفلسفة، فالיום تنحلّ المادّة إلى شحنات كهربية أشبه بالروح منها بالمادّة، واليوم تستردّ الروحية عرشها المسلوب، واليوم يشغل العلماء بالتفكير الدينيّ ويردّ رجال الدين شرائع العلم والفلسفة، فطوى للشباب الفيلسوف المؤمن! غير أنّ شابّ الجزيرة تغبّر عمّا كان عليه فتى طنطا المصاب، صار أوسع صدرًا وأرحب فهماً، أمكنه أن يصنّي إلى مجنون محبوب عبد الدائم مبتسماً، وأن يناقش علىّ ظه في قيمة الدين والإلحاد، وأن يتلقّى صابراً سهام الناقدين والساخرين، إلاّ إذا احتدّ واتقدت عيناه وعزّته تلك اللحظة الرهيبة، فهناك يرتدّ عنه البصر وهو حسير! وكان الشابّ يجد

- أهلاً..

فغمغمتُ ووجهها يشرق بابتسامة لطيفة:

- مساء الخير..

واستخلصت يديها برفق، وتأبطت ذراعه، واستأنفا السير إلى شارع الجيزة بمشيان مشية المتمهل الذي ليس له وراء المشي من غاية. هي فتاة في الثامنة عشرة، تضيء عيها بشرة عاجية، وعينان سوداوان يجري السحر في حورهما والأهداب، أما شعرها الفاحم وما يحلته تجاوب سواده مع يياض البشرة فيخطف الأبصار. وقد حوى معطفها الرمادي جسماً لدناً ناصجاً ينتشر سحراً ووهجاً. سارا متمهلين يبهج منظرهما الشباب والحياة. وجعل عليّ ظه يرقب أنحاء الطريق بطرف حذر كأنما يطلب غرة، والفتاة تلحظه بطرف خفي منتظرة على شوق وسرور، حتى اطمأن الفتى إلى غفلة العيون، فضم أصابعه تحت ذقنها، وأدار وجهها إليه وألصق شفثيه بشفتيها حتى رطبنا برضاها، ثم رفع وجهه متهدداً من الأعياق وتتابع خطوهما صامتتين، ورأته يلقي عليها نظرات فاحصة، فذكرت - على سحر الموقف وفتنته - معطفها الذي كاد يبلى، ففتر سرورها، وقالت بالرغم عنها:

- أيسوئك أن ترى دائماً هذا المعطف العتيق؟

فلاح الإنكار في وجه الشاب وقال مؤثباً:

- كيف تلقين بالأى إلى هذه الصغائر؟. إن في

المعطف كنزاً جعله الحظ السعيد من نصيبي..!

ولم توافقه على أن المعطف من «الصغائر» بل كانت تقول لنفسها مرات متأسفة: إن العيش السعيد شباب وثياب! ولحظت بذلته الصوفية الأنيقة فرغبت في لومه. وقالت:

- يا لك من مراء! أتعدّ اللباس من الصغائر وأنت

تتألق مزهواً..

فتورّد وجهه حياء، وبدا كالطفل المرتبك، ثم قال بالمعتذر:

- البدلة جديدة.. وليس من الممكن ابتياع بدلة قديمة. ولكنّ الملابس أعراض تافهة. أليس كذلك يا حبيبي؟

يبد أنها خافت مناقشته، لأنه كان يتوئّب للمناقشة باهتمام، ويقف منها موقف المعلم، ولم تكن ترتاح إلى ذلك. والواقع أنه لم يكن يخلو من تناقض. كان كثيراً ما يستهين بالملابس والأكل ونظام الطبقات، ولكنه كان يلبس فيتألق، ويأكل لذيق الطعام حتى يشبع، وينفق عن سعة. أما إحسان شحاتة فكان لديها ما تقوله، وما تعلم أنه ينتظر رأيا فيه، فقالت بصوتها الرخيم الذي يعابث الغرائز:

- كذت أنت الكتاب الذي أعرتني.

فبدا الاهتمام على وجهه، لأنه كان يرغب أن يحب عقلها كما يحب شخصها، وسألها:

- ورأيك؟

فقالت بصراحة:

- فهمت أقله، ولم أفز من هذا القليل بطائل.

فشعر بخيبة وسألها:

- وليمّة؟

فابتسمت إليه لتخفف من وقع كلامها واستدركت:

- محور الكتاب - الذي تسميه قصة - أفكار وآراء، وأنا أرتاد في الكتب الحياة والعاطفة!

- ولكنّ الحياة فكر وعاطفة!

فلمت أطراف شجاعتها وقالت:

- لا تطوّقي بمنطقك، فربما لا أستطيع دفعه، ولكنه لن يغيّر من ذوقي، الموسيقى مقياس الفنّ الحقيقي في نظري، فما تجاوز مادّة الموسيقى في الكتاب لا ينبغي أن يعدّ من الفنّ في شيء.

فهاهه رأيا، وابتسم ابتسامة باهتة، وقال بأسف:

- إنك تحرمين على نفسك أشهى ثمار الفنّ الحقيقي..

فقالت ضاحكة:

- مجدولين، آلام فوتر، آلام رفائيل، تلك آيات الفنّ الذي أحبه.

قالت ذلك بلهجة من يقول «لكم دينكم ولي ديني». فأمسك الشاب عن الكلام، وتساءل هل ييأس حقاً من تغيير رأيا؟.. إنه يريد صادقاً أن يتحاباً بقلبيهما وعقليهما، وأن تكون شركة حياتها نائمة

ومضيا في الطريق المغفر يستلهان آمالها الحديث،  
وفصلان حديثهما بالقَبْل.

كانت إحسان شحاته عظيمة الشعور بأمرين: جمالها  
وفقرها. كان جمالها فائقًا. وقد استأسر سگان دار  
الطلبة، وجعل سگان الحجرات يرسلون شواظ  
أنفهم فتلقي جميعًا في شرفة الدار الصغيرة البالية،  
وترمي عند قدم الفتاة الحسناء الفخور. ولكن لم توجد  
بالدار مرآة حقيقة بأن تعكس ذاك الجمال الصبيح،  
فالقدر حقيقة ماثلة كذلك، وقوى شعورها به إختوتها  
السبعة الصغار، وأن لا مورد لهم إلا دكان سجائر  
مساحتها متر مربع وجلّ زبائنها من الطلبة! وطالما  
خافت على جمالها عوادي الفقر، وسوء التغذية.  
والواقع أنه لولا وصفات أمها - كانت الأم من قيان  
شارع محمد علي قبل أن يتزوجها المعلم شحاته تركي -  
لَهَزَل جسمها، ولَبُذِل ردفاها اللذان مدحها أحد  
شعراء كلية الطب بمعلقة رثانة. وقد عرفت عليّ طه،  
اختاره قلبها من دار الطلبة جميعًا، وحظي بإعجابها  
شبابه وجماله ونبله ومستقبله، بيد أن أمرين هامين  
جعلتا يتنازعان قلبها من أول لحظة: حياة قلبها وحياة  
أسرتها، أو بمعنى آخر عليّ طه والإخوة السبعة  
الصغار، وكانت عرفت - قبل عليّ طه - شابًا موسرًا  
من طلاب القانون. وقد أدركت من سلوكه أنه يطمع  
فيها متعة لقلبه وهواً لشبابه، فأخذت حذرًا. وكان  
والداها يطلعان على أسرار حياتها، فما راعها إلا إغراء  
أمها وطمع أبيها في مال الشاب! وتنبّهت إلى حقائق  
حياتها المرّة، وخوافيها المحزنة. والواقع أن والديها لم  
يضمرا للأخلاق احترامًا قط، وكانت شركتهما عشقًا  
قبل أن تصير زواجًا، وظلّ أبوها يرتزق في سوق  
الجمال بجماله وصفاقته حتى تزوّجه أمها ووهبته ما  
أذخرت من مال ليتاجر به، فبَدَّ ما بَدَّ على المخدرات  
والقمار، وبقيت له دكان السجائر الصغيرة. ولكنه كان  
يقول لنفسه متعزّيًا: «صاعت حياتي حقًا ولكن البركة  
في إحسان». فوجدت فيه الفتاة كما وجدت في أمها  
عونا للشيطان والسقوط. ولكنّها لم تسارع إلى  
السقوط، فقد تلقت إهانة عن غير قصد فثار كبرياؤها

منسقة، وأن يجد فيها الحبيبة والزميلة والنذ المحترم.  
إنه يحبها حبًا يملك عليه قلبه ونفسه، ولكنه يرجو أن  
يجعل منها في المستقبل زوجًا غير الزوج التي تعرفها  
البيت الشرقية. وانتهى بها المسير إلى شارع الجيزة،  
فانعطفًا إلى يسارها، وتنهّد الشاب بارتياح، فالشارع  
كالقفر، وجوّه كالمظلم، ورفع راحتها إلى فمه، ولثمها  
بشغف، ثم مال نحوها فأخذ قبة مطمّنة لذينة  
الطعم، من شفتين ممتلئتين طريتين. ولمحها تسبل  
جنفيها لوقع القبلة، فانفض جسمه القوي، وشاعت  
في روجه شرارة سرور مكهربة، وقال وهو يزدد ريقه:  
- ما ألطفك.. ما أجلك!

ومضت فترة سكون لذينة ساحرة، ثم تنهّد وقال في  
شبه حسرة:

- بيني وبين الامتحان النهائي أشهر معدودات، أما  
أنت! -  
فقلت:

- امتحان البكالوريا في يونيه. ماذا تختار لي؟  
فقال الشاب بحماس:  
- كليتي..

وهي، وإن كانت الضرورة تحتم عليها أن تتّم  
دراستها، إلا أنها ودّت لو قال لها مثلاً: «حسبك  
دراسة وهلمّي إلى عشنا» فشعرت بشيء من الاستياء  
وسألته:

- لماذا أختار كليتك؟  
- لنكون عقلاً واحدًا وفنًا واحدًا ومهنة واحدة..  
- مهنة واحدة؟

فقال بحماسة الذي لا ينضب:  
- أجل يا حبيبي وظيفة المرأة أخطر شأنًا من عمل  
الجارية. محال أن أخون مبادئي، أو أن أرضى بحرمان  
المجتمع عضوًا جميلًا نافعًا مثلك!

وكانت مقتنعة برأيه على وجه آخر، لأن الضرورة  
تملي عليها أن تختار مهنة يومًا ما. بيد أنه ضايقها - وإن  
لم تدّر لماذا - حماسه لرأيه، وودّت لو كانت هي التي  
حملته على قبوله على تمتّع وتردّد منه.

وأنقذها، إذ رأت الشاب صديقها يجالس أباه يومًا في الدكان، فأدركت أنه يساومه على عرضها. وثار غضبها، وشعرت بالحزني والعار، ثم قطعت الشاب بقسوة لم تدع له أملًا! خرجت من التجربة ظافرة، ولكن بعد أن علمت أنها تعيش في بؤرة. ثم إنها شعرت في قرارة نفسها بأنها تخلصت فجأة من الرقابة والقيود، وأنها صارت حرة تفعل ما تشاء بغير حساب. وأحدث شعورها بتلك الحرية المطلقة في نفسها ثورة، لبثت حينًا بغير هدف ولا وازع أيضًا. ولكن بقطة جنونية دبت في عواطفها فتمطت ترتاد متنفّسًا، وإن عقلها الحياء والتردد، كان الجوّ خانقًا والرتان سليميتين، فدلّت الظواهر على أنّ النهاية محتومة ما منها مناص. وجعل أبوها الفاجر يقول لها متأسفًا على ضياع الشاب الموسر: «إنك مسئولة عنا جميعًا، وخصوصًا إحتوك السبعة». رباه، هل تستطيع أن تعتصم بإرادتها حيال تلك الدوافع الفاجرة؟ ألا يمكن أن يتواصوا بالصبر حتى تُبتمّ تعلّمها بمعهد التربية وتجد مهنة شريفة ترتزق منها؟! واستسلمت للمقادير في غير ثقة ولا إيمان شأن ضعاف الإرادة.. حتى جاء عليّ ظه. وجذت في عليّ وذا صادقًا، وإخلاصًا قويًا، ومقصدًا نبيلًا، فدعم إرادتها المزعزعة. وأنقذها من غمرة الخيرة والخوف، وأعاد إليها شعور الاحترام والكبرياء: فأحبته وناطت به آمالها. ورمى عمّ شحاته تركي الشاب الجديد باستياء وقال عنه: «إنه شاب فقير، حتى السجائر لا يدخنها!» وقال للفتاة مرة ساخرًا: «مبارك عليك الشاب الجميل الذي بعته الله ليجوّعنا!» ولكنها عرضت عنه، ووضعت أملها في المستقبل: فهو كفيل بأن يهيئ لها مهنة محترمة وأن يحقق لها أحلام قلبها...

وإنتقاله إلى الجامعة ضاق ميدان نشاطه، ولكنه عمق وارتفع، فصار «الأستاذ عليّ» رئيسًا لجمعية المناظرات، وتميّز على الأقران بقوّته الخطابية وثقافته العامة وحضور بديهته وكان يهتم بالمثل العليا ويتحدث بحساس وإيمان عن المدينة الفاضلة، فصدّقه عارفوه، ولكن بعض المغرمين بالنقد أشاعوا عنه أنه داهية لا يشقّ له غبار، وأنه يغزو الأوساط جميعًا ملثمًا بالفضيلة، فيصيد الحسان باسم العلم والفضيلة. وأنه يتحدث عن الأخلاق كما تتحدث الخاطبة عن عروس لم ترها؛ لكنهم غالوا وكذبوا، والحقيقة أنّ الشاب كان صادقًا مخلصًا، وأنه إذا كان يحبّ الجمال فقد أحبه بزهة وإخلاص. بيد أنّ حياته لم تخلّ من أزمات عنيفة، فقد تزعزعت عقيدته منذ مستهلّ حياته الجامعية، وتعرّض لآلام التحول الفتاك ولكنه كان شجاعًا صادقًا. فاستقبل الحياة الجديدة بإرادة متوّبة وعقل شغوف بالحق. ولم يكن من الهازئين الماجنين، ولم يكتفم إعجابه بمأمون رضوان لصدقه وشجاعته، ولكنه ارغى بين أحضان الفلسفة المادّية: هيغل وستولد وماخ، وآمن بالتفسير المادّي للحياة، وارتاح أيما ارتياح للقول بأنّ الوجود مادة، وأنّ الحياة والروح تفاعلات مادّية معقدة، وأنّ الشعور صفة ملازمة عديدة الأثر كصوت العجلة الذي يلزم دورانها دون أن يكون له فيه أيّ أثر. وطالما قال له مأمون رضوان: إنّ الفلسفة المادّية فلسفة سهلة ولكنها لا تحلّ مسألة واحدة حلًا مقبولًا. ولكن عليّ ظه كان شابًا اجتماعيًا، لا يصبر على التأمل طويلًا، ويذاكر في أسبوع ما ربّما ذاكره مأمون في يومين، فإلى جانب وقت القراءة هناك وقت للرياضة وآخر للمناظرة وثالث للرحلة ورابع للحبّ إلخ.. فحسبه من الفلسفة هذا التفسير الجامع وليستأنف سيره في الحياة ولكن هنالك عقبة كاداء تُنذر بأن تصير هاوية جارفة: الأخلاق؟.. نهضت أخلاقه فيما مضى على دعامة من الدين، فعلام تنهض اليوم؟!.. ما الذي يمسك على الفضائل قيمتها بعد الله؟! أم تراه يزدريها كما ازدري عقيدته من قبل، ثم يلقي بنفسه في تيّار الحياة الجارف بلا وازع ولا ضمير؟! إنّ المنطق واضح، والنهاية

أما عليّ ظه فكان شابًا ذا مزايا حسنة كثيرة. كان مثلاً طيّبًا للروح الاجتماعية الحقّة، ففي عهد دراسته الأولى كان عضوًا بارزًا في القسم المخصوص، وجمعية الرحلات المدرسية، وجماعة الخطابة والصحافة، يُجيد الحديث والخطابة وطهي الطعام والغناء، مع ميل عمود للاطلاع والثقافة واستمساك مخلص بالفضيلة.

- ٥ -

انتظر محجوب عبد الدائم في حجرته كذلك، ولكن دون أن يغير ملايسه لأنه لم يكن كصاحبه يملك بدلة خاصة ليوم الخميس وكان يرقب الطريق من نافذته، فرأى مأمون رضوان وهو يغادر الدار في مشيته العسكرية، ولاحظ إيماءة الهوى بشرفة الدار الصغيرة القديمة، ثم رأى العاشقين الشابين يوافي أحدهما الآخر إلى شارع رشاد باشا. وشيخ كل واحد منهم جيباً به «ظف» مفعمة سخرية وحقدًا. فسخرته تضمر دائماً حقداً. وكان ينتظر ميعاده، إلا أنه يؤثر الظلمة ويحب السّر، فخلت الدار تقريباً إلا منه. كان محجوب عبد الدائم - كما مأمون رضوان - طويلاً ونحافة، إلا أنه صاحب مفلفل الشعر، يميز وجهه جحوظ عينيه العسلتين وصعود شعيرات حاجبيه إلى أعلى، هذا إلى نظرة قلقة متقلبة يوحي بريقها بالتحدي والسخرية. ولم يكن به كصاحبه - جمال، ولكن لم يكن بقسائته كذلك قبح منفر. ولا يخطئ الناظر إليه ما يدل عليه منظره من التحدي، فما ينفك في خوف من أن يقذفه بنكتة أو دعابة أو ملاحظة لاذعة. وكان يرى حياته مليئة بالمشكلات، ويضع على رأسها جميعاً مشكلته الجنسية، ويصفها بأنها مشكلة عسيرة الحل كالقضية المصرية سواء بسواء! وقد رأى إحسان شحاته، وطالما أثارت بركان شهوته، رآها - كما يرى أي امرأة أخرى - صدىً وعجزاً وساقين، وكانت إحدى مفاتيحها هذه كافية لإطلاق شرارة كهربائية في صدره، ولكن الفتاة - على حدّ قوله - أحسنت الاختيار، وأثرت الفتى الأشقر ذا العينين الخضراوين. ولبثت حياته مقفرة موحشة، فقلبه في ظلام وعقله في ثورة دائمة. كان صاحب فلسفة استعارها من عقول مختلفة كما شاء هواه، وفلسفته الحرة كما يفهمها هو. وظف أصدق شعار لها. هي التحرر من كل شيء، من القيم والمثل والعقائد والمبادئ، من التراث الاجتماعي عامة! وهو القائل لنفسه ساخراً: «إن أسرتي لن تورثني شيئاً أسعد به فلا يجوز أن أرث عنها ما أسقى به!» وكان

محتومة، ولكنّه تردّد وتماسك وأتقى بقوة القصور الذاتي، وتساءل: ألا يمكن أن يجيئها حيي أبو العلاء؟ ولكنّ أبا العلاء كان ضريحاً مجدوراً سوداويّاً، أمّا هو فشاب جميل مفتول العضلات، اجتماعي المزاج، فأتى يكون له الزهد والتقصّف؟! ووجد نفسه في مثل الحيرة التي وجدت فيها إحسان شحاته عقب تحرّرها من ظلّ والديها. وأخيراً ظفر بمنقذه كما ظفرت بمنقذها، التقى بأوجست كونت رجل المجتمع، وبشره الفيلسوف بإله جديد هو المجتمع، ودين جديد هو العلم. آمن بالمجتمع البشري والعلم الإنساني، واعتقد أنّ للملحد - كما للمؤمن - مبادئ ومثلاً إذا شاء وشاءت له إرادته؛ وأنّ الخير أعمق أصولاً في الطبيعة البشرية من الدين، فهو الذي خلق الدين قديماً وليس الدين الذي أوجده كما كان يتوهم وجعل يقول عن نفسه: «كنت فاضلاً بدين وبغير عقل، وأنا اليوم فاضل بعقل وبلا خرافة!». وثاب إلى مثله العليا أمناً مطمئناً، ممتلئاً حماساً وقوة. وشغف بالإصلاح الاجتماعي، وحلم بالجنة الأرضية، فدرس المذاهب الاجتماعية، حتى طاب له أن يدعو نفسه اشتراكياً. وانتهى المطاف بروحه - التي بدأت رحلتها من مكة - إلى موسكو! وطمع يوماً أن يجذب أصدقاء المقرّين إلى الاشتراكية ولكنّه لم يفلح. قال له أحمد بدير معتذراً: «إني صحافي وفدي». والوفد حزب رأسمالي! وقال له مأمون رضوان بإيمانه المعروف: «لإسلام اشتراكيّته المعقولة، فيه الزكاة التي تضمن - لو طبقت بدقة - العدالة الاجتماعية دون جور على الغرائز التي يستمدّ الإنسان منها العون في كفاحه، فإذا أردت للعالم نظاماً يبيح لها الأخوة الحقّة والسعادة والعدالة فدونك والإسلام». أمّا محجوب عبد الدائم فهزّ منكبيه استهانة وقال باقتضاب: «ظف». ومهما يكن من أمر فقد عرف لحياته هدفاً أنقذه من الحيرة والفضوضى والفساد. وحقّ له أن يقول على نفسه مسروراً: «هاكم بطاقتي الشخصية وهي تغني عن كلّ تعريف: فقير واشتراكيّ، ملحد وشريف، عاشق عنصريّ!».

من أشياء رذائل، وقد وقف على سرّه وبرع في سحره وسيجعل من الفضائل رذائل ومن الرذائل فضائل؟ وفرك يديه سرورًا، وذكر ماضيه أطيب الذكر، ورمى مستقبله بعين الاستبشار، وألقى عن عاتقه شعور الضعة. يئد أنه أدرك منذ اللحظة الأولى أن فلسفته سرّية، يجوز أن يدعو مأمون رضوان إلى الإسلام جهازًا، ويجوز أن يعلن عليّ طه اعتناقه لحرّية الفكر والاشتراكية، أمّا فلسفته فينبغي أن تظلّ سرّية - لا احترامًا للرأي العام فإن من مبادئها احتقار كل شيء - ولكن لأنها لا تؤتي أكلها إلا إذا كفر الناس بها وآمن بها وحدها ألا ترى أنه إذا آمن الناس جميعًا بالرديلة لم يميّز بينهم بما يتيح له التفوّق عليهم؟ لذلك احتفظ بها لنفسه، ولم يعلن منها ما هو في حكم الموضة كالإلحاد وحرّية الفكر. إلا إذا ضاق صدره أو غلبه شعور الوحشة فإنّه ينقّس عن قلبه بالزواج والسخرية، فبدا للقوم ماجنًا لا شيطانًا مجرمًا. ومضى في سبيله فقيرًا بلا خلق يرصد الفرص ويتوّب للانقضاء عليها بجراة لا تعرف الحدود.

\*\*\*

لبث في حجرته ينتظر الظلام، فقلبه أيضًا مغامرات ولكن حبه كفلسفته لا يحيا في النور، وما فتاته في الواقع إلا جامعة أعقاب سجناء. ولشدّ ما أغضبه حظّه من الحب، ولكن ما الحيلة ونقوده لا تكاد تفي بضرورات الحياة؟ وكثيرًا ما يهزأ بنفسه فيقول: «لست خيرًا منها فهي جامعة أعقاب سجناء، وأنا جامع أعقاب فلسفة، ثمّ إنّي في نظر المجتمع شرّ منها!» وقد رَمَتْ بها المصادفات بين يديه، فلم يدع الفرصة تفلت، وقال متعزّيًا: مَنْ تواضع لله رفعه. رآها ذات مساء - وكان يتمشّي في طريق العزبة المقفر - وراء شجرة تين مع أحد بوابي شارع رشاد باشا. فتربّص بها حتّى رآها تسير بمفردها بعد أن عاد النوبيّ إلى الشارع الآخر، واقترب منها بجراته ولس متكبها وهو يقول مبتسًا:

- رأيت كلّ شيء.

فترقّفت الفتاة عن المسير، ورمقته بعين داهشة، وتبيّنها على ضوء الطريق فوجدها شديدة السمرة كاعب

يقول أيضًا: إنّ أصلق معادلة في الدنيا هي: الدين + العلم + الفلسفة + الأخلاق = طظ. وكان يفسّر الفلسفات بمنطق ساحر يتّسق مع هواه. فهو يعجب بقول ديكارت: «أنا أفكر فأنا موجود». ويتّفق معه على أنّ النفس أساس الوجود، ثمّ يقول بعد ذلك إنّ نفسه أهمّ ما في الوجود وسعادتها هي كلّ ما يعنيه. ويعجب كذلك بما يقوله الاجتماعيّون من أنّ المجتمع خالق القيم الأخلاقية والدينية جميعًا، ولذلك يرى من الجهالة والحمق أن يقف مبدأ أو قيمة حجر عثرة في سبيل نفسه وسعادتها. وإذا كان العلم هو الذي هيّا له التحرّر من الأوهام، فليس يعني هذا أنّ يؤمن به أو أن يبه حياته، ولكن حسبه أن يستغلّه وأن يفيد منه. فلم تكن سخريته من رجال العلم دون سخريته من رجال الدين، وإنما غايته في دنياه: اللذة والقوّة، بأيسر السبل والوسائل، ودون مراعاة لخلق أو دين أو فضيلة. لقد استعار هذه الفلسفة بإرشاد هواه، ولكن تبيّوه لها غما منذ أمد بعيد. فهو مدين بنشأته للشارع والفطرة، كان والداه طيّبين جاهلين، ولظروفهما الخاصة، أتمّ تكوينه في طرق بلدة القناطر. وكان لداته صبية شطّارًا يطلقون على فطرتهم بلا وازع ولا تهذيب فسبّ وقذف واعتدى واعتدي عليه وتردّى إلى الهاوية. ولما انتقل إلى جوّ جديد - المدرسة - أخذ يدرك أنّه كان يحيا حياة قدرة، وعانت نفسه مرارة العار والخوف والقلق والتمرد. ثمّ وجد نفسه في بيئة جديدة، طالبًا من طلاب العلم بالجامعة، ورأى حوله شبّانًا مهذّبين يطمحون إلى الآمال البعيدة والمثل العالية. ولكنّه عثر كذلك على نزعات وآراء لم تدّر له بخلد. عثر على موضة الإلحاد والتفسيرات التي يبشّر بها علماء النفس والاجتماع والأخلاق والظواهرات الاجتماعية الأخرى، وسرّ بها سرورا شيطانيًا، وجمع من نخالته فلسفة خاصّة اطمأنّ بها قلبه الذي نهكه الشعور بالضعّة، لقد كان وغداً ساقطًا خاصّة اطمأنّ بها قلبه الذي نهكه الشعور بالضعّة، لقد كان وغداً ساقطًا مضمحلًا فصار في غمضة عين فليسوفًا! المجتمع ساحر قديم، جعل من أشياء فضائل، وجعل



الظرف نظرة سريعة فرأى ختم القناطر، ثم لاحظ بسهولة أنَّ الخطَّ غير خطِّ أبيه فمن عسى أن يكون كاتبه؟! إنَّه يرى ذلك الخطَّ أوَّل مرَّةٍ .

- ٦ -

وفَضَّ الغلاف متعجِّبًا وقرأ ما يأتي:

حضرة الشابِّ الفاضل محبوب أفندي عبد الدائم:  
السلام عليكم ورحمة الله، وبعد فإنَّه يؤسفنا أن نخبركم بأنَّ والدكم العزيز مريض وملازم الفراش، ونسأل الله أن يجعل العواقب سالمة، ولكن لا بدَّ من حضورك في أقرب وقت لتطمئنَّ عليه بنفسك، وقد طلبوا إليَّ أن أكتب هذا إليك فلا تتأخَّر والسلام.

شلي العفش (صاحب بقالة القناطر الخيرية)  
هذا يعني أنَّ أباه في حالة عجز تمنعه من أن يمسك بالقلم فإذا أصابه؟ وقرأ الكتاب للمرَّة الثانية وقد لاح الوجوم في وجهه الشاب وجعل يشدَّ حاجبه الأيسر بأنامله. ومن عجب أنَّه لا يذكر أنَّ أباه شكاه المرض يومًا ما، كان دائمًا متين البنيان ثقیل الخطوات، فلا شكَّ أنَّ مرضًا خطيرًا غدر به وأعجزه. تُرى ما الذي يجنَّبُه الغيب؟.. وماذا يذخر له ولوالدته؟

ولكن لا يجوز أن يضيع الوقت سدى، أو أن يؤخَّر سفره دقيقة. وكتب كلمة لمأمون رضوان يشرح سبب سفره المفاجئ، ولفَّ جلبابه في جريدة قديمة، ثم غادر الدار. لم يمض إلى شارع العزبة كما كان يرجو منذ دقائق، ولكنَّه أخذ في شارع رشاد باشا أو شارع علي وإحسان كما يدعو سائحًا. ومضى يحدث نفسه قائلاً: «لو انتهى أجل الرجل لَوُتدت آمالي جميعًا... ربَّاه! أيمكن أن يحدث هذا وما عاد بيني وبين الامتحان النهائي سوى أربعة أشهر!» وجَدَّ في الطريق المقفرة الغارقة قصورها في جلال الصمت لا يسمع إلَّا وقع قدميه، حتَّى بلغ الجيزة، واستقلَّ الترام، تظلل الكأبة وجهه وعينه، وفي جلسته المحزونة سرح به فكره إلى صاحبيه المقرَّين: مأمون رضوان وعلي طه، فنفس عليهما ما يتمتعان به من طمأنينة وثقة: مأمون رضوان أبوه مدرِّس بالمعاهد، ذو مرتب حسن فلا تعيش أسرته في ظلِّ الخوف، وهو يعطي الشابَّ ما يكفيه

الشدين فاضطربت أنفاسه، وحدها بعين غمر مفترس.. وافاقت الفتاة من دهشتها فسألته باستهانة:

- ماذا رأيت؟

فأجاب محبوب وعيناه تقولان لها «برج الخفاء»:

- شجرة التين.. البواب..

فسألته بنفس اللهجة الدالة على الاستهانة:

- وماذا تريد؟

فقال بصوت مضطرب:

- مثله.

- أين؟

- ليكن نفس المكان.

فدارت على عقبيها، ولكنَّها قالت قبل أن تهمَّ

بالمسير، وبصوت يدلُّ على الإنذار:

- ثلاثة قروش!

فغمغم بارتياح:

- جميل.

ثمن زهيد لا تنوء به ميزانيتها والفتاة لا تخلو من ندي كاعب. يتدَّ أنه يرجو أن تكون سمرتها القائمة لونًا طبيعيًا لا ترابًا متلبَّدًا، وما عليه بعد ذلك إلَّا أن يتحمَّل الرائحة الكريهة المنبعثة من جسدها، لا بأس، فشيء خير من لا شيء، وهل ينسى أنَّه نفسه لم يكن يستحمُّ - في القناطر - إلَّا في المواسم؟. بل إنَّه لَيَسْأَل: ألا يسوِّي الظلام بين النساء جميعًا؟! وسأها وهما عائدان:

- ألك عهد طويل بالبواب؟

- كلاً. هذه أوَّل ليلة.

- ألم تتواعدا مرَّة أخرى؟

- كلاً.

فقال محبوب بارتياح:

- ولكن لن تكون الليلة آخر ليالينا.

فتمتعت وهي تثبت الحجار على رأسها:

- وجب.

\*\*\*

وكان الظلام يتلع الكون، وما زال بموقفه من النافذة ينتظر موعد صاحبه، ثم سمع نقرًا على الباب، فدلَّف منه وفتح، فرأى بواب الدار يلوح له بخطاب. وأخذ الخطاب وردَّ الباب، وألقى على

القصر والبدانة، مثلث الوجه كبيره، كثيف الحاجبين، حادّ البصر، مستدير العينين، يلقي على ما حوله نظرة متعالية كلّها ثقة وزهو، فرفه، ودنا منه مادّا إليه يده باحترام هاتفاً:

- الأستاذ سالم الإخشيدى!.. السلام عليكم..

فالتفت إليه دون أن تتغيّر ملامح وجهه، وناذرًا ما يتغيّر وجهه، فهو لا يندهرش ولا ينزعج ولا يبدو عليه سرور ولا حزن، فإذا أراد أن يعلن غضبه - وكثيرًا ما يفعل - استعان بنبرات صوته الغليظ. التفت نحو محجوب وقال بهدوء وريانة:

- كيف أنت يا محجوب؟

- شكرًا لك والحمد لله.. ولكن ما الذي جاء بالأستاذ إلى المحطة؟

فقال الإخشيدى بصوته الرزين:

- مسافر إلى بلدتنا القناطر لزيارة والدي، ولكن ما الذي جاء بك أنت وليس الوقت بموسم إجازات؟

فقال محجوب بأسف ظاهر:

- إلى القناطر أيضًا لعيادة والدي المريض.

- عبد الدائم أفندي مريض؟.. كتب الله له السلامة. بلّغه تحيّي.

ثم سارا جنبًا لجنب في اتجاه موقف القطار. وكانت أخبار الإخشيدى انقطعت عن محجوب فترة يسيرة، فسأله:

- ألا تزال يا أستاذ سكرتيرًا لقاسم بك فهمي؟

فلاحت شبه ابتسامة في عيني الإخشيدى وقال:

- أنا مرشّح الآن لوظيفة مدير مكتبه. المذكرة في المستخدمين.

فقال بسرور ظاهر لا ظلّ له في نفسه:

- مبارك.. مبارك يا أستاذ!

فرفع الرجل حاجبيه بزهو، وقال باقتضاب:

- درجة خامسة.

فهتف محجوب:

- مبارك.. مبارك، العقبى للرابعة.

فقال الإخشيدى متفلسفًا:

- بلدنا منهوب مسلوب، مسؤولياته بيد الضعفاء

الأغبياء، ومهما نرتق فلا نزال دون ما نستحق!

وأكثر ولولا حقّ مأمون الذي جعله يوقف حياته على العلم والعبادة لكانت له لذات الحياة ولكّنه أحمق، والحمقى دائميًا مجدودون. أما عليّ ظه فابوه مترجم ببلدية الإسكندرية ذو مرتبّ ضخم، والشابّ يقبل على التمتّع بالحياة في حدود مثله، فهو شابّ سعيد، وحشبه إحسان كي يكون سعيدًا، ولعلّ إنسانًا ما لم يثر حسده كما يثيره هذا الشابّ الجميل الموفّق، هو هو البائس!.. أبوه - تُرى ألا يزال أباه - كاتب بشركة الألبان اليونانية بالقناطر، خدمة خمسة وعشرين عامًا ومرتبّ ثمانية جنيهاً. وإذا انقطع عن العمل فمكافأة أشهر معدودات. وكان الرجل يبذل له من مرتبه ثلاثة جنيهاً شهريًا أثناء السنة الدراسية، فنهضت بالضرورات من مسكن ومأكل وملبس، ورضي بها الشابّ رضاء التمرد المغلوب على أمره وجعل يرمق ملأدّ القاهرة من بعيد، ويسترقّ السمع إلى أخبارها بنهم ولم. كان ينطوي على شهوة جاعة بقدر ما يضيّق بطموح جشع. تواردت عليه هذه الخواطر فساءته تلك الساعة أكثر من أيّ وقت مضى. ثم فكّر في العلاقة التي تربطه بهما، وفيما يسمّونه بالصدّاقة، غافلاً عن مشاهد الحقول والمياه التي يطويها الترام في جريه السريع. أله صديق حقاً؟ كلا، وما الصدّاقة إلّا إحدى الفضائل التي كفر بها! حقاً إنّه يميل إليهما كثيراً، فنقاش مأمون يستهويه، وروح عليّ تحذبه إليه، ويلدّه أن يجتمع بهما يتحادثون ويتحاورون ولكن ما شأن ذلك كلّهما هو معروف عن الصدّاقة؟! إنّه مع ذلك يحسدهما ويمقتيهما ولا يتردّد عن إبادهما لو وجد في ذلك نفعاً. ومضى يقول لنفسه بلهجة التحريض: «الحرية المطلقة.. طظ المطلقة.. ليكن لي أسوة حسنة في إبليس.. الرمز الكامل للكمال المطلق.. هو التمرد الحقّ، والكبرياء الحقّ، والطموح الحقّ، والثورة على جميع المبادئ! وانتهى الترام إلى محطة الإسعاف، فتركه واستقلّ تارماً آخر إلى ميدان المحطة، ومن ثمّ إلى المحطة نفسها، ثم انطلق إلى شبّاك تذاكر الدرجة الثالثة وابتاع تذكرة. ولمّا تحوّل عن الشبّاك وجد نفسه أمام شابّ في الثلاثين، متوسط القامة مع ميل إلى

الحياة! .. ماذا يضره إذا احتقره مأمون رضوان أو عليّ طه؟! .. طظ..

وكان القطار يطوي الأرض طياً، والبرودة تنفذ إلى الداخل على الرغم من إحكام غلق النوافذ، ولكنه لم يشعر بالبرودة تماماً إلا حين كفّ عن التفكير فزّرع الجاكّة واعتدل في جلسته. سرعان ما عاد إلى تذكر أبيه المريض، فأدرك أنه يغرق في الأحلام متغافلاً عن المحاوية تحت قدميه. وعاد إلى وجومه، مرسلًا نظرة حزينة كثيفة، حتّى وقف القطار في القناطر، فأخذ لفافته وغادره. ثم ترك المحطة إلى الطريق العام، وألقى على المدينة نظرة شاملة وهتف: «يا قناطر يا بلدنا.. وزّعي الحظّ بين أبنائك بالعدل!».

- ٧ -

ولم تمض سوى دقائق معدودات حتّى وجد نفسه أمام البيت الصغير الذي ولد فيه، بيت من طابق واحد، يتقدّمه فناء ترابيّ مسوّر بدرابزين خشبيّ، يدلّ مظهره على البساطة والتشّف.

وكان يواجه المحطة في الجانب الآخر من الطريق، ويطلّ سطحه على الحقول فيما وراء السكّة الحديدية. وبدا البيت مظلمًا غير بصيص نور يلوح من خصائص نافذة أبيه. فخفق قلبه خفقانًا متداركًا، وصرخ به الخوف والرجاء. واجتاز الفناء إلى المدخل وطرقه بخفّة، فسمع وقع قبقاب، وعرف صاحبه وفتح الباب، وبدا شبحها وراءه، فأقبل نحوها قائلاً:

- مساء الخير يا أمّاه.

فسمع صوتًا يقول متتهدًا: «أنت!» ثم أخذت يده بين يديها، وقالت بنفس الصوت المتعّب:

- كيف أنت يا بنيّ؟ حدّثني قلبي بأنك الطارق.

وكان الدهليز مظلمًا فلم يتبيّن ملامح وجهها، فردّ الباب وهو يتساءل بلهفة:

- أمّاه.. ماذا حدث؟.. كيف حال أبي؟

فقالته المرأة بصوت محزون:

- ربّنا يأخذ بيده.

ووضع لفافة الجلباب على خوان، ودخل الحجرة بقدمين محاذرتين، وسبقته عيناه إلى الراقند على

فأمن محجوب على قوله قائلاً:

- صدقت يا أستاذ.

ثم استأذن الإخشيدى وأنجبه نحو عربة الدرجة الأولى، وأتبعه الشابّ عينيّه حتّى اختفى، ثم سار إلى الدرجة الثالثة تعلو وجهه الكآبة والأحلام. واتّخذ مجلسه من العربة ورأسه لا يفي عن التفكير، والإخشيدى لا يبرح خياله. منذ عامين كان الإخشيدى طالب ليسانس مثله - محجوب - الآن، ولعلّه كان مثله أيضًا يكفر بالمبادئ ولكن دون جلبة أو ضوضاء.. وربما كانا لا يختلفان اختلافًا جوهريًا في شيء فهما في الذكاء سواء، وهما في الأخلاق - أو عدم الأخلاق - سواء. ولكنهما جدّ مختلفين في الأعصاب:

فسالم الإخشيدى يزن كلامه وزنًا دقيقًا، ولم يعرف عنه أنّه من مبدأ من المبادئ أو خلّقًا من الأخلاق بكلمة سوء، أمّا محجوب فعلى حذره سخر من كلّ شيء، ومّا يذكره محجوب ولا ينساه أنّ صاحبه عرف آخر عهده بالكليّة كزعيم خطير من زعماء الطلبة، وكان من أبطال لجان المقاطعة وموزّعي المنشورات ضدّ الدستور الجديد. ومّا يذكره ولا ينساه كذلك أنّ الإخشيدى دُعي يومًا لمقابلة الوزير، فداعت عن المقابلة الأقاويل، وتوقع كثيرون أن يقع اضطهاد أو بغي، ولكنّ الفتى انقلب فجأة وبغير تدرّج. انسحب من ميدان السياسة كلّ، وتوقّف نشاطه الذي لم يكن يعرف الحدود، ولم يعد يُرى إلا في حجرات المحاضرات. ولكن إذا واجهه أحد بسؤال عن سرّ انقلابه أجابه ببروده المعهود: «ميدان الجهاد الحقيقي للطلبة: العلم!» ثم حصل على الليسانس، وعيّن - قبل أوائل الطلبة - سكرتيرًا لقاسم بك فهمي، وكان واسطته الوزير نفسه. بل وُضع في السادسة - وهي وقتذاك فردوس مفقود - وما هو يرشّح للخامسة قبل أن يمضي على تعيينه ستّان، وبعد أن استقال بمدة كبيرة الوزير الذي عيّنه، ممّا يدلّ على أنّه حاز ثقة قاسم بك نفسه وأنّه يسير قُدّمًا. يا له من مثال يُحتذى!

يا له من رجل يستحقّ من الإعجاب قدر ما يستوجب من الحسد!.. لكم يبدو عليه جاه المنصب، وإقبال

- هل وقع الأمر بغتة؟

- كلاً يا بني، كان أبوك كعهدنا به صحة وعافية،  
يُبد أن ثقلاً اغتور ساقه اليمنى، وصداعاً شق عليه  
مساء الاثنين..

وساد الصمت، فأغمض المريض جفنيه، ولبث بلا  
حرك، كأنما راح في سبات عميق. وعطف الشاب  
رأسه إلى أمه، فأيقن أول وهلة أنها لم تذق للنوم طعماً  
منذ مساء الثلاثاء، عيناها محمرتان ذابلتان، تطوقهما  
هالتان زرقاوان، وبشرتها شديدة الصفرة، وامتلأ حزناً  
وكمداً ولاح والداه لعينه مخلوقين بائسين مثله تماماً.  
وجلس على كرسي قريباً من الفراش ثم أطرق  
متفكراً: هذه أسرة يتعلق مصيرها بحياة رجل مهتم،  
فماذا تحت الجفنين المطبقين؟.. أحياة أم موت؟..  
أنجح أم تشرّد؟ لماذا لم يتأخر هذا الشلل عاماً  
آخر؟! وذكر شارع رشاد باشا الصامت الجليل،  
والقصور القائمة على جانبيه، والباشوات والبكوات  
تحملهم السيارات منه وإليه، والنساء اللاتي يلحن  
وراء ستائره وبين خثائله. فأين من أولئك والداه  
البائسان؟! وهذا البيت المتداعي!! وجعل يقول  
لنفسه: إنه لو كان وريث أحد تلك القصور وأشفى  
أبوه - الباشا - على الموت لانتظر موته بفارغ الصبر.  
وتنهّد من قلب مكلم وقد احتدم الغيظ في قلبه ثم  
تساءل وهو لا يتحوّل عن إطاره: ترى كيف تنتهي  
هذه المأساة؟!

\*\*\*

واسترق النظر إلى أمه، وكانت تجلس مطرقة عند  
قدميه، فراها غارقة في السواد الذي حلفت ألا تخلعه  
مدى الحياة منذ ماتت له أختان بالتيفود، ذابلة الوجه،  
تبدو أكبر من سنّها الذي جاوز الخمسين بقليل، تنوء  
بأنقال عمر أنفقت أمام لب الكانون ووهج الفرن،  
تعجن وتخبز وتغسل وتكنس، فتحجّرت أصابع يديها  
وبرزت عروق ظاهرها كفيها، لم تجد في حياتها وقتاً  
للثروة، كانت كالبترول الذي يحرّك آلة كبيرة دون أن  
تدركه الحواس. وكانت تحبّ ابنها حبّ عبادة، وقد  
تضاعف هذا الحبّ بعد وفاة شقيقته في ميعة الصبا،

الفراش، واقترب منه، وكان رأس الرجل مائلاً نحو  
الجدار. غمغم بصوت خافت:

- مساء الخير يا أبي.. كيف حالك؟

ولم يُبد على الأب أنه سمع حساً أو أدرك شيئاً،  
فانحنت الأم على رأسه وقالت:

- محجوب يمسي عليك..

واعتدل رأس الرجل ببطء، وتحرك جفناه، ثم أبرز  
يسراه، فأخذها محجوب بين يديه وقبّلها، وبدا الرجل  
مريضاً جداً ويدت عيناه مظلمتين كأنهما تقطران من  
ماء أسن، وفمه معوجاً! قال محجوب:

- أبي.. كيف أنت؟.. لا حول ولا قوّة إلّا  
بالله..

وثبت الرجل عينيه عليه، وتكلّم بصوت  
متحرج، متقطع المخارج قائلاً:

- لم يعاودني النطق إلّا ظهر اليوم!

فارتاع محجوب وسأل أمه:

- هل عجز وقتاً عن النطق؟

فقالت المرأة المتعبة:

- أجل يا بني. كان في عمله عصر الثلاثاء الماضي  
كالعادة، فسقط فجأة فاقد النطق، وجاءوا به  
محمولاً، ودعوا بالطبيب. وأتى الطبيب فحجمه  
وحقنه، ولا يزال يعوده كلّ صباح، ولكن لم يعاوده  
النطق إلّا قبل ظهر اليوم.  
- ماذا قال الطبيب؟

فلاحت في عينيها نظرة خيري، وتحركت شفاتها  
دون أن يسمع لها صوت، فقال أبوه:

- قال إنه شلّل.. شلّل.. جزئي..

وارتاع الشاب لفظاعة الاسم، وإن كان يجمل  
حقيقته كلّ الجهل.

وأرادت أمه أن تفرخ روعه فقالت:

- ولكنّه أكّد صباح اليوم زوال الخطر..

فاستطرد الأب بصوته المتقطع الغامض:

- إي.. أفهم.. ما يقال.. لن أعود كما كنت  
أبداً..

فعضّ محجوب على شفتيه وسأل والدته:

- أصغر إلي يا بني، لن أعود إلى عملي بالشركة،  
هذه هي الحقيقة فإذا ترى؟  
فازداد صدر محبوب انقباضاً، ولازم الصمت في  
انتظار النطق بالحكم، فاستدرك الرجل:  
- ربما منحتني الشركة مكافأة صغيرة، ستفقد بلا  
ريب قبل مضي أشهر قلائل، بل المؤكد أنه لن يبقى  
منها شيء بعد ثلاثة أو أربعة أشهر على الأكثر، ولكن  
لن أعدم نصيراً يجد لك وظيفة تنهض بنا جميعاً.  
فقال محبوب بتوسل، وقد نظقت عيناه بالآلم  
والقنوط:

- الامتحان يا أبي على الأبواب، نحن في يناير وهو  
في مايو، أما إذا وظّفت الآن فسأعذّ كحامل  
البكالوريا، وفي ذلك ضياع لمستقبلي عظيم..  
فقال الأب بحزن:  
- أعلم ذلك، ولكن ما الحيلة؟ أخاف أن نتعرّض  
للفضيحة أو نهلك جوعاً!

فقال الشاب بتوسل حارّ، وبصوت ملأه حاساً  
وقوة:  
- أربعة أشهر، أربعة أشهر فقط بيني وبين ثمرة كذّ  
خسة عشر عاماً.. أمهلني قليلاً يا أبي، ستكفيني  
المكافأة حتّى أنهض على قدمي، لن نجوع، ولن  
نتعرّض للفضيحة بإذن الله.

- وماذا يكون من أمرنا إذا أخطأ تقديرك؟.. إذا  
خاب سعيك لا قدر الله؟ إنّ حياتنا بيدك؟  
فقال محبوب وهو يعصّ بنواجله على أهداب  
الأمل:

- أنت لا تدري يا أبي كيف سيكون اجتهادي! لن  
يحول بيني وبين النجاح حائل!  
وتردّد الشاب لحظة ثم قال:  
- وهناك قريب والدتي أحمد بك حمدي!  
ولكن والده رفع يصره محتجاً، وقطب استياء،  
فخاف الشاب أن يفقد عطفه، وأن يذهب ما بذل في  
إقناعه هباء، فقال بسرعة:  
- لا حاجة بنا إلى معونة أحد، وستسير الأمور بإذن  
الله وفق آمالي.

ولكنها لم تترك أثراً يذكر في تكوينه وتربيته، وكانت لا  
تجد في حياتها من تكلمه فعاشت كالبكم في صمت  
وجهالة. وقد أقسرت الظروف أباه على الاختفاء من  
حياته كذلك، فكان يواصل العمل في الشركة من  
الصباح حتّى ما بعد العشاء، ثم يهرع بعد ذلك إلى  
حلقات الأذكار حتّى منتصف الليل، فكان لا يكاد  
يرى ابنه. وكان رجلاً مجتهداً دموياً، مخلصاً لبيته،  
وصورة منها، لا يشدّ عنها في شيء، يفاخر كثيراً  
بقرابته لأحد كبار الموظفين - قريب زوجه - وكان  
كزوجه لا يعرف الراحة، فلم ينأ بحياته الزوجية،  
واقصرت رعايته لابنه على إلزامه بالقيام ببعض  
فروض دينه مستعيناً بالعصا في أحيان كثيرة، لذلك  
جميعه، نشأ محبوب على خوف من أبيه، وانطلق إلى  
الشارع الذي أتمّ تربيته وتكوينه، ولذلك كانت صلته  
بوالديه واهية باهتة. كان يحبّ أمه أكثر من أبيه،  
ولكنه بات على استعداد دائم لأن يخضع صلته بهما  
لفلسفته المدمرة التي لا تَبقي على شيء، فلم يكن  
حزنه حزناً على والده بقدر ما كان إشفاقاً على الرجل  
الذي ينفق عليه ثلاثة جنيهاً كلّ شهر.

## - ٨ -

في صباح اليوم الثاني جاء الطبيب وفحص المريض  
وحقنه بالكافور، ثمّ صرّح بارتياحه للحالة مؤكّداً أنّ  
الخطر زال تماماً. وغادر الرجل الحجرة يتبعه محبوب  
حتّى أدركه في الفناء، والتفت الطبيب إليه وقد أدرك  
الباعث الذي حمله على اللحاق به:

- الحقيقة ما قلت لأبيك، الإصابة جزئية وإلاّ  
كانت القاضية. يبيد آتٍ صارحته كذلك بأنّه لن يعود  
إلى عمله، وسيلازم الفراش بضعة أشهر، ولكنّه  
سيحرّك جنبه المشلول. بل ربما عاود المشي.

ووقف انتباهه عند «لن يعود إلى عمله» فلم يَدِرْ  
شيئاً ممّا قال بعد ذلك، وأظلمت الدنيا في عينيه، وعاد  
إلى الحجرة ذاهلاً، وكان أبوه ذا طبيعة عملية، لا يدع  
أمراً معلقاً إذا أمكن أن يبيّن فيه برأي، فدعا ابنه إلى  
الاقتراب من الفراش، وقال بلسان ثقيل:

وسرعان ما تناسى البيت والأسرة فلم يعد يذكر إلا نفسه، تساءل وهو ينتفح حاجبه الأيسر: لماذا قُدر له أن يولد في ذلك البيت؟ وماذا ورث عن والديه سوى الهوان والفقر والدعامة؟ أليس من الظلم أن يرسف في هذه الأغلال قبل أن يرى النور؟ ولو كان ابن حديس بك مثلاً لكان له جسم غير هذا الجسم ووجه غير هذا الوجه وحظ غير هذا الحظ، ولذاق الطمأنينة والسلام، ولاقتنى سَيَّارة. وتفكَّر محزوناً في الفقر الذي يترَبَّص به، فرآه يتسم إليه هازئاً كأنما يقول له: «ما استطعت دفعي بثلاثة جنيهات، فهل تدفعني غداً بجنيه واحد!.. أين يسكن؟.. كيف يأكل؟.. وهز رأسه في كمد، ولكنَّه لم يشعر بخزور أو تخاذل. كان عظيم الثقة بنفسه، جريئاً إلى أقصى حد، يبدُّ أنه تميَّز غيظاً وحنقاً.

#### - ٩ -

وشارف شارع رشاد باشا والشمس تذوب في بحيرة الشفق الدامية، والسمرة تلون حواشي الأفاق. ولاحت منه التفاتة وهو ينعطف إلى الشارع فرأى عليّ طه قادماً من ناحية الجامعة، فوقف ينتظره، وتصافحا ثم قال عليّ باهتمام:

- حدَّثني الأستاذ مأمون عن مرض والدك، فأسفت لذلك غاية الأسف. وإنَّه ليسرني أن أستدلَّ بسرعة عودتك على اطمئنانك!

وكره أن يطلع مخلوقاً على أحزانه، فقال باقتضاب مبتسماً:

- شكراً لك..

- أليس هو بخير؟

- بلى.. شكراً.

وسارا جنباً لجنب على مهل كأنَّها يتنزَّهان، وتساءل محجوب تُرى آلت صاحبه من موعد غرام أم ذاهب إليه؟! هذا الشاب الذي يجد في محضره من دواعي السرور قدر ما يجد من دواعي الألم، واسترق إليه النظر فرآه يسير حالكاً يضيء الابتسام وجهه ويقبس جبينه من نور البشر والبشاشة، ويهتَّز طرباً من نشوة

وأدرك أنَّه أخطأ بذكر قريتهم العظيم الذي تناساهم واحترق صلته بهم منذ تبوَّأ مركزه الرفيع. أجل إنَّ والده يفاخر جهازاً - على مسمع من الغرباء - بقرابته، ولكن طالما أنحى عليه باللائمة أمام والدته، وطالما أضمر له الاستياء واللوم. أدرك محجوب ذلك نادماً، وعاد يقول:

- لا حاجة بنا إلى معونة أحد، ولكن ينبغي أن نستوصي بالصبر وأن نطمئنَّ إلى رحمة الله، أربعة أشهر فحسب وبعدها الفرج!..

وكان أبوه يعلم أنَّ المكافأة تكفيهم - مع التقدير - خمسة أشهر أوسَّته، فتفكَّر ملياً ثمَّ سأله:

- تستطيع أن تعيش بجنيه واحد في الشهر؟

جنيه واحداً أو ما يساوي إيجار حجرة بدار الطلبة؟.. ربَّاه! بالأمس ضاقت به الدنيا ونفقت ثلاثة جنيهات، فإذا هو صانع غداً بجنيه واحد؟! ولم يمهله الرجل طويلاً فاستدرك قائلاً:

- لا حيلة لي والخيار بين يديك!

هل يملك خياراً حقاً؟! كلا، إنَّ أباه مُكره، وما عليه إلَّا الإذعان والتسليم، قال:

- لتكون مشيئتك.

فقال الشيخ:

- لتكون مشيئة الله، والله مسئول أن يوفِّقك لما فيه الخير، وأن يصل بك جناحنا المهيض.

واقترح الرجل على ابنه أن يرحل مساء حتَّى لا يضيِّع وقتاً هو في أشدَّ الحاجة إليه. وعند المساء ودَّع الشاب والديه، فقَبِل يد والده، واستسلم لأمِّه تقبَّله وتباركه. وحين همَّ بمغادرة الحجرة سمع والده يقول له:

- الله معك اجتهد وتوكل على الله، ولا تنسَ أنك

أملنا الوحيد..

ومضى إلى المحطة، ومهما يكن من أمر فقد استنفذ من الحيرة التي نهكته عند مجيئه. وعلم الآن أنَّ أمله لا يزال معلَّقاً بخيط لم يقطع بعد. أمَّا ما يُنذر به المستقبل من متاعب فسيعرف كيف يعالجها مهما كلفه الأمر. وودَّع البلد وداعاً فاتراً. واتَّخذ مكانه بالقطار،

- أظنّ كمال هذا الامتزاج يوجب أن تكون فتاتك محرّرة من الدّين، مؤمنة بالمجتمع والمثل العليا والاشتراكية!

فقال عليّ برزانة:

- حسبنا أن نحيا حياة وجدانيّة روحية واحدة، وسوف يتّحد عقلانا بالاختلاط، فنكوّن أسرة سعيدة يوماً ما..

فقال محبوب باستغراب:

- أبلغتني هذا الحدّ؟

- نعم.

- هل تكاشفتها؟

- نعم. سأنتظر حتّى تنتهي من دراستها العليا..

- مبارك يا أستاذ.

وعزّ عليه أن يمتنّ وهو أحقّ إنسان بالعزاء، وامتلاً شجناً وانقباضاً، فاز عليّ بأجل مليحة في القاهرة، وغدا الجسد اللّين الطريّ من نصيبه واندفع إلى السؤال بغير روية:

- كيف عرفتني؟.. في الطريق؟..

فقال عليّ بدهشة:

- كلّ.. من النافذة!

- ولكن غيرك نظر أيضاً؟

أقلت منه الجملة بغير روية أيضاً، فندم عليها أشدّ الندم، وخاف أن يفهمها صاحبه على حقيقتها فاستدرك بضلّله:

- جيراننا الطلبة ينظرون كذلك..

فصمت عليّ مبتسماً، وسكت محبوب أن يورده لسانه عثرة جديدة. وشارفاً دار الطلبة: بدت كالثكنة العسكرية، بيتائها الضخم ونوافذها العديدة الصغيرة، ورأياً في مقابلها - عند ناصية شارع العزة - دار عمّ شحاته تركي، كان الرجل واقفاً أمام دكانه، كان في الخمسين، أبيض البشرة، حسن الوجه فقال محبوب لنفسه ساخراً: «نغم الصهر». ودخلا الدار الكبيرة، أسعد الناس وأشقاها.

الحبّ. ليس توفيق العاشق كظفر المحارب لذة وخلاء؟!.. وشعر برغبة لا تقاوم في استدراجه إلى هذا الحديث الجميل، فقال مشيراً إلى مغارس الشجر مبتسماً ابتسامة لها معناها:

- آه لو ينطق هذا الشجر!

ففطن عليّ طه إلى مرمى إشارته، وكان وجدانه من اليقظة بحيث ألحّت عليه الإبانة والحاجة إلى التعبير، فقال بتأثّر:

- أستاذ محبوب، هو ما تظنّ، ولكن لا تنظر إلى الأمر بعين السخرية، كلّاً، ما هو بالهزل. إنّ هزة قلب خطير له من المغزى في هذا الوجود ما لحركة الأفلاك في السموات؛ فلا تذكر أبداً خزان البخار وصمام الأمن.

وشعر محبوب نحو محدّثه باحتقار شديد، ضاعفه ما ثمت عليه نبراته من التآثّر، وضاعفه أيضاً ما يكنّه له من الحسد، وقال في نفسه ساخراً: حتّى وظيفة التناسل يريد الأحقّ أن يجعل منها محرّباً مقدّساً، ثمّ قال بهدوء وبرود:

- يا أيّها العاشقون، لا أعبد ما تعبدون!

فابتسم عليّ قائلاً:

- ولا نحن عابدون ما تعبد.

وخاف محبوب أن تعيد سحرته الشابّ إلى رشاده، فندم على ما فرط منه وأراد أن يداريه، فعزّز لهجته وتساءل باهتمام ظاهريّ:

- غريب أمر هذا الحبّ!.. يتدّ أن فتاتك متفوّقة حقاً!

فقال عليّ بحماس:

- ليس الجمال فضيلتها الوحيدة: روحها لطيف، وفؤادها ذكيّ، ويعجزني وأيم الحقّ أن أعبرّ لك عن امتزاج روحينا. هذه إحسان!..

واضطربت نفس الآخر لدى سماع الاسم، فامتلاً حقناً فجأة. تُرى أهذه هي الغيرة التي يقولون عنها؟.. يا للعار! كيف يقع في ذلّ الغيرة من يطمح إلى تحطيم الأغلال جميعاً؟! وعاد يقول بلهجة جديدة يخفي بها سخرية جديدة:

- ١٠ -

فقال محجوب:

- الحكومة.. أي الأغنياء أو الأسر. والحكومة أسرة واحدة. الوزراء يعيّنون الوكلاء من الأقارب، الوكلاء يختارون المديرين من الأقارب، المديرين يختبون الرؤساء من الأقارب، الرؤساء يختارون الموظفين من الأقارب، حتّى الحَدَم يُختارون من خدم البيوت الكبيرة. فالحكومة أسرة واحدة، أو طبقة واحدة متعدّدة الأسر، وهي حقيقة بأنّ نضحي بمصلحة الشعب إذا تعارضت مع مصلحتها.

- والبرلمان؟

فقال محجوب مبتسماً بخث:

- النائب الذي ينفق مئآت الجنيهات قبل أن يُنتخب لا يمكن أن يمثل الشعب الفقير، والبرلمان في ذلك شأنه شأن المؤسسات الأخرى، انظر إلى قصر العيني مثلاً، فبالاسم مستشفى الشعب الفقير، وبالفعل حقل تجارب لإجراء اختبارات الموت على الفقراء..

فقال عليّ طه بهدوء:

- السخط شعور مقدّس، أمّا اليأس فمرض، ومهما يكن من أمر فالبرلمان بحيرة تلتقي فيها جداول متباينة المصادر، لا يحيد عن أن تترج أمواها، وينشأ عنها نبع جديد..

فابتسم محجوب ابتسامة مرّة وتمتم:

- تعجني هذه الأسماء: أحسن والمكسوس، منفتح واليهود، عرابي والجراكسة!  
فقال مأمون رضوان ضاحكاً:  
- أعجب شيء أنّ طه شيعويّ بنّاء بينما أنت مدمّر.. أنت أحقّ الناس بلقب فوضويّ.

فقهقه محجوب حتّى سعل وقال:

- نحن نشقّ على أنفسنا أكثر ممّا ينبغي، كأنّ هذه الحجرة مسئولة عن رفاهية الدنيا..

فقال عليّ طه:

- سوف تصغي جدرانها إلى آمال الأجيال المتعاقبة ما دامت حجرة للطلبة..

فقال مأمون رضوان باهتمام متسائلاً:

- هذه الحجرة معمل تفريخ، فما الخطوة التالية؟

واجتمع الأصدقاء الثلاثة في حجرة مأمون رضوان، وكانت النافذة مغلقة والمدفأة وسط الحجرة يعلوها غشاء من الرماد. وكان مأمون ينتقد خطبة الجمعة التي استمع إليها ظهرًا، وجعل يقول إنّ خطب الجمعة في حاجة ماسّة إلى التجديد، وإنّما بحالتها الراهنة دعوة صريحة للجهل والخرافة.

ولم تكن خطبة الجمعة ممّا يابه له صاحبا، بيّد أنّ عليّ طه قال:

- الحاجة ماسّة حقًّا إلى وُعاظ من نوع جديد، من كلّيتنا لا من الأزهر يبيّنون للشعب أنّه مسلوب الحقوق، ويدلّونه على سبيل الخلاص..

وكان من عادة محجوب عبد الدائم أن يشترك في أحاديث صاحبيه، لا عن إيمان برأي - فلم يكن له رأي يؤمن به - ولكن حبًّا في الجدل والسخرية. ولكّنه شعر ذلك المساء - أكثر من ذي قبل - أنّه من الشعب البائس الذي يعنيه عليّ، فأراد أن ينقّس عن صدره المحزون بالكلام، ولم يكن الشعب شيئًا يهمّه، ولكّنه لم يستطع أن يطرق همومه الخاصّة إلّا عن سبيله، فقال:

- جميل.. إنّ علّتنا الفقر.

فقال عليّ طه بحماس:

- هو الحقّ، الفقر الذي يخنق في جوه الفساد، العلم والصحة والفضيلة، إنّ من يرضى بحال الفلاح حيوان أو شيطان!

فقال محجوب في نفسه: أو عاقل مثلي على شرط أن يكون غنيًا. ثمّ تساءل بصوت مسموع:

- عرفنا الداء، وهذا شيء ميسور، ولكن ما العلاج؟

فقال مأمون رضوان وهو يثبّت طاقته:

- الدين، الإسلام بلسم لجميع آلامنا..

ومدّ عليّ طه ساقيه حتّى كادت تَمْسُك المدفأة، وقال دون مبالاة لما قال صاحب الحجرة:

- الحكومة والبرلمان..



لا محيص عنها - وليترك الكنس جانباً - ثم الحلاقة، أما فنجان القهوة فمن الكماليات المحرمة - وليس فيما بقي من أثائه الحقير ما يمكن الاستغناء عنه أو ما يطمع أن يأتيه بثمان يذكر، فالقراش - وهو أهم ما لديه - لا يكاد يساوي نصف جنيه، ونفعه مع ذلك لا يقدر: فعليه يرقد وتحت حشيتة يحفظ ثيابه. وهز رأسه ذا الشعر المفلفل وغمغم: «ستكر الأشهر الثلاثة كما يكر غيرها من الأيام، ولن أموت جوعاً على أي حال». وبات ليلته الأولى بالمسكن الجديد.

وفي صباح اليوم الثاني غادر الحجرة بعد أن أغلقها، وأراد البواب أن ينظفها له ولكنه رده مشكوراً، وكان في الحقيقة يهرب لأنه لا يستطيع أن يتنازل له عن مليم واحد. وبلغ ميدان الجيزة، وجال ببصره حتى استقر على دكان فول مدّس فتوجه إليه واجماً. ووجد جماعات العمال يقتعدون الإفريز أمام الدكان يلتهمون طعامهم ويتحدثون ويتضحكون فقال لنفسه: «أصبحت واحداً من هؤلاء العمال الذين يرثي لهم عليّ طه...». وطلب نصف رغيف وانتحى جانباً يأكله بشهية، فانتهى ولما يشبع. وكان بطبعه عظيم الشهية يتناول في إفطاره صحيفة فول ورغيفاً غير البصل والمخلل، ولكنه لا يستطيع أن يأكل أكثر من وجبتين صغيرتين في اليوم. وهز منكبه ومضى في سبيل الجامعة وهو يقول: «لشدّ ما أنا في حاجة إلى صفاء الذهن، فلماذا النجاح وإنا الانتحار؟ ومضى وقت الدراسة كالعادة، وقابل أصحابه جميعاً، وأنفقوا في حديقة الأورمان وقتاً غير يسير يتناقشون في المحاضرات. وعندما أزف وقت الغداء انفصل عنهم فذهبوا إلى المقصف، وعاد هو إلى ميدان الجيزة، بالأمس فقط تناول غداءه بالمقصف مع عليّ، ومأمون، وأحمد بدير، وكان مكوناً من صحيفة سبانخ باللحم الضائيّ وأرز وبرتقالة، أما اليوم...!، وأقبل على دكان الفول وقد استقبله صاحبها بابتسامة وهو يقول: «أهلاً وسهلاً». فأذته نحيته ونالت من كبريائه. وكان إلى جانب دكان الفول دكان كباب فحمل الهواء دخان الشواء إلى أنفه. فسال لعبه وتوجّعت معدته، ثم أخذ

فقال محجوب بسرور شرير:

- السجن إن كنا من الصادقين!

ثم ذكر الهموم التي جاء بها من القناطر ففقد حماسه للحديث، ونهض مستأذناً في الانصراف بتعب السفر، ومضى إلى حجرته، وجلس إلى مكتبه الصغير محزوناً متفكراً: إذا انتهى يناير انتهت معه «رفاهية» حياته الراهنة. أجل بدت له هذه الحياة فيما مضى جحيماً، ولكنها إلى ما ينتظره من حياة الغد نعيم مفقود! ولا شك أنّ الأشهر الثلاثة القادمة تحمل في طياتها ألواناً من الشقاء لم يحلم بها قط، فماذا هو صانع؟ ومضى يشدّ حاجبه الأيسر مقطّبا، يلوح في وجهه الشاحب العزم والتحدى...

## - ١١ -

ونشط في الأيام الباقية من يناير للبحث عن حجرة رخيصة ولم يظفر بحاجته بسهولة لأنّ الحيّ من الأحياء المأهولة، ولأنّه مكتظّ بالطلبة، وهؤلاء يتقاتلون على الحجرات المنعزلة فوق الأسطح، ثم عثر في النهاية على حجرة سطحية بعارة جديدة بشارع جركس - على مقربة من ميدان الجيزة - ولكنّ جذتها كانت طامة عليه لأنّ صاحب العمارة أبى أن يُكرّي الحجرة بأقلّ من أربعين قرشاً، فاضطرّ محجوب إلى القبول مغلوباً على أمره. وأخبر أصحابه بأنّه سيتقل إلى حجرة بعارة جديدة، وقال لهم - وهو يغمز بعينه - إنّ أسباباً خاصة دعت إلى ذلك. قال ذلك وهو يعلم أنّه سيعجزه غداً وصال جامعة الأعقاب، ولكنه أثر كذباً من هذا النوع على إذلال كبريائه. ووجد نفسه في حاجة إلى نفقات النقل وابتياح مصباح غازي، فنظر في أثائه البسيط فلم يجد شيئاً يمكن الاستغناء عنه، سوى صوان الثياب الصغير - أشبه بصندوق منه بصوان - باعه سرّاً بمساعدة البواب بثلاثين قرشاً. وفي أول يوم من فبراير حزم متاعه وودّع أصحابه وانتقل إلى الحجرة الجديدة. وأتى الإيجار مقدّماً فلم يبق معه من نفقته الجديدة إلّا ستون قرشاً هي جماع ما يملك طوال الشهر. قرشان لليوم الواحد، للغذاء والغاز، وهناك الغسل ضرورة

ذلك الصبر المرّ، ويجدون في هذا وذاك لذة عالية! .. ربّاه. . . لشدّ ما احتارت هذه الكلمة البديعة «اللذة» بين أمزجة البشر. أمّا هو فلذاته بيّنة، وحرمانه بيّن كذلك، حتّى جامعة الأعقاب أمست عزيزة المنال! . وذهب إلى الكلية، وحضر الدرس الأول، ثمّ مضى إلى الحديقة ينتظر الدرس الثاني الذي يبدأ بعد ساعتين وجلس على أريكة وسط جمع من الطلبة يستمعون بأشعة الشمس اللطيفة التي يجود بها فبراير جود مقترّ شحيح. وكانوا يتحدّثون بحمّية الشباب ويتنقلون من موضوع إلى موضوع كيفما شاءوا: تلك الأنسة البدينة التي تضطرب نبراتهما وتهتّج صوتهما إذا نهضت لقراءة نصّ من النصوص، ومستر أرفنج مدرّس اللاتيني ذو الشعر الذهبي. . . ألم يكن من الإنصاف لو خلق أنثى، وخلقت أنسة ذرّية ذكراً؟! السينا وتهديدها للثقافة الحقّة والفنّ الرفيع، والويسكي والحشيش وأتّهما أمتع، هل يعود دستور سنة ١٩٢٣؟، من صاحب الفضل الأكبر في إنشاء الجامعة؟ الملك أم المغفور له سعد زغلول؟ جماعة مصر الفتاة هل هم مخلصون أم دسيسة؟ من أحقّ بالفضل في نهضة المسرح يوسف وهبي أم فاطمة رشدي؟ أيّهما خير للوطن، أن يتمّ الأمير فاروق دراسته في إيطاليا كما يريد والده، أم في إنجلترا كما يريد الإنجليز؟. امتلأ الجوّ آراء وملاحظات، وضجّ بالضحكات والصباح، واشترك محجوب في الكلام بقدر، وأصغى لما يقال بسخريته كالعادة، ثمّ نهض يتمنّى في أرجاء الحديقة الواسعة، حتّى أزف وقت الدرس فانطلق إلى الكلية، وبعد انتهاء الدرس خرج متأبطاً ذراع أحمد بدير، وقد قال له الشاب الصحافي:

- مبارك عليك السكن الجديد.

فقال محجوب مبتسماً:

- بارك الله فيك.

فسأله الشاب وعلى شفّيته ابتسامة مأكرة:

- من أسرة أم من بنات الهوى؟

فأدرك محجوب في الحال غمّاً يتساءل صاحبه،

وارتاح لذلك، وأجابه بابتسامة غامضة قائلاً:

الرغيف - ومضى فارّاً من الرائحة الشهية. وعاد إلى حجرته وفتح بابها، فشَمّ رائحة هواء فاسد لأنّه كان قد ترك النافذة مغلقة، ورأى الغبار يعلو المكتب والكتب، والبطانيّة مكوّمة على الفراش، فأدرك أنّ عليه منذ الساعة أن يكون طالباً وخادماً وربّما «غسّالة» أيضاً، وسرع في القيام بوظائفه الجديدة تمتعاً ثائراً، الحياة الجديدة شاقّة متعبة، سيواصل دراسته بلا ريب، وسيواصلها بعزم وعناد، ولكنّ لن يسكت له جوع أو يطمئنّ له جانب، وسيسهر الليالي طاولاً، يجلس إلى مكتبه الساعات الطوال مثلج الأطراف مقوّم الظهر، وربّما فضحه مظهره وعرضه للهزة والسخرية، وربّما نال منه الجوع فأسقمه.

ولكنّ ليس له إلّا أن يكافح بصلافة وعناد، وأن يتحدّى الناس والحظّ والدنيا جميعاً وأن يغضب وأن يحقد وأن يجرّ جنوناً. استمرّ في عمله حتّى انتصف الليل، ثمّ ترك مكتبه إلى فراشه، ورقد عليه منهوك القوى، وهو يغتم:

- انتهت أولى ليالي محنتي! ..

## - ١٢ -

وفي صباح اليوم الثاني استيقظ متعباً موجع الرأس، ومن عجب أنّه لم يكن جائعاً، ولكنّه ذكر آلام جوع الليلة الماضية، فإنّ رغيف الفول لم يصمد بعد العشيّ، وتركه لجوع قاسٍ أليم، وقد خطر له أن يضرب عن طعام الإفطار على أن يتناول في غدائه رغيفاً ونصفاً، فيضمن راحة الليل ويذاكر رخيّ البال، أمّا ساعات النصف الأوّل من النهار فالدروس كفيلة بأن تشغله عن معدته في أثناءها. فكرة طيّبة جديرة حقّاً برأس فقير معدم والعادة كفيلة بأن تجعل الألم غير أليم، بيد أنّه ما كاد يكرع كرعة روية ويستروح نسائم الصباح في الطريق حتّى غمّط وحش معدته، فانهارت عزيمته، وهول إلى دكان الفول لا يلوي على شيء. وراح - وهو يتناول طعامه - يذكر ما يقال عن سيرّ متصوّفي الهند، وعجب كيف يقاومون الجوع تلك المقاومة الخارقة، وكيف يصبرون على الألم

بك حمديس!.. أيجوز أن يقط وله مثل هذا القريب الكبير؟! أجل إن والده يجد عليه وجداً عظيماً، ويقول إنه رجل جحد، نسي أهله، وتنكر لهم. هذا هو الواقع حقاً، ولكن والده غطى في غضبه وليس البك غطاً في سلوكه. إذا كان قريبه يتكبر فجميع أمثاله يتكبرون، ومن حقهم التكبر ولولا آداب الريف الحمقاء لما غضب والده. بيد أن تكبر البك لن يمنعه من أن ينظر إلى مسألته بعين العطف، ويمد له يد المعونة، فليقصد إليه آمناً، وسوف يكفيه شر اللجوء إلى البغضاء!

### - ١٣ -

وغادر حجرته وقد صدقت نيته على زيارة قريبه وتجربة حظه، ولم يقتصد في تهيئة نفسه، فكوى طربوشه، ولع حذاءه بقرش كامل أو بثمان وجبة كاملة، ولكنه بدا رغم ذلك كالعليل شحوب وجه وهزال جسم، وبحث في دفتر التليفون عن عنوان قريبه: شارع القسطنطينية بالزمالك، وحث إليه الخطى..

وحلّق به الخيال - في مسيره - في عالم الذكريات المنطوية، فأضاعت فترة بعيدة من الزمن إذ هو في الثامنة، وإذ قريبه لا يزال أحمد أفندي حمديس المهندس بالقنطرة، وكانت أسرة المهندس مكوّنة من زوجه الحسنة وتحية ابنتها - في الرابعة - وطفل في الثانية من عمره. كانت أسرة سعيدة تزوّجها ربّة مفرطة في الحسن. وفي ذلك الوقت لم يكن آل حمديس يترفعون عن مخالطة آل عبد الدائم، ولم يأل عبد الدائم أفندي جهداً في إكرام الأسرة العزيزة. ولكم جاب الأسواق يبتاع الدجاج والحمام يهين لهم مائدة شهية. ولقد فاز هو بعطف حرم حمديس بك فكانت تنثي على ذكائه وتعجب بشطارته، وترك له تحية بلاعبها في فناء الدار وفي الطريق. ترى كيف صارت تحية الآن؟.. وهل تذكره؟. لقد انطوى ذلك العهد منذ خمسة عشر عاماً، فسي واندر وانتهى، وذهب بذكره الزمن والإهمال. ولو كانوا شيئاً ذا بال لرسبت

- هذا سرّ لا يذاع!

- هل تقيم معك في الحجرة أم توافيك إليها الليلة بعد الليلة؟

فقال محجوب بزهر:

- الإقامة مجلبة للشبهات كما تعلم!

فهز الصحافي رأسه وهو يمحصم بفمه وقال:

- يا حظك!..

وتتابعت أيام فرباير ومتاعب الحياة تصكّه صكاً، ولاحقه شبح الجوع ليلاً نهاراً، فلم تظمن معدته إلا سويغات معدودات في اليوم الطويل. وكان إلى عمله الدراسي يكس حجرته وينظف مكتبه ويرتب فراشه وينسل مناديله وجواربه وقمصانه. ولم يدّر كيف يقتني الحوائج التي يعدها غيره نافهة كابتياح قطعة من الصابون أو غاز المصباح أو حاجته من الورق، فاضطرّ أياً ما أن يقتصر على وجبة واحدة. وطحنه الجوع طحناً، واشتدّ هزاله، وشحوب وجهه، حتى خاف على نفسه، نفسه التي يحبها أكثر من الدنيا جميعاً أو التي يحبها وحدها دون الدنيا جميعاً، لبث جائعاً وحيداً في الحجرة التي يحسب بعض صحبه أنها مهد غرام مستعر. لماذا لا يسأل إخوانه أن يطعموه؟ لو سأل عليّ طه ما تأخر أو تردّد، ولو سأل مأمون رضوان لنزل له عن طعامه ولو كان كسرة خبز. فما الذي يمنعه؟ الكرامة؟.. الكبرياء؟!.. تباً له! ألم يكفر بكل شيء؟! ألم يستهزئ بالقيم؟ فما له يأبه للكرامة والكبرياء؟! تباً له. لا تزال فلسفته كلاماً وهراء، متى يصير رجلاً حقاً؟ متى يفرط في كرامته وعرضه كأنه ينفذ تراباً عن حذائه؟!

وبلغ الكرب ذروته حين طالبت الكلية باقتناء كتاب في اللغة اللاتينية ثمنه خمسة وعشرون قرشاً، فأسقط في يده، ولم يجد من ثمنه مئلياً واحداً. وقد بات الامتحان قريباً! ماذا يصنع؟ أما اللجوء إلى أحد من أصحابه فحلّ بغض مقيت، خصوصاً وهو يعلم أنه لن يقضي دينه إذا استدان، فماذا يصنع؟ ومضى يوم ويوم، واضطربت حياته أيما اضطراب، وأوشك أن يدركه القنوط لولا أن ذكر قريب والدته الكبير أحمد

وتقدّم عمره - قادمًا، فنهض قائمًا وتقدّم منه في أدب  
مأذًا يده، فتصافحا والبك يعن فيه النظر، ثم قال  
مبتسمًا:

- هو أنت إذا!.. بدا الاسم غريبًا بادئ الأمر ثم  
أسعفتني الذاكرة، الآن صرت رجلًا، كيف حال  
والديك؟

بدا الاسم غريبًا بادئ الأمر!.. هو أنت إذا!..  
وتناسى محبوب ذلك كله وقال بإجلال:

- والدي بخير، ولكن والدي مريض، بل في حالة  
خطرة!

وعند ذلك جلسا، وكان البك يرتدي معطفه يدلّ  
مظهره على أنه متأهب لمغادرة البيت، وقال الرجل وهو  
يسند ظهره إلى مقعده:

- لا بأس عليه، ماذا به؟

فقال محبوب بعناية وبصوت واضح:

- أصيب والدي بشلل ألزمه الفراش، فانقطع عن  
عمله، وساءت الحال.

وناط أمله بالعبارة الأخيرة «ساءت الحال» فاسترق  
إلى البك النظر على أثر النطق بها، ولكنه لم يجد لها أثرًا  
يذكر، وقال البك دون أن تتغير ملامح وجهه الباردة:

- أمر محزن، أرجو أن تبليغي تحياتي، وأنت يا  
محبوب هل انتهيت من الدراسة؟

وأحنقه تغير مجرى الحديث، وأثاره برود محدثه،  
ولكنه لم يجد بداً من أن يجيبه قائلاً:

- امتحان الليسانس في مايو القادم.

- عظيم.. مبارك مقدّمًا..

ثم نهض وهو يقول:

- آسف جدًا أن أترك الآن لأنّي على موعد هامّ.  
فنهض الشاب قائمًا حائقًا يلعن في سرّه المقابلة التي

لم تستغرق دقيقتين بعد فراق خمسة عشر عامًا! ألم  
يدرك الباعث الذي رمى به إلى بيته؟ ألم تدلّه «ساءت  
الحال» على ما جاء من أجله؟! وتبعه إلى الخارج في  
حيرة شديدة، هل يمسك بذراعه ويهتف به: «إنّي فقير  
معدم وفي شدة الحاجة إلى معونتك فمدّ إليّ يدك!»  
وتوثّب للعمل مجازفًا بكلّ شيء، ولكنه رأى على بعد

منهم آثار في باطن الذاكرة، ولكن آل حمديس كبروا  
وعظموا ولبثوا هم على ضآلتهم وتفاهتهم، فأتحت  
القناطر من سجلّ الحياة، وغاصت ذكرياتها في غياهب  
الماضي، ونبذ عبد الدائم أفندي موظفًا بالشركة  
اليونانية. ترى كيف صارت تحية؟.. ألا يمكن أن  
تذكره؟. ذلك الغلام الذي كان يحملها بين يديه  
ويجري بها ما بين البيت والمحطة!.. أما حمديس بك  
فلا يمكن أن ينسى، وإن تناسى سيذكره بمجرد أن يقع  
عليه بصره، ولن يقبض دونه يده.

وبلغ الزمالك، واهتدى - بعد سؤال - إلى شارع  
الفسطاط. كان كشارع رشاد باشا ضخامة وسكونًا،  
وتحتشد على جانبيه الأشجار الباسقة، وتشتبك  
أغصانها من الجهتين، فتجعل فوق أديمه ظلّة من  
الأزهار الحمر. فرمق القصور بنظرة غريبة من عينيه  
الجاحظتين، نظرة يقول لسان حالها متسائلًا: «هل  
يمكن أن ينفذ الشقاء من هذه الجدران الغليظة؟ أحقّ  
ما يقول مدّعوا الحكمة أم أنّهم يخدّرون القلوب  
الملتاعة؟!» واقترب بقدمين ثابتتين من القيلّ رقم ١٤،  
وسأل البوّاب بلهجة رفيعة ونبرات رزينة عن البك،  
وأخبره أنّه قريبه وأنّه جاء لمقابلته، فدعاه النوبيّ إلى  
السلامك، ودخل حجرة كبيرة فاخرة الأثاث، لم  
يسبق له أن دخل بيتًا كهذا البيت، أو وُجد في حجرة  
كهذه الحجرة، فألقي على ما حوله نظرة متفحّصة  
مقرونة بالدهشة والإعجاب والحسرة؟ وتطلّع بناظره  
من نافذة قريبة فرأى ناحية من حديقة حافلة بأيّ  
الجمال المعطر. ترى كيف يكون استقبال البك له؟ هل  
تدعوه حرمة لترى كيف صار الغلام شابًا يافعًا؟ هل  
يتذكرون عهد القناطر ويسألون بشوق عن عبد الدائم  
أفندي الصديق القديم؟.. هل يتأثرون لمرضه  
ويدركون الباعث الذي حمله على طرق بابهم فيمتدّون  
له يد المعونة عن طيب خاطر؟.. يا لها من حجرة  
نفسية!.. ألا يمكن أن يملك يومًا قصرًا كهذا يقصد  
إليه ذوو الحاجات؟..

وسمع وقع أقدام، فأنجّه بصره نحو الباب ثم رأى  
البك - وقد عرفه من النظرة الأولى على تغير صورته

كان البك مهندسًا بالقناطر وكنا نلعب معًا في «حديقة» بيتنا.

فقال له الشاب بدهشة:

- لا أذكر شيئًا عن هذا العهد.

وقالت تحية بصوت مهذب كمنظرها سواء:

- ولا أنا تقريبًا..

فأله ذلك، وقال مداريًا عواطفه بالابتسام:

- كتبنا صغيرين، أمّا أنا فكنت في الثامنة..

فهرّ فاضل رأسه مبتسمًا وسأله:

- وهل انتهيت من الدراسة؟

نُرى هذا السؤال من تقاليد الأسر الأرستقراطية؟!

وأجاب:

- سأنتهي في مايو.

- أيّة كُليّة؟

- الآداب..

فقال فاضل بلهجة الرفيعة:

- نحن سعداء إذ وجدنا قريبًا مثلك.

فقال على الفور:

- وأنا أسعد لأني وجدت قريبين.

وكانت تحية تتفحصه بعينين أنثويتين، فقالت لمجرد

الرغبة في الحديث كما يقضي الأدب:

- لم نزر القناطر منذ تركناها.

وارتبك محبوب على غير عادته، هل يدعوها

لزيرة القناطر ومشاهدة البيت ذي «الحديقة» التي كانوا

يلعبون فيها؟! يبد أن فاضل أنفذه من ورطته بأن قال

موجّهًا خطابه لشقيقته بلهجة ساخرة:

- وهل زرت القاهرة التي تعيشين فيها؟ أنت لا

تعرفين إلّا الصالونات والسينما؟

فابتسمت تحية وقد تورّد وجهها وقالت:

- يا لك من مُغالٍ! ساخرًا ألا تعلم أنني أعرف

القاهرة جميعًا، حتّى دار الآثار والأهرام زرتها

كالسائحين..؟!

فخطر لمحبوب خاطر بديع فقال على الفور وقد

خلص من ارتبائه:

- دار الآثار والأهرام باتت مناظر مملولة، هل زرت

الحفريات الجديدة؟!

قريب فتاة شابة وفّتي يافعًا يرقيان السّلم في هدوء،

فانبار توثّبه وجد بصره على القادمين. عرف تحية من

النظرة الأولى على رغم التفاوت الكبير بين الصورة

المائلة للحسن والصورة الثاوية في الذاكرة، وعرف من

أوجه الشبه بينها وبين الفتى أنّه شقيقها. نسي عزمته،

وانقلب إلى حالة من الجمود.. والكبرياء. ونظر البك

إلى ابنه مبتسمًا، ثمّ أومأ إلى محبوب قائلاً:

- الأستاذ محبوب قريبي.. تحية ابنتي وشقيقها

فاضل.

وتصافحوا. وقال محبوب مبتسمًا:

- إنّي أذكرهما جيّدًا.

فقال البك وهو يتحرّك نحو السيّارة التي تنتظره:

- إذا امكث معها بعض الوقت.

هل يمكث معها؟. وتبادلوا النظرات في تطلّع

وابتسام. أمّا فاضل فشابّ جميل نبيل المنظر فكبره من

النظرة الأولى لأناقته وجماله ونبله، وأمّا تحية ففتاة

حسنة فائقة الحسن، ربّما كانت إحسان شحاته أفن

منها حسنًا، ولكن تحية مثال كامل للتعبير عن الأناقة

والكبرياء، وأنموذج حيّ للأرستقراطية، فسرعان ما

بهرت حواسّه، وسرعان ما وجد فيها الرمز الحيّ

للحياة العالية التي يتأكل قلبه حسرة عليها، وقد

سعرت عواطفه وهيجت طموحه، بيّد أنّها لم تُثر شهوته

كما فعلت إحسان، ولا أبقت بنفسه عاطفة سامية -

فلا عهد له بالعواطف السامية - ولكن حرّكت به

إعجابًا مقرونا بالحق، ورغبة ممتزجة بالتحديّ، فشعر

في أعماقه بنزوع إلى السيطرة عليها والبطش بها! وقرّ

عزمه في الحال على أن يمكث معها! وجلس ثلاثتهم في

الثويّ الفخم، وأيقن أنّه لن تخفى عليهما رائحة هيئته،

ولكنّه تلقّى هذه الحقيقة بالاستهانة، والواقع أنّه كان

يتمتّع بقدرة عجيبة على قهر الحياء والارتباك، وعلى

الأذراع باستهانة لا تعرف الحدود! وقال فاضل

مبتسمًا:

- هل تذكرنا حقًا يا أستاذ؟

فقال محبوب بهدوء:

- عشنا معًا في بلدة واحدة منذ خمسة عشر عامًا،

فتساءلت تحية ملتفتة إلى المتكلم:

- الحفريات الجديدة؟!

فأشار إلى صدره كأنه هو الذي اكتشفها وقال:

- حفريات الجامعة: بعد سير دقائق من الهرم

الأكبر، دنيا غريبة محاطة بالأسلاك الشائكة، وجميع

مفتشيها من أصدقائي وزملائي فمضى نذهب معاً

لمشاهدتها؟

فقالت بسرور:

- لا أدري، ولكنني سأذهب يوماً ما.. أليس

كذلك يا فاضل؟

فقال فاضل بلا وعي منه وقد أخذ يعتوره الفتور:

- طبعاً.. طبعاً..

وشعر محجوب عبد الدائم وهو يعبر حديقة الفيلا

بعد انتهاء الزيارة أنه من الممكن أن ينشأ بينه وبينها

نوع مما يسميه الناس بالصدقة. وتفكر فيما يمكن أن

يفيده من هذه الصدقة إذا حدثت، أم يخرج منها كما

خرج من زيارة البك صفر الدين..

#### - ١٤ -

ووجد نفسه في شارع الفسطاط مرة أخرى ولفحته

رياح باردة عاتية لم يدر متى هبت، تهز الأغصان فيضج

الطريق بحفيفها، وتصفر بين الجدران فيصم الآذان

زفيفها. فسرت إلى جسمه المتعب رعدة غمشت في

مفاصله، فالشي أقسى من أن يحتمله ضعيف جائع.

بيد أن أفكاره شغلته عما حوله فاقتحم طريقه نصف

شاعر بقساوة الجو. ذكر فاضل، وقارن بينه وبين

نفسه، هنالك الصحة والجمال والغنى وهنا المرض

والدمامة والفقر، ومع ذلك فهما قريبان! أما تحية فتاة

أرستقراطية، صورة حية للعالم التي يطمح إليها. ترى

هل يذهب بها يوماً إلى الأهرام؟! إن فتاة مثلها لحقيقة

بأن تكون مفتاحاً سحرياً يفتح الأبواب المغلقة ويصنع

المعجزات. تفكر في ذلك طويلاً، ولكن يا أسفا.

أيوز أن يغرق في تلك الأحلام وينسى همومه الراهنة؟

من أين له النقود ليشترى كتاب اللاتيني؟. وكيف له

بمقاومة الجوع الذي بات يهدد جسده وعقله!.. يا

عجباً!.. هل من دليل على حقارة الإنسان أكبر من

ضرورة الطعام لحياته؟! أليكون هذا الطعام الذي

يقتلع من الطين ويسمد بالقاذورات زبدة الحياة

وقوامها؟ وعماد التفكير؟ والمبدع الحق للمثل العليا؟

أليس هذا دليلاً على أن جوهر الإنسان قذارة

وحقارة؟!.. وحتّ خطاه. وكانت الرياح لا تزال تزجر

كاسرة. والسماء تتلبّد بالسحاب المظلم، ومياه النيل

الزمرّدية تصطخب وتعربد، فألقى على ما حوله نظرة

غاضبة، وبصق على الأرض باحتقار كأنما يناسب

الدنيا العداء؟.. ألا يحسن به أن يقترض؟..

بم؟.. وكيف يقضي دينه؟ لن يكون الشهر القادم

بخير من سابقه، بل لعله أسوأ، فما العمل؟ لو كان

يعرف فنّ النشل؟.. النشل فنّ سحريّ، والنشال

ملك ما في جيوب الناس جميعاً، وقد عرف سادة هذا

البلد مغزى هذه الحكمة. ولكن ما العمل؟ هل يعيد

على حمديس بك الكثرة؟ أيقابله في الوزارة ويسأله

صراحة المعونة؟ واعترضت سبيل أفكاره صورة تحية.

تحية بنبلها وأرستقراطيّتها. أيرضى أن تعلم أنه بئس

شخّاذ!.. هذه الفتاة تحرك مشاعره. ليس مجنوناً

فيهذي كما هذى عليّ طه، فهي شهوة جديدة كتلك

التي علقت إحسان لا أفلاطون ولا هيام، ومن عجب

أنه كان عظيم الثقة بنفسه لحدّ غير معقول، ربّما كان

مبعث هذا ما طبع عليه من جسارة وجراءة، وفضلاً

عن ذلك كان يشارك العامة اعتقادهم في التفوق

الجنسيّ على الأغنياء، فاعتقد صادقاً أن تحية ليست

بمئأى عن طموحه. كانت أحلامه لا توقفها السهوات،

وزادها الجوع جنوناً، ذلك الجوع الذي جعل من

دراسته كفاً مريراً ومن لياليه عذاباً أليماً. وكتاب

اللاتيني؟ تبّاً له. كيف يحصل على النقود؟!

#### - ١٥ -

واستيقظ في صباح اليوم التالي أهدأ نفساً، فهمدت

الأخيلة التي بعثها في عقله زيارة آل حمديس. ولذلك

أمكنه أن يثوب إلى رأي، وأن يقرّر أن يقصد إلى

حمديس بك في الوزارة ماداً يده بالسؤال، مضطجاً

بصدقة تحية وفاضل. ولم يرَ بدءًا من العدول عن الذهاب إلى الكلية، وامتنع عن تناول الإفطار ليؤخر ما يركب به الترام في الذهاب والإياب، ومضى إلى حال سبيله فبلغ وزارة الأشغال في تمام العاشرة وعرف السبيل إلى سكرتير قريه، فوجده رجلًا في الأربعين، فحيّاه بأدب وقال له:

- أريد مقابلة سعادة البك.

- من حضرتك؟

- قريب البك. . محجوب عبد الدائم.

فاستنظره الرجل لحظة وغاب عن عينيه، ولبت محجوب يفكر فيما عسى أن يقوله البك، ويرتب الكلام ترتيبًا مؤثرًا. وعاد الرجل بعد قليل، وجلس إلى مكتبه وهو يقول:

- البك يرأس المجلس الاستشاري فيحسن أن تعود يومًا آخر.

وبغته ذاك الجواب، وكبر عليه، فشرع بضربة تهوي على أم رأسه، وقال برجاء:

- ولكني أريده لأمر هام جدًا.

- لا شك في هذا، إن شاء الله، ولكن يومًا آخر.

- أستطيع أن أنتظر ساعة أو ساعتين.

فقال الرجل بلهجة من يريد أن يفرغ إلى شيء آخر:

- تعال مساء إذا شئت.

وغادر المكان مغنيًا محققًا، هل يتلع الترام ما تبقى من نقوده؟ ألا فليذهب البك ومجلسه الاستشاري إلى الجحيم. وأدرك أول وهلة أنه ينبغي أن ينتظر في المدينة حتى العصر - إذا أراد أن يقابل البك - توفيرًا لنفقات الانتقال، ثم لم يعد يقاوم الجوع الذي ينهش معدته، فمضى إلى ميدان الأزهار باحثًا عن دكان فول! وتناول الطعام الذي داوم على تناوله لثلاثة أسابيع مضت وانطلق في طريق قصر النيل ليقضي وقت انتظاره الطويل في حدائقه. وكان الجو باردًا، والسماء ملبدة بالغيوم! وكان يسير مطرقًا مرددًا بحقد وغضب: «أهانني الرجل المجرم. أهانني المجرم! ومع ذلك فهو مرغم على الجري وراءه مرة أخرى!.. هو

عدو ما من صداقته بُدّ، وهو بعض الألم الذي تمتحنه به الدنيا. وأثر أصابعه على جبينه المحترق وقال: «لن أبكي. . سأحافظ على جبروتي، ومهما بلغ مني الجوع فلن أصرخ مع الجبناء هاتقًا يا رب!» وانتهت به قدماه إلى الحديقة. وراح يمضي الوقت ما بين الجلوس والمشي ضجرًا مملولًا. وبردت أطرافه، وأحسّ تعبًا في معدته، وتساءل خوفًا وفزعًا: «ألا يمكن أن تترك هذه الأيام السود آثارًا لا تزول أبد العمر؟!» وتجهّم وجهه الشاحب، ولاحت في عينيه نظرة قلق محزنة. ومز على انتظاره نصف ساعة، وكان يتمشى في الطريق المحاذي للنيل، لا يدري كيف يؤاتيه الصبر حتى يأزف الموعد، وعلى مقربة من باب الحديقة الأندلسية الخلفي رأى فتاتين تدنوان منهنكيتين في الحديث والابتسام، فألقى عليها نظرة عابرة، فعرف إحداها كانت تحية حديس دون سواها! كانت في شغل عنه بصاحتها! أما هو فقد أحدث ظهورها المفاجئ في نفسه أثرًا أي أثر، انقطع حبل أفكاره: نسي أباه ومجلسه الاستشاري، تناسى آلامه وجوعه: وتركز همه في شيء واحد أن يلقاها، ولم يحفل بمظهره، ولا بوجود الفتاة الغريبة. ولم تتحوّل عيناه عنها في معطفها السنجابي الملتف حولها في أناقة أرستقراطية: ولعلها شعرت بعينيه فنظرت نحوه، وكانت أصبحت على بعد أذرع منه، فاعترض سبيلها وحني رأسه تحية. ولاحت الدهشة في وجهها: ثم توردت، وألقت عليه نظرة سريعة، ثم مدت إليه يدها، وقدمت إليه صديقتها، وقدمته إليها، ثم وقفوا ثلاثتهم في شبه ارتباك، لقد اندفع إلى تنفيذ غرضه، ثم لم يجد ما يقوله، ثم عمد إلى الأحاديث التقليدية فسالها:

- كيف حال الأسرة الكريمة؟

فقال برقتها الطبيعية:

- بخير شكرًا لك.

وأنقذه عقله من ارتبائه فذكره بحفريات الجامعة، فسّر لعموره على موضوع للحديث وقال:

- هذه فرصة سعيدة تهيات لي لأذكرك. . أنجز حرّ

ما وعدت؟ فقلت مقظة دهشة:

ولمعت عيناه الجاحظتان فجأة!.. أجل، هذا جار قديم، وهو غير مأمون رضوان أو عليّ طه، ولن يجد غضاضة في أن يمدّ له يده، فلماذا لا يقصد إليه؟!.. يا لها من فكرة، واليوم لم يكد يتصف بعد، وبين الوزارة مسير نصف ساعة على الأكثر، فليذهب بغير تردد. وقد ذهب.

- لا أفهم شيئاً.

فقال بلهجة تنمّ عن العتاب:

- الحفريات.. حفريات الجامعة.

- آه.. كلاً لم أتس.

- متى؟

- متى!

- نعم. لكن عمليّتين: ما رأيك في عصر الجمعة

القادم؟

- ١٦ -

وسأل عن مكتب الأستاذ سالم الإخشيدى سكرتير قاسم بك فهمي، فقبل له بل مدير مكتبه، ودلّوه عليه ووقف على الباب ساع طویل القامة عريض المنكبين، غزير الشارب، فطلب أن يؤذن له عليه، فغاب الرجل لحظة وعاد يقول بصوت غليظ «تفضل». ووجد الحجرة مكتظة بالجالسين نساء ورجالاً، وغاب الإخشيدى ومكتبه وراء نصف دائرة من الموظّفين يعرضون أوراقهم. ونظر الشاب فيما حوله وتساءل:

فتردّدت قليلاً ثمّ قالت وقد راق لها الاقتراح:

- حسن.

- وفاضل بك؟

- سأخبره..

- لتتفق على موعد.

- لا نريد أن نتعبك، فسّم موعدك.

- الساعة الرابعة مساءً، أمام محطة الأنوبيس بميدان الجيزة.

متى ينفض هذا الحشد من الخلق؟!.. متى تنهّيا له فرصة للكلام؟ وعلا صوت الإخشيدى في الحجرة، ورنت نبراته الدالة على الأمر والسلطان، تلاحظ وتتقد وتعتف، وأصوات الموظّفين تثنّ بالشرح والتفسير والأعذار، وجعل الموظّفون يحملون أوراقهم ويغادرون المكان واحداً إثر واحد حتّى فرغ المدير منهم فانتبه إلى وجود الشاب، ومدّ يده ودعاه إلى الجلوس ثمّ التفت إلى الزوّار، وأشعل سيجارة وأخذ نفساً عميقاً ونفخ الدخان في لذة وارتياح، وقد لاح في وجهه السرور والخيلاء، واختلس محبوب إليه نظرات خاطفة: إنّه شعبان وسعيد. ولا شكّ أنّه أفطر زبدة وقشدة وعسلأ، تبدو عليه آي الصحة، والاطمئنان إلى كرسيه الكبير. وأحسن نحوه مقتناً وتساءل في سرّه ساخراً، لماذا لا يعلّق في حجرته الكبيرة صورة صاحبة العصمة ستّ أمّ سالم بجلبابها الأسود الملوّث بالتين؟!.. وكان الزوّار أصحاب حاجات كالعادة، فقدم بعضهم طلبات إعفاء من المصروفات المدرسيّة، واستشفعت سيّدة في ترقية ابنتها إلى الدرجة الخامسة، ورجاه آخر أن ينقل له قريبه إلى القاهرة وقد قضى في

وسلّموا واقتروا. واستأنف مسيره. نجاح باهر فاق كلّ ما تمّنى، فصار الحلم موعداً. أجل لاحظ أنّ صاحبته تفحصت منظره بدقّة، ولكن ماذا يهمّ المنظر، أليس أحقر رجل بامرأتين؟ فما بالك إذا كان الرجل محبوب عبد الدائم! إذا محتمل جدّاً أن تمسي العلاقات وثيقة، وليس هذا بالأمر الهين، فتحية من ذرائع الحظّ التي يرفع بها المجلودين، وهي بعد شيء نفيس أنيق، ومن يعلم..؟! بيد أنّه أدرك أنّه لم يعد من الممكن استجداء حمديس بك، إذ ليس من المنطق في شيء أن يمدّ يده اليوم إلى الأب سائلاً، وأن يلقي كريمته غداً لقاء المودة والاحترام. ولو فعل لأبى الرجل على كريمته أن تذهب إلى موعد فتى بئس مثله، ولأبّت ذلك عليها نفسها الغالية، فلمّا الاستجداء ولمّا اللقاء: ولكنّ لم يعد هناك اختيار، أو أنّه اندفع إلى الاختيار وهو لا يدري، لقد سدّ هذا الباب في وجهه..! ووجد نفسه بعد كلّ ما بذل من جهد يتساءل متحيراً: ما العمل؟!.. كيف أحصل على النقود؟. وكان يحثّ الخطى مرتبكاً مهموماً، ويعمل فكره دون توقّف، فذكر الأستاذ سالم الإخشيدى،



وتفحصه الإخشيدي بعينه المستديرتين، فأدرك أنه جائع! ولكنه لم يتعود على أن يعطي أبداً، ولا عهد له بفنّ الإحسان، ولا كان من «الضعفاء» الذين تلين مظاهر البؤس من قلوبهم: فاعتبر الشاب وحاجته عائناً سخيفاً اعتاق تيار أفكاره، فتوئب لحوه، ولكن ماذا يجمل به أن يفعل؟ يعتذر له؟ ولكنه يكره الاعتذار خاصة لمن لا حول له. ثم تذكر أمراً فسأل الشاب:

- هل تجيد الفرنسية والإنجليزية؟

وشعر محجوب بخيبة رجاء، لأنه كان يتوقع شيئاً آخر غير هذا السؤال؟ ولم يدر ما حكمة توجيهه إليه! ولكنه أجاب قائلاً:

- نعم أجيدهما..

- حسناً.. أتعرف مجلة النجمة؟.. صاحبها صديقي وزميلي وربما رحب بك إكراماً لي..

- هل أكلف بترجمة بعض الموضوعات؟

- نعم.. مقالات.. فكاهات.. خذ بطاقتي هذه واذهب إليه! وسأحدثه عنك بالتليفون. ولا تؤاخذني فأنا ذاهب لمقابلة البك وعرض أوراقي عليه.. أليس هذا أكرم بك وأنفع!

ونفض الإخشيدي قائماً، وأخذ ملفاً في يسراه، ومدّ يده للشاب، فمدّ له الشاب البائس يده وهو يسأله:

- أيدّر هذا العمل ربّحاً معقولاً؟

فضحك الإخشيدي - ولشدّ ما بدا لعينه بغيضاً - وقال:

- لعلك سمعت عن ثراء الصحفيين! على أنك ستجد ما أنت في ميسر الحاجة إليه.. وتقدمه الإخشيدي نحو الباب، فجزع جزعاً شديداً وأوشك أن يهتف به سائلاً بضعة قروش، ولكن الباب فتح قبل ذلك، وبدا الساعي بجسمه الضخم الطويل، فغادر الحجرة حاملاً البطاقة. وغادر الوزارة واجماً متحيراً. ما زالت أزمته قائمة، ومجلة النجمة على فرض نجاح مسعاه إليها علاج أجل فما العمل؟.. وكيف يحصل على النقود؟.. وكانت الساعة تدور في الثالثة. والجو بارد كما كان في الصباح فخبط في الطريق على غير هدئ، مثقل الرأس قانطاً، وضائق الدنيا في وجهه، حتى كور قبضته مهتداً، وقال حانقاً

الأرياف عشرين عاماً من سني خدمته، وسأل شاب أن يؤذن له في مقابلة البك ليهدي إليه مؤلفه عن حياة الطفل حتى الخامسة، وسمع الجميع يدعونه بإجلال واحترام: «سعادة البك» وهو يجيبهم بتؤدة وكبرياء وغلظة. وتصبر محجوب في قلق وعذاب حتى يفرغ البك المدير له. وحدثت المعجزة فخلت الحجرة. وتحول الإخشيدي إليه وقال:

- هكذا أقضي نهاري، ثم أستأنف ليلاً في قصر البك!

وتساءل محجوب في سرّه حانقاً: هل تريدني أن أدعو الله أن يرحمك من عملك؟ ثم قال بملء مبتسماً:

- على قدر أهل العزم تأتي العزائم!

فهزّ الإخشيدي رأسه الكبير، وكان لا يفي عن الإشادة بعظمته، والهزء بفضل الغير. وقد عرف بحدّة اللسان ومهاجمة أعدائه وأصدقائه على السواء. وقد قيل عنه بحق إنه شيد حياته على العمل المتواصل، والدعاية لنفسه، والتشهير بنفسه. على أن أنانيته كانت تصوّر له أكثرية المتصلين به كمنافسين، ولذلك قلّ من نجا من شرّه. ولم يكن يأبه رأي الناس فيه، وكأنه يؤثر في باطنه أن يقال عنه ما أفضعه عن أن يقال ما أطيبه. وكان إذا بلغه قول سوء عنه يقول باحتقار «كلّ عاشق حتى مكروه». هزّ رأسه الكبير وقال للشاب:

- عمل متصل. لكن هل كفاني شرّ الألسنة؟..

هيهات.. ولن يفتأ قوم قائلين رُقيّ الإخشيدي إلى الخامسة وما مضى في السادسة عامين!

فتظاهر محجوب بالإنكار وقال:

- وهل وُضع نظام الأقدمية لقتل الكفاءات؟!

- الظاهر أنّي في وزارة، والحقيقة أنّي في منزلة.

والآن يا عزيزي ما حاجتك؟

فازدرد محجوب ريقه، واعتدل في جلسته، ثم قال بلهجة تنم عن الرجاء:

- سالم بك، إنك جار قديم وزميل قديم، وملاذنا وقت الشدة. يا سعادة البك والذي طريح الفراش، ونحن في بأساء، وأنا في أزمة مؤيسة، وقد نفدت نقودي: فدعني أسألك بعض المعونة..

تُرى هل يفيان بوعدهما؟.. وفي الموعد المضروب جاءت سيارة فخمة وقفت أمام المحطة، وأطل من نافذتها الوجه الجميل. فحقق فؤاده وهرع نحوها، وفتح له الباب واتخذ مكانه، ثم أدرك وقتئذ فقط أنَّ تحية جاءت بمفردها. وعجب لذلك، ولكن لم يطل عجبه، وغمره سرور شامل، وإن سأل بإنكار متكلف:

- أين فاضل بك؟

فأمرت الفتاة السائق بالمسير، ثم التفتت إلى محبوب وقالت بلهجة انتقادية:

- ركبنا معاً، ثم رأى في الطريق «بعض الناس» فتخلف عن الرحلة وحملني اعتذاره إليك.

فأطرق محبوب ليخفي سروره، وسألها بأدب:

- وكيف الوالدان الكريمان؟

- الحمد لله.. وهما يشكران لك هذه الرحلة الجميلة.

- عفواً.. عفواً..

فقالت بصوت ينم عن الرجاء:

- سنرى أشياء لذيذة.. أليس كذلك!

فقال بيقين وإن كان في الحقيقة يذهب إلى هنالك أول مرة:

- بكل تأكيد..

وساد الصمت. وراحت الفتاة ترسل ببصرها من النافذة، وراح هو يسترق إليها النظر. هذه أول مرة يخلو فيها إلى أنثى تستحق أن توصف بالأنوثة حقاً. وأين؟.. في سيارة فخمة تحزن الحاسدين - فضل هذا التعبير عن تسر الناظرين - فأسكرت أنفه رائحة ذكية، لا رائحة العرق الملبّد بالتراب، فدخله شعور المخبث إذا حمل إلى حجرة مليئة بالأكسجين، ولم تكن به ذرة استعداد لخلق الصور السامية الطاهرة. فتركزت رغبته في تخيل صورة واحدة: أن يلقي بنفسه عليها!..

وشعر بدبيب الرغبة يسري في دمه. فألقى ببصره إلى الخارج. وتساءل لماذا تخلف فاضل؟.. هل رأى فتاة حسناء فجري وراءها؟ أم أنَّ تحية نفسها عملت على التخلص منه؟ وداعبه غروره الجنسي فقال: إنها (هو)

غاضباً بصوت أشبه بالنعيب: «سيدفع العالم ثمن هذه الآلام؟». وقد أدرك أنه لم يبقَ إلّا عليّ طه أو مأمون رضوان!.. لكم كره أن يمدّ لها يداً، ولكنه لم يعد يملك حيلة، ولا بدّ مما ليس منه بدّ. ومضى إلى الترام متسائلاً: أيهما يفضل؟ كلاهما شابّ نبيل، ولكنه لا يحبّ عليّ، بينما لا يكره مأمون، وفضلاً عن ذلك فمأمون رجل دين وورع، فهو حقيق بأن يصون سرّه، ويحفظه بالغيب، جدير بأن يغضي عنه إذا تأخر عن قضاء دينه.

ومضى إلى دار الطلبة، وقصد إلى حجرة مأمون رضوان، واستقبله الشابّ بسرور وسأله:

- لماذا تغيب اليوم عن الكلية؟

فقال محبوب:

- مُكره أخاك، لشدّ ما أعاني من الاضطراب؟

وتفرّس مأمون في وجهه بعينه النجلاوين السوداوين فهاله ما يرى من الهزال والقنوط، وسأله باهتمام وإشفاق:

- ما بك يا أستاذ محبوب!.

فقال دون تردّد:

- ظروف قاسية، فقدت آخر مليم من نقودي، لا أملك من ثمن كتاب اللاتيني مليمًا واحدًا..

ونفض مأمون قائماً دون كلمة، واقترب من المشجب، ودمس يده في جيب جاكته، وأخرج ثلاث ورقات من ذات العشرة، وألق بها إلى الشابّ، فأخذها محبوب وهو لا يصلّق، وفتح فمه ليشكر صاحبه، ولكنّ صاحبه سارع بوضع إصبعه على شفثيه متمتياً «هس».

وغادر دار الطلبة لا يلوي على شيء. حتّى دار إحسان لم يلق عليها نظرة عابرة. وكان راضياً وساخطاً معاً، راضياً لحصوله على النقود، ساخطاً لأنّه بات مديناً لمأمون رضوان.

وجاء يوم الجمعة الموعود، فذهب إلى محطة الأتوبيس قبل الميعاد بزمان يسير ومضى يسأل نفسه:

فقال بمكر ودهاء:

- يعنيك أيضًا ما دام يعني قريبك.

فتورد وجهها وقالت:

- السلك السياسي أجمل..

وتمثل له حمديس بك ذاهبًا إلى الخارجية للتوسط في تعيينه ثم قال:

- هذا رأيي.. ما أجمل أن تمضي الحياة كلها ما بين بروكسل وباريس وفيينا.

فاستضحكت قائلة:

- أو ما بين دمشق وأنقرة وأديس أبابا؟

فجارها في ضحكها، ولكنه قال بدهاء:

- هذه عواصم لا يذهب إليها من كان حمديس بك قريه!

وابتسمًا معًا. وقال لنفسه راضيًا إنَّ اللييب بالإشارة يفهم، وحسبه ذلك الآن. أمَّا عن المستقبل فقلبه يحذثه بأنَّ هذه الفتاة لن تذهب من حياته كأنَّها شيء لم يكن. ومن يعلم؟ إنَّ الجسارة لا تنقصه، بل لعلَّ عيبه أنَّه جسور أكثر مما ينبغي. واستسلم لتيار أفكاره، حتَّى انتبه إلى السيَّارة وهي ترقى الطريق اللتوي الصاعد إلى هضبة الأهرام. ونزلا عند سفح الهرم الأكبر وهو يقول:

- الحفائر وراء أبو الهول بفراخ معدودات.

وسارا سريعًا غير يسير، وجعلت أقدامهما تنغرس في الرمال وتقلع بقوة. وكان الوقت أصيلًا، والجو باردًا، ولكنَّ السَّاء صفت، وأشرقَت الشمس دون حجاب. بدت ملايسه في وضوح النهار غير ذات أناقة أو جمال، فقلق، وقال لنفسه ساخراً: «لعلَّها تسأل نفسها لماذا لا يرتدي حضرة السفير معطفاً؟». وبعد مسير ثلاث ساعة لاحت منطقة الحفائر تحيط بها الأسلاك الشائكة، فتمتم محجوب:

- وصلنا.

واقترَب الشاب من الحفير وأرسله بورقة إلى مفتش المنطقة، وعاد الرجل وأذن لها بالدخول، فدخلتا، ثمَّ قابلهما المفتش وهو شابٌّ دون الثلاثين، وكان من أصحاب محجوب، فرحبَ بهما وقال لهما معتذراً:

وهي) من دم واحد، وكما يقولون «فالدِّم يحنّ»، ليس شيءٌ بمستحيل. أمَّا لو صدق حدسه فسترى أشياءً لذيلة كما تحبُّ!.. والسائق؟!.. لا يهمّ.. فهو لا يستطيع أن يتصوّر الثراء والعفاف في كائن بشريٍّ معًا، ولا شكَّ أنَّ هؤلاء السائقين مدربين على التفاوض!.. أجل.. أجل.. أو فما الداعي إذا لمجيئها منفردة؟!، إنَّ أجمل حكمة هي التي تقول: «إذا خلا رجل بامرأة كان الشيطان ثالثهما» فأين هذا الشيطان ليحشو بين يديه، ويلثم قدميه؟ طالما كان للشيطان تابعًا ومريدًا أفلا يجزيه الشيطان عطفًا بإخلاص؟! واستردَّ بصره من الخارج، وشعر برغبة إلى جرّها إلى الحديث، فسألها:

- والأنسة في الجامعة؟

فهزّت رأسها نفياً وقالت مبتسمة:

- كَلِيَّة بنات الأشراف.

فقال بسرور:

- جميل.. جميل جدًّا..

وسألته تحية:

- ماذا تنوي أن تعمل بعد الليسانس؟

وبغته السؤال. إنَّ أقرانه يتحدّثون عن المستقبل بحزن ويأس والسابقون منهم يقبعون وراء المكاتب في الوزارات ويروحون بالشهادة على وجوه أحرقتها حرارة الدرجة الثامنة.. ولكنه بجسارته المعهودة تخلّص من ارتبائه. وقال بثقة ويقين معًا، وإن كان يعلم أنَّه من الكاذبين:

- عليّ أن أختار بين طريقتين، فإمّا الانخراط في السلك السياسي، وإمّا التحضير للدكتوراه فالتدريس في الجامعة..

فقال مبتسمة:

- جميل..

لماذا استعملت تعبيره الخاص؟.. أتسخر منه الشيطانة أم تجهل هذه الأمور؟.. وأراد أن يسبرها فسألها:

- أيهما تفضّلين!

- أنا؟.. هذا شأنُ يعنيك..

- فلنشاهد الصور، انظري إلى ألوانها الزاهية ..  
وبدأ بالحائط القريب من المدخل، وقد حلّى بصور  
تمثّل صاحب المقبرة وعلى يساره زوجته، بينهما أطفال،  
ويحيط بهم جميعاً خدم وحشم، وعلى الحائط الذي يليه  
شاهداً منظر حقل مترامي الأطراف، تحرّثه محاريث  
تجرّها الثيران. ووقف هنا وهناك فلاحون عرايا.  
وتحوّلت تحية من المنظر بلا ريث، وانتقلت إلى الحائط  
الثالث. وأدرك محجوب أنّها مرّت بخجلة من صور  
العرايا، وتفحص الصور بعينيها الجاحظتين فجرت على  
شفتيه ابتسامة خبيثة، واضطرب مجرى دمه، وقوي  
شعوره بأنّها منفردان. ولم يتحوّل عن منظر الحقل،  
ولا حول عينيه عن صور العرايا، حتّى ملأت عليه  
نفسه تلك الحقيقة الرائعة وهي أنّها منفردان أمام  
العرايا. وخيّل إليه من إدمان النظر، أنّ الصور  
تتجسّم لعينيه، وأنّ الحياة تدبّ فيها، والدماء تتدفّق  
في عروقها، فتكتسي بشرتها بذاك اللون الخمرى ذي  
الوهج، وتلتصق في محاجرها نظرات خاطفة. ثمّ  
تشرّب أعناقها نحو.. الفتاة الماربة، مورّدة الخدين  
من الخجل. وخفق فؤاده بعنف والتهبت جوارحه من  
قوة العاطفة، وعبثاً حاول أن يملك زمام نفسه. وذكر  
محيثها بمفردها، وحديثها في السيارة، ورقة حاشيتها،  
وانفرادها معاً، ثمّ وجودهما في هذه المقبرة تغشاهما  
وحشة الأجيال، فخال الثمرة دانية القطوف، وعنف  
هياجه حتّى صار وحشاً فاقد العقل والإرادة. وازدرد  
ريقه بصوت غريب وعينه ثابتان على العرايا وإن باتا  
لا يريان شيئاً:

- هلاً نظرت إلى هذا الحقل الحافل ..

فقالت باقتضاب وبلهجة ناطقة بالملل:

- ليس به ما يستحقّ الرؤية ..

فعطف رأسه وقال بصوت كاهمس:

- لشدّ ما أنت ملولة يا آنسة.

ودنا منها خطوة فحاذاهما، وجعل ينظر معها إلى  
صورة خادم تعجن، وانحنى قليلاً كأنّما ليعاين جزءاً  
من الصورة، فلامس كفها ويمناها، ثمّ اعتدل ونظر  
في عينيهما وقال بصوت متهذّب:

- سترين الأماكن المسموح بزيارتها، وهي التي تمّ  
الكشف عنها، ولكّني لن أرافقكما إليها لأنّ مشغول  
جداً، ولا أظنّكما في حاجة إلى دليل (وهنا همّ محجوب  
رأسه موافقاً) حسناً. هاكما معبد الشمس وهو تابع  
للمعبد القديم المعروف بمعبد أبي الهول، وإلى جانبه  
الجزء الخلفي لمقبرة الأمير سنفر ..

وقال محجوب لنفسه: وقضى الله لحكمة يعلمها أن  
نظّل اليوم منفردين. وإذا كانت حكمة الله كلّها على  
هذا المنوال فأنا من المؤمنين!، وأخذ كنزه النفيس إلى  
معبد الشمس. وهبط أدراجاً صنعت حديثاً، فوجدا  
نفسيهما في بهو أرضه من الصوّان، وعلى جانبيه صفّان  
من الأعمدة، ولا سقف له ولم يكن به شيء يروع أو  
يثير العجب، فألقت الفتاة على ما حولها نظرة تنطق  
بعدم الاكتراث، ولم يكن محجوب أقلّ خيبة منها،  
ولكنّه تعمّد أن يكبّر من شأن رحلته فقال:

- انظري إلى هذه الأعمدة وكيف قاومت الدهور!

فابتسمت كالمهازنة وقالت:

- وماذا كان عليها لو أنّها اندثرت؟

فأشار إلى النقوش على الأعمدة وقال:

- لو كنّا نقرأ الهيروغليفية لعرفنا أموراً تستثير  
الإعجاب والدهشة.

- حقاً!

- بكلّ تأكيد، ألم تُلغمي بتاريخ الفراعنة!

فهزّت رأسها نفياً. وبذلك انتهت زيارة الأثر  
الأوّل. وفيها هما يدنوان من المقبرة وراء المعبد سألته  
تحية:

- ألا توجد آثار أخرى غير هذه المقبرة؟

وأحسن ما وراء التساؤل من ملل، فارتبك وقال:

- توجد آثار كثيرة ولكن لم يصرّح بزيارتها ..

وهبطاً أدراجاً فوجدا نفسيهما في حجرة صغيرة  
مستطيلة، تتحلّى جدرانها بالنقوش والصور، ولا يكاد  
يعلو سقفها كثيراً على طول الهامة، وألقيا على المكان  
نظرة عامّة، ثمّ تعلّق الشاب بالصور، فقال بصوت  
خافت:

اللباقة والغزل، ولو أنه اصطنع معها التريث والأناة  
لربما فاز بها. ثبًا للشهوة الجامحة. لقد ضيّعت عليه  
فرصة سانحة. وبلغا السيارة، وقالت تحية بلهجة أمرة  
دون أن تنظر إليه:  
- مكانك.

وصعدت إلى السيارة، وأغلقت الباب، وأمرت  
السائق بالمسير. وأتبعها عينيه حتى هبطت تحت مستوى  
البصر وغابت عن ناظريه تاركة إياه وحيداً عند سفح  
الهرم. ولبت هنيهة مكانه - كما أمرته - واجماً - ثم هزّ  
منكبيه، وأخذت روح الاستهانة تعاوده حتى أوشك أن  
يضحك من نفسه، ونظر إلى الهرم طويلاً، ثم غمغم  
ساخراً: «إنّ أربعين قرناً تنظر إلى مأساتي من فوق هذا  
الهرم!». ثم غلبته موجة غضب مفاجئة - فاحمرّ وجهه  
الشاحب، واضطربت أرنبة أنفه، فودّ لو يستطيع أن  
يقذف القاهرة بأحجار الأهرام الهائلة، وتحركت قدماه  
وما يزال يأكله الغضب. علام الحزن؟.. ما هي إلا  
أنثى!.. ولن تزيد على فتاته - جامعة الأعقاب -  
شيئاً!.. أجل. يئد أنه أضاع فرصة، وخسر تحية  
وأباها إلى الأبد! وتذكر لحظة، ثم غمغم وهو يهزّ  
كتفيه استهانة: طظ.

- ١٨ -

وجاءت فترة استقرار نسبياً.  
تناسى محجوب إخفاقه وتوتّب للعمل فقابل رئيس  
تحرير «النجمة» وكلفه الرجل بترجمة بعض المختارات  
نظير خمسين قرشاً في الشهر، فصار دخله مائة وخمسين  
قرشاً، واستطاع أن يتقي به ويلات الموت جوعاً وأن  
يجعل الحياة محتملة على أية حال. وانبرى للعمل  
يوافله ليلاً ونهاراً، ما بين دراسته الجامعية وعمله  
الصحفي البسيط. وخلت حياته من الفراغ فندر  
تفكيره في نفسه، واجتراره الموم، ومضت أيام كاملة  
لا يكوّر فيها قبضته غضباً أو يهتف ساخطاً ساخراً  
قائلاً: طظ. أجل كانت توجد أوقات غيظ ما منها  
بدّ، إذا تهيأ لتناول طعامه الحقيق مثلاً، أو رأى عليّ طه  
بجسمه الرياضي وإبسامته السعيدة، أو ذكر طرقة

- ألم يعجبك شيء؟  
فضحكت ضحكة رقيقة وقالت بصراحة:  
- الحقّ أننا لم نجد ما يستحقّ عناء الرحلة..  
فقال محجوب بصوته المتهذّب وعينه تثقبان عينها:  
- ولكن المكان جميل وهادئ..

وانتهت إلى تهذّب صوته، وشعرت بحلّة نظرت  
النارية، فاختلج بصرها، ونظرت إلى الأرض، ثم  
قطّبت في حيرة وقالت:  
- أن لنا أن نذهب..

فهزّ رأسه، وهمّ أن يقول شيئاً، ولكن أعياه  
القول، فأمسك بيدها، ولكنّها سحبت يدها بسرعة،  
والقت عليه نظرة إنكار، فلم يُبالها، واستردّ يدها  
بقوّة، وقال وصفحة وجهه تموج بمعاصفة: «دعينا نكث  
قليلاً».. وتملكه شيطان الشهوة، فجذبها نحوه  
بعنف، وأحاطها بذراعيه، وأهوى إليها بفم يحترق إلى  
التهامها. ولكنّها صدته بيمينها، وباعدت رأسها عنه،  
ولاح في وجهها الجميل الغضب، وصاحت به صوتاً  
رنّ رنيناً مزعجاً في المقبرة الصامتة:

- أجننت!.. دعني.. اترك يدي..  
فاستصرخها قائلاً يكاد يجنّ من العذاب:  
- لا تغضبي... أرجوك... تعالي... تعالي إلى

صدري..

ولكنّها تخلّصت من ذراعيه بقوّة جنونية لا تدري  
كيف أُنْتَهت، وصاحت بعزم وقسوة:  
- مكانك.. إياك أن تلمسني.. إياك أن تعترض  
سبيلي..

وانتهت نحو الباب، فتتخّى لها، وتبعها مطرقاً،  
صامتاً، مثقلاً بشعور الحزي والحنجل. وسارا صامتين  
يقطعان الطريق الذي جاءا منه صديقين سعيدين،  
وقد اكتسى وجهها الجميل بلون الغضب القاني،  
وارتفع رأسها كبرياء وصلفاً، ولم يذر كيف يصلح من  
خطئه، وكلّما طال الصمت يشس وغلب على أمره،  
حتى تساءل نادماً: أما كان ينبغي أن يمدّ حبل الصبر؟  
وقال لنفسه متأسّفاً: الظاهر أنّ فتاة مثل تحية لا تؤخذ  
كما تؤخذ جامعة الأعقاب.. لعلّه لم يوفّقها حقّها من

بالأمر كنت طالبًا وصحافيًا، فالآن أتفرغ لعملي في الصحافة». ولم يكن مأمون رضوان يدري إن كان يبعث إلى فرنسا أم يبقى في مصر، ولكن هدفه بقي واحدًا في الحالتين، وهو الإسلام، وقد تساءل مرة قائلًا: «ألا يمكن أن نبدأ كفاحنا الحقيقي في جمعية الشبان المسلمين؟ فنطهر الإسلام من غبار الوثنيات، ونردّ إليه روحه الفتيّة، وننشر منها دعوة لا تلبث أن تشمل الشرق العربيّ جميعًا ثمّ بلاد المسلمين!». أمّا عليّ طه فلم يكن ذا هدف واضح، ولكن اختلطت عليه الوسائل. كان مهيبًا للاشتغال بالسياسة، ولكن السياسة كما يعرفها هو لا كما يعرفها الناس. ولو وجد حزبًا ذا مبادئ اجتماعية لاشترك فيه بلا تردد، ولكن أين هذا الحزب؟.. فهل ينتظر حتى تنشأ الأحزاب الاجتماعية ثمّ يشترك فيها، أم يأخذ هو في الدعوة إليها منذ الآن؟ لا شك أن الانتظار أسهل، وأحكم، إذ ما جدوى الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعيّ في بلد لا يشغله شاغل عن الدستور والمعاهدة، ولعله من الخير أن ينتظر قليلًا ليستكمل عدته من العلم والمعرفة، وغير ذلك، فلم ينطأ أمله في الوظيفة، ولا كان يرفضها لو أتت له.

محجوب عبد الدائم وحده أدركه الجزع: الإسلام، السياسة، الإصلاح الاجتماعيّ، كلّ أولئك مسائل لا يكثر لها، أمّا شغله الشاغل فهو اتّقاء الموت جوعًا، أو هو وظيفة توفّر له الرغيف، وإذا أخفق في الحصول على وظيفة فالجوع لن يتهدّد وحده هذه المرة، ولكن يتهدّد والديه معه، وهو لا يشفق عليها بقدر ما يشفق من مضايقتها له، فما العمل؟.. كان في الحقيقة بلا معين، والحكومة لا يدخلها أحد بلا معين. وتفكّر طويلًا، ولكنّه لم يفعل شيئًا إلّا أن كتب لوالده كتابًا قال فيه: «إنّه بصدد البحث عن وظيفة، وإنّه يرجو أن يتمكّن قريبًا من تأدية واجبه نحو أسرته، وشرح له الصعاب التي تعترضه. وفي ذلك الوقت رشّح أستاذ الفلسفة الفرنسيّ مأمون رضوان لبعثة السوريين، ووصّى بتعيين عليّ طه في المكتبة ليتهيّأ له جوّ حسن لتحضير رسالته. سمع محجوب بهذه

الأبواب التماسًا لبضعة قروش، ولكن فيما عدا ذلك سارت الحياة سيرًا هوائيًا محتملًا. وولّى مارس بجوّه اللطيف ورياحه الطيبة وسبائه الآخذة في خلع أردية الشتاء لاستقبال حرارة الربيع وشذاه، وتبعه على الأثر إبريل بشمس المزهوة - شاذ كلّ حديث نعمة - ورياحه المغيرة وجوّه الأصفر الكدر. وجاءه في أوّل مايو كتاب والده الشهريّ المجهود قال له فيه: «إنّه أرسل إليه آخر جنيه يستطيع الاستغناء عنه، ودعا له بالتوفيق والنجاح، ثمّ قال له: «إنّه سينتظر من الآن فصاعدًا معونته التي بات في أشدّ الحاجة إليها، وبشره بأنّه سيستطيع إن شاء الله أن يتحرّك قريبًا، وربما أمكنه المشي متوكّئًا. لم يكن في الرسالة شيء لم يسبق الاتفاق على عليه، بيّد أنّه لم يستطع مدافعة الغيظ الذي هاجمه، وعادته ذكريات الليالي السود، ليالي الجوع والمذيان وعاد يقول عن والديه لو كانا لكنت، ولو كانا لكنت..»

ثمّ كان الامتحان في أوّل مايو، وظهرت النتيجة قبل الثلث الأخير منه، ونجح أصحاب الأربعة الذين تزاملوا أربعة أعوام كاملة. ولم يكن الامتحان - بالنسبة لمحجوب - مجرّد امتحان مدرسيّ. كانت في الواقع الفرصة الوحيدة والأخيرة كي يجني ثمار كفاح خمسة عشر عامًا، فسرّ سرورًا مضاعفًا، وتنهّد ارتياحًا من الأعماق. ولكن سرور الطالب المتخرّج بالنجاح سرور قصير المدى، بل هو سرور لا يجاوز ليلة ظهور النتيجة، فإذا أدركه الصباح غشيه بهوم من نوع جديد، هموم شاب يطرح عنه رداء التلمذة ليلقى منفردًا - خصوصًا إذا كان حاله كحال محجوب - ذلك الجبار المقنّع المشتمل على جميع فرص السعادة وجميع عثرات الشقاء الذي يسمّونه المستقبل. ومضى أصحاب يجتمعون كلّ مساء تقريبًا بنادي الجامعة، وكانت تترامى إليهم أخبار الزملاء ذوي الحسب والنسب، تَمَنّ تفتح لهم أبواب الحكومة بقدرة قادر، وتناولوا مستقبلهم بالكلام والنقد، متفائلين أو متشائمين، واعتاد أحمد بدير أن يقول باطمئنان: «لن يتغيّر مجرى حياتي، فلن أبحث عن مهنة جديدة،

الأبناء، وقارن بين حظّه وحظّ زميله.. غداً ينتقل مامون ربيب أحقر قرية في الغريبة إلى باريس.. وغداً بطمئنّ عليّ إلى كرسيّه في المكتبة فيحضّر الماجستير ويعقد على إحسان!.. مرحى.. مرحى.. وماذا هو فاعل؟.. هل تعود أيام فبراير السود؟ وذهب لمقابلة عليّ طه في المكتبة، وقد مرّ على تعيينه أسبوع، وكان يتوقّع أن يجده فرحاً مسروراً، وقابله الشابّ بابتسامته المعهودة، فلم يقرأ في وجهه ذلك السرور الذي توقّعه، بل خال أنّه يرى مكانه فتوراً لم يتعوّده صاحبه، وعجب لذلك أيّما عجب، وغمضت عليه أسبابه، حتّى حسب أنّ الشابّ يداري فرحه بهذا المظهر القاتر. وتحاذبا الحديث طويلاً، وأعرب له عن نيّته في عدم الاستمرار في الوظيفة، قال:

- هذه فترة انتظار وتفكير ريثما أجد سبيلاً للاشتغال بالحياة العامة.. وربما اخترت الصحافة في الوقت المناسب..

وذكر محبوب عمله في النجمة وما يدرّ عليه من رزق واسع! فجرت على شفّته ابتسامة ساخرة، وعاد عليّ طه يقول:

- إني أتهيأ لكتابة موضوع عن توزيع الثروة في مصر..

وضاق محبوب صدرًا بآمال صاحبه، وسأله صراحة عما إذا كان في الإمكان أن يجد وظيفة في المكتبة؟ ومضى به الشابّ إلى موظّف المستخدمين يستفتيانه، وكان الرجل صريحاً جدّاً، فأمسك بيد محبوب وقال له بحدّة:

- اسمع يا بنيّ: تناسّ مؤهلاتك، ولا تُضغِ ثمن طلب الاستخدام، المسألة لا تعدو كلمة واحدة ولا كلمة غيرها: هل لديك شفيع؟ أنت قريب أحد ممّن بيدهم الأمر؟ أتستطيع أن تطلب يد كريمة أحد من رجال الدولة؟ إن أجبت بنعم فمبارك مقدّمًا، وإن أجبت بكلّا فلتنوّل وجهك وجهة أخرى..

- ١٩ -

ورأى عن حكمة أن يزور الإخشيدي في بيته، لأنّ حجّرتة بالوزارة لا يتهيأ لها الجوّ الهادئ، فمضى إلى المنيرة حيث يقطن الأستاذ في شقّة بشارع السيّد الفضال، واختار يوم الجمعة صباحًا ليضمن وجوده.

وغادر المكتبة مظلم العينين من اليأس وسرارة الإخفاق. ولم يكن شيء مما سمع بالجديد عليه، ولكنّه أحقّه كأنّما سمعه أوّل مرّة، ومضى يحبط في حديقة

والأورمان، واجمًا مكتئبًا. آه لو كان أبقى على علاقته الحسنة بآل حمديس، آه لو لم يقطع تلك العلاقة بوحشية يوم الهرم؟. ترى لماذا لا يستقيم له أمر؟ لماذا لا ينال حظّه من السعادة والطمأنينة؟. لماذا يرصده الجوع كأنّما لا يجد فريسة سواه؟. الدنيا جميعًا فرحة لا تأبه له. هذا الربيع يجري في خضرة الغصون وحرّة الأزهار، ويطير مع العصافير والأطيّار، ويرقص على الشفاه المورّدة الغارقة في النجوى عن عيّن وشمال. الدنيا كلّها فرحة مطمئنة، والوجوه مشرقة. هذه حديقة الأورمان مجمع أفراس الإنسان والحيوان والنبات، والأرض نفسها والسماء تشملها غبطة صامتة فوق كلّ كلام. أتموت جوعًا في هذه الدنيا؟. وبدا له سؤاله غريبًا نافرًا، وضحك هزأً وسخرية وتحديًا، وقال متحدّيًا: «أأموت جوعًا؟.. فلا نزل القطر..

فلا نزل القطر..». كيف يموت جوعًا نائمًا على جميع القيود؟.. كيف يموت جوعًا كافرًا بالضمير والعفة والدين والوطنية والفضيلة جميعًا؟.. وهل جاع في هذه الدنيا أحد ممّن يتصفون بالرزيلة؟.. بل هل كانت الشكوى إلّا من أتهم يستأثرون بكلّ طيّب في هذه الحياة؟ ماذا عليه لو نشر في الإعلانات المبوّية بالأهرام يقول: «شابّ في الرابعة والعشرين، ليسانسيه، طوّع أمر كلّ رذيلة، عن طيب خاطر يذلّ كرامته وعفته وضميره نظير إشباع طموحه». ألا يقتل عليه العظماء؟ ولكن من له بنشر هذا الإعلان؟.. من عسى أن يأخذ بيده؟.. لا فائدة من السعي لدى الزملاء، ولا الأساتذة، ولا حمديس بك.. إلّا واحدًا كان يجب أن يفكر فيه دون سواه.. سالم الإخشيدي.. ليس بندي مروءة ولا نجدة، ولكن هل لديه سواه؟..

وذكر محبوب عمله في النجمة وما يدرّ عليه من رزق واسع! فجرت على شفّته ابتسامة ساخرة، وعاد عليّ طه يقول:

- إني أتهيأ لكتابة موضوع عن توزيع الثروة في مصر..

وضاق محبوب صدرًا بآمال صاحبه، وسأله صراحة عما إذا كان في الإمكان أن يجد وظيفة في المكتبة؟ ومضى به الشابّ إلى موظّف المستخدمين يستفتيانه، وكان الرجل صريحاً جدّاً، فأمسك بيد محبوب وقال له بحدّة:

- اسمع يا بنيّ: تناسّ مؤهلاتك، ولا تُضغِ ثمن طلب الاستخدام، المسألة لا تعدو كلمة واحدة ولا كلمة غيرها: هل لديك شفيع؟ أنت قريب أحد ممّن بيدهم الأمر؟ أتستطيع أن تطلب يد كريمة أحد من رجال الدولة؟ إن أجبت بنعم فمبارك مقدّمًا، وإن أجبت بكلّا فلتنوّل وجهك وجهة أخرى..

وغادر المكتبة مظلم العينين من اليأس وسرارة الإخفاق. ولم يكن شيء مما سمع بالجديد عليه، ولكنّه أحقّه كأنّما سمعه أوّل مرّة، ومضى يحبط في حديقة

وإن لم تدلّ عيناه على شيء، وقال بهدوء:  
 - لا توجد وظائف خالية عندنا الآن.  
 فلاح اليأس في وجه الشاب وتساءل:  
 - أما من فائدة ترجى؟  
 - لا داعي لليأس المطلق، ليس عندنا وظائف،  
 ولكن توجد في الدولة وظائف كثيرة، ويمكن أن أدلك  
 على سبيل الخير.  
 ولم يجد في قوله ما يبعث على الأمل، ولكنه لم يَز  
 بدأ من أن يقول:  
 - شكراً لك يا بك، شكراً لك.  
 فنظر إليه الإخشيدى نظرة غامضة قوية وقال:  
 - أرجو أن تكون رجلاً عملياً، وأن تحسن فهم  
 الدنيا، وأن تعلم أن كل فائدة بشمن.. لست أسالك  
 شيئاً لنفسى، فما أنا إلا دليل.  
 - عفواً، عفواً.. أستغفر الله..  
 فابتسم الإخشيدى وقال:  
 - إذا أخذت بقولي فهنالك أناس قادرون  
 يستطيعون أن ينفعوا أمثالك!  
 وسكت الإخشيدى لحظات ثم استدرك:  
 - هناك مثلاً عبد العزيز بك رضوان.. ألم تسمع  
 عنه؟!  
 - بلى.. أظنه من رجال الأعمال المعروفين.  
 - هو ذلك.. وله كلمة نافذة في العهد الحاضر..  
 ودائرة اختصاصه وزارة الداخلية.  
 فسأله الشاب متحيراً:  
 - ومن لي بمعونته؟  
 - الطريق ميسور، ولكن ينبغي أن تعلم أنه يأخذ  
 ممن يعينه نصف مرتبه لمدة عامين بضمان!  
 وهال الثمن الشاب المعدم، ونظر إلى صاحبه  
 بخوف، ثم سأله بعد تردد:  
 - أليس يوجد من هو أيسر شرطاً؟  
 فقال الإخشيدى فوراً، كأنه نادى يقرأ ثبثاً:  
 - المطربة المعروفة الآنسة ذؤلت..  
 فلاحت الدهشة في وجه الشاب الشاحب، فلم

واستقبله الأستاذ في حجرة استقبال صغيرة أنيقة، وكان  
 يقيم في القاهرة بمفرده ومعه طاهية.. وأدرك الأستاذ  
 الباعث على الزيارة بداهة، ولكنه ترك القادم يفصح  
 عن رغبته، دون مبالاة، وقال محجوب:  
 - معذرة عن مجيئي إلى البيت، فلإني أعلم أن  
 عملك بالوزارة لا يسمح لك بسماع الأحاديث  
 الخاصة.  
 فقال الإخشيدى ببرود:  
 - الواقع أنني لا أترك العمل إلا فترة قصيرة يوم  
 الجمعة!  
 وفطن محجوب إلى ما في إجابته من مغزى، ولكنه  
 تغاضى عنه بجسارته المعهودة، وقال:  
 - حصلت على اللسانس.  
 فابتسم الإخشيدى ابتسامة تشجيع فاترة، وتمتم  
 قائلاً:  
 - مبارك..  
 فشكره الشاب بحماس وقال:  
 - يا سالم بك، أنت جار قديم، وزميل قديم،  
 وأستاذنا في العلم والوطنية على السواء، ولن أنسى ما  
 حييت أن توصيتك لدى رئيس تحرير النجمة أنقذت  
 حياتي ومستقبلي من الضياع. لهذا أقصد إليك كبير  
 الرجاء، يا سعادة البك الشهادة بغير شفاعة أرخص  
 من ورق اللحم، فهل أمل أن تلحقني بوظيفة ما؟  
 أصغى الإخشيدى بلا تأثر، لأنه تعود سماع هذه  
 الخطب الحارة. وكان يحقر الشاب ويستهن به لفقره  
 وعوزة، فلم يتحمس لمساعدته. وكان يوجد بالوزارة  
 وظيفتان خاليتان، ولكنه وعد شخصاً إحداها، وتقبل  
 نظير الأخرى هدية فاخرة، وقد يصير محجوب ذا فائدة  
 يوماً ما، ولكن العاجلة حير من الآجلة. وجعل  
 محجوب يرمقه بعينين تنطقان بالخوف والرجاء، ويشعر  
 أنه بات تحت رحمة إنسان لا يراعى إلا مصلحته  
 الذاتية. ولما وجد منه صمتاً قال بصوت مؤثر:  
 - إني أملتك وكفى.  
 فاشعل الإخشيدى سيجارة، وهز رأسه كالأسف



إنها صاحبة نفوذ واسع يمتد إلى وزارات كثيرة، وأحزاب كثيرة.

وكان يرمي إلى استغلال الشاب في الدعاية لها، بعد أن يقدمه كأحد تابعيه الذين يأتهمون بأمره، فقال:

- ستقيم السيدة نيروز حفلة خيرية يوم الأحد القادم بدار «الضريرات» فاحضر الحفلة وسأقدمك للسيدة؟ واكتب عن الحفلة وصاحبها، ولتنتظر، ولتنتظر.

- أبلغني هذا ما أريد؟

- ربما توقّف هذا على قلمك!.. عليك أن تبتاع تذكرة بخمسين قرشاً؛ لأنك لست صحافياً محترفاً، وربما عرفت فيما بعد أنّ هذا المبلغ الزهيد أجلّ فائدة من ستين جنياً تؤذيها للأنسة دولت.. فهلّم دون تردّد.

وعلى جسارته لم تؤاذه شجاعته على أن يستلف منه ثمن التذكرة، فنهض قائماً وصافحه شاكراً وغادر الحجرة.

## - ٢٠ -

خمسون قرشاً!.. مبلغ زهيد حقاً، ولكن كيف يحصل عليه؟ حقاً إنه يدخر مكتبه وكتبه ليتفجع بثمنها في الشهر الذي يسبق صرف أول مرتب إليه - ترى هل ينتظر يوماً حقاً هذا المرتب؟ - فمن يعطيه ثمن التذكرة؟.. مأمون رضوان ارتحل إلى طنطا ليودّع أسرته قبل السفر إلى أوربا، فلم يبقَ إلا عليّ طه. ولا بدّ مما ليس منه بدّ.

وذهب إلى مكتبة الجامعة صباح السبت، واستقبله عليّ بالابتسامة المعهودة، ولكن عجوب أدرك من أول نظرة أنّ صاحبه حزين!.. ليس هذا عليّ طه الذي يعرفه، انطفاً نور عينيه البهيج، وهدمت روحه المتوثبة الحية، وكلّ هذا حقيق بأن يوليه سروراً لو وجده في ظروف غير هذه. أمّا اليوم فهو يشفق من أن يلقي هذا الحزن عثرة في سبيل الغرض الذي تحبّس من

يباله الآخر واستدرك:

- منطقة نفوذها السكك الحديدية ووزارة الحربية وبعض الدوائر الكبرى.. وأخذ الإخشيدي نفساً عميقاً من سيجارته، واستطرد قائلاً:

- والأسعار كما يأتي: الدرجة الثامنة ثلاثون جنياً، والسابعة أربعون، والسادسة مائة جنيه. والدفع فوراً. وتنهّد محجوب يائساً، ثم تفكّر قليلاً وقال:

- أظنّ شرط عبد العزيز بك رضوان أرفق، فإنّي لا أملك ممّا تطلبه المطربة مليّاً، ولكنّي أستطيع أن أتنازل عن نصف مرتبي إذا صار لي مرتب، فكيف أتصل به؟

- ليس الآن.. ليس قبل شهر ونصف، بعد عودته من أداء فريضة الحج..

تبّاً له! ولكنّ الجوع لن يُبقي عليه حتى يعود الحاج. وقال بصوت خافت وهو يخشى أن يضيق به صاحبه ذرعاً:

- الانتظار معناه الجوع.. فما عسى أن أصنع؟

فقال الإخشيدي ضاحكاً لأول مرة:

- لست بالفتى الأمرد، ولا أملك بالقاتنة اللعوب،

فما عسى أن أصنع أنا؟!

وساد الصمت، ويات في حكم المقرر أن يُنهي الإخشيدي المقابلة، لولا أن خطر له خاطر. وتفكّر سريعاً ثم قال لنفسه إنّ استفادة محجوب محتمة، أمّا استفادته هو - إذا حقّق هذا الخاطر - فمؤكّدة!.. ثم قال:

- هنالك السيدة إكرام نيروز.

- منشئة جمعية «الضريرات»؟

- نعم.

- ولكنّها مثرية جدّاً، ويضرب بثرائها المثل..

- نعم.. نعم.. السيدة لا تطلب مالاً، ولكنّها مغرمة بالشهرة والثناء. ويمكن أن أقدمها إليك في إحدى المناسبات، وعليك بعد ذلك بقلمك ومجلّة النجمة، فإذا وُفّقت إلى رضاها ضمنت مستقبلك،

أجله هذه الزيارة! وتعامى عما قرأه في وجه صاحبه وسأله:

- أين بلغ بك موضوع بحثك؟

فنفخ عليّ طه ضجراً وقال يباس ملموس:

- لا أدري، إني الآن مهيض الجناح.

فقطّب محبوب متظاهراً بالإشفاق، وقال وهو يلعن في سرّه نحسه الملازم:

- كفى الله الشرّ، ماذا تقول؟

وكان عليّ عصيّ المزاج، لا يكاد يطوي سراً فقال:

- كما ترى.. الأمر يتعلّق بإحسان!

وكانّ ماء بارداً رشّ على وجهه، فثار اهتمامه، وغمغم متسائلاً:

- خطيبك!

فتنهّد عليّ وقال بانكسار وحسرة:

- خطيبتي!

فازدادت دهشة محبوب وقال بلهجة من يودّ معرفة كلّ شيء:

- لا أفهم شيئاً..

وتردّد عليّ ثانية، أيوح بسرّه؟.. وكان بطبعه غير كتوم، وكان محبوب من أصحابه الذين أفضى إليهم بقصّة حبّه، وكان إلى هذا وذاك في أشدّ الحاجة إلى الترويح عن نفسه، فقال بصوت أبان عن تأثره العميق وبأسه:

- ولا أنا، لشدّ ما أنا ذاهل حائر، ولشدّ ما أسائل نفسي، ما الذي حدث؟! ما البواعث الخفيّة الأسيّة التي تنفث سمومها في الظلام؟.. كانت الحياة تسير سيراً جيّلاً. كنّا متحيّين ونزداد على الأيام حباً. وكنّا متفاهمين ونزداد على الأيام تفاهماً. عرفنا ماضيها وأحبيناها. وخبرنا حاضرها ورؤينا به، وأملنا مستقبلنا وانتظرنا، وتتابع اللقاء، وتمّت الألفة، ورسخت المودة..

وسكت عليّ لحظة، وعينا صاحبه لا تفارقان وجهه المنجهم، ثمّ اندفع يقول مسحوراً بحرارة الحديث:

- ما الذي بثّ الفساد في حياتنا؟. إنّه شيء لا

يصلّق، ولكنّه الحقيقة دون زيادة، كيف حدث هذا؟! بدأت تتغيّراً وكان التغيّر طفيفاً بادئ الأمر، ولكنّه لم يتّخّف عن قلبي اليقظ الساهر. رأيت في عينيها نظرة قلقه حائرة، تناوبها الشroud وفترت ابتسامتها، ومضت تتجافى عن حديث الحبّ، وتثقي ذكر آمالنا وعهودنا. فأخذت نفسي بالصبر عهداً عرفت فيه مرارة الحيرة وعذاب الشكّ، ولكن دون جدوى فلم يتغيّر الحال، وكاشفتها بوساوسي، وقلت لها ما أجدر حبّنا بأن يكون هباءً إذا طوت دوني سرّها! ولكنّها اتّهمتي بالمبالغة واعتذرت عن تغيّرها بتوعك مزاجها فتضاعف عذابي والمي.. كيف أصدّق أنّ حباً كحبّنا يموت فجأةً وبغير نذير؟ وجدّدت بها، فصارت اللقيا جيّلاً، ثمّ انقطعت عنيّ، أتصدّق؟ لقد جنّنت، فرصدها في كلّ مكان، وراسلتها، وثابرت على مطاردتها بعناد، فجاءت لمقابلتي، جاءت تتعزّر بالحزن والحجل، فصحت بها أنّ تحوّلها سيورثني الجنون.

وأمسك الشابّ، وكان محبوب يتابعه بحواسّ مرهفة، ويوليه اهتماماً كاد ينسيه غرضه من الزيارة، وتظاهر بالتأثر الشديد ليشجّع صاحبه على الاسترسال، فقال عليّ:

- قلت لها إنّ تحوّلها سيورثني الجنون، فقالت لي إنّ لقاءنا أورثها الجنون بالفعل، وقالت لي إنّ آمالنا مقضيّ عليها بالفناء، فينبغي أن نعالج حزننا بالحكمة وأن نرضى بالنهاية المحتومة. هل أرضى بالشقاء دون دفاع؟! أفرط في سعادتي دون سؤال؟! قالت لي إنّها رغبة والديها، وإنّها يثست من إقناعهما، وإنّها لم تدعّ وسيلة، وضرعت إليّ في النهاية أن نفترق وألا أضاعف لها العذاب.

ونظر الشابّ إلى محبوب طويلاً، حتّى أفاق قليلاً من سكرة الحديث، فتورّد وجهه وقال:

- لماذا أطيل عليك؟.. لقد انتهى كلّ شيء: تحطّمت آمالي. إنّ دراسة الحكمة لا تغني عنيّ شيئاً.

وعجب محبوب أيّما عجب: لماذا يرفض عمّ شحاته تركي بائع السجائر الأستاذ عليّ طه؟ أيراه غير أهل لنسبه!.. أم يطمع الرجل أن تتمّ كرميته دراستها.

- ٢١ -

وأخذ أهبه. استحمّ، وكوى البدلة والقميص والطربوش، ولّغ الحذاء، وحلق دقته ورجل شعره، فبدا شخصاً جديداً، وإن لم يزايله الهزال ولا الشحوب.

ذهب إلى دار جمعية الضريرات مبكراً. ووجدتها داراً كبيرة، أنيقة، تحيط بها حديقة غناء ورافة الظلال، فسار إلى بهو عظيم مستطيل، يتصدّره مسرح كبير، وقد تراصت به صفوف المقاعد الخضر، وعلى الجانبين أبواب الشرفات المطلّة على الحديقة. ولم يكن سبقه إلى المكان إلّا نفر قليل فأتخذ مجلسه هادئاً، ومضى يتفحص المكان بعينه الساخرتين، ويتساءل:

تُرى هل يمكن حقاً أن تنتهي به رحلته في هذه الدار إلى الحكومة؟! وكان تيار القادمين لا يتقطع، وكان في استقبالهم جماعة من الأوانس الحور. وبعد ثلث ساعة من جلوسه تكاثرت عددهم، وتزاحموا نساء ورجالاً. في أبهى الثياب وفاخر الخلل، فشاع الحسن في كلّ موضع، وتطايّر في الجوّ شذا العطور، وزاغ بصر محبوب، وتردّدت عيناه الجاحظتان بين الوجوه الصبيحة، والنحور المتألّقة، والظهور العالية،

والصدور الناهدة. وجرى دمه بحيوية فائضة، وسرى القلق في أعصابه. وعجب لهله الدنيا الباهرة، أين كانت خافية؟! هذه الثياب الفاخرة، وتلك الخليّ النفيسة. إنّ واحدة منها تكفي للإففاق على طلبه الجامعة جميعاً. وهؤلاء النسوة، ما أكثرهنّ وما أجملهنّ ولكن من المؤسف حقاً أنّ كلّ امرأة يحوم حولها رجل أو أكثر. وأكثرهنّ يتكلّمن الفرنسية بطلاقة، وهنّ المسلمات الظوالم! كأنّ الفرنسية لغة الدار الرسمية، تُرى كيف يتفاهمن مع الضريرات؟! واجتاحته موجة من السخرية مفعمة حقداً، لا لغيرة على لغة البلاد، ولكن تلمّساً لأسباب الكراهية. وتساءل أين صاحب السعادة ابن الست أم سالم؟ وأرسل بصره ناحية المدخل فصادف مجيء سيّدة باهرة المنظر، عرفها من النظرة الأولى، فذكر القناطر لعهد خلا، وذكر مهندس القناطر الشابّ وزوجه الحسنة، أجل كانت حرم

لتنفق على أسرته؟! ثمّ خطر له خاطر فسأل صاحبه: - ألا يجوز أنّ مثرياً كبيراً طمع في الفتاة فأراد أبوها أن يزوّجها له؟!

فرفع عليّ حاجبيه حيرة ولم ينبس بكلمة. وكان محبوب قد ذكر غرضه الأوّل من هذه الزيارة، فأراد أن يمهد له، وكان اعتراف عليّ قد أحدث في نفسه لذّة كبيرة، فسالت نفسه نشاطاً وحبوراً، ولكنّه قال لصاحبه بلسان الواعظ:

- لا يَجْمَل بك على أيّة حال أن تستسلم للحزن، والحقّ أقول إنّ مهما يكن السبب الحقيقي لهذه القطيعة فلا شكّ في تبعه فتاتك، فهنّها كثيّن لم يكن، وأودع العلّة والمعلول سلّة المهملات..

فقال عليّ بحزن:

- لم يلتئم الجرح بعد!

- هذا جزاء من يهيم بنظرتك في الحبّ، ألا ترى أنّ الكلاب تعالج الحبّ بطريقة أدعى إلى السعادة والراحة؟!.. نحن المسؤولون عن شقائنا دائماً..

فلازم عليّ الصمت، واستطرد الواعظ:

- النسيان.. النسيان.. أترضى أن تكون من المجانين الذين يُفسد الحبّ حياتهم؟

وساد الصمت. وفي تلك اللحظة أُنحى سبب قويّ بما كان يبغض عليّ طه إليه، فلم يعد يحقّه كما كان. خفّت وطأة البغضاء، ومضى يقول لنفسه: ما بضيره لو فقد إحساناً؟! فلا يزال ذا وظيفة وشباب وجمال! إحسان التي طالما أصلته ناراً، فمن الراحة ألا يفوز بها منافسه وإن فاز بها ثالث غيرهما! ثمّ نهض قائماً، متوتّباً للهجوم على غرضه، فمال نحو صاحبه وهو يصفّحه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- أستاذ عليّ.. أخوك في حاجة إلى خمسين قرشاً حتّى آخر الشهر؟

ودسّ عليّ يده في جيبه ومدّها إليه بما يريد، فتناولها محبوب قائلاً:

- شكراً لك.. شكراً لك أيّها الصديق الكريم.

وغادر المكتبة راضياً، وتساءل وهو يتنفّح حاجبه

الأيسر: متى يمتلئ جيبى بنقود الحكومة؟!

فتلقته برزانه من يالقه، وحتت رأسها تحية للمعجبين، وبسطت بين يديها ورقة. ونظر عجوب إليها طويلاً، ثم سمع أحمد بدير يقول بصوت منخفض:

- السيّدة إكرام نيروز منشئة الدار.

أجل. عرف ذلك بداهة، تُرى أيّ دور ستلعبه في حياته؟

واستدرك أحمد بدير قائلاً:

- إنها عجوز ولكّنها مغرمة بالشباب!

وأدرك أنّ أحمد بدير لن يمكس - كعادته - وسرّ لذلك أيّما سرور، لأنّه من المحقّق أن يقتحم الإنسان دنيا جديدة بغير دليل. أمّا السيّدة إكرام نيروز فراحت تلقي كلمة الافتتاح بصوت هادئ متّزن جميل. رحّبت بالحاضرين، وأثنت على عواطف الخير التي تعمّر صدورهم، ثمّ تكلمت عن جمعيّة الضريّرات وهدفها السامي. ألقت كلمتها بالعربيّة، فلم تكد تنجو كلمة من خطأ نحويّ ولحن. وتبادل الصاحبان الابتسام، وقال أحمد:

- لا تحزن فالدار خالية ممّن قد يظن إلى الخطأ.

فقال عجوب كالمتعذّر:

- مغفور لها الخطأ، أليست تخطب بلغة أجنبيّة؟

ثمّ شاهد الحاضرون فصلاً من مسرحيّة لمولير. وغنّت مدام تارد أغنية فرنسيّة عاليّة، وتركت في النفوس أبلغ الأثر، ثمّ دعي الجميع إلى بهو آخر مستدير، أعدّ للرقص، فتصدّرت فرقة موسيقيّة إيطاليّة، ورصّت إلى جوانبه الموائد، وعزفت الموسيقى، ورقص الراقصون: ودارت الكئوس مترعات. ووقف الصديقان عند مدخل إحدى الشرفات يشاهدان الرقص ويتحدّثان. كان عجوب يرى الرقص لأول مرّة، فأثار دهشته وإعجابه، رأى الصدور تكاد تلمس الصدور، والأذرع تحيط بالخصور، فعجب كيف يتمالك هؤلاء أنفسهم! وتمنّى لو كان من الراقصين. وتفحص الوجوه بعينه الجاحظتين القلقتين، وهمس لنفسه: «المال. المال هو السيادة وهو القوّة، هو كلّ شيء في الدنيا!» وعثرت عيناه بثدي ناهد تكاد حلمته تثقب الفستان الأبيض

حمديس بك دون غيرها، وقد جاء وراءها البك نفسه، وتبعته تحية وفاضل! وعلق بصره بالأسرة وهي تمضي إلى مقاعدها من الصفّ الأوّل، وتورّد وجهه الشاحب، وعادت إلى ذاكرته رحلة الأهرام، فخال أنّه يسمع صفقة باب السيّارة وهو يغلق دونه!.. وقرض أسنانه وشعر برغبة جهنميّة إلى البطش بهذه الفتاة الأنيقة المتعجرفة!.. آه لو تأبّطت ذراعه حسناء من هؤلاء الحسان فسار بها أمام أسرة «قريبه»! تلك الأسرة الكريمة التي تجسّمت المجيء إلى هذا البهو في سبيل الإحسان والرحمة! ينبغي أن يسود بلا قيد ولا شرط، فلا ضمير ولا خلق، ولكن متى يجلس معهم في الصفوف الأماميّة! في لباس السهرة الفاخر لا في بدلة الصحافة هذه؟! وقبل أن يفيق من أفكاره رأى عن بُعد الأستاذ سالم الإخشيد يمشق طريقه إلى الأمام في مشيته المتمهّلة، ووزانته المعهودة، كأنّ البهو لا يحوي سواه.. وكان يحمي برأسه كثيراً من الطبقة العالية نساء ورجالاً، فظنّ يتابعه بناظريه حتّى جلس، وقد ملأه إعجاباً وحسداً. هذه هي الحياة الحقّة، الحياة الممتعة، الحياة التي ترضي الغرائز جميعاً. الإخشيد مثله الأعلى. ونعم المثل الأعلى هو. وشعر عند ذاك بيّد توضع على كتفه، فالتفت إلى يمينه فرأى الأستاذ أحمد بدير يجلس في المقعد الملاصق، فتصافحا بحرارة، وسأل عجوب قائلاً:

- ما الذي جاء بك يا أستاذ؟

فنظر إليه الشاب نظرة كأنّما يقول له ما الذي جاء بك أنت؟

وأجابه كالداهش:

- عملي!.. أليست مندوب الجريدة؟

فقال عجوب:

- وأنا مندوب مجلّة النجمة!

وضحكا معاً. وهمّ أحمد بدير أن يسأل صاحبه عمّا إذا كان ينوي الاشتغال بالصحافة، لولا أن رفعت الستارة، وبدأت على المسرح سيّدة جلييلة، ذات جبين وضّاح، ووجه مستدير مهيب، لم يذهب كلّ جماله على اقترابها من الستين، وقوبلت بتصفيق حادّ متواصل،

موقفنا هذا عناء ما بعده عناء: كنت إخال الناس جميعاً وكأنّ لا عمل لهم إلّا تفحصي من الرأس إلى القدم. وأنت؟

فذكر محجوب ملابسه، ووجهه الذابل الشاحب، فتصاعد الدم إلى خديّه، ولكن سرعان ما استعدى جسارته واستهانته فقال بصوت هادئ:

- في موقفنا هذا يداخلني شعور بأنّ رجل يجول بين ماشية.

ولم يكذب يتّم كلامه حتّى وجد نفسه أمام حمديس بك، وجهاً لوجه. وخفق قلبه بعنف. ونظر إليه نظرة حاول ما استطاع أن ينقيها من أي الخوف والاضطراب، وتساءل ترى كيف يواجهني؟.. ما عسى أن يقول؟ ما عسى أن يفعل؟.. أمّا حمديس بك فقد عرفه، ولاحت في وجهه ابتسامة، ومذّ له يده قائلاً:

- كيف حالك يا محجوب؟

وتصافحاً، واقترباً بسلام!.. وتولّته الدهشة.. إذن أخفت تحيّة الأمر!.. ولم يُدّر له هذا بخلد.. وتنبّه إلى أحمد بدير يسأله للمرّة الثانية:

- أتعرف حمديس بك؟

فأجابه بزهو:

- طبعاً.. طبعاً. ابن عمّ والدني!

- وكيف لم تحدّثنا عن هذه القرابة العظيمة؟

فأجابه محجوب بنفس اللهجة، وكان لا يزال متأثراً بسرور النجاة:

- طظ!..

وهبطا الأدراج إلى الحديقة، ومضت عيناه تبحثان عن سالم الإخشيدي، ومتى يقدّمه إلى السيّدة؟.. وهل من فائدة ترجى؟.. ومرّ بجساعات النساء والرجال، وشاهد نخبة من الرجال المعروفين، منهم المتحقّقون، ومنهم من أطلقوا لأنفسهم العنان. ولفت نظره شخص غريب المنظر، ضخّم الجسم في غير تناسق، مكّرش، كأنّه مائة حيوانيّة لم تسوّ بعد، يمشي منفرج الساقين كأنّه ذو داء. يبدّ أنّه بدا أثيراً محبباً مكّرمًا، يحدث العظام بغير كلفة، ويمارحهم ويعلو

الشفاف، فحمي دمه، ورفع بصره ليرى وجه صاحبه، فرأى عجوزاً دميعة على فرط تهتكها، فلكرز صاحبه ولفته إلى السيّدة هامساً:

- كيف يكون هذا الثدي لهذه العجوز؟

فألقي أحمد بدير على المرأة نظرة شاملة: وابتسم كالساخر، ثمّ قال:

- وكيف تكون هذه الحفلة الخيريّة في حانة؟!

فقطّب محجوب غاضباً، أو متظاهراً بالغضب وقال:

- لتذهب الضريرات إلى الجحيم.. الحانة خير وأبقى!

وجال ببصره مرّة أخرى فرأى تحيّة حمديس! رآها تراقص شاباً جميلاً مفتول العضلات، له طول مأمون رضوان، ومثانة بنيان عليّ ظه: فشعر أنّه - الشاب - يستطيع أن يقبره بضربة واحدة. وتجهّم وجهه، وسأل أحمد بدير عنه، فقال الشاب:

- وكيل نيابة وأحد أبطال التنس المعدودين..

وتنهّد محجوب. ولو أمكنه - في تلك اللحظة - أن يصير عظيماً ولو بجريمة ترمي به إلى حبال المشقة لما تردّد!.. ما الذي منع من أن يكون أحد هؤلاء الشبان؟! الدنيا جميعاً! القوى الكوزيّة التي خلقت التاريخ، وصنعت الطبقات، وقسمت الحظّ، وجعلت عبد الدائم أفندي أباه، والقناطر مسقط رأسه. وهنا سمع أحمد بدير همس إليه متعجّلاً: وانظر إلى الشرفه وأدار رأسه إلى داخل الشرفه: فرأى سيّدة تكاد تخفي وجهها بمروحة من ريش النعام، وعلى يدها ينحني رجل متقدّم في السنّ، فلما استوى واقفاً، عرفه من الصورة التي تنشرها له الجرائد من آنٍ لآخر، قال أحمد بدير:

- هذه حرم أنيس بك إبراهيم، والباشا من المعجيين بها، ويقال إنّها تسعى لمنح زوجها الباشويّة! وكفّت الموسيقى، وهرع كثيرون إلى الشرفات والحديقة، فتحوّل الشبان إلى الشرفه، دخلاً معاً، قال أحمد بدير:

- في أوّل عهدي بحياة المجتمعات كان يكلفني

جميعاً رقصة فاتنة التصوير، دقيقة التعبير، أخذت  
بمجامع القلوب، حتى همس أحمد بدير بأغنية سيد  
درويش «دا بأف مين اللي يألُس على بنت مصر بأنه  
وش» وصقّ الجمهور للرافصات بحماس وإعجاب.

وأعلن بعد ذلك عن مسابقة الجمال، فسرت في  
الحاضرين هزة شوق واهتمام، وشملهم سرور  
عجيب. وظهرت على المسرح هيئة المحكمين. كانت  
المسابقة أمتع ما في السهرة، بل كانت المشهد الوحيد  
الذي أجمع الحاضرون على الاهتمام به. وقد تفحص  
أحمد بدير المحكمين بإمعان. ثم جرت على شفثيه  
ابتسامة خفيفة ساخرة، وأبرز من جيبه بطاقة كتب  
عليها كلمة أو كلمتين وطواها حتى صارت كالعويد،  
ودسها في جيب محبوب وهو يقول:

- دع هذه البطاقة حيث هي حتى تعلن النتيجة، ثم  
ابسطها تجد اسم ملكة الجمال!

فسأله محبوب بدهشة:

- وكيف عرفته؟

- صه.. انتباه!

وتركز انتباه الجميع في مكان واحد، ودعا الداعي  
أولى المسابقات، فطلعت في سناء المسرح كالكوكب  
النير في بهاء وأناق. وكانت ترفل في ثوب من الحرير  
الأيض، وتبسم ابتسامة توجي بالهدوء واللفظ، بيد  
أنها أخفتت في إخفاء ارتباكها، وقال أحمد بدير  
بأسف:

- في أوربا تبدو المسابقات عرايا! أما نحن فنقنع  
بالحكم على الظواهر..

فتساءل محبوب ساخراً كعادته:

- ولماذا لا يختارون المحكمين من المطلعين؟

وحملت الأعين، وأمسك كثيرون بالنظارات  
المكبرة، وأثبت البعض ملاحظاتهم في مذكرات.  
واستمر العرض والفحص بلا سام ولا ملال. وتتابعت  
الوجوه كالأقمار. ثم اختفت هيئة المحكمين للمداولة  
فتصاعد اللغط، وعلا النقاش، وتراهن كثيرون.  
وعادت اللجنة بعد قليل وأعلنت اسم الفائزة: أنسة  
هدى حيدر، فصقّ الجميع، وصقّ والدها في مقدمة

صوته بينهم بغير مبالاة، ويقهقهه عاليًا. وعجب  
محبوب لشأنه، وسأل صاحبه عنه قائلاً:

- ومن هذا أيها العارف بأمر الناس؟

فضحك أحمد بدير وقال:

- كيف لا تعرفه؟.. عزوز ضارم. كان يومًا موظفًا  
محترمًا، ثم اضطرّ إلى الاستقالة لأسباب خلقية،  
فاشتغل بالأعمال الحرة، وعرفه أناس من ذوي  
النفوذ، فأعيد إلى الخدمة وسار قُدماً.. ولكنّه لم  
يهجر أعماله الحرة!

- وكيف يجمع بين الاثنين؟

- عمله الحر شقته الأنيقة، فيها مائدة للقهار، وفيها  
الحسان الكواعب الحور!..

وتفكر محبوب ملياً، وانقبض صدره، وتكدّر  
صفوه، كيف يتاح له التفوق في مثل هذا المجتمع؟!  
إنهم يعملون ببادته بغير حاجة إلى تفلسف، ولن يمتاز  
دونهم باستهتار أو جرأة. فما الفائدة؟! أليس من  
الأفضل أن ينقلب مصلحاً كمامون رضوان أو كعلي  
ظه؟! وقطع أفكاره ظهور شاب كالقمر، ممشوق  
القوام، بديع الحسن، ناعم البشرة، فاتن العينين،  
أخاذ الملامح، لامع الشعر، يحظر كالغزال نافثاً سحر  
الأنوثة والذكورة معاً. فما تمالك أن تتمم قائلاً:

- لله ما أجمله!.. أنعرفه؟

فقال أحمد بدير مبتسماً:

- أحمد مدحت. أشهر من نار على علم، يدعونه

بحقّ كوكب الشرق!

- موظف؟!!

- ببنك مصر. متخرّج في الحقوق منذ عام. مرتّب

ثلاثون جنيهاً.

- ثلاثون جنيهاً! ومن كان شفيعه؟

فضحك بدير قائلاً:

- هو شفيع نفسه يا أحمق!

ورنّ جرس يدعو المبعثرين في جوانب الحديقة إلى  
بهو التمثيل. فعادوا جميعاً وأخذوا مجالسهم بهدوء  
ونظام. ورفعت الستارة بعد قليل عن مجموعة من  
بنات الطبقة الراقية في أردية فرعونية رائعة، ورقصن

- إني فخور بالجيل الجديد.. (وَأَمَّتْ بالفرنسية)  
فقد طفح الإناء بالماء القذر، ولا بدّ من تطهيره وملئه  
من جديد..

فقال محبوب بالفرنسية:

- هذا حقّ يا سيّدي..

وكان الإخشيدي يقوم لها بدعاية في بعض الصحف  
إمّا بنفسه أو بواسطة بعض أصدقائه: فرجا أن تضيف  
ما عسى أن يؤدّيه محبوب إلى أفضاله السابقة. وألقت  
السيدة على الشاب أسئلة تتعلّق بثقافته وتخصّصه  
وأماله، فأجاب محبوب بلباقة، وجرى الحديث مجرّي  
جديداً، فاستأذن الإخشيدي وصاحبه، وغادر المكان  
وهو يقول له مودّعاً:

- الشيء الكثير يتوقّف على قلمك..

حقّاً؟.. أتتحقّق أمله رهن بمقاله عن حفلة  
اليوم؟.. وعاد إلى الجيزة متفكّراً تستأثر به الأحلام.  
وأرق تلك الليلة كما كان يؤرّقه الجوع في ليالي فبراير،  
تاه في وادي الأحلام والآمال، ثمّ ذكر طويلاً السهرة  
التي عاش فيها نصف الليل كلّ: جمال الرفاهية،  
ومشاهد النعيم، ومجالي الحسن، وروعة العشق،  
وجنون الإباحية، تلك الحياة الباهرة التي تذوب روحه  
شوقاً إليها..

- ٢٢ -

وعند ضحى اليوم الثاني كان يقطع حجّته الصغيرة  
ذهاباً وجيئة مفكّراً في المقال الخطير. ماذا يقول؟ كيف  
يبدأ؟ وبِمَ يختم؟ ثمّ ركّز ذهنه في حصر النقاط الهامة:  
ثمّ هداه منطقته إلى طريقة لبقّة في كشف النقاط  
الخطيرة، فبسط صفحة، وشطرها نصفين بخطّ رأسيّ،  
وجعل لكلّ شطر عنواناً:

الجميع. وأبرز محبوب البطاقة من جيّبه، وبسطها،  
فوجد فيها اسم الفائزة «هدى حيدر» بخطّ واضح،  
فلاحت الدهشة في وجهه وسأل رفيقه:

- ما معنى هذا؟

فابتسم أحمد بدير فخوراً بفراسته وحسن اطلاعه  
على البواطن، ورغب أن يترك صاحبه لحيرته، ولكنّ  
الآخر ألحّ عليه، فلم يرَ بداً من إسكاته، فقال  
بصوت لا أثر للفتور فيه:

- عرفته بطريق المصادفة! رأيت الفائزة منذ يومين  
مع الأعضاء الصحفيين من لجنة التحكيم عند سفح  
الهرم، أيدھشك هذا؟!

وكره محبوب عبد الدائم أن يدهش حقاً، فتباك  
نفسه، وقال بضجر:

- كلّاً لا يدهشني شيء. اختيار الموظفين تزيف،  
رسو العطاءات تزيف، الانتخابات نفسها تزيف،  
فلماذا لا يكون انتخاب ملكة الجمال تزيفاً؟

\* \* \*

وأوشك الجمع أن ينفُض، فذكر محبوب غرضه:  
ورأى الأستاذ سالم الإخشيدي يتّجه نحو أحد  
الأبواب، فودّع صاحبه ومضى نحوه. وكان الأستاذ قد  
نسيه تماماً، فتصافحا، وسارا معاً إلى الباب المقصود،  
ودخلا حجرة كبيرة فاخرة الأثاث جلست السيدة نيروز  
في صدارتها مع نفر قليل من أصحابها. وأهاب  
محبوب بجسارته أن يخونه الارتباك. واقترب مع  
صاحبه من السيدة الجليلة، وانحنى الإخشيدي على  
يدها مسلماً، وقدمه إليها بصوته الرزين الهادئ:  
«الأستاذ محبوب عبد الدائم، مندوب النجمة، من  
خزّيجي الجامعة المعجيين بما أحدثت عصمتك من  
نهضة رائعة». وانحنى لها محبوب فملت له يدها  
قائلة:

## الحقيقة

- ١ - إكرام نيروز كريمة رجل من صنائع الاحتلال.
- ٢ - غرامها بالشبان.
- ٣ - تفوقها في الفرنسية وعجزها في العربية.
- ٤ - دار الضريرات حانة.
- ٥ - مدعوها على مثالها.
- ٦ - المدعوون يهتمون بكل شيء إلا الضريرات.

## ما ينبغي أن يكتب

- ١ - أسرة إكرام نيروز وعراقتها في الوطنية.
- ٢ - زوج وفيّة وأمّ بارّة.
- ٣ - اغترافها من الثقافتين العربية والفرنسية.
- ٤ - مشروعاتها الخيرية.
- ٥ - مدعوها على مثالها.
- ٦ - عاطفة الخير.

يعهد مثله من قبل. وأمر الساعي ألا يأذن لأحد حتى يأمره. وجلس محجوب على كשב منه، فالتفت إليه الرجل بوجهه المثلث الهادئ، ولكن كان الهدوء هذه المرة قناعاً يخفي انفعالات عارمة، وقال مبتسماً:

- دعوتك لأمر خاصّ بمستقبلك!

هي الكلمة المرجوة!.. لن يضيع السرور سدى..  
وغلبه الانفعال فقال بصوت متهتج:

- لم أفرغ من المقال بعد!

- دع المقال الآن، وانس إكرام نيروز. سنحت فرصة أجلّ فائدة، كالثمرة الدانية تروم من يقطفها..  
فتساءلت عيناه المحملقتان، وقال وهو يزدرد ريقه:  
- بعونك أقطفها!

فترث الإخشيدي متفرساً في وجهه بدهاء، لم يلاحظ الآخر - لم يلاحظ شيئاً - ثم قال:

- وجدت وظيفة.

وساد صمت وقد تورّد الوجه الشاحب، فاستدرك الإخشيدي:

- درجة سادسة!

- سادسة!!

- سكرتير.

فتساءل لاهثاً وهو لا يصدق أذنيه:

- سكرتير من؟

فأشعل الإخشيدي سيجارة، غير راحم لهفة صاحبه، وقال متغافلاً عن سؤاله:

هكذا استخرج نقط الموضوع الخطير، ثم جلس إلى مكتبه يتهيأ للكتابة، ولكنه لم يكد يمسك بالقلم حتى سمع طرّقاً على باب حجرته - لأول مرة منذ انتقاله من دار الطلبة - فنهض منزعجاً ساخطاً وفتح الباب. رأى جسماً ضخماً يملأ عليه الفراغ، فتذكره وخفق قلبه خفقة مروعة، كان ساعي سالم الإخشيدي دون غيره. ورفع عينيه إلى الرجل في تساؤل ولهفة، فقال الرجل مبتسماً ولكن بصوت غليظ:

- سعادة البك يريدك على أن تقابله الآن.

- سالم بك؟

- نعم!

- أين؟

- في مكتبه بالوزارة!

ثم قصّ عليه الرجل كيف قصد إلى دار الطلبة كما أمره سيّده، وكيف وصف له البوّاب مسكنه الجديد. ولكن محجوب لم يسمع شيئاً، كان يرتدي ثيابه بسرعة وهو يقول لنفسه: ماذا هنالك؟!.. أيمكن؟!.. ولكن بهذه السرعة!.. إنه لسحر مبین! هذه المرأة إمبراطورة.. بل شيطانة.. بل إلهة.. آه.. لشدّ ما أخاف أن تكون الدعوة لسبب آخر فيضيع هذا السرور الجنوبيّ سدى!.. ولكن لأيّ سبب يدعوّه إن لم يكن لهذا؟!..

وذهب إلى الوزارة فبلغاها في منتصف الثانية عشرة، وقصد إلى حجرته الإخشيدي، فاستقبله هذا بلطف لم



فتنهّد محجوب، وواتته جسارته الموهودة فقال  
بتسليم:

- إذا قبلت..

فابتسم الإخشيدى ابتسامة مأكرة وقال:

- بداية حسنة ولكنها ليست كل شيء.

ماذا يريد الشيطان؟.. ليس الأمر كما حسب أول  
وهلة. ليس الزواج كل شيء، فإذا تحوي «كل شيء»  
هذه؟.. وسمعه يقول بصوته البغيض:

- ولكنني متفائل بجسارتك ويسرعة بتك في الأمور،  
الوظيفة في مكتبنا هذا، وكنت شاغلها لأسابيع خلت  
وظيفة سكرتير قاسم بك فهمي.

يا للعجب. أيصّدق هذا؟. أيمكن حقًا أن يجود  
الدهر بكلّ هذه السعادة؟. ولماذا يختاره الإخشيدى  
وما يعهده ذا مروءة أو أريحية؟ إنه يطالبه - نظير هذه  
الوظيفة - بالزواج، فأنيّ زواج هذا؟. أجل أيّ زواج  
هذا.. وأخفى حيرته وقال بسرور:

- يا لها من سعادة كالحلم. جزاك الله عنيّ خيرًا.  
فابتسم الإخشيدى وقال وقد ازداد اطمئنًا  
وجسأة:

- دعني أتكلّم عن الزوجة.

فأحدث لفظ «الزوجة» في نفس الشاب هزّة،  
وتطلّع إلى الإخشيدى بعينين متسائلتين كأنها تسألانه:  
«من هي؟.. ما صورتها؟.. ما معنى زواجي بها؟»  
فقال الإخشيدى:

- فتاة كريمة من «دائرة» قاسم بك فهمي.

دائرة. وتساءل الشاب بارتبّاع:

- قريبته؟

- قاربت الحقيقة.. هي من معارفه!

فتغاي محجوب وتساءل مزدردًا ريقه:

- معرفة جوار، صداقة والدين؟

فقال الإخشيدى ببساطة واستهانة:

- قاربت الحقيقة، سعادته صديقها هي بالذات!

وبدت الحقيقة سافرة. وأدرك ما يراد به. وعرف  
ثمن الوظيفة الفاخرة. إنّ الإخشيدى لا يرسل  
الساعي في طلبه حبًا في سواد عينيه، ولكن ليستغلّ

- الفرصة الجميلة كنز لمن يهتبلها، حسرة للمتردّد.  
أذكر كيف كان فيضان المسيحيّ من سنوات بركة  
على قطن بلادنا البائر؟

فاحترق الشاب لهفة وقال بعزم أكيد:

- محال أن أتردّد يا سعادة البك.

فسرّ الإخشيدى لتلهفه، واطمأنت نفسه القلقة  
بعض الشيء، ثم قال:

- سبق أن أفهمت أنك يمكن أن تأخذ إذا رضيت  
أن تعطي!

أن تعطي؟! ماذا يملك لكي يعطي؟.. وغصّ  
بخيبة لم يتوقّعها، فانطفأ بريق عينيه، وقال بصوت  
كسير متسائلًا:

- ولكن.. ولكن كيف أعطي؟.

- ليس المال بالعملة الوحيدة المطلوبة في سوق  
الفرص «وتنهّد محجوب بصوت مسموع» ومن سجايا  
الإنسان ما لا يقوم بهال. المسألة لا تعدو هذا: أأنت  
جسور ذكيّ حقيق بالطّيات، أم أنت تمنيّ تلقي بهم  
الأوهام على شاطئ الحياة فتطوهم النعال كالتراب؟.  
فلاحت الحيرة في العينين الجاحظتين، حتّى خلع  
الشابّ طربوشه ومسح على شعره المفلفل، ثمّ لبسه  
بسرعة، وقال:

- أرجو أن أكون عند حسن ظنّك..

- لهذا دعوتك، وما خابت فراستي قطّ.

ونظر إلى محجوب بعينه المستدريتين وسأله:

- أتقبل أن تتزوّج؟

فتولّته الدهشة. لم يخطر له الزواج على بال، فلم  
ينبس بكلمة. وكان الإخشيدى لا يزال مصوّنًا إليه  
عينيه. فقال بلهجة ساخرة:

- جاء دوري لاستحاثك.

- ألا يمكن أن أعطى مهلة للتفكير؟

فهزّ الإخشيدى منكبيه استهانة وقال:

- ظننتك أشدّ رغبة. لماذا أنتظر؟ يوجد ألف

عروس وعروس ولا بدّ من اختيار واحد اليوم..

- اليوم؟.

- بل الساعة.

كلّ هذه الأشياء، فينبغي أن يختار دون تردّد. التردّد معناه أنّه لا يزال غير أهل لفلسفته الجسور. ثبّا له. أينسى ليالي الجوع؟ أينسى القول المدّس؟ أينسى التخبّط في شوارع القاهرة شحاذًا متسولًا؟. عليّ طه في المكتبة ومأمون رضوان في طريق باريس ووتردّد! حمديس بك لا يكلف نفسه مجالسته خمس دقائق ووتردّد! وتحميّة - وهنا تميّز غيظًا - أغلقت باب السيّارة في وجهه ووتردّد! وتنف حاجبه الأيسر، ورفع عينيه إلى صاحبه وسأله:

- من هي؟ أريد أن أعرف كلّ شيء؟

فقال الإخشيدى:

- ستعرف كلّ شيء في حينه، ولن تكون من الآسفين.

فرغ محجوب حاجبه استهانة وقال:

- ليكن. فمتى يكون التعيين؟

- ٢٣ -

فتنهّد سالم الإخشيدى بارتياح، وقال وهو ينهض قائمًا:

- تعال أقدمك إلى البك.

وتبعه على الفور بادلًا جهده لضبط عواطفه. ودخلا حجرة فاخرة، رأى في صدرها مكتبًا كبيرًا يجلس إليه البك. واقتربا من المكتب في احترام حتّى كادا يلمسا. ورأى الإخشيدى يتنازل مرّة واحدة عن جلاله، وينحني على يد البك في خشوع، ففعل مثله، ولمّا اعتدل في وقفته ألقى على الجالس نظرة خاطفة. كان في الأربعين، معتدل القامة، جميل المحيّا، أنيق الملبس والهندام، صغير الشارب جميله، يدلّ مظهره على أنّه إمام من أئمة مدرسة الغزل. وقد قدّمه الإخشيدى إليه، وأثنى عليه، فرحب به في تحفّظ مقصود، وسأله:

- هل أنت من متخرجي هذا العام؟

فأجاب محجوب بالإيجاب، فقال له البك:

- أرجو أن تكون عند حسن ظنّ الأستاذ الإخشيدى بك.

ثمّ مدّ له يده إيدانًا بانتهاء المقابلة! وفدّ تعمّد أن يجعلها مقابلة رسميّة حتّى لا يلعب الغرور برأس

بؤسه. وإنّه ليمقت الإخشيدى ولكن ليس هذا بيت القصيد. لقد تصرّج وجهه بالاحمرار، وأحسّ الحرارة تسري في رأسه، فجعل يستصرخ ما جُبل عليه من جسارة وفجور. أجل ما الذي يحجّله؟.. ما الذي يؤله؟.. أيؤمن بالزواج؟. أيؤمن بالعقّة؟. أيشعر بإهانة في تصرّيح صاحبه؟. إنّ الحياة تنبّري لامتحان فلسفته، لتثبت بالتجربة المحسوسة إن كانت سفسطة وجدلاً أو عقيدة وعملاً، فيا أيّها الاضطراب زُل، ويا أيّها الغضب اسكت، وليتحدّث عن الزوجة الساقطة كما لو كان يتحدّث عن درجة حرارة الجوّ في البرازيل. فدعا استهائته وسخريته، وسأل صاحبه:

- عذراء؟!

فقال الإخشيدى مبتسمًا:

- كانت!

ولاذ بالصمت هنيهة، وكان الوجه الشاحب لا يزال متورّدًا. واستدرك الإخشيدى:

- لا تحسبنّ عظماء الرجال بمعصومين، والبك جاذ في إصلاح خطئه. فإذا شاطرته مقصده النبيل، ظفرت برضاه، وهيأت لنفسك مستقبلًا حسنًا. ومثل هذا العمل يتطلّب قلبًا كبيرًا وعقلًا واسعًا، وثقافة عميقة، أمّا إذا تناولت الأمور بمعيار العوامّ فهذا فراق بيني وبينك، ولا تتوهمنّ أنّي أجري وراءك، فالذين يرضون بما يعرض عليك لا حصر لهم، يبدّ أيّ أوثر أن تعمل معي أنت في هذا المكتب لما أعهده فيك من الذكاء والإخلاص. ثمّ إنّنا جيرة من قديم، ودرجة سادسة كنز..!

إنّه يدرك البواعث الخلفيّة التي جعلت الإخشيدى يرسل إليه ساعيه. إنّه يروم خدمة مولاه واكتساب رضاه. ولعلّه إن لم يظفر بزوج طيّب للفتاة التي اعتدى البك عليها اضطرّ أن يقدم نفسه كبشًا للتضحية. هذا واضح ومفهوم. ولكن هناك حقائق أخرى أولى بها أن تذكر. هنالك وطيمة سكرتير، وهنالك الدرجة السادسة، أفيجوز أن يضخّي بها؟ ولماذا؟.. أيشعر بما يدعونه غيرة على العرض؟.. حاشاه. أيصنّق فيما يسمّونه الشرف؟.. ثبّا له. لقد قال كلمته الأخيرة في

- لا تكثر لهذا ...

فتساءل الآخر بانزعاج:

- كيف يمكن هذا!

- أنت كثير الأسئلة، قليل الصبر. اعلم يا أستاذ

أن البك قد اكرت هذه الشقة لمدة عام!

فتبلبل فكر الشاب، وسأل بمكر:

- لو ترك لي الخيار لاخترت مسكنًا مصريًا.

وابتسم الإخشيدي ابتسامة دلّت على احتقاره لكر

صاحبه، وقال باستهانة:

- المساكن الإفرنجية ينعدم فيها التطقل، فإذا رأى

البك أن يزورك، زارك في أمن من المتطقلين.

وصوب بصره نحو المتكلم فوجده يتظاهر بالنظر في

بعض الأوراق وشعر مرة أخرى بالدم يتصاعد إلى

رأسه، وخفق قلبه بعنف، وذكر- لا يدري كيف-

زميله أحمد بدير وحفلة السيدة إكرام نيروز، وتخلل

نفسه جالسًا في الحفلة، وصاحبه الصحافي يومئ إليه

خفية من بعيد ويحدث! دأب الناس، الناس دأبًا..

أترك الناس يحطمون سعادته؟

أيها يفضل؟ أن يكون من المجودين وليقل أحمد

بدير ما يشاء، أم يكون من البائسين ولا يجد الصحافي

ما يقوله عنه... وقطب غاضبًا، ألا يزال

مرتدًا؟.. كيف نسي «طظ» العزبة؟ يا له من جبان

حقير. واشتد غضبه. ثم نظر إلى صاحبه وقال بحدة:

- ليكن..

فقال الإخشيدي:

- سأنتظرك عصر اليوم.

وفيا هو يغادر حجرة المدير وقع نظره على حجرة

تقابلها كتب على لافتتها «السكرتير الخاص» فخفق

فؤاده. ومضى إلى الخارج. وجعل يحدث نفسه: قرنان

في الرأس، يراها الجاهل عارًا، وأراها حلية نفيسة.

قرنان في الرأس لا يؤذيان. أما الجوع... سأكون أي

شيء، ولكن لن أكون أحق أبدًا. أحق من يرفض

وظيفة غضبًا لما يسمونه كرامة. أحق من يقتل نفسه في

سبيل ما يسمونه وطنًا. أحق من يضيق على نفسه

لذة لأي وهم من الأوهام التي ابتدعتها الإنسانية. كل

الشاب، وعاد إلى حجرة الإخشيدي، ورآه محجوب

مختلاً فخورًا، فامتلاً حنقًا عليه، ولكن حنقه لم يدم

طويلاً، لأنه - رغم كل شيء - كان راضيًا، وسأل

بأدب:

- متى يتم التعيين؟

- هذا على هين. ستكتب اليوم مذكرة تعيينك،

فجهز مسوغات التعيين، ويتم كل شيء إن شاء الله في

بحر أيام. أما الآن فدعنا ننجز الأمر الآخر...

(وسكت لحظات) تكرم بالحضور إلى بيتي عصر

اليوم...

فتساءل محجوب بدهشة:

- لماذا؟

فقال الآخر بهدوء:

- لتعقد زواجك.

فقال محجوب بانزعاج:

- أليس من الأفضل أن تؤجل هذا إلى ما بعد إتمام

التعيين؟

- ولله؟

فقال الشاب مبتسمًا:

- حتى أتريش...

- أستاذ محجوب خير البر عاجله، سيدفع لك بمبلغ

محترم تستعين به على الزواج حتى تقبض أول مرتب،

ولن يكلفك الزواج شيئًا، شقة العروس في انتظارك،

وما عليك إلا تجهيد ملابسك!

فاستولت الدهشة على الشاب الذي لم يكن يتصور

أن كل شيء مهيا على هذا الوجه. كانت المصيدة مجهزة

تنتظر فأرًا. ووقع الفأر. ترى أيها عسل أم سم؟

- ألا تعطيني مهلة، أسبوعًا؟

- العقد اليوم ليطمئن قلب والدي العروس، أما

الزفاف فبعد التعيين.

فتنهّد محجوب مستسلمًا، وسأله:

- وأين شقة... العريس...؟

- شارع ناجي، عارة شليخ شقة رقم ٤.

فقال الشاب بدهشة:

- هذا حي إفرنجي، إيجاره مرتفع بغير شك!

هذا حقٌ وجيل. بيدَ آلي منفعل هائج. لماذا؟! ذلك أن العقل لا يفرد بتوجيه سلوكنا. وبينما يحدث العقل حكمة، يخلف الشعور حماقة. فعلى الحكمة أن تمنح الحماقة وليكن لي أسوة حسنة في الإخشيدى، ذلك الأريب؛ ظفر بوظيفته لأنه خائن، ورقى لأنه قواد. فإلى الأمام.. إلى الأمام.

وكور قبضة ميناء ولوح بها، وحث خطاه وقد انبعث من عينيه الجاحظتين نور خاطف..

#### - ٢٤ -

وغادر حجرته عصرًا بعد أن ارتدى بدلة بعناية وأخذ حظه من التأتق والزينة! ومضى إلى طريق المنيرة إلى بيت الإخشيدى. لبث طوال يومه متفكرًا. وكان يقطع تفكيره بالتعجب. ثم يقول لنفسه وكأنه لا يصلق «سأنزّج اليوم». وكانت الورقة التي يثبت بها نقط الموضوع الخاص بحفلة جمعية الضريبات لا تزال على مكتبه! فكيف قطعت الأمور هذا الشوط البعيد؟! تفتحت أبواب الوظيفة وها هو ذاهب لأداء الثمن، الزواج؟!.. لا ينبغي أن يدع اسمًا يهوله، فما هو إلا اسم!.. وكثير مما نحسبه حقائق أو قيمًا ما هي إلا أسماء. هو عادة اجتماعية. وفي بعض البلاد يتعدد الأزواج كما تتعدد الزوجات في بلاد أخرى، وقد يباح الزنا في بلاد، وكانت الإباحية قانونًا في بعض المجتمعات. فليس هناك قانون مطلق للزواج، وليتحل بما أثير عنه من شجاعة وجسارة. هكذا مضى يحدث نفسه ثم ذكر في طريقه والدته!.. وانقبض صدره على رغبته. وفرق. وتفصّد جبينه عرقًا. تمثّلت له والدته التي تؤمن بأنه لا يخطئ أبدًا. وتمثّل له والده الريفي، بطيبته وتقواه وغيرته. إنه يتزوج دون علمهما. ولا يدري متى يعلنان، ولكن هل يحتمل أن يعلنها بالحققة، لا فلسفته ولا أعصابه بمسّطعية أن تجعله يواجه مثل هذا التحدي!.. إن ذكرى والديه شبح خيف فليطرده عن مخيلته. ما أحوجه الآن إلى صفاء الذهن وحضور البديهة ورباطة الجأش. أليست عروسه في انتظاره؟!.. يا لها من حقيقة بالخيال أشبه تُرى من عروسه؟!.. ما صورتها؟ ما أسرتها؟ ما

أخلاقها وأحوالها؟! قلبه يحدّثه بأنّها جميلة وإلا ما جذبت شخصًا كقاسم بك. ولكن لا شك كذلك في أنها فقيرة كما يدلّ اختياره زوجًا لها، والفتاة الغنية لا يعوقها عن الزواج عائق. والشرف قيد لا يغفل إلا أعناق الفقراء. ترى ماذا تخيّل له هذه الحياة الزوجية؟ كيف يكون شعوره نحو زوجته غدًا؟ وكيف يكون شعورها نحوه؟ وما هي حقيقة الرابطة التي ستربطها معًا؟! وكيف يستقبل البك إذا جاء لزيارته!.. يا لها من حياة، ويا لها من تجربة. غدًا تمتحن فلسفته وقوته. إنه يسير نحو هدفه لا يلوي على شيء. ولا يستطيع عقله الآن أن يجد حلًا لجميع المشكلات التي ينطوي عليها الغد. ولكنّه إذا واجهها فسيعرف كيف يقهرها، ويتصر عليها كما انتصر على كلّ عقبة في ماضيه. ودخله شعور بالثقة والزهو والخيلاء، فسار بقدمين ثابتتين وانتهى إلى بيت الإخشيدى، وفتح له الرجل بنفسه، ثم مضى به إلى حجرة نومه وسأله:

- أنت مستعدّ؟

فقال محجوب وهو يتبسّم ليستبقي ثقته بنفسه:

- كما ترى يا بك.

ونظر إلى الإخشيدى فلم ير ما اضطّرّه قديمًا إلى إجلاله، وشعر في أعماقه برغبة في تحدّيه والاستهانة به. قال الرجل:

- سيأتي المأذون عمّا قليل...

فابتسم محجوب وقال بغرابة:

- المأذون!

فقال الإخشيدى مبتسّمًا أيضًا:

- ستدخل دنيا يا عمّ. والآن دعني أقدمك إلى العروس والديها.

وتبع الإخشيدى خافق الفؤاد، تلوح في عينيه نظرة تطلّع وما يشبه الخجل والتردد، وكان لا يكفّ عن دعاء جراته وقحته، ويرسل ناظره لرؤية حياته ومستقبله.. وسبقه الإخشيدى إلى الدخول وهو يقول:

- هاكم عضوًا جديدًا في أسرتكم المحترمة..

ودخل وراءه، فوقعت عيناه على وجه غريب، رأى

إحسان شحاته، إحسان شحاته تركي دون غيرها، والتقت عيناها..

- ٢٥ -

كانت إحسان شحاته دون غيرها. ولكن غير الفتاة الطاهرة التي أحبها عليّ طه فتعاهدا على الحب والزواج. حدث تاريخ جديد، بدأ بنظرة عين ثم أعقبها أمور. حدث ذلك وهي عائدة عصراً من المدرسة، عند رأس شارع رشاد باشا فيما يلي شارع الجزيرة، أمام القصر المعروف بالفيلا الخضراء. ولكم مرّت بهذه الفيلا ذهاباً وإياباً منذ أعوام، ولكن في ذلك اليوم وقعت عليها عيناان جميلتان خبيرتان، مغرمتان بكلّ حسن صبيح وشعرت الفتاة بالنظرة الشاقبة فلم تحلّ وقعها من أثر. رأت رجلاً جليل الشان، إن لم يكن باشا فهو بك، أنيق المنظر، جميل المحيّا، ذا شارب صغير فاتن، يكتنفه جلال وجمال على دقة جسمه وميله إلى القصر نوعاً. ولعلّ ذلك وحده ما جعلها تلتفت إلى الوراء بعد أن ابتعدت أذرعاً، فوجدته مصوّباً نحوها عيناان أحسّت - في حياء - نفاذهما وحرارتهما! كانت الفيلا ملكاً لمدير شركة إيطاليّ، باعها إلى هذا البك منذ أشهر، وقيل يومئذ إنّ موظّف خطير، ونوّه البعض باسمه، ولكنّها نسبت ذلك جميعه. وما بلغت دارها الباهتة حتّى كادت تنسى البك ونظرفته. في عصر اليوم الثاني - وعند عودتها من المدرسة أيضاً - رآته بموقف الأمس. التهمتها العيناان الجميلتان وهي مقبلة نحوه، وتبعها بعد أن جازته. وتساءلت ترى هل وجد ذلك الوقت مصادفة كالأمس أم أنّه انتظر اليوم على عمد؟! وسارت دون أن تلتفت وراءها، وإن ظلّ ذهنها متفكّراً. وعند منتصف الطريق شعرت بدنوّ سيّارة من الطّوار الذي تمشي عليه، فعطفت رأسها إلى يسارها فرأت سيّارة تكاد توازيها، سيّارة رائعة كأنّها فيلاً متحرّكة، ولمحت وراء نافذتها عينيّ البك ترسلان إليها بنظرة غريبة، فيها ابتسام مستتر، وإعجاب ظاهر، وفجر فاضح. وبطؤت حركة السيّارة حتّى سارت تسايها، فتولّاهما

الحياء والارتباك، وحثّت خطاها، وابتعدت داخل الطّوار. ولمّا اقتربت من دار الطلبة اندفعت السيّارة بسرعة ودارت إلى طريق الجامعة، واختفت عن الأنظار. قطع الشكّ، فهذا غزل. وخالط فؤادها شعور بالسرور والخيلاء، وغلبتها خفة ودلال ورثتها عن أمّها فترنّمت بصوت خفيض بأغنية: «التاكسي على الباب مستنّفي» ثم قالت لنفسها: «ليس تاكسي، ولكنّها سيّارة ولا سيّارات عابدين!». بيّد أنّه كان تتعورّاً بريئاً أحده زهو الصبا. أمّا الرجل العظيم الجميل فلم يمك، بل تمادى في غزله يوماً بعد يوم. فلم ترّ بدأً من الاستياء والتجهم له وقالت له عيناها: «هذا سلوك لا يليق». ولكنّه لم يأبه للإنذارها. ويوماً رأت إلى جانبه في السيّارة شخصاً جديداً مثلث الوجه مستدير العينين، ثم استمرت المطاردة وعنفّت، حتّى باتت الفتاة في حيرة. كانت تحبّ عليّ طه فرأت أنّ من المنطق أن تنتهي هذه المطاردة الملّحة. ومن ناحية أخرى لم يترك البك الجميل في نفسها أثراً سيّئاً، وعلى العكس من ذلك أبهج نفسها ولوعه ونظرة عينيه الجذابتين. وقالت لنفسها مثلاً: إنّهُ على كهولته أجمل من عليّ وأروع منظراً، ولولا أنّ قلبي قال كلمته لما دريت كيف أصلّه عن صاحب السيّارة العظيم!. وجعلت تتساءل مغيظة: هل أرعوي؟ متى يغيب عن ناظري؟ متى يبعد عن سبيلي؟! ولكن هل كانت صادقة في تساؤلها؟ أو لأيّ درجة كانت صادقة؟ فلم تجد لذلك جواباً صريحاً. باتت في حيرة من أمر نفسها. وراحت تقول لنفسها كالمعتذرة.. إن كانت تسرّ لمطارده. فما ذلك إلّا إرضاء لغرورها الأنثويّ وتأثراً بمقامه الكبير. وما تدري يوماً إلّا وأبوها يقول لها بلهجة ذات معنى - وكانت راجعة من المدرسة - «الم تثوي إلى رشلك بعد؟!». واضطرب فؤادها، وتورّدت وجنتها. هل يعلم الرجل بما يحدث في شارع رشاد باشا؟! ربّاه، أدائماً هو بالمرصاد لها؟! ونظرت إليه نظرة المتسائلة المتجاهلة، فقال وكانت أمّها لحقت به: «رجل لا يقلّ مقاماً عن وزير وأعظم جاهاً وثروة، ألا ترين سيّارته؟، ألا ترين قصره؟. فإذا تريدن؟!»،

كانت إحسان شحاته دون غيرها. ولكن غير الفتاة الطاهرة التي أحبها عليّ طه فتعاهدا على الحب والزواج. حدث تاريخ جديد، بدأ بنظرة عين ثم أعقبها أمور. حدث ذلك وهي عائدة عصراً من المدرسة، عند رأس شارع رشاد باشا فيما يلي شارع الجزيرة، أمام القصر المعروف بالفيلا الخضراء. ولكم مرّت بهذه الفيلا ذهاباً وإياباً منذ أعوام، ولكن في ذلك اليوم وقعت عليها عيناان جميلتان خبيرتان، مغرمتان بكلّ حسن صبيح وشعرت الفتاة بالنظرة الشاقبة فلم تحلّ وقعها من أثر. رأت رجلاً جليل الشان، إن لم يكن باشا فهو بك، أنيق المنظر، جميل المحيّا، ذا شارب صغير فاتن، يكتنفه جلال وجمال على دقة جسمه وميله إلى القصر نوعاً. ولعلّ ذلك وحده ما جعلها تلتفت إلى الوراء بعد أن ابتعدت أذرعاً، فوجدته مصوّباً نحوها عيناان أحسّت - في حياء - نفاذهما وحرارتهما! كانت الفيلا ملكاً لمدير شركة إيطاليّ، باعها إلى هذا البك منذ أشهر، وقيل يومئذ إنّ موظّف خطير، ونوّه البعض باسمه، ولكنّها نسبت ذلك جميعه. وما بلغت دارها الباهتة حتّى كادت تنسى البك ونظرفته. في عصر اليوم الثاني - وعند عودتها من المدرسة أيضاً - رآته بموقف الأمس. التهمتها العيناان الجميلتان وهي مقبلة نحوه، وتبعها بعد أن جازته. وتساءلت ترى هل وجد ذلك الوقت مصادفة كالأمس أم أنّه انتظر اليوم على عمد؟! وسارت دون أن تلتفت وراءها، وإن ظلّ ذهنها متفكّراً. وعند منتصف الطريق شعرت بدنوّ سيّارة من الطّوار الذي تمشي عليه، فعطفت رأسها إلى يسارها فرأت سيّارة تكاد توازيها، سيّارة رائعة كأنّها فيلاً متحرّكة، ولمحت وراء نافذتها عينيّ البك ترسلان إليها بنظرة غريبة، فيها ابتسام مستتر، وإعجاب ظاهر، وفجر فاضح. وبطؤت حركة السيّارة حتّى سارت تسايها، فتولّاهما

عليّ، ولكيّ أحبّ إخوتي كذلك. ولا يجوز أن يذهب إخوتي ضحيةً لأنائي. لذلك - لا شيء آخر - ينبغي أن أذن لأبي. أنا لا أحبّ البك، ولا أحبّ الجاه، والله يعلم بذلك!». وهكذا صعدت إلى السيارة التي ظلت تطاردها بعناد وإصرار. كانت السيارة سحراً، وكان صاحبها ساحراً كذلك. كان عليّ طه عاشقاً وناقداً في آن واحد، يحبّ ولكّنه ينقد ويعلم ويرشد أيضاً، أمّا البك فرجل فائن، منظره جميل، وكلامه لذيذ، ودعاباته جنون وفنون، كانت عينه بأعين المؤمنين أشبه، وكان إذا نظر في عينيها الجميلتين وعاطاها الحديث شعرت بتخدير عامّ واستسلام حالم. وجزى الله صبر المعلم شحاته تركي خيراً، فجاءته يوماً سيارة شيكورييل وأفرغت حملتها من الثياب الفاخرة! وحركت أم إحسان رأسها على طريقة العوالم وغتت: «حود من هنا وتعال عندنا، ولاح السرور في عيني إحسان وهي تقلّبها في ألوان الحرير لتختار ما يروقها، وهكذا بدأ تاريخ جديد. ثمّ كانت نزهة الهرم بعد ذلك بأسابيع. انطلقت السيارة بالبك الجليل، إلى يمينه فلقه قمر تبعث الجنون، والحق أنّ إحسان بعد أن تريتشت وأخذت زيتنها وصار شيكورييل ومدام جريكور الحياطة في خدمتها أصبحت، على حدّ قول البك، جنوناً رسمياً. في ذلك اليوم بيّت أمر. تعطلت السيارة في الطريق فتركها الراكبان. وقال البك إنّ له فيلاً على مقربة من المكان واقترح أن يستريح فيها حتّى يتمّ إصلاح السيارة. ومضيا إلى فيلاً جميلة تحيط بها حديقة غناء. ثمّ قال البك إنّها وقد شرفت بيته الخلويّ فينبغي أن يحتفل بزيارتها الميمونة. وأمر خادما فهبّت لها مائدة من التفاح والشمبانيا. وقشّر لها تفاحة وقدم لها كأساً من الشمبانيا وهو يقول لها إنّها شراب غير مسكر ولذيذ. كان الوقت أصيلاً والحياة في أطيب أحوالها. كانت النافذة تشرف على خضرة يانعة يتيه فيها البصر، والسماء موزدة الوجنات بحمرة الشفق، والحدأة تولى مودعة ضاربة بجناحها، ووسائد الكرسيّ الكبير تطلقها وكأنّها تضمّها بحنو، وقدماه منغرسين في

فسأته الفتاة بحدة: «ماذا يريد هو؟» فقال المعلم شحاته تركي بصوت غليظ أخافها على غير عادته: «يريد بك خيراً، ويريد بنا خيراً، يريد الله أن يرفعك إلى طبقة السادة وأن يزقّق إخوتك الجياح.. كلّمني مدير مكتبه الذي أعرفه منذ عهد تلمذته. سيتزوج منك. نعم. لم لا؟. أنت جميلة، وأنا رجل من صلب كريم. لعن الله الزمن. فحتّام تلوي بوزك؟. افتحي عينيّك. أبوك يستغيث بك. وأمك تستغيث بك. وإخوتك يستصرخونك!». واستفاض الحديث. واشتركت فيه أمّها. في تلك الليلة لم يغمض لها جفن حتّى مطلع الفجر. قضت الليلة تتقلّب على جنبها وتفكر. وعند عصر اليوم الثاني، في الموعد المعهود، اقتربت السيارة منها وفتح الباب. وتردّدت قليلاً ثمّ صعدت إليها.

كيف وقع هذا؟! ألم تكن تحبّ عليّ طه؟ بلى كانت. ولكّنه ليس الحبّ الذي يعمي ويصمّ ليس الحبّ الذي يصمد للتجارب الشديدة والمغريات العنيفة. كانت تحبّ الجاه كذلك ونكره الفقر. كانت تتنّ تحت حمل أسرتها الثقيل. كانت الفيلاً منظرًا بديعًا، والسيارة كنزًا نفيسًا، والبك إلهًا من آلهة الذهب والسلطان. لقد قاومت أوّل مرّة الشابّ الحقوقيّ لأنّها كانت أوّل مرّة. ثمّ راح والداه لا يسكتان عن الإلحاح، وقد جعلاه منذ التجربة الأولى في حلّ من كلّ استهتار، بل جعلاه عصمتها بيدها، ولولا عليّ لهوت وانتهدت من زمن بعيد. بيّد أنّها لم تُردّ فيما بينها وبين نفسها أن تعترف بضعفها. تجاذبتها في ليلتها المسهّدة عهود كثيرة وعواطف متباينة. تردّدت بين البك وعليّ طه. بين زوج اليوم وزوج الغد البعيد، بين الراحة والتعب، بين حياة الدعة والاطمئنان وحياة الكدّ والكفاح، بين عيش رغيد لها ولاسرتها وحياة مغالبة لفقر لا يغلب وضنك لا يزول. ثمّ اختارت دامعة العينين، خافقة الفؤاد. وأوهمت نفسها أنّها تضحّي بسعادتها في سبيل الآخرين، وأنّ الليل استقبلها فتاة معذبة، وطلع عليها شهيدة من الشهداء. قالت لنفسها: «إنّي أحبّ

خافضة العينين، بوجه كالجمان. كانت تريد أن تسدل على الماضي ستارًا كثيفًا، وأن تفرّ منه إلى الأبد، فرمى بها الحظّ بين يدي واحد من صميم ذاك الماضي، وكأنّه - الحظّ - لم يشعّ بها تنكيلاً! وأراد الإخشيدي أن يعالج توتّر الجوّ بالحديث، ولكنّ محبوب لم يُلْقِ إليه بالأ. وكيف له بأن يفعل ثانية عن العجيبة المائلة أمامه؟! هذه إحسان شحاته بلحمها ودمها!. أهذا سرّ مأساة عليّ طه؟! يا عجبًا، كيف غوت؟! كيف استولى البك عليها؟! كانت ثقة عليّ بها عمياء!.. وهكذا تقع إحسان؟!.. أما هو فلا يعرف الثقة العمياء أبدًا، ومع ذلك فلم يذهب به سوء الظنّ يومًا إلى التنبؤ بما وقع!.. انتهت إحسان التي أحبّها عليّ طه، وانتهى ذاك الحبّ القديم، وها هي إحسان أخرى جديدة تمدّ إليه يدًا ليرتبطا بميثاق الزواج... إحسان التي طالما تمنّاها معذبًا محسورًا!. أفليست الحقيقة أغرب من الخيال؟ وتنبّه إلى صوت الإخشيدي يقول له معاتبًا:

- أما تستفيق؟

فنظر إليه بعينين ذاهلتين وتغمّ قائلاً:

- إني أعجب لهذه المصادفة.

فسأله الإخشيدي مبتسمًا:

- كيف ترى هذه المصادفة؟

فقال محبوب بلا تردّد:

- مصادفة سعيدة بلا جدال!

وجعل الإخشيدي يتكلّم عن المصادفة متفلسفًا، وقالت أمّ إحسان كلمة أو كلمتين، وظنّ عمّ شحاته أنّه أحاط بالموضوع حين قال: إنّ المصادفة من صنع الله ويأمره سبحانه. ولكن بالرغم من هذا كلّ ظلّ العروسان غارقين في أفكارهما، وغلب الوجوم والارتباك على جوّ الجلسة. ثمّ رنّ الجرس، فنهض الإخشيدي ظافرًا بالخلاص من التوتّر الشائع حوله، ومضى إلى الخارج وهو يقول:

- لعلّه المأذون يا سادة..

وخفتت القلوب جميعًا، ثمّ دخل الحجره شيخ يتبعه الإخشيدي، وسلّم على الحاضرين، ثمّ دعا الله

سجّادة وثيرة. وبعثت الشمبانيا الدفء في العقل، والعقل إذا أحسّ دفئًا تهيّأت له قوّة سحرية يحوّل بها عالم المحسوس إلى عالم أطياف روحية، خالٍ من الخوف والهمّ والأحزان. وتساعد همس محبوب أشهى من نفثات الأماني ونقرت على معصمها أصابع مسحورة، تدغدغ حواسّها وتحمل دمعها رسائل الاستفزاز، ونفذت أنفاس حارّة متردّدة كشكّات الإبر من جيب فستانها إلى ثغرة صدرها وما بين ثدييها. وجعلت تدافع بساعدين غذولتين، حتّى يثست، فضمتّ بهما.

\*\*\*

ونظقت عينها بالفرع والارتباك والحياء، فقال لها البك بلهجة مطمئنة:

- لا تحسي أنّي غدرت بك. إنّ مستقبلك أمانة بين يديّ والله على ما أقول شهيد... .

- ٢٦ -

التقت عيناها - محبوب وإحسان - في صمت وذهول. وذكر كلاهما صاحبه فتولّته الدهشة والانزعاج واضطرب أيّما اضطراب، ذكرها محبوب فكاد يفقد رشاده. وذكرته إحسان فتولّاهما الدهول، وذكرت عليّ طه، ودار الطلبة، والماضي الذي تودّ أن تفرّ منه فرارًا. ونظر محبوب فيما حوله فرأى عمّ شحاته تركي في معطف جديد، وسيّدة بدينة أدرك أنّها زوجته. وفطن الإخشيدي إلى ارتباك الجماعة، فقال مبتسمًا:

- لعلّكم لا تحتاجون إلى تعارف..

فقال عمّ شحاته:

- محبوب أفندي جارنا منذ أربع سنوات..

ولم يكن الإخشيدي يجهل هذا - وهو ما جعله يحرص على ألاّ يعرف أحد الطرفين بالآخر قبل مفاجأة اللقاء - قال:

- مصادفة جميلة، والناس تقول: «اللي تعرفه أحسن

من اللي ما تعرفوش» سلّم واجلس يا أستاذ محبوب.

وأفاق الشابّ من ذهوله، فاقترّب من آله الجدد وسلّم عليهم واحدًا واحدًا، ومدّت له إحسان يدها،

يوصيها بزوجها: فلماذا لا يوجد أناس على شاكلته؟ وقد وجد بالفعل واحد، وها هو يجلس إلى جانبها كزوجها، وإنها لتذكره، وتذكر كيف صَدَّتْ هواه حين كانت تملك الصَّدَّ عن هواه. وخالطها شعور نحوه بالاحتقار، ولكنها لم تتماذَّ فيه، وقالت لنفسها متمتعة: ألسْتُ مثله أو أضلَّ سيلاً؟! كلانا باع نفسه للجاه والمال.

أجل، صارا زوجين..

## - ٢٧ -

وقعت التجربة إذاً وتلقَّتها فلسفته بساعدين شديتين، إلا أنَّ نفسه لم تُخَلَّ من قلق. يَبْدُ أنَّ هذا القلق لم يقعه عن العمل بل على العكس جعله أشدَّ رغبة فيه، فلم يَتَسَّرْ غرضه لحظة واحدة، ولم يُضِغْ ثانية بلا نشاط، وكأنَّما وجد في العمل ملهة عن وساوسه. راح يعدُّ مسوغات تعيينه، وكانت أعجبا شأنًا بأنَّه «حسن السير والسلوك»، ووقَّع عليها الإخشيدى وزميل له ممَّا جعل محبوب يقول ساخراً: «من يشهد للعروس؟».

وتسلَّم عشرين جنبها ليستعين بها على إصلاح شأنه فأخذ الأوراق ذاهلاً لأنَّه لم يكن رأى شيئاً كهذا من قبل. وجعل يعث بها باهتمام، ويتفرَّس فيها بغرابة وإنكار. هذا ثمن القرنين اللذين يحلِّي بها رأسه، كلُّ قرن بعشرة جنهات! ورأى على إحدى الورقات صورة الفلاح، فجرت على فمه ابتسامة خفيفة، وذكر أباه طريح الفراش، المهتد بالجوع، وتساءل لماذا لم يَصُوروا أحد الباشوات؟.. أو العلم التركي؟. وقال لنفسه ساخراً: إنَّ هذه الصورة شبيهة بإمضائه على عقد الزواج. ومضى بجيبه المنتفخ إلى الحياط وابتاع قماساً لبدلتين، فأدرك الرجل أنَّ الطالب صار موظفاً، ولم يكن فضل له سوى بدلة واحدة في مدى أربع سنوات الدراسة. ثمَّ ذهب إلى الموسكي، واشترى بيجامتين، وقمصاناً، وفانلات وجوارب، وحذاء وطربوشاً، كما ينبغي لعروس! وحزم ثيابه الجديدة في

أن يجعل محضره مباركاً. وجلس الشيخ إلى نضد، شَمَّر عن ساعديه، وأخذ في عمله البسيط الخطير. وجرت يده المغطاة بالشعر الغزير على القرطاس، وتابعه عمَّ شحاته والإخشيدى، أمَّا محبوب فقطب قليلاً وأخذ يصره ليركِّز انتباهه ويطرده أفكاره، وخفضت إحسان عينيها الساجيتين وقد امتقع لونها. وجاءت الدقيقة الفاصلة، فالتفت المأذون إلى محبوب عبد الدائم وقال له: «كرَّر ما أقوله: الآن قبلت زواج السَّتِّ إحسان كريمة السيِّد شحاته تركي، البكر البالغ الرشيد إلخ..». وكرَّر محبوب قوله بنبرات هادئة، وصوت واضح، لم يعتوره اضطراب حتَّى نطقه كلمة «البكر» يَبْدُ أنَّها وقعت من مسمعه موقعاً غريباً أثار سخريته الكامنة، وحقدته الراسخ. وذكر إجابة الإخشيدى حين سأله عن العروس: عذراء؟! فأجاب الفاجر باستهانة: كانت؟!.. أجل كانت، فلماذا لا يكتب المأذون: التي كانت البكر؟!.. تزوير في أوراق رسمية!.. زواجه تزوير، حياته تزوير، الدنيا كلُّها تزوير..

ومضى المأذون يلقي الخطبة: الحمد لله الذي أحلَّ النكاح وحرَّم السفاح. واستمرَّ في محفوظاته واستمرَّ محبوب في تأملاته. وقال لنفسه: ولكنَّ البك حرَّم النكاح وأحلَّ السفاح!، وجاراه هو على اعتقاده فوقَّع على عقد نكاح في الواقع هو عقد سفاح! وصارا زوجين أمام الله والناس!.. واسترق الشاب إلى عروسه نظرة فرأى عينيها محمَّرتين تنذران بالدموع، فقال لنفسه ساخراً: أوَّل الغيث قطر. وتبدلت التهاني، ودارت أكواب الشرابات. كان زواجاً غريباً، شعر كلُّ من شارك فيه بأنَّه يؤدِّي واجباً ثقيلاً يؤدِّي الفراغ منه في أقصر وقت: ارتاح الوالدان دون أن يستحقَّها فرح أو سرور، وغرق العروسان في وجوم وتفكَّر، وغلبهما شعور بالقلق والخلج. قد عجبت إحسان في أوَّل الأمر، حين علمت أنه يراد تزويجها، وتساءلت حيرى: أين الذي يرضى بعروس مثلها؟ ثمَّ ذكرت والدها المحترم فلم تستبعد شيئاً؟ والدها الذي تعامى عن سقوطها، والذي وصَّاهَا بعثيقها ولم



له بما قد يصله من خطابات باسمه، وكان يفكر وقت ذاك في والديه. ولعلها كانت أول مرة يذكرهما بلا سخط أو تذمر أو غضب، وقد بات في نيته أن يرسل لوالده جنيتين كل شهر، بل يزيدهما إلى ثلاثة إن أمكن.

أما غداً، فصباحاً يذهب إلى الوزارة، ومساء يأخذ عروسه إلى عشها الجديد.

### - ٢٨ -

واستيقظ مبكراً، ومضى إلى الوزارة، وانتظر الإخشيدى في حجرته، وجاء المدير عند تمام التاسعة، فتصافحا بمودة ظاهرة، وشربا القهوة معاً، وقال له الإخشيدى وهو يهين مكتبه:

- لا شيء يصدق! أتعلم أن أكثرية طلبات الإعفاء من المصروفات مقدّمة من ذوي اليسار؟

ولم يكن محجوب - في ذلك الوقت على الأقل - ليهتم بأمثال هذه الأمور، ولكنه لم يَزْ بدأ من التظاهر بالدهشة، وقال:

- شيء لا يصدق حقاً!.. وكيف يسوّغون التماساتهم؟

وقال الإخشيدى:

- لا حاجة ماسة إلى التسويف، حسب أحدهم أن يقهقه ضاحكاً، وأن يقول لقاسم بك: «ألا يكفيننا هبوط أسعار القطن؟» ثم مزاح فمداعبة فموافقة!

ثم جعل كعادته يتهم من أحوال البلد وتصرفات كبار الموظفين وصغارهم، فلم يسلم من لسانه سوى قاسم بك، ولعل ذلك إلى حين.. والتفت إلى محجوب قائلاً:

- لا تنس أن عملك يحتاج إلى لباقة وحسن تصرف للأمور. (ثم غلبه طبعه في التهوين من شأن الغير وأعمالهم) فقال: هو سهل في ذاته، بل هو لعب. لا يحتاج بطبيعة الحال إلى فلسفة أو علم، ولكن إلى لباقة..

فقال محجوب باهتمام:

حقيقة كبيرة وقد تورّد وجهه سروراً وحياة. وألقى على حجرته الصغيرة نظرة شامته، وذكر ليالي فبراير البشعة، ودكان الفول بميدان الخيزة، تباً لهاتيك الأيام السود؟. لن تعود أبداً مهما كان الثمن!.. ينبغي أن يتورّد هذا الإهاب الشاحب، وأن يمتلئ ما بين هذا الجلد وهذا العظم، وأن يصفو هذا الذكاء الجبار، وأن يهلك شبح الجوع المقيت. إن النعمة لكي تعيش جعلت رقبتها كالثعبان طويلاً، والأسد لكي يعيش جعل قبضته كالقنبلة فتكاً، والحرياء لكي تعيش اصطنعت كل لون. وهذا ما فعله هو على اختلاف الوسائل! أجل، ولكن طموحه لا نهائياً، وطمعه لا حد له، فقد غرّم ثمنًا باهظاً ويجب أن يكون الجزاء كالعمل. وتفكر ملياً، ثم وصّى نفسه قائلاً: الحذر؟ ليفعل ما يشاء، ولكن لا يجوز أن يقول إلا ما يشاء الناس. وقد فطن إلى هذه الحقيقة منذ البدء، فإذا امتدح الفضيلة بكلمة أو كلمتين لم يُعَدَم من يسبغ عليه لقب الفاضل، أما إذا صارحها العداء فسيقلب عليه الناس جميعاً وعلى رأسهم الملوثون. وليكن له أسوة في الإخشيدى الذي يرى في كل حفلة خيرية!.. بل لماذا لا يفكر جدّياً في الاشتراك في بعض الجمعيات الخيرية؟! ثم ذكر زواجه! وعاد يتساءل كيف هان عليّ طه على إحسان؟ كيف زلت قدمها؟! وما عسى أن يفعل عليّ إذا علم غداً أن إحسان صارت زوجته؟ سيسقط في يده، ويتشتت ذهنه حيرة، ولا يصدق أنه - محجوب - كان سبب شقائه، فإذا لم يجد بداً من التسليم بهذه الحقيقة الغريبة اتهمه حاقداً ناثراً بكلّ خسة ودناءة وغدر ذميم. ليكن. فليتهم كيف شاء، وليحقد عليه ما وسعه الحقد. بيد أنه ذكر دينه الذي لم يقضه، الخمسين قرشاً، فصدق عزمه على ردّها إليه في يومه، وكره أن يواجهه بنفسه لشعوره بذنبه، فأرسلها بالبريد. وارتاح لذلك آتما ارتياح، وشعر بأنه قطع آخر خط يربطه بعليّ طه، وأنه لا يجوز له بعد الآن أن يعبا بما يتوهمه الآخر أو بما يحسه أو بما قد يفعله. ودعا البواب وكلفه ببيع اثاث حجرته، ووعد بالتنازل عن ثلث ثمنه نظير أن يحتفظ

الرجال الأقوياء، إنهم لا يعرفون المستحيل. أم تكون إحسان خدعة كبرى جازت على المصلح الاجتماعي الأحمق، وما هي إلا... لا بد أن يعرف الحقيقة. وغادرا حجرة البك، وسار به الإخشيدى إلى حجرة «السكرتير الخاص» وقد قام ببابها ساع طاعن في السن، وكانت حجرة مستطيلة اصطفت على جانبيها المقاعد الجلدية وتصدرها مكتب كبير. قال الإخشيدى:

- أستودعك الله، سأبلغ المستخدمين أنك تسلمت عملك اليوم.

وكان الإخشيدى يقول لنفسه: أما كان الأحكم أن يلحق الشاب بوظيفة بعيدة عن المكتب؟ فليس مما يرتاح إليه أن يوجد في نفس المكتب شخص له هذه العلاقة الوثيقة بالبك! ولكن ماذا كان بيده أن يفعل؟ كانت الحالة حرجية، والبك مضطرباً خائفاً، والوظيفة خالية، ولو لم يعثر على محبوب لربما كان هو الزوج! ولعل الأيام تثبت أن الشاب أهل لصنيعه! وترك محبوب وحده في الحجرة، استخف به سرور عجيب كاد يرقص له. وجلس على الكرسي المتحرك ضاحك الثغر، ووضع يده على سمانة التليفون، ولم يكن يستعمل التليفون قط! وجعل يحرك الكرسي ذات اليمين وذات الشمال. موظف خطير بغير شك. وغداً يتل بطنه باللحوم والفواكه. تباً للفلاسفة الذين يقولون: إن السعادة في البساطة، أليست أمراض البطنة بخير من عذاب الجوع؟ واليوم والغد، أما الماضي فسحقاً له..

\* \* \*

ولبت ساعة وحيداً حتى ضاق بوحده، ورغب أن يفعل شيئاً أيّاً كان. فضغط على زر الجرس، وفتح الباب وجاء الساعي العجوز وقال بأدب: «أفندم يا سعادة البك». وتوّرّد وجهه! ووقعت الرتبة الجديدة من أذنيه موقفاً موسيقياً مطرباً، وإن تظاهر بعدم المبالاة، ثم قال باقتضاب: «قهوة» وما كاد الباب يغلق مرة أخرى حتى رن جرس التليفون، فرنت أوتار قلبه،

- أرجو أن أنتفع بإرشادك..

- يسرني أن أجد مساعدًا مخلصاً لي، ولذلك احتفظت لك بهذه الوظيفة على كثرة المتقاتلين عليها، ولذلك أيضاً ينبغي أن نكون يدًا واحدة لأن أعداءنا كثيرون. لا يغرتك ما تلقى من بشاشة. فالعادة أن الموظفين يقبلون على صاحب السلطان ما أقبلت الدنيا عليه، فإذا أقل نجمه فأكرمهم من يدبر عنه دون أن ينشب فيه أظفاره: فلنكن يدًا واحدة.

وتحدث الإخشيدى طويلاً على غير عادته. وفكر محجوب طويلاً فيما يدعو إليه الآخر من أن يكونا يدًا واحدة، فقال مخاطباً صاحبه في سره: وقعت في شر منك، وسافك الحظ إلى مساعد من طيتك، يفهم الإخلاص كما تفهمه، ولكل شيء آفة من جنسه، وليست منزلي عند البك دون منزلتك، فإذا كنت مهرجه أو قواده فانا زوج عشيقته.

وجاء الساعي الضخم وأعلن حضور قاسم بك، فنهض الإخشيدى واصطحب محجوب إلى حجرتة، وصافحها البك بسرور، وهتا الشاب على تسلمه العمل، وقال له برقة:

- أرجو لك التوفيق، والمستقبل الباهر..

ومضى الإخشيدى يعرض عليه بعض الأوراق، أما محجوب فوقف انتباهه عند «المستقبل الباهر». يقولون: «يا بحث من كان النقيب خاله» والنقيب أقرب إليه من خاله! واختلس من البك نظرات، ليملا عينيه من الرجل الذي صاد إحسان، وأفقدتها رشدها. نظر إليه بغرابة كأنما ينقب عن سره السحري، أيوجد في محاسنه؟ أم جاهه؟ أم في مكان اكتشفته إحسان لحسن حفظها أم لسوء حفظها! أعجب هؤلاء الرجال ذوي السلطان إنهم يأتون الكبائر باستهانة، ويتجاهلون ما يسميه السذج ورطة أو مشكلة، ويخلقون الحلّ السير للأمر في غمضة عين، وكان هو الحلّ السير!.. كيف غوت إحسان؟ سيظل متحيراً حتى يعرف الحقيقة. ليس عليّ طه دون البك جمالاً، وهو يفوقه بشبابه. فكيف غوت؟.. ولو كانت تزوجته لقال آثرته لاله، ولكنها.. رباه.. تباً هؤلاء

يكن يراهم إلّا من بعيد، فسَلِّم عليه، واستأذن له، ودعاه إلى مقابلة البك. وعلى رغم تظاهره بالهدوء كان يكتُم بعنف انفعال السرور والفرح. ومضى نهار العمل في حركة دائبة ونشاط متّصل وسرور لا مزيد عليه. وبهذا النشاط غير المتقطع نسي أفكاره ووساوسه، فارتاح باطنه وهو لا يدري، وغادر الوزارة معافى كأنما ينهض من نوم عميق.

وكان غير الفتى الذي جاء الصبح ساعياً، فقد عرف بكوات وباشوات، وثقف فنّ التليفون. ودعي «محبوب بك» عشرات المرّات، فكان أعظم ثقة وخيلاء، بل أوشكت أن تتغيّر مشيته ونظرة عينيه. وذكر- في نشوة المجد المباغت- قريبه أحمد بك حمديس، فودّ لو يأتي يوماً لمقابلة قاسم بك ليجيء حجرته مستأذناً، فأبى دهشة تتولاه! وكيف يتصافحان تصافح الأنداد ثم يقصّ ما رأى على أسرته فتسمع تحية، وتعلم أنها أغلقت باب سيّارتها دون فتى ذي نباهة ومجد!.. ولكم يودّ أن تراه تحية مع زوجته الحسنة! فزوجه تفوقها حسناً وفتنة، وإنه ليودّ أن يتفرّس في وجهها وهي تنظر شزراً إلى زوجته وقد أدركت مدى حسنها الفتان!

صبراً صبراً، إنّ الحياة بدأت تبتسم...

- ٢٩ -

وفي ذلك اليوم نفسه ذهب محبوب عبد الدائم إلى الإخشيدى - كوعد سابق - ومضى به الرجل إلى الشقة ليسلمها له، وحمل محبوب معه حقيبة ثيابه وكتبه القلائل وأعطاه الإخشيدى مفتاح الشقة وهو يقول:

- الشقة - وما تحتوي - لكما إلّا صواناً صغيراً في حجرة النوم.

أدرك محبوب أنّ الصوان خاصّ بقاسم بك فهمي، وتورّد وجهه، وشعر محبوب برغبة قويّة في أن يركله بما أوتي من قوّة! وقال الإخشيدى:

- يحسن أن يجدد العقد باسمك.

- أهو الآن باسم قاسم بك؟

ورفع السّاعة بقلق ووضعها على أذنه، ثم قال بصوت هَيَّاب:

- أفندم.

- سكرتير قاسم بك فهمي؟

- نعم يا فندم.

- البك موجود؟

- نعم يا فندم.

- دعني أكلمه... قل له محمّد رشاد.

وظنّ أنّه ينبغي أن يذهب إلى حجرة البك ليخبره، فأعاد السّاعة إلى موضعها الأوّل - فأقفل السّكة وهو لا يدري - ومضى إلى حجرة البك وقال باحترام:

- محمّد رشاد.. بك، يريد أن يكلم سعادتك.

- خلّه يدخل..

- إنّهُ يتكلّم في التليفون.

فسأله البك بدهشة:

- ولماذا لم تحوّل السّكة إليّ؟

فلم يجر جواباً ولاح في وجهه الارتباك على غير عادته، فضحك البك وقال:

- حوّل السّكة عليّ، استعمل الموصل في مثل هذه الأحوال.

وغادر الحجرة مرتبكاً، وقد أدرك أنّه أخطأ. كيف

تحوّل السّكة؟. وأبى شيء هذا الموصل؟ وعاد إلى مكتبه ورفع السّاعة إلى أذنه فسمع نقيقاً متّصلاً فقال:

- يا سعادة البك...

فلم يجه أحد مع معاودة الدّعاء، ولم يسمع إلّا النقيق المستمرّ، فاشتدّ ارتبائه، وخاف أن يكون قد ارتكب خطأ جديداً، ولبت ممتعضاً. ما كان يعلم أنّ للتليفون ثقافة خاصّة ينبغي أن يعلمها، ودعا الساعي على مضمض ليلقنه سرّ التليفون. ودوّن بعض الملاحظات على ورقة كي لا ينسى ما يجب ذكره في المستقبل. ثمّ دبّت الحياة في الحجرة فتوارد عليها أناس مختلفون من طبقات متباينة يستأذنون في مقابلة قاسم بك فهمي، فاستقبلهم دون ارتباك، وعاونته جسارته الطبيعيّة على تمالك أعصابه، والظهور بمظهر الرزانة والثبات. واستقبل أحد الباشوات المعروفين، الذين لم

فقال الإخشيدى ببرود:

- باسمي أنا... .

فأحسَّ محبوب ارتياحًا وسأله:

- وكم إيجار الشقة؟

- عشرة جنيهات!

فابتسم محبوب قائلاً:

- ما يعادل ماهيتي تقريبًا... .

- سيؤذيها البك، كما سيؤذي عنك أجرة

الطاهية... . وغير ذلك... .

ودارًا معًا في الشقة دورة استكشافية، وكانت على صغرها آية في جمال البناء ونفاسة الأثاث. فتولته الدهشة، وأدرك أنه يرى كثيرًا من قطع الأثاث لأول مرة، ولم يدر لها أساء. كانت الشقة مكونة من ثلاث حجرات وصالة، فعلى يمين الداخل تقع حجرة الاستقبال، وهي تفتح على دهليز يؤدي إلى صالة معدة للجلوس وبها جهاز الراديو، وعلى جانبها الأيمن بابان، أحدهما لحجرة النوم، والآخر لحجرة السفرة، ولحجرتي النوم والسفرة شرفة طويلة واحدة تطل على شارع ناجي. وذكر في موقفه بسرعة بيت القناطر، ودار الطلبة، وحجرة السطح بعمارة شارع جركرس. أدرك في موقفه ذلك أن الحقائق قد تفوق الأحلام سحرًا وجمالًا. والواقع أن مادة الأحلام مستمدة في العادة من محسوسات الحالم ومدركااته، وما هو ذا يرى أدوات ترف لأول مرة في حياته، لم تكن من محسوساته ولا من مدركااته! الفرق بين هذا البيت وبيت القناطر هو الفرق بين إحسان وجامعة الأعقاب، كلتاها امرأة، أجل، ولكن شتان بين هذه وتلك. ونسي في تلك اللحظة ما كان يقوله لنفسه دائمًا من أنه لا يوجد ثمة فرق بين امرأة وامرأة، وأن إحسان وتحية وجامعة الأعقاب كلهن سواء!.. .

وقال له الإخشيدى وهو يودعه:

- غدا مساء تجد عروسك في انتظارك!

وذهب الرجل والشاب يرمقه شزراً.

وعند أصيل اليوم الثاني انطلق إلى الجيزة، وذكر في الحال عليّ طه. ترى في أي موقع يقيم؟ كان يعلم أنه

في الجيزة ولكنّه جهل عنوانه. فهل ما يزال الشاب مقبلاً على عهده واهتماماته بالفتاة؟ أيدعوه هواه إلى ربوعها وهل غما إليه خبر زواجها؟ أيكن أن يلتقي به وهي متأنطة ذراعاً؟. ساوره قلق، وإن كان لا يبالي شيئاً، بل ودّ في تلك اللحظة لو يلقاه عليّ ويعلم كلّ شيء. ومضى إلى بيت عمّ شحاته تركي، فوجد الأسرة في انتظاره. ما عدا إحسان. فأيقن أنّ تعليقات الإخشيدى سبقته إلى آله الكرام. وكان الجميع - عمّ شحاته وزوجه والأبناء الستة الصغار - يرفلون في الثياب الجديدة الناطقة بكرم قاسم بك وحده! . وسلمّ وسلمّوا بحرارة، فقبله عمّ شحاته في جبينه، وقبل يد حماته، وداعب الصغار وقبل أصغرهم في خديّه. وفي جلسته أنعم نظره في الوجه تتطلع إليه، فأقرّ لتوه بأن بيت عروسه حافل بالحسن. أبوها حسن القسّات، وأمّها حسناء، وإخوتها لائق مشورة. وقال لنفسه إنّ الجمال سلاح نافع حقاً في يد الفقير. واستفاض الحديث، وساهم فيه الشاب كما ينبغي وإن ودّ لو يغادر البيت في أقرب وقت، وتكلّم عمّ شحاته عن دار الطلبة، وعن الطالب محبوب عبد الدائم المهذب المجتهد، وكيف أنه لم يكن من عملائه لأنه لا يدخن، وكيف أنه - عمّ شحاته - يحترم الطلبة الذين باستقامتهم، وقال إنه لم يحبي حفلاً لعرس ابنته لأنّ الزوج الطيّب هو الفرح الحقيقي، وإنه لم يدع أحداً من أقربائه وآله - وهم ريفيون - حتّى لا يجشمهم مشقة السفر. وغلب على ظنّ محبوب أنّ الرجل يكذب كما يكذب المولعون بالفخر الزائف، ولكنّه ذكر والديه بامتناع، وقال إنه طرّب نأ زواجه إلى والديه، ولولا أنّ أباه - وهو مزارع ذو شأن - بالقناطر وهو مريض، لشهد يومه وباركه بنفسه. وتحدّثت أمّ إحسان عن أبنائها، وعن إحسان خاصّة، وأدرك محبوب من حديث حماته، من لهجتها، وحرّكات رقبته وحاجبيها وعينيها أنّها امرأة ذات دلال وأنوثة ودعابة ومكر - وكان يجهل تاريخها بشارع محمد عليّ - وقد سأله عن وظيفته، واقترحت عليه أن تقرأ كفه، وتنبأت له بدزينة

العروسين، وقد نسيا في شدة الزغاريد نفسيهما فابتسما في بشاشة وحياء، وظلاً ينظران إلى الواقفات بالباب حتى جاوزت السيارة دار الطلبة إلى شارع رشاد باشا.

- ٣٠ -

وأراد أن يتكلم، ولكنه لم يدبر ماذا يقول، وكان كلما طال صمته طال حصره، فعدل عن رغبته وهو كظيم. وتفحصها بعناية. رآها تنظر إلى الطريق من النافذة، مولية إياه مؤخر رأسها. ولم يشك في أن أعينها كثيرة في الطريق ستفقد عليه هذا الحسن البديع الذي يستأثر به. وسرّ لذلك أيما سرور. ليت آل حمديس يرونه في جلسته هذه، وخصوصاً تحية حمديس!.. وخطر له في تلك اللحظة - وقد اطمأن إلى أن تحية تكتمت فضيحته - أن يمضي يوماً إلى زيارة قريبه العظيم ليقدم له عروسه كما جرت العادة. وداعب هذا الخاطر فؤاده حتى أسكره. وكانت لا تزال عاطفة رأسها إلى الخارج، فألقى بنظره الجائع إلى جسمها اللدن، فجرى على الجيد فالمنكب فاللثدي الناهد ثم الخاصرة الخميصة وأخيراً الفخذ اللقاء. وتنهّد من أعماق صدره، وقال لنفسه: ما أشدّ جوعه، واضطرام دمه. ووقف التاكسي أمام عمارة شليخ، ونزل ونزلت مستندة إلى يده، وسارا إلى المصعد، ودخلا الشقة يتبعهما البواب بالحقيبة. ودلّما على حجرة النوم فتقدّمت إليها وردّت الباب! ووقف متردداً: ثم تراجع إلى مقعد في الصالة وارتقى عليه. لم يرتفع أول وهلة لإغلاق الباب، وذكر باب السيارة في الهرم! ولكنه سرعان ما أقام العذر بالارتباك الذي يحدثه الموقف بيد أنه لم ينتج من مرارة طبعه الساخر فقال لنفسه: يا له من حياء هو بالأبكار الساذجات أولى! ثم قطب وتساءل: ترى ماذا تخفي له حياته الجديدة؟ أسعادة أم شقاء؟! إنه لا يطمح أن تنظر إليه كزوج بالمعنى المفهوم لأنه هو نفسه لا يستطيع أن ينظر إليها هذه النظرة وحتم أن تراه في قرارة نفسها قوّاداً، كما يراها في قرارة نفسه عامرة. فهل يمكن أن يسعد قوّاد عامرة معاً؟؟ هذه هي مسألته دون زيادة ولا نقصان. إنه لا

صالحة ومركز حكومي ممتاز، وكان محبوب يتكلم ويستمع، ويسترق النظر إلى باب الحجرة الموارب، وعيناه تتساءلان «ختام الانتظار؟». وأخيراً جاءت إحسان. جاءت في ثوب العرس الأبيض الشفاف، وقد عقصت شعرها وجعلته على هيئة عمامة، فتجلّى سواده اللامع وأكسب بشرتها صفاء، وجاء في صحبتها نسوة أربع، - قيل إنهن قريبات أمها - ولكنه لم يلق بالاً إلى أحد، جذب حسنها عينيه فأطاح باستناره المعهود، حتى تمشت شرارة الكهرباء في صدره، وقرض على أسنانه، والتقت عيناهما وهما يسلمان، فامتلا بالسحر الجاري في لحظيهما، وشعر بأنه ثمل يترنح، وعاودته ذكريات عذابه القديم، ومآسي شهوته المضطربة، فلم يصدق - على استنائه وجسارته - أنها صارت ملكاً له، أو حتى ملكاً له على المشاع كما يقولون. وذكر الشريك، وكيف سبقه، فتألم، وعاود النظر إلى الجسد البض الذي يشق عنه فستان العرس الأبيض وما يزداد إلا تالماً. وكان عمّ شحاته قد هيأ للحاضرين عشاء فاخراً كلّفه ثمنًا غالياً، فدعاهم إلى المائدة، ونهضوا تسبقهم ضجة الصبيان. وكانت أم إحسان على مرحها مستاءة في أعماقها، وكانت تودّ من كلّ قلبها أن تحتفل بيوم إحسان السعيد، وأن تجعل منه يوم سرور للحَيّ جميعاً، ولكن الإخشيد صارحها بأن محبوب أعجز من أن يحقق لها رغبته، وكانت تعلم أن زوجها أعجز من زوج كريمتها، فطوت نفسها على رغبته الحائقة: وقد أكلوا مريثاً وعاودوا إلى جلستهم هائنين، ولم يكن يوجد ثمة داعٍ إلى بقاء العروسين، فنهضا يودعان الحاضرين. وجيء بتاكسي حملت إليه ثياب العروس في حقيبة كبيرة، وأخذ محبوب إحسان من يدها وسار بها وسط نصف دائرة من المودعين، وهبط السلم على مهل، وكان أم إحسان قد نفذ صبرها فأطلقت زغرودة رنت بين الحيطان رنيناً نفاذاً، خفق له فؤاد الفتى، وارتجّ جنفاه. وتلفت النسوة تلك الزغرودة كما يتلقى الجنود علامة الهجوم، فأطلقن الزغاريد، تتجاوب أصداؤها، ويشدّ صفيها المتقطع يهتز له صدور الحسان. واحتوى التاكسي

للزواج، فالزواج يكون مقدّمة للحب، والمعاشرة كغيلة يمزج النفوس وتوحيد الآمال... أليس كذلك؟؟

فتحرّكت شفّتها كأنما لتتكلم، ثمّ جمدنا ارتباكًا، وارتسمت عليهما شبه ابتسامة. وازداد حماسًا فقال:

- ستدركين معنى قولي هذا، وستعملين على تحقيقه، لنعملنّ معًا على تحقيقه، وسنرى..

وقال لنفسه: إنّ النساء لا يعشن بلا حبّ - حقيقة تعلّمها من القراءة - فهي لا شكّ تحبّ، ولكن من المحبوب المجدود؟.. حينه يومًا عليّ طه، ثمّ ظنّه قاسم بك فهمي، وقد يكون المال دون غيره، فعلى هذه الحقيقة تتوقّف سعادته. وقد يكون صادقًا في قوله لها «ولعلّك تجدين وحشة؟» فالحقيقة أنّها كانت تجد هذه الوحشة، وقد أدرك ذلك من أوّل نظرة، بل أدرك أنّه لو أعتقها هذه الليلة لكان ذلك أدنى إلى التهذيب والرقة، ولكنّه نبذ هذا الخاطر، موقنًا أنّ الحيوان الهائج في باطنه لا يعرف التسوية ولا التأجيل؛ ولا يقدر على انتظار مهمّا كان الثمن. ثمّ كفّ عن التفكير وقد عاودته جسارته الطبيعيّة:

- هلمّي ندخل..

وأمسك بمعصمها برفق ونهض، فنهضت طائعة، ثمّ أحاط خصرها بذراعه، ودخلا معًا..

### - ٣١ -

وفتح عينيه في الصباح الباكر فوقعنا على مرآة الصوان الفاخر، فرأى صورته وإلى جانبه يرقد الكنز النفيس. وارتفق ساعديه، ثمّ ثبت عينيه وقد غمرته ذكريات الليل التي لم تُخج آثارها من نفسه وجسده وكانت لا تزال مستغرقة في النوم مبعثرة الخصلات على الوسادة الحريريّة، ما أجمل صفاء هذه البشرة، ما أعظم سواد هذا الشعر، واهتزّ صدره طربًا فهو يشفّيته الممتلئين على خدّهما الأسيل..

ومضى الأسبوع الأوّل من هذه الحياة الجديدة، وقد أقبل ينهل من الشراب العذب المبذول بشراهة

يروم من حياته الزوجيّة معنّى اجتماعيًا، ولا ذرّة صالحه، ولا احترامًا متبادلًا، كلّ ما يريد رغبة متبادلة، ميل يعادل ميله، شهوة بشهوة، وحسبه هذا من زواج هو وسيلة لا غاية، إنّهُ يروم حبًا بلا غيره، يرد ماءها الحين بعد الحين، دون قلق أو فكر أو همّ. وتوكّله أوّلًا وآخرًا على نفسه الجسور التي حطمت القيود ومزّقت الأغلال. كان يفكر ونظره عالق بالباب المغلق. أينتظر حتّى يفتح؟ وإذا ظلّ مغلقًا، فهل يلبث مكانه حتّى الصباح؟ ونهض قائمًا، ودنا من الباب ونقره بخفّة، فلم يجه صوت ولا حركة، فأدار الأكرة ودفعه. وجد الظلام يوشك أن يبتلع الحجرة إلّا نورًا خافتًا من ناحية الشرفة، فأدرك أنّها في الشرفة، تستجمّ، فمضى إليها في خطّى رقيقة، وراها جالسة في ناحية مسندة ذراعها إلى حافّتها ملقية بنظرها إلى الطريق. ولم تُبدِ حركة لدخوله، فوقف ينعم فيها النظر على ضوء مصباح الشرفة، ثمّ قال:

- فعلت خيرًا بدخولك الشرفة، فهذه الليلة من ليالي يوليّه الحارّة؟

فحوّلت رأسها إليه، وقالت بعد تردّد:

- أجل هذه ليلة حارّة..

سرّ لمبادلتها إيّاه الحديث، فأقّ بمقعد، وجلس عليه على كنب منها، وألقى عليها نظرة، فراعته صورتها، وحرّقه تكوين جسمها البديع المشتهى، وذكر أنّه سيتمتع بهذا الجسد الفاتن هذه الليلة، بل هذه الساعة، فجئن جنونه، وأسكرته هذه الحقيقة الماثلة بين يديه، كأنّه يكتشفها لأول مرّة. ولم تعد تحتل عرامة نظرت فأنطرت، فمدّ يده إلى ذقنها، ورفع رأسها إليه، وهو يقول بصوت متهدّج:

- دعيني أطلع وجهك الجميل..

والتفت عيناها لحظة، فامتلا حماسًا وقال بحرارة:

- تألّفت حياتنا بمعجزة. وما كنت أحسب قبل اليوم

أنّ المصادفة تلعب هذا الدور الخطير في حياة الإنسان،

فما أحقّها أن تسخر من منطقنا ومن سنن الوجود

جميعًا، ولعلّك تجدين وحشة، ولكنك ستغلّين

بذكائك وثقافتك. وكما أنّ الحبّ يكون مقدّمة

عنايتها، فلتستمتع باللذة، ولتستأثر بالقوة، ولتتفق عن سعة، ولتغمر أسرتها بكل خير عميم، وبذلك وحده لا تذهب التضحية عبثاً، وزوجها أولى الجميع بتفكيرها، لقد همت بأن تحتقره أكثر من مرة، ولكن لماذا؟؟ لأنه؟. ولكنها هي أيضاً.؟؟ فلا تعبها ولا يعيرها؟. بل هنالك وجه آخر يقرب بينهما، فهو فيما يبدو ضحية مثلها للعوز والطمع. وكلاهما ضحية لشر واحد فإأجدرهما بالتصافي والتعاون. كان كلاهما يعالج همومه بالحكمة، ويحاول ما استطاع أن ينفي عن نفسه نوازع الشقاء. واطردت الحياة في لذة يبيتها الشراب والرغبة في السعادة. وكان محبوب أقدر منها على التغلب على أمثال هذه الهموم لاستهانته المعروفة، أما هي فكانت حديثة عهد بالشذوذ، فربما تولتها الكتابة إذا خلعت إلى نفسها، وربما وجدت حنيئاً إلى الآمال المشرقة الأولى في الحب والحياة الشريفة، مثلها مثل النازح إلى بلد غريب إذا احتواه بيته الجديد في أول ليليه، ولكنها كانت تتغلب على مرضها - والحزن مرض - بتلك الواقعية التي اشتهرت بها النساء، وتلك الرغبة الصادقة في طيب الحياة. ولهذا السبب سألها محبوب يوماً - من أيام الأسبوع الأول - وهو يقرصها في خدها:

- أنت سعيدة؟

- أجابته من فورها:

- نعم، والحمد لله..

- فقال لها الشاب بسرور:

- الحياة أمامنا منبسطة، والفرص دانية، فلنثب بين الأزهار، ولنحني الثمار..

- فقالت مبتسمة عن دهرها النضيد:

- ثب.. ونجني.

- لا تصدقي الحكم الجامدة التي يعرفون بها السعادة. السعادة ليست في الحياة، وجميع ظروف الحياة لديها سواء، هي حقاً في الإرادة فمن يردها إرادة تأته طوعاً أو كرهاً..

فحدجته بنظرة متفجرة بعينيهما السوداوين البديعتين، فقال بحذر وتواضع:

جنونية، وسرعان ما أدرك منذ اللحظة الأولى أن لذته - لذتها - لن تتم إلا بشيء جديد ضروري جداً كي ينسى هو ما ينبغي أن ينساه، وكي تنسى هي ما يحسن أن تنساه، فيصفو الجو، ويستمتع بحياتها أجمل استمتاع. وجرب بالفعل ذلك الشيء الضروري الذي سمع عنه كثيراً: الشراب! وقليل منه كفاهما، ولكنه نفعهما نفعاً سحرياً، بفضله وجدها تذوب رقة، وتنفث سحراً، وسكن بين ذراعيها يرشف من طيبات رزقه. كانت الحياة في ظاهرها ثملة باللذة مغمورة بالشهوة أما في الأعماق فاضطربت تيارات خفية. فلم يفتأ محبوب يتساءل عن عليّ طه وقاسم فهمي وقلب إحسان. وربما ثار شكه، وراح يؤنب نفسه ويعتفها، ويقول إنه الحق ولا شيء غيره، الذي يوسوس له فيوقظه من لذته ليصلي نار الفكر. وحاول مرات أن يعوذ بسخريته، وجعل يوصي نفسه قائلاً: «اقتل الشك، امحُ الكرامة من قاموسك، احذر الغيرة، أفرغ شهوتك، توثب للطموح، واذكر أن ما أنت فيه هو الامتحان الأول والأخير لفلسفتك، فقل الآن طظ، قلها بلسانك وبقلبك وبيادتك..».

ولم تحل إحسان كذلك من خواطر تضطرب في أعماقها. عرفت أخيراً المصير واستقر بها المستقر. أسدل الستار على أحلام الحياة الأولى، وخاب الرجاء فيما طمعت فيه من أن تصير زوجاً للبك العظيم. ووجدت نفسها ربة هذا البيت العجيب الذي يتنازعه صاحبان. لم تعد تقول لا. فيما خوف الغريق من البلبل؟؟ ورأت من الحكمة أن تنظر فيما بين يديها. إن القلب الذي أيقظه عليّ طه اندثر وذهب. والأمن الذي لوّح لها به قاسم فهمي خاب وانطفأ. فلم يبق لها إلا تلك الغريزة الحيوانية التي أطلقها والدها من عقالها منذ البدء. ربما حنت إلى عليّ طه أو حقدت على قاسم بك أو عافت نفسها بحب عبد الدائم، ولكنها لم تسمح لإحدى هذه المشاعر بالتبادي والتضخم، ومالت بمزاجها وبالذوافع التي تحيط بها إلى الاستسلام التام. ما من فائدة ترجى من التحسر على ماضٍ لن يعود، وأولى بها أن تولي الحاضر والمستقبل

- إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون..!

فقالت بهدوء:

- لا داعي لهذا.. (وهنا ذكرت شطر بيت للمتنبّي)

فقالت: كل مكان ينبت العزّ طيّب..

فأخذ يدها في يده كأنه يعاهدها، تريث قليلاً، ثم قال وقد غير لهجته:

- وثمة شيء آخر، لا ينبغي أن نعيش في عزلة.

لنفتح الحياة العريضة ولنأخذ من مظاهرها بأوفى نصيب.

كان يريد أن يتمتّع بحياته الاجتماعية على أكمل وجه، وأن يقدّس مظاهرها الكاذبة التي يكبرها الناس جميعاً، واشتدّت إليها حاجته ليخفي بها ما في حياته من شذوذ. ولذلك فكّر جدّاً أن يذهب وعروسه إلى آل حمديس، ليبرئ جرحاً قديماً، وليشبع شهوته إلى الظهور، ولكن ألا توجد ثمة عقبة حقيقية؟؟

### - ٣٢ -

ولم يتنن عن رغبته الجريئة، وأراد أن يجعل منها أولى خطاه في غزو المجتمع الراقي. ورأى عن حكمة أن يمهد للزيارة بمحادثة حمديس بك بالتليفون، وسيعلم من إجابته إن كانت حكاية الهرم قد بلغت أم أنّ الفتاة الأربية أخففتها عنهم. وحادثه، ووجد منه خطاباً رقيقاً، فأخبره بزواجه، وكاشفه برغبته في تقديم زوجه إليه فرحب بها البك أيّما ترحيب. وهرع محبوب إلى زوجه وقال لها بسرور وخيلاء:

- دعيني أقدمك إلى أقربائي العظام..

وعند عصر اليوم العاشر من حياته في البيت الجديد أخذاً أهبتها للزيارة الخطيرة. فارتدت إحسان ثوباً جميلاً من ثيابها الجديدة، وتجلّت صورتها الفاتنة، وتبيّنا سحرها باجتماع الشعر الأسود الفاحم والبشرة العاجية الصافية والشفيتين الورديتين وبدا الشاب في منظر حسن قد أخذ يستعيد عافيته ورونقه. واستقلّا تاكسي إلى الزمالك. لم تكن إحسان تخلو من قلق ووحشة، أمّا محبوب فكان يبتسم ابتسامة هادئة مطمئنة كأنه ذاهب إلى بيته الذي شبّ وترعرع فيه. وقد عبرا

الحديقة إلى سلامك الاستقبال، وهما على تلك الحال، فما راعهما إلّا منظر الأسرة الكريمة في انتظارهما عند مدخل السلامك. وقفوا الأربعة صفّاً: أحمد بك حمديس، حرمة، تحية، فاضل. وسرّ محبوب لنجاح الاستقبال، وقد اطمأنّ إلى نجاحه من قبل لما هو معهود في النساء كافة من الميل إلى تفحص بنات جنسهنّ ونقدتهنّ، وتبادلوا التحية والسلام، ولم يتحفّ عن عينية الجاحظتين الأثر الذي أحدثته زوجه في المستقبلين، فأحسّ ارتياحاً وغبطة. وجلسوا، وما زالوا يتبادلون ألفاظ الترحيب والمجاملة، وجعلت عيناه القلقتان تدوران في جميع الأنحاء وتفرّس في الوجوه. ووجد نفسه وهو لا يدري يقارن بين زوجه الحسناء وتحية حمديس. إنّ لتحية جمالها، ولها إلى جمالها سمّت أناقة ورفعة، ولكن هيهات أن تبلغ مدى هذا الحسن الرائع. إنّ زوجه أجمل من تحية، بل أجمل من أم تحية في صباها، وأعينهم لا تنكر هذا ولا تمّاري فيه. وطرب لذلك أيّما طرب وقال لنفسه بشهامة: «لقد هزمت في المقبرة يوم الرحلة وتمّ لي الانتقام اليوم». وأراد أن يعرفهم بزوجه كما ينبغي، فقال بجسارته المعهودة وهو يشير إلى فتاته:

- إحسان كريمة شحاته بك تركي من كبار تجّار

الدخان. ألا تعرفه يا سعادة البك؟

وتورّد وجه إحسان، وأطرقت لتخفي ارتباكها. أمّا أحمد بك حمديس فزوى ما بين حاجبيه باحثاً في ذاكرته، ثمّ قال بلهجة الاعتذار:

- لا أذكر للأسف (والثفت إلى إحسان). لنا عظيم

الشرف!

فقال الشاب ضاحكاً وهو يشير إلى زوجه مرّة

أخرى:

- زميلة قديمة، عرفتها في الجامعة..

فابتسم البك وابتسمت زوجه، وابتسمت إحسان أيضاً وقد هالها اندفاع محبوب، ولم تُدر أين يقف. وكان فاضل ينظر إلى العروس بفثور، أمّا تحية فلم تحوّل عنها عينين ثابنتين، وقد فطنّت ببداهنها إلى البواعث الحقيقية التي أغرت الشاب بهذه الزيارة،



- وكيف القناطر؟  
 - جميلة كعهلك بها..  
 - يا عجبا، لم نعاودها منذ فارقتها..  
 وسأله أحمد بك مبتسما:  
 - هل تقضيان شهر العسل في القاهرة؟  
 فسرَّ محجوب بالسؤال لأنه فتح له أبوابا للحديث، فقال:  
 - عملي كسكرتير لقاسم بك فهمي لا يدع لي فراغا في الوقت الحاضر...!  
 وهنا قالت تحية لتشرح للشاب أسباب وجودهم في القاهرة في يولييه إذا كانت غابت عنه:  
 - والذي يقوم عادة بإجازته في أغسطس فנסافر جميعا إلى أوروبا..! ثم غيّرت لهجتها وسألته باهتمام:  
 - ألم تأخذ إحسان هانم إلى حفريات الجامعة؟  
 واضطرب فؤاده، وجرى بصره يحذر على وجوه الجالسين، فوجدهم مبتسمين لا تدلّ وجوههم على شيء مما أثاره الخوف في نفسه من سوء الظنّ فتتهدأ ارتياحا وقال وقد غمّلك نفسه:  
 - كلاً...  
 ثم قال بخبث:  
 - سنذهب بلا شكّ عندما نبتاع سيارة قريبا..  
 فقالت بخبث أيضا:  
 - المشي في الرحلات الدّ...  
 وسأله حمديس بك عن قاسم بك فهمي، وقال له إنه كان زميله في البعثة، ووعدته أن يوصيه به خيرا.  
 وضايقته هذه الصلة التي لم يتوقعها، ماذا يحدث لو وقف حمديس بك على سرّ زواجه؟؟ وشعر بيد ثلجية تقبض على قلبه. ولما كانت الزيارة للتعارف فأحبّ ألا تطول أكثر ممّا طالت، ونفض مستأذنا في الانصراف..

\* \* \*

وفي طريق العودة قالت له إحسان وهي تنفخ:  
 - أعوذ بالله منك..  
 ففقهه ضاحكا، وقال بسخرية:  
 - كوني جسورة. الكذب كلام كالصدق سواء بسواء إلا أنّه ذو فوائد.

فازدادت له احتقارا وتحّى في نظراتها إلى العروس الاستهانة والسخرية. وراحت حرم حمديس بك تتحدّث عن فتيات الجامعة، فقالت:  
 - إنّ الجامعة تمهيد للوظيفة، وإنّها لذلك اختارت لتحية سبيلا آخر، (وسألت العروس):  
 - ألم تخامرك فكرة التوظّف وأنت تلتحقين بالجامعة؟  
 وكانت إحسان برمة بالحديث، مشفقة من مغبّة الكذب، ولكنّها لم تَرّ بدا من الإجابة فقالت:  
 - بلى يا هانم، ولكن كلّ شيء قسمة ونصيب كما يقولون.

فسألته تحية بمكر:

- ألم تأسفي لتغيّر مجرى حياتك؟  
 وابتمسوا جميعا، وضحك محجوب كأنما راقته دعابته وقال:

- سامعني الله. كانت إحسان طالبة بارعة، وطالما أثارت إعجاب السيو ليشو أستاذ الفلسفة بذكائها، وقد اعترض طويلا على انقطاعها عن المدرسة..  
 ونظر إلى تحية ليرى ما ترك من أثر في عينيها، فوجدها تنظر إليه باحتقار وسخرية، فلم يغضب، بل سرّ سرورا خفيا. ودخل عند ذاك خادم نوبي بالمربّطات. فشرّبوا هنيئا وسادت فترة سكون كالاستراحة.

وطرقت حرم حمديس بك الحديث مرّة أخرى، فنادت الذكريات البعيدة، وذكرت الغلام الصغير الذي يطالعها الآن زوجا رشيدا ورب أسرة ناشئة، وتكلّمت عن الزمن وسرعته العجيبة، ثمّ سألت الشاب قائلة:

كيف حال والديك؟

- الحمد لله.

أجاب محجوب بسرعة، وسرعان ما انقبض صدره، نسألته السيّدة مرّة أخرى:

- ألم يحضرا زفافك؟

- لم يمكنهما ذلك لمرض والدي..

فدعت السيّدة للرجل بالشفاء واستدركت سائلة أيضا:

- وإذا انكشفنا؟؟

فقال بضجر:

- وإذا.. وإذا.. وإذا.. إذا هذه حرف خيبة  
إذا دخل على جملة ذهب بفائدتها وثبط همة الفاعل، لا  
تقولي وإذا..

فضحكت إحسان وقالت:

- حرم البك قريبك سيّدة لطيفة!

فاختلس إليها نظرة مأكرة وقال بخبث وشيطة:

- ونحيّة؟.. يا لها من فتاة كاملة!

فصمتت لا تدري ما تقول. ثم غمغمت:

- أجل..

وكان يلحظها بخبث. وسرّ سرورًا كبيرًا. وعاد إلى  
الشقة يخامرهم شعور الظافر المتصر. وظلّ ذاك المساء  
مغنيطًا حتى ناداه جرس التليفون، وما وضع السّاعة  
على أذنه حتى تجهم وجهه وفتّر حماسه، كأنما ألقي  
على لهيب قلبه الفرح الرافض ماء بارد. كان المتكلم  
سالم الإخشيدى، وقد أخبره أنّ البك سيزور الشقة  
مساء الغد..

### - ٣٣ -

ما لجرح يميت إيلام.

جعل يردّد هذا الشعر قبيل مساء اليوم الثاني وهو  
يتأهب لمغادرة البيت ثمّ تساءل متى يموت جرحه إذا؟!  
كان عظيم الثقة بنفسه وبفلسفته، ولكنّه شعر في  
اضطرابه وألمه بأنّ الفلسفة إذا خرجت من الدماغ إلى  
دنيا الحقائق قد يحدث لها ما يحدث للقذيفة إذا  
انطلقت من المدفع: تنفجر وتتأثر. حاول أن يستعيد  
رباطة جأشه وبروده. حاول أن يقول «ظظ» ولكنّه  
أخفق، أو أخفق مؤقتًا على حدّ تعبيره. وجعل يتساءل  
تُرى هل علمت؟. ثمّ نظر إلى التليفون فرجّح أن  
يكون طيرٌ إليها النّبأ السعيد! فالتليفون هو القوّاد الثاني  
في هذه الشقة؟ تُرى ما حقيقة شعورها؟! أمسرورة  
هي بذاك اللقاء المرتقب؟؟.. أنتتظر على لهفة أم بغير  
مبالاة؟؟.. أعظم هذا الرأس الجميل كما تحمّل جوزة

الهند ليرى ما فيه؟؟ وتلوّت حيّة الغيرة في قلبه نافثة  
سمّها القتال، وغادر البيت. وسار في شارع ناجي على  
غير هدّى، وقصارى ما يطمح إليه أن يمكس زمام  
عقله، أو أن يثوب إلى رشده. ووجد نفسه أمام حانة  
«لاروز» فبال إليها بلا تردّد، كأنّها هي هدفه  
المطلوب، وكان طلابّ الجعة يتقاطرون عليها فرارًا  
من جوّ يوليو القانظ، متهافنين على الجزء التابع لها من  
الطوار، ولكنّه كره الازدحام، وانتبذ مكانًا داخلها،  
فلم يلقّ حوله إلّا شابًا يجلس إلى مائدة غير بعيدة  
منفردًا بكأسه، وقبل فوات خمس دقائق على جلوسه  
كان يرفع الكأس إلى شفثيه الممتلئين، ويفرغها حتى  
الثمالة، ثمّ صفّق يطلب أخرى. شرب بشراهة لا عهد  
له بها، وإن كان يوجد في حانة لأوّل مرّة في حياته.  
وما انفكّ عقله متفكرًا مشغولًا لا يغيب به عَمّا حوله.  
ولم يكن غضبه لاضطرابه بأقلّ من اضطراب نفسه،  
كبر عليه أن يأسى على معنّى تافه من المعاني التي ثار  
عليها وكفر بها. أغضبه حقًا لعرضه؟؟ وما  
عرضه؟؟. ألم يتحرّر من هاتيك الأغلال جميعًا؟؟ كلًّا  
إنّه لا يغضب لعرضه. ولا عرضه بالشّيء الذي  
يستحقّ الغضب، ولكنّه يعاني الغيرة. وتفكّر مليًا، ثمّ  
عاد يحادث نفسه: هل الغيرة طبيعيّة أو تقليد اجتماعي  
كالعرض؟؟. بل صفة طبيعيّة بلا مرأى. إنّ الحيوان  
يعاني لأواءها كالإنسان سواء بسواء، فنحن نغار ما  
دمنا نحبّ، وما دمنا نرى أنفسنا جديرين بأن نحبّ  
كذلك. هكذا حدّث نفسه ولكنّه لم يقتنع كلّ  
الاقتناع، ولا ارتاح الارتياح كلّ، بقي في النفس  
شيء. ألا ترى أنّ هذه الغيرة توشك أن تفسد عليه  
جميع ما أفاد من فلسفته وتحرّره؟؟. إنّه ينتقد ويحلّل  
ويحطّم، ولكن وراء ذلك تتخايل لعينيه أشباح خفيفة:  
سيّارة تقف أمام عمارة شليختر، ينزل منها البك  
الأنيق، المصعد، الجرس، باب الشقة يفتح، مساء  
الخير أيّما العروس.. جاء زوجك الطبيعي، ثمّ..  
كيف تلقاه؟. في نفس الحجرّة وعلى نفس  
الفرش... وصفّق بشلّة يطلب كأسًا جديدة ولاحت  
منه عند ذاك التفاتة إلى الشاب المنفرد بكأسه.

- وكيفما أحببت... !  
ولنّه الاقتراح، فطرح التفكير طهرًا، وراح يقول  
وقد احترت عيناه الجاحظتان من الشراب:  
- أنا في الحجرة والكبش في الحقل..  
- كتب محمدّ الدرس..  
- اعمل لديناك كائنك تموت غدا، واعمل لآخرتك  
كائنك تعيش أبدًا.  
- ولكنّك لن تعيش أبدًا، وربّما لم تعيش حتّى مطلع  
الصباح، لأنّك تفرط في الشراب..  
- إذا نطلب كائنًا أخرى..  
- غلام يدلّ امتلاء الحانات بالواردين؟  
- يدلّ على أنّ دستور ١٩٢٣ أفضل من دستور  
١٩٣٠.  
- اتحسب أنّ دستور ١٩٢٣ يعود؟  
- أين هو الآن؟  
- في ضريح سعد مع جثث الفراعنة.  
- فليحفظوه هنالك حتّى نستحقّه.  
- هل أنت وفدي؟  
- كلاً... أنا حنبلي!  
- وأي فرق بين الاثنين؟  
- الحنبليّ ينقض وضوءه خيال الكلب.  
- والوفدي؟  
- ينقض وضوءه خيال الظلّ.  
- إذا أنت حرّ دستوريّ!  
- أنا؟.. أنا في الحقل..  
- أنت كبش إذا ذو قرنين!  
واضطرب محبوب، وبهت، وكأنّه يستيقظ من  
هذيانه على مطرقة، وحجّ صاحبه بنظرة ملتبهة، لكن  
وجده يتسم منشرج الصدر، متأهبًا لتلقّي كلّ ما  
يقدفه به، فحمل نفسه على السرور حملًا، وسأل  
الشابّ الغريب:

- خبّرني. أحقّ أنّ القوّاد في نعيم؟  
وتضاحك الشابّ، ورأى محبوب يرمي في الموقد  
حطبًا، فرغب أن يعاونه وقال:  
- حالك خير دليل!

بكثوسه - فوجده يحدّق فيه بدهشة وسرور، فقد راقبه  
الشابّ منذ حضوره، وراح ينظر إلى اضطرابه وحركاته  
غير الإرادية، ويتساءل عمّا يقلقه، ولكن في سرور  
ولنّه شأن المنتشي الثمل. ولما التقت عيناهما ابتسم  
فابتسم له محبوب والسكرارى سريعو التعارف إلى  
بعض، وإن كانت مودّتهم سطحيّة، فتبدلت التحيّة،  
وبدا الشابّ الغريب وكأنّه يلوذ بصاحبه من وحدته  
التي جعلها السكر أظف من أن تحتمل، وعاذ به  
محبوب من أفكاره وآلامه فدعاه إلى مائدته، وسرعان  
ما جلسا وجهاً لوجه، شايّين ثملين لا يقينان لشيء  
وزنًا. وتعارفا. ثمّ قال الشابّ الغريب:

- رأيته أخذًا في حديث عنيف مع نفسه،  
فوددت لو حملت عنك بعض هذا العناء..  
فضحك محبوب ضحكة عالية جدًّا دلّت على  
انفلات الزمام من يده، وسأله:

- أحقّ كنت أحدث نفسي؟  
- أجل. وكنت محتدًا.. بل حانقًا..  
وكان لا بدّ أن يتكلّم، لأنّه دعا بتكلّم، ولأنّه أراد  
أن يروّج عن نفسه، ولم يجد في ذلك من بأس، فحالته  
وحالة صاحبه آذنتا بحديث أهوج ماجن لا يعرف  
الحدود. سأله:

- ومتى يحدث الإنسان نفسه؟  
- في أحوال نادرة..  
- اضرب مثلاً.  
- في السرور الفائض والحزن البالغ أو في حالات لا  
هي إلى السرور الفائض ولا الحزن البالغ!

- وماذا يبقى من الحالات غير ما ذكرت؟  
- الحالات التي يحدث الإنسان فيها غيره..  
فقال محبوب متحيّرًا وهو يقبض على كأسه:  
- لا أكاد أفهم شيئًا..  
- ولا أنا!. في مجلس الأنس، كما في مجلس  
النّواب، ليس بالمهمّ أن تفهم ما يقال، ولكن المهمّ أن  
تتكلّم.

- كيفما اتّفق؟؟

فضحك محبوب ضحكة عالية ارتج لها المكان وقال:

- حدثني بما لك من خبرة عن أنواع القيادة.  
- قيادة عمياء لا يدري بها صحتها، من النوع الذي ابتلي به زوج عشيقتي...  
- واحد.  
- قيادة يعلم بها الزوج ويتجاهلها إيثارًا للسلامة، وهي موضة منتشرة في بعض الأوساط.  
- اثنان.  
- قيادة يختارها الزوج للذة أو لفائدة. هل أنت متزوج؟  
فعاوده الضحك، وأغرق فيه ليخفي توتر أعصابه، ثم قال بحقد خفي:

- يوجد نوع رابع يجمع ميزات الثلاثة معًا وهو وقف عليك: كنت أول الأمر تجهل ما أنت مبتلى به، ثم تكشف لك فتجاهلته إيثارًا للسلامة، ثم تعودته فاستلذذته.

وأغرقا في الضحك معًا. ثم قال الشاب الغريب بلهجة ظاهرها الجد وباطنها المزاح:

- الواقع أن القيادة من أعقد مشكلات الزواج في العصر الحديث.

- الحقيقة أن الزواج من أعقد مشكلات القيادة... صدقت، ألا ترى كيف يضرب الشبان عن الزواج؟؟ ولكنهم يشتركون في الأسر من منازلهم...  
- الانتساب ألد بلا تكاليف...

وهذا طويلاً، بلا ملل ولا تعب حتى أوشك الليل أن يتصف...

\*\*\*

وطاب له أن يخط في الشوارع على غير هدى قبل أن يعود إلى البيت. وغمغم كالمترنم: «أنا في الحجرة والكبش في الحقل» ثم راح يقول: «أنا في الحانة والبك في الحجرة» ولكنه كان في منتهى النشوة والسرور، فارتفعت حرارة غبطته لدرجة تدوب فيها جميع الأحزان. وبدا له وكأن شيئاً في الدنيا لا يساوي مثقال ذرة من الكآبة، وآتته قدرة يمكنه أن يحقق بها

فلسفته إذا شاء بلا تردد ولا تفكير ولا انفعال. وقد أدرك في تلك اللحظة أن فلسفته والخمر كليهما من جوهر واحد! وعاد إلى البيت، ودخل الحجرة، كان كل شيء هادئاً ساكناً، وهي مستغرقة في نوم عميق. ووقف في وسط الحجرة يحرق في وجهها بعينين محمّرتين ذابلتين ولبث واقفاً حتى خال الأرض تدور به. وخطر له خاطر فسر به دون أن يتدبره، ونفذه بأسرع مما خطر له. دنا من الفراش، ثم ارغى عليها بجسمه كله كأنه يلعب حركة سويدية. واستيقظت إحسان فزعة، وفرت من فيها صرخة، وحلقت في وجهه بعينين مرتعتين، ثم دفعته بعيداً عنها وقد أخذت تدرك حقيقة الحال. دفعته بغيط وحرق، وصاحت به:

- أنت سكران... كدت تقتلني... ابعد...

فجعل ينظر إليها بذهول مائلاً عينيه من وجهها الساخط الغاضب، ثم ابتسم، ابتسم ابتسامة لا معنى لها، أو ابتسم سروراً بما أحدث فيها من ألم وغيط. وزاد حقها وتضاعف، وقالت بحدة:

- كسرت أضلعي بجنونك، فابعد عني... أنت سكران، لا تنم في هذه الحجرة...

وظل الابتسام مرتسماً على شفاهه، ثم فرت من فيه ضحكة خفيفة، ولما تضاعف غضبها أغرق في الضحك حتى زلزل كيانه...

- ٣٤ -

في صباح اليوم الثاني استيقظ في ساعة متأخرة، ونهض متعباً مصدع الرأس، وكان نام ليلته على الشيزلنج، فنظر في الفراش بعينين خائفتين، ولكنه وجده خالياً، وتذكر ليلة الأمس، فهالته الذكرى، ثم هز منكبته استهانة ومضى خارجاً، والتقى بها في الصالة فطالعت بوجهه مقطباً فارتبك حيناً، وابتسم غاضباً من بصره، وسألها بلهجة لطيفة:

- لا زلت غاضبة؟

فقال بحدة:

- السكر يجعل منك وحشاً مجنوناً، لا تسكر أبداً،

بقتهم الذي تخصصوا فيه، ولم يرتح محبوب إلى التهور من شأن الوظائف الإدارية، وقال لصاحبه: إنها تنفرد بمجد ليس لمهنة التعليم منه نصيب. وكان مأمون يفهم المجد على نحو آخر، ولكنها أدليا بآرائهما في يسر وتسامح وجرّ الحديث بعض الشؤون الخاصة فاعترف مأمون أنه جاء إلى القاهرة لأسباب تتعلق بزواجه. وعندئذ أخبره محبوب بأنه تزوّج! وهتاه الشاب مرة أخرى، ودعا له بالتوفيق، ثم قال:

- قابلت صديقنا عليّ طه أمس ومكثت معه مدة طويلة...

وخفق قلب محبوب لهذا الانتقال المفاجئ، وساوره القلق، ترى هل أتى الحديث إلى عليّ طه كيفما اتفق؟ أم علم عليّ بزواجه وحذث به مأمون؟ لم يكن من الممكن أن يظنّ زواجه سرّاً، وكان حتّى أن يعلم به عليّ طه يوماً ما، ولكن كيف انتهى إليه؟ وكيف فسّره؟ ونظر إلى مأمون، فالتقت عيناهما، وقرأ في العينين السوداوين الصافيتين الارتباك والريب، فلم يعد يخالجه الشكّ، أنّ عيني مأمون مرآة صافية لا تعرف المكر ولا الخداع، وهما تسألانه بلسان فصيح: «أحقاً ما يقال؟ هل خنت صديقك حقاً؟». ولم يجد فائدة من حمل صديقه على البدء بالسؤال، فقال متسائلاً:

- وكيف حاله؟

فقال مأمون برزانة:

- على ما يرام..

وساد الصمت برهة، وأطرق محبوب. لقد صدق حدسه ما في ذلك شكّ. ولكن لأيّ مدّي عرفت الحقيقة؟ إنّ الذين يعرفون الحقيقة - آل إحسان والبل والإخشيدي - لا يمكن أن يوحوا بها لمخلوق، لأنّ البوح بها ضارّ بهم. ولو عرف مأمون الحقيقة لأبى أن يزوره، فليس من طبعه أن يتظاهر باحترام شخص يراه أهلاً لاحتقاره، وهو ما جاءه إلّا لسمع دفاعه عن تهمة صديقه - تهمة الخيانة فقط لا تهمة الزواج من فتاة صفاتها كيت وكيت طمعاً في وظيفة - هذا هو الحقّ المبين. وقد ارتاح لمنطقه فلم يكن يعبا بحزن عليّ، ولا

شرب كأس.. كأسين كما نفعل شيء محتمل، أمّا أن تعود بعد انتصاف الليل ثملاً تترنّح وتسلّك مثل ذاك السلوك الشائن فشيء لا يجتمل..

وانتقلا إلى حجرة السفارة، وتناولوا فطورهما، في سكون بادئ الأمر، ثم تبادلوا بعض الكلمات، وغادرا الحجرة في حالة طيبة. وذهب إلى الوزارة قبيل الظهر، وكان البك قد سافر إلى الإسكندرية ذلك اليوم يمضي بضعة أيام في بولكى. فجلس في حجرته يطالع الجرائد، وبعد مضيّ برهة وجيزة استقبل زائراً لم يتوقّع حضوره، فتح الباب، ورفع رأسه عن الجريدة، فرأى مأمون رضوان قادمًا نحوه، ولاحت الدهشة في وجهه، ثم نهض هائلاً بأشأ، وتصافح الصاحبان بحرارة، وجلس مأمون وهو يقول:

- مبارك.. مبارك..

فادرك محبوب أنّه يهنّئه على الوظيفة، وسرّ لذلك أيّما سرور، وقال:

- الله يبارك فيك، حسبتك في طنطا..

- عدت من يومين لشئون خاصة، وقابلت ليلة عودتي الأستاذ أحمد بدير في نادي الجامعة فأنبأني بتعيينك، وسررت لذلك سروراً عظيماً..

أحمد بدير.. انقبض صدره لذكر هذا الاسم الخطير، وتساءل في نفسه: ترى ماذا يعلم هذا الصحافي المحيط بفصائح المجتمع؟.. ماذا قال لمأمون رضوان؟ وحده صاحبه بنظرة عميقة، ولكنّه وجده هادئاً صافي النظرة كالمعهد به، يشفّ منظره عن باطن نقيّ طاهر لا تقربه أخبار السوء. واصطفع ابتسامة وقال متسائلاً:

- وكيف حال الأستاذ؟.. لم أقابله منذ عهد ليس بالقصير، ولم يأت لتهنّتي.

فابتسم مأمون وقال:

- غابت عنك أشياء، لقد نشر خبر تعيينك - كما قال لي - في جريدته، وهو يعتبرك مدبّناً له بالشكر. وتحدّثنا عن البعثة، والوظائف الإدارية والفنية، ومهنة التدريس في الجامعة والمدارس الثانوية، وانتقد مأمون النظام الجائر الذي يحرم المتخصصين الاشتغال

هو يعبا برأي مأمون فيه . ونظر إلى زائره بجسارته المعهودة وسأله :

- ماذا يسوؤه؟

ولم يذّر مأمون ماذا يقول، فعصّ على شفته مرتبكا ولاذ بالصمت. فضحك محجوب ضحكة فاترة كأنه يجيب نفسه :

- زواجي .

فتساءل مأمون بلهفة :

- هل حقاً . . ؟

فقال محجوب باقتضاب :

- تزوّجت حقاً من جارتنا القديمة إحسان شحاته تركي . .

فلاحت في وجه الآخر دهشة ممزوجة بانزعاج، فابتسم محجوب وقال :

- ولكيّ لم أتِ نكراً . . .

وقصّ عليه كيف فترت العلاقة بين عليّ وإحسان حتى انقطعت، وأكد له أنه لم يتقدّم لطلب يدها إلا بعد ذلك .

وسأله مأمون بصراحته المعروفة :

- لست مسئولاً عن فتور العلاقة وانقطاعها؟ .

فقال له محجوب بلهجة التأكيد :

- مطلقاً .

وانتهت الزيارة عقب ذلك . وشعر محجوب وهو يصافح مأمون أنّ الشاب يودّعه الوداع الأخير، وما إن سمع صفقة الباب وهو يغلق حتى بصق باحتقار وغضب، وغمغم بحقد شديد «طظ» .

- ٣٥ -

ولم تكن الصداقة يوماً بالشيء الذي يحرص عليه، ولكنّه يشعر بالغربة والوحدة، وبأنّه في وادٍ والدنيا كلّها في وادٍ. أجل لم يَرَّ صداقة إنسان، ولكن أكثر من إنسان رعى صداقته فهيّا له شعور الأنس بالناس . أمّا الآن فالخيوط الواهية التي تصله بالناس تنقصف واحداً إثر واحد، ويهوي هو إلى وحدة عميقة . ومن قبل كانت غرابة آرائه سبباً فيما يعتره الحين بعد الحين من شعور الوحشة، فلمّا جازف بتحقيق بعض آرائه تضاعف شعور الوحشة، وأحسّ أنّه في وادٍ والدنيا كلّها في وادٍ، وتساءل في جزع : كيف يطرد سحائب الوحشة عن صدره؟ . . ليس في عالمه فرد واحد يودّه . هؤلاء الموظفون الذين يتصل بهم لا يقرّون إلا نوعاً من الزمالة الإجبارية . وسالم الإخشيدي لا يبالي شيئاً غير منفعة . فأين يجد الدواء؟ . وألقى ببصره إلى جانبه فرأى الوجه النائم، وسمع التنفّس المنتظم . أجل، هي العزاء، وهي السلوى، خلاصة ما بقي له من دنياه، ولو ظفر بها ما اشتكى شيئاً . وحقيقة قلقه اليوم ليست ناجمة عن قطيعة مأمون له، بقدر ما هي ناجمة عن تذكّر عليّ طه وهواه . غدا قلبه فريسة للغيرة، ولم يعد يؤمن بأنّ الأمر مجرد رفع الصمام عن خزانة البخار كما كان يحلو له أن يقول كلّما سئل عن الحبّ أو المرأة . كان شعوره بالحاجة إلى زوجة عنيقاً قوياً، فلعلّه كان نتيجة للشعور بالوحشة، أو لعلّه كان سبباً فيه . ولم يكن - حتى في حالته تلك - يؤمن بالحبّ كما عرفه عليّ طه . ولم يعرّج ببصره إلى السماء قطّ، ولا حلم بالثال والأوهام . بيد أنّه شعر بحاجته إلى الفتاة كقوّة مستبّدة غشوم . لا تقع بمجرّد بلوغ الجسد، ولكنها تطمع في أن تستبدّ كذلك برغبته وميوله وهواه، فتكون رغبة متبادلة، وحينئذ متبادلاً، وبغير ذلك لا يمكن أن يشعر بأنّه بدّد الوحشة وفاز بالعزاء . هذه القوّة المستبّدة الغشوم تهزّ بالعقول الراجحة والنفوس المتعجرفة والفلسفات الساخرة . وابتسم ابتسامة التهكم وجعل يقول ثبّاً لهذه الغيرة الحقيرة . . ما جدوى غرور هذه الحياة إذا كانت الدنيا تفقد طعمها لمجرّد إغضاء من هذا الحيوان اللطيف . . ولم تخفّ

- التكاشف في حالتنا لا يقدر بثمن. ينبغي أن يفهم كل منا صاحبه لنستطيع أن نتعاون على ما فيه سعادة حياتنا المشتركة، اذكرني دائماً أننا شريكان، وأن كل شيء ما خلا هذه الشركة زائل..

فاخذت آخر رشقة من فنجان القهوة وأعادته إلى نضد بينها دون أن تنبس بكلمة أو تبدي رغبة في الكلام. فاستطرد متسائلاً بجرأته:

- لماذا فعلت ما فعلت؟

فاحمر وجهها وقالت بحدة:

- ولماذا قبلت؟

فقال بسرعة وبلهجة لينة توحى بالاعتذار:

- أنا لا أحاسبك، ولكنني أريد أن أفهم..

لماذا؟.. ألم؟

وأغلق فمه مرغماً وقد تورّد وجهه، ثم استدرك قائلاً:

- عليّ ظه..؟

وطعته وبسرعة اللهجة الحادة الغاضبة:

- لا محلّ لذكره..

فسألها بصوت خافت:

- وقاسم بك؟

وقطبت، وجعلت تقرض ظفرها بانفعال، ثم قالت بحدة:

- حملي على معرفته ما حملك على قبول هذا الزواج..

وأحس ارتياحاً لهذا الجواب، وقال بلين:

- لا تغضبي. أنا لا أحاسبك كما قلت لك، بيد أنني أريد أن أعرف، ألا.. أعني هل..، أعني قلبك، أجل قلبك!..

- قلبي!.. إن هذا التكاشف لن ينتهي بشيء، أو هو لن ينتهي بخير. قلبي؟.. عمّ تتساءل؟!..

السنا.. سعداء!

- بلى.. بلى..

قال ذلك بسرعة، وتفكر ملياً. ثم سألها بجرأة عجيبة:

- وإذا منعتك عن البك؟

عنه حقيقة مشاعره الجديدة. لقد قبل الزواج بادئ الأمر على أنه مساومة نفعية، وأراد أن يتغلب على وضعه الشاذّ بحرّيته المطلقة وطموحه اللانهاي، ولكنّه يطمع الآن في أكثر من جسد وزوجه، يطمع في عواطفها ولو أنّ حظّه كان جمعه بغير إحسان - الفتاة التي أحبّها قديماً - لرّبحاً كان الحال غير الحال. أمّا إحسان فلا يملك إلا أن يحبّها؛ وقد تكدر صفوه بهذه الأفكار. رأى فيها نذيراً يهدّد كيانه وحياته، وقال لنفسه محزوناً: عسى أن تكون آثار مرض وقتي أحدثته الوحشة المخيفة.

\*\*\*

وحين العصر جلسا معاً في الشرفة يشربان القهوة. ولم يكن انقطع عن أفكاره لحظة واحدة حتى بدا تعباً قلماً. وجعل يتفرّس في وجهها بعينه الجاحظتين حتى لاحظت ذلك، كما لاحظت تبعبه وقلقه وحدست أسباب ذلك، وظنّت أنها ترجع جميعاً لليلة أمس. فلم تنبس بكلمة، ولكنّها ألقت عليه نظرة متسائلة. وأراد هو أن يشرح لها حالته فقال:

- لم أنم ظهرًا..

فسألته وهي تتظاهر بعدم المبالاة:

- وكيف؟

ولكنّه لم يجب سؤالها، وشعر بقوة تدفعه إلى اقتحام الغموض الذي يغشاه ويحيره، فثبت عليها عينيه وقال:

- أنت سرّ يجب أن أعرفه..

فلاحت الدهشة في وجهها الجميل الذي لم يكن أفاق غامماً من أثر النعاس. وتمتعت:

- سرّاً.

- أجل. يجدر بنا أن نتكاشف.

- نتكاشف!..

فلم يعبأ بدهشتها وحسبها تظاهراً، ثم قال:

- حياتك تثير في النفس أسئلة محيرة..

فاغضت دون أن تتكلّم وبدا على وجهها الوجوم، ولكنّ قوّة مهيا بلغت من الشدة لم تكن لتثنيه عما اعترّم، فقال:

فنفخت باستياء، وقالت:

- أطيع زوجي ..

وشعر بما في إجابتها من تهكم فأدماه جرح عميق،  
وتساءل عما جناه من تحقيقه الجريء. فوجد نفسه  
حيث بدأ في حيرة وقلق، وأدرك أنّ عليّ طه لا يزال  
مبعث غضبه وحقّه .. «لا محلّ لذكره» ما معنى هذا،  
وقد قالتها بغضب!

غضب لحالة التدهور العامة التي انتابته، لماذا لا  
يقاتل هذه العواطف الخبيثة حتّى يقتلها؟ أيستسلم لما  
يستسلم له الحمقى من بني آدم؟! .. فلتحبّ عليّ طه أو  
فلتحبّ قاسم بك. وليأتِ البك كلّ ليلة إذا أراد،  
وليلقنْ كلّ ذلك بما هو فوق طاقة البشر من الاستهانة  
والعبث. هذه هي مسألته بلا زيادة ولا نقصان. يّيد  
أنّ طموحه لا يجوز أن يقف عند حدّ: لكلّ داء دواء،  
ودواء العزلة التي يعانها المجد والخرم! يُسّطى عليه  
فينبغي أن يسطو على الناس!.. وغداً يلتمس بيوت  
الفجور ويعشق النساء ألواناً!.. فإذا انكشف سرّ زوجه  
يوماً طمع أن يقال: إنّ زوجها أفسدها باستهتاره،  
وإنّه شاب فاجر لا شيء آخر!.. وتنهّد في شبه ارتياح لما  
انتهى إليه تفكيره، غير أنّه لم يطمئنْ إلى الارتياح  
طويلاً. ذكر - متجهّماً - أنّه يخاف الناس دائماً، وأنّه  
يخافهم أكثر ممّا ينبغي، وأنّه يخافهم على الخصوص  
خلاف ما تقضي به فلسفته، فقيمّ التخيّط والحيرة؟!  
ومتى يبلغ بحياته أقصى الكمال الذي ينشد؟..

- ٣٦ -

ولم يعد لمثل ذلك الحديث مرّة أخرى، وبذل  
قصاره في تجنّب ما يعكر الصفو ويلبلب خاطر. وكان  
إذا قاتل عن سعادته قاتل بعنف ويأس غير متوقّ على  
شيء. وإذا كانت الحياة الزوجيّة لم تُتّع له، فقد قام  
بدوره خير قيام، كما يقوم الممثل بدوره خير قيام حتّى  
لينسى نفسه فيضحك حقّاً ويبكي حقّاً. ظهر أمام  
الناس كزوجين سعيدين، فلم تعوز أحدهما الرغبة في  
التوفيق والتلهّف على السعادة، أمّا حين يشعرا جفوة

أو برودة فكأس أو كأسان يصلحان ما يوشك أن  
يقسد. وقد صدق عزمه على أن يشغل وقته كلّ حياته  
الجديدة حتّى لا تجذّ الوسواس فرجة إلى قلبه. وكانت  
وظيفته تستغرق جلّ نهاره، ففكر أن يقتحم الحياة  
الاجتماعيّة التي بدأها بزيارة آل حمديس - ليشغل ما  
يبقى من وقته، وليجني من متع مظاهرها ما تجود به  
على مثله. وحادث في ذلك إحسان، وانهز فرصة  
ساحنة يوماً فقال لها:

- عرفت جماعة من صفوة الموظفين الشباب وبعض  
الأعيان وقد دعاني أحدهم - دعانا معاً - إلى حفل  
سقيمه لعيد ميلاد ابنه، فقبلت الدعوة بسرور. .!  
فرفعت عينها للعجاوين ولم تدرِ ماذا تقول، فعاد  
يقول بحماس:

- لا ينبغي أن نقبّع في دارنا، انظري إلى  
الإخشيدى كيف يعرف وجوه المجتمع العالي جميعاً،  
وكيف تدعم هاتيك الصلات بنيان حياته وأسس  
مستقبله؟

وكانت في أعماقها تنوق إلى التسلية والعزاء  
والسرور، وترغب في أن ترى وأن تعرف وأن تتناسى،  
فرحبت بالاقتراح، وقالت وقد سبقها ابتسامتها إلى  
الموافقة:

- لنذهب ..

فسرّ الشاب، كان يهوى دائماً أن تشاركه اهتمامه  
وأماله. وكان يشعر دائماً بغريزته بأنّه إن نجح في  
جذبها إلى محيط أطاعه فقد ضمن فوزاً عظيماً. لذلك  
سرّ، وقال:

- إنّ مقتحم هذه الحياة البديعة كالرحالة الجسور لا

يمكن أن يعود خالي اليدين .. وإنّ لي من وظيفتي  
لمركزاً ممتازاً، وإنّ لك من جمالك لمكانة سامية ..

وذهب معاً إلى حفل الميلاد. وأحدثت إحسان  
بجمالها الفاتن أثرًا بالغًا واستعان معجوب بجسارته على  
تمثيل دوره، ولم يعجز عن خلق الفرصة المناسبة  
لإعلان قرابته بأحد بك حمديس. وعاد وقد ظفرت  
إحسان بإعجاب شابّ وجيه يدعى عليّ عفت، وقد  
دعاهما الشابّ بعد يومين إلى بنوار بمسرح الفانتزيو ..



جلس بفضل جمالها ولباسها. تلك حياة، أما القبوع في البيت تنتظر أحد رجلها فهو فوق ما تحتمل. بيد أنها رغم كل ذلك ما انفكت تشعر بفراغ وملل شأن فتاة خلا من الحب قلبها. لم تكن تحب البك، ولم يعد لسحره العجيب من سلطان عليها، والأرجح أن سحره زال مذ أنست غدره. ولعلها انطوت له عن مودة وحقد، إلا أنها حرصت عليه حتى لا تذهب «تضحياتها» هباء. وكانت فتاة ذات طبيعة عملية فأودعت الماضي مدارج النسيان، وولته ظهرها، غير عابئة بغمره على قلبها الحين بعد الحين! فالماضي المولى ورمزه الجميل - عليّ طه - شيان لا يعودان. وركزت اهتمامها في زوجها، فهو شريك حياتها، وهو قرين حاضرها ومستقبلها، وقد استأذنت الحياة - مثلها - تضحية فظيعة! وإنه ليهدف - مثلها أيضاً - إلى غاية واحدة، ثم إنه بعد هذا وذاك شاب يمكن أن يحب، وأن يهب الحياة الزوجية السعيدة، فكانت تشجع محاولاته في سبيل سعادتها المشتركة، تشاربه وتبادل القبلات وترجو أن ينتهي التمثيل بحياة حقيقية، ولو كان مزاج إحسان حيوانياً بحثاً لبلغت ما تحب من سعادة، ولكن ما زال قلبها منشوقاً إلى حنان ومودة لا يجدهما فيما تتيح لها حياتها من لذة وترف. لذلك ما انفكت تشعر بفراغ وملل، وكلما ألح عليها هذا الشعور تبادت في التهالك على حياة المرح والترف حتى فاقت زوجها في طموحه.

وكانت تغادر بيتها عادة كل صباح عقب خروج زوجها إلى عمله، إذ كانت تضرع للبيت نفوراً جعلها أعجز من أن تستطيع البقاء فيه بمفردها. وكانت المحال التجارية الكبرى هدفها المختار، تنتقل بين معارضها، وتضرب في طرقاتها المزدهجة، وربما ابتاعت حاجة مما يلزمها، غير ملقية بالآ إلى الشبان الذين قد يتعرضون لمغازلتها. وما حاجتها إلى رجل جديد وني بيتها رجلاً؟. . . فضلاً عن ذلك فقلها كان يجذبها دائماً بأنثى ستألف زوجها يوماً ما وتحبه وتخلص من حيرتها جميعاً. أما إذا تمكّن منها الملل وأدركتها السامة فربما خرجت عن حكمته، وذكرته مثالب حياتها -

وتقضت الأيام الباقية من يوليه في حياة مرحلة حارة، فارتادا السينا والصلوات الصيفية. ودعي هو إلى البودينجا وجروبي ووصلت. وأفضى بسروره يوماً إلى الإخشيدى، فقال وهو يخط بوزه استهانة:

- الطبقة العالية الآن خارج القطر. ومستعود الحياة الحقيقية إلى القاهرة في أواسط أكتوبر. .

وقد هاله الأمر، ولكنّه قنع بمعارفه الجدد، ولعلهم أن يكونوا أدنى إليه - أو لعله أن يكون أدنى إليهم - من أولئك السائحين في بطون القارات الحية. بيد أن أمراً واحداً أزعجه، هو تكاليف هذه الحياة المرحمة الممتعة. هذه الحياة تفرض عليه العناية بلباسه كالنساء سواء بسواء، وأن يقتني الأنواع النفيسة، ويختار الألوان الجميلة، مع ملاحظة الوفرة حتى لا تقع العين الناقدة على شيء واحد مرتين، ولم يلقَ بين أولئك الشبان من يتحدث عن العروبة، ولا من يناقش الاشتراكية أو أجست كونت. ومن بينهم جامعيون كثيرون ولكنهم متافلمون، فلا كلمة واحدة تذكر بحدائق الأورمان أو دار الطلبة. ووجد نفسه يهوي إلى التدخين ومشاهدة ألعاب القمار.

ولكن كيف يواجه هذه الحياة بمربته الصغير؟! . . . أجل إن قاسم بك يقوم بنفقات البيت والزوجة! ولكن تبقى وجوه إنفاقه هو، وهي تسع يوماً بعد يوم وتتوسع ساعة بعد ساعة! وقد تفكر في ذلك طويلاً ثم قال لنفسه: «أمثالي يرتقون سريعاً في الحكومة، فلا يجوز أن أنخلّف عنهم!».

\*\*\*

وطابت حياة المجتمع لإحسان. استهوتها بما فيها من تسلية ومرح وفرص للظهور والمباهاة واستشارات للإعجاب. وجذبت اهتمامها نحو أمور جديدة فبنت في حياتها روح العناية والحساس، وأنقذتها من تأمل حياتها - ماضيها وحاضرها ومستقبلها - والاستسلام للفكر. سرورها ما صادفها من نجاح ووداد. وكان قاسم بك فهمي مغرماً بها غراماً جنونياً ملك عليه نفسه، فجرى وراء هواها غير عابئ بمركزه أو أسرته أو أبنائه. وأنفق عليها عن سعة حتى صارت زينة كل

طويلاً، فلم تلبث أن اقتنعت بما فيه من حكمة وبعد نظر..

### - ٣٧ -

وجاء أول أغسطس، وقبض أول مرتب له من الحكومة، وهو مرتب لم يكن ليحلم به أيام الجوع، فعن عجب حقاً أنه لم يسر به!.. توزعت المطامع وتعددت رغائب فباتت حياته كالنار لا تشبع ولا تقنع. وذكره المرتب بوالديه اللذين ينتظران على لفحة نصيبهما من مرتبه، لا شك أن مكافأة والده نفذت، ولعله يبيع الآن أثاث البيت كما فعل هو في فبراير الماضي، وسيعجز حتماً عن أداء إيجارة المسكن، وربما وجد والداه نفسيهما بلا مأوى وبلا طعام. ما عسى أن يفعل؟

كان حكيمًا بلا ريب حين قرّر أن يخفي عن والده تعيينه، وقد احتاط للأمر فرجا الإخشيدى ألا يذيع الخبر في القناطر حتى لا يعلم به أحد قبل الوقت المناسب، ولكن متى يجيء الوقت المناسب؟ إن مرتبه لا يفي بتكاليف هذه الحياة الراقية، فهو يدرك قصوره عن الظهور كما ينبغي، فإذا تنازل لوالديه عن جنيهين أو ثلاثة اختل ميزانه وافتضح أمره وانهارت آماله! فكيف يواجه هذه الصعاب؟! وتولاه الغضب. كان دأبه الغضب إذا تحير أو ارتبك، كأنما يعتقد في قرارة نفسه أن لا شيء يستحق الخيرة أو الارتباك، ولكنه ذكر على رغمه والديه، وتمثلت له صورتها، أبوه على فراش المرض - ولم تحرك هذه الصورة نفسه إلا بقدر يسير - وصورة أمه بعينيها الضعيفتين وصمتها الرهيب وإيمانها العميق به ويمستقبله، وقد حاول أن يهرب منها أو يطردها عن مخيلته فلم يفلح، فاجمع على أن يقهر ما توقظه في نفسه من عاطفة بقوة وصرامة. لم يكن حبه والديه دافعه الأول إلى التفكير فيها، ولكن شعوره بالتبعية نحوهما كان الدافع، وفطن إلى هذه الحقيقة منذ البدء، فكانت من أسباب مضاعفة غضبه. ألا يزال يعلق بنفسه شيء من الأوهام؟ ما البهنة؟

والديه وزلتها وحياتها الراهنة - فاجتاحها موجة تمرد ثائرة وحذنتها نفسها بالجري وراء اللذة حتى قرارة بؤرتها، ولكنها لم تفعل. كما أنها لم تتخذ قراراً نهائياً كما فعل محجوب في مثل ظروفها تلك. كانت تسكع كل صباح كالمعتقلين وربما استقلت الترام أو الأتوبيس إلى بعض النواحي النائية ذهاباً وإياباً. وعلمت يوماً أن إحدى صديقاتها ستنتقل يوماً مع زوجها إلى مفوضية روماء؛ فآثر فيها الخبر تأثيراً عجيماً، وعثت لو تستطيع أن تجوب بلدان الأرض جميعاً. فما أجدر مثل هذه الحياة النشيطة أن تُنسى كل ذي همّ هَمّ، وأن تسدل على ثقافة الحياة ستاراً كثيفاً. وقالت لمحجوب وكان قد علم الخبر:

- ما أمتع أن يسافر الإنسان إلى روما.!

فسألها بدهشة:

- هل ترغين في السفر حقاً؟

- أجل.. لم لا؟

فقال وقد ابتسمت شفاته:

- والبك؟

- عسى أن يكرمني بهذه الخدمة فيما بعد..

وأدرك ما تعنيه بقولها «فيما بعد»، فهزّ كتفيه وقال:

- إذا فتر هواه يوماً فلن يفعل شيئاً مطلقاً..

والتقت عيناهما في نظرة ذات معنى، وأراد أن يستغل الفرصة السانحة أبعد استغلال فقال:

- إنه الآن يدعّن لرغباتك فلا تفلتن من بين يديك

هذه الفرصة الجميلة. الفرصة السعيدة لا تسنح في

عمر مرتين: تناسي هذه الرغبة الفجائية في السفر فهي

رغبة خيالية، واعلمي أنك إذا فقدت حبه يوماً

فستلقي الحياة عابسة متجهمة. إذا لم نحسن الاستفادة

من ظروفنا فنسقط غداً إلى مغادرة حينا هذا إلى حي

فقير. ولنخلق المجتمع الراقي أبوابه في وجوهنا،

ولنكون أضحوكة المتألمين، فينبغي أن نحاط

للمستقبل البعيد..

وتفكر في كلامه قليلاً فوجد أنه يتكلم كما يتكلم

القوادون يسر ويغير مبالاة. وسرّ لمقدرته، وعدّها فوراً

مبيناً لفلسفته وإرادته. وتفكرت إحسان في كلامه

- إنه شابٌ جسور مثاليّ، فسرعان ما ضاق ذرعًا بمكتبه الجامعة، وأتفق مع بعض زملائنا على إصدار مجلة أسبوعية للدعوة إلى الإصلاح الاجتماعيّ..

- والماجستير؟

فقال أحمد بدير:

- قال لي: لِنَدْعُ البحث للباحثين، ولنركّز همّنا فيما هو أجلّ، وليكن جهادنا كلّهُ لمصر وكيف نُحوّل من أمة عبيد إلى أمة من الأحرار..

فتفكّر محجوب عبد الدائم مليًا دون أن يبدو على وجهه شيء، ثم قال:

- الواقع أنّ الأستاذ عليّ طه ذو طبيعة عملية، فهو لا يصلح للتفكير العلميّ النظريّ..

فلحظه الصحافيّ بنظرة حادة، وقال:

- هذا لا يعيبه. الطبيعتان على اختلافهما جليلتان. والحقّ أنّ صديقنا شابٌ مخلص متحمّس، ولقد ركل الحياة المطمّنة ليدعو إلى مثله العليا على ما في ذلك من مشقة وخطورة، فليست مبادئ صاحبنا بالمبادئ التي يأمن معها الصحافيّ على نفسه، وربما تعرّض لسفاهة السفهاء، وتهجم الجهلاء المتعصّبين، وربما سيق إلى ما هو أخطر من ذلك جميعًا، ما عسى أن ينتظر من يدعو إلى الإيمان بالعلم والمجتمع والاشتراكية؟

ولم يجب محجوب، ولكنّه تساءل:

- وهل صدرت المجلة؟

- تصدر في أوائل هذا الشهر.

فقال محجوب بعد تردّد:

- وكيف جاء بالمال اللازم لمثل هذا المشروع؟

- أعطاه والده مائة جنيه..

فتساءل محجوب كالساخر:

- وهل يؤمن ذلك الوالد الموسر بالاشتراكية؟

فضحك بدير وقال:

- لعلّ الرجل يعدّ مشروع المجلة عملًا تجاريًا،

فأعانه بما في وسعه وهو وشأنه بعد ذلك..

فهزّ محجوب رأسه وقال بلهجة لا تخلو من الاحتقار:

- طالما حدّثنا عليّ طه في دار الطلبة عن مبادئه،

أليست عادة سخيفة لاحقة بظاهرة الأسرة؟ بلى، وسيكفر بها كما كفر بأخواتها من قبل، ولن يراعي إلا ذاته ومجده ولذّته.. وتساءل لماذا يعيشان؟ وما فائدتهما في هذه الحياة؟ وما معنى الحياة لهما؟ لماذا لا يموتان فيستريحان ويُرِيحان؟ البرّ بالوالدين شرّ إذا عاق سعادة الابن، بل كلّ ما يعوق سعادة الفرد شرّ. هذا واضح بيّن، وهو يؤمن به إيمانًا عميقًا، ولكن ماذا هو فاعل؟ أيقطع كلّ صلة له بالقناطر ويترك والديه يلاقيان مصيرهما وحدهما؟ وكيف يدبّر لهما النقود التي يحتاجان إليها؟ الواقع أنّه لا يستطيع الإنفاق عليهما. والظاهر أنّه لا يستطيع كذلك أن ينساهما!

\*\*\*

وظلّ مغتنيًا متفكّرًا حتّى غادر الوزارة، ولم يكن بثّ في الأمر برأي وإن كان شعوره بأنانيّته لا يغلب. وعند شارع قصر العيني التقى بالأستاذ أحمد بدير خارجًا من إدارة الجريدة، وتصافحا بحرارة، وما لبث أن عاوده شعور الخوف الذي يتأبّه كلّما ذكر هذا الصديق المخيف. ومشيا جنبًا إلى جنب يتحدّثان كمعادتهما القديمة في طريق الجامعة وحديقة الأورمان. وسأله الشاب الصحافيّ عن حاله وعن عمله وعن قاسم بك، وحديثه عن مشاقّ حياته الصحافية. وكأنّما أراد محجوب أن يجامله فقال:

- الصحافة فنّ خطير، والوظيفة الحكومية بالنسبة إليها هو ولعب..

فقال أحمد بدير بسرور:

- صدقت أيّها الصديق العزيز، ولذلك فإنّه يدهشي أن يزهد شابٌ مثلنا في العمل الحكوميّ ويهجر وظيفة محترمة ليجهاد في ميدان الصحافة..

فلاح التساؤل في وجه محجوب وتمتم:

- حقًا؟

- أجل. هو صديقنا الأستاذ عليّ طه..

وقلقت عيناه الجاحظتان، ولاحت فيهما نظرة متجهّمة، ثم داراها بالدهشة وقال متعجبًا:

- عليّ طه!

فقال أحمد بدير:

فاضطرب محجوب، وذكر أن قاسم بك فهمي من رجال العهد الحاضر المعروفين وتساءل:

- والإنجليز؟

فمطّ الشاب بوزة وقال:

- قلب المندوب السامي قلب ..

وافترق الشابان: واتجه محجوب إلى شارع سليمان باشا متجهًا مكتئبًا. ولكن أنقذه هذا الاضطراب الجديد من الحيرة التي لازمته منذ قبض مرتبه، ولم يعد إزاء الخطر المائل يتردد في الحكم على والديه، فكانا أولى ضحايا الأزمة السياسيّة ..

### - ٣٨ -

ونقل الخبر إلى زوجه، فكان حديثهما على المائدة، وفي الشرفة، وتساءلا معًا: هل يبقى قاسم فهمي أو يذهب بذهاب الحكم؟. وكان البك من رجال العهد القائم المعروفين بعداوتهم الحزبيّة، فلم يكن ثمة أمل في بقائه إذا استقالت الوزارة، وقال محجوب:

- إذا أحيل البك إلى المعاش نقلت حتّى إلى وظيفة مغمورة - إن لم يقذف بي إلى أقاصي الريف - وفقدت آمالي البعيدة إن لم أفقد وظيفتي نفسها ..

أكان كافح ما كافح ليحني هذه النهاية المحزنة؟! أهذه خاتمة الجسارة والمغامرة والاستهانة بكلّ شيء؟ .. لقد امتلأ غمًا وكمدًا، وجعل ينظر إلى زوجه بعينين مظلمتين لا تريان شيئًا. ولم تكن إحسان دونه غمًا أو كمدًا. ففكرت مثله فيها يمكن أن يتكشف عنه الغد، وتخايل لعينيهما المصير المنتظر. لم يُعْنِها كثيرًا فقدان الآمال البعيدة، ولكن كَرِهَتْ تزعزع الطمأنينة الحاضرة. هل تحرم هذه الحياة الناعمة الراغبة؟ .. هل ينضب النبع الذي يروي أسرته العطشى؟ لتجد نفسها يومًا في إحدى مدن الريف ربّة لبيت باهت تقف حياتها على خدمته ورعاية صاحبه؟. هذه الخواطر بالأحلام المزعجة أشبه. ولم تدر كيف تواجهها غدًا إذا صارت حقائق واقعة! ولكن الظاهر أن الخبر كان سابقًا لأوانه، ولم يجد صدًى في الجرائد التي عكفا على قراءتها بعناية. وأكد لها كثيرون من

والحديث لون من ألوان السمر الجميل. أمّا أن يهجر الإنسان عمله، ويتخذ من الحديث عن مبادئه عملًا قد يؤدي به إلى غيابات السجون فسلوك أقلّ ما يقال فيه إنه جنون، وما صاحبنا بمجنون، فكيف فعل هذا؟ .. انظر إلى صاحبنا مأمون رضوان! وكيف حدثنا طويلًا عن الإسلام؟ .. ثم انظر إليه وقد جمع لسفر إلى باريس ليتأهّل لوظيفة الأستاذيّة العظيمة .. هذا شاب حكيم ..

فقال بدير بسرعة ويلهجة تمتّ عن الدهشة:

- مأمون رضوان شابّ خلص أيضًا. وأؤكد لك أنه سيتمّ تعلّمه يتفوّق كالعهد به، وأنه سيكون إمامًا من أئمة المسلمين هذا أمر لا شكّ فيه ..

- أو فيه شكّ كبير ..

فهزّ بدير منكبيه، ولكنّه لم يجادل صاحبه لأنّها كانا اقتربا من ميدان الإسماعيليّة حيث ينبغي أن يفارقه، واكتفى بأن قال:

- لقد عقد الأستاذ مأمون بالأمس زواجه، وسيسافر الزوجان إلى الخارج في نهاية هذا الشهر ..

ها هي ذي الخطوط الأولى لهذه الحيوانات المتناثرة ترسم في صحيفة الدنيا الواسعة، ولا يدري أحد كيف تصير في الغد القريب أو البعيد، ولا ماذا ينتظر أصحابها من حظوظ ومقادير، وكلّ ما يدريه أنّ حياة أيّ منهم يمكن أن يذيعها راوية كأحد بدير إلّا حياته، فإنّها إذا ذاعت على حقيقتها اعتبرت فضيحة! .. وما يعنيه ذلك في كثير أو قليل، ولكن ينبغي أن يخاف سوء العاقبة، كما ينبغي لعامل يعيش بين حمقى ومجانين! .. ولم يستطع أن يستشعر الطمأنينة، ولا أن يستهين بالكآبة التي تولّته. ومن عجب أنّه وعلى طه نقيضان، ومع ذلك فلا يبعد أن يقذف بهما المجتمع إلى أعماق السجون غير مفرّق بين عابده والكافر به! .. وبلغا الميدان. وسمعا باعة الجرائد ينادون عليها منوّهين باجتماع حزب الحكومة. وتذكر الأستاذ بدير أمرًا فقال وهو يصفّح صاحبه مودّعًا:

- على فكرة. لقد فقد رئيس الحكومة عطف السراي!

وعاودته الرغبة في تعذيبه فسأله متجاهلاً:

- ماذا يخيفك؟

فأتسعت عينا الشاب الجاحظتان دهشة ورفع حاجبيه، ثم قال:

- ما أجل أسوان في أغسطس!

فهرّ الإخشيدى كتفيه استهانة وقال:

- كل مكان ينبت العزّ طيّب.

- الإشاعات صادقة إذن...

فصمت الإخشيدى لحظة منقّباً عن إجابة لا تكشف جهله غداً أو بعد غد، ثم قال:

- لا يعلم أحد حتى هذه اللحظة، أما بعد ذلك فالسياسة مجنونة..

وعاد إلى حجرته مغيطاً محققاً يقول لنفسه: «ابن الست أم سالم يريد أن يوهمني بأنه سياسيّ داهية، تباً له!».

وعند الظهر ملأت الوزارة إشاعة بأنّ الوزارة قدّمت استقالتها بالفعل، وقال قائل: إنّته اتّصل ببولكلي بالتليفون فأكد له الخبر. وعمّت الموظفين حركة عيفة لا تظهر إلّا إيّان الاستقالات، فانطلقوا في الردهات يتحدثون بأصوات مرفوعة عن الوزراء الجدد. واضطرب الشاب أيّما اضطراب ولاح في عينيه الوجوم. وجاءه الساعي وأخبره بأنّ قاسم بك غادر الوزارة، فاتّصل بالإخشيدى بالتليفون وسأله عن الجهة التي ذهب إليها البك، فأجابه بأنّه لا يدري. وخاطب - بالتليفون - جبهة من صحبه في الوزارات المختلفة وتلقّى الإجابات: ماذا عندك من الأخبار يا فلان؟ - الحالة حرجة، ما آخر الأخبار يا أستاذ؟ قطران، هل من جديد يا فلان؟ - ضربوا الأعور على عينه، أسمعت الإشاعات الغريبة يا عزيزي؟ عن الوزارة؟ إلى الجحيم يا سيّدي! وهكذا حتى أيقن أنّ الوزارة في النزاع الأخير. ورنّ جرس تليفونه، وإذا بالمتكلّم إحسان زوجه فأوجس خيفة:

- هل جاءك النبأ؟

- الوزارة؟

الأصدقاء أنّه لم يثن الأوان بعد. وتتابعات أيام أغسطس في هدوء حتى ألفا الطمأنينة مرّة أخرى، بل عاد محبوب يذكر والديه ويتساءل عما ينبغي أن يصنع بها. وكان هذه المرّة ذا عزيمة صادقة فكتب خطاباً لأبيه يعرب له عن أسفه لعجزه عن معاونته، وذكر له أنّه لا يني عن البحث عن عمل، ووعدّه بفرج قريب، وقال لنفسه، يسكّن خاطرها: إنّ الرجل يستطيع أن يصبر شهراً آخر أو شهرين حتى يدركه بالمعونة في ظروف أنسب؟.. ولكنّ الطمأنينة لم تدم. وبعث الخبر الذي أعلنه أحمد بدير أوّل الشهر من جديد. وتطايرت الإشاعات حتى ملأت الجوّ. وبات الأفق ينذر بشراً مستطير. وعاد الزوجان إلى أفكارهما، وساورتها المخاوف. وقد قابل محبوب مديره سالم الإخشيدى في مكتبه يوماً ليسأله عما هنالك؟ ووجدّه كما عهدّه دائماً هادئاً رزيناً. ولكنّه لم يتأثر بهدوئه ولا برزاقته لأنّه يعلم حقّ العلم أنّه لا يخرج عنها حتى في أخرج الأوقات. ورفع إليه الرجل عينيه المستديرتين متسائلاً، فسأله الشاب وقد ظلّ واقفاً:

- ما حقيقة هذه الإشاعات التي تتناقلها الألسن؟

فسأله الإخشيدى بصوت لم يفقد آية رنة من رنات الرئاسة:

- آية إشاعات؟

- سقوط الوزارة. ماذا وراء الأكمة؟.

فابتسم الإخشيدى وقال:

- وراء الأكمة ما وراءها!.

- هل حقّاً يمكن أن يزول هذا العهد؟

فقال الإخشيدى وقد تمكّته رغبة عابئة في تعذيبه:

- كلّ شيء زائل..

فملأه بروده حقّاً وغيظاً حتى اضطّر إلى مداراتها بالابتسام وقال:

- سعادتك تعلم أشياء وأشياء بلا ريب..

وأبت عليه نفسه أن يقول إنّّه لا يعلم شيئاً،

فابتسم ابتسامة غامضة وقال بثقة:

- انتظر. إنّ غداً لناظره قريب..

- أما من كلمة مطمئنة؟

- نعم. استقالت..
- كيف علمت هذا؟..
- ملحق الجرائد..
- إذا..
- إني أكلمك لأطمئنتك.
- كيف؟.. هذا كلام غير معقول..
- بل معقول جدًا. سأحدّثك بالتفصيل عند عودتك، اعلم الآن أنّ البك قال لي إنّ الوزارة ستتغير، أمّا العهد فبإي كيا كان..
- أمّا أكّدة أنت؟
- ولديّ أخبار تسرّك غير هذه ستعلمها حين عودتك..
- وأغلقت التليفون فنهض الشاب من فوره وغادر الحجرة. وفي الطريق سمع باعة الصحف يتادون بأعلى أصواتهم على استقالة الوزارة، وأنس الاهتمام والسرور بحريان مع الهواء في كلّ مكان. ذهب الطاغية، غار سقّك الدماء. وانفكّ حبل الاستبداد عن أعناق المصريين أو كاد. لم يشاركه أحد سروره، ولولا ما بشرته به زوجته لانتحب باكيا. ووجد إحسان في انتظاره، فاستقبلته بابتسامة عذبة، وأقبلت عليه تحدّثه بما عندها من أخبار، وأعادت على مسمعيه ما قالته في التليفون، ثمّ سألته:
- أتدري من وزيرك الجديد؟
- فسألها متعجّبا:
- من؟
- قاسم بك فهمي..
- رمقها بنظرة ذاهلة وقد تورّد وجهه، وسألها:
- أقال لك هذا؟
- أجل..
- غمره شعور ارتياح وسرور، ولكنّه لم يطمئنّ به طويلا، وما لبث أن نفث حاجبه الأيسر وهو يقول:
- وزيراً!.. ليت ظلّ كيا كان!.. الوزارة تقليد لا تخليد، فمنّ لنا غداً؟..
- ولكنّ ربه لم يؤثّر فيها، فقد خالت أنّ الوزارة آلت إليها هي، وقالت بإنكار:
- إنّه الوزير، ألا تفهم؟..
- بلى يا عزيزي، هي فرصة سعيدة، بيد أنّ الوزارة قصيرة الأجل كالأحلام السعيدة، وسيستقيل غداً أو بعد غد، ونجد أنفسنا بلا نصير، أو تحت رحمة أعداء لا يرحمون!..
- فلم تخر جواباً، ومضت تنتقل إليها عدوى القلق حتّى لعتته في سرّها. وجعل الشاب يزن الأمور واحتمالاتها بفكر سريع نافذ ثمّ قال:
- هذه هي فرصتنا الأخيرة، فلمّا نحسن انتهازها فنحن في عيشة راضية، وإمّا ندعها تفلت من أيدينا فالعاقبة الهوان.
- والثقت عينهما، وأدركت ما يرمي إليه، ولكنّها انتظرت حتّى يفصح عن رأيه. واستدرك محجوب قائلاً:
- إذا استقال ونحن في مركز «معقول» فلن نأسف على ذهابه!..
- واستأنف الكلام بعد صمت قليل:
- ينبغي أن ألحق بمكتبه..
- سكرتيراً له؟
- فهزّ رأسه كأنّه يقول: «هذا لا طائل تحته» واستدرك:
- سكرتيه درجة سادسة فلا فائدة فيها، أمّا مدير مكتبه فدرجة رابعة!
- أيكّن القفز من السادسة إلى الرابعة؟
- يمكن ترقيتي إلى الخامسة خصماً على الرابعة، وفي الكادر تأويلات تتسع لكلّ شيء، فما رأيك؟
- وعضّت على شفتيها لتخفي ابتسامة خيلاء، وكانت تدرك أنّ آية درجة يرقى إليها فكأنّها ترقى إليها هي، ولم يداخلها شكّ في أنّ الدرجة الرابعة المرجوة تستطيع أن تحتفظ لها بمستوى الحياة الذي تتمنّع به الآن، فبادلته شعوره بإخلاص، وتمتمت قائلة بصوت خفيض:
- لا أظنّه يرفض لي رجاء..
- فقال بحماس وإيمان:

إلى مكتبه الذي يوشك أن يهجره، وقد بدا لعينيه حقيراً، ولكنه لم يكن أول المبكرين. فتح الباب وبدا عند عتبة الأستاذ سالم الإخشيدى!.. وانقبض صدره انقباضاً لم يَدَّ على وجهه بطبيعة الحال، ووقف مبتسماً يستقبل القادم وهو يتساءل في نفسه ما الذي دعاه إلى التنازل عن كبريائه والقدوم إلى مكتبه؟! ومدَّ له يده بسرور وهو يقول:

- أهلاً بسعادة البك. تفضّل بالجلوس!

وجلسا معاً. وجاد الإخشيدى بابتسامة من ابتساماته النادرة، وتكلّم كلاماً عاماً عن الوزارة الجديدة، والبك الذي ينتظر أن يخلف قاسم بك ثم قال بهدوئه المعهود:

- لديّ ما أحبّ أن أكاشفك به، وقد أمرت ساعيك بأن لا يأذن لأحد بالدخول..

وحلّس الشاب ما يريد قوله، وأحسن استيائه وحنقاً، ولكنه قال بلهجته الدالة على الترحيب والسرور:

- حسناً فعلت، وهأنذا رهن أمرك..

فصوّب الإخشيدى نحوه عينيه المستديرتين وقال:

- الأمر جدّ خطير ما دام يتعلّق بمستقبلنا، وسنجنى من ورائه نفعاً مؤكداً متبادلاً. ولكنّي أحبّ أن أسالك سؤالاً قبل كلّ شيء: ألم تحبني صديقاً خلصاً؟

- بل خير الأصدقاء جميعاً..

قال محبوب ذلك وهو يعجب لهذه اللهجة اللينة اللطيفة التي لم يتعوّد الإخشيدى الكلام بمثلها من قبل. أين الأمر والنهي والزجر؟ أين البرود والتعالي؟ وقد شعر في أعماقه بدبيب الحنق والسخرية، ثم استمع إليه وهو يقول:

- شكراً لك. صداقتنا هذه كنز نفيس. وبفضلها

نستطيع أن نفتحم الصعاب يداً واحدة..

- نطقك بالحكمة كعادتك يا بك...

وجعل يقول في سرّه: تكلّم عن الصداقة كيف شاء لك الخداع. فأنا أعرفك كما تعرف نفسك أيتها الشيطان الماكر. وحسبي أن أعرف نفسي كي أعرفك حقّ المعرفة، ولكلّ شيء آفة من جنسه!

- همّتك، همّتك يا بطله! فعلت نتيجة سعيك يتوقّف مصيرنا.

وفي صباح اليوم الثاني تناول الأهرام باهتمام، ونظر في الصفحة الأولى، فجرى بصره على عمود من الصور، صور الوزراء الجدد. ووجد في وسطه مبتغاه، صورة قاسم بك فهمي، فاستقرّت عليها عيناه، وتنهّد من الأعماق. تُرى هل يتحقّق هذا الأمل!.. هل تستطيع قبله أو رنوه أو تنهّد أن تنقله من حال إلى حال، وأن تدفعه من طبقة إلى طبقة؟

- ٣٩ -

ومضت أيام قلائل وجعل الوزير الجديد إقامته في القاهرة - لا في بولكى - لحالة ربو يعانها منذ سنوات. وفي اليوم الرابع لتولّيه الوزارة علم محبوب أنّه قد استقرّ الرأي على اختياره لوظيفة مدير المكتب.

استقبلته إحسان بابتسامة وقالت بخيلاء «مبارك..»

فاهتزّ فؤاده سروراً، واضطرب اضطراب المفاجأة كأنه لم يركّز كلّ اهتمامه في هذا الأمل طوال الأيام الأربعة الماضية.

صار الأمل حقيقة رائعة. وسيصبح من كبار الموظفين. ليست الدرجة الخامسة بالخطّ الذي يستهان به، فما بالك إذا كانت خطوة قصيرة إلى الرابعة؟!

وتحايلت الرابعة لعينيه مرسومة بالفاظ واضحة، ثمّ تحوّلت إلى صور ذهنيّة على هيئة كرسيّ كبير، وأحاط بالكرسيّ سعاة، ومثل أمامه خلق كثيرون من جميع الطبقات.

ولم يَر نفسه وهو يتخيّل هذا المجد وإلاّ لسخر منه كعادته، فقد قطّب متكبراً وألقى على ما أمامه نظرة مرتفعة من رأس شامخ. ولذّ له في تلك

الساعة أن يقرّ صفحات الماضي القريب: ليالي فبراير، دكان الفول بميدان الجزيرة، رحلة الأهرام، تردّده بين

الجزيرة وشارع الفسقاط والإخشيدى ساداً يده بالسؤال، زواجه، ثمّ هذه النهاية!.. ولاح له رأسه

المغمم جسارة وفلسفة كمصباح يهدي سواء السبيل، فطاب نفساً، وفرك يديه حبوراً.

وذهب إلى الوزارة مبكراً في اليوم الثاني. وجلس

- ألا ترى يا سالم بك أن هذا معناه رفض شرف  
أثري به الوزير؟!

فرمقه الإخشيدى بنظرة غريبة كأنها تقول له: «يا  
بن اللثيمة!». ولكنه حافظ على هدوئه بقدرة عجيبة،  
وصمت برهة، وقد همّ بمراجعته، وأوشك أن يرسم  
ابتسامة من ابتساماته، وانتظمت على لسانه عبارات  
لطيفة، وكاد يذكر كلاماً عن الصداقة والتعاون،  
ولكن إرادته منعت ذلك كله، فظل صامتاً جامداً  
الوجه والنظرة، واكتفى بأن تساءل بلهجة لا تدل على  
شيء:

- أهذا رأيك؟!

فقال محجوب بغير مبالاة وقد تلبّسه شيطانه:

- أجل. ألا تشاركني رأيي؟!

فتمتم الإخشيدى وهو يحول عنه عينيه:

- معقول. لك حق. أشكر. مبارك!

وغادر الحجرة بخطاه الوثيدة وقد عاوده كبرياؤه.  
وارتفق محجوب مكتبته متفكراً. سبق أن خسر عليّ  
طه ومأمون رضوان وكان ينسى سريعاً. أما هذه المرة  
فقد ساوره الخوف، وقد ثار بخوفه، وكوّر قبضته  
غاضباً، وكأنما أراد أن يتناسى همه فنهض قائماً، وغادر  
الحجرة إلى إدارة المستخدمين ليطلع بنفسه على مذكرة  
نذبه...

- ٤٠ -

واحتلّ الأستاذ محجوب عبد الدائم - أو محجوب  
بك عبد الدائم من الآن فصاعداً - حجرة مدير مكتب  
الوزير. ووفد عليه كبار موظفي الوزارة مهئين. فكان  
يوماً عظيماً ومجداً مشهوداً. وهنأه البعض بالدرجة  
الرابعة «مقدماً» كأنها باتت أمراً مفروضاً منه! أما سالم  
الإخشيدى فلم يهتئ. وأعلن بذلك عداوته صراحة.  
وقد ذاع خبر في الوزارة بأن الإخشيدى سينقل إلى  
الخارجية وبأنه سيرقى هناك إلى الرابعة. فلم يغب عنه  
المصدر الذي خرج منه الخبر، ولكنه لم يستبعد  
صحته، لأنه كان يعلم بصلات الرجل بكبار رجال  
الدولة، وقد قال لنفسه: «الإخشيدى قويّ بلا

وحده الإخشيدى بنظرة ثاقبة وقال:

- علمت أن مذكرة تكتب لندبك مديراً لمكتب  
الوزير...؟

هذه هي النقطة الجوهرية. أريد أن يتنازل له عن  
الوظيفة!!.. يا له من أحمق. كيف غاب عنه أنه  
تلميذه! إن الدين والأخلاق والتقاليد لم تستطع أن  
تحول بينه وبين هذه الوظيفة، فهل يظن أن «صداقته»  
تنجح فيها أخفقت فيه جميع القوى! قال بهدوء:

- أجل. علمت ذلك بالأمس فقط...

فقال الإخشيدى:

- إن ذلك يسرني بقدر ما يسرك، بيد أنني أحب أن  
ألفت نظرك إلى أن درجة مدير مكتب رابعة وأنت في  
السادسة، فإذا وجدت درجة خامسة خالية فقد بلغت  
مرادك. خذ وظيفتي ودع لي وظيفتك الجديدة يتحقق  
أملنا جميعاً.

وتساءل محجوب في سرّه أغيب هو أم يتغابي؟! فلم  
يدرك أنه يطمع في الرابعة نفسها؟ وهب القفز إلى  
الرابعة تعذّر عليه فهل من شك في أنه يفضل أن يكونا  
في الخامسة معاً عن أن يهتد له سبل التفوق عليه؟  
ونظر إليه متظاهراً بالاهتمام وتساءل:

- ومادا تريدني على أن أفعل؟

فقال الإخشيدى:

- صارح الوزير بأنك قانع بوظيفتي...

وجاءت الدقيقة الفاصلة! وكان يدرك بلا ريب  
أن أسطورة الصداقة التي تغنيها معاً رهينة بكلمة  
واحدة، فتردّ قائلاً، وذكر أن عداوة الإخشيدى شيء  
لا يستهان به فليس الرجل يعليّ طه أو مأمون رضوان  
اللذين لهما من شرفها وازع. هذا رجل - مثله - بلا  
خلق ولا مبدأ، وهو يعرف كل شيء، فهاذا  
يصنع؟!... وتفكر ملياً. قال إن سرّه سيعرف يوماً  
بلا ريب، إن لم يكن عرفه بالفعل أمثال أحمد بدير،  
وماذا نال تهكم بدير من أبطال حفلة جمعية  
الضريرات؟!... طظ؟!.. كلاً ثم لا ينبغي أن  
يتردّد، وليذهب الإخشيدى وصداقته إلى الجحيم!  
واجتاحته عاصفة استهانة، فقال:



جدال، ولولا زوجي ما تغلبت عليه ولكن اليوم في مكاني هذا... ودخله سرور. فإذا نقل الإخشيدى حقًا خلا له الجو وصار رجل الوزير الأول، كما صارت زوجته من قبل امرأة الوزير الأولى؟ سرّ لذلك بلا ريب، بيد أن سروره لم يدم طويلًا. عاد يفكر في غضب الإخشيدى وانتقامه وفيما عسى أن ينجم عن هذا وذاك. وسرعان ما أدركته روح الاستهانة فاستردّ مرحة وجعل يقول لنفسه: إن الناس يحبّون المظاهر ويخدعون بالرياء، فإذا اضطّر للدفاع عن نفسه عاطاهم ما يشتهون من تظاهر ورياء، ولو بلغ به الأمر أن يشترك في جمعية الشبان المسلمين مثلاً! ففظ في كل شيء إلا الناس، على الأقلّ في العلانية. ولكنّه لم ينته عند ذلك من الإخشيدى وغضبه، خطر له خاطر أزعهه أيّا إزعاج وقد عجب كيف أنّه لم يخطر له من قبل؟ الإخشيدى جار قديم من القناطر ألا يجوز أن تبلغ به الرغبة في الانتقام أن يفشي سرّه بطريقة ما إلى والديه؟ ازدرد ريقه بصعوبة وقد علت وجهه صفرة باهتة، وجعل ينتفح حاجبه متفكرًا مغتًا. وليث متفكرًا مغتًا حتى كبر عليه أن يذهب سروره - يوم مجده - ضحية وسواس قد لا يكون لها أثر من الحقيقة، فنفخ مغيظًا محققًا، وكوّر قبضته غاضبًا، وقال لنفسه: قضى الأمر، وكان ما كان، فليكن ما يكون. وبعيد جدًا أن يبلغ الإخشيدى حقيقة زواجه فإنّه هو أيضًا يعرف عنه حقائق ليست دون زواجه خطورة. ثمّ إنّ الإخشيدى أحكم من أن يفشي سرًا يتعرّض به لغضب قاسم بك، ولكنّه من ناحية أخرى ينبغي أن يتوقع أن يعلم أبوه بنبا تعيينه فيحسن به أن يدبّر للرجل ما يقيم أوده ويصون كرامته. وأراد أن يطرد همه، فبسط ورقة على مكتبه، ورسم رقم مرتبه الجديد: ٢٥ جنيتها وثبت عليه عينيه الجاحظتين حتى ابتسمت أساريره. سيقبضه أول أكتوبر، وما أول أكتوبر ببعيد، فهل يمكن أن يتصور ذلك بائع الفول بميدان الجيزة؟ بل مأمون رضوان نفسه لن يزيد مرتبه بعد عودته من البعثة - بعد ثمانية أعوام - على مرتبه هذا! نجحت طظ

نجاحًا باهرًا! وقد ارتاح لذلك ارتياحًا عزّاه عن كل ما لاقى من ألم ونصب وقلق وأحزان. وسرّ سرورًا خالصًا ببراءته من ذلك المرض الوهمي الحبث الذي يسمّونه الضمير أو الندم. حقًا خاف أحيانًا الناس، وعذبتة الغيرة أحيانًا أخرى، ولكن هذا شيء والندم شيء آخر. كان كفره بالقيم والمجتمع كاملاً باهرًا، وإنّه ليؤمن بأنّه سيظلّ قويًا حرًا، ما امتد به العمر؛ وإنّه لن يلين أو يضعف إذا أقعده مرض أو ردّ إلى أرذل العمر، وما أجمل أن يستهين بالموت - إذا حضره الموت - وأن يرمق العدم بعين التسليم بالواقع دون فرع إلى قوّة وهميّة أو إله باطل. هذا هو انتصار العقل الحرّ على الغرائز العمياء والأوهام الباطلة! وتذكّر قاسم بك فهمي والإخشيدى وعشرات ممّن أتصل بهم في حياته الجديدة، كلّ أولئك يبدون كأنّهم من مدرسته. كلّ. إنّه يرفض ذلك رفضًا متعجرفًا! أولئك يفعلون الشرّ وهم يعرفون أنّه شرّ، ومنهم من يفعله وهو لا يميّز الخير من الشرّ، ومنهم من لا يحتمل نفسه مشقة التفكير بتأتا، ومنهم من يفعله وهو يؤمن بالخير. هو غير هؤلاء جميعًا. إنّه ينكر الخير والشرّ معًا. ويكفر بالمجتمع الذي صنعها، ويؤمن بنفسه فقط: يوجد لذى ومؤلم، ونافع وضارّ، أما خير وشرّ فمحض وهم باطل. ورُبّ قائل يقول: ولو آمن كلّ بهذا هلك الناس جميعًا. هذا حقّ لا جدال فيه. ولكنّه ليس أحقّ كي يدعو لرأيه هذا. إنّه يحتفظ به لنفسه، وإذا قال تكلم غيره، فرزق أمثاله من الأحرار على الحمقى من المؤمنين! والمجتمع متسامح مع أمثاله إذا أحسنوا التخلّي، فالمجتمع لا يعنيه إلا أن يحافظ على ذاته، ويعادي في ذلك حتى عشاقه الذين ينشدون له الكمال أمثال: عليّ طه ومأمون رضوان. فهو كالمرأة المغرورة إذا أنست من عاشق انتقادًا نبذته، ولذلك فنصيب هؤلاء التعب والكفاح وربّما السجن!

طابت الحياة إذا. ثمّ ذكر أمرًا فاستدرك قائلاً: «وإلا شيئًا واحدًا، هي إحسان! أو هي تلك العاطفة المستبثة التي لا تقع بغير الحبّ. وأين الحبّ؟ الفتاة تشاركه آماله، وتحسن معاشرته، ولكنّه يشعر بأنّها

فضحك عفت وقد أشفق من أن تغلت من يده  
الفرصة السانحة وقال:

- لا شك أنّ وظيفتك الكبيرة قد بئت في نفسك  
شيئاً من الشيخوخة فبت ترجف من الجؤ اللطيف..!  
وكان هذا «الملح في قالب الدم» جديراً بأن يلدّ  
محجوب في ظروف أخرى، ولكنه لم يستطع أن يتذوّقه  
في رعيه، وقال بحميّة:

- الدنيا واسعة، اختاروا أيّ مكان تحبون، أمّا  
القناطر...

واعترض عليه كثيرون فضاعت بقية كلامه، ولم يذّر  
كيف يقنعهم ويحوّلهم عن رأيهم، ولبث حيسال  
احتجاجهم مقهوراً، بينما راح عفت يقول:

- ليس ثمة فائدة ترجى من الاعتراض، والأوّل  
بك أن تصغي إليّ... سيستظر اليخت عند قصر النيل  
في الساعة التي تتفقون عليها.. أطعمة جافّة  
لطيفة... زجاجة ويسكي لكلّ ثلاثة... دعوني  
أحصيكم...

وعلا ضجيج الاستحسان، وشاركتهم إحسان  
سرورهم، وجعل محجوب يقلّب عينيه في وجوههم  
حائراً وعلى شفثيه ابتسامة لا معنى لها. لن يجد من  
رحلة القناطر مهرباً، سيقطع حدائقها ذهاباً وإياباً في  
ضوء القمر، أليس من المحتمل أن يلقي أحداً من  
أهلها الذين يعرفونه؟.. بلى، هذا محتمل، ويحسن به  
والحال كذلك ألا يبرح اليخت متحلاً عذراً، أجل لن  
يستطيع مقاومة العربيد العنيد، فليذهب إذا لم  
يكن من الذهاب بدّ، والحدائق على أيّة حال بعيدة  
عن المحطة، بعيدة عن البيت البائس الباهت...

#### - ٤١ -

ومضت أيام تتمتع فيها بوظيفته الخطيرة متعة صافية.  
وقد شعر جميع الذين يتصلون به من الموظفين - صغاراً  
وكباراً - بأنّه موظف متعجرف ينبغي أن تؤدّي إليه  
حقوقه كاملة، ولا يعفو عن زلل ولا يتكلّم إلّا أمراً.  
وكان كلّها لأن الموظفين - ولا بدّ أن يلينوا - تمادى

تؤدّي واجباً بإخلاص. إنّها كالموظف الذي يجب  
الوظيفة دون عمله بالذات. أو هو لا يحبّه ولا يكرهه.  
ارتبط مصيرها بمصيره، هي تحب الحياة كما يحبّها،  
وتهمي الترف كما يهواه، ولكن ينقصه شيء كي يكمل  
هذا الامتزاج حقاً، شيء يروعه افتقاده حتّى في تلك  
الأوقات التي يبدوان فيها سعيدين ثملين، والشفة  
على الشفة والصدر ملتصق بالصدر. وليس هذا  
بالشيء الذي يهون وإن قال عنه - في غمرة اليأس -  
طظ. بل إنّ كجحد في نفسه ثورة شبيهة بتلك الثورة  
التي أحدثها الجوع من قبل. ولذلك فكّر جدّياً في أن  
يسطو كما يُسطى عليه، بل عابثه فكرة اكترأ حجرة  
وتأثيثها استعداداً للطوارئ، ومن يدري؟.. فلا يبعد  
أن يقصد إليها غداً أو بعد غد ذؤ الحاجات، وكما  
أعطى ينبغي أن يأخذ!

\* \* \*

وعند مساء ذلك اليوم - يوم مجده - وفد الأصدقاء  
على الشقة الأنيقة بعمارة شليخر ليقدموا التهانّي لزواج  
مدير المكتب، وجرى الحديث في مرح وسرور، وقد  
اقترح البعض أن يحتفلوا جيّماً بترقية محجوب. وقال  
أحدهم مخاطباً إحسان:

- في يوم الخميس القادم يتصف الشهر العربيّ،  
وترتّب البدر في كبد السماء، وتسمي القناطر قبلة  
الواردين، فما رأيك في رحلة قمرية؟... (وهنا لحظ  
عفت بطرف خفيّ واستدرك غامراً بعينيه) وعفت بك  
ملك يحنّ صغيراً جميلاً!؟!

وسرّ عفت سروراً كبيراً، وكان إعجابه بإحسان  
يزداد يوماً بعد يوم. وقال بسرعة دلّت على حماسة  
للقبول:

- اليخت وصاحبه رهن أمركم!

وما سمع اسم القناطر حتّى سرت في جسده  
فشعريرة باردة، وكان يعلم أنّ حماس الصّحاب ليس  
لشخصه هو، فقال معترضاً:

- هذه الزهرة القمرية لا توافق جوّ سبتمبر الرطب  
البارد..

وجلس الأصدقاء على المقاعد متقابلين، وراحوا يسمرون في جو لطيف رطيب. وجعل محبوب يردد نظريه بين الوجوه المشرقة والقامات الهيف فبهره الشباب والجمال ورأى زوجه بعيداً عنه في حالة من الإعجاب والمعجيين، فذكر أيام كان يطالعه عن بعد من نافذة حجرته بدار الطلبة يتد أنه رآها الآن أبهى ما تكون جمالاً وسحراً، واستشعر الهوة العميقة التي تفصل بينهما! وجرت أمام مخيلته صور سريعة مضطربة، فرأى عليّ ظه - في حالتي سروره وحزنه - وعم شحاته تركي، والوزير، وسالم الإخشيدلي، ومخدعه بعمارة شليخرا. ووجد نفسه يتساءل أيفضل لو كانت إحسان له قلباً وجسداً في بيت زوجي هادي «شريف» ولو كان موظفاً صغيراً بلا مجد؟. ولم يجد الجواب حاضراً، أجل كان طموحه قوياً كعاطفته، بل لعل طموحه أقوى. ولكن ما جدوى المفاضلة؟!، وألقى بنظره إلى النيل يتسلى، ثم رفع بصره إلى البدر الآخذ في الصعود والصفاء، كلما امتدت ظلمة الليل أذكت نوره وبهائه، ولكنّه لم يكن من الذين تفتنهم الطبيعة بمحاسنها، وكان يلذّ له أن يقول: إنّ الهيام بالطبيعة مفسدة للعقل، ومصدر منذ الأزل للجهالات لا نزال نرشف في أغلالها. وذكر صاحبه مأمون رضوان وكيف كان يستيقظ في الفجر للصلاة والعبادة، وكيف كان يقبّ وجهه بين النجوم الساهرة ويتلو: «والليل إذا يغشى»، «والساء والطارق» بصوت حنان، وعينه الصافيتان تلمعان لمعان النجوم الزاهرة. ولكن هل يوجد بين هؤلاء الشبان والشواب من يعشق الطبيعة؟، وألقى عليهم نظرة شاملة فوجدهم في شغل عن الدنيا بأنفسهم.

وسمع آنسة فيفي تتساءل في إغراء:

- لماذا لا نرقص...!

فقال عليّ عفت من فوره:

- ارقصوا إذا شئتم، ولكن هل ترقصون بلا

موسيقى؟

فقال أحمد عاصم:

- أبشروا لقد أحضرت معي موسيقى اليد.

وطغى، واستلذّ غماده وطمغيانه، حتّى ودّ في أحايين لو يمضي يومه كلّ في الوزارة أمراً زاجراً...!

وجاء يوم الخميس، موعد النزهة. فغادر الزوجان بيتهما ومضيا في طريق قصر النيل، وقالت إحسان بتأنف وهما يقطعان طريقهما:

- لعلك الوحيد في الجساعة الذي لا يملك سيارة...!

فضحك محبوب قائلاً:

- في التائي السلامة...!

ولكن ملاحظتها حملته على أن ينادي على تاكسي فيستقلّنه على قرب المسافة. وذكر لهبتها المتأنفة فقال لنفسه ساخراً: «عيب كبير ألا يكون لكرمة عم شحاته تركي سيارة خاصة!»، ثم ذكر الأعباء التي تواجهه بها الحياة الجديدة كرهبته في اكتراء حجرة وتأمينها، واقتطاع بضعة جنيهات من ماهيته لوالده، وغير هذه وتلك من وجوه الترف والإنفاق، فهاله الأمر. وحذث نفسه قائلاً: «سأظلّ ما حييت فقيراً إلى المال!». وبلغا مرسى اليخت بعد قليل. فغادرا التاكسي وأقبلا نحو الأصدقاء المنتظرين وقد غشي الظلام الآفاق. واستقبلا استقبلاً جيلاً، وتقدّم عفت بك من الزوجين وصافحهما، وأعطى ذراعه لإحسان فتأبطته وسارا في الطليعة إلى اليخت. ولم يكن محبوب يحبّ صاحب اليخت، وقد بدأ يخامره الفجور نحوه منذ لتي دعوته إلى الفانتازيو. قرأ في عينيه الجمعيتين أي الإعجاب بزوجه فامتعض وتميّز من الغيظ، ورمى شعره الأحمر وبشرته البيضاء وجسمه الرياضي بعين المقت والغضب...

وكان اليخت صغيراً، ولكنّه جميل أنيق. وكان مكوّنًا من طابقين، بالأول المقصورات، والثاني سطح مسور اصطفت به المقاعد الوثيرة على هيئة دائرة، وفي المقدمة منه امتدت الموائد حافلة بما لذّ وطاب. وقد أمر عفت بك بالإبحار فرفعت المرساة، وأبحر اليخت ميمًا شطر الشمال، في هداية نور القمر البهيج وسط الأفق الشرقي صاعدًا من وراء النخيل. هكذا بدأت الرحلة...

النيل المتموجة فتقاذته ونثرته كاللؤلؤ ينحطف الأبصار.  
وتساءل البعض:

- متى نفتح البوفيه؟

فردّ عليه قرين:

- ليس قبل أن يرسو اليخت إلى شاطئ الحديقة يا  
جائع؟

فقال آخر:

- هل لكم في لعب الورق؟

ولكن اعترض كثيرون على الاقتراح أن يلهيهم عن  
صفوهم، وعادوا إلى السمر، وانتبه محجوب من  
أفكاره على صوت الأستاذ حسني شوكت وهو يقول:

- كيف لا يكون أمراً خطيراً؟! .. إن نجاح الحزب  
النازي في الوصول إلى الحكم أمر جدّ خطير.  
فقال أحمد عاصم:

- ولكن شخص الرئيس هندنبرج حقيق بأن يتلع  
هتلر.

- انظر إلى الأفق، ألا ترى أنّ هتلر في عنفوان  
الشباب والرئيس في نهاية العمر؟

- إذا سيتمخّض الغد عن حرب ضروس..

- كلام معقول، بيد أنّ فرنسا لا تترث حتى  
تستعيد ألمانيا قوتها وتتجمّع للانقضاض عليها،  
وهناك حلقة محكمة حول ألمانيا من البلدان الموالية  
لفرنسا بولندا وتشيكوسلوفاكيا والبلقان، ولا تنس أنّ  
إيطاليا العظيمة تعدّ نفسها حامية النمسا، فما هو إلا  
أن تصافح هذه البلدان، وربما انضمت إليها روسيا  
فتضيق الحلقة الفولاذية رويداً رويداً حتى تخنق ألمانيا  
في النهاية وتقضي عليها القضاء الأخير..

- وإنجلترا؟.. هل تتغاضى عن خنق ألمانيا؟

- ولم لا؟

- إنجلترا أكر من أن تترك فرنسا.. أو غيرها..  
تسيطر على القارة الأوروبية.

أصغى محجوب إلى الحديث باهتمام، وكان على  
اطلاعه الواسع على السياسة الداخلية عظيم الجهل  
بالسياسة العالمية، فاقترح على نفسه أن يُعنى بمعرفة  
الأخبار الخارجية حتى لا يفوته الكلام فيها إذا لزِم

وتصاعدت أصوات الاستحسان، ودارت العيون  
تتصيد الأحباب، وتناول أحمد عاصم آتته ولعب بها  
وهو يتهايل على مقعده مع أنغامها الراقصة، ونهض  
الجميع للرقص إلا إحسان ومحجوب اللذين يجهلانه  
وعقّت بك الذي أتر أن يجلس إليهما. وجعلوا  
يشاهدون الراقصين في صمت وإعجاب. ثم أعلن  
عقّت بك إنكاره لجهلها الرقص، وقال لإحسان:

- سأعلّمك الرقص، فإنّه لا يجوز أن تجهليه.. ما

رأيك؟

فتمتعت وعيناها لا تفارقان الراقصين:

- لا أدري..

- غريب من يجمل الرقص في الحفلة الرائعة، أليس  
هذا رأيك يا محجوب بك؟

فشعر محجوب بالخاطر المطلق به، وأراد أن يزوغ  
منه، فقال بعدم اكتراث:

- لا أظنّ..

فضحك عقّت ضحكة عالية وقال:

- يا لها من أسرة من صميم القرن التاسع عشر..

وضحكت إحسان لضحكها وقالت:

- قد نتلمذ لك يوماً ما..

فلاح الحماس في وجه الشاب وقال بسرور قياض:

- في أيّ وقت تشائين..

ولازم محجوب الصمت متظاهراً بالاهتمام بمراقبة  
الراقصين، وهو يكظم حنقه وثورته. إنّ الشاب  
الأحقّ النباه بجهاله يتحفّز للانقضاض على عرضه،  
وإنّه لفاعل إذا وجد غيرة، ولكن هيهات أن ينهزه  
فرصة، فليس لأحقّ مثله أن يُثبت في رأسه قرناً  
جديداً.. لقد وهب رأسه للقرون الذهبية، قرون  
المجد والسلطان. ولكن تُرى هل تستجيب لغزله؟  
هل تلين هذه الفتاة الغامضة الفاتنة؟ وأحسّ أنياب  
الغيرة السامة تنهش صدره.

ورقص الراقصون حتى أدرك أحمد عاصم التعب -  
أو الملل - فكفّ عن اللعب، وانفرط عقد المتجاذبين،  
فعادوا إلى جلستهم الأولى مشرقة وجوههم بالابتسام.  
وكان البدر قد علا في السماء وانسكب نوره إلى مياه

متفق - أنا ووالدي - على أن أنجع سياسة مع الفلاح هي: السوط.

وضحك الحاضرون - من الجنسين - ضحكًا عاليًا. وابتسم محبوب يداري هزيمته، وقد أفرخ روعه، وارتاح إلى تفرّده بالدفاع عن «القومية المصرية»، وقال لنفسه: «إنّ بدلة التشريفة الحقيقية هي ثوب الرياء فلا يفوتني ذلك!» وتساءل ساخرًا: تُرى كيف يصلح عليّ طه هذا الشعب الكريم؟ وكيف يحقّ مثله العليا؟ ومضى الوقت واليخت يشقّ الأمواج وكأنّه يسبح في النور السنيّ، وانبه محبوب مرّة ثالثة على قول شاب: - .. فما من شكّ أنّ الزوجة أجبرت الباشا زوجها على الإقامة في فندق إبقاءً على سائق السيّارة.

فسألت إحدى الفتيات باهتمام:

- وهل حقًا خيرها الباشا بين بقائه هو أو السائق؟

- نعم.

- وماذا كان جوابها؟

- السائق. . ؟

ولبت يلتقط الأحاديث من هنا وهناك، طورًا في يقظة وانتباه، وطورًا شاردًا ذاهلاً، حتّى لاحت الحدائق ساهرة في ضوء القمر كأعذب الأحلام. ونهض الصحاب مهتمين. ثمّ دعاهم عفت بك إلى البوفيه.

- ٤٢ -

استبقوا إلى الموائد، واتّخذوا مجالسهم، وأترعت الكئوس، وملأ عفت كأس إحسان، وكانت أوّل مرّة تشرب في جماعة، فقالت بصوت خفيض:

- حسيّ كأس واحدة.

فقال الشابّ ضاحكًا:

- هلاًّ تلقّعت بخمار التقوى وذهبت إلى «السيدة» للوعظ والإرشاد؟! ثمّ هس في أذنها:

- انظري إلى حكمت، إنّها تشرب زجاجة كاملة دون أن يبوح لسانها ببرّ.

ورأت إحسان الجميع ينظرون إليها لتبدأ بافتتاح

الأمر، وتظاهر بتأمل القمر والغياب عمّا حوله حتّى لا يلاحظ أحد صمته. فغاب حقًا عن الحديث دقائق، ولتّما عاد بوعيه إلى الجلوس، وجد الحديث قد طرق الأحوال الداخلية دون أن يدري كيف. وسمع بعضهم يقول:

- أما مصر فيستطيع أيّ حاكم أن يستبدّ بها دون كبير خطر.

- الواقع أنّ أيّ نظام من أنظمة الحكم يستحيل ديكتاتورية إذا طُبّق في مصر.

- هذا وطن «ضربك شرف يا أفندينا» . . .

وقال أحمد عاصم بلهجة اليقين:

- لن تظفر مصر باستقلالها أبدًا. . .

- استبدّت بها عادة الحكم الأجنبي!

فضحك عفت وقال:

- وما حاجة مصر إلى الاستقلال؟. أما الزعماء

فيتعاركون على الحكم، وأما الشعب فنسير أهل للاستقلال.

ووجد محبوب الفرصة سانحة ليقول قولًا «أخلاقيًا» وليُجلبت لنفسه سمعة إيجابية، الأمر الذي أجمع على تحقيقه حين فكّر في الاشتراك في جمعية الإخوان المسلمين، فقال مبتسماً:

- ألا يسوؤك أن تقول هذا القول عن قومك. . !

فضحك عفت مرّة أخرى وقال بصوت مرتفع:

- لا تجري في عروقي نقطة دم مصرية واحدة.

وأحدث قوله عاصفة من الضحك، أما محبوب فتضاعف مقتته له، لا غضبًا لوظيفته، ولكن ثورة لكبريائه، وذكر خطبة رثانة ألقاها والد عفت في مجلس الشيوخ فظنّ أنّه قبض على عنق الشابّ، وقال بلهجة الظافر:

- فما قولك في خطبة الباشا والدك في مجلس

الشيوخ، عند مناقشة الميزانية، التي دافع بها عن الفلاح دفاعًا وطنيًا مجيدًا؟! فقهقه عفت وقال كالساخر:

- هذا في مجلس الشيوخ، أما في البيت فكلانا

وقال شوكت مرة أخرى:  
 - إن أعجب مقامرة شاهدتها في حياتي كانت مقامرة شاب بعشيقته!  
 فلاح الاهتمام في وجوه الجميع وسأله كثيرون:  
 - حقاً؟ . وكيف كان ذلك؟  
 فأجاب الشاب الشمل قائلاً:  
 - إنّه صديق حميم، وقد اصطحب يوماً عشيقته إلى نادٍ خاص من أندية القمار، فخسر جميع نقوده، وكانت الخمر قد لعبت بروس الجميع فاقترح عليه سكران أن يقامر بعشيقته على كل خسارته، فلما استردّ نقوده وإما خسر عشيقته، فقبل الاقتراح وقامر عليه وخسر عشيقته. .  
 - وهل رضيت المرأة؟  
 - كانت في حالة سكر بين، وقد انتقلت ملكيتها إلى الرابع، أو- وهو الأصح - انتقلت ملكيته إليها.  
 - من عسى أن يكون ذلك الصديق؟  
 - أما هذا فلا، لأن أحد الطرفين موجود بيننا. وتبادلت العين نظرات الإنكار، وابتسمت الثغور في ريب، ولاح الفضول في جميع الوجوه خاصة النساء، وسألت إحسان عفت بك:  
 - من هذا المقامر يا ترى؟  
 فسرّ الشاب بسؤالها وفسره على هواه، ثم قال:  
 - لا يدري ذلك إلا الأستاذ شوكت، ولعله لا يدريه أيضاً.  
 - أيعجبك هذا النوع من القمار؟  
 فقال كالساخط:  
 - أنا لا أقامر بمن أحب. .  
 وأدركت أنها تكلمت أكثر ممّا ينبغي، وأجمعت على ألا تشرب غير كأسها الثالثة، ودارت رءوس ورءوس، فتشاحن زوجان علانية وتبادلًا السباب، وكاد الأستاذ حسني شوكت يفقد صوابه، وانتشى بحجوب عبد الدائم ولعبت الخمر بعقله فتناسى همومه وأكبّ على الحديث والضحك.  
 ولما فرغت الصحاف والزجاجات هتف بهم عفت قائلاً:

الحفل، فرفعت كأسها في شيء من الارتباك، فارتفعت الأيدي بالكنوس، وهتفوا جميعاً باسم مدير المكتب، ثم أفرغوا كنوسهم حتى الثالثة. وسرعان ما مرّقت السكاكين اللحوم، ثم التقطتها الشوكات وسلّمتها إلى الأفواه النهمّة، وتحول المقصف إلى ميدان، دارت به معركة بالغة في عنفها، بالغة في لذتها، وتعذّدت ضحاياها من الأطعمة والأشربة. وتنبّت إحسان إلى أنّ عفت بك يتعمّد أن يلمسها وهو يميل نحوها ليملاً كأسها، وأنّ حذاءه من حذاءها أكثر من مرة، ولكنّها لم تشجعه. وأكل محبوب وشرب بنهم، لا طلباً للذة، ولكن هرباً من مشاعره، لأنّه ما انفك يفكر في البيت القائم أمام المحطة مُدّ رسا اليخت إلى شاطئ الحديقة، تولّاه شعور بالكآبة والخوف لم يستطع منه فكاًكاً، ترى ماذا يفعل والده في هذه اللحظة؟، ألا يزال والده طريح الفراش؟ وما عسى أن تفعل أمّه؟ . هل نفدت النقود؟ . هل باعا بعض الأثاث القديم؟ ألا يحتاجان لشيء من فئات هذه المائدة؟ . كيف يتخلّص من شعور الضيق والكآبة؟! من له بمن يخضع شعوره لقسوة عقله الحرّ؟! وقد أفرط في الشراب، وثرثر بغير حساب، ولم يأل جهداً في الهرب من باطنه، والارتماء بين أيدي المحيطين به واختلط الحديث أيما اختلاط، وسأل سائل جماعة المتزوجين: هل حقق الزواج أحلامهم؟ وتبادل الأزواج نظرات الحيرة وضجّوا ضاحكين. وسأل آخر عن أمتع ما في الزواج؟ فقال شاب متزوج: إنّه الحب، وقال آخر: إنّه الخلاص من الحب!، وقال ثالث: إنّه تحديد النسل!، وأجاب محبوب في سرّه: «بل هو القرن الذهبي!» وقال حسني شوكت بلا مناسبة:

- خسرت في الأسبوع الماضي خمسة عشر جنيهًا.  
 فقالت له خطيبته:  
 - البقية في الأسبوع القادم!  
 وقال أحمد عاصم:  
 - يقولون إنّ سيّ الحظ في القمار سعيد في الحب.  
 فقالت فتاة مبتسمة:  
 - ذلك لأنّ سيّ الحظ في القمار لا يعرف الغش!

- هلموا إلى الحديقة ..

وردّوا قوله: «إلى الحديقة.. إلى الحديقة» ومضوا أزواجًا وأفرادًا. وأراد محبوب أن يتخلّف في اليخت كما كان اعتزم، وتنحّي جانبًا، بالرغم من سكره الشديد، ولكن لاحظ منه نظرة فرأى زوجه متأبّطة ذراع عفت بك في مقدّمة الراحلين، فهاج دمه، وقرض أسنانه بحنق، وعثر به بعض الإخوان فتأبّط ذراعه ودعاه إلى المسير معه، فلم يقاوم، ونسي عزمه وخافوه. وكانت الحديقة تموج بجماعات المرتادين نساء ورجالًا، بين سائرين يتضحكون، وجالسين يأكلون ويشربون، وهؤلاء وأولئك يفتنون المرح في كلّ مكان، وقد ألقت بينهم جميعًا دواعي الغبطة وأواصر الشباب والسرور وحبّ الفكاهة والمزاح، فاشتبكوا في الحديث على غير سابق معرفة، وتراشقوا بالنكات بغير استئذان، صاعدين هضبة معشوشبة أو هابطين مسيلًا بين الزهور، متعصمين بخميلة من اللبلاب والياسمين أو عابرين قنطرة على جدول يسيل بلجين القمر، والبدر يطلّ عليهم من علياء السماء في مركبه الأبدى تحفّ به الكواكب والنجوم، غامرًا الدنيا بنوره البهيّ، وطابت النفوس وصفت، فراح ذوو الأصوات الجميلة يسجعون الأغاني. وانطلق العازفون يستنطقون الأوتار. وكان أصحاب اليخت يمضون في الماشي باعثن ضجيجًا صاخبًا، وكان الأستاذ حسني شوكت يعريد بلا مبالاة، فلفت نحوهم الأبصار. وسار محبوب إلى يمين زوجه - وعفت بك إلى جوارها - وقد بلغ به السكر. وكان يتكلّم ويضحك ولكّنه كان متغيّظًا على الفتى الذي يلازم زوجه كظلّها، وعلى سكره ومرحه لم يستطع أن ينسى أنّه في القناطر، في بلده، على كسب من والديه البائسين، فجعل ينظر فيها حوله بحذر، ويقاوم جهده شعور القلق الذي يساوره. وفكر أكثر من مرّة أن يقفل إلى اليخت، ولكّنه ظلّ مستسلّمًا لتيّار الرفاق. وحدث أن أوقفهم حسني شوكت عند بائع تين لبيتاع منه، وكان البائع عجوزًا يتوكّأ على عصا من كبر وعجز، تذكر محبوب أباه في غمضة عين، وجدّوا في طريقهم وصورة الرجل لا تفارقه، فأبوه إذا قدّر له أن يترك الفراش فلن

يكون إلّا صورة من هذا الرجل، ولن يخطو خطوة بغير عصا يتوكّأ عليها. وتفكر مليًا ثمّ قال لنفسه: ولا يبعد إذا تحطّمت وسائله أن يرفع سلّة تين ويسرح بها. ومن يدرية فلعلّه يسرح الآن بسلّة تين في موضع ما من البلد؟ وألقى بطرفه ناحية المحطّة وهو يمشي كالمترنّح وقد انقبض صدره انقباضًا شديدًا. لم يعد يشارك الرفاق لهوهم وسرورهم، وولّى عنه الصفاء والسرور، وغلبه القلق والحزن والخوف. كان مجيئه خطأ كبيرًا، ولكن هل كان تحلّفه يغيّر من واقع الأمر شيئًا؟. إذا كان تقدير أبيه صادقًا فقد مضى عليه الآن ثلاثة أشهر وهو بلا عون، فماذا صنع بنفسه وبأتمه؟ وكيف واجه عبوس الحياة في عجزه ومرضه؟ ثلاثة أشهر أو يزيد: يونيو ويولييه وأغسطس، وهذا الأسبوع من سبتمبر، أي ذلك الزمن الذي ذاق فيه حلاوة العيش وطيب الحياة، وثقل رأسه، وخدمت نشوته مخلّقة خمارًا مصدّعًا، وخانته جرائته التي تستهين بكلّ شيء، حتّى تساءل فرغًا: أهذه يقظة ما يسمّونه بالضمير؟ أبعد تلك الثورة المدمّرة التي شملت حياته الجامعيّة كلّها، وبعد مواجهة التجربة الخطيرة ثلاثة أشهر كاملة والظفر بالنجاح المطلق، يجد نفسه في هذه الحالة الزرّيّة من الجبن والالْم؟ وكوّر قبضته بعنف، ورفض بعناد أن يعترف بضيعة وخوفه، أو بأنّ الذي يثّر في صدره ضمير، أو بأنّه لا يزال يتأثر بعاطفة البتوة، رفض ذلك رفضًا عنيدًا مغيظًا، وقال يعزّي نفسه ويشجّعها: إنّ هو إلّا الخوف من فضيحة قد تهدّد مركزه الاجتماعيّ، إنّ لا يأمن على والديه ولكّنه يخاف أن يدفعهما البؤس إلى إزعاج حياته وتكدير صفو مجده. وموعدهما أوّل أكتوبر فإذا تسلم ماهيته الجديدة اشترى طمأنينته ببضعة جنيهات يرسلها إلى أبيه وانتهى من هذا العذاب. وردّد هذا الرأي في نفسه وأكّده له تأكيدًا شديدًا، وحاول أن يستعيد شجاعته وطربه. ولمّا عاوده شعوره بما حوله وجد نفسه يخطب منفردًا، فنظر فيما حوله ذاهلًا فلم يجد إلّا الأستاذ أحمد عاصم، وسأله عن الرفاق، فهزّ كفيه قائلاً: «لا أدري، فادرك أنّه ضلّ الجميع. وشعر بتعب، وغثيان مباغت، ثمّ انقلب يقيء..! وأخذته صاحبه من يده إلى اليخت،

- دعني من فضلك.. دعني..  
ثم اربد وجهها وعيس، فقراً فيه الجذ والنفور،  
وتورد وجهه خجلاً، وأرخى ذراعيه، ونهض واجماً  
دون أن ينبس بكلمة. وفتح الباب حتى غادرت  
المقصورة، ثم دلها على مكان زوجها وعاد أدراجيه.  
ووجدت محبوب نائماً أو كالنائم، وكان في حالة إعياء  
شديد وقد علت وجهه صفرة شديدة..

\*\*\*

ورسا اليخت إلى قصر النيل حوالى الساعة الثانية  
صباحاً. وعاد الزوجان إلى عمارة شليخر في سيارة أحد  
عاصم، وكان محبوب أفاق قليلاً ولكنه لبث متعباً  
منهوك القوى، وما اغتور روحه وحالته المعنوية كان  
أدهى وأمر. تركت نكسة السكر في روحه آثارها  
فانقبض صدره، وخذت نشوته، وامتنعت نفسه،  
وأحسن الدنيا بحواس المريض، وغابت إحسان قليلاً  
وجاءته بفنجان قهوة، وجلست قبالة على الشيزنج،  
قالت له:

- أفرطت في الشراب..  
فأخني رأسه بالإيجاب وإن ذكر الأسباب الأخرى  
التي كذرت صفوه وقال بسخط:  
- لقد قبلت الدعوة إلى هذه الرحلة على غير  
إرادتي..

فقالت تدافع عن الرحلة:  
- وما ذنب الرحلة؟.. كانت رحلة جميلة طيبة..  
فقال بحدة:

- يا له من صفيق سي عفت بك هذا!  
فابتسمت إحسان، وتردأت ملياً، ثم غمغمت:  
- انتهى.. أوقفته عند حده.

فنبت عليها عيني الجاحظتين الدابلتين المحمرتين  
متسائلاً، فأوجزت له ما حدث ولكنه أبى إلا أن  
تسهب ولا تترك كبيرة ولا صغيرة، فروت له الحادثة  
بحذاويرها، حتى انفجر قائلًا:

- صفيق.. وقع، ولكنك أحسنت كل الإحسان،  
يا لهم من أرذال جميعاً!!  
وأثقلت عيناه، بيد أنه تساءل بأي حق يعيب أي

وهناك مضى به إلى مقصورة، فاستلقى على أريكة وراح  
في سبات. ولم يذر كم لبث، ولكنه كان يرى في مخيلته  
دائماً بائع التين حتى خاله أباه بالذات. وقد قهره الشقاء  
على ذل السؤال.

- ٤٣ -

وعادوا إلى اليخت وقد نال منهم التعب وبخت  
منهم الأصوات. وأبحر اليخت قبل منتصف الليل  
بقليل. وسألت إحسان عن زوجها فأخبرها أحد  
عاصم بأنه نائم في مقصورة، ودعاها لاصطحابها إليه،  
ولكن عفت تطويع بالمسير بين يديها، وهبطاً معاً إلى  
باطن اليخت، وتقدمها في ردهة جانبية إلى باب  
مقصورة وفتحه وأوسع لها فدخلت وتبعها على الأثر  
ورد الباب، ووجدت المقصورة خالية، وطالعتها في  
وسطها صورة لعل عفت على نضد، فتحوّلت إلى  
الوراء فرأت صاحبها يقف وراء الباب يتسم إليها  
بعين تنطقان بالهيام والظفر، فأدركت أنه استدرجها  
إلى مقصورته، وخامرها الخوف فسألته متجاهلة  
مقاصده:

- أين محبوب..؟  
فقال والابتسامة لا تزال على شفتيه، وقد  
احمرت عيناه الجميلتان من أثر الحمار:  
- سنذهب إليه بعد استراحة قصيرة..  
فسألته بلهجة رزينة:  
- لماذا أتيت بي إلى هنا؟

كانت ثقته بنفسه لا حد لها، فكان جوابه أن جثا  
على ركبتيه عند قدميها وأحاط ساقيه بذراعيه وضّمها  
إلى صدره، وقال لها رافعاً إليها وجهه:

- لا تسأليني يا إحسان، أنت تعرفين كل شيء،  
والكلام في مثل حالتي تحصيل حاصل، ألم يتكلم قلبي  
منذ أول لقاء بيننا؟ ألم يصرخ هذه الليلة حتى خفت  
أن تصك نجواه أذان الحافئين بنا..!

وتولّاهما الاضطراب والاستياء، وأمسكت بساعديه  
لتنفك السلسلة التي تطوّقها، ودفعته بعنف، وصاحت  
به بصوت خشن، غاضب:



فغمغم وقد ابتسم ابتسامة دلت على الخجل والارتباك :

- عال .. شكرًا لك ..

وارتدى ثيابه وانطلق إلى الخارج، ومضى إلى حديقة صولت حيث اجتمع ببعض الزملاء من الموظفين، وشرب كوبة من عصير الليمون، ولبت ساعة بينهم يتحدثون هونًا، ثم غادر المكان، تاركًا قدميه للطريق ينقله من شارع إلى شارع مستسلمًا للذة المشي. فذكر الليلة الماضية فعبس وجهه، وهاله ما بثته في نفسه من مشاعر الألم واليأس، وما أشاعته فيها من أفكار سود وخواطر ضعف واستكانة. وتولاه خجل لما اعتوره من خور في الجسم والنفس، وقال لنفسه: «لقد ظفرت حتى الآن بفضل حُرِّيَّة عقلي وقوة إرادتي وتلك الحكمة العالية: طظ.. فلا يجوز أن أفترط في كنز من كنوزي الغالية!.. أجل، هنالك وظيفة سامية وطموح وجاه وحر ونساء ومال وطعام وترف، فكيف يسمح بأن ينقص عليه هذه اللذات أب مثلول، وخواطر مرض، وغيره جنونية؟!.. وسرعان ما استرد نشاطه وحيويته، وعقليته الصارمة الساخرة، واستقبل الحياة مرة أخرى بجسارته المعهودة وطموحه الذي لا يعرف الحدود. وبدا كل شيء كأنما يسير في مجراه الطبيعي، وكان الحياة ستظل مذعنة لمنطقه أبد الدهر. وجاء يوم السبت وقد انتصف سبتمبر، فأثبتت له حوادثه أنه إذا كان يستطيع أن يتحكم في نفسه فإنه أعجز من أن يدعي القدرة على التحكم في الحوادث..

كان السبت يوم قاسم بك فهمي، وكان محبوب يغادر الشقة في تمام الساعة مساءً ليهيئ للرجل الخلوة المنشودة. ولكن كانت الساعة السادسة حين ردّ الجرس، ولم يكن الشاب يتوقع قدوم أحد في تلك الساعة، فدخل إلى الردهة الخارجية ليرى القادم، وفتحت الطاهية الباب فراه كما أراد. لم يصدق عينيه، وجعل يحملق بذهول جنوني. رأى أباه، أباه دون غيره من البشر، وقد وقف الرجل على عتبة الباب متوكئًا على عصاه، ملقبًا إليه ببصر جامد مكفهز. سمر كلاهما في مكانه. وجمدت عيناها لا تتحولان. وكابد

إنسان في هذه الدنيا وهو ما هو رأيًا وفعلًا؟.. وقال وكأنه يجيب نفسه:

- نستغفل الناس إذا شئنا، ولكن لا نسمح لمخلوق بأن يستغفلنا.

فتفكرت في قوله وعلى شفيتها ابتسامة غامضة، وعاد يفكر في والديه فصدمت نيته على مد يد المعونة إليهما حتى ينفذ عن حياته أي ظل للكدر، ثم عجب كيف أن تغيرًا هينًا في الجسم قد يُذهب بهجة الدنيا في غمضة عين، ويُحيل لذاتها وصفاءها ألمًا وكدرًا يزهقان النفس. واقترحت عليه إحسان أن ينام، ولكنّه أراد أن يرتاح قليلًا بمكانه من المقعد، فمضت هي إلى الفراش. وعاد يتساءل ماذا يحدث لو لازمه هذا التغير فذاب على تناول الحياة بحواس المرض والامتعاظ؟! وافشعر بدنه!.. ولم يجد سوى جواب واحد: الانتحار!.. هكذا قد يقضي على نفسه من كرس نفسه للأنانية! ومع ذلك يوجد في هذه الدنيا أناس يؤثرون التعب والأهوال على السلامة، كصاحبه القديم عليّ طه، ولا يمكن أن يسلم مخلوق بأنه ليس لهم لذاتهم الخاصة بهم في نضالهم وكفاحهم، فأية لذة هذه؟! أحقًا للإيثار لذة كلذة الأثرة؟ إنه يحل هذه اللذة ويحتقرها. وغتل له عليّ طه بوجهه الجميل وحاسه المتقد، وذكر عهد دار الطلبة ومأمون رضوان، فتحول رأسه وهو لا يدري إلى الفراش، وزنت عيناه إلى إحسان وقد غطت في سبات عميق. فبدت له الذكريات في إطار من الدهشة والأحلام..

#### - ٤٤ -

واستيقظ في ضحى اليوم الثاني - الجمعة - وعادته في الحال ذكريات الليلة الماضية مقرونة بإحساساتها المحزنة. وغادر الفراش بهمة متؤبّة، واستحمّ بالماء البارد لينعش جسمه ونفسه، وعاد إلى الصلاة، فالتقى بزوجه، وقد سأله بركة:

- كيف أنت الآن؟

زوجها، ولكنّها لم تتردّد عن القيام بواجبها، فافتريت من القادم ومدّت له يدها باحترام ودعته إلى الجلوس. وكان عجوب يرى ما يقع أمامه بعينه الذاهلتين، ولكنّه كان انتقل من ذهول سلبّي إلى ذهول إيجابيّ، فجعل يستصرخ إرادته وعقله ليتشلاه من ورطته وأخذ يقيق من وقع المباغثة فلم يرتفع لوجود زوجه، وأوما لها إيماء خفيفة بالانسحاب، فلم تلبث أن تراجعت بلطف. وتوتّب بجامع قوّته ليمتلك زمام الموقف ويستردّ عقله وإرادته، وأعانه على ذلك الخطر الذي يتهلّده باقتراب موعد الوزير. أجل ينبغي أن يخفي أباه عن عيني القادم عمّا قليل ويعالج أمره في خلوة وهدوء، هو أبوه على آية حال وليس شيطاناً ولا قضاء وقدرًا، وقال له بصوت رقيق ليّن:

- تفضّل معي يا أبيّ ..

وأعطاه ذراعه، فلم يرفض الرجل، وأدرك أنّه يريد أن يحادثه على انفراد، فنهض بمعونته، وسار به عجوب إلى حجرة الاستقبال على يمين الداخل، ثم أغلق الباب، وكان عقله لا يني عن التفكير: ما الذي دلّه على مسكنه؟ ما الذي جاء به؟ وهل من المصادفات أن يجيء في يوم الوزير وقبل مواعده بقليل، وشتم في الجوّ رائحة مؤامرة نتن، وتحايل لعينه شبح الإخشيدى بوجهه المتلث وعينه المستديرتين، فسرت في جسده رعدة، وامتلأت نفسه حنقًا وكرهية. ترى هل أفشى سرّه كلّ؟ .. ربّاه أيّ كارثة ترصده؟ .. ولكن كلّاً .. أبوه لا يعلم بسرّه الخطير، وإلاّ ما استطاع - وهو الريفيّ الغيور - أن يتمالك أعصابه، ولكنّ البغيض جاء به في الوقت المناسب لعلّه أن يكشف الحقيقة بنفسه لتكون الصدمة أقطع، وتقصّد جبينه عرقًا باردًا ..

وصوب الرجل نحوه نظرة ملتبهة وقال:

- لماذا تقف أمامي هكذا؟، لماذا لا ترخّب بي؟ ..

وكيف لا تهتني بالشفاء؟

وسكت الرجل الغاضب حتّى تمالك أنفاسه ثم استدرك بلهجة ساخرة قاسية:

- لشّد ما ألّني ما علمت من فركك وبؤسك وسعيك

عجوب في تلك اللحظة الرهيبة شعورًا بالخوف والقنوط والهزيمة لم يشعر بمثله من قبل، ثم مزّق الأب السكون الأليم فقال بصوت ضعيف ولكنّه واضح ينم عن الألم والتهكّم المرير:

- ألم تعرفني بعد .. لماذا لا تهرع إلى استقبالي؟!

وأفاق الشاب من ذهوله فاقترب من أبيه في خطى متهالكة ومدّ إليه يده، ولكنّ الرجل تجاهلها. فقال عجوب بارتباك وتلعثم:

- تفضّل يا والدي .. تفضّل ..

فتحرّك الرجل متوكّئًا على عصاه يسير في خطوات ثقيلة، وقد تقوّس ظهره، وتهلّم بنيانه، وجعل يتفحص الأثاث والجدران بعين ملؤها الإعجاب الهائز، ويقول:

- ما شاء الله .. ما شاء الله .. لشّد ما تعاني يا بنيّ

مرارة البؤس والفقرا؟

فاشتدّ ارتباك عجوب وحصر، فما استطاع أن ينس بكلمة، ها هو ذا والده يملأ الشّقة بالفزع وعمّا قليل يأتي قاسم بك، حقيقتان لا يدري كيف يمكن أن يجتمعا، ومع ذلك فهما واقعتان لا محالة وإن أشفق من التفكير في عقابهما. ترى كيف يذكر غدًا هذا اليوم الخطير؟ أيدكره كما يذكر مازقًا خطيرًا نجا منه بأعجوبة؟. أم يذكره يومًا أسود انهارت فيه آماله جميعًا؟، ولم يستطع في انفعاله الأول أن يحسن التفكير ولا التدبير. وفتح عند ذاك باب حجرة النوم وبرزت منه إحسان، ولعلّه بعثها للخروج ما سمعت من صوت وحركة غير عادية، فعبجت لوجود الشيخ الغريب، وألقت على هيئته الرّثة نظرة إنكار. وحوّل عبد الدائم أفندي إليها رأسه، فلاححت على شفّته ابتسامة حزينة، وقال بغير مبالاة ملتفتًا إلى ابنه:

- زوجتك؟! (ثمّ حوّل رأسه إليها) أهلاً بزواج

ابني، أنا هموك يا عروس؟!.

وحدجت إحسان في وجه زوجها فهالها جموده وارتباكها وكأبتها، وآستت في عيني نظرة منكسرة لم تراها من قبل، فلم تشكّ في صلق الرجل، ولم تكن تعلم شيئًا عمّا بين الرجلين ممّا يستوجب الموقف الذي يقفه

إلى وظيفتي منذ شهرين وكنت مُعدماً فكان عليّ أن أهني نفسي بالمظهر اللائق، وإلا ضيّعت على نفسي فرصة لا تسنح في حياة مرتين، فاقترضت مبلغاً كبيراً ما زلت مديناً به، هكذا فزت بالوظيفة ولكن لا زلت أكابد الارتباك والفاقة، هذه هي الحقيقة.

فهزّ الرجل رأسه في ريبة وقال بامتعاض:  
- إنك تُعنى أكثر مما ينبغي بالمظهر اللائق، والسكن الأنيق، والمآدب الفاخرة!..

فادرك محجوب أنّ الإخشيد وفّى وشأته حقها، وقال وهو يغالب عواطف الحق والغضب:  
- هذه المظاهر وإن بدت كساليّة إلا أنّها من ضرورات وظيفتي..

- وهل من ضرورات هذه الوظيفة المجيدة أن تنصّور جوعاً؟!  
فقال الشاب وهو يبذل جهد المستमित ليداري غضبه وحنقه:

- كلاً يا أبي. لقد أثبتت لك عن حسن مقصدي فلا تثبط همّتي بنقمتك ودعني أتمّ بنجاحي..  
- أحسبه لا يتمّ إلا بقتلنا..

- بل سيتمّ بما فيه سعادتنا جميعاً..  
وسكت عبد الدائم أفندي ملياً وهو يرنو إليه بنظرة مليئة بالريبة وسوء الظنّ، ثمّ قال متسائلاً:  
- إذا كانت هذه حالتك فكيف تزوّجت؟!.. لماذا لم تزوّج الزواج إلى ميسرة؟! وكيف تتزوّج دون إخبارنا فضلاً عن الرجوع إلى رأينا؟..

وارتاح محجوب لتساؤل والده هذا الذي أكّد له جهله بالسرّ الخطير، وقال بصوت خفيض:

- كانت الزيجة ثمن الوظيفة كما يحدث في أيامنا هذه كثيراً، لقد صاهرت أسرة محترمة تمّت إلى الوزير بصلة القربى وكانت الزيجة من أسباب ارتباكي، ولعلّك أحطت الآن بالظروف القاسية التي اكتفت حياتي في الشهرين الماضيين.

بيد أنّ الرجل لم يكن مطمئناً، واشتدّت بالشباب حالة التوتر والاستياء، وشعر كلاهما بأنّ لديه ما يقوله، ولكن جرس الباب الخارجي رنّ بخته، وفتح

عبيّاً في سبيل الحصول على وظيفة، فحفزني ذلك على ترك أنك وحدها في القناطر، والحضور بنفسني لمواساتك، أعانك الله يا مسكين!.

واستطاع محجوب أن يتكلّم بعد أن أغلق الباب واطمأن بعض الاطمئنان:

- أبي.. لا تتهمّ بي.. أنا أعلم أنّي أستحقّ غضبك ولكن دعني أشرح لك ما التبس عليك فهمه، والحكم لك..

- وهل من حاجة إلى الشرح يا بني؟.. حسبي أن أنظر فيها حولي لأدرك في أيّ شقاء تعيش!..

فعضّ محجوب على شفتيه وقال:

- أبي...، والله ما غفلت عنك قطّ، والله ما سنحت فرصة لمساعدتك فأهلته، ولكن ظروف قاسية رغم هذه المظاهر الخدّاعة، لذلك لم يرنّح لي جنب، وما كان ليقرّر لي قرار قبل أن أطمئنّ عليك وعلى والدتي..

فاشتدّ اكفهرار وجه الشيخ وقال بحلّة وحنق:

- ظروفك قاسية أيّها الابن البار؟!.. ماذا تنتظر حتّى تتفصّل علينا بجنيهين؟ أنتظر الوزارة؟!، إني أعجب كيف طابت لك الحياة وأنت تعلم أنّ والديك يعانيان الفاقة والجوع والتشريد! لقد استصرختك باكياً ولكنّي علمت فيما بعد أنّي خاطبت ضميراً ميتاً. تركتنا للعجز والفقر حتّى بعنا أثاث بيتنا، وها أنت تنعم بالوظيفة العالية، والمأهية الكبيرة، والسكن الوثير، ولكنك لا تجد في ذلك كلّهُ إلاّ ظروفاً قاسية لا تسمح لك بأن تنقذنا من التسوّل، اليس كذلك أيّها الشاب الهام؟.

امتقع وجه محجوب حتّى حاكى وجوه الموق، شعر كالمختنق الذي ينتفض ويقتل عبيّاً لاستنشاق نفس واحد. ولم يكن كلام أبيه قد حرّك قلبه ولكنّه أربكه وكرّبه وأوقعه في ضيق شديد، فقال:

- لشدّ ما يؤلّني كلامك يا والدي، أصغر إليّ، ساكاشفك بالحقيقة وأصلح خطي، وأكفر عمّا تتهمني به من عُقوق. يعلم الله أنّي كنت سارقت إليك أنباء توفيتي وأمدّك بالمعونة أوّل الشهر القادم، لقد وفّقت

الباب ثم أغلق: وسمعا وقع أقدام ثقيلة في الدهليز يعرفها محجوب حق المعرفة .

#### - ٤٥ -

وخفق قلبه بعنف، وسرت في جوارحه رعدة خوف لم يجد عليها من سلطان، وتغايلت لعينيه مرة أخرى صورة الإخشيدى البغيضة. ترى كيف تنتهي هذه الليلة؟ أيدكرها في المستقبل وهو يضحك أم وهو يبكي؟ وسمع أبوه وقع أقدام القادم فسأله:

- هل كنت تنتظر ضيفاً؟

فقال بلا تردد وهو يتظاهر بالهدوء:

- نعم.. هذا حي جاء لزيارة كريمته..

- ألا تذهب للقائه؟

فتلجلج لحظات ثم قال بحزم:

- كلا، ستجد زوجي عذراً تتحله لغيابي،

وسأقدمك إليه في وقت آخر..!

وساد الصمت، وقد شعر الشيخ بأن ابنه يتأفف من تقديمه إلى حمية فنكس ذقنه في سكون وحزن.

وجلس محجوب قريباً من الباب يحاول جهده أن يضبط عواطفه، واختلس من والده نظرات غاضبة تنم عن

حنقه وحقد. ينبغي أن تنتهي الليلة بسلام. أحس في

باطنه بأنه إذا انتهت الليلة بسلام فقد نجا بحياته وآماله إلى الأبد. ولكن ما الذي يدعوه إلى الخوف؟!

قد بلغ الوزير المكان الذي يريده بسلام، وتمت حالة والده على أنه مجهل سره الخطير، فما عليه إلا أن يأخذ

نفسه بالصبر والانتظار حتى يذهب البك - كما جاء - بسلام. بيد أنه لبث - على رغم ما تبشّر به الحوادث -

قلعاً مغتلاً. وزاد من توتر أعصابه أنّ والده عاد يقول بنبراته الدالة على الإنكار والمرارة:

- لو كان قلبك حنوناً يا بني لاستهان بضرورات الوظيفة التي تعتذر بها، ولشّق عليك أن تترك والدك

يتضوران جوعاً. وأعجب لوالدتك ما برحت تدفع عنك جاهدة الظنون، ونبتت ما نقل إلينا عنك،

وقالت لي: «ستبدي لك الأيام أنّي أعرف بابنتنا منك» فليتها جاءت معي لترى بعينها..!

وشعر محجوب بضجر، وضاق بالرجل الذي لولا وجوده لم يكن في المازق الذي هو فيه، وتوّن للردّ.

عليه، ولكنّ الجرس دقّ مؤذناً بقادم جديد، فوجب قلب محجوب وجيئاً مؤلاً. من يكون الطارق؟ هل من

جديد؟! وفتحت الطاهية ثم سُمع صوت يتكلم بحدة، فتميّز الشاب غيظاً ومضى إلى باب الحجرة

وفتحه، فرأى سيّدة تزيج الطاهية من طريقها وتدخل في حالة هياج عصبي شديد، كانت السيّدة

أرستقراطية المظهر، أنيقة الزي، فتولّته الدهشة والانزعاج، ثم ارتاع ودّع وأعيا عليه القول، ورأته

المرأة فأقبلت نحوه بهيئة متعجرفة، تقدح عيناها شرراً، حتى وقفت أمامه وسألته بازدراء:

- ألنت المدعو محجوب عبد الدائم؟

وكان محجوب في حالة جعلته مهتاً للذعر والتشاؤم، وحذّته نفسه المضطربة بأنه ضحية مؤامرة غادرة، أبوه

أداة من أدواتها القتالة، وغلبه القنوط، وأيقن أنّ مجده بات معلقاً بخيط وشيك الانقصاص. نظر إلى المرأة

بانكار وقال بصوت منخفض مشفقاً من صوتها المرتفع الذي يصلّ أذني أبيه:

- نعم يا سيّدي أنا هو..

فعبست حانقة ولوت شفتيها اشمزأراً وقالت بلهجة قاسية:

- هلاً دلّلتني على الحجرة التي يفرد فيها زوجي بالسيدة المصون زوجك؟

فنفذ الكلام إلى قلبه فشقه شطرين، وخارت قواه، وأوشك أن يذهل عمّا حوله، وتحولت المرأة عنه

كالمجنونة إلى باب المخدع، وأدارت الأكرة، ولكنّها وجدت الباب مغلقاً، فدقته براحة يدها بشدة صائحة بغضب جنوني:

- افتح الباب، افتح أيّها الرجل والوزير الخطير، لقد برج الخفاء ورايتك بعيني داخل هذا الماخور..

افتح ولا تحطمت الباب.

وبلغ اليأس بالشاب نهايته، فوقف مكانه لا يُبدي حراكاً، وكأنّه يرى فاجعة خطيرة لا تعنيه ولا يباط بها

مصيره، وكأنّه كبير عليه أن يصدق أنّ مجده الذي حشد

بتسوية الخلاف. لقد فاض الإناء، فلا تفاهم بعد اليوم، ولأنّتم منك انتقامًا يكون الدهر عظة لأمثالك من المستهترين.

ومضت المرأة نحو الباب الخارجي، والبك في أعقابها، وذهبا معًا.

\* \* \*

ونتم محجوب بصوت مبجوح:

- انتهى كلّ شيء.

أعجبت بها من حقيقة! أنخف ذاك الكفاح الجبار ولما يتسلّم ماهيته الجديدة؟.

أصاب الحظوظ كالأعمار بالسكته القلبية؟!

وقطع عليه تفكيره صوت أبيه وهو يسأل محزونًا:

- ما معنى هذا يا بني؟.

وكأنّ هذه الجملة نطقت على صدره الملتهب، فالتفت نحوه هائجًا تقدح عيناه شررًا، وقال بحق وحقد:

- انتهى كلّ شيء، انتهت الوظيفة والماهية. هلمّ نتسوّ معًا...

وارتسمت في عيني الرجل الذابتين نظرة زائغة ذاهلة، وبدا في حيرة قتالة وكرب عظيم. لم يصدق ما رأت عيناه ولا ما سمعت أذناه. كابد الألم المبيض والغضب المختق. ولولا ما آتس من قسوط ابنه وهذيانه لانفجر بركانه. لم تنتهِ الوظيفة والماهية فحسب، ولكنّ ابنه نفسه انتهى، ولم يعد ذا مال ولا ولد وسيقول لامرأته إذا عاد إلى بلده: لا تسألني عن محجوب، فقد انتهى محجوب وغدا ذكرى من الذكريات. وشعر عند ذاك بإعياء وخور، وبأنه يسقط إن لم يطمئن إلى مجلس، فولى الشاب ظهره، وعاد أدراجه في خطوات ثقيلة، متوكئًا على عصاه يكاد يقع على وجهه.

وارتمى محجوب على مقعده في الصالة، مرتفعًا يد المقعد، مسندًا رأسه إلى راحته. وكان السكون شاملًا كأنه بيت مهجور، وكلّ شيء بموضعه كأنّ أمورًا خطيرة لم تنقلب رأسًا على عقب. هل تستطيع روحه النائرة أن تصمد لهذا الشلال العارم من الحظّ العاتق؟!

له ما حشد من قوّة وفكر، وبنى عليه ما بنى من آمال، يمكن أن يصير في بعض الدقيقة أثرًا بعد عين. وشعر بوالده يقرب منه ويسأله بصوته الذي بات يمقته مقننًا: - ماذا هنالك؟.. ماذا تقول هذه السيّدة؟

ولكن لم يكلف الشاب نفسه مشونة الردّ عليه، وكأنّه لم يسمع قوله، فلم يعد يُباله، ولم تكف المرأة عن دق الباب، وصاحت حانقة:

- إني أنذرك بأنك إذا لم تفتح الباب طوعًا فتحتة كرها بقوّة الشرطة.

فاستجمع محجوب قواه المشتتة ودنا من السيّدة، وقال لها بصوت ينمّ على الرجاء:

- سيّدي...

ولكنّها لم تتركه يتمّ كلامه، فتحوّلت إليه ولطمته على وجهه بشدّة وغلّ، وصاحت به:

- لا تنبس بكلمة أيّها القوّاد الخسيس...

فترجع محجوب مروّعًا إلى موقف أبيه وهو لا يدري به. وانفتح عند ذاك الباب وبرز منه قاسم بك فهمي ثمّ أغلقه وراءه، وسمع صرير المفتاح من الداخل، وكان الرجل يحاول أن يتظاهر بالثبات، ولكنّ ارتباكه كان أعظم ممّا تنفع فيه المداواة، وقال لزوجته بسرعة:

- هلمّي معي إلى الخارج من فضلك...

فصاحت به وقد جُنّت غضبًا:

- افتح هذا الباب، لا بدّ من فتحه.

فقال لها بصوت خفيض:

- خفّضي من صوتك يا هانم... هذا لا يليق بك... فصاحت به بتهكّم:

- حدّثني عمّا يليق وعمّا لا يليق يا معالي البك. هل من اللائق يا تُرى أن أضبطك في مخدع زوج هذا القوّاد الصفيق! وهل يسرّك أن يطلع ابنك وابنتك على سيرتك المحمودة؟!

- كفى... كفى، هلمّي معي ولتسوّن خلافنا في بيتنا.

وحاول أن يمسك بساعدها، ولكنّها نترت ساعدها من يده باحتقار وصاحت به:

- سأغادر هذا البيت الملوّث، ولكن لا تُمنّ نفسك

على خلاف عاداتها - عما يكنه فؤاده من اليأس والاستسلام.

- ٤٦ -

اجتمع الرفاق الثلاثة - عليّ طه وأحمد بدير ومأمون رضوان - بإدارة مجلّة النور الحديد التي يصدرها عليّ طه وكان مأمون رضوان يكثر من احتياجه بصاحبه ليتزوّد منها قبل سفره الوشيك. ولم يكن للناس من حديث في تلك الأيام إلّا حديث الفضيحة الكبرى التي لاكتها الألسن في كلّ مكان. قيل: إنّ حرم قاسم بك فهمي همت بشر بيان في الصحف عن الأسباب التي أدّت إلى طلاقها من زوجها. وقيل: إنّ بعض الجهات تدخّلت في الأمر وأقنعتها بالعدول عما كانت اجتمعت عليه وانتهت المسألة باستقالة الوزير، وسحب مذكرة ترقية مدير مكتبه من مجلس الوزراء ونقله إلى أسوان. استبعدت الفضيحة من أعمدة الصحف ولكنّها لم تعد تخفى على أحد. وقد خاض فيها الرفاق بأسف شديد، لأنهم لم ينسوا زميلهم القديم، ولا نسوا عهد الزمالة والجيرة بالجامعة ودار الطلبة. وكان عليّ طه أشدهم ألمًا، ولكنّه لبث ألمًا دفينًا يعتلج مع بواعثه الباطنة. وقد قال أحمد بدير:

- أتذكرون أحاديث صاحبنا البائس المستهتر؟  
أتذكرون طظ المشهورة؟.. لطلما حسبت ذلك لغواً  
وسخرية وفكاهة لا شأن لها بالعقيدة والعمل..

فقال مأمون رضوان بنبرات تنم عن الأسمى:  
- إذا تزعزع إيمان الإنسان بالله غدا صيداً سهلاً  
لكلّ شرّ.

فابتسم عليّ طه على حزنه وشجنه، وقال:  
- اسمح لي أن أحتجّ على هذا الاتهام!  
فقال مأمون رضوان مستدرّكاً:  
- أنت لك إيمانك الخاص وإن كنت أراه دون  
الكفاية..!

وابتسم عيناه النجلاوان وتساءل قبل أن ينبس  
أحد بكلمة:

هل يمكن أن ينبري لمواجهة هذه الأزمة الخطيرة بدرعه  
المعهود: طظ؟ وما الحيلة إذا لم يستطع؟.. ما عسى  
أن يصنع أنا ذاتي مثله، لا يحّمه في الدنيا شيء إلّا نفسه،  
إذا تألب الشقاء على سعادته؟ أمامه سبيل واحد هو  
الموت!. تبّاً لحظه! كيف انتهى مجده بهذه السرعة  
الجسوتية؟! ألا تكتظّ الدنيا بأمثاله من المغامرين الذين  
ترفّق بهم حتّى النهاية؟! وتنبّه من تأملاته على وقع  
أقدام خفيفة، فرفع رأسه المثلث فرأى إحسان أمامه  
تطالعه بوجه تعلوه صفرة الموت. التقت عيناهما في  
صمت أليم وكأنّ كلامهما يقول لصاحبه: «أهذه نهاية  
الكفاح والتعب!».

وخرجت عن صمتها أخيراً فسألته بنبرات  
متضغضة:

- هل ذهبوا؟

فأجابها في مثل نبراتها:

- أجل.. كما ترين.

فتردّت هنيهة ثمّ سألت:

- ما عسى أن ينتظرنا؟

وكيف يدري هو! يتدّ أنه هزّ رأسه وقد أخذت  
يسراه تشدّ حاجبه، وقال:

- لا أعلم الغيب. يُحتمل حدوث أيّ شيء، ولكن  
لا مفرّ من التشاؤم، فالأمر المؤكّد أنّ أحلامنا تبدّدت.  
هذه هي الحقيقة.

وساد صمت ثقيل. ولاحت في عينيها نظرة غائبة،  
وجعلت تستحضر من الماضي ما أودعته من ذكريات،  
ذكرت أمالها وكيف خابت واحداً بعد آخر، فاعتلج  
بصدرها الألم والحسرة حتّى اغرورقت عيناها، وأغرق  
محجوب في أفكاره مرّة أخرى، ولكنّه لم يستشعر الندم  
ولا أقرّ بالخطأ، كلّ ولا عدل عن رأي، وراح يتساءل  
هل يتكشف الغد عن حياة جديدة أو لم يبقّ له إلّا  
الموت؟! يتدّ أنه غلب على أمره هذه المرّة فاستسلم  
للأس والقنوط، وغشيت عينيه سحابة مظلمة،  
وحاول جهده أن ييبب بروحه المتمرّدة، وغمغم  
بصوت لا يكاد يُسمع هامساً: «طظ» ولكنّها غمّت -

- دُعنا من عمر. إنَّ مجتمعنا يستطيع أن يهضم هذا الوزير وأمثاله إذا أساغه بشيء من النسيان. وسوف يقبَع عائمًا أو عامين أو أكثر من نادي مُحَمَّد عليّ، وعسى أن تخرجه غداً المظاهرات الوطنيّة عن عزلته وتحمله كالأبطال إلى الوزارة مرّة أخرى، فيعيد سيرته الأولى، أو يلعب دورًا جديدًا، ومن يعيش يَرّة.

فقال مأمون رضوان ممتعضًا:

- حقيقة المسألة أتي أرى الخير متعلّقًا بجوهر الروح، وتربّاه، أو يراه الأستاذ تابعاً للرغيف. فإذا حسن توزيع الرغيف محق الشرّ..!

فقال عليّ بلهجة لم تخلُ من حنة:

- إني لا أوافق على هذا الوضع للمسألة، وإنك لتعلم بأنّي أهيّم بلذات الروح. وليس المجتمع الذي نحلم به بخالٍ من الشرّ، فلا خير في مجتمع يخلو من نقص يحثّ على الكمال، ولُكّن المجتمع الذي نحلم به يمحو شروءًا نراها في وضعنا الحاليّ ضريبًا من القضاء والقدر.

وهنا ضحك أحمد بدير ضحكًا عاليًا وقال:

- لماذا تتعجّلان المعركة ولما يآزف موعدها؟!

وابتسم الرفاق، الأصدقاء الأعداء وتبادلوا نظرة ذات معنى، وكأنّهم يتساءلون معًا: «ماذا نخشى لنا أيّها الغد؟!».

- تُرى أنصيرُ في المستقبل عدوين لدودين؟

فقهقه أحمد بدير ضاحكًا وقال:

- لا شكّ في هذا. ستهاجمك هذه المجلّة التي تباركها الآن بتمنيّاتك وستتهمك غداً بالرجعيّة والجمود، وستتهم أنت صاحبها - صديقك - بالزيف والكفر والإباحيّة، ومن يعيش يَرّة!

وابتسم الأصدقاء الأعداء. ثمّ قال مأمون رضوان بثقة وإيمان:

- مأساة اليوم هي مأساة الزيف!

فهزّ عليّ ظهْره رأسه في شكّ وقال:

- كم في المؤمنين من أوغاد. فليست الحقيقة ما ترى. وصاحبنا البائس وحش وفريسة معًا، فلا تنس نصيب المجتمع من جريّته. وهنالك مشات من المؤمنين يشقى الملايين لإسعادهم، فليست جريمتهم دون جريمة صاحبنا التعسّس. فالمجتمع الذي نعيش فيه يغري بالجريمة، يبدّ أنّه يحمي طائفة المجرمين الأقوياء وينهال على الضعفاء. أحبّ أن أسألكم: هل يكفي أن يستقيل ذلك الوزير؟

فقال مأمون رضوان:

- ما كان عمر بن الخطّاب يتردّد عن رجّه!

فقال أحمد بدير ساخرًا:





خاتمة الحائلي



استجلاء جديد، واستقبال تغيير: مرقد جديد ومنظر جديد وجو جديد وجيران جدد، فلعلّ الطالع أن يتبدّل، ولعلّ الحظّ أن يتجدّد، ولعلّ مشاعر خامدة أن تنفض عن صفحتها غبار الجمود وتبعث فيها الحياة واليقظة من جديد. هذه لذّة الاستطلاع ولذّة المقامرة ولذّة الجري وراء الأمل، بل هي لذّة استعلاء خفيّة ناشئة من انتقاله إلى حيّ دون حيّه القديم منزلة وعلماً. ولم يكن رأى المسكن الجديد بعد، إذ بوشر نقل الأثاث منذ الصباح الباكر وهو في وزارته، وما هو ذا يقصد إليه كما وصف له. وجعل يقول لنفسه: إنّه مسكن مؤقت وإنّه ينبغي أن يحتملوه مدّة الحرب وبعدها يأتي الفرج. وهل كان في الإمكان خير ممّا كان؟ وهل من الحكمة أن يلبثوا في الحيّ القديم على مرأى ومسمع من الموت المخيف؟. مضى يذرع الطوار لأنّه لم يكن يحتمل الجمود طويلاً، وكأنّما سُويت أعضابه من قلق، وكان يدخّن سيجارة بعجلة دلّت على انشغاله، فبدا في اضطراب حركته وقلق مظهره وشذوذ هندامه كهلاً متعباً ضيّق الصدر تلوح في عينيه نظرة شاردة تغيب بصاحبها عمّا حوله، كان يدنو من ختام الأربعين، عسى أن يسترعي الانتباه بنحافة قامته وطولها واضطراب ملابسه اضطراباً يستدرّ الرثاء، والواقع أنّ تكسّر بنظونه وانحسار ذراعي الجاكّة عن رصغيه، وتلبّد العرق على حرف طربوشه، وتقبّض القميص ورثائه رباط الرقبة، وصلعته البيضاوية، وسعي المشيب إلى قذاله وفوديه، كلّ أولئك أوهم بتكبير سنّه، وفيما عدا ذلك فوجهه نحيل مستطيل، شاحب اللون، ذو رأس صغير مستطيل ينحدر انحداراً خفيفاً إلى جبهة تميل إلى الضيق، يحدها حاجبان مستقيمان خفيفان متباعدان، يُظللان عينين بالغتين في امتدادهما وضيقهما، فهما تكادان أن تملأ صفحة الوجه الضيقة، فإذا ضيّقها ليحدّ بصره أو

انتصفت الساعة الثانية من مساء يوم من سبتمبر سنة ١٩٤١، موعد انصراف الدواوين، حين تنطلق جماعات الموظفين من أبواب الوزارات كالفيض من العارم، وقد نهكها الجوع والملل، ثمّ تنتشر في الأرض تطاردها أشعة الشمس الموقدة. انطلق أحمد عاكف - الموظف بالأشغال - مع المطلقين. وكان من عادته أن يتخذ سبيله في مثل تلك الساعة من كلّ يوم إلى السكاكيني، أمّا اليوم فوجهته تتغيّر فتصير الأزهر لأوّل مرّة. حدث هذا التغيّر بعد إقامة في السكاكيني طويلة امتدّت أعواماً مديدة، واستغرقت عقوداً من العمر كاملة، وأدّخرت ما شاءت من ذكريات الصبا والشباب والكهولة. وأعجب شيء أنّه لم يفصل بين التفكير في الانتقال وحدوثه إلّا أيام معدودات؛ كانوا مطمئنين إلى مسكنهم القديم، يخال إليهم أنّهم لن يفارقوه مدى العمر، وما هي إلّا عشية أو صباحا حتى صرخت الحناجر: «تبّاً لهذا الحيّ المخيف» وغلب الخوف والجزع، ولم تعد ثمة فائدة ترجى من مراجعة الأنفس المذعورة، وإذا بالبيت القديم يضحى ذكرى الأمس الدابر، وإذا بالبيت الجديد في خان الخليلي حقيقة اليوم والغد، فحقّق لأحمد عاكف أن يقول متعجباً: «سبحان الذي يغيّر ولا يتغيّر». كان الرجل من أمر هذا الانتقال المفاجئ في حيرة. كان قلبه ينازعه إلى المقام القديم الحبيب، ويمتلئ حسرة كلّما ذكر أنّه قذف به إلى حيّ بلديّ عتيق، إلّا أنّه لم ينس ما خامره من شعور الارتياح حين علم أنّه ابتعد عن جحيم ينذر بالهلاك المبين، ولعلّه أن ينعم الليلة بأول رقاد آمن بعد تلك الليلة الشيطانية التي زلزلت أفئدة القاهرة زلزلاً شديداً. وبين الحزن والتعزّي، والأسى والتأثّي، مضى يذرع الطوار في انتظار ترام يوصله إلى ميدان الملكة فريدة، وقد ابتلّ جبينه عرقاً، وكانت الحال لا تخلو من لذّة طريفة، ذلك أنّه مقبل على

اليوم؟.. انظر إلى هذا المرمر، سر به إلى ثاني عطفة إلى يمينك فتصير في شارع إبراهيم باشا، ثم إلى ثالث باب إلى يسارك فتجد العمارة رقم «٧».

فشكره وانطلق إلى المرمر مغمغماً «ثاني عطفة إلى اليمين».. حسناً ها هي ذي.. وها هو ثالث باب إلى اليسار، العمارة رقم «٧». وترث قليلاً ليلقي نظرة على ما حوله. كان الشارع طويلاً في ضيق، تقوم على جانبيه عمارات مربعة القوائم تصل بينها ممرات جانبية تقاطع الشارع الأصلي، وتزحم جوانب الممرات والشارع نفسه بالخوانيت؛ فحانوت ساعاتي وخطاط وآخر للشاي ورابع للسجاد وخامس رفاء وسادس للتحف وسابع وثامن إلخ إلخ. وتقع هنا وهناك مقاهٍ لا يزيد حجم الواحدة على حجم حانوت. وقد لزم البوابون أبواب العمارات بوجوه كالقطران وعبائم كالخليل وأعين حاملة كأنما خدّرتها الروائح العطرية وفزات البخور الهائمة في الفضاء، والجوّ متلفّع بغلالة سمراء كأنّ الحيّ في مكان لا تشرق عليه الشمس، وذلك أنّ سباه في نواحٍ كثيرة منها محجوبة بشرفات توصل ما بين العمارات، وقد جلس الصنّاع أمام الخوانيت يكبّون على فنونهم في صبر وأناة ويبعدون آيات بيّئات من أفانين الصناعة، فالحيّ العتيق ما يزال يحفظ باليد البشرية بقديم سمعتها في المهارة والإبداع، وقد صمد للحضارة الحديثة يلقي سرعتها الجنويّة بحكمته الهادئة وآليتها المعقدة، بفنّه البسيط وواقعيتها الصارمة، بخياله الخالم ونورها الوهاج بسمرته الناعمة. قلبٌ فيها حوله طرّفاً حائراً وتساءل هل يستطيع أن يحفظ هذا الحيّ الجديد كما كان يحفظ حيّه القديم؟ وهل يمكن أن يشقّ سبيله يوماً وسط هذا التي تقوده قدماء وقد انشغل بما ينشغل به من أمور دنياه؟.. ثم اقتحم الباب مغمغماً: «بسم الله الرحمن الرحيم» وارتقى درجات سلّم حلزونيّ إلى الطابق الثاني حيث عثر بالشقة رقم «١٢». وابتسمت أساريره لرؤية الرقم كأنه قديم عهد به وآنس إليه في وحشته، ودقّ الجرس، فانفتح الباب، وظهرت أمّه على عتبة تلوح في ثغرها ابتسامة ترحيب، وأوسعت له

ليتقي شعاع الشمس بدتاً مغمضتين واختفى لونها العسليّ العميق، وقد تساقطت أهدابها واحمرت أشفاهها احمراراً خفيفاً؛ يتوسطها أنف دقيق وفم رشيق الشفتين وذقن صغير مدبّب. ومن عجب أنّه عدّ يوماً ممّن يُعنون بحسن هندامهم وأناقتهم، وبدا إذ ذاك في صورة مقبولة، ولكنّ اليأس والحرص وما اعتراه بعد ذلك من داء التشبّه بالفكرين نزع به عن آية عناية بنفسه أو بلباسه.

استقلّ الترام رقم «١٥» وقد افترت شفتاه عن ابتسامة ساخرة كشفت عن أسنان مصفرة من فعل التدخين. ومن ميدان الملكة فريدة أخذ الترام رقم «١٩». وقد ارتكب خطأ سهواً، فرمى بحكم العادة بال تذكرة التي قطعها في الترام الأوّل وكانت توصله إلى الأزهر، واضطرّ أن يقطع تذكرة جديدة ضاحكاً من نفسه في غيظ، وآله حرصه على تفاهة الغرم. والحقّ أنّه تعود منذ زمن بعيد أن يكون ربّ أسرة، وإن بقي لحظ الآن أعزب، يتدّ أنّه لا ينفق مليّاً بغير تعلمل، فحرصه ليس من العنف بحيث يغله عن الإنفاق، ولكنّه لا يعفيه أبداً من التألم كلما وجب الإنفاق.

وانتهى إلى ميدان الأزهر، وأنجبه إلى خان الخليلى يتسمّت هدفه الجديد، فعبر عطفة ضيقة إلى الحيّ المنشود، حيث رأى عن كتب العمارات الجديدة تمتدّ ذات اليمين وذات الشمال، تفصل بينها طرقات وممرات لا تحصى، فكأنّها ثكنات هائلة يضلّ فيها البصر. وشاهد فيها حوله مقاهي عامرة ودكاكين متباينة - ما بين دكان طعميّة ودكان تحف وجواهر - ورأى تيارات من الخلق لا تنقطع، ما بين معمم ومطرّش ومقبّع، وملأت أذنيه أصوات وهتافات ونداءات حقيقة بأن تثير أعصاباً قلقة كأعصابه؛ فتولّاه الارتباك واضطربت حواسّه، ولم يدر أيّان يسير، فدنا من بواب نوبيّ اقتعد كرسياً على كتب من أحد الأبواب وحيّاه ثمّ سأله قائلاً:

- من أين الطريق إلى العمارة رقم «٧» من فضلك؟

فنهض البواب بأدب وقال مستمعياً بالإشارة:

- لعلّك تسأل عن الشقة رقم «١٢» التي سكنت

الحجرة التي تواجه باب الشقة الخارجي وقالت له: «حجرتك»، أما حجرتنا الردهة فقد أعدت أولاهما لنوم والديه، وقالت أمه عن الأخرى: «سنحتفظ فيها بأثاث أخيك وتركها خالية على ذمته» ومضى الرجل إلى حجرة والده فرأى الشيخ مقتعداً سريره تلوح في عينيه نظرة هدوء واستسلام. وكان عاكف أفندي أحمد - كانه - طويلاً نحيفاً ذا لحية كثة بيضاء، وقد وضع على عينيه عيونات غليظة بعثت في نظره الذابلة بريفاً خداعاً، وقد حدى ابنه بحذر وريبة وتوتب لرد العدوان إذا حدثت الرجل نفسه بالتهكم بسبب النقل إلى البيت الجديد، وحيّاه أحمد وقال له:

- مبارك يا أبي!

فقال الشيخ بهدوء:

- الله يبارك فيك، كل شيء بأمره!

فهزّ أحمد رأسه وقال:

- ولكننا بالغنا في خوفنا مبالغة تنكبت بنا عن جادة الصواب. ألا ترى يا أبي أنّ ما بين السكاكيني وخان الخليلي أدقّ من أن يدركه الطيار المحلق في السماء؟!.

فقال الأب بحزم:

- هذا الحيّ في حيّ الحسين رضوان الله عليه، وهو حيّ الدين والمساجد، والألمان أعقل من أن يضربوا قلب الإسلام وهم يخطبون ودّ المسلمين؟.

فابتسم أحمد وقال:

- وإذا ضرب خطأ كما ضرب السكاكيني خطأ من قبل؟!.

فقال الرجل وقد ضاق صدره:

- لا تجادل في الحق، إني متفائل بهذا المكان خيراً، وأنتك به راضية، وإن كانت ثرثرة لا تعرف الحمد والشكر، وأنت نفسك مطمئن راض، ولكنك تدعي حكمة زائفة، وتظاهر بشجاعة كاذبة، هلمّ فاخلع ثيابك ودعنا نتناول غداءنا!.

فابتسم أحمد وتراجع إلى حجرتة وهو يقول لنفسه: «صدق أبي» وألقى على حجرتة نظرة فاحصة فوجدها قد وسعت أثنائه تحت ضغط محام كان لها من تناسق؛ فعلى الشمال الفراش، وعلى اليمين صوان الملابس،

مستضحكة وهي تقول: «أرأيت إلى هذه الدنيا العجيبة! فجاز الباب وهو يقول مبتسماً: «مبارك عليك البيت الجديد!». فضحكت عن أسنان مصفرة لأنها كانت مولعة بالتدخين كابنها وقالت بلهجة المعتذر:

- قصارى ما وسعنا اليوم أن نفرش حجرتك وحجرتنا. . . وكان يوماً متعباً حقاً، ولقد كسرت قائمة أحد الكراسي على ما بذلنا من حرص، وتقشّر مسند سريرك في بعض المواضع. .

ووجد أحمد نفسه في صالة صغيرة مزدحمة بأحزمة المتاع والمقاعد وقطع الأثاث، وضعت السفارة في وسطها وحتلت بالآنية ولقأت الأبسطة، وكان بها بابان على عيين الداخل وفي مواجهته، فنظر فيما حوله في صمت، أما الأم فراحت تقول:

- الله يعلم أنّي لم أدق للراحة طعماً في يومي هذا، فيا لشقاء الأم التي لم تنجب أنثى تستعين بها عند الحاجة، ولقد هربت أنت إلى وزارتك وقبع أبوك في حجرتة كمادته، ولم يتورّع - غفر الله له - أن سألني منذ هنيهة عما هيأت لكم من طعام؟ كأنما يسأل ساحرة تقدر على كلّ شيء؟ ولكن من حسن الحظ أنّ حيّنا الجديد غني بمأكولاته السوقية، ولقد أرسلت الخادم لتبتاع لنا طعمية وسلطة وباذنجاناً. .

فتحلّب ريق أحمد لساع اسم الطعمية ولاح الرضاء في بريق عينيه، ثمّ سال أمه:

- وهل ارتاح أبي واطمأن؟

فابتسمت المرأة ابتسامة لطيفة دلّت على أنّ بلوغها الخامسة والخمسين لم يفقدها كلّ ما كان لها من دلال أنثوي، وقالت:

- ارتاح واطمأن والحمد لله وعسى أن يصدق رأيه، ولكنّ الشقة صغيرة والحجرات ضيّقات، فحشرنا الأثاث فيها حشراً وواللي انكتب على الجبين لازم تشوفه العين!.

وجعل يصغي إلى أمه ويتفحص ما حوله، فرأى ردهة تمتدّ على يسار القدام، على يمينها تقع حجرتان، وفي الناحية المقابلة المطبخ والحمام. وقد أشارت أمه إلى

من الوقت مَسْعًا، فما لبث أن سمع نقرأ على الباب وصوت أمه يدعو قائلًا:

- الطعمية جاهزة يا سعادة البيك..

فأغلق النافذتين وخلع بذلته، ثم ارتدى جلبابه وطاقيته، وهو يدعو ربه قائلًا: «اللَّهُمَّ اجعله سَكَنًا مباركًا» إلا أنه - في نفس اللحظة وقبل أن يفارق الحجرة - جاءه صوت أجش من الطريق يصيح غاضبًا: «الله يحرق بيتك ويحرق قلبك يابن..» فرد صوت آخر بأقبح مما قذف به، مما دلّ على أن اثنين يتقاذان بالسباب كعادة أهل البلد، فامتعض الكهل ولعنهما ساخطًا وغمغم قائلًا: «أعوذ بالله من الشؤم والتشاؤم»، ثم غادر الحجرة..

- ٢ -

وأكل اللذ طعمية ذاقها في حياته، وأطراها بغير تحفظ، فسر أبوه وعدّ ذلك الإطراء إطراء للحَيّ الجديد، فقال بحماس كبير:

- أنت لا تدري عن حيّ الحسين شيئًا، فها هنا اللذ طعمية وأشهى فول مدمس، وأطعم كباب وأحسن نيفة وأمتع كوارع وأنفس لحمه رأس، هنا الشاي المتعدم النظير والقهوة النادرة المثال، هنا نهار دائم وحية متصلة ليلاً ونهارًا.. هنا ابن بنت رسول الله وكفى به جازًا ومُجبرًا!

ورجع بعد الغداء إلى حجرته، واستلقى على الفراش ينشد قسطًا من الراحة، وقد أقرّ فيما بينه وبين نفسه بأنّ دواعي سروره بالحيّ الجديد لا تقلّ عن بواعث ضيقه به. وقلّب عينيه في أنحاء الحجرة حتّى استقرّت على أكدهاس الكتب المترصّة على كتب من المكتبة لم يُبَيّأ لها التنظيم بعد، فثبّت عليها بصره في ارتياح وسخريّة، هذه كتبه المحبوبة، وجميعها باللغة العربية؛ لأنّه - على عهد الدراسة - لم يصب تفوّقًا في الإنجليزية فأهملها مضطّرًا بعد ذلك وأنسيها أو كاد، وأكثر من ثلثها كتب مدرسيّة في الجغرافيا والتاريخ والرياضة والعلوم، وبها عدد لا بأس به من مراجع القانون ومثله من كتب المنفلوطي والموليحي وشوقي

تليه المكتبة كدّست على كتب منها الكتب، وكان بها نافذتان فرغب أن يلقي نظرة عجل من كلّ منها، فدلّف من اليمنى وفتحها، وكانت تطلّ على الطريق الذي جاء منه، ومنها استطاع أن يبيّن معالم الحيّ من علّ، فرأى أنّ العمارات شيدت على أضلاع مربّع كبير المساحة، وأقيمت في ساحة المربّع التي تحيط بها العمارات مربّعات صغيرة من الحوانيت تلتفّ بها الممرّات الضيّقة، فكانت نوافذ العمارات وشرفاتها الأمامية تطلّ على أسطح الحوانيت، وتأخذ نصيبها من الهواء والشمس، ولا يحجب عنها بقيّة العمارات حجاب، فكان الناظر من إحدى النوافذ الأمامية يرى مربّعة كبيرًا من العمارات ينظر هو من نقطة في أحد أضلاعه، ويرى في أسفله مربّعات كثيرة من أسطح الحوانيت، تخترقها شبكة معقّدة من الممرّات والطرق، ورأى فيها وراء ذلك مشذنة الحسين في علوّها السامق تبارك ما حولها. فارتاح الرجل لانطلاق الفضاء أمامه لأنّ أخوف ما كان يخافه أن ينظر فلا يرى إلا جدرانًا صماء، ثمّ تحوّل إلى النافذة الأخرى التي تواجه باب الحجرة وفتحها فرأى منظرًا مختلفًا، ففي أسفل طريق ضيّق يوصل إلى خان الخليلي القديم مغلفة حوانيته فبدا مهجورًا، وعلى الجانب الآخر من الطريق جانب من عمارة تواجهه نوافذها وشرفاتها عن قرب، ثمّ تبيّن له أنّ سطحي العمارتين متّصلان في أكثر من نقطة وأنّ أطباقهما المتقابلة متّصلة كذلك بالشرفات ممّا جعله يحسب أنّهما عمارة واحدة ذات جناحين، وفي الطرف الأيسر من الطريق يبدأ خان الخليلي القديم، وقد رآه الرجل من نافذته أسطحًا بالية، ونوافذ متداعية، وأسقفًا من القماش والأخشاب تُظَلّ الطرق المشابكة، وفيما وراء ذلك تملأ الفضاء المأذّن والقباب وقمم الجوامع وأسوارها، تعرض جميعًا صورة من الجوّ للقاهرة العُزّيّة. وكان يرى ذلك المنظر لأول مرّة، فأكبره على نفوره من الحيّ الجديد، ومضى يسرّح الطرّف في مشاهد الغريبة المترامية، وهي مشاهد حقيقة بأنّ تدهش عينين لم تألفا غير الورق، ولا عهد لهما بأبواب الطبيعة أو الآثار، على أنّه لم يجد

والعائر ويعدّد آثامه، حتّى انقلبت شكواه فصارت هوساً مرَضياً، واعتاد زملاؤه أن يسمعوه وهو يقول بصوته المتهدّج: «لو اتّحمت دراسي - وكان نجاحي مضموناً - لكنت الآن كَيْتاً وكَيْتاً! أو يقول متحسّراً: «إني أدنو الآن من الأربعين، فتصوّر يا صاح لو أنّ الحياة سارت كما ينبغي، فلم يعترض مجراها الحظّ العائر، أما كنت أكون محامياً قديماً يعترّ بخدمة في القضاء تناهز العشرين عاماً؟! وماذا كان ينتظر من رجل في مثل جدّي في غضون عشرين عاماً؟!» وربّما قال متأسّفاً: «فانتنا ظلّنا أخصب فترة في تاريخ مصر، تلك الفترة التي تستهين باعتبارات السنّ والجاء الموروث، ويقفر فيها الشبان إلى كراسي الوزارة!». ولم يكن يفوته تتبّع خطى المتفوّقين من أقران المدرسة الذين واصلوا دراستهم، وليس نادراً أن يرفع رأسه عن جريدة بين يديه، ويقول بإنكار: «أعرفون فلاناً الذين يقولون عنه ويعيدون؟.. زائلني عهد الدراسة فصلاً فصلاً، وكان تلميذاً خاملاً لا يطمع أن يدركني يوماً ما؟» أو يهتف متهمّاً: «يا ألطف الله؟.. وكيل وزارة؟..» ذلك الغلام القدر الذي لم يكن يعي ممّا يلقي عليه شيئاً؟! هي الدنيا! ثم يروح محدّثاً إخوانه بأيّ نبوغه المدرسيّ، وما تتبّأ له به المدرسون. هكذا تلوّثت عواطفه بتمرّد نائر وسخط خبيث وكبرياء حقّ، واعتداد كاذب بمواهبه، ممّا جعل حياته عذاباً متصلاً وشقاء مقيماً. ثم وجدت هذه العبقرية المزعومة نفسها مهملّة في الدرجة الثامنة بمحفوظات وزارة الأشغال، ولكنّها لم تسكن، ولم تستسلم، ولم تيأس، ومضت تلتمس السبل إلى تحطيم الأغلال، وشقّ الطريق إلى الحرّيّة، والمجد والسلطان، وكابدت التجارب، وتوتّبت بمحاولة تلو المحاولة. وقد فكّر أوّل ما فكّر في التحضير - من بيته - لشهادة القانون، فهو العلم الذي انجذبت إليه آماله من بادئ الأمر، ولم يكن عن الشهادة عيب، لأنّ المحاماة لم تعد اجتهاداً كما كانت على عهد سعد والهلباوي، فسراح يقتني الكتب القانونيّة، ويستعير المذكرات، وأكبّ على الدراسة عاماً مدرسياً كاملاً تقدّم في نهايته إلى الامتحان، ولكنّه

وحافظ ومطران، ومجموعة من الكتب الأزهرية الصفراء في الدين والمنطق تاة بصفرتها عجباً واعتبرها آية العلم العسير الذي لا ينفذ إلى حقائقه إلّا الأقلّون، وهي لا تخلو كذلك من بعض مؤلّفات المعاصرين التي يعدّ اقتناءها تفضّلاً منه. هذه هي مكتبته المحبوبة أو هي جلّ حياته جميعاً. كان قارئاً نهماً لا تروي له غلّة، وقد أدمن على القراءة إدماناً قاتلاً، وأكبّ عليها عشرين عاماً كاملة من عام ١٩٢١ - تاريخ حصوله على البكالوريا - إلى عام ١٩٤١، فاستغرقت حياته الباطنة والظاهرة، وتركزت فيها مشاعره ونوازع وآماله جميعاً، يبدّ أنّها امتازت منذ البدء بخصائص لم تفارقها مدى العشرين عاماً، وهي أنّها قراءة عامّة لا تعرف التخصص ولا العمق، نزاعة إلى المعارف القديمة، سريعة مضطربة، ولعلّ السبب في عدم تركيزها ما كان من اضطرابه إلى الانقطاع عن الدراسة بعد البكالوريا، ممّا لم يبيح له فرصة منظّمة للتخصّص.

وكان لذلك الانقطاع آثار بالغة في حياته الاجتماعيّة والنفسية، لم يتّج من شرّها مدى الحياة، أمّا سببه فهو أنّ أباه أحيل على المعاش في ذلك الوقت - وكان يشارف الأربعين - لإضاعته عهدة مصلحيّة بإهماله، وتطاوله على المحقّقين الإداريّين، فأجبر أحد عاكف على قطع حياته الدراسيّة والالتحاق بوظيفة صغيرة لينفق على أسرته المحطّمة ويربي أخويه الصغيرين اللذين مات أحدهما، وصار الثاني موظّفاً بينك مصر. وكان أحد طالباً مجّداً طموحاً واسع الآمال، رغب من أوّل الأمر في دراسة القانون، وطمع في أن تنتهي به دراسته إلى مثل ما انتهت بسعد زغلول نفسه؛ وطوّحت به الأحلام والأمان، فلمّا أجبر على الانقطاع عن الدراسة أصابت آماله طعنة قتالة دامية، ترتّج من هولها، واجتاحته ثورة عنيفة جنونيّة حطّمت كيانه، فامتلات نفسه مرارة وكمدًا. ووَقّر في أعماقه أنّه شهيد مضطهد، وعبقرية مقبورة، وضحيّة مظلومة للحظّ العائر. وما انفكّ بعد ذلك يرثي عبقرية الشهيدة ويحتفل بذكراها لمناسبة وغير مناسبة، ويشكو حظّه

الذي يجعل من صاحبه عالمًا بعيد الغُور. وضاع عام ثانٍ زادت فيه المكتبة صنفًا جديدًا من كتب العلم، ثم تساءل متعبًا متحيرًا: تُرى لأي شيء خلقت مواهبه على وجه التحقيق...؟ لا شك أنه لم يعرف نفسه بعد، ولو عرف نفسه لحفظ وقتًا - أحق به أن يحفظ - من الضياع هدرًا بغير ثمرة. فها حقيقة ميسوله؟ لقد انتهى من القانون والعلم ولكن ليس القانون والعلم بكل شيء. هنالك ما يضارعها جلالًا وجمالًا فما سرّ ولعه بشوقي والمنفلوطي؟ ما طربه للبيان الساحر؟ ألا يجوز أن يكون استعداده الحقّ للادب؟ وأجمل به من فنّ لا يستوجب التمرّس به شهادة ولا دراسة مدرسية. فما عليه إلّا أن يقرأ كما قرأ شوقي وحافظ ومطران من قبل. وما عثم أن استقبلت مكتبته ضيفًا جلدًا من أزهار الشعر والنثر أكبّ عليها بشغف وحاس بلغ حدّ الغضب؛ ووقع في رحلاته على قول ابن خلدون: «سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أنّ أصول فنّ الأدب وأركانها أربعة دواوين وهي: كتاب الكامل للمبرّد، وأدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي عليّ القاسي البغدادي». وما سوى هذه الأربعة فتنبّع لها وفروع منها فتنبّه كأنما وقع على كنز واقتنى الأركان الأربعة، وقرأها جميعًا بما طبع عليه من حماس وسرعة، فلما أن فرغ منها تساءل مسرورًا: «هل صرت الآن أديبًا؟»، وأمسك بالقلم وصدقت عزمته على أن يكتب، وكتب موضوعًا سمّاه: «على شاطئ النيل» أفرغ فيه فنه وإلهامه؛ وأرسله بالبريد إلى إحدى المجلّات، ومضى يتخيّل ما عسى أن يستقبله به القراء من الإكبار والإعجاب، وكيف أنّه قد يكون أوّل درجات الشهرة والمجد، وحسبه هذا فما يطمع في أجر غير المجد الأدبي. وظهرت المجلّة وقُتّش عن مقاله فما وجد له أثرًا، ففتر حماسه وتعثّرت أمانيه في الخجل، ولكنّه لم ييأس فنانجى نفسه يستنظرها أسبوعًا آخر، ومضت أسابيع دون أن تتاح للمقال فرصة الظهور. لقد قرأ أركان الأدب الأربعة التي يعدّ ما سواها تبعًا لها وفروعًا منها، فهو أديب بحكم ابن خلدون، وما أدراك ما ابن

سقط في مادّتين. وطعن كبرياؤه طعنة نجلاء، وأخرج أمام الذين تتبّعوا أنباء عبقريته باهتمام، وجعل يعتذر عن إخفاقه بوظيفته، وبإدعاء مرض وهمي أقعده عن مواصلة الدرس، ولم ينثن عن ادّعاء المرض بعد ذلك على سبيل الاحتياط والحذر. وخاف أن يجرب الامتحان مرّة أخرى، وأشفق من تعريض عبقريته للتجارب الظاهرة التي يطلع الناس على نتائجها فيال إلى العلم الحرّ، وبادر بإعلان احتقاره للامتحانات والشهادات، ثم أقنع نفسه بأنّ إخفاقه في امتحان القانون جاء نتيجة لعدم استعداده له - لا لتقصير أو لقلة كفاية، وعدل عند ذاك عن دراسته ليجد المجال الطبيعي الذي خلقت له عبقريته الشهيدة، وهكذا خسر عالمًا وريحت مكتبته عددًا لا يستهان به من كتب القانون. ثم فكّر في تكريس حياته للعلم، وتغيّر بين الأبحاث النظرية والاختراعات العلمية أيّا يختار؟ ثم أقنع عن فكرة الاختراع بحجة أنّ البلد خالٍ من المصانع والمعامل، وهي ميادين التجارب، ومهبط الوحي الإبداعي، وركّز آماله في العلم النظريّ، وطمع في أن يكتشف نظريّة يومًا يغيّر بها آفاق العلم الحديث، ويقفز إلى سماء الخلود بين نيوتن وأينشتين. وتوثّبت به الهمة، فراح يتتبع ما وقعت عليه يده من ملخصات الطبيعة والكيمياء، ويطالعها باهتمام وشغف. وبعد دراسة عام طويل وجد نفسه حثّ بدأ لم يتقدّم خطوة نحو هدفه البعيد، ثم اقتنع بأنّ التعمّق في العلم يتطلب دراسة تحضيرية لم تتّح له.

وغلّبه الجزع وكثيرًا ما يغله، فيس من الدراسة العلمية النظرية، وسوّغ يأسه نفسه بأنّ البحث النظريّ ليس دون الاختراع حاجة إلى المعامل ومعاهد الأبحاث، وأنّ جوّ مصر بصفة عامّة لم يتهيأ بعد للعلم، ولم يجد ضرورة للاعتذار هذه المرّة عن إخفاقه للغير، لأنّه كان تعلم أن يخفي أهدافه عن الناس جميعًا، بيد أنّ ذلك لم يمنعه من أن يذيع بين الزملاء والصحاب أنّه يكرّس وقت فراغه للمعرفة والاطّلاع. المعرفة الحرّة التي تسمو على الدراسة المدرسية والشهادات الحكومية، والاطّلاع العميق



خلدون؟ فكيف لم ينشر مقاله؟ هل أهمل القوم نشره لأن كاتبه غير معروف؟ أو لأنه لم يستشفح إليهم بشفيح؟ أو تراهم عجزوا عن فهمه؟.. وفكر في أن يذهب إلى المجلة بنفسه ليقف على حقيقة الأمر، ولكنه لم يستطع لأن خجله كان يقف له بالمرصاد دائماً. ثم تناسى آثار الصدمة الأولى وكتب مقالاً ثانياً عن العدالة فلم يكن حظّه أحسن من الأول، فكتب ثالثاً عن «جناية الفقر على النبوغ» فلم يكن خيراً من سابقه. وتوثّب للكتابة بعناد وإصرار من ناط بها أمله الأخير، فحطمت محاولاته جميعاً على صخرة الإهمال الباردة، وأعاد كتابة أكثرها وأرسلها إلى مجلات مختلفة، فلم يجد بينها من ترحم أمله المعذب، وتنفذه من هاوية القنوط. وكان آخر مقال كتبه عن «تفاهة الأدب» فضاع كما ضاع إخوته. وانكسر عن محاولاته عظم النفس مطعون الفؤاد. لقد تأمر عليه سوء الحظّ - عدوّه القديم - وخبث طوايا النفوس ولؤم الطباع. فلم يساوره شكّ في قيمة مقالاته الأدبية، بل ظنّها خيراً ممّا بدأ به المنفلوطي نفسه وما يتيه به كثير من المعاصرين ولكنه سوء النية وفساد الطوية!.. وتبدّدت الأحلام جميعاً. ألا ما أضيّق العيش وما أظلمه! ورمى بالقلم، وتضاعف ما به من حقد وتمرد وألم، ويش أخيراً من المجد والسلطان، وامتلات نفسه سخطاً وغضباً على الدنيا والناس، والعظمة والعظمة خاصة! وما العظمة؟.. أو ما العظمة كما تعرفها مصر؟.. أجاب على ذلك بكلمة واحدة: «الظروف المواتية»، بل قال عن سعد نفسه على حيّه: «لقد مهّد له صهره سبل النجاح، ولولا صهره ما كان سعداً الذي نعرفه». وكان يردّد كثيراً: «إنّ الوظائف الكبرى في مصر وراثية» أو يقول: «إذا أردت التفوّق في مجتمعنا فعليك بالقحة والكذب والرياء، ولا تنس نصيبك من الغباء والجهل» أو يقول ساخراً: «ما هؤلاء الأدباء الذين يملثون الصحف والمجلات؟. أمن الأدب الحق أن تستعين على البروز فيه بالسياسة والحزبية؟، وهل يعجز عن بلوغ ما بلغوا من مجد كاذب إلّا كريم؟»، أو يقول محتدّاً غاضباً: «والله لو أردت أن

أكون عظيماً في مصر ما عجزت.. ولكن قاتل الله الكرامة!» وحرّق الغضب نفسه حتّى تركها شعلة من لهب غير مقدّس وحطاماً من رماد، ولكنّ الحياة لا تحتمل الغضب في كلّ حين، فما من معدّى عن سويّعات راحة وإن تكن راحة القنوط، فكان يستريح إلى اليأس كلّما لجّ به الغضب أو الحقد، وفي تلك السويّعات كان يقول لنفسه: ألا ما جدوى العناد في هذه الدنيا؟.. إذا كنّا نموت كالسوائيم وننتن فلماذا نفكر كالملائكة؟.. هبّني ملأت الدنيا مؤلّفات وغترعات فهل تحترمني ديدان القبر أو تلتهمني كما التهمت جثتي رياء وسكينة؟.. الدنيا أكاذيب وأباطيل وما المجد إلّا رأس الأكاذيب والأباطيل. وسلّم نفسه إلى عزلة عقلية وقليّة مريّة. يش من الحياة فهرب منها، ولكنه خال وهو يدبر عنها يائساً عاجزاً، أنّه يزهد فيها متعالياً متكبراً ولذلك لم يهجر عادة القراءة، لأنّ الكتب تهيئ للإنسان الحياة التي يهواها، فتعالى بحياة الكتب على حياة الدنيا، وظفر منها ببلسم لآلام كبريائه، واستعار ما بها من قوّة، فخالها قوّة ذاتيّة، وكان أفكارها أفكاره وسيطرته سيطرته وخلودها خلوده، وقد عدل - بعد إخفاقه التواصل - عن القراءة المنظّمة المحدّدة الهدف، واندفع يقرأ ما تقع عليه يده، وعني عناية خاصّة بالكتب الصفراء لأنّها في نظره عميرة وعزيزة المنال، وانكبّ على القراءة بسرعة وشراسة وأعصاب متوتّرة فلم يتمتّع بقراءة مجدية ولا نافعة، وأصابه سوء هضم عقليّ، فكان يعرف أشياء وأشياء ولكنه لم يتقن شيئاً أبداً، ولم يتعوّد عقله التفكير مطلقاً ولكن كانت الكتب تفكر له وتأمّل بدلاً منه. ولم يكن يعنيه التفكير ولا التأمل وإنّما كان همّه الحقيقيّ أن يحدث الغد بما قرأ بالأمس، وأن يحاضر الزملاء من الموظفين والصحاب - بلهجة الفيلسوف المألّم - فيما وعته الذاكرة وحفظته، ولذلك سمّاه موظّفو المحفوظات بالأشغال «الفيلسوف» فسرّ بالتسمية وإن كان ما بها من التوفير يعادل ما بها من التحقير. ولم يكن للفيلسوف رأي يستقرّ عليه لأنّه كان يقرأ ولا يفكر، وعسى أن ينسى اليوم ما قاله بالأمس القريب، وعسى

حل أمنه وأرهقت أعصابه وصرعه الخوف والوهم فتلقفه المرض وأوشك أن يسلمه للجنون أو الموت! ولم يرَ بدءاً من العدول عن سعيه والنزول عن أطعامه فأعاد الكتب إلى صاحبها ويش من المجد للمرة الأخيرة بعد أن جرب جميع السبل والمسالك المفضية إليه. وجعل يتساءل في حزن بالغ: ماذا بي؟ هل حلُّ في روح نجس؟، لماذا أصرع دائماً إذ لا يفصل بيني وبين ما أريد سوى ذراع؟! وسقط تحت أنقاض المحاولات الفاشلة والآمال الخائبة والأوهام الضائعة؟! وأطرد مجرى الأيام وتقدّم به العمر وشعوره العميق بالظلم لا يسكن ولا يهدأ، بل جعل يجد لأله لذة غامضة، وكان يتوهم حدوث الظلم بداعٍ وبغير داعٍ ويتلقى ما يُقضى به عليه من ألم ممتزج بتلك اللذة الخفية. وعسى أن يتساءل متحدياً ساخراً: أليس جليلاً أن ينهض العالم جميعه لمقاتلة إنسان فرد؟!.. أليس غماً يطيب به الغرور أن يتوفّر له سوء الحظّ ذلك التوفّر الذي إن دلّ على شيء، فعلى الحسد والخوف؟!.. بل فقد قُضي لحكمة سلفت أن يكون الشقاء نصيب العقول الفذة في هذه الدنيا..

وقد كان لالتذاده بالألم هذا أثر في توجيه ميوله السياسية المتقلّبة، فبال دائماً إلى الحزب المغلوب على أمره بصرف النظر عن مبادئه السياسية، وسرعان ما يتمثّل نفسه في موقف زعيمه يتلقى ما يتلقى من ضروب الاضطهاد والاعتداء وينوء بما ينوء به من ألوان التبعات والواجبات، يجد في لهذا وذاك السبب لا حصر له ولذة لا شبهة فيها.

والواقع أنّ خلقه هذا لم يكن اتفاقاً ولا تحت تأثير الإخفاق فحسب ولكن له أصول بعيدة ترجع إلى عهد نشأته الأولى، حين كان الأوّل لوالديه، فدرج على الرعاية والحبّ والتدليل، ولكنّه كان - كذلك - الطفل الذي أذخره حظّه لكي ينهض بأعباء أسرة محطّمة وهو دون العشرين، فلم تتلطّف معه الدنيا - فضلاً عن أنّ تدلّله - ساعة واحدة!..

★ ★ ★

أن يقول غداً ما يناقض قوله جميعاً. وهو سباق إلى رأي ما دام فيه رضاء لكبريائه وغروره وولعه بالظهور، فلتهج بالمعارضة واللجاج، فإذا قال محدّثه يمين قال شمالك، وإن قال أبيض قال أسود، ثمّ يندفع في النقاش بعنف واحتداد وضيق صدر حتّى ليوشك أن يأخذ بتلابيب مُناظره! وليس يعني هذا حتّى أنّه غيبي، والحقيقة أنّه كان عاديّ الذكاء.

فلم يهبط عقله إلى البلادة والغباء ولم يُعلّ للنبوغ فضلاً عن العبقرية، ولكن خدعه عن حقيقة نفسه طموحه للمجد وهيامه بالعبقرية فضلّ ضلالاً بعيداً. وزاد من أسباب تعاسته ما فطر عليه من حساسية مرهقة مضطربة فقتلت فيه روح الصبر والمثابرة، والتأمّل والتفكير، فصار دماغه وعاء خلط من معارف شتى بدلاً من أن يكون رأساً مفكراً، ولا شك أنّ الأرق الذي مرض به نصف عام من حياته كان من جملة الأسباب التي عقم بها عقله، وقد أشفى به على الجنون والموت، وسهر الليالي ذاهلاً أو هاذياً، ثمّ أدركته رحمة الله فتعافى بعد يأس. ويرجع السبب المباشر لمرضه إلى تجربة خطيرة خاض غمارها غير حافل بعواقبها، ذلك أنّه كان يؤمن بالسحر ولا يشكّ فيما يلقى على سمعه من أساطير، وعثر يوماً بموظّف قديم راسخ الاعتقاد في السحر والشياطين فأقبل عليه بشغف واهتمام، وبعد أن توطلّت الصداقة بين الاثنين أعاره الرجل بعض كتب قديمة عن السحر وتحضير الشياطين ككتاب خاتم سليمان، والقَمقم، ويا أسيادي. وطار بها الشاب سروراً وعدّها أجلّ ما بلغته يده من زبد العلم والحقيقة، وعكف عليها بحماس ويقين يحلّ رموزها ويفقه أسرارها، ويتحرّق شوقاً إلى وقت يُتاح له فيه السيطرة على القوى الكونية والاستئثار بمفاتيح المعرفة والقوّة والسلطان! أوشك أن يُجنّ لهفة وأن يذوب هياماً. متى يدين له عرش النفوذ اللانهائيّ فيأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء، ويعبت بمن يشاء، فيرفع ويخفض ويغني ويفقر ويحمي ويميت؟ ولكن لم تحتمل أعصابه الجهاد طويلاً ولا قدر على قضاء الليالي الطوال غتلياً بأرواح الشياطين فاضطرب

واختفى شعاع الشمس المنعكس على زجاج النافذة العليا من العمارات التي تواجه نافذته، فأدرك أنّ الشمس تغيب وراء قباب القاهرة المُعِزَّة بالجهة الخلفيّة، وصعد بصره إلى مشدنة الحسين السامقة تنطلق بجلال في غلالة من ظلال المغيب فهزّت مشاعره وأيقظت قلبه. ثم ارتفق حافة النافذة يردّد نظريه ما بين أسطح الدكاكين التي تتوسط العمارات، والنوافذ والشرفات المطلّة من واجهات المباني، والممرّات المتقاطعة، رأى نوافذ مغلقة وأخرى شبه مفتوحة وشرفات تسمى فيها ربّات البيوت يجمعن الغسيل أو يملأن القلّل، وقد أوشك الطريق أن يخلو من الصبية كأنما أفزعها دنو الليل، وكان يرغب أن ينطلق إلى الخارج ليرى عن كثب مشاهد الحيّ الجديد، ويكتشف طرقاته ومسالكه، ولكن غلبه التعب على رغبته لما بذل من جهد في تنظيم مكتبته، هذا إلى تعوّده لزوم البيت حتّى ندر أن يفارقه بعد عودته من الوزارة، فأجلّ تنفيذ رغبته. وترك النافذة فترتّب على شلّة - وهي جلسته المختارة إذا تبيّأ للقراءة - واستخرج من المكتبة كتاباً يقرأ فيه حتّى يأزف ميعاد النوم.

وكان والده في تلك الأثناء يترتّب على سجادة الصلاة والمصحف بين يديه يتلو ما تيسر منه في صوت مسموع، غير متبّه إلى أخطاء القراءة العديدة التي يتتابع عثوره بها. كان عاكف أفندي أحمد في السّتين من عمره، وقد أرسل لحية بيضاء أكسبت وجهه النحيل وقاراً، وفرض على نفسه عزلة قاسية عقب إحالته على المعاش وهو في أواسط العمر ومشرق الآمال، وبدا كأنه كرّس حياته للعبادة وتلاوة القرآن، ولم يكن يفارق البيت إلّا فترات متباعدة للتّريض المنفرد أو زيارة الأضرحة. وربّما كان لعصره الماليّ - إذ لم يجاوز معاشه ستّة جنيهات - الأثر الأوّل فيها اتّخذ في حياته من نظام، ولكنّه رضي أخيراً عن طيب خاطر بحياته وألفها بل واحبّها أيضاً شاكراً حامداً. وكانت أقصى آيام حياته وآملها تلك التي أعقبت إحالته على

لبث مستلقياً في الفراش دون أن يغمض له جفن، وجعل يقلّب عينيه في سقف الحجرة وجدرانها وأرضها، وتساءل قلقلًا: تُرى هل تطيب له الحياة في هذا الحيّ العجيب؟! ونازعه الحنين إلى شارع قمر وحيّ السكاكيني والبيت القديم، وعلى أنّه لم يفارقه كذلك ذاك الشعور المشرق بالأمل الوضاء بالتطلّع، ثم ملأت البيت حركة متصلة وأتاه صوّتا أمه والخدام فأدرك أنّها يستأنفان نشاطهما لفرش الشّقة وإعداد الحجرات. وتصادعت إليه من الطريق ضجّة مزعجة وضوضاء فظيعة فأنكرها وأصغى إليها بانتباه فتبيّن له أنّها أصوات أطفال يلعبون ويغنّون، وكأنّه ضاق برقاده ذرعاً فنهض إلى النافذة المطلّة على العمارات وفتحها وراح ينظر منها إلى الطريق، فرأى جماعات من الصبيان والبنات يملثون الطريق متصايحين متضاحكين وقد انقسموا فرقاً أكبّ كلّ فريق على رياضة، فبدا الطريق وكأنّه نادٍ رياضيّ ساذج فهذه جماعة تلعب بالحديد وتلهب الأكفّ بالطرّة، وهذه جماعة تلعب بالبلّ، وتلك عصبة تحجل وتلك أخرى تتصارع، واقعد الصغار الطوار يرقصون ويغنّون ويصفّقون. اضطربت الأرض وضجّ الجوّ وثار الغبار فأيقن أنّ قيلولته منذ اليوم! وسمع أناشيد عجيبة «يا عمّ يا جمّال..» و«يا أولاد حارتنا توت توت» و«الجبيل ده عالي يا عمّي» إلخ إلخ. فحار بين الدهشة والحق والسرور! ثمّ تصاعد صوت جَهْوَريّ أجشّ غليظ النبرات يصبح كالرعد القاصف «ملعون أبو الدنيا!» وكرّر صياحه بصوت منغوم على إيقاع كُفّين شديتين!.. وكان الصوت صاعداً على الأرجح من دكان تحت النافذة مباشرة ولكن من داخلها فلم يستطع رؤية ذلك الذي يتغنى بسبّ الدنيا ولكنّه لم يتمالك نفسه فأغرق في الضحك حتّى تورّد وجهه الشاحب، واشرب بعنقه من النافذة فاستطاع أن يرى لافتة الدكان وقد نقش عليها بخط جميل «نونو الخطاط».. تُرى هل يكتب الرجل لوحات في سبّ الدنيا ويبيعها المنذمرين والساخطين؟.. ألا ما أجدر أن يتناع منها ما يشفي غليله!..

والتجميل، مشهورة بخفة الروح والدعابة اللطيفة والندارة الخلوة، لا تضاهيها امرأة في قدرتها على أن تالف وتؤلف، فكثرت صوحيباتها، وتعددت البيوت التي تزورها وتستزيرها، واستقبلها النسوة والأوانس بالسرور والغبطة شأن أعضاء الأسرة ولذلك لم تتأثر بالضائقة التي نزلت ببيتها، فلما انقضت يد بعلمها عنها انبسطت لها أيادي الصديقات الحبيبات بالهدايا، فحافظت على مستواها المعهود من الأناقة والتجميل. وكانت لها على زوجها دالة، فمسحت عن صدره الحزن بلطفها ودعابتها وتفاؤلها، وكانت تقول له ضاحكة: «لقد انتهيت يا عاكف أفندي من الحكومة فافرح لي!»، أو تداعب لحيته قائلة: «من أجل الورد ينسقي العليق!»، ولكن كان صدرها يضيق إذا رأت بعلمها مكباً على القرآن، ويكرها عاكفاً على مكتبه، فتصيح بهما: «هلاً علمتاني القراءة لأجاور معكما؟!». ولشد ما أحبتها أحمد بإيماله نفسه، فكانت تروح على خديها كأنما تلطمها وتهتف مؤنبة: «كبرت أمك وجعلت سمعتها كالطين!». هاك الكواء فما لبذلتك مسترخية متقبضة؟!.. وهاك الحلاق فما لبذلتك غضراً؟!.. والدنيا بالأفراح حافلة، فما انزواؤك بين الكتب الصفراء؟! كيف تركت رأسك يصلع وقدالك يشيب؟!.. كبرتني.. كبرتني.. كبرتني!.. فكان أحمد يبتسم إليها ساخراً ويغليها قائلاً: «الطمي كيف شئت ألسنت في الأربعين؟!» فيهلها التصريح بالحقيقة الفظيعة، وتنهره قائلة: «اخرس قطع لسانك الطويل.. هل رأت الدنيا قبل اليوم ابناً يدعي عمر أمه؟!».

ومع ذلك فلم تخل حياتها من الحزن، كانت مريضة، أو هكذا توهمت، ولكن لم يأس على مرضها أحد ممن حولها، وقد اقتنعت على مر السنين بأن عليها أسياً، وبأن لا شفاء لها إلا بالزار، وطالما توسلت إلى بعلمها ليمسح لها بإقامة حفلة زار، ولكن الرجل لم يُصغِر إلى توسلاتها. واستقبح أحمد الفكرة وإن لم يساوره شك في وجود العفاريت، وكان قريب عهد - وقتذاك - بالتجربة التي أوشكت أن تنتهي بجنونه،

المعاش، فقد انقطع مورد رزقه أو كاد، وتهددت الفاقة أسرته البائسة، وأجبر على اعتزال العمل والنشاط، وأقصي عن الوظيفة وجاهها، وهب كالجنون للذود عن كيان، فسعى واستشفع بكل شفيع، ولكن ذهبت مساعيه أدراج الرياح. قَدِمَ العريضة تلو العريضة، والالتماس وراء الالتماس دون جدوى أو رجاء، حتى علم أخيراً بالحقيقة المحزنة وهي أن باب الحكومة قد أغلق دونه إلى الأبد. وكان في الحقيقة طاهر اليد إلا أنه ثبت إهماله وجاء تطاوله على المحققين فزاد الطين بلة، ثم لم يسكت بعد ذلك عن شكوى الظلم والظالمين، واستنزال اللعنات عليهم أجمعين، وراح تحت تأثير الغضب والحق واليأس يتهمم بالحكومة والموظفين، ويقول إنه أحيل على المعاش لأنه أبى أن تمس كرامته، وأن الوظيفة أضيق من أن تتسع لإنسان يحترم نفسه، ويعد أن كان ينكر تطاوله على هيئة المحققين، جعل يفاخر به ويبالغ فيه، ولم يعد له حديث سواه، فصار ضحكة المتغامزين، وفقد عطف الصحاب والأقارب، وحافظ بادئ الأمر على صلته بالناس، فتردد على قهوة فيتا بغمرة يلاعب بعض الصحاب النرد، ولكن خلّقه ساء بعد فاجعته، فأصبح ضيق الصدر سريع الغضب، فاحتد يوماً على لاعب فانفجر الآخر هائجاً وصاح به: «يا طريد الحكومة!» فلم تطلأ قدمه قهوة بعد ذلك، وانزوى بعيداً عن الناس والدنيا، واختار العبادة ملاذاً وسكناً، ولم يعد للماضي أثر في نفسه، وسارع بالشفاء إليه نهوض ابنه أحمد بأعباء الأسرة، وكان الابن قد ورث عن أبيه تبعته ومرضه!

على أنه لا ينبغي أن نهمل عاملاً هاماً في شفاء الأب، وهو الأم. حوت منذ البدء مزايلا يستهان بها في حساب السعادة العائلية، فتمتعت بنصيب موفور من الحسن الذي رمقته القاهرة على أيام شبابها بعين الإكبار والإعجاب، وما زالت - وقد شارفت الخامسة والخمسين - على وسامة وقسامة، وولع بالصبغ والألوان، وذوق في الأزياء، وما زالت لحيمة جسيمة وإن اعتورها الاسترخاء، خبيرة بوصفات السمن

كانت الدنيا نائمة - تلك الليلة المفزعة - يستقبل ليلها هزيعة الأخير وكما تعودت القاهرة في مثل تلك الساعة من الليل أطلقت صفارات الإنذار نعيها المتقطع الذميم، فاستيقظت الأسرة ونهض أحمد لإطفاء المصباح الساهر في الصالة الخارجية ثم عاد إلى رقاذه ليغط في النوم مرة أخرى شأنه كل ليلة، إذ لم تعرف القاهرة قبل تلك الليلة إلا الغارات الاستكشافية ولم تسمع سوى طلقات المدافع المضادة للطائرات، ولكنه لم يسكن إلى النوم، وراح يرهف أذنيه رافعاً رأسه عن الوسادة في دهشة وانزعاج، فقد سمع بوضوح أزيز طائرات، ما في ذلك من شك، اتصل وقعه لا يغيب ولا يبين، بل جعل يزيد وضوحاً ويعلو شدة فضاكه به صدراً وامتلأ منه رعباً، ولكن خاسطاً طمأنه بعض الاطمئنان، فلم يفصل بين سكوت الصفارة وسماع الأزيز إلا دقيقة أو بعض دقيقة وهي مدة غير كافية بطبيعة الحال لوصول الطائرات المعادية حيث يسبق الإنذار وصول الطائرات برقع ساعة على الأقل، فبات مرجحاً أن تكون الطائرات إنجليزية حلّت للمطاردة. وانتظر أن ينقطع الأزيز ولكنه اتصل اتصالاً مرهقاً للأعصاب وكان الطائرات اختارت بيتهم مركزاً تدور من حوله، ونهض ثانية وغادر الحجرة يتلمس طريقه في الظلام إلى حجرة والديه وقال عند الباب بصوت مسموع: «هل أنتما مستيقظان؟» فجاءه صوت أمه قائلاً: «لم نسم بعد، أما تسمع شيئاً؟» فأجاب أحمد: «بل أزيز طائرات..» وقد سمعته عقب الإنذار مباشرة! فقال والده: «الأغلب أن تكون إنجليزية» فقال أحمد: «لعلها»، وطمأنه اتفاق الظن بينه وبين أبيه فعاد إلى حجرته، وقبل أن يمس جنبه الفراش أضواء الحجرة المظلمة بنور عجيب أت من الفضاء أعقبه صفير مبجوح انتهى بانفجار شديد دوى في سماء القاهرة دويًا شديدًا مزعجًا، فانتفض رعباً وتولأ فزع جنوني وقفز نحو الباب لا يلوي على شيء، وضاعف من رعبه أن الحجرة لم تزل مضادة بذلك النور الوهاج الذي اخترق نوافذها من الخارج داعياً القذائف إلى أهدافها،

فيست المرأة من استئثارها، وقنعت بشهود حفلات الزار إذا اتفقت في بيوت الصديقات، حتى قال أحمد يوماً متعجباً: «حقاً إن أسرتنا ضحية الشيطان..» ألم يُغري والذي يتحد لكلب حقير من الموظفين ففقد وظيفته؟!.. وألم يحضني على تعلم السحر فأشفيت على الجنون؟!.. وما هو ذا يركب أمي ويحني لها خرابنا!..

ولكن الله سلم، فقد غلب مرح الست دُولت - أم أحمد - على حزنها، كما غلبت الحناء على وميض الشيب بمفرقها..

### ★ ★ ★

لم يستطع أحمد أن يتركز انتباهه في القراءة لما أحدثته تغير المكان في نفسه من اليقظة والقلق، فمضى في مطالعة فاترة متقطعة ومضى من الليل ساعة فسكنت ضوضاء النهار، ولكن لتحل محلها ضوضاء أشد وأفظع سرعان ما جعلت الحي جميعه كمرشح من مساح روض الفرج الشعبية. أما مصدرها فالقهاوي العديدة المنتشرة في جوانب الحي، فالراديو يذيع أناشيده وأحاديثه بقوة وعنف فكأنه يذيع في كل شقة، والنُذُل لا يكفون عن النداء والطلب في أصوات مملوطة ملحنة «واحد سادة.. شاي أخضر..» تعميرة على الجوزة.. وشيشة جي..» ودق قطع النرد والدمينو وأصوات اللاعبين! فخال نفسه في طريق مزدحم بالمارة لا في شقة، وعجب كيف يحتمل أهل الحي ضوضاءه أو كيف يغمض لهم جفن؟!..

ولم يزل ملازمًا الشلشة حتى بلغت الساعة التاسعة فقام لينام، وأطفأ المصباح ورقد على الفراش بعد أن أحكم غلق النافذتين، ولكن الضوضاء لم تزل تملأ حجرته وتندوي في أذنه، فذكر سكوت السكاكيني في مثل هذه الساعة من اليوم وتأسف من الأعياق، ثم لعن الغارات التي أجبرتهم على هجر مسكنهم القديم الهادئ، فاستثار ذكرى تلك الليلة الجهنمية التي زلزلت القاهرة زلزالاً مخيفاً، وملأت الذكرى شعوره وضاعف من تأثيرها جثوم الليل حتى لم يعد يحس من ضوضاء الطريق ركزاً ولا همساً.

بل انفجرت قذيفة خالَ القوم الفزعون أنْها انفجرت في صدورهم ورءوسهم، فرفعوا أيديهم كأنْما لیتقوا بها السقف إذا انهار عليهم، واشتدَّ الصراخ والدعاء وجرى اسم الله على كلِّ لسان، وقوي شعور مفزع بأنَّ القذيفة الثانية ستسقط على رؤوسهم!، وهَوَّت القذيفة التالية!.. ربَّاه هل يمكن أن ينسى ذلك الصغير المبحوح - صغير الموت - وهو يهبط عليهم لا مهرب منه ولا مفرّ؟.. وكيف تقلقلت العمارة وطقطت النوافذ قبل أن تبلغ القذيفة الأرض!.. ثمَّ كيف دَوَّى الانفجار فصكَّ الأسعاع وصمَّ الآذان ورجَّ الأضغاج ومزَّق الأعصاب وخنق الأنفاس!.. لقد تقوَّست الظهور في انتظار المقدور.. وقبض اليأس القلوب.. وتعلَّجت النفوس النهاية غنارة الموت على انتظاره.. أجل لم يعد بينهم وبين الموت إلا قذيفة لعلَّها تغادر في تلك اللحظة مكمِّنها من الطَّيَّارة... ولكنَّ القذيفة - وهنا ابتسم ابتسامة حزينة - لم تسقط!.. أو سقطت بعيداً، فقد ابتعد الضرب سريعاً كما جاء سريعاً، لم يجهِّم الموت كما أوهمهم.. أراهم وجهه ولكن لم يُذقهم طعمه.. أو أجل ذلك لليلة أخرى، فبعد الضرب، ثمَّ خفَّ عن ذي قبل، ويات متقطَّعاً ثمَّ انقطع فلم يعد يُسمع إلا طلقات المدافع، ثمَّ ساد السكوت!.. واستردَّ التعساء أنفاسهم، وتبادلوا نظرات الشكِّ والرجاء، وانفكَّت عقد ألسنتهم فهذَّوا كالمجانين، ومضت ربع ساعة رهيبة ثمَّ انطلقت صفَّارات الأمان!.. يا رحمة الله!.. هل ذهب الموت حقاً؟.. هل يدركهم نور الصباح؟.. وذبت الحركة وأضيئت الأنوار وانطلق أناس إلى الخارج وجاء آخرون من الجهات القريبة، وانتقلت روايات، قالوا العبَّاسية خراب.. أمَّا مصر الجديدة فقلَّ عليها السلام، وقصر النيل أمست أثراً بعد عين، وخازن الترام دمَّرت وجُثَّت العِمَال أكوام!..

وصعدوا إلى شقَّتْهم يغمر صدورهم سرور عصبيّ، سرور من نجا من الموت وعقَّابيل الخوف لم تزل ناشبة في صدره، ومضوا بقيَّة الليل أيقاظاً يتكلَّمون. وفي نهار اليوم الثاني بدا الحيّ وكأنَّه أزمع الهجرة، وتتابعت

وتتابعت الانفجارات الشديدة واختلط تفجُّرها بذلك الصغير المبحوح الممقوت، فارتجَّت الأرض ارتجاجاً وزلزل البيت زلزلاً، ولم ينقطع الضرب لحظة واحدة وبدا كأنَّ السماء ستظلُّ تقذف الأرض بهاتيك الرجوم الشيطانيَّة في ذلك العناد الشيطانيّ الجبار. ووجد والديه في الصالة، الأب معتمداً ذراع الأم يوشك أن يسقط صريع الفزع والإرهاق، فهرع إليهما وتأنَّب ذراع والده وصاح بهما «هلمَّا إلى غُبا العمارة» ومضوا مسرعين تتقدَّمهم الحادام، وتساءل بصوت متهلِّج مضطرب: «ما هذا النور؟. هل شبَّ حريق في الخارج؟» فقال أحمد وهو يعالج أنفاسه المضطربة ويتبيَّن مواقع قدميه من السَّلَم: «هي مصابيح المغنسيوم التي قرأنا عنها في الجرائد» فقال الرجل: «ربَّنا يطفئ بناء». وكان السَّلَم مكتظّاً بالهابطين الداعين الله من قلوبهم الواجفة، وكلَّما حدث انفجار ارتجَّت الجدران وتعال صراخ يصمُّ الآذان وصوَّت النسوة وأعوَّل الأطفال. وانطفأ نور المغنسيوم فجأة والضرب في عفوانه والموت في حومانه فساد الظلام، وحدث هرج ومرج فزلت أقدام وعثر أناس وزاد الفزع والارتباك، ثمَّ بلغوا غُبا العمارة - البدروم - بعد جهد جهيد.. وكان مُضاء بمصباح خافت، مغطاة نوافذه بستائر كثيفة سوداء، واعتمد سقفه على عُمُد أفقيَّة قامت على عمد حديدية رأسيَّة، ووضعت حول جدرانه أكياس من الرمل، وعلى ضوء المصباح الخافت لاحت وجوه تعلوها صفرة الموت، جاحظة عيونها مرتجفة أوصالها، هاذية أليستها، ووقفوا ثلاثتهم متقاربين يذوبون لهفة أن يكفَّ الضرب لحظة واحدة فيأخذوا أنفاسهم ويبلِّوا ريقهم، ولكنَّ الضرب اشتدَّ وبدا من اشتدادات الانفجارات أنَّه أخذ يقترب منهم!.. وهنا حرَّك ساقيه في الفراش فزعاً من هول الذكري وهو يغمغم: «تبَّ لها من ليلة!» وتنهَّد من أعماق صدره وفتح جفنيه، فعادت ضوواء الحيّ إلى وعيه، وذكر أنَّه رقد لينام لا ليستذكر آلام أظفح ليلة في حياته، ولكن هيهات... لقد هجمت عليه الذكري بقوة لا تقاوم، أجل، أخذ الضرب يقترب،

حَبِّ الحياة، ولكم يقتلنا الخوف، ومع ذلك فلموت لا يرحم، وبالتفكير فيه يبدو أيّ جليل تافهاً. كم حَلَّ نفسه ما لا طاقة لها به من الحزن والغضب.. فقيمَ كان ذاك؟. وسمع عند ذاك الراديو يذيع السلام الملكي، فأدرك أنّ ساعتين مضتا في أرق وقلق فجزع وراح ينشد النوم بمطاردة الأفكار، ولُكِّتَه لم يظفر بأفكاره وبالعكس ظفرت هي به فغمره سيل الذكريات الزاخر، فذكر كيف اقترح على والده أن يسافرا إلى أخيه الأصغر في أسبوط.. مقرر عمله.. فيتعدا عن الخطر حقاً، وكيف قالت له أمه: «بل تبقى إلى جوارك فإنما أن نعيش معاً وإتاً..» ثم استضحكت مستعجلة بالله!.. ماذا كان يفعل لو وافقها على السفر؟.. كان أسهل الحلول أن ينزل في بنسيون، والحقّ أنّه رَحِبَ بالفكرة في أعماقه لأنّه يروم التغيير وهو لا يدري، وكيف لا يروم التغيير أعزب قضى أربعين عاماً في بيت واحد يكابد حياة رتيبة لا فرق بين يوم منها وبين عام ترهقها عزلة وحشية؟!.. فهما ألف هذه الحياة وتعودها لا بدّ أن تنزع به النفس.. ولو في خفاء.. إلى التغيير.. والتغيير الكامل!.. إلّا أنّه لم يستسلم هذه المرة طويلاً إلى أفكاره فقد طرقت أنفه رائحة غريبة أوقفت تيار أحلامه!.. ذابت في خيشومه فجأة كأنما حملتها إليه هبة نسيم كان من قبل راقداً، ونَبَّهه إليها أنّه كان يشمّها لأوّل مرّة في حياته، وتخيّر كيف يصفها، فما كانت رديئة ولا كانت زكية، ولكن تطيب بها النفس، وفيها هدوء وعمق، وإلّا فما نفاذهما إلى قرارة الإحساس؟!.. وما كانت تنقطع إلّا لتعود.. فهل بخور يحترق في مثل هذه الساعة من الليل؟!.. أم يكون لهذا الحيّ الغريب أنفاس تتردد في أعياق السكون؟!..

وغاب به التفكير في الرائحة الغريبة عن أفكاره فتخيّاً للنوم وهو لا يدري.. وما لبث أن استرق الكرى خطاه إلى جفنيه فأخذ بعاقدهما..

- ٤ -

وعند الساعة السابعة من صباح اليوم الثاني كان

عربات النقل تحمل المتاع الضروريّ إلى الأحياء التي حسب الناس أنّها آمنة أو إلى القرى المتاخمة للعاصمة حتّى خلت عمارات من ساكنيها، وضاعفت مناظر المهجرة من خوف الأسرة خصوصاً الأب الذي تضعف قلبه الضعيف من عنف الغارة، فنشأت في رأسه فكرة المهجرة مع المهاجرين، وإذا كان من المتأثرين بدعاية المحور الإسلامية فقد اعتقد اعتقاداً راسخاً في أنّ حيّاً دينياً كحيّ الحسين لا يمكن أن يقصده الغيرون بسوء، فجذّ في البحث عن مسكن فيه، فاهتدى إلى هذه الشقّة، وكان النقل.. وإنّ يَنسَ لا ينسى اليوم الذي أعقب ليلة الغارة، فلم يكن للقهارة حديث إلّا حديث الليلة الماضية، واستفاض الناس في الكلام بأعصاب متوتّرة ونفوس قلقة، وضحكوا جميعاً ضحكاً فيه سرور النجاة وتوتر الخوف، وشعر أحمد بدنو الموت دنواً جعله يحسّ تردّد أنفاسه على وجهه، بل هنالك ما هو أفظع من الموت نفسه، كان يُلقي به على قارعة الطريق مقطّع الأوصال أو مشطور الرأس، وربّما ألحق بعد ذلك بذوي العاهات المستديمة، أو كأن ينجو من الموت ويترك البيت بمن فيه فيجد نفسه وأسرته بلا مأوى وبلا أثاث وبلا لباس!.. وجعل يدعور به ويستشفع بنيه، فالحياة محبوبة ولو كانت خائبة بائسة، وأعجب من هذا أنّه مال إلى الترفيه عن نفسه وتهية السرور لها ما أمكن، فغلب حرصه الطبيعيّ وابتاع لدى عودته إلى البيت صندوق بسكوت بالشيكلاتة وهو طالما اشتتهته نفسه وحرّمها إيّاه حرصاً على القليل من النقود التي تعود أن يودعها صندوق التوفير كلّ شهر، ولكن عندما أتى المساء غشي القلوب همّ وكآبة، وبات الكلّ في ذعر عظيم، ولم يغمض لإنسان جفن، وتيقّظت ذكريات الليلة المفترسة، واختلّت الحواسّ، فصار كلّ نفر صفاة إنذار، وكلّ صفقة باب انفجار قبيلة، وكلّ خشخشة أزيز طائرة..؟ وما هم أولاء قد انتقلوا فهل تطمشّ قلوبهم حقاً؟! العمارات حديثة البناء متينة، ولها نجاً يضرب بقوّته المثل وهذا جوار الحسين.. ولكن ألم تلك حصون وتخرب جوامع؟! آه لَكُمّ يعدّنا

وسرعان ما خمدت نشوة التأثير بالعينين، وقرر حماس الحنين إلى الأبوة، واجتاح صدره انفعال عنيف قائم شأنه إذا اقترب من أنثى أو اقتربت أنثى منه، ذلك أنه يحب النساء حبّ كهل محروم، ويخافهنّ خوف غريب خجول، ويمقتهنّ مقت عاجز بائس. فأية أنثى جميلة ترك في وجدانه انفعالا شديداً، يضرب في أعماقه الحب والخوف والمقت. وقد كان لنشأته الأولى أكبر الأثر في تكيف طبيعته الشاذة، فخفضت طفولته لصرامة أبيه وتدلّيل أمه، صرامة ترى القهر عنوان الحنان، وتدلّيل حبة ومغرم لو ترك الأمر له ما علّمه المشي خوفاً عليه من العثار. فشأ على الخوف والدلال، يخاف أباه والناس والدنيا، ويأوي من خوفه إلى ظلّ أمه الحنون، فتنبض بما كان ينبغي أن ينفض به وحده. فبلغ الأربعين ولم يزل طفلاً، يخاف الدنيا ويأس لأقلّ إخفاق، ويتكصّل لدى أول صدعة، وما له من سلاح سوى سلاحه القديم البكاء أو تعذيب النفس، ولكن لم يعد يُجدي هذا السلاح، لأنّ الدنيا ليست أمه الحنون، فلن ترقّ له إذا امتنع عن الطعام ولن ترحه إذا بكى، بل أعرضت عنه بغير مبالاة، وتركته يعمّ في العزلة ويمتدّ العذاب، فهل يصدّق الوالدان أنّ ذلك الكهل الأصلع الخائب قد ذهب ضحيتهما؟!.

ومع ذلك كلّ سجّل قلبه تاريخاً في حياة القلوب. سطر أولى كلماته وهو في السنة الأولى من المدرسة الثانوية، وما يعينا من سرده إلّا دلّالته على طبعه. كان غلاماً ناضراً متأنقاً، ولعلّه ورث الأناقة من والدته، ف جذب إليه يهودية صغيرة حسنة من بنات الجيران! فاحمد عاكف - كما ترى - كان يوماً ما جذاباً! كانت تلعب في طريقه وترقب مرجعه من المدرسة في نافذتها، ولا ترضى على عينيه بملاحقتها ودلال أنوثتها فأصلّت وجدانه نيراناً ولكنّها لم تستطع أن تبعث في قلبه الجسارة أو الشجاعة. ألهمت قلبه وجداً ولكن قصارى ما كانت تدفعه إليه شجاعته أن يرمقها بلحاظ مغرم وجلّ سرعان ما يرتدّ أمام نظرتها وهو كليل، ولكنّه على رغم خجله طارحها الغرام

جالساً إلى السفرة يتناول فطوره الذي يتكوّن عادة من فنجان قهوة وسيجارة ولقمت مع قطعة من الجبن أو قليل من الزيتون. وغادر الشقة فصار في الردهة الخارجيّة التي تفصل بين الشقق، وقبل أن يبلغ السلم سمع وقع قدمين خفيفتين وراءه فنظر خلفه فرأى فتاة في أولى سني الشباب مرتدية مريّلة مدرسيّة زرقاء ومتأبطّة حقيبة الكتب، وقد التقت عنانها لحظة خاطفة ثمّ أعاد رأسه وقد تولّاه ارتباك، والارتباك طبيعته إذا التقت عيناه بعيني أنثى! ولم يدّر هل الألتقي أن يسبقها إلى الطريق أو أن يتنحّى لها جانباً فزاد ارتبাকে وتورّد وجهه الشاحب وبدأ فيلسوف إدارة المحفوظات بوزارة الأشغال كالطفل الغريب يتعثر حياءً وخجلاً!.. وتوقفت الفتاة كالدهشة وانتقلت إليها عدوى ارتبাকে، فلم يجد بداً من أن يتنحّى جانباً وهو يهمس بصوت لا يكاد يسمع: «تفضّلي!». فمضت الفتاة إلى حال سبيلها وتبعها متأنقاً متسائلاً أأصاب يا تُرى أم أخطأ؟.. وبِمَ حدّثت نفسها عن تردّده وارتبাকে؟!.. وعند باب العارة أيقظه صوت جهوريّ من أفكاره يصيح «ملعون أبو الدنيا» فالتفت إلى يسراه فرأى نونو - كما ظنّ - يفتح دكانه، فسُرّي عنه وابتمت أساريره وغمغم «يا فتّاح يا عليم!» ثمّ سار في طريقه والفتاة على بعد منه غير بعيد حتّى بلغت السكّة الجديدة فانعطفت إلى يسارها ومضت نحو الدراسة وواصل هو مسيره إلى محطة الترام. ولم يكن رأى من وجهها سوى عينيها. استقرّت عليها عيناه لحظة حين التفاته إليها. عيانان نجلاوان ذواتا مُقلتين صافيتين وحدّقتين عسليّتين، وبدتا لغزارة أهدابها مكحلّتين، تقطران خفةً وجاذبيّةً، فحرّكتا مشاعره. وكانت الفتاة تتخطى عتبة الشباب اليافع فلا يمكن أن يجاوز عمرها السادسة عشرة، بينما هو في الأربعين، فأكثر من عشرين عاماً تفصل بينهما! ولو أنّه تزوّج في الرابعة والعشرين - وهي سنّ زواج معقول - لكان من المحتمل أن يكون أباً لفتاة في مثل عمرها ونضارتها! وأخذ مجلسه من الترام وهو ما زال يتصوّر تلك الأبوة التي لم تتحقّق.



بأصبغه في الهواء تاء مربوطة! فضحكت بسرور وقالت: «الآن اعترفت بما تريد ولن أضرب به عليك!» ثم أدنت منه وجهها وقد أياستها خجله الشديد من الانتظار فأخذ قبلة مضت عقود من العمر كاملة وهو يحترق توقاً إلى مثلها. وهكذا كان دائماً: إحساساً عنيفاً وخجلاً مؤثماً. وكان يحلو لتلك اليهودية الحسنة أن تداعبه بالسخرية من قسَمات وجهه، فأمن بسخريتها، واستقبح وجهه أكثر ممَّا ينبغي، ووجد سبباً جديداً يقوِّي به خجله الطبيعي فتضاعف، ولو أمكن رجلاً أن يسدل على وجهه نقاباً لكان ذاك الرجل، وكان ذلك من بواعث المبالغة في تألقه حيناً التي انقلبت فصارت إهمالاً زرباً حين أدركه اليأس..

واختفت اليهودية الحسنة من حياته فجأة، فما هو إلا أن خطبها شاب من بني جنسها حتى هجرت لعبتها لتستقبل حياة الجد، غير عابئة بالجرح الدامي الذي أحدثته في قلب غض. يئد أن القلوب الغضة سريماً ما تندمل جروحها. وفي الفترة النهائية من المرحلة الثانوية دانت أسباب الجوار أيضاً بينه وبين صبيّة حسنة هي صغرى بنات أرملة من صديقات والدته، فألفت بينهما المودة وتشجيع الأُمّين اللتين ما برحتا تدعوانها بالعروسين. ولم يكن ذاك الحب الثاني كالأول الذي كان أول يقظة لقلب مفطور على الإحساس، ولكن حَوّت الصبيّة مزايا نادرة من راحة العقل ومثانة الخلق ممَّا جعل ضياعها من بين يديه خسارة كبيرة أسف عليها أكثر الأسف. وكثيراً ما كان يحدث نفسه قائلاً: إنّه لو تزوج من فتاته كما أرادت أمّه وأمّها لتمتّع بحياة زوجية سعيدة قليلة الأشباه. ولكن عقب حصوله على البكالوريا حلّت الكارثة بأسرته فأحيل أبوه إلى المعاش ودُفع به هو إلى مواجهة الشدة فانزعج من نعيم الآمال ورمي به إلى جحيم اليأس، وأصبح حتماً على الفتاة إذا أرادت أن تبقى عليه أن تنتظر عشرة أعوام ريثما ينتهي من تربية أخيه. والظاهر أن أمّها لم تشجّع التضحية المطلوبة لما فيها من انتظار طويل، وغلبت حكمة الفتاة نفسها. على عاطفتها فانقطعت الأسباب وتبدّدت الأحلام، وكفر أحمد

صراحة بفضل جسارتها هي. كانت جسوراً لعباً لا يردعها عن هواها رادع، فاستطاعت أن تعالج حياته بجسارتها، وتبعته ذات أصيل حتى أدركته ثم نادته فالتفت إليها بوجه كالجنان، فابتسمت إليه ابتسامة لطيفة فأجابها بابتسامة مقتضبة في حياء وخفر فقالت له «هلمّ نتمشّي في شارع عباس!» فأطاع دون أن ينبس بكلمة وسارا جنباً إلى جنب والشمس تتقدّمهما نحو المغيب، وتعمّدت أن تدنو منه وأن تلامسه في رفق فجعل يبتعد كأنما يخاف أن تحسب أنّه المتعمّد وهو يذوب شوقاً إلى اللمس الذي بجانبه، ثم تأبطت يمناه وهي تضحك ضحكة لم تحُل من الارتباك، فطرفت عيناه ونظر فيما حوله بخوف فسألته في دعابة: «أتخاف؟! فقال بصوت رقيق: «أخاف أن يرانا أحد من بيتك!» فهزّت كتفها استهانة وقالت: «لا تُبالِ هذا» فلاح في عينيه نظرة عجب فاستدركت متسائلة «أما تزال خائفاً؟! فقال بعد تردد «أخاف أن يرانا أحد من بيتنا» فأغرقت في الضحك وعرجت به إلى بستان وهي تغمغم: «نحن الآن في أمن من الرقباء!» وتمشّيا في سكّون والشمس تذوب في الشفق، وظلال المغيب تمتد في الأفق فتجعل منه سُرّادقاً قائماً لاستقبال الليل الزاحف، ثم قالت الفتاة الجريئة لتحتال على حيائه: «حلمت حلمًا يا له من حلم؟» فقال وقد أخذ يأنس بها: «خيرًا إن شاء الله» فقالت «حلمت أنّك قابلتني وقلت لي أريد... ثم ذكرت كلمة لن أعطيها لك حتى تقولها بنفسك، فحزرت ما هي؟!» فاشتدّ عليه الارتباك وقال بلسان ملعثم: «لا أدري» فقالت بصوت عذب «بل تدري وتداري... قل!» فحلف لها بسداجة أنّه لا يدري، فقالت: «لا فائدة من الكذب علي... أولى بك أن تتذكر... كلمة أول حروفها ق!» فصمت وقد خفق قلبه واضطربت أنفاسه فقالت: «والحرف الثاني ب!» فلزم صمته وغضّ بصره فاستطردت تقول: «والثالث ل... قل ما الحرف الأخير!» فابتسم مرتبكاً ولكنّه لم يدر كيف يتكلّم، فقرصته في ذراعه وهمست في أذنه «إذا لم تخرج عن صمتك فلن أكلمك أبداً!» وفعل التهديد فعله فرسم

فإذا كان لم يستطع أن يجذب إليه بغيًا طوال هذا الدهر  
فيا ذلك إلا لأنه عاطل من جاذبية الجنس.. وهكذا  
عانى وهم نقيصة الجنس كما عانى نقيصة الدمامة من  
قبل..

ولمّا أنتم أخوه رشدي دراسته وحصل على  
بكالوريوس كلية التجارة وتوظف ببنك مصر منذ  
عامين - وكان أخوه الآخر قد توفّي منذ أمد بعيد - شعر  
بحقّ بأن مهنته قد انتهت بل وكلّلت بالنجاح،  
وساوره أمل - وهل ينعدم من الحياة الأمل؟ - أن يراود  
السعادة، فقد يظفر بالسعادة وإن يشي بأسًا نهائيًا من  
الجهل والسلطان، وسعى إلى أن يخطف كريمة أحد  
التجار المقيمين في غمرة، ولكن والدها ردّه ردًا جميلًا.  
وعلم الكهل أنّ أمها قالت عنه «إنّ مرثيه صغير وعمره  
كبير!». وترنّح من هول الضربة التي هوّت على  
كبريائه، وثار ثورة عفيفة، وكبر عليه - وهو العبقري  
الذي حشد الكون ما به من سوء حظّ لمكافحة  
عقبرته - كبر عليه أن ترفضه أنثى من بنات حواء، بل  
أن ترفضه خاصّةً لأنّه حقير!.. أيقال عنه حقير؟!.  
فمنّ العظيم إذن؟!.. وكوّر قبضته متوعّدًا الدنيا  
بالويل والثبور والشرر يتطاير من عينيه. بالأمس  
هجرت حبيبته لأنّه صغير لا ترجى منه فائدة، واليوم  
ترفضه فتاة لأنّه كبير لا ترجى منه فائدة، فمتى كان ذا  
فائدة؟!.. أذهب العمر هباء؟!.. أضاع المجد  
وعزّت السعادة وانتهى كلّ شيء؟!.. وصار ذابّه بعد  
ذلك ذمّ النساء ورميهنّ بكلّ نقيصة، فهنّ حيوانات  
ماكرة ومكرهنّ سئى قوامه الطمع والكذب والتفاهة،  
إنّهنّ أجساد بلا روح، إنّهنّ مصدر آلام الإنسان  
وويلات البشرية، وما أخذهنّ بظاهر العلم والفنّ إلا  
خدعة يخنّفين وراءها ريشا يوقعن في شباكهنّ  
الضحايا، ولولا شهوة خبيثة ألقيت في غرائزنّا ما  
ظفرن برجاء ولا مودة.. وهنّ.. وهنّ.. وكثيرًا ما  
يقول لزملائه «سرّعت لنفسي - والحمد لله - ألا أتزوّج  
على كثرة ما واتنني الفرص، لأنّي أبى أن يتهنّبي حيوان  
قدر لا روح له ولا عقل!» لقد جعل منه عجزه عن  
النجاح عدوًّا للدنيا، فجعل منه عجزه عن المرأة عدوًّا

بالحبّ وبالمرأة كما كفر بالدنيا جميعًا. فالحبّ الذي ثمل  
به قلبه بين يدي اليهودية وهم ضالّ، أو مرض ملازم  
للمرافقة كتوعك التسنين للطفل. وقد قضت مرارة  
الحقيقة بالعقاب الصارم على من يركن لعهد امرأة..  
سواء أكانت كخطيبته عقلاً وفضلًا أو كاليهودية التي  
علّقته ما شاء لها الهوى ثمّ هجرته كما يهجر الإنسان  
حجرته، في فندق بميدان المحطة..

وانقضت بعد ذلك عشرون عامًا من حياته وقلبه  
من الحياة خواء يكابد مرارة عيشة فقيرة حقيرة مترعة  
بالهموم مثقلة بالتبعات ضيقة بالأمل. ولو سكنت  
ناترته لأمكنه أن يجد في حياته من لذات التضحية  
والقيام بالواجب ما يعزّيه عن خيبة آماله جميعًا، ولكنّ  
غضبه لم يسكت وحّدته لم تُلنّ فلم يزل ساخطًا متبرّئًا  
حاقّدًا، لأنّ إنسانًا ألف أن يكون المعبود الذي يُقدّم  
على مذبحه القربان لا يحتمل أن يصير كبش  
التضحية. وشغل بأحزانه وتبعاته وعزلته عن الحياة  
فكأنّما رمى بقلبه - الذي ليث طوال أربعة أعوام  
كقيثارة دائمة الترنيم - إلى بئر آسنة فاخنت وعاش بلا  
أمل بلا حبيب، وبلا قلب، لا يأنس بالحياة ولا يدرك  
معنى أفراحها، فدفعه القنوط من النجاح إلى العزلة،  
ودفعه القنوط من الحبّ إلى البغاء. وكأنّه لم يكفّه ما  
اعتنق من سوء ظنّ بالمرأة فالقى به سوء حظّه بين يدي  
الأثوثة العسة المشوّهة ليزداد إيمانًا بعقيدته المريضة.  
فأقنع نفسه - بسوء نيّة - بأنّ المرأة الحقيقية هي  
البغي!.. فهي المرأة الحقيقية وقد جَلّت عن وجهها  
قناع الرياء، فلم تعد تشعر بضرورة ادّعاء الحبّ  
والوفاء والطهر. على أنّ البغي قد نالت من نفسه أكثر  
من ذلك فقد أودت بالبقية الباقية من ثقته بجدارته  
كرجل، إذ أنّه اعتقد أنّ البغي إذا أحبّت رجلاً فإنّما  
تحبه لما يجذبها فيه من فحولته وجاذبيته الطبيعية بصرف  
النظر عن اعتبار القيم الاجتماعية وظروف التربي  
والجوار، فمضى أن تكون اليهودية أحبّته لأنّها لم تنظر  
بسواه، أو أنّ خطيبته أحبّته لدواعي الجوار وإيماء  
الأمّهات. أمّا البغي فلا تختار حبيبًا من بين عشرات  
الرجال الذين يتردّدون عليها لداعٍ من هذه الدواعي،

الآخر تردده في وجهه، فقال بصوته الجهوري الحشن:  
- حلفت بالحسين - إن لم تكن قاصدا غاية  
تستوجب العجلة - إلا ما شرفتنا.. يا ولد يا جابر  
هات شايًا.. وهات تارجيلة!..

وقل أحمد - بسرور يعادل تردده - الدعوة شاكرا،  
ومضى إلى الكرسي بينا غاب المعلم لحظة ثم عاد  
بكرسي آخر وجلسا متقابلين. كانت دكان الخطاط مثل  
بقية الدكاكين حرجًا وأناقة، وقد غصت باللافتات  
الجميلة، وتوسطها طاولة رصت عليها قنينات الألوان  
والأقلام والمساطر، وأسندت إلى إحدى قوائمها لافتة  
كبيرة كتب في أعلاها بالألوان الزاهية «محل بقالة خان  
جعفر» وتحت ذلك العنوان لاح اسم صاحب البقالة  
مرسومًا بالرصاص لم يلوّن بعد. وكان الرجل يرتدي  
جلبًا ومعطفًا أبيض وطاقيّة. في الخمسين أو نحو  
ذلك، رُبّع القامة متين البنيان، كبير الوجه والرأس  
واضح القسّات، يمتاز وجهه بصدغين وفم واسع،  
وشفتين ممتلئتين، ولون قمحي مشرب بحمرة. وقد  
جلس وهو يقول:

- محسوبك نونو الخطاط.

فرقع أحمد يده إلى رأسه وقال:

- تشرّفنا يا معلّم، محسوبك أحمد عاكف بوزارة  
الأشغال!

وكان لا يحبّ ذكر وظيفته إرضاء لكبريائه، فكانت  
لحظات التعارف لحظات تعذيب، يبدّ أنّه لم يتألّم هذه  
المرّة كعادته لإيقانه بما يكتنه أمثال المعلم نونو للموظفين  
من احترام. وقد رفع الرجل يديه إلى رأسه احترامًا ثمّ  
ابتسم ابتسامة لطيفة، وقال بما طبع عليه من صراحة:  
- أنتم شرفتم حينا يا سادة ولكن هل جئتم حقًا إلى  
هنا خوفًا من الغارات؟

وعجب أحمد عاكف كيف عرف سبب هجرتهم ولمّا  
يُضِرّ عليهم في الحيّ الجديد سوى ليلة واحدة!  
فحجج الرجل بنظرة إنكار وتساءل:

- من قال لك ذلك؟

فقال المعلم ببساطة:

- الحوذني الذي نقل أثاثكم، الناس جميعًا تهاجر

للمرأة!.. ولكن أعماقه اضطربت بالرغبة والعاطفة  
المنهومة المحرومة.

إنّ انفعاله لامرأة عابرة - كما حدث اليوم - حقيق  
بهاجّة أعماقه وسرعان ما يذكر تاريخه القديم الحديث  
مع المرأة فيثور، ويساوره ذاك الشعور العميق الطافح  
بالحبّ والخوف والمقت..!

- ٥ -

وعاد ظهرًا إلى الحيّ الجديد، وغمغم مبتسمًا وهو  
يدنو منه: «ثاني عطفة على اليمين ثمّ ثالث باب على  
اليسار!»، وذكر وهو يرتقي السلم الخلزوني فتاة  
الصباح ذات الوجه الأسمر والعينين العسلتين  
النجلاوين، تُرى هل يراها مرّة أخرى؟.. وفي آية  
شقة وفي أيّ طابق من هذه العمارة تقيم؟! ولبت في  
البيت - وقد أكملت أمه فرشته وتنظيّمه - حتّى العصر،  
ثمّ بدا له أن يجول في طرقات الحيّ الجديد مستطلعًا  
ومستكشفًا، فارتدى ملابسه وانطلق إلى الخارج.  
وترثّ قليلاً أمام باب العمارة، وجعل ينظر فيما حوله  
كأنّما ليختار ناحية يبدأ منها استكشافه. ولكنّه قبل أن  
يجمع على رأيٍ شعر بشخص يدنو منه فالتفت إليه  
فراى الرجل الذي حسب صباح اليوم أنّه المعلم نونو،  
وقد أقبل بخطوات ثقيلة مبتسمًا ابتسامة ترحاب  
وسرور، ومدّ له راحة غليظة كخفّ الجمل وقال:

- أهلاً وسهلاً بالجار الجديد!.. ويا ألف نهار  
أبيض!

وسلم الجار الجديد.. ولم يكن يتوقّع تلك المفاجأة  
من صاحب «ملعون أبو الدنيا!»، وقال وقد ابتسمت  
أساريره:

- أهلاً وسهلاً بك يا معلّم!..

فأشار المعلم إلى كرسيّ موضوع أمام دكانه وقال  
والابتسامة لا تفارق شفّته الغليظتين:

- شرفنا بالجلوس دقيقة.. دا يوم سعيد!

وتردّد أحمد - لا لأنّ قبول دعوة المعلم يناقض  
الغرض الذي خرج من أجله - ولكن لأنّ طبعه النافر  
لا يستسيغ مثل هذه الدعوة الكريمة بغير تردّد، وقرأ

هذه الأيام!

فقال أحمد عاكف يدافع عن «شجاعة» أسرته:  
- الواقع أنَّ أحياءنا المعرَّضة للخطر كادت تخلو،  
وقد حملنا مرض والدي بالقلب وخوفنا عليه على هجر  
بيتنا القديم أسفين!

وعند ذاك جاء غلام المعلِّم بالشاي والتارجيلة،  
فوضع التارجيلة أمام المعلِّم، ثمَّ أتى بكبريَّ من  
الدَّكان وضعه أمام الضيف ووضع الإبريق عليه.  
وعزم على ضيفه أن يحسو الشاي وأقبل على التارجيلة  
بلذَّة وشهوة، وأخذ نفساً طويلاً روى به غلَّة خيشومه  
ثمَّ استدرك قائلاً:

- حسن أن يلتبس الإنسان سبيل الطمأنينة وإن  
كان العمر واحداً والرَّبَّ واحداً والمكتوب حتماً تشوفه  
العين. إيَّ يا عاكف أفندي من المتوكِّلين على الله، وما  
عرفت حتَّى الآن طريق المخبأ. أيَّ غباً يا سعادة  
البيك؟! . هل يستطيع نونو أن يراوغ القدر، أو  
يؤجِّل قضاء الله؟! . ألم تسمع صالح عبد الحيِّ وهو  
يعني «نصيبك في الحياة لازم يصيبك»؟! . يئد أتى  
أدعو الله أن يكفيننا شرَّ الأيام، وأعود فأقول إنَّ حفظنا  
حلوا، فلولا حكمة بعض الناس ما فزنا بهذا الجوار  
السعيد!

ولاحظ أحمد أنَّ كلام الرجل حوى أوَّله سخرية  
به - وإن كانت سخرية غير مقصودة - بينما حوى آخره  
ما يستوجب الشكر! . فابتسم قائلاً:  
- شكراً يا معلِّم، فلطالما قال لنا الحكماء إنَّ حيِّ  
الحسين آمن! . .

فأخذ الرجل نفساً عميقاً ثمَّ زفره سحابة من  
الدخان كثيفة وقال:

- صدَّقوا ثمَّ صدَّقوا، إنَّه حيِّ مبارك محبوب، مكرم  
من أجل صاحبه، وسوف ترى فيما يقبل من الأيام  
أنَّك لن تستطيع السلوَّ عنه أو الزهد فيه، وسوف  
يدعوك شيء من الأعماق إليه. . تفضَّل خذ نفساً من  
التارجيلة. .

فشكره أحمد معتذراً، وكان يحتمي الشاي بلذَّة  
مصغيّاً لصاحبه، وكأنَّما أراد أن يجاريه في التدخين

ولكن على طريقته فاستخرج سيجارة من علبته  
وأشعلها مبتسماً. وقد أحسَّ نحو محدَّته بارتياح لما  
وجده فيه من غربة لم يعهدها في أحد من الناس قبله،  
وأعجبه بساطته وصراحته وقوته، وأهمَّ من هذا جميعه  
أنَّه شعر نحوه باستعلاء تملَّق غروره المعبَّد فما زال إليه.  
أمَّا المعلِّم نونو فاستدرك قائلاً:

- لماذا ترغب عن التارجيلة؟! إنَّ هي إلَّا سيجارة  
بماء، أو دخان مكثَّر مطهَّر، وفوق ذلك فلحضرته  
سلطنة، وقرقرتها موسيقى، وفي شكلها «سكس  
أبيل».

فلم يملك عاكف نفسه من الضحك فأرسل ضحكة  
رفيعة ضاعت في جلجلة ضحكة المعلِّم التي تصاعدت  
كخوار عالٍ متَّصل انتهى بسعال متقطع استمرَّ حتَّى  
انقطع نفسه، ثمَّ قال وأساوره ما تزال ضاحكة:

- اتَّحسب أنَّ البلديِّ جاهل؟!، ألم تعلم أنَّ زوَّار  
هذا الحيِّ من الإنجليز أضعاف أضعاف أمثالهم من  
أولاد العرب؟! . . ودين الحسين وربَّ الحسين تُسَرُّ  
بحيِّنا سروراً لا مزيد عليه، وليكن جواراً سعيداً وأياماً  
سعيدة رغم هتلر وموسوليني! . .

- بإذن الله. . إن شاء الله!

وقال المعلِّم بلغة الإغراء:

- وفيما أفندي محترمون كحضرتك!

فقال أحمد بسرعة:

- أستغفر الله يا معلِّم، أستغفر الله. .

- والحسين وجَّده. . بل إنَّ جلَّ أصدقائي أفنديَّة  
من خيرة هذا الحيِّ، فالعبارات الجديدة جذبت أسراً  
طيِّبة كثيرة، يوجد هنا كلَّ ما تريد. . القهوة والراديو  
واللطف والتارجيلة، بل هنا متَّسع لكرُضية الله  
ومعصيته على السواء!

فضحك أحمد قائلاً:

- أعوذ بالله من معصية الله!

فحملق المعلِّم في وجهه، ثمَّ قال مستدركاً  
بصراحته الغريبة كأنَّه يعرفه منذ سنين طويلة لا منذ  
دقائق:

- المرضية والمعصية كالنهار والليل لا ينفصلان،

وفوقها مغفرة الله ورحمته.. أحنّيلي أنت؟!

- كلاً.. كلاً..

- تعجّبي!

- ولكن كيف يتّسع هذا الحيّ لمعصية الله؟.

- أوه.. يا ما تحت الساهي دواهي.. فصبّرًا حتّى

يأتيك اليقين، ومع ذلك فليس الذنب بذنب حينًا،

الذنب ذنب الأحياء الأخرى، لقد ضاقت بالفساد،

فصدّرت ما يزيد عن حاجتها إلينا، على حدّ قول

الراديو عن التجارة العالميّة. هنا نحن نصدّر الموادّ

الأوليّة والأحياء الأخرى نورّدها مصنوعة، فمن بعض

أطراف هذا الحيّ تصدّر الخادّصات فتحوّلها الأحياء

الأخرى إلى غانيات، في هذه الحرب قُلبت الدنيا رأسًا

على عقب، تصوّر يا إنسان آتي سمعت بالأمس بنت

بائعة فجعل تدعو أختها فتقول «تعالِي يا دارلنج»!..

وضحك أحد بسرور، وانبسط وانشرح صدره،

وقال وغرضه الأوّل أن يستدرج محدّثه إلى الكلام:

- حيّكم طاهر يا معلّم رغم هذا كلّه، فالفساد

هناك فوق ما يصوّره العقل!..

- اللّهم احفظنا. إلّا أنّه من الحكمة ألاّ تُركب الهمّ

أنفسنا، دع الهموم واضحك واعبد الله، الدنيا دنيا

الله، والفعل فعله، والأمر أمره، والنهاية له. فعلاً

التفكير والحزن!.. ملعون أبو الدنيا!..

- هذا شعارك المحبوب يا معلّم طالما صعد إلى

حجرتي تردّيك له.

- أجل ملعون أبو الدنيا، هذا شعار الاستهانة لا

اللعن أو السبّ. ولكن هل تستطيع أن تلعنّها بالفعل

كما تلعنّها باللسان؟ هل تستطيع أن تستهين بها

وتضحك منها إذا أفقرتْكَ؟ وإذا أعرتْكَ؟، وإذا

كرّبتْكَ؟، وإذا أجاعتْكَ؟، صدّقني أنّ الدنيا كالمرأة

تدبر عَمَن يميّث بين يديها، وتقبل على من يضرّ بها

ويلعنّها، فسياسيّ مع الدنيا ومع النساء واحدة،

وأنكالي من قبل ومن بعد على الله سبحانه، ورُبّ يوم

يستدبر لِمَا يفتح الله علينا بملّهم، ولا يدري أحد ماذا

يأكل العيال وما أمْلِك ثمن النارجيلة، فما أزال آخذًا

في الغناء واللعن والتنكيّت، وكانّ العيال عيال جاري

والفقر راكب عدوّي، ثمّ تُفرّج، فيطلب منّا عمل

وأقبض مقدّم الأتعاب، أفرّج يا نونو، اشكر الله يا

نونو، خذي يا زينب اشترِي لحمًا وأنت يا حسن

هات فجلاً، اجري يا عائشة ابتاعي بطّيخة. املا

بطنك يا نونو، كلوا يا أبناء نونو، واشكرنّ يا زوجات

نونو..

ولفت سمع أحد قوله «زوجات نونو» فتساءل تُرى

كم زوجة يضمّ حريم نونو؟!.. وهل يحذّثه بأسراره

الداخليّة بمثل صراحته هذه عن فلسفته العامّة؟!..

ولم يجد سبيلاً إلى غرضه إلّا بالحيلة، فسأله:

- كان الله في العون، الظاهر أنّ أسرتك كبيرة..

فقال الرجل ببساطة:

- أحد عشر كوكبًا، وأربع شمس.

- ثمّ أشار إلى نفسه وكَمَل قائلاً:

- وقمر واحد!

فتردّد عاكف لحظات، ثمّ قال:

- أزواج أربع؟

- كما شاء الله..

- وإن خفتم ألاّ تعدلوا؟!..

- ومن قال عنيّ إنّّي ظالم؟

- وهل تستأجر تبعًا لذلك بيوتًا أربعة؟

- بل شقّة واحدة كشقّة حضرتك، مكوّنة من

حجرات أربع في كلّ حجرة أمّ وأبناؤها!.

فلاححت الدهشة في وجه الرجل ونظر إلى محدّثه

بإنكار، فضحك المعلّم ضحكته العظيمة بفخار،

وقال:

- ما الداعي للدهشة يا أحد أفندي؟

فأنت أحد جراءة ليست من طبعه، وسأله:

- لماذا لم تقنع بواحدة؟

- واحدة؟!.. أنا خطّاط، والنساء كالخطّ أنواع لا

يُغني نوع عن نوع، فهذه نسخ، وتلك رقعة، وثالثة

ثلث، ورابعة فارسيّ، أنا لا أوحد إلّا الله.

- ولكنّ أليس الأربع بأكثر ممّا ينبغي!

- ليتهنّ كفيّني، أنا والحمد لله أكفي مدينة من

النساء، أنا المعلّم نونو والأجر على الله!

بنفي أو إثبات، فقال نونو ضاحكًا:

- عوفيت.. عوفيت!

وبلغ المعلم نونو من نفسه ما لم يبلغه سواه، فأحدث فيها يقظة عفيفة، كأن شيئًا يناقضه قوة وصحة وابتسامًا، وإقبالًا على الحياة، وفورًا وسعادة، فأعجب به إعجابًا استمده من عجزه عن مجاراته، وحقد عليه لتفوقه وسعادته، إلا أنه كان حقدًا خفيًا لا يقاس بما أحدثه في نفسه من شعور بالاستعلاء، فغلب ميله إليه حقدّه عليه، واستثار فيه رغبة جديدة للاختلاط به وبحيّه العجيب.

وعندما استأذن في الانصراف، قال له المعلم:

- عليك بقهوة الزهرة هي قهوة صغيرة، ولكنّها تجمع أفنديّة هذا الحيّ المحترمين، وستعرف فيها الصفوة من جيرانك، هلاً حضرت هذا المساء؟..

فقال أحمد وهو يودّعه:

- إن لم يكن هذا المساء، فمساء الغد إن شاء الله. وسلم عليه شاكرًا، ثم مضى إلى ما كان بسبيله من اكتشاف أنحاء الحيّ الجديد..

- ٦ -

وعند مساء اليوم الثاني غادر العمارة ووجهته قهوة الزهرة، فوجدها عند مدخل شارع محمد عليّ الكبير، وهو السابق لشارع إبراهيم باشا. وكانت في حجم الدكان ذات مدخلين أحدهما على شارع محمد عليّ والثاني على الممر الطويل الذي يؤدي إلى السكّة الجديدة. وقد وجد في الحيّ من أمثال هذه القهوة عشرات حتّى قدّر قهوات الحيّ بمعدل قهوة لكلّ عشرة من السكّان. وأقبل على القهوة متمهلاً متردداً لأنّه لم يتعود ارتياد المقاهي ولا ألف جوّها. وما كاد يعبر بابها حتّى رأى المعلم نونو يتوسط جماعة من الأفنديّة بينهم واحد من أهل البلد. وراه المعلم فنهض قائماً مهتسماً وقال بصوته الجهوريّ الخشن:

- أهلاً وسهلاً تفضّل يا أحمد أفندي!..

فاقترب منه بقامته الطويلة النحيفة تلوح على شفّتيه ابتسامة ارتباك وحياء، ماداً يده بالسلام، فتلقّاها

- وكيف تجمعهم في شقّة واحدة!.. ألم تعلم بما يقال عن غير النساء؟

فهزّ المعلم منكبيه العريضين استهانة وبصق على الأرض، ثمّ قال:

- هل تصدّق ما يقال عن النساء وغيرتهنّ ومكرهنّ؟!.. كلّ أولئك سجايا خلقها ضعف الرجل. المرأة في الأصل عجيبة طريّة، وعليك أن تشكّلها كما تشاء، واعلم أنّها حيوان ناقص العقل والدين فكملّها بأمرين: بالسياسة والعصا! فما من واحدة من نسائي إلا مطمئنة إلى أنّها الأثرة المفضّلة، وما من واحدة استوجبت أكثر من علقه واحدة، ولن تجد مثل بيتي سعادة وهدوءاً، ولا مثل زوجاتي حشمة وتنافساً في إرضائي ولذلك لم يجرؤن على مغاضبي حين علمس بأنّ لي خليّة!..

فصاح أحمد عاكف:

- خليّة!

- سبحان الله ربّي!، ما لك تدهش لأنفه الأشياء؟، أقول إنّ طعميّة البيت لذيفة، ولكن ما رأيك في طعميّة السوق؟

- وهل ترضى زوجاتك عن خليلتك؟

- الرضا يساوي التعود على الرضا، وأنت برجولتك تستطيع أن تحمل المرأة على ما تريد فتعمل ما تشاء، وتؤمن بما تشاء، والرجل القويّ لا يلجأ إلى الطلاق إلا إذا وافق هواه.

فابتسم أحمد وقال:

- عوفيت يا معلّم!..

وأخذ المعلم أنفاساً متتابعة، ثمّ سأل ضيفه:

- هل أنت متزوّج يا أحمد أفندي؟..

فأجاب باقتضاب وقد امتعضت نفسه:

- كلّ!..

- ولا واحدة؟..

- ولا نصف واحدة.

فضحك الرجل، وقال بصراحته المعهودة:

- أنت بغير شكّ نظاط كبير!..

فابتسم أحمد ابتسامة غامضة، ولم يعرض لقوله

وجهه نعمة وفي نظرة عينيه براءة، أما كمال خليل فرجل تلوح في عينيه الرزاة، كبير العناية بهندامه وأناته، معتدل القامة يميل للبدانة، وكان أحفل القوم استقبالا للجار الجديد. ثم تحول إلى أحمد راشد باهتمام خاص، فوجده شابا في ريعان الشباب، مستدير الوجه ممتلئ كبير الرأس تكاد تخفي صفحة وجهه نظارة سوداء عميقة السواد. أثار هذا الشاب اهتمامه لأنه حمام، والمحامي رجل متعلم، والمحاماة مهنة طمع فيها أول عهده بالآمال وعجز عنها وإن لم يقر بعجزه قط. فما يزال يحقد على المحامي حقه على الأديب والعالم، وقد اعتاد أن يشعر نحو الواحد منهم كما يشعر الرجل نحو آخر تزوج من فتاة يجدها، فوجد فيه عدوا وتوَّجَّه للانقضاض عليه. ولم يبق من الجماعة إلا المعلم عباس شفة، وهو شاب ذو سحنة زنجية توحى ملاحة الخليطة اللطيفة بالدناءة والوضاعة، قد ارتدى جلبابا فضفاضا وشبشا وترك رأسه بلا غطاء فانتفش شعره المقلقل وزاده دمامة وقبحا وبدا شيئا حقيرا لا ينقصه سوى لباس السجن!. واحتلت الجماعة على صغرها أكثر من ثلث القهوة، وجلس القهوجي إلى صندوق المراكات على كتب منها وكأته. لاشترائه في أحاديثها. واحد منها! وبينما أقبل المعلم نونو وكمال خليل أفندي على أحمد عاكف أيما إقبال ثابر سليمان عتة على جموده وتجهمه كأنما نسيه نسيانا تاما! أما الأستاذ أحمد راشد فجعل ينصت إلى حديث يذيعه الراديو. . .

ووجه كمال خليل الخطاب إلى عاكف قائلا:

- علمنا أن حضرتك آت من السكاكيني!

فحنى أحمد رأسه قائلا:

- أجل يا أستاذ!

فسأله الرجل باهتمام:

- أحقا لم ينتج من بيوت الحي إلا عدد قليل؟

فضحك أحمد قائلا:

- الحقيقة أنه لم يهدم سوى بيت واحد.

- يا للناس من الإشاعات!.. فلماذا فعلت تلك

الفرقة الهائلة التي خلناها في بيوتنا؟

براحته الغليظة، ثم التفت إلى الجماعة قائلا:

- جارنا الجديد أحمد أفندي عاكف الموظف بوزارة الأشغال.

فنهض الرجال نهضة واحدة في لطف واحترام زاد من ارتبائه وحيائه، ومضى يسلم عليهم واحدا فواحدا والمعلم يقدمهم قائلا:

- سليمان بك عتة مفتش بالتعليم الأولي، سيد أفندي عارف بالمساحة، كمال أفندي خليل بالمساحة أيضا، الأستاذ أحمد راشد المحامي، المعلم عباس شفة من الأعيان.

وأوسعوا له مكانا بينهم ورحبوا به أيما ترحيب، فأخذ يأنس بهم وينفض عن نفسه الارتباك والحياء. وما لبث أن ساوره شعور سعيد بالعزة والاستعلاء أحسن إخفاءه بابتسامة حلوة ونظرة حيية.

لم يخامره شك قط في تفوقه على هؤلاء الناس من جميع الاعتبار والوجوه، فهو من أهل السكاكيني وهم من أبناء الدراسة أو الجمالية!، وهو المفكر والعقل الكامل وهم لا شيء من هذا جميعه. بل خال أن وجوده بينهم تعطف جميل وتواضع محبوب، يتد أنه تساءل متحيرا ترى كيف السبيل إلى تفهيم هذه الجماعة حقيقة قدره واطلاعه على مزاياه العقلية والثقافية؟..

كيف يقنعهم بعظمته ويدعوهم إلى احترامه!.. لا شك أن ذلك آت لا ريب فيه إذا اتصلت المودة وتكرر اللقاء. فلا عليه من تأخير جلسة أو اثنتين!. وتقلب بصره بين الوجوه الجديدة يعاينها باهتمام. فهذا سليمان

عتة المفتش رجل في الخمسين أو يزيد، قبيح الوجه لحد الزدراء، قميء ذو احديداب، يذكرك وجهه بالقرد في انحدار جبهته وبروز جنتيه واستدارة عينيه وصغرها وكبر فكّيه وفطس أنفه، إلا أنه حرم من خفة القرد ونشاطه، فبدا وجهه ثقيلًا جامدًا متجهما كأنه سيؤخذ بجريرة قبحه، أما أجل ما فيه فمبسحة قهرمانية لعبت أنامل يمينه بحباتها، ومن عجب أن صورته على فبحها لم تُهَجِّم مقته ولكتها استثارت هزه وسخريته، والمدعو سيد عارف كهل في مثل سنه على وجه التقريب، صغير الحجم رقيق الأعضاء، لبشرة

- كانت فرقة في الهواء!

فتحوّل الأستاذ أحمد راشد عن الراديو- ممّا دلّ على أنّه لم يستغرق كلّ انتباهه- وسأل الجار الجديد:

- وهل سقط طوربيد حقّاً ولم ينفجر؟

فقال أحمد وقد شعر بسرور لتحوّل الشاب إليه:

- وقيل طوربيدان ولكن أحيط بهما وعالجهما الخبراء.

فقال أحمد راشد:

- من لنا بذلك الخبير الكندي الذي قرأنا عنه في أنباء الحرب؟. يقال إنّه أنقذ أحياء كاملة في لندن!..

فتساءل سيّد عارف كالتهكّم وكان من محبّي الألمان:

- أما تزال توجد أحياء كاملة في لندن؟

فابتسم أحمد راشد وقال عاكف:

- صاحبنا من أنصار الألمان!

وضحك المعلّم نونو قائلاً مكمّلاً قول المحامي:

- لأسباب طيبة!..

وتورّد وجه سيّد عارف، ولكن المعلّم نونو لم يرحمه فأرسل ضحكته العظيمة مرّة أخرى وقال:

- بحسب أنّ الطبّ الألمانيّ يستطيع أن يعيد الشباب!..

وقطب سيّد عارف جبينه مستاء، والظاهر أنّه كبر عليه أن يصارح بمثل هذا الكلام أمام رجل ما زال جديداً في جماعتهم، وأدرك أحمد عاكف أنّ وراء ملاحظة نونو ما وراءها، ولكنّه لم يبدّ على وجهه أنّه سمع شيئاً، وأراد نونو أن يستدرك هفوته فراح يحدث الضيف عن الحيّ الجديد مثنيّاً عليه بما يعلم حتّى علّق أحمد راشد على كلامه قائلاً:

- هذا الحيّ هو القاهرة القديمة، فهو بقايا متداعية حقيقة بأن تهزّ الخيال وتوقظ الحنان وتثير الرثاء، فإذا نظرت إليها بعين العقل لم ترَ إلّا قذارة تقتضينا المحافظة عليها التضحية بالبشر، وما أجدر أن نمحوها لتتيح للناس التمتع بالحياة الصحيّة السعيدة!..

وتنبّه أحمد إلى ما في قول صاحبه من جلّة عسى أن تنزله من القوم منزلة المحدث الماهر والمفكر الذكيّ،

خاصّة وأنّ لشهادته الحكوميّة - ليسانسيه القانون - مكانة يدين لها الجهلاء والسذج، فخاف أن يمتاز عليه، فوثب للنضال، وأجمع على معارضته بأيّ ثمن، فقال:

- ليس القديم من البقاع مجرد قذارة، فهو ذكرى قد تكون أجلّ من حقائق الواقع، فتبعث في النفوس فضائل شتى!... إنّ القاهرة التي تريد أن تمحوها من الوجود هي القاهرة المعزّية ذات المجد الموثّل. أين منها هذه القاهرة الجديدة المستعبدة؟

ووقع هذا الكلام من نفوس القوم موقعاً حسناً قرأه في أعينهم، فسرّ به، وأراد أن يتبل الفرصة ليعلن عن علمه فقال:

- معذرة يا أستاذ أحمد فقد قرأت عن تاريخنا مجلّدات جعلت تعلّقني به أمراً مقضياً!

فقال سيّد عارف:

- الظاهر أنّ أحمد أفندي من عشاق التاريخ!

فسرّ أحمد بما هيّاه كلام الرجل من فرصة أطيّب للحديث عن معارفه، فقال مبتسماً:

- الواقع أنّي لا أعشق التاريخ أكثر من غيره من فروع المعرفة، والحقيقة أنّي أنفقت أكثر من عشرين عاماً في تحصيل المعارف المختلفة!

فولّاه القوم نظرات دلّت على الاهتمام، وفسّر هو ذلك الاهتمام بأنّه إكبار فرقص قلبه طرباً، ولكم ودّ لو يستطيع أن ينفذ إلى عيني أحمد راشد خلال عويناته السود ليقراها. وقد سأله كمال خليل:

- ولماذا تدرس هذه المعارف يا «أستاذ»؟! أتخصّر لشهادة ما؟

وعلى قدر سروره بلقب أستاذ غصّ ببقية السؤال فقال باستكبار:

- آية شهادة تستوجب هذه الدراسة الطويلة الشاملة!؟.. ما الشهادة إلّا لعبة يستيق إليها الشبان، أمّا دراستي فلا غاية لها إلّا العلم الحقّ، وربّما مهّدت بها يوماً إلى التأليف المنتج.

فسأله أحمد راشد وعلى ثغره ابتسامة أحقته:

- ما معنى أنّ الشهادة لعبة؟



الصورة وترميه بأطيايف الزمان والمكان حتى خال أنه ظفر بها أو كساد، ثم لا تلبث أن تبتلع الأطيايف في ظلمة عميقة، وتراجع بالصورة عن الوعي المشوق، فيعود الغموض والإيهام والحيرة إلى ما كانت عليه. ورغب أخيراً أن يُعرض عن تذكّر شيء ليست معرفته بالمطلب الهام، ولكن الحقيقة أن ذاكرته لم تُعد الشيء الوحيد الذي يجتره ويلجّ عليه، الحقيقة أن رغبة صادقة أو شعوراً عميقاً راح ينزع بقلبه إلى العينين النجلوين ونظرتيها الحلوة الساذجة!! فكلما اختلس نظرة استثار في أعماقه حناناً ووداداً وانجذاباً!! وتملّكته الحيرة. وتولّاه الحياء، وحذر أعين الجلوس حذر مريب مذبذب!! فأطرق ممسكاً بعروة الكوب وقلبه شديد الخفقان. وأبى خياله أن يفارق الغلام، فعلق وجهه وتمثّل نظرة عينيه، ودار قلبه عطفاً ووداداً وهياماً. وهمت عيناه أن تحونا إرادته ولكنّه شدّ عليها بخوف وغضب، وتساءل متحيراً عما دهاه؟! . . . بيد أن المعلم نونو انتشله من خلوته النفسية المحيرة فسأله:

- ألا تحب أن تتسلّى بلعب شيء؟

فنظر إليه كمن تنبه من سبات بغتة وقال ببساطة:

- لا أدري عن الألعاب شيئاً!

فضحك كمال خليل قائلاً:

- إليك الأستاذ أحمد راشد قريباً وشبيهاً في ذلك،

فتسامرا معاً ريثما تلعب ساعة . .

ثم التفّ الرجل إلى ابنه، وقال له:

- هلمّ إلى البيت يا محمد.

فخفق قلب عاكف، وأرسل نحوه ناظره، فتبعاه وهو يسير بخطى لطيفة حتى غيَّبه الباب. فعاد يقول لنفسه متحسراً: «هلاً ذكرت متى عرفت هذا الغلام؟». وكانت الجماعة قد انقسمت فريقين، فلعب المعلم نونو وكمال خليل الدومينو، ولعب سليمان عتّة وسيد عارف النرد. أمّا عباس شفة فترحزح بكرسيه إلى مجلس المعلم «القهوجي»، وتنحى أحمد راشد ليوسع للاعبين، فصار جنب أحمد عاكف. وشعر الرجل باقترابه فتغيّر شعوره العجيب وتوتّب مرة أخرى للنضال والعراك. وذهب الهيام وجاء الغضب

فقال أحمد كاظمًا حنقه:

- الشهادة ليست دليل العلم!

- أهى دليل الجهل؟

فأخذ غيظه يفور حتى أجهد أن يكتمه، ثم

استدرك قائلاً:

- أعني أن الشهادة هي الدليل على أن شاباً حفظ

بعض المواد بضع سنين، والعلم الحقّ شيء غير هذا البتّة!

فابتسم أحمد راشد ابتسامة غامضة وأمسك عن

الجدل، وكان يعطف على رأي محدّثه في الشهادات.

بل إنه لم يغيب عنه الحدة التي يسوق بها رأيه، مما جعله

يميل إلى فرض احتمال وجود أسباب أخرى لذلك الرأي

غير التي أعلنها. ورحب أحمد عاكف بصمته لأنه

يرجّح كفته عليه أمام «العوام» الذين يجالسونها.

وساد الصمت برهة، وجعل المعلم نونو يفرغ الشاي

في أكواب الجلوس. ودار عاكف ببصره في المكان،

فلاحظ لأول مرة أن غلاماً يجلس على كرسيّ جنب

كمال خليل أفندي، ولم يدر أكان موجوداً قبل مجيئه أم

أنه جاء في أثناء اشتغاله بالحديث، ولكنّه أيقن من

أول وهلة أنه ابنه، كإشابة لا تخفى عن النظر العابر،

وتركه بصره إلى غيره ولكنّه عاد إليه سريعاً، فقد

استوقف انتباهه «شيء» في وجه الغلام لم يدر ما هو

على وجه التحقيق. ولم يستطع أن يرمي إليه بطرفه

طويلاً، فجعل يختلس من وجهه نظرات حائرة من

وراء كوب الشاي وهو يحسّي منه رشفة بعد أخرى.

ما الذي جذب انتباهه إلى ذلك الوجه فكاد أن ينسى

آثار المعركة التي خاض غمارها؟! . لعلّه شعور غامض

بأنه رآه من قبل، بأنّه رأى هاتين العينين الواسعتين

ونظراتيها الحلوة الساذجة. ومثل هذا الشعور لا يريح

صاحبه حتى يتضح الغامض من الذكريات على ضوء

التذكّر والعرفان، وإن كان في الغالب لا يفيد شيئاً ذا

بال. ولذلك ألحّ عليه هذا السؤال «أين رأيت هذا

الوجه؟ ومتى كان ذلك؟. في السكاكيني؟. . في

الترام؟. . في الوزارة؟». وردّت ذاكرته على عناده

والحاحه بعث ساخر معذب، فجعلت تُدني إلى وعيه

والحقدا!... والتفت الشاب نحوه قائلاً برقة:

- كيف حالك يا أستاذ؟! لا تحسبن أنني قديم عهد

بخان الخليلي لقد سبقتك إلى هنا شهرين!

فابتسم عاكف مسروراً بتوكد الآخر إليه، وقال كالمسائل:

- الغارات أيضاً؟!.

- تقريباً!.. الواقع أن مسكننا القديم في حلوان أخلي لأغراض عسكرية فראيت أن أنتقل إلى القاهرة قريباً من مكان عملي، ووجدت مشقة في البحث عن شقة خالية حتى أرشدني صديق إلى هنا.

فقال أحمد عاكف وقد أخفض صوته:

- يا له من حي مزعج!.

- أجل!.. ولكنه مسلٌ وغريب وحافل بالفنون والناذج البشرية المدهشة. انظر إلى القهوجي الذي يحذته عباس شفة، انظر إلى عينيه الذاهلتين!.. إنه يزدرد نصف درهم من الأفيون كل أربع ساعات، ويمضي في عمله كالحالم لا يفيق أو بالأحرى لا يرغب أن يفيق.

- وهل تطيب الحياة على هذا النحو؟!.

- لا أدري!... المؤكد فقط أن اليقظة التي نحيتها ونستزبد منها بالقهوة والشاي يمقتها الرجل وكثيرون أمثاله: وتراه إذا أجبر بسبب ما على البقاء فيها مدة، متثائباً، دامع العينين، شرس الخلق، ولا تسكن ثائرته، ويصفو مزاجه حتى يغيب عن الوجود، ويهيم في عوالم الذهول: أهي لذة عصية تكتسب بالعادة؟!... أم سعادة وهمية تهرب إليها النفس من شقاء الواقع؟!.. علم هذا عند المعلم نفسه!

إنه يخاف شقاء الواقع، كواحد من هؤلاء المدمنين، ويهرب منه أيضاً لاثداً بعزلته وبكتبه، فهل هو أسعد حالاً منهم؟!.. ورغب عن الاسترسال في ذلك الموضوع، فسأل محدثه وقد غير لهجة:

- هل أستطيع أن أكب على دراسي في مثل هذه الموضوعات؟

- ولم لا؟!.. الضوضاء قوية حقاً، ولكن العادة أقوى، وسوف تالف الضوضاء حتى ليزعجك

سكونها. وقد كنت بادئ الأمر ألقاها متجهها متكدراً يائساً، أما الآن فتراني أكتب مرافعاتي وأراجع مواد القانون هادئاً مطمئناً وسط هذا الدوي الذي لا ينقطع. ألا ترى أن العادة أمضى سلاح نواجه به غير الدهر؟!.

فهز رأسه موافقاً، وقال كأنه يستكثر أن ينفرد الآخر ولو بهذا القول المبطل:

- ولذلك قال ابن المعتز:

إن للمكروه لذعة هم فإذا دام على المرء هانا فابتسم أحمد راشد ابتسامته الغامضة. وكان لا يحفظ الشعر ويحتققر الاستشهاد به فتساءل في رفق:

- أنت يا أستاذ عاكف من الذين يستشهدون بالشعر؟

فتساءل عاكف بإنكار:

- وماذا ترى في ذلك؟

- لا شيء البتة إلا أنني أعلم أن الناس عادة لا يعدلون بالشعر القديم شعراً حديثاً، مما يوجب أن يكثر استشهداهم - إذا أرادوا أن يستشهدوا بشعر - بالقديم، وأنا أكره النظر إلى الماضي!

- لا أكاد أفهم!

- أريد أن أقول إنني أكره الاستشهاد بالشعر لأنني أكره الرجوع إلى الماضي. أريد أن أعيش في الحال وللمستقبل وحسي ما في الماضي من حكماء هم أهل للإرشاد والتوجيه!

وكان أحمد عاكف على عكس صاحبه يحسب أن الماضي انطوى على العظمة الحقيقية، أو أنه لم يعرف غير بعض نماذج العظمة الماضية ولا يدري شيئاً عن عظمة وعصرنا! فثارت ثائرته وقال منكراً:

- وفيهم إنكار عظمة الغابرين وفيهم الأنبياء والرسل!

- لعصرنا رسله كذلك!

وأوشك الرجل أن يعلن دهشته ولكنه كان أحرص من أن يُبدي - في حديث - دهشته إلا إذا أوجب ذلك جهل محدثه - لا علمه طبعاً - فتساءل في هدوء:

- ومن رسل العصر الحاضر؟

يستشف ما وراء النظارة السوداء لرأى نظرة احتقار تورث الجنون. وغمغم الشاب:

- يا للسذاجة!

وكان عاكف قرأ فلسفة إخوان الصفا الدينية فرغب أن يلخصها في كلمات لمحدثه البغيض ليدفع عن نفسه حمة الأخذ برأي العوام في الدين من ناحية وليغمض على صاحبه كما غمض عليه، فقال:

- إن في الدين ظاهراً حسياً للعوام وجوهرًا عقلياً للمفكرين، فهناك حقائق لا يضيق المثقف بالإيمان بها مثل الله والناموس الإلهي والعقل الفعال! فهز الشاب منكبته استهانة وقال:

- إن العلماء المعاصرين يعلمون بما في الذرة من عناصر، وبما وراء عالمنا الشمسي من ملايين العوالم، فأين الله، وما أساطير الديانات؟! وما جدوى التفكير في مسائل لا يمكن أن تحل، وبين أيدينا مسائل لا حصر لها يمكن أن تحل ويتبني أن نجد لها حلاً؟ ثم ابتسم الشاب ابتسامة سريعة وقال وقد غير لهجته المتدققة:

- لا يجوز أن نُشرك ثالثاً من جماعتنا في هذا الحديث!

- طبعاً... طبعاً يا أستاذ، ولكن لا تنس أن أول العلم كفر دائماً...

وقطع عليها الحديث ارتفاع صوت سليمان عتة بالغضب، والظاهر أن مُلاعبه سيد عارف أغاظه بهذره فتهيج القرد وصاح به:

- إن الله الذي سلبك قواك عادل حكيم! وذكر أحمد عاكف ما قيل عن سيد عارف منذ ساعة فنظر إلى أحمد راشد مبتسماً فرد الشاب على ابتسامته بابتسامة ذات معنى وقال:

- صاحبنا يجرب الأقراص ويعقد بها رجاء صادقاً! ولفت انتباههما جماعة من لاسي الجلابيب أحاطوا بمائدة عند مدخل القهوة ومضى كل منهم يعد رزمة ضخمة من الأوراق المالية، وكان منظرًا يستدعي الدهشة لما فيه من أوجه التناقض، فقال أحمد عاكف:

- لعلمهم من أغنياء الحرب!

- أضرب مثلاً بهذين العبقرين: فرويد وكارل ماركس!

وشعر بيد تضغط على عنقه فتكتم أنفاسه، بل شعر بجرح عميق في كرامته، لأنه لم يسمع قبل الآن بهذين الاسمين، وأضمر لصاحبه غضباً جنونياً. ولكن لم يسهه إظهار جهله فهز رأسه هزة العارف العالم وتساءل:

- أترهما يضارعان العباقرة الأولين؟

وكان سرور المحامي الشاب بعثوره على إنسان مثقف لا يعادله سرور فرغب في المناظرة رغبة قوية، وأدى كرسيه إلى كرسي صاحبه حتى لم يعد يفصل بينهما شيء وقال بصوت لا يسمعه سواه:

- لقد هيأت فلسفة فرويد للفرد فرص النجاة من أمراض الحياة الجنسية التي تلعب في حياتنا الدور الجوهري. ونهج له كارل ماركس سبل التحرر من الشقاء الاجتماعي، أليس كذلك؟

وخفق فؤاد الكهل الحاقد الغاضب، ولم يدر هذه المرة كيف يعارض فضلاً على أن ينتصر، فراغ عن مواجهته إلى التحايل عليه فقال بهدوء وصدره يغلي:

- مهلاً.. مهلاً يا أستاذ، لقد كنا مثلك متحمسين، ولكن تقدّم العمر ومداومة الفكر حقيقتان بالزام الإنسان حذاً من الاعتدال.

فقال أحمد راشد بلهجة لم تحل من حدة:

- ولكني أحسن التفكير فيما أطلع عليه؟ - بغير شك إلا أنك شاب وستكسب بالعمر حكمة حقيقية، ألم تسمعهم يقولون «أكبر منك اليوم يعرف أكثر منك بسنة!»

- مثل قديم أيضاً!

- وحكيم!

- لا حكمة في الماضي!

- رباه!

- لو وجدت في الماضي حكمة حقيقية لما صار ماضياً قطاً!

- وديننا؟

فرفع الشاب حاجبيه دهشة، ولو استطاع عاكف أن

فقال الآخر موافقاً:

- ٧ -

ونفض في الصباح المبكر نسيطاً، ففتح النافذة وأطلّ منها على الحيّ العجيب فوجد الحيّ يتمطى مستيقظاً فالدكاكين ترفع أبوابها ونوافذ الشقق تُفتح على مصاريعها وباعة اللبن والصحف ينطلقون إلى الطرق المتشابكة مُنادين بغير انقطاع. وجذب انتباهه قدوم جماعات من «مشايخ» المعاهد الأوليّة الغلمان يسيرون زرافات نحو معاهدهم في جيب سوداء وعمم بيضاء فذكّروه «بالفسار» في المقل وأنصت إليهم مستلذاً وهم يرتلون معاً «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً» وجعل رأسه يروح معهم ويحيى حتّى ختموها «يدخل من يشاء في رحمة والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً» فذكر لتوّه أحمد راشد المحامي فهو من الذين أعدّ لهم العذاب الأليم!.. وإنّه به لحقيق!

وعند عصر ذاك اليوم وقد جلس وأتمّه في الصالة يشربان القهوة قالت له المرأة بسرور:

- زارني اليوم نساء الحيّ من الجيران للترحيب بي والتعرّف إليّ كما جرت العادة..

فابتسم أحمد الذي يقدر سرور أمّه بمعرفة الناس ولعلها بالزيارة وقال لها:

- هنيئاً لك!..

فضحكت وهي تتناول منه سيجارة، ثمّ أشعلتها وهي تقول:

- فيهنّ نساء لطيفات سيملأن غربتنا حرارة وجوراً!..

- لعلّك أن تنسي بهنّ الصديقات القديّمات من نساء السكاكيني والظاهر والبّاسيّة!..

فكبر عليها قوله وصاحت به:

- أينسي الكريم أحبابه!.. هنّ روحي وحياتي، ولن يفرّق بيننا البعد مهما امتدّ وطال..

- ونساء الحيّ من أيّ نوع هنّ؟

فقالت المرأة باهتمام وبلهجة من ينبري للدفاع:

- لسنّ من السفلة ولا من الغجر كما ظننت،

- سيهجرون طبقة ويلحقون بأخرى!

- إنّ الحرب ترفع كثيرين من السفلة!

- السفلة!.. هذا صحيح ولكن لا يوجد حدّ فاصل بين السفلة والطبقة العالية، فأرستقراطيّو اليوم كانوا سفلة الأمس. ألا تعلم أنّ رعاع الغزاة انتهوا في الماضي أراضيها بحكم الغزو؟.. وها هم أولاء يكوّنون طبقة عالية تتمتّع بالجاه والسؤدد والامتيازات التي لا حصر لها.

ولأول مرّة يميل إلى موافقته دون نزوع إلى المعارضة، فقال:

- هذا رأيي!

فاستدرك الشاب قائلاً:

- ويرى كارل ماركس أنّ العمال سيظفرون بالنصر النهائي فيصير العالم طبقة واحدة متمتعة بالضرورات الحيويّة والكمالات الإنسانيّة، هذه هي الاشتراكيّة!

ولزما الصمت كأنّما أجهدهما التعب، فجعل عاكف يفكر متألّهاً: يا لها من آراء!.. فرويد وماركس، الذرّات وملايين العوالم، الاشتراكيّة! واختلس منه نظرات ملتهبة بالحقد والكراهية والحقق. فما كان يظنّ قطّ أنّه سيعرّ في خان الخليلي على من يتحدّى ثقافته، ويجبره على التسليم بأنّ فوق كلّ ذي علم عليّاً!.. أفلا يظفر بالراحة في هذه الدنيا؟!

وعند ذاك خلع الشاب نظّارته ليمسح عينيه بمنديله فاكتشف أنّ عينه اليسرى زجاجيّة، ودهش أول وهلة، ثمّ غمره شعور بالارتياح خبيث، لأنّه وجد في عوره وجهاً للاستعلاء عليه أيّما كان هذا الوجه!..

ولبث فترة قصيرة، ثمّ غادر القهوة عائداً إلى البيت هائج النفس نائر الكرامة، ولحسن حظّه ذكر فجأة الغلام!.. وسرعان ما تغيّرت حاله ورفّت على حواسّه الملهته نسمة رطبية أذهبت رياح الحقد والغضب، وتمثّلت لخياله العينان النجلوان، والنظرة الفاتنة، فتتهدّد متحيراً، وهمس لفؤاده «سأراه حتّى مرّة أخرى!».

- يا خبر! .  
 - لا فائدة من الاعتراض، وإني أكذب وتكذيب الكذب! وأنا أكبرك بثلاثة عشر عامًا، فأنا في الخامسة والأربعين.  
 - هل ولدتي وأنت طفلة؟  
 - الأنثى تلد في الثانية عشرة من عمرها!  
 - هذه أخت وليست بأم!  
 - صدقت فالولد الأكبر أخو والديه، أما أخوك فوكيل بنك مصر بأسبوط!  
 فهز الرجل رأسه عجبًا وقال:  
 - كيف تواتيكن الجرأة على تزيف حقائق لن تخفى طويلًا عن أعين الجار، ولا بد أن تنكشف حقيقتها يومًا ما؟  
 فقالت ببساطة:  
 - غدًا تؤلف العشرة بين قلوبنا ونعرف الحقيقة رويدًا رويدًا بلا سخرية ولا تعيير، ولو أنني قلت الحقيقة بغير زيادة، لما صدقتني كما لا يصدقني الآن، ولانتقصن من رأس المال بدلًا من أن ينتقصن من الفائدة!  
 - يا لكن من كاذبات لا يشقّ لهنّ غبار!  
 - وماذا عليك من هذا؟! طوي لكذب غايته الرفعة والفخر. إنّ كذب النساء بلسم لجراح دامية، متّعك الله بعروس تعاطيك أجمل الكذب وأشبهاء! فضحك الكهل على امتعاضه لذكر العروس وكّر قوله السابق قائلاً:  
 - يا لكن من كاذبات لا يشقّ لهنّ غبار! ولحظته غامرة بعينها وسألته:  
 - وأنتم يا بني ألا تكذبون؟  
 وصمت قليلًا، لا لأنّ الجواب غائب، ولكن لأنّه تفكّر قليلًا فيما تنوء به حياته من الرّوان الكذب، ثمّ قال:  
 - نكذب، ولكن في أمور أجل!  
 - عسى أن يكون تافها عندنا ما هو جليل عندكم، ولكن هل تعدّ العمر والفخر بالجاء والسؤدد أمورًا تافهة؟

وبعض الظنّ إثم، وكان بين اللّائي زرنبي زوج موقّف بالمساحة يُدعى كمال خليل، وزوج آخر بالمساحة أيضًا يدعى سيّد عارف، وجاءني أيضًا زوج صاحب مقهى الزهرة وشقيقته، والزوجة امرأة طيبة القلب، أمّا شقيقة زوجها فينطلق في عينها المكر والشرّ، وإن سترت ذلك كلّ بغلالة شفّافة من الرقّة والابتسام!

- داربها هي وأمثالها بالطف، فإنّه إن يلغها شيء عنك من وراء وراء كشفت وجهها علينا!

- لا سمح الله يا بني، أمّا أعجب ما صادفت اليوم فهو أنّ السّت توحيدة حرّم كمال أفندي خليل - وهي جسيمة كالمحمل أو كأتك أيام شبابه - صديقة قديمة.. عرفتها في دكان بهلة العطار بالتربعة..

- وأنتم تسعيان معًا إلى وصفات السمن!

- هو ذلك.. وتبادلنا النحيّة هناك مرّات، ولكننا لم نتقدّم وراء ذلك في سبيل التعارف!

- ها هي ذي الأيام تعارف بينكما!

ثمّ ذكر أنّ هذه السيّدّة أمّ الغلام محمّد!.. ولم يكن ذكره في نهاره إلّا حين جاء ذكر أمّه، فعجب كيف نسيه طوال ذلك الزمن، وقد كان قبل عشرين ساعة ملء القلب والخيال! ولكن أمّه لم تدعه لأفكاره فضحكت ضحكة عالية وقالت:

- وأخذنا في كذب النساء طويلًا وكذب النساء لذيد، فهذه أبوها فقيه كبير يتبارك الناس بتقبيل يديه، وتلك كريمة تاجر واسع الثروة، والثالثة قريبة مدير حسابات الداخلية، والرابعة مرضت مرضًا أنفقت على علاجه عشرات الجنيهات!

وضحكا معًا، ثمّ سألها الكهل وما زال ضاحكًا:

- وكيف كان كذبك؟

فقالت وهي تحدّجه بنظرة ضاحكة:

- يسيرًا لا تثريب عليه يوم الحساب، فأبوك أحيل على المعاش منذ زمن يسير، وكان مفتشًا بالأوقاف، وأمّا أبي - جدّك - فكان تاجرًا وأنت يا نور عيني رئيس قلم بوزارة الأشغال، ولك من العمر اثنان وثلاثون عامًا لا غير فتذكّر!

الحسان! ألم تنبذ يده امرأة - ليست بحال الجمال عينه -  
قائلة: إنَّ عمره كبير؟!. وأراد أن يتخيَّل صورة كريمة  
العطار، فذكر فجأة وهو لا يدري السمراء الحسنة  
ذات العينين النجلوين التي التقى بها في الردهة  
الخارجية! فانقبض صدره وسأل أمه:

- هل يقيم العطار في عمارتنا؟

فقالت:

- كلاً بل يسكن في بيت القاضي!

فتنهَّد ارتياحاً، ثم تساءل تُرى لأي أسرة تنتمي  
الفتاة؟ وما لبث أن كتم صيحة كادت تغلت من  
شفثيه!!.. فقد ذكر في تلك اللحظة عيني الغلام  
محمد، وذكر أين رآهما أوَّل مرَّة في وجه السمراء  
الحسنة في الردهة الخارجية!.. وهذا ما حاول تذكُّره  
فعرَّز عليه ساعتئذ وأضناه! فالغلام شقيق الفتاة بغير  
شك، وخفق فؤاده، ولكنَّه شعر بارتياح عميق وسرور  
لذيذ وانجابت وساوسه وحيرته وخجله!. وكان سروره  
باكتشافه من القوَّة بحيث لم يعد يُلقى بالاً إلى حديث  
أمه، فما زالت تتكلَّم وما زال يتيه في أحلامه..

- ٨ -

وعندما أتى المساء مضى إلى الزهرة، ولم يمضِ دون  
تردد، فإنَّ ارتياح القاهي حدث جديد عليه لم يتعوَّده  
ولم يألُفه، وكان حرصه على عزله الثقافي يعادل تباهيه  
بها، فلولا ما يدعوه إلى هناك من مصالوة أحمد راشد  
والظهور على الآخرين ما وجد خروجه على عزله أمراً  
ميسوراً. ولم يلتقِ في الزهرة بأحد راشد؛ وسأل عنه  
فقال له إنَّه كثيراً ما يمنعه العمل عن الحضور إلى  
القهوة. على أنَّ الجلسة لم تُصيِّر - رغم ذلك - فاترة،  
وأحيائها المعلِّم نونو والمعلِّم زفنة «القهوجي» بظرفهما  
الجميل. وتكلَّم أحمد عاكف كثيراً وضحك طويلاً،  
وقد أخذ يستهويه الأجتاع بالناس أو بالظرفاء من  
الناس خاصَّة. ويمجد في الأنس بهم ما يمجّد الثَّعب  
المنهوك أسلم جنبه للرقاد. وعاد إلى البيت في العاشرة،  
فحكف على المطالعة زهاء الساعتين وأطياف الحياة  
الجديدة تراقص أمام عينيه بين السطور - وما عهد قط

- كذب الرجال جليل كالرجولة نفسها!. فأين أنثى  
من كذب التجار والساسة ورجال الدين؟! كذب  
الرجال مخوَّر هذه الحياة الجلييلة التي تشاهدين آثارها في  
معترك الحكومة والبرلمان والمصانع والمعاهد، بل هو  
محور هذه الحرب الهائلة التي رمت بنا إلى هذا الحيِّ  
الغريب.

وعلم أنَّها لم تفهم من قوله إلا أقله، فسرَّ لذلك  
سروراً مضاعفاً، ثم ذكر أمراً فسألها:

- ألم تزرك زوجة من حريم المعلِّم نونو؟

- ملعون أبو الدنيا!!.. لقد حدَّثني بسيرته  
طويلاً، ولكنَّ الرجل يحرم على أزواجه الخروج أو  
النظر من النوافذ، وربما انقضى العام في إثر العام وهنَّ  
قابعات في دارهنَّ راضيات قانعات!

- حقيق بمن يتغنَّى بلعن الدنيا ألا يأمن إليها!

- والله يا بني المرأة مظلومة كاللدينا، ولكن ما علينا  
من هذا فهل سمعت بشخص يدعى سليمان عتة؟  
- المفتش؟

- تدعوه توحيدة هانم بالقرء!

ولعلَّ قولها هذا أوَّل صدق تقع فيه!

- وقالت عنه ضاحكة إنَّه يفكر في الزواج!

- وأيَّة فتاة ترضى بهذا القرد العجوز بعلاً؟

- كثيرات لا حصر لهنَّ، فاللالم نصف الجمال على  
الأقل، فالفتاة هي التي تتصيَّده وتحدُّ في طلبه حتَّى لا  
يفوتها الزواج منه قبل الخامسة والخمسين..  
فسألها ضاحكاً:

- وهل ينتهي الرجل عند هذه السنِّ؟

- لا قدر الله، ولكنَّها لا تستحقُّ في معاشه إذا  
تزوَّجت منه بعدها.

- فهي ترغب في الزواج منه وتُراهن على موته،  
فمن عسى أن تكون هذه العروس الحكيمة؟

- قالت السَّتْ توحيدة هانم إنَّها كريمة يوسف بهلة  
العطار، وإنَّها الجمال عينه، فقد جمعت الحسن من  
طرفيه: الطبيعي والصناعي!

فتمثَّل أحمد عاكف صورة القرد العجوز باشمئزاز،  
وعجب كيف يحظى بما لا يطمع هو فيه من إقبال

الخوف أزل الأمر فلم ينفع الاجتماع ولا النور ولا صلابة الجدران في تلطيف حدته، ومضت فترة انتظار مؤلة نطقت فيها الأعين بعذاب الصدور، ونظر أبوه في ساعته ثم غمغم قائلاً:

- الساعة الثانية صباحاً!.. نفس ميعاد الليلة الفظيعة!

وكان أحمد يعاني ما يعانيه أبوه وأكثر، ولكنّه قال بلهجة هادئة ما استطاع:

- كان الضرب خطأ فلن يتكرّر إن شاء الله! .  
ومضت الدقائق متتابعة والسكون مطبق، وطالت فترة السكون فأخذ الأمن يتسرّب إلى الجوانب الخافتة، وشاع الهمس والكلام، وعلا ضحك كثير، ثم طمان القوم بعضهم بعضاً، ونظر أحمد في الوجوه القريبة منه فوجدها غريبة وقد استبقوا إلى الحديث في جلبة، قال رجل منهم:

- لن يبلغ الأذى مهبط رأس الحسين.

فقال له الآخر:

- قل إن شاء الله!

- كلّ شيء بمشيئة الله.

- وهنتر ينسطوي على احترام عميق للبقاع الإسلامية!

- بل يقال إنّه يبطن الإيمان بالإسلام!

- ليس هذا عليه ببعيد، ألم يقل الشيخ لبيب النقيّ النقيّ إنّهُ رأى فيما يرى النائم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقلّده سيف الإسلام؟!

- فكيف ضربت القاهرة في منتصف هذا الشهر؟

- ضربت السكاكيني وهو حيّ غالبية سكّانه من اليهود!

- تُرى ماذا ينتظر الأمم الإسلامية على يديه؟

- سوف يعيد - بعد فروغه من الحرب - إلى الإسلام مجده الأول، وينشئ من الأمم الإسلامية اتحاداً كبيراً، ثم يوثق بينه وبين ألمانيا بعهد الصداقة والتحالف!

- لذلك يؤتله الله في حروبه!

- وما كان لينصره لولا جميل طويّته، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى!

الاستغراق في القراءة - ثم نهض إلى فراشه وراح في النوم. ولم يدر أطل به النوم أو قصر، ولكنّه استيقظ على صوت منكر لم يتنبّه إلى حقيقته في الثانية الأولى من استيقاظه، ثم أدرك كنهه فحفق قلبه خفقة فزعة، وقفز إلى أرض الحجرة بسرعة جنونية، وتحسّس شبيهه بقدميه فوضعهما فيه ثم اندفع إلى الصالة الخارجية فالتقى بشيحي والديه تقدّمهما الخادم الصغيرة، وسأله أبوه بصوت متهذّب:

- هل تعرف الطريق إلى المخبأ؟

فأجابت الخادم عنه بسرعة:

- أنا أعرفه يا سيّدي..

وسبقت الأسرة إلى الباب في ظلمة حالكة، وخرجوا جميعاً إلى الردهة الخارجية متحسّسين الحائظ إلى السلم الخلزوني، وهناك بلغت آذانهم جلبة اليقظة التي شملت الدور جميعاً، ومزّق السكون صفقات الأبواب وهي تغلق، ووقع أقدام المهرولين على السلم، وتساعد أصواتهم بالكلام والضحكات العصبية. وهبطت القافلة مهتدية إلى الدرابزين تخوض بحار الظلمات، ويسوقها الخوف والفزع، وفي الطريق أرشدتهم أشباح السكّان وأصواتهم إلى الطريق فلم يحتاجوا إلى الاستدلال بخادهم، وكانت الطرقات المسقوفة تبدو كدخال البيوت مظلمة، أمّا الآخر فيخفّف شعاع النجوم الشاحب من شدّة ظلمتها. وعاد بهم الخوف إلى ذكريات تلك الليلة الجهنمية فانقبضت صدورهم وجعلوا يقلّبون وجوههم في الساء كلّما لاحت لهم. ثم بلغوا مدخل المخبأ في تيار من القوم غير منقطع، وهبطوا مع سلّمه في باطن الأرض حتّى وجدوا أنفسهم في مكان متّسع بهر أعينهم - المخدّرة بالظلام - بمصابيح الكهرباء القويّة، وكان سقفه وجدرانه ترك في نفس المشاهد أثراً عميقاً بصلابتها وشدّة مراسها، وقد التصقت بجوانبه مقاعد خشبية مستطيلة، وبعثرت في وسطه كُثبان من الرمل. ومضت الأسرة إلى أحد الأركان واتخذت مجالسها ونفّرق القاعدون إلى الأركان والمقاعد، ووقف خلق كثير من وسط المخبأ تَمَن ضاقت عنهم المقاعد. وشاع

الفاضلة الحقيقة بتطهير المجتمع من نقائصه والنفس من أوهامها، الحقيقة ببلوغ السعادة الحقّة، إنّ سعادة نونو لا تفضّل شقاءنا - نحن دعاة العلم والإصلاح - إلّا كما يمكن أن يفضل الموت براحتة المزعومة نعمة الحياة بمتاعها وكفاحها!

ولم يجد عاكف من نفسه لتؤثر أعصابه بجو المخبأ قوّة يتوثّب بها للنضال والمعارضة فقال مبتسماً:

- ألا ترى أنّه ينعم الآن بفضل سعادته العمياء بركاد لذيد بينما نشقى نحن جميعاً برطوبة الليل؟ فضحك الشاب وكان أملك لجنانه من الآخر وقال:

- لا شكّ أنّه ينعم الآن بركاد لذيد لا شريك له فيه إلّا معشوقة الأزواج!

فبدا على وجه عاكف ما يشهد له بأنّه لم يفهم شيئاً، فابتسم المحامي واستدرك قائلاً:

- ألم تسمع عنها بعد؟... إنها امرأة هائلة، وظيفتها الرسمية «زوج عباس شقة»، أما تذكره؟... أمّا بيتها فيستقبل كلّ مساء جمهرة أرباب البيوت بهذا الحثي، فسأها الملعّم زفنة القهوةجي «معشوقة الأزواج»! فلاح في وجه عاكف الاهتمام الذي يثيره هذا الحديث، وتساءل:

- أتعي...؟

- نعم.

- وعبّاس شقة؟

- زوج رسمي، زوج وجد في الزوجيّة مهنة ومرتزاً!

- ألذلك تحفون به على حقارته وقبحه؟

- إنّهُ عزيز ذو مقام عظيم!!

وتمثّل عاكف وجه الرجل الدنيء وشعره المنفوش باحتقار شديد، وتحرك في تلك اللحظة الشاب فتحرّك معه، يسيران في بطء شديد مستعرضين الجلوس والواقفين، حتّى رأيا سيّد عارف جالساً إلى جوار حسناء نصف واضعة على حجرها طفلاً، فغمغم الشاب:

- صاحبنا سيّد عارف وحرمه!

استمع الكهل إلى المتحاورين بلذّة وإنكار، وكانت غالبيتهم من أهل البلد ولكّنه لم يكن يتصوّر أن تبلغ بهم سداجة التفكير هذا الحدّ من الأوهام!.. أو أن تؤثّر فيهم الدعاية - إن كان هناك دعاية - هذا التأثير المضحك، ولكّنه لم ينكر على حوارهم لذّته وفكاهته غير المقصودة، وما كان ليحرم نفسه من متعته لولا أن وقع بصره اتفاقاً على غريمه الأستاذ أحمد راشد متمشياً على كسب منه، فنهض إليه فوراً فتصافحا ثمّ قال له عاكف:

- لم تترك اليوم.

فقال الشاب ذو المنظار الأسود:

- شغلت بدراسة قضية!

واستشار القول غيرته فلم ينبس بكلمة وراح المحامي يقول ملقياً نظرة شاملة على ما حوله:

- رأيت جميع الإخوان هنا معنا إلّا الملعّم نونو طبعاً!

فابتسم عاكف قائلاً:

- أعجبت به من رجل غريب الأطوار!

- يتلخّص في الكلمات الآتية «ملعون أبو الدنيا».

- هذا شعاره أو قلّ إنّهُ نشيده.

- ما كان أجدره أن يعيي الموت لولا قضاء الهرم.

- هو الإيمان!

- إنّهُ يشعر بالله شعوراً عميقاً، ويحسبه في كلّ مكان يحلّه ويتوكّل عليه بكلّ قلبه، وبطمئن كلّ الاطمئنان إلى أنّه لن يتخلّى عنه، وتراه يلمّ بالمعصية دون أدنى شكّ في غفرانه ورحمته.

فتنهّد عاكف وقال:

- هذا رجل سعيد كما علمت!

فهزّ الشاب رأسه بما يشبه الاحتقار وقال:

- سعادة عجباوات، سعادة الجهل والإيمان الأعمى، السعادة التي يعيش الطغاة بفضل تمكّلها رقاب البلهاء، ومن المضحك أن تجد هذه السعادة الحمقاء من يأسى عليها بين الحكماء؟! فتش عن السعادة الحقّة على ضوء العلم والعرفان، فإذا وجدت مكانها قلّها وسخطاً وشقاء فتلك آيات الحياة الإنسانيّة



فسأله عاكف باهتمام واستحياء:

- وحرمة؟! .. وكيف تزوج؟! ..

- كما يتزوج الناس، وهو رجل عاديّ لولا حالة طارئة غير ميثوس منها، ورجاؤه كبير في الأقراص الألمانية، ولن ..

ولم يتمّ أحمد راشد كلامه فقد قطعه دويّ طلقة شديدة، تابعتها طلقات متقاربة، وارتجف عاكف وخال أنّ جسمه كلّهُ ارتجف فخاف أن يكون غريمه قد اطلع على رجفته. وساد سكون عميق وحارّ في العيون نظرة قلق وخوف، وقال أناس: «هذه طلقات مدافع مضادة» يطمثون أنفسهم ويطمثنون الآخرين، ولكنّ الكلام - أيّا كانت مقاصده - أحدث في النفوس القلقة المنصّنة جزعاً وحقناً، وجاء رجل من الخارج مهزولاً وقال وهو يلهث: «السماء ملأى بالأنوار الكاشفة؟» فاشتدّ الخوف بالافتتة، ثمّ سمعت طلقات أخرى بعيدة استمرّت فترة وجيزة قبل أن يطبق السكون مرّة أخرى، وطالت فترة السكون وامتدّت فعاتت الظمائية إلى النفوس، وتعالى الهمس ثمّ ضجّ المكان بالكلام:

- لن تعاد مأساة الضرب الأعمى ..

- لقد اعتذر راديو برلين عن غارة منتصف سبتمبر!

- كانت غارة إيطالية فالألمان لا يخطئون!

فابتسم أحمد راشد - استطاع أن يتسم ثانية - وقال لصاحبه:

- أرايت إلى هؤلاء المتعصّبين للألمان؟! ..

وأنت؟! .. هل أنت كهؤلاء؟

وكان عاكف يتلذذ - كعادته - بمشاركة المغلوبين عواطفهم، ولمّا كانت الغلبة للألمان في ذاك الوقت فقد قال بغير تردّد:

- كلّاً .. إنّني مع الحلفاء قلباً وقالباً، وأنت؟! ..

فسوّى المنظار الأسود على عينيه وقال:

- لي أمل واحد: أن يتنصر الروس ويحرّروا الدنيا من الأغلال والأوهام!

وابتعدا قليلاً عن جماعة المتحدّثين فرأيا في نهاية الجناح الآخر من المخبأ على يمين الداخل - صاحبهما

كهال خليل وأسرته! .. ورمى عاكف نحوه بناظره باهتمام شديد فرأى سيّدة مفروطة في السمن، والغلام عمّد في بيجامة، والفتاة السمراء ذات العينين النجلوين الساذجتين، رأى جهرة ما جعله الشوق يلتسمه في غير موضعه، وجاءت الحقيقة مطابقة لما سرّ باكتشافه منذ ساعات معدودات، ولم يسهه إدانة النظر فردّ الطرف متملّياً متملّئاً، ثمّ سمع أحمد راشد يقول بصوت خافت:

- كهال خليل وأسرته!

فسأله:

- أهذه الفتاة كريمته؟

- نعم. له محمّد ونوال وفتاة كبرى متزوجة!

واختلس منها نظرات ليملاً عينيه من النظرة الساذجة تقطر حقّة. وكانت ملتفة في معطف شتويّ وقد أرسلت شعرها الأسود في ضفيرة غليظة، ومضت تتأب مرسلّة نظرة ناعسة، وراهما كهال خليل فأقبل نحوهما مبتسماً ووقفوا معاً يتحدّثون، وأدرك عاكف أنّ إقبال الرجل عليهم لا بدّ ملفت أعين أسرته إليهم وأنّه لا يبعد أن تتفحصه العينان النجلوان - إن لم تكونا تفحصته بالفعل - في جلبابه الفضفاض، وطاقيته البيضاء، فتورّد وجهه حيّاء وقلقاً وتساءل تُرى هل تذكره؟! .. ولم يطل المطال بوقوفهم معاً فانطلقت صفارة الأمان ودبّت في المخبأ حركة عامّة شاملة، فحيا عاكف صاحبيه ومضى إلى والديه، وانتهره أبوه قائلاً بحلّة:

- أتتخلّى عنّا ساعة الضرب وتهرع نحونا عند

الأمان؟

فقال أمّه ضاحكة:

- الله معنا في جميع الأوقات!

واندسوا في التيّار المتّجه نحو الباب يسبّرون في بطن شديد حتّى ارتقوا السّلم إلى الطريق، وعادوا إلى عمارتهم وقد أضاء الطرقات ما انبعث إليها من نور النوافذ، وصعدوا إلى شقّتهم في جمع من السّكان عرف أحمد صوت كهال خليل بين أصواتهم. وسارع الرجل إلى فراشه يراود النوم كربة أخرى، ولكنّ فرقت بينهما

طويلاً صورة ذات العينين النجلاوين والنظرة الحلوة..

## - ٩ -

نفومة أطافره، وأشفق - كما أشفق دائماً - من أن

يُعرض عن يده إذا امتدّت له بطلب بعد أن صار أكبر اعتماده عليه، فسكت مرتبّكاً متحيزاً حتى قال عاكف أفندي أحمد الأب:

- حَسْبُنَا قليل من الصنوبر والزبيب لضرورتهما في الحشوش، ونصف لُقّة قمر الدين لتغيير الريق، ولنقنع من الكنافة بمرّة واحدة، ومن القطائف - وهذه لا تقلى في السمن - بمرتين، وليس هذا عليك بكثير.

فهاهنا الأمر، وأيقن أنّه سينفق في هذا الشهر ما اعتاد توفيره كلّ شهر من النقود القلائل، ربّما أجبر على سحب مبلغ آخر من صندوق التوفير، الأمر الذي ينقص عليه صفوه، ثمّ ذكر شيئاً آخر لا يقلّ خطورة عن الكنافة والنقل فقال:

- واللحوم؟!

فقال أمّه بما لها عليه من دالة:

- سمحت الحكومة ببيع اللحوم طوال الشهر الكريم، وما ذلك إلّا لأنّ قطعة اللحم حقيقة بأن تسند قلب الصائم المتهالك!

فقال أحمد معترضاً:

- ولكنّ ميزانيتنا أصغر من أن تقوم بابتلاع رطل لحم كلّ يوم مع الحاجيات الأخرى!

فقال الوالد مستعيّناً بقليل من الدهاء:

- صدقت والأفضل أن نمتنع عن اللحوم مرّة كلّ ثلاثة أيام!

وانشغلت الأمّ في الأيام الباقية بتهيئة المطبخ، وتبيض الأواني وتخزين ما تيسر من النقل والسكر والبصل والتوابل. وكان لمقدم رمضان في نفسها فرحة وسرور، ولو أنّها لم تؤدّ فريضة الصيام إلّا منذ سنوات قلائل، إذ إنّ شهر المطبخ كما أنّه شهر الصيام - أو لأنّه شهر الصيام -، وأجل من هذا أنّه شهر الليالي الساهرة والزيارات الممتعة، حيث تُدار الأحاديث على قزقة اللبّ والجوز والفسق. ومن حسن الحظّ أنّ رمضان وافق ذلك العام شهر أكتوبر، وهو شهر معتدل، وغالبًا ما يصفو جوّه وبطيب فيلذّ فيه السهر حتّى يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

واقترّب رمضان فلم يعد يفصل بين هلاله وبين الطلوع سوى أيّام قلائل. ولكن رمضان لا يأتي على غرّة أبدًا، وتسبّقه عادة أهبة تليق بمكانته المقدّسة، ولم تغفل أمّ أحمد عن ذلك - وكانت في الواقع المسئولة الأولى عن جلال الشهر وجماله - فجعلت منه يومًا حديث الأسرة قائلة: إنّ شهر له حقوقه كما له واجباته. وكان قولها موجّهًا لأحمد فأدرك مغزاه وقال مدافعًا عن نفسه:

- رمضان له حقوقه ما في ذلك في شكّ ولكن الحرب ضرورة قاسية جارت على جميع الحقوق! فقلت الأمّ بلهجة دلّت على عدم الارتياح:

- لا قطع الله لنا من عادة!

فاستيقظ بُخله وقال بشيء من الحدة:

- ليتمّض رمضان كما مضى غيره من الشهور، وستعوض ما فاتنا منه فيما يقبل من أيّام السلم! - والنقل والكنافة والقطائف؟!

ووقعت هذه الأشياء من نفسه موقعًا ساحرًا - على استيائه - لا لاشتهاؤها فحسب، ولكن لما دعت من ذكريات الشهر المحبوب وعهود الصبا خاصّة، بيد أنّ الذكريات الخنونة لم تغنّ عن حقيقة الغلاء الواقعة ولم تلطف من حدة حرصه، فقال بلهجة حازمة رغم تحرك الحنان في قلبه:

- لنضع الكماليّات في ظروفنا الحاضرة القاسية ولنضع الله الكريم أن يعيننا على ضرورات الحياة.

وأصغى الوالد باهتمام إلى أقوال ابنه وإن تظاهر بعدم الاكتراث، ومال إلى تأييد الأمّ فيما تقول ولكن شجاعته لم تؤاثره، فلما صاغ الابن رأيه في تلك اللهجة الحازمة، قال الوالد بصوت هادئ:

- ولا تغلّل يدك إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط. وأدرك أحمد أنّ أباه من حزب أمّه، ولم يسعه أن يواجهه بمثل صراحته في مخاطبة أمّه، لتعوده مهابته منذ

- لا تتعبوا أنفسكم في التفكير فلنا في سهرات رمضان الماضية أسوة: نحن نجيء إلى قهوتنا بعد الفطار ونسمر بها حتى منتصف الليل ثم ننتقل إلى «هناك» لنصل سهرتنا بالسحور.

وتنبّه أحمد إلى «هناك» هذه وتسأل ترى هل يستيحيون النكح في شهر التوبة؟! على أنّ سيّله كان واضحاً فسيلت بينهم ما لبثوا في المقهى ثم يعود إلى بيته فيطالع حتى السحور وهكذا حتى يختم الشهر.

- ١٠ -

وفي اليوم الأوّل من الصيام كابد أحمد عاكف تعباً مرهقاً، فشقّ عليه ألا يشرب قهوته ويدخن سيجارته على الرين، ومضى إلى الوزارة مترجّع الرأس متثائباً، وغالب تعب مغالبة يائسة حتى دمعت عيناه من التثاؤب واسترخت جفونه. وذكر أنّ أحمد راشد وأمّاله لا يعانون تعباً ولا حرماناً فسره أن يحتقره ويتعالى عليه. وعاد إلى البيت ظهراً وقد نهكه التعب، فاستلقى على فراشه وراح في نوم عميق صبحاً منه قبل الفطار بساعة واحدة. وذهب إلى الحمام فرطب وجهه وأطرافه، وفي طريق عودته رأى والده في حجرته مترجّعاً على سبّادة الصلاة يقرأ في الكتاب، فمرّ به ساكناً، وعطف رأسه إلى المطبخ فرأى أمّه مشمّرة عن ساعديها، ودعاه المطبخ إلى الوقوف بعض الوقت عند عتبه، فأجال بصره فيه متشّماً فطاف بطبق كبير حفل بمواد السلطة من يقدونس وجرجير وجزر وبصل وطماطم، خضرة يانعة وحمرة فاقعة، فانشرح صدره وتحلّب ريقه، وانتقل إلى سلطانية الفول فلم يستطع صبراً وزايل مكانه. وفي الصالة مرّ بالسفرة وقد هيئت فوضع على ركن منها العيش وفرقت أمام كراسيها أكواب الماء وتوسّطها طبق ملآن بالفجل، فهرع إلى حجرته وأغلق الباب. وكان أبقى الأهرام بغير قراءة ليتسلّى بمطالعة في الساعة الأخيرة المعروفة بشدّتها وثقلها فأكبّ عليه حتى فرغ منه، ونظر في الساعة فعلم أنّه لا يزال عليه أن ينتظر نصف ساعة أخرى!.. وتجهّم وجهه، ثم لم يَرِ بدءاً من فتح النافذة المشرقة على العمارات ليقطع

وجاء مساء الرؤية، وانتظر الناس بعد الغروب يتساءلون، وعند العشيّ أضاءت مئذنة الحسين إيذاناً بشهود الرؤية. وقد اجتزأوا بالإضاءة عن إطلاق المدافع لطروف الطوارئ. وأزّينت المئذنة بعقود المصابيح مرسلة على العالمين ضياء لالاء، فطاف بالحيّ وما حوله جماعات مهلّلة هاتفة «صيام صيام كما أمر قاضي الإسلام» فقابلتها الغلمان بالهتاف والبنات بالزغاريد، وشاع السرور في الحيّ كأنما حمله الهواء الساري، فلم يملك أحمد عاكف أن يقول:

- أين من رمضان شارع قمر هذا الرمضان

البهيج؟!

فابتسم الوالد وقال:

- وماذا رأيت عما رأيت يا غلام؟!.. أشهدت رمضان في حيناً الجديد هنا قبل اندلاع الحرب؟!.. إنّه النور والسرور، إنّه الليل المنار اليقظان، إنّه الليل العامر بالسنار والمنشدّين واللهو السري، وفي أيام الفتوة والصحة كنت أسري قبل السحور في جمع من الإخوان من السكاكيني إلى حيناً هذا تتسخر كوارع ولحم الرأس وتدخن البوري في مقهى الحسين ونستمع إلى أذان الشيخ عليّ محمود ثم نعود مع الصباح الباكر..

فسأله أحمد:

- متى كان ذلك؟

فقال الرجل بلا جهد:

- وأنت في العاشرة!

آه.. تلك الأيام العذاب، أيام السرور والمرح والتدليل، لقد اتّفق له ولوالده عهد واحد يكيانه معاً. ومضى أحمد ذاك المساء - كعادته الجديدة - إلى مقهى الزهرة. وقد استسلم لهذه العادة الجديدة التي استأثرت بنصف الوقت المخصّص للمطالعة، ووجد في المعاشرة لذّة ليست دون لذّة القراءة والعزلة.

واجتمع بالصحاب الذين أخذ يألفهم ويألفونه، ودار الحديث عن سهرات رمضان وكيف يقضونها. فقال عباس شفة - زوج معشوقة الأزواج - بصوته المبحوح:

قد نهضت لتذهب إلى الداخل، وخال أنه لمح على وجهها بشير ابتسامة وهي تتحول لتدخل. وعاد إلى النافذة الأخرى متسائلاً ما معنى هذه الابتسامة؟.. لماذا ابتسمت الصبية؟ هل تسخر من صلته؟.. أم تعجب لما تضحك من نظراته الوجلة الخجول؟.. أم تعجب لما حسبه غزل كهل في سن أبيها؟. إي والله في سن أبيها؟.. فلو تيسر له الزواج في إبانها لأنجب فتاة في مثل سنّها، وليّا أمكن أن تبعث مثل تلك النظرة في أطرافه ما بعثت من ارتباك واضطراب وحياء، ولكن قضي أن يفقد جنانه لدى أي صبية، وأن تستثير جوعه وحياءه أبرأ النظرات! وابتسم ابتسامة يأس وخجل فافترت شفته عن أسنان صفراء ودوى المدفع، وتصايح الأطفال فعجب كيف انقضت نصف الساعة بخير تفكير في الجوع أو العطش، وهتف المؤذن بصوته الجميل «الله أكبر.. الله أكبر» فأجاب أحمد بصوت مسموع «لا إله إلا الله». ثم تحول عن النافذة ذاهباً إلى الصلاة. والتأم جمع ثلاثتهم حول السفرة، ثم غيروا ريقهم على عصير قمر الدين حتى رووا ظمأهم، وأتت الأم بطبق الفول المدس فقبلوا عليه بنهم شديد وتركوه أبيض من غير سوء، فقال الأب وهو يعتصر بقليل من الماء:

- أظنّ الأوفى أن نؤخر الفول حتى نصيب من أنواع الطعام الأخرى وإلا امتلأنا به وحده.

فقالت الأم ضاحكة:

- هذا ما تقوله كل عام ولكنك لا تذكره إلا عقب

الفراغ من الفول؟

ولكن لم يزل في البطون متسع فجاء باللوبيا والفلفل المحشو واللحم المحمر وتعاونت الأيدي والأعين والأسنان في عزم وسكون. ولم يكن الطعام الشيء الوحيد الذي يلدّ أحمد، فهناك خواطر سارة زحمت رأسه الصغير الأصلع، حدثت من شهوة الطعام نفسها، من هذه الخواطر: أنّ الفتاة جارته، وأن شقته تشرف على شقته، فاللقاء منتظر، والتقاء العينين مرتقب، والتفاعل محتمل، والانفعال مؤكّد. ومن يدري بعد ذلك ماذا يحدث؟ سيرمي بالقلب في

الوقت بالنظر، ورأى المعلم نونو يغلق دكانه وأطفاله ينتظرونه يكادون يسدون الطريق سداً، ثم مضى يحقون به ويتعلّق الصغار بساقيه ويصيحون جميعاً في جلبة تحسده عليها محطّة الإذاعة. وقد أوشك الطريق أن يخلو إلا من باعة الزبادى، وشاهد شعاع الشمس الأخير يتقلّص عن أسوار العمارات التي تواجهه من وراء مرتع الحوانيت العظيم، والنوافذ المفتوحة تعلن عن الشفر الحافلة، وعلى الشرفات انتصبت القلّل لتبرد وانتثرت أطباق الحشاش المكثّلة بغلالات بيض، وأتى الهواء بروائح الثقيلة ونشيش المقلّيات فتاه في دنيا الطعام الساحرة... ثم تحول عن هذه النافذة إلى النافذة الأخرى المطلّة من جنب على خان الخليلى القديم ففتحها وارتفق حافتها، ورمى بطرفه إلى الحي القديم فوجده صامتاً ساكناً تلوح قباه المعزّية كأنها تسجد تحية للشمس المولّية، وكان يواجه نافذته عن قريب جناح العمارة الأيسر بنوافذ مغلقة، ولكنّه سمع حركة خفيفة هتّت من عل، رفع بصره فرأى شرفة الجيران - التي تواجه نافذته ولكن في الطابق الأعلى من العمارة - ورأى في الشرفة فتاة مكبّة على تطريز شال انسحب ذيله على حجرها وهي جالسة على كرسي ملتفة الساقين، وعرفها من أوّل نظرة - حتى قبل أن ترفع إليه عينيها - فاهتز صدره، فما كان يحسب أنّ شقة كمال خليل في هذا الجناح الذي يواجهه، ولا أنّ فتاته دائية إلى هذا الحدّ، ف شعر بارتياح وسرور. ورفعت الفتاة عينيها إليه ثم ردتها بسرعة إلى إبرتها فنظر في العينين العسليتين النجلاوين لثالث مرّة، وفي تلك اللحظة الخاطفة من التقاء العيون اضطرب قلبه وغلبه الارتباك وتولّاه الحياء فتورّد وجهه الشاحب واختلج جفناه ولم يدر ماذا يصنع ولا كيف يتخلّص من موقفه. ونكس رأسه الأصلع وهو يودّ لو يختفي من النافذة ريثما يأخذ أنفاسه، تُرى هل عادت إلى النظر إليه؟.. هل ترنو الآن إلى صلته؟.. وشعر بأن موضع نظرها من رأسه يشتعل كما تشتعل الورقة تحت أشعة الشمس المتجمّعة في بؤرة. ومضى وقت طويل أو قصير حتى تبّه على طقطقة الكرسيّ فرفع رأسه فراها

تفضّل أن تكون: عباس شفة أم سيّد عارف؟!

فضحك نونو ضحكته العظيمة وقال:

- لا خَيْرُتُ بين أن أكون أحداً قطاً!

فقال سيّد عارف بإيمان:

- سبحان من يُحيي العظام وهي رميم، وغداً تردّ

الأقراص كيد الحاسدين إلى نحرهم!

فضحك عباس شفة ضحكة داعرة وقال:

- وقدّاك نهقْ أنفستنا؟!

ونهاهم سليمان عتّة عن الإلمام بمثل ذاك المذر

علانية في شهر رمضان، ولم يكن صادّقاً في نهيه لهم

ولا غاضباً حقّاً للشهر الكريم، ولكن «قافية»

الأقراص أمست مملولة منذ دهر طويل، فيش من أن

يأتي قاتل بجديد. ثمّ راح كمال خليل يحدث عن ليالي

رمضان منذ أقلّ من ربع قرن، قبل أن تغمر موجة

الاستهتار التقاليد الدينيّة المؤثّلة، وكيف كانت بيوت

السراة تظلّ مفتوحة طوال الليل تستقبل القاصدين،

وتستقرئ مشاهير المقرئين حتّى مطلع الفجر، وقال إنّ

بيتهم القديم - بيت أبيه - كان ضمن تلك البيوت

العامة، وتساءل أحمد عاكف: ترى هل يصدق الرجل

فيما يقول أم يقتصر أثر زوجه اللحيمة؟!. وتسامروا

ساعة طويلة حتّى تعبت ألسنتهم فأسكوا عن السمر

وأخذوا في اللعب. ووجد أحمد عاكف نفسه منفرداً

بالحامي الشاب، فأدرك أن جاءت نوبة النضال

والتحدّي، ولحظه بطرف لم يعلن عمّا يضطرم في باطنه

من الموجدة والمقت. وقبل أن ينبس أحدهم بكلمة مرّ

بالمقهى جماعة من الصبيان والبنات ملوّحين بالمصابيح

هاتفين بأناشيد ورمضان سائلين «العادة» من النكل

والملايم فأتبعهم الحامي ناظره حتّى اختفوا،

وابتعدت أصواتهم الرفيعة، ثمّ التفت إلى صاحبه قائلاً

بلهجة مُرّة:

- نحن شعب من الشخّادين.

فأدار أحمد عاكف رأسه إليه كالمتبسم، وقد بات

يوجس خيفة من الاشتباك معه في الحديث، وإن

تظاهر بالاستهانة، وتوتّب للالتقاض والتحدّي.

واستطرد أحمد راشد قائلاً بنفس اللهجة:

بحر لجّي يعلو به أمل ويسفل به قنوط، ويذهب به

رجاء ويحي به يأس، ويخيفه أفق مظلم ويطمئنه

شاطئ آمن، فما يدري أين المستقرّ ولا آيان المنتهى،

وحسبه من السرور يقظة دبت في قلب موات، وليقظة

القلوب فرحة وإن أدّى الإنسان ثمنها من دمه وراحة

باله، وهل ينكر أنّ قلبه جمد من البرد ويرم بالنوم

وضاق بالراحة؟ فما هي ذي يقظة تدبّ، وتبشّر

الشرفة بدوامها، ما عُقبها؟ ما غايتها؟ لا يبالي في

سروره الراهن ما ينطوي عليه غده، فليشرق الأفق أو

فليغرب، وليبتسم الحظّ أو فليتنجّم، فيحسبه أنّ قلبه

صحا، وأنّه منذ أيّام ينتفض في اضطراب، ويضطرب

في سرور، ويسرّ في حيرة، ويتحيرّ في رجاء، ويرجو في

خوف، ويخاف في لذة. هذه هي الحياة، والحياة أجمل

من الموت، مهما كابد الحيّ من تعب ووَجْد الميت من

راحة...

## - ١١ -

وغادر البيت قبل العشاء إلى «الزهرة» فاجتمع

بالصحاب، وراحوا يتسامرون ويحتسون الشاي ودار

الحديث حول الصيام، وكيف أنّ كثيرين - من أهل

القاهرة خاصّة - لا يؤدّون فريضته لأوْهى الأسباب.

وشهر سيّد عارف بالمعلّم زفة وعبّاس شفة فقال

ضاحكاً:

- قد يستطيعان أن يمتنعا عن الطعام والشراب، أمّا

«الكيف» فأمر يهون دونه الدين!

فقال عباس شفة متهمّاً:

- ألا تفضّل أن تصير «رجلاً» مثلنا، ولو قارفت

المعاصي؟؟

فاصطنع سيّد عارف لهجته قائلاً:

- دائي له دواء أمّا داؤك يا سيّد الأزواج فلا دواء

له؟!

فهزّ عبّاس شفة منكبيه وقال دون أن يتلعثم أو

يتورّد وجهه:

- لا تعيّري ولا أعيرك!

- بل نحتكم إلى المعلّم نونو. يا معلّم نونو أيتها

كالمنطق والتصوّف والأدب! ثم ذكر عنف الشاب في حديثه وثقته برأيه فنارت كبرياؤه، وغلبته على أمره، فقال بحدّة:

- لو أنّ الفلاح يستحقّ أكثر مما هو متاح له لناله، والحقّ لمن يقدر عليه، وما عدا ذلك فهراء في هراء! وثبت الشاب نظارته على عينيه بحركة عصبية، وقال بلهجة غريبة:

- أنت من أتباع نيتشه يا أستاذ؟!

ربّاه ومن نيتشه هذا؟.. ألا يمكن أن يوجد رأي - ولو كان من وحي الغضب والحق - من غير قائل سابق من الحكماء الذين يجهلهم كلّ الجاهل؟.. وكيف يجيب الشيطان البغيض؟!.. هداه عقله إلى سبيل واحد رأى أنّه يخلّصه من الفخاخ التي ينصبها له عدوّه، فقال وقد غيّر لهجته، وخفّف من شدّته:

- إنك يا أستاذ راشد تدفعني إلى أحاديث ليست بذى بال!

- حياتك ليست بذى بال؟!

- دع الفلاح إلى نفسه أو إلى من يعنيه أمره. ألم تقرأ شيئاً عن أرسطو؟.. ألم تلمّ بفلسفة إخوان الصفا الدينيّة؟.. ألم تتقّف شتى المعارف الروحيّة؟؟

فلاح الانزعاج في وجه الشاب وقال:

- إنّ مثلنا مثل ربّان السفينة تمخر عباب مضيق نائر تهبّ عليه ربح زعزع عاصفة، فيفور زخواره ويصطخب ركابه، فتعلو السفينة وتسفل وتميل ذات اليمين وذات الشمال، مضطربة البنيان مزلزلة الأركان، فهل يجوز للربّان - وتلك حال السفينة - أن يولي آلة القيادة ظهره ليرمي بطرّفه إلى الأفق متأملاً ومنشداً؟! نحن نجتاز الآن مضيق الموت تكنتنا الآلام من كلّ جانب. فلنأخذ من الآلام ذخيرة لتأمّلاتنا. حقّاً إنّ للأبراج العاجيّة لذاتها، ولكن ينبغي أن نقاوم أنانيتنا إلى حين.

- فانت، في سبيل أن تنقذ البائسين من وهدة الحيوانيّة، تضخّي بإنسانيّة المثقّفين وتقتل أرواحهم!

- قلت إلى حين.. ألم ترّ إلى فترة الحرب وكيف تحوّل العلماء - وهم أشرف الخلق - إلى نوع من المجرمين!

- شعب من الشخّاذين وحفنة من أصحاب الملايين. فليس يتاح للشعب غير العمل الوضيع أو امتهان الشحاذة، والعمل الوضيع لا يغني عن الشحاذة!

فهزّ أحمد عاكف رأسه ونظر لمحدّثه نظرة لا معنى لها ولاذ بالصمت والصمت في مثل حاله مأمون العواقب. فهو يغنيه عن خوض ما ليس له به علم، ويصيّج جواً آمناً لا تهتال الفرص السانحة. أمّا صاحبه فاستدرك يقول:

- ليس يوجد شرّ من نظام يقضي إلى أناس بالانحدار إلى مستوى الحيوان الأعجم.

ولست أدري كيف تطيب الحياة لقوم عقلاء وهم يعلمون أنّ غالبيّة قومهم جياح لا يدخل بطونهم ما يقيم أودهم، جهلاء لا ترتفع عقولهم عن أدمغة الدوابّ، مرضى تستوطن الجراثيم أجسادهم الهزيلة. ألم يخطر لهم أن ينادوا بمبدأ المساواة بين الفلاحين والحيوانات مثلاً؟ فإنّ للحيوان على سادة الريف حقّاً في الغذاء والمأوى والصحة لا مرأى فيه، ولم يُقرّ بمثله للفلاح!

ولم يعد يستطيع كبح شهوة المعارضة، وكبر عليه أن يستمرّ الشاب في محاضرته وأن يقنع هو بالإنصات كالنلاميذ فقال:

- إذا كان للفلاح حقّ فلماذا لا يطالب به؟

فقال المحامي بحدّة:

- الفلاح مضغوط تحت المستوى الأدنى للإنسانيّة، فلا يمكن أن يطالب بشيء، ولكن خليق بكلّ إنسان أهل لشرف الإنسانيّة أن يمدّ يده ليرفع عن كاهله المتهالك هذا الضغط، وقديماً حارب الرقّ الأحرار لا العبيد!

وتنازعت الكهل عواطف جاءت متناقضة. فجانِب من نفسه ارتاح لما يقول الشاب، فلو اعتدل ميزان العدالة في هذا الوطن ما عاقه عن إتمام تعليمه عائق، ولبغ ما يشتهي من الشرف في الحياة. واحتقر جانب آخر اهتمامه الحساسيّ بالمشكلات الاجتماعيّة، ورأى أنّها دون ما ينبغي أن يفكر فيه «المثقّف» من أمور العقل

- بل أريد أن أكتب كتاباً أيضاً .  
 - هذا أنكى وأمر، هل أنت صحفي؟  
 - هَبْنِي أجبت بالإيجاب؟  
 - مستحيل .  
 - ولِمَه؟  
 - أنت ابن ناس طَيِّين!  
 فضحك أحمد ضحكة قذفت بحلق الليل خارج صدره وقال:  
 - وَلَكِنِّي سأكتب كتاباً .  
 - الكتب في الدنيا أكثر من بني آدم . ألم تَرَ إلى مكتبة الخليلي تحت الكلوب المصري؟! . . فيها كتب- يا دين محمد- لو صُفِّت جنباً إلى جنب لكاثرت طلبة الأزهر، فهل تبذل ما تبذل من جهد لتضيف إليها كتاباً جديداً؟!  
 نعم . . نعم . . فلكلّ كتاب فائدته . .  
 - إليك هواية لطيفة لن تقتضيك جهداً . .  
 - ما عسى أن تكون؟ . .  
 - أما تعرفها؟ . حَزْر .  
 - لا علم لي يا معلّم . .  
 - يدعونها تسلية رمضان وفرحة الزمان . .  
 - فيا اسمها؟  
 - في الأصل من التراب ولكن مرعاها فوق السحاب .  
 - عجباً .  
 - واردها إمّا في الليان أو على كرسيّ السلطان!  
 - ليس في الدنيا شيء كهذا . . .  
 - يهواها الفقير والوزير . . .  
 - لحدّ هذا؟!  
 - عزاء الحزنان وشرب الفرحان!  
 - ما أشوقني إلى معرفتها!  
 - قدّ النبقة وتفع في كلّ زنقة .  
 - هذا سحر!  
 - أحضرها من بلاد الفيل تحفة لأهل النيل! . .  
 - هل تجدّ فيها تقول؟  
 - ألم تسمع عن الحشيش؟!

- ومع ذلك فلك نصيبك من التأملات البعيدة كالفلك والذرة!  
 فضحك أحمد راشد- لأوّل مرّة- بصوت مرتفع فلفت إليه جماعة اللاعبين وجعل المعلّم نونو يقول له:  
 - إن ضحككم فأعلمونا!  
 فسكت المتحاوران حتّى شغل عنهم اللاعبون ثمّ قال المحامي:  
 - لا غنى عن التسلّح بالعلم للمُكافِح الحقّ، لا للاستغراق في تأملاته ولكن لتحرير النفس من أصفاد الأوهام والتّرهات، فكما أنقذنا الديانات من الوثنيّة ينبغي أن ينقذنا العلم من الديانات!!  
 وهنا احتدّ سليمان بك عتّة كعادته إذا خسر «عشرة» واشتبك معه سيّد عارف في مصاولة لاذعة لم تلبث أن انتظمت جميع المتوثّين من أهل المجون فانقطع حديث رمضان الأوّل.

\* \* \*

وعند منتصف الثانية عشرة نهض أحمد عاكف يريد الانصراف فقام معه المعلّم نونو وهو يقول:  
 - سأذهب إلى البيت لأحضر معطفي لأنّ الجوّ تشتدّ برودته عند الفجر .  
 ومضيا معاً . وفي الطريق سأل المعلّم صاحبه:  
 - لماذا لا تمّد السهرة حتّى السحور؟  
 فقال الكهل بلهجة فائرة:  
 - إني أمضي الوقت ما بين الساعة الثانية عشرة وما بين السحور في القراءة!  
 - أتقرأ كتاباً؟  
 - أجل . وما يقرأ غير الكتب؟  
 - وفيّمْ هذا التعب؟  
 فابتسم أحمد عاكف وقال:  
 - هواية يا معلّم نونو!  
 - ولكنّ الهواية ينبغي أن تكون ذات فائدة ما: فهل تطيل الكتب العمر؟! تدفع المرض؟! تمنع المقدور؟!  
 تُجَبِّب الشقاء؟! تملأ الجيب؟!  
 فقال أحمد وما زال يتسمّع وقد عاوده شعور الاستعلاء والسرور:

يتأقّ الشعور بجذّته مرّة أخرى. وفيه رأى الفتاة التي رغب صادقاً أن يشاطرها حياتها وأخفق، وما هو ذا رمضان من جديد، وما هو ذا قلبه ينفض عن صفحته الضباب البارد القاتم ليستقبل شعاعاً دافئاً منعشاً، وكان عقله من العقول التي ترى دائماً وراء المصادفات حكمة تدقّ على الأبواب، فإذا رأى غيره من المصادفة مجرد حادثة لا معنى لها، التمس هو فيها حكمة خفية، لذلك نظر أمامه حالماً وقد غاب بصره، وارتفع حاجباه الخفيفان المتباعدان، وفغر فاه، وغمغم في حيرة وسرور «ماذا وراءك يا رمضان؟!»

### - ١٢ -

وعند أصيل اليوم الثاني نهض نشيطاً إلى المرأة ليخلق ذقنه، وكان يخلقها عادة مرّتين في الأسبوع، ولا يبالي أن يبدو للناس وذقنه نابته، فعزم على الإقلاع عن عادته هذه، وأن يخلق ذقنه يوماً بعد يوم من الآن فصاعداً.

ولما فرغ ارتدى جلباباً نظيفاً وطاقيّة ناصعة البياض - مجرباً ليخفي صلته - ثمّ جلس على حافة الفراش يرمى النافذة بعينين متردّتين، ليست المسألة مجرد خلق ذقن أو لبس طاقيّة بيضاء، إنّما ينبغي أن يسأل نفسه عن معنى هذه اللهفة ومغزى هذا التغيّر. هل ينطلق بغير تفكير أو ترؤّف؟ ماذا يريد على وجه التحقيق؟ فعسى ما يكون اليوم لعباً يكون غداً جدّاً. وما ينبغي له أن ينسى حظّه العائر وتاريخه المحزن، أفلا يحسن به أن يترك النافذة مغلقة، وأن يتفادى ما ينذر به فتحها؟ على أنّ الحياة لا تنصت لمثل هذا المنطق، ولا تكاد تتأثّر بحكمته وخاوفه، فقد أحرقه الظمأ والهيبه اللهفة، ونهض مرّة أخرى يلوح في وجهه العزم ودلف من النافذة ثمّ فتحها، وارتفق حافئتها وعيناه إلى أسفل، ثمّ مضى يرفعهما ببطء وحذر حتى بلغتا أرض الشرفة، فرأى قوائم الكرسيّ وحاشية الشال - الذي كانت تطرّزه مساء الأمس - مدلاةً بينها، ثمّ غلبه خجله فأطرق كالأطفال! ولبث مطرقاً وهو

وارتاع الكهل لوقع الكلمة، فضحك المعلم وقال يغويه:

- تعال طاوليني، الحياة ملأى بما هو الدّ من الكتب..

وأغراه حبّ الاستطلاع بأن يسأله:

- أين؟

- المكان تحت أمرك إذا وافقت وشرفتنا.

- ألا تخاف الشرطة؟

- أعرف كيف أتقي شرّها!.. فماذا قلت؟..

فابتسم أحمد وقال له:

- لا شأن لي بهذه الهواية الساحرة. شكراً لك يا معلّم.

### \* \* \*

ولما خلا إلى نفسه في حجرته تناسى حديث نونو وظرفه، ولاحت لعينيه صورة أحمد راشد بكأبتها وحماستها وعنف حركاتها، فاستشارت حنقه وغروره ومقته، وتساءل محزوناً كيف غابت عنه دنيا المعرفة الحديثة؟ وكيف يستكمل ما فاتته منها؟! ومتى يحاضر في فرويد وماركس كما يستطيع أن يحاضر في إخوان الصفا وابن ميمون؟! وفكر في هذه الأمور طويلاً فلم يستطع أن يصفو للمطالعة ولا أن يركّز ذهنه فيها، ولكنّه ظلّ عاكفاً على كتابه لا يحوّل عنه رأسه لأنّ عكوفه على الكتاب - ولو في حال شروده - يقنعه بأنّ يومه لم يمض بغير ثقافة يتزوّد منها، الأمر الذي يحرص عليه كلّ الحرص. وانسلّ الوقت وما تزال كبرياؤه تتجرّع غصص العذاب، ثمّ خطرت على قلبه فكرة، هفت على قلبه كنسمة رطيبة لطيفة فأثلجت صدره الفائز بالحنق والغضب، فصفا وطاب، وابتسمت أساريره. كم كانت تكون الحياة سعيدة محبوبة لو أنّ ما يلقاه من حظّ ونصيب، ومصادفات وأنماقات، وأناس وأخلاق، كان في مثل هاتين العينين التجلاوين يقطران سذاجة وخفّة؟! ثمّ ذكر - فيما يشبه الدهشة - أنّ شهر رمضان ذو صلة قديمة بقلبه، ففي شهر رمضان خفق قلبه خفقة الحبّ الأولى، وهي - كرؤية نور الدنيا لأوّل مرّة - إحساس عجيب لا



نوال! وجعل ينظر إليها بدهشة وارتباك وقد خفق صدره بما يغته من سرور، ثم انتبه إلى نفسه فتنحى عن سيلها قائلاً متلعثاً:  
- تفضلاً..

ودعا أمه لتلقي الزائرتين، وذهب لا يلوي على شيء، وأدركت أم نوال ارتباكها، ولم تكن تتصور أن رجلاً في سنه يرتبك ارتباكها، ويبدو عليه ما بدا من الحياء لمحض أنه قابل امرأتين. وهبط أحمد السلم نشوان لأنه يذكر جيداً. كما أكد لشكوكه التي لا تنتهي - أن فاته ابتسمت إليه وهو يستقبلها ابتسامة خفيفة براقة، لعلها ابتسمت ابتسامة الضيف لمن يستقبله، أو ابتسامة الارتباك والحياء، أو لعلها جادت بالابتسامة للرجل، جزاء حرصه ومنابرته على التطلع إليها بعينه كل غروب أسبوعاً كاملاً أو يزيد، فمهما كان الباعث فهي ابتسامة حلوة، تلهف قلبه على مثلها عشرين عاماً. ورغب عن الذهاب توطاً للمقهى ليتيح لنفسه فرصة للتأمل، وكان من الذين يستحبون المشي إذا شغلهم شاغل من الفكر. فحث خطاه إلى السكة الجديدة، وسار معها مبهتجاً مسروراً، وتنع ما شاء بالسرور في صفاء ورضا، وما كان غراً ولا حسن الحظ بالدنيا - وكيف يكون ذلك بعد ما لاقى من سوء الحظ وعثاره؟! - ولكنّه أراد السرور ساعة ولو خدع نفسه وغالط رأيه، وأراد أيضاً أن يسر حظه بعين جديدة ليرى أين هو من أمانيه المكبوتة، وليرى إن كان في الإمكان أن يعاود التجربة من جديد. فقد بدا له أنه أصبح حرّاً بعد أن أدّى واجبه كاملاً، ألم يتلق عن والده العباء عند اندحاره؟، ألم ينهض بأسرته المهددة بالشقاء؟ ألم يكفل أخاه حتى صار رجلاً؟ فما عليه من حرج بعد ذلك إذا شغل بسعادته مخلّفاً أعباءه لشقيقه الأصغر، ولا يكره ذلك أحد من ذويه، فهل في العمر متسع؟!.. وغمادي في التأمل والتخيل يحثه شعور السرور والظفر الذي غمره منذ حين، فقال إنه يملك في صندوق توفير البريد مبلّغاً لا بأس به في ذاته، وإن عدّ نافهاً إذا قيس إلى مدّة خدمته الطويلة، وأما عن شكله فليس ممّا يعيب الرجل ألا يكون جميلاً وإنه

يشعر بعينها تثقيباً رأسه. وخاف أن تذهب الفرصة قبل أن يتمل برؤيتها، فرفع رأسه متعلّباً على حيائه، فرأى الكرسيّ خالياً والشال موضوعاً عليه! تُرى أكانت موجودة حين فتح النافذة ودعاها إلى الذهاب داع؟ أم غابت قبل ذلك؟، ومهما يكن من أمر فقد أحس امتعاضاً وفتر حاسة، وخاف - أكثر من قبل - أن يغيب اليوم دون أن يراها، ولم تكن احتمالات رؤيتها في الغد لتتسبه خسارة اليوم، فقد تنهياً بكلّ عناية لتراه في أحسن صورة ممكنة، ولن تكون ذقنه ولا طاقيته ولا جلبابه غداً كما هي اليوم، وإذن فهذا رجاء خاب، وذاك تعب ضاع، وأطرق مرة أخرى كاليائس، إلا أنه سمع - في اللحظات الأخيرة قبل المدفع - حركة خفيفة في الشرفة، فرفع رأسه بسرعة فرأى الفتاة مقبلة، ثم رآها تنحني على الكرسيّ لتأخذ الشال فالتفت عيناهما لحظة، ثم استوت قائمة فولته ظهرها وجرت إلى الداخل. وما طمع في أكثر من ذلك، ولو أنّها أدامت النظر إليه لأربكته وأوقعته في الحيرة والحياء، أما وقد خطفت بصرها بمثل السرعة التي خطفت بها روحه، فقد أولته الجميل دون عناء أو مشقة. ثم صارت بعد ذلك ساعة الغروب تلك معقد الرجاء وبسمة المني، هي خلاصة اليوم وهدفه ومعناه، حشبه أن يملأ عينيه من معاني السذاجة والخفة تسكبها عيناها النجلوان، وأن يدخر منها لبقية يومه ما يشيع فيها السرور والأحلام. وتواترت أصيلاً بعد أصيل، والتفت العيان يوماً بعد يوم، فألف منظرها المحبوب ولعلها ألفت منظره، بيد أنه لبث على خجله وارتباكها، يطالعها - إذا جاءت اللحظة السعيدة - بنظرة تفيض بإحساس الجذّ والرزانة والزّجل كأنما يتحفّز صاحبها للفرار! ووضحت صورتها في مخيلته بعينها النجلوين ذواتي الصفاء والسذاجة والخفة، عيناها تنطق نظرتهما بالتساؤل والاستسلام، إلا أن حفتها تضفي عليها غلالة من الفطنة والحرارة.

وكان ذات مساء يغادر حجرته - بعد العشاء - إلى المقهى. فدقّ جرس الباب الخارجي وهو يقترب منه، ففتح الباب بنفسه، فرأى أمامه الستّ توحيدة وكرسيها

فاستطرد سيّد عارف غير ملقٍ بالأ إلى قوله :  
- وستخرّ إنجلترا المتعجّرة صريعة قبل أن تفيق  
من هول الضربة .

فسأله أحمد راشد :  
- كيف تغزو ألمانيا إنجلترا وجنودها مشتبكة في ذاك  
الصراع المخيف في روسيا؟

- أعدّ الفوهرر جيشاً خاصاً لغزو إنجلترا، وأرجّح  
أن تسقط إنجلترا قبل روسيا إن لم تسقط معاً!  
فقال أحمد راشد :

- الظاهر أنك تجهل حقيقة روسيا، روسيا  
الاشتراكية غير روسيا القيصرية، الشعب الاشتراكيّ  
كتلة من الصلب والإيمان والعزيمة، وهو ربّما تقهر  
رئيساً يأخذ أنفاسه، ولكنّه لن يلقي السلاح أبداً، ولن  
يسلم لدواعي الهزيمة .

- والمخزن رقم ١٩١٣!  
فقال المعلّم نونو وهو يفرك كفيه :  
- هذا مخزن الأقراص التي تريدها .  
وسأله أحمد عاكف :

- لماذا لا يستعمل هذا المخزن إن صحّ ما يقال  
عنه؟

- رحمة بالإنسانيّة، الفوهرر لن يلجأ إلى استعمال  
مخزنه المخيف إلا إذا يئس من النصر بالفرنّ الحربيّ  
المعتاد لا قدر الله!

وهنا صَفَّق المعلّم نونو للنادل أن يحضر الدومينو  
وهو يقول كَمَن ضاق صدره بالحديث :

- ملعون أبو هؤلاء وهؤلاء، فلا الألمان أمّنا ولا  
الإنجليز أبونا، وليذهب بهم الشيطان جميعاً إلى  
الجحيم .

وفصل المعلّم نونو بصيحته بين السمر واللعب، وما  
لبث عاكف أن وجد نفسه - كالعادة - منفرداً

بالمحامي . ورغب عن الحديث، وحذّثه نفسه  
بالرجوع إلى البيت حيث توجد الآن نوال وأمّها .

ولكن ما عسى أن يفعل هناك إلا أن يجبس نفسه في  
حجرته؟ .. وإنّه لفى حديثه مع نفسه إذ سمع

المحامي يقول للغلام محمّد بلهجة الأمر :

ليستطيع بالعناية - كما فعل اليوم - أن يبدو مقبولا على  
نحول وجهه وشحوه وصلعته . ويا حبّذا لو فضّل  
بذلة جديدة، وابتاع طربوشاً غير طربوشه الباهت  
المتقبّض . بيد أنّه كهل! فهو في الأربعين والصبيّة دون  
العشرين! وفارق العمر حاجز لا تقتحمه إلا المعجزات  
فمن أين له بالمعجزات؟! وانقبض صدره لأوّل مرّة  
منذ فتح باب الشقّة للزائرتين، وذكر شكّه في جاذبيّته  
الجنسيّة، فتجهم وجهه وأفاق من نشوة السرور وتمثّلت  
لعينيه - في ظلمة الطريق - صورة الفتاة الباسمة،  
فغمغم قائلاً : «يا لها من غرّة جاهلة!»، إلّا أنّ شيئاً  
واحداً لم يخطر له ببال، وهو أن يتطوّر بمذّ يده إلى  
الحياة التي دبّت في قلبه فيخنعها لواداً بطمأنينة الموت،  
فلتركها تنبض وتترعرع ولينتظر المخيّاً وراء حجاب  
الغيب، وهو لن يكون بحال أسوأ ممّا عركته به الآثام .  
وخطر له وهو راجع أن يتساءل هل الحبّ شيء غير ما  
يعاني؟ .. هل هو شيء غير هذا الشوق الغامض النابع  
من الحنايا؟ .. هل هو شيء غير هذا الحنين الذي تزفر  
أنفاسه عصير القلب والكبد؟ .. هل هو شيء غير هذا  
الفرح السهاويّ تطرب له النفس والدنيا جميعاً؟ .. هل  
هو شيء غير هذا الألم المشفق من الإخفاق والعودة إلى  
الوحدة والوحشة؟ .. هل هو شيء غير أن تسكن تلك  
الصورة الساذجة اللطيفة هذا الصدر فتصير زاد  
أحلامه ومبعث آماله وآلامه؟ .. بلى هو الحبّ، وإنّه  
به الخير!

وعاد إلى الزهرة فوجد الصحاب يتسامرون  
ويحتسون الشاي، ورأى الغلام محمّد جالساً جنب  
والده يقلّب في المكان عينيه النجلاوين، فسرّ لمراه -  
وهو سفير هواه - وانجذبت نحوه روحه - واتخذ مجلسه  
المعتاد جنب الأستاذ أحمد راشد، وراح ينصت لسيد  
عارف الذي كان يقول بحماس :

- وسيتنزه الألمان فرصة ضباب الخريف الكثيف

ويهبطون على شواطئ إنجلترا وينهون الحرب!

فتساءل كمال خليل ضاحكاً، وفي هدوء لا يبيّج

الأعصاب :

- كما هبط هيس؟! -

غزلًا ماهرًا ورجلاً جدًّا، ولكن هيهات أن يبلغ ما يشاء، وليس أمامه إلا أن يحترق الغزل ويمت المرأة ويستمرئ العزلة الوحشية!

وتجنّب أن يشتبك في حديث مع الشاب البغيض، وتصنّع الإنصات للراديو ليصرفه عن محادثته، فمضى الوقت وهما صامتان، والسكون قائم إلا أن يمزقه احتداد سليمان عتّة إذا استثاره سيّد عارف. وأوردته أفكاره المحمومة - في صمته - مناهل سامة استقى منها خياله المحزون، فاستسلم لأمانٍ شيطانية مرعبة، تمثّى في صمته غارة جنونية تقذف القاهرة بالحجم فتدكّ مبانيها وتهلك بنينا فلا يبقى منها إلا خرائب وأثار، وشخصان حيّان لا غير، هو وهي!! هنالك تصفوله بلا خوف ولا يأس ولا غيرة ولا جهد!.. وتمثّلت لعينيه المظلمتين القاهرة المهتمة المحطّمة، والشخصان الشريدان، يفرع أحدهما إلى الآخر لاثناً بجناحه ساكنًا إلى ذراعيه، والآخر سعيد - على ما يكتنفه من الخراب - بصاحبه، متلذّذاً بانفراده به، انبعثت هذه الأمنية الغريبة من صدره وهو يفور بشعور طاغٍ بالاضطهاد والقهر والعذاب.

### - ١٣ -

ولمّا خلا إلى نفسه في حجرته بعد منتصف الليل - تساءل ممتعضاً ألاّ يحسن به أن يقلع عن عادة فتح النافذة، وأن يغلق قلبه دون العاطفة الجديدة التي يسير الألم بين يديها؟ أليس الموت مع السلامة خيراً من حياة القلق والعذاب؟ بيدّ أنّه تنامى مخاوفه في اليوم التالي وما بعده وصار بين النافذة والشرقة ميعاد يتجدّد كلّ أصيل. ولم يعد شكّ في أنّ الفتاة أدركت أنّ جارها الجديد يتعمّد الظهور في النافذة - أصيل كلّ يوم - ليعثّ إليها بتلك النظرة الحيّة الوجلة. ترى كيف تحدّثها نفسها عنه؟ أمهرأ بشكله؟ انضحك من كهولته؟ أم باتت تضيق بخجله ومجوده؟ فمن عجب أن تتواتر الآيام وما يزال حريصاً على ميعاده مترقباً لساعته ثم لا يستطيع شيئاً إلا أن يرسل هذه النظرة

- يا عمّد آن لك أن ترجع إلى البيت لتذاكر! ونهض الغلام قائماً، وقد علت شفثيه ابتسامة دلّت على ارتبائه، وغادر المقهى وثبّاً، وعجب أحد عاكف للهِجة الشاب الأمرة وإذعان الغلام لها، فلم تكن لهجة الناصح ولا المتودّد إلى الأب.. وأحسّ الشاب بعجب الرجل فقال:

- البنات يتفوّقن على الصبيان بدرجة تدعو للدهشة، فشقيقة الغلام مجتهدة مطيعة، أمّا هو فيتجرّع دروسه كالعلقم ويعتلّ على التهرّب منها بالعلل!

كيف يتكلّم الأعور عن الفتاة بهذه الحرّية؟ وخطر له خاطر انقبض له صدره فسأله:

- هل تعطيهما دروساً خصوصية؟

فحنى الشاب رأسه بالإيجاب، وامتنع الآخر امتعاضاً شديداً جعله يتكلّف الابتسام حتى لا يبدو على وجهه أثر من إحساسه. أيجلس هذا «الأعور» من فئاته مجلس الأستاذ المعلم؟ أيلقنها الدرس ويأمرها بحفظه وربما تصنّع الجذّ فانتهرها؟.. ألا ينفرد بها أحياناً؟.. لم ينظر إليها مرّة بغير عين الأستاذ؟. كيف تراه هي؟.. إنّهُ شاب مثقّف ذو مستقبل حسن، ولن يضرّه شكله المتجهّم ولا عينه الزجاجيّة، بل لن يُعدّ - أي عاكف - خيراً منه بحال إن لم يعدّ أسوأ درجات - على الأقلّ في نظر العوامّ والأتّمين - فهل يوليّ الأدبار ولمّا تبدأ المعركة؟، وما كان في مثل هذه المعركة تمّ تملّكهم روح الإقدام والمنافسة، وعلى العكس من ذلك تراه ينكمش ويسلم ساقيه للريح حياء واستكباراً وجبناً. . ولن يزال في كلّ شدّة يلتمس التدلّل الذي نشأ في أحضانه فإذا أخطأه - ولا بدّ أن يخطئه - انطوى على نفسه دامي القلب مجترّاً آلامه مكيلاً التهم لسوء الحظّ الذي يلاحقه! ولو كان دور الذكر في الغزل أن يُطارَد لا أن يطارد وأن يُطلَب لا أن يطلب لها الأمر وطاب له الغرام، أمّا والأمر غير ذلك أو عكس ذلك - أمّا والأمر يستوجب رجولة ولباقة وجسارة فكيف يطمع في الظفر؟ ولو أنّ السجاياء زهن مشيئة الإنسان لنزل عن ثقافته ومواهبه العقلية - المزعومة - لقاء أن يصير

فإذا يسألها؟.. أن تحبها؟.. أن تقابله؟.. بل هناك ما هو أهم من كل ذلك. ما الذي يدعوه إلى الظن بأنها ستحسن استقبال رسالته؟. من يدرى أنها لا تمرقها وتقذف بها في وجهه.. أو يغلبها السخط فتفضح سره وتشهر بكرامته؟.. وعقله التردد بعد أن كاد يمسك بالقلم فتراجع لائذاً بالسلامة. على أن النافذة لبثت على ولائها للشفرة. وأوفت كلمتها بعده لم يرتبطا به. فتلاقت العيون حتى تألفت وتعارفت، وتجاوزت الأرواح دون أن يعوق نجاحها الصمت أو الحياء، وبات يظن. لما يطالع في نظرتها من العطف والصفاء. أنه ظلم الأستاذ أحمد راشد بأفكاره وعواطفه، وأن الشاب. المشغول بالاشتراكية ومحو العقائد البالية. لا يفزع للغزل والحب، فذاق رحيق الأمل صافياً، ثم أدناه الحظ من الأمل والثقة بمصادفة: إذ شغله أبوه عصر يوم من أيام رمضان الأخيرة فمضى الأصيل دون أن يستطيع الظهور في موعده من النافذة، وانتظر في اليوم التالي بصبر نافذ ولكنه وجد الشرفة مغلقة!.. وانتظر عبثاً أن تفتح وأن تبدو بها فتاته ولكنه على غير جدوى!.. وظن أنه عاقها عن الظهور مثل الذي عاقه بالأمس، لولا أن عثر بشبحها وراء خصاص باب الشرفة!.. فلم يشك في أنها تعمّدت إغلاق الشرفة دونه كما فعل هو بالنافذة في أمسه ومعنى هذا. إن صدق حدسه. أنها أحسّت غيابه أمس. بل لعلها استاءت منه وأضمرت ساعتها عقابه وما هي ذي تحقّق إرادتها، ومال إلى تصديق ظنه، ولكنه لم يجد للعقاب ألماً، وعلى العكس شعر له بلذة لا عهد له بها، فطرب طرباً استخفه وجعله يفرق بأصابه ويذهب ويحيى في الغرفة ذاهلاً عما حوله. وفي اليوم التالي أقبل على النافذة بروح جديد مملئاً ثقة وأملاً، ف شعر بوجودها قبل أن يرفع إليها عينيه المستطيلتين، وكان عزم أن يرمقها بنظرة استفهام وعتاب كأنما يسألها «لماذا اختفيت أمس؟»، فالآن جاء وقت التنفيذ!.. رفع رأسه الصغير فالتقت العينان! ونادى شجاعته ليرفع حاجبيه ويحرك رأسه مستفهماً مفكراً، أجمع عزيمته كمن يتوئب لإلقاء نفسه إلى

الخائفة ما إن تلتقي بنظرتها حتى ترتد في خفر وقد اختلجت الأجفان، وما انفك شبح أحمد راشد يطارده ويزعجه، وما انفك يسائل نفسه الغيور أما ترشقه الفتاة أيضاً بمثل هذه النظرة الحلوة أم تذخر له ما هو أجمل وأفتن؟! بيد أن لحظات الأصيل السعيدة كانت تتشله دائماً من هاوية الشك والقنوط. وجعل يهتئ روعه ويقول لنفسه إنها لو كانت تهوى الشاب البغيض لما منحتة نظرتها الحنون مساء بعد مساء، فعاوده الأمل وراجعه الرجاء. ولكن لم يكن طبعياً أن يقنع بهذه النظرة، وأدرك أنه ينبغي أن يخطو خطوة جديدة، ولكن هل يستطيع؟ هل يستطيع أن يهجم على الحياة لحظة كما استطاع أن يهرب منها عشرين عاماً كاملة؟ هلاً أدام إليها النظر حتى تطرق هي حياء ولو مرة!.. هلاً حيّاه بابتسامة؟ وتحيل أنه يديم إليها نظره ثم تحيل أنه يبتسم لها فتورد وجهه واضطرب اضطراباً غنياً وغلبه الحياء والعجز على أمره! رباه أتخفل الكهولة من الطفولة؟.. أتفر الأربعون من السادسة عشرة؟ لكم حسب فيما مضى أن الحجل داء يزول مع تقادم العهد ولكنه تشبّط بطبعه حتى أدركه داء جديد هو داء الكهولة، فلماذا يخلق الله قوماً مثله لا يقدرّون على الحياة؟!.. والتمس في يأسه سبيلاً جديداً فقال لنفسه إن الذين يخافون النظر والابتسام يستطيعون بلا شك أن يكتبوا، فلماذا لا يجرب وسيلة الكتابة إليها؟. وراقه هذا الخاطر وفكر فيه تفكيراً جديداً، فالأمر لا يقتضيه إلا أن يكتب كلمات في ورقة ثم يطويها بعناية ويرمي بها إلى الشرفة، هذا حسن. فكيف يبدأ خطابه؟ أيقول مثلاً حبيبي نوال.. هذا تصوير وقح. عزيزتي نوال؟.. ما يزال ذكر الاسم وقاحة. عزيزتي فحسب، فهذا ألين بأدبه، ثم ماذا؟.. إن الرسائل تبدأ عادة بالتحيات، فليكتب لها تحية وسلاماً، ثم ماذا؟.. هل يصارحها بحبه؟.. كلاً هذا ما ينبغي أن يتجنبه، وإذا بدأ فليبدأ بالإعجاب والثناء، ولكن كيف ينشئ عباراته؟.. وكيف يتخير ألفاظه؟.. أي الأساليب يعجبها؟ وأي الألفاظ يحسن وقعها من نفسها؟.. وهبة فرغ من حل هذه المشكلات جميعاً

الحيوانية، فكيف سامت الحسناء نفسها قبول يد هذا القرد الدميم؟! ولن يكون اجتماعهما زواجاً ولكنّه جريمة مزدوجة تعدّ من ناحية سرقة ومن الأخرى اغتصاباً، ولن يزال جالها فاضحاً لقبحه، وقبحه فاضحاً لجشعها..

ثمّ ابتسم ابتسامة خفيفة واستدرك قائلاً:  
- لا يمكن أن تقرّف هذه الجريمة في ظلّ الاشتراكية!

وهنا علا صوت رجل يقول متذمّراً:  
- ألم يقولوا إنّ الألمان لن يُغيروا على مصر في شهر الصيام؟

فتحوّل إليه سيّد عارف وقال:  
- ولكنّ الإنجليز يغيرون على طرابلس وهي بلاد مسلمين كذلك!

ثمّ قال لصاحبه بلهجة اليقين:  
- الإنجليز لا يضربون طرابلس لفائدة حربية ولكن ليحبّروا الألمان على ضرب القاهرة!

ولم يُعنّ أحد بالمناقشة لأنّه كان يتلقّى رنوة ساجية من بين الجموع الغافلة، ولكنّه لم يهنأ بها طويلاً فإنّ صوتاً غليظاً صاح بقوة: «صه.. أزيز طيارة!» وساد على الأثر صمت شامل وأرهفت الأذان حتّى صاح صوت آخر: «كلّاً.. هذه سيّارة الشرطة» فقال الأوّل: «بل أزيز طيارة.. اسمع!» وأنصتوا جميعاً فترامى إلى الأذان أزيز طيارة حقّاً يهبط من جوّ سحيق، فاضطرب قلب أحمد وتحوّل بصره نحو والديه فرأى أمّه مصوّبة عينيها نحو سقف المخبأ وأباه مطرقاً، ثمّ سمعوا طلقة مدفع مضادّ بعيدة تلتها طلقات كثيرة منقطعة. وسكت الضرب لحظة ثمّ عاد أشدّ ممّا كان، واتّصلت الطلقات واختلطت، فانتشر الذعر وثرثرت الالسة في هذيان، وقال واحد من الخائفين الذين يستجدون الطمأنينة: «هذا الضرب في المأظنة مؤكّد.. فارتاح كثيرون إلى تأكيده وأمنوا على قوله بغير وعي. وذهب إلى والديه وسأل أباه، وإن كان في مثل حاله من الذعر والاضطراب: «كيف الحال يا أبي؟» فأجابه الرجل بصوت متهدّج: «ربّنا موجود»

حوض السباحة لأوّل مرّة، ودفع نفسه للقفز، ولكنّه جد لحظة أكثر ممّا ينبغي فانتهاز عقله الفرصة ورمى في طريقه بخاطر من خواطر الشكّ والخوف فخاف أن يعثر به فاستطارت إرادته وانتثر عزمه وجفل متراجعاً! وفي تلك الليلة أثّب نفسه تأنيباً قاسياً، وطرق صلته بشيء من الحذّة وصاح غاضباً: «أما من ذرّة رجولة!!» وهكذا أحبّها. أحبّها لعينيتها النجلاوين ونظرتها اللطيفة الساذجة وخفّة روحها. أحبّها لأنّ أحلامه - والأحلام هي الفنّ الوحيد الذي ألقته في دنياه - أبت أن تغيبها ساعة عنه، ولأنّه جائع - جائع في الأربعين - والجوع من بواعث الأحلام!..

#### - ١٤ -

ثمّ كانت ليلة القدر من الشهر المبارك فاحتفلت بها الأسرة احتفالاً بدا في الدجاجة المحمّرة التي ازدانت بها سفرة الإفطار وصينية الكنافة، وعند العشاء راحت الستّ دولت تدعو لبعْلِها بالصحّة ولولديها بطول العمر والسعادة، أمّا عاكف أفندي - الأب - فذهب إلى مسجد سيّدنا الحسين لشهود احتفال رابطة القراء بالليلة المفضّلة، فكانت ليلة سعيدة؛ وقبل أن يأووا إلى أسرّتهم قبيل الفجر أطلقت صفّارات الإنذار فارتدوا معاطفهم وهرعوا بين جموع السكّان إلى المخبأ الذي باتوا يعرفون طريقه بغير حاجة إلى إرشاد الخادم، وامتزج الزعاج أحمد بسرور خفيّ لأنّ المخبأ يدينه من نوال ويمتّع ناظره باجتلاء مخبأها المحبوب. ورأى في المخبأ أحمد راشد وسيّد عارف واقفين يتحدثان فانضمّ إليهما - وكان موقفهما قريباً من الركن المرموق - وما إن رآه المحامي حتّى قال له:

- أما سمعت ما يقول سيّد أفندي؟، يقول إنّ خطوبة سليمان عتّة لكرّمة العطار تمّت اليوم!  
فقال سيّد عارف مبتسماً:

- نعم يا سيّدي.. فرح «ميمون».  
وعاد أحمد راشد يقول بحفّة:  
- انظر إلى المال كيف يستدلّ الحسن! إنّ أقبح ما في عالمنا هو خنوع الفضائل والقيم السامية للضرورات

معدودة، فأتسع ما يفصل بينها من مسافة حتى باتت قريبة من مدخل العمارة، وغلّ الحياء والارتباك إرادته فجعل يتلفت خلفه كأنه يدعو والديه إلى اللحاق به لينقذه من ورطته، وعبثاً حاول أن يقاوم حياهه أو ارتبائه أو أن يجمع إرادته على اللحاق بها فأدركه القادمون وما يزال موزع الفؤاد بين الخوف والرغبة، ثم اختفت الفتاة داخل العمارة، وانتهى الخوف والتردد والرغبة والأمل!، ثم سار مع والديه يعالج في صمت حسرة اليمّة متزعّة من صميم الضلوع، وطفق ينظر إلى السّلم - وهم يرتقونه - بأسف ذاكراً أنّه لو قهر خوفه لاتفرد بها فيه - على أنّه سأل نفسه «ماذا كنت أقول لها؟» . هَبْهْ كان تشجّع وحيّاه وردّت هي تحيّة بابتسامة أو كلمة أو إمّاعة - بصرف النظر عن أنّ التحيّة في ذاتها مشكلة فلم يكن يدري ما الأوفق أن يقول: صباح الخير . سعيدة . السلام عليك إلخ - هَبْهْ حيّاه وردّت تحيّة فإذا كان يقول بعد ذلك؟! . . أيصمت حتى يفترقا عند شقّته؟ أم ماذا يقول العاشقون في أمثال هذا الموقف؟ . ألا ما أكثر العاشقين! . ولشدّ ما يتهاوسون ويتناجّون في الطرق والركبات فكيف فقد النطق بلغتهم المحبوبة؟ . وعاد إلى حجرته ممثلاً أسفاً، بيّد أنّه كان على هذا فرحاً مسروراً، بل كان ثملاً بنشوة سرور لم تعهد القلوب الّدّ منه، فمهما يكن من أمر نفسه فلا يمكن أن ينسى أنّها رمته بنظرة نداء - وهي من معجزات السرور في شريعة العاطفة - وهي خليقة بأن يسرّ لها سروراً خالصاً لا شأن له بحيائه ولا بحسرتة!، ولاحث منه نظرة إلى النافذة - وقد غدا يدعوها نافذة نوال - فحنّ قلبه المشتّي إلى أن يرسل بنظرة إلى الشرفة، ففتح النافذة ورفع رأسه فرأى لعجبه بابها مفتوحاً ومصباح الحجرة مضاء والفتاة واقفة على عتبة الباب! . ما الذي دعاها إلى باب الشرفة في تلك الساعة من الفجر؟ . . وكان يرى شبحاً من غير أن يميّز معارف وجهها لوجود المصباح وراءها، وكذلك كان مصباح حجرته فأيقن أنّها لا ترى سوى شبحه - وشجّعه ذلك على الثبات والتحديق فيها - ولم يمتدّ به الوقوف طويلاً

واستمرّ إطلاق المدافع وتعدّدت مصادره، وجعل سيّد عارف - على أثر كلّ طلقة مدفع - يذكر اسم الناحية التي أطلق منها كأنّه الخبير العليم فيقول: «مدفع العباسيّة . . الماظة . . بولاقي . . وهذا مدفع القلعة إلخ إلخ» ولما انطلق مدفع بعنف فاق ما سبقه شدّة قال الرجل: «هذا مدفع المانيّ ابتاعته الحكومة من ألمانيا قبل الحرب! . . ولكن أخذ كثيرون يضيّقون بالمتكلّمين ويتنهرونها فاشتدّ اللغط، ثم جاءت لحظات أخرى عنف فيها إطلاق المدافع واتصل اتصالاً خيفاً فارتجت الأعصاب ووجبت القلوب . تلك لحظات قصار ولكن يقاس زمانها الثقل بتردد الأنفاس وخفقان القلوب فكانّ المرء يحمل الدهر على عاتقيه، ثم خفّ عنف الإطلاق رويداً، ثم لم يعد يُسمع إلّا في ناحية واحدة، ثم سكّت آخر مدفع وأخلف السكون، ولم يذر أحد هل يستأنف الإطلاق أو انتهت عقوبة الليلة، إلّا أنّ الأنفاس أخذت تستردّ من الراحة ما تبّل به جوانح احتقرت أو كادت . ومضت فترة وجيزة في سكون ثم انطلقت صفارات الأمان، فنهض القوم متشهّدين، وأرسل أحد عاكف ناظريه إلى هدفه المنشود فالتقيا بنظرة جادت بها له، فسّر بها سروراً مسح عن صدره الضيق آثار القلق والخوف، وراها تسبق أسرتها نحو باب المخبأ حتى إذا بلغته عطفت رأسها نحوه ورمته بنظرة ذات معانٍ ثم ارتقت السّلم على عجل، ف شعر الرجل - بقلبه الجذلان - أنّها تدعوه إلى اللحاق بها، وللأعين كماً للفرائز لغة سرّيّة صامتة، فتولّاه التردد والحياء، إلّا أنّ مروحها إلى الخارج بثّ فيه شجاعة وقتيّة تغلب بها على تردّده وحيائه فأنجّه نحو الباب سابقاً والديه والخدام، وارتقى السّلم متسائلاً ترى هل يجدها أمام الباب؟ وما عسى أن يقول أو يفعل؟ ولكنّه رأى شبحها قد ابتعد عن مدخل المخبأ أذرعاً في طريق البيت، ولم يكن في الطريق غيرهما فهما أوّل اثنين غادرا المخبأ، فإذا أوسع خطاه أدركها في أقلّ من الثانية وأمكّنه أن يسايرها شارع إبراهيم باشا، وأن يرتقيا معاً - منفردين - سّلم العمارة . تخيّل ذلك بسرعة ولكنّه لم يكد يدي حرّاكاً، أو تحرك بالأحرى خطوات

المركز الرئيسي بالقاهرة وسيستلم عمله الجديد بعد عطلة العيد مباشرة!  
وسرّ الوالدان سرورًا كبيرًا وقالت الستّ دولت:  
- سنستقبل عيدين. لهفي على الغلام العزيز، كيف  
قضى ذاك العام في أسبوط؟  
فابتسم أحمد قائلاً:  
- ادعي الله أن يكون تعود حياة غير التي أدمن  
عليها في القاهرة من قبل!

ثمّ أوى الكهل إلى حجرته وخلع ملابسه واستلقى  
على الفراش كمعادته ليقيل حتى الأصيل أو حتى ميعاد  
الحبّ. كما ينبغي أن يُسمّى منذ اليوم - فسُغله  
الخطاب ردحًا من الزمن عن النوم وعن إحساسات  
اليوم السعيدة، وامتلات نفسه بذكريات شقيقه  
الأصغر.

يندر أن يستثير إنسان من العواطف المتباينة ما  
استثاره رشدي عاكف في صدره أخيه الأكبر من علل  
السخط ودواعي الحبّ. فإنّه طالما استوجب سخطه  
منذ أجبره واجب كفالتة على التضحية بمستقبله  
(وعبقريته!)، ثمّ أسخطه في فتوّته بتكالبه على  
الشهوات وإقامته على اللذات وإعراضه عن النصيح.  
ولكنّه من ناحية أخرى أحبّه أكثر من أيّ شيء في  
الدنيا. أحبّه لأنّ الشابّ أثره بحبّ فائق ما يكنّه  
لوالديه من الحبّ والإجلال، وذكر له دائماً رعايته  
وكفالتة أجل الذكر، وأحبّه لأنّه صنعه بيديه. غنّاه  
بروحه وربّاه بماله فكان الشقيق الأكبر وكان الوالد  
الحنون، تمتّع بطفولته ورعى صباه ووجّه تعليمه ثمّ عدّ  
تجّاحه بعد ذلك - بعد تعب ولأيّ وعثرات - ثمرة  
كفاحه، ومفخرة جهاده، ومذكّرًا دائماً بتضحياته.  
وفضلاً عن هذا جميعه، كان الشابّ ذا شخصيّة خليقة  
بأنّ تحبّ، كان لطيفاً خفيفاً مرحاً، ورث عن أمّه تلك  
المقدرة التي تفتح له القلوب بغير جهد ولا تكلف، لما  
طبع عليه - كلاهما - من الجمال والصفاء والوفاء وحبّ  
العشرة والألفة. ولكنّ وأسفاه أخطاه الاعتدال  
والرزانة والحكمة، وجرت الحياة في أعصابه زاخرة  
جائعة، فاستأدته غرائزه الجهد الجهد، ودفعته قفراً

حتى فجأته بأسعد مفاجأة جادت بها حياته: فأومات له  
برأسها تحية!.. وغمره الدهول، ولكنّه لم يغلب على  
أمره هذه المرة فحنى رأسه ردّاً على تحيتها!..  
وتراجعت الفتاة مسرعة حياء وأغلقت باب الشرفة -  
وهو ينظر - ثمّ أطفأ النور، ولبث الكهل بموقفه مدّة  
من الزمن لا يدرى بها، ولا يدري بنفسه، ثمّ أغلق  
النافذة، وجثا على ركبتيه واضعاً راحتيه على صدره،  
وهمس بصوت منخفض «اللهمّ هذا وشكراً»...

## - ١٥ -

واستيقظ في صباح اليوم الثاني متعباً لأنّ السرور -  
كالخزن - عدوّ للنوم قديم. بيد أنّه استهان بتعبه لنشوة  
صدره وفرحة قلبه، وهل ظفر بمثل ذاك الصباح  
السعيد منذ عشرين عاماً؟. فغادر البيت منشراح  
الصدر، بشام الثغر، خفّاق الشباب النضير، بعد أن  
أصبح أخيراً من الزمرة التي طالما رمقها بعين الحسد  
والغيرة. زمرة المحبّين المحبوبين!، وصفا فؤاده ذاك  
الصباح فلم تنهشه آفة من آفات البغضاء، واستراح -  
ولو إلى حين - من أطياف إخفاقه الجاثمة في ظلمة  
ذكرياته كالحفّافيش، فلم يتوتّب لجدال ولا تحفّز  
لمعارضة ولا تشاجر مع أحد من الموظفين، وغمرت  
مستنقع المראה الأسن المستقرّ في أعماقه موجة راقصة  
من الحبور.

وعند عودته ظهرًا وجد خطاباً في انتظاره، عرف  
خطّ صاحبه من أوّل نظرة ألقاها على الطرف، وهو  
خطّ صغير جميل يشبه خطّه من جميع الوجوه،  
فابتسمت أساريه، وفضّ الخطاب ثمّ قرأه حتى فرغ  
وقال:

- سيأتي رشدي أخي صباح نهار الوقفة.

فاستقبل الوالدان الخبر أجمل استقبال، وإن كانا  
يعلمان من قبل - بالبداهة - أنّ الشابّ لا بدّ أن يمضي  
إجازة العيد في القاهرة إلّا أنّ الخطاب حوى أنباء أجمل  
نمّا توقّع الوالدان فاستدرك أحمد يقول:

- ويقول رشدي إنّ صدر أمر بنقله من أسبوط إلى

ثم انتهت تلك الحياة بمعجزة، أجل انتهت بمعجزة والبيكالوريوس، بما دعا أحد على أن يقول متهكماً: «هكذا يحصل الطالب على الشهادة التي تفضل الحكومة حاملها على أمثالي؟!» بيد أنه تنفس الصعداء، وأيقن أن مهمته قد انتهت، ولم يعد يشغل نفسه - أكثر مما ينبغي - باستهتار الفتى بعد أن صار المستول الأول عن حياة نفسه، فصفا بينها الجو، وعاد الحب الذي لا تنويه شائبة كما كانا من قبل - على عهد طفولة رشدي وصباه - بل رفعت الكلفة بينها فربما قص الفتى على شقيقه المحبوب ما يلقي من تجارب الهوى والحب. وكانت له في الهوى أهواء، وفي العشق فنون فعرف الحب الأثم والحب السطاهرا وتقلب في مظان السوء كما جرى وراء الحسان في السبل والميادين. وضّم «البومه» صوراً لفتيات حسان وقعن عليها بخطوطهن القلقة اللطيفة تلك العبارة الغريبة: «إلى خطيبي العزيز رشدي!». ولم يكن يقصد العذارى بسوء، ولا كان يسيغ الغدر بيسر وسهولة. وحقيقة الحال أنه كان يقع سريعاً فريسة لعواطفه المشبوبة، فليس أيسر من أن يصير عاشقاً، بل وعاشقاً بصدق وإخلاص، ولكن في الساعة التي هو فيها، فلم يحلف كذباً قط، ولكنه حنث بإيمانه مرّات!

فحدث كثيراً - في هيجان العاطفة - أن بذل وعده صادقاً غلصاً فكانت خطوبة! ثم لم يدم ذلك إلا ريثما تهدأ العاطفة أو يجذ النوى أو يحدث أمر ما؛ فلم تعرف حياته الهدوء ولا السكينة ولا الراحة، وباتت مرعى خصيباً للشهوات والملاذ، فنالت منه حتى أعيته ونهكته، فتحنف وهزل وصار - على حدّ تعبير والدته - كالعود. وكان أحمد - الذي يجبه ويشفق عليه - يرمقه بعينين قلقتين ويقول له: «ارحم نفسك» فيجيبه بمرحه المألوف «يرحمنا الله وإياكم!». منذ عام انتدبه البنك للعميل في فرع أسبوط فسرّ أهله - على أسفهم وحزنهم - وتعلقوا بأمل واحد أن يعتاد الفتى في المقام الجديد - مقام غربته - حياة معتدلة غير حياته الأولى تردّ عليه بعض صحته، وتمسك عليه بعض نقوده،

ووثباً بغير رادع. وقد كان منذ البدء جسوراً مقتحماً متمرساً بالحياة. ذلك أنّ الذي وكل برعايته، أخاه، ظلّ دائماً مصفّداً بأغلال التدلّل والخوف، فمال إلى الاعتماد على الطفل الذي يربيّه - فيمن يعتمد عليه - في قضاء حاجاته، وابتغاء لوازمه واستعارة كتبه، فاكسب الصبي خبرةً بالدنيا واعتماداً على النفس وجسارة ورجولة، وصارت حاجة راعيه إليه لا تقلّ عن حاجته هو إلى راعيه. ولكنه عرف الدنيا وجمال فيها بغير المبادئ الحقيقة بأن تعصمه من زلاتها، فمنذ أن أحيل عاكف أفندي على المعاش انطوى على نفسه تاركاً أمر أسرته لابنه وزوجه، ولم يجد رشدي في هذين العزيزين الحزم الذي يرشده ويعصمه، فضلّ السبيل وتخبّط على غير هدى، ولولا دماثة خلقه، ورقة طبعه، لربّما جاوز مفاصد الشهوات إلى مهالك الجرائم...

ولكم بشرت حياته المدرسية - في عهديه الأول والثاني - بالنجاح، حتى قال أحد عاكف إنّ أخاه ورث عنه بعض صفاته العقلية؛ ولكنّ الحال تغير بعد أن صار طالباً بكلية التجارة. هنالك اعتوره الفساد. فانجذب نحو زمرة من الشبان ولهجوا جميعاً بمعاقرة الخمر ولعب القمار والتخبّط في بؤر التهلك، واندفع مع التيار في جنون. فاستدان مرّات، وأهمّل حياته الدراسية حتى أوشك أن يفسد ما بينه وبين شقيقه، ثم بلغ ذروة جنونه حين فكّر جدّياً أن يقطع حياته الجامعية ليتوفّر على تعلّم الموسيقى والاشتغال بالغناء - لا شيء - إلا لما بلغه من بوهيمية المغنين وحظهم من ولع النساء، وما عهدّه في نفسه من رخامة الصوت وحلاوته. ونقد صبر أحد عاكف فأنذره بالكفّ عن الإنفاق عليه إذا لم يسك عماً هو آخذ فيه من المجون والاستهتار، وبلغ منه الغضب أحياناً أن شعر بأنّه يمقته مقّتا، بل حقد عليه أخذه بأسباب حياة يعجز هو عن الأخذ بأسبابها، ويتلهّف حسرة على ألوان منها! ورغم ذلك كله لم تنقطع صلات المودة بين الشقيقين بفضل مواهب الأصغر، فكان إذا شدّ أخوه أرخى، وإذا قطب ابتسم، وإذا سبّ ولعن تضاحك وقبّل يده أو لثم كتفه، وإذا كور له قبضته مازحه في أدب ولين.



والخير والبركة.. أتناسى أنه جاءت نوبتك لتدُل  
أَمَك؟ ولن أشقّ عليك يا زين الرجال فنحن نرضى  
بالقليل إكرامًا لك!

وعلم أنها لن تياس أبدًا! ولن تي حتّى تظفر  
بسؤالها فتأوّه قائلًا:

- أف... أف..

- أف لعيد بغير كعك. أنستقبل العيد بلا كعك  
وأنت رجلنا؟

- الكعك فرحة الأطفال.

- والرجال والنساء، والعيد عيد الناس جميعًا. ألم ترَ  
إلى أببك كيف جهّز نفسه بعباءة جديدة يصلي بها  
العيد؟.. وكيف ابتعت أنت بدلة وطربوشًا وحذاء  
مباركة عليك باسم الرحمن؟.. أما سروري أنا بالعيد  
ففي العجن والنقش ورشّ السكر والحشو بالمعجونة.

\*\*\*

وفي الصباح الباكر من يوم الوقفة أخذ سمته إلى  
محطة مصر ليكون في انتظار الشاب القادم. وكان الجو  
رطبًا ولكنّه محتمل البرودة فجلس على أريكة على  
«رصيف الصعيد» ولم يبقّ على قدوم القطار سوى  
دقائق. وتولّاه ما يتولّاه عادة من القلق إذا وجد  
بمحضر القطر المردة فرأها تنفث الدخان وتطلق الصغير  
الحادّ. ولم يكن استقلّ قطارًا قط ولا غادر حدود  
القاهرة، ولا هزّته رغبة في يوم ما إلى الارتحال  
والسفر، فتخيّل السجن أخفّ على نفسه من الإقامة في  
بلد نازح. ولا شك أنّ جفوله من ملاقة العالم  
الخارجي هو الذي بثّ في روحه كراهية الأسفار،  
ولكنّه كان يفسّر تلك الكراهية - كعادته في تفسير كلّ  
ما له شأن بسلوكه وطباعه - بأنها سجيّة المفكر الذي  
يحبّ المعنويّات ويزهد في المحسوسات، ألم يعيش أبو  
العلاء رهنّ المحبسين؟. وخفّف من غلواء قلقه  
سروره بمقدم رشدي، شقيقه وابنه! وما ينتظر من  
معونته على النهوض بالتبعات الملقاة على عاتقه وحده،  
وما يحدثه محضره من ألوان التسلية والبهجة. وما لبث  
أن رأى الرؤوس تتطلّع نحو الجنوب، والنشاط والحركة  
يشملان المكان فتظر مع الناظرين فرأى القطار قادمًا

ولذلك تلقّوا خبر نقله إلى القاهرة بسرور ورجاء،  
ينطويان على إشفاق...

- ١٦ -

ولم يبق من رمضان إلّا ثلاثة أيّام. وأسف أحد على  
اقتراب نهاية الشهر المكرّم، وهل ينسى فضله  
ورحمته؟.. وهل ينسى موعد الأصيل منه حيث ولّى  
عثار حظّه ووحشة قلبه مع شمس الغاربة؟ وبات  
يسائل نفسه تُرى أين يكون الموعد غدًا وماذا تحيى  
الأيّام؟. أمّا السّتْ دولت فنشطت هي والخدام لتعدّا  
حجرة الشابّ القادم من أسبوط. وكانت الحجرة تلي  
حجرة الوالدين، وتطلّ نافذتها الوحيدة على الطريق  
المؤدّي إلى خان الخليلي القديم - كإحدى نافذتي حجرة  
أحمد - فكنتس الحجرة وغسلت ثمّ فرشت وباتت  
تنتظر القادم في أجل صورة. ثمّ أخذت المرأة أهبتها  
لخوض غمار معركة موسيقىة - لغزو ابنها أحمد كالمعتاد -  
لمناسبة حلول عيد الفطر أو عيد الكعك كما يملوها أن  
نسمّيه، فانتهزت فرصة انفرادها بالرجل بعد الإفطار  
وراحت تودّع رمضان بكلام طيّب مترجّمة على عهده  
وختمت كلامها قائلة:

- لم يبقّ إلّا يومان، وبات الإنسان يشمّ رائحة  
الكعك الطيبة في الجو!

وكان يتوقّع مثل ذاك الكلام، ويعلم أنّ المعركة  
آتية لا ريب فيها، وأنه مغلوب على أمره مهما قال  
وتشكّى، ولكنّه لم يتعوّد أن يضحي بقرش قبل أن  
يربح ضميره بالدفاع عنه فقال متذمّرًا:

- في مثل هذا الزمان لا يتشّم الناس رائحة  
الكعك، ولكنّهم يسألون الله السّر، وأن ييسّر لهم  
ضرورات الحياة. أمّا أنت يا نينة فلن تزا لي متلهّفة على  
الكماليات التافهة غير راحة جيبى، يا هو ارحموا من  
في الأرض يرحمكم من في السماء!

فحدجته بنظرة تأنيب وإغراء، ثمّ أرعشت حاجبيها  
المرجحين في ابتسام وقالت:

- أه منك أه. لكم تغضب على أمك بغير سبب  
كأنّها غير التي أحبّتك ودلّتك. أتدعي الفقر وأنت

- لم أنس نصيبي وأنا في أسير فابتعت لها حلياً عاجيةً وطباقاً فاخرةً وبخوراً لطيفاً أرجو أن يوافق «أسيادها» (ضحك ضحكة عالية) ... وأبي؟ .. كيف حاله؟

- كعهذك به .. عبادة في البيت، وزيارات لبيوت الله، وها قد أدنتنا الظروف من سيدنا الحسين فطوبى له!

فقال رشدي مبتسماً:

- لَكُمْ أدهشي انتقالكُم إلى الحسين!

وهنا بلغا فناء المحطة ريثما استقلاً عربة، ونقد الشاب الخيال أجرته ثم سارت العربة سيرتها الثملة المريحة تخترق ميدان المحطة التراموي الأطراف فأجال الشاب فيه عينيه العسلتين الجميلتين، فتخاطفت السيارات والعربات والترامات والمارة ناظره، فنقر بإصبعه على جبهته وقال:

- يكاد رأسي يدور، وكأني أرى الترام والمترو لأول مرة. أتذكر نادرة الرفيعة الذي جاء مصر لأول مرة فلما أشرف على هذا الميدان ريع وفزع، ثم تراجع إلى القطار وهو يقول متأسفاً: «جئت متأخراً فأهل البلد يرحلون!».

فضحك أحمد الذي تلذذ فكاهة الشاب ونوادره وبساطته. ومن حسن الحظ أن رشدي لم يكن «جامعياً» بالمعنى العميق - فلا يطرق موضوعات العلم ولا يذكر اصطلاحاته - وإلا لوجد فيه نوعاً من «أحمد راشد»، وأجل من هذا أن الشاب كان من المخدوعين في ثقافة أخيه فظنه عالماً متفهماً وآمن بعقله كما يؤمن به الآخر. أما أحمد فسرّ بإيمان شقيقه به، ورأى فيه رمزاً حياً لإيمان الجامعة المصرية بعقريته العاصمية! قال الشاب بحماس:

- القاهرة نعمة من نعم الله، هي الدنيا والدين، الليل والنهار، الجحيم والجنة، والغرب والشرق. كان النقل معجزة!

- لا بد أنك ضقت ذرعاً بأسير!

- كما ينبغي أن أضيق ذرعاً بأي مكان غير القاهرة! فتفحصه بنظرة ثابتة وقال:

متمهلاً، وما عثم أن ذاع ضجيج فاهتزت له جوانح الأرض، وملأ منظره الأعين. وأخذ يقترب رويداً رويداً وقد امتلأت نوافذ عرباته بالرهوس المتطلعة حتى وقف شاغلاً الرصيف الطويل وهرع نحوه المتظرون. وجرت عينا الكهل على النوافذ وهو يزحم المتدافعين حوله حتى ظفر بضالته في مقدمة عربة من عربات الدرجة الثانية، وكان الشاب القادم يعطي حقيقته لأحد الخمالين، فهتف أحمد باسمه ولوح له بيده وهو يدنو من العربة. فالتفت الشاب إليه، ثم قفز إلى الأرض فصار تلقاء شقيقه. وسلم الأخوان بحرارة، وشد أحمد على ذراع الشاب قائلاً:

- حمداً لله على السلامة. كيف حالك يا رجل؟!

فقال الشاب بسرور وقد تورّد وجهه المتعب من وعناء السفر:

- الحمد لله يا أخي .. كيف أنت؟ .. كيف الوالدان؟

وسارا جنباً لجنب نحو الخارج يعلوهما البشر. كانا ذوي طول واحد ونحافة متشابهة، ولا يخطئ الناظر إليهما أنهما شقيقان على ذبول الأكبر ونضارة الأصغر، فملاحمهما متقاربة. إلا أنهما بلغت في وجه رشدي مداها من الحسن، وحال بينهما وبين ذلك في وجه الآخر إما انحراف أو تجهّم أو إعياء. فلرشدي أيضاً ذاك الوجه الطويل النحيل ولكن ليس له خدّاً أحمد الذابلان، وسمرته - وإن اعتورها شحوب - صافية يجري فيها ماء الشباب، وعيناه مستطيلتان متباعدتان إلا أن حدقتاهما أوسع، ونظراتهما أنفذ، والتماحهما خاطف يدلّ على حدة المزاج وروح الفكاهة والجرسرة. سارا متكاتفين، وسرعان ما شعرا بدبيب الرغبة في الكلام يتحرك في أعماقهما شأن المتقابلين بعد فراق طويل، فلم يدريا ماذا يتركان وماذا يأخذان. ثم اهتدى الشاب إلى حديث فسأل أخاه:

- قبل كل شيء كيف حال نينة؟

- كما تحب أن تكون. وما زالت تجري وراء رغبات الأطفال دون مبالاة بإرهاقي، فتقدّم يا بطل وخذ نصيبيك!

- والعفاريت عقيدة وإن لم يتفق لي رؤية أحدها  
على طول عهدي بالطرقات المقفرة في الهزيع الأخير من  
الليل.

- الإنسان هو شرّ العفاريت. انظر إلى الحرب!  
فضحك رشدي، وذكرته الحرب بأمر الانتقال من  
السكاكيني، فقال:

- هكذا أجبرنا الإنسان العفريت على هجر حينا  
القديم، يا عجبا. - ألا تعلم يا أخي بأنه لم يسبق لي  
أن رأيت خان الخليلى هذا!  
فنبه ذكر «خان الخليلى» في قلب الكهل سرورا  
عميقا، وهز نفسه حنائا فقال:

- ستراه صباح مساء!  
- أكان الحال خطيرا لحدّ أوجب الهجرة؟  
- نعم كان. وحسب كثيرون أنّ الغارات ستستمرّ  
بوحشية تودي بالقاهرة كما أودت بلندن وروتردام  
ووارسو، ولكنّ الله سلّم. وكان الوالد في إعياء خطير  
فلدنا بالقرار!

فهزّ الشابّ رأسه أسفا، ولاحت منه التفاتة إلى  
الطريق فرأى ميدان الملكة فريدة والعربة تعبر جناحه  
إلى شارع الأزهر! فدعا منظره مواعيد غرام لا تنسى،  
هفت على قلبه كما تنسّم ريح على جمرات ناعمة،  
فابتسمت أساريه وهزّ الطرب. ثمّ استطرد متسانلا:  
- وكيف وجدتم المقام الجديد؟

لو طرح عليه هذا السؤال قبل لما وسعه الكلام دما  
وقدحا، أما الآن!!  
- انتظر حتّى تراه بنفسك يا رشدي، وستألفه ولو  
بعد حين.

- والجيران؟!  
- أوه... غالبيتهم من أهل البلد ولكنّ كثيرين من  
سكّان العمارات الجديدة من طبقتنا!  
- وهل وجدت فيه مكانا صالحا للتفكير والدراسة؟  
فسره السؤال، كما ينبغي أن يسره كلّ ما يذكره بأنه  
«مفكر». وقال:

- يقول المثل «البس لكلّ حال لبوسها» ولذلك  
تجدي أفضل أن أمضي أوّل الليل في القهوة مع بعض

- السجن مفيد لأمثالك، ومع ذلك فأني لا أرى  
أي الراحة في وجهك!

فابتسم الشابّ عن أسنان بيضاء منتظمة وقال  
كالساحر:

- إذا اجتمع موظفان في بلدة كانت مائدة القهار  
ثالثهما!  
فتنهّد أحمدا قائلا:

- أفضي أن تُحرّم من نعمة النوم أبدا؟!  
- نعمة النوم؟!... النوم في الحقيقة نعمة... إنه  
اختلاس جزء طويل لا يقوم بمال من حياتنا القصيرة!  
- أنت لا تدري ممّا تقول شيئا!  
- أنت يا أخي رجل حكيم، وأنا شابّ مجنون،  
وهذه هي فلسفة المجانين.  
- إذا ستعود إلى...

- بإذنه تعالى!... قابلت في أسبوط رجلا مولعا  
بالضحك كان يقول إنّ غذاء الصحة الحقيقي هو  
المرح، فإذا صحّ ذلك فالعربة من أنفس القيتامينات!  
- وإذا لم يصحّ؟!

- فلندعُ الله أن يكون صحيحا. ولكن قل لي متى  
كنت سميئا؟!

- أنت تعلم أنّي لا أكفّ عن التفكير والدراسة!  
- هذا حقّ. وربّما كانت النحافة - أيضا - طبيعة في  
أسرتنا!

- ووالدتك؟!  
فضحك رشدي حتّى بدت نواجذه، وخلع طربوشه  
عن شعر لامع ينشقّ وسطه عن مفرق أبيض جميل،  
وقال وقد رقّق الحنان نبراته:

- ولكنّها صناعة العطار! كم شأقتني رؤيتها! أما  
تزال تذكر الزار؟  
فقال أحمد بتأقّف:

- كفّت عن ذكره صراحة، ولكنّها ربّما شكّت -  
عرضا - قسوة من حالوا بينها وبينه!

- أمّا لطيفة كالملائكة لأنها لا تغضب، ولا أكاد  
أذكرها إلّا راضية أو ضاحكة.

فابتسم أحمد، واستطرد رشدي:

بعد قضاء سهرته بينهم - على قطع طريق طويل إلى هذا الحيّ ثمّ التخبّط في طرقاته ليلاً وهو ثمل! ونفخ من الغيظ، ووطّن نفسه على حمل آله على العودة إلى بيتهم القديم أو إلى آخر قريب منه مهما كلفه ذلك. ثمّ فتح حقييته واستخرج ما فيها، ومضى يمشي صوان ملابسه مترنماً - كعادته - بإحدى أغنيات عبد الوهاب، وغير ملابسه ثمّ غادر الحجرة إلى الحمام - وهو يواجه الحجرة على الناحية الأخرى من الردهة الطويلة الضيقة - فاستحمّ بالماء البارد ليزيل عن نفسه غبار السفر ونصبه، وعاد إلى حجّرتة أجمل منظراً وأطيب نفساً، وأغلق الباب وراءه - ليعلو صوته بالغناء إذا أراد - وفتح النافذة ودهن شعره بالفلزين وسرّحه بعناية فائقة، وتعطّر بعطر البنفسج الأثير لديه فصار في أحسن حال. وانجذب نحو النافذة فدلّف منها ليرى على أيّ منظر تطلّ. فرأى الممرّ الضيق في أسفل يؤدّي إلى خان الخليلى القديم، واعترض مدى بصره فيما يواجه جناح العمارة الثاني، فضاق صدره وخال أنّه رمي به إلى أعماق سجن. أين من هذه النافذة نافذة حجّرتة بشارع قمر المشرفة على ميدان السكاكيني حيث لا تغيب عن عين الناظر أسراب طباء اليهود، وتنهّد محزوناً، ثمّ أجال بصره في ما حوله، فانجذب البصر نحو نافذة تقابل نافذته من عل - على جناح العمارة المواجهة له - انفتحت على مصراعيها، وظهر فيها وجه فتاة، وجه حسن تزيّنه عيناّن تقطران خفة وسداجة، فالتقت عيناها، وفي نظرة إنكار من ناحيتها ونظرة تفحص - تفحص الصائد لصيد اعترضه - من ناحيته، ثمّ شقّ عليها تفحصه الشاقب فخفضت بصرها وتراجعت في استحياء فابتسم ابتسامة رقيقة وانبسبت أسارير وجهه متأثراً بملاحة محياها وتحير نظرتها العذبة، ولم يزايل مكانه ولا حوّل عينيه عن النافذة منتظراً عودتها، لأنّه من الطبيعي - في نظره - أن تحاول معاودة النظر إلى جارها الجديد ذي النظر العارم بغير تردّد ولا حياء. ولبث على حاله من النظر والانتظار تحدوه رغبة وصبر وعناد، حتّى ظهر رأس الفتاة مرّة أخرى في حذر، فالتقت العيناّن خطفاً، ثمّ

الصحاب الجدد حتّى إذا كفّ الراديو أو سكّنت الضوضاء عدت إلى حجرة الدراسة فضحك رشدي قائلاً:

- أعرفت أخيراً الطريق إلى المقاهي؟

فقال الأخ مبتسماً:

- تلك مقتضيات المقام الجديد!

ووقفت العربية عند مدخل خان الخليلى، فغادرها الرجلان وتبعهما الخوذيّ حاملاً الحقيبة. ولما ولجا التيه قال أحمد:

- انتبه جيّداً إلى ما يحيط بك، واحفظ المسارب عن ظهر قلب وإلا ضللت في معارجها!

واقتربا من العمارة، ورأى أحمد أمّه تطلّ من نافذة حجّرتة فلكر شقيقه في ذراعه مشيراً إلى النافذة، فرفع الشابّ رأسه فوجد أمّه وقد عصّبت رأسها بمنديل بيّ وأخذت زيتتها كأنّها هي عروس تتصدّى لعريسها، وما إن التقت عيناها حتّى فتحت له ذراعيها لتدعوه إلى حضنها. وقبل فوات دقيقة كان بين ذراعيها البصّتين في عناق حارّ.

#### - ١٧ -

وجلسوا جميعاً حول المائدة - وقد جاء أبوه أيضاً ولثم الفتى ظاهر يده - وأخذوا بأسباب الحديث في شوق ولذة، فتكلّم الشابّ عن أسبوط وأهلها والغربة والحنين إلى الأهل والوطن، وتكلّم الأب عن الغارة والمشاعل التي أسقطتها الطائرات، وحديثه أمّه عن جاراتها والمعلّم نونو وأزواجه الأربع، ثمّ لاحظت المرأة أنّ وزنه لم يزد رطلاً واحداً، وانتقلت إلى الكعك فبشّرت أنّه سيأكل كعكاً لذيذاً لن يذوق مثله أحد في مصر جميعاً، ثمّ سارت أخيراً بين يديه إلى حجّرتة. وعندما خلا الشابّ إلى نفسه لم يعد يحاول إخفاء استيائه فلاحت أماراته في وجهه الجميل، وقد انقبض صدره منذ رسم الخطوة الأولى على عتبة خان الخليلى، فلما دخل الشقة هاله ضيقها، وأيقن أنّه لن يطمئنّ له جانب في هذا المقام الجديد، وضاعف من سخطه أنّ أصحابه جميعاً في السكاكيني وما حوله وأنّه سيرغم -

ومجّله.

## - ١٨ -

وأسلم جسده للرقاد بعد ليلة شاقّة - قضائها في القطار - فلم يطرق النوم فيها جفنيه إلّا لمامًا. واستيقظ من نومه العميق عند منتصف الرابعة مساءً، فجلس في الفراش متاثبًا مفتَحًا عينيه - لأوّل مرّة منذ عام - على نور القاهرة الضاحك. تذكّر أمر نقله من أسبوط قطاب نفسًا واستلذّ الذكر. وكانت تغشى الحجرة سمرة قائمة فنهض إلى النافذة وفتحها، وذكر لتوّه الفتاة السمراء المليحة، فصعد بصره إلى نافذتها، ولكنّه وجدها مغلقة، فغادر الحجرة إلى الخارج وكان أبوه نائمًا، وأمّه تنظّف السمك تهية لقلبه، فوقف على عتبة المطبخ يحادثها قليلًا، ثمّ مضى إلى حجرة أخيه. وكان الكهل واقفًا وراء النافذة فلما شعر بمجيء أخيه تحوّل عنها بسرعة - ولم يذّر الآخر كم كلفه ذلك - وتلقّاه بابتسامة حلوة، ثمّ جلسا معًا، أحمد على الشلثة ورشدي على الكرسي.

وتحدثا حديث أخوين متحابّين جمع بينهما اللقاء بعد أن كانا شتيتيّن. ذكر رشدي ما علم قديمًا من رغبة شقيقه في التأليف فسأله:

- ألم تشرع في التأليف يا أخي؟

فوخزه السؤال، ولكنّه لم يعبّ بالجواب فقال:

- رأسي مترع بالمعارف، فأتمّ اختار وأتمّ أدع! والحقيقة أنّي لو أردت التأليف ففي وسعي أن أملأ مكتبة كاملة؟. ولكن ما الداعي لمثل هذا الجهد؟.. هل هل يستأهل هذا الشعب التأليف بمعناه الحق؟.. هل يمكن أن يضمّه؟ ألا إنهم رعا يقرءون رعا؟ فقال رشدي وكان يؤمن بما يقول أخوه دائمًا:

- خسارة أن تضيع أفكارك القيّمة!

فقال أحمد وكان يؤمن كذلك بما يقول، كأنه نسي ما يدور بينه وبين أحمد راشد من نقاش:

- أنا من السابقين لزمهم، فلا يرجي لي أيّ تفاهم مع الناس، فلكلّ شيء في الدنيا عيوب حتّى التعمّق في العلم!

تراجعت الفتاة فيما يشبه الضجّر، فضحك ضحكة خافتة وتحوّل عن النافذة متبسّجًا راضيًا، ثمّ جلس على كرسيّ مكتبه الصغير مغمغمًا «هذا أوّل شيء حسن نصادفه في حيّنا البائس!» وتفكّر قليلًا وهو ينقر بأصابعه على مكتبه وقال لنفسه «هي جارتنا بغير شك...» وحجرتها جارة لحجرتي! واستدعى صورتها فأقرّ لها بالحسن والحقّة، وسرّ بها سرور إنسان بشيء نفيس صارت ملكيّة إليه. وكان في الحبّ ذا ثقة بنفسه لا حدّ لها، ثقة مرجعها السير من فوز إلى فوز، وبطانتها صبر طويل وإرادة لا تلين ولباقة في الطبع والصنعة، فربّما صبر - دون أن يكفّ عن الإلحاح والسعي والمطاردة - يومًا بعد يوم وشهرًا بعد شهر وعامًا - إن شئت - بعد عام حتّى يظفر ببغيته. ومن أقواله الماثورة في الغزل «لا يجوز لكن يتصدّى للحبّ أن يعرقل (جهاده) بالحياء أو بالجزع أو بالخوف، انسّ كرامتك إذا كنت في أثر امرأة. لا تغضب إذا عتقتك ولا تحزن إذا سبتك، فالتعنيف والسبّ من وقود الحبّ. وإذا ضربتك امرأة على خدك الأيسر فأدِرْ لها خدك الأيمن وأنت السيّد في النهاية!» وقد حمله الهوى يومًا على مغازلة فتاة شמוש ذات صون وإباء فلما أن طال به المطال دون لين من جانبها أو ميل قال لها بهدوء «أنا رذل سمج بارد لحوح، هيهات أن تقصيني نظرات التأديب أو كلمات التانيب، كلّا ولا الضرب ولا الشرطة، وسأرغمك على تكليمي اليوم أو غدًا أو بعد عام أو بعد قرن، فاختصري الطريق ما دامت النهاية محتومة!» هكذا كان. وقد جلس متفكّرًا يسائل نفسه: ترى أيّ نوع من الحسان هي؟.. أجسورة مستهترّة يشقّ على المغرم ترويضها؟ أم محنكة مجرّبة يستحيل اللعب بها؟.. أم ساذجة حيّية تجشّم الصبر عجبها؟. وما من شكّ في أنّ خان الخليلي يغدو محتملاً لطيفًا بفضل هذه الأنثى وشبيهاتها. ثمّ وضع راحتيه حول قذاله كمّن ينوي الصلاة وتتمّ قائلًا: «بسم الله الرحمن الرحيم، نويت الحبّ، والله المستعان!».

واعترّم الحبّ حقًا، ولكنّه لم يذُرْ له بخلد أيّ طعنة وجهها - باعتزّامه - إلى سعادة شقيقه الأكبر الذي يحبّه

- ولكن هل ترضى يا أخي أن يضيع هذا الجهد العظيم بلا أثر يتفع به الناس؟! .

فسر الكهل بكلامه سرورًا عَوْضه عن ترك النافذة منذ حين، وقال:

- مَنْ يعلم يا رشدي؟ فعسى أن أعدل عن استهانتني يومًا ما!

ولبنا يتحدثان حتى انطلق آخر مدفع إفطار، ثم جمعتهم مائدة رمضان الأخيرة فقدّمت صحاف السمك التقليديّ وأكلوا هنيئًا وشربوا مريثًا. وبعد شرب القهوة مباشرة ارتدى رشدي بدلته وغادر البيت لا يلوي على شيء. وقد أراد أن يصل إلى كازينو غمرة في الوقت المناسب، أو بمعنى آخر يبلغه قبل أن يتحلّق أصحابه - وهم يجتمعون بالكازينو كلّ مساء للشراب ولعب الورق - المائدة الخضراء وفي التعجيل حكمة لا تخفى على مَنْ كان مثله، فليس من شأنه أن يجد مكانًا حول المائدة فحسب، ولكنّ اللاعبين - كذلك - إذا انهمكوا في اللعب لم يحفلوا باستقبال قادم ولو كان قدومه بعد فراق عام كامل! وأجل ما يجودون به تحية مقتضبة وعيونهم لا تفارق الورق، فإذا اضطروا إلى قطع اللعب لمجاملة قاسرة فويل للقادم من لعن ضمايرهم وسخط سرائرهم. فضلًا عن هذا فالداخل على لاعبين - أثناء لعبهم - يعدّ يمينًا على الفائزين وشؤمًا على الخاسرين، فلن يخلو الحال قطّ من أن يجد فريقًا يرمقه شزرًا. وقد اكتسب بعض إخوانه - بسوء المصادفات - سمعة سيئة، منهم محامٍ شاب يقول عنه الصحاب إنّه إذا وجد بمقرية من لاعبين خسروا جميعًا ولم يربح أحدًا! والمقامرون شديدا الحساسية، كثيرو الوسائس، يؤمنون بالطيرة ويعبدون الحظّ. وقد استقلّ ترام الأزهر والذكرى ترجع به إلى زمان تلقينه مبادئ المقامرة. كان ذلك وهو في أولى سني دراسته بكلّية التجارة، فدُعي إلى اللعب على أنّه تسليّة بريئة للفراغ. ثمّ رئي أن يراهنوا على ملائيم، لا لمطعم في ربح، لأنّ المليم عملة تافهة، ولكن لتأريث الحماس وبعث الاهتمام، وسرعان ما صعدت الأرقام حتى أتت على ما في جيوبهم جميعًا، واستبدّت بهم شهوة اللعب

استبدادًا نسّاهم الوقت والواجب والمستقبل. فالقهار تسليّة خفيفة ولذّة أليلة وشهوة مجنونة. هو معاينة الغيب، ومراودة الحظّ، وطرق باب المجهول، ودغدغة غرائز الخوف والهجوم والتطلع والمجازفة والطمع. ثمّ إنّه بعد ذلك صدّى لذاك الشعور - شعور كفاحتنا اليوميّ - المستمدّ ممّا نبذله من قوّة وتقدير في معالجة الحياة، وما نخاطب به الأقدار المسيطرة علينا، وما نرجوه من الحظّ والظروف الملائمة لنا، وما يتعاقبنا من الظفر والخسران. ولنكّم تمّ في أحيان كثيرة لو لم يفارق المائدة طوال عمره! . ومن عجب أنّه ما من مرّة فصل عن المائدة - في ختام ليلة متعبة مرهقة - إلّا وتمّنى لو يتوب الله عليه، فإذا أّزف الميعاد في اليوم الثاني هرع إلى الكازينو لا يلوي على شيء. وهكذا تمكّن الداء العضال منهم جميعًا وانقلب القاتلون للوقت ضحايا! وصار واحدًا من المقامرين في عبادة الحظّ والخضوع للطيرة، فربّما قال لنفسه وهو يهّم بفتح النافذة في الصباح: «إذا لقيت عددًا زوجيًا من السابلة فالحظّ معي أمّا إذا كان فرديًا فالיום خسارة!» أو ربّما حدث نفسه وهو ماض إلى مائدة الإفطار: «إذا وجد فولًا بسمن فالיום رابح أو فولًا بزيت فالיום خاسر!». وانقطع تيار الذكريات عندما غادر الترام، ثمّ استقلّ الترام رقم ١٠، فجرى به في الطرق المؤدّية إلى حيّه القديم، فاستثار حنانه، ولمّا شارف السكاكيني شعر بألم نبيل ووجد شريف يقرضان في شغاف قلبه، وغادر الترام وأنّجه إلى الكازينو، وفي المكان المعهود من الحديقة رأى الأصدقاء - أو رأى أشباحهم لأنّ الإظلام كان تامًا - فأدرك أنّه وصل في الوقت المناسب - قبل أن يذهبوا إلى بهو اللعب - وأخذ يقترب منهم مبتسمًا حتى صار في وسطهم، فعرّفه وصاحوا معًا:

- رشدي عاكف؟ أهلاً بقلب الأسد!

وسرّ بسماح لقلبه العزيز - وقد عرف به بين اللاعبين لكثرة مجازفاته - وتعانقوا عناقًا حارًا. وكانوا جميعًا - مثله - في منتصف العقد الثالث، منهم من زامله في المدرسة أو من نشأ معه في السكاكيني، وكانوا جميعًا في المجون والإباحية والعريضة شخصيًا واحدًا. قال أحدهم:

- تراهنّ يرفلن في الحرير فإذا اعترضت سبيل  
إحداهنّ رمتك بنظرة شذراء وقالت لك بلهجة  
اسكتلندية صميمة:

Behave like a gentleman, please,

- الخادومات يا سيّد رشدي، سقيًا لعهودهنّ،  
هجرن المطابخ إلى الكباريات!  
- كانت الحرب فرصة طيبة لاكتشاف مواهبهنّ  
الفنيّة!

قال رشدي - كالمحتير - مبتسمًا:  
- والعمل؟! .. هل نشرع في الزواج؟!  
- إذا طالّت الحرب، وازدادت الحال سوءًا على  
سوء، فلن يبقى أعزب. غير أنا وأنت!  
- يا إخواني لقد ظلمتم بعض اليهوديّات وبعض  
الخوادم، والحقيقة أنّهنّ هالهنّ ما رأين من عدم اشتراك  
الأمّة في الحرب فسامهن في قضية الحلفاء بأعراضهنّ!  
- وبذلك صارت المرأة أغلى من السهاد!

- بل أعزّ من الفحم!  
- وغدا إذا وضعت الحرب أوزارها، فهاذا يفعلن؟!  
- تصير المرأة أرخص من اليابانيّة!  
- ويصير العشق بالجملة، فيصيد الشابّ في ليلة  
واحدة ثلاث نساء - مثلاً - واحدة للقبل وأخرى  
للتجوى وثالثة للمداعبة إلخ. . .  
- إلّا إذا تدخّلت الحكومة في سوقهنّ للمحافظة على  
الأسعار!

وضحك رشدي ضحك إنسان حرم شهود هذا  
المجلس عامًا بغير نقصان. ولبثوا يشربون ويتسامرون  
حتّى وافت التاسعة فنهضوا إلى بهو اللعب المحبوب.  
في تلك الليلة ربح رشدي مبلغًا كبيرًا - أو هكذا يعدّ  
بينهم - فبلغ ربحه في منتصف الثانية عشرة، ثلاثة  
جنيهاً، وأضاف إليها ثلاثين قرشًا حين شارفت  
الثانية عشرة - وهو موعد انتهاء السهر - ثمّ انفضّوا من  
حول المائدة. وبدأ اللعب فرحًا مسرورًا، لأنّه ممّن تقرأ  
سرايرهم على صفحات وجوههم. وجعل يترنّم  
بصوت حنون كالمناجاة، ولم يمكسك عن الترنّم حتّى  
حين صاح به أحد الخاسرين: «اصمت يا أخي

- أهكذا لا نراك إلّا مع العيد وقد كنّا لا نفترق ليل  
نهار!

فقال رشدي ضاحكًا وهو يتخذ مجلسه:  
- ستراني منذ الليلة كلّ يوم، أو منذ اليوم كلّ ليلة  
على الأصحّ!

فسأله آخر:  
- وكيف كان ذلك؟  
- صدر أمر بنقلي إلى القاهرة!  
- ولن ترجع إلى أسيوط؟  
- لا.  
- الله لا يرجعك!

وسأله ثالث:  
- وكيف سلوت عن المائدة عامًا طويلًا؟! .. لكّم  
أوحشتنا نقودك!  
- لأسيوط موائدها، أمّا عن الأخرى فالشوق  
متبادل!

ودار الحديث عن أسيوط، حتّى سألهم بلهفة:  
- كيف تسهرون هذه الليلة؟  
- كالليالي التي سبقتها، سننتقل عمّا قريب إلى البهو  
الداخليّ. .  
- هذا جميل، ولكن ماذا تقولون في كاسّي كونياك أو  
ثلاثة؟

- أو أربعة أو خمسة؟  
- أو ستّة أو سبعة؟  
- ولكنّ واحدًا منهم قال مقترحًا:  
- العيد غدًا فلنؤجّل السكر إلى غد!  
- لا نؤجّل عمل اليوم إلى غد!  
وسأله سائل:  
- وكيف الفسق في أسيوط؟  
فقال رشدي:

- أمّا عن هذا فلا، هناك عقّة بالإكراه!  
- الحال هنا بات قريبًا من الريف، فجنود الحلفاء  
يلتهمون اللحوم والفاكهة والنساء!  
وقال آخر:  
- واليهوديّات عرفن أخيرًا مزايا اللغة الإنجليزيّة!

فصوتك يبيج أعصابي!». وعلى أثر انطلاقهم في الطريق اقترح أحدهم قائلاً:

- ما رأيكم في أن نكمل اللعب في بيتنا؟

فقالوا في صوت واحد:

- هو كذلك!

فسأل المقترح رشدي قائلاً:

- وأنت؟

فقال الشاب ضاحكاً:

- أوافق تحت شرط أن تطلقوا لي حرية الغناء!

ومضوا إلى بيت الداعي في شارع أبو خوفة، وهيئوا المائدة، واستأنفوا اللعب بنهم لا يشبع. ودفتت الحجرة المغلقة النوافذ بأنفاسهم، والتهب الكحول بأفئدتهم، فتصببوا عرقاً، وعندما دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل قال بعضهم:

- حشبتكم لعباً ولأقضي نهار العيد الأول نائمين!

فكفوا عن اللعب، وقد خسر رشدي ربحه جميعاً

وثلاثين قرشاً أخرى!

وقال له أحدهم منهكاً:

- كيف لم تتمتع بما متحناك من حرية الغناء؟!

وضحكوا جميعاً، فدارى بكياسه غضبه وجاراهم في ضحكهم. وودعهم عند ذاك ومضى إلى العباسية، وقد انقطعت المواصلات جميعاً، مدبجاً من طريق الحسينية، ووجد الطريق خالياً والسكون مطبقاً والظلام جائئاً. وكان جسده ساخناً مبتلاً بالعرق وحلقه يابساً، فاصطدم برطوبة كثيفة يزفرها الخريف بغزارة - خاصة - في المزيج الأخير من الليل. وما عثم أن سرت في أطرافه قشعريرة باردة، ولسعت البرودة صدره، وزكم منخره. وكانت ليلة السرار وقد احلوك غبشها، وضاعف من غلظه انتشار سحب دثر النجوم الساهرة، فلاحت المنازل القديمة على جانبي الطريق كأشباح جالسة القرفصاء ذاهبة في سبات عميق. وجعل يحدث نفسه: أما كان الأجدر أن يعتذر عن عدم المضي معهم إلى البيت؟ ولكن هيهات أن يلهم الحكمة يوماً ما! يئد أن أسفه كان

ضعيفاً كإرادته سواء بسواء، فالقاهر المدمن يلقي الخسارة عادة يهدوء ولن يعدو الأمر في نظره التسليم في يومه وعقد الرجاء بغده. وتنبه إلى طول الطريق وقذارته فتأوه مغيطاً محنقاً. ولما بلغ مدخل خان الحليلي ذكر وصف شقيقه للطريق «ثاني عمر على اليمين وثالث باب على اليسار» وتلمس سبيله في الظلمة حتى انتهى إلى العمارة، ومضى إلى حجرته بأقدام خفيفة وأضاء المصباح، وما إن وقعت عيناه على النافذة المغلقة حتى تذكر النافذة التي تشرف عليها من عل، وجاد ثغره بأول ابتسامة صادقة منذ منتصف الليل، وطاف بمخيلته الوجه الأسمر المليح، فتأسى عن هوم الليلة جميعاً، وتمتم قائلاً: «إذا كان سوء الحظ مؤلماً فحسنه غير منكور» وغير ملابسه، ودلف من مكتبه فاستخرج من أحد أدراجة كشكول مذكراته، جلس ليدون خاطرة، قبل النوم....

#### - ١٩ -

وكان الأب أول المستيقظين، فتوضأ، ثم غادر البيت حين الفجر ميمناً المسجد للصلاة العيد. فاستقبل أول نسمة من نسبات اليوم الجديد، ورأى الفجر الجميل يضجّ بجموع القاصدين، يخوضون أمواجه البنفسجية الخالدة مسبحين بحمد الله العليّ. وكان أحمد ثاني المستيقظين، فنهض نشيطاً جواراً، وحلق ذقنه بعناية، وارتندى جلباباً جديداً وطاقيّة جديدة. ثم وافته أمّه إلى حجرته وقد مشطت شعرها وأخذت زيتتها، فقبل يدها، وقبل خدّها، وقبلت خديّه، ودعت المرأة للأسرة بالعمر المديد والسعادة والرفاهية، ومضيا معاً إلى الصالة وجلسا جنباً إلى جنب يتحدثان ويتظران بقية الأسرة، من انطلق منها بيتغي مرضاة الله، ومن يغط في نومه غطيّاً. وعاد الأب بعد مشرق الشمس بقليل، فدخل عليهم يرفل في عباته الفضفاضة، وما يزال ييسمل ويحوقل. فمثلاً بين يديه، ولثمت الزوجة يده، وفعل أحمد مثلها. فهتأهما الرجل بالعيد، وجلسوا جميعاً وهو يقول:



والدقيق دقيق والكعك كعك!  
وأدرك رشدي ما ترمي إليه والدته فقال بلباقته  
المعهودة:

- كعكنا لذيق فلا يدع لنا حاجة للتحسر على سواه؟  
وتفرقوا في الحجرات. وعاد أحمد عاكف إلى حجرته  
وكان قلب الكهل يخفق بروح الشباب النشوان، بل  
كان كذلك منذ كانتفته بتحية الوداد ليلة القدر فلم  
تغب عن مخيلته قط صورة شبحها الرقيق وهي تجود  
بإيماء السلام، ولا تخدمت بعد ذلك العواطف التي  
بعثتها تلك الإيماء الساحرة. فرح الكهل، واستخفه  
الطرب، وهيا له مرحة وطربه أنه سيسترده شبابه الريان  
فيخضر غصنه الباهت ويجري فيه ماء الحياة الدافق،  
ويسود فوداه، وتغشى صلته لمة قينانة، وتغزر  
أهداب عينيه فتكحل أشجارها المشرقة بالاحمرار بيد أنه  
لم تقع عليها عيناه منذ تلك اللحظة السعيدة، وتغيبت  
عن موعدها المألوف المحبوب، فلم يشك في أنه  
الحنجل الذي يتشجع بالظلمة ويفر من ضوء النهار،  
فدرت أضلعه حناناً وعطفاً. ومن أدري به منه بأهوال  
الحنجل. وسر سروراً كبيراً إذ وجد أخيراً من يستتر  
عنه. هو. حياء! ولكن هذا صباح العيد وقلبه يحدته  
بأنها لن تبخل عليه بنظرة تسر الروح وتحيي الأمل.  
وها هو يرفع رأسه فيرى الشرفة مفتوحة على مصراعها  
والشمس تغمرها فيشي للأواها بالوجه الذي أطل  
منها، ولبت ينتظر تجيلاً بصره في الحي الفرحان  
بالعيد. وقد بث روح العيد في كل شيء فتراها في  
الألوان وتسمعها في الجوّ وتشمها في الهواء، وغدا ذلك  
التيه. الذي تحده العمارات. يرقص فرحاً ويغني طرباً  
ويبعث بحرارة اللذات. جرى الأطفال هنا وهناك  
بشبابهم المزركشة ذوات الألوان الفاقعة، وتطايرت  
وراءها الضفائر والشرائط، وهتفت الزمّارات،  
وفرقت قنابل السلام ولاكت الأفواه الحلوى  
والنعناع، وملأت الأناشيد والأغاني الأسعاع، واكتظت  
المقاهي بأهل المدن والريف، فازدهت الأرض عيداً  
والسما. وتصفّحت عيناه المناظر والوجوه بعقل  
غائب، حتى جوزي على صبره أجمل الجزاء، فرأى

- كل عام وأنتم بخير. ربنا يجعله عيداً سعيداً لنا  
وللمسلمين كافة.

ورمى ببصره الذابل إلى آخر حجرة في الشقة وقال  
كلمتهنّ:

- هل استيقظ الغلام أو أنه لم ينم بعد؟!

فبادرت المرأة للدفاع. كعادتها. قائلة:

- تأخر الغلام أمس لأنه لقي إخوانه بعد فراق  
عام، ولأنه عاد بطبيعة الحال ماشياً على قدميه.

على أنه لم يطل بهم الانتظار، فانفتح باب الحجرة  
الأخيرة ومرق منه الشاب إلى الحمام الذي يقابله،  
وأقبل نحوهم - قبل مضي ربع ساعة - يخطر في بيجامته  
وقد سرح شعره الأسود، وتعطر بشذا البنفسج، وبدا  
وجوهه مائلاً للشحوب إلا أنه يقطر منه حسن الشباب  
ورواؤه، وتألّق ثغره ابتسامة حلوة لا يضيء بمثلها في  
الأسرة إلا ثغر والدته الطروب. وتجاهل الشاب ما  
ينطوي عليه والده من الانتقاد فاقترّب منه، وانحنى  
على يده، وقبلها باحترام، وانثنى إلى والدته فقبل يدها  
وخذها، ثم لثم جبين شقيقه، وبسّطت الأم راحتها  
وقالت ضاحكة:

- عيديتي يا سادة وكل عام وأنتم بخير!

وقد تعود كل منهم أن يعطيها نصف جنه عيديّة.  
فكانت تفرح بعيديتها فرح الأطفال، بل تنفقها كما  
ينفقها الأطفال، فتبتاع ما تشتهي نفسه من  
الشيكلات والمثلّس.

ثم أحضرت فطار العيد. كعكاً وحلياً. فأقبلوا  
عليه في غبطة. والصائم يشعر عادة بغربة وإنكار  
وحذر وهو يتناول أوّل لقمة صباح العيد، ثم يصيب  
من طعامه جذلاً مسروراً، فليس أجمل وقفاً في النفس  
من لحظة سعيدة بين واجب قامت بحقه وتصبرت على  
أدائه وبين تمتعها بلذة الجزاء وراحة الضمير. وتناولوا  
الكعك بأناملهم، وقضموه بلذة حتى رسم دوائر من  
السكر حول أفواههم، ثم أساغوه بالخليب، وما زالوا  
حتى شبعوا، وقالت الأم بلهجة أسيفة، تكلفتها  
لستوهبهم الثناء والإطراء:

- يا حسرتاه على أيام السلم حين السمن سمن

فتاته تبرز من باب الشرفة في أبهى حلل، فصعد إلى وجهها الأسمر الجميل ناظره. وتشجع على غير مألوفه فلم يُطرق، وابتسم وفؤاده يغلي من شدة الخفقان، وأحس رأسه إحناة خفيفة، وكانت ترنو إليه بعينيها النجلاوين، فابتسمت ابتسامة حلوة ردًا على تحيته، ولم تحوّل عينيها عن عينيه فتولاه الاضطراب والحياء وأوشك أن يفقد شجاعته، ولكنّها ابتسمت إليه مرة أخرى وتراجعت في حفة حتى اختفت عن ناظره، فتنهد بارتياح وسرور. ومناه الأمل أن يراها مرة أخرى فيفوز بابتسامة ثالثة ولكنّ خادمًا جاء متعجلًا وأغلق باب الشرفة، فشعر بخيبة وأسف. ثمّ ابتعد عن النافذة، وكانت الساعة تقترب من التاسعة فذكر أنّه على موعد مع الصحاب في الزهرة - صار أخيرًا من أصحاب المواعيد في القهوات - فارتدى ملابسه الجديدة - البدلة والطربوش والحذاء والقميص - ونظر إلى صورته في المرآة فأعجبته جدته وأناقته وذكر أيام شبابه الغابر - قبل أن يعيس له الزمان - حين عرف دهرًا بالأناقة! وغادر البيت جلدًا طروبًا، فسار متمهلاً ثملاً بخمر الأمل والأحلام، يسائل نفسه في حيرة الفرحان: «وماذا بعد الابتسام؟... ماذا بعد يا دهر؟!».

## - ٢٠ -

ورجع رشدي إلى حجرته، فأشعل سيجارة وراح يدخنها وراء النافذة مصوبًا بصره نحو النافذة المرموقة، متوقّفًا بين آن وآخر أن يلح جارته الحسناء. وصدقه الأمل فلاحت الفتاة في النافذة بفستانها الجديد وعلى كتفها معطف رماديّ، إلّا أنّها تراجعت في غير إبطاء كأنّها تفرّ من نظراته الثاقبة. ولح الشاب المعطف فخطر له أنّها متهيّئة للخروج، فدخل إلى المشجب بغير تردّد وأخذ في ارتداء ملابسه. وغادر البيت بعد دقائق معدودات وساءل نفسه أين يحسن أن ينتظر؟... وذكر لتوه الممرّ الضيق الموصل بالسكّة الجديدة، وسار نحوه مسرعًا، ثمّ توقّف، عند موضع اتّصاله بالطريق، على الطوار. وكان الشارع يضطرب بتيارات

مقعده وهو يرجو أن تكون «حدا» قد صدقته الهداية، ولكنّه رأى الغلام يجلس بينه وبين أخته! ورأته الفتاة قادمة فطرفت عينها ارتباكاً وتجنّبت أن تحوّلها إلى جهته! وجلس الشاب في ثقة وسرور، واسترق إليها النظر مرّة ومرّة فوجدها في المرتين شاخصة إلى ما أمامها، واستثقت من تورّد خدّها وارتباك هيئتها ما يخامرها من حياء واضطراب، فاشفق عليها، ورأى عن حكمة ألاّ يشقّ عليها، فجعل يتسلّى بإحالة بصره بين البناوير والألواج والمقاعد مزجياً تحيات الموتى إلى الصدور والنحور والثغور والمعاصم ولم يطلّ به المطال فدنق الجرس ثمّ أطفئت الأنوار، وانحسرت الشاشة عن دنيا الأحلام. وطاب له المجلس في الظلمة على كذب من الفتاة التي أضمر لها غزلاً - وإن لم يخفق لها فزاده بعاطفة بعد - حتّى غرّد الصوت الإلهي بأغنية النبع «طاب النسيم العليل» فغفل عن الوجود. وكان يحبّ الغناء حبّاً خيل إليه يوماً أنّه خلق ليكون موسيقياً، فتسلسل القيلم وهو هائم في نغمة روحية عالية. وانتهى العرض وأضيئت الأنوار ونهض النظارة. والتفت رشدي نحو الفتاة فرأها واقفة مغمضة العينين تفادياً لتأثير النور الباهر بعد طول الاستسلام للظلمة، فانتظر حتّى فتحتها على نظرتة العارمة! وعُني خارج السينما بملاحظة أصابع يديها فعلم أنّها ليست مخطوبة، وابتسم لذلك ابتسامة ارتياح. ثمّ تعقّبها في العودة بنفس العناد الذي تعقّبها به في الذهاب، إلّا أنّه تناقل عن متابعتها في الأزهر كيلا يشي بسرّه لأحد من أهل حيّه الجديد. وعاد إلى البيت فوجد الأسرة في انتظاره للغداء. وما غمّت أن دعته أمهم قائلة بلهجتها المرحّة:

- هلمّوا إلى طاجن العيد...

- ٢١ -

وعادت نوال إلى البيت وقد بلغ منها التأثير، راحت تسائل نفسها: ما لهذا الفتي الجسور لا يكف عن مطاردتها مذ وقعت عليها عينا غداة الوقفة؟ جاوزت نوال في ذاك الوقت السادسة عشرة بقليل.

مسروراً وقد أيقن أنّها ذاهبان إلى سينما. وعبروا الطريق إلى شارع عماد الدين، الاثنان أوّلاً وهو في أثرهما متحفزاً لما يشبه الابتسام أو لتضمين نظرتة ما يريد من المعاني إذا هي التفتت وراءها، ولكنّها مضت لا تلوي على شيء ممسكة بيد الغلام الذي هرول ليسير في خدائهما، وجعل لا يحوّل عينيه عن ظهرها وساقها، ويتبيّن حال مشيتها ومواقع قدميها، فوجد من السرور برؤيتها من وراء مثلاً وجد لرؤيتها من أمام، وأعطى صورتها الخلفية جملة ٨ على ١٠، وتهدّد عند ذلك متذكّراً وجوهاً أبي الحسن أن تُنسى وقال لنفسه: «حقّاً فشا الحسن في مصر هذا الزمان الحديث». ولما بلغوا ريزر التفتت وراءها فرأت عينيه محدّقتين بها فاستردّت عينيهما بسرعة - وفوجئ فلم يسهه أن يضمّن نظرتة شيئاً - وحثّت خطاها في اتجاه استوديو مصر، وأسف على ما فاتته من حديث العيون ولكنّه سرّ بالسينما التي اختارتها فتاته - لأنّها كانت تعرض فيلم دنائير - وأدرك أنّ هذه المطاردة أتاحت له لذتين عزيزتين. وأراد أن يجلس جنبها في الصالة فعمل على أن يقف وراءها مباشرة في الصفّ الممتدّ أمام شبّاك التذاكر ليتمكن من اختيار مقعد لصق مقعدها، بينما تنحى الغلام جانباً ينتظر متفرّجاً على الصور، وصار منها على قيد خطوة. فخال أنفاسه غمّس ضفيريها. فاستثار قريبا من صدره إحساساً شبيهاً بما تستثيره رائحة زكية عميقة، وتتبع أغملتها وهي تختار مقعدين لها ولشقيقها على رسم الصالة، فرأى إلى يمين الكرسيّين مقعداً شاغراً وإلى يسارهما ثلاثة، وتساءل تُرى إلى أيّ ناحية تجلس الفتاة؟. وأجرى في سرّه على الناحيتين القرعة المعروفة: «حطّة يا بطة يا ذقن القطعة عمي حسن... إلخ». فرست «حدا» على المقعد الأيمن فاخترته فيها يشبه الاطمئنان. وتحوّل عن الشبّاك وأجال بصره فيها حوله فلم يجد للفتاة ولا لشقيقها أثراً، بيّد أنّه لم ينزعج فالتذكرة في يده، وهي خليقة بأن توصله إليها مهما ضلّ عنها، ولا يدري كيف ذكره هذا - قوّة التذكرة - بعقد الزواج وقداسته وسحره فاهترّ صدره الرقيق، ودخل السينما منفعللاً. ومضى به الدليل إلى

معنى ولا تجد له طعمًا مثل قوله لها مرة: «يُخِيلُ إِلَيَّ أَتُكِّ لا تُحَيِّنُ العلم كما يجب وإن لم ينقصك الاجتهاد أو حسن الفهم فأحْبِبْه كما تُحَيِّنُ الحياة فهو منها بمثابة العقل من شخص الإنسان، وينبغي أن يتغذى به عقلك ويتمثله كما يتغذى جسمك بالطعام ويتمثله. أين الشوق إلى أسرار الوجود؟.. أين اللهفة على المعرفة؟.. لا يجوز أن يتخلف قلب المرأة عن قلب الرجل في طريق العرفان والمجهول..» وفي مرة أخرى سألتها: «علام نويت بعد البكالوريا؟.. أما عرفت بعد العلم الذي ترغين في دراسته في الجامعة؟» وهالتهها كلمة «الجامعة». أيمتد بها عهد الدراسة حتى الجامعة؟! وأجابته باقتضاب: «لا أدري». فقال لها الشاب متعصبا: «أما زلت عند موقفك السلبي من العلم؟!» ولم تغتن إلى أنه يريد أن يصوغها على المثال الذي يحب فحسبت أنه يحقرها ويزدرها فاشتدت منه جفولا.

ثم جاء أحمد عاكف الجديد. وقالت الأنباء إنه أعزب. وشعرت بمزيد الغبطة والسرور أن عينيه تسترقان إليها النظر فتتحرك قلبها نحوه كما تتحرك الراحتان نحو بجمرة في ليلة شديدة البرد والزمهرير. وقالت لنفسها: إنه رجل جاوز حدود الشباب. ولكنّه ما يزال في عفوان الكهولة. ولا بد أن يكون موقفًا محترمًا لأنه غالبًا ما يصير الموظف - في مثل عمره - محترمًا وأيًا كان فلن يسعها أن تغضي عن نظراته الحيّة التي يرسلها إليها في أدب وتردد، ولا أن تجد لذلك من معنى غير الوداد، والأفيم يثابر على الانتظار والنظر أصيلاً بعد أصيل؟! على أنها تساءلت في حيرة: لماذا لا يخطو خطوة جديدة؟. هلاً ابستم إليها؟.. هلاً أوما بتحّة؟!. ترى هل يعقل الحياء الرجال كما يعقل النساء؟!. وإذا كان هذا شأنه فلماذا لا يخاطب أباه في الأمر؟ أو لماذا لا يكلف أمه بهمة خطبتها؟!. وكانت نوال حيّة وفي حاجة إلى من يطاردها، فأوقعها حقلها على كهل في أشد الحاجة إلى من تطاردها! إلا أن شجاعتها لم تحنّها - خاصة بعد أن يشت من شجاعته - فبدأنه بالتحية من شرفتها وتلقّت رده

وكانت ذات حسن يستحق الإعجاب. وتحلّ حسنها بميزتين لا يُستهان بهما: السداجة والخفة ولكن آية سداجة، وآية خفة؟ السداجة التي توحى بها بساطة الجمال، والتي تظالمها في الحدة الصافية الواسعة - في غير مبالغة - والنظرة المستقيمة، بيد أنها ليست سداجة الغفلة أو البلاهة. وخفة تنبثق من أناقة الملامح ولطف الروح، فلا هي إلى الطيش والرعونة تنتسب، ولا من حدة الذكاء وبراعته تستمد. وهي سمراء، وكثيراً ما تقول أمها إن السمرة روح الجمال ومصدر الخفة، ولكنّها كانت في الحقيقة من عشاق اللون الأبيض. ولذلك أخذت تعالج نحافة ابتها بعقاقير السمن لاعتقادها بأن السمن يكسب البشرة إشراقاً. وقد تقدّمت الفتاة في دراستها الثانوية تقدماً يبشّر بالنجاح، ولكنّها انضمت في الواقع إلى قافلة العلم، وليس العلم ما تشد، ولا المدرسة بالماوى الذي يهفو إليه فؤادها، فأحلامها لا تفارق البيت، ولن تزال تعدّ أمها أستاذتها الأولى تتلقى عنها فنون الحياة المنزلية من طهي وحياسة وتطريز، وما رأت في العلم يوماً إلا زينة تحلّ بها أنوثتها وحلية تُغلي من مهرها. فتركزت حياتها في هدف واحد: القلب أو البيت أو الزواج. أليست أول دعاء دعيت به «العروس»!.. وآته لأجل دعاء، وآتها لتلهف على أن تكونه، وترقب حظها في صبر ورجاء. ولذلك قدّست الزواج قبل أهليتها له بدهر طويل، وأحبّت «الرجل» وهو أمل مجهول وعاطفة غامضة. فكانت ثمرة ناضجة دانية القطوف ترصد من يجنيها. وكان الأستاذ أحمد راشد المحامي أول رجل - من غير عارمها - يتصل بها عن كتب لإعطائها الدروس. وتلقّته منذ أول مقابلة باستحياء، ورمقته بعين ملؤها التطلع والرجاء، فلم يتملّ لعينها «أستاذاً» بقدر ما تمثل لها رجلاً ولان قلبها وأوشكت الحياة تنبض به. بيد أن الشاب المحامي كان صارماً رزيناً أكثر مما ينبغي، وعجزت كلّ العجز عن أن تقرأ عواطفه الحقيقية وراء عويناته السوداء. ولما تعقّب تهاونها بالتأنيب بدا لعينها مكفهراً خيفاً فجفلت منه وخاب رجاؤها فيه. وكثيراً ما كان يحدثها بكلام لا تفقه له

على تسرعها ببذل التحية للآخر، ولكن هل كانت تعلم الغيب؟ وقلق ضميرها فلم تجد لطاقن العيد ولا لسمكه طعمًا! .

\*\*\*

وغادرت الشقة عصرًا بقصد زيارة حرم سيد أفندي عارف، وخطر لها أن تصعد إلى السطح - قبل القيام بالزيارة - لتجول جولة فيه مسرحة الطرف بين المآذن والقباب، وقد صار السطح نزهتها بعد أن تعذر عليها مشاركة البنات لعبهن في الطرقات. ودارت مع السور على مهل متصفحة المناظر مقلبة وجهها في الأفاق، وشعرت فجأة بداع يدعوها إلى النظر نحو مدخل السطح، فما راعها إلا أن تراه هناك يملأ طوله فراغ الباب وينظر نحوها في هدوء وفي عينيهِ الجميلتين شبه ابتسام! . واضطرب قلبها لمراه اضطرابة عتيقة زلزلت صدرها الصغير، وشعرت بخوف وقلق، ثم استعادت رباطة جأشها موقنة بأن الموقف أخرج من أن تلقاه بالحياء فحسب، وتعلقت عينها وهما تنظران إليه بالإنكار والذهول.

- ٢٢ -

ثم حوّلت عنه عينيها، وولّته ظهرها، وألقت ببصرها إلى الأفق البعيد دون أن ترى شيئًا، وقال لها عقلها إنه ينبغي أن تزايل المكان إذا أرادت ولكنها لم تحرك ساكنًا، وأهاب بها شعور باطني بأن تتجاهل وجوده، وبألا تعجل بذهابها، فلبثت هي لا تريم، وتولّاه إحساس بالحياء والقلق. وتنهّد رشدي ارتياحًا لما رآه من تفضيلها البقاء على الرحيل، وقال لنفسه جذلًا: «أصاب سَنَ الشخص مرامها، ولكن ينبغي معالجة البلطية بحكمة ومهارة!». وكان علم بصعودها إلى السطح اتفاقًا، إذ كان ينظر إلى نافذة حجرتها المغلقة بأسف فلاحته منه التفاتة على سور السطح، فصادف ذلك مرورها به وكان انتهى من ارتداء ملابسه استعدادًا للخروج إلى سهرته، فحملته جسارته وحسن انتهازه للفرص إلى الصعود إلى السطح من فوره، ولمّا اطمأن إلى بقائها تفحص المكان بهدوء

الجميل، وحذّتها قلبها بأن الأمل المرموق قد بات قريب المآل... .

ولدى الضحى من نهار الوقفة طالعها وجه جديد من نفس الشقة، بل من الحجرة التي تواجه حجرة نومها، وأدركت من النظرة الأولى أنّ الشاب الجديد أخو صاحبها الكهل، ولكن أين كان قبل اليوم؟ . وما باله يرميها بتلك النظرة القوية الجسورة التي دعت الدم من جميع أطرافها إلى خديها وحملتها على الفرار؟! . يا له من شابّ نصير جَمّ المحاسن جذّاب المنظر! وما لها من نظرة ثابتة ترعش القلب!، ولكن يا ترى أهذا شأنه مع كلّ حسناء؟ . أم جذبه إلى وجهها شيء لا عهد له به؟ . وهل يقيم في هذه الحجرة فيراها صباح مساء أم يخفي فجأة كما ظهر فجأة . . وقال لها قلبها إنّ مثل هذا الشاب خير من ذاك الكهل بغير جدال، ولكنّ الكهل لم يعد غريبًا، فبينها وبينه تحية متبادلة، وهو المفضل إذا طلب يدها، وما ينبغي أن تنسى أنّ بينها عهدًا صامتًا لا يلبث أن يصير - إن شاء الله - زميرًا وطبلاً وثرّيات لألاءة ورملاً فاقعًا يسر الناظرين؛ وفي صباح العيد ارتدت ملابسه الجديدة، ودعاها قلبها إلى الظهور بالشرف ليراها الكهل في أبهى حال وأجمل منظر، ووجدته في النافذة في أحسن صورة ممكنة، فذكرها جلبابه وطاقية أبيها، وتبادلا التحية، ثم عادت إلى حجرتها، ونازعتها مشاعرها إلى لقاء نظرة على النافذة الأخرى، فوجدت الشابّ الجميل وكأنه ينتظرها، فتراجعت أمام نظرتة العارمة، وحسبت أنه لن يتخطى بجسارته نافذتها، فما راعها إلا أن تجده بانتظارها في السكة الجديدة! وتساءلت في الترام ترى هل تبعها أم أنه وهم ما رأت؟ . . ولكنها علمت بعد حين أنه يتعقبها عامدًا، وأنه ممن لا يشتون عن غاية، ومن عجب أنه نسي وجودها في السينما بترنيم أم كلثوم!، أمّا هي فلبثت تشعر بوجوده على كثر منها طوال الوقت!، وعادت إلى البيت ثملة بسرور لا عهد لقلبها بمثله وقالت لنفسها ضاحكة: «لو أنّ جميع الشبان في مثل عناده ما بقيت فتاة واحدة بغير زواج؟» ووجدت قلبها يؤنبها

- إليك عن سبيلي! .. واخجلتاه لسلوك الجار! ..  
 - هل يعيب الجار أن يتوَدَّ إلى جارتِه الحسنة! ..  
 - أجل ..  
 - وإذا أجبره حسنُها على أن يتوَدَّ إليها فمن المَلموم؟  
 - لا تستدِرْجني إلى الكلام، وإيّاك وأن تعرّض سبيلي ..

ولكنّه اعترض سبيلها غير مبالٍ تحذيرها، فتملّكها الخوف واندفعت نحو الباب مارقة من تحت ذراعها، فلم يسهه اللحاق بها. ونزلت على عجل خافقة الفؤاد ومضت نحو شقّة سيّد عارف. لم تكن غصبي ولا مستاءة، بل كانت أبعد خلق الله عن الغضب أو الاستياء، وجلست في الشرفة تنتظر ربّة البيت فلم تفارق غيبتها صورة حيّاه الجميل، ولا غاب عن سمعها رجوع صوته الحنون. وجعلت تستذكر أحاديث أتربها في المدرسة عن جيّل الشبان ورسائل الغرام ونوادير الغزل، ثمّ تساءلت ترى هلّ تدلي بدلوها منذ الغد في حديث الحبّ الذي لا يملّ؟ .. ولكن أيّ أنواع من الشبان يكون؟! .. ونزل رشدي بعد قليل مبتسمًا مسرورًا. ولم يكن قلبه قد امتشعر عاطفة صادقة بعد، فكأنما كان يقوم بتمثيل دور محبوب، يتدبّر أنّه كان كذلك من أولئك الممثلين الصادقين الذين يندمجون بتمثيل أدوارهم اندماجًا يورّي القلب ويقدر شره فإذا هم ضاحكون أو باكون. ثمّ انطلق إلى الكازينو بشهية متفتّحة للسُرور والشراب والطرب ..

- ٢٣ -

ومضت أيام العيد فلم تقع عينا أحد عاكف عليها مرّة أخرى، وحسب أنّها في شغل بال العيد وملاهيهِ فدعا لها قلبه بالسُرور، وكان كلّ مطعمه أن تراه في البدلة الجديدة التي فصلها خاصّة إكرامًا لها، فقال لنفسه: إنّ البدلة لا تبلى في أيّام وسوف تراه يومًا ما حتّى وهو يرفل فيها. وشغل هو كذلك بعبلة العيد وإن كان أنفقها جميعًا في قهوة الزهرة بين الصحاب، ما عدا سليمان بك عتّة الذي سافر ليعيّد في قريته، ومن عجب حقًّا ألا يكون قد ظفر بصديق منهم على دوام

حتّى أدرك خلوه، ثمّ سار متمهلاً إلى موقف قريب منها، ولم تكن تخونه الجرأة الجنونيّة، ولكنّه أثر معها الأناة لما عهده بها من حياء، ورأى على السور - في موقع وسط بينه وبينها - عمودًا خشبيًا شدّ إليه حبل الغسيل، ووقعت عليه يمامة، فرفع رأسه إلى اليمامة وقال بصوت خافت وهو يلحظ الفتاة بطرفه: «مساء الخير يا يمامتي!» وراها تلحظ اليمامة بطرف خفيّ فابتسم واستدرك: «ما أجل سمرتك! السمرة حلّية الجمال وروح الحفّة، هلاً سمعت بأغنية السمرة: يا أسمر اللون حياتي الأسمراني؟» وأنصت الفتاة إليه - وإن تظاهرت بعدم المبالاة - بأذنين مرهفتين، وطاب لها صوته، فابتسمت ابتسامة باطنية لم ترسمها شفتاها، ثمّ غلبها الحياء فابتعدت خطوتين وأشاحت عنه بوجهها، وجعل هو يقول محدثًا اليمامة: «كيف لا تردّين تحيّي؟ .. كيف تعرّضين عني؟ .. بل كيف اندست القسوة إلى هذا الحسن الرقيق؟!» وتساءلت أما ينبغي أن تمضي إلى حال سبيلها؟ ألا تخاف أن يصعد البواب أو بعض السكّان إلى السطح فيريه من موقفها ما يريه؟ أيّها من يشدّ قدمها إلى الأرض؟! واستدرك رشدي قائلًا: «ألا تعلمين يا يمامة أنّي جارك؟ .. وأنّ السقاء الرحيمة لن تستطيع أن تغيبك بعد اليوم عني؟ وأنّي ساكون دائمًا حيث تكونين! .. وعطفت نوال رأسها قليلًا كأنّها لترى اليمامة فوجدتها قد طارت! وألفته ينظر نحوها بجسارته المعهودة، ولم تعد تجلّدي مخاطبة اليمامة، فقال لها بهدوء:

- سعيده ..

فأشاحت عنه بوجهها مرّة أخرى، وحركت قدميها ببطء شديد نحو الباب، فدنا منها جزعًا وقال:

- ألا تردّين عليّ؟

فلم تنبس بكلمة وقد تورّد خدّاه واختلج جفناها، فاقترّب منها أكثر من قبل وقال:

- أما تجودين بكلمة واحدة؟ .. كلمة واحدة، لتكون عدلاً إن شئت، بل لتكون نهرًا!

ولكنّها حثّت خطاها فهمّ باعتراض سبيلها فقالت له بحدّة مصطنعة:

من رؤساء الأعلام؟.. ألا تقول الستّ توحيدة - أم نوال - إنَّ عمره كبير ومرتبّه صغير؟! . وعرض عند ذاك على شفته، وعاوده شعور الأسى والياس: وأوشك أن يثور به الغضب، وأن يقول كما قال مرّة في مثل هذه المناسبة: «إنّ الدنيا جميعاً لا تساوي زنتها قذارة إذا سوّلت نفس لصاحبها أن يستهين بي؟». ولكنّ توثّبه لتجربة حظّه لم يدعه يستسلم لجنون الغضب، فطرد عن فكره خواطر اليأس، واستعاد سروره ودواعي الأمل والسعادة من حياته الجديدة.

وانقضت أيّام العيد الثلاثة وهو يفكر التفكير الذي يسبق العمل مباشرة، وجاء يوم الجمعة الأوّل بعد العيد ولمّا يحقّق شيئاً من أفكاره، يثدّ أنّه رآها صباح ذلك اليوم لأوّل مرّة، بعد مرّة أوّل أيّام العيد، وسرّ فؤاده المشوق. كان اليوم من أيّام نوفمبر الأوّل، والجو رقيق منعش تسري في تضاعيفه من أن لأن هبات نسيم بارد، والساء تغشاها غلالة من سحب ناصع البياض ينضح بنور الشمس المتوهّج، ففتح النافذة - نافذة نوال - ورفع رأسه، وما يدري إلّا وفئاته تطلّ عليه كالأمل النضير والحلم السعيد، وحيّاه بابتسامة وإيماء، فردّت تحيّة مبتسمة، ولكنّ عشق ابتسامتها، ولبت يملأ عينيه عن سمرتها الصافية. وخطر له وقتذاك أن يحاول تفهيمها بالإشارة - وعلى قدر المستطاع - أنّه يوشك أن يحدث والدها بشأنها، ولكنّها سبقته فأنامت رأسها على راحتها كأنّها تقول له إنّها ترغب أن تنام، وأشارت على رأسها وقطبت ثمّ لوت شفيتها تعني أنّ رأسها موجه، ثمّ حنت له رأسها وتراجعت مولية. وأسف على فوات الفرصة، ولكنّ تصميمه تضاعف، وأراد أن يدخّن سيجارة فوجد علبة السجائر فارغة، فمضى إلى حجرة رشدي ليأخذ منه سيجارة، وكان الباب موارباً فدفعه بهدوء ودخل، ورأى شقيقه مرتفعاً النافذة شاخصاً إلى أعلى، مستغرقاً حتّى أنّه بلغ نصف الحجرة قبل أن يتبّه الشابّ لمجيئه، فاستطاع أن يرى من موقفه النافذة الأخرى التي يتطلّع إليها أخوه، وأن يلمح حال توسطه الحجرة

العشرة والصحبة، وذلك لأنّه كان يتطلّب في الصديق سجينين لا يجتمعان: أن يدين له - هو - بالتفوق والاستاذية، وأن يكون مثقفاً - ولو لحدّ ما - ليتمتّع بصداقته، ولكنّه غالباً ما يجد نفسه بين اثنين: واحد عامّي - أو في حكم العوام - يعجب بشخصه ويؤمن بعقليته، وآخر مثقف لا يدعن لمشيئته ويجادله جدل المعتدّ بنفسه المتحدّي غيره، ولعلّه أن يحبّ الأوّل كما يمقت الثاني، ولكن لا هذا ولا ذاك بالصديق المنشود. وقد أحبّ المعلّم نونو، وكمال خليل، وسيد عارف، ومقت أحمد راشد، ولكنّه ظلّ بغير صديق، أو كان شقيقه رشدي الصديق الوحيد في دنياه المحبوبة. .

مضت إذاً أيّام العيد دون أن تقع عليها عيناه. ولكنّه لم يكتف لحظة عن التفكير فيها، ولا انقطع عن إدامة النظر في ما جدّ في حياته من أمور. ألم تحدث عاطفة، ويستيقظ قلب، ويتسمم أمل؟! ألم تحدث عاطفتان، ويستيقظ قلبان، ويتسمم أملان؟! لقد أحبّ بعد أن حُرّم من الحبّ زهاء ثلاثين عامًا، وأحبّ بقلب آذن شبابه بوداع، فهو يستمسك بالحبّ كآخر أمل مُرجّى في سعادة الدنيا، وجاء الحبّ عفواً بعد أن أشفى على اليأس، ورجّع فؤاده النغم القديم فتياً ندياً عذباً كأنّه بعث من جديد. فوجب أن يفكر في أمره، ويقل على تدبير شأنه. ومضت أيّام العيد وهو مشغول بالتفكير والتدبير، فهذه الحياة تمسح عن جبينها ما ألف من تقطيعها، وتجود له بفرصة سعيدة ليعاود تجريب حظّه، فلن يحجم ولن يتردّد، وأراد أن يكون أعظم صراحة مع نفسه فغمغم في وحدته: «الزواج! أجل، ولكنّه في الأربعين وهي دون العشرين، فهو في سنّ أبيها، ولكن ما وجه الإنكار في ذلك؟. . ألم تعلن له بميلها إليه - وقد خفق فؤاده للذكرى - ألم يختره قلبها؟. . وأما صديقه كمال خليل فيرجّح أن يرحّب بيده، وإنّ لم يتخلّ الأمر من دهشة، وتحيل أنّ القوم راحوا يتحرّون عنه فعلموا أنّه (في الأربعين، كاتب بمحفوظات الأشغال، درجة ثامنة - فهو من المنسيين في الحكومة كما أنّه من المنسيين في الدنيا - مرتّب خمسة عشر جنيهاً) ألا ينزعج كمال خليل الذي يحسب أنّه

صحاياها؟ أم أنها تلقى ما هو خليق بها من التردّد والالم؟ أكاسنت تلعب بهما؟ أيمن أن تتكشف تلك النظرة الساذجة عن مكر سيئ وخبث وعبر؟ ولماذا إذاً بادلت التحيّة منذ دقائق؟ أهو الحياء والخرج أو أنّه المكر والحيلة؟»

أما الشاب فلا يدري من الأمر شيئاً، إنّه بريء من دمه، ولعلّ أنّه رآها فراقته فغازها كعادته فاستأهلها فهويته، بنظرة وإشارة نسيته، وهل خطره أكبر من ذلك؟! نسيته الكهل الأصلع الفاني، فلا يلومنّ إلا نفسه، ألم يكن له في ما اكتسب من معرفة بحظه وسوء ظنه بدنياه، وبالمراة خاصّة، ما يحرز به نفسه من غوائل الأمل ومضات السعادة والكواذب؟. ونهض قائماً وقد اشتدّ شحوب وجهه ولاحت في عينيه نظرة حزن عميق ويأس سحيق، وجعل يذرّع الحجرة جيئة وذهاباً ما بين الفراش والمكتبة حتّى عراه دوار فعاد إلى مجلسه من الفراش، وراح يتساءل: أيرضى أن يستبقا- هو وأخوه- في مضمار منافسة واحد؟ وثار كبرياؤه وشمخ بأنفه، محال أن يتنازل لمنافسة إنسان، فالمنافسة الحقّة لا تثور إلّا بين أكفأ! ومحال كذلك أن يطلع شقيقه على سرّه فكبرياؤه تأبى عليه أن يستجدي السعادة أو يستوهب الحبّ. وخليق بمن كان مثله أن يترفع عن هذه الصغائر- الحبّ والفتاة والظافر بهما- فهو أكبر من هذا جميعه، ولكن ما بال الألم لا يرحم كبيراً؟!، لماذا لا يعرف هذا الألم القتال قدره فيتوارى؟!، كيف تلسع الغيرة قلبه بمثل شوكة العقرب؟. وإلام يئنّ ويتوجّع!، الحقيقة أنّه مدّ يده ليجلو عروسه فتكشف له قناعها الموشى عن جمجمة ميت! ورأى بعين خياله صورتها المزدوجة، هو بشبابه الريان وهي بعينيها النجلوين، فوجد ألماً وإباء وعجرفة قاسية، تُرى لماذا يحول رشدي دائماً بينه وبين سعادته وما أحبّ إنساناً مثله قطّ؟ فهو الذي أجبره- قبل عشرين عاماً- على التضحية بمستقبله ليقف حياته على تربيتة، وها هو الآن يجني ثمرة سعادته ويدوس أمله المنشود بقدم غليظة! . واستولى عليه الغضب وتقيّحت نفسه بالسخط والحقن، وثار

رأس نوال- دون غيرها- وهو يرتدّ بسرعة البرق! وانبه رشدي إلى مجيء شقيقه- باختفاء الفتاة الذي هو بالفرار أشبه- فالتفت وراءه، ثمّ ابتسم للقدم بترحاب وبوغت أحمد مباغتة عنيفة منكرة كانت أعنف وقعاً عليه من انفجار القنابل ليلة الغارة، فزلزلت صدره- الذي جاء به مثلجاً مطمئناً- قلقلة جنونيّة صدّعت كما ينصدع السحاب بشرارة البرق القويّة الخاطفة، ولكن لم يغب عنه تحوّل الشاب إليه، فأغضى بصره- ببداهة الغريزة وسرعتها- ليخفي عينيه، وأهاب بقوّته الكامنة ليحافظ على هدوء مظهره، وتكلّف ابتسامة، ثمّ نظر إلى الشاب الذي أقبل نحوه مبتسماً ابتسامته الحلوة البريئة وقال بهدوء:

- سيجارة من فضلك!.

واستخرج رشدي عليه سجائره من جيب بيجامته وفتحها وقدمها لأخيه، فتناول الرجل سيجارة شاكرًا، وحيّاه برفع يده إلى جبينه، ثمّ قفل راجعاً..

## - ٢٤ -

وردة باب حجرته وهو لا يكاد يرى شيئاً من الذهول، ورمى بالسيجارة إلى فراشه، ثمّ اقترب من النافذة ورفع رأسه فرأى الشرفة كما تركتها مفتوحة وخالية، ثمّ أطرق مقطباً وأغلق النافذة بشدّة طقطق لها الزجاج، وعاد إلى الفراش وجلس على حافّته مغمضاً: «غاب عني أنّ هناك نافذة تطلّ مثل نافذتي على هذه الشرفة، حقّاً غاب عني ذلك!» وكأنّ دمه استحال نطقاً بمدّ قلبه باللسنة من لبيب. ألم يرها وهي ترتدّ فزعة لدى ظهوره؟، فهل غير الشعور بالإثم أفزعها؟ أو ما الذي دعاها إلى النافذة بعد أن أوهمته أنّها ذاهبة لتنام؟ فليس وراء ذلك كلّ سوى معنيّ حيث يتخايل خلقه الشبح خلف خداع الآمال الباطلة، ومن عجب أنّه لم يفضّ على حضور شقيقه إلّا عشرة أيّام، ففي أيّام معدودات تغيّر كلّ شيء- وشعر عند ذلك بصفعة- فكفر قلبه بهواه، وصارت ابتسامته الترحاب خدعة رياء، تُرى كيف تحدث هذه الانقلابات؟ أتقع في سر وهواة كأنّها لا تمرّك



بركانه في عنف ودوي، ولكن الكراهية لم تجد سبيلاً إلى نفسه، لم يكره أخاه لحظة واحدة، حتى وهو فريسة الثورة في عنفوانها. إن حبه له أصيب بنوبة وقتية أفقدته وعيه، فأغمي عليه ولكنه لم يمت، بل لا يشعر نحوها - وهي الخليقة بالانتماء - بكراهية أو مقت، وإن بدا سخطه كأنه لا نهاية له. ثم خمدت ثورته بسرعة عجيبة تدعو للدهشة حقاً، فولت أحاسيس الغضب والسخط والمعجرفة، مخلفة وراءها حزناً عميقاً لا يتزعزع ويأساً خانقاً لا يبرم وخيبة متغلغلة لا تؤذن برحيل، وحين عاودته ذكريات الأمس السعيدة، لم يتحسر عليها ولم يأسف، ولكنه شعر بهوان وخجل؟. وأنشأ يقول بصوت خافت حزين وكأنه يتحدث نفسه: «برح الخفاء ولا مفر من الحقيقة، أنت رجل ستم الحظ، بل هذا قول دون الواقع بكثير، فالحق أن الدهر نصيبك هدفاً لسهام الخيبة والإخفاق، وוכל بك قوة شيطانية فظيعة تلقف من سبيك كل فرصة سانحة أو مصادفة سعيدة إذا أنت تحسب أنه لم يعد بينك وبين الرجاء إلا كلمة تقال أو راحة تيسط، وما تكاد أن تمدّ حرك لتلقّي ثمرة دائية حتى ينقضّ عليها طائر الشؤم الكاسر، فيلتقطها بمقارّه ويطير بها، وتوشك أن تصعد قمة هرم من المحاولات فيندكّ عاليه سافله ويلقي بك إلى غور سحيق. أفاذك تلتصع بىروق الآمال الكاذبة وموضعك من الأرض مظلم عابس، هل يوجد في الدنيا إنسان مبتلى بمثل عناد حظك العاثر!! الناس يمتنون الخطى باسمي الثغور ما بين تمتع بصحته، وهانئ بأسرته، وراض بمكانته، وسعيد بماله، فأين أنت من هؤلاء جميعاً؟!

دنيا، لم تعقم فحسب، ولكن تورث الألم والضنى؟!.. لماذا وجدت في هذه الدنيا؟ أما من نهاية لهذا الألم الممضّ وذاك الملل المسقم؟.. ثم ماذا أجدى عليك هذا العقل؟ وماذا أفدت من المعرفة؟ خلّفتك بهذه الآلام جميعاً إلا ما أغلقت الكتاب إلى الأبد وحرقت هذه المكتبة العاتية، ولخير لك أن تدمن على مخدر يذهل العقل عن الوجود حتى يتداركك الدهول الأكبر. الحياة مأساة والدنيا مسرح ممل، ومن عجب أن الرواية مفعجة ولكن الممثلين مهزجون، من عجب أن المغزى محزن، لا لأنه محزن في ذاته ولكن لأنه أريد به الجذّ فأحدث الهزل، ولما كنا لا نستطيع في الغالب أن نضحك من إخفاق ألمانا فإننا نكي عليها فتخدعنا الدموع عن الحقيقة، ونتوهم أن الرواية مأساة والحقيقة أنها مهزلة كبرى! «وصمت قليلاً متفكراً، متجهّم الوجه، متقبض الصدر، ثم نهض قائماً في وثبة عنيفة وقال بشيء من الحدة: «إلى الكهف المظلم، كهف الوحدة والوحشة، إلى القبر البارد، قبر اليأس والقنوط، لقد ركلتني الدنيا وهي الدنيّة ولأزكّلتها وأنا المتعالي، إن الخصي أزهّد حيوان في المرأة فإذا استأصلت من نفسي كوادب الآمال سُدّت باليأس الدنيا جميعاً، فإلى كهف الوحشة نتزوّد من ظلمته غشاوة تحجب عن أعيننا خدع الحياة!!».

والفتت بعنف نحو النافذة - نافذة نوال - التي أغلقها منذ حين وقال بغضب:

- غلقاً إلى الأبد.. غلقاً إلى الأبد!

- ٢٥ -

ورأى أن يذهب - كعادته صباح الجمعة - إلى الزهرة، ووجد حزنه حافراً يدعو للذهاب إلى هناك ابتغاء الوسيلة إلى التسلّي عن حظّه. وأخذ يرتدي بذلته الجديدة وقد ذكر كيف فصلها ولماذا تكلف ثمنها فنفض من الغيظ والحنق. وغادر الشقة. ولدى نزوله السّلم تذكّر الصباح الأوّل له في العارة وكيف التفت وراءه فرأى عيني نوال لأوّل مرّة، فكيف يمكن اتّقاء الشقاء المقدّر ما دام يبدو في حلل آمال مشرقة وألوان ناضرة؟ على أنّه لم يرغب عنه أنّ ما يعانيه من أحاسيس

لا صحّة ولا أسرة ولا مكانة ولا مال!، في البدء قضم ظهره عثار أبيك، وبدّد آمالك حذبك على شقيقك ثم أعقم مواهبك العقلية ببيتك الجاهلة؟، ماذا يتبقى لك من أحلام دنياك؟، ذهب الشباب فلم ينبج حتى ذكرى جميلة تنفياً ظلّها في هجيرة العمر، وما هي الكهولة تطعن بك في ما وراء مشارف الشيخوخة، فكيف تحتمل هذه الحياة العقيمة؟ إن الرجل ليطلق الزوجة الوفيّة إذا عمقت، ففيم احتمالك

نونو ثلاثاً، أما سيّد عارف فتساءل:

- وأمّ كلثوم وعبد الوهاب؟

فقال أحمد عاكف وقد اختلس من خصمه نظرة أخرى:

- عظيماني في ما يردّدان من وحي القديم تافهان في ما عداه!

فقال سيّد عارف:

- أمّ كلثوم عظيمة ولو نادى ريان فجل!

فقال أحمد عاكف:

- أما صوتها فلا خلاف عليه ولكن حديثنا عن الغناء من الناحية الفنيّة!

فقال كمال خليل:

- الأستاذ أحمد راشد يعجب بالغناء الحديث بل وأشاد بالموسيقى الإفرنجيّة!

والظاهر أنّ الشاب المحامي كان راغباً عن الجدل فقال بغير اكتراث:

- رأيي في الغناء رأي غير خبير، والحقّ آتي قليل الاهتمام بالغناء!

وأبى المعلّم نونو إلّا أن يناقش رأيه، فقال بصوته العريض الأجنّ:

- يا إخواننا، أمة محمّد ما تزال بخير. هل سمعتم ولو مرّة إنجليزيّاً - وهم بين ظهرانينا أكثر من نصف قرن - يغنيّ يا ليل يا عين؟! والحقيقة أنّ من يفضّل أغنية إفرنجيّة كمّن يشتهي لحم الخنزير مثلاً!

وكان المعلّم زفته قليل الكلام لانشغاله في الغالب بعمله، ولكنّ الموضوع استقرّ اهتمامه فقال بصوت دلّت مخارجه على أنّ صاحبه قد فقد ثنيتيه على الأقلّ:

- اسمعوا القول الفصل: أجل ما تسمع الأذن سي عبده إذا غنّى يا ليل وعليّ محمود إذا أدّن الفجر، وأمّ كلثوم في إمتى الهوى. وما عدا هؤلاء فحشيش مغشوش بتراب!

وأشفق أحمد عاكف من أن يتغيّر موضوع الحديث من غير أن يتفلسف فقال:

- إنّ الإعجاب بالحديث من الغناء أو بالموسيقى الإفرنجيّة وحي من تقليد المحكومين للحاكمين كما

الأم والاضطهاد والظلم لا يخلو من لذة، لذة دقيّنة غامضة لا تكاد تفصح عن ذاتها. وسار في الطريق بقدمين متشاكلتين متفكّراً في ما يجلبه إعراض بنت قاصر على كهل عاقل حكيم من الحزن واليأس فهاله الأمر وكبر عليه، وجعل يقول لنفسه كالساخر: «واخزيه، كيف أمكن هذا؟!». بنت مقمّطة تفعل بي كلّ هذا؟! كيف سمّيت بي إلى نضرة النعيم ثمّ ردتني إلى أسفل الجحيم! وما جدوى الحكمة إذا عبث بها جرائيم الشهوة هذا العبث المُرّزي؟! ألم يكن من الأفضل - غفرانك اللّهم - أن تخلق خيراً من هذا؟. وإذا كانت الدنيا جيّماً عسي ظلاماً ويباباً لمحض أنّ جرثومة - تنقضّ الوضوء - استاءت أو أخفق لها أمل، أفليس من الحكمة أن نبول على الدنيا وما فيها؟!». ثمّ انقطع عن حديث نفسه لدى وصوله إلى القهوة، ووجد الصحاب جيّماً قد سبقوه إلى هناك - إلّا سليمان بك عتّة الذي لم يعد بعد من بلدته - ووجد معهم المعلّم نونو وكان من عادته أن يغلق دكانه يوم الجمعة من الساعة العاشرة إلى ما بعد صلاة الجمعة. أمّا عباس شقة فأخذ مجلسه المهود جنب المعلّم زفته غير بعيدين عن حلقة الصحاب وكان الراديو يذيع بعض الأسطوانات بينما أخذ الرجال في الحديث. وأراد كمال خليل أن يُشرك القادم في الحديث فقال له متسائلاً:

- وما رأي الأستاذ أحمد عاكف في الغناء، أيفضّل القديم أم الحديث؟!

ويل الشجّي من الخلي! ولكنّ ألم يجئهم ملتمساً العزاء في لغوهم؟! بلى. وإذا فليدلّ بدلوه وليكوننّ من الشاكرين، وكان مغرماً بالغناء - وهل تلدّ أمّه إلّا مغرماً بالغناء؟ - إلّا أنّه يفضّل القديم وما يتبع طريقته من الحديث بحكم العادة ويوحى النشأة الأولى. فقد سمع أغنيات القيان وأسطوانات منيرة وعبد الحّيّ والميتلاوي فاختلست نظرة من خصمه أحمد راشد المخبّاة معارفه وراء نظارته السوداء، ثمّ قال:

- الغناء القديم هو الطرب الذي يأسر نفوسنا بغير عناء!

فصاح المعلّم زفته بسرور «الله أكبر» وصقّ المعلّم

فقال عباس شفة:

- الشباب ينتقل بالعدوى، فالشيخ خليف بأن يكتسب من عروسه روحًا من نضارة الشباب، فلا يبعد والحال كذلك أن يتحول البيك في القريب العاجل من قرد إلى حمار مثلاً!

فتساءل المعلم زفته:

- هل نفهم من هذا أن أصله قرد؟!

ولم يوافق المعلم نونو على التهكم بالشيوخوخة بطبيعة الحال فقال:

- العبرة في السنّ بالصحة لا بالسنين، فأبي تزوج في الستين وخلف وهاكم سيد عارف أفندي على سبيل المثال (وضحك ضحكته المجلجلة) فإذا صنع له شبابه؟ وضحك الجميع - وعاكف معهم - ثم جعل سيد عارف يقول:

- لا تضحك يا معلم نونو فعلاً قريب يتغير الحال، وقد علمت بأقراص جيدة تجرب، وسترى!

ولم يستطع أحمد عاكف أن يوليهم انتباهه أكثر من ذلك، فكان كالسابع الذي تخور قواه وتوهى مقاومته فيغوص تحت سطح الماء. فلم يدر كيف انتقل بهم الحديث إلى أخبار الحرب، ولا كيف راح سيد عارف يعدد انتصارات الألمان في روسيا، ويذكر بالفخار سقوط فيازما وبريانسك وأوريل وأوديسا وخركوف، وافتحام شبه جزيرة القرم. ثم نهض المعلم نونو للذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة، فاستأذن الكهل وانصرف معه راجعاً إلى البيت. ووقف في الصلاة هنيهة متسائلاً ترى أما يزال رشدي ملازماً حجرتي؟. وسار في الدهليز متمهلاً حتى دنا من باب الحجر فشَم رائحة التدخين النافذة من خصاصة الباب، ثم قفل راجعاً إلى حجرتي. لأول مرة يمضي رشدي يوم عطلة في البيت! بل الأوفى أن يقول يوم عطلته، والمرجح أنه لم يفارق حجرتي وأنها لم تزايل النافذة، والله يعلم كم تحيات تبودلت، وكم من بسات ومضت، وكم من آمال أشرقت. وخلع ملابسه وارتنى الجلبلاب والطاقيّة، وجلس على الشلّة القريبة من المكتبة. كان مترعاً بالكآبة، ولكن خلا قلبه من الغيرة - أو الغيرة السافرة على الأقل - وقال لنفسه إن

يقول ابن خلدون!

ولم يخرج أحمد راشد عن صمته، ولم يستثره هجوم أحمد عاكف، فوقف الحديث عن الغناء عند ذاك الحد. ثم تحوّل مجراه إلى سليمان بك عتّة بغير رابطة تداع بعد أن لاحظ كمال خليل أن الرجل تأخر بالبلد أكثر من المعتاد، فقال سيد عارف متضحكاً:

- أراحنا الله أسبوعين من وقاحة خلقه.

فقال عباس شفة بإنكار:

- عمّا قريب يصير عروساً يا هو!

فاستدرك سيد عارف قائلاً بأسف:

- أما العروس كريمة يوسف هلة فوالله ما رأيت عيني أجمل منها قط!

- فتساءل أحمد عاكف:

- أما يدرك صاحبكم أنه لولا الطمع في ماله ما رضي به أحد زوجاً؟!

فقال عباس شفة:

- بغير شك. فلا شباب ولا جمال ولا أخلاق! وامتعض أحمد من هذا الوصف، وشعر بأنه ينطبق عليه من أكثر من وجه، لا شباب ولا جمال ولا أخلاق. وأضاف عليها من عنده «ولا مال!». ثم أطرق هنيهة غارقاً في الكتابة التي كان انتشله منها لغو الحديث. وخاف أن يستأثر به الحزن فخاض الحديث مرة أخرى متسائلاً:

- وما الذي يحمله على الاستسلام لطمع الطامعين؟ وهنا التفت أحمد راشد نحوه وقال بلهجة ساخرة قل أن يصطنعها في حديثه:

- وما الداعي إلى العجب في ذلك؟ أليس المال كالشباب والجمال من المزاي التي تحبب الرجل إلى المرأة؟ لعلّ المال أن يكون أبقي على الدهر من الآخرين! وسرعان ما أفلح الشاب عن السخرية وقال بلهجته الجدّية:

- إن شبيخاً في سنّ عتّة بك لا يطمع في الحبّ الذي يستأثر به الشباب، لئلاّ إذا ضمّ إليه عروساً نفيسة أَرْضَى بها غريزة الحبّ المضمحلة، وغريزة الملكية المسيطرة.

وما يدري إلا ونفسه تسكب حناناً للحياة الزوجية غافلة عن هواجسها السالفة! فبدا له أن العدد اثنين هو العدد المقدس. ليس العدد الواحد بالمقدس كما يقول الفيثاغوريون ولكنه الاثنين: الإنسان يفقد نفسه في الجماعة، ويفرق في الكآبة في الوحدة، ولكنه يجدها عند أليفه، فالتكاشف الصريح، والحب العميق، والألفة الممتزجة، وفرحة القلب بالقلب، والطمانية اللانهائية لذات عميقة لا تحدث إلا بين اثنين. وكم مل من الكآبة، وضجر من الوحشة، وكره الفراغ، وهذه نفسه تنازعه مشوقة متلهفة إلى الحب والحنان والألفة والمودة. أين نثر يسم إليه مشرقاً بالعطف؟ أين قلب يرجع خفقان قلبه خفقة خفقة؟ أين صدر يرضع منه قطرات الطمانية ويعهد إليه بطويته؟ وبلغ منه القهر منتهاه فتراجع إلى الفراش محسوراً وهو يحرك رأسه بعنف، كأنما ليصد عنه أحاسيس الحزن والخور، وليسترد حقه وصرامته وغضبه وإيمانه الوحشي بالوحدة والعجرفة والتعالي عن العواطف البشرية. وقد تبرد الغيرة، وتخمّد العاطفة، أما ما يمَسّ كبرياءه فيحدث حتماً قرحة لا تندمل، وكيف تندمل وكلما التأمت قشرها غروره الأعمى؟! ولذلك جعل يقول قارصاً أسنانه: «ينبغي أن تدرك - الفتاة - أنني تنازلت عنها بغير مبالاة ألبتة!».

- ٢٦ -

واستيقظ غداة السبت متعباً بعد ليلة مسهدة، فهو يؤدي ثمن البقطة التي فرح بها قلبه، وإن كانت بقطة قصيرة، وأياً ما كان فما دام النسيان يكمن وراء الأحزان فالعزاء مُرَجَّى، أين اليهودية الحسنة وحبها المثالي؟! فالزمان يسحب ذيول النسيان على الماضي ويلع الذكريات، ولكن لا ريب أنه عما تطيب به نفسه ألا يعاب شيئاً، أو أن يتظاهر بذلك على الأقل، وأن يربحاً أنه لم يكد يشعر بأن فناء هجرته. ومضى إلى الحتام فوجد باب حجرة شقيقه موارباً، ولحه يستكمل ارتداء ملابسه. وقد عجب لذلك لأن الشاب يستيقظ عادة متأخراً عنه. بل رآه رافقاً رأسه إلى النافذة الأخرى، فتقبض قلبه كأنما أصابته شكة إبرة، وأسلم

ما يحدث في الناحية الأخرى من الشقة هو أطفال غير حقيق باهتمامه، أهذا شعور وقي؟ لا يدري، ولكن خيل إليه أنه شفي. وتساءل كيف حدث هذا بمثل هذه السرعة؟ أكانت عاطفته سطحية توهم أنها الحب؟ واستراح إلى شعوره، ومدّ يده إلى المكتبة واستخرج كتاب مقاصد الفلاسفة للإمام الغزالي، فهذا أحق بتفكيره، وهو من الكنوز التي لا يدري أحد راشد عنها شيئاً، وفتح الكتاب عن فصل الإلهيات، وحاول مطالعة مقدمة تقسيم العلوم، ولكنه أدرك بعد برهة قصيرة أنه يبدل من الجهد في تركيز انتباهه ما لا يدع له بعد ذلك لذة متابعة القراءة، فأغلق الكتاب وأعادته إلى مكانه وقال إنه لا بأس من أن يعفي عقله اليوم مكافأة له على الجهد - أيًا ما كان هذا الجهد - الذي بذله في سبيل النسيان. كانت عاطفة نافهة، بل كيف كان يمكن أن تسعد تلك الفتاة وهو على ما هو عليه من عقل ومعرفة، وهي على ما هي عليه من بساطة وسذاجة؟! حقاً أنقذه شقيقه من ورطة كادت تودي به. ومنذ الآن ينبغي أن يفتح عينيه، وأن يقلع بصفة نهائية عن التفكير في الزواج، وهيهات أن يجد امرأة كفاء له!! يتبد أن الخيانة ذميمة شوهاء، ألم تغازل؟ ألم ترَضَ به حبيباً؟ فكيف تغترت بمثل هذه السرعة التي لا تصدق؟ ولكن هل خلق الله أقبح منظراً من فتاة ذات وجهين؟! شفي والله ونسي، ولكن ما أنقذه الدنيا إذا كانت القلوب تنقلب في غمضة عين!! وقطع عليه أفكاره المحمومة صوت دوى يصيح: «ملعون أبو الدنيا»، فأدرك أن المعلم قد عاد من صلاة الجمعة إلى دكانه، ونهض مسروراً بالتخلص من أفكاره إلى النافذة المطلّة على الحي الجديد ففتحها، ووقف وراءها يرسّح الطرف في مناظر الحي التي ألفها وملأها، ليتهم ما غادروا السكاكيني، بل وجد نفسه يتمنى في أعماقه لو أن أخاه لم ينقل من أسبوطا فلولا يحضر لما عكّر صفوه معكّر. وما لبث أن تألم لتمنيّه هذا غاية الألم، إنه يحبه ما في ذلك من شك، ولا يمكن أن يفتر حبه لأخيه وابنه وربيبه. ولكن الغريب المنكر أنه يحبه ويكره وجوده معاً؟. لو لم ينقل إلى القاهرة لكان - أحمد - الآن في عداد الخاطئين.

بالحكمة: «دع بواعث هذا الحزن العميق لا تستحضرها إلى وعيك، اقدف بها إلى هاوية النسيان، وإذا كانت القراءة لم ترشدك إلى الحكمة بعد فخذها من شخص سعيد كالعلم نونو!». وتمثل نونو لعينيه بصحته ومرحه فتأوه من الأعياق: لماذا يحمل نفسه ما لا طاقة لها به من الكتابة كأنه الثور الذي يقولون إنه يحمل الكرة على قرنه؟! كيف جهل فن السعادة هذا الجهل المزري؟ ولماذا لا يقصد الضاحكين ويستترشد بهم إلى طريق الضحك والسرور؟ ينبغي أن يفوز فؤاده الكسير بحظه من السعادة لأنه من العيب أن تمضي الحياة هكذا في كآبة وحزن. وردد هذه الخواطر حتى بلغ ميدان الملكة فريدة واستقل الترام مكتظاً فاضطر أن يقف بين الواقفين مضغوطاً وكان يمقت الزحمة بطبعه فثارت نفسه بعد هدوء قليل، وخطر له خاطر غريب مخيف، فتمنى لو كان من الممكن أن تخلو الدنيا من بني آدم! ولم يدر إن كانت وقته هي التي أوحى إليه بذلك الخاطر المخيف أم أن هناك بواعث أخرى. فقد عمى من قبل أو تخيل أنه يتمنى لو تقفر القاهرة إثر غارة! فخلج من خواطره الجهنمية التي تحمل أحياناً بالتدمير المخيف لغاية تافهة كأن يستأثر بفتاة دون شريك ولا منافس! . على أنه عاد يقول لنفسه متأقفاً: أليس الغدر ذمياً كالدمار؟!

- ٢٧ -

خرج رشدي عاكف مبكراً على غير عادته، ودون أن يتناول فطوره، يدفعه ما هو خليف بتغيير العادات وتأخير الفطور. ولما انتهى إلى السكة الحديدية رأى الفتاة على بعد قريب صاعدة طريق الدراسة إلى الطريق الصحراوي المؤدى إلى العباسية، فتباطأ قليلاً حتى اتسعت المسافة بينها ثم تبعها عن بعد، وكانت على علم سابق باتباعه لها. كما أنذرهما به بالإشارة في النافذة. وكانت أيضاً على رضى بذلك أخفى أكثره الدلال والحياء، وفضح أقله. وكان به الكفافية. الابتسام أو مغالبة الابتسام. وكان الزمن المتاح لرشدي قصيراً حقاً، ولكن زمنه من ذهب وماس،

رأسه للماء البارد طويلاً لينعش أعصابه المحطمة، ثم عاد إلى حجرته وارتدى بذلته، وخرج إلى السفارة ليحسو قهوته ويدخن سيجارته ويتناول لقمته البسيطة، وكان وطن النفس على لقاء الشاب بما يعهده من الأنس به مستعينا بما طبع عليه من مداراة ما يعتلج بنفسه. وأقبل رشدي مرتدياً البذلة والطربوش وابتسم إليه ابتسامته المحبوبة فقال:

- صباح الخير.

- صباح النور.

وعجب أحمد من لبسه الطربوش إذ كان يفطر عادة عاري الرأس فسأله:

- لماذا عجلت بلبس الطربوش؟

فقال رشدي والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- سأتناول فطوري في الخارج لأن لدي أعمالاً مستعجلة.

- وما الذي دعا إلى هذه العجلة؟

- إنجاز بعض الأعمال المتعلقة بوظيفتي!

وحياه الشاب. كما حيا والدته التي كانت تعد الطعام. ومضى بقوامه الرشيق وابتسامته المشرقة. ولم يصدق أحمد أسطورة «بعض الأعمال» فارتاب فيها لأول وهلة، وبدا له كاليقين أن رشدي بكّر في الاستيقاظ على غير عادته بالخروج من البيت ليلتقي بنوال في مكان ما من طريق المدرسة. هذا ما حدثه قلبه المحزون، فهل اتفقا على ذلك حقاً؟. وذكر متمعضاً كيف لبث مرتبكاً جامداً. مدة علاقته بها. لا يدري ماذا يفعل؟ أما هذا الشاب الجسور فليس في مذهبه بين التحية واللقاء سوى غمضة عين. وأعجب بجسارته حقاً كما أعجب به بخاطر أمام عينيه بشبابه الريان وقده المشوق منذ دقيقتين، إلا أنه إعجاب انطوى على احتقار النفس والتمرد فلم يتخل من حق وغضب. فكان كمن يسبح بخلود الخالق وهو يرثي فناء المخلوق. وبعد قليل لبس طربوشه وغادر الشقة، ومال إلى قطع شارع الأزهر مشياً على الأقدام تخفيفاً عن أعصابه المتوترة، فالزم الطوار الأيسر وحث خطاه، وقال لنفسه بصوت كالهمس ليوجي إليها

الصافيتين فابتسمتا وهي لا تدري، ثم حاذاهما حتى أوشك أن يلامسها، وقال برقة:

- صباح الخير.

فقال رأسها إليه قليلاً ولحظته بطرف متردد وقالت بصوت خافت:

- صباح الخير.

وكانت متأبطة حقيبتها كعادتها فقال مبتسماً:

- أتأذنين لي أن أحمل عنك هذه الحقيبة؟

فابتسمت بدورها وقالت:

- كلاً، لا داعي لذلك، فهي خفيفة على كبرها، ولا ضرر من حملها البتة.

- لا بد أن تثقل على يدين رقيقتين كيديك!

- بل يداي ثقيلان عليها، لا تعودني على الترف من فضلك!

فضحك بسرور صادق وقال:

- أليس مما يجبل حقاً أن أسير طليق اليدين وأنت تحملين هذه الحقيبة الكبيرة؟

وأخذ الارتباك يزايها ويحل محله الأناش به، فسألته معترضة:

- ولماذا نخجل؟ إنني أحملها كل يوم بكرة وعشياً!

- الظاهر أنك تخافين أن أخطفها!

- لبتك تقدر على هذا حقاً، فإنها تحوي واجبات ثقيلة أخفها الحساب!

فضحك مرة أخرى وقال:

- لعن الله علماً يثقل عليك!

فابتسمت متشجعة وقالت:

- أنلعن العلم إكراماً لي حقاً. أم لعداوة قديمة؟

- بل إكراماً لك وإن لم يخلُ الحال من عداوات قديمة، تُرى ما أحب العلوم إليك؟

- التاريخ واللغات!

وكان على عكسها يحب العلوم والرياضة، ولكنّه أبدى سروراً طافحاً وصاح بعزم:

- اتفقنا والحمد لله!

فعجبت لسروره وسألته:

فلم يكف منذ مقابلة السطح - بل منذ رآها أول مرة - عن رصدها وموالاتها بالمطاردة والغزل حاشداً لتصيدها هباته جميعاً من أفانين الشباب والحسن والدعابة والصبر، حتى ظنّته قطعة من النافذة. ولم يشك الفتى في ظفره من بادئ الأمر، ولا شكّت هي فيه!، أو فما معنى عجبتها إلى النافذة كأنّهما على موعد، واستسلامها لنظراته، وتصديها لبسماته وإشاراته! فإن كان هناك ظل من الشك فقد مسحته ابتسامتها الأخيرة وقضي الأمر!، على أنّها لم تستسلم بغير تردد، بل كانت خائفة مما تنزع بها النفس إليه، وكانت تلوح لها صورة الآخر - أحمد - فيتولاها الخجل ويساورها القلق. إلا أنّها رأت عيوبه واضحة على ضوء الوجه الجديد المشرق، فتساءلت لماذا يلوح الخوف في عينيه دائماً؟ لماذا يبدو كالفأر ما إن يسمع حساً حتى يفرّ إلى جحره؟! إلّا ما يظل جامداً لا يتحرك ولا يفعل شيئاً! وإنّما لعلّ مثل حياته فتحناج بطبيعة الحال إلى جسور يقتحم حيائها، فلم تجد فيه طلبتها أو أنّها أدركت ذلك حين وجدت طلبتها الحقيقية. هذا إلى بؤن شاسع بين شباب نضير وكهولة ذابلة، وجمال صبيح وخلفة قلقة غامضة، ومرح باسم وكآبة موحشة، والحق أنّها مالت إلى أحد لأنه كان الرجل الموجود، أما رشدي فحرّك قلبها المشوب وأهاج عاطفتها. هكذا جازت صبره بابتسامة، وهكذا كتبت بهذه الابتسامة أول كلمة في القصة الجديدة.

صعدا طريق الدراسة، وانعطفا إلى الطريق الصحراوي - هي سابقة وهو لاحق - كان الصباح ندياً رطيباً مائلاً إلى البرودة يعابته نسيم رقيق يهب بأنفاس نوفمبر التي تنعي الأزاهر إلى المحبين، أما الساء فيسبّتها محمّل سحاباً ناصعاً، يتصل حيناً، ثم يتفرّق في المشرق فيحدث بحيرات ثلجية تنضج شطآنها بالشعاع الصاعد من الأفق فتتوهج أهدابها وتخطف الأبصار. منظر تطمئن النفوس إليه إلا نفسين تغاننا معاً! وقد أوسع خطاه بعد المنحنى فأدركها، وشعرت الفتاة بوقع خطاه تقترب منها فلم تعطف رأسها إليه، ولكن أثر اقترابه بلغ خطيها فتوردت، وعينها الكبيرتين

صلة روحية عسية أن تصير الحب نفسه! أليس يقولون  
إنّ الأرواح تتخاطب بغير إحساس البتة؟ فنظرة  
واحدة تبلغ بالروح فوق ما تريد.. أمّا الحب الذي  
تلده الأيام وتنبهه المعاشرة فمرجعه على الغالب العادة  
أو المنفعة، أو غيرهما من القيم التي لا تُدرك إلّا بالروية  
والإمهال، فإذا ترّين؟

فتردّدت هنيهة ثمّ سألته كالمحتيرة:  
- أتقول إنّه لا يوجد... (ولم تنطق بكلمة  
الحب) إلّا من أوّل نظرة!  
فادرك أنّه ثرثر أكثر ممّا ينبغي، وخاف مغبة تفسير  
كلامه فقال باهتمام:  
- كلّ ليس هذا ما أعنيه، وإنّما أعني أنّ النظرة  
الأولى خليقة بالدلالة على الغاية التي عسى أن تهدف  
إليها العاطفة.

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت:  
- فلسفتك عسيرة، فلا هي من التاريخ ولا هي من  
اللغات!

واستغرق الشابّ ضاحكًا بسرور أخذ بمجامع  
قلبه، وودّ في تلك اللحظة لو يستطيع تقبيل الفم  
الصغير الذي تسيل جوانبه بهذه الخلاوة المشتهاة،  
وقال:

- بل هي أسهل من التاريخ أو اللغات لأنّها فلسفة  
الفطرة الصادقة وأصدق دليل على ما أقول أنّنا التقينا  
بوحّها ولن نفرق إلى الأبد إن شاء الله.

وكانا قد بلغا عند ذلك منتصف الطريق، فلاحا  
على يسارهما طلائع مدينة القبور خاشعة تحت كآبتها  
الأبدية، ينبعث من قوائمها هدوء شامل عميق،  
وصمت غثيم ثقيل، فرمقتها بعينها النجلاوين، ثمّ  
قالت لتداري الحجل الذي سحره حديثه المطرب:  
- قضي عليّ أن أستصبح كلّ يوم بروية هذه  
القبور، فيا له من منظر لا يسر!

وتساءل الشابّ عمّا اضطرّها إلى قطع هذا الطريق  
الطويل مشيًا على الأقدام في الذهاب إلى العباسية وفي  
الإياب منها، ولماذا لا تستقلّ الترام عن طريق الخليج،  
ثمّ ابتدأ الحقيقة فادرك أنّها ترضى بهذا التعب - أو

- وما عبء السرور لذلك؟  
فقال بلباقته المعهودة.

- كيف غاب عنك هذا يا عزيزي؟ ألم يكن ذلك  
الاتفاق في الميول العقلية أصلًا وبشيرًا باتّفاقنا  
«الروحي» الذي نلتقي عنده الآن؟

فتورّد وجهها وطرقت عيناها - وهي عاداتها إذا  
تولّاهما الحياة - ولم تنبس بكلمة، فسألها بإغراء:

- ألا توافقيني على رأيي؟  
فلازمت الصمت، أو لازمها الصمت على  
الأرجح، وعاد يقول برفق:

- هل أجد في صمتك جوابي المُرجى؟  
ولحظها، فخالها بتسم، فخامرته الحساس وقال  
بصوت خافت:

- عرفت ذلك من أوّل نظرة!  
فلم تتمالك أن قالت وفي عينيها ابتسامة صريحة:  
- أوّل نظرة!  
- أجل.

- شيء لا يصدّق!  
- ألا تؤمنين بالنظرة الأولى؟  
- ألا تغالي؟.. أحقّ ما يقال عن النظرة الأولى؟  
فقال بحساس تألّقت له عيناه العسلتان الجميلتان:  
- هو الحقّ الذي لا مراء فيه!  
فقالت وقد غيّرت لهجتها:  
- نحن لم نتعارف بعد!!

فادرك أنّها تحاول الإفلات من الطوق الذهبي الذي  
طوّق جيدها به، ولكنّه لم يمكّنها من مأربها وقال:

- لا تغبي عن الحديث، سنتعارف حتّى بعد حين،  
أو سنتمّ تعارفنا فلم يبقّ منه إلّا اسمي. ولكنّي أريد  
أن أقول إنّه إذا لم يكن حبّ (وتعمّد أن يذكر هذا  
اللفظ كأنّما جاء عفواً) من أوّل نظرة فلا حبّ على  
الإطلاق!

وتعوّذت بالصمت مرّة أخرى وهو يلحظها مبتسمًا،  
ثمّ استدرك:

- لا أعني أنّ الحبّ يحدث حتّى من أوّل نظرة،  
ولكنّ النظرة الأولى تكفي لاكتشاف من تربطهم بنا

لشيء من هذا ولكنها قالت مستوصية بشيء من الشجاعة:

- ولكننا لم نتعارف بعد!  
- السنا جيراناً!  
- بلى، ولكني لا أعرف اسمك.  
- سامحك الله. اسمي رشدي. رشدي عاكف!  
- كيف يسيك هذا وأنت تجهل اسمي أيضاً؟  
- معاذ الله!  
- أعرفته من أول نظرة أيضاً؟  
فضحك رشدي بسرور، وحتى رأسه أن نغم، فسأله:

- فما اسمي؟  
- إحسان!  
فضحكت بصوت مسموع وقالت بإنكار:  
- أهكذا تختلق الأسماء!  
- بل هو اسمك!  
- أخطأت يا سيدي ولعلك رُمت غيري فارجع بسلام!  
- ولكني سمعت والدتي تتحدث عن والدتك مرة فتدعوها «ست أم إحسان».  
- فحسبت أن إحسان هي أنا!!  
- نعم...  
فضحكت مرة أخرى حتى تورد وجهها الأسمر وقالت:

- هذا اسم أختي الكبرى، وقد تزوجت منذ عامين!

فابتسم رشدي كالخجل وقال:  
- لا تؤاخذيني، فما اسمك إذًا؟  
- نوال...  
- عاشت الأسماء!  
فترددت لحظة ثم رمقته بنظرة مكرة وتساءلت:  
- أنت تلميذ؟  
- نعم بمدرسة العباسية للبنات.  
- موظف إذًا؟  
- بينك مصر!

رضي لها به أبوها - توفيراً لنفقاتها، فكمال خليل أفندي يُعتبر من صغار الموظفين، وتمن يكافحون بعزيمة صادقة - في ظروف دقيقة - للنهوض بأسرهم، وذكر أن أسرته اجتازت يوماً مثل هذه الشدة وعلى رأسها شقيقه المحبوب يذود عنها البأساء بصبر وجلد، فتندى قلبه عطفاً ومحبة وتقديراً، ثم قال لها مبتسماً:  
- لن تريها بعد اليوم!

فرمته بنظرة إنكار وتساءلت:  
- كيف؟ هل أسير معصوية العينين؟  
- بل سيشغلنا الحديث عن النظر إليها!  
فضحكت ضحكة رقيقة وقد أدركت ما يعنيه، وقالت:

- ولكنك سافر شاق لن تحتمله طويلاً، خصوصاً والشتاء قريب!  
- سنرى!

وأوغلا في السير فلم يعودا يريان إلا صحراء على اليمين وقبوراً على الشمال. ومراً بطريق يشق القبور ويمتد غرباً، فأشار رشدي إلى مقبرة خشبية ذات فناء صغير، تقع على جانب الطريق الأيمن ثالثة المقابر وقال:

- مقبرتنا!  
فنظرت الفتاة إلى حيث يشير فرأت المقبرة الصغيرة وقالت باسمه:

- فلنقرأ إذن الفاتحة!  
فقرأ الفاتحة معاً، ثم قال رشدي:  
- هنا يرقد الأجداد، وآخرهم جدّاي لوالدي، وأخي الصغير.

- ومتى توفي أخوك هذا؟  
- من زمن بعيد ونحن بعد أطفال!

وطرحا القبور وحديثها وراء ظهرهما، واستعدا الصفاء والسرور، دون التفات إلى وجه التناقض الساخر ما بين حديث الحب وحديث القبر، ولا كدراً صفوهما بأن يتساءلا مثلاً عما يتبقى لهما من عمر يقضيه في الدنيا، أو عما ينتظر حياتهما من أحداث قبل أن يرقدا في تلك المقبرة أو في أخت لها، لم يلتفتا



فابتسمت قائلة :

- أما أنا فموظفة بوزارة المعارف!

وضحكا معاً. ثم رأيا أنها يشارفان العباسية، فأدرك رشدي أن أول لقاء لحبه الجديد يؤذن بالانتهاء، أما هي فقالت :

- حبك هذا فينبغي أن نفرقها هنا.

فتوقفا عن السير، وأخذ راحتها في يده، وضغط عليها بحنو وهو يقول :

- مع السلامة وإلى اللقاء غداً صباحاً.

فحيته بإحشاء من رأسها وغمغمت :

- إلى اللقاء...

وحثت الخطى، ولبت هو بمكانه يتبعها مقلتيه في سرور ونشوة محدثاً نفسه : وكانت في البدء متعثرة بحيائها، ثم أنست بي فصارت ألطف من نسمة عيقة، طاهرة خفيفة والله، وقاما الله شر الشياطين جميعاً بما فيهم شيطاني أنا.

وكان شأنه المعهود أن يغازل ثم يتعارف ثم يحب، وقد عاد ذاك الصباح وهو ينصت في صمت الطريق إلى أول خفقة لقلبه ترجع مطلع لحن الهوى. أما نوال فانحدرت في طريق المدرسة وهي تقول لنفسها : «ما الطفء، ما أجمله، ما أعذب حديثه، فآه لو تصدق الأحلام!».

- ٢٨ -

ولاحظ أحمد عاكف ما طرأ على شقيقه الأصغر من تغير بعين متيقظة. رآه بعد ظهر ذاك اليوم - يوم السبت - نشوان بالسرور، فكأنما بات من سروره في سكرة ذاهلة، ورآه يغير عادته من النوم ما بين الظهر والمغرب - موعد انطلاقه إلى السكاكيني - فيقبل ساعة واحدة ثم يستيقظ مثقل الجفنين فيمشط شعره ويتعطر ويتصدى للنافذة المحبوبة!، ولبت الكهل في حجرته يطالع أو يحاول المطالعة ريثما يآزف موعد ذهابه إلى القهوة - تلك العادة الجديدة على حياته - وقد ركز آماله جميعاً في النسيان المرتقب، ينتظره صابراً كما ينتظر

اليأس النهاية، وما برحت تتقاذف قلبه أحاسيس الحب والحية، والأنفة والغيرة، وحبه رشدي ونفوره منه، فتحير بينها لا يقر له قرار حتى أوشك أن ينفجر رأسه الصغير. وبعد العصر بقليل اقتحم رشدي عليه وحدته! ولم يكن في ذاك غرابة فرفع إليه رأسه مبتسماً باذلاً جهده ألا يلوح في وجهه وجوم أو سهوم. فحيته الشاب بابتسامته الحلوة وقدم له سيجارة وقال بسرور وبلهجة المعتذر معاً :

- لا تؤاخذني على إزعاجك ولكنني أرت إلىك خبراً ساراً.

فخفق فؤاد أحمد وقال :

- خير إن شاء الله!

- أخبرني صديق من الموظفين أن الحكومة تفكر في إنصاف الموظفين المنسيين.

فقال أحمد بارتياح لم يدر الآخر بواعث الحقيقة :

- بترك الله بالخير!

- إن بقاء رجل مثلك عشرين عاماً في الدرجة الثامنة ظلم قبيح وسيئة ذميمة.

فهز أحمد منكبيه بغير مبالاة وقال :

- أنت تعلم أنني لا أعبأ الدرجة ولا الوظيفة شيئاً.

وتحادثا ملياً، ثم انصرف رشدي كيلا يضيع وقت أخيه الثمين... وتفكر الرجل بعد انصرافه في ما يساوره نحوه من نفور فامتعض، وتألم فؤاده غاية الألم، وهل ينسى أنه أحبه مذ كان في المهد؟ وهل يجهل أن الشاب يحبه حباً لا يحبه والديه!

وهرع إلى الزهرة قبيل المغرب مرتاحاً إلى مغادرة البيت، وجالس الصحاب ساعيتين ملقياً بنفسه في تيار الحديث لائثاً بشجونه من نفسه وأفكاره، ثم تراجع إلى البيت وكان رشدي ما يزال في الخارج - طبناً - يسهر ليلته في الكازينو، فكأن فتاته استأثرت بالوقت القصير - من الظهر للمغرب - الذي كان يخلد فيه إلى الراحة وجعلت من يومه وحدة متصلة من اليقظة والتعب. وألقى الرجل على النافذة - التي عاهد نفسه ألا تفتح أثناء وجوده بالبيت - نظرة غاضبة، وتساءل وهو يخلع ملابسه ترى ألم تلاحظ تغييه عن النافذة؟.

ألم يُريها من الأمر ما ينبغي أن يريها؟ لَكُم يود لو تعلم باحتقاره غدرها، فكبرياؤه ما تزال جريحة تنزف، ونفسه مكتوبة بنار حامية.

ونام قبل موعده لصدود نفسه عن القراءة، ثم استيقظ على صفارة الإنذار، فنهض مسرعًا وارتدى معطفه وغادر الحجرة فالتقى بوالديه في الصالة، وكانت أمه قلقة لأنّ رشدي لم يكن عاد من سهرته وجعلت تتساءل عن المكان المحتمل وجوده فيه وتدعو الله أن يقيه السوء، وفي الطريق وجدوا الجو باردًا ورطبًا فقال والده: «ما ينتظرننا في الشتاء أدهى وأمرّ» ومضوا إلى المخبأ واتخذوا أماكنهم المهيّأة. ونظر الأب في ساعته فوجدها الثانية بعد منتصف الليل، فقال باستياء وتهكم:

- أليس الأرحم برشدي أن يبيت في الخارج حتى لا يكلف نفسه مشقة الرجوع إلى البيت في مثل هذه الساعة؟

وحذت أحمد نفسه باستراق النظر! ولكنّه رأى رشدي يهبط أدراج المخبأ متعجلًا ويدور بعينه في المكان باحثًا عنهم، ولما عثر بهم اتجه نحوهم مبتسمًا متشجعًا ببقية حيّا الشراب على مواجهتهم - ومواجهة أبيه خاصة - وحيّاهم ثم قال لأحمد:

- أطلقت صفارة الإنذار ونحن في الجمالية فعدوت في الظلام كالشياطين!

فانتهره أبوه قائلاً:

- أنت كالشياطين بغير جدال، ألا تريد أن تحقّق من غلوائك في هذا الوقت العصيب!

ولم يتجاسر أحمد على استراق النظر في حضرة الشاب! ولكن رشدي ضاق بالجلوس ذرعًا فقام يتمسّى في المخبأ، وأطلق الكهل لعينه العنان فانطلقت نظرتها القلقة إلى الركن البعيد حيث تجلس أسرة كمال خليل، ورآها، كانت جالسة جنب أمّها مطرقة، فرأى جانب وجهها الأمين. هل رأيته يا تُرى؟.. ألا تزال تحسب أنّه يجهل أمرها؟، أم تعاني شيئًا من القلق والعذاب؟، أم أنّه المقضي عليه بالقلق والعذاب وحده؟!.. وطافت برأسه في تلك اللحظة تمنيّاته

الجهنمية عن الغارة المدمرة فارتجف قلبه ورفع رأسه إلى سقف المخبأ داعيًا في سرّه: «اللهم رحمتك يا أرحم الراحمين» ثم وقع بصره على كمال خليل وسيد عارف واقفين على كُتب من مجلس أسرة أولهما يحادثان شقيقه! فتولّته الدهشة، كيف تعرّف الشابّ بهما؟ ومتى حدث ذلك؟ وهل رعى الشاب من وراء ذلك إلى غرض معيّن؟!.. حقًا أنّه شابّ جسور يعجز خياله - هو - عن مجازاة أفعاله! وخامره نحوه شعور بالإعجاب ممتزجًا بالحق، بيد أنّه انقطع عن التهادي في مشاعره لدويّ انفجار انتشر فجأة فملأ الأسراع، وانطلقت وراءه طلقات المدافع المضادة بسرعة فائقة، فحلّ الخوف فوق القلوب الواجفة كحدأة منهومة تنفضّ على أفراخ مذعورة، ولم يتكرّر الانفجار ولكن استمرت طلقات المدافع المضادة فترة وجيزة. ثم عاد السكون إلى نصابه، فأخذ القوم أنفاسهم، ومضت ربع ساعة أخرى ثم انطلقت صفارة الأمان. وفتش أحمد على أخيه فلم يجده، وكان الناس يخرجون أفواجًا، فخطر له خاطر أعاد له ذكريات قديمة، فبحث عيناه عن أسرة كمال خليل فرآها قريبة من مجلسها تنتظر أن يخفّ التراحم على باب المخبأ إلا أنّه لم ير نوال! وذكر ليلة دعت إلى اللحاق بها وكيف تردّد وجين! أمّا رشدي فلا يمكن أن يتردّد أو يجين!..

- ٢٩ -

وأطرد مجرى الحياة، فتوطدت أسباب الصداقة بين رشدي وكمال خليل على حدّثة عهدهما بالتعارف، وتفاوت ما بين عمريهما، بفضل لباقة الشابّ وكياسته، ودعاه الرجل إلى قهوة الزهرة فلبّى دعوته وجالس أصحاب شقيقه - والكهل بينهم - ونال إعجابهم بما طبع عليه من دعة الخلق وإشراق الوجه.

وطاب له المجلس فنوى أن يعاوده بين الحين والحين، ثم دعاه الرجل إلى زيارة بيته فمضى إليه فرحًا مسرورًا، وتوثقت عُرى المودة بينهما، واكتسب الشاب ثقة الرجل لحدّ أن قدّمه إلى زوجته وكريمته، ورفع الحجاب بينه وبين أسرته، وهي خطوة لم يتوقّعها

الحكيمة!.

وفات رشدي طور اللعب، فهو يبدأ بمعاينة الغزل ولكنّه ينتهي دائماً بالحُب الحقيقي! فأحبّ نوال واستعرت لها في قلبه عاطفة صادقة. أليست بجارة النافذة المحبوبة، ورفيقة طريق الجبل المكّلة هامته بالسحاب الرقيق، وتلميذته المغرمة يطارحها الهوى على مائدة الحساب والجبر والهندسة، وجليسته في السينما صباح الجُمُع؟.. علق الهوى على قلبين طريّين، ولصق نفسين تواقيتين للحبّ والسعادة. وصارت حياته نشاطاً متصلاً يشقّ على الجسد والأعصاب، فهو إمّا مكبّ على عمله في المصرف أو هائم في غرامياته، أو ساهر في كازينو غمرة، فلم يخلد إلى الراحة إلّا في الهزيع الأخير من الليل. فلم يتشله حبه من داء المقامرة أو معاورة الشراب ولا حتى من الحبّ الفاجر وعالج هاتيك اللذات في يسر، وأنسته العادة أنّها خطايا فانس بها بلا تردّد، ولم يتخيّل أنّ الحياة حياة بغيرها، فعبد الورق والكأس والحبّ، وعسى أن يهوله ما تستوجه هذه الحياة من مال ومشقة فيقول متأسّياً: «غداً أودّع حتماً كلّ شيء إذا تزوّجت!».

وكان حريّاً أن يفكر في نسيان ذاك العبث لياخذ أهبة للزواج إن كان من الصادقين، ولكن هوّن عليه الأمر أنّه أودع المصرف يوماً مبلغ خمسين جنيهاً ربحها من السباق، ففي بحر عام واحد يستطيع أن يقتصد من مرتبه ما لو أضافه إلى ذلك المبلغ لقام بنفقات الزواج، ولكن متى يبدأ هذا العام؟ هذا ما كان يؤجّل التفكير فيه، مستسلماً لتيّار الشهوات العارم، فلم يتعوّد قطّ أن يروّض من جراح شهوته، أو أن يحذّر من رغبته، أو أن يشدّ من إرادته، إلّا أنّه تردّد أخيراً متحيراً، عينا على الحياة التي يلتي نداءها، وعينا على الفتاة التي يهواها...

- ٣٠ -

وانصرم شهر نوفمبر، فاشتدّ البرد اشتداداً لم تعهده القاهرة إلّا في النادر، وأصيب رشدي عاكف

رشدي قطّ، ولا دار له بخلد أن تتخذها أسرة بحيّ الحسين خاصّة حيث تسود روح المحافظة، بل إنّ أسرته لتعتبر من هذه الناحية أشدّ محافظة على خلوها من الفتيات، فما يمرّ هو ولا أخوه - فضلاً عن أبيه - على أن يقدم رجلاً غريباً إلى أمّها. على أنّه سرّ بذلك سروراً لا يدانيه سرور، وسعد بتلك الثقة الغالية، واصطبغ تفكيره بلون الجدّ فاستشعر الرزاة والتبعة، وتبع ذلك أن حلّ رشدي محلّ الأستاذ أحمد راشد المحامي في التدريس لنوال ومحمد. ولمّا اتّصل نبال ذلك بالأخ الأكبر عقدت الدهشة لسانه، ولم يدر كيف حدث ولا كيف أمكن أن يحدث، فأخوه صار كآته عضو في أسرة الجيران، ولو أنّه وطّن النفس يوماً على أن يبلغ هذه المنزلة التي بلغها رشدي في أيام لما كفته عشرون عاماً، ولكنّ رفق بعين الإعجاب المقرون بالحدس، ولكنّه نجح في التظاهر بالجهل المطبق، فأسبل جفنيه على القذى كما أغلق النافذة على آلامه، واستسلم للصبر الذي استمرّاه لطول ما عاناه. أمّا الأم فلم يغب عنها شيء من بادئ الأمر، فلم يكن رشدي من الذين يُعنون بإخفاء أسرارهم. كان يلزم نافذته إذا وُجد بالبيت، وصرع إلى بيت الجيران في ساعات الدروس، وكان يغشى روحه هيّان بدت آثاره في عنايته المتضاعفة بأنافته، وفي الحنان الذي اكتسبه صوته وهو يغني، وفي خروجه الباكر كلّ صباح الذي لم يعد تخفى حقيقته على أحد، بل ما من شكّ أنّ أسرة الجيران نفسها باتت تعلم من أمره ما تعلم، وتعتقد عليه من الأمل ما يثلج صدرها بالسعادة، لم يغب شيء من هذا عن الستّ دولت، وشاورت قلبها فيه فلم تجد منه إباء ولا نفوراً، وكان من عادتها أن تقول أحياناً كالمحتسرة: «متى يا ربّ أفرح بالعرائس كالأمّهات السعيدات؟!». ولكن هل نوال جديرة بابنها؟! لم لا؟! هي عروس حسناء متعلّمة، من أسرة طيّبة، ووالدها موظّف، فكلّ شيء مناسب، اللهم إلّا خاطراً واحداً أحزنها وأكربها، أيحوز أن يتزوّد رشدي قبل أحد؟! ولكن ما حيلتها؟! فلتنتظر ما تلد الأيام من أحداث تقضي بها مشيئة الله

يَجْبَنِي وَأَنَا أَحِبُّهُ. وَلَكِنْ كَيْفَ يَغْفُلُ عَنَّا يَشُورُ بِنَفْسِهِ أحياناً من الغضب والثورة؟. وكيف ينسى أَنَّهُ تَمَتَّى لَوْ أَنَّ الشَّابَّ لَمْ يَنْقُلْ إِلَى الْقَاهِرَةِ؟. . بل كيف ينسى أَنَّهُ تَمَتَّى لِحِظَةٍ لَوْ تَخْلُو الدُّنْيَا مِنَ النَّاسِ وَالشَّابَّ فِيهَا طَبَعاً؟! فَهَذِهِ الْخَوَاطِرُ وَغَيْرُهَا كَانَتْ تَرْهَقُهُ بِالْحُزَنِ وَتُرَدِّدُهُ فِي الْوَسَاوِسِ. وَفِي آخِرِ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي اشْتِدَادِ الْحَقْمَى عَلَى الشَّابَّ، حَلِمَ أَحْمَدُ حُلْمًا غَرِيبًا. وَكَانَ نَامَ بَعْدَ جُهِدٍ نَاصِبٍ مِنْ عَذَابِ الْفِكْرِ، فَرَأَى فِي مَا يَرَى النَّائِمُ أَنَّهُ جَالِسٌ عَلَى فَرَاشِهِ مَرْسِلاً الْطَرَفَ إِلَى شُرْفَةٍ نَوَالٍ فِي إِشْفَاقٍ وَرَجَاءٍ، فَمَا يَدْرِي إِلَّا وَرَشْدِي يَقَعْدُ عَلَى كَرْسِيِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّافِذَةِ مَبْتَسِماً ابْتِسَامَتِهِ اللَّطِيفَةَ، فَشَعَرَ بِاسْتِحْيَاءٍ وَحَوْلَ نَظَرِيهِ عَنِ الشُّرْفَةِ إِلَى وَجْهِ أَخِيهِ، وَأَرَادَ رَشْدِي أَنْ يَسْرِىَ عَنْهُ بِتَظَاهِرَةٍ بِأَنَّهُ لَمْ يَفْطِنْ لَشَيْءٍ فَلَمْ يَفْلَحْ، ثُمَّ رَأَى يَتَنَفَّخُ رَوِيدًا رَوِيدًا حَتَّى صَارَ كَكُرَةِ ضَخْمَةٍ فَأَنَسَتْهُ الدَّهْشَةُ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ اسْتِحْيَاءٍ، ثُمَّ أَخَذَ مِنْهُ الْعَجَبُ كُلَّ مَا أَخَذَ حَتَّى لَمْ يَتِيَلَّكْ نَفْسَهُ مِنَ الصَّرَاحِ إِذْ رَأَى شَقِيقَهُ - وَهُوَ كَالْكُرَةِ الضَّخْمَةِ - يَرْتَفِعُ طَائِرًا كَأَنَّمَا يَلْتَمِسُ سَبِيلًا إِلَى الْفُضَاءِ خَلَّلَ النَّافِذَةَ، وَلَكِنَّ النَّافِذَةَ ضَاقَتْ عَنْهُ فَانْحَشَرَ بَيْنَ جَانِبَيْهَا وَحَجَبَ عَنْ عَيْنِهِ النُّورَ، وَزَابِلَتِهِ الدَّهْشَةُ وَحَلَّ مَحَلَّهَا الرُّعْبُ، وَلَكِنَّ الْفَتَى، جَعَلَ يَضْحَكُ مِنْهُ كَالسَّاحِرِ بِصَوْتِ مَزْعَجٍ أَثَارَ أَعْصَابِهِ فَتَوَلَّاهُ الْغَضَبُ، وَظَنَّ الشَّابَّ يَسْخَرُ مِنْهُ بِخُدْعَةٍ فَتَهَرَّهَ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْباَ بِهِ وَاسْتَمَرَ فِي ضَحْكِهِ السَّاحِرِ، فَفَزَعَ أَحْمَدُ إِلَى مَكْتَبِهِ وَأَتَى بَرِيشتَهُ وَغَرَسَهَا فِي بَطْنِهِ فَانْقَصَفَتْ فِيهَا، وَانْدَفَعَ مِنَ الْبَطْنِ بَخَارٌ مَلَأَ الْحِجْرَةَ بِالْغَبَارِ فَأَخَذَ جِسْمَ الْفَتَى يَقْلَعُ بِسُرْعَةٍ حَتَّى عَادَ إِلَى حُجْمِهِ الطَّبِيعِيِّ ثُمَّ سَقَطَ عِنْدَ قَدَمَيْهِ، وَجَعَلَ يَتَلَوَّى كَالسَّلِيمِ، وَيَعْصُ مِنْ أَلَمِ قَوَائِمِ الْكُرْسِيِّ وَيَصْرُخُ صَرَاحًا مُوجِعًا وَيَسْعَلُ حَتَّى تَحْجِظُ عَيْنَاهُ وَيَسِيلُ مِنْ عَجْجَرِيهَا الدَّمُ، وَهَلَعَ فُؤَادُ أَحْمَدَ وَأَطْبَقَ عَلَيْهِ رَعْبٌ يَضْنِي وَيَمِيتُ، ثُمَّ... ثُمَّ اسْتَيْقَظَ عِنْدَ ذَاكَ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ كَانَ يَحْلُمُ، رَبَّاهُ، تَبَّأً لِلْأَحْلَامِ، وَمَا كَادَ يَفِيقُ مِنْ هَوْلِ الرُّؤْيَا حَتَّى بَلَغَ مَسْمَعِيهِ صَوْتَ كَالْأَيْنِ يَأْتِيهِ مِنْ عَقَبِ بَابِهِ الْمَخْلُوقِ، فَارْهَفَ السَّمْعَ فَتَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ صَوْتُ أَخِيهِ وَأَنَّهُ حَقًّا يَتَأَوَّهُ

بِالْإِنْفِلُونِزَا، وَلَعَلَّهَا أَصَابَتْهُ أَثْنَاءَ عَوْدَتِهِ إِلَى خَانَ الْخَلِيلِيِّ فِي الْمَهِزِيعِ الْآخِرِ مِنَ اللَّيْلِ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْباَ بِوَعَكَاتِ الْبَرْدِ مَكْتَفِيًا بِلِغِ أَقْرَاصِ الْأَسْبِرِينَ إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ وَجَعُ الرَّاسِ، فَزَاوَلَ نَشَاطَهُ الْمَعْهُودَ لَا يَعْباَ بِشَيْءٍ، إِلَّا أَنَّ حَالَةَ الْمَرَضِ اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي فِي الْمَصْرَفِ فَتَنَاوَيْتُهُ قَشْعَرِيَّةً، ثُمَّ شَمَلَتْهُ رَعِشَةٌ حَتَّى اصْطَلَكَتْ أَسْنَانُهُ، وَعَرَاهُ خَوَرٌ أَظْلَمَتْ مِنْهُ عَيْنَاهُ فَغَادَرَ الْمَصْرَفَ وَاسْتَقَلَّ تَاكْسِيَّ إِلَى الْبَيْتِ، وَرَقَدَ فِي إِعْيَاءٍ شَدِيدٍ، وَمَنْحَهُ طَبِيبُ الْمَصْرَفِ أَسْبُوعًا، وَاشْتَدَّتْ الْحَالَةُ، وَتَدَهَوَّرَتْ صَحَّتُهُ بِسُرْعَةٍ غَخِيفَةٍ، وَغَيْرُهُ هَزَالٌ فَبَدَا كَأَنَّهُ لَازِمُهُ الْمَرَضُ شَهْرًا طَوِيلًا؛ وَأَدْرَكَ أَحْمَدُ أَنَّ أَخَاهُ فَقَدَ مَنَاعَتَهُ الْأَوَّلَى الَّتِي طَلَّمَا قَاوَمَ بِهَا التَّوَعَّكَاتِ فَلَمْ يَمْلِكْ أَنْ قَالَ لَهُ:

- صَرْتُ كَالْخِيَالِ، لِأَنَّ جِسْمَكَ لَمْ يَعِدْ يَقَاوِمُ لِمَا تَكْلُفُهُ بِهِ مِمَّا لَيْسَ فِي وَسْعِهِ.

وَكَانَ الْفَتَى مَعْتَاذًا أَمْثَالَ هَذِهِ الْمَلَاخِظَةِ مِنْ أَخِيهِ، فَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً شَاحِبَةً وَقَالَ:

- هَذَا عَارِضٌ مِنْ أَعْرَاضِ الْبَرْدِ وَسَوْفَ يَزُولُ!

فَقَالَ أَحْمَدُ بِاسْتِيَاءٍ:

- وَلَكِنَّهُ مَا كَانَ يَتِمَكَّنُ مِنْكَ لَوْلَا تَفْرِيطُكَ فِي صَحَّتِكَ!

وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ يَعْدِلُ بِهِ عَنِ الدِّفَاعِ عَنْ سِيرَتِهِ الْمَحْبُوبَةِ فَقَالَ:

- أَلَا تَرَى أَنِّي لَا أَسْهَرُ وَحْدِي! وَأَنْ صَحْبِي جَمِيعًا كَالْبَغَالِ صَحَّةٌ وَعَافِيَةٌ، وَلَكِنَّهَا أَعْرَاضُ الْبَرْدِ وَسَوْفَ تَزُولُ بِإِذْنِ اللَّهِ.

وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَسْتَمِيتُ فِي الدِّفَاعِ عَنْ حَيَاتِهِ لِحَدِّ اللَّجَاجِ وَالْمَكَابِرَةِ فَانْكَسَرَ عَنْ لُومِهِ، وَكَانَ يَعُودُهُ كَثِيرًا، وَيُؤَاسِيهِ وَيُشَجِّعُهُ، وَبَالِغٌ فِي ذَلِكَ مَبَالِغَةً مَرْدُّهَا إِلَى مَا بَاتَ يَسَاوِرُهُ نَحْوُهُ مِنْ امْتِنَاعِ وَنَفُورٍ. فَكَأَنَّهُ كَانَ يَغْطِي الْمَشَاعِرَ الَّتِي تَحْجِلُهُ وَتَحْزَنُهُ بِالْمَبَالِغَةِ فِي إِظْهَارِ الْعُطْفِ وَالْمَحَافَظَةِ عَلَى مَظَاهِرِ الْحُبِّ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَحْدِثُ نَفْسَهُ بِصَوْتِ مَسْمُوعٍ قَائِلًا: «إِنِّي أَحِبُّهُ كَعَهْدِي دَائِمًا، وَمَا يَسْتَحَقُّ مِنِّي غَيْرَ هَذَا الْحُبِّ، وَلَوْ أَنَّهُ عَلِمَ بِطَوَيْتِي مَا أَقْدَمَ عَلَى مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ فَهُوَ بَرِيءٌ، وَهُوَ

فقال الشاب الشكور المحب:

- وهل داخلي في ذاك شك؟!!

ولكنه لم يُعِنْ بِاتِّبَاعِ الإرشاد الذي لا يداخله فيه شك، وفي صباح اليوم التالي رآه أحمد يستجمع لخروجه الباكر، فتولته الدهشة وقال بإنكار:

- ماذا أنت فاعل؟

فقال بشيء من الارتباك:

- إلى المصرف.

- وما الموجب للعجلة؟

فعدل الفتى عن المداراة وقال بصراحة مخزنة:

- أخي، لا أكتفك أن البيت يُسقمني!

وعلم أحمد بما يغريه حتماً بالاستهانة بصحته، فانقبض صدره وأخفى بصره في فنجان القهوة، ومضى الآخر إلى سيبله، وأرادت الأم - وكانت جالسة إلى السفرة - أن تحفّف من وقع ما خلفه الشاب لنصح أخيه فقالت تعتذر عن سلوكه:

- شفاء أخيك في الدنيا الواسعة لا في البيت، فلا

تؤاخذه!

ولما لم ينبس بكلمة ظنّته غاضباً فقالت تستوبه

ابتناسمة:

- أليس هو ابن أمه؟ ومن شابه أمه فما ظلم، ألا ترى إلى كيف يركبني الهمّ إذا لزمت البيت وجيل بيني وبين زيارات الأحباب! - فكلانا عدو البيت. .

وضحكت ضحكتها الرئانة فابتسم الكهل ابتسامة لا لون لها. وما كان شيء يُبْثِي الشاب عن حياته المحبوبة، فارتمى مرة أخرى بين أحضان الحبّ والقمار والشراب والتدخين والنساء! - استردّ نشاطه المعهود ولكنّه لم يستردّ صحته، فلم يزايله الهزال، واشتدّ لون وجهه شحوباً وبدأ وكأنّه بقي من مرضه شيء لا يفارقه، وإذا كان أحمد منشغلاً بنصحه كان الشاب منشغلاً بالتفكير في أمور أخرى، فدخل على أخيه عصر يوم - قبل موعد خروج الرجل إلى القهوة بقليل - حيّاه بابتسامته المطيعة وقال:

- هل تأذن لي بالتحدّث إليك قليلاً؟

فرفع أحمد رأسه إليه وقال:

ويتوجّع، فقفز من فراشه وانتعل شبشبته ومضى على عجل إلى حجرته. وهناك وجد الشاب يتأوّه وأمه إلى جانبه تدلّك ظهره بينما يجلس الأب على كرسيّ قريباً من الفراش، فتساءل أحمد مروّعاً:

- ماذا به؟

فقالت أمه:

- لا تنزعج يا بني، إنّه ألم الحمى وهي تفارق

البدن!.

وتنبّه رشدي إلى مجيء أحمد فكظم ألمه قليلاً وقال متأسفاً:

- واخجلته! - أزعجت منامكم جميعاً. .

ولكنّهم شجّعوه ودعوا له، وجلس أحمد جنب أمه، وأخذ راحة شقيقه بين راحتيه وراح يدلكّها بحنوّ، وكأنّه يكفّر بذلك عن إساءته إليه في الحلم، ومضت ساعة مؤلمة لم يكن عناء الأسرة فيها دون عناء المريض، فلبثوا إلى جانب فراشه حتّى مطلع الفجر. . .

### - ٣١ -

وبرأ رشدي ممّا ألم به، وغادر فراش المرض، ولم يكن هيئاً عليه أن يلزم الفراش أسبوعاً كاملاً وهو الذي لا تطيب له الحياة إلّا في تجارب اللّهُو واللّعب واللذات، ولذلك هاله أن ينصحه أخوه بالبقاء في البيت والإخلاد إلى الراحة ربّما يستردّ قوّته، فضحك كعادته وقال كالأسف:

- حسي أن ضاع من العمر أسبوع هدرًا!

فاحتدّ الذي ضاع عمره كلّهُ وقال:

- أحذرك الاندفاع في ما أنت أخذ فيه، فإنّك تستحلّ شبابك للعدم كأنّه معين لا ينفذ، ولا تعباً أبداً أن تنال حقّك من الراحة، فأبّي جنون هذا الذي تطعّم؟!

ولس رشدي في لهجة أخيه غيرته على صحته، فابتسم ممثناً وقال:

- دمت من أخٍ كريم، متّعني الله بقلبه الكبير.

- إني أرشدك لما فيه صلاحك!

- تفضّل يا رشدي!

وقرأ في وجهه الجميل الشاحب أمارات الرزانة والاهتمام على غير عادته، فعجب لأمره، وتساءل عما دعا السادر اللاهي إلى الجدّ والاهتمام. وذكر أنّه لم يره في مثل تلك الحالة إلا السويغات الحرجة التي تلقى فيها أبناء سقوطه في بعض الامتحانات على عهد دراسته. وساوره القلق ورفع حاجبيه الخفيفين متسائلاً، فقعد رشدي على الكرسي وقال:

- أريد أن أجدّ في الأمر فليست الحياة كلّها لعباً! ولو أنّه سمع كلامه هذا في غير الظروف التي يعانيتها لما تمالك أن يضحك ويقهقه، ولكنّ صدره انقبض، وحسّ قلقاً ما الشاب ماضٍ إلى خوضه، فقال بهدوء:

- الحياة ليست كلّها لعباً. هذا حقّ..

فقال الشاب:

- أنت مرجعي عند المشورة، وقد جئتك سائلاً هل توافق على زواجي؟! .

فاضطرب صدره كما لو كان بوغت بالقول مباغته لم تُدرّ له بخلد، ولكنّه لم يسمح لوجهه بالإفصاح عن كآبته، وتظاهر بالدهشة البريئة، بل وبالسرور، وقال:

- أجبت تحدّث أخيراً عن الزواج! مرحى مرحى! فضحك رشدي بسرور وقال:

- هي الحقيقة يا أخي، فهل يسرك ذلك؟

- يسرني طبعاً، لعلنا سررنا بشيء واحد معاً لأوّل مرة!

وتبع ذلك صمت، وأدرك أحمد أنّه من الطبيعي أن يسأل عن العروس، وكان يرجو أن يفتح الآخر الحديث بغير حاجة إلى سؤاله، ولكنّه لازم الصمت، فلم يجد مناصاً من أن يزدرد ريقه ويقول متسائلاً:

- وهل اهتديت إلى بنت الحلال؟

فاعتدل الشاب في جلسته وقال:

- أجل يا أخي، كريمة جارنا الطيّب كمال خليل

أفندي صديقي وصديقك!

ولم يفلح ما سلف من تأمّب في تحمّل الطعنة إلا قليلاً، فياس المتهم من النجاة لا يهون على نفسه وقع

النطق بالحكم عليه، ولكنّه لاذ بكبريائه وقال بهدوئه:

- وفّقك الله لما فيه سعادتك.

- شكراً لك يا أخي.

- بيد أنّي أريد أن أسألك سؤالاً على سبيل الاحتياط، فهل زوّدت بالمعلومات الضروريّة عن الأسرة التي ستصبح واحداً منها؟

- خبرت الأسرة عن كُتب، وعرفت الفتاة معرفة شخصيّة!

ونكأ تصريحه جرحه فضاعف مجهوده ليحافظ على هدوئه الظاهري، وقال:

- أذكرك بأنّه إذا أعلن الخبر فالتكوص عنه يكون فضيحة!

فضحك رشدي قائلاً بثقة:

- انتهى التقلّب واستقرّ الرأي!

- هل فاتحت أحداً بهذا الشأن؟

- كلّاً فيها عداها هي!

فخفق فؤاده خفقة عنيفة، وشرع خياله في استحضار صورة انفردهما معاً، وتهاشمها بهذا الشأن الخطير الجميل، ثمّ قطع تخيّل بقوّة، وقال بنبرات تنطق بالرضى:

- على بركة الله...

- إذا أكمل إليك تبليغ والدي بالأمر، ومن ثمّ نأخذ في الخطوات المتّبعة.

فترتّب أحمد قليلاً ثمّ قال:

- سأخبر أبي، أمّا الخطوات الأخرى فتحت شرطاً - سمعاً وطاعة.

- ألا نشرع فيها قبل أن تستردّ صحتك، وتستعيد وزنك السابق للمرض على الأقل!

فقال رشدي ضاحكاً:

- هذا عليّ هيّن، ولن يطول انتظارنا.

ثمّ نهض قائماً وهو يقول:

- أشكر لك والعُقبى لك (ثمّ غيّر لهجته كمن تذكر شيئاً جديداً).. على فكرة! لماذا لا تفكر أنت أيضاً في الزواج، أما كان ينبغي أن أبارك لك قبل أن تبارك لي؟!

فصقّ الرجل بسرور وصاح به :

- هداك الله أخيراً!

فقال بصوت خافت :

- ولُكِنِّي في هذا الأمر أجهل من دابة!

فقال المعلم بزهو وخيلاء :

- اجعلني دليلك، وأيّاً ما كان فهذا الأمر أسهل من

كتبك وأجلّ فائدة!

وعاداً معاً يجتبان في الممرات الملتوية يشملهما ظلام

دامس، ودخلا عمارة وارتقيا السلم إلى الطابق

الثالث، وضغط الرجل زرّ الجرس الكهربائي وهو

يقول :

- إذا جئت بمفردك وأردت أن يفتحوا لك فأنتك أن

تضغط الزرّ خمس دفعات متتابعات ثمّ تذكر كلمة

السّر التي سأقولها الآن.

وسمعا صوت عباس شقة يسأل عن القادم فقال

المعلم :

- ملعون أبو الدنيا!

وفتح الباب ودخل أحمد بقلب هيّاب وتبعه المعلم،

وعبرا صالة إلى حجرة واسعة مزدحمة بالجالسين مضاءة

بنور أزرق هادئ كنور الفجر العليل، ينبعث من

مصباح ملفوف بغلالة زرقاء، فانجذبت الأنظار نحو

القادمين، واستقرت على الجديد حتّى تعثّر بالارتباك

والحياء. وقد ترّبّعوا على شلت تراصت على صورة

دائرة، ووضع في وسطها «العدد» كالمجمرة والحوزة

والطباقي. فتبادلا التحيّة مع الحاضرين وجلسا جنباً إلى

جنب، واستطاع أحمد أن يلقي نظرة عامّة على المكان،

ويرى إخوان قهوة الزهرة - في ما عدا أحمد راشد - بين

الموجودين. ثمّ استرعى صدر المكان انتباهه حيث

جلست امرأة «هائلة» على شلثة ضخمة، وإثها لهائلة

حقاً، ففي جلستها كانت تطاول شخصاً قائماً، عريضة

المنكبسين، طويلة الجيد، مستديرة الوجه في امتلاء

وضخامة، واضحة القسّات، يراوح لونها بين المصري

والحبشيّ، أمّا شعرها فكستنائيّ مجعّد شدّ إلى ضفيرة

غليظة قصيرة، وأعجب ما في وجهها عينان كبيرتان

بارزتان بروّراً لا يبلغ القبح، نظرتها حدة ولحورها

أبصاره بما حال بينه وبين التفكير في الزواج؟! ..

الفتى لا يدري ممّا يقول شيئاً، ولذلك فهو يرميه بسهام

مسمومة في غفلة وصفاء! وقد امتعض لتساؤله، وخاله

لسان القدر يتهكّم من شقائه بعد أن قضى به عليه،

وقال كالمتهكّم :

- مضى زمن الزواج!

- مضى؟!!

- دع هذا يا رشدي، فأنت تعلم أنّي امرؤ مشغول!

والله لم يجعل لامرئ من قليين في جوفه!

ومضى الشاب يهرّ رأسه أسفاً، وأطرق الرجل،

ولاحت في عينيه نظرة حزن عميق، واستسلام للقدر

والياس، سيتولّى - هو - أمر زواج الشاب، فلا مناص

من أن يحيك كفته بيديه، وفي ذلك ما فيه من ضروب

الآلم وفيه كذلك ما فيه من ألوان اللّذة والعزاء. لن

يجلّو على الأقلّ من تلك اللّذة الغامضة التي تولّف بينه

وبين الآلم كما تولّف بين الفراشة والنور، وفيه لذّة

الاستسلام إلى القضاء القهّار، وفيه لذّة التكفير عن

مشاعره الباطنيّة التي لم يرتح إليها، وفيه أخيراً لذّة

لكبرائه الجريح ..

## - ٣٢ -

وارتدى على أثر ذلك ملابسه، ومضى إلى الزهرة

وقد فارقه ذلك الشعور بالأسف الذي كان يخامره كلّما

همّ بالخروج عن عادة وحدته، واشترك في أحاديث

الصحاب أكثر من ذي قبل - إذ كان جلّ حوارهم مع

أحمد راشد وحده - واستسلم للضحك طويلاً على غير

عادته. وخطر له فجأة أن يشاركهم سهرتهم الأخرى

التي سمع عنها دون أن يشهدها. وبدا له الخاطر مغريباً

فقال إليه بكلّ قلبه، بيّد أنّه تردّد كالخائف ولم يثّر

كيف يقدر نفسه، ولم يغادره هذا الخاطر حتّى نهض

القوم للذهاب إلى حال سبيلهم، وكان من عادة نونو

أن يمضي إلى بيته أولاً ومن ثمّ يلحق بالصحاب في

ندوتهم، فانحذ منه رفيقاً، وأتته شجاعته في الطريق

فقال باستحياء :

- يا معلّم، هلّا اصطحبني إلى الإخوان؟

التساع، ويوحى منظرها بالهبة لضخامتها وقوتها، وبالشهوة لأمارات الحيوانية البادية في ملاعها، والإغراء المعكس عن خلاعتها. وقد وضعت على كتفها شالاً مجملاً منمنماً وجعلت تنفّس في وجهه بعينها القادحتين.

وأدرك أحمد عاكف أنها عليّات الفائزة التي يدعونها بمعشوقة الأزواج، وقد جلس زوجها عباس شفة إلى يمينها بينما جلس إلى يسارها المعلم زفة القهوجي. وسفر المعلم نونو بين الرجل وبينها بالتعارف فمدّت له راحتها المخضبة بالحناء ورخبت به. وحده المعلم زفة بنظرة تأنيب وقال له متضاحكاً:

- وأخيراً عرفت أنّ الله حق؟ لكم أنفقت من عمر في حجرتك وعلام ذلك التعذيب؟؟ لا أنت متزوج ولا أنت رجل عجوز، ولكنّه ظلم الإنسان نفسه!

فقال المعلم نونو يزكي صاحبه ويعتذر عن «غفلته»:

- يا إخواني، إنّ نظري لا يجيب وفراسي تصدقني دائماً، وقد اقتنعت من أول نظرة بأنّ صاحبنا أحمد أفندي «ابن حظ» ولكن أضلّته الظروف عن منهله العذب حيناً وأنا لهادوه بإذن الله!

وخاف كمال خليل أن يضيق صاحبه - الذي جدّت دواعٍ جديدة تحمله على إرضائه - بكثرة المداعبات فقال:

- الأستاذ أحمد عاكف يا سادة رجل مطلع، ولكن لا ضير من أن يأخذ حظاً من السرور، فالحياة لا يمكن أن تكون عناء متصلاً.

فلوّح المعلم زفة بيده كالساخط وقال:

- ولماذا نقضي على أنفسنا، ويمحض اختيارنا، بعناء متصل أو منفصل؟ الأستاذ موظّف ذو مقام، فإذا يوجب عليه أن يقرأ كالتلاميذ من غير مؤاخلة؟ عاهدنا على ألاّ تنيب عنا ليلة بعد اليوم!

فابتسم أحمد كالمرتبك، وزاد من ارتباكّه أن قالت عليّات الفائزة تخاطب زفة وهي تلحظ الكهل:

- رويّداً يا معلّم، كيف يعاهدك على ذلك وقد لا

يطيب بنا نفساً؟!

فتورّد وجه أحد وقال مسرعاً:

- العفو يا هانم! ..

وكانوا يدعونها عادة بستّ عليّات فوقعت... «هانم» من آذانهم موقعاً غريباً، أمّا الستّ فقالت:

- أهلاً بك في كلّ وقت.

وكان عباس شفة مكبّاً على تعبئة «الكراسي» ثمّ رصّ الجمرات على كرسيّ منها، ورگّبها على الجوزة وقدمها إلى الستّ. واستقرّت عينا أحد على الجوزة في اهتمام مشوب بقلق وإشفاق، ثمّ مال نحو نونو، ومس في أذنه:

- ألاّ يحقّ لي أن أخاف هذه الجوزة؟

فعاثبه المعلم قائلاً بصوت منخفض:

- إذا خفتها أنت فإذا يفعل أبناؤنا؟

وتوسّط عباس شفة الدائرة، وجعل يدير الجوزة من رجل إلى رجل، مقترّباً منه، حتّى بلغت المعلم نونو، فوضع الغاب في فيه وأخذ نفساً طويلاً، اتّصلت قرقته حتّى ملأت الأساع، وزفره من خيشومه قطعاً من سحب داكل، وأخيراً رأى الغاب يدنو من شفّتيه والأنظار تتحوّل إليه، فأطبّقها عليه وأخذ نفساً قصيراً كالخائف ونونو يهتف به: «شدّ... شدّ» ثمّ قال له بلهجة الأمر: «ازدرد الدخان!» فازدرده ثمّ زفره بسرعة وقد شعر كأنّ يداً تكتم أنفاسه، ثمّ سعل سعلة اضطرب لها جسمه النحيل ودمعت عيناه، وكان نونو يرقبه بقلق فسأله لِمَا أفاق:

- كيف الحال؟

فقال وهو يتنهد:

- أوّلى بي أن أبدأ بأخذ أنفاس خفيفة، ألا ترى أنّك مدرّس قاسٍ يا معلّم؟! ففقهه المعلم قائلاً:

- كما تشاء ففي التآني السلامة!

ودار عباس شفة بالجوزة خمس مرّات متعاقبة، وتصادع الدخان من كلّ جانب وانعقد سحباً، وشمّ أحمد رائحة غريبة أثارت ذكرى قديمة، ذكرى رائحة تشابه هذه الرائحة، بل هي نفسها دون غيرها، فأين



- الهدوء... يا هوه!... للغرزة آدابها..

ولاحت الدهشة في وجه كمال خليل فسأله باهتمام:

- وما آداب الغرزة؟!

فقال القرد باستياء:

- هذه الضجة خليقة بالحنانات حيث يفقد

السكرارى عقولهم. الفرز على عكس ذلك جدبرة

بالهدوء والصمت، فالخشيش سلطان يوجب على

مواليه الخشوع والسكون، بالهدوء والصمت يبلغ

التخدير مداه فيصفو المزاج وتنتال على الخيال الأحلام

فيظفر الإنسان بمشكلات يومه ومتاعبه ويحسن التفكير

فيها وحلها واحدة بعد أخرى!

- ولكننا نجيء هنا لننسى المشكلات والمتاعب لا

لنغكر فيها!

- بش الرأي، إن الهروب من المتاعب لا يذهبها

ولكنه يُنسي عذابها إلى حين كي تعود أقطع مما كانت،

حكمة الخشيش تنبها ثقة نواجه بها المتاعب بقلب قادر

على الاستهانة وتهوين خطبها فتدوب في بالوعة النسيان

ونمحي من الوجود!..

فقال سيّد عارف ضاحكًا:

- فليس هذا بكرسيّ خشيش، ولكنّه كرسيّ

الاعتراف!.

وقال المعلم زفته:

- صدقت، هذا خشيش القسيس! وصدق من قال

يا جحا عدّ غنمك؟!

ثم قال المعلم نونو مستنكرًا وموجّها خطابها لسليمان

بك:

- وكيف يلزم الصمت من خلا من المتاعب؟

- وهي يخلو من المتاعب إلّا حيوان!

- فكيف شعرت بها؟!

فأجابه سيّد عارف:

- لعلّه مالك الحزين!

ونفض عباس شفة يشعره المتنفّس كالشيطان

فدارت الجوزة دورتها الثانية، ومحت القرقرة لفظ

الحديث، وأخذ أحمد أنفاسًا أشدّ من المرّة الأولى

مستوصيًا بشجاعة لا عهد له بها، وبرغبة قويّة في

شمّها ومتى؟! ولم يُطلّ به عذاب التذكّر، فذكر أوّل

لياليه بخان الخليلي، ليلة التسهيد إذ تسرّبت هذه

الرائحة الغريبة العميقة إلى حجرته فحيرته، فلم تكن

إلّا رائحة هذا المخدّر العجيب المخيف، ولعلّها

انطلقت ليلتئذ من هذه الحجرة نفسها أو من ذاك الحيّ

العجيب الذي لا يبعد أن تكون جميع الأنفاس المتردّة

في جوّه من هذه الأنفاس. وسرّ للذكر وارتاح إليها أيّما

ارتياح لأنّ التخدير كان قد أخذ يسري في أعصابه

المتوتّرة فيلّينها، فابتسمت أساريره. وعاد عباس شفة

إلى مجلسه يستريح قليلًا، بينما مضى المعلم زفته في تعبته

الكراسي من جديد استعدادًا للدورة الثانية وقالت

السّت عليّات الفائزة:

- أما هتأتّم سيّد عارف أفندي!

فالتفت إليها القوم، وقال نونو:

- خير إن شاء الله!

فقال المرأة الهائلة مبتسمة:

- أرشده طبيب ماهر إلى أقراص جديدة وأكّد له

أنّها مضمونة النجاح!

فعلا ضحك الجميع - أصحاب قهوة الزهرة

والآخرون - وقال المعلم نونو موجّها خطابها لسيّد

أفندي:

- أمنية قلبي أن أراك يومًا مثلنا!

فقال سيّد عارف كالمحتدّ:

- هذا يدلّ على سوء نيّتك!

وسألوه عن الأقراص الجديدة، ولكنّه أبى أن يذكر

عنها شيئًا خشية أن تصيبها نفس!

فقال المعلم زفته:

- إنّما الأعمال بالنيّات!

وكان كثيرًا ما يستشهد في أحاديثه بالحكم والأمثال

أو الأحاديث الشريفة كيفما اتّفق دون مبالاة بمطابقتها

لمقتضى الحال، ودون أن يفتن إلى شذوذ الاستشهاد

عن معنى كلامه، على أنّه لم يكن يتنبّه إلى غفلته تلك

إلّا قلّة من الحاضرين!، وضاق سليمان بك عتّة

بالضجيج ذرعًا واشتدّ وجهه القبيح كأبة فقال بحنق

وعنف كعادته إذا استاء أو غضب:

فتخطى محيط دائرة الجلوس وهرب نحو الباب  
متعجلاً وهو يقول:

- الأقرص نجحت..

وغاب عن الأنظار في لمح البصر، فانفجر القوم  
ضاحكين، وتساءل كمال خليل وهو يسعل:

- هل حقاً ما يقول؟!!

فقال سليمان عتّة بسخريّة:

- دعاية كاذبة كدعاية أصحابه الألمان..

فقال نونو:

- سنعلم الحقيقة بعد تسعة أشهر!

فقلت عليّات الفائزة:

- علّم هذا عليّ هين!..

وواصلوا الهزل حتّى قام عباس شفة ممسكاً بالجوزة  
فكان نذير الصمت، وفي هذه الدورة أخلد أحمد  
لتخدير غريب. وكان طول الوقت صامتاً راغباً عن  
الكلام أو عاجزاً عنه. وشعر بأنّ إرادته فقدت  
سلطانها على أعضائه، وقد أراد أن يحرك ذراعيه  
ليطمئنّ إلى أنّه ما زال متألّكاً زمامه، ولكنّ شعوراً  
عميقاً قوياً أغراه بالعدول عن التجربة، وهياً له أنّه لا  
يوجد في الدنيا جيّماً ما يستحقّ التعب أو الحركة، وأنّ  
الرقاد والاستسلام والرضا خير ما تجود به الدنيا، ورأى  
القوم خلل نفثات الدخان فخالهم أسباح دنيا غريبة أو  
سكّان كوكب آخر، ولا يدري كيف ملأه ذاك  
الإحساس بالغربة، فلذّ له أن يضحك، فضحك  
ضحكة طويلة واهنة شابة مطلعها التآوه وحاكى  
ختامها قرقرة الجوزة، فما تمالك الجالسون أن ضجّوا  
ضاحكين! وانتبه لضحكهم رغم ذهوله، فاعتدل في  
جلسته ليستعيد - ما أمكن - شيئاً من يقظته، وحدث  
عند ذاك شيء عجيب. حدث أن نهضت عليّات  
الفائزة قائمة، استطال ذاك الجسم الهائل في الفضاء،  
وامتدّ طويلاً وعرصاً فملاً الأعين، وكانت مرتدية روبا  
شدّ إلى جسمها ليرز غحاسن مقاطعه، ثمّ تحرّك موكبها  
العظيم فسارت قابضة براحتها على طرف شالها فلاح  
ساعدها ختفياً وراء الأساور الذهبية، ولما مرّت أمامه  
ارتاع الكهل على ذهوله، رأى الروب يتّسع بعد

الذهول، وقد أعجبت فلسفة سليمان عتّة على مقته له،  
فحاول أن يعالج حزنه العميق الذي أورده هذا المكان  
الخائق على طريقته لعلّه أن يبرأ، لكنّه تسلّط عليه  
التخدير فثقلت جفونه واحمّرت عيناه ومال عنقه قليلاً،  
ثمّ ساوره خوف مفاجئ فأدنى رأسه من أذن المعلّم  
نونو وسأله:

- ألا يُجنّش علينا من الشرطة؟.. هبّ شرطياً  
تسلّل إلى الباب وقال ملعون أبو الدنيا؟!!

فضحك نونو وقال:

- نقول له ملعون أبوك!.

وبعد انتهاء الدورة جلس عباس شفة جنب زوجته  
الهائلة مرّة أخرى وتحرّكت الألسن من جديد.

فقال المعلّم زفة القهوجي وهو لا يمسك عن  
العمل:

- أبشركم يا إخوان بأنّ هتلر - حين يفتح الله له  
مصر - سيلغي أمر منع الحشيش ويمنع شرب الويسكي  
الإنجليزي!

فقال المعلّم نونو:

- هتلر رجل حكيم ولا يداخلني شك أنّ الفضل  
الأوّل في مهارة خطّطه راجع للحشيش!

فسأله كمال خليل أفندي:

- وكيف أوصله إليه عباس شفة؟

فقال نونو بلهجة جدّية:

- لا حاجة به إلى عباس شفة، فالمخزن رقم ١٣

ملآن بالحشيش النقي!

ثمّ هزّ المعلّم رأسه كالأسف وقال بحسرة ظاهرة:

- ألم تسمعوا بما يقال من أنّ اليابانيين ينشرون

المخدرات بين الأمم التي يغزونها!

فقال المعلّم زفة بنفس اللهجة:

- ليت الإنجليز كانوا حشاشين!

- ضاعت خمسون عامّاً من الاحتلال هدراً!

وهنا نهض سيّد عارف بخته وقد ارتسم على وجهه  
أي الاهتمام الشديد، ولبس طربوشه كأنّما يتأهب  
لمغادرة المكان، فعجب القوم له وسألته السّ عليّات:  
- إلى أين يا أخانا؟

كلّا يا ستّ.. . زواج ابني مستقر هو السبب، أردت أن يتمّ في هدوء مراعاة للظروف، وتأتي إلا أن تزفّه القيان، فقالت لي بوقاحة: مالك عليّ وعلى أبنائي حرام، أما هناك فحلال!

فقالت الستّ عليّات ضاحكة:  
- هناك هذه هي أنا!

فاستدرك الرجل يقول مغيطًا متأسفًا:  
- وقالت لي وهي تشدّ أطراف بقجة ثيابها:  
«سأذكرك دائمًا بأنك الرجل الذي لم يسعدني يومًا واحدًا من حياتي!». اسمعوا يا هوه.. . أهذا كلام تقوله عشيرة ثلاثين عامًا؟!

فقالت عليّات بلهجة الانتقاد المرّ:  
- تبا لها، وارحمتا لشبابك الذي أنفقته عليها، اصغ إليّ يا معلّم، كذّ لها وتزوّج من غيرها...!  
فهزّ الرجل رأسه وقد ارتسمت شبه ابتسامة على شفتيه ثمّ قال مغمغمًا:

- وهل تبقت في العمر ذخيرة؟  
- استغفر الله يا معلّم، أنت قدّ الدنيا!  
فقال المعلّم نونو متحمّسًا للفكرة:  
- نعم الرأي. إنه لا يؤدّب المرأة إلّا الزواج بغيرها، وربّنا أمر الزواج من أربع!  
- استغفر الله العظيم، لم يأمر الله بذلك ولكنّه أباحه على أن نعدّل!  
- ومن قال لك اظلم؟  
- صلّوا على النبيّ، أنا رجل عجوز وما من فائدة ترجي!

- تزوّج على بركة الأقراص الجديدة التي اكتشفها سيّد عارف أخيرًا!  
وهنا قال المعلّم زفة متمّمًا الحديث الذي قطعه المعلّم شمبكي بشكواه العائلية:  
- واقتنوا خاصّة السجاجيد الفارسيّة، فالذهب ربّما انخفض سعره، وكذلك النحاس، أمّا السجاجيد الفارسيّة فتزيد نفاسة مع الزمن، المرأة القديمة لا تساوي ملبيًا أمّا السجادة.. .

وعاجلته الستّ بلطمة على صدره فصاح:

خاصرتيها ليكتشف عجيزة لم يرّ مثلها في حياته، ربّانة ناهضة مترججة تبرز فوق الفخذين كالمشريّة، فما صدّق عينيه، ولاحظ المعلّم نونو دهشته فقال له هامسًا:

- انتبه فالستّ تطلعك على السرّ الذي أشقى أزواج الحيّ، ما هذه بعجيزة ولكنّها كنز!

فقال أحمد بصوت لا يكاد يسمع:  
- هذا شيء فوق ما يتصوّره العقل!  
- وأكثر من هذا أنّها تحوي فضيلتين لا تجتمعان، فهي من ناحية كالكرة المنفوخة صلابة، ومن ناحية أخرى تسوخ فيها الأصابع ليّنًا!  
- هذه لغز!

- نسأل الله السلامة!  
فقال الكهل وهو لا يدري:  
- آمين... .

وكان عباس شفة يسترق إليهما النظر فسأل المعلّم نونو متكلّفًا لهجة الوعيد:  
- فيمّ تتحدّثان؟

فضحك المعلّم ضحكته المجلجلة وقال:  
- نتأمّر على أنفس أثاث البيت!  
وكفّوا عن الكلام فسمع صوت المعلّم زفته وهو يتحدّث في الجانب الآخر من الحلقة يقول لبعض المستمعين الأغراب بلهجة الناصح:  
- ثلاثة أشياء أشير عليكم بالإكثار من اقتنائها: الذهب والنحاس والسجاد الفارسيّ بقيمتها ثابتة، تبيعونها وقت الشدّة أو تتفعّعون بها في تجهيز البنات... .

فقال رجل معهم يدعى المعلّم شمبكي:  
- تبا للبنات وللأزواج وللأمهات...!  
فاومًا عباس شفة إلى المتحدّث وقال:  
- أما علمتم بأنّ حرم المعلّم شمبكي هجرت بيته غاضبة؟!

فأنشأ الحاضرون، وهنا عادت الستّ عليّات إلى جلسنها فسمعت العبارة الأخيرة وقالت:  
- لماذا يا معلّم؟ أرجو ألا أكون السبب...!

- الضرس الباقي وقح ...

فقال له :

- يا حشاش يا مجنون نحن نتكلم في الزواج، فما دخل السجادة؟!

- لا تغضبي يا ست فالصبر مفتاح الفرج، وما دمت ترغين في حمل المعلم شمبكي على الزواج مرة أخرى فسأقص عليه نادرة تغريه بالزواج (والثفت شمبكي) واستمر يقول: عاد شيخ إلى بيته بعد سهرة طويلة فرأى زوجته نائمة على فراشها، وكانت تنه عليه إدلالاً بحسبها حتى كُفرت عن سيئاته، فمر بها إلى فراشه وهو يقول بصوت منخفض: «الفتنة نائمة» فما كان منها إلا أن أمسكت بطرف الجبة وهي تقول: «لعن الله من أيقظها»!

وشعر أحمد عند ذاك باختناق ولم يعد يحتمل جو الحجرة، ونفذ صبره، فنهض قائماً كالمتربع، وجذبت حركته الأنظار، فسأله المعلم نونو:

- إلى أين؟!

فقال بصوت لا يكاد يسمع:

- حسبي هذا!

- هذه نهاية البداية، وما يزال أمامنا القافية والغناء والذهول الحقيقي...

ولكن الرجل أصر على الاعتذار، وتحرك في بطنه وتناقل، فقال المعلم زفة:

- أفراصلك نجحت أنت أيضاً؟!

وغادر الشقة؛ وأمسك بالدرابزين ونزل متثاقلاً وما زال يهبط ثم يهبط حتى خال السلم مفضياً إلى مركز الأرض، ولكنه انتهى إلى الطريق وخبط راجعاً إلى حجرته بعد أن قام بأخطر رحلة في حياته، وكانت الساعة تقترب من الثانية فخلع ملابسه في إعياء، وأطفأ النور واستلقى على الفراش. ولم يسارع إليه النوع كما توقع، وتبين له أن تحت جفنيه يقظة قلقة حائرة، وشعر بقلبه يطلق خفقات سريعة قوية مضطربة خالها تشيل الغطاء وتحطه، وتزاحمت الصور بمخيلته فالتبست وغرقت في غموض، إلا صورة واحدة غلبت ما عداها، تلك المرأة الهائلة، فهل

يلتمس وصلها كالآخرين؟ ولكن مهلاً، ماذا يفعل بها، إنها إذا احتضنته صغر وضؤل وصار كالبرغوث في إبط الفيل، كلاً ما تلك بامرأة، إن هي إلا رمز لدنيا الشهوة الساخنة التي انغrust قدماء في ساططها وحملت عيناه في عباها، وتضاعفت ضربات قلبه فجف ريقه، وتهاى له أنه يهوي من عل في فضاء لا نهائي ففزع جالساً في فراشه، وداخله شعور بالخوف واليأس... ولبت حتى مطلع الفجر يعاني آلاماً فظيعة، جسمية ونفسية...

- ٣٣ -

ولم يفكر بعد ذلك في معاودة المغامرة. ولم يجد فيه دفاع المعلم نونو وتأكيده أن ما حدث له إنما كان مرجعه إلى أنه لم يطعم حلواً بعد التدخين مباشرة، فأعرض عن إغراء الرجل وقال لنفسه يتأسي كعادته: «الظاهر أن الطبائع العقلية ليست بذات استعداد للتمتع بهذه الشهوات». على أنه لن يسي بحاجة إلى هذا المخدر كي ينسى شجونه، فعنداً إذا تمّ زواج شقيقه من الفتاة برأ هو ونسي. بيد أن رشدي ما زال يخبط في سبيله على غير هدئ، ولم يخفّف من غلواء عبثه واستهتاره، فلم يستردّ عافيته بل وساءت حالته، ولم يعد يخفى على عين إنسان هزاله، واستحال شحوب وجهه صفرة، وجعل يتناوبه سعال شديد ثم فترت شهوته للطعام. فها هو أحمد أمره، وقال له بلهجة حازمة:

- كأنك لإهمالك صحتك قد عدلت عن آمالك! لماذا لم تأخذ نفسك بالاستقامة حتى تستردّ صحتك؟ لذلك استعصى شفاؤك من مرضك الأول وأصابك هذا السعال الشديد، وما ينبغي لك بعد اليوم أن تعاود السهر أو الشراب، فماذا أنت فاعل؟!

ولم يكابر رشدي كعادته، لأنّ وطأة السعال كانت شديدة عليه، فقال بتسليم ليس من دأبه:

- سمعاً وطاعة!

قال المغرم بتعذيب نفسه:

الهزيل، فاقترب منه حتى صار لصقه، ومدّ يده ليربّت على منكبه فلاحته منه التفاتة إلى الحوض فرأى بقعة حمراء!.. فتصلّبت يده وخفق فؤاده خفقة انخلع لها صدره وهتف بصوت متهذّب:

- ربّاه!..

ثمّ نظر نحو شقيقه في ارتباك، وكان كفّ عن السعال ولكّته لم يزل في غيبوبة منه، يعلو صدره وينخفض، ويتنفّس بصعوبة، وقد احمرّت عيناه، فنرّيت الرجل حتى استعاد الفتى أنفاسه، وقال بلهفة مزعجاً وهو يشير إلى البقعة الحمراء:

- ما هذا يا رشدي؟!

فرفع إليه الفتى عينين كئيبتين وقال بصوته المبحوح:

- هذا دم!

- ربّاه!

فتجلّى الحزن في عيني الشاب، ثمّ أفلت منه زمام نفسه فاغرورقت عيناه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- أصبت وانتهيت!

فقال أحمد وكأنّه يتوسّل إليه:

- لا تقلّ هذا!

فقال الشاب بقنوط:

- هي الحقيقة يا أخي!

وفتح أحمد الصنبور ليغسل الحوض، وتأبّط ذراع الشاب، وسار به إلى حجرته - حجرة الشاب - ومضى إلى النافذة فأغلقها، وجلس رشدي على الفراش فأقّ الاخر بكرميّ وجلس أمامه، ثمّ سأله بعد أن ازدرد ريقه:

- ماذا تقول يا رشدي؟ صارحني بكلّ شيء!..

فقال الشاب بهدوء:

- ذهبت أخيراً إلى طبيب فقال لي إنّ بالرئة اليسرى مبادئ سلّ!

- ٣٤ -

والحقيقة أنّه ظلّ يعاني الآماً بارحة منذ منتصف ديسمبر، وحدث أن اشتدّت عليه نوبة السعال في

- تعجّل الشفاء يا رشدي قبل أن يستنجزك وعدك أهل الفتاة!

وأبدى الشاب المريض عزيمة صادقة، فانقطع عن كازينو غمرة، ولم يغادر البيت مساءً إلّا لإعطاء تلميذه الدرس الخصوصي - وهو واجب يستعذبه قلبه ولا يعدل به لذّة - ولأوّل مرّة مذ فارق صباه حاول أن يأوي إلى فراشه في الساعة العاشرة، ممّا دعا أحمد إلى الإعجاب المطلق بصنع الحبّ الساحر. إلّا أنّ الشاب لم يضعّ برحلة الصباح عن طريق الجبل على ما يقاسيه فيها من شدّة البرد القارص! لأنّها كانت متعة قلبه وزاد أحلامه. وصبر على تلك الحياة المستقيمة أليماً دون أن يطرأ على حالته ما ييشّر بالشفاء. بل نال السعال من حنجرته فاخشوشنت وبُحّ أخيراً صوته، فتعذّر عليه ترديد أغانيه المحبوبة. وكان عيد الأضحى قد أصبح على الأبواب، وأخذت له الأسرة أهبتها ككلّ عام، فجيء بكيش التضحية وشدّ من عنقه إلى نافذة المطبخ حيث لم يجدوا له مكاناً سواه في الشقّة، ومضت الستّ دولت تصنع الرقاق. وقد تشكّى أحمد - كمعادته - ارتفاع ثمن الخراف، وقال إنّ ربّما تعذّر عليهم ابتياع كبش في العام القادم، فهال أمّه القول وقالت له ضاحكة:

- ابصق هذه النيّة وطهر فاك الشريف!

وجاء العيد في الأيام الأوائل من يناير سنة ١٩٤٢، واستقبلته الأسرة - والحيّ جميعاً - بالبشر والفرح، وحفلت المائدة باللحوم أشكلاً وألواناً. ومن عجب أنّ رشدي لم يخرج عن نظامه الجديد في العيد، والحقّ أنّ إعياه لم يمكّنه من إشباع رغباته، أمّا أحمد فامضى عطلة العيد في قهوة الزهرة، ولكنّه لم يذعن لإغراء المعلّم نونو فخاب سعي الرجل لاستدراجه مرّة أخرى إلى بيت عليّات الفائزة، وهل يمكن أن ينسى ختام تلك الليلة الجهنميّة؟ ثمّ كان صباح اليوم الرابع من أيام العيد. وفي ذاك الصباح حدث ما جعل أحمد يذكره على الدوام، وقد استيقظ في منتصف التاسعة ومضى إلى الحجام كمعادته، فوجد رشدي مكبّاً على الحوض يسعل سعالاً شديداً يضطرب له جسمه

وأسهب الشاب في وصف السعال وآلامه وعمّا فقد من وزنه، فقاطعه الدكتور متسائلاً:

- ومتى بُعَّ صوتك؟

فأجاب الشاب:

- منذ أسبوع على الأقل.

فأمره أن يعرّي نصفه الأعلى، فقام الشاب، وأخذ في فكّ رباط رقبته ثم خلع السترة والقميص والفانلة، وتصدّى للطبيب نضواً مهزولاً، ووضع الرجل السماعة على أذنه وجعل يتلقّى بها آثار نقر سبّابته على الصدر والظهر. ولاحظ رشدي أنه كرّر ذلك كثيراً على موضع في أعلى النصف الأيسر من الصدر، وطلب إليه أن يرتدي ملابسه، ثم سأله:

- هل بصقت دماً؟

فانخلع قلب الشاب، وترتّب قليلاً، ثم قال بصوت منخفض:

- نعم... لاحظت ذلك مرّتين أو ثلاثاً!

فجاء الطبيب بقتينة زرقاء وأمره أن يتنحّج بشدة ويبصق فيها، ثم مضت فترة وجيزة ورشدي منتصب القامة، ثقيل الأنفاس كمن ينتظر النطق بالحكم، وقال الدكتور:

- إني أشكّ في وجود حالة ما في الرئة اليسرى، وليس من الحكمة الجزم بشيء الآن، ولكن اذهب توجّه إلى الدكتور ( . . . ) ليصوّر صدرك بالأشعة وعد إليّ بالنتيجة.

وحذّره من أن يشقّ على نفسه بأيّ مجهود، ولكن رشدي لم يبرح موقفه وقد تجمّهم وجهه وغشيت كآبة ثقيلة. فاستطرد الدكتور قائلاً:

- عسى أن أكون غلطاً! ولكن حتّى لو صحّ ظني فالإصابة بسيطة.

ومضى إلى الدكتور الآخر لتصويره بالأشعة، وانتظر أليّاما يعاني آلاماً نفسية مروّعة إلى جانب آلام السعال. ولم يكن في الحقيقة مطبوعاً على الخوف أو الوسواس والأوهام، ولكنّه وجد نفسه فجأة تحت رحمة أفكّ الأمراض، وأثر فيه اسم المرض تأثيراً بالغا. ثم رجع إلى الدكتور الأوّل ومعه صورة الأشعة، وفحصها

المصرف مرّة فاستخرج منديله ليصقّ فيه فبا روعه إلّا أن بصقّ فيه دماً! ورمق البصقة الدامية بنظرة ذعر وارتياح، ثمّ دسّ المنديل في جيبه خشية افتضاح أمره. وغادر المصرف إلى عيادة طبيب اختصاصيّ في الأمراض الصدرية، وجلس بين المنتظرين يقَلّب بصره الزائغ في الوجوه الشاحبة والأجسام الهزيلة ويسعل مع الساعلين، واستولى عليه القلق والانزعاج، وتساءل هل يقع فريسة لذلك المرض الخطير الذي تقشعرّ لذكره الأبدان؟، وكان سمع مرّة صاحباً يقول إنّ السلّ داء لا براء منه، فذكر قوله خافق الفؤاد. ولم يكن سبق أن أصيب بمرض عضال، فأشفق من أن يكون ذاك الداء الويل لأولى تجاربه القاسية. واشتدّ به القلق في جلسته حتّى تهيّأ له أن يقتحم حجرة الكشف، ولكنّه نصّب حتّى جاء دوره فدخلها يقاوم جاهداً اضطرابه وانزعاجه. وألقى على أركان الحجرة نظرة عجلى خطفت العدد والآلات وأخيراً الطبيب العاكف على حوض صغير يغسل يديه، ثمّ انتظر واقفاً، وجفّف الدكتور يديه والتفت نحوه. كان قصيراً نحيفاً دقيق الأعضاء، إلّا أنّه كبير الرأس أصلعه، واسع العينين جاحظ الحدقتين، حاذ النظرة؛ فجاءه الشاب برفع يده إلى رأسه، فقال له الرجل بصوت رفيع:

- أهلاً وسهلاً. تفضّل بالجلوس.

فجلس رشدي على مقعد كبير، ودلف الدكتور من مكتب أنيق وجلس أيضاً وراءه واستخرج كراسية ضخمة وفتحها وسأل الشاب عن اسمه وصناعته وعمره ورشدي يجيب. ثمّ حدّجه بنظرة الاستفهام التقليدية فأشار رشدي إلى صدره قائلاً:

- أريد أن أكشف على صدري.

وما كاد يتمّ قوله حتّى انتابه سعال عنيف، فانتظر الدكتور حتّى أمسك واستردّ أنفاسه وسأله:

- هل أصابك برد؟.. متى؟..

- أصبت بالإنفلونزا منذ أكثر من أسبوعين، وكانت حادة، والظاهر أنّي استأنفت عملي قبل أن أبرأ تماماً، فلم يفارقني الإعياء، ثمّ كان هذا السعال العنيف فتدهورت صحّتي..

- وإذا تعذّر عليّ الانتقال إلى المصحّة؟

فهزّ منكبيه تارة أخرى وقال:

- هنالك ينبغي لك مضاعفة العناية في البيت، خصوصاً الراحة والغذاء، فلْيَاك أن تفارق فراشك، وسأصّف لك العلاج الطيّب.

وفي أثناء انشغال الدكتور بكتابة «الروشتة» خطر له - أي الشاب - خاطر هامّ، فتردّد لحظة ثم قال متسائلاً:

- ثمة سؤال آخر: هل يمكن... أعني متى يمكن أن يتزوَّج مَنْ كان مريضاً مثلي؟!

فابتسم الطبيب لأوّل مرّة ثم قال:

- أرجو بالعناية أن تبرأ بعد ستّة أشهر، ومن الضروريّ بعد ذلك أن تبقى عامّاً كاملاً تحت الاختبار، ويا حبّذا لو صبرت نصف عام آخر...!

ونصحه مرّة أخرى بالانتقال إلى المصحّة إذا وسعه ذلك، ثمّ وصّاه - إذا لم يسعه الانتقال - بزيارته من حين لآخر. وعاد رشدي يتوء بكلمه وكربه، وكان كلّ شيء يبدو كحلّم مزعج، وامتلات أذناه بل دنياه جميعاً بذلك اللفظ المربع «السلّ»، فهل يصنّق ما يقوله الناس، أو يطمئنّ بما قاله الدكتور؟ وهل قرّر الدكتور - بما قال - الحقيقة أو أراد أن يُفْرَخ روعه؟.

ولكنّه صارحه أيضاً أنّه كان من ضحايا المرض، ولا يجد مسوّغاً لتكذيبه. أجل إنّ ستّة أشهر زمن طويل، فليتحلّ بجميل الصبر وليتوكّل على الله. ولو كان حرّاً يفعل ما يشاء لفُضِّل الاستشفاء في المصحّة، ولكنّ دون ذلك فقدان وظيفته، وحبّيته! فما العمل؟...!

إنّ صحّته مهتّدة، صحّته التي لم يقدرها حقّ قدرها إلاّ الساعة. فلم يذكر أوقات العافية والنشاط متحسّراً متأوّهاً قبل اليوم، ولا سبق إلى ظنّه أنّ الصحّة شيء يزول أو يتغيّر. ولكنّ ما قيمة الصحّة إذا فقد عمله؟

وما جدواها إذا حيل بينه وبين الفتاة التي شغف بها حبّاً؟ فمن الحكمة ألاّ يبرح البيت، وأنّ يتعهّد نفسه بالعناية والدواء دون أن يطلّع أحد على سرّه. وبذلك يستردّ صحّته محتفظاً بسرّه ووظيفته وحبّيته. هكذا تسلسلت أفكاره، وسرّ له الاقتناع بها أنّ قواه كانت

الرجل بعناية ثمّ تحوّل إليه قائلاً:

- كطّبيّ تماماً... سمّه خدشاً خفيفاً أو قذارة سطحيّة إن شئت.

وغاض الأمل، ولاح القنوط في العينين العسليّتين وهما ترمقان صورة الأشعة بنظرة ساهمة لا تفقه شيئاً. خدش خفيف أو قذارة سطحيّة... هل تُضحي الحياة رهينة بهاتيك التّوافه!

وقال للدكتور بصوت حزين:

- فلنسمّه بما تشاء، فهل يعني هذا إلّا أنّه سلّ لا يرجى له شفاء؟!

فحدّجه الدكتور بنظرة استنكار وقال بصوته الرفيع:

- لا يهولُك هذا الاسم، واطرح جانباً المخاوف التي لا أساس لها من الحقّ أو العلم، واعلم أنّ حالتك مضمونة الشفاء إذا اتّبعت ما أنا موصيك به... وأمسك قليلاً كالمتفكّر، فقال الشابّ بإشفاق:

- يقولون إنّ هذا الداء لا شفاء منه!

فهزّ الرجل منكبيه باستهانة وقال:

- انبذ هذه الآراء، واعلم أنّي كنت يوماً من ضحاياه، بيدّ أنّه يلزمك الغذاء الجيّد جدّاً والراحة التامة والهواء الجافّ النقي، وكلّ أولئك متوفّر في المصحّة، فإلى حلوان دون تردّد.

- وكم يستغرق العلاج من الزمن؟

- ستّة أشهر على أكثر تقدير!

فانقبض صدر الشابّ، وأيقن أنّ هذه المدة تقضي عليه حتّى يفقد وظيفته، وغداً إذا ذاعت الحقيقة وعلم بها «الجيران» فقد فاته كذلك! فنصر من اقتراح المصحّة، وقال للدكتور:

- وإذا كانت هذه الشروط متوفّرة في البيت؟

- أين تقطن؟

- في خان الخليلي...!

- هذا مكان رطب فيما أعلم، والمصحّة خير مأوى لك، ولا تنسّ العناية الطيّبة هنالك!.

وقويّ أمله في أن يستشفى في البيت دون أن يعلم بسرّه إنسان فيطمئنّ على وظيفته وفتاته، فقال:

عزمت عليه .  
فساور رشدي القلق، ورمق أخاه بحذر وهو  
يقول:  
- سأنفذ وصايا الدكتور بطبيعة الحال، وقد أوصاني  
بالراحة والتغذية الحسنة وبعض الحقن!  
فبدا على وجه الرجل كأنه لم يقتنع بما سمع وقال:  
- ولكن المصابين بهذا المرض يقصدون عادة إلى  
المصحة!

فكذب رشدي مرة أخرى قائلاً:  
- لم يجد الدكتور ضرورة للمصحة!  
فلاح الأمل في نظرة الكهل الراجم وقال:  
- لعلها إصابة تافهة يا رشدي!  
- أجل.. أجل.. هذا ما أكده لي!  
- عسى ألا تطول إجازتك!  
فعاد القلق يساوره، وقال بصوت منخفض:  
- ولكني لن أطلب إجازة!  
فانزعج الرجل وقال بإنكار:  
- فكيف يتم استشفائك؟!.. إياك وأن تستهتر  
بمرض مهما قيل عن بساطة الإصابة وحسبك استهتاراً  
يا رشدي!

- معاذ الله أن أستهين بحياتي يا أخي، وسترى  
بنفسك منذ اليوم أنني سأخذ نفسي بالراحة المطلقة في  
ما عدا أوقات العمل، وسأعوض ما أبذله من قواي  
لعملي بالغذاء المختار والأدوية الموقية. أما طلب إجازة  
مرضية فمخاطرة بوظيفتي ومستقبلي!  
- ألا تغالي في تقديرك؟!  
- كلاً يا أخي، فإذا عرف طبيب المصفر مرضي  
استحال عليّ العودة إلى العمل قبل الشفاء التام، وقد  
يقتضي ذلك زمناً طويلاً لا آمن معه أن أفصل من  
وظيفتي! بل الفصل محتم في تلك الحال نظراً لما منحته  
من إجازات مرضية هنا وفي أسبوط من قبل...  
فتجهّم وجه الكهل واشتدّ عليه الضيق، ثم قال  
بتألم:

- ربّاه! الصّحة فوق الوظيفة، كيف يتاح لك  
الشفاء وأنت جاهد في عمك!

وما تزال متماسكة، وقدرته على النشاط والحركة  
متوقفة. وشرع في العلاج منطوياً على سرّه حتّى شاعت  
المصادفة أن تُطّلع أخاه عليه، فرح الخفاء! والواقع أنّه  
لم يأسف لذلك كثيراً، لا لأنّ أخاه قطعة من نفسه  
فحسب، ولكن لأنّ صدره بات يتصدّع بسرّه الخطير،  
فوجد في البوح لشقيقه ارتياحاً وسلاماً، فأفضى إليه  
بكلّ آلامه، ما عدا ما يتعلّق منها بالمصحة مستوصياً  
بالحذر...

### - ٣٥ -

وأصغى الكهل إليه في صمت وذهول وحزن  
عميق، وزايلته الحالة المضطربة التي كانت تعتور  
مشاعره نحو أخيه فتسبغ عليها ألواناً متضادة من الميل  
والنفور، فلم يعد يشعر نحوه بغير شعور واحد لا  
يقاوم، ودوّرت حناياه له حباً خالصاً وإشفاقاً شديداً  
وحزناً مبرّحاً.

بيد أن ذكرى خطرت من الماضي القريب الأسيف،  
ولكنّه ذبّها عن مخيلته بقسوة خجلاً نائراً وامتلاً صدره  
حنقاً على الفتاة التي استارتها!  
وانتهى رشدي من قصّته فتبادلا نظرة أسي وحزن  
وكآبة.

ثم قال أحمد:

- هذا أمر الله، لن نياس من رحمة، فينبغي أن  
نصدّق الطبيب فيما يقول فليس العهد بالأطباء أن  
يكذبوا رحمة بمرضاهم. فالإصابة إذن بسيطة ولكن  
ينبغي أن نحتد لها كلّ ما في وسعنا من عناية  
وحكمة، وإن كان يدهشني أنّك لم تفض إليّ بالحقيقة  
في وقتها..!

فقال الشاب بسرعة وإن خالف الواقع:

- عرفت الحقيقة قبيل العيد مباشرة فلم أرد أن  
أزعج أحداً، ولكنّي كنت أتمحّين الوقت الذي أفضي  
إليك بالأمر وحدك!

فقال أحمد بحزن شديد:

- هي إرادة الله، فلنصبر على حكمه حتّى يمين علينا  
بالشفاء، وهو أرحم بنا من أنفسنا، والآن فأخبرني عمّا



أمره فتاته فيهن عليهم مرضه. وتأثر لذلك غاية التأثر، وتغلغل الحزن في أعماق قلبه، بيد أنه خشي أن يكون الشاب قد شقَّ على نفسه بالاستمرار في عمله - على مرضه - ليبدو أمام الفتاة وأسرته كالسليم المعافى، خشي أن يؤدي نفسه في سبيل حرصه على الفتاة، فاستجمع شجاعته وقال بصوت كالهمس:

- رشدي إذا كنت ترغب عن طلب الإجازة كي يبقى الأمر سرًا، فيمكن أن نختلق سببًا نعتل به على طلب الإجازة غير هذا المرض!

ولكن رشدي هز رأسه بحدة وقال بلهجة دلت على البرم:

- لا نَعُدْ إلى ما انتهينا منه!

فسكت أحمد، ثم نهض بعد فترة وجيزة وهو يقول:

- تشدد وكن رجلًا كهدي بك دائمًا، واعلم أن الشفاء رهن بإرادتك، حفظك الله ورعاك.

ورجع إلى حجرته محزونًا ضيق الصدر، وقد ستار الداء الخطير مخاوفه فاهتزَّ فؤاده عطفًا على شقيقه المحبوب، نسي في تلك الساعة أنه كان الآلة التي طعن الغدر بها أماله، أو أنه الشخص الذي جرح كبرياه وداس غروره، ورآه على حقيقته الأخ المحبوب الذي نشأ بين ذراعيه وغدَّى عواطف الأبوة من نفسه عشرين عامًا، ولسًا حانت منه التفاتة إلى النافذة المغلقة التي سيأها يومًا بنافذة نوال تمحوّل عنها كالغاصب، وأبى قلبه أن يذكر الفتاة كأن استدعاءها إلى رأسه جريمة لا تغتفر في حقَّ الشاب المريض، فينبغي أن تقطع هذه الكارثة المحزنة ما تخلف من أسباب الذكريات، وقال لنفسه: وذاك شيء انتهى وانقضى، والتأسف عليه وخز لعواطف الحب التي يكتها قلبي لشقيقي» وكان يتكلم بحدة دلت على السخط والاستياء، والحق أنه كان ساخطًا على نفسه، فلم يُنس أمنيته الأئمة أن تبيد القاهرة، ولا حلمه المخيف الذي استيقظ منه على تأوهات الشاب ليلة اشتداد الحمى عليه، رباه أي شيطان مقبى في أعماقه ينث هاتيك الأخيّة!...

- ٣٦ -

وتوثب رشدي عاكف بحماس لمقاومة مرضه

فقال رشدي برجاء وانفعال:

- لقد استأذنت الدكتور في ذلك فاذن لي، وهو أدري، وسيتمَّ الشفاء بإذن الله بغير ضياع مستقبل، وبغير «فضيحة».

فاشتدَّ التأثر بأحمد وقال مستنكرًا:

- فضيحة!.. ليس في الأمر فضيحة، هذا بلاء من الله، وكلَّ إنسان عرضة للأمراض إلّا من أمر الله له بالسلامة، ولكني أخاف..

- لا تخف، وادعُ لي ربك، وستجد مني ما يطمئن خاطرك!

فسكت أحمد مغلوبًا على أمره. وتنهَّد الشاب بارتياح، وراح يحدث أخاه بما سوف يتخذ من تدابير الوقاية، فقال له: إنه سيحضر حمامي فنيك لتطهير الحثام والحوض كلَّ صباح، وإنه سيقتني أواني خاصة لطعامه وشرابه متعللاً بأنّها هدية من شخص عزيز، وأنصت الرجل إليه بانتباه. ولأول مرة خامره الخوف والقلق، وخشي العدوى، وكان بطبعه هيأبًا موسوسًا. أما رشدي فكان يتحفّز لضراعة جديدة لا تقل خطرًا في نظره عما سواها إن لم تزد، فقال:

- وهنالكَ يا أخي أمر عظيم الأهمية أرجو أن ترعاه بالناية التي أرعاه بها، وهو أن يبقى ما دار بيننا سرًا دفينًا..

فدهش أحمد، وذكر ما قاله منذ لحظات من أنه سيقتني أواني خاصة متعللاً بأنّها هدية، فغمغم قائلاً:

- ووالدانا؟!

فقال رشدي بحزم:

- لا ينبغي أن يعلم بشيء، فلا داعي لإزعاجهما،

ثم إنَّ فزع أمي كفيّل بافتضاح السر!

فارتبك الرجل، وأيقن أنه مقبل على حياة مؤلة غريبة، فتنهَّد قائلاً:

- يَدِكَ الأمر يا رشدي، فإذا توثبت للشفاء حقًا

امكن أن يظلَّ السر سرًا، أمّا..

- لا تخف لم تعد الاستهانة ممكنة بعد اليوم..

وأدرك بسهولة ما يحمل الشاب على إخفاء مرضه

حقً عن والديه، فإنّه ليخاف أن ينمو الخبر إلى مسامع

سمع مسرّات الحياة - مسرّات حياته - تناغيه بهمساتها الساحرة كتغريد البلابل في الصباح الباكر، فذكر في وحدته الإخوان وكازينو غمرة والليالي الصاخبة. فتخايلت لعينه وجوههم المرحّة، ورئت في أذنيه أصدااء ضحكاتهم المجلجلة، ودعاؤهم له بقلب الأسد، كنيته التي يجبّها ويضطرب لها ويخاف عليها عوادي النسيان. يا لهم من إخوان لا تطيب الحياة إلّا بهم، ما أظرفهم وما الطفهم!، وهل يمكن أن ينسى كيف انثالوا على السؤال عنه بالتليفون في المصرف حين انقطع عنهم؟!، أين أنت يا عمّ رشدي؟!، ما هذه الغيبة الطويلة؟!، لقد كنت في أسبوط أقرب إلينا منك وأنت في القاهرة! إلّا ما يبقى كرسى قلب الأسد شاغراً؟!، أوحشتنا نفودك!، ولكم ضاحكهم ودافعهم واعتذر لهم بمشاكل هامة!، وأهاجه الحنين إلى الصحاب واستفزه الشوق إلى المرح، واستهامته اللهفة على اللذات، وجعل يقول لنفسه هل في لقاء ليلة حرج؟! هل تقتل سهرة أو غميت؟!، والحق أنّ هيامه بالحياة لم يفتّر بسبب الداء، بل بالأرجح أنّه غدا أرهف حساً وأعف نشاطاً وأضرم حباً وولعاً، ثم استحرّ الإغراء فانعدم التردد، ووجد خلاصه من عذاب الحيرة ارتياحاً فراح يندندن بصوت رخيم «ما اقدرش أنساك»، ولم يكن ترنم بغناء منذ شهر ونصف. وعندما أتى المساء تلقّع بمعطفه وأحكم الكوفية حول عنقه ومضى إلى السكاكيني، وما إن لاحت لعينه حديقة كازينو غمرة حتّى هتف من أعماق الفؤاد «أهلاً وسهلاً ومرحباً». وتلقّاه الإخوان بالسرور، فاستسلم لتيّارهم الجارف، وأخذوا في الحديث الماجن كعادتهم طويلاً، ثم انتقلوا إلى البهو الداخليّ يدخّنون ويشربون ويقامرون، وخاف أن يمتنع عن لذة فيثير الظنون، ورغب من ناحية أخرى أن يتناسى - في يقظة الأمل - أنّه يطوي في رثته اليسرى ما تقشعرّ الأبدان لذكر اسمه، فدخّن بسرور وشرب كأسين من الكونياك بعثا الدفء إلى جسده البارد، وقامر أيضاً وإن تردّد قليلاً لأنّ تكاليف الدواء أرهقت ميزانيته، ولكنّ الحظّ ابتسم فربح زهاء الجنيهين،

الخطير، وواظب على تناول ما أشار به الدكتور من الحقن والأدوية، وخصّ نفسه - فوق طعام البيت المعتاد - بأغذية ملحوظة الفائدة كاللبن والبيض والعسل والكبد والحما، وأنفق في ذلك عن سعة، وكان يُطلع أخاه على خطى كفاحه أوّلًا بأوّل ليطمئنّ فؤاده المحبّ. ومضى شهر يناير جميعه ببرده القارص على حال تبشّر بالخير. ففنع من يومه بساعة سرور واحدة يمضيها بين تلميذيه المحبوبين، ثم لا تأتي الساعة العاشرة مساءً حتّى يكون قد راح في نوم هادئ عميق. وزايلت البهجة صوته وخفّ السعال فأوشك أن يزول، وراعه ذلك وأيقن فرحاً جذاً أنّه يتماثل للشفاء، ولكنّ هزاله لم يزل ولونه لم يسترد. وكان يزور الطبيب كلّ عشرة أيام فوالاه بالنصح ووصّاه بمضاعفة العناية.

وقد كانت أيام المرض الأولى سوداً؛ فوقع فريسة للأوهام والمخاوف، وخامره شعور مفرّج بالقنوط، وتبيّ له أنّ حياته تؤذّن بالوداع، حياته التي يكنّ لها حباً لا يكتفه لها أحد من بينها المخلصين، كلّما ذكر أنّه في القاهرة حيثما كان ينبغي أن يكون في حلوان، وأنّه في عمل بيتنا كان ينبغي أن يكون في إجازة، اشتدّ خوفه وفزع، يبدّ أنّ أولئك الانفعاليين لا يعرفون التردد في ما تدعو إليه أهواؤهم، ويتخذون من عقولهم ما يتخذ الأثم من المحامي الماهر، فاستطاع أن يقنع نفسه - حتّى في ساعات خوفه - بوجاهة الرأي الذي ارتآه ونقّده. ولما زايلت صوته البهجة وسكت فيه السعال أو كاد، غمره الارتياح، واستردّ ثقته بنفسه، وشعوره بالأمان وتعلّقه بالأمل، وتساقطت الطمأنينة على فؤاده المروّع قطرات من السكينة والرحمة. ولم يُضِر على ذلك أمد طويل حتّى عاوده شعوره بالجساسة ونزوعه إلى الاستهتار، وألحّ عليه حبّ العميق لمسرّات الحياة، فلم يعد المرض وخطره شغله الشاغل. ورمى صبره وقوّة إرادته بعين الإعجاب، وذكر شهر يناير - الذي أذعن فيه لما عاهد عليه نفسه أمام أخيه - بالدهشة والإكبار، وكأنّه لا يصدّق أنّه استطاع حقاً أن يزوي ويستقيم شهراً كاملاً. ومن فرجة الأمل الباسم

- حُسْبِكَ تَعْبًا وَحُسْبِي أَلَمًا فَلَا تَبْكِي، لَا بَكَيْتْ  
أَبَدًا، وَلَنْ أَزِيدَكَ فَالْهَ وَحْدَهُ كَفِيلُ بَانَ يُلْهِمُكَ  
الصَّوَابَ، إِنَّ قَلْبِي يَخَافُ عَلَيْكَ وَيَدْعُو لَكَ فَاثْمُصْ  
إِلَى فِرَاشِكَ وَأَتَّقِ اللَّهَ فِي صَحَّتِكَ!  
وَجَعَلَ يَتَسَاءَلَ مِنْزَعَجًا تُرَى هَلْ يَسْتَعِيدُ الشَّابَّ  
سِيرَتَهُ الْأُولَى مِنَ الْإِسْتِهَانَةِ بِالرَّغْمِ مِنْ مَرَضِهِ الْخَطِيرِ؟!

### - ٣٧ -

وَاسْتَقْبَلَتِ الدُّنْيَا أَيَّامَ فِرَارِ الْأُولَى مُشْفَقَةً مِنْ رِيَاخِهِ  
الْعَاصِفَةِ وَزَوَابِعِهِ الْبَارِدَةِ الْمَزْجَرَةِ، وَقَدْ تَلَفَعَتِ السَّمَاءُ  
بَارِدِيَّةً ثَقِيلَةً دَاكِنَةً مِنَ السَّحَابِ الْجَوْنِ، فَأَمْسَتْ  
الْأَرْضُ كَفْرَخٍ فِي بَيْضَةٍ، تَرْقُبُ الرَّبِيعَ لِنَشَقِّ حِجَابِ  
الظُّلُمَاءِ عَنْ هَبْجَةِ النُّورِ وَعَبِيرِ الْأَزْهَارِ، وَظَلَّ رَشْدِي  
جَسَدًا مَهْزُولًا فِي قَرَارَتِهِ ضِرَامٍ لَا يَجِدُ مِنَ الْعَوَاطِفِ  
وَالْأَحَاسِيسِ وَفِي قَلْبِهِ تَمَرَّدٌ نَائِرٌ عَلَى الْأَغْلَالِ الَّتِي صَفَّدَهُ  
بِهَا الْمَرَضُ الْخَطِيرُ. وَكَانَ الطَّبِيبُ أَعَادَ عَلَيْهِ الْكُشْفَ  
أَخِيرًا وَقَالَ لَهُ إِنَّ حَالَةَ الصَّدْرِ لَمْ تَحْسُنْ! فَخُجَابِ  
أَمَلَهُ، وَتَنَقَّصْ عَلَيْهِ سِرُّهُ السَّابِقَ بِشِفَاءِ صَوْتِهِ  
وَسَعَالِهِ، لَقَدْ صَبَرَ طَوِيلًا، وَهَجَرَ الْحَيَاةَ الَّتِي يَعِشُهَا،  
وَكَانَ يَرْجُو وَيَأْمَلُ، فَمَتَى تَحْسُنْ إِذَا، وَالْأَدَهَى مِنْ  
ذَلِكَ أَنَّ الطَّبِيبَ أَلَحَّ عَلَيْهِ أَنْ يَجِدَ سَبِيلًا إِلَى حُلُوَانِ،  
فَهَلْ أَيْسَرَ الرَّجُلَ مِنْ أَنْ يَسْعَى الشِّفَاءَ إِلَيْهِ فِي  
الْقَاهِرَةِ؟! وَمَا جَدَّوِي الْعَذَابَ وَالصَّبْرَ إِذَا؟ وَفَضْلًا عَنْ  
هَذَا فَأَخُوهُ لَا يَخْفِي عَنْهُ عَدَمُ ارْتِيَاخِهِ لِهَزَالِهِ وَشُحُوْبِهِ،  
فَبَاتَ سَاخِطًا مَتَبَرِّمًا.

وَكَانَ ذَاتَ مَسَاءٍ يَلْقَى دَرْسًا عَلَى تَلْمِيزَتِهِ، فَكَلَّفَتْ  
نَوَالُ أَخَاهَا أَنْ يَحْضُرَ كُوبًا مِنَ الْمَاءِ، وَلَمَّا خَلَا لَهَا  
الْمَكَانَ قَالَتْ لِلشَّابِّ بِسُرْعَةٍ مَتَسَائِلَةً: «أَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ  
تَقَابِلَنِي صَبَاحًا كَمَا كُنْتَ تَفْعَلُ؟.. وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً!»  
فَخَفِقَ قَلْبُهُ خَفَقَةً السُّرُورِ وَقَالَ دُونَ تَرَدُّدٍ، مَتَعَامِيًّا عَنْ  
الْعُقَابَاتِ جَمِيعًا: «عَدَا صَبَاحًا!». ثُمَّ ذَكَرَ أَخَاهُ الَّذِي  
صَارَ سَجَانَهُ فَقَالَ لِنَفْسِهِ: «إِنَّهُ سَلَّمَ بِضُرُورَةِ خُرُوجِي  
صَبَاحًا السَّاعَةَ الثَّامِنَةَ، فَمَا يَضِيرُهُ لَوْ قَدَّمْتُ الْمِعَادَ ثَلَاثَةَ  
أَرْبَاعِ سَاعَةٍ؟». وَنَهَضَ مَبْجَرًا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي، وَتَنَاوَلَ  
فَطُورَهُ الدِّسَمَ، وَرَصَدَ أَخَاهُ حَتَّى دَخَلَ الْحَتَامَ فَاَنْطَلَقَ

وَأَبَ مَسْرُورًا وَإِنْ شَعَرَ بِحَرَارَةِ تَلْتَهُمْ أَنْسَجَتَهُ،  
وَأَجْهَدَهُ الْمَشْيَ فِي الْجَوِّ الْقَارِصِ، وَبَلَغَ الْبَيْتَ فِي حَالَةٍ  
مَضْغُضَةٍ مِنَ الْإِعْيَاءِ، وَمَا إِنْ أَغْلَقَ الْبَابَ فِي هَدْوٍ  
حَتَّى انْفَتَحَ بَابُ حَجَرَةِ أَحْمَدَ وَلَا حَاجَ لِلرَّجُلِ وَرَاءَهُ،  
فَدَعَاهُ إِلَى حَجَرَتِهِ، وَمَضَى إِلَيْهَا مَرْتَبِّكًا يَمْشِي عَلَى  
اسْتَحْيَاءٍ، وَهَتَفَ بِهِ أَخُوهُ:

- مَاذَا فَعَلْتَ؟.. هَلْ جَنَنْتَ؟.. أَهَذَا مَا اتَّفَقْنَا

عَلَيْهِ؟!

فَلَاذَ بِالصَّمْتِ وَقَدْ ارْتَسَمَتْ عَلَى شَفْتَيْهِ شِبْهُ ابْتِسَامَةٍ  
تَدُلُّ عَلَى الْارْتِيَاخِ وَالْحَرَجِ فَاسْتَدْرَكَ أَحْمَدَ:

- هَذَا فَوْقَ التَّصَدِيقِ، وَمَا دَرَيْتَ بِهِ حَتَّى نَبَا بِي  
الْفِرَاشَ، وَظَلَّ نَوْمِي خَفِيفًا قَلْبًا حَتَّى أَيقِظْتَنِي صَفَقَةَ  
الْبَابِ، أَهَذَا مَا اتَّفَقْنَا عَلَيْهِ؟

وَخَرَجَ رَشْدِي عَنْ صَمْتِهِ بِأَنْ قَالَ بِصَوْتٍ  
مُنْخَفِضٍ:

- أَنْتَ تَعْلَمُ يَا أَخِي أَنِّي حَافِظْتُ عَلَى الْإِتِّفَاقِ شَهْرًا  
كَامِلًا، ثُمَّ نَازَعْتَنِي نَفْسِي أَنْ أَرْوِّحَ عَنْهَا قَلِيلًا..

- هَذَا كَلَامُ إِنْسَانٍ يَجْهَلُ الْحَقِيقَةَ أَوْ يَتَجَاهَلُهَا، أَلَا  
تَعْلَمُ أَنَّ اسْتِهْتَارَ لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ يَهْدِرُ مَا بَنِيَتْهُ فِي شَهْرِ  
كَامِلٍ؟!

- وَلَكِنِّي فِي الْوَاقِعِ أَشْعُرُ بِتَحَسُّنٍ كَبِيرٍ!

فَقَالَ أَحْمَدُ بِحَدَّةٍ:

- أَنْتَ تَخْدَعُ نَفْسَكَ، وَتَقْسُو عَلَيْهَا بِجَهْلِكَ،  
وَتَرْكُكُ حِرًّا خَطَأً كَبِيرًا، وَلَوْ كَانَ الدُّكْتُورُ يَعْلَمُ بِمَا  
فَطَرَتْ عَلَيْهِ مِنْ اسْتِهْتَارٍ لَحَتَمَ عَلَيْكَ أَنْ تَتَّقَلَ إِلَى  
الْمَصْحَةِ غَدَاةَ الْكُشْفِ عَلَيْكَ.

فَتَجَلَّى الْحُزْنُ فِي عَيْنِي الشَّابِّ، وَتَكَدَّرَ صَفْوُهُ، وَكَانَ  
الْجَهْدُ قَدْ أَعْيَاهُ، فَقَالَ كَالْعَاتِبِ:

- لَا تَكُنْ قَاسِيًا عَلَى غَيْرِ عَهْدِكَ.

- هَا أَنْتَ ذَا لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ الْخُنَانِ وَالْقَسْوَةِ، فَتَدْعُونِي  
قَاسِيًا جِزَاءَ قَلْبِي وَسَهَادِي وَإِشْفَاقِي، فَلَكُمْ تَقْسُو عَلَى  
نَفْسِكَ وَعَلَيَّ!

وَاشْتَدَّ بِالشَّابِّ الْإِعْيَاءُ وَالتَّأَثُّرُ، فَاغْرُورَقَتْ عَيْنَاهُ،  
فَمَا أَسْكَتَ غَضَبُ أَحْمَدَ وَحَوْلَهُ إِلَى إِشْفَاقٍ وَتَأَلَّمَ وَعَدِمَ  
ارْتِيَاخَ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِ الشَّابِّ وَقَالَ يَهْدُوهُ:

شكري وقولي لها إني طامع في المزيد من النحافة .  
وقطبت فجأة كأنما ذكرت أمراً ذا خطر وقالت  
بلهجة التعنيف:

- على فكرة يا ماکر! .. يحلو لك أحياناً ونحن حول  
مائدة الدرس أن تداعب قدمي بقدمك متجاهلاً أن  
قدميك متعلتان وقدمي عاريتان! .  
فضحك رشدي، وقد تورّد وجهه، وقال:

- نفسي فدء لقدميك العزيزين!  
ومرّاً عند ذاك بالقهوة المعروفة ببنادي الصحراء،  
فقال له وهي تومئ إلى النادل وكان يتناول فطوره:  
- ألم تدبّر أنّ هذا النادل الخبيث فطن إلى تواعدنا  
كلّ صباح؟! فلما رآني أسير وحدي الاتّام الماضية جعل  
يصفق بيديه كلما مررت به ويمول وكأنّه يحدث نفسه:  
«أين أليفك يا بلبل؟.. كلّ الأحبة اثنتان اثنتين!..» .  
ربّاه!.. لكم تولاّي الحياء حتّى كدت يُغسي عليّ!  
واسترسلا في الضحك مرّة أخرى وكانا يقتربان من  
منعطف الطريق الذي توجد على جانبيه مقبرة عاكف  
الخشيبة، ولمحها الفتاة فقالت:

- أنتم مدنون لي بمائة رحمة على الأقلّ، لآني أفرا  
الفاتحة لمفرتكم كلّ صباح!  
فقال لها منبساً:

- أنت با نوال رحمة للجدّ وعداب للحفيد!  
ثمّ امنّد بصره إلى المقبرة فسرعان ما خطر له خاطر  
خفيف كأنّه شيطان انشقت عنه أرض الموق، هل  
يجري القضاء غداً بأن تقرأ فتاته - وهي اخذة طريقها  
هذه - الفاتحة على روحه هو؟! وانقبض صدره، ثمّ  
استرق إلى وجهها الأسمر نظرة غريبة، فشعر بأنّها كلّ  
أمله في الوجود، وبأنّه إذا جاز لشيء أن يسخر من  
الموت ويستهن بمخاوفه فهو اتحاد قلّين متفانين،  
ووجد دافعا قوياً يدعوّه إلى التعلّق بها، وضّمّها إلى  
قلبه، بل إلى شغاف قلبه إذا أمكن. ولاحث منها  
التفاتة إليه فطالعت نظرتة الحاملة، فلاح في وجهها  
الجدّ، وسألته:

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟

فقال بصوت متهذّب:

إلى الخارج كالمهارب، ورأى في الممرّ المفضي إلى السكّة  
الجديدة حببته تسبقه بخطاها الخفيفة مرتدية معطفها  
الرماديّ، متأبطّة حقيبتها، فطرب قلبه طرباً أنساه  
شجونه، ثمّ صعد في أثرها طريق الدراسة، فذكر  
كيف كان يصعد هذا الطريق في أعقابها صحيحاً معافى  
صافي أديم الفؤاد، وتنهّد من أعياق فؤاده متحرّساً  
مغمغماً: «ما أنفس كنز الصّحة!». ورفع بصره إلى  
جبل المقطم وقد أطبقت السحب على قمته، وكانت  
السماء تذكره دائماً برّبّه، فدعا الله أن يأخذ بيده!

ولحقّ بها بعد المنعطف، وأخذ يمشيها بيسراه،  
فعطفت رأسها نحوه وعلى تغرها ابتسامة، وقالت  
تداعبه بلهجة لم تخلُ من عتاب:  
- أهان عليك طريقنا هذا أيّها الغادر؟  
فهزّ رأسه متأسّفاً وتتمم:

- لعن الله البرد!

- كان ينبغي أن تبرأ منذ أمد طويل، فما هذا  
التلكؤ؟!

فامتعض قلباً وقال:

- أجل، وما بقي فهو هيّن.. والحقّ أنّ إهمالي هو  
المسئول الأوّل!

وكانت تعلم طبياً أنّه انقطع عن لقاء الصباح  
بسبب السعال، فلما زابله السعال تشجّعت ودعته إلى  
مرافقتها شوقاً إلى الانفراد به، وقد اختلست نظرة من  
وجهه الشاحب النحيل وقالت له:  
- ألا تدري ماذا تقول عنك نينة؟

فخفق فؤاده، وخشّي أن يسمع تلميحا لبقا إلى  
مسألة «الخطوبة» وسألها:  
- ماذا تقول يا تُرى؟

- قالت لي ضاحكة: ما بال أستاذك نحيفاً  
كالخيال؟!.. هلاًّ تقبل منّي وصفة للسمن؟!  
وضحكت نوال ضحكة رقيقة، فجاراها في  
ضحكها، ليجاري شعورها بالحزن غشي صدره،  
وساوره القلق، ولكنّه لم يزدأ من أن يقول بلهجة  
تكلف بها السرور:

- وما حاجتي إلى السمن والنحافة موضوعة؟! أبلغها

الضعيفة مرغى خصيئنا للهواجس والأحزان، فصار مرض شقيقه - منذ اللحظة الأولى - شغله الشاغل وهمه اللازم وشوكة سامة في جانب طمأنينته وامتد خوفه إلى نواح أخرى حتى ألقى به في النهاية في مواجهة مشكلة من أدق المشكلات الخلقية، لم تكن لتخطر له على بال. فلم يغب عن ذهنه أن شقيقه يلتقي بالفتاة كل صباح، وربما انفرد بها مساء وهو يجلس منها مجلس الأستاذ، فإذا أغراه الهوى - شأن المحبين - بقبلة، أفلا تتعرض الفتاة لأذى بعيد الغور؟! ألا يدرك رشدي خطورة الأمر؟!... ألا يجد من ضميره وازعاً؟! ولكن كيف عن يستهين بحياته أن يعرف حياة الآخرين قيمة؟... وتفكر في الأمر طويلاً، متكدراً مغتأ، لا يدري كيف ينقذ من الهلاك فتاة بريئة، وبدت حيرته ذات بواعث أخلاقية صافية، ولم بداخله شك في أنها كذلك ولا كانت تخلو في الواقع من شعور أخلاقي عميق، ولكنه لم ير ما عداها على نزوعه الطبيعي إلى تفحص نفسه، أو أن العين في أحايين كثيرة لا يرى إلا ما تحب أن تراه، فتكدر واغتم، وأفضى به الكدر والغم إلى حيرة شديدة، فلا هو يستطيع أن ينمي الحقيقة إلى كمال خليل لأن خيانة أخيه الحبيب جريمة نكراء لا يمكن أن يجترحها، ولا هو يستطيع أن يكشف الشاب بخاوفه أن يصيب مقتلاً من نفسه الحساسة الرقيقة، وعذبه القلق والتردد والإشفاق، ولم يكن أنذا ذا عزيمة أو إرادة، فنكص على عقبيه بقلب حائر وفكر مشتب، وظلت المخاوف تطارده، وتلح على ضميره حتى بلغ منه الإعياء والكلال، فتساءل في يأس وقنوط: «أليست غيبوبة المعلم زفة خيراً من هذه الحياة؟!».

- ٣٨ -

وزادت حال رشدي سوءاً، فاشتد هزاله وشحوبه، ولكنه بدا مستهتراً سادراً كأن الأمر لا يعنيه، ولم يعد يقنع برحلات الصباح في طريق الجبل فكان كلما نازعه الشوق إلى كازينو غمرة انطلق إلى الإخوان يعربد

- لآتي أحبك يا نوال... لقد أدركت - وأنا أنظر إلى القبور على ضوء عينيك - معنى القول إن الحياة الحب، وقالت لي القبور إن كل ساعة نرضى بأن تفرق بيننا جريمة عقابها ظلمة القبر، وسمعت صوتاً يهف بي: الله ما أحقكم تفتنون بالتافه من الأشياء عن العبث وتعبثون جزافاً بنعمة الحياة!..

فتورّد خداهما وأضاءت عيناهما الصافيتان بنور الوجد، فلم يعودا (هو وهي) يشعرا بهبات الهواء البارد المنذفع من الصحراء، وشدّ على راحتها وسارا صامتين. ومضى بنساءل ترى كيف يسوِّغ أن يمسك عن ذكر «الخطبة» بعد كل ما قال! وكانت تتوقع من ناحيتها أن يطرق الموضوع المحبوب قبل كل خطوة تخطوها، ولكنه لزم الصمت حتى شارفا نهاية الطريق، وتوادعا ثم افترقا، فبطوت حركته وهو يتابع مسيرها بنظرة استجمعت في حناها جميع ما في قلبه من حب ووجد وحزن، حتى انعطفت مع الطريق إلى العباسية، وأخذ في طريقه إلى محطة الترام، وعند داك فحسب شعر بالإعياء واضطراب الأنفاس ودوار يوشك أن يصبر غشائنا..

\*\*\*

ولذلك لم يفته أن يحدث أخاه عن الخطبة وعمّا عسى أن يجده إمساحهم عن فتح موضوعها من سوء الظن في نفوس أهل الفتاة، ولكن أخاه - وكان غاضباً لعودته إلى الخروج المبكر - لم يوافق على مقابلة كمال خليل أفندي بهذا الشأن قبل الشفاء الكامل، فقال للشاب:

- اعتل بما نشاء من المعاذير فأنت أستاذ في اللبابة، ولكن لا يجوز أن نتكلم رسمياً قبل أن تشفى تماماً إن شاء الله، سيكون إعلان الخطوبة مكافأة الشفاء فأرنا همتك!

وعجز الرجل عن إقناعه بالعدول عن الخروج الباكر والتعرض لأذى البرد، فأيس منه وسلم إلى الله سائلاً إياه اللطف والرحمة، وكان ممن يشقون بالأم الأقرين، فتجد الأوهام والمخاوف من صدورهم

الحالة إلى استشارة الطبيب، فاقترح أحمد أن يدعوه إلى البيت ولكنّ رشدي اختار أن يذهب إليه معاً، فارتدى بذلك بمساعدة أمه، وقد اتّسعت عليه آتيا اتّساع، واستقلّا عربة إلى عيادة الطبيب، وصحبه أحمد إلى حجرة الكشف، ولما وقع بصـر الطبيب، ولم يكن رآه من أسبوعين، قال بصوته الرفيع وهو يتظاهر بالابتسام:

- ماذا فعلت بنفسك؟

فابتسم رشدي ابتسامة باهتة وغتم قائلاً:

- السعال وضعف شديد!

وأجرى الدكتور الفحص، فساد الصمت برهة غير قصيرة، ثمّ قال بعد الانتهاء:

- كلمة واحدة لا أزيد عليها: المصحّة!...

فتجهّم الوجه المصفرّ، وتساءل صاحبه بصوت خافت:

- هل زادت الحالة سوءاً؟

فرفع الرجل حاجبيه وقال:

- هي الحقيقة، ولا شك أنّك لم تتبع نصحي، ولكن لا داعي للخوف إذا بادرت بالذهاب إلى حلوان. سافر اليوم إن أمكن، وستجدي هناك إلى جانبك!..

وسأله أحمد:

- هل تطول إقامته في حلوان؟

فقال الرجل:

- علم هذا عند الله، ولست متشائماً، ولكن لا يجوز الإبطاء!

ورجعا إلى البيت فوجدا الوالدين ينتظران فارغي الصبر، وبادر الوالد أحمد قائلاً:

- ماذا به؟

وعلم أحمد أنّ الكذب لن يجدي فقال واجماً، وباقتضاب ذي مغزى:

- المصحّة!

وساد الصمت، واحمرت عينا الستّ دولت منذرة بالبكاء، وغتم الوالد:

معهم حتّى مطلع الفجر. وكان أحمد يقول له مبكّثاً: «أتروم الانتحار؟!». والحقّ أنّه انحدر في سبيل الانتحار بلا قصد، وعجز عن مقاومة ميله الطبيعي للذّات، وأذعن للحساسية المرفهة الجديدة التي أحدثها المرض في نفسه، وحجب العاقبة عن عينيه طبيعته الجسور المتفائلة، فلم يفقد الأمل قطّ، أو لم يفقده إلاّ لحظات عابرة، وظلّ على عهده من الجسارة والاستهانة والابتسام. ولكنّه فوجئ بعودة السعال بل عاد أعنف ممّا كان في أسوأ حالاته، ثمّ تابعت عليه نوباته، وتلوّث بصاقه مرّة أخرى بالدم، ولقت نوبات السعال الموقّفين إليه في المصرف، فساورتهم الشكوك، وأسمى عمله عديم الجدوى، وتنبّه الوالدان للخطر الذي يهدّد ابنتها ونصحها بالانقطاع عن عمله حتّى يسترّد صحته، ولكنّه بالرغم من ذلك كلّ ظلّ يكافح متعلّقاً في جنون بمظاهر الأصحاء المعافين. ولم يستطع أحمد صبراً فدعاه يوماً إلى حجرته وقال له بحزم:

- إلّا تمّ تغاضي عن خطورة الحال؟

فسأله الشابّ في استسلام لم يتوقّعه:

- يَمّ تشير عليّ؟

- لا يجوز بعد اليوم أن تواصل عملك فضلاً عن

السهر والعريضة!

- وإذا انفضّح سرّي؟!

قال أحمد بتأثّر شديد:

- ليس المرض بالفضيحة، وللضرورة أحكام!

فأطرق رشدي وقد خارت عزيمته وتنهّد من فؤاد مكلم قائلاً:

- الأمر الله!..

ونجم استسلامه المفاجئ عن الإعياء - لا الاقتناع - ولذلك ما كاد يقرّر طبيب المصرف سبب مرضه الحقيقي ويمنحه أولى إجازاته المرضيّة حتّى خارت قواه، وقرّد على الفراش صريع الضعف والسعال، وأخفى أحمد الحقيقة عن والديه، ولكنّ الحالة اشتدّت اشتداداً مخيفاً، ورأت الأمّ البصاق الدامي وعلم به الوالد، ففزعا فزعاً شديداً، ورؤّع قلباهما الضعيفان. ودعت

بالنحافة هو الذي أدّى به إلى المرض، وتعهدت له ضاحكة، بأن تتولّى تسمينه بعد الشفاء، ولم تذر نوال ماذا تقول على مسمع من الوالدين، ولم يستطع الشاب أن يديم إليها النظر، ولكنّ عينيه التفتا بعينيهما في لمحات خاطفة فتجاوبت رسائل الحبّ والشكر والحزن الصامته، وسرّ رشدي بالزيارة سرورًا لم يشعر بمثله منذ استسلم للرقاد. وبعد خروج المرأة وابنتها أعرب لأمّه عن خوفه من افتضاح حقيقة مرضه، ولكنّ المرأة المحزونة طمأنته قائلة إنّ مرضه سرّ مطويّ في صدور محبّيه.

وفي صباح اليوم الأوّل من مارس حملت عربية الشقيقتين إلى محطة باب اللوق وكان دعاء الأب آخر ما سمع رشدي في البيت، وكانت دموع الأم آخر ما رأى، وفي الطريق قال الشاب لشقيقه:

- إذا طالّت مدّة التداوي فصلت من عملي حتّى!  
فقال له أحمد بثقة:

- وحتى لو حدث هذا - لا قدّر الله - فعودتك إلى عملك مرّة أخرى أمر يسير، ولا تشغل نفسك بغير الشفاء!

ثمّ انتقلا إلى الديزل، فانطلقت بهما في طريق حلوان، وجلسا جنبًا إلى جنب، وكان أحمد صامتًا يلوح في وجهه النحيل الهمّ والفكر، وكان رشدي يسعل من حين لآخر. وعجب أحمد لسوء الحظّ الذي يلاحق أسرته، فقد فقدت غلاّمًا. وما هو رشدي يصاب بالداء الخطير، أمّا هو فقد نصبه الدهر هدفًا للعثرات والإخفاق! ولو وقع الدهر به فدية لكفاه ولكنّه لا يقنع! واختلس من الشاب نظرة فهاله هزاله، وضمر رقبته، وذبول عينيه، وغياب النظرة اللامعة الساخرة منها، فتهدّ وقال لنفسه متحسرًا «ربّاه.. متى تنكشف الغمّة؟.. متى أفتح عينيّ فلا أجد من هذا الشقاء المائل إلّا أطيايف ذكريات منقضية!.. ونظر إلى الخارج خلّل زجاج النافذة فجرت أمام ناظره الأبنية والفيّلات في حشد طويل، ثمّ انسابت القاطرة بين حقول ممتدة من النضرة والخضرة والمناظر الريفية الفاتنة، ثمّ أقبلت الصحراء اللانهائية الجرداء يحفّ

- ربّنا يلطف بنا!..

فقال أحمد متصنّفًا السكينة:

- ليس هناك ما يدعو للقلق، ولكن لا محيد عن المصحّة!

وكان رشدي لا يزال نافرًا من المصحّة ولكنّه لا يجرؤ على قول «لا» بعد ما صار إليه حاله، فدعا أخاه إلى جانبه وقال له بتوسّل وعلى مسمع من أمّه:

- لتكن المصحّة إذا شئت، ولكن..

وأومأ إلى النافذة، واستدرك:

- ولكن لا أحبّ أن يعرفوا الحقيقة!

فاشتدّ التأثر بالرجل، وخفق فؤاده بحزن عميق، وقال:

- لا تخفّ.. من السهل أن نقول إنك مصاب بآفة في الرئة أوجب سفرك إلى المصحّة!

فتساءل رشدي محزونًا:

- وهل يجوز هذا عليهم؟

فقال أحمد:

- إنّ التداوي من ماء الرئة يستدعي زمنًا طويلًا، ومهما يكن من أمر فالعناية بصحتك أولى بالاهتمام ممّا عداها..

### - ٣٩ -

ولم يضع أحمد وقتًا، فقام بالإجراءات المتبعة لإلحاق شقيقه بالمصحّة، مستعينًا بتوصية من الطبيب المداوي، ووجد أنّ سريرًا سيّئًا في أوّل مارس لانتهاء مدّة علاج صاحبه، فقرّر انتقال رشدي من ذلك التاريخ، وفي المدّة القصيرة التي سبقت السفر عانت الأسرة آلامًا برحاء، وكان رشدي يكابد من السعال عذابًا مضيئًا وسهًا متقطعًا. وغرق الوالدان في حزن ذاهل، وتكرّر صفوهما، ولاحت في أعينهما نظرة واجمة امتزج فيها الرجاء بالخوف. ووقع أحمد فريسة لهواجسه، فانقلبت حياته غمًا وجزعًا، وعاد كمال أفندي خليل الشاب وأكد له أنّ «ماء الرئة» لا خطر منه البتّة مع العناية! ثمّ زارته الستّ توحيدة ونوال - ولم يكن أحمد بالبيت - وقالت له إنّ غرامه

ووجف قلبه. وظلّ وهو آخذ في الطريق إلى المحطة يعاود النظر وراء ظهره إلى بناء المصحّة الشاهق ويتمتم بالدعاء.

وفي مساء ذلك اليوم باتت أسرة عاكف في وجوم وكآبة وقد لاحت في عيني الأب نظرة شاردة، وبكت الأم حتّى دميت عيناها، وحاول أحمد أن يخفّف عنها بحديث الرجاء والأمل، ولكنّه كان في الحقيقة في حاجة إلى مَنْ يخفّف عنه.

- ٤٠ -

وانتظرت الأسرة يوم الجمعة - يوم الزيارة في المصحّة - بصبر فارغ، وقرّ رأي كمال خليل أفندي على أن يصحبهم هو وأسرته، وأخذت الأستبان للزيارة أهبتها فابتاع أحمد لأخيه صندوق بسكوت بالشيكولاتة، وأعدت الستّ نوحيدة - والدّة نوال - له كعكاً عرفت بإتقان صنّعه. وعند الضحى ذهبوا جميعاً - الرجال الثلاثة والسيدات ونوال - إلى محطة باب اللوق، واستقلّوا قاطرة الديزل، وجلسوا متقابلين، الرجال في ناحية والنساء في الأخرى، وبذلك وجد أحمد نوال جالسة لقاءه!، وتجنّب، منذ اللحظة الأولى، أن ينظر إليها، ولم يكن رآها منذ ذلك اليوم الذي كشف له عمّا كشف، بيّد أنّ وجودها على بعد قدم منه أيقظ الذكريات وحرك الأشجان، وخاف مغبة الاستسلام للخواطر فتشاغل بالحديث مع كمال خليل تارة، وبقراءة الأهرام تارة أخرى، والواقع أنّه لم ينجح إلّا في تحنّب النظر إليها، ولكنّه غلب على أمره إزاء سيل خواطره الجارف، وأتى له أن ينسى أمله الخائب! أو سخطه المرّ القديم على شقيقه! أو مرض شقيقه الذي جعل من سخطه القديم عليه جرحاً في ضميره لا يلتئم! وهل ينسى أنّه خاف يوماً على الفتاة من العدوى! وأنّه حام حول اتهام شقيقه بتعريض حياتها للهلاك؟ كلّ أولئك آلام جعلت من حياته مرتعاً للنار، حتّى صدّق قوله لنفسه مرّة «لقد أصيب رشدي في صدره وأصبحت أنا في عقلي!». ثمّ تساءل ترى ماذا يخطر لها من الأفكار حين يقع بصرها على شخصه

بأفقها الجبل الشامخ. فاستثار تتابع المشاهد ما بين أبنية وحقول وصحراء جرداء عاطفة كثيية في صدره، فامتلاً شجناً وأسى.

وبلغت القاطرة حلوان، فتركوا القاطرة وقد نهكت الرحلة الشابّ المريض، واستقلّا عربة إلى المصحّة، وسارت بهما تنهادى في طريق مقفر. وتراءت لهما المصحّة فوق سفح الجبل كقلعة هائلة، فرنا إليها الشقيقان بقليلين خافقين، وقال أحمد:

- الفاتحة إنّ ربّنا يأخذ بيدك ويمنّ عليك بالشفاء ويخرجك من هذا المكان مجبور الخاطر.

وانتهيا إلى المصحّة، واستقلّا المصعد إلى الطابق الثالث، ودلتها ممرضة على الحجرة التي يقصدها، وكان بالحجرة سريران، يرقد على أحدهما شابّ في مثل سنّ رشدي وفي مثل هزاله وصفوته فتبادلوا التحيّة باسمين. واستراح رشدي حتّى استردّ أنفاسه، ثمّ غيّر ملابسه بمعونة شقيقه، واستلقى على الفراش، وجلس أحمد أمامه على كرسيّ مريح، وأوماً الرجل إلى الشابّ المريض الغريب، وقال مخاطباً شقيقه:

- ستجد في صاحبك خير رفيق، فتعاونوا على قتل الوقت وتبديد وحشة الوحدة، حتّى يأذن الله لكما بالخروج سالمين غانمين!

ومضى يتحدّث مع شقيقه حيناً، ومع صاحب السرير المجاور حيناً آخر - وقد علم أنّ اسمه أنيس بشارة وأنّه طالب في السنة النهائية بكلّيّة الهندسة - والظاهر أنّ الرحلة أعمت رشدي فاعتراه تعب شديد، واستلقى في خور وخمود، ومكث أحمد معها حتّى اطمأنّ على الشابّ، ثمّ نهض لينصرف، وقد شعر وهو يضغط على راحة الشابّ مودّعاً بدمعة تتحرّك في مجرى الدموع من قلبه، فقرض على أسنانه ليمنعها من الصعود إلى مججريه، وغادر الحجرة. وخال في الخارج أنّه رأى عيني الشابّ كالنذرتين بالبكاء وهو يسلم عليه، فنازع قلبه إلى العودة إليه مرّة أخرى، ولكنّه قاوم عاطفته ومضى في سبيله، واخترق دهاليز طويلة تفتح عليها أبواب عنابر المرضى، ورأى الأشباح الأدميّة في الثياب البيض الفضفاضة، فاقشعرّ بدنه



فابتسم الشاب إليها - وإلى نوال بالتالي لأنها كانت لصقها - ثم قال موجّها الخطاب لأحد:

- كانت الليالي الثلاث الماضية شديدة الوطأة عليّ، اضطرب فيها نومي وتقطع، واشتدّ عليّ الألم، ولم يكفّ عني . .

ولم يتمّ جملة، فأدرك أخوه أنّه أمسك حذرًا عن ذكر «السعال»، فأيقن في تلك اللحظة أنّ اصطحابهم أسرة كمال خليل - على ما فيه من سرور - كان خطأ كبيرًا، ولكنّه أراد أن يشجّع الشاب فقال:

- على رأي تيزلتك فهذا شأن المرض أوّل عهده، وستجتاز هذه الشدة بعون الله، وتخرج منها سالمًا! ولكنّ رشدي قال بلهجة دلّت على التوسّل:

- أليس الأفضل أن أعود إلى بيتنا؟

ورأى أحد أمّه تهّم بالموافقة على رغبته فبادر بقوله:  
- ساعك الله! بل قل إنك لن تبرح حجرتك حتى تستردّ صحتك وفتوتك، ثم تغفل إلى القاهرة شيئًا على الأقدام! ومن حسن الحظّ أنّي أراك متحسنًا تحسنًا محسوسًا! . .

وقال كمال خليل يساهم في تلك الكذبة المفيدة:

- أجل يا رشدي أفندي أنت . . اليوم أحسن حالًا بلا شك!

وحذت الأم بصرها لعلّها تصدّق ما يقولان، بينما راح أبوه يقول بصوته الهادئ المنكسر:

- الصبر . . الصبر يا رشدي، وربّنا يراك ويأخذ بيدك! . .

فسكت رشدي، ولكن على رغمه، ولم يغب ذلك عن أخيه الذي يحسن فهمه، وكان يعلم أنّه لا يقتنع بغير رأي نفسه، ولا يعمل إلّا بمشورتها، فأيقن أنّه إذا كره المصحة فلن يصبر عليها، ولن تعود عليه إقامته فيها بنفع يذكر، وازداد حزنًا على حزن، واسترعت انتباهه حركة آتية من السرير الآخر، فنظر إليه، ورأى زميل أخيه جالسًا في فراشه، فتولّاه الحجل لأنّه نسي - في غمرة حزنه - أن يجيّه، فقال له وهو يرفع يده له بالتحية:

- كيف حالك يا أنيس أفندي؟ . . لا تؤاخذنا! . .

أمامها؟! هل يثير ألبا؟! خجلًا؟! ألا يجوز أن تأسف أن لحقت العلّة بحبيبها متعامية عن هذا الكهل؟! ولو فعلت ما جاوزت القصد ولا حادت عن الإنصاف، فما فائدة حياته؟ وما وجه الانتفاع بصحته؟ ووجد لتوّه ذاك الشعور بالاضطهاد، المؤلم اللذيذ معًا، وحقيقة أخرى لم تغب عنه، وهي أنّه مرتاح إلى وجودها رغم تحبّبه النظر إليها!، لماذا يا تُرى؟ هل يرغب أن يتمتحن قدرته على النسيان والتأثّي؟! أو يريد أن يشبع رغبته القديمة في أن يربها قوّته على تجاهلها والترفع عنها؟! ثمّ أفاق لنفسه قليلًا، فكبر عليه أن تكون تلك خواطره وهو ماضٍ لعيادة العزيز المريض! وبلغ منه الألم حدًا تمقّى لو كانت الجراحة تستطيع بتر الفاسد من النفس، كما تبتّر الفاسد من الأعضاء!

وانتهت الرحلة، وساروا في الطريق وأبصارهم عالقة بالمصحة، وقوي أمل أحد أن يجد الشاب أحسن حالًا - وإن لم يُخصّ في المصحة سوى ثلاثة أيّام - لإخلاقه الإيجابي إلى الراحة ووجوده في الجوّ الموافق. وتقدّمهم جميعًا نحو الحجرة، وسبقته عيناه إلى السرير، كان رشدي راقدًا، وقد شعر بحضورهم، ولكنّه لم يمزك ساكنًا، إلّا ابتسامة خفيفة باهتة ارتسمت على شففيه الذابلتين وهو يتلقّى تحيات القادمين الذين أحاطوا بفراشه. وخاب أمل الرجل، ورؤّع لما رأى من تدهور الشاب، فلم يشك أنّ حالته ساءت عمّا كانت عليه يوم أتى به. وراح في تفسير ذلك وانقبض صدره. وجلس الزوّار، ووضع السكوت والكعك على خوان قريب من السرير، ولما رآهما رشدي قال بصوت ضعيف:

- أنا لا أكاد أتناول طعامًا . . لا شهية ألبّة . .

فسألته أمّه بقلق وهي تتفحصه بعينين حاولت ألاّ يلوح فيها شيء من الانزعاج المستولي عليها:

- ألا يعجبك طعام المصحة يا رشدي؟! . .

- الطعام جيّد، ولكنّي فقدت شهيتي!

فقالّت السّت توحيدة:

- لا تخف فهذا شأن المرض أوّل عهده، وغدًا

تلتهم الطعام التهامًا بفضل هذا الهواء الجافّ.

فضحك الشاب قائلاً:

- العفو يا بك، الظاهر أنّ رشدي يرغب في هجرنا!

فقال رشدي متأسفاً:

- لكم أزعجت نومك!

فقال الشاب مبتسماً:

- لا داعي للأسف على ذلك، فسهو الليل لا يضايقي بتاتاً.

فابتسم أحمد وقال:

- الظاهر أنّك من عشاق الليل كرشدي!

- نطقت بالصواب يا سيدي، وما نحن أولاء

يعلمنا الدهر أنّه ينبغي أن نفلح عمّا كنّا نعشق...

ودعوا لها بالشفاء، ونهضت أمّ أحمد إلى الخوان،

وأنت بصندوق البسكوت، ووضعت إلى جانب رشدي

وفي تناول يده، وقالت برجاء:

- هلاً تناولت واحدة يا رشدي؟!

ولكنّه هزّ رأسه على المتخذة وقال بسرعة وبليهة حازمة:

- ليس الآن... في ما بعد!

فأخذت المرأة الصندوق أسيّفة حزينة وإن كانت

تغالب عواطفها مغالبة صادقة ناجحة، ولم تنس - حتّى

في تلك الساعة - واجبات اللياقة، فدلّفت من سرير

أنيس بشارة وقّدت له بعض البسكوت. وكان أحمد

يتفحص أخاه بعينين كئيبتين، فإذا أرسل الشاب إليه

بطرفه تبسم مدارياً حزنه. وقد هاله ذبول أخيه،

واصفرار لونه، وخوّره، وأمارات التعب التي تعتوره.

هاله أن يراه مستسلماً للرقاد، سجيناً، وما كانت الدنيا

تسعه حركة واضطراباً وهواً. وخيّل إليه أنّه يقرأ في

نظرة عينيه حيرة وقلقاً، إلى ما بهما من ألم واستسلام،

فأوحيا إليه أنّ الشاب ينطوي على شيء يريد أن يفضي

به إليه وقوي شعوره بذلك حتّى خطر له أن ينفرد به

دقائق بعد انصراف عوّاده، ولكنّه خاف أن يضرع إليه

أن يعيده إلى البيت، فعدل عن رأيه، وجعل يكوّر له

قبضة يده مشحجاً متظاهراً بالمزاح والاطمئنان...

وأذن الوقت بالعودة، فسلموا بحرارة، ولهجت

ألسنتهم بالدعاء، وغادروا الحجرة، وكانت الست

دولت آخر من غادرها بعد أن قبلت الشاب في خديّه

وجبينه، وفي الطريق لم تعد تملك أعصابها فامتلات

عينها بالدموع. وكانت نوال تعالج دمة لا تدري

كيف تخفيها. وظلّ أحمد متقبض الصدر حتّى أوى إلى

حجرته، ومضى يعلّل نفسه بالأمل ويقول إنّ سيّجده

في الزيارة القادمة أحسن حالاً حتّى ممّا وجده اليوم.

ربّاه... متى يردّ إلى ما كان عليه من القوّة والنشاط

والنضارة؟! متى يعاود سمعه تغريده الحنون ودعابته

اللطيفة وضحكته الرنانة؟!

ونامت أسرة عاكف تلك الليلة على حزن وكمد

كنومها ليلة الفراق!

ثمّ استيقظوا جميعاً في المزيغ الأخير من الليل على

رنين الجرس... وجلس أحمد في الفراش مرهف

الأذنين، فسمع الرنين متصلاً كأنّه يصرخ في

الغافلين. وانقضّ عليه خاطر جعل قلبه يرجف كإبرة

الجرس فقفز من الفراش وجرى إلى الخارج، التقى

بوالديه في الصالة وهما يكادان أن يعدوا عدواً نحو

الباب. ولم ينبس أحدهم فقد تولّاهم استسلام يائس

للأقدار، ودلف أحمد من الباب مزدرباً ريقه وأضاء

المصباح الخارجي وفتح الباب، ونظر في الردهة

الخارجية فلم تقع عيناه على إنسان، وكان الرنين لا

يزال متصلاً... والتفت الرجل إلى والديه مندهشاً

مغمتماً: «لا أحد في الخارج». واقترب من «بطارية

الجرس»، ورفع غطاءها وفصل بين الأسلاك فسكت

الجرس المزعج! وأغلق الباب والدموع توشك أن تطفر

من عينيه، وتبادلوا جميعاً نظرات حائرات، ثمّ هتف

الأب قائلاً:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

وقالت الأمّ وهي تتنهد من أعماق قلبها:

- أليس الأوفق أن نأتي برشدي ما دامت هذه

رغبته؟

فقال أحمد وقد وشى صوته باضطراب نفسه:

- يا شيخه وحّدي الله!...

مكروش دائئاً... « فلا شك أني في طريق النهاية، لا شك في ذلك مطلقاً، إني أكتب إليك ودموعي تنهمر فتخفي عن ناظري الألفاظ التي أنعي بها نفسي إليك، وكلما ذكرتكم غلبني البكاء... »

هذه هي الحالة، فأستحلفك بالله يا أخي إلا ما وافقت على عودتي إليكم لأقضي بينكم أيامي الأخيرة حتى يوافيني الأجل... فلا تُعرض عن توسلاتي هذه المرة، وأكزّر أسفي لإيلامك ولكن ما حيلتي؟! . . . عليك ألا تخبر والدي بالحقيقة، والسلام عليكم ورحمة الله .

أخوك المخلص

رشدي

قرأ الخطاب ذاهلاً، وأعاد قراءة كثير من عباراته أكثر من مرة، وشعر عند الانتهاء من قراءته بدوار، وإنكار، وغرابة، ولكنّه لم يرفع عنه ناظريه حتى يستعيد رباطة جأشه، فيواجه أمّه بشيء من السكينة يكتفه من الكذب عليها، واستطاع بفضل تفكيره في أمّه، ووجودها على كتب منه، أن ينسى نفسه إلى حين فيمتلك أعصابه، ثمّ نظر إلى والديه فرأهما ينتظران كلمته بعينين معدّبتين كمن ينتظر - غير معصوب العينين - إطلاق النار عليه، فتكلّم قائلاً متصنّعاً لهجة السخط والتبرّم:

- رشدي يلحّ في العودة إلى البيت، فماذا دهاه؟!

فسألته الأمّ بلهفة:

- ولكنّه بخير!

- بخير والحمد لله إلا أنّه كاره للمصحّة!

- أعده إليّ يا أحمد، فلا فائدة ترجى من تركه في المصحّة على رغمه .

فنهض أحمد وهو يقول:

- سأسافر اليوم إلى حلوان وآتي به . . .

وأعطى الخطاب إلى والده ومضى إلى حجرته وأمّه في أثره .

وسافر إلى حلوان دون تردّد أو تأخير، وظلّ طوال الطريق مشتّت الفكر موزّع الفؤاد مضطرب النفس،

وعند عصر يوم الأحد وكان أحمد مجتمعاً بوالديه يحسّون قهوة العصر، جاء البريد بكتاب ما إن رأى الظرف حتى تتمم بغرابة:

- هذا خطّ رشدي . . .

وتنبّه الوالدان، وتابعت عيناهما يد الرجل وهو يفضّ الغلاف. وقد كتب الخطاب بالقلم الرصاص، وبخطّ رديء - على غير عهد صاحب الخطاب - وكان به ما يأتي:

٨ - ٣ - ١٩٤٢

أخي العزيز:

تحياتي إليك وإلى والديّ، أكتب كتابي هذا وقد مضى على انتصاف الليل ساعتان... ولا تدهش يا أخي فقد حرمت نعمة النوم إلى الأبد وما عاد لأيّ منوم من تأثير فيّ. تصوّر أنّي تناولت بالأمس جرعة من منوم معروف، فلمّا لم تُجِد شيئاً عاطاني الدكتور برشامة غخّدة وبشرني بنوم ثقيل، وما هو الليل ينتصف ونغضي على انتصافه ساعتان وأنا متيقّظ مسهّد، ولا نهاية لعذابي بل لا أزال جالساً لأنّ الرقاد - أو ضغط ظهري على حشّة الفراش - يهيج السعال الذي اشتدّت نوباته عليّ، فلا معدى لي عن الجلوس في فراشي، وقصارى ما يمكن عمله لتهيئة الراحة أن أكسر غخّة وأضعها على حجري ثمّ أسند رأسي إليها...

أخي:

يؤسفني أن أولئك أو أحزئك، ولكنّها الحقيقة المرة، ولا حيلة لي فيها، ولا مفرّ من أن أفضي إليك بالحقيقة فانت ملاذي أولاً وأخيراً، فاعلم يا أخي أنّي أطلعت على نتيجة الأشعة التي صوّرت صدري غداة وصولي إلى المصحّة، وقد كشفت إصابة جديدة في الرئة اليمنى، أمّا اليسرى فقد حفرت الإصابة القديمة لي كهفاً في حجم نصف الريال، والحالة العامة خطيرة، وإليك تقرير الطبيب النوبتجي: «عدم قابليّة للأكل مطلقاً، عدم النوم مطلقاً، سعال نظيف، ونفّس

وعاد إلى أخيه، وحزم متاعه، وعجز رشدي عن خلع بيجامته وارتداء البذلة، فاكتفى بلبس الروب، وجاءوا بنقالة لحمله إلى المصعد. وسار أنيس بشارة في وداعه حتى الباب الخارجي للمصحة، وشد على يده بحرارة، ودعا له مخلصاً بالشفاء والصحة. ورأى أحمد شقيقه يستسلم لأيدي حامليه بلا حول وبلا قوة وقد زاغ بصره، وبدا للعين هزاله، فذكر نضارته وحسنه، ورشاقته ونشاطه وفكاهته وغناؤه، ثم لم يملك أن بعض على شفته متوجعاً متحسراً وقد شعر بقلبه ينتحب في أعماق صدره.

#### - ٤٢ -

وجدوا في انتظارهما في البيت الوالدين وأسرهم كمال خليل أفندي. وكانت الست توحيدة ونوال جاءتا لزيارة أم الشاب المريض، فلما علمتا بأن شقيقه سافر ليأتي به لبثاً في انتظار وصوله. وأحدث ظهور رشدي أثراً عميقاً في النفوس فلم يحاول أحد إخفاء انزعاجه. ولكن الشاب لم يتبد عليه أنه أدرك شيئاً مما حوله، أو أنه فطن إلى وجود أحد. وأجلس على فراشه وصدره يعلو وينخفض، مغمض العينين، والأعين مغلقة به. وقد انعقدت الألسنة، واصفر وجه الست دولت، وجلست وراء ظهره لتسند بصدرها المضطرب. وفتح رشدي عينيه بعد برهة وأجالها في الحجرة والوجوه، فلاح فيهما نور العرفان واليقظة، وارتسمت على شفثيه شبه ابتسامة خفيفة، وقال بصوت متهذج خفيض كأنما يتصاعد من أعماق صدره:

- الحمد لله... الحمد لله... أنا مسرور بعودتي إلى حجرتي...

فدعا له الجميع، وكثرت الست توحيدة الدعاء، فابتسم الشاب وقال:

- سأشفى هنا بإذن الله... لا تبرحي مكانك يا نينة!...

فقبلته المرأة في منكمبه وقالت:

- لن أبرحه يا رشدي - بإذن الله - إن قلبي لا يمكن أن يكذبني!

ولأول مرة - منذ أمد بعيد - يفكر في الموت كحقيقة ماثلة يطالع معالمها الرهيبة ويستشعر آثارها العميقة من الألم والخوف والقنوط، وتحيل المقبرة النائية التي ابتلعت شقيقه الأصغر، فخالها تنفض عن ثغرها تراب الأرض وتفرغ فاهها لابتلاع رشدي الحبيب الذي لا يدري كيف تكون الدنيا بدونه!، وكان كلما قصرت المسافة بينه وبين المصحة اشتد انقباض صدره، وثقلت وطأة الخوف على قلبه. رباه!.. كيف يجده الآن؟! وما فعل السهاد به؟! وغادر القطار على عجل والشمس تميل نحو المغيب. وأخذ العربة إلى المصحة، تم صعد إلى الطابق الثالث لا يلوي إلى شيء، واشتدت ضربات قلبه وهو يقترب من الحجرة، ودخلها وقد تركز وعيه في الفراش أمامه. رأى رشدي أمامه. رأى رشدي كما وصف نفسه في رسالته جالساً في فراشه مسند الرأس إلى مخدة منكسرة على حجره! وازدرد ريقه وهتف به:

- رشدي!

فرفع الشاب رأسه عن المخدة بسرعة، وطلع أخاه بوجهه الضامر الشاحب، وصدره المضطرب، وسرعان ما لاح السرور في عينيه، وقال بصوت متهذج:

- أجيئت؟.. خذني.. خذني.

فقال أحمد ليدخل الطمأنينة على نفسه:

- لهذا جئت يا رشدي..

ثم التفت إلى أنيس بشارة فحيّاه فردّ الشاب تحيته وقال بلهجة جدية دلّت على تأثره:

- مسكين رشدي! إنه لا يذوق للنوم طعماً، وكانت ليلته الماضية شديدة فظيعة! الأوفق حقاً أن يمضي هذا الأسبوع في البيت، على أن يعود إلى المصحة في ما بعد!

فاوماً أحمد برأسه موافقاً وسأل الشاب:

- أتدري ما هي إجراءات الاستئذان لخروجه؟

فقال أنيس بنفس اللهجة الجدّية:

- اسع إلى الطبيب بلا إبطاء!

ولم يلق الرجل صعوبة ما، بل ساوره الخوف والقلق لسرعة موافقة الطبيب على طلبه.

- سأحتاج إلى ممرضة لحقني بالكالسيوم يوماً بعد يوم..

فقال أحد:

- سأوصي الصيدلي بإحضار واحدة والاتفاق معها... ويحسن بك أن تسكت كي لا تشق على نفسك، وربنا يرفعك ويحفظك..

تناول الشاب جرعة من النوم، فاسترخت أعصابه - وقد نال منه أرق الليالي السابقة - وأخلد للنوم، إلا أن السعال انتابه مرّات فمزّق نومه شرّ ممزّق..

### - ٤٣ -

وجاءت أيام شدة وألم. ففرق الشاب المريض في غمرة العذاب، وتقطع قلب الأم الذي يسند ظهره المهزول، واستبدّ به الأرق فلم يغمض له جفن - مع تناوله النوم - إلا ساعات معدودات في الهزيع الأخير من الليل، وكثيراً ما أدركه الصباح وهو قاعد في فراشه وقد حطّم السعال أضلعه، وصدفت نفسه عن الطعام، فإذا تجلّد وتناول لقبات تقيّها في نوبات السعال واجتاحته بعنف فما إن تسكت عنه واحدة إلا وقد أشفى نفسه على الانقطاع، وأندرت عروق عنقه بالانفجار، وسالت عيناه دماً. فظنّ به الهلاك وأيسّت من شفائه القلوب. إلا أنه بدا وكأنّه يجتاز مفازة الهلاك بسلام، لا لتحسّن طراً عليه، ولكن لأنّ الأيام تابعت وهو يقاوم ويجالد دون أن يسقط، ثم مضت تخفّ ثورة السعال، وتنظم ساعات نومه، وتنقّل معدته القليل من الطعام، واستطاع أخيراً أن يرقد على جنبه. وأذن كلّ أولئك بتحسّن قريب في صحته، ولكن مضي مارس جميعاً وهو على حاله من الضعف والإعياء. لم يكن بسطيع مفارقة الفراش بتأثاً، وهزل هزلاً محزناً حتّى لم يعد في بُرده سوى جلد ذابل وعظم مغروق. وبعث منظر ساقيه القشعرية في النفوس، وضمر وجهه، وتقلّص خداه، وغارت عيناه، وعلت محياه صفرة باهتة، وبدا رأسه أكبر من الواقع وعقه رفيماً يكاد أن ينقص من حمله. ولاحت في عينيه نظرة عميقة متجهمة تدلّ على التصبّر والتجلّد، والتألم

والتقت عيناه بعيني نوال مرّات، وتلقّى في كلّ مرّة ابسامة حلوة ضمّتها عيناها ما تكّنه جوانحها من الدعاء والرجاء والإشفاق. وتنحّى أحد جانباً دون أن تفارق عيناه وجه شقيقه، وكلّما طالع في عينيه نظرتها الذابلة ارتعش كيانه وقال لنفسه: «اللهم رحمتك!». وقال عاكف أفندي أحمد - الأب - عن حكمة:

- الأوفى أن نتركه حتّى يستردّ أنفاسه ويستريح!

فخرجوا جميعاً ما عدا أمه. وانصرفت الزائرتان. وخلا أحمد إلى نفسه في حجرته قليلاً. ولكن لم يستطع صبراً فعاد إلى حجرة الشاب، ووجد رشدي لا يزال فرحاً بالعودة ويحدث أمه قائلاً بصوته المتهلّج الخافت:

- لشدّ ما يطمئنّ قلبي فرحاً وسروراً، ولشدّ ما ألني جوّ المصحّة الموحش، لم أذق فيها النوم ولا الطعام، ورأيت مريضاً ينزف حتّى غرق في دمه، ومروا بحجرتنا حاملين مريضاً آخر إلى حجرة «العزلة» حيث يودعون المرضى المُشفين على النهاية.. ومن المؤسف حقاً أنّ سوء حالتي ألم زميلي أنيس بشارة، ويغلب على ظنيّ أنّه استثار مخاوفه فجعل يبكي حزناً وفرقاً. الان عاودتني الطمأنينة..

وحول ناظره إلى أحمد، وسكت قليلاً وصدره يعلو وينخفض ثم استطرّد:

- أتعبتك كثيراً يا أخي، معذرة. لا تجبّد عليّ لعصيانِي نصحك، أعدك بأنّي سأرعى منذ اليوم صحتي، وأنّي لن أخالف لك نصيحة، وإذا منّ الله عليّ بالشفاء فلن أستهين يوماً بحياتي.

فعضّ أحمد على نواجذه ليحبس دموعه الهائجة، وقال مبتسماً:

- لا محلّ للوم يا رشدي، فكلّ شيء بأمر الله، وغداً ستردّ إلى صحتك بأمر الله، وستذكر هذه المحنة كما يذكر المستيقظ وطأة الكابوس...

فابتسم الشاب إلى أخيه ارتياحاً لقوله، وسأله أن يدني الخوان من فراشه وأن يضع عليه زجاجات الدواء. وأتى أحمد بالخوان، وجعله في متناول يد الشاب، ورضّ علبة الكالسيوم، وحقّ النوم، والكارومين. فشكره رشدي، ثم قال:

المعتجلين.

ومن عجب أنه لم يَنْسَ قلبه!، فالمرض لا يحو الحب، ربّما لم يعد يضطرب به دمه، ولكنّه يحسّه بروحه ويحقق به قلبه، وَلَكَمْ تَرَفَّ عليه الذكريات فتضيءُ غيْلته بنور وهّاج، وتدندن أذنيه كسجع الألحان، فيستيقظ قلبه كزهرة نفخ الربيع فيها من روحه، وتتخايل لعينه بروق البسات وطريق الصحراء والعينان النجلوان، وتطنّ في مسمعيه العهود والمواثيق. تُرى ما مصير كلِّ أولئك؟.. ماذا يَحْتِىُّ له الغيب؟.. هل يمكن أن يعود الشباب والقرّة والأمل والحب؟.. هل يمكن أن يسعى كسابق عهده متبخّترًا في رشاقة وخيلاء؟.. وأن يضحك ملء قلبه دون أن يبيح سعالًا قتالًا؟.. وأن يذهب رأسه ويحيى بالترنيم والتجويد؟.. وأن يراه الإخوان فيتصايحوا «جاء قلب الأسد؟».. وأن يشبك ذراعه بذراع نوال فيقطعها معًا طريق الجبل وغلالة الضباب تخفيها عن الأعين؟.. هل ما يزال ثَمّة أمل في أن يتنازع خاتم الخطوبة ويزف كالعراس؟.. وكانت نوال تعود مع والديها، فيتبادلان نظرات خاطفة مشوّقة لم يشعر بوقدتها إلّا هما، ربّاه لماذا لا يتركانهما وحدهما ولو لحظة؟ إنّه يذوب شوقًا إلى كلمة وداد تترطب حرارة فؤاده المحموم. وهكذا مضى شهر مارس. ولما جاء إبريل تغيّر الحال، فلم يعد يرى نوال! مضى أسبوع دون أن تزوره وانتصف الشهر فلم تحضر، وعاده والداها بمفرديهما، وانتهى إبريل دون أن يراها أو تراه! عاده إخوان قهوة الزهرة وأسرهم وأصحاب السكاكيني وجمهور من الأقارب والجيران القدماء، فاليّيت لا يفرغ حتّى يمتلئ، إلّا نوال، اختفت من حياته فجأة كأنّها لم تكن حقيقة محسوسة وأملًا مشوّقًا! ولا شك أنّ والديه وشقيقه يشاركونه ألمه وإنكاره ولكنهم لا يفصحون عن مشاعرهم رافّة به، وأبى عليه كبرياؤه أن يسأل والديها، لماذا انقطعت نوال عن زيارته؟

هل عرفوا حقيقة دائه وأيسوا منه؟ هل منعها من عيادته الخوف من العدوى؟.. هل أمسى شرًّا وأدّى بعد أن كان حبيبًا محبوبًا؟.. أكذب الحبّ وعده؟!

والاستسلام، فلم تزل تعذب أحمد حتّى أضته، كان يطالعها في عينيه كلّما عاده فلا تمحى من ذاكرته أبدًا، وكانت تحمّل فؤاده المرهف جميع ما تنطق به من التآلم والتصنّير. كانت ترك في قلبه جروحًا لا تندمل، كان يطلع منها على عوالم الألم والمرض واليأس. ربّاه لَكَمْ قطعت فؤاده وقتت كبده، ولكم أهاجت مجاري دموعه.

وفي مرّة دخل حجرته فوجده قد استوى جالسًا في الفراش، وأدلى ساقيه إلى الأرض، ولم تكن أمّه في الحجرة، فخاف أن يكون ذلك مقدّمة لمحاولات تشقّ عليه، فقال له بتوسّل:

- أليس الأوفق أن تلزم الرقاد!

فغاضت من عينيه نظرة التآلم العميقة، وحلّت محلّها نظرة جزع وبرم وقال بلهجة لم تخلُ من حدّة.

- أخي. ألا ترى كيف تمضي الأيام وأنا بمكاني هذا لا أبدي حراكًا! هُكذا ألقي على الفراش بلا حول ولا قوّة، طوال النهار وأكثر من نصف الليل، حتّى يغلبني ذمول المخدّر الذي نسمّيه نومًا!.. آواه، ما أضيق الحياة... لقد سئمت هذا الفراش، وضقت به ذرعا.

فلم يذّر الآخر ماذا يقول، وألقت اللهجة الشاكية على روحه غبارًا من الكدر، فقال برقة:

- صبرًا يا رشدي، وما وراء الصبر إلّا الفرج!.. ولا معدى عن الصبر أيضًا. كان يعتصر غصص الزمن الثقيل بقراءة الجرائد والمجلّات، والحديث إلى أمّه. ولم تكن تفارقه إلّا للضرورة. وأبيه وشقيقه. وكان على ألمه وملله قد نجا من ساعات اليأس القاتل التي أوحّت إليه مرّة بالرسالة التي بعثها من المصحّة إلى شقيقه، نجا من اليأس، وعواده الأمل في الحياة، والرجاء في الشفاء، ولكنّ الألم اللّبي رسم في عينيه تلك النظرة العميقة المتجهّمة لقنّه حقيقة الشقاء التي ينطوي عليها قلب الدنيا، فذاق العذاب، وشعر بأنفاس الموت الباردة تردّد على وجهه، والأرجح أنّ الحياة تحرّص على أن يعرفها أبناءها جميعًا، إلّا أنّها تقطر حقيقتها على المعمرين وتسكبها في أفواه

الرجل على الحقيقة، وحزن كمال خليل حزناً بالغاً،  
لأنه أحبّ رشدي حباً صادقاً، ووجد فيه خير زوج  
يمكن أن يرجوه لابتته. وهوى الخبر على الستّ توحيدة  
كالصاعقة، وخيّب أملها في سعادة نوال، وخلا الرجل  
بزوجته وقال لها متجهّماً:

- ماذا ترين؟

فلاذت المرأة بالصمت إشفافاً من الجهر بالحقّ  
المؤلم، فقال كمال أفندي:

- لا أظنّ أنّ رشدي بناجٍ من مرضه الخطير!

فقالَت المرأة بامتعاض:

- ربّنا يلطف به..

- وحتى لو كتب الله له النجاة فلن يصلح للحياة  
الزوجيّة..

- فهاذا ترى أنت؟

- أرى طبعاً أن أصون صحّة ابنتي، فهي شباب  
غضّ، ودخولها حجرته كما حدث مرّات استهتار شديد  
الخطورة سيّئ العاقبة، فينبغي أن تعرف الحقيقة حتّى  
لا تعيش على الأوهام أو تتعرّض لعدوى مرض خبيث  
ندرت النجاة منه..

فقالَت المرأة بلهجة دلّت على الأسف والاستسلام:

- الأمر لله!

ودّعوا بنوال، وجاءت الفتاة غافلة عمّا يضمّرانه  
لها، وكان ينبعث من عينيها نظرة ودیعة تلوح فيها  
الكتابة، فطلب الرجل إليها أن تجلس قبالة على كرسيّ  
ثمّ راح يقول بصوت رزين:

- نوال، دعوتك لأفضي إليك بسرّ هامّ، وعهدي  
بك فتاة عاقلة، والسلوك الحكيم هو ما أتوقّعه منك  
دائماً، فاعلمي أنّ جارنا العزيز رشدي أفندي مريض  
مريضاً خطيراً أفزع ممّا يقولون..

فاصفرّ وجه الفتاة، ونفذت لهجة والدها إلى قلبها  
فانقبض خوفاً، وتساءلت بإشفاق:

- أيّ مرض يا أبتي؟

- يؤسفني أن أصرحك أنّ الشابّ مصاب بالسلّ،  
وهو مرض كما تعلمين فظيع، ورحمة الله واسعة، بيّد

وجعل يجترّ آلامه في صمت، حتّى ضاق بها فقال يوماً  
لأحمد وقد خلّت لهما الحجرة..

- ألم ترّ كيف انقطعت عن زيارتي؟

عرف أحمد من يعنيها بقوله، وتظاهر بعدم  
الاكتراث وقال:

- حذارٍ من الفكر! أنت في نضال من أجل الصحة  
فلا تضعف مقاومتك بنفسك!

فاستطرد قائلاً وكأنّه لم يعب: ما قال الرجل:

- أبشع شيء في هذه الدنيا جفاء صديق بغير ذنب،  
أو أن يكون ذنبه أنّ الصحّة جفته!

- لا تبال شيئاً ولا تستسلم للأفكار السودا

فتمتم الشابّ بصوت حزين:

- لن أبالي شيئاً ولكنّ الخيانة قبيحة!

وسرت في الرجل رعدة لأنّه ذكر أنّه فاه يوماً بمثل  
هذه الجملة، وقال يداري عواطفه:

- حسبك قلوبنا فهي تحبّك ولا تحفوك أبداً:

فابتسم رشدي وقال:

- لا أدري متى حفظت هذين البيتين:

ما لي أرى الأبصار بي جافية  
لم تلتفت منّي إلى ناحية

لا ينظر الناس إلى المُبتلى  
وإنما الناس مع العافية

فقطّب أحد تألّماً وهتف به:

- أترغب أن تقتلني غمّاً وكمدّاً!

فقال بأسف صادق:

- معاذ الله، أنت أحبّ إليّ من الشفاء!

وعاد أحمد إلى حجرته وهو يقول لنفسه محزوناً:  
وربّاه.. كيف جفته وقد راح ضحيّة لها؟!..

والحقيقة أنّ كمال خليل أخذ يساوره الشكّ في ما  
قالوا عن مرض الشابّ، وما لبث أن أفضى بشكّه إلى  
امراته. ولكي يقطع الشكّ باليقين زار صديقاً له في  
بنك مصر وسأله عن حقيقة مرض رشدي، فأطلعه

- لا خييت لي رجاء أبدا .  
وما إن غييه الباب حتى أحذقت في وحه أمها  
وهفت بها :

- كيف يكون هذا يا أمّاه؟!

فقالَت المرأة بحزن واستسلام :

- لا معدى عنه يا نوال! .

فقالَت بصوت متهذج مرتعل :

- كيف لا أعوده . . كيف أتجنّبه؟ . هل يقوم خوف  
الإنسان على نفسه عذرا مقبولا لهجر أصدقائه في  
أوقات محتهم؟! ، وما جدوى الصداقة والمروءة في هذه  
الدنيا؟!

ولم تتم حديثها فخنقتها العبرات ، وأوشكت الّآم أن  
تتأثر لها ، ولكنّها تداركت عواطفها أن ترقّ لها فدفع  
بها إلى الهلاك . فقالَت بلهجة لا تدلّ على ذات  
نفسها :

- وما جدوى أن يصاب إنسان بداء وبيل من أجل  
صديق لن ينتفع بمرضه فنبلا؟! إنّ أباك حريص على  
صون شبّابك الغضّ وله الحقّ في ذلك كلّ الحقّ .

- أوّاه يا أمّاه! . ولكنّي إذا ضلّلت نفسي بهذا الغدر  
القبيح فلن انتفع بها . ليس المرض بالشّرّ الوحيد في  
هذه الدنيا ، فالغدر شرّ من المرض ، ماذا يظنّ بى؟ بل  
كيف أدفع عن نفسي أمّاه وأمام الناس؟

- تقولين إنّ أباك أخبرك على الامتناع عن عيادته ،  
فعلّ أبيك التّبعة عليك الطّاعة ، ولن يبادلك إنسان  
في حقّ والد على ابنته . .

- ما أفساك يا أمّاه! . . ساموت كمدا . .

- أفضل ألف مرّة أن يلعني الناس على أن القي  
بفلذة كبدي إلى التهلكة! . .

فقالَت الفناة وما تزال عيناها تسنّان دمعاً ساخناً  
حتى سدّت خياشيمها «تغذرت نبرات صوتها :

- سيمفتي ويحتفري ، وغدا إذا برى؟! .

وخنقتها العبرات مرّة أخرى ، فقالَت الّآم وهي  
تنهّد :

- هذا هو حقلك فما حيلتنا؟! . . بيدّ أنّك ما زلت  
على عتبة الشباب ، والفرص أمامك كثيرة ، والله قادر

أنّ على الإنسان واجباً نحو نفسه لا يجوز أن يفرط فيه  
أو يستهين به لأيّ داعٍ منها جلّ شأنه ، فلنذع لصديقنا  
العزیز بالشفاء ، ولنذكر قوله تعالى : ﴿ولا تُلْقُوا  
بأيديكم إلى التهلكة﴾ .

السّل! . . يا ربّ السّاوات! . . ماذا يقول  
أبوها؟ . . هل أضحي رشدي العزیز شيئاً واجباً  
اجتنابه؟! هل أوى حقاً ذاك الداء الخطير إلى صدره  
الخنون؟ . . هل ضاعت الآمال وتبدّدت الأحلام؟! .  
ورددت بين والديها نظرة حائرة تستحقّ الرثاء ،  
فأدرت أمها ما تعاني من ألم أجبرها وجود أبيها على  
مداراته ، فقالَت :

- الله عالم بشدّة حزنا وأسفنا ، وهو القادر على جبر  
كثرتنا ، ولكن صدق والدك يا نوال ، فحدثه سنك  
تجعلك صيدا سهلاً لعدوى هذا الداء ، فدعينا نحن  
نقّم بالواجب عنا وعنك ، ولنذع له جميعاً بالسلامة  
والشفاء إنّه سميع مجيب . . .

وجعل أبوها يتصرّس في وجهها من تحت حاجبيه ،  
ويقرأ ما تظهر وما تُبطن ، ثمّ قال مستطرداً :

- الآن أدركت ولا شكّ الباعث الذي دعانا إلى  
مخاطبتك في هذا الشأن ، ولا شكّ أنّك تقدّرين رأيي  
حقّ قدره ، فانا أبوك وأخاف عليك أكثر ممّا تخافين على  
نفسك ، لهذا أقول لك إنّه لا يجوز بعد اليوم أن  
تعودي المريض العزیز ، ولا عليك من هذا ، ولن  
بلومك على إنسان عاقل منصف ، ومهما يكن من الأمر  
فما أبالي كلام الناس ولا أقيم اللومهم وزناً إذا جاء  
خالماً للعقل ، فما رأيك؟!

«لم تكن تملك من الجسار . . . تستطيع معه أن  
تصارحه بما بدور في خلدها ، وإنّ له من المهابة في  
نفسها ما يمنعها من مشافهته بما يخالف رأيه ، فلاذت  
بالصمت حتى استحثّها على الجواب ، فقالَت بصوت  
خفيض :

- أمرك مُطاع يا أبتي! . .

ولم يكن يطمع في أكثر من هذا ، وخاف إن أطال  
الحوار أن يشحّعها على الإفصاح عن حقيقة مشاعرها ،  
فنهض قائماً كالمتنع المرتاح ، وقال :



- ٤٥ -

ولم يعد رشدي إلى ذكر نوال، وعجب أحد لصمته وتساءل أيعاني آلامه وحده أم يتناسى باستهانة واحتقار، ودعا له مخلصاً - وهو المبتلى - بالنسيان وراحة القلب. ولم يكن من الممكن استكنه باطل الشاب من محبته، لجمود ملامحه وتجهّم نظره عينيه العميقة الحزينة وملازمته حالاً من الكآبة لا تكاد تزايله، فظلّ أحد متحيراً مشفقاً. وشاركه الوالدان حيرته وإشفاقه، ولم يكن الأمر يعينهم من ناحيته العاطفية، ولكنهم خافوه على الصحة التهلكة التي تمجّدها في سبيل الحياة، خصوصاً وأنّ مضيّ الأيام قد بعث في النفوس الأمل بعد أن أوشكت أن تشفى على اليأس، ولو سألت على بواعث الاستبشار لما وجدت غير كرور الأيام وتعود الحال، أمّا رشدي فلبث عاجزاً عن مغادرة الفراش، ونضّو هزال يستثير الذعر والإشفاق، وظلّ لونه مصفرّاً مشرباً بزرقة، ولم يخفّ عنه السعال إلّا قليلاً.

وفي النصف الأول من مايو جاءه طبيب المصرف، ليعيد الكشف عليه وليجدد له الإجازة حسبما يرى، وفحصه الرجل فحصاً سطحياً ثمّ قال:

- أظنك تعلم أنّ إجازتك القانونية تنتهي في ٣٠ مايو سنة ١٩٤٢

أجل كان يعلم ذلك، ولكنّه كان كأنّه يسمع به لأول مرة، فقال بصوت خفيض:

- حقّاً؟! .. نعم .. أعلم ذلك ..

فقال الطبيب بغير مبالاة:

- فأياكم الباقية من الإجازة متّية لا محالة قبل الشفاء بزمان طويل، وعليه فلا مناص من فصلك من خدمة البنك ابتداء من ٣١ مايو سنة ١٩٤٢.

وكان صوت الدكتور يقع من مسمعه موقناً غريباً، فتساءل بصوت أشدّ ضعفاً:

- ألا يوجد ثمة أمل في الشفاء قبل انقضاء المدة الباقية من أجازتي؟

فقال الطبيب السؤال وقال بإنكار:

- هل تتصوّر أنّه من المستطاع أن تبرا وتستردّ قوّتك ووزنك الطبيعيّ فتستأنف عملك في بحر عشرين

على جبر خاطرك، فلندعه أن يصون للشباب المسكين شبابه وأن يعوّضك عنه خيراً! ..

فهتفت بها منتحبة:

- ما أقساك! .. ما أقساك! ..

وفرت إلى حجرتها، وكان الوقت مساء، فدلّفت من الشباك عمرة العينين ورمّت ببصرها إلى النافذة المحبوبة، وكانت النافذة مغلقة ينبعث من خصائصها نور خافت. وتمثّل لها راقداً على جنبه تلوح من عينيه تلك النظرة الحزينة المتجهمة ثمّ تمثّل لها وهو يسعل ذلك السعال القتال الوحشيّ: لهفي عليك يا حبيبي. وأسفي على رقادك بلا حول وبلا قوّة. ونظرتك التي تنمّ عن أظلم الآلام البشرية؟ أين نضارتك؟ أين شبابتك؟ أين حديثك؟ أين أمالك؟ بل أين نضارتنا؟ أين شبابتنا؟ أين حديثنا؟ أين آمالنا؟ ربّاه ما أتعس حظي .. وما أحلك ديناي! ..

وارتمت على مفعد تكفّف دمعها وتتنهد من الاعاق، وأوهنها التأثر فانطلقت خواطرها بلا ضابط، مرّت حياتها مع رشدي أمام ناظرها في مثل لمح البصر فأيقنت أنّها فتاة تعيسة الحظّ. ولم يغب عنها ما في حديث والديها عن مرض الشاب من يأس وقنوط، فتولّاهما الذعر، وما كانت تعرف عن الموت إلّا لفظه، فكيف وقد تمثّل لها وحناً كاسراً يتوّب للانقضاض على قلبها؟ ربّاه! ويأمرانها بالآ تَعُوْده! ويحولان بينها وبينه بعزيمة لا تعرف الرحمة!، وتجهّم وجهها الباكي وشعرت برعدة تسري في أطرافها، فتحسّست راحتها صدرها! .. شعرت في أعماقها بأنّها تخاف المرض قدر ما تخافه على حبيبها! الرقاد، والسعال، والهزال، والعذاب، ثمّ أحسّت تعاسة وقنوطاً وحزناً وخوفاً، ومزّقتها الحيرة إرباً إرباً بين حبيبها وصحتها وسعادتها! ربّاه. ألم تكن تحيا في دعه وطمأنينة وأمل مشرق؟! فما الذي أوجب هذا الشفاء وهذه التعاسة؟!

ولدى عصر اليوم التالي عادت من المدرسة فوجدتهم قد نقلوا حجرتها إلى حجرة أخرى بعيداً عن نافذته، وأنّه حيل بينها وبين رؤية ذلك البصيص من النور. . .

مجهولة، فغابت أمه عن ناظره وراح يقول وكأنه يتحدث نفسه:

- ما أظنك المرض!.. حقا إن الله لشديد، وعذابه لمروء، يجعل القوة عجزا، والشباب شيخوخة، والأمل قنوطا يقعد الناهض، ويعطل العامل، ويقتح الحبيب. أضاع مستقبلي، وأطفأ نوري، وأوهن عظامي، وأفقر يدي، اللهم اكفهم شر المرض.. اللهم اكفهم شر المرض..

وانفلت زمام المرأة من بين يديها فأجهشت في البكاء، وقالت بصوتها الباكي:

- هلا رحمتي يا رشدي!

فقال بحدّة:

- الله لا يريد أن يرحمنا..

وبعد ظهر ذلك اليوم - وبعد عودة الوالد من مسجد الحسين وأحمد من الوزارة - حدثت الرجلان رشدي حديثا طويلا يهونان به من أثر ما وقع، ويؤملانه خيرا منه، حتى بدا في النهاية أنه يعيرهما أذنا واعية ويتأسي بما يقولان. ورأى أحمد أنّ نفقات التداوي ستضحي، بل أضحت بالفعل، أكثر مما تتحمّله نقود الشاب التي انكشمت إلى ربع مرتّب وستقطع بعد حين، وأنّه لن يغني عنه ما عسى أن يعينه من مرتّب المثلث، فقال له:

- رشدي، أنت الآن خير حالا مما كنت في الماضي القريب، وأظنك تحتمل البقاء في المصحّة، أفلا يحسن بك أن تنتقل إليها لتظفر بجو وعناية، لا يتوافران لك هنا..؟

فقال الشاب وقد اقشعرّ بدنه لتذكّر المصحّة وعهدها:

- ليس في طوقي الآن أن أعود إلى الدرجة الثانية، ومحال أن أرضى بالانتقال إلى عنابر الدرجة الثالثة.

- أليست عنابر الدرجة الثالثة بخير من حجرتك هذه هواء ودواء؟

فهزّ رأسه الذي بدا كبيرا جدّا بالنسبة إلى عنقه الرفيع وقال:

- الحياة هناك فظيعة، وأحوال المرضى مخيفة، كفاك الله شر المرض..

يوما؟! هذا محال. أمامك عام استشفاء على أقلّ تقدير..

فسمع رشدي كالشارد، ثمّ أطرق كئيبا عزونا، أمّا الدكتور فأعطاه «استشارة» نصّ بها على انتهاء إجازته في ٣٠ مايو سنة ١٩٤٢، إذا لم يعد إلى عمله قبل ذلك، وقال له بلهجة دلّت على أنّه يريد الانصراف سريعا:

- وقع من فضلك بامضائك على هذه الاستشارة للعلم..

وذكر أخاه أحمد كأنه يستغيث به في تلك الساعة الحرجة!.. وردّد عيني بين الطبيب وبين الورقة فلم يغب عن ناظره ما بالرجل من نفاذ الصبر، فعراه الارتباك وتناول قلمه ووقع بامضائه بيد مرتعشة. وغادر الدكتور الحجرة فجاءت أمه متطلّعة إليه بوجهها الذي نال منه الإعياء والهمّ كلّ منال، فقال لها بصوت مبحوح متهلّج:

- وقّعت اليوم بامضائي على أمر فصلي من عملي! فحقّق قلب المرأة خفقة عنيفة، بيد أنّها تداركت نفسها فلم تستسلم لعواطفها أن تضاعف من أشجانها، وقالت باستهانة:

- أهذا ما جعلك تتكلّم بهذه اللهجة الحزينة؟! يا بني، إنّ الله أكرمنا بإنقاذك من الخطر الداهم فلا ينبغي أن نغفل عن ذكره وشكره، وليهنّ بعد ذلك كلّ شيء، فلا يحزنك الأمر، فإنّك إن فقدت عملك اليوم واجده غدّا إن شاء الله..

ولكنّه قال بالصوت المتهلّج المبحوح نفسه وكأنه لم يعب شيئا مما قالت:

- قضي الأمر وخسرت وظيفتي، وضاع الماضي والمستقبل.

فألقت المرأة وهي تعضّ على نواجذها دافعة دموعها:

- رشدي لا تأس ولا تحزن، وغدّا تنكشف الغمّة بأمر الله ورحمته، فتردّ إلى وظيفتك أو إلى خير منها، والله لتبسّمن بعد عبوس وليصدّقن قلبي..

ولكنّه لم يكن يصغي إليها، وتاهت عيناه في آفاق

حَرَمْتُ عليك النوم والطعام وسَوَدَتْ أَيْامُكَ، وَهَانَذَا  
أَعَذَّبَكَ بِهِيَانِي، فَاللَّهُمَّ غْفِرَانِكَ.

#### - ٤٦ -

واستيقظ في صباح اليوم الثاني أهدأ نفساً وأهدأ  
قلباً. وَلَمَّا جَاءَ أَحْمَدُ يَصْبَحُ عَلَيْهِ طَلَبُ إِلَيْهِ أَنْ يَعْبِرَهُ  
الْقُرْآنَ. وَأَقَى الرَّجُلُ بِالْكِتَابِ الشَّرِيفِ فَتَنَاولَهُ الشَّابُّ  
بِسُرُورٍ، وَسَأَلَهُ:

- أليس من الحرام أن ألمسه وَلَمَّا اسْتَحْتَمَ مِنْذُ  
أَشْهُرٍ؟!

فقال له مبتسماً:

- عذرك مقبول عند الله..

ومضى يقرأ الكتاب، ولولا خوف السعال، لثلاه  
بصوته العذب. ووجد في القراءة لذةً وسلاسةً،  
واطمأنَّ بذكر الله قلبه، ونسي به الحنين إلى الماضي  
السعيد، والحسرة على ما فات منه، والندم على ما فرط  
منه فيه، بل نسي به التوجع الدائم لما صار إليه حاله،  
والياس من الشفاء الذي قبض قلبه منذ أسس،  
والخوف من النهاية التي تتخيل لعينيه، وفرَّ أخيراً من  
آلامه وخوافه لائثاً بالامتسلا والتسليم والصبر  
والتوكل على الله. ووجد ارتياحاً في الإذعان المطمئنَّ  
إلى إرادة الله وقضائه، ورأى تلك الإرادة الشاملة التي  
تحيط بماضيه ومستقبله فاستسلم إليها آمناً مطمئناً كما  
يستسلم إلى صدر أمه إثر نوبة السعال. ومَرَّتْ أَيَّامٌ  
وهو هادئ رزين، صابر متصبر، بائن مسالم، لا يثور  
ولا يغضب، لا يشكو ولا يتذمر، ولا يتمرد ولا  
يسخر. وفي المرات القلائل التي أطلقت فيها زُمَارَاتُ  
الإنذار لم يفارق الشقة منهم أحد، فكانوا يتحسسون  
طريقهم إلى حجرته في الظلماء، ويلتقون حوله بقلوب  
خافقة وأعصاب متوترة. واطرد الزمان في هدوء حتى  
وقع حادث هام! كان مايو قد انتصف، والوقت  
أصيلاً، والأب قد انتقل كعادته إلى مسجد الحسين  
لصلوة المغرب، وجلس أحمد في حجرة الشاب بمحاذته  
بوجود والدته، فدفق الجرس وفتح الباب، واقتربت  
أقدام خفيفة، ثم دخلت الحجرة امرأتان: الست

فلم يزد أحد كلمة واحدة، وعند المساء، وكان  
رشدي وأمّه كعادتهما يراوحان بين الحديث وبين سماع  
الراديو المترامي إليهما من المقاهي المحيطة، قدّم المذيع  
طبيب الذي كشف عليه أول مرة - إلى الجمهور -..  
يلقي عليكم محاضراته الأولى عن السل، فارتعشت أمّه  
لسماع الاسم الذي يقض مضجعهما، أما رشدي فانتبه  
بعناية وأرهف أذنيه، ولم يكونا وحدهما اللذان يرهقان  
أذنيهما في تلك الساعة، فالأب في حجرته رفع رأسه  
عن القرآن ومال برأسه نحو النافذة، وغاب أحمد عن  
حديث الصحاب في الزهرة ليلقي بانتباهه كله إلى  
الراديو خافق الفؤاد. وتكلّم الدكتور عن تاريخ كشف  
ميكروب المرض، والأدوار التي يمر بها، ووصف كل  
دور بإسهاب، ثم تكلم عن مسألة زواج الناجين من  
الداء، وما ينبغي أن ينتظره أصحاب كل دور من  
أعوام، واقترح في النهاية أن تنشئ الحكومة للناجين من  
الدور الثالث قرى في صحراء حلوان تكون بمثابة  
معازل يقضون فيها شطراً من أعمارهم أو العمر كله.  
أصغت الأسرة متفرقة إلى المحاضرة، فأخفت الأم  
عينها الدامعتين، وتهدّ الأب وعاد إلى كتابه، أما أحمد  
فبكى قلبه وهو يتظاهر بالسرور بما يقول المعلم نونو.  
ولازم رشدي الصمت، ومضى يستعيد ما سمع،  
فغمرة فجأة ذكريات حياته، الشباب الطروب واللهو  
العابث والحب الساحر، وصور سريعة متزاحمة من  
الوجوه والأماكن والربوع، فتأكل صدره حسرة،  
وهوى من روبة الأمل إلى هاوية القنوط، ونسي وجود  
أمه فهتف يائساً: «ربّاه إذا كانت مشيتك قد قضت  
بأن ينتهي بهذا الداء أجلي، فأسألك الرحمة بالتعجيل  
به». وارتاعت أمّه، ونظرت إليه بعتاب وهي تقول:

- رشدي!..

فنظر إليها مبتسماً ابتسامة حزينة وقال بلهجة  
تهكمية:

- الغالب أنك لن تفرحي بعربي كما تودّين!

ولمّا رآها تجهش في البكاء، غلبه التأثر، فوجم..  
وقال بأسف:

- معذرة يا أمّاه.. لشد ما أقسو عليك يا مسكينة.

- بعد الشر.. بعد الشر.. كل شدة إلى انتهاء تسير..

ولكنه بسط راحته على صدره وقال بحدة:

- إلا هذه الشدة، فلا انتهاء لها حتى تقضي على الحياة..

- مرضك يا رشدي أفندي ليس بالخطير، وستبرأ قريباً بإذن الله..

فهز منكمبه استهانة، وعاد يقول بحدة وراحته على صدره:

- أي مرض تعين؟!.. ها هنا سل!، أما سمعت به؟!.. سل سل، إنه يأكل صدري، ويسيل مع ريقى دماً.. إنه مرض خطير فظيع، شديد العدوى، فحذار..!

واشد به التأثير، وغلبه الانفعال، فضرعت إليه أمه أن يسكت، ورجت الضيفتين أن يصحبها إلى حجرة الاستقبال معتذرة عن حدة الشاب بمرضه. ولما خلت الحجرة إلا من الشقيقتين، قال أحمد بحزن:

- ليتك لم تستسلم للغضب!

ولكنه قال له بانفعال شديد:

- والله ما تستحق إشفافك يا أخي!، إن الخيانة قبيحة، وهذه الفتاة هي سبب الكارثة التي حلت بي كما تعلم يا أخي، لولاها لتداركت خطر المرض ودفعت الأذى عن حياتي، ولكن تعلقي بها هيأ لي مداراة المرض حتى انتهيت إلى ما ترى..

واستوى جالساً وقال وما يزال منعلاً:

- لماذا خاطرت المرأة المعجوز باصطحابها إلي؟..

المرأة الماكرة ترمي بنظرها إلى بعيد، فترى الشفاء محتملاً كالموت، وتأخذ الخيطة لكل احتمال، ولكني يا أخي لن أفكر في الزواج، وإذا كتب الله لي الشفاء فسوف أتعهد بنياني المتهالك بالعبادة الواجبة، فعلى أحسن الفروض لن يبقى من عمري إلا شيخوخة حقيقة بالرعاية الحكيمة. أخي: لي في المصرف مقدار من النقود كنت أذكرته لزواجي فسأستتره وأشد الرجال إلى حلوان، وهناك أضع نفسي تحت رحمة المقادير حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. غداً اسحب

توحيدة ونوال! وحدثت دهشة لاحت أماراتها في الأعين، وخفق قلب الشقيقتين بعنف. لماذا جاءت نوال بعد هذا الغياب الطويل؟! وإن ظهورها مرة أخرى خليق بأن يتكا الجرح الذي أوشك أن يندمل. ونهض أحمد وتنحى جانباً حتى ارتفق النافذة، ورفع رشدي عينين أحاطت بهما هالتان زرقاوان، ونطقت عيناه بالإنكار، ثم زابله الدهشة وحل محلها امتعاض شديد فتنعص عليه هدوؤه البديع. وحدثته الست توحيدة بلهجة المرحه، وأكدت له أنه يتحسن تحسناً محسوساً، أما نوال فرنت إليه بعينين مروعتين وقد أفرعها ما صار إليه من الهزال والضعف، وغلبت على أمرها فلم تدر ماذا تقول. ولم تزد على أن قالت بصوت لا يكاد يسمع: «كيف حالك؟»، ولم يرغب في الرد عليها فاكثفى بأن رفع ذقنه وبسط راحته كأنه يقول لها «كما ترين!»، ولم يعد يخفى على أحد أن الشاب تغير، وأنه اعتراه اضطراب واستياء، وأنه يعاني ألماً باطنياً حاداً. وأرادت الست توحيدة بلباقتها أن تخفف من توتر الجو فراحت تتحدث وتضحك وتستثير الضحك ما وسعتها الحيلة، ثم قالت:

- أبشر يا رشدي أفندي! رأيتك في الحلم حاملاً أثقالاً عابراً بها قطرة طويلة، فبلغت نهايتها بسلام، وتفسيره أنك ستبرأ عما قريب إن شاء الله..

فقال رشدي بلهجة لم تخل من خشونة:

- فسر الدكتور قبلك هذا الحلم فأكد لي أنني لن أفارق فراشي قبل عام طويل؟

فألت المرأة بلهجة عتاب:

- ساعلك الله يا رشدي أفندي، هكذا أنت متطير دائماً.. (وأومات إلى ابتها واستأنفت الكلام) هذه نوال جاءت لترك، وما منعها عنك إلا انشغالها بدروسها، ومرضها في الأيام الأخيرة، وستؤدي الامتحان في نهاية هذا الشهر!

فقال الشاب بلا تردد:

- نفس التاريخ الذي أفصل فيه من عملي..

فاصفر وجه نوال التي أدركت حقيقة غضبه، وبادرت المرأة تقول بامتعاض:

متسعتين مكتحتلتين بهاتين سوداوين، وارتسمت على الحدقتين نظرة غريبة، غير نظرة الحزن الأولى، كأنها ترمي إلى شيء لا تراه العين. وجاء أحمد يجالسه ساعة العصر قبل أن يمضي إلى قهوة الزهرة، فقال له رشدي:

- أذهب إلى الزهرة؟! .. سلامي إلى الصحاب، لكم يشوقني أن أسهر ليلة في السكاكيني بين إخواني. فقال أحمد بتأثر:

- ستبرأ إن شاء الله وتعود إلى إخوانك وليالك! فقال الشاب بانكسار:

- هل يمكن أن أبرأ حقاً؟! .. انظر إلى ساقبي! هل تعودان مرة أخرى إلى هيئة السيقان البشرية؟! - وما يكون هذا في قدرة الله العظيمة؟

فهز رأسه، ثم قال لأخيه بلهجة الناصح الأمين على غير مألوفه:

- انزع صحتك دائماً بعين اليقظة ولا تنهاون بها أبداً..

ثم أطرق لحظة قصيرة واستدرك قائلاً وقد تغيرت نبرات صوته:

- المرض كالمرأة يلتهم الشباب ويبتد الأمل..

وتساءل أحمد ما بال أخيه يتكلم هكذا؟! ..

ونظر إليه بانكسار، فاستدرك الآخر:

- وميكروبه يعمل في الخفاء حتى إذا تمكّن من فريسته قضى عليها.

- رشدي! .. ماذا تقول؟

- أجلو لك الحق قبل الفراق، فعسى ألا أراك بعد اليوم.

فقال الرجل بانزعاج:

- كيف لا أراك يا رشدي؟

فتنبه قليلاً وقال كأنما عاودته سخريته المرة:

- أليس من المحتمل أن يذهب صبرك فتعاف

المرض أو تنشغل بدروسك فتتسائي في حلوان؟! فهتف به أحمد متأثراً:

- ساعك الله.. ساعك الله..

فحججه بنظرته الغريبة الغائبة وسأله:

لي النقود بنفسك، وابتع لي ثياباً ولوازم، وسأكون بالمصحّة قبل نهاية هذا الشهر، وعلى الله الجبر... .

## - ٤٧ -

وفي ضحى اليوم الثاني - الجمعة - نفذ أحمد مشيئة أخيه، فاستردّ وديعته من المصرف وابتاع له بيجامتين وثياباً داخلية وبعض اللوازم الثانوية، وعاد إلى البيت ظهراً مسروراً بما قرّر رأي المريض عليه من الانتقال إلى حلوان، ولما دخل حجرة الشابّ رآه يدخن سيجارة، فانزعج انزعاجاً شديداً، وكان أقلع عن التدخين منذ ظهور المرض، فارتبك لمراى القادم، وابتسم ابتسامة ارتباك وخجل. وهتف به أحمد وقد نسي المشتريات الجديدة:

- من أعطاك هذه السيجارة؟! .. ماذا تفعل بنفسك؟!!

والقى على أمه نظرة ملؤها الاتهام، فقالت المرأة تدافع عن نفسها:

- ألح عليّ يا أحمد ولم ينفع اعتراضى، فما سكنت حتى فاز بطلبته..

وقال رشدي دون أن يترك السيجارة:

- لا تؤاخذني يا أخي.. نازعتني نفسي إلى التدخين فجأة فلم أستطع مقاومتها.

فقال أحمد بامتعاض شديد:

- ولكن هذا هو الجنون عينه!

فقال الشابّ كالمعتذر:

- سيجارة واحدة لا تؤذي، لكنّ هي لذينة! دعني اخذ أنفاسها في طمأنينة..

ودخن سيجارته في سرور عجيب، ثم قال:

- لا تغضب يا أخي فهي آخر سيجارة، والآن هات ما عندك من الثياب الجديدة..

وبعد الغداء بقليل اعتراه إعياء شديد ولم يطمئن إلى الاضطجاع، فجلس في الفراش ماذا ساقيه مسنداً ظهره إلى وسادة منكسرة، فبدأ ساقاه كخطّين، واشتدّ اصفرار وجهه وشابته زرقة خفيفة، ولاحت عيناه

- لماذا لا يحرقون المرضى فيريحوهم ويستريحوا منهم؟  
فصاح به الرجل:

- رشدي! كيف تتكلم؟!

فلزم الصمت لحظة قصيرة، ثم قال بأسف:

- لعن الله المرض، الله يكفيكم شر المرض!..

وانزعج أحمد انزعاجاً كبيراً، وعادت أمه بالقهوة فاحتسى قهوته في سكون، وخاف أن يعود الشاب إلى كلامه المزيج، ولكنه لم ينبس بكلمة، فارتاح ارتياحاً خفيفاً، وحسب أنه استرد حالته الطبيعية. وجعل يسترق إليه النظر، فهاله تراحيه، ولون وجهه، ومنظر ساقيه. وحدث نفسه متأثراً: أهذا أنت يا رشدي؟! تباً للمرض!

وذهب الرجل إلى القهوة متأخراً عن مواعده، وكان يجد فيها بعض الراحة لأعصابه المتوترة، ونفسه المحزونة، فمكث بها حتى منتصف العاشرة، ثم عاد إلى البيت، ومزّ بحجرة أخيه، فوجده قد تعاطى النوم واضطجع في طلاء النوم، ولكنه لم يكن نام بعد فردة تحية القادم قائلًا:

- مساء الخير.. هل عدت؟

فقال أحمد وهو يتفحصه بعينه:

- أجل.. كيف حالك؟

- الحمد لله.. كيف شاي الزهرة؟

- كعهديك به.

فقال بصوت لم يكده يسمع:

- هنيئاً..

وتركه لينام ومضى إلى حجرته، وخلع ملابسه. كان منقبض الصدر متوتر الأعصاب. وترامت إلى أنفه رائحة نتنة فازداد صدره انقباضاً وأعصابه توترًا، ترى هل للهواجس التي تضطرب بها أعماق النفس رائحة تشم؟! وحاول أن يغيب عن أفكاره ساعة بالقراءة. ثم نهض لينام. فلم يغمض له جفن حتى مضت ساعة طويلة من الأفكار والوساوس، واستيقظ في الصباح الباكر على حركة في البيت فتنبهت حواسه، ونظر في الساعة فوجدها الخامسة. فتساءل ما الذي أيقظهم في هذا الوقت المبكر؟! وغادر الفراش، وانطلق إلى

الخارج يساوره قلق وخوف، وقبل أن يخطو خطوتين في الدهليز المضي إلى حجرة رشدي انفتح باب الحجرة بقوة وبدت أمه على عتبة وقد رفعت ذراعها فوق رأسها كمن يستغيث، ثم هوت على خديها تلطمهما بعنف وجنون.

- ٤٨ -

وكان يومًا فظيماً مروّعاً، سارت قافلته في هول من الألم والعذاب والشجن. وإن أحمد ليذكره ساعة ساعة لأن ذكرياته السود حفرت في فؤاده كما حفرت في فؤادي الوالدين البائسين. فساعة دخوله الحجرة: سار متأقلاً بقلب كبير وعين مذعورة لما ينتظر أن تراه، ومدّ بصره نحو الفراش فرأى رشدي راقدًا وقد سجته أمه بالغطاء واللدنه واقفاً على كتب منه داعم العينين منكس الرأس، فاقترب من الفراش وحسر طرف الغطاء فرآه كالتائم لم يتغير منه هيئة ولا لون، وهل ترك المرض للموت شيئاً يغيره؟! وانحنى عليه فلثم جبينه البارد ثم أعاد الغطاء كما كان، واستسلم لبكاء غزير تجمعت أبخرته في قلبه يومًا بعد يوم تنفثها الآلام حتى تكاثفت في برودة الموت فسحّت دمعاً فياضاً..

وموقفه في حانوت بالغورية: يبتاع كفتًا، ويذكر ما ابتاع له بالأمس من ثياب الدنيا. انتقى له أجل الألوان لما عهده فيه من حبّ الأنافة وجعل ينظر إلى يدي البائع، وهو يقيس القماش ويقطعه ثم يلفّه، بإنكار وذهول.

ثم ذهبه إلى مركز الصحة لاستخراج تصريح بالدفن. سأل موظف بعدم اكتراث: «اسم المتوفى؟» فأجابه وهو يودّ ألا يسمع صوت نفسه: «رشدي عاكف» ثم قال لنفسه بذهول: «رشدي عاكف مات! أقطع بها من حقيقة» وسأله باللهجة الباردة نفسها: «عمره؟» فأجابه: «سنة وعشرون عامًا» فسأله «المرض؟» فسأله والغضب يضطرب في جوانحه، وهل ينسى ما فعل بالشاب المنكود؟ هل يمكن أن ينسى منظر الساقين والعنق؟ لون البشرة؟.. قسوة السعال؟. ثم تسلّم الورقة التي لا يمكن أن يغيب رشدي في باطن

رشدي ملفوقًا في الكفن الذي اختاره له بنفسه، وأطبقت عليه الأيدي، وغابوا به في جوف الأرض، ثم صعدوا بعد قليل من دونه، وبلا رحمة حثوا عليه التراب، فاستحى في القبر في دقائق معدودات، واستوى بالأرض، ونضحوا الماء عليه كأن غلته لم تُرو بعد، وهكذا غاب عزيز وانتهت حياة! بين انتباهة عين القبر وغمضتها يغيب حبيب إلى الأبد فلا تغني عنه الدموع ولا الحشرات. ورجعوا جميعًا وقلوبهم شتى، الحكمة التي أوجبت بالأمس أن يكون رشدي محبوبًا توجب اليوم أن يصير نسيًا منسيًا! البيت كئيب، والوالدان ذاهلان، وقد كُوم رياش حجرة الراحل وأغلق بابها. ولما أوى عند منتصف الليل إلى حجرته، انثالت عليه الفكرة، حتى تنبّه إلى شيء في الجوّ. يا عجبًا ما زالت الرائحة الكريهة تزكم أنفه. رائحة الموت المخيفة؟ وفي صباح اليوم الثاني وجد أنها ما تزال تنبعث في الجوّ، فتهيأ له أنها ربّما كانت متصاعدة من الممرّ المفضي إلى خان الخليلي القديم، ففتح النافذة ونظر منها، فرأى على الطواركلًا ميتًا وقد انتفخ بطنه وتشجّجت أطرافه، فصار كالقربة، وأكبّ عليه الذباب. وأدام النظر قليلًا، ثم تحوّل عن النافذة بفؤاد مكلموم وقد امتلأت عيناه بالدموع. .

ثم كانت أيام قاسية مرّة. أمّا عاكف أفندي الأب فقد راح يداوي بالإيمان جرحًا داميًا، وأمّا الأم فقد ذهلت في حزنها عن كلّ شيء حتى الإيمان، بل قالت تخاطب ربّها في وقدة الألم: «ما ضرّ دنياك لو تركت لي ابني!» ثم قالت لزوجها بحدّة: «هَذَا حَيّ شَوْم، جثته على كره مَنّي وما أحببته قطّ، وفيه مرض ابني وفيه قضي. فدعنا نهجره بغير أسف!» ثم انثنت إلى أحمد قائلة: «إذا أردت أن ترحم أمّك حقًا فابحث لنا عن مقام جديد». كرهت الحيّ وأهله جميعًا. وضاق أحمد به صدرًا كذلك، ولكن كيف السبيل إلى سكن جديد والقاهرة قد ناءت بسكانها! ولم يأل جهدًا فوضى زملاءه جميعًا بالبحث عن مسكن في أيّ موقع من القاهرة، بل جعل يروض حزنه الأليم بالاضطراب في الشوارع القريبة والبعيدة بحجّة البحث عن مسكن

الأرض إلى الأبد إلّا بها ومضى شاكرًا!! وقد أحدث عدم اكتراث الموقّف والدكتور ثورة في صدره على وشائج الإنسانية جيّعا، كيف يُلقى الموت بعدم اكتراث وهو أظفح حدث في الدنيا؟! هل يمرّ يوم دون أن يُرى نعش محمولًا على الأعناق؟! فكيف يمرّون به مرّ الكرام كأن الأمر لا يعينهم؟! كيف لا يرى كلّ فرد نفسه محمولًا على هذا النعش؟! .

ثم مرتزقة الموت، جاءوا تباعًا يحملون أدوات الغسل والنعش، برّاقة أعينهم، قويّة سواعدهم، يكتمون وراء عبارات الرثاء المصطنع سرور التاجر بالريح المرتقب، فلم يروا في جثمان رشدي العزيز إلّا سلعة. .

ثم النعش يتهادى على الأعناق في حلّة الشباب البيضاء، وملأ عينيه منه وهو يسير في انحرافه المعروف تتبادل الأيدي والمناكب، ووضع الطربوش عليه مستويًا وكان صاحبه يُيله إلى اليمين فيوشك أن يمَسّ حاجبيه فعل المختال بشبابه المدلّ بجماله، لله ما أوفى أصحابه، لقد بكوا حتى احمرت أعينهم، ويكى كمال خليل أفندي، أمّا أحد راشد فقد جمد وجهه ولم يُبَيّن ولم يرتج أحد لمنظره ولا لوجوده بين المشيعين، كذلك تجنّب النظر إلى المعلم نونو الذي أيقن أنّه لا يمكن أن يشاركه عاطفة لما طبع عليه من استهانة بالأحزان وابتسام للكروب، وسار الأب وراء النعش مباشرة في حزن حفظ الإيمان عليه وقاره، وبلغ التأثير بأحمد متناه حين بلغت الجنازة طريق الجبل، الذي يعلم من أمره ما يعلم، الطريق الذي شهد رشدي عاشقًا صباخًا بعد صباح، والذي جرى فيه الفتى وراء هواه مستهينًا بمرضه الخطير، فاشتري قلبه بصدوره، ثم خسر الاثنين معًا. ربّاه هل يشهد الطريق على خيانة الرفيق؟. . هل يفضي إليه بأنّ التي رأى الفتى المسكين يتتحر من أجل حبّها خافت عدواه ونبذته نبذ النواة؟! ثم بدت المقبرة في ثوب قشيب! فرشت أرضها بالرممل، واصططقت عند مدخلها الكراسي، ودار بها السقاة، وفغر القبر فاه كأنه يتثاءب ضجّرًا من المأساة المعادة، ووضع النعش على الأرض وكشف الغطاء، ورفع

وخفق قلبه للذكر الاسم، وأمسكت يده عن فك  
رباط الرقبة، وسأله مندهشاً:  
- ولماذا جاءت؟  
فقلت الأم:

- قابلتني في ارتباك شديد، وما إن التقت عينانا  
حتى انتحيت باكياً، وقالت لي بصوت متقطع ونبرات  
مختقة: «أنا أعلم بسخطك عليّ، بل بسخطكم عليّ،  
ولكم العذر، ولكنّي مظلومة، والله يا تيزة، منعوني من  
زيارته، وحالوا بيني وبين رؤيته، وفرضوا عليّ رقابة  
شديدة، وأبوا أن يصغوا إلى توسلاتي أو يرحموا  
دموعي، وما كنت لأفعل هذا بنفسني أبداً، ومع ذلك  
لم أذعن ولم آيس حتى اضطرت أُمّي تحت ضغطي  
الشديد أن تصطحبني معها في غياب أبي، فجننا معاً  
ذاك اليوم الذي لا أنساه ولن أنساه ما امتدّ بي عمر.  
آه يا تيزة!، ألقى عليّ يومئذ نظرة واحدة، تنطق  
بالاحتقار والزراية فقطعت قلبي المكوم البريء.  
أدركت أنّه ناقم عليّ، كاره لي، لكنّ تألّت، ولكنّ  
أنألم.. ولكنّه سيعلم الحقيقة يوماً ما، ويعلم أنّي ما  
بغيت عليه ولا خنت عهده..».

أصغى أحمد إليها بفؤاد خافق وصدر هائج جيّاش،  
ثمّ سأله:

- أنقول الحقّ يا تُرى؟

فتفكرت المرأة قليلاً ثمّ قالت على مهل:

- سمعتها تتكلّم بإخلاص، ولا أدري لماذا تحمل  
نفسها عناء الكذب بعد أن انتهى كلّ شيء، فيغلب  
على ظنيّ أنّها صادقة، بيد أنّ مقّي تضاعف لأهلها  
الدون.

وخلع الرجل ملابسه متفكراً، وقد مال إلى تصديق  
الفتاة كلامه، وارتاح لذلك، ولكنّ وأسفاه قضى  
رشديّ نحبه يائساً من حبّه يأسه من الشفاء! فيا لها  
من حبيبين تعيسين الميت منها والحي! وأهاجته  
الذكريات فاستشارت أحزانه ومضى يقول لنفسه:  
«اللهمّ غفرانك، ألم يكن الأوفى أن تختارني وتعفو عن  
أخي؟ فحياتي الخائبة لا تستحقّ الوجود، وحياته  
الناجحة كانت أهلاً للدوام، اللهمّ غفرانك!» وأحسن

خال. وقد لاحظ المعلم نونو سهومه وكأبته فأكثر من  
ممازحته وجذبه إلى أحاديثهم حتى دعاه مرّة إلى بيت  
السّ علّيات، ولكنّ الكهل أبي وظلّ مغرّ الجيين.

#### - ٤٩ -

وتلا وقت حافل بالأحداث الحربيّة الهائلة،  
فانسحب الجيش الثامن من جسر الفرسان، وفي  
النصف الثاني من يونيو سقطت طبرق في يد الألمان،  
وتهاشم الناس بخطر الغزو. وتناول الصحاب، في  
الزهرة، الأخبار بتعليقاتهم المعتادة، فقال سيّد عارف  
بسرور:

- لن يقف زحف رومل هذه المرّة..

فسأله الأستاذ أحمد راشد بلهجة المتهكّم:

- يا مَنْ تحبّون الألمان، هل تحسبون أنّهم إذا دخلوا  
مصر يدخلون بسلام، أو أنّ دون ذلك حرباً ضرورياً  
تقتلع كلّ قائم؟!

فأجابه المعلم زفّة باستهانة:

- وماذا لنا في البلد ممّا يُخاف عليه؟! فليحزن السادة  
الذين لا يعرفون أنّ الدنيا فانية!.

وقال المعلم نونو:

- لا أملك إلّا روحي وأرواح أبنائي وهي جميعاً  
ملك الله تعالى ولا سبيل لرومل عليها إلّا بأمره، وقد  
وقت لها آجالها قبل أن يخلق رومل بملايين السنين!..  
ثمّ ضحك نونو ضحكته المجلجلة واستدرك قائلاً:  
- نذرت إلى الله، لو جاء رومل وأنا على قيد  
الحياة، لأدعوته إلى سهرة بيت السّ علّيات، ليشهد  
أنّ المدفع المصريّ فوق المدفع الألمانيّ... .

وجعل أحمد ينقل إلى والديه ما يقوله الناس،  
ويحدّثها بأخطار الغزو وما يتوقّعه الكثيرون من اشتداد  
الغارات الجويّة، وكأنّما أراد أن يلهيها عن حزنهما ولو  
بإثارة مخاوفهما!

وعاد أحمد ذات مساء إلى البيت، وكان انقضى على  
وفاة رشديّ أربعة أسابيع فوجد أمّه بانتظاره، وبادرت  
قائلة:

- زارتني نوال بعد عصر اليوم!



ويجيش بالعاطفة:

الاثنين ١٢ من يناير سنة ١٩٤٢:

«ربّاه!». أنا من اليوم وحتى يشاء الله شخص غريب، في صدره أدّى للناس، أنفاسه تهّد العباد، برج متداعٍ من الميكروبات الفتّاكة، لعبت لعبة خطيرة كيلا تضع نوال من يدي، اللقاء مبذول، ولكن خذاري، نوال محرّمة عليك، محال لمسها! قبلتها التي كانت شفاء للنفس حرام حرام، لشدّ ما تنكرني وتعجب لشأني ولعلّها تسائل نفسها ما له لا يتهز فرصة خلّو الطريق كما كان يفعل؟ هل شبع من شفتي؟ أترى فتر حبه؟.. كلّاً يا حبيبي لم يشبع من شفتيك ولا فتر حبه، ولكنّه يحاف عليك، ويصون فاك من الهلاك المين، ليس الذنب ذنبي، فقلبي كعهديك به ولكنّ دونه صدراً عتّش فيه عدوّ شرير أخافه عليك وأعيذك منه...».

أغلق أحمد الكرّاسة، وجعل يذرع الحجرة وكأنّه يترنّج من شدّة الصدمة، ثمّ ارتقى على الفراش وهو يصكّ جبينه براحته ويهتف: «ربّاه! لكم ظلمته.. ولكم اتهمته بالباطل!»، وأحسن كما لو أنّ منشأً ينشر قلبه فأناً أنيئاً موجعاً..

- ٥٠ -

وتصرّمت الأيام الباقية من يونيو، وجاء يوليو بقيظه الفائز..

وظلّت الكتابة ناشرة رداءها على البيت الثاكل، ولم تفرّ همّة أحمد عاكف في التنقيب عن مسكن جديد، رحمة بوالدته، ولأنّه هو أيضاً، ضاق بالحيّ صدرًا. وقد خلّفت الصدمة في أعصابه الرقيقة آثاراً عميقة، فعاوده بعض أرقه القديم، وتلبّسته حال من القلق النفسيّ بات معها سريع الانفعال، سريع التأثر، كثير المخاوف مستسلماً للحزن. وألقت في صدره الجياش أحزان الماضي والحاضر، وتوجّس خيفة ممّا يحبّبه المستقبل وممّا عسى أن يلبده من الأحزان والآلام، وقال لنفسه، وهو يذكر والديه: إنّ سعادتنا بأحيائنا اليوم مرتنة بالدموع التي نسكبها على فراقهم غداً، وطفق

في تلك اللحظة داعياً باطنياً يدعوه إلى ارتياد حجرة الفقيد المغلقة، وكانت نفسه نازعته إلى ذلك مرّات ثمّ يعدل إشفاقاً، أمّا هذه المرّة فلم يستطع أن يغفل عن نداء الداعي، وهزّه الشوق والحزن، وما عتم أن مضى إليها والسكون شامل وقد أخلد والداه إلى النوم. وكما اقترب من بابها انقبض صدره وفاض به الحزن. ثمّ أدار الأكرة، وعبر مدخلها متساقلاً، وأضاء المصباح الكهربائيّ، وألقى على الحجرة المهجورة نظرة شاردة، وقد ملأت رائحة التراب أنفه، فرأى كوماً من الأثاث ومكتباً تراكم عليه الغبار فأحاله، وكلّ شيء يدلّ على الوداع. ربّاه لماذا ولج هذه الحجرة وما جفّت دموعه بعد؟! وأجال عينيه بها في حزن بالغ فجذبها درج المكتب الأوسط، فذكر أنّ هذا الدرج يحوي مذكرات رشدي و«اليوم» صورته!، وأملّى عليه قلبه أن يحتفظ بها في حجرته ما دام الأثاث عرضة للبيع اليوم أو غداً، ففتح الدرج واستخرج كرّاسة المذكرات واللبوم، ونفخ عنهما الغبار، ثمّ ألقى على الحجرة نظرة وداع وغادرهما كأنّما ما جاء إلّا لياخذ اللبوم والمذكرات. ووضعهما على مكتبه، وطفق يديم النظر إليهما باهتمام وحزن. وفتح اللبوم عن أولى صحائفه، فرأى صورة كبيرة لرشدي تمثّله واقفاً ويداه في جيبي بنطلونه، ما أجمله وما أنضره!.. وسرعان ما طرقت ذاكرته صورة الكلب الميت الذي كدّر جوّه يومين كاملين! فتأكلت نفسه حشرات! ولم يمْضِ في استعراض الصحائف احتراماً لأسرارها، وتناول كرّاسة المذكرات دون أن تحدّثه نفسه بالتطفّل على مكنونها، بيد أنّه لم يقاوم رغبة في فرّ صفحاتها الأخيرة، فجرى بصره على بعض رؤوس النبذ التي تكوّن خاتمة المذكرات.. فقرأ «حبّ جديد».. «طريق الجبل».. «حديث غرام».. «آمالنا» حتّى مرّ بصره بهذا العنوان «القبلة القاتلة!» فحفق فؤاده بعنف شديد، ما معنى هذا العنوان؟!.. ألم يرتدّه في بعض هواجس حزنه يوماً؟! وكان مؤرّخاً في ١٢ يناير سنة ١٩٤٢ أي أوّل عهده بالمرض، فلم تكن ثمة قوّة تستطيع أن تعدل به عن قراءته فقرأ وصدره يضطرب

يردّد بيت أبي العلاء:

ومن لم تبيّته الخطوب فإنّه

سيصبحه من حادث الدهر صابح  
فلم تكن أعصابه ممّا يعين على تحمّل غير الدهر  
والآلام الحياة، وأوشك أن يقع فريسة لمرضه القديم،  
ولذلك صدقت رغبته في هجر الحيّ. وفي ذلك الوقت  
كثّر إطلاق صفارات الإنذار ليلاً ونهاراً ولكن لم  
تضرب المدينة كما حدث في سبتمبر، ثمّ تحرّجت الحالة  
الحربية بتوالي تقدّم قوّات المحور، فعبرت الحدود  
المصرية، وتوغّلت فيها، حتّى جاوزت مرسى مطروح  
التي كانت تعدّ أهمّ خطّ دفاعيّ عن مصر، ثمّ  
استولت على فوكة والضبعة، وبلغ التحرّج متناهياً  
بتقدّم القوّات المعادية إلى العلمين!.. تخالفت  
الإسكندرية لأعين الغزاة وهامس الناس بأنّ  
الضرورات الحربية تنذر بتحويل الوطن إلى خرائب  
تنعق فيها البوم، ومستقعات يرعاها البعوض.

وفي مساء اليوم الذي بلغت فيه قوّات المحور  
العلمين اجتمع الصحاب بقهوة الزهرة كعادتهم،  
فتلاقوا بالبشر والسرور، وملأوا الجوّ برنين  
ضحكاتهم، لم يفكر أحد منهم في الهجرة أو في تخزين  
بعض الموادّ الغذائية، ولا شغل أحد نفسه بتقدير  
الحالة التي تنشأ عن الغزو والحرب في المدن، أو كانوا  
يتمثّلون هذه الحالة مازحين ضاحكين كأنّ الأمر لا  
يعنيهم، ولسان حالهم يقول: «الأمر لله وليحدث لنا  
ما يحدث للناس جميعاً!» ولم يختلف أحمد عاكف عنهم  
في شيء، بيّد أنّه وجد في الاجتماع بهم - ذلك اليوم -  
لذّة مضاعفة، كأنّه وجد في مجتمّعهم الصغير ملاذاً من  
القلق العامّ الذي أخذ يساور النفوس، لم يتخلّ قلبه من  
خوف وقلق ولم يتخلّ من سرور، كان يفكر في ما يحتمل  
أن يحدث فينبض صدره، ثمّ تتمثّل له تلك الحالة  
التي يختلط فيها الحابل بالنابل وتحمي التبعات وتنهار  
القيم فيجد في أعماقه شعوراً بلذّة خفيّة تعكسها  
أعصابه المتوتّرة، كأنّ ذلك الغزو المرتقب سيبيد في ما  
يبيد أحزانه وآلامه، وسيمحو في ما يححو من آثار  
الماضي آثار ماضيه..

قال سيّد عارف بلهجة المثبت ممّا يقول:

- اسمعوا آخر الأخبار.. قسم رومل جيشه  
جناحين، وجّه الأوّل نحو الإسكندرية وهبط بالثاني  
صوب الفيوم..

وقال أحمد راشد:

- سمعت أنّ الإسكندرية تضرب بالقنابل من الجوّ  
ومن البرّ حتّى هجرها أهلها إلى دمنهور.

- هل انتهى الإنجليز حقّاً؟

- إنهم يحرقون أوراقتهم ويرحلون نساءهم!

- متى يبلغ الألمان القاهرة؟

- غداً أو بعد غد..

- إلّا إذا ساروا بجيشهم المظفر شرقاً إلى  
السويس...

- سمعت من ثقة أنّ جنود الباراشوت يهبطون  
جاعات في الحقول...

وتساءل المعلّم نونو:

- ما عسى أن يفعل أحدكم لو هبط عليه جنديّ من  
أولئك الجنود وأمره أن يدلّه على موقع حربيّ...؟!

فأجابه سيّد عارف فوراً:

- أمضي به إلى شقّة سليمان بك عتّة وأقول له:  
«هاك السفير البريطاني!»

فهدف به سليمان بك محتقاً:

- أوّل بك أن تستوّه به بعض الأقراص لمرضك!

وقال المعلّم زفته:

- أمّا أنا فأسوقه إلى شقّة عبّاس شفة وأريه أضخم  
«طابية» في مصر...

فقال أحمد عاكف داهشاً:

- ليس لهذا المزاح من نهاية؟! ألا تعلمون بأننا  
مهتدون بهجر ديارنا وربّما قذفوا بنا إلى بعض القرى  
القذرة!

فصاح نونو:

- ما أحلاها عيشة الفلاح!

فسأل أحمد راشد:

- ألا تخافون الموت؟!

فقال المعلّم زفته:

أَتَهَا تَظَلُّ بِأَكِيَّةٍ إِلَى الْأَبَدِ؟! أَلَمْ يَضْحَكْ هُوَ مَرَّاتٍ سِوَاهُ فِي الْوِزَارَةِ أُمٌّ فِي الْقَهْوَةِ؟!.. أَلَمْ يَجْزِ الْإِبْتِسَامُ عَلَى شَفَتَيْ أُمِّهِ نَفْسَهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ؟! فَلِهَذَا لَا تَضْحَكُ نَوَالٌ؟ وَمَاذَا يُغْضِبُ مِنْ ضَحْكُهَا؟! حَقًّا إِنَّهُ النَّسِيَانُ، ذَلِكَ الدَّوَاءُ الْمَرُّ الَّذِي يَعْقِبُ الْعِزَاءَ وَيَسْتَوْجِبُ الْحَسْرَةَ، الْعِزَاءَ عَنِ الْأَمَانِ وَالْحَسْرَةَ عَلَى أَنْفُسِنَا. نَقُولُ نَسِيَانًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَهِيَ سَتَةُ الْحَيَاةِ! وَتَهْدُ مِنَ الْأَعْقَابِ. ثُمَّ خَطَرَ لَهُ خَاطِرٌ لَيْسَ بِالْجَدِيدِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَرُوحُ مِنْهُ، يَشْفَقُ مِنْ مُوَاجَهَتِهِ، يَتَذَكَّرُ أَنَّهُ قَالَ لِنَفْسِهِ هَذِهِ الْمَرَّةَ: «حَتَّامٌ أَهْرَبُ وَأَتَجَاهَلُ؟! أَلَا يَخْلُقُ بِي أَنْ أَوَاجِهَ الْحَقِيقَةَ وَأَمْنُ النَّظَرِ! أَمَا زِلْتُ أَحَبُّ نَوَالٍ؟ لِمَاذَا يَخْفِقُ فُؤَادِي لِمَرَّاهَا وَلِذِكْرَاهَا؟».

وَتَفَكَّرَ مَلِيًّا - وَهُوَ آخِذٌ فِي مِثْلِهِ التَّمَهُّلِ - ثُمَّ حَدَّثَ نَفْسَهُ مَرَّةً أُخْرَى وَقَدْ تَوَرَّدَ وَجْهُهُ الشَّاحِبُ خَجَلًا كَأَنَّمَا أَطْلَعَ عَلَى سِرِّهِ النَّاسَ جَمِيعًا: «حَبٌّ، فَوْقَهُ غَضَبٌ، فَوْقَهُ حُزْنٌ، فَوْقَهُ ذِكْرَى مَرْوَعَةٍ. فَلِكِي أَخْلَصْ إِلَى هَذَا الْحَبِّ يَبْنِي أَنْ أَدُوسَ كِرَامَتِي وَذَكَرِي أَخِي وَهُوَ الْمَحَالُ.. بَنِي وَبَيْنَ الْحَبِّ أَخِي وَكِبْرِيَانِي، وَالْحَيَاةِ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ أَمْتَهَنَ فِي سَبِيلِهَا هَذَيْنِ الْعَزِيزَيْنِ!». كُلُّ هَذَا حَقٌّ فَهُوَ يَحِبُّ نَوَالًا، وَلَمْ يَزَالِ حُبَّهَا أَبَدًا وَإِنْ حَبَبَتْهُ الْأَلَامُ كَثِيرًا، وَلَكِنْ عَمَّا أَنْ يَعْتَرِفَ لِهَذَا الْحَبِّ بِغَايَةِ، فَدُونَ ذَلِكَ مَا هُوَ أَقْوَى مِنَ الْحَبِّ نَفْسَهُ، وَلَكِنْ حَتَّامٌ يَمَكُثُ عَلَى كُتُبٍ مِنَ النَّارِ وَهُوَ مَحْمُومٌ؟!!

- ٥١ -

وَفِي أَوَاخِرِ أَوْسَطِ أَهْتَدَى أَحْمَدُ عَاكِفٌ إِلَى شَقَّةٍ خَالِيَةٍ بِضَاحِيَةِ الزَيْتُونِ، فِي بَيْتٍ يَمْلِكُهُ مَوْظَفٌ بِإِدَارَةِ الْحِسَابَاتِ بِالْأَشْغَالِ عَمَّنْ كَانُوا يَعْلَمُونَ بِرَغْبَتِهِ الْمُلْحَةِ فِي الْإِنْتِقَالِ، وَكَانَ يَسْكُنُهَا مَوْظَفٌ اضْطُرَّ إِلَى فِسْخِ عَقْدِهَا لِنَقْلِهِ إِلَى إِحْدَى الْبُلْدَانِ، فَدَعَا صَاحِبَ الْبَيْتِ أَحْمَدَ وَحَدَّثَهُ بِشَأْنِهَا وَتَمَّ الْإِتِّفَاقُ بَيْنَهُمَا سَرِيعًا عَلَى أَنْ يَتِمَّ الْإِنْتِقَالُ فِي أَوَّلِ سِبْتِمْبَرِ مَوْعِدِ إِخْلَاطِهَا. وَسَرَّتْ الْأُسْرَةُ بِقُرْبِ الرِّحِيلِ عَنْ خَانَ الْحَلِيلِيِّ وَذِكْرِيَاتِهِ السُّودِ، عَلَى رَغْمِ أَنَّهَا تَرَحَّلُ عَنْهُ مَهِيضَةً الْجَنَاحِ، وَقَدْ أَلَمَّ بِالْأَبِ ضَغْطُ دَمِ نَقْصِ عَلَيْهِ عِزْلَتِهِ، وَنَالَ الْحُزْنَ مِنَ الْأَمِّ

- أَعْطَنِي عَمْرًا وَارْمَنِي عَلَى رُومَلٍ!  
وَقَالَ الْعَلَمُ نُونُو بِاهْتِمَامٍ مُصْطَنِعٍ:  
- الْحَقُّ فِي مَا قَالَ أَحْمَدُ أَفْنَدِي، الْأَلْمَانُ شَيَاطِينُ، وَهُمْ إِذَا هَجَمُوا عَلَى بِلَدٍ انْتَشَرُوا فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَتَخَفُوا فِي كُلِّ زَيٍّْ، فَلَا يَبْعُدُ أَنْ نَرَى غَدًا الْأَلْمَانُ مَعَمِّينَ أَوْ فِي مَلَأَاتٍ لَفَتْ.. وَاللَّهِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَفْتَحَ الصَّنْبُورَ لِأَتَوَضَّأَ فَيَخْرُجَ لِي مَعَ الْمَاءِ غَوَاصُ الْأَلْمَانِ.  
وَبَعْتَةً أَطْلَقَتْ صَفَّارَاتُ الْإِنْدَارِ!!

كَانَتْ السَّاعَةُ السَّابِعَةُ مَسَاءً، فَهَبُوا جَمِيعًا قَائِمِينَ وَاخْتَفَتِ الْبَسِمَاتُ مِنْ وَجْهِهِمْ، وَهَرَعُوا إِلَى طَرِيقِ الْمَخْبَأِ. وَخَافَ كَثِيرُونَ أَنْ تُحْدِثَ غَارَةً عَنِيقَةً مَدْمَرَةً كَالَّتِي تَسْبِقُ الْمَهْجُومَ، وَذَكَرُوا الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ وَالسُّوَيْسَ وَبُورْسَعِيدَ، بَلْ ذَكَرُوا وَارِسُو رُوتَرْدَامَ؟. وَبَعْدَ دَقَاقَتَيْنِ قَلَائِلَ عَجَّ الْمَخْبَأُ بِاللَّاجِئِينَ. وَجَلَسَ أَحْمَدُ مَعَ وَالِدَيْهِ وَقَدْ شَمَلَ الْجَمِيعَ قَلَقٌ وَخَوْفٌ، وَكَأَنَّ الْأَمَّ قَدْ كَبُرَ عَلَيْهَا ذَلِكَ الْحَرْصُ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْهَا فَدَمَعَتْ عَيْنَاهَا. وَمَرَّ ثَلَاثَ سَاعَةٍ فِي ذَعْرِ وَاضْطِرَابٍ وَانْتِظَارٍ هُوَ التَّعْذِيبُ عَيْنَهُ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ صَفَّارَةُ الْأَمَانِ! وَدَهَشَ النَّاسَ، ثُمَّ لَاحَ فِي أَعْيُنِهِمُ السُّرُورُ وَالْإِرْتِيَاحُ، وَهَتَفَ بَعْضُهُمْ: «اسْتَكْشَافٌ.. اسْتَكْشَافٌ!»، وَهَتَفَ آخَرُونَ: «اقْتَرَبَتْ الطَّيَّارَةُ مِنْ حُدُودِ مَنطَقَةِ الْقَاهِرَةِ ثُمَّ عَادَتْ وَغَيَّرَتْ أَتْجَاهَهَا!». وَتَحَرَّكَ النِّيَّارُ صَوْبَ بَابِ الْمَخْبَأِ، وَخَرَجَ مَعَ الْخَارِجِينَ، وَعَلَى بَعْدِ قَرِيبٍ مِنْ مَدْخَلِ الْمَخْبَأِ رَأَى نَوَالٌ مُتَابِعَةً ذِرَاعَ شَقِيقَتِهَا الصَّخِيرِ عَمَّادًا. وَالْإِثْنَانُ يَضْحَكَانِ وَيُوسِعَانِ الْخَطَى نَحْوَ الْعِبَارَةِ! خَفَقَ قَلْبُهُ لِمَرَّاهَا كَمَا تَعَوَّدُ أَنْ يَخْفِقَ لِمَرَّاهَا أَوْ لِمَرَّاهَا، وَظَلَّ هَنِيئَةً يَتْبَعُهَا مَقْلَتِهِ حَتَّى غَيَّبَهَا الْمُنْعَطَفُ، ثُمَّ انْقَبَضَ صَدْرُهُ وَرَأَتْ عَلَيْهِ كَآبَةً، وَأَحْنَقَهُ ضَحْكُهَا وَأَغْضَبَهُ فَكَأَنَّهُ فَاجَأُهَا مُتَلَبِّسَةً بِجَرِيمَةٍ نَكَرَاءٍ! وَبَلَغَ مِنْهُ التَّأَثُّرُ مَبْلَغًا لَمْ يَسْتَطِعْ مَعَهُ الْعُودَةُ إِلَى الْقَهْوَةِ قَبْلَ أَنْ يَرُوحَ عَنْ نَفْسِهِ قَلِيلًا بِالْمِثْلِيِّ، فَمَضَى إِلَى شَارِعِ الْأَزْهَرِ عَلَى مَهْلٍ، وَأَخَذَتْ نَفْسُهُ تَسْكُنُ وَتَهْدَأُ، حَتَّى عَاوَدَتْهُ حَالَتُهُ الْعَادِيَّةُ بِأَسْرَعٍ مِمَّا كَانَ يَنْتَظَرُ، بَلْ أُنْجِيَ عَلَى نَفْسِهِ بِاللَّائِمَةِ لَغْضَبِهِ، وَأَنْكَرَهُ. مَا الَّذِي أَوْجَبَ غَضَبَهُ؟! مَاذَا أَثَارَ ثَائِرَتَهُ؟! أَوْضَحْكَهَا؟! يَا عَجَبًا! هَلْ حَسِبَ

وعند عصر ذلك اليوم وفدت نسوة العمارة لتوديع الأسرة الراحلة، وكان أحمد لا يزال في حجرته، وجاء فيمن جاء منهم الستّ توحيدة ونوال، وجلسن جميعاً في الصالة الخارجية لأنها المكان الوحيد في البيت الذي كان صالحاً للجلوس وقتذاك. وليث الستّ توحيدة ونوال بعد انصراف الزائرات. وجاء موعد ذهاب أحمد إلى القهوة ليودّع صحابه، فلم يجد بداً من المرور أمام الزائرتين، ولكنّ السيّدّة غضت قائمة عند ظهوره ومدّت له يدها وهي تقول:

- كيف أنت يا أحمد أفندي؟

فسلم عليها في ارتباك المعهود وهو يقول بصوت خفيض:

- الحمد لله يا سيّدي، شكراً لك.

وغضت نوال لنهوض أمّها، فتحول إليها ماداً يده كذلك، والتقت يدهما لأوّل مرّة، فسرت في بدنه رعشة، فلم ينبس بكلمة، ولم يرفع عينيه.. وقالت السيّدّة:

- ما زلت أعذر لوالدتك عن سلوكنا، ولعلّك تقيم لنا العذر يا أحمد أفندي، وواله لقد كان المرحوم عزيزاً علينا أثيراً لدينا وربّنا يعلم...

فقال الرجل المرتبك المضطرب:

- كلّنا نقيم لكم العذر، وللضرورة أحكام يا سيّدي..

ودارت المرأة بلباقة حول الموضوع، وشكرت أحمد لأدبه وحسن تقديره للأمور. ثمّ استأذن الرجل في الانصراف وسلم على السيّدّة ومدّ يده لنوال مرّة أخرى، وفي هذه المرّة، واليدان مجتمعتان، خطف من وجهها نظرة بعينية الخجولتين، ثمّ انّجه نحو الباب. كانت أوّل مرّة تلتقي العينان عن قرب، ولم يكن نظر فيها منذ مداعبات النافذة والشرفة على عهد الأمل الأوّل، فخال أنّه طالع فيها ما كان يطالع من صفاء وحنان وتطلّع، فلحق قلبه وهو يبحث خطاه وطرف عيناها في هياج عصبيّ. ربّما كان موقف الوداع هو المسؤول وحده عن كلّ ذلك، فالوداع يستثير حتى عطف أولئك الذين لا يعطفون في غيره من المواقف،

فأصابتها بالهزال وأغاض مرحها وألبسها ثوب الكبر، بيّد أنّ أحمد - على حزنه - رأى في الأفق نجوماً تحفّق. تحدّثوا في تلك الأيام عن إنصاف المنسيين من الموظّفين، وباتت الدرجة السابعة قرية المنال، وكان دائماً يستهين بالموظّفة والموظّفين، ولكنّه سرّ في باطنه بالترقية المنتظرة، وسرّه أيضاً أنّه سيصير رئيساً على أربعة غير سامي بريد الوارد، ونوى صادقاً أن يجعل من عهد «رئاسته» فتحاً جديداً في حياة الإدارة الحكومية يضرب فيها المثل الأعلى للرئيس «العالم الحكيم»، ثمّ من يدري بعد ذلك بما يحبّته الغيب؟ فأمامه في الحكومة خدمة طويلة تناهز العشرين عاماً، وعسى أن يرقى درجات أخرى؟ وعسى أن تحسن الحكومة الاختيار ولو أخيراً!!! وليس هذا كلّ شيء، فقد حدث أن اصطحب أمّه إلى المسكن الجديد ليعايناه، وهناك دعاها صاحب البيت إلى شقّته فاحتسب معه القهوة في حجرة الاستقبال، ودعيت والدته إلى حريم الرجل، وعند عودتهما معاً أثنت أمّه على زوج صاحبه وشقيقته، وقالت عن الأخيرة: إنّها أرملة في الخامسة والثلاثين على أدب وجمال. ونشط خياله! أرملة في الخامسة والثلاثين على أدب وجمال يحورهما بيت واحد وهو أعزب في الأربعين، وزميل شقيقها، ولا فارق في السنّ من ناحيته ينقر، ولا شباب غضّ من ناحيتها تتيه به عليه. والظاهر أنّ الحياة لا تريح من الأمل، هل يعلم الغيب كلّهُ إلّا الله؟، بيّد أنّ هذه الأحلام لا تتفق ورباط رقبته الأسود! ربّاه!، ما لأحلامه تحلق في غير حياء؟ ولا يبعد في تلك اللحظة أن تكون نوال تسترق النظر إلى أحد راشد مثلاً. وهكذا تسير قافلة الأحياء لا تلوي على شيء كأنّها لم تفقد بالأمس القريب من كان يحلّ منها بالمكان المرموق. حياة صمّاء قاسية كالتراب، ولكنّها تُنبئ الأمل كما تُنبئ التراب الزهرة اليانعة. حزن أحمد حزناً شديداً، ولكن لم يكن من الأمل مفرّ. وأخذوا للرحيل أهبتهم، فلُفت الأبسط، وفُكّت الدواليب والأسرّة، وُجمعت الأواني والكتب وقطع الأثاث، واعتزم السير غداً...

يحقته كالاستاذ أحمد راشد، وعجب لقلبه الذي يأسف على ترك أي شيء - وإن طال برمه به - ساعة الوداع. ثم عاودوا حديث الحرب كعادتهم، وذكروا توقف الهجوم الألماني عند العلمين.

وكان من رأي أحمد راشد أنّ المحور خسر موقعة مصر، أما سيد عارف فقال بلهجة اليقين: إنّ هتلر أمر رومل بالتوقف ليجنب مصر - قلب الإسلام النابض - ويلات الغزو، وإنّه لولا رحمة الفوهرر لكان الألمان في القاهرة منذ شهر. وليث بينهم مستمتعاً بسمهرهم ومزاحهم حتى انتصفت العاشرة فودّعهم الوداع الأخير، وسلم عليهم واحداً واحداً، وتقبل تحياتهم شاكرًا. ثم قفل إلى البيت...

وفتح النافذة وأطلّ على الحيّ. كان البدر - بدر نصف شعبان - يتألق بنوره السنيّ في سماء أغسطس الصافية، والنجوم من حوله تزهر باسمات في إشفاق كأنما يرثي لإدلاله بشبابه الذي علمت منذ الأزل أنّه لا يدوم. وقد اكتسى الحيّ بغلالة فضيّة بدّدت وحشة الليل، وأضفت على الأركان والممرات سحرًا.

الليلة نصف شعبان، ودعاء شعبان يتصاعد من النوافذ القرية، وذلك صوت غلام يهتف بصوته الرفيع: «اللّهم يا ذا المنّ ولا يُمنّ عليه يا ذا الجلال والإكرام» والأسرة تردّد الدعاء وراءه. بينهم صامت وحده! وتساءل عمّا عسى أن يتوجّه به من دعاء إلى ربه؟. وتفكر مليًا، ثم رفع رأسه إلى البدر المنير، وسط راحتيه، وغمغم بخشوع: «اللّهم يا خالق الخلق، ومدبّر كلّ شيء، تغمّده برحمتك الواسعة، وأسكنه فسيح جنّاتك، وألهمّ والديه الحزينين الصبر والسلوان، وأنزل على قلبي السكينة والسلام، واكتب لي في ما يستقبل من الأيام عزاء عمّا سلف (وهنا وضع يده على قلبه) فلشدّ ما تحمّل هذا القلب من ألم، ولشدّ ما تجرّع من خيبة!».

هل يذكر يوم أقبل على هذا الحيّ وفي النفس شوق إلى التغيير؟ لقد حدث التغيير وأحدث دمعا وحسرة، وها هو ذا رمضان مقبل فيا للذكرى! أذكر كيف استقبل رمضان الماضي؟ أذكر موقفه من النافذة

وهكذا اعتذر لضميره، بسيكولوجيّة الوداع هذه، عن انفعاله وتأثره وخطفه النظرة، خاصّة حين خطرت على فؤاده ذكرى رشدي ولاحت لعينه صورته المحبوبة وكأنّها تبسم إليه في عتاب، وراح يحادثها بلهجة حزينة مؤثّرة: «معذرة يا رشدي، إنّ الوداع وأنت أعلم بالوداع، وإنّه الألم وأنت أخبر بالألم، ولن تجد مني بعد الآن ما يستحقّ عتابك». وبلغ قهوة الزهرة، والله وحده يعلم متى يتاح له أن يغشى قهوة أخرى، واستقبله الصحاب استقبالاً حافلاً يليق باللقاء الأخير، وأمسكوا عمّا كانوا آخذين فيه من أسباب الحديث ليفرغوا لوداع الجار العزيز، وقال له المعلّم نونو متسائلاً:

- اتسنانا يا ثري؟!

فقال أحمد وهو لا يدري إن كان يصدق في قوله أو يكذب:

- معاذ الله يا معلّم!

وقال المعلّم زفته:

- ولكنّ الزيتون هذه بلدة بعيدة لا يبلغها طالبها إلّا بالقطار!

فقال أحمد مبتسماً:

- ما كان لقطار أن يمنع صاحباً عن صاحبه!

ثمّ قال عباس شفة وهو يرفع حاجبيه كمن يذكر أمراً هاماً:

- أنا أعرف الزيتون كما أعرف خان الحليلي. مضى زمن كنت أسافر إليها مرّة على الأقلّ في كلّ أسبوع فأرجع بأحسن أنواع الحشيش.

فابتسم أحمد متسائلاً:

- فهل أرجو أن أراك كثيراً؟

فقال عباس شفة بلهجة دلّت على الأسف الشديد: - تلك أيام خلت؛ لقد زجّوا بالتاجر في السجن ومات فيه.

وأعربوا جميعاً عن أسفهم لفراقه، وأثنوا على أسرته أجمل الثناء، وترجّخوا على فقيدها، حتّى سلبان عتّة نفسه قال كلمة طيبة. وفاض قلب أحمد بمودّتهم في تلك الساعة، سواء من يجبه منهم كالمعلّم نونو أم من

الأخرى في انتظار أذان المغرب وكيف رفع البصر  
فرأى؟! .  
وجرى أمام ناظريه التاريخ الذي كتبته الليالي  
متابعات حتى هذه الليلة بمداد الأمل والحب والالم  
والحزن .  
وهذه الليلة الأخيرة . وغداً بيت في دار جديدة ، في  
حيّ جديد ، مولياً الماضي ظهره . .  
الماضي بما أحدث من أمل وما خيب من رجاء . .  
فالوداع يا خان الخليلي . .

زَقَاتُ السَّدَقَةِ





## - ١ -

كريم. حسن الختام يا رب. كل شيء بأمره. مساء الخير يا جماعة. تفضلوا جاء وقت السمير. اصح يا عم كامل واغلق الدكان. غير يا سنقر ماء الجوز. أطفئ الفرن يا جعدة. الفص كبس على قلبي. إذا كنا نذوق أهوال الظلام والغارات منذ سنوات خمس فهذا من شر أنفسنا.

بيد أن دكانين - دكان عم كامل بائع البسبوسة على عین المدخل وصالون الحلو على يساره - يظلان مفتوحين إلى ما بعد الغروب بقليل. ومن عادة عم كامل أن يقتعد كرسياً على عتبة دكانه - أو حقه على الأصح - يغط في نومه والمذبة في حجره، لا يصحو إلا إذا ناداه زبون أو داعبه عباس الحلو الحلاق. هو كتلة بشرية جسيمة، ينحسر جليابه عن ساقين كقربتين، وتندلى خلفه عمجزة كالحبة، مركزها على الكرسي ومحيطها في الهواء، ذو بطن كالبرميل، وصدر يكاد يتكور ثدياه، لا ترى له رقبة، فبين الكتفين وجه مستدير متنفخ محتقن بالدم، أخفى انتفاخه معالم قساوته. فلا تكاد ترى في صفحته لا سمات ولا خطوط ولا أنف ولا عينان، وقمة ذلك كله رأس أصلع صغير لا يمتاز عن لون بشرته البيضاء المحمرة. لا يزال يلهث ويشخر كأنه قطع شوطاً عذواً، ولا ينتهي من بيع قطعة بسبوسة حتى يغلبه النعاس. قالوا له مرّات ستموت بغتة، وسيقتلك الشحم الضاغط على قلبك، وراح يقول ذلك مع القائلين، ولكن ماذا يضيره الموت وحياته نوم متصل؟!

أما صالون الحلو فدكان صغير، يُعدّ في الزقاق أنيقاً، ذو امرأة ومقعد غير أدوات الفن. وصاحبه شاب متوسط القامة، ميّال للبدانة، يضاوي الوجه، بارز

تنطق شواهد كثيرة بأن زقاق المدق كان من تحف العهود الغابرة، وأنه تألّق يوماً في تاريخ القاهرة المعرّية كالكوكب الدرّي. أيّ قاهرة أعني؟. الفاطمية؟. المماليك؟ السلاطين؟، عِلّم ذلك عند الله وعند علماء الآثار، ولكنّه على أيّة حال أثر، وأثر نفيس. كيف لا وطريقه الملبّط بصفائح الحجارة ينحدر مباشرة إلى الصنادقية، تلك العطفة التاريخية، وقهوته المعروفة بقهوة كرشة تزدان جدرانها بتهاويل الأرابيسك، هذا إلى قديم باد، وتهدّم وتخلخل، وروائح قويّة من طبّ الزمان القديم الذي صار مع كرور الزمن عطارة اليوم والغد...!

ومع أنّ هذا الزقاق يكاد يعيش في شبه عزلة عمّا يحلق به من مسارب الدنيا، إلّا أنّه على رغم ذلك يضحّ بحياته الخاصّة، حياة تتصل في أعماقها بجذور الحياة الشاملة، وتحفظ - إلى ذلك - بقدر من أسرار العالم المنطوي.

## \*\*\*

أذنت الشمس بالمغيب، والتفت زقاق الملقّ في غلالة سمراء من شفق الغروب، زاد من سمرتها عمقاً أنّه منحصر بين جدران ثلاثة كالصيدلة له باب على الصنادقية، ثمّ يصعد صعوداً في غير انتظام، تحفّ بجانب منه دكان وقهوة وفرن، وتحفّ بالجانب الآخر دكان ووكالة، ثمّ ينتهي سريعاً - كما انتهى مجده الغابر - ببنتين متلاصقتين، يتكوّن كلاهما من طوابق ثلاثة.

سكنت حياة النهار، وسرى ديب حياة المساء. همسة هنا وهمسة هناك: يا ربّ يا معين. يا زقاق يا

عيناه الذابلتان الملتهتان على صبي القهوة سنقر في انتظار وقلق. ولمّا طال انتظاره، ولمس تجاهل الغلام له، خرج عن صمته قائلاً بصوت غليظ:

- القهوة يا سنقر..!

والتفت الغلام نحوه قليلاً، ثم ولّاه ظهره بعد تردّد دون أن ينس بكلمة، ضارباً عن طلبه صفحاً. وأدرك العجوز إهمال الغلام له، ولم يكن يتوقّع غير ذلك. ولكن جاءت نجدة من السماء، إذ دخل في تلك اللحظة رجل وقد سمع هتاف العجوز ولاحظ إهمال الصبي، فقال للغلام بلهجة الأمر:

- هات قهوة الشاعر يا ولد..

وحجج الشاعر القادم بنظرة امتنان، وقال بلهجة لم تخل من أسى:

- شكراً لله يا دكتور بوشي...

فسلم الدكتور عليه، وجلس قريباً منه. وكان الدكتور يرتدي جلباباً وطاقيّة وقبّاباً! هو دكتور أسنان، إلّا أنّه أخذ فنه من الحياة بغير حاجة إلى ممارسة الطبّ أو آية مدرسة أخرى. اشتغل في بدء حياته تمورجياً لطبيب أسنان في الجمالية، ففقه فنه بحذقه وبرع فيه! وقد اشتهر بوصفاته المفيدة، وإن كان يفضل الخلع غالباً كاحسن علاج. ورتباً كان خلع الضرس في عيادته المتنقلة أليماً موجعاً، إلّا أنّه رخيص، بقرش للفقراء وقرشين للأغنياء (أغنياء المدقّ طبعا)، فإذا حدث نزيف - وليس هذا بالأمر النادر - اعتبر عادة من عند الله، وترك منعه أيضاً لله! وقد ركب للمعلّم كرشة صاحب القهوة طقماً ذهبياً بجنيهين بغير زيادة. وهو يُدعى في الزقاق والأحياء القريبة بالدكتور، ولعلّه أوّل طبيب يأخذ لقبه من مرضاه.

جاء سنقر بالقهوة للشاعر كما أمر الدكتور، فتناول الرجل القدرح وأدناه من فمه وهو ينفخ ليترد حرارته، وراح يرشف منه رشقات متتابعات حتّى أتى عليه، ثمّ نحاه جانباً. وذكر عند ذاك فحسب سوء سلوك صبي القهوة معه، فحذجه بنظرة شرراء وتمتم ساخطاً:

- قليل الأدب..

ثمّ تناول الربابة يجرّب أوتارها، متحامياً نظرات

العينين، ذو شعر مرتجل ضارب للصفرة على سمرة بشرته، يرتدي بدلة، ولا يفوته لبس المربلة اقتداء بكبار الأسطوات!

لبث هذان الشخصان في دكانيهما في حين أخذت الوكالة الكبيرة المجاورة للصالون تغلق أبوابها وينصرف عثمائها، وكان آخر من غادرها السيّد سليم علوان، يرفل في جبّته وقططانه، فاتّجه صوب الخانطور الذي ينتظره على باب الزقاق، وصعد إليه في وقار، وملاً مقعده بجسمه المكتنز يتقدّمه شاربان شركسيّان. ودقّ الحوذيّ الجرس بقدمه فرنّ بقوة، وانحدرت العربية ذات الحصان الواحد إلى الغوريّة في طريقها إلى الحلمية. وأغلق اليتان في الصدر نوافذهما اتقاء البرد، ولاحظ أنوار المصابيح وراء خصاصها، وكاد المدقّ يفرق في الصمت، لولا أن مضت قهوة كرشة ترسل أنوارها من مصابيح كهربائية، عثّش الذباب بأسلاكها، وراح يؤمّها السّمار. هي حجرة مربّعة الشكل، في حكم البالية، ولكنّها على عفائها تزدان جدرانها بالأرابيسك، فليس لها من مطارح المجد إلّا تاريخها، وعدّة أرائك تحيط بها. وعند مدخلها كان يكبّ عامل على تركيب مذياع نصف عمّر بجدارها. وتفرّق نفر قليل بين مقاعدها يدخّنون الجوز ويشربون الشاي. وعلى كئيب من المدخل ترّبع على الأريكة رجل في الخمسين يرتدي جلباباً ذا بتيقة موصول بها رباط رقبة تمّا يلبسه الأفنديّة ويضع على عينيه المضعضعتين نظارة ذهبية ثمينة! وقد خلع قبّابه على الأرض عند موضع قدميه، وجلس جامداً كالتمثال، صامتاً كالأموات، لا يلتفت بمئة ولا يسرة، كأنّه في دنيا وحده. ثمّ أقبل على القهوة عجوز مهذّم، لم يترك له الدهر عضواً سالماً، يجرّه غلام بيسراه، ويحمل تحت إبط يمناه ربابة وكتاباً. فسلم الشيخ على الحاضرين، وسار من فوره إلى الأريكة الوسطى في صدر المكان، واعتلاها بمعونة الغلام، ثمّ صعد الغلام إلى جانبه، ووضع بينهما الربابة والكتاب. وأخذ الرجل يهَيّ نفسه، وهو يتفرّس في وجوه الحاضرين كأنما ليتمحن أثر حضوره في نفوسهم، ثمّ استقرّت

إلى سردها من جديد. والناس في آيأمانا هذه لا يريدون الشاعر، وطالما طالبوني بالراديو، وما هو ذا الراديو يرغب، فدعنا ورزقك على الله...

فاكفهر وجه الشاعر، وذكر محسورًا أن قهوة «كرشة» آخر ما تبقى له من القهوة، أو من أسباب الرزق في دنياه، بعد جاءه عريض قديم. وبالأمر القريب استغنت عنه كذلك قهوة القلعة. عمر طويل ورزق منقطع، فإذا يفعل بحياته؟! وما جدوى تلقين ابنه البائس هذا الفن وقد باز وكسد؟! وماذا يتجنى له المستقبل وماذا يضممر لخلامه؟! اشتد به القنوط، وضاعف قنوطه ما لاح في وجه المعلم من الجزع والإصرار، فقال:

- رويدك يا معلم كرشة، إن للهلالتي بجيدة لا تزول، ولا يغني عنها الراديو أبدًا.

ولكن المعلم قال بلهجة قاطعة:

- هذا قولك، ولكنك قول لا يقره الزبائن فلا تخرب بيتي. لقد تغير كل شيء!

فقال الشاعر في قنوط:

- ألم تستمع الأجيال بلا ملل إلى هذه القصص من عهد النبي عليه الصلاة والسلام؟

فضرب المعلم كرشة على صندوق المركات بقوة وصاح به:

- قلت لقد تغير كل شيء!

وتحرك عند ذلك - لأول مرة - الرجل الجامد الداهل - ذو الجلباب والبنقة ورباط الرقبة والنظارة الذهبية فصعد بصره إلى سقف القهوة، وتهد من الأعماق حتى خال المستمعون أنه يزفر فتات كبده، وقال بصوت كاللناجاة:

- أه تغير كل شيء. أجل كل شيء يا سقي! كل شيء تغير إلا قلبي فهو يحب آل البيت عامر.

وطامن رأسه ببطء، وهو يحرك ذات اليمين وذات اليسار، في حركات أخذت في الضيق رويدًا رويدًا حتى عاد إلى موضعه الأول من الجمود، وغرق مرة أخرى في غيبوبة. ولم يلتفت إليه أحد ممن اعتاد أحواله إلا الشاعر فقد توجه إليه كالستغيث وقال له برجاء:

الغضب التي أطلقها عليه سنقر، وراح يعزف مَطلَعًا، لبثت قهوة كرشة تسمعه كل مساء عشرين عامًا أو يزيد من حياتها، وأخذ جسمه المهزول يهتز مع الربابة، ثم تنحج وبصق وبسمل، ثم صاح بصوته الغليظ:

أول ما نبتدي اليوم نصلي على النبي.

نبي عربي صفوة ولد عدنان.

يقول أبو سعدة الزناتي...

وقاطعه صوت أجش دخل صاحبه القهوة عند ذاك يقول:

- هس!... ولا كلمة أخرى.

فرفع بصره الذابل عن الربابة فرأى المعلم كرشة، بجسمه الطويل النحيل ووجهه الضارب للسواد وعينه المظلمتين النائميتين، فنظر إليه واجمًا. وتردد قليلاً كأنه لا يصدق ما سمعت أذناه. وأراد أن يتجاهل شره، فاستدرك منشداً:

يقول أبو سعدة الزناتي...

ولكن المعلم صاح به مغنيًا محققًا:

- بالقوة تنشد؟! انتهى... انتهى! ألم أندرك من أسبوع مضى؟!

فلاح الاستياء في وجه الشاعر، وقال بلهجة ملوها العتاب:

- أراك تكثر من «الكيف»، ثم لا تجد من ضحية سواي!

فصاح المعلم في غضب وحنق:

- رأسي صاح يا مخرف، وأنا أعلم ما أريد أحسب أنني آذن لك بالإنشاد في قهوتي إذا ما سلقنتي بلسانك القذر؟!

فخفف الشاعر من لهجته مستوهبًا عطف الرجل الغاضب، وراح يقول:

- هذه قهوتي أيضًا. ألسنت شاعرها لعشرين عامًا خلون؟!

فقال المعلم كرشة وهو يتخذ مجلسه المعتاد وراء صندوق الماركات:

- عرفنا القصص جميعًا وحفظناها، ولا حاجة بنا

- يا شيخ درويش أيرضيك هذا؟

فلم يبق له ولد على كثرة ما خلف من الأطفال. ذاق مرارة الحمية حتى أترع قلبه باليأس أو كاد، وتجرع غصص الألم حتى تخايل لعينيه شبح الجزع والبرم، وانطوى على نفسه طويلاً في ظلمة غاشية. ومن ذجنة الأحزان أخرجه الإيمان إلى نور الحب، فلم يعد يعرف قلبه كرباً ولا همماً. انقلب حباً شاملاً وخيراً عميقاً وصبراً جميلاً. وطأ أحزان الدنيا بنعليه، وطار بقلبه إلى السماء، وأفرغ حبه على الناس جميعاً، وكان كلما نكد الزمان عتاً ازداد صبراً وحباً، رآه الناس يوماً يشيع ابناً من أبنائه إلى مقره الأخير وهو يتلو القرآن مشرق الوجه، فأحاطوا به مواسين معزين، لكنه ابتسم لهم، وأشار إلى السماء وهو يقول: «أعطى وأخذ، كل شيء بأمره وكل شيء له، والحزن كفر» فكان هو العزاء. ولذلك قال عنه الدكتور بوشي: «إذا كنت مريضاً فللس السيد الحسيني يأتك الشفاء. وإذا كنت يائساً فطالع نور غرته يدركك الرجاء، أو عزوناً فاستمع إليه يبادرك الهناء». وكان وجهه صورة من نفسه، فهو الجمال الجليل في أبهى صوره.

أما الشاعر فقد رضي بعض الرضا، ووجد شيئاً من العزاء، وتزحزح تاركاً الأريكة، وتبعه الغلام وهو يلتم الرتبة والكتاب. وشد الرجل على يد السيد رضوان الحسيني، وحيا الجلوس متجاهلاً المعلم كرشة، ثم ألقي نظرة ازدراء على المذيع الذي كاد العامل يفرغ من تثبيته، وأعطى يده للغلام فجره إلى الخارج، وغابا عن الأنظار. ودبت الحياة مرة أخرى في الشيخ درويش، فأدار رأسه نحو الجهة التي اختفى فيها الذاهبان، وتأوه قائلاً:

- ذهب الشاعر وجاء المذيع. هذه سنة الله في خلقه. وقدماً ذكرت في التاريخ وهو ما يسمى بالإنجليزية (History) وتهجئها.. (history).

وقبل أن يختم نهجية الكلمة جاء عم كامل وعباس الخلو بعد أن أغلقا دكانيهما. ظهر الخلو أولاً، وقد غسل وجهه وزجل شعره الضارب للصفرة، وتبعه عم كامل يتختر كالمحمل، ويقتلع قدميه من الأرض اقتلاعاً. وسلما على الحاضرين، وجلسا جنباً لجنب،

ولكنه لم يخرج من غيبوته ولم ينس بكلمة. وهنا قدم شخص جديد تعلقت به الأنظار في إجلال ومودة، وردوا تحيته بأحسن منها. كان السيد رضوان الحسيني ذا طلعة مهية، تمتد طويلاً وعرضاً، وتنطوي عباءة القضاة السوداء على جسم ضخم، يلوح منه وجه كبير أبيض مشرب بحمرة، ذو لحية صهباء، يشع النور من غرة جبينه، وتقطر صفحته بهاء وسباحة وإيماناً. سار متمهلاً خافض الرأس، وعلى شفثيه ابتسامة تشي بحبه للناس وللدنيا جميعاً، واختار مجلسه على المقعد التالي لأريكة الشاعر. وسرعان ما رحب به الشاعر وبثه شكواه. ومنحه السيد أذنه عن طيب خاطر وهو يعلم بما يكرهه، وكان حاول مراراً أن يثني المعلم «كرشة» عما اعترمه من الاستغناء عنه دون جدوى. ولما انتهى الشاعر من شكواه طيب خاطره، ووعده بأن يبحث لغلامه عن عمل يرتزق منه، ثم غمر كفه بما جادت به نفسه وهو يمس في أذنه «كلنا أبناء آدم، فإذا ألحت عليك الحاجة فاقصد أخاك، والرزق رزق الله والفضل فضله». وزاد وجهه الجميل بعد هذا القول تألقاً، شأن الكريم الفاضل يحب الخير ويصنعه، ويزداد بصنعه رضاً وجمالاً. كان يحرص دائماً على ألا يفوته يوم من حياته دون صنع جميل، أو ينقلب إلى بيته ملوماً محسوراً. وإنه ل يبدو لحبه الحخير ولسماحته كما لو كان من الموسرين الثقيلين بالمال والمتاع، وإن كان في الواقع لا يملك إلا البيت الآمن من الزقاق وبضعة أفدنة بالمرج. وقد وجد فيه سكان بيته - المعلم كرشة في الطابق الثالث، وعم كامل والخلو في الطابق الأول - مالكا طيب القلب والمعاملة، حتى إنه تنازل عن حقه في الزيادة التي قررها الأمر العسكري الخاص بالسكن فيما يتعلق بالطابق الأول رحمة بساكنيه البسيطين، فكان رحمة حيث حلّ وحيث يقيم. وقد كانت حياته - وبخاصة في مدارجها الأولى - مرتعاً للحمية والألم. فأنتهى عهد طلبه العلم بالأزهر إلى الفشل، وقطع بين أرواقه شوطاً طويلاً من عمره دون أن يظفر بالعلمية، وابتلي - إلى ذلك - بفقد الأبناء

بكفنك قبل أن يتمتع بك. ستكون طعاماً مريضاً للدود، فبرعى في لحمك المهش مثل البسبوسة فيسمن وتصير الدودة كالضفدعة. ومعناها بالإنجليزي (Frog) وتهجيتها (frog).

وصدق عم كامل، ومضى يسأل الحلو عن نوع الكفن ولونه وعدد أدراجة، ثم دعا له طويلاً، وانبسط وحمد الله. وارتفع عند ذاك صوت فتي آتياً من الطريق يقول:

- مساء الخير.

وأجبه صاحبه إلى بيت السيد رضوان الحسيني. كان القادم حسين كرشة ابن المعلم كرشة صاحب القهوة. فتي في العشرين في مثل لون أبيه الضارب إلى السواد، ولكنه مشوق القوام، تدلّ ملامحه الدقيقة على الخلق والفتوة والنشاط، كان يرتدي قميصاً من الصوف الأزرق وينطلوناً خاكياً وقبعة وحذاء ثقيلًا، تلوح على سياه مظاهر نعمة المشتغلين بالجيش البريطاني. وكان ذاك ميعاد عودته من «الأرنس» كما يسمونه، فرمقه الكثيرون بعين الإعجاب والحسد، ودعا صديقه الحلو إلى القهوة، ولكنه شكره ومضى إلى حال سبيله.

\*\*\*

ساد الظلام الزقاق إلا ما ينبعث من مصابيح القهوة فيرسم على رقعة من الأرض مربعاً من نور تتكسر بعض أضلاعه على جدار الوكالة. ومضت الأنوار الباهتة وراء خصائص نوافذ البيت تنطفئ واحداً في إثر واحد. وأكب سمار القهوة على الدومينو والكومي، إلا الشيخ درويش فقد أغرق في ذهوله، وعم كامل مال رأسه على ثديه وراح في سبات. وظل سنقر على نشاطه، يحمل الطلبات ويرمي بالماركات في الصندوق، والمعلم «كرشة» يتابعه بعينين ثقيلتين وهو يستشعر في خول ذوبان الفص في جوفه ويستنيم إلى سلطنة لذينة. وتقدمت جحافل الليل، فغادر السيد رضوان الحسيني القهوة إلى بيته. وتبعه بعد قليل الدكتور بوشي إلى شقته في الدور الأول من البيت الثاني. ثم لحق بها الحلو وعم كامل. وأخذت المقاعد تخلو تبعاً، حتى انتصف الليل فلم يبق بالقهوة إلا

وطلبا الشاي، ولم يكونا يجلان بمكان حتى يملاهما ثرثرة. قال عباس الحلو:

- يا قوم اسمعوا: شكنا إلى صديقي عم كامل قال إنه عرضة للموت في أية لحظة، وإنه إذا مات فلن يترك ما يدفن به...

فقال بعض الحاضرين متهكماً:

- أمة محمد بخير.

وقال البعض الآخر:

- إن له لركة من البسبوسة تكفي لدفن أمة بأسرها.

وضحك الدكتور بوشي وخاطب عم كامل قائلاً:

- لا تفتأ تذكر الموت. وتالله لندفننا جميعاً بيدك...

فقال عم كامل بصوت بريء كالأطفال:

- أتق الله يا شيخ أنا رجل مسكين...

واستطرد عباس الحلو قائلاً:

- يا قوم: عزت علي شكاة عم كامل، ولبسبوسته فضل علينا جميعاً غير منكور. فابتعت له كفناً احتياطياً، واحتفظت به في مكان حريز لساعة لا مفر منها، (والفتت إلى عم كامل قائلاً) هذا سر أخفيته عنك، وها أنا أعلنه على الملأ ليكونوا عليّ شهوداً.

فأبدى الكثيرون عن اغتباطهم، متصنعين الجذ، ليجوز الكلام على عم كامل المشهور بسرعة تصديقه، وأنشوا على مروءة الحلو وكرمه، وقالوا: إن هذا صنيع خلقي به نحو الرجل الذي يحبه ويساكنه شقة واحدة، ويشاطره العيش كأنه من لحمه ودمه. حتى السيد رضوان الحسيني ابتسم راضياً، مما جعل عم كامل ينظر إلى الشاب في سداحة ودهشة ويقول متسائلاً:

- أحق ما تقول يا عباس؟!

فقال الدكتور بوشي:

- لا يداخلك الشك يا عم كامل. لقد علمت بما يقول صاحبك، ورأيت الكفن بعيني رأسي، وهو كفن قيم وددت لو يكون لي مثله...

وتحرك الشيخ درويش للمرة الثالثة فقال:

- حظ سعيد. الكفن سترة الآخرة. يا كامل تمتع

خصمه بالإنجليزية، فإذا اعترض الرجل على استعمال لغة أجنبية دون موجب، صاح به في ازدراء شديد «تعلم أولاً ثم خاطبني!». وكانت أنباء شجاره وعناقه تتصل برؤسائه أولاً فأول، وكانوا يتسامحون معه، عطفاً عليه من ناحية، وتحامياً لشره من ناحية أخرى، ولذلك اطردت حياته دون عقاب يذكر إلا بعض الإنذارات، وخُصم يوم أو يومين. ولكنّه ازداد بمرور الأيام صلفاً، حتى تراءى له يوماً أن يحرق خطابه المصلحية باللغة الإنجليزية ففعل. وكان يقول في تسويف ذلك إنه موظف فتى لا كغيره من الكتاب. وتمطّل عمله ثمّ دعا مديره لمعاملته بالحزم والقسوة، ولكنّ المقدّر كان أسرع من حزم المدير، فطلب الرجل يوماً مقابلة وكيل الوزارة، ودخل درويش أفندي - كما كان وقتذاك - حجرة الوكيل في تودة ووقار، وحيّاه تحية النذل للنذل، وبادره قائلاً بثقة ويقين:

- يا سعادة الوكيل لقد اختار الله رجّله.

فطلب إليه الوكيل أن يفصح عما يريد، فاستدرك قائلاً بوقار وجلال:

- أنا رسول الله إليك بكادر جديد.

هكذا خُتِمَت حياته بالأوقاف. وهكذا قُطعت صلته بالهيئة الاجتماعية التي كان واحداً منها. هجر أهله وإخوانه ومعارفه إلى دنيا الله كما يسمّيها، ولم يستبق من آثار الماضي شيئاً إلا نظارته الذهبية. ومضى في عالمه الجديد بلا صديق ولا مال ولا مأوى. ودلّت حياته على أنّ بعض الناس يستطيعون أن يعيشوا في هذه الدنيا المتقيحة بمرارة الكفاح بلا مأوى ولا مال ولا معين، ثمّ لا يجدون همّاً ولا كرباً ولا حاجة. لا جاع يوماً ولا تعرّى ولا شرد. وانتقل إلى حال من السلام والطمأنينة والغبطة لا عهد له بها. وإذا كان قد فقد بيته فالدنيا جميعاً صارت بيتاً له، وإذا كان قد حُرم مرتبه فالتعلّق بالمال قد انقطع عنه، وإذا كان قد خسر الأهل والأصدقاء فالناس جميعاً انقلبوا له أهلاً. يبلى الجلباب فيأتيه جلباب جديد، ويتمزّق رباط الرقبة فيجيئه رباط جديد، ولا يحلّ مكاناً حتى يرحّب به ناسه. وبحسبه أن يفتقده المعلم كرشة نفسه - على

ثلاثة: المعلم والصبيّ والشيخ درويش. وجاء نفر من المعلمين أقران المعلم «كرشة». وصعدوا جميعاً إلى حجرة خشبية على سطح بيت السيّد رضوان، وتحلّقوا المجمر، وبدءوا سهرة جديدة لا تنتهي حتى يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وخاطب سقر الشيخ درويش قائلاً برقة:

- انتصف الليل يا شيخ درويش...

فانتبه الشيخ إلى صوته، وخلع نظارته بهدوء وجلاها بطرف جلبابه، ثمّ لبسها من جديد وسوّى رباط رقبته ونهض قائماً واضعاً قدميه في القباب وغادر القهوة دون أن ينس بكلمة، يخرق السكون بضربات قبقابه على بلاط الزقاق. كان السكون شاملاً، والظلمة ثقيلة، والطرق والدروب خالية مقفرة، فترك لقدميه مقوده، حيث لا دار له ولا غاية، وغاب في الظلمة.

\* \* \*

كان الشيخ درويش على عهد شبابه مدرّساً في إحدى مدارس الأوقاف، بل كان مدرّس لغة إنجليزية! وقد عُرف بالاجتهاد والنشاط، وأسعفه الحظّ أيضاً فكان ربّ أسرة سعيدة. ولمّا أن انضمت مدارس الأوقاف إلى وزارة المعارف، سوّيت حالته ككثيرين من زملائه غير ذوي المؤهلات العالية، فاستحال كاتباً بالأوقاف، ونزل من الدرجة السادسة إلى الثامنة، وعُدّل مرتبه على هذا الأساس. كان من الطبيعي أن يحزن الرجل لمصيره حزناً عميقاً وثار ثورة جاححة ما وسعته الثورة، يعلنها حيناً، ويكتمها - مقسوراً مغلوباً على أمره - أحياناً. ولقد سعى كلّ مسعى، وقدم الالتماسات، واستشفع الرؤساء، وشكا الحال وكثرة العيال، دون جدوى. ثمّ سلّم للقنوط بعد أن تحطمت أعصابه أو كادت. واشتهر أمره في الوزارة كموظف كثير التبرّم والشكوى، عظيم اللجاج والعناد، سريع التأثر، لا يكاد يمضي يوم من حياته دون شجار أو اصطدام، كبير الاعتداد بنفسه والتحدّي للآخرين. وكان إذا شجر بينه وبين آخر خلاف - وكثيراً ما يحدث - تعالى استكباراً، وخاطب

قبلتين، وجلستا جنباً لجنب، وأم حميدة تقول:

- أهلاً... أهلاً... زارنا النبي يا ست سنية.

كانت أم حميدة ربعة ممتلئة في الستين، ولكتها معافاة قوية، جاحظة العينين، مجدورة الخدين، ذات صوت غليظ قوي النبرات، فإذا تحدثت فكأنها تزعق، وهو سلاحها الأول فيما يشجر بينها وبين الجارات من نزال. ولم تكن مرتاحة للزيارة بطبيعة الحال، لأن زيارة تقوم بها صاحبة الملك أمر قد تسوء عواقبه، وقد ينذر بالخطر. ولكتها وطئت النفس على أن تلبس لكل حال لبوسها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وإنها على كلتا الحالتين لقادرة. وكانت بحكم وظيفتها - خاطبة وبلانة - عميقة الملاحظة كثيرة الكلام. بل كانت لساناً لا يكف ولا يُحسبك، ولا يكاد تفوته شاردة أو واردة عن شخص من شخوص الحي أو بيت من بيوته، فهي مؤرخة راوية لأخبار السوء - على الغالب - ومعجم للمنكرات. وأرادت كعادتها أن تتسلل بالكلام فراحت ترحب بالضيقة، وتطنب في الثناء عليها، وتروي لها نقاً من أنباء الزقاق والأخبار المجاورة: أما علمت بفضيحة المعلم كرشة الجديدة؟ هي كسابقاتها، وقد اتصل الخبر بزوجه فتعاركت معه ومزقت جبته. وحسنة القرانة ضربت زوجها جعدة أمس حتى بض الدم من جبينه. والسيد رضوان الحسيني الطيب الورع زجر زوجه زجراً شديداً، لماذا يعاملها هذه المعاملة - وهو الرجل الطيب - إن لم تكن شريرة خبيثة! الدكتور البوشي احتك بفتاة صغيرة في المخبأ في آخر غارة وضربه رجل محترم. كريمة الماوردي تاجر الخشب فزت مع خادمها وبلغ أبوها القسم. طابونة الكفراوي تبيع عيشاً مخلوط سراً، ألخ ألخ.

أصغت الست سنية عفيفي بأذن غير واعية لأنها كانت مشغولة بالأمر الذي جاء من أجله. وقد صدقت نيتها على أن تطرق الموضوع الذي طال اختباره بنفسها معها كلفها الأمر. بيد أنها نازعت المرأة الحديث حتى تنهت لها فرصة مواتية. وقد تنهت هذه الفرصة حين سألتها أم حميدة قائلة:

- وكيف الحال يا ست سنية؟

ذهوله - إذا غاب عن القهوة يوماً. ومع ذلك فلم يكن يأتي شيئاً مما يعتقد فيه العامة من المعجزات والخوارق وقراءة الغيب. فهو إما ذاهل صامت، أو مرسل القول كما يحب لا يدري أن يكون موقعه من النفوس. بيد أنه رجل محبوب مبارك، يستبشر الجميع بوجوده بينهم خيراً، ويقولون عنه إنه ولي من أولياء الله الصالحين، يأتيه الوحي باللغتين العربية والإنجليزية.

## - ٢ -

نظرت إلى المرأة بعين غير نافذة، أو بالأحرى بعين تتلصص مواضع الرضا، فعمكت المرأة وجهها نحيلاً مستطيلاً فقل الزواق بخدييه وحاجبيه وعينييه وشفثيه الأعاجيب. وجعلت تعطفه يمنة، وتعطفه يسرة، وأصابعها تنسّق ضفيريته، مغمغمة بصوت لا يكاد يُسمع «لا بأس، جميل، وأيم الله جميل». والحق أن هذا الوجه قد طالع الدنيا ما يقارب الخمسين عاماً، والدنيا لا تدع وجهاً سالمًا نصف قرن من الزمان. أما جسمها فنحيل، أو جاف كما تصفه نسوة الزقاق، وأما الصدر فأمسح، بيد أن فستاناً حسناً يستره. هذه هي الست سنية عفيفي صاحبة البيت الثاني بالزقاق، حيث يسكن الدكتور بوشي طابقه الأول، وفي ذلك اليوم كانت تأخذ أهبته لزيارة الشقة الوسطى التي تقيم بها أم حميدة. ولم يكن من عادتها الإكثار من زيارة أحد، وربما لم تكن تدخل هذه الشقة إلا أول كل شهر لتحصيل الأجرة، إلا أن باعاً جديداً دب في أعماق نفسها جعل زيارة أم حميدة من الواجبات الهامة. وهكذا غادرت شقتها، ونزلت السلام، متممة برجاء «اللهم حقق آمالي»، ودقت بكفها المعروقة ففتحت لها حميدة. واستقبلتها بابتسامة الاستقبال المتصنعة، وقادتها إلى حجرة الضيوف، ثم ذهبت تدعو أمها. كانت الحجرة صغيرة، بها كئيتان من الطراز القديم متقابلتين، وفي الوسط خوان باهت عليه نافضة سجائر، وأما أرضها فمفروشة بحصيرة. ولم يطل بالمرأة الانتظار، فسرعان ما جاءت أم حميدة مهرولة وقد غيّرت جلباب البيت، فسلمت بشوق، وتبادلتا

فعبست قليلاً وقالت:

.. - الحقُّ أَيْ تعبة! يا سَتَّ أُمِّ حميدة.

فرفعت أُمِّ حميدة حاجبيها كالمنزعجة وقالت:

- تعبة؟! كفى الله الشر!

وأمسكت سَتَّ سَنِيَّةَ ريشاً تضع حميدة - وكانت

دخلت الحجر في هذه اللحظة - صَنِيعَةُ القهوة على

الخوان وتعود من حيث أتت، ثُمَّ قالت بامتعاض:

- تعبة يا سَتَّ أُمِّ حميدة. اليس من المتعب تحصيل

أجور الدكاكين؟ تصوّري وقوف امرأة مثلي أمام رجل

غريب تطالبه بالأجرة.. .

وقد حقق قلب أُمِّ حميدة لسيرة الأجور ولكنّها قالت

بنبرات أسيئة:

- صدقت يا سَتِّي. كان الله في عونك.

ولم تفتحها ملاحظة هامة فساءلت: لماذا تكثر المرأة

من تردد هذه الشكوى؟ وذكرت أنّها أعادتها على

سمعها مرّات! بل ذكرت أنّ هذه ثاني أو ثالث مرّة

تزورها في غير أوّل الشهر. وخطر لها خاطر عجيب

دهشت له بحكم وظيفتها، وكانت في أمثال هذه

المسائل خاصّة ذات فراسة لا تجارى، فصمّمت أن

تسبر الزائرة من وراء وراء، فقالت بخبث:

- هذه إحدى شُرور الوحدة. أنتِ امرأة وحيدة يا

سَتَّ سَنِيَّة. في البيت وحدك، وفي الطريق وحدك،

وفي الفراش، وحدك، ألا قطعت الوحدة.. .

وسرّت السَتَّ سَنِيَّةَ بحديث المرأة الذي كأنه يلقي

خواطرها، وقالت وهي تخفي سرورها به:

- وما عسى أن أصنع؟ أقارب ذوّ أَسْر، وأنا لا

أرتاح إلّا في بيتي. والحمد لله الذي أغنانني عن الناس

جيهماً.. .

وكانت أُمِّ حميدة تلحظها بمكر، فقالت فاتحة آخر

الأبواب:

- الحمد لله ألف مرّة، ولكن بالله خبريني لماذا

قضيت على نفسك بالعزوبة هذا الدهر

الطويل..!؟

فحقق فؤاد السَتَّ سَنِيَّةَ، ووجدت نفسها وجّها

لوجه حيال ما تريد، ولكنّها تنهّدت بإنكار وقالت  
بتأقّف متكلف:

- حسبي ما دقت من مرارة الزواج..!

كانت السَتَّ سَنِيَّةَ عفيفي قد تزوّجت في شبابه من

صاحب دكّان روائح عطريّة، ولكنه كان زواجاً لم

يصادفه التوفيق، فأساء الرجل معاملتها، وأشقى

حياتها، ونهب مالها، ثُمَّ تركها أرملة منذ عشرة أعوام.

ولبثت أرملة طوال تلك الأعوام لأنّها - على حدّ قولها -

كرهت حياتها الزوجيّة.

ولم يكن هذا القول مجرد كذب تداري به إهمال

الجنس الآخر لها، فقد كرهت الحياة الزوجيّة حقّاً،

وفرحت باسترداد حرّيّتها وأمنها، وظلّت على نفورها

من الزواج وفرحها بحرّيّتها عهداً طويلاً، ثُمَّ أنسيت

تلك العاطفة بمرور الزمن ولم تكن تتردّد عن تجربة

حظّها من جديد لو تقدّم لطلب يدها طالب. وجعلت

تراود الأمل حيناً بعد حين، حتّى طال به الأمد،

فغلبها القنوط، وصرفت نفسها عن مراودة الآمال

الكواذب، ووطّنت النفس على الرضا بحياتها كما هي.

ولمّا كان من الضروريّ أن يوجد في حياة الإنسان

شيء تتعقد حوله آماله، شيء يقرّر لحياته قيمة ولو

وهيّة أو سخيّة، فقد وجدت ضالّتها كذلك. ومن

حسن الطالع أنّها لم تكن ممّا ينتقص امرأة عازبة مثلها،

فأولعت بالقهوة والسجائر واكتناز الأوراق الماليّة

الجديدة. وقد كانت في الأصل تميل قليلاً نحو

الحرص، وكانت من العملاء القدماء لصندوق

التوفير، فجاءت الهواية الجديدة تؤكّد ذلك الميل القديم

وتقوّيه وتتقوّى به. وكانت تحتفظ بالأوراق الجديدة في

صندوق عاجيّ صغير أخفته في أعماق صوان ملابسها،

ووزّعها رزماً من ذوات الخمس والعشر، تتسلّى

بمشاهدتها ومعاودة عدّها وترتيبها. ولمّا كانت الأوراق

خرساء لا كالنقود المعدنيّة فقد أمنت الأخطار، ولم يدرِ

بها أحد من شطّار المدقّ على شدّة حساسيّتهم. وجدت

في حياتها الماليّة عزاء. وانتحلت منها اعتذاراً

لعزوبتها، وقالت لنفسها إنّ أيّ زوج خليق بأن ينهب

أموالها كما فعل الزوج المرحوم، وبأن يضيّع عليها في



فارتاحت الست، ولكنها كانت لا تزال مصرة على تمثيل دور من يُساق إلى قبول الزواج بلا تعمّد ولا رغبة، فتساءلت بعد تردّد:

- ألا يعني أن أقدم على الزواج الآن بعد ذلك العهد الطويل من العزوبة؟

فخاطبت أم حميدة نفسها قائلة: «لماذا قصدتيني إذا يا مرة؟». ثم خاطبت الست قائلة:

- كيف يعيبك ما هو شرع وحقاً! أنت ست عاقلة شريفة، والكل يشهد لك بذلك. والزواج نصف الدين يا حبيبي، وربنا شرعه حكمة، وأمر به النبي عليه الصلاة والسلام.

فقالت سنية بإيمان:

- صلّ الله عليه وسلّم.

- كيف لا يا حبيبي! نبيّ عربيّ ويحبّ عبيده!

وكان وجه الست سنية قد تورّد تحت قناع الأحمر، وتعلّ فؤادها سروراً، فقالت وهي تستخرج سيجارتين من علبتها:

- ومن يرضى بالزواج مني؟

فتنت أم حميدة سبابة يسراها، ولصقتها بحاجبها، وقالت باستنكار:

- ألف رجل ورجل.

فضحكت الست بجماع قلبها وقالت:

- رجل واحد يكفي..

فقالت حميدة بيقين:

- الرجال جميعاً يحبّون الزواج في أعماقهم. ولا يكاد يشكر الزواج إلّا المتزوجون. وكم من رجل عازب راغب عن الزواج، ما إن أقول له: «عندي عروس لك!» حتى تدبّ في عينيه اليقظة، ويغلبه الابتسام، ويسألني في لهفة لا تخفى: «حقاً.. من!.. من؟». الرجل يريد المرأة ولو أقعده الكساح، وهذه حكمة ربنا.

فهزّت الست سنية رأسها في ارتياح وقالت:

- جلّت حكمتها!

- نعم يا ست سنية، لذلك خلق الله الدنيا. كان في وسعه أن يملأها رجالاً فحسب، أو نساء فحسب،

غمضة عين ثمرة الأعوام الطوال، ومع ذلك فما كاد يتسرّب إلى قلبها الإيحاء بفكرة الزواج حتى تناست الأعدار والمخاوف جميعاً. وكانت أم حميدة المستولة عن هذا التحوّل العجيب، سواء عن قصد أو عن غير قصد، بما قصّته عليها مرّة من تزويجها لأرملة عجوز. ففكرت في الأمر على أنّه ممكن التحقيق، وسرعان ما استولى على إرادتها، فتدافعت إلى طاعته لا تلوي على شيء. ظنّت يوماً أنّها نسيت الزواج. فإذا بالزواج أملهها المنشود الذي لا يغني عنه شيء من مال أو قهوة أو سجاثر أو أوراق مائيّة جديدة. وجعلت تتساءل في جزع كيف ضاع ذاك العمر هباء؟ كيف قطعت عشرة أعوام حتى شارفت الخمسين وحيدة؟! وقالت إنّ هذا هو الجنون، وحملت زوجها المرحوم تبعته، وصمّمت على أن تكفّر عنه اليوم قبل الغد إن أمكن.

وأصغت الخاطبة إلى تأفّفها المتصنّع بقطنه واستهانة وقالت لنفسها: «لا يجوز عليّ مكرك يا مرّة». ثم خاطبتها بلهجة تنمّ عن لوم:

- لا تغالي يا ست سنية. إذا كان حظّك الأوّل قد خاب فالزيجات السعيدة تملأ المشرق والمغرب...

فقالت الست سنية وهي تعيد قلدح القهوة إلى الصينية شاكرة:

- لا ينبغي لعائل أن يعاند الحظّ إذا تحمّم.

فاعترضتها أم حميدة قائلة:

- ما هذا الكلام يا ست العاقلات! كفاك وحدة كفاك.

فدقّت المرأة صدرها الأمسح بباطن يسراها وقالت بإنكار مصطنع:

- يا خبر. أتريدني الناس على أن يرموني بالجنون؟!

- أيّ أناس تعين؟ إنّ أكبر منك يتزوجن كلّ يوم.

فتضايقت من «أكبر منك» وقالت بصوت منخفض:

- لست من الكبر كما تظنّين.. لعن الله الهمّ.

- ما قصدت هذا يا ست سنية. وما أشكّ في أنّك

ما زلت في حدود الشباب، ولكنه الهمّ الذي تلتحفين به مختارة.

ولكن خلق الله الذكر والأنثى، ومنحنا العقل كي نفهم مراده، فلا محيد عن الزواج.

فابتسمت الست سنيّة عفيفي وقالت برقة:

- كلامك كالسكر يا ست أم حميدة!

- حلّى الله دنياك، وآنس قلبك بالزواج الكامل.

فتشجعت الست وقالت:

- إن شاء الله، وبفضلك.

- أنا امرأة - بحمد الله - زيجاتي لا انفصام لها. ياما عمّرت بيوتاً، وأنجبت أطفالاً، وأسعدت قلوباً. فليكن اعتيادك على الله وعليّ..

- جزاؤك لن يقدر بمال.

فقالّت أم حميدة في سرّها: ولا.. لا يا مرة، ينبغي أن يقدر بمال، ومال كثير. هلمّي إلى صندوق التوفير وأعطيني، وكفاك تقصيراً.. ثمّ قالت بلهجة رزينة شأن رجال الأعمال إذا فرغوا من المَقَدّمات وطرّقوا الهام من الأمور:

- أظنك تفضّلين رجلاً متقدّماً في السنّ؟!

لم تدر الأخرى بماذا تجيب. لم تكن تطمع في الزواج من شاب، ولا كان الشابّ بالزوج الذي يناسبها، ولكنها لم ترتجح إلى «متقدّم في السنّ» هذه، وكان تدرّج الحديث قد خلطها بأمّ حميدة فأنسّت إليها، واستطاعت أن تقول وهي تضحك لتداري ارتباكها:

- أصوم وأفطر على بصلة!

فضحكت أم حميدة ضحكة عالية رنّت رنّاً مزعجاً، وازدادت اطمئناناً إلى نفاسة الصفة التي هي بصدد عقدها، ثمّ قالت بخبث:

- صدقت يا ست. والحقّ أنّ التجارب دلّني على أنّ أسعد الزيجات ما كبرت الزوجة فيها الزوج، ولكم يناسبك رجل في الثلاثين أو يزيد قليلاً.

فتساءلت المرأة في قلق:

- وهل يوافق؟

- يوافق ويوافق! أنت سيّدة جميلة وغنيّة!

- سلمت من كلّ سوء!

فقالّت أمّ حميدة وقد لبس وجهها المجدور هيئة الجدّ والاهتمام:

- أقول له سيّدة نصّف، ولا ولد لها ولا حماة، أدب وكمال، صاحبة دكانين بالمجازي وببيت ذي طابقين بالمدقّ..

فابتسمت الست وقالت تصحّح لها ما حسبته هفوة:

- بل ذلك ثلاثة طوابق.

ولكنّ الأخرى قالت معترضة:

- اثنان فحسب، لأنّ الطابق الثالث الذي أسكنه لن تقبضي إيجاره مدى حياتي!

فقالّت ست سنيّة في سرور:

- لك عيناى يا ست أم حميدة!

- سلمت عيناك. ربّنا يهتّى ما فيه الخير.

فهزّت رأسها الأخرى كالمتعجبة وقالت:

- يا للعجب! جئتكم لمجرّد الزيارة فانظري كيف انتهى بنا الحديث؟ وكيف أغسارك في حكم المتزوجات؟!

فجارتها أم حميدة في ضحكها كالمتعجبة أيضاً، وإن راحت تقول لنفسها: «يا مرة احتشمي، اتحسين أنّ مكرك يجوز عليّ؟!» ثمّ قالت:

- إرادة ربّنا! ليس كلّ شيء بأمّره؟!

وعادت الست سنيّة عفيفي إلى شقّتها مسرورة فرحة، بيد أنّها حادثت نفسها قائلة: «إيجار شقّة مدى الحياة! يا لها من امرأة جشعة».

### - ٣ -

ودخلت حميدة الحجرة عقب مغادرة الست سنيّة لها. كانت تمشط شعرها الأسود تفوح منه رائحة الكيوسين. فنظرت أمّ حميدة إلى الشعر الفاحم اللامع تكاد تجاوز ذؤاباته المسترسلة ركبتى الفتاة، وقالت بأسف:

- واحسرتاه كيف تدعين القمل يرمى هذا الشعر الجميل!

فبرقت عينان سوداوان مكحلتان بأهداب وُظفٍ، ولاحت فيهما نظرة حادة صارمة، وقالت الفتاة بحدّة:

- قمل!؟ والنبيّ ما وجد المشط إلّا قملتين اثنتين!

- أنسيت يوم مشطتك من أسبوعين وهرست لك عشرين قملة؟

فقال بغير مبالاة:

- كان مضى على رأسي شهران بلا غسيل..

ثم اشتد ساعدها في التمشيط وهي تجلس جنب أمها. كانت في العشرين، متوسطة القامة، رشيدة القوام، نحاسية البشرة، يميل وجهها للطول، في نقاء ورواء، وأميز ما يميزها عينان سوداوان جميلتان، لها حور بديع فاتن، ولكنها إذا أطبقت شفتيها الرقيقتين وحدثت بصرها تلبستها حالة من القوة والصرامة لا عهد للنساء بها! وقد كان غضبها دائماً مما لا يستهان به حتى في زقاق المدق نفسه. وأمها على ما اشتهرت به من القوة تتحاماها ما استطاعت. قالت لها يوماً وهما تتسبان: «لن يلم الله شعئك برجل، فأني رجل يرضى بأن يضم إلى صدره جرة موقدة!». وكانت تقول في مرآت أخرى: إن جنونا لا شك فيه يتاب ابتها حين الغضب، وسمتها لذلك الخمسين باسم الرياح المعروفة. ومع ذلك كانت تحبها كثيراً وإن كانت في الحقيقة أمها بالتبني. كانت الأم الحقيقية شريكة لها في الاتجار بالفتنة والموغات، ثم شاطرتها شقتها بالزقاق في ظروف سيئة، وأخيراً ماتت بين يديها تاركة طفلتها في سن الرضاع، فتيبتها أم حميدة، وعهدت بها إلى زوج المعلم كرشة القهوجي فأرضعتها مع ابنها حسين كرشة، فهي. أخته بالرضاعة.

مضت تمشط شعرها الفاحم منتظرة كالعادة أن تعلق أمها على الزيارة والزائرة، ولما طال الصمت قالت الفتاة:

- طالت الزيارة، فيم كنتما تتحدثان؟

فضحكت أمها في سخرية وقامت:

- خفي!

فقال الفتاة وقد اشتد اهتمامها:

- طلبت رفع الإيجار.

- لو فعلت لخرجت محمولة على أيدي رجال

الإسعاف، ولكنها طلبت خفضه؟

فصاحت حميدة:

- هل جئت؟

- أجل جئت، ولكن خفي..

فنفخت الفتاة وهي تقول:

- أتعبتني!

فأرغشت المرأة حاجبيها وقالت وهي تغمز بعينها:

- صاحبك تروم الزواج!

فتولت الفتاة الدهشة وقالت:

- الزواج!

- أجل. وتريد شاباً. أسفي عليك من شابة عائرة

الحظ لا تجد من يطلب يدها!

فحدجتها الفتاة بنظرة شزاء وقالت وهي تضفر شعرها:

- بل أجد كثيرين، ولكنك خاطبة فاشلة تريد أن تداري فشلك. وماذا بي مما يعيب؟ ولكنك كما قلت امرأة فاشلة، يصدق عليك المثل القائل «باب النجار خلع»..

فابتسمت أم حميدة قائلة:

- إذا تزوجت الست سنّة عفيفي فلا يصحّ لامرأة

أن تأس..

ولكن الفتاة رمتها بنظرة غاضبة وقالت بحدة:

- لست أجري وراء الزواج، ولكنّه يجري ورائي

أنا، وسأبنيه كثيراً..

- طبعاً! أميرة بنت أمراء!

فتغاضت الفتاة عن سخرية أمها وقالت بنفس

اللهجة الحادة:

- أفي هذا الزقاق أحد يستحق الاعتبار؟

ولم تكن الأم في الواقع يداخلها خوف على الفتاة

من البوار، ولا تشك في جاهها، ولكنها كانت كثيراً ما

تنور بعجبها وغرورها. فقالت باستياء:

- لا تسلقي الزقاق بلسانك، إن أهله سادة الدنيا!

- سادة دنياك أنت. كلهم كعدمهم، اللهم إلا

واحدًا به رمق جعلتموه أخي!

وكانت تعني حسين كرشة أخاها بالرضاعة، فهال

أمها الأمر وقالت بلهجة انتقاد واستياء:

- كيف تقولين هذا؟ ما جعلناه أخاً، وما غللك أن

نصنع أخًا ولا أخًا، ولكته أخوك بالرضاعة كما أمر الله . .

فغلبتها روح المجون وقالت عابثة:

- ألا يجوز أن يكون قد رضع من ثدي ورضعت أنا من الآخر؟

فلكمتها أمها في ظهرها وصاحت بها:

- قاتلك الله . .

فغمغت الفتاة بازدياء:

- زقاق العدم!

- أنت تستحقين موظفًا قد الدنيا!

فسألت بتحد:

- هل الموظف إله؟

فتبتت الأم قائلة:

- آه لو تخففين من غلوائك . . .!

فقلدت لهجة أمها قائلة:

- آه لو تنصفين ولو مرة في العمر!

- أكلة شاربة ثم لا تشكرين. أتذكرين كيف

أطلقت عليّ لسانك الطويل بسبب جلباب!

فأقلت حميدة بدهشة:

- وهل الجلباب شيء يهون؟! . . . ما قيمة هذه

الدنيا بغير الملابس الجديدة؟! ألا ترين أن الأولى

بالبقعة التي لا تجد ما تزيين به من جميل الثياب أن

تدفن حية؟!!

ثم امتلأ صوتها أسفًا وهي تقول مستدركة:

- آه لو رأيت بنات المشغل! آه لو رأيت اليهوديات

العاملات! كلهن يرفلن في الثياب الجميلة. أجل ما

قيمة الدنيا إذا لم نرتد ما نحب؟!!

فأقلت الأم باستياء:

- أفقدتك مراقبة فتيات المشغل واليهوديات عقلك،

وهيات أن يهدأ لك بال . .

فلم تعبأ قولها وكانت انتهت من تضيف شعرها.

فاستخرجت من جيبتها امرأة صغيرة، ثبتتها على مسند

الكنبة، ثم وقفت أمامها منحنية قليلًا لترى صورتها،

ثم غمغت بلهجة تتم عن الإعجاب:

- آه يا خسارتك يا حميدة! لماذا توجدلين في هذا

الزقاق؟! ولماذا كانت أمك هذه المرأة التي لا تميز بين التبر والتراب؟!!

ثم دلفت من النافذة الوحيدة في الحجرة التي تطل على الزقاق، ومدت يديها إلى مصراعيها المفتوحين وجذبتها حتى لم يعد يفرج بينها إلا مقدار قيراطين من الفراغ، وارتفعت النافذة ملقية ببصرها إلى الزقاق، متنقلة به من مكان إلى مكان، قائلة وكأنما تخاطب نفسها في سخرية:

- مرحبًا يا زقاق الهنا والسعادة. دمت ودام أهلك الأجلاء. يا لحسن هذا المنظر، وبأ لجمال هؤلاء الناس. ماذا أرى؟! هذه حسنة الفرائة جالسة على عتبة القرن كالزكية عينًا على الأرغفة وعينًا على جمعة زوجها، والرجل يشتغل بخافة أن تنهال عليه لكساتها وركلاتها. وهذا المعلم كرشة القهوجي متطامن الرأس كالنائم وما هو بالنائم. وعمّ كامل يغط في نومه، والذباب يرقص على صينية البسوسة بلا رقيب. آه. وهذا عباس الحلو يسترق النظر إلى النافذة في جمال ودلال، ولعله لا يشك في أن هذه النظرة سترميني عند قدمه أسيرة لهواه، أدركوني يا هوه قبل التلف. أما هذا فالسيد سليم علوان صاحب الوكالة، رفع عينيه يا أمه وغضبها، ثم رفعها ثانية، . . قلنا الأولى مصادفة، والثانية يا سليم بك؟! رباه هذه نظرة ثالثة! ماذا تريد يا رجل يا عجوز يا قليل الحياء؟! . . مصادفة كل يوم في مثل هذه الساعة؟! ليتك لم تكن زوجًا وأبًا إذا لبادلتك نظرة بنظرة، ولقلت لك أهلاً وسهلاً ومرحبًا. هذا كل شيء، هذا هو الزقاق فلماذا لا تحمل حميدة شعرها حتى يقمل؟! . . أوه . . . ها هو ذا الشيخ درويش قادمًا يضرب الأرض ببقابه . . .

وهنا قاطعتها أمها في سخرية:

- ما أحق الشيخ درويش أن يكون زوجًا لك!

فلم تلتفت إليها، ورقصت لها عجيزتها وهي تقول:

- يا له من رجل مقتدر. يقول إنه أنفق في حب السيّدة زينب مائة ألف، فهل يبخل بعشرة آلاف؟!!

عليه الشكر والدعاء، ولكن ما قولك في أن تنزل لي عنه الآن.؟

فتعجب عباس الحلو الذي كاد ينسى الكفن كما تُنسى عادة الأكاذيب، وسأله:

- وماذا تريد أن تفعل به؟!

فقال الرجل بصوته الرفيع الذي يحاكي أصوات الغلمان:

- أنتفع بثمانه! ألا تسمع ما يقال عن ارتفاع أثنا الأقمشة؟

فضحك الحلو وقال:

- أنت رجل ماهر على رغم ما تتظاهر به من سذاجة. بالأمس شكوت أنك لن تجد ما تكفن به بعد موتك، فلما أعددت لك الكفن تريد أن تنتفع بثمانه! ولكن هيهات أن تنال ما تريد، لقد ابتعت الكفن لأكرم به جثتك بعد عمر طويل إن شاء الله..

فابتسم عم كامل في ارتباك وقال:

- هب أن العمر قد امتد بي حتى تعود الحالة إلى ما كانت عليه قبل الحرب، ألا نكون قد خسرنا ثمن الكفن الغالي؟!

- وهبك تموت غداً؟!

فقطب عم كامل وقال:

- لا قدر الله!

فقهقه الحلو ضاحكاً وقال:

- عينا تحاول أن تثني عماً اعترمت. سيبقى الكفن في حرز حريز حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً..

وعاوده الضحك فضحك طويلاً حتى شاطره الرجل ضحكه. ثم قال الشاب معاتباً:

- يا لك من رجل لا ترجى منه فائدة! هل استفلت منك ملياً واحداً في حياتي؟! مطلقاً. ذنك جرداء لا تنبت، وكذلك شاربك. رأسك أصلع. وليس بهذه الدنيا الواسعة التي تدعوها جسمك شعرة واحدة أنتفع بحلقها. ساعك الله..

فابتسم عم كامل قائلاً:

- جسم نظيف طاهر لن يشق على أحد غسله..

وقطع عليها الحديث صوت يشبه العواء، فنظرا إلى

ثم تراجعت فجأة كأنها ملّت موقفها، وعادت إلى المرأة ملقية إليها نظراً فاحصاً، وتنهت وهي تقول:

- يا خسارتك يا حميدة..

#### - ٤ -

في الثلث الأول من النهار يكتنف الزقاق جو رطب بارد ظليل، لا تزوره الشمس إلا حين تشارف كبد السماء فتخطي الحصار المضروب حوله. بيد أن النشاط يدب في الأركان منذ الصباح الباكر، يفتحه سنقر صبي القهوة فيهيئ المقاعد ويشعل الواور، ثم يتوافد عمال الوكالة أزواجاً وأفراداً، ثم يلوح جعلة حاملاً خشبة العجين، حتى عم كامل نفسه يشغل في هذه الساعة بفتح الدكان وتناول الإفطار عن الناس! وكان عم كامل وعباس الحلو يتناولان إفطارهما معاً، فتوضع بينهما صينية عليها طبق المدمس والبصل الأخضر والخيار المخلل. وكان مزاجهما في الأكل مختلفين، فالحلو سريع يلتهم رغبته في دقائق معدودات، أما عم كامل فبطيء يمضغ اللقمة في أناة حتى يكاد يذيقها في فمه، وكثيراً ما يقول: إن الطعام المفيد يهضم في الفم أولاً، ولذلك فالحلو ينتهي من طعامه، ثم من احتساء الشاي وتدخين الجوزة، والآخر ما يزال يمضغ ويقضم البصل، ولذلك أيضاً فلكي يأمن تعدّي الحلو على نصيبه يشقّ الفول بلقمة شطرين ولا يسمح للشاب بتجاوز حده! وعم كامل - رغم جسامة وضخامته - لا يُعدّ أكولاً وإن كان يلتهم الحلوى بشراهة. وهو حلواني ماهر، ولكنه لا يفرغ ما يتمتع به من فنّ إلا في الطلبات الخاصة التي يوصي عليها أمثال السيد سليم علوان والسيد رضوان الحسيني والمعلم كرشة. وطار في ذلك صيته حتى جاوز المنق إلى الصنادقية والغورية والصاغة. ولكن رزقه على قد عيشته البسيطة دون زيادة، فلم يكن كاذباً حين شكا إلى عباس الحلو أنهم لن يجدوا بعد وفاته ما يدفنونه به. وقد قال - ذلك الصباح - مخاطباً الحلو بعد أن فرغا من طعامهما:

- قلت إنك ابتعت لي كفتاً، وهو صنيع تستحق

الفرائض، لا عن استهتار ولكن عن كسل، وما زال يحافظ على صلاة الجمعة وصوم رمضان. ولم يكن من النادر أن يتحرّش به صاحبه حسين كرشه، ولكنّه كان إذا شدّ صاحبه أرخى، فلم تصله قبضته القاسية قط. وعُرف إلى ذلك بالقناعة والرضا، حتّى إنّه واصل عمله «صبيًا» عشرة أعوام كاملة ولم يفتح دكانه الصغير إلّا منذ خمسة أعوام، ومنذ ذلك التاريخ وهو يحسب أنّه نال أرفع ما يطمح إليه: وقد ملأت هذه الروح القنوعة الراضية نفسه، فطقت بها عينه البارزتان الهادئتان، وجسمه البدين، وطابع المرح الذي لا يفارقه. أمّا حسن كرشه فكان من شطّار الزقاق، مشتهرًا بالنشاط والحق والجراءة، بل هو معتد أثيم إذا دعا الداعي. وقد اشتغل بادئ أمره في قهوة أبيه، ولكنّها لم يتفقًا، فهجّرها وعمل بدكان الدراجات، ولبت بها حتّى اندلع لهيب الحرب فالتحق بخدمة المعسكرات البريطانية، وبلغت يومئذ بها ثلاثين قرشًا. نظير ثلاثة قروش في عمله الأوّل - غير ما يسميه «أكل العيش» يحبّ حقّة اليد» فارتفعت حاله، وامتلاً جيبه. ورفّه عن نفسه بحماس فائر لا يعترف بالحدود فتتمتع بالثياب الحديدية، وغشي المطاعم، وأكثر من أكل اللحوم التي هي في حسبانها طعام المحظوظين، وارتاد السينمات والملاهي، وعافر الخمر، ورافق النساء، وربّما أخذته نشوة كرم فدعا رفاقه إلى سطح البيت حيث يقدّم لهم الطعام والنيذ والحشيش. وفي نشوة من نشواته - كما يحكى عنه - قال لبعض مدعوّيه: «في بلاد الإنجليز يسمّون من كان مثلي في بحبوة العيش بالـلارج (Large) ولمّا كان مثله لا يعدم حاسدين فقد دعوه بحسين كرشه اللارج، ثمّ حرّفت فيما بعد إلى حسين كرشه الجراج».

أمسك عبّاس الحلو بالماكينة وأقبل على رأس صاحبه بهمة ونشاط، يصلح من أطرافها، دون مساس بالشعر المغفل الذي يكاد يقف من فظاظته وخشونته. ولم يكن يخلو من شعور بالحزن يساوره كلّما التقى بذلك الصديق القديم. أجل ما زالا صديقين، ولكنّ الحياة تغيّرت بطبيعة الحال، فلم يعد حسين كرشه

داخل الزقاق فرأيا المعلّمة حسنيّة الفرانة تنهال على زوجها جعدة بالشبشب، والرجل يتقهقر أمامها لا يملك لها دفعًا، وصراخه يعلو حتّى طبّق الأفاق، فضحك الرجلان وصاح عبّاس الحلو مخاطبًا المرأة: - العفو والرحمة يا معلّمة..

ولكنّ المرأة لم تمسك حتّى ارتمى جعدة عند قدميها باكيًا مستعطفاً. ولبت عبّاس ضاحكًا وهو يقول لعمّ كامل:

- ما أخلق جسمك بهذا الشبشب حتّى يذوب شحمه!

وظهر عند ذاك حسين كرشه قادمًا من البيت في سرواله وقميصه وقبّعته. كان ينظر في ساعة معصمه، تبيّها فخورًا، وعينه الصغيرتان الحاذقتان تمثلتان زهوًا. وقد حيّا صديقه الحلاق، ومضى إلى الكرسيّ داخل الصالون وجلس عليه ليحلق شعره في يوم عطلة. وقد نشأ الصديقان معًا في زقاق المدق، كما رأيا نور الدنيا في بيت واحد، بيت السيّد رضوان الحسيني، بيد أنّ عبّاس الحلو رأى هذا النور الدنيويّ قبل صاحبه بثلاثة أعوام. وكان الحلو في ذلك الوقت يعيش في حضانه والديه، قبل أن يعرفه عمّ كامل ويشاطره شقّته بخمسة عشر عامًا. وقد قطع الصديقان الطفولة والصبا معًا. وأخى بينهما الحبّ والمودة، وظلّا على صداقتهما حتّى بعد أن فرّق بينهما العمل، فاشتغل عبّاس صبيّ حلاق بالسكّة الحديدية، وعمل حسين صبيّا في دكان درّاجات بالجمالية. وقد تباينت أخلاقهما منذ البدء، ولكنّ لعلّ تباينهما هذا كان من أهمّ الأسباب التي أبقت على صداقتهما ومودّتهما. كان عبّاس الحلو - ولا يزال - شخصًا وديعًا، دمث الأخلاق، طيّب القلب، ميّالًا بطبعه إلى المهادنة والمصالحة والتسامح، أقصى ما يطمح إليه من فنون اللهو للعب السلميّ، أو ارتياد القهوة لتدخين الجوزة ولعب الكومي، مع نفور من اللجاج والشجار، ودراية في اتّقائهما بالابتسامة الحلوة والله يساعلك يا عمّ. وكان يحافظ على صلاته وصومه، ولا تفوته صلاة الجمعة في سيّدنا الحسين. أجل أهمل الآن بعض هذه

يا حمار أن القروء في حديقة الحيوان تعيش جماعات في أقفاص. وهي كبيرة الشبه بالإنسان في صورته وسوء أدبه، تراها تتغازل وتتجاذب في علانية مكشوفة، فإذا سفت الفتاة إلى هنالك تفتحت لي الأبواب!

فتمتم الحلو وهو يكب على عمله:

- دنيا!

- النساء علم واسع لا تحذقه بمجرد شعرك المرجل.  
فضحك الحلو ونظر إلى شعره في المرأة، وقال

بصوت منكسر:

- أنا رجل مسكين!

فحلج صورته في المرأة بنظرة حادة وتساءل متهكًا:

- وحيدة؟!

فخفق قلب الحلو بعنف لأنه لم يكن يتوقع سماع هذا الاسم المحبوب، وتمثلت لعينه صورتها، فتورد وجهه، وغمغم وهو لا يدري:

- حميدة...!

- أجل حميدة بنت أم حميدة!

ولاذ الحلاق بالصمت وقد لاح في وجهه الارتباك، وراح الآخر يقول بحدة:

- يا لك من رجل خامل معدوم الحياة. عيناك نائمتان، دكانك نائم، حياتك نوم وخمول. أعياكي إيقاظك يا ميت. ألمحسب أن هذه الحياة خليفة بتحقيق آمالك؟! هيهات، ولن ترزقك مهما سعيت بأكثر من لقمته.

فلاح التفكير في العينين الهادئتين وقال متكدرًا بعض الكدر:

- الحيرة فيما اختاره الله...

فقال الشاب ساخراً:

- عمّ كامل، قهوة كرشة، الجوزة، الكومي؟!!

فقال الحلو في حيرة:

- لماذا تهزأ بهذه الحياة؟

- أهى حياة حقاً؟.. هذا الزقاق لا يجوي إلا موتاً. وما دمت فيه فلن تحتاج يوماً للدفن. عليك رحمة الله.

فسأله الحلو بعد تردد وإن كان يدري ما الآخر قائله:

يواظب على قضاء سهراته بقهوة أبيه كما كان يفعل في الأيام الخالية، مما دعا إلى ندرة اجتماع الصديقين. ولم يخل الأمر من عاطفة حسد تخامر فؤاد الحلاق كلما ذكر الهوة الواسعة التي تفصل بينهما. بيد أنه في حسده - كما هو في حياته - وديع عاقل لا يتهور ولا يتورط في خطأ، فلم ينل صاحبه بلفظ سوء، وكأنه يغبطه ولا يحسده، وربما قال لنفسه معزياً: «سوف تنتهي الحرب يوماً، ويعود حسين إلى الزقاق معدماً كما خرج منه».

وجعل حسين كرشة - بثروته المعهودة - يتحدث صاحبه عن حياة «الأورنس» والعيال والمرتببات والسرقات وما يحدث بينه وبين الإنجليز من نوادر ومداعبات! وعمّا يكنه الجنود لشخصه من الحب والإعجاب، قال:

- قال لي الأونباشي جوليان مرة إنّي لا أفترق عن الإنجليز إلا في اللون!.. وكثيراً ما نصحني بالاعتصام، ولكنّ الساعد (وهناك حرك ساعده في زهو الذي يربح النقود في أثناء الحرب خليق بأن يربح أضعافها في زمان السلم. ومتى تظنّ الحرب تنتهي؟! لا يغرنك هزيمة الطليان فأولئك لا حساب لهم في الحرب، ولسوف يحارب هتلر عشرين عامًا! والأونباشي جوليان من المعجيين بشجاعتي، ويثق في ثقة عمياء، ويفضل هذه الثقة يسرحني في تجارته الواسعة من تبغ وسجائر وشوك وسكاكين وملاءات أسرة وجوارب وأحذية!.. دنيا!

فتمتم عباس الحلو متفكراً:

- دنيا!

فألقي حسين على صورته في المرأة نظرة متفحصة وقال:

- أتدري أين أذهب الآن؟.. إلى حديقة الحيوان. أو تدري مع من؟.. مع بنت كالفشلة والشهد (وقبل الهواء قبله ذات وسوسة) وسأنتقل بها هناك إلى أقفاص القروء.

وقهقهه عالياً ثم استدرك:

- أراهن على أنك تتساءل: لماذا القروء؟ وهذا طبيعي من إنسان مثلك لم ير إلا قرد القرداتي. فاعلم

- وماذا تريدني على أن أفعل؟

فصاح به الفتى:

- طالما أخبرتك. طالما نصحتك. اخلع رداء هذه الحياة القذرة الحقةرة. أغلق هذا الدكان. اهجر هذا الزقاق. أرح عينيك من جثة عمّ كامل. وعليك بالجيش الإنجليزي. الجيش الإنجليزي كنز لا يفنى. هو كنز الحسن البصري، ليست هذه الحرب بنقمة كما يقول الجهلاء، ولكنّها نعمة النعم، لقد بعثنا ربنا ليتشلنا من وهدّة الشقاء والعوز. على الرحب والسعة ألف غارة وغارة ما دامت تقذفنا بالذهب. ألم أنصحك بالالتحاق بالجيش؟ وما زلت أقول لك إنّ الفرصة سانحة. حقاً هزمت إيطاليا ولكنّ ألمانيا باقية، ووراءها اليابان، وسوف تطول الحرب عشرين عامًا. أقول لك للمرّة الأخيرة إنّّه توجد أماكن شاغرة في التلّ الكبير. سافِر!

واستيقظ خيال الحلوة، واضطربت عواطفه حتّى وجد صعوبة في امتلاك عنانه وإتقان عمله. لم يكن ذلك نتيجة لكلام حسين الراهن فحسب ولكنّه نتيجة لإحاحه المتواصل كلّما قابله. كان بطبعه قنوعاً، عزوفاً عن الحركة، هيّاباً لكلّ جديد، مبعضاً للأسفار ولو ترك وشأنه ما اختار عن المدقّ بديلاً، ولو لبث فيه مدى الحياة لما ملّه ولا فتر حتّى له. ولكنّ طموحه صحا بعد سبات، وكان كلّما دبّت فيه الحياة امتزج في نفسه بصورة حميدة، أو لعلّ حميدة هي التي أيقظته وبعثته بعثاً جديداً، فكان طموحه وصورتها المحبوبة شيئاً واحداً لا يتجزأ. وعلى رغم هذا كلّه خاف أن ييوج بذات نفسه، وكأنّما أراد أن يفسح لنفسه وقتاً للتدبّر والتفكير، فقال متظاهراً بالإحجام والإباء:

- السفر ابن كلب!

فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح به:

- أنت ابن ستين كلباً. السفر خير من زقاق المدقّ، وخير من عمّ كامل؟ سافر وتوكّل على الله. أنت لم تولد بعد. ماذا أكلت؟ ماذا شربت؟ ماذا لبست؟ ماذا رأيت؟ صدّقني أنّك لم تولد بعد...

فقال عبّاس متأسّفاً:

- من المحزن أنّي لم أولد غنياً.

- من المحزن أنّك لم تولد بنتاً لو ولدت بنتاً لكنك من بنات الدقّة القديمة، حياتك في البيت ولليت، لا سينا ولا حديقة الحيوان، حتّى ولا الموسكي الذي ترتاده حميدة في العصارى..

فضاعف ذكر هذا الاسم من ارتباطه، وآله أن ينطق به صاحبه مستهيناً ساخراً كأنّه لفظ نافه لا يثير مكامن القلوب، وقال مدافعاً عن فتاته:

- أختك حميدة فتاة كريمة الأخلاق، ولا يعيبها أن تروّج نفسها بالثني في الموسكي.

- أجل ولكنّها فتاة طموح ما في ذلك من شكّ، ولن تحظى بها حتّى تغبّر ما بنفسك..

وعاوده قلبه الخفقان العنيف، والتهب وجهه احمراراً، وذابت نفسه وجداً وقلقاً وانفعالاً. وكان انتهى من خلق رأس الشاب، فراح يمشطه دون أن ينس بكلمة، وفكره لا يستريح من اضطرابه. ثمّ نهض حسين كرشة وأعطاه نقوده. وقبل أن يغادر الدكان اكتشف أنّه نسي منديله فرجع مسرعاً إلى البيت. وجعل يتابعه بعينه من موقفه، فلاح لعينه مرّحاً نشيطاً سعيداً، وكأنّه يرى فيه هذه الصفات لأوّل مرّة. «لن تحظى بها حتّى تغبّر ما بنفسك».

صدق حسين بلا ريب، إنّّه يعيش عيشة الكفاف، ولا يكاد يتميّص كدح يومه عن رزق ذلك اليوم، فإذا أراد أن يبني عيشه في هذه الأيام العسيرة فلا معدى عن فتح جديد. إلّا ما يقنع بالأحلام والتمنّي وهو قابع هامد مغلول اليد والإرادة؟ لماذا لا يجرب حظّه ويقتحم سبيله كما يفعل الآخرون؟! «فتاة طموح» هكذا يقول حسين، وإن كان هو لا يدري شيئاً على وجه التحقيق، وربّما كان حسين أدرى بها، لأنّه - عبّاس - اعتاد أن يراها بعين الحبّ الخالقة. وإذا كانت فتاته طموحاً فلا معدى له عن أن يكون طموحاً كذلك. ولعلّ حسين يحسب غداً - وقد ابتسم لهذا الخاطر - أنّه أيقظه من سباته وخلقه خلقاً جديداً، ولكنّه يعلم دون الناس جميعاً أنّه لولا ذاك الشخص المحبوب ما استطاع شيء أن ينزعه من قناعته الوديعة



بحسن قوامها الرشيق، وتصور عجيزتها الملمومة أحسن تصوير، وتبرز ثدييها الكاعين، وتكشف عن نصف ساقها المملجتين، ثم تنحسر في أعلاها عن مفرق شعرها الأسود ووجهها البرنزي الفنان القسبات، وكانت تتعمد ألا تلوي على شيء فتتحدّر من الصنادقيّة إلى الغوريّة ثم إلى السكّة الجديدة فلموسكي.. حتى إذا غابت عن الأعين الثابتة علت شفيتها ابتسامة، وراحت تنهب الطريق الزاخر العامر بعينها الجميلتين. هي فتاة مقطوعة النسب، معدمة اليد، ولكنّها لم تفقد قطّ روح الثقة والاطمئنان. ربّما كان لحسنها الملحوظ الفضل في بثّ هذه الروح القويّة في طواياها، ولكنّ حسنّها لم يكن صاحب الفضل وحده، كانت بطبعها قويّة، لا يخلدّها الشعور بالقوّة لحظة من حياتها. وكانت عينها الجميلتان تنطقان أحياناً بهذا الشعور نطقاً يذهب بجهاها في رأي البعض ويضاعفه في رأي البعض الآخر. فلم تنقأ أسيرة لإحساس عنيف يتلّهب على الغلبة والقهر، يتبدّى في حرصها على فتنة الرجال، كما يتبدّى في محاولتها التحكّم في أمّها، ويتعرّى في أسوأ مظاهره في ما يشتجر بينها وبين نسوة الزقاق من شغب وسباب وعراك، حتى أبغضنها جميعاً، ورمينها بكلّ سوء. وربّما كان من أغرب ما رُميت به أنّها تبغض الأطفال، وأنّها بالتالي متوحّشة محرومة من نعمة الأنوثة، وهذا ما جعل امرأة المعلّم كرشة القهوجي - أمّها بالرضاعة - تتمنّى على الله أن تراها أمّاً تُرضع الأطفال في كنف زوج جبار يبيّتها بالضرب ويصّبّحها بالضرب! مضت في سبيلها مستمتعة بنزهتها اليومية، مردّدة الطرف في معارض المتاجر المتعاقبة. كانت تهوى مشاهدة العروضات النفيسة من الثياب والأنية، فتثير في نفسها الطموح المتلّفة على القوّة والسيطرة أحلاماً ساحرة. ولذلك تركّزت عبادتها للقوّة في حبّ المال على اعتبار أنّه المفتاح السحريّ للعالم، المسخر لجميع قواها المنخورة. فجُلّ ما كانت تعرفه عن نفسها أنّها تحلم بالمال، المال الذي يأتي بالثياب وبكلّ ما تشتهيهِ الأنفس. وعسى أن تساءل: أمّكن يا ترى أن تبلغ

المستسلمة. وشعر عبّاس في هذه اللحظة الفاصلة من حياته بقوّة الحبّ وسلطانه وسحره العجيب. ولعلّه أحسن - إحساساً غامضاً لا يرتقي لمرتبة الوعي والفكر - بقدرة الحبّ على الخلق والتعمير، فموضع الحبّ من نفوسنا هو مهبط الخلق والإبداع والتجديد. ولذلك خلق الله الإنسان محبّاً، وترك مهمّة تعمير الوجود أمانة في رعاية الحبّ. وقد تساءل الفتى في وجده وانفعاله لماذا لا يسافر؟ ألم يعيش في هذا الزقاق حوالي ربع قرن من الزمان؟ فماذا أفاده؟ إنّهُ زقاق لا يعدل بين أهله، ولا يميزهم على قدر حبّهم له. وربّما ابتسم لمن يتجهّمه وتجهّم لمن يبتسم له، فهو يقترّ عليه الرزق تقتريراً، ويغدقه على السيّد سليم غدقاً، وعلى كُتب منه تتكدّس رزم الأوراق الماليّة حتى ليكاد يشمّ عرفها الساحر، في حين أنّ راحته لا تقبض إلّا على ثمن الرغيف، فليكن سفر، وليتغيّر وجه الحياة.

جرب فكره هذا الشوط البعيد، ولبث واقفاً أمام دكانه ينظر إلى عمّ كامل وقد مضى يغطّ غطيّاً والمذبة في حجره، ثمّ سمع وقع أقدام خفيفة آتياً من أعلى الزقاق، فتحوّل إليه فرأى حسين كرشة عاتداً في خطوات واسعة. واستمرّ به الانفعال والقلق، ونظر إليه كما ينظر المقامر إلى كرة الروليت الدائرة، حتى حاذاه وأوشك أن يفوته، فوضع يده على كتفه وقال له بقوة وعزم:

- حسين، أريد أن أحدثك في أمر هامّ..

- ٥ -

العصر..

عاد الزقاق رويداً رويداً إلى عالم الظلال: والتفت حميدة في ملاءتها، ومضت تستمع إلى دقات شبّسها على السلم في طريقها إلى الخارج. وقطعت الزقاق في عناية بمشيتها وهيبتها لأنّها تعلم أنّ أعيناً أربعاً تتبعها متفحّصة ثابتة، عينيّ السيّد سليم علوان صاحب الوكالة، وعينيّ عبّاس الحلو الخلاق. ولم تكن تفاهة ثيابها لتغيب عنها، فستان من الدمور وملاءة قديمة باهتة وشبّس رقّ نعلها، بيد أنّها تلفّ الملاءة لفّة نثي

عينها تزوغان من التحديق في الرجال، والرابعة كآتها نسيت أيام كان القمل يزحف على رقبتها كالنمل؟ كان هذا اللقاء بلا رب من بواعث تمردها الدائم، ولكنه كان كذلك أكبر تسلية لها في يومها الطويل المفعم تبرماً وعراكاً. ولذلك قالت يوماً لأمها وهي تنتهد:

- حياة اليهوديات هي الحياة حقاً!

فانزعجت أمها وقالت:

- إنك من نبع أبالسة ودمي بريء منك..

فقال الفتاة إمعاناً في إغاضتها:

- ألا يجوز أن أكون من صلب باشوات ولو عن سبيل الحرام؟!

فهزت المرأة رأسها وقالت ساخرة:

- رحم الله أبك بائع الدوم بمرجوش..

سارت وسط صوحيباتها تياها بجملها، مدرعة بلسانها الطويل، يلذها أن الأعين تمر بهن مر الكرام وتستقر عليها دونهن. ولما انتصف الموسكي أو كاد لاح منها الفتاة إلى الطريق فرأت عباس الحلوى يسير متأخراً عنهن قليلاً وعيناه تلحظانها بتلك النظرة المألوفة، وتساءلت عما دعاه إلى ترك دكانه في هذه الساعة على غير عادة. هل تبعها عمداً؟ ألم يعد يقنع برسائل النظر؟ كان على فقره متأقفاً كأكثرية أهل فته، فلم يضايقها ظهوره. وقالت لنفسها إن آية واحدة من صاحباتها لا تطمع في زوج خير منه، وكانت تجد نحوه شعوراً غريباً معقداً، فهو من ناحية الشاب الوحيد في الزقاق الذي يصلح لها زوجاً، وهي من ناحية أخرى تحلم بزواج على مثال المقاول الغني الذي حظيت به جارتها في الصنادقية فهي لا تحبه ولا تتمناه، وفي الوقت نفسه لا تقطعه، ولعلها تسرها نظراته المشوقة! وكان من عادتها أن توصل الفتيات حتى نهاية الدراسة ثم تعود بمفردها إلى الزقاق، فسارت بينهن وهي تسرق النظر. فلم تعد تشك في أنه يتبعها عامداً، وأنه ينوي أن يخرج عن صمته أخيراً. ولم تحطظ ظنونها فما كادت تودع آخر الفتيات وتدور على عقبيها حتى انحدر نحوه من الطوار، في خطوات مضطربة ووجهه ينطق بالانفعال، وقاربها حتى حاذها، ثم قال

يوماً ما تمتنى؟! لم تكن الحقائق لتغيب عنها، ومع ذلك فهي لا تنسى قصة فتاة من بنات الصنادقية، كانت فقيرة في الأصل مثلها، ثم أسعفها الحظ بزواج ثري من المقاولين فانتشلها من وهدتها، ونقلها من حال إلى حال. فماذا يمنع القصة أن تتكرر، والحظ أن يتسم مرتين في هذا الحي؟! ليست دون صاحبها جالاً، والحظ الذي لعب دوره في حياة الأخرى يستطيع أن يعيده مرات ومرات دون عناء أو خسارة. بيد أن هذا الطموح كان يضطرب في دنيا ضيقة تنتهي عند حدود ميدان الملكة فريدة، لا يدري عما وراءها شيئاً، ولا عما تحويه هذه الدنيا الواسعة من أناس وحظوظ، ولا كم منهم يلقي خيراً وسعداً، وكم منهم يتردد مثلها حائراً لا يعلم لنفسه مرسى. فعلى كتب من هذه المنطقة رأت صوحيباتها من عاملات المشغل قادمات، فهرعت نحوهن وقد تخلصت من جميع أفكارها وابتسمت أساريرها، وسرعان ما سلّمن وأخذن في تافه الأحاديث، وهي تتفحص وجوههن وثيابهن بأعين ناقدة، ذاهبة نفسها حشرات على ما يتمتعن به من حرية وجه. أولئك فتيات صغيرات من أهل الدراسة، خرجن بحكم ظروفهن الخاصة البائسة وظروف الحرب عاقمة عن تقاليدهن الموروثة. واشتغلن بالمحال العامة مقتنيات باليهوديات. ذهبن إليها مكدودات هزيلات فقيرات، وسرعان ما أدركهن تبدل وتغير في ربح قصير من الزمن، شعبن بعد جوع، وكسبن بعد عري، وامتلأن بعد هزال، ومضين على أثر اليهوديات في العناية بالمظهر وتكلف الرشاقة، ومنهن من يרטن بكلمات، ولا يتورعن عن تسابط الأذرع والتخبط في الشوارع الغرامية. تعلمن شيئاً واقتحمن الحياة. أما هي فقد فوت عليها عمرها وجهلها ما يمرح فيه من فرص. وما هي تتمسح بهن والحسرة ملء حناياها، غابطة حياتهن المرفهة وثيابهن المزركشة وجيوبهن العامرة. كانت تضاحكهن في صفاء كاذب والحسد يأكل قلبها، ثم لا تتردد عن نهشهن - ولو على سبيل الدعاية الساخرة - لأقل هفوة، فهذه فستانها قصير معدوم الحياء، وهذه ذوقها سقيم، وتلك

بصوت متهذج:

- مساء الخير يا حميدة..

فالتفت نحوه كالمنزعجة وكأنها بوغت بظهوره مباغتة، ثم قطبت وأوسعت خطاها دون أن تنبس بكلمة، فتورّد وجهه. ولكنّه عاد يقول بصوت يتمّ عن العتاب:

- مساء الخير يا حميدة.

وخافت إن هي لازمت الصمت مع هذا الخطو الخثيث أن ينتهيا إلى الميدان الماهول قبل أن يقول ما يريد، وكانت راغبة في سماعه، فقالت في لهجة تنطق بالاستياء:

- يا للعار! جار وتفعل كالغريب!

فقال عباس بلهفة:

- بل جار حقًا، ولا أفعل كالغريب، أخرام على الجار أن يتكلّم؟

فقالت عابسة:

- نعم، الجار يحمي جارته، لا أن يهاجمها..

فقال الشاب بصدق حاز:

- أنا جار أعلم واجبات الجار. ولم يخطر ببالي قط أن أهاجمك - لا سمح الله - بيد أنّي أريد أن أحدثك، ولا عيب أن يحدث الجار جارته..

- كيف تقول هذا؟! أليس من العيب أن تتعرّض لي في الطريق، وتعرّضني للفضيحة..

فهاله قولها. وقال بأسف:

- الفضيحة؟.. معاذ الله يا حميدة. صدري طاهر، ولا يكرّن لك إلّا الطهر وحيّة الحسين. وستعلمين أنّ كلّ شيء سيتهي بما أمر به الله لا بالفضيحة، فأصغي إليّ قليلًا، أريد أن أحدثك عن أمر هامّ. ميلي بنا إلى شارع الأزهر بعيدًا عن أعين الذين يعرفوننا..

فقالت باستياء متصنّع:

- بعيدًا عن أعين الناس؟! ما شاء الله..! دمت

من جار طيّب حقًا!

وكان قد تشجّع بمنازعتها إياه الحديث فقال بحرارة:

- ما ذنب الجار؟!.. أموت قبل أن يبوح بذات نفسه!

فقالت بسخرية:

- ما أظهر كلامك..!

فقال عباس بلهفة وشت بإشفاقه من اقتراب الميدان الماهول:

- طاهر النية وسيدنا الحسين. لا تسرعني هكذا يا حميدة. ميلي بنا إلى شارع الأزهر. أريد أن أقول لك كلمة هامّة. ينبغي أن تصغي إليّ. أنت تعلمين ولا شكّ بما أريد أن أقوله. ألا تعلمين؟ ألا تشعرين؟ قلب المؤمن دليله..

فقالت كالغاضبة:

- لقد جاوزت حدّك. كلّ.. كلّ.. دعني..

- حميدة.. أنا أريد أن.. أنا أريدك..

- يا للعار! دعني وإلّا فضحتني أمام الخلق..

وكانا قد بلغا ميدان الحسين، فمرت من جانبه إلى الطوار الأيسر وحثّت خطاها على عجل، ثمّ انعطفت إلى الغوريّة وهي تبتسم ابتسامة خفيفة. كانت تعلم ما يريد قوله كما قال، ولم تنس أنّه الفتى الوحيد الصالح لها في الزقاق، وقد قرأت في عينيه البارزين أي الحبّ كما قرأتها مرارًا من نافذتها في الماضي القريب، ولكن هل حرّك ذلك جميعه قلبها الجحود؟ أمّا حالته المألّية التي تعلم عنها الشيء الكثير فلا يمكن أن تحرّك فيها ساكنًا، وأمّا شخصه فوديع تتمّ عيناه عن القناعة والخضوع، ممّا يجعله خليقًا بأن يرتاح إليه فؤاده المغرم بالسيطرة، بيد أنّها وجدت نحوه - رغم ذلك - نفورًا لم تدّر له سببًا. ماذا تريد إذا؟ ومن يرضيها إذا لم يرضها هذا الفتى الوديع الطيّب؟! لم تهتد لجواب بطبيعة الحال، وقد عزّت نفورها منه إلى فقره! والظاهر أنّ حبّها السيطرة كان تابعًا لحبّها العراك لا العكس، فلم تهشّ للمسألة، ولم تفرح بظفر هيّ سهل المثال. وكان قلبها ما يزال في غفوته لم يستتب بعد رغائبه، فملأها شعورها المبهم الغامض حيرة وقلقًا.

ونكص عباس الحلو عن ملاحقتها خيفة الأعين، فتراجع مقعم الفؤاد خيبة وحسرة، ولكنّه كان أبعد ما يكون عن اليأس. قال لنفسه وهو يسير متمهلاً غافلاً عمّا حوله: إنّها بادلته الكلام طويلاً. ولو قصدت صدّه

ونبذه ما منعها ولا أعيثها الحيلة، فهي لا تكرهه، ولعلها تتدلل شأن الفتيات جميعًا، ولعله الحياء الذي جعلها تقطع عليه سبيل التودد بالفرار. فكان أبعد الناس عن اليأس، بل راح يستسلم لمغازلة الأمل وتوئب للكرّة التالية. وقد سكر قلبه برحيق نشوة ساحرة لم يكن له عهد بمثلها من قبل. كان محبًا صادقًا ملتهب العاطفة، وكان يشعر حيال نظرتها النافذة الجميلة بخضوع كليّ، ولئلاّ لا حدّ لها، وحبّ لا يبذل. أجل كان كأمثاله من الفتيان مولعًا بالنساء عامة، ولكنّه كان كالهام يحلق في السماء ويطوف بأطرافها ثم يقع في النهاية على برجه ملبيًا صغير صاحبه، فهي دون النساء جميعًا أمله المنشود. أجل لم تعد مخاطرته خائبة، وتفتحت له أكمام الأحلام عن زهر الآمال، فعاد متشّيًا مسرورًا بحبه وبشبابه. ولما عرج إلى الصناديق صادف الشيخ درويش قادمًا من ناحية الحسين، فالتقيا عند مطلع الزقاق، وأقبل على الشيخ يريد أن يصفاحه تبرّكًا، ولكنّ الشيخ أشار نحوه بسبّابة مخدّرا، وحلق في وجهه بعينه الذابلتين وراء نظارته الذهبية وقال:

- لا تمسّ بلا طربوش! احذر أن تعرّي رأسك في مثل هذا الجوّ، في مثل هذه الدنيا. فمخّ الفتى يتبخّر ويظير، وهذا أمر معروف في المأساة ومعناه بالإنجليزية Tragedy وتهجيتها tragedy.

## - ٦ -

وكان المعلّم كرشة قد شغل بأمر هامّ، ومن النادر أن يتصرم عام من حياته دون أن يشغل نفسه بمثل هذا الأمر، على ما يسيبه له من الكدر والتنغيص، بيد أنّه كان رجلاً مسلوب الإرادة، لم يترك له الحشيش من إرادته نفعا. ومع ذلك كان على خلاف الأكثرية من تجّار هذا الصنف في حكم الفقراء، لا لأنّ تجارته غير نافعة، ولكن لأنّه كان مبذرا - في غير بيته - يبعثر ما يربحه، وينثر المال بلا حساب، جاريًا وراء شهواته، خصوصًا هذا الداء الويل.

وعندما أذنت الشمس للمغيب غادر القهوة دون أن

ينئ ستر عن طيّته، مرتديًا عباءته السوداء، متوكّنا على عصاه العجرا، ينقل على مهل خطواته الثقيلة! ولا تكاد تدلّ عيناه المظلمتان المخفيتان تقريرا وراء جفنيه الغليظين على أنّه يحسن رؤية طريقه، وكان قلبه يخفق! والقلب يخفق ولو شارف صاحبه الخمسين، ومن عجب أنّ المعلّم كرشة قد عاش عمره في أحضان الحياة الشاذّة، حتّى خال ل طول ثمرّعه في ترابها أنّها الحياة الطبيعية. هو تاجر مخدرات اعتاد العمل تحت جنح الظلام، وهو طريد الحياة الطبيعية وفريسة الشذوذ، واستسلامه لشهواته لا حدّ له ولا ندم عليه ولا توبة تنتظر عنه. بل إنّ ل يظلم الحكومة في تعقيبها لأمثاله، ويلعن الناس الذين جعلوا من شهوته الأخرى مشارا للازدراء والاحتقار، فيقول عن الحكومة: «إنّها تحلّل الخمر التي حرّمها الله، وتحرم الحشيش الذي أباحه! وترعى الحانات الناشرة للسموم، في حين تكبس (الغرز) وهي طبّ النفوس والعقول». وربّما هزّ رأسه أسفا وقال: «ماله الحشيش!» «راحة للعقل وتحلية للحياة وفوق هذا وذاك فهو مدرّ للنسل!» وأما شهوته الأخرى فيقول بقبحته المعهودة: «لكم دينكم ولي دين!» ولكنّ إيلافه شهواته لا يمنع من أن يخفق قلبه كلّ مطلع هوى جديد. وقد سار متمهلا في الغورية ومستسلما لخواطره، يتساءل والأمل ملء فؤاده: «ماذا يا ترى وراءك أنّها المساء؟» وعلى رغم انهاكه في خواطره كان يحسّ بالدكاكين على الصّفين إحساسا غامضا، ويردّ بين الفينة والفينة تحيات بعض أصحابها من معارفه. وكان يسيء الظنّ بهذه التحيات وأمثالها، ولا يدري إن كانت لمحض السلام أم أنّ وراءها من الغمز واللمز. فالناس لا يُرحبون ولا يستريحون، وينلقفون المثالب بأفواه نعمة جشعة. ولطالما قالوا فيه وأعداوا، فماذا أفادهم التشهير؟ لا شيء! وكأنّه ولع بتحذيم فراح يجهر بما كان يسرّه، وهكذا مضى في سبيله حتّى اقترب من آخر دكان على يساره فيما يلي الأزهر، فاشتدّ خفقان قلبه وتناسى تحيات الناس التي أثارت سوء ظنه، وانبعث من عينيه المنطفئتين نور خافت شير.

وراح يدنو منه بفيه الفاغر وشفته المتدلّية، وجاز عتبه. دكّان صغير يجلس في صدره شيخ عجوز وراء مكتب صغير، ويستند إلى أحد رفوفه المكسّسة بالبضائع بائع متسربل بالشباب اليافع. ما إن رأى القادم حتّى استقام ظهره، وتلقّاه بابتسامة البائع اللبق. وارتفع الجفنان الثقيلان لأوّل مرّة، واستقرّت العينان على الشاب، ثمّ حيّا برقّة. وردّ الشابّ التحيّة في لطف، وقد أدرك لأوّل وهلة أنّه يرى هذا الرجل للمرّة الثالثة في ثلاثة أيّام متتابعات. وقد تساءل: لماذا لا يبتاع ما يريد مرّة واحدة؟! وقال المعلم:

- أرنى ما عندك من جوارب ..

فاحضر الشابّ أنواعًا منها وبسطها على «طاولة» المحلّ، وأخذ المعلم يتفحصها وهو يخالس النظر إلى وجه الشابّ، والشابّ لا يخفي أمره عليه، وقد دارى ابتسامة كادت ترسم على ثغره. وتعمّد أن يطيل الفحص والتقصّي، ثمّ قال للشابّ بصوت منخفض:

- لا تؤاخذي يا بنيّ فبصري ضعيف، هلّا اخترت لي لونًا مناسبًا بذوقك الجميل ..

وسكت لحظات يتفرّس في وجهه، ثمّ أردف وهو يرسم ابتسامة على شفته المتدلّية:

- كوجهك الجميل ..

فأراه الشابّ الجميل نوعًا متجاهلًا إطرأه، فاستدرك الرجل قائلاً:

- لفّ لي ستّة ..

وترثّى حتّى مضى الشابّ يلفّ الجوارب، ثمّ قال:

- الأفضل أن تلفّ لي اثني عشر .. أنا رجل لا

ينقصني المال والحمد لله!!

ولفّ الشابّ له ما أراد صامتًا، ثمّ غمغم وهو يناوله اللفيّة:

- مبارك ..

فابتسم المعلم كرشة، أو بمعنى آخر انفرج فمه انفراجة آليّة قصيرة يرافقها اضطراب خفيف في جفنيه، وقال بخبث:

- شكرًا لك يا بنيّ (ثمّ بصوت خفيض) الحمد لله!

لولا أن دنا منه المعلم وقال برقّة:

- مساء الخير يا بنيّ.

فنظر الشابّ وقد نمت عيناه عن ابتسامة خفيفة وتمتم:

- مساء الخير يا سيّدي.

فسأله بمحض الرغبة في مجاذبته الحديث:

- أغلقت الدكّان؟

ولاحظ الشابّ أنّ الرجل يتناقل كأنّما يدعوه إلى

التريث، ولكنّه ثابر على مشيته وهو يقول:

- أجل يا سيّدي ..

فاضطرّ الرجل إلى مسابرتة، فسارًا معًا على الطوار

والمعلم لا يحوّل عنه رأسه، ثمّ قال:

- ساعات عملك طويلة، كان الله في عونك ..

فنفخ الشابّ قائلاً:

- ما الحيلة؟ أكل العيش يحبّ التعب ..!

فسرّ المعلم بإقبال الفتى على محادثته، واستبشر خيرًا

برقته وقال:

- رَزَقَكَ الله بتعبك يا بني..

- أشكر لك يا سيدي..

فقال الرجل بحماسة:

- تعب كلَّها الحياة حقًا، ولكن من النادر جدًّا أن ينال التعب الجزاء الذي يستحقه، فما أكثر العاملين المظلومين في هذه الدنيا..

فشدَّ هذا الكلام على وتر حساس في قلب الفتى وقال بتبرُّم:

- صدقت يا سيدي، ما أكثر العاملين المظلومين في هذه الدنيا..!

- الصبر مفتاح الفرج. أجل ما أكثر المظلومين، ومعنى هذا بالحرف الواحد ما أكثر الظالمين. ولكن من لطف الله أن الدنيا لا تخلو من رُحماء كذلك..

فتساءل الفتى:

- أين هؤلاء الرُحماء؟

وكاد يجيبه: «ها أنذا واحدًا منهم»، ولكنَّه أمسك عن ذلك، وقال بلهجة العاتب:

- لا تكن متشائمًا يا بني فأمَّة محمد بخير، (ثمَّ غير لهجته قائلاً) علام تُشريح؟ أمستعجل أنت؟؟

- ينبغي أن أذهب إلى البيت لأغيِّر ملابسِي..

فسأله باهتمام:

- وبعد ذلك؟

- أنطلق للقهوة.

- آية قهوة؟

- قهوة رمضان.

فابتسم المعلِّم ابتسامته الآليَّة حتَّى لمعت أسنانه الذهبية في الظلمة، وتساءل في إغراء:

- لماذا لا تشرف قهوتنا؟

- آية قهوة يا سيدي..؟

فاخشوشن صوت المعلِّم وهو يقول:

- قهوة كرشة بالمدق، محسوبك المعلِّم كرشة!

فقال الفتى بامتنان:

- تشرفنا يا معلِّم، هذه قهوة ذائعة الصيت..

فسرَّ المعلِّم، وسأله بلهجة تشي بالرجاء:

- أتأتي؟

- إن شاء الله..

فقال المعلِّم كمن نغد صبره:

- كلَّ شيء بمشيئة الله. ولكن أتتوي الحضور حقًا أم تقول ذلك تملُّصًا مِنِّي؟

فضحك الشاب ضحكة رقيقة وقال:

- بل أتتوي الحضور حقًا..

- الليلة إذن!

ولمَّا لم ينبس الفتى بكلمة، قال الآخر بتوكيد وقلبه

يرقص طربًا:

- لا بدَّ..

فغمغم الشاب:

- بإذن الله..!

فتنهَّد الرجل بصوت مسموع ثمَّ سأله:

- أين تقيم؟

- عطفة الوكالة..

- نحن جيران تقريبًا. متزوِّج؟

- كلاً.. مع أهلي..

فقال برقَّة:

- أنت ابن ناس طيِّبين كما يبدو لي. الإناء الطيِّب

ينضح ماء طيِّبًا. وينبغي أن ترعى مستقبلك بعين

الاهتمام. إذ لا يجوز أن تبقى مدى العمر عاملاً بسيطًا

في دكان..

فلاح الاهتمام والطموح في الوجه الجميل، وتساءل

الشاب في خبث:

- وهل لثلي أن يطمع في أكثر من هذا؟!

فقال المعلِّم كرشة باستهانة:

- هل ضاقت «بنا» الحيل! ألم يكن جميع الكبار

صغارًا!

- بلى كانوا، ولكن ليس من المحتَم أن يتقلب

الصغير كبيرًا..

فأردف المعلِّم يتمَّ كلام الفتى:

- إلَّا إذا صادفه التوفيق! فلنذكر هذا اليوم الذي

تعارفنا فيه على أنه توفيق عظيم. أنتظرك الليلة؟!

فتردَّد الفتى قليلًا، ثمَّ قال مبتسمًا:

الجلال؟ فعالج الأمور بالحسنى، ولا تتمرد على صنع الخالق. لكل حالة من حالات الحياة مجالها وطعمها، بيد أن مرارة النفس الأمارة بالسوء تفسد الطعموم الشهية. صدقني إن للألم غبطته وللأس لذته وللموت عظه، فكل شيء جميل وكل شيء لذيد! كيف نضجر وللساء هذه الزرق، وللأرض هذه الخضرة، وللورد هذا الشذا، وللقلب هذه القدرة العجيبة على الحب، وللروح هذه الطاقة اللانهائية على الإيمان. كيف نضجر وفي الدنيا من نحبهم، ومن نحبهم بهم، ومن يحبوننا، ومن يعجبون بنا. استعذ بالله من الشيطان الرجيم ولا تقل مللت..

وحسا حسوة من قلدح القرفة، ثم أردف وكأته يعبر عن خلجات ضميره:

- أما المصائب فلنصمد لها بالحب، وستقهرها به. الحب أشفى علاج. وفي منطوي المصائب تكمن السعادة كقصص الماس في بطون المناجم الصخرية، فلنلقن أنفسنا حكمة الحب.

كان وجهه الأبيض الورد يفيض بشراً ونوراً، تحيط به لحية الصهباء إحاطة الهالة بالقمير. وكان كل شيء حوله يلوح بالقياس إلى طمأنينته الراسخة قلماً مضطرباً. وكان نور عينيه صافياً نقياً ينطق بالإيمان والخير والحب والترفع عن الأغراض. ربما قيل إنه رجل خسر الجاه يوم أخفق في دراسته الأزهرية، وأنه آيس من خلود الدنيا حين ثكل الأبناء، ففرغت نفسه إلى تعويض خسرتها الفادح بالاستيلاء على القلوب بالحب والجود! ولكن كم من المصايين مثله من سلك سبيله، وكم منهم من سقط فريسة الجنون، وكم منهم من صب جام غضبه على الدنيا والدين؟! ومهما يكن من أمر نفسه الخافية فما من شك في إخلاصه، كان مؤمناً صادقاً، ومحباً صادقاً، وجواذاً صادقاً، ومن عجب أن يكون هذا الرجل - الذي طار صيته في الخير والحب والجود كل مطار - حازماً حاسماً وعلى فظاظه وحرص في بيته! ربما قيل إنه وقد آيس من كل سلطان حقيقي في هذه الدنيا يفرض سطوته على المخلوق الوحيد الذي يذعن لإرادته، ألا وهو زوجه! وإنه

- لا يأي الكرامة إلا لثيم..!

وتصافحاً عند بوابة التولي، ثم رجع المعلم مخبط في الظلماء. صحا الرجل الذاهل وسرى في صدره دفء السرور. ولم يكن يستيقظ من دنيا النسيان التي يغط فيها إلا إذا لطمته موجة عنيفة من شهواته الخبيثة، ومر في طريقه بالدكان المغلق فألقى عليه نظرة طويلة تفيض بالشوق. وعاد إلى الزقاق وقد أغلقت دكاكينه، وكانت تشمله الظلمة لولا النور المنبعث من القهوة. وكان جو القهوة - على خلاف الجو البارد في الخارج - دفئاً يحفظ حرارته دخان الجوز وأنفاس السمار ووهج «النسبة»، وقد تربع الحاضرون على الأرائك يتحدثون ويحتسون الشاي والقهوة، والراديو يذيع ما في جوفه فلا يلقي إلا الإغراض والإهمال كأنه خطيب نقيل يخطب صمًا، ودار سنقر كالنحلة لا يسكن ولا يكف عن الصياح. وأتفق عند حضوره أن كان عم كامل يسأل أصحابه أن يُقنعوا عباس الحلو بالنزول عن الكفن المحتفظ له به، ولكنهم أبوا عليه ذلك وأنكروا غرضه، وقال له الدكتور البوشي:

- لا تفرط في كسوة الآخرة. إن الإنسان ليعيش كثيراً في دنياه عارياً، أما عتبة القبر فلا يمكن أن يجوزها عارياً مهما كان فقره...

وتكرر الرجاء من ناحية الرجل الساذج فاصطدم كل مرة بالرفض والسخرية، حتى كف الرجل يائساً. وراح الحلو بعد ذلك يعلن للإخوان ما اعتزم من العمل في الجيش البريطاني، ويستمع إلى آرائهم ونصائحهم، وقد اجتمعت كلمتهم على الموافقة على مشروعه، وتمنوا له النجاح والثراء. وكان السيد رضوان الحسيني منهمكاً في حديث طويل من أحاديثه المليئة بالوعظ والإرشاد، وقد مال على محدثه وأنشأ يقول:

- ... فلا تقل مللت! الملل كفر. الملل مرض يتور الإيمان. وهل معناه إلا الضيق بالحياة! ولكن الحياة نعمة الله سبحانه وتعالى، فكيف لمؤمن أن يملأها أو يضييق بها! ستقول ضقت بكيت وكيت، فأسألك من أين جاءت كيت وكيت هذه؟ أليس من الله ذي

- آه يا ست. الحب يساوي الملايين.. أنفقت في حبك يا ست مائة ألف جنيه، وإنه لقدر زهيد...  
وأخيراً رأى الدكتور بوشي المعلم كرشة يحدّق باهتمام شديد في مطلع الزقاق، ورآه يستوي جالساً وقد ابتسمت أساريره، فنظر إلى مدخل القهوة مترقباً، وما لبث أن طالعه وجه الشاب، وقد ألقى على السّمار نظرة المتردّد من عينيه الساجيتين...

### - ٧ -

تقع الفرن فيما يلي قهوة كرشة، لصق بيت الست سنيّة عفيفي. بناء مربع على وجه التقريب، غير منتظم الأضلاع، تحتلّ الفرن جانبه الأيسر، وتشغل الرفوف جدرانها: وتقوم مصطبة فيما بين الفرن والمدخل ينام عليها صاحبها الدار: المعلّمة حسنيّة وزوجها جعدة. وتكاد الظلمة تطبق على المكان ليل نهار لولا الضوء المنبعث من فوهة الفرن. وفي الجدار المواجه للمدخل يُرى باب خشبيّ قصير يُفتح على خرابة، تسطع فيها رائحة تراب وقذارة، إذ ليس بها إلّا كوة في الجدار المواجه للمدخل تطلّ على فناء بيت قديم. وعلى بعد ذراع من الكوة، وعلى رفّ ممتدّ، مصباح يشتعل، يلقي على المكان ضوءاً خفيفاً يفضح أرضه المترّبة المغطّاة بأنواع لا يحصيها العدّ من القاذورات المتنوعة، كأنّها مزبلة. أمّا الرف الذي يحمل المصباح فطويل ممتدّ بطول الجدار قد رُصّت عليه زجاجات كبيرة وصغيرة وأدوات مختلفة وأربطة كثيرة، كأنّه رفّ صيدليّ لولا قذارته النادرة. وعلى الأرض - تحت الكوة مباشرة - كان يوجد شيء مكوّم لا يفترق عن أرض المكان قذارة ولوناً ورائحة لولا أعضاء ولحم ودم تبهه الحقّ - على رغم كلّ شيء - في لقب إنسان؟ ذلك هو زينة مستأجر هذه الخرابة من المعلّمة حسنيّة الفزانة. وحسبه أن يرى مرّة واحدة كيلا يُنسى بعد ذلك أبداً، لبساطته المتناهية، فهو جسد نحيل أسود وجلباب أسود، سواد فوقه سواد، لولا فرجتان يلمع فيها بياض خفيف هما العينان. ولم يكن زينة - على ذلك - زنجياً، بل إنه مصريّ أسمر اللون في الأصل، ولكنّ

يُشبع شهوته الجائعة للنفوذ والسلطان باصطناع الحزم والمهابة معها. ولكن ينبغي ألاّ تُسقط من حساب التقدير تقاليد الزمان والمكان، وما تسنّه البيئة لسياسة المرأة وفلسفتها، وما تراه أكثرية أهل طبقتها من وجوب معاملة المرأة كالطفل تحقيّقاً لسعادتها هي نفسها قبل كلّ شيء. على أنّ زوجه نفسها لم يكن لديها ما تشكوه نحوه، ولولا الجروح التي تركها الأبناء تذكّاراً خالداً في قلبها، لغدّت نفسها امرأة سعيدة، فخوراً بزواجها وحياتها.

أمّا المعلم كرشة فكان حاضراً غائباً، لم يطمئنّ به المجلس لحظة واحدة، وعانى مرارة الانتظار في صمت كئيب. وكلّما مرّت دقائق لوى عنقه واشربّ به نحو مطلع الزقاق، ثمّ يعود إلى صندوق الماركات متصبّراً متجلّداً قائلاً لنفسه: «سيأتي حتّى، سيأتي كما أتى إخوان له من قبل...». وتمثّل له وجهه، ثمّ نظر إلى الكرسيّ القائم بينه وبين أريكة الشيخ درويش فرآه بعين الخيال يطمئنّ إليه، لم يكن فيما سلف ليجرؤ على دعوة أحد أمثال هذا الشاب إلى قهوته تسرّاً أو حياء، ثمّ افتضح أمره، وذاعت فضيحته، فكشف وجهه وارتاد الإثم جهاراً. وكان يقع بينه وبين زوجه من المآسي ما يبقى حديثاً فاضحاً تتناقله الألسن، ويتلقّفه بشغف أمثال الدكتور بوشي وأمّ حميدة، ولكنّه لم يعبا شيئاً. وما تكاد النار تحمد إلى حين حتّى يصبّ عليها نفطاً بسوء سيرته فيضرمها إضراماً، وكأنّه وجد أخيراً في الجهر لذة فلهج بها. وهكذا جلس قلّقا لا تعرف السكينة سبيلاً إلى نفسه الملوّنة، كأنّه يجلس على مشواة، يكاد ينبري عنقه من كثرة لّيه، حتّى لاحظ الدكتور بوشي اضطرابه وقال للحلو في خبث:

- هذه علامات الساعة!

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته فجأة، وأنشد يقول:

حننت إلى ربّنا ونفسيك باعدت  
مزارك من ربّنا وشعباكما معا  
فما حسن أن تأتي الأمر طائعاً  
وتجزع إن داعي الصباية أسمعاً



كامل في دنيا الرجال! وكان من أهم الأسباب التي دعت أهل الزقاق إلى تجنبه رائحته النتنة، فلم يكن الماء يعرف سبيلاً إلى وجهه أو جسده. وقد أثر وحشة العزلة على الاستحمام! وبادل الناس مقاً بمقت عن طيب خاطر، فكان يرقص طرباً إذا قرع مسمعيه صوات على ميت، ويقول وكأنه يخاطب الميت: «جاء دورك لتذوق التراب الذي يؤذيك لونه ورائحته على جسدي!». وربما قطع وقت فراغه الطويل في تحيّل صنوف التعذيب التي يتمناها للناس واجداً في ذلك لذّة لا تعادلها لذّة، يتصوّر جعده القرآن هدفاً لعشرات الفؤوس تضربه حتّى تتركه كتلة مهشّمة كلّها ثقوب!.. أو يتخيّل السيّد سليم علوان وقد استلقى على الأرض ووابور الزلط يروح عليه ويحيء ودمه يجري نحو الصناديق.. أو يتمثّل له السيّد رضوان الحسيني تجرّه الأيدي من لحيته الصهباء نحو القرن الملتهبة ثمّ يستخرجونه منها زكية من الفحم.. أو يرى المعلم كرشة مطروحة تحت عجلات الترام يمزّق أوصاله ثمّ يلتمّون أشلاءه في مقطف ما يستحقّ الناس. وكان إذا باشر عمله وأخذ في صنع العاهة لطالها، اشتدّ عليه في قسوة مقصودة مستخفياً وراء سرّ المهنة، حتّى إذا نذت التأوهات عن فريسته لمعت عيناه المخيفتان بنور جنونيّ. ومع ذلك كان الشحاذون أحبّ البشر إلى نفسه، وتميّ كثيراً لو كان الشحاذون أكثرية أهل الأرض.

هكذا جلس زيطة غارقاً في أحيلته يترقّب وقت العمل. وعندما انتصف الليل أو كاد نهض قائماً، ونفخ المصباح فانطلقاً وساد ظلام ثقيل. ثمّ تلمّس طريقه إلى الباب وفتح في هدوء بالغ، ثمّ اخترق القرن إلى الزقاق. والتقى في سبيله بالشيخ درويش يغادر القهوة، وكثيراً ما يلتقيان في منتصف الليالي دون أن يتبادلا كلمة واحدة، ولذلك كان للشيخ حظّ موفور في محكمة التفتيش التي ينصبها زيطة في خياله للبشر. وانعطف صانع العاهات إلى سيّدنا الحسين في خطوات قصيرة وثيدة، وكان يقترب في سيره من جدران البيوت على رغم الظلمة الخالكة - كانت بعض

القذارة الملبّدة بعرق العمر كوّنت على جنته طبقة سوداء. كذلك جلبابه لم يكن في البدء أسود، ولكنّ السواد مصير كلّ شيء في هذه الخرابة. وهو لا يكاد يمتّ بسبب للزقاق الذي يعيش فيه، فلا يزور ولا يزار، لا نفع فيه لأحد ولا نفع في أحد له، اللهمّ إلّا الدكتور بوشي، والآباء الذين يستعينون بصورته على تخويف أطفالهم. وأمّا صناعته فمعروفة لدى الجميع، وهي صناعة تحوّل له لقب دكتور وإن لم يتّخذة إكراماً لبوشي. كان يصنع العاهات، ليست هذه العاهات الطبيعىّة المعروفة، ولكن عاهات صناعيّة من نوع جديد. يقصده الراغبون في احتراف الشحاذة، فبفنه العجيب - الذي يحشد أدواته على الرفّ - يصنع لكلّ ما يوافق جسمه من العاهات. يميّثونه صحاحاً ويغادرونه عمياناً وكسحاناً وأحداً وقعساناً ومبتوري الأذرع أو الأرجل. وقد اكتسب البراعة في فنّه من تجارب الحياة التي صادفته، وعلى رأسها جيّعا اشتغاله عهداً طويلاً في شرك متجول، ولانّصاله بأوساط الشحاذين - اتّصلاً يرجع عهده إلى صباه حين كان يعيش في كنف والدين شحاذين - فكّر في تطبيق فنّ «الماكياج» الذي تلقّنه في الشرك على بعض الشحاذين، في بادئ الأمر على سبيل الهواية، ثمّ على سبيل الاحتراف حين ضاقت به أوجه العيش. ومن مشاقّ عمله أنّه يبدأ في الليل، أو عند منتصف الليل على الأصحّ، ولكنّها مشقّة غدت بالعادة مألوفة ميسرة، أمّا في أثناء النهار فلا يكاد يفارق الخرابة بحال، يجلس القرفصاء يأكل أو يدخن، أو يتسلّى بالتجسّس على الفرّان والقرّانة، ولكم كان يلدّه أن يسرق السمع لما يدور بينها من حديث، أو أن يشاهد من ثقب الباب انهيار المرأة بالضرب على زوجها صباح مساء، حتّى إذا أتى الليل رآها وقد شملها الصفاء وقد أقبلت المعلمة على زوجها القرد تمازحه وتبسطه السمر. وكان زيطة يمقت جعده ومحتقره ويستقيح وجهه! وفضلاً عن ذلك كلّه كان يحسده على ما حباه الله به من زوج «كاملة الجسم» أو على حدّ تعبيره «امرأة بقرّي!». وكان كثيراً ما يقول عنها إنّها في دنيا النساء تقابل عمّ

تحتة يجلس رجال ثلاثة. ودلف الرجل بينهم في هدوء لأن وجودهم لم يدهشه ولم يزعجه، وعانينهم بعينيه البرّاقتين فعرف منهم الدكتور بوشي. ووقفوا له جميعاً، وقال له الدكتور بوشي بعد أن حيّاه تحية طيبة:

- هاك رجلين مسكينين يستشفعان بي إليك..

فتظاهر زيطة بعدم المبالاة، وقال متظاهراً بالملل:

- في مثل هذه الساعة يا دكتور؟!

فوضع الدكتور يده على كفه وقال له:

- الليل ستار وربنا أمر بالستر!

فقال زيطة وهو ينفخ:

- ولكنّي متعب الآن..!

فقال البوشي برجاء:

- لا رددت لي يدًا.

وراح الرجلان يضرعان ويدعوان له، فتظاهر بإذعان مرغماً، ووضع الطعام والتبغ على الرف ووقف حيالهما متفرساً في أناة وهدوء، ثم ثبتت عيناه على أطولهما، كان عملاقاً قوياً فدهش زيطة لمنظره وسأله:

- أنت بغل بلا زيادة ولا نقصان، فلماذا تروم احتراف الشحاذة؟!

فقال الرجل بصوت منكسر:

- لم أفلح في عمل أبداً، حاولت أعمالاً كثيرة، حتّى الشحاذة نفسها، ولكن لم يقدر لي التوفيق، حظي أسود، وعقلي وسخ لا أفهم شيئاً ولا أتقن شيئاً..

فقال زيطة بحقد:

- كان ينبغي إذاً أن تولد غنياً..

ولم يفتن الرجل لمرماه، وراح يستعطفه بتصنّع البكاء قائلاً بصوت كالخوار:

- أخفقت في كلّ شيء، حتّى الشحاذة لم تجذب لي رحيماً واحداً. كلّ الناس يقولون أنت قويّ ويجب أن تستغل، هذا إذا لم يشتموني ويهروني، لا أدري لماذا!

فقال زيطة وهو يدلّك رأسه:

- يا سلام، حتّى هذا لا تدركه.

- الله يخلّيك ويجبر بخاطرك..

وكان زيطة لا يكفّ عن فحصه متفكراً، فقال

بحزم وهو يغمز أعضائه:

قيود الإضاءة ما تزال موجودة - فلا يراه المقبل في الطريق حتّى يصطدم بعينيه البرّاقتين يلمعان في الظلام لمعان القطعة المعدنية في حزام الشرطي. وفي الطريق، يداخله شعور بالانتعاش والزهو والسرور، فهو لا يشقّه إلّا حين يكاد ينقطع إلّا من الشحاذين الذين يدينون له بالسيادة المطلقة. وشقّ ميدان الحسين منعطفاً صوب الباب الأخضر فبلغ القبو القديم، وجعل يردّد عينيه المخيفتين بين أكوام الشحاذين على جانبيه، فملأه الارتياح... ارتياح السيّد إلى قوّته، وارتياح التاجر يرى بين يديه السلع النافقة. ودنا من أقرب الشحاذين إليه، وكان جالساً القرفصاء معتمداً رأسه على ركبتيه ويغطّ غطيّاً، فوقف حياله لحظة متفرساً كأنما يسبر نومه هل هو نوم حقيقة أو تظاهر بالنوم، ثم ركله في رأسه الأشعث، فانتبه الرجل من نومه - غير مذعور - كأنما أيقظته أنامل ناعمة، ورفع رأسه متناقلاً وهو يحكّ جنبه وظهره بأظافره، فوقف بصره على الشيخ المشرف عليه، وحملق فيه لحظة، فعرفه - على عماه - لأوّل وهلة. وتنهّد الرجل فنذ عن صدره صوت كالوحوحة، ثم دسّ يده في صدره واستخرج ملئاً غمر به كفّ الرجل. وانتقل زيطة إلى من يليه، ثم إلى من يليهما، حتّى إذا فرغ من جناح القبو جميعاً اتجه نحو الجناح الآخر، ثم مضى إلى الأزقة والحواري المحيطة بالجامع الكبير لا يفلت منه شحاذ واحد. ولم يكن إكبابه على تحصيل يوميّته لينسيه واجب رعاية العاهات التي صنعها، وربما سال هذا أو ذاك «كيف عمّاك يا فلان؟» أو «كيف كساحك يا فلان؟» فيجيبونه «الحمد لله.. الحمد لله». ثم دار حول المسجد من الناحية الأخرى وابتاع في طريقه رغيفاً وحلاوة طحينيّة وتبغاً ورجع إلى الزقاق. كان الصمت شاملاً يقطعه بين أوتة وأخرى ضحكة أو سعلة ساقطة من أعلى بيت السيّد رضوان الحسيني حيث تجتمع غرزة المعلم كرشة. وجاز الرجل عتبة القرن في هدوء بالغ أن يوقظ الزوجين، ودفع باب الخشبي في حذر وردّه في سكون.. لم تكن المزبلة مظلمة كما غادرها، ولم تكن خالية. كان المصباح مشتعلاً، وعلى الأرض

- هذا من فضل ربّي.  
فهزّ زيطه رأسه وقال ببطء:  
- العملية دقيقة وخطيرة. ودعني أسألك عن أسوأ  
الاحتياطات، هبك فقدت بصرك حقيقة عن خطأ أو  
إهمال فهذا تفعل؟  
فتردد الرجل لحظة، ثم قال بغير مبالاة:  
- نعمة من الله! وهل أفدت من بصري شيئاً حتى  
أسف على ضياعه؟  
فقال زيطه بارتياح:  
- بهذا القلب تستطيع أن تواجه الدنيا حقاً.  
- بإذن الله يا سيدي. ستكون روحي ملك يدك.  
سأنزل لك عن نصف ما يجود به المحسنون..  
- هذا كلام لا يجوز عليّ، حسبي مليمين غير أجر  
العملية، وإنّي أعرف كيف أستخلص حقّي إذا سوّلت  
لك نفسك المأطلة..  
وهنا قال البوشي عذراً:  
- لم تذكر نصيبك من الخبز.  
فاستدرك زيطه قائلاً:  
- طبعاً. طبعاً. . . والآن فلنشرع في العمل، العملية  
شاقّة، ولسوف نمتحن قوّة احتيالك، فاكتم الألم ما  
استطعت إلى ذلك سيلاً.  
وتصوّر ما سوف يكابده هذا الجسم الهزيل من  
هرس يديه القاسيتين، فارتسمت على شفّته الباهتتين  
ابتسامة شيطانيّة. . .

- ٨ -

كانت الوكالة مثار ضجيج لا ينقطع في الزقاق طول  
النهار. عمّال كثيرون لا يكفّون عن العمل فيها عدا فترة  
الغداء القصيرة، وسيل من البضائع الواردة والصادرة  
يطرد في تناوب متواصل، وعدد من سيارات العمل  
الضخمة يجمع أزيزها فيطبق على الصناديق وما  
يتأخها من الغوريّة والأزهر، وتيار زاخر من الزبائن  
والعملاء. هي وكالة عطارة بالجملة والتجزئة، وليس

- أنت قويّ حقاً. أعضاؤك سليمة. إنّي أعجب  
ماذا تأكل؟  
- الخبز إذا وُجد ولا شيء غيره.  
- هذا جسم شيطانيّ بلا ريب. ترى ماذا تكون لو  
أكلت كما تأكل حيوانات الله التي يؤثرها بخيره  
ونعمته؟!  
فقال الرجل ببساطة:

- لا أدري. . .  
- طبعاً طبعاً. . . أنت لا تدري شيئاً، فهمنا هذا،  
وخبر ما فعلت، فلو كنت تدري لانقلب واحدًا منّا.  
اسمع يا هذا لا فائدة ترجى من تشويه أعضائك. . .  
ولاح الانقباض في الوجه الثور، وأوشك أن يتباكى  
كزّة أخرى لولا أن بادره زيطه قائلاً:  
- عسير أن أكسر لك رجلًا أو ذراعًا، ومهما صنعت  
بك فلن تستثير عطف أحد. إنّ البغال أمثالك يُثيرون  
الحنى أينما يملّون. ولكن لا تيأس (كان الدكتور بوشي  
ينتظر هذه العبارة بصبر نافذ) فهناك طرق شتى،  
أعلمك فنّ العتّه مثلاً. وأنت لا تقصصك منه شيء ذو  
بال، أجل العتّه، وأحفظك بعضاً من مدائح  
الرسول. . .  
فتهلّل وجه الرجل ودعا له كثيراً، حتّى قاطعه زيطه  
متسائلاً:

- لماذا لم تشتغل قطّاع طرق؟  
فقال الرجل بانكسار:  
- أنا رجل طيّب مسكين، لا أقصد إنساناً بسوء،  
وأحبّ آل البيت.

فقال زيطه باحتقار:  
- أتبدءوني أنا بهذه البوليتيكا. . . ؟  
ثمّ التفّت إلى الرجل الآخر، كان قصيراً هزياً،  
فقال زيطه بارتياح:  
- استعداد طيّب. . .  
فابتسمت أسارير الرجل وقال عمتّاً شاكرًا:  
- الحمد لله كثيراً. . .  
- خلّقت لتكون أعمى مقعدًا.  
فقال الرجل بسرور:

ونفاضة أثاث وكثرة خدم وحشم. وفضلاً عن ذلك فقد انتقل عقب زواجه من البيت القديم بالجمالية إلى قصر منيف بالحلمية، فترعرع الأبناء في وسط جديد منقطع الأسباب ببيئة التجار وأوساطهم، وسط يضمربلا ريب نوعاً من الاحتقار للمهن الحرة جميعاً، فتعلقوا بمثل عليا جديدة. بحكم معيشتهم ووسطهم وعلى غير علم من والدهم المشغول بعمله وحياته. وحين جدّ الجدّ تمرّدوا على نصحه وأبوا الالتحاق بمدرسة التجارة أن تكون فخاً لهم، وشقوا سبيلهم إلى الحقوق والطب، فهم قاضٍ وعامٍ بأقلام القضايا وطبيب بقصر العيني. ومع ذلك كانت الحياة سعيدة، وقد بدت آثارها الطيبة في جسمه البدين المتين، ووجهه الممتلئ المورّد، وحيوته الشابة المتوثبة سعادة منشؤها أن كلّ شيء في موضعه المأمول، تجارة رابحة، صحة جيّدة، أسرة سعيدة، أبناء موفّقون قد عرف كلّ منهم وجهته واطمأن إليها. وكان له غير هؤلاء الأبناء بنات أربع، تزوّجن جميعاً وبارك الله في زيجاتهنّ. فبدا كلّ شيء باسمًا منسبطاً لولا ما يتناهى بين الحين والحين من التفكير في مصير الوكالة والتجارة. وبكرور الأيام تنبّه الأبناء إلى متاعب الأب، ولكنهم قدّروها من ناحية أخرى، فساورهم خوف أن يفلت الزمام يوماً من يد والدهم. أو أن يتركها لهم بغتة فلا يدرون ماذا يصنعون. وكان أن اقترح عليه أحدهم - محمد سليم علوان القاضي أن يصقّي تجارته ليتفرّغ لحقه المشروع من الراحة بعد ذاك النضال الطويل. بيد أن السيّد لم يغب عنه حقيقة مخاوفه، واستاء استياء لم يحاول إخفاءه، فقال له «أتريد أن ترثني حيّاً؟» ودمه قوله هذا وهاله، لأنّه وإخوته يجنّون أباهم حبّاً صادقاً، فلم يعد أحد منهم إلى طرّق هذا الموضوع الخطير. ولكن لم ينته الأمر عند هذا الحدّ فراحوا يقولون - واثقين من عدم استفزاز غضبه هذه المرّة - إنّ شراء أرض أو تشييد عمارات أفضل بلا ريب من كسر الأموال في المصارف. وفطن إلى بواعث هذا القول الحقيقية بعقله الذي يحسن إدراك مسائل المال وما يتفرّع عنها، فهو يعلم حقّ العلم أن التجارة التي تدرّ المال بلا حساب

من شكّ في أنّ انقطاع الوارد من الهند بسبب الحرب قد أحدث في سوقها أثراً ملحوظاً، ولكنّ الوكالة على رغم ذلك حافظت على سمعتها ومركزها، كما ضاعفت ظروف الحرب من نشاطها وأرباحها. وفضلاً عن هذا وذاك فقد أغرت ظروف الحرب السيّد سليم بالأتجار بمواد لم يكن يلقي إليها بالاً كالشاي، فغامر في السوق السوداء، وربح أرباحاً طائلة. وكان السيّد سليم علوان يجلس إلى مكتبه الضخم في نهاية الردهة الموصلة إلى فناء الوكالة الداخليّ التي تحدد به المخازن، وهو مركز وسط يستطيع أن يشرف منه على داخل الوكالة وخارجها، وييسّر له مراقبة العمّال والحقّالين والزبائن جميعاً. لذلك كلّ فضل هذا المركز على الانفراد في حجرة كما يفعل أقرانه من كبار التجار، ولأنّ التاجر الحقّ - على حدّ تعبيره - «ينبغي أن يكون مفتوح العينين دائماً». وكان الرجل في الواقع من النماذج العملية الموفّقة، خبيراً في مهنته، قادراً على النهوض بأعبائها. ولم يكن من حديثي النعمة الذين أنجبهم الحرب، لأنّه على حدّ تعبيره أيضاً «تاجر ابن تاجر»، بيد أنّه لم يكن في البدء معدوداً من الأغنياء، ثمّ خاضت تجارته غمار الحرب الأولى وخرجت ظافرة، وأدركتها هذه الحرب فأنقلت موازينها حتّى أتخمتها بالثراء. على أن الرجل لم يخل من الهموم، وبحسبه أن يناضل في الميدان وحده بلا معين ولا نصير. أجل كان ما يتمنّع به من صحة جيّدة وحيوة فائضة خليقاً بأن يهوّن عليه همومه، ولكن لم يكن بدّ من التفكير في الغد، القريب أو البعيد، إذا انصرف العمر أو كاد، وافتقدت الوكالة من يديرها. فمن المؤسف حقّاً أن أحداً من أبنائه الثلاثة لم يقع له في خاطر أن يتقدّم لمعاونة أبيه في عمله، وكانوا جميعاً سواء في الإعراض عن التجارة، وضاعت محاولاته في ثنيهم عن إعراضهم كلّها سدى، فلم يجد مناصّاً - على بلوغه الخمسين - من النهوض بالأمر كلّ. وليس من شكّ في أنّه كان المسؤول عن هذا الختام المرهق، فقد كان على رغم عقلية التجارية - جواداً كريماً، أو كان كذلك على الأقلّ في بيته وبين أهله، فكان بيته كالقصور جمال بناء

للبرلمان فتستغرق الانتخابات آلافاً من أموالك دون جدوى ثمناً لكرسي غير مضمون، وهل البرلمان في بلادنا إلا كمريض بالقلب تهدد السكتة في أية لحظة! ثم أي حزب تختار؟ إذا اخترت حزباً غير الوفد أضعفت مكانتك في الوسط الذي تعمل فيه، وإذا اخترت الوفد لم تأمن رئيس وزارة كصديقي باشا يجعل تجارتك هشيماً تلروه الرياح.

وتأثر السيد بقول ابنه، وكان يثق في أبنائه «المتعلمين» ثقة كبيرة، وزاده انحيازاً إلى طرح السياسة جانباً جهله التأم بشئونها، وبروده حيالها، فلم يكن يعلم من أمورها إلا أسماء ورث حبها أو بغضها عن عهد سعد زغلول.

واقترح عليه البعض أن يتبرع بقدر من المال لمشروع من المشروعات الخيرية لعله أن يجزى عليه بالرتبة. ولم يرقه الاقتراح من بادئ الأمر، لأن غريزة التجارة الكامنة فيه تنفر نفوراً طبعياً من البذل والعطاء، ولا يتعارض هذا مع كرمه المعروف، لأنه في الواقع كان كرمًا لنفسه وبيته، على أنه لم يقطع بالرفض، فما زالت الرتبة مغربة محبوبة، وما زال يطمع فيها ويريدها. وقد أدرك أنها تقتضيه قدرًا من المال لا يقل عن الخمسة الآلاف جنيه، فما عسى أن يصنع؟ لم يبت برأي قاطع، وإن قال لأبنائه «كلّا» بيد أنه أضاف الرتبة إلى همومه الأخرى القائمة بلا فض كإدارة الوكالة وشراء العقار، تاركًا أمر الجميع للمستقبل وللظروف.

\*\*\*

ومهما يكن من أمر هذه المموم فهي ليست بالخطر الذي ينغص صفو الحياة وخصوصًا حياة رجل يستغرقه العمل نهارًا، والغريزة ليلاً. والحق أنه إذا شغله العمل لم يعد يفكر في شيء سواه، وقد جلس إلى مكتبه مركّزًا انتباهه كله في كلام ممسار يهودي، مستجمعًا يقظته، مستحضرًا حذره، يعجب لرقّة محدثه ولطفه، حتى ليحسبه الجاهل صديقًا ودودًا، وهو في الحقيقة غمر يتوتّب، يتمسكّن ويتمسكّن حتى يتمكّن، والويل لمن يتمكّن منه. وقد علّمت التجارب

قد تبتلهه أيضًا في ساعة نحس واحدة، وأنّ التاجر الذي يحنط للمستقبل بشراء عقار مثلاً حقيق إذا وقعت هذه الساعة - خاصة إذا سجل ما ابتاع من عقار باسم أبنائه مثلاً أو زوجه - أن يخرج من شدته ببعض المال، وعسى أن يكون مالا كثيرًا، لا صفر اليدين. وهو إلى ذلك يعرف حق المعرفة سير تجار كبار ممن ربحوا أموالاً طائلة، وانهوا إلى الإفلاس والفقر المدقع، أو إلى شر من ذلك كالانتحار أو الموت كمدًا. أجل إنه يعلم ذلك كله، ويعلم أن أبنائه على حق في ما يريدون، ولعلّ التفكير في هذا الذي يريدون لم يكن جديدًا عليه، ولكن هل تسمح ظروف الحرب بالشروع في مثل هذا العمل؟! كلّا، هذا بين بلا ريب. وإذا فليؤجل إلى حين، وليطو في نفسه حتى يتيسر تحقيقه ولم يكده يحسب أنه فرغ من هذا المهم حتى اقترح عليه ابنه القاضي أيضًا أن يسعى للحصول على رتبة البكوية. قال له: كيف لا تكون بيكًا والبلد ملأى ببيكوات وباشوات دونك مالا وجاهًا ومقامًا.

وسره هذا الإطراء. وكان في الحق - وعلى خلاف التجار الحصفاء - مغرمًا بالجاه والجلال، ولكنّه تسأل في سداجة عن السبيل إلى التماس هذه الرتبة، وغدا الأمر شغل الأسرة الشاغل، وتحمسوا له جميعًا وإن اختلفوا في الوسيلة. فاقترح البعض عليه أن يشتغل بالسياسة وأن يدلي فيها بدلوه! حقًا كان السيد سليم علوان لا يكاد يفقه شيئًا. فيما عدا التجارة - من أمور الدنيا، ولا تكاد تسمو آراؤه أو معتقداته على آراء ومعتقدات عباس الحلو مثلاً، فكان مثله يضرع خاشعًا إلى ضريح الحسين، وكان مثله يبجل الشيخ درويش ويتبرك به. كان بإيجاز معدة قوية وجبة زاهية. بيد أن السياسة لا تحتاج في كثير من الأحيان إلى أكثر من هذا، وقد مضى يفكر في الأمر تفكيرًا قويًا، لولا أن اعترضه ابنه المحامي - عارف سليم علوان - فقال له محذرًا:

- السياسة حقيقة بأن تخرب بيتنا وتلتهم تجارتنا. ستجد نفسك ملزمًا بالإنفاق على الحزب أضعاف ما تنفق على نفسك وأهلك وتجارتك. وعسى أن ترشح

تغير على لياليه، وعاد باللائمة بادئ الأمر على العامل الذي يهين الوصفة. فلما أن أبرأ الرجل ذمته داخله الشك في الفرانة، واكتشف السرقه بغير صعوبة، فدعا الفرانة وبيعها، وعدل عن إرسال الصينية إلى فرنسا، مستبدلاً بها القرن الإفرنجي بالسكة الجديدة. وبدأ السر ينكشف ويذيع فعلمت به أم حميدة، وكان في ذلك الكفاية كل الكفاية، فسرعان ما أحاط به أهل الزقاق جميعاً، وراحوا يتلقون الصينية بالغمز واللمز. وأدرك السيد غضاباً أن سره قد افضح، ولكنه لم يعبأ ذلك طويلاً! أجل. قطع أكثر عمره في الزقاق، ولكنه لم يكن يوماً من أهله، ولم يعمل لواحد منهم حساباً، ولولا السيد رضوان الحسيني والشيخ درويش لما عني برفع يده تحية. وكادت الصينية تصبح في وقت من الأوقات موضحة الزقاق جميعاً، ولولا تكاليفها الباهظة لما سلاها أحد. فجزبها المعلم كرشة والدكتور بوشي، حتى السيد رضوان الحسيني ذاقها بعد أن تأكد أنها لا تحوي مادة يحرمها الشرع الخفيف! أما السيد سليم فكان يواظب عليها إلا فيما ندر، والواقع أنه كان يضطرب من الحياة في مضطرب ضيق، نهاره تهب للوكالة، وليله خالٍ عما يتسلل به أمثاله من الناس، فلا قهوة ولا نادٍ ولا ملهى، ولا شيء مطلقاً إلا زوجته، ولذلك تقنن في مسراته الزوجية تفتناً شديداً عن جادة الاعتدال.

\*\*\*

وقد استيقظ قبيل العصر فتوضأ وصلى، وارتدى قفطانه وجبته، وعاد إلى مكتبه فوجد قدح الشاي الثاني مهياً، فاحتساه بتلذذ وهو يتجشأ جشأت مجمعة يدوي صداها في الفناء الداخلي، وأقبل على عمله بنفس المهمة التي استقبله بها في الصباح ولكنه كان يبدو في فترات وكأن قلماً يتأهب. كان يتلقت نحو الزقاق، وكان ينظر في ساعته الذهبية الضخمة، وكان يعث بأنفه على غير شعور منه. وعندما ارتفع ضوء الشمس إلى أعلا الجدار الأيسر للزقاق، أدار مقعده اللولبي وجعل وجهه للطريق ومرت دقائق ثقيلة لم تتحول فيها عيناه عن الطريق. ثم أرهف السمع ولعت عيناه لوقع

أن هذا الخواجا وأمثاله أعداء ما من صداقتهم بد، أو أنه - على حد تعبيره - شيطان مفيد. وكان يساومه بصفقة شاي مضمونة الريح غزيرته، فجعل السيد يفتل شاربه الضخم ويتجشأ شانه إذا استغرقه التفكير الخطير! وحاول الخواجا بعد أن فرغ من الشاي أن يعرض عليه شراء عقار صالح - وكان على علم برغبته في الشراء - ولكن السيد كان قد صمم على تأجيل الشروع في ذلك إلى ما بعد الحرب، وأبى أن يصغي إليه، فغادر الرجل الوكالة قانعاً بصفقة واحدة. وجاء غير هذا الخواجا آخرون. وواصل السيد العمل بما عُرف عنه من مقدرة وهمة. وعند منتصف النهار نهض للغداء، وكان يتناول غداءه في حجرة أنيقة أعد بها فراشاً للمقيل. وكان غداؤه يتكون عادة من خضر وبطاطس وصينية فريك. ولما انتهى من طعامه مضى إلى الفراش يستجم ساعة أو ساعتين. وفي أثناء ذلك تسكن حركة الوكالة، فيسود السكون الزقاق جميعاً. وكان لصينية الفريك قصة يعرفها أهل الزقاق جميعاً. هي طعام ووصفة في آن واحد، وقد برع في تهيئتها أحد عماله المقرين، فظلت حقيقتها سرّاً بينهما لولا أنه لا يؤمن على سر في زقاق المذق. هي صينية فريك محشو بالحمام، ومخلوط بقدر من مسحوق جوزة الطيب، يلتهمها في الغداء، ويحتسي بعدها شاياً مرتين أو ثلاث مرات، قدحاً كل ساعتين، فتحدث مفعولها ليلاً، ويستمر تأثيرها الساحر ساعتين كاملتين في بهجة خالصة! وقد ظلت الصينية سرّاً لا يدره إلا الرجلان والمعلمة حسية الفرانة. وكان أهل الزقاق يرونها فيحسبون أنها غداء خالص، فيقول البعض: «والهنا والشفاء ويغتمم البعض: «يطفحها سماً بإذن الله». ثم لعب الطمع يوماً بقلب المعلمة حسية، فسوّلت لها نفسها أن تجرب هذه الوصفة في زوجها جعدة الفران، واختلست من الصينية قطعة موفورة ملأت فراغها بفريك خالص. ودأبت منذ ذلك اليوم على اختلاس نصيبها مطمئنة إلى غفلة السيد، مدفوعة بما أسفرت عنه التجربة من نجاح ملحوظ! بيد أن السيد سليم لم يغفل عن الأمر طويلاً، ولا حظ بسهولة ما طرأ من

شبيب على أحجار الطريق المنحدر، ثم مرّت حميدة أمام باب الوكالة في ثوانٍ معدودات، وقتل شاربيه بعناية، ودار بكرسيه إلى المكتب وقد لاح في عينيه السرور، وإن وجد شعورًا بعدم الارتياح! من العسير أن يقنع بهدوء الرؤية الخاطفة بعد ساعة كاملة من الانتظار والقلق والشوق. ولم يكن يتاح له رؤيتها في غير هذا الوقت إلا من قبيل استراق النظر إلى نافذتها في أوقات نادرة كلما جازف بالظهور أمام الوكالة كأنما يريج أعصابه بالمشي. كان شديد الحذر بطبيعة الحال صوبًا لمنزله وكرامته، فهو السيد سليم، وهي فتاة مسكينة، والزقاق زخار بالألسن الحداد والأعين المتطفلة. وتوقف عن العمل وجعل ينقر المكتب بسبّابته متفكرًا. أجل، هي مسكينة وفقيرة ولكن الرغبة لا ترحم وأسفاه، والنفس أمارة بالسوء! مسكينة وفقيرة ولكن وجهها البرنزي ونظرة عينها وقدها المشوق، كلّ أولئك مزايا تستهين حقًا بفوارق الطبقات! وما جدوى المكابرة؟ إنه يهوى العينين الفاتنتين والوجه المليح، والجسم الذي يقطر إغراء، وهذه العجيزة الأنيقة التي تزرعي بورع الشيوخ. إنها أنفَس من وارد الهند جميعًا. ولقد عرفها منذ كانت صبيّة صغيرة تتردّد على الوكالة لابتياح ما تحتاجه أمها من الحذاء وموادّ الفتحة والمغات. رأى ثدييها وهما نبتان ثمّ وهما دومتان، حتّى استوتا رمانتين. وعابن عجيزتها وهي أساس أملس لم ينهض عليه بناء، ثمّ وهي تكوّر رقيق يتمطى به النضج، وأخيرًا وهي كرة تنضج أنيقة وأنوثة. وراح الرجل يحضن إعجابه المترعرع حتّى أفرخ في النهاية رغبة عازمة. إنه يعلم ذلك، ولم يعد يحاول إنكاره. ولطالما قال لنفسه: وليتها كانت أرملة كالسّت سيّة عفيفي! لو كانت أرملة لوجد لنفسه مخرجًا. أمّا وهي عذراء فينبغي أن يطيل التفكير في أمره. وتساءل كما اعتاد أن يتساءل: ماذا يروم؟ وذكر وهو لا يدري زوجه وأسرته. كانت زوجته امرأة فاضلة، تتحلّى بكلّ ما يحبّ الرجل من أنوثة وأمومة وإخلاص ومهارة فائقة في شئون البيت، وكانت على شبابها مليحة ولودًا. فهو لا يأخذ عليها

نقيصة واحدة، وفضلاً عن ذلك كلّ كانت من أسرة كريمة تتفوّق عليه كثيرًا في الأصل والمحتد. وهو يقرّ بفضلها جميعًا، ويضمّر لها ودًا صادقًا، ولا يضايقه إلا أنّها استوفت شبابها وحيويتها، فقصّرت عن مجاراته، وعجزت عن احتاله، فبدأ بالقياس إليها. وبسبب حيويته الخارقة - شابًا نهمًا لا يجد فيها ما يشتهي من متاع! والحقّ أنّه لا يدري إن كان ذلك ما علّقه بحميدة، أم أنّ هواه ما جعله يستشعر هذا الفراغ الأليم! ومهما يكن الأمر فقد أحسّ رغبة لا تقاوم إلى دم جديد! وقال لنفسه صراحة: «ما لي أحرم على نفسي ما أحلّ الله لها!». على أنّه كان رجلًا محترمًا، حريصًا جدًّا على أن يقرّ له كلّ إنسان بالاحترام، ويكرهه غاية الكرب أن يكون مضغة الأفواه. كان من الذين يعملون للناس وآرائهم كلّ حساب، وكان يقول مع القائلين: «كلّ ما يعجبك والبسّ ما يعجب الناس». وإنّه ليأكل صينيّة الفريك، أمّا حميدة...! ربّاه! لو كانت من أسرة كريمة ما تردّد لحظة في طلب يدها. ولكن كيف تصير حميدة ضرة للسيدة عفت؟! وكيف تصبح أمّ حميدة الخاطبة حماته كما كانت يومًا المرحومة ألفت هانم؟! وعلى أيّ وجه تكون حميدة امرأة أب لمحمد سليم القاضي وعارف سليم المحامي والدكتور حسن سليم؟! وهناك أمور أخرى - لا تقلّ عن هذه خطورة - ينبغي تقديرها حقّ قدرها. هنالك بيت جديد لا بدّ - في هذه الحالة - أن يتهيأ، ونفقات جديدة ربّما ضاعفت من نفقاته القديمة، وورثة جدد خليقون أن يمزقوا وحدة أسرته المتهاككة، وأن يلوّثوا صفحتها الناصعة بالعداوة والبغضاء. وفي سبيل أيّ شيء كلّ هذه المتاعب?... ميل رجل - بل زوج أب - في الخمسين لفتاة في العشرين! لم يغب عنه شيء من هذا، لأنّه رجل لا يفوته بحال تقدير المتاعب التي تتصلّ بالمال وأحوال المعيشة. ومضى يراجع نفسه حائرًا متردّدًا لا يقرّ له قرار. وياتت هذه العاطفة إحدى الهموم المعلقة في حياته، وانتظمتها سلسلة مشاكله التي لم تفضّ لإدارة الوكالة ومستقبلها، وشراء العقار وتشبيد العمارات، ورتبة البكوية، بيد أنّها كانت

أشدّ إلحاحًا وأبعث شجناً.

كان ذهنه يستعرض جميع هذه الخواطر إذا خلا إلى نفسه ومدّ له حبل التفكير، أمّا إذا خطرت حميدة أمام عينيه، أو لاحت لهما في النافذة، فلم يكن يفكر إلّا في أمر واحد...

#### - ٩ -

أصبحت أمّ حسين - امرأة المعلّم كرشة - في همّ مقيم. فانقطاع عادة مألوفة لا يمكن أن يمرّ دون تساؤل، خصوصًا إذا كان انقطاعها في الماضي يقترن دائمًا بشرّ مستطير. وقد قطع المعلّم كرشة عادة محبوبة لا يصحّ أن تقطع لغير سبب خطير، فراح يمضي سهرته الليلية بعيدًا عن البيت، بعد أن كان يدعو رفاقه المدمنين إلى حجرة السطح كلّ منتصف ليل فيمتدّ بهم السهر حتّى مطلع الفجر. وطلّفت بالمرأة الذكريات المحزنة فعاودها الألم الذي ينغص عليها صفو الحياة. ما الذي يدعوها إلى قضاء الليل خارج داره؟ أيكون ذاك السبب القديم؟ ذاك الداء الويل؟ سيقول الفاجر إنّه مجرد تغيير يراد به دفع الملل، أو الانتقال لمكان أوفق لفصل الشتاء، ولكن هيهات تهضم نفسها أمثال هذه المعاذير الكاذبة، وإنّها لتعلم من أمر نفسه ما يعلمه الناس جميعًا. لذلك أصبحت المرأة في همّ مقيم، وباتت تتحرّق على فعل شيء حاسم مهيا كانت عواقبه. وكانت امرأة قويّة - على دنوّها من الخمسين - لا تنقصها أسباب الجراءة التي تجاوز الحدّ في كثير من الأحيان. وكانت من نسوة الزقاق المشتهرات بالبأس - كحسنيّة الفرّانة وأمّ حميدة - واشتهرت بوجه خاصّ لما يقع بينها وبين زوجها من دواعي الملاحاة بسبب شذوذ سلوك الرجل! كما اشتهرت بأنفها الكبير الغليظ الأفتس. وكانت زوجًا ولودًا، أنجبت بناتًا ستًا وذكورًا واحدًا هو حسين كرشة وجميع بناتها متزوجات، وجميعهنّ يحين حياة زوجيّة مقلّقة، لا تخلو من نكد وإن كانت تسير ولا تنقطع. وقد حدثت لصغراهنّ مأساة كانت حديث الزقاق يومًا، إذ اختفت بغتة في عامها الأوّل من الزواج، ثمّ

ضبطت في بيت عامل ببلاق، وانتهى بها وبه المطاف إلى السجن. كانت مأساة الفتاة كربيًا شديدًا للأسرة، ولكنّها لم تكن المأساة الوحيدة التي ابتليت بها، فللمعلّم نفسه مأساة قديمة جديدة لا يعرف لها انتهاء. وكانت أمّ حسين تعرف السبيل إلى معرفة ما خفي عليها من الأمر، فراحت تستخبر عمّ كامل وتستنطق سنقر صبيّ القهوة حتّى علمت بالشابّ الذي أخذ يتردّد في عهده الأخير على القهوة فيحتفي به المعلّم كلّ احتفاء ويقدم له الشاي بنفسه! وأخذت تراقب القهوة خفية حتّى رأت الشابّ بنفسها وشاهدت مجلسه إلى يمين المعلّم، ولست احتفاء به. وجنّ جنوبها ونكأ الجديد القديم من جروحها، فباتت ليلة جهنميّة، وأصبحت على شرّ حال وأسوأ نفس. ولم يكن رأيها قد استقرّ على حال، كانت تغلي غليانًا ولكنّها لا تدري أيّ سبيل تسلك. ولطالما جرّبت العراك فيما سلف دون جدوى ولم تكن تتردّد عن إعادة الكرّة، بيد أنّها تريّت قليلًا - لا تأقّفًا منه - ولكن دفعًا لشهامة الشامتين. وكان حسين كرشة يتهيّا للخروج إلى عمله فقصدته هائجة النفس ثائرتها، وقالت له بانفعال شديد:

- يا بنيّ أما علمت أنّ أباك يعدّ لنا فضيحة جديدة؟

وأدرك حسين لثوّه ما تعنيه! فلا يمكن أن يعني قولها إلّا معني واحدًا معروفًا مشهورًا. وامتلأ حنقًا، واتّقدت عيناه الصغيرتان فتطاير منها الشرر. ما بال هذه الحياة لا تكاد تعفيه يومًا من المتاعب والفضائح. ولم تكن دواعي السخط لتنقصه حتّى بدون هذه الفضائح. كان برّما بكلّ شيء ممّا حوله. ولعلّ برمه هذا الذي دفعه إلى الارتقاء بين أحضان الجيش البريطانيّ. ثمّ ضاعفت حياته الجديدة من سخطه بدل أن تسكّنه وتطامنه، فضايق باله وبيّته وبالزقاق جميعًا. وجاء أخيرًا قول أمّه نطقًا على لبيب، فقال غاضبًا:

- ماذا تريدون؟ وما حيلتي في هذا كلّها! لقد تدخّلت فيها سلف وحاولت الإصلاح، فكاد يبلغ بنا الحال أن نتعارك وأن نتضارب، فهل تريدني على أن



والغضب، ولكنها لم ترد أن تبادره بالغضب، فقالت وهي تغالب انفعالها:

- تفضل بالدخول يا معلم.

وتساءل المعلم كرشة لماذا لا تتكلم إذا كان لديها حقاً ما تريد أن تقوله ثم سألها بخشونة:

- ماذا تريد؟ .. انطقي!

يا له من رجل نافذ الصبر! يقطع الليالي الطوال خارج البيت دون ملل، ولكنه يضيق ذرعاً بحديث دقيقتين معها. ومع ذلك فهو رجلها أمام الله والناس، وأبو أبنائها جميعاً، ومن عجب أنها لم تستطع - على إساءته إليها - أن تبغضه أو تهمل شأنه. فهو رجلها وسيدّها الذي لا تني عن الاستئثار به، واسترداده كلّها مدّ الإثم يداً لاخطافه. بل إنّها لفخور به حقاً، فخور بفحولته ومكانته في الزقاق وسيطرته على المعلمين من أقرانه، ولولا هذه النقيصة المنكرة لما وجدت له مخرجاً في الدنيا. ها هو يستجيب لداعي الشيطان، ويودّ لو أعفته من حديثها لينطلق إليه من توه! واشتدّ بها الغيظ فقالت بحلّة:

- ادخل أولاً .. لماذا تقف على العتبة كالأغراب؟! فنفخ المعلم مغيلاً محنقاً، وجاز العتبة إلى الدهليز برماً ساخطاً وهو يتساءل بصوته الأجش:

- ماذا وراءك؟

قالت وهي تردّ الباب:

- استرح قليلاً .. لديّ كلمة قصيرة ..

ونظر إليها مستربياً! ماذا تريد المرأة؟ هل تعترض

سبيله مرة أخرى؟! وصاح بها:

- تكلمي لماذا تضيعين الوقت سدى؟

فسألته بحق:

- أمتعجل أنت يا معلم؟

- أنجهلين هذا؟

- ما الذي يدعو لهذه العجلة؟

فازدادت ريبته، وامتأ صدره حقناً، وتساءل الإثم يحتمل هذه المرأة؟ كانت عواطفه نحوها مضطربة متناقضة. كان يكرهها حيناً ويحبّها حيناً آخر. ولكن كانت الكراهية تغلب عليه إذا جرّه الإثم إلى هاويته،

أمسك بتلابيب أبي؟!

لم يكن يعنيه الإثم في ذاته، ولكن كان يغيظه ما يثيره حولهم من فضيحة وجرسه، وما يشعله في البيت من نيران السباب والشتم والعراك. أمّا الإثم ذاته فلم يكن يهّمه على الإطلاق، بل إنّ حين تنأى إليه خبره أول مرة هزّ منكيه استهانة وقال دون مبالاة وإنّه رجل والرجل لا يعنيه شيء!.. ثمّ سحق مع الساخطين ونقم على والده، حين وجد أسرته مضغة الأفواه ونادرة المتندرين. وكانت علاقته بأبيه في الأصل متوتّرة، ذلك التوتّر الذي ينشأ عادة من تصادم طبيعتين متشابهتين، فكلاهما فظّ شرّس غضوب، ثمّ جاء هذا الإثم فضاعف من أسباب شقاقهما حتّى أصبحا كعدوين، يتحاربان حيناً، ويتهادنان حيناً، ولا يسكت عنهما السخط أبداً.

ولم تدرِ أمّ حسين ماذا تقول، ولكنها لم تراجعها أن تكون السبب في إلقاء عداوة جديدة بين الابن وأبيه. وتركته يغادر الشقة وهو يهدر غاضباً شامخاً، وقطعت نهارها على أسوأ حال. ولم تكن تدعن للهرجة على كثرة ما عركها الزمن بالتعاسة والمهانة، فصدقت عزيمتها على تأديب الرجل الأثم ولو عرّضها ذلك لشهامة الشامتين. بيد أنّها رأت أن تقدّم إنذارها بين يدي بأسها، فانظرت حتّى ان نصف الليل، وتفرّق السّار، وتأهب زوجها لإغلاق القهوة، ثمّ نادته من النافذة! فصعد الرجل رأسه مزعجاً وعلا صوته متسائلاً:

- ماذا تريد يا أمّ حسين؟

فجاء صوتها يقول:

- اصعد يا معلم لأمر هام ..

وأوما المعلم لفاته أن ينتظر حيث هو، وراح يرتقي السلالم متثاقلاً، ووقف على عتبة باب شقته لاهثاً، ثمّ سألها بصوته الغليظ:

- ماذا تريد؟ أما كنت تستطيعين الانتظار حتّى

الصباح؟

رأته المرأة وقد تسمرت قدماء بالعتبة لا يريد أن يزاولها كأنّه يتحاشى أن يخرق حرمة بيت غريب، فتميّزت غيظاً، وحجته بعينين عمّرتين من السهر

- أتريدني أن أهجر حياتي!  
فضاحت به وقد غلبها الغضب:  
- حياتك!  
فقال بخبث:  
- أجل. الحشيش حياتي!  
فتطايّر الشرر من عينيها وهي تقول وقد حدّثتها  
نفسها بأن تصكّ خديّه السوداوين:  
- والحشيش الآخر؟  
فقال متهمكًا:  
- أنا لا أحرق إلّا صنفًا واحدًا.  
- أنت لا تحرق إلّا أي. لماذا لا تسهر في مكانك  
المتعاد من السطح!  
- ولماذا لا أسهر حيث يروقني السهر؟ على السطح،  
في المحافظة، في قسم الجمالية؟ ما شأنك أنت؟  
- لماذا غيّرت مكان سهرتك؟  
فصعد الرجل رأسه وصاح:  
- اللهمّ فاشهد. أعفيتني حتّى الآن من محاكم  
الحكومة ونصبت لي محكمة دائمة في بيتي (ثمّ طامن  
رأسه ككرة أخرى واستدرك) ألا فاعلمي أنّ بيتنا قد  
أصبح مشبوهًا. والمخبرون يجوسون حوله.  
فسألته بسخرية مرّة:  
- ترى هل هذا الشابّ المتهتك من بين هؤلاء  
المخبرين الذين أطاروك عن عَشْكَ.  
آه، صار التلميح تصرّيحًا واريّد وجهه الضارب  
للسود، وسألها بصوت ينمّ عن الضجر:  
- أيّ شابّ هذا؟  
- الفاجر الذي تقدّم له الشاي بنفسك كأنك رُدّدت  
صبيًا كسئقًا!  
- ما في ذلك من عيب، فالمعلّم يخدم زبائنه  
كالصبيّ سواء بسواء.  
فسألته متهمّة بصوت متهدّج من الغضب:  
- لماذا لا تخدم عمّ كامل مثلاً؟ لماذا لا تخدم إلّا  
الفاجر؟  
- الحكمة توجب خدمة الزبائن الجدد!

ويزيد الأمر وبالأّ إذا توثّبت المرأة للانقضاء عليه.  
وكان يتمنّى في قرارة نفسه لو كانت امرأته «عاقلة»  
فتركته وشأنه. ومن عجب أنّه كان يرى نفسه على حقّ  
دائمًا، ويعجب لا اعتراضها سبيله بلا مبرّر! ليس من  
حقّه أن يفعل ما يشاء؟ وليس من واجبها أن تطيع،  
وأن ترضى ما دامت حاجاتها مقضية ورزقها موفورًا؟  
وقد أمست من ضرورات حياته، كالنوم والحشيش  
والبيت بخيرها وبشرّها، فلم يفكر جادًا في التخلّص  
منها، ولو أراد ما منعه مانع، ولكنّها كانت تملأ فراغًا،  
وتقوم على العناية بأمره، ويريدها - على آية حال -  
زوجًا له! ولكنّه تساءل على رغم هذا كلّ - في حنقه -  
إلامّ يحتمل هذه المرأة؟ وصاح بها:  
- لا تكوني حمقاء وتكلّمي أو دعيني أذهب لحال

سبيلي...

سألته باستياء وحنق:

- ألا تجد قولاً أفضل من هذا تخاطبني به؟

فزجر المعلّم قائلاً:

- الآن علمت أنّه ليس لديك ما تقولينه: والأفضل

أن تنامي شأن النساء العاقلات...

- ليتك تنام أيضًا شأن الرجال العقلاء!

فضرب المعلّم كفًا بكفّ وصاح:

- كيف لي بالنوم في هذه الساعة؟

- فلماذا خلق الله الليل؟

فقال الرجل بدهشة وغيظ:

- ومتى كنت أنام الليل؟ هل أنا مريض يا مره؟!

فقال بلهجة ذات معنى خاصّ علمت أنّه سيدركه

من فوره:

- تبّ إلى الله يا معلّم وادعُ الله يقبل التوبة ولو

جاءت متأخرة!

وأدرك ما تريد، وقطع الشكّ باليقين، ولكنّه قال

متجاهلاً وهو يتميّز غيظًا:

- ما في السهر من ذنب يتوب الإنسان عنه.

فزادها تجاهله لها حنقًا وقالت:

- تبّ عن الليل وعمّا في الليل...

فقال المعلّم بخبث:

- امرأة مجنونة خرفة . .

فصرخت وراءه :

- هل نفذ صبرك حقًا؟ . . أتشفق عليه من طول

الانتظار؟ . . سترى عاقبة فجرك يا داعر . . ؟

وأغلق المعلم الباب بعنف، فرئت صفقته رنيًا  
مدويًا مَرَق سكون الليل، وجعلت أم حسين تكوّر  
يدها في غضب وحقن، وقد امتلأت نفسها رغبة في  
الانتقام .

- ١٠ -

ألقي عباس الحلو على صورته في المرأة نظرة  
فاحصة ناقدة حتى لاحت في عينيه البارزتين نظرة  
ارتياح: وكان قد رَجَل شعره بأناة، ونفض الغبار عن  
بدلته بعناية، ثم دلف من باب دكانه ووقف ينتظر.  
هي ساعة الأصيل المحبوبة، والسماء صافية عميقة  
الزرقاء، والجو ملطف بدفء طارئٍ جادت به الطبيعة  
غَب رذاذ اتّصل يومًا كاملاً، وقد اغتسلت أرض  
الزقاق التي لا تستحمّ إلاّ مرتين أو ثلاثًا في العام،  
وظلّت بعض منخفضات الصناديق مغمورة بالماء ملبّدة  
بالطين. وكان عمّ كامل داخل دكانه الصغير يوم على  
كرسيه، فأشرق وجه الحلو بابتسامة لطيفة، وما لبث  
أن دبّ الوجد في أعياقه فراح يدندن بصوت  
منخفض:

هلبت يا قلبي على طول الزمن ترتاح

وتنول وصال اللي تهوى، وفيه ترتاح

مصير جروحك على طول الزمن تبرى

ويجيك الطّب. لا تعلم ولا تدري

مثل سمعناه منقول عن ذوي الخبرة

الصبر يا مبتلي، جعلوه للفرج مفتاح

وفتح عمّ كامل عينيه وتثاءب، ثم نظر إلى الشاب

الواقف على باب دكانه، فضحك هذا وعبر الطريق

إليه وقرصه في بديه المشّ، وقال بسرور:

- عشقنا وستضحك لنا الدنيا . .

فتنهّد عمّ كامل وقال بصوته الرفع:

- مبارك يا عمّ، ولكن هل سلّمتني الكفن قبل أن

- الكلام سهل على من يريده، ولكنّ فعلك فاضح

فاجر.

فأوما إليها بيده منذرًا وهو يقول:

- أمسكي لسانك يا مجنونة.

- الناس جميعًا يكبرون فيعقلون . .

فقرض أسنانه وسبّ ولعن، ولكتها لم تباله  
واستطردت تقول:

- أناس يكبرون فيعقلون، أما أنت فكلّما كبرت قلّ

عقلك.

- خرفت يا مره! خرفت حياة الحسين! عليه

العوض!

فصاحت بصوت غليظ مرتعش الثبرات:

- الرجال أمثالك يستأهلون العذاب. هلاً كفيتنا

شرّ الفضائح! هلاً كفيتنا ذلّ الشبّانة!

- عليه العوض! عليه العوض!

وغلبها اليأس والغضب فصاحت به منذرة:

- اليوم تسمعي أربعة جدران، غدًا تسمعي الحارة  
كلّها؟

فرغ جفنيه الثقيلين وسأله بقوة:

- تهذّديني؟!

- أهدّك، وأهدّد أهلك! أنت تعرف من أنا!

- يبدو أنّي سأهشّم هذا الرأس الخرف!

- هي . . هي، والله ما ترك الحشيش والفجر قوة في

ساعذك، والله ما تستطيع أن ترفع يدًا! . . انتهيت،

انتهيت يا معلّم . .

- انتهيت بفضلك. وهل يُنهي الرجال إلاّ

النساء . . !

- أسفي على من دون النساء جميعًا!

- له؟ . . . خلّفت بناتًا ستًا ورجلًا . . غير حالات

الإجهاض والسقط.

فصاحت في غضب جنوني:

- ألا تستحي من ذكر الأبناء؟ ألا يزجرك ذلك عمّا

تردّي فيه من الفجورا

فضرب الجدار بقبضته، وتحوّل عن موقفه متّجهًا

نحو الباب، وهو يقول:

تبعه لتحصل على المهر!

فضحك عباس الحلو ضحكة عالية، وغادر الزقاق متمهلاً. كان يرتدي بدلته الرمادية، وهي الوحيدة أيضاً، وكان قد قلبها منذ عام، ثم رفا الرقاع بعض أطرافها، ولكنه كان يعنى بتنظيفها وكيها، فبدا - على نحو ما - أنيقاً! وكان يضطرم حماسة ونشوة وشجاعة، ويضطرب بهذا الضيق الشديد الذي يسبق عادة البوح بمكنون الفؤاد. كان في تلك الفترة يحيا بالحب، للحب، ويدور بجناحيه الملائكيين في سماء السرور. وكان حبه عاطفة رقيقة ورغبة صادقة وشهوة جائعة، يهوى اللذين كما يهوى العينين ويلتمس وراء اللذين حرارة الجسد، كما يلتمس في العينين نشوة غامضة ساحرة. وقد سرّ سرور الظفر يوم تعرّض للفتاة في الدراسة، وصوّر له خياله إعراضها كما لو كان ذلك الإعراض السليبي الذي تلي به النساء نداء الهوى. واستأثرت به النشوة أياماً، ثم مضت حماسته تفر ونشوته تحب، لا لجديد جد، ولكن لتيقظ الشكّ وفعله. وراح يتساءل لماذا يظنّ الإعراض دلالاً؟؟ ولم لا يكون إعراضاً حقاً!! ألأنا صدته في غير قسوة ولا فظاظة؟ ولكن هل يتوقع الإنسان من جارة العمر أقل من هذه المجاملة؟.. حقاً لقد غالى في سروره، وإثما لنشوة كاذبة. بيد أنه لم ينكص على عقبيه، وكان كلما لسعه الشكّ اندفع في سبيله ذاتئداً عن سعاده. كان عند الضحى يبرز أمام دكانه فيراها إذ تفتح النوافذ لتشمس الشقة، وفي المساء يجلس بكرسيه على عتبة القهوة تحت نافذتها، يدخن الجوزة، ويخطف النظرة تلو النظرة من الشباك المغلق يحتم وراء خصاصه الشيخ المحبوب. ولم يقنع بهذا فتعرّض لها مرة ثانية في الدراسة، ولكنها صدته كما صدته أول مرة، وأعاد الكرة فأفلتت منه أيضاً. ولكنه رجع وقد عاوده الأمل وأظله الفرح والسرور. وقال لنفسه إن السعادة مهياة له ولا تقتضيه إلا مزيداً من الشجاعة والصبر. وهكذا انطلق هذه المرة ممتلئاً شجاعة وثقة وهياماً، ورأى حميدة وصوبحياتها قادمات فانتحي جانباً حتى مررن به، ثم تبعهن متمهلاً. وقد لاحظ أنّ أعين البنات يتقبنه

بخيث مريب فداخله سرور وزهو، وتابع سيره حتى انفرط عقدهنّ عند نهاية الدراسة، فحثّ خطاه حتى صار منها على مرمى ذراع، وابتسم إليها ابتسامة رقيقة متعثرة بالارتباك، وغمغم بتحيته المحفوظة:  
- مساء الخير يا حميدة..

كانت تنتظره بلا ريب، ولكنها كانت في حيرة من أمر نفسها. لم تكن تحبه ولم تكن تكرهه، ولعلّ كونه الفتى الوحيد الذي يصلح لها في الزقاق هو ما جعلها تشفق من قطعه أو صدّه بحزم وفظاظة. فأغضت عن تعرّضه لسبيلها مرة أخرى، مكتفية بزجر لئى، وإفلات لطيف، ولو شاءت أن تصعقه لصعقته، وكانت على رغم تجربتها المحدودة في الحياة تشعر بالفارق الكبير بين هذا الفتى الوديع وبين طموحها النهم الذي يضره نزوعها الغريزي إلى القوة والجموح والسيطرة والعراك! حقاً كانت تهيج جنوناً إذا قرأت في نظرة عين معنى للتحدّي أو الثقة، ولكن لم تبعثها إلى الرضا هذه النظرة الوديدة الطيبة التي تلوح دوماً في عيني الحلو، وتولّاهها شعور بالحيرة والقلق لترددها بين الحرص عليه بوصفه الفتى الصالح لها في الزقاق، والنفور منه لا ينض على أسباب واضحة يُطمأن إليها. فلا ميل صريح ولا نفور صريح. ولولا إيمانها بالزواج كنهاية طبيعية محتومة لما ترددت في نبذه والقسوة عليه. لذلك أحبت مجاراته، وسبر غوره، واستخراج مكنون لسانه، لعلها تجد في ذلك كله أو في بعضه خرجاً لها من حيرتها المؤسفة. وخاف الفتى أن يمتدّ صمتها حتى ينطوي الطريق، فغمغم كالضارع:  
- مساء الخير..

وانبسط وجهها البرنزي الجميل، وغمهلت في مشيتها وهي تنفخ في ضجر مصطنع قائلة:

- ماذا تريد!

ولمح انبساط وجهها فلم يعبا بضجرها، وقال بأمل ورجاء:

- ميلي بنا إلى شارع الأزهر فهو طريق مأمون والظلام وشيك..

وعدلت صامته عن طريق الدراسة إلى الأزهر،

بانتباهها، ولكنّها لم تدبّر ماذا تقول فلاذت بالصمت،  
وتشجّع الفتى فاستدرك قائلاً في انفعال:

- لا تعدّي عليّ الدقائق ولا تلقي عليّ هذا السؤال  
الغريب. تسأليني يا حميدة عما أريد، أنجهلين حقاً ما  
أريد قوله؟! لماذا أتعرض لك في الطريق؟ لماذا أتبع  
عينيّ ظلّك حيث تكونين؟ لك ما تشائين يا حميدة. ألم  
تقرئي شيئاً في عينيّ؟ يقولون إنّ قلب المؤمن دليله؟  
فماذا علمت؟ اسألي نفسك. اسألي أهل الزقاق جميعاً،  
كلّهم يعرفون.

وقطبت الفتاة وتمتت وهي لا تدري:

- فضحتني...!

فهاهنا قولها، وهتف متأثراً:

- لا فضيحة في حياتنا وما أكرن لك إلا الخير، وهذا  
الحسين يشهد قولي ويعلم بسريري. أنا أحبك، ولطالما  
أحببتك، أحبك أكثر مما تحبك أمك، وأحلف لك على  
صدقي بالحسين، وجدّد الحسين وربّ الحسين..

وشعرت بسرور ولذة، ودخلها زهو غمّق نزوعها  
الجامح إلى القوة والسيطرة. والحق أنّ كلمات الحبّ  
الحارة خليقة بأن تطرب الأذان ولو لم ترجع القلوب  
أنغامها، فهي كالأفاويه للنفس المسدودة! بيد أنّ  
خيالها وثب وثبة قويّة عبر بها قنطرة الحاضر إلى  
المستقبل، فتساءلت ترى كيف تكون حياتها في كنفه لو  
صدقت الأيام أملة؟ إنّه فقير، رزقه كفاف يومه،  
ولسوف يأخذها من الطابق الثاني لبيت الست سنيّة  
عفيفي إلى الطابق الأرضي في بيت السيّد رضوان  
الحسيني. وأحسن ما يمكن أن تجهّزها أمّها فراش  
نصف عمر وكنية وعدد من الأواني النحاسيّة. ولا  
يدّخر لها بعد ذلك إلا الكنس والطبخ والغسل  
والإرضاع. وربّما قطعت طريقها حافية في جلباب  
مرقع. وريعت كأنّها أطلعت على مشهد غيف. وتحرك  
في أعماقها هيامها المفرط بالثياب، وتيقظ ذلك النفور  
الروحانيّ من الأطفال الذي تعبّرها به نسوة الزقاق.  
وعاودتها حيرتها المعبّدة، فلم تدبّر أصابت أم أخطأت  
في مطاوعتها له وسيرها معه. وكان عبّاس ينعم إليها  
النظر في افتتاح وهيام وأمل، فأول صمتها وتفكيرها

فتبعها وهو يكاد يخرج من جلده فرحاً. ورجّع رأسها  
صدى هذه الكلمات «طريق مأمون.. الظلام  
وشيك»، فأدركت أنّها تقارف فعلاً تحاذر عليه أعين  
الرقباء، وابتسمت بجانب ثغرها في تحدّ! كانت  
«الأخلاق» أهون شيء على نفسها المتمرّدة، وقد نشأت  
في جوّ لا يكاد يتغيّ ظلّها، أو يتقيّد بأغلاها. وزادها  
استهانة طبع جموح وأمّ مهملة قليلاً ما تستكنّ في  
بيتها، فانطلقت على سجيّتها تخاصم هذه وتعارك تلك  
فلا تعمل لشيء حساباً، ولا تقيم لفضيلة وزناً. وأمّا  
عبّاس الحلو فقد لحق بها، وسار لصقها وهو يقول  
بصوت ينم عن الفرح والسرور:

- دمت من فتاة كريمة..!

ولكنّها قالت له في شبه ضجر:

- ماذا تريد مني؟

فقال الفتى وهو يتالك أنفاسه المضطربة:

- الصبر طيب يا حميدة، تلطّفي معي ولا تكوني

قاسية عليّ..

فعطفت نحوه رأسها وهي تغطيه بطرف ملاءتها  
وقالت بحلّة:

- هلاً قلت لي ماذا تريد!

- الصبر طيب.. أريد.. أريد كلّ شيء طيب..

فقال بتأقّف:

- لا تريد أن تقول شيئاً، ونحن نجدّد في السير  
فتبتعد عن طريقنا، والوقت يمضي، وأنا لا أستطيع أن  
أناخّر عن موعد عودتي..

فأشفق من ضياع الوقت وقال بلهفة:

- سنعود في وقت قريب فلا تخافي ولا تجزعي.

وسنجد عذراً لتحليلته لأمك، إنك تفكرين كثيراً في  
الدقائق أمّا أنا فأفكر في العمر كلّ، في حياتنا جميعاً،  
هذا هو شغلي الشاغل. ألا تصدّقيني؟ إنّه جلّ  
تفكيري وهي حياة الحسين الذي يبارك هذا الحيّ  
الطاهر..!

كان يتكلّم في بساطة وصدق فشعرت بحرارة  
حديثه، ووجدت لذة في الإصغاء إليه، وإن لم يتحرك  
قلبها الجامد، فتناست حيرتها المعبّدة، وألقت إليه

على هواه، وقال لها بصوت ينبعث من أعماق فؤاده:  
- لماذا تصمتين يا حميدة!.. كلمة واحدة تشفي  
الفؤاد وتغيّر الدنيا. كلمة واحدة تكفيني. تكلمي يا  
حميدة. اخرجي عن هذا الصمت... .

ولكنّها لم تنبس بكلمة، وظلّت فريسة للحيرة،  
فاستطرد عباس قائلاً:

- كلمة واحدة تملأ روحي أملاً وسعادة. لعلك لا  
تدريين ما فعله حبك بي! إنّه يبعث فيّ روحاً جديدة لا  
عهد لي بها! إنّه يخلقني خلقاً جديداً، ويدفعني لاقتحام  
الدنيا غير هيّاب. أما علمت هذا؟.. لقد استيقظتُ  
من سباتي، وغداً ترييني شخصاً جديداً... .  
ماذا يعني؟ وانعطف رأسها كالتسائل. فانشرح

صدره لاهتمامها وقال بحماسة وفخار:

- أجل. توكلت على الله وسأجرب حظي  
كالآخرين. سألتحق بخدمة الجيش البريطاني، وعسى  
أن يصادفني من التوفيق ما صادف أخاك حسين.

فلاح الاهتمام في عينيها وسألته على غير وعي منها:  
- حقاً.. متى يكون ذلك؟

كان يؤثر بلا شك أن تحدّثه حديثاً آخر، وأن  
يلمس انفعالها قبل أن يستثير اهتمامها. أن يسمع هذه  
الكلمة العذبة التي تذوب نفسه شوقاً لساعها، ولكنّه  
ظنّ هذا الاهتمام قناعاً نسجه الحياء ليستر به عاطفة  
مشبوبة كعاطفته تهاب البوح بسرّها. واهتزّ صدره  
فرحاً، وقال مفترّ الثغر:

- عمّا قريب أسافر إلى التلّ الكبير، وسأشتغل باديئ  
الأمر بيوميّة مقدارها خمسة وعشرون قرشاً، وقد أكّد  
لي جميع الذين استشرتهم في الأمر أنّ هذا المقدار قليل  
من كثير ممّا يصيب جميع المشتغلين في الجيش.  
وسأجعل همّي في أن أوفر من يوميّتي أقصى ما أستطيع  
توفيره، حتّى إذا عدت إلى هنا عقب انتهاء الحرب -  
وهي بعيدة كما يقولون - فتحت صالوناً جديداً في  
السكّة الجديدة أو شارع الأزهر، واستقبلت حياة  
رغيدة ناعم بها.. معاً.. إن شاء الله. ادعي لي يا  
حميدة... .

هذا شيء جديد لم يخطر لها ببال. وإذا كان الفتى

جاداً فقد حقّق لها كثيراً ممّا تصبو إليه نفسها. وإنّ  
نفساً كنفسها مهما تناهى بها التمرد والجموح حرّية بأن  
يروّضها المال ويستأنسها. وغمغم عباس معاتباً:  
- ألا تريدان أن تدعي لي؟

فقال بصوت خافت وقع من أذنيه موقعاً جميلاً  
وإن كان صوتها نقطة ضعف في جبالها:

- الله يوفّق خطاك.. .

فتنهّد مسروراً وقال:

- آمين. استجب لها يا ربّ. ستبسم لنا الدنيا بإذن  
الله. ارضي أنت عليّ ترض الدنيا جميعاً.. أنا لا  
أسألك شيئاً إلّا الرضا.

واخذت تخرج من حيرتها رويداً رويداً، فقد  
وجدت في الظلمة التي كانت تتخبط فيها بصيص  
نور. نور الذهب اللامع. وإذا كان شخصه لا  
يرضيها، ولا يحرّك أنوثتها، فعسى أن يبرز منه هذا  
الضوء اللامع الذي يستهويها، ويلبّي نزوعها الصارخ  
إلى القوّة والجاه. وهو بعد هذا كلّ - وقبل هذا أيضاً -  
الفتى الوحيد الصالح في الزقاق! أجل، هذا حقّ لا  
ريب فيه. وقد خامرها شعور بالارتياح، وأنصتت إليه  
وهو يقول:

- ألا تسمعينني يا حميدة؟ أنا لا أسألك إلّا الرضا!  
فارتسمت على شفّتها الرقيقتين ابتسامة، وغمغمت:  
- وفّقك الله.. .

فعاد يقول في ابتهاج:

- ليس من الضروريّ أن ننتظر حتّى نهاية  
الحرب!.. سنكون أسعد مخلوقين في الزقاق.. .

وقطبت في تقرّز، ونذت عنها هذه الكلمة بلا  
وعي، وفي ازدراء شديد:

- زقاق الملقّ!

فنظر إليها في ارتباك ولم يجرؤ على الدفاع عن الزقاق  
الذي يحبّه ويؤثره على الدنيا جميعاً. وتساءل منزعجاً:  
ترى هل تزدرين هذا الزقاق الطيّب كأخيها حسن؟  
حقاً لقد رضعا من ثدي واحد! وأراد أن يمحو ما تركه  
فيها من أثر سيّئ فقال:

واستحثاً الخطي حتى بلغا الغورية في دقائق، وافتراقا عندها، فمالت هي إليها، وأنجبه هو نحو الأزهر ليعود إلى الزقاق عن طريق الحسين...

- ١١ -

«اللهم عفوك ورحمتك».

نطقت الست أم حسين بهذه العبارة وهي ماضية إلى مسكن السيد رضوان الحسيني. كانت تسأل الله العفو والرحمة في يأس وغيظ وحق تماماً تعانيه. أعياها إصلاح زوجها وعجزت عن رده، فلم تر بداً في النهاية من مقابلة السيد رضوان، لعله أن يفلح هو. بصلاحه وهيته. فيها أخفقت هي فيه. ولم يكن سبق أن فاتحت السيد في مثل هذا الأمر الفظيع، ولكن بأسها من ناحية، وإشفاقها من شمة الأعداء إذا جاهرته بالخصومة والطعان من ناحية أخرى، دفعها إلى طرق هذا الباب الصالح الآمن لعل وعسى وفي البيت استقبلتها حرم السيد رضوان فجلسا معاً بعض الوقت. وحرم السيد في منتصف الحلقة الخامسة من عمرها، وهي حلقة يعتر بها نساء كثيرات، ويعتبرنها الغاية من النضج الأنثوي، ولكن المرأة كانت مهزولة مهتمة، تلوح في جسمها وروحها آثار السهم التي سدها إليها الدهر حين انتزع من بين ذراعيها أطفالها طفلاً بعد طفل. وكانت لذلك تضي على بيتها الساكن روحاً من الحزن والكآبة لم يجد إيمان السيد العميق في تبديد غشاوته. وكانت تبدو، في هزالها وحزنها، صورة مناقضة لصورة زوجها القوي المشرق المطمئن البسام. كانت امرأة ضعيفة فلم يقلها إيمانها. على رسوخه. من عثرتها المضنية. وكانت أم حسين تعلم بأمرها، فأقبلت تشكو بثها، وهما بقلب مطمئن إلى أنه سيجد أذنًا صاغية تستميلها الشكوى والأحزان. ثم استأذنت في مقابلة السيد رضوان فغابت المرأة لحظات ثم رجعت تدعوها إلى لقائه، وقادتها إلى حجرته.

وكان السيد يجلس على فروة مسبحة، المجمة أمامه، وإبريق الشاي على يمينه. كانت حجرته الخاصة

- نختار المكان الذي تحبين. هاك الدراسة والجمالية وبيت القاضي، اختاري بيتك حينما تشائين!

وتنبهت لقوله في حيرة، وأدركت أنها تكلمت أكثر مما ينبغي، وأن لسانها خانها بلا وعي منها، فعضت على شفتها، ثم قالت بإنكار:

- بيتي؟ أي بيت تعني؟ ما شأني أنا في هذا الأمر! فهتفت بها في عتاب:

- كيف تقولين هذا القول؟ ألم يكفك ما عانيت من عذاب؟ ألا تدرين أي بيت أعني؟ ساعك الله يا حميدة. أعني البيت الذي سنختاره معاً، بل الذي تختارينه أنت وحدك، لأنه بيتك أنت دون الناس جميعاً. وإني أهاجر في سبيل هذا البيت كما علمت. ولقد دعوت لي بالتوفيق، فلا مفر من الحقيقة السعيدة الرائعة. إتفقنا يا حميدة وانتهى الأمر.

هل إتفقا حقاً؟ أجل إتفقنا! ولولا ذلك ما رضيت بالسير معه ومنازعته الحديث والخوض في أحلام المستقبل. وماذا يضيرها من ذلك؟ أليس هو فتاها على أي حال؟ ومع ذلك ساورها شعور بالقلق والتردد. أحقاً أصبحت فتاة أخرى لا تكاد تملك من أمر نفسها شيئاً؟ وأحسّت عند ذاك يده تتلمس راحتها وتقبض عليها وتضفي على أناملها الباردة حرارة ودفاً. أنتزعها منه وتقول له «كلّا... لا شأن لي في هذا الأمر!؟ ولكنّها لم تفعل شيئاً، ولم تنس بكلمة، ومضيا معاً وراحتها في كفّ الساخنة. وشعرت بأصابعه تشدّ عليها بحنان، وسمعتة يقول:

- سنتقابل دوماً.. أليس كذلك؟

وأبت أن تنبس بكلمة، فقع بلغة الصمت وقال مرة أخرى:

- سنتقابل كثيراً، ونزن أمورنا جميعاً. ثم أقابل أمك... لا بدّ من الاتفاق معها قبل السفر.

وانتزع راحتها من يده وهي تصبح في جزع:

- سرقنا الوقت، وابتعدنا كثيراً.. هلمّ إلى

العودة..

ودارا على عقبيهما معاً وهو يضحك ضحكة سعيدة رجعت بعض أصداء السعادة التي يجيش بها قلبه.

لم تكن المرأة تعرف التردد، ولا كان الحياء من أسباب ضعفها في يوم من الأيام، بل هي امرأة على قدر كبير من الشراسة والوقاحة، ولم تكن امرأة تفوقها مراساً في الزقاق كله إلا حسنة الفرانة، لذلك قالت للسيد بصوتها الغليظ:

- يا سيد رضوان، أنت الخير والبركة، وأنت رجل زقانا الفاضل، لذلك قصدتك أسألك المعونة في شئني، وأشكو إليك الرجل الفاجر زوجي...  
وعلا صوتها في آخر كلامها واخشوشن، فابتسم السيد مرة أخرى، وقال بصوت لا يخلو من رنة الأسف:

- هاتي ما عندك يا ست أم حسين. إني مصغٍ إليك...

فتنهت المرأة وقالت:

- الله يرفع قدرك يا زين الرجال: الرجل يا سي السيد لا يحتشم ولا يرعوي. وكلما حسبت أنه قد تاب عن غيّه طلع عليّ بفضيحة جديدة. إنه رجل فاجر لا يردّه عن شهوة لا سن ولا زوجة ولا أبناء. ولعلك علمت بأمر هذا الشاب الرقيق الذي يوافيه كلّ ليلة إلى القهوة؟! هذه هي فضيحتنا الجديدة..

ولاحت في العينين الصافيتين سياء الكدر، وأطرق متفكراً مغتاً. اغتم الرجل الذي عجز ألم الثكل المبرح عن أن ينال من صفاء نفسه، لبث صامئاً ساكناً، يتعوّذ قلبه من الشيطان وعبه. واتخذت المرأة من حزنه مبرراً قوياً لغضبها فانفعلت، وهدرت قائلة بنبرات فظيعة:

- فضحنا الرجل المتهتك. ووالله لولا عشرة العمر والأبناء لهجرت بيته لغير رجعة أبداً. أيرضيك هذا العار يا سي السيد؟! أيرضيك هذا السلوك الشائن؟! لقد نصحتك فلم ينتصح، وأنذرتك فلم يزعج، فلم أجد سبيلاً إلّاك. وما كنت أحب أن ألقى على سمعك الطاهر هذه الأنباء المخجلة، ولكن لا حيلة لي، وأنت سيد الحيّ جميعاً، وزجّله الفاضل، وأمرك مطاع، فلفلك بالغ منه ما لم يبلغه كلامي ولا كلام الناس جميعاً، حتى إذا تبين لي أنّ نصحك لا يجدي كان لي

صغيرة أنيقة، تخلق بأركانها الكتبات، ويغطي أرضها سجّاد شيرازيّ، تقوم في وسطها مائدة مستديرة رُصّت عليها الكتب الصفر، ويتدلّى فوقها من السقف مصباح غازيّ كبير. وكان السيد يرتدي جلباباً رمادياً فضفاضاً، وطاقيّة صوفية سوداء يضيء تحتها وجهه الأبيض المشرب بالحمرة كالبدن المنير. في هذه الحجرة كان يخلو إلى نفسه كثيراً، قارئاً أو مسبحاً أو متأملاً. وفيها كان يجتمع بأصدقائه من العلماء والصوفيين وأئمة الأذكار يتذكرون الأخبار ويروون الأحاديث ويناقشون ما يعرض لهم من الآراء، ولم يكن السيد رضوان معدوداً من العلماء المتفهمين في الدين، ولا من الأذكياء الأفذاذ، ولا من أولئك الذين يجهلون أقدارهم فيضعونها من حيث يريدون أن يرفعوها فوق طاقاتها، ولكنّه كان مؤمناً صادقاً، وورعاً تقياً، يستأمر نفوس العلماء بقلبه الكبير وصدوره المسباح وخلقه القويم وعطفه وحنانه ورحمته، فكان بحق من أولياء الله الصالحين.

وقد استقبل أم حسين واقفاً، غاضباً بصره، فأقبلت عليه في ملاحتها مبرقة، وسلّمت عليه بيد ملتفة بطرف الملاحة كيلا تنقض وضوءه، ورّحب بها الرجل قائلاً:

- أهلاً وسهلاً بجارتنا الفاضلة...

ودعاها إلى الجلوس فجلست على الكنبه قبالة، وتربّع الرجل على الفرو وراحت أم حسين تدعو له:  
- الله يكرمك يا حضرة السيد ويطل عمرك بحق جاه المصطفى...

وكان يحسن ما حملها على مقابلته، فلم يسألها عن صحّة المعلم زوجها كما تقضي بذلك آداب الضيافة! وكان يعلم كالآخرين بسيرة المعلم كرشه، وتناهى إليه ما قام بين الرجل وزوجه من شقاق وشجار في ظروف سابقة مماثلة.. فابقن أنه أحجم في هذا النزاع المتجدّد على غير إرادة. وسلّم للأمر الواقع، وتلقّاه بصدوره الرحب كما يتلقّى غيره ممّا يكره، وابتسم ابتسامة لطيفة وقال يشجّعها على الكلام:

- خير إن شاء الله.



وانحنى على يده مسلماً. ورَّحِب به السيّد رضوان ودعاه للجلوس، فجلس الرجل في المكان الذي كانت تجلس فيه زوجه قبل هنيئة، وملاً له قدحاً من الشاي. كان المعلم آمناً مطمئناً لا يتوجّس خيفة، ولا يدري شيئاً عمّا دعا السيّد إلى استدعائه. والحقّ أنّ من بلغ مبلغه من الذهول والشرود خليق بأن يفقد كلّ قدرة على التوجّس والحيلة والحدس. وقد قرأ السيّد في عينيه نصف المغمضتين الطمانينة فقال له بهدوء مبتسماً:

- شرفت دارنا يا معلّم.

فرفع المعلم يديه إلى عمامته وقال:

- شرف الله قدرك يا سي السيّد.

فقال السيّد:

- لا تؤاخذني على دعوتك في أثناء عملك، فقد رأيت أن أحداثك في أمر هامّ كما يتحدث الإخوان، ولم أجد لذلك مكاناً أنسب من البيت.

فأحنى المعلم رأسه وقال بأدب جَمّ:

- إني طوع أمرك يا سي السيّد...

وخاف السيّد الاسترسال في المجاملات فيضيع الوقت سدى، وتطول مدة غياب المعلم عن عمله، فأراد أن يخوض الموضوع بلا تردّد، ولم تكن تنقصه الشجاعة ولا تعوزه الصراحة، فقال بلهجة جذبة:

- أحبّ أن أحدثك كما يتحدث الإخوان، أو كما ينبغي أن يتحدث الإخوان إذا كان رائدهم المودة والإخلاص. والأخ المخلص من إذا رأى أخاً له يهوي تلقّاه بذراعيه، أو وجده يتعرّأ أقاله من عثرته، أو حسبه في حاجة إلى النصيح محضه النصيحة...

وفترت حماسة المعلم، وأدرك في تلك اللحظة فحسب أنّه وقع في فخّ، فلاح في عينيه المظلمتين نظرة ارتياب، وتمتم في ارتباك وهو لا يدري ماذا يقول:

- نطقت بالحقّ يا سي السيّد...

ولم يخفّ على السيّد شيء من ارتياكه وارتياجه، فقال بلهجة جذبة أيضاً لظفتها نظرتة الوديعة الصافية:

- أخي، ماصارحك بما في نفسي فلا تؤاخذني على

معه شأن آخر. أجل إني أداري اليوم غضبي، ولكّني إذا نثت من صلاحه فسأشبّ النار في الزقاق جميعاً وأجعل من جسده النجس حطاماً لها...!

فحدجها السيّد بنظرة عتاب وقال لها بهدوء المألوف:

- أفرخي روعك يا ستّ أمّ حسين، ووحدني الله، ولا تغلّبي الغضب على نفسك. أنت ستّ طيّبة! والكلّ يشهد لك بالفضل! فلا تجعل من نفسك وزوجك نادرة تلوّكها اللسن. الزوجة الطيّبة غطاء يحكم يستر ما أمر الله به أن يستر، عودي إلى دارك آمنة مطمئنة، ودعي لي هذا الأمر، والله المستعان...  
فقال المرأة وهي تتألك انفعالها:

- الله يكرمك، الله يسعدك، الله يشرف قدرك. أنت يا سيدي الملاذ والمأوى، وسأدع هذا الأمر بين يدك وانتظر، وربّنا بيني وبين هذا الرجل الفاجر...

وسكّن الرجل خاطرها بما وسعه من كلم طيّب، وكان كلّما ذكر كلمة طيّبة دعت له المرأة وانهاالت بالشتائم على زوجها وراحت تسرد عليه طرقات من فضائحه. حتّى أوشك صبر الرجل أن ينفد! ثمّ ودّعها مكزّمة وهو يتنهد من الأعياق! وعاود جلسته متفكّراً.

كان يتمنّى بلا شكّ لو لم يُقحم في هذا الأمر، أمّا وقد وقع المحذور فلا معدى عن إنجاز وعده. ونادى خادمه، وأمره أن يدعو إليه المعلم كرشة، فمضى الغلام على عجل. وانتظر ساكناً، وذكر أنّه يدعو لحجّرتة - لأوّل مرّة - فاسقاً، فلم يدخلها قبل ذلك إلّا

الفقهاء والصوفيّون. وتنهد من الأعياق ثمّ قال لنفسه:

«إنّ من يهدي فاسقاً خير ممّن يجالس مؤمناً». ولكن هل يبلغ هداية الرجل حقّاً؟ وهزّ رأسه الكبير.

واستشهد بقوله تعالى «إنّك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء». ومضى يتعجّب من غواية الشيطان للإنسان، وكيف يشدّ به عن فطرة الله

السوية. ثمّ قطع عليه جبل تأملاته دخول خادمه معلناً حضور المعلم، فأذن له، ونهض لاستقباله. وجاء المعلم كرشة بجسمه الطويل النحيل، وألقى على

السيّد من تحت جفنيه الثقيلين نظرة تجلّة واحترام،

الخير. ما فائدة النكران؟ الجميع يعرفون والجميع يتكلمون. وهذا لعمرى ما ألني أشدّ الألم، ألني أن أجذك مضغة الأفواه..

فغلب المعلم الغضب، وضرب فخذه بقبضة قاسية، وقال بصوت أجشّ تطايرت فظاظته مع نثار ريقه:

- ما بال الناس لا يريحون ولا يستريحون! أحقاً تراهم يتكلمون يا سي السي؟ هكذا هم أبداً منذ خلق الله الأرض ومن عليها. إنهم يخوضون في الأعراض لا لقبح يستقبحون، ولكن ليتقصوا إخوانهم. ولولم يجدوا نقيصة خلّقوها خلّقاً ثم خاضوا فيها، أتحسبهم يتهامسون تأثقاً وازدراء؟ كلّ والله. إنّه لحسد يأكل قلوبهم أكلاً...؟

وهال السيّد هذا الرأي، فقال له دهشاً:

- يا له من رأي خاسر! أتحسب أنّ هذا الفعل الشائن بما تُحسد عليه؟

فتهاف ضاحكاً وقال بحقد:

- لا تشكّ في قولي يا سيّد رضوان! إنهم طغمة هالكة. وليس الخير من رجع في نفوسهم (وأدرك عند ذاك أنّه سلّم بالتهمة وكاد يدافع عنها فاستدرك) ألا تدري من هذا الشاب؟ إنّه شاب مسكين أداري يؤسه بالإحسان!!

فضجر السيّد من مراوغته، وحججه بنظرة كأنما يقول له «أيجوز هذا القول!» ثم قال:

- يا معلّم كرشة، الغالب أنّك لا تفهمني. أنا لا أحاكمك ولا أعيرك، فكلانا فقير إلى رحمة الله وعفوه ولكن لا نحاول النكران. إذا كان هذا الشاب مسكيناً فدعه لخالفه والدنيا ملأى بالمحتاجين إن أحببت إحساناً؟

- ولماذا لا يكون إحساني لهذا الشاب؟ يؤسفني أنّك لا تصدّقني وأنا رجل بريء.

ونظر السيّد إلى الوجه المشرب بالسواد في استياء مكتوم، وقال بتؤدة:

- هذا شاب رقيق سنّ السمعة، ولقد أخطأت في محاولة خداعي، وكان الأخلق بك أن تقدّر نصحي،

صراحة، فما استحقّ الموجدة من كان هدفه الإصلاح وباعته المودة والإخلاص. والحقّ يا أخي أنّي رأيت في بعض سلوكك ما ساءني، وما لا أعدّه خليقاً بك..

وقطب المعلم كرشة منزعجاً، وجعل يخاطب السيّد في سرّه قائلاً «ما لك أنت ولهذا!». ثمّ قال متصنّعاً الدهشة:

- أساءك سلوكي حقاً يا سي السي؟... معاذ الله..

ولم يعب السيّد دهشته المتصنّعة واستدرك قائلاً:

- إنّ الشيطان ليجد أبواب الشباب مفتحة فيلجها خفية وعلانية ويعيث فساداً، ومع ذلك فنحن لا نتسامح مع الشباب مفتّح الأبواب، ونلزمه أن يغلق أبوابه في وجه الشيطان، فإذا يكون الحال مع الشيوخ الذين وهبهم العمر مفاتيح العصمة؟ ماذا يكون الحال لو رأيناهم يفتحون أبوابهم طواعية ويدعون الشيطان بأنفسهم؟... هذا ما ساءني يا معلّم كرشة..

شباب شيوخ! أبواب مفاتيح! شيطان شياطين! لماذا لا يريح نفسه ويدع الناس يستريحون! وهزّ رأسه حيرة، ثمّ قال بصوت منخفض:

- لا أفهم شيئاً يا سيّد رضوان.. وحججه السيّد بنظرة ذات معنى وسأله بلهجة لا تخلو من عتاب:

- حقّاً؟

فغمغم المعلم وقد بدأ يستشعر البرم والخوف:

- حقّاً..

- فقال السيّد رضوان بحزم:

- حسبك تعلم ما أعني. والحقّ أنّي أعني هذا الشاب الرقيق.

وسدّت المنافذ في وجهه، فاحتدم الغيظ في نفسه، ولكنّه كالفسار الواقع في المصيدة جعل يتخبّط وراء المنافذ المسدودة، فتساءل بصوت ينمّ عن الهزيمة:

- أيّ شاب يا سي السي؟

فقال السيّد بلهجة وديعة متحامياً إثارته:

- أنت تعرفه يا معلّم. وإني لم أفاتحك بأمره لاسيء إليك أو أخجلك، معاذ الله، ولكن لأرشدك لما فيه

- كَلَّا يا سي السيد. أصرع إليك أن تدع هذا الأمر حتى يأمر الله بالهداية.

فتعجب السيد من عناده الرقح، وتساءل متفكرًا:

- ألا يحجلك هذا الحرص على هذا الفعل الشائن؟!

ونفض المعلم قائمًا وقد ضاق صدره بالسيد ووعظه، وهو يقول:

- إن الإنسان ليقارف أفعالا كثيرة شائنة، وهذا واحد منها، فادع لي بالهداية، ولا تغضب عليّ، وتقبل عذري وأسفي. ماذا يملك الإنسان من أمر نفسه؟

فابتسم السيد ابتسامة حزينة، وقال وهو ينفض قائمًا كذلك:

- يملك كل شيء لو أراد، ولكنك لن تفقه معنى لقولي، فالأمر لله.

ومدّ له يده قائلاً:

- مع السلامة.

وغادر المعلم كرشة البيت مقطبًا مدملًا، يسبّ الناس والزقاق والسيد رضوان.

## - ١٢ -

وانتظرت أم حسين متصيرة متجلدة يومًا ويومين.

كانت تقف وراء خصاص النافذة المطلة على القهوة تترقب مقدم الشاب، فتراه قادمًا يخطر ثم تراه مرة أخرى - عند انتصاف الليل - وزوجها منصرفين صوب الغوريّة! ابيضت عينها من المقت والغضب، وتساءلت يا ترى هل ذهبت نصيحة السيد رضوان هباء؟ وزارت السيد مرة أخرى، فهزّ رأسه آسفًا وقال لها «دعيه لحاله حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا»، فرجعت إلى شقتها تغلي غليانًا، وتتوعد شرًا. لم تعد تقيم وزنًا لشاة الشامتين، وانتظرت بالنافذة حتى أتى الليل وقدم الشاب، فتلفعت بملاءها وغادرت الشقة كالمجنونة، ونزلت السلام وثبا فكانت أمام القهوة في دقيقة واحدة. كانت الدكاكين قد أغلقت وأوى أهل الزقاق إلى القهوة كعادتهم كل ليلة، وكان المعلم كرشة مكبًا على صندوق الماركات في شبه نعاس فلم ينتبه

وتواجهني صادقًا صريحًا.

وأدرك المعلم أنّ السيد قد استاء وإن لم يلح الاستياء في وجهه، فلاذ بالصمت كاظمًا غيظه، وأخذ يفكر في الانصراف. ولكنّ السيد استدرك قائلاً:

- إني أدعوك لما فيه صلاحك وصلاح بيتك، ولست يائسًا من جذبك للخير. اهجر هذا الشاب إنّه رجس من عمل الشيطان. وثب إلى ربك إنّه غفور رحيم. لو كنت من الصالحين لكنت الآن من الموسرين، ولكنك تريح كثيرًا وتخسر في بالوعة الرجس كثيرًا، وتبقى على الأيام فقيرًا معدمًا. فماذا قلت؟

وعدل المعلم عن المكابرة بصفة نهائية، وخاطب نفسه قائلاً إنّه حرّ يفعل ما يشاء، وليس لأحد من سلطان عليه ولو كان السيد رضوان الحسيني نفسه! ولكنّه لم يفكر لحظة واحدة في إغضاب السيد ولا تحديه، فأطبق جفنيه على عينيه المظلمتين، وقال بصوت منكر:

- هذا أمر الله!

فلاح الانزعاج في الوجه الصبيح وقال بحلّة:

- بل أمر الشيطان! حرام عليك يا شيخ.

فغمغم المعلم قائلاً:

- لما يأمر الله بالهدى!

- لا تطع الشيطان يهدك الله لما فيه صلاحك.

اهجر هذا الشاب أو دعني أصرفه بسلام...

فانزعج المعلم وغلبه الجزع، ولم يعد يستطيع مداراة عواطفه فقال بحزم:

- كَلَّا يا سي السيد، لا تفعل...

فرمقه الرجل بنظرة استياء وازدراء، وقال بصوت ينم عن الأسى:

- أرايت كيف تؤثر الغواية على الهداية؟!

- ربنا الهادي؟

وتولاه اليأس من هدايته، فقال متضجرًا:

- أقول لك للمرّة الأخيرة اهجره أو دعني أصرفه بسلام...

فقال المعلم بعناد وهو يتزحزح إلى طرف الكنبه كأنما يهمّ بالنهوض:

فتحت وأطلت منها الرؤوس تستطلع ما هنالك .  
وأهاج الغضب المعلم كرشة، ورأى فتاه يتضور  
ملتويًا، محاولًا عبثًا أن يخلص عنقه من قبضة المرأة  
القوية، فاندفع نحوهما ثائرًا وهو يرغي زبدًا  
كالفحول، وشدّ على ساعدي امرأته صائحًا في  
وجهها:

- اتركه يا مره وكفى فضيحة!  
وأجبرت المرأة تحت ضغط زوجها على ترك غريمها  
وقد سقطت ملائمتها عند قدميها، فجنّ جنونها، وتعالى  
صراخها، وأمسكت بتلابيب المعلم وهي تصيح:  
- أتضربني يا فاجر دفاعًا عن رفيقك! اشهدوا يا  
ناس على الرجل الفاجر!

وانتهز الشاب فرصة إفلاته فتطاير خارج القهوة،  
وعدا لا يلوي على شيء. واستمرت المعركة بين المعلم  
وزوجته، هي تشدّ على تلابيبه، وهو يحاول دفعها  
والتخلص منها، حتّى نهض إليهما السيّد رضوان  
الحسيني وخلّص بينهما. وتلفّعت المرأة بملاءتها وهي  
تلثث، وصرخت بصوت كادت تنصدع له أركان  
القهوة:

- يا حشّاش، يا مذهول، يا وسخ، يا بن السّتين،  
يا أبا الخمسة وجدّ العشرين، يا عرة، يا رطل،  
سفخص على وجهك الأسود...  
فحدجها المعلم بنظرة قاسية وهو يتنفّض من  
الانفعال، وصاح بها:  
- لي لسانك يا مره، وسدّي هذا المرحاض الذي  
يقذفنا بوسخه!

اقطع لسانك، ما مرحاض إلا أنت، يا خرع، يا  
مفضوح، يا ظلّ العيال..  
فلّجّ لها بقبضته وهو يقول:  
- تحرّفين كعادتك. كيف سوّلت لك نفسك  
الاعتداء على زبائن القهوة؟  
فضحكت المرأة ضحكة مروّعة وقالت بسخرية  
مريرة:

- زبائن القهوة؟! العفوا ما قصدت زبائن القهوة  
بسوء، ولكنّي اعتديت على زبون المعلم الخصوصي!

لخضورها. واستقرّ بصرها الزائغ على الشاب وهو  
يرشف الشاي من قدح في يده، فاقتربت منه مازّة أمام  
المعلم الذي لم يرفع بصره إليها، وضربت القدح  
بكفّهما فاندلق على حجر الشاب الذي قام فزعًا  
صارخًا وصاحت به بصوت كالرعد:

- تشرب شايًا يا بن العاهرة!  
وأحدثت الأعين بالمرأة سواء من يعرفها من أهل  
الزقاق أو من لا يعرفها من بقية الجلوس. والتفت  
نحوها المعلم كرشة كأنه يستيقظ بصبّ دلو ماء على  
وجهه. وهمّ بالوقوف، ولكنّ المرأة دفعته في صدره،  
وهي تصرخ في وجهه وقد أخرجها الغضب عن  
وعياها:

- إيّاك وأن تتحرّك يا فاجر (والتفت نحو الشاب  
واستدركت) ماذا أفزعك يا شاطر؟ يا مرة في ثياب  
رجل، هلا أخبرتي عمّا يدعوك إلى المجيء هنا!  
ووقف المعلم كرشة وراء الصندوق وقد أجم  
الغضب لسانه، واربذ وجهه، ولكنّها صاحت في  
وجهه:

- إن حدّثك نفسك بالدفاع عن رفيقك هُشمت  
عظمك أمام الناس.  
واندفعت نحو الشاب الذي تقهقر حتّى التصق  
بالشيخ درويش وهي تصيح:  
- أتريد أن تخرب بيتي يا رقيع يا بن الرقعاء!  
فقال لها الشاب مرتعدًا:

- من أنت يا ستي، ماذا فعلت حتّى...  
- من أنا؟ ألا تعرفني؟!... أنا صرّتك...

وانهالت عليه ضربًا، فسقط طربوشه، وسال الدم  
من أنفه. ثمّ قبضت على ربطة رقبته وشدّت عليها  
بعنف حتّى اختنق صوته. وقد ذهل الجلوس، وحلقوا  
فيا يقع أمامهم بأعين دهشة، ولكنّ قلوبهم رقصت  
جدلاً، ومثّوا أنفسهم برؤية منظر بهيج مسلّ. في حين  
دعا صراخ أم حسين المعلمة حسنة الفرانة فجاءت  
مهرولة يتبعها زوجها جعدة فاغرًا فاه. ثمّ ظهر بعد  
قليل زليخة صانع العاهات، ولكنّه وقف بعيدًا كأنه  
شيطان انشقت عنه الأرض. ولم تلبث نوافذ البيتين أن

- أنا في الأصل مجرم قاتل. وجميع هذا الحي عرفني مجرمًا يرتوي بالدماء. أنا مجرم، أنا ابن كلب، أنا وحش، ولكني أستهال كل إهانة لأني تبت بمحض إرادتي عن الشر. (ورفع رأسه) انتظريني يا مره يا وسخة، ستلقين الليلة كرشة الزمان الأول..  
وصقق السيد رضوان يديه وهو يتربع على الأريكة وخاطب المعلم قائلاً:

- وحد الله يا معلم كرشة. نريد أن نشرب الشاي في هدوء!

ومال البوشي على أذن عباس الحلو وهمس قائلاً:

- لا بد أن نصلح بينهما..

فسأله الحلو بخبث:

- بين من ومن؟

فكتم الدكتور ضحكة فخرجت من أنفه ريحًا كالفحيح، وقال:

- أتظنه يعود إلى القهوة وقد حصل ما حصل؟

فمطّ الحلو بوزه وقال:

- إن لم يعد هو جاء غيره!

ثم شمل القهوة جوها المؤلف، وعاد القوم إلى ما كانوا فيه من لعب وسمر، وكادت تُنسى المعركة وتذهب آثارها، لولا أن هاج المعلم كرشة مرة أخرى، وصاح مرعدًا كالوحوش الضارية:

- لا لا.. لا يمكن أن أذعن لإرادة امرأة. أنا رجل، حرّ، أفعل ما أشاء، لتترك البيت إذا شئت، ولتسكّع مع الشحاذين، أنا مجرم.. أنا من أكلي لحوم البشر..

ورفع الشيخ درويش رأسه بغتة وقال دون أن يلتفت نحو المعلم:

- يا معلم، امرأتك قويّة، فيها من الرجولة ما يعوز الكثيرين من الرجال، هي ذكر وليست بأنثى، فلماذا لا نحّمها؟

وصوّب المعلم نحوه عينين ناريتين وصاح في وجهه:

- اقطع لسانك!

وصاح أكثر من واحد من الجالسين:

وتدخّل السيد رضوان مرة أخرى، وطلب من المرأة أن تمسك، وأن تعود إلى بيتها، ولكنّها قالت وقد غيرت نبرات صوتها بجهد شديد:

- لن أعود إلى بيت الفاسق ما حييت..

فألح عليها، وتطوّع عمّ كامل لمعاونته، فقال لها بصوته الرفيع الملائكيّ:

- عودي إلى بيتك يا ستّ أمّ حسين. عودي ووحدني الله واسمعي كلام السيد رضوان..

وحال السيد بينها وبين مغادرة الزقاق، ولم يتركها حتّى رجعت إلى البيت مظهره السخط والتذمّر.

واختفى عند ذاك زيطه، وانسحبت حسنيّة الفرانة يسبقها زوجها، وقد لکمته في ظهره وهي تقول له:

- لا تفتأ تندب حظّك وتقول ما لي أضرب من دون الرجال جميعًا! أرايت كيف يُضرب أسيادك وأسياد من خلّفوك..!

وخلفت جعجعة المعركة صمتًا ثقیلاً. وتبادلت اللحاظ نظرات ساخرة تشي بالخبث والسرور، وكان أشدّ الحاضرين سرورًا وارتياحًا الدكتور بوشي، وهو الذي هزّ رأسه أسفًا وقال في نبرات حزينة:

- لا حول ولا قوّة إلا بالله، اللّهمّ أصلح الحال..

وكان المعلم «كرشة» لا يزال ملازمًا مكانه - الذي باشر فيه المعركة - فتنبّه إلى فرار فتاه، وقطّب في عناد، وبدا أنّه يريد للحاق به، ولكنّ السيد رضوان - وكان غير بعيد عنه - وضع يده على كتفه وقال بهدوء:

- اقعد يا معلم واسترح..

فنفخ مغيظًا مخفًّا، وتراجع متناقلًا وهو يخاطب نفسه في حقد شديد:

- لبوّة، فاجرة، ولكنّ الحقّ عليّ، أنا أستهال أكثر من هذا، مغفل من لا يبيت امرأته بالعصا..

وعلا صوت عمّ كامل وهو يقول:

- وحدوا الله يا هوه..

وارتمى المعلم كرشة على مقعده. ثمّ أخذه الغضب ككرة أخرى، فثارت ثائثرته، وراح يضرب جبهته بكفّ غليظة قاسية صائحًا:

ثمّ دنا موعد سفره فرأى أن يخطو الخطوات الحاسمة - واختار الدكتور بوشي - الذي تيسر له مهنته التردد على بيوت الزقاق - سفيراً له لدى أم حميدة. وسرت المرأة بالشاب الذي تراه الصالح الوحيد لابنتها في الزقاق، وكانت تعلّمه دائماً «صاحب صالون وقد الدنيا»، ولكنّها خافت شماس ابنتها المتمرّدة، وظنّت أنّها مقبلة على معركة طاحنة، فما أدهشها بعد ذلك إلّا أن تتلقّى الفتاة الخبر برضا وتسليم ممّا جعلها تهزّ رأسها وتقول:

- هذا فعل النافذة وراء ظهري!  
وكلف الحلو عمّ كامل بصنع صينيّة بسبوسة فاخرة وإرسالها لأمّ حميدة، واستاذن في مقابلتها، ومضى إليها مصحوباً بعمّ كامل شريكه في بيته وحياته، وقد وجد عمّ كامل صعوبة شديدة في ارتقاء السلم وجعل يتوقّف كلّ درجتين لاهثاً متوكّناً على الدرايزين حتّى قال للحلو عند أوّل «بسطة»:

- هلاًّ أجّلت الخطبة حين عودتك من الجيش؟  
ورحبت بها أمّ حميدة. وجلس ثلاثتهم يتبادلون طيب المجاملات، حتّى قال عمّ كامل:

- هذا عباس الحلو ابن زقاقنا، وابنك، وابني، يطلب إليك يد حميدة..

فابتسمت المرأة وقالت:

- أهلاًّ بالحلو الذي هو حلو، ستكون ابنتي عنده وكأنّها لم تفارقني..

وتحدّث عمّ كامل عن الحلو وأخلاقه، وعن الست أمّ حميدة وأخلاقها، ثمّ قال:

- سيغادرنا الفتى فتح الله عليه، وقریباً تحسّن حاله فيتمّ له ولنا المراد بإذنه تعالى...

ودعت أمّ حميدة له، ثمّ داعبت عمّ كامل فائلة:

- وأنت يا عمّ كامل متى تنوي وتتوكّل على الله!

فضحك عمّ كامل حتّى صار وجهه كالطماطم في إبانها، ومسح على كرشه المحيط وقال:

- دون ذلك هذا الحصن المنيع...!

وقرأوا الفاتحة وشربوا الشراب...!

ثمّ كان بعد ذلك بيومين اللقاء الأخير بالأزهر.

- حتّى الشيخ درويش!

وللّاه المعلّم ظهره صامتاً، وراح الشيخ درويش يقول - هذا شرّ قديم، يسمّونه في الإنجليزيّة Homosexuality وتهجيتها homosexuality ولكنّه ليس بالحبّ. الحبّ الحقيقي لآل البيت. تعالي يا حبيبي... تعالي يا ست... أنا عاجز يا أمّ العواجز...

- ١٣ -

كانت مقابلة الأزهر فتحاً جديداً في حياة عباس الحلو. عهد الحبّ، شعله وهاجة تضطرم في الفؤاد، نشوة سحر تُسكر العقل، شهوة تصهر الأعصاب. كان مرّحاً مختلاً مزهواً، كأنّه فارس لا يشقّ له غبار، أو ثمل قد أمن عوادي الخمار. وتقابلا بعد ذلك مرّات، فلم يملأ الحديث عن مستقبلها. أجل بات مستقبلها واحداً، ولم تنكر حميدة ذلك، لا في حضوره ولا في غيابه! ولكن تساءلت: ترى هل تظفر واحدة من صومجياتها بنات المشغل بخير منه؟.. وتعمّدت أن تسير معه وقت ظهورهنّ، وجعلت تسترقّ النظر إلى أعينهنّ الفاحصة وكأنّها ارتاحت إلى ما تركه فيهنّ من أثر. وقد سألتها يوماً عن الشابّ «الذي رأيته معها» فقالت:

- خطيبي... صاحب صالون حلقة!

وقالت لنفسها إنّ آية واحدة منهنّ لتعدّ نفسها سعيدة إذا خطبها صبيّ قهوة أو صبيّ حدّاد، وهذا صاحب دكان، أوسطى. وأفندي أيضاً! كانت مشغولة أبداً بالموازنة والاختبار والتفكير، فلم تنجذب إلى الدنيا السحرية التي يهيم في سماواتها. بيد أنّه كان يبلغ بها التأثير في لحظات متناهية، فكأنّها كانت - في تلك اللحظات - محبة حقّاً. وفي إحدى هذه اللحظات استوهبها قبله. فلم تقل لا ولم تقل نعم. أرادت أن تذوق هذه القبله التي سمعت عنها كثيراً وتغنّت بها كثيراً. ونظر هو محاذراً يراقب المارّة، وتحسّن ثغرها في ظلمة المساء. ثمّ وضع شفّتيه على شفّتيها وهو يرتعد، وغمرتها أنفاسه الملتهبة، فسالت على نحرها وطرفت عيناها.

باسمه. ولكنّي والأسفاه لا أستطيع أن أهَيَّ لك الحياة التي ترضيها، فلم أجد عن السفر مذهباً. وربّنا يأخذ بيدي، ويجمعنا على أهناً حال... .

فقال حميدة بتأثر شديد:

- سادعو لك بالتوفيق، وسأزور سيّدنا الحسين وأسأله أن يرعاك ويكتب لك النجاح. والصبر طيّب، والحركة بركة.. .

فتنهّد من الأعياق وقال:

- أجل الحركة بركة، ولكن يا ويلي من بلد لا أجد لك فيه ظللاً.. .

فغمغمت برقة:

- لن تكون هكذا وحدك... .

فالتفت نحوها وقد سكر بقولها، ورفع يدها حتّى مسّت قلبه، وهمس:

- حقّاً!

فابتسمت ابتسامة عذبة لاحت لعينيه الغائمتين على الضوء المنبعث من بعض الدكاكين. وغاب في تلك اللحظة عن كلّ شيء ما عدا وجهها المحبوب، وسالت هذه الكلمات من بين شفّتيه:

- ما أجلك، ما أرقك، ما أعذبك! هذا هو الحبّ. إنّه عذب جميل يا حميدة، الدنيا من غيره لا تساوي ملئياً واحداً.. .

ولم تدبّر ماذا تقول فتعوّدت بالصمت، وجرت كلماته متناغمة في أذنيها، فأخذتها نشوة الطرب، وودّت ألاّ يسكت أبداً. وكانت حرارة العاطفة قد أذهلتها عن وعيه فراح يقول:

- هذا هو الحبّ. هو كلّ ما لنا. فيه الكفاية وفوق الكفاية. هو في القرب السرور. وفي البعد العزاء، وفي الحياة حياة فوق الحياة.. .

وسكت لحظة متنهّداً، ثمّ استطرّد:

- أسافر باسمه، وبفضله أعود وقد ربحت كثيراً.. .

فتمتمت وهي لا تدري:

- كثيراً إن شاء الله.. .

- بإذن الله، وببركة الحسين. وسوف يحمدك جميع أولئك الفتيات.

ساروا واجمين. والخلو يشعر بدموعه تدقّ أبواب صدره لتجد سبيلاً إلى مجاري عينيه. وقد سأله:

- هل تغيب طويلاً؟

فقال الشابّ بصوت رقيق حزين:

- ربّما امتدّت خدمتي عامّاً أو عامين ولكن لن تفوتني فرصة مناسبة للحضور.. .

فغمغمت قائلة، وكانت تجد نحوه في تلك اللحظة ودّاً عميقاً:

- يا له من زمن!

فابتهج قلبه - على أساه - لهذه العبارة التي تنمّ عن الجزع، وقال منفعلًا:

- هذا آخر لقاء قبل السفر، والله وحده يدري متى يكون اللقاء التالي. وإني لفي حيرة يا حميدة ما بين الحزن والسرور. أجدني محزوناً لأنّي مبتعد عنك، ثمّ أجدني مسروراً لأنّ هذا الطريق الطويل الذي اخترت هو الطريق الوحيد المفضي إليك. ولكنّي سأترك قلبي ورائي في الزقاق، فتصوّري رجلاً مهاجرًا بلا قلب، رمى به السفر إلى بلد ناءٍ، وأبى قلبه أن يسافر معه. وغداً في التلّ الكبير، وعند مطلع كلّ صباح، سأفتقد النافذة المحبوبة التي كنت أراك تكنسين حافتها، أو تمشطين شعرك وراء فرجة مصراعها، وهيهات أن أجد لها أثراً. ولقاؤنا في الموسكي والأزهر ماذا يبقى لي منه؟ أوّاه يا حميدة، هذا ما يتقطّع له قلبي. دعيني آخذ منك كلّ ما أستطيع أخذه. ضعني راحتك في يدي، وشدّي على يدي كما أشدّ على يدك. الله ما أطيب مسك، إنّه يعرّش قلبي، إنّه قلب كبير بين يديك، يا عزيزة، يا حبيبة، يا روح قلبي يا حميدة. ما أجمل اسمك، كأنّي إذا نطقت به استحلّب سكرًا.. .

واستنامت الفتاة إلى كلامه المتدفّق الحارّ، فلانت نظرة عينيه، وغمغمت قائلة:

- أنت الذي اخترت السفر.. .

فقال بصوت كالنواح:

- أنت السبب يا حميدة. أنت أنت السبب. أنا والله أحبّ زقاقنا، وأحد الله على ما يرزقني به من كفاف. وما أحبّ أن أنأى عن الحسين الذي أقوم وأقعد

فابتسمت في سرور قائلة:

- آه... ما أمتع هذا!

وانطوى الطريق وهما لا يشعران، فضحكا معاً في فرح، ثم دارا على عقبيهما. وأحسن في العودة أن اللقاء يقترب من نهايته، فعاودته أفكار الوداع والفراق، ونجت كثيراً نشوته، واعتوره الشجن. وعند انتصاف الطريق سألهما بلهفة:

- أين أودعك؟

وأدرت ما يعنيه، وقلقت شفتاهما، فسالته متسائلة:

- هنا؟!

ولكنه اعترض قائلاً:

- لا أستطيع أن أخطف الوداع خطفًا...

- أين تريد إذا؟

- اسبقيني على البيت وانتظرنني على السلم...

وحثت خطاهما، وسار هو متمهلاً فبلغ الزقاق وقد أغلقت دكاكينه، وأنجبه نحو بيت الست سنية عفيفي لا يلوي على شيء. وارتقى السلم محاذراً في ظلمة دامسة، كأنما أنفاسه، يداً على الدرابزين، وبدأ تحسّس الظلام. وعند «البسطة» الثانية لمست أنامله طرف اللاعة. فحقق قلبه باعثاً الشوق الحبيس في أطرافه، وقبض على ذراعها، واقترب منها في رفق، وأحاطها بذراعيه، ثم ضمّها إلى صدره بقوة عنيفة تنطلق من صدر حنون مشوّق، وهوى إليها بغمه، فوقع على أنفها، ثم هبط على شفتيها، وكانتا منفرجتين لاستقباله، وأخذته سنة من دھول الحب لم يستيقظ منها حتى تخلّصت من ذراعيه بلطف، ومضت مصعّدة وهو يهمس وراءها «مع السلامة». لم يبلغ بها الانفعال يوماً ما بلغه هذا المساء على السلم. حيث في دقيقة قصيرة حياة طويلة مفعمة بالإحساس والعاطفة والحرارة. وحسبت أن حياتها قد ارتبطت به إلى الأبد.

\*\*\*

وزار عباس الحلو أم حميدة، تلك الليلة، مودّعاً... ثم مضى إلى القهوة ومعه صديقه حسين كرشة ليمضي آخر سهرة فيها قبل سفره. وكان حسين يبدو مسروراً

ظافراً لانتصار رأيه، وجعل يقول لصاحبه بصوته الذي ينم عن التحدي لسبب ولغير ما سبب:

- ودّع هذه الحياة القذرة واستمتع بالحياة الحقيقية...

فابتسم الحلو صامتاً، وقد أخفى عن صاحبه الكآبة القابضة على قلبه لفراق الزقاق الذي يحبه، والفتاة التي يهيم بها. وجلس بين رفاقه يعاني أشواقه المكتومة، ويتلقّى كلمات التوديع وما تحمل من جميل الدعاء. وقد باركه السيّد رضوان الحسيني. ودعا له طويلاً، وقال له ناصحاً:

- اقتصد ما يفيض عن حاجتك من مرتّبك، واحذر الإسراف والخمر ولحم الخنزير، ولا تنس أنك من المدقّ، وأنتك إلى المدقّ راجع...

وقال له الدكتور بوشي ضاحكاً:

- ستعود إلينا إن شاء الله من الموسرين، ولا بدّ عند ذاك من خلع أسنانك المسوّسة هذه وتركيب طقم ذهبيّ يليق بالمقام...

فابتسم الحلو، وكان يشعر نحو الدكتور بامتنان، لأنّه هو الذي أسفر بينه وبين أم حميدة، ولأنّه هو أيضاً الذي باع له أدوات صالونه بثمن لا بأس به كي ينتفع به في سفره. وكان عمّ كامل واجماً ساهماً، يحرّز الفراق الوشيك في فؤاده، ولا يدري كيف يلقي غداً الوحشة والوحدة، بعد أن يذهب الشاب الذي شاطره العيش أعواماً طويلة، والذي أحبه كأنّه فلذة كبده. وكان كلّما أثنى أحد على الحلو أو توجّع لفراقه اغرورقت عيناه حتى ضحكوا منه جميعاً.

وقرأ الشيخ درويش على رأسه آية الكرسي وقال له:

- أصبحت الآن من المتطوّعين في الجيوش البريطانيّة، وإذا أظهرت بسالة فليس بعيداً أن يُقطّعتك ملك الإنجليز مملكة صغيرة ينصّبك عليها نائب ملك، ومعناها بالإنجليزيّة Viceroy وتهجيتها Viceroy...

\*\*\*

وفي الصباح الباكر غادر الحلو البيت حاملاً بقجة



ولم يكن في وسعها أن تلزم الصمت طويلاً حيال هياج أحد. ففقد صبرها الرقيق وصاحت به بصوت دلّ على أنّ صوته متوارث عنها:

- ما لك يا بن اللثيم.

فقال الشاب بازدهاء:

- لا بدّ من هجر هذا الزقاق.

فحدجته بحتق، وانتهرته قائلة:

- أجننت يا بن المجنون!

فشبك ذراعيه على صدره وقال:

- بل ثبتّ إلى رشدي بعد جنون طويل. افهميني جيّداً، فلست ألقى القول على عواهنه، ولكني أعني ما أقول، ولقد جمعت ثيابي في البقعة ولم يبق الآن إلا أن أستودعك الله. بيت قدر. زقاق تنن، أناس بهائم!

وحدجته بنظرة متفحصة لتقرأ عينيه، فخبّلها عزمه المتوثّب وصاحت به:

- ماذا تقول؟

فعاد يقول وكأنّه يخاطب نفسه:

- بيت قدر، زقاق تنن، أناس بهائم..

فهزّت رأسها ساخرة وقالت:

- مرحباً بك يا بن الأمثال! يا بن كرشة باشا!

- كرشة قطران. كرشة المشبوه. أف أف، ألم

تعلمي بأنّ فضيحتنا زكمت الأنوف جميعاً؟..

يغمزونني في كلّ مكان. يقولون هربت أخته مع

واحد، وسيهرب أبوه مع واحد آخر!

وضرب الأرض بقدمه حتّى طقطق زجاج النافذة

وصرخ غاضباً:

- ماذا يضطّرني إلى البقاء في هذه الحياة؟ ساحل

ثيابي وأذهب إلى غير رجعة.

وضربت المرأة صدرها بيدها وقالت:

- جنت والله. أورشك الحشاش جنونه. ولكني

سأدعوه ليردّك إلى عقلك.

فصاح حسين باستهانة:

- ادعيه. نادي أبي، نادي الحسين نفسه. أنا

ذاهب.. ذاهب.. ذاهب..

ولمّا وجدته المرأة جاداً معانداً، ذهبت إلى حجرته

ثيابه، كان الجوّ بارداً شديد الرطوبة، ولم يكن أحد من أهل الزقاق قد استيقظ إلا الفرّانة وسنقر صبيّ القهوة، ورفع الشابّ رأسه إلى النافذة المحبوبة فوجدتها مغلقة، فودّعها بنظرة عطف وحنان أذابت الطلّ على خصاصها. وسار متمهلاً مطرقاً حتّى بلغ باب دكانه فألقى عليها نظرة أخرى متنتّداً، وعلّق بصره بلافنة ثبتت على الباب قد كتب عليها بخطّ كبير «لا يجار» فانقبض صدره وأوشكت عيناه أن تدمعا...

وحثّ خطاه كأنّها ليفرّ من عواطفه، فما إن ترك الزقاق وراء ظهره حتّى شعر بأنّ قلبه يفارقه إليه...

#### - ١٤ -

كان حسين كرشة الذي أغرى عبّاس الحلو بالخدمة في الجيش البريطاني. ولمّا أن سافر الشابّ إلى التلّ الكبير، وخلا منه الزقاق - حتّى دكانه اكتراها حلّاق عجوز - جنّ حسين جنوناً واجتاحته ثورة عنيفة تفور مقتاً للزقاق وأهله. أجل كان من زمن بعيد يعلن كراهيته للزقاق وأهله، ويتطلّع لحياة جديدة، ولكنّه لم يستتب سبيله، ولم يعزم عزمة صادقة على تحقيق أحلامه، حتّى ذهب الحلو، فجنّ جنونه. وكأنّما كبر عليه أن يحدّد الحلو حياته وينأى بنفسه عن الزقاق القدر، وهو باقٍ فيه لا يدري كيف يتخلّص منه، فأجمع عزمه على تجديد حياته مهما كلّفه الأمر. وبفظاظته المعهودة قال لأّمه يوماً وقد امتلأ بعزمه حتّى فاض عنه:

- أصغي إليّ، لقد عزمت عزماً لا رجعة فيه، فهذه

حياة لا تطاق ولا داعي مطلقاً لتحملها قسراً!

وكانت المرأة ألفة سخطه، معتادة سماع سبابه

للزقاق وأهله، وكانت تراه - كأبيه - سفيهاً لا يصحّ أن

تحفّي بهذيانه، فسكتت عنه وهي تغمغم:

- اللّهمّ تب عليّ من هذه الحياة!

ولكنّ حسين عاد يقول وقد تطاير الشرر من عينيه

الصغيرتين واربّد وجهه الضارب للسواد:

- هذه الحياة لا تطاق، ولن أحتملها بعد اليوم...

- الله يساعك. أنا مجنونة بنت مجانين فدعنا من هذا، واسأله عما خالط عقله؟!

وحجج ابنه بنظرة قاسية وسأله بصوت كالزئير وقد تآثر ريقه:

- ما لك لا تتكلم يا بن القديمة! هل تروم حقًا مغادرتنا؟

وكان الفتى يتحامي أباه عادة، ولا يصطدم به إلا إذا ضاقت به السبل. ولكنه كان قد عزم عزمًا صادقًا على نيل ماضيه مهما كلفه الأمر، فلم يتردد ولم يتراجع، خصوصًا وأنه كان يرى مسألة إقامته في البيت أو مغادرته من صميم حقه الذي لا ينازعه فيه منازع، فقال بهدوء وعزم معًا:

- نعم يا أبي.!

فسأله الرجل وهو يعاني خناق غيظه:

- ولماذا؟

فتفكر الشاب قليلاً ثم قال:

- أريد أن أحيا حياة أخرى. . .

فقبض الرجل على ذقنه، وهز رأسه ساخراً وقال:

- فهمت. . فهمت. تريد حياة أخرى تناسب

المقام! لأنّ كلِّباً مثلك نشأ محروماً جائعاً، يَجِنّ إذا

امتلاً جيبه. وأنت الآن صاحب قرش إنجليزي، فمن

الطبيعي أن ترتاد حياة أخرى، تليق بمقامك العالي يا

بن قنصل الأوز!

فكظم حسين غيظه وقال:

- لم أكن كلِّباً جائعاً قطّ، لأنّي نشأت في بيتك،

وبيتك لم يعرف الجوع أبداً والحمد لله. وكلّ ما في

الأمر أنّي أريد أن أغيّر حياتي، وهذا حقّي لا مراة فيه،

ولا داعي مطلقاً لغضبك وسخطك.

ولم يفهم المعلم مراده، كان الشاب يتمنّع بحريّة

مطلقة، فلا يُسأل عما يفعل، فلماذا يريد أن ينشئ

لنفسه بيتاً خاصاً؟ وكان المعلم، على رغم ما يقوم

بينهما من أسباب الشقاق والملاحاة والخصام، يحبّه.

ولكنّه حبّ لم يظفر قطّ بالجور الذي يستطيع أن يتنفّس

فيه، وغشيتة دائماً غواشي الغيظ والحق والسباب،

ولطالما نسي كثيراً أنّه يحبّ ابنه الوحيد. وحتى في هذه

فرأت البقجة متنفخة بالثياب كما قال، فتولّاهما

القنسوط، وصمّمت على إحضار أبيه مهما تكن

العواقب. كان حسين عزاءها الوحيد في حياتها، ولم

تكن تتصوّر أن يهجر البيت ويتركها كالوحيدة، ولم

تستطع مغالبة قنوطها، وأرسلت في طلب أبيه وهي

تصبح نادبة حظّها «علام يجسدوننا؟. . . على خيبتنا

القويّة!.. على فضائحتنا!.. على شقائنا!». وجاء

المعلّم كرشة بعد قليل مكشّراً عن أنيابه، وانتهرها

قائلاً:

- ماذا تريدان؟ فضيحة جديدة؟ زبون جديد رأييني

أقدّم له الشاي!

فقال المرأة ملوّحة بيدها كالنادبة:

- فضيحة ابنتك! أدركه قبل أن يهجرنا، فقد ضاق

بنا ذرعاً!

فضرب المعلم كفّاً بكفّ وقال وهو يهزّ رأسه مغيطاً

محنقاً:

- أمن أجل هذا أترك عملي يا هوه!.. أمن أجل

هذا أصعد مائة درجة؟ أه يا أولاد الكلب، لماذا

تعاقب الحكومة على قتل أمثالكم؟!

وجعل يردد بصره بين الأمّ وابنتها واستطرد قائلاً:

- ربّنا ابتلاني بكما ليقصّ منّي. ما هذا الذي تقوله

أمك؟

ولزم حسين الصمت. وراحت أمّه تقول بهدوء ما

وسعها الصبر:

- هدئي روعك يا معلّم، فهذه ساعة تحتاج

لحكمتك لا لغضبك. لقد جمع ثيابه في بقجة، ونوى

مغادرتنا. .

فسلّد نحوه نظرة حقد وغضب، وهو بين مصدّق

ومكذّب، وقال كالتسائل:

- جنت يا بن القديمة!

وكانت أعصاب المرأة متوتّرة فلم تملك أن صاحت

به:

- دعوتك لتعقله لا لتشتني. .

فالتفت نحوها غاضباً وهو يقول:

- لولا جنونك الموروث لما شبّ ابنك مجنوناً. . .

- بنت ناس طيبين .  
- ولماذا لا تتزوّج بنت كلب كما فعل أبوك؟  
فتأوّهت أمّ حسين قائلة:  
- الله يرحلك يا أبي كنت فقيهاً وقوراً .  
فالتفت نحوها بوجهه المربّد وقال:  
- فقيه! . . كان قارئ قبر، يتلو السورة بلمّين!  
فقال المرأة متوجّعة:  
- كان يحفظ كلام الله وكفى . . .  
تحوّل عنها المعلّم واقترب خطوات فصار من ابنه  
على بعد ذراع، وساله بصوت خفيف:  
- حسبنا كلاماً، فليس لديّ من وقت أضيّعه بين  
مجانين . أتريد حقاً أن تترك هذا البيت؟  
فلمّ حسين أطراف شجاعته وقال باقتضاب:  
- نعم .  
فأدام المعلّم النظر إليه ملياً، ثمّ ثارت ثائرتة بغتة،  
فضربه براحته على وجهه . ولم يستطع الفتى أن يتفادى  
الضربة العتيفة فتلقاها باحتقار جنونيّ، وابتعد عن  
الرجل وهو يصيح:  
- لا تضربني، لا تمسّني، لن تراني بعد اليوم .  
وهجم الرجل عليه فحالت دونه المرأة القانطة،  
وتلقّت لكتاته على صدرها ووجهها، حتّى كفّ الرجل  
وهو يصرخ:  
- اغرب عني بوجهك الأسود ولا تعد أبداً .  
سأفرض أنّك مُتّ واندلقت في الجحيم .  
جرى الفتى إلى حجرته، وتناول البقجة، ونزل  
السلم وثبّاً، وقطع الزقاق لا يلوي على شيء، وقبل أن  
يعدّل إلى الصنادقيّة بصق عليه . وهنف بصوت  
مرتعش من الخنق:  
- غرّ . . انجحرو، لعنة الله عليك وعلى أهلك .

- ١٥ -

سمعت الستّ ستّة عفيفي طرّقاً على الباب،  
ففتحتّه، فראت في فرح لا يوصف - وجه أمّ حميدة  
يطالها بصفتها المجدورة، وهتفت من الأعماق:  
- أهلاً وسهلاً بالحبيبة .

الساعة والفتى ينذره بهجره غاب حبه وإشفاقه تحت  
ستار الغضب والحنق، وتمثّل له الأمر تحدّياً وعراكاً .  
ولذلك سأله في تهكّم مرّ:

- نقودك في جيبيك، تنفقها كما تشاء وينعم بها  
الخمارون والحشاشون والقواديون، هل سالتك مليّاً؟  
- أبداً . أبداً أنا لا أشكو هذا مطلقاً . .  
فتساءل المعلّم بنفس اللهجة المرّة:  
- أمك الجشعة ذات العينين اللتين لا يشبعهما إلّا  
التراب، هل أخذت منك مليّاً؟  
فقطّب حسين ضميراً وقال:  
- قلت إنّني لا أشكو هذا . كلّ ما في الأمر أنّي أريد  
حياة غير هذه الحياة . إنّ كثيرين من زملائي يقطنون  
في بيوت فيها الكهرباء!  
- الكهرباء!! أمن أجل الكهرباء تترك بيتك؟! . .  
الحمد لله على أنّ أمك بفضاحتها قد جعلت بيتنا أحمى  
من الكهرباء . .

وهنا خرجت المرأة عن صمتها مولولة:  
- مظلومة والله يا ربّي ظلم الحسن والحسين . . .  
واستدرك حسين قائلاً:  
- إنّ زملائي جميعاً يحيون حياة جديدة، وقد انقلبوا  
جميعاً جنتليان كما يقول الإنجليز .  
فغفر المعلّم فاه، فانفجرت شفاه الغليظتان عن  
أسنانه الذهبية وقال:  
- ماذا تقول؟

فلزم الفتى الصمت مقطباً، واستدرك المعلّم:  
- جليان؟! . ما هذا؟ . . صنف حشيش جديد؟  
فقال حسين متدّعراً:  
- أعني رجلاً نظيفاً . .  
- ولكنك وسخ، فكيف تريد أن تكون نظيفاً . . يا

جليان!

وضاق حسين بتهكّم أبيه فقال منفعلًا:  
- أبي، أريد أن أحيا حياة جديدة، هذا كلّ ما  
هنالك، وسأتزوّج من بنت ناس!  
- بنت جليان!

- الشيء بالشيء يذكر. اعلمي أنّي حاضرة اليوم لأخطبك يا عروس!

وخفق فؤادها بعنف. وذكّرت كيف حدّثها قلبها بأنّ زيارة اليوم خطيرة، وبأنّ المرأة تطوي صدرها على سرّ تفضّ به إلى حين. وتورّد وجهها، وجرى في عوده الذابل ماء شباب، ولكنّها تمالك نفسها وقالت في حياء مصطنع:

- واخجلنا! ماذا تقولين يا ستّ أمّ حميدة! فقالت المرأة وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة ظفر وارتيح:

- أقول إنّني حاضرة لأخطبك يا ستّ الناس! - حقاً! يا له من أمر خطير! أجل أذكر ما تمّ الاتفاق عليه، ولكن لا يسعني إلّا أن أضطرب، وأن أخجل أيضاً، واخجلنا!

فجارتها أمّ حميدة في تمثيلها وقالت محتجّة:

- حاشا الله أن تحجلي لغير ما عيب أو نقيصة، ولكنك تزوّجين على شرع الله وسنة الرسول...

فتنهّدت الستّ سنيّة، تنهّد من يُدفع إلى التسليم على غير إرادته، وقد رنّ قول الأخرى لها «ستزوّجين» رنيناً حلواً محبوباً في أذنيها. أمّا أمّ حميدة فقد أخذت نفساً طويلاً من سيجارتها، وهزّت رأسها هزّة النقة والاطمئنان وقالت:

- موظّف... ودهشت الستّ سنيّة، ونظرت إلى محدّثها بعينين لا تكادان تصدّقان. موظّف! إنّ الموظّف فاكهة محرّمة على زقاق الملقّ! وتساءلت قائلة:

- موظّف؟  
- أي نعم موظّف!  
- في الحكومة؟  
- في الحكومة!

وسكتت أمّ حميدة هنيهة لتستمع بظفرها، ثمّ استطردت:

- في الحكومة، وفي قسم البوليس بالذات...! فازداد عجب الستّ وقالت متسائلة:

- وماذا يوجد في القسم غير الضابط والعساكر؟!

وتعانقتا عناقاً حارّاً. أو هكذا بدا على الأقلّ. وقادتها إلى حجرة الاستقبال وهي تأمر الخادم بصنع القهوة، وجلستا على كنبه متلاصقتين، واستخرجت من علبة سيجارتين، وجعلتا تدخّنان في انبساط وسرور. وكانت الستّ سنيّة تكابد آلام الترقّب والانتظار مذ وعدت أمّ حميدة بالبحث لها عن زوج. ومن عجب أنّها صبرت على العزوبة أعواماً طويلاً ولكنّها لم تستطع مع فترة الانتظار. على قصرها. صبراً. واعتادت في هذه الفترة أن تتردّد على زيارة أمّ حميدة دون انقطاع طويل، والمرأة لا يخفى عليها من أمرها شيء، وما انفكت تعدّها وتمنيها، حتّى أيقنت الستّ سنيّة أنّ المرأة تسوّف وتماطل حتّى نظفر منها بأكبر نفع مرجوّ. ومع ذلك كانت معها جّوادة كريمة، فأعنتها من دفع إيجار الشقّة، وتنازلت لها عن عدد من كوبونات الكيوسين، ونصيبها من الأقمشة الشعبية، غير صينيّة بسبوسة كلّفت عمّ كامل بصنعها لها. ثمّ أدّنتها المرأة بخبطة عبّاس الحلولا ابتها حميدة! وتظاهرت الستّ سنيّة بالسرور، ولكنّ الخبر وقع من نفسها موقعاً مقلّماً، وتساءلت ترى هل تضطرّ إلى المساهمة في تجهيز الفتاة لعرسها قبل أن تجهّز نفسها؟! هكذا تنازعها الخوف من أمّ حميدة والتورّد إليها طوال فترة الانتظار. وقد جلست لصقها تسترق إليها النظر بين آونة وأخرى متسائلة عمّا عسى تتمخّض عنه زيارتها هذه: وعود وأمانيّ كالعادة أمّ البشرى التي يتلّهب قلبها عليها؟! وراحت تداري اضطرابها بشجون الحديث، فكانت - على غير المألوف - المحدّثة وأمّ حميدة المنصّته. تكلمت عن فضيحة المعلّم كرشة، ومغادرة ابنه حسين لبيته، وانتقدت أمّ حسين في نصيرفاتها الفاضحة التي تحاول بها تقويم سلوك زوجها الشاذّ، ثمّ تدرّج الحديث إلى عبّاس الحلولا، فأثنت عليه قائلة:

- أنعم به من شابّ طيّب! سيفتح الله عليه ويرزقه، ويمكّنه من تهيئة الحياة السعيدة لعروسه التي نستهل كلّ خير. وابتسمت أمّ حميدة عند ذاك وقالت:

فرمقتها المرأة بنظرة عارف لجاهل وقالت:  
 - يوجد موظفون أيضًا. أسأليني أنا. أنا أعرف  
 الحكومة والوظائف والدرجات والعلاوات. هذه مهنتي.  
 يا ست!  
 فقالت الست سنّية بدهشة يخالطها سرور لا  
 يصلق:  
 - هو أفندي إذا!!  
 - أفندي بسترة وينطلون وطربوش وحذاء!  
 - الله يشرف قدرك يا ست أم حميدة.  
 - إني أختار الطيب للطيب، وأعرف لكل إنسان  
 قدره. ولو كان في أقل من الدرجة التاسعة ما وقع  
 اختياري عليه..  
 فتمتمت الست سنّية متسائلة:  
 - الدرجة التاسعة؟  
 - الحكومة درجات. ولكل موظف درجة. والتاسعة  
 إحدى هذه الدرجات. ولكنّها درجة ولا كلّ الدرجات  
 يا حبيبي!  
 فقالت الست وعيناها تتألقان سرورًا:  
 - دمت من صديقة محبة عزيزة!  
 فاستدركت أم حميدة تقول بصوتها الواشي بالظفر  
 والثقة:  
 - يجلس إلى مكتب كبير، تتكّدس عليه الملقات  
 والأوراق للسقف والقهوة داخلة خارجة، هذا يرجوه  
 وهذا يسأله، وهو ينهر هذا ويشتم ذاك، العساكر  
 تحييه، والضباط تحترمه..  
 فابتسمت الست سنّية، ولاحت في عينيها نظرة  
 أحلام، وواصلت أم حميدة الحديث قائلة:  
 - مرتبة عشرة جنّيات لا تنقص ملّيّا.  
 وصدّقتها الست سنّية فهتفت قائلة:  
 - عشرة جنّيات!  
 فقالت المرأة ببساطة:  
 - هذا قليل من كثير، وما مرتّب الموظف إلّا بعض  
 رزقه، وبالحذق والشطارة يستطيع أن يربح أضعافه،  
 ولا تنسي علاوة الغلاء، وعلاوة الزواج، ثمّ علاوة  
 الأطفال.

فضحكت الست ضحكة عصيّة وصاحت:  
 - ساحك الله يا ست أم حميدة، ما لي أنا والأطفال!  
 - ربك قادر على كلّ شيء..  
 - نحمده ونشكر فضله على أيّ حال.  
 - أمّا عمره فثلاثون عامًا..  
 فصاحت الست في إنكار:  
 - ربّاه! أكبره بعشرة أعوام!  
 ولم يخف على المرأة أنّها تنامت عشرة أعوام من  
 عمرها، ولكنّها قالت في لهجة تنم عن العتاب:  
 - لا زلت شابة يا ست سنّية! ومع ذلك فقد  
 صارحتك بأنك في الأربعين ووافق مسرورًا..  
 - أرضي حقًا؟!.. ما اسمه؟!..  
 - أحمد أفندي طلبة من أهل الخرغش. وابن الحاج  
 طلبة عيسى صاحب المقلة بأمّ الغلام، أسرة طيبة  
 تنحدر من صلب سيدنا الحسين..  
 - أسرة طيبة حقًا، وأنا شريفة أيضًا كما تعلمين يا  
 ست أم حميدة..  
 - أعلم هذا يا حبيبي. وهو لا يتحرّى إلّا الأخلاق  
 الطيبة، ولولا هذا لتزوّج من عهد طويل، ولكنّه  
 يزدرى بنات اليوم ويتقمّ عليهنّ قلّة الحياء. ولما أن  
 حدّثته عن أخلاقك واحتشامك، وقلت له إنّك سيّدة  
 شريفة وصاحبة قرش، سرّ سرورًا لا مزيد عليه، وقال  
 لي هذه طلّيتي، بيد أنّه سألني شيئًا واحدًا لا يخرج عن  
 حدود الأدب، وهو أن يرى صورتك!  
 فتورّد الوجه النحيل، وقالت بإشفاق:  
 - والله ما صوّرت منذ أمد بعيد..  
 - أليس لديك صورة قديمة؟  
 فأومأت الست إلى صورة على منضدة وسط الحجرة  
 دون أن تنبس بكلمة، فانحنت المرأة قليلًا وتناولتها  
 بيدها ونظرت فيها متفحّصة. كانت صورة يرجع  
 تاريخها إلى ما قبل سنّة أعوام، وكانت صاحبها  
 وقتذاك على شيء من الامتلاء والحياة، فردّدت المرأة  
 بصرها بين الصورة والأصل، ثمّ قالت جازمة:  
 - طبق الأصل، كأنّها صوّرت بالأمس القريب..  
 فتهدّج صوت المرأة وهي تقول:

- الله يحلِّي دنياك... .

وأودعت جيها الصورة بإطارها، وأشعلت سيجارة أخرى قَدِّمت لها، ثمَّ قالت بلهجة رزينة:

- ولقد تحدَّثنا طويلاً فعرُفت أموراً عَمَّا في مرجوّه... .

ولحظتها السَّتْ بنظرة حذرة لأوّل مرّة، وانتظرت أن تواصل حديثها فلمّا أن طال الصمت، سألتها مبتسمة ابتسامة باهتة:

- ترى ماذا في مرجوّه؟

أنجمل حقّاً أم تظنّه يريد الزواج منها حبّاً في سواد عينيها؟ واغتاضت المرأة قليلاً، بيد أنّها قالت بهدوء وبصوت منخفض قليلاً:

- أظنّ ليس لديك مانع من إعداد جهازك بنفسك... ؟

وفهمت السَّتْ سنيّة المقصود لأوّل وهلة، فالرجل لا يريد أن يدفع صداقاً، ويرغب ولا شكّ في أن يترك لها وحدها عبء الجهاز، ولم يكن ذلك ليغيب عنها من أوّل الأمر، منذ تملّكتها الرغبة في الزواج. وسبق أن كُتحت أمّ حميدة إلى هذا في ثنايا أحاديثها فلم تفكّر قطّ في الاعتراض عليها. فقالت بلهجة تنمّ عن التسليم:

- ربّنا المعين.

فابتسمت أمّ حميدة وقالت:

- نسأل الله التوفيق والسعادة... .

ونفضت المرأة تريد الانصراف، فتعانقتا عناقاً حارّاً، وسارت السَّتْ في تسوديعها حتّى الباب الخارجيّ، ووقفت مرتفقة الدرابزين وأمّ حميدة تنزل السلم إلى شقّتها، وقبل أن تغيب عن ناظرها هتفت بها:

- مع ألف سلامة. قبّلي عنيّ حميدة... .

ثمَّ عادت إلى حجرتها بقلب فتيّ، ابتعث حرارته الأمل الجديد. وجلست تستعيد ما قالت أمّ حميدة جملة جملة وكلمة كلمة. كانت السَّتْ سنيّة على شيء من الحرص ولكنه ليس الحرص الذي يقف عثرة في سبيل سعادتها. أجل فطلما آنس المال وحدها، سواء ذلك الذي تحفظه في صندوق التوفير أو هذا الذي تتملّاه

رزماً جديدة بدّية في صندوقها العاجيّ، ولكن لا هذا ولا ذاك يَمُنُّ عن الرجل الخطير الذي سيصبح بإذن الله بعلّاً لها. ولكن هل تعجبه الصورة؟ وتورّد وجهها حتّى أحسّت بحرارة دمها تلفح جبينها. ونفضت إلى المرأة تعانين صورتها وجعلت تحرك وجهها بمنّة ويسرة حتّى تراءى لعينيها أحسن الأوضاع فثبّته عليه، وأنعمت في الصورة النظر، ولاح في وجهها شيء من الرضا، وغمغمت برجاء «ربّنا يستر». ثمَّ عادت إلى جلستها وهي تقول «المال يغطّي العيوب» ألم تقلّ له المرأة إنّها صاحبة قرش؟ وإنّها لكذلك. وليست الخمسون بسنّ اليأس، فلا يزال أمامها عشرة أعوام، وكم من امرأة في السّتّين تستطيع أن تتمتّع بالسعادة إذا كفاها الله شرّ الأمراض. والزواج كفيل برّيّ العود الذابل، وبعث الجسد الخامد. هكذا سرحت مع أفكارها الوردية حتّى اعترض تيارها الصافي زبد متلبّد، فقطّبت فجأة، وتساءلت مغيظة: ترى ماذا يقول الناس غداً؟ أه، إنّها تعرفهم حقّ المعرفة، وستكون أمّ حميدة نفسها في طليعة المتقولّين. يقولون لقد جنّت السَّتْ سنيّة، ويقولون امرأة في الخمسين تتزوّج من ابن في الثلاثين، وسوف يتحدّثون طويلاً عن المال الذي يُصلح ما أفسد الدهر، وربّما قالوا غير هذا وذاك كثيراً ممّا لا يخطر لها ببال. فليقولوا ما شاء لهم القول. وهل كانوا اعتقوها من شرّ السّتّهم وهي أرملة؟ وهزّت السَّتْ كتفيها استهانة، ثمَّ دعت ربّها من الأعماق قائلة:

- اللّهُمّ احفظني من شرّ العين... .

ثمَّ خطر لها خاطر سرعان ما رَحّبت به، وصدقت نيّتها على تنفيذه، وهو أن تذهب إلى الشّيخة رباح بالباب الأخضر تستقرئها الطالع، وتستوهبها بعض الرقي، فما أحوجها في حالتها هذه إلى حجاب مفيد أو بخور نافع.

فقال الرجل بأدب جمّ:  
- لا تؤاخذني يا سيدي، إنّ الله غفور رحيم...  
وسكت الغضب عن زيطه، وحجج الرجل بنظرة  
حادّة، ثمّ قال بصوت لم تسمع منه بعض آثار الحدة:  
- قلت إنّ الوقار أنفس عاهة..  
- كيف يا سيدي؟  
- الوقار كليل بأن يكتب لك النجاح كشحاذ نادر  
المثال.

- الوقار يا سيدي؟!  
فمدّ زيطه يده إلى كوز على الرف، واستخرج منه  
نصف سيجارة، ثمّ أعاده إلى موضعه، وأشعلها من  
فوهة زجاجة المصباح، وأخذ نفساً طويلاً وهو يضيّق  
عينيه البرّاقتين، وقال بهدوء:  
- ليست العاهة بمطلبك. بل أنت في حاجة إلى  
مزيد من التحسين والتجميل. اغسل جلبابك جيّداً،  
واحصل بأيّة طريقة على طربوش نصف عمر، وامش  
بقامتك المعتدلة هذه في خشوع وأدب، واقترب في  
إشفاق من رواد المقاهي، ثمّ قف في حياء، ومدّ يدك  
في تألم دون أن تنبس بكلمة. وتكلّم بعينيك، ألا  
تعرف لغة الأعين؟.. ستحدّق فيك العيون بدهشة،  
سيقولون عزيز قوم ذلّ، ويقولون محال أن يكون هذا  
من أولئك الشحاذين المحترفين. أفهمت الآن ما  
أريد؟ سترجح بوقارك أضعاف ما يربحه الآخرون  
بعاهاتهم...

وأمره أن يقوم بتجربة لدوره الجديد، ووقف يراقبه  
مدخناً سيجارته، وتفكّر قليلاً ثمّ قال مقطّباً:  
- ربّما سوّلت لك نفسك أن تأكل أجري بحجة أنّي  
لم أصنع لك عاهة تستحقّ الأجر، وأنت حرّ تفعل ما  
تشاء، على شرط أن تولي وجهك وجهة غير حيّ  
الحسين العامر.

فتعوّذ الرجل في إنكار وقال مثاليّاً:  
- حاشاي أن أخون صاحب الفضل عليّ...  
وانتهت المرافلة عند ذاك، فسار زيطه بين يدي  
الرجل ليدلّه على الطريق، ووصله حتّى الباب  
الخارجيّ للفرن، وفي أثناء عودته لاحظ أنّ المعلّمة

منتصب القامة، يمثل بين يديه في خضوع واستكانة..  
كان ربّ الجلباب، نحيل الجسد، ولكنّه ذو مظهر  
وقور كما قال صانع العاهات، كبير الرأس أبيض  
الشعر، مستطيل الوجه، له عينان هادئتان خاشعتان،  
كأنّه لوقاره وطول قامته واعتدالها من رجال الجيش  
المتقاعدين. وراح زيطه يتفحصه بدهشة وأناة على  
ضوء المصباح الخافت، ثمّ عاد يقول:  
- إنك لرجل وقور، أترغب في امتهان الشحاذة  
حقاً؟!

فقال الرجل بصوت هادئ النبرات:  
- أنا شحاذ بالفعل ولكنّي غير موفّق..  
فتنحج زيطه، وبصق على الأرض، ومسح شفّتيه  
بكفّ جلبابه الأسود، وقال:  
- إنك أرقّ من أن تحتمل أيّ ضغط شديد على  
أعضائك. والحقّ أنّه لا يصحّ التقدّم لانتخاذ عاهة  
كاذبة بعد العشرين، فالعاهة الكاذبة والصادقة سواء  
فيما تقتضيه من عناء! وكلّما كان العظم طريّاً ضمّن  
الشحاذ عاهة في حكم المستديّة حقاً، وأنت شيخ كبير  
على عتبة الفناء فما عسى أن أصنع بك؟  
ومضى يفكّر. وكان إذا اعتراه الفكر فغر فاه  
وأرعرش لسانه فلاح في فمه كراس أفعى. ثمّ ومضت  
عيناه البرّاقتان بغتة وصاح:  
- الوقار أنفس عاهة!

فسأله الرجل متحيراً:  
- ماذا تعني يا أستاذ؟!  
فانكفأ وجه زيطه غضباً وصاح به محتداً:  
- أستاذ؟! أسمعني أقرأ على القبور؟  
فدهم غضبه الرجل، ويسط راحتيه مستعظفاً وقال  
بصوت منكسر:

- معاذ الله... ما قصدت إلّا تبجيلك..  
فبصق زيطه مرّتين وقال منفعلّاً في زهو وعجب:  
- إنّ عملي ليعجز أعظم أطباء البلد لو حاولوه. ألا  
تعلم أنّ إحداث عاهة كاذبة أشقّ من إحداث عاهة  
حقيقيّة ألف مرّة؟.. إنّ عاهة حقيقيّة لا تستقصيني  
أكثر من أن أبصق على وجهك...

حسنية مترتبة على حصيرة بمفردها، وليس لجلسة من أثر، وكان من عادته إذا التقى بها أن يخلق سببا لمبادلتهما كلمة أو كلمتين، تودداً إليها، وإفصاحاً عن إعجابه الكمين، فقال لها:

- أرايت هذا الرجل؟

فكانت المعلمة حسنية بغير مبالاة:

- طالب عاهة، أليس كذلك؟

فضحك زيطه وراح يقص عليها قصته، والمرأة تضحك وتلعنه على شيطنته ثم اتجه نحو الباب الخشبي القصير الذي يؤدي إلى مأواه، وتردد على عتبة لحظة ثم سأله:

- أين جعده؟

فأجابته المرأة:

- في الحام ..

وظن الرجل لأول وهلة أنها تسخر منه لقذارته المعروفة، فرمى بحذر ولكنه وجدها جادة. فأدرك أن جعده قد ذهب إلى حام الجالية، وهو ما يفعله مرتين في العام، وأنه لن يعود قبل منتصف الليل على وجه التقريب. فحدثه نفسه بأن يجالس انعلمة قليلاً، متشجعاً بما أثارته قصته من سرور. وجلس على عتبة بابه مستنداً إلى مصراع الباب ماداً ساقيه كعمودين رقيقين من الفحم، غير عابئ بما أحدثه جلوسه من دهشة وإنكار لاحت آياتها في عينيها. وكانت المرأة تعامله كما يعامله بقية أهل الزقاق، غير كلمات يتبادلانها في ذهابه أو إيابه، بوصفها مالكة مأواه. ولم تكن تشك في أن علاقته بها تنقطع عند هذا الحد، ولم يدر لها بخلد أنه يطلع على الكثير من دخائل حياتها ودقائقها. ولكن خلوقاً كزيطة لا يعدم أن يجد منفذاً في الجدار بينه وبين الفرن يطلع منه على ما يروي غلته المتطفلة، وأحلامه البهيمية. فصار وكأنه واحد من هذه الأسرة، يشهد عملها وراحته، ويلتذ بوجه خاص أن يرى المعلمة وهي تكيل الضرب لبعدها لأقل هفوة. وما أكثر هفوات جعده التي يقع فيها كل يوم ويعاقب عليها كل يوم، حتى بات الضرب من غذائه اليومي، يتلقاه تارة في تصبر وتجلد، وتارة في بكاء

وصراخ وعواء. وهو لا يفتأ يحرق بعض الأرغفة في أثناء خبزها، أو يسرق البعض الآخر ليلتهم خفية فيما بين الوجبات، أو يتنازع بسبوسة بنصف قرش من أجر الخبز الذي يحصله من البيوت، ولا يتورع عن ارتكاب هذه الجرائم يوماً بعد يوم، دون توفيق في طمس معالمها، ولا قدرة على منع عقوباتها الصارمة. وكان زيطه يعجب لخنوع الرجل وجبنه وعتهه. وأعجب من هذا أنه - زيطه - كان يستقبحه ويهزأ بصورته! كان جعده طويل القامة لحد مفراط، طويل الذراعين، مغطوط الفك الأسفل، غائر العينين، غليظ الشفتين. ولطالما حقد عليه زيطه تمتعه بهذه الزوجة الهائلة التي يرمقها بعين الإعجاب والرغبة، ولذلك مقته واحتقره، وتمنى لو يستطيع قذفه داخل الفرن مع العجين والصواني. ولذلك أيضاً سره أن يجد في غياب الحيوان فرصة ليجالس المعلمة قليلاً، فجلس ومذ ساقيه، غير عابئ بما يحدثه جلوسه من دهشة وإنكار. ولم تتردد المعلمة حسنية بجراتها المعهودة أن سأله بجفاء بصوت غليظ:

- ما لك جلست هكذا؟

فقال زيطه لنفسه: اللهم ارفع غضبك ومقتك عنا ثم قال لها بلطف وتودد:

- أنا ضيف يا معلمة، والضيف لا يهان ...

فكانت بتقرز:

- ولماذا لا تنجح وترجيحي من وجهك؟

فقال زيطه برقة مبتسماً عن أنيابه الوحشية:

- لا يمكن أن يقضي الإنسان حياته كلها بين الشحاذين والقاذورات والديدان، ولا مفر من أن يتطلع لمنظر أبهج وأناس أفضل.

فانتهرته بعنف قائلة:

- يعني لا مفر من أن يؤذي الناس بمنظرة الكريه ورائحته الخبيثة! أف... أف... أف... انجح وأغلق الباب وراءك!

فقال زيطه بخبت:

- ومع ذلك فعسى أن توجد مناظر أفظع وروائح أخبث.



على لكمة مما يصيبه . .  
فقال زبطة حانقًا:

- لعلّ الضرب شرف لا أدركه . . .

- شرف لا تطمح إليه يا عشير الديدان.

وتفكر زبطة مليًا، ترى هل تطيب لها معاشره هذا الحيوان حقًا؟ وقد طلما طرح هذا السؤال على نفسه، ولكنه كان يأبى أن يصلّق هذا. إنّ المرأة لا تملك أن تقول غير ما قالت، ولكنّها تبطن شيئًا آخر بلا جدال. ورمق بنياتها الضخم المكتنز بعين نارية فازداد إباء وعنادًا. ونشط خياله بارعًا مجنونًا فصور له المستقبل في ألوان زاهية. وأوحى له خلوّ المكان بتخيّلات محمومة، فلمعت عيناه المخيفتان. أما حسنيّة الفرّانة فقد استلذّت غيرته، ولم يقلقها انفرادها بها لعظيم ثقها بقوتها. فقالت في تمكّم:

- حتّى أنت يا تراب الأرض . . استخرج جسمك من التراب الذي يغطّيه أولًا، ثمّ كلّم الناس بعد ذلك.

لبست المرأة غاضبة. ولو كانت غاضبة حقًا لما دارت غضبها ولصغته بوحشيتها. إنّها تمازحه ولا شكّ، فلا يجوز أن تفلت الفرصة من يديه. قال:

- أنت لا تفرّقين يا معلّمة ما بين التراب والتبر.

فقالت المرأة بتحدّ:

- هل تستطيع أن تنكر أنّك من طين؟

فهزّ متكيه استهانة وقال ببساطة:

- كلّنا طين . . .

فقالت المرأة ساخرة:

- خسئت! إنّك طين على طين وقذارة على قذارة.

ولذلك لا عمل لك إلّا تشويه البشر، كأنّك تنبث إلى ذلك برغبة شيطانيّة في النزول بالبشر إلى مستواك القذر.

فتضاحك زبطة وما يزداد إلّا أملاً، وقال:

- ولكنّي أحسن الناس ولا أقبحهم. ألا ترين أنّ الشحاذ بغير العاهة لا يساوي مليّاً، حتّى إذا ما صنعتها له ساوى ثقله ذهباً؟! والرجل يقوم بضمنه لا بصورته. أمّا أخونا جعلة فلا ثمن ولا صورة . . .

وأدركت المعلّمة أنّه يُلَمّح إلى زوجها، فاربذ وجهها وقالت بلهجة تنمّ عن الوعيد:

- ماذا تعني يا أختا الديدان؟!

فقال الرجل ولم تكن تعوزه الجرأة:

- أخونا الفاضل جعلة . . .

فصاحت به بصوت خفيف:

- حذار يا بن اللثيمة. لو بلغتك يديّ شطرتك اثنين . .

ولم يتعام الرجل عن الخطر المائل أمامه فقال مستعظماً:

- قلت إنّني ضيف يا معلّمة، والضيف لا يهان. ثمّ إنّني لم أعرض بجعلة إلّا بعد أن ثبت لي ازداؤك له، وانهالك عليه بالضرب لأنفه الأسباب.

- جعلة هذا ظفرك برقبتيك!

فقال زبطة محتجاً:

- ظفرك أنت بألف رقبة كرقبتي، أمّا جعلة . . .

- أحسب أنّك خير من جعلة؟!

فلاح الانزعاج في وجه زبطة وفغر فاه دهشة، لا لأنّه - في حسبانهِ - خير من جعلة فحسب، ولكن لأنّه كان يعتقد أنّ مجرد مقارنته به سبّه لا تغتفر، فأين هذا الحيوان الأعجم من شخص مقتدر مثله، يُعدّ بحقّ ملكاً على دنيا برمتها أيّا كانت هذه الدنيا؟ وسألها بدهشة:

- ماذا ترين أنت يا معلّمة؟

فقالت حسنيّة بتحدّ وازدراء:

- أرى أنّ ظفرك برقبتيك . . .

- هذا الحيوان . . ؟

فهتفت بصوت فظّ:

- هذا رجل ولا كلّ الرجال يا وجه العفريت . .

- هذا المخلوق الذي تعاملينه كما تعامل الكلاب الضالّة؟

وأدركت المرأة في كلامه حقّاً وغيره، فراقها ذلك على انفعالها، وعدلت عن ضربه بعد أن حدّثتها نفسها به، وراحت تقول كأنّها لتضاعف حنقه وغيرته:

- هذا شيء لا تفهمه، وما أجدر أن تموت حسرة

أبلغ حافة الطوار المطلّة على الطريق، وكانت توجد تحت المكان المختار ثغرة في الأرض يركد فيها ماء من مطر أو رشّ أو دابة، يتكتّل الطين في قعرها، وعلى سطحها يغنيّ الذباب، وعلى شطآنها تتجمّع نفاضة الطريق. منظر ساحر يأخذ بالألباب. ماؤها مطيّن، وساحلها زبالة متعدّدة ألوانها. قشر طباطم ونفاية مقدونس وتراب وطين، والذباب يحوم حولها ويقع عليها، فكنت أرفع جفنيّ الثقليّن بالذباب، وأسرح طرفي في ذاك المصيف الطروب، والدنيا لا تسعني فرحاً..

فتنهت المعلّمة ساخرة:

- يا بختك.. يا حظك..  
ولّد سرورها وإقبالها على حديثه، فقال متشجعاً:  
- هذا سرّ ولعي بما يسمّونه ظلماً بالقاذورات، والإنسان خليق بأن يألف أيّ شيء مهما شدّ وغرب، ولذلك أخاف عليك أن تألفي ذاك الحيوان.

- أعود أيضاً إلى هذا؟

فقال وقد أعمته الشهوة وأصمته:

- طبعاً. لا قيل للإنسان بإغفال الحقّ..  
- الظاهر أنّك زهدت في الدنيا..  
- لقد ذقت الرحمة مرّة كما قلت لك في المهد.  
ثمّ أوماً بيده إلى المزبلة التي تسكنها واستدرك:  
- وقلبي يحدّثني بأنّ لي حظاً أن أدوقها مرّة أخرى في ماوأي هذا.

وأوماً برأسه إلى الداخل كأنه يقول لها: «هلمّي»  
فتميّزت المرأة غيظاً، وأحنقته جرائه، فصاحت في وجهه:

- حذار يا بن الشيطان.

فقال بصوت متهدج:

- كيف لابن الشيطان أن يحذر غواية أبيه؟

- إذا هشمّت عظمك؟

- من يعلم.. ربّما استلذّ ذلك أيضاً..

ونفض الرجل بغته، وتراجع قليلاً متفهقراً، كان يظنّ أنّه بلغ مناه، وأنّ المعلّمة أصبحت طوع يمينه، وقد تلبّسته حال جنونيّة جعلته ينتفض انتفاضاً. وثبتت

فزجرت المرأة بصوت ملؤه الوعيد:

- أعود إلى هذا الحديث مرّة أخرى؟!

فتعامى عن وعيدها، وتجاهل الموضوع الذي طرقه متعمّداً، وتخطّاه قائلاً:

- ومع ذلك فجميع زبائني من الشحّاذين المحترفين، فإذا تريدني على أن أفعل بهم؟.. أكنت تريدني أن أحلّهم وأزيّهم وأسرحهم في الطرقات لغواية المحسنين؟!

- يا لك من شيطان! لسان شيطان، وصورة شيطان.

فتنهّد بصوت مسموع، وقال باستكانة المستعطف:

- كنت مع ذلك ملكاً في يوم ما..

فهزّت رأسها متسائلة في سخرية:

- ملكاً من الأسياد والعفاريت؟

فقال بلهجة الاستكانة والاستعطاف نفسه:

- بل من البشر أنفسهم. وأيّ واحد منّا تستقبله الدنيا كملك من الملوك، ثمّ يصير بعد ذلك ما يشاء له نحسه. وهذا خداع حكيم من الحياة، وإلا فلو أنّها أفصحت لنا عمّا في ضميرها منذ اللحظة الأولى لأبينا أن نفارق الأرحام..!

- ما شاء الله يا بن الدائخة!

فاستدرك زبطة في حماسة وسرور:

- وهكذا كنت يوماً ما مولوداً سعيداً، تلقفته الأيدي بالسرور، وحاطته العناية والرحمة، فهل تشكين بعد ذلك أنّي كنت ملكاً؟  
- أبداً يا مولانا..

وأسكرته حرارة الحديث ولذة الأمل، فمضى قائلاً:

- وكان مولدي بمنّا وبركة أيضاً. ذلك أنّ والديّ كانا شحّاذين محترفين، وكانا يكتريان طفلاً تحمله أمّي في أثناء تجوالهما. فلما أن رزقها الله بي أغناهما عن أطفال الناس، وفرحا بي فرحاً عظيماً.

فلم تملك حسنيّة أن ضحكّت ضحكة مجلجلة، فأزداد حماسة وحرارة، وقال مواصلاً حديثه:

- آه من ذكريات طفولتي السعيدة! لا زلت أذكر مستراحي من الطوار. كنت أزحف على أربع حتّى

الهوى. لقد غلبه الهوى على أمره، وتسرب إلى أعماق نفسه فتشبعت به جذور تفكيره وإرادته، وهانت عليه الصعاب التي كانت تعترض أحلامه، وقال لنفسه متبرماً: «لقد انتهت زوجي كامراً، ولست من الرجال الذين ينزلقون إلى الفسق في مثل هذه السن، ولا داعي مطلقاً للرضا بالعذاب والغم». لقد يسر الله لنا فلهاذا نعسر على أنفسنا؟!». وهكذا انتهى إلى رأي لا عدول عنه، وأجمع على تحقيق رغبته. ولذلك دعا أم حميدة إلى الجلوس على كنب منه معتزماً مفاتها بالأمر الخطير. وليث السيد متخوفاً من الكلام قليلاً لا لأن تردداً ساوره، ولكن لأنه لم يكن من اليسير أن ينزل عن مرتبة العالية دفعة واحدة ويخلط نفسه بامرأة كأم حميدة. وتصادف في تلك اللحظة أن دخل عامل حاملاً صينية الفريك المشهورة، فرأى أم حميدة وجرت على شفيتها شبه ابتسامة لم يفته ملاحظتها، وابتهل هذه الفرصة ورأى أن يجعلها فاتحة حديثه، وتناسى تزمته ووقاره وقال لها بلهجة تنم عن السخط:

- لكم تكذربي هذه الصينية!

وخافت أم حميدة أن يكون قد رأى ابتسامتها فقالت بعجلة:

- لماذا كفى الله الشر؟

فقال السيد باللهجة نفسها:

- لكم تحدث لي من متاعب..

فتساءلت المرأة وهي لا تدري ما يعنيه:

- لماذا يا سيدنا البك؟

فقال السيد سليم بهدوء متشجعاً بأنه يحدث خاطبة:

- لا يرضى عنها الطرف الآخر..

فدهشت أم حميدة، وذكرت كيف تحلب ريق أهل الزقاق يوماً على قطعة من هذه الصينية، وما هي ذي امرأة زاهدة لا ترضى عنها! وقالت المرأة لنفسها: «يعطي الحلقة لمن ليس له أذن». ثم غمغمت مبتسمة، وبلا حياء:

- هذا شيء عجيب!

فهز السيد رأسه متأسفاً. وكانت زوجته لا ترحب

عينه على عيني المرأة في ذهول وبهيمية. ثم مد يديه بغتة إلى طرف جلبابه وخلعه بسرعة فائقة، وتجرد عارياً. وهبت المعلمة لحظات، ثم امتدت يدها إلى كوز غير بعيد، وقذفته به بسرعة وقوة، فأصاب بطنه، ونذت عنه آهة كالخوار، وسقط يتلوى...

## - ١٧ -

كان السيد سليم علوان جالساً كعادته إلى مكتبه بالوكالة حين جاءت أم حميدة لاتباع بعض اللوازم. وكان الرجل يستقبلها إذا جاءته بلطف، ولكنه لم يفتح هذه المرة بذلك، فدعاها إلى الجلوس على كرسي قريب منه وكلف أحد العمال باستحضار ما تريد من ألوان العطرارة. ونال هذا العطف من أم حميدة فلهجت بشكره والدعاء له. والحق أن هذا العطف لم يكن ارجحاً، ولكن السيد كان قد نوى أمراً لا رجوع فيه لأنه من العسير أن يعيش الإنسان موزع النفس مضطرب الإرادة لا يقر له قرار. وقد ساءه كثيراً أن يرى ساء حياته غائمة بالمشكلات المعلقة التي تستوجب الحلول ثم لا يجد الإرادة التي تحلها. فهؤلاء الأبناء لا يخفى عليه قلقهم، وهذه الأموال المكدسة لا يدري متى يتاح له استغلالها خصوصاً وقد أرجف المرجفون باحتمال هبوط قيمتها النقدية بعد الحرب، ورتبة البيكوية كلما ظن أنه حسم أمرها وانتهى منه عادت تلح عليه كأنها دمّل كامن، وعلاقته بزوجه وهمته الناشئ من ذبول شبابها ونضوب حيويتهما، وأخيراً.. وليس آخرًا - هذه العاطفة التي يعانيتها ويلقى من اضطرامها ما يلقي من أشواق وآلام. ليث بين هذه الهموم متحيراً، ثم رأى أن يفرض إحداها بعزم ورغبة ولكنه انساق في الاختيار مع هواه وهو لا يدري، فارتأى أن يسكن هذه العاطفة الغشوم، وتركز اهتمامه في ذلك، حتى لكأنه بالانتهاء منها إنما ينتهي من همومه جميعاً. ولكنه لم يكن بالغافل عن العواقب، ولم يكن لينيب عنه أنه بصدد مشكلة يعقب فضها المزعوم مشكلات جديدة لا تقل خطراً عن سابقتها. ولكنه

- لا داعي للبحث والتعب. إنَّ مَنْ أريد في بيتك أنت!

وأتسعت عينا المرأة دهشة وتمتمت بلا وعي:

- في بيتي أنا!!

فقال السيّد وقد سرته دهشة المرأة:

- أجل في بيتك أنت دون سواك. ومن لحمك ودمك أعني كريمك حميدة..!

ولم تصلّق المرأة أذنيها، وتولّاهما الدهول. أجل كانت تعلم - عن طريق حميدة نفسها - أنَّ السيّد يتبعها أينما ذهبت عينين برّاقتين، ولكنّ الإعجاب شيء والزواج شيء آخر. فمن عسى أن يصلّق أنَّ السيّد سليم علوان صاحب الوكالة يطلب يد حميدة؟!

وقالت المرأة بصوت مضطرب:

- لسا قدّ المقام يا سي السيّد!

فقال الرجل برقة:

- إنك سيّدة طيّبة، وقد أعجبتني كريمك وكفى. ألا يكون الناس أهلاً للخبر إلا إذا كانوا أغنياء؟ وما حاجتي للمال وعندي منه ما فوق الكفاية!

وأصغت إليه والدهشة لا تفارقها. ثم ذكرت فجأة أمراً غاب عنها حتّى هذه اللحظة. ذكرت أنَّ حميدة مخطوبة، وقد نذّرت عنها «آهة» كالمنزعجة، حملت السيّد على أن يسألها قائلاً:

- ما لك؟

فقالت المرأة باضطراب:

- ربّاه، نسيت يا سي السيّد أن أقول لك إنَّ حميدة مخطوبة! خطبها عبّاس الحلّو قبل سفره إلى التلّ الكبير...!

فانكفأ وجه الرجل، واصفرّ وجهه غضباً، وقال بحدة وكأنّه ينطق باسم حشرة قذرة:

- عبّاس الحلّو..!

فقالت المرأة بعجلة وهوجة:

- ربّاه لقد قرأنا الفاتحة!

فقطّب السيّد سليم قائلاً في غضب وازدراء:

- ذاك الحلّاق الشحاذ..

فقالت أمّ حميدة كالمعتذرة:

بالصنيّة من بادئ الأمر وهي بعد شابة في ريعان الشباب. كانت ذات فطرة سليمة تنفر من الشذوذ عن الطبيعة، ولكنّها تحمّلت ما كانت تعدّه إرهاباً إكراماً لزوجها النهم، وإشفافاً من تكدير صفوه. ومع ذلك لم تتردّد عن نصحه بالعدول عن أمر في المداومة عليه خطر وإيّ خطر على صحّته. ولما أن تقدّم بها العمر قلّ صبرها، وتضاعف إحساسها بالأمر، وبدا تذمرها صريحاً، حتّى كانت تهجر بيت الزوجيّة إلى بيوت أبنائها، زيارة في الظاهر وهروباً في الحقيقة. وضاق بها السيّد ذرعاً، ورمّاها بالبرود والنضوب، وتكذّر صفوها، وتنقّص عيشها، دون أن يعدل عن هواه، أو يعطف على ضعفها اللاموس. وقد اتّخذ نشوزها - هكذا دعاه - حجّة له في هواه وفيها يرتاد من حياة زوجيّة جديدة!

هز السيّد رأسه متأسّفاً وقال بلغة لا يخفى مرماها عن مثل أمّ حميدة:

- لقد أنذرتها بالزواج من أخرى. وإني لفاعل بإذن الله..

ونار اهتمام المرأة، وتحركت غريزة العمل في باطنها، وحجته بنظرة التاجر إلى زيون نادر الوجود، ولكنّها قالت بشيء من الارتياب:

- لهذا الحدّ يا سي السيّد؟!

فقال الرجل باهتمام جدّي:

- لقد انتظرتك طويلاً، وكنت على وشك أن أرسل في طلبك. فما رأيك؟

فتنهّدت المرأة وقد غلبها سرور لا يوصف. وقد قالت فيما بعد إنّها ذهبت تتبّاع حتّاء فعثرت على كنز. ثم نظرت إليه مبتسمة وقالت:

- يا سي السيّد أنت رجل قدّ الدنيا، ومثلك في الرجال قليل، ويا حظّ مَنْ تكون نصيبك، وأنا رهن إشارتك، فعندي البكر والثيب، والشابة والنصف، الغنيّة والفقيرة. اختر ما تشاء..

وقتل السيّد شاربيه الغليظين، واعتراه شيء من الارتباك، قليلاً ثمّ مال نحوها، وقال بصوت منخفض، وعلى فمه ابتسامة:

حلاق قدر لا يساوي ملبيًا، ومع ذلك فهو يزجه في حلبة واحدة. ويصق على الأرض بازدراء كأنما البصقة هي الحلو نفسه. وخال أنه يسمع طنين المرجفين إذ يخوضون في هذا الأمر بما يحلو لهم من تهكم وسخرية. ستقول زوجه إنه خطف ابنة مائسة من صالون حلاق بالمدق! أجل ستقول زوجه وتعيد، وسيقول الناس ويتقنون في القول، وسيستاهي ذلك كله إلى أبنائه وبناته وأصدقائه وأعدائه. تفكر في ذلك جميعه، بيد أن التراجع لم يخطر له ببال فقد انتهت المعركة قبل اليوم، ومدّ يده بالفعل، وتوكل على الله. ومضى يقتل شارب بهانة، ويترأسه استهانة، وقد ملكت الرغبة الجامحة عليه نفسه، وهوت عليه القبل والقال. وهل كف الناس عنه الستهم من قبل؟ ألم يجعلوا من صينية القريك أسطورة يتناقلونها؟ فليقولوا ما بدا لهم، وليفعل ما بدا له، وسيظل بلا ريب سيد الجميع الذي يشق سبيله بين هامات متطامنة. أما أسرته فتروته كفيلة بإرضاء أفرادها جميعًا، ولن يسلبهم زواجه الجديد أكثر مما كانت تسلبهم إياه رتبة البكوية فيما لو سعى إليها: وانفتحت غضبه، وانسبست أساريه، وارتاح إلى تفكيره ارتياحًا عظيمًا. ينبغي أن يذكر دائمًا أنه إنسان من لحم ودم، وإلا أغفل حق نفسه، وقدمها لقمة سائغة للمهموم تزدردها. ما جدوى ثروته الطائلة إذا ذهبت نفسه حشرات على رغبة تحديقها بيده؟ أو ترك قلبه يحترق بالشوق إلى جسد بشري رهن إشارة منه؟!

- ١٨ -

ومضت أم حميدة مهولة إلى شقتها، وفي هذا الشوط القصير - ما بين الوكالة والشقة - ثمل خيالها بأحلام عراض. ووجدت حملة واقفة وسط الحجرة تمشط شعرها، فتفحصتها بعينين ثاقبتين كأنها تراها لأول مرة، أو كأنها تعاین الأثنى التي خبلت رجلًا له وقار السيد سليم علوان وسنه وثروته. ووجدت المرأة عاطفة تشبه الحسد. كانت تؤمن بلا شك بأن كل قرش يجلبه هذا الزواج المرتقب للفتاة سيكون لها

- قال إنه سيشتغل في الجيش، ليجمع ثروة، وسافر بعد أن قرأنا الفاتحة...

وازداد غضب السيد لانزلاقه بغتة - مع الحلو - إلى مضمار واحد، وقال بحلّة:

- أيجب هذا الأحمق أن الجيش نعيم يدوم! ولكني أعجب لما جعلك تذكرين هذه الحكاية! فقالت المرأة معذرة:

- لقد ذكرتها فجأة، هذا كل ما في الأمر. ما كنا نحلم بهذا الشرف الرفيع، ولذلك لم يكن لدي حيلة في رفض يده! لا تؤاخذني يا سي السيد. إن مثلك إذا طلب أمر. ما كنا نحلم بهذا الشرف الرفيع، فلا تؤاخذني. سأذهب الآن وأعود إليك في الحال: لا تغضب علي، لماذا غضبت هكذا؟

وبسط السيد وجهه. وذكر أنه غضب حقًا أكثر مما ينبغي، كأنما الحلو هو المعتدي لا المعتدى عليه. ولكنّه قال:

- ألا يحق لي أن أغضب؟

ثم توقف بغتة كأنه تذكر أمرًا أريد له وجهه وسألها منزعًا:

- وهل وافقت الفتاة؟ أعني هل تريده؟

فقالت المرأة بسرعة:

- لا شأن لابنتي بهذا الأمر! وما حدث لا يعدو أن جاءني الحلو يومًا مصحوبًا بعم كامل ثم قرأنا الفاتحة. فقال السيد:

- غريب والله أمر هؤلاء الشبان! لا يكاد يجد الواحد منهم لقمة، ولكنه لا يجد بأسًا من أن يتزوج ويخلف ويزحم الحارة أولادًا يلتقطون رزقهم من الزبالة، لنس هذه الحكاية.

- نعم الرأي يا سي السيد. - سأذهب الآن، وسأعود دون إبطاء، وربنا المستعان.

ونفضت المرأة واقفة، وانحنت على يده مسلمة، ثم تناولت لفافة الحناء، وكان العامل قد وضعها على المكتب، ومضت إلى حال سبيلها...

ولبت السيد متغيرًا، متجهّم الوجه، تنطق نظرة عينيه الحادة بالنزفة والغضب... أولى الخطى عثارًا!

فأضاء وجه الفتاة نوراً، وغمغمت لا تدري من الدهشة والسرور:

- يا خبر أسود!

- يا خبر أبيض، يا خبر مثل اللبن والقشدة. لم أكن لأصدق لولا أنه حادثني بنفسه.

غرزت الفتاة المشط في شعرها، وهرعت إلى أمها وارتمت إلى جانبها، وسألته وهي تشدّ على كتفها:

- ماذا قال لك؟ خبريني بكلّ ما قال، كلمة كلمة. وأنصت إلى المرأة بانتباه عميق وهي تروي قصتها.

وخفق قلبها خفقاناً متواصلًا، وتورد وجهها، وتألّقت عينها بشراً وسروراً. هذه هي الثروة التي تحلم بها،

هذا هو الجاه الذي تهيم به. وإنها من حبّ الجاه لفي مرض، وإنّ الشغف بالقوّة لغريزة جائعة في باطنها،

فهل يتاح لها شفاء أو ارتواء إلا بالثروة؟ لم تكن تدري دواء لهذا التشوّف الأليم يضطرم في أعماقها إلا الثراء

الكبير، فهو الجاه العريض، وهو القوّة الشاملة، وهو بالتالي السعادة الكاملة. كانت في سرورها المبالغت

كمحارب أعزل عثرت يده بسلاح مصادفة في أشدّ المواقف حرّجاً. كانت كطائر مقصوص الجناحين يسفّ

في يأس وقنوط على رغم محاولاته الفاشلة، ثمّ ينبت له ريش بمعجزة تدقّ على الأفهام. من محاولاته الفاشلة

تحليق يسمو به إلى قنن الجبال. وكانت تنظر إليها بلحظ خفيّ فسألته:

- ماذا ترين؟

لم تدبر أمّ حميدة ماذا تقول، ولكنّها كانت مشمّرة للمعارضة أيّما كان رأي الفتاة. فإذا قالت السيّد قالت

والخلو؟ وإذا قالت الخلو قالت أوّفّرط في السيّد! أمّا حميدة فقالت بإنكار شديد:

- ماذا أرى؟!

- أجل ماذا ترين، فليس الأمر ممّا يسهل الفصل فيه، أنسيت أنّك خطوبة؟!.. وآتي قرأت الفاتحة مع

الخلو؟

فلاح في عيني الفتاة نظرة حادة غشّت بهاها، وقالت في انزعاج وازدراء:

- الخلو!!

نصفه، وأنّ كلّ نعيم ستذوقه ستحظى هي بنصيبها الموفور منه، ومع ذلك لم تحلّ من هذا الإحساس

الغريب الذي خالط سرورها وأطاعها! وقالت لنفسها «أكان القدر حقاً يدخر هذه السعادة لهذه الفتاة التي لا

تعرف لنفسها أباً ولا أمّاً! وتساءلت في عجب «ألم يسمع السيّد صوتها المخيف وهي تزقّ في وجوه

الجيران؟ ألم يشهد معركة من معاركها؟ يا ويل الرجال من لحم النساء!» ثمّ قالت لها دون أن تحوّل عنها

عينها:

- مولودة في ليلة القدر والحسين!

فأمسكت حميدة عن تمشيط شعرها الأسود اللامع، وسألته ضاحكة:

- له؟ ماذا وراءك؟ هل من جديد؟!

فخلعت المرأة ملاءتها وطرحتها على الكنبّة، ثمّ قالت بهدوء وهي تتفرّس وجهها لتمدحن أثر كلامها

فيه:

- عروس جديد!

فلاح في العينين السوداوين اهتمام ويقظة تخالطهما دهشة، وتساءلت الفتاة:

- أتقولين حقاً؟

- عروس كبير المقام، يتمنّع عن الأحلام يا بنت الكلب..

فخفق قلب حميدة بقوّة، وتألّقت عيناها حتّى بدا حورهما ساطعاً وتساءلت:

- من عساه يكون؟

- تخني؟!

فتساءلت الفتاة بلهفة وإن ساورتها الظنون:

- من؟

فقالت أمّ حميدة وهي تهزّ رأسها وترعش حاجبها:

- السيّد سليم علوان على «سنّ ورمح»!

فشدّت قبضتها على المشط حتّى كادت تنفذ أسنانه في راحتها، وهتفت:

- سليم علوان صاحب الوكالة؟!

- صاحب الوكالة، وصاحب الأموال التي لا يفنيها المحيط!

و عجبت أمها لسرعتهما الفائقة في البت في مثل هذا الأمر الخطير، وكان الحلو لم يكن قط، وعاوردها شعورها القديم بأن ابنتها فتاة شاذة خفيفة، والحق أن المرأة لم يداخلها شك جذبي في النهاية المحتومة، ولكنها كانت تريد أن تبلغها بعد لأي. كانت ترغب أن تتردد الفتاة فتتطرق هي إلى إقناعها بالقبول، لا أن تلفظ اسم الحلو بمثل هذا الازدراء الغريب. واستدركت تقول بلهجة تتم عن الانتقاد:

- أجل الحلو، أنسيت أنه خطيبك؟! كلاً لم تنس، ولكن سيان التذكر والنسيان، ترى هل تعترض أمها حقاً؟ وحدجتها بنظرة نافذة، فأيقنت أنها كاذبة في انتقادها، وهزّت منكبيها استهانة، وقالت باستخفاف واحتقار:

- ذبيحة... ماذا يقول الناس عنا؟ - دعيهم يقولون ما بدا لهم. - ساستشير السيد رضوان الحسيني. فجعلت الفتاة من هذا الاسم واعترضت قائلة:

- ما شأنه في أمر يخصني وحدي؟ - نحن أسرة لا زجل لها، فهو رجلنا... ولم تطق المرأة انتظاراً فنهضت واقفة، وتلقّت بملاءتها، وغادرت الحجرة وهي تقول: «لا سأشاوره وأعود تواء». وشيعتها الفتاة بنظرة غيظ. ثم تنهت إلى أنها لم تتم تنشيط شعرها، فمضت تمشطه بحركات آلية وعيناها شاخصتان إلى دنيا الأحلام الزاهرة. ثم نهضت دالفة من النافذة وجعلت تنظر خلال خصاصها إلى الوكالة الكبرى ساعة، وعادت إلى جلستها.

لم يكن تحوّلها عن عباس الحلو بغير تمهيد كما ظنّت أمها، أجل لقد حسبت حيناً أنها وصلت - راضية - أسبابها بأسبابه إلى الأبد، فمحتة شفيتها يقبلها بما أوتي من شغف وحب، وجاذبته حديث المستقبل كأنه مستقبلها معاً، ووعده أن تزور الحسين لتدعو له، وزارته بالفعل ودعت له - ولم تكن تزوره إلا لتستعديه على عدوة عقب شجار - وانتظرت على أمل أن تظفر بهذه السعادة المرموقة، وفضلاً عن ذلك فقد رفعها

الحلو من مجرد بنت إلى فتاة مخطوبة، فلم يعد في وسع أم حسين أن تمسك بسوالفها وتقول لها شامتة: «أحلق هذا لو خطبك إنسان». بيد أنها كانت تنام على فوهة بركان. ولم تلق بادئ الأمر الطمأنينة الكاملة، ووجدت في النفس شيئاً يضطرب يرتاد متنفساً. حقاً لوج عباس الحلو لطموحها العنيف ببعض الزاد، ولكن الحلو نفسه ليس بالرجل الذي تريد، وقد حيرها أمره منذ أول لقاء. ولم تكن تدري كيف يكون رجلها على وجه التحقيق. ولكن الحلو لم يقبض على ملاك قلبها على أية حال. ومع ذلك فلم تستسلم لمخاوفها بغير مقاومة، فجعلت تقول لعلّ العاشرة تهيئ لها حياة لم تكن تعلم بها قط. ثم لم تكف عن التفكير، والتفكير فضيلة ذات حدّين، فتساءلت ترى ما هذه السعادة التي يمتيها بها؟ ألا تكون مغالية في أحلامها؟ يقول الفتى إنه سيعود بثروة، وإنه سيفتح صالوناً في الموسكي، ولكن هل يضمن لها هذا حياة أرغد من حياتها الراهنة؟ وهل هذا حقاً ما تطمح إليه نفسها المجتونة؟؟ وضاعف هذا التفكير من حيرتها، وقوي شعورها بأن الشاب ليس رجلها المرموق، وباتت تدرك أنّ نفورها منه أشدّ من أن تلطفه بالمعاشرة. ولكن ما عسى أن تفعل؟ ألم ترتبط به إلى الأبد... ربه، لماذا لم تتعلّم حرفة كأولئك الفتيات من صوحيباتها؟ أمّا لو كانت صاحبة حرفة لأمكنها أن تنتظر حتى تتزوج كما تشاء، أو لما تزوّجت على الإطلاق! وأخذت حماسها تفتّر، وشعورها يحمّد، وعادت إلى ما كانت عليه قبل أن تهزّها المقابلات وتغرّها الآمال. هكذا كانت حين طلب السيد سليم يدها، وهكذا نبذت خطيبها الأول بغير تردد، ولكن بعد أن كانت نبذته في قلبها منذ أمد طويل...

ولم يطل المطال بغياب الأم، فعادت من بيت السيد رضوان بوجه تلوح فيه أمارات الجذ، وقالت وهي تخلع ملاءتها:

- لم يوافق السيد أبداً. ثم قصّت عليها ما دار بينها وبين السيد رضوان، وكيف قال لها وهو بصدد المقارنة بين الرجلين إنّ الحلو

- شَابَ والسيد سليم شيخ، وإن الخلو من طبقتها  
والسيد من طبقة أخرى، وإن زواج رجل كالسيد من  
فتاة مثل ابنتها لا بدّ محدث متاعب ومشكلات لا يبعد  
أن يصيب الفتاة بعض من رشاشها، وكيف ختم  
حديثه بقوله «الخلو شَابَ طَيِّبٌ وقد هاجر في سبيل  
الرزق طامعاً لهذا الزواج، فهو رَجُلُهَا المفضل، وما  
عليك إلا أن تنتظري فإذا عاد خائباً لا قدر الله كان  
من حقك بلا جدال أن تزوجيهما بمن تختارين».
- وأصغت الفتاة إليها والشرر يتطاير من عينيها، ثم  
صاحت بصوت جافّ فضح الغضب قبحه:
- السيد رضوان وليّ من أولياء الله، أو هذا ما يجب  
أن يتظاهر به أمام الناس، فإذا قال رأياً لم يبال  
مصلحة الناس في سبيل اكتساب الأولياء أمثاله،  
فسعادي لا تهمة في كثير أو قليل، ولعله تأثر بقراءة  
الفاتحة كما ينبغي لرجل يرسل لحيته مترين، فلا تسألني  
السيد عن زواجي وسليه إن شئت عن تفسير آية أو  
سورة...! أما والله لو كان طيباً كما تزعمون لما رزاه  
الله في أبنائه جميعاً.!
- وارتاحت المرأة، وقالت لها بإنكار وألم:
- أهذا كلام يقال عن أكرم الناس وأفضلهم؟  
فصاحت الفتاة بحدة وقد أندرت حالتها بشرّ  
مستطير:
- هو فاضل إن أردت، ووليّ من أولياء الله إن  
شئت، ونبيّ أيضاً إن أحببت، ولكنّه لن يقف حجر  
عثرة في سبيل سعادي..
- وتأملت المرأة للإهانة التي لحقت السيد، لا دفاعاً  
عن رأيه الذي كانت لا توافق عليه في باطنها، ومع  
ذلك قالت مدفوعة برغبة في إغاضة الفتاة والانتقام من  
سوء خلقها:
- ولكنك مخطوبة..
- فضحكت حميدة ساخرة وقالت:
- إن الفتاة حرة حتّى يعقد عليها، وليس بيننا وبينه  
إلا كلام وصنيّة بسبوسة..!
- والفاتحة؟
- المسامح كريم...
- الفاتحة ذنبها كبير.
- فصاحت باستهانة:
- بلّيتها واشربي ماءها!
- فضربت المرأة صدرها وقالت:
- آه يا بنت الثعبان!
- ولاحظت حميدة بوادر الإذعان تلوح في عيني أمها،  
فقال ضاحكة:
- تزوجيه أنت..
- فضربت المرأة كفّاً بكفّ وهي تغالب الضحك، ثم  
قالت بسخرية:
- من حقك أن تبقي صنيّة البسبوسة بصنيّة  
الفريك...
- فنظرت إليها بتحدّ وقالت بغیظ:
- بل رفضت شاباً واخترت شيخاً..
- فضحكت أم حميدة ضحكة مجلجلة وتمتمت «الدهن  
في العتاق»، وتربعت على الكنبه في سرور وقد تناست  
معارضتها الكاذبة، واستخرجت سيجارة من علبة  
سجائرها وأشعلتها، وراحت تدخن بلذّة لم تشعر بمثلها  
من زمن بعيد، فنظرت حميدة إليها بغیظ وقالت:
- تالله لقد فرحت بالعروس الجديد أضعاف  
سروري، ولكنّها المكابرة والمعاندة والرغبة في إغاظتي  
ساعلك الله..
- فحدجتها أمها بنظرة عميقة، وقالت بلهجة ذات  
معنى:
- إذا تزوّج رجل مثل السيد سليم من فتاة، فهو في  
الواقع إنّما يتزوّج من أهلها جميعاً، كالنيل إذا فاض  
أغرق البلاد. أفهمت؟.. أم تحسبن أن تزوّني إلى  
قصرك الجديد وأبقى أنا هنا تحت رحمة الستّ سنّية  
عفيفي وأمثاله من المحسنين؟..!
- قهقهت حميدة وقد بدأت تضفر شعرها، وقالت  
بكبرياء مصطنع:
- تحت رحمة الستّ سنّية عفيفي، والستّ حميدة  
هانم...
- طبعاً... طبعاً يا لقيطة الطوار، يا بنّة  
المجهول...



وقد توقع يوماً صاحباً مرهقاً. ومضى السراقق يتكوّن جزءاً جزءاً، فنصبت الأعمدة، ووصلت بالطنب ومُدت عليها الستائر، وفُرشت الأرض بالرمل، وصُفّت المقاعد على جانبي ممر ضيق يفضي إلى مسرح أقيم في الداخل عاليًا، ورُكبت مكبرات الصوت على مفارق الطريق بين الحسين والغورية، وأجل من هذا كله أن ترك مدخل السراقق بلا حاجز من ستار أو ظلة مما بشر أهل المذق بأنهم سيشاركون في الحفلة من منازلهم، وفي أعلى المسرح عُلفت صورة كبرى لرئيس الحكومة، وألصقت بها من تحت صورة المرشح فرحات الذي تعرفه أكثرية أهل الحيّ لأنه كان ناجراً بالنحاسين. ودار فتیان بإعلانات وجعلوا يلصقونها بالجدران وقد سَطَر عليها بألوان زاهية:

انتخبوا نائبكم الحر إبراهيم فرحات

على مبادئ سعد الأصلية

زهق عهد الظلم والعري

وجاء عهد العدل والكساء

وأرادوا أن يلصقوا إعلاناً بدكان عمّ كامل، ولكنّ الرجل الذي ترك غياب عباس الحلو في نفسه أسراً الأثر تصدّى لهم ساخطاً وهو يقول:

- ليس هنا يا أولاد الحلال، هذا شزم يقطع الرزق..

فقال له أحدهم ضاحكاً:

- بل تجلب الرزق. وإذا رآها حضرة المرشح اليوم ابتاع بسبوستك بالجملة، وأعطاك الثمن مضاعفاً وعليه قبلة.

وانتهى العمل عند منتصف النهار، وعاود المكان هدوءه المعهود، واستمرّ هذا حتّى العصر حين جاء السيّد إبراهيم فرحات في حالة من حاشيته لبعائين الأمور بنفسه، وكان الرجل لا يقبض يده عن الإنفاق، إلّا أنّه كان كذلك ناجراً لا يفوته الاطلاع على دقائق ميزانيته حتّى لا يجوز عليه ما لا ينبغي أن يجوز. وقد تقدّم القوم بجسمه البدين القصير، يرفل في جيبته وقطعانه، ويقلب فيها حوله وجهها أسمر كروياً ذا عيينين ساذجتين. كانت مشيته تنمّ عن الزهو

فاسترسلت الفتاة في ضحكها وقالت:

- مجهول مجهول.. كم من أب معروف لا يساوي شيئاً..

\*\*\*

وعند ضحى الغد ذهبت أمّ حميدة إلى الوكالة سعيدة رخيّة البال، لتقرأ الفاتحة مرّة أخرى. ولكنّها لم تجد السيّد سليم بمجلسه المعهود، واستعلمت عنه، فقيل لها إنّهُ تخلف عن الحضور اليوم، فرجعت إلى البيت غير مرتاحة وقد تولّاهما الجزع، ولما أن انتصف النهار ذاع نبأ في الزقاق بأن السيّد سليم علوان أصيب ليلة أمس بذبحة صدرية، وأنّه في فراشه بين الحياة والموت! وقد عمّ الأسف الزقاق كله، أمّا بيت أمّ حميدة فقد سقط عليه النبا كالصاعقة..

- ١٩ -

واستيقظ الزقاق ذات صباح على صخب وضوضاء. ورأى أهله رجالاً يقيمون سرادقاً على أرض خراب بالصنادقية فيما يواجه زقاق المذق. وانزعج عمّ كامل وظنّه سراقق ميت فهتف بصوته الرفيع «إنا لله وإنا إليه راجعون، يا فتاح يا عليم يا ربّ» ونادى غلاماً من عرض الطريق وسأله عن شخص المتوفّى، ولكنّ الغلام قال له ضاحكاً:

- ليس السراقق ميت، ولكنّها حفلة انتخابية!

فهزّ عمّ كامل رأسه وغمغم «سعد وعدلي مرّة أخرى!» وكان الرجل لا يدري شيئاً على الإطلاق عن عالم السياسة، إن هو إلّا اسم أو اسمان يحفظهما دون أن يفقه لهما معنى. أجل إنّهُ يعلّق في صدر محلّه صورة كبرى لمصطفى النحاس. ولكن كان ذلك لأنّ عباس الحلو ابتاع يوماً صورتين للزعيم ثبت إحداها في الصالون وأهدى الأخرى لصاحبه، ولم ير الرجل في تثبيتها بدكانه من بأس، خصوصاً وأنّه يعلم أنّ هذه الصورة وأمثالها من تقاليد الدكاكين؟ ففي دكان الطعمية بالصنادقية صورتان لسعد زغلول ومصطفى النحاس وفي قهوة كرشة صورة للخديوي عباس. وراح الرجل يرمق العمّال العاكفين على عملهم بإنكار

- نحن جميعاً أبناء حيّ واحد، وكلّنا إخوان..!

والحقّ أنّ السيّد فرحات جاء القهوة خصيصاً لاسترضاء المعلّم كرشة، ذلك أنّه كان قد استدعاه قبل ذلك بأيّام ليستميله إلى جانبه فيضمن صوته وأصوات من يلوذ به من العلّمين وعمّالهم، وقدم له خمسة عشر جنيهًا مقدّم أتعاب ولكنّ المعلّم كرشة أبى أن يمّسها محتجًا بأنّه ليس دون الفوّال - صاحب قهوة الدراسة والذي ذاع أنّه أخذ عشرين جنيهًا - منزلة، وما زال به حتّى حمله على قبول المبلغ واعداً إيّاه بالمزيد. ثمّ افترقا والسيّد مشفق من انقلاب المعلّم عليه: والواقع أنّ المعلّم كرشة لم يخلُ من غضب على «محدث السياسة» هذا على حدّ قوله، وأضر له شرّ التوايا إذا هو لم يبادر إلى إصلاح خطئه. وكان المعلّم كرشة يتقّظ - على غلبة الذهول عليه - في المواسم السياسيّة. وقد اكتسب في شبابه شهرة في عالم السياسة تضارع ما اشتهر به بعد ذلك في الأمور الأخرى! فاشترك في ثورة سنة ١٩١٩ اشتراكًا فعليًا عنيفًا، وقد نسب إليه الحريق الكبير الذي التهم الشركة التجاريّة اليهوديّة للسجاير بميدان الحسين، وكان من أبطال المعارك العنيفة التي دارت بين الثّوار من ناحية وبين الأرمن واليهود من ناحية أخرى. ولما أن خمدت الثورة الدمويّة وجد فيها جدّ من معارك انتخابيّة ميدانًا جديدًا على ضيقه لنشاطه وحماسه، فبذل في انتخابات سنة ١٩٢٤ جهدًا مشكورًا، وصمد ببطولة لمغريات انتخابات سنة ١٩٢٥ - ولو أنّه قيل وقتذاك أنّه قبل رشوة مرشّح الحكومة ولكنّه أعطى صوته لمرشّح الوفد - وأراد أن يلعب الدور نفسه في انتخابات صديقي - فيأخذ النقود ويقاطع الانتخابات - ولكنّ عيون الحكومة راقبته يوم المعركة، وحملته مع غيره في لوري إلى مركز الانتخاب فخرج على إرادة الوفد مرغما لأول مرّة. وكان عام ١٩٣٦ آخر عهده بالسياسة، فطلّقها بعد ذلك وتزوّج التجارة، ورصد الانتخابات فيما تلا ذلك من عهود كما يرصد الأسواق النافقة، وانقلب نصيرًا لكن «يدفع أكثر». وجعل يعتذر عن مرقه بما طرأ على الحياة السياسيّة من فساد، قائلاً إنّ

والثقة، وعيانه تنطقان بالطيبة والسذاجة، ومظهره عامّة يشي بأنّ بطنه أهمّ كثيرًا من رأسه. وقد أحدث ظهوره اهتمامًا كبيرًا في الزقاق وما يحيط به لا لأنهم اعتبروه عروس الليلة، وأملوا من وراء «زفته» خيرًا كثيرًا، خصوصًا وأنهم لم يفيقوا بعد من الصدمة التي دهمتهم في الانتخابات السابقة بفوز مرشّح الدائرة بالتزكية! ثمّ جاءت على أثره جماعات من العلّمان تسير وراء أفنديّ مرّدّة هتافات عالية، كان يصيح بصوت كالرعد «من نائبنا؟». فيجيبونه بصوت واحد «إبراهيم فرحات» فيهتف ثانية «من ابن الدائرة؟» فيهتفون «إبراهيم فرحات» وهكذا، وهكذا، حتّى امتلأ بهم الطريق، وتسربّ منهم كثيرون إلى السراق. وجعل المرشّح يرّد الهتافات برفع يديه إلى رأسه، ثمّ اتّجه نحو الزقاق تتبّعه بطانته وجلّها من رافعي الأثقال بنادي الدراسة الرياضي. واقترب من الحلاق العجوز الذي حلّ محلّ الحلو ومدّ له يده وهو يقول «السلام عليك يا أبا العرب». فانحنى الرجل على يده في استحياء وترحيب، وتحوّل عنه إلى عمّ كامل قائلاً: «لا تتجشّم مشقة النهوض، حلّفتك بالحسين إلّا ما لزمّت مكانك. كيف حالك.. الله أكبر.. الله أكبر، هذه بسبوسة فريدة، وسيعرف الناس جميعًا قدرها هذه الليلة..» وتقدّم مسلّمًا على كلّ من لاقاه، حتّى انتهى إلى قهوة كرشة، فحيا المعلّم، وجلس ودعا رفاهه للجلوس، واستبق إلى القهوة كثيرون حتّى جمدة الفرّان وزبيطة صانع العاهات. وردّد المرشّح نظره بين الحاضرين في سرور، ثمّ قال مخاطبًا المعلّم كرشة:

- قدّم الشاي للجميع..

وابتسم تحيةً لكلّما الشكر التي تناثرت عليه من كلّ حذب وصوب ثمّ التفت صوب المعلّم قائلاً:

- أرجو أن تقوم القهوة بتقديم ما يحتاجه السراق من الطلبات..

- فقال المعلّم كرشة بشيء من الفتور:

- نحن في الخدمة يا سيّ السيّد..

ولم يغب عن المرشّح فتوره، فقال برقة:

فتعالت الأصوات في وقت واحد تقول:

- معاذ الله يا سيّد فرحات. أنت ابن خطنا.

فابتسم الرجل مطمئناً وأنشأ يقول:

- إني كما تعلمون مستقلّ، ولكنّي أستظلّ بمبادئ سعد الحقيقة. وماذا أفدنا من الأحزاب؟ ألا تسمعون مهاتراتهم؟ إنهم مثل (كاد يقول أبناء الحوارى، ثمّ ذكر أنّه يخاطب بعضاً من هؤلاء الأبناء فتدارك نفسه قائلاً): دعونا من ضَرْب الأمثال. لقد اخترت الاستقلال عن الأحزاب حتّى لا يمنعني مانع من قول الحقّ، ولن أكون عبداً لوزير أو زعيم، وسأذكر في البرلمان إذا وفّقنا الله للنجاح أنّي إنّما أتكلّم باسم أبناء المنقّ والغوريّة والصنادقيّة. ولقد ولّى عهد الثروة والنفاق، وهاكم عهداً يشغله شيء عن أموركم العاجلة، كزيادة الأقمشة الشعبيّة والسكر، والكيروسين، والزيت، وعدم خلط الرغيف، وتخفيض أسعار اللحوم...

وسأله سائل باهتمام شديد:

- هل حقّاً تتوقّر هذه الضروريات غداً؟

فقال الرجل بثقة و يقين:

- بغير جدال. وهذا سرّ الانقلاب الحاضر. كنت أمس أزور رئيس الحكومة (ثمّ ذكر أنّه قال إنّهُ مستقلّ فاستدرك قائلاً) وهو يستقبل المرشّحين على اختلاف ألوانهم، فأكدّ لنا أنّ عهده هو عهد الكساء والغذاء. وازدرد ريقه، ثمّ استطرد:

- سترون العجب العجائب. ولا تنسوا الحلوان إذا فزت في الانتخابات.

فسأل الدكتور بوشي:

- الحلوان بعد ظهور النتيجة؟

فالتفت السيّد نحوه وقال وقد داخله شيء من القلق:

- وقبل ظهور النتيجة أيضاً.

فخرج الشيخ درويش من ذهوله وصمته وقال:

- كالصداق له مقدّم ومؤخّر. إلّا أنت يا ستّ الستّات فلا صداق لك، لأنّ حبّك روحي من السماء.

فتحوّل السيّد إلى الشيخ منزعباً، ولكنّه مرعان ما

إذا كان المال غاية المتنازعين في ميدان الحكم فلا ضير أن يكون كذلك غاية الناهخين المساكين! وفضلاً عن هذا وذاك فقد لحقه الفساد هو نفسه، وغلبه الدهول، وركبته الشهوات، ولم يبق في روحه من الثورات القديمة إلّا ذكرى غامضة ربّما كزّ إليها الخيال فأشاد بها متباهياً في بعض ساعات الصفاء حول المجرمة، ولكنّه نبذ في قلبه جميع قيم الحياة الشريفة، ولم يعد يعبأ شيئاً من بعد ذلك إلّا «الكيف» و«الهوى»، وما عدا ذلك «اردم» على حدّ قوله. لم يعد يكره أحدًا، لا اليهود ولا الأرمن ولا الإنجليز أنفسهم. ولم يعد يحبّ أحدًا كذلك، ولذلك كان من العجيب حقّاً أن تدبّ فيه حماسة مفاجئة في هذه الحرب فيتعصّب للألمان، وأن يتساءل- في هذه الأيام خاصّة- عن موقف هتلر، أحقيقة قد أصبح مهذّباً، وآلاً يجمل بالروس أن يسارعوا شاكرين لقبول ما يعرض عليهم من صلح منفرد؟! ولكنّ إعجابه بهتلر كان يتعقد حول ما يذيع عن بأسه وبطشه ليس إلّا، فكان يعدّه شيخ فتّوات الدنيا، ويتعنى له النصر كما تمنّاه طويلاً لعنترة وأبي زيد. بيد أنّه ظلّ محافظاً على خطره في ميدان الانتخابات، لأنّه كان زعيم المعلّمين الذين يتحلّقون بمجمرته كلّ ليلة ومنّ يتبعهم من فعلة وصبيسان وبطانات، ولذلك حرص السيّد إبراهيم فرحات على استرضائه، ونزل عن ساعة طويلة من وقته الثمين يقطعها في قهوته متودّداً مستعطفًا.

وكان يسرق إليه النظر، فمال على أذنه وسأله بصوت خافت:

- أراضٍ أنت يا معلّم؟

فتدلّت شفته عن ابتسامة، وقال في شيء من التحفّظ:

- الحمد لله، أنت الخير والبركة يا سي السيّد.

فهمس في أذنه:

- سأعوّضك عمّا فاتك خيرًا كثيرًا.

وانبسطت أساريره وهو يقلّب عينيه في وجوه الحاضرين، ثمّ قال برقة ورجاء:

- إن شاء الله لن تحيّبوا لنا أملاً.

أقوى من جميع المكيفات، يسري في العروق كالتيار الكهربائي، اطلب علبة عيّنة من موَزَع الإعلان، الثمن ٣٠ مَلِيًّا يا بلاش.

سمعتك بـ ٣٠ مَلِيًّا، والمحلّ مستعدّ للاستماع لملاحظات الجمهور.

وضّح المكان بالضحك مرّة أخرى، وارنّبك المرشّح قليلاً، وتطوّع أحد بطانته بالتسرية عنه فصاح:

- هذا فال حسن.

ثمّ مال على أذنه وهمس قائلاً:

- هلمّ بنا، أمامنا أحياء وأحياء.

فنهض الرجل وهو يقول:

- نستودعكم الله، إلى لقاء قريب إن شاء الله، اللهمّ حقّق الآمال.

وحدج الشيخ درويش بنظرة رقيقة وقال له وهو يهمّ بمغادرة القهوة:

- يا سيّدنا الشيخ ادع لي.

فخرج الشيخ درويش عن صمته قائلاً وقد بسط ذراعيه:

- الله يجرب بيتك..!

وما أذنت الشمس بالمغيب حتّى كان السراق قد ضاق عن القاصدين وتناقل الحاضرون أنّ سياسياً كبيراً سيلقي خطاباً هاماً. وذاع أنّ شعراء وزجّالين سيتبارون على المسرح. ولم يطل الانتظار فارتقى المسرح قارئ وتلا ما تيسّر من الذكر الحكيم. وأعقبته فرقة موسيقيّة من شبوخ مهّدين مهلهلي الثياب فعزفوا النشيد الوطني، وكان لإذاعة المكبرات لموسيقاهم أثر واضح في دعوة الغلمان والصبية من الأزقة والحواري حتّى سدّوا الصنادقيّة سدّاً. وتعالى الهتاف والضوضاء. وانتهى النشيد دون أن يبرح رجال الفرقة أماكنهم، حتّى ظنّ أنّ الخطباء سيلقون خطبهم على أنغام الموسيقى. ثمّ كانت المفاجأة السارّة إذ دقّ بعضهم أرض المسرح حتّى شمل الصمت الجمع المحتشد، ثمّ بدأ مونولوجست معروف في لباسه البلديّ، فما كادت تراه الأعين المحدّقة حتّى جنّ جنونهم فرحاً وسروراً، وراحوا يهلّلون ويصفّقون، وقال المونولوجست وتفتّن.

أدرك حين وقع بصره على زيّه - الجلباب ورباط الرقبة والنظارة الذهبية - أنّه من أولياء الله الصالحين. فارتسمت ابتسامة على وجهه الكرويّ وقال برقة:

- أهلاً وسهلاً بسيّدنا الشيخ..

ولكنّ الشيخ درويش لم يجبه بكلمة واستغرق في ذهنه. ثمّ انبرى أحد تابعي المرشّح قائلاً:

- لكم ما تريدون، ولنا القسم بكتاب الله، وبالطلاق..

فقال أكثر من صوت:

- وجب...

وأخذ السيّد فرحات يسأل الحاضرين عن تذاكرهم الانتخابية، ولمّا أن سأل عمّ كامل أجابه:

- ليس لي تذكرة، ولم أشارك في أيّ انتخاب على الإطلاق..

فسأله المرشّح:

- ابن مسقط رأسك؟

فقال بغير مبالاة:

- لا أدري...

وضّح الجلوس بالضحك، وشاركهم السيّد فرحات، ولكنّه غمغم دون بأس:

- سأسوّي هذه المسألة البسيطة مع شيخ الحارة.

وجاء فتى بجلّاب، حاملاً مجموعة من الإعلانات الصغيرة، فانتهاز فرصة امتلاء القهوة بالجلوس وراح يفرّق فيهم إعلاناته، وظنّ كثيرون أنّها إعلانات انتخابية، فأقبلوا عليها باحتفاء مجاملة للسيّد المرشّح، وتناول السيّد فرحات إعلاناً وقرأه فإذا فيه:

حياتك الزوجيّة ينقصها شيء.

عليك باستعمال عنبر السنطوريّ.

عنبر السنطوريّ

مركبّ بطريقة علميّة خالية من الموادّ السامة محلّل بعرفة وزارة الصحة رقم ١٢٨ وهو منعش ومفرّش ويعيدك من الشيخوخة إلى الصبا في خمسين دقيقة.

طريقة الاستعمال:

خذ منه قدر القمحة على كناية شاي حلّو كثير، فتجد عندك النشاط. ومقدار ربع الحقّ دفعة واحدة

تتم باستغراقها الأول، وظلّ شعورها متنبها إلى العينين العارمتين، وجعلت حدقتها تملان ناحية اليسار، وساورها شكّ وقلق، فالتفت مرّة أخرى فالتفت بالعينين تتفرّسان فيها بالقحة نفسها، وقد نمتا. إلى ذلك - عن ابتسامة غريبة. ولم تتمالك نفسها فأعدت رأسها إلى موضعه الأول في شيء من الحلة وقد ملأها الحنق. أحفقتها هذه الابتسامة الغريبة لأنها أفصحت عن ثقة وتحذ لا حد لها، فهيّجت موضع الالتهاب والانفجار من نفسها الشرسة المتفجرة، وشعرت برغبة جامحة أن تنشب أظافرها في شيء ما، في رقبته لو أمكن مثلاً! وصمّت على أن تهمله على نفورها من هذه الطريقة السلبية في العراك، وإن ظلّ شعورها قوياً بعينه الوقحتين! ونغص عليها سرورها، وركبتها روح الشرّ التي تلتسها بسرعة جنونية. وكأنّ صاحب العينين لم يقنع بما فعل، أو كأنه لا يبالي هذه النار التي شَبّها، فراح يشقّ طريقه إلى موضع في طريق بصرها الشاخص إلى السراق متعمداً بلا شكّ أن يعترض سبيلها، ووقف هناك مولياً إيّاها ظهره. كان طويل القامة، نحيفاً عريض المنكبين، حاسر الرأس، غزير الشعر، مرتدياً بدلة ذات لون ضارب للاخضرار، متأنفاً في ملبسه ومظهره، فلاح غريباً في هذا الوسط الذي يكتنفه، وسرعان ما أنسها الدهشة ما تولّاهما من حق وتوحش. هذا أفندي وجيه، وأين من زقاقها الأفنديّة؟! ترى هل يعاود النظر وسط هذا الزحام...

ولكن لم يكن شيء ليردعه فما عتّم أن التفت وراءه مرسلًا نحوها نظرًا عارماً. وكان وجهه نحيلًا مستطيلاً، لوزيّ العينين، كثيف الحاجبين، تنطق نظرة عينيه بالحدق والقحة. ولم يكتف بهذا التفرّس على الملأ فصوّب فيها نظره، وصعد من شبشبهها المنجرد إلى شعرها، حتّى انسأقت وهي لا تدري إلى النظر إلى عينيه كأنما تسبر ما تركه تفحصه من أثر، فالتفت عيناهما، ولاحت في عينيه هذه النظرة المثيرة الوقحة الواشية بما يتيه به من ثقة وتحذ وظفر، فتناست دهشتها، وعادوها الحنق والغيط والرغبة في العراك،

ورقصت امرأة شبه عارية وهي تهتف المرّة تلو المرّة: «السيد إبراهيم فرحات.. ألف مرّة.. ألف مرّة». وجعل الرجل المشرف على المكبرات يصيح في المذياع (السيد إبراهيم فرحات أحسن نائب. ميكروفون بهلول أحسن ميكروفون). واتّصل الغناء بالرقص والهتاف، وانقلب الحيّ جميعاً إلى مولد.

ولما عادت حيلة من مشوارها المعهود وجدت الحفلة في إبان ازدهارها وسرورها. وكانت تظنّ كأهل الزقاق كافّة أنّها ستكون حفلة هتاف وخطب (بالنحو) على حدّ تعبيرهم. وما إن رأت المنظر البهيج حتّى شملها السرور وتلفّت يمنة ويسرة باحثة عن مكان تشاهد منه حفلة الطرب والرقص التي نادرًا ما ترى مثلها في حياتها. ومضت تشقّ طريقها بصعوبة بين الغلّبان والبنات حتّى بلغت مدخل الملق، واقتربت من جدار الصالون، وارقت حجرًا منغرسًا لصق الحائط، وتطلّعت باهتمام وسرور إلى السراق.

كان الغلّبان والبنات يكتنفها من كلّ جانب، ووقفت نسوة كثيرات يقبضن على أيدي أطفالهنّ أو يحملنهم على أكتافهنّ. واختلط الغناء بالهتاف بالحديث بالصياح بالضحك بالعويل. واستولى المنظر الخلاب على لبّها فأنجذبت روحها إليه، والتمع السرور في عينها الغاتنتين، وفهما المفتر عن ابتسامة لؤلؤيّة. وكانت متلفعة بملاءتها فلا يبدو منها إلّا وجهها البرنزّي، وأسفل ساقها، وما انحسر عنه طرف الملاء من مضمّ شعرها الفاحم. ورقص قلبها سرورًا، وتنبّهت حواسّها جميعًا، وجرى دمها حارًا دافقًا، مرّها المونولوجست سرورًا لم تشعر بمثله من قبل، حتّى شعورها المرّ القارص نحو الراقصة لم يستطع أن يفسده عليها. وظلّت مستغرقة في ما ترى غير ملفية بالآ إلى هبوط الظلام حتّى أحسّت شيئًا ما يجذب عينها نحو اليسار، كأنه نداء يدعو حواسّها إليه، أو ذاك الشعور الذي يقلقنا إذا أهدت فينا عينان ولبّته على رغمها فتحوّلت عن المونولوجست عاطفة رأسها إلى يسارها فالتفت عيناها بعينين تتفرّسان فيها بقوة وقحة! ولبنا مقدار ثانية ثمّ عادت إلى هدفها، ولكنّها لم تستطع أن

وجدت في هاتين العينين ما لم تجد عند أحد من قبل، وقرأتها بوضوح على ضوء نفسها الغاضبة المتعطشة للعراك. وبدا الرجل وكأن شيئاً لا يمكن أن يقفه عند حد فتحرك مصعداً في الزقاق بقدمين ثابتين حتى خيل إليها أنه قادم إلى البيت. ثم مال إلى قهوة كرشة، واختار مجلساً ما بين المعلم كرشة وأريكة الشيخ درويش حيث كان يجلس عباس الحلو في الأيام الخوالي مستطعلاً إلى شبحها وراء الخصاص. خطا بجلوسه هذه خطوة جريئة. ولكنها لم تراجع، لبثت بموقفها مرسلة عينها إلى المسرح وإن كانت لا تكاد تدري بما يدور عليه، شاعرة ببصره يصوب نحوها من آونة لأخرى في ومضات متقطعة كالكشف الكهربائي... ولم يفارق الرجل مكانه حتى انتهت الحفلة وأغلقت النافذة.

وما انفكت حميدة تذكر هذه الليلة فيما أعقب ذلك من ليالي وعهود...

#### - ٢٠ -

ولم ينقطع بعد تلك الليلة عن زقاق المدق، فكان يجيء عند العصر ويتخذ مجلسه المختار، ويقطع وقته بتدخين النارجيلة واحتساء الشاي. وقد أحدث ظهوره الطارئ - بوجاهته وأناقته - دهشة في القهوة، ولكن سرعان ما سحبت العادة عليها ذيول الإهمال، فليس من الخوارق أن يقصد أفندي مثله قهوة مفتوحة لكل طارق. بيد أنه أنعب المعلم كرشة بما كان يقدم عند الحساب من أوراق نقدية ضخمة لا تقل في كثير من الأحيان عن الجنيه، كما أنه أسر سنقر بما كان ينفحه من بقشيش لا عهد له به من قبل. وراقبت حميدة مجيئه يوماً بعد يوم بعين متفتحة ونفس متوترة. ولكنها أحجمت بادئ الأمر عن خروجها إلى فسحتها اليومية لرقّة ثيابها وتفاهتها، حتى ضاقت بالبيت ضيقاً شديداً. ثم أغضبها إحجامها وعدته نوعاً من الجبن لا يسيغه طبعها الجريء، وعزّ عليها أن يقضي مخلوق عليها بالتزام شيء تستكرهه، فنشبت معركة جديدة في صدرها الذي لا يستريح من المعارك. وقد رأت

فغلا دما غلياناً، وهمت أن تستمه علانية. همت أكثر من مرة، ولكنها لم تفعل، وتولّاهما قلق وانفعال وضائق بوقفتهما، فنزلت عن الحجر، ومرت إلى الزقاق مندفعة على عجل، فقطعته في ثوان. وعندما اجتازت عتبة البيت شعرت برغبة في الالتفات إلى الوراء، ولكنه تمثل لعينها في وقته مرسلأ عينه في وقاحة وثقة وقد ازدادت ابتسامته افتضاحاً، فرغبت عن رغبتها، وارتقت السلم متعجّلة حانقة تلوم نفسها على تساهلها معه وتفريطها في تأديبه. وأنجّمت نحو حجرة النوم وخلعت ملأها، ثم دلفت من النافذة المغلقة، ونظرت إلى الطريق من خلال خصاصها، وبحث عينها عن ضالتها حتى استقرتاً عليه عند مدخل الزقاق، وكان يرمق النوافذ المطلّة على الزقاق باهتمام وقد فارقت عينه ابتسامة الثقة والتحدّي وحلّ محلها احتفال وتطلع. وسرّها مظهره الجديد فانفتاً حنقها، ولبثت بموقفها تستلذّ حيرته، وتنقم لغيظها وحنقها. أفندي وجيه ما في ذلك من شك، وغير السابقين بلا جدال، وقد أعجبته وإلا فقيم هذا الاهتمام الشديد. وأما نظرة عينه فقاتلها الله من نظرة تستوجب أعنف عراك... فيم هذه الثقة التي لا حد لها؟ أيجسب نفسه بطل الأبطال أو أمير الأمراء؟ وخالط ارتياحها حق، ووجدت رغبة غامضة إلى العنف والتحدّي. ولكنه بدأ ييأس من النوافذ، وأعياء البحث عنها، وخافت أن ينصرف عن تطلّعه ويغيب في الزحام. وتردّدت لحظة، ثم أدارت الأكرة، وفرّجت ما بين مصراعي النافذة عن زيق ووقفت وراءه كأنما لتشاهد الحفلة. كان مولياً الزقاق ظهره، ولكنها كانت مطمئنة إلى أنه سيعاود البحث والفحص والاستقصاء. وقد فعل، فتلّقت رأسه مرة أخرى وتردّد بين النوافذ، حتى علق بالزيق فأضاعت صفحة وجهه، ولبث لحظات كالمرتاب، ثم ارتسمت على شفتيه الابتسامة الوقحة، وردّ إليه مظهر التيه والخيلاء بأفطع مما كان وأدركت أنها انزلت إلى خطأ لا يُغتفر بظهورها وثارت ثائرتها واستولى عليها الحنق والغیظ، ووجدت في ابتسامته تحدياً يدعوها للنزال!

من الرجال. القوّة والمال والعراك! ولم تكن تدرك مشاعرها بوضوح وجلاء، أو تدري حاجات نفسها المتنوية، فتحرّرت بين انجذابها إليه، وبين رغبتها المضطربة في الأخذ بتلابيبه، ثم وجدت في الانطلاق مهرباً من سجنها وحيرتها معاً، وفي فسحة الطريق مجالاً تسير فيه نفسها وغرائزها. في الطريق يجوز أن يتعرّض لها، فتتاح لها فرصة أن تتحدّاه كما تحدّاهَا، وأن تنفّس عن غضبها وحنفها، وأن تلقي هذا النداء الخفيّ الذي يبيب بها إلى النزال والعراك... والانجذاب!

\*\*\*

وفي عصر يوم من تلك الأيام، أخذت زيتها، والتحفّت ملاءتها وغادرت الشقة لا تعباً شيئاً في الوجود. وانتهت إلى الطريق في أقلّ من دقيقة، ثم قطعت الزقاق لا تلوي على شيء. وخطر لها خاطر وهي تميل إلى الصناديق، ألا يحقّ له أن يظنّ بخرجتها هذه الظنون؟ ألا تزعم له نفسه المغرورة أنّها غادرت بيتها عمداً لتلقاه في الطريق! خصوصاً وأنّه لا يدري شيئاً عن نزعتها اليومية المعتادة، وقد جاء آيماً فلم يرها يوماً تغادر البيت. فسيبتعها على الأثر، ويتعرّض لها في الطريق وقد أبت أن تقيم وزناً لظنونه، ورحّبت بما عسى أن يدفعه إليه الغرور، وتوثّبت للقائه بنفس تتحرّق على التحديّ والعراك متوقّعة لِيّاه بأن تمحو عن شفّيته هذه الابتسامة الظافرة السخيفة. وبلغت في سيرها الوئيد السكّة الجديدة، فتخيّلت وقد نهض من جلسته بالقهوة وغادرها متعجّلاً حتّى لا يضلّها. ولعلّه ينحدر الآن بخطواته الواسعة إلى الغوريّة، ولعلّه يفتّش عنها بعينيّه المتفرّستين الجسوريتين. إنّها تكاد تراه بظهرها وهو يهرول بجسمه الطويل، بينما لا تكاد ترى عينها ما يضطرب به الطريق من أناس وسيّارات وعربات. ترى هل أدرك بصره ما خرج في ابتغائه؟.. وهل عاودته الابتسامة المتحمّية الظافرة؟.. قاتله الله من حيوان يجيحل ما ينتظره! فلتواصل السير دون أن تلتفت إلى الوراء، حذار من الالتفات، فالتفاتة واحدة شرّ من الهزيمة. إنّهُ وقع جريء، ولعلّه لا يفصلها الآن سوى خطوات. ترى ماذا هو فاعل! أبقيع بتأثرها

الأوراق النقدية التي كان يتعمّد تقديمها لسنقر تحت بصرها، وفطنت بطبيعة الحال إلى دلالتها. وربّما كانت هذه لغة ساقطة في غير هذا المكان، أمّا في زقاق المدقّ فهي لغة بليغة لا يجيب لها أثر، ومع أنّ الرجل كان شديد الحرص على ألاّ يبدو منه ما يتنبّه أحدًا إلى الباعث الحقيقيّ لغشيانه القهوة، إلّا أنّه كان لا يعدم فرصة فيسترق النظر إلى خصائص النافذة، أو يضع ميسم النارجيلة على فيه زاماً شفّيته كأنّه يقبله ثم يرسل الدخان إلى علّ كأنّما يرسل القبلّة في الهواء إلى شبّحها الجاثم وراء النافذة. وكانت ترى ذلك باهتمام، وتساورها أحاسيس متباينة لا تخلو من لذة ولا تخلو من حنق. وقد حدّثتها نفسها بأن تنطلق إلى نزعتها ملقية بمخاوفها تحت نعلها، وأن تتلقّاه إذا سوّلت له نفسه التعرّض لها. الأمر الذي لا يداخلها فيه أدنى شكّ. بما تعهده في نفسها من قحة حقيقة بأن تهزم قعته شرّ هزيمة، وأن تسلقه بلسانها سلقاً لا ينساه مدى الحياة. وإنّه لأعدل جزاء على زهوه الكاذب، وابتسامته الظافرة، وتحديّيه الوقح. تبا له، ما الذي يدعوه لهذا التظاهر بالغلبة والقهر؟! لا ارتاح لها يال حتّى تمرّغ أنفه في الرغام، ولكن آه لو كانت تملك ملاءة حسنة أو شيبباً جديداً!...

وقد اعترض سبيل حياتها وهي تعاني اليأس المرير، إذ سقط السيّد سليم علوان بين حيٍّ وميت بعد أن منّاها يوماً وبعض يوم بالحياة العريضة التي تهيم بها، وبعد أن نبذت من أحلامها عبّاس الحلو ولفظته. وعلمت بعد ذلك أنّه لم يعد ثمة أمل في ذاك الزواج المأمول، فرّدت على رغمها خطيبة للحلو وقد ازدادت له مقنناً ونفوراً. وأبت أن تسلّم بسوء حظّها، وراحت تنتهر أمّها، وتتهمّها بأنّها حسدتها وطمعت في مال الرجل فخيّب الله آمالها. على هذه الحال لاح الرجل الجديد في أفق حياتها. وقد بعث ظهوره في نفسها ثورة عارمة جارفة استتارت كوامن غرائزها جيّماً. أغضبها زهوه، وأحنقها تحديّيه، وأغرّتها وجاهته، وأيقظتها فحولته وجماله. جذبتها نحوه قوّة خفية من غرائزها المظمورة، ووجدت فيه ما لم تجتمع لسواه تمّن عرفت

وتصاعد الدم إلى وجهها ورأسها، وهولت إلى البيت لا تكاد ترى ما بين يديها، وارتقت السلم ذاهلة من الخجل - ولو أن الخجل ليس من سجايها - وما كادت الحجرة تحتويها حتى انفجرت براكينها واستولى عليها غضب جنوني، فطرحت الملاءة على الأرض وارتمت على الكنبه. لمن إذا يجيء القهوة كل مساء؟ وكيف يسترق إليها النظر بعينه الفاجرتين؟.. ولن يرسم تلك القبله الخفيه في الهواء؟.. وتناوب قلبها مشاعر الخيبة والحيرة والخجل والغضب. ثم انثالت عليها الفكر والخاطر: أيمكن ألا يوجد ارتباط بين مجيئه كل مساء وبين أفكارها، وأن ليست هذه الأفكار إلا أوهامًا وأحلامًا كاذبة؟... أم إنه تعمد أن يحملها اليوم تأدياً لها وتعذيباً فهو يعيث بها عبث القوي بالضعيف؟... أتنبهض إلى القلة وتقذفه بها فتحطم رأسه وتروي غلة الحنق والانتقام؟ واستولى عليها شعور محض بالامتعاض لم تشعر بمثله من قبل، حتى لقد تساءلت في حيرة عما أصابها. بيد أنها لم تكن تجهل ما كانت تريد. كانت تريد بلا شك أن يتبعها وأن يتعرض لها في الطريق.

ثم ماذا؟ ثم تقذفه بحمم الغضب، والحنق والوعيد. لماذا؟ تحذياً لثقتة بنفسه وزهوه وابتسامته الواشيه بالظفر. كانت ابتسامه الظفر أصل البلاء كله، فأدركت منزلها بعقلها وغريزتها وروحها وجسمها. هي ابتسامه الصراع والعراك! وإنما على مساجلتها لقادره، لا بل إنها لم تخلق إلا لتلقى هذه الابتسامه ومثيلاتها فتجيب عليها. كانت تنأسى على فوات معركة طالما ترقبها بلهفه وشغف. وكانت في أعماقها تتحرق إلى أن تقيس قوتها بقوة هذا الرجل ذي الفحولة والجاه والخيلاء. هكذا تيقظت في عنف وشدة، وانبتت في نفسها روح اللهفه والتمرد والعراك والشوق..

لبثت على الكنبه فريسه لهماجها الوحشي، ثم تلفتت إلى النافذه ترمقها شرراً. وجعلت تترجح حتى صارت وراءها، ثم أرسلت بناظرها من خلال الحصاص، ترى ولا ترى، ملتفحة بالعمته التي غشيت

كالكلب؟ أم يسبقها قليلاً ليرصا نفسه؟ أم يحاذيها ويأخذ في مخاطبتها؟ وواصلت السير متنبهة قلقه مترقبه متوثبة تتوقع في كل خطوة جديداً وتتفحص عينها جميع الذين يلحقون بها من المارة، وتنصت بيقظة للأقدام التي تتحرك وراءها. أرهاقها الانتظار والترقب والتوثب، وكادت تراود إرادتها في التلفت. بيد أنها استعادت عنادها وفظاظتها وسارت لا تلوي على شيء، فما تدري إلا وصويحاتها من بنات المشغل يقبلن نحوها غير بعيدات، فخرجت من غيبتها، وارتسمت على شفيتها ابتسامه، ثم سلمت، ودارت على عقبها تسير وسطهن، وهن يسألنها عن سر غيابها أياماً على غير عادة واعتلت بالمرض وهي تعاین الطريق ل ترى موقعه منه. ومضت تنازعهن الحديث والمزاح وعيناها تترددان من طوار لطوار، ترى في أي مكان ينزوي؟ لعله يراها من حيث لا تراه، ومهما يكن من أمر فقد أفلتت من يديها فرصة تأديبه اليوم. كانت ترجو أن يتعرض لها بخيلائه فتزفر عليه غضبها وترعد فرائصه، ولكنه نجا من مغالبها. ولكن أين يكون؟ أيمكن أن يكون متأخراً عنهم إلى وراء؟ ولم تستطع أن تنام رغبته في التلفت هذه المرة. فالتفتت، وفحصت الطريق بصبر حاد، ولكنه لم يكن هناك، لا إلى وراء ولا إلى الأمام ولا إلى اليمين ولا إلى اليسار! لعله تأخر قليلاً في الإفلات من القهوة فأضلها، ولعله يتخبط الآن في الطريق لا يدري مكانها! وسرعان ما فترت حاستها وخذ نشاطها. وعندما انتهت إلى الدراسة خطر لها أنه ربما بدا لها هنا فجأة كما بدا يوماً عباس الحلو وتجدد الأمل، ونشطت الحياسه فودعت آخر صويحاتها، وعادت متمهله تقلب عينيها في جنبات الطريق، ولكنه كان خالياً أو كان خالياً ممن تبتغي. وقطعت ما تبقى منه بقلب كسير!... تنوء بهزيمة نكراء. وصعدت مع أرض الزقاق، وأجهت عيناها إلى القهوة، وأخذ المعلم كرشه يبدو لها شيئاً فشيئاً ابتداء من طرف عباءته فكشفه الأيسر حتى رأسه المتطامن، ثم.. رباه ما هذا؟.. إنه لم يبرح مكانه، قابضاً على خرطوم نارجيلته!.. وخفق قلبها بعنف،



- لقد حُطبت قلبها ولكنها مستزوجة قبلك ..  
 وأثارها قولها فقالت بحدة وخيلاء:  
 - إن خطيبي مشغول بإعداد مستقبل باهر ..  
 تباهت بالحلو على رغمها، ثم ذكرت متحيرة  
 السيد سليم علوان - قتله الله ككل شيء غير ذي نفع -  
 فتنزى قلبها ألهاً. وتولّاهما الوجوم بقية الطريق.  
 شعرت بأن الحياة تعاندها وتكيد لها، والحياة هي  
 العدو الوحيد الذي لا تدري كيف تأخذ بتلابيبه.  
 وسارت في رفقة الفتيات حتى آخر الدراسة. ثم  
 ودعت أخراهن ودارت على عقيها لتعود من حيث  
 أتت. وعلى بعد أذرع رآته - رَجُلها دون غيره - واقفاً  
 على الطوار كالمتنظّر! وثبتت بصرها عليه لحظات تحت  
 تأثير المفاجأة التي دهمتها، واعتراها شيء من الارتباك  
 عضّت عليه أصابع الندم بعد فوات الفرصة، ثم  
 واصلت السير في شبه ذهول. لم تكن مستعدة لهذا  
 اللقاء، ولم يعد بداخلها شك في أنه كان يتأثرها طوال  
 هذا الوقت. وهكذا يحكم هو التدبير في هدوء،  
 ويدهمها هي في كل مرة الارتباك والذهول. وأخذت  
 تنادي قواها المبعثرة وتستعدي وحشيتها، وقد آلمها أشدّ  
 الألم أنها لم تحب زيتها كما ينبغي، وأحدث لها ذلك غير  
 قليل من القلق. كان الجو متخشفاً تحت سمرة  
 المغيب، والمكان كالمقفر، وكان الرجل يتظر دونها في  
 هدوء، بوجه وديع لا أثر فيه لنظرة التحدي ولا  
 لابتسامة الظفر، فلما حاذته خاطبها بصوت منخفض  
 قائلاً:

- من يتحمّل مرارة الصبر يبلغ ...  
 ولم تسمع تَمّة عبارته لأنه غمغمها، فحدجته بنظرة  
 حادة، ولم تنبس بكلمة، وسارت لحال سبيلها،  
 فسايرها وهو يقول بصوته الهادئ العميق:  
 - أهلاً وسهلاً. كدت أجنّ بالأمس لآني لم أستطع  
 الجري وراءك حذر العيون. وكنت أنتظر مثل تلك  
 الخرجة صابراً يوماً بعد يوم، فلما جاءت الفرصة دون  
 أن أستطيع انتهازها كدت أجنّ ..  
 إنّه يطالعها بوجه وديع، غير الوجه الذي أهاجها،  
 فلا تحدي ولا ظفر، وكلامه أشبه بالشكوى والتروّج

الحجرة. رآته في جلسته الهادئة، يدخن النارجيلة في  
 طمأنينة وسلام، تلوح في عينيه الثقة بالنفس والحدق،  
 وكأنه يعيش في عالم وحده منقطع عَمّا حوله، وقد خلا  
 وجهه من آثار هذه الابتسامة المثيرة. ها هو هادئ  
 مطمئنٌ بينما هي تشتعل ناراً. وتفرّست فيه بقوة وحنق  
 وما تزداد إلا انفعالاً وحيرة. وظلّت ملازمة مكانها حتى  
 نادتها أمّها لتناول العشاء فغادرت الحجرة. وقطعت  
 ليلة مملّة مضنية، ونهاراً كثيلاً، وانتظرت عصر اليوم  
 الثاني في قلق متواصل. لم يكن بداخلها شك في مجيئه  
 في الأيام الماضية. أما اليوم فباتت ترقّب قلقة شاردة  
 النفس. وراحت تراقب ضوء الشمس وهو ينحسر عن  
 أرض الزقاق ويرقى ويثدّ جدار القهوة. ومن عجب  
 أن خامرها الخوف من عدم مجيئه، ولعلّها ابتدعت  
 ذلك بغريزة المحارب المشاكس وتكيده. وجاء مواعده  
 دون أن يبدوله أثر، وتصرّمت دقائق، فمن المؤكّد أنّه  
 لا يحضر اليوم. بيد أنّ هذا التخلف قد حقّق ظنّها،  
 فأدركت أنّه تعيّب متعمداً: وارسمت ابتسامة على  
 شفيتها وتهدّدت من الأعياق ارتياحاً. لم يكن من شيء  
 واضح يدعو للارتياح حقاً، ولكن غريزتها أسرت إليها  
 بأنّه إذا كان اليوم قد تحلّف عن الحضور متعمداً فلا  
 شك أنّه بالأمس تعمد كذلك ألا يطاردها، فليس ثمة  
 إهمال أو عدم مبالاة، لا بل على العكس من ذلك فإنّه  
 بخوض غمار المعركة بمهارة وحدق، وإنّه لصامد في  
 الميدان حتى في هذه الساعة التي لا يرى له أثر فيها.  
 وارتاحت إلى سرار غريزتها، واطمأنت إليه، وتوثّبت  
 للنضال بعزم جديد. ونبا بها المكوث في البيت فتلقّعت  
 بملاءتها وغادرت البيت دون أن تعني بزيتها كما اعتنت  
 بها أمس. ولفح الهواء البارد في الطريق وجهها  
 فأنعشها، وذكرها انتعاشها بما قاست يومها من قلق  
 وفكر، فغمغمت ساخطة ويا لي من مجنونة! .. كيف  
 جسّمت نفسي هذا العذاب؟! ألا فليزدرده الموت!  
 واستحّثت خطاها حتى التقت بصوحيباتها. ثم عادت  
 معهنّ. وقد أُنذرنا بأنهنّ سيفقدن قريباً إحداهنّ التي  
 مستزوجة من زنفل صبيّ دكان طعميّة سيدهم. وقالت  
 إحدى الفتيات:

- الأصل أن نتبع الحسنة أينما سارت. هذه هي القاعدة. فإذا ما سارت ولم يتبعها أحد فهذا هو الشذوذ الموجب للإنكار حقاً، أو بمعنى آخر إذا سرت ولم يتبعك أحد فهذا إيذان بقرب القيامة..

ومرّت عند ذاك بعطفه العوارجة حيث يقيم بعض صويحباتها فتمنّت أن يرينها وهذا الأفندي يغازلها! ولاح لها ميدان المسجد غير بعيد فانتهرته قائلة:

- ابتعد.. هذا حيّ يعرفني!

وكان يتفحصها بنظر ثاقب، فأيقن أنّها تجاذبه الحديث وهي لا تدري، أو وهي تدري، فارتسمت على شفّته ابتسامة لورأتها لأعادت إلى رأسها ذكريات وحشية وقال لها:

- لا هذا الحيّ حيّك، ولا هؤلاء الناس أهلك! أنت شيء آخر، إنك ها هنا غريبة..!

فأمّن قلبها على قوله، وسرّت به سروراً لم تشعر بمثله لقول قبله. واستدرك الرجل قائلاً كالساخط:

- كيف تسيرين بملاءتك بين هؤلاء الفتيات!.. أين هنّ منك؟ أميرة في ملاءة ورعية ترفل في الثياب الجديدة..

فقالت بحدة:

- ما لك أنت ولهذا؟ ابتعد..

فقال محتجاً:

- لن أبتعد أبداً..

فسألته بحدة:

- ماذا تريد؟

فقال بجرأة عجيبة:

- أريدك أنت، ولا شيء غيرك..

- ذبحة..

- ساعك الله. لماذا تغضبين؟.. ألسنت في الدنيا لتؤخذني؟.. وإنّي لأجلك..

ومرّاً في طريقها ببعض الدكاكين، فنهزته قائلة:

- لا تحطّ خطوة واحدة، وإلا..

فقال مبتسماً:

- الضرب..

ونخق قلبها، وتألّقت عيناها، فقالت:

والاعتذار، وهي إنّما توثّبت لغير هذا فما عسى أن تصنع الآن؟ أتملّ شأنه وتحثّ خطاها فينتهي كلّ شيء؟ تستطيع أن تفعل هذا لو أرادت. ولكنّها لم تجد مشجّعاً من قلبها، وكأنتا تنتظر هذا اللقاء منذ اليوم الأوّل بشعور امرأة ليس الحياء من سجاياها.

وكان الرجل من ناحيته يمثل دوره بمهارة، ويحيك أكذوبة ماهرة، فلم يكن خوفه الذي أقعده أمس عن تعقبها، ولكنّه استوحى غريزته اليقظة وخبرته الفائقة فأوحى إليه بأنّ القعود في حالته خير من العجلة، كما أوحى إليه اليوم بأنّ يتلصّب بهذا القناع الزائف من الأدب والوداعة. وعاد يقول لها برقة:

- تمهلي قليلاً... عندي..

فالتفتت إليه وقاطعته بحدة:

- كيف سوّلت لك نفسك أن تخاطبني!.. أتعرفني

يا هذا؟!

فقال بأدبه الزائف:

- كيف لا؟.. نحن أصدقاء قدماء.. وقد رأيتك في الأيام الماضية أكثر ممّا رآك الجيران في أعوام طوال. وفكرت فيك أكثر ممّا فكّر ألصق الناس بك مدى عمره، فكيف لا أعرفك بعد هذا كلّهُ؟!

تكلم برقة ولكن بلا تلثم ولا تهذج.. وازدادت هي تعلّقاً بكلامه ورغبة في مساجلته. وتولّاهما شعور بالاستهانة، هو السلاح الوحيد الذي تستطيع أن تشهه في وجه عناد الحياة. بيد أنّها لم ترد الخروج على «سنة التصنّع والتمثيل»، فقالت بحدة وهي تحرص على ألاّ يعلو صوتها فيفضح جرسه الخشن:

- لماذا تتبعني؟

فابتسم الرجل وقال بدهشة:

- لماذا أتبعك؟.. لماذا أهمل أعمالي وألزم القهوة تحت نافذتك؟ لماذا أهجر الدنيا جميعاً مقيماً بزقاق المذق؟.. ولماذا انتظرت هذا الزمان الطويل؟!

فقطّبت وقالت بازدياء:

- لست أسألك حتّى تخيبيني بهذه السخافات، ولكنّي أنكر عليك أن تتبعني وتخاطبني.

فقال بلهجة جديدة تنمّ عن الثقة واللباقة:

- صدقت.

فقال وهو يتسهم ابتسامة خبيثة:

- سنرى. سأتركك الآن على رغمي، ولكنني سأنتظرك كل يوم.. لن أعود إلى القهوة حتى لا أثير الشبهات في الزقاق، ولكنني سأنتظر كل يوم، مع سلامة الله يا أجل من حلت الأرض...

واصلت السير وقد انبسطت أساور وجهها ولاح فيه البشر والسرور والغرور «أنت شيء آخر».. أجل، وماذا قال أيضًا؟ «إنك ها هنا غريبة».. «ألس في الدنيا لتؤخذني؟».. وإني لأخذك».. وماذا قال أيضًا؟ «الضرب».. «داخلتها لذة جنونية، وسرور وحشي، فقطعت الطريق لا تكاد ترى شيئًا. ولما أوت إلى غرفتها واستردت أنفاسها، ذكرت في عجب وزهو أنها استطاعت أن تسير رجلًا غريبًا وتحادثه بلا حياء ولا ارتباك!... وأنها تستطيع أن تفعل ما تشاء بلا تردد، وغمرتها موجة عارمة من الاستهانة والاستهتار حتى أفلتت منها ضحكة عالية. ثم ذكرت ما كانت عقدت العزم عليه من الأخذ بتلابيبه!... فاستولى عليها الوجوم لحظة قصيرة، ثم جعلت تعتذر لنفسها بأنه لم يلقها بذاك الوجه الصفيق المتحذي، لا بل راح يحذنها حديثًا رقيقًا مؤدبًا، لا عن وداعة طبيعية، فقلبها يحذنها بأنه غر يتحين فرصة للوثوب، فلتنتظر... لتنتظر حتى يتكشف عن حقيقته، وهنالك؟!»

وعاودتها لذتها الجنونية وسرورها الوحشي..

- ٢١ -

كان الدكتور بوشي يهيم بمغادرة شقته حين جاءته خادمة الست سنية عفيفي تدعوه لمقابلة سيدها. وعيس وجه الدكتور وتساءل في إنكار «ماذا تريد المرأة؟!.. زيادة إيجار؟!» ولكنه سرعان ما نفى هذا الظن عن خاطره، لأن الست سنية لا تستطيع أن تتحدى القوانين العسكرية التي تحدّد أجور المساكن في أثناء الحرب. وغادر شقته وارتقى السلم متجههم الوجه. كان الدكتور بوشي - كعادة السكّان - يستقل

الست سنية عفيفي، ولا يفتأ يشهر ببخلها في كل زمان ومكان. وقد شنع عليها يومًا فقال إنها تفكر في بناء حجرة خشبية على سطح بيتها لتقيم فيها وتزجر شقتها. وضاعف حقله عليها أنه لم يقدر - ولو مرة واحدة - على الإفلات من أداء أجرة شقتها إليها. إذ كانت المرأة تستعين بالسيد رضوان الحسيني إذا خرج الأمر. فلم يُسرّ الرجل هذه الدعوة، ودق الباب وهو يتعوذ قائلاً «لطفك يا دافع البلاء». وفتحت له الست بنفسها، وكانت ملتفة بخمار، ودعته إلى حجرة الاستقبال ودخل الرجل وجلس. ولحقت به الخادم بالقهوة فشرب، ثم قالت له الست:

- دعوتك يا دكتور لتكشف على أسناني..

ولاح الاهتمام في عيني الرجل، واستولى عليه السرور لهذه المفاجأة التي لم يتوقعها قط، وشعر نحو الست بمودة لأول مرة في حياته وسألها:

- وهل وجدت ألمًا لا يسمح الله..

فقالت الست سنية:

- كلاً والحمد لله، ولكنني فقدت بعض الضروس والأسنان ونغض البعض الآخر...

وتضاعف سرور الدكتور، وذكر ما تهاوس به أهل الزقاق من أنّ الست ستغدو عمًا قريب عروسًا، فلعب الطمع بقلبه وقال:

- الأوفى أن تركبي طقمًا جديدًا..

فقالت الست:

- هذا ما فكرت فيه، ولكن هل يلزم وقت طويل

لذلك؟

فنهض الرجل واقفًا واقترب منها وهو يقول:

- افتحي فمك..

فغضت المرأة فاهها، وتفحصه الرجل بعينين ضيقتين، ولم يجد به إلا أسنانًا معدودات، فدهش، وأحس ببعض الحيرة، ولكنه حذر أن يهون من خطورة عمله، فقال في تودة:

- يلزمننا بضعة أيام لاقتلاع هذه الأسنان، ولكن ربّما اضطررنا إلى الانتظار ستة أشهر قبل تركيب الطقم حتى تجف اللثة وتأخذ راحتها.

الاطباء الذين يتاجرون بفنهم ولكننا وأسفاه قوم سيئو الحظ.

وتحاذبا الثمن الذي اقترحه، هو يحاول أن يستمسك به، وهي تروم خفضه حتى تم الاتفاق على ثمانية جنيهات، وغادر الدكتور الشقة وهو يلعن في سره العجوز المتصابية.

وكانت الست ستي عفيفي، تلك الأيام، تلقى الحياة بوجه جديد، كما كانت الحياة تطالعها بوجه جديد كذلك. بات الأمل السعيد قاب قوسين أو أدنى، وأصبحت الوحدة ضيقاً ضعيف الظل يأخذ أهبة للرحيل، وأوشكت البرودة الجاثمة في روحها أن تذوب وتجري ماء دافئاً. بيد أن السعادة لا تنهل بغير ثمن، وبغير ثمن فادح أيضاً. ولقد عرفت هذا الثمن الفادح في ترددها على محال الأثاث بشارع الأزهر، ومعارض الثياب بالموسكي. ومضت تنفق مما اكتنزت ذاك الدهر الطويل، بل وتنفق بغير حساب. وكانت أم حميدة لا تكاد تفارقها في حلها وترحالها، وأثبتت لها بمهارتها الفائقة، وبما تقدم لها من معونة في كل خطوة تخطوها، أنها كثر نفيس لا يقدر بثمن، وإن كان باهظ التكاليف في الوقت نفسه. ولم تقبض عنها يدها معللة نفسها بوشك انتهاء هذه المحنة. على أن الأثاث والثياب لم تكن كل شيء، ولم يكن بيت العروس الشيء الوحيد الذي يستوجب التجديد، وإنما كانت العروس نفسها تستوجب الرعاية والعناية والترميم، وقد قالت يوماً لأم حميدة وهي تضحك في غير قليل من الارتباك:

- يا ست أم حميدة. ألا ترين أن المهموم قد أشعلت الشيب في سوالي؟!

فقالت أم حميدة التي كانت تعلم أن المهموم بريئة بما ترميها به:

- نداوي المهموم بالصبغة، وهل توجد ثمة امرأة لا تصبغ شعرها في زماننا هذا؟

فضحكت المرأة بسرور وقالت:

- بورك فيك يا ست النساء كلهن. ترى ماذا كنت أفعل بحياتي لولاك أنت؟

ورفعت المرأة حاجبيها المزججين في انزعاج، وكانت تتوقع أن تزف إلى بلعها في بحر شهرين أو ثلاثة على الأكثر، وقالت بجزع:

- لا.. لا، أريد عملاً سريعاً، لا يتأخر عن شهر بحال..

فقال الرجل بمكر وخبت:

- شهر يا ست ستي؟.. مستحيل..؟

فقالت المرأة باستياء:

- إذن مع السلامة..؟

فترث الرجل قليلاً ثم قال:

- هنالك سبيل واحد إن شئت..

فأدركت أن الرجل يحاورها بمكر التاجر الخبيث، وامتلأت حقناً عليه ولكنها دارت حنقها لحاجتها إليه، وسألته:

- أن أركب لك طقمًا ذهبيًا، فهذا يمكن تركيبة عقب الخلع مباشرة..

وانقبض قلبها خوفاً، وراحت تفكر في تكاليف الطقم الذهبي. وكادت تنبذ اقتراح الرجل لولا أن تذكرت العروس المرتقب، إذ كيف يمكن أن تلقي عروسها بهذا الفم الحرب؟ كيف تؤايبها شجاعتها على الابتسام إليه؟ وكان من المعروف لدى أهل الزقاق جميعاً أن أسعار الدكتور بوشي هيئة، وأنه يستبضع طقمه من هنا وهناك بمهارة ويبيعها بأبخس الأثمان، فلا يسأل من أين يأتي بها، ويحسبهم رخصتها. ولكن الطقم الذهبي - على رغم هذه الحقائق جميعاً - شيء له خطره، فلذلك تخوفت المرأة التي ألقت الحرص، وسألته بغير احتفال شأن المستهين باقتراحه:

- وكم يكلفني الطقم؟

فقال الدكتور الذي لم يخدع باستخفافها الظاهري:

- عشرة جنيهات؟

وانزعجت المرأة التي تجهل الأثمان الحقيقية للطقم الذهبية ورددت قوله في إنكار:

- عشرة جنيهات!

وتميز الرجل غيظاً وقال:

- إن ثمنه لا يقل عن خمسين جنيهًا عند أولئك

وكان الخوذي قد زابل مقعده وهرع إلى باب العربه  
ليعين سيده على النزول، واعتمد السيد على ذراعه،  
ثم ظهر جسمه مقوساً، ووقف أخيراً على الأرض  
يصلح هندامه. حجبته المرض في أواسط الشتاء،  
وأعاده الشتاء في أوائل الربيع، وقد غمرت برودة  
الشتاء القارصة موجة لطيفة من الدفء رقصت لها  
الدنيا طرباً. ولكن أي شفاء هذا؟! لقد عاد السيد  
رجلاً آخر. اختفى الكرش الذي كان يشق الجبهة  
والفقطان وتقعّر الوجه الممتلئ الدموي فبرزت وجنتاه  
وغار خذاه ولوّح الشحوب بشرته، وخبا نور العينين  
فقلقت فيهما نظرة شاردة ذابلة تحت جبين عابس. ولم  
يتبين عمّ كامل بادئ الأمر ما طرأ على السيد من تغير  
لضعف بصره حتى إذا اقترب منه ولاحظ ذبوله تولّاه  
الانزعاج، وانحنى على يده كأنما ليخفي انزعاجه،  
وصاح بصوته الرفيع:

- حمداً لله على السلامة يا مي السيد. ذا يوم  
أبيض. والله والحسين ما يساوي الزقاق من غيرك  
قشرة بصلة...

فقال له السيد سليم وهو يستردّ يده:  
- بورك فيك يا عمّ كامل...

وسار متمهلاً متوكّناً على عصاه، يتأثره الخوذي عن  
كثب، ويتبعه عمّ كامل مترنحاً كالقيل. والظاهر أنّ  
رنين الجرس قد أعلن حضوره، فسرعان ما ازدحم  
باب الوكالة بالعمّال، وأقبل من القهوة المعلم كرشه  
والدكتور بوشي، وأحاط به الجميع مهلّلين داعين،  
ولكنّ الخوذي علا صوته وهو يقول:

- افسحوا للسيد من فضلكم، دعوه يجلس أولاً ثم  
سلموا...

وأفسحت له اللمة، فواصل مسيره عابساً، وفؤاده  
يغلي حقناً وغيظاً، وقد ودّ لو لم تقع عيناه على وجه من  
هذه الوجوه. وما كاد يطمئنّ به مجلسه وراء المكتب  
حتى أقبل عمّال الوكالة يستبقون، فلم يجد بداً من أن  
يسلمهم يده يقبلونها واحداً بعد آخر، تأذياً من لمس  
شفاههم، غاطباً نفسه: «يا لكم من كذابين  
مرائين!.. أنتم والله أصل هذا البلاء!». وتفرّق

وترثت قليلاً، ثم مسحت على صدرها وقالت:  
- ربّاه هل يرضي هذا الجسد الجاف عروسك  
الشاب؟... ولا أئداء ولا أرداف ولا شيء مما يجذب  
الرجال!

فقالت أمّ حميدة:

- لا تستقلي نفسك، ألم تعلّمي بأنّ النحافة موضة  
وأية موضة! ومع ذلك فإن شئت صنعت لك أقراصاً  
عجيبة تسمّنك في وقت قصير..

وهزّت أمّ حميدة وجهها المجدور بفخار واستدركت  
قائلة:

- لا تخافي شيئاً ما دامت أمّ حميدة معك. أمّ حميدة  
مفتاح سحري تفتح له جميع الأبواب المغلقة، وغداً  
تلمسين قدرتي في الحمام إذا حوانا معاً!

وهكذا كرّت أيام الاستعداد في نشاط وتعب  
وسرور وأمل، وصبغ شعر وتحضير عقاقير. وخلع  
أسنان مثرمة وتركيب أسنان ذهبية، وبين يدي ذلك  
كله نقود تنفق. تغلّبت على عادة الحرص، وطرحت  
معبودها الأصفر عند قدمي الغد المرموق، وفي سبيل  
هذا الغد المرتقب زارت الحسين ونذرت له ما تيسر من  
مال وثرید للفقراء الذين يمدقون بجامعه، كما نذرت  
للشعراني أربعين شمعة.

وقد نال العجب من أمّ حميدة كلّ منال وهي تلحظ  
هذا التغير الكبير الذي قلب الستّ سنّة رأساً على  
عقب، فجعلت تضرب كفاً بكفّ وتقول لنفسها:

- هل يستاهل الرجال كلّ هذا العناء؟! جلّت  
حكمتك يا ربّ فانت الذي قضيت على النساء أن  
يعبدن الرجال...

استيقظ عمّ كامل من إغشائه المزمّة على رنين  
جرس، ففتح عينيه، وأنصت قليلاً، ثم اشرأب بعنقه  
حتى برز رأسه من الدكان، فرأى حنطوراً معروفاً يقف  
أمام الزقاق، فنهض في عناء وهو يقول بسرور  
ودهشة: «ربّاه، هل عاد السيد سليم علوان حقاً؟».

العمال فجاء المعلم كرشة وشدّ على يده وهو يقول:  
- مرحبًا بسيد الحيّ جميعًا.. ألف حمد الله على  
السلامة..

فشكره السيد. أما الدكتور بوشي فقد قبل يده وقال  
له بلهجة خطابية:

- اليوم يحقّ لنا الفرح، واليوم تطمئنّ جنوبنا،  
واليوم يتحقّق لنا الدعاء..

فشكره أيضًا مداريًا تأفّفه، لأنّه كان يستكره وجهه  
الصغير المستدير، ولمّا أن خلا المكان تنهّد من صدر  
ضعيف وقال بصوت لا يكاد يسمع: «كلاب.. كلهم  
كلاب.. عضوني بعيونهم الحاسدة!» وراح يطارد  
أشباههم في مخيلته لينقي صدره ممّا استثاره من حنق  
وغيظ وتأثّر، ولم يترك لخلوته طويلاً، فجاءه كامل  
أفندي إبراهيم وكيله ومثل بين يديه، وسرعان ما نسي  
بمجيئه كلّ شيء إلّا الحساب والمراجعة، وقال له  
باقتضاب:

- الدفاتر..

وهّم الرجل بالتحرك ولكنّه استوقفه فجأة كأنّما  
تذكّر أمراً هاماً، وقال له بلهجة أمرة:

- تبه الجميع إلى أيّ من الآن فصاعداً، لا أحبّ  
رائحة تدخين (كان التدخين قد حُرّم عليه بأمر  
الطبيب)، وخبر إسماعيل بأنّي إذا طلبت إليه ماء أن  
يبيح لي قدحاً نصفه ماء عاديّ والنصف الآخر ماء  
دافئ. التدخين في الوكالة ممنوع منعاً باتاً، والدفاتر  
بسرعة.

وذهب الوكيل لإبلاغ الأوامر الجديدة، متدّبراً في  
باطنه لأنّه كان من مدمني التدخين. ثمّ عاد بعد قليل  
حاملًا الدفاتر، ولم يغيب عنه ما ترك المرض في طبع  
السيد من تغير وتبدّل، فركبه الهَمّ، وأيقن أنّه مقبل  
على حساب عسير. وجلس كامل أفندي قبالة السيد،  
وفتح الدفتر الأوّل، ويسطه بين يديه، فبدأت  
المراجعة، كان السيد في عمله محيطاً ماهراً لا تفوته  
فائتة وإن دقّت، فأكبّ على مراجعة الدفاتر دفتراً دفتراً  
بهمة لا تكلّ ولا تمّل، غير راحم نفسه المتهالكة، وقد  
اتّصل في أثناء ذلك ببعض عملائه متحقّقاً من مواعيد

حضورهم، مطابقاً بين أقوالهم وبين المدوّن في  
الدفاتر، وكامل أفندي صابر متجهم لا يخطر له  
الاحتجاج على بال. ولم تكن المراجعة بالشيء الوحيد  
الذي يتابعه بأفكاره، فكان ينوء صامتاً بأمر تحرير  
التدخين الذي استصبح به على غرة، وهو أمر لم يحرم  
عليه التدخين في الوكالة فحسب، ولكنّه أضاع عليه في  
الوقت نفسه ما كان يتفضّل السيد بتقديمه له من  
سجائر كوتاريلي الفاخرة. وقد رمق الرجل ألكبّ على  
الدفاتر بنظرات غريبة، وقال لنفسه متكرّراً ساخطاً  
«ربّاه. لشدّ ما تغير الرجل، هذا شخص غريب لا  
يعرفه!» وعجب لشاربه الذي احتفظ به رغم هذا  
التغير بضخامته وفخامته في وجه طمست سيّاته ومعالمه  
وعفى عليها المرض الخطير فكأنّه نخلة سامقة في  
صحراء جرداء.. وأخرجه الحنق والاستياء عن طوره  
فقال مخاطباً نفسه «من يدري؟.. لعلّه يستأهل ما نزل  
به، إنّ الله لا يظلم أحداً». وانتهى السيد من  
المراجعة في زهاء ثلاث ساعات، فردّ الدفاتر إلى  
الوكيل، وهو يحدّجه بنظرة غريبة، نظرة مراجع لم يعثر  
على ما يريه، ومع ذلك فلا يخلو من الريب. وجعل  
يخاطب نفسه قائلاً: «سأعود المراجعة مرّة أخرى لا  
بل مرّات، حتّى أكتشف عمّا تبطن هذه الدفاتر، كلهم  
كلاب... بيد أنّهم أخذوا عن الكلاب نجاستها،  
وزهدوا في أمانتها!» ثمّ خاطب الوكيل قائلاً:  
- لا تنس ما نبهتكم إليه يا كامل أفندي: رائحة  
التدخين والماء الدافئ.

وجاء بعد ذلك بعض العملاء من الخواجات فهنّأوه  
بالسلامة، ثمّ خاضوا فيما لديهم من الأعمال، وقد أراد  
بعضهم أن يؤجّل عمله تحفيّفاً عنه، ولكنّه قال  
باستياء:

- لو كنت عاجزاً عن العمل ما جئت الوكالة..

وما كاد يخلو إلى نفسه حتّى استبدّت به أفكاره  
الناقمة الموتورة، فراح يصبّ غضبه - كديده في هذه  
الأيام الأخيرة - على الناس أجمعين. ولطالما قال عنهم  
إنّهم حسدوه، وإنّهم نفسوا عليه الصّحة والوكالة  
والخنطور وصينيّة الفريك، فلعنهم من أعياق الفؤاد.

على رغمه. أما روحه، فتعلقت بأهداب الحياة في فزع وجزع، حتى سحت عيناه دمعاً مدراراً ونطقت نظرتها بالاستصراخ والاستغاثة، ولكن كان في الأجل بقية، فجاز طور الخطر، وبلغ بر النقاة. ورجع إلى أحضان الحياة رويداً رويداً، ومضى نفسه باسترداد صحته وعافيته وسابق سيرته. ولكن تحذيرات الطبيب ووصاياه اهتمت أمنيته، وقضت على أمله، ولم تُبني له من الحياة إلا على شيء يسير. أجل. أجل. نجا من الموت، ولكنه انقلب شخصاً جديداً ذا جسم رقيق وروح مريض. وبكرور الأيام استفحل مرض روحه فصار ضجراً وعمزداً وكراهية وعبوساً. وقد عجب هذه العثرة التي اعترضت سبيل حظه، وتساءل بأي ذنب أخذه الله سبحانه؟ وكان ذا ضمير من هذه الضمائر السراضية التي تقيم الأعدار لأصحابها وتحسن مسالكهم، وتغضي عن أخطائهم، وكان يحب الحياة حباً جماً، فتمتع بماله ومتع به آله، والتمز - فيها يظن - حدود الله، فاطمأن بذلك إلى الحياة اطمئناناً عميقاً، حتى انتبه منه على هذه الهزة العنيفة التي ذهبت بصحته، وأوشكت أن تذهب بعقله. ما ذنبه؟ ... لا ذنب له، ولكنهم الناس غرماؤه، وهم الذين أوردوه بحسدهم هذا العطب الأبدى! وهكذا أمر من نفسه ما كان حلواً، وارتسم على جبينه عبوس لا يريم. والحق أن ما فقد الرجل من صحته لم يكن سوى شيء يسير بالقياس إلى ما فقد من أعصابه.

وقد تساءل وهو جالس إلى مكتبه في الوكالة: أحقاً لم يبق له من الحياة إلا أن يقع في هذا المكان ويراجع الدفاتر؟! وترأى له وجه الحياة أشدّ تجهّماً من وجهه. وحمد كالتمثال، ومضى وقت لا يدريه وهو غارق في أفكاره، حتى سمع حساً عند مدخل الوكالة، فالتفت نحوه فرأى أم حميدة مقبلة بوجهها المجذور. ولاحت في عينيه نظرة غريبة، فسلم، وأنصت بربع انتباه إلى دعاء المرأة وترحيبها، وقد شغلته الذكريات القديمة عما عداها.

أليس من العجيب أن ينسى حميدة كأنها شيء لم يكن؟! لقد طافت به ذكراها في نقه مرّات، ومرّت به

وكثيراً ما كان يرّد هذه الظنون في أثناء مرضه، ولم تنجّ زوجه نفسها من شرّ ظنونه، فحدجها يوماً بنظرة شرّاء، وهي تجلس إلى جانب فراشه وقال لها بصوت يتهدج ضعفاً وسخطاً:

- وأنت يا ستّ لك نصيبك من هذا، فطالما دوختني بقولك إن أيام الصينية انتهت، وكأنك تنفسين عليّ صحتي، فالآن كلّ شيء انتهى ففري عينا.

وقد تأثرت المرأة لقوله واستعبرت طويلاً، ولكنه لم يرق لها، ولم يلب من حدته واستدرك يقول منيظاً محققاً:

- حسدوني... حسدوني حتى زوجتي وأمّ أبنائي قد حسدوني...!

ولكن إذا كان زمام الحكمة قد أفلت من يديه، فقد كان الموت قبل ذلك تخاليل لعينيه غير بعيد. وإن ينس لا ينسى تلك الساعة المروعة المزلزلة ساعة الأزمة. كان يتهيأ للجوع حين أحسّ بنغصة تصدّع لها صدره. وشعوره بحاجة ماسة إلى تنفس عميق ولكن عجز عن الشهيق والزفير، وكان كلما عاود المحاولة حزه الألم وقطعه الوجع، حتى استسلم في قنوط وعذاب مريرين. وجاء الطبيب وتجرع العقاقير، ولكنه لبث أياماً يراوح بين يقظة الحياة وغيوبة الموت. وكان إذا رفع جفنيه المتعين الثقيلين رأى ببصر زائف زوجته وبناته وأبنائه محدقين به، محمّرة أعينهم من البكاء. وهوى إلى تلك الحالة الغريبة التي يفقد الإنسان فيها كلّ إرادة على جسده وعقله فيلوح له العالم سحابة دكناء من ذكريات غامضة متقطعة لا تبين ولا تكاد تربط بينها رابطة.

وفي اللحظات القليلة التي استردّ فيها شيئاً من وعيه يتساءل في رجفة باردة «هل أموت؟! أموت وحوله الأهل جميعاً؟! ولكن الإنسان لا يفارق الدنيا عادة إلا منتزعا من أيدي أحبائه، فإذا أفاد الأموات تعلّق الأحباء بهم؟! ورغب ساعشذ أن يدعو الله وأن يتشهد، فخانه ضعفه، وتصاعد الدعاء والشهادة حركة باطنية ابتلّ بها ريقه الجفاف. ولم يُنسه إيمانه - على رسوخه - أهوال تلك الساعة، فاستسلم جسمه

- حمدًا لله على السلامة... السلام عليكم يا أخي...

فالتفت نحو مصدر الصوت فرأى السيد رضوان الحسيني مقبلاً، بجسمه الطويل العريض، ووجهه المشرق المتألق، فانبسست أساريره لأول مرة وهم بالوقوف، ولكن السيد بادره بوضع راحته على منكبيه وهو يقول:

- حلفتك بالحسين ألا ما جلست..

وتصافحا بحرارة. وكان السيد رضوان قد زار قصر الرجل مرّات في أثناء مرضه. ولما لم يمكنه مقابلته بعث له بتحيّاته ودعواته. وجلس السيد على مقعد قريب وراحا يتحدثان في رقة ومودة. قال السيد سليم علوان بتأثر شديد:

- نجوت بأعجوبة..!

فقال السيد رضوان بصوت عميق هادئ:

- الحمد لله رب العالمين. نجوت بأعجوبة، وتعيش بأعجوبة. إن استمرار المرء ثانية واحدة من الزمان يحتاج لمعجزة ضخمة من القدرة الإلهية، فعمر أي إنسان فإن سلسلة من المعجزات الإلهية، وما بالك بأعمار الناس جميعاً، وحيوات الكائنات جميعاً؟! فلنشكر الله بكرة وأصيلاً، آناء الليل وأطراف النهار، وما أنفه شكرنا حيال هذه النعم الربانية.

وأصغى إليه في جمود. ثم تمتم قائلاً بضجر:

- المرض شرّ قبيح.

فابتسم السيد رضوان وقال:

- ربّما كان كذلك في ذاته، ولكنه من ناحية أخرى

امتحان إلهي، وهو من هذه الناحية خير.

ولم يرتح الرجل لهذه الفلسفة، وحنق بغتة على قائله، فضاع الأثر الطيب الذي أحدثه مجيئه، ولكنه لم يستسلم لانفعاله على غير عادته أخيراً وقال بلغة وشت بتلقّره:

- ماذا فعلت حتّى ينزل بي هذا العقاب؟... ألا

ترى أيّ فقدت صحّتي إلى الأبد..

فعبث السيد بلحيته الجميلة، وقال بشيء من المعاتبة:

دون أن تترك أثراً. لم يأسف عليها بمثل ما طمح إليها، ثم أنسيها بعد ذلك كأنها شيء لم يكن، أو كأنها كانت نقطة في دم الصحة الذي كان يجري في عروقه، فلمّا أن غاب ونضب تطايرت في الهواء. وغابت من عينيه النظرة الغريبة التي رسمتها الذكريات، وعاد بصره إلى جموده، فشكر للمرأة حضورها لتهنئته ودعائها للجلوس. ووجد مضايقة في حضورها كادت تنقلب كراهية، وتساءل عمّا دعائها للمجيء حقاً، أهو التهنئة الخالصة لوجه الله أم الاطمئنان على ما سبق منه من رغبة؟! ولكن المرأة لم تكن عند سوء ظنه، لأنّها كانت آيست منه منذ أمد بعيد. ومع ذلك قال لها وكأنّه يعتذر:

- أردنا.. وأراد الله...

فأدركت المرأة مقصده وقالت بعجلة:

- لا عليك من هذا يا سي السيد، وما نسأل الله إلّا الصحة والعافية.

وسلمت المرأة مرة أخرى وغادرت الوكالة وقد تركته أسوأ حالاً وأشدّ انقباضاً، وقد حدث عند ذاك أن انزلق شوال حنّاء من بين يدي عامل، فاشتدّ به الغضب، وانتهره بقسوة صائحاً:

- ستعلق عمّا قريب الوكالة أبوابها، فابحثوا عن مرتزق جديد...!

ولبت برهة يتنفّض من شدّة الغضب والتأثر. وكان هذا الغضب ذكّره بما اقترحه عليه أبنأوه أخيراً من تصفية أعماله والخلود للراحة، فتضاعف غضبه وهياجه. وجعل يقول لنفسه إنّها ليست راحته التي يتفنون، ولكنه المال، ألم يقترحوا عليه الاقتراح نفسه سابقاً وهو في عنفوان قوّته؟!.. فالمال طلبتهم، لا صحّته ولا راحته. ونسي في غضبه أنّه - هو نفسه - كبر عليه أن تنحصر آماله في العمل في الوكالة، وألا يجد لذّة في الحياة إلّا إرهاق النفس في جمع مال لا يستطيع أن يتمتّع به، ولكنه العناد الذي أولع به أخيراً، وسوء ظنه بالناس جميعاً الذي لم ينجأ أولاده أنفسهم وزوجه من بعض آثاره... وقبل أن يفيق من حمى الغضب والهياج سمع صوتاً جهريراً يقول في عمق وحنان معاً:



عند مدخلها شابكاً يديه وراء ظهره. كانت الشمس تعلو كبد السماء، والجو دافئاً مشرقاً. وقد بدا الزقاق كالمقفر في تلك الساعة من الظهيرة، اللهم إلا الشيخ درويش الذي جلس أمام القهوة يتشمس. فلبث السيد ملياً، ثم تلفت - بحكم عادة قديمة - نحو النافذة، فوجدها مفتوحة خالية، وكأنه ضاق بموقفه فرجع إلى مجلسه متجهماً عابساً...

### - ٢٣ -

«... لن أعود إلى القهوة. حتى لا أثير الشبهات...»، هذا ما قاله لها عند افتراقهما، وقد ذكرته حميدة في صباح اليوم التالي لمقابلة الدراسة، ذكرته بخيال حيّ يقظ سعيد. وتساءلت أنذهب للقاءه اليوم؟ فأجاب قلبها «نعم» دون خفاء. ولكنها قالت بعناد: «كلّا... يجب أن يعود إلى القهوة أولاً»، وامتنعت عن الخروج في موعدها المألوف، وقبعت وراء النافذة تنتظر ما يكون. وانصرفت ساعة الغيب، وأطبق الليل ناشراً جناحيه، وعند ذاك أقبل الرجل من أسفل الزقاق مصوباً عينيه نحو الزيق الذي انفرج عنه خصائص النافذة تلوح في وجهه ابتسامة تتم عن التسليم، وجلس على كرسيه المختار. وشعرت وهي ترتقه ببهجة الانتصار، ولذة الانتقام لعذابها يوم أعيائها العثور عليه في الموسكي. والتقت عيناها طويلاً - دون أن تغضي أو ترتد عن موقفها - فازداد ظلّ ابتسامته امتداداً، ورشى وجهها بابتسامة وهي لا تدري. ماذا ينبغي يا ترى؟ وبدا لها هذا السؤال غريباً، إذ لا تدري لمثل إلحاحه في طلبها إلا معنى واحداً، سعى إليه من قبل عباس الحلو، وطمح إليه السيد سليم علوان قبل أن يحطمه الدهر، فلماذا لا يكون غاية هذا الأفندي الوجيه؟! أو لم يقل لها: «السب في الدنيا لتؤخذني؟... وإني لأجلك...؟!» فما عسى أن يعني هذا إن لم يكن الزواج؟! ولم يعق أحلامها عائق، لشته شعورها بقوتها وثقتها بنفسها بل وغرورها الجامح. وجعلت تنظر إليه من وراء خصائصها المنفرج، وتتلقى نظراته المسترقة باطمئنان

- أين يقع علمنا الضحل من هذه الحكمة الباهرة؟ حقاً إنك رجل طيب، بار، كريم، قوام على الفرائض، ولكن الله امتحن عبده أيوب وهو نبي، فلا تأس ولا تحزن، وأبشر بالإيمان خيراً. ولكن الرجل زاد انفعاله، وقال بحدة: - أرايت إلى المعلم كرشة كيف يحتفظ بصحة البغال؟

- إنك بمرضك خير منه بصحته وعافيته..

وغلبة الغضب، فرمى عذته بنظرة ملتبهة وقال:

- إنك تحدث في سكينه وطمانينة، وتعظ في ورع وتقوى، ولكنك لم تذق بعض ما ذقت، ولم تحسر شيئاً مما خسرت.

ونظام رأس السيد حتى ختم الرجل خطابه، ثم رفع رأسه وعلى شفثيه ابتسامته الحلوة، وحدجه بنظرة عميقة من عينيه الصافيتين، وسرعان ما استكن غضبه وفتر انفعاله، وكأنه يذكر لأول مرة، أنه يخاطب أكبر مُصاب من عباد الله. وطرفت عيناه، وتورد وجهه الشاحب قليلاً، ثم قال بصوت ضعيف:

- اعذرني يا أخي، إني تعب مرهق..

فقال السيد ولم تفارق الابتسامة شفثيه:

- لا عليك من هذا. قواك الله وسلمك. اذكر الله كثيراً فبذكر الله تطمئن القلوب، ولا تدع الأسى يغلب عليك إيمانك أبداً، فالسعادة الحقّة ترتدّ عنا على قدر ما ترتدّ عن إيماننا.

فقبض الرجل على ذقنه بشدة وقال بحق:

- حسدوني. نفسوا عليّ المال والجاه. حسدوني يا سيّد رضوان!

- الحسد شرّ من المرض. وإنه لمن المحزن حقاً. إنّ الذين ينفسون على إخوانهم حطّهم من المتاع القاني كثير. لا تأس، ولا تحزن، وسلم إلى الله ربك الرحيم الغفور...

وتحادثا طويلاً، ثم ودّعه السيد رضوان وانصرف، ولبث الرجل هنيهة كالمهائم، ثم أخذ يعود رويداً رويداً إلى عبوسه وتحجّمه، ونبا به القعود طويلاً، فنهض قائماً، ومشى متمهلاً إلى باب الوكالة، ووقف

اثنتين فأما غضب وفضيحة وجرسه ثم قطعة، وأما استسلام تستكرهه لأنه فرض عليها فرضاً مقهراً، فامتلات حقناً، وهمست بصوت منخفض متهدج من الغضب:

- كيف تجرؤ على هذا؟ .. دع يدي بسرعة ..  
فأجابها بهدوء وهو يمشي إلى جانبها كأنها صديقان ينطلقان معاً:

- حلمك .. حلمك، لا كلفة بين الأصدقاء ..

فقالت وهي تتميز غيظاً:

- الناس ... الطريق ...

فاستعطفها بابتسامة قائلاً:

- لا تبالي أناس هذا الطريق، فهم مجانيين المال، ولا يرون إلا ما في رءوسهم من حسابات. هلاً ملت إلى دكان صائغ فانتقي منه حلية تليق بحسبك ... ؟  
فاشتد غيظها لعدم مبالاته وقالت بوعيد:

- أنتظاهر بأنك لا تعباً شيئاً؟

فقال بهدوء والابتسامة لا تفارق شفثيه:

- لست أقصد إثارتك، ولكنني انتظرتك لتتمسني معاً، فقيم غضبك؟

فقالت بقوة:

- إني أمقت هذا التهجم فاحذر أن تُخرجني عن وعيي.

وطالع نذر الشر في وجهها فسأها في رجاء:

- أتعديني بأن نسير معاً؟

فهتفت به:

- لا أعد شيئاً .. دع يدي ..

فأطلق يدها دون أن يتعد عنها، وقال لها متملقاً:

- يا لك من جبارة عنيدة. هاك يدك، ولكننا لن

نفترق، أليس كذلك؟

وتهدت في غيظ، ونظرت إليه شزراً وهي تقول:

- يا لك من سمج مغرور!

فتقبل الشتيمة بابتسامة وصمت، وسارا جنباً لجنب دون أن يتعد عنه، وذكرت كيف تربصت له بالأمس القريب لتمثل به في هذا الطريق، ولكنها الآن لا تفكر في هذا وحسبها أنها أجبرته على إطلاق يدها، بل لعلّه

وثبات وبلا تردد. وحادثتها عيناه حديثاً عميقاً يعيي اللسان والحواس جميعاً، فتردد صدها في أعماق نفسها محرّكاً غرائزها. ولعلّها وجدت هذا الشعور العميق الصادق - وهي لا تدري - يوم التقت عيناها أول مرة، يوم حدجها بنظرته العارمة المتحدية، وابتسم إليها تلك الابتسامة الظافرة، فانجذبت إليه كما تنجذب إلى المعترك المستعر. والحق أنها عرفت قدراً من نفسها على ضوء عينيّه، فلم تعد الضالة في متاهة الحياة، ولم تعد الحائرة إلى نظرة عباس الحلو الوديعة وثروة السيد علوان الطائلة، ولكنها شعرت بأن هذا الرجل طلبتها، وأن ما يستثيره في صدرها .. الانفعال والإعجاب والاستفزاز هو لذتها التي تُجذب إليها بفطرتها، كما تجذب إبرة البوصلة إلى القطب، وأنه رجل من غير الخثالة التي يستعبد لها الفقر والحاجة كما يشهد بذلك مظهره وأوراقه المائلة. وراحت ترنو إليه بعينين متأقتين تذكيان ضياء من وجد وتوئب، ولم تبرح مكانها حتى غادر القهوة وهو يودّعها بابتسامة خفيفة، فأتبعته ناظرها وهي تقول وكأنها تتوعدّه «غداً».

وفي عصر الغد غادرت البيت بقلب ملؤه الشوق والتحنّي والهيام بالحياة. وما كادت تخرج من الصناديق حتى رآته عن بعد واقفاً عند ملتقى الغورية بالسكة الجديدة، فلاحته في عينيها لمعة خاطفة، وانبعث في صدرها شعور غامض غريب، وهو مزيج من السرور والرغبة الوحشية في القتال! وقدرت أنه سيتبعها في الذهاب والإياب حتى يخلو لها الجو في الدراسة. فسارت على مهل دون أن يخالجها شعور بالاضطراب أو الحياء، واقتربت منه كأنها لا تراه، ولكن حدث - وهي تمر به - ما لم يقع لها في حساب، فقد سار معها ومدّ يده بجرأة لا توصف فقبض على راحتها، وقال لها بهدوء متجاهلاً المازة والواقفين:

- مساء الخير يا عزيزتي ..

أخذت على غرة، فحاولت أن تسترد يدها ولكنها لم تفلح، وخافت إن أعادت الكرة أن تستلفت الأنظار، فاستولى عليها الارتباك والغيظ، ووجدت نفسها بين

وتورّد وجهها، وخيّل إليها أنّها تصغي إلى قلبها يتحدث، وقبست عيناها جذوة من قلبها المستعر حماساً وعاطفة، واستدرك بثقة ويقين:

- هذا حُسن خَلِيق بالنجوم...

وابتهلت هذه الفرصة لتبادل الحديث، فعطفت نحوه رأسها مبتسمة بجرأتها الفطرية، وتساءلت وهي لا تدري ما يعنيه:

- النجوم؟!

فابتسم إليها ابتسامة حلوة وقال:

- نعم. ألا تذهبين إلى السينما؟... يدعون الحسانوات من الممثلات بالنجوم.

وكانت تذهب إلى سينما أولمبيا مع أمّها في فترات متباعدة لمشاهدة بعض الأفلام المصرية، فأدركت ما يعنيه، وغمر شعورها سرور راقص لاحت آثاره الوردية في خديها وساد الصمت خطوات ثم سألها برقة:

- ترى ما اسمك؟

فقال بلا تردد:

- حميدة..

فقال مبتسماً:

- أمّا الذي سحرت لّبه ففرج إبراهيم. في مثل حالتنا يكون الاسم آخر ما يعرف، وهو يعرف عادة بعد أن يكون الشخصان قد أيقنا أنّها واحد، أليس كذلك يا ستّ الملاح؟

ليتها تتقن الكلام كما تتقن السبّ والعراك مثلاً! إنّهُ يحسن الحديث ولكنها عاجزة عن مجاراته، وقد ضايقها ذلك، ولم تقنع بالدور السلبي الذي يلذّ بنات جنسها، وتشوّقت بفطرتها إلى شيء آخر، غير الانتظار والسكوت والحياء. ولمّا كان الإفصاح عن هذا الشعور الغامض غير ميسور، فقد ساورها قلق وانفعال، وحججه بنظرة شاقبة. وزاد من أسباب انفعالها أن انتهى الطريق، فشارفا ميدان الملكة فريدة على غير شعور بالوقت، ولم تر بداً من أن تقول وهي تدفن حسرتها في أعماقها:

- الآن نعود.

لو حاول استردادها مرّة أخرى لما منعت، وهل كانت غادرت بيتها وفي عقلها شيء غير لقائه؟! وفضلاً عن هذا كلّهُ فقد ساءها أن يبدو أشدّ طمأنينة وجسارة منها فسارت إلى جانبه غير عابئة بالسابلة، متخيّلة ما سيحدثه منظره في نفوس فتيات المشغل من الدهشة المقرونة بالحسد، وسرعان ما عاود قلبها الشوق والاستهانة والرغبة الجاححة في الحياة والمغامرة.. وراح الرجل يقول:

- إنّني أعتذر عمّا بدر منّي من خشونة، ولكن ما حيلتي في عنادك؟! تعمّدت تعذيبي، وما أستحقّ إلّا عطفك جزاء ما أكنّ لك من عاطفة صادقة وما أبذل في سبيلك من عناء متّصل..

ما عسى أن تقول له؟ إنّها ترغب أن تخاطبه، وأن تبادل الحديث، ولكنّها لا تدري كيف، خصوصاً وأنّ آخر ما نطقت به كان نهراً وشتيمة، وقطع عليها تفكيرها أن رأت صويحياتها مقبلات غير بعيدات، فقالت بارتياح كاذب:

- صاحباتي...!

ونظر الرجل فيها أمامه فرأى الفتيات وقد ركّزن عليه نظرات متفحّصة. وعادت تقول بلهجة تنمّ عن التأنيب، وهي تداري سرورها:

- فضحتني...!

فقال بازدياء، وإن سرّه أن تلازم جانبه، وأن تخاطبه خطاب الرفيق للرفيق:

- لا عليك منهنّ... فلا تباليهنّ...

واقتربت الفتيات، فبادلتهنّ نظرات ذات معاني، وهي تذكر بعض ما قصصن عليها من مغامرات، ثمّ مرن بهما متضاحكات متهامسات. وعاد الرجل يقول في خبث ودهاء:

- هؤلاء صاحباتك؟... كلّاً، لا أنت منهنّ ولا هنّ منك، ولكنّي أعجب كيف يتمتّعن بحريّتهنّ بينما تقبعين أنت في البيت. وكيف يرفلن في الثياب الزاهية بينما تلتحفين أنت في هذه الملاءة السوداء! كيف حدث هذا يا مليحة؟... أهو الحظ؟ ولكن يا لك من صابرة متجلّدة...؟!!

فقال بإنكار:

- نعود!

- هذه نهاية الطريق.

فقال محتجًا:

- ولكن الدنيا لا تنتهي بانتهاء الموسيقى. لماذا لا

نجول في الميدان!

فقال على رغمها:

- لا أريد أن أتأخر عن موعد عودتي، أن تقلق

أمي...

فقال بإغراء:

- إذا شئت ركبنا تاكس فيقطع بنا مسافة طويلة في

دقائق معدودات.

تاكس! رئت الكلمة في أذنيها رنينًا عجيبيًا. ولم تكن ركبت في حياتها إلا العربّة الكارو. ومضت ثوانٍ قبل أن تفيق من سحر الكلمة العجيبة، بيد أن الأمر لا يخلو من اعتبار آخر وهو ركوب التاكس مع رجل غريب، إلا أنها وجدت في هذا الاعتبار داعيًا للهجوم لا للنكوص، وتولّاهما نزوع طاغٍ إلى المغامرة، كأنما لقيت فيه ترويحًا عن ذاك الشعور القلق المكتوم الذي أعيها الانصباح عنه قبل ذاك بقليل، ولم تكن تدري أن بها مثل هذه الطاقة على الاستهتار والمغامرة حتى ليتعذر القول أيهما كان أشد استحوادًا على مشاعرها في تلك اللحظة: الرجل الذي حرّك أعماقها أم المغامرة ذاتها، ولعلّهما كانا الاثنين معًا. ولاحت منها نظرة إليه فرأته ينظر إليها بإغراء وعلى شفثته ظلّ الابتسامة التي طالما أهاجتها، فتغيّر شعورها وقالت:

- لا أريد أن أتأخر...

فشعر بخيبة وقال متأسفًا:

- أتحافين...؟

فازداد شعورها حدة وقالت بتحد:

- لست أخاف شيئًا...

فأضاء وجهه، وكأنّه عرف أشياء وأشياء، وقال

بسرور:

- سأدعو تاكس...

وكفّت عن المعارضة، وثبتت عيناها على التاكس

وهو يقترب من موقفها حتى وقف قبالتها، وفتح الباب لها، فانحنت قليلًا خافقة الفؤاد وهي تقبض على مساك ملاءتها، وصعدت إليه. وتبعها الرجل وهو يقول لنفسه بارتياح «وَقَرْنَا تعب يومين أو ثلاثة أيام». ثم سمعته وهو يقول للسائق «شارع شريف باشا...». شريف باشا، لا المدق ولا الصناديق ولا الغوريّة ولا حتى الموسيقى، شريف باشا!.. ولكن لماذا عيّن هذا الشارع بالذات؟!.. وسألته:

- أين تقصد؟

فقال، وكان كتفه يمس كتفها:

- نجول قليلًا ثم نعود...

وتحرّك التاكس فتناست كلّ شيء إلى حين، حتى ذلك الرجل الذي يكاد يلتصق بها. وقلقت عيناها بين الأنوار التي تتخطفها، فلاح لها الدنيا الجديدة خلال زجاج النافذة باهرة ضاحكة. وانتقلت حركة التاكس إلى جسمها وروحها، فانبعثت في نفسها نشوة مطربة، وتبيها لها أنها تطير طيرانًا، وتخلّق في سماء الدنيا، وكأنّ وجدانها من البهجة يسجع شاديًا متجاوبًا مع انسياب الحركة وتجسّد المناظر والأنوار، حتى تألّقت عيناها بوميض مشرق، وافترّ ثغرها عن إشراق وذهول. وجرى التاكس في خفة، يخوض خضفًا من العربات والسيارات والترام والناس، وجرى معه خيالها، فاستحّر حماسها، وسكرت مشاعرها، ورقص قلبها ودمها وخواطرها. ثم أفاقت إفاقة مباغتة على صوته يهمس في أذنها قائلاً: «انظري إلى الحسان كيف يرفلن في ثيابهنّ النورانيّة». أجل... إنهن يتأيلن مبعثرات كالكوكب المنيرة... ما أجملهنّ، ما أبدعهنّ! وذكرت عند ذاك فحسب ملاءتها وشبشبها فانقبض قلبها، واستيقظت من نشوتها كما يستيقظ الحالم من حلمه السعيد على لدغة عقرب. وعصّت على شفثتها في امتعاض، ثم تملّكتها مرة أخرى روح التمرد والثورة والعراك! وتنبّهت إلى أنه التصق بها وهي لا تدري، فأخذت تستشعر ممّ الذي انتشر في حواسها، وحي به قلبها، فهفّت إليه بقوة فوق إرادتها. ورنّا إليها بلحظ كأنما يستطلع ميولها، ثم تناول راحتها بلطف

خوض غمار هذه المعركة. وهل كان في وسعها أن تدعى إلى التزال ثم تعرض عن الداعي؟! لم يكن الذي يستفزها غضب للفضيلة أو الخلق أو الحياء فهذه جميعها اعتبارات لم تألف الغضب لها أو الغيرة عليها، ولكنه غَضَبٌ لكبريائها وشعورها الطاغية بقوتها ورغبتها الجنونية في الملاحاة والعراك، ولم تخلُ أيضًا من جنون المغامرة الذي قذف بها إلى التاكس! وجعل الرجل ينعم إليها النظر وهو يقول لنفسه في تفكير ومسخرة معًا: «محبوبي من النوع الخطر الذي يفرق باللمس فيستوجب العناية الشديد والترويض الماهر»، ثم قال لها برجاء ورقة:

- أرجو أن أقدم لك قدحًا من الليمون. .

ورمته بنظرة قاسية متحدية، ثم غمغمت:

- لك ما تشاء. .

وفتح الباب مسرورًا، وانزلق إلى الطريق، وتبعته على الأثر باستهانة وجراة، ووقفت تنفّخ المكان والرجل يدفع الأجرة للسائق. وجرت خواطرها إلى الزقاق الذي خرجت منه اليوم، وعجبت للمغامرات التي اقتحمتها غير هيابة حتى انتهت إلى هذه العمارة الهائلة! مَنْ يصنق هذا؟! وما عسى أن يقول السيد رضوان الحسني مثلًا لو رآها تمرق إلى هذه العمارة؟ وارتسمت ابتسامة على شفتيها، ودخلها شعور غريب بأن هذا اليوم هو أسعد أيام حياتها على الإطلاق.

وهرع الرجل إليها، وأخذ يدها، فدخلها العمارة معًا. وارتقيا سلمًا عريضًا إلى أول طابق، ثم سارا في ردهة طويلة إلى باب شقة على عيين القلاد واستخرج من جيبه مفتاحًا عالج به الباب وهو يقول لنفسه بارتياح «اكتسبت يومًا أو يومين آخرين!»، ثم دفع الباب وأوسع لها، فدخلت ودخل وراءها، ثم أغلقه. وجدت نفسها في دهليز طويل يعترض الداخل تحديق به الحجرات من الجانبين، ويضيئه مصباح كهربائي قوي الإشعاع. ولم تكن الشقة خالية، ففضلاً عن المصباح الذي كان مضاء قبل مجيئها ترامت إلى أذنيها أصوات من وراء الأبواب المغلقة، كلام وزعق وغناء! واتجه فرج إبراهيم إلى الباب قبالة المدخل ودفعه،

وجعلها بين راحتيه، وتشجع باستسلامها فهوى بفمه إليها. وكأنها أرادت أن تنقيه فألقت برأسها إلى الوراء قليلاً، ولكنه لم يجد في ذلك رادعًا كافيًا فطبع شفتيه على شفتيها وسرت في أعماقها رعدة، وشعرت برغبة جنونية تدعوها إلى أن تعض شفتيه حتى تدميها! . . . رغبة جنونية حقًا، ركبها كما يركبها عفريت العراك، ولكنه ارتد عنها قبل أن تنفذها! وليثت شعلة الجنون متأججة في صدرها تهيب بها إلى أن ترتقي على صدره وتنشب أظافرها في رقبته، حتى أنقذه منها صوته وهو يقول برقة:

- هذا شارع شريف باشا. . وهذا بيتي على بعد خطوات، ألا تحين أن تريه؟!

والفتفت متوترة الأعصاب إلى حيث تومئ سبابه فرأت عبارات تناطح السحاب لم تدر آيتها يعني. وأمر السائق بالوقوف أمام واحدة منها، وقال لها:

- في هذه العمارة. . .

ورأت عمارة ضخمة سامقة ذات مدخل أوسع من زقاق المدق، ثم ارتد عنها طرفها في حيرتها، ثم سألت بصوت منخفض:

- في أي طابق. . ؟

فقال مبتسماً:

- الأول. لن تتجشمي مشقة إذا تفضلت بزيارتها. . .

فرمته بنظرة حادة متقدة فاستدرك قائلاً:

- ما أسرع غضبك! . . ومع ذلك دعيني أسألك ما وجه العيب في ذلك؟ لم أزرك دوماً منذ وقعت عليك عيناى فلماذا لا تردّين الزيارة ولو مرة واحدة؟

ماذا يريد الرجل؟. . أتحدثه نفسه بأنه وقع على صيد سهل؟. . أطمعته القبله التي استسلمت لها فيما هو أجل وأخطر؟ هل أعماه غروره وشعوره بالظفر؟! . . وهل هذا مآل الحب الذي أفقدها وعيها؟! واشتعل الغضب بقلبيها، وتوثبت جميع قواها للنضال والتحدّي، وتمتّت لو تظاوعها نفسها على السير معه إلى حيث يريد، لتريه من نفسها ما يجهل، ولتردّ إليه صوابه. أجل، دعاها شعورها المتمرد الجامح إلى

وجذبها برقة وهو يقول:

- هلمّي نجلس على الكنية.

ولم تمنع فنهضت قائمة إلى حيث جلسا جنبًا لجنب على كنية كبيرة. وكانت تقاسمها في تلك اللحظة مشاعر الميل إلى الرجل الذي تحبه وأحاسيس التحدي للرجل الذي قد تمّنه نفسه بأنه قادر على الضحك على ذقنها. واقترب الرجل منها رويدًا حتى لاصقها، ثم أحاط خاصرتها بذراعه، وهي مستسلمة ساكنة لا تدري متى يحقّ لها المقاومة، ومدّ يدها إلى ذقنها فرفع ثغرها إليه وهو يفهم متمهلًا كأنه ظمآن يكرع من جداول، حتى التقت الشفاه. وطال التقاؤها كأنما أخذتها سنة من الغرام. وأما هو فكان يستجمع حرارته وقوته في شفتيه لينفذ بها إلى ما يريد، أما هي فكانت تسكر وتشمل، إلا أنّ توتّبها أفسد عليها رقية السحر التي تحرق شفتيها فظلت متنبهة متربصة. وأحسّت يده تسترخي عن خاصرتها، وترتفع إلى منكبيها، ثم تهفو الملاعة عنه، فحقق فؤادها بعنف، وتصلّب عنقها مبتعدًا عنه، وأعادت الملاعة بحركة عصيّة إلى موضعها وهي تقول بجفاء:

- كلّ...

ونظر إليها بدهشة فوجدها تطالعه بنظرة جامدة تنطق بالإباء والعداوة والتحدي، فابتسم متبالمًا وهو يقول لنفسه «هي كما ظننت متعبة، بل متعبة جدًّا...» ثم خاطبها قائلاً بصوت منخفض:

- لا تؤاخذيني يا عزيزتي فقد نسيت نفسي...

وأدارت وجهها عنه لتخفي ابتسامه ارتسمت على شفتيها سرورًا بالظفر، ولكنّ ذلك لم يطل أمدّه فقد وقع بصرها اتفاقًا على يده فأدركت لأوّل وهلة الفارق الكبير بين يده الجميلة وبدها الخشنة، وتولّاهما الحياء ثم قالت له باستياء:

- لماذا جئت بي إلى هنا؟... هذا شيء سخيف!

فقال معترضًا بحماس:

- هذا أجمل شيء فعلته في حياتي... لماذا

تستوحشين من بيتي! أليس هو بالتالي بيتك أيضًا؟!

ولاحت منه نظرة إلى شعرها وقد انحسرت عنه

ودعاها للدخول، فانتقلت إلى حجرة متوسطة، مؤنّثة بمقاعد جلدية ما بين كراسي وكنبات، تتوسطها سجادة مربعة مزركشة وفي الصدر منها مرآة مصقولة تناطح السقف، وتنفض على منضدة مستطيلة مذهّبة الأرجل، وقد طالع الرجل نظرة الدهشة الحائرة في عينيها بسرور وقال لها بلطف:

- اخلي ملاءتك وتفضلي بالجلوس...

فاقتعدت كرسياً دون أن تخلع ملاءتها وقد ارتاح جسمها إلى مسنده ومقعده الطريّين، وتمتت بلهجة تنمّ عن التحذير:

- ينبغي ألا أتأخّر...

فمضى إلى مائدة أنيقة وسط الحجرة قام عليها «ترموث» وفصّ سدّادته وأفرغ منه في قدحين (شراب الليمون المثلوج)، وقدم لها قدحًا وهو يقول:

- سيعود بك التاكس في دقائق...

وشربا معًا حتى رويًا، ثم أعاد القدحين إلى المائدة، وفي أثناء ذلك استرقت إليه نظرات فاحصة، سرت بها جسمه الفارع الرشيق. وثبتت عيناها غير قليل على يده فراعاها جمالها وجاذبيّتها، كانت جميلة التكوين، رشيقته، سبطة الأنامل، توحى بالقوّة والجمال معًا، فناها منها تأثير عجيب لم تجده لغير نظرتّه من قبل. وجعل يطيل النظر إليها مبتسمًا ابتسامه رقيقة كأنما يطمئنها ويشجّعها، ولكنّها لم يداخلها ظلّ من الخوف وإن توتّرت أعصابها قليلاً من الحذر والتوجّس والتوتّب، وذكرّت الأصوات التي سمعتها حال دخولها الشقة، فعجبت كيف نسيتها، وسألته:

- ما هذه الضوضاء في الشقة؟

فأجابها قائلاً وكان لا يزال واقفًا قبالتها:

- بعض الأهل وسوف تعرفينهم في الوقت

المناسب... لماذا لم تخلعي ملاءتك؟

وكانت ظنّته يقيم بمفرده حين دعاها إلى بيته، فعجبت كيف يقودها إلى بيت مأهول. وتجاهلت سؤاله الأخير، ولبتت ترنو إليه بسكينة وتحذّر، ولم يعاود سؤاله، ولكنّه اقترب منها حتى مسّ حذاؤه شبشبها، ومال نحوها قليلاً ثمّ مدّ يده إلى يدها فشدّ عليها،

نضير في مقبرة مليئة بالعظام النخرة. ألم تري إلى الحسان يرقن في الثياب الفاخرة؟ وإِنَّكَ لتضويقنهنَّ جمالاً وفننة، فكيف لا تخطرين مثلهنَّ في المطارف والخلي؟.. إِنَّ الله أرسلني إليك لأردَّ إلى جوهرِكَ النفس حقَّه المسلوب. وعلى ذلك أقول إِنَّ هذا بيتك وكفى...

ولعبت كلماته بقلوبها كما تلعب أنامل العازف بأوتار الكمان، فخدر شعورها، وتقارب جفناها، ولاحت في عينيها نظرة حائلة. ولكنَّها تساءلت ماذا يعني يا ترى؟... هذا حقاً ما يهفو إليه فؤادها، فما السبيل إلى تحقيق الأحلام وتقريب المني؟... لماذا لا يفصح عما يريد ويصرِّح بما ينوي؟... إِنَّه يعزُّ أروع تعبير عن آمالها وأحلامها ورغباتها، إِنَّه ينطق بلسانها الخفيّ وشي بأعماقها جهمياً، إِنَّه يجلو الغامض الخفيّ ويمسِّم المعروف حتَّى لكأنَّها تراه رؤية العين، إلَّا شيئاً واحداً لم يمسه صراحة، ولم يقتحم السبيل إليه، فما حكمة التردّد يا ترى؟! ونظرت إليه بعينيها الجميلتين الجسورتين وسألته:

.. ماذا تعني؟

فشعر الرجل بأنَّه يتنقل إلى مرحلة خطيرة من مراحل خطّته المرسومة، ورماها نظرة منوم بارع ثم قال بصوت خافت:

.. أعني أن تبقي في البيت اللائق بك، وأن تتمتعني بأسعد ما تجود به الحياة..

وضحكت ضحكة قصيرة في ارتباك وحيرة وتمتت:

.. لا أفهم شيئاً...

فمسح على مفرق شعرها بحنان، متعوّداً بالصمت ريثما يرتّب أفكاره ثم قال:

.. لعلَّكَ تساءلين كيف يريدني على أن أبقى في بيته؟!.. فأذني لي أن أسالك بدوري لماذا تعودين إلى المدق؟.. ألتنتظري هناك شأن الفتيات البائسات حتَّى يتعطّف رجل من غلوقات الزقاق فيتزوّجك ويلتهم حسنك النضير وشبابك الغضّ ثم يتركك لفي في الزباله؟! لست أحداث فتاة بلهاء تذهب بها كلمة فارغة ونحيء بها أخرى، ولكنّي أعلم علم اليقين أنّك

الملاءة، فأذني رأسه ولثمه قائلاً:

.. الله ما أجمل شعرك!... إِنَّه أجمل شعر رأيت في حياتي.

قال ذلك صادقاً رغم رائحة الغاز التي ذابت في أنفه، فلذّها إطرأه بيد أنّها سألته:

.. إلّا نبقى هنا؟

.. حتّى يتمّ التعارف بيننا، فلدينا بلا ريب أشياء وأشياء ينبغي أن نقولها، أخائفة أنت؟.. محال!.. أراك لا تخافين شيئاً!

فغلبها السرور حتّى اشتبهت أن تقبله، ورنق الصفاء في صدرها. وكان يتفرّس في وجهها فقال لنفسه «الآن فهمتك يا ابنة اللبوة!» ثم قال لها بصوت تنتفض نبراته حرارة:

.. لقد اختارك قلبي، وقلبي لا يكذبني، ومن يجمعها الحب لا يفرّقها شيء، فأنت لي وأنا لك... وأذن وجهه منها كالمتأذّن، فمالت بعنقها نحوه فالتفتا في قبلة عنيفة، واستشعر ضغط شفيتها الساحر على شفّتيه يكاد يعصرهما، فهمس في أذنها:

.. محبوبتي... محبوبتي...

وزفرت من الأعماق، ثم اعتدلت في جلستها لتسترد أنفاسها. وراح يقول برقة بالغة في صوت كالهمس:

.. هنا مكانك، وهذا بيتك، بل هنا «وأوماً إلى صدره» مأواك... فضحكت ضحكة قصيرة وقالت:

.. أراك تذكّرني بأنّه ينبغي أن أعود الآن إلى البيت...

وكان في الواقع يستلهم خطّة مرسومة من قبل، فقال بإنكار:

.. أيّ بيت تعنين؟.. بيت الزقاق!... آه، ليتك تمسكين عن ذكر ذاك الحيّ جيمعاً. ماذا يعجبك في هذا الزقاق؟ لماذا تعودين إليه؟! فضحكت الفتاة قائلة:

.. كيف تسألني عن هذا؟! أليس هو بيتي وأهلي؟! فقال بازدياء:

.. لا البيت بيتك، ولا الأهل أهلك. إنّك من طينة أخرى يا محبوبتي، ومن الكفر أن يعيش جسم حيّ

شابة قليلة الأشباه، جمالك فتان، ومع ذلك فهو مزية واحدة بين مزايا عديدة تكاد تغطي عليه. أنت الجسارة نفسها، ومثلك إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون...

وانكفأ لونها، وجمدت قسماتها، فقالت بحدة:  
- هذا دعاية لا تجوز علي!.. بدأت مازحاً، وانتهيت وكأنك جاذب!

- دعاية؟!.. لا والله، لا وحقّ قدرك عندي. أنا لا أداعب حين الجدّ خاصة شخصاً مثلك ملأني تقديرًا واحترامًا وحبًا. وإذا صلق حدي فأتت قلب كبير يستهين بكلّ شيء في سبيل سعادته، ولا يمكن أن تقف في سبيله عقبة. إني أريد شريكًا في حياتي، وإنك لشريكي دون الناس جميعًا...

فهتفت به في انفعال شديد:

- أيّ شريك؟!.. إذا كنت تجد حقاً فهذا تريد؟!.. الطريق بين. فإذا أردت...

وكادت تقول «أن تتزوّجني» ولكنها أمسكت، وسدّت نحوه نظرات حادة مريبة، فلم يفته مرادها، واستشعر سخريه باطنة، ولكنه واصل سيره حيث لم تعد ثمة فائدة ترجى من التراجع، فقال بحماس تمثيلي:

- أريد شريكاً محبوباً نفتحم معاً حياة النور والثروة والجاه والسعادة، لا حياة البيت التمسّة والحبل والولادة والقدارة، حياة النجوم اللاتي حدثتك عنهن...

وفتحت فاهها منزوعة، ثم انبعث من عينيها نور خفيف، واصفرت غضباً وحنقاً، وغلبها الهياج فصاحت به وقد استقام ظهرها:

- تدعوني للفساد!.. يا لك من مفسد أثيم...

هكذا هدرت في غضبها وإن كان غضبها للمفاجأة التي دهمتها والخيبة التي أدركتها أكثر منه للفساد الذي لم تعتد أن تثور له!

وتبسّم الرجل كالهزئ. وقال:

- إني رجل...

ولكنها قاطعته صارخة مدفوعة بطبعها الحامي:

- لست رجلاً، بل أنت قواد...

فضحك ضحكة عالية وقال وما يزال يضحك:

- أليس القواد رجلاً أيضاً؟!.. بلى... وهو

رجل - وحقّ جمالك الفتان - ولا كلّ الرجال. وهل

تجدين عند الرجل العادي غير وجع الدماغ؟! أما

القواد فهو سمسار السعادة في هذه الدنيا! ولكن لا

تنسي أنّي محبّك كذلك. لا تدعي الغضب يحطم حُبنا.

إني أدعوك للسعادة والحبّ والجاه. ولو كنت فتاة بلهاء

لخادعتك، ولكنّي قدّرتك فأتت معك الصراحة

والحقّ. إنّ كلينا من معدن واحد، خلقنا الله للحبّ

والتعاون، فإذا اجتمعنا اجتمع لنا الحبّ والمال والجاه،

وإذا افترقنا للشقاء والفقر والذلّ، أو افترق أحدنا -

على الأقلّ - لذلك...

ولم تتحوّل عنه عيناها، وراحت تتساءل في ذهول

كيف تمخّض عن هذا؟! ولبت صدرها يحيش بالهياج

والانفعال، ومن عجب أنّها ثارت به ووجدت عليه

وتغيّظت منه، ولكنها لم تحقره، ولم تنفكّ عن حبه

لحظة واحدة! لا بل لم تنس - حتّى في عنفوان هياجها -

أنّها تصارع الرجل الذي لقنها الحبّ وثبته في أعماقها.

وأرهقها الانفعال فنهضت قائمة في حركة عنيفة وقالت

في سخط وغيط:

- لست كما تظن...

فتنهّد بصوت مسموع متكلّفاً الحزن، وإن لم تخنه

ثقت شأن رجال الأعمال، وقال بصوت أسف:

- لا أكاد أصدّق أنّي انخدعت بك. ربّاه!

أتصبحين يوماً من عرائس المدقّ؟! حبّ ولادة،

وحبّ ولادة، إرضاع أطفال على الأرصفة، ذباب

وبصّارة وفول، ذبول وترهل؟!.. كلاً، كلاً... لا

أريد أن أصدّق هذا...

فصاحت به غير متالكة نفسها:

- كفى...

وانطلقت نحو الباب فنهض مسرعاً، ولحق بها وهو

يقول برقة «رويدك»، ولكنه لم يعترضها ففتح لها

الباب، وخرجاً معاً. جاءت سعيدة غير هيّابة، وذهبت

مهيضة ذاهلة. ووقفاً أمام الباب الخارجي حتّى جاءهما



تستلقي عليها. ولم تكد تمضي دقائق حتى راحت الأم في نوم عميق، وملاّت الحجرة شخصياً. ولبثت حميدة محمقة في النافذة المغلقة وقد نضح خصاصها بنور القهوة المتصاعد. استحضرت ذاكرتها حوادث يومها العجيب فلم يفتها منه حركة أو سكون أو كلمة، وعاش في خيالها مرة أخرى، وذكرت ما وقع فيه من مغامرات جريئة لا يكاد يصدقها العقل، فشعرت على رغم قلقها الراهن بسرور غير خافٍ، سرور الزهو والفخار والجنون الكامن في غرائزها. ولم تنس مع ذلك أنها قالت عن ذلك الرجل وهي راجعة إلى زقاقها «يا ليتني لم أراه!». ولكنه كان قول لسان لم يجد له صدق في قلبها. والحق أنها عرفت من نفسها في ذلك اليوم ما لم تستطع معرفته مدى عمرها. وكأن هذا الرجل قد اعترض سبيلها ليجلو ما خفي من ذاتها وبسطه لناظرها كمرأة مصقولة. بيد أنها قالت له «كلًا» وهي تفارقه، وربما لم يكن لها عن هذا القول مذهب، ولكن ما معناه على وجه التحقيق؟! ليس معناه أن تقبع في بيتها مترقبة عودة عباس الحلوة؟ رباه، لم يعد للحلو مكان في نفسها. اتّحى أثره، وتبدّد رجوع صدهاء. وليس الحلوة في الواقع إلا هذا الزواج التعس، وما يعقبه من حبّ ولادة وإرضاع على الأرضة وذباب، إلى آخر هذه الصورة البشعة المفقوة. أجل. لم يكن لعاطفة الأمومة نبع يتفجر في نفسها شأن الفتيات من أترابها، ولم تكن نسوة الزقاق بمجنّيات عليها فيها رميتها من قسوة وشذوذ، فإذا تبغى إذًا؟!... وخفق قلبها خفقانًا متتابعًا فعضبت على شفتيها حتى كادت تدميها. إنها لتعلم ما تبغى، وبما تفهم إليه نفسها، كان يجري قبل اليوم في شعورها متقلقلًا بين النور والظلمة، ولكنه شقّ اليرم غشاوة الغموض وأسفر جليًا لا لبس فيه ولا إبهام. ومن عجب أنها لم تعان. في سهادها - تردّدًا خطيرًا فيما ينبغي أن تختار من سبيل، ولم تشعر كثيرًا بوطأة التجاذب بين ماضيها وحاضرها، أو بين ما في حياتها من خير وما يتصدى لها من شرّ، بل الحقّ أنها اختارت سبيلها بالفعل وهي لا تدري، ووقع اختيارها عليه

غلام بتاكس ودخله كلّ من باب، ومضى بهما مسرعًا. ابتلعتهما أفكارها فغابت عن الدنيا، وجعل يسترق إليها النظر صامتًا دون أن يجد حكمة في خرق الصمت المخيم. وانطوى الطريق على هذا الحال حتى بلغ التاكس منتصف الموسكي، فأمر السائق بالوقوف، وتبّنت على صوته فألقت ببصرها إلى الخارج ثمّ تزحزحت قليلًا استعدادًا للنزول، فوضع يده على أكرة الباب ليفتحه لها، ولكنه تريث قليلًا، ثمّ مال نحوها فلم منكبها وهو يقول:

- سأنتظرك غدًا...

فابتعدت عن الباب وهي تقول باقتضاب وحدة:

- كلًا...

فقال ويده تدوير الأكرة:

- سأنتظرك يا محبوبتي... وستعودين إليّ...

ثمّ قال لها وهي تغادر التاكس:

- لا تنسي الغد، سنبدأ حياة جديدة رائعة...

أحبك... أحبك أكثر من الحياة نفسها...

وراح يرقبها وهي تبعد متعجّلة، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة وقال لنفسه «مليحة بلا أدنى شك، وهيهات أن يكذبني ظني، فهي موهوبة بالفطرة... هي عاهرة بالسليقة... وسوف تكون نادرة المثال...».

- ٢٤ -

سألها أمها:

- لماذا تأخرت...؟

فأجابتها بلا مبالاة:

- دعني زينب إلى بيتها فذهبت معها.

فبشّرتها المرأة بأنّها سيشهدان عرس الستّ سنّة عفيفي عمّا قريب، وأخبرتها أنّ الستّ ستهدى إليها فستانًا لحضور الزفاف، فظاهرت حميدة بالسرور، وجلست تصفي إلى ثرثرة أمها ساعة طويلة، ثمّ تناولتا عشاءهما وأوتا إلى حجرة النوم، وكانت حميدة تنام على كنبه قديمة، أمّا أمها فتفرش حشّية على أرض الغرفة

وازع إلا ما يعوق المنحدر إلى الهاوية من دفاق الحصار. ثم انتقل تيار أفكارها فجأة إلى أمها، فالتفت نحوها وقد ملأ أذنيها شخيرها الذي كان غاب عنها ساعة طويلة، فتصوّرتها في غدها وقد طال انتظارها لها حتى أشفت على اليأس. وذكرت كيف أحبّتها المرأة حباً صادقاً لم يترك في قلبها إحساساً - وإن قلّ - بالحرمان من الأمومة، وكيف أحبّتها هي أيضاً على كثرة ما شجر بينهما من نزاع وشقاق، وكأنما خافت أحاسيس العطف التي أخذت تدبّ في نفسها فزفرت بقوة وضجر وقالت لنفسها: «لا أب لي ولا أم، وليس لي في الدنيا سواه»، وولّت الماضي كشحها، ولم تعد تفكر إلا في الغد وما عسى أن يتكشف عنه ثم أمضتها السهاد، وشعرت بحرارته تصهر جفونها ودماعها، فتمتّت أن ينقذها النوم من عذابه وأن تغمض عينيها فلا تفتحها إلا على نور الصباح. واهابت بإرادتها أن تنشّ عن رأسها ما ينثال عليه من خواطر، فنجحت في طردها إلى حين، ولكنها تنبّهت إلى الأصوات المتصاعدة من قهوة كرشة، ووقعت من نفسها موقعاً مثيراً فراحت تلعبها وتهمها بتطير النوم من عينيها. وجعلت تنصت إليها على رغمها، وتسبّ تخذّلتها في حلق وغضب. «يا سقر غير ماء النرجيلة». هذا صوت الفاجر الحشّاش كرشة. «يا سيدي. ربك يعدلها». وهذا عمّ كامل الحيوان الأعجم. «ولو. كل شيء له أصل». هذا الأعمش القدر الدكتور بوشي. وتمثّل لها حبيبها - على غرة - بمجلسه المختار ما بين المعلم كرشة والشيخ درويش، وتخيلته وهو يشير إليها بقبلاته فخفق فؤداها، ثم استحضرت ذاكرتها صورة العمارة الهائلة، والحجرة الرائعة، وسرعان ما طنّ صوته في أذنيها وهو يهمس قائلاً: «ستعودين إليّ.». ربّاه! متى يرحمها النوم؟ «السلام عليكم يا إخوان». هذا صوت السيّد رضوان الحسيني الذي أشار على أمّها برفض يد السيّد علوان قبل أن يهتصره المرض، ترى ماذا يقول عنها غداً إذا تنهى إليه الخبر؟ ليقبل ما يشاء، لعنة الله على الحيّ جميعاً! وانقلب الأرق صداعاً وسقياً، ومضت تتقلّب على جنبها وبطنها

وهي بين يدي ذلك الرجل، في بيته! كان لسانها يهدر غضباً وأعماقها ترقص طرباً، كان وجهها يرتد ويعبس وأحلامها تنفس وتمرح!.. وفوق هذا كلّها فإنّها لم تمقته لحظة واحدة، لا بل لم تحتقره قطّ وكان - كما لم يزل - حياتها ومجدها وقوتها وسعادتها! لم يثر حنقها إلا إدلاله بثقته وهو يقول لها «ستعودين إليّ»!

أجل. ستعود، ولكنه ينبغي أن يؤتي ثمن هذه الثقة الوقحة غالباً. فليس حبّها عبادة وخضوعاً، ولكنه معركة يجتدم أوارها ويتطير شررها. طالما اختنقت في هذا البيت، وهذا الزقاق، وهيهات أن يعتاقها عائق بعد اليوم عن الانطلاق إلى النور والجاه والسلطان، وهل من سبيل إلى الإفلات من ربكة الماضي إلا عن يد هذا الرجل الذي أوقد في خيالها ناراً؟ ولكنها لن تهرع إليه في خشوع وإذعان هاتفة «إني عبد يديك فافعل بي ما تشاء» لأنها لا تعرف هذا الحب. كذلك لن تنطلق إليه كالرصاصة صارخة «إني سيّدتك فتخشع بين يدي». فما أزهدها في الحب الناعم أو الحبيب الخرج. ولكنها ستذهب إليه وقلبها مشحون بالآمال والرغبات، ولسان حالها يقول: «إني قادمة بقوّتي فلاقتي بقوّتك، ولستناطح إلى الأبد في سعادة تجلّ عن الوصف، ثمّ متعني بما منّيتني به من جاه وسعادة». لقد وضح السبيل بفضله هو، وهيهات أن تفرط فيه ولو اشترته بحياتها.

ومع ذلك فلم تخلّ ليلتها من أفكار نقّصت عليها عزمتها بعض التنغيص، تساءلت «ترى ماذا يقولون عني غداً؟» وجاءها الجواب في كلمة واحدة: عاهرة! وتقبّض قلبها حتى جفّ ريقها وذكرت كيف تلاحت مرّة مع واحدة من صومجباتها بنات المشغل فسبّتها صارخة «يا ربيبة الشوارع. يا عاهرة!». معيرة إياها بالعمل كالرجال والتسكّع في الشوارع. فما عسى أن يقال عنها هي؟!.. ودخلها الحزن والأسى، فتلملمت في رقادها جزعاً وضيّقاً. ولكن شيئاً في الوجود لم يكن ليثنيها عمّا اعترمت، أو يلوي بها عمّا اختارت، فقد اعترمت بقوة أعماقها، واختارت بمجامع قلبها، فكانت تنحدر إلى مصيرها المحتوم لا يعوقها من

تبعها النظرات كأنها الشعلات يعنها خك أعواد الثقاب.

ومن عجب أنها وقفت حيال ذلك كله جامدة باردة لا يندى صدرها بعطف أو مودة لا للزقاق ولا لأهله. وكانت أسباب الجوار والصدقة مقطوعة ما بينها وبين غالبية نسوة الحي كأم حسين - أمها بالرضاعة - والفرانة، حتى امرأة السيد رضوان الحسيني لم تسلم من لسانها، فقد بلغها يوماً أنها وصفتها ببذاءة اللسان، فتربصت بها حتى رأتها يوماً على سطح بيتها تنشر الغسيل فصعدت إلى السطح وثبا - وكان السطحان متلاصقين - واقتربت من السور وجعلت تعرض للمرأة قائلة بتهكم وازدراء «أسفي عليك يا حميدة من فتاة بدنية اللسان، غير جديرة بمعاشرة الهوانم من ستات المدق بنات الباشوات!» ولكن المرأة أثرت السلامة، وتعوذت بالصمت. وقد ثبتت عينها غير قليل على الوكالة فذكرت كيف طلب السيد سليم علوان يدها، وكيف ثملت بأحلام الثراء يوماً وبعض يوم! لكم احترقت حسرة على ضياع هذا الرجل من يدها! ولكن شتان بين رجل ورجل!.. فإذا كان سليم علوان قد حرك - بثروته - جانباً من قلبها، فهذا الذي حرك قلبها كله حتى كاد يقتلعه. وعادت عينها إلى دكان الحلاق فذكرت عباس الحلو، وتساءلت ترى ماذا يفعل إذا رجع يوماً من مهجره فلم يعثر لها على أثر؟! وذكرت وداعه الأخير على السلم بقلب متحجر وعجبت كيف منحته شفتيها يقبلها؟! ثم ولت النافذة ظهرها ومضت إلى الكنية أشد ما تكون عزمًا وتصميمًا. ورجعت أمها إلى البيت ظهرًا، فتناولتا غذاءهما معًا. وقالت لها المرأة في أثناء الطعام: «لدي زيجة مهمة، إذا وقفت فيها، فتح الله علينا» فاستفسرت عن هذه الزيجة المرجوة بفتور، ولم تكذ تلقي لما قالت بالأ، وكثيراً ما كانت تقول مثل ذلك ثم يتمنح الرجاء عن بضع جنينها وأكلة لحم! أو أكلة لحم فحسب بالنسبة لها. ولما أن اضطجعت أمها لتنام قليلاً، تربعت هي على الكنية وراحت تطيل إليها النظر. هذا يوم الوداع، وربما لن تقع عليها عينها

وظهرها، ومضى الليل بطيئاً ثقيلاً مرهقاً مضنيًا. يزيده هولاً خطورة الغد المرتقب. وقيل القمر بقليل غشيها نوم ثقيل استيقظت منه عند الضحى. وبادرها الصحو بأفكارها جملة كأنما سبقتها إلى اليقظة بوقت طويل، ولكن لم يساورها التردد وتساءلت في جزع: متى يأتي المغيب! وقالت لنفسها إنها الآن زائرة عابرة في المدق لا هي منه ولا هو منها كما قال الحبيب. ونهضت كعادتها ففتحت النافذة، وطوت حشية أمها وكومتها في ركن الحجر، ثم كنست الشقة، ومسحت الردهة الخارجية، وتناولت فطورها على انفراد لأن أمها كانت قد غادرت البيت إلى شئونها التي لا تنتهي، ثم مضت إلى المطبخ فوجدت عدسًا في طبق تركته أمها لتطبخه غذاً ليومهما، فعكفت على تنقيته وغسله، وأوقدت الكانون وخاطبت نفسها بصوت مرتفع قائلة «هذه آخر طبخة في هذا البيت، وربما كانت آخر طبخة في حياتي... ترى متى أكل العدس مرة أخرى؟!». ولم تكن تستكره العدس ولكنها كانت تعلم أنه غذاء الفقراء وشعار مائدتهم. كذلك لم تكن تعلم شيئاً عن طعام الأغنياء إلا أنه لحم ولحم ولحم. وأنشأ خيالها ينعم بتصور غذاء المستقبل وكسائه وزينته حتى انبسطت أساريرها وقطر وجهها بشاشة حاملة. وغادرت المطبخ عند الظهر فدخلت الحتام تستحم، ثم مشطت شعرها بأناة وعناية وجدلته صغيرة غليظة طويلة أرسلتها وراء ظهرها حتى مسّت أهدابها أسفل فخذها. وارتدت خير ما لديها من ثياب، ولكنها استاءت من مظهر ملابسها الداخلية البالي، فتورد وجهها البرنزي وعجبت كيف تزفّ إليه في مثل هذه الثياب، واربذ وجهها وهاج صدرها، فصممت على ألا تسلم إليه حتى تستبدل هذه الثياب الرقيقة أخرى جديدة زاهية. وطاب لها هذا الرأي، وصادف من نفسها - التي تأبى الهوى إلا في حومة العراك والعناد - هوى ولذة. ثم وقفت في النافذة تلقي على حيها نظرات الوداع. وجعل بصرها يتردد بين معاله بغير توقف: القرن، قهوة كرشة، دكان عم كامل، دكان الحلاق، الوكالة، بيت السيد الحسيني، والذكريات

- إلى الأزهر، فلا يرانا أحد...  
 وشقاً طريقهما متباعدين، وسارا في شارع الأزهر في صمت ثقيل، وقد أدركت أنها أعلنت - بالكلمة التي نطقت بها - تسليمها النهائي. وبلغا ميدان الملكة فريدة دون أن يخرجوا من صمتهما الثقيل. ولم تعد تدري أين تتجه فوقفت، وسمعت في اللحظة التالية ينادي التاكس، وجاءت السيارة ففتح لها الباب، ورفعت قدمها لتصعد إليها، ففصلت هذه الحركة بين حياتين! وما كادت السيارة تنطلق بها حتى قال بصوت متهدج وبمهارة فائقة:

- الله وحده يعلم كم تعذبت يا حميدة!... لم أنم من ليلتي ساعة واحدة. أنت لا تدري يا عزيزتي ما الحب. ولكفي اليوم سعيد، بل أكاد أجزم من الفرح. رباه كيف أصدق عيني؟! شكراً يا محبوبتي شكراً. والله لأجعلن من السعادة أنهرًا تجري تحت قدميك... ما أجل المأس حول هذا الجيد! (ومس جيدها برقة).. ما أروع الذهب في هذا الساعد! (وقبل ساعدها).. ما أفتن الروح في هاتين الشفتين! (وهوى برأسه ليقتل نغرها ولكنها تحامته فلثم خدها).. يا لك من فاتنة نافرة..!

واستراح قليلاً ثم استدرك قائلاً وعلى شفتيه ابتسامة:

- ودعي الآن عهد التعب، فلن تطالعك الحياة بكدر بعد اليوم!... حتى ثديك سيحملها عنك رافع من الحرير..!

ورضيت بالاستيعاب لهذا الكلام دون تنمر أو احتداد، وإن توردت وجنتاهما، واستسلم جسمها للسيارة المندفعة التي تهرب بها من الماضي كله.

وانتهى التاكس إلى العمارة التي صارت مأواها، فغادراه، ومضيا مسرعين إلى الشقة، وكانت كما وجدتها بالأمس ضابجة بالأصوات المنبعثة من الأبواب، ثم دخلا الحجرة الرائعة. وقال ضاحكًا:

- اخلي الملاء لنحرقها معًا.

فغمخت تقول وقد تورّد وجهها:

- لم أحضر ملاسي...

بعد الآن. ولأول مرة عراها الضعف فدرت حناياها عطفًا للمرأة التي أوتها وتبنتها وأحبّتها ولم تعرف سواها أمًا، وتمنت لو تستطيع أن تقبلها قبله الوداع.  
 وجاءت ساعة الأصيل فتلفعت بملاءتها وانتعلت شببها. وكانت يداها ترتعشان انفعالاً واضطراباً، وقلبها يخفق بشدة. ولم يكن بدّ من أن تفارق أمها بغير وداع، فامتعضت، ثم رأها آمنة لا تدري شيئاً عما يحته لها الغد فازداد امتعاضها. وحّم الرجل فالتفت عليها نظرة طويلة ثم قالت وهي تمّ بالمسير:  
 - فكك بعافية...

فقال لها المرأة وهي تشعل سيجارة:

- مع السلامة... لا تتأخري...

وغادرت البيت تلوح في وجهها أمارات الجذ والاهتمام، وقطعت الملق لآخر مرة لا تلوي على شيء، وسارت من الصناديق إلى الخوريّة، ثم انعطفت صوب السكة الجديدة وتقدّمت في خطوات متمهّلة. وأرسلت بصرها بعد تردّد وإشفاق... فرأته بموقف الأمل ينتظر!... التهب خدها واجتاحتها موجة صاخبة من التمرد والغضب وودت من أعماقها أن تنار من ظفره هذا نازراً يرّد عليها بعض سكينتها. وغضت بصرها، ثم تساءلت أترأه يبتسم الآن تلك الابتسامة الوقحة؟!... ورفعت عينها بنرفزة، ولكنها وجدته هادئاً جداً رزيناً يلوح في عينيه اللوزيتين الرجاء والاهتمام فانفتا هياجها قليلاً. ومرّت به وهي تتوقّع أن يخاطبها، أو أن يأخذ يدها كما فعل بالأمس، ولكنه تجاهلها، وترثت قليلاً حتى غيبتها المنعطف، ثم تبعها متمهّلاً، فأدركت أنه بات أشدّ حذرًا، وأعظم شعورًا بخطورة الأمر. وسارت حتى أوشكت السكة الجديدة أن تنتهي، ثم توقفت بغتة كأنما ذكرت شيئاً جديداً، وانفتلت راجعة، فتبعها قلقلًا وهمس لها متسائلاً:

- ماذا أرجعك؟

فتردّدت قليلاً ثم قالت وقد سامها النطق عناء:

- بنات المشغل...

فقال بارتياح:

فصاح بسرور:

- حسناً فعلت... لا نريد شيئاً من الماضي.

وأجلسها على مقعد وراح يقطع الحجرة جيئةً وذهاباً، ثم اتجه نحو باب أنيق إلى يمين المرأة العالية، ودفعه عن مخدع وثير وهو يقول:

- حجرتنا...

ولكنها قالت بسرعة وحدة:

- كلاً... كلاً... سأنام هنا...

فحدجها بنظرة ثاقبة، ثم قال بلهجة تنم عن التسليم:

- بل تنامين في الداخل وأنا هنا...

وكانت تصمّم في نفسها على ألا تؤخذ كالملشية، وألا تسلّم حتى تشيع رغبتها في العناد والإباء، والظاهر أنّ رغبتها هذه لم تغب عن مكره، لأنّه دارى ابتسامة ساخرة، وتظاهر بالإذعان والتسليم، ثم قال لها بسرور وفخار:

- بالأمس يا عزيزتي دعوتي بالقواد، فاسمحي لي بأن أقدم لك نفسي على حقيقتها: محبك ناظر مدرسة، وستعلمين كلّ شيء في حينه...

## - ٢٥ -

قال حسين كرشة لنفسه وهو يقترب من زقاق المدق: «هذا وقت اجتماعهم في القهوة، وسيروني جميعاً بلا أدنى شك، وسيخبرون أبي بمقدمي إذا عمي هو عنه». كان الليل قد أرخى سدوله، فأغلقت دكاكين المدق. وخيم عليها السكون، وضجّت قهوة كرشة وحدها بالسّار. كان الفتى يسير بخطوات ثقيلة، منقبض الصدر، متجهّم الوجه، يتبعه على الأثر فتى في مثل سنّه وفتاة في مقتبل العمر. وكان حسين يرتدي قميصاً وبنطلوناً، ويحمل في يمينه حقيبة كبيرة، وكذلك كان الفتى الذي يتبعه، أما الفتاة فرفلت في فستان أنيق - بلا معطف ولا ملاءة - وقد بدت في مشيتها ذات وسامة وزشاقة وإن لم تخل من ابتذال يشي بطبقتهما. واتجه حسين صوب بيت السيّد

رضوان الحسيني دون أن يلتفت ناحية القهوة، ودخل البيت يتبعه رفيقه. ثم رقاوا السلايم حتى الطابق الثالث، ودقّ الفتى باب الشقة وقد ازداد وجهه تجهماً، فسمع وقع أقدام تقترب، ثم فتح الباب وبدت أمّه وراءه تقول بصوتها الخشن «من؟»، ولم تعرف الشبح المائل أمامها لشدة الظلمة. فقال حسين بصوت منخفض:

- حسين!

وهتفت المرأة وهي لا تكاد تصدّق أذنيها:

- حسين!... ابني!!

وهرعت إليه، وأمسكت بذراعيه، وقبلته، وهي تقول بحرارة:

- عدت يا بني!... الحمد لله الذي أثابك إلى رشدك وحماك من وسوسة الشيطان، ادخل بيتك (وضحكت في انفعال). ادخل يا غادر... لكم أقضضت مضطجعي. وقطعت قلبي...

ودخل الشاب مستسلماً ليدنها، دون أن يخفّ تجهّمه، وكأنّ استقباله الحار لم يكد يجدي شيئاً في تفريج كربه، ولما أن همت برّد الباب حال بينها وبينه قائلاً وهو يوسع للفتاة والفتى:

- معي أناس. ادخلي يا سيّدة، ادخل يا عبده. هذه زوجي يا أمي، وهذا شقيقها...

وهبت المرأة، ولاحت في عينيها دهشة لا تخلو من انزعاج، وراحت تنظر إلى القادمين بذهول، ثم تنهت إلى اليد المبسوطة للسلام فتالكت عواطفها وسلّمت وهي تخاطب ابنها بلا وعي تقريباً:

- تزوّجت يا حسين!... أهلاً بك يا عروس...

تزوّجت يا حسين دون أن تحبّرنا؟!... كيف رضيت أن تزفّ في غياب والديك وهما على قيد الحياة؟

فقال حسين بامتعاض:

- الشيطان شاطر... كنت غاضباً نائراً ساخطاً... وكلّ شيء قسمة ونصيب!

وانتزعت المرأة المصباح من الحائط، وتقدّمتهم إلى حجرة الاستقبال، ووضعت على حافة النافذة المغلقة، ووقفت تتفرّس في وجه زوج ابنها، وقد قالت الفتاة

بصوت أسيف:

- أحزننا والله غيابكم، ولكن ما باليد حيلة...  
وأبدى شقيقتها كذلك أسفه، فابتسمت المرأة، ولم  
تكن آفاق بعد من دهشتها، وتمتعت:

- أهلاً بكم جميعاً.

ثم التفتت صوب ابنها وقد هالها تحجهم وجسده،  
وذكرت لأول مرة أن فمه لم ينفرج عن كلمة طيبة  
واحدة منذ حضوره، فقالت بعتاب:

- هكذا تذكرتنا أخيراً...

فهزّ حسين رأسه بكآبة وقال باقتضاب:

- استغنوا عني...

فقالت المرأة بإنكار وقد داخلتها خيبة جديدة:

- استغنوا عنك؟! أتعني أنك عاطل الآن؟!!

وقبل أن يفتح فمه قرع آذانهم دقّ عنيف على  
الباب، فتبادلت المرأة وابنها نظرة ذات معنى، ثم  
غادرت الحجرة فلاحق بها الشاب بعد أن أغلق الباب  
وراءه، وقال لها في الردهة الخارجية:

- هذا أبي بلا ريب...

فقالت له بقلق:

- أظنّ هذا، هل رآك... أعني رآكم وأنتم  
قادمون؟

ولكنّ الفتى لم يجيبها، وتقدّم من الباب وفتحها،  
فدخل المعلم كرشة مندفعاً، وما إن رأى ابنه حتّى قال  
وعينه تحمّران، وضباب الغضب يغشى وجهه:

- أهذا أنت؟!... قالوا لي ذلك فلم أصدّق...

لماذا عدت؟!!

فقال حسين بصوت منخفض:

- يوجد في البيت غرباء، هلمّ إلى حجرتك  
نتكلّم...

ومضى الشاب مسرعاً إلى حجرة أبيه، فتبعه المعلم  
مزججراً، ولحقت بهما المرأة، ثمّ أشعلت المصباح وهي  
تقول لزوجها في رجاء وتحذير:

- في الحجرة الأخرى زوج ابنك وشقيقتها...

وارتفع جفنا الرجل الثقيلان في ذهول وهتف:

- ماذا تقولين يا مرة؟!... أتزوجت حقاً؟

واستاء حسين من أمّه لأنها ألقت عليه الخبر دون

تهديد، ولم ير بدأً من أن يقول:

- نعم يا أبتى تزوّجت...

وسكت المعلم دقيقة وهو يقرض أسنانه بحق  
وغيظ، ولكنّه لم يفكر لحظة في معاتبة ابنه على الزواج  
بدون علمه، لأنّ المعاتبة في نظره حال من المودة،  
وصمّم في اللحظة التالية على إهمال هذا الخبر كأنّه لم  
يسمعه، وقال بغيط وحقد:

- هذا شيء لا يعنيني البتّة. ولكن دعني أسألك  
لماذا عدت إلى بيتي؟!... لماذا أريتني وجهك بعد أن  
أراحي الله منه؟

فلاذ حسين بالصمت، ونكس ذقنه عابساً، وانبرت  
المرأة تقول باستعطاف:

- استغنوا عنه يا معلّم.

ونقم الشاب على أمّه تسرعها للمرة الثانية. أمّا  
المعلم فقد ازداد حقناً وصاح بصوته الغليظ - ممّا جعل  
المرأة تغلق الباب - قائلاً:

- استغنوا عنك؟!... ما شاء الله!... وهل بيتي  
تكية؟!... ألم تنبذنا يا همّام؟!... ألم تعصني بنابك يا  
بن الكلب؟!... فلماذا تعود الآن؟!... أغرب عن  
وجهي. عد إلى الحياة النظيفة والماء والكهرباء...  
هياً...

فقالت أمّ حسين برقة:

- هدئي روعك يا معلّم وصلّ على النبيّ...

فلوّح لها الرجل بقبضته منذراً وصاح بها:

- تدافعين عنه يا بنت الأبالسة؟!... كلّكم جنس  
شياطين يستأهل جلد السياط وعذاب النار. ماذا  
تريدن يا أمّ الشرّ كلّها؟!... أتريديني على أن آويه  
وأهله؟!... هل قالوا لك إنّي قواد يأتيني رزقي من يمين  
وشمال بغير تعب ولا جهد؟!... ألا فاعلموا بأنّ  
الشرطة تحوم حولنا، وبالأمس قبضوا على أربعة من  
رفاقي، وغدكم أسود بإذن الله...

فاستوصت المرأة بالصبر وقالت برقة لا عهد لها بها:

- صلّ على النبيّ يا معلّم ووحد الله.

فصاح بفظاظة:

يقبل إنه مات) تاركاً شيخ المغفلين صفر اليدين.  
والبك شقيق الست؟

- الحال من بعضه.

- عال... عال... عال... البركة في أبيك. هيتي لهم  
البيت يا ست أم حسين ولو أنه حقير لا يليق بالمقام،  
ولكني سأندارك ذلك بإدخال الماء والكهرباء، وربما  
ابتعت حظور السيد علوان ليكون تحت تصرفكم...  
نفخ حين قائلًا:

- حبك يا أبي... حبك... حبك...

فنظر إليه كالمعتذر وقال بسخرية:

- لا تؤاخذني. أأثقلت عليك؟.. مزاج رقيق، عز  
وجه، ارحموا عزيز قوم بال. احتشم يا معلم كرشه  
ولا تحدث السادة إلاً بحديث السادة. تفضل بخلع  
ملايسك. أما أنت يا ست أم حسين فافتحي الكنز في  
المرحاض وعبي لليك حتى يترش وينسط...  
ولم ينس حسين بكلمة وهو كظيم، فمرت العاصفة

بسلا، وراحت المرأة تناجي نفسها: «يا ساتر استر».  
وكان المعلم - على حقه وسخرية - أبعد ما يكون عن  
طرده، بل لعله حتى في تلك الساعة الحامية لم يجل من  
ارتياح لعودته، وسرور بزواجه، لذلك كف عما كان  
آخذاً فيه، وغمغم قائلاً:

- الأمر لله، ربنا يتوب علي منكم.

ثم سأل الشاب مستدركاً:

- ماذا أعددت للمستقبل؟

فقال الشاب وقد شعر بأنه اجتاز محته:

- سأجد عملاً إن شاء الله، ولا يزال لدي حلي  
زوجي.

فانتهت أمه إلى كلمة «حلي» باهتمام وسألته بغير  
وعي:

- هل كنت ابتعتها لها؟

فقال حسين:

- أهديت إليها البعض واشترى لها شقيقها البعض

الأخر.

والثقت نحو أبيه مستطردًا:

- سوف أجد عملاً. وسيبحث عبده نسيبي عن

- سليه عما جاء به؟

فقال برجاء واستعطاف:

- ابنا أرعن مجنون، غواه الشيطان فأضله، وليس

له الآن من ملجأ سواك...

فقال المعلم كرشة بحق وسخرية:

- صدقت يا أم سوء. ليس له من ملجأ سواي.

سواي أنا الذي يسب حين السراء ويلجأ إليه حين  
الضراء!

ثم تفحص حسين بنظرة قاسية وسأله باحتقار  
وسخرية:

- لماذا استغفروا عنك؟

وتنهدت الأم من الأعماق لأتھا أدركت بغريزتها أن  
هذا السؤال - على لهجته المريرة - إيذان بالتفاهم  
المنشود. أما حسين فقد قال بصوت منخفض وهو  
يعاني مرارة الفهر:

- استغفروا عن كثيرين غيري... يقولون إن الحرب  
وشبكة الانتهاء...

- انتهت الحرب في الميدان ومستبداً في بيتي أنا...

ولماذا لم تذهب إلى أهل زوجك؟

فقال الشاب بغضاضة:

- ليس لها إلا شقيقها...

- ولماذا لم تلجأ إليه؟

- استغفروا عنه أيضاً...

فضحك هازئاً وقال:

- أهلاً... أهلاً... وطبيعي أنك لم تجد ملجأ لهذه

الأسرة الكريمة التي أناخ عليها الدهر إلا بيتي ذا

الحجرتين!... مرحى. مرحى... ألم توفر مالا؟

فقال الشاب باقتضاب وهو يتنهّد:

- كلاً...

- أحسنت. عشت عيشة الملوك، كهرباء وماء

وصلاة، ثم عدت أخيراً كما بدأت شحاذاً.

فقال حسين بانفعال:

- قالوا إن الحرب لن تنتهي، وإن هتلر ميقاوم

عشرات السنين ثم يهجم بعد ذلك...

- ولكنّه لم يهجم، واختفى (حتى في تلك اللحظة لم

فقالت المرء دون أن تحاول إخفاء لهجتها الواشية بالشهامة:

- خرجت أول أمس كعادتها كل عصر، ولكنّها لم تعد. ودارت أمّها على بيوت الجيران والمعارف تفتش عنها دون جدوى. وذهبت إلى قسم الجمالية وقصر العيني ولا حياة كن تنادي.

- ماذا حدث للبنت يا ترى؟

فهزّت أمّ حسين رأسها في ارتياب وقالت بيقين:  
- هربت وحياتك!.. غواها رجل فأكل غنّها وطار بها. كانت جميلة ولكنّها لم تكن طيبة قط.

### - ٢٦ -

فتحت عينين محمّرتين من أثر النوم، فرأنا سقفاً أبيض، ناصع الياض، يتدلّى من وسطه مصباح كهربائيّ بارع الرونق في كرة كبيرة حمراء من البلّور الشّفاف. امتلأ بصرها دهشة، ولكن لم يدم ذلك سوى ثانية واحدة، ثمّ تدافعت إلى رأسها ذكريات الليلة الماضية، وذكريات الحياة الجديدة. وأنّجه ناظرها نحو الباب فألفته مغلقاً، ثمّ رأت على خوان قريب من السرير مفتاح الباب بحيث تركته بالأمس. نفذت إرادتها فنامت وحدها، وقضى ليلته وحده في الحجرة الخارجية، وافترّ ثغرها عن ابتسامة. وأزاحت عن صدرها الغطاء الوثير، فبدا فستانها مستخدّياً خجلاً فيها يغمر، من غمّل وحريّر. ما أعمق الهوة التي تفصل ما بينها وبين الماضي! وكانت النوافذ مغلقة تنضح بوهج الشمس، فينير جوّ الحجرة بضوء شاحب خفيف، فاستدلّت على الضحى ببياتنه، ولكنّها لم تدهش لاستيقاظها المتأخّر، فقد أرّقها السهاد حتّى قبيل الفجر، وسمعت نقرأ خفياً على الباب، فتلفت صوبه في انزعاج، وجد بصرها عليه دون أن تأتي حركة أو تنطق بحرف، ثمّ غادرت الفراش، ودلفت إلى التواليت، ووقفت بين مرآياه متحيّرة مبهوّة. وعاد النقر في قوّة ملموسة فهتفت:

- من؟

وجاءها صوته العميق وهو يقول:

عمل أيضاً، وعلى آية حال فهو لن يقيم بيننا إلّا أياماً. وانتهزت المرأة فرصة الهدوء الذي أعقب الزوبعة فقالت لزوجها:

- تعال يا معلّم سلّم على أهل ابنك.

ولحظت ابنها بطرف خفيّ وغمزت بعينها، فقال الشاب بغضاضة من يستكره التودّد بطبعه:

- هلاًّ أكرمّتي حيال أهلي؟

وتردّد الرجل لحظة ثمّ قال بامتناع:

- كيف تريدني على الاعتراف بهذا الزواج الذي لم أباركه؟!

ولسّما لم يسمع من مجيب، نهض متأفّفاً، ففتحت المرأة الباب وتقدّمته، وانتقلوا إلى الحجرة الأخرى جميعاً، وسلّموا، ورخّب المعلّم بزوج ابنه وشقيقها. انطوت الصدور عمّا بها أمّا الوجوه فقد أشرقت بالترحاب والمجاملة. وكان المعلّم كرشة قد سلّم بالأمر الواقع، ولكنّه لبث قلقاً لا يدري أخطأ بتسليمه أم أصاب، ولم تَصِفْ نفسه من موجدة واستياء. ثمّ انتهت عيناه النائمات في أثناء الحديث إلى شقيق الفتاة فتفحصه بعناية، وما عَتَمَ أن تولّاه اتهام مفاجئ أنساه قلقه وموجدته واستياءه!.. كان شاباً يافعاً وسيم الطلعة خفيف الظلّ، فجعل يحاوره ويرنو إليه بطرف يقط. وطابت نفسه وصفت، وسرت في أعماقه هزّة سرور وحماس، فتفتّح قلبه للأسرة الجديدة، ورخّب بها مرّة أخرى ولكن بشعور جديد، وسأل ابنه بلطف:

- أليس لك أثنان يا حسين؟

فقال حسين:

- غرفة نوم مكوّمة عند الجيران.

فقال المعلّم بلهجة أمرة:

- اذهب وأحضر عفشك!..

\*\*\*

وخلا حسين إلى أمّه، وجلسا يتحدثان ويدبران أمورهما، وفي ختام الحديث صاحبت به فجأة:

- ألم تعلم بما حدث؟!..! اختفت حميلة.

فلاحت الدهشة في وجه الشابّ وسألها:

- كيف؟



قد انقطعت إلى الأبد، فلماذا تُبقي على اسمها؟ ..  
بل ليتها تستطيع أن تستبدل يديها يدين جديديتين  
جيلتين كيديه هو، وأن تستيعض عن صوتها - الذي  
تستغلظ نبراته العالية حتى الفظاظاة والقبح - صوتًا  
رقيقًا رخيئًا، ولكن ما باله اختار هذا الاسم  
الغريب؟ .. ولم تملك أن قالت باستنكار:  
- هذا اسم غريب، لا معنى له ..

فقال ضاحكًا:

- اسم جميل. ومن جماله ألا معنى له. فالاسم  
الذي لا معنى له يحوي المعاني كلها. بل هو من  
الأسماء الأثرية التي تسحر الباب الإنجليز والأمريكان،  
ويسهل النطق به على المستهم الموعجة ..

فجالت في عينها نظرة حيرى، تضي بالارتباب  
وتتحفز للعناد والانقضاض، فابتسم برقة واستدرك  
يقول:

- تيتي العزيزة .. رويدك، ستعلمين كل شيء في  
حينه. ألم تعلمي بأنك ستصيرين غدا سيدة باهرة  
الجمال بعيدة الصيت؟ .. هذه هي معجزة هذا البيت.  
أم حسب أن السماء تَمطر ذهبًا وماسًا؟ .. كلا يا  
عزيزتي، إن السماء في أيامنا هذه لا تَمطر إلا شظايا  
والآن خذي أهبتك لاستقبال الحياطة. ولكن معذرة  
لقد ذكرت أمرًا هامًا ذكرت أنه ينبغي أن أصحبك  
لزيرة مدرستي - أنا ناظر يا محبوبتي ولست قوَادًا كما  
دعوتني بالأمس - فالتحفي بهذا الروب وانتعلي هذا  
الشبشب ..

وذهب إلى التواليت فأق بزجاجة زرقاء كروية  
يُصَل بقم معدني فيها أنبوبة من المطاط الأحمر، وسدّد  
فوهتها نحو وجهها وجعل يضغط على الأنبوبة فيمَجّ في  
صفحة وجهها سائلًا زكيّ الشذا، وقد ارتعشت بادئ  
الأمر شاهقة، ثم استنامت إلى طيها في دهشة  
وارتياح. وألبسها الروب بنفسه، وجاءها بشبشبه  
فانتعلته، ثم تَأبَّط ذراعها ومضى بها إلى الحجرة  
الأخرى، ثم إلى الردهة الخارجية. وسارا معًا متجهين  
صوب أول باب إلى اليمين وهو يقول لها محذّرًا:

- إنك وأن تبدي خجلة أو خاففة .. إني أعلم

- صباح الخير. هلاً فتحت الباب؟

ونظرت إلى المرأة فرأت شعرها متشعثًا، وعينيها  
محمّرتين، وجفنيها ثقيلين، .. ربّاه .. أليس ثمة ما  
تغسل به وجهها؟! ألا ينتظر حتى تنهتًا لاستقباله؟!  
وعاد ينقر الباب جزعًا، ولكنّها لم تلتج إليه بالأا،  
وذكرت قلقها يوم اعترض سبيلها في الدراسة أول مرّة  
فلقيته وقد نسيت أن تأخذ زيتها، وهي تكون اليوم  
أشدّ قلقًا بلا ريب! ورات زجاجات الروائح العطرية  
منضودة على التواليت، ولكنّها كانت تراها لأول مرّة في  
حياتها، فلم تهتد إلى وجه الانتفاع بها في مأزقها. ثم  
تناولت مشطًا عاجيًا وسوّت شعرها في عجلة ولهوجة،  
ومسحت بطرف فستانها وجهها، وألقت على المرأة  
نظرة أخرى، وتنهّدت في قلق وغيط، ثم أخذت  
المفتاح وسارت نحو الباب، وكأنّها ضاقت بإشفاقها،  
فرفعت منكبيها استهانة وفتحت الباب. التقيا وجهها  
لوجه وقد ابتسم إليها ابتسامة لطيفة وقال برقة بالغة:

- صباح النور يا تيتي! .. لماذا أهملتني كلّ هذا  
الوقت! .. أتريدن مواصلة النهار بالليل بعيدًا عني؟!  
فابتعدت عنه دون أن تنبس بكلمة، ولكنّه تأثرها  
والابتسامة لا تفارق شفّته، ثم سالها:

- لماذا لا تتكلمين يا تيتي؟!

تيتي!! أيسم تدليل هذا يا ترى؟ .. ولكن أمها  
كانت تدعوها «حمد» إذا أرادت أن تدلّلها، فيا تيتي  
هذا؟! .. ورمقته بنظرة إنكار وغمغمت:

- تيتي!

فقال وهو يتناول راحتها بين يديه ويشبعها تقييلًا:  
- هذا اسمك الجديد، فاحفظيه عن ظهر قلب،  
وانسي حميدة فلم يعد لها وجود! .. ليس الاسم يا  
محبوبي بالشئ النافه لا يقام له وزن، هو بالحرى كلّ  
شيء وما الدنيا - لو تعلمين - إلا أسماء ..  
وعلمت أنّه لم يعد اسمها - كنياسها البالية، شيئًا  
ينبغي انتزاعه وإبداعه مقابر النسيان، ولم تَر في ذلك  
من بأس، فلا يجوز أن تنادى في شريف باشا بما كانت  
تنادى به في المذق، وفضلًا عن هذا فهي تشعر شعورًا  
عميقًا لا يخلو من وسواس وقلق - بأن أسباب الماضي

أنتك جسورة لا تهاين شيئاً...

وأناها تحذيره إلى رشادها، فحدجته بنظرة حادة،  
ورفعت رأسها في استهانة، فابتسم قائلاً:

- هذا أول فصل في المدرسة.. فصل الرقص  
العربي...

وفتح الباب ودخلا. رأت حجرة متوسطة، جميلة  
البناء، ذات أرض خشبية لامعة، تكاد تخلو من  
الأثاث اللهم إلا عددًا من المقاعد نُصِّدت في جناحها  
الأسير، ومشجباً كبيراً في ركنها الأقصى، وقد جلست  
فتاتان على مقعدين متجاورين، ووقف في الوسط فتى  
في جلباب أبيض حريري مهفّف محزّماً بزّار. اتجهت  
الرؤوس نحو القادمين، وجرت على الثغور بسمات  
التحية، فقال فرج إبراهيم بلهجة قوية تنم عن السيادة  
حقاً:

- صباح الخير.. هذه صديقتي تيتي...

وحتت الفتاتان رأسيهما تحية، ثم قال الفتى بصوت  
متكسر غنث:

- أهلاً يا أبله..

وردت تيتي التحية في شيء من الارتباك وهي تطيل  
النظر إلى الفتى الغريب. كان - على غير ما يبدو - في  
نهاية العقد الثالث، وضيع الملامح أحول العينين،  
يزين وجهه بزواق نسائي من كحل وحمرة وبودرة،  
ويلمّع شعره الجعد بالفازلين. فابتسم فرج إبراهيم  
وقال يعرفها لها:

- سوسو معلم الرقص...

وكأنما أراد سوسو أن يقدم لها نفسه بطريقته  
الخاصة، فأشار إلى الفتاتين المتجاورتين غامزًا بعينه،  
فراحتا تصفّقان على «الواحدة»، وانساب الأستاذ  
راقصاً كالأفعوان، في خفة وليونة يثيران الدهشة، حتى  
خالته جسماً بلا عظام ولا مفاصل، أو أنه قطعة من  
مطاط مكهرب. كان كلّ ما فيه يرتعش بلا توقّف.  
ردفاه.. وسطه.. صدره.. رقبته.. حاجباه. وكان  
يلقي بنظرة متكسرة متضعضعة. مبتسماً ابتسامه فاجرة  
عن أسنان ذهبية. ثم اهتز هزة عنيفة ختم بها ارتعاشه  
الفتيّ، واستقام ظهره فكفّت الفتاتان عن التوقيع. لم

يكن في نية سوسو أن يرقص ولكنه رغب أن يجي  
القادمة المستجدة تحية راقصة على سبيل المثال، والتفت  
نحو إبراهيم فرج متسائلاً:

- تلميذة جديدة..؟

فالتفت لهذا بدوره إلى تيتي وقال:

- أظنّ هذا..

- ألم ترقص فيما سلف؟

- كلا.

فابتسم سوسو مسروراً وقال:

- هذا أفضل يا سي فرج. إذا كانت تجهل الرقص  
فهي عجيبة طرية أصورها كيفما أشاء، أما أولئك  
اللاتي يتعلمن الرقص على غير أصوله فما أشقّ  
تعليمهنّ.

ونظر إلى تيتي، وثني رقبته يمنة ويسرة وقال بصوت  
فاضح:

- أم تحسبن الرقص لعباً يا أبلتي؟!.. العفو يا  
حبيبي.. هذا فنّ الفنون، وأستاذ له الجنة ونعيمها  
بغير حساب جزاء ما يتجسّم من عناء أو مشقة..  
انظري..

وأرّش خصره بغتة في سرعة عجيبة، ثم أمسك  
وهو يرمقها بعجب وتيه، وسألها باستعطاف:

- هلاً انتزعت هذا الروب لأطلع على جسمك.

ولكنّ فرج عاجله قائلاً:

- ليس الآن.. ليس الآن.

فمطّ سوسو بوزّه متأسفاً وسألها:

- اتّججلين منّي يا تيتي.. أنا أختك سوسو!.. ألم  
يعجبك رقصي؟

وكانت تدافع جاهدة شعوراً بالضيق والارتباك،  
وتحاول في إصرار وعناد أن تبدو باردة هادئة مستهينة  
بل راضية، فابتسمت وقالت:

- رقصك بديع جداً يا سوسو..

فصفّق سوسو بيديه حبوراً وقال:

- دمت من فتاة كريمة. الحياة فانية يا تيتي، وأجل  
ما فيها كلمة حلوة، وهل دام شيء للإنسان؟..  
الواحد منا يشتري حقّ الفازلين ولا يدري أيكون

لشعره أم لشعر ورثته!

\*\*\*

وغادرا الحجره - أو الفصل - إلى الردهه، فمضى بها إلى الحجره التي تليها، وشعر بعينها تلحظانه ولكتنه تجاهلها عن حكمة، حتى بلغا الباب فعمغم قائلًا:  
- فصل الرقص الغربي...

فتبعته صامته. كانت تعلم أن النكوص قد بات مستحيلًا، وأن الماضي قد عفاه الحاضر، فلم تر بدءًا من الاستسلام للمقادير، وتساءلت هل تبلغ حقًا السعادة المنشودة؟ وجدت هذه الحجره في بنائها وصورتها كسابقتها إلا أنها حجره حية متحركة صاخبة. كان الحايك يبعث لحنًا غريبًا تلقته أذنها في دهشة وإنكار، وكان قوم يرقصون أزواجًا، قوام كل زوج فتاتان، وقد انتحى شاب أنيق البرة جانبًا وهو يراقبهن بعناية، ويوليهن بملاحظات، وتبادل الرجلان التحية، وواصل الراقصات رقصهن وهن يتفحصن حميدة بنظرات ثاقبة ناقدة. ودارت عينها بالمرقص والراقصات فعجبت لثياهن البديعة وزيتهن البارعة، وسرعان ما تناست هواجسها، واستولى عليها انفعال عارم، فعانت شعورًا مؤلمًا بالضعه، ثم استفرزها إحساس حاد بالحاس والتؤب. ولاحث منها التفاته إلى رجلها فوجدته محافظًا على هدوئه ووزانته، تلوح في عينيه نظرة متعالية تنطق بالسيادة والقوة. والتفت نحوها فجأة كأنما جذبته عينها، فانبسطت أساريه، ومال نحوها قليلًا متسائلًا:

- أيعجبك ما ترين؟

فقال ببساطة وهي تقاوم انفعالها:

- جدًا...

- أي الرقصين تفضلين؟

فابتسمت ولم تجب. وليتا قليلًا صامتتين، ثم غادرا الحجره، وانجها نحو باب ثالث وقد تجلّ الاهتمام في وجهها. وما كاد يدفع الباب حتى حملت في دهشة وذهول. رأت في وسط الحجره امرأة عارية منتصبه القامة. وظلت ثواني لا تحوّل بصرها عنها فلم تر شيئًا سواها. ومن عجب أن المرأة العارية بقيت بموقفها

كأنها لم تشعر بمقدمها، وجعلت تنظر إليهما في هدوء واستهتار وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة رقيقة كأنها تحييهما أو تحييه هو بالأحرى. وعند ذلك قرعت أذنيها أصوات، فتلقت يمنة ويسرة وأدركت أن الحجره معمورة بالآدميين. رأت إلى يسار الداخل صفًا من المقاعد مشغولًا نصفها بفتيات حسان أنصاف عرايا أو على وشك التعري!... ورأت على كتب من المرأة العارية رجلًا في بدلة أنيقة قابضًا يمينه على مؤثر قد ركز سنانه على مقدم حذائه، ولاحظ فرج إبراهيم دهشتها، فرغب أن يسري عنها، فقال لها:

- هذا الفصل لتعليم مبادئ اللغة الإنجليزية...! فحذجته بنظرة إنكار كأنها تقول له «لا أفهم شيئًا» فأشار لها بالتهمّل ثم وجه خطابه للرجل القابض على المؤثر وقال:

- استمرّ في درسك يا أستاذ...

فقال الرجل بصوت يدلّ على الطاعة:

- هذه حصّة تسميع.

ورفع المؤثر بخفة ولس بسنانه شعر العارية، فنطقت المرأة بلفظ غريب «هير»، فأنزله إلى جبينها فهتفت «فرنّت»، وانتقل إلى الحاجب فالعين ثم الفم، وشرق وغرب، وصعد وصوب، وهي تجيب على أسئلته الصامته بكلمات غريبة، لم تسمعها حميدة من قبل، وازدادت الفتاة دهشة وانزعاجًا، وتساءلت كيف تبدو هذه المرأة عارية حيال هذا الجمع، وكيف ينظر فرج إلى هذا الجسم المتجرد بهذه البساطة...! وغلى دمها، والتهب خذاها، وألقت عليه نظرة مريعة فرأته يهزّ رأسه راضيًا عن التلميذة الذكيّة، ويتمتم «برافو... برافو...» ثم خاطب الرجل قائلاً:

- أرنى شيئًا من الغزل...

فنحى الرجل المؤثر جانبًا، وأقل على المرأة مخاطبًا في لهجة إنجليزية وعاطفه المرأة قولًا بقول، فتراطنا دقائق بلا تلعثم أو تردد، حتى صاح فرج إبراهيم:

- عظيم... عظيم... والأخريات؟

وأشار إلى الفتيات الجالسات، فقال الأستاذ:

- في طريق التحسن!... وإني أقول لهنّ دائمًا إن

توتر أعصابها. واقترب منها، وأخذ راحتها بين يديه، وضغط عليها بحنّ وهو يقول:  
- أنت أسعد حظّ جادت به الحياة عليّ... ما أفتنك...! ما أجلك...!

وحقّق في عينيها بإمعان وافتتان، ورفع يديها - وهما مضمومتان - إلى فمه، وراح يقبل أطراف أناملها زوجًا زوجًا، وهي مستسلمة ليديه تجد لكلّ لثمة من شفته تكهرّبًا في أعصابها، حتّى تندّت عيناها برقّة وهيام. ونذّ عنها نفّس حارّ في شبه تنهّدة، فأحاطها بذراعيه، وضمّها إلى صدره رويدًا حتّى شعر بمسّ ثديها لقلبه، ندي بكر ناهد يكاد لصلابته ينغرس في صدره، وراح يمسح على ظهرها براحتيه صعودًا وهبوطًا، ووجهها مدفون في صدره، ثمّ همس «فمك» فرفعت رأسها ببطء وقد انفرجت شفاتها قليلًا، فطبع شفثيه على شفثيها في قبلة طويلة جدًّا، فاطبقت جفنيها كأنّما أخذتها سنة من نعاس. وحملها بيسر فصارت بين ذراعيه كطفل رضيع، وسار بها متمهلاً نحو الفراش، وقد هزّ ساقها المعلقين هزّة أطاحت بالشيشب، ثمّ أنامها، وليث مائلًا عليها معتمدًا على راحتها، منعًا النظر في وجهها المورّد. وفتحت عينيها فالتقتا بعينيها، فابتسم إليها ابتسامة رقيقة ولكنّها ظلت ترنو إليه بنظرة ساجية. وكان في الحقّ متألّكًا لأعصابه رغم تظاهره بعكس ذلك، وكان فكره أنشط من قلبه، وكان قد أجمع رأيه على خطّة لا ينجح عنها، فاستوى واقفًا وهو يغالب ابتسامة ماكرة، وقال بلهجة من ينزع نفسه عن هواها:

- مهلاً... مهلاً... إنّ الضابط الأمريكي يدفع خمسين جنيهاً عن طيب خاطر ثمناً لعذراء!

التفتت إليه داهشة. وسرعان ما غابت من عينيها النظرة الفاترة، وحلّ محلّها نظرة صارمة قاسية قاذحة. ونهضت جالسة في الفراش، ثمّ انزلت إلى الأرض بسرعة فائقة فانتهبت حياله كالحية الهائجة، وثارت بها غريزتها العنيفة فرفعت يدها وهوت بها على خذّه بقوة وقسوة ونجاوبت أركان الحجر رنينا. وليث ثواني جامدًا ثمّ تمدّد جانب من فمه الأيسر في ابتسامة

الكلام لا يحصل بالحفظ، ولكنّه يُكتسب بالتجربة، فالخانات والبسبونات هي دور العلم الحقيقيّة، وما هذا الدرس إلّا تثبيت للمعلومات المهوشة... فقال فرج وهو ينظر إلى فتاته:

- صدقت... صدقت...

وحياه بإيماء من رأسه، وتأبّط ذراع حميدة وانفصلا عن المكان ممّا، وقطعا الردهة الطويلة مرّة أخرى صوب حجرتهما. كان وجهها جامدًا، وفمها مطبقًا، وعيناها تتّان عن الشرود والخيرة، وكانت تتلمّس سببًا للانفجار، لا لهدف ترمي إليه، ولكن للترويح عن صدرها الهائج المضطرب. ولأزم الرجل الصمت حتّى حوآهما المخدع، ثمّ قال بلطف:

- يسرّي أن أطلعتك على مدرستي، وأنك فتشت فصولها بنفسك. ربّما تراءت لك ذات برنامج عسير شاقّ؛ ولكنك رأيت بعينيك تلميذاتها البارعات، وجميعهنّ بغير استثناء دونك ذكاء وجمالاً.

فرمقته بنظرة عناد وتحذّر وسألته ببرودة:

- أتريدني على أن أفعل مثلهنّ...؟

فابتسم في رقّة، وقال بمكر ودهاء:

- لا سلطان لأحد عليك ولا رادّ لقضائك، وأنت وحدك صاحبة الأمر والنهي. ولكنّ واجبي أن أوضح لك المعالم، والخيرة لك. والحقّ أنّه لمن حسن الحظّ أنّي وجدت رفيقًا لبيّاً تكفيه الإشارة، قد حباه الله جمالاً وهمة وبهاء. فلماذا سعيت إلى استثارة حماسك اليوم فعسى أن تسعي أنت غدًا إلى استشارتي. إنّني أعرفك حقّ المعرفة، وأقرأ قلبك كصفحة مبسوطة، وما أنا ذا أقول لك عن عقيدة ويقين إنّك ستقبلين على تعلّم الرقص والإنجليزية، وإتقان كلّ شيء في أقصر فترة من الزمن. ولقد اتّبع معك سبيل الصراحة من بادئ الأمر وتجنّبت الكذب والخداع، لأنّي أحبيتك حبًّا صادقًا، ولأنّي أيقنت من أوّل لحظة بأنك لا تغلين ولا تخدعين، فافعلي ما تشائين يا محبوبتي. جرّبي الرقص أو انبذيه، استهتري أو عقي، ابقِي أو عودي، فلا قبل لي بك على جميع الأحوال.

ولم يذهب خطابه سدى، فقد سرّى عنها، وخفّ

أخذًا فيه وهو يسأله مستوثقًا:  
 - ألا يمكن أن تضلّ الطريق في الظلام؟  
 - كلاً... كنت في أثناء سير الجنازة متنبّها يقظًا  
 فحفظت علامات الطريق، وفضلاً عن هذا فهو طريق  
 معروف لكلينا، وطالما قطعناه معاً في الظلام  
 الدامس...  
 وأدواتك؟  
 - في مكان حريز أمام الجامع...  
 - وهل المقبرة مكشوفة أم مسقوفة؟  
 - عند المدخل حجرة مسقوفة ولكنّ القبر في فناء  
 مكشوف...  
 فسأله بلهجة لم تخل من تهكم:  
 - أكنت تعرف المرحوم؟  
 - معرفة بسيطة. كان بائع دقيق في المبيضة.  
 - أطقم كامل أم بضع أسنان فقط؟...  
 - طقم كامل...  
 - ألا تخشى أن يكون أهله قد انتزعوا الطقم من  
 فمه قبل دفنه؟  
 - كلاً. إنّ أهل البلد أهل تقوى، وهيهات أن  
 يفعلوا ذلك...  
 فقال زيطه وهو يمزّ رأسه أسفاً:  
 - مضى زمن والناس يودعون القبر حلّيّ موتاهم.  
 فتنهّد الدكتور قائلاً:  
 - أين ممّا ذاك الزمن!

ويلغا الجماليّة في ظلمة حالكة وصمت مخيم، ومراً  
 في طريقها بشرطين ثمّ أخذاً يقترنان من باب النصر،  
 واستخرج زيطه من جيبه نصف سيجارة وأشعلها  
 وراح يدخن بشغف. وقد فزع الدكتور بوشي من ضوء  
 عود الثقاب وقال لصاحبه برفزة:  
 - بشس ما اخترت هذا الوقت للتدخين...!  
 ولكنّ زيطه لم يأبه ومضى يقول وكأنّه يخاطب  
 نفسه:

- لا فائدة ترجى من الأحياء، وقليل من الموتى ذو  
 نفع...!  
 ومراقاً معاً من باب النصر، ومالاً إلى اليمين يقطعان

هازئة. وبسرعة تفرق الفكر رفع كفه ولطمها على  
 خدّها الأيمن بقوة متناهية، ثمّ رفع يسراه - قبل أن  
 تفيق من اللطمة الأولى - وصكّ بها خدّها الأيسر بشدّة  
 بالغة! اصفرّ وجهها، وسرت ارتعاشة في شفتيها،  
 وانتفض جسمها انتفاضة حيوانيّة، فارتمت على  
 صدره، وأنشبت أناملها المتقبضة في عنقه. وتلقّى  
 الرجل هذه الهجمة بسكينة، ولم يحاول مدافعتها بل  
 أحاطها بذراعيه وشدّ عليها حتّى كاد يهرسها، ومضت  
 أصابعها تلين، ثمّ ارتدّت عن عنقه، وتحسّست منكيه  
 وعلقت بهما، ورفعت إليه وجهها قائّماً وثغراً مرتعشاً  
 مشوّفاً...  
 - ٢٧ -

نشر الظلام رواقه على الزقاق وأطبق على جنباته  
 سكون عميق، حتّى قهوة كرشة أغلقت أبوابها وتفرّق  
 سيارها. وفي هذا المزعج من الليل مرق من باب الفرن  
 شبح زيطه، صانع العاهات، ينطلق إلى تحوالة الليل.  
 قطع الرجل أرض الزقاق إلى الصنادقيّة، وعرج إلى  
 اليسار متّجهاً صوب الحسين، فكاد يصطدم بشبح  
 قادم في منتصف الطريق، وما لبث أن تنوّر وجهه على  
 ضوء النجوم الشاحب فهتف به:

- الدكتور البوشي!... من أين أنت قادم؟

فأجابه الدكتور بعجلة ولهفة:

- كنت ماضياً إليك...  
 - أعندك طلاب عاهات؟  
 فقال الدكتور بصوت كالهمس:

- عندي ما هو أهمّ، لقد توفيّ عمّ عبد الحميد  
 الطالبي!

فأضاءت عينا زيطه في العتمة وسأله باهتمام:

- متى توفيّ؟... وهل دفن؟

- دفن مساء اليوم.

- أعرفت مقبرته؟

- فيما بين باب النصر وطريق الجبل.

وتأبّط زيطه ذراعه وسار به في الطريق الذي كان

متلَمِّسًا طريقه في ظلام دامس ليس به من بارقة نور  
إلا ما تشعّه النجوم، وجعل يعدّ الأسوار حتّى بلغ  
خامسها، وألقى على ما حوله نظرة لصّ، ثمّ جلس  
القرفصاء. لم تعثر عيناه بشيء يريه ولم يبلغ أذنه  
حسن، ولكنّ القلق لم يزائله، واشتدّ جزعه. وبعد  
قليل رأى شبح زيطه على مدى أذرع منه، فنهض في  
حذر، وعابن الرجل السور ثمّ قال همّسًا:

- تقوّس حتّى أصد على ظهرك.

وتقوّس الدكتور معتمدًا راحتيه على ركبتيه، ورفى  
الرجل ظهره، وتحسّس الجدار حتّى قبض على حافته،  
ثمّ تسوّره بمهارة وخفّة، ورمى بالفأس ولفافة الشمعة  
إلى داخل الفناء، ثمّ مدّ يده إلى الدكتور حتّى التقت  
بيده، وأعانته على تسلّق الحائط حتّى تسّمه، وهويا  
معًا. وتوقّفا عند أصل السور يستريحان، والتقط زيطه  
في أثناء ذلك الفأس واللفافة. وكانت أعينهما قد  
اعتادت الظلام واستأنست بنور النجوم الخافت، فرايا  
الفناء في شيء من الوضوح، وقبرين متجاورين  
ينهضان على كتب من موقوفهما، وفي نهاية الفناء يقوم  
الباب المطلّ على الطريق الذي جاء منه، وعلى جانبيها  
حجرتان. وسأل زيطه وهو يومئ إلى القبرين:

- أيّهما؟

فأجابه بصوت يكاد ينجس في حلقة:

- على مينك..

ودنا زيطه من القبر بلا تردّد، يتبعه بوشى مرتجف  
الأوصال، وحتى قامته متحسّسًا أرض المنزل فوجدها  
طريّة نديّة ما تزال، فأعمل فيها فأسه بحذر وهوادة  
مكوّمًا الثرى بين رجليه المنفرجتين. وثابر على العمل  
الذي لم يكن جديدًا بالنسبة إليه حتّى كشف عن  
السلاليم التي تسقف منزل القبر، وشمر طرف جلبابه  
وجدله وعقده حول وسطه، وأقبل على طرف السلمة  
الأولى، ورفعها شاذًا على عضلاته حتّى انتصبت  
قائمة، وأخذ ينيمها بمعونة البوشى حتّى طرحها أرضًا.  
وفعل مثل ذلك بالسلمة الثانية. واكتفى بالثغرة التي  
فتحتها حيث يمكن أن ينزل منها هو وصاحبه، ومضى  
إليها ونزل الأدراج وهو يقول للدكتور مغمغمًا:

طريقًا ضيقًا تحفّ به المقابر من الناحيتين، ويرين عليه  
صمت رهيب وكآبة شاملة. وقال زيطه عند نهاية  
الثلاث الأولى من الطريق «هاك المسجد» فتلقّت بوشى  
فيما حوله، وتنصّت قليلًا في حذر، ثمّ اقترب من  
الجامع متحاميًا إحداث أيّ صوت، وتحسّس الأرض  
لصق جداره فيها يلي مدخله حتّى عثر بحجر كبير، ثمّ  
أزاحه عن موضعه بيديه، واستخرج من نقرة تحته فأسًا  
صغيرة ولفافة تحوي شمعة، وعاد إلى صاحبه،  
فاستطردا في مسيرهما وهو يقول همّسًا «تقع المقبرة فيما  
قبل الطريق الصحراويّ بخمس مقابر». وجدّا في  
السير وعينا الدكتور تتطلّعان إلى المقابر على يسار  
الطريق، وقلبه يدقّ بعنف، ثمّ تناقل بغتة وهو يمس  
«هذه المقبرة» ولكنّه لم يقف، بل حثّ صاحبه على  
السير وهو يقول:

- سور المقبرة المطلّ على هذا الطريق عال،  
والطريق نفسه غير مأمون، فالأفضل أن ندور حول  
المقابر من ناحية الصحراء، ثمّ نسوّر المقبرة من  
ناحيتها الخلفيّة حيث يوجد القبر في الفضاء  
المكشوف...

ولم يبد زيطه اعتراضًا، فتقدّما في صمت حتّى انتهيا  
إلى طريق الصحراء، واقترح زيطه أن يجلسا على  
الطوار قليلًا ريثما يراقبان الطريق، وجلسا جنبًا لجنب،  
وراحا يراقبان المكان بأربع أعين. كان الظلام شاملًا،  
والمكان مقفرًا، وفيما وراءهما تنتثر القبور فتشغل مساحة  
من الأرض لا يحيط بها البصر. ومع أنّ هذه المخاطر لم  
تكن الأولى من نوعها إلا أنّ الدكتور بوشى لم يستطع  
أن يتمالك أعصابه أو يسيطر على دقّات قلبه  
المضطرب، فلبث يحمق في الظلماء، فؤاده خافق،  
وريقه جافّ، وأعصابه متوتّرة، في حين جلس زيطه  
جامدًا، رابط الجأش، لا يبالي شيئًا. ولما اطمان إلى  
خلوّ الطريق قال للدكتور:

- دع الأدوات واسبقني إلى سور المقبرة الخلفيّة،  
وانتظرنى هنالك..

ونهض الدكتور على كره، وتسلّل بين القبور مائلًا  
نحو الأسوار الخلفيّة للمقابر، وسار لصق الجدران

ولم يتناه إلى الزقاق نبأ القبض على الدكتور يوشي  
وزيطة في مقبرة الطالبي إلا عند عصر اليوم التالي.  
وفشا الخبر وعُرف أسبابه، وتناقله القوم في دهشة  
وانزعاج. وما إن علمت به الست سنيّة عفيفي حتّى  
استحوذ عليها الفزع ولولت صارخة، وانتزعت  
طقمها الذهبيّ ورمته به، وأخذت تلطم خدّها في  
حالة عصبية شديدة، ثم سقطت مغنى عليها. وكان  
زوجها في الحما، فلما أن قرع أذنيه صراخها أخذ  
الرعب فارتدى جلبابه على جسده المبلول وهرع إليها  
لا بلوي على شيء.

### - ٢٨ -

كان عمّ كامل جالساً على كرسيه على عتبة الدكان،  
مثلاً رأسه على صدره، غارثاً في النعاس، والمنشّة في  
حجره. ثم استيقظ على دبيب شيء على صلبعه  
فتحرّكت يده حركة آلية ليترد ما ظنّه حشرة، ولكنّها  
وقعت على كفّ آدميّة، فقبض عليها ساخطاً، وتآوه  
متنمّراً، ورفع رأسه ليردّ ذاك المداعب الثقيل الذي  
أيقظه من نعاسه اللذيذ، فوقع عيناه على عبّاس  
الحلو... لم يكذب يصدّق عينيه، فحلق فيه مشدوهاً،  
ثم اشتدّ احمرار وجهه المنفوخ فرحاً، وهمّ بالنهوض،  
ولكنّ الشاب لم يمكّنه من ذلك، واحتضنه بذراعيه  
فتعانقا عناقاً حارّاً، والحلو يهتف به متأثراً:

- كيف حالك يا عمّ كامل؟

فيجيبه الرجل في لهفة وسرور:

- كيف أنت يا عبّاس... أهلاً وسهلاً ومرحباً...

لشدّ ما أوحشتني يا عكروت!

ووقف الحلو بين يديه مبتسماً، والآخر يتطلّع إليه  
بعينين شقيقتين. وكان يرتدي قميصاً أبيض وينطلوناً  
رمادياً، وقد حسر رأسه ورجل شعره فبدأ أنيقاً حسن  
المنظر موفور الصحة مؤرد الوجه، فرمقه عمّ كامل  
بإعجاب وقال بصوته الرفيع:

- ما شاء الله أنت رائع يا جوني!

فضحك عبّاس الحلو ضحكة رنانة صاعدة من

قلب جذل وقال:

«اتبعني». فتبعه منقبض الصدر مقشعرّ البدن. وكان  
الدكتور يجلس - في مثل هذا الظرف - على الدرجات  
الوسطى، ويشعل الشمعة ويثبتها في الدرجة السفلى،  
ثم يغمض عينيه ويدفنها بين ركبتيه. وكان يدخل  
القبور على كره، وطالما ناشد زبيطة الرحمة أن يعينه من  
دخول القبر، ولكنّ الآخر أبى أن يؤدّي له هذه الخدمة  
إلا إذا شارك في جميع خطواتها، مستلذاً في أعياقه  
تعذيبه. وقد اشتعلت ذبالة الشمعة فأضاءت القبر،  
وألقى زبيطة نظرة متحرّجة على الجثث المدرجة في  
أكفانها مطروحة في تتابع وتوازي حتّى غيابات القبر،  
يرمز نظامها إلى تسلسل التاريخ وأطراد الزمن، وينطق  
صمتها الرهيب بالفناء الأبديّ. ولكنّها لم ترجّع في  
صدر زبيطة أيّ صدى، فسرعان ما استردّ نظrote  
المتحرّجة وثبتها على الكفن الجديد عند بدء القبر.  
وجلس القرفصاء، ثم كشف عن رأس الجثّة بيدين  
باردتين، وحسر الشفتين، وعالج بأصابعه الطقم حتّى  
انتزعه، وأودعه جيبه وقد تلوت أنامله. ثم غطّى  
الرأس كما كان، وتحوّل عن الجثّة إلى الباب، فرأى  
الدكتور دافئاً رأسه بين ركبتيه والشمعة في أسفل  
الدرج تزهّر، فرماه بنظرة ساخرة وغمغم في ازدراء  
«اضح!» فرفع الدكتور رأسه مرتعداً، ومال نحو  
الشمعة فتناولها ونفخها فأطفأها، وركي السلم في  
عجلة كأنه يفرّ. وركي زبيطة الدرج كذلك، ولكنّه  
قبل أن يبرز من الثغرة صكّت أذنيه صرخة داوية،  
وسمع الدكتور يصيح بصوت كالعواء «في عرضكم!»  
تسمّرت قدماه، ثم تراجع نازلاً الأدراج وهو لا يدري  
ما يفعل وقد أثلجت أطرافه، وما زال يتراجع حتّى  
داس كعبه الجثّة، فتقدّم خطوة ووقف متسمّراً لا يجد  
مهرباً. وخطر له أن يرقد بين الجثث، ولكنّه قبل أن  
يأتي حركة واحدة غمره نور وهاج أغلق جفنيه قسراً،  
وسمع صوتاً شديداً يصيح به في لهجة صعيدية:

- اصعد. وإلا أطلقت عليك النار...

وطوته اليأس فاستسلم، وركي الدرج كما أمر، وقد

نسي الطقم الذهبيّ في جيبه.

\*\*\*

- ثلك يو. لن يرطن الشيخ درويش بالإنجليزية وحده بعد اليوم!

وأجال الشاب عينيه في الزقاق المحبوب، فوقعتا على دكانه القديم، ورأى صاحبه الجديد مكبًا على حلق ذقن زبون، فرنا إلى الدكان رنوة حنان ونجوة. ثم طار بصره إلى النافذة فوجدها مغلقة كما كانت حين قدومه، فتساءل ترى أمي في الدار أم في الخارج؟ وما عسى أن تفعل إذا فتحت الباب فوجدت أنه الطارق؟ سوف تحملق في وجهه بدهشة وذهول، فيملأ عينيه من حسنها الباهر! هذا يوم أغر من الأيام المعدودة في العمر. وانتبه إلى صوت عم كامل وهو يقول متسائلًا:  
- أتركت عملك؟

- كلاً، ولكني أخذت إجازة قصيرة.  
- ألم تدبر بما حصل لصاحبك حسين كرشة؟ هجر أباه، وتزوج، ثم استغنوا عنه فعاد إلى بيته يجر وراءه زوجه وشقيقها.

فلاح الأسف في وجه الحلو وقال:  
- يا لسوء الحظ...! إنهم يستغنون عن العمال كثيراً في هذه الأيام. وكيف استقبله المعلم كرشة؟ فمط عم كامل بوزه وقال:

- لا يفتأ شاكياً متبرماً، أما الفتى وأهله فيقيمون في الدار.

وسكت الرجل نصف دقيقة ثم قال متعجلاً كأنما ذكر أمراً هاماً:

- أما علمت بأن الدكتور بوشي وزیطة مسجونان؟! ثم قص عليه كيف قبض عليهما في قبر الطالبی متلبسين بجريمة سرقة طقمه الذهبي. وقد وجم الحلو وجوماً شديداً. ولم يكن يستبعد أن يرتكب زیطة أشنع الجرائم، ولكنه عجب للدكتور بوشي كيف سؤلت له نفسه اقتراف هذه الجريمة النكراء... وذكر كيف طلب إليه أن يركب له طقمًا حين عودته من التل الكبير، فالتوت شفتاه امتعاضاً وتقزراً.

واستدرك عم كامل يقول:

- وقد تزوجت الست ستيه عفيفي... وكاد يقول له «العقبي لك» ولكنه أمسك فجأة وقد

دق قلبه بعنف! ذكر عند ذاك حميدة... ولكم ذكر هذا الموقف فيما تلا ذلك من أيام متعجبًا من نسيان ما كان ينبغي أن يذكره لأول وهلة! ولكن الحلو لم ينتبه لتغيره، وسرعان ما شغل بآماله وأفراحه فتراجع خطوتين قائلًا:

- استودعك الله إلى حين...  
وأشفق الرجل أن يدهمه الخبر على حين غرة فسأله بلهجة:

- أين تقصد؟  
فقال الحلو وهو يهيم بالمسير:

- إلى القهوة أسلم على من بقي من الصحاب... فأتكأ عم كامل على ركبتيه وقام جاهداً، وتبعه متخترًا. وكان الوقت عصرًا فلم يجد بالقهوة من أصحابها إلا المعلم كرشة والشيخ درويش. فسلم عباس على المعلم الذي لاقاه بترحيب، وشد على يد الشيخ درويش. فرمقه الشيخ بنظرة باسمه من وراء نظارته ولم ينبس بكلمة. وكان عم كامل يعاني انقباضًا ثقيلًا، وحزنًا مريزًا، ولا يدري كيف يفاعمه بالنبا الأليم، فقال له برجاء:

- هلاً عدت معي إلى الدكان قليلًا...؟  
ووقف عباس مترددًا بين رجاء صاحبه وبين الزيارة المنشودة التي انتظرها جزعًا بضعة شهور، ولكن لم يهن عليه عم كامل، ولم يجد بأسًا في المكوث معه فترة قصيرة من الوقت، فرجع معه إلى دكانه مداريًا برمه بابتسامة لطيفة، وجلسا في الداخل جنبًا لجنب، وهو يقول بسرور:

- الحياة في التل الكبير حياة عظيمة، عمل متواصل، وريح موفور. إني لا أبعثر نقودي قانعًا بعيشة متواضعة لا تكاد تختلف عن عيشة الزقاق. حتى الحشيش لم أذقه إلا مرات معدودات مع أنه هنالك كلاء والهواء. وقد ابتعت هذا... انظر يا عم كامل العقبي لك...

واستخرج من جيب بنطلونه علبة صغيرة وفتحها، فبان بداخلها عقد ذهبي مرگب من سلسلة وقلب رقيق، ثم استطرد وعيناه البارزتان تلمعان بسرور:



فقال عمّ كامل بأسى:

- شدّ حيلك يا عبّاس. يعلم الله أنّي حزين أسيف، وأنّي حملت همّك من أوّل الأمر، ولكنّ ما باليد حيلة. اختفت حميدة، ولم يدر أحد عنها شيئاً. خرجت يومًا كعادتها كلّ عصر ولكنّها لم تعد. فتشوا عنها في مظانّها جميعًا دون جدوى. بلّغنا قسم الجماليّة، وبحشنا في قصر العيني، ولكن لم نعرّ لها على أثر.

لاح في وجهه سهوم، ولبث حيّنا جامدًا صامتًا، لا يتكلّم ولا يتحرّك ولا يطرف. لا مذهب ولا مهرب. ألم يتنبّأ قلبه بالفاجعة؟ بلى، وما هو يصدقه. يا عجبا.. ماذا يقول الرجل؟.. اختفت حميدة؟..

وهل يخفي البشر كما تخفي إبرة أو قطعة من النقود؟! لو أنّه قال ماتت أو تزوّجت لأمكن أن يجد اضطرابه مدى أو نهاية، فاليأس على أيّة حال أروح من الشكّ

والخيرة والعذاب. ولكن ما عسى أن يفعل الآن؟! بات اليأس نعمة لا يطمع فيها بحال. وخرج من جموده فحاة، فاستعرت نفسه هياجًا وارتعشت أطرافه، وحجّ الرجل بعينين محمّرتين وصاح به:

- اختفت حميدة!.. وماذا فعلتم؟.. بلّغتم قسم الجماليّة وبحشتم في قصر العيني؟.. جزاكم الله كلّ خير، ثمّ ماذا؟.. عديمتم إلى أعمالكم كأنّ شيئًا لم يكن!.. يا لطف الله!.. انتهى كلّ شيء، فرجعت أنت إلى دكانك وراحت أمّها تطرق أبواب العرائس، وانتهت حميدة، وانتهيت أنا أيضًا. ماذا تقول يا رجل؟ خبرني عمّا تعلم؟ ماذا تعرف من أمر اختفائها؟.. كيف اختفت؟ ومتى وقع ذلك؟! كيف

استحوذ الاضطراب على عمّ كامل لها بدر من صاحبه من حلة وغضب، وقال بصوته الحزين:

- مضى على اختفائها زهاء شهرين يا بني. كان حادثًا مروّعًا مفرعًا ارتجّت له القلوب. والله يعلم أنّنا لم نأل جهدًا في البحث والاستفسار، ولكن ما باليد حيلة!

فضرب عبّاس كفًا على كفّ، وقد احتقن الدم بوجهه، وازدادت عيناه جحوظًا، وقال وكأنّه يخاطب نفسه:

- شبكة حميدة. أما علمت؟!.. سأكتب الكتاب في إجازتي هذه..

وتوقّع أن يقول الرجل شيئًا، ولكنّ عمّ كامل لاذ بصمت ثقيل وغضّ بصره كأنّه يخفيه، فنظر إليه الشابّ باهتمام، ولأوّل مرّة رأى ما ينطق به وجهه من وجوم واكفهرار. ولم يكن عمّ كامل من الذين يفلحون في إخفاء ما يعتمل في أنفسهم، فلاح باطنه عاريًا في وجهه. وسرعان ما قطّب الحلو وساوره الفلق، فأغلق اللعبة وأعادها إلى جيبه، وأنعم في صاحبه النظر فداخله خوف انقبض له قلبه. وأشفق على قلبه الجذلّ الحبور أن تطفئ جذوته خيبة لا يدرها ولا يتوقّعها. أشفق من ذلك إشفاقًا أليماً موجعًا، ولكنّ نذر الكدر تخاللت لعينه في وجه الرجل المرتبك الواجم، ولم يستطع مع جموده صبرًا، فسأله بارتباب:

- ما لك يا عمّ كامل؟.. لست كعهدي بك. ما الذي غيّرك؟.. لماذا لا تنظر إليّ؟! فرفع الرجل وجهه إليه ببطء، وطالعه بعينين

مظلمتين محزونتين، وفتح فمه ليتكلّم، ولكنّ لسانه خانه فلم يطاوعه وبلغ الجزع بعبّاس مداه، وتنبّأ قلبه بالفاجعة، فشعر بالقنوط يطفئ أضواء فرحه، ويخمد أنفاس أمّله، فهتف بحزم قائلاً:

- ماذا وراءك يا عمّ؟ ما الذي تريد أن تقول؟ عندك ما تقوله بلا ريب، بل في ضميرك أشياء وأشياء، فلا تقتلني بترددك. حميدة!.. أي والله حميدة!.. قل ما تشاء. لا تعذبني بسكوتك. هات ما عندك دفعة واحدة.

فازدرد ريقه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- ليست موجودة! لم تعد هنا اختفت. لا بلدي أحد عنها شيئًا.

أنصت إليه بذهول وفزع، ونقشت الكلمات في وعيه كلمة كلمة، ولكن غشي فهمه ضباب وغبار، وكأنّها انتقل فجأة إلى دنيا المحمومين، فقال بصوت متهدّج:

- لست أفهم شيئًا. ماذا قلت! لم تعد هنا، اختفت؟! ماذا تعني؟

- زهاء شهرين!.. ربّاه.. هذا تاريخ قديم. لا أمل في العثور عليها. ماتت؟.. غرقت؟.. حُطفت؟.. مَنْ لي بأن أدري؟.. خبّرني بما يقول الناس؟

فقال عمّ كامل وهو يرمقه بحزن وحنان:  
- ظنّوا ظنونًا كثيرة، ثمّ رجّحوا أنّها ذهبت ضحيّة لحادث، أمّا الآن فلا يذكرون شيئًا..

فهتف الشاب متأوّهًا:  
- طبعًا.. طبعًا، فلا هي ابنة لأحد منهم، ولا قريبة أحد، حتّى أمّها ليست بأُمّها. ترى ماذا حدث لها؟.. كنت في هذين الشهرين أسعد الناس أحلامًا. أرايت كيف يحلم إنسان بالسعادة إذ الشقاء يترقب يقظته ساخرًا هازنًا طاوياً مصيره بيديه القاسيتين!.. ولعلّي كنت أنعم بلذيذ السمر بينما كانت تنهرس تحت عجلة، أو تتخبط في قعر النيل.. شهران يا حميدة! لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

ونفض قائمًا ضاربًا الأرض بقدمه، ثمّ قال بامتناع:

- أستودعك الله.

فسأله بلهفة:

- علام نويت؟

فقال بفنور:

- سأقابل أمّها..

وذكر وهو يذلف من باب الدكان متناقلًا كيف جاء يكاد يطير من جلده فرحًا، وكيف يذهب محطّمًا مهبطًا. فعصّ على شفته، وتسمرت قدماه وقد بلغ منه الأسى متناه، وتحول نحو صاحبه فرآه ينظر إليه بعينين مغرورقتين بالدمع، ففقد جنانه وهرع نحوه بلا وعي، وارتعى على صدره في قنوط، ونشج متحبّجًا باكيا كالأطفال..

ألم يداخله شكّ في حقيقة اختفائها؟.. ألم يساوره ما يساور المحيّين من ارتياب وسوء ظنّ في مثل حالته؟ الحقّ أنّ طيف شكّ قد لاح بخاطرهم ولكنّه لم يلقَ إليه بالأفتبّد. كان بطبعه شديد الثقة، يجود بالظنّ الحسن بغير حساب. كان طيّب القلب جدًّا، ومن

هذه القلّة من الناس الذين ينزعون بفطرتهم إلى إقامة المعاذير لغيرهم، واختيار أخفّ التأويلات لأفظمّ الفعال. ولم يغيّر الحبّ من طبعه هذا، بل لعلّه رسّخه وقوّاه، فلم تظفر منه وسوسة الغيرة وهممة الشكّ بأذن مرهفة. وقد أحبّ حميدة حبًّا شديدًا باركته فطرته الطيّبة بثقة وطمأنينة. وآمن - إلى هذا كلّ - بأنّ فتاته أكمل فتاة في الدنيا التي لم ير منها شيئًا يذكر. فلم يداخله شكّ فيها، أو أنّ طيف الشكّ الذي لاح له لم يجد في قلبه مرتعًا يعيث فيه. وقد ذهب لمقابلة أمّها ذلك اليوم، ولكنّها لم ترو له غلّة، وأعادت عليه ما قصّه عمّ كامل بصوت مختنق بالعبرات. وزعمت له أنّ الفتاة كانت لا تفنّ تذكره وترقب عودته بصبر فارغ فضاعفت بكذبها أحزانه، وغادرها كما جاءها كسير الفؤاد مبلبل الفكر معذب النفس. وغادر الزقاق تسوقه قدماه الثقيلتان، وقد زعفر الأصيل هامة النهار، تلك الساعة التي اعتاد - في الأيام الخوالي - أن يرى فيها مطلعها المحبوب إذا خرجت لنزهتها اليومية. وقطع الطريق ذاهلاً عمّا حوله، فتتملّت لعينيه بجسمها الملقوف في الملاعة السوداء وعينها النجلارين المحبوتين، وهتّت على قلبه ذكرى الوداع الأخير على البسطة، فتتهدّ من الأعماق، ونفخ محزونًا قانطًا. ترى أين هي الآن؟.. ماذا تصنع؟ وماذا صنع الله بها؟.. أتعيش على ظهر الأرض أم ترقد في قبر من قبور الصدقة؟.. ربّاه.. كيف تحمّر قلبه طوال ذلك العهد فلا استشفّ ريبة ولا شام نذيرًا!.. كيف استنم إلى طمانينة الأحلام ولذّة المني فأكبّ على العمل غافلًا عمّا يحبّته له الغدا! وأيقظه الزحام من ذهوله فتنبّه إلى الطريق، هذا الموسكي طريقها المختار بأناسه ودكاكينه، كلّ شيء فيه باقي على حاله، إلّا هي، اختفت كأن لم تملأ الدنيا بهاء بالأمس. وألمّت به رغبة في البكاء، ولكنّه لم يستسلم لها هذه المرّة. لقد أراحه البكاء على صدر عمّ كامل، وأرخص توتّر أعصابه، وتركه لحزن عميق هادئ، فيجدد به الآن أن يتساءل عمّا هو فاعل، أيدور على الأقسام وقصر العيني.. ولكن ما جدوى ذلك؟ أيدوخ في شوارع

ونال منظره من الفتيات فاختفت من أعينهن نظرات خبيثة ساخرة، وتكلفت الرزاة، وقالت محدثه برقة:  
- نعم يا سيدي.

- وأخبرت أمها بذلك؟

- نعم...

وشكرهن بكلمة، وسار في طريقه. ولم يداخله شك في أنهن سيجعلن منه حديثهن بقية الطريق، ولعلهن يضحكن كثيرا من الفق المغفل الذي هاجر إلى التل الكبير ليجمع ثروة لمحبوته، فأثرت عليه آخر وفرت معه. يا له من مغفل حقاً! ولعل أهل حيّه جميعاً قد لغطوا بغفلته. وقد رحه عم كامل فأخفى عنه الحقيقة، كما أخفتها أم حميدة، وهل كان بوسعها أن يفعل غير ما فعلا؟ وخاطب نفسه ولما يفق من ذهوله قائلاً: «هذا ما حدثني به قلبي لأول وهلة». ولم يكن صادقاً في قوله، لأن الشك لم يلم به إلا الإمامة خفيفة، ولكنّه لم يعد يذكر في محنته غير هذه الإمامة الخفيفة من الشك، بيد أنه تاه في اللحظة التالية وتساءل وهو ييسط أصابعه ويقبضها في حركات تشنجية: «رباه كيف أعقل هذا! أهربت حميدة حقاً مع رجل؟! من يصدق هذا؟!». لم تمت إذن، ولم يعرض لها حادث، ولقد أخطأوا خطأ كبيراً في البحث عنها في الأقسام وقصر العيني، وغاب عنهم أنها تنام سعيدة رخيّة البال بين ذراعي الرجل الذي خطفها. ولكنّها وعدته ومثته، أفكانت تخادعه؟ أم توهمت خطأ أنها تميل إليه.. كيف عرفت ذلك الأفندي؟ ومتى أحبته؟ وأي جرأة شيطانية أغرتها بالفرار معه!.. كان تمتنع اللون، بارد الأطراف، تلوح في عينيه نظرة ساهمة قائمة، وتبرق فيها من أن لأن لمحة خاطفة تقدح شرراً. خطر له خاطر فصعد رأسه إلى الدور على جانبي الطريق، ينظر إلى نوافذها ويتساءل: في أي دار ترقد لصق رجلها الآن؟ انقشع غبار الحيرة، وحل محله غضب نارٍ ومقت نهم، وتقبض قلبه وتلوى تحت ضغط يذّي الغيرة القاسيتين، غير أن شعوره بالخيبة الناشئة من ذهاب الأمل وتمرغ المعبود في التراب - كان أظلم من الغيرة نفسها. إن الغرور والكبرياء وقود

القاهرة منادياً باسمها؟ أبطرق أبواب البيوت بأبأ؟ الله ما أعجزه وما أعجز حيلته! إذن هل يعود إلى التل الكبير متناسياً ما وراء ظهره؟ ولكن لماذا يعود؟ لماذا يصبر على تحميل نفسه آلام الغربة؟ لماذا يكذب ويكده ويجمع النقود؟ الحياة بغير حميدة عبء ثقيل لا طائل تحته. غاضت في قلبه مشاعرها جميعاً إلا فتوراً يزهرق الأنفاس وخمواً يقتل الإحساس، وهوى إلى هذه الحالة المضنية التي تبدو فيها الحياة فراغاً كثيباً يحرق به سد هائل من القنوط. كان يعيش على الفطرة لا يدري شيئاً عما وراءها. غلصاً لقوانين الحياة الأولى، فوجد في الحب جوهر حياته وخلودها فلما أن فقدته فقد الأسباب التي تصله بالحياة، وتردى مزعزعا كثره هائمة في الفضاء. ولولا أن الحياة - التي تجرع غصص الآلام - تنفث في إغراء بينها بالعلق بها حتى في أحلك أوقاتها، لحتم عمره وقضى. ولكنّه مضى في سبيله حائراً قد ضل هدفه، بل شعر في تلك اللحظة أنه ضلّه إلى الأبد. بيد أنه ما زال معلقاً بخيط يدق على وعيه ويلح في عرض الطريق بنات المشغل العائدات فما يدري إلا وهو يتجه نحوهم ويعترض سبيلهم، فوقفن داهشات وقد تذكرنه في غير مشقة، وقال لهم بلا أدنى تردد:

- مساء الخير يا بنات، لا تؤاخذنني، ألا تذكرن صاحبتكن حميدة؟

فقالن إحداهن:

- نذكرها جميعاً.. ونذكر كيف اختفت فجأة فلم

نراها منذ ذلك اليوم!

فسأل بصوت ينطق بالأمي:

- ألا تدرين شيئاً عن اختفائها؟

فقالن أخرى وقد لاحت في عينيها نظرة مأكرة:

- لا ندري شيئاً على وجه اليقين. إلا ما قلته لأمها حين جاءتنى يوم اختفائها تسأل عنها، من أتنا وأيناها مرّات بصحبة أفندي يسيران معاً في الموسكي..

وحلق في وجه محدثه بذهول وقد ارتعش جانب

فيه، وسألها:

- أرايتها بصحبة أفندي..؟!

للغيرة يؤرثان لهيها. ولم يكن حظها منها ملحوظًا، ولكنه كان شديد الأمل كبير الأحلام، فنوي أمله وتبدد حلمه، وانفجرت نفسه غضبًا. وأفاده الغضب من حيث لا يدري، فاستنقذه من ذاك الحزن الصامت الثقيل، وعَلَّله بالانتقام يومًا ولو على سبيل البصق والازدراء. والواقع أنَّ فكرة الانتقام استحوزت على مشاعره في تلك الساعة الجهنمية من الغضب والقهر، فتمنى أن يتمكن من طعن قلبها الغادر بمذبة حادة. الآن يستطيع أن يدرك سرَّ مواظبتها على الخروج في العصارى، فقد كانت تنطلق عارضة نفسها على ذئاب الطرق! ولكنها جئت بغير شك، جئت بهذا الأفندي، وإلا لما أثرت العهر معه على الزواج به! وعرض على شفته ألمًا لهذا الخاطر. وانتقل راجعًا قد ضاق ذرعًا بالمشي والوحلة. وتحسست يده علية العقد في جيبه، فانطلقت من فمه ضحكة جافة ساخرة كأنما صرخة غضب في رداء ضحكة. ليته يستطيع أن يشفقها بسلسلة هذا العقد الذهبية! وذكر كيف وقف في دكان الصايغ يقلب عينيه بين الحلي وقلبه يكاد يقفز من صدره جذلًا وسرورًا، وهفت الذكري على قلبه كالنسيم الواني إلا أنها التقت بوهج قلب مضطرم فانقلب النسيم حرورًا...

## - ٢٩ -

ما إن وقع السيد سليم علوان على العقد المبسوط على المكتب حتى شدَّ الخواجا الجالس قبالة على يده وقال له:

- مبارك عليك يا سليم بك. هذه ثروة طائلة... وعلق بصر السيد بالخواجا وهو يمضي في سبيله حتى توارى وراء باب الوكالة، صفقة رابحة. وبحسبه أنه تخلص من غزون الشاي الذي اشتراه الخواجا جملة فربح الكثير وأمن شرَّ المخاوف، خصوصًا وأنَّ صحته لم تعد تطيق أهوال السوق السوداء. بيد أنه قال لنفسه ساخطًا متبرمًا «ثروة طائلة ولكنها ملعونة، لقد حلت اللعنة بكل شيء في دنياي». والحق أنه لم يبق من السيد القديم إلا شبح هزيل، وكانت أعصابه أشدَّ ما

يضيئه، وكانت تعهدت بالقضاء عليه، فسامته تفكيرًا متواصلًا في الموت حتى صار الموت شغله الشاغل. ولم يكن الرجل في الأصل بالضعيف الإيمان ولا كان بالرعديد الجبان، ولكن تهاوت أعصابه أنساه آداب الإيمان وألوى بشجاعته. وما انفك يفكر في ساعة الاحتضار. وقد ذاق بعض مرارتها في إبان مرضه. ويستذكر ذكرياته عنها عمن حضرهم الموت من أقاربه، ذاك الرقاد المستسلم الأليم، وصعود الصدر وهبوطه، وهذه الحشرة المتقطعة، وإظلام المقلتين، وبين هذا وذاك تنتزع الحياة من الأعياق والأطراف، وتودع الروح الجسد. أقيع كل هذا في يسر؟ إنَّ الإنسان ليجن إذا انتزع ظفره، فكيف يكون إذا انتزعت روحه وحياته؟! ولا يدري إلا المحتضر نفسه حقيقة هذا الألم، فما تستطيع أن نلمس غير آثار الاحتضار الظاهرة، أما صداها في الروح ورجعها في الجسد، فير الميت الذي ينطوي عليه صدره، ويقبر معه في جدته، وآخر ذكرياته عن آلام الدنيا في أظفح حالاتها وأبشعها، ولو أنه أتيج لميت أن ينطق عن عذاب احتضاره لما نعم إنسان بساعة صفو واحدة في الحياة، ولما الناس ذعرًا قبل أن تدركهم النهاية. وطالما تمنى أن يسلكه الله في زمرة المحظوظين ممن يموتون بالسكنة القليلة. ما أسعدهم بين الأحياء والأموات على السواء، إنهم ليموتون وهم يتكلمون أو يأكلون، أو حين يقومون أو يقدعون، كأنهم يكرن بالاحتضار فيتحينون منه غفلة ثم ينسلون خفية إلى باب الأبدية!.. ولكنه في شبه يأس من هذه الميتة السعيدة، وقد ضرب له أبوه - وجدته من قبل - مثل الميتة التي يشعر قلبه المتهافت الفزع بأنها ستجري عليه، احتضار طويل يغشى نصف يوم ونزع شديد تشب له الولدان. من كان يصدق أنَّ السيد سليم علوان - الرجل القوي السعيد - سيمسي فريسة لهذه الأفكار والمخاوف؟... هكذا كان، ولم يكن الاحتضار بفزع الوحيد، فقد انجذبت أفكاره المحمومة نحو ضجعة الموت نفسها، فأطال فيها التفكير والتفلسف على طريقته! وصور له خياله وثقافته

بشاعة لم تحاول إخفاءها «إنها صنيّة الفريك والعباذ بالله». ويومًا قال له عمّ كامل عن قصد حسن ونية سليمة:

- هلاً أمرتني يا سي السيد أن أصنع لك صنيّة بسبوسة مخصوصة برّد عليك ثوب العافية بإذن الله! ولكنّ السيّد غضب غضباً شديداً وانفجر صائحاً فيه:

- إليك عني أنّها الغراب. أجننت يا أعمى القلب والبصيرة!... إنّ أمثالك فقط من البهائم تبقى لهم أمدتهم سليمة حتّى الق... ولم يعد بعدها عمّ كامل إلى التعرّض له بخير أو بشر.

أمّا زوجه فباتت رمية سهلة لغضبه وسخطه، ولم يفتأ يلقي على حسدها المزعم له تبعة ما حصل له في جسمه وعقله، وكان يتهرها قائلاً:

- لشّد ما نغمت على صحتي وعافيتي، حتّى تحطمت بين يديك، فهنيئاً لك الراحة يا أفعى...

واشتدّ به سوء الظنّ، حتّى ارتاب يوماً أن يكون غما إليها عزمه على الزواج من حيدة، لأنّ أمثال هذه الأمور تنصدى لها أعين كثيرة فترها في خفية من صاحبها، وتتطوّر السنة كثيرة لإذاعتها وإيصالها لصاحب الشأن، ولم يستبعد عند ذاك أن تكون المرأة قد انتقمت منه بأن عملت له «عملاً» هو الذي أودى بصحّته وعقله!... ولم يكن في حالة تسمح له بأن يزن ما يعرض له من فكر بميزان العقل ولا أن يسرها بمسار الحكمة، فسرعان ما انقلبت الريبة يقيناً. فتميّز غيظاً، وامتلاً حنقاً، وتوتّب للانتقام. اشتطّ في معاملتها، ودأب على سبّها ونهرها، ولكنّها قابلت قسوته بالامثال والصبر والأدب، فلم يُجّده شططه، ولبث يتحرّق إلى إشارتها، وإخراجها من التعوّذ بالصمت والصبر إلى الأخذ بأسباب التشكي والتذمّر وذرف الدموع، فقال لها مرّة بجفاء وازدراء:

- لقد مللت عشرتك، ولا أخفي عنك أنّي شارع

في الزواج، سوف أجرب حظي مرّة أخرى... وصدّقته المرأة، فتصدّع بنیان رزانتها المتسكك،

المتوارثة عن الأجيال، أنّ بعض شعوره سيلازمه بعد الموت، أليس يقولون إنّ عيني الميت تريان من يحدّقون به من الأهل؟... فحتم أن يرى الموت جهره، وأن يشعر بالنهاية الأبدية وهي تشملها، وأن تتصل حواسه بظلمة القبر ووحشته وغربته وهياكله وعظامه وأكفانه بل بضيقة واختناقه، وما يحتمل أن يتردّد في النفس من أشواق وحنين وحبّ للعالم وأهلها!... تمثّل ذلك كلّهُ بصدر منقبض وقلب متشنّج وأطراف باردة وجبين يتفصّد عرقاً، ولم ينس ما وراء ذلك من بعث ونشور وحساب وعذاب، أوّاه... ما أبعد الشقّة بين الموت والجنّة!...

لذلك تعلّق بأهداب الحياة بقوة الخوف واليأس، على رغم أنّها حياة عاطلة من أسباب النعيم، فلم تترك له دوراً يلعبه في مسرحها إلّا المراجعة وعقد الصفقات، ودأب عقب نقاهته على استشارة طبيبه، فأكد له الطبيب شفاه من الذبحة وآثارها ولكنّه نصحه بالحذر والاعتدال. وشكا إليه عدّة مرّات ما يعاني من سهاد وهواجس فأشار عليه باستشارة أخصائيّ في الأعصاب ومن ثمّ مضى يتردّد بين الأخصائيّين في الأعصاب والقلب والصدر والرأس، وتفتّح له باب المرض عن عالم لا يقلّ عن عالمنا اتّسع رقعة وازدحاماً بالسكان من الجرائم والأعراض الخفية. ومن عجب أنّه لم يكن يؤمن لا بالطب ولا بالأطباء، ولكنّه آمن بها في اضطرابه، ولعلّ إيمانه هذا كان من بين أعراض المرض الذي ألمّ بأعصابه!...

في هذا الجحيم من الهواجس كادت تنحصر حياته، وفي أوقات عمله، وأوقات السلام التي تصفو فيها نفسه وتنقى من غمش الهواجس كان كأنّه يتفرّغ لإفساد علاقاته بالمحيطين به من البشر، فهو إمّا في حرب مع نفسه وإمّا في حرب مع الناس. وأدرك عمال الوكالة من بادئ الأمر أنّ سيّدهم قد استحال شخصاً شاذاً ملعوناً، فترك الوكيل وظيفته بعد خدمة طويلة استمرّت ربع قرن من حياته، وبقي من بقي من العمال على مضض وتوجّس واستكراه. وقال عنه أهل الزقاق إنّهُ بين العقل والجنون، وقالت حسنية الفرّانة

- نتركه وشأنه حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .  
 بيد أن المحامي قال بشيء من الحزم مستدركاً :  
 - اللّهم إلا إذا شرع في الزواج حقاً، فأشد ما  
 نتخذه من احتياط أهون من أن نتركه هملًا بين أيدي  
 الطامعين .

\*\*\*

وكان اختفاء حميدة حدثاً فظيماً في حياته . ومع أنه  
 لم يعد إلى ذكرها - منذ مرضه - فتخلّفت عن تيار  
 شعوره ، إلا أن خبر اختفائها أثار اهتمامه وجزعه ،  
 فتتبع بقلق بحث الباحثين عنها . ولمّا تنهى إليه ما  
 تهاوس به اللاغطون من أنها فرّت مع رجل مجهول ،  
 انزعج انزعاجاً شديداً ، وثار غضبه ذلك اليوم فلم  
 يجرؤ أحد على الدنو منه ، فرجع مع الغيب إلى بيته  
 مهذم الأعصاب ، وأصابه صداع شديد أرّقه حتى  
 مطلع الفجر . وحنق على الفتاة الهاربة حنقاً كبيراً ،  
 وتآكل قلبه حقداً وغضباً ، وتمنّى أن يراها يوماً متدلّية  
 من مشنقة ، مندلقة اللسان ، جاحظة العينين . ولمّا  
 علم بعودة عباس الحلو من التلّ الكبير سكن روعه  
 لغير ما سبب واضح ، ودفعته رغبة لا تقاوم إلى  
 استدعاء الشاب ، وقربه ، ولاطفه في الحديث وسأله  
 عن أحوال معيشته ، متجنباً ذكر الفتاة ، فسّر الشاب  
 بعطفه ، وشكر له حذبه ، وأقبل على الحديث في  
 استفاضة من استنام إلى لطفه ، والسيد يسترق إليه  
 النظر من عينية الغائرتين . . وفي الأيام الأولى التي  
 أعقبت فرار حميدة وقع حادث - ربّما كان في ذاته تافهاً -  
 ولكنّه ممّا يؤرّخ به في زقاق المدق . كان السيد سليم  
 علوان متجهاً نحو الوكالة في ضحوة من النهار فالتقى  
 بالشيخ درويش ذاهباً لبعض شأنه . وكان السيد - في  
 عهده الأول - من محبي الشيخ درويش ، وكثيراً ما  
 تعاهده بالبر والإحسان والهدايا ، ولكنّه أغفله في مرضه  
 وأهمله وكأنّه لم يعد يشعر له بوجود . ولمّا التقيا على  
 كتب من باب الوكالة هتف الشيخ درويش وكأنّه  
 يخاطب نفسه :

- اختفت حميدة . .

فبهت السيد ، وظنّه يعنيه بقوله ، فما غمالك أن صاح به :

وفزعت إلى أبنائها فباحث لهم بما تلقاه على يديه من  
 سوء القول والفعل . وهالهم الأمر ، ودهمهم الخطب ،  
 فأيقنوا أن أباهم ينزلق إلى مهوى وخيم العواقب ،  
 وزاروه واقترحوا عليه - إبقاء على صحته - أن يصقّي  
 تجارتهم ويفرغ للراحة والعناية بنفسه . وقطن الرجل إلى  
 ما يساورهم من خوف غير جديد عليه ، فغضب غضبة  
 هائجة ، وعنفهم بفظاظة لا عهد لهم بها ، وخاطبهم  
 بحدة قائلاً :

- حياتي ملك لي أصرّفها كيفما أشاء ، وسأبقى عاملاً  
 ما راق لي العمل فاعفوني من نصيحتكم المغرض .  
 وضحك متهكّكاً ثم استدرك وهو يعلّب في وجوههم  
 عينية الذابلتين :

- ألم تحذّنكم أمّكم عمّا اعترمت من الزواج مرّة  
 أخرى ؟ . . هو الحق . لقد شرعت أمّكم في قتلي ،  
 فسأوي إلى كنف امرأة جديدة على شيء من الرحمة ،  
 وإذا تضاعف عددكم بهذا الزواج فثروتي كفيّلة بإشباع  
 أطعاعكم جميعاً .

وأندرهم بأنّه سيقبض يده عنهم ، وأنّ على كلّ  
 منهم أن يعتمد في حياته على موارده الخاصّة . قال  
 بسخط وغضب :

- إني كما ترون لا أكاد أذوق غير مرّ الدواء ، فلا  
 يصح أن يتمتّع الآخرون بمالي .  
 قال كبيرهم :

- كيف تخاطبنا بهذه اللهجة المرّة ونحن أبناءك  
 البررة ؟

فقال السيد ساخراً :

- بل أبناء أمّكم .

ونفذ وعيده فلم يعد يحمل شيء من طرفه إلى بيوت  
 أبنائه ، وحرم مطبخ سراياه من الأنواع الفاخرة التي  
 اشتهر بها ، والتي حرّمت عليه هو بعد مرضه ، ليشاركه  
 الجميع - خصوصاً زوجته - فيما فرض عليه . ولهج  
 بحديث الزواج المزعوم حين وجد السهم النافذ الذي  
 تحطمت دونه ما تدّرع به زوجته من صبر وأناة . وتشاور  
 أبنائه فيما بينهم ، وقد ألفاهم الخطب قلباً واحداً في  
 التوجّع لأبيهم ، والإخلاص له في محتته ، وقال كبيرهم :

حالته من المرض حريّ بأن يزدلف إلى الله لا أن يُغضب ولياً من أوليائه. وطوى كبريائه، ونهض قائماً، وغادر الوكالة متوجّهاً إلى قهوة كرشة. وقصد الشيخ الباكي غير عابئ بالأنظار التي سدّت نحوه في دهشة، ووضع يده على منكبه برفق، وقال بلهجة تنمّ عن الاعتذار والأسف:

- يا شيخ درويش.. ساعني.

- ٣٠ -

كان عباس الحلو يجلس مخبئاً في شقّة عمّ كامل حين دقّ الباب بعنف، فنهض إليه وفتحته فرأى حسين كرشة مرتدياً القميص والبنطلون، تبرق عيناه الصغيرتان كمادته، ثمّ بادره قائلاً:

- كيف لم تقابلني وهذا ثاني يوم لك في المدقّ!.. كيف حالك؟

فمدّ له الحلو يده مبتسماً ابتسامة باهتة وقال:

- كيف أنت يا حسين؟.. لا تؤاخذني فمتعب أخاك لا ناس ولا مهيجل. هلمّ نير معاً.

وخرجوا معاً. وكان عباس الحلو قد قضى ليلته مسهّداً، وقطع النهار متفكّراً، فسار مصدّع الرأس، مثقل الجفون. لم يكد يبقّى من ثورة الأمس أثر، سكت الغضب الجنوني، وبرد الهياج الحامي، وتلاشت خواطر الانتقام الدمويّ، على حين رسب في قرارة نفسه حزن عميق ويأس مدلهم، ومعنى آخر تخلّصت نفسه ممّا لا تطيقه من ألوان الانفعال، مسلّمة بكلّيّتها للحزن واليأس. وقال له حسين متسائلاً:

- أما علمت بأنّي كنت هجرت بيتنا عقب سفرك مباشرة؟

- حقّاً؟

- وتزوّجت، وأخذت بأسباب حياة رائعة. فقال الحلو وهو يكسب صوته شيئاً من الاهتمام الذي لا يجده:

- حمداً لله.. مبارك.. عال.. عال.. وكانا بلغا الغوريّة، فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح بحلّة:

- ما لي أنا ولهذا! ولكنّ الشيخ درويش واصل خطابه قائلاً:

- ولم تخف فحسب، ولكنّها هربت، ولم تهرب فحسب. ولكنّها هربت مع رجل؛ ويسمّون ذلك في الإنجليزيّة Elopement وتهجيتها.. c. وقبل أن يتّم الرجل تهجية الكلمة انفجر السيّد صارخاً:

- إته ليوم شؤم إذ أصبحت على وجهك يا مجنون، اغرب عن وجهي عليك لعنة الله..

وجحد الشيخ في مكانه، تسرّع في الأرض، ولاحت في عينيه نظرة طفل مذعور إذا لوّح له شخص بعضاً مهذّداً، ثمّ أعول باكياً. ومضى السيّد لطيفته، ولبث الشيخ درويش بموقفه باكياً، وعلا صوته فصار أشبه بالصراخ، حتّى أهاب نواحه بالمعلّم كرشة وعمّ كامل والحلاق العجوز فهرعوا إليه متسائلين، وقادوه إلى القهوة، وأجلسوه على أريكته وهم يطيبون خاطره ويسكنون روعه. وطلب له المعلّم كرشة قدحاً من الماء، وربّت عمّ كامل على كتفه قائلاً بتوجّع:

- وخذ الله يا شيخ درويش، اللّهمّ اكفنا سوء.. بكاء الشيخ نذير غير محمود العواقب.. اللّهمّ لطفك. ولكنّ الشيخ ازداد بكاء وعويلًا، فاضطربت أنفاسه، وارتجفت أوصاله، وأطبقت شفتاه في توتّر وتشنّج، وراح يشدّ ربطة رقبته بعنف، ويضرب الأرض بقبعابه. وفتحت نوافذ الدور وأطلّت الرعوس في دهشة وانزعاج، وجاءت حسنيّة الفرّانة. وشقّ النحيب طريقه إلى مسمعي السيّد سليم علوان في الوكالة، فأنصت إليه غاضباً حانقاً، وظلّ ينصت إليه هانجاً، وجعل يتساءل متى يمكّك عن العويل؟.. وعبئاً حاول أن يعيب بانتباهه عنه، فكأنّه كان يلحّ في مطاردته والتضييق عليه، حتّى خيل إليه أنّ الدنيا جميعاً تبكي وتنوح. وسكت غضبه وسكن هياجه، ولكن ما طفق البكاء يرعش أوتار قلبه فترنّ في إشفاق وألم. ليته شكّم غضبه ولم يتهر الشيخ الوليّ!.. ليته لم يصادفه في طريقه! وما كان ضرّه لو أغضى عنه ومّرّ به مرّ الكرام! وتأوّه نادماً، ومضى يقول: إنّ الإنسان في مثل

إلى نصر، يركب الطيارات والدبابات، يهاجم ويقتل ويسبي النساء الفارّات، ويذل له المال عن سخاء، فيسكر ويعربد فوق القانون. هذه هي الحياة. ألا تتمنى أن تكون جندياً؟

الحق أن ركبتيه كانتا تتخلخلان إذا سمع صفارة الإنذار، وكان من رواد المخبأ المواطنين فكيف يتمنى أن يكون جندياً من المحاربين؟ بيد أنه تمنى صادقاً لو كان خلقت جندياً فقط متعطشاً للدماء فيسهل عليه الانتقام ممن آذوه وبددوا حلمه في السعادة والحياة الرغيدة! وقال بلهجة الفاترة:

- من لا يتمنى ذلك؟!

وانتبه إلى الطريق، فازدحمت برأسه الخواطر، ربّاه. كيف للزمان أن يحو ذكريات هذا الطريق من صدره؟! إن أرضه لا تزال تحمل آثار قدميها اللطيفتين، وإن هواءه لا يبرح معبقاً بأنفاسها المحبوبة، وكأنه يراها رؤية العين وهي تخطر بقوامها المعتدل المشوق، أنّ له أن يطمع في نسيان هذا كله؟! وقطب متغيّظاً على نفسه لجودها بهذا الحنان لغير أهله، وأطبق فمه فلاح وجهه صارماً قاسياً، وعادته لفحة من ثورة الأمس، ينبغي أن ينبذ من ينبذه، وأن يطرح من يجونه، وآلا يحرق أضلعه حزناً. ولا حتى غضباً. على من يرقد ناعماً بين أحضان غريم له. ثباً للقلب من صاحب خثون، دسيسة على الروح والجسم، يحب من لا يحبها، ويحرص على من يفرط فيها، فيسيم صاحبه الحسف والهوان. واستيقظ عند ذلك على صوت حسين الصახب وهو يلكره هاتفاً:

- حارة اليهود.

وأوقفه بيده عن السير متسائلاً:

- ألا تعرف حانة فيتا؟. ألم تدمن الخمر في التل الكبير؟

فأجابه عباس قائلاً باقتضاب:

- كلاً..

- كيف عاشرت الإنجليز ولم تشرب الخمر؟ يا لك من خسوف تعس.. الخمر شراب منعش ومفيد للمخ، تعال..

- بل زفت وهباب!.. استغنوا عني فعلت إلى الزقاق على رغمي، وأنت هل استغنوا عنك أيضاً؟ فأجابه الشاب بفتور:

- كلاً.. ولكنني مُنحت إجازة قصيرة.

فأكلت الغيرة قلبه، وضحك ضحكة باردة ثم قال:

- أنا الذي دفعتك إلى العمل دفعةً وأنت تمنع، وما أنت ذا تنعم به على حين أَسْكَمَ أنا متعطلاً.

وكان عباس من أدرى الناس بما تنطوي عليه طبيعة صاحبه من غلٍ وشرٍ فقال بانكسار:

- نهايتنا قرية على آية حال، هذا ما يؤكّدونه لنا. فارتاح حسين قليلاً، ثم استدرك يقول بصوت أسيف:

- كيف انتهت الحرب بهذه السرعة؟! من كان يصدّق هذا؟!

فهزّ الحلو رأسه دون أن ينبس بكلمة. سيان عنده أن تستمرّ الحرب أو تنتهي، وأن يبقى في عمله أو يُفصل منه، إنّه لا يبال شيئاً على الإطلاق. وكاد يضجره حديث صاحبه، إلّا أنّه ألفاه أخفّ من الوحدة والفكر، ومن ناحية أخرى تحمّله. كما اعتاد أن يتحمّله. دفعةً لشره. واستطرد حسين قائلاً:

- كيف انتهت بهذه السرعة!.. كان الأمل معقوداً بهتلر أن يطيلها إلى ما لا نهاية، ولكن أنهاها حطّنا الأسود. صدقت..

فصاح حسين بشدة:

- نحن تعساء. بلد تعيس وأناس تعساء.. أليس من المحزن ألا نذوق شيئاً من السعادة إلّا إذا تطاحن العالم كله في حرب دامية؟! فلا يرحنا في هذه الدنيا إلّا الشيطان!

وأمسك قليلاً وهما يشقان طريقاً بين سابلة السكة الجديدة، وقد أخذ ستار الظلام في الانتشار، ثم قال متنهّداً في حسرة:

- لشّد ما تمّنت أن أكون جندياً محارباً! تصوّر حياة جنديّ باسل، يخوض غمار الحرب، ويتقل من نصر



سيدي، لا أنت في الزيادة ولا في النقصان، صحتك.  
وقرّع كأسه بكأسه، ثم أفرغه في جوفه بغير مبالاة،  
ورفع عباس كأسه وكرع منه كربة، ثم أبعده عن فيه  
متقرّزاً، وقد شعر كأنّ لساناً من لبّ اندلع في حلقه،  
فتقبّض وجهه وكأنّه لعبة من المطاط ضغطته أصابع  
طفل، وقال متأقفاً:

- فطيم. مَر. حامي.

فتضاحك حسين ساخراً، شاعراً بزهو واستعلاء  
وقال بازدراء:

- تشجّع يا طفل، الحياة أمرٌ من هذا الشراب،  
وأرحم عاقبة ..

ورفع كأسه ووضع حافته بين شفثيه وهو يقول  
«اشرب حتّى لا يندلق على قميصك» فتجرّعه الآخر  
حتّى الثمالة. ونفخ متقرّزاً، ثم أحسّ حرارة في بطنه،  
سرت بسرعة عجيبة ناشرة وهجها في جوفه، فشغل  
بالانتباه إليها عن تقرّزه، وتتبع أثرها وهو يندفع مع  
دمه، ويجري في عروقه، حتّى إذا بلغ رأسه خفّت وطأة  
الدنيا عليه قليلاً، وقال حسين بسخرية:

- اكتف اليوم بكأسين ولا تزد ..

وطلب كأساً أخرى لنفسه وراح يقول:

- أقيم الآن مع أبي ومع زوجي وشقيقها، ولكنّ  
نسيبي وجد عملاً في الترسانة وسيقارنا اليوم أو غداً.  
ويقترح أبي عليّ أن أشرف على القهوة نظير ثلاثة  
جنيهات في الشهر، وبمعنى آخر اشتغل من الفجر حتّى  
نصف الليل بثلاثة جنيهات! .. ولكن ماذا تقول  
لحشّاش مجنون؟ .. وهكذا ترى أنّ الدنيا تناصبني  
العداء، وتستفزّ غضبي ومقتي، وليس عندي إلّا  
جواب واحد: فليما الحياة التي طابت لنا وإما حرقنا  
الدنيا ومَن عليها ..

فسأله عباس، وكان أخذ يستشعر راحة وجددها  
عجيبة لذيلة النسبة لما تعناه طوال يومه من همّ وفكر:  
- ألم توفرّ مالا؟ ..

فقال حسين بحدّة وسخط:

- ولا ملّياً! كنت أسكن شقة نظيفة بالوايلّة، فيها  
الكهرباء والماء، وكان عندي خادم صغيرة تقول لي

وتأبّط ذراعه ومال به إلى حارة اليهود وكانت فينا  
تقع على بعد يسير من مدخلها، على جانبها الأيسر،  
وهي أشبه بدكان، متوسطة، مربّعة الشكل، تمتدّ في  
جانبها الأيمن طاولة ذات سطح رخاميّ ينهض وراءها  
الخواجا فينا، وقد ثبت في الجدار خلفه رفّ طويل  
صُفّت عليه الزجاجات، وقامت في نهايته من الداخل  
براميل ضخمة، وعلى سطح الطاولة وضعت جفان  
الترمس والأقداح، ازدحم حولها الشاربون من أهل  
البلد، حوذية وعمّال وآخرون حفاة ونصف عراة  
كالشحاذين إن كان الشحاذون يسكرون. وبقي من  
الحانة غير ذلك موضع اتّسع لبعض المناضد الخشبيّة.  
فجلس إليها أعيان السوق والعاجزون عن الوقوف  
لكبر أو لسكر شديد. ورأى حسين مائدة شاغرة في  
نهاية الحانة فقاد صاحبه إليها، وجلسا حولها. وقلّب  
عبّاس عينيه في المكان الصاحب المدوّي في صمت  
وقلق، حتّى استقرّتا على غلام في الرابعة عشرة قصير  
مفرط في البدانة، مطّين الوجه والجلباب، حافي  
القدمين، يزحم الشاربين ويكرع من قدح مترع،  
ويتمايل رأسه سكراً، فانتسعت عيناه دهشة ولفّت  
حسين إليه، ولكنّ هذا لوى بوزه استهانة وقال  
بسخرية:

- هذا عوكل بائع الجرائد. يبيع الجرائد في النهار  
ويسكر في الليل. غلام ولكن قلّ في الرجال مثله.  
أرايت يا غشيم!

ومال برأسه نحوه قليلاً وقال:

- كأس النبيذ بقرش ونصف لذة للمتعطّلين أمثالي.  
منذ شهر كنت أشرب الويسكي في بار فنش ولكنّها  
الدنيا القلب، معلّش يا زهر!

وطلب كأسين، فجاء بهما الخواجا ووضعهما على  
المائدة ومعهما طبق ترمس. ونظر عبّاس إلى كأسه بقلق  
وقال مشفقاً من لسان صاحبه إشفاقه من الإقدام على  
التجربة الجديدة:

- يقولون إنّها مؤذية!

فقبض حسين على قدحه وهو يقول بسخرية:

- تخاف على نفسك؟! خلّها تقتلك. .. في داهية يا

وتناهى الانفعال بالشاب فقال بغير وعي:

- ترى ماذا تفعل الآن؟!

فضحك حسين ساخراً وأجابه:

- تفعل ما عسى أن تفعله آية امرأة فترت مع رجل..

- أنت تهزأ بالمي.

- أملك سخيف، خبّرني متى علمت بفرارها؟...

مساء الأسر... كان ينبغي أن تكون نسيتهما الآن..

وهنا أحدث عوكل - الغلام الشربّ بائع الجرائد - حركة لفتت إليه أنظار الجلوس، وكان استوفى شربه ومضى ثملاً مترنحاً حتى إذا بلغ عتبة الحانة نظر فيما حوله بعينين زائغتين ورأسه يميل إلى الوراء في عظمة وسلطنة وصباح بلسان ملتو:

- أنا عوكل شاطر الشطّار وسيد الرجال، أسكر وأنسبط، وها أنا ذاهب إلى عشيتي، فهل لأحد منكم اعتراض؟... أهرام، مصري، البعكوكة...

واختفى الغلام تاركاً وراءه عاصفة من الضحك، أما حسين كرشة فقد عبس غاضباً، ولاح الشرّ في عينيه، وبصق بصقة طارت إلى الموضع الذي كان به الغلام، وأخذ يسبّ ويلعن. كانت أقلّ إثارة من تحدّ - وهو على سبيل المزاح - كافية لإشعال غضبه وإهاجة روح الاعتداء الكامنة فيه، ولو كان الغلام يمتناول يده للكمة أو ركله أو أخذ بتلابيه. والتفت إلى عبّاس - وكان يتجرّع كأسه الثانية - وقال بحدة وكأنه نسي ما كانا آخذين فيه من أسباب الحديث:

- هذه حياة وليست لعبة خشبيّة، يجب أن نعيش... ألا تفهم؟

ولم يتبّه عبّاس إليه، كان يخاطب نفسه قائلاً: «لن تعود حميدة، اختفت من حياتي إلى الأبد، وماذا تجدي عودتها؟ ولكن سأبصق على وجهها إذا التقيت بها يوماً، هذا أشدّ من القتل. أما ذاك الأفندي فالويل له مني، سادق عنقه...»

واستدرك حسين قائلاً:

- هجرت الملقّ فأعادني الشيطان إليه، سأضرم به

بكلّ احترام «يا سيدي»، وكنت أرتاد السينما والفرقة القومية، ربحت كثيراً، وضيعت كثيراً، وهذه هي الحياة. إنّ أعمارنا ذاهبة فلماذا تبقى النقود؟ بيد أنّ النقود ينبغي أن تساير العمر حتى نهايته، وإلا فالويل لمصر إذا لم تساير النقود الأعمار. ليس لديّ الآن إلا قليل من الجنيهات غير حلّي زوجي..

وصفّق طالباً كأساً ثالثة ثمّ قال بإشفاق:

- والأدهى من ذلك أنّ زوجي تقيّات في الأسبوع الماضي...

فقال عبّاس متظاهراً بالاهتمام:

- لا بأس عليها.

- لا بأس ولا زفت، هذه أمارات الحبّ، كما تقول أمي، وكأنّ الجنين غشت نفسه تقزّزاً من الحياة التي تنتظره فاعدى أمّه.

ولم يطق عبّاس أن يتابعه بالإصغاء لسرعته ولهوجته، ولم يعد يتمّ بذلك، وانتابته كآبة فجائية بعد أن نعم ساعة بالراحة، ولاحظ الآخر شروده وسهومه فقال باستياء:

- ما لك؟.. إنك لا تصغي إليّ..

فقال عبّاس بصوت حزين:

- اطلب لي كأساً أخرى..

وحقّق حسين مشيئته بسرور، ورنّا إليه بنظر مريب ثمّ قال:

- أنت متكدر وأنا أعلم بسبب كدرك..

فخفق فؤاد الشاب وقال بعجلة:

- لا شيء مطلقاً. هات ما عندك إني مصغّر إليك..

ولكنّه لم يباله وقال بلهجة لم تخل من احتقار:

- حميدة..

فاشتدّ وجيب قلبه، وكأنّه تجرّع كأساً ثالثة، فهاج دمه وسرى إليه الوجد والحزن والغضب، فقال بصوت متهدّج:

- أجل حميدة، هربت، خطفها رجل، عار وشقاء!

- لا تحزن كثيراً كالحمقى، وهل طابت حياة من لم

تفرّ عنهم نساؤهم؟!

لعل الساعة الوحيدة التي داومت عليها من حياتها الغابرة هي انطلاقها إلى الخارج في الأصيل من كل يوم. ولكنها الآن تطيل الوقوف أمام المرأة المصقولة، أصلها ثابت في الحوض الذهبي وفرعها سامق في سماء الغرفة. وكانت قد فرغت من ارتداء ملابسها وأخذت زيتها، فبدت امرأة جديدة كأنما ولدت في أحضان النضارة، ونمت وترعرعت في مطارف الجاه والنعيم. على الرأس عمامة بيضاء مرتفعة في تقوس كالخوذة، عقص تحتها شعرها المدهون العبق، الخدان والشفتان مصبوغتان بالحمرة على خلاف بقية الوجه خلا من الأصباغ، بعد تجربة طويلة دلت على أن بشرتها البرنزية أفتن للجنود الحلفاء وأحب إليهم، الأشفار مكحلة والأهداب مدهونة مفصلة تهدف إلى عل أطرافها الحريرية، وعلى الجفون ظلال بنفسج مقطرة من نسائم الفجر، هلالان مزججان خطتها يد ماهرة مكان الحاجبين، سلسلتان من البلاتين ذات نبقتين من اللؤلؤ تتدليان من الأذنين، غير ساعة ذهبية في معصمها وهلال منغرس في مقدم العمامة. فستان أبيض يشق أعلاه عن قميص وردى وتنضح حاشيته بسمرة فخذها، جورب رمادي من الحرير الخالص لبسته لا شيء إلا غلو ثمنه، وقد تطاير شذا عبق من تحت إبطيها وراحتيها وعقها. فلشد ما تغير كل شيء!

\* \* \*

ولقد اختارت سبلها من بادئ الأمر بمحض إرادتها، وبعد تجربة وعناء، تكشف لها أفقه عن أفراح وضاء وخيبة مريرة، فوقفت على قمة الامتحان تردد عينها بين اليمين والشمال متلهفة...

علمت من أول يوم ما يراد بها، فثارت غاضبة هائجة، لا لتكسر إرادة عشيقها الحديدية، ولكن استسلاماً لداعي عجزتها وإشباعاً لغريزتها المتعطشة للعراك، ثم أذعنت بعد ذلك وكأنتا تلذعن بمحض مشيتها. وأدركت بوضوح وبفضل بلاغة فرج إبراهيم، أنها لكي تتمرغ في التبر ينبغي أن تتمرغ في التراب، فلم تبال شيئاً. وفتحت صدرها للحياة

النار، هذه خير وسيلة للتحرر منه...

فقال عباس بأسى:

- زقاقنا لطيف، وما طمعت يوماً في أكثر من حياة طيبة فيه...

- إنك خروف! وحلال أن تُنحر في عيد الأضحى. علام تبكي؟ إنك عامل وفي جييك نقود، ولتجمعن غداً بتقيرك مالاً وفيراً فماذا تشكو؟

فقال عباس بلهجة تشق عن الاستياء:

- إنك أكثر مني شكوى، وعمرك ما حدث الله... فحدجه الشاب بنظرة قاسية أنابته إلى رشده وجعلته يستدرك قائلاً بلين:

- لا عليك من هذا، لكم دينكم ولي دين...

فقهقه حسين بصوت ارتجت له الحانة، وقال وقد أخذت الخمرة تلعب برأسه:

- خير لي أن أشتغل خماراً من أن أشتغل مكان أبي في القهوة، الريح هنا موفور، وفضلاً عن هذا فالخمر مبدولة للخمار بغير حساب...

فابتسم عباس ابتسامة فاترة وقد بات أشد حذراً في مخاطبة صاحبه الديناميقي، وكان ديب الخمر يسري في أعصابه، ولكنه بدل أن ينسى شجوه تركزت خواطره فيه. وصاح حسين مرة أخرى:

- فكرة رائعة!... سأجنس بالجنسية الإنجليزية، في بلاد الإنجليز الكل سواسية، لا فرق بين الباشا وابن الزبال. فلا يبعد أن يصير ابن الفهوجي رئيس وزارة...

وانبعثت نشوة مباغته في دم الحلو فقال بحماس:

- فكرة طيبة!... سأجنس أيضاً بالجنسية الإنجليزية...

ولكن حسين لوى شفتيه ازدراء وقال بسخرية:

- مستحيل، أنت خرع، فالأنسب أن تتخذ الجنسية الإيطالية، ومهما يكن من أمر فنسافر على سفينة واحدة... قم بنا.

ونهما واقفين، وأديا حسابهما، وغادرا الحانة والحلو يتساءل:

- أين نذهب الآن؟

الآن قابعة في بيت، دائبة على القيام بدور الزوجة والخدام والأم وغير ذلك من الواجبات التي تدري الآن عن تجربة ويقين أنها لم تُخلق لها. فَلِلَّهِ ما أبرعه وما أظنه وما أبعد نظرهما ومع ذلك أقول حذار!.. إِيَّاكَ أن تتصوّرها امرأة شهوانية، تستحوذ عليها شهوة طاغية. هي أبعد ما تكون عن ذلك! والحق أن شذوذها لا يكمن في قوّة شهوتها. لم تكن من هذه الطائفة من النساء اللاتي تستأثرهنّ الشهوة وتستذهنّ فيجذُنّ بكلّ غالٍ في سبيل إرضائها، كانت تتلفّ بروحها وجسمها على الظهور والسطوة والعراك، وكانت - حتى بين ذراعي الرجل الذي محضته الحبّ - تتلمّس أنامل الحبّ خلل اللكيمات والصفعات، وقد باتت شاعرة بهذا الشذوذ في عواطفها، أو هذا النقص في طبيعتها، وكان ذلك من دواعي تماديا واستهتارها، بيد أنّه كان ذلك من أسباب تعلّقها بعشيقها، وعن هذا التعلّق نجمت الحية المريعة التي منيت بها.

\*\*\*

كانت تحبّ خواطر هذه الحية وهي ماثلة أمام المرأة تأخذ زيتنها، ثمّ طرق أذنيها وقع خطاه - ذلك الرجل - رأت صورته في المرأة وهو يقتحم عليها الغرفة بوجه جامد رزين كأنّه لم يكن ذاك العاشق الوهّان، فتجبرّ بصرها وتشجّ قلبها. لم يعد الرجل الذي عرفته من قبل، وهذه هي الحية المريعة ولو طال به العهد لربّما هان الخطب بعض الشيء، ولكنّه دهمها في نشوة الأيام الأولى، فلم تنعم بحبّه خالصا في لذة وسعادة وحلم وخيال وهناء وأمل، إلّا زهاء عشرة أيّام! ثمّ غلب المدرّب فيه على العاشق، ومضى يتكشّف رويدا عن التاجر، ذلك الرجل القاسي الفظّ الذي يتجرّ بالاعراض. والواقع أن قلبه لم يعرف الحبّ قطّ، ولعلّه من الغريب أن تقوم حياته على هذه العاطفة التي لم تحرك فؤاده أبداً. كانت طريقته إذا أوقع فريسة في شباكه أن يمثّل معها دور العاشق - وهو ما أتقنه بطول الممارسة وأسعفته عليه فحولته - حتى إذا استنامت إليه تمتّع بها فترة قصيرة، ومن ثمّ يطمش إلى سيطرته عليها بما يبعث فيها من تعلّق به وما يكبلها به

الجديدة بحساس وسرور وهمّة، حتى صدق عليها عشيقها يوم وصلها بالتاكس إلى حيّها من أنها «عاهرة بالفطرة!» وتجلّت مواهبها فبرعت في فترة قصيرة في أصول الزينة والتبرّج وإن سخروا أوّل الأمر من سوء ذوقها، فكانت سريعة التعلمّ محسنة للتقليد، ولكنّها سيّئة الاختيار لالوان ثيابها وفي ميلها إلى الخليّ تبدّل ملموس. ولو كان تُرك الأمر على ما تشتهي وتحبّ لتبدّت وكأنّها «عالة» في زواقتها الفاقع وحليّها التي تكاد تغطّي جسمها. وفيما عدا ذلك فقد تعلّمت الرقص بنوعيه، ودلّت على مهارة في تعلّم المبادئ الجنسيّة للغة الإنجليزيّة. ولم يكن النجاح الذي جاءها يجرّ أذنيها بمستغرب، فتهاوت عليها الجنود وتساقطت عليها أوراق النقود، وانتظمت في سلك الدعارة لؤلؤة منعدمة النظر. وبدا لها أنّها فازت بكلّ شيء، وأنّها لم تخسر شيئاً، فلم تكن في عهدها الأوّل بالساذجة فتأسى للخدعة التي أطاحت بها، ولم تكن بالفتاة الطيبة فتذهب نفسها حشرات على ما فقد من أمل في الحياة الطيبة، ولم تكن بالفاضلة حقّاً فتبكي على شرفها المثلوم، ولم تشدّها إلى ذلك الماضي ذكرى حسنة يهفو إليها الفؤاد فانغمرت في حاضرها المحبوب لا تلوي على شيء. وعلى العكس من ذلك كانت غالبية الفتيات اللاتي يضطربن في مضمارها. فممنّ جماعة يتطاحن في قلوبهنّ الأسى والطمع والشقاء واليأس. وممنّ بائسات يشقن ليقمن أود أسرات جائعات. وممنّ تعيسات يخفن تحت شفاهنّ المصبوغة قلوباً دامية، ونفوساً حنّانة إلى الحياة الفاضلة أمّا هي فقد طابت بحياتها نفساً، وأذكت عيناها الفاتنتان ضياء الزهو والحرّيّة والرضا والفرح، ألم تتحقّق أحلامها؟ بلى الثياب والخليّ والذهب والرجال المتهافون آيات على ذلك، ناهيك بهذه السطوة السحرية التي دان لها المعجبون. أفمن الغريب بعد ذلك أن يلوح المذق كما يلوح السجن للأبى الطليق؟ ولقد ذكرت يوماً كيف أسفت فيما مضى على رغبة عشيقها عن الزواج منها. وتساءلت أكانت تفضّل حقّاً أن تزوّجه؟ وجاءها الجواب بالنفي بلا تردّد. ولو تحقّق ذلك الزواج لكانت

فنهذج صوتها غضباً وهي تقول:  
- أهكذا يحلو لك أن تخاطبني الآن؟!

فتظاهر بالملل وقال:

- أوه.. أنعود مرة أخرى إلى هذا الحديث الممجوج؟! وتخاطبني بهذه اللهجة.. وأنت لا تحبني... ولو كنت تحبني لما اعتبرتي مجرد سلعة!.. ما جدوى هذا الكلام؟.. ألا أكون عاشقاً إلا إذا رددت صباح مساء «أنا عاشق»؟.. ألا أكون محباً إلا إذا بادرتك كلما التقينا «أحبك»؟.. ألا يكون حب إذا شغلنا بحديث الحب عن عملنا وواجباتنا؟.. أحب أن يكون عقلك كبيراً كغضبك، وأن تكرسي حياتك - كما أكرس حياتي - لعملنا العظيم، وأن تجعله فوق الحب نفسه وفوق كل شيء..

وأصغت إليه بوجه مصفر من الغضب. هذا كلام بارد فاتر، هذه مراوغة لا أثر فيها لعاطفة ولقد بليت مثل هذا الكلام من قبل، وكادت تألفه مذ أنست منه الفتور. وإنها لتذكر كيف بدأ الماكر بنقدها متعمداً، فكان يفحص يديها بعناية، ويحسها على المزيد من الاهتمام بهما قائلاً: «أطيلي أطافرك واصبعيها بالمنيكور.. يداك نقطة ضعف في جالك!» وقال لها مرة أخرى متشققاً وقد طال بينهما الجدل: «حذار، هذه نقطة ضعف أخرى ما فطنت لها من قبل، صوتك يا عزيزتي.. ازعقي إذا شئت من الفم لا من الخنجره، فهذا صوت خشن فقط، ولو أهملناه بلا تهذيب وترهيف فظع، ولعلّه أن يذكر السامع بالملق ولو كنت في عماد الدين!» هكذا تكلم الفاجرا.. لشد ما ألهمها قوله وأذل قلبها الفخور. وظل يصطنع معها المراوغة والملاينة كلما طرقت حديث الحب، ولكنه بمرور الأيام أسقط من غمليه حتى هذه الملاينة الكاذبة، وربما قال لها في ملل «الحب لعب ونحن جاقون!» أو قال بغير مبالاة «هلتي إلى العمل.. الحب كلام فارغ» ثبأ له، لشد ما ملأ وعاء خيالها بالذكريات الاليمة! وقد حذجته بنظرة قاسية وقالت بحدّة:

- كلامك هذا لا يجوز عليّ، لماذا تذكرني دائماً بالعمل؟ ألا هيّة عنه أنا؟! إنك لتعلم أنّي أفوق

من قيود مالتية، ثم بما يتهددها عادة من رقابة القانون!.. فإذا تم له سعيه بدا على حقيقته، وتمتخص العاشق عن تاجر الأعراض. ولقد عزت حميدة فتور عاطفته إلى الجوّ المشيع بأنفاس النساء الذي يعيش فيه، فانقلبت ولا هم لها إلا الاستئثار به، وصار همها هذا شغلها الشاغل الذي نغص عليها صفوها، فباتت فريسة للحب والغيرة والغضب. واستحوذت عليها هذه المشاعر جميعاً وهي تنظر إلى صورته التي تطالعها على صفحة المرأة، فتحجّر بصرها وتوثبت إرادتها وتوترت أعصابها. أما هو فقال بلهجة سريعة متظاهراً بالعجلة:

- انتهيت يا عزيزتي..؟

ولكنها لم تعبا به، وتعمدت ألا تحببه استكراهاً لما يبدي من ملاحظات عن «العمل» وتذكرت بحسرة عهداً لم يكن يحذثها إلا عن الحب والإعجاب، الآن لا تنفرج شفاهه إلا عن العمل أو الربح!.. والآن لا تستطيع عنه فكاً كما يحكم هذا العمل، وبطغيان عواطفها نفسها. وإن الغضب ليملاً صدرها، ولكن ماذا يجدي هذا الغضب؟!.. لقد فقدت حرّيتها التي استباحث في سبيلها كل منكر. وإنها ليدخلها شعور بالقوة والسيادة ما دامت في الطريق أو الحانة. حتى إذا رآته أو ذكرته حلّ محلّ هذا الشعور الباهر إحساس بالأسر والذلّ. ولو اطمأنت إلى قلبه لمان كلّ عسير، فذلّ الحب في أعماقه ظفر، أما والحال غير ذلك فما تدري إلا الجنون مهرباً من حيرتها، وكان فرج إبراهيم يعلم بما يختلج في صدرها، ولكنه كان يريد على أن تعتاد جفوته لتحسن التسليم بالطبيعة المرتقبة. ولو كانت امرأة أخرى لمان عليه هجرها بغير عناء، ولكنه أثر أن يجزّعها كأس القنوط نقطة فنقطة، واستوصى بالصبر والأناة شهراً طويلاً، حتى بات متأهباً للضربة الحاسمة، قال بلهجته العارية عن العاطفة:

- هيا يا عزيزتي فالوقت من ذهب.

فصرفت وجهها إليه بعنف وقالت بحدّة:

- هلا أقلعت عن هذه العبارات السمجة؟!

- هلا أقلعت أنت يا عزيزتي عن الإجابات الجافّة!

ما جال بخاطره طويلاً ولو ضاعت ثمرة الليلة، وفهقه ضاحكاً في غيظ وسخرية وقال هازئاً:

- نَعَمْ الرَّأْي! أَحْسَنْتَ يَا عَزِيزَتِي، نَتَزَوَّجُ ونعيش كما يعيش الشرفاء. إبراهيم فرج وحرمة وأبناؤهما ليمتد! ولكن خَبَرْنِي ما هو الزواج؟.. لقد أنسيته كما أنسيت الآداب الشريفة جميعاً، أو دعيني أتذكّر قليلاً... زواج؟! شيء خطير فيها أذكر يتضمّن رجلاً وامراً ومأذوناً ووثيقة دينية وطقوساً كثيرة، متى عرفت هذا كلّه يا إبراهيم؟.. في الكتاب أو المدرسة؟! ولكن لا أدري أما تزال هذه العادة متبعة أم قد أفلح الناس عنها!.. خَبَرْنِي يا عزيزتي ألا يزال الناس يتزوَّجون؟

وارتعت أطرافها غضباً، وأفعم قلبها يأساً وغماً، ونظرت إليه فإذا به مبتسماً هازئاً سادراً فجئن جنونها وارعت عليه ناشية أظافرها في عنقه؛ ولم تفجّزه حركتها المباغنة فتلقاها بسكينة، وقبض على ساعدها وفرّج بينها ثمّ تخلّص منها والابتسامة الهازئة لا تفارق شفّته، فاشتدّ حقنها وغضبها، ورفعت يدها بسرعة خاطفة وصفعته بكلّ ما أوتيت من قوّة وعصبية. وغاضت ابتسامته ولاحت في عينيه نظرة وعيد وشرّ، فردّت عليها بنظرة جريئة متحدية، وانتظرت شوب العاصفة بجزع وتلهّف، وكادت تنسى أسباب آلامها في لذة العراك المرتقة، ومتّتها أحلامها المستيريّة بختام سعيد لهذا النضال البيهيمي. ولكنّه كان من ناحية أخرى يقدر عواقب الاستسلام للغضب، ولا يغيب عنه أنّ دفع العدوان بالعدوان سيؤثّق الرباط الذي يروم نقضه، ويزيد من تعلقها به، فضبط نفسه، وكبح جماح غضبه، وصمّم على أن يكاشفها بالقطيعة السافرة وذلك بالانسحاب من المعركة دون دفاع، فتراجع خطوة، وانفتل أفلاً وهو يقول بهدوء:

- هلمّي إلى العمل يا عزيزتي...

ولم تكذ تصدّق عينها، وألقت على الباب الذي غيّه نظرة ساهمة رتق بها القنوط. وأدركت سرّ تفهقه بغريزتها فاستشّفت قلبها الحقيقة المفجعة. وتقلقل صدرها برغبة حارّة مباغنة في قتله! انفجرت في

الأخريات وأبرع عليهنّ، وإنّك لتريح من كدّي أضعاف ما تريح من كثيرات مجتمعات، فاهجر هذا الحديث المعاد المجوج، وخَبَرْنِي صراحة فقد ضقت باللق والدوران. أما زلت تحبّي؟!!

وحذّته نفسه بأن يقدفها بالجواب القاطع! ألم يمهد له بما فيه الكفاية؟.. ونشط فكره في سرعة وقلق وعينه اللوزيتان لا تتحوّلان عن وجهها الغاضب، ولكنّه تردّد وآثر السلامة ولو إلى حين، فقال يداريها:

- عدنا كما توقّعت إلى الحديث القديم...

فانفجرت صارخة:

- أجبني صراحة. أحسبتي أموت أسى لو حرمتني من نعمة حبّك؟

ليس الوقت مناسباً. لعلّه لو جابهته بهذا السؤال على أثر إياها من الخارج، أو في الصباح - حين يتسع الوقت للملاحة والشجار - لكان أجابها كما يشاء، أمّا الآن فالجواب الصريح حريّ بإضاعة ثمرة اليوم هباءً فلذلك ابتسم ابتسامة باردة وقال بهدوء:

- أحبّك يا عزيزتي...

أقبح بكلمة الحبّ إذا نلّدت عن فم مملول، كالبصقة! استحوذ عليها القهر، وشعرت في قهرها بأنّها لا تتأبّى عن هوان وإنّ جلّ لو ضمن أن يعيده إلى أحضانها! وأحسّت لحظة أن حبّه مطلب تهون من أجله الحياة، ولكنّها كانت لحظة عابرة سرعان ما أفاقت من غشيانها، ثمّ امتلأ قلبها ضغينة، فاقتربت منه خطوات وعيناها تلمعان لمعان الماس الناشب في عمامتها، وقالت مصمّمة على أن تشقّ طريق التحدي حتّى نهايته:

- تحبّي حقّاً؟ إذن فلنتزوَّج.

ونظت عينه بالدهشة، ونظر إليها بين مصدّق ومكذّب، ولم تكن تعني ما قالت ولكنها أرادت سبر أغواره، فقال لها:

- وهل يغيّر الزواج من أمرنا شيئاً؟

- أجل. لنتزوَّج، ولنهجر هذه الحياة.

ونفذ صبره، وتولّدت في صدره عزمة صادقة، أن يحسم الأمر بما يقتضيه من صراحة وقسوة، وأن يحقّق

عن بطن فخذها، واستخرجت من حقيبتها علبة سجائر، وأشعلت سيجارة، وراحت تدخن بشغف غير عابثة بالأنظار التي تتخاطف ما انجلى من لحمها...

وغرقت في خضم الفكر. هيهات أن يبرأ قلبها من أوجاعه، ومع ذلك فهيهات أن تسترخي يدها القابضة على حبل الحياة. وتعتزت بأمال كثيرة ومسرّات مرتقبة، ولكن لم يجر لها في خاطر أنها قد تستجد حباً ينسبها هذا الحب الخائب لأنها كانت حاقدة على الحب، ولأن الإنسان - إذ يفقد جوهره الحب اللامعة - لا يتصور أنه سيسعد بالثور عليها مرة أخرى. وانتبهت إلى الطريق فإذا بالعربة تدور في محيط الأوبرا، ولححت في دورانها عن بعد ميدان الملكة فريدة، فطار الخيال بها إلى الموسيقى والسكة الجديدة والصناديق والمدق، ولاحت لعينها أخطاوط أطياف نساء ورجالاً، وتساءلت: ترى هل يعرفها أحد من هؤلاء إذا رآها في هذا الزم؟.. أيستطيع أحدهم أن يستشف حميدة وراء تني؟! وماذا تبالي؟! لا أب لها ولا أم! ونفخت دخان سيجارتها في استهانة ورمت بالعقب. وأخذت تتسلّى بمشاهدة الطريق حتى رجعت العربة إلى شارع شريف، وانجحت نحو الحانة التي تقصدها، وفي تلك اللحظة قرع أذنيها صوت كأنما انشق عنه قبر هاتفاً «حميدة» فالتفت نحوه وقد تملكها الذعر، فرأت عباس الحلو على بعد ذراع منها لاهئاً..

- ٣٢ -

وهتفت وهي لا تدري:

- عباس...

كان الفتى يلهث مبهوراً بعد أن ركض شوطاً كبيراً وراء العربة من ميدان الأوبرا، وقد اندفع لا يولي على شيء، يصطدم بالكتل البشرية، لا يعتاقه ما ناله من دفع، ولا يشبه ما لحقه من شتم ولعن. وكان قبل ذلك يسير متأنباً ذراع حسين كرشة، يتخبطان على غير هدى - عقب مغادرتها الحانة فيتا - حتى انتهى بهما التخط إلى ميدان الأوبرا، فالتقى بصبر حسين بالعربة

صدرها بقوة أسرة لا كأمية الضعيف الحاقد، ولكن رغبة فتاة شعرت بأنها في نطاق طاقتها. لقد عرفت جوانب كثيرة من نفسها على ضوء هذا الرجل وما هو يتم صنائعه فيكشف عن أخطر هذه الجوانب جميعاً. ولكن أيرضيها حقاً أن تباع الحياة من أجل الفتك به؟ إنها استهانت بكل شيء في سبيل الحياة، أما الاستهانة بالحياة نفسها؟! وانقبض صدرها، واستحوذ عليها قلق مفعم بالنفور، وبقيت رغبتها في الانتقام تتلظى ويندلع لهيبها. ينبغي أن تغادر البيت أولاً، وفي الخارج مهرب من جحيم الفكر، ومجال للأناة والتدبير وسارت متناقلة صوب الباب، فدارت على عقبيها كأنما لتلقي عليها نظرات الوداع. تنزى قلبها في صدرها في تلك اللحظة الفاصلة، رباه.. كيف انتهى كل شيء بهذه السرعة؟!.. هذه المرأة كم بدت على صفحتها فرحة مستبشرة، وهذا السرير الوثير مهد الغرام والأحلام، وعلى هذا الديوان كانت تجلس بين يديه تصغي إلى إرشاداته بين العناق والقبل، وهذا الخوان يحمل صورتها معاً في ثياب السهرة! ثم ولّت الذكريات ظهرها وفرت من الحجرة. وفي الطريق لفحها الهواء الدافئ فتسّمت في إعياء، وأخذت في سبيلها وهي تقول لنفسها «لن أعدم طريقة للفتك به!» كم يكون هذا شافياً على شرط ألا تدفع حياتها ثمناً له، لم تخلق الحياة للتضحية، الحياة فوق كل شيء، بل فوق الحب نفسه. حقاً بات الحب ندباً عميقاً في سويداء قلبها، ولكنها ليست المرأة التي يفنيها الحب، بها جرح عميق، ولكن الجريح يعيش وهو ينزف، بل يستطيع أن يتمتع بحياة عريضة فيها الذهب والسرور والسطوة والعراك. هكذا لاقت خبيتها. ورأت عربة فأشارت إلى الحوذي وركبت، واستشعرت حاجة ملحة إلى مزيد من الراحة والهواء فقالت له:

- إلى ميدان الأوبرا أولاً، ثم عد من شارع فؤاد الأول. واحدة واحدة من فضلك.

وجلست وسط المقعد مائلة بظهرها إلى الراء، واضعة رجلاً على رجل، فانحسر الفستان الحريري

هتفت باسمه فَقَدَ البَقِيَّةَ من وعيه وتبعها إلى الخانوت كالسائر في نومه. وأخذ يفتق رويدًا رويدًا من الإعياء والجهد والانفعال، وراح بصره يعاين المرأة الواقعة حياله بلباسها الجديد وزيتها الغريبة متلَمِّسًا عبثًا أن يجد فيها موضعًا للفتاة التي أَحَبَّها، فارتدَّ البصر كليلاً، وتَجَرَّعَ قلبه غصص اليأس المرير. لم تكن بساطة قلبه من البلاهة بحيث لا يدرك حقيقة ما يرى، ولقد أجبرته الشائعات في المَدَقِّ على تصديق أمر فطبع، وَلَكِنَّ الشائعات بلا ريب كانت دون الحقيقة الماثلة لعينيه وامتلاً قلبه المهوور شعورًا بتفاهة الحياة وعيبها، بيد أن غضبه الذي أصلاه نازًا حامية في ليله ونهاره، لم ينفجر، فكان أبعد ما يكون عن البطش بها أو حتَّى البصق عليها. وجعلت حميدة تنظر إليه في ارتباك وحيرة، واستشعر قلبها خوفًا حيال هذا الأثر من الماضي الذي تتحاماها، وَلَكِنَّه لم يَمْرُكْ بها عطفاً أو ندمًا، بل استثار ازدراءها ومقتها فلعلت في سرِّها شؤم الحظِّ الذي رمى به في طريقها. واشتدَّ الصمت على أعصابها، ولم يعد في الوسع احتياله، فقال الحلو بصوت مبجوح متهلِّج:

- حميدة! أهذا أنت؟ رباه كيف أصدَّق عيني؟! ..  
كيف هجرت بيتك وأمك وانقلبت إلى هذه الحال؟!  
وأجابته في ارتباك غير خافٍ:  
- لا تسألني عن شيء، فليس عندي ما أقوله،  
وهذا قضاء الله الذي لا يردُّ.  
وأحدث ارتباكها وقولها المستكين عكس المتظر.  
فاستفزَّ غضبه وأثارا حقه، فعلا صوته مزججراً حتَّى ملأ الخانوت:  
- كاذبة فاجرة... أغراك فاجر مثلك ففررت معه.  
وتركت وراءك في حَيِّكَ أسوأ الذكرى، وما هو الفجر  
السافر يطالعي في وجهك وتبرَّجك الفاضح...  
واستفزَّ هذا الغضب الفساجي شراستها الطبيعية  
فغضبت غضبة عنيفة مسحت عن صدرها ما اعتوره  
من ارتباك وخوف، وضاعفها ما احتملته في يومها من  
حقن وخيبة، فأربدَّ وجهها وصرخت في جنون:  
- صه... لا تزعق كاللجانين، أحسبت أنك

التي تحمل حميدة، ورأى الجالسة بداخلها، فلم يعرفها وأرغش حاجبيه استحسانًا وهو يلفت صاحبه إليها.  
ونظر عبَّاس إلى العربية المقبلة عليهما في طوافهما بالميدان، وعلق بصره بالفتاة الغائبة في أفكارها ولم يستطع أن يستردَّ عينيه، جذبها بقوة سحرية شيء في الوجه، وفي القوام، شيء كالشبه، أو هو شبه رقيق يحسُّه القلب قبل أن تحسَّ العينان، وتعمَّشت في مفاصله رعدة انقلب بعدها من سكره الخفيف صاحبًا، وهتف القلب «هي؟»، وكانت العربية قد ولَّته ظهرها مبتعدة نحو حديقة الأزيكَّة، فلم يألُ عدوًّا وراءها بلا تدبُّر ولا تفكير وصاحبه يزعق وراءه معربدًا صاخبًا، وعاقته حركة المرور برهة عند مطلع شارع فؤاد الأوَّل وَلَكِنَّ عينيه لم تتحوَّلًا عن العربية، ثُمَّ استأنف العدو جاهدًا لا تكاد تسعفه قدرته إلَّا قليلاً، حتَّى أدركها وهي توشك أن تدخل الحانة فناداها. وبما أن التفتت إليه وهتفت باسمه قطع الشكَّ باليقين، وأدركت حواسه ما سبق القلب إليه، فوقف حيالها لاهثًا مبهورًا لا يدري كيف يصدِّق عينيه. وغلبتها الدهشة والانزعاج أوَّل وهلة واستحوذ عليها الانفعال، ثُمَّ شعرت بدرجة موقفها وأشفقت من فضول المتسكعين، فتهاكت مشاعرها. وأشارت إليه ومضت في عجلة إلى عطفة سابقة للحانة - وهو يتبعها - ودخلت أوَّل باب إلى يسارها وكان حانوت أزهار. وحيثما بائعة الزهور - التي عرفتها بحكم ترددها على المكان - فردَّت تحيَّتها وسارت به إلى نهاية الخانوت متحامية مواقع الأنظار. وأدركت بائعة الزهور أنَّها تريد أن تختلي بصاحبها فمضت إلى مقعدها وراء معرض الزهور وجلست بغير مبالاة كأنَّ أحدًا لم يقتحم عليها حانوتها. وقفا وجهًا لوجه، يلقَّه الانفعال والحيرة وترتعش أطرافه تأثرًا. ما الذي دعاه إلى هذا العَدُوِّ القاتل؟! ماذا يروم من هذا اللقاء المغتصب! وجد نفسه في تلك اللحظة عريًّا من كلِّ رأي أو عزم. ولقد كانت ذكريات الشرِّ الذي هصر أماله - في أثناء عدوه - تذرَّ على عينيه غبارًا فتكاد تحجب عنه الطريق، وَلَكِنَّه لم يبيِّت رأيًا أو يستجدَّ عزمًا، فركض ركضًا آليًا لا يتبيَّن له غاية، حتَّى إذا



إنسان الكرب بالغضب والجزر. أنسني، واحتقني كما تشاء، وأتركني بسلام. . .

ما هذه بفتاته، أين منها حميدة التي أحبها وأحبته؟ يا عجباً؟ ألم تحبه حقاً؟ ألم تلصق شفيتها بشفتيه على بسطة السلم؟ ألم تدع له يوم الوداع وتعلمه باستشفاع الحسين لإجابة الدعاء؟ . . . فمن تكون هذه الفتاة؟ ألا تستشعر ندماً؟ ألم تلتها إشارة من حنان قديم؟ وأوشك أن يغضب مرة أخرى لولا إشفاقه من غضبها، فتتهدد تنهّد المغيظ المقهور وقال:

- إنك تحيريني، وكلما أصغيت إليك تضاعفت حيرتي، لقد عدت بالأس من اللّ الكبير فدهمني الخبر الأسود على غرة، أتعلمين ماذا دعاني لهذه العودة؟! . . . (وأبرز علبة القلادة وأراها إياها). . . عدت بهذه هدية لك، وكان في نيتي أن أعقد عليك قبل أن أرجع إلى البلد. . .

وألفت على العلبة نظرة صامتة. وفي أثناء ذلك وقعت عيناه على الهلال الماسي والقرط اللؤلؤي فتراجعت يده بالعلبة إلى جيبه، وتناهى به الضيق فسألها بحدّة:

- ألا تأسفين على هذه النهاية؟! ولعلت عينها بخاطر غامض بثّ في نفسها يقظة محمومة، فقالت بلهجة حزن مصطنعة:

- أنت لا تدري كم آتي شقية!

فأتسعت عيناه في دهشة وريبة، وقال بآلم بالغ:

- يا للشقاء يا حميدة! . . . لماذا أصحخت لنداء الشيطان؟ . . . كيف هانت عليك حياتك الشريفة؟ . . . كيف نبذت الحياة الطيبة والأمل المرتقب من أجل (وهنا تشرح صوته). . . مجرم آثم وشيطان رجيم؟! . . . هذه جرعة لا تغتفر. . .

وكانت حتى ذلك المخاطر لا تزال تلهم أفكارها، فقالت بلهجتها الأسيفة الجديدة:

- إني أؤذي ثمنها من لحي ودمي. . . وازدادت دهشته، وخالطها ارتياح غامض سروراً بالشقاء المزعوم الذي اعترفت به، ولكنّها لم تنكسر عن حدّتها اعتباطاً، كانت أفكارها تتوارد بسرعة جنونية في

تخوفني بصراخك؟! ماذا تريد مني يا هذا؟ لا حق لك عليّ فأغرب عن وجهي. . .

وخبا غضبه قبل أن تتم كلامها! قهر غضبها غضبه فأمانه في صدره وكأنّه كان يشعله الماء وتطفئه النار. وحلق في وجهها ذاهلاً وغمغم بصوت مرتعش النبرات:

- كيف سوّلت لك نفسك أن تقولي هذا القول؟ . . . ألسنت . . . ألم تكوني خطيبي؟ وتشقّت بهزيمته، وارتاحت إلى غضبتها التي أسعفتها في الوقت المناسب وقالت بتملّمل:

- أيّ فائدة تجني من ذكر الماضي الآن؟ لقد مضى وانقضى. . .

فقال متحيراً متوجّعاً:

- أجل مضى وانقضى، ولكنّي في حيرة من أمري وأمرك، ألم تقبلي يدي؟ . . . ألم أهاجر إلى ذاك البلد البعيد من أجل سعادتنا معاً؟!!

لم تعد تشعر نحوه بارتباك أو حرج، وتساءلت في جزع: متى يُمسك عن هذا؟ متى يفهم؟ متى يرحل؟ ثمّ قالت بلهجة لا تخلو من برم:

- أردت شيئاً وأردت الأقدار سواء. . .

ولم يغب عنه تملّملها ولكنّه بات أشدّ تشبّثاً بالكلام والاستفسار، واستمدّ من سكوت غضبها شجاعة فراح يقول ببأس:

- ماذا صنعت بنفسك؟ كيف انقلبت إلى هذا المصير الأسود؟ . . . أيّ شؤم أعمى بصيرتك؟ . . . ومن يكون (وهنا استغلظ صوته) ذلك المجرم الذي خطفك من حياتك الطاهرة وطرحك في مزبلة الدعارة؟ . . . واكفهرّ وجهها، وتناهى بها الجزع، وقالت بلهجة تشي بالملل:

- هذه حياتي، هذه النهاية التي لا مهرب منها، نحن الآن غريبان وكلانا ينكر صاحبه، لم يعد بوسعي الرجوع، ولن تستطيع مهما قلت أن تغير من الواقع شيئاً، وحذار أن تغلظ لي القول فلست على حال أملك معها الساحة أو العفو، وإني لأقرّ بمعجزي حيال حظّي ومصيري، ولكنّي لا أحتمل أن يضاعف لي

عظمه! أجل، لا أستطيع أن أنسى أنك فررت معه، ولا أنهم رأوك تسيرين في صحبته، فلا أمل من أن نجتمع مرة أخرى، لقد فقدت حميدة التي أحبتها إلى الأبد، ولكن يجب أن يشقى المجرم بما أشقى علينا خبريني أين أجده؟

فقلت وعقلها في تفكيره أسرع من لسانها في نطقه:  
- لا سبيل لك عليه اليوم، ولكن تعال يوم الأحد ظهراً إذا شئت فتجده في الحانة عند أول هذه العطفة، ولن تجد مصرئاً سواه فيها، فإذا التبس عليك الأمر أشرت إليه بعيني.. ولكن ماذا تنوي أن تفعل به؟  
نطقت بالعبارة الأخيرة بلهجة تنم عن الإشفاق عليه من العواقب، ولكنه أجاب في جنون الغضب واليأس قائلاً:

- سأحطم رأس القواد الوضيع..  
وتساءلت وعيناها تتفرسان في وجهه: أيستطيع الحلو أن يقتل؟!..

ولم يغب الجواب عن فراستها، ولكنها أملت أن يثير من حوله فضيحة تسوقه إلى يد القانون، فتنقم منه وتخلص من أسره. وارتاحت إلى أفكارها بلا تدبر أو نقد، بيد أنها لم تخلُ من رغبة صادقة في ألا يصيب الحلو شرٌ فادح من مخاطرته، وتمتت على الله أن ينتقم لها من غريمها دون أن يذهب ضحيةً لفعله!.. ولذلك قالت تحذره:

- لا تبلغن بك الرغبة في الانتقام منه حد الاستهانة بحياتك! اضربه.. افضحه.. جرّه إلى القسم فيكون فيه القضاء عليه وعلى جرائمه..

ولكنه لم يكن يصغي إليها، وكان يقول وكأنه كان يخاطب نفسه:

- لا يصح أن نشقى بلا ثمن. انتهت حميدة، وانتهى عباس، فكيف يروح القواد آمناً صاحبكاً من تعاستنا؟ لأدقن عنقه ولاكتمن أنفاسه، (ثم علا صوته موجّهاً إليها الخطاب): وأنت يا حميدة ماذا تصنعين بحياتك إذا نَحيت عن سبيلك هذا الشيطان؟

وخافت على نفسها ما عسى أن يؤدي إليه هذا السؤال، وأشفقت من أن يتطرق إلى مسارب نفسه

إلهام شيطاني، خطر لها أن تحرّضه على الرجل الذي هرس قلبها بقسوة وسخرية، وأملت أن تجعله أداة انتقامها وهي بآمن من عوادي الشقاء، ورقت نظرة عينها وهي تقول بصوت ضعيف:

- لست إلا شقية يا عباس. لا تؤاخذني على سوء قولي فقد أفقدني الشقاء وعيي. إنكم جميعاً ترونني عاهرة فاجرة. والحق أي شقية بائسة، خدعني الشيطان الرجيم كما دعوته بحق، لا أدري كيف أذعنت إليه، ومع ذلك فلست أنتحل لنفسي عذراً، ولا أطمع أن أسالك العفو، فإنّي أعلم أي مذنبه، وما أنذا أدفع ثمن جريرتي النكراء. اعف عن غضبي الذي أهاجته كلماتك العادلة، وابغضني واحترني ما شئت لك نفسك الطاهرة الكريمة، واشمت بي فلست في حاضري إلا العوبة رخيصة في يد من لا يرحم، يطلقني في الطرق ويستغل شقائي بعد أن استلبني أعز ما أملك. إنّي أمقته، أمقته بكل ما في من شقاء ومهانة هما من غرسه، ولكن هيات أن أجد لي منه مهرباً..

أذهله حديثها الشاكي عن نفسه، وراعه نظرة الشقاء تغشى عينها، فنسي المرأة المنتمرة التي كادت تفتك به منذ برهة قصيرة، وأهابت به رجولته أن يغضب، فزجر صائحاً:

- يا للشقاء يا حميدة، إنك شقية، وإنّي شقي، كلانا شقي بفعل هذا المجرم. أجل، لا أستطيع أن أنسى أنك أخطأت خطأ أثيماً، وأن هذا الخطأ يحول بيننا إلى الأبد، ولكن بينا يشقى كلانا بهذا الخطأ، إذا بالمجرم الأول مطمئن سعيد كأنما يسعد بشقائنا، فلا كانت الحياة إذا أنا لم أحطم رأسه!

وشعرت بالارتياح فنكست بصرها قبل أن يفضحها، وكانت سرعة انزلاقه إلى شباكها فوق مطعمها، وارتاحت بصفة خاصة إلى قوله: «هذا الخطأ يحول بيننا إلى الأبد» فآمن قلبها أن يجرجه الانفعال إلى حد العفو عنها، والسعي لاستردادها، وما كانت تحلم بهذا كله. أما الحلو فاستدرك يقول عابساً راغباً:

- لا ارتاح لي بال قبل أن أحطم رأسه وأهشم

ضعفه القديم، فقالت بحزم وهذوء:

- انقطع ما بيني وبين العالم القديم، ولكني سأبيع ما عندي من حلي وأجد لنفسي عملاً شريفاً في مكان بعيد...

وصمت صمتاً طويلاً متفكراً محزوناً، فعانت في صمته من القلق ألواناً، حتى طامن من رأسه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- لا يستطيع قلبي أن يعفو... لا يستطيع، لا يستطيع... ولكن لا تعجل بالاختفاء مرة أخرى حتى نرى كيف ينتهي هذا الأمر...

ووجدت في لهجته ما ينذر بالسباحة والعمو والاستسلام فلمعت عيناها في حذر وقلق، وآثرت في أعماق قلبها النائرة أن يهلك هو وغريمها على أن يعود إليها فاتحاً ذراعيه، بيد أنها لا تستطيع أن تفصح له عما يدور بخلدها، ولن يشق عليها الاختفاء إذا شاءته، وإذا تم لها الانتقام الذي تتلهف عليه فما أيسر أن تشد الرحال إلى الإسكندرية التي حدثها عنها إبراهيم فرج كثيراً، وهناك تصفو لها الحياة وتطيب في حرية لا يحدها قيد، وفي أمن من المتطفلين، ولذلك لم تجد بأساً في أن تقول له بمثل لهجته الرقيقة:

- لك ما تشاء يا عباس...

وكان قلبه يعاني مرارة الشقاء والقنوط والتحقّر للانتقام، ولكنّه ما انفكّ ينبض بالحيرة والعطف...

### - ٣٣ -

كان يوم وداع وسرور، فذبّت في قلوب الزقاق عاطفة واحدة، ذلك أنّ للسيد رضوان الحسيني منزلة رفيعة في القلوب جميعاً على السواء. كان السيد قد استخار الله في أداء فريضة الحج هذا العام فأخاره، وعلم الجميع أنه يسافر عصر اليوم بمشيئة الرحمن إلى السويس في طريقه إلى الأراضي المقدسة. وامتلاً بيته بالموّدين من أصدقاء العمر وإخوان الصفاء... وحفوا به في الحجرة القديمة الوديعه التي طالما أصغت جدرانها إلى سمرهم الورع اللطيف عاماً بعد عام. واستفاض حديث الحج، وثارت ذكرياته. ولهجت بها الألسن في

أركان الغرفة حول خطّ متموّج من دخان البخور يتصاعد من المجرمة، ورووا نتفاً من أخبار الحجّ شملت المعاصرين والغابرين، واستشهدوا بالكثير المأثور من الأحاديث الشريفة والأشعار الجميلة. ورثل ذو صوت رخيم بعض ما تيسر من آي الذكر الحكيم، ثم أنصتوا جميعاً إلى فيض من كلام السيد رضوان أفصح به فؤاده عما يكنّه من رقة وطيبة...

وكان أحد الأصفاء قد قال له:

- سفر سعيد وعُود حميد...

فأشرقت في وجه السيد ابتسامة وضّاء كسته جمالاً على جمال، وقال بصوته الخنان:

- أخي لا تذكرني بالعود. إنّ من يقصد بيت الله وفي قلبه خاطر من خواطر الحنين إلى الوطن حقيق بأن يطل الله ثوابه ويحيب دعاءه وينفد سعادته. سأذكر العودة حقاً إذا فصلت عن مهبط الوحي في طريقي إلى مصر، وأعني بها العودة إلى الحجّ مرة ثانية إذا أذن الرحمن وأعان. من لي بمن يقفّ ما تبقى من العمر في البقاع الطاهرة، أمني وأصبح فلا أرى إلا أرضاً تظلمت يوماً للمس أقدام الرسول، وهواء خفقت بتضاعيفه أجنحة الملائكة، ومغاني أصغت للوحي الكريم يهبط من السماء إلى الأرض فيرتفع بأهل الأرض إلى السماء، هنالك لا يطوف بالخيال إلا ذكريات الخلود، ولا يخفق الفؤاد إلا بحبّ الله، هنالك الدواء والشفاء. أخي... أموت شوقاً إلى استطلاع أفق مكّة، واستجلاء سبواتها، والإنصات إلى همس الزمان بأركانها، والسير في مناكبها، والانزواء في معابدها، وإرواء الغلة من زمزمها، واستقبال الطريق الذي مهّده الرسول بهجرته فتبعته الأقوام من ثلاثئة وألف عام ولا يزالون، وثلوج الفؤاد بزيارة القبر النبوي والصلاة في الروضة الشريفة، وإنّ بقلبي من مكنون الهيام ما يقصر الزمان عن بثّه، ولديّ من فرص الزلفى والسعادة ما يعجز العقل عن تصوّره. أراني يا إخوان ضارباً في شعاب مكّة تالياً الآيات كما أنزلت أوّل مرة. كأننا سمعُ درساً للذات العلية، أي سرور!.. وأراني ساجداً في الروضة متخيلاً الوجه

موضع البلاء لتختبرني وما أنا ذا أجوز امتحانك ثابت الإيمان، ملهًا حكمتك، «فَاللَّهُمَّ شُكْرًا» وسار ديدني إذا أصابني مصيبة أن ألجج من أعماق قلبي بالشكر والرضا، كيف لا والله بخصني بالامتحان والعناية، وكلما عبرت محنة إلى برّ السلام والإيمان ازدادت إدراكًا لما في مقاديره من حكمة وما فيها بالتالي من خير، وما تستحقّ بعد ذلك من شكر وسرور، وهكذا وصلت المصائب ما بيني وبين حكمته على دوام لا ينقطع، حتى خلّتي طفلًا مدللًا في ملكوته يقسو عليّ لأزدرج، ويخونني بعبوس مصطنع ليضاعف سروري بالأنس الحقيقي الدائم، وإنّ الحبيب ليسرّ محبّوبه بالصدّ حينًا، وإن عرف المحبوب أنّ الصدّ مكر محبّ لا هجر قال، تضاعف حبّه وسروره. فما عدوت أن وقر في اعتقادي أنّ المصابين في هذه الدنيا هم أحباب الله وأولياؤه، خصّهم بحبّ مقنع، ورصدهم غير بعيد، ليرى إن كانوا حقًا أهلاً لحبه ورحمته. . فالحمد لله كثيرًا، بفضل عزيّة من حسبوا آتني أهل للعزاء. .

ومسح على صدره الواسع ببشر وانشراح وهو يجد من إلحاح التعبير عن مكتون صدره ما يجده المغنيّ إذا سكر بحلاوة الطرب وتاه في سلطنة الفنّ، فاستدرك يقول بحرارة ووجد:

- يذهب أناس إلى أنّ هذه المصائب وأمثالها غما يتلى به الأبرياء عنوان عدالة انتقاميّة لا يقطن لحكمتها عامّة الناس. وتراهم يقولون إنّه لو تفكّر الأب التاكل مثلاً لوجد أنّ ثكله جزاء ذنب اقترفه هو أو أحد آباءه الأوّلين، ولكنّ لعمري إنّ الله أعدل وأرحم من أن يأخذ البريء بالذنب. وتراهم يستشهدون على صواب رأيهم بما وصف الله به نفسه من أنّه عزيز ذو انتقام، ولكنّي أقول يا سادة أنّ الله تعالى غنيّ عن الانتقام، وأنّه إنّما أضاف هذه الصفة لذاته لينبّه الإنسان إلى احتذائها، وقد سبقّت إرادته بالأّ تستقيم أمور هذه الدنيا إلّا بالثواب والعقاب، أمّا ذاته العزيزة الجليلة فسنتها الحكمة الربّانيّة والرحمة الإلهيّة. ولو آتني اكتشفت تحت مصائبي عقابًا أستحقّه، أو وجدت وراء جثث أبنائي جزاء أسأله، لا عبرت حقًا، ولا زدرجت

الحبيب كما يترأى في المنام، أيّ سعادة! . . . وأراني متخسّعًا لقاء المقام مستغفرًا فأنيّ طمأنينة! وأراني واردًا زمزم أبلّ جوارح الشوق بندى الشفاعة فأنيّ سلام! أخي لا تذكّرني بالعودة وادعُ الله معي أن يحقّق لي المنيّ. .

فقال له صاحبه:

- حقّق الله منك ومتّعك بطول العمر والعافية.

فضمّ السيّد راحته المبسوطة على لحيته وقد تألّقت عيناه بسرور وهيام وراح يقول:

- نغم الدعاء، والحقّ أنّ حبيّ الآخرة لا يدفعني إلى الزهد في الدنيا أو التملّص من الحياة، لظالما لمستم بأنفسكم حبيّ الحياة والسرور بها، كيف لا وهي من خلق الرحمن؟ خلقها الله وملأها بالعبر والأفراح فمن شاء فليتفكّر ومن شاء فليشكر، ولذلك أحبّها، أحبّ ألوانها وأصواتها، وليلها ونهارها، ومسراتها وآلامها، وإقبالها وإدبارها، وما يدبّ على ظهرها من حيّ أو يقيم عليه من جماد، هي خير خالص، وما الشرّ إلّا عجز مرضيّ عن إدراك الخير في بعض جوانبه الخافية، فيظنّ العاجز المريض بدنيا الله الظنون، لذلك أقول لكم إنّ حبّ الحياة نصف العبادة وحبّ الآخرة نصفها الآخر، ولذلك يهولني ما تنوء به الدنيا من دموع وأثات وسخط وغضب وغلّ وسخيمة، وما تبّلي به فوق هذا كلّ من ذمّ المرضى العاجزين. أكانوا يؤثرون لو لم تخلق حياتنا؟ أكانوا يحبّون لو لم تخرج من العدم؟ أتسوّل لهم نفوسهم الاعتراض على الحكمة الإلهيّة؟ وما أبرئ نفسي، فلقد ملكني الحزن مرّة على اقتطاع فلذة من كبدي، وتساءلت في غمرة الحزن والألم لماذا لم يُبقِ الله على طفلي حتى يتمتّع بحظّه من الحياة والسعادة، ثمّ شاء الله أن يهديني، فقلت لنفسي اليس هو - عزّ وجلّ - الذي خلقه، فلماذا لا يستردّه وقتها يشاء! ولو أراد الله له الحياة للبت في هذه الدنيا حتى يشاء الله، ولكنّه استردّه لحكمة اقتضتها مشيئته، فهو لا يفعل شيئًا إلّا لحكمة، والحكمة خير، فقد أراد ربّي به وبي خيرًا، وسرعان ما غلبني السرور بإدراك حكمته على حزني، ولسان قلبي يقول: ربّي لقد وضعتني

المتورّد، حتّى استحوذ عليّ الخجل وغلبني اعتبار، وقلت لنفسي معتفًا متقرّرًا ماذا فعلت - وقد أتاني الله خيرًا كثيرًا - لدفع البلاء أو التخفيف من وقعه، ألم أترك الشيطان يعبث بأهل جيرتي وأنا ذاهل عنه بسروري وطمانيتي؟ ألا يكون الإنسان الطيّب بتقاعده عونًا للشيطان من حيث لا يدري؟.. واستصرخني الضمير المعبّد أن ألبي النداء القديم، وأن أشدّ الرحال إلى أرض التوبة مستغفرًا، حتّى إذا شاء الله لي أن أعود عدت بقلب طاهر، وجعلت من قلبي ولساني ويدي أعوانًا للخير في مملكة الله الواسعة... ودعا له الإخوان بصلق وحرارة، وواصلوا الحديث في سرور وحبور.

\*\*\*

وأبى السيّد رضوان بعد أن ودّع بيته إلّا أن يزور قهوة كرشة مودّعًا فاقنعد مجلسه محوطًا بالمعلم «كرشة» وعمّ كامل والشيخ درويش وعبّاس الحلو وحسين كرشة. وجاءت المعلّمة حسّية الفزّانة فقبّلت يده وحملت السلام أمانة، وقد قال لهم السيّد: - الحجّ فريضة على من استطاع إليه سبيلاً، يؤدّيها عن نفسه وعمّن يقعد بهم الأعداء من الصادقين. فقال له عمّ كامل بصوت الأطفال: - صحبتك السلامة في الحلّ والترحال، وعسى ألا تنسى أن نحيثنا بسيحة من المدينة المنورة..

فابتسم السيّد وقال:

- لن أكون كمّن وهبك كفناً ثمّ ضحك عليك. وضحك عمّ كامل وكاد يعود إلى هذا الموضوع القديم لولا أن رأى وجه عبّاس الواجم فامسك. وقد أثار السيّد هذه الذكرى متعمّدًا ليدخل منها إلى نفس الشابّ التعس مدخلًا لطيفًا، والتفت إليه بحنان وقال:

- يا عبّاس أصغر إليّ كما ينبغي لشابّ شهد له جميع أهل الزقاق بالعقل واللفظ، عد إلى التلّ الكبير في أوّل فرصة، بل اليوم إن سمعت وأطعت. وأعمل بما أوتيت من همّة، واقصد من النقود ما تشقّ به حياة جديدة إن شاء الله، وإياك وأن تلقي برأسك في خضمّ

حقًا، ولكن كان يبقى في النفس ضنى وفي العين دموع، ربّما هتف قلبي المحترق: ضعيف أذنب وبريء هلك، فكيف العفو والرحمة؟! فأين هذا من مصيبة تستشفّ الحكمة والخير والسرور!

وأثار رأيه اعتراضات كثيرة، فتمسّك البعض بالنص، وأوّل البعض التفسير، وردّ آخرون الانتقام إلى الرحمة. وكان كثيرون أقوى منه عارضة وأوسع علمًا ولكنّه لم يكن متهيئًا للجدل، كان متفتّحًا فحسب للتعبير عمّا يضطرم في فؤاده من الحبّ والسرور، فجعل يتسم ببراءة الطفل، متورّد الوجه متألقّ العينين، وراح يقول بصوت رفقّه الهيام فكان أندى من مناجاة العاشقين:

- معذرة يا سادة فإنّي أحبّ الحياة، بل أحبّ نفسي، لا كذات تتعلّق بي، ولكن كفلة من قلب البشريّة، ونبض من الحياة، وخلق للصانع الأجلّ، وتجربة للحكمة الإلهيّة، وأحبّ الناس جميعًا حتّى المجرمين الشائئين. أليسوا يرمزون إلى عناء الحياة الممضّ في سبيل الكمال؟.. أليسوا ظلمة تلقي عتمتها على بهاء الخير ضياء، ذروني أبحّ لكم بسرّ دفين، أو تعلمون ما الذي بعثني إلى الحجّ هذا العام؟

وصمت السيّد هنيهة وعيناه الصافيتان تسطعان بنور بهيج، ثمّ قال يجب نظرات الاستطلاع التي عكستها الأعين:

- لا أنكر أنّ الحجّ أمانة طالما نازعني الفؤاد إليها، ولكن قضت إرادة الله أن أوّجلها عامًا بعد عام، حتّى حسبتني قد بتّ أوثر الشوق إلى الحبيب على الحبيب نفسه، ولأشواق العبادات لذّة كقضائها. ثمّ كان من أمر زقاقنا ما تعلمون، فشّد الشيطان على أعين رَجُلَيْن وفناة من جيراننا، أمّا الرجلان فقادهما إلى قبر ينشانه وغادرهما في السجن. وأمّا الفتاة فاستدرجها إلى هاوية الشهوات وغاص بها في حمأة الرذيلة. هناك زلزل قلبي زلزالًا شديدًا تصدّعت له أضلعي. ولا أكتمكم يا سادة أنّ شعورًا بالذنب داخلني لأنّ أحد الرجلين كان يقتات على الفتات، وقد نبش القبر لعلّه يجد بين عظامه النخرة لقمة يستسيغها، كالكلب الضالّ يلتقط رزقه من أكوام الزبالة. فلشّد ما ذكرني جوعه بجسمي المكتنز ووجهي

حالته ما يعلم الجميع، فإني أن يغادر الحي قبل أن يودعه. وكأنا شعر الآخر بخطئه في هذه اللحظة فاعتراه ارتباك، إلا أن السيد احتواه بين ذراعيه وقبله ودعا له طويلاً، ولبت عنده ملياً، ثم قال وهو ينهض قائلاً:

- لندعُ الله أن نحجّ معاً في عامنا القادم.  
فغمغم السيد سليم وهو لا يعني ما يقول:  
- إن شاء الله.

وتعانقا مرة أخرى، ورجع السيد إلى أصحابه، ومضوا جميعاً إلى مطلع الزقاق حيث كانت تنتظره عربة محملة بالحقائب، فصافح الرجل مودعيه بحرارة وركب هو وقريبه، وانحدرت العربة صوب الغورية تتعلّق بها الأعين، ثم مالت إلى الأزهر.

#### - ٣٤ -

قال عمّ كامل لعبّاس الحلو:

- ليس وراء نصيح السيد رضوان مذهب لناصح، فاجمع شتات نفسك وتوكل على الله وسافر، وسوف أنتظر طال الزمن أو قصر، وستعود بإذن الله ظافراً وتكون على رأس حلاقي هذا الحي جميعاً.

وكان الحلو يجلس على كرسيّ أمام دكان البسبوسة غير بعيد من عمّ كامل ينصت إلى صاحبه دون أن ينبس بكلمة، ولم يكن باح لأحد بسرّه الجديد، وقد همّ حين نصحه السيد رضوان الحسيني بالإفصاح عما يثقل كاهله، ولكنّه تردّد لحظة فوجّه السيد خطابه إلى حسين كرشة، وسرعان ما عدل عما قام بنفسه. ولم تضع نصيحة السيد رضوان هباء فتفكّر فيها ملياً، بيد أن يوم الأحد استحوذ على الشطر الأكبر من أفكاره وكان مضى على اللقاء الغريب في حانوت الورد ليلة ونهار، فقلّب وجوه الفكر في هدوء وأناة وعرف في النهاية أنه لا يزال يحبّ الفتاة، وإن كانت أسبابها قد انقطعت إلى الأبد، وأنّ رغبته في الانتقام من غريمه لا تقاوم، وقد أنصت إلى كلام عمّ كامل صامتاً، ثمّ تنهّد من الأعياق، تنهّد إنسان تعسّ كبّلته الأقدار بأغلال الشقاء، ووضعت على شفا جرف هاوٍ من الدمار.

الفكر، أو أن تهن عزيمتك لقاء اليأس والغضب، ولا تحسبنّ ما اعترضك من سوء الحظّ هو ختام ما قدّر لك في الحياة. إنك بعدُ شابّ في نهاية الحلقة الثانية من عمرك، وما تلقاه من ألم ليس إلّا بعض ما يصيب الإنسان في حياته، وكأنّه ما ينتاب الطفل من أوجاع التسنين والحصبة ولقهما، فإذا صمدت له بشجاعة جزته رجلاً خليقاً بالرجولة، وذكرته فيما يقبل من حلقات العمر بسمّة الظافر وتأتي المؤمن. انهض مستوصياً بالصبر متعوّذاً بالإيمان، واسع إلى رزقك، ولتتهنأ بسرور المؤمن إذا أدرك أن الله قد اختاره لمصاف المصابين من أوليائه.

ولم يمرّ عبّاس جواثاً، ولكنّه لما رأى عيني السيد لا تتحولان عنه، ابتسم فيما يشبه الاقتناع والرضا، وغمغم بلا وعي تقريباً:

- سيمضي كلّ شيء كان لم يكن.

فابتسم السيد، والتفت نحو حسين كرشة وهو يقول:

- أهلاً بشاطر زقاقنا! سادعو الله لك الهداية في أرض مستجابة الدعاء، ولا جدنك إن شاء الله حين عودتي محتلاً مكان أبيك كما يريد لك، ونعم ما أراد، وطوبى للمعلّم الصغير الجديد.

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته وقال مطرقاً:  
- يا سيّد رضوان، اذكرني إذا أحرمت، وذكر أهل البيت بأنّ محبّهم تَلَفّ وشغفه الغرام، وأنّه أضاع ما يملك من مال وعتاد على حبّ لا تنفع له غلّة، واشكّ إليهم خاصّة ما يلقي من ستّ الستات.

\*\*\*

وغادر السيد رضوان القهوة يحفّ به الصحاب، ولقد لحق به من البيت قريبان اعترما السفر معه حتّى السويس، ومال السيد إلى الوكالة فوجد السيد سليم علوان مكباً على بعض دفاتره، فابتسم قائلاً:  
- تأذن الرحيل فدعني أعانقك.

ورفع الرجل وجهه الذابل في دهشة، وكان علم بمعاد الرحيل دون أن يحرك ساكناً. ولكنّ السيد رضوان لم يلق بالاً إلى إهماله، وكان يعلم من سوء

بشعوره، ولعلّه خاف العدول عنه لأنّ في هذا العدول قطعاً حاسماً لهذا الخيط الواهي الذي وصله بحميّة أمس، وقد أبى أن يصنّق أنّه يستطيع العفو عباً سلف، وقال وكرّر القول - بداع وبلا داع - إنّ أسبابها قد انقطعت إلى الأبد، ولكنّ هذا الإلحاح في القول نفسه أخفى رغبة - لعلّه لم يدرها في استردادها ووصل ما انقطع من وشائجها! فكان نزوعه إلى الانتقام ظلّاً لتعلّقه بالمرأة التي يحبّها ولا يطيق هجرها. وبهذا القلب الحائر قطع الطريق ودخل حانة فيتناء. وكان حسين كرشة بمجلسه يكرع من النيذ الأحمر وكأ تلعب الخمر برأسه، فمضى إليه وحيّاه تحيّة مقتضبة، وقال برجاء حاز:

- حسبك ما شربت فإني أريدك لأمر هامّ.. هلّمّ معي.

ورفع حسين حاجبيه منكرّاً، وكأثما كبر عليه أن يعكّر القادم صفوه، ولكنّ عبّاس - وقد أذهله الهمّ عن وعيه - أمسك بذراعه وشدّه حتّى أقامه وهو يقول:

- إني في مسيس الحاجة إليك.

ففنخ الشاب مستاء، ودفع ما عليه، وغادر الحانة برفقة صاحبه، وقد أصرّ عبّاس على انتزاعه من الحانة أن يغلبه السكر فلا يتنفع بمشورته. ولما صار في الموسكي قال وكأثما يزبح كابوساً عن صدره:

- وجدت حميدة يا حسين..

فلاح الاهتمام في العينين الصغيرتين وسأله:

- أين؟

- ألا تذكر امرأة العربية التي عدوت وراءها أمس وسألتي عنها اليوم دون أن تنظّر متّي بجواب شافٍ؟ هي حميدة دون غيرها..

فصاح الشاب بدهشة وسخرية:

- أسكران أنت؟! ماذا قلت؟

فقال عبّاس بلهجة جدّية شديدة التأثر:

- صدّقني فيما قلت، هذه المرأة هي حميدة بلحمها ودمها، وقد عرفتها من أوّل نظرة فركضت وراء عربتها كما رأيت، حتّى أدركتها وحادثتها.

فتساءل حسين في دهشة وإنكار:

وسأله عمّ كامل بقلق:

- خبرني عمّا اعترمت؟!!

فنهض الشاب قائماً وهو يقول:

- سامكث هنا بضعة أيّام آخر، على الأقلّ حتّى يوم الأحد، ثمّ أتوكّل على الله.

فقال عمّ كامل في إشفاق:

- ليس السلوان بالمطلب العسير إذا نشدته صادقاً.

فقال الشاب وهو يغادر موضعه:

- صدقت!.. السلام عليكم.

ومضى وفي نيّته أن يقصد حانة فيتناء، حيث يظنّ أنّ حسين كرشة قد سبقه إليها عقب توديع السيّد رضوان مباشرة. وظلّ فكره فريسة للأفكار القلقة، وقلبه نهياً للعواطف المضطربة. إنّه ينتظر يوم الأحد، وما يوم الأحد ببعيد، ولكن ما عسى أن يصنع إذا حان الحين؟! أيجزي إلى الموعد حاملاً خنجراً ليغمده في قلب غريمه؟ لعلّ هذا ما يتحرّق إليه بكلّ ما يتملّئ به قلبه من غضب وحقد وشقاء، ولكن هل يسعه ارتكاب الجريمة؟ هل تطيق يده تسديد الضربة القاتلة؟! وهزّ رأسه في شكّ وكمد وحقد. إنّه أبعد ما يكون عن العنف والإجرام، وهذا ماضيه يشهد له بالوداعة والمسألة، فما عسى أن يصنع إذا جاء يوم الأحد! وتضاعفت رغبته في لقاء حسين كرشة ليقصّ عليه قصّة حميدة وسأله المشورة والعون! بل العون قبل سواه، لأنّه يبدو عاجزاً بغير هذا العون. وفي هذه الحال من الإقرار بالعجز عادته نصيحة السيّد رضوان الحسيني «.. عد إلى التلّ الكبير في أوّل فرصة، بل اليوم إن سمعت وأطعت،.. إلّاك وأن تلقي برأسك في خضمّ الفكر أو أن تهن عزيمتك لقاء اليأس والغضب..» استحضر كلام السيّد الذي أوشك أن ينساه، أجل، لماذا لا يطوي الماضي بأحزانه وينطلق في شجاعة وصبر في طريق السلوان والعمل؟ لماذا يحمل نفسه ما لا طاقة لها به، لماذا يعرض حياته لأهوال أخفّها السجن؟ وارتاح إلى أفكاره الجديدة ولكن دون أن يقطع برأي حاسم، ولم تزل نفسه تنازعه إلى الانتقام، ولعلّ الانتقام لم يكن وحده الذي يستبدّ

هو بالنسبة إلينا اعتداء مشيناً يستوجب الانتقام؟!

فصاح حسين بحدة:

- أنت أحمق، ولست تغضب لكرامتك كما تتوهم، ولكن نيران الغيرة تلتهم قلبك الخرع، ولو أنّ حميدة رضيت بأن تعود إليك لطرت بها فرحاً. كيف لقبها يا رطل؟! نازعتها الحديث والشكاة؟! مرحى. مرحى. حييت من رجل همام.. لماذا لم تقتلها؟.. لو كنت مكانك ورمت المصادفات إلى يديّ بالمرأة التي خانتني لخنقتها بلا تردد، ثمّ ذبحت عشيقها. واختفيت عن الأنظار؟.. هذا هو ما كان يجب أن تفعله يا رطل. وتلبّست وجهه الضارب للسواد صورة شيطانية، فاستدرك مزججاً:

- لست أقول هذا متهرباً، فالحق أنّ هذا الرجل ينبغي أن يدفع ثمن اعتدائه غالياً، وليدفعته غالياً، وسنمضي معاً في الموعد المضروب ونوسعه ضرباً، ثمّ نرصده بمطائة جميعاً ونوالي ضربه ولو اقتضى الحال أن نحشد له جيشاً من الأعوان، ولا تكفّ عنه حتى يفتردي نفسه بمبلغ كبير من المال، وبذلك نتقم ونستفيد معاً..!

وسرّ عباس بهذه النتيجة غير المتوقعة، وقال بحماس:

- نعم الرأي هو.. حقاً أنت رجل الملتات..! وسرّ الشناء، ومضى يفكر في تنفيذ خطته مدفوعاً بغضب لكرامته، وميله الطبيعي إلى العدوان، وطعمه في الحصول على مبلغ من النقود، ثمّ غمغم بصوت ملئه النذير «ما يوم الأحد ببعيدا» وبلغا عند ذاك ميدان الملكة فريدة فتوقّف عن المسير وهو يقول:

- عد بنا إلى حانة فيتا...

ولكنّ الآخر تشبّث بذراعه وهو يقول:

- أليس من الأفضل أن نمضي إلى الحانة التي سنلقاه بها يوم الأحد لتعرف الطريق بنفسك؟

وتردّد حسين لحظات، ثمّ سار معه كما أراد وقد حثّا الخطا. وكانت الشمس قد مالت للمغيب، ولم يكذب يبقّى من نورها إلّا ظلال خفيفة، وشمل الساء ذلك الهدوء الحالم الذي تخلد إليه إذا تراءت لها طلائع

- كيف تريدني على أن أكذب عيني؟!

فتنهّد الحلو بأسى، وراح يروي له ما دار بينهما من حديث دون أن يخفي عنه شيئاً، والآخر يصغي إليه باهتمام شديد، حتى ختم حديثه قائلاً:

- هذا ما أردت أن أطلعك عليه، ولقد تردّت حميدة في الهاوية ولا نجاة لها، ولكنني لن أترك المجرم الأثيم بغير عقاب.

وحدجه حسين بنظرة طويلة احتار في تفسيرها، وكان الفتى بطبعه مستهتراً قليل الاكتراث، فأفاق من دهشته بأسرع ممّا قدّر صاحبه، ثمّ قال بازدياد:

- حميدة هي المجرمة الأصلية، ألم تفرّ معه؟.. ألم تستسلم له؟.. أمّا هو فإذا نأخذه به؟.. فتاة أعجبته فنواها. ووجدتها سهلة فنال منها وطره، وأراد أن يستغلّها فسرّحها في الحانات، هذا لعمرى رجل حاذق، ويؤدّي لو أفعّل مثله حتى تنجاب عني هذه الأزمة التي أكابدها. حميدة هي المجرمة يا صاح.

وكان عباس يحسن فهم صاحبه، فلم يداخله شكّ في أنّه لا يتورّع عن شيء ممّا ارتكبه غريمه، ولذلك تحامى عن حكمة ذمّ الرجل في سلوكه أو خلقه، وعمد إلى إثارة نخوته من سبيل آخر فقال:

- ولكنّ ألا ترى أنّ هذا الرجل قد اعتدى على كرامتنا بما يستوجب تأديبه؟

ولم يغب عنه قوله «كرامتنا» وأدرك أنّه يشير إلى الأخوة التي تربطه بحميدة، وذكره لتوّه شقيقته المطروحة في السجن بسبب فضيحة ممائلة، فاستشاط غضباً وحنقاً وزأر صائحاً:

- هذا شأن لا يعني، ولنذهب حميدة إلى الشيطان.

ولكنّه لم يكن صادقاً كلّ الصديق في ما قال، ولو كان لقي ذلك الرجل وقتذاك لوثب عليه كالنمر وأنشب فيه مخالبه، ولكنّ الحلو خدع بقوله فصّدقه وقال له بلهجة لا تخلو من عتاب:

- ألا يغضبك أن يعتدي رجل على بنت من زقاقنا هذا الاعتداء المنكر؟ أسلم لك بأنّ حميدة مجرمة حقاً، وأنّ عمل الرجل في ذاته لا غبار عليه، ولكن أليس



- حميدة... -

وفزعت الفتاة مستوية على الكرسي، وحلقت في وجهه بعينين ملتهبتين، وغلبتها الدهشة ثواني، ثم ثابت إلى رشدها وقد هالها ما يتهددها به حقه من الفضيحة، فصاحت به بصوت خشن فظ جعله العضب كالزئير:

- لا تبق هنا لحظة واحدة... اغرب عن وجهي... -

وفعلت به غضبتها وصراخها فعل النبط بالنار فجئن جنونه، واختفى من نفسه ما طبع عليه من تمييب وتردد، ووجد أخيراً ما عاناه في الأيام الثلاثة الماضية من قهر وعذاب وقنوط ثقياً في رجل نفسه، فانطلق منه صارخاً، مصقراً مجنوناً، ولح إلى يساره بعض زجاجات الجعة الفارغة على طاولة الحانة، فتناول واحدة وهو لا يدري ما يفعل وقذفها صوبها بكل ما يملك من قوة وغضب وقنوط، في سرعة خاطفة لم يستطع أن يمنعها أحد. لا من الجنود ولا من عمال الحانة، فأصابته الزجاجية وجهها، وتفتقر الدم غزيراً من أنفها وفمها وذقنها، وانمزج بالأدهنة والمساحيق وسال على عنقها وفستانها. واختلط صراخها بزئير السكارى الهائجين، وانقضّ عليه الغاضبون كالوحوش الكواسر، وتطايرت اللكمات والركلات والزجاجات...

ووقف حسين كرشة على باب الحانة يرى صاحبه تتقاذفه الأيدي والأرجل وهو كالكرة لا يملك للقضاء دفعاً. وكلما تلقى ضربة هتف صارخاً: «يا حسين... يا حسين»، ولكنّ الفتى الذي لم ينكص عن خوض معركة في حياته لبث متسماً لا يدري كيف يشقّ سبيله إلى صاحبه وسط أولئك الجنود الكواسر الفاتكين، وتلكه الغضب، واشتعلت ب صدره ثورة جاثقة، وأخذ يتلفت يمنة ويسرة علّه يجد آلة حادة أو عصاً أو سكيناً وبقي مقهوراً مغلولاً على أمره، وقد مضى السابلة يتجمعون عند مدخل الحانة منتظرين للمعركة بأعين فزعة وأبدٍ مغلوله...

الظلام. واشتعلت مصابيح الطريق وأطرد سبل السابلة لا يعثون اختلاف الليل والنهار. ودوى سطح الأرض على غير انقطاع، فمن جمعة الترام إلى أزيز السيّارات، ومن نداء الباعة إلى نفخ الزمّارات غير همهمة البشر، فكأنّهم بخروجها من المدقّ إلى هذا الطريق قد انتقلا من المنام إلى يقظة صاخبة. وارتاح عبّاس الحلو وانقشعت الحيرة التي غشّيته طويلاً فعرف سبيله بفضل صاحبه الجريء القوي، أمّا حميدة فقد ترك أمرها معلّقاً للظروف المجهولة تفصل فيه بما تشاء، ولم يستطع أن يبت فيه برأي، أو أنّه أشق من البتّ فيه برأي حاسم. وقد خطر له لحظة أن يفتح صاحبه ببعض خواطره ولكنّه ما كاد يختلس إلى وجهه الأسود نظرة حتّى غاص الكلام في حلقة فلم ينبس بكلمة. وواصل السير حتّى بلغا موقف الأمس الذي لا ينسى فلكر عبّاس صاحبه وهو يقول:

- هاك دكان الأزهار الذي حادثتها فيه.

ونظر حسين إلى الدكان الذي يشير إليه صامتاً، ثمّ سأله باهتمام:

- وأين الحانة؟

فأوما له إلى باب غير بعيد وهو ينغمس «ها هي ذي»، وراحا يقتربان على مهل وحسين كرشة يتفحص المكان وما يحيط به بعينيه الصغيرتين الحادتين. ونظر عبّاس الحلو إلى داخل الحانة وهما يمزّان بها فجذب عينيه منظر غريب. ندّت عنه شهقة، وتصلّبت عضلات وجهه، ثمّ جرت الحوادث سريعة قبل أن يفقه لها حسين كرشة معنى. رأى حميدة في جلسة شاذة بين نفر من الجنود، كانت تجلس على كرسيّ وإلى ورائها جندي واقفاً يسقيها خمرًا من كأس في يده، ينحني عليها قليلاً وتميل هي برأسها إليه وقد مدّت ساقها على حجر آخر يجلس قبالها، وحفّ بهم آخرون يشربون ويعربدون. بهت الفتى وتسمّر في موقفه، ونسي ما كان علمه من مهنتها، وكأنّ الخطب يدهمه على غير علم به، وطمس الدم الفائر بصيرته، فلم يعد يعرف غريباً له في دنياه سواها، واندفع إلى الحانة كالجنون وصاح بصوت كالرعد:

## - ٣٥ -

وكان حسين ينظر فيها أمامه بعينين شاردتين فقال بصوت أجشّ:

- قُتل عَبّاسُ الحلوى! قتله الإنجليز! ..

وازدرد الفتى ريقه ثم أعاد على أبيه ما حدّثه به عَبّاسُ وهما يسيران في الموسكي قبيل مغيب أمس، وقال بصوت حدّ مضطرب:

- وقد مضى بي ليريني الحانة التي وعدته إيّاها الفتاة الشرّيرة، وأنا لنمرّ ببابها إذ رأى العاهرة تعربد في جمع من الجنود، ففقد وعيه واندفع إلى داخل الحانة ورماها بزجاجة في وجهها قبل أن أتنبّه لقصده، وهاج الجنود وانقضّوا عليه عشرات وعشرات وأوسعوه ضرباً حتّى سقط بينهم لا حراك به.

وكوّر قبضته وقرض أسنانه قائلاً بغضب:

- يا للشيطان! ما كان بوسعي أن أخفّ إلى نجدته! .. حالت دون ذلك جموع الجنود الكثيفة التي سدّت الباب سدّاً... آه لو بلغت يدي عنق جنديّ من أولئك الملاحين..

وكان هذا ما يجرّ فؤاده حزناً، وما يشبّ في صدره نار الغضب من غير انقطاع، حتّى لقد انقلب إلى الزقاق يكاد يستخفي من الخزي والعار، أمّا المعلّم كرشة فقد ضرب كفّاً بكفّ وقال:

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله، وماذا فعلتم به؟

- جاءت الشرطة بعد نفاذ القضاء، وضربوا حول الحانة حصاراً. وما عسى أن يفيد الحصار؟ وحملوا جثته إلى قصر العيني، ونقلوا العاهرة إلى الإسعاف..

فسأل المعلّم باهتمام:

- وهل قُتل؟ ..

فأجاب الشابّ والحقد يأكل رأسه:

- لا أظنّ... لا أظنّ الضربة كانت قاتلة...!

ضاع الفتى هدراً.

- والإنجليز؟

فقال الشابّ بلهجة أسيفة:

- تركناهم والشرطة تحيط بهم. ولكن من ذا يستطيع أن ينال منهم حقّاً؟

فضرب المعلّم كفّاً بكفّ مرّة أخرى وقال:

أضاء الصباح بجنبات الزقاق. وألقت الشمس شعاعاً من أشعتها على أعلى جدران الوكالة ودكّان الحلاق. وغدا سنقر صبيّ القهوة فملاً دلوّاً ورشّ الأرض. وكان المدقّ يقلب صفحة من صفحات حياته الرتيبة، وأمله يستقبلون الصباح بهتافاتهم المحفوظة. وفي هذه الساعة الباكّة ينشط عمّ كامل على غير عادته فيقف أمام صينيّة البسبوسة يحفّ به صبية المدرسة الإلزاميّة ويمتلئ جيبه بالملاليم، وفي مواجهته أكبّ الحلاق العجوز على المواسي يشحذها، ومضى جمعة القرآن يحمل العجين من البيوت، وأقبل العمّال على الوكالة يفتحون أبوابها ونحازنها ويخرقون السكون المخيم بجلبتهم التي لا تنقطع طوال النهار، بينما ترعب المعلّم كرشة وراء صندوق الماركات في جلسة حالمة يقضم شيئاً بشنيتيه ويلوكه في فمه ثمّ يعتصره بقدح من القهوة، وقد جلس على كتب منه الشيخ درويش في صمت وغيوبة. وفي هذه الساعة الباكّة أيضاً تلوح الستّ سنّة عفيفي في نافذتها، تشيّع زوجها الشابّ وهو يغادر الزقاق في طريقه إلى القسم. هكذا تنظر الحياة في المدقّ على وتيرة واحدة إلّا أن يقلقها اختفاء فتاة من فتياته أو ابتلاع السجن لرجل من رجاله، لكن سرعان ما تنداح هذه الفقاّعات في بحيرته الهادئة أو الراكدة، فلا يكاد يأتي المساء حتّى يجرّ النسيان ذبوله على ما جاء به الصباح. أضاء الصبح والزقاق يستقبل هذه الحياة الهادئة المطمئنة، وكما أن أقبل الضحى جاء حسين كرشة مكفهّر الوجه ملتهب الجفون من عدم النوم ليلة كاملة يضرب الأرض بخطوات ثقّال، فمضى إلى مجلس أبيه وارتقى على كرسيّ لقاءه، وهو يقول بصوت غليظ دون تحيّة أو سلام:

- قُتل عَبّاسُ الحلوى أبي...!

وكان المعلّم قد أوشك أن يتهره لقضائه الليل خارج البيت، فلم ينس بكلمة، وحملق في وجهه بعينين ذاهلتين، ولبث لحظات جامداً ساهماً كأنه لم يفهم ما لقي على سمعه، ثمّ سأل بانزعاج شديد:

- ماذا قلت؟

كان من تطوُّع عمّ كامل بنقل أثاثه ومعدّاته الطيّبة إلى شقّته، وقيل في تفسير هذا إنّ عمّ كامل أثر إشراك الدكتور في مسكنه على الوحدة التي لم يألّفها، ولم يعاتبه أحد في ذلك، بل لعلهم عدّوها له من المكرّمات، لأنّ السجن لم يكن ممّا يشين المرء في المدقّ.

وتحدّثوا في تلك الأيام عن اتّصال أم حميدة بابنتها التي دخلت في طور النقاها والشفاء، وعيّا تحلم به المرأة من جنّي بعض ثمار هذا الكنز المترع. ثمّ ثار اهتمام الزقاق فجأة حين سكنت أسرة أحد القضاة شقّة الدكتور بوشي، وكانت مكوّنة من القضاة وزوجه وسبعة من الأطفال وفنّانة حسنة. قال حسين كرشة عنها إنّها كفلة القمر. ولكن عندما اقرب موعد عودة الحاجّ رضوان الحسيني من الأقطار الحجازية لم يعد يفكر أحد إلّا في هذا اليوم الموعود، وقد علّقت الثريّات والأعلام وفرشت أرض الزقاق بالرمّل، ومضى الجميع نفوسهم بلبلة فرح وسرور تدوم ذكرها على الأيّام.

ويومًا رأى الشيخ درويش عمّ كامل وهو يمازح الحلاق العجوز، فهتف وهو يرفع رأسه إلى سقف القهوة:

وما سمّى الإنسان إلّا لنسيه  
ولا القلب إلّا أنّه يتقلّب

فتجهمّ وجه عمّ كامل، وانطلق لونه، واغرورت عيناه. ولكنّ الشيخ درويش هزّ منكبيه استهانة، وقال وعينه لا تزالان شاخصتين إلى السقف:

مَنْ مات عشقًا فليمت كمدًا  
لا خير في عشق بلا موت

ثمّ وحوح متنهّدًا واستدرك قائلاً:  
- يا ستّ الستّات.. يا قاضية الحاجات..  
الرحمة.. الرحمة يا آل البيت، والله لأصبرنّ ما  
حييت، أليس لكلّ شيء نهاية؟ بل لكلّ شيء  
نهاية... ومعناه بالإنجليزية end وتهجيتها end...

- إنّ الله وإنّا إليه راجعون، وهل علم أهل الفنّي بالخبر الأسود؟ اذهب إلى خاله عمّ حسن البقاقيبي بالخرنفس وآذنه بموته. والله يفعل ما يريد.

ونفض حسين يغالب تعب وإعياءه وغادر القهوة. وذاع الخبر، وأعاد المعلّم كرشة القصّة التي رواها ابنه مرّات ومرّات على السائلين، فتناقلتها الألسن، وزادت عليها ما شاء لها الهوى، وجاء عمّ كامل القهوة مترنّحًا وقد دهمه الخبر فضعقه وارتمى على أريكة وراح يبكي بكاء مرًا ويتحبّ كالأطفال، ولا يكاد يصدّق أنّ الفنّي - الذي أعدّ له كفّنًا - لم يعد من الأحياء. ومضى الخبر إلى أمّ حميدة فغادرت البيت مولولة حتّى قال بعض من رآها إنّها «تبكي على القاتل لا القتيل!» وكان أشدّ الناس تأثرًا السيّد سليم علوان، لا حزنًا على الفقيد، ولكنّ فرغًا من الموت الذي اقتحم عليه الزقاق فأثار مخاوفه وضاعف آلامه، فعادته أفكاره السوداء، وتصوّراته المريضة، وأخيلة الاحتضار والموت والقبر التي نهكت أعصابه. واستحوذ عليه القلق فقامت قيامته ونبا به مجلسه، وجعل يروح ويحيى في الوكالة، أو يخرج إلى الزقاق فيلقي نظرة زائغة على الدكان الذي كان دكان الحلو أعوامًا طوالاً. وكان أعفى نفسه - لشدة الحرارة - من شرب الماء الدافئ. فأمر العامل المكلف بخدمته بأن يدقّ له ماء للشرب كما كان يفعل في الشتاء، وقضى تلك الساعة نهبا للـخوف والقلق وبكاء عمّ كامل يصكّ مسامعه صكّا..

\*\*\*

وانداحت هذه الفقاعة أيضًا كسوايقها، واستوصى المدقّ بفضيلته الخالدة في النسيان وعدم الاكتراث، وظلّ كدأبه يبكي صباحًا - إذا عرض له البكاء - ويقهقه ضاحكًا عند المساء. وفيما بين هذا وذاك تصرّ الأبواب والنوافذ وهي تفتح ثمّ تصرّ كرة أخرى وهي تغلق. ولم يحدث في هذه الفترة أمر ذو بال. اللهمّ إلّا ما كان من إصرار الستّ سنّية عفيفي على إخلاء الشقّة التي كان يقطنها الدكتور بوشي قبل سجنه، وما



مُؤَلَّفَات نَجِيب مَحْفُوظ  
بِالتَّسْلُسُل التَّارِيخِيّ

الكتاب	نوعه	تاريخ صدوره
همس الجنون	مجموعة	١٩٣٨
عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣
كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤
القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥
خان الخليلي	رواية	١٩٤٦
زقاق المدقّ	رواية	١٩٤٧
السراب	رواية	١٩٤٨
بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩
بين القصرين	رواية	١٩٥٦
قصر الشوف	رواية	١٩٥٧
السُّكَّرِيَّة	رواية	١٩٥٧
اللصّ والكلاب	رواية	١٩٦١
السَّهْمَان والخريف	رواية	١٩٦٢

الكتاب	نوعه	تاريخ صدوره
دنيا لله	مجموعة	١٩٦٢
الطريق	رواية	١٩٦٤
بيت سئى السمعة	مجموعة	١٩٦٥
الشَّحَاذ	رواية	١٩٦٥
ثروة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
ميرamar	رواية	١٩٦٧
خمارة القَطِّ الأسود	مجموعة	١٩٦٩
تحت المظلة	مجموعة	١٩٦٩
حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة	١٩٧١
شهر العسل	مجموعة	١٩٧١
المرايا	رواية	١٩٧٢
الحبّ تحت المطر	رواية	١٩٧٣
الجريمة	مجموعة	١٩٧٣
الكرنك	رواية	١٩٧٤
حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
قلب الليل	رواية	١٩٧٥
حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
ملحمة الحرافيش	رواية	١٩٧٧
الحبّ فوق هضبة الهرم	مجموعة	١٩٧٩
الشیطان يعظ	مجموعة	١٩٧٩
عصر الحبّ	رواية	١٩٨٠
أفراح القبة	رواية	١٩٨١
ليالي ألف ليلة	رواية	١٩٨٢
رأيت فيما يرى النائم	مجموعة	١٩٨٢

الكتاب	نوعه	تاريخ صدوره
الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢
أمام العرش	حوار بين الحكّام	١٩٨٣
رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣
التنظيم السريّ	مجموعة	١٩٨٤
العائش في الحقيقة	رواية	١٩٨٥
يوم مقتل الزعيم	رواية	١٩٨٥
حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧















